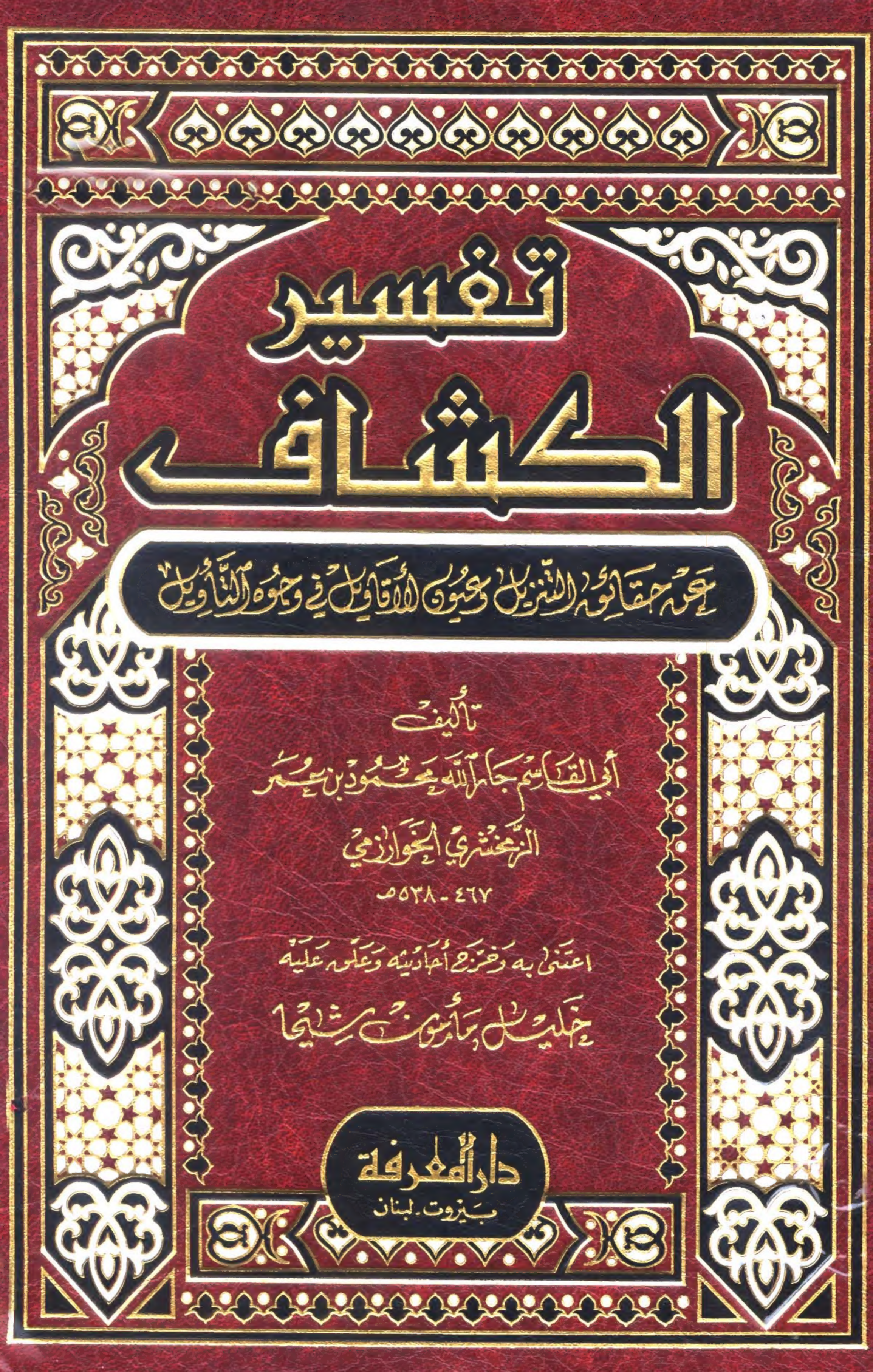

تفسير
الكشاف
عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
تأليف
أبي القاسم جار الله محمود بن عمر
الزمخشري الخوارزمي
٤٦٧ - ٥٣٨هـ
اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه
خليل مأمون شيحا
دار المعرفة
بيروت - لبنان

تفسير الكشاف

عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

تأليف

أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي

٤٦٧ - ٥٣٨ هـ

اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه

خليل مأمون شيحا

وعليه تعليقات كتاب «الانتصاف» فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال «للإمام ناصر الدين ابن منير المالكي»

دار المعرفة

بيروت - لبنان

ISBN 9953 - 420 - 87 - 4

الطبعة الثالثة
1430هـ - 2009م



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١ـ٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ ـ بيروت ـ لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com


تفسير الكشاف
عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي نَزَّل كلامه القديم على عبده فألهمه التأويل والتفسير، فكان قرآناً عربياً تحدى به الجن والإنس أن يأتوا بمثله إنّه كان عليماً قديرا، ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان بمثله فقال: ﴿لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾، والصلاة والسلام على من أُرْسِل للعالمين بشيراً نذيرا، ومعلماً لكتاب الله الحكيم وسراجاً منيرا، وعلى آله الذين حفظوا آياته فأذهب الله عنهم الرجس بنصه وطهرهم تطهيرا، وعلى أصحابه الذين تفهموا مراده فباعوا به الدنيا والنبيين والقناطيرا، وعلى أتباعه الذين انتهجوا نهجهم فتدبّروا آياته تدبيرا، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم لا ينفع مال ولا بنون قليلاً كان أم كثيرا.

أما بعد:

فإن علم التفسير أشرف العلوم أبداً؛ لأنّه علم يختص بكتاب الله العزيز أكرم به مدداً، فبه يفهم القرآن وتدرك معانيه، وبه يكشف عن مقاصده ومراميه، هذه المقاصد لا تعرف إلاّ بدراية تفسيره وإعلامه، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه، والوقوف على المنسوخ منه والناسخ، ليتبيّن لنا الحق كالنور الراسخ، وإدراك الخاص منه والعام، وإظهار حكمهما للأنام، والاستنباط لمعاني دلالات الألفاظ، ومعرفة وجوه القراءات من الحفاظ، ليكون نوراً يُهْتدى به من الضلالة، ويَفْهَم به مرادَ ربِّه ليُنْقِذَ نفسَه من الجهالة، فَيُحْكَمُ بالفلاح لمن تفهم معانيه واتبعه، وبالخسران لمن أعرض عنه بعدما سمعه.

وها نحن نضع بين يديك كتاب «الكشاف»، ليكون لصدرك الدواء الشاف، للإمام المفسّر الجليل، اللغوي الأديب الخليل، أبي القاسم الزمخشري محمودْ، عفا الله عنه لاعتزاله المعهودْ، وغفر له زلته وأكرمه بمقام محمودْ، فقد أوْلَى مصنَّفَه عناية كبيرة، وأحسن انتقاء أحاديثه الغزيرة، فألفه بشكل وسط لا بالطول المملّ، ولا بالمختصر المخلّ، رحمه الله تعالى.

وأخيراً أسأل اللَّهَ أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، ونوراً لقبورنا ومصدراً كريماً لعيشنا وسرورنا، إنّه قريب مجيب الدعوات يا أرحم الراحمين.

بيروت في 17 جمادى الأولى 1423

الموافق 26 تموز 2002

كتبه الذليل إلى مولاه الجليل

خليل مامون شيحا

ترجمة الإمام الزمخشري

اسمـــــه:

محمود بن عمر بن محمد بن عمر.

كنيتـــه:

أبو القاسم.

لقبـــــه:

جار الله.

ولقِّب بهذا اللقب؛ لأنّه لما سافر إلى مكة ـ حرسها الله تعالى ـ وجاور بها زماناً، فصار يقال له: جار الله لذلك، وكان هذا الاسم علماً عليه.

نسبتـــه:

الخوارزمي الزمخشري.

وخوارزم: بلدة في العراق.

وزمخشر: قرية من قرى خوارزم القريبة منها، وقيل: إنّ العمارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها، فصارت من جملة محالّها.

مولـــده:

ولد رحمه الله تعالى وعفا عنه بزمخشر يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربع مئة من الهجرة النبوية الشريفة.

نشاته ورحلاته:

نشأ الإمام الزمخشري محباً للعلم منذ صغره، فما أن وصل إلى سن الطلب رحل إلى بخارى لطلب العلم وهنالك قطعت رجله، فجعل له رجلاً من خشب يستعين بها في المشي، ومن هناك كانت بدايته، ففتح الله تعالى عليه من العلم ما لم يفتح على غيره من أهل بلدته في عصره، فكان أعلم الفضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم أنساً واطّلاعاً، وبه ختم فضلاؤهم حتى أصبح يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة، وقد ساعده على ذلك التوفيق أولاً، ثم إقباله على العلم ثانياً، وبدأ يحط رحله من بلد إلى آخر، فورد العراق فلما دخل بغداد اجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني[1]، فسأله عن سبب قطع رجله فقال: دعاء الوالدة، وذلك أنّني في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله، وانفلت من يدي، فأدركته وقد دخل في خرق، فجذبته فانقطعت رجله في الخيط، فتألمت أمي لذلك وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم، فسقطت عن الدابة فانكسرت الرجل، وعملت عليّ عملاً أوجب قطعها.

وكذلك دخل خراسان، ثم خرج منها إلى الحج، فلما نزل مكة شرفها الله تعالى وجد بها الشريف السيد الفاضل الكامل أبا الحسن علي بن عيسىٰ الحسني فعرف قدره ورفع أمره، وأكثر الاستفادة منه، وأخذ عن الزمخشري وأخذ الزمخشري عنه ونشطه لتصنيف ما صنف، وقال الشريف مادحاً للزمخشري:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوّاها داراً فداءُ زمخشرا

وأحر بأن تزهى زمخشر بامرىءٍ إذا عد في أسد الشّرى زمخ الشّرى

ثم انتقل مقيماً برهة في الحجاز، حتى هبت على كلامه رياح البادية، وورد مناهل العرب العاربة، ثم انكفأ راجعاً إلى خوارزم، وأكثر من التصانيف في التفسير وغريب الحديث والنحو وغير ذلك، حتى بدأت تشد إليه الرحال في فنونه، ثم قوي عزمه على الرحلة عنها، وعوده إلى الحجاز، فقيل له: قد زجيت أكثر عمرك هناك فما الموجب؟ فقال: القلب الذي لا أجده ثم أجده هاهنا.

وكان كلما دخل بلداً اجتمع عليه أهل هذا البلد وتلمذوا له، واستفادوا منه ونقلوا عنه، وبعد أن جاب الدنيا ورحل من هنا وهناك عاد من مكة إلى وطنه الحبيب خوارزم وبقي فيها يصنِّف ويلقى بها الأكابر والأفاضل، ويتلمذ فيها إلى أن توفاه الله تعالى.

اعتقاده:

لقد أشارت كل التراجم بدون استثناء أنّ الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد، متظاهراً باعتزاله، متشدداً بآرائه، حتى نقل عنه أنّه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه

(1) هو الإمام أحمد بن علي بن محمد أبو الحسين الدامغاني المتوفى سنة 540هـ.

في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب.

والظاهر أنّه كان يتفاخر ويتباهى باعتزاله، كيف لا، وقد وصفه أحدهم بأنّه كبير المعتزلة، المتحقق به. أعاننا الله تعالى وإياكم من سوء الاعتقاد.

وسنورد كلاماً خاصاً عن أثر اعتقاده في تفسيره الكشاف وكيف أنّه فسّر القرآن الكريم بالطريقة التي تنصر مذهبه الباطل.

مذهبــه:

لم تشر التراجم إلى مذهب الزمخشري الفقهي، باستثناء كتابين، أحدهما: كتاب: «العقد الثمين» 7/137، للإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي المتوفى سنة 832هـ حيث يقول معنوناً: محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الحنفي أبو القاسم المعروف بالزمخشري والثاني: كتاب: «المغني» ص 123 للإمام محمد طاهر بن علي الهندي المتوفى سنة 986هـ حيث يقول: الزمخشري منه: محمود بن الخوارزمي الحنفي مذهباً صاحب تصانيف عجيبة. ولعل الذي يؤكد ما ذهب إليهما الإمامين اجتماعه بالفقيه الحنفي الدامغاني رحمه الله تعالى في بغداد.

ويؤكد الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «طبقات المفسرين» 1/474 انتماءه للمذهب الحنفي قائلاً: وهو معتدل ــ في المسائل الفقهية ــ لا يتعصب لمذهبه الحنفي والله أعلم بالصواب.

شيوخه:

لم تذكر لنا المصادر أسماء شيوخه الذين لقيهم وتلقى العلم عليهم، ولكن اكتفوا بذكر أسماء ستة من شيوخه وهم:

1 ــ أبو الخطاب نصر بن البطرة.
2 ــ أبو الحسن علي بن المظفر النيسابوري.
3 ــ أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني.
4 ــ أبو الحسن علي بن عيسىٰ بن حمزة.
5 ــ أبو سعد الشقاني.
6 ــ أبو منصور الحارثي. وغيرهم كثير.

تلاميذه:

ظهر للزمخشري جماعة من التلامذة منهم:

1 ــ أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي بطبرستان.
2 ــ وأبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز بابيورد.
3 ــ وأبو عمرو عامر بن الحسن السمسار بزمخشر.
4 ــ وأبو سعد أحمد بن محمود الشاشي بسمرقند.
5 ــ وأبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه بخوارزم.
6 ــ وأبو الطاهر أحمد بن محمد السِّلفي.
7 ــ وزينب بنت عبد الرحمٰن الشَّعْري وجماعة سواهم.

والظاهر أنّ تلاميذه كثر؛ لأنّه جاء في المصادر ما نصه: وما دخل بلداً إلا واجتمعوا عليه وتلمذوا له واستفادوا منه.

مصنّفاته:

ألّف الإمام الزمخشري كتباً كثيرة وصلت إلى (49) كتاباً تقريباً، منها في علوم التفسير والحديث واللغة والنحو وعلم البيان والمواعظ والفقه والتاريخ وغيرها. وسنعرض لما وصلتنا من أسماء مؤلفاته حسب ترتيبها الألف بائي وهي كالتالي:

حرف الألف

1 ــ الأجناس. في اللغة.
2 ــ الأسماء. في اللغة.
3 ــ الأصــل.
4 ــ الأمالي. في النحو.
5 ــ أساس البلاغة. في اللغة.
6 ــ أطواق الذهب. في المواعظ.
7 ــ أعجب العجب في شرح لامية العرب.

حرف التاء

8 ــ تسلية الضرير.

حرف الجيم

9 ــ الجبال والأمكنة.
10 ــ جواهر اللغة.

حرف الحاء

11 ــ حاشية على المفصل.

حرف الدال

12 ــ ديوان التمثيل.
13 ــ ديوان خطب.
14 ــ ديوان رسائل.
15 ــ ديوان شعر.

حرف الراء

16 ــ الرائض في الفرائض.
17 ــ الرسالة الناصحة.

18 ـ ربيع الأبرار. في الأدب والمحاضرات.

19 ـ رسالة الأسرار.

20 ـ رسالة المسامة.

21 ـ روح (رؤوس) المسائل. في الفقه.

حرف السين

22 ـ سوائر الأمثال.

حرف الشين

23 ـ شافي العيّ من كلام الشافعي.

24 ـ شرح كتاب سيبويه.

25 ـ شرح مقاماته.

26 ـ شقائق النعمان. في حقائق النعمان في مناقب الإمام أبي حنيفة.

حرف الصاد

27 ـ صميم العربية.

حرف الضاد

28 ـ ضالة الناشد.

حرف العين

29 ـ عقل الكل.

حرف الفاء

30 ـ الفائق في غريب الحديث.

حرف القاف

31 ـ القسطاس في العروض.

حرف الكاف

32 ـ الكشاف. في التفسير، وهو كتابنا الذي بين أيدينا، وقد أفردنا فصلاً خاصاً للكلام عليه آخر هذه المقدمة.

33 ـ الكلم النوابغ. في المواعظ.

حرف الميم

34 ـ المحاجاة ومتمم سهام أسباب الحاجات في الأحاجي والألغاز.

35 ـ المستقصى في الأمثال.

36 ـ المفرد والمؤلف في النحو.

37 ـ المفرد والمركب في اللغة.

38 ـ المفصل في النحو.

39 ـ المنهاج في الأصول.

40 ـ متشابه أسماء الرواة.

41 ـ مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة.

42 ـ معجم الحدود.

43 ـ مقامات في المواعظ.

44 ـ مقدمة الأدب في اللغة.

حرف النون

45 ـ النموذج في النحو.

46 ـ نزهة المستأنس.

47 ـ نصائح الصغار.

48 ـ نصائح الكبار.

49 ـ نكت الأعراب في غريب الإعراب.

أشعاره:

إنّ للزمخشري رسائل مسجوعة، ومقامات مصنوعة، محلاّة بالبديع، وفيها أثر التعمل؛ جرياً مع العصر الأدبي الذي كان يعيش فيه.

وله أيضاً ديوان شعر تشيع فيه عبارة الفقهاء فمن قوله:

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي ... من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصة ... أشهى وأحلى من مدامة ساق
وصرير أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدوكاء والعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها ... نقري لألقي الرمل عن أوراق
أأبيت سهران الدجى وتبيته ... نوماً وتبغي بعد ذلك لحاق

ومن شعره أيضاً هذه الأبيات:

ألا قل لسُعدَى أما لنا فيك من وطن ... وما تطلبين النُّجْلَ من أعين البقرْ
فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت ... عيونهمُ والله يجزي من اقتصرْ
مليح ولكن عنده كل جفوه ... ولم أر في الدنيا صفاء بلا كدرْ
ولم أر إذ غازلته قرب روضة ... إلى جنب حوض فيه للماء منحدرْ
فقلت له جئني بورد وإنما ... أردت به ورد الخدود وما شعرْ
فقال انتظرني رجع طرفي أجيء به ... فقلت له هيهات ما ليَ منتظرْ
فقال ولا ورد سوى الخدِّ حاضر ... فقلت له: إني قنعت بما حضرْ

ومن شعره يرثي شيخه أبا نصر منصور:

وقائلة ما هذه الدرر التي ... تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت هو الدّر الذي كان قد حشا ... أبو مضر أذني تساقطن من عيني

ومن شعره أيضاً على ما يقال:

هو النفس الصعاد من كبد حرّى ... إلى أن أرى أم القرى مرة أخرى

وما عذر مطروح بمكة رحله على غير بؤس لا يجوع ولا يعرى
يسافر عنها يبتغي بدلاً بها وربك لا عذرى وربك لا عذرى

وغير هذا كثير مكتفين بهذا القدر خشية الإطالة والملل.

وفاتـــه:

توفي الزمخشري ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة النبوية الشريفة بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه آمين.

وقيل: إنّه أوصى بعد موته أن تكتب على قبره هذه الأبيات:

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليَلِ
ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النُّحّلِ
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأوّلِ

ورثاه بعضهم قائلاً:

فارض مكة تذري الدمع مقلتها حزناً لفرقة جار الله محمود

وجرجانية: بضم الجيم الأولى وفتح الثانية وسكون الراء وكسر النون وتشديد الياء، وهي قصبة خوارزم وتقع على شاطئ جيحون.

التعريف بكتاب الكشاف ومنهج الزمخشري فيه

(أ) توثيق نسبة الكشاف للزمخشري:

أجمع الذين ترجموا للزمخشري على نسبة هذا التفسير المسمى «بالكشاف» له، وسنذكر بعض أهم المصادر التي نصت على نسبة الكتاب له، وفق التسلسل الزمني لوفيات أصحابها:

1 ـ ذكره الإمام الزمخشري نفسه مادحاً له:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمري مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

ويكفي قوله هذا في توثيق نسبة الكتاب له.

2 ـ وذكره الإمام السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد (المتوفى سنة 562هـ) في «الأنساب» 3/163 فقال: لقي الأفاضل والكبار وصنّف تصانيف في التفسير. وهو أقدم من ترجم له وعاصره، فقد قال: ورد مرو في زماني ولم يتفق لي رؤيته والاقتباس منه. ولم يصرح بذكر اسم الكتاب.

3 ـ وذكره الإمام ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي (المتوفى سنة 597هـ) في «المنتظم» 18/37، فقال: وصنّف التفسير الكبير، ولم ينص على اسمه أيضاً.

4 ـ وذكره الإمام جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القِفْطي (المتوفى سنة 624هـ) في «إنباه الرواة» 3/265، فقال: صنّف التصانيف في التفسير وغريب الحديث. ولم يصرح باسمه كذلك.

5 ـ وذكره الإمام ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (المتوفى سنة 681هـ) في «وفيات الأعيان» 5/168، فقال في بداية ترجمته معَنْوِناً: الزمخشري صاحب الكشاف.

6 ـ وذكره الإمام الذهبي، شمس الدين محمود بن أحمد بن عثمان (المتوفى سنة 748هـ) في «سير أعلام النبلاء» 20/152، فقال: أبو القاسم محمد بن عمر بن محمد الزمخشري... صاحب الكشاف.

7 ـ وذكره الإمام ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (المتوفى سنة 774هـ) في «البداية والنهاية» 12/219، فقال: صاحب الكشاف في التفسير.

8 ـ وذكره الإمام ابن خلدون، عبد الرحمٰن (المتوفى سنة 808هـ) في «المقدمة» ص 491، فقال: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب «الكشاف» للزمخشري.

9 ـ وذكره الإمام ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (المتوفى سنة 852هـ) في «لسان الميزان» 6/4، فقال: محمود بن عمر الزمخشري المفسّر... يسمى كتابه الكشاف تعظيماً له.

10 ـ وذكره حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (المتوفى سنة 1067هـ) في «كشف الظنون» ص 1475، فقال: الكشاف عن حقائق التنزيل للإمام العلامة أبي القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري.

11 ـ وذكره ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفى سنة 1089هـ) في «شذرات الذهب» 4/118، فقال: أبو القاسم الزمخشري... صاحب الكشاف.

12 ـ وذكره البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين (المتوفى سنة 1339هـ) في «هدية العارفين» 2/402، فقال:

13 ـ وذكره بروكلمان (المتوفى سنة 1376هـ) في «تاريخ آداب اللغة العربية» 5/215، ونص على وجود مخطوطاته في مكتبات العالم، وذكر المطبوع منها، وما لم يطبع.

14 ـ وذكره الزركلي، خير الدين (المتوفى سنة 1396هـ) في «الأعلام» 7/178، فقال: أشهر كتبه الكشاف في تفسير القرآن.

15 ـ وذكره الدكتور الذهبي، محمد حسين (المتوفى سنة 1397هـ) في «التفسير والمفسرون» 1/429، واستفاض في الكلام عليه.

16 ـ وذكره كحّالة، عمر رضا (معاصر) في «معجم المؤلفين» 12/186، فقال: محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري المفسر... من تصانيفه الكثيرة: الكشاف عن حقائق التنزيل.

هذه هي من أهم المصادر التي ترجمت للزمخشري، وذكرت تفسيره الكشاف، ولا يشك أحد من المترجمين له نسبة هذا الكتاب للإمام الزمخشري.

(ب) سبب تأليفه للكشاف:

يذكر الإمام الزمخشري في مقدمة كتابه السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه فقال: ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك، حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد.

والذي حداني إلى الاستعفاء ـ على علمي أنّهم طلبوا ما الإجابة إليه عليَّ واجبة؛ لأن الخوض فيه كفرض العين ـ ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على عِلمَي البيان والمعاني، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب، طويل الذيول والأذناب، وإنّما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم مناراً ينتمونه، ومثالاً يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة، وجدت مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها ـ وقليل ما هم ـ عطش الأكباد إلى العثور على ذلك المملى، متطلعين إلى إيناسه حرّاصاً على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي، وحرك الساكن من نشاطي.

فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله، أبي الحسن بن حمزة بن وهاس ـ أدام الله مجده ـ وهو النكتة والشامة في بني الحسن، مع كثرة محاسنهم، وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبداً، وألهبهم حشىً، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنّه كان يحدث نفسه في مدة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافي وطي المهامه، والإفادة علينا بخوارزم؛ ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض، فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيّت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر، ووفق الله وسدد، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم.

أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجيني، ونوراً على الصراط يسعى بين يدي ويميني، ونعم المسؤول ا هـ.

وكان الفراغ من تأليفه ضحوة الاثنين الثاني من ربيع الآخر في عام ثمان وعشرين وخمسمائة.

(ج) قيمة الكشاف العلمية:

إن كتاب الكشاف من خير الكتب التي يرجع إليها في التفسير من ناحية البلاغة، رغم نزعته الاعتزالية، وأغلب التفاسير من بعده أخذت منه واعتمدت عليه.

وقيمة هذا الكتاب تبرز من خلال علمين مختصين بالقرآن الكريم وهما: علم المعاني وعلم البيان، وبهما برع الزمخشري حتى أصبح سلطان هذا الفن، فلذا طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب.

ولقد أحسن الزمخشري حين استخرج من القرآن الكريم محاسن النكت، ولطائف المعاني التي يستعمل فيها الفكر؛ لإظهار جمال النظم القرآني، ورونقة الإعجاز منه، من خلال أسرار البلاغة وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن الكريم وسحر بلاغته؛ لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان، والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النوع العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء، وعلق به قلوب المفسّرين.

ويمتاز الكشاف بأمور منها:

1 ـ خلوه من الحشو والتطويل.

2 ـ سلامته من القصص والإسرائيليات.

3 ـ اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم.

4 ـ عنايته بعلمي المعاني والبيان والنكات البلاغية تحقيقاً لوجوه الإعجاز.

5 ـ سلوكه فيما يقصد إيضاحه طرق السؤال والجواب كثيراً، ويعنون السؤال بكلمة «فإن قلت» بفتح التاء، ويعنون الجواب بكلمة «قلت» بضم التاء.

وهذا مما زاد في تفسير الكشاف قيمة يجعل النفوس تميل إليه، والطباع راغبة في قراءته وتناوله.

وهكذا نجد أن الأئمة الذين تكلموا على الإمام الزمخشري وعلى تفسيره من الناحية الاعتزالية ـ كما سيأتي في فصل خاص ـ قد أثنوا على الكشاف من الناحية العلمية الأدبية والبلاغية واللغوية وغيرهم، وإليك بعض مقالاتهم:

1 ـ مقالة الإمام الهروي

ويشهد الإمام الهروي أحد الذين تتبعوا زلات الزمخشري بأن كتاب الكشاف: كتاب علي القدر رفيع الشان، لم ير مثله في تصانيف الأوّلين، ولم يرد شبيهه في تآليف الآخرين، اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، واجمعت على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين، ما قصر في قوانين التفسير وتهذيب براهينه، وتمهيد قواعده وتشييد معاقده، وكل كتاب بعده

في التفسير.

2 ـ مقالة الإمام ابن خلدون

وهذا هو ابن خلدون يشهد للكشاف أنّه أفضل الكتب في التفسير من حيث معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى فيقول: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب «الكشاف» للزمخشري من أهل خوارزم العراق. ثم يقول: فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان.

3 ـ مقالة الإمام التاج السبكي

وكذلك نجد أن الإمام تاج الدين السبكي يشهد أيضاً ما للكشاف من الفوائد وما للزمخشري من طول باع في هذا العلم فيقول: واعلم أن «الكشاف» كتاب عظيم في بابه أي: في بابه العلمي الأدبي، ومصنفه إمام في فنه.

4 ـ مقالة الإمام ابن المنير المالكي

وهذا الإمام رغم شدة وووته على الزمخشري ورده العنيف عليه ـ كما سيأتي ـ لا ينسى ما للزمخشري من أثر طيب في التفسير، فكثيراً ما يبدي إعجابه به؛ لتنويهه بأساليب القرآن العجيبة، وكثيراً ما يعترف بتقدير كبير بتحليلاته اللغوية، ونكاته البلاغية.

فتارة نراه يقول منصفاً بعد تعقبه تفسيره: وهذا أيضاً من دقة نظره في الكتاب العزيز، والعمق في آثار معادنه، وإبراز محاسنه.

وتارة أخرى نجده يقول أيضاً باعتدال: وهذا من محاسن نكته الدالة على أنّه كان ملياً بالحذاقة في علم البيان.

هذه بعض شهادات العلماء الذين ردّوا على الزمخشري اعتزاله وشنّوا عليه الحرب، وحذروا من كشافه، نجدهم يشهدوا أن للكشاف قيمة غنية من ناحية البلاغة، والإعجاز، واللغة، والبيان، بإنصاف دون انتقاص من قيمته العلمية شيئاً.

(د) انتصار الزمخشري لعقيدته الاعتزالية في الكشاف:

لقد نحى الزمخشري في تفسيره منحى الاعتزال، وقد مرّ سابقاً أنّه متشدد بآرائه ومتعصب بأفكاره، وقد جعل من هذا التفسير طريقاً سهلاً لنصرة مذهبه الفاسد، ولإظهار آرائه وأفكاره الباطلة، فنرى أنه يؤيد مذهبه الاعتزالي بكل ما أوتي من قوة الحجة، وسلطان الدليل، وهو يحرص كل الحرص على أن يأخذ من الآيات القرآنية ما يشهد لمذهبه، وعلى أن يتأول ما كان منها معارضاً لعقيدته، فمن أفكاره الزائغة:

1 ـ انتصاره لرأي المعتزلة في أصحاب الكبار:

فمثلاً يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾[1].

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد، والإبراق والإرعاد، أمر عظيم وخطب غليظ، ومن ثَم روى عن ابن عباس ما روى: من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة، وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا، قالوا: لا توبة له، وذلك محمو منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة، وناهيك بمحو الشرك دليلاً، وفي الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم»، وفيه: «لو أن رجلاً قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه»، وفيه: «إن هذا الإنسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه»، وفيه: «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله».

والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية ويرون ما فيها، ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطمعيتهم الفارغة، واتباعهم هواهم، وما يخيل إليهم مُناهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[2]... فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أبين الدليل، وهو تناول قوله: ومن يقتل أي قاتل كان من مسلم، أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل، فمن ادّعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله.

2 ـ انتصاره لرأي المعتزلة في الحسن والقبح العقليين

ولما كان الزمخشري يقول بمبدأ المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، كان لا بد له أن يتخلص من ظاهر هذا النص المنافي لمذهبه، وهو قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾[3] فنراه في هذه الآية يستشعر معارضة ظاهر الآية لهذا المبدأ فيسأل هذا السؤال: فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة، لئلا يقولوا كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولاً

---

(1) سورة النساء، الآية: 93.

(2) سورة محمد، الآية: 24.

(3) سورة الإسراء، الآية: 15.

ينبهنا عليّ النظر في أدلة العقل.

3 ـ انتصاره لرأي المعتزلة في السحر

نجد من خلال تفسيره لسورة الفلق انتصاره لرأي المعتزلة النافين للسحر وللسحرة حيث يستهزئ ويَسْخر بأهل السنة القائلين بحقيقة السحر قائلاً:

(النفاثات) النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر، اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها ويرقين، والنفث: النفخ مع الريق، ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثَم إطعام شيء ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل قد يفعل ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرعاع إليهنّ وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به.

فإن قلت: فما معنى الاستعاذة من شرهن؟ قلت: فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يستعاذ من عملهنّ الذي هو صنعه السحر ومن إثمهن في ذلك.

والثاني: أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن.

والثالث: أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن.

ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله: ﴿إن كيدكن عظيم﴾[1] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتنّ الرجال بتعرضهنّ لهم وعرضهنّ محاسنهنّ، كأنهنّ يسحرنهم بذلك.

4 ـ انتصاره لرأي المعتزلة في حرية الإرادة وخلق الأفعال

لقد تشدد الزمخشري في مسألة حرية الإرادة وخلق الأفعال، رغم وجود آيات صريحة تصادم مقولته وهي أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، فتفادى هذا التصادم لتعصبه لمذهبه الباطل باعتقاده باللطف الإلٰهي الذي يسهل على الإنسان عمل الخير، وبسلبه يصعب عليه عمل الخير.

فنراه يفسّر قوله تعالى: ﴿ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾[2] فيقول: ﴿لا تزغ قلوبنا﴾ لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وأرشدتنا لدينك أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا.

وهكذا نجده قد خرج من ورطته الكبرى فساعده على هذا المعنى ـ اللطف الإلٰهي ـ الذي تمسك به هو والمعتزلة، ونفعهم في كثير من المواضع.

5 ـ انتصاره لرأي المعتزلة في عدم رؤية الله تعالى

ناهيك عن تفسيره للنصوص بما يوافق عقيدته الاعتزالية، فهو يتذرع بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالي، فنراه كغيره من المعتزلة إذا مرّ بلفظ يشتبه عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه، يحاول بكل جهوده أن يبطل هذا المعنى الظاهر، وأن يثبت للفظ معنى آخر موجوداً في اللغة.

فمثلاً نراه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة﴾[3] يتخلص من المعنى الظاهر لكلمة ﴿ناظرة﴾؛ لأنّه لا يتفق مع مذهبه القائل بعدم رؤية الله تعالى فنراه يثبت له معنى آخر وهو التوقع والرجاء فيقول:

﴿إلى ربّها ناظرة﴾ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله: ﴿إلى ربك يومئذ المستقرّ﴾[4]، ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾[5]، ﴿إلى الله تصير الأمور﴾[6]، ﴿إلى الله المصير﴾[7]، ﴿وإليه ترجعون﴾[8]، ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾[9] كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد، وفي محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم؛ لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه، أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معنى التوقع والرجاء.

(هـ) موقف الزمخشري من الفقهيات:

ونجد أن الزمخشري لا يتوسع في المسائل الفقهية أبداً، بل على العكس نراه أنّه يتعرض لها إلى حد ما دون الميول إلى مذهبه الحنفي، فهو معتدل لا يتعصب لمذهبه الفقهي على عكس مذهبه الاعتقادي فإنّه متعصب جداً جداً.

(و) موقف الزمخشري من الإسرائيليات:

إنّ الناظر في كتب التخريجات لأحاديث الكشاف، يجد أن الزمخشري مقل من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو

---

(1) سورة يوسف، الآية: 28.
(2) سورة آل عمران، الآية: 8.
(3) سورة القيامة، الآيتان: 22 ـ 23.
(4) سورة القيامة، الآية: 12.
(5) سورة القيامة، الآية: 30.
(6) سورة الشورى، الآية: 53.
(7) سورة آل عمران، الآية: 28.
(8) سورة البقرة، الآية: 245.
(9) سورة الشورى، الآية: 10.

يتبع خطة للكشف عن هذه الروايات، بأن يصدر الرواية بلفظ «روي»، المشعر بضعف الرواية، وبعدها عن الصحة، وإما أن يفوض علمه إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا في الغالب يكون عند ذكره للروايات التي لا يلزم من التصديق بها مساس الدين، وإما أن ينبّه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريق الإجمال، وهذا في الغالب يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين وتعلق به.

والأمثلة كثيرة لمن أراد أن يتأكد فلينظر في التفسير ويعود إليه، والله أعلم.

(ز) موقف الزمخشري من أهل السنة والجماعة:

إنّ الناظر اللبيب في تفسير الكشاف ليجد أن الزمخشري قد مزج تفسيره بنصوص قاسية مليئة بالسخرية والاستهزاء بأهل السنة، وكذلك يجده لا يدع فرصة تفوته إلا ويحقرهم فيها ويقلل من قدرهم، فتارة يسميهم المجبرة، وتارة أخرى يسميهم الحشوية، حتى أنّه رماهم بالقدرية والمشبهة، أعاننا الله وإياكم من سوء الاعتقاد.

ومع هذا كله نراه أنّه يحرص كل الحرص على أن يحول الآيات القرآنية التي وردت في حق الكفار إلى ناحية مخالفيه في العقيدة من أهل السنة والجماعة.

والظاهرة الأعجب في تفسيره وفي اعتقاده الزائف أنّه يخرج خصومه السنيين من دين الإسلام ويحكم عليهم بالكفر الصريح.

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم..﴾[1] سائلاً:

فإن قلت: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله؟ قلت: هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد.

فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد ـ يعني في قوله: إنّ الدين عند الله الإسلام ـ قلت: فائدته أن قوله: لا إله إلا هو؛ توحيد، وقوله: قائماً بالقسط؛ تعديل، فإذا أردفه قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[2] فقد آذن أنّ الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين. وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بيِّن جلي كما ترى.

فمن خلال هذا التفسير يظهر الزمخشري بمظهر المتعصب القوي لاعتزاله، وكذلك يظهر بمظهر العدو الشرس لأهل السنة والجماعة؛ لذلك نجد أن تفسيره هذا الاعتزالي أثار عليه خصومه من أهل السنة، فتعقبوه بالمناقشة والتفنيد، وردوا بشكل حاسم على ما أورده في كشافه من استنتاجات اعتقادية من آي القرآن الكريم، وقالوا: إنّها جافة وقائمة على الرأي الطليق.

(ح) موقف أهل السنة من الزمخشري وتفسيره:

لقد تصدى أهل السنة لأقاويل الزمخشري واعتقاده، فتتبعوا زلاته المشينة التي تطاول بها على أهل الفوز والنجاح، وردوها كلها وبيّنوا ركاكة مذهبه وأبطلوه بحجج وبراهين قوية لا ينكرها إلا مشرك أو كافر، وها نحن نذكر لكم بعض الأئمة الذين أقاموا حملات على الزمخشري من أجل تفسيره الاعتزالي فمنها:

1 ـ حملة ابن القيم

فهذا هو الإمام العلامة ابن القيم، كثيراً ما يثور على الزمخشري من أجل كشافه الاعتزالي.

فنراه بعدما أورد تفسير الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه...﴾[3] يقول: فهذا منه شنشنة نعرفها من قدري نافٍ للمشيئة العامة، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزلياً قدرياً[4].

2 ـ حملة تاج الدين السبكي

فهذا هو الإمام العلامة تاج الدين السبكي يشن هجوماً على الزمخشري وكشافه الاعتزالي قائلاً: إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله[5].

3 ـ حملة أبي حيان

فهذا هو الإمام العلامة أبو حيان صاحب البحر المحيط في التفسير يتعقب الزمخشري في تفسيره فيجد فيه من الزلات الكثيرة، ويصفه بالجهل والضلالة والسرقة، ويصفه بالمروق من الدين فيقول بعد ذكر ما مدحه به:

ولكنه فيه مجال لناقد	وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلاً	ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقاً
ويشتم أعلام الأئمة ضلة	ولا سيما إن أولجوه المضايقا
ويسهب في المعنى الوجيز دلالة	بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا
يقوّل فيها الله ما ليس قائلاً	وكان محباً في الخطابة وامقا
ويخطئ في تركيبه لكلامه	فليس لما قد ركبوه موافقا

(1) سورة آل عمران، الآية: 18.
(2) سورة آل عمران، الآية: 19.
(3) سورة الأعراف، الآية: 176.
(4) إعلام الموقعين: 1/202.
(5) النماذج الخيرية ص 310.

ويـنسـب إبـداء الـمـعـاني لـنـفـسـه ليـوهـم أغـمـاراً وإن كـان سـارقـا
ويـخـطـئ فـي فـهـم الـقـرآن لأنّـه يـجـوز إعـرابـاً أبـى أن يـطـابـقـا
وكم بين من يؤتى البيان سليقة وآخـر عـانـاه فـمـا هـو لاحـقـا
ويـحـتـال لـلألـفـاظ حـتـى يـديـرهـا لـمـذهـب سـوء فـيـه أصـبـح مـارقـا
فـيـا خـسـره شـيـخ تـخـرق صـيـتـه مـغـارب تـخـزيـق الـصـبـا ومـشـارقـا
لـئـن لـم تـداركـه مـن الله رحـمـة لـسـوف يـرى لـلـكـافـريـن مـرافـقـا[1]

4 ـ حملة ابن المنير

فهذا هو الإمام القاضي أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكي الذي خصّص جهوده للكشف عن حقيقة الكشاف، فقد كتب عليه حاشية خاصة سماها (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) ناقش فيه الزمخشري وجادله وردّ عليه أقواله الاعتزالية، فنجده يتوجه إلى الزمخشري باللوم على تفسيره لقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾[2] قائلاً: فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة وشقاقاً، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهّل عبده الفقير إلى التوكل عليه، لأنه اخذ من أهل البدعة بثار أهل السنة، فاصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة.

وكثيراً نراه يمعن السخرية أيضاً من المعتزلة ويغرق في النكير على الكشاف، ويصفه بالبشاعة المنطقية، وكل هذا مقابل ما اعتمده الزمخشري في حملاته السخرية على أهل السنة، حتى إننا نجد ابن المنير يتطرف فيرمي خصومه من المعتزلة بالشرك الخفي.

وهكذا نجد أن أهل السنة والجماعة تحذر الناس من الزمخشري واعتقاده الفاسد الباطل، وكذلك تحذر الناس من تفسيره المليء بالاعتزال والاعتراض على أهل السنة والجماعة. فكن حذراً من كشافه، هذه مقولة أكثر أهل السنة.

5 ـ حملة الشيخ حيدر الهروي

فهذا هو الشيخ حيدر الهروي أحد الذين علقوا على الكشاف نجده يصف الكتاب وصفاً دقيقاً فيمدحه بما فيه من رونق البلاغة وأناقة أساليبه ثم ينكر ما فيه من الآراء الفاسدة ذكراً؛ ما ضيع عليه هذا الرونق والأناقة وما أبطل صيته الرنان فقال: ولو فرض أنه لا يخلو ـ أي: الكشاف ـ عن النقير والقطمير، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتفي أثره، ويسأل خبره، وقلما غير تركيباً من تراكيبه إلا وقع في الخطأ والخطل، سقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظار، فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار، إلا أنّه لإخطائه سلوك الطرق الأدبية وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال، أصابته عين الكلالة، فالتزم في كتابه أمور أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواءه، فتكدرت مشارعه الصافية، وتضيقت موارده الضافية، وتزلزلت رتبه العالية:

منها: أنّه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعسفات جامدة... وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى... وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة.

ومنها: أنّه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده.

ومنها: أنّه.. أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالاً غزيرة بنى على الهزل والفكاهة أساسها.

ومنها: أنّه ينكر أهل السنة والجماعة ـ وهم الفرقة الناجية ـ بعبارات فاحشة[3].

وأخيراً هذه هي شهادات بعض العلماء في تفسير الكشاف بما له وما عليه، ومهما يكن من شيء، فالكل مجمع على أن الزمخشري هو سلطان الطريقة اللغوية في تفسير القرآن، وبها أمكنه أن يكشف عن وجه الإعجاز فيه.

(ط) الأئمة الذين كتبوا على الكشاف ولخّصوه وخرّجوا أحاديثه:

لما اشتهر الكشاف وطار في أقصى المشرق والمغرب، واشتهر في الآفاق، واستمد كل من جاء بعده من المفسرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفياض، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه: فمن مميّز لما جاء فيه من الاعتزال، ومن مناقش لما أتى فيه من وجوه الإعراب، ومن محشي وضّح ونقّح واستشكل وأجاب، ومن مخرج لأحاديثه عزا وأسند وصحح وانتقد، ومن مختصر لخّص وأوجز.

(أ) فمن الأئمة الذين كتبوا على الكشاف:

1 ـ الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير الإسكندراني المالكي (المتوفى سنة 683هـ)، له كتاب اسمه «الانتصاف» وهو الذي لخّصْنَاه.

2 ـ الإمام علم الدين عبد الكريم بن علي العراقي (المتوفى سنة 704هـ)، له كتاب سمّاه «الإنصاف» وجعله حكماً بين الكشاف والانتصاف.

---

(1) البحر المحيط: 7/85.

(2) سورة آل عمران، الآية: 23.

(3) كشف الظنون: 2/ 176ـ 177.

3 ـ الإمام قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي (المتوفى سنة 710هـ)، له عليه حاشية في مجلدين لطيفين.

4 ـ الإمام شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي (المتوفى سنة 743هـ)، له عليه حاشية في ست مجلدات ضخمات.

5 ـ الإمام عمر بن عبد الرحمٰن الفارسي القزويني (المتوفى سنة 745هـ)، له حاشية سمّاها «الكشف» وهي في مجلد واحد.

6 ـ الإمام فخر الدين أحمد بن حسن الجاربردي (المتوفى سنة 746هـ)، له عليه حاشية.

7 ـ الإمام عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي، المعروف بالفاضل اليمني (المتوفى سنة 750هـ)، له حاشية سمّاها «درر الأصداف في حل عقد الكشاف»، وله حاشية أخرى اسمها «تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف».

8 ـ الإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام (المتوفى سنة 762هـ)، اختصر الانتصاف والإنصاف.

9 ـ الإمام قطب الدين محمد بن محمد التحتاني الرازي (المتوفى سنة 766هـ)، له عليه حاشية كلها اعتراضات، وعليه محاكمات لعبد الكريم بن عبد الجبار.

10 ـ الإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي (المتوفى سنة 786هـ)، له عليه شرح وصل به إلى تمام الزهراوين.

11 ـ الإمام سعد الدين مسعود بن عمر التفتزاني (المتوفى سنة 792هـ)، لخّص فيها حاشية الطيبي مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمها، وصل فيها إلى سورة الفتح.

12 ـ الإمام يوسف بن حسن التبريزي (المتوفى سنة 804هـ)، له عليه حاشية.

13 ـ الإمام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (المتوفى سنة 805هـ)، له حاشية في ثلاث مجلدات سمّاها «الكشاف على الكشاف».

14 ـ الإمام السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (المتوفى سنة 816هـ)، له عليه حاشية.

15 ـ الإمام مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي (المتوفى سنة 817هـ)، له حاشية شرح فيها خطبة الكشاف، سمّاها «قطبة الخشاف لحل خطبة الكشاف».

16 ـ الإمام ولي الدين أبو زرعة أحمد ابن الحافظ الكبير عبد الرحيم العراقي (المتوفى سنة 820هـ)، له حاشية لخّص فيها كلام ابن المنير والعلم العراقي وأبي حيان وأجوبة السمين الحلبي والسفاقسي مع زيادة تخريج أحاديثه.

17 ـ الإمام علاء الدين علي بن محمد الشاهرودي الشهير بمصنفه (المتوفى سنة 871هـ)، له عليه حاشية.

18 ـ الإمام محيي الدين محمد ابن الخطيب (المتوفى سنة 901هـ)، له على حاشية السيد حاشية.

19 ـ الإمام سيف الدين أحمد بن محمد الهروي المعروف بحفيد التفتازاني (المتوفى سنة 906هـ)، له حاشية بلغ بها إلى أواسط سورة البقرة.

20 ـ الإمام شمس الدين أحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا المفتي (المتوفى سنة 940هـ)، وقد علق على بعض مواضعه، وهو من أحسن تأليفاته.

21 ـ الإمام خير الدين خضر بن عمر العطوفي (المتوفى سنة 948هـ)، له عليه حاشية.

22 ـ الإمام أبو السعود بن محمد العمادي (المتوفى سنة 982هـ)، له حاشية على سورة الفتح سمّاها «معاقد الأطراف في أول تفسير سورة الفتح من الكشاف».

23 ـ الإمام صنع الله بن جعفر المفتي (المتوفى سنة 1021هـ)، له حاشية على أوائله، وغيرهم أيضاً ولكن اكتفينا بهذا القدر من الأئمة الذين كتبوا على الكشاف.

(ب) فمن الأئمة الذين اختصروا ولخّصوا الكشاف:

1 ـ الإمام محمد بن علي الأنصاري (المتوفى سنة 662هـ)، وقد أزال عنه الاعتزال.

2 ـ الإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (المتوفى سنة 692هـ)، له تلخيص سمّاه «أنوار التنزيل»، وهو سيد المختصرات.

3 ـ الإمام قطب الدين محمد بن مسعود بن محمود بن أبي الفتح السيرافي الغالي الشقار (المتوفى سنة 698هـ)، لخّصه وسمّاه «تقريب التفسير».

4 ـ الإمام محب الدين محمد بن أحمد المدعو بمولانا زاده الحنفي (المتوفى سنة 859هـ).

5 ـ الإمام عبد الأول بن حسين الشهير بأم ولد (المتوفى سنة 950هـ)، وغيرهم كثير مكتفين بهذا العدد من الأئمة الذين لخّصوا واختصروا الكشاف.

(ج) فمن الأئمة الذين خرّجوا أحاديث الكشاف:

1 ـ الإمام المحدث جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي (المتوفى سنة 762هـ)، وقد طبع هذا الكتاب بأربع مجلدات ضخمات.

2 ـ الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (المتوفى سنة 852هـ)، لخّص كتاب الزيلعي، واستدرك عليه ما فات الإمام الزيلعي وسمّاه «الكاف الشاف في تحرير أحاديث الكشاف»، وقد طبع هذا الكتاب في آخر «كتاب الكشاف» بمفرده، كملحق له.

(د) فمن الأئمة الذين شرحوا شواهد الكشاف:

1 ـ الإمام محمد عليان المرزوقي الشافعي من أكابر علماء الأزهر، له حاشية على شاهد الكشاف سمّاها «مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف».

2 ـ الإمام محب الدين أفندي، له حاشية على شاهد الكشاف سمّاها «تنزيل الآيات على الشواهد عن الأبيات».

المصادر والمراجع المعتمدة في كتابة المقدمة

علم التفسير

(أ) تعريف التفسير:

التفسير في اللغة: هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان[1]: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾، أي بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من الفَسْر أي الإبانة والكشف، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل.

وأما في الاصطلاح: فهو علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك.

تعريف التأويل:

التأويل في اللغة: مأخوذ من الأول وهو الرجوع يقال: أوّل الكلام تأويلاً وتأوّله: دَبَّرَهُ وقدّره وفسّره، والتأويل: عبارة الرؤية. فكأنّ المؤوِّل أرْجَعَ الكلامَ إلى ما يحمله من المعاني. وأما في الاصطلاح: تفسير الكلام وبيان معناه، سواه أوافق ظاهره أو خالفه.

وفرّق بعض العلماء بين التفسير والتأويل.

(ب) نشأة التفسير:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وعلى أساليبهم في الكلام، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة إبراهيم[2]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ لذلك كان الصحابة الكرام يفهمون القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أمّا فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائقه بحيث لا يغيب عنهم منه شيء فقد تفاوتوا في ذلك، بسبب اختلافهم في العلم بلغتهم، وبمعرفة أسباب النزول، فكانوا يرجعون إلى النبي ﷺ فيما لم يفهموه فيفسّره لهم لذا فقد أُثِرَ عنه ﷺ عدد كبير من الأحاديث تتناول تفسير القرآن.

وبعد وفاة النبي ﷺ اشتهر عدد كبير من الصحابة بالتفسير، منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وابن مسعود، وابن عبّاس، وأُبَيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

1 ـ مصادر التفسير في عهد الصحابة:

1 ـ القرآن الكريم نفسه: حيث إن آياته يفسّر بعضها بعضاً، وما أُجْمِل في موضع منه قد يبين في موضع آخر، فمن ذلك تفسير قوله تعالى في سورة المؤمن[3]: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ﴾ بأنّه العذاب الأدنى المعجّل في الدنيا، لقوله تعالى في آخر السورة، الآية: 77 ﴿فَإمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعونَ﴾.

2 ـ السُنَّة النبوية الشريفة: فقد فسَّر النبيُّ ﷺ كثيراً من آيات القرآن الكريم، والذي يرجع إلى كتب الحديث يجدها حافلة بأبواب التفسير المأثور عن النبي ﷺ، من ذلك ما رواه الترمذي في سننه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿الصلاة الوسطى﴾ صلاة العصر».

3 ـ أقوال الصحابة: كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا لم يجدوا التفسير في القرآن، ولم يسمعوه من رسول الله ﷺ، رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم لأنّهم عاينوا نزول القرآن، ولأنّهم كانوا من خلص العرب، يعرفون عاداتهم والألفاظ ومعانيها، ومناحي العرب في كلامهم، ومعتمدين في ذلك على الشعر الذي هو ديوان العرب كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد كان الصحابي الجليل ابن عباس صاحب النصيب الأكبر من ذلك، فقد ورد عن النبي ﷺ أنّه دعا له فقال: «اللهمّ فَقِّهْهُ في الدين، وعلِّمْهُ التأويل» ولذلك لقّب «بترجمان القرآن».

2 ـ مدرسة التفسير على عهد الصحابة:

فتح اللَّهُ على المسلمين كثيراً من بلاد العالم، وتوزَّع الصحابة في البلاد المفتوحة، وحملوا معهم علومهم وجلس إليهم كثير من التابعين يتتلمذون عليهم، فقامت في هذه البلاد مدارس علمية أساتذتها الصحابة وتلاميذها التابعون، واشتهرت من بين هذه المدارس ثلاث هي:

---

(1) اقتبسنا الكلام في هذا الفصل من كتاب «التفسير والمفسرون» للمرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي.

(2) السيوطي، الإتقان 88/2.

(3) السيوطي، الإتقان 189/2.

1 ـ **مدارس مكة المكرّمة**: أستاذها الصحابي الجليل ابن عباس، وتلاميذها: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس، وعطاء...

2 ـ **مدرسة المدينة المنورة**: أستاذها الصحابي أُبَيُّ بن كعب، وتلاميذها: زيد بن أسلم، وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي...

3 ـ **مدرسة العراق**: أستاذها الصحابيّ عبد الله بن مسعود، وتلاميذها: علقمة، ومسروق، والأسود، ومرّة، وعامر، والحسن، وقتادة...

وقد أضيف للتفسير في هذا العهد أقوال التابعين، وبدأ الخلاف يظهر فيه، كما بدأ يتسرب إليه الروايات الإسرائيلية بسبب رجوع بعض المفسّرين لأهل الكتابَيْن اليهود والنصارى.

3 ـ تدوين التفسير على عهد التابعين:

مع بداية القرن الثاني للهجرة، بدأ المسلمون بتدوين علومهم، بعد أن كانوا يعتمدون على الرواية في حفظها وتبليغها، وأصدر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (المتوفى سنة 101هـ) أمره لعمّاله في الآفاق بجمع حديث رسول الله ﷺ، وكان التفسير باباً من أبواب الحديث، ولم يفرد له أول الأمرَ تأليف خاص يفسّر القرآن سورة سورة من مبدئه إلى منتهاه، ثم انفصل التفسير تدريجياً عن الحديث، وبدأت تظهر المحاولات الأولى للتأليف في تفسير القرآن تمثلت بكتب «غريب القرآن» التي تناولت ألفاظه فقط ككتب الرؤاسي (المتوفى سنة 170هـ) والكسائي (المتوفى سنة 189هـ) والفراء (المتوفى سنة 207هـ)، ثم ظهرت التفاسير الأولى التي تناولت السُور والآيات كتفسير ابن ماجه (المتوفى سنة 273هـ) وابن جرير الطبري (المتوفى سنة 310هـ)، وابن المنذر النيسابوري (المتوفى سنة 318هـ) وابن أبي حاتم (المتوفى سنة 327هـ)... وتناولت هذه التفاسير الأولى غريب الألفاظ، وإيراد ما ورد من الحديث وأقوال الصحابة والتابعين في تفسير بعض الآيات.

(ج) أنواع التفاسير:

كانت المحاولات الأولى للتفسير تعتمد على المأثور من حديث رسول الله ﷺ، وما نُقِلَ عن السَّلَف، ثم تدرج التفسير بعد ذلك لتدوين العلوم العقلية إضافة للتفسير النقلي، وبدأ هذا الجانب يتضخم شيئاً فشيئاً متأثراً بالمعارف العامّة، والعلوم المتنوّعة، والآراء المتشعّبة، والعقائد المتباينة، وامتزج كل ذلك بالتفسير وتحكّمت الاصطلاحات العلمية والعقائد المذهبية بعبارات القرآن الكريم، وظهرت آثار الثقافات والفلسفات في تفاسير القرآن، وراح كل من برع في فن من الفنون يفسّر القرآن على الفن الذي برع فيه:

1 ـ **التفاسير اللغوية**: فاللغوي، والنحوي يهتم بجانب الإعراب ووجوهه، والنحو ومسائله وفروعه وخلافياته، ويكثر من الشواهد النثرية والشعرية كما فعل الزجاج، والواحدي في «البسيط»، وأبو حيّان في «البحر المحيط».

2 ـ **التفاسير العقلية**: ومنهم من عني في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، ينكر شبههم والردّ عليهم، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب»...

3 ـ **التفاسير الفقهية**: وهي التي عني مؤلفوها باستنباط الأحكام الفقهية من أدلتها، وإيراد الفروع الفقهية كلٌ وفق مذهبه مع الردّ على من خالفه من أصحاب المذاهب الأخرى كما فعل الجصاص الحنفي في «أحكام القرآن»، والقرطبي المالكي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»..

4 ـ **التفاسير التاريخية**: وهي التي عني مؤلفوها بالقصص، وأخبار الأمم السابقة، كما فعل الثعلبي والخازن..

5 ـ **تفاسير الفِرَق**: وهي التي وضعها أصحاب الفِرَق والعقائد المتباينة، محاولين تأويل كلام الله حسب مذاهبهم، كما فعل الرمّاني، والجبّائي، والقاضي عبد الجبار، والزمخشري..

6 ـ **تفاسير المتصوّفة**: وهي التي قصد مؤلفوها نواحي الترغيب والترهيب، واستنباط الأسرار الباطنية والإشارات الرمزية، كما فعل ابن عربي، وأبو عبد الرحمن السلمي...

(د) التفسير بالمأثور:

التفسير بالمأثور ـ أو التفسير النقلي ـ هو تفسير القرآن بما جاء في القرآن نفسه من تبيان لبعض آياته، وبما أُثِرَ عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين. وقد كان هذا النوع من التفاسير أولها ظهوراً كما تدرّج خلال تطور هذا العلم من الرواية في عصر الصحابة والتابعين إلى التدوين في القرن الثاني؛ لأن الحديث كان أول ما اهتمّ العلماء بتدوينه، ثم لما انفصل التفسير عن الحديث وأفرد بتأليف خاص كان أول ما ظهر فيه صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ثم ظهرت أجزاء في التفسير كجزء أبي روق، وأجزاء محمد بن ثور عن ابن جريج، ثم ظهر التأليف الموسوعي في التفسير الذي جمع أصحابه فيه كل ما روي من التفسير المأثور كتفسير ابن جرير الطبري، وتوسع أصحابها في النقل وأكثروا منه بالأسانيد المتصلة حتى استفاض.

ثم وُجِدَ بعد ذلك أقوام دوّنوا التفسير بالمأثور بدون ذكر الأسانيد، وأكثروا من نقل الأقوال بدون التفرقة بين الصحيح وغيره، مما أفقد الثقة بها، وبخاصة عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب، حتى نُقِل عن الإمام الشافعي قوله: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث» وهو عدد لا يكاد يُذكَر أمام ما يُروى عن ابن عباس في التفسير، وهذا يدل على مبلغ ما دخل في التفسير بالمأثور من الروايات الموضوعة والإسرائيلية، ولقد كانت كثرة المرويات أكبر عامل في صرف همّة العلماء إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح،

وترجع أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور إلى كثرة الوضع، ودخول الإسرائيليات.

أما الوضع فقد كان مصدره أهل البِدَع والأهواء والفِرَق، والأقوام الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم يبطنون الكفر بقصد الكيد له وتضليل أهله، فوضعوا الروايات الباطلة في تفسير القرآن ليصلوا إلى أغراضهم، فكثرت الروايات، وضمَّن مؤلفو التفاسير هذه الروايات في كتبهم دون تحرٍّ منهم لصحّة أسانيدها؛ لأنّ منهجهم في التأليف كان إيراد كل ما ورد من الروايات في الآية الواحدة تاركين أمر تمحيصها لثقافة القارىء. ولقد بذل المحدّثون في هذه الفترة جهوداً جبّارة في مقاومة الوضع وتمييز الصحيح من الروايات عن غيره، ووضعوا في ذلك التصانيف، وأنشأوا علم مصطلح الحديث، ووضعوا قواعد دقيقة جداً لمعرفة الصحيح من غيره، حتى ميّزوا الصحيح من الموضوع فحفظ الله بهم دينه ﴿والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

(هـ) التفسير والإسرائيليات:

وأما الإسرائيليات: فيمكن تعريفها بأنّها الروايات المأخوذة عن اليهود والنصارى في أخبار أممهم السابقة وقصص أنبيائهم، وإن كان الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره، وغلب على الجانب النصراني بسبب أغلبية اليهود في ذلك الوقت واختلاطهم مع المسلمين في بلادهم، ولقد نزل القرآن بموضوعات وردت في التوراة والإنجيل، كقصة آدم عليه السلام ونزوله إلى الأرض، وقصة موسى عليه السلام مع قومه اليهود، وقصة عيسى عليه السلام وأمّه مريم، كلّ ذلك ورد في القرآن الكريم موجزاً يقتصر على ذكر العِظة والعِبْرة من قصصهم دون التعرض لتفاصيل قصصهم، وقد وجد المسلمون تفصيل هذا الإيجاز عند أهل الديانات السابقة بما لا يتعارض مع شريعتهم، فلجأوا إليهم، واقتبسوا منهم، دون تحرٍّ منهم لصحة هذه الأخبار.

وقد أخبر الله تعالى في القرآن أنّ أهل الكتاب قد حرّفوا كتبهم فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مواضِعِه﴾[2] وقال: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[3]. كما بيَّن النبي ﷺ لأصحابه الموقف الواجب اتّخاده تجاه أهل الكتاب فقال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»[4] ولكن المسلمين تساهلوا في الأخذ عن أهل الكتاب وهكذا دخلت الإسرائيليات في كتب التفسير، وكانت مصادر الإسرائيليات تدور حول أربعة أشخاص هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

الإسرائيليات وأثرها في التفسير بالمأثور:

قسم العلماء الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: مقبول وهو ما علم صحّته بالنقل الصحيح عن رسول الله ﷺ، وذلك كتعيين اسم الخضر عليه السلام، إذ ورد فيه حديث صحيح عند البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، أو ما كان له شاهد من الشرع يؤيّده.

والثاني: مسكوت عنه: وهو ما لم يعلم صحّته ولا كذبه، وهذا القسم تجوز حكايته للعِظة والعِبْرة، ولا نؤمن بصدقه ولا كذبه امتثالاً لأمر النبي ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا...».

والثالث: مرفوض: وهو ما علم كذبه لتناقضه مع شريعتنا أو مخالفته للعقل، ولا يصح تصديقه ولا قبوله ولا روايته، وإذا رواه المفسّر في تفسيره وجب عليه بيانه.

وقد كان لهذه الإسرائيليات أثر سيئ في التفسير، إذ أدخلت فيه كثيراً من القصص الخيالي المخترع، والأخبار المكذوبة، وهذا ما دفع العلماء لمقاومتها، وإخضاعها لمعايير نقد الرواية، وموازين الشريعة لتمييز المقبول من المردود. وبسبب هذه الإسرائيليات تفاوتت الثقة في كثير من التفاسير التي وضعها كبار الأئمة.

(و) أشهر كتب التفسير بالمأثور:

اشتهر من بين هذه الكتب ثمانية، تفاوتت قيمتها عند الأمّة بين القبول والرفض، وسنذكرها مع تبيان قيمة كل واحد منها:

1 ـ جامع البيان لابن جرير الطبري (المتوفى سنة 310هـ): وهو من أقدم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسّرين بالنقل والعقل، نظراً لما فيه من الروايات والاستنباطات، وترجيح بعضها على بعض، ويقع في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد طبع هذا التفسير في دار المعرفة في بيروت، كما قام العلامة أحمد شاكر رحمه الله بتحقيق نصفه فوافته المنية قبل إتمامه.

2 ـ بحر العلوم للسمرقندي (المتوفى سنة 373هـ): صاحبه هو الإمام أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم، الفقيه الحنفي المعروف بإمام الهدى، وهو تفسير لطيف مفيد لكنه يذكر الروايات مجرّدة عن أسانيدها، دون ترجيح، وقد خرّج أحاديثه قاسم بن قطلوبغا (المتوفى سنة 854هـ)، وهذا التفسير مخطوط في ثلاث مجلدات كبار بدار الكتب المصرية.

3 ـ الكشف والبيان للثعلبي ـ أو الثعالبي ـ (المتوفى سنة 427هـ): صاحبه أبو إسحاق أحمد بن

(1) سورة يوسف، الآية: 21.
(2) سورة النساء، الآية: 46.
(3) سورة البقرة، الآية: 79.
(4) حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (الحديث: 7542).

إبراهيم النيسابوري المقرىء، المفسّر، الحافظ، الواعظ، رأس التفسير والعربية. وقد ذكر الثعالبي في مقدمة تفسيره منهجه ومصادره وأسانيده إلى من يروي عنه، واكتفى بذلك عن ذكر الأسانيد أثناء الكتاب وهو كتاب حافل بالإسرائيليات دون التنبيه عليها، ويوجد منه مخطوط غير كامل في مكتبة الأزهر ينتهي عند أواخر سورة الفرقان.

4 ـ معالم التنزيل للبغوي (المتوفى سنة 516هـ): صاحبه أبو محمد الحسين بن مسعود، الفرّاء، البغوي، الفقيه الشافعي، المحدّث، وهو من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلاها، جامع للصحيح من الأقاويل. وقال عنه ابن تيمية في أصول التفسير: (والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة). وقد طبع هذا التفسير مؤخراً بدار المعرفة في بيروت في أربع مجلدات بتحقيق خالد العك ومروان سوار.

5 ـ المحرّر الوجيز لابن عطية (المتوفى سنة 546هـ): مؤلّفه أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي، الحافظ، القاضي، من بيت علم وأدب، وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص. وقد طبع من هذا التفسير الجزء الأول في القاهرة، ولا يزال الباقي مخطوطاً، وهو يقع في عشرة مجلدات كبار يوجد منه أجزاء بدار الكتب المصرية.

6 ـ الجواهر الحسان للثعالبي (المتوفى سنة 876هـ): مؤلّفه أبو زيد عبد الرحمٰن بن محمد بن مخلوف الجزائري المغربي المالكي، الإمام الحجة، العالم، الزاهد الورع. وقد اعتمد في تفسيره على تفسير ابن عطية وأبي حيّان وزاد عليهما. وهو يذكر الروايات المأثورة بدون أسانيدها. وإذا ذكر الإسرائيليات تعقّبها بالنقد والتمحيص. وقد طبع الكتاب في الجزائر في أربعة أجزاء.

7 ـ الدر المنثور للسيوطي (المتوفى سنة 911هـ): اختصر السيوطي في هذا التفسير كتاباً مسنداً ألّفه قبله هو «ترجمان القرآن» جمع فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف بأسانيدها. ثم رأى حذف أسانيدها والاقتصار على متونها فقط وذكر من خرجها، فوضع الدر المنثور، وهو حافل بالأحاديث دونما تمييز بين صحيحها وسقيمها ويقتصر من بين سائر الكتب المذكورة سابقاً على الحديث دون غيره، وقد طبع بدار المعرفة في بيروت في ست مجلدات كبار.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مفتتحاً وبالاستعاذة مختتماً وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً، وفصله سوراً وسوّره آياتٍ، وميز بينهنّ بفصول وغايات، وما هي إلا صفات مبتدئ مبتدع، وسمات منشئ مخترع، فسبحان من استأثر بالأوّلية والقدم، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم، أنشاه كتاباً ساطعاً تبيانه، قاطعاً برهانه، وحياً ناطقاً ببينات وحجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان؛ دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدّى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم، على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط في المضادّة والمضارّة، وإلقائهم الشراشر على المعازة والمعارة، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط، وركوبهم في كل ما يرومونه الشطط، إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمأثرة رموه بمآثر، وقد جرّد لهم الحجة أوّلاً والسيف آخراً فلم يعارضوا إلا السيف وحده على أنّ السيف القاضب مخراق لاعب إن لم تمض الحجة حدّه فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنّ البحر قد زخر فطمّ على الكواكب، وأنّ الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب، والصلاة على خير من أوحى إليه حبيب الله أبي القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ذي اللواء المرفوع في بني لؤي، وذي الفرع المنيف في عبد مناف بن قصي، المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الشادخ الغرّة، الواضح التحجيل، النبيّ الأميّ المكتوب في التوراة والإنجيل، وعلى آله الأطهار، وخلفائه من الأختان والأصهار، وعلى جميع المهاجرين والأنصار.

اعلم أنّ متن كلّ علم وعمود كل صناعة طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصنّاع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطأ يسيرة أو تقدّم الصانع الصانع لم يتقدّمه إلا بمسافةٍ قصيرة، وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقّى إلى أن عدّ ألف بواحد، ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معانٍ يدق فيها مباحث الفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وخصهم، وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد لا يمنّ عليهم بجزّ نواصيهم وإطلاقهم. ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدقّ سلكها، علم التفسير الذي لا يتمّ لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحو وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه، لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونةً، وتعب في التنقير عنهما أزمنةً، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً ورجع إليه، وردّ وردّ عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدّماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقّادها، يقظان النفس درّاكاً للمحة وإن لطف شانها، منتبهاً على الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه، (ولقد رأيت) إخواننا في الدين

من أفاضل الفئة الناجية[1] العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آيةٍ فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، والذي حداني على الاستعفاء على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة، لأنّ الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأمليت عليهم مسألةً في الفواتح وطائفةً من الكلام في حقائق سورة البقرة وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب طويل الذيول والأذناب، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالاً يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإناخة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها وقليل ما هم عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى متطلعين إلى إيناسه حراصاً على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي وحرك الساكن من نشاطي، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس أدام الله مجده، وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم أعطش الناس كبداً وألهبهم حشى وأوفاهم رغبةً حتى ذكر أنه كان يحدّث نفسه في مدّة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادّة بقطع الفيافي وطي المهامه والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض. فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر ووفق الله وسدّد، ففرغ منه في مقدار مدّة خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وكان يقدّر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة. وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم وبركة أفيضت عليّ من بركات هذا الحرم المعظم أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سبباً ينجيني ونوراً لي على الصراط يسعى بين يدي وبيميني ونعم المسؤول.

---

(1) هي التي سماها أهل السنة بالمعتزلة فقوله: إخواننا في الدين يقتضي أنه من المعتزلة ولذا تراه في مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة يقول بقول المعتزلة فإذا كان ظاهر الآية يوافقهم أبقاها على ظاهرها وإذا كان يخالفهم صرفها عن ظاهرها إلى معنى يوافقهم عفى الله عنه.

سورة فاتحة الكتاب

مكية، وقيل: مكية ومدنية، لأنها نزلت بمكة مرة، وبالمدينة أخرى، وتسمى أمّ القرآن لاشتمالها على المعاني التي في القرآن، من الثناء على الله تعالى بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد والوعيد، وسورة الكنز والوافية لذلك، وسورة الحمد والمثاني لأنها تثني في كل ركعة، وسورة الصلاة لأنها تكون فاضلةً أو مجزئةً بقراءتها فيها، وسورة الشفاء والشافية. وهي سبع آيات بالاتفاق إلا أنّ منهم من عد ﴿أنعمت عليهم﴾ دون التسمية، ومنهم من مذهبه على العكس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أنّ التسمية ليست بآية من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها. كما بدئ بذكرها في كل أمر ذي بال، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقراء مكة والكوفة وفقهاؤهما على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله، ولذلك يجهرون بها. وقالوا: قد أثبتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يثبتوا آمين. فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها. وعن ابن عباس: من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى.

فإنْ قلتَ: بم تعلقت الباء؟ **قلتُ:** بمحذوف تقديره بسم الله أقرأ، وأتلو؛ لأنّ الذي يتلو التسمية مقروء كما أنّ المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال: بسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحل، وبسم الله أرتحل، وكذلك الذابح، وكل فاعل يبدأ في فعله ببسم الله كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له، ونظيره في حذف متعلق الجار قوله عزّ وجلّ: ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾[1] أي: اذهب في تسع آيات، وكذلك قول العرب في الدعاء للمعرس بالرفاء والبنين، وقول الأعرابي: باليمن والبركة. بمعنى: أعرست أو نكحت. ومنه قوله: فقلت إلى الطعام فقال منهم:

فريق تحسد الإنس الطعاما

فإنْ قلتَ[2]: لم قدرت المحذوف متأخراً؟ **قلتُ:** لأنّ الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به؛ لأنهم كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عزّ وجلّ بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله: ﴿إياك نعبد﴾[3] حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص، والدليل عليه قوله: ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾[4].

فإنْ قلتَ: فقد قال: ﴿اقرأ باسم ربك﴾[5] فقدم الفعل! **قلتُ:** هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أوّل سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم.

فإنْ قلتَ: ما معنى تعلق اسم الله بالقراءة؟ **قلتُ:** فيه وجهان: أحدهما: أن يتعلق بها تعلق القلم بالكتبة في قولك: كتبت بالقلم، على معنى: أنّ المؤمن لما اعتقد أنّ فعله لا يجيء معتداً به في الشرع واقعاً على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر»[6] وإلا كان فعلاً كلا فعل جعل فعله مفعولاً باسم الله كما يفعل الكتب بالقلم. والثاني: أن يتعلق بها تعلق الدهن بالإنبات في قوله: تنبت بالدهن على معنى: متبركاً بسم الله أقرأ. وكذلك قول الداعي للمعرس: بالرفاء والبنين. ومعناه: أعرست ملتبساً بالرفاء والبنين. وهذا الوجه أعرب وأحسن.

فإنْ قلتَ: فكيف قال الله تبارك وتعالى متبركاً باسم الله؟ ﴿اقرأ﴾ **قلتُ:** هذا مقول على ألسنة العباد كما يقول الرجل الشعر على لسان غيره، وكذلك ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ إلى آخره. وكثير من القرآن على هذا المنهاج، ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يحمدونه، ويمجدونه، ويعظمونه.

فإنْ قلتَ: من حق حروف المعاني التي جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التي هي أخت السكون، نحو: كاف التشبيه، ولام الابتداء، وواو العطف، وفائه، وغير ذلك ... فما بال لام الإضافة، وبائها بنيتا على الكسر؟ **قلتُ:** أما اللام فللفصل بينها وبين لام الابتداء. وأما الباء فلكونها لازمة للحرفية والجر، والاسم أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون؛ فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا

---

(1) سورة النمل، الآية: 11.

(2) قال أحمد: وفي قوله إنّ اسم الله هو: الذي صير فعله معتبراً شرعاً، حيد عن الحق المعتقد، لأهل السنة في قاعدتين أحدهما: أن الاسم هو: المسمى، والأخرى: أن فعل العبد موجود بقدرة الله تعالى، لا غير فعلى هذا تكون الاستعانة باسم الله، معناها: اعتراف العبد في أول فعله بأنه جار على يديه، وهو مكحل له لا غير، وأما وجود الفعل فيه، فبالله تعالى، أي: بقدرته تسليماً لله في أول كل فعل، والزمخشري رحمه الله لا يستطيع هذا التحقيق؛= = لاتباعه الهوى في مخالفة القاعدتين المذكورتين، فيعتقد أن اسم الله تعالى، الذي هو: التسمية معتبر في شرعية الفعل، لا في وجوده إذ وجوده على زعمه بقدرة العبد، فعلى ذلك بنى كلامه.

(3) سورة الفاتحة، الآية: 5.

(4) سورة هود، الآية: 41.

(5) سورة العلق، الآية: 1.

(6) أخرجه البخاري تعليقاً عن أبي عبيدة، في كتاب: التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب.

همزةً لئلا يقع ابتداؤهم بالساكن إذ كان دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن لسلامة لغتهم من كل لكنة وبشاعة؛ ولوضعها على غاية من الإحكام والرصانة. وإذا وقعت في الدرج لم تفتقر إلى زيادة شيء، ومنهم من لم يزدها واستغنى عنها بتحريك الساكن فقال: سم وسم قال: باسم الذي في كل سورة سمه، وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز كيد ودم وأصله سمو بدليل تصريفه كأسماء وسمي وسميت واشتقاقه من السمو، لأنّ التسمية تنويه بالمسمى وإشادة بذكره، ومنه قيل للقب النبز من النبز بمعنى النبر: وهو رفع الصوت، والنبز: قشر النخلة الأعلى.

فإنْ قلتَ: فلم حذفت الألف في الخط وأثبتت في قوله: ﴿باسم ربك﴾؟ قلتُ: قد اتبعوا في حذفها حكم الدرج دون الابتداء الذي عليه وضع الخط لكثرة الاستعمال، وقالوا: طولت الباء تعويضاً من طرح الألف، وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لكاتبه: طول الباء، وأظهر السنات، ودور الميم و﴿الله﴾ أصله الإلٰه قال:

معاذ الإلٰه أن تكون كظبية

ونظيره الناس أصله الأناس قال:

إن المنايا يطلعـ ـن على الإناس الآمنين

فحذفت الهمزة، وعوض منها حرف التعريف. ولذلك قيل في النداء: يا ألله، بالقطع. كما يقال: يا إلٰه، والإلٰه من أسماء الأجناس كالرجل والفرس. اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل. ثم غلب على المعبود بحق، كما أنّ النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا، وكذلك السنة على عام القحط والبيت على الكعبة، والكتاب على كتاب سيبويه. وأما الله بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره، ومن هذا الاسم اشتق تأله، وأله، واستأله. كما قيل: استنوق واستحجر في الاشتقاق من الناقة والحجر.

فإنْ قلتَ: إسم هو أم صفة؟ قلتُ: بل اسم غير صفة، ألا تراك تصفه ولا تصف به لا تقول شيء إلٰه كما لا تقول شيء رجل وتقول: إلٰه واحد صمد. كما تقول رجل كريم خير، وأيضاً فإنّ صفاته تعالى لا بد لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات بقيت غير جارية على اسم موصوف بها وهذا محال.

فإنْ قلتَ: هل لهذا الاسم اشتقاق؟ قلتُ: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد، وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم: أله إذا تحير، ومن أخواته دله وعله ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أنّ الأوهام تتحير في معرفة المعبود، وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال وفشا الباطل وقل النظر الصحيح.

فإنْ قلتَ: هل تفخم لامه؟ قلتُ: نعم قد ذكر الزجاج: أنّ تفخيمها سنة وعلى ذلك العرب كلهم وإطباقهم عليه دليل أنهم ورثوه كابراً عن كابر. و﴿الرحمٰن﴾ فعلان من رحم، كغضبان وسكران من غضب وسكر، وكذلك ﴿الرحيم﴾ فعيل منه، كمريض وسقيم من مرض وسقم. وفي الرحمٰن من المبالغة ما ليس في الرحيم، ولذلك قالوا: رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا، ويقولون إنّ الزيادة في البناء لزيادة المعنى. وقال الزجاج في الغضبان: هو الممتلئ غضباً. ومما طن على أذني من ملح العرب أنهم يسمون مركباً من مراكبهم بالشقدف، وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق. فقلت في طريق الطائف لرجل منهم: ما اسم هذا المحمل؟ أردت المحمل العراقي. فقال: أليس ذاك اسمه الشقدف؟ قلت: بلى. فقال: هذا اسمه الشقنداف. فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى، وهو من الصفات الغالبة؛ كالدبران، والعيوق، والصعق، لم يستعمل في غير الله عزّ وجلّ. كما أنّ الله من الأسماء الغالبة. وأما قول بني حنيفة في مسيلمة: رحمٰن اليمامة، وقول شاعرهم فيه:

وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

فباب من تعنتهم في كفرهم.

فإنْ قلتَ: كيف تقول الله رحمٰن، أتصرفه أم لا؟ قلتُ: أقيسه على أخواته من بابه، أعني نحو عطشان، وغرثان، وسكران، فلا أصرفه.

فإنْ قلتَ: قد شرط في امتناع صرف فعلان أن يكون فعلان فعلى واختصاصه بالله يحظر أن يكون فعلان فعلى فلم تمنعه الصرف؟ قلتُ: كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على فعلى كعطشى، فقد حظر أن يكون له مؤنث على فعلانة كندمانة، فإذاً لا عبرة بامتناع التأنيث للاختصاص العارض؛ فوجب الرجوع إلى الأصل قبل الاختصاص، وهو القياس على نظائره.

فإنْ قلتَ[1]: ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة، ومعناها العطف والحنو ومنها الرحم لانعطافها على ما فيها؟ قلتُ: هو مجاز عن إنعامه على عباده لأنّ الملك إذا عطف على رعيته ورقّ لهم أصابهم بمعروفه وإنعامه، كما أنه إذا أدركته الفظاظة والقسوة عنف بهم ومنعهم خيره ومعروفه.

فإنْ قلتَ[2]: فلم قدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ما

(1) قال أحمد رحمه الله: فالرحمة على هذا من صفات الأفعال، ولك أن تفسرها بإرادة الخير، فيرجع إلى صفات الذات، وكلا الأمرين قال به الأشعرية في الرحمة، وأمثالها مما لا يصح إطلاقه باعتبار حقيقته اللغوية على الله تعالى، فمنهم من صرفه إلى صفة الذات، ومنهم من صرفه إلى صفة الفعل.

(2) قال أحمد رحمه الله: إنما كان القياس تقديم أدنى الوصفين؛ لأنّ في تقديم أعلاهما ثم الإرداف بأدناهما نوعاً من التكرار، إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول الأدنى، ذكره بعده غير مفيد، ولا كذلك = العكس، فإنه ترق من الأدنى إلى مزيد بمزية الأعلى لم يتقدّم ما يستلزمه، ولذلك كان هذا الترتيب خاصاً بالإثبات، وأمّا النفي فعلى عكسه تقدّم فيه الأعلى، تقول ما فلان نحريراً، ولا عالماً، ولو عكست لوقعت في التكرار، إذ يلزم من نفي الأدنى عنه نفي الأعلى، وكل ذلك مستمدّة في عموم الأدنى، وخصوص الأبلغ، وإثبات الأخص يستلزم ثبوت الأعم، ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص.

هو دونه والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلان عالم نحرير وشجاع باسل وجواد فياض. **قلتُ**: لما قال الرحمٰن فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أردفه الرحيم كالتتمة والرديف ليتناول ما دقّ منها ولطف.

الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسبه وشجاعته، وأمّا الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح قال:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

والحمد باللسان وحده، فهو إحدى شعب الشكر، ومنه قوله عليه السلام: الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده. وإنما جعله رأس الشكر لأنّ ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها أشيع لها وأدلّ على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح، لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كلّ خفي ويجلي كلّ مشتبه. والحمد نقيضه الذمّ، والشكر نقيضه الكفران. وارتفاع الحمد بالابتداء وخبره الظرف الذي هو لله وأصله النصب[1] الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار كقولهم: شكراً وكفراً وعجباً وما أشبه ذلك، ومنها سبحانك ومعاذ الله، ينزلونها منزلة أفعالها ويسدون بها مسدها، ولذلك لا يستعملونها معها ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة، والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾[2] رفع السلام الثاني للدلالة على أنّ إبراهيم عليه السلام حياهم بتحية أحسن من تحيتهم، لأنّ الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون تجدّده وحدوثه. والمعنى: نحمد الله حمداً، ولذلك قيل: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[3] لأنه بيان لحمدهم له. كأنه قيل: كيف تحمدون؟ فقيل: إياك نعبد.

فإنْ قلتَ[4]: ما معنى التعريف فيه؟ **قلتُ**: هو نحو التعريف في أرسلها العراك وهو تعريف الجنس، ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أنّ الحمد ما هو والعراك ما هو من بين أجناس الأفعال والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم. وقرأ الحسن البصري ﴿الحمد لله﴾ بكسر الدال لإتباعها اللام: وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: ﴿الحمد لله﴾ بضم اللام لإتباعها الدال. والذي جسرهما على ذلك والإتباع إنما يكون في كلمة واحدة كقولهم: منحدر الجبل ومغيرة تنزل الكلمتين منزلة كلمة لكثرة استعمالهما مقترنتين. وأشف القراءتين قراءة إبراهيم حيث جعل الحركة البنائية تابعة للإعرابية التي هي أقوى، بخلاف قراءة الحسن: الرب المالك، ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوزان. تقول ربه يربه فهو رب؛ كما تقول: نم عليه ينم فهو نم، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل، ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في غيره على التقييد بالإضافة كقولهم: رب الدار، ورب الناقة، وقوله تعالى: ﴿ارجع إلى ربك﴾[5] ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾[6] وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: ﴿**رب العالمين**﴾ بالنصب على المدح، وقيل: بما دل عليه الحمد لله. كأنّه قيل: نحمد الله رب العالمين، العالم اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وقيل: كل ما علم به الخالق من الأجسام والأعراض.

فإنْ قلتَ[7]: لم جمع؟ **قلتُ**: ليشمل كل جنس مما سمي به.

---

(1) قال أحمد رحمه الله: ولأنّ الرفع أثبت اختار سيبويه في قول القائل: رأيت زيداً، فإذا له علم، علم الفقهاء الرفع، وفي مثل رأيت زيداً، فإذا له صوت، صوت حمار النصب، والسر في الفرق بين الرفع والنصب، أنّ في النصب إشعاراً بالفعل، وفي صيغة الفعل إشعار بالتجدّد والطروّ، ولا كذلك الرفع فإنه إنما يستدعي اسما ذلك الاسم صفة ثابتة ألا ترى أنّ المقدّر مع النصب نحمد الله الحمد ومع الرفع الحمد ثابت لله، أو مستقر، قال محمود رحمه الله: وتعريف الحمد نحو التعريف في أرسلها العراك، وهو تعريف الجنس ومعناه الخ.

(2) سورة هود، الآية: 69.

(3) سورة الفاتحة، الآية: 5.

(4) قال أحمد رحمه الله: تعريف التكرار باللام إما عهدي، وإما جنسي، والعهد إما أن ينصرف العهد فيه إلى فرد معين من أفراد الجنس، باعتبار يميزه عن غيره من الأفراد، كالتعريف في نحو، فعصى فرعون الرسول، وإمّا أن ينصرف العهد فيه إلى الماهية باعتبار يميزها عن غيرها من الماهيات كالتعريف في نحو أكلت الخبز وشربت الماء والجنسي هو الذي ينضم إليه شمول الآحاد نحو الرجل أفضل من المرأة، وكلا نوعي العهد لا يوجب استغراقها، وإنما يوجبه الجنسي خاصة، فالزمخشري جعل تعريف الحمد من =

= النوع الثاني، من نوعي العهد، وإن كان قد عبر عنه بتعريف الجنس لعدم اعتنائه، باصطلاح أصول الفقه، وغير الزمخشري جعله للجنس، فقضى بإفادته لاستغراق جميع أنواع الحمد وليس ببعيد، قال محمود رحمه الله: العالم لذوي العلم من الملائكة إلى آخره.

(5) سورة يوسف، الآية: 50.

(6) سورة يوسف، الآية: 23.

(7) قال أحمد رحمه الله: تعليله الجمع بإفادة استغراقه لكل جنس تحته فيه نظر، فإن عالماً كان قرّره اسم جنس عرف باللام الجنسية، فصار العالم وهو مفرد، أدل على الاستغراق منه جمعاً، قال إمام الحرمين رحمه الله: التمر أحرى باستغراق الجنس من التمور، فإن التمر يسترسل على الجنس لا بصيغة لفظية، والتمور تردّه إلى تخيل الوجدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع، وفي صيغة الجمع مضطرب انتهى كلامه، والتحقيق في هذا، وفي كل ما يجمع من أسماء الأجناس ثم يعرف تعريف الجنس، أنه يفيد أمرين أحدهما أنّ ذلك الجنس تحته أنواع مختلفة، والآخر أنه مستغرق لجميع ما تحته منها لكن المفيد لاختلاف الأنواع الجمع، والمفيد لاستغراق جميعها التعريف ألا ترى أنه إذا جمع مجرّداً من التعريف دل على اختلاف الأنواع، ثم إذا عرف أفاد استغراق =

فإنْ قلتَ: هو اسم غير صفة، وإنما تجمع بالواو والنون صفات العقلاء أو ما في حكمها من الأعلام. قلتُ: ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم، قرىء: ملك يوم الدين، ومالك وملك بتخفيف اللام، وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه: ﴿ملك يوم الدين﴾ بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿مالك﴾ بالنصب. وقرأ غيره: ﴿ملك﴾ وهو نصب على المدح، ومنهم من قرأ: ﴿مالك﴾ بالرفع، وملك هو الاختيار لأنه قراءة أهل الحرمين، ولقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ ولقوله: ﴿ملك الناس﴾[1] ولأن الملك يعم والملك يخص، ويوم الدين يوم الجزاء، ومنه قولهم: «كما تدين تدان» وبيت الحماسة.

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

فإنْ قلتَ: ما هذه الإضافة؟ قلتُ: هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع مجرى مجرى المفعول به، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار. والمعنى على الظرفية، ومعناه: مالك الأمر كله في يوم الدين كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾.

فإنْ قلتَ: فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة؟ قلتُ: إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال فكان في تقدير الانفصال كقولك: مالك الساعة أو غداً، فأمّا إذا قصد معنى الماضي كقولك: هو مالك عبده أمس أو زمان مستمرّ، كقولك: زيد مالك العبيد، كانت الإضافة حقيقية كقولك: مولى العبيد، وهذا هو المعنى في مالك يوم الدين، ويجوز أن يكون المعنى ملك الأمور والدين، كقوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾[2] ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾[3] والدليل عليه قراءة أبي حنيفة: ﴿ملك يوم الدين﴾. وهذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه من كونه رباً مالكاً للعالمين لا يخرج منهم شيء من ملكوته وربوبيته، ومن كونه منعماً بالنعم كلها الظاهرة والباطنة، والجلائل والدقائق، ومن كونه مالكاً للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق في قوله: ﴿الحمد لله﴾ دليل على أنّ من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله. ﴿إيا﴾ ضمير منفصل للمنصوب واللواحق التي تلحقه من الكاف والهاء والياء في قولك: إياك وإياه وإياي لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب كما لا محل للكاف في أرأيتك وليست بأسماء مضمرة، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون. وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب فشيء شاذ لا يعوّل عليه، وتقديم المفعول لقصد الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد﴾[4] ﴿قل أغير الله أبغي رباً﴾[5]. والمعنى: نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة. وقرئ ﴿إياك﴾ بتخفيف الياء، و﴿أَيَاك﴾ بفتح الهمزة والتشديد، و﴿هياك﴾ بقلب الهمزة هاءً: قال طفيل الغنوي:

فهياك والأمر الذي إن تراحبت موارده ضاقت عليك مصادره

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه: ثوب ذو عبدة، إذا كان في غاية الصفاقة وقوّة النسج، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنّه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع.

فإنْ قلتَ[6]: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلتُ: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾[7]. وقوله تعالى: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه﴾[8] وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات:

= غير موقوف على الجمعية، إذ هذا حكم مفرده إذا عرف، فقول الزمخشري إذاً أنّ فائدة جمع العالمين الاستغراق مردود بثبوت هذه الفائدة، وإن لم يجمع وقول الإمام الحرمين إن الجمع يؤيد الإشعار بالاستغراق لما نتخيله من الرد إلى الوجدان مردود، بأن فائدة الجمع الإشعار باختلاف الأنواع، واختلافها لا ينافي استغراقها بصيغة المفرد المقر من تعريف الجنس، وإن أراد أن الجمع يخيل الإشارة إلى أنواع محله معهودة، فهذا الخيال بعينه من المفرد، فالعالم إذا جمع ليفيد اختلاف الأنواع المندرجة تحته من الجن والإنس والملائكة، وعرف ليفيد عموم الربوبية لله تعالى في كل أنواعه، وتوضيح هذا التقرير أنا لو فرضنا جنساً ليس تحته إلا آحاد متساوية، وهو الذي يسميه غير النحاة: النوع الأسفل، لما جاز جمع هذا بحال، لا معرفاً ولا منكراً، وبهذه الفائدة يردّ قول إمام الحرمين إن التمور جمع من حيث اللفظ، لا معنى تحته لجمع الجمع في نحو نوق، ونياق، وأنيق، وأمّا تعليل الزمخشري جمعه بالواو والنون، بإشعاره لصفة العلم، فيلحق بصفات من يعقل، فصحيح إذا بنى الأمر على أنه لا يتناول إلا أولي العلم، وأمّا على = القول بأنه اسم لكل موجود سوى الله، فيحتاج إلى مزيد نظر في تغليب العاقل، في الجمع على غير العاقل.

(1) سورة الناس، الآية: 2.
(2) سورة الأعراف، الآية: 44.
(3) سورة الأعراف، الآية: 48.
(4) سورة الزمر، الآية: 64.
(5) سورة الأنعام، الآية: 164.
(6) سورة يونس، الآية: 22.
(7) سورة فاطر، الآية: 9.
(8) قال أحمد رحمه الله: يعني أنه ابتدأ بالخطاب، ثم التفت إلى الغيبة، ثم إلى التكلم، وعلى هذا فهما التفاتان لا غير، وإنما أراد الزمخشري، والله أعلم أنه أتى بثلاثة أساليب خطاب، لحاضر، وغائب، ولنفسه، فوهم بقوله ثلاث التفاتات، أو تجعل الأخير ملتفتاً التفاتين عن الثاني، وعن الأوّل، فيكون ثلاثاً، والأمر فيه سهل.

تطاول ليلك بالإثمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن أبي الأسود

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: ﴿إياك﴾ يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به.

فإنْ قلتَ: لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلتُ: ليجمع بين ما يتقرّب به العباد إلى ربهم، وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته.

فإنْ قلتَ[1]: فلم قدمت العبادة على الاستعانة؟ قلتُ: لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها.

فإنْ قلتَ: لم أطلقت الاستعانة؟ قلتُ: ليتناول كل مستعانٍ فيه، والأحسن أن يراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة ويكون قوله: ﴿اهدنا﴾ بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهدنا الصراط المستقيم. وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض. وقرأ ابن حبيش: نستعين، بكسر النون، هدى أصله أن يتعدى باللام أو بإلى كقوله تعالى: ﴿إن هٰذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[2] ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[3]. فعومل معاملة اختار في قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾[4] ومعنى طلب الهداية وهم مهتدون طلب زيادة مهتدون طلب زيادة الهدى بمنح الإلطاف كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾[5] ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[6]. وعن عليّ وأبيّ رضي الله عنهما: ﴿اهدنا﴾ ثبتنا وصيغة الأمر والدعاء واحدة لأنّ كل واحد منهما طلب، وإنما يتفاوتان في الرتبة. وقرأ عبد الله: أرشدنا ﴿السراط﴾ الجادّة من سرط الشيء إذا ابتلعه؛ لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه كما سمي لقماً لأنه يلتقمهم؛ والصراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء كقوله مصيطر في مسيطر، وقد تشم الصاد صوت الزاي وقرئ بهنّ جميعاً، وفصاحهنّ إخلاص الصاد وهي لغة قريش وهي الثابتة في الإمام ويجمع سرطاً نحو: كتاب وكتب، ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل. والمراد به طريق الحق وهو ملة الإسلام. ﴿صراط الذين انعمت عليهم﴾ بدل من الصراط المستقيم، وهو في حكم تكرير العامل. كأنه قيل: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ اهدنا ﴿صراط الذين انعمت عليهم﴾ كما قال ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾.

فإنْ قلتَ: ما فائدة البدل؟ وهلا قيل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم! قلتُ: فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأنّ الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده. كما تقول: هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم؟ فلان. فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك: هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل؟ لأنك ثنيت ذكره مجملاً أوّلاً ومفصلاً ثانياً وأوقعت فلاناً تفسيراً وإيضاحاً للأكرم الأفضل فجعلته علماً في الكرم، والفضل. فكأنك قلت: من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين فعليه بفلان، فهو المشخص المعين لاجتماعهما فيه غير مدافع ولا منازع. و﴿الذين انعمت عليهم﴾ هم المؤمنون، [7]وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام، لأنّ من أنعم الله عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته واشتملت عليه. وعن ابن عباس: هم أصحاب موسى قبل أن يغيروا. وقيل: هم الأنبياء. وقرأ ابن مسعود: صراط من أنعمت عليهم ﴿غير المغضوب عليهم﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم على معنى أنّ المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان وبين السلامة من غضب الله والضلال.

فإنْ قلتَ: كيف صح أن يقع غير صفة للمعرفة وهو لا يتعرّف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلتُ: الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه، كقوله:

---

(1) قال أحمد رحمه الله: معتقد أهل السنة أنّ العبد لا يستوجب على ربه جزاء تعالى الله عن ذلك، والثواب عندنا من الإعانة في الدنيا على العبادة، ومن صنوف النعيم في الآخرة ليس بواجب على الله تعالى، بل فضل منّه وإحسان، في الحديث، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله»، قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» مضافاً إلى دليل العقل المحيل، أن يجب على الله تعالى شيء، لكن قام الدليل عقلاً وشرعاً، على أنه تعالى لا يجب عليه شيء، فقد قام عقلاً وشرعاً، وعلى أن خبره تعالى صدق، ووعده حق، أي: يجب عقلاً أن يقع، فإمّا أن يكون الزمخشري تسامح في إطلاق الاستيجاب، وأراد وجوب صدق الخبر، وإمّا أن يكون أخرجه على= = قواعد البدعية في اعتقاد وجوب الخير على الله تعالى، وإن لم يكن وعد.

(2) سورة الإسراء، الآية: 9

(3) سورة الشورى، الآية: 52.

(4) سورة الأعراف، الآية: 155.

(5) سورة محمد، الآية: 17.

(6) سورة العنكبوت، الآية: 69.

(7) قال أحمد رحمه الله: إنّ إطلاق الإنعام يفيد الشمول، كقوله إنّ إطلاق الاستعانة يتناول كل مستعان فيه، وليس بمسلم، فإنّ الفعل لا عموم لمصدره، والتحقيق أنّ الإطلاق إنما يقتضي إبهاماً وشيوعاً، والنفس إلى المبهم أشوق، منها إلى المقيد لتعلق الأمل مع الإبهام، لكل نعمة تخطر بالبال.

ولقد أمرّ على اللئيم يسبني

ولأنّ المغضوب عليهم والضالين خلاف المنعم عليهم فليس في غير إذن الإبهام الذي يأبى عليه أن يتعرف، وقرئ بالنصب على الحال وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب. ورويت عن ابن كثير: وذو الحال الضمير في عليهم، والعامل أنعمت. وقيل: ﴿المغضوب عليهم﴾ هم اليهود، لقوله عز وجل: ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾. والضالون هم النصارى لقوله تعالى: ﴿قد ضلوا من قبل﴾.

فإنْ قلتَ[1]: ما معنى غضب الله؟ **قلتُ**: هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده. نعوذ بالله من غضبه ونسأله رضاه ورحمته.

فإنْ قلتَ: أي فرق بين عليهم الأولى وعليهم الثانية؟ **قلتُ**: الأولى، محلها النصب على المفعولية، والثانية: محلها الرفع على الفاعلية.

فإنْ قلتَ: لم دخلت لا في ولا الضالين؟ **قلتُ**: لما في غير من معنى النفي كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين. وتقول: أنا زيداً غير ضارب، مع امتناع قولك: أنا زيداً مثل ضارب، لأنه بمنزلة قولك: أنا زيداً لا ضارب. وعن عمر وعلي رضي الله عنهما أنهما قرآ: وغير الضالين. وقرأ أيوب السختياني: ولا الضألين، بالهمز. كما قرأ عمرو بن عبيد: ولا جأن وهذه لغة من جدّ في الهرب من التقاء الساكنين، ومنها ما حكاه أبو زيد من قولهم: شأبة ودأبة. آمين[2]: صوت سمي به الفعل الذي هو استجب، كما أنّ رويد وحيهل وهلم أصوات سميت بها الأفعال التي هي أمهل وأسرع وأقبل، وعن ابن عباس: سألت رسول الله ﷺ عن معنى: آمين، فقال: «افعل»[3]، وفيه لغتان مدّ ألفه وقصرها. قال: ويرحم الله عبداً قال آمينا[4]. وقال:

أمين فزاد الله ما بيننا بعداً

وعن النبي ﷺ: «لقنني جبريل عليه السلام آمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب»[5]، وقال: إنه كالختم على الكتاب، وليس من القرآن بدليل أنه لم يثبت في المصاحف. وعن الحسن: لا يقولها الإمام لأنّه الداعي. وعن أبي حنيفة رحمه الله مثله، والمشهور عنه وعن أصحابه أنه يخفيها؛ وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأنس عن رسول الله ﷺ. وعند الشافعي يجهر بها. وعن وائل بن حجر أنّ النبيّ ﷺ كان إذا قرأ ولا الضالين قال: آمين[6]، ورفع بها صوته. وعن رسول الله ﷺ أنّه قال لأبيّ بن كعب: «ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «فاتحة الكتاب، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[7]. وعن حذيفة بن اليمان أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين، فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة»[8].

سورة البقرة

مدنية وهي مائتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾.

اعلم أنّ الألفاظ التي يتهجى بها أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، فقولك: ضاد، اسم سمي به ضه من ضرب إذا تهجيته، وكذلك رابا اسمان، لقولك: ره به، وقد روعيت في هذه التسمية لطيفة وهي أن المسميات لما كانت ألفاظاً كأسامتها، وهي حروف وحدان، والأسامي عدد حروفها مرتقٍ إلى الثلاثة، اتجه لهم طريق إلى أن يدلوا في التسمية على المسمى، فلم يغفلوها، وجعلوا المسمى صدر كل اسم منها كما ترى. إلا الألف فإنهم استعاروا الهمزة مكان مسماه لأنّه لا يكون إلا ساكناً، ومما يضاهيها في إيداع اللفظ دلالة على المعنى التهليل والحولقة والحيعلة والبسملة. وحكمها ما لم تلها العوامل أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفة كأسماء الأعداد، فيقال: ألف، لام، ميم، كما يقال: واحد، اثنان، ثلاثة. فإذا وليتها العوامل أدركها الإعراب، تقول: هذه ألف وكتبت ألفاً ونظرت إلى ألف، وهكذا كل اسم عمدت إلى تأدية ذاته فحسب قبل أن يحدث فيه بدخول العوامل شيء من

---

(1) قال أحمد رحمه الله: أدرج في هذا ما يقتضي عنده وجوب وعيد العصاة، وليس مذهب أهل السنة بل الأمر عندهم في المؤمن العاصي موكول إلى المشيئة، فمنهم من أراد الله تعالى عقوبته، والانتقام منه، فيقع ذلك لا محالة، ومنهم من أراد والله الموفق.

(2) أخرجه الثعالبي بسند واهٍ.

(3) (آمين مثل الطابع على الصحيفة). أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: التأمين وراء الإمام، الحديث رقم: (938).

(4) قال ابن حجر: لم أجده عن واحد منهما، وقال الزيعلي: غريب جداً.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: التأمين وراء الإمام، الحديث رقم: (932).

(6) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، الحديث رقم: (2875)، وأخرجه النسائي في كتاب الافتتاح، باب: تأويل قول الله عز وجل: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾، الحديث رقم: (913)، وأخرجه الحاكم في المستدرك: 1/557، وأخرجه البخاري عن ابن سعيد بن المعلى في كتاب التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب، الحديث رقم: (4474)، وأخرجه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب: ما جاء في أم القرآن، الحديث رقم: (37).

(7) الشاهد من مسند الدارمي.

(8) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب: سورة المؤمنين.

تأثيراتها فحقك أن تلفظ به موقوفاً. ألا ترى أنّك إذا أردت أن تلقي على الحاسب أجناساً مختلفةً ليرفع حسبانها كيف تصنع، وكيف تلقيها إغفالاً من سمة الإعراب، فتقول: دار، غلام، جارية، ثوب، بساط، ولو أعربت ركبت شططاً.

فإنْ قلتَ: لم قضيت لهذه الألفاظ بالإسمية، وهلا زعمت أنها حروف كما وقع في عبارات المتقدّمين؟ **قلتُ:** استوضحت بالبرهان النير أنّها أسماء غير حروف، فعلمت أنّ قولهم خليق بأن يصرف إلى التسامح، وقد وجدناهم متسامحين في تسمية كثير من الأسماء التي لا يقدح إشكال في أسميتها كالظروف وغيرها بالحروف، مستعملين الحرف في معنى الكلمة، وذلك أنّ قولك: ألف دلالته على أوسط حروف. قال: وقام دلالة فرس على الحيوان المخصوص، لا فضل فيما يرجع إلى التسمية بين الدلالتين. ألا ترى أنّ الحرف ما دلّ على معنى في غيره، وهذا كما ترى، دال على معنى في نفسه، ولأنّها متصرف فيها بالإمالة. كقولك: باتا وبالتفخيم كقولك: ياها، وبالتعريف، والتنكير، والجمع، والتصغير، والوصف، والإسناد، والإضافة، وجميع ما للأسماء المنصرفة. ثم إنّي عثرت من جانب الخليل على نص في ذلك قال سيبويه قال الخليل يوماً وسأل أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف[1] التي في لك، والباء التي في ضرب؟ فقيل نقول: بالكاف، فقال: إنما جئتم بالاسم، ولم تلفظوا بالحرف، وقال: أقول: كه به. وذكر أبو علي في كتاب «الحجة في يسّ». وإمالة يا أنهم قالوا: يا زيد في النداء، فأمالوا. وإن كان حرفاً قال: فإذا كانوا قد أمالوا ما لا يمال من الحروف من أجل الياء فلأن يميلوا الاسم الذي هو يسّ أجدر. ألا ترى أنّ هذه الحروف أسماء لما يلفظ بها.

فإنْ قلتَ[2]: من أي قبيل هي من الأسماء، أمعربة؟ أم مبنية؟ **قلتُ:** بل هي أسماء معربة، وإنما سكنت سكون زيد وعمرو، وغيرهما من الأسماء؛ حيث لا يمسها الإعراب لفقد مقتضيه وموجبه. والدليل على أنّ سكونها وقف وليس ببناء أنها لو بنيت، لحذى بها حذو كيف، وأين، وهؤلاء، ولم يقل: ص، ق، ن، مجموعاً فيها بين الساكنين.

فإنْ قلتَ: فلم لفظ المتهجى بما آخره ألف منها مقصوراً، فلما أعرب مدّ فقال: هذه باء وياء وهاء. وذلك يخيل أن وزانها وزان قولك لا مقصورة، فإذا جعلتها اسماً مددت، فقلت: كتبت لاء. **قلتُ:** هذا التخييل يضمحل بما لخصته من الدليل؛ والسبب في أن قصرت متهجاة، ومدّت حين مسها الإعراب أنّ حال التهجي خليقة بالأخف الأوجز، واستعمالها فيه أكثر.

فإنْ قلتَ: قد تبين أنها أسماء الحروف المعجم، وأنها من قبيل المعربة، وأن سكون أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف، فما وجه وقوعها على هذه الصورة فواتح للسور؟ **قلتُ:** فيه أوجه:

أحدها: وعليه إطباق الأكثر أنها أسماء السور، وقد ترجم صاحب الكتاب الباب الذي كسره على ذكرها في حد ما لا ينصرف بباب أسماء السور، وهي في ذلك على ضربين: أحدهما ما لا يتأتى فيه إعراب نحو: كهيعص والمر.

والثاني: ما يتأتى فيه الإعراب، وهو إما أن يكون اسماً فرداً كص، وق، ون، أو أسماء عدّة مجموعها على زنة مفرد كحم، وطس، ويس، فإنّها موازنة لقابيل وهابيل، وكذلك طسم، يتأتى فيها أن تفتح نونها وتصير ميم مضمومة إلى طس فيجعلا اسماً واحداً كدار ابجرد. فالنوع الأوّل محكي ليس إلا، وأما النوع الثاني فسائغ فيه الأمران: الإعراب والحكاية: قال قاتل محمد بن طلحة السجاد، أو هو شريح بن أوفى العنسي:

يذكرني حاميم والرمح شاجر ... فهلا تلا حاميم قبل التقدم

فأعرب حاميم ومنعها الصرف، وهكذا كلما أعرب من أخواتها لاجتماع سببي منع الصرف فيها، وهما العلمية، والتأنيث. والحكاية أن تجيء بالقول بعد نقله على استبقاء صورته الأولى، كقولك: دعني من تمرتان، وبدأت بالحمد لله، وقرأت سورة أنزلناها. قال:

وجدنا في كتاب بني تميم ... أحق الخيل بالركض المعار

وقال ذو الرمة:

سمعت الناس ينتجعون غيثاً ... فقلت لصيدح انتجعي بلالاً

وقال آخر:

تنادوا بالرحيل غداً ... وفي ترحالهم نفسي

وروي منصوباً ومجروراً، ويقول أهل الحجاز في استعلام من يقول: رأيت زيداً من زيداً. وقال سيبويه: سمعت من العرب لا من أين يا فتى.

فإنْ قلتَ: فما وجه قراءة من قرأ ص، وق، ون مفتوحات؟ **قلتُ:** الأوجه أن يقال ذاك نصب وليس بفتح،

---

(1) قال أحمد رحمه الله: وسألهم أيضاً كيف ينطقون بالقاف من يقبل، فقالوا: قاف كقولهم الأول فأجابهم كجوابه الأول، وقال: أما أنا فأقول قه، فالحق رضي الله عنه أوّلاً هاء السكت؛ لأن الحرف المنطوق به متحرك، وثانياً همزة الوصل؛ لأنه ساكن.

(2) قال أحمد رحمه الله تعالى: كلامه على الوجه الأول يوجب كونها معربة، وعلى الوجه الثاني، يحتمل أن يكون أراد أن الفتحة لالتقاء الساكنين نشأت عن سكون الحكاية، فإنها إنما تحكي ساكنة مجردة من سمة الإعراب، فلا تكون الحركة إذاً إعراباً؛ إذ لا مقتضى له مع الحكاية، ولا بناء إذ هي معرفة عنده على هذا= التقدير، ويحتمل أن يكون أراد أنها مبنية، فتكون الحركة مثلها في أين، وكيف حركة بناء، والأوّل هو الظاهر من مراده، إذ حتم قبل أنها معربة على أن سيبويه نص في كتابه على ما أورده بلفظه، قال: وأما ص، فلا يحتاج إلى أن يجعل اسماً أعجمياً؛ لأن وزنه في كلامهم ولكنه يجوز أن يكون اسماً للسورة، فلا يصرف، ويجوز أن يكون أيضاً يس وص اسمين غير متمكنين، فيلزمان الفتح، كما ألزمت الأسماء غير المتمكنة للحركات نحو كيف، وأين، وحيث. وأمس ا هـ كلام سيبويه وفيه ردّ على الزمخشري رحمه الله في حتمه، أن تكون معربة، وأن فتحها نصب أو لالتقاء=

وإنما لم يصحبه التنوين لامتناع الصرف على ما ذكرت، وانتصابها بفعل مضمر، نحو: اذكر. وقد أجاز سيبويه مثل ذلك في حم، وطس، ويس، ولو قرئ به. وحكى أبو سعيد السيرافي أنّ بعضهم قرأ يس، ويجوز أن يقال: حركت لالتقاء الساكنين كما قرأ من قرأ ولا الضالين.

فإنْ قلتَ[1]: هلا زعمت أنّها مقسم بها، وأنّها نصبت نصب قولهم: نعم الله لأفعلن، وآي الله لأفعلن، على حذف حرف الجر، وإعمال فعل القسم. وقال ذو الرمة:

ألا رب مـن قـلـبـي لـه الله نـاصـح

وقال آخر:

فـــذاك أمـــانـــة الله الـــثـــريـــد.

قلتُ: إنّ القرآن والقلم بعد هذه الفواتح محلوف بهما، فلو زعمت ذلك لجمعت بين قسمين على قسم واحد، وقد استكرهوا ذلك. قال الخليل في قوله عزّ وجلّ: ﴿والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى﴾[2] الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك: مررت بزيد وعمرو، والأولى بمنزلة الباء والتاء. قال سيبويه: قلت للخليل فلم لا تكون الأخريان بمنزلة الأولى؟ فقال: إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء ولو كان انقضى قسمه بالأوّل على شيء لجاز أن يستعمل كلاماً آخر فيكون كقولك: بالله لأفعلنّ، بالله لأخرجنّ اليوم، ولا يقوى أن تقول: وحقك، وحق زيد لأفعلنّ، والواو الأخيرة واو قسم لا يجوز إلا مستكرهاً. قال: وتقول وحياتي ثم حياتك لأفعلنّ، فثم ههنا بمنزلة الواو، هذا ولا سبيل فيما نحن بصدده إلى أن تجعل الواو للعطف لمخالفة الثاني الأوّل في الإعراب.

فإنْ قلتَ: فقدرها مجرورة بإضمار الباء القسمية لا بحذفها، فقد جاء عنهم: الله لأفعلنّ، مجروراً ونظيره قولهم: لاه أبوك، غير أنها فتحت في موضع الجر لكونها غير مصروفة، واجعل الواو للعطف حتى يستتب لك المصير إلى نحو ما أشرت إليه. **قلتُ**: هذا لا يبعد عن الصواب، ويعضده ما رووا عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أقسم الله بهذه الحروف[3].

فإنْ قلتَ[4]: فما وجه قراءة بعضهم ص وق بالكسر. **قلتُ**: وجهها ما ذكرت من التحريك لالتقاء الساكنين، والذي يبسط من عذر المحرّك أنّ الوقف لما استمرّ بهذه الأسامي شاكلت، لذلك ما اجتمع في آخره ساكنان من المبنيات فعوملت تارةً معاملة الآن، وأخرى معاملة هؤلاء.

فإنْ قلتَ[5]: هل تسوّغ لي في المحكية مثل ما سوّغت لي في المعربة من إرادة معنى القسم؟ **قلتُ**: لا عليك في ذلك، وإن تقدّر حرف القسم مضمراً في نحو قوله عزّ وجل: ﴿حمٓ والكتاب المبين﴾[6] كأنه قيل أقسم بهذه السورة، وبالكتاب المبين، ﴿أنا جعلناه﴾. وأمّا قوله ﷺ: «حم لا يبصرون»[7]، فيصلح أن يقضى له بالجرّ والنصب جميعاً على حذف الجار وإضماره.

فإنْ قلتَ: فما معنى تسمية السور بهذه الألفاظ خاصة؟ **قلتُ**: كأن المعنى في ذلك الإشعار بأنّ الفرقان ليس إلا كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ كما قال عزّ من قائل: ﴿قرآناً عربياً﴾[8].

فإنْ قلتَ[9]: فما بالها مكتوبة في المصحف على صور

= الساكنين العارض للحكاية على ما ظهر من مقوله آنفاً، وسيأتي له أيضاً ما يدل على أنه لا يجوز بناؤها البتة. أقول بعد تسليم أنّ الأوّل هو الظاهر من مراده، فما ذكره حكاية عن سيبويه غير وارد عليه، لأنه اختار أحد الوجهين.

(1) قال أحمد رحمه الله: وله البقاء على أنها منصوبة على القسم، وجعل الواو عاطفة على مذهب الخليل، وسيبويه في أمثاله، ويسلك حينئذ في العطف سبيل:

ولا سائق شيئاً إذا كان جائياً

فإنّ المقسم به، وإن كان منصوباً؛ لأنه محل يعهد، وفيه الخبر، فعطف بالجر رعاية لذلك العهد وههنا أولى بالصحة منه في بيت زهير المذكور، لأنّ انتصاب المقسم به، إنما نشأ عن حذف حرف الجر الذي هو أصل في القسم وانتصاب خبر ليس أصل في نفسه ليس ناشئاً عن حذف، غايته أن حرف الجر قد يصحب خبرها دخيلاً، فمراعاة الأصل أجدر من مراعاة العارض، فقد تحرر في فتح ص، وجهان أحدهما: أن يكون إعراباً، وهو إما جر على الوجه الذي أبداه الزمخشري، أو نصب على الوجه الذي نقلته عن سيبويه، ثانيهما: أنه لا إعراب ولا بناء، وهو عروضه على الوقف في الحكاية.

(2) سورة الليل، الآيات: 1 ـ 3.

(3) أخرجه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات.

(4) قال أحمد رحمه الله: وهذا تحقق لك مخالفته لما نقلته من نص سيبويه من أنها غير متمكنة، وبذلك على أنّ فتحتها التي قال قبل: إنها لالتقاء الساكنين فتحة بناء أنه إنما أراد السكون العارض في = الحكاية لا سكون البناء، وهو مخالف لنص سيبويه، كما نبهت عليه أيضاً.

(5) قال أحمد رحمه الله: وقد منع الزمخشري أن يكون ص منصوباً على القسم، لما تقدّم وأجاز أن يكون حم في الحديث المذكور، منصوبة على القسم بخلاف حم في القرآن، فتلك يتعين أن يكون نصبها على إضمار الفعل، أو مجرورة على القسم، وأمّا النصب مع القسم، فلا يجيزه إلا في الحديث، والفرق عنده، أنّ المانع من إجازته في القرآن مجيء المعطوف بعده مخالفاً له في الإعراب، إذ المعطوفات كلها مجرورة، ويتعذر عنده القسم في الثواني، خوفاً من جمع قسمين على مقسم واحد، ولا كذلك الحديث، فإنه لم يأت بعده ما يأباه، فلذلك خصّ جواز هذا الوجه بالحديث، وأمّا على الوجه الذي أوضحته، فيعم جواز ذلك القرآن، والحديث جميعاً، (قال محمود رحمه الله: فإن قلت فما بالها مكتوبة في المصحف على صورة الحروف الخ).

(6) سورة الدخان، الآية: 1، وسورة الزخرف، الآية: 1.

(7) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب: في الرجل ينادي بالشعار، الحديث رقم: (2596)، واللفظ له. وأخرجه الترمذي في كتاب الجهاد، باب: ما جاء في الشعار، الحديث رقم: (1682). والنسائي في اليوم والليلة، باب: كيف الشعار، الحديث رقم: (620).

(8) سورة يوسف، الآية: 2.

(9) قال أحمد رحمه الله: على هذا المعنى من خروج خط المصحف عن قياس الخط اعتمد القاضي رضي الله عنه، في كتاب الانتصار، في الجواب عما نقل عن عثمان رضي الله عنه، أنّ عكرمة لما =

الحروف أنفسها لا على صور أساميها؟ **قلتُ:** لأنّ الكلم لما كانت مركبة من ذوات الحروف، واستمرت العادة متى تهجيت، ومتى قيل للكاتب: اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء، وتقع في الكتابة الحروف نفسها؛ عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح، وأيضاً فإنّ شهرة أمرها وإقامة السن الأسود والأحمر لها، وأنّ اللافظ بها غير متهجاة لا يحلى بطائل منها، وأنّ بعضها مفرد لا يخطر ببال غير ما هو عليه من مورده، أمنت وقوع اللبس فيها، وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي بني عليها علم الخط والهجاء، ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان لاستقامة اللفظ، وبقاء الحفظ، وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف. قال عبد الله بن درستويه في كتابه المترجم بكتاب «الكتاب المتمم في الخط والهجاء»: خطان لا يقاسان خط المصحف لأنّه سنّة، وخط العروض لأنّه يثبت فيه ما أثبته اللفظ، ويسقط عنه ما أسقطه.[1] الوجه الثاني: أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدّى بالقرآن، وبغرابة نظمه، وكالتحريك النظر في أنّ هذا المتلو عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار، وهم الحرّاص على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتهالكون على الافتنان في القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزّت بلاغة كل ناطق وشقت غبار كلّ سابق ولم يتجاوز الحدّ الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء إلا لأنّه ليس بكلام البشر، وإنّه كلام خالق القوى والقدر. وهذا القول من القوّة والخلاقة بالقبول بمنزل ولناصره على الأوّل أن يقول: إنّ القرآن إنّما نزّل بلسان العرب مصبوباً في أساليبهم واستعمالاتهم، والعرب لم تتجاوز ما سموا به مجموع اسمين، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء، وأربعة، وخمسة والقول بأنّها أسماء السور حقيقة يخرج إلى ما ليس في لغة العرب، ويؤدي أيضاً إلى صيرورة الاسم والمسمى واحداً. فإن اعترضت عليه بأنّه قول مقول على وجه الدهر وأنه لا سبيل إلى ردّه، أجابك بأنّ له محملاً سوى ما يذهب إليه، وأنه نظير قول الناس: فلان يروي قفا نبك، وعفت الديار، ويقول الرجل لصاحبه: ما قرأت؟ فيقول: الحمد لله، وبراءة من الله ورسوله، ويوصيكم الله في أولادكم، والله نور السمٰوات والأرض، وليست هذه الجمل بأسامي هذه القصائد وهذه السور والآي، وإنّما تعني رواية القصيدة التي ذاك استهلالها، وتلاوة السورة أو الآية التي تلك فاتحتها. فلما جرى الكلام على أسلوب من يقصد التسمية واستفيد منها ما يستفاد من التسمية قالوا: ذلك على سبيل المجاز دون الحقيقة، وللمجيب عن الاعتراضين على الوجه الأول أن يقول: التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستنكرة لعمري وخروج عن كلام العرب، ولكن إذا جعلت اسماً واحداً على طريقة حضرموت، فإمّا غير مركبة منثورة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها لأنّها من باب التسمية بما حقه أن يحكى حكاية كما سموا بتأبط شراً، وبرق نحره، وشاب قرناها، وكما سمي بزيد منطلق، أو ببيت شعر، وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم دلالة قاطعة على صحة ذلك. وأما تسمية السورة كلها بفاتحتها فليست بتصيير الاسم والمسمى واحداً لأنّها تسمية مؤلف بمفرد، والمؤلف غير المفرد. الا ترى أنهم جعلوا اسم الحرف مؤلفاً منه ومن حرفين مضمومين إليه كقولهم: صاد. فلم يكن من جعل الاسم والمسمى واحداً حيث كان الاسم مؤلفاً والمسمى مفرداً، الوجه الثالث: أن ترد السور مصدرة بذلك ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بوجه من الإعراب وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أنّ النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة. كما قال عزّ وجلّ: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾[2] فكان حكم

---

(1) قال أحمد رحمه الله: إنما أردت هذا الفصل في كلام الزمخشري؛ = عرض عليه المصحف، وجد فيه حروفاً من اللحن، فقال لا يغيروها، فإنّ العرب ستقيمها بالسنتها، فلو كان الكاتب من ثقيف، والملل من هذيل لم يوجد فيه هذه الحروف قال القاضي: وإنما قال عثمان رضي الله عنه ذلك، لأنّ ثقيفاً كانت ابصر بالهجاء، وهذيلاً كانت تظهر الهمز والهمزة إذا ظهرت في لفظ الملل كتبها الكاتب على صورتها، فما أراد عثمان رضي الله عنه، إلا أنّ تلك الحروف كتبت على خلاف قياس الخط، مثل كتابة الصلوة والزكوة بالواو لا بالألف، قال القاضي: وإنما لخذ الله على الحفظة أن لا يغيروا التلاوة، وأمّا الخط، فلم يأخذ عليهم رسماً بعينه، حتى لا يسوغ الخروج من قياس رسم خاص من رسوم الخط، ا هـ كلامه.

= لأنه غاية الصناعة، ونهاية البراعة لولا الإخلال بلطيفة لو سلكها لتمت فصاحته، وهي أنه بنى أوّل الكلام على النفي، وطوّل فيه حتى انتهى إلى الإثبات، فكان أوّل الكلام رهيناً لآخره يفهم على الضد، حتى ينقضي على البعد، فهو كما انتقد على أبي الطيب قوله في الخيل:

ولا ركبت بها إلا إلى ظفر ... ولا حصلت بها إلا على أمل

فإنه صدر الصدور والعجز بما صورته الدعاء على المخاطب في العرض، مستدركاً بعد، وإنما يؤاخذ بهذا مثل أبي الطيب، والزمخشري؛ لأن لهما في مراتب الفصاحة علواً يفطن السامع، لمثل هذا النقد.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 48.

النطق بذلك مع اشتهار أنّه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأقاصيص المذكورة في القرآن التي لم تكن قريش ومن دان بدينها في شيء من الإحاطة بها في أنّ ذلك حاصل له من جهة الوحي وشاهد بصحة نبوته، وبمنزلة أن يتكلم بالرطانة من غير أن يسمعها من أحد. واعلم[1] أنك إذا تأملت ما أورده الله عزّ سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء وهي: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف الحروف بيان ذلك أنّ فيها من المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن المجهورة نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها: الألف والكاف والطاء القاف، ومن الرخوة نصفها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون، ومن المطبقة نصفها: الصاد والطاء. ومن المنفتحة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون، ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء، ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون. ومن حروف القلقلة نصفها: القاف والطاء، ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته. وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عزّ اسمه عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارةً إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم. [2]ومما يدل على أنّه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم أنّ الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر.

فإنْ قلتَ: فهلا عدّدت بأجمعها في أوّل القرآن، ومالها جاءت مفرقة على السور؟ **قلتُ:** لأنّ إعادة التنبيه على أن المتحدّى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض وأقرّ له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرةً، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره.

فإنْ قلتَ: فهلاً جاءت على وتيرة واحدة، ولم اختلفت أعداد حروفها؟ فوردت ص وق ون على حرف وطه وطس ويس وحم على حرفين. والٓمٓ، والٓر، وطسم على ثلاثة أحرف، والمص والمر على أربعة أحرف، وكهيعص وحم عسق على خمسة أحرف؟ **قلتُ:** هذا على إعادة افتنانهم في أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى، ومذاهب متنوعة، وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك.

---

(1) قال أحمد رحمه الله: بقي عليه من الأصناف الحروف الشديدة، وقد ذكر تعالى نصفها الهمزة المعبر عنها بالألف، والكاف، والقاف، والطاء، والمطبقة، وقد ذكر تعالى نصفها الصاد، والطاء. والمنفتحة: وقد ذكر نصفها الألف، والحاء، والراء، والسين، والعين، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والياء. وحروف الصفير لما كانت ثلاثاً: السين، والصاد، والزاي لم يكن لها نصف، فذكر منها اثنين السين، والصاد، وتلك العادة المأنوسة فيما يقصد إلى تنصيفه، فلا يمكن، فيتم الكسر ألا ترى طلاق العبد، وعدّة الأمة، ونحو ذلك، والحروف اللينة، وهي: ثلاثة الألف، والياء، والواو، وذكر منها اثنين الألف، والياء كحروف الصفير، والمكرر، وهو الراء، والهاوي، وهو الألف، والمنحرف، وهو اللام، وقد ذكرها، ولم يبق من أصناف الحروف خارجاً عن هذا النمط، إلا ما بين الشديد، والرخو، فإنه لم يقتصر منها على النصف؛ لأن ما ذكر منها زائداً على النصف اندرج في غيرها من الأصناف، فلم يمكن الاقتصار لها كالشديدة، والرخوة فلم يكن بها عناية، وأما حروف الذلاقة، والمصمتة، فالصحيح أن لا يعدا صنفين، ولمن عدهما صنفين متميزين خبط طويل في جهة تميزهما، حتى أبعد الزمخشري في مفصله في تميزهما، فقال حروف الذلاقة، التي يعتمد الناطق فيها على ذلق اللسان، أي: طرفه، وهو تميز مردود جداً؛ لأنّ من جملتها الميم، والباء، والفاء، ولا مدخل لطرف اللسان فيها، ثم لا يتم على هذا التمييز مطابقتها للمصمتة، إذ المصمتة مفسرة عنده، بأنها حروف تكون عن تركيب كلمة رباعية، فما زاد = منها حتى يدرج معها أحد حروف الذلاقة، فكيف المقابلة بين الخروج من طرف اللسان، وبين الصمت، فالحق أنهما صنفان ضعيف تمييزهما، فلم يعتبر جريانهما على النمط المستمر في غيرهما من الأصناف البين امتيازها، وعد الزمخشري في هذا النمط حروف القلقلة، وذكر أنّ المذكور منها النصف القاف، والطاء، ووهم، فإنها خمسة أحرف لم يذكر منها في الفواتح، سوى الحرفين المذكورين، وعلى الجملة، فلا يقدم الناظر تخريج ما لم يجر على هذا النمط من الأصناف على وجه، يمكن الاستئناس إليه.

(2) قال أحمد رحمه الله: الألف المذكورة في الفواتح يحتمل أن يكون المراد بها الهمزة اللينة، وقد اضطرب فيها كلام الزمخشري في هذا الفصل، فعندما عدّ الحروف أربعة عشر حرفاً في الفواتح، قال إنها نصف حروف العربية، فهذا يدل على أنّ جملتها ثمانية وعشرون حرفاً، فلا بدّ من سقوط أحد الحرفين من هذا العدد، إمّا اللينة أو الهمزة، وإلا كانت تسعة وعشرين، والظاهر أنّ الساقط الهمزة، وعندما قال في تسع وعشرين على عدد الحروف اقتضى هذا دخول الألفين في العدد، والظاهر من كلامه أنّ الألف عنده هي اللينة، فلذلك على تسميتها بالألف بأن النطق لما تعذر بها أوّلاً استقرت الهمزة مكانها وفاء، بمراعاة تلك اللطيفة التي قدّمها من جعل مسمى الحرف أوّل اسمه، وأما عند النحاة، فالألف المعدودة في حروف المعجم مفردة، هي: الهمزة وأما اللينة، فهي المعدودة مع اللام، حيث يقولون لام ألف، ويكتبونها على صورة لا. =

فإنْ قلتَ: فما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التي اختصت بها؟ **قلتُ:** إذا كان الغرض هو التنبيه والمبادي كلها في تأدية هذا الغرض سواء لا مفاضلة كان تطلب وجه الاختصاص ساقطاً، كما إذا سمى الرجل بعض أولاده زيداً والآخر عمراً لم يقل له لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمرو؟ لأنّ الغرض هو التمييز وهو حاصل أية سلك، ولذلك لا يقال: لم سمي هذا الجنس بالرجل، وذاك بالفرس، ولم قيل للاعتماد الضرب، وللانتصاب القيام، ولنقيضه القعود؟

فإنْ قلتَ: ما بالهم عدّوا بعض هذه الفواتح آية دون بعض؟ **قلتُ:** هذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، امّا الم فآية حيث وقعت من السور المفتتحة بها وهي ست، وكذلك المص آية، والمر لم تعدّ آية، والر ليست بآية في سورها الخمس، وطسم آية في سورتيها، وطه، ويسٓ آيتان، وطس ليست بآية، وحم آية في سورها كلها. وحمعسق آيتان، وكهيعص آية واحدة، وص وق ون ثلاثتها لم تعدّ آية. هذا مذهب الكوفيين، ومن عداهم لم يعدوا شيئاً منها آية.

فإنْ قلتَ: فكيف عدّ ما هو في حكم كلمة واحدة آية؟ **قلتُ:** كما عدّ ﴿الرحمٰن﴾[1] وحده و ﴿مدهامتان﴾[2] وحدها آيتين على طريق التوقيف.

فإنْ قلتَ: ما حكمها في باب الوقف؟ **قلتُ:** يوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور ونعق بها كما ينعق بالأصوات، أو جعلت وحدها إخبار ابتداء محذوف كقوله عزّ قائلاً: ﴿الٓمٓ * الله﴾ أي هذه ﴿الٓمٓ﴾[3] ثم ابتدأ فقال: ﴿الله لا إله إلاّ هو﴾[4].

فإنْ قلتَ: هل لهذه الفواتح محل من الإعراب؟ **قلتُ:** نعم لها محل فيمن جعلها أسماءً للسور لأنّها عند كسائر الأسماء الأعلام.

فإنْ قلتَ[5]**:** ما محلها؟ **قلتُ:** يحتمل الأوجه الثلاثة: أما الرفع فعلى الابتداء، وأما النصب والجرّ فلما مر من صحة القسم بها وكونه بمنزلة الله والله على اللغتين، ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصوّر أن يكون لها محل في مذهبه، كما لا محل للجمل المبتدأة وللمفردات المعدّدة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

فإنْ قلتَ[6]**:** لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد؟ **قلتُ:** وقعت الإشارة إلى ﴿الٓمٓ﴾ بعدما سبق التكلم به وتقضى، والمتقضى في حكم المتباعد، وهذا في كل كلام، يحدّث الرجل بحديث ثم يقول: وذلك ما لا شك فيه، ويحسب الحاسب ثم يقول: فذلك كذا وكذا. وقال الله تعالى: ﴿لا فارض ولا بكر عوان بين ذٰلك﴾[7] وقال: ﴿ذٰلكما مما علمني ربّي﴾[8] ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه، وقع في حد البعد، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً: احتفظ بذلك، وقيل: معناه ذلك الكتاب الذي وعدوا به.

فإنْ قلتَ[9]**:** لم ذكر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة؟ **قلتُ:** لا أخلو من أن أجعل الكتاب خبره أو صفته، فإن جعلته خبره كان ذلك في معناه ومسماه مسماه فجاز إجراء حكمه عليه في التنكير كما أجرى عليه في التانيث في قولهم: من كانت أمّك. وإن جعلته صفته فإنّما أشير به إلى الكتاب صريحاً لأنّ اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفةً له تقول هند: ذلك الإنسان أو ذلك الشخص فعل كذا. وقال النبياني:

نبئت نعمي على الهجران عاتبة سقياً ورعياً لذاك العاتب[10] الرازي[11]

فإنْ قلتَ: أخبرني عن تأليف ﴿ذٰلك الكتاب﴾[12] مع ﴿الٓمٓ﴾ **قلتُ:** إن جعلت ﴿الٓمٓ﴾ اسماً للسورة ففي التأليف وجوه أن يكون ﴿الٓمٓ﴾ مبتدأ، وذلك مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر المبتدأ الأوّل، ومعناه انّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنّه الذي يستأهل أن يسمى كتاباً كما تقول: هو الرجل أي الكامل في الرجولية الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وكما قال:

هم القوم كل القوم يا أم خالد

---

(1) سورة الرحمٰن، الآية: 1.
(2) سورة الرحمٰن، الآية: 64.
(3) سورة آل عمران، الآية: 1.
(4) سورة آل عمران، الآية: 2.
(5) قال أحمد رحمه الله: وإنما جاز النصب مع القسم، فيما لا يعقبه معطوف مجرور، فأما ما يعقبه معطوف مجرور مثل ص، وق، ون، فإنه لا يجيز فيه النصب مع القسم البتة، ويحمله على إضمار فعل، أو على أن الفتح في موضع الجر، وأمّا على وجه بدئه، فيما تقدّم، فيجوز النصب مع القسم في جميعها، فجدّد به عهداً، وعلى النصب بإضمار فعل أعربها سيبويه في كتابه. قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾.
(6) قال أحمد رحمه الله: ولأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة، وبعد مرتبة المشار إليه من مرتبة كل كتاب سواه، ما يقطعون بثم للإشعار بتراخي المراتب، وقد يكون المعطوف سابقاً في الوجود على المعطوف عليه، وسيأتي أمثاله.
(7) سورة البقرة، الآية: 68.
(8) سورة يوسف، الآية: 37.
(9) قال أحمد رحمه الله: ولو مثل ذلك بقول القائل حصان كانت دابتك، لكان أقوم، وأسلم من الفرق بما في لفظ من الإبهام الصالح للمذكر والمؤنث ومثل هذا قوله يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فيمن وصل الكلام، فجعل هم العدو جملة في موضع المفعول الثاني للحسبان، وعدل عن أن يقول هي العدو، نظراً إلى به المفعول الثاني الذي هو في المعنى خبر عن الصيحة، فذكر وجمع لما كان المبتدأ هو الخبر في المعنى، وقد وجه الشيخ أبو عمرو قول الزمخشري، وتسمى الجملة بالتاء، والياء عقيب قوله، والكلام هو المركب من كلمتين بهذا التوجيه. قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾.
(10) العاتب: ذو عنب.
(11) الرازي: الراوي الذي يروي العنب.
(12) سورة البقرة، الآية: 2.

وأن يكون الكتاب صفةً ومعناه هو ذلك الكتاب الموعود، وأن يكون الم خبر مبتدأ محذوف أي هذه الم، ويكون ذلك خبراً ثانياً أو بدلاً على أنّ الكتاب صفة، وأن يكون هذه الم جملة وذلك الكتاب جملة أخرى، وإن جعلت الم بمنزلة الصوت كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل، أو الكتاب صفة والخبر ما بعده، أو قدّر مبتدأ محذوف أي هو يعني المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب. وقرأ عبد الله: الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه، وتأليف هذا ظاهر، والريب مصدر رابني إذا حصل فيك الريبة، وحقيقة الريبة قلق النفس واضطرابها. ومنه ما روى الحسن بن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الشك ريبة وإنّ الصدق طمأنينة»[1]. أي: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر، وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن. ومنه ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه، ومنه أنه مر بظبي حاقف فقال: «لا يربه أحد بشيء».

فإنْ قلتَ: كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق وكم من مرتاب فيه؟ قلتُ: ما نفى أنّ أحداً لا يرتاب فيه، وإنّما المنفي كونه متعلقاً للمريب، ومظنةً له لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾[2]. فما أبعد وجود الريب منهم، وإنما عرفهم الطريق إلى مزيل الريب، وهو أن يحزروا أنفسهم ويروزوا قواهم في البلاغة، هل تتم للمعارضة أم تتضاءل دونها؟ فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة.

فإنْ قلتَ: فهلا قدّم الظرف على الريب كما قدّم على الغول في قوله تعالى: ﴿لا فيها غول﴾[3]؟ قلتُ: لأنّ القصد في إيلاء الريب حرف النفي نفي الريب عنه وإثبات أنّه حق وصدق لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد وهو أنّ كتاباً آخر فيه الريب لا فيه كما قصد في قوله: ﴿لا فيها غول﴾ تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي. كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة. وقرأ أبو الشعثاء: لا ريب فيه، بالرفع، والفرق بينها وبين المشهورة أنّ المشهورة توجب الاستغراق، وهذه تجوزه، والوقف على فيه هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على ﴿لا ريب﴾، ولا بد للواقف من أن ينوي خبراً ونظيره قوله تعالى: ﴿قالوا لا ضير﴾[4] وقول العرب: لا بأس، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز، والتقدير لا ريب فيه. ﴿فيه هدى﴾ الهدى مصدر على فعل كالسرى والبكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلالة في مقابلته. قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾[5]. وقال تعالى: ﴿لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[6]. ويقال: مهدي في موضع المدح كمهتدٍ، ولأن اهتدى مطاوع هدى، ولن يكون المطاوع في خلاف معنى أصله. لا ترى إلى نحو: غمه فاغتم، وكسره فانكسر، وأشباه ذلك.

فإنْ قلتَ[7]: فلم قيل هدى للمتقين والمتقون مهتدون؟ قلتُ: هو كقولك للعزيز المكرم أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته. كقوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[8] ووجه آخر وهو أنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى متقين، كقول رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[9]. وعن ابن عباس: إذا أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض وتضل الضالة وتكتنف الحاجة. فسمي المشارف للقتل والمرض والضلال قتيلاً ومريضاً وضالة. ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾[10] أي: صائراً إلى الفجور والكفر.

فإنْ قلتَ: فهلا قيل هدى للضالين؟ قلتُ: لأن الضالين فريقان فريق علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع على قلوبهم، وفريق علم أنّ مصيرهم إلى الهدى فلا يكون هدى للفريق الباقين على الضلالة، فبقي أن يكون هدى لهؤلاء.

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (60)، الحديث رقم: (2518)، وقال حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في المستدرك 2/13 و4/99، وأخرجه البيهقي في: شعب الإيمان، باب: في المطاعم والمشارب، فصل: في طيب المطعم والملبس، الحديث رقم: (5747).

(2) سورة البقرة، الآية: 23.

(3) سورة الصافات، الآية: 47.

(4) سورة الشعراء، الآية: 50.

(5) سورة البقرة، الآية: 16.

(6) سورة سبأ، الآية: 24.

(7) قال أحمد رحمه الله: الهدى يطلق في القرآن على معنيين: أحدهما الإرشاد، وإيضاح سبيل الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ فاستحبوا العمى على الهدى، وعلى هذا يكون الهدى للضال، باعتبار أنه رشد إلى الحق سواء حصل له الاهتداء أولا= = والآخر خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد، ومنه أولئك الذين هدى الله، فبهداهم اقتده، فإذا ثبت وروده على المعنيين، فهو في هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعاً، وأمّا قول الزمخشري إنّ القرآن لا يكون هدى للمعلوم، بقاؤهم على الضلالة، فإنما يستقيم إذا أريد بالهدى خلق الاهتداء في قلوبهم، وأمّا إذا أريد معناه الأوّل، فلا يمتنع أن الله تعالى أرشد الخلق أجمعين، وبين للناس ما نزل إليهم، فمنهم من اهتدى، ومنهم من حقت عليه الضلالة هذا مذهب أهل السنة.

(8) سورة الفاتحة، الآية: 6.

(9) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: من لم يخمس الأسلاب، ومن قتل قتيل فله سلبه.. الحديث رقم: (3142)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: استحقاق القاتل سلب القتيل، الحديث رقم: (4541).

(10) سورة نوح، الآية: 27.

فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا فقيل: هدى للمتقين، وأيضاً فقد جعل ذلك سلماً إلى تصدير السورة التي هي أولى الزهراوين، وسنام القرآن، وأول المثاني بذكر أولياء الله والمرتضين من عباده.

والمتقي: في اللغة اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى والوقاية فرط الصيانة، ومنه فرس واقٍ، وهذه الدابة تقي من وجاها إذا أصابه ضلع من غلظ الأرض ورقة الحافر فهو يقي حافره أن يصيبه أدنى شيء يؤلمه، وهو في الشريعة الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك. واختلف[1] في الصغائر وقيل: الصحيح أنه لا يتناولها لأنّها تقع مكفرةً عن مجتنب الكبائر. وقيل: يطلق على الرجل اسم المؤمن لظاهر الحال، والمتقي لا يطلق إلا عن خبرة كما لا يجوز إطلاق العدل إلا على المختبر. ومحل ﴿هدى للمتقين﴾[2] الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف أو خبر مع لا ريب فيه لذلك، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه، ويجوز أن ينصب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف، والذي هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً وأن يقال: إن قوله: ﴿الٓمٓ﴾[3] جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و ﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية، و﴿لا ريب فيه﴾ ثالثة، و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقةً هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متآخيةً آخذاً بعضها بعنق بعض؛ فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنّه نبّه أولاً على أنّه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنّه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدّي وشداً من أعضاده. ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادةً وتسجيلاً بكماله لأنّه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ فقال: في حجة تتبختر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً، ثم أخبر عنه بأنه ﴿هدى للمتقين﴾ فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السري من نكتة ذات جزالة.

ففي الأولى: الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه.

وفي الثانية: ما في التعريف من الفخامة.

وفي الثالثة: ما في تقديم الريب على الظرف.

وفي الرابعة: الحذف ووضع المصدر الذي هو هدى موضع الوصف الذي هو هادٍ وإيراده منكراً، والإيجاز في ذكر المتقين زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه، وتبييناً لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾.

﴿**الذين يؤمنون**﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة أو مدح منصوب أو مرفوع بتقدير أعني الذين يؤمنون، أو هم الذين يؤمنون. وإما مقتطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه بـ ﴿أولئك على هدىً﴾[4] فإذا كان موصولاً كان الوقف على المتقين حسناً غير تام، وإذا كان مقتطعاً كان وقفاً تاماً.

فإنْ قلتَ: ما هذه الصفة أواردة بياناً وكشفاً للمتقين، أم مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها، أم جاءت على سبيل المدح والثناء كصفات الله الجارية عليه تمجيداً؟ **قلتُ**: يحتمل أن ترد على طريق البيان والكشف لاشتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من فعل الحسنات وترك السيئات. أمّا الفعل فقد انطوى تحت ذكر الإيمان الذي هو أساس الحسنات ومنصبها وذكر الصلاة والصدقة، لأنّ هاتين أمّا العبادات البدنية والمالية وهما العيار على غيرهما. ألم تر كيف سمى رسول الله ﷺ «الصلاة عماد الدين»[5]؟ وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة؟ وسمى الزكاة قنطرة الإسلام؟ وقال الله تعالى: ﴿وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة﴾[6] فلما كانتا بهذه المثابة كان من شأنهما استجرار سائر العبادات

---

(1) قال أحمد رحمه الله: ومن تمنى القدرية على الله تعالى، اعتقادهم أنّ الصغائر ممحوة عنهم ما اجتنبوا الكبائر، وأنه يجب أن يعفو الله عنها، لمجتنب الكبائر، كما يجب عندهم أن لا يعفو عن مرتكب الكبائر، وهذا هو الخطأ الصراح، والمحادّة لآيات الله البينات، وسنن رسوله ﷺ الصحاح، والحق أن غفران الصغائر، وإن اجتنبت الكبائر موكول إلى المشيئة، كما أن غفران الكبائر موكول إليها أيضاً، ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فإنه ناطق بالمؤاخذة بالصغائر، ويتحيرون عند قوله تعالى: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ فإنه مصرح بمغفرة الكبائر، أمّا أهل السنة، فقد ألفوا بين هاتين الآيتين، بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن = يشاء﴾ فإن التقييد بالمشيئة في هذه، يقضي على الآيتين المطلقتين. قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾.

(2) سورة البقرة، الآية: 2.

(3) سورة البقرة، الآية: 1.

(4) سورة البقرة، الآية: 5.

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصلوات الحديث رقم: (2807)، أما حديث معاذ فأخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، الحديث رقم: (2616)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة الحديث رقم: (242)، وأخرجه الطبراني الجامع الصغير 2/ 281 الحديث رقم: (4589).

(6) سورة فصلت، الآيتان: 6، 7.

واستتباعها، ومن ثَم اختصر الكلام اختصاراً بأن استغنى عن عدّ الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، والذي إذا وجد لم تتوقف أخواته أن تقترن به مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين، وأمّا الترك، فكذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[1] ويحتمل أن لا تكون بياناً ﴿للمتقين﴾ وتكون صفةً برأسها دالةً على فعل الطاعات، ويراد بالمتقين الذين يجتنبون المعاصي، ويحتمل أن تكون مدحاً للموصوفين بالتقوى وتخصيصاً للإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة بالذكر إظهاراً لإنافتها على سائر ما يدخل تحت حقيقة هذا الاسم من الحسنات. والإيمان أفعال من الأمن. يقال: أمنته وآمنتيه غيري، ثم يقال: آمنه، إذا صدقه. وحقيقته آمنه التكذيب والمخالفة، وأمّا تعديته بالباء فلتضمينه معنى أقرّ وأعترف، وأمّا ما حكى أبو زيد عن العرب: ما آمنت أن أجد صحابةً، أي: ما وثقت، فحقيقته صرت ذا أمن به، أي: ذا سكون وطمأنينة. وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب، أي: يعترفون به أو يثقون بأنه حق، ويجوز أن لا يكون بالغيب صلة للإيمان، وأن يكون في موضع الحال، أي: يؤمنون غائبين عن المؤمن به، وحقيقته ملتبسين بالغيب، كقوله: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾[2] ليعلم أني لم أخنه بالغيب، ويعضده ما روي أنّ أصحاب عبد الله ذكروا أصحاب رسول الله ﷺ وإيمانهم، فقال ابن مسعود: إنّ أمر محمد كان بيناً لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية.

فإنْ قلتَ: فما المراد بالغيب إن جعلته صلةً وإن جعلته حالاً؟ **قلتُ:** إن جعلته صلةً كان بمعنى الغائب إمّا تسمية بالمصدر من قولك غاب الشيء غيباً كما سمي الشاهد بالشهادة، قال الله تعالى: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾[3] والعرب تسمي المطمئن من الأرض غيباً. وعن النضر بن شميل: شربت الإبل حتى وارت غيوب كلاها، يريد بالغيب الخمصة التي تكون في موضع الكلية إذا بطنت الدابة انتفخت، وإمّا أن يكون فيعلا فخفف كما قيل قبل وأصله قيل والمراد به الخفي الذي لا ينفذ فيه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير، وإنما نعلم منه نحن ما أعلمناه أو نصب لنا دليلاً عليه، ولهذا لا يجوز أن يطلق فيقال: فلان يعلم الغيب، وذلك نحو الصانع وصفاته، والنبوات وما يتعلق بها، والبعث، والنشور، والحساب، والوعد، والوعيد، وغير ذلك، وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء.

فإنْ قلتَ[4]: ما الإيمان الصحيح؟ **قلتُ:** أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله، فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق، ومن أخل بالشهادة فهو كافر، ومن أخل بالعمل فهو فاسق. ومعنى إقامة الصلاة، تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ في فرائضها وسننها وآدابها، من أقام العود إذا قوّمه، أو الدوام عليها والمحافظة عليها كما قال عز وعلا: ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾[5]، ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾[6]. من قامت السوق إذا نفقت وأقامها قال:

أقامت غزالة سوق الضراب ... لأهل العراقين حولاً قميطاً

لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه، أو التجلد والتشمر لأدائها، وأن لا يكون في مؤديها فتور عنها، ولا توانٍ من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها، وفي ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه، إذا تقاعس وتثبط. أو أداؤها فعبّر عن الأداء بالإقامة لأنّ القيام بعض أركانها، كما عبّر عنه بالقنوت والقنوت القيام، وبالركوع وبالسجود. وقالوا: سبح، إذا صلى لوجود التسبيح فيها فلولا أنّه كان من المسبحين. والصلاة فعلة من صلى كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى حرك الصلوين لأنّ المصلي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده، ونظيره: كفر اليهودي إذا طأطأ رأسه وانحنى عند تعظيم صاحبه لأنّه ينثني على الكانتين وهما الكافرتان. وقيل للداعي مصلى تشبيهاً في تخشعه بالراكع والساجد[7].

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 45.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 49.

(3) سورة السجدة، الآية: 6.

(4) قال أحمد رحمه الله: يعني بالفاسق غير مؤمن، ولا كافر، وهذا من الأسماء التي سماها القدرية، وما أنزل الله بها من سلطان، ومعتقد أهل السنة أنّ الموحد لله، الذي لا خلل في عقيدته مؤمن، وإن ارتكب الكبائر، وهذا الصحيح لغة وشرعاً، أمّا لغة فإنّ الإيمان هو التصديق، وهو مصدق، وأمّا شرعاً فأقرب شاهد عليه هذه الآية، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان، دلّ على أنّ الإيمان معقول بدونه، ولو كان العمل الصالح من الإيمان، لكان العطف تكراراً، وانظر حيلة الزمخشري على تقريب معتقده من اللغة، بقوله: المؤمن من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه، وصدقه بعمله، فجعل التصديق من حظ العمل، حتى يتم له أنّ من لم يعمل، فقد فوّت التصديق الذي هو الإيمان لغة، ولقد أوضحنا أنّ التصديق إنما هو بالقلب، ولا يتوقف وجوده على عمل الجوارح، = فما يحقق معتقد أهل السنة أنّ من آمن بالله ورسوله، ثم اخترم قبل أن يتعين عليه عمل من أعمال الجوارح، فهو مؤمن باتفاق، وإن لم يعمل وأصدق شاهد على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: **«إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا فواق ناقة عمل بعمل أهل الجنة؛ فكتب من أهل الجنة»؛** وإنما مثل عليه الصلاة والسلام بفواق الناقة: لأنه الغاية في القصر، ومثل هذا الزمان إنما يتصور فيه القصد الصحيح خاصة، ومع ذلك، فقد عدّه من أهل الجنة، وإنما يدخل المؤمن الجنة باتفاق الفريقين، والأدلة على ذلك تجرد كون الشرط فيه شطراً.

(5) سورة المعارج، الآية: 23.

(6) سورة المؤمنون، الآية: 9.

(7) قال أحمد رحمه الله: فهذه بدعة قدرية، فإنهم يرون أنّ الله تعالى لا يرزق إلا الحلال، وأما الحرام فالعبد يرزقه لنفسه، حتى يقسمون الأرزاق قسمين، هذا لله بزعمهم وهذا لشركائه، وإذا =

وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقاً منه، وأدخل من التبعيضية صيانةً لهم وكفاً عن الإسراف والتبذير المنهي عنه، وقدم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم. كأنّه قال: ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به، وجائز أن يراد به الزكاة المفروضة لاقترانه بأخت الزكاة وشقيقتها وهي الصلاة، وأن تراد هي وغيرها من النفقات في سبل الخير لمجيئه مطلقاً يصلح أن يتناول كل منفق، وأنفق الشيء وأنفده أخوان، وعن يعقوب: نفق الشيء ونفد واحد، وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء فدال على معنى الخروج والذهاب، ونحو ذلك إذا تأملت.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

فإنْ قلتَ: ﴿والذين يؤمنون﴾ أهم غير الأوّلين أم هم الأوّلون، وإنما وسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك: هو الشجاع والجواد وفي قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وقوله:

يا لهف زيابة للحارث الصـ ـابح فالغانم فالآيب

قلتُ: يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا فاشتمل إيمانهم على كل وحي أنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأنّ النار لن تمسهم إلا أياماً معدوداتٍ، واجتماعهم على الإقرار بالنشأة الأخرى، وإعادة الأرواح في الأجساد، ثم افتراقهم فرقتين منهم من قال: تجري حالهم في التلذذ بالمطاعم والمشارب والمناكح على حسب مجراها في الدنيا. ودفعه آخرون فزعموا أن ذلك إنما احتيج إليه في هذه الدار من أجل نماء الأجسام ولمكان التوالد والتناسل وأهل الجنة مستغنون عنه فلا يتلذذون إلا بالنسيم، والأرواح العبقة، والسماع اللذيذ، والفرح، والسرور، واختلافهم في الدوام والانقطاع، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه، ويحتمل أن يراد وصف الأوّلين ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه.

فإنْ قلتَ: فإن أريد بهؤلاء غير أولئك فهل يدخلون في جملة المتقين أم لا؟ **قلتُ:** إن عطفتهم على الذين يؤمنون بالغيب دخلوا وكانت صفة التقوى مشتملة على الزمرتين من مؤمني أهل الكتاب وغيرهم، وإن عطفتهم على المتقين لم يدخلوا. وكأنه قيل: ﴿هدى للمتقين﴾ وهدى للذين ﴿يؤمنون بما أنزل إليك﴾.

فإنْ قلتَ: قوله ﴿بما أنزل إليك﴾ إن عنى به القرآن بأسره والشريعة عن آخرها، فلم يكن ذلك منزلاً وقت إيمانهم. فكيف قيل: ﴿أنزل﴾ بلفظ المضي؟ وإن أريد المقدار الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم فهو إيمان ببعض المنزل، واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومترقبه واجب. **قلتُ:** المراد المنزل كله، وإنما عبر عنه بلفظ المضي وإن كان بعضه مترقباً تغليباً للموجود على ما لم يوجد، كما يغلب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب فيقال: أنا وأنت فعلنا، وأنت وزيد تفعلان. ولأنه إذا كان بعضه نازلاً وبعضه منتظر النزول جعل كأن كله قد نزل وانتهى نزوله ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾[1] ولم يسمعوا جميع الكتاب ولا كان كله منزلاً ولكن سبيله سبيل ما ذكرنا ونظيره قولك: كل ما خطب به فلان فهو فصيح، وما تكلم بشيء إلا وهو نادر. ولا تريد بهذا الماضي منه فحسب دون الآتي لكونه معقوداً بعضه ببعض ومربوطاً آتيه بماضيه. وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ على لفظ ما سمي فاعله، وفي تقديم الآخرة وبناء ﴿يوقنون﴾ على هم تعويض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته وأنّ قولهم ليس بصادر عن إيقان، وأن اليقين ما عليه من آمن ﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾. والإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، والآخرة تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأوّل وهي صفة الدار بدليل قوله: ﴿تلك الدار الآخرة﴾[2] وهي من الصفات الغالبة وكذلك الدنيا. وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة وألقى حركتها على اللام كقوله: ﴿دابة الأرض﴾[3] وقرأ أبو حية النميري يؤقنون بالهمز، جعل الضمة في جار الواو كأنها فيه فقلبها قلب واو وجوه ووقتت ونحوه.

لحب المؤقدان إلى مؤسى وجعدة إذ أضاءهما الوقود

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿أولئك على هدى﴾ الجملة في محل الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلا فلا محلّ لها. ونظم الكلام على الوجهين إنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب فقد ذهبت به مذهب الاستئناف، وذلك أنه لما قيل: هدى للمتقين، واختصّ المتقون بأنّ الكتاب لهم هدى اتجه لسائل أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك؟ فوقع قوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ إلى ساقته كأنه جواب لهذا السؤال المقدّر، وجيء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله أن يلطف بهم ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم، أي: الذين

= أثبتوا خالقاً غير الله، فلا ينفون عن إثبات رازق غيره، أما أهل السنة فلا خالق ولا رازق في عقدهم، إلا الله سبحانه تصديقاً بقوله تعالى: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء، والأرض لا إله إلا هو، فأنى تؤفكون﴾ أيها القدرية.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 30.
(2) سورة القصص، الآية: 83.
(3) سورة سبأ، الآية: 14.

هؤلاء عقائدهم وأعمالهم أحقاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح، ونظيره قولك: أحبّ رسول الله ﷺ الأنصار الذين قارعوا دونه وكشفوا الكرب عن وجهه أولئك أهل للمحبة، وإن جعلته تابعاً للمتقين وقع الاستئناف على أولئك كأنه قيل: ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب بأنّ أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً، وبالفلاح آجلاً. واعلم أنّ هذا النوع من الاستئناف يجيء تارةً بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث، كقولك: قد أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان، وتارةً بإعادة صفته، كقولك: أحسنت إلى زيد، صديقك القديم أهل لذلك منك، فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه.

فإنْ قلتَ: هل يجوز أن يجري الموصول الأوّل على المتقين، وأن يرتفع الثاني على الابتداء وأولئك خبره؟ **قلتُ:** نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوّة رسول الله ﷺ، وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله، وفي اسم الإشارة الذين هو أولئك إيذان بأنّ ما يرد عقيبه فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عدّدت لهم كما قال حاتم: ولله صعلوك ثم عدّد له خصالاً فاضلةً ثم عقب تعديدها بقوله:

فذلك إن يهلك فحسنى ثناؤه وإن عاش لم يقعد ضعيفاً منمماً

ومعنى الاستعلاء في قوله: ﴿على هدى﴾ مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه. ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل. وقد صرّحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً وامتطى الجهل واقتعد غارب الهوى. ومعنى ﴿هدى من ربهم﴾ أي: منحوه من عنده وأوتوه من قبله وهو اللطف والتوفيق الذي اعتضدوا به على أعمال الخير والترقي إلى الأفضل فالأفضل، ونكر هدى ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره كأنه قيل: على أي هدى؟ كما تقول: لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً. وقال الهذلي:

فلا وأبي الطير المربة بالضحى على خالد لقد وقعت على لحم

والنون في من ربهم أدغمت بغنة وبغير غنة. فالكسائي وحمزة ويزيد وورش في رواية والهاشمي عن ابن كثير لم يغنوها، وقد أغنها الباقون إلا أبا عمرو فقد روي عنه فيها روايتان. وفي تكرير ﴿أولئك﴾ تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح، فجعلت كلّ واحدة من الأثرتين في تمييزهم بها عن غيرهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها.

فإنْ قلتَ: لم جاء مع العاطف، وما الفرق بينه وبين قوله: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[1]؟ **قلتُ:** قد اختلف الخبران ههنا فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان لأنّ التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقرّرة لما في الأولى، فهي من العطف بمعزل. وهم فصل، وفائدته الدلالة على أنّ الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد وإيجاب أنّ فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره، أو هو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك. ومعنى التعريف في المفلحون الدلالة على أنّ المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة؛ كما إذا بلغك أنّ إنساناً قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو فقيل: زيد التائب، أي: هو الذي أخبرت بتوبته، أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم وتصوّروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدّون تلك الحقيقة. كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام؟ أنّ زيداً هو هو، فانظر كيف كرّر الله عزّ وجلّ التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهي ذكر اسم الإشارة وتكريره وتعريف المفلحين وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدّموا، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب، والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته، اللهمّ زينا بلباس التقوى واحشرنا في زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة، والمفلح الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه. والمفلج بالجيم مثله، ومنه قولهم للمطلقة: استفلحي بأمرك بالحاء والجيم، والتركيب دال على معنى الشق والفتح، وكذلك أخواته في الفاء والعين نحو: فلق وفلذ وفلى. لما قدّم ذكر أوليائه وخالصة عباده بصفاتهم التي أهلتهم لإصابة الزلفى عنده، وبين أنّ الكتاب هدى ولطف لهم خاصةً قفى على أثره بذكر أضدادهم وهم العتاة المردة من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا يجدي عليهم اللطف، وسواء عليهم وجود الكتاب وعدمه، وإنذار الرسول وسكوته.

فإنْ قلتَ: لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف؟ كنحو قوله: ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإنّ الفجار لفي جحيم﴾[2] وغيره من الآي الكثيرة. **قلتُ:** ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت لأنّ الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب وأنه هدى للمتقين، وسيقت الثانية لأنّ الكفار من صفتهم كيت وكيت فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف.

فإنْ قلتَ: هذا إذا زعمت أنّ الذين يؤمنون جار على المتقين، فأمّا إذا ابتدأته وبنيت الكلام لصفة المؤمنين ثم عقبته بكلام آخر في صفة أضدادهم كان مثل تلك الآي المتلوّة. **قلتُ:** : قد مرّ لي أنّ الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله الاستئناف وأنه مبني على تقدير سؤال، فذلك إدراج له في حكم المتقين وتابع له في المعنى وإن كان مبتدأً في

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 179.

(2) سورة الانفطار، الآيتان: 13، 14.

اللفظ فهو في الحقيقة كالجاري عليه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾.

والتعريف في ﴿الذين كفروا﴾ يجوز أن يكون للعهد وأن يراد بهم ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم، وأن يكون للجنس متناولاً كلّ من صمم على كفره تصميماً لا يرعوي بعده وغيرهم، ودل على تناوله للمصرين الحديث عنهم باستواء الإنذار وتركه عليهم. و﴿سواء﴾ اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ومنه قوله تعالى: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾[1] ﴿في أربعة أيام سواء للسائلين﴾[2] بمعنى مستوية، وارتفاعه على أنه خبر لأن. وأأنذرتهم أم لم تنذرهم في موضع المرتفع به على الفاعلية كأنه قيل: إنّ الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه. كما تقول: إنّ زيداً مختصم أخوه وابن عمه، أو يكون أأنذرتهم أم لم تنذرهم في موضع الابتداء، وسواء خبراً مقدّماً بمعنى: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لأنّ.

فإنْ قلتَ: الفعل أبداً خبر لا مخبر عنه فكيف صحّ الإخبار عنه في هذا الكلام؟ قلتُ: هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلاً بيناً من ذلك قولهم: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، معناه: لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل، والهمزة وأم مجرّدتان لمعنى الاستواء[3] وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً. قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك: اللهمّ اغفر لنا أيتها العصابة. يعني، أنّ هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما أنّ ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء، ومعنى الاستواء استواؤهما في علم المستفهم عنهما لأنه قد علم أنّ أحد الأمرين كائن إمّا الإنذار وإمّا عدمه ولكن لا بعينه فكلاهما معلوم بعلم غير معين. وقرىء: ﴿أأنذرتهم﴾ بتحقيق الهمزتين والتخفيف أعرب وأكثر، وبتخفيف الثانية بين بين، وبتوسيط ألف بينهما محققتين وبتوسيطها، والثانية بين بين، وبحذف حرف الاستفهام، وبحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله. كما قرئ ﴿قد أفلح﴾[4].

فإنْ قلتَ: ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفاً؟ قلتُ: هو لاحن خارج عن كلام العرب خروجين: أحدهما الإقدام على جمع الساكنين على غير حدّه، وحدّه أن يكون الأوّل حرف لين، والثاني حرفاً مدغماً، نحو قوله: ﴿الضالين﴾[5] وخويصة، والثاني إخطاء طريق التخفيف لأنّ طريق تخفيف الهمزة المتحرّكة المفتوح قبلها أنّ تخرج بين بين، وأمّا القلب ألفاً فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهمزة رأس، والإنذار التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي.

فإنْ قلتَ: ما موقع ﴿لا يؤمنون﴾؟ قلتُ: إمّا أن يكون جملةً مؤكدةً للجملة قبلها، أو خبراً لإنّ، والجملة قبلها اعتراض.

خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾.

الختم والكتم: أخوان لأنّ في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتماً له وتغطيةً لئلاً يتوصل إليه ولا يطلع عليه.

والغشاوة: الغطاء، فعالة من غشاه إذا غطاه. وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة.

فإنْ قلتَ: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلتُ: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل. أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأنّ الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين، كأنما غطي عليها وحجبت وحيل بينها وبين الإدراك. وأمّا التمثيل فإن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية، وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعي ختماً عليه فقال:

ختم الإله على لسان عذافر ختماً فليس على الكلام بقادر

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 64.

(2) سورة فصلت، الآية: 10.

(3) قال أحمد رحمه الله: وحاصل هذا النقل استعمال الحرف في أعم معناه، فالهمزة المعادلة لـ «أم» موضوعة في الأصل، للاستفهام عن أحد متعادلين في عدم علم التعين، فنقلت إلى مطلق المعادلة، وإن لم يكن استفهاماً واستعملت في الجزء الحقيقي، وكذلك حرف النداء موضوع في الأصل، لتخصيص المنادي بالدعاء، ثم نقل إلى مطلق التخصيص، ولا نداء كما يكون المجاز بالتخصيص، =

= والقصر مثل تخصيص الدابة بذوات الأربع، وإن كانت في الأصل لكل ما دب، فقد يكون بالتعميم، والتعدي مثل تسمية الرجل الشجاع أسداً، نقلاً لهذا الاسم من موصوف بالشجاعة مخصوص، وهو الحيوان المعروف إلى كل موصوف، بتلك الصفة غير مقصورة على محلها الأصلي. قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ الآية.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 1.

(5) سورة الفاتحة، الآية: 7.

وإذا أراد النطق خِلْتَ لسانه لحماً يحركه لصقر ناقر

فإنْ قلتَ[1]: فلم أسند الختم إلى الله تعالى وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه، وهو قبيح، والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً ولعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه. وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾[2] ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾[3] ﴿إنّ الله لا يأمر بالفحشاء﴾[4]، ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل. قلتُ: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل فلينبه على أنّ هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي. ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه، وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم، ويجوز أن تضرب الجملة كما هي وهي ﴿ختم الله على قلوبهم﴾[5] مثلاً كقولهم: سال به الوادي إذا هلك، وطارت به العنقاء إذا أطال الغيبة. وليس للوادي ولا للعنقاء عمل في هلاكه ولا في طول غيبته، وإنما هو تمثيل مثلت حاله في هلاكه بحال من سال به الوادي، وفي طول غيبته بحال من طارت به العنقاء؛ فكذلك مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها نحو قلوب الأغنام التي هي في خلوها عن الفطن كقلوب البهائم، أو بحال قلوب البهائم أنفسها، أو بحال قلوب مقدر ختم الله عليها حتى لا تعي شيئاً ولا تفقه، وليس له عز وجل فعل في تجافيها عن الحق ونبوها عن قبوله وهو متعالٍ عن ذلك، ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز وهو لغيره، حقيقة تفسير هذا

---

(1) قال أحمد رحمه الله: هذا أول عشواء خبطها في مهواة من الأهواء هبطها، حيث نزل من منصة النص إلى حضيض تأويله ابتغاء الفتنة استبقاء، لما كتب عليه من المحنة، فانطوى كلامه هذا على ضلالات أعدها وأردها. الأولى: مخالفة دليل العقل على وحدانية الله تعالى، ومقتضاه أنه لا حادث إلا بقدرة الله تعالى، لا شريك له، والامتناع من قبول الحق من جملة الحوادث، فوجب انتظامه في سلك متعلقات القدرة العامّة التعلق بالكائنات والممكنات. الثانية: مخالفة دليل النقل المضاهي لدليل العقل، كأمثال قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ هل من خالق غير الله، وهذه الآية أيضاً، فإنّ الختم فيها مسند إلى الله تعالى نصاً، والزمخشري رحمه الله لا يأبى ذلك، ولكنه يدعي الالتجاء إلى تأويلها لدليل قام عنده عليه، فإذا أثبت أنّ الدليل العقلي على وفق ما دلت عليه وجب إبقاؤها على ظاهرها، بل لو وردت على خلاف ذلك ظاهراً، لوجب تأويلها بالدليل جمعاً بين العقل والنقل. الثالثة: الفرار من نسبة ما اعتقده قبحاً إلى الله تعالى تنزيهاً على زعمه، أنّ الإشراك به في اعتقاد أنّ الشيطان هو الذي يخلق الختم، والكافر يخلقه لنفسه بقدرته على خلاف مراد ربه، فلقد استوخم من السنة المناهل العذاب، وورد من حميم البدعة موارد العذاب. الرابعة: الغلط باعتقاد أن ما يقبح شاهداً يقبح غائباً، فلما كان المنع من قبول الحق قبيحاً في الشاهد، وجب على زعمه أن يكون قبيحاً من الغائب، وهذه قاعدة قد فرغ من بطلانها في فنها. الخامسة: اعتقاده أن ذلك لو فرض وجوده بقدرة الله تعالى، لكان ظلماً، والله تعالى منزه عن الظلم بقوله تعالى: ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ ومن الظلم البين جهل حقيقة الظلم، فإنه التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فكيف يتصوّر ثبوت حقيقته لله تعالى، وكل مفروض محصور بسور ملكه عزّ وجلّ الملك لله الواحد القهار. السادسة: أنه فرّ من اعتقاد نسبة الظلم إلى الله تعالى، فتورط فيه إلى عنقه؛ لأنه قد جزم بأن المنع من قبول الحق، لو كان من فعل الله تعالى، لكان ظلماً، فيقال له وقد قام البرهان على أنه من فعل الله تعالى، فيلزمك أن يكون ظلماً تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والخيال الذي يدندن حوله هؤلاء أن أفعال العبد، لو كانت مخلوقة لله تعالى، لما نعاها على عباده، ولا عاقبهم، ولا قامت حجة الله عليهم، وهذه الشبه قد أجراها في إدراج كلامه المتقدّم، فيقال لهم: لم قلتم إنها لو كانت مخلوقة لله، لما نعاها على عباده، فإن أسندوا هذه الملازمة، وكذلك يفعلون إلى قاعدة التحسين،= = والتقبيح، وقالوا: معاقبة الإنسان بفعل غيره قبيحة في الشاهد، لا سيما إذا كانت المعاقبة من الفاعل، فيلزم طرد ذلك غائباً قيل لهم، ويقبح في الشاهد أيضاً أن يمكن الإنسان عبده من القبائح، والفواحش بمرأى منه ومسمع، ثم يعاقبه على ذلك مع القدرة على ردعه؛ ورده من الأول عنها، وأنتم معاشر القدرية تزعمون أن القدرة التي بها يخلق العبد الفواحش لنفسه مخلوقة لله تعالى، على علم منه عزّ وجل أن العبد يخلق بها لنفسه ذلك، فهو بمثابة إعطاء سيف باتر، لفاجر يعلم أنه يقطع به السبيل، ويسبي به الحريم، وذلك في الشاهد قبيح جزماً، فسيقولون أجل إنه لقبيح في الشاهد، ولكن هناك حكمة استأثر الله تعالى بعملها فرقت بين الشاهد والغائب، فحسن من الغائب تمكين عبده من الفواحش مع القدرة، على أن لا يقع منه شيء، ولم يحسن ذلك في الشاهد، وفي هذا الموطن تزلزل أقدامهم، وتتنكس أعلامهم إذا لاحت لهم قواطع اليقين، وبوارق البراهين، فيقال لهم: ما المانع أن تكون تلك الأفعال مخلوقة لله تعالى، ويعاقب العبد عليها لمصلحة، وحكمة استأثر الله بها، كما فرغتم منه الآن، سواء فلم لا يسلك أحدكم الطريق الأعدل، وينظر عاقبة هذا الأمر، فيصير آخر أول، وليفوض من الابتداء إني خالقه، ويتلقى حجة الله تعالى عليه بالقبول، والتسليم ويسلك مهتدياً بنور العقل، ومقتدياً بدليل الشرع الصراط المستقيم، فإن نازعته النفس وحادثته الهواجس، ورغب في مستند من حيث النظر يأنس به من مفاوز الفكر، فليخطر بباله ما ذكر عند كل عاقل من التمييز، بين الحركة الاختيارية والقسرية، فلا يجد عنده في هذه التفرقة ريباً، فإذا استشعر ذلك، فليتنبه فقد لطف به إلى أن انحرف عن مضايق الجبر، فادرا أن يلوح به شيطان الضلال إلى مهامه الاعتزال، فليمسك نفسه دونها بزمام دليل الوحدانية على أن لا فاعل، ولا خالق إلا الله تعالى، فإذا وقف لم يقف، إلا وهو على الصراط المستقيم، والطريقة المثلى ماراً عليها في أسرع من البرق الخاطف، والريح العاصف، فليتامل الناظر هذا الفصل، ويتخذه وزره في قاعدة الأفعال يقف على الحق إن شاء الله تعالى.

(2) سورة قَ، الآية: 29.

(3) سورة الزخرف، الآية: 76.

(4) سورة البقرة، الآية: 7.

(5) سورة فصلت، الآية: 5.

أنّ للفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارةً وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابسة الفعل كما يضاهي الرجل الأسد في جراءته فيستعار له اسمه. فيقال في المفعول به: عيشة راضية وماء دافق، وفي عكسه سيل مفعم. وفي المصدر: شعر شاعر وذيل ذائل، وفي الزمان: نهاره صائم وليله قائم، وفي المكان: طريق سائر ونهر جارٍ، وأهل مكة يقولون: صلى المقام، وفي المسبب: بنى الأمير المدينة، وناقة ضبوث وحلوب. وقال:

إذا ردّ عافي القدر من يستعيرها

فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر، إلا أنّ الله سبحانه لما كان هو الذي أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب، ووجه رابع: وهو أنهم لما كانوا على القطع والبت ممن لا يؤمن ولا تغني عنهم الآيات والنذر ولا تجدي عليهم الألطاف المحصلة ولا المقربة إن أعطوها، ولم يبق بعد استحكام العلم بأنه لا طريق إلى أن يؤمنوا طوعاً واختياراً طريق إلى إيمانهم إلا القسر والإلجاء، وإذا لم تبق طريق إلا أن يقسرهم الله ويلجئهم ثم لم يقسرهم ولم يلجئهم لئلا ينتقض الغرض في التكليف، عبر عن ترك القسر، والإلجاء بالختم إشعاراً بأنهم الذين ترامى أمرهم في التصميم على الكفر والإصرار عليه إلى حد لا يتناهون عنه إلا بالقصر والإلجاء وهي الغاية القصوى في وصف لجاجهم في الغي، واستشرائهم في الضلال والبغي. ووجه خامس: وهو أن يكون حكايةً لما كان الكفرة يقولونه تهكماً بهم من قولهم: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾[1]، ونظيره في الحكاية والتهكم قوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾[2].

فإنْ قلتَ[3]: اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة في حكم الختم وفي حكم التغشية فعلى أيهما يعوّل؟ **قلتُ**: على دخولها في حكم الختم لقوله تعالى: ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾[4] ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم.

فإنْ قلتَ: أي فائدة في تكرير الجار في قوله ﴿وعلى سمعهم﴾؟ **قلتُ**: لو لم يكرر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة، وحين استجدّ للأسماع تعدية على حدة كان أدل على شدة الختم في الموضعين، ووحد السمع كما وحد البطن في قوله: كلوا في بعض بطنكم تعفوا يفعلون ذلك إذا أمن اللبس، فإذا لم يؤمن كقولك: فرسهم وثوبهم وأنت تريد الجمع رفضوه، ولك أن تقول السمع مصدر في أصله والمصادر لا تجمع فلمح الأصل يدل عليه جمع الأذن في قوله: ﴿وفي آذاننا وقراً﴾ وأن تقدر مضافاً محذوفاً أي: وعلى حواس سمعهم. وقرأ ابن أبي عبلة: وعلى أسماعهم.

فإنْ قلتَ: هلا منع أبا عمرو والكسائي من إمالة أبصارهم ما فيه من حرف الاستعلاء وهو الصاد! **قلتُ**: لأنّ الراء المكسورة تغلب المستعلية لما فيها من التكرير كأن فيها كسرتين، وذلك أعون شيء على الإمالة وأن يمال له ما لا يمال، والبصر نور العين، وهو ما يبصر به الرائي ويدرك المرئيات، كما أنّ البصيرة نور القلب، وهو ما به يستبصر ويتأمل. وكأنهما جوهران لطيفان خلقهما الله فيهما آلتين للإبصار والاستبصار. وقرىء: ﴿غشاوة﴾ بالكسر والنصب، وغشاوة بالضم والرفع، وغشاوة بالفتح والنصب، وغشوة النكال بالكسر والرفع، وغشوة بالفتح والرفع والنصب، وعشاوة بالعين غير المعجمة، بناءً ومعنى لأنك تقول: أعنب عن الشيء إذا أمسك عنه. كما تقول: نكل عنه، ومنه العنب لأنه يقمع العطش ويردعه بخلاف الملح فإنه يزيده، ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخاً لأنه ينقخ العطش أي يكسره، وفراتاً لأنه يرفته على القلب، ثم اتسع فيه فسمى كل ألم فادح عذاباً وإن لم يكن نكالاً أي: عقاباً يرتدع به الجاني عن المعاودة، والفرق بين العظيم والكبير أنّ العظيم نقيض الحقير، والكبير نقيض الصغير، فكأن العظيم فوق الكبير كما أنّ الحقير دون الصغير، ويستعملان في الجثث والأحداث جميعاً. تقول: رجل عظيم وكبير، تريد جثته أو خطره. ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعاً من الأغطية غير ما يتعارفه الناس وهو غطاء التعامي عن آيات الله ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله، اللهم أجرنا من عذابك ولا تبلنا بسخطك يا واسع المغفرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

افتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ووافق سرهم علنهم وفعلهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً قلوباً وألسنةً، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وهم الذين قال فيهم مذبذبين بين ذلك لا إلى هٰؤلاء ولا إلى هٰؤلاء وسماهم المنافقين وكانوا أخبث الكفرة، وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً وبالشرك استهزاءً وخداعاً، ولذلك أنزل

---

(1) سورة فصلت، الآية: 5.

(2) سورة البينة، الآية: 1.

(3) قال أحمد رحمه الله: وكان جدي رحمه الله يذكر هذا، ويزيد عليه أنّ الأسماع والقلوب لما كانت محوية، كان استعمال الختم لها = أولى، والأبصار لما كانت بارزة وإدراكها متعلق بظاهرها، كان الغشاء لها أليق.

(4) سورة الجاثية، الآية: 23.

فيهم: ﴿إنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾[1]، ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آيةً نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم وفضحهم وسفههم واستجهلهم واستهزأ بهم وتهكم بفعلهم وسجل بطغيانهم وعمههم ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة، وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة.

وأصل ناس: أناس حذفت همزته تخفيفاً. كما قيل: لوقة، في الوقة. وحذفها مع لام التعريف كاللازم لا يكاد يقال: الأناس، ويشهد لأصله إنسان وأناس وأناسي وإنس. وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أي يبصرون، كما سمي الجنّ لاجتنانهم، ولذلك سموا بشراً. ووزن ناس فعال لأنّ الزنة على الأصول ألا تراك تقول: في وزن قه افعل، وليس معك إلا العين وحدها، وهو من أسماء الجمع كرجال، وأما نويس فمن المصغر الآتي على خلاف مكبره كانيسيان ورويجل، ولام التعريف فيه للجنس، ويجوز أن تكون للعهد والإشارة إلى الذين كفروا المارّ ذكرهم. كأنه قيل: ومن هؤلاء من يقول، وهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه ومن كان في حالهم من أهل التصميم على النفاق، ونظير موقعه موقع القوم في قولك: نزلت ببني فلان فلم يقروني والقوم لئام. ومن في ﴿من يقول﴾: موصوفة كأنه قيل: ﴿ومن الناس﴾ ناس يقولون كذا كقوله: ﴿من المؤمنين رجال﴾[2] إن جعلت اللام للجنس، وإن جعلتها للعهد فموصولة كقوله: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي﴾[3].

فإنْ قلتَ: كيف يجعلون بعض أولئك والمنافقون غير المختوم على قلوبهم؟ **قلتُ:** الكفر جمع الفريقين معاً وصيرهم جنساً واحداً، وكون المنافقين نوعاً من نوعي هذا الجنس مغايراً للنوع الآخر بزيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما من الخديعة والاستهزاء لا يخرجهم من أن يكونوا بعضاً من الجنس، فإنّ الأجناس إنما تنوّعت لمغايرات وقعت بين بعضها وبعض وتلك المغايرات إنما تأتي بالنوعية ولا تأبى الدخول تحت الجنسية.

فإنْ قلتَ: لم اختص بالذكر الإيمان ﴿بالله﴾ والإيمان ﴿باليوم الآخر﴾؟ **قلتُ:** اختصاصهما بالذكر كشف عن إفراطهم في الخبث وتماديهم في الدعارة لأنّ القوم كانوا يهوداً وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان لقولهم: عزير ابن الله. وكذلك إيمانهم باليوم الآخر لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته فكان قولهم: ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ خبثاً مضاعفاً وكفراً موجهاً، لأنّ قولهم هذا لو صدر عنهم لا على وجه النفاق وعقيدتهم عقيدتهم فهو كفر لا إيمان، فإذا قالوه على وجه النفاق خديعةً للمسلمين واستهزاءً بهم، وأروهم أنهم مثلهم في الإيمان الحقيقي كان خبثاً إلى خبث وكفراً إلى كفر، وأيضاً فقد أوهموا في هذا المقال أنهم اختاروا الإيمان من جانبيه واكتنفوه من قطريه، وأحاطوا بأوّله وآخره، وفي تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام.

فإنْ قلتَ: كيف طابق قوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ قولهم: ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ والأولى في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ **قلتُ:** القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه فسلك في ذلك طريق أدّى إلى الغرض المطلوب وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان، وإذ شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفي ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع. ونحوه قوله تعالى: ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها﴾[4] هو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها.

فإنْ قلتَ: فلم جاء الإيمان مطلقاً في الثاني وهو مقيد في الأوّل؟ **قلتُ:** يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المذكور عليه، وأن يراد بالإطلاق أنهم ليسوا من الإيمان في شيء قط لا من الإيمان بالله وباليوم الآخر ولا من الإيمان بغيرهما.

فإنْ قلتَ: ما المراد باليوم الآخر؟ **قلتُ:** يجوز أن يراد به الوقت الذي لا حد له، وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع لتأخره عن الأوقات المنقضية، وأن يراد الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار لأنه آخر الأوقات المحدودة الذي لا حد للوقت بعده.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾.

والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه، من قولهم: ضب خادع وخدع، إذا أمر الحارس يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر.

فإنْ قلتَ[5]: كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح

---

(1) سورة النساء، الآية: 145.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 23.

(3) سورة التوبة، الآية: 61.

(4) سورة المائدة، الآية: 37.

(5) قال أحمد رحمه الله: هذا الفصل من كلام الزمخشري، جمع فيه بين الغث والسمين، ونحن ننبه على ما فيه من الزبد، ليَتم للناظر = أخذ ما فيه من السنة آمناً من التورط في وضر البدعة، مستعينين بالله وهو خير معين، فمما خالف فيه السنة قوله إنّ الله تعالى عالم بذاته يريد لا بعلم، وهذا مما وسمت به المعتزلة في المقدمة من أنهم يجحدون صفات الكمال الإلّهي يبغون بذلك زعمهم التوحيد والتنزيه، ومعتقد أهل السنة أنّ الله تعالى عالم بعلم قديم أزلي متعلق بكل معلوم واجب، أو ممكن، أو مستحيل، ولا يعزب

لأنّ العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع، والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع، والمؤمنون وإن جاز أن يخدعوا لم يجز أن يخدعوا. ألا ترى إلى قوله: واستمطروا من قريش كل منخدع. وقول ذي الرمة.

إن الحليم وذا الإسلام يختلب

فقد جاء النعت بالانخداع ولم يأت بالخدع! قلتُ: فيه الوجوه. أحدها: أن يقال: كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون صورة صنع الخادعين، وصورة صنع الله معهم، حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم. والثاني: أن يكون ذلك ترجمةً عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه لأنّ من كان ادعاؤه الإيمان بالله نفاقاً لم يكن عارفاً بالله ولا بصفاته ولا أن لذاته تعلقاً بكل معلوم، ولا أنه غني عن فعل القبائح، فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله تعالى في زعمه مخدوعاً ومصاباً بالمكروه من وجه خفي، وتجويز أن يدلس على عباده ويخدعهم. والثالث: أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول ﷺ لأنه خليفته في أرضه والناطق عنه بأوامره ونواهيه مع عباده كما يقال: قال الملك كذا ورسم كذا، وإنما القائل والراسم وزيره أو بعض خاصته الذين قولهم قوله ورسمهم رسمه. مصداقه قوله: ﴿إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾[1] وقوله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[2]. والرابع: أن يكون من قولهم: أعجبني زيد وكرمه، فيكون المعنى: يخادعون الذين آمنوا بالله، وفائدة هذه الطريقة قوّة الاختصاص. ولما كان المؤمنون من الله بمكان سلك بهم ذلك المسلك، ومثله والله ورسوله أحق أن يرضوه، وكذلك إنّ الذين يؤذون الله ورسوله، ونظيره في كلامهم: علمت زيداً فاضلاً. والغرض فيه ذكر إحاطة العلم بفضل زيد لا به نفسه لأنه كان معلوماً له قديماً. كأنه قيل: علمت فضل زيد، ولكن ذكر زيد توطئة وتمهيد لذكر فضله.

فإنْ قلتَ: هل للاقتصار بخادعت على واحد وجه صحيح؟ قلتُ: وجهه أن يقال: عني به فعلت، إلا أنه أخرج في زنة فاعلت لأنّ الزنة في أصلها للمغالبة والمباراة والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ولا مبارٍ لزيادة قوّة الداعي إليه، ويعضده قراءة من قرأ يخدعون الله والذين آمنوا وهو أبو حيوة. و﴿يخادعون﴾ بيان ليقول، ويجوز أن يكون مستأنفاً، كأنه قيل: ولم يدعون الإيمان كاذبين وما رفقهم في ذلك فقيل يخادعون.

﴿فإن قلتَ﴾: عم كانوا يخادعون؟ قلتُ: كانوا يخادعونهم عن أغراض لهم ومقاصد منها متاركتهم وإعفاؤهم عن المحاربة، وعما كانوا يطرقون به من سواهم من الكفار، ومنها اصطناعهم بما يصطنعون به المؤمنين من إكرامهم والإحسان إليهم وإعطائهم الحظوظ من المغانم ونحو ذلك من الفوائد، ومنها اطلاعهم لاختلاطهم بهم على الأسرار التي كانوا حراصاً على إذاعتها إلى منابذيهم.

فإنْ قلتَ: فلو أظهر عليهم حتى لا يصلوا إلى هذه الأغراض بخداعهم عنها. قلتُ: لم يظهر عليهم لما أحاط به علماً من المصالح التي لو أظهر عليهم لانقلبت مفاسد، واستبقاء إبليس وذريته ومتاركتهم وما هم عليه من إغواء المنافقين وتلقينهم النفاق أشدّ من ذلك، ولكن السبب فيه ما علمه تعالى من المصلحة.

فإنْ قلتَ: ما المراد بقوله: ﴿وما يخادعون إلا أنفسهم﴾؟ قلتُ: يجوز أن يراد: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم، لأنّ ضررها يلحقهم ومكرها يحيق بهم. كما تقول: فلان يضار فلاناً، وما يضار إلا نفسه. أي دائرة الضرار راجعة إليه وغير متخطية إياه، وأن يراد حقيقة المخادعة أي: وهم في ذلك يخدعون أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل ويكذبونها فيما يحدثونها به وأنفسهم كذلك تمنيهم وتحدثهم بالأماني، وأن يراد: وما يخدعون، فجيء به على لفظ يفاعلون للمبالغة.

= عن علمه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر إلا في كتاب مبين، وحسبك هذه الآية مصدقة لمعتقدهم في ثبوت صفة العلم له تعالى، وفي عموم تعلقه بالكليات والجزئيات إلى ما وراءها من البراهين الكلامية على ذلك، ولسنا بصدد ذكرها في هذا الكتاب. ومما خالف فيه السنة اعتقاده أنّ في الكائنات ما ليس مخلوقاً لله تعالى؛ لأنه قبيح على زعمه، كالمفهوم من الخداع في هذه الآية، وما جره إلى هاتين النزعتين، إلا اعتقاده أنه لا يتم استحالة كونه تعالى مخدوعاً، إلا باستحالة صدور بعض الكائنات عنه؛ لأنه قبيح على زعمهم، ولقد وقف هذا التنزيه على ما لا توقف عليه، ولا شرط فيه، فنحن معاشر أهل السنة نعتقد أنّ الله تعالى عالم بعلم، ومع ذلك نعتقد استحالة كونه مخدوعاً؛ لأنّ علمه عندنا عام التعلق، كما وصفنا، ونعتقد أنه لا يصدر كائن في الوجود، إلا عن قدرته لا غير، ومع ذلك نمنع أن ينسب الخداع إلى الله تعالى، لما يوهم ظاهره من أنه إنما يكون عن عجز عن المكافحة، وإظهار المكتوم، هذا هو الموهوم = منه في الإطلاق، ولكن حيث أطلقه تعالى مقابلاً، لما ذكره من خداع المنافقين، كمقابلة المكر بمكرهم علمنا أنّ المراد منه أنه فعل معهم فعلاً سماه خداعاً مقابلة ومشاكلة، وإلا فهو قادر على هتك سترهم، وإنزال العذاب بهم رأي العين، فهذا معتقد أهل السنة في هذه الآية وأمثالها، إلا كالزمخشري وشيعته الذين يزعمون أنهم يوحدون، فيجحدون وينزهون، فيشركون، والله الموفق للحق، وكذلك الخداع المنسوب إليهم على سبيل المجاز، عن تعاطيهم أفعال المخادع على ظنهم وأصدق شاهد على أنه مجاز نفيه بعقب إثباته في قوله: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ ففي هذه التتمة نفي احتمال الحقيقة، حتى تتعين جهة المجاز ومما عدّه البيانيون من أدلة المجاز صدق نفيه، فتأمل هذا الفصل، فله على سائر الفصول الفضل.

(1) سورة الفتح، الآية: 10.
(2) سورة النساء، الآية: 80.

وقرىء: وما يخدعون ويخدّعون، من خدّع ويخدّعون بفتح الياء بمعنى يختدعون ويخدعون ويخادعون على لفظ ما لم يسم فاعله. والنفس ذات الشيء وحقيقته يقال: عندي كذا نفساً، ثم قيل للقلب نفس لأنّ النفس به. ألا ترى إلى قولهم: المرء بأصغريه، وكذلك بمعنى الروح، وللدم نفس لأنّ قوامها بالدم، وللماء نفس لفرط حاجتها إليه. قال الله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[1]. وحقيقة نفس الرجل بمعنى عين أصيبت نفسه كقولهم: صدر الرجل. وقولهم: فلان يؤامر نفسيه، إذا تردّد في الأمر واتجه له رأيان وداعيان لا يدري على أيهما يعرج. كأنهم أرادوا داعي النفس وهاجسي النفس فسموهما نفسين. إما لصدورهما عن النفس، وإمّا لأنّ الداعيين لما كانا كالمشيرين عليه والآمرين له شبهوهما بذاتين فسموهما نفسين. والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم، والمعنى: بمخادعتهم ذواتهم أنّ الخداع لاصق بهم لا يعدوهم إلى غيرهم ولا يتخطاهم إلى من سواهم، ويجوز أن يراد قلوبهم ودواعيهم وآراؤهم. [2]والشعور علم الشيء علم حس من الشعار، ومشاعر الإنسان حواسه، والمعنى أنّ لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حس له.

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾.

واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقةً ومجازاً، فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول: في جوفه مرض. والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد والغل والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها واستشعار الهوى والجبن والضعف وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض، كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائض ذلك. والمراد به هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر أو من الغل والحسد والبغضاء لأنّ صدورهم كانت تغلي على رسول الله ﷺ والمؤمنين غلاً وحنقاً ويبغضونهم البغضاء التي وصفها الله تعالى في قوله: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾[3] ويتحرقون عليهم حسداً ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم﴾[4]، وناهيك مما كان من ابن أبيّ وقول سعيد بن عبادة لرسول الله ﷺ: اعف عنه يا رسول الله واصفح[5] فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك. ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصابة فلما ردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك. أو يراد ما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور لأنّ قلوبهم كانت قويةً، إمّا لقوّة طمعهم فيما كانوا يتحدّثون به أنّ ريح الإسلام تهب حيناً ثم تسكن ولواءه يخفق أياماً ثم يقر، فضعفت حين ملكها اليأس عند إنزال الله على رسوله النصر وإظهار دين الحق على الدين كله. وإما لجراءتهم وجسارتهم في الحروب فضعفت جبناً وخوراً حين قذف الله في قلوبهم الرعب وشاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله لهم بالملائكة. قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[6]. ومعنى زيادة الله إياهم مرضاً أنه كلما أنزل على رسوله الوحي فسمعوه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم، فكأن الله هو الذي زادهم ما ازدادوه إسناداً للفعل إلى المسبب له كما أسنده إلى السورة في قوله: ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾[7] لكونها سبباً، أو كلماً زاد رسوله نصرة وتبسطاً في البلاد، ونقصاً من أطراف الأرض ازدادوا حسداً وغلاً وبغضاً، وازدادت قلوبهم ضعفاً وقلة طمع فيما عقدوا به رجاءهم وجبناً وخوراً، ويحتمل أن يراد بزيادة المرض الطبع. وقرأ أبو عمرو في رواية الأصمعي: مرض ومرضاً بسكون الراء. يقال: ألم فهو ﴿أليم﴾، كوجع فهو وجيع، ووصف العذاب به نحو قوله: تحية بينهم ضرب وجيع. وهذا على طريقة قولهم جد جده، والألم في الحقيقة للمؤلم كما أنّ الجد للجاد. والمراد بكذبهم قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته وتخييل أنّ العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم. ونحوه قوله تعالى: ﴿مما خطيآتهم أغرقوا﴾[8] والقوم كفرة وإنما خصت الخطيآت استعظاماً لها وتنفيراً عن ارتكابها، والكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو به وهو قبح كله، وأما ما يروى عن إبراهيم عليه السلام أنه كذب ثلاث كذبات[9] فالمراد التعريض ولكن لما كانت صورته صورة الكذب سمي به. وعن أبي بكر رضي الله عنه وروي

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 30.
(2) قال أحمد رحمه الله: إيضاح هذا الكلام على تفسير الشعور، كما قال بأنه علم الشيء من ناحية الحس الخ، أنه لما كانت مفسدة النفاق عائدة على المنافق عوداً بيناً، جلياً، محسوساً، نعى عليهم جهلهم بالمحسوس، فنفى شعورهم به، ولا كذلك معرفة الحق، وتميزه عن الباطل، فإنه أمر عقلي نظري.
(3) سورة آل عمران، الآية: 118.
(4) سورة آل عمران، الآية: 120.
(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ الحديث رقم: (4566)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين الحديث رقم=
= (4635).
(6) أخرجه البخاري في كتاب: التيمم، باب: قول الله تعالى ﴿فلم تجدوا ماءً...﴾ الحديث رقم: (335)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1163).
(7) سورة التوبة، الآية: 125.
(8) سورة نوح، الآية: 25.
(9) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ الحديث رقم: (3358)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ الحديث رقم: (6097)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء عليهم السلام الحديث رقم: (3166).

مرفوعاً: «إياكم والكذب فإنه مجانب للإيمان»[1]. وقرىء: يكذبون من كذبه الذي هو نقيض صدقه، أو من كذب الذي هو مبالغة في كذب كما بولغ في صدق. فقيل: صدّق، ونظيرهما بان الشيء وبين، وقلص الثوب وقلص، أو بمعنى الكثرة كقولهم: موتت البهائم وبركت الإبل. أو من قولهم: كذب الوحشي، إذا جرى شوطاً ثم وقف لينظر ما وراءه لأنّ المنافق متوقف متردّد في أمره. ولذلك قيل له: مذبذب. وقال عليه السلام: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة»[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وإذا قيل لهم﴾: معطوف على يكذبون، ويجوز أن يعطف على يقول آمنا، لأنك لو قلت ومن الناس من إذا قيل لهم لا تفسدوا، كان صحيحاً والأوّل أوجه. والفساد خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، ونقيضه الصلاح وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والفساد في الأرض هيج الحروب والفتن لأنّ في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية. قال الله تعالى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾[3] ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾[4] ومنه قيل لحرب كانت بين طيء: حرب الفساد. وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهم وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم فلما كان ذلك من صنيعهم مؤدياً إلى الفساد قيل لهم: لا تفسدوا. كما تقول للرجل لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك في النار إذا أقدم على ما هذه عاقبته، وإنما لقصر الحكم على شيء كقولك: إنما ينطلق زيد، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد كاتب. ومعنى: **﴿إنما نحن مصلحون﴾** أنّ صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد، و**﴿ألا﴾** مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً كقوله: ﴿أليس ذلك بقادر﴾[5] ولكونها في هذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم، وأختها التي هي أما من مقدمات اليمين وطلائعها: أما والذي لا يعلم الغيب غيره. أما والذي أبكى وأضحك. رد الله ما ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردّ وأدله على سخط عظيم والمبالغة فيه من جهة الاستئناف، وما في كلتا الكلمتين ألا وإن من التأكيدين وتعريف الخبر وتوسيط الفصل، وقوله: **﴿لا يشعرون﴾** توهم في النصيحة من وجهين: أحدهما تقبيح ما كانوا عليه لبعده من الصواب وجره إلى الفساد والفتنة، والثاني: تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع ذوي الأحلام ودخولهم في عدادهم. فكان من جوابهم أن سفهوهم لفرط سفههم، وجهلوهم لتمادي جهلهم، وفي ذلك تسلية للعالم مما يلقى من الجهلة.

فإنْ قلتَ: كيف صح أن يسند قيل إلى لا تفسدوا وآمنوا، وإسناد الفعل إلى الفعل مما لا يصح؟ **قلتُ:** الذي لا يصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل وهذا إسناد له إلى لفظه كأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام فهو نحو قولك: ألف ضرب من ثلاثة أحرف، ومنه: «زعموا مطية الكذب»[6].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

وما في **﴿كما﴾** يجوز أن تكون كافةً مثلها في ربما ومصدريةً مثلها في بما رحبت. واللام في الناس للعهد، أي: كما آمن رسول الله ﷺ ومن معه، أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من جلدتهم ومن أبناء جنسهم، أي: كما آمن أصحابكم وإخوانكم أو للجنس أي: كما آمن الكاملون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل. والاستفهام في **﴿أنؤمن﴾** في معنى الإنكار واللام في **﴿السفهاء﴾** مشار بها إلى الناس كما تقول لصاحبك إنّ زيداً قد سعى بك. فيقول: أو قد فعل السفيه. ويجوز أن تكون للجنس وينطوي تحته الجاري ذكرهم على زعمهم واعتقادهم لأنهم عندهم أعرق الناس في السفه.

فإنْ قلتَ: لم سفهوهم واستركّوا عقولهم وهم العقلاء المراجيح؟ **قلتُ:** لأنهم لجهلهم وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم اعتقدوا أنّ ما هم فيه هو الحق وأنّ ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً. ولأنّهم كانوا في رياسة وسطة في قومهم ويسار، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موالٍ كصهيب وبلال وخباب فدعوهم سفهاء تحقيراً لشأنهم، أو أرادوا عبد الله بن سلام وأشياعه ومفارقتهم دينهم، وما غاظهم من إسلامهم وفتّ في أعضادهم، قالوا ذلك على سبيل التجلد توقياً من الشماتة بهم مع علمهم أنهم من السفه بمعزل، والسفه سخافة العقل وخفة الحلم.

فإنْ قلتَ: فلم فصلت هذه الآية بلا يعلمون والتي قبلها

---

(1) أخرجه أحمد في المسند 5/1، وأخرجه مالك في الموطأ، كتاب الكلام، باب: ما جاء في الصدق والكذب. الحديث رقم: (19).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم الحديث رقم: (6974).

(3) سورة البقرة، الآية: 205.

(4) سورة البقرة، الآية: 30.

(5) سورة القيامة، الآية: 40.

(6) أخرجه أحمد في المسند 401/5.

بلا يشعرون؟ **قلتُ:** لأنّ أمر الديانة والوقوف على أنّ المؤمنين على الحقّ وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدّي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيويّ مبني على العادات، معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر والتحارب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد ولأنّه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مساق هذه الآية بخلاف ما سيقت له أوّل قصة المنافقين فليس بتكرير لأنّ تلك في بيان مذهبهم والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكذيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين وإيهامهم أنهم معهم، فإذا فارقوهم إلى شطار دينهم صدّقوهم ما في قلوبهم. وروي أنّ عبد الله بن أبيّ وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله: انظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاء عنكم فأخذ بيد أبي بكر فقال: مرحباً بالصدّيق سيد بني تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدي الفاروق القويّ في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد عليّ فقال: مرحباً بابن عم رسول الله وختنه سيد بني هاشم ما خلا رسول الله. ثم افترقوا فقال لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيراً[1] فنزلت، ويقال: لقيته ولاقيته، إذا استقبلته قريباً منه وهو جاري ملاقي ومراوقي وقرأ أبو حنيفة: وإذا لاقوا.

وخلوت بفلان وإليه، إذا انفردت معه. ويجوز أن يكون من خلا بمعنى مضى، وخلاك ذمّ أي عداك، ومضى عنك، ومنه القرون الخالية ومن خلوت به إذا سخرت منه، وهو من قولك: خلا فلان بعرض فلان يعبث به. ومعناه: وإذا أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحدّثوهم بها كما تقول: أحمد إليك فلاناً وأذمّه إليك.

﴿وشياطينهم﴾: الذين ماثلوا الشياطين في تمرّدهم. وقد جعل سيبويه نون الشيطان في موضع من كتابه أصلية وفي آخر زائدة، والدليل على أصالتها قولهم تشيطن واشتقاقه من شطن إذا بعد لبعده من الصلاح والخير، ومن شاط إذا بطل إذا جعلت نونه زائدة، ومن أسمائه الباطل.

﴿إنا معكم﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم.

فإنْ قلتَ[2]: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالاسمية محققة بأن؟ **قلتُ:** ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأنّ أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرّك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإمّا لأنّه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة وكيف يقولونه ويطمعون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والأنصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل. ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: **﴿ربنا إننا آمنا﴾**. وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم فكان مظنةً للتحقيق ومئنةً للتوكيد.

فإنْ قلتَ: أنى تعلق قوله: **﴿إنما نحن مستهزءون﴾** بقوله: ﴿إنّا معكم﴾؟ **قلتُ:** هو توكيد له لأنّ قوله: إنا معكم معناه الثبات على اليهودية. وقوله: إنّما نحن مستهزءون ردّ للإسلام ودفع له منهم لأنّ المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته أو بدل منه لأنّ من حقر الإسلام فقد عظم الكفر، أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم: ﴿إنّا معكم﴾. فقالوا: فما بالكم إن صح أنّكم معنا توافقون أهل الإسلام! فقالوا: ﴿إنما نحن مستهزءُن﴾.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب الخفة من الهزء وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ مات على المكان، عن بعض العرب: مشيت فلغبت فظننت لأهزأنّ على مكاني، وناقته تهزأ به أي: تسرع وتخف.

فإنْ قلتَ: لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى لأنّه متعالٍ عن القبيح، والسخرية من باب العيب والجهل. ألا ترى إلى قوله: ﴿قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾[3] فما معنى استهزائه بهم؟ **قلتُ:** معناه إنزال الهوان والحقارة بهم لأنّ المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به، وإدخال الهوان والحقارة عليه، والاشتقاق كما ذكرنا شاهد لذلك، وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم والدلالة على أنّ مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون، ويجوز أن يراد به ما مرّ في يخادعون من أنّه يجري عليهم أحكام المسلمين في

---

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص 16.

(2) قال أحمد رحمه الله: وبني هذا التقرير على أنّ الجملة الاسمية أثبت من الفعلية خصوصاً مؤكدة بـ «أن» مردفة بـ «إنما» على أنه حكى إيمان المؤمنين المخلصين بالجملة الفعلية أيضاً في قوله: = ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول﴾، وعلى الجملة، فلقد أحسن الزمخشري رحمه الله في تقريره ما شاء، وأجمل ما أزاد قوله تعالى: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ الآية.

(3) سورة البقرة، الآية: 67.

الظاهر، وهو مبطن بإدخار ما يراد بهم. وقيل: سمي جزاء الاستهزاء باسمه كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[1] ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾[2].

فإنْ قلتَ[3]: كيف ابتدئ قوله: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ ولم يعطف على الكلام قبله؟ **قلتُ**: هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أنّ الله عزّ وجلّ هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال، ويحل بهم من الهوان والذل، وفيه أنّ الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاماً للمؤمنين، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله.

فإنْ قلتَ[4]: فهلا قيل: الله مستهزئ بهم ليكون طبقاً لقوله: ﴿إنما نحن مستهزءُون﴾[5]؟ **قلتُ**: لأن يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدّده وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم. أو لا يرون أنّهم يفتنون في كل عام مرّة أو مرّتين وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من تهتك أستار وتكشف أسرار ونزول في شأنهم واستشعار حذر من أن ينزل فيهم. ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءُوا إنّ الله مخرج ما تحذرون﴾[6]. ﴿ويمدّهم في طغيانهم﴾ من مدّ الجيش وأمدّه إذا زاده وألحق به ما يقوّيه ويكثره، وكذلك مدّ الدواة وأمدّها زادها ما يصلحها، ومددت السراج والأرض إذا استصلحتهما بالزيت والسماد، ومدّه الشيطان في الغي وأمدّه إذا واصله بالوساوس حتى يتلاحق غيه ويزداد انهماكاً فيه.

فإنْ قلتَ: لم زعمت أنّه من المدد دون المدّ في العمر والإملاء والإمهال؟ **قلتُ**: كفاك دليلاً على أنّه من المدّ دون المدد قراءة ابن كثير وابن محيصن: ويمدّهم، وقراءة نافع وإخوانهم: يمدّونهم، على أن الذي بمعنى أمهله إنما هو مدّ له مع اللام كأملى له.

فإنْ قلتَ[7]: فكيف جاز أن يوليهم الله مدداً في الطغيان وهو فعل الشياطين ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وإخوانهم يمدّونهم في الغي﴾[8]؟

فإنْ قلتَ: إمّا أن يحمل على أنهم لما منعهم الله ألطافه التي يمنحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه بقيت قلوبهم بتزايد الرين والظلمة فيها تزايد الانشراح والنور في قلوب المؤمنين فسمى ذلك التزايد مدداً، وأسند إلى الله سبحانه لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم، وإمّا على منع القسر والإلجاء، وإمّا على أن يسند فعل الشيطان إلى الله لأنه بتمكينه وإقداره والتخلية بينه وبين إغواء عباده.

فإنْ قلتَ: فما حملهم على تفسير المدّ في الطغيان بالإمهال، وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطاوع عليه؟ **قلتُ**: استجرهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشياطين، ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته، وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام، ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدّي سليماً من القادح. فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل، ويعضد ما قلناه قول الحسن في تفسيره في ضلالتهم يتمادون، وأن هؤلاء من أهل الطبع.

والطغيان: الغلوّ في الكفر ومجاوزة الحدّ في العتوّ. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه في طغيانهم بالكسر وهما لغتان كلقيان ولقيان، وغنيان وغنيان.

فإنْ قلتَ[9]: أي نكتة في إضافته إليهم؟ **قلتُ**: فيها أنّ الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحته أيديهم، وأنّ الله بريء منه ردًّا لاعتقاد الكفرة القائلين لو شاء الله ما أشركنا، ونفياً لوهم من عسى يتوهم عند إسناد المدّ إلى ذاته لو لم يضف الطغيان إليهم أنّ الطغيان فعله، فلما أسند المدّ إليه على الطريق الذي ذكر أضاف الطغيان إليهم ليميط الشبه ويقلعها ويدفع في صدر

---

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) سورة البقرة، الآية: 194.

(3) قال أحمد رحمه الله: فإن قال قائل، أفلا تستفاد هذا المعنى من العطف، قيل له لو عطف لأشعر بأنّ الغرض كل الغرض اجتماع مضمون الجملتين، وإعراض عن هذا المبني، الذي ينفرد به الاستئناف.

(4) قال أحمد رحمه الله: ولهذا الفرق بين الفعل، والاسم ورد قوله تعالى: ﴿إنا سخرنا الجبال﴾ معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة، لما كان التسبيح من الطوائد متكرراً متجدداً شيئاً فشيئاً، وحشر الطير معه أمر دائم ذكر التسبيح بصيغة الفعل، والحشر بصيغة الاسم، وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد تقرير فيه.

(5) سورة البقرة، الآية: 14.

(6) سورة التوبة، الآية: 64.

(7) قال أحمد رحمه الله: ما يمنعه أن يقره على ظاهره، ويبقيه في نصابه، إلا أنه توحيد محض وحق صرف، والقدرية من التوحيد=

= على مراحل.

(8) سورة الأعراف، الآية: 202.

(9) قال أحمد رحمه الله: كل فعل صدر من العبد اختياراً، فله اعتباران إن نظرت إلى وجوده وحدوثه، وما هو عليه من وجوه التخصص، فانسب ذلك إلى قدرة الله وحدّه وإرادته، لا شريك له، وإن نظرت إلى تميزه عن القسر الضروري، فانسبه في هذه الجهة إلى العبد، وهي النسبة المعبر عنها شرعاً بالكسب، في أمثال قوله تعالى: ﴿بما كسبت أيديهم﴾ وهي المتحققة أيضاً، إذا عرضت على ذهنك الحركتين الضرورية الرعشية، مثلاً والاختيارية، فإنك تميز بينهما لا محالة بتلك النسبة، فإذا تقرّر تعدّد الاعتبار، فمدّهم في الطغيان مخلوق لله تعالى، فأضافه إليه، ومن حيث كونه واقعاً منهم على وجه الاختيار المعبر عنه بالكسب، أضافه إليهم، ففرّع على أصول السنة بحسن ثمار فروعك في الجنة، لا كما تفرّع القدرية، فإنهم يجنون ولكن على أنفسهم، ألهمنا الله التحقيق وأيدنا بالتوفيق.

من يلحد في صفاته، ومصداق ذلك أنّه حين أسند المدّ إلى الشياطين أطلق الغيّ ولم يقيده بالإضافة في قوله ﴿وإخوانهم يمدّونهم في الغي﴾.

والعمه: مثل العمى إلاّ أنّ العمى عام في البصر والرأي، والعمه في الرأي خاصة، وهو التحير والتردّد لا يدري أين يتوجه. ومنه قوله بالجاهلين: العمه، أي الذين لا رأي لهم ولا دراية بالطرق، وسلك أرضاً عمهاء لا منار بها.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾.

ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى: اختيارها عليه واستبدالها به على سبيل الاستعارة[1] لأنّ الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر ومنه:

أخذت بالجمة رأساً أزعرا ... وبالثنايا الواضحات الدردرا

وبالطويل العمر عمراً حيدرا ... كما اشترى المسلم إذ تنصرا

وعن وهب قال الله عزّ وجلّ فيما يعيب به بني إسرائيل: تفقهون لغير الدين، وتعملون لغير العمل، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة.

فإنْ قلتَ: كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى؟ **قلتُ:** جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنّه في أيديهم فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به، ولأنّ الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها فكل من ضلّ فهو مستبدل خلاف الفطرة.

والضلالة: الجور عن القصد وفقد الاهتداء. يقال: ضلّ منزله وضل دريص نفقه، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين.

والربح: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي الشف من قولك أشف بعض ولده على بعض إذا فضله، ولهذا على هذا شف.

والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشتري للربح، وناقة تاجرة كأنّها من حسنها وسمنها تبيع نفسها. وقرأ ابن أبي عبلة: تجاراتهم.

فإنْ قلتَ: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟ **قلتُ:** هو من الإسناد المجازي، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترين.

فإنْ قلتَ: هل يصح ربح عبدك وخسرت جاريتك على الإسناد المجازي؟ **قلتُ:** نعم إذا دلّت الحال، وكذلك الشرط في صحة رأيت أسداً، وأنت تريد المقدام إن لم تقم حال دالة لم يصح.

فإنْ قلتَ[2]: هب أنّ شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة كان ثم مبايعة على الحقيقة! **قلتُ:** هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجةً وأكثر ماءً ورونقاً وهو المجاز المرشح، وذلك نحو قول العرب في البليد: كأنّ أذني قلبه خطلاً، وإن جعلوه كالحمار ثم رشحوا ذلك روماً لتحقيق البلادة فادعوا لقلبه أذنين وادعوا لهما الخطل ليمثلوا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة، ونحو:

ولما رأيت النسر عزّ ابن داية ... وعشش في وكريه جاش له صدري

لما شبّه الشيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والوكر. ونحوه قول بعض فتاكهم في أمّه:

فما أمّ الربين وإن أدلت ... بعالمة بأخلاق الكرام

إذا الشيطان قصع في قفاها ... تنفقناه بالحبل التوام

أي: إذا دخل الشيطان في قفاها استخرجناه من نافقائه بالحبل المثنى المحكم. يريد إذا حررت وأساءت اجتهدنا في إزالة غضبها وإماطة ما يسوء من خلقها. استعار التقصيع أوّلاً، ثم ضم إليه التنفق، ثم الحبل التوام. فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه تمثيلاً لخسارهم وتصويراً لحقيقته.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾؟ **قلتُ:** معناه أنّ الذي يطلبه التجار في متصرفاتهم شيئان: سلامة رأس المال، والربح. وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين معاً، لأن رأس مالهم كان هو الهدى فلم يبق لهم مع الضلالة، وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالة لم يوصفوا بإصابة الربح وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الدنيوية لأنّ الضال خاسر دامر ولأنّه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله قد ربح. وما كانوا مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيه ويخسر.

مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾.

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في

---

(1) قال أحمد رحمه الله: ومن هذا القبيل، منع مالك رضي الله عنه أن يشتري إحدى أوزتين منبوحتين، يختارها المشتري منهما؛ لأنه يعد مختاراً لكل واحدة منهما، ثم بائعاً لها بالأخرى، فيدخله الربا وهو الذي يعبر عنه متأخروا أصحابه، بأنّ من ملك أن يملك هل يعد مالكاً، أو لا، وربما قالوا من خير بين شيئين، عدّ متنقلاً على أحد القولين.

(2) قال أحمد رحمه الله: وهذا النوع قريب من التيمم الذي يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء:

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

لما شبهته في الاهتداء به بالعلم المرتفع أتبعت ذلك ما يناسبه، ويحققه، فلم تقنع بظهور الارتفاع، حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر، باشتعال النار في رأسه.

صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء. قال الله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[1] ومن سور الإنجيل سورة الأمثال، والمثل في أصل كلامهم بمعنى: المثل، وهو: النظير. يقال: مَثل ومِثل ومثيل، كشَبه وشِبه وشبيه، ثم قيل للقول السائر: الممثل مضربه بمورده مثل، ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جديراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثَم حوفظ عليه وحمي من التغيير.

فإنْ قلتَ: ما معنى ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً**﴾؟ وما مثل المنافقين ومثل الذي استوقد ناراً حتى شبّه أحد المثلين بصاحبه! **قلتُ:** قد استعير المثل استعارة الأسد المقدام للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً. وكذلك قوله: مثل الجنة التي وعد المتقون، أي وفيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة. ثم أخذ في بيان عجائبها ولله المثل الأعلى أي الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة. مثلهم في التوراة: أي صفتهم وشأنهم المتعجب منه، ولما في المثل من معنى الغرابة قالوا: فلان مثلة في الخير والشر، فاشتقوا منه صفةً للعجيب الشأن.

فإنْ قلتَ: كيف مثلت الجماعة بالواحد؟ **قلتُ:** وضع الذي موضع الذين كقوله: ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾[2] والذي سوّغ وضع الذي موضع الذين ولم يجز وضع القائم موضع القائمين ولا نحوه من الصفات أمران:

أحدهما: أنّ الذي لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجملة وتكاثر وقوعه في كلامهم ولكونه مستطالاً بصلته حقيق بالتخفيف ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرته ثم اقتصروا به على اللام وحدها في أسماء الفاعلين والمفعولين.

والثاني: أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة، ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع والواحد فيهن واحد، أو قصد جنس المستوقدين، أو أريد الجمع أو الفوج الذي استوقد ناراً. على أنّ المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنما شبّهت قصتهم بقصة المستوقد ونحوه قوله: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾[3] وقوله: ﴿ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾[4] ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها، ومن أخواته: وقل في الجبل إذا صعد وعلا.

والنار: جوهر لطيف مضيء حارٍ محرق.

والنور: ضوءها وضوء كل نير وهو نقيض الظلمة واشتقاقها من نار ينور إذا نفر لأنّ فيها حركةً واضطراباً والنور مشتق منها.

والإضاءة: فرط الإنارة ومصداق ذلك قوله: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾[5] وهي في الآية متعدية ويحتمل أن تكون غير متعدية مسندةً إلى ما حوله، والتأنيث للحمل على المعنى لأنّ ما حول المستوقد أماكن وأشياء، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: ضاءت، وفيه وجه آخر وهو أن يستتر في الفعل ضمير النار، ويجعل إشراق ضوء النار حوله بمنزلة إشراق النار نفسها، على أنّ ما مزيدة أو موصولة في معنى الأمكنة، وحوله نصب على الظرف، وتأليفه للدوران والإطافة، وقيل للعام حول لأنّه يدور.

فإنْ قلتَ: اين جواب لما؟ **قلتُ:** فيه وجهان:

أحدهما: ان جوابه ﴿**ذهب الله بنورهم**﴾.

والثاني: أنه محذوف كما حذف في قوله: ﴿فلما ذهبوا به﴾. وإنّما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدال عليه وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى: كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام متحيرين متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار.

فإنْ قلتَ: فإذا قدّر الجواب محذوفاً فبم يتعلق: ﴿**ذهب الله بنورهم**﴾؟ **قلتُ:** يكون كلاماً مستانفاً كأنهم لما شبّهت حالهم بحال المستوقد الذي طفئت ناره اعترض سائل فقال: ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد؟ فقيل له: ذهب الله بنورهم، أو يكون بدلاً من جملة التمثيل على سبيل البيان؟

فإنْ قلتَ: قد رجع الضمير في هذا الوجه إلى المنافقين فما مرجعه في الوجه الثاني؟ **قلتُ:** مرجعه الذي استوقد، لأنّه في معنى الجمع، وأما جمع هذا الضمير وتوحيده في حوله فللحمل على اللفظ تارةً وعلى المعنى أخرى.

فإنْ قلتَ: فما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى في قوله: ﴿**ذهب الله بنورهم**﴾؟ **قلتُ:** إذا طفئت النار بسبب سماوي ريح أو مطر فقد أطفاها الله تعالى وذهب بنور المستوقد، ووجه آخر وهو أن يكون المستوقد في هذا الوجه مستوقد نار لا يرضاها الله، ثم إما أن تكون ناراً مجازيةً كنار الفتنة والعداوة للإسلام وتلك النار متقاصرة

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 43.

(2) سورة التوبة، الآية: 69.

(3) سورة الجمعة، الآية: 5.

(4) سورة محمد، الآية: 20.

(5) سورة يونس، الآية: 5.

مدّة اشتعالها قليلة البقاء. ألا ترى إلى قوله: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي ويتهدوا بها في طرق العيث فأطفأها الله وخيب أمانيهم.

فإنْ قلتَ: كيف صح في النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد؟ **قلتُ**: هو خارج على طريقة المجاز المرشح فأحسن تدبره.

فإنْ قلتَ: هلا قيل ذهب الله بضوئهم لقوله **﴿فلما أضاءت﴾**؟ **قلتُ**: ذكر النور أبلغ لأنّ الضوء فيه دلالة على الزيادة، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة، وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً. ألا ترى كيف ذكر عقيبه **﴿وتركهم في ظلمات﴾** والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه، وكيف جمعها وكيف نكرها، وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءا فيها شبحان وهو قوله: **﴿لا يبصرون﴾**.

فإنْ قلتَ: فلم وصفت بالإضاءة؟ **قلتُ**: هذا على مذهب قولهم للباطل صولة ثم يضمحل، ولريح الضلالة عصفة ثم تخفت، ونار العرفج مثل لنزوة كل طماح. والفرق بين أذهبه وذهب به أن معنى أذهبه أزاله وجعله ذاهباً. ويقال: ذهب به، إذا استصحبه ومضى به معه، وذهب السلطان بماله أخذه، فلما ذهبوا به إذاً لذهب كل إله بما خلق. ومنه ذهبت به الخيلاء، والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه وما يمسك الله فلا مرسل له، فهو أبلغ من الإذهاب، وقرأ اليماني: أذهب الله نورهم. وترك بمعنى طرح وخلى إذا علق بواحد كقولهم: تركه ترك ظبي ظله، فإذا علق بشيئين كان مضمناً معنى صير فيجري مجرى أفعال القلوب كقول عنترة:

فتركته جزر السباع ينشنه

ومنه قوله: **﴿وتركهم في ظلمات﴾** أصله هم في ظلمات ثم دخل ترك فنصب الجزأين، والظلمة: عدم النور، وقيل: عرض ينافي النور، واشتقاقها من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا؟ أي: ما منعك وشغلك، لأنّها تسدّ البصر، وتمنع الرؤية، وقرأ الحسن: ظلْمات، بسكون اللام: وقرأ اليماني: في ظلمة على التوحيد، والمفعول الساقط من لا يبصرون من قبيل المتروك المطرح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال لا من قبيل المقدّر المنوي كأنّ الفعل غير متعدٍّ أصلاً، نحو يعمهون في قوله: ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾[1].

فإنْ قلتَ: فيم شبهت حالهم بحال المستوقد؟ **قلتُ**: في أنّهم غب الإضاءة خبطوا في ظلمة وتورّطوا في حيرة.

فإنْ قلتَ: وأين الإضاءة في حال المنافق، وهل هو أبداً إلا حائر خابط في ظلماء الكفر؟ **قلتُ**: المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمي بهم إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمد، ويجوز أن يشبه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاع الله على أسرارهم، وما افتضحوا به بين المؤمنين واتسموا به من سمة النفاق.

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

والأوجه أن يراد الطبع لقوله: **﴿صم بكم عمي﴾** وفي الآية تفسير آخر، وهو أنهم وصفوا بأنّهم اشتروا الضلالة بالهدى، عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها، وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات، وتنكير النار للتعظيم. كانت حواسهم سليمة، ولكن لما سدّوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم، جعلوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك كقوله:

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

أصم عما ساءه سميع

أصم عن الشيء الذي لا أريده ... وأسمع خلق الله حين أريد

فأصممت عمراً وأعميته ... عن الجود والفخر يوم الفخار

فإنْ قلتَ: كيف طريقته عند علماء البيان؟ **قلتُ**: طريقة قولهم هم ليوث للشجعان ويجوز للأسخياء إلا أنّ هذا في الصفات وذاك في الأسماء، وقد جاءت الاستعارة في الأسماء والصفات والأفعال جميعاً. تقول: رأيت ليوثاً ولقيت صماً عن الخير، ودجا الإسلام وأضاء الحق.

فإنْ قلتَ: هل يسمى ما في الآية استعارة؟ **قلتُ**: مختلف فيه، والمحققون على تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارةً لأنّ المستعار له مذكور وهم المنافقون، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوي ذكر المستعار له ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام. كقول زهير:

لدى أسد شاكي السلاح مقذف ... له لبد أظفاره لم تقلم

ومن ثَم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسون التشبيه ويضربون عن توهمه صفحاً. قال أبو تمام:

ويصعد حتى يظنّ الجهول ... بأن له حاجة في السماء

ولبعضهم:

لا تحسبوا أنّ في سرباله رجلاً ... ففيه غيث وليث مسبل مشبل

وليس لقائل أن يقول: طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ فانساق بذلك إلى تسميته استعارةً لأنّه في حكم المنطوق به. نظيره قول من يخاطب الحجاج:

أسد علي وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

ومعنى **﴿لا يرجعون﴾** أنّهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها، تسجيلاً عليهم بالطبع أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين

(1) سورة الأعراف، الآية: 186.

في مكانهم لا يبرحون ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخرون، وكيف يرجعون إلى حيث ابتدأوا منه؟

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾.

ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفاً لحالهم بعد كشف، وإيضاحاً غب إيضاح، وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع. أنشد الجاحظ:

ترمون بالخطب الطوال وتارةً وحي الملاحظ خيفة الرقباء

ومما ثني من التمثيل في التنزيل قوله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾[1] وألا ترى إلى ذي الرمّة كيف صنع في قصيدته:

أذاك أم نمش بالوشي أكرعه أذاك أم خاضب بالسعي مرتعه

فإنْ قلتَ: قد شبّه المنافق في التمثيل الأوّل بالمستوقد ناراً وإظهاره الإيمان بالإضاءة وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، فماذا شبّه في التمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق وبالصواعق؟ **قلتُ:** لقائل أن يقول شبه دين الإسلام بالصيب، لأنّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا.

فإنْ قلتَ: هذا تشبيه أشياء بأشياء فأين ذكر المشبهات؟ وهلا صرح به كما في قوله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾[2] والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء؟ وفي قول امرئ القيس:

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

قلتُ: كما جاء ذلك صريحاً فقد جاء مطوياً ذكره على سنن الاستعارة كقوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾[3] ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل﴾[4]. والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه أنّ التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به، وهو القول الفحل، والمذهب الجزل، بيانه أنّ العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها. كما فعل امرؤ القيس، وجاء في القرآن. وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها. كقوله تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة﴾[5] الآية، الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفيه من الكد والتعب، وكقوله: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾[6] المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيرة شيئاً واحداً فلا، فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، شبّهت حيرتهم وشدّة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

فإنْ قلتَ: الذي كنت تقدره في المفرق من التشبيه من حذف المضاف وهو قولك: أو كمثل ذوي صيب، هل تقدر مثله في المركب منه؟ **قلتُ:** لولا طلب الراجع في قوله تعالى: ﴿**يجعلون أصابعهم في آذانهم**﴾ ما يرجع إليه لكنت مستغنياً عن تقديره لأنّي أراعي الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام فلا على أولى حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه به أم لم يله. ألا ترى إلى قوله: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾[7] الآية، كيف ولي الماء الكاف، وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره، ومما هو بيّن في هذا قول لبيد:

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

لم يشبّه الناس بالديار، وإنما شبّه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم بحلول أهل الديار فيها ووشك نهوضهم عنها وتركها خلاء خاوية.

فإنْ قلتَ: أي التمثيلين أبلغ؟ **قلتُ:** الثاني لأنّه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذلك أخرجوهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ.

فإنْ قلتَ: لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك؟ **قلتُ:** أو في أصلها لتساوي شيئين فصاعداً في الشك، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك. وذلك قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين تريد أنّهما سيان في استصواب أن يجالسا. ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾[8] أي الآثم والكفور متساويان في وجوب عصيانهما. فكذلك قوله: ﴿**أو كصيب**﴾ معناه: أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين، وأن

(1) سورة فاطر، الآيات: 19 ـ 22.
(2) سورة فاطر، الآية: 19.
(3) سورة فاطر، الآية: 12.
(4) سورة الزمر، الآية: 29.
(5) سورة الجمعة، الآية: 5.
(6) سورة الكهف، الآية: 45.
(7) سورة يونس، الآية: 24.
(8) سورة الإنسان، الآية: 24.

القصتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك.

والصيب: المطر الذي يصوب أي ينزل ويقع، ويقال للسحاب: صيب أيضاً. قال الشماخ:

وأسحم دانٍ صادق الرعد صيب

وتنكير صيب لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل كما نكرت النار في التمثيل الأول. وقرىء: كصائب، والصيب أبلغ.

والسماء: هذه المظلة. وعن الحسن: أنها موج مكفوف.

فإنْ قلتَ: قوله: ﴿**من السماء**﴾ ما الفائدة في ذكره والصيب لا يكون إلا من السماء؟ **قلتُ:** الفائدة فيه أنّه جاء بالسماء معرفة فنفى أن يتصوب من سماء أي من أفق واحد من بين سائر الآفاق لأنّ كل أفق من آفاقها سماء، كما أن كل طبقة من الطباق سماء في قوله، ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾، والدليل عليه قوله:

ومن بعد أرض بيننا وسماء

والمعنى: أنّه غمام مطبق آخذ بآفاق السماء، كما جاء بصيب وفيه مبالغات من جهة التركيب والبناء والتنكير، أمد ذلك بأن جعله مطبقاً وفيه أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنّه يأخذه من البحر، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾[1].

فإنْ قلتَ: بم ارتفع ﴿**ظلمات**﴾؟ **قلتُ:** بالظرف على الاتفاق لاعتماده على موصوف.

والرعد: الصوت الذي يسمع من السحاب، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدتها الريح فتصوت عند ذلك من الارتعاد.

والبرق: الذي يلمع من السحاب، من برق الشيء بريقاً إذا لمع.

فإنْ قلتَ: قد جعل الصيب مكاناً للظلمات فلا يخلو من أن يراد به السحاب أو المطر فأيهما أريد فما ظلماته؟ **قلتُ:** أما ظلمات السحاب فإذا كان أسحم مطبقاً فظلمتا سحمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل، وأما ظلمات المطر فظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة الليل.

فإنْ قلتَ: كيف يكون المطر مكاناً للبرق والرعد، وإنما مكانهما السحاب؟ **قلتُ:** إذا كانا في أعلاه ومصبه وملتبسين في الجملة به فهما فيه. ألا تراك تقول: فلان في البلد وما هو منه إلا في حيز يشغله جرمه.

فإنْ قلتَ: هلا جمع الرعد والبرق أخذاً بالأبلغ كقول البحتري:

يا عارضاً متلفعاً ببروده ... يختال بين بروقه ورعوده

وكما قيل: ظلمات. **قلتُ:** فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد العينان، ولكنهما لما كانا مصدرين في الأصل يقال: رعدت السماء رعداً وبرقت برقاً، روعي حكم أصلهما بأن ترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع.

والثاني: أن يراد الحدثان كأنه قيل: وإرعاد وإبراق. وإنما جاءت هذه الأشياء منكرات لأنّ المراد أنواع منها، كأنّه قيل: فيه ظلمات داجية ورعد قاصف وبرق خاطف. وجاز رجوع الضمير في يجعلون إلى أصحاب الصيب مع كونه محذوفاً قائماً مقامه الصيب. كما قال: أو هم قائلون، لأنّ المحذوف باقٍ معناه وإن سقط لفظه. ألا ترى إلى حسان كيف عول على بقاء معناه في قوله:

يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل

حيث ذكر يصفق لأنّ المعنى ماء بردى ولا محل لقوله يجعلون لكونه مستأنفاً لأنّه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدّة والهول فكأن قائلاً قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: ﴿**يجعلون أصابعهم في آذانهم**﴾. ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقيل: يكاد البرق يخطف أبصارهم.

فإنْ قلتَ[2]: رأس الأصبع هو الذي يجعل في الأذن فهلا قيل: أناملهم؟ **قلتُ:** هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها. كقوله: ﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم﴾[3] ﴿فاقطعوا أيديهما﴾[4] أراد البعض الذي هو إلى المرفق والذي إلى الرسغ. وأيضاً ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل.

فإنْ قلتَ[5]: فالأصبع التي تسدّ بها الأذن أصبع خاصة، فلم ذكر الاسم العام دون الخاص؟ **قلتُ:** لأنّ السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن، ألا ترى أنّهم قد استبشعوها فكنّوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة والدعاءة.

فإنْ قلتَ: فهلا ذكر بعض هذه الكنايات؟ **قلتُ:** هي

---

(1) سورة النور، الآية: 43.

(2) قال أحمد رحمه الله: لأنّ فيه إشعاراً بأنهم يبالغون في إدخال أصابعهم في آذانهم، فوق العادة المعتادة في ذلك فراراً من شدّة الصوت.

(3) سورة المائدة، الآية: 6.

(4) سورة المائدة، الآية: 38.

(5) قال أحمد رحمه الله: لا ورود لهذين السؤالين. أما الأوّل: فلأنه غير لازم أن يسدّوا في تلك الحالة بالسبابة، ولا به فإنها حالة حيرة ودهش، فأي أصبع اتفق أن يسدوا بها، فعلوا غير معرجين على ترتيب معتاد في ذلك، فذكر مطلق الأصابع أدل عليه الدهش= = والحيرة، أو فعلهم يؤثرون في هذه الحال سد آذانهم بالوسطى؛ لأنها أصم للأذن، وأحجب للصوت، لم يلزم اقتصارهم على السبابة، وأما السؤال الثاني فمفرع على الأول، وقد ظهر بطلانه، وأيضاً ففيه مزيد ركاكة، إذ الغرض تشبيه حال المنافقين بحال أمثالهم من ذوي الحيرة، فكيف يليق أن يكنى عن أصابعهم بالمسبحات، ولعل ألسنتهم ما سبحت الله قط، ثم إذا كان الغرض من التمثيل تصوير المعاني في الأذان تصور المحسوسات، فذلك خليق بذكر الصرائح، واجتناب الكنايات والرموز. قوله تعالى: ﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾.

ألفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد وإنما أحدثوها بعد. قوله: ﴿من الصواعق﴾ متعلق بيجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم. كقولك: سقاه من الغيمة والصاعقة قصفة رعد تنقض معها شقة من نار، قالوا تنقدح من السحاب إذا اصطلكت أجرامه وهي نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود، يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفئت. ويقال: صعقته الصاعقة إذا أهلكته، فصعق أي مات إما بشدّة الصوت أو بالإحراق. ومنه قوله تعالى: ﴿وخرّ موسى صعقاً﴾[1]. وقرأ الحسن: من الصواقع، وليس بقلب للصواعق لأنّ كلا البناءين سواء في التصرف وإذا استويا كان كل واحد بناء على حياله. ألا تراك تقول: صقعه على رأسه، وصقع الديك، وخطيب مصقع مجهر بخطبته. ونظيره جبذ في جذب ليس بقلبه لاستهوائهما في التصرف، وبناؤها إما أن يكون صفةً لقصفه الرعد أو للرعد والتاء مبالغة كما في الرواية، أو مصدراً كالكاذبة والعافية. وقرأ ابن أبي ليلى: حذار الموت، وانتصب على أنه مفعول له. كقوله:

وأغفر عوراء الكريم ادخاره ... والموت فساد بنية الحيوان

وقيل: عرض لا يصح معه إحساس معاقب للحياة.

وإحاطة الله بالكافرين: مجاز، والمعنى أنّهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط به حقيقةً، وهذه الجملة اعتراض لا محل لها.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

والخطف: الأخذ بسرعة. وقرأ مجاهد: يخطف، بكسر الطاء، والفتح أفصح وأعلى. وعن ابن مسعود: يختطف. وعن الحسن: يخطف، بفتح الياء والخاء وأصله يختطف، وعنه: يخطف، بكسرهما على اتباع الياء الخاء. وعن زيد بن علي: يخطف من خطف، وعن أبيّ: يتخطف، من قوله: ويتخطف الناس من حولهم. ﴿كلما أضاء لهم﴾ استئناف ثالث كأنّه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في تارتي خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب، وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصةً فخطوا خطواتٍ يسيرةً، فإذا خفي وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة، ولو شاء الله لزاد في قصيف الرعد فأصمهم، أو في ضوء البرق فأعماهم. وأضاء إما متعدد بمعنى كلما نوّر لهم ممشى ومسلكاً أخذوه، والمفعول محذوف، وإمّا غير متعدٍ بمعنى كلما لمع لهم. ﴿مشوا﴾ في مطرح نوره وملقى ضوئه. ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: كلما ضاء لهم. والمشي جنس الحركة المخصوصة فإذا اشتدّ فهو سعي فإذا ازداد فهو عدو.

فإنْ قلتَ: كيف قبل مع الإضاءة كلما ومع الإظلام إذاً؟ **قلتُ**: لأنهم حرّاص على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي وتأتيه فكلما صادفوا منه فرصةً انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتحبس. وأظلم يحتمل أن يكون غير متعدٍ وهو الظاهر، وأن يكون متعدّياً منقولاً من ظلم الليل، وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب: أظلم، على ما لم يسمّ فاعله، وجاء في شعر حبيب بن أوس:

هما أظلما حالي ثمت أجليا ... ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. ألا ترى إلى قول العلماء الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه. ومعنى: ﴿قاموا﴾ وقفوا وثبتوا في مكانهم، ومنه قامت السوق إذا ركدت، وقام الماء جمد. ومفعول شاء محذوف لأنّ الجواب يدل عليه، والمعنى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها. ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد، لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب كنحو قوله:

فلو شئت أن أبكي دماً لبكيته

وقوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا﴾[2] و ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً﴾[3] وأراد ولو شاء الله ﴿لذهب بسمعهم﴾ بقصيف الرعد ﴿وأبصارهم﴾ بوميض البرق. وقرأ ابن أبي عبلة: لأذهب بأسماعهم، بزيادة الباء. كقوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم﴾[4] والشيء ما صحّ أن يعلم ويخبر عنه. قال سيبويه في ساقة الباب المترجم بباب مجاري أواخر الكلم من العربية: وإنما يخرج التأنيث من التنكير. ألا ترى أنّ الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى، والشيء مذكر وهو أعم العام، كما أنّ الله أخصّ الخاص يجري على الجسم والعرض والقديم. تقول شيء لا كالأشياء، أي معلوم لا كسائر المعلومات وعلى المعدوم والمحال.

فإنْ قلتَ[5]: كيف قيل: ﴿على كل شيء قدير﴾؟ وفي الأشياء ما لا تعلق به للقادر كالمستحيل وفعل قادر آخر!

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 143.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 17.

(3) سورة الزمر، الآية: 4.

(4) سورة البقرة، الآية: 195.

(5) قال أحمد رحمه الله: هذا الذي أورده خطأ على الأصل والفرع؛ أمّا على الأصل، فلأنّ الشيء لا يتناول إلا الموجود عند أهل السنة، = وأمّا على الفرع فلأنا وإن فرّعنا على معتقد القدرية، والشيء عندهم إنما يتناول الموجود والمعدوم، الذي يصح وجوده، فلا يتناول المستحيل إذاً على هذا التفريع، فإيراده إياه نقضاً غير مستقيم على المذهبين، وأمّا المقدور بين قادرين، فإنها ورطة إنما يستاق إليها القدرية، الذين يعتقدون أنّ ما تعلّقت به قدرة العبد، استحال أن يتعلق به قدرة الرب إذ قدرة العبد خالقة، فيستغني =

قلتُ: مشروط في حد القادر أن لا يكون الفعل مستحيلاً فالمستحيل مستثنى في نفسه عند ذكر القادر على الأشياء كلها. فكأنه قيل: على كل شيء مستقيم قدير. ونظيره: فلان أمير على الناس، أي على من وراءه منهم، ولم يدخل فيهم نفسه وإن كان من جملة الناس. وأمّا الفعل بين قادرين فمختلف فيه.

فإنْ قلتَ: ممّ اشتقاق القدير؟ **قلتُ:** من التقدير لأنّه يوقع فعله على مقدار قوّته واستطاعته وما يتميّز به عن العاجز. لما عدّد الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم، وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويرديها، أقبل عليهم بالخطاب وهو من الالتفات المذكور عند قوله: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾[1] وهو فن من الكلام جزل فيه هز وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما إنّ فلاناً من قصته كيت وكيت فقصصت عليه ما فرط منه ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت: يا فلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك وتستوي على جادّة السداد في مصادرك ومواردك، نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيه واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازاً من طبعه ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة، وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف يستفتح الآذان للاستماع ويستهش الأنفس للقبول.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾.

وبلغنا بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة أنّ كل شيء نزل فيه ﴿يا أيّها الناس﴾[2] فهو مكي، و ﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾[3] فهو مدني، فقوله: **﴿يا أيّها الناس اعبدوا ربّكم﴾** خطاب لمشركي مكة، ويا حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه، وأمّا نداء القريب فله أي والهمزة، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل، وإن قرب تنزيلاً له منزله من بعد فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأنّ الخطاب الذي يتلوه معنيّ به جداً.

فإنْ قلتَ: فما بال الداعي يقول في جؤاره: يا رب، ويا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأسمع به وأبصر! **قلتُ:** هو استقصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظانّ الزلفى وما يقرّبه إلى رضوان الله ومنازل المقرّبين هضماً لنفسه وإقراراً عليها بالتفريط في جنب الله مع فرط التهالك على استجابة دعوته، والإذن لندائه وابتهاله.

وأي: وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أنّ ذو والذي وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل، وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بدّ أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء. فالذي يعمل فيه حرف النداء هو أي والاسم التابع له صفته كقولك: يا زيد الظريف، إلاّ أنّ أياً لا يستقل بنفسه استقلال زيد فلم ينفك عن الصفة. وفي هذا التدرّج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد، وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضاً مما يستحقه أي من الإضافة.

فإنْ قلتَ: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ **قلتُ:** لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة، لأنّ كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ.

فإنْ قلتَ: لا يخلو الأمر بالعبادة من أن يكون متوجهاً إلى المؤمنين والكافرين جميعاً، أو إلى كفار مكة خاصة. على ما روي عن علقمة والحسن: فالمؤمنون عابدون ربّهم فكيف أمروا بما هم ملتبسون به؟ وهل هو إلا كقول القائل:

فلو أني فعلت كنت من تسـ ـألـه وهـو قـائـم أن يـقـومـا

وأما الكفار فلا يعرفون الله ولا يقرّون به فكيف يعبدونه؟ **قلتُ:** المراد بعبادة المؤمنين ازديادهم منها وإقبالهم وثباتهم عليها، وأمّا عبادة الكفار فمشروط فيها ما لا بدّ لها منه وهو الإقرار كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرهما. وما لا بدّ للفعل منه فهو مندرج تحت الأمر به وإن لم يذكر حيث لم

= الفعل بها عن قدرة خالق آخر: ﴿تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً﴾، وأما أهل السنة، فالقادر الخالق عندهم واحد، وهو الله الواحد الأحد، فتتعلق قدرته تعالى بالفعل، فيخلقه وتتعلق به قدرة العبد تعلق اقتران لا تأثير، فلذلك لم يخلق مقدور بين قادرين على هذا التفسير، وقد حشى الزمخشري في إدراج كلامه هذا، سلب القدرة القديمة وجحدها، وجعل الله تعالى قادراً بالذات لا بالقدرة دس ذلك تحت قوله، وفي الأشياء ما لا تعلق به لذات القادر، ولم يقل لقدرة القادر، فليتفطن لدفائنه، وكم من ضلالة استدسها في هذه المقالة، والله الموفق. فإن قيل: أيها الأشعرية، إذا كان الشيء = عندكم هو الموجود، فما معنى القدرة عليه بعد وجوده وبقائه، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين: ﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾. قلنا القدرة تتعلق بمقدورها، فتوجده فيكون حينئذٍ شيئاً فلما كان مآل ما تعلقت به القدرة، إلى الشيء حتماً، صحّ إطلاق الشيء عليه، وهو من وادي من قتل قتيلاً، فله سلبه، وإذا سموا الشيء باسم ما يؤل إليه غالباً فما يؤل إليه حتماً أجدر.

(1) سورة الفاتحة، الآية: 5.
(2) سورة الزخرف، الآية: 87.
(3) سورة البقرة، الآية: 172.

ينفعل إلا به، وكان من لوازمه على أنّ مشركي مكة كانوا يعرفون الله ويعترفون به ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾.

فإنْ قلتَ: فقد جعلت قوله ﴿اعبدوا﴾ متناولاً شيئين معاً: الأمر بالعبادة، والأمر بازديادها! **قلتُ:** الازدياد من العبادة عبادة وليس شيئاً آخر.

فإنْ قلتَ: ﴿ربكم﴾ ما المراد به؟ **قلتُ:** كان المشركون معتقدين ربوبيتين ربوبية الله، وربوبية آلهتهم. فإن خصوا بالخطاب فالمراد به اسم يشترك فيه ربّ السمٰوات والأرض والآلهة التي كانوا يسمونها أرباباً. وكان قوله: ﴿الذي خلقكم﴾ صفة موضحة مميزة، وإن كان الخطاب للفرق جميعاً، فالمراد به ربّكم على الحقيقة، والذي خلقكم صفة جرت عليه على طريق المدح والتعظيم، ولا يمتنع هذا الوجه في خطاب الكفرة خاصةً إلاّ أنّ الأوّل أوضح وأصح، والخلق إيجاد الشيء على تقدير واستواء. يقال: خلق النعل، إذا قدّرها وسوّاها بالمقياس. وقرأ أبو عمرو: خلقكم بالإدغام، وقرأ أبو السميفع: وخلق من قبلكم. وفي قراءة زيد بن علي: والذين من قبلكم، وهي قراءة مشكلة ووجهها على إشكالها أن يقال: أقحم الموصول الثاني بين الأوّل وصلته تاكيداً، كما أقحم جرير في قوله:

يا تيم تيم عدي لا أبا لكم

تيماً الثاني بين الأوّل وما أضيف إليه. وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في لا أبا لك. ولعل للترجي أو الإشفاق، تقول: لعل زيداً يكرمني، ولعله يهينني. وقال الله تعالى: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾(1) ﴿لعل الساعة قريب﴾(2). ألا ترى إلى قوله: ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾(3) وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن، ولكن لأنّه إطماع من كريم رحيم إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة لجري أطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به. قال من قال: إن لعل بمعنى كي، ولعلّ لا تكون بمعنى كي ولكن الحقيقة ما ألقيت إليك، وأيضاً فمن ديدن الملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا عسى ولعل ونحوهما من الكلمات، أو يخيلوا إخالةً أو يظفر منهم بالرمزة أو الابتسامة أو النظرة الحلوة. فإذا عثر على شيء من ذلك منهم لم يبق للطالب ما عندهم شك في النجاح والفوز بالمطلوب، فعلى مثله ورد كلام مالك الملوك ذي العز والكبرياء، أو يجيء على طريق الإطماع دون التحقيق لئلا يتكل العباد كقوله: ﴿يا أيّها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى ربّكم أن يكفر عنكم سيآتكم﴾(4).

فإنْ قلتَ: فلعل التي في الآية ما معناها وما موقعها؟ **قلتُ:** ليست مما ذكرناه في شيء لأنّ قوله: ﴿خلقكم... لعلّكم تتقون﴾ لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم، لأنّ الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة، وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضاً(5)، ولكن لعلّ واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة؛ لأنّ الله عزّ وجلّ خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف، وركب فيهم العقول والشهوات، وأزاح العلة في أقدارهم وتمكينهم، وهداهم النجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير والتقوى، فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا ليترجح أمرهم، وهم مختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجّحت حال المرتجي بين أن يفعل وأن لا يفعل، ومصداقه قوله عزّ وجلّ: ﴿ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾(6) وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب، ولكن شبّه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار.

فإنْ قلتَ: كما خلق المخاطبين لعلهم يتقون، فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك، فلم قصره عليهم دون من قبلهم؟ **قلتُ:** لم يقصره عليهم ولكن غلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ، والمعنى على إرادتهم جميعاً.

فإنْ قلتَ(7): فهلا قيل تعبدون لأجل اعبدوا أو اتقوا لمكان تتقون ليتجاوب طرفا النظم. **قلتُ:** ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي ذلك إلى تنافر النظم، وإنّما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده. فإذا قال: اعبدوا ربكم الذي خلقكم للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة وأشد إلزاماً لها وأثبت لها في النفوس. ونحوه أن تقول لعبدك: احمل خريطة الكتب فما ملكتك يميني إلا لجرّ الأثقال، ولو قلت: لحمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قدم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له

---

(1) سورة طه، الآية: 44.

(2) سورة الشورى، الآية: 17.

(3) سورة الشورى، الآية: 18.

(4) سورة التحريم، الآية: 8.

(5) قال أحمد رحمه الله: كلام سديد إلا قوله، وأراد منهم التقوى والخير، فإنه كلام أبرزه على قاعدة القدرية، والصحيح، والسنة أن الله تعالى أراد من كل أحد ما وقع منه من خير وغيره، ولكن طلب الخير والتقوى منهم أجمعين، والطلب والأمر عند أهل السنة مباين للإرادة، ألهمنا الله صواب القول وسداده.

(6) سورة الملك، الآية: 2. وسورة هود، الآية: 7.

(7) قال أحمد رحمه الله: كلام حسن إلا قوله خلقكم للاستيلاء على أقصى غاية العبادة، فإنه مفرع على تلك النزعة المتقدّمة آنفاً، والعبارة المحررة في ذلك على قاعدة السنة أن يقال: اعبدوا ربكم الذي خلقكم على حالة من خلقكم معها، أن تستولوا على أقصى غاية العبادة، وهي التقوى لما ركب فيكم من العقول، وبينه لكم من البواعث على تقواه، فكان جديراً بكم، أن لا تدعوا من جهدكم في التقوى شيئاً.

خلقهم أحياء قادرين، أوّلاً لأنّه سابقة أصول النعم ومقدمتها والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما. ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لا بدّ لهم منه وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه. ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار. ثم ما سواه عزّ وجلّ من شبّه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل المنتج من الحيوان من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم ليكون لهم ذلك معتبراً ومتسلقاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف، ونعمةً يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر، ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم، وأن شيئاً من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها. فيتيقنوا عند ذلك أن لا بدّ لها من خالق ليس كمثلها حتى لا يجعلوا المخلوقات لله أنداداً، وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر. والموصول مع صلته إمّا أن يكون في محل النصب وصفاً كالذي خلقكم، أو على المدح والتعظيم. وإمّا أن يكون رفعاً على الابتداء وفيه ما في النصب من المدح.

وقرأ يزيد الشامي: بساطاً. وقرأ طلحة: مهاداً. ومعنى جعلها فراشاً وبساطاً ومهاداً للناس أنّهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده.

فإنْ قلتَ: هل فيه دليل على أنّ الأرض مسطحة وليست بكرّية؟ **قلتُ:** ليس فيه إلاّ أنّ الناس يفترشونها كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السطح أو شكل الكرة فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع لعظم حجمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها، وإذا كان متسهلاً في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض فهو في الأرض ذات الطول والعرض أسهل.

والبناء: مصدر سمي به المبني بيتاً كان أو قبةً أو خباءً أو طرافاً، وأبنية العرب أخبيتهم ومنه: بنى على امرأته، لأنّهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباءً جديداً.

فإنْ قلتَ: ما معنى إخراج الثمرات بالماء، وإنما خرجت بقدرته ومشيئته؟ **قلتُ:** المعنى أنّه جعل الماء سبباً في خروجها ومادةً لها، كماء الفحل في خلق الولد وهو قادر على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا مواد كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشاء الأشياء مدرجاً لها من حال إلى حال وناقلاً من مرتبة إلى مرتبة حكماً ودواعي يجدّد فيها لملائكته والنظار بعيون الاستبصار من عباده عبراً وأفكاراً صالحة، وزيادة طمانينة وسكون إلى عظيم قدرته وغرائب حكمته. ليس ذلك في إنشائها بغتةً من غير تدريج وترتيب.

ومن: في ﴿من الثمر﴾ للتبعيض بشهادة قوله ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾. وقوله: ﴿فأخرجنا به ثمرات﴾[1] ولأنّ المنكرين أعني ماءً ورزقاً يكتنفانه، وقد قصد بتنكيرهما معنى البعضية، فكأنه قيل: وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم، وهذا هو المطابق لصحة المعنى لأنّه لم ينزل من السماء الماء كله ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات ولا جعل الرزق كله في الثمرات، ويجوز أن تكون للبيان كقولك: أنفقت من الدراهم ألفاً.

فإنْ قلتَ: فيم انتصب ﴿رزقاً﴾؟ **قلتَ:** إن كانت من للتبعيض كان انتصابه بأنه مفعول له، وإن كانت مبنيةً كان مفعولاً لأخرج.

فإنْ قلتَ: فالثمرات مخرج بماء السماء كثير جم، فلم قيل: الثمرات، دون الثمر والثمار؟ **قلتُ:** فيه وجهان:

أحدهما: أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك: فلان أدركت ثمرة بستانه تريد ثماره، ونظيره قولهم: كلمة الحويدرة لقصيدته، وقولهم: للتقرية المدرة، وإنما هي مدر متلاحق.

والثاني: أنّ الجموع يتعاور بعضها موقع بعض لالتقائها في الجمعية كقوله: ﴿كم تركوا من جنات﴾ و﴿ثلاثة قروء﴾؟ ويعضد الوجه الأوّل قراءة محمد بن السميفع: من الثمرة، على التوحيد. و ﴿لكم﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسماً للمعنى فهو مفعول به، كأنّه قيل: رزقاً إياكم.

فإنْ قلتَ: بم تعلق ﴿فلا تجعلوا﴾؟ **قلتَ:** فيه ثلاثة أوجه، أن يتعلق بالأمر أي: اعبدوا ربّكم فلا تجعلوا له ﴿أنداداً﴾؛ لأنّ أصل العبادة وأساسها التوحيد، وأن لا يجعل لله ند ولا شريك، أو بلعل على أن ينتصب تجعلوا انتصاب فأطلع في قوله عز وجل: ﴿لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى﴾[2] في رواية حفص عن عاصم: أي خلقكم؛ لكي تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه. أو بالذي جعل لكم إذا رفعته على الابتداء، أي: هو الذي خصّكم بهذه الآيات العظيمة، والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية فلا تتخذوا له شركاء.

والند: المثل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوئ، قال جرير:

أتيماً تجعلون إليّ نداً   وما تيم لذي حسب نديد

ونادت الرجل خالفته ونافرته، من ند ندوداً إذا نفر، ومعنى قولهم: ليس لله ندّ ولا ضدّ، نفي ما يسدّ مسدّه ونفي ما ينافيه.

فإنْ قلتَ: كانوا يسمون أصنامهم باسمه ويعظمونها بما يعظم به من القرب، وما كانوا يزعمون أنها تخالف الله وتناويه! **قلتُ:** لما تقرّبوا إليها وعظموها وسموها آلهةً، أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله قادرة على مخالفته ومضادته، فقيل لهم: ذلك على سبيل التهكم كما تهكم بهم بلفظ الند شنع عليهم واستفظع شأنهم بأن

(1) سورة الأعراف، الآية: 57.

(2) سورة غافر، الآيتان: 37، 38.

جعلوا أنداداً كثيرةً لمن لا يصح أن يكون له ند قط. وفي ذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه:

أربــــاً واحـــــداً أم ألــــف رب أديــن إذا تــقــســمــت الأمــور

وقرأ محمد بن السميفع: فلا تجعلوا لله نِدًّا.

فإنْ قلتَ: ما معنى ﴿**وأنتم تعلمون**﴾؟ **قلتَ**: معناه: وحالكم وصفتكم أنّكم من صحة تمييزكم بين الصحيح والفاسد، والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال، والإصابة في التدابير والدهاء والفطنة بمنزل لا تدفعون عنه، وهكذا كانت العرب خصوصاً ساكنو الحرم من قريش وكنانة لا يصطلى بنارهم في استحكام المعرفة بالأمور وحسن الإحاطة بها، ومفعول تعلمون متروك كأنه قيل: وأنتم من أهل العلم والمعرفة والتوبيخ فيه آكد. أي: أنتم العرافون المميزون، ثم إنّ ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل. ويجوز أن يقدّر وأنتم تعلمون أنه لا يماثل، أو وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، أو أنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله. كقوله: ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذٰلكم من شيء﴾[1].

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

لما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ويحققها ويبطل الإشراك ويهدمه، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعرفهم أنّ من أشرك فقد كابر عقله وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه، عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعي أم هو من عند نفسه كما يدعون بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ويذوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته.

فإنْ قلتَ: لم قيل ﴿**مما نزلنا**﴾؟ على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ **قلتُ**: لأنّ المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم، وهو من محازه لمكان التحدّي. وذلك أنّهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوماً سورةً بعد سورة وآياتٍ غب آيات على حسب النوازل وكفاء الحوادث، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً وشيئاً فشيئاً حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجدّدة والحاجات السانحة، لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة، فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملةً واحدةً. قال الله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدة﴾[2] فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج فهاتوا أنتم نوبةً واحدة من نوبة، وهلموا نجماً فرداً من نجومه، سورةً من أصغر السور أو آياتٍ شتى مفتريات، وهذه غاية التبكيت ومنتهى إزاحة العلل.

وقرىء: على عبدنا، يريد رسول الله ﷺ وأمّته.

والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات وواوها إن كانت أصلاً فإما أن تسمى بسورة المدينة وهي حائطها لأنها طائفة من القرآن محدودة محوزة على حيالها كالبلد المسور، أو لأنّها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد، كاحتواء سور المدينة على ما فيها، وإمّا أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة، قال النابغة:

ولــرهــط حــزاب وقــدّ ســورة في المجد ليس غرابها بمطار

لأحد معنيين لأنّ السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارىء، وهي أيضاً في أنفسها مترتبة طوال وأوساط وقصار، أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين، وإن جعلت واوها منقلبةً عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن كالسؤرة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه.

فإنْ قلتَ: ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً؟ **قلتُ**: ليست الفائدة في ذلك واحدة ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسوّرةً مترجمة السور، وبوّب المصنفون في كل فن كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم. ومن فوائده أنّ الجنس إذا انطوت تحته أنواع واشتمل على أصناف كان أحسن وأنبل وأفخم من أن يكون بياناً واحداً، ومنها أنّ القارئ إذا ختم سورةً أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثله المسافر إذا علم أنه قطع ميلاً أو طوى فرسخاً أو انتهى إلى رأس بريد نفس ذلك منه ونشطه للسير، ومن ثَم جزأ القراء القرآن أسباعاً وأجزاءً وعشوراً وأخماساً، ومنها أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفةً مستقلةً بنفسها لها فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه، ويجل في نفسه ويغتبط به، ومنه حديث أنس رضي الله عنه: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا[3]، ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل، ومنها أنّ التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع. ﴿**من مثله**﴾[4] متعلق بسورة صفة لها أي بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا أو لعبدنا،

---

(1) سورة الروم، الآية: 40.

(2) سورة الفرقان، الآية: 32.

(3) أخرجه أحمد في المسند 3/245.

(4) **قال أحمد** رحمه الله: ومعنى هذا الترجيح أن المتحدّي عليهم في = التفسير الأوجه جملة المخاطبين، أي: أنهم باجتماعهم ومظاهرة بعضهم بعضاً، عجزة عن الإتيان بطائفة منه، وأمّا على التفسير المرجوح، فهم مخاطبون بأن يعينوا واحداً منهم، يكون معارضاً للمتحدّي، بأنه يأتي بمثل ما أتي به، أو ببعضه ولا شك أن عجز =

ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿فأتوا﴾ والضمير للعبد.

فإنْ قلتَ: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل؟ **قلتُ:** معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم، أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياً أو أمياً لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك، ولكنه نحو قول القبعثري للحجاج وقد قال له: لأحملنك على الأدهم مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب، أراد من كان على صفة الأمير من السلطان والقدرة وبسطة اليد ولم يقصد أحداً يجعله مثلاً للحجاج، ورد الضمير إلى المنزل أوجه لقوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة مثله﴾[1] ﴿فأتوا بعشر سور مثله﴾[2] ﴿على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾[3] ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب والكلام مع ردّ الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً، وذلك أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه، وهو مسوق إليه ومربوط به، فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير إلى غيره. ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم في أنّ القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله ويجانسه، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم في أنّ محمداً منزّل عليه فهاتوا قرآناً من مثله. ولأنّهم إذا خوطبوا جميعاً وهم الجم الغفير بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم كان أبلغ في التحدّي من أن يقال لهم: ليأت واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد، ولأنّ هذا التفسير هو الملائم لقوله: ﴿وادعوا شهداءكم﴾ والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة.

ومعنى دون: أدنى مكان من الشيء. ومنه الشيء الدون وهو الدنيّ الحقير، ودوّن الكتب إذا جمعها لأنّ جمع الأشياء إدناء بعضها من بعض، وتقليل المسافة بينها. يقال: هذا دون ذاك، إذا كان أحطّ منه قليلاً. ودونك هذا، أصله خذه من دونك، أي من أدنى مكان منك، فاختصر واستعير للتفاوت في الأحوال والرتب. فقيل: زيد دون عمرو في الشرف والعلم. ومنه قول من قال لعدوّه وقد راءاه بالثناء عليه: أنا دون هذا وفوق ما في نفسك. واتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حدّ إلى حدّ وتخطي حكم إلى حكم. قال الله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾[4] أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. وقال أمية:

يا نفس ما لك دون الله من واقي

أي: إذا تجاوزت وقاية الله ولم تناليها لم يقك غيره.

و﴿من دون الله﴾ متعلق بادعوا، أو بشهداءكم، فإن علقته بشهداءكم فمعناه: ادعوا الذين اتخذتموهم آلهةً من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق، أو ادعوا الذين يشهدون لكم بين يدي الله من قول الأعشى:

تريك القذى من دونها وهي دونه

أي: تريك القذى قدّامها وهي قدّام القذى لرقتها وصفائها، وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن المعجز بفصاحته غاية التهكم بهم. أو ادعوا شهداءكم من دون الله أي من دون أوليائه ومن غير المؤمنين ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بمثله، وهذا من المساهلة وإرخاء العنان والإشعار بأنّ شهداءهم وهم مدارة القوم الذين هم وجوه المشاهد، وفرسان المقاولة والمناقلة، تأبى عليهم الطباع وتجمح بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فساده واستقامة المحال الجلي في عقولهم إحالته. وتعليقه بالدعاء في هذا الوجه جائز، وإن علقته بالدعاء فمعناه: ادعوا من دون الله شهداءكم. يعني: لا تستشهدوا بالله، ولا تقولوا الله يشهد أنّ ما ندعيه حق كما يقوله العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه، وادعوا الشهداء من الناس الذين شهادتهم بينة تصحح بها الدعاوى عند الحكام. وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم وانخذالهم، وأنّ الحجة قد بهرتهم ولم تبق لهم متشبثاً غير قولهم الله يشهد أنا صادقون، وقولهم هذا تسجيل منهم على أنفسهم بتناهي العجز وسقوط القدرة. وعن بعض العرب أنه سئل عن نسبه فقال: قرشي والحمد لله، فقيل له: قولك الحمد لله في هذا المقام ريبة. أو ادعوا من دون الله شهداءكم، يعني: أنّ الله شاهدكم؛ لأنّه أقرب إليكم من حبل الوريد وهو بينكم وبين أعناق رواحلكم، والجنّ والإنس شاهدوكم، فادعوا كل من يشهدكم واستظهروا به من الجن والإنس إلا الله تعالى لأنّه القادر وحده على أن يأتي بمثله دون كل شاهد من شهدائكم. فهو في معنى قوله: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن﴾[5] الآية. لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرّفون أمر النبيّ ﷺ وما جاء به حتى يعثروا على حقيقته وسرّه وامتياز حقه من باطله قال لهم: فإذا لم تعارضوه، ولم يتسهل لكم ما تبغون، وبان لكم أنّه معجوز عنه، فقد صرّح الحق عن محضه، ووجب التصديق، فآمنوا وخافوا العذاب المعدّ لمن كذب. وفيه دليلان على إثبات النبوّة: صحة كون المتحدّى به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلاّ الله.

فإنْ قلتَ: انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهلا جيء بإذا

= الخلائق أجمعين، أبهى من عجز واحد منهم، ويشهد لرجحان الأوّل قوله تعالى: ﴿لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

(1) سورة يونس، الآية: 38.

(2) سورة هود، الآية: 13.

(3) سورة الإسراء، الآية: 88.

(4) سورة آل عمران، الآية: 28.

(5) سورة الإسراء، الآية: 88.

الذي للوجوب دون إن الذي للشك؟ **قلتُ**: فيه وجهان:

أحدهما: أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم وأنّ العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لاتكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام.

والثاني: أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوّة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه: إن غلبتك لم أبق عليك، وهو يعلم أنّه غالبه ويتيقنه تهكماً به.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فإنْ قلتَ: لم عبر عن الإتيان بالفعل وأي فائدة في تركه إليه؟ **قلتُ**: لأنه فعل من الأفعال تقول: أتيت فلاناً. فيقال لك: نعم ما فعلت. والفائدة فيه أنه جارٍ مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً ووجازةً تغنيك عن طول المكنى عنه. ألا ترى أنّ الرجل يقول: ضربت زيداً في موضع كذا على صفة كذا وشتمته ونكلت به، ويعدّ كيفياتٍ وأفعالاً. فتقول له: بئسما فعلت. ولو ذكرت ما أنبته عنه لطال عليه، وكذلك لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله.

فإنْ قلتَ: ﴿ولن تفعلوا﴾ ما محلها؟ **قلتُ**: لا محل لها لأنّها جملة اعتراضية.

فإنْ قلتَ: ما حقيقة ﴿لن﴾ في باب النفي؟ **قلتُ**: لا ولن أختان في نفي المستقبل إلا أن في لن توكيداً وتشديداً. تقول لصاحبك: لا أقيم غداً. فإن أنكر عليك قلتَ: لن أقيم غداً، كما تفعل في أنا مقيم وإني مقيم، وهي عند الخليل في إحدى الروايتين عنه أصلها لا أن. وعند الفراء لا أبدلت ألفها نوناً وعند سيبويه وإحدى الروايتين عن الخليل حرف مقتضب لتأكيد نفي المستقبل.

فإنْ قلتَ: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزةً؟ **قلتُ**: لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه إذ خفاء مثله فيما عليه مبني العادة محال لا سيما والطاعنون فيه أكثف عدداً من الذابين عنه، فحين لم ينقل علم أنّه إخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزةً.

فإنْ قلتَ: ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ **قلتُ**: إنّهم إذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله ﷺ، وإذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا استوجبوا العقاب بالنار فقيل لهم: إن استبنتم العجز فاتركوا العناد فوضع ﴿فاتقوا النار﴾ موضعه لأنّ اتقاء النار لصيقه وضميمه ترك العناد من حيث إنّه من نتائجه، لأنّ من اتقى النار ترك المعاندة، ونظيره أن يقول الملك لحشمه: إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي. يريد: فأطيعوني واتبعوا أمري وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط، وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة، وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن، وتهويل شأن العناد بإنابة اتقاء النار مناً به وإبرازه في صورته مشيعاً ذلك بتهويل صفة النار وتفظيع أمرها.

والوقود: ما ترفع به النار، وأمّا المصدر فمضموم وقد جاء فيه الفتح. قال سيبويه: وسمعنا من العرب من يقول: وقدت النار وقوداً عالياً، ثم قال: والوقود أكثر، والوقود الحطب، وقرأ عيسى بن عمر الهمداني: بالضم، تسمية، بالمصدر كما يقال: فلان فخر قومه وزين بلده، ويجوز أن يكون مثل قولك: حياة المصباح السليط. أي: ليست حياته إلاّ به، فكأنّ نفس السليط حياته.

فإنْ قلتَ: صلة الذي والتي يجب أن تكون قصة معلومةً للمخاطب فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة؟ **قلتُ**: لا يمتنع أن يتقدّم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب أو سمعوه من رسول الله ﷺ أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ناراً وقودها الناس والحجارة﴾[1].

فإنْ قلتَ: فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكرةً في سورة التحريم وههنا معرفةً؟ **قلتُ**[2]: تلك الآية نزلت بمكة فعرفوا منها ناراً موصوفةً بهذه الصفة ثم نزلت هذه بالمدينة مشاراً بها إلى ما عرفوه أوّلاً.

فإنْ قلتَ: ما معنى قوله تعالى: ﴿**وقودها الناس والحجارة**﴾؟ **قلتَ**: معناه أنّها نار ممتازة عن غيرها من النيران بأنّها لا تتقد إلا بالناس والحجارة، وبأن غيرها إن أريد إحراق الناس بها أو إحماء الحجارة أوقدت أوّلاً بوقود، ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إحماؤه، وتلك أعاذنا الله منها برحمته الواسعة توقد بنفس ما يحرق ويحمى بالنار، وبأنّها لإفراط حرّها وشدّة ذكائها إذا اتصلت بما لا تشتعل به نار اشتعلت وارتفع لهبها.

فإنْ قلتَ: نار الجحيم كلها موقدة بالناس والحجارة، أم هي نيران شتى منها نار بهذه الصفة؟ **قلتُ**: بل هي نيران شتى منها نار توقد بالناس والحجارة يدل على ذلك تنكيرها في قوله تعالى: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾[3] ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾[4] ولعل لكفار الجن وشياطينهم ناراً وقودها الشياطين، كما أنّ لكفرة الإنس ناراً وقودها هم جزاء لكل جنس بما يشاكله من العذاب.

فإنْ قلتَ: لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة

---

(1) سورة التحريم، الآية: 6.

(2) قال أحمد رحمه الله: يعني بالآية: قوله تعالى: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾، لكني لم أقف على خلاف بين المفسرين، أنّ سورة التحريم مدنية، وما اشتملت عليه من= = القصة المشهورة أصدق شاهد على ذلك، فالظاهر أنّ الزمخشري وهم في نقله، أنها مكية.

(3) سورة التحريم، الآية: 6.

(4) سورة الليل، الآية: 14.

معهم وقوداً؟ قلتُ: لأنّهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً وعبدوها من دونه قال الله تعالى: ﴿إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾[1]. وهذه الآية مفسّرة لما نحن فيه فقوله: ﴿إنّكم وما تعبدون من دون الله﴾[2] في معنى الناس والحجارة ﴿حصب جهنم﴾[3] في معنى وقودها. ولما اعتقد الكفار في حجارتهم المعبودة من دون الله أنّها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستدفعون المضار عن أنفسهم بمكانهم، جعلها الله عذابهم فقرنهم بها محماةً في نار جهنم إبلاغاً في إيلامهم وإغراقاً في تحسيرهم، ونحوه ما يفعله بالكانزين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدّةً وذخيرةً فشحوا بها ومنعوها من الحقوق حيث يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم، وقيل: هي حجارة الكبريت، وهو تخصيص بغير دليل وذهاب عما هو المعنى الصحيح الواقع المشهود له بمعاني التنزيل. ﴿أعدت﴾ هيئت لهم وجعلت عدّة لعذابهم. وقرأ عبد الله: أعتدت من العتاد بمعنى العدّة. من عادته عزّ وجلّ في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف والتثبيط عن اقتراف ما يتلف، فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي وحموها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب.

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾.

فإنْ قلتَ: مَن المأمور بقوله تعالى: ﴿وبشّر﴾؟ قلتُ: يجوز أن يكون رسول الله ﷺ وأن يكون كل أحد كما قال عليه الصلاة والسلام: «بشّر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة»[4]. لم يأمر بذلك واحداً بعينه وإنما كل أحد مأمور به، وهذا الوجه أحسن وأجزل لأنّه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به.

فإنْ قلتَ: علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه؟ قلتُ: ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه، إنّما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشّر عمراً بالعفو والإطلاق، ولك أن تقول: هو معطوف على قوله: ﴿فاتقوا﴾ كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشّر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم. وفي قراءة زيد بن علي رضي الله عنه: وبشّر، على لفظ المبني للمفعول عطفاً على أعدت، والبشارة الإخبار بما يظهر سرور المخبر به. ومن ثَم قال العلماء: إذا قال لعبيده: أيّكم بشّرني بقدوم فلان فهو حر، فبشّروه فرادى، عتق أوّلهم لأنّه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقين. ولو قال مكان بشّرني: أخبرني، عتقوا جميعاً، لأنّهم جميعاً أخبروه. ومنه البشرة لظاهر الجلد، وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه، وأما فبشّرهم بعذاب أليم فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه كما يقول الرجل لعدوّه: أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك. ومنه قوله: فاعتبوا بالصيلم والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم. قال الحطيئة:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة ... من آل لأم بظهر الغيب تأتيني

والصالحات: كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنّة واللام للجنس.

فإنْ قلتَ: أي فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد، وبينها داخلة على المجموع؟

قلتُ: إذا دخلت على المفرد كان صالحاً لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه، وإذا دخلت على المجموع صلح أن يراد به جميع الجنس وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه لأنّ وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية والجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه.

فإنْ قلتَ: فما المراد بهذا المجموع مع اللام؟ قلتُ: الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في مواجب التكليف. والجنة البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه. قال زهير:

تسقي جنة سحقا

أي: نخلاً طوالاً. والتركيب دائر على معنى الستر، وكأنها لتكاثفها وتظليلها سميت بالجنة التي هي المرة من مصدر جنه إذا ستره كأنها سترة واحدة لفرط التفافها، وسميت دار الثواب جنة لما فيها من الجنان.

فإنْ قلتَ: الجنة مخلوقة أم لا؟ قلتُ: قد اختلف في ذلك

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 98.
(2) سورة الأنبياء، الآية: 98.
(3) سورة الأنبياء، الآية: 98.
(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلام الحديث رقم: (561)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة = الحديث رقم: (223)، وفي كشف الأستار كتاب: الصلاة، باب: المشي إلى المساجد في الظلم الحديث رقم: (432) عن أبي موسى، وأخرجه ابن ماجه عن أنس في كتاب المساجد: والجماعات، باب: المشي إلى الصلاة الحديث رقم: (781)، وحديث سهل الحديث رقم: (780)، والحاكم في المستدرك عن أنس وسهل 212/1.

والذي يقول إنها مخلوقة يستدل بسكنى آدم وحواء الجنة وبمجيئها في القرآن على نهج الأسماء الغالبة اللاحقة بالأعلام كالنبي والرسول والكتاب ونحوها.

فإنْ قلتَ: ما معنى جمع الجنة وتنكيرها؟ **قلتُ:** الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على جنان كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان.

فإنْ قلتَ: أما يشترط في استحقاق الثواب بالإيمان والعمل الصالح أن لا يحبطهما المكلف بالكفر والإقدام على الكبائر، وأن لا يندم على ما أوجده من فعل الطاعة وترك المعصية فهلا شرط ذلك؟ **قلتُ:** لما جعل الثواب مستحقاً بالإيمان والعمل الصالح، والبشارة مختصة بمن يتولاهما، وركز في العقول أنّ الإحسان إنما يستحق فاعله عليه المثوبة والثناء إذا لم يتعقبه مما يفسده ويذهب بحسنه، وأنه لا يبقى مع وجود مفسده إحساناً وأعلم بقوله تعالى لنبيه ﷺ وهو أكرم الناس عليه وأعزهم: ﴿لئن أشركت ليحبطنّ عملك﴾[1] وقال تعالى للمؤمنين: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم﴾[2] كان اشتراط حفظهما من الإحباط والندم كالداخل تحت الذكر.

فإنْ قلتَ: كيف صورة جري الأنهار من تحتها؟ **قلتُ:** كما ترى الأشجار النابتة على شواطئ الأنهار الجارية. وعن مسروق أنّ أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ما كانت أشجاره مظللة والأنهار في خلالها مطردة. ولولا أنّ الماء الجاري من النعمة العظمى واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض وإن كانت آنق شيء وأحسنه لا تروق النواظر ولا تبهج الأنفس ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء؛ وإلا كان الأنس الأعظم فائتاً والسرور الأوفر مفقوداً وكانت كتماثيل لا أرواح فيها وصور لا حياة لها، لما جاء الله تعالى بذكر الجنات مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قران واحد كالشيئين لا بد لأحدهما من صاحبه، ولما قدمه على سائر نعوتها. والنهر المجري الواسع فوق الجدول ودون البحر. يقال لبردى: نهر دمشق. وللنيل: نهر مصر. واللغة العالية النهر بفتح الهاء. ومدار التركيب على السعة، وإسناد الجري إلى الأنهار من الإسناد المجازي كقولهم: بنو فلان يطؤهم الطريق وصيد عليه يومان.

فإنْ قلتَ: لم نكرت الجنات وعرفت الأنهار؟ **قلتُ:** أما تنكير الجنات فقد ذكر، وأما تعريف الأنهار فأن يراد الجنس كما تقوله لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب، وألوان الفواكه، تشير إلى الأجناس التي في علم المخاطب. أو يراد أنهارها فعوّض التعريف باللام من تعريف الإضافة كقوله: ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾[3] ويشار باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾[4] الآية. وقوله: ﴿كلما رزقوا﴾ لا يخلو من أن يكون صفةً ثانيةً لجنات، أو خبر مبتدأ محذوف، أو جملةً مستأنفةً لأنه لما قيل: إنّ لهم جنات، لم يخل خلد السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا أم أجناس أخر لا تشابه هذه الأجناس. فقيل: إنّ ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا، أي أجناسها أجناسها، وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله.

فإنْ قلتَ: ما موقع ﴿من ثمرة﴾؟ **قلتُ:** هو كقولك كلما أكلت من بستانك من الرمان شيئاً حمدتك، فموقع من ثمرة موقع قولك: من الرمان. كأنه قيل: كلما رزقوا من الجنات من أي ثمرة كانت من تفاحها أو رمانها أو عنبها أو غير ذلك رزقاً قالوا ذلك، فمن الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية لأنّ الرزق قد ابتدئ من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدئ من ثمرة، وتنزيله تنزيل أن تقول: رزقني فلان فيقال لك: من أين؟ فتقول: من بستانه، فيقال: من أي ثمرة رزقك من بستانه؟ فتقول: من رمان. وتحريره أن رزقوا جعل مطلقاً مبتدأ من ضمير الجنات ثم جعل مقيداً بالابتداء من ضمير الجنات مبتدأ من ثمرة، وليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة أو الرمانة الفذة على هذا التفسير، وإنما المراد النوع من أنواع الثمار، ووجه آخر وهو أن يكون من ثمرة بياناً على منهاج قولك: رأيت منك أسداً، تريد أنت أسداً، وعلى هذا يصح أن يراد بالثمرة النوع من الثمار والجنات الواحدة.

فإنْ قلتَ: كيف قيل ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾؟ وكيف تكون ذات الحاضر عندهم في الجنة هي ذات الذي رزقوه في الدنيا؟ **قلتُ:** معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل[5] وشبهه. بدليل قوله: ﴿وأتوا به متشابهاً﴾[6] وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته.

فإنْ قلتَ: إلام يرجع الضمير في قوله ﴿وأتوا به﴾؟ **قلتُ:** إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً. لأنّ قوله: هذا الذي رزقنا من قبل انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين، ونظيره قوله تعالى: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾[7]. أي بجنسي الغني والفقير. لدلالة قوله: ﴿غنياً أو فقيراً﴾ على الجنسين، ولو رجع الضمير إلى المتكلم به لقيل: أولى به على التوحيد.

فإنْ قلتَ: لأي غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة، وما

---

(1) سورة الزمر، الآية: 65.
(2) سورة الحجرات، الآية: 2.
(3) سورة مريم، الآية: 4.
(4) سورة محمد، الآية: 15.
(5) قال أحمد رحمه الله: وهذا من التشبيه بغير الأداة، وهو أبلغ = مراتب التشبيه، كقولهم أبو يوسف، أبو حنيفة.
(6) سورة البقرة، الآية: 25.
(7) سورة النساء، الآية: 135.

بال ثمر الجنة لم يكن أجناساً أخر؟ **قلتُ:** لأنّ الإنسان بالمألوف آنس وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه. وعافته نفسه، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقدّم له معه ألف، ورأى فيه مزيةً ظاهرةً، وفضيلةً بينةً وتفاوتاً بينه وبين ما عهد بليغاً، أفرط ابتهاجه واغتباطه وطال استعجابه واستغرابه وتبين كنه النعمة فيه وتحقيق مقدار الغبطة به؛ ولو كان جنساً لم يعهده وإن كان فائقاً حسب أنّ ذلك الجنس لا يكون إلاّ كذلك، فلا يتبين موقع النعمة حق التبين، فحين أبصروا الرمانة من رمان الدنيا ومبلغها في الحجم، وأنّ الكبرى لا تفضل عن حد البطيخة الصغيرة ثم يبصرون رمّانة الجنة تشبع السكن، والنبقة من نبق الدنيا في حجم الفلكة، ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر. كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا، وقدر امتداده، ثم يرون الشجرة في الجنة بسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعه كان ذلك أبين للفضل، وأظهر للمزية وأجلب للسرور وأزيد في التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما. وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها دليل على تناهي الأمر وتمادي الحال في ظهور المزية وتمام الفضيلة، وعلى أنّ ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجبهم، ويستدعي تبجحهم في كل أوان. عن مسروق: «نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وأنهارها تجري في غير أخدود، والعنقود اثنتا عشرة ذراعاً». ويجوز أن يرجع الضمير في أتوا به إلى الرزق كما أنّ هذا إشارة إليه، ويكون المعنى أنّ ما يرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً في نفسه. كما يحكى عن الحسن: يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالأخرى فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل، فيقول الملك: كل فاللون واحد، والطعم مختلف. وعنه ﷺ: «والذي نفس محمد بيده إنّ الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي بواصلة إلى فيه حتى يبدّل الله مكانها مثلها»[1]. فإذا أبصروها، والهيئة هيئة الأولى قالوا ذلك والتفسير الأوّل هو هو.

فإنْ قلتَ: كيف موقع قوله: ﴿**وأتوا به متشابهاً**﴾ من نظم الكلام؟ **قلتُ:** هو كقولك: فلان أحسن بفلان، ونعم ما فعل ورأى من الرأي كذا وكان صواباً. ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلوا أعزّة أهلها أذلةً وكذلك يفعلون﴾[2]، وما أشبه ذلك من الجمل التي تساق في الكلام معترضةً للتقرير.

والمراد بتطهير الأزواج: أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة، وما لا يختص بهنّ من الأقذار والأدناس، ويجوز لمجيئه مطلقاً أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه نساء الدنيا مما يكتسبن بأنفسهنّ، ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشئ المفسدة، ومن سائر عيوبهنّ ومثالهنّ وخبثهن وكيدهنّ.

فإنْ قلتَ: فهلا جاءت الصفة مجموعةً كما في الموصوف؟ **قلتُ:** هما لغتان فصيحتان يقال: النساء فعلن، وهنّ فاعلات وفواعل والنساء فعلت، وهي فاعلة، ومنه بيت الحماسة:

وإذا العذارى بالدخان تقنعت ... واستعجلت نصب القدور فملت

والمعنى: وجماعة أزواج مطهرة، وقرأ زيد بن علي: مطهرات. وقرأ عبيد بن عمير: مطهرة، بمعنى متطهرة. وفي كلام بعض العرب: ما أحوجني إلى بيت الله فأطهر به أطهرةً. أي فأتطهر به تطهرةً.

فإنْ قلتَ: هلا قيل: طاهرةً؟ **قلتُ:** في مطهرة فخامة لصفتهنّ ليست في طاهرة وهي الإشعار بأنّ مطهراً طهرهنّ، وليس ذلك إلا الله عزّ وجلّ المريد بعباده الصالحين أن يخوّلهم كلّ مزية فيما أعدّ لهم.

والخلد: الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع. قال الله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن متّ فهم الخالدون﴾[3]. وقال امرؤ القيس:

ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي ... وهل ينعمن من كان في العصر الخالي

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد ... قليل الهموم ما يبيت بأوجال

۞ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ﴾ (٢٦)

سيقت هذه الآية لبيان أنّ ما استنكره الجهلة والسفهاء، وأهل العناد والمراء من الكفار واستغربوه، من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من قبل أنّ التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهم من المشاهد. فإن كان المتمثل له عظيماً كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذاً، إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له. وتستجرّه إلى نفسها فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية. ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلج كيف تمثل له بالضياء والنور، وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة، ولما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى لا حال أحقر منها وأقلّ، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقلّ من الذباب وأخس قدراً، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً لم يستنكر، ولم

---

(1) كشف الأستار، كتاب: صفة الجنة، باب: في ثمار الجنة الحديث رقم: (3530).

(2) سورة النمل، الآية: 34.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 34.

يستبدع، ولم يقل للمتمثل استحي من تمثيلها بالبعوضة لأنه مصيب في تمثيله، محق في قوله، سائق للمثل على قضية مضربه محتذٍ على مثال ما يحتكمه ويستدعيه، ولبيان أنّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر في الأمور بناظر العقل إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لا تمر الشبهة بساحته، والصواب الذي لا يرتع الخطأ حوله، وأنّ الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم وغصبهم على بصائرهم فلا يتفطنون، ولا يلقون أذهانهم، أو عرفوا أنه الحق إلا أنّ حب الرياسة، وهوى الألف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا، فإذا سمعوه عاندوا وكابروا. وقضوا عليه بالبطلان وقابلوه بالإنكار، وإنّ ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين، وانهماك الفاسقين في غيهم وضلالهم، والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء، فقالوا: أجمع من ذرّة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأصرد من جرادة، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس، وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض، وكلفتني مخ البعوض، ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة: كالزوان والنخالة، وحبة الخردل والحصاة والأرضة والدود والزنابير. والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لا تغني استقامته وصحته على من به أدنى مسكة، ولكن ديدن المحجوج المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل، ولا متشبث بأمارة ولا إقناع، أن يرمي لفرط الحيرة والعجز عن إعمال الحيلة بدفع الواضح، وإنكار المستقيم، والتعويل على المكابرة والمغالطة؛ إذا لم يجد سوى ذلك معوّلاً، وعن الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل، ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية. والحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوّف ما يعاب به ويذم، واشتقاقه من الحياة. يقال: حيي الرجل. كما يقال: نسي وحشي وشظي الفرس؛ إذا اعتلت هذه الأعضاء جعل الحيي لما يعتريه من الانكسار والتغير منتكس القوّة منتقص الحياة. كما قالوا: هلك فلان حياءً من كذا، ومات حياء، ورأيت الهلاك في وجهه من شدّة الحياء، وذاب حياءً، وجمد في مكانه خجلاً.

فإنْ قلتَ: كيف جاز وصف القديم سبحانه به[1]، ولا يجوز عليه التغير، والخوف والذم، وذلك في حديث سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردّهما صفراً حتى يضع فيهما خيراً»[2]! قلتُ: هو جار على سبيل التمثيل مثل تركه تخييب العبد، وأنه لا يردّ يديه صفراً من عطائه لكرمه بترك من يترك ردّ المحتاج إليه حياءً منه. وكذلك معنى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي﴾ أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها، ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا: أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟ فجاءت على سبيل المقابلة، وإطباق الجواب على السؤال، وهو فنّ من كلامهم بديع وطراز عجيب منه قول أبي تمام:

مَن مبلغ أفناء يعرب كلها ... أني بنيت الجار قبل المنزل

وشهد رجل عند شريح فقال: إنك لسبط الشهادة، فقال الرجل: إنها لم تجعد عني. فقال: لله بلاؤك، وقبل شهادته. فالذي سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار وسبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها، ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها لا تكاد تستغرب منها فناً إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسدّ مدارجه، وقد استعير الحياء فيما لا يصح فيه.

إذا ما استحين الماء يعرض نفسه ... كرعن[3] بسبت[4] في إناء من الورد

وقرأ ابن كثير في رواية شبل: يستحي، بياء واحد. وفيه لغتان التعدّي بالجار، والتعدّي بنفسه. يقولون: استحييت منه واستحييته، وهما محتملتان ههنا. وضرب المثل اعتماده، وصنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم، وفي الحديث: اضطرب رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب[5] و﴿ما﴾

---

(1) قال أحمد رحمه الله: ولقائل أن يقول، ما الذي دعاه إلى تأويل الآية، مع أنّ الحياء الذي يخشى، نسبة ظاهره إلى الله تعالى مسلوب في الآية، كقولنا لله ليس بجسم، ولا بجوهر في معرض التنزيه والتقديس، وأمّا تأويل الحديث فمستقيم؛ لأنّ الحياء فيه ثبت لله تعالى، وللزمخشري أن يجيب بأن السلب في مثل هذا، إنما يطرأ على ما يمكن نسبته إلى المسلوب عنه، إذ مفهوم نفي الاستحياء عنه في شيء خاص ثبوت الاستحياء في غيره، فالحاجة داعية إلى تأويله لما أفضى إليه مفهومه، وإنما يتوجه السؤال لو كان الاستحياء مسلوباً مطلقاً، كقولنا: الله لا يحول ولا يزول، فإن ذلك لا يثبت ومحال، بل يقال: هو مقدّس منزه مطلقاً.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء الحديث رقم: (1488)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (105) الحديث = رقم: (3556)، واللفظ له دون «حتى يضع فيهما خيراً»، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء باب: رفع اليدين في الدعاء، الحديث رقم: (3865)، والحاكم في المستدرك 1/497 عن سلمان وعبد الرزاق في مصنفه عن أنس 2/251 الحديث رقم: (3250) كتاب الصلاة، وأبو نعيم في الحلية 7/254، وأخرجه الحاكم عن أنس 1/498، وأخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق(7)، باب الأدعية، حديث رقم: (876).

(3) الرعن: موضع لين.

(4) سبت: أصله من السبات؛ وهي الراحة.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: من جعل فص الخاتم في بطن كفه الحديث رقم: (5876). بلفظ: «أن النبي ﷺ اصطنع خاتماً من ذهب».

هذه إبهامية(1) وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته شياعاً وعموماً. كقولك: أعطني كتاباً مّا تريد: أي كتاب كان، أو صلة للتأكيد كالتي في قوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ كأنه قيل لا يستحيي أن يضرب مثلاً حقاً أو البتة هذا إذا نصبت ﴿بعوضة﴾، فإن رفعتها فهي موصولة صلتها الجملة؛ لأنّ التقدير هو بعوضة فحذف صدر الجملة كما حذف في تماماً على الذي أحسن ووجه آخر حسن جميل وهو أن تكون(2) التي فيها معنى الاستفهام لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات. قال: إنّ الله لا يستحيي أن يضرب للأنداد ما شاء من الأشياء المحقرة، مثلاً بله البعوضة فما فوقها. كما يقال: فلان لا يبالي بما وهب ما دينار وديناران. والمعنى أن الله أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل. كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ، وبما لا يدركه لتناهيه في صغره إلا هو وحده بلطفه أو بالمعدوم. كما تقول العرب: فلان أقل من لا شيء في العدد. ولقد ألم به قوله تعالى: ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾(3) وهذه القراءة تعزى إلى رؤبة بن العجاج وهو أمضغ العرب للشيح، والقيصوم، والمشهود له بالفصاحة، وكانوا يشبهون به الحسن، وما أظنه ذهب في هذه القراءة إلا إلى هذا الوجه وهو المطابق لفصاحته، وانتصب بعوضة بأنها عطف بيان لـ «مثلاً» أو مفعول لـ «يضرب»، ومثلاً حال عن النكرة مقدّمة عليه أو انتصبا مفعولين فجرى ضرب مجرى جعل، واشتقاق البعوض من البعض، وهو القطع كالبضع، والعضب. يقال: بعضه البعوض، وأنشد:

لنعم البيت بيت أبي دثار إذا ما خاف بعض القوم بعضا

ومنه بعض الشيء لأنه قطعه منه، والبعوض في أصله صفة على فعول كالقطوع فغلبت، وكذلك الخموش: ﴿فما فوقها﴾ فيه معنيان: أحدهما فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً وهو القلة والحقارة. نحو قولك لمن يقول فلان أسفل الناس وأنذلهم: هو فوق ذاك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة، والثاني فما زاد عليها في الحجم كأنه قصد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضة. كما تقول لصاحبك وقد ذمّ من عرفته يشح بأدنى شيء فقال: فلان بخل بالدرهم والدرهمين: هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه، تريد بما فوقه ما بخل فيه، وهو الدرهم والدرهمان. كأنك قلت: فضلاً عن الدرهم والدرهمين. ونحوه في الاحتمالين ما سمعناه في صحيح مسلم عن إبراهيم، عن الأسود قال: دخل شباب من قريش على عائشة رضي الله عنها وهي بمِنًى، وهم يضحكون، فقالت: ما يضحككم؟ قالوا: فلان خرّ على طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب. فقالت: لا تضحكوا، إني سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكةً فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة»(4). يحتمل فما عدا الشوكة وتجاوزها في القلة، وهي نحو نخبة النملة في قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أصاب مؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة

---

(1) قال أحمد رحمه الله: وفيها وهم إمام الحرمين في تقرير نصوصية العموم في قوله عليه الصلاة والسلام: «**أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها**»... الحديث، فإنه قرر العموم والإبهام في أي، ثم قال فإذا انضافت إليها ما الشرطية كان ذلك أبلغ في اقتضاء العموم، فاعتقد أنّ المؤكدة هي الشرطية، وإنما هي حرف مزيد لهذا الغرض، وأمّا ما الشرطية، فاسم كمن، والله الموفق.

(2) قال أحمد: جعلها على الاستفهامية بالمعنى الذي قرّره فيه نظر، لأنّ قوله تعالى: ﴿فما فوقها﴾ في الحقارة، فيكون معناه فما دونها، وأمّا أن يراد به فما هو أكبر منها حجماً، وعلى كلا التقديرين يتقدّر الاستفهام؛ لأنه إنما يستعمل في مثل ما دينار وديناران أي إذا جاد بالكثير، فما القليل وإذا ذهبت في الآية هذا المذهب لم تجد لصحته مجالاً، إذ يكون المراد: إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً بالمحقرات، فما البعوضة، وما هو أحقر منها، وقد فرضنا أنها في أحد الوجهين نهاية في المحقرات، وفي الوجه الآخر ليست نهاية، بل النهاية في قوله: ﴿فما فوقها﴾، أي: دونها، فإذا حمل ما بعد الاستفهام على النهاية في الوجهين جميعاً لم ينتظم التنبيه المذكور، بل ينعكس الغرض فيه، إذ المقصود في مثل قولنا: فلان لا يبالي بعطاء الألوف، فما الدينار الواحد التنبيه، على أن إعطاءه القليل منه محقق بعطائه الكثير، بطريق الأولى، ولا يتحقق في الآية على هذا التقدير، انه لا يستحي من ضرب المثل بالمحقرات، التي لا تبلغ النهاية، فكيف يستحي من ضرب المثل بما يبلغ النهاية في الحقارة، كالبعوضة هذا عكس لنظم الأولوية، ولو كانت الآية مثلاً واردة على غير هذا التكلم، كقول=

= القائل: إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً بالبعوضة، التي هي نهاية في الحقارة، فما الانعام التي هي أبهى من البعوضة، أو أبعد منها عن الحقارة، بما لا يخفى، لكان تقرير الزمخشري متوجهاً وما أراه والله أعلم، إلا واهماً في هذا الوجه، وما طولت النفس ووسعت العبارة في الاعتراض عليه، إلا أنه محل ضيق، ومعنى متعاص لا يخلص إلى الفهم، إلا بهذا المزيد من البسط، وناهيك بموضع العكس على فهم الزمخشري، بل مع تعوّد فهمه وإصابة نسجه خصوصاً في تنسيق المعاني، وتفصيلها، والله الموفق، وما تبجحه بالعثور على الوجه الذي ظنّ أن رؤبة بن العجاج رعاه في قراءته، فكلام ركيك توهم أنّ القراءة موكولة إلى رأي القارىء، وتوجيهه لها، ونصرته بالعربية، وفصاحته في اللغة، وليس الأمر كذلك، بل القراءة على اختلاف وجوهها، وبُعد حروفها سنة تتبع وسماع يقضي بنقله الفصيح، وغيره على حدّ سواه، لا حيلة للفصيح في تعسر شيء منه، عما سمعه عليه، وما يصنع بفصاحته في القرآن الذي بذّ كل فصاحة، وعزل كل بلاغة، فالصحيح والمعتقد أن كل قارئ معزول، إلا عما سمعه، فوعاه وتلقنه من الأفواه، فأدّاه إلى أن ينتهي ذلك إلى استماع من أفصح من نطق بالضاد سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فتأمل هذا الفصل، فإنّ فاهمه قليل.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 42.

(4) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها الحديث رقم: (6506).

النملة»[1]؛ وهي عضتها، ويحتمل ما هو أشد من الشوكة. وأوجع كالخرور على طنب الفسطاط.

فإنْ قلتَ: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر؟ قلتُ: ليس كذلك فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسول الله ﷺ مثلاً للدنيا[2] وفي خلق الله حيوان أصغر منها، ومن جناحها. ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبةً لا يكاد يجليها للبصر الحاد إلا تحركها، فإذا سكنت فالسكون يواريها، ثم إذا لوحت لها بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة. وتفاصيل خلقتها، ويبصر بصرها، ويطلع على ضميرها، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر. ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾[3]. وأنشدت لبعضهم:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى عروق نياطها[4] في نحرها ... والمخ في تلك العظام النحل

اغفر لعبد تاب من فرطاته[5] ... ما كان منه في الزمان الأوّل

و﴿أمّا﴾ حرف فيه معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء، وفائدته في الكلام أن يعطيه فضل توكيد. تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب، وأنه منه عزيمة، قلت: أمّا زيد فذاهب، ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، وهذا التفسير مدل لفائدتين: بيان كونه توكيداً، وأنه في معنى الشرط، ففي إيراد الجملتين مصدرتين به، وإن لم يقل فالذين آمنوا يعلمون والذين كفروا يقولون: إحماد عظيم لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم أنه الحق، ونعي على الكافرين إغفالهم حظهم وعنادهم ورميهم بالكلمة الحمقاء. و﴿الحق﴾ الثابت الذي لا يسوغ إنكاره. يقال: حق الأمر إذا ثبت ووجب، وحقت كلمة ربك، وثوب محقق محكم النسج. و﴿ماذا﴾ فيه وجهان: أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي فيكون كلمتين، وأن يكون ذا مركبةً مع ما مجعولتين اسماً واحداً فيكون كلمةً واحدةً، فهو على الوجه الأوّل مرفوع المحل على الابتداء، وخبره ذا مع صلته، وعلى الثاني منصوب بالمحل في حكم ما وحده. لو قلت: ما أراد الله، والأصوب في جوابه أن يجيء على الأوّل مرفوعاً وعلى الثاني منصوباً ليطابق الجواب السؤال، وقد جوّزوا عكس ذلك. كما تقول في جواب من قال: ما رأيت خير، أي المرئي خير. وفي جواب ما الذي رأيت خيراً، أي رأيت خيراً. وقرئ قوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾[6] بالرفع والنصب على التقديرين.

والإرادة: نقيض الكراهة وهي مصدر أردت الشيء إذا طلبته نفسك ومال إليه قلبك، وفي حدود المتكلمين الإرادة معنى يوجب للحي حالاً لأجلها يقع منه الفعل على وجه دون وجه، وقد اختلفوا في إرادة الله فبعضهم على أنّ للباري مثل صفة المريد منا التي هي القصد، وهو أمر زائد على كونه عالماً غير ساهٍ، وبعضهم على أن معنى إرادته لأفعاله هو أنه فعلها، وهو غير ساه ولا مكره، ومعنى إرادته لأفعال غيره أنه أمر بها، والضمير في أنه الحق للمثل أو لأن يضرب. وفي قولهم: ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ استرذال، واستحقار. كما قالت عائشة رضي الله عنها في عبد الله بن عمرو بن العاصي: يا عجباً لابن عمرو هذا ! ﴿مثلاً﴾ نصب على التمييز كقولك: لمن أجاب بجواب غث: ماذا أردت بهذا جواباً؟ ولمن حمل سلاحاً ردياً: كيف تنتفع بهذا سلاحاً؟ أو على الحال، كقوله: ﴿هذه ناقة الله لكم﴾[7] آية. وقوله: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ جارٍ مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بـ «أما»، وأنّ فريق العالمين بأنه الحق، وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة، وأنّ العلم بكونه حقاً من باب الهدى الذي ازداد به المؤمنون نوراً إلى نورهم، وأنّ الجهل بحسن مورده من باب الضلالة التي زادت الجهلة خبطاً في ظلمائهم.

فإنْ قلتَ: لم وصف المهديون بالكثرة[8] والقلة صفتهم، وقليل من عبادي الشكور وقليل ما هم الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة وجدت الناس أخبر تقله! قلتُ: أهل الهدى كثير في أنفسهم وحين يوصفون بالقلة؛ إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال، وأيضاً فإنّ القليل من المهديين كثير في الحقيقة، وإن قلوا في الصورة فسموا ذهاباً إلى الحقيقة كثيراً.

إنّ الكرام كثير في البلاد وإن ... قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا

وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب،

---

(1) لم أجده، قال ابن حجر، وأصل الحديث دون ما في آخره مروي بطرق كثيرة، وقال الزيلعي: غريب جداً.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل الحديث رقم: (2320).

(3) سورة يسٓ، الآية: 36.

(4) نياطها: موتها.

(5) فرطاته: أي ضيّع ما عنده فلم يعمل له.

(6) سورة البقرة، الآية: 219.

(7) سورة الأعراف، الآية: 73.

(8) قال أحمد رحمه الله: جوابه صحيح وتنظيره بالبيت، وهم لأنّ = الشاعر إنما ذهب إلى أنّ عدد الكرام، وإن كان قليلاً منهم في نفسه، فالواحد منهم لعموم نفعه. وانبساط كرمه يقوم مقام ألف من جنسه مثلاً، وعدد اللئام، وإن كثروا فالأكثرون منهم يعدّون بواحد من غيرهم، لغلّ أيديهم، وانقباضها عن الجواد، وعدم تعدّي نفع منهم إلى غيرهم، كقول ابن زيد:

الناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عرا

وأما الآية، فمضمونها أن عدد المهديين كثير في نفسه، ومضمون الآيات الأخر، وأنّ عددهم قليل بالنسبة إلى كثرة عدد الضالين، فعبر عنه تارة بالكثرة نظراً إلى ذاته، وتارة بالقلة نظراً إلى غيره، فليس معنى البيت من الآية في شيء.

لأنّه[1] لما ضرب المثل فضل به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالهم وهداهم. وعن مالك بن دينار رحمه الله: أنّه دخل على محبوس قد أخذ بمال عليه وقيد فقال: يا أبا يحيى أما ترى ما نحن فيه من القيود. فرفع مالك رأسه فرأى سلة فقال: لمن هذه السلة؟ فقال: لي. فأمر بها تنزل، فإذا دجاج وأخبصة. فقال مالك: هذه وضعت القيود على رجلك. وقرأ زيد بن علي: يضل به كثير، وكذلك، وما يضل به إلا الفاسقون.

والفسق: الخروج عن القصد. قال رؤبة:

فواسقاً عن قصدها جوائرا

والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وهو النازل بين المنزلتين أي بين منزلة المؤمن والكافر. وقالوا: إنّ أوّل من حدّ له هذا الحدّ أبو حنيفة واصل بن عطاء رضي الله عنه وعن أشياعه، وكونه بين بين أنّ حكمه حكم المؤمن في أنّه يناكح ويوارث، ويغسل ويصلى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين، وهو كالكافر في الذمّ واللعن والبراءة منه واعتقاد عداوته وأن لا تقبل له شهادة، ومذهب مالك بن أنس والزيدية أنّ الصلاة لا تجزئ خلفه، ويقال للخلفاء: المردة من الكفار الفسقة، وقد جاء الاستعمالان في كتاب الله بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان يريد اللمز، والتنابز: إنّ المنافقين هم الفاسقون.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

النقض: الفسخ، وفك التركيب.

فإنْ قلتَ: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلتُ: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين، ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة: يا رسول الله إنّ بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها فنخشى أنّ الله عز وجل أعزّك وأظهرك أن ترجع إلى قومك[2]، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه. ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوّجت امرأة فاستوثرها، لم تقل هذا إلاّ وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنّهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنّها فراش.

والعهد: الموثق، وعهد إليه في كذا إذا وصاه به ووثقه عليه، واستعهد منه إذا اشترط عليه واستوثق منه، والمراد بهؤلاء الناقضين لعهد الله أحبار اليهود المتعنتون أو منافقوهم أو الكفار جميعاً.

فإنْ قلتَ: فما المراد بعهد الله؟ قلتُ: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد كأنّه أمر وصاهم به، ووثقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾[3] أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بعث إليهم رسول يصدّقه الله بمعجزاته صدّقوه واتبعوه ولم يكتموا ذكره فيما تقدّمه من الكتب المنزلة عليهم كقوله: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾[4]. وقوله في الإنجيل لعيسى صلوات الله عليه: (سأنزل عليك كتاباً فيه نبأ بني إسرائيل وما أريته إياهم من الآيات وما أنعمت عليهم وما نقضوا من ميثاقهم الذي واثقوا به وما ضيعوا من عهده إليهم وحسن صنعه للذين قاموا بميثاق الله تعالى وأوفوا بعهده ونصره إياهم وكيف أنزل بأسه ونقمته بالذين غدروا ونقضوا ميثاقهم ولم يوفوا بعهده) لأنّ اليهود فعلوا باسم عيسى ما فعلوا باسم محمد ﷺ من التحريف والجحود، وكفروا به كما كفروا بمحمد ﷺ، وقيل: هو أخذ الله العهد عليهم أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يبغي بعضهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامهم، وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: العهد الأوّل الذي أخذه على جميع ذرّية آدم الإقرار بربوبيته، وهو قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك﴾[5]، وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة، ويقيموا الدين، ولا يتفرّقوا فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾[6]، وعهد خصّ به العلماء، وهو قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا يكتمونه﴾[7]. والضمير في ميثاقه للعهد، وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله وإلزامه أنفسهم، ويجوز أن يكون بمعنى توثقته كما أنّ الميعاد والميلاد بمعنى الوعد والولادة، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى أي من بعد توثقته عليهم أو من بعد ما وثق به عهده من آياته، وكتبه، وإنذار رسله. ومعنى قطعهم ﴿ما أمر الله به أن يوصل﴾ قطعهم الأرحام وموالاة المؤمنين. وقيل: قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاتحاد، والاجتماع على الحق في إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض.

---

(1) قال أحمد رحمه الله: جرى عن سنة السببية في اعتقاد، أنّ الإشراك بالله، وأن الإضلال من جملة المخلوقات الخارجة عن عدد مخلوقاته عزّ وجلّ، بل من مخلوقات العبد لنفسه، على زعم هذه الطائفة تعالى الله، عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وانظر إلى ضيق الخلق، فغلبة الحكايات لإطلاقات المشايخ، فرتب عليها حقائق العقائد، وهذا من ارتكاب الهوى، واقتحام الهلكة، وما أشنع تصريحه بأنّ الله سبب الإضلال، لا خالقه كما أنّ السلة سبب في وضع القيود في رجل المحبوس، وإسناد الفعل لله عزّ وجلّ مجاز لا حقيقة كما أنّ إسناد الفعل إلى البلد كذلك يا له في تمثيل صار = به مثلة، ونظير صار به حائداً عن النظر الصحيح، مردود على التفصيل والجملة، نسأل الله تعالى العصمة من أمثال هذه الزلة، وهو ولي التوفيق.

(2) أخرجه أحمد في المسند، 3/ 461ـ 462.

(3) سورة الأعراف، الآية: 172.

(4) سورة البقرة، الآية: 40.

(5) سورة الأعراف، الآية: 172.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 7.

(7) سورة آل عمران، الآية: 187.

فإنْ قلتَ: ما الأمر؟ قلتُ: طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور. لأنّ الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بآمر يأمره به، فقيل له: أمر تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به. كما قيل له: شأن، والشأن الطلب والقصد، يقال: شأنت شأنه، أي قصدت قصده ﴿هم الخاسرون﴾ لأنهم استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، وعقابها بثوابها.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾.

معنى الهمزة التي في ﴿كيف﴾ مثله في قولك: أتكفرون بالله، ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان وهو الإنكار والتعجب، ونظيره قولك: أتطير بغير جناح؟ وكيف تطير بغير جناح؟

فإنْ قلتَ: قولك: أتطير بغير جناح إنكار للطيران لأنّه مستحيل بغير جناح، وأما الكفر فغير مستحيل مع ما نكر من الإماتة والإحياء. قلتُ: قد أخرج في صورة المستحيل لما قوي من الصارف عن الكفر، والداعي إلى الإيمان.

فإنْ قلتَ: فقد تبيّن أمر الهمزة، وأنّها لإنكار الفعل والإيذان باستحالته في نفسه، أو لقوة الصارف عنه. فما تقول في كيف، حيث كان إنكار الحال التي يقع عليها كفرهم. قلتُ: حال الشيء تابعة لذاته فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال، فكان: إنكار حال الكفر لأنها تبيع ذات الكفر ورديفها إنكاراً لذات الكفر وثباتها على طريق الكناية، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ. وتحريره أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها، وقد علم أنّ كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده، ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني.

والواو: في قوله: ﴿وكنتم أمواتاً﴾ للحال.

فإنْ قلتَ: فكيف صح أن يكون حالاً وهو ماضٍ ولا يقال: جئت وقام الأمير، ولكن وقد قام لا أن يضمر قد. قلتُ: لم تدخل الواو على كنتم أمواتاً وحده، ولكن على جملة قوله: ﴿كنتم أمواتاً﴾ ـ إلى ـ ﴿ترجعون﴾ كأنّه قيل: كيف تكفرون بالله وقصتكم هذه وحالكم أنّكم كنتم أمواتاً نطفاً في أصلاب آبائكم، فجعلكم أحياءً ثم يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم بعد الموت ثم يحاسبكم.

فإنْ قلتَ: بعض القصة ماضٍ وبعضها مستقبل، والماضي والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقعا حالاً حتى يكون فعلاً حاضراً وقت وجود ما هو حال عنه، فما الحاضر الذي وقع حالاً؟ قلتُ: هو العلم بالقصة. كأنّه قيل: كيف تكفرون، وأنتم عالمون بهذه القصة بأوّلها وآخرها؟

فإنْ قلتَ: فقد آل المعنى إلى قولك على أي حال تكفرون في حال علمكم بهذه القصة، فما وجه صحته؟ قلتُ: قد ذكرنا أنّ معنى الاستفهام في كيف الإنكار، وإنّ إنكار الحال متضمن لإنكار الذات على سبيل الكناية، فكأنّه قيل: ما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه.

فإنْ قلتَ: إن اتصل علمهم بأنّهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم، فلم يتصل بالإحياء الثاني والرجوع؟ قلتُ: قد تمكنوا من العلم بها بالدلائل الموصلة إليه فكان ذلك بمنزلة حصول العلم، وكثير منهم علموا ثم عاندوا.

والأموات: جمع ميت كالأقوال في جمع قيل.

فإنْ قلتَ: كيف قيل لهم أموات في حال كونهم جماداً، وإنما يقال ميت فيما يصح فيه الحياة من البنى! قلتُ: بل يقال ذلك لعادم الحياة كقوله: ﴿بلدة ميتاً﴾[1] ﴿وآية لهم الأرض الميتة﴾[2]! أموات غير أحياء، ويجوز أن يكون استعارةً لاجتماعهما في أن لا روح، ولا إحساس.

فإنْ قلتَ: ما المراد بالإحياء الثاني؟ قلتُ: يجوز أن يراد به الإحياء في القبر، وبالرجوع النشور، وأن يراد به النشور وبالرجوع المصير إلى الجزاء.

فإنْ قلتَ: لم كان العطف الأوّل بالفاء، والإعقاب بـ «ثم»؟ قلتُ: لأنّ الإحياء الأوّل قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت؛ إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً، وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضاً متراخٍ عن النشور.

فإنْ قلتَ: من أين أنكر اجتماع الكفر مع القصة التي ذكرها الله لأنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر، أم على نعم جسام حقها أن تشكر ولا تكفر؟ قلتُ: يحتمل الأمرين جميعاً لأنّ ما عدّده آياتٍ وهي مع كونها آياتٍ من أعظم النعم.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾.

﴿لكم﴾ لأجلكم ولانتفاعكم به في دنياكم، ودينكم، أما الانتفاع الدنيوي فظاهر، وأمّا الانتفاع الديني فالنظر فيه وما فيه من عجائب الصنع الدالة على الصانع القادر الحكيم، وما فيه من التذكير بالآخرة وبثوابها وعقابها لاشتماله على أسباب الأنس واللذة من فنون المطاعم، والمشارب والفواكه والمناكح والمراكب والمناظر الحسنة البهية. وعلى أسباب الوحشة، والمشقة من أنواع المكاره كالنيران والصواعق والسباع والأحناش والسموم والغموم والمخاوف، وقد استدل بقوله: ﴿خلق لكم﴾ على أنّ الأشياء التي يصح أن ينتفع بها[3] ولم تجر مجرى المحظورات في العقل خلقت في الأصل مباحةً مطلقاً لكل

(1) سورة الفرقان، الآية: 49.

(2) سورة يس، الآية: 33.

(3) قال أحمد رحمه الله: هذا استدلال فرقة من القدرية ذهبت، إلى أن حكم الله تعالى الإباحة في ذوات المنافع، التي لا يدل العقل على=

أحد أن يتناولها ويستنفع بها.

فإنْ قلتَ: هل لقول من زعم أنّ المعنى خلق لكم الأرض وما فيها، وجه صحة؟ قلتُ: إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية جاز ذلك، فإنّ الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية. و﴿جميعاً﴾ نصب على الحال من الموصول الثاني.

والاستواء: الاعتدال والاستقامة. يقال: استوى العود وغيره، إذا قام واعتدل. ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل، إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء، ومنه استعير قوله: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾[1] أي قصد إليها بإرادته ومشيئته بعد خلق ما في الأرض من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر. والمراد بالسماء جهات العلو. كأنّه قيل: ثم استوى إلى فوق. والضمير في ﴿فسواهنّ﴾ ضمير مبهم. و﴿سبع سمٰوات﴾ تفسيره كقولهم: ربه رجلاً. وقيل: الضمير راجع إلى السماء، والسماء في معنى الجنس. وقيل: جمع سماءة، والوجه العربي هو الأوّل، ومعنى تسويتهنّ تعديل خلقهنّ، وتقويمه وإخلاؤه من العوج والفطور أو إتمام خلقهنّ. ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ فمن ثَم خلقهنّ خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم.

فإنْ قلتَ: ما فسرت به معنى الاستواء إلى السماء يناقضه ثم لإعطائه معنى التراخي والمهلة؟ قلتُ: ثم ههنا لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السمٰوات على خلق الأرض لا للتراخي في الوقت كقوله: ثم كان من الذين آمنوا. على أنّه لو كان لمعنى التراخي في الوقت لم يلزم ما اعترضت به لأنّ المعنى أنه حين قصد إلى السماء لم يحدث فيما بين ذلك أي في تضاعيف القصد إليها خلقاً آخر.

فإنْ قلتَ: أما يناقض هذا قوله: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾[2]؟ قلتُ: لا لأنّ جرم الأرض تقدّم خلقه خلق السماء، وأما دحاها فمتأخر. وعن الحسن: خلق الله الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان، وخلق منه السمٰوات، وأمسك الفهر في موضعها، وبسط منها الأرض، فذلك قوله: ﴿كانتا رتقاً﴾[3] وهو الالتزاق.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وإذ﴾ نصب بإضمار اذكر، ويجوز أن ينتصب بقالوا. والملائكة جمع ملأك على الأصل كالشمأل في جمع شمائل وإلحاق التاء لتأنيث الجمع. و﴿جاعل﴾ من جعل الذي له مفعولان دخل على المبتدأ والخبر، وهما قوله: ﴿في الأرض خليفة﴾ فكانا مفعوليه، ومعناه مصير ﴿في الأرض خليفة﴾ والخليفة من يخلف غيره، والمعنى: خليفة منكم. لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم، وذريته.

فإنْ قلتَ: فهلا قيل خلائف أو خلفاء؟ قلتُ: أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما استغنى بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم، أو أريد من يخلفكم أو خلفاً يخلفكم، فوحد لذلك، وقرئ خليقة بالقاف، ويجوز أن يريد خليفةً مني لأنّ آدم كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي إنا جعلناك خليفةً في الأرض.

فإنْ قلتَ: لأي غرض أخبرهم بذلك؟ قلتُ: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم صيانةً لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم. وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة. ﴿أتجعل فيها﴾ تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ولا يريد إلا الخير.

فإنْ قلتَ: من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ قلتُ: عرفوه بإخبار من الله، أو من جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أنّ الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض. فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة.

وقرئ يسفُك، بضم الفاء. ويسفك ويسفك من أسفك وسفك.

والواو في ﴿ونحن﴾ للحال كما تقول: أتحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان، والتسبيح تبعيد الله عن السوء. وكذلك تقديسه من سبح في الأرض والماء، وقدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد. و﴿بحمدك﴾ في موضع الحال أي: نسبح حامدين لك وملتبسين بحمدك لأنّه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللطف لم نتمكن من عبادتك. ﴿أعلم ما لا تعملون﴾ أي: أعلم من المصالح في ذلك ما هو خفي عليكم.

= تحريمها قبل ورود الرسل تلقياً من العقل، وزعموا أنها اشتملت على منافع وحاجة الخلق، داعية إليها، فحلقها مع خطرها على العباد خلاف مقتضى الحكمة، فوجب عندهم بمقتضى العقل، أن يعتقدوا إباحتها في حكم الله عز وجل، وهذا زلل ناشئ عن قاعدة التحسين والتقبيح الباطلة، وأما استدلال الزمخشري لهذه الفرقة بالآية، فغير مستقيم، فإن دعواهم أنّ العقل كافٍ في إباحة هذه= الأشياء، فإن دلت الآية على الإباحة، فنحن نقول بموجبها، ويكون إذاً إباحة شرعية سمعية، وإن لم تدل على الإباحة، لم يبق في الاستدلال بها مطمع.

(1) سورة البقرة، الآية: 29.

(2) سورة النازعات، الآية: 30.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 30.

فإنْ قلتَ: هلا بين لهم تلك المصالح؟ **قلتُ:** كفى العباد أن يعلموا أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة، وإن خفي عليهم وجه الحسن والحكمة على أنّه قد بين لهم بعض ذلك فيما أتبعه من قوله:

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ واشتقاقهم آدم: من الأدمة ومن أديم الأرض نحو اشتقاقهم يعقوب من العقب، وإدريس من الدرس، وإبليس من الإبلاس. وما آدم إلا اسم أعجمي وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر وعازر وعابر وشالخ وفالغ وأشباه ذلك.

الأسماء كلها: أي: أسماء المسميات[1]، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء لأنّ الاسم لا بد له من مسمى، وعوض منه اللام كقوله: ﴿واشتعل الرأس﴾[2].

فإنْ قلتَ: هلا زعمت أنّه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وأنّ الأصل وعلم آدم مسميات الأسماء؟ **قلتُ:** لأنّ التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله: **﴿أنبؤني بأسماء هؤلاء﴾** **﴿أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنبأهم بأسمائهم﴾**[3] فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات، ولم يقل أنبؤني بهؤلاء وأنبئهم بهم وجب تعليق التعليم بها.

فإنْ قلتَ: فما معنى تعليمه أسماء المسميات؟ **قلتُ:** أراد الأجناس التي خلقها وعلمه أنّ هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها، وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية. **﴿ثم عرضهم﴾** أي عرض المسميات، وإنما ذكر لأنّ في المسميات العقلاء فغلبهم، وإنما استنبأهم، وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت **﴿إن كنتم صادقين﴾** يعني: في زعمكم أني أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء. إرادة للردّ عليهم، وأنّ فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا، فأراهم بذلك، وبين لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح في استخلافهم في قوله: **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾**[4] وقوله: **﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السمٰوات والأرض﴾** استحضار لقوله لهم: إني أعلم ما لا تعلمون. إلاّ أنّه جاء به على وجه أبسط من ذلك وأشرح.

وقرىء: وعلم آدم، على البناء للمفعول. وقرأ عبد الله: عرضهن، وقرأ أبيّ: عرضها، والمعنى عرض مسمياتهنّ أو مسمياتها، لأنّ العرض لا يصح في الأسماء.

قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾.

وقرىء: أنبيهم، بقلب الهمزة ياءً، وأنبهم بحذفها، والهاء مكسورة فيهما.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾.

السجود لله تعالى على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة، كما سجدت الملائكة لآدم، وأبو يوسف وإخوته له، ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه، وقرأ أبو جعفر: للملائكة اسجدوا، بضم التاء للإتباع. ولا يجوز استهلاك الحركة الإعرابية بحركة الإتباع إلا في لغة ضعيفة كقولهم: الحمد لله. **﴿إلا إبليس﴾** استثناء متصل لأنّه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بهم فغلبوا عليه. في قوله: **﴿فسجدوا﴾** ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم، ويجوز أن يجعل منقطعاً. **﴿أبى﴾** امتنع مما أمر به، **﴿واستكبر﴾** عنه. **﴿وكان من الكافرين﴾** من جنس كفرة الجن وشياطينهم، فلذلك أبى واستكبر كقوله: **﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾**[5] السكنى من السكون لأنها نوع من اللبث والاستقرار.

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾.

---

(1) قال أحمد رحمه الله: وهو يفر من اعتقاد أنّ الاسم: هو المسمى؛ لأنّ ذلك معتقد أهل السنة، فيعمل الحيلة في إبعاده عن مقتضى الآية، بقوله أنبئهم بأسمائهم، ويتغافل عن قوله، ثم عرضهم على الملائكة، فإنّ الضمير فيه عائد إلى المسميات اتفاقاً، ولم يجر ذكر الأسماء، فدل على أنها المسميات، ويعرض أيضاً عن حكمة التعليم، وأنّ تعليقه بنفس الألفاظ لا كبير، غرض فيه بل الغرض المهم تعليمه لذوات المسميات، واطلاعه على حقائقها، وما أودع الله تعالى فيها من خواص وأسرار، وعلى تسميتها أيضاً، فإن طريق التعليم يميز كل حقيقة باسمها، فقد ثبت بهاتين النكتتين أنّ المراد بالأسماء: المسميات، وأما استدلاله بقوله: أنبؤني بأسماء هؤلاء، فغايته إضافة الأسماء إلى الذوات، فلهم أن يقولوا لو كانت الأسماء هي الذوات، لزمت إضافة الشيء إلى نفسه، وهذا ما لا مطمع فيه، فإن هذه الإضافة مثلها في قولك: نفس زيد حقيقته، = فالمراد إذاً نبؤني بحقائق هؤلاء، ولا نكير في هذه الإضافة، فإنّ الأسماء بمعنى المسميات، والحقائق أعم من هؤلاء المشار إليهم، والمضاف إليهم فصحت الإضافة لما بين الأعم، والأخص من التغاير، وهذا هو المصحح للإضافة في نفس زيد وأشباهه، فهذه نبذة من مسألة الإسم والمسمى تختص بهذه الآية، وفيها إن شاء الله كفاية على أنها وإن عدّها المتكلمون، من فن الكلام، فالغالب عليها أنها مسألة لفظية لا يرجع اختلاف الأشعرية، والمعتزلة فيها إلى كثير من حيث الحقيقة.

(2) سورة مريم، الآية: 4.

(3) سورة البقرة، الآية: 33.

(4) سورة البقرة، الآية: 30.

(5) سورة الكهف، الآية: 50.

و ﴿أنت﴾ تأكيد للمستكن في ﴿اسكن﴾ ليصح العطف عليه. و ﴿رغداً﴾ وصف للمصدر أي: أكلاً رغداً واسعاً رافهاً. و ﴿حيث﴾ للمكان المبهم، أي: أي مكان من الجنة ﴿شئتما﴾ أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلة حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة حتى لا يبقى لهما عذر في التناول من شجرة واحدة من بين أشجارها الفائتة للحصر، وكانت الشجرة فيما قيل الحنطة أو الكرمة أو التينة. وقرىء: ولا تِقربا بكسر التاء، وهذي والشِجرة بكسر الشين، والشِيرة بكسر الشين والياء، وعن أبي عمرو أنّه كرهها وقال: يقرأ بها برابرة مكة وسودانها. ﴿من الظالمين﴾ من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله﴿فتكونا﴾ جزم عطف على ﴿تقربا﴾ أو نصب جواب للنهي.

فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾.

الضمير في ﴿عنها﴾ للشجرة أي: فحملهما الشيطان على الزلة بسببها، وتحقيقه: فأصدر الشيطان زلتهما عنها وعن هذه مثلها في قوله تعالى: ﴿وما فعلته عن أمري﴾[1] وقوله:

ينهون عن أكل وعن شرب

وقيل: فأزلهما عن الجنة، بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما، كما تقول: نزل[2] عن مرتبته، وزل عني ذاك إذا ذهب عنك، وزل من الشهر كذا. وقرىء: فأزالهما. ﴿مما كانا فيه﴾ من النعيم والكرامة، أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة في عنها. وقرأ عبد الله: فوسوس لهما الشيطان عنها، وهذا دليل على أنّ الضمير للشجرة لأنّ المعنى: صدرت وسوسته عنها.

فإنْ قلتَ: كيف توصل إلى إزلالهما ووسوسته لهما بعدما قيل له: ﴿اخرج منها فإنك رجيم﴾[3]؟ قلتُ: يجوز أن يمنع دخولها على جهة التقريب والتكرمة كدخول الملائكة، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ابتلاءً لآدم وحوّاء. وقيل: كان يدنو من السماء فيكلمهما. وقيل: قام عند الباب فنادى. وروي: أنّه أراد الدخول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به وهم لا يشعرون. قيل: ﴿اهبطوا﴾، خطاب لآدم وحوّاء وإبليس، وقيل: والحية، والصحيح أنّه لآدم وحوّاء والمراد: هما وذرّيتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلا كأنهما الإنس كلهم، والدليل عليه قوله: ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو﴾[4] ويدل على ذلك قوله: ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[5]. وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم. ومعنى: ﴿بعضكم لبعض عدوّ﴾ ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض، والهبوط النزول إلى الأرض. ﴿مستقر﴾ موضع استقرار أو استقرار، ﴿ومتاع﴾ وتمتع بالعيش. ﴿إلى حين﴾ يريد إلى يوم القيامة، وقيل إلى الموت.

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾.

ومعنى: تلقي الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقرئ بنصب آدم ورفع الكلمات على أنّها استقبلته بأن بلغته واتصلت به.

فإنْ قلتَ: ما هنّ؟ قلتُ: قوله تعالى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾[6] الآية. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إنّ أحبّ الكلام إلى الله ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: سبحانك اللهمّ وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدّك، لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: يا رب ألم تنفخ فيّ الروح من روحك؟ قال: بلى. قال: يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى. قال: ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى. قال: يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم[7] واكتفى بذكر توبة آدم دون توبة حوّاء لأنّها كانت تبعاً له كما طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنّة لذلك، وقد ذكرها في قوله: ﴿قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا﴾[8]. ﴿فتاب عليه﴾ فرجع عليه بالرحمة والقبول.

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾.

فإنْ قلتَ: لم كرّر ﴿قلنا اهبطوا﴾؟ قلتَ: للتأكيد، ولما نيط به من زيادة قوله: ﴿فإمّا يأتينكم مني هدى﴾.

فإنْ قلتَ: ما جواب الشرط الأوّل؟ قلتُ: الشرط الثاني مع جوابه كقولك: إن جئتني فإن قدرت أحسنت إليك، والمعنى: فإمّا يأتينكم مني هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم، بدليل قوله: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ في مقابلة قوله: ﴿فمن تبع هداي﴾.

فإنْ قلتَ: فلم جيء بكلمة الشك وإتيان الهدى[9] كائن

---

(1) سورة الكهف، الآية: 82.

(2) قال أحمد رحمه الله: ويشهد له قوله تعالى: ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾.

(3) سورة الحجر، الآية: 34.

(4) سورة طه، الآية: 123.

(5) سورة البقرة، الآيتان: 38، 39.

(6) سورة الأعراف، الآية: 23.

(7) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/542.

(8) سورة الأعراف، الآية: 23.

(9) قال أحمد رحمه الله: هاتان زلتان زلهما، فزلهما في قرن: الأولى إيراد السؤال بناه على أنّ الهدى على الله تعالى واجب، والثانية: بناء الجواب على أنّ الوجوب الشرعي يثبت بالعقل، قبل ورود الشرع، والحق أنّ الله تعالى لا يجب عليه شيء تعالى عن الإيجاب رب الأرباب، وإنما يدخل تحت ربقة التكاليف المربوب، لا الربّ،

لا محالة لوجوبه؟ قلتُ: للإيذان بأنّ الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب، وأنه إن لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً كان الإيمان به وتوحيده واجباً لما ركب فيهم من العقول ونصب لهم من الأدلة ومكّنهم من النظر والاستدلال.

فإنْ قلتَ: الخطيئة التي أهبط بها آدم[1] إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء، وإن كانت صغيرة فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس، والإخراج من الجنة والإهباط من السماء كما فعل بإبليس ونسبته إلى الغيّ والعصيان، ونسيان العهد وعدم العزيمة، والحاجة إلى التوبة؟ قلتُ: ما كانت إلا صغيرةً مغمورةً بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجلّ الأعمال وأعظم الطاعات، وإنّما جرى عليه ما جرى تعظيماً للخطيئة وتفظيعاً لشأنها وتهويلاً ليكون ذلك لطفاً له ولذريّته في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فكيف يدخلها ذو خطايا جمة. وقرىء: فمن تبع هدى، على لغة هذيل فلا خوف بالفتح.

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾

﴿إسرائيل﴾ هو يعقوب عليه السلام لقب له، ومعناه في لسانهم صفوة الله، وقيل عبد الله، وهو بزنة إبراهيم وإسمٰعيل غير منصرف مثلهما لوجود العلمية والعجمة، وقرىء: إسرائل وإسرئل. وذكرهم النعمة أن لا يخلّوا بشكرها ويعتدّوا بها ويستعظموها ويطيعوا مانحها، وأراد بها ما أنعم به على آبائهم مما عدّد عليهم من الإنجاء من فرعون وعذابه، ومن الغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم، وغير ذلك، وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المبشّر به في التوراة والإنجيل.

والعهد: يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً. يقال: أوفيت بعهدي، أي: بما عاهدت عليه، كقوله: ومن أوفى بعهده من الله، وأوفيت بعهدك أي: بما عاهدتك عليه. ومعنى: ﴿وأوفوا بعهدي﴾ وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي، والطاعة لي، كقوله: ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله﴾[2] ﴿ومنهم من عاهد الله﴾[3] ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾[4] ﴿أوف بعهدكم﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم. ﴿وإياي فارهبون﴾ فلا تنقضوا عهدي. وهو من قولك: زيداً رهبته، وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إيّاك نعبد﴾[5]، وقرىء: أوفّ بالتشديد، أي: أبالغ في الوفاء بعهدكم، كقوله: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾[6] ويجوز أن يريد بقوله: وأوفوا بعهدي ما عاهدوا عليه ووعدوه من الإيمان بنبي الرحمة، والكتاب المعجز، ويدل عليه قوله.

وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أوّل كافر به﴾ أوّل من كفر به، أو أوّل فريق أو فوج كافر به، أو ولا يكن كل واحد منكم أوّل كافر به. كقولك: كسانا حلةً، أي: كل واحد منا، وهذا تعريض بأنّه كان يجب أن يكونوا أوّل من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته، ولأنّهم كانوا المبشرين بزمان من أوحي إليه، والمستفتحين على الذين كفروا به، وكانوا يعدون اتباعه أوّل الناس كلهم؛ فلما بعث كان أمرهم على العكس. كقوله: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيّنة﴾[7] إلى قوله: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيّنة﴾[8] فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، ويجوز أن يراد، ولا تكونوا مثل أوّل كافر به يعني من أشرك به من أهل مكة. أي: ولا تكونوا وأنتم تعرفونه مذكوراً في التوراة موصوفاً مثل من لم يعرفه، وهو مشرك لا كتاب له، وقيل الضمير في به لما معكم لأنّهم إذا كفروا بما يصدّقه فقد كفروا به.

والاشتراء استعارة للاستبدال كقوله تعالى: ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾[9] وقوله:

= وأمّا وجوب النظر في أدلة التوحيد، فإنما يثبت بالسمع لا بالعقل، وإن كان حصول المعرفة بالله وتوحيده غير موقوف على ورود السمع، بل محض العقل كافٍ فيه باتفاق.

(1) قال أحمد رحمه الله: مقتضاه تأويل الآي المشعر ظاهرها، بوقوع الصغائر من الأنبياء تنزيهاً لهم عنها، على أنّ تجويز الصغائر عليهم قد قال به طوائف أهل السنة، في طي وقوعها إلطاف وزيادة في الالتجاء إلى الله تعالى، والتواضع له والإشفاق على الخطائين، والدعاء لهم بالتوبة والمغفرة، كما نقل عن داود أنه كان بعد ابتلاء الله له، يدعو للخطائين كثيراً، وعلى الجملة فالقدريّ يجوّز الصغائر على الأنبياء، ويقول: إنّ اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر في حق آحاد الناس، فلا جرم التزم الزمخشري ورود السؤال؛ لأنّ آدم عليه السلام معصوم من الكبائر باتفاق، فيلزم على قاعدة القدرية أن تكون صغيرة واجبة التكفير، والمحو غير مؤاخذ عليها، ولا مستوجب بسببها عقوبة، ولا شيئاً مما وقع = في هذا لا جواب للزمخشري عنه، إلا الإنصاف والرجوع عن المعتقدات الباطلة، والمذاهب الماحلة، ولقد شنع السؤال بقوله: إنّ الذي جرى على آدم عليه السلام، كالذي جرى على إبليس عليه اللعنة، ومعاذ الله أن يكون الحالان سواء، والعاقبتان كما تعلم أنّ آدم عليه السلام خالد في النعيم المقيم، وأنّ إبليس خالد في العذاب الأليم.

(2) سورة الفتح، الآية: 10.
(3) سورة التوبة، الآية: 75.
(4) سورة الأحزاب، الآية: 23.
(5) سورة الفاتحة، الآية: 5.
(6) سورة النمل، الآية: 89.
(7) سورة البيّنة، الآية: 1.
(8) سورة البيّنة، الآية: 4.
(9) سورة البقرة، الآية: 16.

كما اشترى المسلم إذ تنصرا

وقوله:

فإني شريت الحلم بعدك بالجهل

يعني: ولا تستبدلوا بآياتي ثمناً وإلا فالثمن هو المشترى به.

والثمن القليل: الرياسة التي كانت لهم في قومهم خافوا عليها الفوات لو أصبحوا اتباعاً لرسول الله ﷺ فاستبدلوها، وهي بدل قليل ومتاع يسير بآيات الله وبالحق الذي كل كثير إليه قليل وكل كبير إليه حقير، فما بال القليل الحقير. وقيل: كانت عامتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم، ويهدون إليهم الهدايا، ويرشونهم الرشا على تحريفهم الكلم وتسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرائع، وكان ملوكهم يدرّون عليهم الأموال ليكتموا أو يحرفوا.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

الباء التي في ﴿بالباطل﴾ إن كانت صلةً مثلها في قولك لبست الشيء بالشيء خلطته به، كان المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم حتى لا يميز بين حقها وباطلكم، وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك: كتبت بالقلم، كان المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبساً مشتبهاً بباطلكم الذي تكتبونه. ﴿وتكتموا﴾ جزم داخل تحت حكم النهي، بمعنى: ولا تكتموا. أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع أي: ولا تجمعوا لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن.

فإنْ قلتَ[1]: لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين حتى نبهوا عن الجمع بينهما لأنهم إذا لبسوا الحق بالباطل فقد كتموا الحق! **قلت**: بل هما متميزان لأنّ لبس الحق بالباطل ما ذكرناه من كتابتهم في التوراة ما ليس منها، وكتمانهم الحق أن يقولوا لا نجد في التوراة صفة محمد ﷺ أو حكم كذا أو يمحوا ذلك أو يكتبوه على خلاف ما هو عليه، وفي مصحف عبد الله: وتكتمون، بمعنى كاتمين. ﴿وأنتم تعلمون﴾ في حال علمكم أنّكم لابسون كاتمون، وهو أقبح لهم لأنّ الجهل بالقبيح ربما عذر راكبه.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وأقيموا الصلاة﴾: يعني صلاة المسلمين وزكاتهم، ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ منهم لأنّ اليهود لا ركوع في صلاتهم، وقيل: الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم في دين الله، ويجوز أن يراد بالركوع الصلاة، كما يعبّر عنها بالسجود، وأن يكون أمراً بأن يصلي مع المصلين يعني في الجماعة، كأنه قيل: وأقيموا الصلاة، وصلوها مع المصلين لا منفردين.

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أتأمرون﴾ الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم. والبر سعة الخير والمعروف، ومنه البر لسعته ويتناول كل خير، ومنه قولهم: صدقت وبررت، وكان الأحبار يأمرون من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد ﷺ، ولا يتبعونه، وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة، ولا يتصدقون، وإذا أتوا بصدقات ليفرّقوها خانوا فيها. وعن محمد بن واسع: بلغني أن ناساً من أهل الجنة اطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم: قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة. قالوا: كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها. ﴿وتنسون أنفسكم﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات، ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ تبكيت مثل قوله: ﴿وأنتم تعلمون﴾[2]؛ يعني تتلون التوراة، وفيها نعت محمد ﷺ، أو فيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول العمل، ﴿أفلا تعقلون﴾ توبيخ عظيم بمعنى: أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول لأنّ العقول تأباه، وتدفعه، ونحوه: أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿واستعينوا﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بالصبر والصلاة﴾ أي: بالجمع بينهما، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة محتملين لمشاقها، وما يجب فيها من إخلاص القلب وحفظ النيات ودفع الوساوس ومراعاة الآداب، والاحتراس من المكاره مع الخشية والخشوع، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السمٰوات ليسأل فك الرقاب عن سخطه وعذابه. ومنه قوله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾[3] أو واستعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها. وكان رسول الله ﷺ إذا حزّ به أمر فزع إلى الصلاة[4]، وعن ابن عباس أنّه نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع وتنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال

---

(1) قال أحمد رحمه الله: السؤال غير موجه؛ لأنه ادعى فيه عدم التميز بين الفعلين، وغاية ما قدره تلازمهما، والمتلازمان مغايران متميزان، إلا أن يعني بعدم التميز: عدم الانفكاك، فلا نسلم له تعذر جمعهما في النهي، إذاً بل النهي عن أحدهما على هذا التقدير مستلزم للنهي عن الآخر، وإن لم يصرح به.

(2) سورة البقرة، الآيات: 22، 42، 188.

(3) سورة طه، الآية: 132.

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصبر على المصائب، الحديث رقم: (9682).

فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: واستعينوا بالصبر والصلاة[1]. وقيل: الصبر الصوم، لأنّه حبس عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضان: شهر الصبر، ويجوز أن يراد بالصلاة الدعاء، وأن يستعان على البلايا بالصبر والالتجاء إلى الدعاء والابتهال إلى الله تعالى في دفعه. ﴿وإنّها﴾ الضمير للصلاة أو للاستعانة، ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها. من قوله: ﴿اذكروا نعمتي﴾ ـ إلى ـ ﴿واستعينوا﴾. ﴿لكبيرة﴾ لشاقة ثقيلة، من قولك: كبر عليّ هذا الأمر: ﴿كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾.

فإنْ قلتَ: ما لها لم تثقل على الخاشعين، والخشوع في نفسه مما يثقل؟ **قلتُ:** لأنّهم يتوقعون ما ادّخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم.

الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنّهم ملاقو ربهم﴾ أي: يتوقعون لقاء ثوابه، ونيل ما عنده ويطمعون فيه. وفي مصحف عبد الله: يعلمون، ومعناه: يعلمون أن لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك، ولذلك فسّر يظنون بيتيقنون، وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة، فثقلت عليه كالمنافقين، والمرائين بأعمالهم. ومثاله من وعد على بعض الأعمال والصنائع أجرةً زائدةً على مقدار عمله، فتراه يزاوله برغبة، ونشاط وانشراح صدر ومضاحكة لحاضريه، كأنه يستلذ مزاولته بخلاف حال عامل يتسخره بعض الظلمة، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»[2]، وكان يقول: «يا بلال، روحنا»[3].

والخشوع: الإخبات والتطامن، ومنه الخشعة المرملة المتطامنة، وأما الخضوع فاللين والانقياد، ومنه: خضعت بقولها، إذا لينته.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وأني فضلتكم﴾ نصب عطف على نعمتي أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي. ﴿على العالمين﴾ على الجم الغفير من العالم كقوله تعالى: ﴿باركنا فيها للعالمين﴾[4]، يقال: رأيت عالماً من الناس يراد الكثرة.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يوماً﴾ يريد يوم القيامة. ﴿لا تجزي﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق. ومنه الحديث في جذعة بن نيار: تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك[5]، و ﴿شيئاً﴾ مفعول به، ويجوز أن يكون في موضع مصدر، أي: قليلاً من الجزاء. كقوله تعالى: ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾[6]. ومن قرأ: لا تجزئ من أجزأ عنه إذا أغنى عنه، فلا يكون في قراءته إلا بمعنى شيئاً من الإجزاء. وقرأ أبو السرار الغنوي: لا تجزي نسمة عن نسمة شيئاً، وهذه الجملة منصوبة المحل صفة ليوماً.

فإنْ قلتَ: فأين العائد منها إلى الموصوف؟ **قلتُ:** هو محذوف تقديره لا تجزي فيه. ونحوه ما أنشده أبو علي:

تـــروحـــي أجـــدر أن تـــقـــيـــلـــي

أي: ماء أجدر بأن تقيلي فيه. ومنهم من ينزل فيقول: اتسع فيه، فأجرى مجرى المفعول به فحذف الجار ثم حذف الضمير كما حذف من قوله: أم مال أصابوا. ومعنى التنكير أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئاً من الأشياء، وهو الإقناط الكلي القطاع للمطامع، وكذلك قوله: ﴿ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾: أي فدية، لأنّها معادلة للمفدي. ومنه الحديث: «**لا يقبل منه صرف ولا عدل**»[7]: أي: توبة ولا فدية. وقرأ قتادة: ولا يقبل منها شفاعة، على بناء الفعل للفاعل، وهو الله عزّ وجلّ، ونصب الشفاعة، وقيل: كانت اليهود تزعم أنّ آباهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا.

فإنْ قلتَ[8]: هل فيه دليل على أنّ الشفاعة لا تقبل للعصاة؟ **قلتُ:** نعم لأنه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة

---

(1) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء، الحديث رقم: (3949)، وأخرجه أحمد في المسند 3/128، وأخرجه الحاكم في المستدرك 2/160.

(2) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء، الحديث رقم: (3949)، وأخرجه أحمد في المسند 3/128، وأخرجه الحاكم في المستدرك 2/160.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في صلاة العتمة، الحديث رقم: (4985)، وأخرج الحديث الثاني، الحديث رقم: (4986)، وأخرجه أحمد في المسند 5/364، والرواية الثانية أخرجها 5/371.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 71.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب: قول النبي ﷺ لأبي بردة ضحِّ إلخ... الحديث رقم: (5556)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأضاحي، باب: وقتها الحديث رقم: (5043).

(6) سورة مريم، الآية: 60.

(7) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل المدينة باب: حرم المدينة، = الحديث رقم: (1870)، وأخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: فضل المدينة الحديث رقم: (3314)، وعبد الرزاق في مصنفه 9/263 الحديث رقم: (17153)، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب: الحج، باب: فضائل المدينة، الحديث رقم: (3317)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في المتشدق الحديث رقم: (5006).

(8) قال أحمد رحمه الله: أما من جحد الشفاعة، فهو جدير أن لا ينالها، وأما من آمن بها وصدّقها، وهم أهل السنة والجماعة، فأولئك يرجون رحمة الله ومعتقدهم، أنها تنال العصاة من المؤمنين، وإنما ادخرت لهم، وليس في الآية دليل لمنكريها؛ لأن قوله يوماً أخرجه منكراً، ولا شك أنّ في القيامة مواطن، ويومها معدود بخمسين ألف سنة، فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة، وبعضها هو الوقت الموعود، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد وردت آي كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها، واختلاف أوقاتها منها قوله تعالى: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ مع قوله: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ فيتعين حمل =

شفيع، فعلم أنّها لا تقبل للعصاة.

فإنْ قلتَ: الضمير في ﴿ولا يقبل منها﴾ إلى أي النفسين يرجع؟ قلتُ: إلى الثانية العاصية غير المجزي عنها وهي التي لا يؤخذ منها عدل. ومعنى: لا يقبل منها شفاعة، إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنّها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها كما لا تجزي عنها شيئاً، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها. ﴿ولا هم ينصرون﴾ يعني: ما دلّت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة، والتنكير بمعنى العباد والأناسي كما تقول: ثلاثة أنفس.

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

أصل ﴿آل﴾ أهل، ولذلك يصغر بأهيل، فأبدلت هاؤه ألفاً وخص استعماله بأولي الخطر والشأن كالملوك وأشباههم فلا يقال: آل الإسكاف والحجام. و﴿فرعون﴾ علم لمن ملك العمالقة كقيصر لملك الروم، وكسرى لملك الفرس، ولعتو الفراعنة اشتقوا تفرعن فلان إذا عتا وتجبر، وفي ملح بعضهم:

قد جاءه الموسى الكلوم فزاد في ... أقصى تفرعنه وفرط عرامه

وقرىء: أنجيناكم ونجيتكم. ﴿يسومونكم﴾ من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً. قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً ... أبينا أن يقر الخسف فينا

وأصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى يبغونكم ﴿سوء العذاب﴾ ويريدونكم عليه، والسوء مصدر السيّىء، يقال: أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل. يراد قبحهما. ومعنى سوء العذاب ـ والعذاب كله سيىء ـ أشده وأفظعه، كأنّه قبحه بالإضافة إلى سائره. و﴿يذبحون﴾ بيان لقوله ﴿يسومونكم﴾، ولذلك ترك العاطف كقوله تعالى: ﴿يضاهؤن قول الذين كفروا﴾[1] وقرأ الزهري: يذبحون، بالتخفيف. كقولك: قطعت الثياب وقطعتها. وقرأ عبد الله: يقتلون. وإنما فعلوا بهم ذلك لأنّ الكهنة أنذروا فرعون بأنّه يولد مولود يكون على يده هلاكه، كما أنذر نمروذ، فلم يغن عنهما اجتهادهما في التحفظ، وكان ما شاء الله.

والبلاء: المحنة إن أشير بذلكم إلى صنيع فرعون، والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿فرقنا﴾ فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم. وقرىء: فرّقنا، بمعنى فصلنا. يقال: فرق بين الشيئين، وفرق بين الأشياء، لأنّ المسالك كانت اثني عشر على عدد الأسباط.

فإنْ قلتَ[2]: ما معنى ﴿بكم﴾؟ قلتُ: فيه أوجه أن يراد أنهم كانوا يسلكونه ويتفرق الماء عند سلوكهم، فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما، وأن يراد فرقناه بسببكم[3] وبسبب إنجائكم، وأن يكون في موضع الحال بمعنى: فرقناه ملتبساً بكم، كقوله:

تدوس بنا الجماجم والتريبا

أي: تدوسها ونحن راكبوها. وروي[4]: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: أين أصحابنا لا نراهم؟ قال: سيروا فإنّهم على طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتى نراهم. فقال: اللهم أعني على أخلاقهم السيئة. فأوحى إليه أن قل بعصاك هكذا. فقال بها على الحيطان فصارت فيها كوى فتراءوا وتسامعوا كلامهم. ﴿وأنتم تنظرون﴾ إلى ذلك وتشاهدونه لا تشكون فيه. لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة.

وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾

وقيل: ﴿أربعون ليلة﴾ لأنّ الشهور غررها بالليالي. وقرىء: واعدنا لأنّ الله تعالى وعده الوحي ووعد المجيء للميقات إلى الطور. ﴿من بعده﴾ من بعد مضيه إلى الطور. ﴿وأنتم ظالمون﴾ بإشراككم.

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

﴿ثم عفونا عنكم﴾[5] حين تبتم ﴿من بعد ذلك﴾ من بعد ارتكابكم الأمر العظيم، وهو اتخاذكم العجل. ﴿لعلكم تشكرون﴾ إرادة أن تشكروا النعمة في العفو عنكم.

= الآيتين على يومين مختلفين، ووقتين متغايرين أحدهما: محل للتساؤل، والآخر: ليس محلاً له، وكذلك الشفاعة وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة، رزقنا الله الشفاعة، وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة.

(1) سورة التوبة، الآية: 30.

(2) قال أحمد رحمه الله: فتكون الباء على هذا الوجه، استعانة مثلها في كتبت بالقلم.

(3) قال أحمد رحمه الله: وهي على هذا الوجه سببية، كما تقول اكرمتك بإحسانك إليّ.

(4) قال أحمد رحمه الله: وهي على هذا الوجه للمصاحبة، مثلها في= أسندت ظهري بالحائط، والوجه الأوّل ضعيف من حيث إن مقتضاه، أنّ تفريق البحر وقع ببني إسرائيل، والمنقول بل المنصوص عليه في الكتاب العزيز، أنّ البحر إنما انفرق بعصا موسى يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ فآلة التفريق العصا لا بنو إسرائيل.

(5) قال أحمد رحمه الله: أخطأ في تفسير لعل بالإرادة؛ لأنّ مراد الله تعالى كائن لا محالة، فلو أراد منهم الشكر، لشكروا، ولا بد وإنما أجراه الزمخشري على قاعدته الفاسدة في اعتقاد أن مراد الرب كمراد العبد منه، ما يقع ومنه ما يتعذر تعالى الله عن ذلك ما=

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾.

﴿الكتاب والفرقان﴾ يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرّق بين الحق والباطل، يعني التوراة. كقولك: رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة، ونحوه قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً﴾[1] يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياءً وذكراً أو التوراة. والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام. وقيل: الفرقان انفراق البحر، وقيل: النصر الذي فرّق بينه وبين عدوّه، كقوله تعالى: ﴿يوم الفرقان﴾[2] يريد به يوم بدر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾.

حمل قوله: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ على الظاهر وهو البخع، وقيل: معناه قتل بعضهم بعضاً. وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة، وروي أن الرجل كان يبصر ولده ووالده وجاره وقريبه فلم يمكنهم المضي لأمر الله، فأرسل الله ضبابةً وسحابةً سوداء لا يتباصرون تحتها، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم، ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم. وقيل لهم: اصبروا فلعن الله من مدّ طرفه أو حل حبوته أو اتقى بيد أو رجل. فيقولون: آمين. فقتلوهم إلى المساء، حتى دعا موسىٰ وهٰرون وقالا: يا رب، هلكت بنو إسرائيل البقية البقية. فكشفت السحابة، ونزلت التوبة، فسقطت الشفار من أيديهم، وكانت القتلى سبعين ألفاً.

فإنْ قلتَ: ما الفرق بين الفاآت؟ قلتُ: الأولى للتسبيب لا غير لأن الظلم سبب التوبة. والثانية للتعقيب، لأن المعنى: فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم، من قبل أن الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم، ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم فيكون المعنى: فتوبوا، فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم، والثالثة متعلقة بمحذوف، ولا يخلو إما أن ينتظم في قول موسىٰ لهم فتتعلق بشرط محذوف كأنّه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، وإمّا أن يكون خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارؤكم.

فإنْ قلتَ: من أين اختص هذا الموضع بذكر البارىء؟ قلتُ: البارئ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ﴿ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت﴾[3]، ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة، أبرياء من التفاوت والتنافر، إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة والبلادة في أمثال العرب: أبلد من ثور ـ حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها. قيل: القائلون السبعون الذين صعقوا، وقيل: قاله عشرة آلاف منهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾.

﴿جهرةً﴾ عياناً، وهي مصدر من قولك جهر بالقراءة والدعاء، كأن الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية، والذي يرى بالقلب مخافت بها، وانتصابها على المصدر لأنها نوع من الرؤية فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال بمعنى ذوي جهرة، وقرىء: جهرة، بفتح الهاء. وهي إمّا مصدر كالغلبة، وإما جمع جاهر. وفي هذا الكلام دليل على أنّ موسىٰ عليه الصلاة والسلام رادّهم القول وعرّفهم أنّ رؤية ما لا يجوز عليه[4] أن يكون في جهة محال، وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراض. فرادّوه بعد بيان الحجة

= شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والتفسير الصحيح في لعل هو الذي حرّره سيبويه رحمه الله، في قوله لعله يتذكر أو يخشى، قال سيبويه: الرجاء منصرف إلى المخاطب، كأنه قال كوناً على رجائكما في تذكره وخشيته، وكذلك هذه الآية معناها: لتكونوا على رجاء الشكر لله عز وجل، ونعمه، فينصرف الرجاء إليهم، وينزه الله تعالى.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 48.

(2) سورة الأنفال، الآية: 41.

(3) سورة تبارك، الآية: 3.

(4) قال أحمد رحمه الله: لقد انتهز الزمخشري ما اعتقده فرصة من هذه الآية، التي لا مطمع له عند التحقيق في التشبث بها، فبنى الأمر على أنّ العقوبة سببها طلب ما لا يجوز على الله تعالى من الرؤية على ظنه، وأنى له ذلك، وثم سبب ظاهر في العقوبة سوى ما ادعاه، هو كل السبب، وذلك أنّ موسى عليه السلام لما علم جواز رؤيته تعالى طلبها في آية الأعراف في دار الدنيا، فأخبره الله = تعالى أنه لا يراه في الدنيا، وصار ذلك عنده، وعند بني إسرائيل أصلاً مقرراً، كما هو عندنا الآن معاشر أهل السنة، أن الله تعالى لا يرى في دار الدنيا؛ لأنه أخبر أنه لا يرى، والخبر واجب الصدق، وكما خبر أنه لا يرى في دار الدنيا، فقد وعد الوعد الصادق عز وجلّ برؤيته في الدار الآخرة، وتخصيص ذلك بالمؤمنين، وبعد استقرار هذا المعتقد طلب بنوا إسرائيل الرؤيا في الدنيا تعنتاً، أو شكاً في الخبر، فأنزل الله تعالى بهم تلك العقوبة، وكيف تخيل الزمخشري وشيعته، أنّ موسى عليه السلام طلب من الله، ما لا يجوز عليه، وهل هو لو كان الأمر على ما تخيله، إلا كبني إسرائيل، ومعاذ الله لقد برأه من ذلك، وكان عند الله وجيهاً، وأمّا الأدلة العقلية على جواز رؤيته تعالى عقلاً، والسمعية على وقوعها في الدار الآخرة، فأكثر من أن تحصى، وهي مستقصاة في فنّ الكلام، وإنما غرضنا في هذا الباب مباحثة الزمخشري، والرد عليه من حيث يتمسك على ظنه، وأخذه قوماً منه، والله الموفق.

ووضوح البرهان ولجوا، فكانوا في الكفر كعبدة العجل، فسلط الله عليهم الصعقة كما سلط على أولئك القتل تسويةً بين الكفرين، ودلالة على عظمهما بعظم المحنة. و ﴿الصاعقة﴾ ما صعقهم، أي أماتهم. قيل: نار وقعت من السماء فأحرقتهم. وقيل: صيحة جاءت من السماء. وقيل: أرسل الله جنوداً سمعوا بحسها فخرّوا صعقين ميتين يوماً وليلةً. وموسى عليه السلام لم تكن صعقته موتاً ولكن غشيةً بدليل قوله: ﴿فلما أفاق﴾[1] والظاهر أنّه أصابهم ما ينظرون إليه لقوله: ﴿وأنتم تنظرون﴾. وقرأ علي رضي الله عنه: فأخذتكم الصعقة.

ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمة البعث بعد الموت، أو نعمة الله بعدما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت.

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وظللنا﴾ وجعلنا الغمام يظلكم، وذلك في التيه سخّر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس، وينزل بالليل عمود من نار يسيرون في ضوئه، وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى. وينزل عليهم ﴿المن﴾ وهو الترنجبين مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع، ويبعث الله الجنوب فتحشر عليهم ﴿السلوى﴾ وهي السماني، فيذبح الرجل منها ما يكفيه. ﴿كلوا﴾ على إرادة القول: ﴿وما ظلمونا﴾ يعني: فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا، فاختصر الكلام بحذفه لدلالة ﴿وما ظلمونا عليه﴾.

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

﴿القرية﴾ بيت المقدس. وقيل: أريحاء من قرى الشام أمروا بدخولها بعد التيه. ﴿الباب﴾ باب القرية، وقيل: هو باب القبة التي كانوا يصلون إليها، وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله وتواضعاً. وقيل: السجود أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين ليكون دخولهم بخشوع وإخبات. وقيل: طوطئ لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم فلم يخفضوها، ودخلوا متزحفين على أوراكهم. ﴿حطة﴾ فعلة من الحط كالجلسة، والركبة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: مسألتنا حطة، وأمرك حطة، والأصل النصب بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة، وإنّما رفعت لتعطي معنى الثبات كقوله:

صبر جميل فكلانا مبتلى

والأصل صبراً على اصبر صبراً. وقرأ ابن أبي عبلة بالنصب على الأصل. وقيل: معناه أمرنا حطّة أي: أن نحط في هذه القرية ونستقرّ فيها.

فإنْ قلتَ: هل تجوز أن تنصب حطة في قراءة من نصبها يقولوا على معنى قولوا هذه الكلمة! قلتُ: لا يبعد، والأجود أن تنصب بإضمار فعلها، وينتصب محل ذلك المضمر يقولوا. وقرئ ﴿يغفر لكم﴾ على البناء للمفعول بالياء والتاء. ﴿وسنزيد المحسنين﴾ أي: من كان محسناً منكم كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة.

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿فبدّل الذين ظلموا﴾ أي: وضعوا مكان حطة ﴿قولاً﴾ غيرها. يعني: أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله. وليس الغرض أنّهم أمروا بلفظ بعينه، وهو لفظ الحطة، فجاؤوا بلفظ آخر، لأنّهم لو جاؤوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به لم يؤاخذوا به، كما لو قالوا مكان حطة نستغفرك ونتوب إليك، أو اللّهم اعف عنا، وما أشبه ذلك. وقيل: قالوا مكان حطة حنطة، وقيل: قالوا بالنبطية حطا سمقاثا، أي: حنطةً حمراء، استهزاءً منهم بما قيل لهم وعدولاً عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أغراض الدنيا. وفي تكرير ﴿الذين ظلموا﴾[2] زيادة في تقبيح أمرهم، وإيذان بأنّ إنزال الرجز عليهم لظلمهم، وقد جاء في سورة الأعراف: ﴿فأرسلنا عليهم﴾[3] على الإضمار.

والرجز: العذاب، وقرئ بضم الراء، وروي أنّه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً. وقيل: سبعون ألفاً عطشوا في التيه فدعا لهم موسى بالسقيا فقيل له:

۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾.

﴿اضرب بعصاك الحجر﴾ واللام إمّا للعهد والإشارة إلى حجر معلوم، فقد روي أنّه حجر طوري حمله معه وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط

(1) سورة الأعراف، الآية: 143.

(2) قال أحمد رحمه الله: وفيه تهويل لظلمهم من حيث وضع الظاهر موضع المضمر، وهو مفيد لذلك، إذ هو من قبيل الأشهر، لهذا المعين.

(3) سورة الأعراف، الآية: 162.

الذي أمر أن يسقيهم، وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. وقيل: أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة ففرّ به فقال له جبريل: يقول لك الله تعالى: ارفع هذا الحجر فإنّ لي فيه قدرة، ولك فيه معجزة. فحمله في مخلاته. وإمّا للجنس، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه[1]. قال: وهذا أظهر في الحجة، وأبين في القدرة. وروي أنهم قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة؟ فحمل حجراً في مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه، وقيل: كان يضربه بعصاه فينفجر، ويضربه بها فييبس. فقالوا: إن فقد موسىٰ عصاه متنا عطشاً. فأوحى إليه لا تقرع الحجارة، وكلمها تطعك لعلهم يعتبرون، وقيل: كان من رخام، وكان ذراعاً في ذراع. وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان من آس الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسىٰ، وله شعبتان تتقدان في الظلمة، وكان يحمل على حمار. ﴿فانفجرت﴾ الفاء متعلقة بمحذوف، أي فضرب، فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت. كما ذكرنا في قوله: ﴿فتاب عليكم﴾[2] وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ. وقرىء: عشرة، بكسر الشين وبفتحها، وهما لغتان. ﴿كل أناس﴾ كل سبط ﴿مشربهم﴾ عينهم التي يشربون منها. ﴿كلوا﴾ على إرادة القول ﴿من رزق الله﴾ مما رزقكم من الطعام، وهو المن والسلوى، ومن ماء العيون. وقيل: الماء ينبت منه الزروع والثمار، فهو رزق يؤكل منه ويشرب.

والعثي: وهو أشدّ الفساد، فقيل لهم: لا تتمادوا في الفساد حال فسادكم، لأنّهم كانوا متمادين فيه. كانوا فلاحة فنزعوا إلى مكرهم فأجموا ما كانوا فيه من النعمة، وطلبت أنفسهم الشقاء.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿على طعام واحد﴾ أرادوا ما رزقوا في التيه من المن والسلوى.

فإنْ قلتَ: هما طعامان فما لهم قالوا على طعام واحد؟ **قلتُ:** أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدّل، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدّة يداوم عليها كل يوم لا يبدّلها قيل: لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً. يراد بالوحدة: نفي التبدل والاختلاف. ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والتترف، ونحن قوم فلاحة أهل زرعات فما نريد إلا ما ألفناه، وضربنا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحو ذلك. ومعنى ﴿يخرج لنا﴾ يظهر لنا ويوجد. والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر، والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها. وقرىء: وقثائها بالضم.

والفوم: الحنطة، ومنه فوّموا لنا، أي: اخبزوا، وقيل: الثوم، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وثومها؛ وهو العدس؛ والبصل أوفق. ﴿الذي هو أدنى﴾ الذي هو أقرب منزلة وأدون مقداراً، والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار، فيقال: هو داني المحل، وقريب المنزلة، كما يعبّر بالبعد عن عكس ذلك، فيقال: هو بعيد المحل، وبعيد الهمة يريدون الرفعة والعلو، وقرأ زهير الفرقبي: أدنأ بالهمزة من الدناءة. ﴿اهبطوا مصراً﴾ وقرىء: اهبطوا بالضم، أي: انحدروا إليه من التيه. يقال: هبط الوادي إذا نزل به، وهبط منه إذا خرج. وبلاد التيه ما بين بيت المقدس إلى قنسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ. ويحتمل أن يريد العلم، وإنّما صرفه مع اجتماع السببين فيه وهما التعريف والتأنيث لسكون وسطه كقوله: (ونوحاً ولوطاً) وفيهما العجمة والتعريف، وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد وأن يريد مصراً من الأمصار. وفي مصحف عبد الله، وقرأ به الأعمش: اهبطوا مصر بغير تنوين، كقوله: ﴿ادخلوا مصر﴾ وقيل: هو مصرائيم فعرب. ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه، أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة، إما على الحقيقة وإما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية. ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ من قولك: باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له، ومكافأته، أي: صاروا أحقاء بغضبه. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدّم من ضرب الذلة والمسكنة والخلافة بالغضب. أي: ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء، وقد قتلت اليهود ـ لعنوا ـ شعيا وزكريا ويحيىٰ وغيرهم.

فإنْ قلتَ: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟ **قلتُ:** معناه أنّهم قتلوهم بغير الحق عندهم لأنّهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا، وإنّما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم، فقتلوهم. فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم. وقرأ علي رضي الله عنه: ويقتلون بالتشديد. ﴿ذلك﴾ تكرار

---

(1) قال ابن حجر: حديث الحسن في قوله: ﴿أن اضرب بعصاك الحجر﴾ لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، ثم قال: وهو أظهر في الحجة.

(2) سورة البقرة، الآية: 54.

للإشارة ﴿بما عصوا﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود الله في كل شيء مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. وقيل: هو اعتداؤهم في السبت. ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء على معنى أنّ ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم لأنّهم انهمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم، فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿إنّ الذين آمنوا﴾ بألسنتهم من غير مواطأة القلوب، وهم المنافقون. ﴿والذين هادوا﴾ والذين تهوّدوا. يقال: هاد يهود وتهوّد، إذا دخل في اليهودية، وهو هائد، والجمع هود. ﴿والنصارى﴾ وهو جمع نصران. يقال: رجل نصران وامرأة نصرانة لم تحنف، والياء في نصراني للمبالغة كالتي في أحمري سموا لأنه نصروا المسيح. ﴿والصابئين﴾ وهو من صبأ إذا خرج من الدين، وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية، وعبدوا الملائكة. ﴿من آمن﴾ من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في ملة الإسلام دخولاً أصيلاً ﴿وعمل صالحاً فلهم أجرهم﴾ الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم.

فإنْ قلتَ: ما محل ﴿من آمن﴾؟ قلتُ: الرفع إن جعلته مبتدأً خبره ﴿فلهم أجرهم﴾، والنصب إن جعلته بدلاً من اسم إن والمعطوف عليه. فخبر إن في الوجه الأول الجملة كما هي، وفي الثاني فلهم أجرهم. والفاء لتضمن من معنى الشرط.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ بالعمل على ما في التوراة. ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق، وذلك أنّ موسىٰ عليه السلام جاءهم بالألواح قرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم وأبوا قبولها. فأمر جبريل فقلع الطور من أصله ورفعه وظلله فوقهم. وقال لهم موسىٰ: إن قبلتم، وإلا ألقي عليكم، حتى قبلوا. ﴿خذوا﴾ على إرادة القول ﴿ما آتيناكم﴾ من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجدّ وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه﴾ واحفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لعلكم تتقون﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين، أو قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾.

﴿ثم توليتم﴾ ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به. ﴿فلولا فضل الله عليكم﴾ بتوفيقكم للتوبة لخسرتم. وقرىء: خذوا ما آتيتكم وتذكروا واذكروا.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾.

﴿والسبت﴾ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت، وإنّ ناساً منهم اعتدوا فيه أي: جاوزوا ما حالهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد، وذلك أنّ الله ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت فإذا مضى تفرّقت. كما قال: تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم. كذلك نبلوهم فحفروا حياضاً عند البحر، وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها، فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم. ﴿قردة خاسئين﴾ خبر إنّ أي: كونوا جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصغار والطرد.

فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾.

﴿فجعلناها﴾ يعني: المسخة، ﴿نكالاً﴾ عبرةً تنكل من اعتبر بها، أي: تمنعه، ومنه النكل القيد. ﴿لما بين يديها﴾ لما قبلها، ﴿وما خلفها﴾ وما بعدها من الأمم والقرون لأنّ مسختهم ذكرت في كتب الأوّلين فاعتبروا بها، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين، أو أريد بما بين يديها، ما بحضرتها من القرى والأمم، وقيل: نكالاً، عقوبةً منكلةً لما بين يديها لأجل ما تقدّمها من ذنوبهم وما تأخر منها. ﴿وموعظةً للمتقين﴾ للذين نهوهم عن الاعتداء من صالحي قومهم، أو لكل متقٍ سمعها. كان في بني إسرائيل شيخ موسر، فقتل ابنه بنو أخيه ليرثوه وطرحوه على باب مدينة، ثم جاؤوا يطالبون بديته، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرةً ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾.

﴿قالوا أتتخذنا هزواً﴾ أتجعلنا مكان هزو، أو أهل هزو. أو مهزواً بنا، أو الهزو نفسه لفرط الاستهزاء. ﴿من الجاهلين﴾ لأنّ الهزو في مثل هذا من باب الجهل والسفه. وقرىء: هزؤا بضمتين، وهزأ بسكون الزاي نحو كفؤا وكفؤا. وقرأ حفص: هزوا بالضمتين والواو، وكذلك كفوا. والعياذ واللياذ من واد واحد.

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾.

في قراءة عبد الله: سل لنا ربك ما هي؟ سؤال عن حالها وصفتها، وذلك أنّهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر.

والفارض: المسنة، وقد فرضت فروضاً فهي فارض. قال خفاف بن ندبة:

لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضاً ... تساق إليه ما تقوم على رجل

وكأنها سميت فارضاً لأنها فرضت سنها أي قطعتها،

وبلغت آخرها.

والبكر: الفتية.

والعوان: النصف. قال: نواعم بين أبكار وعون. وقد عوّنت.

فإنْ قلتَ: ﴿بين﴾ يقتضي شيئين فصاعداً فمن أين جاز دخوله على ﴿ذلك﴾؟ **قلتُ:** لأنّه في معنى شيئين حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفارض والبكر.

فإنْ قلتَ: كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين، وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر؟ **قلتُ:** جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدّم للاختصار في الكلام، كما جعلوا فعل نائباً عن أفعال جمة تذكر قبله. تقول للرجل: نعم ما فعلت، وقد ذكر لك أفعالاً كثيرةً وقصةً طويلةً، كما تقول له: ما أحسن ذلك! وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا قال أبو عبيدة: قلت لرؤبة في قوله:

يها خطوط من سواد وبلق[1] كأنه في الجلد توليع البهق[2]

إن أردت الخطوط فقل كأنّها، وإن أردت السواد والبلق فقل كأنهما. فقال: أردت كأنّ ذاك ويلك، والذي حسن منه أنّ أسماء الإشارة تثنيتها وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة، وكذلك الموصولات، ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع.

﴿ما تؤمرون﴾ أي: ما تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به من قوله: أمرتك الخير، أو أمركم مأموركم، تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الأمير.

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾.

الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع ووارس. كما يقال: أسود حالك وحانك. وأبيض يقق ولهق. وأحمر قاني وذريحي. وأخضر ناضر ومدهام. وأورق خطباني، وأرمك رداني.

فإنْ قلتَ: فاقع ههنا واقع خبراً عن اللون، فلم يقع توكيداً لصفراء؟ **قلتُ:** لم يقع خبراً عن اللون إنما وقع توكيداً لصفراء إلا أنّه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل، واللون من سببها وملتبس بها فلم يكن فرق بين قولك صفراء فاقعة، وصفراء فاقع لونها.

فإنْ قلتَ: فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأي فائدة في ذكر اللون؟ **قلتُ:** الفائدة فيه التوكيد، لأنّ اللون اسم للهيئة، وهي الصفرة، فكأنه قيل: شديدة الصفرة صفرتها، فهو من قولك جدّ جدّه، وجنونك مجنون. وعن وهب: إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

والسرور: لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه. وعن علي رضي الله عنه: من لبس نعلاً صفراء[3] قل همه؛ لقوله تعالى: ﴿تسرّ الناظرين﴾. وعن الحسن البصري: صفراء فاقع لونها، سوداء شديدة السواد، ولعله مستعار من صفة الإبل لأنّ سوادها تعلوه صفرة، وبه فسر قوله تعالى: ﴿جمالات صفر﴾[4]. قال الأعشى:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هنّ صفر أولادها كالزبيب

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿ما هي﴾ مرةً ثانيةً تكرير للسؤال عن حالها وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها. وعن النبي ﷺ: «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم»[5]، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم والاستقصاء شؤم. وعن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم. فكتب إليه: بأيهما أبدأ؟ فقال: إن قلت لك بقطع الشجر سألتني بأي نوع منها أبدأ، وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرتك أن تعطي فلاناً شاةً سألتني أضائن أم ماعز؟، فإن بينت لك قلت: أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك، قلت: أسوداء أم بيضاء فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني[6]. وفي الحديث: «أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يحرّم، فحرّم لأجل مسألته»[7]. ﴿إنّ البقر تشابه علينا﴾ أي: إنّ البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح. وقرىء: تشابه، بمعنى تتشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين، وتشابهت، ومتشابهة، ومتشابه. وقرأ محمد ذو الشامة: إنّ الباقر يشابه بالياء والتشديد. جاء في الحديث: «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»[8]. أي: لو لم يقولوا إن شاء الله. والمعنى: إنا لمهتدون إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل.

قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾.

﴿لا ذلول﴾ صفة لبقرة، بمعنى بقرة غير ذلول، يعني لم تذلل للكراب وإثارة الأرض، ولا هي من النواضح التي يسنى عليها لسقي الحروث، ولا الأولى للنفي، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى، لأنّ المعنى لا ذلول تثير وتسقي على

---

(1) بلق: بياض.

(2) البهق: بياض دون البرص.

(3) أخرجه العقيلي في كتاب: الضعفاء الكبير: 3/446، رقم 1496، عن ابن عباس ولم أجده عن علي.

(4) سورة المرسلات، الآية: 33.

(5) كشف الأستار، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة الحديث رقم: (2188).

(6) لم أقف عليه.

(7) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب: الاعتصام، باب: ما يكره من كثرة السؤال الحديث رقم: (7289)، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة له... الحديث رقم: (6069).

(8) أخرجه ابن جرير من طريق ابن جريج مرفوعاً.

أنّ الفعلين صفتان لذلول. كأنه قيل: لا ذلول مثيرة، وساقية. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: لا ذلول. بمعنى لا ذلول هناك. أي: حيث هي، وهو نفي لذلها ولأن توصف به. فيقال: هي ذلول، ونحوه قولك: مررت بقوم لا بخيل ولا جبان. أي: فيهم أو حيث هم. وقرىء: تسقى بضم التاء من أسقى: ﴿مسلمة﴾ سلمها الله من العيوب، أو معفاة من العمل سلمها أهلها منه. كقوله:

أو معبر الظهر ينبي عن وليته ... ما حج ربه في الدنيا ولا اعتمرا

أو مخلصة اللون، من سلم له كذا إذا خلص له، لم يشب صفرتها شيء من الألوان. ﴿لاشية فيها﴾ لا لمعة في نقتها من لون آخر سوى الصفرة، فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها. وهي في الأصل مصدر، وشاه وشيا وشية إذا خلط بلونه لوناً آخر، ومنه ثور موشى القوائم. ﴿جئت بالحق﴾ أي: بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكال في أمرها. ﴿فذبحوها﴾ أي: فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها. وقوله: ﴿وما كادوا يفعلون﴾ استثقال لاستقصائهم، واستبطاء لهم، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها، وما كانت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها، وتعمقهم. وقيل: وما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل: لخوف الفضيحة في ظهور القاتل. وروي: أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إنّي استودعكها لابني حتى يكبر، وكان براً بوالديه، فشبت وكانت من أحسن البقر وأسمنه. فساوموها اليتيم وأمّه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير، وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة.

فإنْ قلتَ: كانت البقرة التي تناولها الأمر بقرةً من شق البقرة غير مخصوصة ثم انقلبت مخصوصة بلون وصفات، فذبحوا المخصوصة فما فعل الأمر الأوّل؟ قلتُ: رجع منسوخاً لانتقال الحكم إلى البقر المخصوصة، والنسخ قبل الفعل جائز على أنّ الخطاب كان لإبهامه متناولاً لهذه البقرة الموصوفة، كما تناول غيرها، ولو وقع الذبح عليها بحكم الخطاب قبل التخصيص لكان امتثالاً له، فكذلك إذا وقع عليها بعد التخصيص.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾.

﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم. ﴿فإدّارأتم﴾ فاختلفتم واختصمتم في شأنها، لأنّ المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً أي يدفعه ويزحمه، أو تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح عليه الطارح، أو لأنّ الطرح في نفسه دفع، أو دفع بعضكم بعضاً عن البراءة واتهمه. ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل لا يتركه مكتوماً.

فإنْ قلتَ: كيف أعمل ﴿مخرج﴾، وهو في معنى المضيّ؟ قلتُ: وقد حكى ما كان مستقبلاً في وقت التدارؤ كما حكى الحاضر في قوله: ﴿باسط ذراعيه﴾[1] وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف عليه، وهما ﴿إداراتم﴾ و﴿فقلنا﴾.

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾.

والضمير في ﴿اضربوه﴾ إمّا أن يرجع إلى النفس والتنكير على تأويل الشخص والإنسان، وإمّا إلى القتيل لما دل عليه من قوله: ﴿ما كنتم تكتمون﴾[2] ﴿ببعضها﴾ ببعض البقرة، واختلف في البعض الذي ضرب به، فقيل: لسانها، وقيل: فخذها اليمنى، وقيل: عجها، وقيل: العظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الأذن، وقيل: الأذن، وقيل: البضعة بين الكتفين. والمعنى فضربوه فحيي، فحذف ذلك لدلالة قوله: ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾[3]. روي: أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دماً وقال: قتلني فلان، وفلان لابني عمه، ثم سقط ميتاً. فأخذا وقتلا، ولم يورث قاتل بعد ذلك. ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾ إما أن يكون خطاباً للذين حضروا حياة القتيل بمعنى: وقلنا لهم كذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة. ﴿ويريكم آياته﴾ ودلائله على أنه قادر على كل شيء. ﴿لعلكم تعقلون﴾ تعملون على قضية عقولكم، وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص حتى لا تنكروا البعث، وإمّا أن يكون خطاباً للمنكرين في زمن رسول الله ﷺ.

فإنْ قلتَ: هلا أحياه ابتداءً، ولم شرط في إحيائه ذبح البقرة وضربه ببعضها؟ قلتُ: في الأسباب والشروط حكم وفوائد، وإنما شرط ذلك لما في ذبح البقرة من التقرّب وأداء التكليف واكتساب الثواب والإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب، وما في التشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم ولآخرين في ترك التشديد والمسارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى وارتسامها على الفور من غير تفتيش وتكثير سؤال، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة، والدلالة على بركة البر بالوالدين والشفقة على الأولاد، وتجهيل الهازئ بما لا يعلم كنهه ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء، وبيان أنّ من حق المتقرّب إلى ربه أن يتنوّق في اختيار ما يتقرّب به وأن يختاره فتي السن غير قحم ولا ضرع حسن اللون برياً من العيوب يونق من ينظر إليه، وأن يغالي بثمنه. كما يروى عن عمر رضي الله عنه أنه

---

(1) سورة الكهف، الآية: 18.

(2) سورة البقرة، الآيات: 33.

(3) سورة البقرة، الآية: 73.

ضحى بنجيبة بثلاثمائة دينار[1]. وأنّ الزيادة في الخطاب نسخ له، وأن النسخ قبل الفعل جائز وإن لم يجز قبل وقت الفعل. وإمكانه لأدائه إلى البداء، وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت وحصول الحياة عقيبه أن المؤثر هو المسبب لا الأسباب، لأنّ الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن تتولد منهما حياة.

فإنْ قلتَ: فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدّم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها وأن يقال: وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرةً واضربوه ببعضها. **قلتُ**: كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنّما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات وتقريعاً لهم عليها، ولما جدّد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدتين. فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك. والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرّمة وما يتبعه من الآية العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنّه لو عمل على عكسه لكانت قصةً واحدةً ولذهب الغرض في تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها إن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: **﴿اضربوه ببعضها﴾** حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنّها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾.

معنى **﴿ثم قست﴾** استبعاد القسوة من بعد ما ذكر، مما يوجب لين القلوب ورقتها، ونحوه: ثم أنتم تمترون. وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبوّها عن الاعتبار، وأنّ المواعظ لا تؤثر فيها، و**﴿ذلك﴾** إشارة إلى إحياء القتيل أو إلى جميع ما تقدّم من الآيات المعدودة. **﴿فهي كالحجارة﴾** فهي في قسوتها مثل الحجارة، **﴿أو أشد قسوةً﴾** منها، وأشد معطوف على الكاف إما على معنى أو مثل أشد قسوةً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الحجارة، وإما على أو هي أنفسها أشد قسوةً، والمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة، أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلاً، أو من عرفها شبهها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة.

فإنْ قلتَ: لم قيل أشد قسوةً، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل، وفعل التعجب؟ **قلتُ**: لكونه أبين وأدل على فرط القسوة، ووجه آخر، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة، كأنّه قيل: اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشد قسوةً. وقرىء: قساوةً، وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس. كقولك: زيد كريم، وعمرو أكرم. وقوله: **﴿وإنّ من الحجارة﴾** بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدّة القسوة، وتقرير لقوله: أو أشدّ قسوةً، وقرىء: وإن بالتخفيف، وهي إن المخففة من الثقيلة التي تلزمها اللام الفارقة، ومنها قوله تعالى: **﴿وإن كل لما جميع﴾**[2] والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة. وقرأ مالك بن دينار: ينفجر بالنون **﴿يشقق﴾** يتشقق، وبه قرأ الأعمش. والمعنى: أنّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير، ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً. **﴿يهبط﴾** يتردّى من أعلى الجبل، وقرىء: بضم الباء. والخشية مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به. وقرئ يعملون، بالياء والتاء، وهو وعيد.

۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾.

﴿أفتطمعون﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، والمؤمنين **﴿أن يؤمنوا لكم﴾** أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم، كقوله: **﴿فآمن له لوط﴾**[3] يعني اليهود. **﴿وقد كان فريق﴾** طائفة فيمن سلف منهم **﴿يسمعون كلام الله﴾** وهو ما يتلونه من التوراة **﴿ثم يحرفونه﴾** كما حرّفوا صفة رسول الله ﷺ وآية الرّجم. وقيل: كان قوم من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور، وما أمر به ونهى، ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس. وقرىء: كلم الله. **﴿من بعد ما عقلوه﴾** من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم شبهة في صحته **﴿وهم يعلمون﴾** أنهم كاذبون مفترون، والمعنى: إن كفر هؤلاء وحرّفوا فلهم سابقة في ذلك.

وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾.

﴿وإذا لقوا﴾ يعني: اليهود. **﴿قالوا﴾** قال منافقوهم: **﴿آمنا﴾** بأنكم على الحق، وأنّ محمداً هو الرسول المبشّر به. **﴿وإذا خلا بعضهم﴾** الذين لم ينافقوا **﴿إلى بعض﴾** الذين نافقوا. **﴿قالوا﴾** عاتبين عليهم **﴿أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم﴾** بما بيّن لكم في التوراة من صفة محمد،

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب: تبديل الهدي الحديث رقم: (1756).

(2) سورة يسٓ، الآية: 32.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 26.

أو قال المنافقون لأعقابهم يرونهم التصلب في دينهم: أتحدثونهم إنكاراً عليهم أن يفتحوا عليهم شيئاً في كتابهم فينافقون المؤمنين، وينافقون اليهود. ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا محاجتهم به وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله ألا تراك تقول: هو في كتاب الله وهو عند الله هكذا، بمعنى واحد.

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

﴿يعلم﴾ جميع ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ ومن ذلك إسرارهم الكفر، وإعلانهم الإيمان.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

﴿ومنهم أميون﴾ لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها. ﴿يعلمون الكتاب﴾ التوراة ﴿إلا أمانيّ﴾ إلا ما هم عليه من أمانيهم، وأن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وما تمنيهم أحبارهم من أنّ النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، وقيل: إلاّ أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد. قال أعرابي لابن دأب في شيء حدث به: أهذا شيء رويته أم تمنيته، أم اختلقته؟ وقيل: إلاّ ما يقرؤون من قوله: تمنى كتاب الله أوّل ليلة. والاشتقاق من منّى إذا قدّر، لأنّ المتمني يقدّر في نفسه ويحزر ما يتمناه، وكذلك المختلق والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا. وإلا أماني من الاستثناء المنقطع. وقرىء: أمانيَ بالتخفيف. ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم والاستيقان، ثم العوام الذين قلدوهم، ونبه على أنّهم في الضلال سواء؛ لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه، وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكن من العلم.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

﴿يكتبون الكتاب﴾ المحرف ﴿بأيديهم﴾ تأكيد، وهو من مجاز التأكيد، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبته بيمينك هذه. ﴿مما يكسبون﴾ من الرشا.

وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿إلا أياماً معدودة﴾ أربعين يوماً عدد أيام عبادة العجل. وعن مجاهد: كانوا يقولون: مدّة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوماً. ﴿فلن يخلف الله﴾ متعلق بمحذوف تقديره: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده. و﴿أم﴾ إمّا أن تكون معادلة بمعنى: أي الأمرين كائن على سبيل التقرير لأنّ العلم واقع بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة.

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿بلى﴾ إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله: ﴿لن تمسنا النار﴾، أي: بلى تمسكم أبداً بدليل قوله: ﴿هم فيها خالدون﴾. ﴿من كسب سيئة﴾ من السيئات؛ يعني: كبيرة من الكبائر، ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ تلك، واستولت عليه كما يحيط العدوّ، ولم يتقص عنها بالتوبة، وقرىء: خطاياه، وخطيئاته. وقيل في الإحاطة: كان ذنبه أغلب من طاعته، وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال: سبحان الله ألا أراك ذا لحية وما تدري ما الخطيئة، انظر في المصحف فكل آية نهى فيها الله عنها وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة المحيطة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

﴿لا تعبدون﴾ إخبار في معنى النهي كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنّه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه، وتنصره قراءة عبد الله، وأبي: لا تعبدوا، ولا بدّ من إرادة القول يدل عليه أيضاً قوله: ﴿وقولوا﴾. وقوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾. إما أن يقدر وتحسنون بالوالدين إحساناً، أو وأحسنوا. وقيل: هو جواب قوله: ﴿أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ إجراء له مجرى القسم. كأنه قيل: وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون. وقيل: معناه: أن لا تعبدوا، فلما حذفت أن رفع. كقوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

ويدل عليه قراءة عبد الله: أن لا تعبدوا، ويحتمل أن لا تعبدوا أن تكون أن فيه مفسرةً، وأن تكون أن مع الفعل بدلاً عن الميثاق. كأنّه قيل: أخذنا ميثاق بني إسرائيل توحيدهم، وقرئ بالتاء. حكاية لما خوطبوا به، وبالياء لأنهم غيب. ﴿حسناً﴾ قولاً هو حسن في نفسه لإفراط حسنه، وقرىء: حسناً وحسنى على المصدر كبشرى. ﴿ثم توليتم﴾ على طريقة الالتفات، أي توليتم عن الميثاق ورفضتموه. ﴿إلا قليلاً منكم﴾ قيل: هم الذين أسلموا منهم. ﴿وأنتم معرضون﴾ وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن المواثيق والتولية.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

﴿لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم﴾ لا يفعل ذلك بعضكم ببعض، جعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به أصلاً أو ديناً، وقيل: إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه لأنّه يقتص منه. ﴿ثم أقررتم﴾ بالميثاق، واعترفتم على أنفسكم

بلزومه. ﴿وأنتم تشهدون﴾ عليها كقولك: فلان مقر على نفسه بكذا شاهد عليها، وقيل: وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق. ثم أنتم هؤلاء استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم. والمعنى: ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون. يعني: أنكم قوم آخرون غير أولئك المقرين تنزيلاً لتغير الصفة منزلة تغير الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذي خرجت به.

ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

وقوله: ﴿تقتلون﴾ بيان لقوله: ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾. وقيل: هؤلاء موصول بمعنى الذي. وقرىء: تظاهرون، بحذف التاء وإدغامها، وتتظاهرون بإثباتها، وتظهرون بمعنى تتظهرون أي: تتعاونون عليهم. وقرىء: تفدوهم وتفادوهم، وأسرى وأسارى. ﴿وهو﴾ ضمير الشأن، ويجوز أن يكون مبهماً تفسيره. ﴿إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾ أي: بالفداء، ﴿وتكفرون ببعض﴾؛ أي: بالقتال والإجلاء. وذلك أنّ قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير كانوا حلفاء الخزرج، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه، وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه فعيرتهم العرب، وقالت: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم؟ فيقولون: أمرنا أن نفديهم، وحرم علينا قتالهم، ولكنا نستحيي أن نذل حلفاءنا.

والخزي: قتل بني قريظة وأسرهم، وإجلاء بني النضير، وقيل: الجزئية، وإنما ردّ من فعل منهم ذلك إلى أشد العذاب؛ لأنّ عصيانه أشد. وقرىء: يردون، ويعملون، بالياء والتاء.

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾.

﴿فلا يخفف عنهم﴾ عذاب الدنيا بنقصان الجزية، ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم، وكذلك عذاب الآخرة.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿الكتاب﴾ التوراة آتاه إياها جملةً واحدةً. ويقال: قفاه، إذا أتبعه من القفا. نحو: ذنبه من الذنب، وقفاه به أتبعه إياه. يعني: وأرسلنا على أثر الكثير من الرسل. كقوله تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾[1] وهم: يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم. وقيل: ﴿عيسى﴾ بالسريانية أيشوع، و﴿مريم﴾ بمعنى الخادم. وقيل: المريم بالعربية من النساء كالزير من الرجال، وبه فسر قول رؤبة:

قلت لزير لم تصله مريمه

ووزن مريم عند النحويين مفعل، لأنّ فعيلا بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو عثير وعليب. ﴿البينات﴾ المعجزات الواضحات والحجج، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات. وقرىء: وآيدناه، ومنه آجده بالجيم إذا قوّاه. يقال: الحمد لله الذي آجدني بعد ضعف، وأوجدني بعد فقر. ﴿بروح القدس﴾ بالروح المقدّسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدق. ووصفها بالقدس، كما قال: وروح منه، فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة، وقيل: لأنّه لم تضمه الأصلاب، ولا أرحام الطوامث، وقيل: بجبريل. وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: وروحاً من أمرنا. وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره، والمعنى: ولقد آتينا يا بني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناهم. ﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ منهم بالحق ﴿استكبرتم﴾ عن الإيمان به، فوسط بين الفاء، وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجيب من شأنهم، ويجوز أن يريد ولقد آتيناهم ما آتيناهم ففعلتم ما فعلتم، ثم وبخهم على ذلك، ودخول الفاء لعطفه على المقدّر.

فإنْ قلتَ: هلا قيل: وفريقاً قتلتم؟ قلتُ: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية لأنّ الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة، وقال ﷺ عند موته: «مازالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان قطعت أبهري».

وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾.

﴿غلف﴾ جمع أغلف أي: هي خلقة، وجبلة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد ﷺ ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يختن. كقولهم: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾[2]. ثم ردّ الله أن تكون قلوبهم

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 44.

(2) قال أحمد رحمه الله: وهذا من نوائب الزمخشري على تنزل الآيات على عقائدهم الباطلة، وأنى له ذلك في الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه ألا تراه كيف أخذ من ردّ الله = على هذه الطائفة، أن تكون قلوبهم مخلوقة على الكفر، أنّ الكفر والامتناع عن قبول الحق هم خلقوه لأنفسهم، تمهيداً لقاعدته الفاسدة في خلق الأعمال، وسبيل الردّ عليه أنّ الله تعالى، إنما كذبهم وردّ عليهم في ادعائهم عدم الاستطاعة للإيمان، وسلب =

مخلوقة كذلك لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق بأنّ الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة، وتسببوا بذلك لمنع الألطاف التي تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين. ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ فإيماناً قليلاً يؤمنون، وما مزيدة، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم. وقيل: غلف تخفيف غلف، جمع غلاف أي: قلوبنا أوعية للعلم، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره، وروى أبي عمرو: قلوبنا غلف، بضمتين.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿كتاب من عند الله﴾ هو القرآن. ﴿مصدق لما معهم﴾ من كتابهم لا يخالفه، وقرىء: مصدّقاً على الحال.

فإنْ قلتَ: كيف جاز نصبها عن النكرة؟ قلتُ: إذا وصف النكرة تخصص فصح انتصاب الحال عنه، وقد وصف كتاب بقوله: ﴿من عند الله﴾ وجواب لما محذوف، وهو نحو: كذبوا به، واستهانوا بمجيئه، وما أشبه ذلك. ﴿يستفتحون على الذين كفروا﴾ يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم قالوا: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة. ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، وقيل: معنى يستفتحون: يفتحون عليهم ويعرفونهم أنّ نبياً يبعث منهم قد قرب أوانه، والسين للمبالغة، أي: يسألون أنفسهم الفتح عليهم، كالسين في استعجب واستسخر، أو يسأل بعضهم بعضاً أن يفتح عليهم. ﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ من الحق ﴿كفروا به﴾ بغياً وحسداً وحرصاً على الرياسة. ﴿على الكافرين﴾ أي: عليهم وضعاً للظاهر موضع المضمر للدلالة على أنّ اللعنة لحقتهم لكفرهم. واللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس، ويدخلوا فيه دخولاً أوّلياً.

بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾.

﴿ما﴾ نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس بمعنى بئس شيئاً ﴿اشتروا به أنفسهم﴾ والمخصوص بالذم ﴿أن يكفروا﴾ واشتروا بمعنى باعوا. ﴿بغياً﴾ حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علة اشتروا. ﴿أن ينزل﴾ لأن ينزل، أو على أن ينزل. أي: حسدوه على أن ينزّل الله ﴿من فضله﴾ الذي هو الوحي. ﴿على من يشاء﴾ وتقتضي حكمته إرساله ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ فصاروا أحقاء بغضب مترادف لأنّهم كفروا بنبيّ الحق، وبغوا عليه. وقيل: كفروا بمحمد بعد عيسى، وقيل: بعد قولهم: عزير ابن الله، وقولهم: يد الله مغلولة، وغير ذلك من أنواع كفرهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾.

﴿بما أنزل الله﴾ مطلق فيما أنزل الله من كل كتاب. ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ مقيد بالتوراة. ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أي: قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة. ﴿وهو الحق مصدّقاً لما معهم﴾ منها غير مخالف له، وفيه ردّ لمقالتهم[1]؛ لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها. ثم اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادّعائهم الإيمان بالتوراة، والتوراة لا تسوّغ قتل الأنبياء.

۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾.

﴿وانتم ظالمون﴾ يجوز أن يكون حالاً، أي: عبدتم العجل، وأنتم واضعون العبادة غير موضعها. وأن يكون اعتراضاً بمعنى: وأنتم قوم عادتكم الظلم. وكرّر رفع الطور لما نيط به من زيادة ليست مع الأوّل مع ما فيه من التوكيد.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾.

﴿واسمعوا﴾ ما أمرتم به في التوراة. ﴿قالوا سمعنا﴾ قولك، ﴿وعصينا﴾ أمرك.

فإنْ قلتَ: كيف طابق قوله جوابهم؟ قلتُ: طابقه من حيث إنه قال لهم: اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة. فقالوا: سمعنا، ولكن لا سماع طاعة. ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي: تداخلهم حبه والحرص على عبادته

= التمكن وعللوا ذلك، بأنّ قلوبهم غلف وصدق الله ورسوله في أنه إنما خلقهم على الفطرة إياه في قلوبهم، بعدما انشاهم على الفطرة، فقيام حجة الله تعالى عليهم بانه خلقهم متمكنين من الإيمان، غير مقسورين على الكفر، وذلك لا ينافي توجيه أهل السنة، في اعتقاد أنّ الله تعالى خالق ذلك في قلوبهم، على وفق اختيارهم هذا هو الحق الأبلج، والصراط الأبهج، والله الموفق. وقول الزمخشري أنّ كفرهم إنما خلقوه، لأنفسهم بسبب منع ألطاف الله تعالى التي تسبب المؤمنون في حصولها لهم، وكانت = سبباً في خلقهم الإيمان في قلوبهم كل هذا تستر من الإشراك، واعتقاد آلهة غير الله تخلق لنفسها ما شاءت من إيمان وكفر ﴿تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً﴾.

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذه النكتة بعينها هي الموجب لكفر القدرية، على أحد قولَي مالك والشافعي، والقاضي رضي الله عنهم، فإنّ العقائد الصحيحة السنية متلازمة متوافقة، يصدّق بعضها بعضاً، فجحد أحدها كفر به، ثم كفر بالجميع، نسأل الله تعالى العصمة.

كما يتداخل الثوب الصبغ، وقوله: ﴿في قلوبهم﴾[1] بيان لمكان الإشراب. كقوله: ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾[2]. ﴿بكفرهم﴾ بسبب كفرهم. ﴿بئس ما يأمركم به إيمانكم﴾ بالتوراة لأنّه ليس في التوراة عبادة العجاجيل، وإضافة الأمر إلى إيمانهم، تهكم كما قال قوم شعيب: ﴿أصلاتك تأمرك﴾[3]، وكذلك إضافة الإيمان إليهم. وقوله﴿وكذلك إضافة الإيمان إليهم وقوله:﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم له.

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾.

﴿خالصة﴾ نصب على الحال من الدار الآخرة والمراد الجنة. أي: سالمة لكم خاصة بكم ليس لأحد سواكم فيها حق يعني: إن صحّ قولكم: لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً. و﴿الناس﴾ للجنس، وقيل: للعهد، وهم المسلمون. ﴿فتمنوا الموت﴾ لأنّ من أيقن أنّه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب، كما روي عن المبشرين بالجنة ما روي. كان علي رضي الله عنه يطوف بين الصفين في غلالة، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزيّ المحاربين، فقال: يا بنيّ لا يبالي أبوك على الموت سقط أم عليه سقط الموت[4]، وعن حذيفة رضي الله عنه: أنّه كان يتمنى الموت فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم[5]. يعني: على التمني. وقال عمار بصفين: الآن ألاقي الأحبة محمداً وحزبه[6]. كان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحن إليه، وعن النبي ﷺ: «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهودي»[7].

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾.

﴿بما قدّمت أيديهم﴾ بما أسلفوا من موجبات النار من الكفر بمحمد ﷺ1 ومما جاء به، وتحريف كتاب الله، وسائر أنواع الكفر والعصيان. وقوله: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ من المعجزات لأنّه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به، كقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾[8].

فإنْ قلتَ: ما أدراك أنهم لم يتمنوا؟ قلتُ: لأنّهم لو تمنوا لنقل ذلك، كما نقل سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذرّ وليس أحد منهم نقل ذلك.

فإنْ قلتَ: التمني من أعمال القلوب وهو سر لا يطلع عليه أحد، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا؟ قلتُ: ليس التمني من أعمال القلوب إنّما هو قول الإنسان بلسانه ليت لي كذا، فإذا قاله قالوا: تمنى وليت كلمة التمني. ومحال أن يقع التحدّي بما في الضمائر والقلوب، ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا، لقالوا: قد تمنينا الموت في قلوبنا، ولم ينقل أنّهم قالوا ذلك.

فإنْ قلتَ: لم يقولوه لأنّهم علموا أنّهم لا يصدّقون. قلتُ: كم حكي عنهم من أشياء قاولوا بها المسلمين من الافتراء على الله، وتحريف كتابه، وغير ذلك مما علموا أنّهم غير مصدّقين فيه ولا محمل له إلا الكذب البحت، ولم يبالوا. فكيف يمتنعون من أن يقولوا: إنّ التمني من أفعال القلوب، وقد فعلناه مع احتمال أن يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدق مع احتمال أن يكون كاذباً لأنّه أمر خافٍ لا سبيل إلى الاطلاع عليه. ﴿والله عليم بالظالمين﴾ تهديد لهم.

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾.

﴿ولتجدنهم﴾ هو من وجد بمعنى: علم، المتعدي إلى مفعولين في قولهم: وجدت زيداً ذا الحفاظ، ومفعولاه هم ﴿أحرص﴾.

فإنْ قلتَ: لم قال: ﴿على حيٰوة﴾ بالتنكير؟ قلتُ: لأنّه أراد حياةً مخصوصةً وهي الحياة المتطاولة، ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبي: على الحياة. ﴿ومن الذين أشركوا﴾ محمول على المعنى أحرص الناس أحرص من الناس.

فإنْ قلتَ: ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس؟ قلتُ: بلى ولكنهم أفردوا بالذكر لأنّ حرصهم شديد، ويجوز أن يراد وأحرص من الذين أشركوا، فحذف لدلالة أحرص الناس عليه، وفيه توبيخ عظيم لأنّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا. فحرصهم عليهم لا يستبعد لأنّها جنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقرّ بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ.

فإنْ قلتَ: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلتُ: لأنّهم علموا لعلمهم بحالهم أنّهم صائرون إلى النار لا محالة، والمشركون لا يعلمون ذلك. وقيل: أراد بالذين أشركوا المجوس، لأنّهم كانوا يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز، وألف مهرجان. وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو قول الأعاجم: زي هزار سال. وقيل: ﴿ومن الذين أشركوا﴾، كلام مبتدأ أي: ومنهم ناس. ﴿يود أحدهم﴾

---

(1) سورة البقرة، الآية: 10.

(2) سورة النساء، الآية: 10.

(3) سورة هود، الآية: 87.

(4) لم أقف عليه.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرك، الحديث: 4/502، مطولاً.

(6) كشف الأستار، كتاب: علامات النبوة، باب: مناقب عمار بن ياسر الحديث رقم: (2690).

(7) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (الحديث: 1/83)، وذكره القرطبي في تفسيره (18/96).

(8) سورة البقرة، الآية: 24.

على حذف الموصوف كقوله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ والذين أشركوا على هذا مشار به إلى اليهود لأنّهم قالوا: عزير ابن الله والضمير في ﴿وما هو﴾ لأحدهم. و ﴿أن يعمر﴾ فاعل بمزحزحه، أي: وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره، وقيل: الضمير لما دلّ عليه يعمر من مصدره، وأن يعمر بدل منه، ويجوز أن يكون ﴿هو﴾ مبهماً، ﴿وأن يعمر﴾ موضحه، والزحزحة التبعيد والإنحاء.

فإنْ قلتَ: ﴿يودّ أحدهم﴾ ما موقعه؟ **قلتُ:** هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف.

فإنْ قلتَ: كيف اتصل ﴿لو يعمر﴾ بـ ﴿يودّ أحدهم﴾؟ **قلتُ:** هو حكاية لودادتهم، ولو في معنى التمني، وكان القياس: لو أعمر، إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله: ﴿يودّ أحدهم﴾، كقولك: حلف بالله ليفعلنّ.

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

روي: أنّ عبد الله بن صوريا من أحبار فدك حاج رسول الله ﷺ، وسأله عمن يهبط عليه بالوحي، فقال: جبريل، فقال: ذاك عدوّنا، ولو كان غيره لآمنا بك، وقد عادانا مراراً وأشدّها أنّه أنزل على نبينا أنّ بيت المقدس سيخربه بختنصر، فبعثنا من يقتله، فلقيه ببابل غلاماً مسكيناً فدفع عنه جبريل، وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنّه لا يسلطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى أي حق تقتلونه؟ وقيل: أمره الله تعالى أن يجعل النبوّة فينا فجعلها في غيرنا[1]. وروي: أنّه كان لعمر رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة، وكان ممرّه على مدارس اليهود فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم، فقالوا: يا عمر قد أحببناك وإنا لنطمع فيك. فقال: والله ما أجيئكم لحبكم، ولا أسألكم لأني شاك في ديني، وإنّما أدخل عليكم لأزداد بصيرةً في أمر محمد ﷺ، وأرى آثاره في كتابكم، ثم سألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدوّنا يطلع محمداً على أسرارنا، وهو صاحب كل خسف وعذاب، وإنّ ميكائيل يجيء بالخصب والسلام. فقال لهم: وما منزلتهما من الله تعالى؟ قالوا: أقرب منزلة جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وميكائيل عدوّ لجبريل. فقال عمر: لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوّين، ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدوّاً لأحدهما كان عدواً للآخر، ومن كان عدواً لهما كان عدواً لله، ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، فقال النبي ﷺ: «لقد وافقك ربّك يا عمر». فقال عمر: لقد رأيتني في دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر.

وقرىء: جبريل بوزن قفشليل، وجبرئل بحذف الياء، وجبرائيل بحذف الهمزة، وجبريل بوزن قنديل، وجبرالّ بلام شديدة، وجبرائيل بوزن جبراعيل، وجبرائل بوزن جبراعل[2]، ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة، وقيل: معناه عبد الله. الضمير في ﴿نزله﴾ للقرآن، ونحو هذا الإضمار أعني: إضمار ما لم يسبق ذكره فيه فخامةً لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنّه يدل على نفسه، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته. ﴿على قلبك﴾ أي: حفظه إيّاك وفهمكه. ﴿بإذن الله﴾ بتيسيره وتسهيله.

فإنْ قلتَ[3]: كان حق الكلام أن يقال على قلبي؟ **قلتُ:** جاءت على حكاية كلام الله تعالى كما تكلم به، كأنّه قيل: قل ما تكلمت به من قولي **﴿من كان عدوًّا لجبريل فإنّه نزّله على قلبك﴾**.

فإنْ قلتَ[4]: كيف استقام قوله ﴿فإنّه نزّله﴾ جزاء للشرط؟ **قلتُ:** فيه وجهان:

أحدهما: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مصدقاً للكتب بين يديه، فلو انصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم.

والثاني: إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنّه نزل عليك القرآن مصدّقاً لكتابهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن، ولموافقته لكتابهم، ولذلك كانوا يحرّفونه ويجحدون موافقته له. كقولك: إن عاداك فلان فقد آذيته وأسأت إليه. أفرد الملكان بالذكر لفضلهما كأنّهما من جنس آخر، وهو مما ذكر أنّ التغاير في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات.

مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

---

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص 20.

(2) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص 19 ـ 20.

(3) قال أحمد رحمه الله: الحكاية مرّة تكون مع التزام اللفظ، ومرّة تكون بالمعنى غير متبعة اللفظ، فلعلّ الأمر في هذه الآية توجه على النبي عليه السلام، أن يحكى معنى قول الله تعالى له من كان عدوّاً لجبريل، فإنه نزله على قلبك بلفظ المتكلم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهنّ العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ إلى قوله: ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتاً﴾ فانظر ما وقع بعد القول المنسوب إليهم بما يفهم، أنه قول الله عز وجل، لا على سبيل الحكاية عنهم إذ هم لا يقولون، فانشرنا، وإنما يقولون، = فانشر على لفظ الغيبة، ولكن جاء الكلام حكاية على المعنى، لأنّ معنى قولهم فانشر الله، هو معنى قول الله عن ذاته، فانشرنا ولا يستتب لك أن يجعل هذا من باب الخروج من الغيبة، إلى التكلم الذي يسمى التفاتاً، فإنّ في هذا مزيداً، ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام، ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض﴾، إلى قوله: ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ فأوّل الكلام يفهم قول موسى، وآخره يفهم قول الله تعالى، والطريق الجامع في ذلك ما قرّرته، والله أعلم.

(4) قال أحمدرحمه الله: ويكون دخول الفاء في الجزاء على هذا الوجه مستحقاً لسببين، أحدهما: أنه جملة إسمية، والآخر: أنه ماض صحيح.

وقرىء: ميكال بوزن قنطار، وميكائيل كميكاعيل، وميكائل كميكاعل، وميكئل كمكعل، وميكئيل كميكعيل. قال ابن جني: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه. ﴿عدوّ للكافرين﴾ أراد عدوّ لهم، فجاء بالظاهر ليدل على أنّ الله إنما عاداهم لكفرهم، وأنّ عداوة الملائكة كفر، وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف. والمعنى: من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشدّ العقاب.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

﴿إلاّ الفاسقون﴾ إلا المتمرّدون من الكفرة، وعن الحسن: إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره. وعن ابن عباس رضي الله عنه: قال ابن صوريا لرسول الله ﷺ: «ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها. فنزلت»(1). واللام في الفاسقون للجنس، والأحسن أن تكون إشارةً إلى أهل الكتاب.

أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿أو كلما﴾ الواو للعطف على محذوف معناه: أكفروا بالآيات البيّنات، وكلما عاهدوا. وقرأ أبو السمال: بسكون الواو على أنّ الفاسقون بمعنى: الذين فسقوا. فكأنّه قيل: وما يكفر بها إلا الذين فسقوا، أو نقضوا عهد الله مراراً كثيرة. وقرىء: عوهدوا، وعهدوا. واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكم عاهدهم رسول الله ﷺ فلم يفوا الذين عاهدت منهم، ثم ينقضون عهدهم في كل مرةً. والنبذ الرمي بالذمام ورفضه. وقرأ عبد الله: نقضه ﴿فريق منهم﴾ وقال فريق منهم لأنّ منهم من لم ينقض. ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ بالتوراة، وليسوا من الدين في شيء، فلا يعدّون نقض المواثيق ذنباً ولا يبالون به.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

﴿كتاب الله﴾ يعني: التوراة لأنّهم بكفرهم برسول الله المصدّق لما معهم كافرون بها نابذون لها، وقيل: كتاب الله القرآن، نبذوه بعدما لزمهم تلقيه بالقبول. ﴿كأنّهم لا يعلمون﴾ أنّه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك. يعني: أنّ علمهم بذلك رصين، ولكنهم كابروا، وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم، مثل لتركهم وإعراضهم عنه مثل ما يرمى به وراء الظهر استغناءً عنه، وقلة التفات إليه. وعن الشعب: هو بين أيديهم يقرؤنه، ولكنهم نبذوا العمل به. وعن سفيان: أدرجوه في الديباج والحرير وحلوه بالذهب، ولم يحلوا حلاله، ولم يحرموا حرامه.

وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿واتبعوا﴾ أي: نبذوا كتاب الله واتبعوا. ﴿ما تتلوا الشياطين﴾ يعني: واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها ﴿على ملك سليمان﴾ أي: على عهد ملكه وفي زمانه. وذلك أنّ الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دوّنوها في كتب يقرؤونها، ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إنّ الجن تعلم الغيب. وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم لسليمان ملكه إلاّ بهذا العلم، وبه تسخر الإنس والجن والريح التي تجري بأمره. ﴿وما كفر سليمان﴾ تكذيب للشياطين، ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به، وسماه كفراً ﴿ولكن الشياطين﴾ هم الذين ﴿كفروا﴾ باستعمال السحر وتدوينه. ﴿يعلمون الناس السحر﴾ يقصدون به إغواءهم وإضلالهم. ﴿وما أنزل على الملكين﴾ عطف على السحر، أي: ويعلمونهم ما أنزل على الملكين. وقيل: هو عطف على ﴿ما تتلو﴾. أي: واتبعوا ما أنزل ﴿هاروت وماروت﴾ عطف بيان للملكين علمان لهما، والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

كما ابتلى قوم لوط بالنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنّه مني. وقرأ الحسن: على الملكين، بكسر اللام على أنّ المنزل عليهم علم السحر كانا ملكين ببابل. وما يعلم الملكان أحداً حتى ينبهاه وينصحاه ويقولا له: ﴿إنما نحن فتنة﴾ أي: ابتلاء واختبار من الله. ﴿فلا تكفر﴾ فلا تتعلم معتقداً أنّه حق فتكفر. ﴿فيتعلمون﴾ الضمير لما دلّ عليه ﴿من أحد﴾. أي: فيتعلم الناس من الملكين. ﴿ما يفرّقون به بين المرء وزوجه﴾ أي: علم

---

(1) رواه الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾.

السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه، كالنفث في العقد، ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرق والنشوز والخلاف ابتلاء منه لا أنّ السحر له في نفسه. بدليل قوله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ لأنّه ربّما أحدث الله عنده فعلاً من أفعاله، وربّما لم يحدث. ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ لأنّهم يقصدون به الشر، وفيه أنّ اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرّ إلى الغواية. ولقد علم هؤلاء اليهود أنّ من اشتراه أي: استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ من نصيب، ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم﴾ أي: باعوها، وقرأ الحسن: الشياطون، وعن بعض العرب: بستان فلان حوله بساتون، وقد ذكر وجهه فيما بعد، وقرأ الزهري: هاروت وماروت بالرفع على هما هاروت وماروت، وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، ولو كانا من الهرت والمرت، وهو الكسر كما زعم بعضهم لانصرفا، وقرأ طلحة: وما يعلمان من أعلم. وقرىء: بين المرء بضم الميم وكسرها مع الهمز، والمرّ بالتشديد على تقدير التخفيف والوقف، كقولهم: فرج، وإجراء الوصل مجرى الوقف. وقرأ الأعمش: وما هم بضاري بطرح النون، والإضافة إلى أحد، والفصل بينهما بالظرف.

فإنْ قلتَ: كيف يضاف إلى ﴿أحد﴾ وهو مجرور بمن؟ **قلتُ:** جعل الجار جزءاً من المجرور.

فإنْ قلتَ: كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله: ﴿ولقد علموا﴾، على سبيل التوكيد القسمي، ثم نفاه عنهم في قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾. **قلتُ:** معناه لو كانوا يعلمون بعلمهم، جعلهم حين لم يعملوا به كأنّهم منسلخون عنه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾.

﴿ولو أنّهم آمنوا﴾ برسول الله والقرآن. ﴿واتّقوا﴾ الله فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله، واتباع كتب الشياطين، ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ وقرىء: لمثوبة كمشورة ومشورة. ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أنّ ثواب الله خير مما هم فيه، وقد علموا لكنه جهلهم لترك العمل بالعلم.

فإنْ قلتَ: كيف أوثرت الجملة الإسمية على الفعلية في جواب لو؟ **قلتُ:** لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها، كما عدل عن النصب إلى الرفع في ﴿سلام عليكم﴾ لذلك.

فإنْ قلتَ: فهلا قيل: لمثوبة الله خير؟ **قلتُ:** لأنّ المعنى لشيء من الثواب خير لهم[1]، ويجوز أن يكون قوله: ولو أنّهم آمنوا، تمنياً لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له، كأنّه قيل: وليتهم آمنوا، ثم ابتدىء: ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾.

كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله. أي: راقبنا، وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه. وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية، أو سريانية وهي: راعينا. فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا، افترصوه، وخاطبوا به الرسول ﷺ، وهم يعنون به تلك المسبة. فنهي المؤمنون عنها، وأمروا بما هو في معناها وهو ﴿انظرنا﴾ من نظره إذا انتظره. وقرأ أبيّ: أنظرنا من النظرة أي أمهلنا حتى نحفظ. وقرأ عبد الله بن مسعود: راعونا، على أنّهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير، وقرأ الحسن: راعناً بالتنوين من الرعن، وهو الهوج. أي: لا تقولوا قولاً راعناً منسوباً إلى الرعن، بمعنى: رعنياً كدارع ولابن، لأنّه لما أشبه قولهم راعينا، وكان سبباً في السب اتصف بالرعن. ﴿واسمعوا﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ﷺ، ويلقي عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة، ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا: ﴿سمعنا وعصينا﴾[2]. أو واسمعوا ما أمرتم به بجدّ حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه، تأكيداً عليهم ترك تلك الكلمة. وروي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه[3]. فقالوا: أو لستم تقولونها، فنزلت ﴿وللكافرين﴾ ولليهود الذين تهاونوا برسول الله ﷺ وسبوه ﴿عذاب أليم﴾.

مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾.

من الأولى للبيان لأنّ الذين كفروا جنس تحته نوعان: أهل الكتاب، والمشركون، كقوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾[4]. والثانية: مزيدة لاستغراق الخير، والثالثة: لابتداء الغاية.

والخير: الوحي، وكذلك الرحمة كقوله تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾[5] والمعنى: أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي ﴿والله يختص﴾ بالنبوّة ﴿من يشاء﴾

(1) قال أحمد رحمه الله: التمني مجاز عن إرادة الله تعالى، لإيمانهم وتقواهم من طراز تفسيره لِلَعَلّ بالإرادة، والردّ عليه على سبيله، ثم قوله تعالى: ﴿حسداً من عند أنفسهم﴾.

(2) سورة البقرة، الآية: 93.

(3) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة، ص 19.

(4) سورة البيّنة، الآية: 1.

(5) سورة الزخرف، الآية: 32.

ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ إشعار بأنّ إيتاء النبوّة من الفضل العظيم، كقوله تعالى: ﴿إنّ فضله كان عليك كبيراً﴾[1] روي أنّهم طعنوا في النسخ فقالوا: الا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً فنزلت.

۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾.

وقرىء: ما ننسخ من آية، وما ننسخ بضم النون من أنسخ أو نسأها، وقرىء: ننسها وننسها بالتشديد، وتنسها وتنسها على خطاب رسول الله ﷺ، وقرأ عبد الله: ما ننسك من آية أو ننسخها، وقرأ حذيفة: ما ننسخ من آية أو ننسكها. ونسخ الآية إزالتها بإبدال أخرى مكانها، وإنساخها الأمر بنسخها، وهو أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخةً بالإعلام بنسخها. ونسؤها تأخيرها، وإذهابها لا إلى بدل، وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب. والمعنى أنّ كل آية يذهب بها على ما توجبه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معاً، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل. ﴿نأت﴾ بآية خير منها للعباد أي: بآية العمل بها أكثر للثواب أو مثلها في ذلك. ﴿على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على الخير، وما هو خير منه، وعلى مثله في الخير.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾.

﴿له ملك السموات والأرض﴾ فهو يملك أموركم ويدبرها ويجريها على حسب ما يصلحكم، وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ. لما بين لهم أنّه مالك أمورهم ومدبرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره، وقررهم على ذلك بقوله: ﴿ألم تعلم﴾ أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصلح لهم مما يتعبدهم به وينزل عليهم، وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسىٰ عليه السلام من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالاً عليهم. كقولهم: ﴿اجعل لنا إلهاً﴾[2]، ﴿أرنا الله جهرةً﴾[3]، وغير ذلك.

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾.

﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة وشك فيها، واقترح غيرها ﴿فقد ضلّ سواء السبيل﴾ روي أنّ فنحاص ابن عازوراء، وزيد بن قيس، ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: ألم يروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلاً. فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال: فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت، فقالت اليهود: أمّا هذا فقد صبأ، وقال حذيفة: وأمّا أنا فقد رضيت بالله ربًّا، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه. فقال: أصبتما خيراً وأفلحتما[4]. فنزلت.

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾.

فإنْ قلتَ[5]: بم تعلق قوله: ﴿من عند أنفسهم﴾؟ قلتَ: فيه وجهان: أحدهما: أن يتعلق بود، على معنى: أنّهم تمنوا أن ترتدوا عن دينكم، وتمنيهم ذلك من عند أنفسهم، ومن قبل شهوتهم لا من قبل التدين والميل مع الحق، لأنّهم ودّوا ذلك من بعد ما تبيّن لهم أنّكم على الحق، فكيف يكون تمنيهم من قبل الحق. وإمّا أن يتعلق بحسداً، أي: حسداً متبالغاً منبعثاً من أصل أنفسهم.

﴿فاعفوا واصفحوا﴾ فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل، والعداوة، ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ الذي هو قتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، وإذلالهم بضرب الجزية عليهم. ﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم.

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾.

﴿من خير﴾ من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرهما. ﴿تجدوه عند الله﴾ تجدوا ثوابه عند الله. ﴿إنّ الله بما تعملون بصير﴾ عالم لا يضيع عنده عمل عامل.

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾.

الضمير في ﴿وقالوا﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، والمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف بين القولين ثقة بأنّ السامع يرد إلى كل فريق قوله، وأمناً من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه، ونحوه، وقالوا: ﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾[6].

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 87.

(2) سورة الأعراف، الآية: 138.

(3) سورة النساء، الآية: 153.

(4) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(5) قال أحمد رحمه الله: يبعد الوجه الثاني دخول عند، ويقرب الأوّل قوله تعالى: ﴿تلك أمانيهم﴾.

(6) سورة البقرة، الآية: 135.

والهود: جمع هائد، كعائذ وعوذ، وبازل وبزل.

فإنْ قلتَ: كيف قيل: كان هوداً، على توحيد الاسم وجمع الخبر؟ **قلتُ:** حمل الاسم على لفظ من، والخبر على معناه. كقراءة الحسن: إلا من هو صالو الجحيم. وقوله: ﴿فإنّ له نار جهنم خالدين فيها﴾[1]. وقرأ أبيّ بن كعب: إلا من كان يهودياً أو نصرانيًّا.

فإنْ قلتَ[2]: لم قيل: ﴿**تلك أمانيهم**﴾، وقولهم : ﴿**لن يدخل الجنة**﴾ أمنية واحدة؟ **قلتُ:** أشير بها إلى الأماني المذكورة وهو أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربّهم، وأمنيتهم أن يردّوهم كفاراً، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم. أي: تلك الأماني الباطلة أمانيهم، وقوله: ﴿**قل هاتوا برهانكم**﴾، متصل بقولهم: ﴿**لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى**﴾ وتلك أمانيهم اعتراض، أو أريد أمثال تلك الأمنية أمانيهم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. يريد أن أمانيهم جميعاً في البطلان مثل أمنيتهم هذه، والأمنية أفعولة من التمني مثل الأضحوكة والأعجوبة. ﴿**هاتوا برهانكم**﴾ هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة. ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين، وأنّ كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت، وهات صوت بمنزلة هاه، بمعنى: احضر.

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾.

﴿**بلى**﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة. ﴿**من أسلم وجهه لله**﴾ من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره، ﴿**وهو محسن**﴾ في عمله ﴿**فله أجره**﴾ الذي يستوجبه.

فإنْ قلتَ: ﴿**من أسلم وجهه**﴾، كيف موقعه؟ **قلتُ:** يجوز أن يكون بلى ردًّا لقولهم ثم يقع من أسلم كلاماً مبتدأ، ويكون من متضمناً لمعنى الشرط وجوابه فله أجره، وأن يكون من أسلم فاعلاً لفعل محذوف أي: بلى يدخلها من أسلم، ويكون قوله: ﴿**فله أجره**﴾ كلاماً معطوفاً على يدخلها من أسلم.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾.

﴿**على شيء**﴾ أي: على شيء يصح ويعتدّ به[3]، وهذه مبالغة عظيمة لأنّ المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء، فإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده، وهذا كقولهم: أقل من لا شيء. ﴿**وهم يتلون الكتاب**﴾ الواو للحال، والكتاب للجنس. أي: قالوا ذلك، وحالهم أنّهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي، لأنّ كل واحد من الكتابين مصدّق للثاني شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً. ﴿**كذلك**﴾ أي: مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج. ﴿**قال**﴾ الجهلة ﴿**الذين**﴾ لا علم عندهم ولا كتاب، كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم. قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء، وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم. وروي: أنّ وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت النصارى لهم نحوه، وكفروا بموسى والتوراة[4]. ﴿**فالله يحكم**﴾ بين اليهود والنصارى ﴿**يوم القيامة**﴾ بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه. وعن الحسن: حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾.

﴿**أن ينكر**﴾ ثاني مفعولي ﴿**منع**﴾ لأنّك تقول منعته كذا، ومثله وما منعنا أن نرسل وما منع الناس أن يؤمنوا ويجوز أن يحذف حرف الجزم مع أن، ولك أن تنصبه

---

(1) سورة الجن، الآية: 23.

(2) قال أحمد رحمه الله: يبعد هذا الجواب، قوله تعالى عقيب ذلك. ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فإنّ البرهان المطلوب منهم ههنا، إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم، ويحقق هذا قوله بلى من أسلم وجهه لله، وهو محسن، فله أجره عند ربه، فإنما يعني الجنة ونعيمها، ردّاً عليهم في نفي غيرهم عن دخولها، ففي هذا دليل بين على أن الأماني المشار إليها، ليس إلا ما طولبوا بإقامة البرهان على صحته، وهو أمنية واحدة، والله أعلم، والجواب القريب أنهم لشدة تمنيهم، لهذه الأمنية، ومعاودتهم لها وتأكدها في نفوسهم جمعت، ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم بالغة منهم كل مبلغ والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤدّاه واحداً، ونظيره قولهم معاً جياع، فجمعوا الصفة ومؤدّاها واحد لأن موصوفها واحد، تأكيداً لثبوتها وتمكنها وهذا = المعنى أحد ما روى في قوله تعالى: ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ فإنه جمع قليلاً، وقد كان الأصل إفراده، فيقال لشرذمة قليلة، كقوله تعالى: ﴿كم من فئة قليلة﴾ لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها، ووجه إفادة الجمع في مثل هذا التأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الآحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانة زيادته على نظرائه نقلاً مجازياً بديعاً، فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان، والله الموفق.

(3) قال أحمد رحمه الله: وتفسيره الشيء مخالف لفريقي أهل السنة، والبدعة، فإنه عند أهل السنة قاصر على الموجود، وعند المعتزلة، يطلق على الموجود، وعلى المعدوم الذي يصح وجوده، فليس متناولاً للمحال، بحال عندهما، وقد تقدّم له مثله.

(4) أخرجه الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى...﴾.

مفعولاً له؛ بمعنى: منعها كراهة أن يذكر، وهو حكم عام لجنس مساجد الله، وأنّ مانعها من ذكر الله مفرط في الظلم، والسبب فيه أنّ النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وأنّ الروم غزوا أهله فخربوه، وأحرقوا التوراة، وقتلوا وسبوا، وقيل: أراد به منع المشركين رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية.

فإنْ قلتَ: فكيف قيل ﴿مساجد الله﴾ وإنّما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلتُ: لا بأس أن يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً؛ ومن أظلم ممن آذى الصالحين، وكما قال الله عزّ وجل: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾[1] والمنزول فيه الأخنس بن شريق. ﴿وسعى في خرابها﴾ بانقطاع الذكر، أو بتخريب البنيان. وينبغي أن يراد بمن منع العموم، كما أريد بمساجد الله، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين ﴿أولئك﴾ المانعون ﴿ما كان لهم أن يدخلوها﴾ أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله ﴿إلا خائفين﴾ على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوّهم، وقيل: ما كان لهم في حكم الله. يعني: أنّ الله قد حكم وكتب في اللوح أنّه ينصر المؤمنين ويقوّيهم حتى لا يدخلوها إلا خائفين. روي أنّه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكراً مسارقةً. وقال قتادة: لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلاّ أنهك ضرباً وأبلغ إليه في العقوبة. وقيل: نادى رسول الله ﷺ: «ألا لا يحجنّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عريان»[2]. وقرأ عبد الله: إلا خيفاً، وهو: مثل صيم، وقد اختلف الفقهاء في دخول الكافر المسجد، فجوّزه أبو حنيفة رحمه الله، ولم يجوّزه مالك، وفرّق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره. وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول، والتخلية بينهم وبينه. كقوله: «وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله». ﴿خزي﴾ قتل وسبي، أو ذلة بضرب الجزية. وقيل: فتح مدائنهم قسطنطينية، وروميّة، وعمورية.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿ولله المشرق والمغرب﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب، والأرض كلها لله هو مالكها ومتوليها. ﴿فأينما تولوا﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية. يعني: تولية وجوهكم شطر القبلة، بدليل قوله تعالى: ﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره﴾[3] ﴿فثمّ وجه الله﴾ أي: جهته التي أمر بها ورضيها، والمعنى: أنّكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، فصلّوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإنّ التولية ممكنة في كل مكان لا يختص إسكانها في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان. ﴿إن الله واسع﴾ الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم ﴿عليم﴾ بمصالحهم. وعن ابن عمر: نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت، وعن عطاء: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبيّنوا خطأهم فعذروا، وقيل: معناه: فأينما تولوا للدعاء والذكر، ولم يرد الصلاة. وقرأ الحسن: فأينما تولوا، بفتح التاء من التولي، يريد: فأينما توجهوا القبلة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وقالوا﴾ وقرئ بغير واو، يريد الذين قالوا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، والملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن ذلك وتبعيد. ﴿بل له ما في السمٰوات والأرض﴾ هو خالقه ومالكه، ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح، ﴿كل له قانتون﴾ منقادون لا يمتنع شيء منه على تكوينه وتقديره ومشيئته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد، والتنوين في كل عوض من المضاف إليه، أي: كل ما في السمٰوات والأرض، ويجوز أن يراد: كلّ من جعلوه لله ولداً له قانتون مطيعون عابدون مقرّون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم.

فإنْ قلتَ: كيف جاء بما التي لغير أولي العلم مع قوله ﴿قانتون﴾؟ قلتُ: هو كقوله: سبحان ما سخركنّ لنا، وكأنّه جاء بما دون من تحقيراً لهم، وتصغيراً لشأنهم كقوله: وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً.

يقال: بدع الشيء فهو بديع، كقولك بزع الرجل فهو بزيع.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

و﴿بديع السمٰوات﴾ من إضافة الصفة المشبّهة إلى فاعلها أي: بديع سمواته وأرضه، وقيل: البديع بمعنى: المبدع، كما أنّ السميع في قول عمرو:

أمن ريحانة الداعي السميع

بمعنى: المسمع، وفيه نظر، ﴿كن فيكون﴾ من كان التامّة: أي: أحدث فيحدث، وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا

---

(1) سورة الهمزة، الآية: 1.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب: لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك الحديث رقم: (1622)، وأخرجه مسلم في = كتاب الحج، باب: لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان الحديث رقم: (3274).

(3) سورة البقرة، الآية: 150.

قول ثم، كما لا قول في قوله:

إذ قالت الأنساع للبطن الحق

وإنّما المعنى: أنّ ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما أنّ المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل، لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء. أكد بهذا استبعاد الولادة لأنّ من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في توالدها. وقرىء: بديع السموات، مجروراً على أنّه بدل من الضمير في له، وقرأ المنصور: بالنصب على المدح.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ وقال الجهلة من المشركين، وقيل: من أهل الكتاب، ونفي عنهم العلم لأنّهم لم يعملوا به. **﴿لولا يكلمنا الله﴾** هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى، استكباراً منهم وعتواً. **﴿أو تأتينا آية﴾** جحوداً لأن يكون ما آتاهم من آيات الله آيات واستهانة بها. **﴿تشابهت قلوبهم﴾** أي: قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى، كقوله: أتواصوا به. **﴿قد بيّنا الآيات لقوم﴾** ينصفون فيوقنون أنّها آيات يجب الاعتراف بها والإذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها.

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

﴿إنّا أرسلناك﴾ لأن تبشر وتنذر، لا لتجبر على الإيمان، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ وتسرية عنه، لأنّه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر. ولا نسألك **﴿عن أصحاب الجحيم﴾** ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت، وبلغت جهدك في دعوتهم، كقوله: **﴿فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾**[1]. وقرىء: ولا تسأل، على النهي. روي أنّه قال: ليت شعر ما فعل أبواي. فنهي عن السؤال عن أحوال الكفرة، والاهتمام بأعداء الله، وقيل: معناه: تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما تقول: كيف فلان، سائلاً عن الواقع في بلية؟ فيقال لك: لا تسأل عنه، ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره، أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره، فلا تسأل. وتعضد القراءة الأولى قراءة عبد الله: ولن تسئل، وقراءة أبيّ: وما نسئل. كأنّهم قالوا: لن نرضى عنك، وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا. إقناطاً منهم لرسول الله ﷺ عن دخولهم في الإسلام. فحكى الله عزّ وجلّ كلامهم، ولذلك قال:

وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

﴿قل إنّ هدى الله هو الهدى﴾ على طريقة إجابتهم عن قولهم. يعني: أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق والذي يصح أن يسمى هدى، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى. ألا ترى إلى قوله: **﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾** أي: أقوالهم التي هي أهواء وبدع **﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾** أي: من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب، **﴿يتلونه حق تلاوته﴾** لا يحرّفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ. **﴿أولئك يؤمنون﴾** بكتابهم دون المحرّفين، **﴿ومن يكفر به﴾** من المحرّفين **﴿فأولئك هم الخاسرون﴾** حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات﴾ اختبره بأوامر ونواهٍ، واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار أحد الأمرين: ما يريد الله، وما يشتهيه العبد، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك، وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنه: إبراهيم ربّه، رفع إبراهيم ونصب ربّه، والمعنى: أنّه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهنّ أم لا.

فإنْ قلتَ: الفاعل في القراءة المشهورة يلي الفعل في التقدير فتعليق الضمير به إضمار قبل الذكر! **قلتُ:** الإضمار قبل الذكر أن يقال: ابتلى ربّه إبراهيم، فأما ابتلى إبراهيم ربّه، أو ابتلى ربّه إبراهيم، فليس واحداً منهما بإضمار قبل الذكر. أما الأوّل: فقد ذكر فيه صاحب الضمير قبل الضمير ذكراً ظاهراً، وأما الثاني: فإبراهيم فيه مقدّم في المعنى، وليس كذلك ابتلى ربّه إبراهيم، فإنّ الضمير فيه قد تقدّم لفظاً ومعنًى فلا سبيل إلى صحته. والمستكن في **﴿فأتمهنّ﴾** في إحدى القراءتين لإبراهيم بمعنى: فقام بهنّ حق القيام وأداهنّ أحسن التأدية من غير تفريط وتوانٍ ونحوه. وإبراهيم الذي وفى، وفي الأخرى لله تعالى بمعنى: فأعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيئاً. ويعضده ما روي عن مقاتل أنّه فسّر الكلمات بما سأل إبراهيم ربّه في قوله:

---

(1) سورة الرعد، الآية: 40.

﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾[1] ﴿واجعلنا مسلمين لك﴾[2] ﴿وابعث فيهم رسولاً منهم﴾[3] ﴿ربنا تقبّل منا﴾[4].

فإنْ قلتَ: ما العامل في إذ؟ **قلتُ:** إما مضمر، نحو: واذكر إذ ابتلى، أو وإذ ابتلاه كان كيت وكيت، وإما ﴿قال إني جاعلك﴾.

فإنْ قلتَ: فما موقع قال؟ **قلتُ:** هو على الأوّل استئناف، كأنّه قيل: فماذا قال له ربّه حين أتمّ الكلمات؟ فقيل: قال إني جاعلك للناس إماماً، وعلى الثاني: جملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز أن يكون بياناً لقوله: ابتلى، وتفسيراً له، فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة، وتطهير البيت ورفع قواعده. والإسلام قبل ذلك في قوله: ﴿إذ قال له ربّه أسلم﴾[5] وقيل في الكلمات: هنّ خمس في الرأس: الفرق، وقص الشارب، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق. وخمس في البدن: الختان، والاستحداد، والاستنجاء، وتقليم الأظفار، ونتف الأبط. وقيل: ابتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين سهماً: عشر في ﴿براءة التائبون العابدون﴾[6] وعشر في الأحزاب إنّ المسلمين والمسلمات وعشر في المؤمنون، وسأل سائل إلى قوله: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾[7]. وقيل: هي مناسك الحج، كالطواف، والسعي، والرمي، والإحرام، والتعريف، وغيرهنّ. وقيل: ابتلاه بالكوكب، والقمر، والشمس، والختان، وذبح ابنه، والنار، والهجرة. والإمام: اسم من يؤتم به على زنة الآلة، كالإزار لما يؤتزر به. أي: يأتمون بك في دينهم. ﴿ومن ذريتي﴾ عطف على الكاف، كأنّه قال: وجاعل بعض ذريتي، كما يقال لك: سأكرمك، فتقول: وزيداً. ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾. وقرىء: الظالمون، أي: من كان ظالماً من ذريتك لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة، وإنما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم. وقالوا: في هذا دليل على أنّ الفاسق لا يصلح للإمامة، وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره، ولا يقدّم للصلاة. وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن عليّ رضوان الله عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة، كالدوانيقي وأشباهه. وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل. فقال: ليتني مكان ابنك. وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد، وأرادوني على عد آجره لما فعلت، وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قط. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذنب ظلم.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

و﴿البيت﴾ اسم غالب للكعبة، كالنجم للثريا. ﴿مثابة للناس﴾ مباءةً ومرجعاً للحجاج، والعمار يتفرقون عنه، ثم يثوبون إليه. أي: يثوب إليه أعيان الذين يزورونه، أو أمثالهم. ﴿وأمناً﴾ وموضع أمن، كقوله: حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم. ولأن الجاني يأوي إليه، فلا يتعرض له حتى يخرج، وقرىء: مثابات، لأنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم سواء العاكف فيه والباد. ﴿واتخذوا﴾ على إرادة القول. أي: وقلنا اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه، وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب، وعن النبي ﷺ أنه أخذ بيد عمر فقال: هذا مقام إبراهيم. فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى يريد: أفلا نؤثره لفضله بالصلاة فيه تبركاً به وتيمناً بموطئ قدم إبراهيم؟ فقال: لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت[8]، وعن جابر بن عبد الله: أنّ رسول الله ﷺ استلم الحجر، ورمل ثلاثة أشواط، ومشى أربعة حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، وقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾[9]، وقيل: مصلى مدعى، ومقام إبراهيم الحجر الذي فيه أثر قدميه، والموضع الذي كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه، وهو الموضع الذي يسمى مقام إبراهيم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل المطلب بن أبي وداعة: هل تدري أين كان موضعه الأوّل؟ قال: نعم، فأراه موضعه اليوم. وعن عطاء: مقام إبراهيم عرفة والمزدلفة والجمار، لأنه قام في هذه المواضع، ودعا فيها. وعن النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم. وقرىء: واتخذوا، بلفظ الماضي عطفاً على جعلنا. أي: واتخذ الناس من مكان إبراهيم ـ الذي وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده ـ قبلةً يصلون إليها. ﴿عهدنا﴾ أمرناهما ﴿أن طهرا بيتي﴾ بأن طهرا أو أي طهرا، والمعنى: طهراه من الأوثان، والأنجاس، وطواف الجنب، والحائض، والخبائث كلها، أو أخلصاه لهؤلاء لا يغشه غيرهم. ﴿والعاكفين﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده، أي:

---

(1) سورة البقرة، الآية: 126.
(2) سورة البقرة، الآية: 128.
(3) سورة البقرة، الآية: 129.
(4) سورة البقرة، الآية: 127.
(5) سورة البقرة، الآية: 131.
(6) سورة التوبة، الآية: 112.
(7) سورة المعارج، الآية: 34.
(8) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ الحديث رقم: (4483)، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل عمر رضي الله تعالى عنه الحديث رقم: (6156).
(9) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ الحديث رقم: (2941).

أقاموا لا يبرحون، أو المعتكفين، ويجوز أن يريد بالعاكفين: الواقفين، يعني: القائمين في الصلاة، كما قال: ﴿للطائفين والقائمين والركع السجود﴾[1] والمعنى: للطائفين والمصلين، لأنّ القيام والركوع والسجود هيآت المصلي. أي: اجعل هذا البلد أو هذا المكان:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾.

﴿بلداً آمناً﴾ ذا أمن، كقوله: ﴿عيشة راضية﴾[2] أو آمناً من فيه، كقوله: ليل نائم. و﴿من آمن منهم﴾ بدل من أهله، يعني: وارزق المؤمنين من أهله خاصةً. ﴿ومن كفر﴾عطف على من آمن، كما عطف، ومن ﴿ذريتي﴾ على الكاف في جاعلك.

فإنْ قلتَ: لم خص إبراهيم صلوات الله عليه المؤمنين حتى ردّ عليه؟ قلتُ: قاس الرزق على الإمامة، فعرف الفرق بينهما، لأنّ الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعى، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم: بخلاف الرزق، فإنّه قد يكون استدراجاً للمرزوق وإلزاماً للحجة له، والمعنى: وأرزق من كفر فأمتعه، ويجوز أن يكون، ومن كفر مبتدأ متضمناً معنى الشرط، وقوله: ﴿فأمتعه﴾، جواباً للشرط. أي: ومن كفر، فأنا أمتعه. وقرىء: فأمتعه. فأضطره، فألزه في عذاب النار. لز المضطر الذي لا يملك الامتناع، مما اضطر إليه. وقرأ أبيّ: فنمتعه قليلاً ثم نضطرّه. وقرأ يحيىٰ بن وثاب: فإضطره، بكسر الهمزة. وقرأ ابن عباس: فأمتعه قليلاً ثم اضطره، على لفظ الأمر. والمراد: الدعاء من إبراهيم، دعا ربه بذلك.

فإنْ قلتَ: فكيف تقدير الكلام على هذه القراءة؟ قلتُ: في قال ضمير إبراهيم، أي: قال إبراهيم بعد مسألته اختصاص المؤمنين بالرزق، ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره. وقرأ ابن محيصن: فاطّره، إدغام الضاد في الطاء، كما قالوا: اطجع، وهي لغة مرذولة لأنّ الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها، ولا تدغم هي فيما يجاورها، وهي حروف ضم شفر.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾.

﴿يرفع﴾ حكاية حال ماضية. و﴿القواعد﴾ جمع قاعدة، وهي الأساس والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبة، ومعناها: الثابتة، ومنه: قعدك الله، أي: أسأل الله أن يقعدك، أي: يثبتك، ورفع الأساس البناء عليها، لأنّها إذا بني عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتطاولت بعد التقاصر، ويجوز أن يكون المراد بها: سافات البناء، لأنّ كل ساف قاعدة للذي يبنى عليه ويوضع فوقه، ومعنى: رفع القواعد، رفعها بالبناء لأنّه إذا وضع سافاً فوق ساف فقد رفع السافات، ويجوز أن يكون المعنى: وإذ يرفع إبراهيم ما قعد من البيت، أي: استوطأ. يعني: جعل هيئته القاعدة المستوطئة مرتفعة عالية بالبناء، وروي أنّه كان مؤسساً قبل إبراهيم، فبنى على الأساس، وروي إنّ الله تعالى أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة، له بابان من زمرد شرقي وغربي، وقال لآدم عليه السلام: أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشي. فتوجه آدم من أرض الهند إليه ماشياً وتلقته الملائكة، فقالوا: برّ حجك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام[3]، وحج آدم أربعين حجةً من أرض الهند إلى مكة على رجليه، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة، فهو البيت المعمور، ثم إنّ الله تعالى أمر إبراهيم ببنائه، وعرفه جبريل مكانه، وقيل: بعث الله سحابةً أظلته، ونودي أن ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص. وقيل: بناه من خمسة أجبل: طور سيناء، وطور زيتا، ولبنان، والجودي، وأسسه من حراء. وجاءه جبريل بالحجر الأسود من السماء، وقيل: تمخض أبو قبيس، فانشق عنه، وقد خبئ فيه في أيام الطوفان، وكان ياقوتةً بيضاء من الجنة، فلما لمسته الحيض في الجاهلية اسودّ، وقيل: كان إبراهيم يبني، وإسمٰعيل يناوله الحجارة. ﴿ربنا﴾ أي: يقولان ربنا، وهذا الفعل في محل النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله في قراءته، ومعناه: يرفعانها قائلين: ربنا. ﴿إنّك أنت السميع﴾ لدعائنا ﴿العليم﴾ بضمائرنا ونياتنا.

فإنْ قلتَ: هلا قيل قواعد البيت، وأي فرق بين العبارتين؟ قلتُ: في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام ما ليس في إضافتها، لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين.

رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾.

﴿مسلمين لك﴾ مخلصين لك أوجهنا. من قوله: ﴿أسلم وجهه لله﴾[4] أو مستسلمين. يقال: أسلم له، وسلم، واستسلم إذا خضع وأذعن، والمعنى: زدنا إخلاصاً أو إذعاناً لك. وقرئ: مسلمين، على الجمع كأنّهما أرادا أنفسهما وهاجر، أو أجريا التثنية على حكم الجمع، لأنها منه. ﴿ومن ذريتنا﴾ واجعل من ذريتنا ﴿أمةً مسلمةً لك﴾ ومن للتبعيض أو للتبيين، كقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا

(1) سورة الحج، الآية: 26.

(2) سورة القارعة، الآية: 7.

(3) كشف الأستار، كتاب: علامات النبوة، باب: قدم نبوته الحديث رقم: (2365)، والحاكم في المستدرك 2/418. وأحمد في المسند 4/= 127، وأخرجه أحمد في المسند 5/262، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: حب النبي ﷺ الحديث رقم: (1385)، والحاكم في المستدرك 2/600.

(4) سورة البقرة، الآية: 112.

منكم﴾[1].

فإنْ قلتَ: لم خصا نريتهما بالدعاء؟ **قلتُ:** لأنّهم أحق بالشفقة والنصيحة: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾[2] ولأنّ أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم وشايعوهم على الخير. ألاّ ترى أنّ المقدمين من العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد كيف يتسببون لسداد من وراءهم؟ وقيل: أراد بالأمة أمة محمد ﷺ. **﴿وارنا﴾** منقول من رأى بمعنى: أبصر أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين أي: وبصرنا متعبداتنا في الحج، أو وعرفناها، وقيل: مذابحنا. وقرىء: وارنا بسكون الراء قياساً على فخذ في فخذ، وقد استرذلت لأنّ الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها، فإسقاطها إجحاف. وقرأ أبو عمر بإشمام الكسرة. وقرأ عبد الله: وارهم مناسكهم. **﴿وتب علينا﴾** ما فرط منا من الصغائر أو استتاباً لذريتهما.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾.

﴿وابعث فيهم﴾ في الأمة المسلمة **﴿رسولاً منهم﴾** من أنفسهم، وروي أنه قيل له: قد استجيب لك، وهو في آخر الزمان. فبعث الله فيهم محمداً ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورؤيا أمي»[3]. **﴿يتلو عليهم آياتك﴾** يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل وحدانيتك وصدق أنبيائك. **﴿ويعلمهم الكتاب﴾** القرآن، **﴿والحكمة﴾** الشريعة وبيان الأحكام. **﴿ويزكيهم﴾** ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس. كقوله: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾[4].

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾.

﴿ومن يرغب﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم. و**﴿من سفه﴾** في محل الرفع على البدل من الضمير في يرغب، وصح البدل لأنّ من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد إلا زيد. سفه نفسه امتهنها واستخف بها، وأصل السفه الخفة، ومنه: زمام سفيه. وقيل: انتصاب النفس على التمييز نحو: غبن رأيه، وألم رأسه، ويجوز أن يكون في شذوذ تعريف المميز نحو قوله:

ولا بفزارة الشعر الرقابا ... أجب الظهر ليس له سنام

وقيل: معناه سفه في نفسه، فحذف الجار. كقولهم: زيد ظني مقيم أي: في ظني، والوجه هو الأوّل. وكفى شاهداً له بما جاء في الحديث: «الكبر أن تسفه الحق، وتغمص الناس»[5]. وذلك أنّه إذا رغب عما لا يرغب عنه عاقل قط فقد بالغ في إذلال نفسه، وتعجيزها حيث خالف بها كل نفس عاقلة. **﴿ولقد اصطفيناه﴾** بيان لخطأ رأي من رغب عن ملته، لأنّ من جمع الكرامة عند الله في الدارين بأن كان صفوته وخيرته في الدنيا، وكان مشهوداً له بالاستقامة على الخير في الآخرة، لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه.

إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾.

﴿إذ قال﴾ ظرف لاصطفيناه، أي: اخترناه في ذلك الوقت، أو انتصب بإضمار اذكر استشهاداً على ما ذكر من حاله، كأنّه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله. ومعنى قال: له أسلم: أخطر بباله النظر في الدلال المؤدّية إلى المعرفة والإسلام. **﴿قال أسلمت﴾** أي: فنظر وعرف. وقيل: أسلم أي: أذعن وأطع. وروي: أنّ عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، فقال لهما: قد علمنا أنّ الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد إسمٰعيل نبياً اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فنزلت.

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾.

قرىء: وأوصى، وهي في مصاحف أهل الحجاز والشام. الضمير في **﴿بها﴾** لقوله: ﴿أسلمت لرب العالمين﴾[6] على تأويل الكلمة والجملة. ونحوه رجوع الضمير في قوله: ﴿وجعلها كلمةً باقية﴾[7] إلى قوله: ﴿إنني براء مما تعبدون * إلاّ الذي فطرني﴾[8] وقوله: ﴿كلمة باقية﴾ دليل على أنّ التأنيث على تأويل الكلمة. **﴿ويعقوب﴾** عطف على إبراهيم داخل في حكمه، والمعنى: ووصى بها يعقوب بنيه أيضاً، وقرىء: ويعقوب بالنصب عطفاً على بنيه، ومعناه: ووصى بها إبراهيم بنيه، ونافلته يعقوب. **﴿يا بني﴾** على إضمار القول عند البصريين وعند الكوفيين، يتعلق بوصى لأنّه في معنى القول، ونحوه قول القائل:

رجلان من ضبة أخبرانا ... انا رأينا رجلاً عريانا

بكسر الهمزة، فهو بتقدير القول عندنا وعندهم يتعلق بفعل الإخبار، وفي قراءة أبيّ، وابن مسعود: أن يا بني. **﴿اصطفى لكم الدين﴾** أعطاكم الدين الذي هو صفوة

---

(1) سورة النور، الآية: 55.
(2) سورة التحريم، الآية: 6.
(3) قال ابن حجر: أخرجه الفاكهي في كتاب: مكة.
(4) سورة الأعراف، الآية: 157.
(5) كشف الأستار، كتاب: الأذكار، باب: فضل لا إلٰه إلا الله الحديث رقم: (3069)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد 2/4، باب: الكبر، = الحديث رقم: (548)، والحاكم عن أبي هريرة 2/182، وأحمد في المسند 4/133.
(6) سورة البقرة، الآية: 131.
(7) سورة الزخرف، الآية: 28.
(8) سورة الزخرف، الآيتان: 26، 27.

الأديان، وهو دين الإسلام، ووفقكم للأخذ به. ﴿فلا تموتنّ﴾ معناه: فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصلّ إلا وأنت خاشع. فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته.

فإنْ قلتَ: فأي نكتة في إدخال حرف النهي على الصلاة، وليس بمنهي عنها؟ قلتُ: النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة، فكأنّه قال: أنهاك عنها إذ لم تصلها على هذه الحالة. ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[1]. فإنّه كالتصريح بقولك لجار المسجد: لا تصل إلاّ في المسجد، وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنّه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم. وتقول في الأمر أيضاً: مت وأنت شهيد، وليس مرادك الأمر بالموت، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات، إنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته، وإظهاراً لفضلها على غيرها وأنها حقيقة بأن يحث عليها.

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾.

﴿أم كنتم شهداء﴾ هي: أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها: الإنكار، والشهداء جمع شهيد، بمعنى: الحاضر. أي: ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت، أي: حين احتضر. والخطاب[2] للمؤمنين بمعنى: ما شاهدتم ذلك، وإنّما حصل لكم العلم به من طريق الوحي. وقيل: الخطاب لليهود لأنّهم كانوا يقولون: ما مات نبي إلا على اليهودية. إلا أنّهم لو شاهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام، ولما ادعوا عليه اليهودية، فالآية منافية لقولهم. فكيف يقال لهم: أم كنتم شهداء؟ ولكن الوجه أن تكون أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف، كأنّه قيل: أتدعون على الأنبياء اليهودية، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت. يعني: أنّ أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد، وملة الإسلام، وقد علمتم ذلك، فما لكم تدّعون على الأنبياء ما هم منه برآء. وقرىء: حضر، بكسر الضاد، وهي لغة. ﴿ما تعبدون﴾ أي شيء تعبدون، وما عامّ في كل شيء فإذا علم فرق بما ومن، وكفاك دليلاً قول العلماء من لما يعقل، ولو قيل: من تعبدون لم يعم إلا أولي العلم وحدهم، ويجوز أن يقال: ما تعبدون سؤال عن صفة المعبود، كما تقول: ما زيد؟ تريد: أفقيه أم طبيب أم غير ذلك من الصفات؟ و﴿إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق﴾ عطف بيان لآبائك، وجعل إسمٰعيل وهو عمه من جملة آبائه لأنّ العمّ أب والخالة أمّ لانخراطهما في سلك واحد، وهو الأخوة لا تفاوت بينهما. ومنه قوله عليه السلام: «عمّ الرجل صنو أبيه»[3]. أي: لا تفاوت بينهما، كما لا تفاوت بين صنوي النخلة. وقال عليه الصلاة والسلام في العباس: «هذا بقية آبائي»[4]. وقال: «ردّوا عليّ أبي فإنّي أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود». وقرأ أبيّ: وإلٰه إبراهيم، بطرح آبائك. وقرىء: أبيك[5]، وفيه وجهان: أن يكون واحداً وإبراهيم وحده عطف بيان له، وأن يكون جمعاً بالواو والنون. قال: وفدينا بالأبينا. ﴿إلٰهاً واحداً﴾ بدل من إلٰه آبائك، كقوله تعالى: ﴿بالناصية * ناصية كاذبة﴾[6] أو على الاختصاص أي: نريد بإلٰه آبائك إلٰهاً واحداً. ﴿ونحن له مسلمون﴾ حال من فاعل نعبد، أو من مفعوله لرجوع الهاء إليه في له، ويجوز أن تكون جملةً معطوفةً على نعبد، وأن تكون جملةً اعتراضيةً مؤكدةً. أي: ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مذعنون.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى الأمّة المذكورة التي هي إبراهيم

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 246/1، والدارقطني في كتاب: الصلاة، باب: الحث لجار المسجد على الصلاة فيه إلا من عذر الحديث رقم: (2) وابن أبي شيبة في 345/1، كتاب: الصلوات، باب: من قال إذا سمع المنادي فليجب.

(2) قال أحمد رحمه الله: وإنما اختار على هذ التفسير أن تكون متصلة؛ لأنه لو جعلها منقطعة كالأوّل، لكان مضمون الكلام نفي شهود المخاطبين، وهم اليهود على هذا التفسير الثاني لوفاة يعقوب، والوصية بالإسلام، وحينئذٍ يكون ذلك كإقامة حجتهم على جحد الإسلام، وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين، والغرض ضدّ ذلك، وإنما كان الكلام يقتضي النفي حينئذٍ؛ لأنّ الاستفهام من الله تعالى لا يحمل على ظاهره، فتعين صرفه إلى الإنكار، لأنّ السياق يقتضيه، ولهذا كان نفياً لشهود المسلمين وفاة يعقوب، ووصيته على التفسير الأوّل لا سيما، والمعتاد خطاب اليهود المعاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام، بما يخاطب به أوائلهم، وتنزيلاً لعلمهم ورضاهم منزلة حضورهم، وتعاطيهم، كقوله تعالى: ﴿وإذ = قتلتم نفساً﴾ إذ قلتم يا موسى إلى أشباه ذلك، فإذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود، فقد جرى الأمر في خطابهم على المعتاد، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله﴾ الحديث رقم: (1468)، ولم يذكر فيه: «عم الرجل صنو أبيه». وإنما تفرد بها مسلم فتامل، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: في تقديم الزكاة ومنعها الحديث رقم: (2274).

(4) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 109/12، كتاب الفضائل، باب: العباس.

(5) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 481/14، كتاب المغازي، باب: حديث فتح مكة.

(6) سورة العلق، الآيتان: 15، 16.

ويعقوب وبنوهما الموحدون. والمعنى: أنّ أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدّماً كان أو متأخراً فكما أنّ أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم، وذلك أنّهم افتخروا بأوائلهم، ونحوه قول رسول الله ﷺ: «يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»[1]. ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ ولا تؤاخذون بسيآتهم كما لا تنفعكم حسناتهم.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾.

﴿بل ملة إبراهيم﴾ بل نكون ملة إبراهيم أي: أهل ملته. كقول عدي بن حاتم: إني من دين، يريد من أهل دين[2]. وقيل: بل نتبع ملة إبراهيم. وقرىء: ملة إبراهيم بالرفع أي: ملته ملتنا، أو أمرنا ملته، أو نحن ملته بمعنى: أهل ملته. و﴿حنيفاً﴾ حال من المضاف إليه كقولك: رأيت وجه هند قائمة.

والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق، والحنف الميل في القدمين. وتحنف إذا مال، وأنشد:

ولكنا خلقنا إذ خلقنا ... حنيفاً ديننا عن كل دين

﴿وما كان من المشركين﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأنّ كلاً منهم يدعي اتباع إبراهيم، وهو على الشرك. ﴿قولوا﴾ خطاب للمؤمنين، ويجوز أن يكون خطاباً للكافرين. أي: قولوا لتكونوا على الحق وإلا فأنتم على الباطل، وكذلك قوله: بل ملة إبراهيم، يجوز أن يكون على بل اتبعوا أنتم ملة إبراهيم، أو كونوا أهل ملته.

والسبط: الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ.

قُولُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾.

﴿والأسباط﴾ حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر. ﴿لا نفرّق بين أحد منهم﴾ لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى[3]. و﴿أحد﴾ في معنى الجماعة ولذلك صحّ دخول ﴿بين﴾ عليه.

﴿بمثل ما آمنتم به﴾ من باب التبكيت لأنّ دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ فلا يوجد إذاً دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقاً حتى إنْ آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين. فقيل: فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير، أي: فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسداد فقد اهتدوا. وفيه أنّ دينهم الذي هم عليه وكل دين سواه مغاير له غير مماثل لأنّه حق وهدى، وما سواه باطل وضلال، ونحو هذا قولك للرجل الذي تشير عليه: هذا هو الرأي الصواب، فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به. وقد علمت أن لا أصوب من رأيك، ولكنك تريد تبكيت صاحبك وتوقيفه على أنّ ما رأيت لا رأي وراءه، ويجوز أن لا تكون الباء صلةً وتكون باء الاستعانة كقولك: كتبت بالقلم وعملت بالقدوم، أي: فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التي آمنتم بها. وقرأ ابن عباس، وابن مسعود: بما آمنتم به، وقرأ أبيّ: بالذي آمنتم به. ﴿وإن تولوا﴾ عما تقولون لهم ولم ينصفوا، فما هم إلا ﴿في شقاق﴾ أي: في مناوأة ومعاندة لا غير، وليسوا من طلب الحق في شيء، أو وإن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها ﴿فسيكفيكهم الله﴾ ضمان من الله لإظهار رسول الله ﷺ عليهم، وقد أنجز وعده بقتل قريظة، وسبيهم وإجلاء بني النضير، ومعنى السين: أنّ ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين. ﴿وهو السميع العليم﴾ وعيد لهم أي: يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرون من الحسد والغلّ وهو معاقبهم عليه، أو وعد لرسول الله ﷺ بمعنى: يسمع ما تدعو به، ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك.

صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾.

﴿صبغة الله﴾ مصدر مؤكد منتصب على قوله: آمنا بالله، كما انتصب ﴿وعد الله﴾ عما تقدّمه، وهي فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والمعنى: تطهير الله، لأنّ الإيمان يطهر النفوس. والأصل فيه أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً. فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقولون المسلمون: صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم، وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار: اغرس. كما يغرس

---

(1) لم أقف عليه، قال الزيلعي: غريب جداً: 1/91.

(2) رواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة عدي بن حاتم.

(3) قال أحمد رحمه الله: وفيه دليل على أن النكرة الواقعة في سياق النفي، تفيد العموم لفظاً، حتى يتنزّل المفرد فيها منزلة الجمع، في تناوله الآحاد مطابقة، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أنّ مدلولها بطريق المطابقة في النفي، كمدلولها في الإثبات، وذلك الدلالة على = الماهية، وإنما لزم فيها العموم، من حيث أنّ سلب الماهية يستوجب سلب الإفراد، لما بين الأعمّ والأخص من التلازم في جانب النفي، إذ سلب الأعم، أخص من سلب الأخص، فيستلزمه، فلو كان لفظاً، ما لا إشعار له بالتعدّد والعموم وضعاً، لما جاز دخول بين عليها.

فلان، تريد رجلاً يصطنع الكرم. ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ يعني: أنّه يصبغ عباده بالإيمان، ويطهرهم به من أوضار الكفر، فلا صبغة أحسن من صبغته، وقوله: ﴿ونحن له عابدون﴾ عطف على آمنا بالله، وهذا العطف يردّ قول من زعم أنّ صبغة الله بدل من ملة إبراهيم، أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله لما فيه من فك النظم. وإخراج الكلام عن التآمه واتساقه، وانتصابها على أنّها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذام.

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾

قرأ زيد بن ثابت: أتحاجونا، بإدغام النون، والمعنى: أتجادلوننا في شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا، وترونكم أحق بالنبوّة منا ﴿وهو ربنا وربكم﴾ نشترك جميعاً في أننا عباده وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، هم فوضى في ذلك لا يختص به عجمي دون عربي إذا كان أهلاً للكرامة. ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ يعني: أنّ العمل هو: أساس الأمر وبه العبرة، وكما أنّ لكم أعمالاً يعتبرها الله في إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك. ثم قال: ﴿ونحن له مخلصون﴾ فجاء بما هو سبب الكرامة أي: ونحن له موحدون نخلصه بالإيمان، فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوّة، وكانوا يقولون: نحن أحق بأن تكون النبوّة فينا لأنا أهل كتاب، والعرب عبدة أوثان.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

﴿أم تقولون﴾ يحتمل فيمن قرأ بالتاء أن تكون أم معادلةً للهمزة في أتحاجوننا بمعنى: أيّ الأمرين تأتون: المحاجة في حكمة الله، أم ادّعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء، والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً وأن تكون منقطعةً بمعنى: بل أتقولون، والهمزة للإنكار أيضاً. وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعةً. ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ يعني أن الله شهد لهم بملة الإسلام في قوله: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾[1]. ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ أي: كتم شهادة الله التي عنده أنّه شهد بها وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية، ويحتمل معنيين:

أحدهما: أنّ أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم لأنّهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها.

والثاني: إنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا، فلا نكتمها، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوّة في كتبهم وسائر شهاداته، ومن في قوله شهادة عنده من الله مثلها في قولك: هذه شهادة مني لفلان، إذا شهدت له. ومثله: براءة من الله ورسوله.

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾.

﴿سيقول السفهاء﴾ الخفاف الأحلام، وهم اليهود لكراهتهم التوجه إلى الكعبة، وأنّهم لا يرون النسخ، وقيل: المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء. وقيل: المشركون قالوا رغب عن قبلة آبائه، ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى دينهم.

فإنْ قلتَ[2]: أي فائدة في الأخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلتُ: فائدته أنّ مفاجأة المكروه أشدّ والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدّمه من توطين النفس، وأنّ الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه، وقبل الرمي يراش السهم. ﴿ما ولاهم﴾ ما صرفهم ﴿عن قبلتهم﴾ وهي بيت المقدس. ﴿لله المشرق والمغرب﴾ أي: بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها. ﴿يهدي من يشاء﴾ من أهلها ﴿إلى صراط مستقيم﴾ وهو ما توجبه الحكمة والمصلحة من توجيههم تارةً إلى بيت المقدس وأخرى إلى الكعبة.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾.

﴿وكذلك جعلناكم﴾ ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم ﴿أمة وسطاً﴾ خياراً، وهي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ونحوه قوله عليه السلام: «وانطوا الثبجة»[3] يريد الوسيطة بين السمينة والعجفاء، وصفاً بالثبج وهو وسط الظهر، إلاّ أنه الحق تاء التانيث مراعاةً لحق الوصف[4]، وقيل: الخيار وسط لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخلل والأعوار والأوساط محمية محوطة. ومنه قول الطائي:

كانت هي الوسط المحمى فاكتنفت ... بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وقد اكتريت بمكة جمل أعرابي للحج فقال: أعطني من

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 67.

(2) قال أحمد رحمه الله تعالى: ولهذه النكتة أجرى من حذو النظار في إدراج مناظرتهم العمل، بمقتضى الذي هو كذا، السالم عن معارضة كذا، فسيقول درء للمعارض، قبل ذكر الخصم له، وهي=

= نكتة بديعة، أحسن ما يستدل على صحتها بهذه الآية، فتفطن لها، فإنها من الملح.

(3) ذكره القاضي عياض في الشفاء، انظر نسيم الرياض: 1/403.

(4) قال أحمد رحمه الله: وهذا مما اقتضى المجاز فيه التعميم.

سطاتهنه، أراد من خيار الدنانير، أو عدولاً، لأنّ الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض. ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ روي أنّ الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم. فيؤتى بأمّة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺفيسئل عن حال أمّته، فيزكيهم، ويشهد بعدالتهم[1]، وذلك قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هٰؤلاء شهيداً﴾[2].

فإنْ قلتَ[3]: فهلا قيل لكم شهيداً وشهادته لهم لا عليهم؟ قلتُ: لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿والله على كل شيء شهيد﴾[4]. ﴿كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾[5] وقيل: لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار. ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ يزكيكم، ويعلم بعدالتكم.

فإنْ قلتَ[6]: لم أخرت صلة الشهادة أولاً وقدّمت آخراً؟ قلتُ: لأنّ الغرض في الأوّل إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. ﴿التي كنت عليها﴾ ليست بصفة للقبلة إنما هي ثاني مفعولي جعل، يريد: وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها وهي الكعبة، لأنّ رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفاً لليهود، ثم حول إلى الكعبة، فيقول: وما جعلنا القبلة التي تحب أن تستقبلها الجهة التي كنت عليها أوّلاً بمكة، يعني: وما رددناك إليها إلا امتحاناً للناس وابتلاءً، ﴿لنعلم﴾ الثابت على الإسلام الصادق فيه. ﴿ممن﴾ هو على حرف ينكص. ﴿على عقبيه﴾ لقلقه فيرتد، كقوله: ﴿وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾[7] الآية، ويجوز أن يكون بياناً للحكمة في جعل بيت المقدس قبلته. يعني: أنّ أصل أمرك أن تستقبل الكعبة، وأنّ استقبالك بيت المقدس كان أمراً عارضاً لغرض، وإنّما جعلنا الجهة التي كنت عليها قبل وقتك هذا وهي بيت المقدس لنمتحن الناس وننظر من يتبع الرسول منهم ومن لا يتبعه وينفر عنه. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنّه كان يجعل الكعبة بينه وبينه[8].

فإنْ قلتَ: كيف قال لنعلم، ولم يزل عالماً بذلك؟ قلتُ: معناه لنعلمه علماً يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمه موجوداً حاصلاً ونحوه ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾[9]. وقيل: ليعلم رسول الله والمؤمنين، وإنّما أسند علمهم إلى ذاته لأنّهم خواصه وأهل الزلفى عنده، وقيل: معناه لتميز التابع من الناكص، كما قال ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾، فوضع العلم موضع التمييز لأن العلم به يقع التمييز به. ﴿وإن كانت لكبيرةً﴾ هي: إنّ المخففة التي تلزمها اللام الفارقة، والضمير في كانت لما دل عليه قوله: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾[10] من الردّة أو التحويل أو الجعلة، ويجوز أن يكون للقبلة لكبيرة لثقيلة شاقة. ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ إلا على الثابتين الصادقين في اتباع الرسول الذين لطف الله بهم وكانوا أهلاً للطفه. ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي: ثباتكم على الإيمان وأنكم لم تزلوا ولم ترتابوا، بل شكر صنيعكم وأعدّ لكم الثواب العظيم، ويجوز أن يراد: وما كان الله ليترك تحويلكم لعلمه أن تركه مفسدة وإضاعة لإيمانكم، وقيل: من كان صلى إلى بيت المقدس قبل التحويل فصلاته غير ضائعة. عن ابن عباس رضي الله عنه: لما وجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات قبل التحويل من إخواننا؟ فنزلت[11]. ﴿لرؤف رحيم﴾ لا يضيع أجورهم ولا يترك ما يصلحهم، ويحكى عن الحجاج أنّه قال للحسن: ما رأيك في أبي تراب؟ فقرأ قوله: ﴿إلا على الذين هدى الله﴾[12]، ثم قال: وعلي منهم، وهو ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته وأقرب الناس إليه وأحبهم.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة الحديث رقم: (4487).

(2) سورة النساء، الآية: 41.

(3) قال أحمد رحمه الله: وجه الاستدلال بالآية، أنه وصف الله تعالى في أوّلها بالرقيب، وفي آخرها بالشهيد، على وجه التخصيص أوّلاً، ثم التعميم ثانياً، وإنما ينتظم التعميم والتخصيص مع اتحاد مؤدى الرقيب والشهيد، إذ الآية في مثل قول القائل لمن شكره: كنت محسناً إليّ وأنت بكل أحد محسن، وكأنه لما قال: كنت أنت الرقيب عليهم، وكان ذلك مخصصاً لرقيبيته تعالى على بني إسرائيل أراد أن يصفه بما هو أهله، حتى ينفي وهم الخصوصية، فقال في التقدير: وأنت على كل شيء كذلك، فوضع شهيداً موضع، كذلك المشار به إلى رقيبيته، فلا يتم الاستدلال بها، إلا على هذا الوجه، وفيه غموض على كثير من الأفهام، والله الموفق.

(4) سورة المجادلة، الآية: 6.

(5) سورة المائدة، الآية: 117.

(6) قال أحمد رحمه الله: لأن المنة عليهم في الطرفين، ففي الأوّل:= بثبوت كونهم شهداء، وفي الثاني: ثبوت كونهم مشهوداً لهم بالتزكية، خصوصاً من هذا الرسول المعظم، ولو قدّم شهيداً، لا تنقل الغرض إلى الامتنان على النبي عليه الصلاة والسلام، بأنه شهيد، وسياق الخطاب لهم والامتنان عليهم يأباه، وإنما أخذ الزمخشري الاختصاص من التقديم؛ لأنّ فيه إشعاراً بالأهمية والعناية، وكثيراً ما يجري، أي: ذلك في أثناء كلامه، وفيه نظر.

(7) سورة المدثر، الآية: 31.

(8) كشف الأستار، كتاب: الصلاة، باب: ما جاء إلى القبلة الحديث رقم: (418).

(9) سورة آل عمران، الآية: 142.

(10) سورة البقرة، الآية: 143.

(11) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه الحديث رقم: (4680)، والترمذي في كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة الحديث رقم: (2964).

(12) سورة البقرة، الآية: 143.

وقرىء: إلا ليعلم، على البناء للمفعول، ومعنى العلم: المعرفة، ويجوز أن يكون من متضمنةً لمعنى الاستفهام معلقاً عنها العلم، كقولك: علمت أزيد في الدار أم عمرو؟ وقرأ ابن أبي إسحٰق: على عقبيه، بسكون القاف. وقرأ اليزيدي: لكبيرة، بالرفع، ووجهها أن تكون كان مزيدةً كما في قوله:

وجيران لنا كانوا كرام

والأصل وإن هي لكبيرة، كقولك: إنّ زيد لمنطلق، ثم وإن كانت لكبيرة، وقرىء: ليضيع بالتشديد.

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾.

﴿قد نرى﴾ ربما نرى[1]، ومعناه: كثرة الرؤية. كقوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

﴿تقلب وجهك﴾ تردّد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء، وكان رسول الله ﷺ يتوقع من ربه أن يحوّله إلى الكعبة لأنّها قبلة أبيه إبراهيم[2] وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنّها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود، فكان يراعي نزول جبريل عليه السلام والوحي بالتحويل: ﴿فلنولينك﴾ فلنعطينك: ولنمكننك من استقبالها من قولك: وليته كذا إذا جعلته والياً له، أو فلنجعلنك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس. ﴿ترضاه﴾ تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها. ووافقت مشيئة الله وحكمته[3]. ﴿شطر المسجد الحرام﴾ نحوه. قال:

وأظعن بالقوم شطر الملوك

وقرأ أبيّ: تلقاء المسجد الحرام. وعن البراء بن عازب: قدم رسول الله ﷺ المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجه إلى الكعبة[4]. وقيل: كان ذلك في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين، ورسول الله ﷺ في مسجد بني سلمة، وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر، فتحوّل في الصلاة واستقبل الميزاب وحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فسمي المسجد مسجد القبلتين[5]. وشطر المسجد نصب على الظرف أي: اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد. أي: في جهته وسمته، لأنّ استقبال عين القبلة فيه حرج عظيم على البعيد، وذكر المسجد الحرام دون الكعبة دليل في أنّ الواجب مراعاة الجهة دون العين. ﴿ليعلمون أنه الحق﴾ أنّ التحويل إلى الكعبة هو الحق لأنّه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله أنّه يصلي إلى القبلتين. ﴿يعملون﴾ قرىء: بالياء والتاء.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾.

﴿ما تبعوا﴾ جواب القسم المحذوف سدّ مسدّ جواب الشرط ﴿بكل آية﴾ بكل برهان قاطع أنّ التوجه إلى الكعبة هو الحق. ما تبعوا ﴿قبلتك﴾ لأنّ تركهم اتباعك ليس عن شبهه تزيلها بإيراد الحجة، إنّما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنّك على الحق. ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ حسم لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم، وقرىء: بتابع قبلتهم، على الإضافة. ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ يعني: أنّهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة لا يرجى اتفاقهم كما لا ترجى موافقتهم لك، وذلك أنّ اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس. أخبر عز وجل عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه، فالمحق منهم لا يزل عن مذهبه لتمسكه بالبرهان، والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمته في عناده. وقوله: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير بمعنى: ولئن اتبعتهم مثلاً بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر، ﴿إنّك إذاً لمن الظالمين﴾ المرتكبين الظلم الفاحش. وفي ذلك لطف

---

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا من المواضع التي تبالغ العرب فيها، بالتعبير عن المعنى بضد عبارته، ومنه ربما: ﴿يود الذين كفروا﴾ والمراد: كثرة مودتهم للإسلام في القيامة، وعند معاينة جزائه وثوابه، وكذلك: ﴿وقد تعلمون أني رسول إليكم﴾ ومراده إظهار عنادهم بأن علمهم برسالته، يقيني مؤكد، ومع ذلك يكفرون به.

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

(3) قال أحمد رحمه الله: وقد نقل أصحابنا المالكية، خلافاً عن المذهب في الواجب، فقيل: الجهة، وقيل: العين، هذا مع البعد، وأمّا حيث تشاهد الكعبة في المسجد الحرام، فمن خرج عن السمت، ثم لم تصح صلاته قولاً واحداً، ثم لهم على كل واحد من القولين إشكال، أما على قول العين، فيلزم أن لا تصح صلاة الصف المستقيم المستطيل، زيادة على مسامتة الكعبة شرفها الله تعالى؛ لأنا نعلم بالضرورة، وإن لم نشاهد، أن بعضهم يصلي إلى غير= عينها، إذ لا يفي سمتها بذلك على هذا التقدير، لكن الجواز في مثل هذا مع البعد، متفق عليه، وأما على قول الجهة، فيلزم تجويز صلاة الكائن في الشمال مثلاً، إلى الجهات الثلاث؛ لأنها كلها جهات الكعبة، والسمت غير مراعى على هذا المذهب، وإنما جاء هذا الخبط من عدم التمييز بين مراعاة الجهة والسمت، ولقد ميزهما أبو حامد بمثال هندسي في كتاب الإحياء، فلا نطول بذكره، والتحقيق عند الفتوى أنّ المعتبر مع البعد: الجهة، لا السمت.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: التوجه نحو القبلة حيث كان الحديث رقم: (369).

(5) ذكره أبو الفتح اليعمري في سيرته نقلاً عن الواقدي، قاله الزيلعي: 1/95.

للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتهييج إلهاب للثبات على الحق.

فإنْ قلتَ[1]: كيف قال: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ ولهم قبلتان لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟ **قلتُ**: كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبلةً واحدةً.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾.

﴿يعرفونه﴾ يعرفون رسول الله ﷺ معرفةً جليةً يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص. **﴿كما يعرفون أبناءهم﴾** لا يشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني يا بني. قال: ولم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي فلعل والدته خانت، فقبّل عمر رأسه، وجاز الإضمار وإن لم يسبق له ذكر لأنّ الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع. ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنّه لشهرته وكونه علماً معلوماً بغير إعلام، وقيل: الضمير للعلم، أو القرآن، أو تحويل القبلة، وقوله: كما يعرفون أبناءهم يشهد للأوّل، وينصره الحديث عن عبد الله بن سلام.

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾.

فإن قلتَ[2]: لم اختص الأبناء؟ **قلتُ**: لأنّ الذكور أشهر وأعرف وهم لصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق. وقال: **﴿فريق منهم﴾** استثناءً لمن آمن منهم، أو لجهالهم الذين قالوا: يقال فيهم، ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب﴾.

﴿الحق من ربك﴾ يحتمل أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف أي: هو الحق، أو مبتدأ خبره من ربك. وفيه وجهان: أن تكون اللام للعهد والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله ﷺ، أو إلى الحق الذي في قوله: **﴿ليكتمون الحق﴾**، أي: هذا الذي يكتمونه هو الحق من ربك، وأن تكون للجنس على معنى الحق من الله لا من غيره: يعني: أنّ الحق ما ثبت أنّه من الله كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب، فهو الباطل.

فإن قلتَ: إذا جعلت **﴿الحق﴾** خبر مبتدأ فما محل **﴿من ربك﴾**؟ **قلتُ**: يجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون حالاً. وقرأ علي رضي الله عنه: الحق من ربك على الإبدال من الأوّل، أي: يكتمون الحق: الحق من ربك. **﴿فلا تكونن من الممترين﴾** الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم، أو في أنّه من ربك.

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾.

﴿ولكل﴾ من أهل الأديان المختلفة. **﴿وجهة﴾** قبلة، وفي قراءة أبي: ولكل قبلة **﴿هو موليها﴾** وجهه، فحذف أحد المفعولين، وقيل: هو لله تعالى، أي: الله موليها إياه. وقرىء: ولكل وجهة على الإضافة، والمعنى: وكل وجهة الله موليها، فزيدت اللام لتقدم المفعول، كقولك: لزيد ضربت، ولزيد أبوه ضاربه، وقرأ ابن عامر: هو مولاها، أي: هو مولى تلك الجهة، وقد وليها، والمعنى: لكل أمة قبلة تتوجه إليها منكم، ومن غيركم. **﴿فاستبقوا﴾** أنتم **﴿الخيرات﴾** واستبقوا إليها غيركم من أمر القبلة وغيره، ومعنى آخر: وهو أن يراد، ولكل منكم يا أمة محمد وجهة أي: جهة يصلي إليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية فاستبقوا الخيرات. **﴿أينما تكونوا يات بكم الله جميعاً﴾** للجزاء من موافق ومخالف لا تعجزونه، ويجوز أن يكون المعنى: فاستبقوا الفاضلات من الجهات وهي الجهات المسامتة للكعبة وإن اختلفت، أينما تكونوا من الجهات المختلفة يات بكم الله جميعاً يجمعكم ويجعل صلواتكم كأنّها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾.

﴿ومن حيث خرجت﴾ أي: ومن أي بلد خرجت للسفر **﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾** إذا صليت. **﴿وإنّه﴾** وإن هذا المأمور به، وقرىء: **﴿يعملون﴾** بالتاء والياء، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده، لأنّ النسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان والحاجة إلى التفصلة بينه وبين البداء، فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدّوا، ولأنّه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر، فاختلفت فوائدها.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾.

﴿إلا الذين ظلموا﴾ استثناء من الناس، ومعناه: لئلا يكون حجةً لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحباً لبلده،

---

(1) قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا ما أجيب به عن قوله تعالى: ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ مع أنه متعدد، وهو: المن والسلوى، فقيل: إنهم أرادوا أنهما من طعام الترفه، وآثروا طعام الفلاحة والأجلاف، فلما اتحد الطعامان المذكوران في الرفاهية، جعلوهما طعاماً واحداً، وهذا المعنى في إنكار الطعام، أبلغ؛ لأنهم لم يكتفوا في إنكاره بقولهم: ﴿لن نصبر على طعام﴾ حتى أكدره بقولهم: = ﴿واحد﴾ وللزمخشري عنه جواب آخر، سلف بمكانه.

(2) قال أحمد رحمه الله: بني كلامه هذا على أن الإناث لا يدخلن في لفظ الأبناء، كما يدخلن في لفظ الأولاد، وليس الأمر كذلك، بل اللفظان سواء في شمول الإناث، ولذلك يدخلن في لفظ الواقف، إذا وقف على بنيه وبني بنيه، كما يدخلن في لفظ الأولاد، هذا مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء.

فإنْ قلتَ: أي حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة، ولم يبال بحجة المعاندين؟ **قلتُ:** كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبلة أبيه إبراهيم، كما هو مذكور في نعته في التوراة.

فإنْ قلتَ: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ **قلتُ:** لأنهم يسوقونه سياق الحجة، ويجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم وإسمٰعيل أبي العرب، إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون: بدا له، فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: ألا الذين ظلموا منهم، على أنّ ألا للتنبيه، ووقف على حجة ثم استأنف منبهاً. **﴿فلا تخشوهم﴾** فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم، فإنّهم لا يضرونكم. **﴿واخشوني﴾** فلا تخالفوا أمري، وما رأيته مصلحةً لكم. ومتعلق اللام محذوف معناه: ولإتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم أمرتكم بذلك، أو يعطف على علة مقدّرة، كأنّه قيل: واخشوني لأوفقكم ولأتمّ نعمتي عليكم، وقيل: وهو معطوف على **﴿لئلا يكون﴾**، وفي الحديث: «تمام النعمة، دخول الجنة»[1]. وعن علي رضي الله عنه: تمام النعمة، الموت على الإسلام.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾.

﴿كما أرسلنا﴾ إمّا أن يتعلق بما قبله أي: ولأتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول، أو بما بعده أي: كما ذكرتكم بإرسال الرسول.

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾.

﴿فاذكروني﴾ بالطاعة **﴿أذكركم﴾** بالثواب **﴿واشكروا لي﴾** ما أنعمت به عليكم. **﴿ولا تكفرون﴾** ولا تجحدوا نعمائي.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾.

﴿أموات بل أحياء﴾ هم أموات بل هم أحياء **﴿ولكن لا تشعرون﴾** كيف حالهم في حياتهم. وعن الحسن أنّ الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوةً وعشياً فيصل إليهم الوجع، وعن مجاهد: يرزقون ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها، وقالوا: يجوز أن يجمع الله من أجزاء الشهيد جملةً فيحييها ويوصل إليها النعم وإن كانت في حجم الذرّة، وقيل: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾.

﴿ولنبلونّكم﴾ ولنصيبنّكم بذلك إصابةً تشبه فعل المختبر لأحوالكم هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة وتسلمون لأمر الله وحكمه أم لا؟ **﴿بشيء﴾** بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطرف منه. **﴿وبشر الصابرين﴾** المسترجعين عند البلاء لأنّ الاسترجاع تسليم وإذعان، وعن النبي ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»[2]. وروي: أنّه طفئ سراج رسول الله ﷺ فقال: «إنا لله وإنّا إليه راجعون». فقيل: أمصيبة هي؟ قال: «نعم كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة»[3]. وإنّما قلل في قوله بشيء ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه، وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم في كل حال لا تزايلهم، وإنّما وعدهم ذلك قبل كونه ليوطنوا عليه نفوسهم.

﴿ونقص﴾: عطف على شيء، أو على الخوف، بمعنى: وشيء من نقص الأموال، والخطاب في **﴿وبشر﴾** لرسول الله ﷺ، أو لكل من يتأتى منه البشارة[4]، وعن الشافعي رحمه الله: الخوف خوف الله، والجوع صيام شهر رمضان، والنقص من الأموال الزكوات والصدقات، ومن الأنفس الأمراض، ومن الثمرات موت الأولاد، وعن النبي ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولد عبدي. فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك، واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة،

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: 94 الحديث رقم: (3527)، وأحمد في المسند 5/231.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصبر على المصائب الحديث رقم: (9689).

(3) رواه أبو داود في المراسيل، كتاب الجنائز الحديث رقم: (412).

(4) قال أحمد: وفي تفسيره هذا نظر؛ لأنّ هذا الابتلاء موعود به في المستقبل، مذكور قبل وقوعه، توطناً عليه عند الوقوع، ولعله ما من بلية ذكرها، إلا وقد تقدّمت لهم قبل نزول الآية، إذ الخوف = من الله تعالى، لم يزل مشحوناً في قلوب المؤمنين، ويبعد أن يعبر عن الصدقة بالنقص، وقد عبر عنها الشرع بالزكاة، التي هي النمو ضدّ النقص، وورد ما نقص مال من صدقة، ويمكن أن يقال: هي نقص حساً، وإنما سميت زكاة، باعتبار ما يؤول إليه حال القيام بها من النمو، فالعوض المرجوّ من كرم الله خلف، فلما ذكرها الله تعالى في سياق الابتلاء الموعود بها، عبر عنها بالزكاة، تسهيلاً لإخراجها على المكلف؛ لأنه إذا استشعر العوض من الله تعالى، ونموّ ماله بذلك، هان عليه بذلها، وسمحت نفسه لذلك.

وسموه بيت الحمد»[1].

أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾.

والصلاة: الحنو والتعطف فوضعت موضع الرافة وجمع بينها وبين الرحمة، كقوله تعالى: ﴿رافة ورحمة﴾[2] رؤوف رحيم والمعنى: عليهم رافة بعد رافة، ورحمة أي رحمة. ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ لطريق الصواب حيث استرجعوا، وسلموا لأمر الله.

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾.

والصفا والمروة: علمان للجبلين، كالصمان والمقطم.

والشعائر: جمع شعيرة وهي: العلامة. أي: من أعلام مناسكه ومتعبداته.

والحج: القصد، والاعتمار: الزيارة، فغلبا على قصد البيت: وزيارته للنسكين المعروفين وهما في المعاني: كالنجم، والبيت في الأعيان. وأصل ﴿يطوف﴾ يتطوف فادغم، وقرىء: أن يطوف، من طاف.

فإنْ قلتَ: كيف قيل إنّهما من شعائر الله، ثم قيل: ﴿لا جناح عليه أن يطوف بهما﴾؟ قلتُ: كان على الصفا أساف وعلى المروة نائلة، وهما صنمان. يروى أنهما كانا رجلاً وامرأةً زنيا في الكعبة فمسخا حجرين فوضعا عليهما ليعتبر بهما، فلما طالت المدّة عبدا من دون الله، فكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما، فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لأجل فعل الجاهلية، وأن لا يكون عليهم جناح في ذلك، فرفع عنهم الجناح، واختلف في السعي فمن قائل: هو تطوّع بدليل رفع الجناح، وما فيه من التخيير بين الفعل والترك، كقوله: ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾[3] وغير ذلك، ولقوله: ﴿ومن تطوّع خيراً﴾ كقوله: فمن تطوّع خيراً فهو خير له، ويروى ذلك عن أنس، وابن عباس، وابن الزبير، وتنصره قراءة ابن مسعود: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، وعن أبي حنيفة رحمه الله أنّه واجب وليس بركن وعلى تاركه دم، وعند الأوّلين لا شيء عليه، وعند مالك والشافعي هو ركن لقوله عليه السلام: «اسعوا فإنّ الله كتب عليكم السعي»[4]. وقرئ: ومن يطوّع؛ بمعنى: ومن يتطوّع فادغم، وفي قراءة عبد الله: ومن يتطوّع بخير.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾.

﴿إنّ الذين يكتمون﴾ من أحبار اليهود ﴿ما أنزلنا﴾ في التوراة ﴿من البينات﴾ من الآيات الشاهدة على أمر محمد ﷺ ﴿والهدى﴾ والهداية بوصفه إلى اتباعه والإيمان به. ﴿من بعد ما بيّناه﴾ ولخصناه ﴿للناس في الكتاب﴾ في التوراة لم ندع فيه موضع إشكال ولا اشتباه على أحد منهم فعمدوا إلى ذلك المبين الملخص فكتموه ولبسوا على الناس. ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ الذين يتأتى منهم اللعن عليهم وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُولَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾.

﴿وأصلحوا﴾ ما أفسدوا من أحوالهم وتداركوا ما فرط منهم، ﴿وبيّنوا﴾ ما بيّنه الله في كتابهم فكتموه، أو بيّنوا للناس ما أحدثوه من توبتهم، ليمحوا سمة الكفر عنهم، ويعرفوا بضدّ ما كانوا يعرفون به، ويقتدي بهم غيرهم من المفسدين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾.

﴿إنّ الذين كفروا﴾ يعني: الذين ماتوا من هؤلاء الكاتمين ولم يتوبوا ذكر لعنتهم أحياء ثم لعنتهم أمواتاً. وقرأ الحسن: والملائكة والناس أجمعون، بالرفع عطفاً على محل اسم الله لأنّه فاعل في التقدير، كقولك: عجبت من ضرب زيد وعمرو، تريد من أن ضرب زيد وعمرو. كأنّه قيل: أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة.

فإنْ قلتَ: ما معنى قوله: ﴿والناس أجمعين﴾ وفي الناس المسلم والكافر؟ قلتُ: أراد بالناس من يعتدّ بلعنه وهم المؤمنون، وقيل: يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً.

خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾.

﴿خالدين فيها﴾ في اللعنة، وقيل: في النار، إلاّ أنّها أضمرت تفخيماً لشأنها وتهويلاً. ﴿ولا هم ينظرون﴾ من الإنظار أي: لا يمهلون ولا يؤجلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾.

﴿إله واحد﴾ فرد في الإلهية لا شريك له فيها، ولا يصح أن يسمى غيره إلهاً. و﴿لا إله إلا هو﴾ تقرير الوحدانية بنفي غيره وإثباته ﴿الرحمٰن الرحيم﴾ المولى

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز، باب: فضل المصيبة إذا احتسب الحديث رقم: (1021)، وأخرجه ابن حبان في كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الصبر وثواب الأمراض الحديث رقم: (2948).

(2) سورة الحديد، الآية: 27.

(3) سورة البقرة، الآية: 230.

(4) أخرجه أحمد في المسند 6/421. والدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت، الحديث رقم: (85)، والحاكم في المستدرك 4/70.

لجميع النعم أصولها وفروعها ولا شيء سواه بهذه الصفة، فإنّ كلّ ما سواه إمّا نعمة وإمّا منعم عليه.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾.

وقيل: كان للمشركين حول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً، فلما سمعوا بهذه الآية تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك، فنزلت: **﴿إنّ في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾** واعتقابهما لأنّ كلّ واحد منهما يعقب الآخر كقوله: جعل الليل والنهار خلفة. **﴿بما ينفع الناس﴾** بالذي ينفعهم مما يحمل فيها، أو ينفع الناس.

فإنْ قلتَ: قوله: **﴿وبثّ فيها﴾** عطف على أنزل أم أحيا؟ **قلتُ:** الظاهر أنّه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة لأنّ قوله: **﴿فأحيا به الأرض﴾** عطف على **﴿أنزل﴾** فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد، فكأنّه قيل: وما أنزل في الأرض من ماء وبثّ فيها من كل دابة، ويجوز عطفه على **﴿أحيا﴾** على معنى فأحيا بالمطر الأرض، وبثّ فيها من كل دابة لأنّهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا. **﴿وتصريف الرياح﴾** في مهابها قبولاً ودبوراً وجنوباً وشمالاً، وفي أحوالها حارّةً وباردةً وعاصفةً ولينةً وعقماً ولواقح. وقيل: تارةً بالرحمة، وتارةً بالعذاب. **﴿والسحاب المسخر﴾** سخّر للرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله يمطر حيث شاء. **﴿لآيات لقوم يعقلون﴾** ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون لأنّها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة، وعن النبيّ ﷺ: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها» أي: لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها، وقرىء: والفلك بضمتين، وتصريف الريح على الإفراد.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾.

﴿أنداداً﴾ أمثالاً من الأصنام، وقيل: من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم، واستدلّ بقوله: **﴿إذ تبرّأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾**[1]. ومعنى[2]: **﴿يحبونهم﴾** يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب **﴿كحب الله﴾** كتعظيم الله والخضوع له، أي: كما يحب الله تعالى، على أنّه مصدر من المبني للمفعول، وإنّما استغنى عن ذكر من يحبه لأنّه غير ملبس. وقيل: كحبهم الله. أي: يسوّون بينه وبينهم في محبتهم، لأنّهم كانوا يقرّون بالله ويتقرّبون إليه فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين. **﴿أشدّ حباً لله﴾** لأنّهم لا يعدلون عنه إلى غيره بخلاف المشركين، فإنّهم يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ويخضعون له ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويعبدون الصنم زماناً، ثم يرفضونه إلى غيره، أو يأكلونه كما أكلت باهلة إلٰهها من حيس عام المجاعة. **﴿الذين ظلموا﴾** إشارة إلى متخذي الأنداد، أي: ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أنّ القدرة كلها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون أندادهم، ويعلمون شدّة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم، فحذف الجواب كما في قوله: **﴿ولو ترى إذ وقفوا﴾**[3] وقولهم: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه، وقرىء: ولو ترى بالتاء على خطاب الرسول أو كل مخاطب، أي: ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً. وقرىء: إذ يرون على البناء للمفعول، وإذ في المستقبل كقوله: **﴿ونادى أصحاب الجنة﴾**[4].

إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾.

﴿إذ تبرأ﴾ بدل من إذ يرون العذاب، أي: تبرأ المتبوعون، وهم الرؤساء من الاتباع. وقرأ مجاهد الأول على البناء للفاعل، والثاني على البناء للمفعول، أي: تبرأ الاتباع من الرؤساء. **﴿ورأوا العذاب﴾** الواو للحال، أي: تبرؤا في حال رؤيتهم العذاب. **﴿وتقطعت﴾** عطف على تبرأ و **﴿الأسباب﴾** الوصل التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ومن الأنساب والمحاب والأتباع والاستتباع، كقوله: **﴿لقد تقطع بينكم﴾**.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾.

﴿لو﴾ في معنى التمني، ولذلك أجيب بالفاء الذي يجاب به التمني. كأنّه قيل: ليت لنا كرّة فنتبرأ منهم. **﴿كذلك﴾** مثل ذلك الإراء الفظيع **﴿يريهم الله أعمالهم حسرات﴾** أي: نداماتٍ، وحسراتٍ ثالث مفاعيل أرى، ومعناه أنّ أعمالهم تنقلب حسراتٍ عليهم فلا يرون إلا حسراتٍ مكان أعمالهم. **﴿وما هم بخارجين﴾**[5] هم بمنزلته في قوله:

---

(1) سورة البقرة، الآية: 166.

(2) قال أحمد: فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول كالأوّل، ولكن هذا مسمى الفاعل، وفعله مبني للفاعل، عند فكه من السبك. قوله تعالى: ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ الآية. (قال محمود رحمه الله: هم ههنا بمنزلتها في قوله: هم يفرشون الخ).

(3) سورة الأنعام، الآية: 27.

(4) سورة الأعراف، الآية: 44.

(5) قال أحمد رحمه الله: أشد ما أخفي في هذه الكلمات، معتقد أو رب صدره كلمات، فهو ينفس عن نفسه خناق الكتمان، بما ينفثه منه في بعض الإحسان، وكشف ذلك أن يقال، لما ستشعر دلالة الآية=

هـم يـفـرشـون الـلـبـد كـل طـمـرة

في دلالته على قوّة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾.

﴿حلالاً﴾ مفعول كلوا، أو حال مما في الأرض. **﴿طيباً﴾** طاهراً من كل شبهة. **﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾** فتدخلوا في حرام. أو شبهة أو تحريم حلال، أو تحليل حرام، ومن للتبعيض لأنّ كل ما في الأرض ليس بمأكول.

وقرىء: خطوات بضمتين، وخطوات بضمة وسكون، وخطؤات بضمتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو، وخطوات بفتحتين، وخطوات بفتحة وسكون.

والخطوة: المرة من الخطو، والخطوة ما بين قدمي الخاطي، وهما: كالغرفة، والغرفة والقبضة والقبضة. يقال: اتبع خطواته ووطئ على عقبه إذا اقتدى به واستن بسنته. **﴿مبين﴾** ظاهر العداوة لا خفاء به.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾.

﴿إنّما يامركم﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه وظهور عداوته. أي: لا يامركم بخير قط إنّما يامركم **﴿بالسوء﴾** بالقبيح **﴿والفحشاء﴾** وما يتجاوز الحدّ في القبح من العظائم، وقيل: السوء ما لا حدّ فيه، والفحشاء ما يجب الحدّ فيه. **﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** وهو قولكم هذا حلال وهذا حرام بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه.

فإنْ قلتَ: كيف كان الشيطان آمراً مع قوله: ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾[(1)]. **قلتُ:** شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الآمر، كما تقول: أمرتني نفسي بكذا، وتحته رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه، ولذلك قال: ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله وقال الله تعالى: ﴿إنّ النفس لأمّارة بالسوء﴾[(2)] لما كان الإنسان يطيعها فيعطيها ما اشتهت.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾.

﴿لهم﴾ الضمير للناس وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم لأنّه لا ضال أضل من المقلد، كأنّه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون؟ قيل: هم المشركون، وقيل: هم طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: **﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾** فإنّهم كانوا خيراً منا وأعلم. وألفينا بمعنى: وجدنا. بدليل قوله: ﴿بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾. **﴿أو لو كان آباؤهم﴾** الواو للحال، والهمزة بمعنى: الرد والتعجيب. معناه: أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصواب.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾.

لا بدّ من مضاف محذوف تقديره، ومثل داعي الذين كفروا **﴿كمثل الذي ينعق﴾** أو ومثل الذين كفروا كبهائم الذي ينعق، والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار، كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها، وزجر لها، ولا تفقه شيئاً آخر، ولا تعي كما يفهم العقلاء ويعون، ويجوز أن يراد بما لا يسمع الأصم الأصلخ الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير من غير فهم للحروف، وقيل: معناه ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته، فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم باطل. وقيل: معناه ومثلهم في دعائهم الأصنام كمثل الناعق بما لا يسمع. إلاّ أنّ قوله **﴿إلا دعاء ونداء﴾** لا يساعد عليه لأنّ الأصنام لا تسمع شيئاً.

والنعيق: التصويت، يقال: نعق المؤذن، ونعق الراعي بالضأن، قال الأخطل:

فانعق بضأنك يا جرير فإنّما ... منّتك نفسك في الخلاء ضلالا

وأما نعق الغراب فبالغين المعجمة. **﴿صمّ﴾** هم صمّ، وهو رفع على الذم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن

= لأهل السنة، على أنه لا يخلد في النار، إلا الكافر، وأما العاصي، وإن أصر على الكبائر، فتوحيده يخرجه منها، ولا بد وفاء بالوعد، ووجه الدلالة منها على ذلك، أنه صدر الجملة بضمير مبتدأ، ومثل هذا النظم يقتضي الاختصاص والحصر لغة، وستمر للزمخشري مواضع، يستدل فيها على الحصر بذلك، فقد قال في قوله تعالى: ﴿أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون﴾ أنّ معناه: لا ينشر إلا هم، وأنّ المنكر عليهم ما يلزمهم من حصر الألوهية فيهم، وكذلك يقول في أمثال قوله: ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أنّ معناه: الحصر، أنه لا يوقن بالآخرة إلا هم، فإذا ابتنى الأمر على ذلك، = لزم حصر نفي الخروج من النار في هؤلاء الكفار، دون غيرهم من الموحدين، لكن الزمخشري يأبى ذلك، فيعمل الحال من معارضة هذه الفائدة، بفائدة تتم له على القاعدة، فيجعل الضمير المذكور، يفيد تأكيد نسبة الخلود إليهم، لاختصاصه بهم، وهم عنده بهذه المثابة؛ لأنّ العصاة، وإن خلدوا على زعمه، إلا أنّ الكفار أحق بالخلود، وأدخل في استحقاقه منهم، فسبحان من امتحنه بهذه المحنة، على حذق وفطنة، والله ولي التوفيق.

(1) سورة الحجر، الآية: 42.

(2) سورة يوسف، الآية: 53.

كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

﴿من طيبات ما رزقناكم﴾ من مستلذاته لأنّ كل ما رزقه الله ما يكون إلا حلالاً، ﴿واشكروا لله﴾ الذي رزقكموها ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة، وتقرّون أنّه مولى النعم، وعن النبي ﷺ يقول الله تعالى: «إني والجنّ والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري»(1).

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

قرئ: حرم على البناء للفاعل، وحرم على البناء للمفعول، وحرم بوزن كرم. ﴿أهلّ به لغير الله﴾ أي: رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل الجاهلية باسم اللات والعزى. ﴿غير باغ﴾ على مضطر آخر بالاستيثار عليه. ﴿ولا عاد﴾ سدّ الجوعة.

فإنْ قلتَ: في الميتات ما يحل وهو السمك والجراد. قال رسول الله ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان»(2). قلتُ: قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة ألا ترى أنّ القائل إذا قال: أكل فلان ميتةً لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد، كما لو قال: أكل دماً، لم يسبق إلى الكبد والطحال، ولاعتبار العادة والتعارف قالوا: من حلف لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لم يحنث وإن أكل لحماً في الحقيقة. قال الله تعالى: ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾(3) وشبهوه ممن حلف لا يركب دابّة فركب كافراً لم يحنث وإن سماه الله تعالى دابةً في قوله: ﴿إنّ شرّ الدواب عند الله الذين كفروا﴾(4).

فإنْ قلتَ: فما له ذكر لحم الخنزير دون شحمه؟ قلتُ: لأنّ الشحم داخل في ذكر اللحم لكونه تابعاً له وصفةً فيه بدليل قولهم: لحم سمين يريدون أنّه شحيم.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

﴿في بطونهم﴾ ملء بطونهم، يقال: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه. ﴿إلا النار﴾ لأنّه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبةً عليه فكأنّه أكل النار، ومنه قولهم: أكل فلان الدم، إذا أكل الدية التي هي بدل منه. قال:

أكلت دماً إن لم أرعك بضرة

وقال:

يأكلن كل ليلة إكافا

أراد ثمن الأكاف فسماه أكافاً لتلبسه بكونه ثمناً له. ﴿ولا يكلمهم الله﴾ تعريض بحرمانهم حال أهل الجنة في تكرمة الله إياهم بكلامه وتزكيتهم بالثناء عليهم، وقيل: في الكلام عبارة عن غضبه عليهم كمن غضب على صاحبه فصرمه وقطع كلامه، وقيل: لا يكلمهم بما يحبون ولكن بنحو قوله: اخسؤا فيها ولا تكلمون.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾

﴿فما أصبرهم على النار﴾ تعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم، كما تقول لمن يتعرّض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن! تريد أنّه لا يتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب، وقيل: فما أصبرهم، فأي شيء صبرهم. يقال: أصبره على كذا وصبره، بمعنى وهذا أصل معنى فعل التعجب. والذي روي عن الكسائي أنّه قال: قال لي قاضي اليمن بمكة: اختصم إليّ رجلان من العرب فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال له: ما أصبرك على الله. فمعناه: ما أصبرك على عذاب الله.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

﴿ذلك بأنّ الله نزل﴾ أي: ذلك العذاب بسبب أنّ الله نزل ما نزل من الكتاب بالحق. ﴿وإنّ الذين اختلفوا﴾ في كتب الله فقالوا في بعضها حق وفي بعضها باطل وهم أهل الكتاب ﴿لفي شقاق﴾ لفي خلاف ﴿بعيد﴾ عن الحق. والكتاب للجنس، أو كفرهم ذلك بسبب أنّ الله نزل القرآن بالحق، كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه من المشركين، فقال بعضهم: سحر، وبعضهم: شعر، وبعضهم: أساطير. لفي شقاق بعيد، يعني: أنّ أولئك لو لم يختلفوا، ولم يشاقوا لما جسر هؤلاء أن يكفروا.

۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿البر﴾ اسم للخير ولكل فعل مرضي ﴿أن تولوا

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعديد نعم الله عز وجل وشكرها الحديث رقم: (4563).

(2) أخرجه أحمد في المسند 2/97، وابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب: الكبد والطحال الحديث رقم: (3314)، والدارقطني في كتاب: = الصيد والذبائح الحديث رقم: (25)، والشافعي في ترتيب المسند، كتاب: الصيد والذبائح الحديث رقم: (607).

(3) سورة النحل، الآية: 14.

(4) سورة الأنفال، الآية: 55.

وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ الخطاب[1] لأهل الكتاب لأنّ اليهود تصلي قبل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قبل المشرق، وذلك أنّهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسول الله ﷺ إلى الكعبة، وزعم كل واحد من الفريقين أنّ البرّ التوجه إلى قبلته، فردّ عليهم، وقيل: ليس البرّ فيما أنتم عليه فإنه منسوخ خارج من البرّ، ولكن البرّ ما نبينه. وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البرّ العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ أمر القبلة، ولكن البرّ الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة بر من آمن، وقام بهذه الأعمال. وقرىء: وليس البر، بالنصب على أنّه خبر مقدم، وقرأ عبد الله: بأن تولوا، على إدخال الباء على الخبر للتأكيد، كقولك: ليس المنطلق بزيد. ﴿ولكنّ البر من آمن بالله﴾ على تأويل حذف المضاف، أي: بر من آمن، أو يتأوّل البر بمعنى: ذي البر. أو كما قالت:

فإنّما هي إقبال وإدبار

وعن المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت. ولكنّ البَرّ، بفتح الباء. وقرىء: ولكن البار. وقرأ ابن عامر ونافع: ولكنّ البر، بالتخفيف. ﴿والكتاب﴾ جنس كتب الله، أو القرآن. ﴿على حبّه﴾ مع حب المال والشح به، كما قال ابن مسعود: أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم[2] قلت لفلان: كذا ولفلان كذا. وقيل: على حب الله، وقيل: على حب الإيتاء. يريد أن يعطيه وهو: طيب النفس بإعطائه. وقدم ذوي القربى لأنّهم أحق، قال عليه الصلاة والسلام: «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذي رحمك اثنتان لأنّها صدقة وصلة»[3]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»[4]. وأطلق ﴿ذوي القربى واليتامى﴾ والمراد الفقراء منهم لعدم الإلباس، والمسكين الدائم السكون إلى الناس لأنّه لا شيء له، كالمسكير الدائم السكر، ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع، وجعل ابناً للسبيل لملازمته له، كما يقال للص: القاطع وابن الطريق. وقيل: هو الضيف لأنّ السبيل يرعف به. ﴿والسائلين﴾ المستطعمين، قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على ظهر فرسه»[5]. ﴿وفي الرقاب﴾ وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم، وقيل: في ابتياع الرقاب وإعتاقها، وقيل: في فك الأسارى.

فإنْ قلتَ: قد ذكر إيتاء المال في هذه الوجوه، ثم قفاه بإيتاء الزكاة، فهل دلّ ذلك على أنّ في المال حقاً سوى الزكاة؟ قلتُ: يحتمل ذلك، وعن الشعبي أنّ في المال حقاً سوى الزكاة، وتلا هذه الآية. ويحتمل أن يكون ذلك بيان مصارف الزكاة، أو يكون حثاً على نوافل الصدقات والمبارّ. وفي الحديث: «نسخت الزكاة كل صدقة»[6]. يعني: وجوبها. وروي: «ليس في المال حق سوى الزكاة»[7]. ﴿والموفون﴾ عطف على ﴿من آمن﴾. وأخرج ﴿الصابرين﴾ منصوباً على الاختصاص والمدح إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد، ومواطن القتال على سائر الأعمال. وقرىء: والصابرون، وقرىء: والموفين والصابرين. ﴿البأساء﴾ الفقر والشدّة ﴿والضراء﴾ المرض والزمانة. ﴿صدقوا﴾ كانوا صادقين جادّين في الدين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

عن عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وعطاء

---

(1) قال أحمد رحمه الله: هذا منقول عن المبرد، مصمى بسهام الرد، فإن فيه إيهاماً، بأن اختلاف وجوه القراءة موكول إلى الاجتهاد، وأنه مهما اقتضاه قياس اللغة، جازت القراءة به، لمن يعد أهلاً للاجتهاد في العربية واللغة، وهذا خطأ محض، فالقراآت سنة متبعة، لا مجال فيها للدراية، على أنّ ما قاله، وقدر أنه الأوجه، ليس ببالغ ذروة فصاحة الآية، إلا على القراآت المستفيضة؛ لأنّ الكلام مصدر بذكر البر، الذي هو المصدر قولاً واحداً، فلو عدل إلى ذكر البر، الذي هو: الوصف، لانفك المطابقة ومعنى النظام، ولذلك كان تأويل الآية، بحذف المضاف من الثاني على تأويل بر آمن أوجه، وأحسن وأبقى على السياق، ومن ظنّ أنه يشق غباراً، أو يتعلق بأذيال فصاحة المعجز للفصحاء، فقد سوّلت له نفسه محالاً، ومنته ضلالاً.

(2) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 9/55، الحديث رقم: (16324)، وأخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: فضل صدقة الشحيح الصحيح، الحديث رقم: (1419)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح الحديث رقم: (2379).

(3) أخرجه أحمد في المسند 4/214، والدارمي في كتاب: الزكاة، باب:= الصدقة على القرابة الحديث رقم: (1680)، والحاكم في المستدرك 1/407. وأخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في الصدقة على ذي القرابة، الحديث رقم: 658، والنسائي في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على الأقارب الحديث رقم: (2582)، وابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: فضل الصدقة، الحديث رقم: (1844)، وابن حبان في كتاب: الزكاة، باب: صدقة التطوع الحديث رقم: (3344)، وابن أبي شيبة 3/192، كتاب: الزكاة، باب: الرجل يدفع زكاته إلخ.

(4) رواه أحمد في المسند 3/402، والحاكم في المستدرك 1/406.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: حق السائل، الحديث رقم: (1665)، ومالك في الموطأ، كتاب: الصدقة، باب: الترغيب في الصدقة، الحديث رقم: (3).

(6) أخرجه الدارقطني في كتاب: الصيد والذبائح والأطعمة، الحديث رقم: (39)، وعبد الرزاق في المصنف 7/505، الحديث رقم: (14046).

(7) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: ما أدى زكاته ليس بكنز الحديث رقم: (1789)، ورواه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة الحديث رقم: (660).

وعكرمة[1]، وهو مذهب مالك والشافعي رحمة الله عليهم أنّ الحر لا يقتل بالعبد، والذكر لا يقتل بالأنثى، أخذاً بهذه الآية، ويقولون: هي مفسّرة لما أبهم في قوله: ﴿النفس بالنفس﴾[2]، ولأنّ تلك واردة لحكاية ما كتب في التوراة على أهلها، وهذه خوطب بها المسلمون، وكتب عليهم ما فيها، وعن سعيد بن المسيب والشعبي والنخعي وقتادة والثوري، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه: أنّها منسوخة بقوله: ﴿النفس بالنفس﴾ والقصاص ثابت بين العبد والحر، والذكر والأنثى، ويستدلون بقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»[3]. وبأنّ التفاضل غير معتبر في الأنفس بدليل أنّ جماعة لو قتلوا واحداً قتلوا به. وروي أنّه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما طول على الآخر، فأقسموا لنقتلنّ الحرّ منكم بالعبد منا، والذكر بالأنثى، والاثنين بالواحد. فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ حين جاء الله بالإسلام، فنزلت وأمرهم أن يتباوؤا ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ معناه[4]: فمن عفي له من جهة أخيه شيء من العفو، على أنّه كقولك: سير بزيد بعض السير، وطائفة من السير، ولا يصح أن يكون شيء في معنى المفعول به؛ لأن عفا لا يتعدّى إلى مفعول به إلا بواسطة.

وأخوه: هو ولي المقتول، وقيل له: أخوه، لأنّه لابسه من قبل أنّه ولي الدم ومطالبه به، كما تقول للرجل: قل لصاحبك كذا، لمن بينه وبينه أدنى ملابسة، أو ذكره بلفظ الأخوّة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام.

فإنْ قلتَ: إن عفى يتعدّى بعن لا باللام، فما وجه قوله: ﴿فمن عفي له﴾؟ قلتُ: يتعدّى بعن إلى الجاني وإلى الذنب، فيقال: عفوت عن فلان وعن ذنبه. قال الله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾[5] وقال: ﴿عفا الله عنها﴾[6]، فإذا تعدّى إلى الذنب والجاني معاً قيل: عفوت لفلان عما جنى. كما تقول: غفرت له ذنبه، وتجاوزت له عنه. وعلى هذا ما في الآية، كأنّه قيل: فمن عفي له عن جنايته، فاستغنى عن ذكر الجناية.

فإنْ قلتَ: هلا فسرت عفى بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به؟ قلتُ: لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس يثبت ولكن أعفاه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «واعفوا اللحى»[7].

فإنْ قلتَ: فقد ثبت قولهم عفا أثره إذا محاه وأزاله، فهلا جعلت معناه: فمن محي له من أخيه شيء؟ قلتُ: عبارة قلقة في مكانها، والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتب والسنة واستعمال الناس، فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة نابتة عن مكانها، وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ إذا أعضل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله على اختراع لغة وادعاء على العرب ما لا نعرفه، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها.

فإنْ قلتَ: لم قيل شيء من العفو؟ قلتُ: للإشعار بأنّه إذا عفي له طرف من العفو وبعض منه بأن يعفي عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة، تم العفو وسقط القصاص، ولم تجب إلا الدية. ﴿فاتباع بالمعروف﴾ فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع، وهذه توصية للمعفو عنه والعافي

---

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا من الزمخشري، وهم على الإمامين، فإنهما يقتصان من الذكر للأنثى بلا خلاف عنهما، وأمّا الحر والعبد عندهما، فهو: الذي وهم الزمخشري عنهما.

(2) سورة المائدة، الآية: 45.

(3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: الديات، باب: إيقاد المسلم بالكافر الحديث رقم: (4530)، والنسائي في كتاب القسامة، باب: سقوط القود من المسلم للكافر، الحديث رقم: (4746)، وأخرجه الحاكم في المستدرك عن عمرو بن العاص 2/141، وأبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في السرية الحديث رقم: (2751)، وابن ماجه في كتاب: الديات، باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم الحديث رقم: (2685)، وعن ابن عباس الحديث رقم: (2683)، وعن معقل بن يسار الحديث رقم: (2684)، وعن عائشة، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى 8/30.

(4) قال أحمد رحمه الله: ويقوي هذا التأويل القول بأن موجب العمد أحد الأمرين من القصاص أو الدية، والخيار إلى الوليّ، وهو أحد القولين في مذهب مالك رضي الله عنه ومشهورهما، إذ لو جعلنا موجب العمد القود على القول الآخر، لكان في ذلك تضييق على الولي، والآية مشعرة بالتخفيف والسعة، وتحتمل الآية وجهاً آخر، وهو عود الضميرين جميعاً إلى الولي، وقالوا على هذا الوجه: يكون العفو إعطاء البدل، كأنه قال: فمن أعطى شيئاً من أخيه، أي: بدلاً من أخيه، ويكون من مثلها في قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ ونظيره في استعمال العفو في العطاء عندي، قوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة = النكاح﴾ إذا حمل الذي بيده العقدة على الزوج، وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه، ويقول أصحابه: عفوه على أحد وجهين: إما من استرجاع النصف الواجب، إن كان قد سلم جميع المهر، وأما على دفع النصف الآخر الذي سقط عنه، إن كان لم يسلمه، فيكون العفو على هذا مستعملاً في الإعطاء، ويقوي هذا الوجه في أنه لا قصاص، قوله: ﴿فاتباع بالمعروف﴾ لأنّ المخاطب بالاتباع بالمعروف، إنما هو الولي، فإذا جعلنا الضميرين له، انساق الكلام سياقة واحدة، إلى جهة واحدة، وصار المعنى: فمن أعطى من الأولياء بدلاً من أخيه، فليتبع بالمعروف في طلب ما أعطى، ولما خالفه الولي عن التقاضي، خاطب القاتل بحسن الأداء، فلينتظم الكلام موجهاً إلى وجهة واحدة، وأما على الوجه الذي قرّره الزمخشري، فالضميران جميعاً راجعان إلى القاتل، وتقدير الكلام: فمن عفي له من القاتلين عن جنايته، شيء من العفو، فليتبع الولي هذا القاتل المعفو عنه بالمعروف، فيكون المخاطب أوّل الآية القاتل، وآخرها الولي، بخلاف الوجه الذي قررته، والله أعلم، وكلا الوجهين حسن جيد.

(5) سورة التوبة، الآية: 43.

(6) سورة المائدة، الآية: 101.

(7) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر ولفظه: انهكوا الشوارب واعفوا اللحى، في كتاب اللباس، باب: إعفاء اللحى الحديث رقم: (5893)، وأخرجه مسلم ولفظه: «أحفوا الشوارب واعفوا عن اللحى» في كتاب: الطهارة، باب: خصال الفطرة الحديث رقم: (599).

جميعاً. يعني: فليتبع الولي القاتل بالمعروف بأن لا يعنف به ولا يطالبه إلا مطالبةً جميلةً، وليؤدّ إليه القاتل بدل الدم أداء بإحسان بأن لا يمطله ولا يبخسه. ﴿ذلك﴾ الحكم المذكور من العفو والدية ﴿تخفيف من ربكم ورحمة﴾ لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرّم العفو وأخذ الدية، وعلى أهل الإنجيل العفو، وحرّم القصاص والدية، وخيرت هذه الأمّة بين الثلاث القصاص والدية والعفو توسعةً عليهم وتيسيراً. ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ بالتخفيف فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل، أو القتل بعد أخذ الدية، فقد كان الولي في الجاهلية يؤمّن القاتل بقبوله الدية، ثم يظفر به فيقتله. ﴿فله عذاب أليم﴾ نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة، وعن قتادة: العذاب الأليم أن يقتل لا محالة ولا يقبل منه دية، لقوله عليه السلام: «لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية».

وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿ولكم في القصاص حيوة﴾[1] كلام فصيح لما فيه من الغرابة، وهو أنّ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة لأنّ المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنّهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله، فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة. أي: حياة أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل لأنّه إذا همّ بالقتل فعلم أنّه يتقص فارتدع منه سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود، فكان القصاص سبب حياة نفسين، وقرأ أبو الجوزاء: ولكم في القصص حياة، أي: فيما قصّ عليكم من حكم القتل والقصاص، وقيل: القصص القرآن، أي: ولكم في القرآن حياة للقلوب. كقوله تعالى: ﴿روحاً من أمرنا﴾ ﴿ويحيى من حي عن بينة﴾. ﴿لعلكم تتقون﴾ أي: أريتكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس لعلكم تتقون، تعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على القصاص والحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالأئمة.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ إذا دنا منه وظهرت أماراته. ﴿خيراً﴾ مالاً كثيراً، عن عائشة رضي الله عنها أنّ رجلاً أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار. فقالت: ما أرى فيه فضلاً، وأراد آخر أن يوصي فسألته: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف. قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: إنّما قال الله: ﴿إن ترك خيراً﴾ وإنّ هذا الشيء يسير، فاتركه لعيالك. وعن علي رضي الله عنه: إنّ مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة، فمنعه وقال: قال الله تعالى: ﴿إن ترك خيراً﴾ والخير هو المال، وليس لك مال. و﴿الوصية﴾ فاعل ﴿كتب﴾ وذكر فعلها للفاصل ولأنّها بمعنى: أن يوصي، ولذلك ذكر الراجع في قوله:

﴿فمن بدّله بعدما سمعه﴾

والوصية للوارث كانت في بدء الإسلام فنسخت بآية المواريث وبقوله عليه السلام: «إنّ الله أعطى كلّ ذي حق حقه ألا لا وصية لوارث»[2]. وبتلقي الأمة إياه بالقبول حتى لحق بالمتواتر وإن كان من الآحاد لأنّهم لا يتلقون بالقبول إلا الثبت الذي صحت روايته، وقيل: لم تنسخ، والوارث يجمع له بين الوصية والميراث بحكم الآيتين، وقيل: ما هي بمخالفة لآية المواريث، ومعناها: كتب عليكم ما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين من قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾[3] وكتب على المحتضر أن يوصي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم وأن لا ينقص من أنصبائهم ﴿بالمعروف﴾ بالعدل وهو: أن لا يوصي للغني ويدع الفقير، ولا يتجاوز الثلث ﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد أي: حق ذلك حقاً.

فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

﴿فمن بدّله﴾ فمن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود ﴿بعدما سمعه﴾ وتحققه، ﴿فإنّما إثمه على الذين يبدّلونه﴾ فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل إلا على مبدّليه دون غيرهم من الموصي والموصى له لأنّهما بريان من الحيف. ﴿إنّ الله سميع عليم﴾ وعيد للمبدّل.

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

﴿فمن خاف﴾ فمن توقع وعلم، وهذا في كلامهم شائع. يقولون: أخاف أن ترسل السماء، يريدون التوقع والظن الغالب الجاري مجرى العلم. ﴿جنفاً﴾ ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية. ﴿أو إثماً﴾ أو تعمداً للحيف. ﴿فاصلح بينهم﴾ بين الموصى لهم، وهم الوالدان والأقربون

---

(1) قال أحمد رحمه الله: قوله: جعل أحد الضدّين محلاً للآخر، كلام إما هم فيه، أو تسامح، لأنّ شرط تضادّ الحياة والموت، اجتماعهما في محل واحد تقديراً، ولا تضادّ بين حياة غير المقتص منه، وموت المقتص، والبلاغة التي أوضحها في الآية، بينة بدون هذا الإطلاق.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا، باب: ما جاء في الوصية للوارث الحديث رقم: (2870)، والترمذي في كتاب: الوصايا، باب: ما جاء لا وصية لوارث الحديث رقم: (2120)، وابن ماجه في كتاب: الوصايا، باب: لا وصية لوارث الحديث رقم: (2713).

(3) سورة النساء، الآية: 11.

بإجرائهم على طريق الشرع. ﴿فلا إثم عليه﴾ حينئذٍ لأنّ تبديله تبديل باطل إلى حق، ذكر من يبدّل بالباطل ثم من يبدّل بالحق ليعلم أنّ كل تبديل لا يؤثم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم. قال علي رضي الله عنه: أوّلهم آدم. يعني: أنّ الصوم عبادة قديمة أصلية ما أخلى الله أمّة من افتراضها عليهم، لم يفرضها عليكم وحدكم. ﴿لعلكم تتقون﴾ بالمحافظة عليها وتعظيمها لأصالتها وقدمها، أو لعلكم تتقون المعاصي لأنّ الصائم أظلف لنفسه وأردع لها من مواقعة السوء. قال عليه السلام: «فعليه بالصوم فإنّ الصوم له وجاء»[1]. أو لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين لأنّ الصوم شعارهم. وقيل: معناه أنّه كصومهم في عدد الأيام وهو شهر رمضان، كتب على أهل الإنجيل فأصابهم موتان فزادوا عشراً قبله وعشراً بعده فجعلوه خمسين يوماً، وقيل: كان وقوعه في البرد الشديد والحر الشديد فشقّ عليهم في أسفارهم ومعايشهم، فجعلوه بين الشتاء والربيع وزادوا عشرين يوماً كفارةً لتحويله عن وقته.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

وقيل: الأيام المعدودات عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، كتب على رسول الله ﷺ صيامها حين هاجر، ثم نسخت بشهر رمضان. وقيل: كتب عليكم كما كتب عليهم أن يتّقوا المفطر بعد أن يصلوا العشاء، وبعد أن يناموا، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿أحلّ لكم ليلة الصيام﴾[2] الآية. ومعنى: ﴿معدودات﴾ موقتات بعدد معلوم، أو قلائل. كقوله: ﴿دراهم معدودة﴾[3] وأصله أنّ المال القليل يقدّر بالعدد ويتحكر فيه، والكثير يهال هيلاً، ويحثى حثياً، وانتصاب أياماً بالصيام، كقولك: نويت الخروج يوم الجمعة. ﴿أو على سفر﴾ أو راكب سفر. ﴿فعدّة﴾ فعليه عدّة. وقرىء: بالنصب، بمعنى: فليصم عدّةً، وهذا على سبيل الرخصة، وقيل: مكتوب عليهما أن يفطرا ويصوما عدةً. ﴿من أيام أخر﴾ واختلف في المرض المبيح للإفطار، فمن قائل: كل مرض لأنّ الله تعالى لم يخص مرضاً دون مرض، كما لم يخص سفراً دون سفر، فكما أنّ لكل مسافر أن يفطر، فكذلك كل مريض، وعن ابن سيرين أنّه دخل عليه في رمضان وهو يأكل فاعتلّ بوجع أصبعه. وسئل مالك عن الرجل يصيبه الرمد الشديد أو الصداع المضر وليس به مرض يضجعه، فقال: إنّه في سعة من الإفطار. وقائل: هو المرض الذي يعسر معه الصوم ويزيد فيه، لقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾. وعن الشافعي: لا يفطر حتى يجهده الجهد غير المحتمل. واختلف أيضاً في القضاء فعامّة العلماء على التخيير، وعن أبي عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه: إنّ الله لم يرخص لكم في فطره، وهو يريد أن يشق عليكم في قضائه، إن شئت فواتر، وإن شئت ففرّق[4] وعن عليّ وابن عمر والشعبي وغيرهم: أنّه يقضي كما فات متتابعاً[5]. وفي قراءة أبيّ: فعدّة من أيام أُخر متتابعاتٍ.

فإنْ قلتَ: فكيف قيل: ﴿فعدّة﴾ على التنكير، ولم يقل فعدّتها أي: فعدّة الأيام المعدودات؟ قلتُ: لما قيل: فعدّة، والعدّة بمعنى المعدود، فأمر بأن يصوم أياماً معدودةً مكانها علم أنّه لا يؤثر عدد على عددها، فأغنى ذلك عن التعريف بالإضافة. ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم إن أفطروا ﴿فدية طعام مسكين﴾ نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق، وعند أهل الحجاز مدّ، وكان ذلك في بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعوّدوه فاشتد عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية. وقرأ ابن عباس: يطوّقونه، تفعيل من الطوق إما بمعنى: الطاقة، أو القلادة أي: يكلفونه أو يقلدونه. ويقال لهم: صوموا، وعنه: يتطوّقونه، بمعنى: يتكلفونه أو يتقلدونه ويطوقونه بإدغام التاء في الطاء، ويطيقونه ويطيقونه بمعنى: يتطوقونه. وأصلهما يطيوقونه ويتطيوقونه على أنهما من فيعل وتفعيل من الطوق، فادغمت الياء في الواو بعد قلبها ياءً، كقولهم: تدبر المكان وما بها ديار، وفيه وجهان: أحدهما نحو معنى يطيقونه، والثاني يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر، وهم الشيوخ والعجائز وحكم هؤلاء الإفطار والفدية. وهو على هذا الوجه ثابت غير منسوخ، ويجوز أن يكون هذا معنى: يطيقونه أي: يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم. ﴿فمن تطوع خيراً﴾ فزاد على مقدار الفدية. ﴿فهو خير له﴾ فالتطوع أخير له أو الخير، وقرىء: فمن يطوّع بمعنى: يتطوع. ﴿وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون أو المطوقون وحملتم على أنفسكم وجهدتم طاقتكم ﴿خير لكم﴾ من الفدية وتطوّع الخير، ويجوز أن ينتظم في الخطاب المريض والمسافر أيضاً. وفي قراءة أبيّ: والصيام خير لكم. الرمضان مصدر رمض إذا احترق من الرمضاء، فأضيف إليه الشهر وجعل علماً، ومنع الصرف للتعريف والألف والنون، كما قيل: ابن داية للغراب: بإضافة الابن إلى داية

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب: من لم يستطع الباءة فليصم الحديث رقم: (5066)، ومسلم في كتاب النكاح، باب: استحباب النكاح، الحديث رقم: (3384).

(2) سورة البقرة، الآية: 187.

(3) سورة يوسف، الآية: 20.

(4) أخرجه الدارقطني في السنن، كتاب الصيام، باب: القبلة للصائم الحديث رقم: (63).

(5) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 4/242 الحديث رقم: (7658).

البعير لكثرة وقوعه عليها إذا نبرت.

فإنْ قلتَ: لمَ سمي ﴿**شهر رمضان**﴾؟ **قلتُ**: الصوم فيه عبادة قديمة، فكأنهم سموه بذلك؛ لارتماضهم فيه من حرّ الجوع ومقاساة شدّته، كما سموه ناتقاً؛ لأنّه كان ينتقهم أي: يزعجهم إضجاراً بشدّته عليهم، وقيل: لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر.

فإنْ قلتَ: فإذا كانت التسمية واقعةً مع المضاف والمضاف إليه جميعاً، فما وجه ما جاء في الأحاديث من نحو قوله عليه الصلاة والسلام: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»[1]، «من أدرك رمضان فلم يغفر له»[2]؟ **قلتُ**: هو من باب الحذف لا من الإلباس، كما قال بما أعيا النطاسي حذيماً: أراد ابن حذيم وارتفاعه على أنّه مبتدأ خبره.

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿**الذي أنزل فيه القرآن**﴾، أو على أنه بدل من الصيام في قوله: ﴿كُتب عليكم الصيام﴾ أو على أنّه خبر مبتدأ محذوف. وقرئ بالنصب على صوموا شهر رمضان، أو على الإبدال من أياماً معدودات، أو على أنّه مفعول وأن تصوموا، ومعنى: أنزل فيه القرآن، ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر. وقيل: أنزل جملة إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الأرض نجوماً. وقيل: أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله: ﴿كُتب عليكم الصيام﴾[3] كما تقول: أنزل في عمر كذا وفي علي كذا. وعن النبي عليه السلام: «نزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لستٍ مضين، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين مضين»[4]. ﴿**هدى للناس وبينات**﴾ نصب على الحال أي: أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحات مكشوفات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بين الحق والباطل.

فإنْ قلتَ: ما معنى قوله: ﴿**وبينات من الهدى**﴾ بعد قوله: ﴿**هدى للناس**﴾؟ **قلتُ**: ذكر أوّلاً أنّه هدى، ثم ذكر أنّه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق به بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال. ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾ فمن كان شاهداً أي: حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر فليصم فيه ولا يفطر، والشهر منصوب على الظرف، وكذلك الهاء في فليصمه، ولا يكون مفعولاً به كقولك: شهدت الجمعة، لأنّ المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر ﴿**يريد الله**﴾ أن ييسر عليكم ولا يعسر، وقد نفى عنكم الحرج في الدين وأمركم بالحنيفية السمحة التي لا إصر فيها، ومن جملة ذلك ما رخص لكم فيه من إباحة الفطر في السفر والمرض، ومن الناس من فرض الفطر على المريض والمسافر حتى زعم أنّ من صام منهما فعليه الإعادة. وقرىء: اليسر والعسر بضمتين[5]. الفعل المعلل محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره: ﴿**ولتكملوا العدّة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**﴾ شرع ذلك يعني: جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر، فقوله: ﴿**لتكملوا**﴾ علة الأمر بمراعاة العدة، ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر، ولعلكم تشكرون علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبيينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان، وإنّما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمناً معنى الحمد، كأنّه قيل: ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم، ومعنى: ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾، وإرادة أن تشكروا. وقرىء: ولتكملوا بالتشديد.

فإنْ قلتَ: هل يصح أن يكون ﴿**ولتكملوا**﴾ معطوفاً على علة مقدرة كأنّه قيل: لتعلموا ما تعملون ولتكملوا العدة؟ أو على اليسر، كأنّه قيل: يريد الله بكم اليسر ويريد بكم لتكملوا، كقوله: ﴿يريدون ليطفئوا﴾[6]؟ **قلتُ**: لا يبعد ذلك والأوّل أوجه.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

فإنْ قلتَ: ما المراد بالتكبير؟ **قلتُ**: تعظيم الله والثناء عليه، وقيل: هو تكبير يوم الفطر، وقيل: هو التكبير عند الإهلال.

﴿**فإنّي قريب**﴾ تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجاحه حاجة من سأله بحال من قرب مكانه، فإذا دعي أسرعت تلبيته ونحوه: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[7] وقوله عليه الصلاة والسلام: «هو بينكم وبين أعناق رواحلكم»[8]. وروي: أنّ أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: صوم رمضان احتساباً من الإيمان الحديث رقم: (38)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: الترغيب في قيام رمضان الحديث رقم: (1778).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب: قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل» الحديث رقم: (3545).

(3) سورة البقرة، الآية: 183.

(4) أخرجه أحمد في المسند 4/107.

(5) قال أحمد رحمه الله: ولقبه الخاص به في صناعة البديع، رد أعجاز الكلام إلى صدوره، ولقد أحسن الزمخشري في التنقيب عنه، فهو منظوم في سلك حسناته.

(6) سورة الصف، الآية: 8.

(7) سورة قٓ، الآية: 16.

(8) أخرجه الدارقطني في: المؤتلف والمختلف.

فتناديه[1]؟! فنزلت: ﴿فليستجيبوا لي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أنّي أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم. وقرىء: يرشَدون ويرشِدون بفتح الشين وكسرها.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

كان الرجل[2] إذا أمسى حل له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة أو يرقد، فإذا صلاها أو رقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة. ثم إنّ عمر رضي الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة، وأخبره بما فعل، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كنت جديراً بذلك يا عمر». فقام رجال فاعترفوا بما كانوا صنعوا بعد العشاء، فنزلت[3]. وقرىء: أحل لكم ليلة الصيام الرفث أي: أحل الله. وقرأ عبد الله الرفوث، وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه كلفظ النيك، وقد أرفث الرجل. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه أنشد وهو محرم:

وهنّ يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير ننك لميسا

فقيل له: أرفثت؟ فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء[4]، وقال الله تعالى: ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾[5] فكنى به عن الجماع لأنّه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك.

فإنْ قلتَ: لم كنى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾[6]. ﴿فلما تغشاها﴾[7]. ﴿باشروهن﴾[8]: ﴿أو لامستم النساء﴾[9]. ﴿دخلتم بهنّ﴾[10]. ﴿فأتوا حرثكم﴾[11]. ﴿من قبل أن تمسوهنّ﴾[12]. ﴿فما استمتعتم به منهنّ ولا تقربوهنّ﴾[13] **قلتُ:** استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختياناً لأنفسهم.

فإنْ قلتَ: لم عدى الرفث بإلى؟ **قلتُ:** لتضمينه معنى: الإفضاء. لما كان الرجل والمرأة يعتنقان، ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه شبه باللباس المشتمل عليه. قال الجعدي:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت فكانت عليه لباسا

فإنْ قلتَ: ما موقع قوله ﴿هنّ لباس لكم﴾؟ **قلتُ:** هو استئناف، كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهنّ مثل هذه المخالطة والملابسة قلّ صبركم عنهنّ وصعب عليكم اجتنابهنّ، فلذلك رخص لكم في مباشرتهنّ. ﴿تختانون انفسكم﴾ تظلمونها وتنقصونها حظها من الخير، والاختيان من الخيانة، كالاكتساب من الكسب فيه زيادة وشدة ﴿فتاب عليكم﴾ حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور. ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ واطلبوا ما قسم الله لكم، وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة أي: لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل. وقيل: هو نهي عن العزل لأنّه في الحرائر، وقيل: وابتغوا المحل الذي كتبه الله لكم، وحلله دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرّم، وعن قتادة: وابتغوا ما كتب الله لكم من الإباحة بعد الحظر، وقرأ ابن عباس: واتبعوا. وقرأ الأعمش: وأتوا، وقيل: معناه: واطلبوا ليلة القدر، وما كتب الله لكم من الثواب إن أصبتموها وقمتموها، وهو قريب من بدع التفاسير. ﴿الخيط الأبيض﴾ هو أوّل ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود، و﴿الخيط الأسود﴾ ما يمتدّ معه من غبش الليل، شبها بخيطين أبيض وأسود. قال أبو داود:

فلما أضاءت لنا سدفة ولاح من الصبح خيط أنارا

وقوله: ﴿من الفجر﴾ بيان للخيط الأبيض، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود لأنّ بيان أحدهما بيان للثاني، ويجوز أن تكون من للتبعيض لأنّه بعض الفجر وأوّله.

فإنْ قلتَ[14]: أهذا من باب الاستعارة أم من باب

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر الحديث رقم: (4205)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر الحديث رقم: (6802)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب: (3) الحديث رقم: (3374)، واللفظ له.

(2) قال أحمد رحمه الله: ويشهد لصحة هذا الجواب، أنه لما استقرّت الإباحة فيه، قال: فالآن باشروهنّ، فكنى عنه الكناية المألوفة في الكتاب العزيز، ويشكل بقوله: فلا رفث، ولا فسوق، ولا جدال في الحج، فإنّ هذه العبارة استعملت، ولم ينقل في الحج ما نقل في الصوم من سبب نزول الآية، وهو مواقعة المكروه، ويمكن أن يجاب عنه، لما وقع في آية الحج منهياً عنه، أريد للشعبة عندهم، كيلا يقعوا فيه، فعبر عنه بما هجنه لكون ذلك منفراً لهم عن التورط.

(3) رواه الطبري في تفسيره.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/276.

(5) سورة البقرة، الآية: 197.

(6) سورة النساء، الآية: 21.

(7) سورة الأعراف، الآية: 189.

(8) سورة البقرة، الآية: 187.

(9) سورة النساء، الآية: 43 .

(10) سورة النساء، الآية: 23.

(11) سورة البقرة، الآية: 223.

(12) سورة البقرة، الآية: 237.

(13) سورة النساء، الآية: 24.

(14) قال أحمد: وجه استدلالهم من الآية على الحكم الأوّل متعذر؛ لأن إقران النية بأول الصوم وجوداً، غير معتبر باتفاق، وتقديمها من الليل، وتستصحب معتبر باتفاق، فإذن لا تنافي بين الأكل=

التشبيه؟ قلتُ: قوله: ﴿من الفجر﴾ أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك: رأيت أسداً مجاز، فإذا زدت من فلان رجع تشبيهاً.

فإنْ قلتَ: فلم زيد ﴿من الفجر﴾ حتى كان تشبيهاً، وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلتُ: لأنّ من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر من الفجر لم يعلم أن الخيطين مستعاران فزيد من الفجر فكان تشبيهاً بليغاً، وخرج من أن يكون استعارةً.

فإنْ قلتَ: فكيف التبس على عديّ بن حاتم مع هذا البيان حتى قال: عمدت إلى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي فكنت أقوم من الليل فأنظر إليهما فلا يتبين لي الأبيض من الأسود فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فضحك وقال: «إن كان وسادك لعريضاً»[1]. وروي: «إنّك لعريض القفا»[2]، إنّما ذاك بياض النهار وسواد الليل؟ قلتُ: غفل عن البيان، ولذلك عرض رسول الله ﷺ قفاه لأنّه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته. وأنشدتني بعض البدويات لبدوي:

عريض القفا ميزانه في شماله ... قد انحص من حسب القراريط شاربه

فإنْ قلتَ: فما تقول فيما روي عن سهل بن سعد الساعدي أنّها نزلت، ولم ينزل من الفجر[3]، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبينا له، فنزل بعد ذلك ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنّه إنما يعني بذلك: الليل والنهار، وكيف جاز تأخير البيان وهو يشبه العبث حيث لا يفهم منه المراد إذ ليس باستعارة لفقد الدلالة. ولا بتشبيه قبل ذكر الفجر، فلا يفهم منه إذن إلا الحقيقة وهي غير مرادة! قلتُ: أمّا من لم يجوّز تأخير البيان وهو أكثر الفقهاء والمتكلمين، وهو مذهب أبي علي وأبي هاشم، فلم يصحّ عندهم هذا الحديث، وأما من يجوّزه فيقول ليس بعبث لأنّ المخاطب يستفيد منه وجوب الخطاب، ويعزم على فعله إذا استوضح المراد منه. ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ قالوا: فيه دليل على جواز النية بالنهار في صوم رمضان، وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي صوم الوصال. ﴿عاكفون في المساجد﴾ معتكفون فيها، والاعتكاف أن يحبس نفسه في المسجد يتعبد فيه.

والمراد بالمباشرة: الجماع لما تقدّم من قوله: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم... فالآن باشروهنّ﴾. وقيل معناه: ولا تلامسوهنّ بشهوة، والجماع يفسد الاعتكاف، وكذلك إذا لمس أو قبل فأنزل. وعن قتادة: كان الرجل إذا اعتكف خرج فباشر امرأته، ثم رجع إلى المسجد. فنهاهم الله عن ذلك، وقالوا: فيه دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد، وأنّه لا يختص به مسجد دون مسجد. وقيل: لا يجوز إلا في مسجد نبي وهو أحد المساجد الثلاثة، وقيل: في مسجد جامع، والعامة على أنّه في مسجد جماعة. وقرأ مجاهد: في المسجد. ﴿تلك﴾ الأحكام التي ذكرت ﴿حدود الله فلا تقربوها﴾ فلا تغشوها.

فإنْ قلتَ: كيف قيل: فلا تقربوها[4] مع قوله: ﴿فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله﴾ قلتُ: من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق، فنهى أن يتعداه لأنّ من تعداه وقع في حيز الباطل، ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحدّ الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل، وأن يكون في الواسطة متباعداً عن الطرف فضلاً عن أن يتخطاه، كما قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه، فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحد»[5]. ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه ومناهيه خصوصاً لقوله: ﴿ولا تباشروهنّ﴾ وهي حدود لا تقرب.

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

= والشرب إلى الفجر، وبين نية الصوم المستقبل من الليل، ووجودها من الليل متقدمة على الصوم مستفاد من دليل دلّ عليه، وإنما لم يتم لهم الاستدلال بالآية على اعتبار النية في النهار، لو كان الأكل والشرب ليلاً إلى الفجر، ينافي صحة استصحاب النية، وكان اقتضاء الآية جواز الأكل، والشرب إلى الفجر يمنع من اعتبار النية من الليل إلى الفجر، لوجود المنافي لها، ولا بدّ منها، فيتعين أن يوقع بعد الفجر على هذا التقدير، وذلك التقدير، كما علمت متفق على بطلانه، وأما الاستدلال بها على الحكمين الآخرين، فصحيح مستند، والله أعلم، ولتفطن الزمخشري لبطلان الاستدلال، بالآية على الحكم المذكور سلك سبيل النقل عنهم، فقال: قالوا لا يقولها، إلا في مثل هذا المعنى، ولم يسعه التنبيه على بطلان الاستدلال؛ لأنه على وفق مذهبه.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة الحديث رقم: (4510)، ومسلم في كتاب: الصيام، باب: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر... الحديث رقم: (2528).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: قول الله تعالى: «وكلوا واشربوا» الحديث رقم: (1917)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الصيام، باب: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر... الحديث رقم: (2529).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه الحديث رقم: (52)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات الحديث رقم: (4070).

(4) قال أحمد رحمه الله تعالى: وفي هذه الآية دليل بيّن، لمذهب مالك رضي الله تعالى عنه في سدّ الذرائع، والاحتياط للمحرّمات، لا يدافع عنه.

(5) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأقضية، باب: في قضاء القاضي إذا أخطأ الحديث رقم: (3584)، وأحمد في المسند 6/230. والحاكم في المستدرك 4/95، وابن أبي شيبة في المصنف كتاب أقضية رسول الله ﷺ 10/168.

ولا يأكل بعضكم مال بعض ﴿بالباطل﴾ بالوجه الذي لم يبحه الله ولم يشرعه. ولا ﴿تدلوا بها﴾ ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿لتاكلوا﴾ بالتحاكم ﴿فريقاً﴾ طائفة ﴿من أموال الناس بالإثم﴾ بشهادة الزور أو باليمين الكاذبة أو بالصلح مع العلم بأنّ المقضي له ظالم. وعن النبي ﷺ أنّه قال للخصمين: «إنّما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئاً، فإن ما أقضي له قطعة من نار». فبكيا، وقال كل واحد منهما: حقي لصاحبي. فقال: «اذهبا فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه». وقيل: ﴿وتدلوا بها﴾، وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة. ﴿وتدلوا﴾ مجزوم داخل في حكم النهي، أو منصوب بإضمار أن كقوله: ﴿وتكتموا الحق﴾[1] ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنّكم على الباطل وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح وما صاحبه أحق بالتوبيخ.

۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

وروي: أنّ معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة[2] فنزلت: ﴿مواقيت﴾ معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصومهم وفطرهم وعدد نسائهم وأيام حيضهنّ ومدد حملهنّ وغير ذلك، ومعالم للحج يعرف بها وقته.

كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من باب، فإذا كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً يصعد فيه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، فقيل لهم: ﴿ليس البر﴾ بتحرجكم من دخول الباب ﴿ولكن البرّ﴾ برّ ﴿من اتقى﴾ ما حرم الله.

فإنْ قلتَ[3]: ما وجه اتصاله بما قبله؟ **قلتُ**: كأنّه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة في نقصانها وتمامها معلوم أنّ كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا حكمةً بالغةً ومصلحةً لعباده، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برًّا، ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنّها مواقيت للحج لأنّه كان من أفعالهم في الحج، ويحتمل أن يكون هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البرّ برّ من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله. ثم قال: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ أي: وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا، والمراد: وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك، حتى لا يسأل عنه لما في السؤال من الاتهام بمفارقة الشك: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[4].

وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

المقاتلة في سبيل الله هو الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين ﴿الذين يقاتلونكم﴾ الذين يناجزونكم القتال دون المحاجزين، وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾[5] وعن الربيع بن أنس رضي الله عنه: هي أوّل آية نزلت في القتال بالمدينة. فكان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتل ويكف عمن كف، أو الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصبة من الشيوخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم، لأنّهم جميعاً مضادون للمسلمين قاصدون لمقاتلتهم، فهم في حكم المقاتلة قاتلوا أو لم يقاتلوا. وقيل: لما صدّ المشركون رسول الله ﷺ عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام، فرجع لعمرة القضاء، خاف المسلمون أن لا يفي لهم قريش. ويصدّوهم ويقاتلوهم في الحرم وفي الشهر الحرام وكرهوا ذلك، نزلت، وأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم منهم في الحرم والشهر الحرام، ورفع عنهم الجناح في ذلك. ﴿ولا تعتدوا﴾ بابتداء القتال أو بقتال من نهيتم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان، والذين بينكم وبينهم عهداً، وبالمثلة أو بالمفاجأة من غير دعوة.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 42.

(2) رواه الواحدي في أسباب النزول ص 31.

(3) قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا من الاستطراد في كتاب الله تعالى، قوله: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج، ومن كل تأكلون لحماً طرياً﴾ إلى آخر الآية، فإنه تعالى بيّن عدم الاستواء بينهما، إلى قوله: ﴿أجاج﴾ وبذلك تم القصد في تمثيل عدم استواء الكافر، والمسلم، ثم قوله ومن كل تأكلون لا يتقرّر به عدم الاستواء، بل المفاد به استواؤهما، فيما ذكر، فهو من إجراء الله الكلام بطريق الاستطراد المذكور، وإنما مثلت هذا = النوع، الذي نبّه عليه الزمخشري؛ لأنه مفرد عن الاستطراد الذي بوّب عليه أهل صناعة البديع، والمطابق لما بوّبوا عليه سواء قوله تعالى: ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة، كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ فإنه ذم اليهود، واستطرد بذلك ذم المشركين المنكرين للبعث، على نوع من التشبيه لطيف المنزع، وفي البديع التمثيل بقوله:

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه ... فليس به بأس وإن كان من جرم

(4) سورة الأنبياء، الآية: 23.

(5) سورة التوبة، الآية: 36.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾.

﴿حيث ثقفتموهم﴾ حيث وجدتموهم في حل أو حرم، والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة، ومنه رجل ثقف سريع الأخذ لأقرانه. قال:

إما تثقفوني فاقتلوني ... فمن أثقف فليس إلى خلود

﴿من حيث أخرجوكم﴾ أي: من مكة، وقد فعل رسول الله ﷺ[1] بمن لم يسلم منهم يوم الفتح. ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ أي: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل. وقيل لبعض الحكماء: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت: جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التي يتمنى عندها الموت. ومنه قول القائل:

لقتل بحد السيف أهون موقعاً ... على النفس من قتل بحد فراق

وقيل: الفتنة عذاب الآخرة، ذوقوا فتنتكم، وقيل: الشرك أعظم من القتل في الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم ويعيبون به المسلمين، فقيل: والشرك الذي هم عليه أشدّ وأعظم مما يستعظمونه، ويجوز أن يراد وفتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم، فلا تبالوا بقتالهم. وقرىء: ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم، فإن قتلوكم جعل وقوع القتل في بعضهم كوقوعه فيهم. يقال: قتلتنا بنو فلان، وقال: فإن تقتلونا نقتلكم.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿فإن انتهوا﴾ عن الشرك والقتال، كقوله: ﴿إن ينتهوا﴾ يغفر لهم ما قد سلف.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾.

﴿حتى لا تكون فتنة﴾ أي: شرك. ﴿ويكون الدين لله﴾ خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب. ﴿فإن انتهوا﴾ عن الشرك ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ فلا تعدوا على المنتهين لأنّ مقاتلة المنتهين عدوان وظلم، فوضع قوله: ﴿إلا على الظالمين﴾ موضع على المنتهين، أو فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين. سمى جزاء الظالمين ظلماً للمشاكلة، كقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾[1] واريد أنّكم إن تعرضتم لهم بعد الانتهاء كنتم ظالمين فيسلط عليكم من يعدو عليكم.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

قاتلهم المشركون عام الحديبية في الشهر الحرام، وهو ذو القعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكراهتهم القتال وذلك في ذي القعدة. ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ أي: هذا الشهر بذلك الشهر، وهتكه بهتكه: يعني: تهتكون حرمته عليهم كما هتكوا حرمته عليكم. ﴿والحرمات قصاص﴾ أي: وكل حرمة يجري فيها القصاص من هتك حرمة أي حرمة كانت اقتص منه بأن تهتك له حرمة، فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا، وأكد ذلك بقوله: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله﴾ في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

الباء في ﴿بأيديكم﴾ مزيدة مثلها في: أعطى بيده للمنقاد، والمعنى: ولا تقبضوا التهلكة أيديكم. أي: لا تجعلوها آخذةً بأيديكم مالكةً لكم، وقيل: بأيديكم بأنفسكم، وقيل: تقديره ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب لهلاكها. والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنّه سبب الهلاك، أو عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله، أو عن الاستقتال والإخطار بالنفس، أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدوّ. وروي: أن رجلاً من المهاجرين حمل على صف العدوّ فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة[2]، فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية، وإنّما أنزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ، فنصرناه، وشهدنا معه المشاهد، وآثرناه على أهالينا وأموالنا وأولادنا، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها، رجعنا إلى أهالينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها، فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. وحكى أبو علي في الحلبيات، عن أبي عبيدة: التهلكة والهلاك والهلك واحد. قال: فدلّ هذا من قول أبي عبيدة على أن التهلكة مصدر، ومثله ما حكاه سيبويه من قولهم: التضرة والتسرة، ونحوها في الأعيان التنضلة والتنفلة. ويجوز أن يقال: أصلها التهلكة كالتجربة والتبصرة ونحوهما على أنها مصدر من هلك، فأبدلت من الكسرة ضمة، كما جاء الجوار في الجوار.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا

(1) سورة البقرة، الآية: 194.
(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في قوله تعالى ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ الحديث رقم: (2512)، والترمذي في كتاب: = التفسير، باب: تفسير سورة البقرة الحديث رقم: (2976)، وأحمد في المسند 4/281.

ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾.

﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ ائتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله من غير توانٍ، ولا نقصان يقع منكم فيهما. قال:

تمام الحج أن تقف المطايا ... على خرقاء واضعة اللثام

جعل الوقوف عليها كبعض مناسك الحج الذي لا يتم إلا به، وقيل: إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك. روي ذلك عن علي، وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وقيل: أن تفرد لكلّ واحد منهما سفراً، كما قال محمد: حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل، وقيل: أن تكون النفقة حلالاً، وقيل: أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من التجارة والأغراض الدنيوية.

فإنْ قلتَ: هل فيه دليل على وجوب العمرة؟ **قلتُ:** ما هو إلا أمر بإتمامهما، ولا دليل في ذلك على كونهما واجبين أو تطوّعين، فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعاً إلاّ أن تقول الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما بدليل قراءة من قرأ: وأقيموا الحج والعمرة، والأمر للوجوب في أصله إلا أن يدلّ دليل على خلاف الوجوب، كما دلّ في قوله: ﴿فاصطادوا﴾[1] ﴿فانتشروا﴾[2] ونحو ذلك. فيقال لك: فقد دلّ الدليل على نفي الوجوب، وهو ما روي أنّه قيل: يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج؟ قال: «لا ولكن أن تعتمر خير لك»[3]. وعنه: «الحج جهاد والعمرة تطوّع»[4].

فإنْ قلتَ: فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال: إن العمرة لقرينة الحج[5]، وعن عمر رضي الله عنه أنّ رجلاً قال له: إنّي وجدت الحجّ والعمرة مكتوبين عليّ أهللت بهما جميعاً. فقال: هديت لسنة نبيك[6]، وقد نظمت مع الحج في الأمر بالإتمام، فكانت واجبة مثل الحج. **قلتُ:** كونها قرينة للحج، أنّ القارن يقرن بينهما وأنّهما يقترنان في الذكر، فيقال: حجّ فلان واعتمر، والحجاج والعمار؛ ولأنّها الحجّ الأصغر، ولا دليل في ذلك على كونها قرينةً له في الوجوب. وأمّا حديث عمر رضي الله عنه، فقد فسّر الرجل كونهما مكتوبين عليه بقوله: أهللت بهما، وإذا أهلّ بالعمرة وجبت عليه، كما إذا كبر بالتطوّع من الصلاة، والدليل الذي ذكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فبقي الحجّ وحده فيها، فهما بمنزلة قولك: صم شهر رمضان، وستة من شوّال، في أنّك تأمره بفرض وتطوّع، وقرأ عليّ وابن مسعود والشعبي رضي الله عنهم: والعمرة لله بالرفع، كأنّهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحجّ وهو الوجوب **﴿فإن أحصرتم﴾** يقال: أحصر فلان إذا منعه أمر من خوف، أو مرض أو عجز. قال الله تعالى: ﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾[7] وقال ابن ميادة:

وما هجر ليلى أن تكون تباعدت ... عليك ولا أن أحصرتك شغول

وحصر إذا حبسه عدوّ عن المضيّ أو سجن، ومنه قيل للمحبس: الحصير، وللملك: الحصير، لأنّه محجوب هذا هو الأكثر في كلامهم. وهما بمعنى: المنع في كل شيء مثل صدّه وأصدّه، وكذلك قال الفرّاء وأبو عمرو الشيباني، وعليه قول أبي حنيفة رحمهم الله تعالى: كل منع عنده من عدوّ كان أو مرض أو غيرهما معتبر في إثبات حكم الإحصار، وعند مالك والشافعي منع العدوّ وحده، وعن النبيّ ﷺ: «من كسر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج من قابل»[8]. **﴿فما استيسر من الهدي﴾** فما تيسر منه. يقال: يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب، والهدي جمع هدية. كما يقال: في جدية السرج جدي. وقرىء: من الهدي بالتشديد، جمع هدية كمطية ومطي. يعني: فإن منعتم من المضي إلى البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدي من بعير أو بقرة أو شاة.

فإنْ قلتَ: أين ومتى ينحر هدى المحصر؟ **قلتُ:** إن كان حاجاً فبالحرم متى شاء، عند أبي حنيفة يبعث به ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار، وعندهما في أيام النحر. وإن كان معتمراً فبالحرم في كل وقت عندهم جميعاً، وما استيسر رفع بالابتداء أي: فعليه ما استيسر أو نصب على فاهدوا ما استيسر. **﴿ولا تحلقوا رؤوسكم﴾** الخطاب للمحصرين، أي: لا تحلوا حتى تعلموا أنّ الهدي الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ. **﴿محله﴾** أي: مكانه الذي يجب نحره فيه، ومحل الدين وقت وجوب قضائه، وهو ظاهر

(1) سورة المائدة، الآية: 2.
(2) سورة الأحزاب، الآية: 53. وسورة الجمعة، الآية: 10.
(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في العمرة أواجبة هي أم لا الحديث رقم: (931)، والدارقطني في كتاب الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (224 و225).
(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: العمرة الحديث رقم: (2989).
(5) البخاري تعليقاً، كتاب: العمرة، باب: العمرة، وجوب العمرة وفضلها.
(6) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: في الإقران الحديث رقم: (1799)، والنسائي في كتاب: الحج، باب: القران الحديث رقم: = (2720)، وابن ماجه في الحج، باب: قران الحج والعمرة الحديث رقم: (2970)، وابن حبان في كتاب: الحج، باب: القران الحديث رقم: (3910).
(7) سورة البقرة، الآية: 273.
(8) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: الإحصار الحديث رقم: (1862)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في الذي يهل بالحج فيكسر أو يعرج الحديث رقم: (940)، والنسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: فيمن أحصر بعد الحديث رقم: (2860)، وابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: المحصر الحديث رقم: (3077)، وأحمد في المسند 3/450، والحاكم في المستدرك 1/482.

على مذهب أبي حنيفة رحمه الله.

فإنْ قلتَ: إنّ النبيّ ﷺ نحر هديه حيث أحصر[1]. قلتُ: كان محصره طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة، وهو من الحرم. وعن الزهري أنّ رسول الله ﷺ نحر هديه في الحرم، وقال الواقدي: الحديبية هي طرف الحرم على تسعة أميال من مكة. ﴿فمن كان منكم مريضاً﴾ فمن كان به مرض يحوجه إلى الحلق، ﴿أو به أذى من رأسه﴾ وهو القمل أو الجراحة، فعليه إذا احتلق فدية ﴿من صيام﴾ ثلاثة أيام، ﴿أو صدقة﴾ على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من بر، ﴿أو نسك﴾ وهو شاة، وعن كعب بن عجرة: أنّ رسول الله ﷺ قال له: «لعلك آذاك هوامك». قال: نعم يا رسول الله. قال: «احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك شاة»[2]. وكان كعب يقول: فيّ نزلت هذه الآية، وروي: أنّه مرّ به وقد قرح رأسه، فقال: «كفى بهذا أذى». وأمره أن يحلق ويطعم أو يصوم[3].

والنسك: مصدر، وقيل: جمع نسيكة. وقرأ الحسن: أو نسك بالتخفيف. ﴿فإذا امنتم﴾ الإحصار يعني: فإذا لم تحصروا وكنتم في حال أمن وسعة، ﴿فمن تمتع﴾ أي: استمتع ﴿بالعمرة إلى الحج﴾ واستمتاعه بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعه بالتقرّب بها إلى الله تعالى قبل الانتفاع بتقرّبه بالحج. وقيل: إذا حلّ من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرّماً عليه إلى أن يحرم بالحج. ﴿فما استيسر من الهدي﴾ هو هدي المتعة، وهو نسك عند أبي حنيفة ويأكل منه. وعند الشافعي يجري مجرى الجنايات، ولا يأكل منه، ويذبحه يوم النحر عندنا، وعنده يجوّز ذبحه إذا أحرم بحجته. ﴿فمن لم يجد﴾ الهدي ﴿فـ﴾ عليه ﴿صيام ثلاثة أيام في الحج﴾ أي: في وقته، وهو: أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوماً قبلهما، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم. وعند الشافعي لا تصام إلا بعد الإحرام بالحج تمسكاً بظاهر قوله: ﴿في الحج وسبعة إذا رجعتم﴾: بمعنى: إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبي حنيفة، وعند الشافعي هو الرجوع إلى أهاليهم، وقرأ ابن أبي عبلة: وسبعة بالنصب عطفاً على محل ثلاثة أيام، كأنّه قيل: فصيام ثلاثة أيام، كقوله: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً﴾[4].

فإنْ قلتَ: فما فائدة الفذلكة؟ قلتُ: الواو قد تجيء للإباحة في نحو قولك: جالس الحسن وابن سيرين. ألا ترى أنّه لو جالسهما جميعاً أو واحداً منهما كان ممتثلاً، ففذلكت نفياً لتوهم الإباحة، وأيضاً ففائدة الفذلكة في كل حساب أن يعلم العدد جملةً، كما علم تفصيلاً ليحاط به من جهتين فيتأكد العلم. وفي أمثال العرب: علمان خير من علم. وكذلك ﴿كاملة﴾ تأكيد آخر، وفيه زيادة توصية بصيامها وأن لا يتهاون بها ولا ينقص من عددها، كما تقول للرجل: إذا كان لك اهتمام بأمر تأمره به، وكان منك بمنزل الله: الله لا تقصر، وقيل: كاملة في وقوعها بدلاً من الهدى، وفي قراءة أبيّ: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى التمتع، عند أبي حنيفة وأصحابه: لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندهم، ومن تمتع منهم أو قرن، كان عليه دم، وهو دم جناية لا يأكل منه، وأما القارن والمتمتع من أهل الآفاق فدمهما دم نسك يأكلان منه. وعند الشافعي إشارة إلى الحكم الذي هو وجوب الهدي أو الصيام ولم يوجب عليهم شيئاً. وحاضر المسجد الحرام وأهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبي حنيفة. وعند الشافعي أهل الحرم ومن كان من الحرم على مسافة لا تقصر فيها الصلاة ﴿واتقوا الله﴾ في المحافظة على حدوده وما أمركم به ونهاكم عنه في الحج وغيره. ﴿واعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾ لمن خالف ليكون علمكم بشدّة عقابه لطفاً لكم في التقوى.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

أي: وقت الحج ﴿أشهر﴾ كقولك: البرد شهران. والأشهر المعلومات[5]: شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة عند أبي حنيفة. وعند الشافعي تسع ذي الحجة وليلة يوم النحر. وعند مالك ذو الحجة كله.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: عمرة القضاء الحديث رقم: (4251).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المحصر، باب: قول الله تعالى ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى...﴾ الحديث رقم: (1814)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: جواز حلق راس المحرم إذا كان به أذى الحديث رقم: (2873)، وأبو داود في كتاب: المناسك، باب: في الفدية الحديث رقم: (1856)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في المحرم يحلق رأسه الحديث رقم: (953)، والنسائي في كتاب: الحج، باب: في المحرم يؤذيه القمل الحديث رقم: (852)، وابن ماجه في كتاب: الحج، باب: فدية المحصر حديث رقم: (3079)، ومالك في الموطأ، كتاب: الحج، باب: فدية من حلق قبل أن ينحر.

(3) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (280).

(4) سورة البلد، الآيتان: 14، 15.

(5) قال أحمد: الذي نقله عن مالك أحد قوليه، وليس بالمشهور عنه، وأما استدلاله لهذا القول بكراهية عمر الاعتمار إلى أن يهل المحرم، فلا ينهض دليلاً لمالك؛ لأنه يقول لا تنعقد العمرة في أيام منى خاصة، لمن حج ما لم يتم الرمي، ويحل بالإفاضة، فتنعقد وجميع السنة ما عدا ما ذكر ميقات للعمرة، ولا تظهر فائدة هذا القول عند مالك، إلا في إسقاط الدم عن مؤخر طواف الإفاضة إلى آخر ذي الحجة لا غير، وهي الفائدة التي نقلها الزمخشري عن عروة، ولعمري إنّ هذا القول حسن دليلاً، فلا يحتاج إلى مزيد، ولكن ظاهر الآية، ومقتضاها أنّ جملة الأشهر=

فإنْ قلتَ: ما فائدة توقيت الحج بهذه الأشهر؟ قلتُ: فائدته أن شيئاً من أفعال الحج لا يصح إلاّ فيها، والإحرام بالحج لا ينعقد أيضاً عند الشافعي في غيرها. وعند أبي حنيفة ينعقد إلاّ أنّه مكروه.

فإنْ قلتَ: فكيف كان الشهران، وبعض الثالث أشهراً؟ قلتُ: اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد بدليل قوله تعالى: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾[1] فلا سؤال فيه إذن، وإنّما كان يكون موضعاً للسؤال لو قيل: ثلاثة أشهر معلومات، وقيل: نزل بعض الشهر منزلة كله، كما يقال: رأيتك سنة كذا أو على عهد فلان، ولعل العهد عشرون سنةً أو أكثر، وإنّما رآه في ساعة منها.

فإنْ قلتَ: ما وجه مذهب مالك وهو مروي عن عروة بن الزبير؟ قلتُ: قالوا وجهه أنّ العمرة غير مستحبة فيها عند عمر وابن عمر، فكأنّها مخلصة للحج لا مجال فيها للعمرة، وعن عمر رضي الله عنه أنّه كان يخفق الناس بالدرة وينهاهم عن الاعتمار فيهنّ. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لرجل: إن أطعتني انتظرت حتى إذا أهللت المحرم خرجت إلى ذات عرق فأهللت منها بعمرة. وقالوا: لعل من مذهب عروة جواز تأخير طواف الزيارة إلى آخر الشهر. ﴿معلومات﴾ معروفات عند الناس لا يشكلن عليهم، وفيه أنّ الشرع لم يأت على خلاف ما عرفوه وإنّما جاء مقرّراً له. ﴿فمن فرض فيهنّ الحج﴾ فمن ألزمه نفسه بالتلبية أو بتقليد الهدي وسوقه عند أبي حنيفة، وعند الشافعي بالنية. ﴿فلا رفث﴾[2] فلا جماع لأنّه يفسده أو فلا فحش من الكلام. ﴿ولا فسوق﴾ ولا خروج عن حدود الشريعة، وقيل: هو السباب، والتنابز بالألقاب. ﴿ولا جدال﴾ ولا مراء مع الرفقاء والخدم والمكارين، وإنّما أمر باجتناب ذلك وهو واجب الاجتناب في كل حال لأنّه مع الحج أسمج، كلبس الحرير في الصلاة والتطريب في قراءة القرآن، والمراد بالنفي وجوب انتفائها وأنّها حقيقة بأن لا تكون.

وقرىء: المنفيات الثلاث بالنصب وبالرفع، وقرأ أبو عمر وابن كثير الأوّلين بالرفع، والآخر بالنصب: لأنّهما حملا الأوّلين على معنى النهي، كأنّه قيل، فلا يكونن رفث ولا فسوق، والثالث على معنى الإخبار بانتفاء الجدال. كأنّه قيل: ولا شك ولا خلاف في الحج. وذلك أنّ قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام وسائر العرب يقفون بعرفة، وكانوا يقدّمون الحج سنةً ويؤخرونه سنةً وهو النسيء، فرد إلى وقت واحد ورد الوقوف إلى عرفة فأخبر الله تعالى أنّه قد ارتفع الخلاف في الحج، واستدل على أنّ المنهي عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال، بقوله ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، خرج كهيئة يوم ولدته أمّه»[3]. وأنّه لم ينكر الجدال. ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ حث على الخير عقيب النهي عن الشر، وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة، أو جعل فعل الخير عبارةً عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه، وينصره قوله تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ أي: اجعلوا زادكم إلى الآخرة اتقاء القبائح فإنّ خير الزاد اتقاؤها، وقيل: كان أهل اليمن لا يتزوّدون، ويقولون: نحن متوكلون ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا؟ فيكونون كلاً على الناس، فنزلت فيهم. ومعناه: وتزوّدوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقيل عليهم، فإن خير الزاد التقوى. ﴿واتقون﴾ وخافوا عقابي ﴿يا أولي الألباب﴾ يعني: أن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من الألباء فكأنه لا لب له.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾

﴿فضلاً من ربّكم﴾ عطاءً منه وتفضلاً، وهو: النفع والربح بالتجارة، وكان ناس من العرب يتأثمون أن يتجروا أيام الحج، وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، يسمون من يخرج بالتجارة الداج ويقولون:

= هي زمان الحج، ألا ترى أنّ من قال، وعشر من ذي الحجة يحتاج في تنزيل الآية على مذهبه، إلى تقرير أن بعض الشهر يتنزل منزلة جميعه، ويستشهد على ذلك بقوله:

ثلاثون شهراً في ثلاثة أحوال

وإنما أحوجه إلى الاستشهاد خروج مقالته عن ظاهر الآية، فالمتمسك بها على ظاهرها في كمال الأشهر الثلاثة، واقف مع اقتضائها، غير مضطر إلى مزيد عليه.

(1) سورة التحريم، الآية: 4.

(2) قال أحمد رحمه الله: وفيه نكتة تتعلق بعلم البيان، وهي: أنّ تخصيص الحج بالنهي عن الرفث فيه، والفسوق، والجدال يشعر بأنها في غير الحج، وإن كانت منهياً عنها، وقبيحة إلا أن ذلك القبح الثابت لها في غير الحج، كلا قبح بالنسبة إلى وقوعها في الحج، فاشتمل هذا التخصيص على هذا النوع من المبالغة البليغة، والله أعلم على أنّ الرفث إن كان التحدث في أمر الجماع خاصة، =

= فالنهي عنه خاص بالحج، وهو جائز في غيره على الوجه الشرعي، وقد نبه مالك رضي الله عنه على أنه لا بأس للحاج بالسعي في أمور النساء إلا أنّ ذلك قد يوقع في الوهم أنه يؤدي إلى ترك المحظور، وهذا يدل على تشديد مالك في حظر الرفث للحاج، وما يتعلق به، والله أعلم، وسمعت الشافعية يلهجون بالاعتراض على إسحاق في قوله من التنبيه، وتحريم الغيبة على الصائم، فيقولون وعلى المفطر، فلا فائدة في تخصيص الصائم، ويعدون ذلك وهماً منه، وهم بمعزل عن هذه الآية، وأمثالها، فقد أوسعته عذراً في عبارته تلك، إذ الكتاب العزيز به تمتحن الفصاحة، وصحة العبارات.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحج، باب: فضل الحج المبرور، الحديث رقم: (1521)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: فضل الحج والعمرة ويوم عرفة الحديث رقم: (3278).

هؤلاء الداج وليسوا بالحاج، وقيل: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم وكانت معايشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا، فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيح لهم، وإنّما يباح ما لم يشغل عن العبادة، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنّ رجلاً قال له: إنا قوم نكري في هذا الوجه، وإن قوماً يزعمون أن لا حج لنا[1]، فقال: سأل رجل رسول الله ﷺ عما سألت، فلم يرد عليه حتى نزل: ﴿ليس عليكم جناح﴾ فدعا به، فقال: أنتم حجاج، وعن عمر رضي الله عنه أنّه قيل له: هل كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت معايشنا إلا من التجارة في الحج[2]. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: فضلاً من ربّكم في مواسم الحج. إن تبتغوا في أن تبتغوا. ﴿أفضتم﴾ دفعتم بكثرة، وهو من إفاضة الماء، وهو صبه بكثرة، وأصله أفضتم أنفسكم فترك ذكر المفعول، كما ترك في دفعوا من موضع كذا وصبوا. وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: صب في دقران، وهو يخرش بعيره بمحجنه[3]، ويقال: أفاضوا في الحديث وهضبوا فيه. و ﴿عرفات﴾ علم للموقف سمي بجمع كأذرعات.

فإنْ قلتَ[4]: هلا منعت الصرف فيها السببان التعريف والتأنيث؟ قلتُ: لا يخلو من التأنيث إما أن يكون بالتاء التي في لفظها، وإما بتاء مقدرة، كما في سعاد فالتي في لفظها ليست للتأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث، ولا يصح تقدير التاء فيها؛ لأنّ هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها، كما لا يقدر تاء التأنيث في بنت لأنّ التاء التي هي بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها، وقالوا: سميت بذلك لأنّها وصفت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصرها عرفها، وقيل: إن جبريل حين كان يدور به في المشاعر أراه إياها، فقال: قد عرفت، وقيل: التقى فيها آدم وحوّاء فتعارفا، وقيل: لأنّ الناس يتعارفون فيها، والله أعلم بحقيقة ذلك. وهي من الأسماء المرتجلة لأنّ العرفة لا تعرف في أسماء الأجناس إلا أن تكون جمع عارف، وقيل: فيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة، لأنّ الإفاضة لا تكون إلا بعده. وعن النبي ﷺ: «الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج»[5] ﴿فاذكروا الله﴾ بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات، وقيل: بصلاة المغرب والعشاء. و ﴿المشعر الحرام﴾ قزح، وهو الجبل الذي يقف عليه الإمام وعليه الميقدة، وقيل: المشعر الحرام ما بين جبلي المزدلفة من مأزمي عرفة إلى واد محسر، وليس المأزمان ولا وادي محسر من المشعر الحرام. والصحيح أنّه الجبل، لما روى جابر رضي الله عنه: أنّ النبي ﷺ لما صلى الفجر يعني: بالمزدلفة بغلس، ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام، فدعا وكبّر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر[6]. وقوله تعالى: ﴿عند المشعر الحرام﴾ معناه: مما يلي المشعر الحرام قريباً منه، وذلك للفضل، كالقرب من جبل الرحمة، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر، أو جعلت أعقاب المزدلفة لكونها في حكم المشعر، ومتصلة به عند المشعر، والمشعر المعلم؛ لأنّه معلم العبادة، ووصف بالحرم لحرمته، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنّه نظر إلى الناس ليلة جمع، فقال: لقد أدركت الناس هذه الليلة لا ينامون، وقيل: سميت المزدلفة وجمعاً لأنّ آدم صلوات الله عليه اجتمع فيها مع حواء، وازدلف إليها أي: دنا منها، وعن قتادة: لأنّه يجمع فيها بين الصلاتين، ويجوز أن يقال: وصفت بفعل أهلها، لأنّهم يزدلفون إلى الله أي: يتقرّبون بالوقوف فيها. ﴿كما هداكم﴾ ما مصدرية، أو كافة، والمعنى: واذكروه ذكراً حسناً، كما هداكم هدايةً حسنةً، واذكروه كما علمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه. ﴿وإن كنتم من قبله﴾ من قبل الهدى ﴿لمن الضالين﴾ الجاهلين لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه، وإن هي مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة.

ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾.

﴿ثم أفيضوا﴾ ثم لتكن إفاضتكم ﴿من حيث أفاض الناس﴾ ولا تكن من المزدلفة[7]، وذلك لما كان عليه الحمس من الترفع على الناس والتعالي عليهم وتعظمهم

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: الكري الحديث رقم: (1733).

(2) رواه الطبري في تفسيره.

(3) الشافعي في مسنده ص 369.

(4) قال أحمد رحمه الله: يلزمه إذا سمي امرأة بمسلمات، أن لا يصرفه، فيقول هذا مسلمات بغير تنوين، وهو قول رديء، بل الأفصح الصحيح في مسلمات، إذا سمي به أن ينوّن، وإنما بنى الزمخشري كلامه هذا، على أن تنوين عرفات للتمكين، لا للمقابلة، ولذلك أسقط تنوين المقابلة من أنواع التنوين، التي عدّها في مفصله على أنه راجع إلى تنوين التمكين.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: من لم يدرك عرفة الحديث رقم: (1949)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج الحديث رقم: (889)؛= = والنسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة الحديث رقم: (3044)، وابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة الجمع الحديث رقم: (3015)، والحاكم في المستدرك 1/464.

(6) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: صفة حج النبي ﷺ الحديث رقم: (2941).

(7) قال أحمد رحمه الله: وقد اشتملت الآية على نكتتين إحداهما عطف الإفاضتين، إحداهم على الأخرى، ومرجعهما واحد، وهو الإفاضة المأمور بها، فربما يتوهم متوهم أنه من باب عطف الشيء على نفسه، فيزال هذا الوهم بأن بينهم من التغاير ما بين العام، والخاص، والمخبر عنه، ولا الإفاضة من حيث هي غير مقيدة، والمأمور به ثانياً الإفاضة مخصوصة بمساواة الناس، والثانية بعد وضوح استقامة العطف كونه وقع المهملة، وذلك يستدعي=

عن أن يساووهم في الموقف، وقولهم: نحن أهل الله وقطان حرمه، فلا نخرج منه فيقفون بجمع وسائر الناس بعرفات.

فإنْ قلتَ: فكيف موقع ثم؟ قلتُ: نحو موقعها في قولك: أحسن إلى الناس، ثم لا تحسن إلى غير كريم، تأتي بـ«ثم» لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم والإحسان إلى غيره وبعد ما بينهما، فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات قال: ﴿ثم أفيضوا﴾ التفاوت ما بين الإفاضتين وأنّ أحدهما صواب، والثانية خطأ، وقيل: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ وهم الحمس أي: من المزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفات. وقرئ: من حيث أفاض الناس بكسر السين أي الناسي، وهو آدم من قوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي﴾[1] يعني: أنّ الإفاضة من عرفات شرع قديم، فلا تخالفوا عنه. ﴿واستغفروا الله﴾ من مخالفتكم في الوقف، ونحو ذلك من جاهليتكم.

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾.

﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ أي: فإذا فرغتم من عبادتكم الحجية، ونفرتم، ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ فأكثروا ذكر الله وبالغوا فيه، كما تفعلون في ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم، وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعدّدون فضائل آبائهم ويذكرون محاسن أيامهم. ﴿أو أشد ذكراً﴾[2] في موضع جر عطف على ما أضيف إليه الذكر في قوله: ﴿كذكركم﴾ كما تقول: كذكر قريش آباءهم، أو قوم أشد منهم ذكراً، أو في موضع نصب عطف على ﴿آباءكم﴾ بمعنى: أو أشد ذكراً من آبائكم على أن ذكراً من فعل المذكور. ﴿فمن الناس من يقول﴾ معناه: أكثروا ذكر الله ودعاءه فإنّ الناس من بين مقل لا يطلب بذكر الله إلا أعراض الدنيا، ومكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين. ﴿آتنا في الدنيا﴾ اجعل إيتاءنا أي: إعطاءنا في الدنيا خاصةً. ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ أي: من طلب خلاقي، وهو: النصيب، أو ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب لأنّ همّه مقصور على الدنيا.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾.

والحسنتان ما هو طلبة الصالحين في الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق في الخير وطلبتهم في الآخرة من الثواب. وعن علي رضي الله عنه: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار امرأة السوء.

أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾.

﴿أولئك﴾ الداعون بالحسنتين ﴿لهم نصيب مما كسبوا﴾ أي: نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو: الثواب الذي هو المنافع الحسنة، أو من أجل ما كسبوا كقوله: ﴿مما خطيآتهم أغرقوا﴾[3] أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيهم منه ما يستوجبونه بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة، وسمي الدعاء كسباً؛ لأنّه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب ﴿بما كسبت أيديكم﴾، ويجوز أن يكون أولئك للفريقين جميعاً وأنّ لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا. ﴿والله سريع الحساب﴾ يوشك أن يقيم القيامة، ويحاسب العباد فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة، أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدلّ على كمال قدرته ووجوب الحذر منه. روي: أنّه يحاسب الخلق في قدر حلب شاة. وروي: في مقدار فواق ناقة. وروي: في مقدار لمحة[4].

= التراخي مضافاً إلى التغاير، وليس بين الإضافة المطلقة، والمقيدة تراخ، فالجواب غير ذلك أن التراخي، كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علوّ المرتبة، وبعدها في العلوّ بالنسبة إلى غيرها، وهو الذي أجاب به بعد مزيد نشيط، وإيضاح.

(1) سورة طه، الآية: 115.

(2) قال أحمد رحمه الله: فعلى الأوّل يكون التفضيل على الفاعل، وهو القياس، وعلى الثاني يكون التفضيل على الفاعل، وهو القياس، وعلى الثاني يكون التفضيل على المفعول، وهو خلاف القياس، وقد ذكر الزمخشري في مفصله أنه شاذ بقولهم أتسبل مرآة التحسين، وأنا أسر منك على الذكر الأوّل، لئلا يكون واقعاً على الذكر، وقد انتصب الذكر تمييزاً عنه، فيكون الذكر ذاكراً، وهو محال لكن أبا الفتح صحح هذا الوجه، وألحقه بباب قولهم شعر شاعر وجنّ جنونه، ونحوه مما بالغت العرب فيه، حتى جعلت للصفة صفة مثلها تمكيناً لثبوتها، ووضح ذلك أن انتصاب الذكر تمييزاً يوجب أن لا يقع أشد عليه، ويعين خروجه منه، إما بأن يقع على الجثة الذاكرة بتأويل جعله ذكراً على ما صار إليه أبو الفتح: إنك لو قلت زيداً أكرم أباً، لكان زيد من الأبناء، ولو قلت زيد أكرم أب لكان من الآباء، ويحتمل عطفه على الذكر أعني وجهاً = آخر سوى ما ذهب إليه أبو الفتح، وهو أن يكون من باب ما ذكره سيبويه، قال: ويقولون: هو أشح الناس رجلاً، وهما خير الناس رجلاً، وهما خير الناس اثنين، فالمجرور هنا بمنزلة التنوين، وانتصب الرجل، والاثنين كما انتصب الوجه في قولك هو أحسن منه وجهاً، ولا يكون إلا نكرة، كما لا تكون الحال إلا نكرة، والرجل هو الاسم المبتدأ، فإنما أراد بذلك أنّ هذا ليس بمثابة هو أشجع الناس غلاماً، فإنّ هذا يجوز أن يكون غلاماً هو الاسم المبتدأ، كما في المثال الأوّل، ويجوز أن يكون غيره، فالآية على هذا الوجه الذي أوضحته منزلة على المثال الأوّل، فيكون ذكر المنصوب واقعاً على أشدّ كما كان الرجل المنصوب واقعاً على أشح، فكأنه قال أو أشد الأذكار ذكراً، فهذه وجوه أربعة كلها مطروقة إلا هذا الوجه الذي ذنته، فإنّ خاطري أبو عذرته، كخشية الله، أو أشدّ خشية، ولم أقف على كلام الزمخشري فيها بعد.

(3) سورة نوح، الآية: 25.

(4) لم أجده. وقد روى القرطبي في تفسيره: «أن الله يحاسب في قدر حلب شاة» 2/435 بدون إسناد.

﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

الأيام المعدودات أيام التشريق، وذكر الله فيها التكبير في إدبار الصلوات وعند الجمار، وعن عمر رضي الله عنه: أنّه كان يكبر في فسطاطه بمنى، فيكبر من حوله حتى يكبر الناس في الطريق وفي الطواف. ﴿فمن تعجل﴾ فمن عجل في النفر، أو استعجل النفر، وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى: عجل. يقال: تعجل في الأمر واستعجل، ومتعديين يقال: تعجل الذهاب واستعجله، والمطاوعة أوفق لقوله: ﴿ومن تاخر﴾ كما هي كذلك في قوله:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

لأجل المتأني ﴿في يومين﴾ بعد يوم النحر يوم القر، وهو اليوم الذي يسميه أهل مكة يوم الرؤوس، واليوم بعده، ينفر إذا فرغ من رمي الجمار كما يفعل الناس اليوم، وهو مذهب الشافعي، ويروى عن قتادة، وعند أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر. ﴿ومن تاخر﴾ حتى رمى في اليوم الثالث، والرمي في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة، وعند الشافعي لا يجوز.

فإنْ قلتَ: كيف قال: ﴿فلا إثم عليه﴾ عند التعجل والتأخر جميعاً؟ **قلتُ**: دلالة على أنّ التعجل والتأخر مخير فيهما، كأنه قيل: فتعجلوا أو تأخروا.

فإنْ قلتَ[1]: أليس التأخر بأفضل؟ **قلتُ**: بلى ويجوز أن يقع التخيير بين الفاضل والأفضل، كما خيّر المسافر بين الصوم والإفطار، وإن كان الصوم أفضل، وقيل إنّ أهل الجاهلية كانوا فريقين منهم من جعل المتعجل آثماً، ومنهم من جعل المتأخر آثماً، فورد القرآن بنفي المأثم عنهما جميعاً. ﴿لمن اتقى﴾ أي: ذلك التخيير، ونفي الإثم عن المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقي لئلا يتخالج في قلبه شيء منهما فيحسب أنّ أحدهما يرهق صاحبه آثام في الإقدام عليه، لأنّ ذا التقوى حذر متحرز من كل ما يريبه، ولأنّه هو الحاج على الحقيقة عند الله. ثم قال: ﴿واتقوا الله﴾ ليعبأ بكم، ويجوز أن يراد ذلك الذي مرّ ذكره من أحكام الحج وغيره. ﴿لمن اتقى﴾ لأنّه هو المنتفع به دون من سواه، كقوله: ﴿ذلك خير﴾[2] للذين يريدون وجه الله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾.

﴿ومن يعجبك قوله﴾ أي: يروقك ويعظم في قلبك، ومنه الشيء العجيب الذي يعظم في النفس، وهو: الأخنس بن شريق كان رجلاً حلو المنطق إذا لقي رسول الله ﷺ الان له القول وادعى أنّه يحبه وأنّه مسلم، وقال: يعلم الله أني صادق، وقيل: هو عام في المنافقين كانت تحلو لي ألسنتهم وقلوبهم أمرّ من الصبر.

فإنْ قلتَ: بم يتعلق قوله: ﴿في الحياة الدنيا﴾؟ **قلتُ**: بالقول أي يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا، لأنّ ادعاءه المحبة بالباطل يطلب به حظاً من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة كما تراد بالإيمان الحقيقي والمحبة الصادقة للرسول، فكلامه إذن في الدنيا لا في الآخرة. ويجوز أن يتعلق بـ«يعجبك» أي: قوله حلو فصيح في الدنيا فهو يعجبك، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الحبسة واللكنة، أو لأنّه لا يؤذن له في الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه. ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أي: يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام. وقرىء: ويشهد الله، وفي مصحف أبيّ: ويستشهد الله. ﴿وهو ألدّ الخصام﴾ وهو شديد الجدال والعداوة للمسلمين، وقيل: كان بينه وبين ثقيف خصومة، فبيتهم ليلاً وأهلك مواشيهم، وأحرق زروعهم، والخصام المخاصمة، وإضافة الألدّ بمعنى في، كقولهم: ثبت الغدر، أو جعل الخصام ألدّ على المبالغة، وقيل: الخصام جميع خصم، كصعب وصعاب، بمعنى: وهو أشد الخصوم خصومةً.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

﴿وإذا تولى﴾ عنك، وذهب بعد إلانة القول وأحلاء المنطق ﴿سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ كما فعل بثقيف، وقيل: ﴿وإذا تولى﴾ وإذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل. وقرىء: ويهلك الحرث والنسل، على أنّ الفعل للحرث والنسل، والرفع للعطف على سعى. وقرأ الحسن بفتح اللام، وهي لغة نحو أبى يأبي، وروي عنه: ويهلك

---

(1) قال أحمد رحمه الله: قوله إنّ التخيير يقع بين الفاضل، والأفضل غير مستقيم، فإنّ التخيير يوجب التساوي في غرض المخير، وينافي طلب أحد الطرفين، والأمر به وكيف يستقيم اجتماع ما يوجب الطلب، والترجيح، وما يوجب التساوي والتخيير، وقد وقع لإمام الحرمين قريب من هذا، فإنه ميز الوجوب من الندب، بأنّ الندب يشتمل على اقتران الأمر بخيرة الترك، ولا كذلك الوجوب، ولم يرضه محققو الفن، وإنما أخلّ الزمخشري في تفسيره الآية، فلزمه ذلك السؤال الوارد عليه، وبيان عدم التطابق بين تفسيره، = والآي أنّ ضمونها نفي الإثم عن الطرفين جميعاً، وهذا القدر مشترك بين الندب، والكراهة، والإباحة لكن يتميز الندب بترجيح الفعل على الترك، وتتميز الكراهة والإباحة بالتخيير بينهما، فلا تنافي إذاً بين الندب إلى التأخير، وإنه أفضل، وبين نفي الإثم عن تاركه إلى التعجيل، وحينئذٍ لا يرد السؤال الذي لزمه، فأجاب عنه.

(2) سورة الأعراف، الآية: 26.

على البناء للمفعول.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾.

﴿أخذته العزة بالإثم﴾ من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه، أي: حملته العزة التي فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذي ينهى عنه وألزمته ارتكابه، وأن لا يخلى عنه ضراراً ولجاجاً، أو على رد قول الواعظ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾.

﴿يشري نفسه﴾ يبيعها أي: يبذلها في الجهاد، وقيل: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل، وقيل: نزلت في صهيب بن سنان أراده المشركون على ترك الإسلام وقتلوا نفراً كانوا معه، فقال لهم: أنا شيخ كبير إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فخلوني وما أنا عليه، وخذوا مالي، فقبلوا منه ماله، وأتى المدينة. ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ حيث كلفهم الجهاد فعرضهم لثواب الشهداء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾.

﴿السلم﴾ بكسر السين وفتحها، وقرأ الأعمش: بفتح السين واللام، وهو الاستسلام والطاعة، أي: استسلموا لله وأطيعوه ﴿كافة﴾ لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته، وقيل: هو الإسلام، والخطاب لأهل الكتاب لأنّهم آمنوا بنبيهم وكتابهم، أو للمنافقين لأنّهم آمنوا بألسنتهم، ويجوز أن يكون كافة حالاً من السلم لأنّها تؤنث، كما تؤنث الحرب. قال:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

على أنّ المؤمنين أمروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها، وأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة، أو في شعب الإسلام وشرائعه كلها، وأن لا يخلوا بشيء منها، وعن عبد الله بن سلام أنّه استأذن رسول الله ﷺ أن يقيم على السبت، وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل[1].

وكافة: من الكف، كأنّهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم.

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾.

﴿فإن زللتم﴾ عن الدخول في السلم ﴿من بعد ما جاءتكم البيّنات﴾ أي: الحجج والشواهد، على أنّ ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحق. ﴿فاعلموا أنّ الله عزيز﴾ غالب لا يعجزه الانتقام منكم ﴿حكيم﴾ لا ينتقم إلا بحق، وروي أنّ قارئاً قرأ: غفور رحيم، فسمعه أعرابي فأنكره ولم يقرأ القرآن وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا ينكر الغفران عند الزلل لأنّه إغراء عليه، وقرأ أبو السمال: زلتم بكسر اللام، وهما لغتان نحو ظلَلت وظلِلت.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾.

إتيان الله: إتيان أمره وبأسه، كقوله: ﴿أو يأتي أمر ربك﴾[2] فجاءهم بأسنا، ويجوز أن يكون المأتي به محذوفاً بمعنى: أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله: ﴿فإنّ الله عزيز﴾[3] ﴿في ظلل﴾ جمع ظلة وهي: ما أظلك، وقرىء: ظلال وهي جمع ظلة، كقلة وقلال، أو جمع ظل. وقرىء: والملائكة بالرفع، كقوله: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾[4] وبالجر عطف على ظلل أو على الغمام.

فإنْ قلتَ: لم يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلتُ: لأنّ الغمام مظنة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول، لأنّ الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان اغم، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير، ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث، ومن ثمة اشتد على المفكرين في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾[5] ﴿وقضي الأمر﴾ وتم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه، وقرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه: وقضاء الأمر، على المصدر المرفوع عطفاً على الملائكة. وقرىء: ترجع وترجع على البناء للفاعل والمفعول بالتأنيث والتنكير فيهما.

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾.

﴿سل﴾ أمر للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد، وهذا السؤال سؤال تقريع، كما تسئل الكفرة يوم القيامة ﴿كم آتيناهم من آية بيّنة﴾ على أيدي أنبيائهم وهي معجزاتهم، أو من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام. و ﴿نعمة الله﴾ آياته وهي أجلّ نعمة من الله لأنّها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة وتبديلهم إياها أنّ الله أظهرها لتكون أسباب هداهم، فجعلوها أسباب ضلالتهم، كقوله: ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾[6] أو حرفوا آيات الكتب الدالة على دين محمد ﷺ.

فإنْ قلتَ: كم استفهامية، أم خبرية؟ قلتُ: تحتمل الأمرين، ومعنى الاستفهام فيها للتقرير.

(1) رواه الدارمي في أسباب النزول ص 37.
(2) سورة النحل، الآية: 33.
(3) سورة الأنفال، الآية: 49.
(4) سورة النحل، الآية: 33 .
(5) سورة الزمر، الآية: 47.
(6) سورة التوبة، الآية: 125.

فإنْ قلتَ: ما معنى ﴿من بعد ما جاءته﴾؟ قلتُ: معناه من بعد ما تمكن من معرفتها، أو عرفها، كقوله: ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾[1] لأنه إذا لم يتمكن من معرفتها، أو لم يعرفها، فكأنها غائبة عنه. وقرىء: ومن يبدل بالتخفيف.

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾.

المزين[2]: هو الشيطان زيّن لهم الدنيا وحسنها في أعينهم بوساوسه وحببها إليهم، فلا يريدون غيرها، ويجوز أن يكون الله قد زيّنها لهم بأن خذلهم حتى استحسنوها وأحبوها، أو جعل إمهال المزين له تزييناً، ويدل عليه قراءة من قرأ: زين للذين كفروا الحياة الدنيا، على البناء للفاعل. ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ كانت الكفرة يسخرون من المؤمنين الذين لا حظ لهم من الدنيا كابن مسعود وعمار وصهيب وغيرهم. أي: لا يريدون غيرها، وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها أو ممن يطلب غيرها. ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾[3] لأنهم في عليين من السماء، وهم في سجين من الأرض، أو حالهم عالية لحالهم لأنّهم في كرامة وهم في هوان، أو هم عالون عليهم متطاولون يضحكون منهم، كما يتطاول هؤلاء عليهم في الدنيا، ويرون الفضل لهم عليهم ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾[4] ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ بغير تقدير يعني: أنّه يوسع على من توجب الحكمة التوسعة عليه، كما وسع على قارون وغيره، فهذه التوسعة عليكم من جهة الله لما فيها من الحكمة، وهي استدراجكم بالنعمة، ولو كانت كرامةً لكان أولياؤه المؤمنون أحق بها منكم.

فإنْ قلتَ: لم قال ﴿من الذين آمنوا﴾، ثم قال: ﴿والذين اتقوا﴾؟ قلتُ: ليريك أنّه لا يسعد عنده إلاّ المؤمن المتقي، وليكون بعثاً للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك.

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾.

﴿كان الناس أمّة واحدة﴾ متفقين على دين الإسلام ﴿فبعث الله النبيين﴾ يريد فاختلفوا، فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ عليه. وفي قراءة عبد الله: ﴿كان الناس أمّةً واحدةً﴾ فاختلفوا، ﴿فبعث الله﴾. والدليل عليه قوله عز وعلا: ﴿وما كان الناس إلاّ أمّة واحدة فاختلفوا﴾[5] وقيل: كان الناس أمةً واحدةً كفاراً فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم، والأوّل الوجه.

فإنْ قلتَ: متى كان الناس أمةً واحدةً متفقين على الحق؟ قلتُ: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّه كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون على شريعة من الحق، فاختلفوا، وقيل: هم نوح ومن كان معه في السفينة. ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ يريد الجنس، أو مع كل واحد منهم كتابه، ﴿ليحكم﴾ الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه. ﴿فيما اختلفوا فيه﴾ في الحق ودين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق. ﴿وما اختلف فيه﴾ في الحق ﴿إلا الذين أوتوه﴾ إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف، أي: ازدادوا في الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب وجعلوا نزول الكتاب سبباً في شدّة الاختلاف واستحكامه. ﴿بغياً بينهم﴾ حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا وقلة إنصاف منهم. و﴿من الحق﴾ بيان لما اختلفوا فيه، أي: فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلف فيه من اختلف.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(1) سورة البقرة، الآية: 75.

(2) قال أحمد رحمه الله: وردت إضافة التزيين إلى الله تعالى، وإضافته إلى غيره في مواضع من الكتاب العزيز، وهذه الآية تحتمل الوجهين، لكن الإضافة إلى قدرة الله تعالى حقيقة، والإضافة إلى غيره مجاز على قواعد السنة، والزمخشري يعمل على عكس هذا، فإن أضاف الله فعلاً من أفعاله إلى قدرته، جعله مجازاً، وإن أضافه إلى بعض مخلوقاته، جعله حقيقة، وسبب هذا التعكيس، باتباع الهوى في القواعد الفاسدة.

(3) قال أحمد رحمه الله: وهذا من وضع الظاهر موضع المضمر بصفة أخرى، ومثله في كتاب الله كثير، قال الله تعالى: ﴿إنّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا إنّ الظالمين في عذاب مقيم﴾ وكان الأصل ألا إنهم، الآية، فوضع الظاهر موضع المضمر بصفة أخرى، وضمنه ذكر صفة الظلم بتلو صفة الخسران، وفي كلام الزمخشري طماح إلى قاعدته في وجوب وعيد العصاة، ألا تراه يقول، ليريك أنه لا يسعد = عنده، إلا المؤمن المتقي، إشارة إلى أنّ غير المتقي، وهو المصر على الكبائر شقي، حتى كهؤلاء الذين يسخرون من الذين آمنوا، ومنهم من يتمحل، فيقول؛ لأنه جعل المؤمن عين المتقي، ومقتضى قاعدته الفاسدة، أنّ الإيمان يستلزم التقوى، حتى لا يفرض مؤمن إلا متقياً إذ الإيمان، فيما فسره هو في تفسيره هذا، وفيما فسره أهل بدعته في كتبهم، هو تصديق الاعتقاد الصحيح، والنطق به بالعمل الصالح، والمخل عندهم بالعمل، إما بالإصرار على كبيرة، أو بترك مهم من الواجبات فاسق ليس بمؤمن ولا كافر، فمقتضى هذا التقرير على ما ترى أنّ كل مؤمن متقٍ، وقد علمت من كلامه على هذه الآية ما يأبى ذلك وينقضه.

(4) سورة المطففين، الآية: 34.

(5) سورة يونس، الآية: 19.

مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾.

﴿أم﴾ منقطعة، ومعنى الهمزة فيها للتقرير، وإنكار الحسبان واستبعاده. ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البيّنات تشجيعاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له، قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ: ﴿أم حسبتم﴾. ﴿ولما﴾ فيها معنى التوقع وهي في النفي نظيرة قد في الإثبات، والمعنى: أن إتيان ذلك متوقع منتظر. ﴿مثل الذين خلوا﴾ حالهم التي هي مثل في الشدّة، و ﴿مستهم﴾ بيان للمثل، وهو: استئناف، كأن قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل: مستهم البأساء. ﴿وزلزلوا﴾ وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة، بما أصابهم من الأهوال والأفزاع، ﴿حتى يقول الرسول﴾ إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها ﴿متى نصر الله﴾ أي: بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك. ومعناه: طلب الصبر وتمنيه واستطالة زمان الشدّة، وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدّة وتماديه في العظم؛ لأنّ الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدّة التي لا مطمح وراءها. ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ على إرادة القول، يعني: فقيل لهم: ذلك إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر. وقرىء: حتى يقول، بالنصب على إضمار أن، ومعنى: الاستقبال، لأنّ أن علم له، وبالرفع على أنّه في معنى الحال، كقولك: شربت الإبل حتى يجيء البعير يجرّ بطنه، إلا أنّها حال ماضية محكية.

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾.

فإنْ قلتَ: كيف طابق الجواب السؤال في قوله: ﴿قل ما أنفقتم﴾، وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون، وأجيبوا ببيان المصرف؟ **قلتُ:** قد تضمن قوله ما أنفقتم ﴿من خير﴾ بيان ما ينفقونه، وهو كل خير، وبني الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف، لأنّ النفقة لا يعتدّ بها إلا أن تقع موقعها. قال الشاعر:

إنّ الصنيعة لا تكون صنيعةً ... حتى يصاب بها طريق المصنع

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّه جاء عمرو بن الجموح، وهو شيخ همّ وله مال عظيم، فقال: ماذا ننفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فنزلت، وعن السدي: هي منسوخة بفرض الزكاة. وعن الحسن: هي في التطوّع.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾.

﴿وهو كره لكم﴾ من الكراهة، بدليل قوله: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾، ثم إمّا أن يكون بمعنى الكراهة على وضع المصدر موضع الوصف مبالغةً كقولها: فإنّما هي إقبال وإدبار. كأنّه في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له، وإما أن يكون فعلاً بمعنى: مفعول، كالخبز بمعنى المخبوز أي: وهو مكروه لكم، وقرأ السلمي: بالفتح على أن يكون بمعنى: المضموم، كالضعف والضعف، ويجوز أن يكون بمعنى: الإكراه على طريق المجاز، كأنّهم أكرهوا عليه لشدّة كراهتهم له ومشقته عليهم، ومنه قوله تعالى: ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾[1]. وعلى قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾ جميع ما كلفوه فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه وتحب خلافه، ﴿والله يعلم﴾ ما يصلحكم وما هو خير لكم ﴿وانتم لا تعلمون﴾ ذلك.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾.

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليترصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك أول يوم من رجب، وهم يظنونه من جمادى الآخرة. فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، ويبذعر فيه الناس إلى معايشهم، فوقف رسول الله ﷺ العير، وعظم ذلك على أصحاب السرية، وقالوا: ما نبرح حتى تنزل توبتنا، وردّ رسول الله ﷺ العير والأسارى[2]. وعن ابن عباس رضي الله عنه: لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة، والمعنى: يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام، و ﴿قتال فيه﴾ بدل الاشتمال من الشهر، وفي قراءة عبد الله: عن قتال فيه، على تكرير العامل، كقوله ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾[3] وقرأ عكرمة: قتل فيه، قل: قتل فيه كبير، أي إثم كبير. وعن عطاء أنّه سئل عن القتال في الشهر الحرام فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام، إلا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت، وأكثر الأقاويل على أنّها منسوخة بقوله: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم. ﴿وصد عن

(1) سورة الأحقاف، الآية: 15.

(2) الواحدي في أسباب النزول، ص 38.

(3) سورة الأعراف، الآية: 75.

سبيل الله﴾ مبتدأ، وأكبر خبره. يعني: وكبائر قريش من صدّهم عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وكفرهم بالله، وإخراج أهل المسجد الحرام، وهم رسول الله والمؤمنون. ﴿أكبر عند الله﴾ مما فعلته السرية من القتال في الشهر الحرام على سبيل الخطأ، والبناء على الظن. ﴿والفتنة﴾ الإخراج أو الشرك. والمسجد الحرام عطف على سبيل الله، ولا يجوز أن يعطف على الهاء في به. ﴿ولا يزالون يقاتلونكم﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين، وأنّهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم. وحتى معناها: التعليل، كقولك: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة، أي: يقاتلونكم كي يردوكم، و ﴿إن استطاعوا﴾ استبعاد لاستطاعتهم. كقول الرجل لعدوّه: إن ظفرت بي فلا تبق عليّ، وهو واثق بأنّه لا يظفر به ﴿ومن يرتدد منكم﴾ ومن يرجع عن دينه إلى دينهم ويطاوعهم على ردّه إليه. ﴿فيمت﴾ على الردة. ﴿فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ لما يفوتهم بإحداث الردّة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وباستدامتها والموت عليها من ثواب الآخرة. وبها احتج الشافعي على أنّ الردة لا تحبط الأعمال حتى يموت عليها. وعند أبي حنيفة أنها تحبطها وإن رجع مسلماً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾.

﴿إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ روي أن عبد الله بن جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمي ظنّ قوم أنّهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر. فنزلت: ﴿أولئك يرجون رحمت الله﴾ وعن قتادة: هؤلاء خيار هذه الأمّة، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وإنّه من رجا طلب، ومن خاف هرب.

۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾.

نزلت[1] في الخمر أربع آيات نزلت بمكة: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾[2] فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال. ثم إنّ عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: يا رسول الله أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال[3]. فنزلت: ﴿فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمٰن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا فأمّ بعضهم، فقرأ: قل يا أيّها الكافرون أعبد ما تعبدون. فنزلت: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾[4]. فقلّ من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك قوماً فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا، وتناشدوا حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار فضربه أنصاري بلحي بعير فشجّه موضحة، فشكا إلى رسول الله ﷺ، فقال عمر: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت: ﴿إنّما الخمر والميسر﴾[5] إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾[6] فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب، وعن علي رضي الله عنه: لو وقعت قطرة في بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها، ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه الكلأ لم أرعه[7]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: لو أدخلت أصبعي فيه لم تتبعني[8]. وهذا هو الإيمان حقاً وهم الذين اتقوا الله حق تقاته.

والخمر: ما غلى واشتدّ وقذف بالزبد من عصير العنب، وهو حرام، وكذلك نقيع الزبيب أو التمر الذي لم يطبخ، فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه، ثم غلى واشتدّ ذهب خبثه ونصيب الشيطان، وحلّ شربه ما دون السكر إذا لم يقصد بشربه اللهو والطرب. عند أبي حنيفة وعن بعض أصحابه: لأن أقول مراراً هو حلال أحب إليّ من أن أقول مرة هو حرام، ولأنّ أخر من السماء فأتقطع قطعاً أحب إليّ من أن أتناول

---

(1) قال أحمد: ويظهر لي سر واقع، مما ذكره في هذا الغرض، وذلك أنّ السؤال الأوّل من الأسئلة المقرونة بالواو، عين السؤال الأوّل من الأسئلة المجرّدة عن الواو، ولكن وقع جوابه أوّلاً بالمصرف؛ لأنه الأهم، وإن كان المسؤل عنه، إنما هو المنفق لا وجه مصرفه، ثم لما لم يكن في الجواب الأوّل تصريح بالمسؤل عنه، أعيد السؤال، ليجابوا عن المسؤل عنه صريحاً، فقيل العفو، أي: الفاضل من النفقة الواجبة على العيال، أو نحو ذلك حيثما ورد في تفسيره، فتعين إذا اقتران هذا السؤال بالواو، ليرتبط بالأوّل، ويحتمل أنهم لمّا أجيبوا أوّلاً ببيان جهة المصرف، ولم يصرح لهم بالجواب على عين المنفق ما هو أعاد السؤال، لكي يتلقوا جوابه صريحاً، فتعين دخول الواو، وأما السؤال الثاني من الأسئلة المقرونة بالواو، فقد وقع عن أحوالهم مع اليتامى، وهل يجوز لهم مخالطتهم في النفقة، والكسوة، والسكنى، وقد كانوا يتحرجون من ذلك في الجاهلية، فلما كان مناسباً للسؤال عن الإنفاق، باعتبار المنفق، وباعتبار جهة المصرف عطف عليه، ليكمل لهم بيان المشروعية في النفقة، وآدابها الدينية بياناً شافياً؛ لأنه قد اجتمع في علمهم ما ينفقون، وفيم ينفقون، وعلى أي حالة ينفقون من= مخالطة اليتيم، وانفراد عنه، وأما السؤال الثالث منها، وهو الواقع عن النساء الحيض، فقد ورد أنهم في الجاهلية كانوا يعتزلون الحيض في المؤاكلة، والمساكنة، يقتدون في ذلك باليهود، فسألوا السؤال المذكور، كما كانوا يعتزلون اليتامى في المساكنة، والمؤاكلة تحرّجاً جاهلياً، وكان بين هذين السؤالين تناسب كما ترى، فحسن أن يعطف الآخر على ما قبله، تنبيهاً على ما بينهما من المشاكلة، والله أعلم.

(2) سورة النحل، الآية: 67.

(3) أخرجه الثعلبي من غير إسناد، قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ 1/ 132.

(4) سورة النساء، الآية: 43.

(5) سورة المائدة، الآية: 90.

(6) سورة المائدة، الآية: 91.

(7) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 4/8 كتاب: الأشربة، باب: في الخمر.

(8) أخرجه أحمد في المسند 1/446.

منه قطرة. وعند أكثر الفقهاء هو حرام كالخمر، وكذلك كل ما أسكر من كل شراب، وسميت خمراً لتغطيتها العقل والتمييز، كما سميت سكراً لأنّها تسكرهما أي: تحجزهما، وكأنها سميت بالمصدر من خمره خمراً إذا ستره للمبالغة.

والميسر: القمار مصدر من يسر، كالموعد والمرجع من فعلهما يقال: يسرته إذا قمرته، واشتقاقه من اليسر، لأنّه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كدّ ولا تعب، أو من اليسار، لأنّه سلب يساره، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله. قال:

أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني

أي: يفعلون بي ما يفعل الياسرون بالميسور.

فإنْ قلتَ: كيف صفة الميسر؟ **قلتُ**: كانت لهم عشرة أقداح، وهي الأزلام والأقلام والفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلي والمنيح والسفيح والوغد، لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزؤنها عشرة أجزاء، وقيل: ثمانية وعشرين إلا لثلاثة، وهي: المنيح، والسفيح، والوغد. ولبعضهم:

لي في الدنيا سهام ليس فيهنّ ربيحو
أساميهنّ وغد وسفيح ومنيح

للفذ سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحلس أربعة: وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلي سبعة يجعلونها في الربابة وهي خريطة ويضعونها على يدي عدل، ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحاً منها، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك، ويذمون من لم يدخل فيه، ويسمونه البرم، وفي حكم الميسر أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما، وعن النبي ﷺ: «إياكم وهاتين اللعبتين المشؤومتين فإنهما من ميسر العجم»[1]. وعن علي رضي الله عنه: «أنّ النرد والشطرنج من الميسر»[2]، وعن ابن سيرين: كل شيء فيه خطر فهو من الميسر، والمعنى: يسألونك عما في تعاطيهما بدليل قوله تعالى: **﴿قل فيهما إثم كبير﴾** **﴿وإثمهما﴾** وعقاب الإثم في تعاطيهما **﴿أكبر من نفعهما﴾** وهو الالتذاذ بشرب الخمر، والقمار، والطرب فيهما، والتوصل بهما إلى مصادقات الفتيان ومعاشراتهم والنيل من مطاعمهم، ومشاربهم، وأعطياتهم، وسلب الأموال بالقمار، والافتخار على الإبرام. وقرىء: إثم كثير، بالثاء. وفي قراءة أبيّ: وإثمهما أقرب، ومعنى الكثرة: أنّ أصحاب الشرب والقمار يقترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة.

﴿العفو﴾ نقيض الجهد، وهو أن ينفق ما لا يبلغ إنفاقه منه لجهد واستفراغ الوسع. قال:

خذي العفو مني تستديمي مودتي

ويقال للأرض السهلة العفو، وقرىء: بالرفع والنصب. وعن النبي ﷺ: أنّ رجلاً أتاه ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي فقال: خذها مني صدقةً. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فأتاه من الجانب الأيمن، فقال مثله، فأعرض عنه، ثم أتاه من الجانب الأيسر، فأعرض عنه. فقال: هاتها، مغضباً. فأخذها فخذفه بها خذفاً لو أصابه لشجه أو عقره، ثم قال: «يجيء أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى».

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

﴿في الدنيا والآخرة﴾ إمّا أن يتعلق بـ **﴿تتفكرون﴾**، فيكون المعنى: لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخذون بما هو أصلح لكم، كما بينت لكم أنّ العفو أصلح من الجهد في النفقة، أو تتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع، ويجوز أن يكون إشارةً إلى قوله: **﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾**[3] لتتفكروا في عقاب الإثم في الآخرة، والنفع في الدنيا، حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب العظيم. وإمّا أن يتعلق بـ (يبين) على معنى يبين لكم الآيات في أمر الدارين، وفيما يتعلق بهم لعلكم تتفكرون. لما نزلت: **﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾**[4] اعتزلوا اليتامى وتحاموهم وتركوا مخالطتهم والقيام بأموالهم والاهتمام بمصالحهم، فشق ذلك عليهم وكاد يوقعهم في الحرج، فقيل: **﴿إصلاح لهم خير﴾** أي: مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم. **﴿وإن تخالطوهم﴾** وتعاشروهم، ولم تجانبوهم **﴿فـ﴾**هم **﴿إخوانكم﴾** في الدين، ومن حق الأخ أن يخالط أخاه، وقد حملت المخالطة على المصاهرة. **﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾** أي: لا يخفى على الله من داخلهم بإفساد وإصلاح، فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه، ولا تتحروا غير الإصلاح. **﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾** لحملكم على العنت، وهو المشقة وأحرجكم، فلم يطلق لكم مداخلتهم. وقرأ طاوس: قل إصلاح إليهم، ومعناه: إيصال الصلاح. وقرىء: لعنتكم، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على اللام، وكذلك فلا إثم عليه. **﴿إنّ الله عزيز﴾** غالب يقدر على أن يعنت عباده ويحرجهم ولكنه **﴿حكيم﴾** لا يكلف إلا ما تتسع فيه طاقتهم.

---

(1) أخرجه التبريزي في «مشكاة المصابيح» (الحديث: 4510).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: الرجل يخرج من ماله الحديث رقم: (1673)، والدارمي في كتاب: الزكاة، باب: النهي عن الصدقة بجميع ما عند الرجل الحديث رقم: (1659)، وأخرجه ابن = حبان في كتاب: الزكاة، باب: صدقة التطوع الحديث رقم: (3372).

(3) سورة البقرة، الآية: 219.

(4) سورة النساء، الآية: 10.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

﴿ولا تنكحوا﴾ وقرىء: بضم التاء، أي: لا تتزوّجوهنّ أو لا تزوّجوهنّ. و **﴿المشركات﴾** الحربيات، والآية ثابتة، وقيل: المشركات الحربيات والكتابيات جميعاً لأنّ أهل الكتاب من أهل الشرك لقوله تعالى: **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾**[1] إلى قوله تعالى: **﴿سبحانه عما يشركون﴾**[2] وهي: منسوخة بقوله تعالى: **﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾**[3] وسورة المائدة كلها ثابتة لم ينسخ منها شيء قط، وهو قول ابن عباس، والأوزاعي. وروي أنّ رسول الله ﷺ بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين، وكان يهوى امرأةً في الجاهلية اسمها عناق فأتته، وقالت: الا نخلو. فقال: ويحك إنّ الإسلام قد حال بيننا، فقالت: فهل لك أن تتزوّج بي؟ قال: نعم، ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأستامره، فاستأمره، فنزلت[4]. **﴿ولأمة مؤمنة خير﴾** ولامرأة مؤمنة حرّة كانت أو مملوكة، وكذلك، **﴿ولعبد مؤمن﴾** لأنّ الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. **﴿ولو أعجبتكم﴾** ولو كان الحال أنّ المشركة تعجبكم وتحبونها، فإنّ المؤمنة خير منها مع ذلك. **﴿أولئك﴾** إشارة إلى المشركات والمشركين. أي: يدعون إلى الكفر فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال. **﴿والله يدعو إلى الجنة﴾** يعني: وأولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة. **﴿والمغفرة﴾** وما يوصل إليهما فهم الذين تجب موالاتهم ومصاهرتهم وأن يؤثروا على غيرهم. **﴿بإذنه﴾** بتيسير الله وتوفيقه لعمل الذي تستحق به الجنة والمغفرة. وقرأ الحسن: والمغفرة بإذنه، بالرفع. أي: والمغفرة حاصلة بتيسيره.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾.

﴿المحيض﴾ مصدر، يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً وبات مبيتاً. **﴿قل هو أذى﴾** أي: الحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه، نفرةً منه وكراهةً له. **﴿فاعتزلوا النساء﴾** فاجتنبوهنّ يعني فاجتنبوا مجامعتهنّ. روي: أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فرش ولم يساكنوها في بيت، كفعل اليهود والمجوس، فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهنّ فأخرجوهنّ من بيوتهم، فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله البرد شديد والثياب قليلة، فإن آثرناهنّ بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرنا بها هلكت الحيض. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنّما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهنّ إذا حضن، ولم يأمركم بإخراجهنّ من البيوت، كفعل الأعاجم»[5]. وقيل: إنّ النصارى كانوا يجامعونهنّ ولا يبالون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهنّ في كل شيء، فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين. وبين الفقهاء خلاف في الاعتزال، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج. وروى محمد حديث عائشة رضي الله عنها أنّ عبد الله بن عمر سألها: هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض؟ فقالت: تشدّ إزارها على سفلتها، ثم ليباشرها إن شاء[6] وما روى زيد بن أسلم: أنّ رجلاً سأل النبيّ ﷺ: ما يحلّ لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «لتشدّ عليها إزارها، ثم شأنك بأعلاها»[7]. ثم قال: وهذا قول أبي حنيفة. وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يجتنب شعار الدم، وله ما سوى ذلك[8].

وقرئ: يطهرن، بالتشديد، أي: يتطهرن، بدليل قوله: **﴿فإذا تطهرن﴾** وقرأ عبد الله: حتى يتطهرن. ويطهرن بالتخفيف، والتطهر الاغتسال، والطهر انقطاع دم الحيض. وكلتا القراءتين مما يجب العمل به. فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، وفي أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل، أو يمضي عليها وقت صلاة. وذهب الشافعي إلى أنّه لا يقربها حتى تطهر وتطهر فتجمع بين الأمرين، وهو قول واضح ويعضده قوله: **﴿فإذا تطهرن﴾** **﴿من حيث أمركم الله﴾** من المأتى الذي أمركم الله به وحلله لكم؛ وهو القبل. **﴿إنّ الله يحب التوّابين﴾** مما عسى يندر منهم من ارتكاب ما نهوا عنه من ذلك **﴿ويحب المتطهرين﴾** المتنزهين عن الفواحش، أو إن الله يحب التوابين الذين يطهرون أنفسهم بطهرة التوبة من كل ذنب، ويحبّ المتطهرين من جميع الأقذار كمجامعة الحائض، والطاهر

(1) سورة التوبة، الآية: 30.
(2) سورة التوبة، الآية: 31.
(3) سورة المائدة، الآية: 5.
(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾ الحديث رقم: (2051)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة النور، الحديث رقم: (3176)، وأخرجه النسائي في كتاب النكاح، باب: تزويج الزانية الحديث رقم: (3228).
(5) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الطهارة، باب: ما يحل للرجل من امرأته وهي حائض الحديث رقم: (93).
(6) أخرجه مالك في الموطأ، برواية محمد بن الحسن، كتاب أبواب الصلاة، باب: الرجل يصيب من امرأته أو يباشرها وهي حائض الحديث رقم: (73).
(7) أخرجه الدارمي في كتاب: الطهارة، باب: مباشرة الحائض الحديث رقم: (1040) ولم يذكر ذلك ما سواه.
(8) لم أجده. كذا قال ابن حجر.

قبل الغسل، وإتيان ما ليس بمباحٍ وغير ذلك.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

﴿حرث لكم﴾ مواضع حرث لكم، وهذا مجاز، شبههن بالمحارث تشبيهاً لما يلقى في أرحامهنّ من النطف التي منها النسل بالبذور، وقوله: ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ تمثيل أي: فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم لا تحظر عليكم جهة دون جهة، والمعنى: جامعوهن من أي شق أردتم بعد أن يكون المأتى واحداً وهو موضع الحرث، وقوله: ﴿هو أذى فاعتزلوا النساء﴾[1] ﴿من حيث أمركم الله﴾[2] ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدّبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم. وروي أنّ اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته وهي مجبية من دبرها في قبلها كان ولدها أحول. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كذبت اليهود»[3]. ونزلت. ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة، وما هو خلاف ما نهيتكم عنه. وقيل: هو طلب الولد، وقيل: التسمية على الوطء. ﴿واتقوا الله﴾ فلا تجترؤوا على المناهي ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ فتزوّدوا ما لا تفضحون به. ﴿وبشر المؤمنين﴾ المستوجبين للمدح والتعظيم بترك القبائح وفعل الحسنات.

فإنْ قلتَ: ما موقع قوله: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ مما قبله؟ قلتُ: موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله: ﴿فأتوهنّ من حيث أمركم الله﴾[4] يعني: أنّ المأتى الذي أمركم الله به هو مكان الحرث ترجمةً له، وتفسيراً وإزالةً للشبهة، ودلالةً على أنّ الغرض الأصيل في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة، فلا تأتوهنّ إلا من المأتى الذي يتعلق به هذا الغرض.

فإنْ قلتَ: ما بال ﴿يسألونك﴾ جاء بغير واو ثلاث مرات، ثم مع الواو ثلاثاً؟ قلتُ: كان سؤالهم عن تلك الحوادث الأوّل وقع في أحوال متفرّقة فلم يؤت بحرف العطف لأنّ كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ، وسألوا عن الحوادث الأخر في وقت واحد، فجيء بحرف الجمع لذلك، كأنّه قيل يجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر، والسؤال عن الإنفاق. والسؤال عن كذا وكذا.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

العرضة: فعلة بمعنى: مفعول، كالقبضة والغرفة. وهي اسم ما تعرضه دون الشيء من عرض العود على الإناء فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول: فلان عرضة دون الخير، والعرضة أيضاً المعرض للأمر. قال:

فلا تجعلوني عرضة للوائم

ومعنى الآية: على الأولى أنّ الرجل كان يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحنث في يميني، فيترك البر إرادة البر في يمينه. فقيل لهم: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ أي: حاجزاً لما حلفتم عليه، وسمى المحلوف عليه يميناً لتلبسه باليمين، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك»[5]. أي: على شيء مما يحلف عليه، وقوله: ﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحوا﴾ عطف بيان لأيمانكم أي: للأمور المحلوف عليها التي هي البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

فإنْ قلتَ: بمَ تعلقت اللام في ﴿لأيمانكم﴾؟ قلتُ: بالفعل، أي: ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً وحجازاً، ويجوز أن يتعلق بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض بمعنى لا تجعلوه شيئاً يعترض البر. من اعترضني كذا، ويجوز أن تكون اللام للتعليل، ويتعلق أن تبروا بالفعل أو بالعرضة، أي: ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به عرضةً لأن تبروا، ومعناها: على الأخرى، ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذم من أنزل فيه، ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدّمتها، وأن تبروا علةً للنهي. أي: إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 222.

(2) سورة البقرة، الآية: 222.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ الحديث رقم: (4528)، ومسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: جواز جماعة امرأته في قبلها من قدامها ومن ورائها، الحديث رقم: (3521 و3522)، وأبو داود في السنن، كتاب: النكاح، باب: في جامع النكاح الحديث رقم: (2160)، والترمذي في التفسير، باب: من سورة البقرة الحديث رقم: (2980)، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب: النهي من إتيان النساء في أدبارهن الحديث رقم: (7925)، كشف الأستار، كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة، الحديث رقم: (3192).

(4) سورة البقرة، الآية: 222.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الاحكام، باب: من لم يسأل الإمارة الحديث رقم: (7146)، ومسلم في كتاب: الأيمان، باب: ندب من حلف يميناً... الحديث رقم: (4257)، وأخرج أبو داود الشطر الأول في كتاب الخراج والإمارة، باب: ما جاء في طلب الإمارة الحديث رقم: (2929) والشطر الثاني أخرجه في الأيمان والنذور، باب: العبد يكفر قبل أن يحنث الحديث رقم: (3277)، والترمذي في كتاب: النذور والايمان، باب: ما جاء فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها الحديث رقم: (1529)، وأخرجه النسائي في كتاب: آداب القضاة، باب: النهي عن مسألة الإمارة الحديث رقم: (5399)، الشطر الأول والشطر الثاني، أخرجه في كتاب الأيمان، باب: الكفارة قبل الحنث الحديث رقم: (3792).

لأنّ الحلاف مجترئ على الله غير معظم له، فلا يكون براً متقياً ولا يثق به الناس فلا يدخلونه في وساطاتهم وإصلاح ذات بينهم.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

اللغو: الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره، ولذلك قيل: لما لا يعتد به في الدية من أولاد الإبل لغو، واللغو من اليمين الساقط الذي لا يعتدّ به في الأيمان، وهو الذي لا عقد معه، والدليل عليه: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان بما كسبت قلوبكم. واختلف الفقهاء فيه فعند أبي حنيفة وأصحابه، هو أن يحلف على الشيء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه. وعند الشافعي: هو قول العرب لا والله، وبلى والله، مما يؤكدون به كلامهم، ولا يخطر ببالهم الحلف، ولو قيل لواحد منهم: سمعتك اليوم تحلف في المسجد الحرام، لأنكر ذلك. ولعله قال: لا والله ألف مرة، وفيه معنيان:

أحدهما: لا يؤاخذكم، أي: لا يعاقبكم بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم بالظن، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم. أي: اقترفته من إثم القصد إلى الكذب في اليمين. وهو أن يحلف على ما يعلم أنّه خلاف ما يقوله وهي اليمين الغموس.

والثاني: لا يؤاخذكم، أي: لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين الذي لا قصد معه، ولكن يلزمكم الكفارة بما كسبت قلوبكم. أي: بما نوت قلوبكم وقصدت من الأيمان. ولم يكن كسب اللسان وحده. **﴿والله غفور حليم﴾** حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾.

قرأ عبد الله: آلوا من نسائهم، وقرأ ابن عباس: يقسمون من نسائهم.

فإنْ قلتَ: كيف عدي بمن، وهو معدى بعلى؟ **قلتُ:** قد ضمن في هذا القسم المخصوص معنى البعد، فكأنّه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلين أو مقسمين، ويجوز أن يراد لهم **﴿من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾** كقوله: لي منك كذا. والإيلاء من المرأة أن يقول: والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعداً على التقليد بالأشهر، أو لا أقربك على الإطلاق. ولا يكون في ما دون أربعة أشهر إلا ما يحكى عن إبراهيم النخعي، وحكم[1] ذلك أنّه إذا فاء إليها في المدّة بالوطء إن أمكنه، أو بالقول إن عجز، صح الفيء وحنث القادر ولزمته كفارة اليمين، ولا كفارة على العاجز. وإن مضت الأربعة بانت بتطليقة عند أبي حنيفة، وعند الشافعي لا يصح الإيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر، ثم يوقف المولي، فإما أن يفيء، وإما أن يطلق، وإن أبى طلق عليه الحاكم. ومعنى قوله: **﴿فإن فاءوا﴾** فإن فاءوا في الأشهر، بدليل قراءة عبد الله: فإن فاءوا فيهن: **﴿فإن الله غفور رحيم﴾** يغفر للمولين ما عسى يقدمون عليه من طلب ضرار النساء بالإيلاء، وهو الغالب، وإن كان يجوز أن يكون رضا منهنّ إشفاقاً منهن على الولد من الغيل، أو لبعض الأسباب لأجل الفيئة التي هي مثل التوبة.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿وإن عزموا الطلاق﴾ فتربصوا إلى مضي المدة **﴿فإنّ الله سميع عليم﴾** وعيد على إصرارهم وتركهم الفيئة. وعلى قول الشافعي رحمه الله معناه: فإن فاءوا، وإن عزموا بعد مضي المدة.

فإنْ قلتَ[2]: كيف موقع الفاء إذا كانت الفيئة قبل انتهاء مدة التربص؟ **قلتُ:** موقع صحيح لأنّ قوله: **﴿فإن فاءوا﴾** وإن عزموا، تفصيل لقوله: **﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾** والتفصيل يعقب المفصل، كما تقول: أنا نزيلكم هذا الشهر، فإن أحمدتكم أقمت عندكم إلى آخره، وإلا لم أقم إلا ريثما أتحول.

فإنْ قلتَ: ما تقول في قوله: **﴿فإنّ الله سميع عليم﴾**[3]

---

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا التفسير منزل على مذهب أبي حنيفة؛ لأنه لا يرى الفيئة بعد انقضاء الأربعة الأشهر مقيدة، إذا وقع الطلاق بنفس مضيها، لا تكون الفيئة معتبرة عنده، إلا في أربعة الأشهر خاصة.

(2) قال أحمد رحمه الله: هذا جواب عن سؤال موجه على أبي حنيفة رضي الله عنه؛ لأنه إذا رأى الفيئة في الأشهر الأربعة، خاصة لا فيما بعدها، والله تعالى عطف الفيئة على تربص أربعة أشهر بالفاء، ومقتضاها كما علمت وقوع ما عطفه بعدما عطفه عليه، فيلزم وقوع الفيئة المعتبرة بعد انقضاء الأشهر الأربعة، وأبو حنيفة يأباه، فلذلك أجاب عنه الزمخشري بجوابه المتقدّم، والسؤال عندي يندفع بطريق آخر، وهو أنّ المعطوف عليه التربص، وهو حاصل من أوّل المدّة، فوقوع الفيئة في الأربعة الأشهر على تربصها، بناء منه على أنه لا يصدق قول القائل قد تربصت بفلان أربعة أشهر، إلا إذا انقضت المدّة، وليس الأمر كذلك، فإنه يصدق من الحاكم أن يقول عند ضرب أجل المولي، قد = تربصت لك أربعة أشهر، المقتضى منها حينئذٍ دقيقة واحدة، فلذلك التربص المعطوف عليه في الآية واقع عند ضرب أجل المولي، قد تربصت لك أربعة أشهر، كما قال الله تعالى ﴿لينظر ابفيء﴾ ويصدّق رب الدين في أن يقول لمديانه حالة القرض قد أجلتك بهذا الدين سنة، وإن المقتضى منها حينئذ دقيقة واحدة، فلذلك التربص المعطوف عليه في الآية واقع عند ضرب الأجل المذكور، فالفيئة الواقعة في الأجل إنما يقع بعده، فالفاء على بابها المعروف.

(3) قال أحمد رحمه الله: في هذا الجواب إسلاف جواب عن سؤال آخر يتوجه على أبي حنيفة رضي الله عنه، فيقال له إذا كان مضى الأربعة الأشهر، يوجب عندك وقوع الطلاق بنفسه، غير موقوف على إيقاع من أحد، فما الذي يسمع إذاً وهو أمكن من السؤال الذي قدره الزمخشري، فإن لقائل أن يقول: عبّر بالعزم عن الإيقاع؛ لانه يستلزمه غالباً، وفي أثناء كلامه نكته تحتاج إلى التنبيه عند قوله، والعزم مما يعلم ولا يسمع والذي ننبه عليه أنّ =

وعزمهم الطلاق مما يعلم، ولا يسمع. قلتُ: الغالب أن العازم للطلاق وترك الفيئة والضرار لا يخلو من مقاولة ودمدمة، ولا بدّ له من أن يحدث نفسه ويناجيها بذلك، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله، كما يسمع وسوسة الشيطان.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾.

﴿والمطلقات﴾ أراد المدخول بهنّ من ذوات الأقراء.

فإنْ قلتَ: كيف جازت إرادتهن خاصةً، واللفظ يقتضي العموم؟ قلتُ: بل اللفظ مطلق في تناول الجنس صالح لكله وبعضه، فجاء في أحد ما يصلح له كالاسم المشترك.

فإنْ قلتَ: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلتُ: هو خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام وليتربص المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنّه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه قولهم في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقةً بالاستجابة، كأنّما وجدت الرحمة، فهو يخبر عنها، وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد، ولو قيل: ويتربص المطلقات لم يكن بتلك الوكادة.

فإنْ قلتَ: هلا قيل: يتربصن ثلاثة قروء، كما قيل: تربص أربعة أشهر. وما معنى ذكر الأنفس؟ قلتُ: في ذكر الأنفس تهييج لهنّ على التربص وزيادة بعث؛ لأنّ فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن، وذلك أنّ أنفس النساء طوامح إلى الرجال فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص.

والقروء: جمع قرء أو قرء. وهو: الحيض، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «دعي الصلاة أيام أقرائك»(1). وقوله: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدّتها حيضتان»(2). ولم يقل طهران. وقوله تعالى: ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر﴾(3) فأقام الأشهر مقام الحيض دون الأطهار؛ ولأنّ الغرض الأصيل في العدّة استبراء الرحم والحيض هو الذي تستبرأ به الأرحام دون الطهر، ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة. ويقال: أقرأت المرأة إذا حاضت، وامرأة مقرىء. وقال أبو عمرو بن العلاء: دفع فلان جاريته إلى فلانة تقرئها، أي: تمسكها عندها حتى تحيض للاستبراء.

فإنْ قلتَ: فما تقول في قوله تعالى: ﴿فطلقوهنّ لعدتهنّ﴾ الطلاق الشرعي، وإنّما هو في الطهر؟ قلتُ: معناه: مستقبلات لعدتهنّ، كما تقول: لقيته لثلاث بقين من الشهر، تريد مستقبلاً لثلاث، وعدتهنّ الحيض الثلاث.

فإنْ قلتَ: فما تقول في قول الأعشى:

لما ضاع فيها من قروء نسائكا

قلتُ: أراد لما ضاع فيها من عدة نسائك لشهرة القروء عندهم في الاعتداد بهنّ. أي: من مدة طويلة كالمدة التي تعتد فيها النساء. استطال مدة غيبته عن أهله كل عام لاقتحامه في الحروب والغارات، وأنّه تمرّ على نسائه مدة كمدة العدة ضائعة لا يضاجعن فيها، أو أراد من أوقات نسائك، فإنّ القرء والقارئ جاءا في معنى الوقت، ولم يرد لا حيضاً ولا طهراً.

فإنْ قلتَ: فعلام انتصب ﴿ثلاثة قروء﴾؟ قلتُ: على أنّه مفعول به، كقولك: المحتكر يتربص الغلاء أي: يتربصن مضي ثلاثة قروء، أو على أنّه ظرف أي: يتربصن مدة ثلاثة قروء.

فإنْ قلتَ: لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء؟ قلتُ: يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية، ألا ترى إلى قوله: ﴿بأنفسهن﴾ وما هي إلا نفوس كثيرة، ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء، فأوثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المهمل، فيكون مثل قولهم: ثلاثة شسوع. وقرأ الزهري: ثلاثة قرو بغير همزة. ﴿ما خلق الله في أرحامهن﴾ من الولد، أو من دم

= قاعدة أهل السنة، أنّ كل موجود يجوز أن يسمع، حتى الجواهر، والألوان، والمعاني بجملتها، وكذلك يعتقد أن موسى عليه السلام سمع الكلام القديم، وليس بحرف، ولا صوت، فلا يتوقف السمع عندهم على أن يكون المسموع صوتاً، ولا نطقاً غير أن المعتاد انقسام الموجودات إلى مسموع، ومرئي، وملموس، ومشموم، ومذوق، وهو المعلوم بالحس، وإلى معلوم بغير ذلك، وعلى هذا المعتاد جرت عادة خطاب الله تعالى لعبده، وإن كان الزمخشري ثابتاً، فيما قاله على الأمر العرفي معتقداً ما ذكرناه من حيث المعروف، وما أراه كذلك، فالأمر سهل، وإن كان لخرج كلامه المذكور على قاعدة الاعتزال، وهو الظاهر من حاله في اعتقاد أن ما عدا الأصوات، لا يجوز أن يسمع عقلاً، فالحذر الحذر من هذه القاعدة الفاسدة، والله المستعان، ثم لا بدّ لنا في مسألة الإيلاء من البصر، لما يعتقده من مذهب مالك رضي الله عنه، ومذهب مالك رضي الله عنه، هو الذي اقتفاه الشافعي رضي الله عنه في =

= المسألة، فنقول مضي أربعة الأشهر، بمجرده لا يوجب وقوع الطلاق على الزوج؛ لأن الأصل بقاء العصمة، وقد جعل الله له الفيئة بعد تربص الأجل المذكور، ونحن وإن بينّا أولاً أن الآية لا تأبى وقوع الفيئة في الأجل، وهي أيضاً تأبى وقوعها بعد الأجل، فينتظم من أصلية، أعني بقاء.

(1) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحيض الحديث رقم: (36).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في سنة طلاق العبد الحديث رقم: (2189)، والترمذي في كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في أن طلاق الأمة تطليقتان الحديث رقم: (1182)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: في طلاق الأمة وعدتها، الحديث رقم: (2080)، وأخرجه الدارقطني عن ابن عمر، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء الحديث رقم: (104).

(3) سورة الطلاق: الآية: 4.

الحيض، وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها، أو كتمت حيضها وقالت وهي حائض قد طهرت استعجالاً للطلاق، ويجوز أن يراد اللاتي يبغين إسقاط ما في بطونهن من الأجنة، فلا يعترفن به ويجحدنه لذلك، فجعل كتمان ما في أرحامهن كناية عن إسقاطه ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ تعظيم لفعلهن، وأن من آمن بالله وبعقابه لا يجترئ على مثله من العظائم. والبعولة جمع بعل، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع، كما في الحزونة والسهولة، ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك: بعل حسن البعولة، يعني: وأهل بعولتهن. ﴿أحق بردهن﴾ برجعتهن. وفي قراءة أبي: بردتهن. ﴿في ذلك﴾ في مدة ذلك التربص.

فإنْ قلتَ: كيف جعلوا أحق بالرجعة، كان للنساء حقاً فيها؟ قلتُ: المعنى: أنّ الرجل إن أراد الرجعة وأبتها المرأة وجب إيثار قوله على قولها وكان هو أحق منها، إلا أن لها حقاً في الرجعة. ﴿إن أرادوا﴾ بالرجعة ﴿إصلاحاً﴾ لما بينهم وبينهنّ، وإحساناً إليهنّ ولم يريدوا مضارتهنّ. ﴿ولهنّ مثل الذي عليهنّ﴾ ويجب لهنّ من الحق على الرجال مثل الذي يجب لهم عليهنّ. ﴿بالمعروف﴾ بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس فلا يكلفنهم ما ليس لهنّ، ولا يكلفونهنّ ما ليس لهم، ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه. والمراد بالمماثلة: مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال. ﴿درجة﴾ زيادة في الحق وفضيلة. قيل: المرأة تنال من اللذة ما ينال الرجل، وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه في مصالحها.

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾.

﴿الطلاق﴾ بمعنى: التطليق كالسلام بمعنى: التسليم، أي: التطليق الشرعي، تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعةً واحدةً، ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير. كقوله: ﴿ثم ارجع البصر كرّتين﴾[1] أي: كرّة بعد كرّة لا كرّتين اثنتين، ونحو ذلك من التثاني التي يراد بها التكرير قولهم: لبيك وسعديك وحنانيك وهذا ذيك ودواليك. وقوله تعالى: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة والقيام بمواجبهنّ، وبين أن يسرحوهنّ السراح الجميل الذي علمهم. وقيل: معناه الطلاق الرجعي مرّتان، لأنّه لا رجعة بعد الثلاث، فإمساك بمعروف أي: برجعة، أو تسريح بإحسان، أي: بأن لا يراجعها حتى تبين بالعدّة، أو بأن لا يراجعها مراجعة يريد بها تطويل العدّة عليها وضرارها. وقيل: بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث، وروي: أنّ سائلاً سأل رسول الله ﷺ: أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أو تسريح بإحسان»[2]. وعند أبي حنيفة وأصحابه: الجمع بين التطليقتين والثلاث بدعة، والسنة أن لا يوقع عليها إلا واحدة في طهر لم يجامعها فيه، لما روي في حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال له: إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً فتطلقها لكل قرء تطليقة[3]. وعند الشافعي: لا بأس بإرسال الثلاث، لحديث العجلاني الذي لاعن امرأته فطلقها ثلاثاً بين يدي رسول الله ﷺ، فلم ينكر عليه. روي أنّ جميلة بنت عبد الله بن أبي كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه وهو يحبها، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لا أنا ولا ثابت، ولا يجمع رأسي ورأسه شيء، والله ما أعيب عليه في دين ولا خلق، ولكني أكره الكفر في الإسلام، ما أطيقه بغضاً إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدّة، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامةً وأقبحهم وجهاً[4]، فنزلت. وكان قد أصدقها حديقة، فاختلعت منه بها، وهو أوّل خلع كان في الإسلام.

فإنْ قلتَ: لمن الخطاب في قوله: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا﴾، إن قلت للأزواج لم يطابقه قوله: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾، وإن قلت: للأئمة والحكام، فهؤلاء ليسوا بآخذين منهنّ ولا بمؤتيهنّ. قلتُ: يجوز الأمران جميعاً، أن يكون أوّل الخطاب للأزواج وآخره للأئمة والحكام، ونحو ذلك غير عزيز في القرآن وغيره. وأن يكون الخطاب كله للأئمة والحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم الآخذون والمؤتون. ﴿مما آتيتموهنّ﴾ مما أعطيتموهنّ من الصدقات ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ إلا أن يخاف الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها. ﴿فلا جناح عليهما﴾ فلا جناح على الرجل فيما أخذ، ولا عليها فيما أعطت. ﴿فيما افتدت به﴾ فيما فدت به نفسها واختلعت به من بذل ما أوتيت

(1) سورة الملك، الآية: 4.

(2) أخرجه الدارقطني في كتاب: الطلاق والإيلاء والخلع الحديث رقم: (1)، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 5/259، كتاب: الطلاق، باب: قوله: ﴿الطلاق مرتان﴾.

(3) أخرجه الدارقطني في كتاب الطلاق والإيلاء والخلع الحديث رقم: (84).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿والذين يرمون أزواجهم...﴾ الحديث رقم: (4745)، ومسلم في كتاب: اللعان الحديث رقم: (3723).

من المهر والخلع بالزيادة على المهر مكروه وهو جائز في الحكم. وروي أن امرأة نشزت على زوجها، فرفعت إلى عمر رضي الله عنه، فأباتها في بيت الزبل ثلاث ليال، ثم دعاها، فقال: كيف وجدت مبيتك؟ قالت: ما بت منذ كنت عنده أقر لعيني منهنّ، فقال لزوجها: اخلعها ولو بقرطها[1]. قال قتادة: يعني بمالها كله هذا إذا كان النشوز منها، فإن كان منه كره له أن يأخذ منها شيئاً.

وقرىء: إلا أن يخافا على البناء للمفعول وإبدال أن لا يقيما من ألف الضمير، وهو من بدل الاشتمال، كقولك: خيف زيد تركه إقامة حدود الله. ونحوه: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾. ويعضده قراءة عبد الله: إلا أن تخافوا. وفي قراءة أبي: إلاّ أن يظنا، ويجوز أن يكون الخوف بمعنى الظن. يقولون: أخاف أن يكون كذا، وأفرق أن يكون يريدون أظنّ.

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾.

﴿فإن طلقها﴾ الطلاق المنكور الموصوف بالتكرار في قوله تعالى: ﴿الطلاق مرّتان﴾[2] واستوفى نصابه، أو فإن طلقها مرّةً ثالثةً بعد المرتين ﴿فلا تحل له من بعد﴾ من بعد ذلك التطليق، ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ حتى تتزوّج غيره. والنكاح يسند إلى المرأة كما يسند إلى الرجل كما التزوج، ويقال: فلانة ناكح في بني فلان، وقد تعلق من اقتصر على العقد في التحليل بظاهره، وهو سعيد بن المسيب، والذي عليه الجمهور أنه لا بد من الإصابة؛ لما روى عروة عن عائشة رضي الله عنها: أنّ امرأة رفاعة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إنّ رفاعة طلقني فبت طلاقي، وإن عبد الرحمٰن بن الزبير تزوّجني، وإنّما معه مثل هدبة الثوب، وإنّه طلقني قبل أن يمسني. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»[3]. وروي: أنّها لبثت ما شاء الله، ثم رجعت، فقالت: إنّه كان قد مسني، فقال لها: «كذبت في قولك الأوّل، فلن أصدقك في الآخر». فلبثت حتى قبض رسول الله ﷺ، فأتت أبا بكر رضي الله عنه، فقالت: أأرجع إلى زوجي الأوّل؟ فقال: قد عهدت رسول الله ﷺ حين قال لك ما قال، فلا ترجعي إليه، فلما قبض أبو بكر رضي الله عنه قالت مثله لعمر رضي الله عنه، فقال: إن أتيتني بعد مرتك هذه لأرجمنك، فمنعها.

فإنْ قلتَ: فما تقول في النكاح المعقود بشرط التحليل؟ قلتُ: ذهب سفيان والأوزاعي وأبو عبيد ومالك وغيرهم إلى أنّه غير جائز، وهو جائز عند أبي حنيفة مع الكراهة، وعنه أنهما إن أضمر التحليل ولم يصرحا به فلا كراهة. وعن النبي ﷺ: أنّه لعن المحلل، والمحلل[4] له. وعن عمر رضي الله عنه: لا أوتي بمحلل، ولا محلل له إلا رجمتهما[5]. وعن عثمان رضي الله عنه: لا إلاّ نكاح رغبة غير مدالسة. ﴿فإن طلقها﴾ الزوج الثاني، ﴿أن يتراجعا﴾ أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه بالزواج. ﴿إن ظنا﴾ إن كان في ظنهما أنّهما يقيمان حقوق الزوجية، ولم يقل: إن علما أنّهما يقيمان؛ لأنّ اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن فسر الظن ههنا بالعلم، فقد وهم من طريق اللفظ، والمعنى: لأنّك لا تقول علمت أن يقوم زيد، ولكن علمت أنّه يقوم، ولأنّ الإنسان لا يعلم ما في الغد وإنّما يظن ظناً.

وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾.

﴿فبلغن أجلهنّ﴾ أي: آخر عدتهنّ وشارفن منتهاها، والأجل. يقع على المدة كلها وعلى آخرها. يقال لعمر الإنسان: أجل، وللموت الذي ينتهي به أجل، وكذلك الغاية والأمد. يقول النحويون من لابتداء الغاية، وإلى لانتهاء الغاية. وقال:

كل حي مستكمل مدّة العمـ ... ـر ومـوت إذا انتهـى أمـده

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: الخلع الحديث رقم: (5227)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: المختلعة تأخذ ما أعطاها، الحديث رقم: (2056)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: الخلع الحديث رقم: (2227)، وأخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: الخلع الحديث رقم: (3462)، وأحمد في المسند 6/ 434، ومالك في الموطأ، كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في الخلع الحديث رقم: (31)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: المختلعة تأخذ من أعطاها الحديث رقم: (2057)، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الطلاق، باب: من أجاز طلاق الثلاثة إلخ. الحديث رقم: (5260)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى... الحديث رقم: (3512).

(2) سورة البقرة، الآية: 229.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في المحل، الحديث= رقم: (1120)، والنسائي في كتاب: الطلاق، باب: إحلال المطلقة ثلاثاً وما فيه من التغليظ الحديث رقم: (3416)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: المحلل والمحلل له الحديث رقم: (1934)، وأخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في التحليل الحديث رقم: (2076)، وأحمد في المسند 1/ 87. أخرجه أحمد في المسند 2/ 323. وأخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: المحلل والمحلل له الحديث رقم: (1936)، وأخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في المحلل والمحلل له الحديث رقم: (1119).

(4) عبد الرزاق في مصنفه 6/ 265 الحديث رقم: (10777)، وأخرجه ابن أبي شيبة في 4/ 294، كتاب: النكاح، باب: في الرجل يطلق امرأته.

(5) أخرجه الحاكم حديث ابن عمر في المستدرك 2/ 199.

ويتسع في البلوغ أيضاً، فيقال: بلغ البلد إذا شارفه وداناه، ويقال: قد وصلت، ولم يصل وإنّما شارف. ولأنّه قد علم أنّ الإمساك بعد تقضي الأجل لا وجه له، لأنّها بعد تقضيه غير زوجة له في غير عدّة منه، فلا سبيل له عليها. **﴿فامسكوهنّ بمعروف﴾** فإما أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة، **﴿أو سرحوهنّ بمعروف﴾** وإمّا أن يخليها حتى تنقضي عدّتها وتبين من غير ضرار. **﴿ولا تمسكوهنّ ضراراً﴾** كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدّتها، ثم يراجعها لا عن حاجة ولكن ليطول العدّة عليها، فهو الإمساك ضراراً. **﴿لتعتدوا﴾** لتظلموهن، وقيل: لتلجئوهنّ إلى الافتداء. **﴿فقد ظلم نفسه﴾** بتعريضها لعقاب الله. **﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾** أي: جدوا في الأخذ بها والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها، وإلا فقد اتخذتموها هزواً ولعباً. ويقال لمن لم يجد في الأمر: إنّما أنت لاعب وهازىء، ويقال: كن يهودياً وإلاّ فلا تلعب بالتوراة. وقيل: كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوّج، ويقول: كنت لاعباً. وعن النبي ﷺ: «ثلاث جدّهنّ جد وهزلهنّ جد: الطلاق، والنكاح، والرجعة»[1]. **﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾** بالإسلام، وبنبوّة محمد ﷺ: **﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾** من القرآن والسنة، وذكرها: مقابلتها بالشكر والقيام بحقها. **﴿يعظكم به﴾** بما أنزل عليكم.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾.

﴿فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ﴾ إمّا أن يخاطب به الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدّة ظلماً وقسراً، ولحمية الجاهلية لا يتركونهنّ يتزوّجن من شئن من الأزواج، والمعنى: أن ينكحن أزواجهنّ الذين يرغبن فيهم ويصلحون لهنّ، وإما أن يخاطب به الأولياء في عضلهنّ أن يرجعن إلى أزواجهنّ. روي: أنّها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأوّل، وقيل: في جابر بن عبد الله حين عضل بنت عم له، والوجه أن يكون خطاباً للناس. أي: لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنّه إذا وجد بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين، والعضل الحبس والتضييق، ومنه: عضلت الدجاجة، إذا نشب بيضها فلم يخرج، وأنشد لابن هرمة:

وإنّ قصائدي لك فاصطنعني عقائل قد عضلن عن النكاح

وبلوغ الأجل على الحقيقة، وعن الشافعي رحمه الله: دلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين. **﴿إذا تراضوا﴾** إذا تراضى الخطاب النساء **﴿بالمعروف﴾** بما يحسن في الدين والمروآة من الشرائط، وقيل: بمهر المثل. ومن مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنها إذا زوجت نفسها بأقل من مهر مثلها، فللأولياء أن يعترضوا.

فإنْ قلتَ: لمن الخطاب في قوله: **﴿ذلك يوعظ به﴾**؟ **قلتُ:** يجوز أن يكون لرسول الله ﷺ، ولكل أحد، ونحوه **﴿ذلك خير لكم وأطهر﴾** **﴿أزكى لكم وأطهر﴾** من أدناس الآثام، وقيل: أزكى وأطهر أفضل وأطيب. **﴿والله يعلم﴾** ما في ذلك من الزكاء والطهر. **﴿وأنتم لا تعلمونه﴾**، أو والله يعلم ما تستصلحون به من الأحكام والشرائع، وأنتم تجهلونه.

۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾.

﴿يرضعن﴾ مثل يتربصن في أنّه خبر في معنى الأمر المؤكد. **﴿كاملين﴾** توكيد كقوله: **﴿تلك عشرة كاملة﴾**[2] لأنّه مما يتسامح فيه. فتقول: أقمت عند فلان حولين، ولم تستكملهما. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: أن يكمل الرضاعة. وقرىء: الرضاعة، بكسر الراء، والرضعة، وأن تتم الرضاعة، وأن يتم الرضاعة برفع الفعل تشبيهاً لأنّ بما لتأخيهما في التأويل.

فإنْ قلتَ: كيف اتصل قوله: **﴿لمن أراد﴾** بما قبله؟ **قلتُ:** هو بيان لمن توجه إليه الحكم كقوله تعالى: **﴿هيت لك﴾**[3] لك بيان للمهيت به. أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع. وعن قتادة: حولين كاملين. ثم أنزل الله اليسر والتخفيف، فقال: **﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾** أراد أنّه يجوز النقصان. وعن الحسن: ليس ذلك بوقت لا ينقص منه، بعد أن لا يكون في انفطام ضرر، وقيل: اللام متعلقة بيرضعن، كما تقول: أرضعت فلانة لفلان ولده. أي: يرضعن حولين لمن أراد أن يتم الرضاعة من الآباء، لأنّ الأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئر إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم عند أبي حنيفة رحمه الله ما دامت زوجةً أو معتدةً من نكاح، وعند الشافعي: يجوز، فإذا انقضت عدّتها جاز بالاتفاق.

فإنْ قلتَ: فما بال الوالدات مأمورات بأن يرضعن

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الطلاق على الهزل الحديث رقم: (2194)، والترمذي في كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في الجد والهزل الحديث رقم: (1184)، وابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: من طلق ونكح... الحديث رقم: (2039)، والدارقطني في = السنن، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء، الحديث رقم: (50)، والحاكم في المستدرك 2/197.

(2) سورة البقرة، الآية: 196.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

أولادهن! قلتُ: إما أن يكون أمراً على وجه الندب، وإما على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار. وقيل: أراد الوالدات المطلقات، وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع.

﴿وعلى المولود له﴾ وعلى الذي يولد له، وهو الوالد، وله في محل الرفع على الفاعلية، نحو: عليهم، في ﴿المغضوب عليهم﴾.

فإنْ قلتَ: لم قيل المولود له دون الوالد؟ قلتُ: ليعلم أنّ الوالدات إنّما ولدن لهم، لأنّ الأولاد للآباء، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات. وأنشد للمأمون بن الرشيد:

فإنّما أمهات الناس أوعية   مستودعات وللآباء أبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظآر. ألا ترى أنّه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله تعالى: ﴿واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾[1]

﴿بالمعروف﴾ تفسيره ما يعقبه، وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه ولا يتضارا. وقرىء: لا تكلف، بفتح التاء. ولا نكلف، بالنون. وقرىء: لا تضار بالرفع على الإخبار، وهو يحتمل البناء للفاعل والمفعول، وأن يكون الأصل تضارر بكسر الراء، وتضارر بفتحها. وقرأ: لا تضار بالفتح أكثر القراء. وقرأ الحسن بالكسر على النهي، وهو محتمل للبناءين أيضاً. ويبين ذلك أنّه قرىء: لا تضارر، ولا تضارر بالجزم وفتح الراء الأولى وكسرها. وقرأ أبو جعفر: لا تضار، بالسكون مع التشديد على نية الوقف. وعن الأعرج: لا تضار بالسكون والتخفيف، وهو من ضاره يضيره، ونوى الوقف كما نواه أبو جعفر، أو اختلس الضمة فظنه الراوي سكوناً. وعن كاتب عمر بن الخطاب: لا تضرر، والمعنى: لا تضار والدة زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنف به وتطلب منه ما ليس بعدل من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقول بعدما ألفها الصبي: اطلب له ظئراً وما أشبه ذلك. ولا يضارّ مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها، ولا يأخذه منها وهي تريد إرضاعه، ولا يكرهها على الإرضاع. وكذلك إذا كان مبنياً للمفعول فهو نهي عن أن يلحق بها الضرار من قبل الزوج، وعن أن يلحق الضرار بالزوج من قبلها بسبب الولد، ويجوز أن يكون تضارّ بمعنى: تضر، وأن تكون الباء من صلته. أي: لا تضر والدة بولدها، فلا تسيء غذاءه وتعهده، ولا تفرط فيما ينبغي له، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها. ولا يضر الوالد به بأن ينتزعه من يدها، أو يقصر في حقها، فتقصر هي في حق الولد.

فإنْ قلتَ: كيف قيل بولدها وبولده؟ قلتُ: لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه وأنّه ليس بأجنبي منها، فمن حقّها أن تشفق عليه وكذلك الوالد. ﴿وعلى الوارث﴾ عطف على قوله: وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ، وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، فكان المعنى: وعلى وارث المولود له مثل ما وجب عليه من الرزق والكسوة. أي: إن مات المولود له لزم من يرثه أن يقوم مقامه في أن يرزقها ويكسوها بالشريطة التي ذكرت من المعروف، وتجنب الضرار. وقيل: هو وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه، واختلفوا. فعند ابن أبي ليلى كل من ورثه. وعند أبي حنيفة من كان ذا رحم محرم منه. وعند الشافعي لا نفقة فيما عدا الولاد، وقيل: من ورثه من عصبته مثل الجد والأخ وابن الأخ والعم وابن العمّ، وقيل: المراد وارث الأب، وهو الصبي نفسه، وأنّه إن مات أبوه وورثه وجبت عليه أجرة رضاعه في ماله إن كان له مال، فإن لم يكن له مال أجبرت الأمّ على إرضاعه. وقيل: على الوارث، على الباقي من الأبوين. من قوله: واجعله الوارث منا ﴿فإن أرادا فصالاً﴾ صادراً ﴿عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾ في ذلك زادا على الحولين أو نقصا، وهذه توسعة بعد التحديد. وقيل: هو في غاية الحولين لا يتجاوز، وإنّما اعتبر تراضيهما في الفصال وتشاورهما. أمّا الأب فلا كلام فيه، وأمّا الأمّ فلأنها أحق بالتربية وهي أعلم بحال الصبي. وقرىء: فإن أراد.

استرضع: منقول من أرضع، يقال: أرضعت المرأة الصبي، واسترضعتها الصبي لتعدّيه إلى مفعولين، كما تقول: أنجح الحاجة، واستنجحته الحاجة، والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم، فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه، كما تقول: استنجحت الحاجة، ولا تذكر من استنجحته، وكذلك حكم كل مفعولين لم يكن أحدهما عبارة عن الأوّل. ﴿إذا سلمتم﴾ إلى المراضع ﴿ما آتيتم﴾ ما أردتم إيتاءه، كقوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾[2] وقرىء: ما أتيتم، من أتى إليه إحساناً إذا فعله، ومنه قوله تعالى: ﴿إنّه كان وعده مأتيا﴾[3] أي: مفعولاً. وروى شيبان عن عاصم: ما أوتيتم، أي: ما آتاكم الله، وأقدركم عليه من الأجرة، ونحوه: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾. وليس التسليم بشرط للجواز والصحة، وإنّما هو: ندب إلى الأولى، ويجوز أن يكون بعثاً على أن يكون الشيء الذي تعطاه المرضع من أهنى ما يكون لتكون طيبة النفس راضية، فيعود ذلك إصلاحاً لشأن الصبي واحتياطاً في أمره، فأمرنا بإيتائه ناجزاً يداً بيد، كانه قيل: إذا أديتم إليهنّ يداً بيد ما أعطيتموهن. ﴿بالمعروف﴾ متعلق بسلمتم، أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن.

---

(1) سورة لقمان، الآية: 33.
(2) سورة المائدة، الآية: 6.
(3) سورة مريم، الآية: 61.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾.

﴿والذين يتوفون منكم﴾ على تقدير حذف المضاف، أراد وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، وقيل معناه: يتربصن بعدهم، كقولهم: السمن منوان بدرهم. وقرىء: يتوفون بفتح الياء أي: يستوفون آجالهم[1]. وهي قراءة علي رضي الله عنه، والذي يحكى أنّ أبا الأسود الدؤلي كان يمشي خلف جنازة فقال له رجل: من المتوفي، بكسر الفاء؟ فقال: الله تعالى، وكان أحد الأسباب الباعثة لعلي رضي الله عنه على أن أمره بأن يضع كتاباً في النحو تناقضه هذه القراءة. **﴿يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشراً﴾** يعتددن هذه المدّة، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وقيل: عشراً، ذهاباً إلى الليالي والأيام داخلة معها، ولا تراهم قط يستعملون التذكير فيه ذاهبين إلى الأيّام[2]. تقول: صمت عشراً، ولو ذكرت خرجت من كلامهم، ومن البين فيه قوله تعالى: ﴿إن لبثتم إلا عشراً﴾[3] ثم ﴿إن لبثتم إلا يوماً﴾[4] **﴿فإذا بلغن أجلهن﴾** فإذا انقضت عدّتهن، **﴿فلا جناح عليكم﴾** أيّها الأئمة وجماعة المسلمين **﴿فيما فعلن في أنفسهن﴾** من التعرّض للخطاب **﴿بالمعروف﴾** بالوجه الذي لا ينكره الشرع، والمعنى: أنّهن لو فعلن ما هو منكر كان على الأئمة أن يكفوهن، وإن فرّطوا كان عليهم الجناح.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

﴿فيما عرضتم به﴾ هو أن يقول لها: إنك لجميلة أو صالحة أو نافقة، ومن غرضي أن أتزوّج، وعسى الله أن ييسر لي امرأةً صالحةً، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنّه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أنكحك، أو أتزوّجك، أو أخطبك. وروى ابن المبارك عن عبد الرحمٰن بن سليمان عن خالته قالت: دخل علي أبو جعفر محمد بن علي وأنا في عدتي، فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله ﷺ، وحق جدي علي، وقدمي في الإسلام، فقلت: غفر الله لك أتخطبني في عدتي وأنت يؤخذ عنك، فقال: أو قد فعلت، إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ وموضعي. قد دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة، وكانت عند ابن عمها أبي سلمة، فتوفي عنها، فلم يزل يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير في يده من شدّة تحامله عليها، فما كانت تلك خطبة[5].

فإنْ قلتَ: أي فرق بين الكناية والتعريض؟ **قلتُ:** الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطول القامة، وكثير الرماد للمضياف، والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم. ولذلك قالوا:

وحسبك بالتسليم مني تقاضياً

وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ويسمى التلويح، لأنه يلوح منه ما يريده. **﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾** أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم، فلم تذكروه بألسنتكم لا معرضين ولا مصرحين. **﴿علم الله أنّكم ستذكرونهنّ﴾** لا محالة، ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهنّ ولا تصبرون عنه. وفيه طرف من التوبيخ، كقوله: ﴿علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم﴾[6].

فإنْ قلتَ[7]: أين المستدرك بقوله: **﴿ولكن لا تواعدوهنّ﴾**؟ **قلتَ:** هو محذوف لدلالة ستذكرونهنّ عليه تقديره: علم الله أنّكم ستذكرونهنّ فاذكروهنّ، ولكن لا تواعدوهنّ سراً، والسر وقع كناية عن النكاح الذي هو الوطء لأنه مما يسر. قال الأعشى:

ولا تقربن جارةً أنّ سرها ... عليك حرام فانكحن أو تأبدا

ثم عبّر به عن النكاح الذي هو العقد لأنّه سبب فيه كما

---

(1) قال أحمد رحمه الله: ولعلّ السائل لأبي الأسود كان ممن يفهم عنه، أنه لا فرق عنده بين الكسر والفتح، وهو الظاهر، على ذلك أجابه أبو الأسود، فلا تناقض حينئذٍ.

(2) قال أحمد رحمه الله: ومنه من صام رمضان، وأتبعه بستّ من شوّال، فكأنه صام الدهر، فغلب الليالي، وإن كان الصوم غير متصوّر فيها، حتى قالوا إنّ شرطه النية، وزمانها الليل، فلهذا جعل لها حظاً في الصوم، وغلبها. قوله تعالى: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهنّ﴾ الآية.

(3) سورة طٰه، الآية: 103.

(4) سورة طٰه، الآية: 104.

(5) أخرجه الدارقطني في 224/3، كتاب النكاح الحديث رقم: (18).

(6) سورة البقرة، الآية: 187.

(7) قال أحمد رحمه الله: وقويت دلالة هذا المذكور على ما حذف؛ لأنّ = المعتاد في مثل هذه الصيغة ورود الإباحة عقيبها، ونظير هذا النظم قوله تعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم، فتاب عليكم، وعفا عنكم، فالآن باشروهنّ﴾ الآية، ولهذا الحذف سر، والله أعلم، وهو اجتنب؛ لأنّ الإباحة لم تنسحب على الذكر مطلقاً، بل لختصت بوجه واحد من وجوهه، وذلك الوجه المباح عسر التميز، عما لم يبح، فذكرت مستثناة بقوله إلا أن تقولوا قولاً معروفاً، تنبيهاً على أنّ المحل ضيق، والأمر فيه عسر، والأصل فهي الحظر، ولا كذلك الوطء في زمن ليل الصوم، فإنه أبيح مطلقاً غير مقيد، فلذلك صدر الكلام بالإباحة والتوسعة، وجاء النهي عن مباشرة المعتكفة في المسجد، تلواً للإباحة، وتبعاً في الذكر؛ لأنها حالة فاذة، والمنع فيها لم يكن لأجل الصوم، ولكن الأمر يتعلق به، من حيث المصاحب، وهو الاعتكاف، فتفطن لهذا السر، فإنه من غرائب النكت. قوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون﴾ الآية.

فعل بالنكاح ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ وهو: أن تعرضوا ولا تصرحوا.

فإنْ قلتَ: بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلتُ: بلا تواعدوهنّ، أي: لا تواعدوهنّ مواعدةً قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة، أو لا تواعدوهنّ إلا بأن تقولوا: أي: لا تواعدوهنّ إلا بالتعريض، ولا يجوز أن يكون استثناءً منقطعاً من الأداة إلى قولك: لا تواعدوهنّ، إلا التعريض. وقيل: معناه: لا تواعدوهنّ جماعاً، وهو أن يقول لها: إن نكحتك كان كيت وكيت، يريد ما يجري بينهما تحت اللحاف. إلا أن تقولوا قولاً معروفاً. يعني: من غير رفث، ولا إفحاش في الكلام، وقيل: لا تواعدوهنّ سراً، أي: في السر، على أنّ المواعدة في السر عبارة عن المواعدة بما يستهجن، لأن مسارتهنّ في الغالب بما يستحيا من المجاهرة به، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ هو: أن يتواثقا أن لا تتزوّج غيره، ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ من عزم الأمر، وعزم عليه، وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقدة النكاح في العدّة، لأنّ العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى، ومعناه: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح، وقيل: معناه: ولا تقطعوا عقدة النكاح، وحقيقة العزم القطع، بدليل قوله عليه السلام: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل»[1]. وروي: «لمن لم يبيت الصيام»[2]. ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ يعني: ما كتب وفرض من العدّة. ﴿يعلم ما في أنفسكم﴾ من العزم على ما لا يجوز، ﴿فاحذروه﴾ ولا تعزموا عليه. ﴿غفور حليم﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

﴿لا جناح عليكم﴾ لا تبعة عليكم من إيجاب مهر ﴿إن طلقتم النساء ما لم تمسوهنّ﴾ ما لم تجامعوهنّ، ﴿أو تفرضوا لهنّ فريضة﴾ إلا أن تفرضوا لهن فريضة، أو حتى تفرضوا، وفرض الفريضة تسمية المهر، وذلك أنّ المطلقة غير المدخول بها إن سمي لها مهر فلها نصف المسمى، وإن لم يسم لها فليس لها نصف مهر المثل ولكن المتعة، والدليل على أن الجناح تبعة المهر قوله: ﴿وإن طلقتموهن﴾ إلى قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾[3] فقوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ إثبات للجناح المنفي ثمة، والمتعة درع وملحفة وخمار على حسب الحال عند أبي حنيفة، إلا أن يكون مهر مثلها أقل من ذلك، فلها الأقل من نصف مهر المثل، ومن المتعة؛ ولا ينقص من خمسة دراهم؛ لأنّ أقل المهر عشرة دراهم، فلا ينقص من نصفها. و ﴿الموسع﴾ الذي له سعة، و ﴿المقتر﴾ الضيق الحال، و ﴿قدره﴾ مقداره الذي يطيقه؛ لأنّ ما يطيقه هو الذي يختص به. وقرىء: بفتح الدال، والقدر والقدر لغتان، وعن النبي ﷺ أنّه قال لرجل من الأنصار تزوّج امرأةً ولم يسمّ لها مهراً، ثم طلقها قبل أن يمسها: أمتعتها؟ قال: لم يكن عندي شيء. قال: «متعها بقلنسوتك»[4]. وعند أصحابنا لا تجب المتعة إلا لهذه وحدها، وتستحب لسائر المطلقات، ولا تجب ﴿متاعاً﴾ تأكيد لمتعوهنّ بمعنى: تمتيعاً. ﴿بالمعروف﴾ بالوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة. ﴿حقاً﴾ صفة لمتاعاً أي متاعاً واجباً عليهم، أو حق ذلك حقاً. ﴿على المحسنين﴾ على الذين يحسنون إلى المطلقات بالتمتيع، وسماهم قبل الفعل محسنين، كما قال ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه».

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

﴿إلاّ أن يعفون﴾ يريد المطلقات.

فإنْ قلتَ[5]: أي فرق بين قولك الرجال يعفون والنساء

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصوم، باب: النية في الصيام الحديث رقم: (454)، والترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء لا صيام لمن لم يعزم من الليل الحديث رقم: (730)، والنسائي في كتاب: الصيام، باب: ذكر اختلاف الناقلين لخبر... الحديث رقم: (2337)، وابن ماجه في كتاب: الصيام، باب: ما جاء في فرض الصوم من الليل والخيار في الصوم الحديث رقم: (1700).

(2) أخرجه النسائي في كتاب: الصيام، باب: 68 الحديث رقم: (2331).

(3) سورة البقرة، الآية: 237.

(4) ذكره القرطبي في تفسيره (202/3).

(5) قال أحمد رحمه الله: هذا النقل وهم فيه الزمخشري عن الشافعي رضي الله عنه، فإنّ مذهبه موافق لمذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، في أنّ المراد به: الزوج، وإنما ذهب إلى أنّ المراد: الوليّ الإمام مالك رضي الله عنه، وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة، عليه رونق الحق، وطلاوة الصواب لوجوه. الأوّل: أنّ ﴿الذي بيده عقدة النكاح﴾ ثابتة مستقرّة هو: الوليّ، وأمّا الزوج، = فله ذلك حالة العقد المتقدّم خاصة، ثم هو بعد الطلاق، والكلام حينئذٍ ليس من عقدة النكاح في شيء البتة، فإن قيل: أطلق عليه ذلك بعد الطلاق بتأويل كان مقدرة، فلا يخفى على المصف ما في ذلك من البعد، والخروج عن حدّ إطلاق الكلام وأصله. الثاني: أن الخطاب الأوّل للزوجات اتفاقاً بقوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ وفيهنّ من لا عوف لها البتة، كالأمة والبكر، فلولا استتمام التقسيم بصرف الثاني إلى الوليّ، على ابنته البكر أو أمته، وإلا لزم الخروج عن ظاهر عموم الأوّل، وحيث حمل الكلام على الوليّ، صار الكلام بمعنى: ﴿إلا أن يعفون﴾ إن كنّ أهلاً للعفو، أو يعفو لهنّ إن لم يكن أهلاً، ولهذا كان الوليّ الذي يعفو، ويعتبر عفوه عند مالك هو: الأب في ابنته البكر، والسيد في أمته خاصة. الثالث: أنّ الكتاب العزيز جدير بتناسب الأقسام، وانتظام أطراف الكلام، والأمر فيه على هذا المحمل بهذه المثابة، فإنّ الآية حينئذ مشتملة على خطاب الزوجات، ثم الأولياء، ثم الأزواج بقوله: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ فتكون على هذا الوجه ملية بالفوائد، جامعة للمقاصد. الرابع: أنّ المضاف إلى الزوجات هو الإسقاط بلا ريب،

يعفون؟ **قلتُ:** الواو في الأوّل ضميرهم والنون علم الرفع، والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهنّ، والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل وهو في محل النصب. ويعفو عطف على محله، و **﴿الذي بيده عقدة النكاح﴾** الوليّ. يعني: إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهنّ فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رآني ولا خدمته ولا استمتع بي، فكيف آخذ منه شيئاً. أو يعفو الوليّ الذي يلي عقد نكاحهنّ، وهو مذهب الشافعي، وقيل: هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأوّل ظاهر الصحة، وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر، إلا أن يقال: كان الغالب عندهم أن يسوق إليها المهر عند التزوّج، فإذا طلقها استحقّ أن يطالبها بنصف ما ساق إليها، فإذا ترك المطالبة، فقد عفا عنها، أو سماه عفواً على طريق المشاكلة، وعن جبير بن مطعم أنّه تزوّج امرأةً وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحق بالعفو، وعنه: أنّه دخل على سعد بن أبي وقاص، فعرض عليه بنتاً له، فتزوّجها، فلما خرج طلقها، وبعث إليها بالصداق كاملاً، فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها عليّ فكرهت ردّه. قيل: فلم بعثت بالصداق؟ قال: فأين الفضل[1]. و **﴿الفضل﴾** التفضل، أي: ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض وتتمرؤا ولا تستقصوا. وقرأ الحسن: أو يعفو الذي، بسكون الواو، وإسكان الواو والياء في موضع النصب تشبيه لهما بالألف؛ لأنّهما أختاها. وقرأ أبو نهيك: وأن يعفو بالياء. وقرىء: ولا تنسوا الفضل بكسر الواو.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾.

﴿الصلاة الوسطى﴾ أي: الوسطى بين الصلوات، أو الفضلى من قولهم للأفضل الأوسط، وإنّما أفردت وعطفت على الصلاة[2] لانفرادها بالفضل، وهي صلاة العصر. وعن النبيّ ﷺ أنّه قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم ناراً»[3]. وقال عليه السلام: «إنّها الصلاة التي شغل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب»[4]. وعن حفصة أنّها قالت لمن كتب لها المصحف: إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها، فأملت عليه والصلاة الوسطى صلاة العصر[5]. وروي عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم: والصلاة الوسطى وصلاة العصر[6]، بالواو. فعلى هذه القراءة يكون التخصيص لصلاتين إحداهما: الصلاة الوسطى إمّا الظهر وإمّا الفجر وإمّا المغرب على اختلاف الروايات فيها، والثانية: العصر، وقيل: فضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: هي صلاة الظهر؛ لأنّها في وسط النهار[7]، وكان رسول الله ﷺ يصليها بالهاجرة، ولم تكن صلاة أشدّ على أصحابه منها، وعن مجاهد: هي الفجر؛ لأنّها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل. وعن قبيصة بن ذؤيب: هي المغرب؛ لأنّها وتر النهار، ولا تنقص في السفر من الثلاث[8]. وقرأ عبد الله وعلي:

= ولو كان المراد بصاحب العقدة: الزوج، لتعين حمل العفو على تكميل المهر، وإعطائه ما لا يستحق عليه، وهذا إنما يطابقه من الأسماء التفضل، ومن ثَمّ قال في خطاب الأزواج: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ لأنّ المبذول من جهته غير مستحق عليه، فهو فضل لا عفو. ولا يقال: لعلّ الزوج تعجل المهل كاملاً قبل الطلاق، وطلق، فيجب استرجاع النصف، فيسقطه ويعفوا عنه، وحينئذٍ يبقى العفو من جانب الزوج، على ظاهره وحقيقته. لانا نقول: حسبنا في ردّ هذا الوجه ما فيه من الكلفة، وتقدير ما الأصل خلافه. الخامس: أنّ صدر الآية خطاب للأزواج في قلوه: ﴿وإن طلقتموهن﴾ إلى قوله: ﴿فرضتم﴾ فلو جاء قوله: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ مراداً به: الزوج، لكان عدولاً والتفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، وليس هذا من مواضعه، ولأجل هذا جاء قوله: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ على صيغة الخطاب؛ لأنّ المراد به: الأزواج، لخطابهم أوّلاً. السادس: أنّ قوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ وما عطف عليه استثناء من قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ وأصل الكلام على الوليّ، استقام، إذ هم لو كملوا المهر لهنّ، فالنصف واجب عليهم، لا يتغير، ولا يخالف الحالة المستثناة، مما وقع منه الاستثناء، فلا يجري الاستثناء على حقيقته في المخالفة بين الأوّل والثاني، إلا أن يقال مقتضى قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ واجب عليكم، أنّ النصف الآخر، غير مؤدّي إليهنّ؛ لأنه ساقط عن الزوج، فإذا عفى، بمعنى: كمل المهر، فقد صار النصف الآخر مؤدّى إليهنّ، ففي هذا التأويل من الكلفة، ما يسقط مؤنة ردّه.

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (12/5) وأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (12/369).

(2) لعله على الصلوات.

(3) أخرجه الطبري في تفسيره.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ الحديث رقم: (4533)، وفي كتاب: المغازي الحديث رقم: (4111)، ومسلم في صحيحه، كتاب: المساجد، باب: الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر الحديث رقم: (1424)، والترمذي أخرج حديث ابن مسعود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في صلاة الوسطى أنها العصر الحديث رقم: (181)، وحديث سمرة (1820).

(5) أخرجه ابن أبي شيبة في 2/505، كتاب: الجمعة، باب: في قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلاة...﴾.

(6) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره الحديث رقم: (6323).

(7) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر الحديث رقم: (1426)، وأبو داود في وقت صلاة العصر الحديث رقم: (410)، والترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة البقرة الحديث رقم: (2982)، والنسائي في كتاب: الصلاة، باب: المحافظة على صلاة العصر الحديث رقم: (471)، ومالك في الموطأ، كتاب: صلاة الجماعة، باب: الصلاة الوسطى الحديث رقم: (25)، وأحمد في المسند 6/73.

(8) أخرجه الطبري في تفسيره. وأخرجه ابن أبي شيبة عن زيد بن ثابت 2/505 كتاب: الجمعة، باب: في قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلاة...﴾.

الصلاة الوسطى. وقرأت عائشة رضي الله عنها: والصلاة الوسطى، بالنصب على المدح والاختصاص، وقرأ نافع: الوصطى بالصاد. ﴿وقوموا لله﴾ في الصلاة ﴿قانتين﴾ ذاكرين لله في قيامكم، والقنوت أن تنكر الله قائماً، وعن عكرمة: كانوا يتكلمون في الصلاة فنهوا. وعن مجاهد: هو الركود وكف الأيدي والبصر. وروي: أنّهم كانوا إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمٰن أن يمدّ بصره أو يلتفت أو يقلب الحصا أو يحدّث نفسه بشيء من أمور الدنيا.

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾.

﴿فإن خفتم﴾ فإن كان بكم خوف من عدوّ أو غيره ﴿فرجالاً﴾ فصلوا راجلين، وهو جمع راجل كقائم وقيام، أو رجل ويقال: رجل رجل، أي: راجل، وقرىء: فرجالاً بضم الراء، ورجالاً بالتشديد، ورجلاً، وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يصلون في حال المشي والمسايفة ما لم يمكن الوقوف، وعند الشافعي رحمه الله يصلون في كل حال، والراكب يومي ويسقط عنه التوجه إلى القبلة. ﴿فإذا أمنتم﴾ فإذا زال خوفكم ﴿فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ من صلاة الأمن، أو فإذا أمنتم، فاشكروا الله على الأمن، واذكروه بالعبادة، كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع، وكيف تصلون في حال الخوف وفي حال الأمن.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾.

تقديره فيمن قرأ: وصية بالرفع، ووصية الذين يتوفون، أو وحكم الذين يتوفون وصية لأزواجهم، أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم. وفيمن قرأ: بالنصب، والذين يتوفون، يوصون وصيةً، كقولك إنّما انت سير البريد بإضمار تسير، أو والزم الذين يتوفون وصيةً، وتدل عليه قراءة عبد الله: كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول، مكان قوله: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول﴾ وقرأ أبيّ: متاع لأزواجهم متاعاً. وروي عنه: فمتاع لأزواجهم، ومتاعاً نصب بالوصية إلا إذا أضمرت يوصون فإنّه نصب بالفعل. وعلى قراءة أبيّ: متاعاً نصب بمتاع؛ لأنه في معنى: التمتيع، كقولك: الحمد لله حمد الشاكرين، وعجبني ضرب لك زيداً ضرباً شديداً. و ﴿غير إخراج﴾ مصدر مؤكد، كقولك: هذا القول غير ما تقول، أو بدل من متاعاً، أو حال من الأزواج، أي: غير مخرجات، والمعنى: أنّ حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً أي: ينفق عليهن من تركته، ولا يخرجن من مساكنهن، وكان ذلك في أوّل الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أربعة أشهر وعشراً﴾.[1] وقيل: نسخ ما زاد منه على هذا المقدار: ونسخت النفقة بالإرث الذي هو: الربع، والثمن. واختلف في السكنى، فعند أبي حنيفة وأصحابه: لا سكنى لهن. ﴿فيما فعلن في انفسهن﴾ من التزين والتعرض للخطاب. ﴿من معروف﴾ مما ليس بمنكر شرعاً.

فإنْ قلتَ: كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟ قلتُ قد تكون الآية متقدمة في التلاوة، وهي متأخرة في التنزيل، كقوله تعالى: ﴿سيقول السفهاء﴾[2] مع قوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾[3].

وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾.

﴿وللمطلقات متاع﴾ عم المطلقات بإيجاب المتعة لهنّ بعد ما أوجبها لواحدة منهنّ وهي المطلقة غير المدخول بها، وقال: ﴿حقاً على المتقين﴾ كما قال: ثمة حقاً على المحسنين. وعن سعيد بن جبير وأبي العالية والزهري: أنّها واجبة لكل مطلقة، وقيل: قد تناولت التمتيع الواجب والمستحب جميعاً، وقيل: المراد بالمتاع نفقة العدّة.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾.

﴿ألم تر﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأوّلين، وتعجيب من شأنهم، ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع؛ لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجيب.

وروي: أنّ أهل داوردان ـ قرية قبل واسط ـ وقع فيهم الطاعون، فخرجوا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم، ليعتبروا ويعلموا أنّه لا مفر من حكم الله وقضائه، وقيل: مرّ عليهم حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم، وتفرّقت أوصالهم، فلوى شدقه وأصابعه تعجباً مما رأى، فأوحي إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله، فنادى فنظر إليهم قياماً يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، وقيل: هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذراً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم. ﴿وهم ألوف﴾ فيه دليل على الألوف الكثيرة، واختلف في ذلك فقيل: عشرة، وقيل: ثلاثون، وقيل: سبعون، ومن بدع التفاسير ألوف متآلفون، جمع آلف كقاعد وقعود.

فإنْ قلتَ: ما معنى قوله: ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ قلتُ: معناه: فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على انهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته

---

(1) سورة البقرة، الآية: 234.

(2) سورة البقرة، الآية: 142.

(3) سورة البقرة، الآية: 144.

وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنّهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف، كقوله تعالى: ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[1] وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة وأنّ الموت إذا لم يكن منه بد ولم ينفع منه مفرّ فأولى أن يكون في سبيل الله. ﴿لذو فضل على الناس﴾ حيث يبصرهم ما يعتبرون به، ويستبصرون كما بصر أولئك، وكما بصركم باقتصاص خبرهم أو لذو فضل على الناس حيث أحيا أولئك ليعتبروا، فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم البعث. والدليل على أنّه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد ما اتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله.

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾.

﴿واعلموا أنّ الله سميع﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون، ﴿عليم﴾ بما يضمرونه وهو من وراء الجزاء.

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾.

إقراض الله مثل لتقديم العمل الذي يطلب به ثوابه، والقرض الحسن إما المجاهدة في نفسها، وإما النفقة في سبيل الله. ﴿اضعافاً كثيرةً﴾ قيل: الواحد بسبعمائة، وعن السدي: كثيرة لا يعلم كنهها إلا الله. ﴿والله يقبض ويبسط﴾ يوسع على عباده ويقتر، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضيقة بالسعة. ﴿واليه ترجعون﴾ فيجازيكم على ما قدّمتم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾.

﴿لنبي لهم﴾ هو يوشع أو شمعون أو إشمويل. ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ انهض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه وننتهي إلى أمره. طلبوا من نبيهم نحو ما كان يفعل رسول الله ﷺ من التأمير على الجيوش التي كان يجهزها ومن أمرهم بطاعته وامتثال أوامره، وروي: انه أمر الناس إذا سافروا أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم. ﴿نقاتل﴾ قرىء: بالنون والجزم على الجواب، وبالنون والرفع على أنّه حال، أي: ابعثه لنا مقدّرين القتال، أو استئناف كأنّه قال لهم: ما تصنعون بالملك! فقالوا: نقاتل. وقرىء: يقاتل بالياء والجزم على الجواب، وبالرفع على أنّه صفة لملكاً. وخبر ﴿عسيتم﴾ ﴿الا تقاتلوا﴾ والشرط فاصل بينهما، والمعنى: هل قاربتم أن لا تقاتلوا يعني: هل الأمر كما أتوقعه أنّكم لا تقاتلون. أراد أن يقول: عسيتم أن لا تقاتلوا. بمعنى: أتوقع جبنكم عن القتال، فادخل هل مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون، وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أنّ المتوقع كائن وأنّه صائب في توقعه، كقوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان﴾[2] معناه: التقرير وقرىء: عسيتم بكسر السين، وهي ضعيفة. ﴿وما لنا الاّ نقاتل﴾ وأي داع لنا إلى ترك القتال وأي غرض لنا فيه ﴿وقد اخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ وذلك أنّ قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فاسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين. ﴿إلا قليلاً منهم﴾ قيل: كان القليل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر. ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وعيد لهم على ظلمهم في القعود عن القتال وترك الجهاد.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾.

﴿طالوت﴾ اسم أعجمي. كجالوت وداود، وإنّما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته، وزعموا أنّه من الطوال لما وصف به من البسطة في الجسم ووزنه إن كان من الطول فعلوت منه أصله طولوت إلا أنّ امتناع صرفه يدفع أن يكون منه، إلا ان يقال: هو اسم عبراني وافق عربياً كما وافق حنطاً حنطةً، وبشمالاً لها رخماناً رخيماً، بسم الله الرحمٰن الرحيم، فهو من الطول كما لو كان عربياً، وكان أحد سببية العجمة لكونه عبرانياً. ﴿أنّى﴾ كيف ومن أين؟ وهو إنكار لتملكه عليهم واستبعاد له.

فإنْ قلتَ[3]: ما الفرق بين الواوين في ﴿ونحن أحق﴾ ﴿ولم يؤت﴾؟ قلتُ: الأولى للحال، والثانية لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالاً، قد انتظمتهما معاً في حكم واو الحال، والمعنى: كيف يتملك علينا والحال أنّه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنّه فقير ولا بدّ للملك من مال يعتضد به، وإنّما قالوا ذلك؛ لأنّ النبوّة كانت في سبط لاوى بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد السبطين؛ ولأنّه كان رجلاً سقاءً أو دباغاً فقيراً. وروي: أنّ نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكاً، فأتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت. ﴿قال إنّ الله اصطفاه عليكم﴾ يريد أنّ الله هو الذي اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، ولا اعتراض على حكم الله، ثم ذكر مصلحتين انفع مما ذكروا

---

(1) سورة يسٓ، الآية: 82.

(2) سورة الدهر، الآية: 1.

(3) قال أحمد رحمه الله: وحاصل هذا، أنّ الواو الأولى، أفادت جملتها = الحالية بنفسها، وأفادت الجملة الثانية الحالية أيضاً، لكن بواسطة الواو العاطفة، وهذا النظر من السهل الممتنع.

من النسب والمال، وهما: العلم المبسوط، والجسامة. والظاهر أنّ المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب، ويجوز أن يكون عالماً بالديانات وبغيرها، وقيل: قد أوحي إليه ونبىء، وذلك أنّ الملك لا بدّ أن يكون من أهل العلم، فإنّ الجاهل مزدرى غير منتفع به، وأن يكون جسيماً يملأ العين جهارةً لأنّه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب.

والبسط: السعة والامتداد، وروي: أنّ الرجل القائم كان يمدّ يده فينال رأسه. ﴿يؤتي ملكه من يشاء﴾ أي: الملك له غير منازع فيه فهو يؤتيه من يشاء، من يستصلحه للملك ﴿والله واسع﴾ الفضل والعطاء يوسع على من ليس له سعة من المال، ويغنيه بعد الفقر ﴿عليم﴾ بمن يصطفيه للملك.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾.

﴿والتابوت﴾ صندوق التوراة، وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدّمه، فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرّون.

والسكينة: السكون والطمأنينة، وقيل: هي صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت، لها رأس كرأس الهرّ وذنب كذنبه وجناحان، فتئن فيزف التابوت نحو العدوّ وهم يمضون معه، فإذا استقرّ ثبتوا وسكنوا ونزل النصر، وعن عليّ رضي الله عنه: كان لها وجه كوجه الإنسان، وفيها ريح هفافة. ﴿وبقية﴾ هي: رضاض الألواح، وعصا موسى وثيابه، وشيء من التوراة، وكان رفعه الله تعالى بعد موسى عليه السلام، فنزلت به الملائكة تحمله، وهم ينظرون إليه، فكان ذلك آيةً لإصطفاء الله طالوت، وقيل: كان مع موسى ومع أنبياء بني إسرائيل بعده يستفتحون به، فلما غيرت بنو إسرائيل غلبهم عليه الكفار، فكان في أرض جالوت، فلما أراد الله أن يملك طالوت أصابهم ببلاء حتى هلكت خمس مدائن، فقالوا: هذا بسبب التابوت بين أظهرنا، فوضعوه على ثورين فساقهما الملائكة إلى طالوت. وقيل: كان من خشب الشمشار مموّهاً بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين، وقرأ أبيّ، وزيد بن ثابت: التابوه بالهاء وهي لغة الأنصار.

فإنْ قلتَ[1]: ما وزن التابوت؟ قلتُ: لا يخلو من أن يكون فعلوتاً أو فاعولاً، فلا يكون فاعولاً لقلته نحو سلس وقلق ولأنه تركيب غير معروف، فلا يجوز ترك المعروف إليه، فهو إذاً فعلوت من التوب وهو الرجوع؛ لأنه ظرف توضع فيه الأشياء وتودعه، فلا يزال يرجع إليه ما يخرج منه وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعاته، وأمّا من قرأ بالهاء فهو فاعول عنده، إلا فيمن جعل هاءه بدلاً من التاء لاجتماعهما في الهمس وأنّهما من حروف الزيادة ولذلك أبدلت من تاء التأنيث. وقرأ أبو السمال: سكّينة بفتح السين والتشديد، وهو غريب. وقرىء: يحمله بالياء.

فإنْ قلتَ: من ﴿آل موسىٰ وآل هٰرون﴾؟ قلتُ: الأنبياء من بني يعقوب بعدهما؛ لأنّ عمران هو ابن فاهث ابن لاوى بن يعقوب فكان أولاد يعقوب آلهما، ويجوز أن يراد مما تركه موسىٰ وهٰرون، والآل مقحم لتفخيم شأنهما.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾.

﴿فصل﴾ عن موضع كذا إذا انفصل عنه وجاوزه، وأصله فصل نفسه ثم كثر محذوف المفعول حتى صار في حكم غير المتعدي كانفصل، وقيل: فصل عن البلد فصولاً. ويجوز أن يكون فصله فصلاً، وفصل فصولاً كوقف وصدّ ونحوهما، والمعنى: انفصل عن بلده. ﴿بالجنود﴾ روي أنّه قال لقومه: لا يخرج معي رجل بنى بناءً لم يفرغ منه، ولا تاجر مشتغل بالتجارة، ولا رجل متزوّج بامرأة لم يبن عليها، ولا أبتغي إلا الشاب النشيط الفارغ، فاجتمع إليه مما اختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيظاً وسلكوا مفازةً، فسألوا أن يجري الله لهم نهراً فـ ﴿قال إنّ الله مبتليكم﴾ بما اقترحتموه من النهر.[2] ﴿فمن شرب منه﴾ فمن ابتدأ شربه من النهر بأن كرع فيه، ﴿فليس مني﴾ فليس بمتصل بي ومتحدٌ معي، من قولهم: فلان مني، كأنه بعضه لاختلاطهما واتحادهما. ويجوز أن يراد

(1) قال أحمد رحمه الله: يريد: لأنّ الفاء تاء، واللام كذلك، والعرب تستثقل ما فاؤه ولامه حرف واحد؛ لأنه توأم التكرار. قوله تعالى: ﴿فمن شرب فليس مني﴾ الآية.

(2) قال أحمد رحمه الله: وفي هذه الآية تقوية، لمن ذهب إلى أن الاستثناء المتعقب للجمل، لا يتعين عوده إلى الأخيرة، لاحتمال عوده إلى ما قبلها، ورد على من منع ذلك، محتجاً بامتناع الفصل بين المستثنى والمستثنى منه، بأجنبي من الاستثناء، ولذلك حقق عوده إلى الأخيرة، وتوقف في انعطافه على ما تقدّمها، فيجوز عنده أن يعود على الجميع مع الأخيرة، وأما عوده على ما قبل= الأخيرة دونها، فمعتذر عن هذا القائل، فلم يقف في العود إلى الأخيرة لهذه الشبهة، وقد بين القاضي أبو بكر صلاحية عوده إلى ما قبل الأخيرة دونها، رداً على هذا القائل، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذي يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ ووجه استشهاده، أن المعنى يأبى انعطاف هذا الاستثناء إلى الجملة الأخيرة، ويعين عوده إلى ما قبلها، وسيأتي بيان ذلك عند الكلام على الآية. قوله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا﴾ الآية.

فليس من جملتي وأشياعي. ﴿ومن لم يطعمه﴾ ومن لم يذقه، من طعم الشيء إذا ذاقه، ومنه طعم الشيء لمذاقه. قال:

وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً

ألا ترى كيف عطف عليه البرد وهو النوم، ويقال: ما ذقت غماضاً، ونحوه من الابتلاء ما ابتلى الله به أهل أيلة من ترك الصيد من إتيان الحيتان شرعاً، بل هو أشد منه وأصعب، وإنّما عرف ذلك طالوت بإخبار من النبي، وإن كان نبياً، كما يروى عن بعضهم فبالوحي. وقرىء: بنهر بالسكون.

فإنْ قلتَ: مم استثنى قوله: ﴿إلا من اغترف﴾؟ قلتُ: من قوله: ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾ والجملة الثانية في حكم المتأخرة إلا أنّها قدمت للعناية، كما قدم والصابئون في قوله: ﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون﴾[1] ومعناه: الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكروع، والدليل عليه قوله: ﴿فشربوا منه﴾ أي: فكرعوا فيه. ﴿إلا قليلاً منهم﴾ وقرىء: غرفة بالفتح بمعنى المصدر، وبالضم بمعنى: المغروف، وقرأ أبيّ والأعمش: إلا قليل بالرفع، وهذا من ميلهم مع المعنى وإعراض عن اللفظ جانباً، وهو باب جليل من علم العربية، فلما كان معنى فشربوا منه في معنى فلم يطيعوه حمل عليه، كأنّه قيل: فلم يطيعوه إلا قليل منهم. ونحوه قول الفرزدق:

لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف

كأنّه قال: لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف. وقيل: لم يبق مع طالوت إلا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً. ﴿والذين آمنوا﴾ يعني: القليل. ﴿قال الذين يظنون﴾ يعني: الخلص منهم الذين نصبوا بين أعينهم لقاء الله وأيقنوه، أو الذين تيقنوا أنّهم يستشهدون عما قريب ويلقون الله. والمؤمنون مختلفون في قوّة اليقين، ونصوع البصيرة. وقيل: الضمير في ﴿قالوا لا طاقة لنا﴾ للكثير الذين انخزلوا، والذين يظنون هم القليل الذين ثبتوا معه، كأنّهم تقاولوا بذلك، والنهر بينهما يظهر أولئك عذرهم في الانخزال، ويرد عليهم هؤلاء ما يعتذرون به، وروي: أنّ الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وإداوته، والذين شربوا منه اسودت شفاههم وغلبهم العطش.

وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾.

وجالوت: جبار من العمالقة من أولاد عمليق بن عاد، وكانت بيضته فيها ثلثمائة رطل. ﴿وثبّت أقدامنا﴾ وهب لنا ما نثبّت به في مداحض الحر من قوّة القلوب وإلقاء الرعب في قلب العدوّ ونحو ذلك من الأسباب.

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾.

كان أيشى أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيه، وكان داود سابعهم وهو صغير يرعى الغنم فأوحي إلى إشمويل أنّ داود بن أيشى هو الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه، فجاء وقد مرّ في طريقه بثلاثة أحجار دعاه كل واحد منها أن يحمله، وقالت له: إنك تقتل بنا جالوت، فحملها في مخلاته ورمى بها جالوت فقتله، وزوجه طالوت بنته، وروي: أنه حسده وأراد قتله، ثم تاب. ﴿وآتاه الله الملك﴾ في مشارق الأرض المقدسة ومغاربها. وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قط قبل داود. ﴿والحكمة﴾ والنبوّة. ﴿وعلّمه مما يشاء﴾ من صنعة الدروع وكلام الطير والدواب وغير ذلك. ﴿ولولا دفع الله الناس﴾ ولولا أنّ الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض، وقيل: ولولا أنّ الله ينصر المسلمين على الكفار لفسدت الأرض بعيث الكفار فيها وقتل المسلمين، أو لو لم يدفعهم بهم لعمّ الكفر ونزلت السخطة، فاستؤصل أهل الأرض.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾.

﴿تلك آيات الله﴾ يعني: القصص التي اقتصها من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم وتمليك طالوت وإظهاره بالآية التي هي نزول التابوت من السماء وغلبة الجبابرة على يد صبي. ﴿بالحق﴾ باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لأنه في كتبهم كذلك. ﴿وإنّك لمن المرسلين﴾ حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار.

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾.

﴿تلك الرسل﴾ إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في السورة، أو التي ثبت علمها عند رسول الله ﷺ. ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ لما أوجب ذلك من تفاضلهم في الحسنات. ﴿منهم من كلم الله﴾ منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير، وهو موسى عليه السلام. وكلم، قرىء: الله بالنصب، وقرأ اليماني: كالم الله، من المكالمة. ويدل عليه قولهم: كليم الله، بمعنى: مكالمه. ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أي: ومنهم من رفعه على سائر

(1) سورة المائدة، الآية: 69.

الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة[1]، والظاهر أنّه أراد محمداً ﷺ؛ لأنّه هو المفضل عليهم حيث أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر، ولو لم يؤت إلاّ القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء لأنّه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات، وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة، على أنّه العَلَم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس. ويقال للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: أحدكم، أو بعضكم. يريد به الذي تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه. وسئل الحطيئة عن أشعر الناس فذكر زهيراً والنابغة، ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه. ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي لم يفخم أمره، ويجوز أن يريد إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولي العزم من الرسل. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كنا في المسجد نتذاكر فضل الأنبياء فذكرنا نوحاً بطول عبادته، وإبراهيم بخلته، وموسى بتكليم الله إياه، وعيسى برفعه إلى السماء، وقلنا: رسول الله أفضل منهم بعث إلى الناس كافةً، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وهو خاتم الأنبياء، فدخل عليه السلام، فقال: «فيم أنتم»؟ فذكرنا له، فقال: «لا ينبغي لأحد أن يكون خير من يحيىٰ بن زكريا، فذكر أنّه لم يعمل سيئةً قط ولم يهمّ بها»[2].

فإنْ قلتَ: فلم خصّ موسىٰ وعيسىٰ من بين الأنبياء بالذكر؟ **قلتُ:** لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة. ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل، وهو آية من الآيات، فلمّا كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر في باب التفضيل، وهذا دليل بين أنّ من زيد تفضيلاً بالآيات منهم فقد فضل على غيره. ولما كان نبينا ﷺ هو الذي أوتي منها ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمها، كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع. اللهمّ ارزقنا شفاعته يوم الدين. **﴿ولو شاء الله﴾** مشيئة إلْجَاءٍ وقسر، **﴿ما اقتتل الذين﴾** من بعد الرسل لاختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وتكفير بعضهم بعضاً. **﴿ولكن اختلفوا فمنهم من آمن﴾** لالتزامه دين الأنبياء، **﴿ومنهم من كفر﴾** لإعراضه عنه. **﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾**[3] كرّره للتأكيد، **﴿ولكنّ الله يفعل ما يريد﴾** من الخذلان والعصمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

﴿أنفقوا مما رزقناكم﴾ أراد الإنفاق الواجب لاتصال الوعيد به **﴿من قبل أن ياتي يوم﴾** لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنّه **﴿لا بيع فيه﴾** حتى تبتاعوا ما تنفقونه، **﴿ولا خلة﴾** حتى يسامحكم أخلاؤكم به[4]، وإن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمّتكم من الواجب لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم حط الواجبات؛ لأنّ الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير. **﴿والكافرون هم الظالمون﴾**

---

(1) قال أحمد رحمه الله: وإنما أوردت هذا الفصل من كلامه استحساناً له، لفظاً ومعنى، وتبركاً بإعطاء المصطفى عليه الصلاة والسلام من الفضل بعض حقه، وأصحاب الزمخشري في قوله، حيث أوتي النبي عليه الصلاة والسلام من الفضل المنيف على سائر ما أوتيه الأنبياء، على الجميع الصلاة والسلام، وليس كما يقال عن بعض أهل العصر، من تفضيل النبيّ عليه الصلاة والسلام على كل واحد واحد من آحاد الأنبياء، وينبغي الوقوف عن نسبته له، فإنه من العلماء الأعلام، وعمد دين الإسلام، والوجه التوريك بالغلط على النقلة عنه. قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ الآية.

(2) كشف الأستار 3/108، كتاب: علامات النبوة، باب: يحيىٰ عليه السلام الحديث رقم: (2358).

(3) قال أحمد رحمه الله: ووراء التأكيد سر أخصّ منه، وهو: أنّ العرب متى بنت أوّل كلامها على مقصد، ثم اعترضها مقصد آخر، وأرادت الرجوع إلى الأوّل، قصدت ذكره إمّا بتلك العبارة، أو بقريب منها، وذلك عندهم مهيع من الفصاحة مسلوك، وطريق معتد، وكان جدي لأمي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير، يعدّ في كتاب الله تعالى مواضع هذا المعنى، منها قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرجة بغير علم﴾ إلى قوله: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم﴾ وهذه الآية من هذا النمط، لما صدر الكلام بأنّ اقتتالهم = كان على وفق المشيئة، ثم طال الكلام، وأريد بيان أنّ مشيئة الله تعالى، كما نفذت في هذا الأمر الخاص، وهو اقتتال هؤلاء، فهي نافذة في كل فعل واقع، وهو المعنى المعبر عنه في قوله: ﴿ولكنّ الله يفعل ما يريد﴾ طرأ ذكر تعلق المشيئة بالاقتتال، لتلوّه عموم تعلق المشيئة، لتناسب الكلام وتعرف كل بشكله، فهذا سر ينشرح لبيانه الصدر، ويرتاح السر، والله الموفق، وأي قدم يثبت للاعتزال قبالة هذا؛ لأنه الدائرة القاطعة لدابره، الكافلة بالردّ على منتحله وناصره، ولذلك جوزها الزمخشري لاعتياصها على تاويله، واعتصامها بالنصوصية من حيله ونحيله. قوله تعالى: ﴿من قبل أن ياتي يوم لا بيع﴾ الآية.

(4) قال أحمد رحمه الله: أما القدرية، فقد وطنوا أنفسهم على حرمان الشفاعة، وهم جدير أن يحرموها، وأدلة أهل السنة على إثباتها للعصاة من المؤمنين، أوسع من أن تحصى، وما أنكرها القدرية، إلا لإيجابهم مجازاة الله تعالى للمطيع على الطاعة، وللعاصي على المعصية، إيجاباً عقلياً على زعمهم، فهذه الحالة في إنكار الشفاعة في بعضها ثابتة، فكل ما ورد مفهماً لنفيها، حمل على الأيام الخالية منها، جمعاً بين الأدلة، كما ورد قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ وورد: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ وورد: ﴿فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ وورد: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ ولا تخلص في أمثال هذه الآي باتفاق، إلا الحمل على تعدّد أوقات القيامة، واختلاف أحوالها وأيامها، وكذلك أمر الشفاعة، سواء رزقنا الله الشفاعة، وحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

أراد التاركون الزكاة هم الظالمون، فقال: والكافرون للتغليظ، كما قال في آخر آية الحج: ﴿ومن كفر﴾ مكان ومن لم يحج، ولأنه جعل ترك الزكاة من صفاة الكفار في قوله: ﴿وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة﴾[1] وقرىء: لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة بالرفع.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾.

﴿الحي﴾ الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء، وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم ويقدر. و﴿القيوم﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. وقرىء: القيام والقيم.

والسنة: ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس. قال ابن الرقاع العاملي:

وسنان أقصده النعاس فرنقت — في عينه سنة وليس بنائم

أي: لا يأخذه نعاس ولا نوم. وهو تأكيد للقيوم؛ لأنّ من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً. ومنه حديث موسىٰ أنّه سأل الملائكة وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية: أينام ربنا؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثاً ولا يتركوه ينام، ثم قال: خذ بيدك قارورتين مملوءتين، فأخذهما وألقى الله عليه النعاس، فضرب إحداهما على الأخرى فانكسرتا، ثم أوحى إليه: قل لهؤلاء إني أمسك السمٰوات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا. ﴿من ذا الذي يشفع عنده﴾ بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام. كقوله تعالى: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمٰن﴾[2]. ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ ما كان قبلهم، وما يكون بعدهم، والضمير لما في السمٰوات والأرض؛ لأنّ فيهم العقلاء، أو لما دل عليه من ذا من الملائكة والأنبياء. ﴿من علمه﴾ من معلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ إلا بما علم. الكرسي ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد[3]، وفي قوله: ﴿وسع كرسيه﴾ Z أربعة أوجه:

أحدها: أنّ كرسيه لم يضق عن السمٰوات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلاّ تصوير لعظمته وتخييل فقط ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد. كقوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسمٰوات مطويات بيمينه﴾[4] من غير تصوّر قبضة وطي ويمين وإنّما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسيّ. ألا ترى إلى قوله: ﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾.

والثاني: وسع علمه: وسمى العلم كرسياً تسميةً بمكانه الذي هو كرسي العالم.

والثالث: ﴿وسع ملكه﴾ تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك.

والرابع: ما روي أنّه خلق كرسياً هو بين يدي العرش دونه السمٰوات والأرض، وهو إلى العرش كأصغر شيء، وعن الحسن: الكرسي هو العرش. ﴿ولا يؤده﴾ ولا يثقله ولا يشق عليه ﴿حفظهما﴾ حفظ السمٰوات والأرض، ﴿وهو العليّ﴾ الشأن ﴿العظيم﴾ الملك والقدرة.

فإنْ قلتَ: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي من غير حرف عطف؟ **قلتُ**: ما منها جملة إلا وهي واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه، والبيان متحد بالمبين، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب: بين العصا ولحائها، فالأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمناً عليه غير ساهٍ عنه، والثانية: لكونه مالكاً لما يدبره. والثالثة: لكبرياء شأنه، والرابعة: لإحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب لشفاعة وغير المرتضى. والخامسة: لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره.

فإنْ قلتَ[5]: لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها

---

(1) سورة فصلت، الآيتان: 6، 7.

(2) سورة النبأ، الآية: 38.

(3) قال أحمد رحمه الله: قوله في الوجه الأوّل: أن ذلك تخييل للعظمة سوء أدب في الإطلاق، وبعد في الإضرار، فإن التخيل إنما يستعمل في الأباطيل، وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة، لا مدخل لها في الأباطيل، وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكون معنى ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة، لا مدخل لها في الأدب الشرعي، وسيأتي له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب.

(4) سورة الزمر، الآية: 67.

(5) قال أحمد : وكان جدي رحمة الله عليه يقول: اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية من أسماء الله عز وجل، وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعاً، فيها اسم الله تعالى، ظاهراً في بعضها، ومستكناً في بعض، ويظهر لكثير من العادّين منها ستة عشر، إلا على بصير حاد البصيرة، لدقة استخراجه، الأوّل: الله، = الثاني: هو، الثالث: الحي، الرابع: القيوم، الخامس: ضمير لا تأخذه، السادس: ضمير له، السابع: ضمير عنده، الثامن: ضمير إلا بإذنه، التاسع: ضمير يعلم، العاشر: ضمير علمه، الحادي عشر: ضمير شاء، الثاني عشر: ضمير كرسيه، الثالث عشر: ضمير ولا يؤده، الرابع عشر: وهو، الخامس عشر: العلي، السادس عشر: العظيم، فهذه عدّة الأسماء البينة، وأمّا الخفي، فالضمير الذي اشتمل عليه المصدر في قوله: حفظهما، فإنه مصدر مضاف إلى المفعول، وهو الضمير البارز، ولا بدّ له من فاعل، وهو: الله، ويظهر عند فك المصدر. فيقول: ولا يؤده أن يحفظهما هو، وكان الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي قد رام الزيادة على هذا العدد، لما أخبرته به عن الجد رحمه الله، فقال: يمكن أن يعد ما في الآية من الأسماء المشتقة، كل واحد منها باثنين؛ لأنّ كل واحد يتحمل ضميراً ضرورة، وكونه مشتقاً، وذلك الضمير إنما يعود إلى الله تعالى، وهي باعتبار ظهورها اسم، وقد اشتملت على آخر مضمر، فيكون جملة العدد على هذا النظر أحداً وعشرين اسماً، وكنت قد أجريت معه في تعدّد الزيادة المذكورة، وجهاً لطيفاً، =

ما ورد، منه قوله ﷺ: «ما قرئت هذه الآية في دار إلا اهتجرتها الشياطين ثلاثين يوماً، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلةً، يا علي علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها»[1]. وعن عليّ رضي الله عنه: سمعت نبيكم ﷺ على أعواد المنبر، وهو يقول: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صدّيق أو عابد. ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره، والأبيات حوله»[2]. وتذاكر الصحابة رضوان الله عليهم أفضل ما في القرآن، فقال لهم عليّ رضي الله عنه: أين أنتم عن آية الكرسي، ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا علي، سيد البشر آدم، وسيد العرب محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد الجبال الطور، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسي»[3]. **قلتُ**:لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله تعالى، وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار، وبهذا يعلم أنّ أشرف العلوم وأعلاها منزلةً عند الله علم أهل العدل والتوحيد، ولا يغرّنك عنه كثرة أعدائه.

فإنّ العرانين تلقاها محسدة ولا ترى للئام الناس حساداً

لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

﴿لا إكراه في الدين﴾ أي: لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر، ولكن على التمكين والاختيار. ونحوه قوله تعالى: **﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾**[4] أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ أي: لو شاء لقسرهم على الإيمان، ولكنه لم يفعل وبنى الأمر على الاختيار. **﴿قد تبين الرشد من الغي﴾** قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة، **﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾** فمن اختار الكفر بالشيطان أو الأصنام والإيمان بالله **﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾** من الحبل الوثيق المحكم المأمون انفصامها أي: انقطاعها. وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر، والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوّره السامع كأنّه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده والتيقن به. وقيل: هو إخبار في معنى النهي، أي: لا تتكرهوا في الدين، ثم قال بعضهم: هو منسوخ بقوله: **﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾**[5] وقيل: هو في أهل الكتاب خاصةً لأنّهم حصنوا أنفسهم بأداء الجزية. وروي: أنّه كان لأنصاريّ من بني سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث رسول الله ﷺ، ثم قدما المدينة، فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ. فقال الأنصاري: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر[6]. فنزلت، فخلاهما.

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿الله وليّ الذين آمنوا﴾ أي: أرادوا أن يؤمنوا، يلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأييده من الكفر إلى الإيمان، **﴿والذين كفروا﴾** أي: صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك. أو الله وليّ المؤمنين يخرجهم من الشّبه في الدين إن وقعت لهم بما يهديهم ويوفقهم له من حلها حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين: **﴿والذين كفروا أولياؤهم﴾** الشياطين **﴿يخرجونهم﴾** من نور البينات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿ألم تر﴾ تعجيب من محاجّة نمروذ في الله وكفره به[7] **﴿أن آتاه الله الملك﴾** متعلق بحاجّ على وجهين:

= وهو: أن الاسم المشتق، لا يتحمل الضمير بعد صيرورته بالتسمية علماً على الأصح، وهذه الصفات كلها أسماء الله تعالى، ثم ولو فرضناها متحملة للضمائر بعد التسمية على سبيل التنزيل، فالمشتقّ إنما يقع على موصوفه، باعتبار تحمله ضميره، ألا تراك إذا قلت: زيد كريم، وجدت كريماً، إنما يقع على زيد؛ لأنّ فيه ضميره، حتى لو جرّت النظر إليه لم تجده مختصاً بزيد، بل لك أن توقعه على كل موصوف بالكرم من الناس، ولا تجده مختصاً بزيد، إلا باعتبار اشتماله على ضميره، فليس المشتق إذاً مستقلاً بوقوعه على موصوفه، إلا بضميمة الضمير إليه، فلا يمكن أن يجعل له حكم الانفراد عن الضمير، مع الحكم برجوعه إلى معين البتة، فرضي الشيخ المذكور عن هذا البحث، وصوّبه، والله الموفق للصواب. قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم﴾ الآية.

(1) لم أجده.

(2) ذكره السيوطي في الجامع الكبير. راجع فيض القدير للمناوي.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن فصل في فضائل السور والآيات الحديث رقم: (2395).

(4) سورة يونس، الآية: 99.

(5) سورة التوبة، الآية: 73.

(6) الواحدي في أسباب النزول ص 48.

(7) قال أحمد: عفا الله عنه، والوجهان قريبان من حيث المعنى، إلا أن بينهما في الصناعة فرقاً، وهو: إنما استعمل المصدر في الأوّل مفعولاً من أجله، وفي الثاني ظرفاً، وقد وقعت المصادر ظروفاً في مثل خفوق النجم، ومقدم الحاج وأمثال ذلك، وإنما وقعت محاجته بهذا الظرف لاشتماله على إيتاء الملك الحامل له على البطر، أو على وضع كفر النعمة فيه مكان شكرها، وهذان المعنيان هما =

أحدهما: حاجّ؛ لأن آتاه الله الملك على معنى: أنّ إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتوّ فحاج لذلك، أو على أنّه وضع المحاجّة في ربه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن آتاه الله الملك، فكأنّ المحاجة كانت لذلك، كما تقول: عاداني فلان لأنّي أحسنت إليه، تريد أنّه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان. ونحوه قوله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ (1).

والثاني: حاجّ وقت أن آتاه الله الملك.

فإنْ قلتَ (2): كيف جاز أنّ يؤتي الله الملك الكافر؟ **قلتُ:** فيه قولان: آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والأتباع، وأما التغليب والتسليط فلا. وقيل: ملكه امتحاناً لعباده. و﴿إذ قال﴾ نصب بحاج، أو بدل من أن آتاه إذا جعل بمعنى الوقت(3). ﴿أنا أحيي وأميت﴾ يريد أعفو عن القتل وأقتل، وكان الاعتراض عتيداً، ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب ليبهته أول شيء، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة.

وقرىء: فَبَهَتَ الذي كفر، أي: فغلب إبراهيم الكافر، وقرأ أبو حيوة: فَبَهُتَ بوزن قرب. وقيل: كانت هذه المحاجة حين كسر الأصنام، وسجنه نمروذ ثم أخرجه من السجن ليحرقه، فقال له: من ربك الذي تدعو إليه؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

﴿أو كالذي﴾ (4) معناه: أو أرأيت مثل الذي مرّ، فحذف لدلالة ألم تر عليه لأنّ كلتيهما كلمة تعجيب. ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ، كأنّه قيل: أرأيت كالذي حاج إبراهيم، أو كالذي مر على قرية(5)؟ والمار كان كافراً بالبعث، وهو الظاهر لانتظامه مع نمروذ في سلك، ولكلمة الاستبعاد التي هي: أنى يحيي، وقيل: هو عزير أو الخضر

= المذكوران في الوجه الأوّل بعينهما، فلهذا نبهت على أن الفرق بين الوجهين صناعي لا معنوي، والله الموفق، لمعاني كلامه.

(1) سورة الواقعة، الآية: 82.

(2) قال أحمد: السؤال مبني وروده على قاعدة فاسدة، وهي اعتقاد وجوب مراعاة ما يتوهمه القدرية صلاحاً، أو أصلح على الله تعالى في أفعاله، وكل ذلك من أسول القدرية التي اجتثها البرهان القاطع، فما لها من قرار، وأمّا إيراد السؤال على صيغة: لما آتاه الله الملك وهو كافر؟ أولم يفعل كذا وكذا؟ فجواب ردّه على الإطلاق في قوله تعالى: ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾ لو سمع الصم البكم، والله ولي التوفيق.

(3) قال أحمد: وقد التزم غير واحد من العلماء، أنّ هذا الذي صدر من الخليل عليه الصلاة والسلام، ليس بانتقال من الحجة، ولكن من المثال، وأمّا الحجة، فهي: استدلاله على الوهية الله تعالى، بتعلق قدرته بما لا يجوز تعلق قدرة الحادث به، ثم هذا له أمثلة، منها: الإحياء، والإماتة، ومنها: الإتيان بالشمس من المشرق، والعدول بعد قيام الحجة، وتمهيد القاعدة من مثال إلى مثال، ليس يبدع عند أهل الجدل، والله أعلم.

(4) قال أحمد: ومثل هذا النظم يحذف منه فعل الرؤية كثيراً، كقوله:

قال لها كلابها اسرعي ... كاليوم مطلوباً ولا طالباً

يريد: لم أر كاليوم، فحذف الفعل وحرف النفي، والظاهر حمل الآية على الوجه الأوّل، لوجود نظيره، والله أعلم.

(5) قال أحمد: أما استدلال الزمخشري على أن المارّ كان كافراً بانتظامه مع نمروذ في سلك واحد، فمعارض بأنه نظمت قصته مع قصة إبراهيم عليه السلام في نسق واحد، فليس الاستدلال على كفره، باقتران قصته مع قصة نمروذ، أولى من الاستدلال على إيمانه بانتظامها أيضاً مع قصة إبراهيم، إلا أن يقول: أنّ قصة هذا المار معطوفة على قصة نمروذ، عطف تشريك في الفعل، منطوقاً به في الأولى، ومحذوفاً من الثانية مدلولاً عليه بذكره أولاً، ولا كذلك عطف قصة إبراهيم، فإنها مصدرة بالواو التي لا تدخل في كثير من أحوالها للتشريك. ولكن لتحسين النظم =

= حتى تتوسط بين الجمل التي يعلم تعاطفها لذلك الغرض، ولا كذلك عطفها في قصة نمروذ، فإنه باو التي لا تستعمل إلا مشركة، إذ عطف التحسين اللفظي خاص بالواو، فنقول: إذا انتهى الترجيح إلى هذا التدقيق، فهو معارض بما بين قصة المار، وقصة إبراهيم من التناسب المعنوي، لأنّ طلبتهما واحدة إذ المار سأل معاينة الإحياء، وكذلك طلبة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم التناسب المعنوي، أرجح من التعلق بأمور لفظية تردّ إلى أنحاء مختلفة، ويؤيد القول بأنّ المارّ كان مؤمناً تحريه في قوله تعالى: ﴿يوماً أو بعض يوم﴾ فإنّ ظاهر الاحتراز من التحريف في القول، حتى لا يعبر عن جل اليوم باليوم، حذراً من إبهام طلبته لجملة اليوم، ومثل هذا التحرّي لا يصدر عن معطل، والله أعلم. ولا يقال: إنما صدر منه هذا التحرّي، بعد أن حيي وآمن. لانا نقول: إنما آمن على القول بكفره بعد ظهور الآيات، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فلما تبين له قال أعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ وأمّا التحرّي المنكور، فكان أوّل القصة قبل الإيمان، وما قدرت هذا السؤال، إلا لنكتة يذكرها الزمخشري، الآن تشعر بإيراده على الترجيح المنكور. ثم هذه الجراءة التي نقلها الزمخشري في خلال كلامه، من انه قال: ﴿أو بعض يوم﴾ لما رأى بقية من الشمس، لم يكن رآها أوّل كلامه، فاستدرك الأمر فيها نظر دقيق، لم أقف عليه لأحد ممن أورد الحكاية في تفسيره، وذلك أنّ الأمر إذا كان على ما تضمنته، وكلام المارّ المنكور بني أوّلاً على الجزم بأنه لبث يوماً، ثم جزم آخراً أن لبثه، إنما كان بعض يوم لرؤية بقية من الشمس، وكان مقتضى التعبير عن حاله أن يقول: بل بعض يوم، مضرباً عن جزمه الأوّل إلى جزمه الثاني، لأنّ أو، إنما تدخل في الخبر، إذا انبنى أوّله على الجزم ثم عرض في آخره شك ولا جزم بالنقيض، فالحكاية المنكورة توجب أن يكون الموضع لبل، لا لأو إذ موضع بل جزم بنقيض الأوّل، فإذا استقرّ ذلك، فالظاهر من حال المارّ انه كان أوّلاً جازماً، ثم شك لا غير اتباعاً لمقتضى الآية، وعدولاً عن الحكاية التي لا تثبت إلا بإسناد قاطع، فيضطرّ إلى تاويل، فتأمّل هذا النظر، فإنه من لطيف النكت، والله الموفق.

أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة، كما طلبه إبراهيم عليه السلام، وقوله: ﴿أنى يحيي﴾ اعتراف بالعجز عن معرفة طريقه الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي. والقرية بيت المقدس حين خربه بختنصر، وقيل: هي التي خرج منها الألوف. ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ تفسيره فيما بعد ﴿يوماً أو بعض يوم﴾ بناءً على الظن. روي أنّه مات ضحى، وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: يوماً. ثم التفت فرأى بقية من الشمس، فقال: أو بعض يوم. وروي: أنّ طعامه كان تيناً وعنباً، وشرابه عصيراً أو لبناً، فوجد التين والعنب كما جنيا والشراب على حاله ﴿لم يتسنه﴾ لم يتغير. والهاء أصلية أو هاء سكت، واشتقاقه من السنه على الوجهين؛ لأنّ لامها هاء أو واو، وذلك أنّ الشيء يتغير بمرور الزمان، وقيل: أصله يتسنن من الحمأ المسنون، فقلبت نونه حرف علة كتقضي البازي، ويجوز أن يكون معنى لم يتسنه لم تمرّ عليه السنون التي مرت عليه. يعني: هو بحاله كما كان كأنّه لم يلبث مائة سنة. وفي قراءة عبد الله: فانظر إلى طعامك، وهذا شرابك لم يتسنّ. وقرأ أبيّ: لم يسنه بإدغام التاء في السين. ﴿وانظر إلى حمارك﴾ كيف تفرّقت عظامه ونخرت، وكان له حمار قد ربطه، ويجوز أن يراد: وانظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته، وذلك من أعظم الآيات أن يعيشه مائة عام من غير علف ولا ماء، كما حفظ طعامه وشرابه من التغيير. ﴿ولنجعلك آيةً للناس﴾ فعلنا ذلك، يريد إحياءه بعد الموت وحفظ ما معه، وقيل: أتى قومه راكب حماره، وقال: أنا عزير، فكذبوه. فقال: هاتوا التوراة، فأخذ يهذها هذًا عن ظهر قلبه، وهم ينظرون في الكتاب فما خرم حرفاً، فقالوا: هو ابن الله، ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزير، فذلك كونه آيةً، وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب، فإذا حدّثهم بحديث قالوا: حديث مائة سنة. ﴿وانظر إلى العظام﴾ هي عظام الحمار، أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم، ﴿كيف ننشرها﴾ كيف نحييها. وقرأ الحسن: ننشرها من نشر الله الموتى بمعنى: أنشرهم فنشروا. وقرىء: بالزاي بمعنى: نحرّكها ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب، وفاعل ﴿تبين﴾ مضمر تقديره، فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير ﴿قال أعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، كما في قولهم: ضربني وضربت زيداً، ويجوز فلما تبين له ما أشكل عليه يعني: أمر إحياء الموتى. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: فلما تُبُيِّنَ له، على البناء للمفعول. وقرىء: قال اعلم على لفظ الأمر، وقرأ عبد الله: قيل اعلم.

فإنْ قلتَ: فإن كان المار كافراً فكيف يسوغ أن يكلمه الله؟ قلتُ: كان الكلام بعد البعث، ولم يكن إذ ذاك كافراً.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

﴿أرني﴾ بصرني.

فإنْ قلتَ[1] كيف قال له ﴿أولم تؤمن﴾ وقد علم أنّه أثبت الناس إيماناً؟ قلتُ: ليجيب بما أجاب به لما فيه من

(1) قال أحمد: الأَولى في هذه الآية أن ينكر فيها المختار في تفسيرها، من المباحث الممتحنة بالفكر المحرّر، والنكت المفصحة بالراي المخمر، فما وافق من كلام المصنف ما ينكره، فالحمد لله وما خالفه، فالحق فيما ذكرناه، والله الموفق، فنقول: أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له: كيف تحيي الموتى، فليس عن شك والعياذ بالله في قدرة الله عن الإحياء، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء، ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها، فإنما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف، وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس، فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه سال عن كيفية حكمه، لا ثبوته، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر، فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية، وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم». أي: ونحن لم نشك، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى فإن قلت: فإذا كان السؤال مصروفاً إلى الكيفية التي لا يضر عدم تصوّرها ومشاهدتها بالإيمان، ولا تخل به، فما موقع قوله تعالى: ﴿أوَلم تؤمن﴾ قلت: قد وقعت لبضع الحذاق فيه على لطيفة، وهي أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً في السؤال عن الكيفية كما مرّ، وقد تستعمل في الاستعجاز، مثاله: أن يدّعي مدّعٍ أنه يحمل ثقلاً من الأثقال، وأنت جازم بعجزه عن حمله، = فتقول له: أرني كيف تحمل هذا، فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال، الذي أحاط علم الله تعالى، بأن إبراهيم مبرأ منه، أراد بقوله: ﴿أولم تؤمن﴾ أن ينطق إبراهيم بقوله: ﴿بلى﴾ آمنت، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى، ليكون إيمانه مخلصاً، نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها، فهماً لا يلحقه فيه شك. فإن قلت: قد تبين لي وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين، فما موقع قول إبراهيم، ولكن ليطمئن قلبي، وذلك يشعر ظاهراً، بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمانينة. قلت: معناه: ولكن ليزول عن قلبي الفكر في كيفية الحياة؛ لأني إذا شاهدتها، سكن قلبي عن الجولان في كيفياتها المتخيلة، وتعينت عندي بالتصوير المشاهد، وجاءت الآية مطابقة لسؤاله؛ لأنه شاهد صورة حياة الموتى، تقديره الذي يحيي ويميت، فهذا أحسن ما يجري لي في تفسير هذه الآية، وربك الفتاح العليم، وأمّا قول الزمخشري: إن علم الاستدلال يتطرّق إليه التشكيك، بخلاف العلم الضروري، فكلام لم يصدر عن رأي منوّر، ولا فكر محرّر، وذلك أنّ العلم الموقوف على سبب، لا يتصوّر فيه تشكيك، ما دام سببه مذكوراً في نفس العالم، وإنما الذي يقبل التشكيك قبولاً مطلقاً، هو الاعتقاد، وإن كان صحيحاً، وسببه باق في الذكر، وبهذا ينحط الاعتقاد الصحيح عن ذروة العلم، ولكن للقدماء من القدرية، خبط طويل في تمييز العلم عن الاعتقاد حتى غالى أبو هاشم، فقال: العلم =

الفائدة الجليلة للسامعين، و﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفي معناه بلى آمنت. ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ ليزيد سكوناً وطمانينةً بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين؛ ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمانينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك.

فإنْ قلتَ: بم تعلقت اللام في ﴿ليطمئن﴾؟ قلتُ: بمحذوف تقديره ولكن سألت ذلك إرادة طمانينة القلب. ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ قيل: طاوساً وديكاً وغراباً وحمامةً. ﴿فصرهنّ إليك﴾ بضم الصاد وكسرها، بمعنى فاملهنّ واضممهنّ إليك. قال:

ولكن أطراف الرماح تصورها

وقال:

وفرع يصير الجيد وحف كأنّه ... على الليت قنوان الكروم الدوالح

وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فصُرهنّ بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء، من صره يصره ويصره إذا جمعه نحو ضره ويضره ويضره، وعنه: فصرهنّ من التصرية وهي: الجمع أيضاً. ﴿ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءاً﴾ يريد، ثم جزئهنّ وفرّق أجزاءهنّ على الجبال، والمعنى على كل جبل من الجبال التي بحضرتك وفي أرضك. قيل: كانت أربعة أجبل، وعن السدّي: سبعة: ﴿ثم ادعهنّ﴾ وقل لهنّ: تعالين بإذن الله، ﴿يأتينك سعياً﴾ ساعياتٍ مسرعاتٍ في طيرانهنّ أو في مشيهنّ على أرجلهنّ[1].

فإنْ قلتَ: ما معنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها؟ قلتُ: ليتأملها ويعرف أشكالها وهيئاتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء، ولا يتوهم أنها غير تلك، ولذلك قال: ﴿يأتينك سعياً﴾ وروي أنّه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها، ويخلط ريشها ودماءها ولحومها، وأن يمسك رؤوسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال على كل جبل ربعاً من كل طائر، ثم يصيح بها: تعالين بإذن الله، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثاً، ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهنّ كل جثة إلى رأسها، وقرىء: جزأ بضمتين، وجزّا بالتشديد، ووجهه أنه خفف بطرح همزته، ثم شدّد كما تشدد في الوقف إجراءً للوصل مجرى الوقف.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

﴿مثل الذين ينفقون﴾ لا بدّ من حذف مضاف أي مثل نفقتهم، كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة. والمنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء، ومعنى إنباتها سبع سنابل: أن تخرج ساقاً يتشعب منها سبع شعب لكل واحدة سنبلة، وهذا التمثيل تصوير للإضعاف، كأنّها ماثلة بين عيني الناظر.

فإنْ قلتَ: كيف صحّ هذا التمثيل، والممثل به غير موجود؟ قلتُ: بل هو موجود في الدخن والذرة وغيرهما، وربما فرخت ساق البرة في الأراضي القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ، ولو لم يوجد لكان صحيحاً على سبيل الفرض والتقدير.

فإنْ قلتَ: هلا قيل: سبع سنبلات، على حقه من التمييز بجمع القلة، كما قال: ﴿وسبع سنبلات خضر﴾[2] قلتُ: هذا لما قدمت عند قوله: ﴿ثلاثة قروء﴾[3] من وقوع أمثلة الجمع متعاورة مواقعها. ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أي: يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق لتفاوت أحوال المنفقين، أو يضاعف سبع المائة ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾.

المنّ: أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، ويريد أنّه اصطنعه وأوجب عليه حقاً له، وكانوا يقولون: إذا صنعتم صنيعةً فانسوها. ولبعضهم:

وإن امرأً أسدى إليّ صنيعةً ... وذكرنيها مرةً للئيم

وفي[4] نوابغ الكلام صنوان: مَنْ مَنَحَ سائله ومنّ، ومن

= بالشيء، والجهل به مثلان، وهذا على الحقيقة جهل، حتى لحقيقة الجهل، والزمخشري في قواعد العقائد، يقفو آثار هذا لقائل أية سلك فعله، من ثم طرق إلى العلم النظري الشك، حسب تطرقه إلى الاعتقاد، الذي يكون مرة جهلاً ومرة مطابقاً، والله الموفق.

(1) قال أحمد: يريد: ولم يقل طيراناً؛ لأنه إذا كانت ساعية، كان أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة، والله أعلم.

(2) سورة يوسف، الآية: 43.

(3) سورة البقرة، الآية: 228.

(4) قال أحمد: ثم في أصل وضعها، تشعر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان، وبعد ما بينهم، والزمخشري يحملها على التفاوت في المراتب، والتباعد بينهما، حيث لا يمكنه حملها على التراخي في الزمان، لسياق يأبى ذلك كهذه الآية، وحاصله = أنها استعيرت من تباعد الأزمنة، لتباعد المرتبة، وعندي فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها، وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها، وإرخاء الطول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعارة إليه، دوام وجود الفعل، وتراخي زمن بقائه، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿ثم استقاموا﴾ أي: داموا على الاستقامة دواماً متراخياً، ممدّ الأمد، وتلك الاستقامة هي المعتبرة، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد، إلى الهوى والشهوات، وكذلك قوله: ﴿ثم لا يتبعون ما انفقوا مناً ولا أذى﴾ أي: يدومون على تناسي الإحسان، وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الإدانة، وتقليد المنن بسببه، ثم يتوبون، والله أعلم، وقريب من هذا، أو مثله أنّ السين=

منع نائله وضنّ، وفيها طعم الآلاء أحلى من المنّ، وهي أمرّ من الآلاء مع المنّ.

والأذى: أن يتطاول عليه بسبب ما أزال إليه، ومعنى ﴿ثم﴾ إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وإن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله، ﴿ثم استقاموا﴾.

فإنْ قلتَ: أيّ فرق بين قوله ﴿لهم أجرهم﴾ وقوله فيما بعد ﴿فلهم أجرهم﴾[1]؟ قلتُ: الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط، وضمنّه ثمة، والفرق بينهما من جهة المعنى أنّ الفاء فيها ذلك على أنّ الإنفاق به استحق الأجر، وطرحها عار عن تلك الدلالة.

* قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾.

﴿قول معروف﴾ ردّ جميل ﴿ومغفرة﴾ وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول، أو ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل، أو وعفو من جهة السائل؛ لأنّه إذا ردّه ردًّا جميلاً عذره. ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ وصح الإخبار عن المبتدأ النكرة لاختصاصه بالصفة. ﴿والله غني﴾ لا حاجة به إلى منفق يمن ويؤذي. ﴿حليم﴾ عن معاجلته بالعقوبة، وهذا سخط منه ووعيد له، ثم بالغ في ذلك بما اتبعه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾.

﴿كالذي ينفق ماله﴾ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كإبطال المنافق الذي ينفق ماله ﴿رئاء الناس﴾ لا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة. ﴿فمثله كمثل صفوان﴾ مثله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بصفوان: بحجر أملس عليه تراب، وقرأ سعيد بن المسيب: صَفَوَان بوزن كروان ﴿فأصابه وابل﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فتركه صلداً﴾ أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه، ومنه صلد جبين الأصلع إذا برق. ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾ كقوله: ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾[2]، ويجوز أن تكون الكاف في محل النصب على الحال، أي: لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق.

فإنْ قلتَ: كيف قال: ﴿لا يقدرون﴾، بعد قوله: ﴿كالذي ينفق﴾؟ قلتُ: أراد بالذي ينفق الجنس، أو الفريق الذي ينفق؛ ولأن مَنْ والذي يتعاقبان، فكأنّه قيل: كمن ينفق.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾.

﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾ وليثبتوا منها ببذل المال الذي هو شقيق الروح وبذله أشق شيء على النفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان؛ لأنّ النفس إذا ريضت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها في اتباعه لشهواتها، وبالعكس، فكان إنفاق المال تثبيتاً لها على الإيمان واليقين، ويجوز أن يراد وتصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم؛ لأنّه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله علم أنّ تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه، ومن على التفسير الأوّل للتبعيض مثلها في قولهم: هز من عطفه وحرك من نشاطه. وعلى الثاني لابتداء الغاية كقوله تعالى: ﴿حسداً من عند أنفسهم﴾[3] ويحتمل أن يكون المعنى: وتثبيتاً من أنفسهم عند المؤمنين أنّها صادقة الإيمان مخلصة فيه. وتعضده قراءة مجاهد: وتبييناً من أنفسهم.

فإنْ قلتَ: فما معنى التبعيض؟ قلتُ: أنّ من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذي ثبتها كلها ﴿وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾[4] والمعنى: ومثل نفقة هؤلاء في زكائها عند الله ﴿كمثل جنة﴾ وهي البستان ﴿بربوة﴾ بمكان مرتفع، وخصّها لأنّ الشجر فيها أزكى وأحسن ثمراً. ﴿أصابها وابل﴾ مطر عظيم القطر ﴿فآتت أكلها﴾ ثمرتها ﴿ضعفين﴾ مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل. ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها، أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أنّ كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها وجه الله ويبذل فيها الوسع زاكية عند الله زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده.

وقرىء: كمثل حبة وبربوة بالحركات الثلاث، وأكلها بضمتين.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن

= يصحب الفعل، لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه، ثم ورد قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام، إني ذاهب إلى ربي سيهدين، وقد حكى الله تعالى في مثل هذه الآية، الذي خلقني، فهو يهدين، فليس إلى حمل السين على تراخي زمان وقوع الهداية له، من سبيل، فيتعين المصير إلى حملها على الدلالة على تنفس دوام الهداية الحاصلة له، وتراخي بقائها، وتمادي أمدها، ولعلّ الزمخشري أشار إلى هذا المعنى في آية إبراهيم عليه السلام، فتأمل هذا =

= الوجه، فهو أوجه مما حمل الزمخشري عليه آية البقرة، وهذه الآية أبقى على الحقيقة، وأقرب إلى الوضع على أحسن طريقة، والله الموفق.

(1) سورة البقرة، الآية: 274.
(2) سورة الفرقان، الآية: 23.
(3) سورة البقرة، الآية: 109.
(4) سورة الصف، الآية: 11.

﴿تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

الهمزة في ﴿أيود﴾ للإنكار. وقرىء: له جنات، ونرية ضعاف، والإعصار الريح التي تستدير في الأرض ثم تسطع نحو السماء كالعمود، وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغي بها وجه الله، فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنان وأجمعها للثمار، فبلغ الكبر وله أولاد ضعاف، والجنة معاشهم ومنتعشهم، فهلكت بالصاعقة. وعن عمر رضي الله عنه: أنّه سأل عنها الصحابة، فقالوا: الله أعلم، فغضب. وقال: قولوا نعلم، أو لا نعلم. فقال ابن عباس رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال: قل يا ابن أخي، ولا تحقر نفسك، قال: ضربت مثلاً لعمل. قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل الحسنات، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها[1]. وعن الحسن رضي الله عنه: هذا مثل قلّ واللّهِ من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

فإنْ قلتَ: كيف قال: جنة من نخيل وأعناب، ثم قال: له فيها من كل الثمرات؟ **قلتُ**[2]: النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصّهما بالذكر وجعل الجنة منهما وإن كانت محتويةً على سائر الأشجار تغليباً لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات، ويجوز أن يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها، كقوله: ﴿وكان له ثمر﴾[3] بعد قوله: ﴿جنتين من أعناب وحففناهما بنخل﴾[4].

فإنْ قلتَ: علام عطف قوله: ﴿وأصابه الكبر﴾؟ **قلتُ:** الواو للحال لا للعطف، ومعناه: أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر، وقيل: يقال وددت أن يكون كذا ووددت لو كان كذا، فحمل العطف على المعنى، كأنه قيل: أيودّ أحدكم لو كانت له جنة، وأصابه الكبر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

﴿من طيبات ما كسبتم﴾ من جياد مكسوباتكم، ﴿ومما أخرجنا لكم﴾ من الحب والثمر والمعادن وغيرها.

فإنْ قلتَ: فهلا قيل: وما أخرجنا لكم، عطفاً على ما كسبتم، حتى يشتمل الطيب على المكسوب والمخرج من الأرض؟ **قلتُ:** معناه: ومن طيبات ما أخرجنا لكم، إلا أنّه حنف لنكر الطيبات. ﴿ولا تيمّموا الخبيث﴾ ولا تقصدوا المال الرديء ﴿منه تنفقون﴾ تخصونه بالإنفاق، وهو: في محل الحال. وقرأ عبد الله: ولا تامموا، وقرأ ابن عباس: ولا تيمموا بضم التاء، ويمّمه وتيمّمه وتأمّمه سواء في معنى قصده. ﴿ولستم بآخنيه﴾ وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾ إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه، من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه، إذا غضّ بصره، ويقال للبائع: أغمض، أي: لا تستقص كأنك لا تبصر. وقال الطرماح:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيـ ـم رجال يرضون بالإغماض

وقرأ الزهريّ: تغمضوا وأغمض وغمض بمعنى: وعنه تغمضوا بضم الميم وكسرها من غمض يغمُض ويغمِض، وقرأ قتادة: تغمضوا، على البناء للمفعول، بمعنى: إلا أن تدخلوا فيه وتجنبوا إليه، وقيل: إلا أن توجدوا مغمضين، وعن الحسن رضي الله عنه: لو وجدتموهم في السوق يباع ما أخنتموه حتى يهضم لكم من ثمنه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يتصدّقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه.

﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾.

أي: يعدكم في الإنفاق ﴿الفقر﴾ ويقول لكم إنّ عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا. وقرىء: الفُقُر بالضم، والفَقَر بفتحتين، والوعد يستعمل في الخير والشر، قال الله تعالى: ﴿النار وعدها الله الذين كفروا﴾[5]. ﴿ويامركم بالفحشاء﴾ ويغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الآمر للمامور، والفاحش عند العرب البخيل. ﴿والله يعدكم﴾ في الإنفاق ﴿مغفرةً﴾ لذنوبكم وكفارةً لها، ﴿وفضلاً﴾ وأن يخلف عليكم أفضل مما انفقتم، أو وثواباً عليه في الآخرة.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

﴿يؤتي الحكمة﴾ يوفق للعلم والعمل به، والحكيم عند الله هو العالم العامل. وقرىء: ومن يؤتِ الحكمة بمعنى: ومن يؤته الله الحكمة، وهكذا قرأ الأعمش: و ﴿خيراً كثيراً﴾ تنكير تعظيم، كأنّه قال: فقد أوتي، أي: خير كثير. ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ يريد الحكماء العلام العمال،

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: قوله ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة..﴾ الحديث رقم: (4538).

(2) قال أحمد رحمه الله: وهذا من باب تثنية نكر ما يقع الاهتمام به مرتين، عموماً، وخصوصاً، ومثله: فيهما فاكهة ونخل ورمان، إلا أنه في تلك الآية بدأ بالتعميم، وفي هذه الآية بدأ بالتخصيص،=

= والمقصود هو ما نبهنا عليه، والله أعلم.

(3) سورة الكهف، الآية: 34.

(4) سورة الكهف، الآية: 32.

(5) سورة الحج، الآية: 72.

والمراد به: الحثّ على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق.

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾.

﴿وما انفقتم من نفقة﴾ في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان، **﴿أو نذرتم من نذر﴾** في طاعة الله، أو في معصيته. **﴿فإنّ الله يعلمه﴾** لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه، **﴿وما للظالمين﴾** الذين يمنعون الصدقات، أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو لا يفون بالنذور، أو ينذرون في المعاصي. **﴿من انصار﴾** ممن ينصرهم من الله، ويمنعهم من عقابه.

إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾.

ما في نعمّا نكرة غير موصولة، ولا موصوفة ومعنى **﴿فنعما هي﴾** فنعم شيئاً إبداؤها، وقرىء: بكسر النون وفتحها. **﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء﴾** وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء، **﴿فهو خير لكم﴾** فالإخفاء خير لكم، والمراد الصدقات المتطوّع بها؛ فإنّ الأفضل في الفرائض أن يجاهر بها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: صدقات السر في التطوّع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً[1]، وإنّما كانت المجاهرة بالفرائض أفضل لنفي التهمة حتى إذا كان المزكي ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل، والمتطوّع إن أراد أن يقتدى به كان إظهاره أفضل. **﴿ونكفر﴾** قرىء: بالنون مرفوعاً عطفاً على محل ما بعد الفاء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: ونحن نكفر، أو على أنّه جملة من فعل وفاعل مبتداة ومجزوماً عطفاً على محل الفاء وما بعده؛ لأنّه جواب الشرط، وقرىء: ويكفر، بالياء مرفوعاً، والفعل لله، أو للإخفاء، وتكفر بالتاء مرفوعاً ومجزوماً، والفعل للصدقات. وقرأ الحسن رضي الله عنه: بالياء والنصب بإضمار أن، ومعناه: إن تخفوها يكن خيراً لكم وأن يكفر عنكم.

۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾.

﴿ليس عليك هداهم﴾[2] لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المنّ والأذى والإنفاق من الخبيث وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب، **﴿ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾** يلطف بمن يعلم أنّ اللطف ينفع فيه فينتهي عما نهى عنه. **﴿وما تنفقوا من خير﴾** من مال **﴿فلانفسكم﴾** فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم، فلا تمنوا به على الناس، ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم. **﴿وما تنفقون﴾** وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجه الله. ولطلب ما عنده، فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذي لا يوجه مثله إلى الله **﴿وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم﴾** ثوابه أضعافاً مضاعفة، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وأن يكون على احسن الوجوه وأجملها. وقيل: حجت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فأتتها امّها تسألها وهي مشركة فأبت أن تعطيها، فنزلت: وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين، وروي: أنّ ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار في اليهود ورضاع، وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم، وعن بعض العلماء: لو كان شر خلق الله لكان لك ثواب نفقتك، واختلف في الواجب، فجوز أبو حنيفة رضي الله عنه صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة، وأباه غيره.

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾.

الجار متعلق بمحذوف، والمعنى: أعمدوا الفقراء، أو اجعلوا ما تنفقون للفقراء، كقوله تعالى: **﴿في تسع آيات﴾** ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: صدقاتكم للفقراء **﴿والذين احصروا في سبيل الله﴾** هم الذين أحصرهم الجهاد، **﴿لا يستطيعون﴾** لاشتغالهم به **﴿ضرباً في الأرض﴾** للكسب، وقيل: هم أصحاب الصفة، وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجري قريش لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، فكانوا في صفة المسجد وهي سقيفته يتعلمون القرآن بالليل، ويرضخون النوى بالنهار، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ، فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وقف رسول الله ﷺ يوماً على أصحاب الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم، فقال: «أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقي من أمتي على النعت الذي انتم

---

(1) أخرجه الخطيب عن ابن عباس، ذكره الهندي في كنز العمال 6/ 467 الحديث رقم: (16577).

(2) قال أحمد رحمه الله: المعتقد الصحيح، أنّ الله هو الذي يخلق الهدى لمن يشاء هداه، وذاك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشريّ، أنّ الهدى ليس خلق الله، وإنما العبد يخلقه لنفسه، وإن أطلق الله= تعالى إضافة الهدى إليه، كما في هذه الآية، فهو مؤوّل على زعم الزمخشري بلطف الله الحامل، للعبد على أن يخلق هداه، إن هذا إلا اختلاق، وهذه النزغة من توابع معتقدهم السيىء، في خلق الأفعال، وليس علينا هداهم، ولكنّ الله يهدي من يشاء، وهو المسؤول أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا.

عليه راضياً بما فيه فإنّه من رفقائي في الجنة»[1]. ﴿يحسبهم الجاهل﴾ بحالهم ﴿أغنياء من التعفف﴾ مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة، ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ من صفرة الوجه ورثاثة الحال.

والإلحاف: الإلحاح، وهو اللزوم وأن لا يفارق إلا بشيء يعطاه من قولهم: لحفني من فضل لحافه، أي: أعطاني من فضل ما عنده. وعن النبي ﷺ: «إنّ الله تعالى يحبّ الحييّ الحليم المتعفف، ويبغض البذيّ السآل الملحف»[2]. ومعناه: أنّهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحوا. وقيل: هو نفي للسؤال والإلحاف جميعاً. كقوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره

يريد نفي المنار والاهتداء به.

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال، وقيل: نزلت في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه حين تصدّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السرّ، وعشرة في العلانية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في عليّ رضي الله عنه لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدّق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية، وقيل: نزلت في علف الخيل وارتباطها في سبيل الله. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: كان إذا مرّ بفرس سمين قرأ هذه الآية.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

﴿الربوا﴾ كتب بالواو على لغة من يفخم كما كتبت الصلاة والزكاة، وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. ﴿لا يقومون﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان﴾[3] أي: المصروع، وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فصرع.

والخبط: الضرب على غير استواء كخبط العشواء، فورد على ما كانوا يعتقدون، والمس الجنون، ورجل ممسوس وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجني يمسه فيختلط عقله، وكذلك جن الرجل معناه: ضربته الجنّ، ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات.

فإنْ قلتَ: بم يتعلق قوله: ﴿من المس﴾؟ قلتُ: بـ ﴿لا يقومون﴾ أي: لا يقومون من المسّ الذي بهم إلا كما يقوم المصروع، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿يقوم﴾. أي: كما يقوم المصروع من جنونه، والمعنى: أنّهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف. وقيل: الذين يخرجون من الأجداث يوفضون إلا أكلة الربا فإنّهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين؛ لأنّهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإيفاض. ﴿ذلك﴾ العقاب بسبب قولهم: ﴿إنّما البيع مثل الربوا﴾.

فإنْ قلتَ[4]: هلا قيل: إنّما الربا مثل البيع؛ لأنّ الكلام

---

(1) كشف الأستار، كتاب: البر والصلة، باب: الضيافة الحديث رقم: (2031).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والأدب، باب: استحباب العفو والتواضع الحديث رقم: (6535).

(3) قال أحمد: قوله وتخبط الشيطان من زعمات العرب، أي: كذباتهم وزخارفهم، التي لا حقيقة لها كما يقال في الغول والعنقاء، ونحو ذلك، وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية في زعماتهم المردودة، بقواطع الشرع، فقد ورد ما من مولود يولد، إلا يمسه الشيطان، فيستهلّ صارخاً، وفي بعض الطرق إلا طعن الشيطان في خاصرته، ومن ذلك يستهلّ صارخاً، إلا مريم وابنها، لقول أمها: إني أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم، وقوله عليه السلام: **«التقطوا صبيانكم أوّل العشاء، فإنه وقت انتشار الشياطين»**. وفي حديث مكحول أنه مرّ برجل نائم بعد العصر، فركضه برجله، وقال: لقد دفع عنك الشياطين، أو لقد عوفيت، إنها ساعة مخرجهم وفيها ينتشرون، وفيها يكون الخبثة، قال شمر: كان في لسان مكحول لكنه، وإنما أراد الخبطة من الشيطان، أي: إصابة مس أو جنون، وقد ورد في حديث المفقود الذي اختطفته الشياطين، وردّته في زمنه عليه الصلاة والسلام، أنه حدّث عن شأنه معهم قال: **«فجاءني طائر كأنه جمل، فتعثرني، فاحتملني** = **على خافية من خوافيه»** إلى غير ذلك مما يطول الكتاب بذكره، واعتقاد السلف، وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة، كما أخبر الشرع عنها، وإنما القدرية خصماء العلانية، فلا جرم أنهم ينكرون كثيراً، مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم من ذلك السحر، وخبطة الشيطان، ومعظم أحوال الجن، وإن اعترفوا بشيء من ذلك، فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنة، وينبئ عنه ظاهر الشرع في خبط طويل لهم، فاحذرهم قاتلهم الله، أنى يؤفكون.

(4) قال أحمد: وعندي وجه في الجواب عن السؤال، الذي أورده غير ما ذكر، وهو أنه متى كان المطلوب التسوية بين المحلين في ثبوت الحكم، فللقائل أن يسوي بينهما طرداً، فيقول مثلاً: الربا مثل البيع، وغرضه من ذلك أن يقول: والبيع حلال، فالربا حلال، وله أن يسوّي بينهما في العكس، فيقول: البيع مثل الربا، فلو كان الربا حراماً كان البيع حراماً، ضرورة المماثلة، ونتيجته التي دلت قوّة الكلام عليها، أن يقول ولما كان البيع حلالاً اتفاقاً غير حرام، وجب أن يكون الربا مثله، والأوّل على طريقة قياس الطرد، والثاني على طريقة قياس العكس، ومآلهما إلى مقصد واحد، فلا حاجة على هذا التقرير إلى خروج عن الظاهر، لعذر المبالغة أو غيره، وليس الغرض من هذا كله، إلا بيان هذا الذي تخيلوه، على أنموذج =

في الربا لا في البيع فوجب أن يقال: إنّهم شبّهوا الربا بالبيع، فاستحلوه، وكانت شبهتهم أنّهم قالوا: لو اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهماً بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهماً بدرهمين. **قلت:** جيء به على طريق المبالغة، وهو أنّه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنّهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل حتى شبّهوا به البيع، وقوله: **﴿وأحل الله البيع وحرّم الربوا﴾** إنكاراً لتسويتهم بينهما ودلالة على أنّ القياس يهدمه النص؛ لأنّه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه. **﴿فمن جاءه موعظة﴾** فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهي عن الربا **﴿فانتهى﴾** فتبع النهي، وامتنع **﴿فله ما سلف﴾** فلا يؤاخذ بما مضى منه لأنّه أخذ قبل نزول التحريم، **﴿وأمره إلى الله﴾** يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء، فلا تطالبوه به. **﴿ومن عاد﴾** إلى الربا **﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**[1] وهذا دليل بيّن على تخليد الفساق وذكر فعل الموعظة؛ لأنّ تأنيثها غير حقيقي؛ ولأنّها في معنى الوعظ. وقرأ أبيّ، والحسن: فمن جاءته.

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾.

﴿يمحق الله الربوا﴾ يذهب ببركته، ويهلك المال الذي يدخل فيه، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: الربا وإن كثر إلى قل. **﴿ويربي الصدقات﴾** ما يتصدق به، بأن يضاعف عليه الثواب ويزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة ويبارك فيه، وفي الحديث: «ما نقصت زكاة من مال قط». **﴿كل كفار أثيم﴾** تغليظ في أمر الربا وإيذان بأنّه من فعل الكفار لا من فعل المسلمين.

يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾.

أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا، فأمروا أن يتركوها ولا يطالبوا بها. روي: أنّها نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مال فطالبوهم عند المحل بالمال والربا. وقرأ الحسن رضي الله عنه: ما بقي، بقلب الياء ألفاً على لغة طيء، وعنه: ما بقي، بياء ساكنة، ومنه قول جرير:

هو الخليفة فارضوا ما رضى لكموا ماضي العزيمة ما في حكمه جنف

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن صح إيمانكم يعني: أنّ دليل صحة الإيمان وثباته امتثال ما أمرتم به من ذلك.

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾.

﴿فأذنوا بحرب﴾ فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به، وقرىء: فآذنوا، فأعلموا بها غيركم، وهو من الأذن وهو الاستماع؛ لأنّه من طرق العلم. وقرأ الحسن: فأيقنوا، وهو دليل لقراءة العامّة.

فإنْ قلتَ: هلا قيل: بحرب الله ورسوله؟ **قلتُ:** كان هذا أبلغ؛ لأن المعنى فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله. وروي: أنّها لما نزلت قالت ثقيف: لا يدى لنا بحرب الله ورسوله. **﴿وإن تبتم﴾** من الارتباء **﴿فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون﴾** المديونين بطلب الزيادة عليها، **﴿ولا تظلمون﴾** بالنقصان منها.

فإنْ قلتَ: هذا حكمهم إن تابوا، فما حكمهم لو لم يتوبوا؟ **قلتُ:** قالوا: يكون مالهم فيئاً للمسلمين، وروى المفضل عن عاصم: لا تظلمون ولا تظلمون.

وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾.

﴿وإن كان ذو عسرة﴾ وإن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة أي: ذو إعسار، وقرأ عثمان رضي الله عنه: ذا عسرة، على وإن كان الغريم ذا عسرة، وقرئ: ومن كان ذا عسرة، **﴿فنظرة﴾** أي: فالحكم، أو فالأمر نظرة، وهي

= النظم الصحيح، وإن كان قياساً فاسد الوضع، لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضاً في تحريم الربا، وتحليل البيع، وقطع القياس بينهما، ولكن إذا استعملت الطريقتين المذكورتين استعمالاً صحيحاً، فقل في الأولى: النبيذ: مثل الخمر في علة التحريم، وهو الإسكار، والخمر حرام، فالنبيذ حرام. وقل في الثانية: إنما الخمر مثل النبيذ، فلو كان النبيذ حلالاً، لكان الخمر حلالاً، وليست حلالاً اتفاقاً، فالنبيذ كذلك ضرورة المماثلة المذكورة، فهذا التوجيه أولى أن تحمل الآية عليه، والله أعلم.

(1) قال أحمد: هو يبني على أنّ المتوعد عليه بالخلود العود إلى فعل الربا خاصة، ولا يساعده على ذلك الظاهر الذي استدل به، فإنّ الذي وقع العود إليه مسكوت عنه في الآية، ألا تراه قال ومن عاد، فلم يذكر المعود إليه، فيحمل على ما تقدّم، كأنه قال ومن عاد إلى ما سلف = ذكره، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذي سلف ذكره فعل الربا، واعتقاد جوازه، والاحتجاج عليه بقياسه على البيع، ولا شك عندنا أهل السنة والجماعة، أنّ من تعاطى معاملة الربا، مستحلاً لها مكابراً في تحريمها مسنداً إحلالها إلى معارضة آيات الله البينات، بما يتوهمه من الخيالات، فقد كفر ثم ازداد كفراً، وإذ ذاك يكون الموعود بالخلود في الآية من يقول إنه كافر مكذب غير مؤمن، وهذا لا خلاف فيه، فلا دليل للزمخشري إذاً على اعتزاله في هذه الآية، والله الموفق، وإنما هو موكل بتحميل الآيات من المعتقدات الباطلة، ما لا تحتمله، وأنى له ذلك في الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

الإنظار. وقرئ: فنظرة بسكون الظاء، وقرأ عطاء: فناظره، بمعنى: فصاحب الحق ناظره، أي: منتظره، أو صاحب نظرته على طريقة النسب، كقولهم: مكان عاشب وباقل، أي: ذو عشب، وذو بقل، وعنه فناظره على الأمر بمعنى، فسامحه بالنظرة، وياسره بها. ﴿إلى ميسرة﴾ إلى يسار، وقرىء: بضم السين، كمقبرة ومقبرة، ومشرقة ومشرقة، وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة، كقوله:

وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

قوله تعالى: ﴿وأقام الصلاة﴾[1] ﴿وأن تصدقوا خير لكم﴾ ندب إلى أن يتصدقوا برؤوس أموالهم على من أعسر من غرمائهم، أو ببعضها، كقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾[2] وقيل: أريد بالتصدق الإنظار؛ لقوله ﷺ: «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»[3] ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أنه خير لكم فتعملوا به، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه. وقرىء: تصدّقوا، بتخفيف الصاد على حذف التاء.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

﴿ترجعون﴾ قرىء: على البناء للفاعل والمفعول، وقرىء: يرجعون، بالياء على طريقة الالتفات، وقرأ عبد الله: تردّون، وقرأ أبيّ: تصيرون. وعن ابن عباس أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام، وقال: ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة. وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقيل: أحداً وثمانين، وقيل: سبعة أيام، وقيل ثلاث ساعات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

﴿إذا تداينتم﴾ إذا داين بعضكم بعضاً، ويقال: داينت الرجل عاملته. ﴿بدين﴾ معطياً، أو آخذاً، كما تقول: بايعته إذا بعته، أو باعك. قال رؤبة:

داينت أروى والديون تقضى ... فمطلت بعضاً وأدّت بعضاً

والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه.

فإنْ قلتَ[4]: هلا قيل إذا تداينتم إلى أجل مسمى، وأي حاجة إلى ذكر الدين، كما قال: داينت أروى، ولم يقل بدين؟ **قلتُ**: ذكر ليرجع الضمير إليه في قوله: ﴿فاكتبوه﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن؛ ولأنّه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال.

فإنْ قلتَ: ما فائدة قوله: ﴿مسمى﴾؟ **قلتُ**: ليعلم أنّ من حق الأجل أن يكون معلوماً، كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام، ولو قال: إلى الحصاد، أو الدياس، أو رجوع الحاج لم يجز لعدم التسمية، وإنّما أمر بكتبة الدين؛ لأنّ ذلك أوثق وآمن من النسيان وأبعد من الجحود والأمر للندب. وعن ابن عباس: أنّ المراد به السلم، وقال: لما حرّم الله الربا أباح السلف، وعنه: أشهد أنّ الله أباح السلم المضمون إلى أجل معلوم في كتابه وأنزل فيه أطول آية[5]، ﴿بالعدل﴾ متعلق بكاتب صفة له، أي: كاتب مأمون على ما يكتب، يكتب بالسوية والاحتياط لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص. وفيه أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع، وهو أمر للمتداينين بتخير الكاتب، وأن لا يستكتبوا إلا فقيهاً ديناً. ﴿ولا يأب كاتب﴾ ولا يمتنع أحد من الكتاب، وهو معنى تنكير كاتب ﴿أن يكتب كما علمه الله﴾ مثل ما علمه الله كتابة الوثائق لا يبدل ولا يغير، وقيل: هو كقوله تعالى: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾[6] أي: ينفع الناس بكتابته، كما نفعه الله بتعليمها، وعن الشعبي: هي فرض كفاية، وكما علمه الله يجوز أن يتعلق بأن يكتب وبقوله: ﴿فليكتب﴾.

فإنْ قلتَ: أي فرق بين الوجهين؟ **قلتُ**: إن علقته بأن يكتب فقد نهى عن الامتناع من الكتابة المفيدة، ثم قيل له: فليكتب، يعني: فليكتب تلك الكتابة لا يعدل عنها، للتوكيد،

---

(1) سورة البقرة، الآية: 177.

(2) سورة البقرة، الآية: 237.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الصدقات، باب: إنظار المعسر الحديث رقم: (2418)، وأحمد في المسند 5/360، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: في أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، فصل في إنظار المعسر والرفق بالموسر الحديث رقم: (11261).

(4) قال أحمد: الأجل المسمى، والمعلوم انتهاؤه، ولعلم الانتهاء طرق، منها التحديد بنفس الزمان كالسنة والشهر، ومنها التحديد بما = يعتاد وقوعه في زمن مخصوص مضبوط بالعرف، كالحصاد ومقدم الحاج، وكيفما علم الأجل صح ضربه، فمن ثَم أجاز مالك البيع إلى الحصاد؛ لأنه معلوم عندهم، ثم المعتبر زمان وقوع هذه المسميات لا نفس وقوعها، حتى لو حل زمن قدوم الحاج، فمنعه مانع من القدوم مثلاً لم يكن به عبرة، وحكمنا بحلول أجل الدين، والله أعلم.

(5) الحاكم في المستدرك 2/286.

(6) سورة القصص، الآية: 77.

وإن علقته بقوله: فليكتب، فقد نهى عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق، ثم أمر بها مقيدةً. ﴿**وليملل الذي عليه الحق**﴾ ولا يكن المملي إلا من وجب عليه الحق؛ لأنّه هو المشهود على ثباته في ذمته وإقراره به، والإملاء والإملال لغتان قد نطق بهما القرآن، فهي تملى عليه. ﴿**ولا يبخس منه**﴾ من الحق ﴿**شيئاً**﴾، والبخس النقص، وقرىء: شيئاً بطرح الهمزة وشيئاً بالتشديد. ﴿**سفيهاً**﴾ محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف. ﴿**أو ضعيفاً**﴾ صبياً أو شيخاً مختلاً. ﴿**أو لا يستطيع أن يمل هو**﴾ أو غير مستطيع للإملاء بنفسه لعيّ به أو خرس، ﴿**فليملل وليه**﴾ الذي يلي أمره من وصي إن كان سفيهاً أو صبياً، أو وكيل إن كان غير مستطيع، أو ترجمان يمل عنه وهو يصدقه، وقوله تعالى: ﴿**أن يمل هو**﴾ فيه أنه غير مستطيع بنفسه ولكن بغيره، وهو الذي يترجم عنه. ﴿**واستشهدوا شهيدين**﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شهيدان على الدَّيْن ﴿**من رجالكم**﴾ من رجال المؤمنين، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء. وعن علي رضي الله عنه: لا تجوز شهادة العبد في شيء، وعند شريح، وابن سيرين، وعثمان البتي: أنها جائزة، ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض على اختلاف الملل. ﴿**فإن لم يكونا**﴾ فإن لم يكن الشهيدان ﴿**رجلين فرجل وامرأتان**﴾ فليشهد رجل وامرأتان، وشهادة النساء مع الرجال مقبولة عند أبي حنيفة فيما عدا الحدود والقصاص ﴿**ممن ترضون**﴾ ممن تعرفون عدالتهم. ﴿**أن تضلّ إحداهما**﴾ أن لا تهتدي إحداهما للشهادة بأن تنساها، من ضلّ الطريق إذا لم يهتد له، وانتصابه على أنّه مفعول له، أي: إرادة أن تضل.

فإنْ قلتَ: كيف يكون ضلالها مراداً لله تعالى؟ **قلتُ**: لما كان الضلال سبباً للإنكار، والإنكار مسبباً عنه وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر لالتباسهما واتصالهما، كانت إرادة الضلال المسبب عنه الإنكار إرادةً للإنكار، فكأنّه قيل: إرادة أن تنكر إحداهما الأخرى إن ضلت، ونظيره قولهم: أعددت الخشبة، أن يميل الحائط فأدعمه، وأعددت السلاح، أن يجيء عدو فأدفعه. وقرىء: ﴿**فتذكر**﴾ بالتخفيف والتشديد، وهما لغتان فتذاكر، وقرأ حمزة: أن تضل إحداهما على الشرط، فتنكر بالرفع والتشديد، كقوله: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾. وقرىء: أن تضل إحداهما على البناء للمفعول والتأنيث. ومن بدع التفاسير فتذكر فتجعل إحداهما الأخرى ذَكَراً يعني: أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر. ﴿**إذا ما دعوا**﴾ ليقيموا الشهادة، وقيل: ليستشهدوا، وقيل لهم شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الكائن، وعن قتادة: كان الرجل يطوف في الحواء العظيم فيه القوم، فلا يتبعه منهم أحد فنزلت. كنى بالسأم عن الكسل؛ لأنّ الكسل صفة المنافق، ومنه الحديث: «لا يقول المؤمن كسلت»[1]، ويجوز أن يراد من كثرت مداينا‌ته فاحتاج أن يكتب لكل دين صغير أو كبير كتاباً، فربما مل كثرة الكتب. والضمير في ﴿**تكتبوه**﴾ للدين أو الحق. ﴿**صغيراً أو كبيراً**﴾ على أي حال كان الحق من صغر أو كبر، ويجوز أن يكون الضمير للكتاب، وأن يكتبوه مختصراً أو مشبعاً ولا يُخِلّو بكتابته ﴿**إلى أجله**﴾ إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته، ﴿**ذلكم**﴾ إشارة إلى أن تكتبوه؛ لأنّه في معنى: المصدر. أي: ذلكم الكتب ﴿**أقسط**﴾ أعدل من القسط، ﴿**وأقوم للشهادة**﴾ وأعون على إقامة الشهادة، ﴿**وأدنى ألا ترتابوا**﴾ وأقرب من انتفاء الريب.

فإنْ قلتَ: مم بنى أفعلا التفضيل، أعني: أقسط وأقوم؟ **قلتُ**: يجوز على مذهب سيبويه أن يكونا مبنيين من أقسط وأقام، وأن يكون أقسط من قاسط على طريقة النسب، بمعنى: ذي قسط، وأقوم من قويم. وقرىء: ولا يساموا أن يكتبوه بالياء فيهما.

فإنْ قلتَ: ما معنى ﴿**تجارة حاضرة**﴾ وسواء كانت المبايعة بدين أو بعين فالتجارة حاضرة، وما معنى: إدارتها بينهم؟ **قلتُ**: أريد بالتجارة ما يتجر فيه من الأبدال، ومعنى إدارتها بينهم: تعاطيهم إياها يداً بيد، والمعنى: إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزاً يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوه، لأنّه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين، وقرىء: تجارة حاضرة بالرفع على كان التامة، وقيل: هي الناقصة على أنّ الاسم تجارة حاضرة، والخبر تديرونها، وبالنصب على إلا أن تكون التجارة تجارةً حاضرةً كبيت الكتاب:

بني أسد هل تعلمون بلاءنا ... إذا كان يوماً ذا كوكب أشنعا

أي: إذا كان اليوم يوماً. ﴿**وأشهدوا إذا تبايعتم**﴾ أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ناجزاً أو كالئاً؛ لأنّه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف، ويجوز أن يراد، وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع يعني: التجارة الحاضرة، على أنّ الإشهاد كافٍ فيه دون الكتابة، وعن الحسن: إن شاء أشهد وإن شاء لم يشهد. وعن الضحاك: هي عزيمة من الله ولو على باقة بقل. ﴿**ولا يضارّ**﴾ يحتمل البناء للفاعل والمفعول والدليل عليه قراءة عمر رضي الله عنه: ولا يضارِرْ بالإظهار والكسر، وقراءة ابن عباس رضي الله عنه: ولا يضارَرْ بالإظهار والفتح. والمعنى: نهي الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم ويلزم، أو لا يعطى الكاتب حقه من الجعل، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلد، وقرأ الحسن: ولا يضار بالكسر، ﴿**وإن تفعلوا**﴾ وإن تضارّوا ﴿**فإنّه**﴾ فإنّ الضرار ﴿**فسوق بكم**﴾. وقيل: وإن تفعلوا شيئاً مما نهيتم عنه.

---

(1) يأتي في براءة.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٨٣﴾.

﴿على سفر﴾ مسافرين. وقرأ ابن عباس وأبيّ رضي الله عنهما: كتاباً، وقال ابن عباس: أرأيت إن وجدت الكاتب ولم تجد الصحيفة والدواة. وقرأ أبو العالية: كتباً. وقرأ الحسن: كُتَّاباً جمع كاتب. **﴿فرهن﴾** فالذي يستوثق به رهن. وقرىء: فرهن بضم الهاء وسكونها، وهو: جمع رهن كسقف وسقف وفرهان.

فإنْ قلتَ[1]: لم شرط السفر في الارتهان، ولا يختص به سفر دون حضر، وقد رهن رسول الله ﷺ درعه في غير سفر[2]! **قلتُ**: ليس الغرض تجويز الارتهان في السفر خاصة، ولكن السفر لما كان مظنةً لإعواز الكتب والإشهاد، أمرَ على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد.

وعن مجاهد والضحاك أنّهما لم يجوّزاه إلا في حال السفر أخذاً بظاهر الآية، وأمّا[3] القبض فلا بدّ من اعتباره. وعند مالك: يصح الارتهان بالإيجاب والقبول بدون القبض. **﴿فإن أمن بعضكم بعضاً﴾** فإن أمن بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنه به، وقرأ أبيّ: فإن أومن، أي: آمنه الناس ووصفوا المديون بالأمانة والوفاء، والاستغناء عن الارتهان من مثله، **﴿فليؤد الذي اؤتمن أمانته﴾** حث المديون على أن يكون عند ظن الدائن به وأمنه منه وائتمانه، وأن يؤدي إليه الحق الذي ائتمنه عليه، فلم يرتهن منه، وسمى الدين أمانةً، وهو مضمون لائتمانه عليه بترك الارتهان منه، والقراءة أن تنطق بهمزة ساكنة بعد الدال أو ياءً، فتقول: الذي اؤتمن، أو الذي تُمِنْ وعن عاصم أنّه قرأ: الذي اتمن بإدغام الياء في التاء قياساً على اتسر في الافتعال من اليسر، وليس بصحيح؛ لأنّ الياء منقلبة عن الهمزة فهي في حكم الهمزة واتزر عامي، وكذلك ريا في رؤيا **﴿آثم﴾** خبر إن و **﴿قلبه﴾** رفع بآثم على الفاعلية؛ كأنّه قيل: فإنه يأثم قلبه، ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء،

---

(1) قال أحمد رحمه الله: فالتخصيص بالسفر على هذا، جرى على وفق الغالب، فلا مفهوم له، وفي هذه الآية دليل بيّن لمذهب مالك رضي الله عنه في إقامة الرهن، عند التنازع في قدر الدين مقام الشاهد للمرتهن، إلى تمام قيمته، حتى لو تنازعا، فقال الراهن رهنتك بمائة، وقال المرتهن بل الرهن بمائتين، لكان الرهن شاهداً بقيمته خلافاً للشافعي رضي الله عنه، فإنه يرى القول قول الراهن مطلقاً؛ لأنه غارم ووجه الدليل، لمالك رضي الله عنه من الآية، أنّ الله تعالى جعل الرهن في التوثق عوضاً من الإشهاد، والكتابة، وخصه بالسفر لإعوازهما حينئذٍ، ولو كان القول قول الراهن شرعاً لم يكن قائماً مقام الإشهاد، ولا مفيداً فائدته بوجه، إذ لو لم يكن الراهن لكان القول قول المديان في قدر الدين، فلم يزد وجود الرهن فائدة على عدمه باعتبار نيابته عن الأشهاد، ولا يقال إنّ فائدته الامتياز به على الغرماء؛ لأنّ تلك فائدة الإشهاد، حتى يكون نائباً عنه عند تعذره، ولا فائدة إذ ذاك، إلا جعل القول قول المرتهن في قدر الدين عند التخالف، وهو مذهب مالك المقدّم ذكره، ومن ثم لم يجعله شاهداً إلا في قيمته، لا فيما زاد عليها معتضداً بالعادة في أن رب الدين لا يقبل في دينه، إلا الموفي بقيمته، فدعواه أنّ الدين أكثر من القيمة مردودة بالعادة، والمديان أيضاً لا يسمح بتسليم ما قيمته أكثر، فيما هو أقلّ، فدعواه أنّ الدين أقل من القيمة مردودة بالعادة، ولا يبقى إلا النظر في أمر واحد، وهو أنّ المعتبر عند مالك في القيمة يوم الحكم، حتى لو تصادقا على أنّ القيمة كانت يوم الرهن أكثر، أو أقل لم يلتفت إلى ذلك زادت، أو نقصت، وإنما يعتبر يوم القضاء ولقائل أن يقول: إذا جعلتم الرهن مقام الشاهد عند عدمه؛ لأنّ العادة تقتضي أنّ الناس إنما يرهنون في الديون المساوي قيمته لها، فينبغي أن تعتبروا القيمة يوم الرهن غير معرجين على زيادتها، ونقصانها يوم القضاء، وعند ذلك يتجاذب أطراف الكلام في أنّ المقتضى لإقامته مقام الشاهد، هو المعنى المتقدّم أو غيره، وليس غرضنا إلا أنّ الآية ترشد إلى إقامته مقام الشهادة في الجملة، وأما تفاصيل المسألة، فذلك من حظ الفقه.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: البيوع، باب: شراء النبي ﷺ بالنسيئة الحديث رقم: (2068)، ومسلم في كتاب: المساقاة، باب: = الرهن وجوازه في الحضر والسفر الحديث رقم: (4090)، وحديث أنس أخرجه البخاري في الحديث رقم: (2069).

(3) قال أحمد رحمه الله: ليس بين مالك والشافعي خلاف في صحة الارتهان بالإيجاب، والقبول دون القبض، ولكنه عند مالك رضي الله عنه يصح بذلك، ويلزم الراهن بالعقد تسليمه للمرتهن، وعند الشافعي لا يلزم بالعقد، ولكن للقبض عند مالك اعتبار في الابتداء، والدوام ولا يشترط الشافعي كثيراً من أحكامه عند مالك، وذلك أنهما لو تقاررا على القبض، ثم قام الغرماء انتفع بالرهن عند الشافعي وامتاز به ولم ينتفع به عند مالك، وكان أسوة الغرماء فيه، حتى ينضاف إلى الشهادة عليهما بالقبض معاينة البينة لذلك؛ لأنه يتهمهما بالتواطئ على إسقاط حق الغرماء، فلا يعتبر إقرارهما إلا بانضمام المعاينة، فالقبض من هذا الوجه أدخل في الاعتبار على رأي مالك منه على رأي الشافعي، هذا في الابتداء، وأمّا في الدوام، فمالك رضي الله عنه يشترط بقاءه في يد المرتهن، حتى لو عاد إلى يد الراهن، بأن أودعه المرتهن إياه، أو أجره منه، أو أعاره إياه إعارة مطلقة، فقد خرج من الرهن، ولو قام الغرماء وهو بيد الراهن بوجه من الوجوه المذكورة، كان أسوة الغرماء فيه، والشافعي رضي الله عنه لا يشترط دوام القبض على هذا الوجه، بل للراهن عند الشافعي أن ينتفع بالرهن، ولو كره المرتهن إذا لم يكن الانتفاع مضراً بالرهن، كسكنى الدار واستخدام العبد، وله أن يستوفي منافعه بنفسه، على الصحيح عنده المنصوص عليه في الأم، ولا يؤثر ذلك في الرهن بطلاناً، ولا خللاً، فقد علمت أنّ القبض أدخل في الاعتبار على مذهب مالك ابتداء، ودواماً، والآية تعضده؛ فإنّ الرهن في اللغة هو الدوام، أنشد أبو علي:

فالخبز واللحم لهم راهن وقهوة راووقها ساكب

ولعلّ القائل باشتراط دوام الرهن في يد المرتهن، تمسك بما في لفظ الرهن من اقتضاء الدوام، وله في ذلك متمسك، وما طوّلت في حكاية مذهب مالك في القبض، إلا لأنّ المفهوم من كلام الزمخشري إطراح القبض عند مالك؛ لأنه فهم من قول أصحابه، إنّ القبض لا يشترط في صحة الرهن، ولا في لزومه أنه غير معتبر عنده بالكلية، والله أعلم.

وآثم خبر مقدّم والجملة خبر إن.

فإنْ قلتَ: هلا اقتصر على قوله: ﴿فإنه آثم﴾ وما فائدة ذكر القلب والجملة هي الآثمة لا القلب وحده؟ **قلتُ:** كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً بالقلب أسند إليه؛ لأنّ إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي، ولأنّ القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله؛ فكأنّه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه، ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أنّ القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه، واللسان ترجمان عنه؛ ولأنّ أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهي لها كالأصول التي تتشعب منها. ألا ترى أنّ أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنّه من معاظم الذنوب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى: ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾[1] وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، وقرىء: قلبه بالنصب، كقوله: ﴿سفه نفسه﴾[2] وقرأ ابن أبي عبلة: أثم قلبه، أي: جعله آثماً.

لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾.

﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ يعني من السوء **﴿يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء﴾** لمن استوجب المغفرة بالتوبة مما أظهر منه أو أضمره، **﴿ويعذب من يشاء﴾** ممن استوجب العقوبة بالإصرار، ولا يدخل فيما يخفيه الإنسان الوساوس وحديث النفس؛ لأنّ ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنّه تلاها فقال: لئن آخذنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى حتى سمع نشيجه، فذكر لابن عباس، فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمٰن قد وجد المسلمون منها مثل ما وجد[3] فنزل ﴿لا يكلف الله﴾[4] وقرىء: فيغفر ويعذب، مجزومين عطفاً على جواب الشرط، ومرفوعين على فهو يغفر ويعذب.

فإنْ قلتَ: كيف يقرأ الجازم؟ **قلتُ:** يظهر الراء ويدغم الباء، ومدغم الراء في اللام لاحن مخطئ خطأً فاحشاً، وراويه عن أبي عمرو مخطئ مرّتين؛ لأنّه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم، والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة، والسبب في قلة الضبط قلة الدراية، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو. وقرأ الأعمش: يغفر بغير فاء مجزوماً على البدل من يحاسبكم، كقوله:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا طـبـاً جـزلاً ونـاراً تـاجـجـا

ومعنى: هذا البدل التفصيل لجملة الحساب؛ لأنّ التفصيل أوضح من المفصل فهو جارٍ مجرى بدل البعض من الكل، أو بدل الاشتمال، كقولك: ضربت زيداً رأسه، وأحب زيداً عقله، وهذا البدل واقع في الأفعال وقوعه في الأسماء لحاجة القبيلين إلى البيان.

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾.

﴿والمؤمنون﴾ إن عطف على الرسول كان الضمير الذي التنوين نائب عنه في كل راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أي: كلهم آمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله من المذكورين ووقف عليه، وإن كان مبتدأ كان الضمير للمؤمنين، ووحد ضمير كل في آمن على معنى كل واحد منهم آمن، وكان يجوز أن يجمع، كقوله: ﴿وكلّ أتوه داخرين﴾[5]. وقرأ[6] ابن عباس: وكتابه، يريد القرآن أو الجنس، وعنه: الكتاب أكثر من الكتب.

فإنْ قلتَ: كيف يكون الواحد أكثر من الجمع؟ **قلتُ:** لأنّه إذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء، فأمّا الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع. **﴿لا نفرق﴾** يقولون لا نفرق، عن أبي عمرو: يفرق بالياء، على أن الفعل لكل، وقرأ عبد الله: لا يفرقون. و **﴿أحد﴾** في معنى الجمع، كقوله تعالى: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾[7] ولذلك دخل عليه بين **﴿سمعنا﴾** أجبنا **﴿غفرانك﴾** منصوب بإضمار فعله، يقال: غفرانك لا كفرانك، أي: نستغفرك ولا نكفرك. وقرىء: وكتبه ورسله بالسكون.

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا

(1) سورة المائدة، الآية: 72.
(2) سورة البقرة، الآية: 130.
(3) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (4/72).
(4) سورة البقرة، الآية: 286.
(5) سورة النمل، الآية: 87.
(6) قال أحمد: وقد قال مالك إن التمر أحرى باستغراق الجنس من = التمور، فإن التمر استرسل على الجنس، لا بصيغة لفظية، والتمور يردّه إلى تخيل الوحدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع، وفي صيغة الجمع مضطرب، وهذا الكلام من الإمام لو ظفر له بقول ابن عباس هذا، لاشهر الفرضية في الاستشهادية على صحة مقالته هذه، فلا نعيده.
(7) سورة الحاقة، الآية: 47.

طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾.

الوسع: ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه، ولا يحرج فيه، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود، وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾[1] لأنّه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة، وقرأ ابن أبي عبلة: وسعها بالفتح. ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر، لا يؤاخذ بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها.

فإن قلتَ: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكتساب؟ **قلتُ:** في الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال. أي: لا تؤاخذنا بالنسيان أو الخطأ إن فرط منا.

فإن قلتَ[2]: النسيان والخطأ متجاوز عنهما، فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟ **قلتُ:** ذكر النسيان والخطأ، والمراد بهما ما هما مسببان عنه من التفريط والإغفال، ألا ترى إلى قوله: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾[3] والشيطان لا يقدر على فعل النسيان، وإنّما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذي منه النسيان، ولأنهم كانوا متقين الله حق تقاته فما كانت تفرط منهم فرطة إلاّ على وجه النسيان والخطأ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به، كأنّه قيل: إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان، ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنّه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه.

والإصر: العبء الذي يأصر حامله، أي: يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله، استعير للتكليف الشاقّ من نحو قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب، وغير ذلك. وقرىء: آصاراً على الجمع، وفي قراءة أبيّ: ولا تحمل علينا بالتشديد.

فإن قلتَ: أيّ فرق بين هذه التشديدة والتي في ﴿ولا تحملنا﴾؟ **قلتُ:** هذه للمبالغة في حمل عليه، وتلك لنقل حمله من مفعول واحد إلى مفعولين، ﴿ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا، طلبوا الإعفاء عن التكليفات الشاقة التي كلفها من قبلهم، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفريطهم في المحافظة عليها. وقيل: المراد به الشاق. الذي لا يكاد يستطاع من التكاليف، وهذا تكرير لقوله: ﴿ولا تحمل علينا إصراً﴾. ﴿مولانا﴾ سيدنا ونحن عبيدك، أو ناصرنا، أو متولي أمورنا. ﴿فانصرنا﴾ فمن حق المولى أن ينصر عبيده، أو فإن ذلك عادتك، أو فإنّ ذلك من أمورنا التي عليك توليها، وعن ابن عباس: أنّ رسول الله ﷺ لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة: قد فعلت[4]، وعنه عليه السلام: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[5]. وعنه عليه السلام: «أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهنّ نبي قبلي»[6]. وعنه عليه السلام: «أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمٰن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل»[7].

فإن قلتَ: هل يجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة، أو قرأت البقرة؟ **قلتُ:** لا بأس بذلك، وقد جاء في حديث النبي ﷺ: «من آخر سورة البقرة، وخواتيم سورة البقرة[8] وخواتيم البقرة»، وعن عليّ رضي الله عنه: خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: أنه رمى الجمرة، ثم قال: من ههنا، والذي لا إلٰه غيره رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة[9]، ولا فرق بين هذا، وبين قولك: سورة الزخرف، وسورة الممتحنة، وسورة المجادلة. وإذا قيل: قرأت البقرة، لم يشكل أنّ المراد سورة البقرة، كقوله: ﴿واسأل القرية﴾[10]

---

(1) سورة البقرة، الآية: 185.

(2) قال أحمد: ولا ورود لهذا السؤال على قواعد أهل السنة؛ لأنا نقول إنما ارتفعت المؤاخذة بهذين بالسمع، كقوله عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان». وإذا كان كذلك، فلعلّ رفع المؤاخذة بهما كان إجابة لهذه الدعوة، فقد نقل أنّ الله تعالى قال عند كل دعوة منها قد فعلت، وإنما التزم الزمخشري ورود السؤال على قواعد القدرية، الذاهبين إلى استحالة المؤاخذة بالخطأ، والنسيان عقلاً؛ لأنه من تكليف ما لا يطيق، وهو مستحيل عندهم تفريعاً على قاعدة التحسين، والتقبيح، وكلها قواعد باطلة، ومذاهب ماحلة، فالله تعالى يجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب، ويلهمنا المعتقد الحق، والقول المصيب، إنه سميع مجيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(3) سورة الكهف، الآية: 63.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان أنّه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق الحديث رقم: (326).

(5) ابن عدي في الكامل.

(6) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة الحديث رقم:(5008)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة الحديث رقم: (1875)، كلهم عن أبي مسعود.

(7) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1165)، وابن خزيمة في كتاب: الوضوء، باب: ذكر الدليل على أن ما وقع عليه اسم التراب... الحديث رقم: (264).

(8) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة... الحديث رقم: (1874).

(9) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحج، باب: رمي الجمار من بطن الوادي الحديث رقم: (1747)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: رمي جمرة العقبة من بطن الوادي الحديث رقم: (3118).

(10) سورة يوسف، الآية: 82.

وعن بعضهم أنّه كره ذلك، وقال: يقال: قرأت السورة التي تذكر فيها البقرة. عن رسول الله ﷺ: «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإنّ تعلمها بركة، وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة. قيل: وما البطلة؟ قال: السحرة»[1].

سورة آل عمران

مكية وهي مائتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾.

ميم: حقها أن يوقف عليها كما وقف على ألف ولام، وأن يبدأ ما بعدها، كما تقول: واحد اثنان، وهي قراءة عاصم، وأما فتحها فهي حركة الهمزة ألقيت عليها حين أسقطت للتخفيف.

فإنْ قلتَ: كيف جاز إلقاء حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درج الكلام، فلا تثبت حركتها؛ لأنّ ثبات حركتها كثباتها. **قلتُ:** هذا ليس بدرج؛ لأنّ ميم في حكم الوقف، والسكون والهمزة في حكم الثابت، وإنّما حذفت تخفيفاً وألقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها، ونظيره قولهم: واحد اثنان، بإلقاء حركة الهمزة على الدال.

فإنْ قلتَ: هلا زعمت أنّها حركة لالتقاء الساكنين؟ **قلتُ:** لأنّ التقاء الساكنين لا يبالى به في باب الوقف، وذلك قولك: هذا إبراهيم وداود وإسحاق، ولو كان التقاء الساكنين في حال الوقف يوجب التحريك لحرك الميمان في ألف لام ميم لالتقاء الساكنين ولما انتظر ساكن آخر.

فإنْ قلتَ: إنّما لم يحركوا لالتقاء الساكنين في ميم؛ لأنّهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين، فإذا جاء ساكن ثالث لم يمكن إلا التحريك، فحركوا. **قلتُ:** الدليل على أنّ الحركة ليست لملاقاة الساكن أنّه كان يمكنهم أن يقولوا: واحد اثنان، بسكون الدال مع طرح الهمزة، فيجمعوا بين ساكنين، كما قالوا: أصيم ومديق، فلما حركوا الدال علم أنّ حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين.

فإنْ قلتَ: فما وجه قراءة عمرو بن عبيد بالكسر؟ **قلتُ:** هذه القراءة على توهم التحريك لالتقاء الساكنين، وما هي بمقولة.

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾.

و ﴿التوراة والإنجيل﴾ اسمان أعجميان، وتكلف اشتقاقهما من الورى والنجل، ووزنهما بتفعلة وافعيل إنّما يصح بعد كونهما عربيين، وقرأ الحسن: الإنجيل بفتح الهمزة، وهو دليل على العجمة؛ لأنّ أفعيل بفتح الهمزة عديم في أوزان العرب.

فإنْ قلتَ: لم قيل: نزل الكتاب، وأنزل التوراة والإنجيل[2]؟ **قلتُ:** لأنّ القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابات جملةً. وقرأ الأعمش: نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب.

مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾.

﴿هدى للناس﴾ أي: لقوم موسى وعيسى، ومن قال: نحن متعبدون بشرائع من قبلنا، فسره على العموم.

فإنْ قلتَ: ما المراد بالفرقان؟ **قلتُ**[3]: جنس الكتب السماوية؛ لأنّ كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي ذكرها، كأنّه قال: بعد ذكر الكتب الثلاثة وأنزل ما يفرق به بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزبور، كما قال: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾[4] وهو ظاهر، أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله. ﴿بآيات الله﴾ من كتبه المنزلة وغيرها. ﴿ذو انتقام﴾[5] له انتقام شديد لا يقدر على مثله منتقم.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة الحديث رقم: (1871).

(2) قال أحمد: يريد لأن فعل صيغة مبالغة وتكثير، فلما كان نزول القرآن منجماً، كان أكثر تنزيلاً من غيره، لتفرقه في مرار عديدة، فعبر عنه بصيغة مطابقة، لكثرة تنزيلاته، وعبر عن الكتابين بصيغة خلية عن المبالغة، والتكثير، والله أعلم.

(3) قال: والفرقان يحتمل أن يراد به جميع الكتب السماوية؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل، أو الكتب التي ذكرها أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزبور، كما أفرده وأخر ذكره في قوله: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾، أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له، ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل، بعدما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لفضله، والله أعلم. قال أحمد: وقد جعل الزمخشري سر = التعبير عن نزول القرآن، بصيغة فعل تفريقه في التنزيل، كما تقدّم آنفاً، ثم حمل الفرقان على أحد تأويلاته على القرآن، والتعبير عنه بأفعل كغيره، فإن يكن هذا، والله أعلم، فالوجه أنه لما عبر أولاً عن نزوله الخاص به، أتى بعبارة مطابقة لقصد الخصوصية، فلما جرى ذكره ثانياً لينعت بصفة زائدة على اسم الجنس، عبر عن نزوله من حيث الإطلاق اكتفاء بتميزه أوّلاً، وإجمالاً لذلك في غير مقصوده، ومن العبارة السائرة عن هذا المعنى الكلام يجمل في غير مقصوده، ويفصل في مقصوده.

(4) سورة النساء، الآية: 163.

(5) قال أحمد: وإنما يلقى هذا التفخيم من التنكير، وهو من علاماته مثله في قوله: ﴿فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾، قوله تعالى: ﴿منه آيات محكمات﴾ الآية.

﴿لا يخفى عليه شيء﴾ في العالم فعبر عنه بالسماء والأرض، فهو مطلع على كفر وإيمان من آمن وهو مجازيهم عليه.

هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾.

﴿كيف يشاء﴾ من الصور المختلفة المتفاوتة. وقرأ طاوس: تصوركم، أي: صوركم لنفسه ولتعبده، كقولك: أثلت مالاً، إذا جعلته أثلة، أي: أصلاً، وتأثلته إذا أثلته لنفسك، وعن سعيد بن جبير: هذا حجاج على من زعم أنّ عيسىٰ كان رباً، كأنّه نبّه بكونه مصوراً في الرحم على أنّه عبد كغيره، وكان يخفى عليه ما لا يخفى على الله.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾.

﴿محكمات﴾[1] احكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه. متشابهات مشتبهات محتملات ﴿هنّ أمّ الكتاب﴾ أي: أصل الكتاب، تحمل المتشابهات عليها وتردّ إليها، ومثال ذلك ﴿لا تدركه الأبصار﴾ ﴿إلى ربّها ناظرة﴾ ﴿لا يأمر بالفحشاء﴾ ﴿أمرنا مترفيها﴾.

فإنْ قلتَ: فهلا كان القرآن كله محكماً؟ قلتُ: لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمّل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله؛ ولأنّ المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره، ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد طمانينة إلى معتقده وقوّة في إيقانه. ﴿الذين في قلوبهم زيغ﴾ هم أهل البدع. ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم، ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق. ﴿ابتغاء الفتنة﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم، ﴿وابتغاء تأويله﴾ وطلب أن يأولوه التأويل الذي يشتهونه، ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ أي: لا يهتدي[2] إلا تأويله الحق الذي يجب، أي: يحمل عليه، إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم، أي: ثبتوا فيه وتمكنوا، وعضوا فيه بضرس قاطع. ومنهم من

---

(1) قال أحمد: هذا كما قدمته عنه من تكلفه، لتنزيل الآي على وفق ما يعتقده، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي، أو ذلك أنّ معتقده إحالة رؤية الله تعالى، بناء على زعم القدرية من أنّ الرؤية تستلزم الجسمية، والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية، كقوله: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ مالوا إلى جعله من المتشابه، حتى يردّوه بزعمهم إلى الآية، التي يدعون أنّ ظاهرها يوافق رأيهم، والآية. قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ وغرضنا الآن بيان وجوب الجمع بين الآيتين على الوجه الحق، فتقول محمل قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ في دار الدنيا، ومحمل الرؤية على الدار الآخرة جمعاً بين الأدلة، أو نقول الأبصار وإن كانت ظاهرة العموم، إلا أن المراد بها الخصوص، أي: لا تدركه أبصار الكفار، كقوله: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾، أو نقول: لا تعارض بين الآيتين، فتقرّ كل واحدة منهما في نصابها، وبيان ذلك أنّ الأبصار عالم بالألف واللام الجنسيتين، ولا يتم غرض القدرية على زعمهم، إلا بالموافقة على عمومها، وحينئذٍ يكون في العموم مرادفة لدخول كل؛ لأنّ كليهما أعني المعرف، والجنسي، وكلا يفيد الشمول والإحاطة، وإذا أثبت ذلك، فالسلب داخل على الكلية، والقواعد مستقرّة على أن سلب الكلية جزئي لغة ومتعقلاً، الا ترى أنّ القائل، إذا قال لا تنفق كل الدراهم، كان المفهوم من ذلك الإذن في إنفاق البعض، والنهي عن إنفاق البعض، ومن حيث المعقول أنّ الكلية تسلب بسلب بعض الأفراد، ولو واحداً وحينئذٍ يكون مقتضى الآية سلب الرؤية عن بعض الأبصار، وثبوتها لبعض الأبصار، وهذا عين مذهب أهل السنة؛ لأنهم يثبتونها للموحدين، ويسلبونها عن الكفار، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ فقد ثبت أنّ هذه الآية، إما محمولة على إثبات الرؤية، وإما باقية على ظاهرها دليلاً على = ثبوتها على وفق السنة. ولا يقال، قد ثبت الفرق بين دخول كل على المعرف تعريف الجنس، وبين عدم دخولها ألا ترى أنهم يقولون إنّ قولنا الإنسان كاتب مهمل في قوة الجزئي، وأنّ قولنا كل إنسان حيوان كلي لا جزئي. لأنا نقول إنما جارتنا القدرية على ما يلزمهم الموافقة فيه، وهم قد وافقوا على تناول الأبصار لكل واحد واحد من أفراد الجنس، ولولا ذلك لما تم لهم مرام ولكفونا مؤنة البحث في ذلك، وهذا القدر من الكلية المتفق عليها بين الفريقين، لا يثبت لما سماه أهل ذلك الفن مهملاً، بل هذا هو الكلي عندهم، والله الموفق، وأما الآيتان الأخريان، اللتان إحداهما قوله تعالى: ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ والأخرى، التي هي قوله تعالى: ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ فلا ينازع الزمخشري في تمثيل المحكم، والمتشابه بهما.

(2) قال أحمد رحمه الله: وقوله لا يهتدي إليه إلا الله، عبارة قلقة، ولم يرد إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى، مع أنّ في هذه اللفظة إيهاماً إذاً، لاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا عن جهل وضلال، جل الله وعزّ، حتى أن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه فلان المهتدى، ذلك مقتضى اللغة فيه، فإنه مطاوع هدى يقال: هديته، فاهتدى، الإجماع منعقد على أنّ ما لم يرد إطلاقه، وكان موهماً لا يجوز إطلاقه على الله عزّ وجل، ولذا أنكر على القاضي إطلاقه المعرفة على علم الله تعالى، حيث حدّ مطلق العلم بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه، فلأن ينكر على الزمخشري إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى أجدر، وما أراها صدرت منه إلا وهماً حيث أضاف العلم إلى الله تعالى، وإلى الراسخين في العلم، فأطلق الاهتداء على الراسخين، أو عقل عن كونه ذكرهم مضائين إلى الله تعالى في الفعل المذكور، والله أعلم.

يقف على قوله ﴿إلا الله﴾ ويبتدئ ﴿والراسخون في العلم يقولون﴾ ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه والأوّل هو الوجه. ويقولون: كلام مستأنف موضح لحال الراسخين، بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل. ﴿يقولون آمنا به﴾ أي: بالمتشابه ﴿كل من عند ربنا﴾ أي: كلّ واحد منه ومن المحكم من عنده، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه. ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمّل، ويجوز أن يكون ﴿يقولون﴾ حالاً من الراسخين. وقرأ عبد الله: إن تأويله إلاّ عند الله. وقرأ أبيّ: ويقول الراسخون.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾.

﴿لا تزغ قلوبنا﴾[1] لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا، ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وأرشدتنا لدينك، أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا. ﴿من لدنك رحمة﴾ من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة، وقرئ: لا تزغ قلوبنا بالتاء والياء، ورفع القلوب.

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾.

﴿جامع الناس ليوم﴾ أي: تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم، كقوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾[2]. وقرئ: جامع الناس على الأصل ﴿إنّ الله لا يخلف الميعاد﴾، معناه: أنّ الإلهية تنافي خلف الميعاد، كقولك: إنّ الجواد لا يخيب سائله. والميعاد: الموعد.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾.

قرأ علي رضي الله عنه: لن تغني، بسكون الياء، وهذا من الجدّ في استثقال الحركة على حروف اللين. من في قوله: ﴿من الله﴾ مثله في قوله: ﴿وإنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئاً﴾[3]، والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله ﴿شيئاً﴾، أي: بدل رحمته وطاعته، وبدل الحق، ومنه: «ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد». أي: لا ينفعه جدّه، وحظه من الدنيا بذلك. أي: بدّل طاعتك وعبادتك وما عندك، وفي معناه قوله تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾[4]. وقرئ: وقود بالضم، بمعنى: أهل وقودها. والمراد بالذين كفروا: من كفر برسول الله ﷺ، وعن ابن عباس: هم قريظة والنضير.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾.

الدأب: مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه، فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، والكاف مرفوع المحل تقديره: دأب هؤلاء الكفرة كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم، ويجوز أن ينتصب محل الكاف بـ «لن» تغني أو بالوقود، أي: لن تغني عنهم مثل ما لم تغن عن أولئك، أو توقد بهم النار كما توقد بهم، تقول: إنك لتظلم الناس كدأب أبيك، تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم، وإنّ فلاناً لمحارف كدأب أبيه، تريد كما حورف أبوه ﴿كذبوا بآياتنا﴾ تفسير لدأبهم ما فعلوا وفعل بهم على أنّه جواب سؤال مقدّر عن حالهم.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾.

﴿قل للذين كفروا﴾ هم مشركو مكة ﴿ستغلبون﴾ يعني: يوم بدر، وقيل: هم اليهود، ولما غلب رسول الله ﷺ يوم بدر قالوا: هذا والله النبيّ الأميّ الذي بشرنا به موسى، وهموا باتباعه، فقال بعضهم: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد شكوا، وقيل: جمعهم رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل». فقالوا: لا يغرّنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصةً لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس[5]. فنزلت. وقرئ: سيغلبون ويحشرون بالياء، كقوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم﴾[6] على قل لهم قولي لك سيغلبون.

فإنْ قلتَ: أي فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ قلتُ: معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم، فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون، وهو الكائن من نفس المتوعد به، والذي يدل عليه اللفظ، ومعنى القراءة بالتاء: الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه، كأنّه قال: أدّ إليهم هذا القول الذي هو قولي لك: سيغلبون ويحشرون.

---

(1) قال أحمد: امّا أهل السنة، فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرّفة؛ لأنهم يوحدون حق التوحيد، فيعتقدون أنّ كلّ حادث من هدى وزيغ، مخلوق لله تعالى، وأما القدرية فعندهم أنّ الزيغ لا يخلقه الله تعالى، وإنما يخلقه العبد لنفسه، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرّفة إلى غير المراد بها كما أوّلها المصنف ب، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافاً إلى هذه الدعوة، بأن لا يبيتنا، ولا يمنعنا لطفه آمين؛ لأنّ الكل فعله وخلقه ولا موجود إلا هو، وأفعاله التي= نحن، وأفعالنا منها.

(2) سورة التغابن، الآية: 9.

(3) سورة النجم، الآية: 28.

(4) سورة سبأ، الآية: 37.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب: كيف كان إخراج اليهود من المدينة الحديث رقم: (3001).

(6) سورة الأنفال، الآية: 38.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قد كان لكم آية﴾ الخطاب لمشركي قريش، **﴿في فئتين التقتا﴾** يوم بدر. **﴿يرونهم مثليهم﴾**[1] يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين، أو مثلي عدد المسلمين[2] ستمائة ونيفاً وعشرين. أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم، وكان ذلك مدداً لهم من الله، كما أمدّهم بالملائكة، والدليل عليه قراءة نافع: ترونهم بالتاء، أي: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فئتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم.

فإنْ قلتَ: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال: **﴿ويقللكم في أعينهم﴾**[3] **قلتُ:** قللوا أوّلاً في أعينهم حتى اجترؤا عليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: **﴿فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جانّ﴾**[4] وقوله تعالى: **﴿وقفوهم إنّهم مسؤولون﴾**[5] وتقليلهم تارةً وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: **﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾**[6] بعدما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى: **﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾**[7] ولذلك وصف ضعفهم بالقلة؛ لأنّه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف، وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم. وقراءة نافع لا تساعد عليه، وقرأ ابن مصرف: يرونهم على البناء للمفعول بالياء والتاء، أي: يريهم الله ذلك بقدرته. وقرىء: فئة تقاتل وأخرى كافرة بالجرّ على البدل من فئتين، وبالنصب على الاختصاص، أو على الحال من الضمير في التقتا. **﴿رأى العين﴾** يعني: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات، **﴿والله يؤيد بنصره﴾** كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿زين للناس﴾[8] المزين هو الله سبحانه وتعالى للابتلاء كقوله: **﴿إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم﴾**[9]. ويدل عليه قراءة مجاهد: زين للناس على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان والله زينها لهم لأنّا لا نعلم أحداً أذم لها من خالقها، **﴿حب الشهوات﴾**[10] جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاةً محروصاً على الاستمتاع بها، والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات؛ لأنّ الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية. وقال: **﴿زين للناس حبّ الشهوات﴾** ثم جاء بالتفسير ليقرر أوّلاً في النفوس أنّ المزين لهم حبّه ما هو إلاّ شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدلّ على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله.

والقنطار: المال الكثير، قيل: ملء مسك ثور، وعن سعيد بن جبير: مائة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، و **﴿المقنطرة﴾** مبنية

---

(1) قال أحمد: وكذلك آيات الشفاعة المقدّمة على رأي أهل السنة.

(2) قال أحمد: إنما قال ذلك؛ لأنّ الخطاب على قراءة نافع يكون للمسلمين، أي: ترونهم يا مسلمون، ويكون ضمير المثلين أيضاً للمسلمين، وقد جاء على لفظ الغيبة، فيلزم الخروج في جملة واحدة من الحضور إلى الغيبة، والالتفات، وإن كان سائغاً فصيحاً، إلا أنه إنما يأتي في الأغلب في جملتين، وقد جاء ههنا الكلام جملة واحدة؛ لأنّ مثليهم مفعول ثان للرؤية، ولو قال القائل ظننتك يقوم على لفظ الغيبة بعد الخطاب لم يكن بذاك، فهذا هو الوجه الذي باعد الزمخشري به بين قراءة نافع، وبين هذا التأويل، إلا أنه يلزم مثله على أحد وجهيه المتقدمين آنفاً؛ لأنه قال معناه على قراءة نافع: ترون يا مشركون المسلمين مثلي عددهم، أو مثلي فئتكم الكافرة، فعلى هذا الوجه الثاني، يلزم الخروج من الخطاب إلى الغيبة، في الجملة بعينها، كما ألزمه هو على ذلك الوجه، والله أعلم.

(3) سورة الأنفال، الآية: 44.

(4) سورة الرحمن، الآية: 39.

(5) سورة الصافات، الآية: 24.

(6) سورة الأنفال، الآية: 66.

(7) سورة الأنفال، الآية: 65.

(8) قال أحمد: التزيين للشهوات يطلق، ويراد به خلق حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة؛ لأنه لا خالق إلا هو خالق كل شيء من جوهر، ومن عرض قائم بالجوهر حب، أو غيره محمود في الشرع أولاً، ويطلق التزيين، ويراد به الحض على تعاطي الشهوات، والأمر بها، فهو بهذا الاعتبار لا يضاف إلى الله تعالى منه إلا الحض على بعض الشهوات المنصوص عليها شرعاً، كالنكاح المقترن بقصد التناسل، واتباع السنة فيه، وما يجري مجراه، وأمّا الشهوات المحظوّة، فتزيينها بهذا المعنى الثاني مضاف إلى الشيطان تنزيلاً لوسوسته، وتحسينه منزلة الأمر بها، والحض على تعاطيها، وكلام الحسن رضي الله عنه محمول على التزيين بالمعنى الثاني، لا بالمعنى الأوّل، فإنه يحاشا أن ينسب خلق الله إلى غير الله، وإنما الزمخشري كثيراً ما يورد أمثال هذه العبارة الملتبسة، تنزيلاً لها على قواعد القدرية الفاسدة، فتفطن لها وبرئ قائلها من السلف الصالح، عما يزعم الزمخشري النقل عنه، والله الموفق.

(9) قال أحمد: يريد إلحاقها بباب رجل صوم وفطر مما يوضع فيه المعنى موضع الاسم مبالغة.

(10) سورة الكهف، الآية: 7.

من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم: ألف مؤلفة وبدرة مبدرة، و ﴿المسوّمة﴾ المعلمة، من السومة وهي العلامة، أو المطهمة، أو المرعية، من أسام الدابة وسوّمها. و ﴿الأنعام﴾ الأزواج الثمانية، ﴿ذلك﴾ المذكور ﴿متاع الحياة﴾.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿للذين اتّقوا عند ربهم جنات﴾ كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم، كما تقول: هل أدلك على رجل عالم، عندي رجل من صفته كيت وكيت، ويجوز أن يتعلق اللام بخير، واختص المتقين لأنّهم هم المنتفعون به. وترتفع ﴿جنات﴾ على هو جنات، وتنصره قراءة من قرأ: جنات بالجرّ على البدل من خير. ﴿والله بصير بالعباد﴾ يثيب ويعاقب على الاستحقاق، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم، فلذلك أعدّ لهم الجنات.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿الذين يقولون﴾ نصب على المدح، أو رفع، ويجوز الجرّ صفةً للمتّقين أو للعباد. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها وقد مرّ الكلام في ذلك. وخص الأسحار؛ لأنّهم كانوا يقدّمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾(1). وعن الحسن: كانوا يصلون في أوّل الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار، هذا نهارهم وهذا ليلهم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٨﴾.

شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد، كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وكذلك إقرار الملائكة أولي العلم بذلك واحتجاجهم عليه. ﴿قائماً بالقسط﴾ مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويثيب، ويعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم، وانتصابه على أنّه حال مؤكدة منه، كقوله: ﴿وهو الحق مصدّقاً﴾.

فإنْ قلتَ: لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه، ولو قلت جاءني زيد وعمرو راكباً لم يجز؟ قلتُ: إنّما جاز هذا لعدم الإلباس، كما جاز في قوله: ﴿ووهبنا له إسحٰق ويعقوب﴾(2) نافلة، أن تنصب نافلة حالاً عن يعقوب، ولو قلت: جاءني زيد وهند راكباً جاز لتميزه بالذكورة، أو على المدح.

فإنْ قلتَ: أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة، كقولك: الحمد لله الحميد، إنا معشر الأنبياء لا نورث، إنا بني نهشل لا ندعى لأب! قلتُ: قد جاء نكرةً، كما جاء معرفةً، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرةً قول الهذلي:

ويأوي إلى نسوة عطل ... وشعثاً مراضيع مثل السعالي

فإنْ قلتَ: هل يجوز أن يكون صفةً للمنفي، كأنّه قيل: لا إلٰه قائماً بالقسط إلا هو؟ قلتُ: لا يبعد فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف.

فإنْ قلتَ: قد جعلته حالاً من فاعل شهد، فهل يصح أن ينتصب حالاً عن هو في لا إلٰه إلا هو؟. قلتُ: نعم؛ لأنّها حال مؤكدة، والحال المؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها كقولك: أنا عبد الله شجاعاً، وكذلك لو قلت: لا رجل إلا عبد الله شجاعاً، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد، وكذلك انتصابه على المدح.

فإنْ قلتَ: هل دخل قيامه بالقسط في حكم شهادة الله والملائكة وأولي العلم، كما دخلت الوحدانية؟ قلتُ: نعم إذا جعلته حالاً من هو، أو نصباً على المدح منه، أو صفةً للمنفي، كأنّه قيل: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنّه لا إلٰه إلا هو، وأنّه قائم بالقسط. وقرأ عبد الله: القائم بالقسط، على أنّه بدل من هو، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ أبو حنيفة: قيماً بالقسط. ﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان مقرّرتان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل، يعني: أنّه العزيز الذي لا يغالبه إلٰه آخر، الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله.

فإنْ قلتَ: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله؟ قلتُ: هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد. وقرىء: أنّه بالفتح، وإنّ الدين بالكسر على أنّ الفعل واقع على أنّه بمعنى: شهد الله على أنّه، أو بأنّه.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٩﴾.

وقوله: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى.

فإنْ قلتَ: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلتُ: فائدته أنّ قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ توحيد وقوله: ﴿قائماً بالقسط﴾ تعديل، فإذا أردفه قوله: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾ فقد آذن أنّ الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين، وفيه أنّ من ذهب إلى

(1) سورة فاطر، الآية: 10.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 72.

تشبيه أو ما يؤدّي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بيِّن جلي كما ترى. وقرئا مفتوحين على أنّ الثاني بدل من الأوّل، كأنّه قيل: شهد الله أنّ الدين عند الله الإسلام، والبدل هو المبدل منه في المعنى، فكان بياناً صريحاً لأنّ دين الله هو التوحيد والعدل. وقرىء: الأوّل بالكسر والثاني بالفتح على أن الفعل واقع على أن، وما بينهما اعتراض مؤكد، وهذا أيضاً شاهد على أنّ دين الإسلام هو العدل والتوحيد، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك. وقرأ عبد الله: أن لا إله إلا هو، وقرأ أبيّ: إنّ الدين عند الله الإسلام، وهي مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية، وقرىء: شهداء الله بالنصب على أنّه حال من المذكورين قبله، وبالرفع على هم شهداء الله.

فإنْ قلتَ: فعلام عطف على هذه القراءة، ﴿**والملائكة، وأولوا العلم**﴾؟ **قلتُ:** على الضمير في شهداء، وجاز لوقوع الفاصل بينهما.

فإنْ قلتَ(1): لم كرّر قوله: ﴿**لا إله إلاّ هو**﴾؟ **قلتُ:** ذكره أوّلاً للدلالة على اختصاصه بالوحدانية، وأنّه لا إله إلا تلك الذات المتميزة، ثم ذكره ثانياً بعد ما قرن بإثبات الوحدانية إثبات العدل للدلالة على اختصاصه بالأمرين، كأنّه قال: لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين، ولذلك قرن به قوله: ﴿**العزيز الحكيم**﴾ لتضمنهما معنى الوحدانية والعدل. ﴿**الذين أوتوا الكتاب**﴾ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنّهم تركوا الإسلام، وهو التوحيد والعدل. ﴿**من بعد ما جاءهم العلم**﴾ أنّه الحق الذي لا محيد عنه، فثلثت النصارى، وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالوا: كنا أحق بأن تكون النبوّة فينا من قريش؛ لأنّهم أمّيون، ونحن أهل كتاب، وهذا تجوير لله ﴿**بغياً بينهم**﴾ أي: ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب إلا حسداً بينهم وطلباً منهم للرياسة، وحظوظ الدنيا، واستتباع كل فريق ناساً يطؤن أعقابهم لا شبهةً في الإسلام، وقيل: هو اختلافهم في نبوّة محمد ﷺ حيث آمن به بعض، وكفر به بعض، وقيل: هو اختلافهم في الإيمان بالأنبياء فمنهم من آمن بموسىٰ، ومنهم من آمن بعيسىٰ، وقيل: هم اليهود واختلافهم أنّ موسىٰ عليه السلام حين احتضر استودع التوراة سبعين حبراً من بني إسرائيل وجعلهم أمناء عليها، واستخلف يوشع، فلما مضى قرن بعد قرن اختلف أبناء السبعين بعد ما جاءهم علم التوراة بغياً بينهم وتحاسداً على حظوظ الدنيا والرياسة، وقيل هم النصارى، واختلافهم في أمر عيسىٰ بعد ما جاءهم العلم أنّه عبد الله ورسوله.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿**فإن حاجوك**﴾ فإن جادلوك في الدين، ﴿**فقل أسلمت وجهي لله**﴾ أي: أخلصت نفسي وجملتي لله وحده، لم أجعل فيها لغيره شركاً بأن أعبده، وأدعوه إلهاً معه. يعني: أنّ ديني التوحيد، وهو الدين القديم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه، ونحوه ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾(2) فهو دفع للمحاجة بأنّ ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذي لا لبس فيه، فما معنى المحاجة فيه. ﴿**ومن اتبعن**﴾ عطف على التاء في أسلمت وحسن للفاصل، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولاً معه. ﴿**وقل للذين أوتوا الكتاب**﴾ من اليهود والنصارى، ﴿**والأمّيين**﴾ والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب. ﴿**أأسلمتم**﴾ يعني: أنّه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام، ويقتضي حصوله لا محالة، فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها

(1) قال أحمد رحمه الله: وهذا التكرار لما قدّمته في نظيره، مما صدر الكلام به إذا طال عهده، وذلك أنّ الكلام مصدر بالتوحيد، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به، ثم قوله قائماً بالقسط، وهو التنزيه، فطال الكلام بذلك، فجدد التوحيد تلو التنزيه ليلي قوله: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾ ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدّم كالمنقطع في الفهم، مما أريد إيصاله به، والله أعلم، قال: وفيه أنّ من ذهب إلى تشبيه الخ، قال أحمد: هذا تعريض بخروج أهل السنة من ربقة الإسلام، بل تصريح وما ينقم إلا أن صدّقوا، وعد الله عباده المكرّمين على لسان نبيهم الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته؛ ولأنهم وحدوا الله حق توحيده، فشهدوا أن لا إله إلا هو، ولا خالق لهم، ولأفعالهم إلا هو واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدر تقارن فعلهم لا خلق لها، ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية، والاضطرارية، وتلك المعبر عنها شرعاً بالكسب في مثل قوله تعالى: ﴿بما كسبت أيديكم﴾ هذا إيمان القوم وتوحيدهم لا كقوم يغيرون في وجه النصوص، فيجحدون = الرؤية التي يظهر أن جحدهم لها سبب في حرمانهم إياها، ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله في مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاؤوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم محادة، ومعاندة لله في ملكه، ثم بعد ذلك يتسترون بتسمية أنفسهم أهل العدل، والتوحيد، والله أعلم بمن اتقى ولجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة، فأنا أوّل المجبرين ولو نظرت أيها الزمخشري بعين الإنصاف إلى جهالة القدرية، وضلالها لانبعثت إلى حدائق السنة، وظلالها ولخرجت عن مزالق البدع، ومزالها، ولكن كره الله انبعاثهم، ولعلمت، أي: الفريقين أحق بالأمن، وأولى بالدخول في أولى العلم المقرونين في التوحيد بالملائكة، المشرفين بعطفهم على اسم الله عزّ وجلّ اللهم، الهمنا على اقتفاء السنة شكرك، ولا تؤمنا مكرك، إنه لا يأمن من مكر الله، إلا القوم الخاسرون، فليس ينجي من الخوف إلا الخوف، والله ولي التوفيق.

(2) سورة آل عمران، الآية: 64.

لا أم لك، ومنه قوله عزّ وعلا: ﴿فهل أنتم منتهون﴾[1] بعد ما نكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفي هذا الاستفهام استقصار وتعبير بالمعاندة وقلة الإنصاف؛ لأنّ المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعاند بعد تجلي الحجة ما يضرب أسداداً بينه وبين الإذعان، وكذلك في هل فهمتها: توبيخ بالبلادة وكلة القريحة، وفي فهل أنتم منتهون بالتقاعد عن الانتهاء، والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه. ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ فقد نفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور. ﴿وإن تولوا﴾ لم يضروك فإنّك رسول منبه عليك إلاّ أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾.

قرأ الحسن: يقتلون النبيين، وقرأ حمزة: ويقاتلون الذين يأمرون، وقرأ عبد الله: وقاتلوا، وقرأ أبيّ: يقتلون النبيين والذين يأمرون، وهم أهل الكتاب قتل أولوهم الأنبياء، وقتلوا أتباعهم، وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول الله ﷺ والمؤمنين لولا عصمة الله. وعن أبي عبيدة بن الجراح: قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر»، ثم قرأها، ثم قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾.

﴿في الدنيا والآخرة﴾ لأنّ لهم اللعنة والخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

فإنْ قلتَ: لم دخلت الفاء في خبر إن؟ **قلتُ**: لتضمن اسمها معنى الجزاء؛ كأنّه قيل: الذين يكفرون فبشرهم، بمعنى من يكفر فبشرهم، وإن لا تغير معنى الابتداء، فكان دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها ليت أو لعلّ لامتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يريد أحبار اليهود، وأنّهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة، ومن إما للتبعيض وإما للبيان، أو حصلوا من جنس الكتب المنزلة، أو من اللوح التوراة وهي نصيب عظيم: ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ وهو التوراة ﴿ليحكم بينهم﴾ وذلك أنّ رسول الله ﷺ دخل مدارسهم، فدعاهم، فقال نعيم بن عمر والحرث بن زيد على أي دين أنت؟ قال: على ملة إبراهيم. قالا: إنّ إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: إنّ بيننا وبينكم التوراة فهلموا إليها. فأبيا[2]. وقيل: نزلت في الرجم، وقد اختلفوا فيه. وعن الحسن وقتادة: كتاب الله القرآن؛ لأنّهم قد علموا أنّه كتاب الله لم يشكوا فيه ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بأنّ الرجوع إلى كتاب الله واجب، ﴿وهم معرضون﴾ وهم قوم لا يزال الإعراض ديدنهم، وقرىء: ليحكم على البناء للمفعول، والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم، وأنّهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة، ليحكم بين المحق والمبطل منهم، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا، وذلك أنّ قوله: ﴿ليحكم بينهم﴾ يقتضي أن يكون اختلافاً واقعاً فيما بينهم لا فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿ذلك﴾[3] التولي والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل، كما طمعت المجبرة والحشوية. ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ من أنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، كما غرت أولئك شفاعة رسول الله ﷺ في كبائرهم.

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ فكيف يصنعون، فكيف تكون حالهم، وهو استعظام لما أعدّ لهم وتهويل لهم، وأنّهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأنّ ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون. وروي إنّ أوّل راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد، ثم

---

(1) سورة المائدة، الآية: 91.

(2) كشف الأستار، كتاب: الفتن، باب: فيمن قتل على ذلك الحديث رقم: (3314)، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 56، والطبري في التفسير.

(3) قال أحمد رحمه الله: هذا أيضاً تعريض بأهل السنة في اعتقادهم تفويض العفو عن كبائر المؤمن الموحد، إلى مشيئة الله تعالى، وإن مات مصراً عليها إيماناً، بقوله تعالى: ﴿إنّ الله لا يغفر أن= يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وتصديقاً بالشفاعة، لأهل الكبائر، وينقم عليهم ذلك حتى يجعلهم أصلاً يقيس عليهم اليهود القائلين، لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة، وشقاقاً كيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهل عبيده الفقير إلى التورك عليه؛ لأن آخذ من أهل البدعة بثار السنة، فاصمي أفئدتهم من قواطع البراهين، بمقوّمات الأسنة.

يأمر بهم إلى النار. ﴿وهم لا يظلمون﴾ يرجع إلى كل نفس على المعنى؛ لأنّه في معنى: كل الناس، كما تقول: ثلاثة أنفس، تريد ثلاثة أناسي.

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾.

الميم في ﴿اللهم﴾ عوض من يا، ولذلك لا يجتمعان، وهذا بعض خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه وفيه لام التعريف وبقطع همزته في يا الله، وبغير ذلك. ﴿مالك الملك﴾ أي: تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ تعطي من تشاء النصيب الذي قسمت له واقتضته حكمتك من الملك ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ النصيب الذي أعطيته منه، فالملك الأوّل عام شامل والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل. روي أنّ رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك[1] وروي: أنّ رسول الله ﷺ لما خط الخندق عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربةً صدّعتها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبر، وكبر المسلمون. وقال: «أضاءت لي منها قصور الحيرة، كأنّها أنياب الكلاب»، ثم ضرب الثانية فقال: «أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم». ثم ضرب الثالثة فقال: «أضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل عليه السلام: أنّ أمّتي ظاهرة على كلها فابشروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنّه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنّها تفتح لكم وأنتم إنّما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا[2]. فنزلت.

فإنْ قلتَ: كيف قال: ﴿بيدك الخير﴾ فذكر الخير دون الشر؟ **قلتُ:** لأنّ الكلام إنّما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة فقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك؛ ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه.

تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾.

ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أنّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم، ويؤتيه العرب ويعزهم، وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمةً، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبةً، فلا تشتغلوا بسب الملوك، ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم.

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾.

وهو معنى قوله عليه السلام: «كما تكونوا يولى عليكم»[3]. نهوا أن يولوا الكافرين لقرابة بينهم، أو صداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشروا، وقد كرّر ذلك في القرآن: ﴿ومن يتولهم منكم فإنّه منهم لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء لا تجد قوماً يؤمنون بالله﴾[4] الآية: والمحبة في الله، والبغض في الله، باب عظيم، وأصل من أصول الإيمان. ﴿من دون المؤمنين﴾ يعني: أنّ لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين، فلا تؤثروهم عليهم. ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ ومن يوال الكفرة، فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعني: أنّه منسلخ من ولاية الله رأساً، وهذا أمر معقول، فإنّ موالاة الوليّ وموالاة عدوّه متنافيان، قال:

تودّ عدوّي ثم تزعم أنني صديقك ليس النوك عنك بعازب

﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. وقرىء: تقيةً، قيل للمتقى: تقاة وتقية، كقولهم: ضرب الأمير لمضروبه، رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا، كقول عيسى صلوات الله عليه: كن وسطاً وامش جانباً. ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد، ويجوز أن يضمن تتقوا معنى: تحذروا وتخافوا، فيعدى بمن، وينتصب تقاةً، أو تقيةً على المصدر، كقوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾[5].

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 57.

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 57، وأخرجه أحمد في المسند 4/303، وابن أبي شيبة 14/422، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق.

(3) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 14972).

(4) سورة المائدة، الآية: 51.

(5) سورة آل عمران، الآية: 102.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه﴾ من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضي الله ﴿يعلمه﴾ ولم يخف عليه، وهو الذي ﴿يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ لا يخفى عليه منه شيء قط فلا يخفى عليه سركم وعلنكم. ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فهو قادر على عقوبتكم، وهذا بيان لقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾[1] لأنّ نفسه وهي ذاته المتميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتي لا تختص بمعلوم دون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلها، وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهي قادرة على المقدورات كلها فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنّه أراد الاطلاع على أحواله، فوكل همه بما يورد ويصدر ونصب عليه عيوناً وبث من يتجسس عن بواطن أموره لأخذ حذره، وتيقظ في أمره واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به، فما بال من علم أنّ العالم الذات الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن. اللهم إنّا نعوذ بك من اغترارنا بسترك.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿يوم تجد﴾ منصوب بـ ﴿تودّ﴾. والضمير في بينه لليوم، أي: يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرّها حاضرين، تتمنى لو أنّ بينها وبين ذلك اليوم وهوله أمداً بعيداً، ويجوز أن ينتصب يوم تجد بمضمر نحو: اذكر، ويقع على ما عملت وحده ويرتفع وما عملت على الابتداء، وتودّ خبره. أي: والذي عملته من سوء تودّ هي لو تباعد ما بينها وبينه، ولا يصح أن تكون ما شرطيةً لارتفاع تود.

فإنْ قلتَ: فهل يصح أن تكون شرطيةً على قراءة عبد الله: ودّت؟ **قلتُ:** لا كلام في صحته، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى؛ لأنّه حكاية الكائن في ذلك اليوم وأثبت لموافقة قراءة العامّة، ويجوز أن يعطف وما عملت على ما عملت، ويكون تودّ حالاً، أي يوم تجد عملها محضراً وادّةً تباعد ما بينها وبين اليوم، أو عمل السوء محضراً، كقوله تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾[2] يعني: مكتوباً في صحفهم يقرؤونه. ونحوه: ﴿فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه﴾[3].

والأمد: المسافة، كقوله تعالى: ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾[4] وكرّر قوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه، ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ يعني: أنّ تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرافة العظيمة بالعباد؛ لأنّهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه، وعن الحسن: من رافته بهم أن حذرهم نفسه، ويجوز أن يريد أنّه مع كونه محذوراً لعلمه وقدرته مرجوّ لسعة رحمته، كقوله تعالى: ﴿إنّ ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾[5].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم، والمعنى: إن كنتم مريدين لعبادة الله على الحقيقة ﴿فاتبعوني﴾ حتى يصحّ ما تدّعونه من إرادة عبادته يرض عنكم ويغفر لكم، وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنّهم يحبون الله، فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل فمن ادّعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه، وإذا رأيت من ينكر محبة الله ويصفق بيديه مع ذكرها ويطرب وينعر ويصعق، فلا تشك في أنّه لا يعرف ما الله، ولا يدري ما محبة الله، وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته إلا لأنّه تصوّر في نفسه الخبيثة صورةً مستملحةً معشقةً فسماها الله بجهله ودعارته، ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصوّرها، وربما رأيت المني قد ملأ إزار ذلك المحب عند صعقته، وحمقى العامّة على حواليه قد ملؤوا أردانهم بالدموع لما رققهم من حاله. وقرىء: تحبون ويحببكم ويحبكم، من حبه يحبه. قال:

أحب أبا ثروان من حب تمره ... وأعلم أنّ الرفق بالجار أرفق

ووالله لولا تمره ما حببته ... ولا كان أدنى من عبيد ومشرق

﴿قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فإن تولوا﴾ يحتمل أن يكون ماضياً وأن يكون مضارعاً، بمعنى: فإن تتولوا، ويدخل في جملة ما يقول الرسول لهم.

۞ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿آل إبراهيم﴾ إسمٰعيل وإسحٰق وأولادهما، و﴿آل عمران﴾[6] موسى وهٰرون ابنا عمران بن يصهر، وقيل:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 28.
(2) سورة الكهف، الآية: 49.
(3) سورة المجادلة، الآية: 6.
(4) سورة الزخرف، الآية: 38.
(5) سورة فصلت، الآية: 43.
(6) قال أحمد رحمه الله: ومما يرجح هذا القول الثاني، أنّ السورة تسمى آل عمران، ولم تشرح قصة عيسى ومريم، في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة، وأمّا موسى وهارون، فلم يذكر من قصتهما في هذه السورة، فدلّ ذلك على أنّ عمران المذكور ههنا، هو أبو مريم، والله أعلم.

عيسٰى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ذرية﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران ﴿بعضها من بعض﴾ يعني: أنّ الآلين ذرّية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض، موسٰى وهٰرون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوى، ولاوى من يعقوب، ويعقوب من إسحٰق، وكذلك عيسٰى ابن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحٰق، وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله ﷺ، وقيل: بعضها من بعض في الدين، كقوله تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾[1] ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يصلح للاصطفاء، أو يعلم أنّ بعضهم من بعض في الدين، أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾.

و﴿إذ﴾ منصوب به، وقيل: بإضمار اذكر. وامرأة عمران هي امرأة عمران بن ماثان أمّ مريم البتول جدّة عيسٰى عليه السلام وهي حنة بنت فاقوذ، وقوله: ﴿إذ قالت امرأت عمران﴾ على أثر قوله ﴿وآل عمران﴾ مما يرجح أنّ عمران هو عمران بن ماثان جدّ عيسى، والقول الآخر يرجحه أنّ موسى يقرن بإبراهيم كثيراً في الذكر.

فإنْ قلتَ: كانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسٰى وهٰرون، ولعمران بن ماثان مريم البتول، فما أدراك أنّ عمران هذا هو أبو مريم البتول دون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهٰرون؟ **قلتُ:** كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنّه عمران أبو البتول؛ لأنّ زكريا بن آذن وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد، وقد تزوّج زكريا بنته إيشاع أخت مريم، فكان يحيى وعيسٰى ابني خالة.

روي: أنّها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت فبينا هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحرّكت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إنّ لك علي نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدّق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل. ﴿محرّراً﴾ معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يدَ لي عليه، ولا أستخدمه، ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم. وروي أنّهم كانوا ينذرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خيّر بين أن يفعل وبين أن لا يفعل، وعن الشعبي: محرّراً مخلصاً للعبادة، وما كان التحرير إلا للغلمان، وإنّما بنت الأمر على التقدير، أو طلبت أن ترزق ذكراً.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فلما وضعتها﴾[2] الضمير لما في بطني وإنّما أنث على المعنى؛ لأنّ ما في بطنها كان أنثى في علم الله، أو على تأويل الحبلة أو النفس أو النسمة.

فإنْ قلتَ: كيف جاز انتصاب ﴿أنثى﴾ حالاً من الضمير في وضعتها وهو كقولك: وضعت الأنثى أنثى؟ **قلتُ:** الأصل وضعته أنثى، وإنّما أنث لتأنيث الحال؛ لأنّ الحال وذا الحال لشيء واحد، كما أنث الاسم في ﴿ما كانت أمّك﴾ لتأنيث الخبر ونظيره قوله تعالى: ﴿فإن كانتا اثنتين﴾[3] وأمّا على تأويل الحبلة أو النسمة، فهو ظاهر، كأنّه قيل: إنّي وضعت الحبلة أو النسمة أنثى.

فإنْ قلتَ[4]: فلم قالت: ﴿إنّي وضعتها أنثى﴾ وما أرادت إلى هذا القول؟ **قلتُ:** قالته تحسراً على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزنت إلى ربها؛ لأنّها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً ولذلك نذرته محرّراً للسدانة. ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور، وأنّ يجعله وولده آيةً للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً، فلذلك تحسرت. وفي قراءة ابن عباس: والله أعلم بما وضعتِ، على خطاب الله تعالى لها أي: أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلوّ قدره. وقرىء: وضعتُ، بمعنى: ولعلّ لله تعالى فيه سراً وحكمةً ولعلّ هذه الأنثى خير من الذكر تسلية لنفسها.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾؟ **قلتُ:** هو بيان لما في قوله ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ من

---

(1) سورة التوبة، الآية: 67.

(2) قال أحمد: الضمير في قوله وضعتها يتناول، إذا ما نسب إليها الوضع والأنوثة، فالحال واقعة عليها من حيث الجهة العامة، وتلك الجهة كونها شيئاً وضع، لا لخصوص نسبة الأنوثة إليها، وقد مرّ هذا البحث بعينه، عند قوله تعالى: ﴿فإن لم يكونا رجلين﴾.

(3) سورة النساء، الآية: 176.

(4) قال أحمد: هذا التأويل على أنه من كلام الله تعالى، لا حكاية عنها، وقد ذكر أهل التفسير تأويلاً آخر، وهو أن يكون هذا القول قولها حكاه الله تعالى عنها، أعني قوله وليس الذكر كالأنثى، ويرشد إليه = عطف كلامها عليه، وهو قوله: ﴿وإني سميتها مريم﴾ إلخ، ويوردون على هذا الوجه أنّ قياس كونه من قولها أن يكون، وليست الأنثى كالذكر، فإنّ مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر، والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل، لا العكس، وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي عين ما قالوه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لستنّ كأحد من النساء﴾، فنفى عن الكامل شبه الناقص مع أنّ الكمال، لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى عموم النساء، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران، والله أعلم، ومنه أيضاً ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾.

التعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد.

فإنْ قلتَ: علام عطف قوله: **﴿وإنّي سميتها مريم﴾**؟ **قلتُ**: هو عطف على **﴿إنّي وضعتها أنثى﴾** وما بينهما جملتان معترضتان، كقوله تعالى: ﴿وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[1].

فإنْ قلتَ[2]: فلم ذكرت تسميتها مريم لربها؟ **قلتُ**: لأنّ مريم في لغتهم بمعنى العابدة، فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها وأن يصدق فيها ظنها بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه، وما يروى من الحديث: «ما من مولود يولد إلاّ والشيطان يمسه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مس الشيطان إياه إلاّ مريم وابنها»[3]. فالله أعلم بصحته، فإن صح، فمعناه أنّ كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلاّ مريم وابنها فإنّهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهما، كقوله تعالى: ﴿لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾[4] واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنّه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وأمّا حقيقة المس والنخس، كما يتوهم أهل الحشو، فكلا ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلونا به من نخسه.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فتقبلها ربها﴾ فرضي بها في النذر مكان الذكر، **﴿بقبول حسن﴾** فيه وجهان: أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء، كالسعوط واللدود لما يسعط به ويلد، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمّها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة. وروي: أنّ حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم في بيت المقدس، كالحجبة في الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنّها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وكانت بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا أنا أحق بها عندي خالتها، فقالوا: لا حتى نقترع عليها فانطلقوا، وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها. والثاني أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف بمعنى: فتقبلها بذي قبول حسن، أي: بأمر ذي قبول حسن، وهو الاختصاص، ويجوز أن يكون معنى فتقبلها: فاستقبلها. كقولك: تعجله بمعنى: استعجله، وتقصاه بمعنى: استقصاه، وهو كثير في كلامهم، من استقبل الأمر إذا أخذه بأوّله وعنفوانه. قال القطان:

وخير الأمر ما استقبلت منه ... وليس بأن تتبعه اتباعا

ومنه المثل: «خذ الأمر بقوابله»؛ أي: فأخذها في أوّل أمرها حين ولدت بقبول حسن. **﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾** مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها. وقرىء: وكفلها زكرياء، بوزن وعملها. **﴿وكفّلها زكرياء﴾** بتشديد الفاء ونصب زكرياء الفعل لله تعالى بمعنى: وضمها إليه وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، ويؤيدها قراءة أبيّ: وأكفلها من قوله تعالى: **﴿فقال أكفلنيها﴾**[5]. وقرأ مجاهد: فتقبلها ربها وأنبتها، وكفلها على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب ربها ندعوا بذلك، أي: فاقبلها يا ربها وربها، واجعل زكريا كافلاً لها. قيل: بنى لها زكريا محراباً في المسجد أي: غرفة يصعد إليها بسلم، وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدّمها؛ كأنّها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب، وروي أنّه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب. **﴿وجد عندها رزقاً﴾** كان رزقها ينزل عليها من الجنة، ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. **﴿أنى لك هٰذا﴾** من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه، والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للداخل به إليك. **﴿قالت هو من عند الله﴾** فلا تستبعد، قيل: تكلمت وهي صغيرة، كما تكلم عيسى وهو في المهد، وعن النبي ﷺ: أنّه جاع في زمن قحط، فأهدت له فاطمة

---

(1) سورة الواقعة، الآية: 76.

(2) قال أحمد: أمّا الحديث، فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذاً عن تعطيل كلامه عليه السلام، بتجميله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزع في فلسفة منتزعة في إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض، وقد قدمت عند قوله تعالى: ﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ﴾، ما فيه كفاية، وما أرى الشيطان، إلا طعن في خواصر القدرية، حتى بقرها، ووكر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري، وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى، وكلام رسوله عليه السلام، بما يتخيل كما قال في هذا الحديث، ثم نظره بتخييل ابن الرومي في شعره جراءة، وسوء= أدب، ولو كان معنى ما قاله صحيحاً، لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود، لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً، وما هو واقع مشاهد، فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الوبي، وارتكاب الهوى الوبيل.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ الحديث رقم: (3431)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام الحديث رقم: (6086).

(4) سورة الحجر، الآيتان: 39، 40.

(5) سورة صَ، الآية: 23.

رضي الله عنها رغيفين وبضعة لحم آثرته بها، فرجع بها إليها وقال: هلمي يا بنية، فكشفت عن الطبق، فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فبهتت، وعلمت أنّها نزلت من عند الله فقال لها ﷺ: «أنى لك هذا»؟ فقالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل». ثم جمع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته، فأكلوا عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانها[1]. ﴿**إنّ الله يرزق**﴾ من جملة كلام مريم عليها السلام، أو من كلام رب العزة عز من قائل، ﴿**بغير حساب**﴾ بغير تقدير لكثرته، أو تفضلاً بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾.

﴿**هنالك**﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلك الوقت[2]، فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان، لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك، وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿**ذرية**﴾ ولداً، والذرية يقع على الواحد والجميع. ﴿**سميع الدعاء**﴾ مجيبه.

فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾.

قرئ: فناداه الملائكة، وقيل: ناداه جبريل عليه السلام، وإنّما قيل: الملائكة، على قولهم: فلان يركب الخيل. ﴿**إنّ الله يبشرك**﴾ بالفتح على بأن الله، وبالكسر على إرادة القول، أو لأنّ النداء نوع من القول. وقرئ: يبشرك ويبشرك من بشره وأبشره، ويبشرك بفتح الياء من بشره. ويحيى إن كان أعجمياً، وهو الظاهر، فمنع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى، وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل كيعمر. ﴿**مصدّقاً بكلمة من الله**﴾ مصدّقاً بعيسى مؤمناً به. قيل: هو أوّل من آمن به، وسمي عيسى كلمة؛ لأنّه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها وهي قوله: كن من غير سبب آخر. وقيل: مصدّقاً بكلمة من الله مؤمناً بكتاب منه، وسمى الكتاب كلمة، كما قيل: كلمة الحويدرة لقصيدته.

والسيد: الذي يسود قومه أي: يفوقهم في الشرف، وكان يحيي فائقاً لقومه وفائقاً للناس كلهم في أنّه لم يرتكب سيئةً قط، ويا لها من سيادة.

والحصور: الذي لا يقرب الناس حصراً لنفسه أي: منعاً لها من الشهوات، وقيل: هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. قال الأخطل:

وشارب مربح بالكأس نادمني ... لا بالحصور ولا فيها بسآر

فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو، وقد روي أنّه مرّ وهو طفل بصبيان، فدعوه إلى اللعب، فقال: ماللعب خلقت. ﴿**من الصالحين**﴾ ناشئاً من الصالحين؛ لأنّه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين، كقوله: ﴿**وإنّه في الآخرة لمن الصالحين**﴾[3].

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾.

﴿**أنّى يكون لي غلام**﴾ استبعاد من حيث العادة، كما قالت مريم ﴿**وقد بلغني الكبر**﴾، كقولهم: أدركته السنّ العالية، والمعنى: أثر فيّ الكبر فأضعفني وكانت له تسع وتسعون سنة ولامرأته ثمان وتسعون، ﴿**كذلك**﴾ أي: يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر، أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي على نحو هذه الصفة الله، ويفعل ما يشاء بيان له، أي: يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات.

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾.

﴿**آية**﴾ علامة أعرف الحبل لأتلقى النعمة إذا جاءت بالشكر، ﴿**قال آيتك أن لا**﴾ تقدر على تكليم الناس ﴿**ثلاثة أيام**﴾، وإنّما خص تكليم الناس ليعلمه أنّه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصةً مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله، ولذلك قال: ﴿**واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشيّ والإبكار**﴾ يعني في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة.

فإنْ قلتَ: لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ **قلتُ:** ليخلص المدّة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنّه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر، وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقاً من السؤال ومنتزعاً منه. ﴿**إلا رمزاً**﴾ إلاّ إشارةً بيد أو رأس أو غيرهما، وأصله التحرّك. يقال: ارتمز إذا تحرّك، ومنه قيل للبحر: الراموز، وقرأ يحيى بن وثاب: إلا رمزاً، بضمتين جمع رموز كرسول ورسل. وقرئ: رمزاً بفتحتين جمع رامز كخادم وخدم،

---

(1) أبو يعلى.

(2) قال أحمد: لا يليق بالنبي أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر، على مشاهدة مثله، فإنّ العقل يقضي بجواز ذلك في قدرة الله تعالى، وإن لم يقع نظيره، وأحسن من هذه العبارة، وأسلم أن يقال لما =

= شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم، امتدّ أمله إلى حادث يناسبه كرامة له، والله أعلم.

(3) سورة البقرة، الآية: 130.

وهو حال منه ومن الناس دفعةً، كقوله:

متى ما تلقني فردين ترجف روانف اليتيك وتستطارا

بمعنى: إلاّ مترا مزين كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم. والعشي: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، و﴿الإبكار﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقرىء: والأبكار بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وإسحار، يقال: أتيته بكراً بفتحتين.

فإنْ قلتَ: الرمز ليس من جنس الكلام فكيف استثني منه؟ **قلتُ:** لما أدّى مؤدّى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاماً، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿يا مريم﴾ روي: أنّهم كلموها شفاهاً معجزةً لزكريا، أو إرهاصاً لنبوّة عيسٰى. ﴿اصطفاك﴾ أوّلاً حين تقبلك من أمّك ورباك واختصك بالكرامة السنية، ﴿وطهرك﴾ مما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود، ﴿واصطفاك﴾ آخراً ﴿على نساء العالمين﴾ بأن وهب لك عيسٰى من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾.

أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيآت الصلاة وأركانها، ثم قيل لها: ﴿واركعي مع الراكعين﴾ بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين، أي: في الجماعة، أو انظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم، ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع، وفيه من يركع، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ زكريا ويحيٰى ومريم وعيسٰى عليهم السلام، يعني: أنّ ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي.

فإنْ قلتَ: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة، وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ **قلتُ:** كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنّه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنّه لا سماع له ولا قراءة، ونحوه: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾[1] ﴿وما كنت بجانب الطور﴾[2] ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم﴾ ﴿أقلامهم﴾ أزلامهم، وهي قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين، وقيل: هي: الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة اختاروها للقرعة تبركاً بها. ﴿إذ يختصمون﴾ في شأنها تنافساً في التكفل بها.

فإنْ قلتَ: ﴿أيهم يكفل﴾، بم يتعلق؟ **قلتُ:** بمحذوف دلّ عليه ﴿يلقون أقلامهم﴾ كأنّه قيل: يلقونها ينظرون أيّهم يكفل، أو ليعلموا، أو يقولون.

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿المسيح﴾ لقب من الألقاب المشرفة، كالصديق والفاروق، وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك، كقوله: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾[3] وكذلك ﴿عيسٰى﴾ معرب من أيشوع ومشتقهما من المسح، والعيس كالراقم في الماء.

فإنْ قلتَ: ﴿إذ قالت﴾ بم يتعلق؟ **قلتُ:** هو بدل من ﴿وإذ قالت الملائكة﴾، ويجوز أن يبدل من ﴿إذ يختصمون﴾ على أنّ الاختصام والبشارة وقعا في زمان واسع، كما تقول: لقيته سنة كذا.

فإنْ قلتَ[4]: لم قيل ﴿عيسٰى ابن مريم﴾ والخطاب لمريم؟ **قلتُ:** لأنّ الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات فأعلمت بنسبته إليها أنّه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين.

فإنْ قلتَ: لم ذكر ضمير الكلمة؟ **قلتُ:** لأنّ المسمى بها مذكر.

فإنْ قلتَ[5]: لم قيل: ﴿اسمه المسيح عيسٰى ابن مريم﴾ وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسٰى، وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ **قلتُ:** الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكأنّه قيل: الذي يعر به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة. ﴿وجيهاً﴾ حال من كلمة، وكذلك قوله: ﴿ومن المقرّبين﴾ ﴿ويكلم﴾ ﴿ومن الصالحين﴾ أي: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات، وصح انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة. والوجاهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلوّ

---

(1) سورة القصص، الآية: 44.

(2) سورة القصص، الآية: 46.

(3) سورة مريم، الآية: 31.

(4) قال أحمد: ويحقق هذا الجواب قولها، انى يكون لي ولد، ولم يمسسني بشر، فإنه لم يتقدم في وعد الله لها بالولد، ما يدل على انه من غير أب إلا انه لما نسبه إليها دلّ على انها فهمت من ذلك، كونه من غير أب، والله أعلم.

(5) قال أحمد: وفي هذا التقرير خلاص من إشكال يوردونه، فيقولون= المسيح في الآية إن أريد به التسمية، وهو الظاهر فما موقع قوله عيسى ابن مريم، والتسمية لا توصف بالنبوة، وإن أريد بالمسيح المسمى بهذه التسمية لم يلتئم مع قوله اسمه، ويجاب عن الإشكال بأن المسيح خبر عن قوله اسمه والمراد التسمية، وأما عيسى ابن مريم، فخبر مبتدأ محذوف تقديره هو عيسى ابن مريم، ويكون الضمير عائداً إلى المسمى بالتسمية المذكورة منقطعاً عن قوله المسيح، والذي قرّره الزمخشري لا يرد عليه هذا الإشكال، وهو حسن جداً، والله أعلم.

الدرجة في الجنة. وكونه ﴿من المقرّبين﴾ رفعه إلى السماء، وصحبته للملائكة.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

والمهد: ما يمهد للصبي من مضجعه سمي بالمصدر، و﴿في المهد﴾ في محل النصب على الحال، ﴿وكهلاً﴾ عطف عليه بمعنى: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً. ومعناه: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

ومن بدع التفاسير أنّ قولها: ﴿رب﴾ نداء لجبريل عليه السلام بمعنى: يا سيدي.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ونعلمه﴾ عطف على يبشرك، أو على وجيهاً، أو على يخلق، أو هو كلام مبتدأ. وقرأ عاصم ونافع: ويعلمه بالياء.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

فإنْ قلتَ: علام تحمل ﴿ورسولاً﴾ ﴿ومصدقاً﴾ من المنصوبات المتقدمة وقوله: ﴿أني قد جئتكم﴾ و﴿لما بين يدي﴾ يأبى حمله عليها؟ **قلتُ:** هو من المضائق وفيه وجهان.

أحدهما: أن يضمر له وأرسلت على إرادة القول تقديره: ونعلمه الكتاب والحكمة، ويقول أرسلت رسولاً بأني قد جئتكم، ومصدِّقاً لما بين يدي، **والثاني:** أن الرسول والمصدِّق فيهما معنى النطق، فكأنه قيل: وناطقاً بأني قد جئتكم، وناطقاً بأني أصدق ما بين يدي. وقرأ اليزيدي: ورسول، عطفاً على كلمة ﴿أني قد جئتكم﴾ أصله أرسلت بأنّي قد جئتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل. و﴿أني أخلق﴾ نصب بدل من أني قد جئتكم، أو جرّ بدل من آية، أو رفع على هي أني أخلق لكم. وقرىء: إنّي بالكسر على الاستئناف أي: أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير، ﴿فأنفخ فيه﴾ الضمير للكاف أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، ﴿فيكون طيراً﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور حياً طياراً، وقرأ عبد الله: فأنفخها. قال: كالهبرقي تنحى ينفخ الفحما. وقيل: لم يخلق غير الخفاش. ﴿الأكمه﴾ الذي ولد أعمى، وقيل: هو الممسوح العين، ويقال: لم يكن في هذه الأمّة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير. وروي: أنّه ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى، من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسىٰ، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده. وكرر ﴿بإذن الله﴾ دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية. وروي: أنّه أحيا سام بن نوح وهم ينظرون، فقالوا: هذا سحر، فأرنا آيةً، فقال: يا فلان أكلت كذا، ويا فلان خبئ لك كذا. وقرىء: تذخرون، بالذال والتخفيف.

﴿ولأحل﴾ ردّ على قوله: ﴿بآية من ربّكم﴾ أي: جئتكم بآية من ربّكم ولأحل لكم، ويجوز أن يكون مصدقاً مردوداً عليه أيضاً، أي: جئتكم بآية وجئتكم مصدقاً. وما حرّم الله عليهم في شريعة موسىٰ: الشحوم، والثروب، ولحوم الإبل، والسمك، وكل ذي ظفر، فأحلّ لهم عيسىٰ بعض ذلك، قيل: أحلّ لهم من السمك والطير ما لا صيصة له، واختلفوا في إحلاله لهم السبت. وقرىء: حرّم عليكم على تسمية الفاعل، وهو ما بين يدي من التوراة، أو الله عزّ وجلّ، أو موسىٰ عليه السلام؛ لأنّ ذكر التوراة دلّ عليه؛ ولأنّه كان معلوماً عندهم. وقرىء: حرّم بوزن كرم. ﴿وجئتكم بآية من ربّكم﴾ شاهدة على صحة رسالتي وهي قوله: ﴿إنّ الله ربّي وربّكم﴾ لأنّ جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه، وقرئ بالفتح على البدل من آية، وقوله: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ اعتراض.

فإنْ قلتَ: كيف جعل هذا القول آيةً من ربه؟ **قلتُ:** لأنّ الله تعالى جعله له علامةً يعرف بها أنّه رسول كسائر الرسل حيث هداه للنظر في أدلة العقل والاستدلال، ويجوز أن يكون تكريراً لقوله: ﴿جئتكم بآية من ربّكم﴾ أي: جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم من خلق الطير والإبراء والإحياء والإنباء بالخفيات وبغيره من ولادتي بغير أب ومن كلامي في المهد ومن سائر ذلك. وقرأ عبد الله: وجئتكم بآيات من ربّكم فاتّقوا الله لما جئتكم به من الآيات وأطيعوني فيما أدعوكم إليه، ثم ابتدأ، فقال: إنّ الله ربّي وربّكم. ومعنى قراءة من فتح؛ ولأنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه كقوله: ﴿لإيلاف قريش... فليعبدوا﴾[1] ويجوز أن يكون المعنى: وجئتكم بآية على أنّ الله ربّي وربّكم وما بينهما اعتراض.

۞ ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فلما أحس﴾ فلما علم منهم ﴿الكفر﴾ علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس، و ﴿إلى الله﴾ من صلة أنصاري مضمناً معنى الإضافة، كأنّه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصرونني، كما ينصرني، أو

(1) سورة قريش، الآيات: 1 ـ 3.

يتعلق بمحذوف حالاً من الياء أي: من أنصاري ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه. ﴿نحن أنصار الله﴾ أي: أنصار دينه ورسوله.

وحواري الرجل صفوته وخالصته، ومنه قيل للحضريات الحواريات لخلوص ألوانهن ونظافتهن، قال:

فقل للحواريات يبكين غيرنا ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح

وفي وزنه الحوالي، وهو الكثير الحيلة. وإنّما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم؛ لأنّ الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿مع الشاهدين﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم، أو مع الذين يشهدون بالوحدانية، وقيل: مع أمة محمد ﷺ؛ لأنّهم شهداء على الناس.

وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾.

﴿ومكروا﴾ الواو لكفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلةً. ﴿ومكر الله﴾ أن رفع عيسىٰ إلى السماء، وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل. ﴿والله خير الماكرين﴾ أقواهم مكراً وأنفذهم كيداً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿إذ قال الله﴾ ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله ﴿إني متوفيك﴾ أي: مستوفي أجلك ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخرك إلى أجل كتبته لك، ومميتك حتف أنفك لا قتلاً بأيديهم، ﴿ورافعك إلي﴾ إلى سمائي ومقرّ ملائكتي، ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ من سوء جوارهم وخبث صحبتهم، وقيل: متوفيك قابضك من الأرض، من توفيت مالي على فلان إذا استوفيته. وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، وقيل: متوفي نفسك بالنوم، من قوله: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾[1] ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب. ﴿فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ يعلونهم بالحجة، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون؛ لأنّهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى. ﴿فاحكم بينكم﴾ تفسير الحكم قوله: ﴿فاعذبهم﴾ ﴿فنوفيهم أجورهم﴾ وقرىء: فيوفيهم بالياء.

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسىٰ وغيره، وهو مبتدأ خبره ﴿نتلوه﴾، و ﴿من الآيات﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي ونتلوه صلته ومن الآيات الخبر، ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر يفسره نتلوه. ﴿والذكر الحكيم﴾ القرآن وصف بصفة من هو من سببه، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾.

﴿إنّ مثل عيسىٰ﴾ إنّ شأن عيسىٰ وحاله الغريبة كشأن آدم، وقوله: ﴿خلقه من تراب﴾ جملة مفسرة لما له شبه عيسىٰ بآدم أي: خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم، فكذلك حال عيسىٰ.

فإنْ قلتَ: كيف شبّه به وقد وجد هو بغير أب ووجد آدم بغير أب وأم؟قلتُ: هو مثيله في أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به؛ لأنّ المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنّه شبّه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران؛ ولأنّ الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبّه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه، وعن بعض العلماء أنّه أسر بالروم، فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنّه لا أب له، قال: فآدم أولى؛ لأنّه لا أبوين له. قالوا: كان يحيي الموتى، قال: فحزقيل أولى؛ لأنّ عيسىٰ أحيا أربعة نفر، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف. فقالوا: كان يبرئ الأكمه والأبرص. قال: فجرجيس أولى لأنّه طبخ وأحرق، ثم قام سالماً. ﴿خلقه من تراب﴾ قدّره جسداً من طين ﴿ثم قال له كن﴾ أي: أنشأه بشراً، كقوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾[2] ﴿فيكون﴾ حكاية حال ماضية.

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾.

﴿الحق من ربّك﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحق كقول أهل خيبر: محمد والخميس[3]. ونهيه عن الامتراء – وجلّ رسول الله ﷺ أن يكون ممترياً – من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفاً لغيره.

فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل

(1) سورة الزمر، الآية: 42.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 14.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: 27 الحديث رقم: (3647)، والحديث ليس عند مسلم.

لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾.

﴿فمن حاجك﴾ من النصارى **﴿فيه﴾** في عيسىٰ **﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾** أي: من البيّنات الموجبة للعلم. **﴿تعالوا﴾** هلموا والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما تقول: تعال نفكر في هذه المسألة، **﴿ندع أبناءنا وأبناءكم﴾** أي: يدع كل مني ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة، **﴿ثم نبتهل﴾** ثم نتباهل، بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم.

والبهلة: بالفتح والضم اللعنة، وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته، من قولك: أبهله إذا أهمله، وناقة باهل لا صرار عليها، وأصل الابتهال هذا ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. وروي: أنّهم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما تخالوا، قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أنّ محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن، فإن أبيتم إلا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتى رسول الله ﷺ، وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمنوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، وأن نقرّك على دينك ونثبت على ديننا. قال: «فإذا أبيتم المباهلة فاسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم». فأبوا. قال: «فإني أناجزكم». فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردّنا عن ديننا، على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة، ألف في صفر، وألف في رجب، وثلاثين درعاً عادية من حديد، فصالحهم على ذلك وقال: «والذي نفسي بيده إنّ الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردةً وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا»[1]. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة ثم عليّ ثم قال: **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾**[2][3].

فإنْ قلتَ: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه، فما معنى: ضم الأبناء والنساء؟ **قلتُ:** ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة، وخص الأبناء والنساء؛ لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب وربّما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق، وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوّة النبي ﷺ؛ لأنّه لم يرو واحد من موافق ولا مخالف أنّهم أجابوا إلى ذلك.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي قصّ عليك من نبأ عيسىٰ **﴿لهو القصص الحق﴾** قرىء: بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون؛ لأنّ اللام تنزل من هو منزلة بعضه فخفف كما خفف عضد، وهو إما فصل بين اسم إنّ وخبرها، وإما مبتدأ والقصص الحق خبره والجملة خبر إن.

فإنْ قلتَ: لم جاز دخول اللام على الفصل؟ **قلتُ:** إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ومن في قوله: **﴿وما من إله إلا الله﴾** بمنزلة البناء على الفتح في لا إله إلا الله في إفادة معنى الاستغراق، والمراد: الرد على النصارى في تثليثهم.

فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾.

﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ وعيد لهم بالعذاب المذكور في قوله: **﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾**[4].

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾.

﴿يا أهل الكتاب﴾ قيل: هم أهل الكتابين، وقيل: وفد نجران، وقيل: يهود المدينة. **﴿سواء بيننا وبينكم﴾** مستوية بيننا وبينكم لا يختلف فيها القرآن والتوراة

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في أخذ الجزية الحديث رقم: (3041).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل = أهل البيت الحديث رقم: (6211).

(3) سورة الأحزاب، الآية: 33.

(4) سورة النحل، الآية: 88.

والإنجيل، وتفسير الكلمة قوله: ﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ يعني: تعالوا إليها حتى لا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله؛ لأنّ كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله، كقوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم، ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾[1]، وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله. قال: أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم. قال: نعم. قال: هو ذاك. وعن الفضيل: لا أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة. وقرىء: كلمة بسكون اللام. وقرأ الحسن: سواء بالنصب بمعنى: استوت استواء. ﴿فإن تولوا﴾ عن التوحيد ﴿فقولوا اشهدوا بانا مسلمون﴾ أي: لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما. اعترف بأني أنا الغالب وسلم لي الغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض، ومعناه اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾.

زعم كل فريق من اليهود والنصارى أنّ إبراهيم كان منهم وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه، فقيل لهم: إن اليهودية إنّما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة. ﴿أفلا تعقلون﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾.

﴿ها أنتم هؤلاء﴾ ها للتنبيه، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره. و ﴿حاججتم﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى يعني: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ﴿فيما لكم به علم﴾ مما نطق به التوراة والإنجيل، ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم. وعن الأخفش: ها أنتم، هو أ أنتم على الاستفهام فقلبت الهمزة هاءً، ومعنى الاستفهام: التعجب من حماقتهم، وقيل: هؤلاء بمعنى الذين، وحاججتم صلته، ﴿والله يعلم﴾ علم ما حاججتم فيه ﴿وانتم﴾ جاهلون به.

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾.

ثم أعلمهم بأنّه بريء من دينكم وما كان إلا ﴿حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ كما لم يكن منكم، أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيراً والمسيح.

إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾.

﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه، من الولي وهو القرب ﴿للذين اتبعوه﴾ في زمانه وبعده ﴿وهذا النبي﴾ خصوصاً ﴿والذين آمنوا﴾ من أمته. وقرىء: وهذا النبي بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه أي: اتبعوه واتبعوا هذا النبي، وبالجر عطفاً على إبراهيم.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿ودت طائفة﴾ هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية. ﴿وما يضلون إلا انفسهم﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم؛ لأنّ العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم، أو وما يقدرون على إضلال المسلمين وإنّما يضلون أمثالهم من أشياعهم.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿بآيات الله﴾ بالتوراة والإنجيل، وكفرهم بها أنّهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوّة رسول الله ﷺ وغيرها وشهادتهم اعترافهم بأنّها آيات الله، أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوّة الرسول. ﴿وانتم تشهدون﴾ نعته في الكتابين، أو تكفرون بآيات الله جميعاً، وانتم تعلمون أنّها حق.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾.

قرىء: تلبسون بالتشديد، وقرأ يحيى بن وثاب: تلبسون بفتح الباء أي: تلبسون الحق مع الباطل، كقوله: كلابس ثوبي زور. وقوله:

إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾.

﴿وجه النهار﴾ أوّله قال:

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

والمعنى: أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أوّل النهار ﴿واكفروا﴾ به في آخره، لعلهم يشكون في

(1) سورة التوبة، الآية: 31.

دينهم ويقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم، إلا لأمر قد تبين لهم فيرجعون برجوعكم، وقيل: تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أوّل النهار من غير اعتقاد، واكفروا به آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه في دينهم. وقيل: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها في أوّل النهار، ثم اكفروا به في آخره وصلوا إلى الصخرة لعلهم يقولون: هم أعلم منا وقد رجعوا، فيرجعون.

وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾.

﴿ولا تؤمنوا﴾ متعلق بقوله: **﴿أن يؤتى أحد﴾** وما بينهما اعتراض أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم، أرادوا: أسرّوا تصديقكم بأنّ المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام[1]. **﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾** عطف على **﴿أن يؤتى﴾**[2] والضمير في يحاجوكم لأحد؛ لأنّه في معنى الجمع بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم، إنّ المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة.

فإنْ قلتَ: فما معنى: الاعتراض؟ **قلتُ:** معناه أنّ الهدى هدى الله من شاء أن يلطف به حتى يسلم أو يزيد ثباته على الإسلام كان ذلك، ولم ينفع كيدكم وحيلكم، وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين وكذلك قوله تعالى: **﴿قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾** يريد الهداية والتوفيق، أو يتمّ الكلام عند قوله: **﴿إلا لمن تبع دينكم﴾** على معنى ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن تبع دينكم، إلاّ لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأنّ رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأنّ إسلامهم كان أغيظ لهم. وقوله: **﴿أن يؤتى﴾** معناه لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه لا لشيء آخر. يعني: أنّ ما بكم من الحسد والبغي أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: آأن يؤتى أحد، بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: **﴿أو يحاجوكم﴾** على هذا؟ **قلتُ:** معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم، ويجوز أن يكون هدى الله بدلاً من الهدى، وأن يؤتى أحد خبر إنّ على معنى: قل إنّ هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، **﴿أو يحاجوكم﴾** حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حجتكم. وقرىء: أن يؤتى أحد، على إن النافية وهو متصل بكلام أهل الكتاب. أي: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، وقولوا لهم: ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، حتى يحاجوكم عند ربكم. يعني: ما يؤتون مثله فلا يحاجونكم، ويجوز أن ينتصب أن يؤتى بفعل مضمر يدل عليه قوله: **﴿ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم﴾** كأنّه قيل: قل إنّ الهدى هدى الله فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، لأنّ قولهم: ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم. إنكار لأنّ يؤتى أحد مثل ما أوتوا.

۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾.

عن ابن عباس **﴿من إن تامنه بقنطار﴾** هو عبد الله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأدّاه إليه، و **﴿من إن تامنه بدينار﴾** فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فجحده وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصارى لغلبة الأمانة عليهم، والخائنون في القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم. **﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾** إلا مدّة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة والتعنيف، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه. وقرىء: يؤده بكسر الهاء والوصل، وبكسرها بغير وصل، وبسكونها. وقرأ يحيى بن وثاب: تئمنه بكسر التاء، ودمت بكسر الدال من دام يدام. **﴿ذلك﴾** إشارة إلى ترك الأداء الذي دلّ عليه لم يؤدّه أي: تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم: **﴿ليس علينا في الأمّيين سبيل﴾** أي: لا يتطرّق علينا عتاب وذم في شأن الأمّيين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا،

---

(1) قال أحمد: وفي هذا الوجه من الإعراب إشكال، وهو وقوع أحد في الواجب؛ لأنّ الاستفهام هنا إنكار، واستفهام الإنكار في مثله إثبات إذ حاصله، انه أنكر عليهم، ووبخهم على ما وقع منهم، وهو إخفاء الإيمان بأنّ النبوّة لا تخص بني إسرائيل، لأجل العلتين المذكورتين، فهو إثبات محقق، ويمكن أن يقال: روعيت صيغة= = الاستفهام، وإن لم يكن المراد حقيقة، فحسن لذلك دخول أحد في سياقه، والله أعلم.

(2) قال أحمد: أي حيث كان نكرة في سياق النفي، كما وصفه بالجمع في قوله: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾.

وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، ويقولون: لم يجعل لهم في كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش فلما أسلموا تقاضوهم، فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم. وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها: «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر»[1]. وعن ابن عباس: أنه سأل رجل فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا في ذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل إنهم إذا أدّوا الجزية لم يحلّ لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم **﴿ويقولون على الله الكذب﴾** بادعائهم أن ذلك في كتابهم **﴿وهم يعلمون﴾** أنّهم كاذبون.

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿بلى﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأمّيين أي: بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله: **﴿من أوفى بعهده﴾** جملة مستأنفة مقرّرة للجملة التي سدّت بلى مسدها، والضمير في بعهده راجع إلى من أوفى، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر فإنّ الله يحبه.

فإنْ قلتَ: فهذا عام يخيل أنّه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. **قلتُ:** أجل لأنّهم إذا وفوا بالعهود وفّوا أول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتّقوا الله في ترك الخيانة لاتّقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى على أنّ كل من وفى بعهد الله واتّقاه فإنّ الله يحبه، ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء.

فإنْ قلتَ: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ **قلتُ:** عموم المتّقين قام مقام رجوع الضمير. وعن ابن عباس: نزلت في عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة أهل الكتاب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾.

﴿يشترون﴾ يستبدلون **﴿بعهد الله﴾** بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدّق لما معهم، **﴿وأيمانهم﴾** وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمن به ولننصرنّه، **﴿ثمناً قليلاً﴾** متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء، ونحو ذلك. وقيل: نزلت في أبي رافع ولبابة ابن أبي الحقيق وحييّ بن أخطب حرفوا التوراة وبدلوا صفة رسول الله ﷺ وأخذوا الرشوة على ذلك. وقيل: جاءت جماعة من اليهود إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم ممتارين، فقال لهم: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعله شبّه علينا فرويداً حتى نلقاه، فانطلقوا، فكتبوا صفةً غير صفته، ثم رجعوا إليه، وقالوا: قد غلطنا وليس هو بالنعت الذي نعت لنا. ففرح ومارهم. وعن الأشعث بن قيس: نزلت فيّ، كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «شاهداك أو يمينه»، فقلت: إذن يحلف ولا يبالي. فقال: «من حلف على يمين يستحق بها مالاً هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان»[2]. وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه، والوجه أن نزولها في أهل الكتاب، وقوله: **﴿بعهد الله﴾**، يقوّي رجوع الضمير في بعهده إلى الله. **﴿ولا ينظر إليهم﴾** مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم، تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفي اعتداده به وإحسانه إليه. **﴿ولا يزكيهم﴾** ولا يثني عليهم.

فإنْ قلتَ: أي فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر، وفيمن لا يجوز عليه؟ **قلتُ:** أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية لأنّ من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارةً عن الاعتداد والإحسان، وإن لم يكن ثم نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿لفريقاً﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحييّ بن أخطب وغيرهم. **﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾** يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف. وقرأ أهل المدينة يلوّون بالتشديد، كقوله: **﴿لووا رؤوسهم﴾**[3]. وعن مجاهد وابن كثير: يلون، ووجهه أنهما قلبا الواو المضمومة همزةً ثم خففوها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها.

فإنْ قلتَ: إلام يرجع الضمير في **﴿لتحسبوه﴾**؟ **قلتَ:** إلى ما دلّ عليه يلوّون ألسنتهم بالكتاب وهو المحرف، ويجوز أن يراد يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب. وقرىء: ليحسبوه بالياء بمعنى يفعلون ذلك ليحسبه المسلمون من الكتاب، **﴿ويقولون هو من عند الله﴾** تأكيد لقوله: **﴿هو من الكتاب﴾** وزيادة تشنيع عليهم وتسجيل بالكذب، ودلالة على أنّهم

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره، (227/3)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (44/2)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (51/2).

(2) عبد الرزاق في مصنّفه 91/6، الحديث رقم: (10102).

(3) سورة المنافقون، الآية: 5.

لا يعرضون ولا يورون، وإنما يصرحون بأنّه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله تعالى على موسىٰ كذلك، لفرط جراءتهم على الله وقساوة قلوبهم ويأسهم من الآخرة. وعن ابن عباس: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدّلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثم أخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿ما كان لبشر﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسىٰ، وقيل: إنّ أبا رافع القرظي والسيد من نصارى نجران قالا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني»[1] فنزلت. وقيل: قال رجل: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن اكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله»[2]. **﴿والحكم﴾** والحكمة وهي السنة، **﴿ولكن كونوا ربّانيين﴾** ولكن يقول: كونوا، والرّباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون، كما يقال: رقباني ولحياني وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته. وعن محمد ابن الحنفية أنّه قال حين مات ابن عباس: اليوم مات ربانيّ هذه الأمّة. وعن الحسن: ربّانيين علماء فقهاء. وقيل: علماء معلمين، وكانوا يقولون: الشارع الرباني العالم العامل المعلم. **﴿بما كنتم﴾** بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوّة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة، وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه وكدّر روحه في جمع العلم ثم لم يجعله ذريعةً إلى العمل، فكان مثله مثل من غرس شجرةً حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها. وقرىء: تعلمون من التعليم وتعلمون من التعلم. **﴿تدرسون﴾** تقرؤن، وقرىء: تدرسون من التدريس، وتدرسون على أن أدرس بمعنى درس كأكرم وكرم وأنزل ونزل، وتدرسون من التدرس، ويجوز أن يكون معناه ومعنى تدرسون بالتخفيف: تدرسونه على الناس، كقوله: لتقرأه على الناس، فيكون معناهما معنى تدرسون من التدريس، وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله في شيء، وأن السبب بينه وبين ربّه منقطع حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته.

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

وقرىء: ولا يأمركم، بالنصب عطفاً على **﴿ثم يقول﴾** وفيه وجهان: أحدهما أن تجعل لا مزيدةً لتأكيد معنى النفي في قوله: **﴿ما كان لبشر﴾**[3] والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ويأمركم **﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾** كما نقول ما كان بد أن اكرمه ثم يهينني ولا يستخف بي. والثاني أن تجعل لا غير مزيدة، والمعنى أنّ رسول الله ﷺ كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة، واليهود والنصارى عن عبادة عزير والمسيح، فلما قالوا له: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يأمر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء، والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، وتنصرها قراءة عبد الله: ولن يأمركم، والضمير في ولا يأمركم وأيامركم لبشر، وقيل لله، والهمزة في أيأمركم للإنكار. **﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾** دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾.

﴿ميثاق النبيين﴾ فيه غير وجه: أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك، والثاني أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه كما تقول ميثاق الله وعهد الله كأنّه قيل: وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثّقه الأنبياء على أممهم. والثالث أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف، والرابع أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكماً بهم لأنّهم كانوا يقولون: نحن أولى بالنبوة من محمد لأنّا أهل الكتاب ومنا كان النبيون، وتدل عليه قراءة أبيّ وابن مسعود: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب. واللام في[4] **﴿لما آتيتكم﴾** لام التوطئة لأنّ أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، وفي لتؤمننّ لام جواب القسم، وما يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط ولتؤمنن سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعاً، وأن تكون موصولة بمعنى للذي آتيتكموه لتؤمننّ به وقرىء: لما آتيناكم، وقرأ حمزة: لما آتيتكم بكسر اللام، ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة ثم لمجيء رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به، على أن ما مصدرية والفعلان معها أعني آتيتكم وجاءكم في معنى المصدرين، واللام داخلة للتعليل على معنى أخذ الله ميثاقهم لتؤمننّ بالرسول ولتنصرنّه لأجل

---

(1) الواحدي في أسباب النزول ص 65.
(2) الواحدي في أسباب النزول ص 65.
(3) سورة آل عمران، الآية: 79.
(4) قال أحمد: يزيد على أن قوله رسول فاعل جاء؛ لأنه لا يخلو من=

= الضمير، وإلا فهذا القول صحيح على أن يكون الفاعل مضمراً، ورسول خبر الموصول، ولم يرد الزمخشري إلا الأوّل، وهو ظاهر الآية.

أني آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف، ويجوز أن تكون ما موصولة.

فإنْ قلتَ: كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله: ﴿ثم جاءكم﴾ لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة لأنك لا تقول للذي جاءكم رسول مصدق لما معكم؟ **قلتُ**[1]: بلى لأنّ ما معكم في معنى ما آتيتكم، فكأنّه قيل: للذي آتيكموه وجاءكم رسول مصدّق له. وقرأ سعيد بن جبير لما بالتشديد بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته. وقيل: أصله لمن ما، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميماً بإدغامها في الميم فحذفوا إحداها فصارت لما، ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمننّ به. وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى ﴿إصري﴾ عهدي، وقرىء: أصري بالضم، وسمي إصراً؛ لأنه مما يؤصر أي: يشدّ ويعقد، ومنه الأصار الذي يعقد به، ويجوز أن يكون المضموم لغةً في أصر كعبر وعبر، وأن يكون جمع إصار. ﴿فاشهدوا﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار. ﴿وأنا على ذلكم﴾ من إقراركم وتشاهدكم، ﴿من الشاهدين﴾ وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: الخطاب للملائكة.

فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ الميثاق والتوكيد ﴿فاولئك هم الفاسقون﴾ أي: المتمردون من الكفار.

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾.

دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملةً على جملة، والمعنى: فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينهما، ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره ﴿أ﴾ يتولون، ﴿فغير دين الله يبغون﴾ وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنّه أهم من حيث أنّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل. وروي: أنّ أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام وكل واحد من الفريقين ادعى أنّه أولى به، فقال ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم». فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك[2]، فنزلت. وقرىء: يبغون بالياء وترجعون بالتاء، وهي قراءة أبي عمرو، لأنّ الباغين هم المتولون والراجعون جميع الناس. وقرئا: بالياء معاً وبالتاء معاً. ﴿طوعاً﴾ بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه، ﴿وكرهاً﴾ بالسيف، أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت. فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده، وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال بمعنى طائعين ومكرهين.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾.

أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان، فلذلك وحّد الضمير في ﴿قل﴾، وجمع في ﴿آمنا﴾. ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه.

فإنْ قلتَ: لم عدّي انزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدّم من مثلها بحرف الانتهاء؟ **قلتُ**: لوجود المعنيين جميعاً لأنّ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارةً بأحد المعنيين وأخرى بالآخر. ومن قال: إنّما قيل: علينا لقوله قل، وإلينا لقوله قولوا، تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأنّ الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء ويأتيهم على وجه الانتهاء، فقد تعسف ألا ترى إلى قوله: ﴿بما أنزل إليك﴾[3] ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾[4]، وإلى قوله: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا﴾[5] ﴿ونحن له مسلمون﴾ موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتها.

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾.

ثم قال: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام﴾ يعني: التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى ﴿ديناً فلن يقبل منه... من الخاسرين﴾ من الذين وقعوا في الخسران مطلقاً من غير تقييد للشياع، وقرىء: ومن يبتغ غير الإسلام بالإدغام. ﴿كيف يهدي الله قوماً﴾ كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودلّ على تصميمهم بأنّهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأنّ الرسول حق، وبعد ما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوّة وهم اليهود، كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين به، وذلك حين عاينوا ما يوجب قوّة إيمانهم من البينات. وقيل: نزلت في رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم: طعمة بن أبيرق ووحوح بن الأسلت والحرث بن سويد بن الصامت.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ

(1) قال أحمد: يريد أن الكلام، وإن خلا من العائد إلا أنه في معنى كلام يتحقق فيه العائد، فيجوز دخوله في الصلة، والله أعلم.

(2) الواحدي في أسباب النزول ص 65 ـ 66.

(3) سورة النساء، الآية: 166.

(4) سورة المائدة، الآية: 48.

(5) سورة آل عمران، الآية: 72.

جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾.

فإنْ قلتَ: علام عطف قوله: **﴿وشهدوا﴾**؟ **قلتُ:** فيه وجهان: أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل لأنّ معناه بعد أن آمنوا كقوله تعالى: **﴿فاصدّق واكن﴾**[1] وقول الشاعر:

ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار قد بمعنى كفروا وقد شهدوا أنّ الرسول حق. **﴿والله لا يهدي﴾** لا يلطف بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أنّ اللطف لا ينفعهم.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾.

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ الكفر العظيم والارتداد، **﴿وأصلحوا﴾** ما أفسدوا أو دخلوا في الصلاح. قيل: نزلت في الحرث بن سويد حين ندم على ردّته وأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة؟ فارسل إليه أخوه الجلاس بالآية، فاقبل إلى المدينة فتاب، وقبل رسول الله ﷺ توبته.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾.

﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ هم اليهود كفروا بعيسىٰ والإنجيل بعد إيمانهم بموسىٰ والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد والقرآن، أو كفروا برسول الله بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك وطعنهم فيه في كل وقت وعداوتهم له ونقضهم ميثاقه وفتنتهم للمؤمنين وصدّهم عن الإيمان به وسخريتهم بكل آية تنزل. وقيل: نزلت في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة. ازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون وإن أردنا الرجعة نافقنا بإظهار التوبة.

فإنْ قلتَ: قد علم أنّ المرتد كيفما ازداد كفراً فإنّه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى: **﴿لن تقبل توبتهم﴾**؟ **قلتُ:** جعلت عبارةً عن الموت على الكفر، لأنّ الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر، كأنّه قيل: إنّ اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر، داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم.

فإنْ قلتَ: فلم قيل في إحدى الآيتين لن تقبل بغير فاء، وفي الأخرى فلن يقبل؟ **قلتُ:** قد أوذن بالفاء أنّ الكلام بني على الشرط والجزاء، وأنّ سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أنّ الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب، كما تقول: الذي جاءني له درهم. لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم بخلاف قولك: فله درهم.

فإنْ قلتَ: فحين كان معنى: **﴿لن تقبل توبتهم﴾** بمعنى الموت على الكفر، فهلا جعل الموت على الكفر مسبباً عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب وركوب الرين وجرّه إلى الموت على الكفر؟ **قلتُ:** لأنّه كم من مرتدٍ مزداد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر.

فإنْ قلتَ: فاي فائدة في هذه الكناية، أعني إن كني عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة. **قلتُ:** الفائدة فيها جليلة وهي التغليظ في شان أولئك الفريق من الكفار وإبراز حالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدّها، الا ترى أنّ الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾.

﴿ذهباً﴾ نصب على التمييز، وقرأ الأعمش: ذهب بالرفع رداً على ملء، كما يقال: عندي عشرون نفساً رجال.

فإنْ قلتَ[2]: كيف موقع قوله: **﴿ولو افتدى به﴾**؟ **قلتُ:** هو كلام محمول على المعنى كأنّه قيل: فلن تقبل من

---

(1) سورة المنافقون، الآية: 10.

(2) قال أحمد: لم يبين تطبيق لفظ الآية على هذا التقدير الذي ذهب إليه بوجه، ونحن نبين السبب الباعث له على إخراج الكلام عن ظاهره، ثم نقرّر وجهاً يطابق الآية، وذلك أنّ هذه الواو المصاحبة للشرط تستدعي شرطاً آخر، يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة، والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الاولى، مثاله قولك: اكرم زيداً، ولو أساء، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره اكرم زيداً، لو احسن ولو اساء، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه إن اساء، على أنّ إكرامه إن احسن بطريق الأولى، ومنه كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسكم معناه، والله أعلم لو كان الحق على غيركم، ولو كان عليكم، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم، فأوجبه تنبيهاً على ما هو اسهل، وأولى بالوجوب، فإذا تبين مقتضى الواو في مثل هذه المواضع، وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً؛ لأنّ قوله، ولو افتدى به يقتضي شرطاً آخر، = محذوفاً، يكون هذا المذكور منبهاً عليه بطريق الاولى، وهذه الحال المذكورة، وهي حالة افتدائهم بملء الارض ذهباً، هي حالة أجدر الحالات بقبول الفدية، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها، فلذلك قدر الكلام بمعنى لن يقبل من أحد منهم فدية، ولو افتدى بملء الارض ذهباً، حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الارض ذهباً، هو اولى بالقبول منها، فإذا انتفى حيث كان اولى فلأن ينتفي فيما عدا هذه الحالة أولى، فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور، وأما تنزيل الآية عليه، فعسر جداً، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه، وأقرب مأخذ إن شاء الله، فنقول قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهباً، يكون على أحوال منها أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه، كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول، ومنها أن يقول المفتدي في التقدير، أفدي نفسي بكذا، وقد لا يفعل، ومنها أن يقول هذا القول، وينجز المقدار الذي يفدي به نفسه، ويجعله حاضراً عتيداً، وقد يسلمه مثلاً لمن يأمن منه قبول=

أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً[1]، ويجوز أن يراد ولو افتدى بمثله كقوله: ﴿ولو أنّ للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾[2] والمثل يحذف كثيراً في كلامهم كقولك: ضربته ضرب زيد، تريد مثل ضربه، وأبو يوسف أبو حنيفة، تريد مثله: ولا هيثم الليلة للمطيّ، وقضية ولا أبا حسن لها، تريد ولا مثل هيثم ولا مثل أبي حسن. كما أنّه يراد في نحو قولهم: مثلك لا يفعل كذا تريد أنت، وذلك أنّ المثلين يسدّ أحدهما مسدّ الآخر فكانا في حكم شيء واحد، وأن يراد فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً كان قد تصدّق به ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه. وقرىء: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً، على البناء للفاعل وهو الله عزّ وعلا، ونصب ملء وملُ لرض بتخفيف الهمزتين.

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾.

﴿لن تنالوا البر﴾ لن تبلغوا حقيقة البر ولن تكونوا أبراراً. وقيل: لن تنالوا برّ الله وهو ثوابه ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها، كقوله: ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾[3] وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله. وروي أنّها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إنّ أحب أموالي إليّ بيرحا فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ ذاك مال رابح، أو مال رائح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها في أقاربه[4]. وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها، فقال: هذه في سبيل الله. فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، فكأن زيداً وجد في نفسه وقال: إنّما أردت أن أتصدّق به. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنّ الله تعالى قد قبلها منك»[5]. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جاريةً من سبي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت أعجبته، فقال: إنّ الله تعالى يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فأعتقها[6]. ونزل بأبي ذرّ ضيف فقال للمراعي: ائتني بخير إبلي، فجاء بناقة مهزولة، فقال: خنتني. قال: وجدت خير الإبل فحلها، فذكرت يوم حاجتكم إليه. فقال: إنّ يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي. وقرأ عبد الله: حتى تنفقوا بعض ما تحبون[7]، وهذا دليل على أنّ من في مما تحبون للتبعيض، ونحوه: أخذت من المال. ومن في ﴿من شيء﴾ لتبيين ما تنفقوا أي من أي شيء كان طيباً تحبونه أو خبيثاً تكرهونه، ﴿فإنّ الله﴾ عليم بكل شيء تنفقونه فمجازيكم بحسبه.

❁ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾.

﴿كلّ الطعام﴾ كل المطعومات أو كل أنواع الطعام. والحل مصدر، يقال: حلّ الشيء حلاً، كقولك: ذلت الدابة ذلاً، وعزّ الرجل عزاً. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: كنت أطيبه لحله وحرمه[8]، ولذلك استوى في الوصف به المنكر والمؤنث والواحد والجمع. قال الله تعالى: ﴿لا هنّ حلّ لهم﴾[9]. والذي حرم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه لحوم الإبل وألبانها، وقيل: العروق، كان به عرق النسا فنذر إن شفي أن يحرّم على نفسه أحبّ الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه فحرّمه. وقيل: أشارت عليه الأطباء باجتنابه ففعل ذلك بإذن من الله فهو كتحريم الله ابتداء، والمعنى: أنّ المطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة، وتحريم ما حرّم عليهم منها لظلمهم وبغيهم، لم يحرّم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرّمه أبوهم إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه. وهو ردّ على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم بما نعى عليهم في قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهم﴾[10] إلى قوله

---

(1) قال أحمد: وعلى هذا النمط يجري الكلام على التأويل المتقدّم؛= فديته، وإذا تعددت الأحوال، فالمراد في الآية أبلغ الأحوال، وأجدرها بالقبول، وهو أن يفتدي بملء الأرض ذهباً افتداء محققاً، بأن يقدر على هذا الأمر العظيم، ويسلمه وينجزه اختياراً ومع ذلك لا يقبل منه، فمجرد قوله أبذل المال، وأقدر عليه، أو ما يجري هذا المجرى بطريق الأولى، فيكون دخول الواو، والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أن ثم أحوالاً أخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة، وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً، ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم﴾، والله أعلم، وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص، ولا مخلص لهم من الوعيد، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس في ذلك اليوم، ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار، ولو سلمتها إليّ في يدي هذه، فتأمّل هذا النظر، فإنه من السهل الممتنع، والله ولي التوفيق.
= لأنه نبّه بعدم قبول مثلي ملء الأرض ذهباً وعلى عدم قبول ملئها مرّة واحدة بطريق الأولى.

(2) سورة الزمر، الآية: 47.

(3) سورة البقرة، الآية: 267.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأشربة، باب: استعذاب الماء الحديث رقم: (5611)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين... الحديث رقم: (2312).

(5) الطبري وعبد الرزاق في تفسيرهما.

(6) الطبري في تفسيره.

(7) راجع الدر المنثور.

(8) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: الطيب عند الإحرام الحديث رقم: (1539)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: الطيب للمحرم عند الإحرام الحديث رقم: (2818).

(9) سورة الممتحنة، الآية: 10.

(10) سورة النساء، الآية: 160.

تعالى: ﴿عذاباً أليماً﴾[1] وفي قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما﴾[2] إلى قوله: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم﴾[3] وجحود ما غاظهم واشمأزوا منه وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم. فقالوا: لسنا بأوّل من حرّمت عليه وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرّمةً على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهلمّ جرّا إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرّمت علينا كما حرّمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وما عدّد من مساويهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرةً حرّم عليهم نوع من الطيبات عقوبةً لهم. ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم مما هو ناطق به من أنّ تحريم ما حرّم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم لا تحريم قديم كما يدعونه. فروي أنّهم لم يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه.

فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾.

﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ بزعمه أنّ ذلك كان محرّماً على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة، ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات.

قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾.

﴿قل صدق الله﴾ تعريض بكذبهم، كقوله: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾[4] أي: ثبت أنّ الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون. ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا﴾ وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه.

إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾.

﴿وضع للناس﴾ صفة لبيت، والواضع هو الله عز وجلّ، تدل عليه قراءة من قرأ وضع للناس بتسمية الفاعل وهو الله، ومعنى وضع الله بيتاً للناس أنّه جعله متعبداً لهم، فكأنه قال: إن أوّل متعبد للناس الكعبة. وعن رسول الله ﷺ أنّه سئل عن أوّل مسجد وضع للناس، فقال: «المسجد الحرام ثم بيت المقدس». وسئل: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة[5]. وعن عليّ رضي الله عنه أنّ رجلاً قال له: أهو أوّل بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت، ولكنه أوّل بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة، وأوّل من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم، فبنته العمالقة، ثم هدم فبناه قريش. وعن ابن عباس: هو أوّل بيت حج بعد الطوفان. وقيل: هو أوّل بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض تحته. وقيل: هو أوّل بيت بناه آدم في الأرض. وقيل: لما أهبط آدم قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفي عام، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له: الضراح، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السمٰوات. ﴿للذي ببكة﴾ البيت الذي ببكة وهي علم للبلد الحرام.

ومكة وبكة: لغتان فيه، نحو قولهم: النبيط والنميط في اسم موضع بالدهناء، ونحوه من الاعتقاب أمر راتب وراتم، وحمى مغمطة ومغبطة. وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكه إذا زحمه لازدحام الناس فيها. وعن قتادة: يبك الناس بعضهم بعضاً الرجال والنساء، يصلي بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة. كأنّها سميت ببكة وهي الزحمة. قال:

إذا الشريب أخذته الأكه ... فخله حتى يبك بكه

وقيل: تبك أعناق الجبابرة أي: تدقها، لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى. ﴿مباركاً﴾ كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب، وانتصابه على الحال من المستكن في الظرف لأنّ التقدير للذي ببكة هو، والعامل فيه المقدّر في الظرف من فعل الاستقرار. ﴿وهدى للعالمين﴾ لأنّه قبلتهم ومتعبدهم.

فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾.

﴿مقام إبراهيم﴾ عطف بيان لقوله: ﴿آيات بينات﴾. **فإنْ قلتَ**[6]: كيف صح بيان الجماعة بالواحد؟ **قلتُ**: فيه

---

(1) سورة النساء، الآية: 161.

(2) سورة الأنعام، الآية: 146.

(3) سورة الأنعام، الآية: 146.

(4) سورة الأنعام، الآية: 146.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ الحديث رقم: (3425)، ومسلم في كتاب: = المساجد، ومواضع الصلاة الحديث رقم: (1161).

(6) قال أحمد: ونظير هذا التأويل ما تقدّم لي عند قوله تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم﴾. والوجه الثاني اشتماله على آيات؛ لأن أثر القدم في الصخرة الصماء، آية وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء آية، وحفظه مع =

وجهان:

أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوّة دلالته على قدرة الله ونبوّة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد كقوله تعالى: ﴿إنّ إبراهيم كان أمّة﴾[1].

والثاني: اشتماله على آيات لأنّ أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصةً، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنة آية، ويجوز أن يراد: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله لأنّ الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعة، ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما دلالةً على تكاثر الآيات. كأنّه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما. ونحوه في طي الذكر قول جرير:

كانت حنيفة أثلاثاً فثلثهمو ... من العبيد وثلث من مواليها

ومنه قوله عليه السلام: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرّة عيني في الصلاة»[2]. وقرأ ابن عباس وأبيّ ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية قتيبة: آية بينة، على التوحيد، وفيها دليل على أنّ مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان.

فإنْ قلتَ: كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات، وقوله: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾، جملةً مستأنفةً، إما ابتدائيةً وإما شرطيةً! **قلتُ:** أجزت ذلك من حيث المعنى لأنّ قوله: **﴿ومن دخله كان آمناً﴾** دلّ على أمن داخله، فكأنّه قيل: فيه آيات بينات، مقام إبراهيم وأمن داخله، الا ترى أنّك لو قلت: فيه آية بينة من دخله كان آمناً صحّ، لأنّه في معنى قولك: فيه آية بينة أمن من دخله.

فإنْ قلتَ: كيف كان سبب هذا الأثر؟ **قلتُ:** فيه قولان: أحدهما أنّه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسمٰعيل: انزل حتى يغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقي أثر قدميه عليه. ومعنى **﴿ومن دخله كان آمناً﴾** معنى قوله: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾[3]، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام: رب اجعل هذا البلد آمناً. وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضي الله عنه: لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه[4] وعند أبي حنيفة: من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردة أو زنا فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنّه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمناً من النار. وعن النبي ﷺ: «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً»[5]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة»[6]. وعن ابن مسعود: وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذٍ مقبرة، فقال: «يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر»[7]. وعن النبي ﷺ: «من صبر على حرّ مكة ساعةً من نهار، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام»[8]. **﴿من استطاع﴾** بدل من الناس، وروي: أنّ رسول الله ﷺ فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة[9]، وكذا عن ابن عباس وابن عمر وعليه أكثر العلماء. وعن ابن الزبير: هو على قدر القوة. ومذهب مالك أنّ الرجل إذا وثق بقوّته لزمه، وعنه: ذلك على قدر الطاقة، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة. وعن الضحاك: إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع. وقيل له في ذلك فقال: إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه، بل كان ينطلق إليه ولو حبواً فكذلك يجب عليه الحج. والضمير في **﴿إليه﴾** للبيت أو للحج، وكل مأتيّ إلى الشيء فهو سبيل إليه، [10]وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد منها قوله: **﴿ولله على الناس حج البيت﴾** يعني: أنّه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته، ومنها

= كثرة عدوّه من المشركين، وأهل الكتاب، والملاحدة ألوف سنة آية، ويجوز أن يريد مقام إبراهيم، وأمن من دخله.

(1) سورة النحل، الآية: 120.

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (3/ 128، 285).

(3) سورة العنكبوت، الآية: 67.

(4) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 5/ 153 الحديث رقم: (9228).

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في المناسك، فضل الحج والعمرة الحديث رقم: (4158)، وعبد الرزاق في المصنف 9/ 267 الحديث رقم: (17166)، والدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (193)، والطبري في الصغير ص 304 الحديث رقم: (814).

(6) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (1/ 419).

(7) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 34960).

(8) قال الزيلعي غريب 1/ 201.

(9) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران الحديث رقم: (2998) عن ابن عمر. وكذلك ابن ماجه عن ابن عمر في كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج الحديث رقم: (2896)، والحاكم عن أنس في المستدرك 1/ 442، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس، كتاب: المناسك، باب: ما يوجب الحج الحديث رقم: (2897)، والدارقطني في كتاب: الحج 2/ 215 .

(10) في هذا الكلام أنواع من التوحيد، منها قوله: ﴿ولله على الناس﴾، أي: في رقابهم لا ينفكون عنه إلخ.

أنّه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلاً وفيه ضربان من التأكيد: أحدهما أنّ الإبدال تثنية للمراد وتكرير له، والثاني، أنّ الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين ومنها قوله: ﴿ومن كفر﴾[1] مكان ومن لم يحج تغليظاً على تارك الحج. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج، فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»[2]. ونحوه من التغليظ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر»[3]، ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان. ومنها قوله: ﴿عن العالمين﴾ وإن لم يقل عنه وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لأنّه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنّه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدلّ على عظم السخط الذي وقع عبارةً عنه. وعن سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود فإنّهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب. وروي: أنّه لما نزل قوله: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾، جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال: «إنّ الله كتب عليكم الحج فحجوا»، فآمنت به ملة واحدة وهو المسلمون وكفرت به خمس ملل. قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه. فنزل: ومن كفر[4]. وعن النبي ﷺ: «حجوا قبل أن لا تحجوا، فإنّه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة»[5]. وروي: «حجوا قبل أن لا تحجوا. حجوا قبل أن يمنع البر جانبه»[6]. وعن ابن مسعود: حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت[7]. وعن عمر رضي الله عنه: لو ترك الناس الحج عاماً واحداً ما نوظروا[8]. وقرىء: حج البيت، بالكسر.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿والله شهيد﴾ الواو للحال، والمعنى: لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد ﷺ، والحال أنّ الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته[9].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قرأ الحسن: تصدّون من أصدّه، ﴿عن سبيل الله﴾ عن دين حق، علم أنّه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الإسلام وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدّهم عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم. وقيل: أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله. ﴿تبغونها عوجاً﴾[10] تطلبون لها اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة.

فإنْ قلتَ: كيف تبغونها عوجاً وهو محال؟ **قلتُ:** فيه معنيان:

أحدهما: أنّكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أنّ فيها عوجاً بقولكم: إنّ شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك.

والثاني: انكم تتبعون انفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم. ﴿وأنتم شهداء﴾ أنّها سبيل الله التي لا يصدّ عنها إلا ضالّ مضلّ، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظائم أمورهم،

---

(1) قال أحمد: قوله إنّ المراد بمن كفر من ترك الحج، وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه فيه نظر، فإن قاعدة أهل السنة توجب أنّ تارك الحج لا يكفر بمجرد تركه قولاً واحداً، فيتعين حمل الآية على تارك الحج، جاحداً لوجوبه، وحينئذٍ يكون الكفر راجعاً إلى الاعتقاد، لا إلى مجرد الترك، وأما الزمخشري فيستحل ذلك، لأنّ تارك الحج بمجرد الترك يخرج من ربقة الإيمان، ومن اسمه ومن حكمه؛ لأنه عنده غير مؤمن، ومخلد تخليد الكفار، وعلى قاعدة السنة يتعين المصير إلى ما ذكرناه هذا، إن كان المراد بمن كفر من ترك الحج، ويحتمل أن يكون استئناف وعيد للكافر، فيبقى على ظاهره، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج باب: ما جاء في التغليظ في ترك الحج، الحديث رقم: (812)، وأخرجه الدارمي عن أبي أمامة، كتاب: المناسك، باب: من مات ولم يحج الحديث رقم: (1785)، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في المناسك الحديث رقم: (3978)، وعن أبي أمامة 3979.

(3) أخرجه احمد في المسند 5/346 والترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة الحديث رقم: (2621)، والنسائي في السنن، كتاب: الصلاة، باب: الحكم في تارك الصلاة الحديث رقم: (463) وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء فيمن ترك = الصلاة الحديث رقم: (1079)، والحاكم في المستدرك 1/ 6ـ 7. الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة الحديث رقم: (2622).

(4) رواه الطبري في تفسيره.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرك عن علي 1/448. وابن أبي شيبة 15/49، كتاب: الفتن، باب: من كره الخروج...

(6) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحج، باب: المواقيت الحديث رقم: (294).

(7) قال الزيلعي غريب 1/207.

(8) عبد الرزاق في مصنفه 5/13، الحديث رقم: (8827).

(9) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 67. والطبري في تفسيره.

(10) قال أحمد: وفي تقديره الجار مع ضمير المفعول، حيث قال تطلبون لها اعوجاجاً تنقيص من المعنى، وأتم من إعرابه، معنى أن تجعل الهاء هي المفعول به، وعوجاً حال وقع فيها المصدر، الذي هو عوجاً موقع الاسم، وفي هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريقة المبالغة في مثل رجل صوم، ويكون ذلك أبلغ في ذمهم وتوبيخهم، والله أعلم.

وهو الأحبار. ﴿وما الله بغافل﴾ وعيد، ومحل تبغونها نصب على الحال.

قيل: مرشاس بن قيس اليهودي ـ وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم ـ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدّثون، فغاظه ذلك، حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة. وقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار. فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار. وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ففعل، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح: فبلغ النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم». فعرف القوم أنّها نزغة من الشيطان وكيد من عدوّهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ. فما كان يوم أقبح أوّلاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿وكيف تكفرون﴾ معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجيب، والمعنى: من أين يتطرّق إليكم الكفر، والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز ﴿تتلى عليكم﴾ على لسان الرسول غضةً طرية، وبين أظهركم رسول الله ﷺ ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم. ﴿ومن يعتصم بالله﴾ ومن يتمسك بدينه، ويجوز أن يكون حثاً لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم. ﴿فقد هدى﴾ فقد حصل له الهدى لا محالة، كما تقول إذا جئت فلاناً: فقد أفلحت، كأنّ الهدى قد حصل، فهو يخبر عنه حاصلاً، ومعنى التوقع في قد ظاهر لأنّ المعتصم بالله متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿حقّ تقاته﴾ واجب تقواه وما يحق منها وهو القيام بالمواجب واجتناب المحارم، ونحوه: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾، يريد: بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً. وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. وروي مرفوعاً[1]. وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه. وقيل: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه، والتقاة: من اتقى كالتؤدة من اتأد. ﴿ولا تموتن﴾ معناه: ولا تكوننّ على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدوّ: لا تأتني إلا وأنت على حصان، فلا تنهاه عن الإتيان ولكنّك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان.

وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

قولهم: اعتصمت بحبله، يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ووثوقه بحمايته بامتساك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه، وأن يكون الحبل استعارةً لعهده والاعتصام لوثوقه بالعهد، أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه. والمعنى: واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به، ولا تفرقوا عنه، أو واجتمعوا على التمسك بعهده إلى عباده وهو الإيمان والطاعة، أو بكتابه لقول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم»[2]. ﴿ولا تفرقوا﴾ ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرّقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويحاربه، أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا ﴿إخواناً﴾ متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله. وقيل: هم الأوس والخزرج، كانا أخوين لأب وأم فوقعت بينهما العداوة، وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام، وألف بينهم برسول الله ﷺ. ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ وكنتم مشفين على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر، ﴿فأنقذكم منها﴾ بالإسلام[3]، والضمير للحفرة

---

(1) ذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (1/101).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن باب: ما جاء في فضل القرآن، الحديث رقم: (2906)، والدارمي في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن، والحاكم في المستدرك 1/555، وأخرجه ابن أبي شيبة 10/482، كتاب: فضائل القرآن، باب: في التمسك بالقرآن.

(3) قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الحفرة، فلا يحتاج إلى تأويله المذكور، كما تقول أكرمت غلام هند، وأحسنت إليها، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم، لأنها التي يمتن بالإنقاذ منها حقيقة وأما الامتنان بالإنقاذ من الشفا، فلا يستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهوى إلى الحفرة، فيكون الإنقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة، التي يتوقع الهويّ فيها، فإضافة المنة إلى الإنقاذ من الحفرة تكون=

أو للنار أو للشفا، وإنّما أنث لإضافته إلى الحفرة وهو منها، كما قال:

كما شرقت صدر القناة من الدم

وشفا الحفرة وشفتها، حرفها بالتذكير والتأنيث، ولامها واو، إلا أنّها في المذكر مقلوبة وفي المؤنث محذوفة، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانبة.

فإنْ قلتَ: كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ **قلتُ:** لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها مشفين على الوقوع فيها. ﴿**كذلك**﴾ مثل ذلك البيان البليغ، ﴿**يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾ إرادة أن تزدادوا هدى.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿**ولتكن منكم أمّة**﴾ [1]من للتبعيض، [2]لأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنّه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر. فإنّ الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً أو على من الإنكار عليه عبث كالإنكار على أصحاب المآصر والجلادين وأضرابهم. وقيل: من للتبيين، بمعنى: وكونوا أمّةً تأمرون، كقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون﴾[3] ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم. وعن النبي ﷺ أنّه سئل وهو على المنبر: من خير الناس؟ قال: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم»[4] وعنه عليه السلام: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه»[5]. وعن علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له[6]. وعن حذيفة: يأتي على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وعن سفيان الثوري: إذا كان الرجل محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه، فاعلم أنّه مداهن، والأمر بالمعروف تابع للمأمور به إن كان واجباً فواجب وإن كان ندباً فندب، وأما النهي عن المنكر فواجب كلّه لأنّ جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح.

فإنْ قلتَ: ما طريق الوجوب؟ **قلتُ:** قد اختلف فيه الشيخان فعند أبي على السمع والعقل، وعند أبي هاشم السمع وحده.

فإنْ قلتَ: ما شرائط النهي؟ **قلتُ:** أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح لأنّه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن وأن لا يكون ما ينهى عنه واقعاً لأنّ الواقع لا يحسن النهي عنه وإنّما يحسن الذم عليه والنهي عن أمثاله، وأن لا يغلب على ظنه أنّ المنهي يزيد في منكراته وأن لا يغلب على ظنه أنّ نهيه لا يؤثر لأنّه عبث.

فإنْ قلتَ: فما شروط الوجوب؟ **قلتُ:** أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته، وأن لا يغلب على ظنه أنّه إنْ أنكر لحقته مضرة عظيمة.

فإنْ قلتَ: كيف يباشر الإنكار؟ **قلتُ:** يبتدئ بالسهل فإنْ لم ينفع ترقى إلى الصعب، لأنّ الغرض كف المنكر، قال الله

= أبلغ وأوقع، مع أنّ اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عدّه أبو علي في التعاليق، من ضرورة الشعر خلاف رأيه في الإيضاح نقله ابن يسعون، وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا، إلا أنه هو الذي كانوا عليه، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ منها، وقد بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإنقاذ من الحفرة، لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً لولا الإنقاذ الرباني، ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «**المرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه**»، وإلى قوله تعالى: ﴿أمّن أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم﴾ وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره في نار جهنم، مع تأكيد ذلك بقوله ﴿هار﴾، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفي هذا التبعيض، وتنكير أمّة تنبيه على قلة العاملين بذلك، وأنه لا يخاطب به إلا الخواص، ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد﴾ فإنما وجه الخطاب على نفس منكرة تنبيهاً على قلة الناظر في معاده، وكذلك قوله: ﴿وتعيها أذن واعية﴾، حتى ورد في التفسير أنّ المراد أذن واحدة مخصوصة، وهي أذن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(2) قال أحمد: عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص، = لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام، كقوله من كان عدواً لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال، وكقوله: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ وكقوله: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ وشبه ذلك؛ لأنّ الاقتصار على تخصيص ما يفرد بالذكر، يفيده تمييزاً عن غيره من بقية المتناولات، وأما هذه الآية، فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناوله، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور، أو ترك منهي لا يعدو واحداً من هذين، حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات، فالأولى في ذلك أن يقال، فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً، ثم مفصلاً، وفي تنبيه أنّ الذكر على وجهين، ما لا يخفى من العناية، والله أعلم، إلا أن يثبت عرف يخص الأمر بالمعروف، والنهي عن المكر ببعض أنواع الخير، فإذ ذاك يتم مراد الزمخشري، وما أرى هذا العرف ثابتاً، والله أعلم.

(3) سورة آل عمران، الآية: 110.

(4) أخرجه أحمد في المسند 1/432.

(5) ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (6/2104) وكنز العمال (5564).

(6) أبو نعيم في الحلية 1/74.

تعالى: ﴿فأصلحوا بينهما﴾[1] قال: فقاتلوا.

فإنْ قلتَ: فمن يباشره؟ قلتُ: كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه وقد أجمعوا أنّ من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار لأنّه معلوم قبحه لكل أحد، وأمّا الإنكار الذي بالقتال فالإمام وخلفاؤه أولى لأنّهم أعلم بالسياسة ومعهم عدّتها.

فإنْ قلتَ: فمن يؤمر وينهى؟ قلتُ: كل مكلف وغير المكلف إذا همّ بضرر غيره منع كالصبيان والمجانين، وينهى الصبيان عن المحرّمات حتى لا يتعودوها كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها.

فإنْ قلتَ: هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه؟ قلتُ: نعم يجب عليه لأنّ ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر، وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا: وعن الحسن أنّه سمع مطرف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل. فقال: وأينا يفعل ما يقول، ودّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر.

فإنْ قلتَ: كيف قيل: يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف؟ قلتُ: الدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال والتروك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص، فجيء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيذاناً بفضله، كقوله: ﴿والصلاة الوسطى﴾[2].

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

﴿كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ وهم اليهود والنصارى، ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق. وقيل: هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبهة والمجبرة والحشوية وأشباههم[3].

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿يوم تبيض وجوه﴾ نصب بالظرف وهو لهم، أو بإضمار اذكر. وقرئ: تبيض وتسود بكسر حرف المضارعة، وتبياض وتسواد، والبياض من النور والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق، وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته، وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل، وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، واسودّت صحيفته، وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله. ﴿أكفرتم﴾ فيقال لهم: أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، والظاهر أنّهم أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم برسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه، وعن عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار، وتسودّ وجوه بني قريظة والنضير. وقيل: هم المرتدون، وقيل: أهل البدع والأهواء. وعن أبي أمامة: هم الخوارج، ولما رآهم على درج دمشق دمعت عيناه، ثم قال: «كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء، وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء: فقال له أبو غالب: أشيء تقوله برأيك أم شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: بل سمعت من رسول الله ﷺ غير مرة. قال: فما شأنك دمعت عيناك! قال: رحمةً لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده، فقال: إن بأرضك منهم كثيراً فأعاذك الله منهم»[4]. وقيل: هم جميع الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾.

﴿ففي رحمة الله﴾ ففي نعمته وهي الثواب المخلد.

فإنْ قلتَ: كيف موقع قوله: ﴿هم فيها خالدون﴾ بعد قوله: ﴿ففي رحمة الله﴾؟ قلتَ: موقع الاستئناف، كأنّه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾.

﴿تلك آيات الله﴾ الواردة في الوعد والوعيد، ﴿نتلوها عليك﴾ ملتبسة ﴿بالحق﴾ والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه. ﴿وما الله يريد ظلماً﴾ فيأخذ أحداً بغير جرم أو يزيد في عقاب مجرم أو ينقص من ثواب محسن، ونكر ظلماً. وقال: ﴿للعالمين﴾ على معنى ما يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه، فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح والرضا بها[5].

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾.

كان عبارة عن وجود الشيء في زمان ماضٍ على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 9.

(2) سورة البقرة، الآية: 238.

(3) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، الحديث رقم: (3000)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في ذكر الخوارج الحديث رقم: (176)، وأحمد في المسند 5/253، والحاكم = في المستدرك 2/149.

(4) إن أراد بهم: أهل السنة ومن وافقهم، كعادته، فقد أفرط في التعصب للمعتزلة.

(5) يريد: أهل السنة القائلين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما أجمع عليه السلف.

طارىء، ومنه قوله تعالى: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1] ومنه قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمّة﴾، كأنّه قيل: وجدتم خير أمّة. وقيل: كنتم في علم الله خير أمّة. وقيل: كنتم في الأمم قبلكم منكورين بأنّكم خير أمّة موصوفين به. ﴿أخرجت﴾ أظهرت، وقوله: ﴿تأمرون﴾ كلام مستأنف بين به كونهم خير أمّة، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم: ﴿وتؤمنون بالله﴾ جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيماناً بالله، لأنّ من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه، فكأنّه غير مؤمن بالله. ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ مع إيمانهم بالله ﴿لكان خيراً لهم﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه؛ لأنّهم إنّما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والاتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرّتين. ﴿منهم المؤمنون﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ المتمرّدون في الكفر.

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾.

﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ إلا ضرراً مقتصراً على أذى، بقول من طعن في الدين أو تهديداً ونحو ذلك. ﴿وإنْ يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر. ﴿ثم لا ينصرون﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم، وفيه تثبيت لمن أسلم منهم، لأنّهم كانوا يؤذونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم، وتهديدهم بأنّهم لا يقدرون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالى به، مع أنّه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم، وأنّ عاقبة أمرهم الخذلان والذلّ.

فإنْ قلتَ[2]: هلا جزم المعطوف في قوله: ﴿ثم لا ينصرون﴾؟ **قلتُ**: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنّه قيل: ثم أخبركم أنّهم لا ينصرون.

فإنْ قلتَ: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ **قلتُ**: لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً، كأنّه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية إنّهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوّة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

فإنْ قلتَ: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ **قلتُ**: جملة الشرط والجزاء، كأنّه قيل: أخبركم أنّهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنّهم لا ينصرون.

فإنْ قلتَ: فما معنى التراخي في ثم؟ **قلتُ**: التراخي في المرتبة لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار.

فإنْ قلتَ: ما موقع الجملتين، أعني: ﴿منهم المؤمنون﴾ ﴿ولن يضروكم﴾؟ **قلتُ**: هما كلامان واردان على طرق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإنّ من شأنه كيت وكيت. ولذلك جاآ من غير عاطف.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾.

﴿بحبل من الله﴾ في محل النصب على الحال بتقدير إلا معتصمين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله، وهو استثناء من أعم عام الأحوال، والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامّة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس. يعني: ذمّة الله وذمّة المسلمين. أي: لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية. ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ استوجبوه، ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها، وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبواء بغضب الله، أي: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. ثم قال: ﴿ذلك بما عصوا﴾ أي: ذلك كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده، ليعلم أنّ الكفر وحده ليس بسبب في استحقاق سخط الله وأنّ سخط الله يستحق بركوب المعاصي كما يستحق بالكفر، ونحوه: ﴿مما خطيآتهم أغرقوا﴾، ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾.

۞ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾.

---

(1) سورة النساء، الآية: 96.

(2) قال أحمد: وهذا من الترقي في الوعد، عما هو أدنى، إلى ما هو أعلى؛ لأنهم وعدوا بتولية عدوّهم الأدبار، عند المقابلة، ثم ترقي الوعد إلى ما هو أتم في النجاح، من أنّ هؤلاء ﴿لا ينصرون﴾= مطلقاً، ويزيد هذا الترقي بدخول ﴿ثم﴾ دون الواو، فإنها تستعار ههنا للتراخي في الرتبة، لا في الوجود، كأنه قال: ثم ههنا ما هو أعلى في الامتنان، وأسمع في رتب الإحسان، وهو: أنّ هؤلاء قوم ﴿لا ينصرون﴾ البتة، والله أعلم.

الضمير في ﴿ليسوا﴾ لأهل الكتاب أي: ليس أهل الكتاب مستوين. وقوله: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ كلام مستأنف لبيان قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ كما وقع قوله: ﴿تأمرون بالمعروف﴾[1] بياناً لقوله: ﴿كنتم خير أمّة﴾[2] أمّة قائمة مستقيمة عادلة من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى استقام. وهم الذين أسلموا منهم. وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود، لأنّه أبين لما يفعلون وأدلّ على حسن صورة أمرهم. وقيل: عنى صلاة العشاء لأنّ أهل الكتاب لا يصلونها. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما أنّه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم»[3]. وقرأ هذه الآية. وقوله: ﴿يتلون﴾ و ﴿يؤمنون﴾ في محل الرفع صفتان لأمّة، أي: أمّة قائمة. تالون مؤمنون، وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله لأنّ إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيراً وكفرهم ببع الكتب والرسل دون بعض، ومن الإيمان باليوم الآخر لأنّهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنّهم كانوا مداهنين، ومن المسارعة في الخيرات لأنّهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها.

والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه، لأنّ من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر الفور على التراخي. ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿من﴾ جملة ﴿الصالحين﴾ الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثناءه عليهم، ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾

﴿فلن تكفروه﴾ لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر في قوله: ﴿والله شكور حليم﴾[4] في معنى توفية الثواب، نفى عنه نقيض ذلك.

فإنْ قلتَ: لم عدى إلى مفعولين، وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول شكر النعمة وكفرها؟ قلتُ: ضمن معنى الحرمان فكأنّه قليل: فلن تحرموه، بمعنى فلن تحرموا جزاءه. وقرىء: يفعلوا ويكفروه بالياء والتاء. ﴿والله عليم بالمتقين﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب، ودلالة على أنّه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾.

الصر[5]: الريح الباردة، نحو الصرصر. قال:

لا تعدلن أتاويين تضربهم نكباء صر بأصحاب المحلات

كما قالت ليلى الأخيلية: ولم تغلب الخصم الألد وتملأ الجفان سديفاً يوم نكباء صرصر.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: ﴿كمثل ريح فيها صر﴾؟ قلتُ: فيه أوجه:

أحدهما: أنّ الصر في صفة الريح بمعنى الباردة، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرّة صر، كما تقول برد بارد على المبالغة.

والثاني: أن يكون الصر مصدراً في الأصل بمعنى البرد، فجيء به على أصله.

والثالث: أن يكون من قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[6] ومن قولك: إن ضعيني فلان ففي الله كاف وكافل. قال:

وفي الرحمٰن للضعفاء كافي

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاماً. وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم. وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﷺ فضاع عنهم لأنّهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله، وشبه بحرث ﴿قوم ظلموا أنفسهم﴾ فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم لأنّ الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ.

فإنْ قلتَ[7]: الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه وضياعه بالحرث الذي ضربته الصر، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح! قلتُ: هو من

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 110.

(2) سورة آل عمران، الآية: 110.

(3) أخرجه أحمد في المسند 1/396، وابن حبان في كتاب الصلاة، باب: مواقيت الصلاة، الحديث رقم: (1530).

(4) سورة التغابن، الآية: 17.

(5) قال أحمد: كلها أوجه وجيهة، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها، لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية في الأمثلة المذكورة، ونحن نبينها، فنقول: إذا قلت مثلاً، إن ضيعني زيد، ففي عمر، وبعد الله كاف، فقولك: كاف، أثبت منكراً مجرداً من القيود المشخصة المخصصة، ثم جعلت المعين الذي هو عمرو محلاً له، فتشخصت = ذلك المطلق المجرّد بهذا المعين، فهي ظرفية صحيحة، إذ كل مقيد ظرف لمطلقه، إذ المطلق بعض المقيد، فتنبه لهذه النكتة، فإنها لطيفة، والله الموفق.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 21.

(7) قال أحمد: أما إيراد السؤال، فلا ترتضى صيغته، لما فيها من حيف بالأدب، إذ جزم السائل، المقدر بأنّ كلام الله تعالى غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى، أن ينكر بصيغته الاسترشاد الصريحة، لا بصيغة الاعتراض المحضة، والعبارة الصحيحة أن يقال: فما وجه مطابقة الكلام للغرض، ولا ينبغي التساهل في ذلك، فإنّ أحدنا لو أورد سؤالاً على كلام إمام معتبر، بمرأى منه ومسمع، تحيل في أنواع التلطف =

التشبيه المركب الذي مرّ في تفسير قوله: ﴿كمثل الذي استوقد ناراً﴾، ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك الريح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث. وقرىء: تنفقون بالتاء ﴿وما ظلمهم الله﴾ الضمير للمتّقين، على معنى: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقةً للقبول، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم. أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. وقرىء: ولكن بالتشديد، بمعنى: ولكن أنفسهم يظلمونها هم، ولا يجوز أن يراد ولكنه أنفسهم يظلمون على إسقاط ضمير الشأن، لأنّه إنما يجوز في الشعر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

بطانة الرجل ووليجته: خصيصه وصفيه الذي يفضي إليه بشقوره ثقةً به، شبه ببطانة الثوب كما يقال فلان شعاري، وعن النبي ﷺ: «الأنصار شعار، والناس دثار»[1]. ﴿من دونكم﴾ من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون، ويجوز تعلقه بلا تتخذوا وببطانة على الوصف، أي: بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم. ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ يقال: ألا في الأمر يألو، إذا قصر فيه، ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم: لا آلوك نصحاً ولا آلوك جهداً، على التضمين. والمعنى: لا أمنعك نصحاً ولا أنقصكه، والخبال الفساد. ﴿ودّوا ما عنتم﴾ ودّوا عنتكم، على أنّ ما مصدرية، والعنت شدّة الضرر والمشقة، وأصله انهياض العظم بعد جبره. أي: تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشدّ الضرر وأبلغه. ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ لأنّهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين. وعن قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضاً على ذلك. وفي قراءة عبد الله: قد بدأ البغضاء. ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه. ﴿إن كنتم تعقلون﴾ ما بين لكم فعملتم به.

فإنْ قلتَ: كيف موقع هذه الجمل؟ قلتُ: يجوز أن يكون لا يألونكم صفةً للبطانة، وكذلك قد بدت البغضاء، كأنّه قيل: بطانة غير آليكم خبالاً بادية بغضاؤهم، وأما قد بيّنا فكلام مبتدأ، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة.

﴿هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿ها﴾ للتنبيه، و ﴿أنتم﴾ مبتدأ، و ﴿أولاء﴾ خبره: أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب، وقوله: ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. وقيل: أولاء موصول تحبونهم صلته. والواو في ﴿وتؤمنون﴾ للحال، وانتصابها من لا يحبونكم. أي: لا يحبونكم، والحال أنّكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم! وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم، ونحوه فإنّهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون. ويوصف المغتاظ والنادم بِعَضِّ الأنامل والبنان والإبهام. قال الحرث بن ظالم المري:

فأقتل أقواماً لئاماً أذلةً ... يعضون من غيظ رؤوس الأباهم

﴿قل موتوا بغيظكم﴾ دعا عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به، والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوّة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي والتبار. ﴿إنّ الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحنق والبغضاء وما يكون منهم في حال خلو بعضهم ببعض، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج منها.

فإنْ قلتَ: فكيف معناه على الوجهين؟ قلتُ: إذا كان داخلاً في جملة المقول فمعناه أخبرهم بما يسرونه من

= في إيراده، وبعد عن أمثاله هذه العبارة، ولعل الاعتراض على ذلك الإمام يكون وارداً، لا يمكن عنه جواب، فكيف يليق التسامح في إيراد الأسئلة على كتاب الله تعالى بصيغ الاعتراضات، وإنما يسأل عن كتاب الله تعالى بمرأى منه ومسمع، على علم بأنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فما أجدره أن يتوفر في الاسترشاد، وأن يتأدّب في الإيراد، ثم نعود إلى جواب الزمخشري الثاني، وهو قوله: أن المراد: مثل إهلاك ما ينفقون، فنقول: لم يكشف الغطاء بهذا الجواب، عن المطابقة المسؤول عنها، والسؤال باقٍ، وذلك أنّ الريح المشبه بها، ليست: الإهلاك، وإنما هي: المهلكة، ولا مطابقة بين المصدر والاسم إلا بتأويل آخر، وحينئذٍ يبعد هذا الوجه، وأقرب منه أن يقول أصل الكلام، والله أعلم مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا، كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم، فأصابته ريح فيها صر، فأهلكته ولكن خولف= هذا النظم في المثل المذكور، لفائدة جليلة، وهو تقديم ماهو أهم؛ لأن الريح التي هي مثل العذاب، ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث، فقدّمت عناية بذكرها، واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة، بردّ الكلام إلى أصله على أيسر وجه، ومثل هذا في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة، قوله تعالى: ﴿فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما﴾ الآية ومثله أيضاً: أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه، والأصل أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وأن أدعم بها الحائط إذا مال، وأمثال ذلك كثيرة، والله الموفق.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف الحديث رقم: (4330)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم... الحديث رقم: (2443).

عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم: إنّ الله عليم مما هو أخفى مما تسرونه بينكم، وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أنّ شيئاً من أسراركم يخفى عليه. وإذا كان خارجاً فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعي إياك على ما يسرون، فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمروه في صدورهم ولم يظهروه بألسنتهم، ويجوز أن لا يكون ثَم قول وأن يكون قوله: **﴿قل موتوا بغيظكم﴾** أمراً لرسول الله ﷺ بطيب النفس. وقوّة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾.

الحسنة: الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع.

والسيئة: ما كان ضد ذلك، وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير، ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدّة.

فإنْ قلتَ[1]: كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟ **قلتُ**: المس مستعار لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحداً. ألا ترى إلى قوله: **﴿إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة﴾**[2] **﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾**[3] **﴿إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾**[4]. **﴿وإن تصبروا﴾** على عداوتهم، **﴿وتتقوا﴾** ما نهيتم عنه من موالاتهم، أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتّقوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم. وقرىء: لا يضركم، من ضاره يضيره ويضركم، على أنّ ضمة الراء لاتباع ضمة الضاد، كقولك: مد يا هذا. وروى المفضل عن عاصم: لا يضركم بفتح الراء، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقد قال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك. **﴿إن الله بما تعملون﴾** من الصبر والتقوى وغيرهما **﴿محيط﴾** ففاعل بكم ما أنتم أهله. وقرئ بالياء، بمعنى أنّه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾.

﴿و﴾ اذكر **﴿إذ غدوت من أهلك﴾** بالمدينة، وهو غدوه إلى أحد من حجرة عائشة رضي الله عنها. روي إنّ المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن أبيّ بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره، فقال عبد الله وأكثر الأنصار: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين، وقال بعضهم: يا رسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبنا عنهم. فقال ﷺ: «إني قد رأيت في منامي بقراً مذبحةً حولي فأوّلتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولته هزيمةً، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم». فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزالوا به حتى دخل، فلبس لأمته، فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا: بئسما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه. وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت. فقال: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل». فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال، فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوّم بها القدح، إن رأى صدراً خارجاً قال: تأخر، وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وأمّر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا». **﴿تبوّئ المؤمنين﴾** تنزلهم، وقرأ عبد الله للمؤمنين بمعنى تسوي لهم وتهيىء. **﴿مقاعد للقتال﴾** مواطن ومواقف، وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار، واستعمل المقعد والمقام في معنى المكان، ومنه قوله تعالى: **﴿في مقعد صدق﴾** **﴿قبل أن تقوم من مقامك﴾** من مجلسك وموضع حكمك. **﴿والله سميع﴾** لأقوالكم **﴿عليم﴾** بنياتكم وضمائركم.

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾.

﴿إذ همت﴾ بدل من إذ غدوت، أو عمل فيه معنى سميع عليم. والطائفتان: حيان من الأنصار بنو سلمة من

---

(1) قال أحمد: يمكن أن يقال المس أقل تمكناً من الإصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكأن الكلام، والله أعلم: إن تصبكم الحسنة أدنى تسؤهم، ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الإصابة منكم، وانتهى الأمر فيها، إلى الحدّ الذي يرثي الشامت عنده منها، فهم لا يرثون لكم، ولا ينفكون عن حسدهم، ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون، والله أعلم.

(2) سورة التوبة، الآية: 50.

(3) سورة النساء، الآية: 79.

(4) سورة المعارج، الآيتان: 20، 21.

الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان، خرج رسول الله ﷺ في ألف، وقيل: في تسعمائة وخمسين. والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخزل عبد الله ابن أبيّ بثلث الناس، وقال: يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا. فتبعهم عمرو بن حزم الأنصار فقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال عبد الله: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فهمّ الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله، فمضوا مع رسول الله ﷺ[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا، والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدّة من بعض الهلع ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطئها على احتمال المكروه. كما قال عمرو بن الأطنابة:

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

حتى قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر فقد كدت أضع رجلي في الركاب يوم صفين فما ثبت مني إلا قول عمرو بن الأطنابة: ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية. والله تعالى يقول: ﴿والله وليهما﴾ ويجوز أن يراد: والله ناصرهما ومتولي أمرهما فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله.

فإنْ قلتَ: فما معنى ما روي من قول بعضهم عند نزول الآية: والله ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله بأنّه ولينا؟ **قلتُ:** معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزاله فيهم آية ناطقة، بصحة الولاية، وأن تلك الهمة غير المأخوذ بها ـ لأنّها لم تكن عن عزيمة وتصميم ـ كانت سبباً لنزولهما. والفشل: الجبن والخور. وقرأ عبد الله: والله وليهم، كقوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾[2]. أمرهم بألا يتوكلوا إلا عليه ولا يفوّضوا أمورهم إلا إليه.

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾.

ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسّر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حال قلة وذلة.

والأذلة: جمع قلة والذلان جمع الكثرة، وجاء بجمع القلة ليدل على أنّهم على ذلّتهم كانوا قليلاً. وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد. وقلتهم أنهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وكان عدوّهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة.

وبدر: اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدراً فسمي به. ﴿فاتقوا الله﴾ في الثبات مع رسوله ﴿لعلكم تشكرون﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته، أو لعلكم ينعم الله عليكم نعمةً أخرى تشكرونها، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنّه سبب له.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾.

﴿إذ تقول﴾ ظرف لنصركم، على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أو بدل ثانٍ من إذ غدوت على أن يقوله لهم يوم أحد.

فإنْ قلتَ: كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد، ولم تنزل فيه الملائكة؟ **قلتُ:** قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم، فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فلذلك لم تنزل الملائكة، ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت، وإنّما قدّم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله. ومعنى ﴿ألن يكفيكم﴾ إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وإنّما جيء بـ «لن» الذي هو لتأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوّهم وشوكته كالآيسين من النصر.

بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾.

و ﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد لن، بمعنى: بلى يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية. ثم قال: ﴿إن تصبروا وتتقوا﴾ يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسوّمين للقتال، ﴿ويأتوكم﴾ يعني: المشركين، ﴿من فورهم هذا﴾ من قولك: قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره. ومنه قول أبي حنيفة رحمه الله: الأمر على الفور لا على التراخي، وهو مصدر من فارت القدر إذا غلت، فاستعير للسرعة. ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها ولا تعريج على شيء من صاحبها، فقيل: خرج من فوره، كما تقول من ساعته لم يلبث. والمعنى: أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يمددكم ربّكم﴾ بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يريد أنّ الله يعجل نصرتكم وييسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم. وقرئ منزلين بالتشديد، ومنزلين بكسر الزاي، بمعنى: منزلين النصر. ومسوِّمين بفتح الواو وكسرها، بمعنى معلَّمين ومعلِّمين أنفسهم أو خيلهم. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم، وعن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنابها، وعن مجاهد: مجزوزة أذناب خيلهم. وعن قتادة: كانوا على خيل بلق، وعن عروة بن الزبير: كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك. وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «تسوّموا فإنّ الملائكة قد تسوّمت»[3].

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا

(1) السير والمغازي لابن إسحاق ص 324.

(2) سورة الحجرات، الآية: 9.

(3) ابن أبي شيبة 14/358، كتاب: المغازي، باب: غزوة بدر الكبرى.

مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾.

﴿وما جعله الله﴾ الهاء لأن يمدّكم، أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارةً لكم بأنّكم تنصرون. ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارةً بالنصر وطمأنينةً لقلوبهم. ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا ولا من عند الملائكة والسكينة، ولكن ذلك مما يقوي به الله وجاء النصرة والطمع في الرحمة، ويربط به على قلوب المجاهدين. ﴿العزيز﴾ الذي لا يغالب في حكمه، ﴿الحكيم﴾ الذي يعطي النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾.

﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم. ﴿أو يكبتهم﴾ أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة، ﴿فينقلبوا خائبين﴾ غير ظافرين بمبتغاهم، ونحوه: ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾[1].

ويقال: كبته، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة. وقيل: في قول أبي الطيب:

لا كبت حاسداً وأرى عدواً

هو من الكبد والرئة واللام متعلقة بقوله: ولقد نصركم الله، أو بقوله: وما النصر إلا من عند الله.

لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾.

﴿أو يتوب﴾ عطف على ما قبله. ﴿وليس لك من الأمر شيء﴾ اعتراض. والمعنى: أنّ الله مالك أمرهم فإما يهلكهم أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء إنّما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم. وقيل: إن يتوب، منصوب بإضمار أن، وأن يتوب في حكم اسم معطوف بـ «أو» على الأمر أو على شيء، أي: ليس لك من أمرهم شيء، أو من التوبة عليهم، أو من تعذيبهم، أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم، وقيل: أو بمعنى إلا أنّ، كقولك: لألزمنك أو تعطيني حقي، على معنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم. وقيل: شجه عتبة بن أبي وقاص يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه، وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربّهم[2] فنزلت. وقيل: أراد أن يدعو عليهم، فنهاه الله تعالى لعلمه أنّ فيهم من يؤمن.

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾.

وعن الحسن[3]: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ بالتوبة، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين. ﴿ويعذب من يشاء﴾ ولا يشاء أن يعذب إلا المستوجبين للعذاب. وعن عطاء: يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالماً، وإتباعه قوله: ﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾[4] تفسير بيّن لمن يشاء وأنهم المتوب عليهم أو الظالمون، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون ويتعامون عن آيات الله فيخبطون خبط عشواء ويطيبون انفسهم بما يفترون على ابن عباس من قولهم: يهب الذنب الكبير لمن يشاء ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾.

﴿لا تاكلوا الربوا أضعافاً مضاعفةً﴾ نهى عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه، كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل، فاستغرق بالشيء الطفيف مال المديون.

وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾.

﴿ولتقّوا النار التي أعدّت للكافرين﴾ كان أبو حنيفة رحمه الله يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدّة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمدّ ذلك بما اتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله، ومن تأمّل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على الله تعالى. وفي ذكره تعالى لعلّ وعسى في نحو هذه المواضع، وإن قال الناس ما قالوا، ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى وصعوبة إصابة رضا الله وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 25.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 5/291 الحديث رقم: (9649)، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: المجن ومن يترس بترس صاحبه الحديث رقم: (2903)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد الحديث رقم: (4618).

(3) قال أحمد: هذه الآية واردة في الكفار، ومعتقد أهل السنة: أنّ المغفرة في حقهم مشروطة بالتوبة من الكفر، والرجوع إلى = الإيمان، وليسوا محل خلاف بين الطائفتين، وعندهم: أنّ المؤمن التائب من كفره، هو: المعني في قولهم: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ كما قاله الزمخشري، وأما تسلقه من ذلك على تعميم هذا الحكم، وتعديته إلى الموحدين، فمن التعامي والتصامّ حقيقة، وإلا فهو أحذق من ذلك، وأما نسبته إلى أهل السنة: التعامي، والتصام، والهوى، والبدعة، والافتراء، فالله حسيبه في ذلك والسلام.

(4) سورة آل عمران، الآية: 128.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾.

في مصاحف أهل المدينة والشام سارعوا بغير واو، وقرأ الباقون بالواو، وتنصره قراءة أبيّ وعبد الله: وسابقوا. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة الإقبال على ما يستحقان به. ﴿عرضها السمٰوات والأرض﴾ أي: عرضها عرض السمٰوات والأرض، كقوله: ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾ والمراد وصفها بالسعة والبسطة فشبّهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه، وخصّ العرض لأنّه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، كقوله: بطائنها من إستبرق. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كسبع سمٰوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾.

﴿في السراء والضراء﴾ في حال الرخاء واليسر، وحال الضيقة والعسر، لا يخلون بأن ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل، كما حكي عن بعض السلف أنّه ربّما تصدّق ببصلة. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّها تصدّقت بحبة عنب[1]، أو في جميع الأحوال لأنّها لا تخلو من حال مسرّة ومضرّة لا تمنعهم حال فرح وسرور ولا حال محنة وبلاء من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس أو في حبس، فإنّه لا يدع الإحسان. وافتتح بذكر الإنفاق لأنّه أشق شيء على النفس وأدله على الإخلاص، ولأنّه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

كظم القربة: إذا ملأها وشدّ فاها، وكظم البعير إذا لم يجتر، ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً. وعن النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»[2]. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّ خادماً لها غاظها فقالت: لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء[3]. ﴿والعافين عن الناس﴾ إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه. وروي: ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا[4]. وعن ابن عيينة: أنّه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه. وعن النبي ﷺ: «إنّ هؤلاء في أمّتي قليل إلا من عصم الله، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت»[5]. ﴿والله يحب المحسنين﴾ يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، وأن تكون للعهد فتكون إشارةً إلى هؤلاء.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾.

﴿والذين﴾ عطف على المتّقين أي: أعدّت للمتقين وللتائبين. وقوله: أولئك، إشارة إلى الفريقين. ويجوز أن يكون والذين مبتدأ خبره أولئك. ﴿فاحشة﴾ فعلة متزايدة القبح، ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ أو أذنبوا أي ذنب كان مما يؤاخذون به. وقيل: الفاحشة الزنا، وظلم النفس ما دونه من القبلة واللمسة ونحوهما. وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة. ﴿ذكروا الله﴾ تذكروا عقابه أو وعيده أو نهيه أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه، ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين عازمين[6]. ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإنّ التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وإنّه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه، وإنّ عدله يوجب المغفرة للتائب؛ لأنّ العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو[7] والتجاوز، وفيه تطييب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط، وأنّ الذنوب وإن جلت فإنّ عفوه أجل وكرمه أعظم. والمعنى: أنّه وحده معه مصححات المغفرة، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿ولم يصرّوا﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين. وعن النبي ﷺ: «ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»[8]. وروي: «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار»[9]. ﴿وهم يعلمون﴾ حال من فعل الإصرار، وحرف النفي منصب عليهما معاً، والمعنى: وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهي عنها وبالوعيد عليها؛ لأنّه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح. وفي هذه الآيات بيان قاطع أنّ الذين آمنوا على ثلاث طبقات: متقون وتائبون ومصرّون، وأنّ الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرّين[10]، ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربّه.

---

(1) قال الزيلعي أخرجه ابن سعد في الطبقات، وابن رنجويه في كتابه: الأموال، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب: الآنية.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: من كظم غيظاً الحديث رقم: (4777)، وأحمد في المسند 3/438.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل في ترك الغضب الحديث رقم: (8313).

(4) الديلمي في مسند الفردوس. والثعالبي في تفسيره.

(5) لم يخرجه الزيلعي.

(6) لعله: عازمين على عدم العود.

(7) أما سمعاً، فباتفاق، وأمّا عقلاً، فعند المعتزلة فقط.

(8) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار الحديث رقم: (1514)، والترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (107) الحديث رقم: (3559).

(9) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 10238).

(10) يعني: أنّ الإصرار كبيرة، وفاعل الكبيرة يخلد في النار، لكن هذا عند المعتزلة، وخالف أهل السنة؛ لأنه مؤمن عندهم، والمؤمن لا يخلد فيها، وتحقيقه في علم التوحيد.

أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾.

قال: ﴿أجر العاملين﴾ بعد قوله: جزاؤهم، لأنهما في معنى واحد، وإنّما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أنّ ذلك جزاء واجب على عمل وأجر مستحق عليه لا كما يقول المبطلون[1]. وروي: أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى: ما أقلّ حياء من يطمع في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي. وعن شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة. وعن الحسن رضي الله عنه: يقول الله تعالى يوم القيامة: «جوزوا الصراط بعفوي وادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم». وعن رابعة البصرية رضي الله عنها أنها كانت تنشد:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم أجر العاملين ذلك، يعني: المغفرة والجنات.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾.

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ يريد ما سنّه الله في الأمم المكذبين من وقائعه كقوله: ﴿وقتلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾[2] ﴿ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً * سنة الله التي قد خلت من قبل﴾[3].

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾.

﴿هذا بيان للناس﴾ إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني: حثّهم على النظر في سوء عواقب المكذّبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ يعني: أنّه مع كونه بياناً وتنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتّقوا من المؤمنين، ويجوز أن يكون قوله: ﴿قد خلت﴾، جملة معترضة للبعث على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر العاملين. ويكون قوله: ﴿هذا بيان﴾، إشارة إلى ما لخّص وبين من أمر المتّقين والتائبين والمصرّين.

وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾.

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ للمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم، يعني: ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، أي: لا يورثنكم ذلك وهناً وجبناً، ولا تبالوا به، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح. ﴿وأنتم الأعلون﴾ وحالكم أنّكم أعلى منهم وأغلب لأنّكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، أو وأنتم الأعلون شأناً لأنّ قتالكم لله ولإعلاء كلمته وقتالهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، ولأنّ قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار. أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة، أي: وأنتم الأعلون في العاقبة ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾[4] ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالنهي، بمعنى: ولا تهنوا إن صح إيمانكم، على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه أو بالأعلون، أي: إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.

إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾.

وقرىء: قرح بفتح القاف وضمها، وهما لغتان كالضعف والضعف وقيل: هو بالفتح الجراح وبالضم المها. وقرأ أبو السمال: قرح بفتحتين، وقيل: القرح والقرح كالطرد والطرد، والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا، ونحوه: ﴿فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾[5] وقيل: كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ.

فإنْ قلتَ: كيف قيل: ﴿قرح مثله﴾ وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلتُ: بلى كان مثله، ولقد قتل يومئذٍ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾[6]. ﴿وتلك الأيام﴾ تلك مبتدأ، والأيام صفته، و﴿نداولها﴾ خبره. ويجوز أن يكون تلك الأيام مبتدأ وخبراً، كما تقول: هي الأيام تبلي كل جديد، والمراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة، نداولها نصرفها بين الناس. نديل تارةً لهؤلاء وتارةً لهؤلاء، كقوله: وهو من أبيات الكتاب:

فيوماً علينا ويوماً لنا ... ويوماً نساء ويوماً نسر

ومن أمثال العرب: الحرب سجال. وعن أبي سفيان أنّه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة، ثم قال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا عمر. فقال أبو سفيان: يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال. فقال عمر

---

(1) يريد بهم: أهل السنة حيث قالوا: لا يجب على الله شيء.

(2) سورة الأحزاب، الآيتان: 61 ـ 62.

(3) سورة الفتح، الآيتان: 22 ـ 23.

(4) سورة الصافات، الآية: 173.

(5) سورة النساء، الآية: 104.

(6) سورة آل عمران، الآية: 152.

رضي الله عنه: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فقال: إنّكم تزعمون ذلك فقد خبنا إذن وخسرنا والمداولة مثل المعاورة[1]. وقال:

يرد المياه فلا يزال مداولاً ... في الناس بين تمثل وسماع

يقال: داولت بينهم الشيء فتداولوه. ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المعلل محذوفاً، معناه: وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حرف فعلنا ذلك وهو من باب التمثيل، بمعنى: فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، وإلا فالله عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها. وقيل: معناه ليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمهم موجوداً منهم الثبات.

والثاني: أن تكون العلة محذوفة وهذا عطف عليه، معناه: وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم الله؛ وإنّما حذف للإيذان بأنّ المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ليسليهم عما جرى عليهم وليبصرهم أنّ العبد يسوءه ما يجري عليه من المصائب ولا يشعر أنّ لله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه. ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ وليكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد، أو ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة بما يبتلي به صبركم من الشدائد، من قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾[2] ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ اعتراض بين بعض التعليل وبعض، ومعناه: والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيل الله الممحصين، من الذنوب.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾.

والتمحيص: التطهير والتصفية. ﴿ويمحق الكافرين﴾ ويهلكهم، يعني: إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز، والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك مما هو أصلح لهم، وإن كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾.

﴿أم﴾ منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار. ﴿ولما يعلم الله﴾ بمعنى[3]: ولما تجاهدوا لأنّ العلم متعلق بالمعلوم، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه، لأنه منتف بانتفائه. يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً، يريد ما فيه خير حتى يعلمه، ولما بمعنى لم، إلا أن فيها ضرباً من التوقع، فدلّ على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل. وتقول: وعدني أن يفعل كذا، ولما تريد ولم يفعل وأنا أتوقع فعله. وقرىء: ولما يعلم الله بفتح الميم، وقيل: أراد النون الخفيفة ولما يعلمن فحذفها. ﴿ويعلم الصابرين﴾ نصب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقرأ الحسن بالجزم على العطف. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو: ويعلم بالرفع، على أنّ الواو للحال، كأنّه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾.

﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ خوطب به الذين لم يشهدوا بدراً، وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين وكان رأيه في الإقامة بالمدينة. يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدّته وصعوبة مقاساته، ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي: رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم، وشارفتم أن تقتلوا. وهذا توبيخ لهم على تمنيهم الموت وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه ثم انهزامهم عنه وقلة ثباتهم عنده.

فإنْ قلتَ: كيف يجوز تمني الشهادة وفي تمنيها تمني غلبة الكافر المسلم؟ **قلتُ:** قصد متمني الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن، كما أنّ من يشرب دواء الطبيب النصراني قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء ولا يخطر بباله أنّ فيه جرّ منفعة وإحسان إلى عدوّ الله وتنفيقاً لصناعته، ولقد قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حين نهض إلى مؤتة وقيل له: ردّكم الله:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مرّوا على جدثي ... أرشدك الله من غاز وقد رشدا

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/297.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) قال أحمد: التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم، خاص بعلم الله تعالى؛ لأنه يلزم من عدم تعلق علمه بوجود شيء، ما عدم ذلك الشيء ضرورة، أنه لا يعزب عن علمه شيء لعموم تعلقه، فاستقام التعبير عن نفي الشيء، بنفي تعلق العلم القديم، بوجوده المصحح للملازمة، ولا كذلك علم المخلوقين، فإنه لا يعبر عن نفي شيء تعلق علم الخلق به، لجواز وجود ذلك الشيء غير معلوم للخلق، والزمخشري يظهر من كلامه صحة هذا التعبير = مطلقاً، ويعتقد الملازمة المذكورة عامة، فلذلك قال في قول فرعون: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ أنه عبر عن نفي المعلوم، بنفي العلم؛ لأنه من لوازمه، وسيأتي بيان أن الزمخشري وهم في هذا الموضع، وإلا فهو يحاشي عن الوقوع في مثله اعتقاداً، والله أعلم، وإنما عبر فرعون بذلك تلبيساً على ملئه، وتتميماً لدعوى الوهيته الكاذبة، بأنه لا يعزب عن علمه شيء، فلو كان إله سواه على دعواه، لتعلق علمه به، وهذا يعد من حماقات فرعون، ودعاويه الفارغة، والله الموفق.

لما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، أقبل يريد قتله، فذب عنه ﷺ مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أنّه رسول الله ﷺ، فقال: قد قتلت محمداً. وصرخ صارخ: الا أنّ محمداً قد قتل. وقيل: كان الصارخ الشيطان. ففشا في الناس خبر قتله فانكفؤا، فجعل رسول الله ﷺ يدعو: إليّ عباد الله، حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين، فنزلت. وروي أنّه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان قتل محمد فإنّ رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إنّي أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين أنّه مرّ بأنصاري يتشحط في دمه فقال: يا فلان أشعرت أنّ محمداً قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾.

والمعنى: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه[1]؛ لأنّ الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه، **﴿أفإن مات﴾** الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أنّ خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه.

فإنْ قلتَ: لم ذكر القتل وقد علم أنّه لا يقتل؟ **قلتُ**: لكونه مجوزاً عند المخاطبين.

فإنْ قلتَ: أما علموه من ناحية قوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[2]. **قلتُ**: هذا مما يختص بالعلماء منهم ذوي البصيرة، ألا ترى أنّهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنّه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم.

والانقلاب على الأعقاب: الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره. وقيل: الارتداد وما ارتد أحد من المعلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين، يجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله ﷺ وإسلامه. **﴿فلن يضر الله شيئاً﴾** فما ضرّ إلا نفسه، لأنّ الله تعالى لا يجوز عليه المضارّ والمنافع. **﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾** الذين لم ينقلبوا، كأنس بن النضر وأضرابه، وسماهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

المعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه تمثيلاً، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله، وهو على معنيين: أحدهما تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدوّ بإعلامهم أن الحذر لا ينفع وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خوّض المهالك واقتحم المعارك، والثاني ذكر ما صنع الله برسوله عند غلبة العدوّ والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهزةً للمختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل، ﴿كتاباً﴾ مصدر مؤكد، لأنّ المعنى: كتب الموت كتاباً ﴿مؤجلاً﴾ موقتاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿ومن يرد ثواب الدنيا﴾ تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد ﴿نؤته منها﴾ أي من ثوابها، ﴿وسنجزي﴾ الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد. وقرىء: يؤته وسيجزي بالياء فيهما.

قرىء: قاتل وقتل بالتشديد، والفاعل ربيون أو ضمير النبي، و ﴿معه ربيون﴾ حال عنه بمعنى: كائناً معه ربيون، والقراءة بالتشديد تنصر الوجه الأوّل. وعن سعيد بن جبير رحمه الله: ما سمعنا بنبي قتل في القتال. والربيون الربانيون. وقرئ بالحركات الثلاث: فالفتح على القياس، والضم والكسر من تغييرات النسب. وقرىء: فما وهِنوا بكسر الهاء، والمعنى: ﴿فما وهنوا﴾ غند قتل النبي، ﴿وما ضعفوا﴾ عن الجهاد بعده، ﴿وما استكانوا﴾ للعدوّ وهذا تعريض مما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ويضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين، واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبيّ في طلب الأمان من أبي سفيان.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾.

﴿وما كان قولهم إلا﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضماً لها واستقصاراً، والدعاء بالاستغفار منها مقدّماً على طلب

(1) لعله: الرسول ﷺ.

(2) سورة المائدة، الآية: 67.

تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدوّ ليكون تقلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع وأقرب إلى الاستجابة.

فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾.

﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ من النصرة والغنيمة والعز وطيب الذكر. وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدّمه وأنّه هو المعتدّ به عنده، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾.

﴿إن تطيعوا الذين كفروا﴾ قال عليّ رضي الله عنه: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم. وعن الحسن رضي الله عنه: إن تستنصحوا اليهود والنصارى وتقبلوا منهم؛ لأنّهم كانوا يستغوونهم ويوقعون لهم الشبه في الدين، ويقولون: لو كان نبياً حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، إنّما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوماً له ويوماً عليه. وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتستأمنوهم **﴿يردّوكم﴾** إلى دينهم، وقيل: هو عام في جميع الكفار وإنّ على المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم في شيء، ولا ينزلوا على حكمهم ولا على مشورتهم حتى لا يستجرّوهم إلى موافقتهم.

بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾.

﴿بل الله مولاكم﴾ أي: ناصركم لا تحتاجون معه إلى نصرة أحد وولايته. وقرئ بالنصب على بل أطيعوا الله مولاكم.

سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾.

﴿سنلقي﴾ قرئ بالنون والياء. **﴿والرعب﴾** بسكون العين وضمها، قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة. وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فأمسكوا. **﴿بما أشركوا﴾** بسبب إشراكهم أي: كان السبب في إلقاء الله الرّعب في قلوبهم إشراكهم به. **﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾** آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة.

فإنْ قلتَ[1]: كان هناك حجة حتى ينزلها الله فيصح لهم الإشراك! **قلتُ**: لم يعن أن هناك حجة إلا أنّها لم تنزل عليهم لأنّ الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة، وإنّما المراد نفي الحجة ونزولها جميعاً، كقوله: ولا ترى الضب بها ينحجر.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾.

﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ وعدهم الله النصر بشرط الصبر والتقوى في قوله تعالى: **﴿إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم﴾**[2] ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى: **﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾**[3] فلما فشلوا وتنازعوا لم يرعبهم، وقيل: لما رجعوا إلى المدينة، قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزلت. وذلك أنّ رسول الله ﷺ جعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة، وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم ولا يبرحوا كانت الدولة للمسلمين أو عليهم. فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم.

يحسونهم أي: يقتلونهم قتلاً ذريعاً. حتى إذا فشلوا، والفشل: الجبن وضعف الرأي، وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا ههنا. وقال بعضهم: لا نخالف أمر رسول الله ﷺ، فمن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر دون العشرة، وهم المعنيون بقوله: **﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾** ونفر أعقابهم ينهبون وهم الذين أرادوا الدنيا. فكر المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وأقبلوا على المسلمين، وحالت الريح دبوراً وكانت صبا حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: **﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾** ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها. **﴿ولقد عفا عنكم﴾** لما علم من ندمكم على ما فرط منكم من عصيان أمر

---

(1) قال أحمد: إنما يرد هذا السؤال، لو افهم ظاهر اللفظ أن ثَم حجة، وليس في ظاهره ما يفهم ذلك، ولو كانت الآية كقول القائل: بما أشركوا بالله، ما لم ينزل سلطانه، بإضافة السلطان إلى ما أشركوا به، لكان للسائل مقال، ولكان كقول القائل:

على لاحب لا يهتدي بمناره

فإنه بإضافة المنار إليه، يوهم أنّ فيه مناراً، فيحتاج الناظر إلى = حمله على معنى لا منار فيه، فيهتدي به، ولو أطلق الشاعر فقال: على لاحب لا يهتدي فيه بمنار مثلاً، لاستغنى عن تأويل الكلام، وكذلك الآية غنية عن التأويل، والله أعلم.

(2) سورة آل عمران، الآية: 125.

(3) سورة آل عمران، الآية: 151.

رسول الله ﷺ. ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ يتفضل عليهم بالعفو، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم؛ لأنّ الابتلاء رحمة كما أنّ النصرة رحمة.

فإنْ قلتَ: أين متعلق حتى إذا! قلتُ: محذوف تقديره حتى إذا فشلتم منعكم نصره، ويجوز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿إذ تصعدون﴾ نصب بصرفكم، أو بقوله: ﴿ليبتليكم﴾[1] أو بإضمار اذكر.

والإصعاد: الذهاب في الأرض والإبعاد فيه، يقال: صعد في الجبل، وأصعد في الأرض. يقال: أصعدنا من مكة إلى المدينة. وقرأ الحسن رضي الله عنه: تصعدون، يعني: في الجبل. وتعضد الأولى قراءة أبيّ: إذ تصعدون في الوادي. وقرأ أبو حيوة: تصعدون بفتح التاء وتشديد العين من تصعد في السلم. وقرأ الحسن رضي الله عنه: تلون بواو واحدة، وقد ذكرنا وجهها. وقرىء: يصعدون ويلوون بالياء. ﴿والرسول يدعوكم﴾ كان يقول: إليّ عباد الله إليّ عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة. ﴿في أخراكم﴾ في ساقتكم وجماعتكم الأخرى، وهي المتأخرة. يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول في أوّلهم وأولاهم، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى. ﴿فأثابكم﴾ عطف على صرفكم، أي: فجازاكم الله ﴿غماً﴾ حين صرفكم عنهم وابتلاكم ﴿بـ﴾سبب ﴿غم﴾ أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له، أو غماً مضاعفاً غماً بعد غم وغماً متصلاً بغم، من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله ﷺ والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر، ﴿لكيلا تحزنوا﴾، لتتمرنوا على تجرع الغموم وتضروا باحتمال الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار، ويجوز أن يكون الضمير في فأثابكم من رسول أي: فآساكم في الاغتمام، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما، غمه ما نزل بكم فأثابكم غماً اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتممتموه لأجله. ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنّما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

وأنزل الله الأمن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نعسوا وغلبهم النوم. وعن أبي طلحة رضي الله عنه: غشينا النعاس ونحن في مصافنا فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه، وما أحد إلا ويميل تحت جحفته[2] وعن ابن الزبير رضي الله عنه: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتدّ علينا الخوف فأرسل الله علينا النوم، والله إنّي لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا[3].

والأمنة: الأمن، وقرىء: أمنة بسكون الميم، كأنّها المرة من الأمن. ﴿نعاساً﴾ بدل من أمنةً، ويجوز أن يكون هو المفعول، وأمنة حالاً منه مقدمة عليه، كقولك: رأيت راكباً رجلاً، أو مفعولاً له بمعنى: نعستم أمنة، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة، أو على أنّه جمع آمن كبار وبررة. ﴿يغشى﴾ قرىء: بالياء والتاء، رداً على النعاس أو على الأمنة. ﴿طائفة منكم﴾ هم أهل الصدق واليقين، ﴿وطائفة﴾ هم المنافقون ﴿قد أهمتهم أنفسهم﴾ ما بهم إلا همّ أنفسهم لا همّ الدين ولا همّ الرسول ﷺ والمسلمين، أو قد أوقعتهم أنفسهم وما حلّ بهم من الهموم والأشجان فهم في التشاكي والتباث. ﴿غير الحق﴾ في حكم المصدر، ومعناه: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به، و﴿ظنّ الجاهلية﴾ بدل منه. ويجوز أن يكون المعنى: يظنون بالله ظنّ الجاهلية وغير الحق تأكيد ليظنون، كقولك: هذا القول غير ما تقول، وهذا القول لا قولك، وظنّ الجاهلية كقولك: حاتم الجود ورجل صدق يريد الظن المختص بالملة الجاهلية. ويجوز أن يراد ظن أهل الجاهلية، أي: لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله. ﴿يقولون﴾ لرسول الله ﷺ يسألونه ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾ معناه: هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط، يعنون النصر والإظهار على العدو. ﴿قل إنّ الأمر كله لله﴾ ولأوليائه المؤمنين، وهو النصر والغلبة ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾[4] ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾[5]. ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ معناه: يقولون لك فيما يظهرون: هل لنا من الأمر من

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 152.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿أمنة نعاساً﴾ الحديث رقم: (4562).

(3) أخرجه البيهقي وأبو نعيم في دلائل النبوة، وإسحاق بن راهويه =

= والبزار في مسنديهما، والزيلعي 1/233.

(4) سورة المجادلة، الآية: 21.

(5) سورة الصافات، الآية: 173.

شيء؟ سؤال المؤمنين المسترشدين، وهم فيما يبطنون على النفاق، يقولون في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكرين لقولك لهم: أنّ الأمر كله لله. ﴿لو كان لنا من الأمر شيء﴾ أي: لو كان الأمر كما قال محمد أنّ الأمر كله لله ولأوليائه وأنّهم الغالبون لما غلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة. ﴿قل لو كنتم في بيوتكم﴾ يعني: من علم الله منه أنّه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعدتم في بيوتكم ﴿لبرز﴾ من بينكم ﴿الذين﴾ علم الله أنّهم يقتلون ﴿إلى مضاجعهم﴾ وهي مصارعهم، ليكون ما علم الله أنّه يكون. والمعنى: أنّ الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين وكتب مع ذلك أنّهم الغالبون لعلمه أنّ العاقبة في الغلبة لهم، وأنّ دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأن ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة وحرصهم على الشهادة مما يحرضهم على الجهاد فتحصل الغلبة. وقيل: معناه: هل لنا من التدبير من شيء، يعنون: لم نملك شيئاً من التدبير حيث خرجنا من المدينة إلى أحد، وكان علينا أن نقيم ولا نبرح كما كان رأي عبد الله بن أبيّ وغيره، ولو ملكنا من التدبير شيئاً لما قتلنا في هذه المعركة. قل: إنّ التدبير كله لله، يريد أنّ الله عزّ وجلّ قد دبر الأمر كما جرى ولو أقمتم بالمدينة ولم تخرجوا من بيوتكم لما نجا من القتل من قتل منكم وقرىء: كتب عليهم القتال وكتب عليهم القتل على البناء للفاعل، ولبرز بالتشديد وضم الباء، ﴿وليبتلي الله﴾ وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان، فعل ذلك أو فعل ذلك لمصالح جمة للابتلاء والتمحيص.

فإنْ قلتَ: كيف مواقع الجمل التي بعد قوله: ﴿وطائفة﴾؟ قلتُ: قد أهمتهم صفة لطائفة، ويظنون صفة أخرى أو حال بمعنى قد أهمتهم أنفسهم ظانين، أو استئناف على وجه البيان للجملة قبلها، ويقولون بدل من يظنون.

فإنْ قلتَ[1]: كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر بدلاً من الإخبار بالظن؟ قلتُ: كانت مسألتهم صادرة عن الظنّ فلذلك جاز إبداله منه، ويخفون حال من يقولون، وقل إنّ الأمر كله لله اعتراض بين الحال وذوي الحال، ويقولون بدل من يخفون، والأجود أن يكون استئنافاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾.

﴿استزلهم﴾ طلب منهم الزلل ودعاهم إليه. ﴿ببعض ما كسبوا﴾ من ذنوبهم، ومعناه: إنّ الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنّهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوباً، فلذلك منعتهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا. وقيل: استزلال الشيطان إياهم هو التولي، وإنّما دعاهم إليه بذنوب قد تقدّمت لهم لأنّ الذنب يجر إلى الذنب كما أنّ الطاعة تجر إلى الطاعة وتكون لطفاً فيها. وقال الحسن رضي الله عنه: استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة، وقيل: بعض ما كسبوا هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه، فجرهم ذلك إلى الهزيمة. وقيل: ذكرهم تلك الخطايا فكرهوا لقاء الله معها، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية.

فإنْ قلتَ: لم قيل ﴿ببعض ما كسبوا﴾؟ قلتُ: هو كقوله تعالى: ﴿ويعفوا عن كثير﴾[2] ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ لتوبتهم واعتذارهم. ﴿إنّ الله غفور﴾ للذنوب ﴿حليم﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾.

﴿وقالوا لإخوانهم﴾ أي: لأجل إخوانهم، كقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾[3] ومعنى الأخوّة، اتفاق الجنس أو النسب. ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها، ﴿لو كانوا غزى﴾ جمع غازٍ كعافٍ وعفى، كقوله: عفى الحياض أجون. وقرئ بتخفيف الزاي على حذف التاء من غزاة.

فإنْ قلتَ: كيف قيل: إذا ﴿ضربوا﴾ مع ﴿قالوا﴾؟ قلتُ: هو على حكاية الحال الماضية، كقولك: حين يضربون في الأرض.

فإنْ قلتَ: ما متعلق ﴿ليجعل﴾؟ قلتُ: قالوا، أي قالوا ذلك واعتقدوه، ليكون ﴿حسرة في قلوبهم﴾ على أنّ اللام مثلها في ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ أو لا تكونوا، بمعنى: لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله حسرةً في قلوبهم خاصةً ويصون منها قلوبكم.

فإنْ قلتَ: ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟ قلتُ: معناه أنّ الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغمّ والحسرة في قلوبهم ويضيق صدورهم عقوبةً، فاعتقاده فعلهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق

---

(1) قال أحمد: ويلاحظ هذا النظر في قوله تعالى عن الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ الآية، فإن هذا السؤال استفهام والاستفهام لا يتصف بما يتصف به الخبر من الصدق، ونقيضه ومع ذلك ورد قوله تعالى في خطابهم أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، يعني في قولكم أتجعل فيها من= يفسد فيها، فأجرى استفهامهم مجرى الخبر لاستلزامه الإخبار، بأن هذا النوع الإنساني ليس بمعصوم عن الفساد، وسفك الدماء، إلا من عصمه الله تعالى منهم، والله أعلم.

(2) سورة المائدة، الآية: 15.

(3) سورة الأحقاف، الآية: 11.

الصدور فعل الله عز وجل، كقوله: ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء﴾[1] ويجوز أن يكون ذلك إشارةً إلى ما دلّ عليه النهي، أي: لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرةً في قلوبهم، لأنّ مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادّتهم مما يغمهم ويغيظهم. ﴿والله يحيي ويميت﴾ رد لقولهم، أي: الأمر بيده قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد كما يشاء. وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنّه قال عند موته: ما فيّ موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وها أنا ذا أموت كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء[2]. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلا تكونوا مثلهم، وقرئ بالياء، يعني: الذين كفروا.

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾.

﴿المغفرة﴾ جواب القسم وهو سادّ مسدّ جواب الشرط، وكذلك ﴿لإلى الله تحشرون﴾[3]، كذب الكافرين أوّلاً في زعمهم أنّ من سافر من إخوانهم أو غزا لو كان بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنّه سبب التقاعد عن الجهاد، ثم قال لهم: لئن تمّ عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت والقتل في سبيل الله فإنّ ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت ﴿في سبيل الله خير مما تجمعون﴾ من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خير من طلاع الأرض ذهبة حمراء، وقرئ بالياء، أي: يجمع الكفار.

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾.

﴿لإلى الله تحشرون﴾ لإلى الرحيم الواسع الرحمة المثيب العظيم الثواب تحشرون، ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه. وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن ليس بالخفي. وقرئ: متم بضم الميم وكسرها، من مات يموت، ومات يمات.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾.

ما مزيدة للتوكيد والدلالة على أنّ لينه لهم ما كان إلا برحمة منّ الله، ونحوه: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم﴾[4].

ومعنى الرحمة: ربطه على جاشه وتوفيقه المرفق والتلطف بهم، حتى أثابهم غماً بغم، وآساهم بالمباثة بعد ما خالفوه وعصوا أمره وانهزموا وتركوه. ﴿ولو كنت فظاً﴾ جافياً ﴿غليظ القلب﴾ قاسيه، ﴿لانفضوا من حولك﴾ لتفرّقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم. ﴿فاعف عنهم﴾ فيما يختص بك، ﴿واستغفر لهم﴾ فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم، ﴿وشاورهم في الأمر﴾ يعني: في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي لتستظهر برأيهم، ولما فيه من تطييب نفوسهم والرفع من أقدارهم. وعن الحسن رضي الله تعالى عنه: قد علم الله أنّ ما به إليهم حاجة ولكنه أراد أن يستنّ به من بعده. وعن النبيّ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم: «ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم»[5]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أكثر مشاورةً من أصحاب الرسول ﷺ[6]. وقيل: كان سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم. وقرىء: وشاورهم في بعض الأمر، ﴿فإذا عزمت﴾ فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى، ﴿فتوكل على الله﴾ في إمضاء أمرك على الأرشد الأصلح؛ فإنّ ما هو أصلح لك لا يعلمه إلا الله، لا أنت ولا من تشاور. وقرىء: فإذا عزمت بضم التاء، بمعنى: فإذا عزمت لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل عليّ ولا تشاور بعد ذلك أحداً.

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾.

﴿إن ينصركم الله﴾ كما نصركم يوم بدر، فلا أحد يغلبكم. ﴿وإن يخذلكم﴾ كما خذلكم يوم أحد، ﴿فمن ذا الذي ينصركم﴾. فهذا تنبيه على أنّ الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه، ونحوه: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾[7] ﴿من بعده﴾ من بعد خذلانه، أو هو من قولك: ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان، تريد إذا جاوزته. وقرأ عبيد بن عمير: وإن يخذلكم، من أخذله إذا جعله مخذولاً. وفيه ترغيب في الطاعة وفيما يستحقون به النصر منّ الله تعالى والتأييد، وتحذير من المعصية ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان. ﴿وعلى الله﴾ وليخص المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنّه لا ناصر سواه، ولأنّ إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه.

وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 125.

(2) [راجع البداية والنهاية لابن كثير 7/126].

(3) سورة آل عمران، الآية: 158.

(4) سورة المائدة، الآية: 13.

(5) [قال الزيلعي غريب، لم أجده إلا من قول الحسن 1/234].

= (6) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 5/331 الحديث رقم: (9720)، والترمذي تعليقاً، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في المشورة، وابن حبان في كتاب: السير، باب: الموادعة والمهادنة الحديث رقم: (4872).

= (7) سورة فاطر، الآية: 2.

كَمَنْ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾.

يقال: غلّ شيئاً من المغنم غلولاً وأغلّ إغلالاً إذا أخذه في خفية، يقال: أغلّ الجازر إذا سرق من اللحم شيئاً مع الجلد، والغل الحقد الكامن في الصدر. ومنه قوله ﷺ: «من بعثناه على عمل فغلّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»[1]. وقوله ﷺ: «هدايا الولاة غلول»[2]، وعنه: «ليس على المستعير غير المغل ضمان»[3]، وعنه: «لا إغلال ولا إسلال»[4]. ويقال: أغله إذا وجده غالاً، كقولك: أبخلته وأفحمته، ومعنى: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ وما صحّ له ذلك، يعني: أنّ النبوة تنافي الغلول. وكذلك من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى معنى الأوّل، لأنّ معناه: وما صحّ له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا كان غالاً، وفيه وجهان[5]:

أحدهما: أن يبرأ رسول الله ﷺ من ذلك وينزه وينبه على عصمته بأنّ النبوّة والغلول متنافيان لئلا يظن به ظان شيئاً منه وان لا يستريب به أحد، كما روي: أنّ قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلّ رسول الله ﷺ أخذها[6]. وروي: أنّها نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له، وأنّ لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر. فقال لهم النبي ﷺ: «ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري» فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال ﷺ: «بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم».

والثاني: أن يكون مبالغةً في النهي لرسول الله ﷺ على ما روي: أنّه بعث طلائع فغنمت غنائم، فقسمها ولم يقسم للطلائع[7]. فنزلت: يعني: وما كان لنبي أن يعطي قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية. وسمى حرمان بعض الغزاة غلولاً تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر. ولو قرىء: أن يغل من أغلّ، بمعنى: غلّ، لجاز: ﴿يأت بما غلّ يوم القيامة﴾ يأت بالشيء الذي غله بعينه يحمله، كما جاء في الحديث: جاء يوم القيامة يحمله على عنقه[8]. وروي: «ألا لا أعرفن أحدكم يأتي ببعير له رغاء وببقرة لها خوار وبشاة لها ثغاء، فينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغتك»[9]. وعن بعض جفاة الأعراب: أنّه سرق نافجة مسك فتليت عليه الآية، فقال: إذاً أحملها طيبة الريح خفيفة المحمل. ويجوز أن يراد: يأت بما احتمل من وباله وتبعته وإثمه.

فإنْ قلتَ: هلا قيل ثم يوفى ما كسب ليتصل به! **قلتُ:** جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره، فاتصل به من حيث المعنى، وهو أبلغ وأثبت لأنّه إذا علم الغال أنّ كل كاسب خيراً أو شراً مجزى فموفى جزاءه علم أنّه غير متخلص من بينهم من عظم ما اكتسب. ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: يعدل بينهم في الجزاء كل جزاؤه على قدر كسبه.

هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾.

﴿هم درجات﴾ أي: هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات، كقوله:

أنصب للمنية تعتريهم ... رجالي أم هُمُ درج السيول

وقيل: ذوو درجات، والمعنى: تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب. ﴿والله بصير بما يعملون﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها فمجازيهم على حسبها.

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾.

﴿لقد منّ الله على المؤمنين﴾ على من آمن مع رسول الله ﷺ من قومه، وخص المؤمنين منهم لأنّهم هم المنتفعون بمبعثه. ﴿من أنفسهم﴾ من جنسهم عربياً مثلهم، وقيل: من ولد إسمٰعيل كما أنّهم من ولده.

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في عمال الصدقة الحديث رقم: (1810)، والحديث عن أبي حميد الساعدي، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الهبة، باب: من لم يقبل الهدية لعلة الحديث رقم: (2597) ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال الحديث رقم: (4715).

(2) كشف الأستار، كتاب: الإمارة، باب: في هدايا العمال الحديث رقم: (1599)، وحديث جابر، أخرجه عبد الرزاق في المصنف 8/147 الحديث رقم: (14665).

(3) أخرجه البيهقي في سننه في كتاب: العارية.

(4) أخرجه الدارمي في السنن 2/303، كتاب: السير، باب: في الغال إذا جاء بما غل به، حديث رقم: (2491)، وأحمد في المسند 4/325، وأبو داود في السنن، كتاب الجهاد، باب: في صلح العدو، الحديث رقم: (2766).

(5) قال أحمد رحمه الله: حمل الآية على الوجه الثاني يشهد له، ورود هذه الصيغة كثيراً في النهي، في أمثال قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي = أن تكون له أسرى﴾ ﴿ما كان لنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ إلى غير ذلك على أنّ الزمخشري حاف في العبارة، إذ يقول عبر عن الحرمان بالغلول تغليظاً، وتقبيحاً، وما كان له أن يعبر عن هذا المعنى بهذه العبارة، فإن عادة لطف الله تعالى برسوله الله ﷺ في التأديب أن يكون ممزوجاً بغاية التخفيف، والتعطف، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ قال بعض العلماء: بدأه بالعفو قبل العتب، ولو لم يبدأه بالعفو، لانفطر قلبه ﷺ.

(6) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران الحديث رقم: (3009)، والواحدي في أسباب النزول ص 73.

(7) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص 73 ـ 74. وابن أبي شيبة في 12/413، كتاب: الجهاد، باب: ليس له شيء إذا قدم بعد الوقعة.

(8) ذكره السيوطي في الدر المنثور (2/92) وذكره ابن كثير في «تفسيره» (2/135).

(9) أخرجه الطبري في تفسيره، وأبو يعلى الموصلي.

فإنْ قلتَ: فما وجه المنة عليهم في أن كان من أنفسهم! **قلتُ:** إذا كان منهم كان اللسان واحداً فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به وفي كونه من أنفسهم شرف لهم، كقوله: ﴿وإنّه لذكر لك ولقومك﴾[1]. وفي قراءة رسول الله ﷺ وقراءة فاطمة رضي الله عنها من أنفسهم» أي: من أشرفهم. لأنّ عدنان ذروة ولد إسمٰعيل، ومضر ذروة نزار بن معد بن عدنان، وخندف ذروة مضر، ومدركة ذروة خندف، وقريش ذروة مدركة، وذروة قريش محمد ﷺ. وفيما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة رضي الله عنها وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسمٰعيل وضئضئ معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل. وقرىء: لمن منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم، وفيه وجهان: أن يراد لمن منّ الله على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم فحذف لقيام الدلالة، أو يكون إذ في محل الرفع كإذا في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى: لمن منّ الله على المؤمنين وقت بعثه. ﴿يتلو عليهم آياته﴾ بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ﴿ويزكيهم﴾ ويطهرهم من دنس القلوب بالكفر ونجاسة سائر الجوارح بملابسة المحرمات وسائر الخبائث. وقيل: ويأخذ منهم الزكاة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ القرآن والسنة بعد ما كانوا أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم. ﴿وإن كانوا من قبل﴾ من قبل بعثة الرسول ﴿لفي ضلال﴾، إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وتقديره: وإنّ الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال ﴿مبين﴾ ظاهر لا شبهة فيه.

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾

﴿أصابتكم مصيبة﴾ يريد ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم، ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين. ولما نصب بـ ﴿قلتم﴾ و﴿أصابتكم﴾ في محل الجرّ بإضافة لما إليه، وتقديره: أقلتم حين أصابتكم و﴿أنى هذا﴾ نصب لأنّه مقول، والهمزة للتقرير والتقريع.

فإنْ قلتَ: علام عطفت الواو هذه الجملة؟ **قلتُ:** على ما مضى من قصة أحد من قوله: ولقد صدقكم الله وعده، ويجوز أن تكون معطوفة على محذوف، كأنّه قيل: أفعلتم كذا وقلتم حينئذٍ كذا، أنى هذا، من أين هذا؟ كقوله تعالى: أنّى لك هذا؟ لقوله: ﴿من عند أنفسكم﴾ ، وقوله: ﴿من عند الله﴾ والمعنى: أنتم السبب فيما أصابكم لاختياركم الخروج من المدينة أو لتخليتكم عن المركز. وعن عليّ رضي الله عنه: لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم. ﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾ فهو قادر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيبكم تارة ويصيب منكم أخرى.

وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾

﴿وما أصابكم﴾ يوم أحد يوم التقى جمعكم وجمع المشركين، ﴿فـ﴾ هو كائن ﴿بإذن الله﴾، أي: بتخليته استعار الإذن لتخليته الكفار، وأنّه لم يمنعهم منهم ليبتليهم لأنّ الآذن محل بين المأذون له ومراده

وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

﴿وليعلم﴾ وهو كائن ليتميز المؤمنون والمنافقون وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء. ﴿وقيل لهم﴾ من جملة الصلة عطف على نافقوا! وإنّما لم يقل: فقالوا، لأنّه جواب لسؤال اقتضاه دعاء المؤمنين لهم إلى القتال. كأنّه قيل: فماذا قالوا لهم؟ فقيل: قالوا لو نعلم. ويجوز أن تقتصر الصلة على نافقوا، ويكون ﴿وقيل لهم﴾ لهم كلاماً مبتدأ، قسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون وبين أن يقاتلوا إن لم يكن بهم غمّ الآخرة دفعاً عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فأبوا القتال وجحدوا القدرة عليه رأساً لنفاقهم ودغلهم. وذلك ما روي: أنّ عبد الله بن أبيّ انخزل مع حلفائه، فقيل له، فقال ذلك. وقيل: ﴿أو ادفعوا﴾ العدوّ بتكثيركم سواد المجاهدين، وإن لم تقاتلوا لأنّ كثرة السواد مما يروع العدوّ ويكسر منه. وعن سهل بن سعد الساعدي وقد كف بصره: لو أمكنني لبعت داري ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوّهم. قيل: وكيف وقد ذهب بصرك؟ قال: لقوله: أو ادافعوا، أراد: كثروا سوادهم. ووجه آخر: وهو أن يكون معنى قولهم: ﴿لو نعلم قتالاً﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمّى قتالاً ﴿لاتبعناكم﴾، يعنون: أنّ ما أنتم فيه لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال إنّما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، لأنّ رأي عبد الله كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج. ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ يعني: أنّهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخزلوا عن عسكر المؤمنين، وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر. وقيل: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأنّ

(1) سورة الزخرف، الآية: 44.

تقليلهم سواد المسلمين بالانخزال تقوية للمشركين. ﴿يقولون بأفواههم﴾ لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم، ولا تعي قلوبهم منه شيئاً، ونكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم وأنّ إيمانهم موجود في أفواههم. معدوم في قلوبهم خلاف صفة المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم: ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ من النفاق وبما يجري بعضهم مع بعض من ذمّ المؤمنين وتجهيلهم وتخطئة رأيهم والشماتة بهم وغير ذلك لأنّكم تعلمون بعض ذلك علماً مجملاً بأمارات وأنا أعلم كله علم إحاطة بتفاصيله وكيفياته.

ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾.

﴿الذين قالوا﴾ في إعرابه أوجه: أن يكون نصباً على الذمّ أو على الردّ على الذين نافقوا، أو رفعاً على هم الذين قالوا، أو على الإبدال من واو يكتمون، ويجوز أن يكون مجروراً بدلاً من الضمير في بأفواههم أو قلوبهم، كقوله: على جوده لضن بالماء حاتم. ﴿لإخوانهم﴾ لأجل إخوانهم، من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد، أو إخوانهم في النسب وفي سكنى الدار. ﴿وقعدوا﴾ أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال. لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من القعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل. ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ معناه: قل إن كنتم صادقين في أنّكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال، فجدّوا إلى دفع الموت سبيلاً، يعني: أنّ ذلك الدفع غير مغنٍ عنكم لأنّكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبثوثة ولا بد لكم من أن يتعلق بكم بعضها. وروي: أنّه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

فإنْ قلتَ[1]: فقد كانوا صادقين في أنّهم دفعوا القتل عن أنفسهم بالقعود، فما معنى قوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾؟ قلتُ: معناه أنّ النجاة من القتل يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره، لأنّ أسباب النجاة كثيرة وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل، فما يدريكم أنّ سبب نجاتكم القعود وأنّكم صادقون في مقالتكم وما أنكرتم أن يكون السبب غيره. وجه آخر: إن كنتم صادقين في قولكم: لو أطاعونا وقعدوا ما قتلوا، يعني: أنّهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين. وقوله: فادرءوا عن أنفسكم الموت: استهزاء بهم، أي: إن كنتم رجالاً دفاعين لأسباب الموت فادرءوا جميع أسبابه حتى لا تموتوا.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾.

﴿ولا تحسبن﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد. وقرىء: بالياء على ولا يحسبنّ رسول الله ﷺ، أو ولا يحسبنّ حاسب، ويجوز أن يكون ﴿الذين قتلوا﴾ فاعلاً ويكون التقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتاً، أي: ولا يحسبنّ الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً.

فإنْ قلتَ: كيف جاز حذف المفعول الأوّل؟ قلتُ: هو في الأصل مبتدأ فحذف كما حذف المبتدأ في قوله: ﴿أحياء﴾، والمعنى: هم أحياء لدلالة الكلام عليهما. وقرىء: ولا تحسبنّ بفتح السين، وقتلوا بالتشديد، وأحياء بالنصب على معنى: بل أحسبهم أحياء، ﴿عند ربهم﴾ مقرّبون عنده ذوو زلفى، كقوله: ﴿فالذين عند ربك﴾[2] ﴿يرزقون﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون، وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعم برزق الله.

فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾.

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقرّبين معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها. وعن النبي ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش»[3] ﴿ويستبشرون به﴾ إخوانهم المجاهدين ﴿الذين لم يلحقوا بهم﴾ أي: لم يقتلوا فيلحقوا بهم. ﴿من خلفهم﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا بعدهم وهم قد تقدّموهم. وقيل: لم يلحقوا بهم، لم يدركوا فضلهم

---

(1) قال أحمد: السؤال المذكور إنما يردّ على معتزلي من مثله، فإنهم يعتقدون أنّ الموت قد يكون بحلول الأجل، وقد يكون قبله، وأنّ المقتول لولا القتل لاستوفى أجله المكتوب له الزائد على ذلك، فلا جرم أنّ الإنسان على زعمهم يدفع عن نفسه العارض قبل حلول الأجل، بتوقي الأسباب الموجبة لذلك، فعلى ذلك ورد السؤال المذكور، وأمّا أهل السنة فمعتقدهم أنّ كل ميت بأجله يموت، ويقولون إنّ الخارجين إلى القتال في المعركة لم يكن بد من موتهم في ذلك الوقت، وأنّ ذلك الحين هو وقت حينهم في علم الله عز وجل إيماناً؛ بقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ وخلافاً للمنافقين، وللموافقين لهم من المعتزلة في قولهم: لو أطاعونا ما ماتوا، ولعمري إنهم في هذا = المعتقد مقلدون لنمروذ، في قوله: أنا أحيي وأميت، فإنّ الأحمق ظنّ أنه يقتل إن شاء، فيكون ذلك إماتة ويعفو عن القتل، فيكون ذلك إحياء، وغاب عنه أنّ الذي عفا عن قتله، إنما حيي لاستيفاء الأجل الذي كتبه الله له، وأنّ الذي قتله إنما مات؛ لأنه استوفى تلك الساعة أجله، والله الموفق.

(2) سورة فصلت، الآية: 38.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في فضل الشهادة، الحديث رقم: (2520)، والحاكم في المستدرك 2/88، ومسلم عن ابن مسعود في كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنّهم أحياء عند ربهم يرزقون الحديث رقم: (4862).

ومنزلتهم. ﴿ألاّ خوف عليهم﴾ بدل من الذين، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو أنّهم يبعثون آمنين يوم القيامة بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به. وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة والجدّ في الجهاد والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم وإحماد لحال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لإخوانه في الله، وبشرى للمؤمنين بالفوز في المآب.

❁ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾.

وكرر ﴿يستبشرون﴾ ليعلق به ما هو بيان لقوله: ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1]، من ذكر النعمة والفضل وأنّ ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب في عدل الله وحكمته أن يحصل لهم ولا يضيع. وقرىء: وإنّ الله بالفتح عطفاً على النعمة والفضل، وبالكسر على الابتداء وعلى أنّ الجملة اعتراض وهي قراءة الكسائي، وتعضدها قراءة عبد الله: والله لا يضيع.

ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾.

﴿الذين استجابوا﴾ مبتدأ خبره للذين أحسنوا، أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح. روي: أنّ أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوّةً، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، وقال: لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت[2]. و﴿من﴾ في ﴿للذين أحسنوا منهم﴾ للتبيين مثلها في قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة﴾[3]؛ لأنّ الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم. وعن عروة بن الزبير: قالت لي عائشة رضي الله عنها: إن أبويك لمن الذين استجابوا لله والرسول، تعني: أبا بكر والزبير[4].

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾.

﴿الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم﴾ روي: أنّ أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت. فقال النبي ﷺ: «إن شاء الله». فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مر الظهران، فألقى الله الرعب في قلبه فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً، فقال: يا نعيم إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لي، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءةً، فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشر من الإبل. فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ما هذا بالرأي، أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريد أفتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم فوالله لا يفلت منكم أحد[5]. وقيل: مرّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة، فجعل لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوهم، فكره المسلمون الخروج. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد». فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل. وقيل: هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار. حتى وافوا بدراً وأقاموا بها ثماني ليالٍ وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ورجع أبو سفيان إلى مكة، فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق. قالوا: إنّما خرجتم لتشربوا السويق، فالناس الأوّلون المثبطون والآخرون أبو سفيان وأصحابه[6].

فإنْ قلتَ: كيف قيل الناس إن كان نعيم هو المثبط وحده؟ قلتُ: قيل ذلك لأنّه من جنس الناس، كما يقال: فلان يركب الخيل ويلبس البرود، وماله إلا فرس واحد وبرد فرد، أو لأنّه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه ويصلون جناح كلامه ويثبطون مثل تثبيطه.

فإنْ قلتَ: إلام يرجع المستكن في ﴿فزادهم﴾؟ قلتُ: لما إلى المقول الذي هو ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ كانه قيل: قالوا لهم هذا الكلام فزادهم إيماناً، أو إلى مصدر قالوا، كقوزلك: من صدق كان خيراً له، أو إلى الناس إذا أريد به نعيم وحده.

فإنْ قلتَ: كيف زادهم نعيم أو مقوله إيماناً؟ قلتُ: لما لم يسمعوا قوله، وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد، وأظهروا حمية الإسلام، كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج، ولأنّ خروجهم على أثر تثبيطه إلى وجهة العدو طاعة عظيمة،

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 170.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، وابن إسحاق والزيلعي 1/244، وذكره ابن هشام في السيرة 2/121.

(3) سورة الفتح، الآية: 29.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: «الذين= استجابوا لله ورسوله» الحديث رقم: (4077)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير الحديث رقم: (6199).

(5) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(6) أخرجه ابن سعد في الطبقات. زيلعي 1/246.

والطاعات من جملة الإيمان لأنّ الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل. وعن ابن عمر: قلنا: يا رسول الله إنّ الإيمان يزيد وينقص، قال: «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار»[1]. وعن عمر رضي الله عنه أنّه كان يأخذ بيد الرجل فيقول: قم بنا نزدد إيماناً[2]. وعنه: لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمّة لرجح به[3]. **﴿حسبنا الله﴾** محسبنا، أي: كافينا. يقال: أحسبه الشيء إذا كفاه، والدليل على أنّه بمعنى المحسب، أنّك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة لأنّ إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقة. **﴿ونعم الوكيل﴾** ونعم الموكول إليه هو.

فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾.

﴿فانقلبوا﴾ فرجعوا من بدر **﴿بنعمة من الله﴾** وهي السلامة وحذر العدوّ منهم، **﴿وفضل﴾** هو الربح في التجارة، كقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾[4] **﴿لم يمسسهم سوء﴾** لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدو **﴿واتبعوا رضوان الله﴾** بجراتهم وخروجهم. **﴿والله ذو فضل عظيم﴾** قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وفي ذلك تحسير لمن تخلف عنهم، وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. وروي: أنّهم قالوا: هل يكون هذا غزواً؟ فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم.

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾.

﴿الشيطان﴾ خبر ذلكم بمعنى إنّما ذلكم المثبط هو الشيطان، ويخوّف أولياءه: جملة مستأنفة بيان لشيطنته، أو الشيطان صفة لاسم الإشارة ويخوّف الخبر، والمراد بالشيطان نعيم أو أبو سفيان، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف بمعنى: إنّما ذلكم قول الشيطان، أي: قول إبليس لعنه الله. **﴿يخوّف أولياءه﴾** يخوّفكم أولياءه الذين هم أبو سفيان وأصحابه. وتدل عليه قراءة ابن عباس وابن مسعود: يخوّفكم أولياءه، وقوله: فلا تخافوهم. وقيل: يخوّف أولياءه القاعدين عن الخروج مع رسول الله ﷺ.

فإنْ قلتَ: فإلام رجع الضمير في **﴿فلا تخافوهم﴾** على هذا التفسير؟ **قلتُ:** إلى الناس في قوله: إنّ الناس قد جمعوا لكم فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجبنوا. **﴿وخافون﴾** فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** يعني: أنّ الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس ولا يخشون أحداً إلا الله.

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾.

﴿يسارعون في الكفر﴾ يقعون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشدّ رغبة، وهم الذين نافقوا من المتخلفين. وقيل: هم قوم ارتدوا عن الإسلام.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: **﴿ولا يحزنك﴾**، ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد؟ **قلتُ:** معناه لا يحزنوك لخوف أن يضرّك ويعينوا عليك، ألا ترى إلى قوله: **﴿إنّهم لن يضروا الله شيئاً﴾** يعني: إنّهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله: **﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾** أي: نصيباً من الثواب، **﴿ولهم﴾** بدل الثواب **﴿عذاب عظيم﴾**، وذلك أبلغ ما ضرّ به الإنسان نفسه.

فإنْ قلتَ: هلا قيل لا يجعل الله لهم حظاً في الآخرة، وأيّ فائدة في ذكر الإرادة؟ **قلتُ:** فائدته الإشعار بأنّ الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر، تنبيهاً على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه حتى أنّ أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾.

﴿إنّ الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾ إمّا أن يكون تكريراً لذكرهم للتأكيد والتسجيل عليهم بما أضاف إليهم، وإمّا أن يكون عاماً للكفار والأوّل خاصاً فيمن نافق من المتخلفين أو ارتدّ عن الإسلام أو على العكس. و **﴿شيئاً﴾** نصب على المصدر، لأنّ المعنى: شيئاً من الضرر وبعض الضرر.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾.

﴿الذين كفروا﴾ فيمن قرأ بالتاء نصب، و **﴿إنّما نملي لهم خير لأنفسهم﴾** بدل منه، أي: ولا تحسبنّ أنّ ما نملي للكافرين خير لهم، وأنّ مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين، كقوله: **﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون﴾**[5] وما مصدرية بمعنى: ولا تحسبنّ أنّ إملاءنا خير، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت في الإمام متصلة فلا يخالف، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف.

فإنْ قلتَ: كيف صحّ مجيء البدل ولم يذكر إلا أحد

(1) الثعلبي في تفسيره [الزيلعي 2471].

(2) البيهقي في شعب الإيمان، باب: القول في زيادة الإيمان ونقصانه... الحديث رقم: (38).

(3) أخرجه البيهقي في الشعب 1/69، الحديث رقم: (36).

(4) سورة البقرة، الآية: 198.

(5) سورة الفرقان، الآية: 44.

المفعولين، ولا يجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟ **قلتُ:** صحّ ذلك من حيث إنّ التعويل على البدل والمبدل منه في حكم المنحى، ألا تراك تقول: جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك، ويجوز أن يقدّر مضاف محذوف على ولا تحسبنّ الذين كفروا أصحاب أنّ الإملاء خير لأنفسهم، أو ولا تحسبنّ حال الذين كفروا أنّ الإملاء خير لأنفسهم، وهو فيمن قرأ بالياء رفع والفعل متعلق بأنّ وما في حيزه.

والإملاء لهم: تخليتهم وشأنهم مستعار من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. وقيل: هو إمهالهم وإطالة عمرهم، والمعنى: ولا تحسبنَّ أنّ الإملاء خير لهم من منعهم أو قطع آجالهم. **﴿إنّما نملي لهم﴾** ما هذه حقها أن تكتب متصلةً لأنّها كافة دون الأولى، وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها. كأنّه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم: فقيل: **﴿إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾**.

فإنْ قلتَ[1]: كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضاً لله تعالى في إملائه لهم؟ **قلتُ:** هو علة للإملاء وما كل علة بغرض، إلا تراك تقول: قعدت عن الغزو للعجز والفاقة، وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء منها بغرض لك وإنّما هي علل وأسباب، فكذلك ازدياد الإثم جعل علةً للإمهال وسبباً فيه.

فإنْ قلتَ: كيف يكون ازدياد الإثم علةً للإملاء كما كان العجز علةً للقعود عن الحرب؟ **قلتُ:** لما كان في علم الله المحيط بكل شيء أنّهم مزدادون إثماً فكان الإملاء وقع من أجله وبسببه على طريق المجاز. وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الأولى وفتح الثانية: ولا يحسبنّ بالياء على معنى: ولا يحسبنّ الذين كفروا أنّ إملاءنا لازدياد الإثم كما يفعلون، وإنّما هو ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان. وقوله: إنّما نملي لهم خير لأنفسهم اعتراض بين الفعل ومعموله، ومعناه أنّ إملاءنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه وعرفوا إنعام الله عليهم بتفسح المدّة وترك المعاجلة بالعقوبة.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: **﴿ولهم عذاب مهين﴾** على هذه القراءة؟ **قلتُ:** معناه ولا تحسبوا إن إملاءنا لزيادة الإثم وللتعذيب، والواو للحال، كأنّه قيل: ليزدادوا إثماً معداً لهم عذاب مهين.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

اللام لتأكيد النفي على **﴿ما أنتم عليه﴾** من اختلاط المؤمنين الخلص والمنافقين، **﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾** حتى يعزل المنافق عن المخلص. وقرىء: يميز من ميز، وفي رواية عن ابن كثير: يميز من أماز بمعنى ميز.

فإنْ قلتَ: لمن الخطاب في أنتم؟ **قلتُ:** للمصدّقين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق، كأنّه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، وأنّه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم. ثم قال: **﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾** أي: وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بنفاق الرجل وإخلاص الآخر إنّه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها. **﴿ولكن الله﴾** يرسل الرسول فيوحي إليه ويخبره بأنّ في الغيب كذا وأنّ فلاناً في قلبه النفاق وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة إطلاعه على المغيبات. ويجوز أن يراد: لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكاليف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخلص الذين امتحن الله قلوبهم، كبذل الأرواح في الجهاد وإنفاق الأموال في سبيل الله، فيجعل ذلك عياراً على عقائدكم وشاهداً بضمائركم حتى يعلم بعضكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها، فإنّ ذلك مما استأثر الله به، وما كان الله ليطلع أحداً منكم على الغيب ومضمرات القلوب حتى يعرف صحيحها من فاسدها مطلعاً عليها. ولكن الله **﴿يجتبي من رسله من يشاء﴾** فيخبره ببعض المغيبات، **﴿فآمنوا بالله ورسله﴾** بأن تقدروه حق قدره وتعلموه وحده مطلعاً على الغيوب، وأن تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عباداً مجتبين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله به من الغيوب وليسوا من علم الغيب في شيء. وعن السدي: قال الكافرون: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر. فنزلت.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿ولا تحسبن﴾ من قرأ بالتاء قدر مضافاً محذوفاً، أي: ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذلك من قرأ بالياء. وجلّ فاعل يحسبن ضمير رسول الله أو ضمير أحد، ومن جعل فاعله الذين يبخلون كان المفعول الأوّل عنده محذوفاً تقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم **﴿هو خيراً لهم﴾** والذي سوّغ حذفه دلالة يبخلون عليه وهو فصل. وقرأ الأعمش بغير هو. **﴿سيطوقون﴾** تفسير

---

(1) قال أحمد: بنى الزمخشري هذا الجواز على **﴿شفا جرف هار﴾**؛ لأن معتقده أنّ الإثم الواقع منهم، ليس مراداً لله تعالى، بل هو واقع على خلاف الإرادة الربانية، فلما وردت الآية مشعرة بأنّ = ازدياد الإثم مراداً لله تعالى إشعاراً لا يقبل التأويل أخذ يعمل الحيلة في وجه من التعطيل التزاماً، لإتمام الفاسد، وضرباً في حديد بارد، فجعل ازدياد الإثم سبباً، وليس بغرض.

لقوله: ﴿هو شر لهم﴾، أي: سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق. وفي أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة إذا جاء بهنة يسب بها وينم. وقيل: يجعل ما بخل به من الزكاة حيةً يطوّقها في عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول: أنا مالك. وعن النبي ﷺ في مانع الزكاة: «يطوّق بشجاع أقرع»[1]. وروي: «بشجاع أسود». وعن النخعي: سيطوّقون بطوق من نار. ﴿ولله ميراث السمٰوات والأرض﴾ أي: وله ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله. ونحوه قوله: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[2] وقرىء: بما تعملون بالتاء والياء، فالتاء على طريقة الالتفات وهي أبلغ في الوعيد، والياء على الظاهر.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾.

قال ذلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾[3] فلا يخلو إمّا أن يقولوه عن اعتقاد لذلك، أو عن استهزاء بالقرآن، وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر عن متمردين في كفرهم، ومعنى سماع الله له أنّه لم يخف عليه وأنّه أعدّ له كفاءه من العقاب. ﴿سنكتب ما قالوا﴾ في صحائف الحفظة أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب.

فإنْ قلتَ: كيف قال: ﴿لقد سمع الله﴾ ثم قال: ﴿سنكتب﴾ وهلا قيل: ولقد كتبنا؟ **قلتُ:** ذكر وجود السماع أوّلاً مؤكداً بالقسم، ثم قال سنكتب على جهة الوعيد بمعنى: لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه، كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء، وجعل قتلهم الأنبياء قرينةً له إيذاناً بأنّهما في العظم إخوان، وبأن هذا ليس بأوّل ما ركبوه من العظائم وأنّهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق، وأنّ من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول. وروي: أنّ رسول الله ﷺ كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص اليهودي: إنّ الله فقير حين سألنا القرض. فلطمه أبو بكر في وجهه، وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك. فشكاه إلى رسول الله ﷺ، وجحد ما قاله، فنزلت[4]. ونحوه قولهم: ﴿يد الله مغلولة﴾[5]. ﴿ونقول﴾ لهم: ﴿ذوقوا﴾ وننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة: ذوقوا ﴿عذاب الحريق﴾ كما أنقتم المسلمين الغصص. يقال للمنتقم منه: أحسن وذق. وقال أبو سفيان لحمزة رضي الله عنه: ذق عقق[6]. وقرأ حمزة: سيكتب بالياء على البناء للمفعول، ويقول بالياء. وقرأ الحسن والأعرج: سيكتب بالياء وتسمية الفاعل. وقرأ ابن مسعود: ويقال ذوقوا.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدّم من عقابهم. وذكر الأيدي، لأن أكثر الأعمال تزاول بهن، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب.

فإنْ قلتَ: فلم عطف قوله: ﴿وأنّ الله ليس بظلام للعبيد﴾ على ما ﴿قدمت أيديكم﴾، وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكاً لاجتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب؟ **قلتُ:** معنى كونه غير ظلام للعبيد: أنّه عادل عليهم، ومن العدل أن يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿عهد إلينا﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة، وهو أن يرينا قرباناً تنزل ناراً من السماء فتأكله، كما كان أنبياء بني إسرائيل تلك آيتهم كان يقرب بالقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله لأنّ أكل النار القربان لم يوجب الإيمان للرسول الآتي به إلا لكونه آية ومعجزة فهو إذن وسائر الآيات سواء، فلا يجوز أن يعينه الله تعالى من بين الآيات، وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاؤوا بالبينات الكثيرة التي أوجبت عليهم التصديق وجاؤوهم أيضاً بهذه الآية التي اقترحوها فلم قتلوهم إن كانوا صادقين إن الإيمان يلزمهم بإتيانها. وقرىء: بقربان بضمتين، ونظيره السلطان.

فإنْ قلتَ: ما معنى قوله: ﴿وبالذي قلتم﴾؟ **قلتُ:** معناه وبمعنى الذي قلتموه من قولكم قربان تأكله النار، ومؤدّاه كقوله: ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ أي: لمعنى ما قالوا.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

في مصاحف أهل الشام: وبالزبر، وهي: الصحف، ﴿والكتاب المنير﴾ التوراة والإنجيل والزبور، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ من تكذيب قومه وتكذيب اليهود. وقرأ اليزيدي: ذائقة الموت، على الأصل. وقرأ الأعمش: ذائقة الموت، بطرح التنوين على النصب، كقوله:

ولا ذاكر الله إلا قليلاً

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة الحديث رقم: (1403)، ومسلم بنحوه في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة الحديث رقم: (2293).

(2) سورة الحديد، الآية: 7.

(3) سورة البقرة، الآية: 245.

(4) رواه الواحدي في أسباب النزول، ص 77.

(5) سورة المائدة، الآية: 64.

(6) ابن هشام في سيرته: 2/93.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾.

فإنْ قلتَ: كيف اتصل به قوله: ﴿وإنّما توفون أجوركم﴾؟ **قلتُ:** اتصاله به على أنّ كلكم تموتون ولا بدّ لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقيب موتكم وإنّما توفونها يوم قيامكم من القبور.

فإنْ قلتَ: فهذا يوهم نفي ما يروى أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار[1]! **قلتُ:** كلمة التوفية تزيل هذا الوهم[2]، لأنّ المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور.

الزحزحة: التنحية والإبعاد، تكرير الزح وهو الجذب بعجلة. ﴿فقد فاز﴾ فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوز في المآب. وعن النبي ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»[3]. وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد. شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغرّ حتى يشتريه ثم يتبين له فساده ورداءته، والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير: إنّما هذا لمن آثرها على الآخرة، فأمّا من طلب الآخرة بها فإنّها متاع، بلاغاً خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا انفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدّون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدّة بغتةً فيكرهها وتشمئز منها نفسه.

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٨٦﴾.

والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب، وفي الأموال الإنفاق في سبل الخير وما يقع فيها من الآفات.

وما يسمعون من أهل الكتاب: المطاعن في الدين الحنيف، وصدّ من أراد الإيمان وتخطئة من آمن، وما كان من كعب بن الأشرف من عجائه لرسول الله ﷺ وتحريض المشركين، ومن فنحاص ومن بني قريظة والنضير: ﴿فإنّ ذلك﴾ فإنّ الصبر والتقوى ﴿من عزم الأمور﴾ من معزومات الأمور، أي: مما يجب العزم عليه من الأمور أو مما عزم الله أن يكون، يعني: إنّ ذلك عزمة من عزمات الله لا بدّ لكم أن تصبروا وتتقوا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ١٨٧﴾.

﴿وإذ أخذ الله﴾ واذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿لتبيننه﴾ الضمير للكتاب، أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانه كما يؤكد على الرجل إذا عزم عليه. وقيل له: آلله لتفعلنّ ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ فنبذوا الميثاق، وتأكيده عليهم يعني: لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه.

والنبذ وراء الظهر: مثل في الطرح وترك الاعتداد، ونقيضه: جعله نصب عينيه وإلقاء بين عينيه، وكفى به دليلاً على أنّه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسدٍ من تسهيل على الظلمة؛ وتطييب لنفوسهم، استجلاب لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام دنيا، أو لتقية مما لا دليل عليه، ولا إمارة، أو لبخل بالعلم وغيره أن ينسب إليه غيرهم. وعن النبي ﷺ: «من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من نار»[4]. وعن طاووس أنّه قال لوهب: إنّي أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب، وقال: والله لو كنت نبياً فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أنّ الله سيعذبك. وعن محمد بن كعب: لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه، ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل. وعن علي رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا[5]. وقرىء: ليبيننه ولا يكتمونه بالياء لأنّهم غيب، وبالتاء على حكاية مخاطبتهم، كقوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن﴾[6].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨﴾.

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (26) الحديث رقم: (2460).

(2) قال أحمد: هذا كما ترى صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم، وعذاب، ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وها هو قد اعترف به، والله الموفق.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول الحديث رقم: (4753).

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: كراهية منع العلم الحديث = رقم: (3658)، والترمذي في كتاب العلم، باب: ما جاء في كتمان العلم الحديث رقم: (2649)، وابن ماجه في المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه الحديث رقم: (261)، وأخرجه الحاكم في المستدرك 1/102، وابن حبان في كتاب: العلم. الحديث رقم: (96)، وأخرجه أبو يعلى، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه، الحديث رقم: (264).

(5) سند الفردوس ـ الثعالبي.

(6) سورة الإسراء، الآية: 4.

﴿لا تحسبن﴾ خطاب لرسول الله ﷺ وأحد المفعولين ﴿الذين يفرحون﴾، والثاني بمفازة، وقوله: فلا تحسبنهم تأكيد تقديره لا تحسبنهم فلا تحسبنهم فائزين. وقرىء: لا تحسبن فلا تحسبنهم بضم الباء على خطاب المؤمنين، ولا يحسبن فلا يحسبنهم بالياء وفتح الياء فيهما على أنّ الفعل للرسول. وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأوّل وضمها في الثاني على أنّ الفعل للذين يفرحون والمفعول الأوّل محذوف على لا يحسبنهم الذين يفرحون بمفازة، بمعنى: لا يحسبن أنفسهم الذين يفرحون فائزين، فلا يحسبنهم تأكيد ومعنى ﴿بما أتوا﴾ بما فعلوا. وأتى وجاء يستعملان بمعنى فعل. قال الله تعالى: ﴿إنه كان وعده مأتيًّا﴾[1]، ﴿لقد جئت شيئاً فريًّا﴾[2] ويدل عليه قراءة أبيّ: يفرحون بما فعلوا. وقرئ مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنّهم قد صدقوه واستحمدوا إليه وفرحوا بما فعلوا، فأطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم[3]، أي: لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب. ومعنى: يفرحون بما أوتوا، بما أتوه من علم التوراة. وقيل: يفرحون بما فعلوا من كتمان نعت رسول الله ﷺ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من اتباع دين إبراهيم حيث ادعوا: أنّ إبراهيم كان على اليهودية وأنّهم على دينه، وقيل: هم قوم تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ، فلما قفل اعتذروا إليه بأنّهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمدوا إليه بترك الخروج. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين ومنافقتهم ووصلهم بذلك إلى إغراضهم ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة لإبطانهم الكفر، ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب يحبّ أن يحمده الناس، ويثنوا عليه بالديانة والزهد، وبما ليس فيه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

﴿ولله ملك السمٰوات والأرض﴾ فهو يملك أمرهم. وهو على كل شيء قدير فهو يقدر على عقابهم.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

﴿لآيات﴾ لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته ﴿لأولي الألباب﴾ للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر، وفي النصائح الصغار املأ عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجلهما في جملة هذه العجائب، متفكراً في قدرة مقدرها، متدبراً حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قلت لعائشة رضي الله عنها: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ. فبكت وأطالت، ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال: «يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي». فقلت: يا رسول الله إنّي لأحب قربك وأحب هواك، قد أذنت لك. فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن فجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً» ثم قال: «ومالي لا أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة: ﴿إنّ في خلق السمٰوات والأرض﴾. ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[4]. وروي: «ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمّلها»[5]. وعن علي رضي الله عنه: أنّ النبيّ ﷺ كان إذا قام من الليل يتسوّك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: «إنّ في خلق السمٰوات والأرض»[6] وحكي: أنّ الرجل من بني إسرائيل كان إذا عبد الله ثلاثين سنةً أظلته سحابة، فعبدها فتى من فتيانهم فلم تظله. فقالت له أمّه: لعلّ فرطةً فرطت منك في مدّتك. فقال: ما أنكر. قالت: لعلك نظرت مرّة إلى السماء ولم تعتبر. قال: لعلّ، قالت: فما أتيت إلاّ من ذاك.

ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾

﴿الذين يذكرون الله﴾ ذكراً دائباً، على أي حال كانوا من قيام وقعود واضطجاع لا يخلون بالذكر في أغلب أحوالهم. وعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة، أنّهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: ﴿يذكرون الله قياماً وقعوداً﴾. فقاموا يذكرون الله على أقدامهم. وعن النبي ﷺ: «من أحبّ

(1) سورة مريم، الآية: 61.

(2) سورة مريم، الآية: 27.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب ﴿لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا﴾ الحديث رقم: (4568)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم الحديث رقم: (620).

(4) ابن سردويه في تفسيره.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس في كتاب: التفسير، باب: ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض﴾ الحديث رقم: (4569)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه الحديث رقم: (1785).

(6) أخرجه ابن أبي شيبة 302/10، كتاب: الدعاء، باب: في ثواب ذكر الله.

أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»[1]. وقيل: معناه يصلون في هذه الأحوال على حسب استطاعتهم. قال رسول الله ﷺ لعمران بن الحصين: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب تومئ إيماء»[2]. وهذه حجة للشافعي رحمه الله في اضجاع المريض على جنبه كما في اللحد. وعند أبي حنيفة رحمه الله أنّه يستلقي حتى إذا وجد خفةً قعد. ومحل ﴿على جنوبهم﴾ نصب على الحال عطفاً على ما قبله، كأنّه قيل: قياماً وقعوداً ومضطجعين. ﴿ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض﴾ وما يدل عليه اختراع هذه الأجرام العظام، وإبداع صنعتها، وما دبر فيها مما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه على عظم شأن الصانع وكبرياء سلطانه. وعن سفيان الثوري: أنّه صلى خلف المقام ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء، فلما رأى الكواكب غشي عليه وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته. وعن النبيّ ﷺ: «بينما رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أنّ لك رباً وخالقاً اللهمّ اغفر لي. فنظر الله إليه فغفر»[3]. وقال النبي ﷺ: «لا عبادة كالتفكر»[4]. وقيل: الفكرة تذهب الغفلة ويحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة. وروي عن النبي ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى، فإنّه كان يرفع له في كل يوم مثل عمل أهل الأرض»[5]. قالوا: وإنّما كان ذلك التفكر في أمر الله الذي هو عمل القلب، لأنّ أحداً لا يقدر أن يعمل بجوارحه في اليوم مثل عمل أهل الأرض. ﴿ما خلقت هذا باطلاً﴾ على إرادة القول، أي: يقولون ذلك، وهو في محل الحال بمعنى يتفكرون قائلين، والمعنى: ما خلقته خلقاً باطلاً بغير حكمة بل خلقته لداعي حكمة عظيمة وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين أدلةً لهم على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك، ولذلك وصل به قوله: ﴿فقنا عذاب النار﴾ لأنّه جزاء من عصى ولم يطع.

فإنْ قلتَ: هذا إشارة إلى ماذا؟ قلتُ: إلى الخلق، على أنّ المراد به المخلوق، كأنّه قيل: ويتفكرون في مخلوق السموات والأرض، أي: فيما خلق منها. ويجوز أن يكون إشارة إلى السمٰات والأرض لأنها في معنى المخلوق. كأنه قيل:ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً، وفي هذا ضرب من التعظيم، كقوله: ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[6] ويجوز أن يكون باطلاً حالاً من هذا. وسبحانك اعتراض للتنزيه من العبث وأن يخلق شيئاً بغير حكمة.

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾.

﴿فقد أخزيته﴾ فقد أبلغت في إخزائه، وهو نظير قوله: ﴿فقد فاز﴾[7] ونحوه في كلامهم: من أدرك مرعى الضمان فقد أدرك، ومن سبق فلاناً فقد سبق. ﴿وما للظالمين﴾ اللام إشارة إلى من يدخل النار، وإعلام بأنّ من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعة ولا غيرها. تقول: سمعت رجلاً يقول كذا، وسمعت زيداً يتكلم، فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع لأنك وصفته بما يسمع أو جعلته حالاً عنه فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد وأن يقال: سمعت كلام فلان أو قوله.

رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾.

فإنْ قلتَ: فأي فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟ قلتُ: ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي لأن لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان، ونحوه قولك: مررت بهادٍ يهدي للإسلام، وذلك أنّ المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب أو لإطفاء الثائرة أو لإغاثة المكروب أو لكفاية بعض النوازل أو لبعض المنافع، وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدي للطريق ويهدي لسداد الرأي وغير ذلك. فإذا قلت: ينادي للإيمان ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته. ويقال: دعاه لكذا وإلى كذا، وندبه له وإليه، وناداه له وإليه، ونحوه هذاه للطريق وإليه. وذلك أنّ معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً، والمنادي هو الرسول، ادعوا إلى الله وادع إلى سبيل ربك. وعن محمد بن كعب: القرآن. ﴿أن آمنوا﴾ أي: آمنوا، أو بأن آمنوا. ﴿ذنوبنا﴾ كبائرنا. ﴿سيآتنا﴾ صغائرنا. ﴿مع الأبرار﴾ مخصوصين بصحبتهم معدودين في جملتهم، والأبرار جمع بر وبار، كرب وأرباب وصاحب وأصحاب.

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾.

﴿على رسلك﴾ على هذه صلة للوعد كما في قولك:

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: تقصير الصلاة، باب: إذا لم يطق قاعداً الحديث رقم (1117)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: في صلاة القاعد، الحديث رقم: (952)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم الحديث رقم: (372)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة المريض الحديث رقم: (1123).

(2) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تقدير نعم الله عز وجل وشكرها، فصل في فضل العقل الحديث رقم: (4647).

(4) قال الزيلعي غريب جداً 264/1.

(5) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (237/1) وذكره الزبيدي في إتحاف المتقين (105/2).

(6) سورة الإسراء، الآية: 9.

(7) سورة آل عمران، الآية: 185.

وعد الله الجنة على الطاعة، والمعنى: ما وعدتنا على تصديق رسلك، ألا تراه كيف اتبع ذكر المنادي للإيمان وهو الرسول، وقوله: آمنا وهو التصديق، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف، أي: ما وعدتنا منزلاً على رسلك أو محمولاً على رسلك لأنّ الرسل محملون ذلك فإنما عليه ما حمل. وقيل: على ألسنة رسلك، والموعود هو الثواب. وقيل: النصرة على الأعداء.

فإنْ قلتَ: كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد والله لا يخلف الميعاد؟ **قلتُ:** معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد، أو هو باب من اللجا إلى الله، والخضوع له كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التذلل لربهم، والتضرع إليه، واللجأ الذي هو سيما العبودية.

فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾.

يقال:

استجاب له واستجابه ... فلم يستجبه عند ذلك مجيب

﴿أني لا أضيع﴾ قرىء: بالفتح على حذف الياء، وبالكسر على إرادة القول. وقرىء: لا أضيع بالتشديد. **﴿من ذكر وأنثى﴾** بيان لعامل **﴿بعضكم من بعض﴾**، أي: يجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد، فكل واحد منكم من الآخر، أي: من أصله أو كأنه منه لفرط اتصالكم واتحادكم، وقيل: المراد وصلة الإسلام، وهذه جملة معترضة بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين.

وروي أنّ أمّ سلمة قالت: يا رسول الله إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء[1] فنزلت. **﴿فالذين هاجروا﴾** تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم. كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة وهي المهاجرة عن أوطانهم فارين إلى الله بدينهم من دار الفتنة، واضطُروا إلى الخروج من ديارهم التي ولدوا فيها ونشؤوا بما سامهم المشركون من الخسف. **﴿وأوذوا في سبيلي﴾** من أجله وبسببه، يريد سبيل الدين. **﴿وقاتلوا وقتلوا﴾** وغزوا المشركين واستشهدوا وقُرئَ وقتلوا بالتشديد، وقتلوا وقاتلوا على التقديم بالتخفيف والتشديد، وقتلوا وقتلوا على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول، وقتلوا وقاتلوا على بنائهما للفاعل. **﴿ثواباً﴾** في موضع المصدر المؤكد بمعنى إثابةً أو تثويباً. **﴿من عند الله﴾** لأنّ قوله: **﴿لأكفرن عنهم﴾** **﴿ولأدخلنهم﴾** في معنى لأثيبنهم. وعنده مثل أي يختص به وبقدرته وفضله لا يثيبه غيره ولا يقدر عليه، كما يقول الرجل: عندي ما تريد، يريد اختصاصه به وبملكه وإن لم يكن بحضرته. وهذا تعليم من الله كيف يدعي وكيف يبتهل إليه ويتضرّع. وتكرير ربنا من باب الابتهال وإعلام بما يوجب حسن الإجابة، وحسن الإثابة من احتمال المشاق في دين الله، والصبر على صعوبة تكاليفه، وقطع لأطماع الكسالى المتمنين عليه، وتسجيل على من لا يرى الثواب موصولاً إليه بالعمل بالجهل والغباوة. وروي عن جعفر الصادق رضي الله عنه: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية. وعن الحسن: حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات: ربنا، ثم أخبر أنه استجاب لهم. إلا أنه أتبع ذلك رافع الدعاء وما يستجاب به فلا بدّ من تقديمه بين يدي الدعاء.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾.

﴿لا يغرّنك﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد. أي: لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق والمضطرب ودرك العاجل وإصابة حظوظ الدنيا، ولا تغترر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض وتصرفهم في البلاد يتكسبون ويتجرون ويتدهقنون. عن ابن عباس: هم أهل مكة. وقيل: هم اليهود. وروي: أن ناساً من المؤمنين كانوا يرون ما كانوا فيه من الخصب والرخاء ولين العيش فيقولون: إنّ أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد.

فإنْ قلتَ: كيف جاز أن يغتر رسول الله ﷺ بذلك حتى ينهى عن الاغترار به؟ **قلتُ:** فيه وجهان:

أحدهما: أن مدره القوم ومتقدّمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكأنه قيل: لا يغرنكم.

والثاني: أنّ رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم فاكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه، كقوله: **﴿ولا تكن من الكافرين﴾**[2]، **﴿ولا تكونن من المشركين﴾**[3]، **﴿ولا تطع المكذبين﴾**[4]، وهذا في النهي نظير قوله في الأمر. **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾**[5]، **﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾**[6]، وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب لأنّ التقلب لو غرّه لاغتر به فمنع السبب ليمتنع المسبب. وقرىء: لا يغرّنك بالنون الخفيفة.

مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾.

﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك متاع قليل

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء الحديث رقم: (3023).
(2) سورة هود، الآية: 42.
(3) سورة الأنعام، الآية: 14.
(4) سورة القلم، الآية: 8.
(5) سورة الفاتحة، الآية: 6.
(6) سورة النساء، الآية: 136.

وهو التقلب في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعدّ الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعدّ الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه وكل زائل قليل. قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[1]. ﴿**وبئس المهاد**﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم.

لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

النزل والنزل: ما يقام للنازل. قال أبو الشعراء الضبي:

وكنا إذا الجبار ضافنا ... جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وانتصابه إمّا على الحال من جنات لتخصصها بالوصف، والعامل اللام: ويجوز أن يكون بمعنى مصدر مؤكد، كأنه قيل: رزقاً أو عطاءً ﴿**من عند الله وما عند الله**﴾ من الكثير الدائم. ﴿**خير للأبرار**﴾ مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل. وقرأ مسلمة بن محارب والأعمش: نزلاً بالسكون. وقرأ يزيد بن القعقاع: لكنّ الذين اتقوا بالتشديد.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾.

﴿**وإنّ من أهل الكتاب**﴾ عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب، وقيل: في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام، فأسلموا. وقيل: في أصحمة النجاشي ملك الحبشة، ومعنى أصحمة عطية بالعربية، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ، فقال عليه السلام: «أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم». فخرج إلى البقيع ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى الله واستغفر له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط وليس على دينه[2]. فنزلت. ودخلت لام الابتداء على اسم إنّ لفصل الظرف بينهما كقوله: ﴿وإنّ منكم لمن ليبطئن﴾[3] ﴿**وما أنزل إليكم**﴾ من القرآن، ﴿**وما أنزل إليهم**﴾ من الكتابين، ﴿**خاشعين لله**﴾ حال من فاعل يؤمن لأنّ من يؤمن في معنى الجمع. ﴿**لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً**﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم.

﴿**أولئك لهم أجرهم عند ربهم**﴾ أي: ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعدوه في قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾[4]، ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾[5] ﴿**إن الله سريع الحساب**﴾ لنفوذ عمله في كل شيء فهو عالم بما يستوجبه كل عامل من الأجر، ويجوز أن يراد: إنما توعدون لآتٍ قريب بعد ذكر الموعد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾.

﴿**اصبروا**﴾ على الدين وتكاليفه، ﴿**وصابروا**﴾ أعداء الله في الجهاد. أي: غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً. والمصابرة باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدّته وصعوبته. ﴿**ورابطوا**﴾ وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدّين للغزو. قال الله عز وجل: ﴿ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم﴾[6]. وعن النبي ﷺ: «من رابط يوماً وليلةً في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة»[7]. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم». وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس»[8].

سورة النساء

مدنية وهي مائة وستة وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾.

﴿**يا أيها الناس**﴾ يا بني آدم، ﴿**خلقكم من نفس واحدة**﴾ فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة الحديث رقم: (7126).

(2) الدارمي في أسباب النزول ص 81.

(3) سورة النساء، الآية: 72.

(4) سورة القصص، الآية: 54.

(5) سورة الحديد، الآية: 28.

(6) سورة الأنفال، الآية: 60.

(7) أحمد في المسند 5/440، ولفظه «أو ليلة»، ولم يذكر «وقيامه»، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل الحديث رقم: (4915) وأخرجه ابن حبان في كتاب: السير، باب: فضل الجهاد، الحديث رقم: (4623).

(8) ابن الجوزي في الموضوعات ـ ابن مردويه ـ الواحدي في تفسيره. [زيلعي 1/268].

فإنْ قلتَ[1]: علام عطف قوله: ﴿وخلق منها زوجها﴾؟ **قلتُ**: فيه وجهان: أحدهما أن يعطف على محذوف، كأنه قيل: من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها وخلق منها زوجها؛ وإنما حذف لدلالة المعنى عليه. والمعنى: شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها. ﴿وبث منها﴾ نوعي جنس الإنس وهما الذكور والإناث فوصفها بصفة هي بيان وتفصيل بكيفية خلقهم منها. والثاني: أن يعطف على خلقكم، ويكون الخطاب في يا أيها الناس للذين بعث إليهم رسول الله ﷺ، والمعنى: خلقكم من نفس آدم لأنهم من جملة الجنس المفرع منه وخلف منها أمكم حواء، ﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ غيركم من الأمم الفائتة للحصر.

فإنْ قلتَ: الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويبعث عليها، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة كان قادراً على كل شيء، ومن المقدورات عقاب العصاة فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ويخشى عقابه، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها. أو أراد بالتقوى تقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعوا ما يجب على بعضكم لبعض فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه. وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة.

وقرىء: وخالق منها زوجها وباث منهما بلفظ اسم الفاعل وهو خبر مبتدأ محذوف تقديره وهو خالق. ﴿تساءلون به﴾ تتساءلون به، فأدغمت التاء في السين. وقرىء: تساءلون بطرح التاء الثانية، أي: يسأل بعضكم بعضاً بالله وبالرحم فيقول: بالله وبالرحم أفعل كذا، على سبيل الاستعطاف، وأناشدك الله والرحم، أو تسألون غيركم بالله والرحم. فقيل: تفاعلون موضع تفعلون للجمع، كقولك: رأيت الهلال وتراءيناه، وتنصره قراءة من قرأ تسلون به مهموز أو غير مهموز. وقرىء: والأرحام بالحركات الثلاث، فالنصب على وجهين: إما على واتقوا الله والأرحام، أو أن يعطف على محل الجار والمجرور كقولك: مررت بزيد وعمراً. وينصره قراءة ابن مسعود: تسألون به وبالأرحام، والجرّ على عطف الظاهر على المضمر وليس بسديد لأنّ الضمير المتصل متصل كاسمه والجار والمجرور كشيء واحد فكانا في قولك: مررت به وزيد، وهذا غلامه وزيد، شديدي الاتصال فلما اشتد الاتصال لتكرره أشبه العطف على بعض الكلمة فلم يجز ووجب تكرير العامل كقولك: مررت به وبزيد، وهذا غلامه وغلام زيد. ألا ترى إلى صحة قولك: رأيتك وزيداً، ومررت بزيد وعمرو، ولما لم يقو الاتصال لأنه لم يتكرر. وقد تمحل لصحة هذه القراءة بأنها على تقدير تكرير الجار ونظيرها:

فـمـا بـك والأيـام مـن عـجـب

والرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف كأنه قيل: والأرحام، كذلك على معنى: والأرحام مما يتقي، أو والأرحام مما يتساءل به، والمعنى أنهم كانوا يقرون بأن لهم خالقاً وكانوا يتساءلون بذكر الله والرحم، فقيل لهم: اتقوا الله الذي خلقكم واتقوا الذي تتناشدون به واتقوا الأرحام فلا تقطعوها، أو واتقوا الله الذي تتعاطفون بأذكاره وبأنكار الرحم. وقد آذن عز وجل إذ قرن الأرحام باسمه أن صلتها منه بمكان كما قال ﴿أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾. وعن الحسن: إذا سألك بالله فأعطه، وإذا سألك بالرحم فأعطه. وللرحم حجنة عند العرش. ومعناه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه: الرحم معلقة بالعرش فإذا أتاها الواصل بشت به وكلمته، وإذا أتاها القاطع احتجبت منه. وسئل ابن عيينة عن قوله عليه الصلاة والسلام: «تخيروا لنطفكم»[2]. فقال: يقول لأولادكم، وذلك أن يضع ولده في الحلال، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾[3]. وأول صلته أن يختار له الموضع الحلال فلا يقطع رحمه ولا نسبه؛ فإنما للعاهر الحجر. ثم يختار الصحة ويجتنب الدعوة ولا يضعه موضع سوء يتبعه شهوته وهواه بغير هدى من الله.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾.

اليتامى: الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم، واليتيم الانفراد ومنه الرملة اليتيمة والدرّة اليتيمة. وقيل: اليتم في الأناسي من قبل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات.

فإنْ قلتَ: كيف جمع اليتيم وهو فعيل كمريض على يتامى؟

قلتُ: فيه وجهان: أن يجمع على يتمى كأسرى لأنّ اليتم من وادي الآفات والأوجاع ثم يجمع فعلى على فعالى كأسارى، ويجوز أن يجمع على فعائل لجري اليتيم مجرى

---

(1) قال أحمد: وإنما قدر المحذوف في الوجه الأوّل، حيث جعل الخطاب عاماً في الجنس؛ لأنه لولا التقدير، لكان قوله وبث منهما تكراراً لقوله: خلقكم إذ مؤداهما واحد، وليس على سبيل بيان الأوّل؛ لأنه معطوف عليه حينئذٍ، وإمّا هو معطوف على المقدّر، فذاك المقدّر واقع صفة مبينة، والمعطوف عليه داخل في حكم البيان، فاستقام، وأمّا الوجه الثاني: فالتكرار فيه ليس بلازم، إذ المخاطب بقوله: ﴿خلقكم﴾ الذين بعث إليهم النبي عليه الصلاة = والسلام، وقوله: ﴿وبث منهما﴾ واقع على من عدا المبعوث إليهم من الأمم، فلا حاجة للتقدير المذكور في الوجه الثاني، والله أعلم.

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: الأكفاء الحديث رقم: (1968)، والحاكم في المستدرك 2/163، والدارقطني في كتاب: النكاح، باب: المهر الحديث رقم: (198).

(3) سورة الإسراء، الآية: 23.

الأسماء نحو صاحب وفارس، فيقال: يتائم ثم يتامى على القلب، وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار لبقاء معنى الانفراد عن الآباء إلا أنه قد غلب أن يسموا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم وانتصبوا كفاةً يكفلون غيّرهم ويقومون عليهم زال عنهم هذا الاسم. وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ: يتيم أبي طالب، إمّا على القياس وإمّا حكاية للحال التي كان عليها صغيراً ناشئاً في حجر عمه توضيعاً له. وأمّا قوله عليه السلام: «لا يتم بعد الحلم»[1]، فما هو إلا تعليم شريعة لا لغة، يعني: أنه إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم**﴾؟ **قلتُ**[2]: إما أن يراد باليتامى الصغار، وبإتيانهم الأموال أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء وولاة السوء وقضاته ويكفوا عنها أيديهم الخاطفة حتى تأتي اليتامى إذا بلغوا سالمةً غير محذوفة، وإمّا أن يراد الكبار تسميةً لهم يتامى على القياس، أو لقرب عهدهم إذا بلغوا بالصغر كما تسمى الناقة عشراء بعد وضعها، على أنّ فيه إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ ولا يمطلوا إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار. وقيل: هي في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ طلب المال فمنعه عمه فترافعا إلى النبي ﷺ، فنزلت. فلما سمعها العم قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير، فدفع ماله إليه، فقال النبي ﷺ: «ومن يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فإنه يحل داره»؛ يعني: جنته. فلما قبض الفوا ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: «ثبت الأجر ثبت الأجر وبقي الوزر». قالوا: يا رسول الله قد عرفنا أنه ثبت الأجر، كيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل الله؟ فقال: «ثبت أجر الغلام، وبقي الوزر على والده»[3]. ﴿**ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب**﴾ ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم، وما أبيح لكم من المكاسب ورزق الله المبثوث في الأرض فتأكلوه مكانه، أو لا تستبدلوا الأمر الخبيث وهو اختزال أموال اليتامى بالأمر الطيب وهو حفظها والتورع منها. والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز منه التعجل بمعنى الاستعجال والتأخر بمعنى الاستئخار، قال ذو الرمة:

فيا كرم السكن الذين تحملوا ... عن الدار والمستخلف المتبدل

أراد: ويا لؤم ما استخلفته الدار واستبدلته. وقيل: هو أن يعطي رديئاً ويأخذ جيداً. وعن السدي: أن يجعل شاةً مهزولة مكان سمينة، وهذا ليس بتبدل وإنّما هو تبديل إلا أن يكارم صديقاً له فيأخذ منه عجفاء مكان سمينة من مال الصبي. ﴿**ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم**﴾ ولا تنفقوها معها، وحقيقتها[4] ولا تضموها إليها في الإنفاق حتى

---

(1) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (4/226).

(2) قال أحمد: والوجه الأول قوي بقوله بعد آيات، وابتلوا اليتامى، حتى إذا بلغوا النكاح، فإن آنستم منهم رشداً، فادفعوا إليهم أموالهم، دلّ على أنّ الآية الأولى في الحض على حفظها لهم، ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم، والثانية في الحض على الإيتاء الحقيقي عند حصول البلوغ، والرشد، ويقويه أيضاً قوله عقيب الأولى، ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، فهذا كله تأنيب للوصي ما دام المال بيده، واليتيم في حجره، وأمّا على الوجه الآخر، فيكون مؤدى الآيتين واحداً، وهو الأمر بالإيتاء حقيقة، ويخلص عن التكرار بأنّ الأولى كالمجملة، والثانية كالمبينة، لشرط الإيتاء من البلوغ، وإيناس الرشد، والله أعلم.

(3) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وإسحاق بن راهويه [الزيلعي 1/273].

(4) قال أحمد: أهل البيان يقولون المنهي متى كان درجات، فطريق البلاغة النهي عن أدناها تنبيهاً على الأعلى، كقوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما أف﴾، وإذا اعتبرت هذا القانون بهذه الآية، وجدته ببادئ الرأي مخالفاً لها، إذ أعلى درجات أكل مال اليتيم في النهي أن يأكله، وهو غني عنه، وأدناها أن يأكله وهو فقير إليه، فكان مقتضى القانون المذكور، أن ينهى عن أكل مال اليتيم من هو فقير إليه، حتى يلزم نهي الغني عنه من طريق الأولى، وحينئذٍ، فلا بدّ من تمهيد أمر، يوضح فائدة تخصيص الصورة العليا بالنهي في هذه الآية، فنقول أبلغ الكلام ما تعدّدت وجوه إفادته، ولا شك أنّ النهي عن الأدنى، وإن أفاد النهي عن الأعلى، إلا إنّ للنهي عن الأعلى أيضاً فائدة أخرى جليلة لا تؤخذ من النهي عن الأدنى: وذلك أنّ المنهي كلما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر، والداعية إليه أبعد، ولا شك أنّ المستقر في النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغنى عنه، أقبح صور الأكل، فخصص بالنهي تشنيعاً على من يقع فيه، حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء، دعاه ذلك إلى الإحجام عن أكل ماله مطلقاً، ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم، ولا تكاد هذه الفائدة تحصل، لو خصص النهي بأكله مع الفقر، إذ ليست الطباع في هذه الصورة معينة على الاجتناب، كإعانتها عليه في الصورة الأولى، ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه الأكل، مع أنّ تناول مال اليتيم على أي وجه كان منهي عنه كان ذلك بالإدخار، أو بالتباس، أو ببذله في لذة النكاح مثلاً، أو غير ذلك، إلا أنّ حكمة تخصيص النهي بالأكل، أنّ العرب كانت تتذمم بالإكثار من الأكل، وتعدّ البطنة من البهيمية، وتعيب على من اتخذها ديدنه، ولا كذلك سائر الملاذ، فإنهم ربما يتفاخرون بالإكثار من النكاح، ويعدّونه من زينة الدنيا، فلما كان الأكل عندهم أقبح الملاذ، خص النهي به حتى إذا نفرت النفس منه بمقتضى طبعها المألوف، جرها ذلك إلى النفور من صرف مال اليتيم في سائر الملاذ، أو غيرها أكلاً، أو غيره، ومثل هذه الآية في تخصيص النهي، بما هو أعلى قوله تعالى: ﴿لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ فخص هذه الصورة؛ لأنّ الطبع على الانتهاء عنها أعون، ويقابل هذا النظر في النهي نظر آخر في الأمر، وهو أنه تارة يخص صورة الأمر الأدنى تنبيهاً على الأعلى، وتارة يخص صورة الأعلى لمثل الفائدة المذكورة من التدريب، ألا ترى إلى قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة، وإذا حضر القسمة ﴿أولوا القربى واليتامى والمساكين، فارزقوهم﴾ الآية، كيف خص صورة حضورهم، وإن كانت العليا بالنسبة إلى غيبتهم، وذلك أنّ الله تعالى علم شح الأنفس الأموال،=

لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلة مبالاة بما لا يحل لكم وتسوية بينه وبين الحلال.

فإنْ قلتَ: قد حرّم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم فلم ورد النهي عن أكله معها؟ **قلتُ**: لأنّهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال وهم على ذلك يطمعون فيها كان القبح أبلغ والذمّ أحق، ولأنّهم كانوا يفعلون كذلك، فنعى عليهم فعلهم وسمع بهم ليكون أزجر لهم.

والحوب: الذنب العظيم، ومنه قوله عليه السلام: «إن طلاق أم أيوب لحوب»[1]، فكأنّه قيل: إنّه كان ذنباً عظيماً كبيراً. وقرأ الحسن: حوباً بفتح الحاء، وهو مصدر حاب حوباً. وقرىء: حاباً، ونظير الحوب والحاب القول والقال، والطرد والطرد.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾.

ولما نزلت[2] الآية في اليتامى وما في أكل أموالهم من الحوب الكبير خاف الأولياء أن يلحقهم الحوب بترك الإقساط في حقوق اليتامى، وأخذوا يتحرّجون من ولايتهم، وكان الرجل منهم ربّما كان تحته العشر من الأزواج والثمان والست فلا يقوم بحقوقهنّ ولا يعدل بينهنّ، فقيل لهم: إن خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى فتحرّجتم منها فخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء، فقلّلوا عدد المنكوحات لأنّ من تحرّج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرّج ولا تائب، لأنّه إنّما وجب أن يتحرّج من الذنب ويتاب عنه لقبحه، والقبح قائم في كل ذنب. وقيل[3]: كانوا لا يتحرّجون من الزنا وهم يتحرّجون من ولاية اليتامى.

فقيل: إن خفتم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنا، فانكحوا ما حلّ لكم من النساء، ولا تحوموا حول المحرّمات. وقيل: كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال أو يكون وليها فيتزوّجها ضناً بها عن غيره، فربما اجتمعت عنده عشر منهنّ فيخاف لضعفهنّ وفقد من يغضب لهنّ أن يظلمهنّ حقوقهنّ، ويفرط فيما يجب لهنّ. فقيل لهم: إن خفتم أن لا تقسطوا في يتامى النساء فانكحوا من غيرهنّ ما طاب لكم. ويقال للإناث: اليتامى، كما يقال للذكور، وهو جمع يتيمة على القلب، كما قيل: أيامى والأصل أيائم ويتائم. وقرأ النخعي: تقسطوا بفتح التاء، على أن لا مزيدة مثلها في لئلا يعلم، يريد: وإن خفتم أن تجوروا ﴿ما طاب﴾ ما حل ﴿لكم من النساء﴾ لأنّ منهنّ ما حرّم كاللاتي في آية التحريم. وقيل: ما ذهاباً إلى الصفة، ولأنّ الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾[4] ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ معدولة عن أعداد مكرّرة؛ وإنّما منعت الصرف لما فيها من العدلين. عدلها عن صيغها، وعدلها عن تكررها. وهي نكرات يعرفن بلام التعريف، تقول: فلان ينكح المثنى والثلاث والرباع، ومحلهنّ النصب على الحال. مما طاب تقديره فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً.

فإنْ قلتَ: الذي أطلق للناكح في الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع فما معنى التكرير في مثنى وثلاث ورباع؟ **قلتُ**: الخطاب للجميع فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي أطلق له، كما تقول للجماعة: اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم، درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعةً أربعة ولو أفردت لم يكن له معنى.

= فلو أمر بإسعاف الأقارب، واليتامى من المال الموروث، ولم يذكر حالة حضورهم القسمة لم تكن الأنفس بالمنبعثة إلى هذا المعروف، كانبعاثها مع حضورهم بخلاف ما إذا حضروا، فإن النفس يرق طبعها، وتنفر من أن تأخذ المال الجزل، وذو الرحم حاضر محروم، ولا يسعف، ولا يساعد، فإذا أمرت في هذه الحالة بالإسعاف هان عليها امتثال الأمر، وائتلافها على امتثال الطبع، ثم تدربت بذلك على إسعاف ذي الرحم مطلقاً حضر، أو غاب، فمراعاة هذا وأمثاله من الفوائد لا يكاد يلفي، إلا في الكتاب العزيز، ولا يعثر عليه إلا الحاذق الفطن المؤيد بالتوفيق، نسأل الله أن يسلك بنا في هذا النمط، فخذ هذا القانون عمدة، وهو أن النهي إن خصّ الأدنى، فلفائدة التنبيه على الأعلى، وإن خصّ الأعلى، فلفائدة التدريب على الانكفاف عن القبح مطلقاً من الانكفاف عن الأقبح، ومثل هذا النظر في جانب الأمر، والله الموفق.

(1) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب: في الطلاق الحديث رقم: (233)، والحاكم في المستدرك 302/2.

(2) قال أحمد: قد ثبت أنّ قاعدة القدرية، وعقيدتهم أن الكبيرة الواحدة توجب خلود العبد في العذاب، وإن كان موحداً ما لم يتب عنها، = فمن ثَم يقولون لا تفيد التوبة عن بعض الذنوب، والإصرار على بعضها؛ لأنه بواحدة من الكبائر ساوى الكافر في الخلود في العذاب، ولا يفيد توحيده، ولا شيء من أعماله هذا هو معتقدهم الفاسد، الذي يروم الزمخشري تفسير الآية عليه فاحذره أمّا أهل السنة، فيقولون إذا تاب العبد من بعض الذنوب، كان الخطاب بوجود التوبة من باقيها متوجهاً عليه، وكأنه قام ببعض الواجبات، وترك القيام ببعضها، فأفادته التوبة محو المتوب عنه بإذن الله، وعده وهو في العهد، فيما لم يتب عنه، فإن كان تفسير الآية على أنهم خوطبوا بالتحرّج في حقوق النساء، والتوبة من الجور عليهنّ، كما تابوا عن الحيف على اليتامى، فالأمر في ذلك منزل على ما بيناه من قواعد السنة، والله ولي التوفيق.

(3) قال أحمد: وهذا التأويل الذي أخرجه جدير بالتقدم، وهو الأظهر، وتكون الآية معه لبيان حكم اليتامى، وتحذيراً من التورّط في الجور عليهنّ، وأمراً بالاحتياط وفي غيرهنّ متسع إلى الأربع، وأصدق شاهد على أنه هو المراد قوله تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهنّ نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾.

(4) سورة النساء، الآية: 3.

فإنْ قلتَ: فلم جاء العطف بالواو دون أو؟ **قلتُ**: كما جاء بالواو في المثال الذي حذوته لك، ولو ذهبت تقول اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثةً ثلاثةً أو أربعةً أربعةً علمت أنّه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة، وليس لهم أن يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القسم على تثنية وبعضه على تثليث وبعضه على تربيع. وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذي دلت عليه الواو وتحريره أنّ الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على طريق الجمع إن شاؤوا مختلفين في تلك الأعداد، وإن شاؤوا متفقين فيها محظوراً عليهم ما وراء ذلك. وقرأ إبراهيم: وثلث وربع، على القصر من ثلاث ورباع. **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا﴾** بين هذه الأعداد كما خفتم ترك العدل فيما فوقها **﴿فواحدة﴾** فالزموا أو فاختاروا واحدةً ونروا الجمع رأساً فإنّ الأمر كله يدور مع العدل، فأينما وجدتم العدل فعليكم به. وقرىء: فواحدة بالرفع على فالمقنع واحدة، أو فكفت واحدة، أو فحسبكم واحدة. **﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾** سوى في السهولة واليسر بين الحرّة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ولا توقيت عدد. ولعمري أنهنّ أقل تبعةً وأقصر شغباً وأخف مؤنةً من المهائر لا عليك أكثرت منهنّ أم أقللت عدلت بينهنّ في القسم أم لم تعدل عزلت عنهنّ أم لم تعزل. وقرأ ابن أبي عبلة: من ملكت. **﴿ذلك﴾** إشارة إلى اختيار الواحدة والتسري **﴿أدنى ألا تعولوا﴾** أقرب من أن لا تميلوا، من قولهم: عال الميزان عولاً إذا مال، وميزان فلان عائل، وعال الحاكم في حكمه إذا جار. وروي: أنّ أعرابياً حكم عليه حاكم، فقال له: أتعول عليّ. وقد روت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: «أن لا تعولوا، أن لا تجوروا». والذي يحكى عن الشافعي رحمه الله أنّه فسّر: أن لا تعولوا، أن لا تكثر عيالكم، فوجهه أن يجعل من قولك: عال الرجل عياله يعولهم، كقولهم: مانهم يمونهم، إذا أنفق عليهم، لأنّ من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحال والرزق الطيب، وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤوس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد وأن لا يظنّ به تحريف تعيلوا إلى تعولوا. فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من فيّ أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً[1]. وكفى بكتابنا المترجم بكتاب «شافي العيّ من كلام الشافعي» شاهداً بأنّه كان أعلى كعباً وأطول باعاً في علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا، ولكن للعلماء طرقاً وأساليب فسلك في تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات.

فإنْ قلتَ: كيف يقل: عيال من تسري وفي السراري نحو ما في المهائر! **قلتُ**: ليس كذلك لأنّ الغرض بالتزوّج التوالد والتناسل بخلاف التسري، ولذلك جاز العزل عن السراري بغير إذنهنّ، فكان التسري مظنةً لقلة الولد بالإضافة إلى التزوج كتزوج الواحدة بالإضافة إلى تزوّج الأربع. وقرأ طاوس: أن لا تعيلوا، من أعال الرجل إذا كثر عياله. وهذه القراءة تعضد تفسير الشافعي رحمه الله من حيث المعنى الذي قصده.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾.

﴿صدقاتهنّ﴾ مهورهنّ، وفي حديث شريح: قضى ابن عباس لها بالصدقة. وقرىء: صدقاتهنّ بفتح الصاد وسكون الدال على تخفيف صدقاتهنّ؛ وصدقاتهنّ بضم الصاد وسكون الدال جمع صدقة بوزن غرفة. وقرىء: صدقتهنّ بضم الصاد والدال على التوحيد، وهو تثقيل صدقة كقولك: في ظلمة ظلمة. **﴿نحلة﴾** من نحله كذا، إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلةً ونحلاً، ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه: إني كنت نحلتك جداد عشرين وسقاً بالعالية[2]. وانتصابها على المصدر لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء[3]، فكأنّه قيل: وانحلوا النساء صدقاتهنّ نحلةً، أي: أعطوهنّ مهورهنّ عن طيبة أنفسكم، أو على الحال من المخاطبين، أي: آتوهنّ صدقاتهنّ ناحلين، طيبي النفوس بالإعطاء، أو من الصدقات أي: منحولة معطاة عن طيبة الأنفس وقيل: نحلة من الله عطية من عنده وتفضلاً منه عليهن. وقيل: النحلة الملة ونحلة الإسلام خير النحل، وفلان ينتحل كذا أي: يدين به. والمعنى: آتوهن مهورهنّ ديانة على أنّها مفعول لها، ويجوز أن يكون حالاً من الصدقات، أي: ديناً من الله شرعه وفرضه، والخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء لأنّهم كانوا يأخذون مهور بناتهم، وكانوا يقولون: هنيئاً لك النافجة، لمن تولد له بنت، يعنون تأخذ مهرها فتنفج به مالك، أي: تعظمه. الضمير في منه جارٍ مجرى اسم الإشارة، كأنّه قيل: عن شيء من ذلك، كما قال الله تعالى:

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل في ترك الغضب الحديث رقم: (8345).

(2) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الأقضية، باب: ما لا يجوز من النحل الحديث رقم: (40).

(3) قال أحمد: هذا الفصل بجملته حسن جداً غير أن في حمله تنكير الضمير في منه على الصداق، ثم تنظيره ذلك بقوله، فاصدق نظراً، وذلك أنّ المراعي، ثم الأصل، وهو: عدم دخول الفاء والجزم، وتقدير ما هو الأصل، وإعطاؤه حكم الموجود ليس ببدع، ولا = كذلك إفراد الصداق المقدّر، فإنه ليس بأصل الكلام بل الأصل الجمع، وأما الإفراد، فقد يأتي في مثله على سبيل الاختصار استغناء عن الجمع بالإضافة، ولا يرد أنهم قد راعوا ما ليس بأصل في قوله:

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً

لأنّ دخول الباء، وإن لم يكن أصلاً، إلا أنها قد توطنت بهذا الموضوع، وكثر حلولها فيه، فصارت كأن الأصل دخولها في الخبر، والله أعلم، والأمر في ذلك القريب.

﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾[1] بعد ذكر الشهوات أو من الحجج المسموعة من أفواه العرب ما روي عن رؤبة أنّه قيل له: في قوله:

كـأنّـه فـي الـجـلـد تـولـيـع الـبـهـق

فقال: أردت كأن ذاك، أو يرجع إلى ما هو في معنى الصدقات وهو الصداق لأنّك لو قلت: وآتوا النساء صداقهن، لم تخل بالمعنى فهو نحو قوله: ﴿فأصدّق وأكن من الصالحين﴾. كأنّه قيل: أصدّق. و ﴿نفساً﴾ تمييز، وتوحيدها لأنّ الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه، والمعنى: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق وتجافت عنه نفوسهنّ طيبات غير مخبثات مما يضطرهنّ إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم ﴿فكلوه﴾ فأنفقوه. قالوا: فإن وهبت له ثم طلبت منه بعد الهبة علم أنّها لم تطب عنه نفساً. وعن الشعبي أنّ رجلاً أتى مع امرأته شريحاً في عطية أعطتها إياه وهي تطلب أن ترجع، فقال شريح: رد عليها. فقال الرجل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿فإن طبن لكم﴾ قال: **لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه. وعنه: أقيلها فيما وهبت ولا أقيله لأنهنّ يخدعن.**

وحكي: أنّ رجلاً من آل أبي معيط أعطته امرأته ألف دينار صداقاً كان لها عليه، فلبث شهراً ثم طلقها، فخاصمته إلى عبد الملك بن مروان. فقال الرجل: أعطتني طيبة بها نفسها. فقال عبد الملك: فأين الآية التي بعدها، ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾، اردد عليها. وعن عمر رضي الله عنه أنّه كتب إلى قضاته: إنّ النساء يعطين رغبةً ورهبةً، فأيما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها[2]. وعن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فقال: إذا جادت لزوجها بالعطية طائعةً غير مكرهة لا يقضي به عليكم سلطان ولا يؤاخذكم الله به في الآخرة[3]. وروي: أنّ ناساً كانوا يتأثمون أن يرجع أحد منهم في شيء مما ساق إلى امرأته، فقال الله تعالى: إن طابت نفس واحدة من غير إكراه ولا خديعة، فكلوه سائغاً هنيئاً، في الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط، حيث بني الشرط على طيب النفس. فقيل: فإن طبن، ولم يقل فإن وهبن أو سمحن، إعلاماً بأنّ المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبةً. وقيل: فإن طبن لكم عن شيء منه، ولم يقل فإن طبن لكم عنها، بعثاً لهنّ على تقليل الموهوب. وعن الليث بن سعد: لا يجوز تبرعها إلا باليسير، وعن الأوزاعي: لا يجوز تبرعها ما لم تلد أو تقم في بيت زوجها سنةً. ويجوز أن يكون تذكير الضمير لينصرف إلى الصداق الواحد فيكون متناولاً بعضه ولو أنّث لتناول ظاهره هبة الصداق كلّه لأنّ بعض الصدقات واحدة منها فصاعداً.

الهنيء والمريء: صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه. وقيل: الهنيء ما يلذه الآكل، والمريء ما يحمد عاقبته. وقيل: هو ما ينساغ في مجراه. وقيل لمدخل الطعام من الحلقوم إلى فم المعدة: المريء، لمروء الطعام فيه وهو انسياغه وهما وصف للمصدر، أي: أكلاً هنيئاً مريئاً، أو حال من الضمير أي: كلوه وهو هنيء مريء. وقد يوقف على فكلوه ويبتدأ هنيئاً مريئاً على الدعاء وعلى أنّهما صفتان أقيمتا مقام المصدرين، كأنّه قيل: هنأ مرأ، وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة.

وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾.

﴿السفهاء﴾ المبذرون أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي ولا يدي لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرف فيها، والخطاب للأولياء.[4] وأضاف الأموال إليهم لأنّها من جنس ما يقيم به الناس معايشهم، كما قال: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾[5] ﴿فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾[6] والدليل على أنّه خطاب للأولياء في أموال اليتامى قوله: ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾ ﴿جعل الله لكم قياماً﴾ أي: تقومون بها وتنتعشون ولو ضيعتموها لضعتم، فكأنّها في أنفسها قيامكم وانتعاشكم. وقرىء: قيماً بمعنى قياماً، كما جاء عوذاً بمعنى عياذاً. وقرأ عبد الله بن عمر: قواماً بالواو، وقوام الشيء ما يقام به، كقولك: هو ملاك الأمر لما يملك به. وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان وكانت له بضاعة يقلبها: لولاها لتمندل بي بنو العباس. وعن غيره: وقيل له: إنّها تدنيك من الدنيا، لئن أدنتني من الدنيا لقد صانتني عنها. وكانوا يقولون: اتجروا واكتسبوا فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه. وربما رأوا رجلاً في جنازة فقالوا له: اذهب إلى دكانك. ﴿وارزقوهم فيها﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال فلا يأكلها الإنفاق. وقيل: هو أمر لكل أحد أن لا يخرج ماله إلى أحد من السفهاء قريب أو أجنبي رجل أو امرأة يعلم أنّه يضعه فيما لا ينبغي ويفسده. ﴿قولاً معروفاً﴾ قال ابن جريج: عدّة جميلة إن صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم. وعن عطاء: إذا ربحت أعطيتك، وإن

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 15.

(2) عبد الرزاق في المصنف، 9/115 الحديث رقم: (16562)، وابن أبي شيبة 6/191، كتاب: البيوع والأقضية، باب: في المرأة تعطي زوجها.

(3) الثعلبي والواحدي.

(4) قال أحمد: ويؤيد هذا المعنى أنه لما أمر بإسعاف ذوي القربى، على سبيل المواساة قال: وارزقوهم منه؛ لأنّ المدفوع إليهم من صلب المال، والله أعلم.

(5) سورة النساء، الآية: 29.

(6) سورة النساء، الآية: 25.

غنمت في غزاتي جعلت لك حظاً. وقيل: إن لم يكن ممن وجبت عليك نفقته فقل: عافانا الله وإياك بارك الله فيك. وكل ما سكنت إليه النفس وأحبته لحسنه عقلاً أو شرعاً من قول أو عمل فهو معروف، وما أنكرته ونفرت منه لقبحه فهو منكر.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وابتلوا اليتامى﴾[1] واختبروا عقولهم وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرّف قبل البلوغ حتى إذا تبينتم منهم رشداً أي: هدايةً دفعتم إليهم أموالهم من غير تأخير عن حدّ البلوغ.

وبلوغ النكاح: أن يحتلم لأنّه يصلح للنكاح عنده ولطلب ما هو مقصود به وهو التوالد والتناسل.

والإيناس: الاستيضاح فاستعير للتبيين. واختلف في الابتلاء والرشد، فالابتلاء عند أبي حنيفة وأصحابه: أن يدفع إليه ما يتصرّف فيه حتى يستبين حاله فيما يجيء منه، والرشد التهدّي إلى وجوه التصرّف، وعن ابن عباس: الصلاح في العقل والحفظ للمال. وعند مالك والشافعي: الابتلاء أن يتتبع أحواله وتصرّفه في الأخذ والإعطاء ويتبصر مخايله وميله إلى الدين، والرشد الصلاح في الدين لأنّ الفسق مفسدة للمال.

فإنْ قلتَ: فإن لم يؤنس منه رشد إلى حدّ البلوغ؟ قلتُ: عند أبي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لأنّ مدّة بلوغ الذكر عنده بالسن ثماني عشرة سنة، فإذا زادت عليها سبع سنين وهي مدّة معتبرة في تغير أحوال الإنسان؛ لقوله عليه السلام: «مروهم بالصلاة لسبع»[2]. دفع إليه ماله أونس منه الرشد أو لم يؤنس. وعند أصحابه لا يدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد.

فإنْ قلتَ: ما معنى تنكير الرشد؟ قلتُ: معناه نوعاً من الرشد وهو الرشد في التصرّف والتجارة أو طرفاً من الرشد ومخيلة من مخايله حتى لا ينتظر به تمام الرشد.

فإنْ قلتَ[3]: كيف نظم هذا الكلام؟ قلتُ: ما بعد حتى إلى فادفعوا إليهم أموالهم جعل غاية للابتلاء وهي حتى التي تقع بعدها الجمل كالتي في قوله:

ما زالت القتلى تمج دماءها ... بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

والجملة الواقعة بعدها جملة شرطية لأنّ إذا متضمنة معنى الشرط وفعل الشرط بلغوا النكاح، وقوله: ﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ جملة من شرط وجزاء واقعة جواباً للشرط الأوّل الذي هو إذا بلغوا النكاح، فكأنّه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم فاستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم. وقرأ ابن مسعود: فإن أحسيتم، بمعنى أحسستم. قال:

أحس به فهن إليه شوس

وقرئ رشداً بفتحتين ورشداً بضمتين. ﴿إسرافاً

---

(1) قال أحمد: الابتلاء على هذا الوجه مذهب مالك رضي الله عنه، غير أنه لا يكون عنده إلا بعد البلوغ، ولا يدفع إليه من ماله شيء قبله، وكذلك أحد قولي الشافعي رضي الله عنه، وقوله الآخر كمذهب أبي حنيفة غير أنّ عنه خلافاً في صورته، قبل البلوغ على وجهين، أحدهما: أن يسلم إليه المال، ويباشر العقود بنفسه، كالبالغ، والآخر أن يكون وظيفته أن يساوم، وتقرير الثمن، إذا بلغ الأمر إلى العقد باشره الوليّ دونه وسلم الصبيّ الثمن، فأمّا الرشد، فالمعتبر عند مالك رضي الله عنه فيه، هو أن يحرز ماله وينميه، وإن كان فاسقاً في حاله، وعند الشافعي المعتبر صلاح الدين، والمال جميعاً، وغرضنا الآن أن نبين وجه تنزيل مذهب مالك في هذه الآية، والله المستعان، فأمّا منعه من الإيتاء قبل البلوغ، وإن كان ظاهر الآية، أنّ الإيتاء قبله من حيث جعل البلوغ، وإيناس الرشد غاية للإيتاء، والغاية متأخرة عن المغيا ضرورة، فيتعين وقوع الإيتاء قبل، ولهذه النكتة أثبته أبو حنيفة قبل البلوغ، والله أعلم، فعلى جعل المجموع من البلوغ، وإيناس الرشد هو الغاية حينئذٍ يلزم وقوع الابتلاء قبلهما أعني المجموع، وإن وقع بعد أحدهما، وهو البلوغ؛ لأنّ المجموع من اثنين، فصاعداً لا يتحقق إلا بوجود كل واحد من مفرديه، ويحقق هذا التنزيل أنك لو قلت، وابتلوا اليتامى بعد البلوغ، حتى إذا اجتمع الأمران، وتضامّا البلوغ والرشد، فادفعوا إليهم أموالهم، لاستقام الكلام، ولكان البلوغ قبل الابتلاء، وإن كان الابتلاء مغياً بالأمرين، واقعاً قبل مجموعهما، ونظير هذا النظر توجيه مذهب أبي حنيفة في قوله، إنّ فيئة المولى إنما تعتبر في أجل الإيلاء، لا بعده، وتنزيله على قوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر، = فإن فاؤوا فإنّ الله غفور رحيم﴾ فجدّد به عهداً يتضح لك تناسب النظرين، والله أعلم، وأما اقتصاره رضي الله عنه بالرشد على المال، فإن كان المولى عليه فاسق الحال، فوجه استخراجه من الآية أنه علق إيناس الرشد فيها بالابتلاء، بدفع مال إليهم ينظر تصرّفهم فيه، فلو كان المراد صلاح الدين فقط لم يقف الاختبار في ذلك، على دفع المال إليهم، إذ الظاهر من المصلح لدينه أنه لا يتفاوت حاله في حالتي، عدمه ويسره، ولو كان المراد صلاح الدين، والمال معاً، كما يقوله الشافعي رضي الله عنه، لم يكن صلاح الدين موقوفاً على الاختبار، كما مرّ آنفاً وأيضاً، فالرشد في الدين والمال جميعاً، هو: الغاية في الرشد، وليس الجمع بينهما بقيد، وتنكير الرشد في الآية يأبى ذلك إذ الظاهر: فإن آنستم منهم رشداً مّا، فبادروا بتسليم المال إليهم غير منتظرين بلوغ الغاية فيه، والله أعلم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: متى يؤمر الغلام بالصلاة الحديث رقم: (494)، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده الحديث رقم: (495)، والترمذي في كتاب: الصلاة باب: متى يؤمر الصبي بالصلاة الحديث رقم: (407)، والدارقطني في السنن، كتاب: الصلاة، باب: الأمر بتعليم الصلوات والضرب عليها.

(3) قال أحمد رحمه الله: هو يروم بهذا التقدير تنزيل مذهب أبي حنيفة في سبق الابتلاء، على البلوغ على مقتضى الآية، وقد أسلفنا وجه تنزيل مذهب مالك عليها بأظهر وجه، وأقربه، والحاصل أنّ مقتضى النظر إلى المجموع من حيث هو، ومقتضى مذهب أبي حنيفة النظر إلى المفردين، والظاهر اعتبار المجموع، فإن العطف بالفاء يقتضيه، والله أعلم.

وبداراً﴾ مسرفين ومبادرين كبرهم أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون في إنفاقها، وتقولون: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا. ثم قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً، وبين أن يكون فقيراً، فالغني يستعف من أكلها ولا يطمع ويقتنع بما رزقه الله من الغنى إشفاقاً على اليتيم وإبقاءً على ماله، والفقير يأكل قوتاً مقدّراً محتاطاً في تقديره على وجه الأجرة أو استقراضاً على ما في ذلك من الاختلاف، ولفظ الأكل بالمعروف والاستعفاف مما يدل على أنّ للوصي حقاً لقيامه عليها. وعن النبي ﷺ: أنّ رجلاً قال له: إن في حجري يتيماً، أفآكل من ماله؟ قال: «بالمعروف غير متأثل مالاً ولا واق مالك بماله». فقال: أفأضربه؟ قال: «مما كنت ضارباً منه ولدك»[1]. وعن ابن عباس: أنّ وليّ اليتيم قال له: أفأشرب من لبن إبله؟ قال: إن كنت تبغي ضالتها وتلوط حوضها وتهنأ جرباها وتسقيها يوم وردها، فاشرب غير مضر بنسل ولا ناهك في الحلب[2]. وعنه: يضرب بيده مع أيديهم فليأكل بالمعروف ولا يلبس عمامةً فما فوقها. وعن إبراهيم: لا يلبس الكتان والحلل ولكن ما سدّ الجوعة ووارى العورة. وعن محمد بن كعب: يتقرّم تقرّم البهيمة وينزل نفسه منزلة الأجير فيما لا بدّ منه. وعن الشعبي: يأكل من ماله بقدر ما يعين فيه. وعنه: كالميتة يتناول عند الضرورة ويقضي. وعن مجاهد: يستسلف فإذا أيسر أدّى. وعن سعيد بن جبير: إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس ما يستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه، فإن أيسر قضاه وإن أعسر فهو في حل. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّي أنزلت نفسي من مال الله منزلة والي اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف وإذا أيسرت قضيت[3]. واستعف[4] أبلغ من عفّ، كأنّه طالب زيادة العفة. ﴿فأشهدوا عليهم﴾ بأنّهم تسلموا وقبضوها وبرئت عنها ذممكم، وذلك أبعد من التخاصم والتجاحد، وأدخل في الأمانة وبراءة الساحة. ألا ترى أنّه إذا لم يشهد فادعى عليه صدق مع اليمين عند أبي حنيفة وأصحابه. وعند مالك والشافعي، لا يصدّق إلا بالبينة. فكان في الإشهاد الاستحراز من توجه الحلف المفضي إلى التهمة أو من وجوب الضمان إذا لم يقم البينة. ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي: كافياً في الشهادة عليكم بالدفع والقبض أو محاسباً، فعليكم بالتصادق وإياكم والتكاذب.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾.

﴿الأقربون﴾ هم المتوارثون من ذوي القرابات دون غيرهم. ﴿مما قلّ منه أو كثر﴾ بدل مما ترك بتكرير العامل، و ﴿نصيباً مفروضاً﴾ نصب على الاختصاص بمعنى: أعني نصيباً مفروضاً مقطوعاً واجباً لا بد لهم من أن يحوزوه ولا يستأثر به، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد، كقوله: ﴿فريضة من الله﴾. كأنّه قيل: قسمة مفروضة. روي: أنّ أوس بن الصامت الأنصاري ترك امرأته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهنّ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيخ فشكت إليه، فقال: «ارجعي حتى انظر ما يحدث الله». فنزلت فبعث إليهما: «لا تفرّقا من مال أوس شيئاً فإنّ الله قد جعل لهنّ نصيباً ولم يبين حتى يبين»، فنزلت: ﴿يوصيكم الله﴾[5]. فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي ابني العم[6].

وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾.

﴿وإذا حضر القسمة﴾ أي: قسمة التركة ﴿أولوا القربى﴾ ممن لا يرث ﴿فارزقوهم منه﴾ الضمير لما ترك الولدان والأقربون وهو أمر على الندب. قال الحسن: كان المؤمنون يفعلون ذلك، إذا اجتمعت الورثة حضرهم هؤلاء فرضخوا لهم بالشيء من رثة المتاع، فحضهم الله على ذلك تأديباً من غير أن يكون فريضةً. قالوا: ولو كان فريضةً لضرب له حدّ ومقدار كما لغيره من الحقوق. وروي: أنّ عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنه قسم ميراث أبيه وعائشة رضي الله عنها حية، فلم يدع في الدار أحد إلا أعطاه، وتلا هذه الآية. وقيل: هو على الوجوب. وقيل: هو منسوخ بآيات الميراث كالوصية. وعن سعيد بن جبير أنّ ناساً يقولون نسخت، ووالله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس.

والقول المعروف: أن يلطفوا لهم القول ويقولوا: خذوا بارك الله عليكم، ويعتذروا إليهم، ويستقلوا ما أعطوهم، ولا يستكثروه ولا يمنوا عليهم. وعن الحسن والنخعي: أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات والمساكين واليتامى من العين ـ يعنيان الورق والذهب ـ فإذا قسم الورق والذهب

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الوصايا، باب: ما جاء فيما لولي اليتيم... الحديث رقم: (2872)، والنسائي في كتاب الوصايا، باب: ما للوصي من مال اليتيم الحديث رقم: (3668)، وابن ماجه في كتاب: الوصايا، باب: قوله تعالى: ﴿ومن كان فقيراً...﴾ الحديث رقم: (2718)، وأحمد في المسند 6/290، وأخرجه ابن حبان في كتاب الرضاع، باب: النفقة الحديث رقم: (4244).

(2) الموطأ برواية محمد بن الحسن ص 331، الحديث رقم: (938).

(3) ابن أبي شيبة 12/324، كتاب الجهاد، باب: عدل الوالي.

(4) قال أحمد: في هذا إشارة إلى أنه من استفعل بمعنى الطلب، وليس كذلك، فإن استفعل الطلبية متعدية، وهذه قاصرة، والظاهر أنه مما جاء فيه فعل، واستفعل بمعنى، والله أعلم.

(5) سورة النساء، الآية: 11.

(6) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص 83.

وصارت القسمة إلى الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك قالوا لهم قولاً معروفاً. كانوا يقولون لهم: بورك فيكم.

وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾.

﴿لو﴾ مع ما في حيزه صلة للذين[1]، والمراد بهم الأوصياء، أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على من في حجورهم من اليتامى ويشفقوا عليهم خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً وشفقتهم عليهم، وأن يقدّروا ذلك في أنفسهم ويصوّروه حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة. ويجوز أن يكون المعنى: وليخشوا على اليتامى من الضياع. وقيل: هم الذين يجلسون إلى المريض فيقولون: إنّ ذريتك لا يغنون عنك من الله شيئاً فقدم مالك فيستغرقه بالوصايا. فأمروا بأن يخشوا ربّهم أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولاد أنفسهم لو كانوا، ويجوز أن يتصل بما قبله وأن يكون أمراً بالشفقة للورثة على الذين يحضرون القسمة من ضعفاء أقاربهم واليتامى والمساكين، وأن يتصوّروا أنّهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضائعين محتاجين هل كانوا يخافون عليهم الحرمان والخيبة.

فإنْ قلتَ: ما معنى وقوع لو تركوا وجوابه صلةً للذين؟ **قلتُ:** معناه: وليخش الذين صفتهم وحالهم أنّهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذريةً ضعافاً وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم. كما قال القائل:

لقد زاد الحياة إليّ حباً ... بناتي أنهنّ من الضعاف
أحاذر أن يرين البؤس بعدي ... وأن يشربن رنقاً بعد صافي

وقرىء: ضعفاء وضُعافى وضَعافى نحو سُكارى وسَكارى. والقول السديد من الأوصياء أن لا يؤذوا اليتامى ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بيا بنيّ ويا ولدي، ومن الجالسين إلى المريض أن يقولوا له إذا أراد الوصية: لا تسرف في وصيتك فتجحف بأولادك، مثل قول رسول الله ﷺ لسعد: «إنّك إن تترك ولدك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس»[2]. وكان الصحابة رضي الله عنهم يستحبون أن لا تبلغ الوصية الثلث، وأنّ الخمس أفضل من الربع، والربع من الثلث، ومن المتقاسمين ميراثهم أن يلطفوا القول ويجملوه للحاضرين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾.

﴿ظلماً﴾[3] ظالمين، أو على وجه الظلم من أولياء السوء وقضاته. ﴿في بطونهم﴾ ملء بطونهم، يقال: أكل فلان في بطنه وفي بعض بطنه. قال:

كلوا في بعض بطنكمو تعفوا

ومعنى يأكلون ناراً: ما يجر إلى النار فكأنّه نار في الحقيقة. وروي: أنّه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه، فيعرف الناس أنّه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا[4] وقرئ: وسيصلون بضم الياء وتخفيف اللام وتشديدها. ﴿سعيراً﴾ ناراً من النيران مبهمة الوصف.

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾.

﴿يوصيكم الله﴾ يعهد إليكم ويأمركم ﴿في أولادكم﴾ في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة، وهذا إجمال تفصيله ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾.

فإنْ قلتَ[5]: هلا قيل للأنثيين مثل حظ الذكر أو للأنثى نصف حظ الذكر؟ **قلتُ:** ليبدأ ببيان حظ الذكر لفضله كما ضوعف حظه لذلك، ولأنّ قوله: ﴿الذكر مثل حظ الأنثيين﴾ قصد إلى بيان فضل الذكر، وقولك: للأنثيين مثل حظ الذكر قصد إلى بيان نقص الأنثى، وما كان قصد

---

(1) قال أحمد: وإنما ألجاه إلى تقدير تركوا بقوله شارفوا أن يتركوا؛ لأنّ جوابه قوله خافوا عليهم، والخوف عليهم إنما يكون قبل تركهم إياهم، وذلك في دار الدنيا، فقد دلّ على أنّ المراد بالترك، الإشراف عليه ضرورة، وإلا لزم وقوع الجواب قبل الشرط، وهو باطل ونظيره، فإذا بلغن أجلهنّ، فأمسكوهنّ بمعروف، أو سرحوهنّ بمعروف، أي: شارفن بلوغ الأجل، ولهذا المجاز في التعبير عن المشارفة على الترك بالترك سرّ بديع، وهو التخويف بالحالة التي لا يبقى معها مطمع في الحياة، ولا في الذنب عن الذرية الضعاف، وهي الحالة التي وإن كانت من الدنيا، إلا أنها لقربها من الآخرة، ولصوقها بالمفارقة صارت من حيزها، ومعبراً عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الوصايا، باب: أن يترك ورثته = أغنياء خير... الحديث رقم: (2742)، ومسلم في كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث الحديث رقم: (4191).

(3) قال أحمد: ومثله قد بدت البغضاء من أفواههم، أي: شدقوا بها، وقالوها بملء أفواههم، أو يكون المراد بذكر البطون تصوير الأكل للسامع حتى يتأكد عنده بشاعة هذا الجرم بمزيد تصوير، ولأجل تأكيد التشنيع على الظالم لليتيم في ماله خص الأكل؛ لأنه أبشع الأحوال التي يتناول مال اليتيم فيها، والله أعلم.

(4) أخرجه ابن حبان في كتاب الحظر والإباحة، الحديث رقم: (5566).

(5) قال أحمد: لأنّ الأفضلية حينئذٍ مدلول عليها بواسطة الاستلزام، لا منطوق بها، وأمّا على نظم الآية، فالأفضلية منطوق بها غير محتاجة إلى ذلك.

إلى بيان فضله كان أدلّ على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه، ولأنّهم كانوا يورّثون الذكور دون الإناث وهو السبب لورود الآية. فقيل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث فلا يتمادى في حظهن حتى يحرمن مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به.

فإنْ قلتَ[1]: فإن حظ الأنثيين الثلثان فكأنّه قيل: للذكر الثلثان! **قلتُ**: أريد حال الاجتماع لا الانفراد، أي: إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان كما أنّ لهما سهمين، وأما في حال الانفراد فالابن يأخذ المال كله، والبنتان يأخذان الثلثين، والدليل على أن الغرض حكم الاجتماع أنه أتبعه حكم الانفراد وهو قوله: **﴿فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾** والمعنى الذكر منهم أي: من أولادكم، فحذف الراجع إليه لأنّه مفهوم كقولهم: السمن منوان بدرهم. **﴿فإن كنّ نساء﴾** فإن كانت البنات أو المولودات نساءً خلصاً ليس معهن رجل، يعني: بنات ليس معهنّ ابن. **﴿فوق اثنتين﴾** يجوز أن يكون خبراً ثانياً لكان وأن يكون صفةً لنساء، أي: نساء زائدات على اثنتين. **﴿وإن كانت واحدة﴾** وإن كانت البنت أو المولودة منفردةً فذةً ليس معها أخرى **﴿فلها النصف﴾** وقرئ: واحدة بالرفع على كان التامّة والقراءة بالنصب أوفق لقوله: **﴿فإن كن نساءً﴾** وقرأ زيد بن ثابت: النصف بالضم. والضمير في ترك للميت؛ لأنّ الآية لما كانت في الميراث علم أن التارك هو الميت.

فإنْ قلتَ: قوله: **﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الأولاد لا لبيان حظ الأنثيين، فكيف صح أن يردف قوله **﴿فإن كنّ نساءً﴾** وهو لبيان حظ الإناث؟ **قلتُ**: وإن كان مسوقاً لبيان حظ الذكر إلا أنه لما فقه منه وتبين حظ الأنثيين مع أخيهما كان كأنه مسوق للأمرين جميعاً، فلذلك صح أن يقال **﴿فإن كنّ نساء﴾**.

فإنْ قلتَ: هل يصح أن يكون الضميران في كن وكانت مبهمين ويكون نساء وواحدة تفسيراً لهما على أنّ كان تامةً! **قلتُ**: لا أبعد ذلك.

فإنْ قلتَ[2]: لم قيل: فإن كن نساءً، ولم يقل: وإن كانت امرأةً! **قلتُ**: لأنّ الغرض ثمة خلوصهنّ إناثاً لا ذكر فيهن ليميز بين ما ذكر من اجتماعهن مع الذكور في قوله: **﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** وبين انفرادهن، وأريد ههنا أن يميّز بين كون البنت مع غيرها وبين كونها وحدها لا قرينة لها.

فإنْ قلتَ: قد ذكر حكم البنتين في حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت في حال الانفراد ولم يذكر حكم البنتين في حال الانفراد، فما حكمهما وما باله لم يذكر! **قلتُ**[3]: أما حكمهما فمختلف فيه، فابن عباس أبى تنزيلهما منزلة الجماعة لقوله تعالى: **﴿فإن كنّ نساءً فوق اثنتين﴾**، فأعطاهما حكم الواحدة وهو ظاهر مكشوف، وأما سائر الصحابة فقد أعطوهما حكم الجماعة، والذي يعلل به قولهم: إن قوله **﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** قد دلّ على أنّ حكم الأنثيين حكم الذكر، وذلك أنّ الذكر كما يحوز الثلثين مع الواحدة فالأنثيان كذلك يحوزان الثلثين، فلما ذكر ما دلّ على حكم الأنثيين قيل: **﴿فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾** على معنى: فإن كن جماعة بالغات ما بلغن من العدد فلهن ما للأنثيين وهو الثلثان لا يتجاوزنه لكثرتهن ليعلم أن حكم الجماعة حكم الثنتين بغير تفاوت. وقيل: إن الثنتين أمس رحماً بالميت من الأختين فأوجبوا لهما ما أوجب الله للأختين ولم يروا أن يقصروا بهما عن حظ من هو أبعد رحماً منهما. وقيل: إنّ البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كانت أحرى أن يجب لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها ويكون لأختها معها

---

(1) قال أحمد: وعلى مقتضى هذا لا يكون حكم الابن، إذا انفرد مذكوراً في الآية؛ لأنه حيث ذكره، فإنما عنى حالة الاجتماع مع الإناث، خاصة على تفسير الزمخشري هذا، ويمكن خلافه، وهو: أن المذكور أولاً ميراث الذكر على الإطلاق مجتمعاً مع الإناث، خاصة على تفسير الزمخشري هذا، ويمكن خلافه، وهو: أن المذكور أولاً ميراث الذكر على الإطلاق مجتمعاً مع الإناث، ومنفرداً، أما وجه تلقي حكمه حالة الاجتماع، فقد قرّره الزمخشري، وأما وجه تلقيه حالة الانفراد، فمن حيث أنّ الله تعالى جعل له مثل حظ الأنثيين، فإن كانت معه فذاك، وإن كانت منفردة عنه، فقد جعل لها في حال انفرادها النصف، فاقتضى ذلك أن للذكر عند انفراده مثلي نصيبها عند انفرادها، وذلك الكامل، والله أعلم.

(2) قال أحمد: ومجرد النظر أن ابن عباس أجرى التقييد بالصفة، وهي قوله فوق اثنتين على ظاهره من مفهوم المخالفة، غير أنه ما كان يقتضي اللفظ أن يقتصر لهما على النصف، لأجل تعارض المفهومين إذ مفهوم فلهن ثلثاً ما ترك أن تكون الأنثى أقل من الثلثين، ومفهوم فإن كانت واحدة فلها النصف أن تكون الأنثيين أزيد من النصف، فيكون نصيبها متردداً فيما بين النصف = والثلثين، ومفهوم فإن كانت واحدة فلها النصف أن تكون الأنثيين أزيد من النصف، فيكون نصيبها متردداً، فيما بين النصف والثلثين بقدر مجمل، وأما غيره، فاظهر للتقييد فائدة سوى المخالفة، وتلك الفائدة رفع الفرق المتوهم بين الأنثيين، وما فوقهما، ومتى ظهرت للتخصيص فائدة جلية سوى المخالفة، وجب المصير إليها وسقط التعلق بالمفهوم، وكأنه على القول المشهور لما علم أن الأنثيين يستوجبان الثلثين بالطرق المذكورة، وكان الوهم قد يسبق إلى أنّ الزائد على الأنثيين يستوجبن أكثر من فرض الأنثيين؛ لأنّ ذلك مقتضى القياس رفع هذا الوهم بإيجاب الثلثين، لما فوق الأنثيين كوجوبه لهما، والله أعلم.

(3) قال أحمد: يريد أن حكم البنتين حال اجتماعهما مع الابن، مذكور في قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، وأن حكم البنات منفردات مذكور في قوله: ﴿فإن كن نساء﴾، وأن حكم البنت منفردة مذكورة في قوله: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾، وبقي عليه أن ذكر الابن في حال الانفراد مستفاد من قوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، إذا ضممته إلى قوله: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾ على التقرير الذي قدمته.

مثل ما كان يجب لها أيضاً مع أخيها لو انفردت معه فوجب لهما الثلثان. ﴿ولأبويه﴾ الضمير للميت[1] و﴿ولكل واحد منهما﴾ بدل من لأبويه بتكرير العامل وفائدة هذا البدل أنّه لو قيل: ولأبويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه، ولو قيل: ولأبويه السدسان لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية وعلى خلافها.

فإنْ قلتَ: فهلا قيل: ولكلّ واحد من أبويه السدس، وأي فائدة في ذكر الأبوين أوّلاً ثم في الإبدال منهما؟ **قلتُ**: لأنّ في الإبدال والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً وتشديداً كالذي تراه في الجمع بين المفسر والتفسير، والسدس مبتدأ وخبره لأبويه والبدل متوسط بينهما للبيان. وقرأ الحسن ونعيم بن ميسرة: السدس بالتخفيف، وكذلك الثلث والربع والثمن.

والولد يقع على الذكر والأنثى ويختلف حكم الأب في ذلك، فإن كان ذكراً اقتصر بالأب على السدس وإن كانت أنثى عصب مع إعطاء السدس.

فإنْ قلتَ[2]: قد بين حكم الأبوين في الإرث مع الولد ثم حكمهما مع عدمه فهلا قيل: فإن لم يكن له ولد فلأمه الثلث، وأي فائدة في قوله: ﴿وورثه أبواه﴾. **قلتُ**: معناه فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فحسب، فلأمه الثلث مما ترك، كما قال: ﴿لكل واحد منهما السدس مما ترك﴾ لأنّه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين كان للأم ثلث ما بقي بعد إخراج نصيب الزوج لا ثلث ما ترك، إلا عند ابن عباس. والمعنى: أن الأبوين إذا خلصا تقاسما الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين.

فإنْ قلتَ: ما العلة في أن كان لها ثلث ما بقي دون ثلث المال؟ **قلتُ**: فيه وجهان: أحدهما أنّ الزوج إنّما استحق ما يسهم له بحق العقد لا بالقرابة فأشبه الوصية في قسمة ما وراءه، والثاني أنّ الأب أقوى في الإرث من الأم بدليل أنّه يضعف عليها إذا خلصا ويكون صاحب فرض وعصبة وجامعاً بين الأمرين، فلو ضرب لها الثلث كملاً لأدى إلى حط نصيبه عن نصيبها ألا ترى أن امرأةً لو تركت زوجاً وأبوين فصار للزوج النصف، وللأم الثلث، والباقي للأب حازت الأم سهمين، والأب سهماً واحداً، فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنثى مثل حظ الذكرين. ﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ الإخوة يحجبون الأم عن الثلث وإن كانوا لا يرثون مع الأب فيكون لها السدس وللأب خمسة الأسداس، ويستوي في الحجب الاثنان فصاعداً، إلا عند ابن عباس. وعنه: أنّهم يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الأم.

فإنْ قلتَ[3]: فكيف صحّ أن يتناول الإخوة الأخوين والجمع خلاف التثنية؟ **قلتُ**: الإخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بغير كمية والتثنية كالتثليث والتربيع في إفادة الكمية وهذا موضع الدلالة على الجمع المطلق فدلّ بالإخوة عليه. وقرئ: فلإمه بكسر الهمزة اتباعاً للجرّ، ألا تراها لا تكسر في قوله: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمّه آيةً﴾[4] ﴿من بعد وصية﴾ متعلق بما تقدّمه من قسمة المواريث كلها لا بما يليه وحده، كأنّه قيل: قسمة هذه الأنصبة من بعد وصية يوصي بها. وقرئ: يوصي بها بالتخفيف والتشديد، ويوصى بها على البناء للمفعول مخففاً.

فإنْ قلتَ: ما معنى أو؟ **قلتُ**: معناها الإباحة وأنّه إن كان أحدهما أو كلاهما قدّم على قسمة الميراث كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين.

فإنْ قلتَ[5]: لم قدّمت الوصية على الدين، والدين مقدّم عليها في الشريعة! **قلتُ**: لما كانت الوصية مشبهةً للميراث

---

(1) قال أحمد: وفي إعرابه بدلاً نظر، وذلك أنه يكون على هذا التقدير من بدل الشيء من الشيء، وهما كعين واحدة، ويكون أصل الكلام والسدس لأبويه، لكل واحد منهما، ومقتضى الاقتصار على المبدل منه التشريك بينهما في السدس، كما قال: ﴿فإن كنّ نساء فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ما ترك﴾، فاقتضى اشتراكهنّ فيه، فيقتضي البدل لو قدر إهدار الأوّل إفراد كل واحد منهما بالسدس، وعدم التشريك، وهذا يناقض حقيقة هذا النوع من البدل؛ لأنه يلزم في هذا النوع أن يكون مؤدّى المبدل والبدل واحداً، وإنما فائدته التأكيد بمجموع الاسمين لا غير بلا زيادة معنى، فإذا تحقق ما بينهما من التباين تعذرت البدلية المذكورة، وليس من بدل التقسيم أيضاً على هذا الإعراب، وإلا لزم زيادة معنى في البدل، فالوجه، والله أعلم أن يقدر مبتدأ محذوف، كأنه قيل ولأبويه الثلث، ثم لما ذكر نصيبهما مجملاً فصله بقوله لكل واحد منهما السدس، وساغ حذف المبتدأ لدلالة التفصيل عليه ضرورة، إذ يلزم من استحقاق كل واحد منهما للسدس استحقاقهما معاً للثلث، والله أعلم، ولا يستقيم على هذا الوجه أيضاً جعله من بدل التقسيم، ألا تراك لو قلت الدار كلها لثلاثة لزيد، ولعمرو، ولخالد كان هذا بدلاً، وتقسيماً صحيحاً؛ لأنك لو حذفت المبدل منه، فقلت الدار، لزيد، ولعمرو، ولخالد، ولم تزد في البدل زيادة استقام، فلو قلت الدار = لثلاثة، لزيد ثلثها، ولعمرو ثلثها، ولخالد ثلثها لم يستقم بدل تقسيم، إذ لو حذفت المبدل منه لصار الكلام الدار لزيد ثلثها، ولعمرو ثلثها، ولخالد ثلثها، فهذا كلام مستأنف؛ لأنك زدت فيه معنى تمييز ما لكل واحد منهم، وذلك لا يعطيه المبدل، ولا سبيل في بدل الشيء من الشيء، إلى زيادة معنى.

(2) قال أحمد: ومذهب ابن عباس أنّ الإخوة يأخذون السدس، الذي حجبوا الأم عنه مع وجود الأب، فعلى هذا يكون فائدة قوله: ﴿وورثه أبواه﴾، ولم يكن ثَمّ إخوة، فلأمه الثلث، فإن كان له إخوة، فلأمه السدس ولا يمكن جعله على مذهب ابن عباس مقيداً بعدم الزوجين؛ لأنّ ثلث الأم عنده لا يتغير بوجود واحد منهما، والله الموفق.

(3) قال أحمد: ولقد أحسن في هذا التقرير ما لم يحسن كثير من حذاق الأصوليين، يريد متلقي في تغاير وصفي الجمع، والتثنية إذ الجمع يتناول الاثنين، ويتناول أزيد منهما، ولك هذا وأما التثنية، فقاصرة على الاثنين، فبينهما على هذا العموم، والخصوص، فكل تثنية جمع، وليس كل جمع تثنية.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 50.

(5) قال أحمد: الوصية على ضربين لغير معين، فلا يطالب بها إلا الإمام إن عثر عليها، ولمعين فله المطالبة، ولكن يتباينان في القوّة=

في كونها مأخوذة من غير عوض كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاظمهم ولا تطيب أنفسهم بها، فكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين فإنّ نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدّمت على الدين بعثاً على وجوبها والمسارعة إلى إخراجها مع الدين. ولذلك جيء بكلمة أو للتسوية بينهما في الوجوب، ثم أكد ذلك ورغب فيه بقوله: ﴿آباؤكم وأبناؤكم﴾ أي: لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم الذين يموتون أمّن أوصى منهم أمّن لم يوصّ يعني: أنّ من أوصى ببعض ماله فعرّضكم لثواب الآخرة بإمضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعاً وأحضر جدوى ممن ترك الوصية فوفر عليكم عرض الدنيا وجعل ثواب الآخرة أقرب وأحضر من عرض الدنيا ذهاباً إلى حقيقة الأمر، لأنّ عرض الدنيا وإن كان عاجلاً قريباً في الصورة إلا أنّه فانٍ فهو في الحقيقة الأبعد الأقصى وثواب الآخرة وإن كان آجلاً إلا أنّه باقٍ فهو في الحقيقة الأقرب الأدنى. وقيل: إنّ الابن إن كان أرفع درجة من أبيه في الجنة سأل أن يرفع أبوه إليه، فيرفع. وكذلك الأب إن كان أرفع درجة من ابنه سأل أن يرفع إليه ابنه. فأنتم لا تدرون في الدنيا أيهم أقرب لكم نفعاً. وقيل: قد فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم لكم أنفع فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة، وقيل: الأب يجب عليه النفقة على الابن إذا احتاج وكذلك الابن إذا كان محتاجاً فهما في النفع بالنفقة لا يدرى أيهما أقرب نفعاً، وليس شيء من هذه الأقاويل بملائم للمعنى ولا مجاوب له لأنّ هذه الجملة اعتراضية ومن حق الاعتراضي أن يؤكد ما اعترض بينه ويناسبه والقول ما تقدّم. ﴿فريضة﴾ نصبت نصب المصدر المؤكد، أي: فرض ذلك فرضاً. ﴿إنّ الله كان عليماً﴾ بمصالح خلقه ﴿حكيماً﴾ في كل ما فرض وقسم من المواريث وغيرها.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿فإن كان لهنّ ولد﴾ منكم أو من غيركم. جعلت المرأة على النصف من الرجل بحق الزواج، كما جعلت كذلك بحق النسب واحدة، والجماعة سواء في الربع والثمن. ﴿وإن كان رجل﴾ يعني: الميت، و﴿يورث﴾ من ورث أي يورث منه وهو صفة لرجل، و﴿كلالة﴾ خبر كان. أي: وإن كان رجل موروث منه كلالة، أو يجعل يورث خبر كان وكلالة حالاً من الضمير في يورث. وقرئ: يورث ويورّث بالتخفيف والتشديد على البناء للفاعل وكلالة حال أو مفعول به.

فإنْ قلتَ: ما الكلالة؟ قلتُ: ينطلق على ثلاثة: على من لم يخلف ولداً ولا والداً، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد. ومنه قولهم: ما ورث المجد عن كلالة. كما تقول: ما صمت عن عي وما كفّ عن جبن. والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوّة من الإعياء. قال الأعشى:

فآليت لا أرثي لها من كلالة

فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد لأنّها بالإضافة إلى قرابتهما كالّة ضعيفة، وإذا جعل صفة للموروث أو الوارث فبمعنى ذي كلالة، كما تقول: فلان من قرابتي، تريد من ذوي قرابتي. ويجوز أن تكون صفة كالهجاجة والفقاقة للأحمق.

فإنْ قلتَ: فإن جعلتها اسماً للقرابة في الآية فعلام تنصبها؟ قلتُ: على أنّها مفعول له، أي: يورث لأجل الكلالة أو يورث غيره لأجلها.

فإنْ قلتَ: فإن جعلت يورث على البناء للمفعول من أورث فما وجهه؟ قلتُ: الرجل حينئذٍ هو الوارث لا الموروث.

فإنْ قلتَ: فالضمير في قوله: ﴿فلكل واحد منهما﴾ إلى من يرجع حينئذٍ؟ قلتُ: إلى الرجل وإلى أخيه أو أخته وعلى الأوّل إليهما.

فإنْ قلتَ: إذا رجع الضمير إليهما أفاد استواءهما في حيازة السدس من غير مفاضلة الذكر الأنثى فهل تبقى هذه الفائدة قائمة في هذا الوجه؟ قلتُ: نعم لأنّك إذا قلت السدس له أو لواحد من الأخ أو الأخت على التخيير فقد سوّيت بين الذكر والأنثى. وعن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: أنّه سئل عن الكلالة فقال: أقول فيه برأيي فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء، الكلالة ما خلا الولد والوالد[1]. وعن عطاء والضحاك أنّ الكلالة هو الموروث. وعن سعيد بن جبير: هو الوارث.

= بين مطالبة ربّ الدين بدينه، والموصى له بوصيته؛ لأنّ ربّ الدين يطالب بحق مستقرّ في الذمّة سبق له به الفضل، على مديانه، والموصى له إنما يطلب صدقة تفضل بها عليه الميت، لا عن استحقاق سابق، فاكتفى بما لرب الدين من القوّة عن تقديمه في الذكر، وعضد ضعف الموصى له، بتقديمه في الذكر عوناً له على حصول رفق الوصية، ويمكن في دفعه طريق آخر، فأقول لم يخالف ترتيب الآية الواقع شرعاً، فلا يرد السؤال، وذلك أنّ أوّل = ما يبدأ به إخراج الدين، ثم الوصية، ثم اقتسام ذوي الميراث، فانظر كيف جاء إخراج الميراث آخراً تلو إخراج الوصية تلو الدين، فوافق قولنا قسمة المواريث بعد الوصية، والدين صورة الواقع شرعاً، ولو سقط ذكر بعد، وكان الكلام لخرجوا الميراث والوصية والدين، لما أمكن ورود السؤال المذكور، والله أعلم.

(1) أخرجه ابن أبي شيبة 11/416، كتاب الفرائض، باب: الكلالة من هم.

وقد أجمعوا على أنّ المراد أولاد الأمّ. وتدل عليه قراءة أبيّ: وله أخ أو أخت من الأمّ، وقراءة سعد بن أبي وقاص: وله أخ أو أخت من أمّ. وقيل: إنّما استدل على أنّ الكلالة ههنا الإخوة للأمّ خاصةً بما ذكر في آخر السورة من أنّ للأختين الثلثين وأنّ للإخوة كل المال فعلم ههنا لما جعل للواحد السدس وللاثنين الثلث ولم يزادوا على الثلث شيئاً أنّه يعني بهم الأخوة للأمّ، وإلا فالكلالة عامّة لمن عدا الولد والوالد من سائر الإخوة الأخياف والأعيان وأولاد العلات وغيرهم. ﴿غير مضارّ﴾ حال، أي: يوصي بها وهو غير مضارّ لورثته، وذلك أن يوصي بزيادة على الثلث أو يوصي بالثلث فما دونه ونيته مضارّة ورثته ومغاضبتهم لا وجه الله تعالى. وعن قتادة: كره الله الضرار في الحياة وعند الممات، ونهى عنه. وعن الحسن: المضارّة في الدين أن يوصي بدين ليس عليه ومعناه الإقرار. ﴿وصية من الله﴾ مصدر مؤكد، أي: يوصيكم بذلك وصيةً، كقوله: ﴿فريضة من الله﴾[1] ويجوز أن تكون منصوبةً بغير مضارّ، أي: لا يضارّ وصيةً من الله، وهو الثلث فما دونه بزيادته على الثلث، أو وصية من الله بالأولاد، وأن لا يدعهم عالةً بإسرافه في الوصية. وينصر هذا الوجه قراءة الحسن: غير مضارّ وصية من الله، بالإضافة. ﴿والله عليم﴾ بمن جار أو عدل في وصيته، ﴿حليم﴾ عن الجائر لا يعاجله، وهذا وعيد.

فإنْ قلتَ: في يوصي ضمير الرجل إذا جعلته المورث، فكيف تعمل إذا جعلته الوارث؟ قلتُ: كما عملت في قوله تعالى: ﴿فلهنّ ثلثا ما ترك﴾[2] لأنّه علم أنّ التارك والموصي هو الميت.

فإنْ قلتَ: فأين ذو الحال فيمن قرأ: يوصى بها، على ما لم يسم فاعله؟ قلتُ: يضمر يوصي فينتصب عن فاعله لأنّه لما قيل: يوصى بها علم أنّ ثَم موصياً. كما قال: ﴿يسبح له فيها بالغدوّ والآصال﴾[3] على ما لم يسمّ فاعله، فعلم أنّ ثَم مسبحاً فاضمر يسبح. فكما كان رجال فاعل ما يدل عليه يسبح كان غير مضارّ حالاً عما يدل عليه يوصى بها.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى الأحكام التي ذكرت في باب اليتامى والوصايا والمواريث، وسماها حدوداً لأنّ الشرائع كالحدود المضروبة الموقتة للمكلفين لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ويتخطوها إلى ما ليس لهم بحق. ﴿يدخله﴾ قرئ بالياء والنون، ﴿وكذلك يدخله ناراً﴾ وقيل: يدخله وخالدين حملا على لفظ من ومعناه. وانتصب خالدين وخالداً على الحال.

فإنْ قلتَ: هل يجوز أن يكونا صفتين لجنات وناراً؟ قلتُ: لا، لأنّهما جريا على غير من هما له فلا بدّ من الضمير، وهو قولك: خالدين هم فيها، وخالداً هو فيها.

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿ياتين الفاحشة﴾ يرهقنها، يقال: أتى الفاحشة وجاءها وغشيها ورهقها بمعنى. وفي قراءة ابن مسعود: ياتين بالفاحشة، والفاحشة الزنا لزيادتها في القبح على كثير من القبائح. ﴿فامسكوهن في البيوت﴾ قيل: معناه فخلدوهن محبوسات في بيوتكم، وكان ذلك عقوبتهنّ في أوّل الإسلام. ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿الزانية والزاني﴾ الآية. ويجوز أن تكون غير منسوخة بأن يترك ذكر الحدّ لكونه معلوماً بالكتاب والسنة، ويوصي بإمساكهنّ في البيوت بعد أن يحددن صيانةً لهنّ عن مثل ما جرى عليهنّ بسبب الخروج من البيوت والتعرّض للرجال. ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ هو النكاح الذي يستغنين به عن السفاح. وقيل: السبيل هو الحدّ لأنّه لم يكن مشروعاً ذلك الوقت.

فإنْ قلتَ: ما معنى يتوفاهنّ الموت، والتوفي والموت بمعنى واحد، كأنّه قيل: حتى يميتهنّ الموت! قلتُ: يجوز أن يراد حتى يتوفاهنّ ملائكة الموت، كقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾[4] ﴿إنّ الذين توفاهم الملائكة﴾[5] ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾[6]، أو حتى يأخذهنّ الموت ويستوفي أرواحهن.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿واللذان ياتيانها منكم﴾ يريد الزاني والزانية، ﴿فآذوهما﴾ فوبخوهما وذمّوهما وقولوا لهما: أما استحييتما أما خفتما الله. ﴿فإن تابا وأصلحا﴾ وغيرا الحال ﴿فاعرضوا عنهما﴾ واقطعوا التوبيخ والمذمة، فإنّ التوبة تمنع استحقاق الذمّ والعقاب. ويحتمل أن يكون خطاباً للشهود العاثرين على سرهما، ويراد بالإيذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الإمام والحدّ، فإن تابا قبل الرفع إلى الإمام فاعرضوا عنهما ولا تتعرضوا لهما. وقيل: نزلت الأولى في السحاقات وهذه في اللواطين. وقرئ: اللذانّ بتشديد النون، واللذأنّ بالهمزة وتشديد النون.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ

(1) سورة النساء، الآية: 11.
(2) سورة النساء، الآية: 11.
(3) سورة النور، الآية: 36.
(4) سورة النحل، الآية: 28.
(5) سورة النساء، الآية: 97.
(6) سورة السجدة، الآية: 11.

مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾.

﴿التوبة﴾ من تاب الله عليه إذا قبل توبته وغفر له[1]، يعني: إنّما القبول والغفران واجب على الله تعالى لهؤلاء. ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال، أي: يعملون السوء جاهلين سفهاء؛ لأنّ ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه والشهوة لا مما تدعو إليه الحكمة والعقل. وعن مجاهد: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. ﴿من قريب﴾ من زمان قريب، والزمان القريب ما قبل حضرة الموت. ألا ترى إلى قوله: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾[2] فبين أنّ وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا يقبل فيه التوبة فبقي ما وراء ذلك في حكم القريب. وعن ابن عباس: قبل أن ينزل به سلطان الموت. وعن الضحاك: كل توبة قبل الموت فهو قريب. وعن النخعي: ما لم يؤخذ بكظمه. وروى أبو أيوب عن النبي ﷺ: «إنّ الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[3]. وعن عطاء: ولو قبل موته بفوق ناقة. وعن الحسن: أنّ إبليس قال حين أهبط إلى الأرض: وعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام روحه في جسده. فقال تعالى: «وعزتي لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر»[4].

فإنْ قلتَ: ما معنى من في قوله: ﴿من قريب﴾؟ قلتُ: معناه التبعيض، أي: يتوبون بعض زمان قريب، كأنّه سمي ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زماناً قريباً، ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب وإلا فهو تائب من بعيد.

فإن قلتَ: ما فائدة قوله: ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ بعد قوله: ﴿إنّما التوبة على الله﴾ لهم؟ قلتُ: قوله: ﴿إنما التوبة على الله﴾ إعلام بوجوبها عليه كما يجب على العبد بعض الطاعات، وقوله: ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ عدة بأنّه يفي بما وجب عليه، وإعلام بأنّ الغفران كائن لا محالة كما يعد العبد الوفاء بالواجب.

وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾.

﴿ولا الذين يموتون﴾ عطف على الذين يعملون السيئات سوّى بين الذين سوّفوا توبتهم إلى حضرة الموت وبين الذين ماتوا على الكفر في أنّه لا توبة لهم، لأنّ حضرة الموت أول أحوال الآخرة فكما أنّ المائت على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين فكذلك المسوّف إلى حضرة الموت، لمجاوزة كل واحد منهما أوان التكليف والاختيار، ﴿أولئك أعتدنا لهم﴾ في الوعيد نظير. قوله: ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾[5] في الوعد، ليتبين أنّ الأمرين كائنان لا محالة.

فإنْ قلتَ: من المراد بالذين يعملون السيئات أهم الفساق من أهل القبلة أم الكفار؟ قلتُ: فيه وجهان: أحدهما أن يراد الكفار لظاهر قوله: ﴿وهم كفار﴾ وأن يراد الفساق لأنّ الكلام إنّما وقع في الزانيين والإعراض عنهما إن تابا وأصلحا ويكون قوله: ﴿وهم كفار﴾ وارداً على سبيل التغليظ، كقوله: ﴿ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين﴾[6] وقوله: «فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»[7]. «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر»؛ لأنّ من كان مصدّقاً ومات وهو لا يحدّث نفسه بالتوبة حاله قريبة من حال الكافر؛ لأنّه لا يجترئ على ذلك إلا قلب مصمت. كانوا يبلون النساء بضروب من البلايا ويظلمونهن بأنواع من الظلم فزجروا عن ذلك.

---

(1) قال أحمد: وقد تقدّم في مواضع أنّ إطلاق مثل هذا من قول القائل، يجب على الله كذا مما نعوذ بالله منه تعالى، عن الإلزام والإيجاب ربّ الأرباب، وقاعدة أهل السنة أنّ الله تعالى مهما تفضل، فهو لا عن استحقاق سابق؛ لأنهم يقولون: إنّ الأفعال التي يتوهم القدرية أن العبد يستحق بها على الله شيئاً، كلها خلق الله، فهو الذي خلق لعبده الطاعة، وأثابه عليها، وخلق له التوبة، وقبلها منه، فهو المحسن أوّلاً وآخراً، وباطناً، وظاهراً، لا كالقدرية الذين يزعمون أنّ العبد خلق لنفسه التوبة بقدرته وحوله ليستوجب على ربه المغفرة، بمقتضى حكمته التي توجب عليه على زعمهم المجازاة على الأعمال إيجاباً عقلياً، فلذلك يطلقون بلسان الجراءة هذا الإطلاق، وما أبشع ما أكد الزمخشري هذا المعتقد الفاسد، بقوله يجب على الله قبول التوبة، كما يجب على العبد بعض الطاعات، فنظر المعبود بالعبد وقاس الخالق على الخلق، وأنه لإطلاق يتقيد عنه لسان العاقل، ويقشعر جلده استبشاعاً لسماعه، ويتعثر القلم عند تسطيره على أنّ من لطف الله تعالى، أن لم يجعل حاكي الكفر كافراً، ولا حاكي البدعة لضرورة ردّها، والتحذير منها مبتدعاً، وما بلغ الزمخشري في هذا الإطلاق، إلا اغتناماً لفرصة التمسك على صحته بصيغة على المشعرة بالوجوب، فجعلها ذريعة لاستباحة هذا الإطلاق، ولم يجعل الله له = فيها مسترَوحاً، فإنا نقول معاشر أهل السنة: قد وعدنا الله قبول التوبة المستجمعة لشرائط الصحة، ووقوع هذا الموعود واجب ضرورة صدق الخبر، فمهما ورد من صيغ الوجوب، فمنزل على وجوب صدق الوعد، ومعنى قولنا: صدق الخبر واجب، كمعنى قولنا: وجود الله واجب؛ لأن أحداً لا يستوجب على الله شيئاً، ألهمنا الله الأدب في حق جلاله، وعصمنا من زيغ القول وضلاله.

(2) سورة النساء، الآية: 18.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في فضل التوبة، الحديث رقم: (3538)، وابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة، الحديث رقم: (2449)، وأحمد في المسند 132/2، والحاكم في المستدرك 257/4، كشف الأستار، كتاب: التوبة، باب: إلى متى يقبل التوبة، الحديث رقم: (3243)، بلفظ «لا يزال الله تبارك وتعالى يقبل التوبة...»، وأخرجه أيضاً عن أبي ذر بلفظ: «إنّ الله تبارك وتعالى يقبل توبة...» الحديث رقم: (3241).

(4) أخرجه الثعالبي في تفسيره.

(5) سورة النساء، الآية: 17.

(6) سورة آل عمران، الآية: 97.

(7) ذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (10/3).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾.

كان الرجل[1] إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة ألقى ثوبه عليها وقال: أنا أحقّ بها من كلّ أحد، فقيل: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾؛ أي: أن تأخذوهن على سبيل الإرث، كما تحاز المواريث وهنّ كارهات لذلك، أو مكرهات. وقيل: كان يمسكها حتى تموت، فقيل: لا يحل لكم أن تمسكوهنّ حتى ترثوا منهنّ وهنّ غير راضيات بإمساككم. وكان الرجل إذا تزوّج امرأةً ولم تكن من حاجته، حبسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدي منه بمالها وتختلع. فقيل: ﴿ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ﴾ والعضل الحبس والتضييق، ومنه عضلت المرأة بولدها إذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقي بعضه ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ وهي النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة، أي: إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهنّ فقد عذرتم في طلب الخلع. ويدل عليه قراءة أبي: إلا أن يفحشن عليكم. وعن الحسن: الفاحشة: الزنا، فإن فعلت حلّ لزوجها أن يسألها الخلع. وقيل: كانوا إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها. وعن أبي قلابة ومحمد بن سيرين: لا يحل الخلع حتى يوجد رجل على بطنها. وعن قتادة: لا يحل له أن يحبسها ضراراً حتى تفتدي منه، يعني: وإن زنت. وقيل: نسخ ذلك بالحدود وكانوا يسيؤون معاشرة النساء، فقيل لهم: ﴿وعاشروهنّ بالمعروف﴾ وهو النصفة في المبيت والنفقة والإجمال في القول: ﴿فإن كرهتموهنّ﴾ فلا تفارقوهنّ لكراهة الأنفس وحدها فربما كرهت النفس ما هو أصلح في الدين وأحمد وأدنى إلى الخير وأحبت ما هو بضد ذلك ولكن للنظر في أسباب الصلاح.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ٢٠﴾.

وكان الرجل إذا طمحت عينه إلى استطراف امرأة بهت التي تحته ورماها بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوّج غيرها، فقيل: ﴿وإن أردتم استبدال زوج﴾ الآية. والقنطار المال العظيم من قنطرت الشيء إذا رفعته، منه القنطرة لأنّها بناء مشيد. قال:

كقنطرة الرومي أقسم ربها ... لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

وعن عمر رضي الله عنه أنّه قام خطيباً فقال: أيها الناس لا تغالوا بصداق النساء، فلو كانت مكرمةً في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ، ما أصدق امرأةً من نسائه أكثر من اثني عشر أوقيةً. فقامت إليه امرأة فقالت له: يا أمير المؤمنين لم تمنعنا حقاً جعله الله لنا والله يقول: ﴿وآتيتم إحداهنّ قنطاراً﴾ فقال عمر: كلّ أحد أعلم من عمر، ثم قال لأصحابه: تسمعونني أقول مثل هذا القول فلا تنكرونه عليّ حتى تردّ عليّ امرأة ليست من أعلم النساء[2]. والبهتان أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذفه به وهو بريء منه، لأنّه يبهت عند ذلك أي: يتحير. وانتصب ﴿بهتاناً﴾ على الحال، أي: باهتين وآثمين، أو على أنّه مفعول له وإن لم يكن غرضاً، كقولك: قعد عن القتال جبناً.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٢١﴾.

والميثاق الغليظ: حق الصحبة والمضاجعة، كأنّه قيل: وأخذن به منكم ميثاقاً غليظاً، أي: بإفضاء بعضكم إلى بعض، ووصفه بالغلظ لقوّته وعظمه. فقد قالوا: صحبة عشرين يوماً قرابة، فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج. وقيل: هو قول الوليّ عند العقد: أنكحتك على ما في كتاب الله من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وعن النبي ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهنّ عوان في أيديكم أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله»[3].

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾.

وكانوا[4] ينكحون روابهم، وناس منهم يمقتونه من ذوي

---

(1) قال أحمد: وخصّ تعالى ذكر من آتى قنطاراً من المال بالنهي، تنبيهاً بالأعلى على الأدنى، لأنه إذا كان هذا على كثرة ما بذل لامرأته من الأموال، منهياً عن استعادة شيء يسير حقير منها على هذا الوجه، كان من لم يبذل إلا الحقير منهياً عن استعادته بطريق الأولى.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: الصداق الحديث رقم: (2106)، وأخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: سنه (22) الحديث رقم: (1114)، والنسائي في كتاب: النكاح باب: القسط في الأصدقة، الحديث رقم: (3349)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: صداق النساء الحديث رقم: (1887)، والدارمي في كتاب النكاح، باب: كم كانت مهور أزواج النبي ﷺ وبناته الحديث رقم: (2199)، والحاكم في المستدرك 2/172.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها الحديث رقم: (1163)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: حق المرأة على الزوج الحديث رقم: (1851)، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: الوصاة بالنساء الحديث رقم: (5186)، ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء الحديث رقم: (3632)، وأخرجه أيضاً في كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، الحديث رقم: (2941).

(4) قال أحمد: وعندي في هذا الاستثناء سر آخر، وهو: أن هذا المنهي عنه، لفظاعته وبشاعته عند أكثر الخلق، حتى كان ممقوتاً قبل ورود الشرع، جدير أن يمتثل النهي فيه فيجتنب، فكأنه قد امتثل النهي عنه، حتى صار مخبراً عن عدم وقوعه، وكأنه قيل: ما يقع نكاح الأبناء المنكوحات للآباء، ولا يؤخذ منه شيء، إلا ما =

مروآتهم، ويسمونه نكاح المقت، وكان المولود عليه يقال له: المقتي، ومن ثَم قيل: ﴿ومقتاً﴾ كأنّه قيل: هو فاحشة في دين الله بالغة في القبح، قبيح ممقوت في المروءة ولا مزيد على ما يجمع القبحين.

وقرئ: لا يحلّ لكم بالتاء، على أن ترثوا بمعنى الوارثة، وكرهاً بالفتح والضم من الكراهة والإكراه. وقرئ: بفاحشة مبينة، من أبانت بمعنى تبينت أو بينت. كما قرئ: مبينة بكسر الياء وفتحها، ويجعل الله بالرفع على أنّه في موضع الحال، وآتيتم إحداهنّ بوصل همزة إحداهنّ، كما قرئ: فلا إثم عليه.

فإنْ قلتَ: ﴿تعضلوهنّ﴾ ما وجه إعرابه؟ قلتُ: النصب عطفاً على أن ترثوا، ولا لتأكيد النفي، أي: لا يحل لكم أن ترثوا النساء ولا أن تعضلوهنّ.

فإنْ قلتَ: اي فرق بين تعدية ذهب بالباء وبينها بالهمزة؟ قلتُ: إذا عدى بالباء فمعناه الأخذ والاستصحاب، كقوله تعالى: ﴿فلما ذهبوا به﴾[1] وأما الإذهاب فكالإزالة.

فإنْ قلتَ: ﴿إلا أن يأتين﴾ ما هذا الاستثناء! قلتُ: هو استثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له، كأنّه قيل: ولا تعضلوهنّ في جميع الأوقات إلا وقت أن يأتين بفاحشة، أو ولا تعضلوهنّ لعلة من العلل إلا لأن يأتين بفاحشة.

فإنْ قلتَ: من أي وجه صح قوله: ﴿فعسى أن تكرهوا﴾[2] جزاءً للشرط؟ قلتُ: من حيث إنّ المعنى ﴿فإن كرهتموهنّ﴾[3] فاصبروا عليهنّ مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه.

فإنْ قلتَ: كيف استثنى ﴿ما قد سلف﴾، مما نكح آباؤكم؟ قلتُ: كما استثنى غير أنّ سيوفهم من قوله: ولا عيب فيهم، يعني: إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوه فلا يحل لكم غيره. وذلك غير ممكن والغرض المبالغة في تحريمه وسد الطريق إلى إباحته كما يعلق بالمحال في التأبيد في نحو قولهم: حتى يبيض القار وحتى يلج الجمل في سم الخياط.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

معنى[4]: ﴿حرّمت عليكم أمهاتكم﴾ تحريم نكاحهنّ، لقوله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾[5]، ولأنّ تحريم نكاحهن هو الذي يفهم من تحريمهنّ، كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها، ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله. وقرئ: وبنات الأخت، بتخفيف الهمزة. وقد نزل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة أماً للرضيع والمراضعة أختاً، وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه وأخته عمته وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضعة جدّته وأختها خالته وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمّه. ومنه قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[6]. وقالوا: تحريم الرضاع كتحريم النسب، إلا في مسألتين:

إحداهما: أنّه لا يجوز للرجل أن يتزوج أخت ابنه من النسب، ويجوز أن يتزوّج أخت ابنه من الرضاع؛ لأنّ المانع في النسب وطؤه أمّها وهذا المعنى غير موجود في الرضاع.

والثانية: لا يجوز أن يتزوّج أم أخيه من النسب ويجوز في الرضاع؛ لأنّ المانع في النسب وطء الأب إياها وهذا المعنى غير موجود في الرضاع. ﴿من نسائكم﴾ متعلق بربائبكم، ومعناه أنّ الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها.

فإنْ قلتَ: هل يصح أن يتعلق بقوله: ﴿وأمّهات نسائكم﴾؟ قلتُ: لا يخلو إما أن يتعلق بهنّ وبالربائب فتكون حرمتهنّ وحرمة الربائب غير مبهمتين جميعاً، وإما أن يتعلق بهنّ دون الربائب فتكون حرمتهنّ غير مبهمة وحرمة الربائب مبهمة، فلا يجوز الأوّل لأنّ معنى من مع أحد المتعلقين خلاف معناه مع الآخر، ألا تراك أنّك إذا قلت: وأمّهات نسائكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهنّ، فقد جعلت من لبيان النساء وتمييز المدخول بهنّ من غير المدخول بهنّ، وإذا قلت: وربائبكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهنّ، فإنك جاعل من الابتداء الغاية كما تقول: بنات

= قد سلف، وأمّا في المستقبل بعد النهي، فلا يقع منه شيء البتة، ومثل هذا النظر جار في مثل قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله﴾ فأجراه مرفوعاً على أنه خبر، وإن كان المراد: نهيهم عن عبادة غير الله، ولكن لما كان هذا المنهي جديراً بالاجتناب، وكأنه اجتنب، عبر عن النهي فيه بصيغة الخبر، ورفع الفعل، وقد مضى هذا التقدير بعينه، ثم لم يجر مثله في هذه الآية، والله أعلم.

(1) سورة يوسف، الآية: 15.

(2) سورة النساء، الآية: 19.

(3) سورة النساء، الآية: 19.

(4) قال أحمد: وهذا تفريع على القول بعموم المشترك في معانيه، فاستقام تعليق الجار المذكور بهما، والله أعلم.

(5) سورة النساء، الآية: 22.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾ الحديث رقم: (5099)، ومسلم في كتاب الرضاع، باب: يحرم من الرضاعة... الحديث رقم: (3554).

رسول الله ﷺ من خديجة، وليس بصحيح أن يعني بالكلمة الواحدة في خطاب واحد معنيان مختلفان[1]، ولا يجوز الثاني، لأنّ ما يليه هو الذي يستوجب التعليق به ما لم يعترض أمر لا يرد إلا أن تقول أعلقه بالنساء والربائب واجعل من للاتصال كقوله تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾[2] فإني لست منك ولست مني، ما أنا من دد ولا الدد مني، وأمهات النساء متصلات بالنساء لأنهنّ أمهاتهنّ كما أنّ الربائب متصلات بأمهاتهنّ لأنهنّ بناتهنّ. هذا وقد اتفقوا على أنّ تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الربائب على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى وقد روي عن النبي ﷺ في رجل تزوج امرأةً ثم طلقها قبل أن يدخل بها، أنّه قال: «لا بأس أن يتزوج ابنتها، ولا يحل له أن يتزوّج أمّها»[3]. وعن عمر وعمران بن الحصين رضي الله عنهما: أنّ الأمّ تحرم بنفس العقد. وعن مسروق: هي مرسلة فارسلوا ما أرسل الله. وعن ابن عباس: أبهموا ما أبهم الله. إلا ما روي عن علي وابن عباس وزيد وابن عمر وابن الزبير أنّهم قرؤوا: وأمّهات نسائكم اللاتي دخلتم بهنّ، وكان ابن عباس يقول: والله ما نزل إلا هكذا. وعن جابر روايتان، وعن سعيد بن المسيب عن زيد: إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمّها، وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل أقام الموت مقام الدخول في ذلك كما قام مقامه في باب المهر، وسمي ولد المرأة من غير زوجها ربيباً وربيبةً لأنّه يربهما كما يرب ولده في غالب الأمر، ثم اتسع فيه فسميا بذلك وإن لم يربهما.

فإنْ قلتَ[4]: ما فائدة قوله: ﴿**في حجوركم**﴾؟ **قلتُ:** فائدته التعليل للتحريم، وأنهنّ لاحتضانكم لهنّ أو لكونهنّ بصدد احتضانكم وفي حكم التقلب في حجوركم إذا دخلتم بأمّهاتهنّ، وتمكن بدخولكم حكم الزواج وثبتت الخلطة والألفة وجعل الله بينكم المودّة والرحمة وكانت الحال خليقةً بأن تجروا أولادهنّ مجرى أولادكم، كأنّكم في العقد على بناتهنّ عاقدون على بناتكم. وعن علي رضي الله عنه أنّه شرط ذلك في التحريم وبه أخذ داود.

فإنْ قلتَ: ما معنى ﴿**دخلتم بهنّ**﴾؟ **قلتُ:** هي كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب. يعني: أدخلتموهنّ الستر، والباء للتعدية واللمس ونحوه يقوم مقام الدخول عند أبي حنيفة وعن عمر رضي الله عنه أنّه خلا بجارية فجرّدها فاستوهبها ابن له فقال: إنّها لا تحلّ لك. وعن مسروق: أنّه أمر أن تباع جاريته بعد موته وقال: أما أنّي لم أصب منها إلا ما يحرمها على ولدي من اللمس والنظر. وعن الحسن في الرجل يملك الأمة فيغمزها لشهوة أو يقبلها أو يكشفها: أنّها لا تحل لولده بحال. وعن عطاء وحماد بن أبي سليمان: إذا نظر إلى فرج امرأة فلا ينكح أمّها ولا ابنتها. وعن الأوزاعي: إذا دخل بالأمّ فعرّاها ولمسها بيده وأغلق الباب وأرخى الستر فلا يحلّ له نكاح ابنتها. وعن ابن عباس وطاووس وعمرو بن دينار: أنّ التحريم لا يقع إلا بالجماع وحده. ﴿**الذين من أصلابكم**﴾ دون من تبنيتم. وقد تزوّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش الأسدية بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب حين فارقها زيد بن حارثة[5] وقال عزّ وجلّ: ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾[6] ﴿**وأن تجمعوا**﴾[7] في موضع الرفع عطف على المحرّمات، أي: وحرّم عليكم الجمع بين الأختين، والمراد حرمة النكاح لأنّ التحريم في الآية تحريم النكاح، وأمّا الجمع بينهما في ملك اليمين، فعن عثمان وعلي

---

(1) قال أحمد: يعني: أنّ لهذا الإعراب وجهاً في الصحة، وتكون من على هذا مستعملة في معنى واحد من معانيها، وهو: الاتصال، فيستقيم تعلقها بهما، وقد نقل ذلك عن ابن عباس مذهباً، ونقل أيضاً قراءة علي، وابن عباس، وزيد، وابن عمر، وابن الزبير، وأمّهات نسائكم اللاتي دخلتم بهنّ، وكان ابن عباس يقول: والله ما نزل إلا هكذا، انتهى. نقل الزمخشري، والقول المشهور عن الجمهور: إبهام تحريم المرأة، ويقيد تحريم الربيبة بدخول الأم، كما هو ظاهر الآية، ولهذا الفرق سر وحكمة، وذلك لأنّ المتزوّج بابنة المرأة لا يخلو، بعد العقد وقبل الدخول، من محاورة بينه وبين أمها، ومخاطبات، ومساررات، فكانت الحاجة داعية إلى تنجيز التحريم، ليقطع شوقه من الأم، فيعاملها معاملة ذوات المحارم، ولا كذلك العاقد على الأمّ، فإنه بعيد عن مخاطبة ابنتها قبل الدخول بالأمّ، فلم تدع الحاجة إلى تعجيل نشر الحرمة، وأمّا إذا وقع الدخول بالأمّ، فقد وجدت مظنة خلطة الربيبة، فحينئذ تدعو الحاجة إلى نشر الحرمة بينهما، والله أعلم.

(2) سورة التوبة، الآية: 67.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء فيمن يتزوج امرأة ثم يطلقها... الحديث رقم: (1117).

(4) قال أحمد: وهذا مما قدّمته، من تخصيص أعلى صور المنهي عنه، بالمنهي، فإنّ النهي عن نكاح الربيبة المدخول بأمّها، عام في= جميع الصور، سواء كانت في حجر الزوج، أو بائنة عنه في البلاد القاصية، ولكن نكاحه لها، وهي في حجر، أقبح الصور، والطبع عنها أنفر، فخصت بالنهي، لتساعد الجبلة على الانقياد لأحكام الملة، ثم يكون ذلك تدريباً وتدريجاً إلى استقباح المحرّم في جميع صوره، والله أعلم.

(5) أخرجه البخاري في حديث أنس رضي الله عنه، عن زواج الرسول ﷺ عن زينب في كتاب: التفسير، باب: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم...﴾ الحديث رقم: (4791)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب... الحديث رقم: (3488).

(6) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(7) قال أحمد: موقع هذا الاستثناء، كموقع نظيره المقدّم ذكره عند قوله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ على الوجه الذي بينت وهو أنّ هذا النهي، لكونه جديراً بأن يمتثل، أجرى مجرى الإخبار عن امتثاله، حتى كأنه قيل، لا يقع شيء من هذه المحرّمات، إلا السالف منها لا غير، أو على الوجه الذي بيّنه الزمخشري فيما تقدّم، وهو أن يكون المراد: إلا ما قد سلف، فإنه غير محرّم، فتعاطوه إن كان ممكناً من باب التعليق على المحال بنا للتحريم، إلا أنّ الزمخشري لم يسلك هذا المسلك ههنا؛ لأنّ قوله: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يرشد إلى أنّ المراد: إلا ما قد=

رضي الله عنهما أنّهما قالا: أحلتهما آية وحرّمتهما آية[1]. عنيان هذه الآية وقوله: ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ فرجح علىّ التحريم، وعثمان التحليل[2]. ﴿إلا ما قد سلف﴾ ولكن ما مضى مغفور، بدليل قوله: ﴿إنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾.

۞ ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢٤).

﴿والمحصنات﴾ القراءة بفتح الصاد، وعن طلحة بن مصرف أنّه قرأ بكسر الصاد. وهنّ ذوات الأزواج لأنهنّ أحصنّ فروجهنّ بالتزويج فهنّ محصنات ومحصنات. ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ يريد ما ملكت أيمانهم من اللاتي سبين ولهنّ أزواج في دار الكفر فهنّ حلال لغزاة المسلمين وإن كنّ محصنات. وفي معناه قول الفرزدق:

وذات حليل أنكحتها رماحنا　　حلال لمن يبني بها لم تطلق

﴿كتاب الله عليكم﴾ مصدر مؤكد، أي: كتب الله ذلك عليكم كتاباً وفرضه فرضاً وهو تحريم ما حرّم.

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وأحلّ لكم﴾ **قلتُ:** على الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله، أي: كتب الله عليكم تحريم ذلك وأحلّ لكم ما وراء ذلكم. ويدلّ عليه قراءة اليماني: كتب الله عليكم وأحلّ لكم. وروي عن اليماني: كتب الله عليكم، على الجمع والرفع، أي: هذه فرائض الله عليكم، ومن قرأ: وأحلّ لكم على البناء للمفعول، فقد عطفه على حرمت. ﴿أن تبتغوا﴾ مفعول له، بمعنى: بين لكم ما يحلّ مما يحرم، إرادة أن يكون ابتغاؤكم. ﴿بأموالكم﴾ التي جعل الله لكم قياماً في حال كونكم ﴿محصنين غير مسافحين﴾ لئلا تضيعوا أموالكم وتفقروا انفسكم فيما لا يحل لكم فتخسروا دنياكم ودينكم، ولا مفسدة أعظم مما يجمع بين الخسرانين. والإحصان العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام، والأموال المهور وما يخرج في المناكح.

فإن قلت: أين مفعول ﴿تبتغوا﴾؟ **قلتُ:** يجوز أن يكون مقدّراً وهو النساء، والأجود أن لا يقدر. وكأنّه قيل: إن تخرجوا أموالكم، ويجوز أن يكون إن تبتغوا بدلاً من وراء ذلكم. والمسافح الزاني، من السفح وهو صبّ المنيّ، وكان الفاجر يقول للفاجرة: سافحيني وماذيني، من المذي. ﴿فما استمتعتم به منهنّ﴾ فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو خلوة صحيحة أو عقد عليهنّ. ﴿فآتوهنّ أجورهنّ﴾ عليه. فاسقط الراجع إلى ما لأنه لا يلبس، كقوله: ﴿إنّ ذلك من عزم الأمور﴾[3] بإسقاط منه، ويجوز أن تكون ما في معنى النساء، ومن للتبعيض أو البيان، ويرجع الضمير إليه على اللفظ في به وعلى المعنى في فآتوهنّ وأجورهنّ مهورهنّ، لأنّ المهر ثواب على البضع. ﴿فريضة﴾ حال من الأجور، بمعنى مفروضة أو وضعت موضع إيتاء، لأنّ الإيتاء مفروض، أو مصدر مؤكد، أي: فرض ذلك فريضةً ﴿فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ فيما تحط عنه من المهر أو تهب له من كله أو يزيد لها على مقداره، وقيل: فيما تراضياه به من مقام أو فراق. وقيل: نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسوله عليه الصلاة والسلام ثم نسخت. كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً ليلةً أو ليلتين أو أسبوعاً بثوب أو غير ذلك ويقضي منها وطره ثم يسرحها، سميت متعةً لاستمتاعه بها أو لتمتيعه لها بما يعطيها. وعن عمر: لا أوتى برجل تزوّج امرأةً إلى أجل إلا رجمتهما بالحجارة[4] وعن النبي ﷺ: أنّه أباحها، ثم أصبح يقول: «يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء، ألا إنّ الله حرّم ذلك إلى يوم القيامة»[5]. وقيل: أبيح مرتين وحرّم مرتين. وعن ابن عباس: هي محكمة[6]، يعني: لم تنسخ، وكان يقرأ: فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمى. ويروى: أنّه رجع عن ذلك عند موته وقال: اللهم إنّي أتوب إليك من قولي بالمتعة وقولي في الصرف[7].

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

= سلف، فإنه مغفور لاستثنائه في الآية الأولى؛ لأنه عقبه ثم بقوله: إنه كان فاحشة، ومقتاً، وساء سبيلاً، فقدر في كل آية ما يناسب سياقها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(1) حديث عثمان، أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: النكاح، باب: ما جاء في كراهية إصابة الأختين بملك اليمين الحديث رقم: (34) وحديث علي أخرجه في كشف الأستار، كتاب: النكاح، باب: في الأختين المملوكتين الحديث رقم: (1438).

(2) الموطأ المصدر السابق.

(3) سورة لقمان، الآية: 17.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: نكاح المتعة... الحديث رقم: (3408)، عن الربيع بن سبرة الجهني عن أبيه، وليس عن الربيع بن سبرة.

(5) مسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: نكاح المتعة الحديث رقم: (3409)، وابن حبان في كتاب: الحج، باب: ذكر العلة التي من أجلها ينهى عمر بن الخطاب رضوان الله عليه عن التمتع بالعمرة إلى الحج، الحديث رقم: (3940).

(6) قال الزيلعي: غريب 1/302.

(7) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في تحريم نكاح المتعة الحديث رقم: (1122)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات، باب: من قال لا ربا إلاّ في النسيئة الحديث رقم: (2258)، والطبراني، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف 8/118 الحديث رقم: (14548).

بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

الطول: الفضل، يقال: لفلان على فلان طول، أي: زيادة وفضل، وقد طاله طولاً فهو طائل. قال:

لقد زادني حباً لنفسي أنني بغيض إلى كل امرئ غير طائل

ومنه قولهم: ما حلا منه بطائل، أي بشيء يعتد به مما له فضل وخطر، ومنه الطول في الجسم لأنّه زيادة فيه كما أنّ القصر قصور فيه ونقصان[1]. والمعنى: ومن لم يستطع زيادةً في المال وسعةً يبلغ بها نكاح الحرّة فلينكح أمَةً. قال ابن عباس: من ملك ثلاثمائة درهم فقد وجب عليه الحج وحرم عليه نكاح الإماء، وهو الظاهر وعليه مذهب الشافعي رحمه الله. وأمّا أبو حنيفة رحمه الله فيقول: الغني والفقير سواء في جواز نكاح الأمة، ويفسر الآية بأن من لم يملك فراش الحرّة، على أنّ النكاح هو الوطء، فله أن ينكح أمةً. وفي رواية عن ابن عباس أنّه قال: ومما وسع الله على هذه الأمّة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية، وإن كان موسراً، وكذلك قوله: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ الظاهر أن لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، وهو مذهب أهل الحجاز، وعند أهل العراق يجوز نكاحها ونكاح الأمَة المؤمنة أفضل فحملوه على الفضل لا على الوجوب، واستشهدوا على أنّ الإيمان ليس بشرط بوصف الحرائر به مع علمنا أنّه ليس بشرط فيهنّ على الاتفاق ولكنه أفضل.

فإنْ قلتَ: لم كان نكاح الأمَة منحطاً عن نكاح الحرّة؟ قلتُ: لما فيه من اتباع الولد الأمّ في الرق، ولثبوت حق المولى فيها وفي استخدامها، ولأنّها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله نقصان راجع إلى الناكح ومهانة، والعزة من صفات المؤمنين. وقوله: ﴿من فتياتكم﴾ أي: من فتيات المسلمين لا من فتيات غيركم وهم المخالفون في الدين.

فإنْ قلتَ: فما معنى قوله: ﴿والله أعلم بإيمانكم﴾؟ قلتُ: معناه أنّ الله أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم، وربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرّة، والمرأة أفضل في الإيمان من الرجل، وحق المؤمنين أن لا يعتبروا الأفضل الإيمان لأفضل الإحسان والأنساب، وهذا تأنيس بنكاح الإماء وترك الاستنكاف منه. ﴿بعضكم من بعض﴾ أي: أنتم وأرقاؤكم متواصلون متناسبون لاشتراككم في الإيمان لا يفضل حرّ عبد إلا برجحان فيه. ﴿بإذن أهلهنّ﴾[2] اشتراط لإذن الموالي في نكاحهنّ، ويحتج به لقول أبي حنيفة أنّ لهنّ أن يباشرن العقد بأنفسهنّ لأنّه اعتبر إذن الموالي لا عقدهم. ﴿وآتوهنّ أجورهنّ بالمعروف﴾ وأدّوا إليهنّ مهورهنّ بغير مطل وضرار وإحواج إلى الاقتضاء واللز.

فإنْ قلتَ: الموالي هم ملاك مهورهنّ لا هنّ، والواجب أداؤها إليهم لا إليهنّ، فلم قيل: وآتوهن؟ قلتُ: لأنهنّ وما في أيديهنّ مال الموالي فكان أداؤها إليهنّ أداء إلى الموالي، أو على أنّ أصله فآتوا مواليهنّ فحذف المضاف. ﴿محصنات﴾ عفائف. والأخدان: الأخلاء في السرّ، كأنّه قيل: غير مجاهرات بالسفاح ولا مسرّات له. ﴿فإن أحصنّ﴾ بالتزويج، وقرئ: أحصن. ﴿فعليهن نصف ما على المحصنات﴾ أي: الحرائر. ﴿من العذاب﴾ من الحدّ، كقوله: ﴿وليشهد عذابهما ويدرأ عنها العذاب﴾، ولا رجم عليهنّ لأنّ الرّجم لا يتنصف. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى نكاح الإماء ﴿لمن خشي العنت﴾ لمن خاف الإثم الذي يؤدّي إليه غلبة الشهوة، وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر، ولا ضرر أعظم من مواقعة المآثم. وقيل: أريد به الحدّ لأنّه إذا هويها خشي أن يواقعها فيحدّ فيتزوّجها. ﴿وأن تصبروا﴾ في محل الرفع على الابتداء، أي: وصبركم عن نكاح الإماء متعففين ﴿خير لكم﴾ وعن النبي ﷺ: «الحرائر صلاح البيت، والإماء هلاك البيت»[3].

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

﴿يريد الله ليبيّن لكم﴾ أصله: يريد الله أن يبيّن لكم، فزيدت اللام مؤكدةً لإرادة التبيين كما زيدت في لا أبا لك لتأكيد إضافة الأب، والمعنى: يريد الله أن يبيّن لكم ما هو خفيّ عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم، وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم. ﴿ويتوب عليكم﴾

---

(1) قال أحمد: وعلى هذا يكون الطول عند أبي حنيفة وجود الحرّة تحته، وهو أحد القولين لمالك رضي الله عنه، لكن يبعد هذا المعنى؛ لأنّ الطول عند مالك في أحد قوليه: القدرة بالمال على نكاح الحرّة خاصة، حتى لو كانت الحرّة تحته، فأراد نكاح الأمة عجزاً عن حرّة أخرى، جاز له ذلك، وفي القول الآخر، الطول أحد الأمرين، إمّا القدرة بالمال على نكاح الحرّة، وإمّا وجود الحرّة تحته، حتى لا يجوز له نكاح أمة على حرّة، إن كان عاجزاً عن حرّة أخرى، ومقتضى ما نقله المصنف عن أبي حنيفة، أنه لا يجوز لمن تحته حرّة نكاح أمة، وأنه يجوز لمن ليست تحته حرّة، أن ينكح الأمة، ولو كان غنياً، وهو قول لا يساعده ظاهر = الآية؛ لأنّ الاستطاعة تثبت، وإن لم يفعل بمقتضاها، فالمستطيع لنكاح الحرّة ذو الطول، وإن لم يكن تحته الحرّة، وتفسير الاستطاعة على مذهب أبي حنيفة، بعيد جداً.

(2) قال أحمد: وليس في الآية اشتراط إذن المولي، لمن يتولى عقد نكاح أمته، ومتولي العقد ومباشرته، مسكوت عنه في الآية، فيحمل على إذنه لوكيله في العقد على أمته، ولا يلزم أن تكون الأمة هي المباشرة، ولا دليل في الآية على ذلك، والله أعلم.

(3) ذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 44543).

ويرشدكم إلى طاعات إن قمتم بها كانت كفارات لسيئاتكم فيتوب عليكم ويكفر لكم.

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾

﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ أن تفعلوا ما تستوجبون به أن يتوب عليكم، **﴿ويريد﴾** الفجرة **﴿الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾** وهو الميل عن القصد والحق، ولا ميل أعظم منه بمساعدتهم وموافقتهم على اتباع الشهوات، وقيل: هم اليهود. وقيل: المجوس كانوا يحلون نكاح الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت، فلما حرّمهنّ الله، قالوا: فإنّكم تحلون بنت الخالة والعمة، والخالة والعمة عليكم حرام، فانكحوا بنات الأخ والأخت. فنزلت يقول تعالى: يريدون أن تكونوا زناةً مثلهم.

يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾

﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ بإحلال نكاح الأمَة وغيره من الرّخص، **﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾** لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات، وعن سعيد بن المسيب: ما أيس الشيطان من بني آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء، فقد أتى عليّ ثمانون سنةً وذهبت إحدى عينيّ وأنا أعشو بالأخرى، وأن أخوف ما أخاف على فتنة النساء. وقرئ: أن يميلوا بالياء، والضمير للذين يتبعون الشهوات. وقرأ ابن عباس: وخلق الإنسان على البناء للفاعل، ونصب الإنسان. وعنه رضي الله عنه: ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمّة مما طلعت عليه الشمس وغربت. **﴿يريد الله ليبيّن لكم﴾**[1] **﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾**[2] **﴿يريد الله أن يخفّف عنكم﴾**[3] **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾**[4] **﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به﴾**[5] **﴿إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة﴾**[6] **﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾**[7] **﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾**[8].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾

﴿بالباطل﴾ بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا. **﴿إلا أن تكون تجارة﴾** إلا أن تقع تجارةً، وقرئ: تجارةً على إلاّ أن تكون التجارة تجارةً. **﴿عن تراض منكم﴾** والاستثناء منقطع معناه: ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض منكم، أو ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه. وقوله: عن تراض صفة لتجارة، أي: تجارة صادرة عن تراض، وخص التجارة بالذكر لأنّ أسباب الرّزق أكثرها متعلق بها والتراضي رضا المتبايعين بما تعاقدا عليه في حال البيع وقت الإيجاب والقبول، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وعند الشافعي رحمه الله تعالى: تفرّقهما عن مجلس العقد متراضيين **﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾** من كان من جنسكم من المؤمنين. وعن الحسن: لا تقتلوا إخوانكم، أو لا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة. وعن عمرو بن العاص أنّه تأوله في التيمم لخوف البرد، فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم[9]. وقرأ علي رضي الله عنه: ولا تقتلوا بالتشديد. **﴿إنّ الله كان بكم رحيماً﴾** ما نهاكم عما يضرّكم إلا لرحمته عليكم، وقيل: معناه أنّه أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبةً لهم وتمحيصاً لخطاياهم، وكان بكم يا أمة محمد رحيماً حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة.

وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى القتل، أي: ومن يقدم على قتل الأنفس **﴿عدواناً وظلماً﴾** لا خطأً ولا اقتصاصاً، وقرئ: عِدواناً بالكسر. ونصليه بتخفيف اللام وتشديدها، ونصليه بفتح النون من صلاه يصليه، ومنه شاة مصلية، ويصليه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك لكونه سبباً للصلي. **﴿ناراً﴾** أي: ناراً مخصوصةً شديدة العذاب. **﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾** لأنّ الحكمة تدعو إليه ولا صارف عنه من ظلم أو نحوه.

إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾

﴿كبائر ما تنهون عنه﴾ وقرئ: كبير ما تنهون عنه، أي: ما كبر من المعاصي التي ينهاكم الله عنها والرسول **﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾** نميط ما تستحقونه من العقاب في كل وقت على صغائركم، ونجعلها كأن لم تكن لزيادة الثواب المستحق على اجتنابكم الكبائر وصبركم عنها على

---

(1) سورة النساء، الآية: 26.
(2) سورة النساء، الآية: 27.
(3) سورة النساء، الآية: 28.
(4) سورة النساء، الآية: 31.
(5) سورة النساء، الآية: 116.
(6) سورة النساء، الآية: 40.
(7) سورة النساء، الآية: 110.
(8) سورة النساء، الآية: 147.
(9) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: إذا خاف الجنب البرد، أيتيمم الحديث رقم: (334)، والبخاري تعليقاً، كتاب: التيمم، باب: إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش، تيمم، وأحمد في المسند 4/203، والحاكم في المستدرك 1/177، والدارقطني في كتاب: الطهارة، باب: التيمم، الحديث رقم: (12 و13).
(10) الطبري في تفسيره.

عقاب السيئات. والكبيرة والصغيرة إنّما وصفتا بالكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب فاعلهما.

والتكفير: إماطة المستحق من العقاب بثواب أزيد أو بتوبة، والإحباط: نقيضه، وهو إماطة الثواب المستحق بعقاب أزيد أو بندم على الطاعة. وعن عليّ رضي الله عنه الكبائر سبع: الشرك، والقتل، والقذف، والزنا، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف والتعرب بعد الهجرة(1). وزاد ابن عمر: السحر، واستحلال البيت الحرام(2). وعن ابن عباس: أنّ رجلاً قال له: الكبائر سبع، فقال: هي إلى سبعمائة أقرب؛ لأنه لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار. وروي: إلى سبعين(3). وقرئ: يكفر بالياء. ومدخلاً بضم الميم وفتحها، بمعنى المكان، والمصدر فيهما.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾.

﴿ولا تتمنوا﴾ نهوا عن التحاسد وعن تمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأنّ ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما يصلح المقسوم له من بسط في الرزق أو قبض، ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له، علماً بأن ما قسم له هو مصلحته، ولو كان خلافه لكان مفسدةً له، ولا يحسد أخاه على حظه. **﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا﴾** جعل ما قسم لكل من الرجال والنساء على حسب ما عرف الله من حاله الموجبة للبسط أو القبض كسباً له. **﴿واسئلوا الله من فضله﴾** ولا تتمنوا أنصباء غيركم من الفضل ولكن سلوا الله من خزائنه التي لا تنفد، وقيل: كان الرجال قالوا: إنّ الله فضلنا على النساء في الدنيا لنا سهمان ولهنّ سهم واحد، فنرجو أن يكون لنا أجران في الآخرة على الأعمال ولهنّ أجر واحد. فقالت أم سلمة ونسوة معها: ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم فنزلت.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾.

﴿مما ترك﴾ تبيين **﴿لكل﴾**، أي: ولكل شيء **﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾** من المال جعلنا موالي وراثاً يلونه ويحرزونه، أو ولكل قوم جعلناهم موالي نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، على أن جعلنا موالي صفةً لكل والضمير الراجع إلى كل محذوف والكلام مبتدأ وخبر، كما تقول لكل من خلقه الله إنساناً. من رزق الله أي: حظ من رزق الله، أو ولكل أحد جعلنا موالي مما ترك، أي: وارثاً مما ترك، على أن من صلة موالي لأنّهم في معنى الورّاث، وفي ترك ضمير كل، ثم فسّر الموالي بقوله: **﴿الوالدان والأقربون﴾** كأنّه قيل: من هم؟ فقيل: الوالدان والأقربون. **﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾** مبتدأ ضمن معنى الشرط فوقع خبره مع الفاء، وهو قوله: **﴿فآتوهم نصيبهم﴾**، ويجوز أن يكون منصوباً على قولك: زيداً فاضربه، ويجوز أن يعطف على الوالدان ويكون المضمر في فآتوهم للموالي، والمراد بالذين عاقدت أيمانكم موالي الموالاة. كان الرجل يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك وثاري ثارك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك. فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف، فنسخ. وعن النبي ﷺ أنه خطب يوم الفتح فقال: «ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به فإنه لم يزده الإسلام إلا شدّة، ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام»(4). وعند أبي حنيفة: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح عنده وورث بحق الموالاة، خلافاً للشافعي. وقيل: المعاقدة التبني ومعنى عاقدت أيمانكم، عاقدتهم أيديكم وماسحتموهم وقرئ: عقدت بالتشديد والتخفيف، بمعنى عقدت عهودهم أيمانكم.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾.

﴿قوامون على النساء﴾ يقومون عليهن آمرين ناهين كما يقوم الولاة على الرعاية، وسموا قوماً لذلك، والضمير في **﴿بعضهم﴾** للرجال والنساء جميعاً. يعني: إنّما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال على بعض وهم النساء، وفيه دليل على أنّ الولاية إنّما تستحق بالفضل لا بالتغلب والاستطالة والقهر، وقد ذكروا في فضل الرجال العقل والحزم والعزم والقوّة والكتابة في الغالب والفروسية والرمي، وإنّ منهم الأنبياء والعلماء وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف وتكبيرات التشريق عند أبي حنيفة والشهادة في الحدود والقصاص وزيادة السهم والتعصيب في الميراث والحمالة والقسامة والولاية في النكاح والطلاق والرجعة

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الوصايا، باب: ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم الحديث رقم: (2875).

(2) عبد الرزاق في المصنف 10/460 الحديث رقم: (19702).

(3) الطبري في تفسيره. وقال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ 1/320.

(4) أبو داود في المراسيل، باب: في القسامة الحديث رقم: (274).

وعدد الأزواج وإليهم الانتساب وهم أصحاب اللحى والعمائم. ﴿ومما أنفقوا﴾ وبسبب ما أخرجوا في نكاحهنّ من أموالهم في المهور والنفقات، وروي: أنّ سعد بن الربيع وكان نقيباً من نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فلطمها، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ، وقال: أفرشته كريمتي فلطمها. فقال: «لنقتصّ منه»[1]. فنزلت. فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير». ورفع القصاص واختلف في ذلك فقيل: لا قصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس ولو شجها ولكن يجب العقل. وقيل: لا قصاص إلا في الجرح والقتل، وأما اللطمة ونحوها فلا. ﴿قانتات﴾ مطيعات قائمات بما عليهنّ للأزواج. ﴿حافظات للغيب﴾ الغيب خلاف الشهادة، أي: حافظات لمواجب الغيب، إذا كان الأزواج غير شاهدين لهنّ حفظن ما يجب عليهنّ حفظه في حال الغيبة من الفروج والبيوت والأموال. وعن النبي ﷺ: «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرّتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها»[2]. وتلا الآية. وقيل: للغيب لأسرارهم. ﴿بما حفظ الله﴾ بما حفظهنّ الله حين أوصى بهنّ الأزواج في كتابه، وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال: «استوصوا بالنساء خيراً»[3]. أو بما حفظهنّ الله وعصمهنّ ووفقهنّ لحفظ الغيب، أو بما حفظهنّ حين وعدهنّ الثواب العظيم على حفظ الغيب وأوعدهنّ بالعذاب الشديد على الخيانة، وما مصدرية، وقرئ: بما حفظ الله بالنصب، على أنّ ما موصولة، أي: حافظات للغيب بالأمر الذي يحفظ حق الله وأمانة الله وهو: التعفف والتحصن والشفقة على الرجال والنصيحة لهم. وقرأ ابن مسعود: فالصوالح قوانت حوافظ للغيب بما حفظ الله فأصلحوا إليهنّ.

نشوزها ونشوصها: أن تعصي زوجها ولا تطمئن إليه، وأصله الانزعاج. ﴿في المضاجع﴾ في المراقد، أي: لا تداخلوهنّ تحت اللحف، أو هي كناية عن الجماع. وقيل: هو أن يوليها ظهره في المضجع، وقيل: في المضاجع في بيوتهنّ التي يبتن فيها، أي: لا تبايتوهنّ. وقرئ: في المضجع وفي المضطجع، وذلك لتعرف أحوالهنّ وتحقق أمرهنّ في النشوز[4]. أمر بوعظهنّ أوّلاً، ثم هجرانهنّ في المضاجع، ثم بالضرب إن لم ينجع فيهنّ الوعظ والهجران[5]. وقيل: معناه أكرهوهنّ على الجماع، واربطوهنّ من هجر البعير إذا شدّه بالهجار، وهذا من تفسير الثقلاء. وقالوا: يجب أن يكون ضرباً غير مبرح لا يجرحها ولا يكسر لها عظماً ويجتنب الوجه. وعن النبيّ ﷺ: «علق سوطك حيث يراه أهلك»[6]. وعن أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: كنت رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوّام، فإذا غضب على إحدانا ضربها بعود المشجب حتى يكسره عليها[7]، ويروى عن الزبير أبيات منها:

ولولا بنوها حولها لخبطتها

﴿فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً﴾ فازيلوا عنهنّ التعرّض بالأذى والتوبيخ والتجني، وتوبوا عليهنّ، واجعلوا ما كان منهنّ كأن لم يكن بعد رجوعهنّ إلى الطاعة والانقياد، وترك النشوز: ﴿إنّ الله كان علياً كبيراً﴾ فاحذروه واعلموا أنّ قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم. ويروى أنّ أبا مسعود الأنصاري رفع سوطه ليضرب غلاماً له فبصر به رسول الله ﷺ، فصاح به: «أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه». فرمى بالسوط وأعتق الغلام[8] أو إنّ الله كان علياً كبيراً وإنكم تعصونه على علوّ شأنه وكبرياء سلطانه ثم تتوبون فيتوب عليكم، فانتم أحق بالعفو عمن يجني عليكم إذا رجع.

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

﴿شقاق بينهما﴾ أصله شقاقاً بينهما، فاضيف الشقاق إلى الظرف على طريق الاتساع، كقوله: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، وأصله بل مكر في الليل والنهار، أو على أن جعل البين مشاقاً والليل والنهار ماكرين، على قولهم: نهارك صائم، والضمير للزوجين، ولم يجر ذكرهما لجري ذكر ما يدل عليهما وهو الرجال والنساء، ﴿حكماً من أهله﴾ رجلاً مقنعاً رضياً يصلح لحكومة العدل والإصلاح بينهما، وإنما كان بعث الحكمين من أهلها لأنّ الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح؛ وإنّما تسكن إليهم

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في حقوق المال الحديث رقم: (1664)، والحاكم في المستدرك 2/333، وأخرجه النسائي في السنن، كتاب: النكاح، باب: أي النساء خير الحديث رقم: (3231)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: أفضل النساء الحديث رقم: (1857).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (الحديث: 5/276).

(3) قال أحمد:وهذا الترتيب بين هذه الأفعال المعطوفة، غير متلقي من صيغة لفظية، إذ العطف بالواو، وهي مسلوبة الدلالة على الترتيب، متمحضة الإشعار بالجمعية فقط، وإنما يتلقى للترتيب المذكور من قرائن خارجة عن اللفظ، مفهومة من مقصود الكلام وسياقه. =

= (4) قال أحمد:ولعلّ هذا المفسر يتأيد بقوله: ﴿فإن أطعنكم﴾ فإنه يدل على تقدّم إكراه على أمر ما، وقرينة المضاجع ترشد إلى أنه الجماع، وإطلاق الزمخشري لما أطلقه في حق هذا المفسر، من الإفراط.

(5) البخاري في الأدب المفرد 2/632، باب: تعليق السوط في البيت الحديث رقم: (1229)، وأبو نعيم في الحلية 7/250.

(6) ابن عدي في الكامل.

(7) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب: الأيمان، باب: صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده الحديث رقم: (4284).

(8) سورة الأنفال، الآية: 63.

نفوس الزوجين ويبرز إليهم ما في ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصحبة والفرقة وموجبات ذلك ومقتضياته وما يزويانه عن الأجانب ولا يحبان أن يطلعوا عليه.

فإنْ قلتَ:فهل يليان الجمع بينهما والتفريق إن رأيا ذلك؟ قلتُ:قد اختلف فيه، فقيل: ليس إليهما ذلك إلا بإذن الزوجين، وقيل: ذلك إليهما وما جعلا حكمين إلا وإليهما بناء الأمر على ما يقتضيه اجتهادهما. وعن عبيدة السلماني: شهدت علياً رضي الله عنه وقد جاءته امرأة وزوجها ومع كل واحد منهما فئام من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً، وهؤلاء حكماً. فقال عليّ رضي الله عنه للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ إنّ عليكما إن رأيتما أن تفرّقا فرّقتما، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما، فقال الزوج: أمّا الفرقة فلا. فقال عليّ: كذب والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله لك وعليك. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعليّ. وعن الحسن: يجمعان ولا يفرّقان. وعن الشعبي: ما قضى الحكمان جاز. والألف في ﴿إن يريدا إصلاحاً﴾ للحكمين، وفي ﴿يوفق الله بينهما﴾ للزوجين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله بورك في وساطتهما وأوقع الله بطيب نفسهما وحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودّة، وقيل: الضميران للحكمين، أي: إن قصدا إصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين يوفق الله بينهما فيتفقان على الكلمة الواحدة ويتساندان في طلب الوفاق حتى يحصل الغرض ويتم المراد. وقيل: الضميران للزوجين، أي: إن يريدا إصلاح ما بينهما وطلبا الخير وأن يزول عنهما الشقاق يطرح الله بينهما الألفة وأبدلهما بالشقاق وفاقاً وبالبغضاء مودةً. ﴿إنّ الله كان عليماً خبيراً﴾ يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المفترقين ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم﴾[1].

۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾.

﴿وبالوالدين إحساناً﴾ واحسنوا بهما إحساناً ﴿وبذي القربى﴾ وبكل من بينكم وبينه قربى من أخ أو عم أو غيرهما. ﴿والجار ذي القربى﴾ الذي قرب جواره، ﴿والجار الجنب﴾ الذي جواره بعيد، وقيل: الجار القريب النسيب، والجار الجنب الأجنبي، وأنشد لبلعاء بن قيس:

لا يجتوينا مجاور أبداً ... ذو رحم أو مجاور جنب

وقرئ: والجار ذا القربى نصباً على الاختصاص، كما قرئ: حافظوا على الصلوات، والصلاة الوسطى، تنبيهاً على عظم حقه لإدلائه بحق الجوار والقربى. ﴿والصاحب بالجنب﴾ هو الذي صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقاً في سفر وإما جاراً ملاصقاً، وإما شريكاً في تعلم علم أو حرفة، وإما قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد أو غير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه، فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعةً إلى الإحسان. وقيل: الصاحب بالجنب المرأة. ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع به، وقيل: الضيف. والمختال التياه الجهول الذي يتكبر عن إكرام أقاربه وأصحابه ومماليكه فلا يتحفى بهم ولا يلتفت إليهم. وقرئ: والجار الجنب بفتح الجيم وسكون النون.

ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾.

﴿الذين يبخلون﴾ بدل من قوله: ﴿من كان مختالاً فخوراً﴾[2] ونصب على الذمّ ويجوز أن يكون رفعاً عليه وأن يكون مبتدأ خبره محذوف، كأنّه قيل: الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة. وقرئ: بالبخل بضم الباء وفتحها، وبفتحتين وبضمتين، أي: يبخلون بذات أيديهم، وبما في أيدي غيرهم، فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتاً للسخاء ممن وجد. وفي أمثال العرب: أبخل من الضنين بنائل غيره، قال:

وإن امرأً ضنت يداه على امرئ ... بنيل يد من غيره لبخيل

ولقد رأينا ممن بلي بداء البخل من إذا طرق سمعه أنّ أحداً جاد على أحد، شخص به وحلّ حبوته واضطرب ودارت عيناه في رأسه كأنّما نهب رحله وكسرت خزانته ضجراً من ذلك وحسرة على وجوده. وقيل: هم اليهود، كانوا يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحون لهم، ويقولون: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون. وقد عابهم الله بكتمان نعمة الله وما آتاهم من فضل الغنى والتفاقر إلى الناس. وعن النبي ﷺ: «إذا أنعم الله على عبد نعمةً أحب أن ترى نعمته على عبده»[3]. وبنى عامل للرشيد قصراً أحذاء قصره، فنم به عنده، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إنّ الكريم يسره أن يرى أثر نعمته فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك، فأعجبه كلامه. وقيل: نزلت في شأن اليهود الذين كتموا صفة رسول الله ﷺ.

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا

---

(1) سورة النساء، الآية: 36.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك، 4/135. وأخرجه الترمذي في كتاب الأدب، باب: ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده الحديث رقم: (2819)، وابن حبان في كتاب اللباس وآدابه= الحديث رقم: (5417)، وأحمد في المسند 2/403، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الملابس والأواني، فصل فيمن لبس ليرى أثر نعمة الله عليه الحديث رقم: (6201).

(3) قال أحمد: وقد تقدم له مثل ذلك في قوله: ﴿وكنتم على شفا حفرة

بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾.

﴿رئاء الناس﴾ للفخار، وليقال: ما أسخاهم وما أجودهم، لا ابتغاء وجه الله. وقيل: نزلت في مشركي مكة المنفقين أموالهم في عداوة رسول الله ﷺ. ﴿فساء قريناً﴾ حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأنّ الشيطان يقرن بهم في النار.

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾.

﴿وماذا عليهم﴾ وأي تبعة ووبال عليهم في الإيمان والإنفاق في سبيل الله، والمراد الذمّ والتوبيخ وإلا فكل منفعة ومفلحة في ذلك، وهذا كما يقال للمنتقم: ما ضرك لو عفوت، وللعاق: ما كن يرزؤك لو كنت باراً. وقد علم أنّه لا مضرة ولا مرزأة في العفو والبر، ولكنه ذمّ وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة ﴿وكان الله بهم عليماً﴾ وعيد.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾.

الذرّة: النملة الصغيرة. وفي قراءة عبد الله: مثقال نملة. وعن ابن عباس: أنّه أدخل يده في التراب فرفعه ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرّة. وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء في الكوّة ذرّة. وفيه دليل على أنّه لو نقص من الأجر أدنى في شيء وأصغره أو زاده في العقاب لكان ظلماً، وأنه لا يفعله لاستحالته في الحكمة لا لاستحالته في القدرة. ﴿وإن تك حسنة﴾ وإن يكن مثقال ذرّة حسنة[1]؛ وإنّما أنّث ضمير المثقال لكونه مضافاً إلى مؤنث. وقرئ: بالرفع على كان التامة. ﴿يضاعفها﴾ يضاعف ثوابها لاستحقاقها عنده الثواب في كل وقت من الأوقات المستقبلة غير المتناهية. وعن أبي عثمان النهدي أنّه قال لأبي هريرة: بلغني عنك أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله تعالى يعطي عبده المؤمن الحسنة ألف ألف حسنة». قال أبو هريرة: لا بل سمعته يقول: «إنّ الله تعالى يعطيه ألفي ألف حسنة». ثم تلا هذه الآية[2]، والمراد الكثرة لا التحديد. ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل عطاءً عظيماً، وسماه أجراً لأنّه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته. وقرئ: يضعفها بالتشديد والتخفيف، من أضعف وضعف. وقرأ ابن هرمز: نضاعفها بالنون.

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾.

﴿فكيف﴾ يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم. ﴿إذا جئنا من كل أمّة بشهيد﴾ يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبيهم، كقوله: ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم﴾[3] ﴿وجئنا بك على هؤلاء﴾ المكذبين ﴿شهيداً﴾، وعن ابن مسعود: أنّه قرأ سورة النساء على رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فبكى رسول الله ﷺ وقال: «حسبنا»[4].

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾.

﴿لو تسوّى بهم الأرض﴾ لو يدفنون فتسوّى بهم الأرض كما تسوّى بالموتى، وقيل: يودّون أنّهم لم يبعثوا وأنّهم كانوا والأرض سواء. وقيل: تصير البهائم تراباً فيودّون حالها. ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ ولا يقدرون على كتمانه لأنّ جوارحهم تشهد عليهم. وقيل: الواو للحال، أي: يودّون أن يدفنوا تحت الأرض وأنّهم لا يكتمون الله حديثاً ولا يكذبون في قولهم: والله ربنا ما كنا مشركين، لأنهم إذا قالوا ذلك وجحدوا شركهم ختم الله على أفواههم عند ذلك وتكلمت أيديهم وأرجلهم بتكذيبهم والشهادة عليهم بالشرك، فلشدّة الأمر عليهم يتمنون أن تسوّى بهم الأرض. وقرئ: تسوّى بحذف التاء من تتسوّى، يقال: سويته فتسوّى، نحو: لويته فتلوّى، وتسوّى بإدغام التاء في السين، كقوله: ﴿يسمعون﴾[5] وماضيه أسوى كازكى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾.

وروي: أنّ عبد الرحمٰن بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ حين كانت الخمر مباحةً فأكلوا وشربوا فلما ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب قدّموا أحدهم ليصلي بهم، فقرأ: أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد. فنزلت فكانوا لا يشربون في أوقات الصلوات، فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحوا إلا وقد

= من النار فانقذكم منها﴾ وقد بينا ثم أنّ عوده إلى الحفرة جائز، بل أولى، وكذلك عوده ههنا إلى الذرة، ولا يمنع ذلك كون المضاف إليه غير مخبر عنه؛ لأن عود الضمير، لا يستلزم الإخبار عنه الكلام الأوّل، ويجوز كانت دابتك، وكل ذلك أسهل من اكتساب المضاف للتأنيث، من المضاف إليه، فقد نص أبو علي في التعاليق، على أنه شاذ.

(1) أخرجه أحمد في المسند 2/521.

(2) سورة المائدة، الآية: 117.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، من سورة النساء، باب: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾...، الحديث رقم: (4582)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظه للاستماع الحديث رقم: (1864).

(4) سورة الصافات، الآية: 8.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الأشربة، باب: في تحريم الخمر الحديث

ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون، ثم نزل تحريمها[1]، ومعنى: ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ لا تغشوها ولا تقوموا إليها واجتنبوها، كقوله: ﴿ولا تقربوا الزنا﴾[2] ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾[3] وقيل: معناه ولا تقربوا مواضعها وهي المساجد، لقوله عليه الصلاة والسلام: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم»[4]. وقيل: هو سكر النعاس وغلبة النوم، كقوله:

ورانوا بسكر سناتهم كل الريون

وقرئ: سكارى بفتح السين، وسكرى على أن يكون جمعاً نحو هلكى وجوعى، لأنّ السكر علة تلحق العقل، أو مفرداً بمعنى: وأنتم جماعة سكرى، كقولك: امرأة سكرى وسكر بضم السين كحبلى، وأن تكون صفةً للجماعة. وحكى جناح بن حبيش: كسلى وكسلى بالفتح والضم. ﴿ولا جنباً﴾ عطف على قوله: ﴿وأنتم سكارى﴾ لأنّ محلّ الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنّه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً، والجنب يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنّه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب. ﴿إلا عابري سبيل﴾ استثناء من عامة أحوال المخاطبين وانتصابه على الحال.

فإنْ قلتَ: كيف جمع بين هذه الحال، والحال التي قبلها؟ قلتُ: كأنّه قيل: لا تقربوا الصلاة في حال الجنابة إلا ومعكم حال أخرى تعذرون فيها وهي حال السفر، وعبور السبيل عبارة عنه، ويجوز أن لا يكون حالاً ولكن صفةً لقوله: ﴿جنباً﴾ أي: ولا تقربوا الصلاة جنباً غير عابري سبيل، أي: جنباً مقيمين غير معذورين.

فإنْ قلتَ: كيف تصح صلاتهم على الجنابة لعذر السفر؟ قلتُ: أريد بالجنب الذين لم يغتسلوا، كأنّه قيل: لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين حتى تغتسلوا، لا أن تكونوا مسافرين. وقال من فسّر الصلاة بالمسجد: معناه لا تقربوا المسجد جنباً إلا مجتازين فيه إذا كان الطريق فيه إلى الماء أو كان الماء فيه أو احتلمتم فيه. وقيل إنّ رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولا يجدون ممرّاً إلا في المسجد فرخص لهم.

وروي: أنّ رسول الله ﷺ لم يأذن لأحد أن يجلس في المسجد أو يمر فيه وهو جنب، إلا لعلي رضي الله عنه؛ لأنّ بيته كان في المسجد[5].

فإنْ قلتَ: أدخل في حكم الشرط أربعة وهم: المرضى والمسافرون والمحدثون وأهل الجنابة، فيمن تعلق الجزاء الذي هو الأمر بالتيمم عند عدم الماء منهم؟ قلتُ: الظاهر أنّه تعلق بهم جميعاً، وأنّ المرضى إذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه فلهم أن يتمموا، وكذلك السفر إذا عدموه لبعده، والمحدّثون وأهل الجنابة كذلك إذا لم يجدوه لبعض الأسباب. وقال الزجاج[6]: الصعيد وجه الأرض تراباً كان أو غيره، وإن كان صخراً لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره، وهو مذهب أبي حنيفة رحمة الله عليه.

فإنْ قلتَ: فما يصنع بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾[7] أي: بعضه، وهذا لا يتأتى في الصخر الذي لا تراب عليه؟ قلتُ: قالوا إن من لابتداء الغاية.

فإنْ قلتَ: قولهم: إنّها لابتداء الغاية قول متعسف ولا يفهم أحد من العرب من قول القائل مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب إلا معنى التبعيض! قلتُ: هو كما تقول والإذعان للحق أحق من المراء. ﴿إنّ الله كان عفواً غفوراً﴾ كناية عن الترخيص والتيسير، لأنّ من كانت عادته أن يعفو عن الخطائين ويغفر لهم آثر أن يكون ميسراً غير معسر.

فإنْ قلتَ[8]: كيف نظم في سلك واحد بين المرضى والمسافرين، وبين المحدثين والمجنبين، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة، والحدث سبب لوجوب الوضوء، والجنابة سبب لوجوب الغسل؟ قلتُ: أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عادمون الماء في التيمم بالتراب، فخصّ أوّل من بينهم مرضاهم وسفرهم لأنّهم المتقدّمون في استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة، ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوزه الماء

= (3671)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة النساء الحديث (3026)، وأخرجه الحاكم في المستدرك 307/2. تقدّم تخريجه.

(1) سورة الإسراء، الآية: 32.

(2) سورة الأنعام، الآية: 151.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المساجد والجماعات، باب: ما يكره في المساجد الحديث رقم: (750)، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف عن مكحول 442/1 الحديث رقم: (1727)، وعن أبي هريرة (1728).

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: (21) الحديث رقم: (3727)، وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وسمع من محمد بن إسماعيل هذا الحديث فاستغربه.

(5) قال أحمد: هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الصعيد، وثم وجه آخر، وهو: عود الضمير على الحدث المدلول عليه، بقوله: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ إلى آخرها، فإن المفهوم منه: وإن كنتم على حدث حال من هذه الأحوال: سفر، أو مرض، أو مجيء من الغائط، أو ملامسة النساء، فلم تجدوا ماء تتطهرون به من الحدث، فتيمموا منه، يقال: تيممت من الجنابة، وموع من على هذا مستعمل متداول، وهي على هذا الإعراب، إما للتعليل، أو لابتداء الغاية، وكلاهما فيها متمكن، والله أعلم.

(6) سورة المائدة، الآية: 6.

(7) قال أحمد: وهذا من ذكر المعتني به خاصاً ومندرجاً في العموم، تنبيهاً بذكره على وجهين مختلفين؛ لأنّ المرض والسفر مندرجان في عموم المحدّثين والمجنبين، والله أعلم.

(8) قال أحمد: مراده، بذلك، أنه لما فسر غير مسمع بالدعاء، وهو: =

لخوف عدوّ أو سبع أو عدم آلة استقاء أو إرهاق في مكان لا ماء فيه وغير ذلك بما لا يكثر كثرة المرض والسفر، وقرئ: من غيط، قيل: هو تخفيف غيط، كهين في هين، والغيط: بمعنى الغائط.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾.

﴿ألم تر﴾ من رؤية القلب، وعدى بإلى على معنى ألم ينته علمك إليهم، أو بمعنى ألم تنظر إليهم. **﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾** حظاً من علم التوراة، وهم أحبار اليهود. **﴿يشترون الضلالة﴾** يستبدلونها بالهدى، وهو البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوّة رسول الله ﷺ وأنّه هو النبي العربي المبشّر به في التوراة والإنجيل. **﴿ويريدون أن تضلوا﴾** أنتم أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوه وتنخرطوا في سلكهم لا تكفيهم ضلالتهم بل يحبون أن يضل معهم غيرهم. وقرئ: أن يضلوا بالياء بفتح الضاد وكسرها.

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾.

﴿والله أعلم﴾ منكم **﴿بأعدائكم﴾** وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وأطلعكم على أحوالهم وما يريدون بكم فاحذروهم ولا تستنصحوهم في أموركم ولا تستشيروهم. **﴿وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾** فثقوا بولايته ونصرته دونهم، أو لا تبالوا بهم فإنّ الله ينصركم عليهم ويكفيكم مكرهم.

﴿من الذين هادوا﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب لأنّهم يهود ونصارى، وقوله: **﴿والله أعلم﴾** **﴿وكفى بالله﴾** وكفى بالله جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض، أو بيان لأعدائكم وما بينهما اعتراض أو صلة لنصيراً، أي: ينصركم من الذين هادوا، كقوله: ﴿ونصرناه من القوم الذين كذبوا﴾، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ على أن **﴿يحرفون﴾** صفة مبتدأ محذوف تقديره: من الذين هادوا قوم يحرفون، كقوله:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما — أموت وأُخرى أبتغي العيش أكدح

أي: فمنهما تارة أموت فيها، **﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾** يميلونه عنها ويزيلونه لأنّهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كلماً غيره فقد أمالوه عن مواضعه التي وضعه الله فيها وأزالوه عنها، وذلك نحو تحريفهم: أسمر ربعة عن موضعه في التوراة بوضعهم آدم طوال مكانه، ونحو تحريفهم الرجم بوضعهم: الحدّ بدله.

فإنْ قلتَ[1]: كيف قيل ههنا: **﴿عن مواضعه﴾**، وفي المائدة: ﴿من بعد مواضعه﴾؟ **قلتُ**: أمّا عن مواضعه فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه، وأمّا من بعد مواضعه: فالمعنى أنّه كانت له مواضع هو قمن بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقاره، والمعنيان متقاربان. وقرئ: يحرّفون الكلام والكلم بكسر الكاف وسكون اللام، جمع كِلْمة تخفيف كَلِمة. قولهم: **﴿غير مسمع﴾** حال من المخاطب، أي: اسمع وأنت غير مسمع، وهو قول ذو وجهين يحتمل الذمّ أي: اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت، لأنّه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع فكان أصم غير مسمع، قالوا ذلك اتكالاً على أنّ قولهم: لا سمعت، دعوة مستجابة، أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه، ومعناه: غير مسمع جواباً يوافقك، فكأنك لم تسمع شيئاً، أو اسمع غير مسمع كلاماً ترضاه فسمعك عنه ناب، ويجوز على هذا أن يكون غير مسمع مفعول اسمع، أي: اسمع كلاماً غير مسمع إياك لأنّ أذنك لا تعيه نبواً عنه. ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً، من قولك: أسمع فلان فلاناً إذا سبه. وكذلك قولهم: **﴿راعنا﴾** يحتمل راعنا نكلمك، أي: ارقبنا وانتظرنا، ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهي راعينا، فكانوا سخريةً بالدين وهزؤاً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام **﴿ليًّا بألسنتهم﴾** فتلاً بها وتحريفاً، أي: يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل حيث يضعون راعنا موضع انظرنا، وغير مسمع

= إنشاء وطلب، وقد أوقعه حالاً، والحال: خبر، أراد أن يبين أوجه صحة التعبير عن الخبر بالإنشاء، بواسطة أن هؤلاء كانوا يظنون دعاءهم مستجاباً، مخبراً بوقوع المدعوة فيه، ونظيره ورود الأمر بصيغة الخبر، تنبيهاً على تحقق وقوعه. وقال أحمد: والظاهر أن الكلم المحرف إنما أريد في هذه السورة، مثل: ﴿غير مسمع وراعنا﴾ ولم يقصد ههنا تبديل الأحكام وتوسطها بين الكلمتين، وبين قوله: ﴿يحرّفون﴾ وبين قوله: ﴿لياً بالسنتهم﴾ والمراد أيضاً: تحريف مشاهد بيّن، على أنّ المحرّف هما وأمثالهم، وأما في سورة المائدة، فالظاهر، والله أعلم أنّ المراد فيها بالكلم: الأحكام وتحريفها، تبديلها كتبديلهم الرجم بالجلد، ألا تراه عقبه بقوله: ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ =

= الاختلاف المراد بالكلم في السورتين، قيل في سورة المائدة: ﴿يحرّفون الكلم من بعد مواضعه﴾ أي: ينقلونه عن الموضع الذي وضعه الله فيه، فصار وطنه ومستقرّه إلى غير الموضع، فبقي كالغريب المتأسف عليه، الذي يقال فيه: هذا غريب، من بعد مواضعه ومقاره، ولا يوجد هذا المعنى في مثله: ﴿راعنا﴾ و ﴿غير مسمع﴾ وإن وجد على بعد، فليس الوضع اللغوي مما يعبأ بانتقاله عن موضعه، كالوضع الشرعي، ولولا اشتمال هذا النقل على الهزء والسخرية، لما عظم أمره، فلذلك جاء هنا: ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ غير مقرون بما قرن به الأوّل من صورة التأسف، والله أعلم.

موضع لا أسمعت مكروهاً، أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقاً.

فإنْ قلتَ: كيف جاؤوا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد ما صرحوا وقالوا: سمعنا وعصينا؟ **قلتُ:** جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء، ويجوز أن يقولوه فيما بينهم، ويجوز أن لا ينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا جعلوا كأنّهم نطقوا به. وقرأ أبيّ: وأنظرنا، من الإنظار وهو الإمهال.

فإنْ قلتَ: إلام يرجع الضمير في قوله: **﴿لكان خيراً لهم﴾**؟ **قلتُ:** إلى أنّهم قالوا، لأنّ المعنى: ولو ثبت قولهم سمعنا وأطعنا لكان قولهم: ذلك خيراً لهم، **﴿وأقوم﴾** وأعدل وأسد. **﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم﴾** أي خذلهم بسبب كفرهم وأبعدهم عن ألطافه. **﴿فلا يؤمنون إلا﴾** إيماناً **﴿قليلاً﴾**، أي: ضعيفاً ركيكاً لا يعبأ به، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره، أو أراد بالقلة العدم، كقوله:

قليل التشكي للمهم يصيبه

أي: عديم التشكي، أو إلا قليلاً منهم قد آمنوا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

﴿أن نطمس وجوهاً﴾ أي: نمحوا تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم. **﴿فنردّها على أدبارها﴾** فنجعلها على هيئة أدبارها، وهي الأقفاء مطموسة مثلها، والفاء للتسبيب، وإن جعلتها للتعقيب على أنّهم توعدوا بعقابين: أحدهما عقيب الآخر ردّها على أدبارها بعد طمسها، فالمعنى: أن نطمس وجوهاً فننكسها الوجوه إلى خلف، والأقفاء إلى قدّام، ووجه آخر وهو أن يراد بالطمس القلب والتغيير كما طمس أموال القبط فقلبهما حجارةً، وبالوجوه رؤوسهم ووجهاؤهم، أي: من قبل أن نغير أحوال وجهائهم، فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم ونكسوهم صغارهم وإدبارهم، أو نردّهم إلى حيث جاؤوا منه، وهي أذرعات الشام، يريد إجلاء بني النضير.

فإنْ قلتَ: لمن الراجع في قوله: **﴿أو نلعنهم﴾**؟ **قلتُ:** للوجوه إن أريد الوجهاء، أو لأصحاب الوجوه، لأن المعنى من قبل أن نطمس وجوه قوم أو يرجع إلى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات **﴿أو نلعنهم﴾** أو نجزيهم بالمسخ كما مسخنا أصحاب السبت.

فإنْ قلتَ: فأين وقوع الوعيد؟ **قلتُ:** هو مشروط بالإيمان، وقد آمن منهم ناس، وقيل: هو منتظر ولا بدّ من طمس ومسخ لليهود قبل يوم القيامة؛ ولأنّ الله عزّ وجلّ أوعدهم بأحد الأمرين: بطمس وجوه منهم، أو بلعنهم، فإن الطمس تبديل أحوال رؤسائهم أو إجلائهم إلى الشام، فقد كان أحد الأمرين وإن كان غيره فقد حصل اللعن، فإنهم ملعونون بكل لسان، والظاهر اللعن المتعارف دون المسخ، ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير﴾**[1] **﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾** فلا بدّ أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

فإنْ قلتَ[2]: قد ثبت أنّ الله عزّ وجلّ يغفر الشرك لمن تاب منه، وأنّه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة، فما وجه قوله تعالى: **﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**؟ **قلتُ:** الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله تعالى: **﴿لمن يشاء﴾** كأنّه قيل: إنّ الله لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك، على أنّ المراد بالأوّل: من لم يتب، وبالثاني: من تاب. ونظيره قولك: إنّ الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء، تريد: لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله، ويبذل القنطار لمن يستأهله. **﴿فقد افترى إثماً﴾**، أي: ارتكبه وهو مفتر مفتعل ما لا يصح كونه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

﴿الذين يزكون أنفسهم﴾ اليهود والنصارى، قالوا:

---

(1) سورة المائدة، الآية: 60.

(2) قال أحمد رحمه الله: عقيدة أهل السنة: أن الشرك غير مغفور البتة، وما دونه من الكبائر مغفور، لمن يشاء الله أن يغفر له، هذا مع عدم التوبة، وأمّا مع التوبة، فكلاهما مغفور، الآية إنما وردت فيمن لم يتب، ولم يذكر فيها توبة كما ترى، فلذلك أطلق الله تعالى نفي مغفرة الشرك، وأثبت مغفرة ما دونه، مقرونة بالمشيئة، فأمّا أن يكون المراد فيهما من لم يتب، فلا وجه للتفصيل بينهما، بتعليق المغفرة في أحدهما بالمشيئة، وتعليقها بالآخر مطلقاً، إذ هما سيّان في استحالة المغفرة، وإمّا أن يكون المراد فيهما: التائب، فقد قال في الشرك: إنه لا يغفر، والتائب من الشرك مغفور له، وعند ذلك أخذ الزمخشري يقطع أحدهما عن الآخر، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة، ومع الكبائر التوبة، حتى تنزل الآية= على وفق معتقده، فيحملها أمرين، لا تحمل واحداً منهما. أحدهما: إضافة التوبة إلى المشيئة، وهي غير مذكورة، ولا دليل عليها فيما ذكر، وأيضاً لو كانت مرادة، لكانت هي السبب الموجب للمغفرة على زعمهم عقلاً، ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم في العقل، فكيف يليق السكوت عن ذكر ما هو العمدة والموجب وذكر ما لا مدخل له على هذا المعتقد الرديء. الثاني: أنه بعد تقريره التوبة، لحتكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر، وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأي، نعوذ بالله من ذلك، وأمّا القدرية، فهم بهذا المعتقد، يقع عليهم المثل السائر: السيد يعطي، والعبد يمنع؛ لأنّ الله تعالى يصرح كرمه بالمغفرة، للمصر على الكبائر إن شاء، وهم يدفعون في وجه هذا التصريح، ويحيلون المغفرة بناء على قاعدة الأصلح، والصلاح التي هي بالفساد أجدر وأحق.

﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾. وقيل: جاء رجال من اليهود إلى رسول الله ﷺ بأطفالهم، فقالوا: هل على هؤلاء ذنب؟ قال: لا، قالوا: والله ما نحن إلا كهيئتهم ما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل، وما عملناه بالليل كفر عنا بالنهار[1]. فنزلت. ويدخل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله.

فإنْ قلت: أما قال رسول الله ﷺ: «والله إنّي لأمين في السماء أمين في الأرض»[2]. **قلتُ:** إنّما قال ذلك حين قال له المنافقون: أعدل في القسمة، إكذاباً لهم إذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه، وشتان من شهد الله له بالتزكية ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم. ﴿**بل الله يزكي من يشاء**﴾ إعلام بأن تزكية الله هي التي يعتد بها لا تزكية غيره، لأنّه هو العالم بمن هو أهل للتزكية، ومعنى يزكي من يشاء، يزكي المرتضين من عباده الذين عرف منهم الزكاء فوصفهم به. ﴿**ولا يظلمون فتيلاً**﴾ أي: الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم أنفسهم حق جزائهم، أو من يشاء يثابون على زكائهم ولا ينقص من ثوابهم، ونحوه: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾.

انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾.

﴿**كيف يفترون على الله بالكذب**﴾ في زعمهم أنّهم عند الله أزكياء، ﴿**وكفى**﴾ بزعمهم هذا ﴿**إثماً مبيناً**﴾ من بين سائر آثامهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾.

الجبت: الأصنام وكل ما عبد من دون الله، والطاغوت الشيطان. وذلك أنّ حييَ بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا. فهذه إيمانكم ﴿**بالجبت والطاغوت**﴾ لأنّهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا. وقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب: ماذا يقول محمد؟ قالوا: يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك. قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت ونسقي الحاج ونقري الضيف ونفك العاني، وذكروا أفعالهم. فقال: أنتم أهدى سبيلاً.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾.

وصف اليهود بالبخل والحسد وهما شرّ خصلتين، يمنعون ما أوتوا من النعمة ويتمنون أن تكون لهم نعمة غيرهم، فقال: ﴿**أم لهم نصيب من الملك**﴾ على أنّ أم منقطعة[3]، ومعنى الهمزة لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك. ثم قال: ﴿**فإذاً لا يؤتون**﴾، أي: لو كان لهم نصيب من الملك، فإذاً لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم.

والنقير: النقرة في ظهر النواة، وهو مثل في القلة كالفتيل والقطمير، والمراد بالملك: إمّا ملك أهل الدنيا، وإمّا ملك الله، كقوله تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾[4] وهذا أوصف لهم بالشح وأحسن لطباقه نظيره من القرآن، ويجوز أن يكون معنى الهمزة في ﴿أم﴾ لإنكار أنّهم قد أوتوا نصيباً من الملك وكانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة، كما تكون أحوال الملوك، وأنّهم لا يؤتون أحداً مما يملكون شيئاً. وقرأ ابن مسعود: فإذاً لا يؤتوا، على إعمال إذاً عملها الذي هو النصب، وهي ملغاة في قراءة العامّة. كأنّه قيل: فلا يؤتون الناس نقيراً إذاً.

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾.

﴿**أم يحسدون الناس**﴾ بل أيحسدون ورسول الله ﷺ والمؤمنين على إنكار الحسد واستقباحه، وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصرة والغلبة وازدياد العزّ والتقدّم كل يوم. ﴿**فقد آتينا**﴾ إلزام لهم بما عرفوه من إيتاء الله الكتاب والحكمة. ﴿**آل إبراهيم**﴾ الذين هم أسلاف محمد ﷺ، وأنّه ليس ببدع أن يؤتيه الله مثل ما آتى أسلافه. وعن ابن عباس: الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان. وقيل: استكثروا نساءه. فقيل لهم: كيف استكثرتم له التسع وقد كان لداود مائة ولسليمان ثلثمائة مهيرة وسبعمائة سرية.

فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾.

﴿**فمنهم**﴾ فمن اليهود ﴿**من آمن به**﴾، أي: بما ذكر من حديث آل إبراهيم. ﴿**ومنهم من صدَّ عنه**﴾ وأنكره مع علمه بصحته، أو من اليهود من آمن برسول الله ﷺ، ومنهم من أنكر نبوّته، أو من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم، ومنهم من كفر. كقوله: ﴿فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فاسقون﴾[5].

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾.

﴿**بدلناهم جلوداً غيرها**﴾ أبدلناهم إياها.

فإنْ قلتَ: كيف تعذب مكان الجلود العاصية جلود لم

---

(1) أخرجه الثعالبي في تفسيره.

(2) قال الزيلعي غريب، 327/1.

(3) أي: تفسر ببل والهمزة.

(4) سورة الإسراء، الآية: 100.

(5) سورة الحديد، الآية: 26.

تعص؟ قلتُ: العذاب للجملة الحساسة وهي التي عصت لا للجلد. وعن فضيل: يجعل النضيج غير نضيج. وعن رسول الله ﷺ: «تبدّل جلودهم كل يوم سبع مرّات»[1]. وعن الحسن: سبعين مرّةً يبدّلون جلوداً بيضاء كالقراطيس. ﴿ليذوقوا العذاب﴾ ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع، كقولك للعزيز: أعزّك الله، أي: أدامك على عزّك وزادك فيه. ﴿عزيزاً﴾ لا يمتنع عليه شيء مما يريده بالمجرمين، ﴿حكيماً﴾ لا يعذب إلا بعدل من يستحقه.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾.

﴿ظليلاً﴾ صفة مشتقة من لفظ الظلّ لتأكيد معناه، كما يقال: ليل أليل ويوم يوم وما أشبه ذلك. وهو ما كان فيناناً لا جوب فيه ودائماً لا تنسخه الشمس وسجسجاً لا حرّ فيه ولا برد، وليس ذلك إلاّ ظل الجنة رزقنا الله بتوفيقه لما يزلف إليه التفيؤ تحت ذلك الظلّ. وفي قراءة عبد الله: سيدخلهم بالياء.

۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾.

﴿أن تؤدوا الأمانات﴾ الخطاب عامّ لكل أحد في كل أمانة. وقيل: نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار وكان سادن الكعبة، وذلك أنّ رسول الله ﷺ حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه، وقال: لو علمت أنّه رسول الله لم أمنعه. فلوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يده، وأخذه منه، وفتح، ودخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة. فنزلت. فأمر علياً أن يردّه إلى عثمان ويعتذر إليه. فقال عثمان لعلي: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق؟ فقال: لقد أنزل الله في شأنك قرآناً. وقرأ عليه الآية. فقال عثمان: أشهد أنّ لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله. فهبط جبريل وأخبر رسول الله ﷺ أنّ السدانة في أولاد عثمان أبداً[2]. وقيل: هو خطاب للولاة بأداء الأمانات. والحكم بالعدل. وقرئ: الأمانة على التوحيد. ﴿نعماً يعظكم به﴾ ما إما أن تكون منصوبةً موصوفةً بيعظكم به، وإمّا أن تكون مرفوعةً موصولةً به، كأنّه قيل: نعم شيئاً يعظكم به، أو نعم الشيء الذي يعظكم به، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: نعما يعظكم به ذاك وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكم. وقرئ: نعما بفتح النون.

يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾.

لما أمر الولاة بأداء الأمانات إلى أهلها وأن يحكموا بالعدل، أمر الناس بأن يطيعوهم وينزلوا على قضاياهم، والمراد بأولي الأمر منكم: أمراء الحق لأنّ أمراء الجور: الله ورسوله بريئان منهم. فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنّما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل، واختيار الحق والأمر بهما، والنهي عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان، وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وعن أبي حازم أنّ مسلمة بن عبد الملك قال له: ألستم أمرتم بطاعتنا في قوله: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ قال: أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتم الحق، بقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ وقيل: هم أمراء السرايا. وعن النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع أميري فقد أطاعني، ومن يعص أميري فقد عصاني»[3]. وقيل: هم العلماء الدينون الذين يعلمون الناس الدين ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم في شيء من أمور الدين ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ أي: ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة. وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولي الأمر بما لا يبقى معه شك وهو أن أمرهم أولاً بأداء الأمانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخراً بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل. وأمراء الجور لا يؤدون أمانةً ولا يحكمون بعدل ولا يردون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة إنّما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله، وأحق أسمائهم اللصوص المتغلبة. ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الرد، أي: الرد إلى الكتاب والسنة. ﴿خير﴾ لكم وأصلح، ﴿وأحسن تأويلاً﴾ وأحسن عاقبةً. وقيل: أحسن تأويلاً من تأويلكم أنتم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾.

روي: أنّ بشراً المنافق خاصم يهودياً، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنّهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، فقضى لليهودي فلم

---

(1) قال الزيلعي غريب 1/328.

(2) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص: 90.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: يقاتل من وراء = الإمام الحديث رقم: (2957)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء... الحديث رقم: (4726).

يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب. فقال اليهودي لعمر: قضى لنا رسول الله فلم يرض بقضائه، فقال للمنافق: كذلك. قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله. فنزلت. وقال جبريل: إنّ عمر فرق بين الحق والباطل. فقال له رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق».

والطاغوت: كعب بن الأشرف سماه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله ﷺ، أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه، أو جعل اختيار التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ على التحاكم إليه تحاكماً إلى الشيطان، بدليل قوله: **﴿وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم﴾** . وقرئ: بما أنزل وما أنزل على البناء للفاعل. وقرأ عباس بن الفضل: أن يكفروا بها ذهاباً بالطاغوت إلى الجمع كقوله: ﴿أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم﴾[1].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

وقرأ الحسن: تعالوا بضم اللام على أنّه حذف اللام من تعاليت تخفيفاً، كما قالوا: ما باليت به بالة، وأصلها بالية كعافية. وكما قال الكسائي: في آية إن أصلها آيية فاعلة فحذفت اللام فلما حذفت وقعت واو الجمع بعد اللام من تعال فضمت فصار تعالوا نحو تقدموا. ومنه قول أهل مكة: تعالي بكسر اللام للمرأة. وفي شعر الحمداني:

تعالي أقاسمك الهموم تعالي

والوجه فتح اللام.

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فكيف﴾ يكون حالهم وكيف يصنعون، يعني: أنّهم يعجزون عند ذلك فلا يصدرون أمراً ولا يوردونه. **﴿إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾** من التحاكم إلى غيرك واتهامهم لك في الحكم. **﴿ثم جاءوك﴾** حين يصابون فيتعذرون إليك، **﴿ويحلفون﴾** ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك. **﴿إلا إحساناً﴾** لا إساءة **﴿وتوفيقاً﴾** بين الخصمين، ولم يرد مخالفة لك ولا تسخطاً لحكمك، ففرج عنا بدعائك. وهذا وعيد لهم على فعلهم وأنّهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم ولا يغني عنهم الاعتذار عند حلول بأس الله. وقيل: جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله، فقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالنا أنّه يحكم له بما حكم به.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فاعرض عنهم﴾ لا تعاقبهم لمصلحة في استبقائهم ولا تزد على كفهم بالموعظة والنصيحة عما هم عليه. **﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾** بالغ في وعظهم بالتخفيف والإنذار.

فإنْ قلتَ[2]: بم تعلق قوله: **﴿في أنفسهم﴾**؟ قلتُ: بقوله: **﴿بليغاً﴾** أي: قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغتمون به اغتماماً ويستشعرون منه الخوف استشعاراً؛ وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق، وأطلع قرنه وأخبرهم أنّ ما في نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله وأنّه لا فرق بينكم وبين المشركين. وما هذه المكافة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراركم الكفر وإضماره، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف. أو يتعلق بقوله: **﴿قل لهم﴾** أي: قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغاً، وإنّ الله يعلم ما في قلوبكم لا يخفى عليه فلا يغني عنكم إبطانه فأصلحوا أنفسكم وطهّروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق، وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك من انتقامه وشراً من ذلك وأغلظ، أو قل لهم في أنفسهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم مساراً لهم بالنصيحة؛ لأنّها في السر أنجع وفي الإمحاض أدخل **﴿قولاً بليغاً﴾** يبلغ منهم ويؤثر فيهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وما أرسلنا من رسول﴾ وما أرسلنا رسولاً قط **﴿إلا ليطاع بإذن الله﴾** بسبب إذن الله في طاعته وبأنّه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه لأنّه مؤدٍ عن الله فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله، ويجوز أن يراد بتيسير الله وتوفيقه في

---

(1) سورة البقرة، الآية: 257.

(2) قال أحمد: ولكل من هذه التأويلات شاهد على الصحة، أمّا الأوّل، فلأنّ حاصله أمره بتهديدهم، على وجه مبلغ صميم قلوبهم، وسياق التهديد في قوله: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك﴾ يشهد له، فإنه أخبر بما سيقع لهم على سبيل التهديد، وأما الثاني، فيلائمه من السياق قوله: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ يعني ما انطوت عليه من الخبث، والمكر، والحيل، ثم أمره بوعظهم، والإعراض عن جرائمهم، حتى = لا تكون مؤاخذتهم بها، مانعة من نصحهم ووعظهم، ثم جاء قوله: ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ كالشرح للوعظ، ولذكر أهم ما يعظهم فيه، وتلك نفوسهم التي علم الله ما انطوت عليه من المذام، وعلى هذا يكون المراد: الوعظ وما يتعلق به، وأما الثالث، فيشهد له سيرته عليه الصلاة والسلام، لتخصيصه إياه بالاطلاع على أعيانهم، وتسميتهم له بأسمائهم، وأخباره في هذا المعنى كثيرة.

طاعته. ﴿ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿جاءوك﴾ تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا. ﴿فاستغفروا الله﴾ من ذلك بالإخلاص، وبالغوا في الاعتذار إليك من إيذائك بردّ قضائك حتى انتصبت شفيعاً لهم إلى الله ومستغفراً. ﴿لوجدوا الله تواباً﴾ لعلموه تواباً، أي: لتاب عليهم ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه[1] إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على أنّ شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾.

﴿فلا وربّك﴾ معناه: فوربك، كقوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم﴾[2]. ولا مزيدة لتاكيد[3]. معنى القسم كما زيدت في ﴿لئلا يعلم﴾[4] لتاكيد وجوب العلم، و ﴿لا يؤمنون﴾ جواب القسم.

فإنْ قلتَ: هلا زعمت أنّها زيدت لتظاهر لا في ﴿لا يؤمنون﴾ قلتُ: يابى ذلك استواء النفي والإثبات فيه، وذلك قوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنّه لقول رسول كريم﴾[5] ﴿فيما شجر بينهم﴾ فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه. ﴿حرجاً﴾ ضيقاً، أي: لا تضيق صدورهم من حكمك. وقيل: شكاً لأنّ الشاك في ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين. ﴿ويسلموا﴾ وينقادوا ويذعنوا لما تاتي به من قضائك لا يعارضوه بشيء، من قولك: سلم لأمر الله وأسلم له، وحقيقة سلم نفسه وأسلمها إذا جعلها سالمةً له خالصةً. و ﴿تسليماً﴾ تاكيد للفعل بمنزلة تكريره، كانّه قيل: وينقادوا لحكمه انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم. قيل: نزلت في شأن المنافق واليهودي[6]. وقيل: في شأن الزبير وحاطب بن أبي بلتعة، وذلك أنّهما اختصما إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرّة كانا يسقيان بها النخل، فقال: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك». فغضب حاطب وقال: لأن كان ابن عمتك. فتغير وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقك ثم أرسله إلى جارك»[7]. كان قد أشار على الزبير براي فيه السعة له ولخصمه، فلما أحفظ رسول الله ﷺ استوعب للزبير حقه في صريح الحكم ثم خرجا فمرا على المقداد، فقال له: لمن كان القضاء؟ فقال الأنصاري: قضى لابن عمته، ولوى شدقه. ففطن يهودي كان مع المقداد فقال: قاتل الله هؤلاء يشهدون أنّه رسول الله ثم يتهمونه في قضاء يقضي بينهم، وأيم الله لقد أذنبنا ذنباً مرّةً في حياة موسى فدعانا إلى التوبة منه وقال: اقتلوا أنفسكم ففعلنا، فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنا. فقال ثابت بن قيس بن شماس: أما والله إنّ الله ليعلم مني الصدق لو أمرني محمد أن أقتل نفسي لقتلتها. وروي أنّه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنّ من أمّتي رجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي»[8]. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال: والله لو أمرنا ربنا لفعلنا، والحمد لله الذي لم يفعل بنا ذلك، فنزلت الآية في شأن

---

(1) قال أحمد: وفي هذا النوع من الالتفات خصوصية، وهي اشتماله على ذكر صفة مناسبة لما أضيف إليه، وذلك زائد على الالتفات، بذكر الأعلام الجامدة، والله الموفق.

(2) سورة الحجر، الآية: 92.

(3) قال أحمد: يشير إلى أن لا لما زيدت مع القسم، وإن لم يكن المقسم به، دلّ ذلك على أنها إنما تدخل فيه، لتاكيد القسم، فإذا دخلت حيث يكون المقسم عليه نفياً، تعين جعلها لتاكيد القسم طرداً للباب، والظاهر عندي، والله أعلم، أنها هنا لتوطئة النفي المقسم عليه، والزمخشري لم ينكر مانعاً من ذلك، وحاصل ما ذكره: مجيئها لغير هذا المعنى في الإثبات، وذلك لا يأبى مجيئها في النفي على الوجه الآخر من التوطئة، على أن في دخولها على القسم المثبت نظراً، وذلك أنها لم ترد في الكتاب العزيز، إلا مع القسم، حيث يكون بالفعل مثل: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ ﴿فلا أقسم بالخنس﴾ ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ ولم تدخل أيضاً إلا على القسم بغير الله تعالى، ولذلك سر يأبى كونها في آية النساء لتاكيد القسم، ويعين كونها للتوطئة، وذلك أنّ المراد بها في جميع الآيات التي عددناها. تاكيد تعظيم المقسم به، إذ لا يقسم بالشيء، إلا إعظاماً له، فكانه بدخلها يقول: إنّ إعظامي لهذه الأشياء بالقسم بها كلا إعظام، يعني: أنها تستوجب من التعظيم فوق ذلك، وهذا التاكيد إنما يؤتى به رفعاً، لتوهم كون هذه الأشياء غير مستحقة للتعظيم وللإقسام بها، فيزاح هذا الوهم بالتاكيد في إبراز فعل القسم، مؤكداً بالنفي = المذكور، وقد قرّر الزمخشري هذا المعنى في دخول «لا» عند قوله: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ على وجه مجمل هذا بسطه وإيضاحه، فإذا بين ذلك، فهذا الوهم الذي يراد إزاحته في القسم بغير الله، مندفع في الإقسام بالله، فلا يحتاج إلى دخول «لا» مؤكدة للقسم، فيتعين حملها على الموطئة، ولا تكاد تجدها في غير الكتاب العزيز داخلة على قسم مثبت، وأما دخولها في القسم وجوابه نفي، فكثير مثل:

فلا وأبيك ابنة العامري ... لا يدعي القوم أني أفر

وكقوله:

ألا نادت أمامة باحتمال ... لتحزنني فلا بك ما أبالي

وقوله:

رأى برقاً فأوضع فوق بكر ... فلا بك ما أسال ولا أقاما

وقوله:

فحلف فلا والله تهبط تلعة ... من الأرض إلا أنت للذل عارف

وهو أكثر من أن يحصى، فتأمل هذا الفصل، فإنه حقيق بالتأمل.

(4) سورة الحديد، الآية: 29.

(5) سورة الحاقة، الآيات: 38 ـ 40

(6) الواحدي في أسباب النزول ص 93.

(7) أخرجه البخاري في كتاب: المساقاة، باب: سكر الأنهار الحديث (2359)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: وجوب اتباعه ﷺ، الحديث (6065).

(8) أخرجه الثعلبي في تفسيره.

حاطب ونزلت في شأن هؤلاء.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم﴾ أي: لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم أنفسهم أو خروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل **﴿ما فعلوه إلا﴾** ناس **﴿قليل منهم﴾** وهذا توبيخ عظيم، والرفع على البدل من الواو وفي فعلوه. وقرئ: إلا قليلاً بالنصب على أصل الاستثناء، أو على إلا فعلاً قليلاً **﴿ما يوعظون به﴾** من اتباع رسول الله ﷺ وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به؛ لأنّه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. **﴿لكان خيراً لهم﴾** في عاجلهم وآجلهم. **﴿وأشدّ تثبيتاً﴾** لإيمانهم وأبعد من الاضطراب فيه.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وإذاً﴾ جواب السؤال مقدّر، كأنّه قيل: وماذا يكون لهم أيضاً بعد التثبيت، فقيل: وإذاً لو ثبتوا **﴿لآتيناهم﴾**، لأنّ إذاً جواب وجزاء. **﴿من لدنا أجراً عظيماً﴾** كقوله: **﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾**[1] في أنّ المراد العطاء المتفضل به من عنده، وتسميته أجراً لأنّه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿ولهديناهم﴾ وللطفنا بهم ووفقناهم لازدياد الخيرات.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾.

الصديقون: أفاضل صحابة الأنبياء الذين تقدّموا في تصديقهم كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وصدقوا في أقوالهم وأفعالهم.

وهذا ترغيب للمؤمنين في الطاعة حيث وعدوا مرافقة أقرب عباد الله إلى الله وأرفعهم درجاتٍ عنده. **﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾** فيه معنى المتعجب، كأنه قيل: وما أحسن أولئك رفيقاً، ولاستقلاله بمعنى التعجب قرئ: وحسن بسكون السين. يقول المتعجب حسن الوجه وجهك، وحسن الوجه وجهك بالفتح والضم مع التسكين، والرفيق كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه. ويجوز أن يكون مفرداً بين به الجنس في باب التمييز. وروي: أنّ ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله، فقال: يا رسول الله ما بي من وجع غير أنّي إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشةً شديدةً حتى ألقاك، فذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنّي عرفت أنّك ترفع مع النبيين، وإن أدخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبداً. فنزلت: فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين»[2]. وحكي ذلك عن جماعة من الصحابة.

﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿ذلك﴾ مبتدأ و**﴿الفضل﴾** صفته، و**﴿من الله﴾** الخبر، ويجوز أن يكون ذلك مبتدأ والفضل من الله خبره، والمعنى: أنّ ما أعطي المطيعون من الأجر[3] العظيم ومرافقة المنعم عليهم من الله لأنّه تفضل به عليهم تبعاً لثوابهم. **﴿وكفى بالله عليماً﴾** بجزاء من أطاعه، أو أراد أنّ فضل المنعم عليهم ومزيتهم من الله لأنّهم اكتسبوه بتمكينه وتوفيقه، وكفى بالله عليماً بعباده فهو يوفقهم على حسب أحوالهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿خذوا حذركم﴾ الحذر والحذر بمعنى كالأثر والأثر، يقال: أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوّف، كأنّه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه، والمعنى:

---

(1) سورة النساء، الآية: 40.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حب النبي ﷺ الحديث (1380)، وأخرجه الطبراني في الصغير الحديث (52).

(3) قال أحمد: عقيدة أهل السنة، وأنّ المطيع لا يستحق على الله بطاعته شيئاً، وأنه مهما أثيب به من دخول الجنة والنجاة من النار، فذاك فضل من الله لا عن استحقاق ثابت، فهم يقرّون هذه الآية في رجائها، وأما القدرية، فيزعمون أنّ المطيع يستوجب على الله ثواب الطاعة، وأنّ المقابل لطاعته من الثواب أجر مستحق، كالأجرة على العمل في الشاهد، ليس بفضل، وإنما الفضل ما يزاده العبد على حقه من أنواع الثواب، وصنوف الكرامة، فلما وردت هذه الآية، ناطقة بأنّ جملة ما يناله عباد الله فضل من الله، اضطرّ الزمخشري إلى ردّها إلى معتقده، فجعل الفضل المشار إليه، هو الزيادة التابعة للثواب، يعني: المستحق، ثم اتسع في التأويل، فذكر وجهاً آخر، وهو: أن يكون المشار إليه مزايا هؤلاء = المطيعين في طاعتهم، وتمييزهم بأعمالهم، وجعل معنى كونها فضلاً من الله أنه وفقهم لاكتسابها، ومكنهم من ذلك لا غير، يعني: وأما إحداثها فبقدرهم، وهذا من الطراز الأول، والحق أنّ الكل أيضاً فضل من الله بكل اعتبار؛ لأن معتقدنا معاشر أهل السنة، أن الطاعات والأعمال التي يتميز هؤلاء الخواص، خلق الله تعالى وفعله، وأن قدرهم لا تأثير لها في أعمالهم، بل الله عز وجل يخلق على أيديهم الطاعات، ويثيبهم عليها، فالطاعة إذاً من فضله، وثوابها من فضله، فله الفضل على كل حال، والمنة في الفاتحة والمآل، وكفى بقول سيد البشر في ذلك حجة وقدوة، فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «**لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله ورحمته**». قيل: ولا أنت يا رسول الله! قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة، قل بفضل الله وبرحمته**». فبذلك فليفرحوا، اللهم اختم لنا باقتفاء السنة، وأدخلنا بفضلك المحض الجنة.

احذروا واحترزوا من العدوّ ولا تمكنوه من أنفسكم. ﴿فانفروا﴾ إذا نفرتم إلى العدوّ إما ﴿ثبات﴾ جماعات متفرّقة سرية بعد سرية، وإما ﴿جميعاً﴾ أي: مجتمعين كوكبةً واحدةً، ولا تتخاذلوا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة. وقرئ: فانفروا بضم الفاء.

وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾.

اللام في ﴿لمن﴾ للابتداء بمنزلتها في قوله: ﴿إنّ الله لغفور﴾[1] وفي ﴿ليبطئن﴾ جواب قسم محذوف تقديره: وإنّ منكم لمن أقسم بالله ليبطئن، والقسم وجوابه صلة من، والضمير الرّاجع منها إليه ما استكنّ في ليبطئن، والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ، والمبطئون منهم المنافقون لأنّهم كانوا يغزون معهم نفاقاً. ومعنى: ليبطئن ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد، وبطأ بمعنى أبطأ كعتم بمعنى أعتم إذا أبطأ. وقرئ: ليبطئن بالتخفيف، يقال: بطأ على فلان وأبطأ على، وبطؤ نحو ثقل. ويقال: ما بطأ بك، فيعدى بالباء، ويجوز أن يكون منقولاً من بطؤ نحو ثقل من ثقل، فيراد ليبطئن غيره وليثبطنه عن الغزو، وكان هذا ديدن المنافق عبد الله بن أبي وهو الذي ثبط الناس يوم أحد. ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾[2] من قتل أو هزيمة.

وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾.

﴿فضل من الله﴾ من فتح أو غنيمة. ﴿ليقولنّ﴾، وقرأ الحسن: ليقولنّ بضم اللام إعادةً للضمير إلى معنى من لأنّ قوله: لمن ليبطئن في معنى الجماعة، وقوله: ﴿كأنْ لم تكن بينكم وبينه مودّة﴾ اعتراض بين الفعل الذي هو ليقولنّ وبين مفعوله وهو ﴿يا ليتني﴾، والمعنى: كأنْ لم تتقدّم له معكم موادّة لأنّ المنافقين كانوا يوادّون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر وإن كانوا يبغون لهم الغوائل في الباطن، والظاهر أنّه تهكم لأنّهم كانوا أعدى عدوّ للمؤمنين وأشدّهم حسداً لهم فكيف يوصفون بالمودّة إلا على وجه العكس تهكماً بحالهم. وقرئ: فأفوز بالرفع، عطفاً على كنت معهم لينتظم الكون معهم، والفوز معنى التمني فيكونا متمنيين جميعاً، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: فأنا أفوز في ذلك الوقت.

❁ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾.

﴿يشرون﴾ بمعنى يشترون ويبيعون، قال ابن مفرغ:

وشريت برداً ليتني … من بعد برد كنت هامة

فالذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة هم المبطئون، وعظوا بأن يغيروا ما بهم من النفاق، ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله، ويجاهدوا في سبيل الله حق الجهاد، والذين يبيعون هم المؤمنون الذين يستحبون الآجلة على العاجلة، ويستبدلونها بها، والمعنى أن صدّ الذين مرضت قلوبهم، وضعفت نياتهم عن القتال فليقاتل الثابتون المخلصون. ووعد المقاتل في سبيل الله ظافراً أو مظفوراً به إيتاء الأجر العظيم على اجتهاده في إعزاز دين الله.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾.

﴿والمستضعفين﴾ فيه وجهان: أن يكون مجروراً عطفاً على سبيل الله، أي: في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين. ومنصوباً[3] على الاختصاص، يعني: واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين، لأنّ سبيل الله عامّ في كل خير وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصه، والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدّهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد، وكانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه فيسر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة وبقي بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لدنه خير وليّ وناصر وهو محمد ﷺ، فتولاهم أحسن التولي ونصرهم أقوى النصر، ولما خرج استعمل على أهل مكة عتاب بن أسيد فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا. قال ابن عباس: كان ينصر الضعيف من القوي حتى كانوا أعز بها من الظلمة.

فإنْ قلتَ: لم ذكر الولدان؟ قلتُ: تسجيلاً بإفراط ظلمهم حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم ومبغضةً لهم لمكانهم، ولأنّ المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالاً لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا، كما فعل قوم يونس وكما وردت السنة بإخراجهم في الاستسقاء. وعن ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان، ويجوز أن

---

(1) سورة النحل، الآية: 18.

(2) قال أحمد: وفي هذه القراءة نكتة غريبة، وهي: الإعادة إلى لفظ، من بعد الإعادة إلى معناها، وهو مستغرب، أنكر بعضهم وجوده في الكتاب العزيز، لما يلزم من الإجمال بعد البيان، وهو خلاف قانون البلاغة، إذ الإعادة إلى لفظها، ليس بمفصح عن معناها، بل تناوله للمعنى محمل مبهم، فوقوعه بعد البيان عسر، ومنهم من أثبته، وعد موضعين، وهذه الآية على هذه القراءة ثالث، وسيأتي =

= بيان شافٍ إن شاء الله تعالى.

(3) قال أحمد: وفيه على هذا، مبالغة في الحث على خلاصهم من جهتين، إحداهما: التخصيص بعد التعميم، فإنه يقتضي إضمار الناصب الذي هو: اختص، ولولا النصب، لكان التخصيص معلوماً من إفراده بالذكر، ولكن أكد هذا المعلوم بطريق اللزوم، بأن أخرجه إلى النطق.

يراد بالرجال والنساء الأحرار والحرائر، وبالولدان العبيد والإماء، لأنّ العبد والأمة يقال لهما: الوليد والوليدة. وقيل للولدان والولائد: الولدان، لتغليب الذكور على الإناث، كما يقال الآباء والإخوة.

فإنْ قلتَ[1]: لم ذكر الظالم وموصوفه مؤنث؟ **قلتُ**: هو وصف للقرية إلا أنّه مسند إلى أهلها، فأعطي إعراب القرية لأنه صفتها، وذكر لإسناده إلى الأهل، كما تقول: من هذه القرية التي ظلم أهلها؟ ولو أنث فقيل: الظالمة أهلها لجاز، لا لتأنيث الموصوف، ولكن لأنّ الأهل يذكر ويؤنث.

فإنْ قلتَ: هل يجوز من هذه القرية الظالمين أهلها؟ **قلتُ**: نعم كما تقول: التي ظلموا أهلها، على لغة من يقول: أكلوني البراغيث. ومنه: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

رغب الله المؤمنين ترغيباً وشجعهم تشجيعاً بإخبارهم أنّهم إنّما يقاتلون في سبيل الله فهو وليهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان فلا وليّ لهم إلا الشيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿كفوا أيديكم﴾ أي: كفوها عن القتال، وذلك أنّ المسلمين كانوا مكفوفين عن مقاتلة الكفار ما داموا بمكة، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه. **﴿فلما كتب عليهم القتال﴾** بالمدينة كع فريق منهم لا شكاً في الدين ولا رغبة عنه، ولكن نفوراً عن الإخطار بالأرواح وخوفاً من الموت. **﴿كخشية الله﴾** من إضافة المصدر إلى المفعول.

فإنْ قلتَ[2]: ما محل **﴿كخشية الله﴾** من الإعراب؟ **قلتُ**: محله النصب على الحال من الضمير في يخشون، أي: يخشون الناس مثل أهل خشية الله، أي: مشبهين لأهل خشية الله. **﴿أو أشدّ خشية﴾**، بمعنى: أو أشدّ خشيةً من أهل خشية الله، وأشد معطوف على الحال.

فإنْ قلتَ: لم عدلت عن الظاهر وهو كونه صفة للمصدر، ولم تقدّر يخشون خشيةً مثل خشية الله، بمعنى: مثل ما يخشى الله؟ **قلتُ**: أبى ذلك قوله: **﴿أو أشدّ خشيةً﴾** لأنه وما عطف عليه في حكم واحد، ولو قلت: أيخشون الناس أشدّ خشية لم يكن إلا حالاً عن ضمير الفريق ولم ينتصب انتصاب المصدر؛ لأنك لا تقول: خشي فلان أشدّ خشيةً فتنصب خشيةً وأنت تريد المصدر، وإنّما تقول: أشدّ خشية فتجرّها، وإذا نصبتها لم يكن أشدّ خشية إلا عبارةً عن الفاعل حالاً منه، اللهم إلا أن تجعل الخشية خاشية وذات خشية، على قولهم: جدّ جدّه، فتزعم أن معناه: يخشون الناس خشيةً مثل خشية الله، أو خشية أشد خشية من خشية الله، ويجوز على هذا أن يكون محل أشدّ مجروراً عطفاً على خشية الله، تريد: كخشية الله، أو كخشية أشدّ خشية منها. **﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾** استزادةً في مدة الكف واستمهال إلى وقت آخر، كقوله: **﴿لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق﴾**[3] **﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾** ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتال فلا ترغبوا عنه. وقرئ: ولا يظلمون بالياء.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ

---

(1) قال أحمد: ووقفت على نكتة في هذه الآية حسنة، وهي: أنّ كل قرية ذكرت في الكتاب العزيز، فالظلم إليها ينسب بطريق المجاز، كقوله: ﴿وضرب الله مثلاً قرية آمنة مطمئنة﴾ إلى قوله: ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ وأما هذه القرية في سورة النساء، فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة؛ لأنّ المراد بها مكة، فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريفاً لها، شرفها الله تعالى: ﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية﴾.

(2) قال أحمد: وقد مرّ نظير هذه الآية في الإعراب، وهو قوله تعالى: ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم وأشدّ ذكراً﴾ وقد قرأ الزمخشري، ثمّ ما أذعن له هنا، وهو الجرّ عطفاً على الذكر وبينا، ثم جوازه بالتأويل الذي ذكره الزمخشري ههنا، وهو إلحاقه بباب جد جدّه، وأصل هذا الإعراب لأبي الفتح، وقد بينت جواز الجرّ عطفاً على الذكر، من غير احتياج إلى التأويل المذكور، وأجرى مثله ههنا، وهو وجه حسن، استنبطته من كتاب سيبويه، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمني، والله الموفق. الذي ذكر سيبويه جواز قول القائل: زيد أشجع الناس رجلاً، ثم قال سيبويه: فرجل واقع على المبتدأ، ولك أن تجره فتقول: زيد أشجع رجلٍ، وهو الأصل، انتهى المقصود من كلام سيبويه. وإذا بنيت عليه، جاز أن تقول: خشي فلان أشدّ خشية، فتنصب الخشية، أنت تريد المصدر، كأنك قلت: = خشي فلان خشية أشدّ خشية، فتوقع خشية الثانية على الأولى، وإن نصبتها، فهو كما قلت: زيد أشجع رجلاً، فأوقعت رجلاً على زيد، وإن كنت نصبته، فهو على الأصل أن تقول: أشدّ خشية، فتجرها، كما كان الأصل أن تقول: زيد أشجع رجل فتجره، وما منع الزمخشري من النصب مع وقوعه على المصدر، إلا أنّ مقتضى النصب في مثله، خروج المنصوب عن الأول، بخلاف المجرور، ألا تراك تقول: زيد أكرم أباً، فيكون زيد من الأبناء، وأنت تفضل أباه، وتقول: زيد أكرم أب، فيكون من الآباء، وأنت تفضله، فلو ذهبت توقع أشدّ على الخشية الأولى، وقد نصبت مميزها، لزم خروج الثاني عن الأوّل، وهو محال، إذ لا تكون الخشية خشية، فنحتاج إلى التأويل المذكور، وهو: جعل الخشية الأولى خاشية، حتى تخرجها عن المصدر المميز لها، وقد بينا في كلام سيبويه جواز النصب، مع وقوع الثاني على الأوّل، كما لو جررت، فمثله يجوز في الآية من غير تأويل، والله أعلم. وقد مضت وجوه من الإعراب في آية البقرة، يتعذر بعضها ههنا، لمنافرة المعنى، والله الموفق. ومثل هذه الأنواع من الإعراب، منزل من العربية، منزلة اللب الخالص، فلا يوصل إليها، إلا بعد تجاوز جملة القشور، وربك الفتاح العليم.

(3) سورة المنافقون، الآية: 10.

عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾

قرئ[1]: يدرككم بالرفع. وقيل: هو على حذف الفاء، كأنّه قيل: فيدرككم الموت، وشبّه بقول القائل:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

ويجوز أن يقال: حمل على ما يقع موقع أينما تكونوا وهو أينما كنتم كما حمل ولا ناعب على ما يقع موقع ليسوا مصلحين وهو ليسوا بمصلحين، فرفع كما رفع زهير:

يقول لا غائب مالي ولا حرم

وهو قول نحوي سيبوي، ويجوز أن يتصل بقوله: ﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾، أي: ولا تنقصون شيئاً مما كتب من آجالكم. أينما تكونوا في ملاحم حروب أو غيرها. ثم ابتدأ قوله: ﴿يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ والوقف على الوجه على أينما تكونوا. والبروج: الحصون. مشيدة: مرفعة. وقرئ: مشيدة، من شاد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجصّ، وقرأ نعيم بن ميسرة: مشيدة بكسر الياء، وصفاً لها بفعل فاعلها مجازاً، كما قالوا قصيدة شاعرة، وإنما الشاعر فارضها. السيئة تقع على البلية والمعصية. والحسنة على النعمة والطاعة، قال الله تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾[2]، وقال: ﴿إنّ الحسنات يذهبن السيئات﴾[3]، والمعنى: وإن تصبهم نعمة من خصب ورخاء نسبوها إلى الله، وإن تصبهم بلية من قحط وشدّة أضافوها إليك، وقالوا: هي من عندك وما كانت إلا بشؤمك، كما حكى الله عن قوم موسى: ﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾. وعن قوم صالح قالوا: ﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾[4]. وروي عن اليهود لعنت أنّها تشاءمت برسول الله ﷺ، فقالوا: منذ دخل المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها، فردّ الله عليهم: ﴿قل كلّ من عند الله﴾ يبسط الأرزاق ويقبضها على حسب المصالح. ﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ فيعلمون أنّ الله هو الباسط القابض وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب.

مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾.

ثم قال: ﴿ما أصابك﴾ يا إنسان؟ خطاباً عاماً ﴿من حسنة﴾، أي: من نعمة وإحسان. ﴿فمن الله﴾ تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً، ﴿وما أصابك من سيئة﴾ أي: من بلية ومصيبة فمن عندك لأنّك السبب فيها بما اكتسبت يداك، ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير﴾[5]. وعن عائشة رضي الله عنها: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها حتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر». ﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ أي: رسولاً للناس جميعاً، لست برسول العرب وحدهم أنت رسول العرب والعجم، كقوله: ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس﴾. ﴿قل يا أيّها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾. ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ على ذلك، فما ينبغي لأحد أن يخرج عن طاعتك واتباعك.

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾.

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ لأنّه لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه، فكانت طاعته في امتثال ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه طاعةً لله. وروي أنّه قال: من أحبني فقد أحبّ الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله. فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله، ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى. فنزلت ﴿ومن تولى﴾ عن الطاعة فاعرض عنه. ﴿وما أرسلناك إلا نذيراً﴾[6]، لا حفيظاً ومهيمناً عليهم تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم، كقوله: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾[7].

وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾.

﴿ويقولون﴾ إذا أمرتهم بشيء ﴿طاعة﴾ بالرفع، أي: أمرنا وشأننا طاعة، ويجوز النصب بمعنى: أطعناك طاعةً، وهذا من قول المرتسم: سمعاً وطاعةً، وسمع وطاعة، ونحوه قول سيبويه، وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم

---

(1) قال أحمد: أمّا الوجه الذي ألحقه بتوجيه سيبويه في الشعرين المذكورين، ففيه نظر، أمّا قوله: ولا ناعب، فمختار، فإن دخول الباء في خبر، ليس أم مطرد غالب، والخبر وطن معروف لها، فإذا قدرت فيه حيث تسقط، روعي هذا التقدير في المعطوف، لما ذكرناه من الغلبة، التي تقتضي إلحاق دخولها بالأصل الواجب، الذي يعتبر نطق به أو سكت عنه، وأمّا تقدير: ﴿أينما تكونوا﴾ في معنى كلام آخر يرتفع معه قوله: ﴿يدرككم﴾ فذلك تقدير لم يعهد له نظير، ولم يغلب هذا المقدّر، فيلتحق بغلبة دخول الباء في الخبر، فلا يلزم من مراعاة ما يقتضيه غالب الاستعمال، ومعهوده مراعاة ما لم يسبق به عهد، وأمّا البيت الآخر لزهير، فالمنقول عن سيبويه حمله، أو حمل مثله على التقديم والتأخير، كقوله: =

= يا أقرع بن حابس يا أقرع إنك إن يصرع أخوك تصرع

فليس من قبيل، ولا ناعب، والله الموفق، وفي الوجه الأخير الذي أبداه الزمخشري حجة واضحة، على أن القتل في المعارك والملاحم، لا يعترض على الأجل المقدّر بنقص، وإن كل مقتول، فبأجله مات، لا كما يزعمه القدرية، والله الموفق.

(2) سورة الأعراف، الآية: 168.
(3) سورة هود، الآية: 114.
(4) سورة النمل، الآية: 47.
(5) سورة الشورى، الآية: 30.
(6) سورة سبأ، الآية: 28.
(7) سورة الأنعام، الآية: 107.

يقال له: كيف أصبحت؟ فيقول: حمد الله وثناء عليه. كأنّه قال: أمري وشأني حمد الله، ولو نصب حمد الله وثناء عليه كان من الفعل، والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها. ﴿بيت طائفة﴾ زورت طائفة وسوت، ﴿غير الذي تقول﴾ خلاف ما قلت وما أمرت به، أو خلاف ما قالت وما ضمنت من الطاعة؛ لأنّهم أبطلوا الرد لا القبول والعصيان لا الطاعة وإنّما ينافقون بما يقولون ويظهرون.

والتبييت: إما من البيتوتة لأنّه قضاء الأمر وتدبيره بالليل، يقال: هذا أمر بيت بليل، وإما من أبيات الشعر لأنّ الشاعر يدبرها ويسويها. ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ يثبته في صحائف أعمالهم ويجازيهم عليه على سبيل الوعيد، أو يكتبه في جملة ما يوحي إليك فيطلعك على أسرارهم، فلا يحسبوا أنّ إبطانهم يغني عنهم ﴿فاعرض عنهم﴾ ولا تحدّث نفسك بالانتقام منهم. ﴿وتوكل على الله﴾ في شأنهم فإنّ الله يكفيك معرتهم[1] وينتقم لك منهم إذا قوي أمر الإسلام وعز أنصاره. وقرئ: بيت طائفة، بالإدغام وتنكير الفعل، لأنّ تأنيث الطائفة غير حقيقي، ولأنّها في معنى الفريق والفوج.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾.

تدبر الأمر: تأمله والنظر في إدباره وما يؤل إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل، فمعنى تدبر القرآن تأمل معانيه وتبصر ما فيه. ﴿لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ لكان الكثير منه مختلفاً متناقضاً قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه فكان بعضه بالغاً حدّ الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته، وبعضه إخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم فلما تجاوب كله بلاغةً معجزةً فائتةً لقوى البلغاء وتناصر صحة معانٍ وصدق إخبار، علم أنّه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره عالم بما لا يعلمه أحد سواه.

وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾.

فإنْ قلتَ: أليس نحو قوله: ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾[2] ﴿كأنها جان﴾[3] ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾[4] ﴿فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان﴾[5] من الاختلاف! قلتُ: ليس باختلاف عند المتدبرين. هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال[6] ولا استبطان للأمور، كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ من أمن وسلامة أو خوف وخلل ﴿أذاعوا به﴾ وكانت إذاعتهم مفسدة ولو ردّوا ذلك الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى أولي الأمر منهم وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور، أو الذين كانوا يؤمرون منهم ﴿لعلمه﴾ لعلم تدبير ما أخبروا به. ﴿الذين يستنبطونه﴾ الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها، وقيل: كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء، أو على خوف واستشعار فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة، ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر وفوّضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون فيه. وقيل: كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئاً من الخبر عن السرايا مظنوناً غير معلوم الصحة فيذيعونه فيعود ذلك وبالاً على المؤمنين، ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر، وقالوا: نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ لعلم صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع، هؤلاء المذيعون وهم الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر، أي: يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم، يقال: أذاع السر وأذاع به. قال:

أذاع به في الناس حتى كأنّه ... علياء نار أوقدت بثقوب

ويجوز أن يكون المعنى: فعلوا به الإذاعة، وهو أبلغ من أذاعوه. وقرئ: لعلمه بإسكان اللام كقوله:

فإن أهجه يضجر كما ضجر بازل ... من الأدم دبرت صفحتاه وغاربه

والنبط: الماء يخرج من البئر أوّل ما تحفر، وإنباطه واستنباطه إخراجه واستخراجه، فاستعير لما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعاني والتدابير فيما يعضل ويهم. ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾[7] وهو إرسال الرسول وإنزال الكتاب والتوفيق ﴿لاتبعتم الشيطان﴾

---

(1) قوله: معرتهم، أي: إثمهم، وعبارة النسفي: مضرتهم، فحرّر.
(2) سورة الأعراف، الآية: 107 وسورة الشعراء، الآية: 32.
(3) سورة النمل، الآية: 10 وسورة القصص، الآية: 31
(4) سورة الحجر، الآية: 92.
(5) سورة الرحمٰن، الآية: 39.
(6) قال أحمد: وفي اجتماع الهمزة والباء على التعدية نظر؛ لأنهما متعاقبتان، وهو الذي اقتضى عند الزمخشري، قوله في الوجه الثاني: فعلوا الإذاعة، ليخرجها عن الباء المعاقبة للهمزة، ثم في هذه الآية تأديب لمن يحدث بكل ما يسمع، وكفى به كذباً، وخصوصاً عن مثل السرايا، والمناصبين الأعداء، والمقيمين في = نحر العدو، وما أعظم المفسدة في لهج العامة، بكل ما يسمعون من أخبارهم خيراً أو غيره، ولقد جربنا ذلك في زماننا هذا، منذ طرق العدوّ المخذول البلاد، طهرها الله من دنسه، وصانها عن رجسه ونجسه، وعجل للمسلمين الفتح، وأنزل عليهم السكينة والنصر.
(7) قال أحمد: وفي تفسير الزمخشري هذا نظر، وذلك أنه جعل الاستثناء من الجملة، التي وليها بناء على ظاهر الإعراب، وأغفل المعنى، وذلك أنه يلزم على ذلك، جواز أن ينقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان، ومن اتباع الشيطان إلى عصيانه وخزيه، وليس لله عليه في ذلك فضل، ومعاذ الله أن يعتقد ذلك، وبيان لزومه، أن لولا=

لبقيتم على الكفر. ﴿إلا قليلاً﴾ منكم أو إلا اتباعاً قليلاً.

فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾

لما ذكر في الآي قبلها تثبطهم عن القتال وإظهارهم الطاعة وإضمارهم خلافها. قال: ﴿فقاتل في سبيل الله﴾ إن أفردوك وتركوك وحدك. ﴿لا تكلف إلا نفسك﴾ غير نفسك وحدها أن تقدّمها إلى الجهاد، فإنّ الله هو ناصرك لا الجنود فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف. وقيل: دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، وكان أبو سفيان واعد رسول الله ﷺ اللقاء فيها فكره بعض الناس أن يخرجوا. فنزلت. فخرج وما معه إلا سبعون لم يلوا على أحد ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده. وقرئ: لا تكلف بالجزم على النهي، ولا نكلف بالنون وكسر اللام، أي: لا نكلف نحن إلا نفسك وحدها. ﴿وحرّض المؤمنين﴾ وما عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب لا التعنيف بهم. ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ وهم قريش وقد كفّ بأسهم، فقد بدا لأبي سفيان وقال: هذا عام مجدب، وما كان معهم زاد إلا السويق ولا يلقون إلا عام مخصب فرجع بهم. ﴿والله أشدّ بأساً﴾ من قريش ﴿وأشدّ تنكيلاً﴾ تعذيباً.

مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾

الشفاعة الحسنة: هي التي روعي بها حق مسلم ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير، وابتغي بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز لا في حدّ من حدود الله، ولا في حق من الحقوق. والسيئة: ما كان بخلاف ذلك. وعن مسروق: أنّه شفع شفاعةً فأهدى إليه المشفوع جاريةً، فغضب وردّها، وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك ولا أتكلم فيما بقي منها. وقيل: الشفاعة الحسنة هي الدعوة للمسلم؛ لأنّها في معنى الشفاعة إلى الله. وعن النبي ﷺ: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك: ولك مثل ذلك»[1]. فذلك النصيب، والدعوة على المسلم بضد ذلك ﴿مقيتاً﴾ شهيداً حفيظاً. وقيل: مقتدراً وأقات على الشيء. قال الزبير بن عبد المطلب:

وذي ضغن نفيت السوء عنه وكنت على إساءته مقيتاً

وقال السموأل:

إلي الفضل أم علي إذا حو سبت إني على الحساب مقيت

واشتقاقه من القوت؛ لأنّه يمسك النفس ويحفظها.

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

الأحسن منها: أن تقول: وعليكم السلام ورحمة الله. إذا قال: السلام عليكم، وأن تزيد: وبركاته، إذا قال: ورحمة الله. وروي أنّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: «وعليك». فقال الرجل: نقصتني، فأين ما قال الله؟ وتلا الآية. فقال: «إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله»[2]. ﴿أو ردوها﴾ أو أجيبوها بمثلها. وردّ السلام ورجعه جوابه بمثله لأنّ المجيب يردّ قول المسلم ويكرره، وجواب التسليمة واجب والتخيير إنما وقع بين الزيادة وتركها. وعن أبي يوسف رحمه الله: من قال لآخر: أقرئ فلاناً السلام وجب عليه أن يفعل، وعن النخعي: السلام سنة، والردّ فريضة. وعن ابن عباس: الردّ واجب، وما من رجل يمرّ على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردّون عليه إلا نزع عنهم روح القدس وردّت عليه الملائكة، ولا يردّ السلام في الخطبة، وقراءة القرآن جهراً، ورواية الحديث، وعند مذاكرة العلم والأذان والإقامة. وعن أبي يوسف: لا يسلم على

= حرف امتناع لوجود، وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان، فإذا جعلت الاستثناء من الجملة الأخيرة، فقد سلبت تأثير فضل الله في امتناع لوجود، وقد أبانت امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ضرورة، وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالإيمان، وعصيان الشيطان الداعي إلى الكفر، بأنفسهم لا بفضل الله، ألا تراك إذا قلت، لمن تذكره بحقك عليه: لولا مساعدتي لك، لسلبت أموالك إلا قليلاً، كيف لم تجعل لمساعدتك أثراً في بقاء القليل للمخاطب، وإنما منت عليه بتأثير مساعدتك في بقاء أكثر ماله، لا في كله، ومن المحال أن يعتقد موحد مسلم، أنه عصم في شيء من الأشياء من اتباع الشيطان، إلا بفضل الله تعالى عليه، أمّا قواعد أهل السنة، فواضح أنّ كل ما يعدّ به العبد عاصياً للشيطان من إيمان وعمل وخير، مخلوق لله تعالى، وواقع بقدرته، ومنعم على العبد به، وأمّا المعتزلة، فهم وإن ظنوا أن العبد يخلق لنفسه، إيمانه، وطاعته، إلا أنهم لا يخالفون، في أنّ فضل الله منسحب عليه في ذلك؛ لأنه خلق له القدرة التي بها خلق العبد، ذلك على زعمهم، ووفقه لإرادة الخير، فقد وضح لك تعذر = الاستثناء من الجملة الأخيرة، على تفسير الزمخشري، وما أراه إلا واهماً مسترسلاً على المألوف في الإعراب، وهو إعادة الاستثناء إلى ما يليه من الجمل، مهملاً للنظر في المعنى، ومن ثم اتخذ القاضي أبو بكر رضي الله عنه، الاستثناء في هذه الآية إلى ما قبل الجملة الأخيرة فطنة منه ويقظة، ولأنه إمام مؤيد في نظره، مسدّد في فكره، ثم اتخذ القاضي رضي الله عنه هذه الآية، وزره في الردّ على من زعم الجزم بعود الاستثناء المتعقب للجمل إلى الأخيرة، ظناً منه أنّ ذلك واجب يسوغ سواه، ثم يقف في عوده إلى ما تقدّم، خاصة وقد بينت عند قوله تعالى: ﴿فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾ أن الاستثناء في هذه الآية أيضاً، يتعين عوده إلى الأولى، ويتعذر ردّه إلى الأخيرة؛ لأنّ المعنى يأباه، وهي موازرة للقاضي في الرد على من حتم عود الاستثناء إلى الأخيرة، والله الموفق.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، الحديث (86 ـ 2732).

(2) أخرجه الطبراني والطبري.

لاعب النرد والشطرنج والمغني والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعاري من غير عذر في حمام أو غيره. وذكر الطحاوي أن المستحب ردّ السلام على طهارة. وعن النبي ﷺ: أنّه تيمم لردّ السلام[1]. قالوا: ويسلم الرجل إذا دخل على امرأته، ولا يسلم على أجنبية. ويسلم الماشي على القاعد، والراكب على الماشي، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر، وإذا التقيا ابتدرا. وعن أبي حنيفة: لا تجهر بالرد، يعني: الجهر الكثير. وعن النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم. أي: وعليكم ما قلتم»[2]. لأنّهم كانوا يقولون: السام عليكم. وروي: «لا تبتدئ اليهودي بالسلام[3] وإن بدأك فقل: وعليك». وعن الحسن: يجوز أن تقول للكافر: وعليك السلام، ولا تقل ورحمة الله فإنها استغفار. وعن الشعبي أنّه قال لنصراني سلم عليه: وعليك السلام ورحمة الله. فقيل له في ذلك. فقال: أليس في رحمة الله يعيش. وقد رخص بعض العلماء في أن يبدأ أهل الذمة بالسلام إذا دعت إلى ذلك حادثة تحوج إليهم. وروي ذلك عن النخعي وعن أبي حنيفة: لا تبدأه بسلام في كتاب ولا غيره. وعن أبي يوسف: لا تسلم عليهم ولا تصافحهم، وإذا دخلت فقل: السلام على من اتبع الهدى، ولا بأس بالدعاء له بما يصلحه في دنياه. ﴿على كل شيء حسيباً﴾ أي: يحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿لا إله إلا هو﴾ إما خبر للمبتدأ وإما اعتراض والخبر ليجمعنكم، ومعناه: الله والله ليجمعنكم ﴿إلى يوم القيامة﴾ أي: ليحشرنكم إليه، والقيامة والقيام كالطلابة والطلاب وهي قيامهم من القبور، أو قيامهم للحساب، قال الله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[4] ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ لأنّه عز وعلا صادق لا يجوز عليه الكذب، وذلك أنّ الكذب مستقبل بصارف عن الإقدام عليه وهو قبحه، ووجه قبحه الذي هو كونه كذباً وإخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه، فمن كذب لم يكذب إلا لأنّه محتاج إلى أن يكذب ليجرّ منفعةً أو يدفع مضرةً، أو هو غني عنه إلا أنّه يجهل غناه، أو هو جاهل بقبحه، أو هو سفيه لا يفرق بين الصدق والكذب في إخباره ولا يبالي بأيهما نطق، وربما كان الكذب أحلى على حنكه من الصدق. وعن بعض السفهاء أنّه عوتب على الكذب فقال: لو غرغرت لهواتك به ما فارقته، وقيل لكذاب: هل صدقت قط؟ فقال: لولا أني صادق في قولي لا لقلتها. فكان الحكيم الغني الذي لا يجوز عليه الحاجات العالم بكل معلوم منزهاً عنه كما هو منزه عن سائر القبائح.

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فئتين﴾ نصب على الحال، كقولك: مالك قائماً؟ روي أنّ قوماً من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلةً مرحلةً حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار. وقال بعضهم: هم مسلمون، وقيل: كانوا قوماً هاجروا من مكة ثم بدا لهم فرجعوا، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنا على دينك، وما أخرجنا إلا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا. وقيل: هم قوم خرجوا مع رسول الله ﷺ يوم أحد ثم رجعوا. وقيل: هم العرنيون الذين أغاروا على السرح وقتلوا يساراً. وقيل: هم قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة. ومعناه: ما لكم اختلفتم في شأن قوم نافقوا نفاقاً ظاهراً وتفرقتم فيه فرقتين، وما لكم لم تبتوا القول بكفرهم. ﴿والله أركسهم﴾ أي: ردهم في حكم المشركين كما كانوا. ﴿بما كسبوا﴾ من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين واحتيالهم على رسول الله ﷺ، أو أركسهم في الكفر بأن خذلهم حتى أركسوا فيه لما علم مرض قلوبهم. ﴿أتريدون أن تهدوا﴾ أن تجعلوا من جملة المهتدين ﴿من أضل الله﴾ من جعله[5] من جملة الضلال وحكم عليه بذلك، أو خذله حتى ضل. وقرئ: ركسهم وركسوا فيها.

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿فتكونون﴾ عطف على تكفرون، ولو نصب على جواب التمني لجاز. والمعنى: ودّوا كفركم فكونكم معهم شرعاً واحداً فيما هم عليه من الضلال واتباع دين الآباء. فلا تتولوهم وإن آمنوا حتى يظاهروا إيمانهم بهجرة

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التيمم، باب: التيمم في الحضر إذا لم يجد الماء الحديث (337)، ومسلم في كتاب: الحيض، باب: التيمم الحديث (820)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: التيمم في الحضر الحديث (330).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: كيف الرد على أهل الذمة بالسلام الحديث رقم: (6258)، ومسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام الحديث (5617).

(3) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب = بالسلام، الحديث (5626).

(4) سورة المطففين، الآية: 6.

(5) قال أحمد: هو بهذين الوجهين يفرّ من الحق والحقيقة، أمّا الحق، فلأنّ الله هو الذي خلق الضلال لمن ضلّ، إذ لا خالق إلا الله، وأمّا الحقيقة، فلأنها، أعني: الآية، اقتضت نسبة الأصل إلى فعل الله تعالى، فالتخيل في تحريف الفاعلية إلى التسبيب، عدول عن الحقيقة إلى المجاز، وقد علمت الباعث له على هذا المعتقد، فلا نعيده.

صحيحة هي لله ورسوله لا لغرض من أغراض الدنيا مستقيمة ليس بعدها بداء ولا تعرب. ﴿فإن تولوا﴾ عن الإيمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة، فحكمهم حكم سائر المشركين يقتلون حيث وجدوا في الحلّ والحرم، وجانبوهم مجانبةً كلية وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم.

إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

﴿إلا الذين يصلون﴾ استثناء من قوله: ﴿فخذوهم واقتلوهم﴾، ومعنى: يصلون إلى قوم، ينتهون إليهم ويتصلون بهم. وعن أبي عبيدة: هو من الانتساب، وصلت إلى فلان واتصلت به إذا انتميت إليه. وقيل: إن الانتساب لا أثر له في منع القتال، فقد قاتل رسول الله ﷺ بمن معه من هو من أنسابهم.

والقوم: هم الأسلميون، كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وذلك أنّه وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أنّ من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال. وقيل: القوم بنو بكر بن زيد مناة كانوا في الصلح. ﴿أو جاءوكم﴾ لا يخلوا من أن يكون معطوفاً على صفة قوم، كأنّه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم، أو على صلة الذين، كأنّه قيل: إلا الذين يتصلون بالمعاهدين، أو الذين لا يقاتلونكم، والوجه العطف على الصلة، لقوله: ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ بعد قوله: ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾[1] فقرّر أن كفهم عن القتال أحد سببي استحقاقهم لنفي التعرّض عنهم وترك الإيقاع بهم.

فإنْ قلتَ: كل واحد من الاتصالين له تأثير في صحة الاستثناء واستحقاق إزالة التعرّض، الاتصال بالمعاهدين والاتصال بالمكافين، لأنّ الاتصال بهؤلاء أو هؤلاء دخول في حكمهم فهلا جوّزت أن يكون العطف على صفة قوم ويكون قوله: ﴿فإن اعتزلوكم﴾ تقريراً لحكم اتصالهم بالمكافين واختلاطهم بهم وجريهم على سننهم! قلتُ: هو جائز ولكن الأوّل أظهر وأجرى على أسلوب الكلام، وفي قراءة أبيّ: بينكم وبينهم ميثاق جاؤوكم حصرت صدورهم، بغير أو، ووجهه أن يكون جاؤوكم بياناً ليصلون، أو بدلاً، أو استئنافاً، أو صفةً بعد صفة لقوم. حصرت صدورهم، في موضع الحال بإضمار قد، والدليل عليه قراءة من قرأ: حصرة صدورهم، وحصرات صدورهم، وحاصرات صدورهم، وجعله المبرد صفةً لموصوف محذوف على أو جاؤوكم قوماً حصرت صدورهم. وقيل: هو بيان لجاؤوكم، وهم بنو مدلج، جاؤوا رسول الله ﷺ غير مقاتلين، والحصر الضيق والانقباض. ﴿أن يقاتلوكم﴾ عن أن يقاتلوكم، أو كراهة أن يقاتلوكم.

فإنْ قلتَ: كيف يجوز أن يسلط الله الكفرة على المؤمنين؟ قلتُ: ما كانت مكافتهم إلا لقذف الله الرعب في قلوبهم، ولو شاء لمصلحة يراها من ابتلاء ونحوه لم يقذفه، فكانوا متسلطين مقاتلين غير مكافين، فذلك معنى التسليط. وقرئ: فلقتلوكم بالتخفيف والتشديد. ﴿فإن اعتزلوكم﴾ فإن لم يتعرضوا لكم، ﴿وألقوا إليكم السلم﴾، أي: الانقياد والاستسلام. وقرئ: بسكون اللام مع فتح السين، ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

﴿ستجدون آخرين﴾ هم قوم من بني أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم. ﴿كلما ردّوا إلى الفتنة﴾ كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين ﴿أركسوا فيها﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شراً فيها من كل عدوّ. ﴿حيث ثقفتموهم﴾ حيث تمكنتم منهم ﴿سلطاناً مبيناً﴾ حجةً واضحةً، لظهور عداوتهم، وانكشاف حالهم في الكفر والغدر، وإضرارهم بأهل الإسلام، أو تسلطاً ظاهراً حيث أذنا لكم في قتلهم.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

﴿وما كان لمؤمن﴾ وما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله، كقوله: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾[2] ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾[3]. ﴿أن يقتل مؤمناً﴾ ابتداء غير قصاص، ﴿إلا خطأ﴾ إلا على وجه الخطأ.

فإنْ قلتَ: بم انتصب ﴿خطأ﴾؟ قلتُ: بأنّه مفعول له، أي: ما ينبغي له أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطأ وحده،

(1) سورة النساء، الآية: 89.
(2) سورة آل عمران، الآية: 161.
(3) سورة الأعراف، الآية: 89.

ويجوز أن يكون حالاً بمعنى لا يقتله في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ، وأن يكون صفةً للمصدر إلا قتلاً خطأ، والمعنى: أنّ من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد، بأن يرمي كافراً فيصيب مسلماً، أو يرمي شخصاً على أنّه كافر فإذا هو مسلم.

وقرئ: خطاء بالمدّ، وخطا بوزن عمى بتخفيف الهمزة. وروي أنّ عياش بن أبي ربيعة وكان أخا أبي جهل لأمّه أسلم وهاجر خوفاً من قومه إلى المدينة وذلك قبل هجرة رسول الله ﷺ، فأقسمت أمّه لا تأكل ولا تشرب ولا يؤويها سقف حتى يرجع، فخرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبي أنيسة فأتياه وهو في أطم ففتل منه أبو جهل في الذروة والغارب، وقال: أليس محمد يحثك على صلة الرحم، انصرف وبرّ أمّك وأنت على دينك، حتى نزل وذهب معهما فلما فسحا عن المدينة كتفاه وجلده كل واحد مائة جلدة. فقال للحرث: هذا أخي، فمن أنت يا حارث؟ لله عليّ إن وجدتك خالياً أن أقتلك. وقدِما به على أمّه فحلفت لا يحل كتافه أو يرتدّ، ففعل ثم هاجر بعد ذلك وأسلم. وأسلم الحرث وهاجر فلقيه عياش بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه فانحى عليه فقتله، ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله ﷺ فقال: قتلته ولم أشعر بإسلامه فنزلت[1] ﴿فتحرير رقبة﴾ فعليه تحرير رقبة، والتحرير الإعتاق، والحر والعتيق الكريم لأنّ الكرم في الأحرار كما أن اللؤم في العبيد ومنه: عتاق الخيل وعتاق الطير لكرامها، وحرّ الوجه أكرم موضع منه، وقولهم للئيم: عبد. وفلان عبد الفعل، أي: لئيم الفعل. والرقبة عبارة عن النسمة، كما عبّر عنها بالرأس في قولهم: فلان يملك كذا رأساً من الرقيق. والمراد برقبة مؤمنة كل رقبة كانت على حكم الإسلام عند عامة العلماء. وعن الحسن: لا تجزئ إلا رقبة قد صلت وصامت، ولا تجزئ الصغيرة. وقاس عليها الشافعي كفارة الظهار فاشترط الإيمان. وقيل: لما أخرج نفساً مؤمنةً عن جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار، لأنّ إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار. ﴿مسلمة إلى أهله﴾ مؤدّاة إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، يقضى منها الدين وتنفذ الوصية وإن لم يبق وارثاً فهي لبيت المال لأنّ المسلمين يقومون مقام الورثة. كما قال رسول الله ﷺ: «أنا وارث من لا وارث له»[2]. وعن عمر رضي الله عنه: أنّه قضى بدية المقتول فجاءت امرأته تطلب ميراثها من عقله، فقال: لا أعلم لك شيئاً، إنّما الدية للعصبة الذين يعقلون عنه. فقام الضحاك بن سفيان الكلابي فقال: كتب إليّ رسول الله ﷺ يأمرني أن أورّث امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها أشيم، فورثها عمر[3]، وعن ابن مسعود: يرث كل وارث من الدية غير القاتل. وعن شريك: لا يقضى من الدية دين ولا تنفذ وصية. وعن ربيعة: الغرّة لأم الجنين وحدها وذلك خلاف قول الجماعة.

فإنْ قلتَ: على من تجب الرقبة والدية؟ قلتُ: على القاتل، إلا أن الرقبة في ماله، والدية تتحملها عنه العاقلة، فإن لم تكن له عاقلة، فهي في بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله. ﴿إلا أن يصدّقوا﴾ إلا أن يتصدّقوا عليه بالدية، ومعناه العفو، كقوله: ﴿إلا أن يعفون﴾[4] ونحوه: ﴿وأن تصدقوا خير لكم﴾ وعن النبي ﷺ: «كل معروف صدقة»[5] وقرأ أبيّ: إلا أن يتصدّقوا.

فإنْ قلتَ: بم تعلق ﴿أن يصدقوا﴾ وما محله! قلتُ: تعلق بعليه، أو بمسلمة، كأنّه قيل: وتجب عليه الدية أو يسلمها إلا حين يتصدّقون عليه، ومحلها النصب على الظرف بتقدير حذف الزمان، كقولهم: اجلس ما دام زيد جالساً، ويجوز أن يكون حالاً من أهله بمعنى إلا متصدقين. ﴿من قوم عدوّ لكم﴾ من قوم كفار أهل حرب، وذلك نحو: رجل أسلم في قومه الكفار وهو بين أظهرهم لم يفارقهم فعلى قاتله الكفارة إذا قتله خطأ وليس على عاقلته لأهله شيء لأنّهم كفار محاربون، وقيل: كان الرجل يسلم ثم يأتي قومه وهم مشركون فيغزوهم جيش المسلمين فيقتل فيهم خطأ لأنّهم يظنونه كافراً مثلهم. ﴿وإن كان من قوم﴾ كفرة لهم ذمّة كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين وأهل الذمّة من الكتابيين، فحكمه حكم مسلم من مسلمين. ﴿فمن لم يجد﴾ رقبة بمعنى لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها، ﴿فـ﴾ عليه ﴿صيام شهرين متتابعين توبةً من الله﴾ قبولاً من الله ورحمة منه، من تاب الله عليه إذا قبل توبته، يعني: شرع ذلك توبة منه، أو نقلكم من الرّقبة إلى الصوم توبة منه.

هذه[6] الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ. ومن ثَم روي عن ابن عباس ما

---

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص 97.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الفرائض، باب: في ميراث ذوي الأرحام الحديث (2899)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الفرائض، باب: ذوي الأرحام الحديث (2738).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الفرائض، باب: في المرأة ترث من دية زوجها الحديث (2927)، والترمذي في كتاب: الفرائض، باب: ما جاء في ميراث المرأة من دية زوجها الحديث (2110)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الديات، باب: الميراث من الدية، الحديث (2642).

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: كل معروف صدقة الحديث (6021)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف الحديث (2325).

(6) قال أحمد: وكفى بقوله تعالى في هذه السورة إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، دليلاً أبلج على أن القاتل الموحد، وإن لم يتب في المشيئة، وأمره إلى الله إن شاء آخذه، وإن شاء غفر له، وقد مر الكلام على الآية، وما بالعهد من قدم وأما =

روي: من أنّ توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة[1]. وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا: لا توبة له. وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة، وناهيك بمحو الشرك دليلاً. وفي الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم»[2]. وفيه: «لو أنّ رجلاً قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه»[3] وفيه: «أنّ هذا الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه». وفيه: «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله»[4]. والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية أو يرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة، وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة، واتباعهم هواهم، وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[5].

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى التوبة في قتل الخطأ لما عسى يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ فيه حسم للأطماع، وأي حسم ولكن لا حياة لمن تنادي.

فإنْ قلتَ: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر! **قلتُ**: ما أبين الدليل وهو تناول قوله: ﴿ومن يقتل﴾ أي قاتل كان من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أنّ التائب أخرجه الدليل. فمن ادّعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾.

﴿فتبينوا﴾ وقرئ: فتثبتوا، وهما من التفعل بمعنى الاستفعال، أي: اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تتهوكوا فيه من غير روية. وقرئ: السلم والسلام، وهما الاستسلام. وقيل: الإسلام. وقيل: التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام. ﴿لست مؤمناً﴾. وقرئ: مؤمناً بفتح الميم من آمنه، أي: لا نؤمنك، وأصله أنّ مرداس بن نهيك رجلاً من أهل فدك أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله ﷺ كان عليها غالب بن فضالة الليثي فهربوا وبقي مرداس لثقته بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا وكبروا، كبر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمداً رسول الله، السلام عليكم. فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه. فأخبروا رسول الله ﷺ فوجد وجداً شديداً، وقال: قتلتموه إرادة ما معه، ثم قرأ الآية على أسامة. فقال: يا رسول الله استغفر لي. قال: فكيف بلا إله إلا الله؟ قال أسامة: فما زال يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذٍ، ثم استغفر لي وقال: أعتق رقبة[6]. ﴿تبتغون عرض الحيٰوة الدنيا﴾ تطلبون الغنيمة التي هي حطام سريع النفاد فهو الذي يدعوكم إلى ترك التثبت وقلة البحث عن حال من تقتلونه ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ يغنمكموها تغنيكم عن قتل رجل يظهر الإسلام ويتعوّذ به من التعرّض له لتأخذوا ماله ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ أوّل ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم. ﴿فمنّ الله عليكم﴾ بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدّم، وإن صرتم أعلاماً فعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في المكافة، ولا تقولوا إنّ تهليل هذا لاتقاء القتل لا لصدق النية فتجعلوه سلماً إلى استباحة دمه وماله وقد حرّمهما الله. وقوله: ﴿فتبينوا﴾ تكرير للأمر بالتبين ليؤكد عليهم ﴿إنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فلا تتهافتوا في القتل وكونوا محترزين محتاطين في ذلك.

لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾.

﴿غير أولي الضرر﴾ قرئ بالحركات الثلاث: فالرفع صفة للقاعدون، والنصب استثناء منهم أو حال عنهم، والجرّ صفة للمؤمنين. والضرر المرض أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها. وعن زيد بن ثابت: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة، فوقعت فخذه على فخذي، حتى خشيت أن ترضها ثم سري عنه، فقال:

= نسبة أهل السنة إلى الشعبية، فذلك لا يضيرهم؛ لأنهم إنما تطفلوا على لطف أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، ولم يقنطوا من رحمة الله إنه لا يقنط من رحمة الله، إلا القوم الظالمون.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة الفرقان، باب: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر﴾ الحديث رقم: (4764)، وأخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: الحديث (7461).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الديات، باب: في تشديد قتل المؤمن الحديث (1395)، وأخرجه النسائي في كتاب: تحريم الدم، باب: تعظيم الدم الحديث (3998)، وأخرجه النسائي في كتاب: تحريم = الدم، باب: تعظيم الدم الحديث (4001)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تحريم النفوس والجنايات عليهما الحديث (5342)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الديات، باب: التغليظ في قتل مسلم ظلماً الحديث (2619).

(3) قال الزيلعي غريب جداً 1/346.

(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الديات، باب: التغليظ في قتل المسلم ظلماً الحديث (2620).

(5) سورة محمد، الآية: 24.

(6) الطبري في تفسيره.

«اكتب» فكتبت في كتف ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون﴾ فقال ابن أمّ مكتوم وكان أعمى: يا رسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فغشيته السكينة كذلك، ثم قال: «اقرأ يا زيد»، فقرأت: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾. قال زيد: أنزلها الله وحدها فألحقتها، والذي نفسي بيده لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع في الكتف[1]. وعن ابن عباس: لا يستوي القاعدون عن بدر والخارجون إليها. وعن مقاتل: إلى تبوك.

فإنْ قلتَ: معلوم أنّ القاعد بغير عذر والمجاهد، لا يستويان فما فائدة نفي الاستواء؟ **قلتُ:** معناه الإنكار بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد ليأنف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته فيهتز للجهاد ويرغب فيه وفي ارتفاع طبقته، ونحوه: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[2]، أريد به التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليهاب به إلى التعلم ولينهض بنفسه عن صفة الجهل: إن لي شرف العلم. ﴿فضل الله المجاهدين﴾ جملة موضحة لما نفي من استواء القاعدين والمجاهدين. كأنّه قيل: ما لهم لا يستوون؟ فأجيب بذلك. والمعنى: على القاعدين غير أولي الضرر، لكون الجملة بياناً للجملة الأولى المتضمنة لهذا الوصف. ﴿وكلاًّ﴾ وكل فريق من القاعدين والمجاهدين. ﴿وعد الله الحسنى﴾ أي: المثوبة الحسنى وهي الجنة، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة. وعن النبي ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم»[3]. وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوي إلى الجهاد وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر أو غيره.

فإنْ قلتُ: قد ذكر الله تعالى مفضلين درجةً ومفضلين درجات فمن هم؟ **قلتُ:** أما المفضلون درجةً واحدةً فهم الذين فضلوا على القاعدين الأضراء، وأمّا المفضلون درجاتٍ فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم في التخلف اكتفاءً بغيرهم لأنّ الغزو فرض كفاية.

فإنْ قلتُ: لم نصب ﴿درجةً﴾ و﴿أجراً﴾ و﴿درجاتٍ﴾؟ **قلتُ:** نصب قوله: درجةً لوقوعها موقع المرة من التفضيل، كأنّه قيل: فضلهم تفضيلةً واحدةً، ونظيره قولك: ضربه سوطاً، بمعنى: ضربه ضربةً. وأمّا أجراً فقد انتصب بفضل لأنّه في معنى أجرهم أجراً. ودرجاتٍ ومغفرةً ورحمةً بدل من أجر، أو يجوز أن ينتصب درجاتٍ نصب درجة كما تقول: ضربه أسواطاً، بمعنى ضرباتٍ. كأنّه قيل: وفضله تفضيلاتٍ، ونصب أجراً عظيماً على أنّه حال عن النكرة التي هي درجات مقدمة عليها، وانتصب مغفرةً ورحمةً بإضمار فعلهما؛ بمعنى: وغفر لهم ورحمهم مغفرةً ورحمةً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾

﴿توفاهم﴾ يجوز أن يكون ماضياً كقراءة من قرأ توفتهم، ومضارعاً بمعنى: تتوفاهم. كقراءة من قرأ توفاهم على مضارع وفيت، بمعنى أنّ الله يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها، أي: يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. ﴿ظالمي أنفسهم﴾ في حال ظلمهم أنفسهم. ﴿قالوا﴾ قال الملائكة للمتوفين، ﴿فيم كنتم﴾ في أي شيء كنتم من أمر دينكم، وهم ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة.

فإنْ قلتُ: كيف صح وقوع قوله: ﴿كنا مستضعفين في الأرض﴾ جواباً عن قولهم: ﴿فيم كنتم﴾ وكان حق الجواب أن يقولوا: كنا في كذا أو لم نكن في شيء؟ **قلتُ:** معنى فيم كنتم التوبيخ بأنّهم لم يكونوا في شيء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا. فقالوا: كنا مستضعفين اعتذاراً مما وبخوا به واعتلالاً بالاستضعاف، وأنّهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا في شيء فبكتتهم الملائكة بقولهم: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ أرادوا أنّكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ كما فعل المهاجرون إلى أرض الحبشة، وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنّه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة حقت عليه المهاجرة، وعن النبي ﷺ: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة. «وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام[4]. اللهم إن كنت تعلم أن هجرتي إليك لم تكن إلا للفرار بديني، فاجعلها سبباً في خاتمة الخير ودرك المرجو من فضلك والمبتغى من رحمتك، وصل جواري لك بعكوفي عند بيتك بجوارك في دار كرامتك يا واسع المغفرة».

إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

ثم استثنى من أهل الوعيد المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلةً في الخروج لفقرهم وعجزهم ولا معرفة

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النساء، باب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله الحديث (4592)، وأحمد في المسند 5/191، وأبو داود في كتاب: الجهاد، باب: الرخصة في القعود من العذر الحديث (2507).

(2) سورة الزمر، الآية: 9.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: (81) الحديث (4423)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الرخصة في القعود من العذر الحديث (2508).

(4) أخرجه الثعالبي في تفسيره.

لهم بالمسالك. وروي: أنّ رسول الله ﷺ بعث بهذه الآية إلى مسلمي مكة، فقال جنلب بن ضمرة أو ضمرة بن جنلب لبنيه: احملوني فإنّي لست من المستضعفين، وإنّي لاهتدي الطريق، والله لا أبيت الليلة بمكة. فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة، وكان شيخاً كبيراً فمات بالتنعيم[1].

فإنْ قلت[2]كيف أدخل الولدان في جملة المستثنين من أهل الوعيد كأنّهم كانوا يستحقون الوعيد مع الرجال والنساء لو استطاعوا حيلةً واهتدوا سبيلاً! قلتُ: الرجال والنساء قد يكونون مستطيعين مهتدين وقد لا يكونون كذلك، وأما الولدان فلا يكونون إلا عاجزين عن ذلك فلا يتوجه عليهم وعيد لأنّ سبب خروج الرجال والنساء من جملة أهل الوعيد إنّما هو كونهم عاجزين، فإذا كان العجز متمكناً في الولدان لا ينفكون عنه كانوا خارجين من جملتهم ضرورةً. هذا إذا أريد بالولدان الأطفال، ويجوز أن يراد المراهقون منهم الذين عقلوا ما يعقل الرجال والنساء فيلحقوا بهم في التكليف وإن أريد بهم العبيد والإماء البالغون فلا سؤال.

فإنْ قلتَ:الجملة التي هي ﴿لا يستطيعون﴾ ما موقعها؟ قلتُ: هي صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان، وإنّما جاز ذلك والجمل نكرات لأنّ الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف فليس لشيء بعينه كقوله:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبني

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (٩٩).

فإنْ قلتَ:لم قيل: ﴿عسى الله ان يعفو عنهم﴾ بكلمة الإطماع؟ قلتُ: للدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه حتى أنّ المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول عسى الله أن يعفو عني فكيف بغيره.

۞ ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (١٠٠).

﴿مرغماً﴾ مهاجراً وطريقاً يراغم بسلوكه قومه، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم.

والرغم: الذلّ والهوان وأصله لصرق الأنف بالرغام وهو التراب؛ يقال: راغمت الرجل إذا وهو فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك. قال النابغة الجعدي:

كطود يلاذ بأركانه ... عزيز المراغم والمذهب

وقرئ: مرغماً[3]. قرئ: ثم يدركه الموت بالرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، وقيل: رفع الكاف منقول من الهاء كأنّه أراد أن يقف عليها ثم نقل حركة الهاء إلى الكاف، كقوله:

من عنزي سبني لم أضربه

وقرئ: يدركه بالنصب على إضمار أن كقوله:

والحق بالحجاز فاستريحا

﴿فقد وقع أجره على الله﴾ فقد وجب ثوابه عليه وحقيقة الوجوب الوقوع والسقوط ﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ ووجبت الشمس سقط قرصها، والمعنى: فقد علم الله كيف يثيبه وذلك واجب عليه. وروي في قصة جندب بن ضمرة: أنّه لما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله، ثم قال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعك عليه رسولك. فمات حميداً، فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: لو توفي بالمدينة لكان أتم أجراً. وقال المشركون وهم يضحكون: ما أدرك هذا ما طلب، فنزلت، وقالوا: كل هجرة لغرض ديني من طلب علم أو حج أو جهاد أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعةً أو قناعةً وزهداً في الدنيا أو ابتغاء رزق طيب فهي هجرة إلى الله ورسوله وإن أدركه الموت في طريقه فأجره واقع على الله.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (١٠١).

الضرب في الأرض: هو السفر، وأدنى مدة السفر الذي يجوز فيه القصر عند أبي حنيفة مسيرة ثلاثة أيام ولياليهنّ سير الإبل ومشي الأقدام على القصد ولا اعتبار بإبطاء الضارب وإسراعه، فلو سار مسيرة ثلاثة أيام ولياليهنّ في يوم قصر، ولو سار مسيرة يوم في ثلاثة أيام لم يقصر. وعند الشافعي: أدنى مدة السفر أربعة برد مسيرة يومين، وقوله: ﴿فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة﴾ ظاهره التخيير بين القصر والإتمام وأن

---

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص: 101ـ 102.

(2) قال أحمد:قوله إنّ المراهقين من الولدان يكلفون إلحاقاً بالبالغين، مردود بقوله عليه، وعلى آله الصلاة والسلام: «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يحتلم...» فجعل البلوغ نفساً مناط التكليف، وهذا مذهب الجماهير، ولم يبلغنا خلافه، وقال الزمخشري: أراد الحديثي العهد بالصبي، وإن بلغوا تسمية لهم بالاسم السالف، لقرب عهدهم به، كما قال: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾، فسماهم يتامى، وإن بلغوا، إذ لا تدفع أموالهم، حتى يبلغوا؛ لأنهم حديثو عهد باليتم، والغرض تعجيل دفع الأموال لهم، إذا رشدوا، وإن قرب عهدهم باليتيم، حتى أنهم لذلك يعبر عنهم باليتامى، ولا يماطلوا، ولو قال الزمخشري في الولدان كذلك، لكان قولاً سديداً، والله أعلم.

(3) قال أحمد:توجيه الرفع على إضمار المبتدأ، فيه عطف الإسمية على الفعلية، والأولى خلافه ما وجد عنه سبيل، وأمّا الوجه الثاني من إجراء الوصل، مجرى الوقف، شذوذ بين على أنّ الأفصح في الوقف، خلاف نقل الحركة، وقد زاد شذوذاً، بإجراء الوصل مجرى الوقف، وعندي وجه حسن خالص من الشذوذ مرتفع الذروة في الفصاحة، وهو العطف على ما يقع موقع من مما يكون الفعل الأوّل معه مرفوعاً، كأنه قال والذي يخرج من بيته مهاجراً، ثم يدركه الموت، وهو الذي ذكره الزمخشري عند قوله: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾، فيمن قرأ بالرفع، وقال ثم هو وجه نحوي سيبوي، وإجراؤه ههنا أقرب وأصوب منه ثمة، والله أعلم.

الإتمام أفضل، وإلى التخيير، ذهب الشافعي، وروي عن النبي ﷺ: أنه أتم في السفر[1]. وعن عائشة رضي الله عنها. اعتمرت مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة حتى إذا قدمت مكة قلت: يا رسول الله ﷺ بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت وصمت وأفطرت، فقال: «أحسنت يا عائشة. وما عاب علي»[2]. وكان عثمان رضي الله عنه يتم ويقصر[3]. وعند أبي حنيفة رحمه الله: القصر في السفر عزيمة غير رخصة لا يجوز غيره. وعن عمر رضي الله عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم[4]. وعن عائشة رضي الله عنها: أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت في السفر وزيدت في الحضر[5].

فإنْ قلتَ: فما تصنع بقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا﴾؟ قلتُ: كأنّهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنّة لأن يخطر ببالهم أنّ عليهم نقصاناً في القصر فنفي عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر ويطمئنوا إليه. وقرئ: تقصروا من أقصر، وجاء في الحديث: أنصار الخطبة، بمعنى تقصيرها[6]. وقرأ الزهري: تقصروا بالتشديد. والقصر ثابت بنص الكتاب في حال الخوف خاصةً وهو قوله: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾، وأمّا في حال الأمن فبالسنة، وفي قراءة عبد الله: من الصلاة أن يفتنكم، ليس فيها إن خفتم، على أنّه مفعول له بمعنى كراهة أن يفتنكم، والمراد بالفتنة القتال والتعرّض بما يكره.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾.

﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ يتعلق بظاهره من لا يرى صلاة الخوف بعد رسول الله ﷺ حيث شرط كونه فيهم. وقال: من رآها بعده: إنّ الأئمة نواب عن رسول الله ﷺ في كل عصر، قوّام بما كان يقوم به. فكان الخطاب له متناولاً لكل إمام يكون حاضر الجماعة في حال الخوف عليه أن يؤمهم، كما أمّ رسول الله ﷺ الجماعات التي كان يحضرها، والضمير في فيهم للخائفين. ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ فاجعلهم طائفتين فلتقم إحداهما معك فصل بهم، ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾[7] الضمير إمّا للمصلين وإمّا لغيرهم، فإن كان للمصلين فقالوا: يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر ونحوهما، وإن كان لغيرهم فلا كلام فيه. ﴿فإذا سجدوا فليكونوا﴾[8] يعني غير المصلين ﴿من ورائكم﴾ يحرسونكم، وصفة صلاة الخوف عند أبي حنيفة أن يصلي الإمام بإحدى الطائفتين ركعةً إن كانت الصلاة ركعتين، والأخرى بإزاء العدوّ ثم تقف هذه الطائفة بإزاء العدوّ وتأتي الأخرى فيصلي بها ركعةً ويتم صلاته ثم تقف بإزاء العدوّ، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة بغير قراءة وتتم صلاتها ثم تحرس، وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها، والسجود على ظاهره عند أبي حنيفة، وعند

---

(1) كشف الأستار، كتاب: الصلاة، باب: الإتمام في السفر الحديث (682)، والدارقطني في كتاب: الصيام، باب: القبلة للصائم الحديث (44).

(2) أخرجه النسائي في كتاب: التقصير، باب: المقام الذي يقصر بمثله الصلاة، الحديث (1451).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تقصير الصلاة، باب: الصلاة بمنى الحديث (1082)، وعن عبد الرحمٰن الحديث (1084)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: قصر الصلاة بمنى الحديث رقم: (1588) وحديث عبد الرحمٰن أخرجه، الحديث (1594).

(4) أخرجه النسائي في كتاب: تقصير الصلاة بالسفر الحديث (1439)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها الحديث (1063)، والطريق الثاني أخرجه في الحديث (1064).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تقصير الصلاة، باب: يقصر إذا خرج من موضعه الحديث (1090)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: صلاة المسافرين وقصرها الحديث (1570).

(6) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: إقصار الخطب، الحديث (1106)، والحاكم في المستدرك 1/289، وابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الخوف الحديث (2882).

(7) قال أحمد: والظاهر أنّ المخاطب بأخذ الأسلحة المصلون، إذ من لم يصل إنما أعدّ للحرس، فالظاهر الاستغناء عن أمرهم بذلك، = وتنبيهم عليه، وهم إنما أخروا الصلاة لذلك أمّا المصلون، فهم في مظنة طرح الأسلحة؛ لأنهم لم يعتادوا حملها في الصلاة، فنبهوا على أنهم لا ينبغي لهم طرح الأسلحة، وإن كانوا في الصلاة لضرورة الخوف، وخشية الغرّة، وأيضاً فصنيع الآية يعطي ذلك؛ لأنه قال: فلتقم طائفة منهم معك، وعقب ذلك بقوله وليأخذوا أسلحتهم، فالظاهر رجوع الضمير إليهم، وحيث يعاد إلى غير المصلين يحتاج إلى تكلف في صحة المعود إليهم، بدلالة قوّة الكلام عليهم، وإن لم يذكروا.

(8) قال أحمد: والظاهر أنّ معنى السجود ههنا، الصلاة وقد عبر عنها بالسجود كثيراً، والمراد: فإذا صلت الطائفة، أي: أتمت صلاتها، فليكونوا من ورائكم، وفيه دليل لمشهور مذهب مالك من أن الطائفة الأولى، تتم صلاتها، والإمام منتظر للطائفة الأخرى، وقوله: ولتأت طائفة أخرى يعني إذا أتمت الأولى صلاتها، ووقفت من ورائكم، فتأت الطائفة الأخرى التي لم تصل بعد شيئاً، فليصلوا معك وفيه دليل بين أيضاً، لأحد القولين في مذهب مالك من أنّ الإمام ينتظر الثانية، حتى تتم صلاتها ويسلم بهم؛ لأنّ ظاهر المعية المطلقة يوجب ذلك، إذ لو كانوا يقضون بعد سلامه، لم يكونوا مصلين معه على الإطلاق، والله أعلم. فهذه الآية منطبقة على أكثر مشهور مذهبه في تفاصيل صلاة الخوف، والله الموفق للصواب.

مالك بمعنى الصلاة، لأنّ الإمام يصلي عنده بطائفة ركعةً ويقف قائماً حتى تتم صلاتها وتسلم وتذهب، ثم يصلي بالثانية ركعةً ويقف قاعداً حتى تتم صلاتها ويسلم بهم، ويعضده. ﴿ولتات طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾ . وقرئ: وأمتعاتكم.

فإنْ قلتَ[1]: كيف جمع بين الأسلحة وبين الحذر في الأخذ؟ قلتُ: جعل الحذر وهو التحرّز والتيقظ آلةً يستعملها الغازي، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ وجعلا مأخوذين، ونحوه قوله تعالى: ﴿والذين تبوّءو الدار والإيمان﴾[2] جعل الإيمان مستقراً لهم ومتبواً لتمكنهم فيه، فلذلك جمع بينه وبين الدار في التبوء. ﴿فيميلون عليكم﴾ فيشدون عليكم شدّةً واحدةً، ورخص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها بسبب ما يبلهم من مطر أو يضعفهم من مرض، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا فيهجم عليهم العدوّ.

فإنْ قلتَ: كيف طابق الأمر بالحذر قوله: ﴿إنّ الله أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً﴾ ؟ قلتُ: الأمر بالحذر من العدوّ يوهم توقع غلبته واعتزازه، فنفى عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم: أنّ الله يهين عدوّهم ويخذله وينصرهم عليه، لتقوى قلوبهم، وليعلموا أنّ الأمر بالحذر ليس لذلك وإنّما هو تعبد من الله. كما قال: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[3].

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾.

﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ فإذا صليتم في حال الخوف والقتال، ﴿فاذكروا الله﴾ فصلوها ﴿قياماً﴾ مسايفين ومقارعين، ﴿وقعوداً﴾ جاثين على الركب مرامين، ﴿وعلى جنوبكم﴾ مثخنين بالجراح. ﴿فإذا اطمأننتم﴾ حين تضع الحرب أوزارها وامنتم ﴿فاقيموا الصلاة﴾ فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال التي هي أحوال القلق والانزعاج ﴿إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ محدوداً بأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أي حال كنتم خوف أو أمن. وهذا ظاهر على مذهب الشافعي رحمه الله في إيجابه الصلاة على المحارب في حال المسايفة والمشي والاضطراب في المعركة إذا حضر وقتها، فإذا اطمأن فعليه القضاء. وأما عند أبي حنيفة رحمه الله فهو معذور في تركها إلى أن يطمئن، وقيل: معناه فإذا قضيتم صلاة الخوف فأديموا ذكر الله مهللين مكبرين مسبحين داعين بالنصرة والتأييد في كافة أحوالكم من قيام وقعود واضطجاع، فإن ما أنتم فيه من خوف وحرب جدير بذكر الله ودعائه واللجأ إليه. ﴿فإذا اطمأننتم﴾ فإذا أقمتم، فاقيموا الصلاة فأتموها.

وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾.

﴿ولا تهنوا﴾ ولا تضعفوا ولا تتوانوا ﴿في ابتغاء القوم﴾ في طلب الكفار بالقتال والتعرض به لهم، ثم ألزمهم الحجة بقوله: ﴿إن تكونوا تألمون﴾ أي: ليس ما تكابدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم، إنّما هو أمر مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنّهم يصبرون عليه ويتشجعون فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم مع أنّكم أولى منهم بالصبر، لأنّكم ﴿ترجون من الله ما لا يرجون﴾ من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب العظيم في الآخرة. وقرأ الأعرج: أن تكونوا تألمون بفتح الهمزة، بمعنى ولا تهنوا لأن تكونوا تألمون. وقوله: ﴿فإنّهم يألمون كما تألمون﴾ تعليل. وقرئ: فإنّهم ييلمون كما تيلمون وروي: أنّ هذا في بدر الصغرى كان بهم جراح فتواكلوا، ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ لا يكلفكم شيئاً ولا يأمركم ولا ينهاكم إلا لما هو عالم به مما يصلحكم.

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾.

روي: أنّ طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر سرق درعاً من جار له اسمه قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخبأها عند زيد بن السمين رجل من اليهود، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وما له بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي، فأخذوها. فقال: دفعها إلي طعمة. وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودي. فهمّ رسول الله ﷺ أن يفعل وأن يعاقب اليهودي، وقيل: هم أن يقطع يده فنزلت[4]. وروي: أنّ طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله. ﴿بما أراك الله﴾ بما عرفك وأوحى به إليك. وعن عمر رضي الله عنه: لا يقولنّ أحدكم قضيت بما أراني الله، فإنّ الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه ﷺ، ولكن ليجتهد رأيه لأنّ الرأي من رسول الله ﷺ كان مصيباً لأنّ الله كان يريه إياه وهو منا الظنّ والتكلف. ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ ولا تكن لأجل الخائنين مخاصماً للبرآء، يعني: لا تخاصم

---

(1) قال أحمد: وحسن هذا المجاز وبلغ به ذروة الفصاحة، عطف الحقيقة عليه.

(2) سورة الحشر، الآية: 9.

(3) سورة البقرة، الآية: 195.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء الحديث (3036).

اليهود لأجل بني ظفر.

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾.

﴿واستغفر الله﴾ مما هممت به من عقاب اليهودي.

وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾.

﴿يختانون أنفسهم﴾ يخونونها بالمعصية، كقوله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾[1]. جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم، كما جعلت ظلماً لها لأنّ الضرر راجع إليهم.

فإنْ قلتَ: لم قيل للخائنين: ويختانون أنفسهم، وكان السارق طعمةَ وحده؟ قلتُ: لوجهين: أحدهما أنّ بني ظفر شهدوا له بالبراءة ونصروه، فكانوا شركاء له في الإثم. والثاني أنّه جمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانةً، فلا تخاصم لخائن قط ولا تجادل عنه.

فإنْ قلتَ: لم قيل: ﴿خواناً أثيماً﴾ على المبالغة قلتُ: كان الله عالماً من طعمة بالإفراط في الخيانة وركوب المآثم، ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك في حاله. وقيل: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أنّ لها أخوات. وعن عمر رضي الله عنه: أنّه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكي وتقول: هذه أوّل سرقة سرقها فاعف عنه. فقال: كذبت إنّ الله لا يؤاخذ عبده في أوّل مرة.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾.

﴿يستخفون﴾ يستترون ﴿من الناس﴾ حياءً منهم وخوفاً من ضررهم. ﴿ولا يستخفون من الله﴾ ولا يستحيون منه ﴿وهو معهم﴾ وهو عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عليه خافٍ من سرهم. وكفى بهذه الآية ناعيةً على الناس ما هم فيه من قلة الحياء، والخشية من ربهم، مع علمهم إن كانوا مؤمنين أنّهم في حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح. ﴿يبيتون﴾ يدبرون ويزورون، وأصله أن يكون بالليل ﴿ما لا يرضى من القول﴾ وهو تدبير طعمة أن يرمي بالدرع في دار زيد ليسرق دونه ويحلف ببراءته.

فإنْ قلتَ: كيف سمي التدبير قولاً وإنّما هو معنى في النفس! قلتُ: لما حدّث بذلك نفسه سمي قولاً على المجاز، ويجوز أن يراد بالقول الحلف الكاذب الذي حلف به بعد أن بيته، وتوريكه الذنب على اليهودي.

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾.

﴿هاأنتم هؤلاء﴾ ها للتنبيه في أنتم وأولاء وهما مبتدأ وخبر. و﴿جادلتم﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً، كما تقول لبعض الأسخياء أنت حاتم تجود بمالك وتؤثر على نفسك، ويجوز أن يكون أولاء اسماً موصولاً بمعنى: الذين، وجادلتم صلته. والمعنى: هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وقومه في الدنيا فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه. وقرأ عبد الله: عنه، أي: عن طعمة. ﴿وكيلاً﴾ حافظاً ومحامياً من بأس الله وانتقامه.

وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾.

﴿ومن يعمل سوءاً﴾ قبيحاً متعدياً يسوء به غيره كما فعل طعمة بقتادة واليهودي، ﴿أو يظلم نفسه﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب، وقيل: ومن يعمل سوءاً من ذنب دون الشرك أو يظلم نفسه بالشرك، وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة لتلزمه الحجة مع العلم بما يكون منه أو لقومه لما فرط منهم من نصرته والذب عنه.

وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾.

﴿فإنّما يكسبه على نفسه﴾، أي: لا يتعدّاه ضرره إلى غيره فليبق على نفسه من كسب السوء.

وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾.

﴿خطيئةً﴾ صغيرةً ﴿أو إثماً﴾ أو كبيرةً. ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ كما رمى طعمة زيداً ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً﴾ لأنّه بكسب الإثم آثم وبرمي البريء باهت، فهو جامع بين الأمرين. وقرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه: ومن يكسّب بكسر الكاف والسين المشددة، وأصله يكتسب.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾.

﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ أي: عصمته وألطافه وما أوحى إليك من الاطلاع على سرهم ﴿لهمت طائفة منهم﴾ من بني ظفر ﴿أن يضلوك﴾ عن القضاء بالحق وتوخي طريق العدل مع علمهم بأنّ الجاني هو صاحبهم. فقد روي أنّ ناساً منهم كانوا يعلمون كنه القصة ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ لأنّ وباله عليهم، ﴿وما يضرونك من شيء﴾ لأنك إنّما عملت بظاهر الحال وما كان يخطر ببالك أنّ الحقيقة على خلاف ذلك، ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ من خفيات الأمور وضمائر القلوب، أو من أمور الدين والشرائع. ويجوز أن يراد بالطائفة بنو ظفر، ويرجع الضمير في منهم إلى الناس. وقيل: الآية في

---

(1) سورة البقرة، الآية: 187.

المنافقين.

❁ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾.

﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ من تناجي الناس. ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ إلاّ نجوى من أمر، على أنّه مجرور بدل من كثير، كما تقول لا خير في قيامهم إلاّ قيام زيد، ويجوز أن يكون منصوباً على الانقطاع، بمعنى: ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير. وقيل: المعروف القرض، وقيل: إغاثة الملهوف. وقيل: هو عامّ في كل جميل، ويجوز أن يراد بالصدقة الواجب وبالمعروف ما يتصدق به على سبيل التطوّع. وعن النبي ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلا ما كان من أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو ذكر الله»[1]. وسمع سفيان رجلاً يقول: ما أشد هذا الحديث. فقال: ألم تسمع الله يقول: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ فهو هذا بعينه. أو ما سمعته يقول: ﴿والعصر ❁ إنّ الإنسان لفي خسر﴾[2] فهو هذا بعينه. وشرط في استيجاب الأجر العظيم أن ينوي فاعل الخير عبادة الله والتقرّب به إليه وأن يبتغي به وجهه خالصاً لأنّ الأعمال بالنيات.

فإن قلت: كيف قال ﴿إلا من أمر﴾، ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾؟ قلتُ: قد ذكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله لأنّه إذا دخل الآمر به في زمرة الخيرين كان الفاعل فيهم أدخل، ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ فذكر الفاعل وقرن به الوعد بالأجر العظيم، ويجوز أن يراد: ومن يأمر بذلك، فعبر عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر الأفعال. وقرئ: يؤتيه بالياء.

وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾.

﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ وهو السبيل الذي هم عليه من الدين الحنيفي القيم، وهو دليل على أنّ الإجماع حجة لا تجوز مخالفتها، كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة؛ لأنّ الله عز وعلا جمع بين اتباع سبيل غير المؤمنين وبين مشاقة الرسول في الشرط، وجعل جزاءه الوعيد الشديد، فكان اتباعهم واجباً كموالاة الرسول عليه الصلاة والسلام. قوله: ﴿نوله ما تولى﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال بأن نخذله ونخلي بينه وبين ما اختاره. ﴿ونصله جهنم﴾ وقرئ: ونصله بفتح النون، من صلاة.

وقيل: هي في طعمة وارتداده وخروجه إلى مكة.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾.

﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به﴾ تكرير للتأكيد. وقيل: كرّر لقصة طعمة، وروي: أنّه مات مشركاً. وقيل: جاء شيخ من العرب إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنّي شيخ منهمك في الذنوب إلا أنّي لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته، وآمنت به، ولم أتخذ من دونه ولياً، ولم أوقع المعاصي جرأةً على الله ولا مكابرةً له، وما توهمت طرفة عين أنّي أعجز الله هرباً، وإنّي لنادم تائب مستغفر، فما ترى حالي عند الله؟ فنزلت[3]. وهذا الحديث ينصر قول من فسر من يشاء بالتائب من ذنبه.

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾.

﴿إلا إناثاً﴾ هي اللات والعزى ومناة. وعن الحسن: لم يكن حي من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بني فلان. وقيل: كانوا يقولون في أصنامهم هنّ بنات الله. وقيل: المراد الملائكة، لقولهم: الملائكة بنات الله. وقرئ: أنثاً جمع أنيث أو أناث، ووثنا وأثنا بالتخفيف والتثقيل جمع وثن، كقولك: أَسَد وأُسُد وأسد، وقلب الواو ألفاً نحو أجوه في وجوه. وقرأت عائشة رضي الله عنها: أوثاناً. ﴿وإن يدعون﴾ وإن يعبدون بعبادة الأصنام ﴿إلا شيطاناً﴾ لأنّه هو الذي أغراهم على عبادتها فأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادةً.

لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾.

و﴿لعنه الله وقال لأتخذن﴾ صفتان، بمعنى شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع ﴿نصيباً مفروضاً﴾ مقطوعاً واجباً فرضته لنفسي من قولهم: فرض له في العطاء وفرض الجند رزقه. قال الحسن: من كل ألف تسعمائة وتسعين إلى النار.

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾.

﴿ولأمنينهم﴾[4] الأماني الباطلة من طول الأعمار،

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: (62) منه الحديث (2412)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة الحديث (3974)، والحاكم في المستدرك 2/513.

(2) سورة العصر، الآيتان: 1 ـ 2.

(3) ذكره القرطبي في تفسيره (5/385).

(4) قال أحمد: هو تعريض بأهل السنة الذين يعتقدون، أنّ الموحد ذا الكبائر، غير التائب أمره يرجأ إلى الله تعالى، والعفو عنه موكول إلى مشيئته، إيماناً وتصديقاً بقوله في الآية المعتبرة في هذا، أنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، والعجب أنّ هذه الآية تكررت في هذه السورة مرتين، على أنن =

وبلوغ الآمال، ورحمة الله للمجرمين بغير توبة، والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة ونحو ذلك.

وتبتيكهم الآذان: فعلهم بالبحائر، كانوا يشقون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها.

وتغييرهم خلق الله: فقء عين الحامي وإعفاؤه عن الركوب. وقيل: الخصاء، وهو في قول عامة العلماء مباح في البهائم، وأما في بني آدم فمحظور. وعند أبي حنيفة: يكره شراء الخصيان وإمساكهم واستخدامهم؛ لأنّ الرغبة فيهم تدعو إلى خصائهم. وقيل: فطرة الله التي هي دين الإسلام. وقيل للحسن: إنّ عكرمة يقول هو الخصاء. فقال: كذب عكرمة، هو دين الله. وعن ابن مسعود: هو الوشم، وعنه: لعن الله الواشرات والمتنمصات والمستوشمات المغيرات خلق الله[1]. وقيل: التخنث.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وعد الله حقاً﴾ مصدران: الأوّل مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره. ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾ توكيد ثالث بليغ.

فإنْ قلتَ: ما فائدة هذه التوكيدات؟ قلتُ: معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، ترغيباً للعباد في إيثار ما يستحقون به تنجز وعد الله على ما يتجرعون في عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

في ﴿ليس﴾ ضمير وعد الله، أي: ليس ينال ما وعد الله من الثواب ﴿بأمانيكم ولا﴾ بـ ﴿أماني أهل الكتاب﴾ والخطاب للمسلمين؛ لأنّه لا يتمنى وعد الله إلا من آمن به، وكذلك ذكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم في الإيمان بوعد الله. وعن مسروق والسدي: هي في المسلمين. وعن الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. إنّ قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظنّ بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له. وقيل: إنّ المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم. وقال المسلمون: نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فنزلت. ويحتمل أن يكون الخطاب للمشركين لقولهم: إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالاً لأوتين مالاً وولداً إن لي عنده للحسنى. وكان أهل الكتاب يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه لن تمسنا النار إلا أياماً معدودةً، ويعضده تقدّم ذكر أهل الشرك قبله. وعن مجاهد: إنّ الخطاب للمشركين. قوله: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾، وقوله: ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾، بعد ذكر تمني أهل الكتاب، نحو من قوله: ﴿بلى من كسب سيئةً وأحاطت به خطيئته﴾[2]. وقوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[3] عقيب قوله: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة﴾[4] وإذا أبطل الله الأماني وأثبت أنّ الأمر كله معقود بالعمل وأن من أصلح عمله فهو الفائز، ومن أساء عمله فهو الهالك. تبين الأمر ووضح ووجب قطع الأماني وحسم المطامع والإقبال على العمل الصالح، ولكنه نصح لا تعيه الآذان ولا تلقى إليه الأذهان.

فإنْ قلتَ: ما الفرق بين «من» الأولى والثانية؟ قلتُ: الأولى للتبعيض، أراد ومن يعمل بعض الصالحات لأنّ كلاً لا يتمكن من عمل كل الصالحات لاختلاف الأحوال، وإنّما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه، وكم من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة، وتسقط عنه الصلاة في بعض الأحوال، وإنّما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه، وكم من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة، وتسقط عنه الصلاة في بعض الأحوال، والثانية لتبيين الإبهام في من يعمل.

فإنْ قلتَ[5]: كيف خص الصالحون بأنّهم لا يظلمون وغيرهم مثلهم في ذلك؟ قلتُ: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون الراجع في ولا يظلمون لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً.

= الزمخشري، وهو مع ذلك يتصام عنها، ويجعل العقيدة المتلقاة منها من جملة الأماني الشيطانية، نعوذ بالله من إرسال الرسن في اتباع الهوى، وكذلك أيضاً عرض بأهل السنة في اعتقادهم، صدق الوعد الصادق بالشفاعة المحمدية، وعد ذلك أيضاً أمنية شيطانية، وما أرى من جحد الشفاعة ينالها، فلا حول ولا قوة إلا بالله، لقد مكر بهذا الفاضل، فلا يأمن بعده عاقل ﴿أنه لا يأمن مكر الله، إلا القوم الخاسرون﴾.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الحشر، باب: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾ الحديث (4886)، ومسلم في كتاب: اللباس، باب: تحريم فعل الواصلة الحديث (5538).

(2) سورة البقرة، الآية: 81.

(3) سورة البقرة، الآية: 82.

(4) سورة البقرة، الآية: 80.

(5) مدار هذا التطويل بالسؤال والجواب، على بث المعتقد الفاسد، في أن الله تعالى يجب عليه أن يثبت على الطاعات، وأن الثواب منقسم إلى واجب، ليس بفضل، وإلى زيادة على الواجب، وهي الفضل خاصة، وهذا المعتقد هو الذي يصدق عليه أنّ الشيطان مناه للقدرية، حتى زعموا أن لهم على الله واجباً، تعالى الله عن ذلك، إنّ الله لغني عن عمل يوجب عليه حقاً، جل الله وعز لقد نفخ الشيطان بهذه الأمنية في آذان القدرية، اللهم لا عمدة لنا إلا فضلك، فأجزل نصيبنا منه يا كريم.

والثاني: أن يكون نكره عند أحد الفريقين دالاً على ذكره عند الآخر، لأنّ كلا الفريقين مجزيون بأعمالهم لا تفاوت بينهم، ولأنّ ظلم المسيء أن يزاد في عقابه وأرحم الراحمين معلوم أنّه لا يزيد في عقاب المجرم، فكان ذكره مستغنى عنه. وأما المحسن فله ثواب وتوابع للثواب من فضل الله هي في حكم الثواب فجاز أن ينقص من الفضل لأنّه ليس بواجب، فكان نفي الظلم دلالة على أنّه لا يقع نقصان في الفضل.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾.

﴿**أسلم وجهه لله**﴾ أخلص نفسه لله وجعلها سالمةً له لا تعرف لها رباً ولا معبوداً سواه. ﴿**وهو محسن**﴾ وهو عامل للحسنات تارك للسيئات. ﴿**حنيفاً**﴾ حال من المتبع أو من إبراهيم، كقوله: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[(1)] وهو الذي تحنف، أي: مال عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾ مجاز عن اصطفائه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله.

والخليل: المخال وهو الذي يخالك، أي: يوافقك في خلالك أو يسايرك في طريقك، من الخل وهو: الطريق في الرمل، أو يسدّ خللك كما تشدّ خلله، أو يداخلك خلال منازلك وحجبك.

فإنْ قلتَ: ما موقع هذه الجملة؟ **قلتُ**: هي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب كنحو ما يجيء في الشعر من قولهم: والحوادث جمة، فائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته، لأنّ من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلاً، كان جديراً بأن تتبع ملته وطريقته، ولو جعلتها معطوفة، على الجملة قبلها لم يكن لها معنى، وقيل: إن إبراهيم عليه السلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس يمتار منه، فقال خليله: لو كان إبراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت، ولكنه يريدها للأضياف. فاجتاز غلمانه ببطحاء لينة فملؤوا منها الغرائر حياءً من الناس، فلما أخبروا إبراهيم عليه السلام ساءه الخبر فحملته عيناه، وعمدت امرأته إلى غرارة منها فأخرجت أحسن حواري واختبزت، واستنبه إبراهيم عليه السلام فاشتم رائحة الخبز، فقال: من أين لكم؟ فقالت امرأته: من خليلك المصري. فقال: بل من عند خليلي الله عز وجل، فسماه الله خليلاً.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾.

﴿**ولله ما في السموات وما في الأرض**﴾ متصل بذكر العمال الصالحين والطالحين، ومعناه: أنّ له ملك أهل السموات والأرض فطاعته واجبة عليهم. ﴿**وكان الله بكل شيء محيطاً**﴾ فكان عالماً بأعمالهم فمجازيهم على خيرها وشرها، فعليهم أن يختاروا لأنفسهم ما هو أصلح لها.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾.

﴿**ما يتلى**﴾ في محل الرفع، أي: الله يفتيكم والمتلو ﴿**في الكتاب**﴾ في معنى اليتامى، يعني قوله: ﴿**وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى**﴾[(2)] وهو من قولك: أعجبني زيد وكرمه، ويجوز أن يكون ما يتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبره على أنّها جملة معترضة، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ تعظيماً للمتلو عليهم وأنّ العدل والنصفة في حقوق اليتامى من عظائم الأمور المرفوعة الدرجات عند الله التي تجب مراعاتها والمحافظة عليها والمخل بها ظالم متهاون بما عظمه الله، ونحوه في تعظيم القرآن ﴿**وإنّه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم**﴾[(3)]. ويجوز أن يكون مجروراً على القسم كأنّه قيل: قل الله يفتيكم فيهنّ وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب، والقسم أيضاً لمعنى التعظيم وليس بسديد أن يعطف على المجرور في فيهنّ لاختلاله من حيث اللفظ والمعنى.

فإنْ قلتَ: بم تعلق قوله في: ﴿**يتامى النساء**﴾؟ **قلتُ**: في الوجه الأوّل هو صلة يتلى، أي: يتلى عليكم في معناهنّ، ويجوز أن يكون في يتامى النساء بدلاً من فيهنّ، وأما في الوجهين الآخرين فبدل لا غير.

فإنْ قلتَ: الإضافة في يتامى النساء ما هي؟ **قلتُ**: إضافة بمعنى من كقولك: عندي سحق عمامة. وقرئ: في ييامى النساء بياءين على قلب همزة أيامى ياءً. ﴿**لا تؤتونهنّ ما كتب لهنّ**﴾ وقرئ: ما كتب الله لهنّ، أي: ما فرض لهنّ من الميراث، وكان الرجل منهم يضم اليتيمة إلى نفسه ومالها، فإن كانت جميلةً تزوجها وأكل المال، وإن كانت دميمةً عضلها عن التزوّج حتى تموت فيرثها.. ﴿**وترغبون أن تنكحوهنّ**﴾ يحتمل في أن تنكحوهنّ لجمالهنّ، وعن أن تنكحوهنّ لدمامتهن. وروي: أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا جاءه ولي اليتيمة نظر فإن كانت جميلةً غنيةً قال: زوّجها غيرك، والتمس لها من هو خير منك، وإن كانت دميمةً ولا مال لها قال: تزوّجها فأنت أحق بها[(4)]. ﴿**والمستضعفين**﴾ مجرور معطوف على يتامى النساء، وكانوا في الجاهلية إنّما يورثون الرجال القوام بالأمور دون الأطفال والنساء، ويجوز أن يكون خطاباً للأوصياء، كقوله: ﴿**ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب**﴾[(5)]

(1) سورة البقرة، الآية: 135.
(2) سورة النساء، الآية: 3.
(3) سورة الزخرف، الآية: 4.
(4) لم أجده، كما قال ابن حجر، ولم يخرجه الزيلعي.
(5) سورة النساء، الآية: 2.

﴿وأن تقوموا﴾ مجرور كالمستضعفين، بمعنى يفتيكم في يتامى النساء وفي المستضعفين وفي أن تقوموا، ويجوز أن يكون منصوباً بمعنى: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا لهم حقوقهم ولا يخلوا أحداً يهتضمهم.

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾.

﴿خافت من بعلها﴾ توقعت منه ذلك لما لاح لها من مخايله وأماراته.

والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة وأن يؤذيها بسب أو ضرب.

والإعراض: أن يعرض عنها بأن يقل محادثتها ومؤانستها وذلك لبعض الأسباب من طعن في سن أو دمامة أو شيء في خلق أو خلق أو ملال أو طموح عين إلى أخرى أو غير ذلك، فلا بأس بهما في أن يصلحا بينهما. وقرئ: يصالحا ويصلحا بمعنى يتصالحا ويصطلحا، ونحو أصلح أصبر في اصطبر. ﴿صلحاً﴾ في معنى مصدر كل واحد من الأفعال الثلاثة، ومعنى الصلح أن يتصالحا على أن تطيب له نفساً عن القسمة، أو عن بعضها كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله ﷺ، وعرفت مكان عائشة من قلبه فوهبت لها يومها[1]. وكما روي: أن امرأةً أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها، وكان لها منه ولد فقالت: لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي، وتقسم لي في كل شهرين، فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إلي فأقرها، أو تهب له بعض المهر أو كله أو النفقة، فإن لم تفعل فليس له إلا أنّ يمسكها بإحسان أو يسرحها. ﴿والصلح خير﴾ من الفرقة أو من النشوز والإعراض وسوء العشرة، أو هو خير من الخصومة في كل شيء، أو الصلح خير من الخيور كما أن الخصومة شر من الشرور، وهذه الجملة اعتراض، وكذلك قوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ ومعنى إحضار الأنفس الشح أنّ الشح جعل حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفك عنه، يعني: أنّها مطبوعة عليه. والغرض أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها. ﴿وإن تحسنوا﴾ بالإقامة على نسائكم، وإن كرهتموهنّ وأحببتم غيرهن وتصبروا على ذلك مراعاةً لحق الصحبة. ﴿وتتقوا﴾ النشوز والإعراض وما يؤدي إلى الأذى والخصومة ﴿فإنّ الله كان بما تعملون﴾ من الإحسان والتقوى ﴿خبيراً﴾ وهو يثيبكم عليه. وكان عمران بن حطان الخارجي من أدم بني آدم وامرأته من أجملهم، فأجالت في وجهه نظرها يوماً، ثم تابعت الحمد لله. فقال مالك: قالت: حمدت الله على أنّي وإياك من أهل الجنة. قال: كيف؟ قال: لأنك رزقت مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت. وقد وعد الله الجنة عباده الشاكرين والصابرين[2].

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾.

﴿ولن تستطيعوا﴾ ومحال أن تستطيعوا العدل ﴿بين النساء﴾ والتسوية حتى لا يقع ميل البتة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهنّ، فرفع لذلك عنكم تمام العدل وغايته وما كلفتم منه إلا ما تستطيعون بشرط أن تبذلوا فيه وسعكم وطاقتكم لأنّ تكليف ما لا يستطاع داخل في حد الظلم ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾. وقيل: معناه أن تعدلوا في المحبة. وعن النبي ﷺ: أنّه كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «هذه قسمتي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك. يعني: المحبة»[3]، لأنّ عائشة رضي الله عنها كانت أحب إليه، وقيل: إنّ العدل بينهنّ أمر صعب بالغ من الصعوبة حداً يوهم أنّه غير مستطاع، لأنّه يجب أن يسوي بينهنّ في القسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والممالحة والمفاكهة والمؤانسة وغيرها مما لا يكاد الحصر يأتي من ورائه، فهو كالخارج من حد الاستطاعة، هذا إذا كن محبوبات كلهن، فكيف إذا مال القلب مع بعضهنّ. ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمتها من غير رضى منها. يعني: أنّ اجتناب كل الميل مما هو في حدّ اليسر والسعة فلا تفرطوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كله، وفيه ضرب من التوبيخ. ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ وهي التي ليست بذات بعل ولا مطلقة. قال:

هل هي إلا حظة أو تطليق ... أو صلف أو بين ذاك تعليق

وفي قراءة أبي: فتذروها كالمسجونة. وفي الحديث: «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»[4]. وروي: أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى أزواج رسول الله ﷺ بمال. فقالت عائشة رضي الله

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 60/2 وفي الصحيحين، البخاري في كتاب: النكاح، باب: المرأة تهب يومها... الحديث (5212)، ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: جواز هبتها نوبتها الحديث (37 ـ 1463).

(2) لم أجده، ولم يخرجه الزيلعي. 363/1.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في القسم بين النساء الحديث (2134)، والترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في= التسوية بين الضرائر الحديث (1140)، والنسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: ميل الرجل إلى بعض نسائه الحديث (3953)، وأخرجه ابن ماجه في السنن في كتاب: النكاح، باب: القسمة بين النساء الحديث (1971)، والحاكم في المستدرك 187/2.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في القسم بين النساء الحديث (2133)، والترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في =

عنها: إلى كل أزواج رسول الله بعث عمر مثل هذا؟ قالوا: لا بعث إلى القرشيات بمثل هذا وإلى غيرهنّ بغيره. فقالت: ارفع رأسك، فإنّ رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا في القسمة بماله ونفسه. فرجع الرسول فأخبره، فأتم لهنّ جميعاً[1]. وكان لمعاذ امرأتان فإذا كان عند إحداهما لم يتوضأ في بيت الأخرى، فماتتا في الطاعون فدفنهما في قبر واحد[2]. ﴿وإن تصلحوا﴾ ما مضى من ميلكم وتتداركوه بالتوبة، ﴿وتتقوا﴾ فيما يستقبل غفر الله لكم.

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾.

وقرئ: وإن يتفارقا، بمعنى وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه. ﴿يغن الله كلاً﴾ يرزقه زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً أهنأ من عيشه، والسعة: الغنى والمقدرة، والواسع: الغني المقتدر.

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾.

﴿من قبلكم﴾ متعلق بوصينا أو بأوتوا، ﴿وإياكم﴾ عطف على الذين أوتوا. الكتاب اسم للجنس يتناول الكتب السماوية. ﴿أن اتقوا﴾ بأن اتقوا، أو تكون أنْ المفسرة لأنّ التوصية في معنى القول. وقوله: ﴿وإن تكفروا فإنّ لله﴾ عطف على اتقوا، لأنّ المعنى: أمرناهم وأمرناكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا فإنّ لله، والمعنى: إنّ لله الخلق كله وهو خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها، فحقه أن يكون مطاعاً في خلقه غير معصي، يتقون عقابه ويرجون ثوابه، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من الأمم السالفة ووصيناكم أن اتقوا الله يعني: أنّها وصية قديمة ما زال يوصي الله بها عباده لستم بها مخصوصين؛ لأنّهم بالتقوى يسعدون عنده وبها ينالون النجاة في العاقبة، وقلنا لهم ولكم: وإن تكفروا فإنّ لله في سمواته وأرضه من الملائكة والثقلين من يوحده ويعبده ويتقيه. ﴿وكان الله﴾ مع ذلك ﴿غنياً﴾ عن خلقه وعن عبادتهم جميعاً، مستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد منهم.

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾.

وتكرير قوله: ﴿لله ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ تقرير لما هو موجب تقواه ليتقوه فيطيعوه ولا يعصوه؛ لأنّ الخشية والتقوى أصل الخير كله.

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾.

﴿إن يشا يذهبكم﴾ يفنكم ويعدمكم كما أوجدكم وأنشأكم، ﴿ويات بآخرين﴾ ويوجد إنساً آخرين مكانكم، أو خلقاً آخرين غير الإنس. ﴿وكان الله على ذلك﴾ من الإعدام والإيجاد ﴿قديراً﴾ بليغ القدرة، لا يمتنع عليه شيء أراده، وهذا غضب عليهم وتخويف وبيان لاقتداره. وقيل: هو خطاب لمن كان يعادي رسول الله ﷺ من العرب، أي: إن يشأ يمتكم ويأت بإناس آخرين يوالونه. ويروى: أنّها لما نزلت ضرب رسول الله ﷺ بيده على ظهر سلمان، وقال: «إنّهم قوم هذا يريد أبناء فارس».

مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾.

﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة، ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ فما له يطلب أحدهما دون الآخر، والذي يطلبه أخسهما؛ لأنّ من جاهد لله خالصاً لم تخطئه الغنيمة وله من ثواب الآخرة ما الغنيمة إلى جنبه كلا شيء، والمعنى: فعند الله ثواب الدنيا والآخرة له إن أراده، حتى يتعلق الجزاء بالشرط.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾.

﴿قوامين بالقسط﴾ مجتهدين في إقامة العدل حتى لا تجوروا. ﴿شهداء لله﴾ تقيمون شهاداتكم لوجه الله كما أمرتم بإقامتها ﴿ولو على أنفسكم﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم.

فإنْ قلتَ: الشهادة على الوالدين والأقربين أن تقول: أشهد أنّ لفلان على والدي كذا أو على أقاربي، فما معنى الشهادة على نفسه؟ قلتُ: هي الإقرار على نفسه لأنّه في معنى الشهادة عليها بإلزام الحق لها، ويجوز أن يكون المعنى: وإن كانت الشهادة وبالاً على أنفسكم أو على آبائكم وأقاربكم، وذلك أن يشهد على من يتوقع ضرره من سلطان ظالم أو غيره. ﴿إن يكن﴾ إن يكن المشهود عليه ﴿غنياً﴾ فلا تمنع الشهادة عليه لغناه طلباً لرضاه، ﴿أو فقيراً﴾ فلا تمنعها ترحماً عليه. ﴿فالله أولى بهما﴾ بالغني والفقير، أي: بالنظر لهما وإرادة مصلحتهما، ولولا أنّ

= التسوية بين الضرائر الحديث (1141)، والنسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: ميل الرجل إلى بعض نسائه... الحديث (3952)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: القسمة بين النساء الحديث (1969)، والحاكم في المستدرك 186/2. وأخرجه ابن حبان في كتاب: النكاح، باب: القسم، الحديث (4207).

(1) أخرجه أحمد في المسند 475/3.

(2) قال الزيلعي غريب ويقرب منه ما رواه أحمد في المسند، وساق الحديث 363/1.

الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها لأنّه انظر لعباده من كل ناظر.

فإنْ قلتَ:لم ثنى الضمير في ﴿أولى بهما﴾ وكان حقه أن يوحد لأنّ قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ في معنى: إن يكن أحد هذين! قلتُ:قد رجع الضمير إلى ما دل عليه قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ إلا إلى المذكور فلذلك ثنى ولم يفرد وهو جنس الغني وجنس الفقير، كأنّه قيل: فالله أولى بجنسَي الغني والفقير، أي: بالأغنياء والفقراء. وفي قراءة أبيّ: فالله أولى بهم، وهي شاهدة على ذلك. وقرأ عبد الله: إن يكن غني أو فقير، على كان التامة. ﴿أن تعدلوا﴾ يحتمل العدل والعدول، كأنّه قيل: فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس، أو إرادة أن تعدلوا عن الحق. ﴿وإن تلووا أو تعرضوا﴾ وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل أو تعرضوا عن الشهادة بما عندكم وتمنعوها. وقرئ: وإن تلوا أو تعرضوا بمعنى: وإن وليتم إقامة الشهادة أو أعرضتم عن إقامتها، ﴿فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾ وبمجازاتكم عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمسلمين، ومعنى: ﴿آمنوا﴾ اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه وازدادوه. ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ المراد به جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب، والدليل عليه قوله: ﴿وكتبه﴾ وقرئ: وكتابه، على إرادة الجنس. وقرئ: نزل وأنزل، على البناء للفاعل. وقيل: الخطاب لأهل الكتاب لأنّهم آمنوا ببعض الكتب والرسل وكفروا ببعض. وروي: أنّه لعبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب، وثعلبة بن قيس، وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه، ويامين بن يامين أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وموسىٰ والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال عليه السلام: «بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله». فقالوا: لا نفعل. فنزلت فآمنوا كلهم[1]. وقيل: هو للمنافقين، كأنّه قيل: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمنوا إخلاصاً.

فإنْ قلتَ: كيف قيل لأهل الكتاب ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ وكانوا مؤمنين بالتوراة والإنجيل؟ قلتُ: كانوا مؤمنين بهما فحسب وما كانوا مؤمنين بكل ما أنزل من الكتب فأمروا أن يؤمنوا بالجنس كله لأنّ إيمانهم ببعض الكتب لا يصح إيماناً به لأن طريق الإيمان به هو المعجزة ولا اختصاص لها ببعض الكتب دون بعض، فلو كان إيمانهم بما آمنوا به لأجل المعجزة لآمنوا به كله، فحين آمنوا ببعضه علم أنّهم لم يعتبروا المعجزة فلم يكن إيمانهم إيماناً، وهذا الذي أراد عز وجل في قوله: ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً﴾[2].

فإنْ قلتَ: لم قيل: ﴿نزل على رسوله﴾ و﴿وأنزل من قبل﴾؟ قلتُ: لأنّ القرآن نزل مفرّقاً منجّماً في عشرين سنة بخلاف الكتب قبله، ومعنى قوله: ﴿ومن يكفر بالله﴾ الآية: ومن يكفر بشيء من ذلك. ﴿فقد ضل﴾ لأنّ الكفر ببعضه كفر بكله، ألا ترى كيف قدّم الأمر بالإيمان به جميعاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾

﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً﴾[3] نفي للغفران والهداية وهي اللطف على سبيل المبالغة التي تعطيها اللام والمراد بنفيهما نفي ما يقتضيهما وهو الإيمان الخالص الثابت، والمعنى: أنّ الذين تكرر منهم الارتداد وعهد منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة، ويستوجبون اللطف من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله؛ لأنّ قلوب أولئك الذين هذا ديدنهم قلوب قد ضربت بالكفر ومرنت على الردّة، وكان الإيمان أهون شيء عندهم وأدونه حيث يبدو لهم فيه كرّةً بعد أخرى. وليس المعنى أنّهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردّة ونصحت توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، لأنّ ذلك مقبول حيث هو بذل للطاقة واستفراغ للوسع، ولكنه استبعاد له واستغراب، وأنّه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجى منه الثبات، والغالب أنّه يموت على شرّ حال وأسمج صورة. وقيل: هم اليهود، آمنوا بالتوراة وبموسىٰ ثم كفروا بالإنجيل وبعيسىٰ، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ.

بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ

---

(1) الطبري في تفسيره.

(2) سورة النساء، الآيتان: 150، 151.

(3) قال أحمد: وليس في هذه الآية ما يخالف ظاهر القاعدة المستقرّة، على أن التوبة مقبولة على الإطلاق؛ لأنّ آخر ما ذكر من حال هؤلاء ازدياد الكفر، ولو كان المذكور في آخر أحوالهم التوبة، والإيمان لاحتيج إلى الجمع بين الآية والقاعدة إذاً، وإنما يقع هذا الفصل، الذي أورده الزمخشري موقعه في آية آل عمران، وهو قوله تعالى: ﴿إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل = توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ وقد ظهر الآن في الجمع بين هذه الآية، والقاعدة وجه آخر، سوى ما تقدم في آل عمران، وهو أن يكون المراد لن يصدر منهم توبة، فلن يكون قبول من باب:

على لاحب لا يهتدي بمناره

وعلى هذا يكون خبراً لا حكماً، والمخبر عنهم من سبق في علم الله أنه لا يتوب من المرتدّين، والله أعلم، وفي قول الزمخشري إن الناكث للتوبة العائد إليها يغلب من حاله، أنه يموت بشر حال نظر، فقد ورد في الحديث المؤمن مفتن توّاب.

أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾.

﴿الذين﴾ نصب على الذم أو رفع، بمعنى: أريد الذين، أو هم الذين، وكانوا يمايلون الكفرة ويوالونهم، ويقول بعضهم لبعض: لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود. ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ يريد لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم. وقال: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[1].

﴿بشر المنافقين﴾ وضع بشر مكان، أخبر تهكماً بهم.

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾.

﴿أن إذا سمعتم﴾ هي أن المخففة من الثقيلة، والمعنى: أنّه إذا سمعتم، أي: نزل عليكم أنّ الشأن كذا، والشأن ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها، وأن مع ما في حيزها في موضع الرفع ينزل، أو في موضع النصب ينزل فيمن قرأ به والمنزل عليهم في الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة، من قوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾[2] وذلك أنّ المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزؤون به، فنهي المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه، وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين فنهوا أن يقعدوا معهم، كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة، وكان الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار هم المنافقون. فقيل لهم: إنّكم إذاً مثل الأحبار في الكفر. ﴿إنّ الله جامع المنافقين والكافرين﴾ يعني: القاعدين والمقعود معهم.

فإنْ قلتَ: الضمير في قوله: ﴿فلا تقعدوا معهم﴾ إلى من يرجع؟ قلتُ: إلى من دلّ عليه ﴿يكفر بها ويستهزأ بها﴾ كأنّه قيل: فلا تقعدوا مع الكافرين بها والمستهزئين بها.

فإنْ قلتَ: لم يكونون مثلهم بالمجالسة إليهم في وقت الخوض؟ قلتُ: لأنّهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين والراضي بالكفر كافر.

فإنْ قلتَ: فهلا كان المسلمون بمكة حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين منافقين؟ قلتُ: لأنّهم كانوا لا ينكرون لعجزهم، وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم، فكان ترك الإنكار لرضاهم.

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾.

﴿الذين يتربصون﴾ إما بدل من الذين يتخذون، وإما صفة للمنافقين، أو نصب على الذم منهم. ﴿يتربصون بكم﴾ أي: ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو إخفاق. ﴿ألم نكن معكم﴾ مظاهرين فأسهموا لنا في الغنيمة. ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فابقينا عليكم. ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا في قتالكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم فهاتوا نصيباً لنا مما أصبتم. وقرئ: ونمنعكم بالنصب بإضمار أن. قال الحطيئة:

ألم اك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة والإخاء

فإنْ قلتَ: لم سمى ظفر المسلمين فتحاً، وظفر الكافرين نصيباً؟ قلتُ:[3] تعظيماً لشأن المسلمين وتخسيساً لحظ الكافرين، لأنّ ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه، وأمّا ظفر الكافرين فما هو إلا حظ دني ولمظة من الدنيا يصيبونها.

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾.

﴿يخادعون الله﴾ يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر. ﴿وهو خادعهم﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ولم يخلهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأسٍ ونقمة ورعب دائم. والخادع: اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه، وقيل: يعطون على الصراط نوراً كما يعطى المؤمنون، فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين، فينادون ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾. ﴿كسالى﴾ قرئ: بضم الكاف وفتحها، جمع كسلان كسكارى في سكران، أي: يقومون متثاقلين متقاعسين كما ترى من يفعل شيئاً على كره لا عن طيبة نفس ورغبة. ﴿يراءون الناس﴾ يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة. ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾[4] ولا يصلون إلا

(1) سورة المنافقون، الآية: 8.

(2) سورة الأنعام، الآية: 68.

(3) قال أحمد: وهذا من محاسن نكت أسرار القرآن، فإنّ الذي كان يتفق للمسلمين فيه استئصال لشأفة الكفار، واستيلاء أرضهم، وديارهم، وأموالهم، وأرض لن يطؤها، وأما ما كان يتفق للكفار، فمثل الغلبة، والقدرة التي لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحاً، فالتفريق= بينهم مطابق أيضاً للواقع، والله أعلم.

(4) وإنما منع من أن يراد بها العدم؛ لأنه خبر، فيجب صدقه، وقد كانوا يذكرون الله في بعض الأحيان، فلا يمكن أن يسلب ذكر الله مطلقاً، وإذا بنينا على أنّ المراد بالذكر الصلاة، وهو الظاهر، فالمراد أيضاً الصلاة المعتبرة التي يذكر بها الإنسان حق الله عليه، فينتهي عن الفحشاء والمنكر، والصلاة في هذه الوجه

قليلاً؛ لأنّهم لا يصلون قط غائبين عن عيون الناس إلا ما يجاهرون به وما يجاهرون به قليل أيضاً لأنّهم ما وجدوا مندوحةً من تكلف ما ليس في قلوبهم لم يتكلفوه، أو ولا يذكرون الله بالتسبيح والتهليل إلا ذكراً قليلاً في الندرة. وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالإسلام لو صحبته الأيام والليالي لم تسمع منه تهليلةً ولا تسبيحةً ولا تحميدة، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه، ولا يجوز أن يراد بالقلة العدم.

فإنْ قلتَ: ما معنى المراءاة، وهي مفاعلة من الرؤية؟ **قلتُ:** فيها وجهان: **أحدهما:** أنّ المرائي يريهم عمله وهم يرونه استحسانه، **والثاني:** أن يكون من المفاعلة بمعنى التفعيل، فيقال: راءى الناس، يعني: رآهم. كقولك: نعمة وناعمة وفنقة وفانقة وعيش مفانق. روى أبو زيد: رأت المرأة المرأة الرجل إذا أمسكتها لترى وجهه. ويدل عليه قراءة ابن أبي إسحٰق. يرأونهم بهمزة مشددة مثل يرعونهم، أي: يبصرونهم أعمالهم ويراؤونهم كذلك.

مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

﴿مذبذبين﴾ إمّا حال نحو قوله: ولا يذكرون عن واو يراؤون، أي: يراؤونهم غير ذاكرين مذبذبين، أو منصوب على الذم، ومعنى مذبذبين: ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم متردّدون بينهما متحيرون.

وحقيقة المذبذب: الذي يذب عن كلا الجانبين، أي: يذاد ويدفع فلا يقرّ في جانب واحد، كما قيل: فلان يرمي به الرحوان. إلا أنّ الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب، كأنّ المعنى: كلما مال إلى جانب ذنب عنه. وقرأ ابن عباس: مذبذبين بكسر الذال بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم أو رأيهم، أو بمعنى يتذبذبون كما جاء صلصل وتصلصل بمعنى. وفي مصحف عبد الله: متذبذبين. وعن أبي جعفر: مدبدبين بالدال غير المعجمة، وكان المعنى أخذ بهم تارةً في دبة وتارةً في دبة فليسوا بماضين على دبة واحدة، والدبة الطريقة ومنها دبة قريش. و**﴿ذلك﴾** إشارة إلى الكفر والإيمان. **﴿لا إلى هؤلاء﴾** لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين، **﴿ولا إلى هؤلاء﴾** ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسمون مشركين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء﴾ لا تتشبهوا بالمنافقين في اتخاذهم اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام أولياء. **﴿سلطاناً﴾** حجةً بينةً، يعني: أنّ موالاة الكافرين بينة على النفاق وعن صعصعة بن صوحان: أنّه قال لابن أخ له: خالص المؤمن وخالق الكافر والفاجر، فإنّ الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن، وإنّه يحق عليك أن تخالص المؤمن.

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

﴿الدرك الأسفل﴾ الطبق الذي في قعر جهنم، والنار سبع دركات، سميت بذلك؛ لأنّها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض. وقرئ: بسكون الراء، والوجه التحريك لقولهم: أدراك جهنم.

فإنْ قلتَ: لم كان المنافق أشدّ عذاباً من الكافر؟ **قلتُ:** لأنّه مثله في الكفر وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجاتهم.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

﴿وأصلحوا﴾ ما افسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق، **﴿واعتصموا بالله﴾** ووثقوا به كما يثق المؤمنون الخُلّص، **﴿وأخلصوا دينهم لله﴾** لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه، **﴿فاولٰئك مع المؤمنين﴾** فهم أصحاب المؤمنين ورفقاؤهم في الدارين. **﴿وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾** فيشاركونهم فيه ويساهمونهم.

فإنْ قلتَ: من المنافق؟ **قلتُ:** هو في الشريعة من أظهر الإيمان وأبطن الكفر، وأمّا تسمية من ارتكب ما يفسق به بالمنافق فللتغليظ، كقوله: من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنّه مسلم: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»(1). وقيل لحذيفة رضي الله عنه: من المنافق؟ فقال: الذي يصف بالإسلام ولا يعمل به. وقيل لابن عمر: ندخل على السلطان ونتكلم بكلام، فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه. فقال: كنا نعده من النفاق. وعن الحسن: أتى على النفاق زمان وهو مقروع فيه، فأصبح وقد عمم وقلد وأعطي سيفاً، يعني: الحجاج.

مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾ أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يستجلب به نفعاً، أم يستدفع به ضرراً كما يفعل الملوك بعذابهم، وهو الغنيّ الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك؛ وإنّما هو أمر أوجبته الحكمة أن يعاقب المسيء فإن قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أبعدتم عن أنفسكم استحقاق العذاب. **﴿وكان الله شاكراً﴾** مثيباً موفياً أجوركم **﴿عليماً﴾** بحق شكركم وإيمانكم.

فإنْ قلتَ: لم قدم الشكر على الإيمان؟ **قلتُ:** لأنّ العاقل

= مسلوبة عن المنافقين مطلقاً، فيجوز إذاً حمل القلة على العدم بهذا التفسير، والله أعلم.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق الحديث (210).

ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكراً مفصلاً، فكان الشكر متقدّماً على الإيمان، وكأنّه أصل التكليف ومداره.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿إلا مَن ظلم﴾[1] إلا جهر من ظلم، استثني من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم وهو أن يدعو على الظالم وينكره بما فيه من السوء، وقيل: هو أن يبدأ بالشتيمة فيردّ على الشاتم ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾[2]. وقيل: ضاف رجل قوماً فلم يطعموه فأصبح شاكياً فعوتب على الشكاية. فنزلت وقرئ: إلا من ظلم على البناء للفاعل للانقطاع، أي: ولكن الظالم راكب ما لا يحبه فيجهر بالسوء، ويجوز أن يكون من ظلم مرفوعاً، كأنّه قيل: لا يحب الله الجهر بالسوء إلا الظالم، على لغة من يقول: ما جاءني زيد إلا عمرو، بمعنى: ما جاءني إلا عمرو. ومنه: ﴿لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله﴾[3].

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

ثم حث على العفو وأن لا يجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار بعد ما أطلق الجهر به وجعله محبوباً حثاً على الأحب إليه، والأفضل عنده، والأدخل في الكرم، والتخشع والعبودية، وذكر إبداء الخير وإخفاءه تشبيهاً للعفو، ثم عطفه عليهما اعتداداً به وتنبيهاً على منزلته وأنّ له مكاناً في باب الخير وسيطاً، والدليل على أنّ العفو هو الغرض المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه قوله: ﴿فإنّ الله كان عفواً قديراً﴾ أي: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام. فعليكم أن تقتدوا بسنة الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾.

جعل الذين آمنوا بالله وكفروا برسله، أو آمنوا بالله وببعض رسله وكفروا ببعض، كافرين بالله ورسله جميعاً لما ذكرنا من العلة. ومعنى: اتخاذهم بين ذلك سبيلاً: أن يتخذوا ديناً وسطاً بين الإيمان والكفر، كقوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾[4]، أي طريقاً وسطاً في القراءة وهو ما بين الجهر والمخافتة. وقد أخطؤوا فإنّه لا واسطة بين الكفر والإيمان.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾.

ولذلك قال: ﴿أولـٰئك هم الكافرون حقاً﴾ أي: هم الكاملون في الكفر، وحقاً تأكيد لمضمون الجملة، كقولك: هو عبد الله حقاً، أي: حق ذلك حقاً، وهو كونهم كاملين في الكفر، أو هو صفة لمصدر الكافرين، أي: هم الذين كفروا كفراً حقاً ثابتاً يقيناً لا شك فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

فإنْ قلتَ: كيف جاز دخول ﴿بين﴾ على ﴿أحد﴾ وهو يقتضي شيئين فصاعداً؟ قلتُ: إنّ أحداً عام في الواحد المنكر والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما تقول: ما رأيت أحداً، فتقصد العموم، ألا تراك تقول: إلا بني فلان وإلا بنات فلان، فالمعنى: ولم يفرقوا بين اثنين منهم أو بين جماعة. ومنه قوله تعالى: ﴿لستنّ كأحد من النساء﴾[5]. ﴿سوف يؤتيهم أجورهم﴾ معناه: أنّ إيتاءها كائن لا محالة وإن تأخر فالغرض به توكيد الوعد وتثبيته لا كونه متأخراً.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾.

روي: أنّ كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازور أو غيرهما قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً صادقاً فأتنا بكتاب من السماء جملةً كما أتى به موسى. فنزلت[6]. وقيل: كتاباً إلى فلان وكتاباً إلى فلان بأنّك رسول الله. وقيل: كتاباً نعاينه حين ينزل. وإنّما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت. قال الحسن: ولو سألوه لكي يتبينوا الحق لأعطاهم وفيما آتاهم كفاية. ﴿فقد سألوا موسىٰ﴾[7] جواب الشرط مقدر معناه: إن استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى.

---

(1) قال أحمد: ووجه التغاير أن الظالم لا يندرج في المستثنى منه، كما أنّ الله تعالى مقدس أن يكون في السموات، أو في الأرض، فاستحال دخوله في المستثنى منه، وكذا لا يندرج المستثنى في المستثنى منه، في قولك ما جاءني زيد إلا عمرو، وكلام الزمخشري في هذا الفصل لا يتحقق لي منه ما يسوغ مجازيته فيه، لإغلاق عبارته، والله أعلم بمراده.

(2) سورة الشورى، الآية: 41.

(3) سورة النمل، الآية: 65.

(4) سورة الإسراء، الآية: 110.

(5) سورة الأحزاب، الآية: 32.

(6) الطبري في تفسيره.

(7) قال أحمد: وهذا من المواضع التي استولى عليه فيها الإغفال، ولوح به اتباع هواه الضلال؛ لأنه بنى على أن الظلم المضاف إليه لم يكن، إلا لمجرد كونهم طلبوا الرؤية، وهي محال عقلاً دنيا، وآخرة على زعم القدرية، لما يلزم عندهم لو قيل بجوازها من اعتقاد التشبيه، فلذلك سمي أهل السنة المعتقدين لجوازها، ووقوعها في الآخرة وفاء بالوعد الصادق مشبهة، وغفل عن كون اليهود اقترحوا على موسى عليه السلام خصوصية علقوا إيمانهم بها، ولم يعتبروا المعجز من حيث هو كما يجب اعتباره، فقالوا:

﴿اكبر من ذلك﴾ وإنّما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم في أيام موسىٰ وهم النقباء السبعون لأنّهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم في التعنت ﴿جهرة﴾ عياناً بمعنى أرناه نره جهرة. ﴿بظلمهم﴾ بسبب سؤالهم الرؤية، ولو طلبوا أمراً جائزاً لما سموا ظالمين، ولما أخذتهم الصاعقة، كما سأل إبراهيم عليه السلام أن يريه إحياء الموتى فلم يسمه ظالماً ولا رماه بالصاعقة فتباً للمشبهة ورمياً بالصواعق. ﴿وآتينا موسىٰ سلطاناً مبيناً﴾ تسلطاً واستيلاءً ظاهراً عليهم، حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم حتى يتاب عليهم فأطاعوه واحتبوا بأفنيتهم والسيوف تتساقط عليهم فيا لك من سلطان مبين.

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾.

﴿بميثاقهم﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه. ﴿وقلنا لهم﴾ والطور مظل عليهم ﴿ادخلوا الباب سجداً﴾ ﴿ولا تعدوا في السبت﴾ وقد أخذ منهم الميثاق على ذلك. وقولهم: سمعنا وأطعنا، ومعاهدتهم على أن يتموا عليه ثم نقضوه بعد. وقرئ: لا تعتدوا ولا تعدوا، بإدغام التاء في الدال.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

﴿فبما نقضهم﴾ فبنقضهم، وما مزيدة للتوكيد.

فإنْ قلتَ[1]: بم تعلقت الباء، وما معنى التوكيد؟ قلتُ: إما أن يتعلق بمحذوف، كأنّه قيل: فيما نقضهم ميثاقهم فعلنا بهم ما فعلنا، وإما أن يتعلق بقوله: ﴿حرمنا عليهم﴾ أنّ قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا﴾[2] وبدل من قوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ وأما التوكيد فمعناه: تحقيق أنّ العقاب أو تحريم الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد وما عطف عليه من الكفر وقتل الأنبياء وغير ذلك.

فإنْ قلتَ[3]: هلا زعمت أنّ المحذوف الذي تعلقت به الباء ما دل عليه قوله: ﴿بل طبع الله عليها﴾ فيكون التقدير: فبما نقضهم ميثاقهم طبع الله على قلوبهم، بل طبع الله عليها بكفرهم! قلتُ: لم يصح هذا التقدير؛ لأنّ قوله: بل طبع الله عليها بكفرهم ردّ وإنكار لقولهم: قلوبنا غلف. فكان متعلقاً به وذلك أنّهم أرادوا بقولهم: قلوبنا غلف، أنّ الله خلق قلوبنا غلفاً أي: في أكنة لا يتوصل إليها شيء

= ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، فهذا الاقتراح والتعنت يكفيهم ظلماً ألا ترى أنّ الذين قالوا لن نؤمن لك، حتى تنزل علينا كتاباً من السماء، أو حتى تفجر الأرض، أو يكون لك بيت من زخرف كيف هم من أظلم الظلمة، وإن كانوا إنما طلبوا أموراً جائزة، ولكنهم اقترحوا في الآيات على الله، وحقهم أن يسندوا إيمانهم إلى أي معجز اختاره الله، دلّ ذلك دلالة يلجأ على أن ظلمهم مسبب عن اقتراحهم، لا عن كون المقترح ممتنعاً عقلاً، والعجب بتنظير هذا السؤال لو كان المسؤول جائزاً، كسؤال إبراهيم عن إحياء الموتى على زعم الزمخشري غفلة منه، عما انطوى عليه سؤال إبراهيم عليه السلام من صريح الإيمان، حيث قال له تعالى: ﴿أولم تؤمن﴾ قال: بلى، وعما انطوى عليه سؤال هؤلاء الملاعين من محض الكفر، والإصرار عليه في قولهم: ﴿لن نؤمن لك﴾، فصدروا كلامهم بالجحد، والنفي، وأمّا دعاء الزمخشري على أهل السنة بالتب، والصواعق، فالله أعلم أيُّ الفريقين أحق بها، ويكفيه هذه الغفلة التي تنادي بها عليه، باتباع الهوى الذي يعمي ويصم، نسأل الله العصمة من الضلالة، والغواية.

(1) ولذكر البدل المذكور سرّ، وهو أن الكلام لما طال بعد قوله فبما نقضتهم حتى بعد عن متعلقه الذي هو حرمنا قوى ذكره بقوله، فبظلم من الذين هادوا حتى يلي متعلقه، وجاء النظم به على وجه من الاقتصار في إجمال ما سبق تفصيله؛ لأنّ جميع ما تقدّم من النقض والقتل، وقولهم قلوبنا غلف، وكفرهم، وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، ودعواهم قتل المسيح ابن مريم، قد انطوى عليه الإجمال المذكور آخراً، انطواء جامعاً مع التسجيل على أنّ جميع أفاعيلهم الصادرة منهم ظلم، وقد تقدّم لهذا التقرير نظائر، والله الموفق.

(2) سورة النساء، الآية: 160.

(3) قال أحمد: هؤلاء قوم زعموا أنّ لهم على الله حجة بكونه خلق قلوبهم غير قابلة للحق، ولا متمكنة من قبوله، فكذبهم الله في قولهم؛ لأنه خلق قلوبهم على الفطرة، أي: أن الإيمان وقبول الحق من جنس مقدورهم، كما هو من جنس مقدور المؤمنين، وذلك هو المعبر بالتمكن، وبخلقهم ميسرين للإيمان متأتياً منهم قبول الحق قامت عليهم حجة الله، إذ يجد الإنسان بالضرورة الفرق بين قبول الحق، والدخول في الإيمان، وبين طيرانه في الهواء، ومشيه على الماء ويعلم ضرورة أنّ الإيمان ممكن منه، كما يعلم أنّ الطيران غير ممكن منه عادة، فقد قامت الحجة وتبلجت، ألا لله الحجة البالغة، فمن هذا الوجه اتجه الردّ عليهم، لا كما يزعمه الزمخشري من أنّ لهم قدرة على الإيمان يلحقونه بها لأنفسهم ويقرونه في قلوبهم، وتلك القدرة موجودة سواء وجد الفعل أولاً، كالسيف المعدّ في يد القاتل سواء وجد أو لا، وأنّ هذه القدرة التي هي كالآلة للخلق على زعمه، يصرفها العبد حيث شاء في إيمان وكفر وافق ذلك مشيئة الله أو لا، وأنّ هؤلاء صرفوا قدرتهم إلى خلق الكفر، لأنفسهم على خلاف مشيئة الله تعالى، لذلك يعرض الزمخشري بأهل السنة القائلين بأنّ الله تعالى لو شاء من عبدة الأوثان أن لا يعبدوها لما عبدوها، وتسميتهم لذلك مجبرة، ويجعل قوله تعالى: ﴿قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ رداً على الأشعرية كما هو ردّ على الوثنية، ويغفل عن النكتة التي نبهنا عليها، وهي أن الرد على الوثنية بذلك لم يكن إلا؛ لأنهم ظنوا أنّ هذا المقدار يقيم لهم الحجة على الله، ولذلك قال تعالى عقيب ذلك: ﴿قل فللّه الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فأوضح الله تعالى أنّ الرد عليهم لم يكن لقولهم إنّ الله لو شاء لهداكم أجمعين، ولكن إنما كان الرد لظنهم أنّ ذلك حجة على الله بقوله، فللّه الحجة البالغة، فهذا التقرير هو الإيمان المحض، والتوحيد الصرف، وما عداه من الإشراك الصراح فخزى، نعوذ بالله منه.

من الذكر والموعظة. كما حكى الله عن المشركين: ﴿وقالوا لو شاء الرحمٰن ما عبدناهم﴾[1]. وكمذهب المجبرة أخزاهم الله فقيل لهم: بل خذلها الله ومنعها الألطاف بسبب كفرهم، فصارت كالمطبوع عليها، لا أن تخلق غلفاً غير قابلة للذكر ولا متمكنة من قبوله.

فإنْ قلتَ: علام عطف قوله: ﴿وبكفرهم﴾ قلتُ: الوجه أن يعطف على فبما نقضهم، ويجعل قوله: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾، كلاماً تبع قوله: ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ على وجه الاستطراد يجوز عطفه على ما يليه من قوله: ﴿بكفرهم﴾.

فإنْ قلتَ: ما معنى المجيء بالكفر معطوفاً على ما فيه ذكره سواء عطف على ما قبل حرف الإضراب أو على ما بعده وهو قوله: ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ وقوله: ﴿بكفرهم﴾؟ قلتُ: قد تكرّر منهم الكفر لأنّهم كفروا بموسىٰ ثم بعيسىٰ ثم بمحمد صلوات الله عليهم، فعطف بعض كفرهم على بعض، أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه، كأنّه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق والكفر بآيات الله وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم وبهتهم مريم، وافتخارهم بقتل عيسىٰ عاقبناهم، أو بل طبع الله عليها بكفرهم وجمعهم بين كفرهم وكذا وكذا. والبهتان العظيم: هو التزنية.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾.

فإنْ قلتَ: كانوا كافرين بعيسىٰ عليه السلام أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر بن الساحرة والفاعل بن الفاعلة، فكيف قالوا: ﴿إنّا قتلنا المسيح عيسىٰ ابن مريم رسول الله﴾؟ قلتُ: قالوه على وجه الاستهزاء، كقول فرعون: ﴿إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾[2]، ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعاً لعيسىٰ عما كانوا يذكرونه به وتعظيماً لما أرادوا بمثله، كقوله: ﴿ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم * الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾[3] روي: أنّ رهطاً من اليهود سبوه وسبوا أمّه، فدعا عليهم: اللهمّ أنت ربي وبكلمتك خلقتني اللهم العن من سبني وسب والدتي. فمسخ الله من سبهما قردةً وخنازير، فأجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنّه يرفعه إلى السماء ويطهره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة، فقال رجل منهم: أنا. فألقى الله عليه شبهه، فقتل وصلب. وقيل: كان رجلاً ينافق عيسىٰ فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه. فدخل بيت عيسى فرفع عيسىٰ، وألقي شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنّه عيسىٰ، ثم اختلفوا. فقال بعضهم: إنّه إلٰه لا يصح قتله، وقال بعضهم: إنّه قد قتل وصلب. وقال بعضهم: إن كان هذا عيسىٰ، فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسىٰ؟ وقال بعضهم: رفع إلى السماء. وقال بعضهم: الوجه وجه عيسىٰ والبدن بدن صاحبنا.

فإنْ قلتَ: ﴿شبه﴾ مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسنداً إلى المسيح فالمسيح مشبه به وليس بمشبه، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر؟ قلتُ: هو مسند إلى الجار والمجرور، وهو ﴿لهم﴾ كقولك: خيل إليه، كأنّه قيل: ولكن وقع لهم التشبيه. ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول لأنّ قوله: ﴿إنّا قتلنا﴾ يدل عليه، كأنّه قيل: ولكن شبه لهم من قتلوه. ﴿إلا اتباع الظن﴾ استثناء منقطع لأنّ اتباع الظن ليس من جنس العلم، يعني: ولكنهم يتبعون الظن.

فإنْ قلتَ[4]: قد وصفوا بالشك، والشك: أن لا يترجح أحد الجائزين، ثم وصفوا بالظن، والظن: أن يترجح أحدهما، فكيف يكونون شاكين ظانين؟ قلتُ: أريد أنّهم شاكون ما لهم من علم قط، ولكن إن لاحت لهم أمارة فظنوا فذاك. ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ وما قتلوه قتلاً يقيناً، أو ما قتلوه متيقنين كما ادّعوا ذلك في قولهم: إنّا قتلنا المسيح، أو يجعل يقيناً تأكيداً لقوله: وما قتلوه، كقولك: ما قتلوه حقاً، أي: حق انتفاء قتله حقاً. وقيل: هو من قولهم: قتلت الشيء علماً ونحرته علماً، إذا تبالغ فيه علمك، وفيه تهكم لأنّه إذا نفي عنهم العلم نفياً كلياً بحرف الاستغراق، ثم قيل: وما علموه علم يقين وإحاطة لم يكن إلا تهكماً بهم.

وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾.

﴿ليؤمننّ به﴾ جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف تقديره: وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمننّ به، ونحوه ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[5] ﴿وإن منكم إلا واردها﴾[6] والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلاّ ليؤمننّ قبل موته بعيسىٰ وبأنّه عبد الله ورسوله، [7]يعني:

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 20.

(2) سورة الشعراء، الآية: 27.

(3) سورة الزخرف، الآيتان: 9 ـ 10.

(4) قال أحمد: وليس في هذا الجواب شفاء للغليل، والظاهر، والله أعلم أنهم كانوا أغلب أحوالهم الشك في أمره، والتردّد فجاءت العبارة الأولى على ما يغلب من حالهم، ثم كانوا لا يخلون من ظن في بعض الأحوال، وعنده يقفون لا يرفعون إلى العلم فيه البتة، وكيف= يعلم الشيء على خلاف ما هو به، فجاءت العبارة الثانية على حالهم النادرة في الظنّ نافية عنهم ما يترقى عن الظن البتة، والله أعلم.

(5) سورة الصافات، الآية: 164.

(6) سورة مريم، الآية: 71.

(7) قال أحمد: كقول فرعون لما عاين الهلاك: «آمنت أنه لا إلٰه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل».

إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. وعن شهر بن حوشب قال لي الحجاج: آية ما قرأتها إلا تخالج في نفسي شيء منها، يعني: هذه الآية. وقال إنّي أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه، فلا أسمع منه ذلك. فقلت: إنّ اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه، وقالوا: يا عدوّ الله أتاك موسىٰ نبياً فكذبت به. فيقول: آمنت أنّه عبد نبي. وتقول للنصراني: أتاك عيسىٰ نبياً فزعمت أنّه الله أو ابن الله. فيؤمن أنّه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه. قال: وكان متكئاً، فاستوى جالساً، فنظر إليّ، وقال: ممن؟ قلت: حدّثني محمد بن عليّ ابن الحنفية، فأخذ ينكث الأرض بقضيبه، ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية، أو من معدنها. قال الكلبي: فقلت له: ما أردت إلى أن تقول حدّثني محمد بن عليّ ابن الحنفية؟ قال: أردت أن أغيظه، يعني: بزيادة اسم علي؛ لأنّه مشهور بابن الحنفية[1]. وعن ابن عباس: أنّه فسره كذلك، فقال له عكرمة: فإن أتاه رجل فضرب عنقه؟ قال: لا تخرج نفسه حتى يحرّك بها شفتيه. قال: وإن خرّ من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع؟ قال: يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به[2]. وتدل عليه قراءة أبيّ: إلا ليؤمننّ به قبل موتهم، بضم النون، على معنى: وإنّ منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم، لأنّ أحداً يصلح للجمع.

فإنْ قلتَ[3]:ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسىٰ قبل موتهم؟ قلتُ:فائدته الوعيد وليكون علمهم بأنّهم لا بدّ لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة، وأنّ ذلك لا ينفعهم، بعثاً لهم وتنبيهاً على معاجلة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزاماً للحجة لهم، وكذلك قوله: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يشهد على اليهود بأنّهم كذبوه، وعلى النصارى بأنّهم دعوه ابن الله، وقيل: الضميران لعيسىٰ، بمعنى: وإن منهم أحد إلا ليؤمننّ بعيسىٰ قبل موت عيسىٰ، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله. روي: أنّه ينزل من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة، وهي: ملة الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمنة حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه[4]. ويجوز أن يراد: أنّه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به على أنّ الله يحييهم في قبورهم في ذلك الزمان ويعلمهم نزوله وما أنزل له، ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم. وقيل: الضمير في به يرجع إلى الله تعالى. وقيل: إلى محمد ﷺ.

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾.

﴿فبظلم من الذين هادوا﴾ فبأي ظلم منهم. والمعنى: ما حرّمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبوه، وهو ما عدّد لهم من الكفر والكبائر العظيمة. والطيبات التي حرّمت عليهم، ما ذكره في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر﴾[5] حرّمت عليهم الألبان وكلما أذنبوا ذنباً صغيراً أو كبيراً حرّم عليهم بعض الطيبات من المطاعم وغيرها ﴿وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً﴾ ناساً كثيراً أو صدّاً كثيراً.

وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾.

﴿بالباطل﴾ بالرشوة التي كانوا يأخذونها من سفلتهم في تحريف الكتاب.

لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾.

﴿لكن الراسخون﴾ يريد من آمن منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه، والراسخون في العلم الثابتون فيه المتقنون المستبصرون، ﴿والمؤمنون﴾ يعني: المؤمنين منهم أو المؤمنون من المهاجرين والأنصار، وارتفع الراسخون على الابتداء، و﴿يؤمنون﴾ خبره، و﴿المقيمين﴾ نصب على المدح لبيان فضل الصلاة، وهو باب واسع وقد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان، وغبي عليه أنّ السابقين الأوّلين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همةً في الغيرة على الإسلام وذبّ المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم، وخرقاً يرفوه من يلحق بهم. وقيل: هو عطف على ﴿بما أنزل إليك﴾ أي: يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء. وفي مصحف عبد الله: والمقيمون بالواو. وهي قراءة مالك بن دينار والجحدري وعيسىٰ الثقفي.

۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ

---

(1) لم أجده. ولم يخرجه الزيلعي، 10/368.

(2) نسبه الزيلعي إلى الطبراني، ونسبه ابن حجر إلى الطبري.

(3) قال أحمد: ويبعد هذا التأويل قوله: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ فإنّ ظاهره التهديد، ولكن ما أريد بقوله في حق هذه =

= الأمّة، ويكون الرسول عليكم شهيداً، والله أعلم.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في التفسير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الحديث (4675). ولم يذكر النزول.

(5) سورة الأنعام، الآية: 146.

وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾

﴿إنّا أوحينا إليك﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأنّ شأنه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا، وقرئ: زبوراً بضم الزاي، جمع زبر وهو الكتاب.

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾.

﴿ورسلاً﴾ نصب بمضمر في معنى: أوحينا إليك، وهو أرسلنا ونبانا وما أشبه ذلك، أو بما فسره ﴿قصصناهم﴾. وفي قراءة أبيّ: ورسل قد قصصناهم عليك من قبل، ورسل لم نقصصهم. وعن إبراهيم ويحيى بن وثاب أنّهما قرآ وكلم الله بالنصب[1]، ومن بدع التفاسير أنّه من الكلم وأنّ معناه: وجرّح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن.

رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾.

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين﴾ الأوجه أن ينتصب على المدح، ويجوز انتصابه على التكرير.

فإنْ قلتَ[2]: كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي النظر فيها موصل إلى المعرفة، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة ولا عرف أنّهم رسل الله إلا بالنظر فيها! قلتُ: الرسل منبهون عن الغفلة وباعثون على النظر، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع، فكان إرسالهم إزاحةً للعلة وتتميماً لإلزام الحجة لئلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له.

لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾.

قرأ السلمي: لكن الله يشهد بالتشديد.

فإنْ قلتَ[3]: الاستدراك لا بدّ له من مستدرك، فما هو في قوله: ﴿لكن الله يشهد﴾ قلتُ: لما سأل أهل الكتاب إنزال الكتاب من السماء وتعنتوا بذلك واحتج عليهم بقوله: ﴿إنّا أوحينا إليك﴾. قال: لكن الله يشهد، بمعنى: أنّهم لا يشهدون لكن الله يشهد. وقيل: لما نزل: ﴿إنّا أوحينا إليك﴾ قالوا: ما نشهد لك بهذا، فنزل: لكن الله يشهد. ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه إثباته لصحته بإظهار المعجزات كما تثبت الدعاوى بالبينات. وشهادة الملائكة شهادتهم بأنّه حق وصدق.

فإنْ قلتَ: بم يجابون لو قالوا: بم يعلم أن الملائكة يشهدون بذلك؟ قلتُ: يجابون بأنّه يعلم بشهادة الله لأنّه لما علم بإظهار المعجزات أنّه شاهد بصحته علم أنّ الملائكة يشهدون بصحة ما شهد بصحته لأنّ شهادتهم تبع لشهادته.

فإنْ قلتَ: ما معنى قوله: ﴿أنزله بعلمه﴾، وما موقعه من الجملة التي قبله؟ قلتُ: معناه: أنزله ملتبساً بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره، وهو تأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان، وموقعه مما قبله موقع الجملة المفسرة لأنّه بيان للشهادة، وأن شهادته بصحته أنّه أنزله بالنظم المعجز الفائت للقدرة. وقيل: أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك وأنك مبلغه، وقيل: أنزله بما علم من مصالح العباد مشتملاً عليه، ويحتمل أنه أنزله وهو

---

(1) قال أحمد: وإنما ينقل هذا التفسير عن بعض المعتزلة لإنكارهم الكلام القديم الذي هو صفة الذات، إذ لا يثبتون إلا الحروف، والأصوات قائمة بالأجسام، لا بذات الله تعالى، فيردّ عليهم بجحدهم كلام النفس إبطال خصوصية موسى عليه السلام في التكليم، إذ لا يثبتونه إلا بمعنى سماعه حروفاً، وأصواتاً قائمة ببعض الأجرام، وذلك مشترك بين موسى، وبين كل سامع لهذه الحروف حتى المشرك الذي قال الله فيه، حتى يسمع كلام الله، فيضطر المعتزلي إلى إبطال الخصوصية الموسوية بحمل التكليم على التجريح، وصدق الزمخشري، وأنصف إنه لمن بدع التفاسير التي ينبو عنها الفهم، ولا يبين بها إلا الوهم، والله الموفق.

(2) قال أحمد: قاعدة المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين تجرهم، وتجرؤهم إلى إثبات لحكام الله تعالى بمجرد العقل، وإن لم يبعث رسولاً، فيوجبون بعقولهم ويحرمون، ويبيحون على وفق زعمهم، ومما يوجبونه قبل ورود الشرع النظر في أدلة المعرفة، ولا يتوقفون على ورود الشرع الموجب، فمن ثَمّ يلزمون بعد خبط وتطويل أن من ترك النظر في الأدلة قبل ورود الشرع، فقد ترك واجباً استحق به التعذيب، وقد قامت الحجة عليه في الوجوب، وإن لم يكن شرع، وإنا تليت عليهم هذه الآية، وهي قوله: ﴿رسلاً = مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ وقيل لهم: ما هذه الآية تنابكم يا معشر القدرية أن الحجة إنما تمّت على الخلق بالأحكام الشرعية المؤدية إلى الجزاء بإرسال الرسل، لا بمجرد العقل، فما يقولون فيها صمّت حينئذٍ آذانهم، وغبروا في وجه هذا النص، وغيروه عما هو موضوع له، فقالوا: المراد أن الرسل تتمم حجة الله، وتنبه على ما وجب قبل بعثها بالنقل، كما أجاب به الزمخشري، وقريباً من هذا التعسف يقولون إذا ورد عليهم قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ وربما يلبس على ضعفة المطالعين لهذا الفصل، من كلام الزمخشري قوله: إن أدلة التوحيد والمعرفة منصوبة قبل إرسال الرسل، وبذلك تقوم الحجة، فتظن أن ذلك جار على سنن الصحة، إذ المعرفة باتفاق والتوحيد بإجماع، إنما طريقه العقل لا النقل الذي يلبس عليه أن النظر في أدلة التوحيد، هو فعل المكلف، ليس بالحكم الشرعي، بل الحكم وجوب النظر والمعرفة متلقاة من العقل المحض، والوجوب متلقى من النقل الصرف وبه تقوم الحجة، وعليه يرتب الجزاء، والله سبحانه ولي التوفيق والمعونة.

(3) قال أحمد: وورود هذا الفصل في كلامه، مما يغتبط به.

عالم به رقيب عليه حافظ له من الشياطين برصد من الملائكة، والملائكة يشهدون بذلك، كما قال في آخر سورة الجن: الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وأحاط بما لديهم﴾[1] والإحاطة بمعنى العلم. ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ وإن لم يشهد غيره؛ لأنّ التصديق بالمعجزة هو الشهادة حقاً ﴿قل أي شيء أكبر شهادةً قل الله﴾[2].

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾.

﴿كفروا وظلموا﴾[3] جمعوا بين الكفر والمعاصي، أو كان بعضهم كافرين وبعضهم ظالمين أصحاب كبائر؛ لأنّه لا فرق بين الفريقين في أنّه لا يغفر لهما إلا بالتوبة. ﴿ولا ليهديهم طريقاً﴾ لا يلطف بهم فيسلكون الطريق الموصل إلى جهنم، أو لا يهديهم يوم القيامة طريقاً إلا طريقها.

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾.

﴿يسيراً﴾ أي: لا صارف له عنه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾.

﴿فآمنوا خيراً لكم﴾ وكذلك ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ انتصابه بمضمر، وذلك أنّه لما بعثهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنّه يحملهم على أمر، فقال: خيراً لكم، أي: اقصدوا أو ائتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث وهو الإيمان والتوحيد.

﴿لا تغلوا في دينكم﴾ غلت اليهود في حط المسيح عن منزلته حيث جعلته مولوداً لغير رشدة، وغلت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلهاً. ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وهو تنزيهه عن الشريك والولد. قرأ جعفر بن محمد: إنّما المسيح بوزن السكيت. وقيل لعيسىٰ: كلمة الله، وكلمة منه، لأنّه وجد بكلمته وأمره لا غير من غير، واسطة أب ولا نطفة. وقيل له: روح الله وروح منه لذلك لأنّه ذو روح وجد من غير جزء، من ذي روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحي؛ وإنّما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة، ومعنى ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها. ﴿ثلاثة﴾ خبر مبتدأ محذوف، فإن صحت الحكاية عنهم أنّهم يقولون: هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس، وأنّهم يريدون بأقنوم الأب الذات، وبأقنوم الابن العلم، وبأقنوم روح القدس الحياة، فتقديره: الله ثلاثة، وإلا فتقديره الآلهة ثلاثة. والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأنّ الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأنّ المسيح ولد الله من مريم، ألا ترى إلى قوله: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله﴾[4] وقالت النصارى: المسيح ابن الله، والمشهور المستفيض عنهم أنّهم يقولون: في المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم. ويدل عليه قوله: ﴿إنّما المسيح عيسىٰ ابن مريم﴾. فأثبت أنّه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمّهاتها وأنّ اتصاله بالله تعالى من حيث إنّه رسوله، وإنّه موجود بأمره وابتداعه جسداً حياً من غير أب، فنفى أن يتصل به اتصال الأبناء بالآباء، وقوله: ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ وحكاية الله أوثق من حكاية غيره. ومعنى: ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ سبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد. وقرأ الحسن: إن يكون بكسر الهمزة ورفع النون، أي: سبحانه ما يكون له ولد، على أنّ الكلام جملتان. ﴿له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ بيان لتنزهه عما نسب إليه، يعني: أنّ كل ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه على أنّ الجزء إنّما يصح في الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأعراض. ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ يكل إليه الخلق كلهم أمورهم فهو الغني عنهم وهم الفقراء إليه.

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾.

﴿لن يستنكف المسيح﴾[5] لن يأنف ولن يذهب بنفسه

---

(1) سورة الجن، الآية: 28.

(2) سورة الأنعام، الآية: 19.

(3) قال أحمد: يعدل من الظاهر لعله يتروح إلى بث طرف من العقيدة الفاسدة في وجوب وعيد العصاة، وأنهم مخلدون تخليد الكفار، وقد تكرر ذلك منه، وهذه الآية تنبو عن هذا المعتقد، فإنه جعل الفعلين؛ أعني الكفر والظلم كليهما صلة للموصول المجموع، فيلزم وقوع الفعلين جميعاً من كل واحد من آحاده، ألا تراك إذا قلت الزيدون قاموا، فقد أسندت القيام إلى كل واحد من آحاد الجمع، فكذلك لو عطفت عليه فعلاً آخر لزم فيه ذلك ضرورة، والله الموفق.

(4) سورة المائدة، الآية: 116.

(5) قال أحمد: وقد كثر الاختلاف في تفضيل الأنبياء على الملائكة، فذهب جمهور الأشعرية إلى تفضيل الأنبياء، وذهب القاضي أبو بكر منا، والحليمي وجماعة المعتزلة إلى تفضيل الملائكة، واتخذ المعتزلة هذه الآية عمدتهم في تفضيل الملائكة من حيث الوجه الذي استدل به الزمخشري، ونحن بعون الله نشبع القول في المسألة من حيث الآية، فنقول: أورد الأشعرية على الاستدلال بها أسئلة. أحدها: أن سيدنا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام، أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام، فلا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح أن تكون أفضل من محمد عليه =

= الصلاة والسلام، وهذا السؤال إنما يتوجه إذ لم يدع مورده أن كل واحد من آحاد الأنبياء، أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة، وبين طائفتنا في هذا الطرف خلاف. السؤال الثاني، أن قوله ولا الملائكة المقرّبون صيغة جمع تتناول مجموع الملائكة، فهذا يقتضي كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح، ولا يلزم أن يكون كلّ واحد منهم أفضل من المسيح، وفي هذا السؤال أيضاً نظر؛ لأنّ مورده إذا بنى على أنّ المسيح أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة، فقد يقال يلزم القول بأنه أفضل من الكل، كما أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام لما كان أفضل من كل واحد من آحاد الأنبياء، كان أفضل من كلهم، ولم يفرق بين التفضيل على التفضيل، والتفضيل على الجملة أحد ممن صنف في هذا المعنى، وقد كان بعض المعاصرين يفصل بين التفضيلين، وادّعى أنه لا يلزم منه على التفصيل تفضيل على الجملة، ولم يثبت عنه هذا القول، ولو قاله أحد، فهو مردود بوجه لطيف، وهو أنّ التفضيل المراد جلّ أماراته رفع درجة الأفضل في الجنة، والأحاديث متوافرة بذلك، وحينئذٍ لا يخلو إما أن ترفع درجة واحدة من المفضولين على من اتفق على أنه أفضل من كل واحد منهم، أولاً: ترفع درجة أحد منهم عليه لا سبيل إلى الأوّل؛ لأنه يلزم منه رفع المفضول على الأفضل، فتعيين الثاني: وهو ارتفاع درجة الأفضل على درجات المجموع ضرورة، فيلزم ثبوت أفضليته على المجموع من ثبوت أفضليته على كل واحد منهم قطعاً. الثالث: أنه عطف الملائكة على المسيح بالواو، وهي لا تقتضي ترتيباً، وأما الاستشهاد بالمثال المذكور على أنّ الثاني أبداً يكون أعلى رتبة، فمعارض بأمثلة لا تقتضي ذلك، كقول القائل ما عابني على هذا الأمر زيد، ولا عمرو. قلت: وكقولك: لا تؤذ مسلماً ولا ذمياً، فإن هذا الترتيب وجه الكلام، والثاني أدنى وأخفض درجة، ولو ذهبت تعكس هذا فقلت لا تؤذ ذمّياً، ولا مسلماً ليجعل الأعلى ثانياً، لخرجت عن حدّ الكلام، وقانون البلاغة، وهذا المثال بين ما يورد في نقض القانون المقرّر، ولكنّ الحقّ أولى من المراء، وليس بين المثالين تعارض، ونحن نمهد تمهيداً يرفع اللبس، ويكشف الغطاء، فنقول: النكتة في الترتيب في المثالين الموهوم تعارضهما واحدة، وهي توجب في مواضع تقديم الأعلى، وفي مواضع تأخيره، وتلك النكتة مقتضى البلاغة النائي عن التكرار والسلامة عن النزول، فإذا اعتمدت ذلك، فمهما أدّى إلى أن يكون آخر كلامك نزولاً بالنسبة إلى أوّله، أو يكون الآخر مندرجاً في الأوّل قد أفاده، وأنت مستغنٍ عن الآخر فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، واستئنافاً لفائدة لم يشتمل عليها الأوّل مثاله الآية المذكورة، فإنك لو ذهبت فيها إلى أن يكون المسيح أفضل من الملائكة، وأعلى رتبة لكان ذكر الملائكة بعده، كالمستغنى عنه؛ لأنه إذا كان الأفضل، وهو المسيح على هذا التقدير عبداً لله غير مستنكف من العبودية لزم من ذلك أنّ من دونه في الفضيلة، أولى أن لا يستنكف عن كونه عبداً لله، وهم الملائكة على هذا التقدير، فلم يتجدّد إذاً بقوله، ولا الملائكة المقرّبون إلا ما سلف أوّل الكلام، وإذا قدّرت المسيح مفضولاً بالنسبة إلى الملائكة، فإنك ترقيت من تعظيم الله تعالى، بأنّ المفضول لا يستنكف عن كونه عبداً له إلى أنّ الأفضل لا يستنكف عن ذلك، وليس يلزم من عدم استنكاف المفضول عدم استنكاف الأفضل، فالحاجة داعية إلى ذكر الملائكة إذ لم يستلزم الأوّل الآخر، فصار الكلام على هذا التقدير تتجدّد فوائده، وتتزايد وما كان كذلك تعين أن يحمل عليه الكتاب العزيز؛ لأنه الغاية في البلاغة وبهذه النكتة يجب أن تقول لا تؤذ مسلماً، ولا ذمّياً، فتؤخر الأدنى على عكس الترتيب في =

= الآية؛ لأنك إذا نهيته عن إيذاء المسلم، فقد يقال ذلك من خواصه احتراماً للإسلام، فلا يلزم من ذلك نهيه عن الكافر المسلوبة عنه هذه الخصوصية، فإذا قلت: ولا ذمّياً، فقد جئت فائدة لم تكن في الأوّل، وترقيت من النهي عن بعض أنواع الأذى إلى النهي عن أكثر منه، ولو رتبت هذا المثال، كترتيب الآية، فقلت: لا تؤذ ذمّياً، فهم المنهي أنّ أذى المسلم أدخل في النهي، إذ يساوي الذمي في سبب الاحترام، وهو الإنسانية مثلاً، ويمتاز عنه بسبب أجلّ وأعظم، وهو الإسلام، فيقنعه هذا النهي عن تجديد نهي آخر عن أذى المسلم، فإن قلت: ولا مسلماً لم تجدّد له فائدة، ولم تعلمه غير ما علمه أوّلاً، فقد علمت أنها نكتة واحدة توجب أحياناً تقديم الأعلى، وأحياناً تأخيره، ولا يميز لك ذلك إلا السياق، وما أشك أن سياق الآية يقتضي تقديم الأدنى، وتأخير الأعلى ومن البلاغة المرتبة على هذه النكتة، قوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما أف﴾ استغناء عن نهيه عن ضربهما، فما فوقه بتقديم الأدنى، ولم يلق ببلاغة الكتاب العزيز أن تريد نهياً عن أعلى من التأفيف، والإنهار؛ لأنه مستغنى عنه وما يحتاج المتدبر لآيات القرآن مع التأييد شاهداً سواها ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾، ولما اقتضى الإنصاف تسليم مقتضى الآية، لتفضيل الملائكة، وكانت الأدلة على تفضيل الأنبياء عتيدة عند المعتقد، لذلك جمع بين الآية، وتلك الأدلة بحمل التفضيل في الآية على غير محل الخلاف، وذلك أن تفضيل الملائكة في القوّة، وشدّة البطش وسعة التمكن، والاقتدار قال، وهذا النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية؛ لأنّ المقصود الردّ على النصارى في اعتقادهم الوهية عيسى عليه السلام مستندين إلى كونه أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة، فناسب ذلك أن يقال هذا الذي صدرت على يديه هذه الخوارق لا يستنكف عن عبادة الله تعالى بل من هو أكثر خوارق، وأظهر آثاراً كالملائكة المقربين الذين من جملتهم جبريل عليه السلام، وقد بلغ من قوته، وإقدار الله له أن اقتلع المدائن، واحتملها على ريشة من جناحه، فقلب عاليها سافلها، فيكون تفضيل الملائكة إذاً بهذا الاعتبار لا خلاف أنهم أقوى وأبطش، وأنّ خوارقهم أكثر وإنما الخلاف في التفضيل، باعتبار مزيد الثواب والكرامات، ورفع الدرجات في دار الجزاء، وليس في الآية عليه دليل ولما كان أكثر ما ليس على النصارى الوهية عيسى كونه مخلوقاً، أي: موجوداً من غير أب أنبانا الله تعالى، أنّ هذا الموجود من غير أب لا يستنكف من عبادة الله بل، ولا الملائكة المخلوقين من غير أب، ولا أمّ، فيكون تأخير ذكرهم؛ لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى، ويشهد لذلك أن الله تعالى نظر عيسى بآدم عليهما السلام، فنظر الغريب بالأغرب، وشبه العجيب من قدرته بالأعجب، إذ عيسى مخلوق من أمّ وآدم من غير أم، ولا أب، ولذلك قال: ﴿خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون﴾ ومدار هذا البحث على النكتة التي نبهت عليها، فمتى استقام اشتمال المذكور أياماً على فائدة لم يشتمل عليها الأول، بأي طريق كان من تفضيل، أو غيره من الفوائد، فقد أسند النظر وطابق صيغة الآية، والله أعلم، وعلى الجملة فالمسألة سمعية، والقطع فيها معروف بالنص الذي لا يحتمل تأويلاً، ووجوده عسر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما أحسن تأكيد الزمخشري لاستدلاله ببعث الملائكة المعنيين بأنهم المقربون، ومن ثَم ينشي ظهور من فصل القول في الملائكة، والأنبياء فلم يعمم التفضيل في الملائكة، ولا في الأنبياء بل فضل ثم فصل، وليس الغرض إلا ذكر محامل الآية لا البحث في اختلاف المذاهب، والله الموفق.

عزةً، من نكفت الدمع إذا نحيته عن خدك بأصبعك. ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم منه خطراً، وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومن في طبقتهم.

فإنْ قلتَ: من أين دلّ قوله: ﴿ولا الملائكة المقرّبون﴾ على أنّ المعنى ولا من فوقه؟ **قلتُ:** من حيث إنّ علم المعاني لا يقتضي غير ذلك، وذلك أنّ الكلام إنّما سيق لرد مذهب النصارى وغلوّهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم: لن يترفع عيسىٰ عن العبودية ولا من هو أرفع منه درجةً. كأنّه قيل: لن يستنكف الملائكة المقرّبون من العبودية، فكيف بالمسيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة تخصيص المقرّبين لكونهم أرفع الملائكة درجةً وأعلاهم منزلةً. ومثاله قول القائل:

وما مثله ممن يجاود حاتم ... ولا البحر ذو الأمواج يلتج زاخره

لا شبهة في أنّه قصد بالبحر ذي الأمواج ما هو فوق حاتم في الجود، ومن كان له ذوق فليذق مع هذه الآية قوله: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى﴾[1] حتى يعترف بالفرق البين. وقرأ علي رضي الله عنه: عبيد الله، على التصغير. وروي: أنّ وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ قال: «ومن صاحبكم»؟ قالوا: عيسىٰ. قال: «وأي شيء أقول»؟ قالوا: تقول: إنّه عبد الله ورسوله. قال: «إنّه ليس بعار أن يكون عبداً لله». قالوا: بلى، فنزلت. أي: لا يستنكف عيسىٰ من ذلك فلا تستنكفوا له منه[2]، لو كان موضع استنكاف لكان هو أولى بأن يستنكف لأنّ العار ألصق به.

فإنْ قلتَ: علام عطف قوله: ﴿ولا الملائكة﴾؟ **قلتُ:** لا يخلو إمّا أن يعطف على المسيح، أو على اسم يكون، أو على المستتر في عبداً لما فيه من معنى الوصف لدلالته على معنى العبادة، كقولك: مررت برجل عبد أبوه، فالعطف على المسيح هو الظاهر لأداء غيره إلى ما فيه بعض انحراف عن الغرض وهو أنّ المسيح لا يأنف أن يكون هو ولا من فوقه موصوفين بالعبودية، أو أن يعبد الله هو ومن فوقه.

فإنْ قلتَ: قد جعلت الملائكة وهم جماعة عبد الله في هذا العطف، فما وجهه؟ **قلتُ:** فيه وجهان: أحدهما: أن يراد ولا كل واحد من الملائكة، أو ولا الملائكة المقرّبون أن يكونوا عباداً لله، فحذف ذلك لدلالة عبداً لله عليه إيجازاً، وأمّا إذا عطفتهم على الضمير في عبداً فقد طاح هذا السؤال. قرئ: فسيحشرهم بضم الشين وكسرها وبالنون.

فإنْ قلتَ[3]: التفصيل غير مطابق للمفصل لأنّه اشتمل على الفريقين والمفصل على فريق واحد! **قلتُ:** هو مثل قولك: جمع الإمام الخوارج، فمن لم يخرج عليه كساه وحمله، ومن خرج عليه نكل به. وصحة ذلك لوجهين: أحدهما أن يحذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه، ولأنّ ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله عقيب هذا:

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾.

﴿فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾. والثاني: وهو أنّ الإحسان إلى غيرهم مما يغمهم فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم، فكأنّه قيل: ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين وبما يصيبه من عذاب الله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾.

البرهان والنور المبين: القرآن، أو أراد بالبرهان دين الحق، أو رسول الله ﷺ، وبالنور المبين ما يبنه ويصدقه من الكتاب المعجز.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾.

﴿في رحمة منه وفضل﴾ في ثواب مستحق وتفضل. ﴿ويهديهم إليه﴾ إلى عبادته ﴿صراطاً مستقيماً﴾ وهو طريق الإسلام، والمعنى: توفيقهم وتثبيتهم.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾.

روي: أنّه آخر ما نزل من الأحكام. كان رسول الله ﷺ في طريق مكة عام حجة الوداع فأتاه جابر بن عبد الله فقال: إنّ لي أختاً فكم آخذ من ميراثها إن ماتت[4]. وقيل: كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كلالة فكيف

---

(1) سورة البقرة، الآية: 120.

(2) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص: 106، 107.

(3) قال أحمد: المراد بالمفصل من لم يستنكف، ومن استنكف لسبق ذكرهما ألا ترى أنّ المسيح، والملائكة المقرّبين، ومن دونهم من عباد الله، لم يستنكفوا عن عبادة الله، وقد جرى ذكرهم، ويرشد إليه تأكيد الضمير بقوله جميعاً، فكأنه قال، فسيحشر إليه = المقرّبين، وغيرهم جميعاً، ووقوع الفعل المتصل به الضمير جزاء لقوله: ﴿ومن يستنكف﴾ لا يعين اختصاص الضمير بالمستنكفين؛ لأنّ المصحح لارتباط الكلام قد وجد مندرجاً في طيّ هذا الضمير الشامل لهم، ولغيرهم، وحينئذٍ يكون المفصل مشتملاً على الفريقين، وتفصيله منطبق عليه، والله أعلم.

(4) الثعلبي في تفسيره. وقال الزيلعي غريب 1/369.

أصنع في مالي؟ فنزلت[1]: ﴿إن امرؤ هلك﴾ ارتفع امرؤ بمضمر يفسره الظاهر ومحل ﴿ليس له ولد﴾ الرفع على الصفة لا النصب على الحال، أي: إنّ هلك امرؤ غير ذي ولد، والمراد بالولد الابن، وهو اسم مشترك يجوز إيقاعه على الذكر وعلى الأنثى، لأن الابن يسقط الأخت ولا تسقطها البنت إلا في مذهب ابن عباس. وبالأخت التي هي لأب وأمّ دون التي لأمّ لأنّ الله تعالى فرض لها النصف وجعل أخاها عصبةً، وقال: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وأمّا الأخت للأم فلها السدس في آية المواريث مسوى بينها وبين أخيها ﴿وهو يرثها﴾ وأخوها يرثها إن قدر الأمر على العكس من موتها وبقائه بعدها ﴿إن لم يكن لها ولد﴾ أي: ابن لأنّ الابن يسقط الأخ دون البنت.

فإنْ قلتَ: الابن يسقط الأخ وحده فإنّ الأب نظيره في الإسقاط، فلم اقتصر على نفي الولد؟ قلتُ: بين حكم انتفاء الولد ووكل حكم انتفاء الوالد إلى بيان السنة وهو قوله عليه السلام: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى عصبة ذكر»[2]. والأب أولى من الأخ، وليسا بأوّل حكمين بين أحدهما بالكتاب والآخر بالسنة، ويجوز أن يدل بحكم انتفاء الولد، على حكم انتفاء الوالد لأنّ الولد أقرب إلى الميت من الوالد، فإذا ورث الأخ عند انتفاء الأقرب فأولى أن يرث عند انتفاء الأبعد، ولأنّ الكلالة تتناول انتفاء الوالد والولد جميعاً فكان ذكر انتفاء أحدهما دالاً على انتفاء الآخر.

فإنْ قلتَ[3]: إلى من يرجع ضمير التثنية والجمع في قوله: ﴿فإن كانتا اثنتين﴾، ﴿وإن كانوا إخوة﴾؟ قلتُ: أصله فإن كان من يرث بالأخوة اثنتين وإن كانتا من يرث بالأخوة ذكوراً وإناثاً، وإنّما قيل: فإن كانتا، وإن كانوا كما قيل: من كانت أمّك، فكما أنث ضمير من لمكان تأنيث الخبر، كذلك ثنى وجمع ضمير من يرث في كانتا وكانوا لمكان تثنية الخبر وجمعه. والمراد بالإخوة الإخوة والأخوات تغليباً لحكم الذكورة، ﴿أن تضلوا﴾ مفعول له ومعناه: كراهة أن تضلوا. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة النساء فكأنّما تصدّق على كلّ مؤمن ومؤمنة ورث ميراثاً، وأعطى من الأجر كمن اشترى محرّراً، وبرئ من الشرك، وكان في مشيئة الله من الذين يتجاوز عنهم».

سورة المائدة

مدنية إلا آية 3 فنزلت في حجة الوداع وهي مائة وعشرون آية نزلت بعد الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾.

يقال[4]: وفى بالعهد وأوفى به، ومنه: والموفون بعهدهم. والعقد: العهد الموثق، شبه بعقد الخيل، ونحوه قال الخطيئة:

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم ... شدّوا العناج وشدّوا فوقه الكربا

وهي عقود الله التي عقدها على عباده وألزمها إياهم من مواجب التكليف، وقيل: هي ما يعقدون بينهم من عقود الأمانات ويتحالفون عليه ويتماسحون من المبايعات ونحوها، والظاهر أنّها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله وتحريم حرامه، وأنّه كلام قدم مجملاً ثم عقب بالتفصيل، وهو قوله: ﴿أحلت لكم﴾ وما بعده.

البهيمة: كلّ ذات أربع في البرّ والبحر، وإضافتها إلى الأنعام للبيان، وهي الإضافة التي بمعنى من كخاتم فضة ومعناه البهيمة من الأنعام. ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ إلا محرّم ما يتلى عليكم من القرآن، من نحو قوله: ﴿حرّمت عليكم الميتة﴾ وإلا ما يتلى عليكم آية تحريمه. والأنعام الأزواج الثمانية، وقيل: بهيمة الأنعام الظباء وبقر الوحش ونحوها، كأنّهم أرادوا ما يماثل الأنعام ويدانيها من جنس البهائم في الاجترار وعدم الأنياب، فأضيفت إلى الأنعام لملابسة الشبه. ﴿غير محلي الصيد﴾ نصب على الحال من الضمير في لكم، أي: أحلت لكم هذه الأشياء لا محلين الصيد. وعن الأخفش أن انتصابه عن قوله: ﴿أوفوا

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المرضى، باب: وضوء العائد للمريض الحديث (5676)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفرائض، باب: ميراث الكلالة، الحديث (4121)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الفرائض، باب: في الكلالة. الحديث (2886)، أخرجه الترمذي في كتاب: الفرائض، باب: ميراث الأخوات، الحديث (2097)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفرائض باب: الكلالة، الحديث (2726).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الفرائض، باب: ميراث الجد مع الأب... الحديث (6737)، ومسلم في كتاب: الفرائض، باب: ألحقوا الفرائض بأهلها الحديث (4117)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفرائض، باب: في ميراث العصبة، الحديث (2098)، وأخرجه الحاكم في المستدرك 4/ 338، وأبو يعلى في المسند 4/ 2371.

(3) قال أحمد: وقد سبق له هذا التمثيل في مثل هذا الموضع، ولو= مثل بقول القائل: حصان كانت دابتك، لكان أسلم إذ في لفظ «مَنْ»، من الإبهام ما يسوّغ وقوعها على الأصناف المختلفة من منكر، ومؤنث، وتثنية، وجمع، ومثل الآية سواء، قوله تعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو﴾ فيمن جعل الجملة مفعولاً ثانياً للحسبان، فإن أصل الكلام هي: العدو إذ الضمير على هذا الإعراب للصيحة، ولكنه ذكره، وجمعه لمكان الخبر، والله أعلم.

(4) قال أحمد: ورد في الكتاب العزيز، وفي بالتضعيف في قوله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ وورود أوفى كثير، ومنه: ﴿أوفوا بالعقود﴾، وأمّا وفي ثلاثياً، فلم يرد، إلا في قوله تعالى: ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾؛ لأنه بنى أفعل من التفضيل، وفي إذ لا يبني، إلا من ثلاثي.

بالعقود﴾ وقوله: ﴿وأنتم حرم﴾ حال عن محلي الصيد، كأنّه قيل: أحللنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون لئلا تحرج عليكم. ﴿إنّ الله يحكم ما يريد﴾ من الأحكام ويعلم أنّه حكمة ومصلحة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

والحرم: جمع حرام وهو المحرم.

الشعائر: جمع شعيرة وهي اسم ما أشعر، أي جعل شعاراً وعلماً للنسك من مواقف الحج ومرامي الجمار والمطاف والمسعى. والأفعال التي هي علامات الحاج، يعرف بها من الإحرام والطواف والسعي والحلق والنحر. والشهر الحرام: شهر الحج.

والهدي: ما أهدي إلى البيت وتقرب به إلى الله من النسائك، وهو جمع هدية، كما يقال: جدي، في جمع جدية السرج.

والقلائد: جمع قلادة وهي ما قلّد به الهدي من نعل أو عروة مزادة أو لحاء شجر أو غيره. وآموا المسجد الحرام: قاصدوه وهم الحجاج والعمار. وإحلال هذه الأشياء أن يتهاون بحرمة الشعائر، وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها، وأن يحدثوا في أشهر الحج ما يصدّون به الناس عن الحج، وأن يتعرض للهدي بالغصب أو بالمنع من بلوغ محله، وأما القلائد ففيها وجهان:

أحدهما: أن يراد بها ذوات القلائد من الهدي وهي البدن، وتعطف على الهدي للاختصاص وزيادة التوصية بها لأنّها أشرف الهدى، كقوله: وجبريل وميكال، كأنّه قيل: والقلائد منها خصوصاً.

والثاني: أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدي مبالغةً في النهي عن التعرض للهدي، على معنى: ولا تحلوا قلائدها فضلاً أن تحلوها، كما قال: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ فنهى عن إبداء الزينة مبالغةً في النهي عن إبداء مواقعها. ﴿ولا آمين﴾ ولا تحلوا قوماً قاصدين المسجد الحرام ﴿يبتغون فضلاً من ربّهم﴾ وهو الثواب ﴿ورضواناً﴾ وأن يرضى عنهم، أي: لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيماً لهم واستنكاراً أن يتعرض لمثلهم. قيل: هي محكمة. وعن النبي ﷺ: «المائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلّوا حلالها وحرّموا حرامها»[1]. وقال الحسن: ليس فيها منسوخ. وعن أبي ميسرة: فيها ثماني عشرة فريضةً، وليس فيها منسوخ. وقيل: هي منسوخة. وعن ابن عباس: كان المسلمون والمشركون يحجون جميعاً فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحداً عن حج البيت بقوله: ﴿لا تحلوا﴾. ثم نزل بعد ذلك: ﴿إنّما المشركون نجس﴾ ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾. وقال مجاهد والشعبي: نسخ بقوله: ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾[2]. وفسّر ابتغاء الفضل بالتجارة. وابتغاء الرضوان، بأنّ المشركين كانوا يظنون في أنفسهم أنّهم على سداد من دينهم وأنّ الحج يقربهم إلى الله فوصفهم الله بظنهم. وقرأ عبد الله: ولا آمّي البيت الحرام على الإضافة. وقرأ حميد بن قيس والأعرج: تبتغون بالتاء على خطاب المؤمنين. ﴿فاصطادوا﴾ إباحةٌ للاصطياد بعد حظره عليهم. كأنّه قيل: وإذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطادوا. وقرئ بكسر الفاء، وقيل: هو بدل من كسر الهمزة عند الابتداء. وقرئ: وإذا أحللتم، يقال: حل المحرم وأحل. جرم يجري مجرى كسب في تعديه إلى مفعول واحد واثنين، تقول جرم ذنباً نحو كسبه، وجرمته ذنباً نحو كسبته إياه. ويقال: أجرمته ذنباً على نقل المتعدي إلى مفعول بالهمزة إلى مفعولين، كقولهم: أكسبته ذنباً، وعليه قراءة عبد الله: ولا يجرمنكم بضم الياء، وأوّل المفعولين على القراءتين ضمير المخاطبين، والثاني أن تعتدوا. و ﴿أن صدوكم﴾ بفتح الهمزة متعلق بالشنآن بمعنى العلة والشنآن شدّة البغض. وقرئ بسكون النون، والمعنى: ولا يكسبنكم بغض قوم لأن صدوكم الاعتداء ولا يحملنكم عليه. وقرئ: إن صدوكم على إن الشرطية. وفي قراءة عبد الله: إن يصدوكم، ومعنى صدّهم إياهم عن المسجد الحرام: منع أهل مكة رسول الله ﷺ والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة، ومعنى الاعتداء الانتقام منهم بإلحاق مكروه بهم. ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ على العفو والإغضاء، ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ على الانتقام والتشفي، ويجوز أن يراد العموم لكل برّ وتقوى وكل إثم وعدوان فيتناول بعمومه العفو والانتصار.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات: البهيمة التي تموت حتف أنفها، والفصيد وهو الدم في المباعر يشوونها ويقولون لم يحرم من فزد له. ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي: رفع الصوت به لغير الله، وهو قولهم: باسم اللات والعزى عند نبحه. ﴿والمنخنقة﴾ التي خنقوها حتى ماتت، أو انخنقت بسبب. ﴿والموقوذة﴾ التي أثخنوها ضرباً بعصا أو حجر حتى ماتت. ﴿والمتردية﴾ التي

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 311/2.

(2) سورة النساء، الآية: 89.

تردت من جبل أو في بئر فماتت. ﴿والنطيحة﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وما أكل السبع﴾ بعضه ﴿إلا ما ذكيتم﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وهو يضطرب اضطراب المذبوح وتتخشب أوداجه. وقرأ عبد الله: والمنطوحة، وفي رواية عن أبي عمرو: والسبع بسكون الباء. وقرأ ابن عباس: وأكيل السبع. ﴿وما ذبح على النصب﴾ كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرّحون اللحم عليها، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها تسمى الأنصاب، والنصب واحد. قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تعبدنه لعاقبة والله ربّك فاعبدا

وقيل: هو جمع والواحد نصاب. وقرئ: النصب بسكون الصاد. ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام، أي: بالقداح. كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معاظم الأمور ضرب بالقداح، وهي مكتوب على بعضها نهاني ربي، وعلى بعضها أمرني ربي، وبعضها غفل، فإن خرج الآمر مضى لطيته، وإن خرج الناهي أمسك، وإن خرج الغفل أجالها عوداً. فمعنى الاستقسام بالأزلام طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام، وقيل: هو الميسر، وقسمتهم الجزور على الأنصباء المعلومة. ﴿ذلكم فسق﴾ الإشارة إلى الاستقسام أو إلى تناول ما حرّم عليهم، لأنّ المعنى: حرّم عليكم تناول الميتة وكذا وكذا.

فإنْ قلتَ: لم كان استقسام المسافر وغيره بالأزلام لتعرف الحال فسقاً؟ قلتُ: لأنّه دخول في علم الغيب الذي استأثر به علام الغيوب، وقال: ﴿لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾. واعتقاد أنّ إليه طريقاً، وإلى استنباطه وقوله: أمرني ربي ونهاني ربي، افتراء على الله وما يدريه أنّه أمره أو نهاه، والكهنة والمنجمون بهذه المثابة، وإن كان أراد بالرب الصنم، فقد روي: أنّهم كانوا يجيلونها عند أصنامهم فأمره ظاهر. ﴿اليوم﴾ لم يرد به يوماً بعينه وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية، كقولك: كنت بالأمس شاباً وأنت اليوم أشيب، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم يومك، ونحوه الآن في قوله:

الآن لما ابيضّ مسربتي وعضضت من نابي على جذم

وقيل: أريد يوم نزولها، وقد نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع. ﴿يئس الذين كفروا من دينكم﴾ يئسوا منه أن يبطلوه وأن ترجعوا محللين لهذه الخبائث بعد ما حرّمت عليكم، وقيل: يئسوا من دينكم أن يغلبوه لأنّ الله عزّ وجل وفى بوعده من إظهاره على الدين كله. ﴿فلا تخشوهم﴾ بعد إظهار الدين وزوال الخوف من الكفار وانقلابهم مغلوبين مقهورين بعد ما كانوا غالبين، ﴿واخشوني﴾ وأخلصوا لي الخشية ﴿أكملت لكم دينكم﴾ كفيتكم أمر عدوّكم وجعلت اليد العليا لكم، كما تقول الملوك اليوم: كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومباغيهم، أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرائع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد. ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وأن لم يحجّ معكم مشرك ولم يطف بالبيت عريان، أو أتممت نعمتي عليكم بإكمال أمر الدين والشرائع، كأنّه قال: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي بذلك لأنّه لا نعمة أتمّ من نعمة الإسلام. ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ يعني: اخترته لكم من بين الأديان وآذنتكم بأنّه هو الدين المرضي وحده ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ ﴿إنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة﴾.

فإنْ قلتَ: بم اتصل قوله: ﴿فمن اضطرّ﴾؟ قلتَ: بذكر المحرّمات، وقوله: ﴿ذلكم فسق﴾ اعتراض أكد به معنى التحريم، وكذلك ما بعده، لأنّ تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامّة والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل، ومعناه: فمن اضطرّ إلى الميتة أو إلى غيرها ﴿في مخمصة﴾ في مجاعة ﴿غير متجانف لإثم﴾ غير منحرف إليه، كقوله: ﴿غير باغ ولا عاد﴾ ﴿فإنّ الله غفور﴾ لا يؤاخذه بذلك.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

في السؤال معنى القول فلذلك وقع بعده ﴿ماذا أحلّ لهم﴾، كأنّه قيل: يقولون لك: ماذا أحلّ لهم؟ وإنّما لم يقل: ماذا أحلّ لنا حكاية ما قالوه؛ لأن يسألونك بلفظ الغيبة، كما تقول: أقسم زيد ليفعلنّ، ولو قيل: لأفعلنّ وأحلّ لنا لكان صواباً. وماذا مبتدأ وأحلّ لهم خبره، كقولك: أي شيء أحلّ لهم، ومعناه: ماذا أحلّ لهم من المطاعم، كأنّهم حين تلا عليهم ما حرّم عليهم من خبيثات المآكل سألوا عما أحلّ لهم منها، فقيل: ﴿أحلّ لكم الطيبات﴾، أي: ما ليس بخبيث منها، وهو كل ما لم يأت تحريمه في كتاب أو سنّة أو قياس مجتهد. ﴿وما علمتم من الجوارح﴾[1] عطف على الطيبات، أي: أحلّ لكم الطيبات وصيد ما علمتم فحذف المضاف، أو تجعل ما شرطية وجوابها فكلوا، والجوارح الكواسب من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي والشاهين. والمكلب مؤدّب الجوارح ومضرّيها بالصيد لصاحبها ورائضها لذلك بما

(1) قال أحمد رحمه الله تعالى: ولقد أحسن في التنبيه على هذا السر الخفي، غير أنّ الحال بأصالتها منتقلة غير لازمة، ومقتضى هذا التقرير جعلها من الصفات اللازمة لمعلم الجوارح الثابتة له.

علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف، واشتقاقه من الكلب لأنّ التأديب أكثر ما يكون في الكلاب فاشتقّ من لفظه لكثرته في جنسه، أو لأنّ السبع يسمى كلباً. ومنه قوله عليه السلام: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فأكله الأسد»[1]. أو من الكلب الذي هو بمعنى الضراوة، يقال: هو كلب بكذا إذا كان ضارياً به، وانتصاب ﴿مكلبين﴾ على الحال من ﴿علمتم﴾.

فإنْ قلتَ: ما فائدة هذه الحال، وقد استغني عنها بـ ﴿علمتم﴾؟ **قلتُ**: فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح نحريراً في علمه مدرباً فيه موصوفاً بالتكليب، و ﴿تعلمونهنّ﴾ حال ثانية أو استئناف، وفيه فائدة جليلة[2]، وهي: أن على كلّ آخذ علماً أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً، وأنحرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه. وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل، فكم من آخذ عن غير متقن قد ضيع أيامه، وعضّ عند لقاء النحارير أنامله. ﴿مما علّمكم الله﴾ من التكليب لأنّه إلهام من الله ومكتسب بالعقل، أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وإمساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه. وقرئ: مكلبين بالتخفيف، وأفعل وفعل يشتركان كثيراً. والإمساك على صاحبه أن لا يأكل منه؛ لقوله عليه السلام لعديّ بن حاتم: «وإن أكل منه فلا تأكل، إنّما أمسك على نفسه»[3]. وعن علي رضي الله عنه: إذا أكل البازي فلا تأكل[4]. وفرق العلماء فاشترطوا في سباع البهائم ترك الأكل لأنّها تؤدب بالضرب ولم يشترطوه في سباع الطير، ومنهم من لم يعتبر ترك الأكل أصلاً ولم يفرق بين إمساك الكلّ والبعض. وعن سلمان وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة رضي الله عنهم: إذا أكل الكلب ثلثيه وبقي ثلثه، وذكرت اسم الله عليه فكل[5].

فإنْ قلتَ: إلام رجع الضمير في قوله: ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾؟ **قلتَ**: إمّا أن يرجع إلى ما أمسكن على معنى وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته، أو إلى ما علمتم من الجوارح، أي: سموا عليه عند إرساله.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾.

﴿طعام الذين أتوا الكتاب﴾ قيل: هو ذبائحهم، وقيل: هو جميع مطاعمهم، ويستوي في ذلك جميع النصارى. وعن عليّ رضي الله عنه: أنّه استثنى نصارى بني تغلب، وقال: ليسوا على النصرانية، لم يأخذوا منها إلا شرب الخمر[6]، وبه أخذ الشافعي، وعن ابن عباس: أنّه سئل عن ذبائح نصارى العرب، فقال: لا بأس[7] وهو قول عامة التابعين وبه أخذ أبو حنيفة وأصحابه، وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة، وقال صاحباه: هم صنفان: صنف يقرؤون الزبور ويعبدون الملائكة، وصنف لا يقرؤون كتاباً ويعبدون النجوم، فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب. وأمّا المجوس فقد سنّ بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم. وقد روي عن ابن المسيب أنّه قال: إذا كان المسلم مريضاً فأمر المجوسي أن يذكر اسم الله ويذبح فلا بأس. وقال أبو ثور: وإن أمره بذلك في الصحة فلا بأس وقد أساء. ﴿وطعامكم حلّ لهم﴾[8] فلا عليكم أن تطعموهم لأنّه لو كان حراماً عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم إطعامهم. ﴿المحصنات﴾ الحرائر أو العفائف وتخصيصهنّ بعث على تخير المؤمنين لنطفهم، والإماء من المسلمات يصح نكاحهنّ بالاتفاق، وكذلك نكاح غير العفائف منهنّ، وأما الإماء الكتابيات فعند أبي حنيفة هنّ كالمسلمات، وخالفه الشافعي، وكان ابن عمر لا يرى نكاح الكتابيات، ويحتج بقوله: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾[9]، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من قولها إنّ ربّها عيسى. وعن عطاء: قد أكثر الله المسلمات وإنّما رخّص لهم يومئذ ﴿محصنين﴾ أعفاء ﴿ولا متخذي أخدان﴾ صدائق، والخدن: يقع على الذكر والأنثى. ﴿ومن يكفر بالإيمان﴾

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/539.

(2) قال أحمد: وفي الآية دليل على أنّ البهائم لها علم؛ لأنّ تعليمها معناه لغة تحصيلي العلم لها، بطرقه خلافاً لمنكري ذلك.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الصيد والذبائح، باب: إذا أكل الكلب الحديث (5483)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيد والذبائح، باب: الصيد بالكلاب المعلمة الحديث (4958).

(4) لم أجده ولم يخرجه الزيلعي 1/379.

(5) أخرجه ابن أبي شيبة 5/358، في كتاب: الصيد، باب: من رخص في أكله 5/358.

(6) ابن أبي شيبة 4/161، في كتاب: النكاح، باب: في الرجل يتزوج المرأة إلخ.

(7) أخرجه مالك في الموطأ، في كتاب: الذبائح، باب: ما جاء في التسمية على الذبيحة الحديث (5)، وابن أبي شيبة 4/161، كتاب: =

= النكاح، باب: في الرجل يتزوج امرأة إلخ.

(8) قال أحمد: وقد يستدل بهذه الآية من يرى الكفار مخاطبين بفروع الشريعة؛ لأن التحليل حكم، وقد علقه بهم في قوله: ﴿وطعامكم حلّ لهم﴾ كما علق الحكم المؤمنين، وهذه الآية أبين في الاستدلال بها، من قوله: ﴿لا هنّ حلّ لهم، ولا هم يحلون لهنّ﴾، فإن لقائل أن يقول في تلك الآية نفي الحكم، ليس بحكم ولا يستطيع ذلك في آية المائدة هذه؛ لأنّ الحكم فيها مثبت، والله أعلم، ولما استشعر الزمخشري دلالتها على ذلك، وهو من القائلين بأنّ الكفار يستحيل خطابهم بفروع الشريعة أسلف تأويلها بصرف الخطاب إلى المؤمنين، أي: لا جناح عليكم أيها المسلمون أن تطعموا أهل الكتاب كما رأيته في كلامه أيضاً.

(9) سورة البقرة، الآية: 221.

بشرائع الإسلام وما أحلّ الله وحرّم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾[1] كقوله: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾[2] وكقولك: إذا ضربت غلامك فهوّن عليه، في أنّ المراد إرادة الفعل.

فإنْ قلتَ: لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل؟ قلتُ: لأنّ الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له وهو قصده إليه وميله وخلوص داعيه، فكما عبّر عن القدرة على الفعل بالفعل في قولهم: الإنسان لا يطير والأعمى لا يبصر، أي: لا يقدران على الطيران والإبصار. ومنه قوله تعالى: ﴿نعيده وعداً علينا إنّا كنا فاعلين﴾[3] يعني: إنّا كنا قادرين على الإعادة كذلك عبّر عن إرادة الفعل بالفعل وذلك لأنّ الفعل مسبب عن القدرة والإرادة فأقيم المسبب مقام السبب للملابسة بينهما، ولإيجاز الكلام ونحوه من إقامة المسبب مقام السبب قولهم: كما تدين تدان، عبّر عن الفعل المبتدأ الذي هو سبب الجزاء بلفظ الجزاء الذي هو مسبب عنه. وقيل: معنى قمتم إلى الصلاة: قصدتموها، لأنّ من توجه إلى شيء وقام إليه كان قاصداً له لا محالة فعبّر عن القصد له بالقيام إليه.

فإنْ قلتَ[4]: ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة محدث وغير محدث، فما وجهه؟ قلتُ: يحتمل أن يكون الأمر للوجوب فيكون الخطاب للمحدثين خاصةً، وأن يكون للندب، وعن رسول الله ﷺ والخلفاء بعده أنّهم كانوا يتوضؤن لكل صلاة[5]، وعن النبي ﷺ: «من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات»[6]. وعنه عليه السلام: أنّه كان يتوضأ لكل صلاة، فلما كان يوم الفتح مسح على خفيه فصلى الصلوات الخمس بوضوء واحد، فقال له عمر: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه. فقال: «عمداً فعلته يا عمر»[7]؛ يعني: بياناً للجواز.

فإنْ قلتَ: هل يجوز أن يكون الأمر شاملاً للمحدثين وغيرهم، لهؤلاء على وجه الإيجاب ولهؤلاء على وجه الندب؟ قلتُ: لا لأنّ تناول الكلمة لمعنيين مختلفين من باب الإلغاز والتعمية، وقيل: كان الوضوء لكل صلاة واجباً أوّل ما فرض ثم نسخ. ﴿إلى﴾ تفيد معنى الغاية مطلقاً فأما دخولها في الحكم وخروجها فأمر يدور مع الدليل فمما فيه دليل على الخروج قوله: ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾[8]؛ لأنّ الإعسار علة الإنظار وبوجود الميسرة تزول العلة ولو دخلت الميسرة فيه لكان منتظراً في كلتا الحالتين معسراً وموسراً، وكذلك ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾[9]، لو دخل الليل لوجب الوصال، ومما فيه دليل على الدخول قولك: حفظت القرآن من أوّله إلى آخره، لأنّ الكلام مسوق لحفظ القرآن كله، ومنه قوله تعالى: ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾[10] لوقوع العلم بأنه لا يسري به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله، وقوله: ﴿إلى المرافق﴾ و﴿إلى الكعبين﴾ لا دليل فيه على أحد الأمرين فأخذ كافة العلماء بالاحتياط فحكموا بدخولها في الغسل، وأخذ زفر وداود بالمتيقن، فلم يدخلاها، وعن النبي ﷺ: أنه كان يدير الماء على مرفقيه[11]. ﴿وامسحوا برءوسكم﴾ المراد إلصاق المسح بالرأس وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه، وقد أخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب أو أكثره على اختلاف الرواية، وأخذ الشافعي باليقين فأوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح. وأخذ أبو حنيفة ببيان رسول الله ﷺ وهو ما روي: أنّه مسح على ناصيته[12]، وقدر الناصية بربع الرأس. [13]قرأ

---

(1) قال أحمد: هذا الكلام يستقيم وروده من السني، كما يستقيم من المعتزلي؛ لأنا نقول الفعل يوجد بقدرة العبد ملتبساً بها، ومقارناً لها، والمعتزلي يقوله، ويعني: مخلوقاً بها، وناشئاً عن تأثيرها، فالعبارة مستعملة في المذهبين، ولكن باختلاف المعنى، والله الموفق.

(2) سورة النحل، الآية: 98.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 104.

(4) قال أحمد: الزمخشري أنكر أن يراد بالمشترك كل واحد من معانيه على الجمع، وقد سبق له إنكار ذلك، ومن جوّز إرادة جميع المحامل أجاز ذلك في الآية، ومن المجوّزين لذلك الشافعي رحمه الله تعالى، وناهيك بإمام الفن وقدوته، هذا إذا وقع البناء على أنّ صيغة افعل مشتركة بين الوجوب والندب، صح تناولها في الآية للفريقين المحدثين، والمتطهرين وتناولها للمتطهرين من حيث الندب، والله أعلم.

(5) ابن أبي شيبة 29/1، كتاب: الطهارات، باب: من كان يتوضأ إذا صلى...

(6) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الرجل يجدد الوضوء من غير حدث الحديث (62)، والترمذي في كتاب: الطهارة، باب: الوضوء لكل صلاة الحديث (59)، وابن ماجه في كتاب: الطهارة، باب: الوضوء على الطهارة الحديث (512).

(7) مسلم ذكر المسح في الحديث، راجع الحديث (434): (3).

(8) سورة البقرة، الآية: 280.

(9) سورة البقرة، الآية: 187.

(10) سورة الإسراء، الآية: 1.

(11) أخرجه الدارقطني في كتاب: الطهارة، باب: وضوء رسول الله ﷺ الحديث (15).

(12) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: المسح على الناصية والعمامة الحديث (632).

(13) قال أحمد: ولم يوجه الجر بما يشفي الغليل، والوجه فيه: أنّ الغسل والمسح متقاربان، من حيث إنّ كل واحد منهما إمساس بالعضو، فيسهل عطف المغسول على الممسوح، من ثَم كقوله:

متقلداً سيفاً ورمحاً وعلفتها تبناً وماء بارداً =

جماعة: وأرجلكم بالنصب، فدل على أنّ الأرجل مغسولة.

فإنْ قلتَ: فما تصنع بقراءة الجر ودخولها في حكم المسح! قلتُ: الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها، فكانت مظنةً للإسراف المذموم المنهي عنه فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح ولكن لينبّه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها. وقيل: ﴿إلى الكعبين﴾ فجيء بالغاية إماطة لظن ظان يحسبها ممسوحةً لأنّ المسح لم تضرب له غاية في الشريعة. وعن علي رضي الله عنه أنّه أشرف على فتية من قريش فرأى في وضوئهم تجوّزاً، فقال: «ويل للأعقاب من النار». فلما سمعوا جعلوا يغسلونها غسلاً ويدلكونها دلكاً. وعن ابن عمر: كنا مع رسول الله ﷺ فتوضأ قوم وأعقابهم بيض تلوح، فقال: «ويل للأعقاب من النار»[1]. وفي رواية جابر: «ويل للعراقيب»[2]. وعن عمر: أنّه رأى رجلاً يتوضأ فترك باطن قدميه فأمره أن يعيد الوضوء وذلك للتغليظ عليه[3]، وعن عائشة رضي الله عنها: لأن تقطعا أحب إليّ من أن أمسح على القدمين بغير خفين[4]، وعن عطاء: والله ما علمت أنّ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ مسح على القدمين[5]، وقد ذهب بعض الناس إلى ظاهر العطف فأوجب المسح، وعن الحسن أنّه جمع بين الأمرين، وعن الشعبي: نزل القرآن بالمسح والغسل سنةً. وقرأ الحسن: وأرجلكم بالرفع، بمعنى: وأرجلكم مغسولة أو ممسوحة إلى الكعبين. وقرئ: فاطهروا، أي: فطهّروا أبدانكم، وكذلك ليطهركم. وفي قراءة عبد الله: فأمّوا صعيداً. ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ في باب الطهارة حتى لا يرخص لكم في التيمم، ﴿ولكن يريد ليطهّركم﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء. ﴿وليتمّ نعمته عليكم﴾ وليتمّ برخصه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿لعلّكم تشكرون﴾ نعمته فيثيبكم.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ وهي نعمة الإسلام ﴿وميثاقه الذي واثقكم به﴾ أي: عاقدكم به عقداً وثيقاً، وهو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر والمنشط والمكره. فقالوا: وقالوا سمعنا وأطعنا. وقيل: هو الميثاق ليلة العقبة وفي بيعة الرضوان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

عدّى ﴿يجرمنكم﴾ بحرف الاستعلاء مضمناً معنى فعل يتعدّى به، كأنّه قيل: ولا يحملنكم، ويجوز أن يكون قوله: أن تعتدوا، بمعنى على أن تعتدوا، فحذف مع أن. ونحوه قوله عليه السلام: «من اتبع على مليء فليتبع»[6] لأنّه بمعنى أحيل. وقرئ: شنآن بالسكون، ونظيره في المصادر ليان، والمعنى: لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم، بأن تنتصروا منهم، وتتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن، بارتكاب ما لا يحل لكم من مثلة أو قذف أو قتل أولاد أو نساء، أو نقض عهد، أو ما أشبه ذلك. ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ نهاهم أوّلاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل ثم استأنف فصرّح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله: ﴿هو أقرب للتقوى﴾: أي: العدل أقرب إلى التقوى وأدخل في مناسبتها، أو أقرب إلى التقوى لكونه لطفاً فيها، وفيه تنبيه عظيم على أنّ وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوّة فما الظنّ بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ بيان للوعد بعد تمام الكلام قبله، كأنّه قال: قدّم لهم وعداً، فقيل: أيّ شيء وعده لهم؟ فقيل: لهم مغفرة وأجر عظيم، أو يكون على إرادة

= ونظائره كثيرة، وبهذا وجه الحذاق، ثم يقال: ما فائدة هذا التشريك بعلة التقارب، وهلا أسند إلى كل واحد منها الفعل الخاص به على الحقيقة، فيقال: فائدته الإيجاز والاختصار، وتوكيد الفائدة بما ذكره الزمخشري، وتحقيقه أنّ الأصل أن يقال مثلاً، واغسلوا أرجلكم غسلاً خفيفاً، لا إسراف فيه كما هو المعتاد، فاختصرت هذه المقاصد بإشراكه الأرجل مع الممسوح، ونبه بهذا التشريك الذي لا يكون، إلا في الفعل الواحد، أو الفعلين المتقاربين جداً على أنّ الغسل المطلوب في الأرجل غسل خفيف يقارب المسح، وحسن إدراجه معه تحت صيغة واحدة، وهذا تقرير كامل لهذا المقصود، والله أعلم.

(1) أخرجه البخاري بنحوه في كتاب: العلم، باب: من رفع صوته بالعلم الحديث (60)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل الرجلين بكاملهما الحديث (569).

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسننها، باب: غسل العراقيب الحديث (453)، وأحمد في المسند 3/369، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل الرجلين بكاملهما الحديث (573)، وأخرجه النسائي في كتاب: الطهارة، باب: إيجاب غسل الرجلين الحديث (111)، وأبو يعلى عن عائشة الحديث (4426).

(3) أخرجه عبد الرزاق في المصنّف 1/36، الحديث (118).

(4) قال الزيلعي: رواية غريبة 1/387، وقال ابن الجوزي: مرفوع على عائشة رضي الله عنها [العلل المتناهية].

(5) لم أجده ولم يخرجه الزيلعي 1/387.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الحوالة، باب: الحوالة وهل يرجع في الحوالة الحديث (2287)، ومسلم في كتاب: المساقاة، باب: تحريم مطل الغني ـ الحديث (3978).

القول بمعنى: وعدهم وقال: لهم مغفرة، أو على إجراء وعد مجرى، قال: لأنّه ضرب من القول، أو يجعل وعد واقعاً على الجملة التي هي لهم مغفرة كما وقع تركاً على قوله: ﴿سلام على نوح﴾[1] كأنّه قيل: وعدهم هذا القول وإذا وعدهم من لا يخلف الميعاد هذا القول فقد وعدهم مضمونه من المغفرة والأجر العظيم. وهذا القول يتلقون به عند الموت ويوم القيامة فيسرون به ويستروحون إليه ويهوّن عليهم السكرات والأهوال قبل الوصول إلى الثواب.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾.

روي: أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معاً، وذلك بعسفان في غزوة ذي أنمار، فلما صلوا ندموا أن لا كانوا اكبوا عليهم، فقالوا: إنّ لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، يعنون صلاة العصر، وهموا بأن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها فنزل جبريل بصلاة الخوف[2]، وروي: أنّ رسول الله ﷺ أتى بني قريظة ومعه الشيخان وعليّ رضي الله عنهم يستقرضهم دية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأً يحسبهما مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونقرضك. فأجلسوه في صفة وهموا بالفتك به، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحا عظيمة يطرحها عليه فأمسك الله يده، ونزل جبريل فأخبره فخرج[3] وقيل: نزل منزلاً وتفرق الناس في العضاه يستظلون بها، فعلق رسول الله ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي فسلّ سيف رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله»، قالها ثلاثاً. فشام الأعرابي السيف، فصاح رسول الله ﷺ بأصحابه فأخبرهم، وأبى أن يعاقب[4].

يقال: بسط إليه لسانه: إذا شتمه، وبسط إليه يده إذا بطش به، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء، ومعنى: بسط اليد مدها إلى المبطوش، ألا ترى إلى قولهم: فلان بسيط الباع ومديد الباع، بمعنى. ﴿فكف أيديهم عنكم﴾ فمنعها أنّ تمد إليكم.

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾.

لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالمسير إلى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، وقال لهم: إني كتبتها لكم داراً قراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإني ناصركم. وأمر موسى عليه السلام بأن يأخذ من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقةً عليهم، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بني إسرائيل وتكفل لهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا أجراماً عظيمةً وقوةً وشوكةً فهابوا ورجعوا وحدّثوا قومهم، وقد نهاهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا، ويوشع بن نون من سبط أفراييم بن يوسف، وكانا من النقباء، والنقيب الذي ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها، كما قيل له: عريف، لأنّه يتعرفها ﴿إنّي معكم﴾ أي: ناصركم ومعينكم. ﴿عزرتموهم﴾ نصرتموهم ومنعتموهم من أيدي العدوّ، ومنه التعزير وهو التنكيل والمنع من معاودة الفساد. وقرئ بالتخفيف، يقال: عزرت الرجل إذا حطته وكنفته، والتعزير والتأزير من واد واحدٍ، ومنه: لأنصرنّك نصراً مؤزراً، أي: قوياً. وقيل: معناه: ولقد أخذنا ميثاقهم بالإيمان والتوحيد وبعثنا منهم اثني عشر ملكاً يقيمون فيهم العدل ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. واللام في ﴿لئن قمتم﴾ موطئة للقسم، وفي ﴿لأكفرن﴾ جواب له، وهذا الجواب سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعاً. ﴿بعد ذلك﴾ بعد ذلك الشرط المؤكد المتعلق بالوعد العظيم.

فإنْ قلتَ: من كفر قبل ذلك أيضاً فقد ضلّ سواء السبيل؟ **قلتُ:** أجل ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم، لأنّ الكفر إنّما عظم قبحه لعظم النعمة المكفورة، فإذا زادت النعمة زاد قبح الكفر وتمادى.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾.

﴿لعناهم﴾ طردناهم وأخرجناهم من رحمتنا، وقيل: مسخناهم. وقيل: ضربنا عليهم الجزية. ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ خذلناهم ومنعناهم الألطاف حتى قست قلوبهم، أو أملينا لهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست. وقرأ عبد الله: قسية، أي: رديةً مغشوشةً من قولهم: درهم قسي، وهو من القسوة لأنّ الذهب والفضة الخالصين فيهما لين،

---

(1) سورة الصافات، الآية: 79.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الخوف الحديث (1943).

(3) البيهقي في دلائل النبوة، الزيلعي 1/389.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: تفرق الناس عن الإمام عند القائلة والاستظلال بالشجر الحديث (2913)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: توكله على الله تعالى وعصمه الله تعالى من الناس الحديث (5909).

والمغشوش فيه يبس وصلابة، والقاسي والقاسح بالحاء أخوان في الدلالة على اليبس والصلابة. وقرئ: قسية بكسر القاف للإتباع. ﴿يحرّفون الكلم﴾ بيان لقسوة قلوبهم لأنّه لا قسوة أشدّ من الافتراء على الله وتغيير وحيه. ﴿ونسوا حظاً﴾ وتركوا نصيباً جزيلاً وقسطاً وافياً ﴿مما ذكروا به﴾ من التوراة. يعني: أن تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم، أو قست قلوبهم وفسدت فحرّفوا التوراة وزلت أشياء منها عن حفظهم، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية[1]، وتلا هذه الآية، وقيل: تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيان نعته، ﴿ولا تزال تطلع﴾ أي: هذه عادتهم وهجيراهم وكان عليها أسلافهم، كانوا يخونون الرسل، وهؤلاء يخونونك ينكثون عهودك ويظاهرون المشركين على حربك ويهمون بالفتك بك وأن يسموك. ﴿على خائنة﴾ على خيانة، أو على فعلة ذات خيانة، أو على نفس أو فرقة خائنة. ويقال: رجل خائنة، كقولهم: رجل رواية للشعر، للمبالغة. قال:

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن ... للغدر خائنة مغل الأصبع

وقرئ: على خيانة منهم إلاّ قليلاً منهم وهم الذين آمنوا منهم. ﴿فاعف عنهم﴾ بعث على مخالفتهم، وقيل: هو منسوخ بآية السيف. وقيل: فاعف عن مؤمنيهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم. ﴿أخذنا ميثاقهم﴾ أخذنا من النصارى ميثاق من ذكر قبلهم من قوم موسىٰ، أي: مثل ميثاقهم بالإيمان بالله والرسل وبأفعال الخير، أو أخذنا من النصارى ميثاق أنفسهم بذلك.

فإنْ قلتَ[2]: فهلا قيل: من النصارى؟ **قلتُ**: لأنّهم إنّما سمّوا أنفسهم بذلك ادعاءً لنصرة الله، وهم الذين قالوا لعيسىٰ: نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعد: نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصاراً للشيطان.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾.

﴿فاغرينا﴾ فألصقنا وألزمنا، من غرى بالشيء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره، ومنه الغراء الذي يلصق به. ﴿بينهم﴾ بين فرق النصارى المختلفين، وقيل: بينهم وبين اليهود ونحوه: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾[3]، ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾.[4]

يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾.

﴿يا أهل الكتاب﴾ خطاب لليهود والنصارى. ﴿مما كنتم تخفون﴾ من صفة رسول الله ﷺ ومن نحو الرجم. ﴿ويعفوا عن كثير﴾ مما تخفونه لا يبيّنه إذا لم تضطر إليه مصلحة دينية ولم يكن فيه فائدة إلا اقتضاء حكم وصفته مما لا بدّ من بيانه، وكذلك الرجم وما فيه إحياء شريعة وإماتة بدعة. وعن الحسن: ويعفوا عن كثير منكم، لا يؤاخذه. ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك ولإبانته ما كان خافياً عن الناس من الحق، أو لأنّه ظاهر الإعجاز.

يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾.

﴿من اتبع رضوانه﴾ من آمن به. ﴿سبل السلام﴾ طرق السلامة والنجاة من عذاب الله، أو سبل الله.

لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾.

قولهم: ﴿إنّ الله هو المسيح﴾ معناه: بتّ القول على أنّ حقيقة الله هو المسيح لا غير، قيل: كان في النصارى قوم يقولون ذلك، وقيل: ما صرّحوا به ولكن مذهبهم يؤدّي إليه حيث اعتقدوا أنّه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم. ﴿فمن يملك من الله شيئاً﴾ فمن يمنع من قدرته ومشيئته شيئاً ﴿إن أراد أن يهلك﴾ من دعوه إلهاً من المسيح وأمّه، دلالة على أنّ المسيح عبد مخلوق كسائر العباد، وأراد بعطف من في الأرض على المسيح وأمّه أنّهما من جنسهم لا تفاوت بينهما وبينهم في البشرية ﴿يخلق ما يشاء﴾ أي: يخلق من ذكر وأنثى ويخلق من أنثى من غير ذكر كما خلق عيسىٰ، ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم، أو يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسىٰ معجزةً له، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المجرى على يده.

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ

---

(1) أخرجه الدارمي في السنن 1/117 الحديث (376).

(2) قال أحمد: وبقيت نكتة في تخصيص هذا الموضع، بإسناد النصرانية إلى دعواهم، ولم يتفق ذلك في غيره ألا ترى إلى قوله تعالى، وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، فالوجه في ذلك، والله أعلم، أنه لما كان المقصود في هذه الآية ذمهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم في نصرة الله تعالى، ناسب ذلك أن يصدر = الكلام، بما يدل على أنهم لم ينصروا الله، ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصرة، وما كان حاصل أمرهم إلا التفوه بدعوة النصرة، وقولها دون فعلها، والله أعلم.

(3) سورة الأنعام، الآية: 129.

(4) سورة الأنعام، الآية: 65.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أبناء الله﴾ أشياع ابني الله عزير[1] والمسيح، كما قيل لأشياع أبي خبيب وهو عبد الله بن الزبير: الخبيبون، وكما كان يقول رهط مسيلمة نحن أنبياء الله، ويقول أقرباء الملك وذووه وحشمه: نحن الملوك، ولذلك قال مؤمن آل فرعون ﴿لكم الملك اليوم﴾. ﴿فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ فإن صحّ أنّكم أبناء الله وأحباؤه فلم تذنبون وتعذبون بذنوبكم فتمسخون وتمسكم النار أياماً معدودات على زعمكم، ولو كنتم أبناء الله لكنتم من جنس الأب غير فاعلين للقبائح ولا مستوجبين للعقاب، ولو كنتم أحباءه لما عصيتموه ولما عاقبكم ﴿بل أنتم بشر﴾ من جملة من خلق من البشر. ﴿يغفر لمن يشاء﴾[2] وهم أهل الطاعة، ﴿ويعذب من يشاء﴾ وهم العصاة.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يبيّن لكم﴾ إما أن يقدّر المبين وهو الدين والشرائع وحذفه لظهور ما ورد الرسول لتبيينه، أو يقدّر ما كنتم تخفون وحذفه لتقدّم ذكره، أو لا يقدّر ويكون المعنى: يبذل لكم البيان، ومحله النصب على الحال، أي: مبيناً لكم و ﴿على فترة﴾ متعلق بجاءكم، أي: جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحي. ﴿أن تقولوا﴾ كراهة أن تقولوا. ﴿فقد جاءكم﴾ متعلق بمحذوف، أي: لا تعتذروا فقد جاءكم. وقيل: كان بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما خمسمائة وستون سنةً، وقيل: ستمائة. وقيل: أربعمائة ونيف وستون. وعن الكلبي: كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي، وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أربعة أنبياء ثلاث من بني إسرائيل وواحد من العرب: خالد بن سنان العبسي. والمعنى: الامتنان عليهم وأنّ الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي أحوج ما يكون إليه، ليهشوا إليه ويعدّوه أعظم نعمة من الله، وفتح باب إلى الرحمة، وتلزمهم الحجة، فلا يعتلوا غداً بأنّه لم يرسل إليهم من ينبههم عن غفلتهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿جعل فيكم أنبياء﴾ لأنّه لم يبعث في أمّة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء. ﴿وجعلكم ملوكاً﴾[3] لأنّه ملكهم بعد فرعون ملكه وبعد الجبابرة ملكهم، ولأنّ الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء، وقيل: كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله فسمى إنقاذهم ملكاً. وقيل: الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار. وقيل: من له بيت وخدم. وقيل: من له مال لا يحتاج معه إلى تكلف الأعمال وتحمل المشاق. ﴿ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ من فلق البحر وإغراق العدوّ وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى وغير ذلك من الأمور العظام. وقيل: أراد عالمي زمانهم.

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿الأرض المقدّسة﴾ يعني: أرض بيت المقدس. وقيل: الطور وما حوله. وقيل: الشام. وقيل: فلسطين ودمشق وبعض الأردن. وقيل: سماها الله لإبراهيم ميراثاً لولده حين رفع على الجبل، فقيل له: انظر فلك ما أدرك بصرك. وكان بيت المقدس قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين ﴿كتب الله لكم﴾ قسمها لكم وسمّاها، أو خطّ في اللوح المحفوظ أنها لكم. ﴿ولا ترتدوا على أدباركم﴾ ولا تنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابرة جبناً وهلعاً. وقيل: لما حدّثهم النقباء بحال الجبابرة رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: ليتنا متنا بمصر. وقالوا: تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر، ويجوز أن يراد: لا ترتدوا على أدباركم في دينكم بمخالفتكم أمر ربّكم وعصيانكم نبيّكم، فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة.

---

(1) قال أحمد: ومنه قول الملائكة؛ لأنهم خواص عباد الله ﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم﴾، إلى قوله: ﴿إلا امرأته قدّرنا إنها لمن الغابرين﴾ فأضافوا التقدير إليهم، وفي الحقيقة المقدّر الله، وكذلك قول الدابة؛ لأنها من خواص آيات الله: ﴿إنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ فيمن جعله من قول الدابة، والله أعلم.

(2) قال أحمد رحمه الله: بل مشيئة الله تعالى تسع التائب المنيب، والعاصي المصر، إذا كان موحداً، والزمخشري أخرج هذا التفسير على قاعدته المتكرّرة في غير ما موضع، وهي: القطع بوعيد العصاة المصرين الموحدين، وأنّ لهم المغفرة محال.

(3) قال أحمد والحامل على تفسير الملك بهذه التفاسير أنّ الله تعالى أنبأ في ظاهر الكلام أنه جعل الجميع ملوكاً بقوله، وجعلكم ملوكاً، ولم يقل وجعل فيكم ملوكاً، كما قال جعل فيكم أنبياء، فلما عمم الملك فيهم، ولا شكّ أنّ الملك المعهود هو الاستيلاء العامّ، لم = يثبت لكل أحد منهم، فيتعين حمل الملك على ما كان ثابتاً لجميعهم، أو لأكثرهم من الأبعاض المذكورة هذا هو الباعث على تفسير الملك بذلك، والله أعلم، وهذا المعنى وإن لم يثبت لكل واحد منهم، إلا أنه كان ثابتاً لملوكهم وهم منهم إذ إسرائيل الأبّ الأقرب يجمعهم، فلما كانت ملوكهم منهم وهم أقرباؤهم وأشياعهم وملتبسون بهم جاز الامتنان عليهم بهذه الصنيعة، والمعنى مفهوم، وهذا بعينه هو التقرير السالف آنفاً في قول اليهود، والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، وما بالعهد من قدم، فإن قلت: فلم لم يقل إذ جعلكم أنبياء؛ لأنّ الأنبياء منهم كما قلت في الملوك. قلت: النبوّة مزية غير الملك، وآحاد الناس يشارك الملك في كثير مما به صار الملك ملكاً، ولا كذلك النبوّة، فإنّ درجتها أرفع من أن يشرك من لم تثبت له مع الثابتة نبوّته في مزيتها، وخصوصيتها، ونعتها، فهذا هو سر تمييز الأنبياء وتعميم الملوك، والله أعلم.

قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾.

الجبار: فعال من جبره على الأمر بمعنى: أجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾.

﴿قال رجلان﴾: هما كالب ويوشع، ﴿من الذين يخافون﴾ من الذين يخافون الله ويخشونه. كأنّه قيل: رجلان من المتقين، ويجوز أن تكون الواو لبني إسرائيل والراجع إلى الموصول محذوف تقديره من الذين يخافهم بنو إسرائيل وهم الجبارون وهما رجلان منهم. ﴿أنعم الله عليهما﴾ بالإيمان فآمنا، قالا لهم: إنّ العمالقة أجسام لا قلوب فيها فلا تخافوهم وازحفوا إليهم فإنّكم غالبوهم يشجعانهم على قتالهم. وقراءة من قرأ يخافون بالضم شاهدة له، وكذلك أنعم الله عليهما، كأنّه قيل: من المخوّفين. وقيل: هو من الإخافة، ومعناه: من الذين يخوّفون من الله بالتذكرة والموعظة، أو يخوّفهم وعيد الله بالعقاب.

فإنْ قلتَ: ما محل ﴿أنعم الله عليهما﴾ قلتُ: إن انتظم مع قوله: ﴿من الذين يخافون﴾ في حكم الوصف لرجلان فمرفوع، وإن جعل كلاماً معترضاً فلا محلّ له.

فإنْ قلتَ: من أين علما أنّهم غالبون؟ قلتُ: من جهة إخبار موسى بذلك، وقوله تعالى: ﴿كتب الله لكم﴾. وقيل: من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله في نصرة رسله، وما عهدا من صنع الله لموسى في قهر أعدائه، وما عرفا من حال الجبابرة والباب باب قريتهم.

قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿لن ندخلها﴾ نفي لدخولهم في المستقبل على وجه التأكيد المؤيس، و﴿أبداً﴾ تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاول، و﴿ما داموا فيها﴾ بيان للأبد. ﴿فاذهب أنت وربك﴾[1] يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب، ولكن كما تقول: كلمته فذهب، يجيبني: تريد معنى الإرادة والقصد للجواب، كأنّهم قالوا: أريدا قتالهم، والظاهر أنّهم قالوا ذلك استهانةً بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاءً، وقصدوا ذهابهما حقيقةً بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل، وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرةً، والدليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم. ويحكى: أنّ موسى وهرون عليهما السلام خرّا لوجوههما قدّامهم؛ لشدّة ما ورد عليهما فهموا برجمهما، ولأمر ما قرن الله اليهود بالمشركين، وقدّمهم عليهم في قوله تعالى: ﴿لتجدنّ أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾[2] لما عصوه وتمرّدوا عليه وخالفوه وقالوا ما قالوا من كلمة الكفر ولم يبق معه مطيع موافق يثق به إلا هرون.

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾.

﴿قال رب إنّي لا أملك﴾[3] لنصرة دينك ﴿إلا نفسي وأخي﴾ وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة ورقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة. ونحوه قول يعقوب عليه السلام: ﴿إنّما أشكوا بثي وحزني إلى الله﴾ وعن علي رضي الله عنه: أنّه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال البغاة فما أجابه إلا رجلان، فتنفس الصعداء ودعا لهما، وقال: أين تقعان مما أريد؟ وذكر في إعراب أخي وجوه أن يكون منصوباً عطفاً على نفسي، أو على الضمير في إنّي بمعنى ولا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه، ومرفوعاً عطفاً على محل إن واسمها، كأنّه قيل: أنا لا أملك إلا نفسي وهرون كذلك لا يملك إلا نفسه، أو على الضمير في لا أملك، وجاز للفصل، ومجروراً عطفاً على الضمير في نفسي، وهو ضعيف لقبح العطف على ضمير المجرور إلا بتكرير الجار.

فإنْ قلتَ: أما كان معه الرجلان المذكوران؟ قلتُ: كأنّه لم يثق بهما كلّ الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه وتلونهم وقسوة قلوبهم فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره، ويجوز أن يقول ذلك لفرط ضجره عند ما سمع منه تقليلاً لمن يوافقه، ويجوز أن يريد: ومن يؤاخيني على ديني. ﴿فافرق﴾ فافصل ﴿بيننا﴾ وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق وتحكم عليهم بما يستحقون، وهو في معنى الدعاء عليهم ولذلك وصل به قوله: ﴿فإنّها محرّمة عليهم﴾ على وجه التسبيب، أو فباعد بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم، كقوله: ﴿ونجني من القوم

---

(1) قال أحمد رحمه الله: يريد الزمخشري سألوا رؤية الله جهرة، وهي محال عقلاً تعنتاً منهم، وقد مرّ له ذلك وبيّنّا أنّ تلبسهم بذلك كان لعدم فهم الإيمان به على التعيين اقتراحاً، وتقاعساً عن الحق في قوله: ﴿لن نؤمن لك، حتى نرى الله جهرة﴾.

(2) سورة المائدة، الآية: 82.

(3) قال أحمد: وفي قول موسى عليه الصلاة والسلام، ليلة الإسراء لنبينا عليه الصلاة والسلام: إنّي جرّبت بني إسرائيل، وخبرتهم فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك، =

= وتكريره هذا القول مراراً مصداق، لما ذكره الزمخشري، وأمّا إن كان المراد بالرجلين غير يوشع، وكالب، وكانا من العماليق الذين خافهم بنو إسرائيل، ويكون معنى يخافون، أي: يخافهم بنو إسرائيل، فالضمير على هذا يرجع إلى بني إسرائيل، والعائد محذوف، وهو المفعول، فعلى هذا لا شك أنّ هذين الرجلين ليسا من بني إسرائيل المكتوب عليهم قتال العمالقة، وإنما عنى موسى عليه السلام، إنّي لا أملك من بني إسرائيل، المفروض عليهم القتال أمر أحد، إلا نفسي وأخي، والله أعلم.

الظالمين﴾[1].

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾.

﴿فإنّها﴾ ﴿فإنّ الأرض المقدّسة﴾ ﴿محرّمة عليهم﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها.

فإنْ قلتَ:كيف يوفق بين هذا وبين قوله: ﴿التي كتب الله لكم﴾[2]؟ قلتُ:فيه وجهان: أحدهما:أن يراد كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبوا الجهاد قيل: فإنّها محرّمة عليهم. والثاني:أن يراد فإنّها محرّمة عليهم أربعين سنةً، فإذا مضت الأربعون كان ما كتب. فقد روي: أنّ موسىٰ سار بمن بقي من بني إسرائيل وكان يوشع على مقدّمته ففتح أريحاء، وأقام فيها ما شاء الله، ثم قبض صلوات الله عليه، وقيل: لما مات موسىٰ بعث يوشع نبياً فأخبرهم بأنّه نبي الله، وأنّ الله أمره بقتال الجبابرة، فصدّقوه وبايعوه، وسار بهم إلى أريحاء وقتل الجبارين وأخرجهم، وصار الشام كله لبني إسرائيل. وقيل: لم يدخل الأرض المقدّسة أحد ممن قال: إنّا لن ندخلها وهلكوا في التيه. ونشأت نواشئ من ذرياتهم فقاتلوا الجبارين ودخلوها. والعامل في الظرف إمّا محرّمة وإمّا يتيهون، ومعنى ﴿يتيهون في الأرض﴾ يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً، والتيه المفازة التي يتاه فيها. روي: أنّهم لبثوا أربعين سنةً في ستة فراسخ يسيرون كل يوم جادين حتى إذا سئموا وأمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يظللهم من حر الشمس ويطلع لهم عمود من نور بالليل يضيء لهم وينزل عليهم المنّ والسلوى ولا تطول شعورهم، وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله.

فإنْ قلتَ:فلم كان ينعم عليهم بتظليل الغمام وغيره وهم معاقبون! قلتُ:كما ينزل بعض النوازل على العصاة عركاً لهم وعليهم مع ذلك النعمة متظاهرة، ومثل ذلك مثل الوالد المشفق يضرب ولده ويؤذيه ليتأدب ويتثقف ولا يقطع عنه معروفه وإحسانه.

فإنْ قلتَ: هل كان معهم في التيه موسىٰ وهٰرون عليهما السلام؟ قلتُ: اختلف في ذلك، فقيل: لم يكونا معهم لأنّه كان عقاباً، وقد طلب موسىٰ إلى ربه أن يفرق بينهما وبينهم، وقيل: كانا معهم إلا أنّه كان ذلك روحاً لهما وسلامةً لا عقوبةً كالنار لإبراهيم وملائكة العذاب. وروي: أنّ هٰرون مات في التيه، ومات موسىٰ بعده فيه بسنة، ودخل يوشع أريحاء بعد موته بثلاثة أشهر، ومات النقباء في التيه بغتة، إلا كالب ويوشع. ﴿فلا تأس﴾ فلا تحزن عليهم لأنّه ندم على الدعاء عليهم، فقيل: إنّهم أحقاء لفسقهم بالعذاب فلا تحزن ولا تندم.

۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾.

هما ابنا آدم لصلبه قابيل وهابيل أوحى الله إلى آدم أن يزوّج كل واحد منهما توأمة الآخر، وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها إقليما، فحسد عليها أخاه وسخط، فقال لهما آدم: قربا قرباناً فمن أيكما تقبل زوجها. فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل حسداً وسخطاً وتوعده بالقتل. وقيل: هما رجلان من بني إسرائيل. ﴿بالحق﴾ تلاوة ملتبسة بالحق والصحة، واتله نبأ ملتبساً بالصدق موافقاً لما في كتب الأوّلين، أو بالغرض الصحيح وهو تقبيح الحسد؛ لأنّ المشركين وأهل الكتاب كلهم كانوا يحسدون رسول الله ﷺ ويبغون عليه، أو اتل عليهم وأنت محق صادق. و﴿إذ قربا﴾ نصب بالنبأ أي: قصتهم وحديثهم في ذلك الوقت، ويجوز أن يكون بدلاً من النبأ، أي: اتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت على تقدير المضاف، والقربان اسم ما يتقرّب به إلى الله من نسيكة أو صدقة كما أنّ الحلوان اسم ما يحلى، أي: يعطى، يقال: قرّب صدقةً وتقرّب بها لأنّ تقرّب مطاوع قرب. قال الأصمعي: تقربوا قرف القمع، فيعدى بالباء حتى يكون بمعنى قرب.

فإنْ قلتَ: كيف كان قوله: ﴿إنّما يتقبل الله من المتقين﴾ جواباً لقوله: ﴿لأقتلنك﴾؟ قلتُ: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل، قال له: إنّما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قبلي فلم تقتلني، ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول. فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان، وفيه دليل على أنّ الله تعالى لا يقبل طاعةً إلا من مؤمن متق، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم. وعن عامر بن عبد الله: أنّه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له: ما يبكيك فقد كنت وكنت؟ قال: إنّي أسمع الله يقول: ﴿إنّما يتقبل الله من المتقين﴾.

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾.

﴿ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ قيل: كان أقوى من القاتل وأبطش منه ولكنّه تحرج عن قتل أخيه واستسلم له خوفاً من الله؛ لأنّ الدفع لم يكن مباحاً في ذلك الوقت. قاله مجاهد وغيره.

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿إنّي أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك﴾ أن تحتمل إثم قتلي لك لو قتلتك وإثم قتلك لي.

---

(1) سورة التحريم، الآية: 11.

(2) سورة المائدة، الآية: 21.

فإنْ قلتَ: كيف يحمل إثم قتله له ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾؟ **قلتُ:** المراد بمثل إثمي على الاتساع في الكلام، كما تقول: قرأت قراءة فلان وكتبت كتابته تريد المثل، وهو اتساع فاش مستفيض لا يكاد يستعمل غيره. ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «المستبان ما قالا فعلى البادي ما لم يعتد المظلوم»[1]. على أنّ البادي عليه إثم سبه ومثل إثم سب صاحبه لأنّه كان سبباً فيه، إلا أنّ الإثم محطوط عن صاحبه معفو عنه لأنّه مكافئ مدافع عن عرضه، ألا ترى إلى قوله: ما لم يعتد المظلوم، لأنّه إذا خرج من حدّ المكافأة واعتدى لم يسلم.

فإنْ قلتَ: فحين كفر هابيل قتل أخيه واستسلم وتحرّج عما كان محظوراً في شريعته من الدفع، فأين الإثم حتى يتحمل أخوه مثله فيجتمع عليه الإثمان؟ **قلتُ:** هو مقدر فهو يتحمل مثل الإثم المقدر، كأنّه قال: إنّي أريد أن تبوء بمثل إثمي لو بسطت يدي إليك، وقيل: بإثمي، بإثم قتلي وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك.

فإنْ قلتَ[2]: فكيف جاز أن يرد شقاوة أخيه وتعذيبه بالنار؟ **قلتُ:** كان ظالماً وجزاء الظالم حسن، جائز أن يراد ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿وذلك جزاء الظالمين﴾** وإذا جاز أن يريده الله جاز أن يريده العبد لأنّه لا يريد إلا ما هو حسن، والمراد بالإثم وبال القتل وما يجره من استحقاق العقاب.

فإنْ قلتَ[3]: لم جاء الشرط بلفظ الفعل والجزاء بلفظ اسم الفاعل وهو قوله: ﴿لئن بسطت... ما أنا بباسط﴾[4]. **قلتُ:** ليفيد أنّه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع ولذلك أكده بالباء المؤكدة للنفي.

فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾.

﴿فطوّعت له نفسه قتل أخيه﴾ فوسعته له ويسرته، من طاع له المرتع إذا اتسع. وقرأ الحسن: فطاوعت، وفيه وجهان: أن يكون مما جاء من فاعل بمعنى فعل، وأن يراد أنّ قتل أخيه، كأنّه دعا نفسه إلى الإقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع وله لزيادة الربط كقولك: حفظت لزيد ماله، وقيل: قتل وهو ابن عشرين سنة، وكان قتله عند عقبة حراء، وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾.

﴿فبعث الله غراباً﴾ روي أنّه أوّل قتيل قتل على وجه الأرض من بني آدم، ولما قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، فخاف عليه السباع، فحمله في جراب على ظهره سنةً حتى أروح وعكفت عليه السباع، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة، **﴿قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾** ويروى: أنّه لما قتله اسود جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال: ما كنت عليه وكيلاً. فقال: بل قتلته، ولذلك اسود جسدك. وروي: أنّ آدم مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك وأنّه رثاه بشعر، وهو كذب بحت وما الشعر إلا منحول ملحون، وقد صحّ أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر. **﴿ليريه﴾** ليريه الله أو ليريه الغراب، أي: ليعلمه، لأنّه لما كان سبب تعليمه فكأنّه قصد تعليمه على سبيل المجاز. **﴿سوأة أخيه﴾** عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من جسده، والسوأة: الفضيحة لقبحها. قال:

يـــا لـــقـــوم لـــلـــسوأة الـــســـوأء

أي: للفضيحة العظيمة، فكني بها عنها. **﴿فأواري﴾** بالنصب على جواب الاستفهام. وقرئ: بالسكون على فأنا أواري، أو على التسكين في موضع النصب للتخفيف. **﴿من النادمين﴾** على قتله لما تعب فيه من حمله وتحيره في أمره، وتبين له من عجزه وتلمذه للغراب واسوداد لونه وسخط أبيه. ولم يندم ندم التائبين.

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن السباب الحديث (6534).

(2) قال أحمد: وهذا من دسه للمعتقد الفاسد في بيان كلامه، والفاسد من هذا، اعتقاده أنّ في الكائنات ما ليس مراداً لله تعالى، وتلك القبائح بجملتها، فإنها على زعمه واقعة على خلاف المشيئة الربانية، وهذا هو الشرك الخفي، فإياك أن تحوم حول شركه، والعياذ بالله، فأما إرادته لإثم أخيه وعقوبته، فمعناه: إني لا أريد أن أقتلك، فأعاقب ولما يكن بد من إرادة أحد الأمرين إما إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه، فيقتل أخاه، وإما إثم أخيه بتقدير أن يستسلم، وكان غير مريد للأوّل اضطر إلى الثاني، فلم يرد إذاً إثم أخيه لعينه، وإنما أراد أنّ الإثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل، ولم تكن حينئذ مشروعة، فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه، وهذا كما يتمنى الإنسان الشهادة، ومعناها أن يبوء الكافر بقتله، وبما عليه في ذلك من الإثم، ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه، وإنما أراد أن يبذل نفسه في سبيل الله رجاء إثم الكافر بقتله، ضمناً، وتبعاً، والذي= = يدل على ذلك أنه لا فرق في حصول درجة الشهادة، وفضيلتها بين أن يموت القاتل على الكفر، وبين أن يختم له بالإيمان، فيحبط عنه إثم القتل الذي به كان الشهيد شهيداً، أعني نفي الإثم على قاتله، أو حبط عنه إذ ذلك لا ينقص من فضيلة شهادته، ولا يزيدها ولو كان إثم الكافر بالقتل مقصوداً، لاختلف التمني باعتبار بقائه، وإحباطه، فدل على أنه أمر لازم تبع لا مقصود، والله أعلم.

(3) قال أحمد: وإنما امتاز اسم الفاعل عن الفعل بهذه الخصوصية من حيث أن صيغة الفعل، لا تعطي سوى حدوث معناه من الفاعل لا غير، أما اتصاف الذات به، فذاك أمر يعطيه اسم الفاعل، ومن ثَم يقولون: قام زيد، فهو قائم، فيجعلون اتصافه بالقيام ناشئاً عن صدوره منه. ولهذا المعنى، قوله تعالى: ﴿لنكونن من المرجومين﴾ عدولاً عن الفعل الذي هو لنرجمنك إلى الاسم تغليظاً، يعنون: أنهم يجعلون هذه لثبوتها، ووقوعها به، كالسمة والعلامة الثابتة، ولا يقتصرون على مجرد إيقاعها به.

(4) سورة المائدة، الآية: 28.

بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿من أجل ذلك﴾ بسبب ذلك وبعلته. وقيل: أصله من أجل شراً إذا جناه يأجله أجلاً. ومنه قوله:

وأهل خباء صالح ذات بينهم ... قد احتربوا في عاجل أنا آجله

كأنّك إذا قلت: من أجلك فعلت كذا، أردت من أن جنيت فعله وأوجبته، ويدل عليه قولهم: من جراك فعلته، أي: من أن جررته بمعنى جنيته، وذلك إشارة إلى القتل المنكور، أي: من أن جنى ذلك القتل الكتب وجره. ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾ ومن لابتداء الغاية، أي: ابتدأ، والكتب نشأ من أجل ذلك. ويقال: فعلت كذا لأجل كذا. وقد يقال: أجل كذا بحذف الجار وإيصال الفعل. قال:

أجـل أنّ الله قـد فـضـلـكـم

وقرئ: من أجل ذلك بحذف الهمزة وفتح النون لإلقاء حركتها عليها. وقرأ أبو جعفر: من إجل ذلك بكسر الهمزة، وهي لغة، فإذا خفف كسر النون ملقياً لكسرة الهمزة عليها. ﴿بغير نفس﴾ بغير قتل نفس لا على وجه الاقتصاص، ﴿أو فساد﴾ عطف على نفس بمعنى أو بغير فساد ﴿في الأرض﴾ وهو الشرك. وقيل: قطع الطريق. ﴿ومن أحياها﴾ ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك.

فإنْ قلتَ: كيف شبه الواحد بالجميع وجعل حكمه كحكمهم؟ قلتُ: لأنّ كل إنسان يدلي بما يدلي به الآخر من الكرامة على الله وثبوت الحرمة، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمته، وعلى العكس فلا فرق إذاً بين الواحد والجميع في ذلك.

فإنْ قلتَ: فما الفائدة في ذكر ذلك؟ قلتُ: تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ليشمئز الناس عن الجسارة عليها ويتراغبوا في المحاماة على حرمتها، لأنّ المتعرّض لقتل النفس إذا تصوّر قتلها بصورة قتل الناس جميعاً عظم ذلك عليه فثبطه، وكذلك الذي أراد إحياءها. وعن مجاهد: قاتل النفس جزاؤه جهنم وغضب الله والعذاب العظيم، ولو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك. وعن الحسن: يا ابن آدم أرأيت لو قتلت الناس جميعاً أكنت تطمع أن يكون لك عمل يوازي ذلك فيغفر لك به، كلا إنّه شيء سولته لك نفسك والشيطان فكذلك إذا قتلت واحداً. ﴿بعد ذلك﴾ بعد ما كتبنا عليهم وبعد مجيء الرسل بالآيات. ﴿لمسرفون﴾ يعني: في القتل لا يبالون بعظمته.

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾.

﴿يحاربون الله ورسوله﴾ يحاربون رسول الله ﷺ، ومحاربة المسلمين في حكم محاربته، ويسعون في ﴿الأرض فساداً﴾ مفسدين، أو لأنّ سعيهم في الأرض لما كان على طريق الفساد نزل منزله ويفسدون في الأرض فانتصب فساداً على المعنى، ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي: للفساد. نزلت في قوم هلال بن عويمر وكان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، وقد مرّ بهم قوم يريدون رسول الله فقطعوا عليهم، وقيل: في العرنيين، فأوحى إليه أنّ من جمع بين القتل وأخذ المال قتل وصلب، ومن أفرد القتل قتل، ومن أفرد أخذ المال قطعت يده لأخذ المال ورجله لإخافة السبيل، ومن أفرد الإخافة نفي من الأرض. وقيل: هذا حكم كل قاطع طريق كافراً أو مسلماً. ومعناه ﴿أن يقتّلوا﴾ من غير صلب وإن أفردوا القتل، ﴿أو يصلبوا﴾ مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ. قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله: يصلب حياً ويطعن حتى يموت. ﴿أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ إن أخذوا المال، ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ إذا لم يزيدوا على الإخافة، وعن جماعة منهم الحسن والنخعي: أنّ الإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق من غير تفصيل. والنفي: الحبس عند أبي حنيفة. وعند الشافعي: النفي من بلد إلى بلد لا يزال يطلب وهو هارب فزعاً. وقيل: ينفى من بلده، وكانوا ينفونهم إلى دهلك وهو بلد في أقصى تهامة، وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة. ﴿خزي﴾ ذلّ وفضيحة.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾.

﴿إلا الذين تابوا﴾ استثناء من المعاقبين عقاب قطع الطريق خاصة، وأما حكم القتل والجراح وأخذ المال فإلى الأولياء إن شاؤوا عفوا وإن شاؤوا استوفوا. وعن علي رضي الله عنه: أنّه الحرث بن بدر جاءه تائباً بعد ما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة[1].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾.

الوسيلة: كل ما يتوسل به، أي: يتقرّب، من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي. وأنشد للبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... ألا كـل ذي لـب إلـى الله واسـل

(1) أخرجه ابن أبي شيبة، 12/281، في كتاب الجهاد، باب: فيمن يحارب ويسعى...

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿ليفتدوا به﴾ ليجعلوه فديةً لأنفسهم، وهذا تمثيل للزوم العذاب لهم وأنّه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه. وعن النبي ﷺ: يقال للكافر يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد سئلت أيسر من ذلك[1]، ولو مع ما في حيزه خبر أن.

فإنْ قلتَ: لم وحد الراجع في قوله: **﴿ليفتدوا به﴾** وقد ذكر شيئان؟ **قلتُ:** هو نحو قوله:

فـإنّـي وقـيـار بـهـا لـغـريـب

أو على إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، كأنّه قيل: ليفتدوا بذلك. ويجوز أن يكون الواو في ومثله بمعنى مع فيتوحد المرجوع إليه.

فإنْ قلتَ: فبم ينصب المفعول معه؟ **قلتُ:** بما يستدعيه لو من الفعل لأنّ التقدير: لو ثبت أنّ لهم ما في الأرض.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

قرأ أبو واقد: أن يخرجوا بضم الياء من أخرج، ويشهد لقراءة العامّة قوله: **﴿بخارجين﴾**[2]. وما يروى عن عكرمة: أنّ نافع بن الأزرق قال لابن عباس: يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أنّ قوماً يخرجون من النار وقد قال الله تعالى: **﴿وما هم بخارجين منها﴾** فقال: ويحك اقرأ ما فوقها هذا للكفار[3]، فمما لفقته المجبرة وليس بأوّل تكاذيبهم وفراهم. وكفاك بما فيه من مواجهة ابن الأزرق ابن عمّ رسول الله ﷺ وهو بين أظهر أعضاده من قريش وأنضاده من بني عبد المطلب وهو حبر الأمّة وبحرها ومفسرها بالخطاب الذي لا يجسر على مثله أحد من أهل الدنيا وبرفعه إلى عكرمة دليلين ناصين أنّ الحديث: فرية ما فيها مرية.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿والسارق والسارقة﴾[4] رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند سيبويه، كأنّه قيل: وفيما فرض عليكم السارق والسارقة، أي: حكمهما، ووجه آخر وهو أن يرتفعا بالابتداء والخبر. **﴿فاقطعوا أيديهما﴾** ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط لأنّ المعنى: والذي سرق والتي سرقت فاقطعوا

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: من نوقش الحساب عُذِّب الحديث (2538) وآخره: «قد سئلت ما هو أيسر من ذلك»، وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً الحديث (7016).

(2) قال أحمد: في هذا الفصل من كلامه، وتمشدقه بالسفاهة على أهل السنة، ورميهم بما لا يقولون به من الأخبار بالكذب، والتخليق، والافتراء، ما يحمى الكبد المملوء بحب السنة، وأهلها على الانتصاب للانتصاف منه، ولسنا بصدد تصحيح هذه الحكاية، ولا وقف الله صحة العقيدة على صحتها.

(3) لم أجده. وقد أنكره الزيلعي 1/394.

(4) قال أحمد: المستقرأ من وجوه القراآت، أن العامّة لا تتفق فيها أبداً على العدول عن الأفصح، وجدير بالقرآن أن يجري على أفصح الوجوه، وأن لا يخلو من الأفصح، وما يشتمل عليه كلام العرب الذي لم يصل أحد منهم إلى ذروة فصاحته ولم يتعلق بأهدابها وسيبويه يحاشى من اعتقاد عراء القرآن عن الأفصح واشتماله على الشاذ الذي لا يعد من القرآن، ونحن نورد الفصل من كلام سيبويه على هذه الآية، ليتضح لسامعه براءة سيبويه من عهدة هذا النقل، قال سيبويه: في ترجمة باب الأمر والنهي، بعد أن ذكر المواضع التي يختار فيها النصب، وملخصها أنه متى بنى الاسم على فعل الأمر، فذاك موضع اختيار النصب، ثم قال كالموضح لامتياز هذه الآية، عما اختار فيها النصب، وأما قوله عز وجل: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا﴾ الآية، وقوله: ﴿الزانية والزاني، فاجلدوا﴾ فإن هذا لم يبن على الفعل، ولكنه جاء على مثال قوله مثل الجنة التي وعد المتقون، ثم قال بعد: فيها أنهار فيها كذا يريد سيبويه: تمييز هذه الآي عن المواضع التي بين اختيار النصب فيها، ووجه التمييز بأن الكلام حيث يختار النصب يكون الاسم فيه مبنياً على الفعل، وأما في هذه الآي، فليس بمبنيّ عليه، فلا يلزم فيه اختيار النصب وقال: وإنما وضع المثل للحديث الذي ذكر بعده فذكر أخباراً وقصصاً، فكأنه قال: ومن القصص مثل الجنة، = فهو محمول على هذا الإضمار، والله أعلم، وكذلك الزانية والزاني، لما قال جلّ ثناؤه: ﴿سورة أنزلناها، وفرضناها﴾ قال في جملة الفرائض الزانية، والزاني، ثم جاء، فاجلدوا بعد أن مضى فيهما الرفع، يريد سيبويه، لم يكن الاسم مبنياً على الفعل المذكور بعد بل بني على محذوف متقدم، وجاء الفعل طارئاً، قال: كما جاء. وقائلة خولان، فانكح فتاتهم. فجاء بالفعل بعد أن عمل فيه المضمر وكذلك والسارق والسارقة، وفيما فرض عليكم السارق والسارقة، فإنما دخلت هذه الأسماء بعد قصص وأحاديث، وقد قرأ ناس السارق والسارقة بالنصب، وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوّة، ولكن أبت العامّة إلا الرفع يريد سيبويه: أنّ قراءة النصب جاء الاسم فيها مبنياً على الفعل غير معتمد على متقدّم، فكان النصب قوياً بالنسبة إلى الرفع، حيث يبنى الاسم على الفعل، لا على متقدم، وليس يعني أنه قوي بالنسبة إلى الرفع حيث يعتمد الاسم على المحذوف المتقدّم، فإنه قد بيّن أنّ ذلك يخرجه من الباب الذي يختار فيه النصب، فكيف يفهم عنه ترجيحه عليه، والباب مع القراءتين مختلف، وإنما يقع الترجيح بعد التساوي في الباب، فالنصب أرجح من الرفع حيث ينبني الاسم على الفعل، والرفع متعين لا أقول أرجح حيث بنى الاسم على كلام متقدم، ثم حقق سيبويه هذا المقدّر بأن الكلام واقع بعد قصص وأخبار ولو كان كما ظنه الزمخشري لم يحتج سيبويه إلى تقدير، بل كان يرفعه على الابتداء، ويجعل الأمر خبره، كما أعربه الزمخشري، فالملخص على هذا أنّ النصب على وجه واحد، وهو: بناء الاسم على فعل الأمر، والرفع على وجهين أحدهما: ضعيف، وهو الابتداء، وبناء الكلام على الفعل، والآخر: قويّ بالغ، كوجه النصب، وهو رفعه على خبر ابتداء محذوف، دلّ عليه السياق، وحيثما تعارض لنا وجهان في الرفع، وأحدهما: قوي، والآخر: ضعيف، تعين حمل القراءة على القوي، كما أعربه سيبويه رضي الله عنه، والله تعالى أعلم.

أيديهما، والاسم الموصول يضمن معنى الشرط. وقرأ عيسىٰ بن عمر بالنصب، وفضلها سيبويه على قراءة العامّة لأجل الأمر، لأنّ زيداً فاضربه، أحسن من زيد فاضربه ﴿أيديهما﴾ أيديهما ونحوه: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾، اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، وأريد باليدين اليمينان، بدليل قراءة عبد الله: والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم، والسارق في الشريعة من سرق من الحرز والمقطع الرسغ، وعند الخوارج المنكب، والمقدار الذي يجب به القطع عشرة دراهم عند أبي حنيفة. وعند مالك والشافعي رحمهما الله ربع دينار. وعن الحسن درهم، وفي مواعظه: احذر من قطع يدك في درهم. ﴿جزاءً﴾ و﴿نكالاً﴾ مفعول لهما.

فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾.

﴿فمن تاب﴾ من السرّاق ﴿من بعد ظلمه﴾ من بعد سرقته ﴿وأصلح﴾ أمره بالتفصي عن التبعات ﴿فإنّ الله يتوب عليه﴾ ويسقط عنه عقاب الآخرة، وأمّا القطع فلا تسقطه التوبة عند أبي حنيفة وأصحابه. وعند الشافعي في أحد قوليه تسقطه.

أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾.

﴿من يشاء﴾ من يجب في الحكمة تعذيبه والمغفرة له من المصرّين والتائبين. وقيل: يسقط حدّ الحربي إذا سرق بالتوبة ليكون أدعى له إلى الإسلام وأبعد من التنفير عنه، ولا يسقطه عن المسلم لأنّ في إقامته الصلاح للمؤمنين والحياة، ﴿ولكم في القصاص حياة﴾.

فإن قلتَ: لم قدّم التعذيب[1] على المغفرة؟ قلتُ: لأنّه قوبل بذلك تقدّم السرقة على التوبة.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾.

قرئ: ولا يحزنك بضم الياء ويسرعون، والمعنى: لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين ﴿في الكفر﴾، أي: في إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومن موالاة المشركين، فإنّي ناصرك عليهم وكافيك شرّهم: يقال: أسرع فيه الشيب، وأسرع فيه الفساد، بمعنى ـ وقع فيه سريعاً. فكذلك مسارعتهم في الكفر ووقوعهم وتهافتهم فيه أسرع شيء إذا وجدوا فرصةً لم يخطئها، و﴿آمنّا﴾ مفعول قالوا، و﴿بأفواههم﴾ متعلق بقالوا لا بآمنا. ﴿ومن الذين هادوا﴾ منقطع مما قبله خبر لسماعون، أي: ومن اليهود قوم سماعون، ويجوز أن يعطف على من الذين قالوا ويرتفع سماعون على هم سماعون والضمير للفريقين أو للذين هادوا، ومعنى ﴿سماعون للكذب﴾ قابلون لما يفتريه الأحبار ويفتعلونه من الكذب على الله وتحريف كتابه، من قولك: الملك يسمع كلام فلان، ومنه: سمع الله لمن حمده. ﴿سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ يعني: اليهود الذين لم يصلوا إلى مجلس رسول الله ﷺ، وتجافوا عنه لما أفرط فيهم من شدّة البغضاء وتبالغ من العداوة. أي: قابلون من الأحبار ومن أولئك المفرطين في العداوة الذين لا يقدرون أن ينظروا إليك. وقيل: سماعون إلى رسول الله ﷺ لأجل أن يكذبوا عليه، بأن يمسخوا ما سمعوا منه بالزيادة والنقصان، والتبديل والتغيير، سماعون من رسول الله لأجل قوم آخرين من اليهود، وجهوهم عيوناً ليبلغوهم ما سمعوا منه. وقيل: السماعون بنو قريظة، والقوم الآخرون يهود خيبر. ﴿يحرفون الكلم﴾ يميلونه ويزيلونه ﴿عن مواضعه﴾ التي وضعه الله تعالى فيها، فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا مواضع. ﴿إن أوتيتم هذا﴾ المحرف المزال عن مواضعه. ﴿فخذوه﴾ واعلموا أنّه الحق واعملوا به. ﴿وإن لم تؤتوه﴾ وافتاكم محمد بخلافه. ﴿فاحذروا﴾ وإياكم وإياه فهو الباطل والضلال. وروي أنّ شريفاً من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان وحدّهما الرجم في التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما، فبعثوا رهطاً منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، وقالوا: إن أمركم محمد بالجلد والتحميم فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا، وأرسلوا الزانيين معهم. فأمرهم بالرجم، فأبوا أن يأخذوا به، فقال له جبريل: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، فقال: «هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له: ابن صوريا؟» قالوا: نعم وهو أعلم يهودي على وجه الأرض، ورضوا به حكماً. فقال له رسول الله ﷺ: «أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسىٰ، ورفع فوقكم الطور، وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن». قال: نعم. فوثب عليه سفلة اليهود. فقال: خفت إن

---

(1) قال أحمد: هو مبني على أن المراد بالمغفور لهم التائبون، وبالمعذبين السراق، ولا يجعل المغفرة تابعة للمشيئة، إلا بقيد التوبة؛ لأنّ غير التائب على زعمه لا يجوز أن يشاء الله المغفرة له، فلذلك ينزل الإطلاق على المتقدم ذكره، ونحن نعتقد أنّ المغفرة في حق غير التائب من الموحدين تتبع= = المشيئة، حتى أنّ من جملة ما يدخل في عموم قوله، ويغفر لمن يشاء السارق الذي لم يتب، وعلى هذا يكون تقديم التعذيب لأنّ السياق للوعيد، فيناسب ذلك تقديم ما يليق به من الزواجر، والله أعلم.

كذبته أن ينزل علينا العذاب. ثم سأل رسول الله ﷺ عن أشياء كان يعرفها من أعلامه، فقال: أشهد أنّ لا إله إلا الله وأنّك رسول الله النبي الأمي العربي الذي بشر به المرسلون. وأمر رسول الله ﷺ الزانيين فرجما عند باب مسجده[1]. ﴿ومن[2] يرد الله فتنته﴾ تركه مفتوناً وخذلانه ﴿فلن تملك له من الله شيئاً﴾ فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئاً. ﴿أولئك الذين لم يرد الله﴾ أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم؛ لأنّهم ليسوا من أهلها لعلمه أنّها لا تنفع فيهم ولا تنجع، إنّ الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله، ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾[3].

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿السحت﴾ كل ما لا يحل كسبه، وهو من سحته إذا استأصله لأنّه مسحوت البركة، كما قال تعالى: ﴿يمحق الله الربوا﴾[4] والربا باب منه. وقرئ: السحت بالتخفيف والتثقيل، والسحت بفتح السين على لفظ المصدر من سحته، والسحت بفتحتين، والسحت بكسر السين، وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. وعن الحسن: كان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه أحدهم برشوة جعلها في كمه. فأراها إياه وتكلم بحاجته، فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فيأكل الرشوة ويسمع الكذب. وحكي أنّ عاملاً قدم من عمله فجاءه قومه فقدّم إليهم العراضة وجعل يحدثهم بما جرى له في عمله، فقال أعرابي من القوم: نحن كما قال الله تعالى: ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾ وعن النبي ﷺ: «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به». قيل: كان رسول الله ﷺ مخيراً إذا تحاكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين أن لا يحكم. وعن عطاء والنخعي والشعبي: أنّهم إذا ارتفعوا إلى حكام المسلمين فإن شاؤوا حكموا وإن شاؤوا أعرضوا. وقيل: وهو منسوخ بقوله: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾[5] وعند أبي حنيفة رحمه الله: إن احتكموا إلينا حملوا على حكم الإسلام، وإن زنى منهم رجل بمسلمة أو سرق من مسلم شيئاً أقيم عليه الحد، وأما أهل الحجاز فإنّهم لا يرون إقامة الحدود عليهم، يذهبون إلى أنّهم قد صولحوا على شركهم، وهو أعظم الحدود. ويقولون: إنّ النبي ﷺ رجم اليهوديين قبل نزول الجزية. ﴿فلن يضروك شيئاً﴾ لأنّهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم كالجلد مكان الرجم، فإذا أعرض عنهم وأبى الحكومة لهم شق عليهم وتكرهوا إعراضه عنهم، وكانوا خلقاء بأن يعادوه ويضاروه فأمن الله سربه. ﴿بالقسط﴾ بالعدل والاحتياط كما حكم بالرجم.

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾.

﴿وكيف يحكمونك﴾ تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أنّ الحكم منصوص في كتابهم الذي يدّعون الإيمان به. ﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم، لا يرضون به. ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ بكتابهم كما يدعون، أو وما أولئك بالكاملين في الإيمان على سبيل التهكم بهم.

فإنْ قلتَ: فيها حكم الله، ما موضعه من الإعراب؟ قلتُ: إمّا أن ينتصب حالاً من التوراة وهي مبتدأ خبره عندهم، وإمّا أن يرتفع خبراً عنها، كقولك: وعندهم التوراة ناطقة بحكم الله، وإما أن لا يكون له محل وتكون جملةً مبينةً لأنّ عندهم ما يغنيهم عن التحكيم، كما تقول: عندك زيد ينصحك ويشير عليك بالصواب فما تصنع بغيره.

فإنْ قلتَ: لم أنثت التوراة؟ قلتُ: لكونها نظيرة لموماة ودوداة ونحوها في كلام العرب.

فإنْ قلتَ: علام عطف ﴿ثم يتولون﴾؟ قلتُ: على ﴿يحكمونك﴾.

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿فيها هدى﴾ يهدي للحق والعدل ﴿ونور﴾ يبيّن ما استبهم من الأحكام ﴿الذين أسلموا﴾ صفة[6] أجريت على

---

(1) ابن إسحاق في المغازي [زيلعي 1/396].

(2) قال أحمد رحمه الله: كم يتلجلج، والحق أبلج، هذه الآية كما تراها منطبقة على عقيدة أهل السنة، في أنّ الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة، ووضر الكفر لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى، ما أراد الفتنة من أحد وأراد من كل أحد الإيمان، وطهارة القلب، وأنّ الواقع من الفتن على خلاف إرادته، وأنّ غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد، ولكن لم يقع فحسبهم هذه الآية، وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع، ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾، وما أبشع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها، بقوله: لم يرد الله = أن يمنحهم ألطافه، لعلمه أنّ ألطافه لا تنجع فيهم، ولا تنفع تعالى الله، عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وإذا لم تنجع ألطاف الله تعالى، ولم تنفع، فلطف من ينفع، وإرادة من تنجع. وليس وراء الله للمرء مطمع.

(3) سورة آل عمران، الآية: 86.

(4) سورة البقرة، الآية: 276.

(5) سورة المائدة، الآية: 49.

(6) قال أحمد: وإنما بعثه على حمل هذه الصفة، على المدح دون التفصلة والتوضيح أنّ الأنبياء لا يكونون إلا متصفين بها، فذكر النبوّة يستلزم ذكرها، فمن ثَم حملها على المدح، وفيه نظر، فإنّ =

النبيين على سبيل المدح كالصفات الجارية على القديم سبحانه لا للتفصلة والتوضيح، وأريد بإجرائها التعريض باليهود وأنّهم بعداء من ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم في القديم والحديث، وأنّ اليهودية بمعزل منها. وقوله: ﴿الذين أسلموا للذين هادوا﴾ مناد على ذلك ﴿والربانيون والأحبار﴾ والزهاد والعلماء من ولد هرون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود. ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ بما سألهم أنبياؤهم حفظه من التوراة، أي: بسبب سؤال أنبيائهم إياهم أن يحفظوه من التغيير والتبديل «ومن» في ﴿من كتاب الله﴾ للتبيين. ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ رقباء لئلا يبدل، والمعنى: يحكم بأحكام التوراة النبيون بين موسىٰ وعيسىٰ، وكان بينهما ألف نبي وعيسىٰ للذين هادوا يحملونهم على أحكام التوراة؛ لا يتركونهم أن يعدلوا عنها، كما فعل رسول الله ﷺ من حملهم على حكم الرجم، وإرغام أنوفهم وإبائه عليهم ما اشتهوه من الجلد، وكذلك حكم الربانيون والأحبار المسلمون بسبب ما استحفظهم أنبياؤهم من كتاب الله، والقضاء بأحكامه، وبسبب كونهم عليه شهداء. ويجوز أن يكون الضمير في استحفظوا للأنبياء والربانيين والأحبار جميعاً، ويكون الاستحفاظ من الله، أي: كلفهم الله حفظه وأن يكونوا عليه شهداء. ﴿فلا تخشوا الناس﴾ نهي للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وإدهانهم فيها وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد من القرباء والأصدقاء. ﴿ولا تشتروا﴾ ولا تستبدلوا ولا تستعيضوا ﴿بآيات الله﴾ وأحكامه ﴿ثمناً قليلاً﴾ وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس، كما حرّف أحبار اليهود كتاب الله وغيروا أحكامه رغبةً في الدنيا وطلباً للرياسة فهلكوا. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ مستهيناً به ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ والظالمون والفاسقون، وصف لهم بالعتوّ في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهانة وتمرّدوا بأن حكموا بغيرها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ الكافرين والظالمين والفاسقين أهل الكتاب. وعنه: نعم القوم أنتم ما كان من حلو فلكم، وما كان من مرّ فهو لأهل الكتاب، من جحدكم حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاسق. وعن الشعبي: هذه في أهل الإسلام، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى. وعن ابن مسعود: هو عام في اليهود وغيرهم. وعن حذيفة: أنتم أشبه الأمم سمتاً ببني إسرائيل، لتركبن طريقهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، غير أني لا أدري أتعبدون العجل أم لا.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

في مصحف أبيّ: وأنزل الله على بني إسرائيل فيها وفيه، وأنّ الجروح قصاص، والمعطوفات كلها قرئت منصوبة ومرفوعة، والرفع للعطف على محل أنّ النفس، لأنّ المعنى: وكتبنا عليهم النفس بالنفس، إما لإجراء كتبنا مجرى قلنا، وإما لأنّ معنى الجملة التي هي قولك: النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما تقع عليه القراءة. تقول: كتبت الحمد لله، وقرأت: سورة أنزلناها. ولذلك قال الزجاج: لو قرئ إنّ النفس بالنفس بالكسر لكان صحيحاً أو للاستئناف والمعنى: فرضنا عليهم فيها ﴿أنّ النفس﴾ مأخوذة ﴿بالنفس﴾ مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق ﴿و﴾ كذلك ﴿العين﴾ مفقوءة ﴿بالعين والأنف﴾ مجدوع ﴿بالأنف والأذن﴾ مصلومة ﴿بالأذن والسن﴾ مقلوعة ﴿بالسن والجروح قصاص﴾ ذات قصاص وهو المقاصة، ومعناه ما يمكن فيه القصاص وتعرف المساواة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة

= المدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصة، التي يتميز بها الممدوح، عمن دونه، والإسلام أمر عام يتناول أمم الأنبياء، ومتبعيهم كما يتناولهم ألا ترى أنه لا يحسن في مدح النبي، أن يقتصر على كونه رجلاً مسلماً، فإن أقل متبعيه كذلك، فالوجه والله أعلم أنّ الصفة قد تذكر للعظم في نفسها، وليتنوه بها إذا وصف بها عظيم القدر، كما يكون تنويهاً بقدر موصوفها، فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة، قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها، وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء بالصلاح، في قوله تعالى: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين وأمثاله﴾ تنويهاً بمقدار الصلاح إذ جعل صفة الأنبياء، وبعثاً لآحاد الناس على الدأب في تحصيل صفته، وكذلك قيل في قوله تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا﴾ فأخبر عن الملائكة المقربين بالإيمان تعظيماً لقدر الإيمان، وبعثاً للبشر على الدخول فيه، ليساووا الملائكة المقربين في هذه الصفة، وإلا فمن المعلوم أنّ الملائكة مؤمنين ليس إلا، ولهذا قال: ويستغفرون للذين آمنوا يعني من البشر، لثبوت حق الإخوة في الإيمان بين الطائفتين، فكذلك والله=

= أعلم جرى وصف الأنبياء في هذه الآية، بالإسلام تنويهاً به، ولقد أحسن القائل في أوصاف الأشراف، والناظم في مدحه عليه الصلاة والسلام:

فلئن مدحت محمداً بقصيدتي ... فلقد مدحت قصيدتي بمحمد

والإسلام وإن كان من أشرف الأوصاف، إذ حاصله معرفة الله تعالى بما يجب له، ويستحيل عليه ويجوز في حقه، إلا أنّ النبوة أشرف وأجل، لاشتمالها على عموم الإسلام مع خواص المواهب التي لا تسعها العبارة، فلو لم نذهب إلى الفائدة المذكورة في ذكر الإسلام بعد النبوّة، في سياق المدح، لخرجنا عن قانون البلاغة المألوف في الكتاب العزيز، وفي كلام العرب الفصيح، وهو الترقي، من الأدنى إلى الأعلى، لا النزول على العكس، ألا ترى أبا الطيب كيف تزحزح عن هذا الهيع في قوله:

شمس ضحاها هلال ليلتها ... در تقاصيرها زبرجدها

فنزل عن الشمس إلى الهلال، وعن الدر إلى الزبرجد في سياق المدح، فمضغت الألسن غرض بلاغته، ومزقت أديم صيغته، فعلينا أن نتدبر الآيات المعجزات، حتى يتعلق فهمنا بأهداب علوها في البلاغة.

فنزلت. **﴿فمن تصدّق﴾** من أصحاب الحق **﴿به﴾** بالقصاص وعفا عنه **﴿فهو كفارة له﴾** فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله من سيئاته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته، وعن عبد الله وابن عمر: ويهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدّق به. وقيل: فهو كفارة للجاني إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه. وفي قراءة أبيّ: فهو كفارة له، يعني: فالمتصدق كفارته له، أي: الكفارة التي يستحقها له لا ينقص منها، وهو تعظيم لما فعل، كقوله تعالى: **﴿فأجره على الله﴾**[1] وترغيب في العفو.

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾.

قفيته: مثل عقبته إذا أتبعته ثم يقال: قفيته بفلان وعقبته به فتعديه إلى الثاني بزيادة الباء.

فإنْ قلتَ: فأين المفعول الأوّل في الآية؟ قلتُ: هو محذوف والظرف الذي هو **﴿على آثارهم﴾** كالسادّ مسدّه، لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، والضمير في آثارهم للنبيين في قوله: **﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾**[2]. وقرأ الحسن: الأنجيل بفتح الهمزة، فإن صحّ عنه فلأنه أعجمي خرج لعجمته عن زناة العربية كما خرج هابيل وآجر. **﴿ومصدقاً﴾** عطف على محل فيه هدى ومحله النصب على الحال. **﴿وهدى وموعظة﴾** يجوز أن ينتصبا على الحال كقوله **﴿مصدقاً﴾** وأن ينتصبا مفعولاً لهما، كقوله **﴿وليحكم﴾** كأنه قيل: وللهدى والموعظة آتيناه الإنجيل، وللحكم بما أنزل الله فيه من الأحكام.

فإنْ قلتَ: فإن نظمت هدى وموعظةً في سلك مصدقاً، فما تصنع بقوله **﴿وليحكم﴾**؟ قلتُ: أصنع به ما صنعت بهدى وموعظة حين جعلتها مفعولاً لهما فاقدر: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله آتيناه إياه.

وقرئ: وليحكم على لفظ الأمر بمعنى: وقلنا ليحكم، وروي في قراءة أبيّ: وأن ليحكم، بزيادة أن مع الأمر على أن، أن موصولة بالأمر كقولك: أمرته بأن قم، كأنّه قيل: وآتيناه الإنجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل. وقيل: إنّ عيسىٰ عليه السلام كان متعبداً بما في التوراة من الأحكام؛ لأنّ الإنجيل مواعظ وزواجر والأحكام فيه قليلة، وظاهر قوله: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، يرد ذلك، وكذلك قوله: **﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾**[3] وإن ساغ لقائل أن يقول معناه: وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة.

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾.

فإنْ قلتَ: اي فرق بين التعريفين في قوله: **﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾**، وقوله: **﴿لما بين يديه من الكتاب﴾**! قلتُ: الأوّل: تعريف العهد لأنّه عنى به القرآن، والثاني: تعريف الجنس؛ لأنّه عنى به جنس الكتب المنزلة، ويجوز أن يقال: هو للعهد؛ لأنّه لم يرد به ما يقع عليه اسم الكتاب على الإطلاق وإنّما اريد نوع معلوم منه وهو ما أنزل من السماء سوى القرآن. **﴿ومهيمناً﴾** ورقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات وقرئ: ومهيمناً عليه بفتح الميم، أي هو من عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل، كما قال: **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾**[4]، والذي هيمن عليه الله عزّ وجلّ أو الحفاظ في كل بلد لو حرّف حرف منه أو حركة أو سكون لتنبه عليه كل أحد ولاشمأزوا رادّين ومنكرين. ضمن **﴿ولا تتبع﴾** معنى ولا تنحرف فلذلك عدى بـ «عن»، كأنّه قيل: ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم. **﴿لكل جعلنا منكم﴾** أيها الناس **﴿شرعة﴾** شريعةً. وقرأ يحيىٰ بن وثاب بفتح الشين. **﴿ومنهاجاً﴾** وطريقاً واضحاً في الدين تجرون عليه. وقيل: هذا دليل على أنا غير متعبدين بشرائع من قبلنا. **﴿لجعلكم أمّة واحدة﴾** جماعةً متفقةً على شريعة واحدة، أو ذوي أمّة واحدة، أي: دين واحد لا اختلاف فيه. **﴿ولكن﴾** أراد **﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾** من الشرائع المختلفة، هل تعملون بها مذعنين معتقدين أنّها مصالح قد اختلفت على حسب الأحوال والأوقات معترفين بأنّ الله لم يقصد باختلافها إلا ما اقتضته الحكمة، أم تتبعون الشبه وتفرّطون في العمل. **﴿فاستبقوا الخيرات﴾** فابتدروها وتسابقوا نحوها. **﴿إلى الله مرجعكم﴾** استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات. **﴿فينبئكم﴾** فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محقكم وعاملكم ومفرّطكم في العمل.

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾.

فإنْ قلتَ: **﴿وأن احكم بينهم﴾** معطوف على ماذا؟ قلتُ: على الكتاب في قوله: **﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾**[5] كأنّه قيل: وأنزلنا إليك أن احكم، على أنّ أن وصلت بالأمر لأنه فعل كسائر الأفعال، ويجوز أن يكون معطوفاً على بالحق

---

(1) سورة الشورى، الآية: 40.
(2) سورة المائدة، الآية: 44.
(3) سورة المائدة، الآية: 48.
(4) سورة فصلت، الآية: 42.
(5) سورة المائدة، الآية: 48.

أي: أنزلناه بالحق وبأن احكم. ﴿أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أن يضلوك عنه ويستزلوك، وذلك أنّ كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود كلهم ولم يخالفونا، إنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدّقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ. فنزلت. ﴿فإن تولوا﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك وأرادوا غيره. ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ يعني: بذنب التولي عن حكم الله وإرادة خلافه، فوضع ببعض ذنوبهم موضع ذلك، وأراد أنّ لهم ذنوباً جمةً كثيرة العدد وأنّ هذا الذنب مع عظمه بعضها وواحد منها، وهذا الإبهام لتعظيم التولي واستشرافهم في ارتكابه، ونحو البعض في هذا الكلام ما في قول لبيد:

أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أراد نفسه، وإنّما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام كأنّه قال: نفساً كبيرةً ونفساً أي نفس. فكما أن التنكير يعطي معنى التكبير وهو معنى البعضية، فكذلك إذا صرح بالبعض. ﴿لفاسقون﴾ لمتمرّدون في الكفر معتدون فيه. يعني: أنّ التولي عن حكم الله من التمرّد العظيم والاعتداء في الكفر.

أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنّ قريظة والنضير طلبوا إليه أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى، وروي: أنّ رسول الله ﷺ قال لهم: «القتلى بواء». فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك[1]. نزلت.

والثاني: أن يكون تعبيراً لليهود بأنّهم أهل كتاب وعلم وهم يبغون حكم الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحي من الله تعالى. وعن الحسن: هو عامّ في كل من يبغي غير حكم الله، والحكم حكمان: حكم بعلم فهو حكم الله، وحكم بجهل فهو حكم الشيطان. وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض، فقرأ هذه الآية. وقرئ: تبغون بالتاء والياء. وقرأ السلمي: أفحكم الجاهلية يبغون، برفع الحكم على الابتداء وإيقاع يبغون خبراً، وإسقاط الراجع عنه كإسقاطه عن الصلة في: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾، وعن الصفة في: الناس رجلان رجل أهنت ورجل أكرمت، وعن الحال في: مررت بهند يضرب زيد. وقرأ قتادة: أفحكم الجاهلية، على أنّ هذا الحكم الذي يبغونه إنّما يحكم به أفعى نجران أو نظيره من حكّام الجاهلية، فأرادوا بسفههم أن يكون محمد خاتم النبيين حكماً كأولئك الحكام. اللام في قوله: ﴿لقوم يوقنون﴾ للبيان كاللام في ﴿هيت لك﴾، أي: هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنّهم الذين يتيقنون أنّ لا أعدل من الله ولا أحسن حكماً منه.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصافونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين، ثم علل النهي بقوله: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي: إنما يوالي بعضهم بعضاً لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر، فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم. ﴿ومن يتولهم منكم فإنه﴾ من جملتهم وحكمه حكمهم. وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تراءى ناراهما»[2]. ومنه قول عمر رضي الله عنه لأبي موسىٰ في كاتبه النصراني: لا تكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تأمنوهم إذ خوّنهم الله، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله. وروي أنّه قال له أبو موسىٰ: لا قوام للبصرة إلا به، فقال: مات النصراني والسلام[3]. يعني: هب أنّه قد مات فما كنت تكون صانعاً حينئذٍ فاصنعه الساعة واستغن عنه بغيره. ﴿إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني: الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفر يمنعهم الله ألطافه ويخذلهم مقتاً لهم.

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿يسارعون فيهم﴾ ينكمشون في موالاتهم ويرغبون فيها ويعتذرون بأنّهم لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان، أي: صرف من صروفه ودولة من دوله فيحتاجون إليهم وإلى معونتهم، وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أنّه قال لرسول الله ﷺ: إنّ لي موالي من يهود كثيراً عددهم وإنّي أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله، فقال عبد الله ابن أبيّ: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية مواليّ، وهم يهود بني قينقاع[4]. ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين ﴿أو أمر من عنده﴾ يقطع شأفة اليهود ويجليهم عن بلادهم فيصبح المنافقون نادمين على

---

(1) ابن أبي شيبة 9/434، كتاب: الديات، باب: إن المسلمين تتكافأ دماؤهم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: النهي عن قتل من اعتصم بالسجود الحديث (2645)، والترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين الحديث (1604)، والنسائي= في كتاب: القسامة، باب: القعود بغير حديدة الحديث: (4780).

(3) أخرجه البيهقي في سننه، كتاب: أدب القاضي.

(4) أخرجه ابن أبي شيبة 12/137، كتاب: الفضائل، باب: عبادة بن الصامت.

ـا حدّثوا به أنفسهم، وذلك أنّهم كانوا يشكون في أمر رسول الله ﷺ ويقولون: ما نظنّ أن يتم له أمر، وبالحري ن تكون الدولة والغلبة لهؤلاء، وقيل: ﴿أو أمر من عنده﴾، و أن يؤمر النبيّ ﷺ بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم يندموا على نفاقهم. وقيل: أو أمر من عند الله لا يكون فيه لناس فعل، كبني النضير الذين طرح الله في قلوبهم الرعب ـأعطوا بأيديهم من غير أن يوجف عليهم بخيل ولا ركاب.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ قرئ: بالنصب عطفاً على أن يأتي، وبالرفع على أنّه كلام مبتدأ، أي: ويقول الذين آمنوا ـي ذلك الوقت، وقرئ: يقول بغير واو، وهي في مصاحف ـكة والمدينة والشام كذلك، على أنّه جواب قائل يقول: ـماذا يقول المؤمنون حينئذٍ؟ فقيل: يقول الذين آمنوا: أهؤلاء الذين أقسموا؟

فإنْ قلتَ: لمن يقولون هذا القول؟ **قلتُ:** إمّا أن يقوله ـعضهم لبعض تعجباً من حالهم واغتباطاً بما منّ الله عليهم من التوفيق في الإخلاص ﴿أهؤلاء الذين أقسموا﴾ ـكم بإغلاظ الأيمان أنّهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار، إمّا أن يقولوه لليهود لأنّهم حلفوا لهم بالمعاضدة النصرة كما حكى الله عنهم، ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾. ﴿حبطت أعمالهم﴾ من جملة قول المؤمنين، أي: بطلت عمالهم التي كانوا يتكلفونها في رأي أعين الناس، وفيه ـعنى التعجب كأنّه قيل: ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم! أو ـن قول الله عزّ وجلّ شهادة لهم بحبوط الأعمال وتعجيباً ـن سوء حالهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾.

وقرئ: ﴿من يرتدّ﴾ ومن يرتدد، وهو في الإمام بدالين، وهو من الكائنات التي أخبر عنها في القرآن قبل كونها، وقيل: بل كان أهل الردّة إحدى عشرة فرقةً، ثلاث في عهد رسول الله ﷺ: بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسي، وكان كاهناً تنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج عمال رسول الله ﷺ، فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن، فأهلكه الله على يدي فيروز الديلمي بيته فقتله، وأخبر رسول الله ﷺ بقتله ليلة قتل فسرّ المسلمون، وقبض رسول الله ﷺ من الغد، وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأوّل. وبنو حنيفة قوم مسيلمة تنبأ وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أمّا بعد فإنّ الأرض نصفها لي ونصفها لك. فأجاب عليه الصلاة والسلام: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أمّا بعد فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». فحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجنود المسلمين وقتل على يدي وحشي قاتل حمزة. وكان يقول: قتلت خير الناس في الجاهلية، وشر الناس في الإسلام، أراد في جاهليتي وإسلامي. وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالداً فانهزم بعد القتال إلى الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه. وسبع في عهد أبي بكر رضي الله عنه: فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قرّة بن سلمة القشيري، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوّجت نفسها مسيلمة الكذاب وفيها يقول أبو العلاء المعرّي في كتاب استغفر واستغفري:

أمّت سجاح ووالاها مسيلمة كذابة في بني الدنيا وكذاب[1]

وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد، وكفى الله أمرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه. وفرقة واحدة في عهد عمر رضي الله عنه غسان قوم جبلة بن الأيهم نصرته اللطمة وسيرته إلى بلاد الروم بعد إسلامه. ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ قيل: لما نزلت أشار رسول الله ﷺ إلى أبي موسى الأشعري، فقال: قوم هذا[2]، وقيل: هم ألفان من النخع، وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس جاهدوا يوم القادسية. وقيل: هم الأنصار. وقيل: سئل رسول الله ﷺ عنهم، فضرب يده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذووه». ثم قال: «لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس»[3]. ﴿يحبهم ويحبونه﴾[4] محبة العباد لربّهم

---

1) قصة الردة صنّف فيها ابن إسحاق والواقدي وأصحاب المغازي، وغيرهم.

2) حديث هم قومك يا أبا موسى، أخرجه الحاكم في المستدرك 2/313، وابن أبي شيبة 12/123، كتاب: الفضائل، باب: أبو موسى الأشعري.

3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الجمعة، باب: (1) الحديث (4897)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل فارس، الحديث (6445).

4) قال أحمد: لا شكّ أن تفسير محبة العبد لله بطاعته له على خلاف الظاهر، وهو من المجاز الذي يسمى فيه المسبب باسم السبب، والمجاز الذي لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرها، فليمتحن =

= حقيقة المحبة لغة بالقواعد، لينظر أهي ثابتة للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا؛ إذا المحبة لغة ميل المتصف بها إلى أمر ملذ، واللذات الباعثة على المحبة منقسمة إلى مدرك بالحس كلذة الذوق في المطعوم، ولذة النظر واللمس في الصور المستحسنة، ولذة الشم في الروائح العطرة، ولذة السمع في النغمات الحسنة، وإلى لذة تدرك بالعقل، كلذة الجاه والرياسة والعلوم، وما يجري مجراها، فقد ثبت أنّ في اللذات الباعثة على المحبة، ما لا يدركه إلا العقل دون الحس، ثم تتفاوت المحبة ضرورة بحسب تفاوت البواعث عليها، فليس اللذة برئاسة الإنسان على أهل قرية، كلذته بالرياسة على أقاليم معتبرة، وإذا تفاوتت المحبة بحسب تفاوت البواعث، فلذات العلوم أيضاً متفاوتة بحسب تفاوت المعلومات، فليس معلوم =

طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه، ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثني عليهم ويرضى عنهم. وأما ما يعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشر وأسوأهم طريقةً، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء شيئاً، وهم الفرقة المفتعلة المتفعلة من الصوف وما يدينون به من المحبة والعشق والتغني على كراسيهم ـ خرّبها الله ـ وفي مراقصهم ـ عطلها الله ـ بأبيات الغزل المقولة في المردان الذين يسمونهم شهداء، وصعقاتهم التي أين عنها صعقة موسى عند دك الطور، فتعالى الله عنه علواً كبيراً، ومن كلماتهم: كما أنّه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته، فإنّ الهاء راجع إلى الذات دون النعوت والصفات، ومنها: الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة فإذا لم يكن ذلك لم تكن فيه حقيقة.

فإنْ قلتَ: أين الراجع من الجزاء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط؟ **قلتُ:** هو محذوف معناه: فسوف يأتي الله بقوم مكانهم، أو بقوم غيرهم أو ما أشبه ذلك. ﴿**أذلة**﴾ جمع ذليل، وأما ذلول فجمعه ذلل، ومن زعم أنّه من الذلّ الذي هو نقيض الصعوبة فقد غبي عنه أنّ ذلولاً لا يجمع على أذلة.

فإنْ قلتَ: هلا قيل: أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ **قلتُ:** فيه وجهان:

أحدهما: أن يضمن الذلّ معنى الحنو والعطف، كأنّه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.

والثاني: أنّهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم، ونحوه قوله عز وجل: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[1] وقرئ: أذلة وأعزة: بالنصب على الحال. ﴿**ولا يخافون لومة لائم**﴾ يحتمل أن تكون الواو للحال على أنّهم يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين، فإنّهم كانوا موالين لليهود ـ لعنت ـ فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنّه يلحقهم فيه لوم من جهتهم، وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط. وأن تكون للعطف على أن من صفتهم المجاهدة في سبيل الله وأنّهم صلاب في دينهم إذا شرعوا في أمر من أمور الدين إنكار منكر، أو أمر بمعروف، مضوا فيه كالمسامير المحماة، لا يرعبهم قول قائل ولا اعتراض معترض ولا لومة لائم يشق عليه جدهم في إنكارهم وصلابتهم في أمرهم. واللومة المرة من اللوم وفيها وفي التنكير مبالغتان، كأنّه قيل: لا يخافون شيئاً قط من لوم أحد من اللوام. و ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة. ﴿**يؤتيه**﴾ يوفق له ﴿**من يشاء**﴾ ممن يعلم أنّ له لطفاً ﴿**واسع**﴾ كثير الفواضل والألطاف ﴿**عليم**﴾ بمن هو من أهلها.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾.

عقب النهي عن موالاة من تجب معاداتهم ذكر من تجب موالاتهم بقوله تعالى: ﴿**إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا**﴾ ومعنى إنّما: وجوب اختصاصهم بالموالاة.

= أكمل، ولا أجمل من المعبود الحق، فاللذة الحاصلة في معرفته تعالى، ومعرفة جلاله وكماله تكون أعظم، والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات، والموافقات، فقد تحصل من ذلك أنّ محبة العبد ممكنة، بل واقعة من كلّ مؤمن، فهي من لوازم الإيمان، وشروطه، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم، وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقي لغة، وكانت الطاعات والموافقات، كالمسبب عنها، والمغاير لها ألا ترى إلى الأعرابي الذي سأل عن الساعة، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «**ما أعددت لها**»، قال: ما أعددت لها كبير عمل، ولكن حبَّ الله ورسوله، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أنت مع مَن أحببت**». فهذا الحديث ناطق، بأنّ المفهوم من المحبة لله غير الأعمال، والتزام الطاعات؛ لأنّ الأعرابي نفاها، وأثبت الحب وأقرّه عليه الصلاة والسلام على ذلك، ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة، فالمحبة في اللغة إذا تأكدت سميت: عشقاً، فمن تأكدت محبته لله تعالى، وظهرت آثار تأكدها عليه من استيعاب الأوقات في ذكره وطاعته، فلا يمنع أن تسمى محبته عشقاً، إذ العشق ليس إلا المحبة البالغة، وما أردت بهذا الفصل إلا تخليص الحق والانتصاب لأحباء الله عزّ وجلّ من الزمخشري، فإنه خلط كلامه الغث بالسمين، فاطلق القول كما سمعته بالقدح الفاحش في المتصوّفة من غير تحرّ منه نسب إليهم ما لا يعبأ بمرتكبه، ولا يعدّ في = البهائم فضلاً عن خواص البشر، ولا يلزم من تسمى طائفة بهذا الاسم غاصبين له من أهله، ثم ارتكابهم ما نقل عنهم مما ينافي حال المسمين به، حقيقة أن يؤاخذ الصالح بالطالح، ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، وهذا كما أن علماء الدين قد انتسب إليهم قوم سموا أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، ثم خلعوا الربقة، فجحدوا صفات الله تعالى، وقضاءه، وقدره، وقالوا: إنّ الأمر أنف، وجعلوا لأنفسهم شركاً في المخلوقات، وفعلوا، وصنعوا، فلا يسوغ لنا أن نقدح في علماء أصول الدين مطلقاً؛ لأنهم قد انتسب إليهم من لا حيلة لهم في نفيه عن التسمي بنعتهم، و﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾، ولا شكّ أنّ في الناس من أنكر تصوّر محبة العبد لله، إلا بمعنى طاعته له لا غير، وهو الذي يحاز إليه الزمخشري، وقد بينا تصوّر ذلك وأوضحناه، والمعترفون بتصوّر ذلك وثبوته، ينسبون المنكرين إلى أنهم جهلوا فأنكروا كما أنّ الصبي ينكر على من يعتقد أنّ وراء اللعب لذة من جماع أو غيره، والمنهمك في الشهوات والغرام بالنساء يظن أن ليس وراء ذلك لذة من رياسة أو جاه، أو شبه ذلك، وكل طائفة تسخر بمن فوقها، وتعتقد أنهم مشغلون في غير شيء، قال الغزالي: والمحبون لله يقولون لمن أنكر عليهم ذلك ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾.

(1) سورة الفتح، الآية: 29.

فإنْ قلتَ: قد نكرت جماعةً، فهلا قيل: إنما أولياؤكم؟ قلتُ: أصل الكلام إنّما وليكم الله فجعلت الولاية لله على طريق الأصالة، ثم نظم في سلك إثباتها له إثباتها لرسول الله ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع. ولو قيل: إنّما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع. وفي قراءة عبد الله: إنّما مولاكم.

فإنْ قلتَ: ﴿الذين يقيمون﴾ ما محله؟ قلتُ: الرفع على البدل من الذين آمنوا أو على هم الذين يقيمون، أو النصب على المدح، وفيه تمييز للخلص من الذين آمنوا نفاقاً أو واطأت قلوبهم ألسنتهم إلا أنّهم مفرطون في العمل. ﴿وهم راكعون﴾ الواو فيه للحال، أي: يعملون ذلك في حال الركوع وهو الخشوع والإخبات والتواضع لله إذا صلوا وإذا زكوا. وقيل: هو حال من يؤتون الزكاة بمعنى يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة، وإنّها نزلت في عليّ كرّم الله وجهه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه، كأنّه كان مرجاً في خنصره فلم يتكلف لخلعه كثير عمل تفسد بمثله صلاته(1).

فإنْ قلتَ: كيف صح أن يكون لعليّ رضي الله عنه واللفظ لفظ جماعة! قلتُ: جيء به على لفظ الجمع، وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً ليرغب الناس في مثل فعله، فينالوا مثل ثوابه، ولينبه على أنّ سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البر والإحسان، وتفقّد الفقراء، حتى إن لزهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخروه إلى الفراغ منها.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فإنّ حزب الله﴾(2) من إقامة الظاهر مقام المضمر، ومعناه: فإنّهم هم الغالبون ولكنهم بذلك جعلوا علاماً لكونهم حزب الله، وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حزبهم، ويحتمل أن يريد بحزب الله: الرسول والمؤمنين، ويكون المعنى: ومن يتولهم فقد تولى حزب الله واعتضد بمن لا يغالب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

روي: أنّ رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادّونهما. فنزلت. يعني: أنّ اتخاذهم دينكم هزواً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء والشنآن والمنابذة. وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار، وإن كان أهل الكتاب من الكفار؛ إطلاقاً للكفار على المشركين خاصةً والدليل عليه قراءة عبد الله: ومن الذين أشركوا. وقرئ: والكفار بالنصب والجرّ، وتعضد قراءة الجرّ قراءة أبي: ومن الكفار. ﴿واتّقوا الله﴾ في موالاة الكفار وغيرها ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ حقاً، لأنّ الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿اتخذوها﴾ الضمير للصلاة أو للمناداة، قيل: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أنّ محمداً رسول الله، قال: حرق الكاذب. فدخلت خادمة بنار ذات ليلة وهو نائم، فتطايرت منها شرارة في البيت فاحترق البيت، واحترق هو وأهله(3). وقيل: فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده. ﴿لا يعقلون﴾ لأنّ لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة فكأنّه لا عقل لهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قرأ الحسن: هل تنقمون بفتح القاف، والفصيح كسرها. والمعنى: هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالكتب المنزلة كلها. ﴿وإنّ أكثركم فاسقون﴾.

فإنْ قلتَ: علام عطف قوله: ﴿وإنّ أكثركم فاسقون﴾؟ قلتُ: فيه وجوه: منها: أن يعطف على ﴿أن آمنا﴾، بمعنى: وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمرّدكم وخروجكم عن الإيمان، كأنّه قيل: وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي: واعتقاد أنّكم فاسقون، ومنها: أن يعطف على المجرور، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل وبأنّ أكثركم فاسقون. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون. ويجوز أن يكون تعليلاً معطوفاً على تعليل محذوف، كأنه قيل: كما تنقمون منا إلا الأيمان لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات. ويدل عليه تفسير الحسن: بفسقكم نقمتم ذلك علينا. وروي: أنّه أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال: أومن بالله وما أنزل إلينا، إلى قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾(4) فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام: ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم. فنزلت(5)، وعن نعيم بن ميسرة: وإنّ أكثركم بالكسر، ويحتمل أن ينتصب

---

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه في تفسيره والثعلبي.

(2) قال أحمد: ومقابله قوله تعالى: ﴿إنّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ فوضع الظالمين موضع ضمير الأوّل، ليزيدهم سمة الظلم إلى الخسران.

(3) الطبري في تفسيره.

(4) سورة آل عمران، الآية: 84.

(5) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص 114.

وأن أكثركم بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون، أي: ولا تنقمون أنّ أكثركم فاسقون، أو يرتفع على الابتداء والخبر محذوف، أي: وفسقكم ثابت معلوم عندكم لأنكم علمتم أنّا على الحق وأنّكم على الباطل إلا أن حب الرياسة وكسب الأموال لا يدعكم فتنصفوا.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى المنقوم ولا بدّ من حذف مضاف قبله أو قبل من تقديره بشر من أهل ذلك أو دين ﴿مَن لعنه الله﴾. و﴿من لعنه الله﴾ في محل الرفع على قولك: هو من لعنه الله، كقوله تعالى: ﴿قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار﴾[1] أو في محل الجر على البدل من شر. وقرئ: مثوبة ومثوبة، ومثالهما مشورة ومشورة.

فإنْ قلتَ: المثوبة مختصة بالإحسان فكيف جاءت في الإساءة؟ قلتُ: وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة قوله: تحية بينهم ضرب وجيع. ومنه: ﴿فبشّرهم بعذاب أليم﴾[2].

فإنْ قلتَ: المعاقبون من الفريقين هم اليهود فلم شورك بينهم في العقوبة؟ قلتُ: كان اليهود ـ لعنوا ـ يزعمون أنّ المسلمين ضالون مستوجبون للعقاب، فقيل لهم: من لعنه الله شر عقوبة في الحقيقة واليقين من أهل الإسلام في زعمكم ودعواكم[3]. ﴿وعبد الطاغوت﴾ عطف على صلة من، كأنّه قيل: ومن عبد الطاغوت. وفي قراءة أبيّ: وعبدوا الطاغوت، على المعنى: وعن ابن مسعود: ومن عبدوا، وقرئ: وعابد الطاغوت عطفاً على القردة. وعابدي وعباد وأعبد وعبد ومعناه: الغلوّ في العبودية، كقولهم: رجل حذر وفطن، للبليغ في الحذر والفطنة، قال:

أبني لبينى إن أمّكم أمة وإن أباكم عبد

وعبد: بوزن حطم، وعبيد وعبد بضمتين جمع عبيد وعبدة بوزن كفرة، وعبد وأصله عبدة فحذفت التاء للإضافة، أو هو كخدم في جمع خادم، وعبد وعباد وأعبد

وعبد الطاغوت على البناء للمفعول، وحذف الراجع بمعنى وعبد الطاغوت فيهم أو بينهم، وعبد الطاغوت بمعنى صار الطاغوت معبوداً من دون الله، كقولك: أمر إذا صار أميراً وعبد الطاغوت بالجر عطفاً على من لعنه الله.

فإنْ قلتَ: كيف جاز أن يجعل الله منهم عباد الطاغوت؟ قلتُ: فيه وجهان:

أحدهما: أنّه خذلهم حتى عبدوها.

والثاني: أنّه حكم عليهم بذلك ووصفهم به، كقوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً﴾[4] وقيل: الطاغوت العجل لأنّه معبود من دون الله، ولأن عبادتهم للعجل مما زيّنه لهم الشيطان، فكانت عبادتهم له عبادة للشيطان وهو الطاغوت. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: أطاعوا الكهنة وكل من أطاع أحداً في معصية الله فقد عبده. وقرأ الحسن: الطواغيت. وقيل: وجعل منهم القردة أصحاب السبت، والخنازير كفار أهل مائدة عيسى. وقيل: كلا المسخين من أصحاب السبت، فشبانهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير، وروي أنّها لما نزلت كان المسلمون يعيرون اليهود ويقولون: يا إخوة القردة والخنازير فينكسون رؤوسهم. ﴿أولٰئك﴾ الملعونون الممسوخون. ﴿شر مكاناً﴾ جعلت الشرارة للمكان وهي لأهله وفيه مبالغة ليست في قولك: أولئك شر وأضل لدخوله في باب الكناية التي أخت المجاز.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ يظهرون له الإيمان نفاقاً، فأخبره الله تعالى بشأنهم، وأنّهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا لم يتعلق بهم شيء مما سمعوا به من تذكيرك بآيات الله ومواعظك. وقوله: ﴿بالكفر﴾[5] وبه حالان، أي: دخلوا كافرين وخرجوا كافرين، وتقديره ملتبسين بالكفر. وكذلك قوله: ﴿وقد دخلوا... وهم قد خرجوا﴾ ولذلك دخلت «قد» تقريباً للماضي من الحال، والمعنى آخر وهو أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم وكان رسول الله ﷺ متوقعاً لإظهار الله ما كتموه، فدخل حرف التوقع وهو متعلق بقوله: ﴿قالوا

---

(1) سورة الحج، الآية: 72.

(2) سورة آل عمران، الآية: 21.

(3) قال أحمد رحمه الله: السؤال يلزم القدرية؛ لأنهم يزعمون أنّ الله تعالى إنما أراد منهم أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وأن عبادتهم للطاغوت قبيحة، والله تعالى لا يريد القبائح، بل تقع في الوجود على خلاف مشيئته، فلذلك يضطر الزمخشري إلى تأويل الجعل بالخذلان، أو بالحكم، وكذلك أوّل. قوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ بمعنى حكمنا عليهم بذلك هذا مقتضى قاعدة القدرية، وأمّا على عقيدة أهل السنة الموحدين حقاً، فالآية على ظاهرها، والله تعالى هو الذي أشقاهم، وخلق في قلوبهم طاعة الطاغوت، وعبادته ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإذا =

= رجع القدري في تحقيق الخذلان، أو الحكم الذي يستروح إلى التأويل به لم يقدر منه على حقيقة، ولم يفسره بغير الخلق إن اعترف بالحق، وترك ارتكاب المراء، والتذبذب مع الأهواء، والله ولي التوفيق.

(4) سورة الزخرف، الآية: 19.

(5) قال أحمد: وفي تصدير الجملة الثانية بالضمير تأكيد لاتحاد حالهم في الكفر، أي: وقد دخلوا بالكفر وخرجوا، وهم أولئك على حالهم في الكفر، كما تقول: لقيت زيداً بعد عوده من سفره، وهو هو، أي: على حاله، وفي المثل وعبد الحميد عبد الحميد، أي: حالته باقية، والله أعلم.

أمنا﴾ أي: قالوا ذلك وهذه حالهم[1].

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

الإثم: الكذب بدليل قوله تعالى: ﴿عن قولهم الإثم والعدوان﴾ الظلم. وقيل: الإثم كلمة الشرك، وقولهم: عزير ابن الله، وقيل: الإثم ما يختص بهم والعدوان ما يتعداهم إلى غيرهم. والمسارعة في الشيء الشروع فيه بسرعة.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾[2] كأنّهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير؛ لأنّ كل عامل لا يسمى صانعاً ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرّب وينسب إليه. وكان المعنى في ذلك: أن مواقع المعصية معه الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها، وأما الذي ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره، فإذا فرط في الإنكار كان أشدّ حالاً من المواقع. ولعمري أنّ هذه الآية مما يفذ السامع وينعي على العلماء توانيهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي أشدّ آية في القرآن. وعن الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها[3].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

غل اليد وبسطها: مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾[4] ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه، لأنّهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة، حتى أنّه يستعمله في ملك لا يعطي عطاءً قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاءً جزيلاً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، لأنّ بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود، وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد كقوله:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل ... شكرت نداه تلاعه ووهاده

ولقد جعل لبيد للشمال يداً في قوله:

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ويقال: بسط اليأس كفيه في صدري، فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفان، ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به.

فإنْ قلتَ[5]: قد صح أن قولهم: ﴿يد الله مغلولة﴾ عبارة عن البخل فما تصنع بقوله: ﴿غلت أيديهم﴾ ومن حقه أن يطابق ما تقدّمه وإلا تنافر الكلام وزل عنه سننه؟ قلتُ: يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم. ونحوه بيت الأشتر:

بقيت وفري وانحرفت عن العلا ... ولقيت أضيافي بوجه عبوس

ويجوز أن يكون دعاءً عليهم بغل الأيدي، حقيقة يغللون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم. والطباق من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز كما تقول: سبني سب الله دابره، أي: قطعه، لأنّ السب أصله القطع.

فإنْ قلتَ: كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ قلتُ: المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم فيزيدون بخلاً إلى بخلهم ونكداً إلى نكدهم، أو بما هو مسبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم وسوء الأحدوثة التي تخزيهم وتمزق أعراضهم.

فإنْ قلتَ[6]: لم ثنيت اليد في قوله تعالى: ﴿بل يداه

---

(1) قال أحمد: وقوله عن قولهم الإثم، يدل على أنّ الإثم الأوّل مقول، فيحتمل أن يكون المراد: الكذب مطلقاً، ويحتمل أن يراد كلمة الشرك، واستدلال الزمخشري على أنّ المراد: الكذب لا يتم، وإنما يدل على أنه مقول، فيحتمل الأمرين، والله أعلم.

(2) قال أحمد: يعني أنه لما عبر عن الواقع المذموم من مرتكبي المناكير بالعمل في قوله، لبئس ما كانوا يعملون، وعبر عن ترك الإنكار عليهم، حيث ذمّه بالصناعة في قوله: ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ كان هذا الذم أشدّ؛ لأنه جعل المذموم عليه صناعة لهم، وللرؤساء وحرفة لازمة هم فيها أمكن من أصحاب المناكير في أعمالهم هذا مراده، والله أعلم.

(3) قال أحمد: والنكتة في استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالباً، ولا شيء أثبت من الصور الحسية في الذهن، فلما كان الجود، والبخل معنيين لا يدركان بالحس، ويلازمهما صورتان تدركان بالحس، وهو بسط اليد للجود، وقبضها للبخل عبر عنهما بلازمهما، لفائدة الإيضاح، والانتقال من المعنويات إلى المحسوسات، والله أعلم.

(4) سورة الإسراء، الآية: 29.

(5) قال أحمد: لقد نقص فضيلته التي أوردها في هذا الفصل، بما ضمنه هذا السؤال، والجواب من القاعدة الفاسدة في أن الله تعالى يستحيل عليه أن يريد من عباده شيئاً، مانعاً عليهم، وبنى على ذلك استحالة أن يدعو عليهم بالبخل؛ لأنه لم يرده منهم ويستحيل أن يريده منهم، فوجه هذا النص بالتأويل، والتمسك بالأباطيل، والحق أنّ الله يدعو عليهم بالبخل، ودعاؤه عبارة عن خلقه الشح في قلوبهم، والقبض في أيديهم، فهو الداعي والخالق، لا خالق إلا هو يخلق لهم البخل، ويتقدس عنه، ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾، فليت الزمخشري لم يتحدث في تفسير القرآن، إلا من حيث علم البيان، فإنه فيه أفرس الفرسان لا يجاري في ميدانه، ولا يماري في بيانه.

(6) قال أحمد: ولما كان المعهود في العطاء أن يكون بإحدى اليدين، وهي اليمين، في نسبة البخل، وفي إضافته إلى الواحدة تنزيلاً منهم، على اعتقاد الجسيمة بأن ينسب إلى ذاته صفة الكرم المعبر عنها بالبسط، وبأن أضافه اليدين جميعاً؛ لأنّ كلتا يديه يمين، كما ورد في الحديث تنبيهاً على نفي الجسيمة، إذ لو كانت ثابتة جل الله عنها، لكانت إحدى اليدين يميناً، والأخرى شمالاً ضرورة، =

مبسوطتان﴾، وهي مفردة في ﴿يد الله مغلولة﴾؟ قلتُ: ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه، وذلك أنّ غاية ما يبذله السخي بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعاً، فبني المجاز على ذلك. وقرئ: ولعنوا بسكون العين، وفي مصحف عبد الله: بل يداه بسطان. يقال: يده بسط بالمعروف، ونحوه مشية سُجُح وناقة صرح. ﴿ينفق كيف يشاء﴾ تأكيد للوصف بالسخاء ودلالة على أنّه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة والمصلحة. روي أنّ الله تبارك وتعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما عصوا الله في محمد ﷺ وكذبوه، كف الله تعالى ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة، ورضي بقوله الآخرون فأشركوا فيه ﴿وليزيدن﴾ يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تمادياً في الجحود وكفروا بآيات الله. ﴿وألقينا بينهم العداوة﴾ فكلمهم أبداً مختلف وقلوبهم شتى لا يقع اتفاق بينهم ولا تعاضد ﴿كلما أوقدوا ناراً﴾ كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد قط، وقد أتاهم الإسلام وهم في ملك المجوس. وقيل: خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين. وقيل: كلما حاربوا رسول الله ﷺ نصر عليهم. وعن قتادة رضي الله عنه: لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس ﴿ويسعون﴾ ويجتهدون في الكيد للإسلام ومحو ذكر رسول الله ﷺ من كتبهم.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾.

﴿ولو أنّ أهل الكتاب﴾ مع ما عددنا من سيآتهم ﴿آمنوا﴾ برسول الله ﷺ وبما جاء به وقرنوا إيمانهم بالتقوى التي هي الشريطة في الفوز بالإيمان ﴿لكفرنا عنهم﴾ تلك السيئات ولم نؤاخذهم بها، ﴿ولأدخلناهم﴾ مع المسلمين الجنة، وفيه إعلام بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتحه باب التوبة على كل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى[1]، وأنّ الإيمان لا ينجي ولا يسعد إلا مشفوعاً بالتقوى. كما قال الحسن: هذا العمود، فأين الأطناب؟

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾.

﴿ولو أنّهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ ﴿وما أنزل إليهم﴾ من سائر كتب الله لأنّهم مكلفون الإيمان بجميعها، فكأنّها أنزلت إليهم. وقيل: هو القرآن، لوسع الله عليهم الرزق وكانوا قد قحطوا، وقوله: ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ عبارة عن التوسعة، وفيه ثلاثة أوجه: أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض، وأن يكثر الأشجار المثمرة والزروع المغلة، وأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدل منها من رؤوس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم. ﴿منهم أمّة مقتصدة﴾ طائفة حالها أمم في عداوة رسول الله ﷺ. وقيل: هي الطائفة المؤمنة عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى. و﴿ساء ما يعملون﴾ فيه معنى التعجب كأنّه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه والروم.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾.

﴿بلغ ما أنزل إليك﴾[2] جميع ما أنزل إليك، وأيّ شيء

= فلما أثبت أن كلتيهما يمين في الجسيمة، وأضاف الكرم إليهما، لا كما يضاف في الشاهد إلى اليد اليمنى، خاصة إذ الأخرى شمال، وليست محلاً للتكرم، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وهو ينتهز الفرصة من ظاهر هذه الآية، فيجعله دليلاً على قاعدته في أنّ مجرد الإيمان، لا ينجي من الخلود في النار، حتى ينضاف إلى التقوى؛ لأنّ الله تعالى جعل المجموع في هذه الآية شرطاً للتكفير، ولإدخال الجنة، وظاهره أنهما ما لم يجتمعا لا يوجد تكفير، ولا دخول الجنة، وأنى له ذلك، والإجماع، والاتفاق من الفريقين أهل السنة، والمعتزلة عن أنّ مجرد الإيمان يجب ما قبله، ويمحوه كما ورد النص، فلو فرضنا موت الداخل في الإيمان عقيب دخوله فيه، لكان كيوم ولدته أمه، باتفاق مكفر الخطايا محكوماً له بالجنة، فدلّ ذلك على أنّ اجتماع الأمرين، ليس بشرط هذا إن كان المراد بالتقوى الأعمال، وإن كانت التقوى على أصل وضعها الخوف من الله عزّ وجلّ، فهذا المعنى ثابت لكل مؤمن، وإن قارف الكبائر، وحينئذٍ لا يتم الزمخشري منه = غرض، وما هذا إلا إلحاح في مخالفة المعتقد المستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى، أو سرق» كرّرها النبي ﷺ مراراً، ثم قال: «وإن رغم أنف أبي ذر». لما راجعه رضي الله عنه في ذلك، ونحن نقول وإن رغم أنف القدرية.

(2) قال أحمد: وهذا الاتحاد بين الشرط والجزاء ظاهر؛ لأنّ حاصله إن لم تبلغ الرسالة، لم تبلغ الرسالة باتحاد المبتدأ والخبر، حتى لا يزيد الخبر عليه شيئاً في الظاهر، كقوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري

فجعل الخبر عن المبتدأ، بلا مزيد في اللفظ، وأراد: وشعري شعري المتهور بلاغته، والمستفيض فصاحته، ولكنه أفهم بالسكوت عن هذه الصفات، التي بها تحصل الفائدة من لوازم شعره في أفهام الناس، السامعين لاشتهاره بها، وأنه غني عن ذكرها لشهرتها وذياعها، وكذلك أريد في الآية؛ لأنّ عدم تبليغ الرسالة أمر معلوم عند الناس، مستقرّ في الأفهام أنه عظيم شنيع =

أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً ولا خائف أن ينالك مكروه. ﴿وإن لم تفعل﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك. ﴿فما بلغت رسالته﴾ وقرئ: رسالاته، فلم تبلغ إذاً ما كلفت من أداء الرسالات ولم تؤدّ منها شيئاً قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، وإن لم تؤدّ بعضها فكأنّك أغفلت أداءها جميعاً، كما أنّ من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها لإدلاء كل منها بما يدليه غيرها، وكونها كذلك في حكم شيء واحد، والشيء الواحد لا يكون مبلغاً غير مبلغ مؤمناً به غير مؤمن به. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن كتمت آيةً لم تبلغ رسالاتي. وروي عن رسول الله ﷺ: «بعثني الله برسالاته فضقت بها ذرعاً، فأوحى الله إليّ: إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك، وضمن لي العصمة فقويت».

فإنْ قلتَ: وقوع قوله: ﴿فما بلغت رسالاته﴾ جزاء للشرط ما وجه صحته! **قلتُ:** فيه وجهان: أحدهما: أنّه إذا لم يمتثل أمر الله في تبليغ الرسالات وكتمها كلها كأنّه لم يبعث رسولاً كان أمراً شنيعاً لا خفاء بشناعته، فقيل: إن لم تبلغ منها دني شيء وإن كان كلمة واحدة فأنت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلها كما عظم قتل النفس بقوله: ﴿فكأنّما قتل الناس جميعاً﴾. والثاني: أن يراد فإن لم تفعل فلك ما يوجبه كتمان الوحي كله من العقاب، فوضع السبب موضع المسبب. ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام: فأوحى الله إليّ: إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك. ﴿والله يعصمك﴾ عدة من الله بالحفظ والكلاءة، والمعنى: والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم؟

فإنْ قلتَ: أين ضمان العصمة وقد شجّ في وجهه يوم أحد، وكسرت رباعيته صلوات الله عليه؟ **قلتُ:** المراد أنّه يعصمه من القتل، وفيه أنّ عليه أن يحتمل كل ما دون النفس في ذات الله، فما أشدّ تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل: نزلت بعد يوم أحد، والناس الكفار بليل

قوله: ﴿إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ومعناه: أنّه لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك. وعن أنس: كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة أدم وقال: «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس».

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾.

﴿لستم على شيء﴾ أي: على دين يعتد به حتى يسمى شيئاً لفساده وبطلانه، كما تقول: هذا ليس بشيء، تريد تحقيره وتصغير شأنه. وفي أمثالهم: أقل من لا شيء. ﴿فلا تأس﴾ فلا تتأسف عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك وفي المؤمنين غنى عنهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿والصابئون﴾(1) رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز إنّ من اسمها وخبرها، كأنّه قيل: إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك، وأنشد سيبويه شاهداً له:

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق

أي: فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك.

فإنْ قلتَ: هلا زعمت أنّ ارتفاعه للعطف على محل إن واسمها؟ **قلتُ:** لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر، لا تقول: إنّ زيداً وعمرو منطلقان.

فإنْ قلتَ: لم لا يصح والنية به التأخير، فكأنّك قلت: إنّ زيداً منطلق وعمرو؟ **قلتُ:** لأنّي إذا رفعته رفعته عطفاً على محل إنّ واسمها والعامل في محلهما هو الابتداء، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر لأنّ الابتداء ينتظم الجزأين في

= ينقم على مرتكبه، بل عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع، فضلاً عن كتمان الرسالة من الرسول، فاستغنى عن ذكر الزيادات، التي يتفاوت بها الشرط والجزاء، للصوقها بالجزاء في الأفهام، وأنّ كل من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ما وراءه من الوعيد، والتهديد، وحسن هذا الأسلوب في الكتاب العزيز، بذكر الشرط عاماً، بقوله: وإن تفعل، ولم يقل، وإن لم تبلغ الرسالة، فما بلغت الرسالة حتى يكون اللفظ متغايراً، وهذه اللفظية، وإن كان المعنى واحداً أحسن رونقاً، وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء، وهذه الذروة انحط عنها أبو النجم بذكر المبتدأ، بلفظ الخبر وحق له أن تتضاءل فصاحته عند فصاحة المعجز، فلا يعاب عليه في ذلك، وهذا الفصل كاللباب من علم البيان، والله الموفق.

(1) قال أحمد: صدق لا ورود للسؤال بهذا التوجيه، ولكن ثم سؤال متوجه، وهو أن يقال: لو عطف الصابئين، ونصبه، كما قرأ ابن كثير، لأفاد أيضاً دخولهم في جملة المتوب عليهم، ولفهم من تقديم ذكرهم على النصارى ما يفهم من الرفع، من أن هؤلاء الصابئين، وهم أوغل الناس في الكفر يتاب عليهم، فما الظن =

= بالنصارى، ولكان الكلام جملة واحدة بليغاً مختصراً، والعطف إفرادي، فلم عدل إلى الرفع وجعل الكلام جملتين، وهل يمتاز بفائدة على النصب، والعطف الإفرادي، ويجاب عن هذا السؤال، بأنه لو نصب وعطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهذا الصنف؛ لأنّ الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات، وهذا الصنف من جملتها والخبر عنها واحد، وأما مع الرفع فينقطع عن العطف الإفرادي، وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به، ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل، تقديره مثلاً، والصابئون كذلك. فيجيء كأنه مقيس على بقية الأصناف، وملحق بها، وهو بهذه المثابة؛ لأنهم لما استقر بعد الأصناف من قبول التوبة، فكانوا أحقاء يجعلهم تبعاً وفرعاً، مشبهين بمن هم أقعد منهم بهذا الخبر، وفائدة التقديم على الخبر، أن يكون توسط هذا المبتدأ المحذوف الخبر، بين الجزئين، أدل على الخبر المحذوف من ذكره، بعد تقضي الكلام وتمامه، والله أعلم.

عمله كما تنتظمها إنّ في عملها، فلو رفعت الصابئون المنوي به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بإن لأعملت فيهما رافعين مختلفين.

فإنْ قلتَ: فقوله ﴿والصابئون﴾ معطوف لا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قلتُ: هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إنّ الذين آمنوا...﴾ إلخ ولا محل لها كما لا محل للتي عطفت عليها.

فإنْ قلتَ: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة، فما فائدة هذا التقديم؟ قلتُ: فائدته التنبيه على أنّ الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظن بغيرهم، وذلك أنّ الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدّهم غياً، وما سموا صابئين إلا لأنّهم صبؤوا عن الأديان كلها، أي: خرجوا. كما أنّ الشاعر قدم قوله: وأنتم تنبيهاً على أنّ المخاطبين أوغل في الوصف بالبغاة من قومه حيث عاجل به قبل الخبر الذي هو بغاة لئلا يدخل قومه في البغي قبلهم مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدماً.

فإنْ قلتَ: فلو قيل: والصابئين وإياكم، لكان التقديم حاصلاً؟ قلتُ: لو قيل هكذا لم يكن من التقديم في شيء لأنّه لا إزالة فيه عن موضعه، وإنّما يقال مقدّم ومؤخر للمزال لا للقار في مكانه. ومجرى هذه الجملة مجرى الاعتراض في الكلام.

فإنْ قلتَ: كيف قال الذين آمنوا ثم قال: ﴿من آمن﴾؟ قلتُ: فيه وجهان: أحدهما أن يراد بالذين آمنوا الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون، وأن يراد بمن آمن من ثبت على الإيمان واستقام ولم يخالجه ريبة فيه.

فإنْ قلتَ: ما محل: ﴿من آمن﴾؟ قلتُ: إما الرفع على الابتداء وخبره ﴿فلا خوف عليهم﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ثم الجملة كما هي خبر إن، وإما النصب على البدل من اسم إن وما عطف عليه أو من المعطوف عليه.

فإنْ قلتَ: فأين الراجع إلى اسم إنّ؟ قلتُ: هو محذوف تقديره: من آمن منهم، كما جاء في موضع آخر. وقرئ: والصابيون بياء صريحة وهو من تخفيف الهمزة، كقراءة من قرأ: يستهزيون، والصابون وهو من صبوت لأنّهم صبوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا أدلة العقل والسمع. وفي قراءة أبيّ رضي الله عنه: والصابئين بالنصب، وبها قرأ ابن كثير، وقرأ عبد الله: يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿لقد أخذنا﴾ ميثاقهم بالتوحيد ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ ليبقوهم على ما يأتون وما يذرون في دينهم. ﴿كلما جاءهم رسول﴾ جملة شرطية وقعت صفة لرسلاً، والراجع محذوف، أي: رسول منهم. ﴿بما لا تهوى أنفسهم﴾ بما يخالف هواهم ويضادّ شهواتهم من مشاق التكليف والعمل بالشرائع.

فإنْ قلتَ[1]: أين جواب الشرط؟ فإنّ قوله: ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ ناب عن الجواب، لأنّ الرسول الواحد لا يكون فريقين ولأنّه لا يحسن أن تقول: إن أكرمت أخي أخاك أكرمت؟ قلتُ: هو محذوف يدل عليه قوله: ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ كأنّه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه. وقوله: ﴿فريقاً كذبوا﴾ جواب مستأنف لقائل يقول: كيف فعلوا برسلهم.

فإنْ قلتَ[2]: لم جيء بأحد الفعلين ماضياً وبالآخر مضارعاً؟ قلتُ: جيء ﴿يقتلون﴾ على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل، واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجيب منها.

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾.

قرئ: أن لا يكون بالنصب على الظاهر وبالرفع على أنّ أن هي المخففة من الثقيلة، أصله أنّه لا يكون فتنة فخففت أن وحذف ضمير الشأن.

فإنْ قلتَ: كيف دخل فعل الحسبان على أنّ التي للتحقيق؟ قلتُ: نزل حسبانهم لقوّته في صدورهم منزلة العلم.

فإنْ قلتَ: فأين مفعولاً حسب؟ قلتُ: سدّ ما يشتمل عليه صلة أن وأنّ من المسند والمسند إليه مسدّ المفعولين، والمعنى: وحسب بنو إسرائيل أنّه لا يصيبهم من الله فتنة، أي: بلاء وعذاب في الدنيا والآخرة. ﴿فعموا﴾ عن الدين ﴿وصموا﴾ حين عبدوا العجل ثم تابوا عن عبادة العجل ف﴿تاب الله عليهم ثم عموا وصموا﴾ كرةً ثانيةً بطلبهم المحال غير المعقول في صفات الله وهو

---

(1) قال أحمد: ومما يدل على حذف الجواب، أنه جاء ظاهراً في الآية الأخرى، وهي توأمه هذه، قوله تعالى: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ فلوقع قوله: ﴿استكبرتم﴾ جواباً، ثم فسر استكبارهم وصنيعهم بالأنبياء، بقتل البعض وتكذيب البعض، ولو قدر الزمخشري ههنا الجواب المحذوف، مثل المنطوق به في أخت الآية، فقال: وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا، لكان أولى، لدلالة على مثله عليه.

(2) قال أحمد: لو يكون حالاً على حقيقته، لأنهم داروا حول قتل محمد= عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد قيل هذا الوجه في أخت هذه الآية في البقرة، وقد مضى وجه اقتضاء صيغة الفعل المضارع، لاستحضاره دون الماضي، وتمثيله بقوله تعالى: ﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ فعدل عن «فأصبحت» إلى «فتصبح» تصويراً للحال، واستحضاراً لها في ذهن السامع، ومنه:

بأني قد لقيت الغول تسعى ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فأخذه فاضر بها فخرت ... صريعاً لليدين وللجران

وأمثاله كثيرة، والله أعلم.

الرؤية. وقرئ: عموا وصموا بالضم على تقدير عماهم الله وصممهم، أي: رماهم وضربهم بالعمى والصمم. كما يقال: نزكته إذا ضربته بالنيزك، وركبته إذا ضربته بركبتك. ﴿كثير منهم﴾ بدل من الضمير أو على قولهم: أكلوني البراغيث، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أي: أولئك كثير منهم.

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾.

لم يفرق عيسى عليه الصلاة والسلام بينه وبينهم في أنّه عبد مربوب كمثلهم، وهو احتجاج على النصارى.

﴿إنّه من يشرك بالله﴾ في عبادته أو فيما هو مختص به من صفاته أو أفعاله ﴿فقد حرّم الله عليه الجنة﴾ التي هي دار الموحدين، أي: حرّمه دخولها ومنعه منه كما يمنع المحرّم من المحرم عليه. ﴿وما للظالمين من انصار﴾ من كلام الله على أنّهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما يقولوا على عيسى عليه السلام، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم وردّه وأنكره، وإن كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره، أو من قول عيسى عليه السلام، على معنى: ولا ينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن المعقول، أو ولا ينصركم ناصر في الآخرة من عذاب الله.

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾.

من في قوله: ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ للاستغراق وهي المقدرة مع لا التي لنفي الجنس في قولك: لا إله إلا الله، والمعنى: وما إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثاني له وهو الله وحده لا شريك له. ومن في قوله: ﴿ليمسنّ الذين كفروا منهم﴾ للبيان كالتي في قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾[1].

فإن قلت: فهلا قيل: ليمسنهم عذاب اليم؟ قلتُ: في إقامة الظاهر مقام المضمر فائدة وهي تكرير الشهادة عليهم بالكفر في قوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا﴾ وفي البيان فائدة أخرى وهي الإعلام في تفسير والذين كفروا منهم أنّهم بمكان من الكفر، والمعنى: ليمسنّ الذين كفروا من النصارى خاصةً ﴿عذاب اليم﴾ أي: نوع شديد الألم من العذاب، كما تقول: أعطني عشرين من الثياب، تريد من الثياب خاصةً لا من غيرها من الأجناس التي يجوز أن يتناولها عشرون. ويجوز أن تكون للتبعيض على معنى: ليمسنّ الذين بقوا على الكفر منهم، لأنّ كثيراً منهم تابوا من النصرانية.

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾.

﴿افلا يتوبون﴾ ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكرّرة عليهم بالكفر، وهذا الوعيد الشديد مما هم عليه وفيه تعجيب من إصرارهم. ﴿والله غفور رحيم﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم.

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾.

﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول، أي: ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله. جاء بآيات من الله كما أتوا بامثالها، إن ابرأ الله الأبرص وأحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى وفلق بها البحر وطمس على يد موسى. وإن خلقه من غير ذكر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. ﴿وأمه صديقة﴾ أي: وما أمه أيضاً إلا صديقة كبعض النساء المصدّقات للأنبياء المؤمنات بهم، فما منزلتهما إلا منزلة بشرين أحدهما نبي والآخر صحابي. فمن اين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتموهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم، مع أنّه لا تميز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه، ثم صرح ببعدهما عما نسب إليهما في قوله: ﴿كانا ياكلان الطعام﴾ لأنّ من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم، وغير ذلك مما يدل على أنّه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام. ﴿كيف نبين لهم الآيات﴾ أي الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم: ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله.

فإنْ قلت[2]: ما معنى التراخي في قوله: ﴿ثم انظر﴾؟ قلتُ: معناه: ما بين العجبين، يعني: أنّه بيّن لهم الآيات بياناً عجيباً وأنّ إعراضهم عنها أعجب منه.

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾.

﴿ما لا يملك﴾ هو عيسى، أي شيئاً لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب، ولأنّ كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبإقدار الله وتمكينه فكأنّه لا يملك منه شيئاً، وهذا دليل قاطع على أنّ أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب

(1) سورة الحج، الآية: 30.

(2) قال احمد: ومنه: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ وقوله: ﴿فقتل = كيف قدر ثم قتل كيف قدر﴾ وهي في سائر هذه المواضع منقولة من التراخي الزماني، إلى التراخي المعنوي في المراتب.

أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقدور عن قدرته. ﴿والله هو السميع العليم﴾ متعلق بـ ﴿أتعبدون﴾، أي: أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون، أو أتعبدون العاجز والله هو السميع العليم الذي يصح منه أن يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم، ولن يكون كذلك إلا وهو حي قادر.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

﴿غير الحق﴾ صفة للمصدر، أي[1]: لا تغلوا في دينكم غلواً غير الحق، أي: غلواً باطلاً، لأنّ الغلو في الدين غلوان: غلو حق وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ويجتهد في تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتوحيد رضوان الله عليهم، وغلو باطل وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه كما يفعل أهل الأهواء والبدع. ﴿قد ضلوا من قبل﴾ هم أئمتهم في النصرانية كانوا على الضلال قبل مبعث النبي ﷺ، ﴿وأضلوا كثيراً﴾ ممن شايعهم على التثليث. ﴿وضلوا﴾ لما بعث رسول الله ﷺ ﴿عن سواء السبيل﴾ حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه.

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

نزّل الله لعنهم في الزبور ﴿على لسان داود﴾، وفي الإنجيل على لسان عيسى، وقيل: إنّ أهل أيلة لما اعتدوا في السبت قال داود عليه السلام: اللهم العنهم واجعلهم آية، فمسخوا قردةً. ولما كفر أصحاب عيسى عليه السلام بعد المائدة قال عيسى عليه السلام: اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي. ﴿ذلك بما عصوا﴾ أي: لم يكن ذلك اللعن الشنيع الذي كان سبب المسخ إلاّ لأجل المعصية والاعتداء لا لشيء آخر. ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله:

كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿عن منكر فعلوه﴾. ثم قال: ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ للتعجيب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المناكير وقلة عبئهم به كأنّه ليس من ملة الإسلام في شيء، مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب.

فإنْ قلتَ[2]: كيف وقع ترك التناهي عن المنكر تفسيراً للمعصية والاعتداء؟ قلتُ: من قبل أنّ الله تعالى أمر بالتناهي فكان الإخلال به معصيةً، وهو اعتداء لأنّ في التناهي حسماً للفساد فكان تركه على عكسه.

فإنْ قلتَ: ما معنى وصف المنكر بفعلوه، ولا يكون النهي بعد الفعل؟ قلتُ: معناه: لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله، كما ترى أمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوّى وتهيأ فتنكر، ويجوز أن يراد: لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه بل يصبرون عليه ويداومون على فعله. يقال: تناهى عن الأمر وانتهى عنه، إذا امتنع منه وتركه.

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ترى كثيراً منهم﴾ هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يوالون المشركين ويصافونهم. ﴿أن سخط الله عليهم﴾ هو المخصوص بالذمّ ومحله الرفع، كأنّه قيل: لبئس زادهم

---

(1) قال أحمد: يعني: بأهل العدل والتوحيد المعتزلة، ويعني بغلوهم: الذي هو حق عنده، أنهم غلواً في التوحيد، فجحدوا الصفات الإلهية، وغلوا في التعديل، فنفوا أكثر الأفعال، بل كلها عن أن تكون مخلوقة لله تعالى، لانطوائها في مفاسد، ولأنّ الله تعالى يعاقب على ما هو قبيح منها، والعدل عندهم أن لا يعاقب على ما هو قبيح منها، والعدل عندهم أن لا يعاقب على فعل خلقه، فهذا غلوهم في التعديل، وهو كما ترى أنه كاسد عن التوحيد؛ لأنهم جعلوا كل مخلوق من الحيوانات خالقاً، فالنصارى غالوا فاشركوا ثلاثة، والمعتزلة كما رأيت أشركوا كل أحد بل غير الآدميين في الخلق، الذي هو خاص بالرب، ويعني الزمخشري بأهل البدع والأهواء: من عدا الطائفة المذكورة، ويعين بغلوهم الباطل: إثبات الصفات لله تعالى، وتوحيده على الحق، حتى لا خالق سواه، ولا مخلوق إلا بقدرته، وقد ترضى عن شيعته وإخوانه، وسكت عن ذكر ما عداهم، ونحن نقول: اللهم ارض عمن هو أحق الطوائف برضاك، وهذه دعوة أيضاً بلا خلاف، والله الموفق.

(2) قال أحمد: وفي هذا التوبيخ الإخبار بأمرين قبيحين، أحدهما:= بأنهم كانوا يفعلون المناكر، والآخر أنهم كانوا تاريكن للنهي عنها، أي: عن أمثالها في المستقبل، ولولا زيادة فعلوه، لما صرّح بوقوعها منهم، ولكان المصرح به ترك النهي عن المنكر عند استحقاق النهي، وذلك حين الإشراف على تعاطيه، وظهور الأمارات الدالة عليه، فانتظم ثبوت الأمرين جميعاً على أخصر وجه وأبلغه، وقد دلت هذه الآية، على المذهب الصحيح الأشعري، من أنّ متعلق النهي فعل، وهو: الترك، خلافاً لأبي هاشم المعتزلي في قوله: إنّ متعلقه نفي محض، وعدم صرف، ووجه دلالة الآية على أنّ متعلقه فعل، أنه عبر عن ترك التناهي، الذي وقع توبيخهم عليه بالفعل، حيث قال ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ أي: لبئس الترك للتناهي فعلاً، كما تقول: زيد بئس الرجل، فتجعل الرجل واقعاً على زيد، وقد سمي تركهم للنهي عن المنكر، في الآية السالفة قبل هذه صنعاً، فقال: ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ إلى قوله: ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ وذلك أبلغ في الدلالة على أنّ متعلق النهي أمر ثابت، إذ الصنع أمكن من الفعل في الدلالة على الإثبات، وقد مرّ هذا التقرير، والله الموفق.

إلى الآخرة. ﴿سخط الله عليهم﴾ والمعنى: موجب سخط الله.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿ولو كانوا يؤمنون﴾ إيماناً خالصاً غير نفاق ما اتخذوا المشركين ﴿أولياء﴾ يعني: أنّ موالاة المشركين كفى بها دليلاً على نفاقهم وأنّ إيمانهم ليس بإيمان ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ متمرّدون في كفرهم ونفاقهم. وقيل: معناه: ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدّعون ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون.

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

[1]وصف الله شدّة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق، ولين عريكة النصارى وسهولة ارعوائهم وميلهم إلى الإسلام، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدّة العداوة للمؤمنين بل نبه على تقدّم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا، وكذلك فعل في قوله: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾[2] ومن الذين أشركوا ولعمري إنّهم لكذلك وأشدّ. وعن النبيّ ﷺ: «ما خلا يهوديان بمسلم إلا همّا بقتله»[3]. وعلل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودّتهم للمؤمنين. ﴿بأنّ منهم قسيسين ورهباناً﴾ أي: علماء وعباداً. ﴿وأنّهم﴾ قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم، واليهود على خلاف ذلك. وفيه دليل بين على أنّ التعلم أنفع شيء وأهداه إلى الخير وأدله على الفوز حتى علم القسيسين، وكذلك غمُّ الآخرة والتحدّث بالعاقبة وإن كان في راهب، والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

ووصفهم الله برقة القلوب وأنّهم يبكون عند استماع القرآن. وذلك نحو ما يحكى عن النجاشي رضي الله عنه: أنّه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركين ـ لعنوا ـ وهم يغرونه عليهم ويتطلبون عنتهم عنده: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تنسب إليها. فقرأها إلى قوله: ﴿ذلك عيسى ابن مريم﴾[4] وقرأ سورة طه إلى قوله: ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾[5] فبكى النجاشي[6] وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يسٓ فبكوا[7].

فإنْ قلتَ: بم تعلقت اللام في قوله: ﴿للذين آمنوا﴾ ؟ قلتُ: بعداوة ومودّة على أنّ عداوة اليهود التي اختصت المؤمنين أشدّ العداوات وأظهرها، وأنّ مودّة النصارى التي اختصت المؤمنين أقرب المودّات وأدناها وجوداً وأسهلها حصولاً، ووصف اليهود بالعداوة، والنصارى بالمودّة مما يؤذن بالتفاوت، ثم وصف العداوة والمودة بالأشدّ والأقرب.

فإنْ قلتَ[8]: ما معنى قوله: ﴿تفيض من الدمع﴾ ؟قلتُ: معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأنّ الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو من إقامة المسبب مقام السبب أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنّها تفيض بأنفسها، أي: تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك: دمعت عينه دمعاً.

فإنْ قلتَ: أي فرق بين ﴿من﴾ ومن في قوله: ﴿مما عرفوا من الحق﴾ ؟قلتُ: الأولى: لابتداء الغاية، على أنّ فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله وبسببه، والثانية: لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا، وتحتمل معنى التبعيض على أنّهم عرفوا بعض الحق

---

(1) قال أحمد: وإنما قال ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ ولم يقل النصارى تعريضاً بصلابة اليهود في الكفر، والامتناع عن الامتثال للأمر؛ لأنّ اليهود قيل لهم: ﴿ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم﴾ فقابلوا ذلك بأن قالوا: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ والنصارى قالوا: ﴿نحن أنصار الله﴾ لكنه ههنا ذكر تنبيهاً، على أنهم لم يثبتوا على الميثاق، ولا على ما قالوه من أنهم أنصار الله، وفي الآية الثانية ذكر تنبيهاً على أنهم أقرب حالاً من اليهود، لأنهم لما ورد عليهم الأمر، لم يكافحوه بالرد مكافحة اليهود، بل قالوا: ﴿نحن أنصار الله﴾ واليهود قالت: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ فهذا سرّه، والله أعلم.

(2) سورة البقرة، الآية: 96.

(3) أخرجه ابن حبان في الضعفاء. والثعالبي في تفسيره.

(4) سورة مريم، الآية: 34.

(5) سورة طه، الآية: 9.

(6) قال الزيلعي غريب، 1/415.

(7) ابن مردويه والطبري، الزيلعي 1/416.

(8) قال أحمد: وهذه العبارة من أبلغ العبارات وأنهاها، وهي ثلاث مراتب، فالأولى فاض دمع عينه، وهذا هو الأصل، والثانية محوّلة من هذه، وهي قول القائل: فاضت عينه دمعاً، حوّلت الفعل إلى العين مجازاً ومبالغة، ثم نبهت على الأصل والحقيقة، بنصب ما كان فاعلاً على التميز، والثالثة فيها هذا التحويل المنكور، وهي الواردة في الآية، إلا أنها أبلغ من الثانية بإطراح المنبهة على الأصل، وعدم نصب التمييز، وإبرازه في صورة التعليل، والله أعلم، وإنما كان الكلام مع التعليل، أبعد عن الأصل منه مع التمييز؛ لأن التمييز في مثله قد استقر، كونه فاعلاً في الأصل، في مثل: تصبب زيد عرقاً، وتفقأ عمرو شحماً، واشتعل الرأس شيباً، وتفجرت الأرض عيوناً. فإذا قلت: فاضت عينه دمعاً، فهم هذا الأصل في العادة في أمثاله، وأما التعليل، فلم يعهد فيه ذلك، ألا تراك تقول: فاضت عينه عن ذكر الله، كما تقول: فاضت عينه من الدمع، فلا يفهم التعليل ما يفهم التمييز، والله الموفق.

فأبكاهم وبلغ منهم، فكيف إذا عرفوه كله وقرؤوا القرآن وأحاطوا بالسنة. وقرئ: ترى أعينهم على البناء للمفعول. ﴿ربنا آمنا﴾ المراد به إنشاء الإيمان والدخول فيه. ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ مع أمّة محمد ﷺ، الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة. ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾. وقالوا ذلك لأنّهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾.

﴿وما لنا لا نؤمن بالله﴾ إنكار استبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجبه وهو الطمع في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين. وقيل: لما رجعوا إلى قومهم لاموهم فأجابوهم بذلك، أو أرادوا: وما لنا لا نؤمن بالله وحده؛ لأنّهم كانوا مثلثين وذلك ليس بإيمان بالله، ومحل لا نؤمن النصب على الحال بمعنى: غير مؤمنين، كقولك: ما لك قائماً، والواو في ﴿ونطمع﴾ واو الحال.

فإنْ قلتَ: ما العامل في الحال الأولى والثانية؟ قلتُ: العامل في الأولى ما في اللام من معنى الفعل، كأنّه قيل: أي شيء حصل لنا غير مؤمنين، وفي الثانية معنى هذا الفعل ولكن مقيداً بالحال الأولى لأنّك لو أزلتها وقلت: ﴿وما لنا﴾ ﴿ونطمع﴾ لم يكن كلاماً. ويجوز أن يكون ونطمع حالاً من لا نؤمن على أنّهم أنكروا على نفوسهم أنّهم لا يوحدون الله ويطمعون مع ذلك أن يصحبوا الصالحين، وأن يكون معطوفاً على لا نؤمن على معنى: وما لنا نجمع بين التثليث وبين الطمع في صحبة الصالحين، أو على معنى: وما لنا لا نجمع بينهما بالدخول في الإسلام لأنّ الكافر ما ينبغي له أن يطمع في صحبة الصالحين.

فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾.

قرأ الحسن: فآتاهم الله ﴿بما قالوا﴾ بما تكلموا به عن اعتقاد وإخلاص، من قولك: هذا قول فلان، أي اعتقاده وما يذهب إليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾.

﴿طيبات ما أحلّ الله لكم﴾ ما طاب ولذ من الحلال، ومعنى ﴿لا تحرموا﴾: لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم، أو لا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغةً منكم في العزم على تركها تزهداً منكم وتقشفاً. وروي أنّ رسول الله ﷺ وصف القيامة يوماً لأصحابه فبالغ وأشنع الكلام في الإنذار، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين، وأن لا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم والودك، ولا يقربوا النساء والطيب، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح، ويسيحوا في الأرض، ويجبوا مذاكيرهم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إنّي لم أومر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإنّي أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1]. ونزلت. وروي: أنّ رسول الله ﷺ كان يأكل الدجاج والفالوذ وكان يعجبه الحلواء والعسل وقال: «إنّ المؤمن حلو يحب الحلاوة»[2]. وعن ابن مسعود: أن رجلاً قال له: إنّي حرمت الفراش، فتلا هذه الآية وقال: نم على فراشك وكفر عن يمينك. وعن الحسن: أنّه دعي إلى طعام ومعه فرقد السنجي وأصحابه فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك فاعتزل فرقد ناحيةً، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان. فأقبل الحسن عليه وقال: يا فريقد أترى لعاب النحل بلباب البرّ بخالص السمن يعيبه مسلم؟ وعنه أنّه قيل له: فلان لا يأكل الفالوذ، ويقول: لا أؤدي شكره. قال: أفيشرب الماء البارد. قالوا: نعم. قال: إنّه جاهل إنّ نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ. وعنه: إنّ الله تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم. قال الله تعالى: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾[3] ما عاب الله قوماً وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا، ولا عذر قوماً زواها عنهم فعصوه. ﴿ولا تعتدوا﴾ ولا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم، أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات، أو جعل تحريم الطيبات اعتداءً وظلماً فنهى عن الاعتداء ليدخل تحته النهي عن تحريمها دخولاً أولياً لوروده على عقبه، أو أراد ولا تعتدوا بذلك.

وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾.

﴿وكلوا مما رزقكم الله﴾ أي: من الوجوه الطيبة التي تسمى رزقاً. ﴿حلالاً﴾ حال مما رزقكم الله. ﴿واتّقوا الله﴾ تأكيد للتوصية بما أمر به وزاده تأكيداً بقوله: ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ لأنّ الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص: 116ـ 117، وأخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح الحديث (5063)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح... الحديث (3389)، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: ما يكره من التبتل... الحديث (5073)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح... الحديث (3390)، والبخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: لزوج عليك... الحديث (5199).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الذبائح والصيد، باب: لحم الدجاج الحديث (5518)، وأخرجه مسلم في كتاب: الايمان، باب: ندب من حلف يميناً... الحديث (4241)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأشربة، باب: شراب الحلواء والعسل الحديث (5614)، ومسلم في كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرّم امرأته ولم ينو طلاق الحديث (3664).

(3) سورة الطلاق، الآية: 7.

إلى ما أمر به وعما نهى عنه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

اللغو في اليمين: الساقط الذي لا يتعلق به حكم واختلف فيه. فعن عائشة رضي الله عنها أنّها سئلت عنه فقالت: هو قول الرجل: لا والله بلى والله[1]. وهو مذهب الشافعي. وعن مجاهد: هو الرجل يحلف على الشيء يرى أنّه كذلك وليس كما ظن وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، **﴿بما عقدتم الأيمان﴾** بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنية، وروي أنّ الحسن رضي الله عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال: يا أبا سعيد دعني أجب عنك فقال:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله ... إذا لم تعمد عاقدات العزائم

وقرئ: عقدتم بالتخفيف وعاقدتم، والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم. فحذف وقت المؤاخذة لأنّه كان معلوماً عندهم، أو بنكث ما عقدتم فحذف المضاف: **﴿فكفارته﴾** فكفارة نكثه، والكفارة الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي تسترها. **﴿من أوسط ما تطعمون﴾** من أقصده لأنّ منهم من يسرف في إطعام أهله ومنهم من يقتر. وهو عند أبي حنيفة رحمه الله نصف صاع من برّ أو صاع من غيره لكل مسكين، أو يغديهم ويعشيهم. وعند الشافعي رحمه الله مدّ لكل مسكين. وقرأ جعفر بن محمد: أهاليكم بسكون الياء، والأهالي اسم جمع لأهل كالليالي في جمع ليلة والأراضي في جمع أرض. وقولهم: أهلون كقولهم: أرضون بسكون الراء، وأمّا تسكين الياء في حال النصب فللتخفيف، كما قالوا: رأيت معد يكرب، تشبيهاً للياء بالألف. **﴿أو كسوتهم﴾** عطف على محل من أوسط، وقرئ بضم الكاف ونحوه قدوة في قدوة وأسوة في أسوة، والكسوة ثوب يغطي العورة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت العباءة تجزئ يومئذ. وعن ابن عمر: إزار أو قميص أو رداء أو كساء، وعن مجاهد: ثوب جامع، وعن الحسن: ثوبان أبيضان. وقرأ سعيد بن المسيب واليماني: أو كاسوتهم، بمعنى أو مثل ما تطعمون أهليكم إسرافاً كان أو تقتيراً لا تنقصونهم عن مقدار نفقتهم ولكن تواسون بينهم وبينهم.

فإنْ قلتَ: ما محل الكاف؟ قلتُ: الرفع تقديره **﴿أو﴾** طعامهم كاسوتهم بمعنى: كمثل طعامهم، إن لم يطعموهم الأوسط، **﴿أو تحرير رقبة﴾** شرط الشافعي رحمه الله الإيمان قياساً على كفارة القتل، وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة في كل كفارة سوى كفارة القتل.

فإنْ قلتَ: ما معنى أو؟ قلتُ: التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث على الإطلاق بأيتها أخذ المكفر فقد أصاب. **﴿فمن لم يجد﴾** إحداها **﴿فصيام ثلاثة أيام﴾** متتابعات عند أبي حنيفة رحمه الله تمسكاً بقراءة أبيّ وابن مسعود رضي الله عنهما. فصيام ثلاثة أيام متتابعات. وعن مجاهد: كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان، ويخير في كفارة اليمين. **﴿ذلك﴾**[2] المذكور **﴿كفارة أيمانكم﴾** ولو قيل: تلك كفارة أيمانكم لكان صحيحاً بمعنى تلك الأشياء، أو لتأنيث الكفارة، والمعنى: **﴿إذا حلفتم﴾** وحنثتم، فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأنّ الكفارة إنّما تجب بالحنث في الحلف لا بنفس الحلف. والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه. ويجوز عند الشافعي بالمال إذا لم يعص الحانث[3]. **﴿واحفظوا أيمانكم﴾** فبروا فيها ولا تحنثوا، أراد الأيمان التي الحنث فيها معصية لأنّ الأيمان اسم جنس يجوز إطلاقه على بعض الجنس وعلى كله، وقيل: احفظوها بأن تكفروها. وقيل: احفظوها كيف حلفتم بها ولا تنسوها تهاوناً بها. **﴿كذلك﴾** مثل ذلك البيان **﴿يبيّن الله لكم آياته﴾** أعلام شريعته وأحكامه **﴿لعلكم تشكرون﴾** نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه[4].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الأيمان والنذور، باب: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ الحديث (6663)، ومالك في الموطأ، كتاب: النذور والأيمان، باب: اللغو في اليمين، الحديث (9)، وأبو داود في السنن، كتاب الأيمان، باب: لغو اليمين الحديث رقم:(3254).

(2) قال أحمد: بل في هذه الآية وجه لطيف المأخذ في الدلالة على صحة وقوع الكفارة بعد اليمين وقبل الحنث، وهو المشهور من مذهب مالك، وبيان الاستدلال بها، إنه جعل ما بعد الحلف ظرفاً، لوقوع الكفارة المعتبرة شرعاً، حيث أضاف إذا إلى مجرد الحلف، وليس في الآية إيجاب الكفارة، حتى يقال: قد اتفق، على أنها إنما تجب بالحنث، فتعين تقديره مضافاً إلى الحلف، بل إنما نطقت بشرعية الكفارة، ووقوعها على وجه الاعتبار، إذ لا يعطى قوله ذلك كفارة أيمانكم إيجاباً، إنما يعطى صحة واعتباراً، والله أعلم، وهذا انتصار على من منع التكفير، قبل الحنث مطلقاً، وإن كانت = اليمين على برّ، والأقوال الثلاثة في مذهب مالك، إلا أنّ القول المنصور هو المشهور.

(3) قال أحمد: وفي هذه التأويل إشعار، بأن الشاك في صورة اليمين بعد تحقق أصلها، يشدّد عليه، ويؤاخذ بالأحوط، فأرشده الله إلى حفظ اليمين، لئلا يفضي أمره إلى أن يلزم في ظاهر الأمر، على وجه الاحتياط، ما لم يصدر منه في علم الله تعالى، كالذي يحلف بالطلاق، وينسى هل قيده بالثلاث مثلاً، أو أطلقه، فيلزمه الثلاث على المذهب المشهور، ويحتمل أن يكون في علم الله تعالى، أنه إنما حلف بالطلاق مطلقاً، فأرشد إلى الحفظ، لئلا يجرّه النسيان إلى هذا التشديد، والمراد بالأيمان: كل ما ينطلق عليه يمين، سواء كان حلفاً بالله، أو بغيره، مما يلزم في الشرع حكماً، والله أعلم.

(4) قال أحمد: ويجوز عود الضمير إلى الرجس، الذي انطوى على سائر ما ذكر، والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91)﴾.

أكد تحريم الخمر والميسر وجوهاً من التاكيد: منها: تصدير الجملة بإنّما، ومنها: أنّه قرنهما بعبادة الأصنام، ومنه: قوله عليه الصلاة والسلام: «شارب الخمر كعابد الوثن»[1]؛ ومنها: أنّه جعلهما رجساً كما قال تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾[2] من الأوثان، ومنها أنّه جعلهما من عمل الشيطان والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، ومنها: أنّه أمر بالاجتناب، ومنها: أنّه جعل الاجتناب من الفلاح وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبةً ومحقةً، ومنها: أنّه ذكر ما ينتج منهما من الوبال وهو: وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقمر، وما يؤدّيان إليه من الصدّ عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة، وقوله: ﴿فهل انتم منتهون﴾ من ابلغ ما ينهى به، كانّه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا.

فإنْ قلتَ: إلام يرجع الضمير في قوله: **إلى المضاف المحذوف، كانّه قيل: إنّما شان الخمر والميسر أو تعاطيهما أو ما أشبه ذلك. ولذلك قال: ﴿رجس من عمل الشيطان﴾.**

فإنْ قلتَ[3]: لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أوّلاً ثم أفردهما آخراً؟ **قلتُ:** لأنّ الخطاب مع المؤمنين، وإنّما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر وذكر الأنصاب والأزلام لتاكيد تحريم الخمر والميسر وإظهار أنّ ذلك جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره وكانّه لا مباينة بين من عبد صنماً وأشرك بالله في علم الغيب وبين من شرب خمراً أو قامر، ثم أفردهما بالذكر ليرى أنّ المقصود بالذكر الخمر والميسر. وقوله: ﴿وعن الصلاة﴾ اختصاص للصلاة من بين الذكر، كانّه قيل: وعن الصلاة خصوصاً.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92)﴾.

﴿واحذروا﴾ وكونوا حذرين خاشين، لأنّهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة وعمل كل حسنة، ويجوز أن يراد: واحذروا ما عليكم في الخمر والميسر أو في ترك طاعة الله والرسول. ﴿فإن توليتم فاعلموا﴾ أنّكم لم تضروا بتوليكم الرسول لأنّ الرسول ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات وإنّما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)﴾.

رفع الجناح عن المؤمنين في أي شيء طعموه من مستلذات المطاعم ومشتهياتها ﴿إذا ما اتّقوا﴾ ما حرّم عليهم منها، ﴿وآمنوا﴾ وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح وازدادوه، ﴿ثم اتّقوا وآمنوا﴾ ثم ثبتوا على التقوى والإيمان، ﴿ثم اتّقوا وأحسنوا﴾ ثم ثبتوا على اتّقاء المعاصي وأحسنوا أعمالهم أو أحسنوا إلى الناس واسوهم بما رزقهم الله من الطيبات، وقيل: لما نزل تحريم الخمر، قالت الصحابة: يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر[4]. فنزلت، يعني: إنّ المؤمنين لا جناح عليهم في أي شيء طعموه من المباحات إذا ما اتّقوا المحارم ثم اتّقوا وآمنوا ثم اتّقوا وأحسنوا على معنى: أنّ أولئك كانوا على هذه الصفة ثناءً عليهم وحمداً لأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان، ومثاله أن يقال لك: هل على زيد فيما فعل جناح؟ فتقول وقد علمت أنّ ذلك أمر مباح: ليس على أحد جناح في المباح إذا اتقى المحارم وكان مؤمناً محسناً تريد أن زيداً تقي مؤمن محسن وأنّه غير مؤاخذ بما فعل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94)﴾.

نزلت عام الحديبية، ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم. ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ ليتميز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظر في الآخرة فيتقي الصيد ممن لا يخافه فيقدم عليه. ﴿فمن اعتدى﴾ فصاد ﴿بعد ذلك﴾ الابتلاء فالوعيد لا حق به.

---

(1) كشف الأستار، كتاب: الأشربة، باب: في شارب الخمر الحديث رقم: (1925)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأشربة، باب: مدمن الخمر الحديث (3375).

(2) سورة الحج، الآية: 30.

(3) قال أحمد: ويرشد إلى أن المقصود: الخمر والميسر خاصة؛ لأنهم إنما كانوا يتعاطونهما خاصة، الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿يسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر = من نفعهما﴾ فخصهما بالذكر، ولم يثبت النهي عنهما، فلذلك ورد أنّ قوماً تركوهما لما فيهما من الإثم، وقوماً على تعاطيهما لما فيهما من المنافع، ثم نزلت هذه الآية جازمة بالنهي، والله أعلم.

(4) أخرجه أحمد في المسند 2/351، وأخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة المائدة، باب: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا...﴾ الحديث (4620)، ومسلم في كتاب: الأشربة، باب: تحريم الخمر الحديث (5102).

فإنْ قلتَ[1]: ما معنى التقليل والتصغير في قوله: ﴿بشيء من الصيد﴾؟ قلتُ: قلل وصغر ليعلم أنّه ليس بفتنة من الفتن العظام التي تدحض عندها أقدام الثابتين كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال، وإنّما هو شبيه بما ابتلي به أهل أيلة من صيد السمك، وأنّهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عند ما هو أشد منه. وقرأ إبراهيم: يناله بالياء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿حرم﴾ محرمون، جمع حرام كردح في جمع رداح. والتعمد أن يقتله وهو ذاكر لإحرامه، أو عالم أن ما يقتله مما يحرم عليه قتله، فإن قتله وهو ناس لإحرامه، أو رمى صيداً وهو يظن أنّه ليس بصيد فإذا هو صيد، أو قصد برميه غير صيد فعدل السهم عن رميته فأصاب صيداً فهو مخطىء.

فإنْ قلتَ: فمحظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ، فما بال التعمد مشروطاً في الآية؟ قلتُ: لأنّ مورد الآية فيمن تعمد فقد روي أنّه عنّ لهم في عمرة الحديبية حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر فطعنه برمحه فقتله، فقيل له: إنّك قتلت الصيد وأنت محرم. فنزلت، ولأنّ الأصل فعل التعمد والخطأ لاحق به للتغليظ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ليذوق وبال أمره... ومن عاد فينتقم الله منه﴾ وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السنة بالخطأ. وعن سعيد بن جبير: لا أرى في الخطأ شيئاً أخذاً باشتراط العمد في الآية، وعن الحسن روايتان ﴿فجزاء مثل ما قتل﴾ برفع جزاء ومثل جميعاً بمعنى: فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد وهو عند أبي حنيفة قيمة المصيد يقوّم حيث صيد، فإن بلغت قيمته ثمن هدي تخير بين أن يهدي من النعم ما قيمته قيمة الصيد وبين أن يشتري بقيمته طعاماً، فيعطي كل مسكين نصف صاع من برّ أو صاع من غيره، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً، فإن فضل مالاً يبلغ طعام مسكين صام عنه يوماً أو تصدّق به.

وعند محمد والشافعي رحمهما الله: مثله نظيره من النعم، فإن يوجد له نظير من النعم عدل إلى قول أبي حنيفة رحمه الله.

فإنْ قلتَ: فما يصنع من يفسر المثل بالقيمة بقوله: ﴿من النعم﴾ وهو تفسير للمثل وبقوله: ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾! قلتُ: قد خير من أوجب القيمة بين أن يشتري بها هدياً أو طعاماً أو يصوم، كما خير الله تعالى في الآية، فكان قوله: ﴿من النعم﴾ بياناً للهدي المشترى بالقيمة في أحد وجوه التخيير لأنّ من قوم الصيد واشترى بالقيمة هدياً فأهداه فقد جزى بمثل ما قتل من النعم، على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزي بالهدى أو يكفر بالإطعام أو بالصوم إنما يستقيم استقامةً ظاهرةً بغير تعسف إذا قوم ونظر بعد التقويم أي الثلاثة يختار، فأما إذا عمد إلى النظير وجعله الواجب وحده من غير تخيير، فإذا كان شيئاً لا نظير له قوّم حينئذ ثم يخير بين الإطعام والصوم ففيه نبوّ عما في الآية، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أكفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾ كيف خير بين الأشياء الثلاثة ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم. وقرأ عبد الله: فجزاؤه مثل ما قتل. وقرئ: فجزاء مثل ما قتل على الإضافة، وأصله فجزاء مثل ما قتل بنصب مثل بمعنى فعليه أن يجزي مثل ما قتل ثم أضيف، كما تقول: عجبت من ضرب زيداً، ثم من ضرب زيد. وقرأ السلمي على الأصل. وقرأ محمد بن مقاتل: فجزاء مثل ما قتل بنصبهما، بمعنى: فليجز جزاء مثل ما قتل. وقرأ الحسن: من النعم بسكون العين، استثقل الحركة على حرف الحلق فسكنه ﴿يحكم به﴾ بمثل ما قتل ﴿ذوا عدل منكم﴾ حكمان عادلان من المسلمين. قالوا: وفيه دليل على أنّ المثل القيمة لأنّ التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة، وعن قبيصة أنّه أصاب ظبياً وهو محرم فسأل عمر فشاور عبد الرحمٰن بن عوف ثم أمره بذبح شاة، فقال قبيصة لصاحبه: والله ما علم أمير المؤمنين حتى سأل غيره فأقبل عليه ضرباً بالدرة، وقال: أتغمص الفتيا وتقتل الصيد وأنت محرم، قال الله تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فأنا عمر وهذا عبد الرحمٰن[2]. وقرأ محمد بن جعفر: ذو عدل، أراد يحكم به من يعدل

---

(1) قال أحمد: وقد وردت هذه الصيغة بعينها في الفتن العظيمة، في قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ فلا خفاء في عظم هذه البلايا والمحن التي يستحق الصابر عليها أن يبشر؛ لأنه صبر على عظيم، فقول الزمخشري إذاً: إنه قلل وصغر، تنبيهاً على أن هذه الفتنة ليست من الفتن العظام، مدفوع باستعمالها مع الفتن المتفق على عظمها، والظاهر والله أعلم، أن المراد بما يشعر به اللفظ، من التقليل والتصغير: التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا، بعض من كل، بالنسبة إلى مقدور الله تعالى، وأنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلوهم به من ذلك، أعظم ما يقع وأهول، وأنه مهما اندفع عنهم، مما هو أعظم في المقدور، = فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل، لطفاً بهم ورحمة، ليكون هذا التنبيه باعثاً لهم على الصبر، وحاملاً على الاحتمال، والذي يرشد إلى أن هذا مراد، أنّ سبق التوعد بذلك لم يكن، إلا ليكونوا متوطنين على ذلك عند وقوعه، فيكون أيضاً باعثاً على تحمله؛ لأن مفاجأة المكروه بغتة أصعب، والإنذار به قبل وقوعه مما يسهل موقعه، وحاصل ذلك لطف في القضاء، فسبحان اللطيف بعباده، وإذا فكر العاقل فيما يبتلى به من أنواع البلايا، وجد المندفع عنه منها أكثر، إلى ما لا يقف عند غاية، فنسأل الله العفو، والعافية، واللطف في المقدور.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 4/406 الحديث (8239).

منكم ولم يرد الوحدة، وقيل: أراد الإمام ﴿هدياً﴾ حال عن جزاء فيمن وصفه بمثل لأنّ الصفة خصصته فقرّبته من المعرفة، أو بدل عن مثل فيمن نصبه، أو عن محل فيمن جرّه، ويجوز أن ينتصب حالاً عن الضمير في به. ووصف هدياً بـ ﴿بالغ الكعبة﴾ لأنّ إضافته غير حقيقية ومعنى بلوغه الكعبة أن ينبح بالحرم فأما التصدق به فحيث شئت عند أبي حنيفة وعند الشافعي في الحرم.

فإنْ قلتَ: بم يرفع ﴿كفارة﴾ من ينصب جزاء؟ قلتُ: يجعلها خبر مبتدأ محذوف، كأنّه قيل: أو الواجب عليه كفارة، أو يقدر فعليه أن يجزي جزاء أو كفارةٌ فيعطفها على أن يجزي. وقرئ: أو كفارة طعام مساكين على الإضافة، وهذه الإضافة مبينة كأنّه قيل: أو كفارة من طعام مساكين، كقولك: خاتم فضة بمعنى خاتم من فضة. وقرأ الأعرج: أو كفارة طعام مسكين، وإنّما وحّد لأنه واقع موقع التبيين فاكتفى بالواحد الدال على الجنس. وقرئ: أو عدل ذلك بكسر العين، والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عادله من غير جنسه كالصوم والإطعام، وعدله ما عدل به في المقدار ومنه: عدلا الحمل، لأنّ كل واحد منهما عدل بالآخر حتى اعتدلا، كان المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول به كالنبح ونحوه، ونحوهما الحمل والحمل. و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الطعام، ﴿وصياماً﴾ تمييز للعدل، كقولك: لي مثله رجلاً، والخيار في ذلك إلى قاتل الصيد عند أبي حنيفة وأبي يوسف، وعند محمد إلى الحكمين. ﴿ليذوق﴾ متعلق بقوله: ﴿فجزاء﴾ أي: فعليه أن يجازي أو يكفر ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام.

والوبال: المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه، كقوله تعالى: ﴿فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾[1] ثقيلاً والطعام الوبيل الذي يثقل على المعدة فلا يستمرأ، ﴿عفى الله عما سلف﴾ لكم من الصيد في حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول الله ﷺ وتسألوه عن جوازه، وقيل: عما سلف لكم في الجاهلية منه، لأنّهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرماً، ﴿ومن عاد﴾ إلى قتل الصيد وهو محرم بعد نزول النهي ﴿فينتقم الله منه﴾ ينتقم خبر مبتدأ محذوف تقديره: فهو ينتقم الله منه، ولذلك دخلت الفاء، ونحوه: ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف﴾[2]، يعني: ينتقم منه في الآخرة. واختلف في وجوب الكفارة على العائد، فعن عطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير والحسن وجوبها، وعليه عامة العلماء. وعن ابن عباس وشريح: أنّه لا كفارة عليه تعلقاً بالظاهر وأنّه لم يذكر الكفارة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿صيد البحر﴾ مصيدات البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل. ﴿وطعامه﴾ وما يطعم من صيده، والمعنى: أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر، وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده عند أبي حنيفة، وعند ابن أبي ليلى جميع ما يصاد منه، على أن تفسير الآية عنده: أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه. ﴿متاعاً لكم﴾ مفعول له أي: أحل لكم تمتيعاً لكم، وهو في المفعول له بمنزلة قوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾[3] في باب الحال لأنّ قوله: ﴿متاعاً لكم﴾ مفعول له مختص بالطعام كما أنّ نافلة حال مختصة بيعقوب، يعني: أحلّ لكم طعامه تمتيعاً لتنائكم يأكلون طرياً ولسيارتكم يتزوّدونه قديداً كما تزوّد موسىٰ عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر عليهما السلام. وقرئ: وطعمه.

وصيد البر[4]: ما صيد فيه، وهو ما يفرخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات كطير الماء عند أبي حنيفة، واختلف فيه فمنهم من حرم على المحرم كل شيء يقع عليه اسم الصيد وهو قول عمر وابن عباس، وعن أبي هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير: أنّهم أجازوا للمحرم أكل ما صاده الحلال وإن صاده لأجله إذا لم يدل ولم يشر، وكذلك ما نبحه قبل إحرامه وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله. وعند مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله لا يباح له ما صيد لأجله.

فإنْ قلتَ: ما يصنع أبو حنيفة بعموم قوله: ﴿صيد البر﴾؟ قلتُ: قد أخذ أبو حنيفة رحمه الله بالمفهوم من قوله: ﴿وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾ لأنّ ظاهره أنّه صيد المحرمين دون صيد غيرهم لأنّهم هم المخاطبون، فكأنّه قيل: وحرم عليكم ما صدتم في البر، فيخرج منه مصيد غيرهم ومصيدهم حين كانوا غير محرمين، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾[5]. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: وحرم عليكم صيد البر، أي: الله عزّ وجلّ. وقرئ: ما دمتم بكسر الدال، فيمن يقول دام يدام.

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

---

(1) سورة المزمل، الآية: 16.
(2) سورة الجن، الآية: 13.
(3) سورة الأنبياء، الآية: 72.
(4) قال أحمد: وتخصيص عموم الآية لازم على كلتا الطائفتين؛ لأن مالكاً رضي الله عنه، يجيز أكل المحرم لصيد البر، إذا صاده حلال لنفسه، أو لحلال، فلا بد إذاً على مذهبه من تخصيص= العموم المخصوص غاية، ذلك أن صورة التخصيص على مذهب أبي حنيفة، تكون أكثر منها على مذهب مالك؛ لأنه يجيز أكل ما صاده الحلال من أجل المحرم، كما نقله عنه، فيزيد على مذهب مالك بهذه الصورة، والله أعلم.
(5) سورة المائدة، الآية: 95.

﴿البيت الحرام﴾ عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح كما تجيء الصفة كذلك. [1] ﴿قياماً للناس﴾ انتعاشاً لهم في أمر دينهم ودنياهم ونهوضاً إلى أغراضهم ومقاصدهم في معاشهم ومعادهم لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم وأنواع منافعهم. وعن عطاء بن أبي رباح: لو تركوه عاماً واحداً لم ينظروا ولم يؤخروا. ﴿والشهر الحرام﴾ الشهر الذي يؤدى فيه الحج وهو ذو الحجة، لأنّ لاختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأناً قد عرفه الله تعالى، وقيل: عنى به جنس الأشهر الحرم. ﴿والهدي والقلائد﴾ والمقلد منه خصوصاً وهو البدن لأنّ الثواب فيه أكثر وبهاء الحج معه أظهر، ﴿ذلك﴾ إشارة إلى جعل الكعبة قياماً للناس، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره. ﴿لتعلموا أنّ الله يعلم﴾ كل شيء وهو عالم بما يصلحكم وما ينعشكم مما أمركم به وكلفكم.

اعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾.

﴿شديد العقاب﴾ لمن انتهك محارمه ﴿غفور رحيم﴾ لمن حافظ عليها.

مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾.

﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به، وأنّ الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة، فلا عذر لكم في التفريط.

قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾.

[2] البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله تعالى وإن كان قريباً عندكم، فلا تعجبوا بكثرة الخبيث حتى تؤثروه لكثرته على القليل الطيب، فإن ما تتوهمونه في الكثرة من الفضل لا يوازي النقصان في الخبث وفوات الطيب وهو عام في حلال المال وحرامه وصالح العمل وطالحه وصحيح المذاهب وفاسدها وجيد الناس ورديهم. ﴿فاتقوا الله﴾ وآثروا الطيب وإن قل على الخبيث وإن كثر، ومن حق هذه الآية أن تكفح بها وجوه المجبرة إذا افتخروا بالكثرة، كما قيل:

وكاثر بسعد إن سعداً كثيرة ... ولا ترج من سعد وفاء ولا نصراً

وكما قيل:

لا يدهمنك من دهمائهم عدد ... فإن جلهم بل كلهم بقر

وقيل: نزلت في حجاج اليمامة حين أراد المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عن الإيقاع بهم وإن كانوا مشركين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾.

الجملة الشرطية والمعطوفة عليها أعني قوله: ﴿إن تبد لكم تسؤكم وإن تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ صفة للأشياء، والمعنى، لا تكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم، إن افتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على

---

(1) قال أحمد: وفي هذه الآية ما يبعد تأويلين من التأويلات الثلاثة المذكورة في قوله أول هذه السورة: ﴿لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد﴾ فإن حمل القلائد ثم على ظاهرها، وتأويل صرف الإحلال إلى مواقعها من المقلد، كقوله: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ يريد مواقع الزينة، والنهي عن إحلال القلائد يشبهه، كأنه قال: لا تحلوا قلائدها، فضلاً عنها متعذر في هذه الآية؛ لأنها وردت في سياق الامتنان بما جعله الله ﴿قياماً للناس﴾ من هذه الأمور المعدودة، وقد خص المنة بالبدن في قوله: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير﴾ الآية، ولا يليق بسياق الامتنان الخروج من الأعلى إلى الأدنى، حتى يقع الامتنان بالمقلد، ثم بالقلائد، بل ذلك لائق في سياق النهي، أن يخرج من النهي عن الأعلى، إلى التشديد بالنهي عن الأدنى، وأمّا التأويل الآخر، وهو: بقاء القلائد على حقيقتها، وصرف الإحلال المنهي عنه إليها حقيقة، أي: لا تتعرضوا للقلائد، ولا تنتفعوا بها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ألق قلائدها في دمها، وخل بين الناس وبينها». فمتعذر أيضاً بما يعد به الذي قبله، وأمّا التأويل الثالث، وهو: حملها على ذوات القلائد، فلائق بالاثنين، فيتعين المصير إليه، ومن ثَم لم ينكر الزمخشري في هذه الآية سواه، ووجه صلاحيته وظهوره فيهما، أن الغرض في سياق النهي، إفراده بالذكر وتخصيصه بالنهي، بعد أن اندرج مع غيره في النهي، فكأنه نهى عنه لخصوصيته مرتين، والغرض في = سياق الامتنان أيضاً ذلك، وهو تكرير المنة به مندرجاً في العموم، ومخصوصاً بالذكر، وأيضاً فيليق في الامتنان الترقي من الأدنى إلى الأعلى، بخلاف النهي، والله أعلم.

(2) قال أحمد رحمه الله: وقد ثبت شرعاً أن أكثر أهل الجنة من هذه الأمة، وقد اعترف القدرية أنهم قليل فيها، وشذوذ بالنسبة إلى من عداهم من الطوائف، والأمر بهذه المثابة، وهم أيضاً يعتقدون: أنهم الفرقة الناجية، الموعودون بالجنة، لا غيرهم، إذ كل من عداهم، على طمعهم الفاسد، مخلد في النار مع الكفار، فعلى هذا، تكون هذه الطائفة الشاذة القليلة، أكثر أهل الجنة، وحاشا لله أن يستمر ذلك على عقل عاقل محصل مطلع، على ما ورد في السنن من الآثار المكافحة لهذا الظنّ الفاسد بالردّ والتكذيب، ومن هم المعتزلة حتى يترامى طمعهم على هذا الحدّ، وهذا الاستنباط الذي استنبطه الزمخشري، من أن المراد بالطيب هذا: النفر المعتزلي، من قبيل القول بأن المراد في قوله تعالى: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ أهل الحديث وأصحاب الرأي، يعني: الحقيقة، وقد أغلظ في تفسير هذه الآية على من قال ذلك وعده من البدع، وها هو قد ابتدع قريباً منه في حمله الطيب في هذه الآية، على الفريق المعتزلي، بل والله شراً من تلك المقالة؛ لأنه حمل الخبيث على من عداهم من الطوائف السنية، نعوذ بالله من ذلك، ونبرأ من تجريه على السلف والخلف. قوله: ليس بزمانها، أنها اليوم مقبولة.

السؤال عنها، وذلك نحو ما روي أنّ سراقة بن مالك أو عكاشة بن محصن قال: يا رسول الله، الحج علينا كل عام؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد مسألته ثلاث مرّات، فقال ﷺ: «ويحك ما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[1].

﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن﴾ وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي وهو ما دام الرسول بين أظهركم يوحى إليه. ﴿تبد لكم﴾ تلك التكاليف الصعبة التي تسؤكم وتؤمروا بتحملها فتعرّضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها. ﴿عفى الله عنها﴾ عفا الله عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها، ﴿والله غفور حليم﴾ لا يعاجلكم فيما يفرط منكم بعقوبته.

فإنْ قلتَ: كيف قال: ﴿لا تسألوا عن أشياء﴾، ثم قال: ﴿قد سألها﴾، ولم يقل: قد سأل عنها؟ قلتُ: الضمير في سألها ليس براجع إلى أشياء حتى تجب تعديته بـ «عن»، وإنّما هو راجع إلى المسألة التي دلّ عليها لا تسألوا، يعني: قد سأل قوم هذه المسألة من الأوّلين ﴿ثم أصبحوا بها﴾ أي: بمرجوعها أو بسببها ﴿كافرين﴾. وذلك أنّ بني إسرائيل كانو يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها، أي: شقوها وحرّموا ركوبها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، وإذا لقيها المعيي لم يركبها، واسمها البحيرة، وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبداً قال: هو سائبة، فلا عقل بينهما ولا ميراث، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمي ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومعنى ﴿ما جعل﴾ ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير والتسييب وغير ذلك. ولكنهم بتحريمهم ما حرموا ﴿يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ فلا ينسبون التحريم إلى الله حتى يفتروا ولكنهم يقلدون في تحريمها كبارهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

الواو في قوله: ﴿أَوَلَوْ كان آباؤهم﴾ واو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار وتقديره أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم ﴿لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ والمعنى: أنّ الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدي وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرةً على أهل العتوّ والعناد من الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام، فقيل لهم: ﴿عليكم أنفسكم﴾ وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها في طرق الهدى ﴿لا يضركم﴾ الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، كما قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾[2] وكذلك من يتأسف على ما فيه السقة من الفجور والمعاصي ولا يزال ينكر معايبهم ومناكيرهم فهو مخاطب به، وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنّ من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد، وإنّما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه. وعن ابن مسعود أنّها قرئت عنده فقال: إنّ هذا ليس[3] بزمانها، إنّها اليوم مقبولة، ولكن يوشك أن يأتي زمان تأمرون فلا يقبل منكم، فحينئذٍ عليكم أنفسكم، فهي على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه وبسط لعذره. وعنه: ليس هذا زمان تأويلها، قيل: فمتى؟ قال: إذا جعل دونها السيف والسوط والسجن. وعن أبي ثعلبة الخشني أنّه سئل عن ذلك فقال للسائل: سألت عنها خبيراً، سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا ما رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرةً وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه فعليك نفسك ودع أمر العوام، وإن من ورائكم أياماً الصبر فيهنّ كقبض على الجمر، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»[4]. وقيل: كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك، ولاموه. فنزلت: ﴿عليكم أنفسكم﴾ عليكم من أسماء الفعل بمعنى: الزموا صلاح أنفسكم، ولذلك جزم جوابه، وعن نافع: عليكم أنفسكم بالرفع. وقرئ: لا يضركم[5]، وفيه وجهان: أن يكون خبراً مرفوعاً وتنصره

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: صحبة النبي ﷺ الحديث (147 ـ 1218)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: التمتع بالعمرة إلى الحج الحديث (2977).

(2) سورة فاطر، الآية: 8.

(3) لعلّ هذا الضمير، للنصيحة المفهومة من السياق قوله: ﴿لا يضرّكم﴾ وفي وجهان.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي الحديث (4341)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة المائدة الحديث (3058)، وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ الحديث (4014).

(5) يعني: بالرفع، وهو يفيد أن القراءة الأصلية: بالنصب.

قراءة أبي حيوة: لا يضيركم، وأن يكون جواباً للأمر مجزوماً. وإنّما ضمت الراء إتباعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة. والأصل: لا يضرركم، ويجوز أن يكون نهياً، ولا يضركم بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾.

ارتفع اثنان على أنّه خبر للمبتدأ الذي هو ﴿شهادة بينكم﴾ على تقدير شهادة بينكم شهادة اثنين، أو على أنّه فاعل شهادة بينكم على معنى فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان. وقرأ الشعبي: شهادة بينكم بالتنوين. وقرأ الحسن: شهادة بالنصب والتنوين على ليقم شهادة اثنان، وإذا حضر ظرف للشهادة، وحين الوصية بدل منه. وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية وأنّها من الأمور اللازمة التي ما ينبغي أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها، وحضور الموت مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل ﴿منكم﴾ من أقاربكم و ﴿من غيركم﴾ من الأجانب، ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ يعني: إن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم أحد من عشيرتكم فاستشهدوا أجنبيين على الوصية، وجعل الأقارب أولى لأنّهم أعلم بأحوال الميت وبما هو أصلح وهم له أنصح. وقيل: منكم من المسلمين ومن غيركم من أهل الذمّة. وقيل: هو منسوخ، لا تجوز شهادة الذمي على المسلم، وإنّما جازت في أوّل الإسلام لقلة المسلمين وتعذر وجودهم في حال السفر. وعن مكحول: نسخها قوله تعالى: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾[1] وروي أنّه خرج بديل بن أبي مريم مولى عمرو بن العاصي وكان من المهاجرين مع عدي بن زيد وتميم بن أوس وكانا نصرانيين تجاراً إلى الشام، فمرض بديل وكتب كتاباً فيه ما معه وطرحه في متاعه ولم يخبر به صاحبيه وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله ومات، ففتشا متاعه فأخذا إناءً من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشاً بالذهب فغيباه، فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء فجحدا، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ[2]، فنزلت ﴿تحبسونهما﴾ تقفونهما وتصبرونهما للحلف ﴿من بعد الصلاة﴾ من بعد صلاة العصر لأنّه وقت اجتماع الناس. وعن الحسن: بعد صلاة العصر أو الظهر، لأنّ أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما. وفي حديث بديل: أنّها لما نزلت ﷺ صلاة العصر ودعا بعديّ وتميم فاستحلفهما عند المنبر فحلفا، ثم وجد الإناء بمكة، فقالوا: إنا اشتريناه من تميم وعدي، وقيل: هي صلاة أهل الذمة وهم يعظمون صلاة العصر. ﴿إن ارتبتم﴾ اعتراض بين القسم والمقسم عليه، والمعنى: إن ارتبتم في شأنهما واتهمتموهما فحلفوهما، وقيل: إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين، وإن أريد الوصيان فليس بمنسوخ تحليفهما. وعن عليّ رضي الله عنه: أنّه كان يحلف الشاهد والراوي إذا اتهمهما[3]، والضمير في ﴿به﴾ للقسم، وفي ﴿كان﴾ للمقسم له، يعني: لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من الدنيا، أي: لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ولو كان من نقسم له قريباً منا، على معنى أنّ هذه عادتهم في صدقهم وأمانتهم أبداً، وأنّهم داخلون تحت قوله تعالى: ﴿كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾[4] ﴿شهادة الله﴾ أي: الشهادة التي أمر الله بحفظها وتعظيمها. وعن الشعبي أنّه وقف على شهادة، ثم ابتدأ آلله بالمد على طرح حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه. وروي عنه بغير مدّ على ما ذكر سيبويه أنّ منهم من يحذف حرف القسم ولا يعوّض منه همزة الاستفهام، فيقول: الله لقد كان كذا. وقرئ: لملاثمين بحذف الهمزة وطرح حركتها على اللام وإدغام نون من فيها، كقوله: عاد لولي.

فإنْ قلتَ: ما موقع تحبسونهما؟ قلتُ: هو استئناف كلام، كأنّه قيل: بعد اشتراط العدالة فيهما، فكيف نعمل إن ارتبنا بهما؟ فقيل: ﴿تحبسونهما﴾.

فإنْ قلتَ: كيف فسرت الصلاة بصلاة العصر وهي مطلقة؟ قلتُ: لما كانت معروفة عندهم بالتحليف بعدها أغنى ذلك عن التقييد، كما لو قلت في بعض أئمة الفقه إذا صلى أخذ في الدرس علم أنّها صلاة الفجر، ويجوز أن تكون اللام للجنس وأن يقصد بالتحليف على أثر الصلاة أن تكون الصلاة لطفاً في النطق بالصدق وناهيةً عن الكذب والزور ﴿إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[5].

﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا

(1) سورة الطلاق، الآية: 2.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: من سورة المائدة الحديث(3059)، وأخرجه مختصراً أبو داود في كتاب: الأقضية، باب: شهادة أهل الذمة، وفي الوصية في السفر الحديث (3606)، والبخاري في صحيحه، كتاب: الوصايا، باب: قول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم...﴾ الحديث (2780).

(3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار= الحديث (1521)، وأخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة آل عمران الحديث (3006)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في أن الصلاة كفارة الحديث (1395)، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة الحديث (419).

(4) سورة النساء، الآية: 135.

(5) سورة العنكبوت، الآية: 45.

وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾.

﴿فإن عثر﴾ فإن طلع ﴿على أنّهما استحقا إثماً﴾ أي: فعلا ما أوجب إثماً واستوجبا أن يقال: إنهما لمن الآثمين. ﴿فآخران﴾ فشاهدان آخران ﴿يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم﴾ أي: من الذين استحق عليهم الإثم، ومعناه: من الذين جني عليهم وهم أهل الميت وعشيرته. وفي قصة بديل أنّه لما ظهرت خيانة الرجلين حلف رجلان من ورثته أنّه إناء صاحبهما وأنّ شهادتهما أحق من شهادتهما. ﴿الأوليان﴾ الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما، وارتفاعهما على هما الأوليان، وقيل: هما بدل من الضمير في يقومان، أو من آخران، ويجوز أن يرتفعا باستحق، أي: من الذين استحق عليهم انتداب الأوليين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال. وقرئ: الأوّلين على أنه وصف للذين استحق عليهم مجرور أو منصوب على المدح، ومعنى الأولية التقدم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها. وقرئ: الأوليين على التثنية وانتصابه على المدح. وقرأ الحسن: الأولان ويحتج به من يرى رد اليمين على المدعي. وأبو حنيفة وأصحابه لا يرون ذلك فوجهه عندهم: أنّ الورثة قد ادعوا على النصرانيين أنّهما قد اختانا فحلفا، فلما ظهر كذبهما ادعيا الشراء فيما كتما، فأنكر الورثة، فكانت اليمين على الورثة لإنكارهم الشراء.

فإنْ قلتَ: فما وجه قراءة من قرأ ﴿استحق عليهم الأوليان﴾ على البناء للفاعل وهم علي وأبيّ وابن عباس؟ قلتُ: معناه من الورثة الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجرّدوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين.

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾.

﴿ذلك﴾ الذي تقدّم من بيان الحكم ﴿أدنى﴾ أن يأتي الشهداء على نحو تلك الحادثة ﴿بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تردّ أيمان﴾ أن تكر أيمان شهود آخرين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور كذبهم كما جرى في قصة بديل. ﴿واسمعوا﴾ سمع إجابة وقبول.

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾.

﴿يوم يجمع﴾[1] بدل من المنصوب في قوله: ﴿واتّقوا الله﴾ وهو من بدل الاشتمال، كأنّه قيل: واتّقوا الله يوم جمعه[2]، أو ظرف لقوله: لا يهدي أي: لا يهديهم طريق الجنة يومئذٍ كما يفعل بغيرهم، أو ينصب على إضمار اذكر أو يوم يجمع الله الرسل كان كيت وكيت. و[3] ﴿ماذا﴾ منتصب بأجبتم انتصاب مصدره على معنى أي إجابة أجبتم، ولو أريد الجواب لقيل: بماذا أجبتم؟

فإنْ قلتَ: ما معنى سؤالهم؟ قلتُ: توبيخ قومهم كما كان سؤال الموءودة توبيخاً للوائد.

فإنْ قلتَ: كيف يقولون: ﴿لا علم لنا﴾ وقد علموا بما أجيبوا؟ قلتُ: يعلمون أنّ الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم فيكلون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهاراً للتشكي واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم، وذلك أعظم على الكفرة، وأفتّ في أعضادهم، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله وتشكّي أنبيائه عليهم، ومثاله: أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصةً من خواصه نكبةً قد عرفها السلطان، واطلع على كنهها، وعزم على الانتصار له منه، فيجمع بينهما ويقول له: ما فعل بك هذا الخارجي! وهو عالم بما فعل به يريد توبيخه وتبكيته فيقول له: أنت أعلم بما فعل بي تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه واتكالاً عليه، وإظهاراً للشكاية، وتعظيماً لما حلّ به منه[4]. وقيل: من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم، وقيل: معناه علمنا ساقط مع علمك ومغمور به لأنّك علام الغيوب، ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي منها إجابة الأمم لرسلهم فكأنّه لا علم لنا إلى جنب علمك. وقيل: لا علم لنا بما كان منهم بعدنا وإنما الحكم للخاتمة وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجوه زرق العيون موبخين[5]. وقرئ: ﴿علام الغيوب﴾[6] بالنصب على أنّ الكلام قد تم بقوله: ﴿إنك أنت﴾ أي: إنك الموصوف بأوصافك المعروفة من العلم وغيره، ثم نصب علام الغيوب على الاختصاص أو على النداء أو هو صفة لاسم أن.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

(1) قال أحمد: ويكون انتصابه إذاً، انتصاب المفعول به، لا الظرف على حكم المبدل منه.

(2) قال أحمد: وهو على هذا أيضاً: مفعول به.

(3) قال أحمد: والتعظيم في هذا نحو التعظيم بالسكوت عن الصلة، في مثل ما حصل، إلا بعد التي واللتيا.

(4) قال أحمد: وأيضاً، فالمسؤول عنه إجابتهم عند دعائهم إياهم إلى الله، لا ما حدث بعد ذلك، مما لا يتعلق به علم الرسل، = والله أعلم.

(5) قال أحمد: ويكون هذا من باب:

أنا أبو النجم وشعري شعري

وقد مر قبل بآيات، وإنما ذكرت هذه الثلاثة من الإعراب، لالتباسها إلا على الحذاق، وقليل ما هم.

(6) سورة المائدة، الآية: 109.

عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾.

﴿إذ قال الله﴾ بدل ﴿من يوم يجمع﴾ والمعنى أنه يوبخ الكافرين يومئذٍ بسؤال الرسل عن إجابتهم، وبتعديد ما أظهر على أيديهم من الآيات العظام فكذبوهم وسموهم سحرة، أو جاوزوا حدَّ التصديق إلى أن اتخذوهم آلهةً كما قال بعض بني إسرائيل فيما أظهر على يد عيسىٰ عليه السلام من البيّنات والمعجزات: هذا سحر مبين، واتخذه بعضهم وأمه إلَهين. ﴿أيدتك﴾ قويتك وقرئ: أيدتك على أفعلتك ﴿بروح القدس﴾ بالكلام الذي يحيا به الدين وإضافة إلى القدس لأنّه سبب الطهر من أوضار الآثام، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿تكلم الناس﴾ و ﴿في المهد﴾ في موضع الحال لأنّ المعنى تكلمهم طفلاً ﴿وكهلاً﴾ إلا أنّ في المهد فيه دليل على حد من الطفولة. وقيل: روح القدس جبريل عليه السلام أيد به لتثبيت الحجة.

فإنْ قلتَ: ما معنى قوله: ﴿في المهد وكهلاً﴾؟ قلتُ: معناه تكلمهم في هاتين الحالتين من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد والحدّ الذي يستنبأ فيه الأنبياء. ﴿والتوراة والإنجيل﴾ خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة، لأنّ المراد بهما جنس الكتاب والحكمة. وقيل: الكتاب الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب ﴿كهيئة الطير﴾ هيئة مثل هيئة الطير. ﴿بإذني﴾ بتسهيلي، ﴿فتنفخ فيها﴾ الضمير للكاف لأنّها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسىٰ عليه السلام وينفخ فيها ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنّها ليست من خلقه ولا من نفخه في شيء، وكذلك الضمير في ﴿فتكون﴾، ﴿تخرج الموتى﴾ تخرجهم من القبور وتبعثهم، قيل: أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك﴾ يعني: اليهود حين هموا بقتله، وقيل: لما قال الله تعالى لعيسىٰ ﴿اذكر نعمتي عليك﴾ كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيئاً لغدٍ يقول: مع كل يوم رزقه. لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت أينما أمسى بات.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾.

﴿أوحيت إلى الحواريين﴾ أمرتهم على ألسنة الرسل ﴿مسلمون﴾ مخلصون، من أسلم وجهه لله.

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾.

﴿عيسىٰ﴾ في محل النصب على اتباع حركة الابن، كقولك: يا زيد بن عمرو وهي اللغة الفاشية، ويجوز أن يكون مضموماً كقولك: يا زيد بن عمرو والدليل عليه قوله:

أحار بن عمرو كأني خمر ... ويبدو على المرء ما يأتمر

لأنّ الترخيم لا يكون إلا في المضموم.

فإنْ قلتَ: كيف قالوا: ﴿هل يستطيع ربك﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلتُ[1]: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنّما حكى ادعاءهم لهما ثم أتبعه قوله: إذ قالوا، فآذن إنّ دعواهم كانت باطلة وإنّهم كانوا شاكين، وقوله: هل يستطيع ربك كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم. وكذلك قول عيسىٰ عليه السلام لهم: معناه اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة. وقرئ: هل تستطيع ربك أي: هل تستطيع سؤال ربك، والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله. والمائدة: الخوان إذا كان عليه الطعام، وهي من ماده إذا أعطاه ورفده كأنّها تميد من تقدّم إليه.

قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾.

﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، أو نكون من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوة عاكفين عليها، على أنّ عليها في موضع الحال، وكانت دعواهم لإرادة ما ذكروا كدعواهم الإيمان والإخلاص، وإنّما سأل عيسى وأجيب ليلزموا الحجة بكمالها ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا. وقرئ: ويعلم بالياء على البناء للمفعول وتعلم وتكون بالتاء والضمير للقلوب.

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾.

---

(1) قال أحمد: وقيل: إنّ معنى هل يستطيع: هل يفعل، كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم مبالغة في التقاضي، ونقل هذا القول عن الحسن، فعلى هذا يكون إيمانهم سالماً عن قدح الشك في القدرة، فإن استقام التعبير عن الفعل بالاستطاعة، فذاك، والله أعلم، من باب التعبير عن المسبب بالسبب إذ الاستطاعة من جملة أسباب الإيجاد، وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل، تسمية للسبب الذي هو الإرادة، باسم المسبب الذي هو الفعل، في مثل قوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ وقد مضى أوّل السورة، وفي هذا التأويل الحسن تعضيد، لتأويل أبي حنيفة، = حيث جعل الطول المانع من نكاح الأمة، وجود الحرّة في العصمة وعدمه أن لا يملك عصمة الحرّة، وإن كان قادراً على ذلك، فتباح له حينئذٍ الأمة، وحمل قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ على معنى: ومن لم يملك منكم، وحمل النكاح على الوطء، فجعل استطاعة الملك المنفية هي الملك، كما ترى حتى أنّ القادر غير المالك عادم الطول عنده، فينكح الأمة، وقد مضى ذكر مذهبه، وكنت أستبعد إنهاضه، لأن يكون تأويلاً يحتمله اللفظ، ويساعده الاستعمال، حتى وقفت على تفسير الحسن هذا، والله أعلم.

﴿اللهم﴾ أصله يا الله فحذف حرف النداء وعوضت منه الميم. و﴿ربنا﴾ نداء ثانٍ ﴿تكون لنا عيداً﴾ أي: يكون يوم نزولها عيداً. قيل: هو يوم الأحد، ومن ثَم اتخذه النصارى عيداً. وقيل: العيد السرور العائد ولذلك يقال: يوم عيد، فكان معناه تكون لنا سروراً وفرحاً. وقرأ عبد الله: تكن على جواب الأمر، ونظيرهما يرثني ويرثني. ﴿لأوّلنا وآخرنا﴾ بدل من لنا بتكرير العامل أي لمن في زماننا من أهل ديننا ولمن يأتي بعدنا. وقيل: يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم ويجوز للمقدّمين منا والأتباع. وفي قراءة زيد: لأولانا وأخرانا وللتأنيث بمعنى الأمة والجماعة ﴿عذاباً﴾ بمعنى تعذيباً.

قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾.

والضمير في ﴿لا أعذبه﴾ للمصدر، ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء. وروي: أنّ عيسىٰ عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفاً ثم قال: اللهم أنزل علينا، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وأخرى تحتها وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم. فبكى عيسىٰ عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها مثلةً وعقوبةً. وقال لهم: ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها. فقال شمعون رأس الحواريين: أنت أولى بذلك. فقال عيسىٰ فتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل. وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد. فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله. فقال الحواريون: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى؟ فقال: يا سمكة احيي بإذن الله، فاضطربت ثم قال لها: عودي كما كنت فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمسخوا قردة وخنازير، وروي: أنّهم لما سمعوا بالشريطة وهي قوله تعالى: ﴿فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذبه﴾. قالوا: لا نريد فلم تنزل. وعن الحسن: والله ما نزلت، ولو نزلت لكان عيداً إلى يوم القيامة لقوله: ﴿وآخرنا﴾[1] والصحيح أنّها نزلت.

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾.

﴿سبحانك﴾ من أن يكون لك شريك ﴿ما يكون لي﴾ ما ينبغي لي ﴿أن أقول﴾ قولاً لا يحق لي أن أقوله: ﴿في نفسي﴾ في قلبي والمعنى تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه فقيل ﴿في نفسك﴾ لقوله: في نفسي. ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ تقرير للجملتين معاً لأنّ ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ولأنّ ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه علم أحد[2].

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾.

﴿إن﴾ في قوله: ﴿أن أعبدوا الله﴾ إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر، والمفسر إما فعل القول، وإما فعل الأمر، وكلاهما لا وجه له، أما فعل القول فيحكى بعده الكلام من غير أن يتوسط بينهما حرف التفسير، لا تقول: ما قلت لهم إلا أن أعبدوا الله، ولكن ما قلت لهم إلا اعبدوا الله[3]، وأما فعل الأمر فمسند إلى ضمير الله عز وجل فلو فسرته باعبدوا الله ربي وربكم لم يستقم؛ لأنّ الله تعالى لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم[4]، وإن

---

(1) سورة المائدة، الآية: 114.

(2) قال أحمد: وقد أجاز بعضهم وقوع أن المفسرة بعد لفظ القول، ولم يقتصر بها على ما في معناه، فيجوز على هذا القول وقوعها تفسيراً لفعل القول، وقد أبى الزمخشري في مفصله وقوعها، إلا بعد فعل في معنى القول، كمذهبه ههنا.

(3) قال أحمد: ويجوز أيضاً هذا الوجه على صرف التفسير إلى المعنى، كأنه حكى معنى قول الله عزّ وجلّ له، بعبارة أخرى، وكان الله تعالى قال له: مرهم بعبادتي، أو قال لهم على لسان عيسى: اعبدوا الله رب عيسى وربكم، فلما حكاه عيسى عليه السلام، قال: اعبدوا الله ربي وربكم، فكنى عن اسمه الظاهر بضميره، كما قال الله تعالى حكاية عن موسى: ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ فانظر كيف جاء أوّل الكلام حكاية لقول = موسى، وموسى لا يقول: فأخرجنا، ولكن: فأخرج الله، فلما حكاه الله تعالى عن موسى، رد الكلام إليه تعالى، وأضاف الإخراج إلى ذاته، على طريقة المتكلم لا الحاكي، وكذلك قوله تعالى: ﴿ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم﴾ إلى قوله: ﴿فأنشرنا به بلدة ميتاً﴾ ونظائره كثيرة، وقد قدمت نحواً من هذا البحث عند قوله تعالى حكاية عن اليهود: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ لما استبعد الزمخشري أن تصفه اليهود بهذه الصفات، المنافية لاعتقادهم فيه.

(4) قال أحمد: أي، فلا يقدر بالعبادة، ولكن بالأمر بها، كأنه قيل: ما قلت لهم إلا الأمر بالعبادة لله، والأمر مقول لقلت، على أن جعل العبادة مقوّلة، ليس ببعيد على طريقة، ثم يعودون لما قالوا، أي: للوطء الذي قالوا قولاً يتعلق به، وكقوله تعالى: ﴿ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً﴾ وسيأتي له تصحيح هذا الاستعمال، لوروده كثيراً في القرآن الكريم.

جعلتها موصولة بالفعل لم تخل من أن تكون بدلاً من ما أمرتني به أو من الهاء في به، وكلاهما غير مستقيم لأنّ البدل هو الذي يقوم مقام المبدل منه، ولا يقال: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته لأنّ العبادة لا تقال[1]، وكذلك إذا جعلته بدلاً من الهاء لأنّك لو أقمت أن اعبدوا الله مقام الهاء فقلت: إلا ما أمرتني بأن اعبدوا الله لم يصح لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته.

فإنْ قلتَ[2]: فكيف يصنع؟ قلتُ: يحمل فعل القول على معناه لأنّ معنى ﴿وما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ ما أمرتهم إلا بما أمرتني به حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا الله ربي وربكم[3]، ويجوز أن تكون موصولة عطف بيان للهاء لا بدلا ﴿وكنت عليهم شهيداً﴾ رقيباً كالشاهد على المشهود عليه أمنعهم من أن يقولوا ذلك ويتدينوا به ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة وأنزلت عليهم من البينات وأرسلت إليهم من الرسل.

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾.

﴿إن تعذبهم فإنّهم عبادك﴾ الذين عرفتهم عاصين جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك ﴿وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز﴾ القوي القادر على الثواب والعقاب ﴿الحكيم﴾ الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب.

فإنْ قلتَ[4]: المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال: ﴿وإن تغفر لهم﴾؟ قلتُ: ما قال إنّك تغفر لهم ولكنّه بنى الكلام على إن غفرت فقال: إن عذبتهم عدلت لأنّهم أحقاء بالعذاب وإن غفرت لهم مع كفرهم لم تعدم في المغفرة وجه حكمة، لأنّ المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول، بل متى كان الجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن.

قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾.

قرئ: هذا يوم ينفع بالرفع والإضافة وبالنصب إما على أنّه ظرف لقال وإما على أنّ هذا مبتدأ والظرف خبر، ومعناه هذا الذي ذكرنا من كلام عيسى واقع يوم ينفع، ولا يجوز أن يكون فتحاً كقوله تعالى: ﴿يوم لا تملك﴾[5] لأنّه مضاف إلى متمكن، وقرأ الأعمش يوم ينفع بالتنوين

---

(1) قال أحمد: وهذا أيضاً غير مانع من البدل، وإنما يواجه المصنف بما لا يسعه إنكاره، فقد قال في مفصله ما هذا نصه، وقولهم: إن البدل في حكم تنحية الأوّل، إيذان منهم باستقلاله بنفسه ومفارقته التأكيد، والصفة في كونهما اسمين لما يتبعانه، لا أن يعنوا إهدار الأوّل واطراحه، ألا تراك تقول: زيداً رأيت غلامه رجلاً صالحاً، فلو ذهبت إلى إهدار الأوّل، لم يسند كلامك، فانظر كيف يرد كلامه في المفصل، وهو الحق ما ارتكبه من ردّ البدل في هذه الآية، للزوم طرح الأوّل، فتخلو الصلة من الضمير، ولم يجعل هذا القدر مانعاً في المثال المذكور، مع أنك لو طرحت الأوّل، لخلا الخبر من الضمير العائد، ولم يسند الكلام، فهذه وجوه أربعة، منعها في إعراب أن وكلها مسندة حسبما بينا، وهذه المساجلة في هذا الإعراب من الغرر والحجول في صناعة الإعراب وعلم البيان، وفرسان هذا المضمار قليل.

(2) قال أحمد: هذا التأويل لتوقع أن المفسرة بعد فعل في معنى القول، وليس قولاً صريحاً، وحمل القول على الأمر، مما يصحح المذهب الآخر في إجازة وقوعها بعد القول، فإنه لولا ما بين القول والأمر من التفاوت المعنوي، لما جاز إطلاق أحدهما وإرادة الأخرى، والعجب أنّ الأمر قسم من أقسام القول وما بُينهما، إلا عموم وخصوص، وليس في هذا التأويل الذي سلكه، إلا كلفة لا طائل وراءها، ولو كانت العرب تأبى وقوع المفسرة بعد القول، لما أوقعتها بعد فعل ليس بقول، ثم عبرت عن ذلك الفعل بالقول؛ لأن ذلك كالعود إلى ما وقع الفرار منه، وهم بعداء من ذلك.

(3) قال أحمد: يريد بجعله عطف بيان: أن يسلم من تقدير إطراح الأول في البدل، وخلوّ الصلة حينئذٍ من العائد، وقد بيّنا أنّ ذلك غير لازم في البدل، والعجب أنه أيضاً في مفصله، لم يفصل بين عطف البيان والبدل، إلا في مثل قول المرار:

أنا ابن التارك البكري بشر

لأنه لو جعله بدلاً للزم، تكرير العامل، وإضافة اسم الفاعل= المعرف بالألف واللام، إلى العلم، ولم يفصل بينهما في غير هذا المثال، ومن حيث المعنى أنّ المعتمد في عطف البيان الأوّل، وأما الثاني فللتوضيح، والمعتمد في البدل الثاني، وأما الأوّل فبساط لذكره، لا على أنه مطرح مهدر.

(4) قال أحمد رحمه الله: تذبذب الزمخشري في هذا الموضع، فلا إلى أهل السنة، ولا إلى القدرية، أما أهل السنة، فالمغفرة للكفار جائزة عندهم في حكم الله تعالى عقلاً، بل عقاب المتقي المخلص، كذلك غير ممتنع عقلاً من الله تعالى، وإذا كان كذلك، فهذا الكلام خرج على الجواز العقلي، وإن كان السمع ورد بتعذيب الكفار، وعدم الغفران لهم، إلا أن ورود السمع بذلك، لا يرفع الجواز العقلي، وأما القدرية، فيزعمون أن المغفرة للكافر ممتنعة عقلاً، لا تجوز على الله تعالى، لمناقضتها الحكمة، فمن ثَم كفحتهم هذه الآية بالردّ، إذ لو كان الأمر كزعمهم، لما دخلت كلمة: ﴿إن﴾ المستعملة عند الشك، في وقوع الفعل بعدها لغة، في فعل لا شك في عدم وقوعه عقلاً، ولكان ذلك من باب التعليق بالمحال، كان يبيض القار وأشباهه، وليس هذا مكانه، فقول الزمخشري إذاً: إن يغفر لهم، لم يعدم وجهاً من الحكمة في المغفرة؛ لأنّ العفو عن المجرم حسن عقلاً، لا يأتلف بقواعد السنة، إذ لا يلتفت عندهم إلى التحسين العقلي، ولا يأتلف أيضاً بنزغات القدرية؛ لأنهم يجزمون بأنه لا وجه من الحكمة في المغفرة للكافر، ويقطعون بمنافاتها الحكمة، فكيف يخاطب الله تعالى به، فعلم أن عيسى عليه السلام يبرأ إلى الله من هذا الإطلاق، ومما اشتمل عليه من سوء الأدب، فإن قول القائل لمن يخطبه: ما فعل كذا، فلن يعدم فيه عذراً ووجهاً من المصلحة، كلام مبذول، وعبارة نازلة عن أوفى مراتب الأدب، إنما يطلقها المتكلم لمن هو دونه عادة، فنسأل الله إلهام الأدب، وتجنب ما في إساءته من مزلات العطب.

(5) سورة الانفطار، الآية: 19.

كقوله تعالى: ﴿اتقوا يوماً لا تجزي نفس﴾[1].

فإنْ قلتَ[2]: ما معنى قوله: ﴿ينفع الصادقين صدقهم﴾ إن أريد صدقهم في الآخرة فليست الآخرة بدار عمل وإن أريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه، لأنّه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟ قلتُ: معناه الصدق المستمرّ بالصادقين في دنياهم وآخرتهم، وعن قتادة: متكلمان تكلما يوم القيامة أمّا إبليس فقال: إنّ الله وعدكم وعد الحق، فصدق يومئذٍ وكان قبل ذلك كاذباً فلم ينفعه صدقه وأما عيسى عليه السلام فكان صادقاً في الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

فإنْ قلتَ: في السموات والأرض العقلاء وغيرهم فهلا غلب العقلاء فقيل: ومن فيهنّ؟ قلتُ: ما يتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً الا تراك تقول إذا رأيت شبحاً من بعيد ما هو قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره؟ فكان أولى بإرادة العموم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنعام مكية

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

جعل: يتعدّى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى: أحدث وأنشأ، كقوله: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى: صير، كقوله: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾[3]، والفرق بين الخلق والجعل، أنّ الخلق فيه معنى التقدير[4]، وفي الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان. ومن ذلك: ﴿وجعل منها زوجها﴾[5] ﴿وجعل الظلمات والنور﴾؛ لأنّ الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار، ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾[6] ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾[7].

فإن قُلْتَ[8]: لم أفرد النور؟ قُلْتُ: للقصد إلى الجنس كقوله تعالى: ﴿والملك على أرجائها﴾[9] أو، لأنّ الظلمات كثيرة، لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل، وظله هو الظلمة، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار.

فإن قُلْتَ[10]: علام عطف قوله: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾؟ قُلْتُ: إما على قوله: ﴿الحمد لله﴾ على

---

(1) سورة البقرة، الآية: 48.

(2) قال أحمد: ولو أجاب بحمل الصادقين على الدنيا، وصدقهم على الآخرة، حتى يكون التقدير هذا يوم ينفع الصادقين في الدنيا، صدقهم في الآخرة، لكان أوضح طباقاً لتفسير قتادة، وأخرج لإبليس وأشباهه من هذا العموم، فإن إبليس، وإن صدق في الآخرة، إلا أنه يكن من الصادقين في الدنيا، فلم ينفعه صدقه في الآخرة، والوجهان متقاربان.

(3) سورة الزخرف، الآية: 19.

(4) قال أحمد: وقد وردت جعل وخلق مورداً واحداً، فورد وخلق منها زوجها، وورد وجعل منها زوجها وذلك ظاهر في الترادف، إلا أن للخاطر ميلاً إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري، ويؤيده أن جعل لم يصحب السموات والأرض، وإنما لزمتهما خلق وفي إضافة الخلق في هذه الآية إلى السموات والأرض، والجعل إلى الظلمات والنور مصداق للمميز بينهما. والله أعلم.

(5) سورة الأعراف، الآية: 189.

(6) سورة فاطر، الآية: 11.

(7) سورة صّ، الآية: 5.

(8) قال أحمد: وقد سبق للزمخشري الاستدلال بجمع الجنس على التكثير، واعتقاد أنه أدل على الكثرة من الأفراد، وقد قدمنا ما في ذلك من النظر، وأسلفنا الاستدلال بقول حبر الأمة كتابه أكثر من كتبه على خلاف ذلك، وهو رأي الإمام أبي المعالي، ولو قال = الزمخشري: إن جمع الظلمات لاختلافها بحسب اختلاف ما ينشأ عنه من أجناس الأجرام، وإفراد النور لاتحاد الجنس الذي ينشأ عنه، وهو النار لكان أولى، والله أعلم.

(9) سورة الحاقة، الآية: 17.

(10) قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني نظر من حيث أن عطفه على الصلة يوجب دخوله في حكمها، ولو قال الحمد لله الذي. الذين كفروا بربهم يعدلون لم يسند لخلو الجملة من العائد، ويمكن أن يقال: وضع الظاهر الذي هو ربهم موضع المضمر تفخيماً وتعظيماً، وأصل الكلام الذي يعدل به الذين كفروا، أو الذي الذين كفروا يعدلون به باتساع وقوعها صلة رعاية لهذا الأصل، فهذا نظر من حيث الإعراب ونظيره، قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم﴾ فيمن جعل ما موصولة لا شرطية، فإنّ دخول جاءكم وما بعده في حكم الصلة يستدعي ضميراً عائداً إلى الموصول، وهو: مفقود لفظاً؛ لأنّ الظاهر وضع فيه موضع المضمر، والأصل: ثم جاءكم رسول مصدّق له، فاستقام عطفه ودخوله في حكم الصلة بهذه الطريقة لكن بقي في آية الأنعام هذه نظر في المعنى على الإعراب المذكور، وهو: أن يصير التقدير الحمد لله الذي الذين كفروا يعدلون، ووقوع هذا عقيب الحمد غير مناسب كما ترى، فالوجه والله أعلم، عطفه على أوّل الكلام لا على الصلة، والله الموفق. =

معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؛ لأنه ما خلقه إلا نعمة، ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ فيكفرون نعمته، وإما على قوله: ﴿خلق السموات﴾ على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه.

فإن قُلْتَ: فما معنى ﴿ثم﴾؟ قُلْتُ: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك ﴿ثم انتم تمترون﴾ استبعاد لأن يمتروا فيه بعدما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾.

﴿ثم قضى أجلاً﴾ أجل الموت ﴿وأجل مسمى عنده﴾ أجل القيامة، وقيل: الأجل الأوّل: ما بين أن يخلق إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ، وقيل: الأوّل النوم، والثاني: الموت.

فإن قُلْتَ[1]: المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفاً وجب تأخيره، فلم جاز تقديمه في قوله: ﴿وأجل مسمى عنده﴾؟ قُلْتُ: لأنّه تخصص بالصفة فقارب المعرفة، كقوله: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾[2].

فإن قُلْتَ: الكلام السائر أن يقال: عندي ثوب جيد، ولي عبد كيِّس، وما أشبه ذلك، فما أوجب التقديم؟ قُلْتُ: أوجبه أن المعنى وأي أجل مسمى عنده، تعظيماً لشان الساعة، فلما جرى فيه هذا المعنى، وجب التقديم.

وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾.

﴿في السموات﴾ متعلق بمعنى اسم الله،[3] كأنه قيل: وهو المعبود فيها، ومنه قوله: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾[4] وهو المعروف بالإلٰهية أو المتوحد بالإلٰهية فيها، أو هو الذي يقال له الله فيها لا يشرك به في هذا الاسم، ويجوز أن يكون الله في السمٰوات خبراً بعد خبر، على معنى: أنه الله، وأنه في السمٰوات والأرض، بمعنى: أنه عالم بما فيهما، لا يخفى عليه منه شيء، كأن ذاته فيهما[5].

فإن قُلْتَ: كيف موقع قوله: ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ قُلْتُ: إن أردت المتوحد بالإلٰهية كان تقريراً له؛ لأنّ الذي استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده، وكذلك إذا جعلت في السموات خبراً بعد خبر، وإلا فهو كلام مبتدأ، بمعنى: هو يعلم سركم وجهركم، أو خبر ثالث. ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ من الخير والشر، ويثيب عليه ويعاقب.

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾.

من في ﴿من آية﴾ للاستغراق وفي ﴿من آيات ربهم﴾ للتبعيض يعني: وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار، إلا كانوا عنه معرضين، تاركين للنظر لا يلتفتون إليه، ولا يرفعون به رأساً، لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب.

فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾.

﴿فقد كذّبوا﴾ مردود على كلام محذوف كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها وهو الحق ﴿لما جاءهم﴾ يعني: القرآن الذي تحدوا به على تبالغهم في الفصاحة، فعجزوا عنه ﴿فسوف يأتيهم أنباء﴾ الشيء الذي ﴿كانوا به يستهزؤن﴾ وهو: القرآن أي أخباره وأحواله بمعنى: سيعلمون بأي شيء استهزؤا، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾.

مكّن له في الأرض: جعل له مكاناً فيها ونحوه: أرض له، ومنه قوله: ﴿إنا مكّنا له في الأرض﴾[6] ﴿أولم نمكّن لهم﴾[7] وأمّا مكّنته في الأرض: فأثبته فيها ومنه قوله: ﴿ولقد مكّناهم فيما إن مكّناكم فيه﴾[8] ولتقارب المعنيين

---

(1) قال أحمد: وليس في إرادة هذا المعنى موجب للتقديم، وقد ورد وعنده علم الساعة في سياق التعظيم لها، وهو مع ذلك: مؤخر عن الخبر في قوله: ﴿تبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما، وعنده علم الساعة، وإليه ترجعون﴾ فالظاهر والله أعلم: أن التقديم إنما كان؛ لأنّ الكلام منقول من كلام آخر، وكان الأصل والله أعلم، ثم قضى أجلاً وأجلاً مسمى عنده، إذ كلاهما مقضي، فلما عدل بالكلام عن العطف الإفرادي تمييزاً بين الأجلين رفع الثاني بالابتداء، وأقرّ بمكانه من التقديم، والله أعلم.

(2) سورة البقرة، الآية: 221.

(3) قال أحمد: وما الآيتان الكريمتان، إلا توأمتان، فإنّ التمدح في آية الزخرف وقع بما وقع التمدح به، هـهنا من القدرة على الإعادة، والاستئثار بعلم الساعة، والتوحد في الألوهية، وفي كونه تعالى= المعبود في السموات، والأرض.

(4) سورة الزخرف، الآية: 84.

(5) قال أحمد: وهذه الوجوه كلها كان التعبير وقع فيها بالملزوم عن لوازمه المشهورة به، كما وقع ذلك في قوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري

أي: المعروف المشهور؛ لأنه بنى على أنه متى ذكر شعره، فهم السامع عند ذكره خواصه من الجودة، والبلاغة، وسلامة النسج، لاشتهاره بذلك، فاقتصر على قوله شعري اتكالاً على فهم السامع.

(6) سورة الكهف، الآية: 84.

(7) سورة القصص، الآية: 57.

(8) سورة الأحقاف، الآية: 26.

جمع بينهما في قوله: ﴿مكّناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم﴾ والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثموداً وغيرهم من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا، والسماء المظلة؛ لأنّ الماء ينزل منها إلى السحاب والسحاب أو المطر. والمدرار: المغزار.

فإن قُلتَ: اي فائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم قُلتُ: الدلالة على أنه لا يتعاظمه أن يهلك قرناً ويخرب بلاده منهم، فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده كقوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقباها﴾[1].

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾.

﴿كتابًا﴾ مكتوبًا ﴿في قرطاس﴾ في ورق ﴿فلمسوه بأيديهم﴾[2] ولم يقتصر بهم على الرؤية؛ لئلا يقولوا: سكرت أبصارنا ولا تبقى لهم علة لقالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ نعتاً، وعناداً للحق بعد ظهوره.

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾.

﴿لقضي الأمر﴾ لقضي امر إهلاكهم ﴿ثم لا ينظرون﴾[3] بعد نزوله طرفة عين، إما لأنهم إذا عاينوا الملك «قد نزل على رسول الله ﷺ في صورته»[4] وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ثم لا يؤمنون، كما قال: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾[5] لم يكن بد من إهلاكهم كما أهلك أصحاب المائدة، وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة، فيجب إهلاكهم،[6] وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون[7]، ومعنى ﴿ثم﴾ بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر وعدم الإنظار، جعل عدم الأنظار أشدّ من قضاء الأمر؛ لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾.

﴿ولو جعلناه ملكاً﴾ ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا؛ لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك، وتارة يقولون: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾[8] و ﴿لو شاء ربّنا لأنزل ملائكة﴾[9]؛ ﴿لجعلناه رجلاً﴾ لأرسلناه في صورة رجل، كما كان ينزل جبريل على رسول الله ﷺ في أعم الأحوال في صورة دحية[10]؛ لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم ﴿وللبسنا عليهم﴾ ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك، فإن قال لهم: الدليل على أني ملك أني جئت بالقرآن المعجز، وهو ناطق بأني ملك لا بشر، كذبوه كما كذبوا محمداً ﷺ، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن فهو لبس الله عليهم، ويجوز أن يراد وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة، وقرأ ابن محيصن: ولسنا عليهم بلام واحدة وقرأ الزهري: وللبسنا عليهم ما يلبسون بالتشديد.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾.

﴿ولقد استهزئ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يلقى من قومه ﴿فحاق﴾ بهم فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به، وهو الحق، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

---

(1) سورة الشمس، الآية: 15.

(2) قال أحمد: والظاهر أن فائدة زيادة لمسوه له بأيديهم تحقيق القراءة على قرب، أي: فقرؤه وهو في أيديهم لا بعيد عنهم لما آمنوا، وإلا فالخط لا يدرك باللمس، حتى يجعل فائدة زيادته إدراكه بوجهين كما يفهم من كلام الزمخشري.

(3) قال أحمد: لا يحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك، فإنه ربما يفهم هذا الكلام، أن الآيات التي لزمهم الإيمان بها دون نزول الملك في الوضوح، وليس الأمر كذلك، فالوجه والله أعلم: أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك، وعدم إيمانهم أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه المعجز، من حيث كونه معجزاً، لا المعجز الخاص، فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم، فلم ينجع فيهم كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب، لعدم النظرة، والله أعلم. عاد كلامه قال: وإما لأنه يزول الاختيار الذي قاعدة التكليف مبنية عليه عند نزول الملك، فيجب إهلاكهم، وإما: لأنهم إذا شاهدوا الملك في صورته، زهقت أرواحهم من = هول ما يشاهدون.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: (1) (الحديث رقم: 4855)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ (الحديث رقم: 438).

(5) سورة الأنعام، الآية: 111.

(6) قال أحمد: ويقوي هذا الوجه قوله: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ قال ابن عباس: ليتمكنوا من رؤيته، ولا يهلكوا من مشاهدة صورته.

(7) قال أحمد: وهذه النكتة من محاسن تنبيهاته.

(8) سورة المؤمنون، الآية: 23 و24.

(9) سورة فصلت، الآية: 14.

(10) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: «فضائل القرآن»، باب: كيف نزول الوحي، (الحديث رقم: 4980) عن أسامة بن زيد، ومسلم في صحيحه كتاب: «فضائل الصحابة»، باب: من فضائل أم سلمة (الحديث رقم: 6265).

ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾.

فإن قلت[1]: أي فرق بين قوله ﴿فانظروا﴾ وبين قوله: ﴿ثم انظروا﴾؟ **قلت**: جعل النظر مسببًا عن السير في قوله: ﴿فانظروا﴾[2] فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين، وأما قوله: ﴿سيروا في الأرض ثم انظروا﴾ فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة، وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبّه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح.

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾.

﴿لمن ما في السموات والأرض﴾ سؤال تبكيت و﴿قل لله﴾ تقرير لها أي: هو الله لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أي: أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته، ونصب الأدلة لكم على توحيده، بما أنتم مقرون به من خلق السموات والأرض. ثم أوعدهم على إغفالهم النظر، وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ فيجازيكم على إشراككم وقوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ نصب على الذم أو رفع أي: أريد الذين خسروا أنفسهم أو أنتم الذين خسروا أنفسهم.

فإن قلت: كيف جعل عدم إيمانهم مسببًا عن خسرانهم والأمر على العكس؟ **قلت**: معناه: الذين خسروا أنفسهم في علم الله لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون.

۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾.

﴿وله﴾ عطف على الله ﴿ما سكن في الليل والنهار﴾ من السكنى وتعديه بفي كما في قوله: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾[3] ﴿وهو السميع العليم﴾ يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان.

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾.

أوليّ غير الله همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو اتخذ؛ لأنّ الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي، فكان أولى بالتقديم ونحوه: ﴿أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾[4] ﴿آلله أذن لكم﴾[5] وقرئ فاطر السمٰوات بالجر صفة لله، وبالرفع على المدح، وقرأ الزهري: فطر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي: ابتدعتها[6] ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ وهو يرزق ولا يرزق كقوله: ﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾[7] والمعنى: أنّ المنافع كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع وقرئ: ولا يطعم بفتح الياء وروى ابن المأمون، عن يعقوب: وهو يطعم ولا يطعم على بناء الأوّل للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير الله، وقرأ الأشهب: وهو يطعم ولا يطعم على بنائهما للفاعل، وفسّر بأن معناه: وهو يطعم ولا يستطعم، وحكى الأزهري: أطعمت بمعنى: استطعمت ونحوه أفدت، ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح كقولك: هو يعطي ويمنع، ويبسط ويقدر، ويغني ويفقر، ﴿أول من أسلم﴾ لأنّ النبي ﷺ سابق أمته في الإسلام كقوله: ﴿وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[8] وكقول موسى: ﴿سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين﴾[9] ﴿ولا تكونن﴾ وقيل لي: لا تكونن ﴿من المشركين﴾ ومعناه: أمرت بالإسلام، ونهيت عن الشرك.

مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾.

و﴿من يصرف عنه﴾ العذاب ﴿يومئذ فقد رحمه﴾ الله الرحمة العظمى[10] وهي النجاة كقولك: إن أطعمت زيداً من جوعه فقد أحسنت إليه، تريد: فقد أتممت الإحسان إليه، أو

---

(1) قال أحمد: وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحداً، ليكون ذلك سبباً في النظر، فحيث دخلت الفاء، فلإظهار السببية وحيث دخلت، ثم فللتنبيه على أن النظر، هو: المقصود من السير، وأن السير وسيلة إليه لا غير وشتان بين المقصود، والوسيلة والله أعلم. قوله تعالى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم من يصرف عنه يومئذ، فقد رحمه، وذلك الفوز المبين﴾.

(2) سورة آل عمران، الآية: 137.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 45.

(4) سورة الزمر، الآية: 64.

(5) سورة يونس، الآية: 69.

(6) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 2/258 كتاب: في طلب العلم، = (الحديث رقم: 1682).

(7) سورة الذاريات، الآية: 57.

(8) سورة الأنعام، الآية: 163.

(9) سورة الأعراف، الآية: 143.

(10) قال أحمد: وإنما يلجئ إلى تخصيص الرحمة، إمّا بكونها العظمى، وإمّا برحمة الثواب، أنه لو بقيت على إطلاقها، لما زاد الجزاء على الشرط من المعلوم ضرورة أن صرف العذاب رحمة ما، والعجب أنّ الزمخشري يصحح تخصيصها برحمة الثواب بأن صرف العذاب يستلزم الثواب، ولابدّ وغيره يصحح هذا التخصيص، أنه لا يلزم من صرف العذاب حصول الثواب لجواز أن يصرف عنه العذاب، ولا يثاب، فأفاد الجزاء، إذاً فائدة لم تفهم من الشرط هكذا صححه القونوي، ولعمري وإن قاعدة المعتزلة تلجئ إلى ما ذهب إليه الزمخشري، لانقسام المكلفين عندهم إلى مستوجب للجنة، فالعذاب قطعاً، ويسندون ذلك إلى العقل لا إلى السمع.

فقد أدخله الجنة؛ لأنّ من لم يعذب لم يكن له بد من الثواب، وقرئ: من يصرف عنه على البناء للفاعل، والمعنى: من يصرف الله عنه في ذلك اليوم أي: فقد رحمه بمعنى: من يرفع الله عنه ويحفظه، وقد علم من المدفوع عنه، وترك ذكر المصروف لكونه معلوماً أو منكوراً قبله وهو العذاب ويجوز أن ينتصب يومئذ انتصابها المفعول به أي من يصرف الله عنه ذلك اليوم أي: هوله فقد رحمه، وينصر هذه القراءة قراءة أبيّ رضي الله عنه: من يصرف الله عنه.

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾.

﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وإن يمسسك بخير﴾ من غنى أو صحة ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ فكان قادراً على إدامته، أو إزالته[1].

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾.

﴿فوق عباده﴾ تصوير للقهر، والعلو بالغلبة والقدرة كقوله: ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾[2].

قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾.

الشيء أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم، ولذلك صحّ أن يقال في الله عزّ وجلّ: شيء لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات، ولا يصح جسم لا كالأجسام. وأراد أي شهيد ﴿أكبر شهادة﴾ فوضع شيئاً مقام شهيد؛ ليبالغ في التعميم ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله: قل الله بمعنى: الله أكبر شهادة، ثم ابتدئ شهيد بيني وبينكم أي: هو شهيد بيني وبينكم، وأن يكون الله شهيد بيني وبينكم هو الجواب لدلالته على أنّ الله عزّ وجلّ إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم، فأكبر شيء شهادة شهيد له ﴿ومن بلغ﴾ عطف على ضمير المخاطبين من أهل مكة أي: لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم وقيل: من الثقلين وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ

﴿أئنكم لتشهدون﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد، ﴿قل لا أشهد﴾ شهادتكم.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾.

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ يعني: اليهود والنصارى يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ بحلاهم ونعوتهم لا يخفون عليهم، ولا يلتبسون بغيرهم، وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به، وبصحة نبوّته، ثم قال: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ من المشركين، ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فهم لا يؤمنون﴾ به جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، حيث قالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾[3] وقالوا: ﴿والله أمرنا بها﴾[4]، وقالوا: الملائكة بنات الله، و﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[5] ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها: سحراً، ولم يؤمنوا بالرسول ﷺ.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿ويوم نحشرهم﴾ ناصبه محذوف تقديره ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف ﴿أين شركاؤكم﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، وقوله: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ معناه: تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان. وقرئ: يحشرهم، ثم يقول: بالياء فيهما، وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ، ويجوز أن يشاهدوهم إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة، فكأنهم غيب عنهم، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها، فيروا مكان خزيهم وحسرتهم.

ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾.

﴿فتنتهم﴾ كفرهم والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقاتلوا عليه، وافتخروا به وقالوا: دين آبائنا، إلا جحوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من

---

(1) قال أحمد: وتفسيره الشيء يخالف الفريقين الأشعرية، فإنهم فسروه بالموجود ليس إلا، والمعتزلة فإنهم قالوا: والمعلوم الذي يصح وجوده، فاتفقوا على خروج المستحيل، وعلى الجملة، فهذه المسألة معدودة من علم الكلام باعتبار مّا، وأما هذا البحث، فلغوي، والتحاكم فيه، لأهل اللغة وظاهر قولهم غضبت من لا شيء، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً أنّ الشيء لا ينطلق إلا على الموجود، إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم عدماً كان، أو= وجوداً أو ممكناً، أو مستحيلاً لما صدق على أمر مّا أنه ليس بشيء، والأمر في ذلك قريب.

(2) سورة الأعراف، الآية: 127.

(3) سورة الأنعام، الآية: 148.

(4) سورة الأعراف، الآية: 28.

(5) سورة يونس، الآية: 18.

لتدين به ويجوز أن يراد: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا، فسمي فتنة؛ لأنه كذب. وقرئ: تكن بالتاء، وفتنتهم بالنصب، وإنما أنّث أن قالوا لوقوع الخبر مؤنثاً كقولك: من كانت أمّك، وقرئ: بالياء ونصب الفتنة، وبالياء والتاء مع رفع الفتنة. وقرئ ربنا بالنصب على النداء[1].

ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿وضلّ عنهم﴾ وغاب عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ أي: يفترون إلٰهيته وشفاعته.

فإن قُلْتَ: كيف يصحّ أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟ قُلْتُ: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً، ألا تراهم يقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾[2]، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾[3] وقد علموا أنه لا يقضى عليهم، وأما قول من يقول معناه: ما كنا مشركين عند أنفسنا، وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا، وحمل قوله: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ يعني: في الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عيّ وإفحام؛ لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمترجم عنه ولا منطبق عليه، وهو ناب عنه أشدّ النبوّ، وما أدري ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾[4] بعد قوله: ﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾[5] فشبّه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾.

﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ حين تتلوا القرآن، روي أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم، يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيته ـ يعني: الكعبة ـ ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرّك لسانه ويقول: أساطير الأوّلين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأراه حقاً، فقال أبو جهل: كلا، فنزلت[6]. والأكنة على القلوب والوقر في الآذان مثل في نبوّ قلوبهم ومسامعهم عن قبوله واعتقاد صحته، ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله: ﴿وجعلنا﴾ للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه، أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم ﴿وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾[7]، وقرأ طلحة وقرأ بكسر الواو ﴿حتى إذا جاؤك يجادلونك﴾ هي: حتى التي تقع بعدها الجمل، والجملة قوله: ﴿إذا جاؤك﴾؛ ﴿يقول الذين كفروا﴾ ويجادلونك في موضع الحال، ويجوز أن تكون الجارة، ويكون إذا جاؤك في محل الجرّ بمعنى: حتى وقت مجيئهم، ويجادلونك حال، وقوله: ﴿يقول الذين كفروا﴾ تفسير له، والمعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك، وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون ﴿إن هذا إلا أساطير الأوّلين﴾ فيجعلون كلام الله وأصدق الحديث خرافات وأكاذيب وهي الغاية في التكذيب.

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿وهم ينهون﴾ الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه ويثبطونهم عن الإيمان به ﴿وينأون عنه﴾ بأنفسهم، فيضلون ويضلون ﴿وإن يهلكون﴾ بذلك ﴿إلا أنفسهم﴾ ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله ﷺ، وقيل: هو أبو طالب؛ لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأى عنه ولا يؤمن به، وروي أنهم اجتمعوا إلى أبي طالب وأرادوا برسول الله ﷺ سوء[8] فقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة

وابشر بذاك وقرّ منه عيوناً ... ودعوتني وزعمت أنك ناصح

ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

وعرضت ديناً لا محالة أنه ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذاري سبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

فنزلت.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا

(1) قال أحمد: وفي الآية دليل بيّن على أن الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به كذب، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره لمخبره، ألا تراه جعل إخبارهم، وتبريهم كذباً مع أنه تعالى أخبر أنهم ضلّ عنهم ما كانوا يفترون، أي: سلبوا علمه حينئذ دهشاً وخبره، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 107.

(3) سورة الزخرف، الآية: 77.

(4) سورة المجادلة، الآية: 18.

(5) سورة المجادلة، الآية: 14.

(6) قال أحمد رحمه الله: وهذه الآية حسبنا في رد معتقد، القدرية الذي يزعمون أن الله تعالى، أراد من هؤلاء المستمعين أن يعوا القرآن، ويفقهوه، وأنه لم يمنعهم من ذلك، ومحال على زعمهم أن يمنعهم من ذلك، ويريد أن لا يفقهوه؛ لأن ذلك عندهم قبيح، فانظر كيف تكافحهم هذه الآية بالردّ وتنادي عليهم بالخطأ، إذ قوله أن يفقهوه معناه: كراهة أن يفقهوه، وبين الإرادة على زعمهم، والكراهة على ما أنبأت عنه الآية بون بعيد، والله الموفق.

(7) سورة فصلت، الآية: 5.

(8) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة.

وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف تقديره ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً ﴿وقفوا على النار﴾ أروها حتى يعاينوها، أو اطلعوا عليها اطلاعاً هي تحتهم، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها، من قولك: وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته. وقرئ وقفوا على البناء للفاعل من وقف عليه وقوفاً ﴿يا ليتنا نرد﴾ ثم تمنيهم ثم ابتدؤا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ واعدين الإيمان كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات، وشبهه سيبويه بقولهم: دعني ولا أعود بمعنى: دعني وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني، ويجوز أن يكون معطوفاً على نرد، أو حالاً على معنى: يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين فيدخل تحت حكم التمني.

فإن قُلْتَ: يدفع ذلك قوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾[1] لأنّ المتمني لا يكون كاذبًا قُلْتُ: هذا تمن قد تضمن معنى العدة فجاز أن يتعلق به التكذيب كما يقول الرجل: ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك، فهذا متمن في معنى الواعد، فلو رزق مالاً ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب كأنه قال: إن رزقني الله مالاً كافأتك على الإحسان[2]، وقرئ ولا نكذب ونكون بالنصب بإضمار أن على جواب التمني ومعناه: إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم، وبشهادة جوارحهم عليهم، فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً، إلا أنهم عازمون على أنهم لو ردوا لآمنوا، وقيل: هو في المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه، وقيل: هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوّة رسول الله ﷺ ﴿ولو ردّوا﴾ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وإنهم لكاذبون﴾ فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به.

وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿وقالوا﴾ عطف على ﴿لعادوا﴾[3] أي: ولو ردوا الكفر ولقالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة، ويجوز أن يعطف على قوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ على معنى: وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء وهم الذين قالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ وكفى به دليلاً على كذبهم[2].

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿وقفوا على ربهم﴾ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه، وقيل: وقفوا على جزاء ربهم، وقيل: عرفوه حق التعريف ﴿قال﴾ مردود على قول قائل قال: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ فقيل: قال: ﴿أليس هذا بالحق﴾ وهذا تعيين من الله تعالى لهم على التكذيب، وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء: ما هو بحق، وما هو إلا باطل ﴿بما كنتم تكفرون﴾ بكفركم بلقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، وقد حقّق الكلام فيه في مواضع أخر.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾.

و﴿حتى﴾ غاية لكذبوا لا لخسر؛ لأنّ خسرانهم لا غاية له، أي: ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة.

فإن قُلْتَ: أما يتحسرون عند موتهم؟ قُلْتُ: لما كان الموت وقوعاً في أحوال الآخرة ومقدّماتها جعل من جنس الساعة وسمي باسمها ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»[4]. أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة ﴿بغتة﴾ فجاة، وانتصابها على الحال بمعنى باغتة، أو على المصدر، كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة، ﴿فرّطنا فيها﴾ الضمير للحياة الدنيا، جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة، أو للساعة على معنى: قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها، كما تقول: فرّطت في فلان ومنه ﴿فرّطت في جنب الله﴾[5] ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ كقوله: ﴿فبما كسبت أيديكم﴾[6] لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور كما ألف الكسب بالأيدي، ﴿ساء ما يزرون﴾ بئس شيئاً يزرون وزرهم كقوله: ﴿ساء مثلاً القوم﴾[7].

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 28.

(2) قال أحمد: وكثيراً ما تتناوب صيغة التمني، والخبر: ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ في قوله: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقنّ ولنكونن من الصالحين﴾ إلى قوله: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ وهذه المعاهدة إنما كانت تمنياً بصيغة الخبر، والله أعلم، وأبين من ذلك، قوله تعالى: في آية أخرى: ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ = فهذا هو التمني بعينه، ولكن بصيغة الوعد، والخبر الصريحة، والله الموفق.

(3) سورة الأنعام، الآية: 28.

(4) رواه الديلمي في مسند الفردوس.

(5) سورة الزمر، الآية: 56.

(6) سورة الشورى، الآية: 30.

(7) سورة الأعراف، الآية: 177.

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾.

جعل أعمال الدنيا لعبًا ولهوًا واشتغالاً بما لا يعني ولا يعقب منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة ﴿وقوله للذين يتقون﴾ دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه ولدار الآخرة. وقرئ تعقلون بالتاء والياء.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾.

قد في ﴿قد نعلم﴾[1] بمعنى: ربما الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته كقوله:

أخا ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

والهاء في ﴿إنه﴾ ضمير الشأن ﴿ليحزنك﴾ قرئ بفتح الياء وضمها و ﴿الذي يقولون﴾ هو: قولهم ساحر كذاب[2] ﴿لا يكذبونك﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف من كذبه إذا جعله كاذبًا في زعمه، وأكذبه إذا وجده كاذبًا والمعنى: أنّ تكذيبك أمر راجع إلى الله؛ لأنك رسوله المصدّق بالمعجزات، فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته، فاله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق، وليشغلك عن ذلك ما هو أهمّ وهو استعظامك بجحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه، ونحوه قول السيد لغلامه إذا أهانه بعض الناس إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني، وفي هذه الطريقة قوله تعالى: ﴿إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾[3] وقيل: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم، وقيل: فإنهم لا يكذبونك؛ لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بآيات الله، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين، فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون[4]، وكان أبو جهل يقول: ما نكذبك لأنك عندنا صادق، وإنما نكذب ما جئتنا به، وروي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟ فقال له: والله إنّ محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوّة فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت. وقوله: ﴿ولكن الظالمين﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر للدلالة على أنهم ظلموا في جحودهم[5].

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾.

﴿ولقد كذبت﴾ تسلية لرسول الله ﷺ، وهذا دليل على أن قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾[6] ليس بنفي لتكذيبه، وإنما هو من قولك لغلامك: ما أهانوك ولكنهم أهانوني، ﴿على ما كذبوا وأوذوا﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ لمواعيده من قوله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون﴾[7] ﴿ولقد جاءك من نبإ المرسلين﴾ بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين.

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾.

كان يكبر على النبي ﷺ كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل ﴿لعلك باخع نفسك﴾[8] ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾[9] ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع له آية يؤمنون بها ﴿أو سلماً في السماء فتأتيهم﴾ منها ﴿بآية﴾ فافعل يعني: أنك لا تستطيع ذلك، والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم آية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم، وقيل:

---

(1) قال أحمد: ومثلها في قوله، وقد تعلمون أني رسول الله إليكم، فإنه يكثر علمهم برسالته، ويؤكده بظهور آياته، حتى يقيم عليهم الحجة في جمعهم بين متناقضين أذيته ورسوخ علمهم برسالته، والله أعلم، ومنه أيضاً قوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

والغرض: التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه تنبيهاً على أنه بلغ الآية، التي ما بعدها إلا الرجوع إلى الضدّ وذلك من لطائف لغة العرب، وغرائبها. (قال: وقرئ يكذبونك بالتشديد، والتخفيف من كذبه إلى قوله، ولكن الظالمين إلخ).

(2) قال أحمد: وفي هذا النوع من إقامة الظاهر، مقام المضمر فنان من نكت البيان إحداهما الإسهاب في ذمّهم، وهذه النكتة يستقل بها الظاهر من حيث كونه ظاهراً، حتى لو كان لقباً جامعاً، والأخرى: زيادة منه تؤكد ذمّهم تفهم من اشتقاق الظاهر.

(3) سورة الفتح، الآية: 10.

(4) قال الزيلعي: غريب من حديث ابن عباس ورواه ابن سعد في = الطبقات من حديث يعلى بن أمية (1/437).

(5) قال أحمد: ولا دلالة فيه؛ لأنه مؤتلف مع نفي التكذيب أيضاً، وموقعه حينئذ من الفضيلة ابين أي: هؤلاء لم يكذبوك، فحقك أن تصبر عليهم، ولا يحزنك أمرهم، وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم، فصبروا عليهم، فأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر، فقد ائتلف، كما ترى بالتفسيرين جميعاً، ولكنه من غير الوجه الذي استدلّ به، فيه تقريب لما اختاره، وذلك أنّ مثل هذه التسلية قد وردت مصرحاً بها في نحو قوله، وإن يكذبوك، ﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ فسلاه عن تكذيبهم له، بتكذيب غيرهم من الأمم، لأنبيائهم وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع مؤيد بالنظائر، والله أعلم.

(6) سورة الأنعام، الآية: 33.

(7) سورة الصافات، الآيتان: 171، 172.

(8) سورة الكهف، الآية: 6.

(9) سورة القصص، الآية: 56.

كانوا يقترحون الآيات فكان يود أن يجابوا إليها لتمادي حرصه على إيمانهم، فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله، حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون، ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو: الإتيان بالآيات كأنه قيل: لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرقي إلى السماء لفعلت لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها، وحذف جواب أن كما تقول: إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان تزوره ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾[1] بأن يأتيهم بآية ملجئة، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه.

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ يعني: أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وإنما يستجيب من يسمع كقوله: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾[2] ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ﴿ثم إليه يرجعون﴾ للجزاء، فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان وأنت لا تقدر على ذلك، وقيل معناه: وهؤلاء الموتى يعني: الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون فحينئذ يسمعون وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم، وقرئ: يرجعون بفتح الياء.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿لولا نزل عليه آية﴾ نزل بمعنى: أنزل. وقرئ: أن ينزل بالتشديد والتخفيف وذكر الفعل والفاعل مؤنث؛ لأنّ تأنيث آية غير حقيقي وحسن للفصل، وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول الله ﷺ لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل على بني إسرائيل ونحوه، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، وأن صارفاً من الحكمة يصرفه عن إنزالها.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾.

﴿أمم أمثالكم﴾ مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها، كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم ﴿ما فرطنا﴾ ما تركنا وما أغفلنا ﴿في الكتاب﴾ في اللوح المحفوظ ﴿من شيء﴾ من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ يعني: الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض، كما روي أنه: يأخذ للجماء من القرناء.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿إلا أمم﴾ مع إفراد ﴿الدابة﴾ و ﴿الطائر﴾؟ قُلْتُ: لما كان قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر﴾ دالاً على معنى الاستغراق ومغنياً عن أن يقال: وما من دواب ولا طير، حمل قوله: ﴿إلا أمم﴾ على المعنى.

فإن قُلْتَ[3]: هلا قيل وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم وما معنى زيادة قوله: ﴿في الأرض﴾ ﴿ويطير بجناحيه﴾؟ قُلْتُ: معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة كأنه قيل: وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها.

فإن قُلْتَ: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قُلْتُ: الدلالة على عظم قدرته ولطف علمه وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لمالها وما عليها مهيمن على أحوالها لا يشغله شأن عن شأن، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان. وقرأ ابن أبي عبلة ولا طائر بالرفع على المحل كأنه قيل: وما دابة ولا طائر. وقرأ علقمة: ما فرطنا بالتخفيف.

فإن قُلْتَ: كيف اتبعه قوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ قُلْتُ: لما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادي على عظمته قال: والمكذبون ﴿صم﴾ لا يسمعون كلام المنبه ﴿بكم﴾ لا ينطقون بالحق، خابطون في ظلمات

---

(1) قال أحمد: وهذه الآية أيضاً كافلة بالردّ على القدرية في زعمهم، أن الله تعالى شاء جميع الناس كلهم على الهدى، فلم يمكن الا ترى أن الجملة مصدرة بلو، ومقتضاها امتناع جوابها، لامتناع الواقع بعدها، فامتناع اجتماعهم على الهدى إذاً، إنما كان لامتناع المشيئة، فمن ثم ترى الزمخشري يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى، بآية ملجئة لا يكون الإيمان معها اختياراً، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع، وإن مشيئة اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ثابتة غير ممتنعة، ولكن لم يقع متعلقها، وهذه من خباياه ومكامنه، فاحذرها، والله الموفق.

(2) سورة النمل، الآية: 80.

(3) قال أحمد: ولم يبين وجه زيادتها للتعميم، ولقائل أن يقول: يلزم من العموم في أجناس الطير دخول كل طائر في الجوّ، في العموم، وإن لم يذكر في الجو، وكذلك يلزم من عموم الدواب في سائر أصنافها أن يندرج في ذلك كل دابة في الأرضين، وإن لم يذكر في الأرض، فلا بد من بيان وجه الزيادة، فنقول: وقع قوله في الأرض، ويطير بجناحيه موقع الوصف العام، وصفة العام عامة ضرورة المطابقة، فكأنه مع زيادة الصفة تظافرت صفتان عامتان، والله أعلم.

الكفر فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه، ثم قال: إيذانًا بأنهم من أهل الطبع ﴿من يشأ الله يضلله﴾[1] أي: يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به؛ لأنه ليس من أهل اللطف ﴿ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ أي: يلطف به؛ لأنّ اللطف يجدي عليه.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿أرأيتكم﴾ أخبروني والضمير الثاني لا محل له من الإعراب؛ لأنك تقول: أرأيتك زيدًا ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلاً لكنت كأنك تقول: أرأيت نفسك زيدًا ما شأنه، وهو خلف من القول[2]، ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره إن أتاكم عذاب الله ﴿أو أتتكم الساعة﴾ من تدعون، ثم بكتهم بقوله ﴿أغير الله تدعون﴾ بمعنى: أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضر أم تدعون الله دونها! ﴿بل إياه تدعون﴾ بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة ﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفه ﴿إن شاء﴾ إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة[3]، وتنسون ما تشركون وتتركون آلهتكم أو لا تذكرونها في ذلك الوقت؛ لأنّ أذهانكم في ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره[4]، ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: ﴿أغير الله تدعون﴾ كأنه قيل: أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله.

فإن قُلْتَ: إن علقت بالشرط به، فما تصنع بقوله: ﴿فيكشف ما تدعون﴾ إليه مع قوله: ﴿أو أتتكم الساعة﴾؟ وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين قُلْتُ: قد اشترط في الكشف المشيئة وهو قوله: ﴿إن شاء﴾ إيذانًا بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه. البأساء والضراء البؤس والضر، وقيل: البأساء القحط والجوع، والضراء المرض ونقصان الأموال والأنفس، والمعنى: ولقد أرسلنا إليهم الرسل فكذبوهم فأخذناهم ﴿لعلهم يتضرعون﴾ يتذللون ويتخشعون لربهم، ويتوبون عن ذنوبهم.

فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ معناه: نفي التضرع كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا، ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع، إلا عنادهم وقسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ من البأساء والضراء أي: تركوا الاتعاظ به ولم ينفع فيهم ولم يزجرهم ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من الصحة والسعة وصنوف النعمة ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى طلبًا لصلاحه ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ من الخير والنعم لم يزيدوا على الفرح والبطر من غير انتداب لشكر ولا تصد لتوبة واعتذار ﴿أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ واجمون متحسرون آيسون.

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿فقطع دابر القوم﴾ آخرهم، لم يترك منهم أحد، قد استؤصلت شأفتهم ﴿والحمد لله رب العالمين﴾[5] إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم. وقرئ: فتحنا بالتشديد.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ بأن يصمكم ويعميكم ﴿وختم على قلوبكم﴾ بأن يغطي عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم ﴿يأتيكم به﴾ أي: يأتيكم بذاك، إجراء

---

(1) قال أحمد: وهذا من تحريفاته للهداية، والضلالة اتباعاً لمعتقده الفاسد في أنّ الله تعالى، لا يخلق الهدى ولا الضلال، وأنهما من جملة مخلوقات العباد، وكم تخرق عليه هذه العقيدة، فيروم أن يرقعها، وقد اتسع الخرق على الراقع، والله الموفق.

(2) قال أحمد: هو لا يدع أن يحجر واسعاً، فيوجب على الله رعاية المصالح بناء على القاعدة الفاسدة من مراعاة الصلاح، والأصلاح، قال: ﴿وتنسون ما تشركون﴾، أي: وتتركون آلهتكم الخ.

(3) قال أحمد: وإنما يلقى الاختصاص حيث يقول معناه: أتخصون آلهتكم، ثم قال: بل تخصون الله بالدعاء من حيث تقدّم المفعول على الفعل في قوله: أغير الله تدعون، وقوله: بل إياه تدعون، وتقديم المفعول عنده يفيد الاختصاص، والحصر.

(4) قال أحمد: ولقد سدّد النظر لولا أنه نغص ذلك بما يفهم وجوب= مراعاة المصالح، وأنّ مشيئة الله تعالى تابعة للمصلحة، وقد تقدّم آنفاً، فاحذره وعليك بما سواه، فإنه من بديع النظر، والله الموفق.

(5) قال أحمد: ونظيرها، قوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، فيمن وقف ههنا وجعل الحمد على إهلاك المتقدّم ذكرهم من الطاغين ومنهم من وقف على المنذرين، وجعل الحمد متصلاً بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى، وأنه جل جلاله خير مما يشركون، فعلى الأوّل يكون الحمد حتماً وعلى الثاني فاتحة، وهو مستعمل فيهما شرعاً، ولكنه في آية النمل أظهر في كونه مفتتحاً لما بعده، وفي آية الأنعام ختم لما تقدّمه حتماً إذ لا يقتضى السياق غير ذلك، والله أعلم.

للضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه ﴿يصدقون﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾.

لما كانت البغتة أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته قيل ﴿بغتة أو جهرة﴾ وعن الحسن ليلاً أو نهارًا وقرئ: بغتة أو جهرة ﴿هل يهلك﴾ أي: ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون. وقرئ: يهلك بفتح الياء.

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿مبشرين ومنذرين﴾ من آمن بهم وبما جاؤوا به وأطاعهم ومن كذبهم وعصاهم، ولم يرسلهم ليتلهى بهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة ﴿وأصلح﴾ ما يجب عليه إصلاحه مما كلف. جعل العذاب ماسًا كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام ومنه قولهم: لقيت منه الأمرين والأقورين حيث جمعوا جمع العقلاء، وقوله: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا﴾[(1)] أي: لا أدّعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله، وهي قسمه بين الخلق وإرزاقه، وعلم الغيب، وأني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه أي: لم أدّع إلٰهية ولا ملكية؛ لأنه ليس بعد الإلٰهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة حتى تستبعدوا دعواي وتستنكرونها، وإنما أدّعي ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوّة[(2)] ﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾[(3)] مثل للضالّ والمهتدي، ويجوز أن يكون مثلاً لمن اتبع ما يوحي إليه ومن لم يتبع، أو لمن ادّعى المستقيم وهو النبوّة والمحال وهو الإلٰهية والملكية ﴿افلا تتفكرون﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان، أو فتعلموا أني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر، أو فتعلموا أن اتباع ما يوحي إلي مما لا بد لي منه.

فإن قلْتَ: ﴿أعلم الغيب﴾ ما محله من الإعراب؟ قُلْتُ: النصب عطفًا على قوله ﴿عندي خزائن الله﴾؛ لأنه من جملة المقول كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول.

وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾.

﴿ولنذر به﴾ الضمير راجع إلى قوله: ﴿ما يوحى إلي﴾[(4)] و﴿الذين يخافون أن يحشروا﴾[(5)] إما قوم داخلون في الإسلام مقرون بالبعث إلا أنهم مفرطون في

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 12.

(2) قال أحمد رحمه الله: هو ينبني على القاعدة المتقدّمة له في تفضيل الملائكة على الأنبياء، ولعمري أنّ ظاهر هذه الآية يؤيده، فلذلك انتهز الفرصة في الاستدلال بها ولمخالفه أن يقول إنما وردت الآية ردّاً على الكفار في قولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق لولا أنزل عليه ملك، فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز﴾ الآية، فردّ قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام بأنه بشر وذلك شأن البشر، ولم يدّع أنه ملك، حتى يتعجب من أكله للطعام وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء؛ لأنه لا خلاف أنّ الأنبياء يأكلون الطعام، وأنّ الملائكة ليسوا كذلك، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها، ولا يوجب ذلك اتفاقاً على أنّ الملائكة أفضل من الأنبياء، وكذلك ردّ قولهم: أو يلقى إليه كنز بأنه لا يملك خزائن الله تعالى، حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به، وهذه الآية جاء الترتيب فيها مخالفاً لترتيب قوله لن يستنكف المسيح، أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقرّبون قال الزمخشري: لأنهم أعلى من الأنبياء، وقد أخر ههنا دعوى الملكية عن دعوى الإلٰهية إذ الإلٰهية أجلّ، وأعلى الملكية أدنى، ولا محل لذلك، إلا التمهيد الذي أسلفته، وقد جعلت الأمر في التقديم والتأخير تبعاً للسياق، فقد تقتضي البلاغة في بعضه عكس ما تقتضيه في الآخر ولم يحسن الزمخشري في قوله ليس بعد الإلٰهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة، فإنه جعل الإلٰهية من جملة المنازل، كالملكية ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ والمنزلة عبارة عن المحل= = الذي ينزل الله فيه العبد من علوّ، وغيره، فإطلاقها على الإلٰهية تحريف، والله الموفق للصواب.

(3) قال أحمد: قوله وادعى المحال يعني: المستحيل ولذلك قابله بالمستقيم يريد الممكن وذلك مسبب عن دعوى الإلٰهية إذا ادّعاؤها لا يجوز أن يجعل البشر أنبياء، ويدلّ على هذا الجواز قوله، ولو جعلناه ملكاً، لجعلناه رجلاً هذا، مع أن العقل يجيزه في قدرة الله تعالى؛ لأنّ الجواهر متماثلة، والمعاني القائمة ببعضها يجوز أن تقوم بكلها، فالمعاني التي بها كان الملك ملكاً يجوز أن يخلقها الله تعالى، للبشر وبالعكس، وعدم وقوعه لا يأبى استقامته، وإمكانه والله الموفق.

(4) سورة الأنعام، الآية: 50.

(5) قال أحمد: وإنما كانت هذه الحال لازمة لو قيل: أنذر به الذين يحشرون؛ لأنه لولا الحال لعمّ الأمر بالإنذار كل أحد، والمقصود: تخصيصه بالبعض، وأما وقد قيل: وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، فهذا الكلام مستقل برأسه، ومضمونه تخصيص الإنذار المأمور به بالقوم الخائفين من البعث، إما لأنهم مقرون به، وإما لأنهم يحتاطون لأنفسهم، فيحملهم الخوف على النظر المفضي إلى اليقين دون العتاة المصممين على الجحد، وليس كل خائف من البعث، لا شفيع له، فإن الموحدين أجمعين خائفون، وهم مشفوع لهم، وإن عنى باللازمة التي لا ينفك ذو الحال عنها، كالتي في قوله، وهو الحق مصدقاً، فإنما هو حينئذ يبني على قاعدته في إنكار الشفاعة، فكل خائف عنده لا شفيع له إذا لا يخاف، إلا أصحاب الكبائر غير التائبين، أو الكفار والكل=

العمل فينذرهم بما يوحى إليه ﴿لعلهم يتّقون﴾ أي: يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين، وإما أهل الكتاب؛ لأنهم مقرون بالبعث، وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقًا فيهلكوا فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار دون المتمردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء. وقوله: ﴿ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع﴾ في موضع الحال من ﴿يحشروا﴾ بمعنى: يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعًا لهم ولا بد من هذه الحال؛ لأن كلاً محشور، فالمخوّف إنما هو الحشر على هذه الحال. ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتّقوا، ثم أردفهم ذكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وإكرامهم وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أي: عبادته ويواظبون عليها. والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام وقيل: معناه يصلون صلاة الصبح والعصر، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله ﴿يريدون وجهه﴾ والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته روي أن رؤوسًا من المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: لو طردت عنا هؤلاء الأعبد يعنون: فقراء المسلمين وهم عمار وصهيب وبلال وخباب، وسلمان وأضرابهم رضوان الله عليهم، وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب من صوف، جلسنا إليك وحادثناك، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بطارد المؤمنين، فقالوا: فأقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت، فقال: نعم طمعًا في إيمانهم[1]، وروي أن عمر رضي الله عنه قاله: لو فعلت حتى ننظر إلى ما يصيرون؟ قال: فاكتب بذلك كتابًا، فدعا بصحيفة وبعلي رضي الله عنه ليكتب فنزلت فرمى بالصحيفة واعتذر عمر من مقالته. قال سلمان وخباب: فينا نزلت، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾[2] فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه. وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمّتي، معكم المحيا ومعكم الممات. ﴿وما عليك من حسابهم من شيء﴾ كقوله: ﴿إن حسابهم إلا على ربي﴾[3] وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم فقال: ما عليك من حسابهم من شيء بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه الله في أعمالهم على معنى: وإن كان الأمر على ما يقولون عند الله فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة المتقين. وإن كان لهم باطن غير مرضي فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم كقوله: ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾[4].

فإن قُلْتَ: أما كفى قوله: ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ حتى ضم إليه ﴿وما من حسابك عليهم من شيء﴾ قُلْتُ: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى وفي قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعًا كأنه قيل: لا نؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه، وقيل: الضمير للمشركين والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهمك إيمانهم ويحرّك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين ﴿فتطردهم﴾ جواب النفي ﴿فتكون من الظالمين﴾ جواب النهي، ويجوز أن يكون عطفًا على فتطردهم على وجه التسبيب؛ لأن كونه ظالمًا مسبب عن طردهم. وقرئ: بالغدوة والعشي.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

﴿وكذلك فتنا﴾ ومثل ذلك الفتن العظيم فتنا بعض الناس ببعض أي: ابتليناهم بهم، وذلك أنّ المشركين كانوا يقولون للمسلمين ﴿أهؤلاء﴾ الذين ﴿منّ الله عليهم من بيننا﴾ أي: أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء، إنكارًا لأن يكون أمثالهم على الحق وممنونًا عليهم من بينهم بالخير ونحوه ﴿أألقى الذكر عليه من بيننا﴾[5] ﴿لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾[6] ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك: خذلناهم فافتتنوا حتى كان افتتانهم سببًا لهذا القول؛ لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مخذول مفتون ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ أي: الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان، وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق.

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ

= عنده سواء لا شفيع لهم، إذ لا يخاف، إلا أصحاب الكبائر غير التائبين، أو الكفار والكل عنده سواء لا شفيع لهم، وحيث أثبتت الشفاعة جعلها خاصة بزيادة الثواب، فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح، وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على ما يرضيه، فهذا عنده لا يخاف من البعث؛ لأنه يستوجب الجنة، فمن ثمّ جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان غير خائف، فلا تتناوله الآية، وخائف فذاك إنما خاف؛ لأنه استوجب العقاب، فلا شفاعة تناله، وهذه من دفائنه الخفية، ومكامنه المزوية، فتفطن لها والله الموفق برحمته.

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الزهد وقصر الأمل، (الحديث رقم: 10491).
(2) سورة الكهف، الآية: 28.
(3) سورة الشعراء، الآية: 113.
(4) سورة الأنعام، الآية: 164.
(5) سورة القمر، الآية: 25.
(6) سورة الأحقاف، الآية: 11.

سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾.

﴿فقل سلام عليكم﴾ إما أن يكون أمرًا بتبليغ سلام الله إليهم، وإما أن يكون أمرًا بأن يبدأهم بالسلام إكرامًا لهم وتطييبًا لقلوبهم، وكذلك قوله ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ من جملة ما يقول لهم ليسرهم ويبشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم. وقرئ إنه فإنه بالكسر على الاستئناف كان الرحمة استفسرت فقيل ﴿أنه من عمل منكم﴾ وبالفتح على الإبدال من الرحمة ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال أي: عمله وهو جاهل وفيه معنيان: أحدهما: أنه فاعل فعل الجهلة؛ لأنّ من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه والجهل لا من أهل الحكمة والتدبير ومنه قول الشاعر:

على أنها قالت عشية زرتها جهلت على عمد ولم تك جاهلا

والثاني: أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته، وقيل: إنها نزلت في عمر رضي الله عنه حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة. وقرئ ﴿ولتستبين﴾ بالتاء والياء مع رفع السبيل؛ لأنها تذكر وتؤنث، وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السبيل يقال: استبان الأمر وتبين واستبنته وتبينته والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين، من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده، ولتستوضح سبيلهم، فنعامل كلاً منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل.

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿نهيت﴾ صرفت وزجرت بما ركب في من أدلة العقل وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبارة ما تعبدون ﴿من دون الله﴾ وفيه استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة ﴿قل لا اتبع اهواءكم﴾ أي: لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل ﴿قد ضللت إذًا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال، وما أنا من الهدى في شيء، يعني: أنكم كذلك، ولما نفى أن يكون الهوى متبعًا نبّه على ما يجب اتباعه بقوله: ﴿قل إني على بينة من ربي﴾ ومعنى قوله: ﴿إني على بينة من ربي وكذبتم به﴾ إني من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه على حجة واضحة وشاهد صدق ﴿وكذبتم به﴾ أنتم حيث أشركتم به غيره، يقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه إذا كان ثابتًا عندك بدليل. ثم عقبه بما دلّ على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يغافصوا بالعذاب المستأصل فقال ﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾ يعني: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾[1] ﴿إن الحكم إلاّ لله﴾ في تأخير عذابكم ﴿يقض الحق﴾ أي: القضاء الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل في أقسامه ﴿وهو خير الفاصلين﴾ أي: القاضين، وقرئ يقص الحق أي: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره من قص أثره.

قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾.

﴿لو أن عندي﴾ أي: في قدرتي وإمكاني ﴿ما تستعجلون به﴾ من العذاب ﴿لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضبًا لربي، وامتعاضًا من تكذيبكم به، ولتخلصت منكم سريعًا ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم، وقيل: ﴿على بينة من ربي﴾ على حجة من جهة ربي وهي القرآن وكذبتم به أي: بالبينة، وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن.

فإن قُلْتَ: بم انتصب الحق؟ قُلْتُ: بأنه صفة لمصدر يقضي أي: يقضي القضاء الحق، ويجوز أن يكون مفعولاً به من قولهم: قضى الدرع إذا صنعها أي: يصنع الحق ويدبره، وفي قراءة عبد الله يقضي بالحق.

فإن قُلْتَ: لم أسقطت الياء في الخط؟ قُلْتُ: اتباعًا للخط اللفظ وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين.

۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾.

جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة؛ لأنّ المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المتوثق منها بالأغلاق والأقفال، ومن علم مفاتحها وكيف تفتح توصل إليها، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره، كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها فهو المتوصل إلى ما في المخازن[2]، والمفاتح جمع مفتح وهو:

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 32.

(2) قال أحمد: إطلاق التوصل على الله تعالى ليس سديداً، فإنه يوهم تجدّد وصول بعد تباعد، إذ قول القائل توصل زيد إلى كذا يفهم أنه وصل بعد تكلف وبعد، والله تعالى مقدّس عن ذلك والغائب= = كالحاضر في علمه والعلم بالكائن: هو العلم بما سيكون لا يتغاير، ولا يختلف، وليس لنا أن نطلق مثل هذا الإطلاق، إلا عن ثبت، والله الموفق.

المفتاح، وقرئ: مفاتيح وقيل: هي جمع مفتح بفتح الميم وهو: المخزن ولا حبة ولا رطب ولا يابس عطف على ورقة وداخل في حكمها، كأنه قيل وما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا بعلمه، وقوله: ﴿إلا في كتاب مبين﴾ كالتكرير لقوله: ﴿إلا يعلمها﴾؛ لأنّ معنى إلا يعلمها ومعنى: إلا في كتاب مبين واحد، والكتاب المبين علم الله تعالى أو اللوح. وقرئ: ولا حبة ولا رطب ولا يابس بالرفع، وفيه وجهان: أن يكون عطفًا على محل من ورقة، وأن يكون رفعًا على الابتداء وخبره إلا في كتاب مبين، كقولك لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار[1].

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ الخطاب للكفرة أي: أنتم منسدحون الليل كله كالجيف ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ ما كسبتم من الآثام فيه ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم، من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ومن أجله كقولك: فيم دعوتني؟ فتقول في أمر كذا ﴿ليقضي أجل مسمى﴾ وهو: الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ وهو: المرجع إلى موقف الحساب ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ في ليلكم ونهاركم.

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾.

﴿حفظة﴾ ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون، وعن أبي حاتم السجستاني أنه كان يكتب عن الأصمعي كل شيء يلفظ به من فوائد العلم حتى قال فيه: أنت شبيه الحفظة تكتب لغط اللفظة، فقال أبو حاتم: وهذا أيضًا مما يكتب.

فإن قُلْتَ: الله تعالى غني بعلمه عن كتبة الملائكة فما فائدتها؟ قُلْتُ: فيها لطف للعباد؛ لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم، والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد من السوء ﴿توفته رسلنا﴾ أي: استوفت روحه، وهم ملك الموت وأعوانه، وعن مجاهد: جعلت الأرض له مثل الطست، يتناول من يتناوله، وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرتين، وقرئ: توفاه، ويجوز أن يكون ماضيًا ومضارعًا بمعنى: تتوفاه و ﴿يفرطون﴾ بالتشديد والتخفيف فالتفريط التواني والتأخير عن الحد، والإفراط مجاوزة الحد أي: لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه.

ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾.

﴿ثم ردوا إلى الله﴾ أي: إلى حكمه وجزائه ﴿مولاهم﴾ مالكهم الذي يلي عليهم أمورهم ﴿الحق﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿ألا له الحكم﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ لا يشغله حساب عن حساب، وقرئ: الحق بالنصب على المدح كقولك: الحمد لله الحق.

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾.

﴿ظلمات البر والبحر﴾ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما، يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب أي: اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ويجوز أن يراد: ما يشفون عليه من الخسف في البر والغرق في البحر بذنوبهم، فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والغرق فنجوا من ظلماتها ﴿لئن أنجيتنا﴾ على إرادة القول ﴿من هذه﴾ من هذه الظلمة الشديدة. وقرئ: ينجيكم بالتشديد والتخفيف وأنجانا وخفية بالضم والكسر.

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾.

﴿هو القادر﴾ هو الذي عرفتموه قادرًا وهو: الكامل القدرة ﴿عذابًا من فوقكم﴾ كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل: ﴿من فوقكم﴾ من قبل أكابركم وسلاطينكم، و ﴿من تحت أرجلكم﴾ من قبل سفلتكم وعبيدكم، وقيل: هو حبس المطر والنبات ﴿أو يلبسكم شيعًا﴾ أو يخلطكم فرقًا مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام، ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال من قوله:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي

وعن رسول الله ﷺ: سألت الله أن لا يبعث على أمتي

---

(1) قال أحمد: وفائدة هذا التكرير التطرية لما بعد عهده؛ لأنه لما عطف على ورقة بعد أن سلف الإيجاب المقصود للعلم في قوله، إلا يعلمها وكانت هذه المعطوفات داخلة في إيجاب العلم، وهو المقصود، وطالت، وبعد ارتباط آخرها بالإيجاب السالف كان ذلك = جديراً بتجديد العهد بالمقصود، ثم كان اللائق بالبلاغة المألوفة في القرآن التجديد بعبارة أخرى، ليتلقاها السامع غضة جديدة غير مملولة بالتكرير، وهذا السر إنما ينقب عنه المسيطر في علم البيان، ونكت اللبان، والله الموفق.

عذابًا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريل: أنّ فناء أمتي بالسيف، وعن جابر بن عبد الله لما نزل ﴿من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك، فلما نزل ﴿أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعًا﴾ قال: هاتان أهون[1]. ومعنى الآية: الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾.

والضمير في قوله: ﴿وكذب به﴾ راجع إلى العذاب ﴿هو الحق﴾ أي: لا بدّ أن ينزل بهم ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ بحفيظ وكل إلى أمركم أمنعكم من التكذيب إجبارًا إنما أنا منذر.

لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿لكل نبإ﴾ لكل شيء ينبأ به يعني: إنباءهم بأنهم يعذبون وإيعادهم به ﴿مستقر﴾ وقت استقرار وحصول لا بدّ منه، وقيل الضمير في به للقرآن.

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾.

﴿يخوضون في آياتنا﴾ في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك ﴿فأعرض عنهم﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ فلا بأس أن تجالسهم حينئذٍ ﴿وإمّا ينسينك الشيطان﴾ وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم ﴿فلا تقعد﴾ معهم ﴿بعد الذكرى﴾ بعد أن تذكر النهي. وقرئ: ينسينك بالتشديد، ويجوز أن يراد، وإن كان الشيطان ينسينك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين؛ لأنها مما تنكره العقول، فلا تقعد بعد الذكرى، بعد أن ذكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم[2].

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿وما على الذين يتّقون من حسابهم من شيء﴾ وما يلزم المتّقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم ﴿ولكن﴾ عليهم أن يذكروهم ﴿ذكرى﴾ إذا سمعوهم يخوضون بالقيام عنهم وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم ﴿لعلهم يتّقون﴾ لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم، ويجوز أن يكون الضمير للذين يتّقون أي: يذكرونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوها، وروي أنّ المسلمين قالوا: لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف، فرخّص لهم.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿ذكرى﴾؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون نصبًا على ولكن يذكرونهم ذكرى أي: تذكيرًا ورفعًا على ولكن عليهم ذكرى، ولا يجوز أن يكون عطفًا على محل من شيء كقولك: ما في الدار من أحد ولكن زيد؛ لأنّ قوله من حسابهم يأبى ذلك.

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا﴾ أي: دينهم الذي كان يجب أن يأخذوا به لعبًا ولهوًا، وذلك أنّ عبادة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب، وغير ذلك من باب اللعب واللهو واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة، ومن جنس الهزل دون الجد، واتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها دينًا لهم، أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعبًا ولهوًا حيث سخروا به واستهزؤا، وقيل: جعل الله لكل قوم عيدًا يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله، والناس كلهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعبًا ولهوًا غير المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله. ومعنى نرهم: أعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا تشغل قلبك بهم ﴿وذكر به﴾ أي: بالقرآن ﴿أن تبسل نفس﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها وأصل الإبسال المنع؛ لأنّ المسلم إليه يمنع المسلم قال:

وإبسالي بنيّ بغير جرم ... بعوناه ولا بدم مراق

ومنه: هذا عليك بسل أي حرام محظور، والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه أو لأنه شديد البسور، يقال: بسر الرجل إذا اشتدّ عبوسه فإذا زاد قالوا: بسل، والعابس: منقبض الوجه ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾[3] وإن تفد كل فداء، والعدل الفدية؛ لأن الفادي يعدل

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة الأنعام باب: «قل هو القادر على أن يبعث...» (الحديث رقم: 4628).

(2) قال أحمد: وهذا التأويل الثاني يروم تنزيله على قاعدة التحسين، والتقبيح بالعقل، وأنه كاف وإن لم يرد شرع في التحريم، وغيره من الأحكام إذا كانت واضحة للعقل، كمجالسته المستهزئين، فإنّ قبحها بيّن بالعقل، فهو مستقل بتحريمها وحيث ورد الشرع بذلك، فهو كاشف لحكمها ومبنية عليه لا منشئ فيها حكماً، وقد علمت= فساد هذه القاعدة ومخالفتها للعقائد السنية، على أنّ الآية تنبو عنه فإنه لو كان النسيان المراد ههنا: نسيان الحكم الذي يدل عليه العقل قبل ورود هذا النهي، لما عبر بالمستقبل في قوله: ﴿وإمّا ينسينك﴾ فامّا وقد ورد بصيغة الاستقبال، فلا وجه لحمله على الماضي، والله الموفق.

(3) قال أحمد: وهذا أيضاً من عيون إعرابه، ونكت إغرابه التي طالما ذهل عنها غيره، وهو من جنس تدقيقه في منع عود الضمير من=

المفدي بمثله، وكل عدل: نصب على المصدر وفاعل يؤخذ قوله منها لا ضمير العدل؛ لأنّ العدل ههنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ، وأما في قوله تعالى: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾[1] فمعنى المفدى به فصحّ إسناده إليه ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المتخذين دينهم لعبًا ولهوًا. [2]قيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان.

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

﴿قل أندعوا﴾ أنعبد **﴿من دون الله﴾** الضار النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا **﴿ونرد على أعقابنا﴾** راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام **﴿كالذي استهوته الشياطين﴾** كالذي ذهبت به مردة الجن والغيلان **﴿في الأرض﴾** المهمة **﴿حيران﴾** تائهًا ضالاً عن الجادة لا يدري كيف يصنع **﴿له﴾** أي: لهذا المستهوي **﴿أصحاب﴾** رفقة **﴿يدعونه إلى الهدى﴾** إلى أن يهدوه الطريق المستوي، أو سمي الطريق المستقيم بالهدى. يقولون له **﴿ائتنا﴾** وقد اعتسف المهمة تابعًا للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم، وهذا مبني على ما تزعمه العرب وتعتقده أنّ الجن تستهوي الإنسان، والغيلان تستولي عليه كقوله: ﴿كالذي يتخبطه الشيطان من المسّ﴾[3] فشبّه الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم ﴿قل إنّ هدى الله﴾ وهو الإسلام ﴿هو الهدى﴾ وحده ما وراءه ضلال وغي ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا﴾[4] فماذا بعد الحق إلا الضلال.

فإن قُلْتَ: فما محل الكاف في قوله: ﴿كالذي استهوته﴾؟ قُلْتُ: النصب على الحال من الضمير في ﴿نردّ على أعقابنا﴾ أي: أننكص مشبهين من استهوته الشياطين.

فإن قُلْتَ: ما معنى استهوته؟ قُلْتُ: هو: استفعال من هوى في الأرض إذا ذهب فيها، كأن معناه: طلبت هويه وحرصت عليه.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿أمرنا﴾؟ قُلْتُ: النصب عطفًا على محل قوله: ﴿إن هدى الله هو الهدى﴾ على أنهما مقولان، كأنه قيل قل هذا القول وقل ﴿أمرنا لنسلم﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى اللام في ﴿لنسلم﴾؟ قُلْتُ: هي: تعليل للأمر بمعنى: أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم.

فإن قُلْتَ[5]: فإذا كان هذا واردًا في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿قل أندعوا﴾؟ قُلْتُ: للاتحاد الذي كان بين رسول الله ﷺ والمؤمنين، خصوصاً بينه وبين الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

فإن قُلْتَ[6]: علام عطف قوله: ﴿وأن أقيموا﴾؟ قُلْتُ:

= قوله، فننفخ فيها إلى الهيئة، من قوله كهيئة الطير مع أنه السابق إلى الذهن، وإنما حمله على القول بأن العدل ههنا: مصدران الفعل تعدى إليه بغير واسطة، ولو كان المراد: المفدي، لكان مفعولاً به، فلم يتعد إليه الفعل، إلا بالباء، وكان وجه الكلام، وإن تعدل بكل عدل، فلما عدل عنه علم أنه مصدر، والله أعلم.

(1) سورة البقرة، الآية: 48.

(2) قال أحمد: ومن أنكر الجن، واستيلاءها على بعض الأناسي بقدرة الله تعالى، حتى يحدث من ذلك الخبطة، والصرع، ونحوهما، فهو ممن استهوته الشياطين في مهامه الضلال الفلسفي حيران له أصحاب من الموحدين، يدعونه إلى الهدي الشرعي ائتنا، وهو راكب في ضلالة التعاسيف، لا يلوي عليهم ولا يلتفت إليهم، فمرة يقول: إنّ الوارد في الشرع من ذلك تخييل كما تقدم في سورة البقرة، ومرّة يعده من زعمات العرب، وزخارفها، وقد أسلفنا ذلك في البقرة، وآل عمران قولاً شافياً بليغاً، فجدد به عهداً، والله الموفق.

(3) سورة البقرة، الآية: 275.

(4) سورة آل عمران، الآية: 85.

(5) قال أحمد: هو مبني على أنّ الأمر هو: الإرادة، أو من لوازمه إرادة المأمور به، وهذا الإعراب منزل على معتقده هذا، وأما أهل السنة، فكما علمت أنّ الأمر عندهم غير الإرادة، ولا يستلزمها وقولهم في هذه اللام، كقولهم في وما خلقت الجن والإنس، إلا ليعبدون من نفي كونها تعليلاً، والوجه في ذلك أنهم لما أوضحت لهم الآيات البينات، وأزيحت عنهم العلل، وتمكنوا من الإسلام والعبادة امتثالاً للأمر، جعلوا بمثابة من أريد منهم ذلك تمكيناً، لحضهم على = الامتثال، ولقطع أعذارهم إذا فعل بهم فعل المراد منهم ذلك، ومن شأن المريد للشيء، إذا كان قادراً على حصوله أن يزيح العلل، ويرفع الموانع، وكذلك فعل مع المكلفين، وإن لم تكن الطاعة مرادة من جميعهم، وأما إذا كانت اللام هي التي تصحب المصدر، كما يقول الزجاج تقديره الأمر للإسلام، وكذلك يقول في قوله تعالى: يريد الله، ليبيّن لكم الإرادة للبيان، وهي: اللام التي تصحب المفعول عند تقدمه في قولك، لزيد ضربت فهي على هذا الوجه غير محتاجة للتأويل، وقد قيل إنها بمعنى: أن كأنه قيل، وأمرنا أن نسلم قال هذا القائل، وكي، ولام كي في أمرت، وأردت خاصة، بمعنى: أن لا على بابها من التعليل والغرض من دخولها إفادة الاستقبال على وجه أوثق، وأبلغ إذ لا يتعلق هذان المعنيان أعني الأمر، والإرادة، إلا بمستقبل، وقد جمع بين الثلاثة اللام وكي وأن في قوله أردت لكيما أن يطير «البيت»، وهذا الوجه أيضاً سالم المعنى من الخلل الذي يعتقده الزمخشري، والمحافظة على العقيدة، وقد وجدنا السبيل إلى ذلك بحمد الله متعينة، والله الموفق.

(6) قال أحمد: وهذا مصداق للقول بأن لنسلم، معناه: أن تسلم وأن اللام فيه رديفة أن لا يراد عطفها عليها، فذلك هو الوجه الصحيح إن شاء الله، وفي ورود أقيموا الصلاة محكياً بصيغته، وورود نسلم محكياً بمعناه، إذ الأصل المطابق، لاقيموا أسلموا مصداق لما قدمته عند قوله تعالى: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ وبيّنت ثم أنّ ذلك جائز على أن يكون عيسى عليه السلام حكى قول الله تعالى: ﴿اعبدوا الله ربكم ورب عيسى﴾ بمعناه، فقال اعبدوا الله ربي وربكم، فهذا مثله في حكاية =

على موضع لنسلم كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا ويجوز أن يكون التقدير وأمرنا لأن نسلم ولأن أقيموا أي: للإسلام ولإقامة الصلاة.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾.

﴿قوله الحق﴾ مبتدأ ويوم يقول خبره مقدّمًا عليه وانتصابه بمعنى: الاستقراء، كقولك: يوم الجمعة القتال، واليوم بمعنى: الحين، والمعنى: أنه خلق السمٰوات والأرض قائمًا بالحق والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء كن فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة أي: لا يكون شيئًا من السمٰوات والأرض وسائر المكونات إلاّ عن حكمة وصواب و ﴿يوم ينفخ﴾ ظرف لقوله ﴿وله الملك﴾ كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾[1] ويجوز أن يكون قوله الحق فاعل يكون على معنى وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه الحق كن فيكون قوله الحق، وانتصاب اليوم لمحذوف دلّ عليه قوله بالحق كأنه قيل وحين يكون ويقدر يقوم بالحق ﴿عالم الغيب﴾ هو عالم الغيب، وارتفاعه على المدح.

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾.

﴿آزر﴾ اسم أبي إبراهيم عليه السلام، وفي كتب التواريخ أنّ اسمه: بالسريانية تارح، والأقرب أن يكون وزن آزر: فاعل مثل تارح وعابر وعازر وشالخ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم، وهو عطف بيان لأبيه، وقرئ: آزر بالضم على النداء، وقيل: آزر اسم صنم فيجوز أن ينبز به للزومه عبادته، كما نبز ابن قيس بالرقيات اللاتي كان يشبب بهن فقيل ابن قيس الرقيات، وفي شعر بعض المحدّثين.

أدعى بأسماء نبزا في قبائلها ... كأن أسماء أضحت بعض أسمائي

أو أريد عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقرئ: آزر تتخذ أصنامًا آلهة، بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاي ساكنة وراء منصوبة منونة وهو اسم صنم ومعناه: أتعبد أزر على الإنكار، ثم قال تتخذ أصنامًا آلهة تثبيتًا لذلك وتقريرًا، وهو داخل في حكم الإنكار؛ لأنه كالبيان له[2] ﴿فلما جنّ عليه الليل﴾ عطف على ﴿قال إبراهيم لأبيه﴾ وقوله: ﴿وكذلك نرى إبراهيم﴾ جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى: ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره. ﴿ملكوت السمٰوات والأرض﴾ يعني: الربوبية والإلٰهية، ونوفقه لمعرفتها ونرشده، بما شرحنا صدره وسددنا نظره وهديناه لطريق الاستدلال. ﴿وليكون من الموقنين﴾ فعلنا ذلك، ونرى حكاية حال ماضية،[3] وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئًا منها لا يصح أن يكون إلٰهًا لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثًا أحدثها، وصانعًا صنعها، ومدبر دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها.

﴿هذا ربي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأنّ ذلك ادعى إلى الحق، وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ﴿لا أحب الآفلين﴾ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين على حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإنّ ذلك من صفات الأجرام ﴿بازغًا﴾ مبتدئًا في الطلوع ﴿لئن لم يهدني ربي﴾ تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلٰهًا وهو نظير الكوكب في الأفول فهو ضال، وأنّ الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه ﴿هذا أكبر﴾ من باب استعمال النصفة أيضًا مع خصومه ﴿إني بريء مما تشركون﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض﴾ أي: الذي دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدئها ومبتدعها، وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه فحكاه الله، والأوّل أظهر لقوله: ﴿لئن لم يهدني

= المعنى دون اللفظ، والله أعلم.

(1) سورة غافر، الآية: 16.

(2) قال أحمد: وفي الاعتراض بهذه الجملة تنويه، بما سيأتي من استدلال إبراهيم عليه السلام، وأنه تبصير له من الله تعالى، وتسديد.

(3) قال أحمد: والتعريض بضلالهم ثانياً أصرح، وأقوى من قوله أوّلاً، لا أحب الآفلين، وإنما ترقى إلى ذلك؛ لأنّ الخصوم قد أقامت عليه= الاستدلال الأوّل حجة، فأنسوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأوّل، فلعلهم كانوا ينفرون، ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم إلى آخره، والدليل على ذلك: أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح، بالبراءة منهم، والتقريع، بأنهم على شرك حين قيام الحجة عليهم، وتبلج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود، والله أعلم.

ربي﴾ وقوله: ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾[1].

فإن قلْتَ[2]:لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قلْتُ:الاحتجاج بالأفول أظهر؛ لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب.

فإن قلْتَ:ما وجه التنكير في قوله ﴿هذا ربي﴾ والإشارة للشمس؟ قلْتُ:جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد كقولهم: ما جاءت حاجتك؟ ومن كانت أمك؟ و ﴿لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا﴾[3] وكان اختيار هذه الطريقة واجبًا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث، ألا تراهم قالوا في صفة الله علاّم ولم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ احترازًا من علامة التأنيث. وقرئ: نري إبراهيم ملكون السمٰوات والأرض بالتاء، ورفع الملكوت ومعناه: نبصره دلائل الربوبية.

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله﴾ وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه منكرين لذلك ﴿وقد هدأن﴾ يعني: إلى التوحيد ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ وقد خوّفوه أنّ معبوداتهم تصيبه بسوء [4] ﴿إلا أن يشاء ربي شيئًا﴾ إلا وقت مشيئة ربي شيئًا يخاف، فحنف الوقت يعني: لا أخاف معبوداتكم في وقت قط؛ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة إلا إذا شاء ربي أن يصيبني بمخوف من جهتها إن أصبت ننبًا أستوجب به إنزال المكروه، مثل أن يرجمني بكوكب أو بشقة من الشمس أو القمر، أو يجعلها قادرة على مضرتي ﴿وسع ربي كل شيء علمًا﴾ أي: ليس بعجب ولا مستبعد أن يكون في علمه إنزال المخوف بي من جهتها ﴿أفلا تتذكرون﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز.

وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿وكيف أخاف﴾ لتخويفكم شيئًا مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه ﴿و﴾ أنتم ﴿لا تخافون﴾ ما يتعلق به كل مخوف، وهو إشراككم بالله ما لم ينزل بإشراكه ﴿سلطانًا﴾ أي: حجة؛ لأنّ الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة، كأنه قال:[5] وما لكم تنكرون علي الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف. ولم يقل فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم احترازًا من تزكيته نفسه فعدل عنه إلى قوله: ﴿فأي الفريقين﴾ يعني: فريقي المشركين والموحدين. ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله[6]: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾.

﴿وتلك﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله: ﴿فلما جنّ عليه الليل﴾ إلى قوله: ﴿وهم مهتدون﴾ ومعنى ﴿آتيناها﴾ أرشدناه إليها ووفقناه لها ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يعني: في العلم

---

(1) قال أحمد: وصدق الزمخشري، بل ذلك متعين، وقد ورد الحديث الوارد في الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام، فيلتمسون منه الشفاعة، فيقول نفسي نفسي، لا أسأل أحداً غيري، وينكر كنباته الثلاث، ويقول لست لها يريد قوله، لسارة هي أختي وإنما عنى في الإسلام، وقوله: إنه سقيم، وإنما عنى همه بقومه، وبشركهم، والمؤمن يسقمه ذلك وقوله بل فعله كبيرهم، وقد نكرت فيه وجوه من التعريض، فإذا عدّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها دلّ ذلك على أنها أعظم ما صدر منه، فلو كان الأمر على ما يقال من أنّ هذا الكلام محكى عنه، على أنه نظر لنفسه، لكان أولى أن بعده، وأعظم مما نكرناه؛ لأن حينئذ يكون شكاً بل جزماً على أنّ الصحيح، أنّ الأنبياء قبل النبوّة معصومون من ذلك.

(2) قال أحمد: وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسناته.

(3) سورة الأنعام، الآية: 23.

(4) قال أحمد: هو بمعنى يجعلها قادرة على أنّ المضرة خلق قدرة يخلق بها المضرة، لمن يريد بناء على قاعدته، وقد علمت أنّ عقيدة أهل السنة أنّ ذلك لا يجوز عقلاً، أن يخلق غير الله، ولا يقدر قدرة مؤثرة في المقدور، إلا هو وإن كان الزمخشري لم =

= يصرح ههنا من عقيدته، فإنما يعني حيث يصرح، أو يكنى ما يلائمها ويتنزل عليها وغاية خوف إبراهيم منها المعلق على مشيئة الله، لذلك خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى، لا بها وكأنه في الحقيقة لم يخف، إلا من الله؛ لأنّ الخوف الذي أثبته منها معلق بمشيئة الله، وقدرته، وهو كلا خوف منها، والله أعلم.

(5) قال أحمد: ويحتمل أن يكون العدول إلى ذلك، ليعم بالأمن كل موحد بالخوف كل مشرك، ويندرج هو في حكم الموحدين، وقومه في حكم المشركين، وأحسن الجواب ما أفاد وزاد (قال: والمراد بقوله ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس).

(6) قال أحمد: وقد ورد أنّ الآية لما نزلت عظمت على الصحابة، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه، فقال عليه الصلاة والسلام: إنما هو الظلم في قول لقمان، إنّ الشرك لظلم عظيم، وإنما هو يروم بذلك تنزيله على معتقده في وجوب وعيد العصاة، وأنهم لا حظ لهم في الأمن، كالكفار ويجعل هذه الآية تقتضي تخصيص الأمن بالجامعين الأمرين الإيمان، والبراءة من المعاصي، ونحن نسلم ذلك، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة، هو الخوف اللاحق للكفار؛ لأنّ العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت، وهم آمنون من الخلود، وأمّا الكفار، فغير آمنين بوجه ما، والله الموفق.

والحكمة، وقرئ: بالتنوين.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾.

﴿ومن ذريته﴾ الضمير لنوح أو لإبراهيم و **﴿داود﴾** عطف على **﴿نوحًا﴾** أي: وهدينا داود **﴿ومن آبائهم﴾** في موضع النصب عطفًا على **﴿كلا﴾** بمعنى: وفضلنا بعض آبائهم **﴿ولو أشركوا﴾** مع فضلهم وتقدّمهم وما رفع لهم من الدرجات لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم كما قال تعالى وتقدّس ﴿لئن أشركت ليحبطنّ عملك﴾[1] **﴿آتيناهم الكتاب﴾** يريد الجنس **﴿فإن يكفر بها﴾** بالكتاب والحكمة والنبوّة أو بالنبوّة **﴿هؤلاء﴾** يعني: أهل مكة **﴿قومًا﴾** هم: الأنبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله: **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾** وبدليل وصل قوله: **﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾** بما قبله، وقيل: هم أصحاب النبي ﷺ وكل من آمن به، وقيل: كل مؤمن من بني آدم، وقيل: الملائكة، وادّعى الأنصار أنها لهم، وعن مجاهد: هم الفرس، ومعنى توكيلهم بها: أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها، كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه. والباء في بها صلة كافرين. وفي بكافرين تأكيد النفي. **﴿فبهداهم اقتده﴾** فاختص هداهم بالاقتداء، ولا تقتد إلا بهم، وهذا معنى تقديم المفعول، والمراد بهم: طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة وهي هدى ما لم تنسخ فإذا نسخت لم تبق هدى، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبدًا، والهاء في اقتده للوقف تسقط في الدرج واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾.

﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعث الرسل والوحي إليهم، وذلك من أعظم رحمته وأجلّ نعمته ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[2] أوما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين وشدّة بطشه بهم، ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوّة. والقائلون: هم اليهود بدليل قراءة من قرأ: تجعلونه بالتاء وكذلك: تبدونها وتخفون، وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ، فألزموا ما لا بدّ لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام[3]، وادرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعي عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم وإبداء بعض وإخفاء بعضه فقيل: **﴿جاء به موسى﴾** وهو نور وهدى للناس حتى غيروه ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرّقة ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء، وروي أنّ مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله ﷺ أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أنّ الله يبغض الحبر السمين، فأنت الحبر السمين، قد سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود، فضحك القوم، فغضب ثم التفت إلى عمر فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له قومه: ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: إنه أغضبني، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف[4]، وقيل: القائلون قريش وقد ألزموا إنزال التوراة؛ لأنهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة ذكر موسى والتوراة، وكانوا يقولون: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم **﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾** الخطاب لليهود أي: علمتم على لسان محمد ﷺ مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم وأنتم حملة التوراة، ولم تعلمه آباؤكم الاقدمون الذين كانوا أعلم منكم، إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون، وقيل: الخطاب لمن آمن من قريش كقوله تعالى: ﴿لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم﴾[5] **﴿قل الله﴾** أي: أنزله الله، فإنهم لا يقدرون أن يناكروك **﴿ثم ذرهم في خوضهم﴾** في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحجة. ويقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه: إنما أنت لاعب و**﴿يلعبون﴾** حال من ذرهم أو من خوضهم، ويجوز أن يكون في خوضهم حالاً من يلعبون، وأن يكون صلة لهم أو لذرهم.

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾.

﴿مبارك﴾ كثير المنافع والفوائد **﴿ولتنذر﴾** معطوف

(1) سورة الزمر، الآية: 65.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 107.

(3) قال أحمد: وهذا أيضاً من دقة نظره في الكتاب العزيز والتعمق في = آثار معانيه، وإبراز محاسنه.

(4) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 125.

(5) سورة يس، الآية: 6.

على ما دلّ عليه صفة الكتاب كأنه قيل: أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدّمه من الكتب والإنذار، وقرئ: ولينذر بالياء والتاء. وسميت مكة ﴿أم القرى﴾ لأنها مكان أول بيت وضع للناس؛ ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم؛ ولأنها أعظم القرى شأنًا، ولبعض المجاورين.

فمن يلق في بعض القريات رحله فأم القرى ملقى رحالي ومنتابي

﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾ يصدّقون بالعاقبة ويخافونها ﴿يؤمنون﴾ بهذا الكتاب وذلك أنّ أصل الدين خوف العاقبة فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن. وخصّ الصلاة، لأنها عماد الدين، ومن حافظ عليها كانت لطفًا في المحافظة على أخواتها.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

﴿افترى على الله كذبًا﴾ فزعم أنّ الله بعثه نبيًا ﴿وقال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء﴾ وهو مسيلمة الحنفي الكذاب، أو كذاب صنعاء الأسود العنسي، وعن النبي ﷺ: رأيت فيما يرى النائم كان في يدي سوارين من ذهب، فكبرا علي وأهماني، فأوحى الله إلي أن أنفخهما فنفختهما فطارا عني، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما: كذاب اليمامة مسيلمة، وكذاب صنعاء الأسود العنسي[1] ﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ هو: عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي، كان يكتب لرسول الله ﷺ، فكان إذا أملى عليه سميعًا عليمًا، كتب هو: عليمًا حكيمًا، وإذا قال: عليمًا حكيمًا، كتب: غفورًا رحيمًا، فلما نزلت ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾[2] إلى آخر الآية، عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتبها فكذلك نزلت، فشك عبد الله، وقال: لئن كان محمدًا صادقًا لقد أوحي إلي مثل ما أوحي إليه، ولئن كان كاذبًا فلقد قلت كما قال، فارتد عن الإسلام ولحق بمكة ثم رجع مسلمًا[3] قبل فتح مكة. وقيل: هو النضر بن الحرث والمستهزؤن ﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف أي: لرأيت أمرًا عظيمًا ﴿إذ الظالمون﴾ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة فتكون اللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله. و ﴿غمرات الموت﴾ شدائده وسكراته، وأصل[4] الغمرة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدّة الغالبة ﴿باسطوا أيديهم﴾ يبسطون[5] إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن العنف في السياق، والإلحاح والتشديد في الإرهاق من غير تنفيس وإمهال، وانهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له: اخرج إليّ مالي عليك الساعة ولا أريم مكاني حتى أنزعه من أحداقك. وقيل: معناه باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب ﴿اخرجوا أنفسكم﴾ خلصوها من أيدينا أي: لا تقدرون على الخلاص ﴿اليوم تجزون﴾ يجوز أن يريدوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدّة النزع وأن يريدوا الوقت الممتد المتطاول الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة. و ﴿الهون﴾ الهوان الشديد، وإضافة العذاب إليه كقولك: رجل سوء يريد العراقة في الهوان والتمكن فيه ﴿عن آياته تستكبرون﴾ فلا تؤمنون بها.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

﴿فرادى﴾ منفردين عن أموالكم وأولادكم، وما حرصتم عليه وآثرتموه من دنياكم، وعن أوثانكم التي زعمتم أنها شفعاؤكم شركاء لله ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد ﴿وتركتم ما خوّلناكم﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ﴿وراء ظهوركم﴾ لم ينفعكم، ولم تحتملوا منه نقيرًا، ولا قدمتموه لانفسكم ﴿فيكم شركاء﴾ في استعبادكم؛ لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها فقد جعلوها لله شركاء فيهم وفي استعبادهم. وقرئ: فرادى بالتنوين، وفراد مثل ثلاث، وفردى نحو سكرى.

فإن قُلْتَ: ﴿كما خلقناكم﴾ في أي محل هو؟ **قُلْتُ:** في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أي: مجيئًا مثل خلقنا لكم ﴿تقطع بينكم﴾ وقع التقطع بينكم، كما تقول جمع بين الشيئين تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل، ومن رفع فقد أسند الفعل إلى الظرف كما تقول: قوتل خلفكم وأمامكم، وفي قراءة عبد الله: لقد تقطع ما بينكم.

۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

﴿فالق الحب والنوى﴾[6] بالنبات والشجر، وعن

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: النفخ في المنام، (الحديث رقم: 7027) وفي كتاب: الرؤيا، باب: رؤيا النبي ﷺ (الحديث رقم: 2274).

(2) سورة المؤمنون، الآية: 12.

(3) كشف الأستار، كتاب: التفسير، باب: سورة الأنعام، (الحديث رقم: 2210).

(4) قال أحمد: هو يجعله من مجاز التمثيل، ولا حاجة إلى ذلك والظاهر انهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية، وإذا أمكن البقاء على الحقيقة، فلا معدل عنها.

(5) قال أحمد: ومثله ويبسطوا إليكم ايديهم، والسنتهم بالسوء.

(6) قال أحمد رحمه الله: وقد ورد جميعاً بصيغة الفعل كثيراً في قوله ﴿يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض=

مجاهد: أراد الشقين اللذين في النواة والحنطة ﴿يخرج الحي من الميت﴾ أي: الحيوان والنامي من النطف والبيض والحب والنوى ﴿ومخرج﴾ هذه الأشياء الميتة من الحيوان والنامي.

فإن قُلْتَ: كيف قال: ﴿مخرج الميت من الحي﴾ بلفظ اسم الفاعل بعد قوله: ﴿يخرج الحي من الميت﴾ قُلْتُ: عطفه على فالق الحب والنوى لا على الفعل، و ﴿يخرج الحي من الميت﴾ موقعه موقع الجملة المبينة لقوله: ﴿فالق الحب والنوى﴾ لأنّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت؛ لأنّ النامي في حكم الحيوان؛ ألا ترى إلى قوله ﴿يحيي الأرض بعد موتها﴾[1] ﴿ذلكم الله﴾ أي: ذلكم المحيي والمميت هو: الله الذي تحق له الربوبية ﴿فأنى تؤفكون﴾ فكيف تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره.

فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾.

﴿الإصباح﴾ مصدر سمي به الصبح، وقرأ الحسن بفتح الهمزة جمع صبح وأنشد قوله:

أفنى رياحًا وبني رياح ... تناسخ الإمساء والإصباح

بالكسر والفتح مصدرين وجمع مساء وصبح.

فإن قُلْتَ[2]: فما معنى فلق الصبح والظلمة هي التي تنفلق عن الصبح؟ كما قال:

تردت به ثم انفرى عن أديمها ... تفري ليل عن بياض نهار

فإن قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: بأن يراد فالق ظلمة الإصباح وهي الغبش في آخر الليل ومنقضاه الذي يلي الصبح، والثاني: أن يراد فالق الإصباح الذي هو عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره، وقالوا: انشق عمود الفجر، وانصدع الفجر، وسموا الفجر فلقًا بمعنى: مفلوق، وقال الطائي:

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه ... وأوّل الغيث قطر ثم ينسكب

وقرئ: فالق الإصباح وجاعل الليل سكنًا، بالنصب على المدح، وقرأ النخعي: فلق الإصباح وجعل الليل. السكن: ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناسًا به واسترواحًا إليه من زوج أو حبيب، ومنه قيل للنار: سكن لأنه يستأنس بها، ألا تراهم سموها: المؤنسة، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه وجمامه، ويجوز أن يراد: وجعل الليل مسكونًا فيه من قوله: ﴿لتسكنوا فيه﴾[3] ﴿والشمس والقمر﴾ قرئا: بالحركات الثلاث، فالنصب على إضمار فعل دل عليه جاعل الليل أي: وجعل الشمس والقمر حسبانًا، أو يعطفان على محل الليل.

فإن قُلْتَ: كيف يكون لليل محل والإضافة حقيقية؛ لأنّ اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضي ولا تقول: زيد ضارب عمرًا أمس؟ قُلْتُ: ما هو في معنى المضي وإنما هو دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة، وكذلك فالق الحب وفالق الإصباح، كما تقول: الله قادر عالم فلا تقصد زمانًا دون زمان، والجر عطف على لفظ الليل، والرفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر مجعولان حسبانًا أو محسوبان حسبانًا، ومعنى جعل الشمس والقمر حسبانًا جعلهما علمي حسبان؛ لأنّ حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما، والحسبان بالضم مصدر حسب، كما أنّ الحسبان: الكسر مصدر حسب، ونظيره الكفران والشكران ﴿ذلك﴾ إشارة إلى جعلهما حسبانًا أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿تقدير العزيز﴾ الذي قهرهما وسخرهما ﴿العليم﴾ بتدبيرهما وتدويرهما ﴿في ظلمات البر والبحر﴾ في ظلمات الليل بالبر والبحر، وأضافها إليهما لملابستها لهما، أو شبه

= بعد موتها، وكذلك تخرجون﴾ وقوله: ﴿أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي﴾، فعطف أحد القسمين على الآخر كثيراً دليل على أنهما توأمان مقترنان، وذلك يبعد قطعه عنه في آية الأنعام هذه وروده إلى فالق الحب، والنوى، فالوجه، والله أعلم أن يقال: كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة في هذه الآية من قوله: ﴿فالق الحب وفالق الإصباح وجاعل الليل ومخرج الحيّ من الميت﴾ إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده وهو قوله: ﴿يخرج الحيّ من الميت﴾ إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل، والماضي، وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾، فتصبح الأرض مخضرة، فعدل عن الماضي المطابق، لقوله أنزل لهذا المعنى، ومنه ما في قوله:

إني قد ألقيت الغول تسعى ... بسهب كالصحيفة صحصحان

فآخذه فأضربه فخرت ... صريعاً لليدين وللجران =

= فعدل إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته واستحضارها لذهن السامع، ومنه إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي، والإشراق، والطير محشورة، فعدل عن مسبحات، وإن كان مطابقاً لمحشورة بهذا السبب، والله أعلم، ثم هذا المقصد إنما يجيء فيما تكون العناية به أقوى، ولا شك أنّ إخراج الحيّ من الميت أشهر في القدرة من عكسه، وهو أيضاً أوّل الحالين والنظر أوّل ما يبدأ فيه ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحيّ ناشئ عنه، فكان الأوّل جديراً بالتصدير والتأكيد في النفس، ولذلك هو مقدم أبداً على القسم الآخر في الذكر على حسب ترتيبهما في الواقع وسهل عطف الاسم على الفعل، وحسنه أنّ اسم الفاعل في معنى الفعل المضارع، فكل واحد منهما يقدر بالآخر، فلا جناح في عطفه عليه، والله أعلم.

(1) سورة الحديد، الآية: 17.

(2) قال أحمد: وقيل الخالق والفالق بمعنى، فيكون المراد: خالق الإصباح، والأظهر ما فسره عليه المصنف، والله أعلم.

= (3) سورة يونس، الآية: 67.

مشتبهات الطرق بالظلمات. من فتح قاف المستقر كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدرًا، ومن كسرها كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول، والمعنى: فلكم مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها، أو فمنكم مستقر ومنكم مستودع.

فإن قُلْتَ[1]: لم قيل **﴿يعلمون﴾** مع ذكر النجوم و**﴿يفقهون﴾** مع ذكر إنشاء بني آدم؟**قُلْتُ**: كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرًا، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقًا له.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

﴿فاخرجنا به﴾ بالماء **﴿نبات كل شيء﴾** نبت كل صنف من أصناف النامي يعني: أنّ السبب واحد وهو: الماء، والمسببات صنوف مفتنة، كما قال: **﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾**[2] **﴿فاخرجنا منه﴾** من النبات **﴿خضرًا﴾** شيئًا غضًا أخضر، يقال: أخضر وخضر كأعور وعور وهو: ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة **﴿نخرج منه﴾** من الخضر **﴿حبًا متراكبًا﴾** وهو: السنبل و**﴿قنوان﴾** رفع بالابتداء **﴿ومن النخل﴾** خبره، و**﴿من طلعها﴾** بدل منه، كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان، ويجوز أن يكون الخبر محذوفًا لدلالة أخرجنا عليه تقديره: ومخرجة من طلع النخل قنوان، ومن قرأ: يخرج منه حب متراكب، كان قنوان عنده معطوفًا على حب، والقنوان جمع قنور، ونظيره صنو وصنوان، وقرئ بضم القاف وبفتحها على أنه اسم جمع كركب؛ لأنّ فعلان ليس من زيادة التكسير **﴿دانية﴾** سهلة المجتنى معرضة للقاطف كالشيء الداني القريب المتناول؛ ولأنّ النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتي بالثمر لا تنتظر الطول، وقال الحسن: دانية قريب بعضها من بعض وقيل: ذكر القريبة وترك ذكر البعيدة لأنّ النعمة فيها أظهر، وأدلّ بذكر القريبة على ذكر البعيدة كقوله **﴿سرابيل تقيكم الحرّ﴾**[3] وقوله: **﴿وجنات من أعناب﴾** فيه وجهان: أحدهما: أي يراد وثم جنات من أعناب أي: مع النخل، والثاني: أن يعطف على قنوان على معنى وحاصلة أو ومخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب أي: من نبات أعناب، وقرئ: وجنات بالنصب عطفًا على نبات كل شيء، أي: وأخرجنا به جنات من أعناب وكذلك قوله **﴿والزيتون والرمّان﴾** والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص كقوله: **﴿والمقيمين الصلاة﴾**[4] لفضل هذين الصنفين **﴿مشتبهًا وغير متشابه﴾** يقال: اشتبه الشيئان وتشابها كقولك: استويا وتساويا والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرًا، وقرئ: متشابهًا وغير متشابه وتقديره: والزيتون متشابهًا وغير متشابه والرمّان كذلك، كقوله: كنت منه ووالدي بريا، والمعنى: بعضه متشابهًا وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم وذلك دليل على التعمد دون الإهمال **﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر﴾** إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً ضعيفًا لا يكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئًا جامعًا لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدّرة ومدبره وناقله من حال إلى حال، وقرئ: وينعه بالضم يقال: ينعت الثمرة ينعًا

---

(1) قال أحمد: لا يتحقق هذا التفاوت ولا سبيل إلى الحقيقة، وما هذا الجواب إلا صناعي، والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيهاً على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة كره فصلهما بفاصلتين متساويتين، في اللفظ، لما في ذلك من التكرار، فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسيناً للنظم، واتساقاً في البلاغة، ويحتمل وجهاً آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله، ولا يعتبر بمخلوقاته، وكانت الآيات المذكورة أولاً خارجة عن أنفس النظار، ومنافية لها إذ النجوم والنظر فيها، وعلم الحكمة الإلٰهية في تدبيره لها، أمر خارج عن نفس الناظر، لا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة، وتقلباتهم في أطوار مختلفة، وأحوال متغايرة، فإنه نظر لا يعدو نفس الناظر، ولا يتجاوزها، فإذا تمهد ذلك، فجهل الإنسان بنفسه، وبأحواله، وعدم النظر فيها والتفكر أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه، كالنجوم والأفلاك، ومقادير سيرها، وتقلبها، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم إذ هو عبارة عن الفهم نفى من أبشع القبيلين جهلاً، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم، ونفي الأدنى أبشع من نفي الأعلى درجة، فخص به أسوأ الفريقين حالاً، ويفقهون ههنا مضارع فقه الشيء بكسر القاف، إذا فهمه، ولو أدنى فهم وليس من فقه بضم القاف؛ لأنّ= تلك درجة خالية ومعناه صار فقيهاً قاله الهروي في معرض الاستدلال على أن فقه أنزل من علم، وفي حديث سلمان أنه قال، وقد سألته امرأة جاءته فقهت، أي: فهمت، كالمتعجب من فهم المرأة عنه، وإذا قيل: فلان لا يفقه شيئاً كان أتم في العرف من قولك: فلان لا يعلم شيئاً وكان معنى قولك لا يفقه شيئاً: ليست له أهلية الفهم، وإن فهم، وأمّا قولك لا يعلم شيئاً، فغايته نفي حصول العلم له، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم، والذي يدل على أنّ التارك للفكرة في نفسه أجهل، وأسوأ حالاً من التارك للفكرة في غير قوله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم، أفلا تبصرون﴾ فخص التبصر في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات، وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستانفاً، وقولنا في إدراج الكلام أنه نفى العلم عن أحد الفريقين، ونفى الفقه عن الآخر يعني بطريق التعريض حيث خص العلم بالآيات المفصلة، والتفقه فيها بقوم، فاشعر أن قوماً غيرهم لا علم عندهم ولا فقه، والله الموفق، فتامل هذا الفصل، وإن طال بعض الطول، فالنظر في الحسن غير مملول.

(2) سورة الرعد، الآية: 4.

(3) سورة النحل، الآية: 81.

(4) سورة النساء، الآية: 162. =

وينعًا، وقرأ ابن محيصن: ويانعه، وقرئ: وثمره بالضم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (100)

أن جعلت ﴿لله شركاء﴾ مفعولي جعلوا نصبت الجنّ بدلاً من شركاء، وأن جعلت لله لغوًا كان شركاء الجنّ مفعولين قدّم ثانيهما على الأول.

فإن قُلْتَ: فما فائدة التقديم؟ **قُلْتُ:** فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكًا أو جنيًا أو إنسيًا أو غير ذلك، ولذلك قدّم اسم الله على الشركاء. وقرئ: الجنّ بالرفع كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الجن، وبالجرّ على الإضافة التي للتبيين، والمعنى: أشركوهم في عبادته؛ لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله، وقيل: هم الذين زعموا أنّ الله خالق الخير وكل نافع، وإبليس خالق الشر وكل ضارّ ﴿وخلقهم﴾ وخلق الجاعلين لله شركاء ومعناه: وعلموا أنّ الله خالقهم دون الجنّ، ولم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق شريكًا للخالق، وقيل: الضمير للجنّ، وقرئ: وخلقهم أي: اختلاقهم الإفك يعني: وجعلوا لله خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى الله في قولهم ﴿والله أمرنا بها﴾[1] ﴿وخرقوا له﴾ وخلقوا له أي: افتعلوا له ﴿بنين وبنات﴾ وهو قول أهل الكتابين في المسيح وعزير، وقول قريش في الملائكة. يقال: خلق الإفك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى، وسئل الحسن عنه فقال: كلمة عربية كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول له بعضهم قد خرقها والله، ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه أي: اشتقوا له بنين وبنات، وقرئ: وخرّقوا بالتشديد للتكثير لقوله ﴿بنين وبنات﴾ وقرأ ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما: وحرّفوا له بمعنى: وزوّروا له أولادًا؛ لأنّ المزوّر محرّف مغير للحق إلى الباطل ﴿بغير علم﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، ولكن رميًا بقول عن عمي وجهالة من غير فكر وروية.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (101).

﴿بديع السمٰوات﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها كقولك: فلان بديع الشعر أي بديع شعره، أو هو بديع في السمٰوات والأرض كقولك: فلان ثبت الغدر أي: ثابت فيه، والمعنى: أنه عديم النظير والمثل فيها، وقيل البديع بمعنى: المبدع وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ وخبره ﴿أنى يكون له ولد﴾ أو فاعل تعالى، وقرئ: بالجرّ ردًا على قوله: ﴿وجعلوا الله﴾ أو على ﴿سبحانه﴾ وبالنصب على المدح وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه أحدها: أن مبتدع السمٰوات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة؛ لأنّ الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسمًا حتى يكون والدًا، والثاني: أنّ الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد، وهو متعال عن مجانس، فلم يصح أن تكون له صاحبة فلم تصح الولادة، والثالث أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنيًا عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج. وقرئ: ولم يكن له صاحبة بالياء، وإنما جاز للفصل كقوله: لقد ولد الأخيطل أمّ سوء.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (102).

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدّم من الصفات، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهي ﴿الله ربكم لا إله إلاّ هو خالق كل شيء﴾ أي: ذلكم الجامع لهذه الصفات ﴿فاعبدوه﴾ مسبب عن مضمون الجملة على معنى: أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه، ثم قال ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ يعني: وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال رقيب على الأعمال.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (103).

البصر[2] هو الجوهر اللطيف الذي ركبه الله في حاسة النظر به تدرك المبصرات فالمعنى: أنّ الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه؛ لأنه متعال أن يكون مبصرًا في ذاته؛ لأنّ الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعًا كالأجسام والهيآت ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك ﴿وهو اللطيف﴾ يلطف عن أن تدركه الأبصار ﴿الخبير﴾ بكل لطيف فهو يدرك الأبصار لا تلطف عن

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 28.

(2) قال أحمد: وقد سلف الكلام على هذه الآية في غير موضعها؛ لأنّ المصنف تعجل الكلام عليها قبل والذي يريده الآن أنّ الإدراك عبارة عن الإحاطة ومنه فلما أدركه الغرق، أي: أحاط به ﴿وإنا لمدركون﴾، أي: محاط بنا، فالمنفي إذاً عن الأبصار إحاطتها به عز، وعلا لا مجرّد الرؤية ثم إمّا أن نقتصر على أنّ الآية لا تدل على مخالفتنا، أو نزيد، فنقول يدل لنا أنّ تخصيص الإحاطة بالنفي يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك، وأقله مجرّد الرؤية كما أنا نقول: لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة = بمجرّدها حاصلة لكل مؤمن، فالإحاطة للعقل منفية كنفي الإحاطة للحس، وما دون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منفي ولم يذكر الزمخشري على إحالة الرؤية عقلاً دليلاً، ولا شبهة فيحتاج إلى القدح فيه ثم معارضته بأدلة الجواز ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئي لا في جهة، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود، لا في جهة إذ اتباع الوهم يبعدهما جميعاً، والانقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم، ويجيزهما معاً، وهذا القدر كاف بحسب ما أورده في هذا الوضع، والله الموفق.

إدراكه، وهذا من باب اللطف.

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ هو وارد على لسان رسول الله ﷺ لقوله: وما أنا عليكم بحفيظ. والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر، كما أنّ البصر نور العين الذي به تبصر، أي: جاءكم من الوحي والتنبيه على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر **﴿فمن أبصر﴾** الحق وآمن **﴿فلنفسه﴾** أبصر وإياها نفع **﴿ومن عمي﴾** عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضر بالعمى **﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾** أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وليقولوا﴾ جوابه محذوف تقديره وليقولوا درست تصرّفها ومعنى **﴿درست﴾** قرأت وتعلمت، وقرئ: دارست أي: دارست العلماء ودرست بمعنى: قدّمت هذه الآيات وعفت، كما قالوا: أساطير الأوّلين، ودرست بضم الراء مبالغة في درست أي: اشتدّ دروسها، ودرست على البناء للمفعول بمعنى: قرئت أو عفيت، ودارست وفسروها بدارست اليهود محمدًا ﷺ، وجاز الإضمار؛ لأنّ الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم، ويجوز أن يكون الفعل للآيات وهو لأهلها أي: دارس أهل الآيات وحملتها محمدًا وهم أهل الكتاب، ودرس أي: درس محمد ودارسات عليّ هي دارسات أي: قديمات أو ذات دروس كـ **﴿عيشة راضية﴾**[1].

فإن قُلْتَ: أي فرق بين اللامين في **﴿ليقولوا﴾** و**﴿لنبينه﴾**؟ **قُلْتُ**: الفرق بينهما أنّ الأولى مجاز والثانية حقيقة، وذلك أنّ الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل النبيين شبّه به فسيق مساقه، وقيل ليقولوا كما قيل لنبيّنه.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في قوله: **﴿ولنبيّنه﴾** **قُلْتُ**: إلى **﴿الآيات﴾** لأنها في معنى القرآن، كأنه قيل: وكذلك نصرف القرآن، أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلومًا إلى التبيين الذي هو مصدر الفعل كقولهم: ضربته زيدًا، ويجوز أن يراد فيمن قرأ: درست ودارست درست الكتاب ودراسته فيرجع إلى الكتاب المقدّر **﴿لا إله إلا هو﴾** اعتراض أكّد به إيجاب اتباع الوحي لا محلّ له من الإعراب، ويجوز أن يكون حالاً من ربك وهي حال مؤكدة كقوله: **﴿وهو الحق مصدقًا﴾**[2].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿ولا تسبوا﴾ الآلهة **﴿الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله﴾** وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى: **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾**[3] لننهينّ عن سب آلهتنا أو لنهجونّ إلهك، وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سببًا لسب الله تعالى.

فإن قُلْتَ: سب الآلهة حق وطاعة فكيف صحّ النهي عنه، وإنما يصح النهي عن المعاصي؟ **قُلْتُ**: ربّ طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهي عنها؛ لأنها معصية لا لأنها طاعة، كالنهي عن المنكر هو من أجلّ الطاعات، فإذا علم أنه يؤدّي إلى زيادة الشر انقلب معصية، ووجب النهي عن ذلك النهي كما يجب النهي عن المنكر.

فإن قُلْتَ: فقد روي عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة، فرأى محمد نساء فرجع، فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا؟ **قُلْتُ**: ليس هذا ممن نحن بصدده؛ لأن حضور الرجال الجنازة طاعة، وليس بسبب لحضور النساء، فإنهنّ يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا، بخلاف سب الآلهة، وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبّه عليه الحسن **﴿عدوًا﴾** ظلمًا وعدوانًا، وقرئ: عدوًا بضم العين وتشديد الواو بمعناه: يقال عدا فلان عدوًا وعدوًا وعدوانًا وعداء، وعن ابن كثير: عدوًا بفتح العين بمعنى: أعداء **﴿بغير علم﴾** على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به **﴿كذلك زينا لكل أمة﴾** مثل ذلك التزيين زينا لكل أمّة من الأمم الكفار سوء عملهم أي: خليناهم وشأنهم ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه في زعمهم، وقولهم: إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا **﴿فينبئهم﴾** فيوبخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿لئن جاءتهم آية﴾ من مقترحاتهم **﴿ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله﴾** وهو[4] قادر عليها ولكنه لا ينزلها

---

(1) سورة القارعة، الآية: 7.

(2) سورة البقرة، الآية: 91.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(4) قال أحمد: ومحز النظر في الآية يتضح بمثال، فنقول إذا قال لك القائل أكرم، فلاناً فإنه يكافئك وكنت أنت تعلم منه عدم المكافأة، فإذا أنكرت على المشير بإكرامه قلت: وما يدريك أني إذا أكرمته =

إلاّ على موجب الحكمة، أو إنما الآيات عند الله لا عندي، فكيف أجيبكم إليها وآتيكم بها؟ ﴿وما يشعركم﴾ وما يدريكم ﴿أنها﴾ أنّ الآية التي تقترحونها ﴿إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بها، يعني: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك، وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها، فقال عزّ وجلّ: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون على معنى: أنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون به، ألا ترى إلى قوله: ﴿كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة﴾ وقيل: أنها بمعنى: لعلها، من قول العرب ائت السوق انك تشتري لحمًا وقال امرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

وتقويها قراءة أبيّ: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون، وقرئ: بالكسر على أن الكلام قد تمّ قبله بمعنى: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال: أنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة، ومنهم من جعل لا مزيدة في قراءة الفتح، وقرئ: وما يشعرهم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون أي: يحلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها وما يشعرهم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعًا عليها فلا يؤمنوا بها ﴿ونقلب أفئدتهم. ونذرهم﴾ عطف على لا يؤمنون داخل في حكم وما يشعركم بمعنى: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم انا نقلب أفئدتهم وأبصارهم أي: نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا، أو لا يؤمنون بها لكونهم مطبوعًا على قلوبهم، وما يشعركم إنا نذرهم في طغيانهم أي: نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه، وقرئ: ويقلب ويذرهم بالياء أي: الله عزّ وجلّ، وقرأ الأعمش: وتقلب أفئدتهم وأبصارهم على البناء للمفعول.

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾.

﴿ولو اننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ كما قالوا: ﴿لولا انزل علينا الملائكة﴾[1] ﴿وكلمهم الموتى﴾ كما قالوا: ﴿فأتوا بآبائنا﴾[2] ﴿وحشرنا عليهم كلّ شيء قبلاً﴾ كما قالوا: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾[3] ﴿قبلاً﴾ كفلاء بصحة ما بشّرنا به وأنذرنا، أو جماعات، وقيل ﴿قبلاً﴾ مقابلة، وقرئ: قبلاً أي: عيانًا ﴿إلا أن يشاء الله﴾ مشيئة[4] إكراه واضطرار ﴿ولكنّ أكثرهم يجهلون﴾ فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات، أو ولكنّ أكثر المسلمين يجهلون أنّ هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرّهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾.

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا﴾ وكما خلينا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم، لم

= يكافئني، فأنكرت عليه إثباته المكافاة، وأنت تعلم نفيها، فإن انعكس الأمر، فقال لك: لا تكرمه، فإنه لا يكافئك، وكنت تعلم منه المكافاة، فأنكرت على المشير بحرمانه قلت، وما يدريك أنه لا يكافئني تريد، وأنا أعلم منه المكافاة، فكان مقتضى الإنكار على المؤمنين الذين أحسنوا الظنّ بالمعاندين، فاعتقدوا أنهم يؤمنون عند نزول الآية المقترحة أن يقال: وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون، ما تقول في المثال منكراً على من أثبت المكافاة، وأنت تعلم خلافها، وما يدريك أنه يكافئني بإسقاط، لا وإن أثبتها انعكس المعنى إلى أنّ المعلوم لك الثبوت، وأنت تنكر على من نفى، فلما جاءت الآية تفهم ببادئ الرأي، أنّ الله تعالى علم الإيمان منهم، وأنكر على المؤمنين نفيهم له، والواقع على خلاف ذلك اختلف العلماء، فحمل بعضهم لا على الزيادة، وبعضهم أوّل أن بلعل وبعضهم جعل الكلام جواب قسم محذوف، وقد تفتح أن بعد القسم، فقال التقدير والله أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأما الزمخشري، فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها في نصابها من غير حذف، ولا تأويل، فقال قوله السالف، ونحن نوضح اطراده في المثال المذكور، ليتضح بوجهيه في الآية، فنقول إذا حرمت زيداً لعلمك بعدم مكافاته، فأشير عليك بالإكرام بناء على أنّ المشير يظنّ المكافاة، فلك معه حالتان حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه، وحالة تعذره في عدم العلم بما أحطت به علماً، فإن أنكرت عليه قلت، وما يدريك أنه يكافيء، وإن عذرته في عدم علمه بأنه لا يكافيء، قلت وما يدريك أنه لا يكافئ يعني: ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافاته، وأنت لم تخبر أمره خبري، فكذلك الآية إنما ورد فيها الكلام إقامة عذر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم الله تعالى، وهو عدم إيمان هؤلاء، فاستقام دخول لا، وتعين، وتبين أنّ سبب الاضطراب التباس الإنكار بإقامة الأعذار، والله الموفق للصواب.

(1) سورة الفرقان، الآية: 21.

(2) سورة الدخان، الآية: 36.

(3) سورة الإسراء، الآية: 92.

(4) قال أحمد: بل المراد إلا أن يشاء الله منهم اختيار الإيمان، فإنه تعالى لو شاء منهم اختيارهم للإيمان، لاختاروه وآمنوا حتماً ما شاء الله كان، والزمخشري بني على القاعدة الفاسدة في اعتقاده أنّ الله تعالى شاء منهم الإيمان اختياراً، فلم يؤمنوا إذ لا يجب على زعم طائفته نفوذ المشيئة، ولا يطلقون القول، كما أطلقه سلف هذه الأمّة وحملة شريعتها من قولهم ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن بل يقولون إنّ أكثر ما شاءه لم يقع، إذ شاء الإيمان، والصلاح من جميع الخلق، فلم يؤمن ويعمل الصالح، إلا القليل، وقليل ما هم وهذا كله مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً، فإذا صدمتهم مثل هذه الآية بالردّ تحيلوا في المدافعة بحمل المشيئة المنفية على مشيئة القسر، والاضطرار وإنما يتمّ لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء، وأمّا وهو القدرة، والمتبوع، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه، فإلى النار وما بعد الحق، إلا الضلال، والله الموفق للصواب.

نمنهم من العداوة لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر. وانتصب ﴿شياطين﴾ على البد من عدوًا أو على أنهما مفعولان كقوله: ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ﴾[1] ﴿يوحي بعضهم إلى بعض﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، وكذلك بعض الجنّ إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض، وعن مالك بن دينار: إنّ شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجن؛ لأني إذا تعوّذت بالله ذهب شيطان الجنّ عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عيانًا. ﴿زخرف القول﴾ ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ويموّهه ﴿غرورًا﴾ خدعًا وأخذًا على غرّة ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ ذلك أي: ما عادوك أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم ولا يخليهم وشأنهم.

وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

﴿ولتصغى﴾ جوابه محذوف تقديره وليكون ذلك جعلنا لكل نبيّ عدوًا على أنّ اللام لام الصيرورة وتحقيقها ما ذكر والضمير في ﴿إليه﴾ يرجع إلى ما رجع إليه الضمير في فعلوه، أي: ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين ﴿أفئدة﴾ الكفار ﴿وليرضوه﴾ لأنفسهم ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ من الآثام.

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

﴿أفغير الله ابتغي حكمًا﴾ على إرادة القول أي: قل يا محمد أفغير الله أطلب حاكمًا يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب﴾ المعجز ﴿مفصلاً﴾ مبينًا فيه الفصل بين الحق والباطل، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء. ثم عضد الدلالة على أنّ القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حقّ لتصديقه ما عندهم وموافقته له ﴿فلا تكوننّ من الممترين﴾ من باب التهييج والإلهاب كقوله تعالى: ﴿ولا تكوننّ من المشركين﴾[2] أو ﴿فلا تكوننّ من الممترين﴾ في أنّ أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به، ويجوز أن يكون فلا تكوننّ خطابًا لكل أحد، على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه فما ينبغي أن يمتري فيه أحد، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ خطابًا لأمّته.

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

﴿وتمّت كلمات ربك﴾ أي: تمّ كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد ﴿صدقًا وعدلاً لا مبدّل لكلماته﴾ لا أحد يبدّل شيئًا من ذلك بما هو أصدق أعدل، و ﴿صدقًا وعدلاً﴾ نصب على الحال، وقرئ: كلمة ربك أي: ما تكلم به، وقيل: هي القرآن.

﴿وإن تطع أكثر من في الأرض﴾ من الناس أضلوك؛ لأنّ الأكثر في غالب الأمر يتبعون هواهم، ثم قال: ﴿إن يتبعون إلا الظنّ﴾ وهو ظنهم أنّ آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يقدّرون أنهم على شيء أو يكذبون في أنّ الله حرّم كذا وأحلّ كذا. وقرئ: من يضل بضم الياء أي: يضله الله.

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

﴿فكلوا﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرّمون الحلال، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم؟ فقيل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا ﴿مما ذكر اسم الله عليه﴾ خاصة دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه، وما ذكر اسم الله عليه هو: المذكى ببسم الله.

﴿وما لكم ألا تأكلوا﴾ وأي: غرض لكم في أن لا تأكلوا ﴿وقد فصل لكم﴾ وقد بيّن لكم ﴿ما حرّم عليكم﴾ مما لم يحرّم وهو قوله: ﴿حرّمت عليكم الميتة﴾[3] وقرئ: فصل لكم ما حرّم عليكم على تسمية الفاعل وهو: الله عزّ وجلّ ﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾ مما حرّم عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة ﴿وإنّ كثيرًا ليضلون﴾ قرئ: بفتح الياء وضمها أي: يضلون فيحرّمون ويحللون ﴿بأهوائهم﴾ وشهواتهم من غير تعلق بشريعة.

﴿ظاهر الإثم وباطنه﴾ ما أعلنتم منه وما أسررتم، وقيل: ما عملتم وما نويتم، وقيل: ظاهره الزنا في الحوانيت، وباطنه الصديقة في السر ﴿وإنه لفسق﴾ الضمير راجع إلى مصدر الفعل الذي دخل عليه حرف النهي يعني: وإن الأكل منه لفسق، أو إلى الموصول على وإن أكله لفسق، أو جعل ما لم يذكر اسم الله عليه في

(1) سورة الأنعام، الآية: 100.
(2) سورة الأنعام، الآية: 14.
(3) سورة المائدة، الآية: 3.

نفسه فسقًا.

فإن قُلْتَ(1): قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم ينكر اسم الله عليه بنسيان أو عمد؟ **قُلْتُ**: قد تأوله هؤلاء بالميتة وبما نكر غير اسم الله عليه كقوله: ﴿وفسقًا أهلّ لغير الله به﴾(2) ﴿ليوحون﴾ ليوسوسون ﴿إلى أوليائهم﴾ من المشركين ﴿ليجادلوكم﴾ بقولهم ولا تأكلون مما قتله الله، وبهذا يرجع تأويل من تأوّله بالميتة ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنّ من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به، ومن حق ذي البصيرة في دينه أن لا يأكل مما لم ينكر اسم الله عليه كيفما كان، لما يرى في الآية من التشديد العظيم، وإن كان أبو حنيفة رحمه الله مرخصًا في النسيان في العمد ومالك والشافعي رحمهما الله فيهما.

أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾.

مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به المحق والمبطل والمهتد والضال بمن كان ميتًا فأحياه الله وجعل له نورًا يمشي به في الناس مستضيئًا به فيميز بعضهم من بعض ويفصل بين حلاهم ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص ومعنى قوله ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ كمن صفته هذه وهي قوله: في الظلمات ليس بخارج منها بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج منها كقوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾(3) أي: صفتها هذه وهي قوله: فيها أنهار ﴿زين للكافرين﴾ أي زينه الشيطان أو الله عزّ وعلا على قوله: ﴿زينا لهم أعمالهم﴾(4) ويدل عليه قوله:

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾.

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾ يعني: وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك، ومعناه خليناهم ليمكروا وما كففناهم عن المكر، وخص الأكابر؛ لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس كقوله: ﴿أمرنا مترفيها﴾(5) وقرئ: أكبر مجرميها على قولك: هم أكبر قومهم وأكابر قومهم ﴿وما يمكرون إلا بانفسهم﴾ لأنّ مكرهم يحيق بهم، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ، وتقديم موعد بالنصرة عليهم. روي أنّ الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوّة حقًا لكنت أولى بها منك؛ لأني أكبر منك سنًا وأكثر منك مالاً، وروي أنّ أبا جهل قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبيّ يوحي إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدًا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزلت، ونحوها قوله تعالى: ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتي صحفًا منشرة﴾(6).

وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾.

﴿الله أعلم﴾ كلام مستأنف للإنكار عليهم، وأن لا يصطفي للنبوّة إلا من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم

---

(1) قال أحمد: مذهب مالك، وأبي حنيفة سواء في أنّ متروك التسمية عمداً لا يؤكل، سواء كان تهاوناً، أو غير تهاون، ولأشهب قول شاذ بجواز غير المتهاون في ترك تسميته، والآية تساعد مذهب الإمامين مساعدة بينة، فإنه نكر عقيب غير المسمى عليه قوله، وإنه لفسق وذلك إن كان عبارة عن فعل المكلف، وهو: إهمال التسمية، أو تسمية غير الله، فلا يدخل النسيان؛ لأنّ الناسي غير مكلف، فلا يكون فعله فسقاً، ولا هو فاسق، وإن كان نفس الفسق الذبيحة، التي لم يسم عليها، ولم يكن مصدراً، فإنما تسمى الذبيحة: فسقاً نقلاً لهذا الاسم من المصدر إلى الذات، فالذبيحة التي تركت التسمية عليها نسياناً، لا يصح أن تسمى فسقاً إذ الفعل الذي ينقل منه هذا الاسم ليس بفسق، فإذا تمهد ذلك، فإما أن يقول لا دليل في الآية على تحريم منسي التسمية، فبقي على أصل الإباحة، أو يقول فيها دليل على إباحته من حيث مفهوم تخصيص النهي، بما هو فسق، فما ليس بفسق ليس بحرام وهذا النظر يسند إذا لم تكن الميتة متناولة في هذه الآية، وأما إذا أثبت أنها مرادة تعين صرف الفسق إلى الأكل، والماكول، وكان الضمير من قوله، وإنه عائد إلى المصدر المنهي عنه، أو إلى الموصول وحينئذ يندرج المنسي في النهي، ولا يستقيم على أنّ الميتة مندرجة، كاندراج المنسي؛ لأنّ الوجه الذي به تندرج الميتة هو: الوجه الذي به يندرج المنسي، إذ يكون الفسق إما للأكل، وإما للماكول نقلاً من الأكل، ولا ينصرف إلى غير ذلك؛ لأنّ الميتة لم = يفعل المكلف فيها فعلاً يسمى: فسقاً سوى الأكل، والمنسي تسميتها لا يستقيم أن يسمى الذبح فيها فسقاً، لأجل النسيان، فيتعين صرفه إلى الأكل، ومن ثم قوي عند الزمخشري تعميم التحريم، حتى في المنسي؛ لأنه يرى أنّ الميتة مرادة من الآية، ولا بد إذ هي سبب نزول الآية، والتحقيق أن العام الظاهر متى ورد على سبب خاص كان نصاً في السبب ظاهراً باقياً على ظهوره، فيما عداه، وإذا ثبت اندراج الميتة لزم اندراج المنسي، كما تقدّم وحينئذ يضطر مبيح المنسي إلى مخصص، فيتمسك بقوله عليه الصلاة والسلام نكر الله على قلب كل مؤمن من سمي، أو لم يسم وكان الناسي ذاكراً حكماً، وإن لم يكن ذاكراً وجوداً، وهذا عند التحقيق ليس بتخصيص، ولكن منع، لاندراج الناسي في العموم، وسنده الحديث المذكور، ويؤيد بأنّ العام الوارد على سبب خاص، وإن قوي تناوله للسبب، حتى ينهض الظاهرة فيه نصاً، إلا أنه ضعيف التناول لما عداه، حتى ينحط عن أمالي الظواهر فيه، ويكتفي من معارضته، بما لا يكتفي به منه، لولا السبب، وهذا البحث متطلع بفنون.

(2) سورة الأنعام، الآية: 145.

(3) سورة محمد، الآية: 15.

(4) سورة النمل، الآية: 4.

(5) سورة الإسراء، الآية: 16.

(6) سورة المدثر، الآية: 52.

بالمكان الذي يضعها فيه منهم ﴿سيصيب الذين أجرموا﴾ من أكابرها ﴿صغار﴾ وقماءة بعد كبرهم وعظمتهم ﴿وعذاب شديد﴾ في الدارين من الأسر والقتل وعذاب النار.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾.

﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه ﴿ومن يرد أن يضله﴾ أن يخذله ويخليه وشأنه وهو الذي لا لطف له ﴿يجعل صدره ضيقًا حرجًا﴾ يمنعه ألطافه حتى يقسو قلبه وينبو عن قبول الحق وينسدّ فلا يدخله الإيمان، وقرئ: ضيقًا بالتخفيف والتشديد، حرجًا بالكسر وحرجًا بالفتح وصفًا بالمصدر ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ كأنما يزاول أمرًا غير ممكن؛ لأنّ صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة وتضيق عنه المقدرة، وقرئ: يصعد وأصله يتصعد، وقرأ عبد الله يتصعد ويصاعد وأصله يتصاعد ويصعد من صعد ويصعد من أصعد ﴿يجعل الله الرجس﴾ يعني: الخذلان ومنع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب، أو أراد الفعل المؤدّي إلى الرجس وهو: العذاب من الارتجاس وهو: الاضطراب.

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾.

﴿وهذا صراط ربك﴾ وهذا طريقه الذي اقتضته الحكمة وعادته في التوفيق والخذلان ﴿مستقيمًا﴾ عادلاً مطردًا، وانتصابه على أنه حال مؤكدة كقوله: ﴿وهو الحق مصدّقًا﴾[1].

۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾.

﴿لهم﴾ لقوم يذكرون ﴿دار السلام﴾ دار الله يعني: الجنة، أضافها إلى نفسه تعظيمًا لها، أو دار السلامة من كل آفة وكدر ﴿عند ربهم﴾ في ضمانه، كما تقول لفلان: عندي حق لا ينسى، أو ذخيرة لهم لا يعلمون كنهها كقوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين﴾[2] ﴿وهو وليهم﴾ مواليهم ومحبهم أو ناصرهم على أعدائهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ بسبب أعمالهم أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾.

﴿ويوم نحشرهم﴾ منصوب بمحذوف أي: واذكر يوم نحشرهم أو يوم نحشرهم قلنا ﴿يا معشر الجنّ﴾ أو ويوم نحشرهم وقلنا: يا معشر الجنّ، كان ما لا يوصف لفظاعته، والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم، والجنّ هم: الشياطين ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أضللتم منهم كثيرًا أو جعلتموهم أتباعكم، فحشر معكم منهم الجم الغفير، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود، واستكثر فلان من الأشياع ﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾ الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي: انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها، وانتفع الجنّ بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهوتهم في إغوائهم. وقيل: استمتاع الإنس بالجنّ ما في قوله: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾[3] وأنّ الرجل كان إذا نزل واديًا وخاف قال: أعوذ بربِّ هذا الوادي يعني به: كبير الجنّ، واستمتاع الجنّ بالإنس اعتراف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم وإجارتهم لهم ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ يعنون: يوم البعث، وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين، واتباع الهوى، والتكذيب بالبعث، واستسلام لربهم وتحسر على حالهم ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ أي[4]: يخلدون في عذاب النار الأبد كله، إلا ما شاء الله إلا الأوقات التي ينقلون فيها

---

(1) سورة البقرة، الآية: 91.

(2) سورة السجدة، الآية: 17.

(3) سورة الجن، الآية: 6.

(4) قال أحمد: قد ثبت خلود الكفار في العذاب ثبوتاً قطعياً، فمن ثم اعتنى العلماء بالكلام على الاستثناء في هذه الآية، وفي أختها في سورة هود، فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين، وللكفار والمستثنى العصاة؛ لأنهم لا يخلدون، وهذا تأويل أهل السنة، وقد غلط الزمخشري في إنكاره في آية هود، وتناهى إلى ما نعوذ بالله منه، فقدح في عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، راوي الحديث الشاهد لهذا التأويل، ونحن نبرأ إلى الله تعالى من القدح في مثل عبد الله، وهو من جلة الصحابة رضوان الله عليهم، وفقهائهم وزهادهم، وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب، أي: مخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء= = وفائدته إظهار القدرة والإعلان بأنّ خلودهم إنما كان؛ لأنّ الله تعالى قد شاءه وكان من الجائز العقلي في مشيئته أن لا يعذبهم، ولو عذبهم لا يخلدهم، وأنّ ذلك ليس بأمر واجب عليه، وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عزّ وجلّ، وفيها على هذا الوجه دفع في صدر المعتزلة، الذين يزعمون أنّ تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة، وأنه لا يجوز في العقل أن يشاء خلاف ذلك، وذهب الزجاج إلى وجه لطيف إنما يظهر بالبسط، فقال المراد، والله أعلم إلا ما شاء من زيادة العذاب، ولم يبين وجه استقامة الاستثناء والمستثنى على هذا التأويل، لم يغاير المستثنى منه في الحكم ونحن نبيّنه، فتقول العذاب والعياذ بالله على درجات متفاوتة، فكأن المراد أنهم مخلدون في حبس العذاب إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية وتنتهي إلى أقصى النهاية، حتى تكاد لبلوغها الغاية، ومباينتها لأنواع العذاب في الشدّة تعد=

من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد روي: أنهم يدخلون واديًا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم، أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه: أهلكني الله إن نفست عنك إلا إذا شئت، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد، فيكون قوله: إلا إذا شئت، من أشد الوعيد مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع ﴿إن ربك حكيم﴾ لا يفعل شيئًا إلا بموجب الحكمة ﴿عليم﴾ بأنّ الكفار يستوجبون عذاب الأبد.

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾.

﴿نولي بعض الظالمين بعضًا﴾ نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضًا كما فعل الشياطين وغواة الإنس، أو يجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرناءهم كما كانوا في الدنيا ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ ﴿الم ياتكم رسل منكم﴾ واختلف في أنّ الجن هل بعث إليهم رسل منهم؟ فتعلق بعضهم بظاهر الآية ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم؛ لأنهم به آنس ولو آلف، وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة وإنما قيل: رسل منكم؛ لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صحّ ذلك وإن كان من أحدهما كقوله: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾[1] وقيل: أراد رسل الرسل من الجن إليهم كقوله تعالى: ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾[2] وعن الكلبي كانت الرسل قبل أن يبعث محمد ﷺ يبعثون إلى الإنس، ورسول الله ﷺ بعث إلى الإنس والجن ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله: ﴿الم ياتكم﴾ لأنّ الهمزة الداخلة على نفي إتيان الرسل للإنكار، فكان تقريرًا لهم وقولهم: ﴿شهدنا على أنفسنا﴾ إقرار منهم بأنّ حجة الله لازمة لهم وأنهم محجوجون بها.

فإن قُلْتَ: ما لهم مقرين في هذه الآية جاحدين في قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾[3]؟ قُلْتُ: تتفاوت الأحوال والمواطن في ذلك اليوم المتطاول، فيقرون في بعضها ويجحدون في بعضها، أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم.

فإن قُلْتَ: لم كرّر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قُلْتُ: الأولى: حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون، والثانية: ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه، وإنما قال ذلك تحذيرًا للسامعين من مثل حالهم.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدّم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة وهو: خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك و ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ تعليل، أي: الأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم، على أن هي التي تنصب الأفعال، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة على معنى؛ لأنّ الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم، ولك أن تجعله بدلاً من ذلك كقوله: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أنّ دابر هٰؤلاء مقطوع﴾[4] ﴿بظلم﴾ بسبب ظلم قدموا عليه، أو ظالمًا على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب لكان ظلمًا، وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح ﴿ولكل﴾ من المكلفين ﴿درجات﴾ منازل ﴿مما عملوا﴾ من جزاء أعمالهم ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بساه عنه، يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾.

﴿وربك الغني﴾ عن عباده وعن عبادتهم ﴿ذو الرحمة﴾ يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة ﴿إن يشا يذهبكم﴾ أيها العصاة ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ من الخلق المطيع ﴿كما أنشاكم من ذرية قوم آخرين﴾ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾.

= ليس من جنس العذاب وخارجة عنه، والشيء إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالضد، كما تقدّم في التعبير عن كثرة الفعل، برب، وقدوهما موضوعان لضرر الكثرة من القلة، وذلك أمر يعتاد في لغة العرب، وقد حام أبو الطيب حوله، فقال:

لقد جدت حتى كاد يبخل حاتم ... إلى المنتهى ومن السرور بكاد

فكان هؤلاء إذا بلغوا إلى غاية العذاب ونهاية الشدّة، فقد وصلوا إلى الحد الذي يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق، حتى يسوغ = معاملته في التعبير، بمعاملة المغاير وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج، إلا بعد هذا البسط وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنه ما يؤيده والله الموفق.

(1) سورة الرحمن، الآية: 22.
(2) سورة الأحقاف، الآية: 29.
(3) سورة الأنعام، الآية: 23.
(4) سورة الحجر، الآية: 66.

﴿المكانة تكون مصدرًا يقال: مكّن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن، وبمعنى المكان: يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة وقوله: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ يحتمل اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي: اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه ﴿إني عامل﴾ أي: عامل على مكانتي التي أنا عليها والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ﴿فسوف تعلمون﴾ أينا تكون له العاقبة المحمودة وطريقة هذا الأمر طريقة قوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾[1] وهي التخلية والتسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلا الشر، فكأنه مأمور به وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتقصى عنه ويعمل بخلافه.

فإن قلتَ: ما موضع ﴿من﴾ قلتُ: الرفع إذا كان بمعنى: أي وعلق عنه فعل العلم، أو النصب إذا كان بمعنى: الذي و ﴿عاقبة الدار﴾ العاقبة الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدار لها، وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن، مع تضمن شدّة الوعيد، والوثوق بأنّ المنذر محق والمنذر مبطل.

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾.

كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله وأشياء منهما لآلهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكيًا ناميًا يزيد في نفسه خيرًا رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها، واعتلوا بأنّ الله غنيّ، وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها وقوله ﴿مما ذرأ﴾ فيه أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي؛ لأنه هو الذي ذرأه وزكاه، ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذرء ولا تزكية ﴿بزعمهم﴾ وقرئ بالضم أي: قد زعموا أنه لله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التي هي من الشرك؛ لأنهم أشركوا بين الله وبين أصنامهم في القربة ﴿فلا يصل إلى الله﴾ أي: لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين ﴿فهو يصل إلى شركائهم﴾ من إنفاق عليها بذبح نسائك عندها والإجراء على سدنتها ونحو ذلك ﴿ساء ما يحكمون﴾ في إيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم ما لم يشرع لهم.

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾.

﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك التزيين وهو: تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة، أو مثل ذلك التزيين البليغ الذي هو: علم من الشياطين والمعنى[2]: أن شركاءهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم

---

(1) سورة فصلت، الآية: 40.

(2) قال أحمد رحمه الله: لقد ركب المصنف في هذا الفصل متن عمياء وتاه في تيهاء، وأنا أبرأ إلى الله وأبرئ حملة كتابه وحفظه كلامه، مما رماهم به، فإنه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهاداً، لا نقلاً وسماعاً، فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة في شركائهم، فاستدل بذلك على أنه مجرور وتعين عنده نصب أولاهم بالقياس، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً، فقراه منصوباً قال المصنف: وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جرّه بالإضافة وإبدال الشركاء منه وكان ذلك أولى مما ارتكبه يعني: ابن عامر من الفصل بين المضاف والمضاف إليه، الذي يسمج في الشعر فضلاً عن النثر، فضلاً عن المعجز، فهذا كله كما ترى ظن من الزمخشري، أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأياً منه، وكان الصواب خلافه، والفصيح سواه، ولم يعلم الزمخشري أن هذه القراءة بنصب الأولاد، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها، يعلم ضرورة أن النبي ﷺ قرأها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك، ثم تلاها النبي ﷺ على عدد التواتر من الأئمة، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها، ويقرؤن بها خلفاً عن سلف إلى أن انتهت إلى ابن عامر، فقرأها أيضاً كما سمعها، فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلاً عن أفصح من نطق بالضاد ﷺ، فإذا علمت العقيدة الصحيحة، فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشري، ولا بقول أمثاله ممن لحن ابن عامر، فإن المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة ولولا عذر أن=

= المنكر ليس من أهل الشأنين أعني علم القراءة، وعلم الأصول، ولا يعد من ذوي الفنين المذكورين لخيف عليه الخروج من ربقة الدين، وأنه على هذا العذر لفي عهدة خطرة وزلة منكرة تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة فيها ما ليس متواتراً، فإن هذا القائل لم يثبتها بغير النقل، وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر، وأما الزمخشري فظنّ أنها تثبت بالرأي غير موقوفة على النقل، وهذا لم يقل به أحد من المسلمين وما حمله على هذا الخيال، لا التغالي في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية، فظنها قطعية حتى يردّ ما خالفها ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذي ادعاه مطرداً، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه، وإن كان عسراً إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله، فهو مقدر بالفعل وبهذا التقدير عمل، وهو أن لم تكن إضافته غير محضة إلا أنه شبه بما إضافته غير محضة، حتى قال بعض النحاة: إن إضافته ليست محضة لذلك، فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره، وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر وبين المضاف إليه بالظرف، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره لما بيناه من انفكاكه في التقدير وعدم توغله في الاتصال بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه بما ليس أجنبياً عنه، وكأنه بالتقدير فكه بالفعل، ثم قدّم المفعول على الفاعل، وأضافه إلى الفاعل، وبقي المفعول مكانه حين الفك، ويسهل ذلك أيضاً تغاير حال المصدر، إذ تارة يضاف إلى الفاعل، وتارة يضاف إلى المفعول، وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل، لوقوعه في=

بالوأد أو بنحرهم للآلهة، وكان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلامًا لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب. وقرئ زين على البناء للفاعل الذي هو: شركاؤهم، ونصب قتل أولادهم وزين على البناء للمفعول الذي هو: القتل، ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه زين كأنه قيل: لما قيل زين لهم قتل أولادهم من زينه فقيل: زينه لهم شركاؤهم، وأما قراءة ابن عامر: قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجرّ الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجًا مردودًا كما سمج ورد زج القلوص أبي مزاده.

فكيف به في الكلام المنثور فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته؟ والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوبًا بالياء ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء؛ لأنّ الأولاد شركاؤهم في أموالهم، لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب ﴿ليردوهم﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ وليخلطوه عليهم ويشبهوه، ودينهم ما كانوا عليه من دين إسمٰعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك، وقيل: دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه، وقيل: معناه وليوقعوهم في دين ملتبس.

فإن قُلْتَ: ما معنى اللام؟ **قُلْتُ**: إن كان التزيين من الشياطين فهي على حقيقة التعليل، وإن كان من السدنة فعلى معنى الصيرورة ﴿ولو شاء الله﴾ مشيئة قسر ﴿ما فعلوه﴾ لما فعل المشركون ما زين لهم من القتل، أو لما فعل الشياطين أو السدنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ذلك إن جعلت الضمير جاريًا مجرى اسم الإشارة ﴿وما يفترون﴾ وما يفترونه من الإفك أو وافتراؤهم.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨﴾.

﴿حجر﴾ فعل بمعنى: مفعول كالذبح والطحن، ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع؛ لأنّ حكمه حكم الأسماء غير الصفات، وقرأ الحسن وقتادة: حجر بضم الحاء، وقرأ ابن عباس: حرج وهو: من التضييق، وكانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا: ﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾ يعنون: خدم الأوثان والرجال دون النساء ﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ وهي: البحائر والسوائب والحوامي ﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾ في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام، وقيل: لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها، والمعنى: أنهم قسموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعام حجر، وهذه أنعام محرمة الظهور، وهذه أنعام لا يذكر عليها اسم الله، فجعلوها أجناسًا بهواهم ونسبوا ذلك التجنيس إلى الله ﴿افتراء عليه﴾ أي: فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال أو مصدر مؤكد؛ لأن قولهم ذلك في معنى الافتراء.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩﴾.

كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب ما ولد منها حيًا: فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما ولد منها ميتًا اشترك فيه الذكور والإناث[1]، وأنّث ﴿خالصة﴾ للحمل على المعنى؛ لأنّ ﴿ما﴾ في معنى الأجنة وذكر ﴿محرم﴾ للحمل على اللفظ ونظيره ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك﴾[2] ويجوز أن تكون التاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر، وأن تكون مصدرًا وقع

= غير مرتبته، إذ ينوي به التأخير، فكأنه لم يفصل كما جاز تقدّم المضمر على الظاهر إذا حل في غير رتبته، لأن النية به التأخير وأنشد أبو عبيدة:

فداسهم دوس الحصاد الدائس

وأنشد أيضاً:

يفر كن حب السنبل الكنافج   بالقاع فرك القطن المحالج

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول، ومما يقوي عدم توغله في الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً، فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد منظرة، بشواهد من أقيسة العربية، تجمع شمل القوانين النحوية لهذه القراءة، وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة، وهذا القدر كاف إن شاء الله في الجمع بينهما، والله الموفق، وما أجريناه في أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه، التي يدل باجتماعها على أنّ الفصل غير منكر في إضافته، ولا مستبعد من القياس، ولم نفرده في الدلالة المذكورة، إذ المتفق على عدم = تمحضها لا يسوّغ فيها الفصل، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة، والله الموفق.

(1) قال أحمد: ليسا سواء؛ لأنه في الآية الأولى رجوع إلى اللفظ بعد المعنى، وفيه إجمال، وبينهما بون اقتضى أن أنكر جماعة من متأخري الفن وقوعه في الكتاب العزيز، وادعوا أنّ جميع ما ورد فيه يعود على المعنى بعد اللفظ، وقد التزم غيرهم إجازة ذلك وعدوا في الكتاب العزيز، منه موضعين يمكن صرف الكلام فيهما إلى غير الموصول، وعلى الجملة، فالحمل على اللفظ بعد المعنى قليل، وغيره أولى ما وجد إليه سبيل، وقد ذكر المصنف وجهين آخرين سوى ذلك، فقال ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر، وأن يكون مصدراً وقع موقع الخالص، كالعافية، أي: ذو خالصة، ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب، على أنّ قوله لذكورنا هو الخبر، وخالصة مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متقدّمة؛ لأنّ المجرور لا يتقدّم عليه حاله، ولقد أحسن في الاحتراز بمنع الحال من المجرور، حتى يتعين المصدر.

(2) سورة محمد، الآية: 16.

موقع الخالص كالعاقبة أي: ذو خالصة، ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب على أنّ قوله ﴿لذكورنا﴾ هو الخبر وخالصة مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متقدّمة؛ لأنّ المجرور لا يتقدّم عليه حاله، وقرأ ابن عباس: خالصه على الإضافة، وفي مصحف عبد الله: خالص ﴿وإن يكن ميتة﴾ وإن يكن ما في بطونها ميتة، وقرئ: إن تكن بالتأنيث على وإن تكن الأجنة ميتة، وقرأ أهل مكة: وإن تكن ميتة بالتأنيث والرفع على كان التامّة، وتنكير الضمير في قوله: ﴿فهم فيه شركاء﴾؛ لأنّ الميتة لكل ميت ذكر أو أنثى فكأنه قيل: وإن يكن ميت فهم فيه شركاء ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أي: جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم من قوله تعالى: ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾[1] ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾[2] نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾.

﴿سفهًا بغير علم﴾ لخفة أحلامهم وجهلهم بأنّ الله هو رازق أولادهم لا هم. وقرئ: قتّلوا بالتشديد ﴿ما رزقهم الله﴾ من البحائر والسوائب وغيرها.

۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾.

﴿أنشأ جنات﴾ من الكروم ﴿معروشات﴾ مسموكات ﴿وغير معروشات﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرّش، وقيل: المعروشات ما في الأرياف والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرّشوه، وغير معروشات مما أنبته الله وحشيًا في البراري والجبال فهو غير معروش، يقال: عرّشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكًا تعطف عليه القضبان، وسقف البيت عرشه ﴿مختلفًا أكله﴾ في اللون والطعم والحجم والرائحة، وقرئ: أكله بالضم والسكون، وهو ثمره الذي يؤكل والضمير للنخل والزرع داخل في حكمه لكونه معطوفًا عليه ومختلفًا حال مقدّرة؛ لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾[3] وقرئ: ثمره بضمتين.

فإن قُلْتَ: ما فائدة قوله ﴿إذا أثمر﴾ وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه؟ قُلْتُ: لما أبيح لهم الأكل من ثمره، قيل: إذا أثمر ليعلم أنّ أوّل وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ الآية مكية، والزكاة إنما فرضت بالمدينة، فأريد بالحق ما كان يتصدّق به على المساكين يوم الحصاد، وكان ذلك واجبًا حتى نسخه افتراض العشر ونصف العشر، وقيل: مدنية. والحق هو الزكاة المفروضة، ومعناه: واعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد حتى لا تؤخروه عن أوّل وقت يمكن فيه الإيتاء ﴿ولا تسرفوا﴾ في الصدقة، كما روي عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرّق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئًا إلى منزله ﴿ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملومًا محسورًا﴾[4].

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾.

﴿حمولة وفرشًا﴾ عطف على جنات أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش، وقيل: الحمولة الكبار التي تصلح للحمل، والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم. لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها مثل الفرش المفروش عليها ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية.

﴿ثمانية أزواج﴾ بدل من ﴿حمولة وفرشًا﴾ ﴿اثنين﴾ زوجين اثنين يريد: الذكر والأنثى كالجمل والناقة والثور والبقرة والكبش والنعجة والتيس والعنز، والواحد إذا كان وحده فهو فرد، فإذا كان معه غيره من جنسه سمي كل واحد منهما زوجًا وهما زوجان بدليل قوله ﴿خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾[5] الدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثمانية أزواج﴾ ثم فسرها بقوله: من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، ونحو تسميتهم الفرد بالزوج بشرط أن يكون معه آخر من جنسه تسميتهم الزجاجة كأسًا بشرط أن يكون فيها خمر. والضأن والمعز جمع ضائن وماعز كتاجر وتجر، وقرئا: بفتح العين، وقرأ أبيّ: ومن المعزى. وقرئ: اثنان على الابتداء. الهمزة في ﴿الذكرين﴾ للإنكار، والمراد: بالذكرين الذكر من الضأن والذكر من المعز. وبالأنثيين الأنثى من الضأن والأنثى من المعز على طريق الجنسية، والمعنى: إنكار أن يحرّم الله تعالى من جنسي الغنم ضأنها ومعزها

(1) سورة النحل، الآية: 62.
(2) سورة النحل، الآية: 116.
(3) سورة الزمر، الآية: 73.
(4) سورة الإسراء، الآية: 29.
(5) سورة النجم، الآية: 45.

شيئًا من نوعي ذكورها وإناثها ولا مما تحمل إناث الجنسين، وكذلك الذكران من جنسي الإبل والبقر والأنثيان منهما وما تحمل إناثهما، وذلك أنهم كانوا يحرّمون ذكورة الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادهما كيفما كانت ذكورًا وإناثًا أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون: قد حرّمها الله، فأنكر ذلك عليهم.

﴿نبئوني بعلم﴾ أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما حرّمتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنّ الله حرّمه ﴿أم كنتم شهداء﴾ بل أكنتم شهداء ومعنى الهمزة: الإنكار يعني: أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم، وذكر المشاهدة على مذهبهم؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون: الله حرّم هذا الذي تحرّمه، فتهكم بهم في قوله: أم كنتم شهداء على معنى: أعرفتم التوصية به مشاهدين؛ لأنكم لا تؤمنون بالرسل ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرّم ﴿ليضل الناس﴾ وهو: عمرو بن لحي ابن قمعة الذي بحر البحائر وسيب السوائب.

فإن قُلْتَ: كيف فصل بين بعض المعدود وبعضه؟ ولم يوال بينه قُلْتُ: قد وقع الفاصل بينهما اعتراضًا غير أجنبي من المعدود، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم، فاعترض بالاحتجاج على من حرّمها، والاحتجاج على من حرّمها تأكيد وتسديد للتحليل، والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد.

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾.

﴿فيما أوحى إليّ﴾ تنبيه على أنّ التحريم إنما يثبت بوحي الله تعالى وشرعه لا بهوى الأنفس ﴿محرّمًا﴾ طعامًا محرّمًا من المطاعم التي حرّمتموها ﴿إلا أن يكون ميتة﴾ إلا أن يكون الشيء المحرّم ميتة ﴿أو دمًا مسفوحًا﴾ أي: مصبوبًا سائلاً كالدم في العروق لا كالكبد والطحال، وقد رخص في دم العروق بعد الذبح ﴿أو فسقًا﴾ عطف على المنصوب قبله سمى ما أهلّ به لغير الله فسقًا لتوغله في باب الفسق ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾[1] و﴿أهلّ﴾ صفة له منصوبة المحل، ويجوز أن يكون مفعولاً له من أهلّ أي: أهلّ لغير الله به فسقًا.

فإن قُلْتَ: فعلام تعطف ﴿أهلّ﴾ وإلام يرجع الضمير في ﴿به﴾ على هذا القول؟ قُلْتُ: يعطف على يكون ويرجع الضمير إلى ما يرجع إليه المستكنّ في يكون ﴿فمن اضطرّ﴾ فمن دعته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرّمات ﴿غير باغ﴾ على مضطرّ مثله تارك لمواساته ﴿ولا عاد﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ لا يؤاخذه.

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾.

ذو الظفر ما له أصبع من دابة أو طائر، وكان بعض ذات الظفر حلالاً لهم، فلما ظلموا حرّم ذلك عليهم، فعمّ التحريم كل ذي ظفر بدليل قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾[2]. وقوله: ﴿ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما﴾ كقولك: من زيد أخذت ماله تريد بالإضافة زيادة الربط والمعنى: أنه حرّم عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرّم منهما إلا الشحوم الخالصة وهي الثروب وشحوم الكلى، وقوله: ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ يعني: إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحفة ﴿أو الحوايا﴾ أو اشتمل على الأمعاء ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ وهو شحم الألية، وقيل: الحوايا عطف على شحومهما وأو بمنزلتها في قولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين ﴿ذلك﴾ الجزاء ﴿جزيناهم﴾ وهو: تحريم الطيبات ﴿ببغيهم﴾ بسبب ظلمهم ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أوعدنا به العصاة لا نخلفه كما لا نخلف ما وعدناه أهل الطاعة، فلما عصوا وبغوا ألحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب[3].

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾.

﴿فإن كذبوك﴾ في ذلك وزعموا أن الله واسع الرحمة وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جودًا وكرمًا ﴿فقل﴾ لهم ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ لأهل طاعته ﴿ولا يردّ بأسه﴾ مع سعة رحمته ﴿عن القوم المجرمين﴾ فلا تغترّ برجاء رحمته عن خوف نقمته.

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 121.

(2) سورة النساء، الآية: 160.

(3) قال أحمد: هذه الآية وردت فيمن كفر وافترى على الله، ووعيد الكافر باتفاق واقع به غيره مردود عنه، وأهل السنة وإن قالوا: يجوز العفو عن العاصي الموحد، فلا يقولون إنّ ذلك حتم ولا يلزمهم ذلك؛ لأنّ الله تعالى حيث توعد المؤمنين العصاة علق = حلول الوعيد بهم بالمشيئة، وأخبر أنه يغفر لمن يشاء منهم، فمن ثم اعتقدنا أن كل موحد عاص في المشيئة، وحيث أطلق وعيدهم في بعض الظواهر، فهو محمول على المقيد، فلا يلزمهم حينئذ اعتقاد الخلف في الخبر والزمخشري، إنما يدندن حول إلزامهم ذلك، وأنى له.

حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾.

﴿سيقول الذين أشركوا﴾ [1] إخبار بما سوف يقولونه ولما قالوه قال: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ [2] يعنون بكفرهم [3] وتمرّدهم أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله بمشيئة الله وإرادته، ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك كمذهب المجبرة بعينه ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي: جاؤا بالتكذيب المطلق؛ لأنّ الله عزّ وجلّ ركب في العقول وأنزل في الكتب ما دلّ على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها، والرسل أخبروا بذلك، فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم ﴿قل هل عندكم من علم﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿فتخرجوه لنا﴾ وهذا من التهكم والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾ في قولكم هذا ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ تقدرون أن الأمر كما تزعمون أو تكذبون. وقرئ: كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف.

قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾.

﴿قل فللّه الحجة البالغة﴾ يعني: فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فللّه الحجة البالغة عليكم على قود مذهبكم ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ منكم ومن مخالفيكم في الدين، فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضًا بمشيئته فتوالوهم ولا تعادوهم وتوافقوهم ولا تخالفوهم؛ لأنّ المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه.

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾.

﴿هلم﴾ يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين، وبنو تميم تؤنث وتجمع، والمعنى: هاتوا شهداءكم وقربوهم.

فإن قُلْتَ: كيف أمره باستحضار شهدائهم الذين يشهدون أنّ الله حرج ما زعموه محرمًا ثم أمره بأن لا يشهد معهم؟ قُلْتُ: أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شيء، لتساوي أقدام الشاهدين والمشهود لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به، وقوله: ﴿فلا تشهد معهم﴾ يعني: فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم؛ لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحدًا منهم ﴿ولا يتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنّ من كذب بآيات الله وعدل به غيره فهو متبع لهوى لا غير؛ لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلاّ مصدقًا بالآيات موحدًا لله تعالى.

فإن قُلْتَ [4]: هلا قيل قل هلم شهداء يشهدون أنّ الله

---

(1) قال أحمد: فائدته توطين النفس على الجواب، ومكافحتهم بالردّ، وإعداد الحجة قبل أوانها، كما قال سيقول السفهاء من الناس.

(2) سورة النحل، الآية: 35.

(3) قال أحمد رحمه الله: قد تقدّم أيضاً الكلام على هذه الآية، وأوضحنا أنّ الردّ عليهم إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم، وأنّ إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار، وزعموا: أنهم يقيمون الحجة على الله ورسله بذلك، فردّ الله قولهم وكذبهم في دعواهم عدم الاختيار، لأنفسهم وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال، فكذب الرسل، وأشرك بالله، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله، ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة، ثم بيّن الله تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك، وأنّ الحجة البالغة له، لا لهم بقوله الا لله الحجة البالغة، ثم أوضح تعالى أن كل واقع بمشيئته، وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم. وإنه لو شاء منهم الهداية، لاهتدوا أجمعوا بقوله، فلو شاء لهداكم أجمعين، والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة، وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد، وينصرف الرد إلى دعواهم بسلب الاختيار، لأنفسهم وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة، وإذا تدبرت هذه وجدتها كافية في الرد على من زعم من أهل القبلة: أنّ العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة، بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها، وهم الفرقة المعروفون بالمجبرة، والمصنف يغالط في= الحقائق، فيسمى أهل السنة مجبرة، وإن أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة؛ لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة، لأفعاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية، فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة ويجعله لقباً عاماً لأهل السنة، وجماع الرد على المجبرة الذين ميزناهم عن أهل السنة في قوله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا إلى قوله قل: فلله الحجة البالغة﴾ وتتمة الآية، ردّ صراح على طائفة الاعتزال القائلين، بأنّ الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين، فلم تقع من أكثرهم ووجه الردّ أن لو إذا دخلت على فعل مثبت نفته، فيقتضى ذلك أنّ الله تعالى لما قال، فلو شاء لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم، ولو شاءها لوقعت فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحل عقدهم، فإذا ثبت اشتمال الآية، على رد عقيدة الطائفتين المنكورتين المجبرة في أوّلها، والمعتزلة في آخرها، فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها، فإنّ أوّلها كما بينا يثبت للعبد اختياراً، وقدرة على وجه يقطع حجته، وعذره في المخالفة والعصيان، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله أيضاً، وقدرته في أفعال عباده فهم كما رأيت تبع للكتاب العزيز يثبتون ما أثبت، وينفون ما نفى، مؤيدون بالعقل والنقل، والله الموفق.

(4) قال أحمد رحمه الله: ووجه مناقضته له أنه لو قيل على خلاف المنزل، وهو قوله هلم بشهداء يشهدون، يفهم أن الطالب للشهداء=

حرم هذا، وأي فرق بينه وبين المنزل؟ **قُلْتُ:** المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم، وكان المشهود لهم يقلدونهم ويثقون بهم ويعتضدون بشهادتهم، ليهدم ما يقومون به فيحق الحق ويبطل الباطل، فأضيفت الشهداء لذلك، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم، والدليل عليه قوله تعالى: **﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾** ولو قيل: هلم شهداء يشهدون لكان معناه: هاتوا أناسًا بتحريم ذلك، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق، وذلك ليس بالغرض، ويناقضه قوله تعالى: **﴿وإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾**.

❁ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

تعال من الخاص الذي صار عامًا وأصله أن يقوله: من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم و **﴿ما حرّم﴾** منصوب بفعل التلاوة أي: أتل الذي حرمه ربكم، أو يحرم بمعنى: أقل أي شيء حرّم ربكم؛ لأنّ التلاوة من القول وأن في **﴿ألا تشركوا﴾** مفسرة ولا للنهي.

فإن قُلْتَ: هلا قلت هي التي تنصب الفعل وجعلت أن لا تشركوا بدلاً من ما حرم؟ **قُلْتُ:** وجب أن يكون لا تشركوا ولا تقربوا ولا تقتلوا ولا تتبعوا السبل نواهي لانعطاف الأوامر عليها وهي قوله: **﴿وبالوالدين إحسانًا﴾** لأنّ التقدير وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، وأوفوا، وإذا قلتم فاعدلوا، وبعهد الله أوفوا.

فإن قُلْتَ: فما تصنع بقوله: **﴿وأنّ هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه﴾** فيمن قرأ بالفتح، وإنما يستقيم عطفه على أن لا تشركوا إذا جعلت أن هي الناصبة للفعل حتى يكون المعنى أتل عليكم نفي الإشراك والتوحيد، وأتل عليكم أنّ هذا صراطي مستقيمًا؟ **قُلْتُ:** اجعل قوله: **﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا﴾** علة للاتباع بتقدير اللام كقوله تعالى: **﴿وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا﴾**[1] بمعنى: ولأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه، والدليل عليه القراءة بالكسر كأنه قيل: واتبعوه صراطي، لأنه مستقيم أو واتبعوا صراطي إنه مستقيم.

فإن قُلْتَ: إذا جعلت أنّ مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق بما حرم ربكم، وجب أن يكون ما بعده منهيًا عنه محرمًا كله كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهي، فما تصنع بالأوامر؟ **قُلْتُ:** لما وردت هذه الأوامر مع النواهي، وتقدمهنّ جميعًا فعل التحريم، واشتركن في الدخول تحت حكمه، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها وهي: الإساءة إلى الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل في القول ونكث عهد الله **﴿من إملاق﴾** من أجل فقر ومن خشيته كقوله تعالى: **﴿خشية إملاق﴾**[2] **﴿ما ظهر منها وما بطن﴾** مثل قوله: **﴿ظاهر الإثم وباطنه﴾**[3] **﴿إلا بالحق﴾** كالقصاص والقتل على الردّة والرجم.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

﴿إلا بالتي هي أحسن﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بمال اليتيم وهي حفظه وتثميره، والمعنى احفظوه عليه حتى يبلغ أشدّه فادفعوه إليه **﴿بالقسط﴾** بالسوية والعدل **﴿لا نكلف نفسًا إلا وسعها﴾** إلا ما يسعها ولا تعجز عنه وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان، ذلك لأنّ مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج، فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفوّ عنه **﴿ولو كان ذا قربى﴾** ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل فما ينبغي أن يزيد في القول أن ينقص كقوله: **﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾**[4]. وقرىء: وأنْ هذا صراطي مستقيمًا بتخفيف أن، وأصله وأنه هذا صراطي على أن الهاء ضمير الشأن والحديث، وقرأ الأعمش، وهذا صراطي، وفي مصحف عبد الله: وهذا صراط ربكم، وفي مصحف أبيّ: وهذا صراط ربك **﴿ولا تتبعوا السبل﴾** الطرق المختلفة في الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات **﴿فتفرق بكم﴾** فتفرقكم أيادي سبا **﴿عن سبيله﴾** عن صراط الله المستقيم وهو: دين الإسلام. وقرىء: فتفرق بإدغام التاء، وروى أبو وائل، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ: أنه خط خطًا، ثم قال: «هذا سبيل الرشد، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطًا، ثم قال: هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم تلا هذه

= ليس على تحقيق من أن ثم شهداء كما يقول الحاكم للمدعي، هات بينة تشهد لذلك، فهو لا يتحقق أن للمدعي بينة ثم يكون قوله، فإن شهدوا تحقيقاً؛ لأن ثم شهداء، فالجمع بينهما متناقض، كما ترى، والله الموفق.

(1) سورة الجن، الآية: 18.
(2) سورة الإسراء، الآية: 31.
(3) سورة الأنعام، الآية: 120.
(4) سورة النساء، الآية: 135.

الآية ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآيات محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب، وقيل: إنهن أم الكتاب، من عمل بهنّ دخل الجنة، ومن تركهنّ دخل النار، وعن كعب الأحبار: والذي نفس كعب بيده، أنّ هذه الآيات لأوّل شيء في التوراة.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾؟ قُلْتُ: على ﴿وصاكم به﴾.

فإن قُلْتَ: كيف صحّ عطفه عليه بثم والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ قُلْتُ: هذه التوصية قديمة لم تزل توصاها كل أمّة على لسان نبيهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، فكأنه قيل: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديمًا وحديثًا.

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾.

﴿ثم﴾ أعظم من ذلك أنا ﴿آتينا موسى الكتاب﴾ وأنزلنا هذا الكتاب المبارك، وقيل: هو معطوف على ما تقدّم قبل شطر السورة من قوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحٰق ويعقوب﴾[1] ﴿تمامًا على الذي أحسن﴾ تمامًا للكرامة والنعمة على الذي أحسن على من كان محسنًا صالحًا، يريد: جنس المحسنين وتدل عليه قراءة عبد الله: على الذين أحسنوا، أو أراد به موسى عليه السلام، أي: تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به، أو تمامًا على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع، من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته أي: زيادة على علمه على وجه التتميم، وقرأ يحيى بن يعمر على الذي أحسن بالرفع أي: على الذي هو أحسن بحذف المبتدأ كقراءة من قرأ ﴿مثلاً ما بعوضة﴾[2] بالرفع أي: على الدين الذي هو أحسن دين وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تمامًا أي: تامًّا كاملاً على أحسن ما تكون عليه الكتب أي: على الوجه والطريق الذي هو أحسن، وهو معنى قول الكلبي: اتمّ له الكتاب على أحسنه.

أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾.

﴿أن تقولوا﴾ كراهة أن تقولوا ﴿على طائفتين﴾ يريدون أهل التوراة وأهل الإنجيل ﴿وإن كنا﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والأصل وإنه كنا عن دراستهم غافلين على أنّ الهاء ضمير الشأن ﴿عن دراستهم﴾ عن قراءتهم أي: لم نعرف مثل دراستهم.

أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿لكنا أهدى منهم﴾ لحدّة أذهاننا وثقابة أفهامنا وغزارة حفظنا لأيام العرب ووقائعها وخطبها وأشعارها وأسجاعها وأمثالها على أنا أميون. وقرئ: أن يقولوا أو يقولوا بالياء ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ تبكيت لهم وهو على قراءة من قرأ: يقولوا على لفظ الغيبة أحسن لما فيه من الالتفات، والمعنى إن صدّقكم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم فقد جاءكم بينة من ربكم فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله﴾ بعدما عرف صحتها وصدقها أو تمكن من معرفة ذلك ﴿وصدف عنها﴾ الناس فضلّ وأضلّ ﴿سنجزي الذين يصدقون عن آياتنا سوء العذاب﴾ كقوله: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب﴾[3] ﴿الملائكة﴾ ملائكة الموت أو العذاب.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾.

﴿أو يأتي ربك﴾ أو يأتي كل آيات ربك بدليل قوله ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ يريد آيات القيامة والهلاك الكلي، وبعض الآيات أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك، وعن البراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما تتذاكرون؟ فقلنا: نتذاكر الساعة، قال: إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفًا بالمغرب، وخسفًا بالمشرق، وخسفًا بجزيرة العرب، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، ونارًا تخرج من عدن»[4] ﴿لم تكن آمنت من قبل﴾ صفة لقوله: ﴿نفسًا﴾ وقوله: ﴿أو كسبت في إيمانها خيرًا﴾ عطف على ﴿آمنت﴾ والمعنى: أنّ أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة ذهب أوان التكليف عندها فلم ينفع الإيمان حينئذ نفسًا غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدّمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيرًا، فلم يفرق[5] كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 84.

(2) سورة البقرة، الآية: 26.

(3) سورة النحل، الآية: 88.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة (الحديث رقم: 7214).

(5) قال أحمد رحمه الله: هو يروم الاستدلال عل صحة عقيدته، في أنّ الكافر والعاصي سواء في الخلود بهذه الآية، إذ سوّى بينهما في =

الإيمان وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيرًا ليعلم أنّ قوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[1] جمع بين قرينتين لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد وإلا فالشقوة والهلاك ﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾ وعيد. وقرئ: أن يأتيهم الملائكة بالياء والتاء. وقرأ ابن سيرين: لا تنفع بالتاء، لكون الإيمان مضافًا إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه كقولك: ذهبت بعض أصابعه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾.

﴿فرّقوا دينهم﴾ اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى، وفي الحديث: افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وافترقت النصارى ثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة[2]، وقيل: فرّقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقرئ: فارقوا دينهم، أي: تركوه ﴿وكانوا شيعًا﴾ فرقًا كل فرقة تشيع إمامًا لها ﴿لست منهم في شيء﴾ أي: من السؤال عنهم وعن تفرّقهم، وقيل: من عقابهم، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾.

﴿عشر أمثالها﴾ على إقامة صفة الجنس المميز مقام الموصوف تقديره: عشر حسنات أمثالها، وقرئ: عشر أمثالها برفعهما جميعًا على الوصف، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف، وقد وعد بالواحد سبعمائة، ووعد ثوابًا بغير حساب، ومضاعفة الحسنات فضل، ومكافأة السيئات عدل ﴿وهم لا يظلمون﴾ لا ينقص من ثوابهم ولا يزاد على عقابهم.

قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾.

﴿دينًا﴾ نصب على البدل من محل إلى صراط؛ لأنّ معناه: هداني صراطًا بدليل قوله: ﴿ويهديكم صراطًا مستقيمًا﴾[3] والقيم فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من القائم، وقرئ: قيمًا، والقيم مصدر بمعنى: القيام وصف به و﴿ملة إبراهيم﴾ عطف بيان و﴿حنيفًا﴾ حال من إبراهيم.

قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾.

﴿قل إنّ صلاتي ونسكي﴾ وعبادتي وتقرّبي كله، وقيل: ونبحي، وجمع بين الصلاة والنبح كما في قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾[4] وقيل: صلاتي وحجي من مناسك الحج ﴿ومحياي ومماتي﴾ وما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿لله رب العالمين﴾ خالصة لوجهه ﴿وبذلك﴾ من الإخلاص ﴿أمرت وأنا أوّل المسلمين﴾؛ لأن إسلام كل نبي متقدّم لإسلام أمّته.

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾.

﴿قل أغير الله أبغي ربًا﴾ جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار أي: منكر أن أبغي ربًا غيره ﴿وهو ربّ كل شيء﴾ فكل من دونه مربوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره، كما قال: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد﴾[5] ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ جواب عن قولهم: ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾[6].

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾.

﴿جعلكم خلائف الأرض﴾؛ لأن محمدًا ﷺ خاتم

= عدم الانتفاع بما يستدركانه بعد ظهور الآيات، ولا يتم له ذلك، فإنّ هذا الكلام اشتمل على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف، وأصل الكلام يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبل ما تكسبه من الخير بعد، إلا أنه لف الكلامين، فجعلهما كلاماً واحداً بلاغة واختصاراً، وإعجازاً أراد أن يثبت أنّ ذلك هو الأصل، فهو غير مخالف لقواعد السنة، فإنا نقول لا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير، وإن نفع الإيمان المتقدّم في السلامة من الخلود، فهذا بأن يدل على رد الاعتزال أجدر من أن يدل له، والله الموفق.

(1) وردت الآية في خمسين موضعًا في القرآن، منها: سورة البقرة، الآية: 25.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: شرح السنة (الحديث رقم: 4596)، والترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (الحديث رقم: 2640)، والحاكم في المستدرك 1/6 و128/1 وابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث رقم: 6247) وأخرجه أبو داود عن معاوية (الحديث رقم 4597).

(3) سورة الفتح، الآية: 20.

(4) سورة الكوثر، الآية: 2.

(5) سورة الزمر، الآية: 64.

(6) سورة العنكبوت، الآية: 12.

النبيين فخلفت أمّته سائر الأمم، أو جعلهم يخلف بعضهم بعضًا، أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في الشرف والرزق ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والحرّ بالعبد، والغني بالفقير ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن كفر نعمته ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن قام بشكرها، ووصف العقاب بالسرعة؛ لأن ما هو آت قريب.

عن رسول الله ﷺ: «أنزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فمن قرأ الأنعام صلى الله عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يومًا وليلة»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأعراف مكية

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾.

﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو كتاب و﴿أنزل إليك﴾ صفة له والمراد بالكتاب: السورة ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: شك منه كقوله: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾[2] وسمى الشك: حرجًا[3]؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه، أي: لا تشك في أنه منزل من الله ولا تحرج من تبليغه[4]؛ لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له، فأمّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿لتنذر﴾؟ قُلْتُ: بأنزل أي: أنزل إليك لإنذارك به، أو بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار؛ لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه متكل على عصمته.

فإن قُلْتَ: فما محل ﴿ذكرى﴾؟ قُلْتُ: يحتمل الحركات الثلاث: النصب بإضمار فعلها، كأنه قيل: لتنذر به وتذكر تذكيرًا؛ لأنّ الذكرى اسم بمعنى: التذكير، والرفع عطفًا على كتاب أو بأنه خبر مبتدأ محذوف، والجر للعطف على محل أن تنذر أي: للإنذار وللذكر.

فإن قُلْتَ[5]: النهي في قوله: ﴿فلا يكن﴾ متوجه إلى الحرج فما وجهه؟ قُلْتُ: هو: من قولهم لا أرينك هٰهنا.

ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

﴿اتبعوا ما أنزل إليكم﴾ من القرآن والسنة ﴿ولا تتبعوا من دونه﴾ من دون الله ﴿أولياء﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع، ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم وأمركم باتباعه، وعن الحسن: يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنّة محمد ﷺ، والله ما نزلت آية إلا وهو يجب أن تعلم فيم نزلت وما معناها. وقرأ مالك بن دينار: ولا تبتغوا من الابتغاء ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا﴾[6] ويجوز أن يكون الضمير في من دونه لما أنزل علي ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، وقرئ: تذكرون بحذف التاء ويتذكرون: بالياء، وقليلاً نصب بتذكرون أي: تذكرون تذكرًا قليلاً، وما مزيدة لتوكيد القلة.

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾.

﴿فجاءها﴾ فجاء أهلها ﴿بياتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى: بائتين، يقال: بات بياتًا حسنًا وبيتة حسنة، وقوله[7] ﴿هم قائلون﴾ حال معطوفة على بياتًا، كأنه قيل:

---

(1) الثعلبي في تفسيره: وأخرج أوله الطبراني في المعجم الصغير ص 104 (الحديث رقم: 212).

(2) سورة يونس، الآية: 94.

(3) قال أحمد: ويشهد له قوله تعالى، فلا تكوننّ من الممترين، ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح، بأن العقد ربط الفكر بمعتقد، والاعتقاد افتعال منه، والعلم يشعر بانحلال العقود، وهو الانشراح، والتبلج، والثقة، وما أحسن تنبيهه بقوله، والاعتقاد افتعال منع يريد إذا كان العقد مباينًا للعلم، فما ظنك بالاعتقاد؛ لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى، ومنه الاعتماد، والاحتمال، ومن ثم ورد في الخير كسب، وفي نقيضه اكتسب؛ لأن النفوس في الشهوات والمخالفات، واتباع الأهواء أجدر منها في الطاعات، وقمع الأغراض، وعلى تلك جاء لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وإن كان العلم من الأعلم المأخوذ من العلمة بالتحريك، وهي انشراح الشفة وانشقاقها، فالذي ذكره الإمام حينئذ نهاية في نوعه، والله الموفق.

(4) قال أحمد: ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾ أن يقولوا لولا أنزل إليه كنز، أو جاء معه ملك الآية.

(5) قال أحمد: يريد أن الحرج منهي في الآية ظاهراً، والمراد النهي عنه، والله أعلم.

(6) سورة آل عمران، الآية: 85.

(7) قال أحمد: الاكتفاء بالضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالاً ضعيف، والأفصح دخول الواو كما اختاره الزمخشري، وأمّا الزجاج، وغيره، فيجعلون أحد الأمرين كافياً في الاسمية إما الواو، وإما الضمير، وأمّا قول الزمخشري: إن الجملة المعطوفة إنما حذفت منها، واو الحال كراهية لاجتماعها، وهي واو عطف أيضاً مع مثلها، ففيه نظر وذلك أنّ واو الحال لا بدّ أن تمتاز عن واو العطف بمزية ألا تراها تصحب الجملة الاسمية عقيب الفعلية في قولك جاءني زيد، وهو راكب، ولو كانت عاطفة مجردة، لاستقبح توسطها بين المتغايرين، وإن لم يكن قبيحاً، فالأفصح خلافه، فلما=

فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين.

فإن قُلْتَ: هل يقدر حذف المضاف الذي هو: الأهل قبل قرية، أو قبل الضمير في أهلكناها؟ قُلْتُ: إنما يقدر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإن القرية تهلك كما يهلك أهلها، وإنما قدرناه قبل الضمير في فجاءها لقوله: ﴿أو هم قائلون﴾.

فإن قُلْتَ: لا يقال جاءني زيد هو فارس بغير واو، فما بال قوله ﴿هم قائلون﴾؟ قُلْتُ: قدر بعض النحويين الواو محذوفة، ورده الزجاج وقال: لو قلت جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، أو جاءني زيد هو فارس لم يحتج فيه إلى واو؛ لأن الذكر قد عاد إلى الأول، والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حذفت الواو استثقالاً لاجتماع حرفي عطف؛ لأنّ واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس كلام فصيح وارد على حده، وأمّا جاءني زيد هو فارس فخبيث.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ والإهلاك: إنما هو بعد مجيء البأس؟ قُلْتُ: معناه: أردنا إهلاكها كقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾[1] وإنما خصّ هذان الوقتان وقت البيات ووقت القيلولة؛ لأنهما وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب وقت القيلولة.

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾.

﴿فما كان دعواهم﴾ ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه وفساده وقولهم ﴿إنا كنا ظالمين﴾ فيما كنا عليه، ويجوز فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا؛ لأنه لا مستغاث من الله بغيره من قولهم دعواهم بالكعب، ويجوز فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أنّ الدعاء لا ينفعهم ولات حين دعاء، فلا يزيدون على ذم أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم، ودعواهم نصب خبر لكان، وإن قالوا: رفع اسم له، ويجوز العكس.

فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾.

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ أرسل مسند إلى الجار والمجرور وهو إليهم، ومعناه: فلنسألن المرسل إليهم وهم الأمم يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم، كما قال: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾[2] ويسأل المرسلين عما أجيبوا به، كما قال: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾[3] ﴿فلنقصنّ عليهم﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿بعلم﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم وعما وجد منهم.

فإن قُلْتَ: فإذا كان عالمًا بذلك وكان يقصه عليهم فما معنى سؤالهم؟ قُلْتُ: معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم.

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾.

﴿والوزن يومئذ الحق﴾ يعني: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، ورفعه على الابتداء وخبره يومئذ والحق صفته أي: والوزن يوم يسأل الله الأمم ورسلهم الوزن الحق أي: العدل وقرئ: القسط، واختلف في كيفية الوزن، فقيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان، تنظر إليه الخلائق تأكيدًا للحجة وإظهارًا للنصفة وقطعًا للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها ألسنتهم وتشهد بها عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد، وكما تثبت في صحائفهم فيقرؤنها في موقف الحساب، وقيل: هي عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ جمع ميزان أو موزون أي: فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم، وعن الحسن: وحقّ لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل، وحقّ لميزان توضع فيه السيآت أن يخف ﴿بآياتنا يظلمون﴾ يكذبون بها ظلمًا كقوله ﴿فظلموا

= رأيتها تتوسط بينهما، والكلام حينئذ هو الأفصح، أو المتعين علمت أنها ممتازة بمعنى، وخاصية عن واو العطف، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة، فلا غرو في اجتماعها معها، وإن كان فيها معنى العطف مضافاً إلى تلك الخاصية، فأمّا أن تسلبه حينئذ لا غناء العاطف عنها، أو تستمر عليه، كما تجتمع الواو، ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستدراك في مثل قوله، ولكن لا يشعرون فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف، بلا كراهية، والذي يدل على ذلك أنك لو قلت سبح الله وأنت راكع، أو وأنت ساجد، لكان فصيحاً، لا خبث فيه، ولا كراهة فالتحقيق، والله أعلم، في الجملة المعطوفة على الحال، أنّ المصحح لوقوعها حالاً من غير واو، هو العاطف إذ يقتضي مشاركة الجملة الثانية، لما عطفت عليه في الحال، فيستغنى عن واو الحال، كما أنك تعطف = على المقسم به، فتدخله في حكم القسم من غير، واو موقعة في مثل ﴿والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى﴾ وفي مثل، فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، ولو قلت في غير التلاوة، وبالليل إذا عسعس، لجاز ولكن يستغنى عن تكرار حرف القسم، لنيابة العاطف منا به، فهذا والله أعلم سبب استغناء الجملة المعطوفة على الحال، عن الواو المصححة للحالية، فالحاصل من هذا أنك إن أتيت بواو الحال مصاحباً للعاطف لم تخرج عن حدّ الفصاحة إلى الاستثقال، بل أفدت تأكيداً، وإن لم تأت بها فكذلك في الفصاحة مع إفادة الاختصار، والله الموفق للصواب.

(1) سورة المائدة، الآية: 6.

(2) سورة القصص، الآية: 65.

(3) سورة المائدة، الآية: 109.

بها﴾[1].

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾.

﴿مكّناكم في الأرض﴾ جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها، أو ما يتوصل به إلى ذلك، والوجه تصريح الياء، وعن ابن عامر أنه همز على التشبيه بصحائف.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾.

﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم﴾ يعني: خلقنا أباكم آدم طينًا غير مصوّر، ثم صوّرناه بعد ذلك ألا ترى إلى قوله: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ الآية ﴿من الساجدين﴾ ممن سجد لآدم ﴿ألا تسجد﴾ لا في أن لا تسجد صلة بدليل قوله ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾[2] ومثلها ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾[3] بمعنى: ليعلم.

فإن قُلْتَ: ما فائدة زيادتها؟ قُلْتُ: توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه، كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك ﴿إذ أمرتك﴾؛ لأنّ أمري لك بالسجود أوجبه عليك إيجابًا وأحتمه عليك حتمًا لا بد لك منه.

فإن قُلْتَ: لم سأله عن المانع من السجود وقد علم ما منعه؟ قُلْتُ: للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقدًا أنه غير واجب عليه لما رأى أنّ سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب.

فإن قُلْتَ: كيف يكون قوله ﴿أنا خير منه﴾ جوابًا لما منعك، وإنما الجواب أن يقول منعني كذا؟ قُلْتُ: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وبعلة فضله عليه وهو: أنّ أصله من نار وأصل آدم من طين، فعلم منه الجواب وزيادة عليه وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأمور بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة كان مستبعد أن يأمر بما أمر به.

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾.

﴿فاهبط منها﴾ من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقرّ العاصين المتكبرين من الثقلين ﴿فما يكون لك﴾ فما يصحّ لك ﴿أن تتكبر فيها﴾ وتعصي ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك، كما تقول للرجل: قم صاغرًا إذا أهنته وفي ضده: قم راشدًا، وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار، وعن عمر رضي الله عنه: من تواضع لله رفع الله حكمته، وقال: انتعش نعشك الله، ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله إلى الأرض[4].

فإن قُلْتَ[5]: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم؟ قُلْتُ: لما في ذلك من ابتلاء العباد وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده.

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾.

﴿فبما أغويتني﴾[6] فبسبب إغوائك إياي ﴿لأقعدن لهم﴾ وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي، ولم يثبت كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه ومن آدم أنفسًا

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 103.

(2) سورة صٓ، الآية: 75.

(3) سورة الحديد، الآية: 29.

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حسن الخلق، فصل: في التواضع، (الحديث رقم: 8139) وابن أبي شيبة 13/270 كتاب: الزهد، باب: كلام عمر رضي الله عنه.

(5) قال أحمد: تحت كلام الزمخشري هذا نزغتان من الاعتزال خفيتان. أحدهما تحريفه الإغواء إلى التكليف؛ لأنه يعتقد أنّ الله تعالى لم يغوه، أي: لم يخلق له الغي بناء على قاعدة التحسين، والتقبيح، والصلاح، والأصلح، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود؛ لأنه كان سبباً في غيه، وكثيراً ما يؤول أفعال الله تعالى، إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب، ويجعل ذلك من مجاز السببية، لأنّ الفعل له ملابسات بالفاعل، والمفعول، والزمان، والمكان، والسبب، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وإسناده إلى بقيتها مجاز، ويجعل الفعل مسنداً إلى الله تعالى؛ لأنه مسببه لا أنه فاعله، وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار، رجل رآه مقيداً محبوساً في مال عليه هذه وضعت القيود في = رجليك، وأشار إلى سلة فيها أخبصة، وألوان مختلفة رآها عند المسجون، أي: اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سبباً في تبذير المال، الذي آل بك إلى وضع القيود في رجلك، فعلى هذا يروم حمل هذه الآية يعني: بما كلفتني من التكليف الذي كان سبباً في خلقي الغي لنفسي، لأقعدن، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة، وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى، فمجاز هذه إحدى النزغتين. والأخرى: جعله التكليف من جملة الأفعال؛ لأنه يزعم: أنّ كلام الله تعالى محدث من جملة أفعاله، لا صفة من صفاته، والتكليف من الكلام، فهاتان زلتان جمع القدرية بينهما، وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما؛ لأنه نسب الإغواء إلى الله تعالى، إذ هو خالق كل شيء، فما الظنّ بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك، ما لم يسبق به إبليس نعوذ بالله من التعرض لسخط الله.

(6) قال أحمد: وهذا السؤال إنما يورده، ويلتزم الجواب عنه القدرية، الذين يوجبون على الله تعالى، رعاية المصالح في أفعاله، وأمّا أهل السنة، فقد أصغوا حق الإصغاء إلى قوله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فلا يورد أحد منهم هذا السؤال، ولا يجيب عنه من يورده، والله الموفق.

ومناصب، وعن الأصم: أمرتني بالسجود فحملني الأنف على معصيتك، والمعنى: فبسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم.

فإن قُلْتَ: بمَ تعلقت الباء فإن تعلقها بلاقعدنّ يصدّ عنه لام القسم، لا تقول والله بزيد لأمرن؟ قُلْتُ: تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره فبما أغويتني أقسم بالله لأقعدن أي فبسبب إغوائك أقسم، ويجوز أن تكون الباء للقسم أي: فأقسم بإغوائك لأقعدن، وإنما أقسم بالإغواء؛ لأنه كان تكليفًا، والتكليف من أحسن أفعال الله لكونه تعريضًا لسعادة الأبد فكان جديرًا بأن يقسم به. ومن تكاذيب المجبرة[1] ما حكوه عن طاوس: أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر، فجلس إليه، فقال له طاوس: تقوم أو تقام، فقام الرجل، فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إبليس أفقه منه قال: رب بما أغويتني، وهذا يقول: أنا أغوي نفسي، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين، وقيل: ما للاستفهام كأنه قيل: بأي شيء أغويتني؟ ثم ابتدأ لأقعدن وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على ما الاستفهامية قليل شاذ، وأصل الغي الفساد ومنه: غوى الفصيل إذا بشم والبشم فساد في المعدة ﴿لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾ لأعترضنّ لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة، وانتصابه على الظرف كقوله:

كما عسل الطريق الثعلب

وشبهه الزجاج بقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن أي: على الظهر والبطن، وعن رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة قعد له بطريق الإسلام، فقال له: تدع دين آبائك! فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: تدع ديارك وتتغرب! فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك! فعصاه فقاتل»[2].

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾

﴿ثم لآتينهم﴾ من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه كقوله: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾[3].

فإن قُلْتَ: كيف قيل ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ بحرف الابتداء ﴿وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ بحرف المجاوزة؟ قُلْتُ: المفعول فيه عدّى إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به، فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه وعن شماله وعلى شماله قلنا: معنى على يمينه أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلى عليه، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافيًا عن صاحب اليمين منحرفًا عنه غير ملاصق له، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره كما ذكرنا في تعال ونحوه من المفعول به، قولهم: رميت عن القوس وعلى القوس ومن القوس؛ لأنّ السهم يبعد عنها ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي ويبتدئ الرمي منها، وكذلك قالوا: جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه؛ لأنهما ظرفان للفعل ﴿ومن بين يديه ومن خلفه﴾[4] لأن الفعل يقع في بعض الجهتين كما تقول: جئته من الليل تريد بعض الليل، وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، أمّا من بين يدي فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم فاقرأ ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا﴾[5] وأمّا من خلفي: فيخوّفني الضيعة على مخلفي فاقرأ ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾[6] وأمّا من قبل يميني: فيأتيني من قبل الثناء فاقرأ ﴿والعاقبة للمتقين﴾[7] وأمّا من قبل شمالي: فيأتيني من قبل الشهوات فاقرأ ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾[8] ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ قال تظنينًا بدليل قوله: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه﴾[9] وقيل: سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى لهم.

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾

﴿مذؤمًا﴾ من ذأمه إذا ذمّه. وقرأ الزهري مذومًا بالتخفيف مثل مسول في مسؤل. واللام في ﴿لمن تبعك﴾

---

(1) قال أحمد: وإنما أوردت مثل هذا من كلامه، وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيده عن العقائد الصحيحة، لتبلغ الحجة في وجوب الرد عليه، وتعينه على من هداه الله إليه، ولقد صدق طاوس رضي الله عنه، وأما قول الزمخشري في أهل السنة، الذين سماهم: مجبرة، أنهم يتهالكون في نسبة القبائح إلى الله تعالى، فحاصله أنهم يخلصون التوحيد، حتى لا يؤمنون بخالق غير الله، ولكي يصدّقوا قوله تعالى متمدحاً لله خالق كل شيء، لا كالقدرية الذين هم يتهالكون، حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيؤولون الفاعل بالمسبب، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، والله الموفق للصواب.

(2) أخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، (الحديث رقم: 3134)، وأحمد في المسند 3/483، وابن حبان في كتاب: السير، باب: فضل الجهاد (الحديث رقم: 4593).

(3) سورة الإسراء، الآية: 64.

(4) سورة الجن، الآية: 27.

(5) سورة طه، الآية: 82.

(6) سورة هود، الآية: 6.

(7) سورة القصص، الآية: 83.

(8) سورة سبأ، الآية: 54.

(9) سورة سبأ، الآية: 20.

موطئة للقسم و﴿لأملأن﴾ جوابه وهو سادّ مسدّ جواب الشرط ﴿منكم﴾ منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب كما في قوله: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾[1] روى عصمة عن عاصم: لمن تبعك بكسر اللام بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد وهو قوله: ﴿لأملأنّ جهنم منكم أجمعين﴾ على أن لأملأن في محل الابتداء ولمن تبعك خبره.

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾.

﴿ويا آدم﴾ وقلنا يا آدم. وقرئ: هذي الشجرة والأصل الياء والهاء بدل منها.

فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾.

ويقال وسوس: إذا تكلم كلامًا خفيًا يكرّره، ومنه: وسوس الحلي وهو: فعل غير متعدّ كولولت المرأة ووعوع الذئب، ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال موسوس بالفتح ولكن موسوس له وموسوس إليه وهو: الذي تلقى إليه الوسوسة، ومعنى: وسوس له فعل الوسوسة لأجله، ووسوس إليه ألقاها إليه ﴿ليبدي﴾ جعل ذلك غرضًا له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره وأن لا يطلع عليه مكشوفًا، وفيه[2] دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور، وأنه لم يزل مستهجنًا في الطباع مستقبحًا في العقول.

فإن قُلْتَ: ما للواو المضمومة في ﴿وري﴾ لم تقلب همزة كما قلبت في أو يصل؟ قُلْتُ: لأن الثانية مدّة كألف وارى وقد جاء في قراءة عبد الله: أوري بالقلب ﴿إلا أن تكونا ملكين﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين، وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا، وقرئ: ملكين بكسر اللام كقوله: ﴿وملك لا يبلى﴾[3] ﴿من الخالدين﴾ من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين. وقرئ: من سوأتهما بالتوحيد، وسوّاتهما: بالواو المشدّدة.

وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾.

﴿وقاسمهما﴾ وأقسم لهما ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾.

فإن قُلْتَ[4]: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك تقول: قاسمت فلانًا حالفته، وتقاسما تحالفا، ومنه قوله تعالى: ﴿تقاسموا بالله لنبيتنه﴾[5] قُلْتُ: كأنه قال لهما: أقسم لكما أني لمن الناصحين، وقالا له: أتقسم بالله أنك لمن الناصحين، فجعل ذلك مقاسمة بينهم[6]، أو أقسم لهما بالنصيحة، وأقسم له بقبولها، أو أخرج قسم إبليس عن زنة المفاعلة؛ لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم.

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿فدلاهما﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بغرور﴾ بما غرهما به من القسم بالله، وعن قتادة: وإنما يخدع المؤمن بالله، وعن ابن عمر رضي الله عنه: إنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه، فكان عبيده يفعلون ذلك طلبًا للعتق، فقيل له: إنهم يخدعونك، فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له[7] ﴿فلما ذاقا الشجرة﴾ وجدا طعمها آخذين في الأكل منها، وقيل: الشجرة هي السنبلة، وقيل: شجرة الكرم ﴿بدت لهما سوآتهما﴾ أي: تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.

(2) قال أحمد: وفي هذه الكلمات أيضاً جنوح إلى قاعدة الاعتزال في أمرين، أحدهما: قوله إنّ كشف العورة لم يزل مستقبحاً في العقول، فإنه ينشأ عن اعتقاده أنّ التقبيح والتحسين بالعقل، وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتقد لعقيدة السنة، إلا أنه لا يريد ظاهره، إذ التحسين، والتقبيح إنما يدركان بالشرع، والسمع، لا بالعقل ومعنى هذا الاطلاق، ولو صدر من سنّي، أن العقل يدرك المعنى، الذي لأجله حسن الشرع الستر، وقبح الكشف، الأمر الثاني: استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء، وقد مضى أن ذلك معتقد المعتزلة، وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه، والجواب ممن يعتقد تفضيل الأنبياء، أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته، بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك في علم الله تعالى، ألا ترى إبليس لعنه الله قد أخبر أنّ الله تعالى منعهما من الشجرة، حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين، وهو في ذلك كاذب مبطل، فلا دليل فيه إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك، ولا = تصديقه فيه بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما، وغرّهما إذ قال الله تعالى عنه، فدلاهما بغرور، فلعل تفضيله الملائكة على النبوّة من جملة غروره، والله أعلم.

(3) سورة طه، الآية: 120.

(4) قال أحمد: ويكون في الكلام حينئذ لف، لأن آدم وحوّاء عليهما السلام لا يقسمان له بلفظ المتكلم، ولكن بالخطاب، فجعل القسم من الجانبين كلاماً واحداً، مضافاً لإبليس.

(5) سورة النمل، الآية: 49.

(6) قال أحمد: وهذا التأويل يتم لوجود المقاسمة عن ذكر المقسم عليه، وأمّا حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لا غير، فيبعد التأويل المنكور، إلا أن يحمل الأمر على أنه سمي قبول النصيحة: نصيحة للمشاكلة والمقابلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى﴾ أنه سمي: التزام موسى، للوفاء والحضور للميعاد ميعاداً، فأسند التعبير بالمفاعلة، والله أعلم.

(7) رواه ابن سعد في الطبقات، وأبو نعيم في الحلية.

ولا أحدهما من الآخر، وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه ولا رأى مني[1]، وعن سعيد بن جبير: كان لباسهما من جنس الأظفار، وعن وهب: كان لباسهما نورًا يحول بينهما وبين النظر. ويقال: طفق يفعل كذا بمعنى، جعل يفعل كذا، وقرأ أبو السمال: وطفقا بالفتح ﴿يخصفان﴾ ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها كما يخصف النعل بأن تجعل طرقة على طرقة وتوثق بالسيور، وقرأ الحسن: يخصفان بكسر الخاء وتشديد الصاد وأصله يختصفان. وقرأ الزهري: يخصفان من أخصف وهو منقول من خصف أي: يخصفان أنفسهما، وقرئ: يخصفان من خصف بالتشديد ﴿من ورق الجنة﴾ قيل: كان ورق التين ﴿ألم أنهكما﴾ عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس، وروي أنه قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أنّ أحدًا من خلقك يحلف بك كاذبًا، قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كدًا، فأهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وطحن وعجن وخبز. وسميا[2] ذنبهما وإن كان صغيرًا مغفورًا ظلمًا لأنفسهما وقالا ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات واستصغارهم العظيم من الحسنات ﴿اهبطوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس و ﴿بعضكم لبعض عدوّ﴾ في موضع الحال أي: متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه ﴿مستقر﴾ استقرار أو موضع استقرار ﴿ومتاع إلى حين﴾ وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم. وعن ثابت البناني: لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربي فإنما أصابني الذي أصابني فيك، فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وترا وحنطته، وكفنته في وتر من الثياب، وحفروا له، ولحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنيه: هذه سنتكم بعده.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

جعل ما في الأرض منزلاً من السماء؛ لأنه قضى، ثم وكتب، ومنه ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾[3] والريش لباس الزينة أستعير من ريش الطير؛ لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباسًا يواري سوآتكم، ولباسًا يزينكم؛ لأنّ الزينة غرض صحيح كما قال: ﴿لتركبوها وزينة﴾[4] ﴿ولكم فيها جمال﴾[5] وقرأ عثمان رضي الله عنه: ورياشًا جمع ريش كشعب وشعاب ﴿ولباس التقوى﴾ ولباس الورع والخشية من الله تعالى، وارتفاعه على الابتداء وخبره إمّا الجملة: التي هي ﴿ذلك خير﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير؛ لأنّ أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر، وأمّا المفرد: الذي هو خير وذلك صفة للمبتدأ، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير، ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس المواري للسوأة؛ لأنّ مواراة السوأة من التقوى تفضيلاً له على لباس الزينة، وقيل: لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف أي: وهو لباس التقوى، ثم قيل: ذلك خير، وفي قراءة عبد الله وأبيّ: ولباس التقوى خير، وقيل: المراد بلباس التقوى: ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به في الحروب، وقرئ: ولباس التقوى بالنصب عطفًا على لباسًا وريشًا ﴿ذلك من آيات الله﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده يعني: إنزال اللباس ﴿لعلهم يذكرون﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت وخصف الورق عليها، إظهارًا للمنة فيما خلق من اللباس ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارًا بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لا يفتننكم الشيطان﴾ لا يمتحننكم بأن لا تدخلوا الجنة. كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ حال أي: أخرجهما نازعًا لباسهما بأن كان سببًا في أن نزع عنهما ﴿إنه يراكم هو﴾ تعليل للنهي وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدوّ المداجي يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون، وعن مالك بن دينار: إنّ عدوًا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله ﴿وقبيله﴾ وجنوده من الشياطين[6]، وفيه دليل بين أن الجنّ لا يرون ولا

---

(1) أخرجه ابن ماجه، في كتاب: الطهارة وسننها، باب: النهي أن يرى عورة أخيه (الحديث رقم: 662).

(2) قال أحمد: وهذا أيضاً اعتزال خفي؛ لأنهم يزعمون أنّ اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر، وإن لم يتب العبد منها، فهذا معنى قول الزمخشري، وإن كان صغيراً مغفوراً، وإنما وسمت هذا الاعتزال بالخفاء؛ لأنّ هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة، لكنهم يعنون بكونه مغفوراً أنّ الله تعالى تفضل بغفرانه، ولو شاء لأخذ به، وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر، لا كما يزعمه المعتزلة من وجوب مغفرته، والله الموفق.

(3) سورة الزمر، الآية: 6.

(4) سورة النحل، الآية: 8.

(5) سورة النحل، الآية: 6.

(6) قال أحمد: أين يذهب به عما ورد في الحديث الصحيح من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم النبيّ ﷺ يروم أن يشغله عن صلاته، حتى أمكنه الله منه، فأخذه عليه الصلاة والسلام، فدعته وأراد أن يربطه إلى سارية من سواري المسجد، يلعب به الصبيان، حتى ذكر دعوة سليمان عليه السلام، فتركه وإذا جاز ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام، كان جائزاً لأولياء الله، والمتبعين

يظهرون للإنس، وأنّ إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدّعي رؤيتهم زور ومخرفة ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ أي: خلينا بينهم وبينهم لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سوّلوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأوّل.

فإن قلْتَ: علام عطف وقبيله؟ قلْتُ: على الضمير في يراكم المؤكد بهو، والضمير في إنه للشأن والحديث، وقرأ اليزيدي: وقبيله بالنصب وفيه وجهان: أن يعطفه على اسم إن، وأن تكون الواو بمعنى مع، وإذا عطفه على اسم إن وهو الضمير في أنه كان راجعًا إلى إبليس.

وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾.

الفاحشة ما تبالغ في قبحه من الذنوب، أي: إذا فعلوها اعتذروا بأنّ آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم، وبأن الله تعالى أمرهم بأن يفعلوها، وكلاهما[1] باطل من العذر؛ لأنّ أحدهما: تقليد والتقليد ليس بطريق للعلم، والثاني: افتراء على الله وإلحاد في صفاته، كانوا يقولون لو كره الله منا ما نفعله لنقلنا عنه، عن الحسن: إنّ الله تعالى بعث محمدًا ﷺ إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله وتصديقه قول الله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء﴾ لأنّ فعل القبيح مستحيل عليه لعدم الداعي ووجود الصارف فكيف يأمر بفعله؟ ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أنّ مبنى قولهم على الجهل المفرط، وقيل: المراد بالفاحشة طوافهم بالبيت عراة.

قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾.

﴿بالقسط﴾ بالعدل وبما قام في النفوس أنه مستقيم حسن عند كل مميز، وقيل: بالتوحيد ﴿وأقيموا وجوهكم﴾ وقل أقيموا وجوهكم أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها ﴿عند كل مسجد﴾ في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود وهو: الصلاة ﴿وادعوه﴾ واعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: الطاعة مبتغين بها وجه الله خالصًا ﴿كما بدأكم تعودون﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم، احتجّ عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق والمعنى: أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿فريقًا هدى﴾ وهم الذين أسلموا أي: وفقهم للإيمان ﴿وفريقًا حق عليهم الضلالة﴾ أي: كلمة الضلالة، وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون، وانتصاب قوله: وفريقًا بفعل مضمر يفسره ما بعده، كأنه قيل: وخذل فريقًا حق عليهم الضلالة ﴿إنهم﴾ إنّ الفريق الذي حقّ عليهم الضلالة ﴿اتخذوا الشياطين أولياء﴾ أي: تولوهم بالطاعة فيما أمروهم به، وهذا دليل على أنّ علم الله لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين دون الله.

۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾.

﴿خذوا زينتكم﴾ أي: ريشكم ولباس زينتكم ﴿عند كل مسجد﴾ كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة. وعن طاوس: لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدهم يطوف عريانًا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت عنه؛ لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقيل: تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب، وقيل: الزينة المشط، وقيل: الطيب، والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة. وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتًا ولا يأكلون دسمًا يعظمون بذلك حجهم، فقال المسلمون: فإنا أحق أن نفعل، فقيل لهم: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة[2]، ويحكى أنّ الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب، فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال: قوله: المعدة بيت الداء، والحمية رأس

= لسنة رسول الله ﷺ كرامة، لكن الزمخشري يصدّه عن ذلك جحده لكرامة الأولياء؛ لأنه عقيدة إخوانه إذا الكرامة إنما يؤتاها الوليّ الصادق، فكيف ينالها من يشك في إسلامه، فإنهم لفي عذر من جحدها، والتكذيب بها رزقنا الله الإيمان بالكرامات إن لم نكن لها أهلاً، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وهذا أيضاً من الاعتزال الخفي، وغرضه أن يمهد قاعدة التحسين والتقبيح، ومراعاة الصلاة، والأصلح، واستحالة مخالفة ذلك على الله تعالى، ولا يتم من ذلك غرض؛ لأنّ المنكر عليهم = دعواهم أنّ الله تعالى، أمرهم بالفحشاء وهم كاذبون في هذه الدعوى، ولا يلزم من سلب الأمر الإرادة؛ لأنّ الله تعالى يأمر بما لا يريد، ويريد ما لا يأمر به.

(2) رواه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: الاختيال في الصدقة، (الحديث رقم: 2559)، وابن ماجة في كتاب: اللباس، باب: البس ما شئت... (الحديث رقم: 3605)، وأحمد في مسنده 20/181، والحاكم في المستدرك 4/135.

الدواء، وأعط كل بدن ما عوّدته[1]، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًا.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿زينة الله﴾ من الثياب وكل ما يتجمل به ﴿والطيبات من الرزق﴾ المستلذات من المآكل والمشارب، ومعنى الاستفهام في ﴿من﴾ إنكار تحريم هذه الأشياء، قيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ غير خالصة لهم؛ لأنّ المشركين شركاؤهم فيها ﴿خالصة﴾ لهم ﴿يوم القيامة﴾ لا يشركهم فيها أحد.

فإن قُلْتَ: هلا قيل هي للذين آمنوا ولغيرهم؟ قُلْتُ: لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة وأن الكفرة تبع لهم كقوله تعالى: ﴿ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار﴾[2] وقرئ: خالصة بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خبر بعد خبر.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿الفواحش﴾ ما تفاحش قبحه أي: تزايد وقيل: هي ما يتعلق بالفروج ﴿والإثم﴾ عام لكل ذنب، وقيل: شرب الخمر ﴿والبغي﴾ الظلم والكبر أفرده بالذكر كما قال: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾[3] ﴿ما لم ينزل به سلطانًا﴾[4] فيه تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهانًا بأن يشرك به غيره ﴿وأن تقولوا على الله﴾ وأن تتقوّلوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿ولكل أمّة أجل﴾ وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم. وقرئ: فإذا جاء آجالهم، وقال: ﴿ساعة﴾؛ لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة يريد أقصر وقت وأقربه.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿إمّا ياتينكم﴾ هي: إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط، ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة.

فإن قُلْتَ: فما جزاء هذا الشرط قُلْتُ: الفاء وما بعده من الشرط والجزاء، والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم والذين كذبوا منكم، وقرئ: تأتينكم بالتاء.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿فمن أظلم﴾ فمن أشنع ظلمًا ممن تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أي: مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾ حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له أي: إلى وقت وفاتهم وهي: حتى التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام ههنا الجملة الشرطية وهي: إذا جاءتهم رسلنا قالوا و ﴿يتوفونهم﴾ حال من الرسل أي: متوفيهم، والرسل ملك الموت وأعوانه. وما وقعت موصولة بأين في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل؛ لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون ﴿ضلوا عنا﴾ غابوا عنا فلا نراهم ولا ننتفع بهم اعترافًا منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه وأنهم لم يحمدوه في العاقبة.

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿قال ادخلوا﴾ أي: يقول الله تعالى يوم القيامة: لأولئك الذين قال فيهم ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته﴾[5] وهم كفار العرب ﴿في امم﴾ في موضع الحال أي: كائنين في جملة أمم وفي غمارهم مصاحبين له أي: ادخلوا في النار مع أمم ﴿قد خلت من قبلكم﴾ وتقدّم زمانهم زمانكم ﴿لعنت اختها﴾ التي ضلت بالاقتداء بها ﴿حتى إذا اداركوا فيها﴾ أي: تداركوا بمعنى: تلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿قالت اخراهم﴾ منزلة وهي الأتباع والسفلة ﴿لأولاهم﴾ منزلة وهي القادة والرؤس، ومعنى: لأولاهم لأجل أولاهم؛ لأنّ خطابهم مع الله لا معهم

(1) قال الزيلعي، غريب جدًا 1/460.

(2) سورة البقرة، الآية: 126.

(3) سورة النحل، الآية: 90.

(4) قال أحمد: وإنما يعني: التهكم منه؛ لأنّ الكلام جرى مجرى ما له سلطان، إلا أنه لم ينزل؛ لأنه إنما نفى تنزيل السلطان به، ولم= ينف أن يكون به سلطان، وكان أصل الكلام، وأن تشركوا بالله ما لا سلطان به، فينزل، فيكون على طريقة. على لا حب، لا يهتدي بمناره.

(5) سورة الأنعام، الآية: 37.

﴿عذابًا ضعفًا﴾ مضاعفًا ﴿لكل ضعف﴾ لأنّ كلاً من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين ﴿ولكن لا تعلمون﴾ قرئ بالياء والتاء.

﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة ﴿لكل ضعف﴾ أي: فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وأنا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فذوقوا العذاب﴾ من قول القادة أو من قول الله لهم جميعًا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾.

﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ لا يصعد لهم عمل صالح ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾[1] ﴿كلا إنّ كتاب الأبرار لفي عليين﴾[2] وقيل: إنّ الجنة في السماء فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء، ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين، وقيل: لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون ﴿ففتحنا أبواب السماء﴾[3] وقرئ: لا تفتح بالتشديد ولا يفتح بالياء، ولا تفتح بالتاء والبناء للفاعل ونصب الأبواب على أنّ الفعل للآيات، وبالياء على أنّ الفعل لله عز وجل. وقرأ ابن عباس: الجمل بوزن القمل، وسعيد بن جبير: الجمل بوزن النغر، وقرئ: الجمل بوزن القفل، والجمل بوزن النصب، والجمل بوزن الحبل، ومعناها: القلس الغليظ؛ لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنّ الله أحسن تشبيهًا من أن يشبه بالجمل يعني: أنّ الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة والبعير لا يناسبه، إلا أنّ قراءة العامّة أوقع؛ لأنّ سم الإبرة مثل في ضيق المسلك يقال: أضيق من خرت الإبرة، وقالوا للدليل الماهر: خرّيت للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر، والجمل مثل في عظم الجرم قال:

جسم الجمال وأحلام العصافير

إنّ الرجال ليسوا بجزر تراد منهم الأجسام، فقيل: لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدًا من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع في ثقب الإبرة، وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل فقال: زوج الناقة استجهالاً للسائل، وإشارة إلى أنّ طلب معنى آخر تكلف. وقرئ: في سم بالحركات الثلاث. وقرأ عبد الله: في سم المخيط والخياط، والمخيط كالحزام والمحزم ما يخاط به وهو الإبرة ﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نجزي المجرمين﴾ ليؤذن أنّ الإجرام هو السبب الموصل إلى العقاب وأنّ كلّ من أجرم عوقب وقد كرّره فقال و ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ لأنّ كلّ مجرم ظالم لنفسه ﴿مهاد﴾ فراش ﴿غواش﴾ أغطية وقرئ: غواش بالرفع كقوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت﴾[4].

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾.

في قراءة عبد الله ﴿لا نكلف نفسًا إلا وسعها﴾ جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع وهو: الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح، وقرأ الأعمش: لا تكلف نفس. من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا نزع منه فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التوادّ والتعاطف، وعن عليّ رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم[5] ﴿هدانا لهذا﴾ أي: وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح ﴿وما كنا لنهتدي﴾ اللام[6] لتوكيد النفي يعنون: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه، وفي مصاحف أهل الشام: ما كنا لنهتدي بغير واو على أنها جملة موضحة للأولى ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ فكان لنا لطفًا وتنبيهًا على الاهتداء فاهتدينا، يقولون ذلك سرورًا واغتباطًا بما نالوا وتلذذًا بالتكلم به، لا تقربًا وتعبدًا كما نرى من

---

(1) سورة فاطر، الآية: 10.
(2) سورة المطففين، الآية: 18.
(3) سورة القمر، الآية: 11.
(4) سورة الرحمٰن، الآية: 24.
(5) رواه ابن شيبة في مصنفه 282/15، كتاب: الجمل، باب: سير عائشة.
(6) قال أحمد: وهذه تكفح وجوه القدرية بالردّ، فإنها شاهدة شهادة تامّة مؤكدة باللام على أنّ المهتدي من خلق الله له الهدى، وأنّ غير ذلك محال أن يكون، فلا يهتدي إلا من هدى الله، ولو لم يهده لم يهتد، وأما القدرية، فيزعمون أنّ كلّ مهتد خلق لنفسه الهدى، فهو إذاً مهتد، وإن لم يهده الله، إذ هدى الله للعبد خلق الهدى له، وفي زعمهم: أنّ الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى، ولا = يتوقف ذلك على خلقه تعالى الله عما يقولون، ولما فطن الزمخشري ذلك جرى على عادته في تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذي بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه، فأنصف من نفسك واعرض قول القائل المهتدي من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله، أي: يخلق له الهدى على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين في دار الحق، وما كنا لنهتدي، لولا أن هدانا الله، وانظر تباين هذين القولين، أعني: قول المعتزلي في الدنيا، وقول الموحد في الآخرة، «في مقعد صدق»، واختر لنفسك، أي: الفريقين تقتدي به، وما أراك، والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا لقول المحكي عن أولياء الله في دار السلام، منوّهاً به في الكتاب العزيز قول قدري ضال تذبذب مع هواه، وتعصبه في دار الغرور، والزوال نسأل الله حسن المآب، والمآل.

رزق خيرًا في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتمالك أن لا يقوله للفرح لا للقربة ﴿أن تلكم الجنة﴾ أن مخففة من الثقيلة تقديره ونودوا بأنه تلكم الجنة ﴿أورثتموها﴾ والضمير ضمير الشأن والحديث، أو تكون بمعنى أي؛ لأنّ المناداة من القول كأنه قيل[1]: وقيل لهم أي تلكم الجنة أورثتموها ﴿بما كنتم تعملون﴾ بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾.

أن في ﴿أن قد وجدنا﴾ يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، وأن تكون مفسرة كالتي سبقت آنفًا، وكذلك ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطًا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وزيادة في غمهم، ولتكون حكايته لطفًا لمن سمعها، وكذلك قول المؤذن بينهم ﴿لعنة الله على الظالمين﴾ وهو ملك يأمره الله فينادي بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار، وقرئ: أنّ لعنة الله بالتشديد والنصب، وقرأ الأعمش: إن لعنة الله بكسر إن على إرادة القول، أو على إجراء أذن مجرى قال.

فإن قُلْتَ[2]: هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ﴿ما وعدنا ربنا﴾؟ قُلْتُ: حذف ذلك تخفيفًا لدلالة وعدنا عليه، ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع؛ ولأنّ الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك.

وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿وبينهما حجاب﴾ يعني: بين الجنة والنار، أو بين الفريقين وهو: السور المذكور في قوله تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور﴾[3] ﴿وعلى الأعراف﴾ وعلى أعراف الحجاب وهو: السور المضروب بين الجنة والنار وهي: أعاليه جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك ﴿رجال﴾ من المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة لقصور أعمالهم كأنهم المرجون لأمر الله، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله لهم في دخول الجنة ﴿يعرفون كلاً﴾ من زمر السعداء والأشقياء ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها يلهمهم الله ذلك أو تعرفهم الملائكة. إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب استعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم. ونادوا رجالاً من رؤوس الكفرة يقولون لهم ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ادخلوا الجنة﴾ يقال لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون، وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدّم والتأخر على حسبها، وأن أحدًا لا يسبق عند الله إلا بسبقة في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر، فيرتدع المسيء عن إساءته ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً، وقوله: ﴿إذا صرفت أبصارهم﴾ فيه أن صارفًا يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا. وقرأ

---

(1) قال أحمد: يعني بالمبطلة قوماً سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، ولكن بفضل الله وبرحمته». قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»، فقالوا: صدق رسول الله ﷺ، وهؤلاء هم أهل السنة، قيل لهم فما معنى قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قالوا الله تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل فضلاً منه ورحمة، لا أنّ ذلك مستحق عليه وواجب للعبادة وجوب الديون، التي لا اختيار في أدائها جمعاً بين الدليلين على وجه يطابق، دليل العقل الدال على أنّ الله تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء، فانظر أيها المنصف هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطلة، وحاكم نفسك إليها، ثم إذا وضح لك أنهم براء في هذا البر، فاعرضه على قوم زعموا أنهم يستحقون على الله تعالى حقاً بأعمالهم، التي لا ينتفع = بوجودها، ولا يتضرر بتركها تعالى، وتقدس عن ذلك ويطلقون القول بلسان الجراءة أن الجنة ونعيمها، أقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى، لا تفضل له عليهم فيه، بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من مديانه، وانظر أي: الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطلة والسلام.

(2) قال أحمد: ولقائل أن يقول، ولو ذكر المفعول حسب ما ذكره في الأوّل، فقيل فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، لكان الفعل مطلقاً أيضاً، باعتبار الموعود به؛ لأنه لم ينكر، فكان يتناول كل موعود من البعث والحساب، والعقاب الذي هو أنواع من جملتها، التحسر على نعيم أهل الجنة، فليس ذلك خاصاً بحذف المفعول الواقع على الموعودين، فالوجه أنه إيجاز وتخفف، واستغناء عنه بالأول، والله أعلم.

(3) سورة الحديد، الآية: 13.

الأعمش: وإذا قلبت أبصارهم. وقرئ: ادخلوا الجنة على البناء للمفعول، وقرأ عكرمة: دخلوا الجنة.

فإن قُلْتَ: كيف لاءم هاتين القراءتين؟ قله ﴿لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾؟ قُلْتُ: تأويله ادخلوا أو دخلوا الجنة مقولاً لهم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

فإن قُلْتَ: ما محل قوله: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾؟ قُلْتُ: لا محل له لأنه استئناف، كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني: حالهم أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة فلم يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا، ويجوز أن يكون له محل بأن يقع صفة لرجال. ما أغنى عنكم جمعكم المال أو كثرتكم واجتماعكم. وما كنتم تستكبرون، واستكباركم عن الحق وعلى الناس وقرئ: تستكثرون من الكثرة.

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾.

﴿افيضوا علينا﴾ فيه دليل على أنّ الجنة فوق النار ﴿أو مما رزقكم الله﴾ من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد أو القوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقوله:

علفتها تبناً وماءً بارداً

وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم كما يفعل المضطر الممتحن ﴿حرمهما على الكافرين﴾ منعهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر كقوله:

حرام على عيني أن تطعم الكرى

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾.

﴿فاليوم ننساهم﴾ نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا يذكرونهم به ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ كما فعلوا بلقائه فعل الناسين فلم يخطروه ببالهم ولم يهتموا به.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿فصلناه على علم﴾ عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه حتى جاء حكيمًا قيمًا غير ذي عوج، وقرأ ابن محيصن: فضلناه بالضاد المعجمة بمعنى: فضلناه على جميع الكتب عالمين أنه أهل للتفضيل عليها و ﴿هدى ورحمة﴾ حال من منصوب فصلناه كما أن على علم حال من مرفوعة.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿إلا تاويله﴾ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي: تبيّن وصحّ أنهم جاؤوا بالحق ﴿نردّ﴾ جملة معطوفة على الجملة التي قبلها داخلة معها في حكم الاستفهام كأنه قيل: هل لنا من شفعاء أو هل نردّ، ورافعه وقوعه موقعًا يصلح للاسم كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد، ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه فلا يقدر هل يشفع لنا شافع أو نرد، وقرأ ابن أبي إسحٰق: أو نرد بالنصب عطفًا على فيشفعوا لنا أو تكون أو بمعنى: حتى أن أي يشفعوا لنا حتى نرد فنعمل، وقرأ الحسن: بنصب نرد ورفع فنعمل بمعنى: فنحن نعمل.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾.

﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا﴾ وقرئ: يغشى بالتشديد أي: يلحق الليل بالنهار أو النهار بالليل يحملهما جميعًا، والدليل على الثاني: قراءة حميد بن قيس يغشى الليل النهار بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار أي يدرك النهار الليل، ويطلبه حثيثًا حسن الملاءمة لقراءة حميد ﴿بامره﴾ بمشيئته وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات أي: خلقهنّ جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره وكما يريد أن يصرفها، سمى ذلك أمرًا على التشبيه كأنهنّ مأمورات بذلك. وقرئ: والشمس والقمر والنجوم مسخرات بالرفع. ولما ذكر أنه خلقهنّ مسخرات بأمره قال: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ أي: هو الذي خلق الأشياء كلها وهو الذي صرفها على حسب إرادته.

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾.

﴿تضرعًا وخفية﴾ نصب على الحال أي: ذوي تضرع وخفية. وكذلك خوفًا وطمعًا، والتضرع[1] تفعل من الضراعة

(1) قال أحمد: وحسبك في تعين الأسرار في الدعاء، اقترانه بالتضرع في الآية، فالاخلال به، كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى، فكذلك دعاء لا خفية = ولا وقار يصحبه، وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ، والصياح في الدعاء خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللغط ويشتدّ، وتستد المسامع، وتستك، وتهتز الداعي بالناس، ولا يعلم=

وهو: الذي أي: تذللاً وتملقًا. وقرئ: وخفية، وعن الحسن رضي الله عنه: إنّ الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفي إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به، وإن كان الرجل لا يصلي الصلاة الطويلة وعنده الزور وما يشعرون به؛ ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أنّ الله تعالى يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية﴾[1] وقد أثنى على زكريا فقال: ﴿إذ نادى ربّه نداء خفيًا﴾[2] وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا ﴿إنه لا يحبّ المعتدين﴾ أي: المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره، وعن ابن جريج هو: رفع الصوت بالدعاء، وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو: الإسهاب في الدعاء، وعن النبي ﷺ: سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل[3]، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ ﴿إنّ رحمة الله قريب من المحسنين﴾ كقوله: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا﴾[4] وإنما ذكر قريب على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف أي: شيء قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى: مفعول، كما شبّه ذاك به فقيل: قتلاء وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر الذي هو: النقيض والضغيب، أو لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقي.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾.

قرئ: نشرًا وهو: مصدر نشر وانتصابه إمّا لأن أرسل ونشر متقاربان فكأنه قيل نشرها نشرًا، وإمّا على الحال بمعنى: منتشرات، ونشرًا جمع نشور، ونشرًا تخفيف نشر كرسل ورسل، وقرأ مسروق: نشرًا بمعنى: منشورات فعل بمعنى: مفعول كنقض وحسب ومنه قولهم: ضم نشره، وبشرًا جميع بشير وبشرًا بتخفيفه، وبشرًا بفتح الباء مصدر من بشره بمعنى: بشره أي: باشرات وبشرى ﴿بين يدي رحمته﴾ أمام رحمته وهي الغيث الذي هو من أتمّ النعم وأجلها وأحسنها أثرًا ﴿أقلّت﴾ حملت ورفعت واشتقاق الإقلال من القلة؛ لأن الرافع المطيق يرى الذي يرفعه قليلاً ﴿سحابًا ثقالاً﴾ سحائب ثقالاً بالماء جمع سحابة ﴿سقناه﴾ الضمير للسحاب على اللفظ ولو حمل على المعنى كالثقال لانث كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلاً ﴿لبلد ميت﴾ لاجل بلد ليس فيه حيًا ولسقيه، وقرئ: ميت ﴿فانزلنا به﴾ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق وكذلك ﴿فاخرجنا به. كذلك﴾ مثل ذلك الإخراج وهو: إخراج الثمرات ﴿نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ فيؤديكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿والبلد الطيب﴾ الأرض العذاة الكريمة التربة ﴿والذي خبث﴾ الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به ﴿بإذن ربه﴾ بتيسيره وهو في موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسنًا وافيًا؛ لانه واقع في مقابلة ﴿نكدًا﴾ والنكد الذي لا خير فيه. وقرئ: يخرج نباته أي: يخرجه البلد وينبته، وقوله: ﴿والذي خبث﴾ صفة للبلد ومعناه: والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكدًا، فحذف المضاف الذي هو النبات وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلد مقامه: إلا أنه كان مجرورًا بارزًا فانقلب مرفوعًا مستكنًا لوقوعه موقع الفاعل، أو يقدر وبنات الذي خبث. وقرئ: نكدًا بفتح الكاف على المصدر أي: ذا نكد ونكدًا بإسكانها للتخفيف كقوله: نزه عن الريب بمعنى: نزه، وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك، وعن مجاهد: آدم ونرّيته منهم خبيث وطيب، وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به كالأرض الطيبة أصابها الغيث فانبتت، والكافر بخلاف ذلك وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نصرف الآيات﴾ نردّدها ونكرّرها ﴿لقوم يشكرون﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها ويعتبروا بها، وقرئ: يصرف بالياء أي: يصرفها الله.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

= أنه جميع بين بدعتين رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد، وربما حصلت للعوام حينئذ رقة لا تحصل خفض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السنة الثابتة الآثار، وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء، والاطفال ليست خارجة عن صميم الفؤاد؛ لانها لو كانت من أصل، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء وفي خفض الصوت به أوفر، وأوفى، وأزكى، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق، اللهم أرنا الحقّ حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه.

(1) سورة الأعراف، الآية: 55.

(2) سورة مريم، الآية: 3.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، (الحديث رقم: 1480) عن سعد، وأخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن مغفل في كتاب: الدعاء، باب: كراهية الاعتداء بالدعاء (الحديث رقم: 3864) وأحمد في مسنده 4/87، والحاكم في المستدرك (1/540).

(4) سورة طه، الآية: 82.

غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾.

﴿لقد أرسلنا نوحًا﴾ جواب قسم محذوف.

فإن قُلْتَ: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام إلا مع قد وقل عنهم نحو قوله:

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا

قُلْتُ: إنما كان ذلك؛ لأنّ الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيدًا للجملة المقسم عليها التي هي جوابها، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو: معنى قد عند استماع المخاطب كلمة القسم. قيل: أرسل نوح عليه السلام وهو ابن خمسين سنة وكان نجارًا وهو: نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام. وقرىء: غيره بالحركات الثلاث، فالرفع على المحل كأنه قيل: ما لكم إله غيره، والجرّ على اللفظ، والنصب على الاستثناء بمعنى: ما لكم من إله إلاّ إياه كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيدًا وغير زيد.

فإن قُلْتَ: فما موقع الجملتين بعد قوله: ﴿اعبدوا الله﴾؟ قُلْتُ: الأولى: بيان لوجه اختصاصه بالعبادة، والثانية: بيان للداعي إلى عبادته؛ لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدون من دون الله. واليوم العظيم يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو: الطوفان.

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿الملأ﴾ الأشراف والسادة وقيل: الرجال ليس معهم نساء ﴿في ضلال﴾ في ذهاب عن طريق الصواب والحق. ومعنى الرؤية: رؤية القلب.

فإن قُلْتَ[1]: لم قال ﴿ليس بي ضلالة﴾ ولم يقل ضلال كما قالوا؟ قُلْتُ: الضلالة أخصّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر؟ فقلت مالي تمرة.

فإن قُلْتَ: كيف وقع قوله ﴿ولكني رسول﴾ استدراكًا للانتفاء عن الضلالة؟ قُلْتُ: كونه رسولاً من الله مبلغًا رسالاته ناصحًا في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصحّ لذلك أن يكون استدراكًا للانتفاء عن الضلالة. وقرىء: أبلغكم بالتخفيف.

فإن قُلْتَ[2]: كيف موقع قوله ﴿أبلغكم﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون كلامًا مستأنفًا بيانًا لكونه رسول رب العالمين، والثاني: أن يكون صفة لرسول.

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يكون صفة والرسول لفظه لفظ الغائب؟ قُلْتُ: جاز ذلك؛ لأنّ الرسول وقع خبرًا عن ضمير المخاطب وكان معناه كما قال:

أنا الذي سمتن أمي حيدره

﴿رسالات ربي﴾ ما أوحى إليّ في الأوقات المتطاولة، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جده إدريس وهي ثلاثون صحيفة، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة ﴿وأنصح لكم﴾ يقال: نصحته ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصودًا بها جانبه لا غير، فربّ نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعًا، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسله عليهم السلام ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي: من صفات الله وأحواله يعني: قدرته الباهرة وشدّة بطشه على أعدائه وأن بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين، وقيل: لم يسمعوا بقوم حلّ بهم العذاب قبلهم، فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحي الله إليه، أو أراد، وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحي إليّ بها.

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿أوعجبتم﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم ﴿أن جاءكم﴾ من أن جاءكم ﴿ذكر﴾ موعظة ﴿من ربكم على رجل منكم﴾ على لسان رجل منكم كقوله: ﴿ما وعدتنا على رسلك﴾[3] وذلك أنهم يتعجبون من نبوّة نوح عليه السلام ويقولون: ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين﴾[4] يعنون: إرسال البشر و﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾[5] ﴿لينذركم ولتتّقوا﴾ ليحذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهي: الخشية بسبب الإنذار ﴿ولعلكم ترحمون﴾ ولترحموا

---

(1) قال أحمد: تعليله كون نفيها أبلغ من نفي الضلال، بأنها أخصّ منه غير مستقيم، والله أعلم، فإن نفي الأخصّ أعم من نفي الأعم، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخصّ بخلاف العكس، ألا تراك إذا قلت: هذا ليس بإنسان لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيواناً، ولو قلت: هذا ليس بحيوان لاستلزم أن لا يكون إنساناً، فنفي الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخص، والتحقيق في الجواب أن يقال الضلالة أدنى من الضلال، وأقل؛ لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه، وأما الضلال فينطلق على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، لا من حيث كونه أخص، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، والله أعلم.

(2) قال أحمد: وقد استدرك ابن جنى قوله أبي الطيب:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

عدولاً عن لفظ الغيبة لو كان إلى أدبه، وهذه الآية والرجز العلوي كفيلان بتحسين ما ارتكبه أبو الطيب، (قال: فإن قلت لم حذف العاطف من قوله تعالى في قصة هود هذه، قال: يا قوم ولم يقل، فقال قلت؛ لأنه أخرج الكلام جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل فما قال هود حينئذ قيل قال يا قوم، وكذلك قال الملأ).

(3) سورة آل عمران، الآية: 194.

(4) سورة القصص، الآية: 36.

(5) سورة فصلت، الآية: 14.

بالتقوى إن وجدت منكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿والذين معه﴾ قيل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: تسعة، بنوه سام وحام ويافث، وستة ممن آمن به.

فإن قُلْتَ: ﴿في الفلك﴾ بم يتعلق؟ قُلْتُ: هو متعلق بمعه كأنه قيل: والذين استقرّوا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك، ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان ﴿عمين﴾ عمي القلوب غير مستبصرين، وقرئ عامين، والفرق بين العمي والعامي أن العمي يدل على عمى ثابت، والعامي على عمى حادث، ونحوه قوله ﴿وضائق به صدرك﴾[1].

۞ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿أخاهم﴾ واحدًا منهم من قولك: يا أخا العرب للواحد منهم وإنما جعل واحدًا منهم؛ لأنهم أفهم عن رجل منهم وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وهو: هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، و ﴿أخاهم﴾ عطف على ﴿نوحًا﴾ و ﴿هودًا﴾ عطف بيان له.

فإن قُلْتَ[2]: لم حذف العاطف من قوله ﴿قال يا قوم﴾ ولم يقل: فقال كما في قصة نوح؟ قُلْتُ: هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال يا قوم اعبدوا الله، وكذلك ﴿قال الملأ﴾.

فإن قُلْتَ: لم وصف الملأ ﴿الذين كفروا﴾ دون الملأ من قوم نوح؟ قُلْتُ: كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، ونحوه قوله تعالى: ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة﴾[3] ويجوز أن يكون وصفًا واردًا للذمّ لا غير.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

في ﴿سفاهة﴾ في خفة حلم وسخافة عقل حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر، وجعلت السفاهة ظرفًا على طريق المجاز، أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها، وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قال لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عزّ وجلّ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿ناصح أمين﴾ أي: عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة فما خفي أن اتهم، أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي: خلقتموهم في الأرض أو جعلكم ملوكًا في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم ﴿في الخلق بسطة﴾ فيما خلق من أجرامكم ذهابًا في الطول والبدانة، قيل: كان أقصرهم ستين ذراعًا وأطولهم مائة ذراع ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ في استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه، وواحد الآلاء إلا، نحو أني وإناء، وضلع وأضلاع، وعنب وأعناب.

فإن قُلْتَ: إذ في قوله: ﴿إذ جعلكم خلفاء﴾ ما وجه انتصابه؟ قُلْتُ: هو مفعول به وليس بظرف أي: اذكروا وقت استخلافكم.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أجئتنا لنعبد الله وحده﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حبًا لما نشأوا عليه وإلفًا لما صادفوا آباءهم يتدينون به.

فإن قُلْتَ: ما معنى المجيء في قوله: ﴿أجئتنا﴾؟ قُلْتُ: فيه أوجه؛ أن يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث، فلما أوحي إليه جاء قومه يدعوهم[4]، وأن يريدوا به الاستهزاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنّ الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة فكأنهم قالوا: أجئتنا من السماء كما يجيء الملك، وأن لا يريدوا حقيقة المجيء، ولكن التعرّض بذلك

---

(1) سورة هود، الآية: 12.

(2) قال أحمد: وحذف العاطف من المقاولة ألا ترى قوله في سورة الشعراء حكاية عن تقاول موسى عليه السلام، وفرعون كيف أسقط ذكر العاطف منه على كثرة الأقوال المعددة فيها، والسر في ذلك، والله أعلم أنّ العاطف ينتظم الجمل، حتى يصيرها كالجملة الواحدة، فاجتنب لإرادة استقلال كل واحدة منها في معناه، والله أعلم.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 33.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الوحي، باب (3) (الحديث رقم: 3)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 401).

والقصد كما يقال: ذهب يشتمني ولا يراد حقيقة الذهاب، كأنهم قالوا: أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ استعجال منهم للعذاب.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

﴿قد وقع عليكم﴾ أي: حقّ عليكم ووجب، أو قد نزل عليكم، جعل المتوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع، ونحوه: قولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ذلك، وعن حسان: أنّ ابنه عبد الرحمٰن لسعه زنبور وهو طفل فجاء يبكي فقال له: يا بني ما لك؟ قال: لسعني طوير كأنه ملتف في بردي حبرة، فضمه إلى صدره وقال له: يا بني قد قلت الشعر والرجس: العذاب من الارتجاس وهو: الاضطراب ﴿في أسماء سميتموها﴾ في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات؛ لأنكم تسمونها آلهة ومعنى الألهة فيها معدوم محال وجوده وهذا كقوله تعالى: ﴿ما يدعون من دونه من شيء﴾[1] ومعنى سميتموها: سميتم بها من سميته زيدًا. وقطع دابرهم استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم، وقصتهم أن عاد قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها، صداء وصمود والهباء، فبعث الله إليهم هودًا نبيًا وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبًا، فكذبوه وازدادوا عتوًا وتجبرًا، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته المحرم مسلمهم ومشركهم، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سالم بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر، فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلاً منهم: قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه، فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجًا عن الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان كانتا لمعاوية ـ فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال: قد هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه، فذكر ذلك للقينتين فقالتا: قل شعرًا نغنيهم به لا يدرون من قاله، فقال معاوية:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد إن عادًا ... قد امسوا ما يبينون الكلاما

فلما غنتا به قالوا: إن قومكم يتغوثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم، فقال لهم مرثد بن سعد: والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سقيتم، وأظهر إسلامه، فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثدًا لا يقدمن معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال: قيل اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحابًا ثلاثًا بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قيل اختر لنفسك ولقومك، فقال: اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من واد لهم يقال له: المغيث، فاستبشروا بها و ﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾[2] فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا.

فإن قُلْتَ: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قُلْتُ: هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد ومن نجا مع هود عليه السلام، كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أن الهلاك خصّ المكذبين ونجى الله المؤمنين.

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

قرئ: وإلى ثمود بمنع الصرف بتأويل القبيلة، إلى ثمود بالصرف بتأويل الحيّ، أو باعتبار الأصل؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: سميت ثمود: لقلة مائها من الثمد وهو: الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى ﴿قد جاءتكم بينة﴾ آية ظاهرة وشاهد على صحة نبوتي. وكأنه قيل: ما هذه البينة؟ فقال ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ وآية: نصب على الحال والعامل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل، كأنه قيل: أشير إليها آية ولكم بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود؛ لأنهم عاينوها وسائر الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة، كأنه قال لكم خصوصًا وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيمًا لها وتفخيمًا لشأنها وأنها جاءت من عنده مكونة من غير فحل وطروقة آية من آياته كما تقول: آية الله، وروي أنّ عادًا لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمروا أعمارًا طوالاً حتى أنّ الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم صالحًا عليه السلام وكانوا قومًا عربًا وصالح من أوسطهم

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 42.

(2) سورة الأحقاف، الآية: 24.

نسبًا، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال: أية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة فتدعو إلهك وندعوا آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم، ثم قال سيدهم جندع بن عمرو: وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء، والمخترجة التي شاكلت البخت، فإن فعلت صدقناك وأجبناك، فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى، وعظماؤهم ينظرون، ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم، فآمن به جندع ورهط قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غبًا، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها، ثم تتفحج فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعًا، وكانت الناقة إذا وقع الحرّ تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أمّ غنم وصدقة بنت المختار لما أضرّت به من مواشيهما وكانتا كثيرتي المواشي، فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه، فانطلق سقبها حتى رقي جبلاً اسمه: قارة، فرغى ثلاثًا، وكان صالح قال لهم: ادركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه، وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: تصبحون غدًا ووجوهكم مصفرّة، وبعد غد ووجوهكم محمرّة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودّة، ثم يصحبكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا ﴿تاكل في أرض الله﴾ أي: الأرض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تاكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من أنباتكم ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريبوها بشيء من الأذى إكرامًا لآية الله، ويروى أنّ رسول الله ﷺ حين مرّ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخلنّ أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم»[1]، وقال ﷺ: «يا عليّ أتدري من أشقى الأوّلين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: عاقر ناقة صالح، أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: قاتلك»[2]، وقرأ أبو جعفر في رواية: تاكل في أرض الله، وهو في موضع الحال بمعنى: آكلة.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وبواكم﴾ ونزلكم والمباءة المنزل ﴿في الأرض﴾ في أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿من سهولها قصورًا﴾ أي: تبنونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر. وقرأ الحسن: وتنحتون بفتح الحاء، وتنحاتون بإشباع الفتحة كقوله:

ينباع من نفري أسيل حرة

فإن قُلْتَ: علام انتصب ﴿بيوتًا﴾؟ قُلْتُ: على الحال كما تقول: خط هذا الثوب قميصًا وابر هذه القصبة قلمًا، وهي من الحال المقدّرة؛ لأنّ الجبل لا يكون بيتًا في حال النحت ولا الثوب ولا القصبة قميصًا وقلمًا في حال الخياطة والبري، وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿الذين استضعفوا﴾ الذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم و ﴿لمن آمن منهم﴾ بدل من الذين استضعفوا.

فإن قُلْتَ[3]: الضمير في ﴿منهم﴾ راجع إلى ماذا؟ قُلْتُ: إلى ﴿قومه﴾ أو إلى ﴿الذين استضعفوا﴾.

فإن قُلْتَ: هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى؟ قُلْتُ: نعم وذلك أنّ الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل من آمن مفسرًا لمن استضعف منهم، فدلّ أنّ استضعافهم كان مقصورًا على المؤمنين، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصورًا عليهم ودلّ أنّ المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين ﴿اتعلمون أنّ صالحًا مرسل من ربه﴾ شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية كما تقول للمجسمة: أتعلمون أنّ الله فوق العرش.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر (الحديث رقم: 4419) ومسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا... (الحديث رقم: 7389).

(2) رواه الحاكم في المستدرك 141/3.

(3) قال أحمد: فقوله لمن على الأوّل بدل الشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، وعلى الثاني بدل بعض من كل.

فإن قُلْتَ[1]: كيف صحّ قولهم ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ جوابًا عنه؟ قُلْتُ: سألوهم عن العلم بإرساله فجعلوا إرساله أمرًا معلومًا مكشوفًا مسلمًا لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون، ولذلك كان جواب الكفرة[2] ﴿إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ فوضعوا آمنتم به موضع أرسل به ردًا لما جعله المؤمنون معلومًا وأخذوه مسلمًا.

فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿فعقروا الناقة﴾ أسند العقر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين، وأمر ربهم ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾[3] وشأن ربهم وهو: دينه، ويجوز أن يكون المعنى وصدر عتوّهم عن أمر ربهم كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوّهم، ونحو عن هذه ما في قوله: ﴿وما فعلته عن أمري﴾[4] ﴿ائتنا بما تعدنا﴾ أرادوا من العذاب، وإنما جاز الإطلاق؛ لأنه كان معلومًا، واستعجالهم له لتكذيبهم به، ولذلك علقوه بما هم به كافرون وهو كونه من المرسلين.

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾.

﴿الرجفة﴾ الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها ﴿في دارهم﴾ في بلادهم أو في مساكنهم ﴿جاثمين﴾ هامدين لا يتحركون موتى يقال: الناس جثم أي: قعود لا حراك بهم ولا ينبسون نبسة، ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها[5]: وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمي، وعن جابر أنّ النبي ﷺ لما مر بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فأخذتهم الصيحة» فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم الله، قالوا: من هو؟ قال: ذاك أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[6]. وروي أنّ صالحًا كان بعثه إلى قوم فخالف أمره، وروي أنه عليه السلام مرّ بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فذكر قصة أبي رغال وأنه دفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب، فابتدروه وبحثوا عنه بأسيافهم فاستخرجوا الغصن»[7].

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾.

﴿فتولى عنهم﴾ الظاهر أنه كان مشاهدًا لما جرى عليهم وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين، تولي مغتم متحسر على ما فاته من إيمانهم يتحزن لهم ويقول ﴿يا قوم لقد﴾ بذلت فيكم وسعي ولم آل جهدًا في إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم ﴿لا تحبون الناصحين﴾ ويجوز أن يتولى عنهم تولي ذاهب عنهم منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب، وروي: أنّ عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت، وروي: أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعًا فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفًا وخمسمائة دار، وروي: أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

فإن قُلْتَ: كيف صحّ خِطاب الموتى وقوله: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾؟ قُلْتُ: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حيًا فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة: يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني، وقوله: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ حكاية حال ماضية.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾.

﴿ولوطًا﴾ وأرسلنا لوطًا و ﴿إذ﴾ ظرف لأرسلنا، أو واذكر لوطًا وإذ بدل منه بمعنى واذكر وقت ﴿قال لقومه أتأتون الفاحشة﴾ أتفعلون السيئة المتمادية في القبح ﴿ما سبقكم بها﴾ ما عملها قبلكم، والباء للتعدية من قولك: سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله، ومنه قوله عليه السلام: سبقك بها عكاشة ﴿من أحد من العالمين﴾ من الأولى

(1) قال أحمد: وقولهم إنابة مؤمنون ليس إخباراً عن وجوب الإيمان به بل عن امتثال الواجب والعمل به، ونحن قد امتثلنا.

(2) قال أحمد: ولو طابقوا بين الكلامين، لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحدونها، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم، كما قال فرعون: إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، فأثبت إرساله تهكماً، ليس هذا موضع التهكم، فإنّ الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر، وغلواً في الإصرار.

(3) سورة الأعراف، الآية: 73.

(4) سورة الكهف، الآية: 82.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الأشربة، باب: الشراب من في السقاء (الحديث رقم: 3719) والترمذي في كتاب: الأطعمة، باب: ما جاء في أكل لحوم الجلالة وألبانها (الحديث رقم: 1825)، والنسائي في كتاب: الضحايا، باب: النهي عن لبن الجلالة، (الحديث رقم: 3421).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/320، وأحمد في المسند 3/296.

(7) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: نبش القبور العادية يكون فيها المال (الحديث رقم: 3088).

زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبعيض.

فإن قُلْتَ: ما موقع هذه الجملة؟ قُلْتُ: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أوّلاً بقوله: أتأتون الفاحشة، ثم وبخهم عليها فقال: أنتم أوّل من عملها، أو على أنه جواب السؤال مقدّر كأنهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به.

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾.

﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾ بيان لقوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ والهمزة مثلها في أتأتون للإنكار والعظيم، وقرئ: إنكم على الإخبار المستأنف لتأتون الرجال من أتى المرأة إذا غشيها ﴿شهوة﴾ مفعول له أي: للاشتهاء، لا حامل لكم عليه إلا مجرّد الشهوة من غير داع آخر. ولا ذم أعظم منه؛ لأنه وصف لهم بالبهيمة، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه، أو حال بمعنى مشتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات وهو: أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد ونحوه ﴿بل أنتم قوم عادون﴾[1].

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ يعني: ما أجابوه بما يكون جوابًا عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله، ولكنهم جاؤوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجرًا بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم وقولهم: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش وافتخارًا بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾.

﴿وأهله﴾ ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين ﴿من الغابرين﴾ من الذين غبروا في ديارهم أي: بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، وكانت كافرة موالية لأهل سدوم، وروي: أنها التفتت فأصابها حجر فماتت. وقيل: كانت المؤتفكة خمس مدائن، وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار، وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم، وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم، وروي أن تاجرًا منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يومًا حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين مطر وأمطر قُلْتُ: يقال[2] مطرتهم السماء وواد ممطور، وفي نوابغ الكلم حري غير ممطور حري أن يكون غير ممطور، ومعنى: مطرتهم أصابتهم بالمطر كقولهم غانتهم ووبلتهم وجادتهم ورهمتهم، ويقال: أمطرت عليهم كذا بمعنى: أرسلته عليهم إرسال المطر ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾[3] ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾[4] ومعنى ﴿وأمطرنا عليهم مطرًا﴾ وأرسلنا عليهم نوعًا من المطر عجيبًا يعني: الحجارة، ألا ترى إلى قوله ﴿فساء مطر المنذرين﴾[5].

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾.

كان يقال لشعيب عليه السلام: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي، والأخذ بما آمركم به، والانتهاء عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا.

فإن قُلْتَ: ما كانت معجزته؟ قُلْتُ: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله: ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ ولأنه لا بدّ لمدعي النبوّة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه وكان متنبئًا لا نبيًا، غير أنّ معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ فيه، ومن معجزات شعيب عليه السلام ما روى من محاربة

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 166.

(2) قال أحمد: مقصود المصنف الرد على من يقول: مطرت السماء في الخير، وأمطرت في الشر، ويتوهم أنها تفرقة وضعية، فبين أن أمطرت، معناه: أرسلت شيئاً على نحو المطر، وإن لم يكن ماء حتى لو أرسل الله من السماء أنواعاً من الخيرات، والأرزاق مثلاً، كالمن والسلوى لجاز أن يقال فيه: أمطرت السماء خيرات، أي: أرسلتها إرسال المطر، فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة= = الرباعية، ولكن اتفق أنّ المساء لم ترسل شيئاً سوى المطر، إلا وكان عذاباً، فظنّ الواقع اتفاقاً مقصوداً في الوضع، فنبه على تحقيق الأمر فيه، وأحسن، وأجمل.

(3) سورة الأنفال، الآية: 82.

(4) سورة الحجر، الآية: 74.

(5) سورة الشعراء، الآية: 173.

عصى موسى عليه السلام التنين حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها، ووقوع عصى آدم عليه السلام على يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات؛ لأنّ هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام فكانت معجزات لشعيب.

فإن قُلْتَ: كيف قيل ﴿الكيل والميزان﴾ وهلا قيل المكيال والميزان كما في سورة هود عليه السلام؟ قُلْتُ: أريد بالكيل آلة الكيل وهو: المكيال أو سمي: ما يكال به بالكيل، كما قيل العيش لما يعاش به، أو أريد فأوفوا الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر. ويقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه، ومنه قيل للمكس: البخس، وفي أمثالهم: تحسنها حمقاء وهي باخس، وقيل: ﴿أشياءهم﴾ لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئًا إلا مكسوه كما يفعل أمراء الحرمين، وروي بأنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا: هي زيوف، فقطعوها قطاعًا ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلها زيوفًا ﴿بعد إصلاحها﴾ بعد الإصلاح فيها أي: لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، وإضافته كإضافة قوله: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾[1] بمعنى: بل مكركم في الليل والنهار، أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض، أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ومعنى ﴿خير لكم﴾ يعني: في الإنسانية وحسن الأحدثة وما تطلبونه من التكسب والتربح؛ لأنّ الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم مصدقين لي في قولي ذلكم خير لكم.

وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾.

﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ ولا تقتدوا بالشيطان في قوله ﴿لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾[2] فتقعدوا بكل صراط أي: بكل منهاج من مناهج الدين، والدليل على أنّ المراد بالصراط: سبيل الحق قوله ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ ومحل ﴿توعدون﴾ وما عطف عليه النصب على الحال أي: ولا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله وباغيها عوجًا.

فإن قُلْتَ: صراط الحق واحد ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[3] فكيف قيل بكل صراط قُلْتُ: صراط الحق واحد ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحدًا يشرع في شيء منها أوعدوه وصدوه.

فإن قُلْتَ: إلامَ يرجع الضمير في ﴿آمن به﴾ قُلْتُ: إلى كل صراط تقديره توعدون من آمن به وتصدون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير زيادة في تقبيح أمرهم ودلالة على عظم ما يصدون عنه، وقيل: كانوا يجلسون على الطرق والمراصد فيقولون لمن مرّ بهم: أنّ شعيبًا كذاب فلا يفتنكم عن دينكم كما كان يفعل قريش بمكة، وقيل: كانوا يقطعون الطرق، وقيل: كانوا عشارين ﴿وتبغونها عوجًا﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجًا أي: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة لتصدّوهم عن سلوكها والدخول فيها، أو يكون تهكمًا بهم وأنهم يطلبون لها ما هو محال؛ لأنّ طريق الحق لا يعوج ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً﴾ إذ مفعول به غير ظرف، أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم ﴿فكثركم﴾ الله ووفر عددكم قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط، فولدت، فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا، ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم فجعلكم مكثرين موسرين، أو كنتم أقلة أذلة فأعزكم بكثرة العدد والعدد ﴿عاقبة المفسدين﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفكة.

وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿فاصبروا﴾ فتربصوا وانتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ أي: بين الفريقين بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم، وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم كقوله: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾[4] وهو عظة للمؤمنين وحثّ على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم، ويجوز أن يكون خطابًا للفريقين أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنّ حكمه حق وعدل لا يخاف فيه الحيف. أي: ليكونن أحد الأمرين إمّا إخراجكم وإمّا عودكم في الكفر.

(1) سورة سبأ، الآية: 33.

(2) سورة الأعراف، الآية: 16.

(3) سورة الأنعام، الآية: 153.

(4) سورة التوبة، الآية: 52.

فإن قُلْتَ[1]: كيف خاطبوا شعيبًا عليه السلام بالعود في الكفر في قولهم ﴿أو لتعودنّ في ملتنا﴾؟ وكيف أجابهم بقوله ﴿إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، فضلاً عن الكفر؟ قُلْتُ: لما قالوا لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: لتعودنّ فغلبوا الجماعة على الواحد فجعلوهم عائدين جميعًا إجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهو يريد عود قومه إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئًا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾ والله[2] تعالى متعال أن يشاء ردّة المؤمنين وعودهم في الكفر؟ قُلْتُ: معناه: إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الألطاف لعلمه أنها لا تنفع فينا وتكون عبثًا والعبث قبيح لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله: ﴿وسع ربنا كل شيء علمًا﴾ أي: هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل وقلوبهم كيف تتقلب وكيف تقسو بعد الرقة وتمرض بعد الصحة وترجع إلى الكفر بعد الإيمان ﴿على الله توكلنا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لا زياد الإيقان، ويجوز أن يكون قوله ﴿إلا أن يشاء الله﴾[3] حسمًا لطمعهم في العود؛ لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة. ﴿أوَلو كنا كارهين﴾ الهمزة للاستفهام، والواو واو الحال تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ومع كوننا كارهين، وما يكون لنا وما ينبغي لنا وما يصحّ لنا ﴿ربنا افتح بيننا﴾ احكم بيننا، والفتاحة: الحكومة، أو أظهر أمرنا حتى ينفتح ما بيننا ﴿وبين قومنا﴾ وينكشف بأن تنزل عليهم عذابًا يتبين معه أنهم على الباطل ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ كقوله: ﴿وهو خير الحاكمين﴾[4].

فإن قُلْتَ: كيف أسلوب قوله: ﴿قد افترينا على الله كذبًا إن عدنا في ملتكم﴾؟ قُلْتُ: هو إخبار مقيد بالشرط وفيه وجهان أحدهما: أن يكون كلامًا مستأنفًا فيه معنى التعجب كأنهم قالوا: أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ لأن المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر؛ لأنّ الكافر مفتر على الله الكذب حيث يزعم أنّ الله ندًا ولا ند له، والمرتد مثله في ذلك وزائد عليه حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل، والثاني: أن يكون قسمًا على تقدير حذف اللام بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذبًا.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾.

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي: أشرافهم للذين دونهم يثبطونهم عن الإيمان ﴿لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون﴾ لاستبدالكم الضلالة بالهدى كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾[5] وقيل: تخسرون باتباعه فوائد البخس والطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية.

فإن قُلْتَ: ما جواب القسم الذي وطأته اللام في ﴿لئن اتبعتم شعيبًا﴾ وجواب الشرط؟ قُلْتُ: قوله: ﴿إنكم إذًا

(1) قال أحمد: والزمخشري بنى هذا الكلام على أنّ صيغة العود تستدعي رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل، والتحقيق في الجواب عن السؤال المذكور مع اقتضاء العود لذلك، أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك، إلا أنه كثيراً ما يرد بمعنى صار، وحينئذ يجوز أن يكون أخاً لكان، ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك، وهو: الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتنفة مثل صار، وكأنهم قالوا والله أعلم: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتصيرنّ كفاراً مثلنا، وحينئذ يندفع السؤال أو يسلم استعمال العود، بمعنى: الرجوع إلى أمر سابق، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً، فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعلم أنّ المؤمن الناشيء في الإيمان، لم يدخل قط في ظلمة الكفر، ولا كان فيها وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان، ولا كان فيه، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية، التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متكمناً منه لو أراده، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله عنه إلى الإيمان إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور توفيقاً من الله له، ولطفاً به، وبالعكس في حق الكافر، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة = بالهدى﴾ وهو: من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب، وفائدة اختياره في هذا المواضع تحقيق التمكن، والاختيار لإقامة حجة الله على عباده، والله أعلم.

(2) قال أحمد: وهذا السؤال كما ترى مفرع على القاعدة الفاسدة في اعتقاد وجوب رعاية الصلاح، والأصلح، وهو غير موجه على قاعدة السنة، فظاهر الآية، هو المعوّل عليه لا يجوز تأويله ولا تبديله، وأمّا الاستدلال الزمخشري على صحة تأويله، بقوله: وسع ربنا كل شيء علماً، فمن احتيالاته في التأويلات الباطلة يعضدها ويتبع الشبه، ويلفقها وموقع قوله وسع ربنا كل شيء علماً، الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة، والاطلاع على الأمور الغائبة، فإنّ العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع العبد ولو وقع فبقدرة الله ومشيئته المغيبة عن خلقه، فالحذر قائم والخوف لازم، ولكن لمن وفقه الله تعالى للعقيدة الصحيحة، والإيمان السالم، والله الموفق، ونظيره قول إبراهيم عليه السلام، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء، علماً لما ردّ الأمر إلى المشيئة، وهي مغيبة مجد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات، والله أعلم.

(3) قال أحمد: وهذا من الطراز الأوّل، فالحقه به وسحقاً سحقاً.

(4) سورة الأعراف، الآية: 87.

(5) سورة البقرة، الآية: 16.

لخاسرون﴾ سادّ مسدّ الجوابين.

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾.

﴿الذين كذبوا شعيبًا﴾ مبتدأ خبره ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ وكذلك ﴿كانوا هم الخاسرون﴾ وفي هذا الابتداء معنى: الاختصاص كأنه قيل: الذين كذبوا شعيبًا هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا كأن لم يقيموا في دارهم؛ لأنّ الذين اتبعوا شعيبًا قد أنجاهم الله، الذين كذبوا شعيبًا هم المخصوصون بالخسران العظيم دون اتباعه فإنهم الرابحون، وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير مبالغة في ردّ مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيه لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم.

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾.

الأسى: شدّة الحزن قال العجاج:

وانـجـلـبـت عـيـنـاه مـن فـرط الأسـى

اشتدّ حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال: فكيف يشتدّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم، ويجوز أن يريد: لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حلّ بكم فلم تسمعوا قولي ولم تصدقوني فكيف آسى عليكم؟ يعني: أنه لا يأسى عليهم؛ لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى. وقرأ يحيى بن وثاب: فكيف إيسي بكسر الهمزة.

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾.

﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء﴾ بالبؤس والفقر ﴿والضراء﴾ بالضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه ﴿لعلهم يضرعون﴾ ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر والعزة ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والصحة والسعة كقوله: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾[1]

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾.

﴿حتى عفوا﴾ كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، من قولهم: عفا النبات وعفا الشحم والوبر إذا كثرت، ومنه قوله ﷺ: «واعفوا اللحى» وقال الحطيئة:

بمستأسد القريان عاف نباته

وقال:

ولـكـنـا نـعـض الـسـيـف مـنـهـا بـأسـوق عـافـيـات الـشـحـم كـوم

﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ يعني: أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا: هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء، وقد مس آباءنا نحو ذلك، وما هو بابتلاء من الله لعباده، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب ﴿فأخذناهم﴾ أشدّ الأخذ وأفظعه وهو: أخذهم فجأة من غير شعور منهم. اللام في القرى إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾[2] كأنه قال: ولو أنّ أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾.

﴿آمنوا﴾ بدل كفرهم ﴿واتقوا﴾ المعاصي مكان ارتكابها ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ لآتيناهم بالخير من كل وجه، وقيل: أراد المطر والنبات ﴿ولكن كذبوا فأخذناهم﴾ بسوء كسبهم، ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس.

فإن قُلْتَ: ما معنى فتح البركات عليهم؟ قُلْتُ: تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها، ومنه قولهم: فتحت على القارئ إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليه بالتلقين. البيات يكون بمعنى: البيتوتة، يقال: بات بياتًا ومنه قوله تعالى: ﴿فجاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون﴾[3] وقد يكون بمعنى: التبييت كالسلام بمعنى: التسليم يقال: بيته العدو بياتًا، فيجوز أن يراد: أن يأتيهم بأسنا بائتين، أو وقت بيات أو مبيتًا أو مبيتين، أو يكون بمعنى: تبييتًا، كأنه قيل: أن بيتهم بأسنا بياتًا و﴿ضحى﴾ نصب على الظرف يقال: أتانا ضحى وضحيًا وضحاء، والضحى في الأصل: اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت.

والفاء والواو في أفأمن وأو أمن حرفًا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار.

فإن قُلْتَ: ما المعطوف عليه ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قُلْتُ: المعطوف عليه قوله: فأخذناهم بغتة، وقوله: ﴿ولو أن أهل القرى﴾ إلى ﴿يكسبون﴾ وقع اعتراضًا بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما عطف بالفاء؛ لأنّ المعنى فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة أبعد ذلك من أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى. وقرئ أو أمن على العطف بأو ﴿وهم يلعبون﴾

(1) سورة الأعراف، الآية: 168.

(2) سورة الأعراف، الآية: 94.

(3) سورة الأعراف، الآية: 4.

يشتغلون بما لا يجدي عليهم كأنهم يلعبون.

فإن قُلْتَ: فلم رجع فعطف بالفاء قوله: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾؟ قُلْتُ: هو تكرير لقوله: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ ومكر الله استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولاستدراجه، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين والبيات والغيلة، وعن الربيع بن خثيم أن ابنته قالت له: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه إنّ أباك يخاف البيات، أراد قوله: ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتًا﴾.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

إذا قرئ ﴿أولم يهد﴾ بالياء كان ﴿أن لو نشاء﴾ مرفوعًا بأنه فاعله بمعنى: أولم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن وهو: إنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين، وإذا قرئ بالنون فهو منصوب كأنه قيل: أولم يهد الله للوارثين هذا الشأن بمعنى: أولم نبين لهم أنا ﴿لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ كما أصبنا من قبلهم، وإنما عدي فعل الهداية باللام؛ لأنه بمعنى التبيين.

فإن قُلْتَ[1]: بم تعلق قوله تعالى: ﴿ونطبع على قلوبهم﴾؟ قُلْتُ: فيه أوجه: أن يكون معطوفًا على ما دلّ عليه معنى ﴿أولم يهد﴾ كأنه قيل: يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم، أو على ﴿يرثون الأرض﴾ أو يكون منقطعًا بمعنى: ونحن نطبع على قلوبهم.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون ونطبع بمعنى وطبعنا، كما كان لو نشاء بمعنى لو شئنا، ويعطف على أصبناهم؟ قُلْتُ: لا يساعد عليه المعنى؛ لأن القوم كانوا مطبوعًا على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها، وهذا التفسير يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة وأنّ الله تعالى لو شاء لاتصفوا بها.

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ كقوله: ﴿هذا بعلي شيخًا﴾[2] في أنه مبتدأ وخبر وحال، ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ونقص خبرًا، وأن يكون القرى نقص خبرًا بعد خبر.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿تلك القرى﴾ حتى يكون كلامًا مفيدًا؟ قُلْتُ: هو مفيد ولكن بشرط التقييد بالحال، كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك: هو الرجل الكريم.

فإن قُلْتَ: ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها؟ قُلْتُ: معناه أنّ تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أوّلاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين لا يرعون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات، ومعنى اللام: تأكيد النفي وأنّ الإيمان كان منافيًا لحالهم في التصميم على الكفر، وعن مجاهد هو كقوله: ﴿ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه﴾[3] ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ الضمير للناس على الإطلاق أي: وما وجدنا لأكثر الناس من عهد يعني: أنّ أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى ﴿وإن وجدنا﴾ وإنّ الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة مارقين، والآية اعتراض، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرّ ومخافة ﴿لئن أنجيتنا.. لنؤمننّ﴾[4] ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام: ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك﴾[5] إلى قوله: ﴿إذا هم ينكثون﴾[6] والوجود بمعنى العلم من قولك: وجدت زيدًا ذا

---

(1) قال أحمد: بل يجوز والله عطفه عليه، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع، ولا يضرهم إن كانوا كفاراً، أو مقترفين للذنوب، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنب، ولا بد إذ الطبع هو التمادي على الكفر، والإصرار، والغلو في التصميم، حتى يكون الموصوف به ما يوسا من قبوله للحق، ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة بلى إن الكافر يهدد من تماديه على كفره بأن يطبع الله على قلبه، فلا يؤمن أبداً، وهو مقتضى العطف على أصبناهم، فتكون الآية على قد هددتهم بأمرين، أحدهما: الإصابة ببعض ذنوبهم، والآخر: الطبع على قلوبهم، وهذا الثاني أشدّ من الأول، وهو أيضاً: نوع من الإصابة بالذنوب، أو العقوبة عليها، ولكنه أنكى أنواع العذاب، وأبلغ صنوف العقاب، وكثيراً ما يعاقب الله على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه، وعلى الكفر = بزيادة التصميم عليه، والغلو فيه، كما قال تعالى: ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم، كما زادت المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم﴾ وهذا النوع من الثواب، والعقاب مناسب لما كان سبباً فيه وجزاء عليه، فثواب الإيمان إيمان، وثواب الكفر كفر، وإنما الزمخشري يحاذر من هذا الوجه دخول الطبع في مشيئة الله تعالى، وذلك عنده محال؛ لأنه قبيح والله عنده متعال، وأنى يتم الفرار من الحق، وكم من آية صرحت بوقوع الطبع من الله فضلاً عن تعلق المشيئة به.

(2) سورة هود، الآية: 72.

(3) سورة الأنعام، الآية: 28.

(4) سورة يونس، الآية: 22.

(5) سورة الأعراف، الآية: 134.

(6) سورة الأعراف، الآية: 135.

الحفاظ، بدليل دخول إن المخففة واللام الفارقة ولا يسوغ ذلك إلا في المبتدأ والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

فإن قُلْتَ:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾.

﴿من بعدهم﴾ الضمير المرسل في قوله **﴿ولقد جاءتهم رسلهم﴾**[1] أو للأمم **﴿فظلموا بها﴾** فكفروا بآياتنا أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنهما من واد واحد **﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾**[2] أو فظلموا الناس بسببها حين أوعدوهم وصدّوهم عنها وآذوا من آمن بها، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلمًا فلذلك قيل **﴿فظلموا بها﴾** أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه وهو موضع الإيمان.

يقال لملوك مصر: الفراعنة كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة فكأنه قال: يا ملك مصر وكان اسمه: قابوس، وقيل: الوليد بن مصعب بن الريان **﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾** فيه[3] أربع قرآت: المشهورة وحقيق عليّ أن لا أقول وهي: قراءة نافع، وحقيق أن لا أقول، وهي: قراءة عبد الله، وحقيق بأن لا أقول وهي: قراءة أبيّ، وفي المشهورة إشكال ولا تخلو من وجوه أحدها: أن تكون مما يقلب من الكلام لا من الإلباس كقوله:

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح، وحقيق عليّ أن لا أقول وهي قراءة نافع، والثاني: أنّ ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقًا عليه كان هو حقيقًا على قول الحق أي: لازمًا له، والثالث: أن يضمن حقيق معنى: حريص كما ضمن هيجني معنى ذكرني في بيت الكتاب، والرابع وهو: الأوجه إلا دخل في نكت القرآن أن يعرق موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام لا سيما وقد روي أنّ عدوّ الله فرعون قال له: لما قال: **﴿إني رسول من رب العالمين﴾** كذبت، فيقول: أنا حقيق عليّ قول الحق أي: واجب عليّ قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به ولا يرضى إلا بمثلي ناطقًا به **﴿فارسل معي بني إسرائيل﴾** فخلهم حتى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدّسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم، وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي وانقرضت الأسباط، غلب فرعون نسلهم واستعبدهم، فأنقذهم الله بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام.

فإن قُلْتَ: كيف قال له **﴿فأت بها﴾**؟ بعد قوله: إن **﴿كنت جئت بآية﴾**؟ **قُلْتُ:** معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأتني بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك.

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾.

﴿ثعبان مبين﴾ ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان، وروي أنه كان ثعبانًا ذكرًا أشعر فاغرًا فاه بين لحييه وثمانون ذراعًا، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه، فوثب فرعون من سريره وهرب، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا قتل بعضهم بعضًا، ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصى.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 101.

(2) سورة لقمان، الآية: 13.

(3) قال أحمد: القلب يستعمل في اللغة على وجهين، أحدهما: قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله:

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

وكقوله:

قد صرح السر عن كتمان وابتذلت ... وضع المحاجن بالمهرية النقن

فالحقيقة أنّ الضياطرة تشقى بالرماح، والمهرية تبتذل بالمحاجن، فعدل عن ذلك تنبيهاً على أنّ الرماح قد تنقصد، وتتقصف في أجوافهم، فعبر عن ذلك بالشقاء، وأنّ المحاجن كثيراً ما ترفع وتوضع وتستعمل في ضرب المهرية، وربما تمزقت عن ذلك، فجعل ذلك ابتذالاً لها، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيراً في أمثال قوله:

والسيف يشقى كما تشقى الضلوع به ... وللسيوف كما للناس آجال =

= والمراد بشقاء السيف: انقطاعه في أضلاع المضروب، كما صرّح بذلك في قوله:

طوال الردينيات يقصفها دمي ... وبيض السريجيات يقطعها لحمي

الوجه الثاني: قلب معرّى عن هذا المعنى البليغ، ولذلك لا يستفصح، كقولهم خرق الثوب المسمار وأشباهه وعلى الوجه الأول الأفصح جاءت الآية على هذه القراءة، وهو الوجه الرابع من وجوه الزمخشري، وفي طيه من المبالغة ما نبهت عليه، وأمّا الوجه الثاني، وهو أنّ ما لزمك فقد لزمته، ففيه نظر من حيث أنّ اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر، ولزوم موسى عليه لقول الحق من هذا النمط وأما الوجه الثالث: فلا يلائم بين القراءتين، وقد ذكر لها وجه خامس، وهو أن يكون على بمعنى الباء، ونقل رميت على القوس بمعنى: رميت بالقوس، وهو وجه حسن يلائم، والله أعلم، ويشهده قراءة أبيّ حقيق بأن لا أقول.

فإن قلت: بم يتعلق ﴿للناظرين﴾؟ قلت: يتعلق ببيضاء والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضًا عجيبًا خارجًا عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب، وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال: وما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فإذا هي بيضاء بياضًا نورانيًا غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي: عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه حتى خيل إليهم العصى حية والآدم أبيض.

فإن قلت: قد عزي هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء وأنه قاله للملأ، وعزي ههنا إليهم قلت: قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله ثم وقولهم ههنا، أو قاله ابتداء فتلقفته منه الملأ فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما يفعل الملوك، يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامّة، والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم ﴿أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم﴾ وقرئ: سحار أي: يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة، أو بخير منه، وكانت هذه مؤامرة مع القبط، وقولهم: ﴿فماذا تأمرون﴾؟ من أمرته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي، وقيل: فماذا تأمرون من كلام فرعون قاله للملأ: لما قالوا له ﴿إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم﴾ كأنه قيل: فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجئه وأخاه معنى أرجئه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما، وقيل: احبسهما، وقرئ: أرجئه بالهمزة وأرجه من أرجاه وأرجاه.

فإن قلت: هلا قيل وجاء السحرة فرعون فقالوا؟ قلت: هو على تقدير سائل سأل ما قالوا إذ جاؤه؟ فأجيب بقوله ﴿قالوا ائن لنا لأجرًا﴾ أي: جعلا على الغلبة، وقرئ: إنّ لنا لأجرًا على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتنكير للتعظيم كقول العرب: إنّ له لإبلاً وإن له لغنمًا يقصدون الكثرة.

فإن قلت: ﴿وإنكم لمن المقرّبين﴾ ما الذي عطف عليه؟ قلت: هو معطوف على محذوف سدّ مسدّه حرف الإيجاب كأنه قال إيجابًا لقولهم ﴿إنّ لنا لأجرًا﴾ نعم إن لكم لأجرًا، وإنكم لمن المقرّبين: أراد إني لا أقتصر بكم على الثواب وحده وإن لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب وهو: التقريب والتعظيم؛ لأنّ المثاب إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة، وروي أنه قال لهم: تكونون أوّل من يدخل، وآخر من يخرج، وروي أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا: قد علمنا سحرًا لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمرًا من السماء فإنه لا طاقة لنا به، وروي أنهم كانوا ثمانين ألفًا، وقيل: سبعين ألفًا، وقيل: بضعة وثلاثين ألفًا، واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر، وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى، وقيل: قال فرعون لا نغالب موسى إلا بما هو منه يعني السحر. تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا، كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع.

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾.

وقولهم: ﴿وإمّا أن نكون نحن الملقين﴾ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل، وقد سوغ لهم موسى ما تراغبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي وأنّ المعجزة لمن يغلبها سحر أبدًا ﴿سحروا أعين الناس﴾ أروها[1] بالحيل والشعوذة وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه كقوله تعالى: ﴿يخيل إليه ن سحرهم أنها تسعى﴾[2] روي أنهم ألقوا حبالاً غلاظًا وخشبًا طوالاً فإذا هي أمثال الحيات قد ملأت الأرض، وركب بعضها بعضًا ﴿واسترهبوهم﴾ وأرهبوهم إرهابًا شديدًا كأنهم استدعوا رهبتهم ﴿بسحر عظيم﴾ في باب السحر. روي أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيهم ما يوهم الحركة قيل: جعلوا فيها الزئبق.

۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾.

﴿ما يأفكون﴾ ما موصولة أو مصدرية بمعنى: ما يأفكونه أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوّرونه، أو

---

(1) قال أحمد: معتقد المعتزلة إنكار وجود السحر، والشياطين، والجن في خبط طويل لهم، ومعتقد أهل السنة إقرارها لظواهر على ما هي عليه؛ لأنّ العقل لا يحيل وجود ذلك، وقد ورد السمع بوقوعه، فوجب الإقرار بوجوده ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء ويستدق، فيتولج في الكوة الضيقة، ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر، ما يستأثر الاقتدار عليه، وذلك واقع بقدرة الله تعالى عند إرشاد الساحر هذا، هو الحق، والمعتقد الصدق، وإنما أجريت هذا الفصل؛ لأنّ كلام الزمخشري لا يخلو من رمز إلى إنكاره، إلا أنّ هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن= التصريح بالدفاع، وكشف القناع، ولا يدعه التصميم على اعتقاد المعتزلة من التنفيس، عما في نفسه، فيسميه شعوذة وحيلة، وبالقطع يعلم أنّ الشعوذة والحيلة لا تعلم في يد ابن عمر رضي الله عنه، حتى بكوعها، ولا تؤثر في سيد البشر، حتى يخيل إليها أنه يأتي نساءه، وهو لا يأتيهن، وقد ورد ذلك وأمثاله مستفيضاً واقعاً، فالعمدة أن كل واقع، فبقدرة الله تعالى، فلا يمتنع أن يوقع تعالى بقدرته عند إرشاد الساحر أعاجيب يضل بها من يشاء، ويهدي بها من يشاء، والله الموفق.

(2) سورة طه، الآية: 66.

إفكهم تسمية للمأفوك بالإفك، روي أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصى كما كانت، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرقها أجزاء لطيفة، قالت السحرة: لو كان هذا سحرًا لبقيت حبالنا وعصينا.

فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾.

﴿فوقع الحق﴾ فحصل وثبت، ومن بدع التفاسير فوقع قلوبهم أي: فأثر فيها من قولهم: فاس وقيع **﴿وانقلبوا صاغرين﴾** وصاروا أذلاء مبهوتين **﴿وألقي السحرة﴾** وخروا سجدًا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم، وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا. عن قتادة: كانوا أول النهار كفارًا سحرة، وفي آخره شهداء بررة وعن الحسن: تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشؤوا في الكفر بذلوا أنفسهم لله.

﴿آمنتم به﴾ على الإخبار أي: فعلتم هذا الفعل الشنيع توبيخًا لهم وتقريعًا، وقرئ: أآمنتم بحرف الاستفهام ومعناه: الإنكار والاستبعاد **﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾** أنّ صنعكم هذه الحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو: أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون تمويهًا على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، وروي أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتك، قال: لآتين بسحر لا يغلبه سحر، وإن غلبتي لأومنن بك، وفرعون يسمع فلذلك قال ما قال **﴿فسوف تعلمون﴾** وعيد أجمله ثم فصله بقوله **﴿لأقطعن﴾** وقرئ: لأقطعن بالتخفيف وكذلك ثم لأصلبنكم **﴿من خلاف﴾** من كل شق طرفًا، وقيل: إن أول من قطع من خلاف وصلب لفرعون.

قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾.

﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ فيه أوجه أن يريدوا إنا لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك ومن لقائك، أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصلب، وإنا جميعًا يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا، أو أنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه.

وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾.

﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله، أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان ومنه قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

﴿أفرغ علينا صبرًا﴾ هب لنا صبرًا واسعًا وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء فراغًا، وعن بعض السلف: إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنوبًا ثم يقول: قد مازحتك أي: يغمره بالحياء والخجل، أو صب علينا ما يطهرنا من أوضار الآثام وهو الصبر على ما توعدنا به فرعون؛ لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم **﴿وتوفنا مسلمين﴾** ثابتين على الإسلام.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾.

﴿ويذرك﴾ عطف على يفسدوا؛ لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم وكان ذلك مؤديًا إلى ما دعوه فسادًا وإلى تركه وترك آلهته فكأنه تركهم لذلك، أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجاب بالفاء نحو قول الحطيئة:

ألم أك جاركم ويكون بيني ... وبينكم المودة والإخاء

والنصب بإضمار أن تقديره أيكون منك ترك موسى، ويكون تركه إياك وآلهتك، وقرئ: ويذرك وآلهتك بالرفع عطفًا على أتذر موسى بمعنى أتذره وأيذرك يعني: تطلق له ذلك، أو يكون مستأنفًا، أو حالاً على معنى: أتذره وهو يذرك وآلهتك، وقرأ الحسن: ويذرك بالجزم كأنه قيل يفسدوا، كما قرئ: **﴿وأكن من الصالحين﴾**[1] كأنه قيل أصدق، وقرأ: أنس رضي الله عنه: ونذرك بالنون والنصب أي: يصرفنا عن عبادتك فنذرها، وقرئ: ويذرك وإلاهتك أي: عبادتك، وروي أنهم قالوا له ذلك؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك، وقيل: صنع فرعون لقومه أصنامًا وأمرهم أن يعبدوها تقربًا إليه، كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ويقولون: **﴿ليقربونا إلى الله زلفى﴾**[2] ولذلك قال: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**[3] **﴿سنقتل أبناءهم﴾** يعني: سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، وأن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه وأنه منتظر بعد.

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ

---

(1) سورة المنافقون، الآية: 10.

(2) سورة الزمر، الآية: 3.

(3) سورة النازعات، الآية: 24.

يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾.

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله﴾ قال لهم ذلك حين قال فرعون ﴿سنقتل أبناءهم﴾[1] فجزعوا منه وتضجروا يسكنهم ويسليهم ويعدهم النصرة عليهم ويذكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم.

فإن قُلْتَ: لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على التي قبلها؟ قُلْتُ: هي جملة مبتداة مستأنفة وأمّا ﴿وقال الملأ﴾ فمعطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾[2] وقوله: ﴿إن الأرض لله﴾ يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة كقوله: ﴿وأورثنا الأرض﴾[3] وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر؛ لأنها من جنس الأرض، كما قال ضمرة: إنما المرء بأصغريه، فأراد بالمرء الجنس وغرضه أن يتناوله تناولاً أوليًا ﴿والعاقبة للمتقين﴾ بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط وأن المشيئة متناولة لهم، وقرأوا: العاقبة للمتقين بالنصب، أبيّ وابن مسعود عطفًا على الأرض.

قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾.

﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ يعنون: قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبئ وأعادته عليهم بعد ذلك، وما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن ويمسون به من العذاب ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر ﴿فلينظر كيف تعملون﴾ فيري الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم، وعن عمرو بن عبيد رحمه الله: أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعدما استخلف فذكر له ذلك وقال: قد بقي ﴿فينظر كيف تعملون﴾

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾.

﴿بالسنين﴾ بسني القحط، والسنة من الأسماء الغالبة، كالدابة، والنجم ونحو ذلك، وقد اشتقوا منها فقالوا: أسنت القوم بمعنى: أقحطوا، وقال ابن عباس رضي الله عنه: أما السنون، فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم، وأمّا نقص الثمرات فكان في أمصارهم، وعن كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة ﴿لعلهم يذكرون﴾[4] فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم لآيات الله؛ ولأنّ الناس في حال الشدّة أضرع خدودًا وألين أعطافًا وأرق أفئدة، وقيل: عاش فرعون أربعمائة سنة ولم ير مكروهًا في ثلثمائة وعشرين سنة، ولو أصابه في تلك المدّة وجع أو جوع أو حمى لما ادّعى الربوبية[5].

فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ من الخصب والرخاء ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل في النعمة والرفاهية، واللام مثلها في قولك: الجل للفرس ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ من ضيقة وجدب ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ يتطيروا بهم ويتشاءموا ويقولوا: هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابتنا، كما قالت الكفرة لرسول الله ﷺ: هذه من عندك.

فإن قُلْتَ: كيف قيل؟ ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ بإذا وتعريف الحسنة، ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ بإن وتنكير السيئة قُلْتُ: لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه، وأمّا السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها، ومنه قول بعضهم: قد عددت أيام البلاء فهل عددت أيام الرخاء ﴿طائرهم عند الله﴾ أي: سبب خيرهم وشرهم عند الله، وهو حكمه ومشيئته والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه كقوله تعالى: ﴿قل كل من عند الله﴾[6] ويجوز أن يكون معناه ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عند الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه: ﴿النار يعرضون عليها﴾[7] الآية ولا طائر أشأم من هذا، وقرأ الحسن: إنما طيركم عند الله وهو اسم لجمع طائر غير تكسيره، ونظيره التجر والركب، وعند أبي الحسن هو: تكسير.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 127.

(2) سورة الأعراف، الآية: 109.

(3) سورة الزمر، الآية: 74.

(4) قال أحمد: دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة، وأمّا دعوى اختصاصها بهم، حتى لا يشركهم فيها أحد، فدل عليه تقديم الخبر الذي هو لنا، وقد علمت طريقة المصنف في إسناده الحصر من تقديم ما حقه أن يؤخر، كالمفعول والخبر ونحوه.

(5) قال أحمد: وقد ورد وإن تصبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك، فلم يراع فرق ما بينهما، ولعلّ بين سياق الآيتين اختلافاً أوجب في كل واحد منهما ما ذكر فيه.

(6) سورة النساء، الآية: 78.

(7) سورة غافر، الآية: 46.

وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾.

﴿مهما﴾[1] هي ما المضمنة معنى الجزاء ضمت إليها ما المزيدة المؤكدة للجزاء في قولك: متى تخرج اخرج ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾[2] ﴿فإما نذهبن بك﴾[3] إلا أنّ الألف قلبت هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصري، ومن الناس من زعم: أنّ مه هي الصوت الذي يصوت به الكاف، وما للجزاء، كأنه قيل: كف ما تأتنا به ﴿من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿مهما﴾؟ قُلْتُ: الرفع بمعنى أيما شيء تأتنا به، أو النصب بمعنى أيما شيء تحضرنا تأتنا به، ومن آية تبين لمهما والضميران في به وبها راجعان إلى مهما إلا أنّ أحدهما: ذكر على اللفظ، والثاني: أنث على المعنى؛ لأنه في معنى الآية، ونحوه قول زهير:

ومهما يكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية فيضعها غير موضعها ويحسب مهما بمعنى: متى ما ويقول: مهما جئتني أعطيتك، وهذا من وضعه وليس من كلام واضع العربية في شيء، ثم يذهب فيفسر ﴿مهما تأتنا به من آية﴾ بمعنى: الوقت فيلحد في آيات الله وهو لا يشعر، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين يدي الناظر في كتاب سيبويه.

فإن قُلْتَ: كيف سموها آية ثم قالوا: ﴿لتحسرنا بها﴾؟ قُلْتُ: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية، وإنما سموها اعتبارًا لتسمية موسى، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾.

﴿الطوفان﴾ ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل، قيل: طغى الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يرون شمسًا ولا قمرًا ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره، وقيل: أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة، فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم فمن جلس غرق، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف، ودام عليهم سبعة أيام، وعن أبي قلابة: الطوفان الجدري وهو أوّل عذاب وقع فيهم فبقي في الأرض، وقيل: هو: الموتان، وقيل: الطاعون، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فرفع عنهم فما آمنوا، فنبت لهم تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد بمثله، فأقاموا شهرًا، فبعث الله عليهم الجراد، فأكلت عامّة زروعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة فكشف عنهم، بعد سبعة أيام، خرج موسى عليه السلام إلى

---

(1) قال أحمد: والذي عدّه أوّلاً من كلام سيبويه، وسنذكره قال سيبويه وسألت الخليل عن مهما، فقال هي ما أدخلت معها ما بلغوا بمنزلتها مع متى، إذا قلت متى ما تأتي حدّثتك انتهى كلام سيبويه وكان هذا القائل، والله أعلم اغترّ بتشبيه الخليل لها بمتى ما فظنها في معناها، وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما في لحاقها زائدة، مؤكدة للأولى، بما اللاحقة لمتى عاد كلام سيبويه، قال: ولكنهمن استقبحوا تكرير لفظ واحد، فأبدلوا الهاء من الألف، التي في الأولى انتهى نقله عن الخليل، قال سيبويه: ويجوز أن تكون كإذ ضمت إليها ما انتهى كلامه. قال أحمد: ومعنى تشبيه سيبويه لها بإذما، أن الجزاء بجملة الكلمة، لا بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل، والذي يحقق ذلك أن سيبويه قال: أوّل هذا الباب، وأما حيث، وإذ فلا يجازي بهما، حتى يضم إليهما ما، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما، وكأنما وليست ما فيهما بلغوا، ولكن كل واحدة منهما مع ما بمنزلة حرف واحد، فانظر قوله وليست ما فيهما بلغو يعني: ليست زائدة مؤكدة، ولكن لها حظ في اقتضاء الجزاء، حتى لا يفيده إلا اجتماع جزئي الكلمة، ويبقى وراء ذلك نظر في أنّ سيبويه هل أراد أن ما ضمت إلى مه التي هي الصوت، أو إلى ما الجزائية، والظاهر من مراده أنّ انضمامها إلى الصوت؛ لأنها لو كانت منضمة إلى الجزائية، لكانت مستقلة بإفادة الجزاء قبل انضمام ما إليها، ولا تكون مثل إذا وحيث ولا يكون تنظير سيبويه مطابقاً، وهذا الذي فهمه ابن طاهر، وتبعه فيه تلميذه ابن خروف وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيبويه، ورد قول ابن بشاذ، أن هذا المذهب للخليل خاصة، وقد تواطأ ابن =

= بشاذ والزمخشري على نفي هذا المذهب عن سيبويه، وإعزائه إلى غيره، وأظهر ما قوى به مذهب الخليل، والله أعلم أنّ هذه الكلمة استعملت في الاستفهام، حسب استعمالها في الجزاء وأنشدوا:

مهما لي الليلة مهماليه أودى بنعلي وسرباليه

أراد: ما لي الليلة ولا إشكال ههنا، أنها ما الاستفهامية كررت تأكيداً كما يقولون لا لا ونعم نعم ثم استكره تكرار اللفظ بعينه، فقلبت ألف الأولى هاء، وقد جاء قلب الاستفهامية، وإن لم يكن تكرار، فهو معه أجدر، وإذا وضح أنّ مهما الواقعة في الاستفهام أصلها، ما مكررة كان ذلك أوضح دليل على أنّ الواقعة في الجزاء كذلك، والاستشهاد بالنظائر أميز حجج العربية، والله أعلم، وأما ردّ الزمخشري على من زعم أنها بمعنى: متى ما فرد صحيح، والآية أصدق شاهد على ردّه، فإنّ الضمير المجرور فيها عائد إلى مهما حتماً، وقد اتصل به مفسراً له قوله من آية دلّ على أنّ الضمير واقع على الآية، فلزم وقوع مهما عليها ضرورة اتحاد المرجع في المضمر، ومظهره، فذهاب هذا القائل إلى إيقاع مهما على الوقت زاعماً، أنها بمعنى: متى ما ذهاب عن الصواب وعذر الزمخشري واضح في الرد على تسجيله، وإغلاظ النكير عليه، وتفويق سهام التشنيع إليه، فتأمّل هذا الفصل، ففيه إنارة للسبيل، وشفاء للغليل، والله الموفق.

(2) سورة النساء، الآية: 78.

(3) سورة الزخرف، الآية: 41.

الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها فقالوا: ما نحن بتاركي ديننا فأقاموا شهرًا، فسلط الله عليهم القمل وهو: الحمنان، في قول أبي عبيدة: كبار القردان، وقيل: الدبا وهو: أولاد الجراد قبل: نبات أجنحتها، وقيل: البراغيث، وعن سعيد بن جبير: السوس فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه، وكان يأكل أحدهم طعامًا فيمتلئ قملاً، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا يسيرًا، وعن سعيد بن جبير: أنه كان إلى جنبهم كثيب أعفر فضربه موسى بعصاه فصار قملاً، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدري، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر وعزة فرعون لا نصدقك أبدًا، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع، فدخلت بيوتهم وامتلأت منها آنيتهم وأطعمتهم، ولا يكشف أحد شيء من ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد، وكانت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلي وفي التنانير وهي تفور، فشكوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دمًا، فشكوا إلى فرعون، فقال: إنه سحركم، فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دمًا، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطي الدم وللإسرائيلي الماء، حتى إنّ المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية اجعلي الماء في فيك ثم مجيه في فيّ فيصير الماء في فيها دمًا، وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك، فكان يمص الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحًا أجاجًا، وعن سعيد بن المسيب: سال عليهم النيل دمًا، وقيل: سلط الله عليهم الرعاف، وروي: أنّ موسى عليه السلام مكث فيهم بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات، روي أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال: يا رب إنّ عبدك هذا قد علا في الأرض فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدي آية، فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم ما بعده من النقم. وقرأ الحسن: والقمل بفتح القاف وسكون الميم يريد القمل المعروف **﴿آيات مفصلات﴾** نصب على الحال، ومعنى مفصلات: مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم، أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم أم ينكثون إلزامًا للحجة عليهم.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾.

﴿بما عهد عندك﴾ ما مصدرية والمعنى: بعهده عندك، وهو: النبوّة، والباء إمّا أن تتعلق بقوله **﴿ادع لنا ربك﴾** على وجهين أحدهما: أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوّة، أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهده عندك. وإمّا أن يكون: قسمًا مجابًا بلنؤمنن أي: أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾.

﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ إلى حدّ من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدّم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله **﴿إذا هم ينكثون﴾** جواب لما يعني **﴿فلما كشفناه عنهم﴾** فاجأوا النكث وبادروا لم يؤخروه، ولكن كما كشف عنهم نكثوا **﴿فانتقمنا منهم﴾** فأردنا الانتقام منهم **﴿فأغرقناهم﴾** واليم: البحر الذي لا يدرك قعره، وقيل: هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم؛ لأنّ المستنفعين به يقصدونه **﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾** أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها.

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾.

﴿القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ هم: بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. والأرض: أرض مصر والشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاؤا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية **﴿باركنا فيها﴾** بالخصب وسعة الأرزاق **﴿كلمت ربك الحسنى﴾** قوله: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾**[1] إلى قوله: **﴿ما كانوا يحذرون﴾**[2] والحسنى تأنيث الأحسن صفة للكلمة، ومعنى تمت على بني إسرائيل: مضت عليهم واستمرت من قولك: تم على الأمر إذا مضى عليه **﴿بما صبروا﴾** بسبب صبرهم، وحسبك به حاثًا على الصبر ودالاً على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر

(1) سورة القصص، الآية: 5.

(2) سورة القصص، الآية: 6.

وانتظار النصر ضمن الله له الفرج، عن الحسن: عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله: وتلا الآية ومعنى خف: طاش جزعًا وقلة صبر ولم يزن رزانة أولي الصبر. وقرأ عاصم في رواية: وتمت كلمات ربك الحسنى ونظيره ﴿من آيات ربه الكبرى﴾[1] ﴿ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ ما كانوا يعملون ويسوون من العمارات وبناء القصور ﴿ما كانوا يعرشون﴾ من الجنات ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾[2] أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره وقرئ: يعرشون بالكسر والضم، وذكر اليزيدي أنّ الكسر أفصح، وبلغني أنه قرأ بعض الناس: يغرسون من غرس الأشجار، وما أحسبه إلا تصحيفًا منه.

وهذا آخر ما اختصّ الله من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم، ثم اتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من ملكة فرعون واستبعاده ومعاينتهم الآيات العظام ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه ظلوم كفار جهول كنود إلا من عصمه الله ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[3] وليسلي رسول الله ﷺ مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة، وروي أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون وقومه، فصاموه شكرًا لله تعالى.

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾.

﴿فأتوا على قوم﴾ فمرّوا عليهم ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ يواظبون على عبادتها ويلازمونها. قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر وذلك أوّل شأن العجل، وقيل: كانوا قومًا من لخم، وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم. وقرئ: وجوّزنا بمعنى: أجزنا يقال: أجاز المكان وجوّزه وجاوزه بمعنى: جازه، كقولك: أعلاه وعلاه وعالاه، وقرئ: يعكفون بضم الكاف وكسرها ﴿اجعل لنا إلهًا﴾ صنمًا نعكف عليه ﴿كما لهم آلهة﴾ أصنام يعكفون عليها، وما كافة للكاف ولذلك وقعت الجملة بعدها، وعن علي رضي الله عنه: أن يهوديًا قال له: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجفّ ماؤه، فقال: قلتم اجعل لنا إلهًا قبل أن تجفّ أقدامكم ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ تعجّب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع.

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾.

﴿إنّ هؤلاء﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل ﴿متبر ما هم فيه﴾ مدمّر مكسر ما هم فيه من قولهم: إناء متبر إذا كان فضاضًا، ويقال لكسار الذهب: التبر أي: يتبر الله ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي، ويحطم أصنامهم هذه، ويتركها رضاضًا ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: ما عملوا شيئًا من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به وإن كان في زعمهم تقرّبًا إلى الله كما قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾[4] وفي إيقاع هؤلاء اسمًا لأن وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرًا لها واسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا.

قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾.

﴿أغير الله أبغيكم إلهًا﴾ أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبودًا وهو فعل بكم ما فعل دون غيره من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحدًا غيركم لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره، ومعنى الهمزة: الإنكار والتعجب من طلبتهم مع كونهم مغمورين في نعمة الله عبادة غير الله.

وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾.

﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ يبغونكم شدّة العذاب، من سام السلعة إذا طلبها.

فإن قُلْتَ: ما محل يسومونكم؟ قُلْتُ: هو استئناف لا محلّ له، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين، أو من آل فرعون و﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب. وللبلاء: النعمة أو المحنة. وقرئ: يقتلون بالتخفيف.

۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾.

وروي أنّ موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوّهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يومًا وهو: شهر ذي القعدة، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوّك، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، وقيل: أوحى الله تعالى إليه أما علمت أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك، وقيل: أمره الله أن

(1) سورة النجم، الآية: 18.
(2) سورة الأنعام، الآية: 141.
(3) سورة سبأ، الآية: 13.
(4) سورة الفرقان، الآية: 23.

يصوم ثلاثين يومًا وأن يعمل فيها بما يقرّبه من الله، ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها، ولقد أجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة وفصلها هُهنا و ﴿ميقات ربه﴾ ما وقته له من الوقت وضربه له و ﴿أربعين ليلة﴾ نصب على الحال أي: تمّ بالغًا هذا العدد و ﴿هٰرون﴾ عطف بيان لأخيه، وقرئ: بالضم على النداء ﴿اخلفني في قومي﴾ كن خليفتي فيهم ﴿وأصلح﴾ وكن مصلحًا أو وأصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل. ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه.

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾.

﴿لميقاتنا﴾ لوقتنا الذي وقتنا له وحدّدنا، ومعنى اللام: الاختصاص، فكأنه قيل: واختصّ مجيئه بميقاتنا، كما تقول: أتيته لعشر خلون من الشهر ﴿وكلمه ربه﴾[1] من غير واسطة كما تكلم الملك، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقًا به في بعض الأجرام، كما خلقه مخطوطًا في اللوح، وروي: أنّ موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كلمه أربعين يومًا وأربعين ليلة وكتب له الألواح، وقيل: إنما كلّمه في أوّل الأربعين ﴿أرني أنظر إليك﴾[2] ثاني مفعول أرني محذوف، أي: أرني نفسك أنظر إليك.

فإن قُلْتَ: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: ﴿أرني أنظر إليك﴾؟ قُلْتُ: معنى أرني نفسك اجعلني متمكنًا من رؤيتك بأن تتجلي لي فأنظر إليك وأراك.

فإن قُلْتَ: فكيف قال ﴿لن تراني﴾ ولم يقل لن تنظر إليّ لقوله: ﴿أنظر إليك﴾؟ قُلْتُ: لما قال: أرني بمعنى: اجعلني متمكنًا من الرؤية التي هي الإدراك علم أن الطلبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه فقيل: لن تراني ولم يقل لن تنظر إليّ.

فإن قُلْتَ: كيف طلب موسى عليه السلام ذلك وهو من أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعاليه عن الرؤية التي هي: إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة، ومنع المجبرة إحالته في العقول غير لازم؛ لأنه ليس بأوّل مكابرتهم وارتكابهم، وكيف يكون طالبه؟ وقد قال حين أخذت الرجفة الذين قالوا: ﴿أرنا الله جهرة﴾[3] ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾[4] إلى قوله: ﴿تضل بها من تشاء﴾[5] فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء

(1) قال أحمد: وهذا تصريح منه بخلق الكلام، كما هو معتقد المعتزلة، والذي يخص به هذه الآية من وجوه الردّ عليه، أنها سيقت مساق الامتنان على موسى، باصطفاء الله له، وتخصيصه إياه بتكليمه، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف، والأصوات في بعض الأجرام، واستماع موسى لذلك، لكان كل أحد يساوي موسى عليه السلام في ذلك، بل كان آحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام آثر بهذه المزية، وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام؛ لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام، وأزكاها خلقاً في رسول الله ﷺ، وكانت مزيتهم أظهر، وخصوصيتهم أوفر، ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه المزية، فلا يجمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى، بلا واسطة دليل عليه من حروف، ولا غيرها، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات الباري سبحانه وتعالى، وإن لم يكن جسماً، فكذلك نجيز أن يسمع كلامه، وإن لم يكن حرفاً ولا صوتاً، والكلام في هذه العقيدة طويل والشوط بطين، وهذه النكتة هي الخاصة، بهذه الآية، والله الموفق.

(2) قال أحمد: ما أشدّ ما اضطرب كلامه في هذه الآية؛ لأنّ غرضه أن يدحض الحق بالضلالة، ويشين بكفه الغزالة هيهات قد تبين الصبح، لذي عينين، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذي رين أمّا حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى، فوظيفة علم الكلام والخصر وجه في إجادة ذلك، أنّ الوجود مصحح الرؤية بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً، وقد شمل الجواز الجوهر، والعرض، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود، وإذا كان الوجود هو المصحح، فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده، =

= وأمّا استبعاد أن يرى ما ليس في جهة، فأمر وهمي مثله عرض للمعطلة، فعميت بصائرهم، حتى أنكروا موجوداً لا في جهة ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال، وهام، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئي، لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة، فكذلك يرى لا في جهة، فالحق أنّ موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى، والقدرية يجبرهم الطمع، ويجرؤهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم، وما هم حينئذٍ إلا ممن آذوا موسى، فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً، وأمّا قوله عليه السلام أتهلكنا بما فعل السفهاء منا تبرياً من أفاعيلهم وتسفيهاً لهم وتضليلاً لرأيهم، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية، فإنّ الذي كان الإهلاك بسببه، إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين، ثم وإن كان السبب طلبهم للرؤية، فليس، لأنها غير جائزة على الله ولكن؛ لأنّ الله تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا، والخبر صدق، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية، فلما سألوا، وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيباً للخبر، فمن ثم سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة، وتوقيفهم الإيمان عليها، حيث قالوا: لن نؤمن لك، حتى نرى الله جهرة، ألا ترى أن قولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، إنما سألوا فيه جائزاً، ومع ذلك قرّعوا به، لاقتراحهم على الله، ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى، وعنايته عن سبيل الهدى، والله الموفق.

(3) سورة النساء، الآية: 158.

(4) سورة الأعراف، الآية: 155.

(5) سورة الأعراف، الآية: 155.

وضلالاً؟ قُلْتُ: ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبرأ من فعلهم وليلقمهم الحجر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق، فلجوا وتمادوا في لجاجهم، وقالوا: لا بدّ ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك وهو قوله: ﴿لن تراني﴾؛ ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة فلذلك قال: ﴿رب أرني انظر إليك﴾.

فإن قُلْتَ[1]: فهلا قال أرهم ينظروا إليك؟ قُلْتُ: لأن الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه كما أسمعه كلامه فسمعوه معه إرادة مبنية على قياس فاسد فلذلك قال موسى: ﴿أرني انظر إليك﴾؛ ولأنه إذا زجر عما طلب وأنكر عليه في نبوّته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى، وقيل له: لن يكون ذلك كان غيره أولى بالإنكار ؛ ولأنّ الرسول إمام أمّته فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعًا إليهم، وقوله[2]: ﴿انظر إليك﴾ وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم، وجلّ صاحب الجمل أن يجعل الله منظورًا إليه مقابلاً بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبي الهذيل والشيخين وجميع المتكلمين؟

فإن قُلْتَ[3]: ما معنى ﴿لن﴾؟ قُلْتُ: تأكيد النفي الذي تعطيه لا، وذلك أن لا تنفي المستقبل تقول: لا أفعل غدًا، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غدًا والمعنى: أن فعله ينافي حالي كقوله: ﴿لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له﴾[4] فقوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾[5] نفي للرؤية فيما يستقبل، و ﴿لن تراني﴾ تأكيد وبيان؛ لأن المنفي مناف لصفاته.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل الاستدراك في قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ بما قبله؟ قُلْتُ: اتصل به على معنى أنّ النظر إليّ محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر، وهو: أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به وكيف أجعله دكًا بسبب طلبك الرؤية لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه[6] عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: ﴿وتخرّ الجبال هدًا * أن دعوا للرحمٰن ولدًا﴾[7] ﴿فإن استقرّ مكانه﴾[8] كما كان مستقرًا ثابتًا ذاهبًا في جهاته ﴿فسوف تراني﴾ تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكًا ويسويه بالأرض، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع، ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك، ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب

---

(1) قال أحمد: وهذا الكلام الآخر من الطراز الأوّل، وأقرب شاهد على ردّه أنه لو كان طلب الرؤية لهم، حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثاً غير مفيد، لهذا الغرض؛ لأنّ هؤلاء لا يخلو أمرهم إمّا أن يكونوا مؤمنين بموسى، أو كفاراً به، فإن كانوا مؤمنين به، فإخباره إياهم بأن الله تعالى لا يرى، ولا يجوز عليه ذلك كاف في حصول المقصود، من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يرد ذاته، على علم بأن ذلك محال، وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام، فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً؛ لأن الله تعالى إذا منعه مسؤوله من الرؤية، فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك، وهم كفار بموسى عليه السلام، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك، فهذا أوضح مصداق؛ لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوازها على الله تعالى، فأخبره الله أن ذلك لا يقع في الدنيا، وإن كان جائزاً.

(2) قال أحمد: ودعواه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردّها، وأمّا تنزيهه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد استحالة الرؤية إليه، فهو غني عنه، وأمّا إقناعه في تفضيله برجحانه عليه السلام في العلم بالله وبصفاته، على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام، وأبي الهذيل، والشيخين، فهو نقص عن منصبه العليّ وأقل العوام المقلدين، لأهل السنة راجح عند الله على أصحاب البدع، والأهواء، وإن ملؤوا الأرض نفاقاً، وشحنوا مصنفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاقاً، فكيف بكليم الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

(3) قال أحمد: لن كما قال تشارك لا في النفي وتمتاز تأكيده، وأمّا استنباط الزمخشري من ذلك منافاة الرؤية لحال الباري عز وجل، ثم إطلاق الحال على الله تعالى مما يستحرز عنه واستشهاده على أن لن تشعر باستحالة المنفي عقلاً مردود كثيراً بكثير من الآي،= كقوله تعالى: ﴿قل لن تخرجوا معي أبداً، فذلك لا يحيل خروجهم عقلاً، ولن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ لن تتبعونا، فهذه كلها جائزات عقلاً، لولا أن الخبر منع من وقوعها، فالرؤية كذلك.

(4) سورة الحج، الآية: 73.

(5) سورة الأنعام، الآية: 103.

(6) قال أحمد: نسبة جواز الرؤية إلى الله تعالى عند الزمخشري، كنسبة الولد إليه، وهذا مفرع على المعتقد السالف بطلانه، وليس له في هذا الفصل وظيفة، إلا تتبع الشبه لامتناع تلقفها من كل فجّ، والحق أن دكّ الجبل إنما كان، لأنّ الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء، ولا تستقرّ الدنيا لإظهار شيء من ملكوت السماء، وهذا هو المأثور عن السلف في هذه الآية، ومعناه: عند أبي الحسن رحمه الله فعل فعلاً سماه تجلياً، وكان الغضب إمّا؛ لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة، وإمّا؛ لأنهم كتموا الخبر بأنه لا يرى في الدنيا، وإمّا: لأنهم كفروا بالاقتراح، أو بالمجموع.

(7) سورة مريم، الآيتان: 90 و91.

(8) قال أحمد: وهذا من حيل القدرية في إحالة الرؤية يقولون، قد علقها الله على شرط محال، وهو استقرار الجبل حال دكه، والمعلق على المحال محال، وهذه حيلة باطلة، فإنّ المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار، وذلك ممكن جائز، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له لا يرفع إمكان استقراره، وتعلق العلم لا يغير المعلوم، ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع، ولا العكس وحينئذ يتوجه دليلاً، لأهل السنة، فنقول استقرار الجبل ممكن، وقد علق عليه وقوع الرؤية، والمعلق على الممكن ممكن، والمعتزلة يعتقدون أنّ خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدوراً، ونحن نقول مقدور، ولكن ما تعلقت المشيئة بإيجاده وقولنا أقعد بالآداب، وأسعد بالإجلال في الخطاب.

النظر على الشريطة في وجود الرؤية أعني قوله: ﴿فإن استقرّ مكانه فسوف تراني﴾ ﴿فلما تجلى ربه الجبل﴾ فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته ﴿جعله دكًا﴾ أي: مدكوكًا مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير، والدك والدقّ أخوان كالشك والشق، وقرئ: دكًا والدكاء اسم للرابية الناشرة من الأرض كالدكة، أو أرضًا دكاء مستوية ومنه قولهم: ناقة دكاء متواضعة السنام، وعن الشعبي: قال لي الربيع بن خثيم: ابسط يدك دكاء أي: مدها مستوية، وقرأ يحيى بن وثاب: دكًا أي: قطعًا دكًا جمع دكاء ﴿وخرّ موسى صعقًا﴾[1] من هول ما رأى، وصعق من باب فعلته ففعل، يقال: صعقته فصعق وأصله من الصاعقة، ويقال لها: الصاقعة من صقعه إذا ضربه على رأسه، ومعناه: خرّ مغشيًا عليه غشية كالموت، وروي: أن الملائكة مرّت عليه وهو مغشي عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة ﴿فلما أفاق﴾ من صعقته ﴿قال سبحانك﴾ انزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها ﴿تبت إليك﴾ من طلب الرؤية ﴿وأنا أوّل المؤمنين﴾ بأنك لست بمرئي ولا مدرك بشيء من الحواس.

فإن قُلْتَ[2]: فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته فمم تاب؟ قُلْتُ: من إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن كان لغرض صحيح على لسانه من غير إذن فيه من الله تعالى، فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية، وكيف أرجف الجبل بطالبيها وجعله دكًا، وكيف أصعقهم ولم يخل كليمه من نفيان ذلك مبالغة في إعظام الأمر، وكيف سبح ربه ملتجئًا إليه وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال: ﴿أنا أوّل المؤمنين﴾ ثم تعجب من المتسمين بالإسلام[3]، المتسمين بأهل السنة والجماعة، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبًا، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة فإنه من منصوبات أشياخهم، والقول ما قال بعض العدلية فيهم:

لجماعة سموا هواهم سنة ... وجماعة حمر لعمري موكفه

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفه

وتفسير آخر وهو: أن يريد بقوله: ﴿أرني أنظر إليك﴾ عرفني نفسك تعريفًا واضحًا جليًا كأنها إراءة في جلائها بآية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك. ﴿أنظر إليك﴾ أعرفك معرفة اضطرار كأني أنظر إليك كما جاء في الحديث: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[4] بمعنى: ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى. قال: ﴿لن تراني﴾ أي: لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة، ولن تحتمل قوّتك تلك الآية المضطرة، ولكن انظر إلى الجبل فإني أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات فإن ثبت لتجليها واستقرّ مكانه ولم يتضعضع فسوف تثبت لها وتطيقها، ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته ﴿جعله دكًا وخرّ موسى صعقًا﴾ لعظم ما رأى، فلما أفاق قال: ﴿سبحانك تبت إليك﴾ مما اقترحت وتجاسرت ﴿وأنا أوّل المؤمنين﴾ بعظمتك وجلالك، وأن شيئًا لا يقوم لبطشك وبأسك.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

﴿اصطفيتك على الناس﴾ اخترتك على أهل زمانك آثرتك عليهم ﴿برسالاتي﴾ وهي أسفار التوراة ﴿وبكلامي﴾ وبتكليمي إياك ﴿فخذ ما آتيتك﴾ ما أعطيتك من شرف النبوّة والحكمة ﴿وكن من الشاكرين﴾ على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم، وقيل: خرّ موسى صعقًا يوم عرفة، وأعطي التوراة يوم النحر.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿اصطفيتك على الناس﴾ وكان هرون مصطفى مثله ونبيًا؟ قُلْتُ: أجل، لكنه كان تابعًا له ردءًا ووزيرًا، والكليم هو: موسى عليه السلام والأصيل في حمل الرسالة.

وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِى ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَىۡءٍ مَّوۡعِظَةً وَتَفۡصِيلًا لِّكُلِّ شَىۡءٍ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٍ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

---

(1) قال أحمد: وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية، فيتخذها عوناً وظهراً على المعتقد الفاسد، والوجه التورك بالغلط على ناقلها، وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى كليم الله، بالوكز بالرجل، والغمص في الخطاب.

(2) قال أحمد: أمّا دكّ الجبل، فقد سلف الكلام على سره، وأمّا تسبيح موسى عليه السلام، فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، والله تعالى مقدّس عن قوع خلاف معلومه، وعن الخلف في خبره الحق، وقوله الصدق، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح الله، وقدس علمه وخبره عن الخلف، وأمّا التوبة في حق الأنبياء، فلا تستلزم كونها عن ذنب؛ لأنّ منصبهم الجليل، ينبغي أن يكون منزهاً مبرأ من كل ما ينحط به، ولا شكّ أن التوقف في سؤال الرؤية على الإذن، كان أكمل، وقد ورد سيئات المقرّبين حسنات الأبرار.

(3) قال أحمد رحمه الله: وقد انتقل الزمخشري في هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة، ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الانصاري صاحب رسول الله ﷺ، وشاعره، والمنافح عنه، وروح القدس معه، لقلنا لهؤلاء المنقلبين بالعدلية، وبالناجين سلاماً، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم، فنقول:

وجماعة كفروا برؤية ربهم ... حقاً ووعد الله ما لن يخلفه

وتلقبو عدلية قلنا أجل ... عدلوا بربهم فحسبهو سفه

وتلقبو الناجين كلا إنهم إن ... لم يكونوا في لظى فعلى شفه

(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير في سورة ق، باب: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس» (الحديث رقم: 4851)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: «فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما» (الحديث رقم: 1432).

ذكروا في عدد الألواح وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح، وقيل: سبعة، وقيل: لوحين، وأنها كانت من زمرّد جاء بها جبريل عليه السلام، وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء، وقيل: أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينهاله فقطعها بيده وشققها بأصابعه، وعن الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وأن طولها كان عشرة أذرع، وقوله: ﴿من كل شيء﴾ في محل النصب مفعول كتبنا و ﴿موعظة﴾ وتفصيلاً بدل منه، والمعنى: كتبنا له كلّ شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام، وقيل: أنزلت التوراة وهي: سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة، لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام، وعن مقاتل: كتب في الألواح إني أنا الله الرحمٰن الرحيم لا تشركوا بي شيئًا، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين، فإنّ من حلف باسمي كاذبًا فلا أزكيه، ولا تقتلوا، ولا تزنوا، ولا تعقوا الوالدين ﴿فخذها﴾ فقلنا له: خذها عطفًا على كتبنا، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فخذ ما آتيتك﴾[1] والضمير في خذها للألواح، أو لكل شيء؛ لأنه في معنى الأشياء أو للرسالات أو للتوراة ومعنى: ﴿بقوّة﴾ بجدّ وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل ﴿يأخذوا بأحسنها﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر، فمرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن، وأكثر للثواب كقوله تعالى: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾[2] وقيل: يأخذوا بما هو واجب أو ندب؛ لأنه أحسن من المباح ويجوز أن يراد: يأخذوا بما أمروا به دون ما نهوا عنه على قولك: الصيف أحرّ من الشتاء ﴿ساريكم دار الفاسقين﴾ يريد دار فرعون وقومه وهي: مصر كيف أقفرت منهم ودمّروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم، وقيل: منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله لفسقهم في ممرّكم عليها في أسفاركم، وقيل: دار الفاسقين نار جهنم، وقرأ الحسن: ساوريكم وهي: لغة فاشية بالحجاز يقال: أورني كذا، وأوريته، ووجهه أن تكون من أوريت الزند كأن المعنى بينه لي وأنره لأستبينه، وقرئ: ساورثكم وهي قراءة حسنة يصححها قوله: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾[3].

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾.

﴿ساصرف عن آياتي﴾ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكًا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم، وعن الفضيل بن عياض: ذكر لنا عن رسول الله ﷺ: «إذا عظمت أمّتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي»[4] وقيل: سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى بأن جمع لها السحرة فأبى الله إلا علوّ الحق وانتكاس الباطل، ويجوز سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها وتسميتها سحرًا بإهلاكهم، وفيه إنذارًا للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم ﴿بغير الحق﴾ فيه وجهان: أن يكون حالاً، بمعنى: يتكبرون غير محقين؛ لأنّ التكبر بالحق لله وحده، وأن يكون صلة لفعل التكبر، أي: يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم ﴿وإن يروا كلّ آية﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لا يؤمنوا بها﴾ وقرأ مالك بن دينار: وإن يروا بضم الياء. وقرئ: سبيل الرشد والرشد والرشاد كقولهم السقم والسقم والسقام، وما أسفه من ركب المفازة فإن رأى طريقًا مستقيمًا أعرض عنه وتركه، وإن رأى معتسفًا مرديًا أخذ فيه وسلكه، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه ﴿ذلك﴾ في محل الرفع أو النصب على معنى ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرف بسببه.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾.

﴿ولقاء الآخرة﴾ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به أي: ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاء ما وعد الله في الآخرة ﴿من بعده﴾ من بعد فراقه إياهم إلى الطور.

فإن قلْتَ: لم قيل: واتخذ قوم موسى عجلاً والمتخذ هو السامري؟ **قلْتُ:** فيه وجهان أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم؛ لأنّ رجلاً منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به فكأنهم أجمعوا عليه، والثاني: أن يراد واتخذوه إلٰهًا وعبدوه. وقرئ: من حليهم بضم الحاء والتشديد جمع حلى كثدي، وثدي، ومن حليهم بالكسر للاتباع كدلي، ومن حليهم على التوحيد، والحلي اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة.

(1) سورة الأعراف، الآية: 144.
(2) سورة الزمر، الآية: 55.
(3) سورة الأعراف، الآية: 137.
(4) قال الزيلعي: لم أجده، عن الفضيل بن عياض، وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول 1/473.

فإن قُلْتَ: لمَ قال: ﴿من حليّهم﴾ ولم يكن الحليّ لهم، وإنما كانت عواري في أيديهم؟ قُلْتُ: الإضافة تكون بأدنى ملابسة، وكونها عواري في أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم، الا ترى إلى قوله عزّ وعلا ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون ❁ وكنوز ومقام كريم﴾[1] ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾[2] ﴿جسدًا﴾ بدنًا ذا لحم ودم كسائر الأجساد. والخوار صوت البقر. قال الحسن: إنّ السامري قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر، فقذفه في العجل، فكان عجلاً له خوار، وقرأ علي رضي الله عنه: جؤار بالجيم والهمزة من جأر إذا صاح، وانتصاب جسدًا على البدل من عجلاً ﴿ألم يروا﴾ حين اتخذوه إلهًا أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل حتى لا يختاروه على من لو كان البحر مدادًا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبل الحق ومناهجه بما ركز في العقول من الأدلة وبما أنزل في كتبه، ثم ابتدأ فقال ﴿اتخذوه﴾ أي: اقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿وكانوا ظالمين﴾ واضعين كل شيء في غير موضعه، فلم يكن اتخاذ العجل بدعًا منهم ولا أوّل مناكيرهم.

وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾.

﴿ولما سقط في أيديهم﴾ ولما اشتدّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل؛ لأنّ من شأن من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعض يده غمًا، فتصير يده مسقوطًا فيها لأنّ فاه قد وقع فيها، وسقط مسند إلى في أيديهم وهو من باب الكناية، وقرأ أبو السميفع: سقط في أيديهم على تسمية الفاعل أي: وقع العض فيها، وقال الزجاج معناه: سقط الندم في أيديهم أي: في قلوبهم وأنفسهم كما يقال: حصل في يده مكروه وإن كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهًا لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ وتبينوا ضلالهم تبينًا كأنهم أبصروه بعيونهم. وقرئ: لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا بالتاء وربنا بالنصب على النداء، وهذا كلام التائبين كما قال آدم وحواء عليهما السلام ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا﴾[3] الأسف الشديد الغضب ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾[4] وقيل: هو الحزين.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾.

﴿خلفتموني﴾ قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي، وهذا الخطاب إما أن يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه أو لوجوه بني إسرائيل وهم: هرون عليه السلام والمؤمنون معه، ويدل عليه قوله: ﴿اخلفني في قومي﴾[5] والمعنى: بئس ما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله.

فإن قُلْتَ: أين ما تقتضيه بئس من الفاعل والمخصوص بالذم؟ قُلْتُ: الفاعل مضمر يفسره ما خلفتموني والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم.

فإن قُلْتَ: اي معنى لقوله: ﴿من بعدي﴾ بعد قوله: ﴿خلفتموني﴾؟ قُلْتُ: معناه من بعد ما رأيتم من توحيد الله ونفي الشركاء عنه وإخلاص العبادة له، أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا: ﴿اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة﴾[6] ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه ونحوه ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾[7] أي: من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة. يقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره ويضمن معنى سبق فيعدى تعديته فيقال: عجلت الأمر والمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم وهو: انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم فحدثتم أنفسكم بموتي فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم، وروي: أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾[8] إنّ موسى لن يرجع وأنه قد مات، وروي أنهم عدوا عشرين يومًا بلياليها فجعلوها أربعين، ثم أحدثوا ما أحدثوا ﴿وألقى الألواح﴾ وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدّة الضجر عند استماعه حديث العجل غضبًا لله وحمية لدينه، وكان في نفسه حديدًا شديد الغضب، وكان هارون ألين منه جانبًا ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى، وروي: أنّ التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها وبقي منها سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ أي: بشعر رأسه ﴿يجره إليه﴾ بذؤابته وذلك لشدّة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته وظنًا بأخيه أنه فرط في الكف ﴿ابن أم﴾ قرئ: بالفتح تشبيهًا بخمسة عشر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة، وابن أمي بالياء، وابن إم بكسر الهمزة والميم، وقيل: كان أخاه لأبيه

(1) سورة الشعراء، الآيتان: 57 و58.

(2) سورة الشعراء، الآية: 59.

(3) سورة الأعراف، الآية: 23.

(4) سورة الزخرف، الآية: 55.

(5) سورة الأعراف، الآية: 142.

(6) سورة الأعراف، الآية: 138.

(7) سورة الأعراف، الآية: 169.

(8) سورة طه، الآية: 88.

وأمّه، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحد وذلك أدعى إلى العطف والرقة وأعظم للحق الواجب، و؛ لأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها، و؛ لأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها ﴿إنّ القوم استضعفوني﴾ يعني: أنه لم يأل جهدًا في كفهم بالوعظ والإنذار وبما بلغته طاقته من بذل القوة في مضادّتهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه ﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ فلا تفعل بي ما هو أمنيتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ، وقرئ: فلا يشمت بي الأعداء على نهي الأعداء عن الشماتة، والمراد: أن لا يحل به ما يشمتون به لأجله ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ ولا تجعلني في موجدتك عليّ وعقوبتك لي قرينًا لهم وصاحبًا، أو ولا تعتقد أني واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾.

لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء ﴿قال رب اغفر لي ولأخي﴾ ليرضي أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ولأخيه إن عسى فرط في حسن الخلافة، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾.

﴿غضب من ربهم وذلة﴾ الغضب: ما أمروا به من قتل أنفسهم والذلة: خروجهم من ديارهم؛ لأنّ ذل الغربة مثل مضروب، وقيل: وهو: ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن الذلة بضرب الجزية ﴿المفترين﴾ المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾[1] ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها، ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾[2].

وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾.

﴿والذين عملوا السيئات﴾ من الكفر والمعاصي كلها ﴿ثم تابوا﴾ ثم رجعوا ﴿من بعدها﴾ إلى الله واعتذروا إليه ﴿وآمنوا﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إنّ ربك من بعدها﴾ من بعد تلك العظائم ﴿لغفور﴾ لستور عليهم محاء لما كان منهم ﴿رحيم﴾ منعم عليهم بالجنة، وهذا حكم[3] عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم عظم جنايتهم أوّلاً، ثم أردفها تعظيم رحمته ليعلم أنّ الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ولكن لا بدّ من حفظ الشريطة وهي: وجوب التوبة والإنابة، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم.

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾.

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾[4] هذا مثل كان الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك، و؛ لأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: ولما سكن عن موسى الغضب، لا تجد النفس عندها شيئًا من تلك الهزة وطرفًا من تلك الروعة، وقرئ: ولما سكت وأسكت أي: أسكته الله أو أخوه باعتذاره إليه وتنصله، والمعنى: ولما طفئ غضبه ﴿أخذ الألواح﴾ التي ألقاها ﴿وفي نسختها﴾ وفيما نسخ منها أي كتب والنسخة فعلة بمعنى: مفعول كالخطبة ﴿لربهم يرهبون﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول؛ لأنّ تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفًا ونحو ﴿للرؤيا تعبرون﴾[5] وتقول لك ضربت.

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾.

﴿واختار موسى قومه﴾ أي: من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله:

منا الذي اختير الرجال سماحة

قيل: اختار من اثني عشر سبطًا من كل سبط ستة

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.

(2) سورة البقرة، الآية: 61.

(3) قال أحمد: يعرض بوجوب وعيد الفساق، وإنّ مغفرة الذنب بدون التوبة منه من المحال الممتنع، وقد تقدم عند ذلك من الأهواء، والبدع، بل الحق أنّ المغفرة لما عدا الشرك موكولة إلى المشيئة غير ممتنعة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والله الموفق.

(4) قال أحمد: وهو من النمط الذي قدمته من قلب الحقيقة، إلى المجاز، وكان الأصل، ولما سكت موسى عن الغضب، ولذلك عدّه بعض أهل العربية من المقلوب، وسلكه في نمط خرق الثوب = المسمار، والتحقيق أنه ليس منه، وأنّ هذا القلب أشرف، وأفصح؛ لأنه بما له على معنى بليغ، وهو: أنّ الغضب كان متمكناً من موسى، حتى كان كانه يصرفه في أوامره، وكل ما وقع منه حينئذ، فعن الغضب صادر، حتى كانه هو الذي أمره به، ومثل هذه النكتة الحسناء لا تلقى في خرق الثوب المسمار، بل هي موجودة في قوله تعالى حقيق على أن لا أقول على الله، إلا الحق على خلاف قراءة نافع، وقد تقدّم ذلك آنفاً، والله الموفق.

(5) سورة يوسف، الآية: 43.

حتى تتاموا اثنين وسبعين فقال: ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال: إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد كالب ويوشع، وروي أنه لم يصب إلا ستين شيخًا فأوحى الله تعالى إليه أن تختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخًا، وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين ولم يتجاوزوا الأربعين قد ذهب عنهم الجهل والصبا، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربه، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم: ادنوا فدنوا حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجدًا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤية، فوعظهم وزجرهم وأنكر عليهم فقالوا: ﴿يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾[1] فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾[2] يريد أن يسمعوا الرد والإنكار من جهته، فأجيب بلن تراني ورجف بهم الجبل فصعقوا. ولما كانت الرجفة ﴿قال﴾ موسى ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ وهذا تمنٍّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة لو شاء الله لأهلكني قبل هذا ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ يعني: أتهلكنا جميعًا يعني: نفسه وإياهم؛ لأنه إنما طلب الرؤية زجرًا للسفهاء وهم طلبوها سفهًا وجهلاً ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي: محنتك وابتلاؤك حين كلمتني وسمعوا كلامك، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسدًا حتى افتتنوا وضلوا ﴿تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ تضلّ بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك، وتهدي العالمين بك الثابتين بالقول الثابت، وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه؛ لأنّ محنته لما كانت سببًا لأن ضلوا واهتدوا، فكأنه أضلهم بها وهداهم على الاتساع في الكلام ﴿أنت ولينا﴾ مولانا القائم بأمورنا.

۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾.

﴿واكتب لنا﴾ وأثبت لنا واقسم ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾ عافية وحياة طيبة وتوفيقًا في الطاعة ﴿وفي الآخرة﴾ الجنة ﴿هدنا إليك﴾ تبنا إليك، وهاد إليه يهود إذا رجع وتاب، والهود جمع هائد وهو التائب ولبعضهم:

يا راكب الذنب هدهد   واسجد كأنك هدهد

وقرأ أبو وجرة السعدي: هدنا إليك بكسر الهاء من هاده يهيده إذا حرّكه وأماله، ويحتمل أمرين: أن يكون مبنيًا للفاعل والمفعول بمعنى: حرّكنا إليك أنفسنا وأملناها، أو حرّكنا إليك وأملنا على تقدير فعلنا كقولك: عدت يا مريض بكسر العين فعلت من العيادة، ويجوز عدت بالإشمام، وعدت بإخلاص الضمة فيمن قال: عود المريض وقول القول، ويجوز على هذه اللغة أن يكون هدنا بالضم فعلنا من هاده يهيده ﴿عذابي﴾ من حاله وصفته إني ﴿أصيب به من أشاء﴾ أي: من وجب عليّ في الحكمة تعذيبه ولم يكن في العفو عنه مساغ لكونه مفسدة. وأمّا رحمتي فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمتي. وقرأ الحسن: من أساء من الإساءة. فسأكتب هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يا بني إسرائيل للذين يكونون في آخر الزمان من أمّة محمد ﷺ الذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون لا يكفرون بشيء منها.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾.

﴿الذين يتبعون الرسول﴾ الذي نوحي إليه كتابًا مختصًا به وهو: القرآن ﴿النبي﴾ صاحب المعجزات ﴿الذي يجدونه﴾ يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل ﴿مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.. ويحلّ لهم الطيبات﴾ ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة والحكم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح، وما خلى كسبه من السحت ﴿ويحرّم عليهم الخبائث﴾ ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به، أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة. الاصر الثقل الذي ياصر صاحبه أي: يحبسه من الحراك لثقله وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم. وكذلك الأغلال، مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة نحو بت القضاء بالقصاص عمدًا كان أو خطأً من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت، وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة، وقرئ: آصارهم: على الجمع ﴿وعزروه﴾ ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدوّ، وقرئ: بالتخفيف، وأصل العزر: المنع،

(1) سورة الأعراف، الآية: 156.

(2) سورة البقرة، الآية: 55.

ومنه التعزير للضرب دون الحد؛ لأنه منع عن معاودة القبيح، ألا ترى إلى تسمية الحدّ والحدّ هو المنع و ﴿النور﴾ القرآن.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿انزل معه﴾ وإنما أنزل مع جبريل؟ قُلْتُ: معناه أنزل مع نبوّته؛ لأنّ استنباءه كان مصحوبًا بالقرآن مشفوعًا به، ويجوز أن يعلق باتبعوا أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه، أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه.

فإن قُلْتَ: كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه؟ قُلْتُ: لما دعا لنفسه ولبني إسرائيل أجيب بما هو منطو على توبيخ بني إسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله تعالى وعلى كفرهم بآيات الله العظام التي أجراها على يد موسى وعرض بذلك في قوله: ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾(1) وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ وما جاء به، كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين، لطفًا لهم وترغيبًا في إخلاص الإيمان والعمل الصالح وفي أن يحشروا معهم ولا يفرّق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة الله التي وسعت كل شيء.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾.

﴿إني رسول الله إليكم جميعًا﴾ قيل: بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد ﷺ إلى كافة الإنس وكافة الجن و ﴿جميعًا﴾ نصب على الحال من إليكم.

فإن قُلْتَ: ﴿الذي له ملك السمٰوات والأرض﴾ ما محله؟ قُلْتُ: الأحسن أن يكون منتصبًا بإضمار أعني وهو الذي يسمى النصب على المدح، ويجوز أن يكون جرًا على الوصف وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إليكم جميعًا﴾ وقوله: ﴿لا إلٰه إلاّ هو﴾ بدل من الصلة التي هي له ملك السمٰوات والأرض وكذلك ﴿يحيي ويميت﴾ وفي لا إلٰه إلاّ هو بيان للجملة قبلها؛ لأنّ من ملك العالم كان هو الإلٰه على الحقيقة وفي يحيي ويميت بيان لاختصاصه بالإلٰهية؛ لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره ﴿وكلماته﴾ وما أنزل عليه وعلى من تقدّمه من الرسل من كتبه ووحيه، وقرئ: وكلمته على الإفراد وهي: القرآن أو أراد جنس ما كلم به، وعن مجاهد: أراد عيسى ابن مريم، وقيل: هي الكلمة التي تكون عنها عيسى وجميع خلقه، وهي قوله: كن، وإنما قيل: إن عيسى كلمه الله فخص بهذا الاسم؛ لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ولم يكن من نطفة تمني

﴿لعلكم تهتدون﴾ إرادة أن تهتدوا.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: فآمنوا بالله وبي بعد قوله: ﴿إني رسول الله إليكم﴾؟ قُلْتُ: عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ولما في طريقه الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو: هذا الشخص المستقل بأنه النبيّ الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنًا من كان أنا أو غيري إظهارًا للنصفة وتفاديًا من العصبية لنفسه.

وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾.

﴿ومن قوم موسى أمة﴾ هم: المؤمنون التائبون من بني إسرائيل لما ذكر الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين: عبادة العجل واستجازة رؤية الله تعالى، ذكرأنّ منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم. وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي ﷺ وآمن به من أعقابهم، وقيل: إنّ بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطًا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ففتح الله لهم نفقًا في الأرض فساروا فيه سنة ونصفًا حتى خرجوا من وراء الصين وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا، ونكر عن النبي ﷺ: «إن جبريل ذهب ليلة الإسراء نحوهم فكلمهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا لا؛ قال: هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به، وقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه مني السلام، فرد محمد على موسى عليهما السلام السلام، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت»، وعن مسروق قرئ بين يدي عبد الله فقال رجل: إني منهم، فقال عبد الله ـ يعني لمن كان في مجلسه من المؤمنين ـ وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئًا؟ من يهدي بالحق وبه يعدل، وقيل: لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين وهذا من باب الفرض والتقدير، وإلا فقد طار الخبر بشريعة محمد ﷺ إلى كل أفق وتغلغل في كل نفق ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا برّ ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها إلا وقد ألقاه إليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ

(1) سورة الأعراف، الآية: 156.

ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾.

﴿وقطعناهم﴾ وصيرناهم قطعًا أي: فرقًا وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم، وقرئ: وقطعناهم بالتخفيف ﴿اثنتي عشرة أسباطًا﴾ كقولك: اثنتي عشرة قبيلة؛ والأسباط أولاد الولد جمع سبط وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدًا من ولد يعقوب عليه السلام.

فإن **قُلْتَ**: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعًا، وهلا قيل اثني عشر سبطًا؟ **قُلْتُ**: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقًا؛ لأنّ المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطًا موضع قبيلة ونظيره.

بين رماحي مالك ونهشل

و﴿أممًا﴾ بدل من اثنتي عشرة بمعنى: وقطعناهم أممًا؛ لأنّ كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى لا تكاد تأتلف. وقرئ اثنتي عشرة بكسر الشين ﴿فانبجست﴾ فانفجرت والمعنى واحد وهو: الانفتاح بسعة وكثرة، قال العجاج:

وكيف غربي دالج تبجسا

فإن **قُلْتَ**: فهلا قيل: فضرب فانبجست؟ **قُلْتُ**: لعدم الإلباس وليجعل الانبجاس مسببًا على الإيحاء بضرب الحجر للدلالة على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به، وقوله ﴿كل أناس﴾ نظير قوله: ﴿اثنتي عشرة أسباطًا﴾[1] يريد كل أمّة من تلك الأمم الثنتي عشرة، والأناس اسم جمع غير تكسير نحو رخال وتناء وتوأم وأخوات لها، ويجوز أن يقال: إنّ الأصل الكسر والتكسير والضمة بدل من الكسرة كما أبدلت في نحو سكارى وغيارى من الفتحة ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ وجعلنا ظليلاً عليهم في التيه و﴿كلوا﴾ على إرادة القول ﴿وما ظلمونا﴾ وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم. ولكن كانوا يضرون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾.

﴿وإذ قيل لهم﴾ واذكر إذ قيل لهم: والقرية بيت المقدس.

فإن **قُلْتَ**: كيف اختلفت العبارة هٰهنا وفي سورة البقرة؟

قُلْتُ: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ولا تناقض بين قوله: ﴿اسكنوا هذه القرية وكلوا منها﴾ وبين قوله: ﴿فكلوا﴾[2] لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها، وسواء قدّموا الحطة على دخول الباب أو أخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله: ﴿نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين﴾ موعد بشيئين بالغفران وبالزيادة وطرح الواو لا يخلّ بذلك؛ لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران فقيل له: سنزيد المحسنين. وكذلك زيادة منهم زيادة بيان ﴿فأرسلنا﴾ وأنزلنا و﴿يظلمون﴾ ويفسقون من واد واحد. وقرئ: يغفر لكم خطيئاتكم ونغفر لكم خطاياكم وخطيئاتكم وخطيئتكم على البناء للمفعول.

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾.

﴿وسلهم﴾ وسل اليهود، وقرئ: واسألهم، وهذا السؤال معناه: التقرير والتقريع بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله والإعلام بأن هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحي فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم علم أنه من جهة الوحي، ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك أعدوتم في السبت. والقرية أيلة، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، والعرب تسمي المدينة قرية، وعن أبي عمرو بن العلاء: ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج. يعني: رجلين من أهل المدن ﴿حاضرة البحر﴾ قريبة منه راكبة لشاطئه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ إذ يتجاوزون حدّ الله فيه وهو: اصطيادهم في يوم السبت وقد نهوا عنه، وقرئ: يعدون بمعنى: يعتدون أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين، ويعدّون من الإعداد وكانوا يعدّون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة، والسبت مصدر، سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد، فمعناه: يعدون في تعظيم هذا اليوم، وكذلك قوله: ﴿يوم سبتهم﴾ معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت ويدل عليه قوله ﴿ويوم لا يسبتون﴾ قراءة عمر بن عبد العزيز: يوم أسباتهم، وقرئ: لا يسبتون بضم الباء، وقرأ علي: لا يسبتون بضم الياء من أسبتوا، وعن الحسن: لا يسبتون على البناء للمفعول أي: لا يدار عليهم السبت ولا يؤمرون بأن يسبتوا.

فإن **قُلْتَ**: ﴿إذ يعدون﴾ و﴿إذ تأتيهم﴾ ما محلهما من الإعراب؟ **قُلْتُ**: أمّا الأوّل: فمجرور بدل من القرية، والمراد بالقرية أهلها كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال، ويجوز أن يكون منصوبًا بكانت أو بحاضرة، وأمّا الثاني: فمنصوب

(1) سورة البقرة، الآية: 58.

(2) سورة الكهف، الآية: 6.

بيعدون، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل. والحيتان السمك وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة ﴿شرعًا﴾ ظاهرة على وجه الماء، وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض يقال: شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا ﴿كذلك نبلوهم﴾ أي: مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾.

﴿وإذ قالت﴾ معطوف على إذ يعدون وحكمه حكمه في الإعراب ﴿أمة منهم﴾ جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم حتى أيسوا من قبولهم لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم ﴿لمَ تعظون قومًا الله مهلكهم﴾ أي: مخترمهم ومطهر الأرض منهم ﴿أو معذبهم عذابًا شديدًا﴾ لتماديهم في الشر، وإنما قالوا ذلك: لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم ﴿قالوا معذرة إلى ربكم﴾ أي: موعظتنا إبلاء عذر إلى الله ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط ﴿ولعلهم يتقون﴾ ولطمعنا في أن يتقوا بعض الاتقاء. وقرئ: معذرة بالنصب أي: وعظناهم معذرة إلى ربكم واعتذرنا معذرة ﴿فلما نسوا﴾ يعني: أهل القرية، فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا﴾ الظالمين الراكبين للمنكر.

فإن قُلْتَ: الأمة الذين قالوا: ﴿لِمَ تعظون﴾ من أي الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم المعذبين قُلْتُ: من فريق الناجين؛ لأنهم من فريق الناهين وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه حيث لم يروا فيه غرضًا صحيحًا لعلمهم بحال القوم، وإذا علم الناهي حال المنهي وأنّ النهي لا يؤثر فيه سقط عنه النهي وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه كان ذلك عبثًا منك ولم يكن إلا سببًا للتلهي بك، وأمّا الآخرون فإنما لم يعرضوا عنهم إمّا لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأوّلين ولم يخبروهم كما خبرهم، أو لفرط حرصهم وجدهم في أمرهم كما وصف الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿فلعلك باخع نفسك﴾[1] وقيل: الأمة هم الموعوظون لما وعظوا قالوا للواعظين: لم تعظون منا قومًا تزعمون أنّ الله مهلكهم أو معذبهم، وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: يا ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا ﴿لِمَ تعظون قومًا﴾ قال عكرمة فقلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تعظون قومًا الله مهلكهم﴾؟ فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، وعن الحسن: نجت فرقتان وهلكت فرقة وهم: الذين أخذوا الحيتان، وروي أنّ اليهود أمروا باليوم الذي أمرنا به وهو: يوم الجمعة فتركوه واختاروا يوم السبت، فابتلوا به وحرم عليهم فيه الصيد وأمروا بتعظيمه، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعًا بيضًا سمانًا كأنها المخاض لا يرى الماء من كثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم جاءهم إبليس فقال لهم: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضًا تسوقون الحيتان إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها وتأخذونها يوم الأحد، وأخذ رجل منهم حوتًا وربط في ذنبه خيطًا إلى خشبة في الساحل ثم شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع في تنوره فقال له: إني أرى الله سيعذبك، فلما لم يره عذب أخذ في السبت القابل حوتين، فلما رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا، فصار أهل القرية أثلاثًا ثلث نهوا وكانوا نحو من اثني عشر ألفًا، وثلث قالوا: لم تعظون قومًا، وثلث هم: أصحاب الخطيئة، فلما لم ينتهوا قال المسلمون: إنا لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب، وللمعتدين باب، ولعنهم داود عليه السلام، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا: إن للناس شأنًا، فعلوا الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسباءها من الإنس، والإنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود، فجعل القرد يأتي نسيبه فيشم ثيابه ويبكي فيقول: ألم ننهك؟ فيقول برأسه: بلى، وقيل: صار الشباب قردة والشيوخ خنازير، وعن الحسن: أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيًا في الدنيا وأطولها عذابًا في الآخرة هاه وايم الله ما حوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم، ولكن الله جعل موعدًا والساعة أدهى وأمر ﴿بئيس﴾ شديد، يقال: بؤس يبؤس بأسًا إذا اشتدّ فهو بئيس، وقرئ: بئس بوزن حذر، وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء كما يقال: كبد في كبد وبيس على قلب الهمزة ياء كذيب في ذئب وبيئس على فيعل بكسر الهمزة وفتحها، وبيس بوزن ريس على قلب همزة بيئس ياء وإدغام الياء فيها، وبيس على تخفيف بيس كهين في هين، وبائس على فاعل.

فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾.

﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ فلما تكبروا عن ترك ما

(1) سورة الكهف، الآية: 6.

نهوا عنه كقوله: ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾[1] ﴿قلنا لهم كونوا قردة﴾ عبارة عن مسخهم قردة كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾[2] والمعنى: أنّ الله تعالى عذبهم أوّلاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم، وقيل: ﴿فلما عتوا﴾ تكرير لقوله: ﴿فلما نسوا﴾[3] العذاب البئيس هو: المسخ ﴿تأذن ربك﴾ عزم ربك وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام، لأنّ العازم على الأمر يحدث نفسه به ويؤذنها بفعله وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله ﴿ليبعثن﴾ والمعنى: وإذ حتم ربك وكتب على نفسه ليبعثن على اليهود ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ فكانوا يؤدون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث الله محمدًا ﷺ فضربها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر، ومعنى: ليبعثن عليهم ليسلطنّ عليهم كقوله: ﴿بعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد﴾[4].

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾.

﴿وقطعناهم في الأرض أممًا﴾ وفرقناهم فيها فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم ﴿منهم الصالحون﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة أو الذين وراء الصين ﴿ومنهم دون ذلك﴾ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه وهم الكفرة والفسقة.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿دون ذلك﴾؟ قُلْتُ: الرفع هو: صفة لموصوف محذوف معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ونحو ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[5] يعني: وما منا أحد إلا له مقام ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ بالنعم والنقم ﴿لعلهم﴾ ينتهون فينيبون.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾.

﴿فخلف﴾ من بعد المذكورين ﴿خلف﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ ﴿ورثوا الكتاب﴾ التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرؤنها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم ولا يعملون بها ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي: حطام هذا الشيء الأدنى يريد الدنيا، وما يتمتع به منها وفي قوله: هذا الأدنى تخسيس وتحقير، والأدنى إما من الدنو بمعنى: القرب لأنه عاجل قريب، وإما من: دنو الحال وسقوطها وقلتها، والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا، وفاعل سيغفر الجار والمجرور وهو: لنا، ويجوز أن يكون الأخذ الذي هو: مصدر يأخذون ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ الواو للحال أي: يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم غير تائبين، وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة والمصر لا غفران له ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ يعني: قوله في التوراة: من ارتكب ذنبًا عظيمًا فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة ﴿ودرسوا ما فيه﴾ في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب، والذي عليه المجبرة هو: مذهب اليهود بعينه كما ترى، وعن مالك بن دينار رحمه الله: يأتي على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به قالوا: سيغفر لنا لأنا لم نشرك بالله شيئًا، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداهنة، فهؤلاء من هذه الأمّة أشباه الذين ذكرهم الله وتلا الآية ﴿والدار الآخرة خير﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿للذين يتقون﴾ الرشا ومحارم الله. وقرئ: ورثوا الكتاب وألا تقولوا بالتاء، وادارسوا بمعنى: تدارسوا وأفلا تعقلون بالياء والتاء.

فإن قُلْتَ: ما موقع قوله: ﴿ألا يقولوا على الله إلا الحق﴾ قُلْتُ: هو عطف بيان لميثاق الكتاب، ومعنى ميثاق الكتاب: الميثاق المذكور في الكتاب وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب وافتراء على الله وتقول عليه ما ليس بحق، وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان أن لا يقولوا مفعولاً له، ومعناه: لئلا يقولوا، ويجوز أن تكون أن مفسرة ولا تقولوا نهيًا كأنه قيل: ألم يقل لهم لا تقولوا على الله إلا الحق.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿ودرسوا ما فيه﴾؟ قُلْتُ: على ﴿ألم يؤخذ عليهم﴾؛ لأنه تقرير، فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾.

﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ فيه وجهان أحدهما: أن يكون مرفوعًا بالابتداء وخبره ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ والمعنى: إنا لا نضيع أجرهم؛ لأنّ المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب كقوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾[6] والثاني: أن يكون مجرورًا عطفًا على الذين يتقون ويكون قوله: ﴿إنا لا نضيع﴾ اعتراضًا. وقرئ: يمسكون بالتشديد وتنصره قراءة أبي: والذين مسكوا بالكتاب.

فإن قُلْتَ: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ومنها

(1) سورة الأعراف، الآية: 77.
(2) سورة يسٓ، الآية: 82.
(3) سورة الأعراف، الآية: 165.
(4) سورة الإسراء، الآية: 5.
(5) سورة الصافات، الآية: 164.
(6) سورة الكهف، الآية: 30.

إقامة الصلاة فكيف أفردت؟ **قُلْتُ**: إظهارًا لمزية الصلاة لكونها عماد الدين، وفارقة بين الكفر والإيمان. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿والذين استمسكوا بالكتاب﴾.

۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾.

﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ قلعناه ورفعناه كقوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾(1) ومنه نتق السقاء إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه. والظلة كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب، وقرئ: بالطاء من أطل عليه إذا أشرف **﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾** وعلموا أنه ساقط عليهم وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخًا في فرسخ، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل منهم ساجدًا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقًا من سقوطه، فلذلك لا ترى يهوديًا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنابها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فلذلك لا ترى يهوديًا تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وانغض لها رأسه **﴿خذوا ما آتيناكم﴾** على إرادة القول أي: وقلنا خذوا ما آتيناكم، أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب **﴿بقوة﴾** وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه **﴿واذكروا ما فيه﴾** من الأوامر والنواهي ولا تنسوه أو واذكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه، ويجوز أن يراد خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوّة إن كنتم تطيقونه كقوله: ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السمٰوات والأرض فانفذوا﴾(2) **﴿واذكروا ما فيه﴾** من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار **﴿لعلكم تتقون﴾** ما أنتم عليه. وقرأ ابن مسعود: ﴿وتذكروا﴾، وقرئ: ﴿واذكروا﴾ بمعنى: وتذكروا.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾.

﴿من ظهورهم﴾ بدل من بني آدم بدل البعض من الكل ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلاً وإشهادهم على أنفسهم وقوله: **﴿ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾** من باب التمثيل(3) والتخييل ومعنى ذلك أنه: نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا أقررنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفي كلام العرب ونظيره قوله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾(4) ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين﴾(5) وقوله:

إذ قالت الأنساع للبطن الحق ... قالت له ريح الصبا قرقار

ومعلوم أنه لا قول ثم، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى **﴿أن تقولوا﴾** مفعول له أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة أن تقولوا **﴿يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾** لم ننبه عليه **﴿أو﴾** كراهة أن **﴿تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾** فاقتدينا بهم؛ لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم.

فإن **قُلْتَ**(6): بنو آدم وذرياتهم من هم؟ **قُلْتُ**: عنى ببني آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله حيث قالوا: عزيرًا ابن الله، وبذرياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من أخلافهم المقتدين بآبائهم والدليل على أنها في المشركين وأولادهم قوله: **﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل﴾** والدليل على أنها في اليهود الآيات التي عطفت عليها والتي عطفت عليها وهي على نمطها وأسلوبها وذلك قوله: ﴿واسألهم عن القرية﴾(7) ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون﴾(8) ﴿وإذ تأذن ربك﴾(9) ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾(10) ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾(11) **﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾** أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك وتقدمهم فيه وتركه سنة لنا.

---

(1) سورة النساء، الآية: 154.
(2) سورة الرحمٰن، الآية: 33.
(3) قال أحمد: إطلاق التمثيل لحسن، وقد ورد الشرع به، وأمّا إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى، فمردود ولم يرد به سمع، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة، ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف لمعقول، ويجب إقراره على ما هو عليه، فلذلك أقرّه الأكثرون على ظاهره وحقيقته، ولم يجعلوه مثالاً، وأما كيفية الإخراج والمخاطبة، فالله أعلم بذلك.
(4) سورة النحل، الآية: 40.
(5) سورة فصلت، الآية: 11.
(6) قال أحمد والأظهر أنها شاملة لجملة بني آدم، فتدخل اليهود في عمومها؛ لأنّ كل واحد من بني آدم يصدق عليه الأمران جميعاً، أنه ابن آدم، وأنه ذريته، ولا يخرج من هذا، إلا آدم عليه السلام، وإنما لم ينكر لظهوره، ولا يخلو الكلام عن النوع المسمى في فن البلاغة، باللف اختصاراً، وإيجازاً.
(7) سورة الأعراف، الآية: 163.
(8) سورة الأعراف، الآية: 164.
(9) سورة الأعراف، الآية: 167.
(10) سورة الأعراف، الآية: 171.
(11) سورة الأعراف، الآية: 175.

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾.

﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نفصل الآيات﴾ لهم ﴿ولعلهم يرجعون﴾ وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفصلها. وقرئ: ذريتهم على التوحيد وأن يقولوا بالياء.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾.

﴿واتل عليهم﴾ على اليهود ﴿نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ هو عالم من علماء بني إسرائيل وقيل: من الكنعانيين اسمه بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله ﴿فانسلخ منها﴾ من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ﴿فأتبعه الشيطان﴾ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينًا له، أو فأتبعه خطواته وقرئ: فاتبعه بمعنى: فتبعه ﴿فكان من الغاوين﴾ فصار من الضالين الكافرين. روي أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى وقال: كيف أدعو على من معه الملائكة؟ فألحوا عليه ولم يزالوا به حتى فعل.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾.

﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ مال إلى الدنيا ورغب فيها، وقيل: مال إلى السفالة.

فإن قُلْتَ: كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟ قُلْتُ: المعنى ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات، فذكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها ألا ترى إلى قوله: ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو: فعله فوجب أن يكون ولو شئنا في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكنا لم نشأ ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها. وهي حال دوام اللهث به واتصاله سواء حمل عليه أي: شدّ عليه وهيج فطرد، أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه، وذلك أنّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرّك وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعًا، وكان حق الكلام أن يقال ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته فوضع قوله ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ موضع حططناه أبلغ حط؛ لأنّ تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأذلها في معنى ذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الكلب منقطع الفؤاد يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه[1]، وقيل معناه: إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته فسعى لهث وإن تركته على حاله لهث.

فإن قُلْتَ: ما محل الجملة الشرطية؟ قُلْتُ: النصب على الحال كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائم الذلة لاهثًا في الحالتين، وقيل: لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به، ﴿فاقصص﴾ قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿لعلهم يتفكرون﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذ ساروا نحو سيرته وزاغوا شبه زيغه، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي فيزدادوا إيقانًا بك وتزداد الحجة لزومًا لهم ﴿ساء مثلاً القوم﴾ أي: مثل القوم، أو ساء أصحاب مثل القوم، وقرأ الجحدري ساء مثل القوم ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ إما أن يكون معطوفًا على كذّبوا فيدخل في حيز الصلة بمعنى: الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم، وإما أن يكون كلامًا منقطعًا عن الصلة بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب وتقديم المفعول به للاختصاص كأنه قيل: وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدها إلى غيرها ﴿فهو المهتدي﴾ حمل على اللفظ و ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ حمل على المعنى.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾.

﴿كثيرًا من الجن والإنس﴾ هم: المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان، وجعلهم لإعراقهم في الكفر وشدّة شكائمهم فيه وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار، ومنه كتاب عمر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك دلوكًا عجن بخمر وإني لأظنكم آل المغيرة ذرء النار[2]، ويقال لمن كان عريقًا في بعض الأمور: ما خلق فلان إلا لكذا، والمراد وصف حال اليهود في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله ﷺ مع علمهم أنه النبي الموعود وأنهم

---

(1) لم يخرجه الزيلعي 1/473.

(2) أبو عبيدة في كتاب: غريب الحديث، الزيلعي 1/473.

من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم كأنهم خلقوا للنار ﴿أولئك كالأنعام﴾ في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبر ﴿بل هم أضل﴾ من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبر ﴿أولئك هم الغافلون﴾ الكاملون في الغفلة، وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار.

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾.

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾[1] التي هي أحسن الأسماء؛ لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك ﴿فادعوه بها﴾ فسموه بتلك الأسماء ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم[2]: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا نخي، أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى نحو أن يقولوا: يا الله، ولا يقولوا: يا رحمٰن وقد قال الله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾[3] ويجوز أن يراد[4]: ولله الأوصاف الحسنى وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق فصفوه بها، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيصفونه بمشيئة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها، وقيل[5]: الحادهم في أسمائه تسميتهم الأصنام آلهة، واشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزيز.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾.

لما قال ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا﴾[6] فأخبر أنّ كثيرًا من الثقلين عاملون بأعمال أهل النار أتبعه قوله ﴿وممن خلقنا أمّة يهدون بالحق﴾ وعن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا قرأها: «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق»[7] وعنه ﷺ: «إنّ من أمّتي قومًا على الحق حتى ينزل عيسى عليه السلام»[8] وعن الكلبي: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، وقيل: هم العلماء والدعاة إلى الدين.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾.

الاستدراج استفعال من الدرجة بمعنى: الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة قال الأعشى:

فلو كنت في جبِّ ثمانين قامة ... ورقيت أسباب السماء بسلم
ليستدرجنك القول حتى تهره ... وتعلم أني عنكم غير مفحم

ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب طواه شيئًا بعد شيء، ودرج القوم مات بعضهم في أثر بعض، ومعنى ﴿سنستدرجهم﴾ سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم ﴿من حيث لا يعلمون﴾ ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي، فكلما جدّد عليهم نعمة ازدادوا بطرًا وجدّدوا معصية فيتدرّجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانين أنّ مواترة النعم أثرة من الله وتقريب، وإنما هي خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه.

وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾.

﴿وأملي لهم﴾ عطف على سنستدرجهم وهو داخل في حكم السين ﴿إنّ كيدي متين﴾ سماه كيدًا لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان ﴿ما بصاحبهم﴾ بمحمد ﷺ ﴿من جنة﴾ من جنون، وكانوا يقولون شاعر مجنون، وعن قتادة: أنّ النبي ﷺ: «علا الصفا فدعاهم فخذًا فخذًا يحذرهم بأس الله». فقال قائلهم: إنّ صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت إلى الصباح.

أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾.

﴿أولم ينظروا﴾ نظر استدلال ﴿في ملكوت السموات والأرض﴾ فيما تدلان عليه من عظم الملك، والملكوت الملك العظيم[9] ﴿وما خلق الله من شيء﴾ وفيما خلق الله مما

---

(1) قال أحمد: أي، مما يجوز عليه، وإن لم يرد إطلاقه شرعاً، كالسيف والعارف، ونحو ذلك.

(2) قال أحمد: وفي هذا التأويل بعد؛ لأنّ ترك الدعاء ببعض الأسماء لا يطلق عليه إلحاد في العرف، وإنما يطلق على فعل لا على ترك، ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملحد فيها إلى ذاته، وهذا أدل على الحرمن منه على مثل أبيض الوجه، ونحوه، فإن هذا ليس من أسمائه، إلا أن يقال أضافه إليه تنزيلاً على زعمهم.

(3) سورة الإسراء، الآية: 110.

(4) قال أحمد: لا يدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع يسعها، فإن يكن المراد الأوصاف، فالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة، والانفراد بالمخلوقات، حتى لا يشرك معه عباده في خلق أفعالهم، ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل، وإن كل قضائه = عدل، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم، وإن وعده الصدق، وقوله الحق، وقد وعد رؤيته، فوجب وقوعها إلى غير ذلك من أوصافه الجليلة، وذرو الذين يلحدون في أوصافه، فيجحدونها، ثم يزعمون أنه لا يشمل قدرته المخلوقات، بل هي مقوسمة بينه وبين عباده، ويوجبون عليه رعاية ما يتوهمونه مصلحة، ويحجرون واسعاً من مغفرته، وعفوه، وكرمه على الخطائين، من موحديه إلى غير ذلك من الإلحاد، المعروف بالطائفة المتلقبين علنية المزكين، لأنفسهم، وهو أعلم بمن اتقى.

(5) قال أحمد: وهذا تفسير حسن ملائم، والله أعلم.

(6) سورة الأعراف، الآية: 179.

(7) الثعلبي في تفسيره.

(8) رواه أحمد في مسنده 4/429.

(9) رواه الطبراني في تفسيره.

يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف ﴿وأن عسى﴾ أن مخففة من الثقيلة والأصل وأنه عسى على أن الضمير ضمير الشأن، والمعنى: أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى ﴿أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ ولعلهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل مغافصة الأجل وحلول العقاب؛ ويجوز أن يراد باقتراب الأجل اقتراب الساعة، ويكون من كان التي فيها ضمير الشأن.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق؟ قوله: ﴿فبأيّ حديث بعده يؤمنون﴾ قُلْتُ: بقوله: ﴿عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ كأنه قيل: لعلّ أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحقّ، وبأيّ حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا. قرئ: ويذرهم بالياء والنون والرفع على الاستئناف، ويذرهم بالياء والجزم عطفًا على محل فلا هادي له كأنه قيل: من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧﴾.

﴿يسئلونك﴾ قيل: إنّ قومًا من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا فإنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحانًا منهم مع علمهم أنّ الله تعالى قد استأثر بعلمها، وقيل: السائلون قريش. والساعة من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو على العكس لطولها أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق﴿أيان﴾ بمعنى: متى، وقيل: اشتقاقه من أيّ فعلان منه؛ لأن معناه: أيّ وقت وأيّ فعل من أويت إليه؛ لأنّ البعض آو إلى الكل متساند إليه قاله ابن جني وأبى أن يكون من أين لأنه زمان وأين مكان، وقرأ: السلمي إيان بكسر الهمزة ﴿مرساها﴾ إرساؤها أو وقت إرسائها أي: إثباتها وإقرارها، وكل شيء ثقيل رسوه ثباته واستقراره، ومنه رسى الجبل وأرسى السفينة والمرسي الأنجر الذي ترسي به، ولا أثقل من الساعة بدليل قوله: ﴿ثقلت في السمٰوات والأرض﴾ والمعنى: متى يرسيها الله؟ ﴿إنما علمهما﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحدًا من ملك مقرّب ولا نبي مرسل، يكاد يخفيها من نفسه ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو: وقت الموت لذلك ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي: لا تزال خفية لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا يجليها بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها ﴿ثقلت في السمٰوات والأرض﴾ أي: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة وبوده أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه أو ثقلت فيها؛ لأنّ أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدها وأهوالها أو؛ لأنّ كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها ﴿إلا بغتة﴾ إلا فجاة على غفلة منكم، وعن النبي ﷺ: إنّ الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه[1] ﴿كأنك حفي عنها﴾ كأنك عالم بها، وحقيقته كأنك بليغ[2] في السؤال عنها؛ لأنّ من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقير عنه استحكم علمه فيه ورصن، وهذا التركيب معناه: المبالغة، ومنه إحفاء الشارب، واحتفاء البقل استئصاله، وأحفى في

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: الرقاق، باب: (40) (الحديث رقم: 6506) ومسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، (الحديث رقم: 7339).

(2) قال أحمد: وفي هذا النوع من التنكرير نكتة لا تلفى، إلا في هذا الكتاب العزيز، وهو لجل من أن يشارك فيها، وذلك أنّ المعهود في أمثال هذا التكرير، أنّ الكلام إذا بنى على مقصد، واعترض في أثنائه عارض، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأوّل، وقد بعد عهده طرى بذكر المقصد الأوّل لتتصل نهايته ببدايته، وقد تقدّم لذلك في الكتاب العزيز أمثال، وسيأتي وهذا منها فإنه لما ابتدا الكلام بقوله: ﴿يسئلونك عن الساعة أيان مرساها﴾ ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله: ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾، إلى قوله ﴿بغتة﴾ أريد تتميم سؤالها عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن في قوله كأنك حفي عنها، وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده فطرى ذكره تطرية عامة، ولا نراه أبداً يطرى، إلا بنوع من الإجمال، كالتذكرة للأوّل مستغنى عن تفصيله بما تقدّم، فمن ثمّ قيل يسألونك، ولم يذكر المسؤل عنه، وهو الساعة اكتفاء بما تقدّم، فلما كرّر السؤال لهذه الفائد كرّر الجواب أيضاً مجملاً، فقال قل إنما علمها عند الله، ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد=

= بسطه، ومن أنق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير، لأجل بعد العهد تطرية للذكر قوله: ﴿عجل﴾ لنا هذا، والحقنا بذا آل الشحم إنا قد مللناه بجل، أي: فقط، فنكر الألف واللام خاتمة للأوّل من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثاني استبعد العهد بالأولى، فطرى ذكرها، وأبقى الأولى في مكانها، ومن ثم استدل ابن جنى على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء، فهو بيت كامل وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن قال: ولو كان بيتاً واحداً لم يكن عهد الأولى متباعداً، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها، ألا ترى أن عبيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات، وجعل آخر المصراع الأوّل أل لم يعدها أوّل المصراع الثاني؛ لأنه بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً، وذلك قوله:

يا خليلي اربعاً واستنجرا الـ منزل الدراس من أهل الحلال
مثل سحق البرد عفى بعدك الـ قطر مغناء وتأويب الشمال

ثم لسترسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً، فانظر هذه النكتة كيف بالغت العرب في رعايتها، حتى عدت القريب بعيداً، والمتقاصر مديداً، فتاملها، فإنها تحفة إنما عند الحذاق الأعيان في صناعتي العربية، والبيان، والله المستعان.

المسألة إذا ألحف، وحفي بفلان وتحفى به بالغ في البرّ به، وعن مجاهد: استحفيت عنها السؤال حتى علمت، وقرأ ابن مسعود: كأنك حفي بها أي: عالم بها بليغ في العلم بها، وقيل: عنها متعلق بيسئلونك أي: يسئلونك عنها كأنك حفي أي: عالم بها، وقيل: إنّ قريشًا قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسئلونك عنها كأنك حفي تتحفي بهم فتختصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوي علمها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به لكنت مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص كسائر ما أوحي إليك، وقيل: كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه وتؤثره، يعني أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحد من خلقه.

فإن قُلْتَ: لم كرر ﴿يسئلونك﴾ وإنما علمها عند الله؟ قُلْتُ: للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله: ﴿كأنك حفي عنها﴾، وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة منهم محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمهما الله ﴿ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ أنه العالم بها وأنه المختص بالعلم بها.

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾.

﴿قل لا أملك لنفسي﴾ هو: إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كما المماليك والعبيد ﴿إلا ما شاء﴾ ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واستغزار المنافع واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسني شيء منها، ولم أكن غالبًا مرة ومغلوبًا أخرى في الحروب ورابحًا وخاسرًا في التجارات، ومصيبًا ومخطئًا في التدابير ﴿إن أنا إلا﴾ عبد أرسلت نذيرًا وبشيرًا وما من شأني أني أعلم الغيب ﴿لقوم يؤمنون﴾ يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعًا؛ لأنّ النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم، أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفًا أي: إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون.

۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾.

﴿من نفس واحدة﴾ وهي نفس آدم عليه السلام ﴿وجعل منها زوجها﴾ وهي حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه أو من جنسها كقوله: ﴿جعل لكم من انفسكم ازوجًا﴾[1] ﴿ليسكن إليها﴾ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر؛ لأنّ الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضًا منه كان السكون والمحبة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه، وقال: ﴿ليسكن﴾ فذكر بعد ما أنث في قوله واحدة منها زوجها ذهابًا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم، و؛ لأنّ الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها فكان التذكير احسن طباقًا للمعنى. والتغشي كناية عن الجماع وكذلك الغشيان والإتيان ﴿حملت حملاً خفيفًا﴾ خف عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه، وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته ﴿فمرت به﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق، وقيل: ﴿حملت حملاً خفيفًا﴾ يعني: النطفة فمرت به فقامت به وقعدت، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فاستمرت به، وقرأ يحيى بن يعمر: فمرت به بالتخفيف، وقرأ غيره: فمارت به من المرية كقوله: ﴿أفتمارونه﴾[2] وأفتمرونه، ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل فارتابت به ﴿فلما أثقلت﴾ حان وقت ثقل حملها كقولك: أقربت، وقرئ: أثقلت على البناء للمفعول أي: أثقلها الحمل دعوا الله ربهما دعا آدم وحواء ربّهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا ﴿لئن آتيتنا﴾ لئن وهبت لنا ﴿صالحًا﴾ ولدًا سويًا قد صلح بدنه وبرئ، وقيل: ولدًا ذكرًا؛ لأنّ الذكورة من الصلاح والجودة والضمير[3] في آتيتنا و ﴿لنكونن﴾ لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما ﴿فلما آتاهما﴾ ما طلباه من الولد الصالح السوي ﴿جعلا له شركاء﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فيما آتاهما﴾ أي: آتى أولادهما، وقد دلّ على ذلك بقوله:

---

(1) سورة الشورى، الآية: 11.

(2) سورة النجم، الآية: 12.

(3) قال أحمد: وأسلم من هذين التفسرين، وأقرب، والله أعلم أن يكون المراد: جنسي الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكان المعنى، والله أعلم: خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً، لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس، الذي هو الذكر الجنس الآخر، الذي هو الأنثى، جرى من هذين الجنسين كيت، وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس، وإن كان فيهم الموحدون؛ لأنّ المشركين منهم أئذا ما مت لسوف أخرج حياً، ﴿وقتل الإنسان ما = = اكفره إن الإنسان لفي خسر﴾ كما أنه كذلك على التفسير الأوّل أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء، وهو واقع من بعضهم، وعلى التفسير الثاني أضافه إلى قصي وعقبه، والمراد البعض، فهذا السؤال، وارد على التأويلات الثلاثة، وجوابه واحد، ويسلم هذا الثالث من حذف المضاف المضطر إليه في التأويل الأوّل، ومما ينصرف إلى التأويل الثاني من استبعاد تخصيص قصي بهذا الأمر المشترك في الجنس، وهو جعل زوجته منه، وكون المراد بذلك أن يسكن إليها، لأنّ ذلك عام في الجنس، والله أعلم.

﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريئان من الشرك ومعنى: إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم، ووجه آخر: وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ وهم: آل قصي، ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد[1].

فيا لقصي ما زوى الله عنكم به من فخار لا يباري وسودد

ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصي وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار، وجعل الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه. وقرئ: شركًا أي: ذوي شرك وهم: الشركاء، أو أحدثا لله شركًا في الولد.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾.

أجريت الأصنام مجرى أولي العلم في قوله ﴿وهم يخلقون﴾ بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة، والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله وهم يخلقون؛ لأنّ الله عز وجل خالقهم أو لا يقدر على اختلاق شيء لأنه جماد وهم يخلقون لأنّ عبدتهم يختلقونهم فهم أعجز من عبدتهم ﴿ولا يستطيعون لهم﴾ لعبدتهم ﴿نصرًا ولا أنفسهم ينصرون﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث، بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم.

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾.

﴿وإن تدعوهم﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إلى الهدى﴾ أي: إلى ما هو هدى ورشادًا وإلى أن يهدوكم، والمعنى: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبتكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله ويدل عليه قوله: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾[2] ﴿سواء عليكم أدعوتموهم﴾ أم صمتم عن دعائهم في أنه لا فلاح معهم.

فإن قُلتَ: هلا قيل أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية؟ قُلتُ: لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم كقوله: ﴿وإذا مس الناس ضر﴾[3] فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، فقيل: إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾.

﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله ﴿عباد أمثالكم﴾ وقوله: عباد أمثالكم استهزاء بهم أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عبادًا أمثالهم فقال: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾ وقيل: عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم، وقرأ سعيد بن جبير: «إنِ الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالكم» بتخفيف إنْ ونصب عبادًا أمثالكم والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالكم على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ثم كيدون﴾ جميعًا أنتم وشركاؤكم ﴿فلا تنظرون﴾ فإني لا أبالي بكم، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خوّفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك، كما قال قوم هود له: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾[4] قال لهم: ﴿إني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون﴾[5].

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾.

﴿إن ولي الله﴾ أي: ناصري عليكم الله ﴿الذي نزل الكتاب﴾ الذي أوحي إليّ كتابه وأعزني برسالته ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ ومن عادته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ولا يخذلهم ﴿ينظرون إليك﴾ يشبهون الناظرين إليك؛ لأنهم صوّروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه ﴿وهم لا يبصرون﴾ وهم لا يدركون المرئيّ.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾.

﴿العفو﴾ ضد الجهد أي: خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ولا تداقهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا» وقال:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 3/9.

(2) سورة الأعراف، الآية: 194.

(3) سورة الروم، الآية: 33.

(4) سورة هود، الآية: 54.

(5) سورة هود، الآيتان: 54 و55.

وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم وذلك قبل نزول آية الزكاة فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعًا أو كرهًا. والعرف: المعروف والجميل من الأفعال ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ ولا تكافيء السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم، واحلم عنهم وأغض على ما يسوءك منهم، وقيل: لما نزلت الآية سأل جبريل فقال: لا أدري حتى أسأل، ثم رجع فقال: يا محمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك[1]، وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ وإما ينخسنك منه نخس بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به ﴿فاستعذ بالله﴾ ولا تطعه النزغ والنسغ الغرز والنخس كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي وجعل النزغ نازغًا كما قيل: جدّ جدّه، وروي أنها لم نزلت قال رسول الله ﷺ: «كيف يا رب والغضب»[2] فنزل و ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ ويجوز أن يراد بنزغ الشيطان: اعتراء الغضب كقول أبي بكر رضي الله عنه: إنّ لي شيطانًا يعتريني[3] ﴿طيف من الشيطان﴾ لمة منه مصدر من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفًا قال:

أني لم أبك الخيال بطيف

أو هو تخفيف طيف فيعل من طاف يطيف كلين، أو من طاف يطوف كهين، وقرئ: طائف وهو يحتمل الأمرين أيضًا، وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأنّ المتقين هذه عادتهم إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته ﴿تذكروا﴾ ما أمر الله به ونهى عنه، فأبصروا السداد، ودفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم. وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين فإنّ الشياطين يمدونهم في الغي أي: يكونون مددًا لهم فيه ويعضدونهم. وقرئ يمدونهم من الإمداد ويمادّونهم بمعنى: يعاونونهم ﴿ثم لا يقصرون﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا، وقوله: ﴿وإخوانهم يمدونهم﴾ كقوله:

قوم إذا الخيل جالوا في كواثبها

في أنّ الخبر جار على غير ما هو له، ويجوز أن يراد بالإخوان: الشياطين ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين فيكون الخبر جاريًا على ما هو له، والأوّل أوجه؛ لأنّ إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا.

فإن قُلْتَ: لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟ قُلْتُ: المراد به الجنس كقوله: ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾[4].

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

اجتبى الشيء بمعنى: جباه لنفسه أي: جمعه، كقولك: اجتمعه، أو جبى إليه فاجتباه أي: أخذه، كقولك: جليت إليه العروس فاجتلاها، ومعنى ﴿لولا اجتبيتها﴾ هلا اجتمعتها افتعالاً من عند نفسك؛ لأنهم كانوا يقولون إن هذا إلا إفك مفترى أو هلا أخذتها منزّلة عليك مقترحة ﴿قل إنما أتبع ما يوحي إليّ من ربي﴾ ولست بمفتعل للآيات أو لست بمقترح لها ﴿هذا بصائر﴾ هذا القرآن بصائر ﴿من ربكم﴾ أي: حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة، وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن، وقيل معناه: وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له، وقيل معنى فاستمعوا له: فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

﴿واذكر ربك في نفسك﴾ هو: عامّ في الأذكار من قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل وغير ذلك ﴿تضرّعًا وخيفة﴾ متضرعًا وخائفًا ﴿ودون الجهر﴾ ومتكلمًا كلامًا دون الجهر؛ لأنّ الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر ﴿بالغدوّ والآصال﴾ لفضل هذين الوقتين، أو أراد الدوام ومعنى بالغدوّ: بأوقات الغدوّ وهي الغدوات، وقرئ: والإيصال من آصل إذا دخل في الأصيل كأقصر وأعتم وهو مطابق للغدوّ ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

﴿إنّ الذين عند ربك﴾ هم: الملائكة صلوات الله عليهم، ومعنى: عند دنو الزلفة والقرب من رحمة الله تعالى وفضله لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته ﴿وله يسجدون﴾ ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين.

(1) رواه الطبراني في تفسيره.
(2) رواه الطبراني في تفسيره.
(3) أخرجه الزيلعي في مسنده 1/481.
(4) سورة البقرة، الآية: 257.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس سترًا، وكان آدم شفيعًا له يوم القيامة»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال مدنية

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

النفل الغنيمة؛ لأنها من فضل الله تعالى وعطائه. قال لبيد:

إنّ تقوى ربنا خير نفل

والنفل ما ينفله الغازي أي: يعطاه زائدًا على سهمه من المغنم، وهو: أن يقول الإمام تحريضًا على البلاء في الحرب: من قتل قتيلاً فله سلبه، أو قال لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو فلكم نصفه، أو ربعه، ولا يخمس النفل، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه، وعند الشافعي رحمه الله في أحد قوليه: لا يلزم، ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا رسول الله ﷺ كيف تقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها؟ أللمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعًا؟ فقيل له: قل لهم: هي لرسول الله ﷺ، وهو الحاكم فيها خاصة، يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم، وقيل: شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينفله، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين، وأسروا سبعين، فلما يسر الله الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، فقال الشبان: نحن المقاتلون، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا ردأ لكم وفئة تنحازون إليها إن انهزمتم[2]، وقالوا لرسول الله ﷺ: المغنم قليل والناس كثير، وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك، فنزلت، وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأعجبني، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: إنّ الله قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف، فقال: «ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض» فطرحته وبي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزلت سورة الأنفال: «فقال: يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذه»[3]، وعن عبادة بن الصامت: نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ فقسمه بين المسلمين على السواء وكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، وإصلاح ذات البين[4]، وقرأ ابن محيصن: يسألونك علنفال بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام نون عن في اللام، وقرأ ابن مسعود: يسألونك الأنفال، أي: يسألك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال.

فإن قُلْتَ: ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول في قوله ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾؟ قُلْتُ: معناه أنّ حكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوّضًا إلى رأي أحد، والمراد أنّ الذي اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواسي المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافي ﴿فاتقوا الله﴾ في الاختلاف والتخاصم وكونوا متحدين متآخين في الله ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ وتآسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل به عليكم، وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال: اقسموا غنائمكم بالعدل فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال: ليرد بعضكم على بعض.

فإن قُلْتَ: ما حقيقة قوله ذات بينكم؟ قُلْتُ: أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق كقوله: ﴿بذات الصدور﴾[5] وهي مضمراتها لما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها: ذات البين كقولهم: أسقني ذا إنائك، يريدون ما في الإناء من الشراب، وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ليعلمهم أنّ كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها، ومعنى قوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم كاملي الإيمان، واللام في قوله ﴿إنما المؤمنون﴾ إشارة إليهم أي: إنما الكاملون الإيمان من صفتهم كيت وكيت والدليل عليه قوله: ﴿أولئك هم المؤمنون حقًا﴾ ﴿وجلت قلوبهم﴾

---

(1) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات والثعلبي والديلمي، الزيلعي 1/ 483.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النفل، (الحديث رقم: 2737)، والحاكم في المستدرك 2/326.

(3) رواه أحمد في مسنده (1/181) وأبو عبيدة في الأموال (الحديث رقم 756).

(4) رواه أحمد في مسنده (5/322).

(5) شطر آية ورد في اثني عشر موضعاً منها: سورة آل عمران، الآية: 119.

فزعت، وعن أمّ الدرداء: الوجل في القلب كاحتراق السعفة أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى، قالت: فادع الله فإنّ الدعاء يذهبه، يعني فزعت لذكره استعظامًا له وتهيبًا من جلاله وعزة سلطانه وبطشه بالعصاة وعقابه، وهذا الذكر خلاف الذكر في قوله: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾[1]؛ لأنّ ذلك ذكر رحمته ورأفته وثوابه، وقيل: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له: اتق الله فينزع، وقرئ: وجلت بالفتح وهي لغة نحو وبق في وبق، وفي قراءة عبد الله: فرقت ﴿زادتهم إيمانًا﴾ ازدادوا بها يقينًا وطمأنينة نفس؛ لأنّ تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه وقد حمل على زيادة العمل، وعن أبي هريرة رضي الله عنه الإيمان سبع وسبعون شعبة أعلاها: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان[2]، وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إنّ للإيمان سننًا وفرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم لا يخشون ولا يرجون إلا إياه. جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة.

﴿حقًا﴾ صفة للمصدر المحذوف أي: أولئك هم المؤمنون إيمانًا حقًا، أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي: أولئك هم المؤمنون كقولك: هو عبد الله حقًا أي: حق ذلك حقًا، وعن الحسن: أنّ رجلاً سأله أمؤمن أنت؟ قال: الإيمان إيمانان: فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، والجنة، والنار، والبعث، والحساب فأنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قوله: ﴿إنما المؤمنون﴾ فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا؟ وعن الثوري: من زعم أنه مؤمن بالله حقًا، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة، فقد آمن بنصف الآية. وهذا إلزام منه يعني: كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقًا فلا يقطع بأنه مؤمن حقًا، وبهذا تعلق من يستثني في الإيمان، وكان أبو حنيفة رضي الله عنه ممن لا يستثني فيه، وحكي عنه أنه قال لقتادة: لم تستثني في إيمانك؟ قال: اتباعًا لإبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾[3] فقال له: هلا اقتديت به في قوله: ﴿أولم تؤمن قال بلى﴾[4] ﴿درجات﴾ شرف وكرامة وعلوّ منزلة ﴿ومغفرة﴾ وتجاوز لسيئاتهم ﴿ورزق كريم﴾ نعيم الجنة، يعني: لهم منافع حسنة دائمة على سبيل التعظيم وهذا معنى الثواب.

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾.

﴿كما أخرجك ربك﴾[5] فيه وجهان: أحدهما: أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال إخراجك يعني: أنّ حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب، والثاني: أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدّر في قوله: ﴿الأنفال لله والرسول﴾[6] أي: الأنفال استقرّت لله والرسول وثبت مع كراهتهم ثباتًا مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون و ﴿من بيتك﴾ يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها؛ لأنها مهاجره ومسكنه فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه ﴿بالحق﴾ أي: إخراجًا ملتبسًا بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه ﴿وإنّ فريقًا من المؤمنين لكارهون﴾ في موضع الحال أي: أخرجك في حال كراهتهم، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبًا منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير وقلة القوم، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم،

---

(1) سورة الزمر، الآية: 23.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: عدد شعب الإيمان (الحديث رقم: 151) وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في رد الإرجاء (الحديث رقم: 4676)، والترمذي في كتاب: الإيمان باب: ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه (الحديث رقم: 2614)، والنسائي في كتاب: الإيمان وشرائطه، باب: شعب الإيمان (الحديث رقم: 5004)، وابن ماجه في كتاب: المقدمة، باب في الإيمان (الحديث رقم: 57).

(3) سورة الشعراء، الآية: 82.

(4) سورة البقرة، الآية: 265.

(5) قال أحمد: وكان جدي أبو العباس أحمد الفقيه الوزير رحمه الله= يذكر في معنى الآية وجهاً أوجه من هذين، وهو أن المراد: تشبيه اختصاصه عليه السلام بالأنفال، وتفويض أمرها إلى حكمه من حيث الإثابة، والجزاء بإخراجه من بيته مطيعاً لله تعالى سامعاً لأمره راضياً بحكمه على كراهة المؤمنين لذلك في الطاعة، فشبّه الله تعالى ثوابه بهذه المزية بطاعته المرضية، فكما بلغت طاعة الغاية في نوع الطاعات، فكذلك بلغت إثابة الله له، الغاية في جنس المثوبات، وجماع هذا المعنى هو: المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام الأجر، على قدر النصب، ولك على هذا المعنى أن تجعل الكاف مرفوعة، ومنصوبة على حسب التقدير، والله الموفق.

(6) سورة الأنفال، الآية: 1.

فنادى أبو جهل فوق الكعبة، يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول، عيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبدًا. وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رؤيا فقالت لأخيها: إني رأيت عجبًا! رأيت كأن ملكًا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة، فحدث بها العباس، فقال أبو جهل: ما يرضي رجالهم أن يتنبؤا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير، فقيل له: إنّ العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا والله لا يكون ذلك أبدًا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا، وإنّ محمدًا لم يصب العير وإنا قد أعضضناه، فمضى بهم إلى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يومًا في السنة، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين إمّا العير وإمّا قريشًا، فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: «ما تقولون إنّ القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب إليكم أم النفير»؟ قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدوّ، فتغير وجه رسول الله ﷺ ثم ردّد عليهم فقال: «إنّ العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل». فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدوّ، فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة فقال: انظر أمرك فامض، فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض لما أمرك الله، فإنا معك حيث لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «أشيروا عليّ أيها الناس وهو يريد الأنصار»؛ لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع آباءنا ونساءنا، فكان النبي ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته إلا على عدوّ دهمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعلّ الله يريك منا ما تقرّبه عينك فسربنا على بركة الله، ففرح رسول الله ﷺ وبسطه قول سعد، ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا فإنّ الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»، وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو في وثاقه، لا يصلح فقال له النبي ﷺ: «لم»؟ قال: لأنّ الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك[2]، وكانت الكراهة من بعضهم لقوله: ﴿وإنّ فريقًا من المؤمنين لكارهون﴾ والحق الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ تلقي النفير لإيثارهم عليه تلقي العير.

﴿بعد ما تبين﴾ بعد إعلام رسول الله ﷺ بأنهم ينصرون. وجدالهم قولهم: ما كان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب، وذلك لكراهتهم القتال. ثم شبّه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يعتل إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها، وقيل: كان خوفهم لقلة العدد وأنهم كانوا رجالة، وروي أنه ما كان فيهم إلا فارسان ﴿إذ﴾ منصوب بإضمار اذكر. و﴿أنها لكم﴾ بدل من إحدى الطائفتين والطائفتان العير والنفير و﴿غير ذات الشوكة﴾ العير؛ لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسًا، والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدّتهم، والشوكة الحدّة مستعارة من واحدة الشوك، ويقال: شوك القنا لشباها، ومنها قولهم: شائك السلاح، أي تتمنون أن تكون لكم العير؛ لأنها الطائفة التي لا حدّة لها ولا شدّة ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿أن يحق الحق﴾ أن يثبته ويعليه ﴿بكلماته﴾ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر، والدابر الآخر فاعل من دبر إذا أدبر، ومنه دابرة الطائر، وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال[3] يعني: أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفاسف الأمور وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم، والله عز وجل يريد معالي الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلوّ الكلمة والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوّتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلتكم وأعزكم وأذلهم، وحصل لكم ما لا تعارض أدناه العير وما فيها. وقرئ بكلمته على التوحيد.

---

(1) سورة المائدة، الآية: 24.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة الأنفال، (الحديث رقم: 3080) وأحمد في مسنده 1/229، والحاكم في المستدرك 2/327.

(3) قال أحمد: والتحقيق في التمييز بين الكلامين، أنّ الأوّل ذكرت الإراءة فيه مطلقة، غير مقيدة بالواقعة الخاصة، كأنه قيل وتودّون = أن غير ذات الشوكة تكون لكم، ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق، وتمحيق الكفر على الإطلاق، ولإرادته أن يحق الحق، ويبطل الباطل خصكم بذات الشوكة، فبين الكلامين عموم، وخصوص، وإطلاق، وتقييد، وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة في تأكيد المعنى، بذكره على وجهين إطلاق، وتقييد، والله أعلم.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق قوله ﴿ليحق الحق﴾؟ قُلْتُ: بمحذوف تقديره ليحق الحق، ويبطل الباطل فعل ذلك ما فعله إلا لهما وهو: إثبات الإسلام وإظهاره وإبطال الكفر ومحقه.

فإن قُلْتَ: أليس هذا تكريرًا قُلْتُ: لا، لأن المعنيين متباينان وذلك أنّ الأوّل تمييز بين الإرادتين، وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو: سيد الأغراض، ويجب أن يقدّر المحذوف متأخرًا حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى، وقيل: قد تعلق بيقطع.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق ﴿إذ تستغيثون﴾ قُلْتُ: هو بدل من ﴿إذ يعدكم﴾ وقيل: بقوله: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾، واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بدّ من القتال طفقوا يدعون الله ويقولون أي ربنا انصرنا على عدوّك يا غياث المستغيثين أغثنا، وعن عمر رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثمائة فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضي الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك[1] ﴿أني ممدكم﴾ أصله بأني ممدكم فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله، وعن أبي عمرو: أنه قرأ إني ممدكم بالكسر على إرادة القول أو على إجراء استجاب مجرى قال؛ لأنّ الاستجابة من القول.

فإن قُلْتَ: هل قاتلت الملائكة يوم بدر؟ قُلْتُ: اختلف فيه فقيل: نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها عليّ بن بي طالب، في صور الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض وقد أرخو أذنابها بين أكتافهم فقاتلت، وقيل: قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين، وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود: من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصًا؟ قال: من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم، وروي أنّ رجلاً من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر إلى المشرك قد خرّ مستلقيًا وشقّ وجهه، فحدّث الأنصاري رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذاك من مدد السماء[2]، وعن أبي داود المازني: تبعت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي[3]، وقيل: لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا كلهم، فإنّ جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط، وأهلك بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة. وقرئ: مردفين بكسر الدال وفتحها من قولك ردفه إذا تبعه ومنه قوله تعالى: ﴿ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾[4] بمعنى: ردفكم وأردفته إياه إذا أتبعته، ويقال: أردفته كقولك: اتبعته إذا جئت بعده فلا يخلو المكسور الدال من أن يكون بمعنى: متبعين أو متبعين، فإن كان بمعنى متبعين فلا يخلو من أن يكون بمعنى متبعين بعضهم بعضًا، أو متبعين بعضهم لبعض، أو بمعنى متبعين إياهم المؤمنين أي: يتقدمونهم فيتبعونهم أنفسهم، أو متبعين لهم يشيعونهم ويقدّمونهم بين أيديهم وهم على ساقتهم ليكونوا على أعينهم وحفظهم، أو بمعنى: متبعين أنفسهم ملائكة آخرين، أو متبعين غيرهم من الملائكة، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾[5] ﴿بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾[6] ومن قرأ مردفين بالفتح فهو بمعنى: متبعين أو متبعين. وقرئ: مردفين بكسر الراء وضمها وتشديد الدال وأصله مرتدفين أي: مترادفين أو متبعين من ارتدفه فأدغمت تاء الافتعال في الدال فالتقى ساكنان فحرّكت الراء بالكسر على الأصل، أو على اتباع الدال، وبالضم على اتباع الميم، وعن السدي: بآلاف من الملائكة على الجمع ليوافق ما في سورة آل عمران.

فإن قُلْتَ: فبم يعتذر لمن قرأ على التوحيد ولم يفسر المردفين بإرداف الملائكة ملائكة آخرين والمردفين بارتدافهم غيرهم؟ قُلْتُ: بأنّ المراد بالألف من قاتل منهم أو الوجوه منهم الذين من سواهم أتباع لهم.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في ﴿وما جعله﴾؟ قُلْتُ: إلى قوله: ﴿أني ممدكم﴾ لأنّ المعنى: فاستجاب لكم بإمدادكم.

فإن قُلْتَ: ففيمن قرأ بالكسر؟ قُلْتُ: إلى قوله: ﴿أني ممدكم﴾ لأنه مفعول القول المضمر فهو في معنى القول ويجوز أن يرجع إلى الإمداد الذي يدل عليه ممدكم ﴿إلا بشرى﴾ إلا بشارة لكم بالنصر كالسكينة لبني إسرائيل يعني: أنكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم وذلتكم فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكينًا منكم وربطًا على قلوبكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ يريد ولا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة، أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله، والمنصور من نصره الله ﴿إذ يغشاكم﴾ بدل ثان من ﴿إذ

(1) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (الحديث رقم: 4563).
(2) نفس الحديث السابق.
(3) ذكره ابن هشام في السيرة 1/633.
(4) سورة النمل، الآية: 72.
(5) سورة آل عمران، الآية: 124.
(6) سورة آل عمران، الآية: 125.

يعدكم﴾ أو منصوب بالنصر، أو بما في ﴿من عند الله﴾ من معنى الفعل، أو بما جعله الله، أو بإضمار اذكر[1]، وقرئ: يغشيكم بالتخفيف والتشديد ونصب النعاس والضمير لله عزّ وجلّ و ﴿أمنة﴾ مفعول له.

فإن قُلْتَ: اما وجب أن يكون فاعل الفعل المعلل والعلة واحدًا؟ قُلْتُ: بلى ولكن لما كان معنى: يغشاكم النعاس تنعسون انتصب أمنة على أن النعاس والأمنة لهم، والمعنى: إذ تنعسون أمنة بمعنى: أمنًا أي؛ لأمنكم و ﴿منه﴾ صفة لها أي: أمنة حاصلة لكم من الله عزّ وجلّ.

فإن قُلْتَ[2]: فعلى غير هذه القراءة قُلْتُ: يجوز أن تكون الأمنة بمعنى: الإيمان أي: ينعسكم إيمانًا منه، أو على يغشيكم النعاس فتنعسون أمنًا.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن ينتصب على أنّ الأمنة للنعاس الذي هو فاعل يغشاكم أي: يغشاكم النعاس لأمنه على أنّ إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازي وهو: لأصحاب النعاس على الحقيقة، أو على أنه أنامكم في وقت كان من حق النعاس في مثل ذلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم، وإنما غشيكم أمنة حاصلة من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل؟ قُلْتُ: لا نبعد فصاحة القرآن عن احتماله وله فيه نظائر وقد ألم به من قال:

يهاب النوم أن يغشي عيونا تهابك فهو نفار شرود

وقرئ: أمنة بسكون الميم ونظير أمن أمنة حيي حياة، ونحو: أمن أمنة رحم رحمة والمعنى: أنّ ما كان بهم من الخوف كان يمنعهم من النوم فلما طامن الله قلوبهم وأمنهم رقدوا، وعن ابن عباس رضي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة وسوسة من الشيطان[3] ﴿وينزل﴾ قرئ: بالتخفيف والتثقيل. وقرأ الشعبي: ما ليطهركم به، قال ابن جني: ما موصولة وصلتها حرف الجر بما جره فكأنه قال: ما للطهور، و ﴿رجز الشيطان﴾ وسوسته إليهم وتخويفه إياهم من العطش وقيل: الجنابة؛ لأنها من تخييله، وقرئ: رجس الشيطان، وذلك أنّ إبليس تمثل لهم وكان المشركون قد سبقوهم إلى الماء ونزل المسلمون في كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم، فقال لهم: أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة وقد عطشتم، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة، فحزنوا حزنًا شديدًا وأشفقوا، فأنزل الله عز وجل المطر فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي، واتخذ رسول الله ﷺ وأصحابه الحياض على عدوة الوادي وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضؤا، وتلبّد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس[4]، والضمير في به للماء، ويجوز أن يكون للربط؛ لأنّ القلب إذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت القدم في مواطن القتال.

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾.

﴿إذ يوحي﴾ يجوز أن يكون بدلاً ثالثًا من ﴿إذ يعدكم﴾ وأن ينتصب بيثبت ﴿أني معكم﴾ مفعول يوحي وقرئ: إني بالكسر على إرادة القول أو على إجراء يوحي مجرى يقول، كقوله: ﴿أني ممدّكم﴾[5] والمعنى: أني معينكم على التثبيت فثبتوهم وقوله ﴿سألقي... فاضربوا﴾ يجوز أن يكون تفسيرًا لقوله: ﴿إني معكم﴾ فثبتوا، ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة، ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم، واجتماعهما غاية النصرة، ويجوز أن يكون غير تفسير وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا ببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصحّ عزائمهم ونياتهم في القتال وأن يظهروا ما يتيقنون به أنهم ممدون بالملائكة، وقيل: كان الملك يتشبه بالرجل الذي يعرفون وجهه فيأتي فيقول: إني سمعت المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن، ويمشي بين الصفين فيقول: أبشروا فإنّ الله ناصركم لأنكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه. وقرئ: الرعب بالتثقيل ﴿فوق الأعناق﴾ أراد أعالي الأعناق التي هي المذابح لأنها

---

(1) قال أحمد: ومثل هذا النظر يجري عند قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾، لأنّ فاعل الإرادة، هو: الله عزّ وجلّ، وفاعل الخوف، والطمع هم، وقد انتصبا مفعولاً لهما، فالجواب انه لما كان الله تعالى إذا أراهم البرق رأوه كانوا فاعلين في المعنى، وكان المعنى، وهو الذي يريكم البرق، فترونه خوفاً وطمعاً، فهذا مثل آية الأنفال، فإن المفعول في المعنى فاعل، وسيأتي مزيد بحث في هذه النكتة، وقد جرى القلم بتعجيلها ههنا، وذلك أنّ لقائل أن يقول فاعل يغشى النعاس إياهم هو الله تعالى، وهو فاعل الأمنة أيضاً، وخالقها، وحينئذ يتحد فاعل الفعل، والعلة، فيرتفع السؤال، ويزول الإشكال على قواعد السنة، التي تقتضي نسبة أفعال الخلق إلى الله تعالى، على انه خالقها ومبدعها، ولمورد = السؤال أن يقول المعتبر أن يكون فاعل الفعل متصفاً بالعلة، كما هو متصف بالفعل والباري عزّ وجلّ، وإن كان خالق الأمنة للعبد، وكان بها آمناً، فالعبد هو الفاعل اللغوي، وإن كان الله تعالى هو الفاعل حقيقة، عقيدة وحينئذ يفتقر السؤال إلى الجواب السالف، والله الموفق.

(2) قال أحمد: وجه حسن بشرط الأدب في إسقاط لفظة التخييل، وقد تقدمت له أمثالها.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 2/499 (الحديث رقم: 4219).

(4) ذكره الثعلبي والطبري في تفسيرهما، وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة.

(5) سورة الأنفال، الآية: 9.

مفاصل، فكان إيقاع الضرب فيها حزًا وتطييرًا للرؤوس، وقيل: أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق يعني: ضرب الهام قال:

وأضرب هامة البطل المشيح وغشيته وهو في جاواء باسلة
عضبًا أصاب سواء الرأس فانفلقا

والبنان الأصابع يريد الأطراف، والمعنى: فاضربوا المقاتل والشوى؛ لأنّ الضرب إما واقع على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معًا، ويجوز أن يكون قوله: ﴿سألقي﴾ إلى قوله: ﴿كل بنان﴾ عقيب قوله: ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ تلقينًا للملائكة ما يثبتونهم به، كأنه قال: قولوا لهم قولي ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾، أو كأنهم قالوا: كيف نثبتهم فقيل: قولوا لهم قولي ﴿سألقي﴾ فالضاربون على هذا هم المؤمنون.

ذلك﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل ومحله الرفع على الابتداء و﴿بأنهم﴾ خبره أي: ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم، والمشاقة مشتقة من الشق؛ لأنّ كلا المتعاديين في شق خلاف شق صاحبه، وسئلت في المنام عن اشتقاق المعاداة فقلت: لأنّ هذا في عدوة وذاك في عدوة كما قيل: المخاصمة والمشاقة؛ لأن هذا في خصم أي في جانب وذاك في خصم، وهذا في شق وذاك في شق، والكاف في ذلك لخطاب الرسول عليه السلام أو لخطاب كل واحد وفي.

ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾.

﴿ذلكم﴾ للكفرة على طريقة الالتفات ومحل ذلكم الرفع على ذلكم العقاب أو العقاب ذلكم ﴿فذوقوه﴾ ويجوز أن يكون نصبًا على عليكم ذلكم فذوقوه كقولك: زيدًا فاضربه ﴿وأن للكافرين﴾ عطف على ذلكم في وجهيه، أو نصب على أنّ الواو بمعنى: مع، والمعنى: ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الأجل الذي لكم في الآخرة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وقرأ الحسن: وإنّ للكافرين بالكسر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾.

﴿زحفًا﴾ حال من الذين كفروا، والزحف الجيش الدهم الذي يرى لكثرته كأنه يزحف أي: يدبّ دبيبًا من زحف الصبي إذا دبّ على إسته قليلاً قليلاً، سمي بالمصدر والجمع زحوف والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفرّوا فضلاً أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، أو حال من الفريقين أي: إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم، أو حال من المؤمنين كأنهم أشعروا بما كان سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثني عشر ألفًا، وتقدمة نهي لهم عن الفرار يومئذ.

وفي قوله: ﴿ومن يولهم يومئذ﴾ أمارة عليه ﴿إلا متحرّفًا لقتال﴾ هو: الكرّ بعد الفرّ يخيل عدوّه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو: باب من خدع الحرب ومكايدها ﴿أو متحيزًا﴾ أو منحازًا ﴿إلى فئة﴾ إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها، وعن ابن عمر رضي الله عنه: خرجت سرية وأنا فيهم ففرّوا، فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت، فقلت يا رسول الله: نحن الفرّارون، فقال: بل أنتم العكارون وأنا فئتكم[1]، وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين هلكت، فررت من الزحف، فقال عمر رضي الله عنه: أنا فئتك[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنّ الفرار من الزحف من أكبر الكبائر.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿إلا متحرفًا﴾؟ قُلْتُ: على الحال وإلا لغو، أو على الاستثناء من المولين أي: ومن يولهم إلا رجلاً منهم متحرّفًا أو متحيزًا. وقرأ الحسن دبره بالسكون ووزن متحيز متفيعل لا متفعل؛ لأنه من حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوّز.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾.

لما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا وأقبلوا على التفاخر فكان القائل يقول: قتلت، وأسرت[3]، ولما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ: هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسلك، اللهمّ إني أسألك ما وعدتني، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فقال لما التقى الجمعان لعلي رضي الله عنه: أعطني قبضة من حصباء الوادي، فرمى بها في وجوههم وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهزموا، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم[4] فقيل لهم ﴿فلم

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب ما جاء في الفرار من الزحف (الحديث رقم: 1716) وأحمد في مسنده (2/86).

(2) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 12/538 كتاب الجهاد باب الفرار من الزحف.

(3) قال أحمد رحمه الله: أوضح مصداق في التمييز بين الحقيقة، والمجاز ألا تراك تقول للبليد ليس بحمار، ويصدق عليه مع صدق قولك فيه على سبيل التجاوز إنه حمار، فإذا ثبت لك أنّ من ميزات المجاز صدق سلبه بخلاف الحقيقة، فافهم أنّ هذه الآية تكفح = وجوه القدرية بالرّدّ، وذلك أنّ الله تعالى أثبت الفعل للخلق، ونفاه عنهم، ولا محمل لذلك، إلا أنّ ثبوته لهم مجاز، والفاعل، والخالق حقيقة، هو: الله تعالى، فأثبته لهم مجازاً، ونفاه عنهم، حقيقة، وإياك أن تعرج على تعكيس الزمخشري في تأويل الآية، فإنه نظر أعوج، وباطل مخلج، والحق أبلج، والله الموفق بكرمه.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (الحديث رقم: 4595).

﴿تقتلوهم﴾ والفاء جواب شرط محذوف تقديره إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ﴿ولكنّ الله قتلهم﴾ لأنه هو الذي أنزل الملائكة، وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء النصر والظفر، وقوّى قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجزع ﴿وما رميت﴾ أنت يا محمد ﴿إذ رميت ولكنّ الله رمى﴾ يعني: أنّ الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ لأنّ صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأنّ أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله عزّ وجلّ، فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلاً، وقرئ: ﴿ولكنّ الله قتلهم﴾ ﴿ولكنّ الله رمى﴾ بتخفيف لكن ورفع ما بعده ﴿وليبلي المؤمنين﴾ وليعطيهم ﴿بلاء حسنًا﴾ عطاء جميلاً. قال زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل، وما فعله إلا لذلك ﴿إنّ الله سميع﴾ لدعائهم ﴿عليم﴾ بأحوالهم.

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾.

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع أي: الغرض ذلكم ﴿وأنّ الله موهن﴾ معطوف على ذلكم يعني: أنّ الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين، وقرئ: موهن بالتشديد، وقرئ على الإضافة وعلى الأصل الذي هو التنوين والإعمال.

إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾.

﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهمّ انصر أقرانًا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره وإن كنا على حق فانصرنا، وروي أنهم قالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، وروي أنّ أبا جهل قال يوم بدر: اللهمّ أينا كان أهجر وأقطع للرحم فأحنه اليوم أي: فأهلكه، وقيل: ﴿إن تستفتحوا﴾ خطاب للمؤمنين ﴿وإن تنتهوا﴾ خطاب للكافرين يعني: وإن تنتهوا عن عداوة رسول الله ﷺ ﴿فهو خير لكم﴾ وأسلم ﴿وإن تعودوا﴾ لمحاربته ﴿نعد﴾ لنصرته عليكم ﴿وأن الله﴾ قرئ بالفتح على ولأنّ الله معين المؤمنين كان ذلك، وقرئ: بالكسر وهذه أوجه، ويعضدها قراءة ابن مسعود والله مع المؤمنين. وقرئ: ولن يغني عنكم بالياء للفصل.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾.

﴿ولا تولوا﴾ قرئ بطرح إحدى التاءين وإدغامها، والضمير في ﴿عنه﴾ لرسول الله ﷺ؛ لأنّ المعنى: وأطيعوا رسول الله ﷺ كقوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾[1] ولأنّ طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[2] فكأنّ رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع فلا فلان، ويجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة أي: ولا تولوا عن هذا الأمر وامتثاله وأنتم تسمعونه، أو ولا تتولوا عن رسول الله ﷺ ولا تخالفوه ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي: تصدّقون؛ لأنكم مؤمنون لستم كالصمّ المكذبين من الكفرة ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ أي: ادّعوا السماع ﴿وهم لا يسمعون﴾ لأنهم ليسوا بمصدّقين فكأنهم غير سامعين، والمعنى: أنكم تصدّقون بالقرآن والنبوّة، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها كان تصديقكم كلا تصديق، وأشبه سماعكم سماع من لا يؤمن.

۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾.

ثم قال: ﴿إنّ شرّ الدواب﴾ أي: إنّ شر من يدب على وجه الأرض أو إنّ شرّ البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه، جعلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرّها ﴿ولو علم الله﴾ في هؤلاء الصم البكم ﴿خيرًا﴾ أي: انتفاعًا باللطف ﴿لأسمعهم﴾ للطف بهم حتى يسمعوا سماع المصدقين، ثم قال ﴿ولو أسمعهم لتولوا﴾ عنه يعني: ولو لطف بهم[3] لما نفع فيهم اللطف فلذلك منعهم

(1) سورة التوبة، الآية: 62.
(2) سورة النساء، الآية: 80.
(3) قال أحمد رحمه الله: إطلاق القول، بأنّ الله تعالى يلطف بالعبد، فلا ينفع لطفه مردود، فإنّ اللطف هو إسداء الجميل، والإلطاف به واسمه اللطيف من ذلك، فإذا أسدى الجميل إلى العبد بأن أسمعه إسماع لطيف به، فتلك الغاية المرجوة، ومعنى اللطف به على هذا أن يخلق في قلبه قبول الحق، وحسن الإصغاء إليه، والاهتداء به، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال، والرأي الفاسد في خلق = الأفعال؛ لأنّ مقتضاها أنّ العبد هو الذي يخلق لنفسه قبول الحق، والهداية، وحسن الاستماع، والإصغاء، وإنّ الله تعالى لا يشارك العبد في خلق ذلك، بل الذي ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق، ولا يلزم حصول مراده على العموم تعالى الله، عما يقولون، ثم ولو تنزل متنزل على هذه القاعدة، لما استقام تأويل الزمخشري أيضاً، فإنّ حاصله، ولو علم الله فيهم خيراً، للطف بهم، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللطف، فيلزم عدم انتفاعهم باللطف على تقدير علم الله الخير فيهم، وهذا غير مستقيم لما =

ألطافه، أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا، وقيل: هم بنو عبد الدار بن قصي لم يسلم منهم إلا رجلان: مصعب بن عمير وسويد بن حرملة، كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه، فقتلوا جميعًا بأحد وكانوا أصحاب اللواء، وعن ابن جريج: هم المنافقون، وعن الحسن: أهل الكتاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إذا دعاكم﴾ وحّد الضمير كما وحّده فيما قبله؛ لأنّ استجابة رسول الله ﷺ كاستجابته وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد، والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال، وبالدعوة البحث والتحريض، وروى أبو هريرة: أنّ النبي ﷺ مرّ على باب أبيّ إبن كعب فناداه وهو في الصلاة فعجل في صلاته، ثم جاء فقال: ما منعك عن إجابتي؟ قال: كنت أصلي، قال: ألم تخبر فيما أوحي إلي **﴿استجيبوا لله وللرسول﴾** قال: لا جرم لا تدعوني إلا أجيبك[1]، وفيه قولان: أحدهما: أن هذا مما اختص به رسول الله ﷺ، والثاني: أن دعاءه كان لأمر لم يحتمل التأخير، وإذا وقع مثله للمصلي فله أن يقطع صلاته **﴿لما يحييكم﴾** من علوم الديانات والشرائع؛ لأنّ العلم حياة كما أنّ الجهل موت، ولبعضهم:

لا تعجبن الجهول حلته فذاك ميت وثوبه كفن

وقيل: لمجاهدة الكفار؛ لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم كقوله: **﴿ولكم في القصاص حياة﴾**[2] وقيل: للشهادة لقوله: **﴿بل أحياء عند ربهم﴾**[3] **﴿واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه﴾**[4] يعني: إنه يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها وهي: التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله ورده سليمًا كما يريده الله، فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله **﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾** فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة، وقيل: معناه: إنّ الله قد يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ويبدله بالخوف أمنًا وبالأمن خوفًا وبالذكر نسيانًا وبالنسيان ذكرًا وما أشبه ذلك مما هو جائز على الله تعالى، فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب من أفعال القلوب فلا، والمجبرة على أنه يحول بين المرء والإيمان إذا كفر، وبينه وبين الكفر إذا آمن، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وقيل: معناه: أنه يطلع على كل ما يخطره المرء بباله لا يخفى عليه شيء من ضمائره فكأنه بينه وبين قلبه. وقرئ المرّ بتشديد الراء، ووجهه أنه قد حذف الهمزة وألقى حركتها على الراء كالخب ثم نوى الوقف على لغة من يقول مررت بعمر.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فتنة﴾ ذنبًا قيل: هو إقرار المنكر بين أظهرهم، وقيل: افتراق الكلمة، وقيل: فتنة عذابًا، وقوله: **﴿لا تصيبن﴾** لا يخلو من أن يكون جوابًا للأمر، أو نهيًا بعد أمر، أو صفة لفتنة، فإذا كان جوابًا فالمعنى: إن أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم، وهذا كما يحكى أنّ علماء بني إسرائيل نهوا عن المنكر تعذيرًا فعمهم الله بالعذاب، وإذا كانت نهيًا بعد أمر فكأنه قيل: واحذروا ذنبًا أو عقابًا، ثم قيل: لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول كأنه قيل: واتقوا فتنة مقولاً فيها لا تصيبنّ ونظيره قوله:

حتى إذا جنّ الظلام واختلط جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

أي: بمذق مقول فيه هذا القول؛ لأنه سمار فيه لون الورقة التي هي لون الذئب، ويعضد المعنى الأخير قراءة ابن مسعود: لتصيبنّ على جواب القسم المحذوف، وعن الحسن: نزلت في عليّ وعمار وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصة، قال الزبير: نزلت فينا وقرأناها زمانًا وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها، وعن السدي: نزلت في أهل بدر، فاقتتلوا يوم الجمل، وروي أنّ الزبير كان يساير النبي ﷺ يومًا إذا أقبل عليّ رضي الله عنه، فضحك إليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «كيف حبك لعليّ؟ فقال: يا

= يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى، وذلك محال عقلاً، فلا يرتفع الإشكال، إلا بتقدير الإسماع الواقع جواباً أولاً، خلاف الإسماع الواقع شرطاً ثانياً، كيلا يتكرر الوسط، فيلزم المحال المذكور، وأقرب وجه في اختلاف الإسماعين، أن يراد بالأوّل، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم إسماعاً يخلق لهم به الهداية والقبول، ولو أسمعهم لا على أنه يخلق لهم الاهتداء، بل إسماعاً مجرداً من ذلك لتولو وهم معرضون، فهذا هو الوجه في تأويل الآية، والله الموفق.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب (الحديث رقم: 2875) والنسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تأويل قول الله عز وجل: ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثاني﴾ =

= (الحديث رقم: 913) وأخرجه البخاري في كتاب: «تفسير القرآن من سورة الأنفال، باب: يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول...» (الحديث رقم: 20430).

(2) سورة البقرة، الآية: 179.

(3) سورة آل عمران، الآية: 169.

(4) قال أحمد رحمه الله: نعم هذا قد أهل السنة الذي استعار لهم لقب المجبرة، وهو العقد الحق المؤسس على التقوى، وتفويض المخلوقات كلها إلى الواحد الحق خالق الخلق، فإن كان ذلك ظلماً، فانا بريء من الطائفة المتسمية بالعدلية إصراراً على هذا الرأي الباطل، والمعتقد الماحل، والله الموفق.

رسول الله بأبي أنت وأمي إني أحبه كحبي لوالدي أو أشدّ حبًا. قال: «فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله»[1].

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الأمر؟ قُلْتُ: لأنّ فيه معنى النهي، إذا قلت: انزل عن الدابة لا تطرحك، فلذلك جاز لا تطرحنك ولا تصيبنّ و ﴿لا يحطمنكم﴾[2].

فإن قُلْتَ: فما معنى من في قوله: ﴿الذين ظلموا منكم﴾؟ قُلْتُ: التبعيض على الوجه الأول، والتبيين على الثاني؛ لأنّ المعنى لا تصيبنكم خاصة على ظلمكم؛ لأنّ الظلم أقبح منكم من سائر الناس.

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿إذ أنتم﴾ نصبه على أنه مفعول به مذكور لا ظرف أي: اذكروا وقت كونكم أقلة أذلة مستضعفين ﴿في الأرض﴾ أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم قريش ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ لأنّ الناس كانوا جميعًا لهم أعداء منافين مضادين ﴿فآواكم﴾ إلى المدينة ﴿وأيدكم بنصره﴾ بمظاهرة الأنصار وبإمداد الملائكة يوم بدر ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من الغنائم ﴿لعلكم تشكرون﴾ إرادة أن تشكروا هذه النعم، وعن قتادة: كان هذا الحي من العرب أذلّ الناس وأشقاهم عيشًا وأعراهم جلدًا وأبينهم ضلالاً يؤكلون ولا يأكلون، فمكّن الله لهم في البلاد ووسع لهم في الرزق والغنائم وجعلهم ملوكًا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾.

معنى الخون: النقص كما أن معنى الوفاء: التمام، ومنه تخونه إذا تنقصه، ثم استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه، وقد استعير فقيل: خان الدلو الكرب وخان المشتار السبب؛ لأنه إذا انقطع به فكأنه لم يقف له ومنه قوله تعالى: ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ والمعنى: لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه ورسوله بأن لا تستنوا به، و﴿أماناتكم﴾ فيما بينكم بأن لا تحفظوها ﴿وأنتم تعلمون﴾ تبعة ذلك ووباله، وقيل: وأنتم تعلمون أنكم تخونون يعني: أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو، وقيل: وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن، وروي أنّ نبي الله ﷺ حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة مروان بن عبد المنذر وكان مناصحًا لهم لأنّ عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا له: ما ترى هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت، فشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام حتى خرّ مغشيًا عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحل نفسك، فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده، فقال: إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال ﷺ: «يجزيك الثلث أن تتصدّق[3] به»، وعن المغيرة: نزلت في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل: أماناتكم ما ائتمنكم الله عليه من فرائضه وحدوده.

فإن قُلْتَ: ﴿وتخونوا﴾ جزم هو أم نصب؟ قُلْتُ: يحتمل أن يكون جزمًا داخلاً في حكم النهي، وأن يكون نصبًا بإضمار أن كقوله: ﴿وتكتموا الحق﴾[4] وقرأ مجاهد: وتخونوا أمانتكم على التوحيد.

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾.

جعل الأموال والأولاد فتنة؛ لأنهم سبب الوقوع في الفتنة وهي: الإثم أو العذاب أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده، والله عنده أجر عظيم فعليكم أن تنوطوا بطلبه وبما تؤدّي إليه هممكم، وتزهدوا في الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد حتى تورّطوا أنفسكم من أجلهما كقوله: ﴿المال والبنون﴾[5] الآية، وقيل: هي من جملة من نزل في أبي لبابة، وما فرط منه لأجل ماله وولده.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾.

﴿فرقانًا﴾ نصرًا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله ومنه قوله تعالى: ﴿يوم الفرقان﴾[6] وبيانًا وظهورًا يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض من قولهم: بتّ أفعل كذا حتى سطع الفرقان أي: طلع الفجر، أو مخرجًا من الشبهات وتوفيقًا وشرحًا للصدور، أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 11/241 (الحديث رقم: 20430).
(2) سورة النمل، الآية: 18.
(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 5/406 (الحديث رقم: 9745).
(4) سورة البقرة، الآية: 42.
(5) سورة الكهف، الآية: 46.
(6) سورة الأنفال، الآية: 41.

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾.

لما فتح الله عليه ذكره مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله عز وجل في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم، وما أتاح الله له من حسن العاقبة، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك، وذلك أن قريشًا لما أسلمت الأنصار وبايعوه فرقوا أن يتفاقم أمره فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد، ما أنا من تهامة، دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأيًا ونصحًا، فقال أبو البختري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون، فقال إبليس: بئس الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتم، فقال إبليس: بئس الرأي يفسد قومًا غيركم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلامًا وتعطوه سيفًا صارمًا فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا، فقال الشيخ ـ لعنه الله: ـ صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيًا، فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن الله له في الهجرة، فأمر عليًا رضي الله عنه فنام في مضجعه، وقال له: «اتشح ببردتي فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه». وباتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه فأبصروا عليًا فبهتوا وخيّب الله عز وجل سعيهم، واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم[1] ﴿ليثبتوك﴾ ليسجنوك أو يوثقوك أو يثخنوك بالضرب والجرح من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح، وفلان مثبت وجعًا، وقرىء: ليثبتوك بالتشديد، وقرأ النخعي: ليبيتوك من البيات، وعن ابن عباس: ليقيدوك وهو دليل لمن فسره بالإيثاق ﴿ويمكرون﴾ ويخفون المكايد له ﴿ويمكر الله﴾ ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة ﴿والله خير الماكرين﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرًا، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل، ولا يصيب إلا بما هو مستوجب.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ نفاجة منهم وصلف تحت الراعدة، فإنهم لم يتوانوا في مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاؤا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز، حتى يفوزوا بالقدح المعلى دونه، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة، وأن يماتنهم واحد فيتعللوا بامتناع المشيئة، ومع ما علم وظهر ظهور الشمس من حرصهم على أن يقهروا رسول الله ﷺ وتهالكهم على أن يغمروه، وقيل: قائله النضر بن الحرث المقتول صبرًا حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون لو شئت لقلت مثل هذا، وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم واسفنديار فزعم أن هذا مثل ذاك وأنه من جملة تلك الأساطير، وهو القائل ﴿إن كان هذا هو الحق﴾ وهذا أسلوب من الجحود بليغ يعني: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر، ومراده نفي كونه حقًا، وإذا انتفى كونه حقًا لم يستوجب منكره عذابًا، فكان تعليق العذاب بكونه حقًا مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقًا فأمطر علينا حجارة، وقوله: ﴿هو الحق﴾ تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين هذا هو الحق، وقرأ الأعمش: هو الحق بالرفع على أن هو مبتدأ غير فصل وهو في القراءة الأولى فصل. ويقال: أمطرت السماء كقولك: أنجمت وأسبلت ومطرت كقولك: هتنت وهتلت وقد كثر الإمطار في معنى العذاب.

فإن قُلْتَ: ما فائدة قوله: ﴿من السماء﴾ والأمطار لا تكون إلا منها؟ قُلْتُ: كأنه أريد أن يقال فأمطر علينا السجيل وهي: الحجارة المسوّمة للعذاب، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل كما تقول: صب عليه مسرودة من حديد تريد درعًا ﴿بعذاب أليم﴾ أي: بنوع آخر من جنس العذاب الأليم يعني: أن أمطار السجيل بعض العذاب الأليم، فعذبنا به أو بنوع آخر من أنواعه، وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة، قال: أجهل من قومي قومك قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة﴾ ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق فاهدنا له. اللام لتأكيد النفي والدلالة على أنّ تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة؛ لأنّ عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قومًا عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم، وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم والدليل على هذا الإشعار قوله: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ وإنما يصح هذا بعد إثبات التعذيب كأنه قال: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وهو معذبهم إذا فارقتهم وما لهم أن لا يعذبهم ﴿وهم يستغفرون﴾ في موضع الحال ومعناه: نفي الاستغفار عنهم أي: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 5/384 (الحديث رقم: 9743).

عذبهم كقوله: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[1] ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون ولا يتوقع ذلك منهم، وقيل: معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين، وما لهم أن لا يعذبهم الله وأي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم يعني: لا حظّ لهم في ذلك وهم معذبون لا محالة.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾.

وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدّون عن المسجد الحرام كما صدّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وإخراجهم رسول الله ﷺ والمؤمنين من الصدّ، وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء ﴿وما كانوا أولياءه﴾ وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمره وأربابه ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ من المسلمين ليس كل مسلم أيضًا ممن يصلح لأن يلي أمره، إنما يستأهل ولايته من كان برًا تقيًا فكيف بالكفرة عبدة الأصنام ﴿ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾ كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند ويطلب الرياسة، أو أراد بالأكثر الجميع كما يراد بالقلة العدم.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾.

المكاء فعال بوزن الثغاء والرغاء من مكا يمكو إذ اصفرّ، ومنه: المكاء كأنه سمي بذلك لكثرة مكائه، وأصله الصفة نحو الوضاء والقراء، وقرئ: مكا بالقصر ونظيرهما البكي والبكاء. والتصدية: التصفيق تفعلة من الصدى أو من صدّ يصد ﴿إذا قومك منه يصدّون﴾[2]. وقرأ الأعمش: وما كان صلاتهم بالنصب على تقديم خبر كان على اسمه.

فإن قُلْتَ: ما وجه هذا الكلام قُلْتُ: هو نحو من قوله:

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه … أداهم سودًا أو محدرجة سمرا

والمعنى: أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته يخلطون عليه ﴿فذوقوا﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر بسبب كفركم وأفعالكم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾.

قيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، كان يطعم كلّ واحد منهم كلّ يوم عشر جزائر، وقيل: قالوا لكل من كان له تجارة في العير أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا بما أصيب منا ببدر، وقيل: نزلت في أبي سفيان وقد استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية، والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً ﴿ليصدّوا عن سبيل الله﴾ أي: كان غرضهم في الإنفاق الصدّ عن اتباع محمد وهو: سبيل الله، وإن لم يكن عندهم كذلك ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ أي: تكون عاقبة إنفاقها ندمًا وحسرة، فكأنّ ذاتها تصير ندمًا وتنقلب حسرة ﴿ثم يغلبون﴾ آخر الأمر وإن كانت الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالاً قبل ذلك فيرجعون طلقاء ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي﴾[3] ﴿والذين كفروا﴾ والكافرون منهم ﴿إلى جهنم يحشرون﴾ لأنّ منهم من أسلم وحسن إسلامه.

لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿ليميز الله الخبيث﴾ الفريق الخبيث من الكفار ﴿من﴾ الفريق ﴿الطيب﴾ من المؤمنين. فيجعل الفريق ﴿الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا﴾ عبارة عن الجمع والضم حتى يتراكبوا كقوله تعالى: ﴿كادوا يكونون عليه لبدا﴾[4] يعني: لفرط ازدحامهم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الخبيث، وقيل: ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة رسول الله ﷺ من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون كأبي بكر وعثمان في نصرته ﴿فيركمه﴾ فيجعله في جهنم في جملة ما يعذبون به كقوله: ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم﴾[5] الآية، واللام على هذا متعلقة بقوله: ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ وعلى الأوّل بيحشرون، وأولئك إشارة إلى الذين كفروا. وقرئ: ليميز على التخفيف.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿قل للذين كفروا﴾ من أبي سفيان وأصحابه أي: قل لأجلهم هذا القول وهو ﴿إن ينتهوا﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل: إن تنتهوا يغفر لكم وهي قراءة ابن مسعود ونحو: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾[6] خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه أي:

---

(1) سورة هود، الآية: 117.
(2) سورة الزخرف، الآية: 57.
(3) سورة المجادلة، الآية: 21.
(4) سورة الجن، الآية: 19.
(5) سورة التوبة، الآية: 35.
(6) سورة الأحقاف، الآية: 11.

إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول في الإسلام ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ لهم من العداوة ﴿وإن يعودوا﴾ لقتاله ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر، أو فقد مضت سنة الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم فدمّروا فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا، وقيل: معناه أنّ الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف لهم من الكفر والمعاصي وخرجوا منها كما تنسلّ الشعرة من العجين، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الإسلام يجب ما قبله»[1] وقالوا: الحربي إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط، وأمّا الذمي: فلا يلزمه قضاء حقوق الله وتبقى عليه حقوق الآدميين، وبه احتجّ أبو حنيفة رحمه الله: في أنّ المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الردّة وقبلها، وفسر ﴿وإن يعودوا﴾ بالارتداد. وقرئ: يغفر لهم على أنّ الضمير لله عزّ وجلّ.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط ﴿ويكون الدين كله لله﴾ ويضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ﴿فإن انتهوا﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ يثيبهم على توبتهم وإسلامهم، وقرئ: تعملون بالتاء، فيكون المعنى: فإن الله بما تعملون من الجهاد في سبيله، والدعوة إلى دينه، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام بصير يجازيكم عليه أحسن الجزاء ﴿وإن تولوا﴾ ولم ينتهوا ﴿فإن الله مولاكم﴾ أي: ناصركم ومعينكم فثقوا بولايته ونصرته.

۞ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

﴿أنما غنمتم﴾ ما موصولة و ﴿من شيء﴾ بيانه قيل: من شيء حتى الخيط والمخيط ﴿فأن لله﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره فحق أو فواجب أن لله خمسه، وروى الجعفي عن أبي عمرو: فإن لله بالكسر، وتقويه قراءة النخعي فلله خمسه، والمشهورة آكد وأثبت للإيجاب، كأنه قيل: فلا بدّ من ثبات الخمس فيه ولا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدّرات، كقولك: ثابت واجب حق لازم وما أشبه ذلك، كان أقوى لإيجابه من النصّ على واحد، وقرئ: خمسه بالسكون.

فإن قُلْتَ: كيف قسمة الخمس؟ قُلْتُ: عند أبي حنيفة رحمه الله أنها كانت في عهد رسول الله ﷺ على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ، وسهم لذوي قرباه من بني هاشم وبني المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل استحقوه حينئذ بالنصرة والمظاهرة لما روي عن عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما أنهما قالا لرسول الله ﷺ: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة؟ فقال ﷺ: إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين أصابعه[2]، وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل، وأمّا بعد رسول الله ﷺ فسهمه ساقط بموته، وكذلك سهم ذوي القربى وإنما يعطون لفقرهم فهم أسوة سائر الفقراء، ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

وأمّا عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين كعدّة الغزاة من السلاح والكراع ونحو ذلك، وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾[3] والباقي للفرق الثلاث.

وعند مالك بن أنس رحمه الله: الأمر فيه مفوّض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء، وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعض، وإن رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم.

فإن قُلْتَ[4]: ما معنى ذكر الله عز وجل وعطف الرسول

---

(1) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: «كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج» (الحديث رقم: 317)، وأحمد في مسنده 4/ 199.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى، (الحديث رقم: 2980)، وابن ماجه في كتاب: الجهاد باب: قسمة الخمس (الحديث رقم: 2881)، والنسائي في كتاب: قسم الفيء (الحديث رقم: 4136)، والبخاري في كتاب: الخمس باب: ومن الدليل على أن الخمس للإمام الخ... (الحديث رقم: 3140).

(3) سورة النساء، الآية: 11.

(4) قال أحمد: لأنّ مالكاً رضي الله عنه، لا يرى ذكر الوجوه المذكورة، لبيان أنه لا يصرف فيما سواها، ليس؛ لأن يتملكاها، ولا على التحديد، حتى لا يجوز الاقتصاد على بعض الوجوه دون بعض، بل الأمر عنده موكول إلى نظر الإمام، فيصرف الخمس في مصالح المسلمين، ومن جملتها قرابته عليه الصلاة والسلام، ولا تحديد عنده في ذلك البتة، وهذا التأويل الثالث ينطبق على مذهبه، وبيان ذلك أنّ المراد حينئذ بذكر الله تعالى، بيان أن الخمس يصرف في وجوه التقرّبات لله تعالى، غير مقيد، ثم تخصيص =

وغيره عليه؟ قُلْتُ: يحتمل أن يكون معنى لله وللرسول لرسول الله ﷺ كقوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾[1] وأن يراد بنكره إيجاب سهم سادس يصرف إلى وجه من وجوه القرب، وأن يراد بقوله ﴿فإن لله خمسه﴾ أن من حق الخمس أن يكون متقرِّبًا به إليه لا غير، ثم خصّ من وجوه القرب هذه الخمسة تفضيلاً لها على غيرها كقوله تعالى: ﴿وجبريل وميكال﴾[2] فعلى الاحتمال الأوّل؛ مذهب الإمامين.

وعلى الثاني: ما قال أبو العالية: أنه يقسم على ستة أسهم: سهم لله تعالى يصرف إلى رتاج الكعبة، وعنه: كان رسول الله ﷺ يأخذ الخمس، فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة وهو سهم الله تعالى، ثم يقسم ما بقي على خمسة[3]، وقيل: إن سهم الله تعالى لبيت المال.

وعلى الثالث: مذهب مالك بن أنس، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان على ستة أسهم: لله وللرسول سهمان وسهم لأقاربه حتى قبض، فأجرى أبو بكر رضي الله عنه الخمس على ثلاثة، وكذلك روي عن عمر ومن بعده من الخلفاء، وروي أنّ أبا بكر رضي الله عنه منع بني هاشم الخمس وقال: إنما لكم أن يعطي فقيركم ويزوّج أيمكم يخدم من لا خادم له منكم، فأما الغني منكم فهو بمنزلة ابن سبيل، غني لا يعطي من الصدقة شيئًا، ولا يتيم موسر، وعن زيد بن علي رضي الله عنه كذلك قال: ليس لنا أن نبني منه قصورًا ولا أن نركب منه البراذين، وقيل: الخمس كله للقرابة، وعن علي رضي الله عنه أنه قيل له: إنّ الله تعالى قال: ﴿واليتامى والمساكين﴾[4] فقال: أيتامنا ومساكيننا، وعن الحسن رضي الله عنه في سهم رسول الله ﷺ: أنه لولي الأمر من بعده، وعن الكلبي رضي الله عنه أنّ الآية نزلت ببدر، وقال الواقدي: كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من الهجرة.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾؟ قُلْتُ: بمحذوف يدل عليه ﴿واعلموا﴾ المعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به فاقطعوا عنه أطماعكم، واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم المجرّد ولكنه العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله تعالى؛ لأنّ العلم المجرّد يستوي فيه المؤمن والكافر ﴿وما أنزلنا﴾ معطوف على ﴿بالله﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله، وبالمنزل ﴿على عبدنا﴾ وقرئ: عبدنا كقوله: ﴿وعبد الطاغوت﴾[5] بضمتين ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر و ﴿الجمعان﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين، والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم ﴿إذ﴾ بدل من يوم الفرقان. والعدوة شط الوادي بالكسر والضم والفتح، وقرئ: بهنّ وبالعدية على قلب الواو ياء؛ لأنّ بينها وبين الكسرة حاجزًا غير حصين كما في الصبية. والدنيا والقصوى تأنيث الأدنى والأقصى.

فإن قُلْتَ: كلتاهما فعلى من بنات الواو فلم جاءت إحداهما بالياء والثانية بالواو؟ قُلْتُ: القياس هو: قلب الواو ياء كالعليا، وأما القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل وقد جاء القصيا إلا أنّ استعمال القصوى أكثر، كما كثر استعمال استصوب مع مجيء استصاب وأغيلت مع أغالت، والعدوة الدنيا مما يلي المدينة والقصوى مما يلي مكة ﴿والركب أسفل منكم﴾ يعني: الركب الأربعين الذين كانوا يقودون العير أسفل منكم بالساحل، وأسفل نصب على الظرف معناه: مكانًا أسفل من مكانكم وهو مرفوع المحل؛ لأنه خبر للمبتدأ.

فإن قُلْتَ[6]: ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين وأنّ العير كانت أسفل منهم؟ قُلْتُ: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوّة شأن العدوّ وشوكته وتكامل عدّته، وتمهد أسباب الغلبة له وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم وأنّ غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعًا من الله سبحانه ودليلاً على أنّ ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته، وذلك أنّ العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضًا لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب ومشقة، وكانت العين وراء ظهور العدوّ مع كثرة عدوّهم فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ليبعثهم الذّب عن الحريم والغيرة على الحرم على بذل جهيداهم في القتال وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدّثون أنفسهم بالانحياز إليه فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط هممهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدّتهم، وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر

= الوجود المذكورة بعد، ليس تحديداً، ولك تنبيهاً على فضلها، والتخصيص لقصد التفصيل بعد التعميم لا يرفع حكم العموم الأوّل، بل هو قار على حاله، كما أن العموم ثابت للملائكة، وإن خص جبريل وميكال بعده، والله تعالى أعلم.

(1) سورة التوبة، الآية: 62.

(2) سورة البقرة، الآية: 98.

(3) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب: ما جاء في قسمة الخمس (الحديث رقم: 374).

(4) سورة البقرة، الآية: 83.

(5) سورة المائدة، الآية: 60.

(6) قال أحمد: وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشري، وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز.

ليقضي أمرًا كان مفعولاً من إعزاز دينه وإعلاء كلمته حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله ﷺ لأموالهم حتى نفروا ليمنعوا عيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ووراءهم العير يحامون عليها حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان ﴿ولو تواعدتم﴾ أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخالف بعضكم بعضًا، فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله ﷺ والمسلمين، فلم يتفق لكم من التلاقي في ما وفقه الله وسبب له ﴿ليقضي﴾ متعلق بمحذوف أي: ليقضي أمرًا كان واجبًا أن يفعل، وهو: نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

وقوله: ﴿ليهلك﴾ بدل منه واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام أي: ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينه لا عن مخالجة شبهة حتى لا تبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم أيضًا عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به، وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغر المحجلة التي من كفر بعدها كان مكابرًا لنفسه مغالطًا لها. وقرئ: ليهلك بفتح اللام وحيي بإظهار التضعيف ﴿لسميع عليم﴾ يعلم كيف يدبر أموركم ويسوي مصالحكم، أو لسميع عليم بكفر من كفر وعقابه وبإيمان من آمن وثوابه.

﴿إذ يريكهم الله﴾ نصبه بإضمار اذكر، أو هو بدل ثان من يوم الفرقان أو متعلق بقوله: ﴿لسميع عليم﴾ أي: يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك ﴿في منامك﴾ في رؤياك، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ أراه إياهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فكان تثبيتًا لهم وتشجيعًا على عدوهم، وعن الحسن: في منامك في عينك؛ لأنها مكان النوم، كما قيل للقطيفة: المنامة لأنه ينام فيها، وهذا تفسير فيه تعسف وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته. ﴿لفشلتم﴾ لجبنتم وهبتم الإقدام ﴿ولتنازعتم﴾ في الرأي وتفرقت فيما تصنعون كلمتكم وترجحتم بين الثبات والفرار ﴿ولكن الله سلم﴾ أي: عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وإذ يريكموهم﴾ الضميران مفعولان يعني: وإذ يبصركم إياهم و ﴿قليلاً﴾ نصب على الحال وإنما قللهم في أعينهم تصديقًا لرؤيا رسول الله ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال ألفًا[1]. ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ حتى قال قائل منهم: إنما هم أكلة جزور.

فإن قُلْتَ: الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم؟ قُلْتُ: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ثم كثرهم فيها بعده ليجترؤا عليهم قلة مبالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم وذلك قوله: ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾[2] ولئلا يستعدوا لهم وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أوّلاً وكثرتهم آخرًا.

فإن قُلْتَ[3]: بأي طريق يبصرون الكثير قليلاً؟ قُلْتُ: بأن يستر الله عنهم بعضه بساتر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين، قيل لبعضهم: إن الأحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديه ديك واحد فقال: ما لي لا أرى هذين الديكين أربعة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إذا لقيتم فئة﴾ إذا حاربتم جماعة من الكفار وترك أن يصفها؛ لأنّ المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار واللقاء اسم للقتال غالب ﴿فاثبتوا﴾ لقتالهم ولا تفروا ﴿واذكروا الله كثيرًا﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له عدوكم: اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم

---

(1) إسحاق بن راهويه وابن مردويه، الزيلعي 2/32.

(2) سورة آل عمران، الآية: 13.

(3) قال أحمد: وفي هذا دليل بيّن على أنّ الله تعالى، هو: الذي يخلق الإدراك في الحاسة، غير موقوف على سبب من مقابلة، أو قرب، أو ارتفاع حجب، أو غير ذلك إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلاً، لما أمكن أن يستر عنهم البعض، وقد أدركوا البعض، والسبب الموجب مشترك، فعلى هذا يجوز أن يخلق الله الإدراك= = مع اجتماعها، فلا ربط إذاً بين الرؤية، ونفيها في مقدرة الله تعالى، وهي رادة على القدرية المنكرين لرؤية الله تعالى بناء على اعتبار هذه الأسباب في حصول الإدراك عقلاً، وأنها تستلزم الجسمية إذ المقابلة، والقرب، وارتفاع الحجب، إنما تتأتى في جسم، فهذه الآية حسبهم في إبطال زعمهم، ولكنهم يمرون عليها، وهم عنها معرضون، والله الموفق.

﴿لعلكم تفلحون﴾ لعلكم تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه إشعار بأنّ على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلبًا وأكثر ما يكون همًا، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره، وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين عليه السلام في أيام صفين وفي مشاهده مع البغاة والخوارج من البلاغة والبيان ولطائف المعاني وبليغات المواعظ والنصائح دليلاً على أنهم كانوا لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل وإن تفاقم الأمر.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿ولا تنازعوا﴾ قرئ: بتشديد التاء **﴿فتفشلوا﴾** منصوب بإضمار أن، أو مجزوم لدخوله في حكم النهي، وتدل على التقديرين قراءة من قرأ: **﴿وتذهب ريحكم﴾**[1] بالتاء والنصب، وقراءة من قرأ: ويذهب ريحكم بالياء والجزم. والريح الدولة شبهت في نفوذ أمرها وتمشيه بالريح وهبوبها فقيل: هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره، ومنه قوله:

يا صاحبي ألا لاحي بالوادي	إلا عبيد قعود بين أذواد
أتنظران قليلاً ريث غفلتهم	أم تعدوان فإنّ الريح للعادي

وقيل: لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى، وفي الحديث: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[2]. حذرهم بالنهي عن التنازع واختلاف الرأي نحو ما وقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول الله ﷺ من فشلهم وذهاب ريحهم.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾.

﴿كالذين خرجوا من ديارهم﴾ هم: أهل مكة حين خرجوا لحماية العير فأتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدرًا نشرب بها الخمور وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب، فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله عز وجل مخلصين أعمالهم لله.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾.

﴿و﴾ اذكر **﴿إذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾** التي عملوها في معاداة رسول الله ﷺ ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم. فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم أي: بطل كيده حين نزلت جنود الله، وكذا عن الحسن رحمه الله: كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم، وقيل: لما اجتمعت قريش على السير ذكرت الذي بينها وبين بني كنانة من الحرب فكاد ذلك يثنيهم، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني وكان من أشرافهم في جند من الشياطين معه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم وإني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تنزل نكص، وقيل: كانت يده في يد الحرث بن هشام، فلما نكص قال له الحرث: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحرث وانطلق وانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان، وفي الحديث: وما رؤي إبليس يومًا أصغر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رؤي يوم بدر[3].

فإن قُلْتَ: هلا قيل: لا غالبًا لكم كما يقال: لا ضاربًا زيدًا عندنا **قُلْتُ:** لو كان لكم مفعولاً لغالب بمعنى: لا غالبًا إياكم، لكان الأمر كما قلت، لكنه خبر تقديره لا غالب كائن لكم.

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾.

﴿إذ يقول المنافقون﴾ بالمدينة **﴿والذين في قلوبهم مرض﴾** يجوز أن يكون من صفة المنافقين وأن يراد الذين هم على حرف ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام، وعن الحسن: هم المشركون **﴿غرّ هؤلاء دينهم﴾** يعنون أنّ المسلمين اغتروا بدينهم وأنهم يتقوّون به وينصرون من أجله، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف، ثم قال جوابًا لهم **﴿ومن يتوكل على الله فإنّ الله عزيز﴾** غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي **﴿ولو ترى﴾** ولو عاينت وشاهدت؛ لأنّ لو تردّ المضارع إلى معنى الماضي كما ترد إن الماضي إلى معنى الاستقبال.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾.

و **﴿إذ﴾** نصب على الظرف. وقرئ: يتوفى بالياء والتاء

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 46.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: قول النبي ﷺ «نصرت بالصبا» (الحديث رقم: 1035) ومسلم في كتاب: الاستسقاء، باب: في ريح الصبا (الحديث رقم: 2084).

(3) أخرجه مالك في الموطأ كتاب: الحج، باب: جامع الحج (الحديث رقم: 245)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: في المناسك فضل الوقوف بعرفات، (الحديث رقم: 4069).

و﴿الملائكة﴾ رفعها بالفعل ﴿ويضربون﴾ حال منهم ويجوز أن يكون في يتوفى ضمير الله عز وجل والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبر. وعن مجاهد: ﴿وأدبارهم﴾ أستاههم، ولكن الله كريم يكني، وإنما خصوهما بالضرب؛ لأنّ الخزي والنكال في ضربهما أشدّ، وبلغني عن أهل الصين أن عقوبة الزاني عندهم أن يصبر، ثم يعطي الرجل القوي البطش شيئًا عمل من حديد كهيئة الطبق فيه رزانة وله مقبض فيضربه على دبره ضربة واحدة بقوّته فيجمد في مكانه، وقيل: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ﴿وذوقوا﴾ معطوف على يضربون على إرادة القول أي: ويقولون ذوقوا ﴿عذاب الحريق﴾ أي: مقدمة عذاب النار، أو ذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به، وقيل: كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا بها التهبت النار، أو ويقال لهم يوم القيامة ذوقوا وجواب لو محذوف أي: لرأيت أمرًا فظيعًا منكرًا.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾.

﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ يحتمل أن يكون من كلام الله ومن كلام الملائكة وذلك رفع بالابتداء وبما قدمت خبره ﴿وأن الله﴾ عطف عليه أي: ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأن الله ﴿ليس بظلام للعبيد﴾؛ لأن تعذيب الكفار من العدل كإثابة المؤمنين، وقيل[1]: ظلام للتكثير لأجل العبيد، أو لأن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلامًا بليغ الظلم متفاقمه.

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾.

الكاف في محل الرفع أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، ودأبهم عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه أي: دوموا عليه وواظبوا و﴿كفروا﴾ تفسير لدأب آل فرعون ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما حلّ بهم يعني: ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله لم ينبغ له ولم يصحّ في حكمته أن يغير نعمته عند قوم ﴿حتى يغيروا ما﴾ بهم من الحال.

فإن قُلْتَ: فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة؟ **قُلْتُ**: كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب ﴿وأنّ الله سميع﴾ لما يقول مكذبو الرسل ﴿عليم﴾ بما يفعلون ﴿كدأب آل فرعون﴾ تكرير للتأكيد وفي قوله ﴿بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق. وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾.

﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ أي: أصروا على الكفر ولجوا فيه فلا يتوقع منهم إيمان وهم: بنو قريظة، عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم فنكثوا ومالوا معهم يوم الخندق وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم ﴿الذين عاهدت منهم﴾ بدل من الذين كفروا أي: الذين عاهدتهم من الذين كفروا، وجعلهم شر الدواب؛ لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون منهم، وشر المصرين الناكثون للعهود ﴿وهم لا يتقون﴾ لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون ما فيه من العار والنار.

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ فإما تصادفنهم وتظفرنّ بهم ﴿فشرد بهم مَن خلفهم﴾ ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتبارًا بهم واتعاظًا بحالهم، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: فشرذ بالذال المعجمة بمعنى: ففرق وكأنه مقلوب شذر من قولهم: ذهبوا شذر مذر، ومنه: الشذر المتلقط من المعدن لتفرقه، وقرأ أبو حيوة: من خلفهم، ومعناه: فافعل التشريد من ورائهم؛ لأنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء وأوقعه فيه؛ لأنّ الوراء جهة المشردين فإذا جعل الوراء ظرفًا للتشريد فقد دلّ على تشريد من فيه فلم يبق فرق بين القراءتين ﴿لعلهم يذكرون﴾ لعلّ المشردين من ورائهم يتعظون.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿وإمّا تخافنّ من قوم﴾ معاهدين ﴿خيانة﴾ ونكثًا بأمارات تلوح لك ﴿فانبذ إليهم﴾ فاطرح إليهم العهد ﴿على سواء﴾ على طريق مستو قصد، وذلك أن تظهر لهم

(1) قال أحمد: وبهذه النكتة يجاب عن قول القائل: نفي الأدنى، أبلغ من نفي الأعلى، فلم عدل عن الأبلغ، والمراد تنزيه الله تعالى، وهو = جدير بالمبالغة، فهذان الجوابان عتيدان في هذا السؤال.

نبذ العهد وتخبرهم إخبارًا مكشوفًا بينًا أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ الله لا يحب الخائنين﴾ فلا يكن منك إخفاء نكث العهد والخداع، وقيل: على استواء في العلم بنقض العهد، وقيل: على استواء في العداوة، والجار والمجرور في موضع الحال كأنه قيل: فانبذ إليهم ثابتًا على طريق قصد سوي، أو حاصلين على استواء في العلم، أو العداوة على أنها حال من النابذ والمنبوذ إليهم معًا ﴿سبقوا﴾ افلتوا وفاتوا من أن يظفر بهم ﴿إنهم لا يعجزون﴾ إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزًا عن إدراكهم، وقرئ: أنهم بالفتح بمعنى: لأنهم، كل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل، إلا أن المكسورة على طريقة الاستئناف والمفتوحة تعليل صريح، وقرئ: يعجزون بالتشديد، وقرأ ابن محيصن: يعجزون بكسر النون. وقرأ الأعمش: ولا تحسب الذين كفروا بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة، وقرأ حمزة: ولا يحسبن بالياء على أن الفعل للذين كفروا، وقيل فيه: أصله أن سبقوا فحذفت أن كقوله: ﴿ومن آياته يريكم البرق﴾[1] واستدل عليه بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: أنهم سبقوا، وقيل: وقع الفعل على أنهم لا يعجزون على أن لا صلة وسبقوا في محل الحال بمعنى: سابقين أي: مفلتين هاربين، وقيل معناه: ولا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا، فحذف الضمير لكونه مفهومًا، وقيل: ولا يحسبن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا، وهذه الأقاويل كلها متمحلة وليست هذه القراءة التي تفرد بها حمزة بنيرة، وعن الزهري: أنها نزلت فيمن أفلت من قل المشركين.

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿من قوّة﴾ من كل ما يتقوّى به في الحرب من عددها، وعن عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ألا إن القوّة الرمي»[2] قالها ثلاثًا ومات عقبة عن سبعين قوسًا في سبيل الله[3]، وعن عكرمة هي: الحصون، والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى: المرابطة، ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال، وقرأ الحسن: ومن ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط، ويجوز أن يكون قوله ﴿ومن رباط الخيل﴾ تخصيصًا للخيل من بين ما يتقوى به كقوله: ﴿وجبريل وميكال﴾[4] وعن ابن سيرين رحمه الله: أنه سئل عمن أوصى بثلث ماله في الحصون فقال: يشتري به الخيل فترابط في سبيل الله ويغزى عليها، فقيل له: إنما أوصى في الحصون؟ فقال: ألم تسمع قول الشاعر:

إن الحصون الخيل لا مدر القرى

﴿ترهبون﴾ قرئ: بالتخفيف والتشديد وقرأ ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما: تخزون والضمير في ﴿به﴾ راجع إلى ما استطعتم ﴿عدو الله وعدوكم﴾ هم أهل مكة ﴿وآخرين من دونهم﴾ هم: اليهود، وقيل: المنافقون، وعن السدي هم: أهل فارس، وقيل: كفرة الجن، وجاء في الحديث: إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا دارًا فيها فرس عتيق[5]، وروي أنّ صهيل الخيل يرهب الجن. جنح له وإليه إذا مال.

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾.

والسلم تؤنث تأنيث نقيضها وهي الحرب قال:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وقرئ: بفتح السين وكسرها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾[6] وعن مجاهد بقوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[7] والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدًا ويجابوا إلى الهدنة أبدًا. وقرأ الأشهب العقيلي: فاجنح بضم النون ﴿وتوكل على الله﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم، فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم وخديعتهم، قال مجاهد: يريد قريظة ﴿فإن حسبك الله﴾ فإن محسبك الله. قال جرير:

إني وجدت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾.

﴿وألّف بين قلوبهم﴾ التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة؛ لأنّ العرب لما فيهم من الحمية والعصبية والانطواء على الضغينة في أدنى شيء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لا يكاد يأتلف منهم

---

(1) سورة الروم، الآية: 24.

(2) قال أحمد: والمطابق للرمي أن يكون الرباط على بابه مصدراً، والله أعلم، وهو حسبي، ونعم الوكيل.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه... (الحديث رقم: 4923).

(4) سورة البقرة، الآية: 98.

(5) قال الزيلعي: غريب 2/34، وأخرجه ابن عدي في الكامل وابن سعد نحوه.

(6) سورة التوبة، الآية: 29.

(7) سورة التوبة، الآية: 5.

قلبان، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله ﷺ واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم وأحدث بينهم من التحاب والتوادّ وأماط عنهم من التباغض والتماقت وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب فهو يقلبها كما شاء ويصنع فيها ما أراد، وقيل هم: الأوس والخزرج كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم ودق جماجمهم ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى، وبينهما التجاور الذي يهيج الضغائن ويديم التحاسد والتنافس، وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها وتكرهه وتنفر عنه، فأنساهم الله تعالى ذلك كله حتى اتفقوا على الطاعة وتصافوا وصاروا أنصارًا وعادوا أعوانًا وما ذاك إلا بلطيف صنعه وبليغ قدرته.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾.

﴿ومن اتبعك﴾ الواو بمعنى: مع وما بعده منصوب تقول: حسبك وزيدًا درهم، ولا تجر؛ لأنّ عطف الظاهر المجرور على المكنى ممتنع. قال:

فحسبك والضحاك عضب مهند

والمعنى: كفاك وكفى تباعك من المؤمنين الله ناصرًا، أو يكون في محل الرفع أي: كفاك الله وكفاك المؤمنون، وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال، وعن ابن عباس رضي الله عنه: نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه، وعن سعيد بن جبير: أنه أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾.

التحريض المبالغة في الحث على الأمر من الحرض، وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت، أو أن تسميه حرضًا وتقول له: ما أراك إلا حرضًا في هذا الأمر وممرضًا فيه ليهيجه ويحرك منه، ويقال: حركه وحرضه وحرصه وحرشه وحربه بمعنى وقرئ: حرص بالصاد غير المعجمة حكاها الأخفش من الحرص. وهذه عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله تعالى وتأييده ثم قال ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي: بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم، فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ويستحقون خذلانه، خلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله تعالى، وعن ابن جريج: كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد منهم للعشرة، وكان رسول الله لله بعث حمزة رضي الله عنه في ثلاثين راكبًا فلقي أبا جهل في ثلثمائة راكب، قيل: ثم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه وذلك بعد مدة طويلة، فنسخ، وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، وقيل: كان فيهم قلة في الابتداء ثم لما كثروا بعد نزل التخفيف. وقرئ: ضعفًا بالفتح والضم كالمكث والمكث والفقر والفقر، وضعفاء جمع ضعيف. وقرئ: الفعل المسند إلى المائة بالتاء والياء في الموضعين، والمراد بالضعف الضعف في البدن، وقيل: في البصيرة والاستقامة في الدين وكانوا متفاوتين في ذلك.

فإن قُلْتَ: لم كرّر المعنى الواحد وهو: مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده؟ قُلْتُ: للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت؛ لأن الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين. وقرئ: للنبي على التعريف وأسارى ويثخن بالتشديد ومعنى الإثخان: كثرة القتل والمبالغة فيه من قولهم: أثخنته الجراحات إذا أثبتته حتى تثقل عليه الحركة وأثخنه المرض إذا أثقله من الثخانة التي هي الغلظ والكثافة يعني: حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله، ويعز الإسلام ويقوّيه بالاستيلاء والقهر، ثم الأسر بعد ذلك ذلك.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾.

ومعنى ﴿ما كان﴾ ما صح له وما استقام، وكان هذا يوم بدر، فلما كثر المسلمون نزل ﴿فإما منًّا بعد وإما فداء﴾[1] وروي: أن رسول الله ﷺ أتى بسبعين أسيرًا فيهم العباس عمه وعقيل بن أبي طالب، فاستشار أبا بكر رضي الله عنه فيهم فقال: قومك وأهلك، استبقهم لعلّ الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوّي بها أصحابك، وقال عمر رضي الله عنه: كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء، مكّن عليًا من عقيل، وحمزة من العباس، ومكني من فلان لنسيب له فاضرب أعناقهم، فقال ﷺ: «إن الله ليلين قلوبَ رجال حتى تكون ألينَ من اللبن، وإن الله ليشددُ قلوبَ رجال حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾[2] ومثلك يا عمر مثل نوح قال ﴿ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارًا﴾[3] ثم قال لأصحابه: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق» وروي أنه قال لهم: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم» فقالوا: بل نأخذ

(1) سورة محمد، الآية: 4.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 36.

(3) سورة نوح، الآية: 29.

الفداء، فاستشهدوا بأحد، وكان فداء الأسارى عشرين أوقية، وفداء العباس أربعين أوقية. وعن محمد بن سيرين: كان فداؤهم مائة أوقية، والأوقية أربعون درهمًا وستة دنانير، وروي: أنهم لما أخذوا الفداء نزلت الآية، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله، أخبرني فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه» وروي أنه قال: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ» رضي الله عنهما لقوله: «كان الإثخان في القتل أحب إلي»[1] ﴿عرض الدنيا﴾ حطامها سمي بذلك لأنه حدث قليل اللبث يريد الفداء ﴿والله يريد الآخرة﴾ يعني: ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل. وقرئ: يريدون بالياء، وقرأ بعضهم: والله يريد الآخرة بجرّ الآخرة على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على حاله كقوله:

أكل امرئ تحسبين امرأ ونار توقد بالليل نارًا

ومعناه: والله يريد عرض الآخرة على التقابل يعني: ثوابها ﴿والله عزيز﴾ يغلب أولياءه على أعدائه ويتمكنون منهم قتلاً وأسرًا ويطلق لهم الفداء ولكنه ﴿حكيم﴾ يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا وهم يعجلون.

لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح وهو: أنه لا يعاقب أحدًا بخطإ، وكان هذا خطأ في الاجتهاد؛ لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سببًا في إسلامهم، وتوبتهم وأنّ فداءهم يتقوّى به على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأقل لشوكتهم، وقيل: كتابه أنه سيحل لهم الفدية التي أخذوها، وقيل: إن أهل بدر مغفور لهم، وقيل: أنه لا يعذب قومًا إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك.

فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾.

﴿فكلوا مما غنمتم﴾ روي أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها فنزلت، وقيل: هو إباحة للفداء؛ لأنه من جملة الغنائم ﴿واتقوا الله﴾ فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه.

فإن قُلْتَ: ما معنى الفاء؟ قُلْتُ: التسبيب والسبب محذوف معناه: قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم. وحلالاً نصب على الحال من المغنوم، أو صفة للمصدر أي: أكلاً حلالاً، وقوله: ﴿إنّ الله غفور رحيم﴾ معناه: أنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾.

﴿في أيديكم﴾ في ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم. وقرئ: من الأسرى ﴿في قلوبكم خيرًا﴾ خلوص إيمان وصحة نية ﴿يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم﴾ من الفداء إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو يثيبكم في الآخرة، وفي قراءة الأعمش: يثبكم خيرًا، وعن العباس رضي الله عنه أنه قال: كنت مسلمًا لكنهم استكرهوني، فقال رسول الله ﷺ: «إن يكن ما تذكره حقًا فالله يجزيك، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا». وكان أحد الذين ضمنوا إطعام أهل بدر وخرج بالذهب لذلك، وروي أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «أفد ابني أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث»، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشًا ما بقيت، فقال له: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أمّ الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا؟ فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل». فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي» قال العباس: فأنا أشهد أنك صادق وأنّ لا إله إلاّ الله وأنك عبده ورسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتابًا في أمرك، فأمّا إذ أخبرتني بذلك فلا ريب. قال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله خيرًا من ذلك، لي الآن عشرون عبدًا إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفًا، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي[2]، وروي أنه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفًا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ ما قدر على حمله وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة، وقرأ الحسن وشيبة: مما أخذ منكم على البناء للفاعل.

وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ نكث ما بايعوك عليه من الإسلام والردّة واستحباب دين آبائهم ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فأمكن منهم﴾ كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم

(1) رواه أحمد في مسنده 1/31.

(2) تقدم تخريجه.

إن أعادوا الخيانة، وقيل: المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء. الذين هاجروا أي: فارقوا أوطانهم وقومهم حبًا لله، ورسوله هم المهاجرون. والذين آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم هم الأنصار ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي: يتولى بعضهم بعضًا في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوي القرابات حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾[1]. وقرئ: من ولايتهم بالفتح والكسر أي: من توليهم في الميراث، ووجه الكسر: أن تولي بعضهم بعضًا شبه بالعمل والصناعة كأنه يتوليه صاحبه يزاول أمرًا ويباشر عملاً ﴿فعليكم النصر﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إلا على قوم﴾ منهم ﴿بينكم وبينهم﴾ عهد فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم؛ لأنهم لا يبتدئون بالقتال إذ الميثاق مانع من ذلك.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ ومعناه نهي المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضًا، ثم قال: ﴿إلا تفعلوه﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضًا في التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة، تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة؛ لأنّ المسلمين ما لم يصيروا يدًا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرًا والفساد زائدًا. وقرئ كثير بالثاء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿أولئك هم المؤمنون حقًا﴾؛ لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والانسلاخ من المال لأجل الدين وليس بتكرار؛ لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم مع الموعد الكريم والأولى للأمر بالتواصل.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿والذين آمنوا من بعد﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة كقوله: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾[2] ألحقهم بهم وجعلهم منهم تفضلاً منه وترغيبًا ﴿وأولو الأرحام﴾ أولو القرابات أولى بالتوارث، وهو: نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة ﴿في كتاب الله﴾ تعالى في حكمه وقسمته وقيل: في اللوح، وقيل: في القرآن وهو: آية المواريث، وقد استدل به أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على توريث ذوي الأرحام.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته في الدنيا»[3].

سورة التوبة مدنية

لها عدّة أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدمدمة، سورة العذاب لأنّ فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي: تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها، وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرد بهم وتخزيهم وتدمدم عليهم، وعن حذيفة رضي الله عنه: أنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحدًا إلا نالت منه.

فإن قُلْتَ: هلا صدرت بآية التسمية كما في سائر السور؟ قُلْتُ: سأل عن ذلك ابن عباس عثمان رضي الله عنهما فقال: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه السورة أو الآية قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا[4]، وتوفي رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أين نضعها، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فلذلك قرنت بينهما، وكانتا تدعيان القرينتين، وعن أبي بن كعب: إنما توهموا ذلك؛ لأنّ في الأنفال ذكر العهود، وفي براءة نبذ العهود، وسئل ابن عيينة رضي الله عنه فقال: اسم الله سلام وأمان فلا يكتب في النبذ والمحاربة قال الله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا﴾[5] قيل: فإن النبي ﷺ قد كتب إلى أهل الحرب بسم الله الرحمن الرحيم[6] قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم، ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى، فمن دعي إلى الله عزّ وجلّ فأجاب، ودعي إلى الجزية فأجاب، فقد اتبع الهدى، وأما النبذ فإنما هو: البراءة واللعنة، وأهل الحرب لا يسلم عليهم ولا يقال: لا تفرق ولا تخف ومترس ولا بأس هذا أمان كله، وقيل: سورة الأنفال والتوبة سورة

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 75.
(2) سورة الحشر، الآية: 10.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره.
(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة باب: من جهر بهذا (الحديث رقم: 786)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: من سورة = التوبة (الحديث رقم: 3086).
(5) سورة النساء، الآية: 94.
(6) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (6) (الحديث رقم: 7) ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: بدء الوحي.

واحدة كلتاهما نزلت في القتال، تعدان السابعة من الطول، وهي سبع وما بعدها المائون، وهذا قول ظاهر؛ لأنهما معًا مائتان وست، فهما بمنزلة إحدى الطول، وقد اختلف أصحاب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة، وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿براءة﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هذه براءة و ﴿من﴾ لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وليس بصلة كما في قولك: برئت من الدين، والمعنى: هذه براءة واصلة من الله ورسوله ﴿إلى الذين عاهدتم﴾ كما يقال: كتاب من فلان إلى فلان، ويجوز أن يكون براءة مبتدأ لتخصيصها بصفتها والخبر إلى الذين عاهدتم كما تقول: رجل من بني تميم في الدار. وقرئ: براءة بالنصب على اسمعوا براءة. وقرأ أهل نجران من الله بكسر النون، والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرته، والمعنى: أنّ الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه منبوذ إليهم.

فإن قُلْتَ: لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قُلْتُ: قد أذن الله في معاهدة المشركين أوّلاً، فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخوطب المسلمون بما تجدد من ذلك فقيل لهم: اعلموا[1] أنّ الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين. روي أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب فنكثوا إلا ناسًا منهم وهم: بنو ضمرة وبنو كنانة، فنبذ العهد إلى الناكثين وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤا لا يتعرّض لهم وهي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾[2] وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها، وكان نزولها سنة تسع من الهجرة، وفتح مكة سنة ثمان، وكان الأمير فيها عتاب ابن أسيد، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه على موسم سنة تسع، ثم أتبعه عليًا رضي الله عنه راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني، فلما دنا عليّ سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ فلما لحقه قال: أمير أو مأمور قال: مأمور[3]. وروي أنّ أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام فقال: يا محمد لا يبلغنّ رسالتك إلا رجل منك، فأرسل عليًا، فرجع أبو بكر رضي الله عنهما إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أشيء نزل من السماء قال: نعم فسر وأنت على الموسم وعلي ينادي بالآي فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه، وحدّثهم عن مناسكهم، وقام عليّ رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يا أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية، وعن مجاهد رضي الله عنه: ثلاث عشرة آية، ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده، فقالوا عند ذلك: يا عليّ أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف، وقيل: إنما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجل منه؛ لأنّ العرب عادتها في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها، فلو تولاه أبو بكر رضي الله عنه لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا في نقض العهود، فأزيحت علتهم بتولية ذلك عليًا رضي الله عنه.

فإن قُلْتَ: الأشهر الأربعة ما هي؟ قُلْتُ: عن الزهري رضي الله عنه: أنّ براءة نزلت في شوال، فهي أربعة أشهر: شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأوّل وعشر من شهر ربيع الآخر وكانت حرمًا؛ لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم أو على التغليب؛ لأنّ ذا الحجة والمحرم منها، وقيل: لعشر من ذي القعدة إلى عشر من ربيع الأوّل؛ لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان فيهم ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة.

فإن قُلْتَ: ما وجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الأشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك قُلْتُ: قالوا: قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها ﴿غير معجزي الله﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم. وهو مخزيكم أي: مذلكم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.

---

(1) قال أحمد: ووراء ما ذكره سر آخر، هو المرعي، والله أعلم، وذلك أنّ نسبة العهد إلى الله ورسوله في مقام نسب إليه النبذ من المشركين، لا تحسن شرعاً ألا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ، لأمراء السرايا حيث يقول لهم، وإذا نزلت بحصن، فطلبوا النزول على حكم الله، فأنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أصادفت حكم الله فيهم أولاً، وإن طلبوا ذمّه الله، فأنزلهم عن ذمّتك، فلأن تخفر ذمّتك خير من أن تخفر ذمّة الله، فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام، بتوقير ذمّة الله مخافة أن تخفر، وإن كان لم = يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع، فتوقير عهد الله، وقد تحقق من المشركين النكث، وقد تبرأ من الله ورسوله بأن لا ينسب العهد المنبوذ إلى الله أحرى، وأجدر، فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه، والله أعلم.

(2) سورة التوبة، الآية: 5.

(3) قال الزيلعي: غريب. وذكر حديث قريب منه، أخرجه الحاكم، وقال الذهبي: عنه موضوع 2/50.

وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ
مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟
عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٤﴾

﴿وأذان﴾ ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين، ثم الجملة معطوفة على مثلها ولا وجه لقول من قال: إنه معطوف على براءة، كما لا يقال عمر ومعطوف على زيد في قولك: زيد قائم وعمرو قاعد والأذان بمعنى: الإيذان وهو: الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى: الإيمان والإعطاء.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟ **قُلْتُ**: تلك إخبار بثبوت البراءة وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت.

فإن قُلْتَ: لم علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس؟ **قُلْتُ**: لأنّ البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأمّا الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث **﴿يوم الحج الأكبر﴾** يوم عرفة، وقيل: يوم النحر؛ لأنّ فيه تمام الحج ومعظم أفعاله من الطواف والنحر والحلق والرمي، وعن عليّ رضي الله عنه: أنّ رجلاً أخذ بلجام دابته فقال: وما الحج الأكبر؟ قال: يومك هذا خل عن دابتي[1]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: هذا يوم الحج الأكبر[2]، ووصف الحج بالأكبر لأنّ العمرة تسمى: الحج الأصغر، أو جعل الوقوف بعرفة هو: الحج الأكبر لأنه معظم واجباته؛ لأنه إذا فات فات الحج، وكذلك إن أريد به يوم النحر؛ لأنّ ما يفعل فيه معظم أفعال الحج فهو الحج الأكبر، وعن الحسن رضي الله عنه: سمي يوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين فيه وموافقته لأعياد أهل الكتاب ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده، فعظم في قلب كل مؤمن وكافر. حذفت الباء التي هي صلة الأذان تخفيفًا، وقرئ: إنّ الله بالكسر؛ لأنّ الأذان في معنى القول **﴿ورسوله﴾** عطف على المنوي في بريء، أو على محل إن المكسورة واسمها، وقرئ: بالنصب عطفًا على اسم إنّ، أو لأنّ الواو بمعنى: مع أي: بريء معه منهم، وبالجر على الجوار، وقيل: على القسم كقوله: لعمرك، ويحكى أنّ إعرابيًّا سمع رجلاً يقرأها فقال: إن كان الله بريئًا من رسوله فأنا منه بريء، فلببه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته: فعندها أمر عمر رضي الله عنه بتعلم العربية[3] **﴿فإن تبتم﴾** من الكفر والغدر **﴿فهو خير لكم وإن توليتم﴾** عن التوبة أو ثبتم على التولي والإعراض عن الإسلام والوفاء فاعلموا أنكم غير سابقين الله تعالى ولا فائتين أخذه وعقابه.

فإن قُلْتَ: ممّ استثنى قوله: **﴿إلاّ الذين عاهدتم﴾**؟ **قُلْتُ**[4]: وجهه أن يكون مستثنى من قوله: **﴿فسيحوا في الأرض﴾**؛ لأنّ الكلام خطاب للمسلمين ومعناه: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقضوا فأتموا إليهم عهدهم[5]، والاستثناء بمعنى: الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين: ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفيّ كالغادر. إنّ الله يحب المتقين يعني: أنّ قضية التقوى أن لا يسوّي بين القبيلتين فاتقوا الله في ذلك **﴿لم ينقصوكم شيئًا﴾** لم يقتلوا منكم أحدًا ولم يضرّوكم قط **﴿ولم يظاهروا﴾** ولم يعاونوا **﴿عليكم﴾** عدوًّا كما عدت بنو بكر على خزاعة عيبة رسول الله ﷺ وظاهرتهم قريش بالسلاح، حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله ﷺ فأنشد:

لاهم أني ناشدًا محمدًا	حلف أبينا وأبيك الأتلدا
إنّ قريشًا أخلفوك الموعدا	ونقضوا ذمامك المؤكدا
هم بيتونا بالحطيم هجيئًا	وقتلونا ركعًا وسجدا

فقال عليه الصلاة والسلام: «لا نصرت إن لم أنصركم». وقرئ: لم ينقضوكم بالضاد معجمة أي: لم ينقضوا

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الحج، باب: الخطبة أيام منى، وأخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: يوم الحج الأكبر (الحديث رقم: 1945)، والحاكم في المستدرك 2/331 وأبو نعيم في الحلية 10/274.

(3) قال الزيلعي: ذكر القرطبي القصة في كتابه: التذكار، ولم يعزوه 2/53.

(4) قال أحمد: ويجوز أن يكون قوله: **﴿فسيحوا﴾** خطاباً من الله تعالى للمشركين غير مضمر قبله القول، ويكون الاستثناء على هذا من قوله إلى الذين عاهدتم، كأنه قيل براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين، لا الباقين على العهد، فأتموا إليهم أيها المسلمون عهدهم، ويكون فيه خروج من خطاب المسلمين في قوله إلى = الذين عاهدتم إلى خطاب المشركين في قوله، فسيحوا ثم التفات من التكلم إلى الغيبة بقوله واعلموا أنكم غير معجزي الله، وأنّ الله وأصله، واعلموا أنكم غير معجزي، وأني وفي هذا الالتفات بعد الالتفات الأوّل افتنان في أساليب البلاغة، وتفخيم للشان، وتعظيم للأمر، ثم يتلو هذا الالتفات العود إلى خطاب المسلمين بقوله إلا الذين عاهدتم، ثم لم ينقصوكم، فأتموا وكلّ هذا من حسنات الفصاحة، وإنما بعث الزمخشري على تقدير القول قيل: فسيحوا مراعاة أن يطابق قوله، فأتموا إذا المخاطب على هذا التقدير المسلمون أوّلاً وثانياً، ولا يكون فيه شيء من الالتفاتات المبنية على التأويل، الذي ذكرناه، وكلا الوجهين ممتاز بنوع من البلاغة، وطرف من الفصاحة، والله أعلم.

(5) ذكره ابن هشام في السيرة 2/388.

عهدكم، ومعنى ﴿فأتموا إليهم﴾ فأدّوه إليهم تامًّا كاملاً قال ابن عباس رضي الله عنه: بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر فأتمّ إليهم عهدهم. انسلخ الشهر كقولك: انجرد الشهر وسنة جرداء.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

و﴿الأشهر الحرم﴾ التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا ﴿فاقتلوا المشركين﴾ يعني: الذين نقضوكم وظاهروا عليكم ﴿حيث وجدتموهم﴾ من حلّ أو حرم ﴿وخذوهم﴾ وأسروهم، والأخيذ الأسير ﴿واحصروهم﴾ وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد، وعن ابن عباس رضي الله عنه: حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام ﴿كلّ مرصد﴾ كلّ ممرّ[1] ومجتاز ترصدونهم به وانتصابه على الظرف كقوله: ﴿لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾[2] ﴿فخلوا سبيلهم﴾ فاطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر أو فكفوا عنهم ولا تتعرّضوا لهم كقوله: خل السبيل لمن يبني المنار به. وعن ابن عباس رضي الله عنه: دعوهم وإتيان المسجد الحرام ﴿إنّ الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿أحد﴾ مرتفع بفعل الشرط مضمرًا يفسره الظاهر تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء؛ لأنّ إن من عوامل الفعل لا تدخل على غيره، والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن وتبين ما بعثت له فامنه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثم أبلغه﴾ بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت، وعن الحسن رضي الله عنه: هي محكمة إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى عليّ رضي الله عنه فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمدًا بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال: لا؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾ الآية، وعن السدي والضحاك رضي الله عنهما: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين﴾[3] ﴿ذلك﴾ أي: ذلك الأمر يعني: الأمر بالإجارة في قوله فأجره ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم﴾ ﴿قوم﴾ جهلة ﴿لا يعلمون﴾ ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بدّ من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿كيف﴾ استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد؛ لأن يكون للمشركين عهد عند رسول الله ﷺ وهم أضداد وغرة صدورهم يعني: محال أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدّثوا به نفوسكم ولا تفكروا في قتلهم. ثم استدرك ذلك بقوله ﴿إلا الذين عاهدتم﴾ أي: ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عند المسجد الحرام﴾ ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة وبني ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم ﴿فما استقاموا لكم﴾ على العهد ﴿فاستقيموا لهم﴾ على مثله ﴿إن الله يحبّ المتقين﴾ يعني: أنّ التربص بهم من أعمال المتقين ﴿كيف﴾ تكرار[4] لاستبعاد ثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلومًا كما قال:

وخبر تماني إنما الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب

يريد فكيف مات أي: كيف يكون لهم عهد ﴿و﴾ حالهم أنهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ بعدما سبق لهم من تأكيد الإيمان والمواثيق لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقو عليكم ﴿لا يرقبوا فيكم إلا﴾ لا يراعوا حلفًا، وقيل: قرابة وأنشد لحسان رضي الله عنه:

لعمرك إن إلك من قريش كإل السقب من رأل النعام

وقيل: إلا الهاء، وقرئ: إيلا بمعناه وقيل: جبرئيل وجبرئل من ذلك، وقيل: منه اشتق الآل بمعنى: القرابة كم اشتقت الرحم من الرحمن، والوجه أن اشتقاق الإلّ بمعنى الحلف؛ لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه من الأل وهو: الجؤار، وله أليل أي: أنين يرفع ب صوته، ودعت أليلها إذا ولولت، ثم قيل: لكل عهد وميثاق

---

(1) قال أحمد: ويكون لنتصابه دون جرّه من الاتساع؛ لأنّ المرصد ظرف مختص، والأصل قصور الفعل عن نصبه، ويكون مثل قوله في الاتساع. كما عسل الطريق الثعلب. ويحتمل، والله أعلم أن يكون مرصد مصدراً؛ لأنّ صيغة اسم الزمان والمكان، والمصدر من فعله واحدة، فعلى هذا يكون منصوباً نصباً أصلياً، لأن اقعدوا في معنى ارصدوا؛ كأنه قيل: وارصدوهم كلّ مرصد؛ إلا أن الظرفية يقوّيها قوله حيث وجدتموم، فيقتضيها قصد المطابقة بين ظرفي المكان، والله أعلم.

(2) سورة الأعراف، الآية: 16.

(3) سورة التوبة، الآية: 5.

(4) قال أحمد: السر في تكرار كيف، والله أعلم أنه لما ذكره أو لاستبعاد ثبات عهدهم عند الله، ولم ينكر إذ ذاك سبب البع للغاية، باستثناء الباقين على العهد، وطال الكلام أعيدت كيف تطرية للذكر، وليلخذ بعض الكلام بحجزة بعض، فلم يقصد مجر التكرار، بل هذا السر الذي انطوى عليه، وقد تقدمت له أمثال، وا الموفق.

إل، وسميت به القرابة؛ لأنّ القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق ﴿يرضونكم﴾ كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرّر لاستبعاد الثبات منهم على العهد. وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ متمرّدون خلعاء لا مروءة تزعهم ولا شمائل مرضية تردعهم، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادي عن الكذب والنكث والتعفف عما يثلم العرض ويجرّ أحدوثة السوء.

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾.

﴿اشتروا﴾ استبدلوا ﴿بآيات الله﴾ بالقرآن والإسلام ﴿ثمنًا قليلاً﴾ وهو اتباع الأهواء والشهوات ﴿فصدّوا عن سبيله﴾ فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم، وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم ﴿هم المعتدون﴾ المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة ﴿فإن تابوا﴾ عن الكفر ونقض العهد ﴿فإخوانكم في الدين﴾ فهم إخوانكم على حذف المبتدأ كقوله تعالى: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم﴾[1] ﴿ونفصل الآيات﴾ ونبينها وهذا اعتراض كأنه، قيل: وإن من تأمّل تفصيلها فهو العالم بعثًا وتحريضًا على تأمّل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها.

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾.

﴿وطعنوا في دينكم﴾ وثلبوه وعابوه ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم إشعارًا بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك تمرّدًا وطغيانًا وطرحًا لعادات الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخوانًا للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون: ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدّم فيه لا يشق كافر غبارهم، وقالوا إذا طعن الذمي في دين الإسلام طعنًا ظاهرًا جاز قتله؛ لأنّ العهد معقود معه على أن لا يطعن فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمّة ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ جمع يمين، وقرئ: لا إيمان لهم أي: لا إسلام لهم، أو لا يعطون الأمان بعد الردّة والنكث ولا سبيل إليه.

فإن قُلْتَ: كيف أثبت لهم الإيمان في قوله ﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ ثم نفاها عنهم؟ قُلْتُ: أراد أيمانهم التي أظهروها، ثم قال: لا أيمان لهم على الحقيقة وأيمانهم ليست بأيمان، وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله: على أن يمين الكافر لا تكون يمينًا، وعند الشافعي رحمه الله: يمينهم يمين، وقال: معناه: أنهم لا يوفون بها بدليل أنه وصفها بالنكث ﴿لعلهم ينتهون﴾ متعلق بقوله: فقاتلوا أئمة الكفر أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سببًا في انتهائهم عما هم عليه، وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد.

فإن قُلْتَ: كيف لفظ أئمة؟ قُلْتُ: همزة بعدها همزة بين أي: بين مخرج الهمزة والياء، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين، وأما التصريح بالياء فليس بقراءة ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاحن محرف.

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾.

﴿ألا تقاتلون﴾ دخلت الهمزة على لا تقاتلون تقريرًا بانتفاء المقاتلة ومعناه: الحض عليها على سبيل المبالغة ﴿نكثوا أيمانهم﴾ التي حلفوها في المعاهدة ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة حتى أذن الله تعالى له في الهجرة فخرج بنفسه ﴿وهم بدؤكم أول مرة﴾ أي: وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة؛ لأنّ رسول الله ﷺ جاءهم أولاً بالكتاب المنير وتحداهم به، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادئون بالقتال والبادئ أظلم، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم، وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب حقيق بأن لا تترك مصادمته وأن يوبخ من فرط فيها ﴿أتخشونهم﴾ تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ فتقاتلوا أعداءه ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني: أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه كقوله تعالى: ﴿ولا يخشون أحدًا إلا الله﴾[2].

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾.

لما وبخهم الله على ترك القتال جرّد لهم الأمر به فقال ﴿قاتلوهم﴾ ووعدهم ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم أنه يعذبهم بأيديهم قتلاً ويخزيهم أسرًا ويوليهم النصر والغلبة

(1) سورة الأحزاب، الآية: 5.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 39.

عليهم ﴿ويشف صدور﴾ طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، قال ابن عباس رضي الله عنه: هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى شديدًا، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾.

﴿ويذهب غيظ﴾ قلوبكم لما لقيتم منهم من المكروه، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها فكان ذلك دليلاً على صدق رسول الله ﷺ وصحة نبوّته ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ ابتداء كلام وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضاً فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم، وقرئ: ويتوب بالنصب بإضمار أن ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى ﴿والله عليم﴾ يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان ﴿حكيم﴾ لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٦﴾.

﴿أم منقطعة﴾ ومعنى الهمزة فيها: التوبيخ على وجود الحسبان، والمعنى: أنكم لا تتركون على ما انتم عليه حتى يتبين الخلص منكم وهم: الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله ولم يتخذوا وليجة أي: بطانة من الذين يضادون رسول الله ﷺ والمؤمنين رضوان الله عليهم ﴿ولما﴾ معناها: التوقع وقد دلت على أن تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين وقوله: ﴿ولم يتخذوا﴾ معطوف على جاهدوا داخل في حيز الصلة كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله، والوليجة فعيلة من ولج كالدخيلة من دخل، والمراد بنفي العلم، نفي المعلوم كقول القائل: ما علم الله مني ما قيل فيّ يريد ما وجد ذلك مني.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ١٧﴾.

﴿ما كان للمشركين﴾ ما صحّ لهم وما استقام ﴿أن يعمروا مسجد الله﴾ يعني: المسجد الحرام لقوله: ﴿وعمارة المسجد الحرام﴾[1] وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان: أحدهما: أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل مساجد لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد؛ ولأنّ كل بقعة منه مسجد، والثاني: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لان يعمروا جنسها دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو آكد؛ لأنّ طريقته طريقة الكناية كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك و ﴿شاهدين﴾ حال من الواو في يعمروا والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته، ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت وكانوا يطوفون عراة ويقولون لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي، وكلما طافوا بها شوطًا سجدوا لها، وقيل هو: قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وقيل: قد أقبل المهاجرون والأنصار على أساري بدر فعيروهم بالشرك، فطفق علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم وأغلظ في القول، فقال العباس: تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟ فقال: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم ونحن أفضل منكم أجرًا، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني فنزلت ﴿حبطت أعمالهم﴾ التي هي العمارة والحجابة والسقاية وفك العناة، وإذا هدم الكفر[2] أو الكبيرة الأعمال الثابتة الصحيحة إذا تعقبها فما ظنك بالمقارن؟ وإلى ذلك أشار في قوله: ﴿شاهدين﴾ حيث جعله حالاً عنهم، ودلّ على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة وذلك محال غير مستقيم.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨﴾.

﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ وقرئ: بالتوحيد أي: إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتدًا بها، والعمارة تتناول رم ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر ومن الذكر درس العلم بل هو أجله وأعظمه، وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا فضلاً عن فضول الحديث، وعن النبي ﷺ: «يأتي في آخر الزمان ناس من أمّتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقًا، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة»[3] وفي الحديث: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش»[4] وقال عليه السلام: «قال الله تعالى: إن بيوتي في أرضي المساجد، وإنّ

---

(1) سورة التوبة، الآية: 19.

(2) قال أحمد: كلام صحيح ألا قوله إن الكبيرة تهدم الأعمال، فإنه تفريع على قاعدة المعتزلة، والحق خلافها.

(3) رواه ابن حبان في صحيحه 15/162، كتاب: التاريخ، باب:= إخباره ﷺ عما يكون في أمته (الحديث رقم: 6761)، والحاكم في المستدرك 4/423).

(4) الحديث لم يخرجه الزيلعي ولا ابن حجر لا هنا ولا في لقمان.

زوّاري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره»[1] وعنه عليه السلام: «من ألف المسجد ألفه الله»[2] وقال عليه السلام: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»[3]، وعن أنس رضي الله عنه: «من أسرج في مسجد سراجًا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوءه».

فإن قلت: هلا ذكر الإيمان برسول الله ﷺ؟ **قلت:** لما علم وشهر أن الإيمان بالله تعالى قرينته الإيمان بالرسول عليه السلام لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين مزدوجين كأنهما شيء واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه انطوى تحت ذكر الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسول عليه السلام، وقيل: دلّ عليه بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

فإن قلت: كيف قيل: **﴿ولم يخش إلا الله﴾** والمؤمن يخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها؟ **قلت:** هي الخشية والتقوى في أبواب الدين، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف، وإذا اعترضه أمران أحدهما: حق الله والآخر: حق نفسه أن يخاف الله، فيؤثر حق الله على حق نفسه، وقيل: كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفي تلك الخشية عنهم **﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾**[4] تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لأطماعهم من الانتفاع بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى اهتداؤهم دائر بين عسى ولعل، فما بال المشركين يقطعون أنهم مهتدون ونائلون عند الله الحسنى؟ وفي هذا الكلام ونحوه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم
بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (21) خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)﴾.

السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ولا بد من مضاف محذوف تقديره: **﴿أجعلتم﴾** أهل **﴿سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله﴾** وتصدقه: قراءة ابن الزبير، وأبي وجزة السعدي - وكان من القراء - سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام والمعنى: إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين أعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوى بينهم. وجعل تسويتهم ظلمًا بعد ظلمهم بالكفر، وروي أن المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود: أنتم أفضل، وقيل: إن عليًا رضي الله عنه قال للعباس: يا عم ألا تهاجرون؟ ألا تلحقون برسول الله ﷺ؟ فقال: ألست في أفضل من الهجرة، أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام. فلما نزلت قال العباس: ما أراني إلا تارك سقايتنا، فقال عليه السلام: «أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيرًا»[5]. هم **﴿أعظم درجة عند الله﴾** من أهل السقاية والعمارة عندكم **﴿وأولئك هم الفائزون﴾** لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم. قرئ: يبشرهم بالتخفيف والتثقيل. وتنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرّف، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هي في المهاجرين خاصة[6].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ
اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا
أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ
يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)﴾.

كان قبل فتح مكة من آمن لم يتمّ إيمانه إلا بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم فقالوا يا رسول الله: إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجاراتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فـ **﴿هاجروا﴾**[7] فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك، وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة، فنهى الله تعالى عن موالاتهم، وعن النبيّ ﷺ: «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان

---

(1) قال الزيلعي: غريب [2/57].
(2) ذكره ابن عدي في الكامل في الضعفاء (4/1470).
(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، (الحديث رقم: 2617)، وابن ماجه في كتاب: المساجد، باب: لزوم المساجد وانتظار الصلاة، (الحديث رقم: 802) والحاكم في المستدرك 212/1 وابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: فضل الصلوات الخمس (الحديث رقم: 1721).
(4) قال أحمد: وأكثرهم يقول إن عسى من الله واجبة بناء منهم =

= على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين، والحق فيما قال الزمخشري، ولكن الخطاب مصروف إليهم، أي: فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوّة، والعاقبة عند الله معلومة، ولله عاقبة الأمور.
(5) ذكره الواحدي في أسباب النزول.
(6) ذكره الثعلبي في تفسيره.
(7) سورة الأنفال، الآية: 72.

حتى يحبّ في الله ويبغض في الله، حتى يحبّ في الله أبعد الناس ويبغض في الله أقرب الناس إليه»[1]. وقرئ: عشيرتكم وعشيراتكم، وقرأ الحسن: وعشائركم ﴿فتربصوا حتى ياتي الله بامره﴾ وعيد. عن ابن عباس هو: فتح مكة، وعن الحسن هي: عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها كأنها تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرّد منها لأجله، أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدري أيّ طرفيه أطول، ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

مواطن الحرب مقاماتها ومواقفها[2] قال:

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق[3] منهوى

وامتناعه من الصرف؛ لأنه جمع وعلى صيغة لم يات عليها واحد، والمواطن الكثيرة وقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة.

فإن قُلْتَ: كيف عطف الزمان على المكان وهو ﴿يوم حنين﴾ على المواطن؟ قُلْتُ: معناه: وموطن يوم حنين، أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين، ويجوز أن يراد بالموطن: الوقت كمقتل الحسين، على أنّ الواجب أن يكون يوم حنين منصوبًا بفعل مضمر لا بهذا الظاهر، وموجب ذلك أنّ قوله ﴿إذ أعجبتكم﴾ بدل من ﴿يوم حنين﴾ فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح؛ لأنّ كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن ولم يكونوا كثيرًا في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصًا به إلا إذ نصبت إذا بإضمار اذكر، وحنين: واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفًا الذين حضروا فتح مكة منضمًا إليه ألفان من الطلقاء، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فيمن ضامّهم من إمداد سائر العرب فكانوا الجمّ الغفير، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، فساءت رسول الله ﷺ، وقيل: قائلها رسول الله ﷺ، وقيل: أبو بكر رضي الله عنه[4]، وذلك قوله: ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ فاقتتلوا قتالاً شديدًا وأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة وزلّ عنهم أنّ الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة، وبقي رسول الله ﷺ وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلحل ليس معه إلا عمه العباس رضي الله عنه آخذًا بلجام دابته، وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه، وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على تناهي شجاعته ورباطة جأشه ﷺ وما هي إلا من آيات النبوّة، وقال: يا رب ائتني بما وعدتني، وقال ﷺ للعباس وكان صيتًا «صيح بالناس» فنادى الأنصار فخذًا فخذًا، ثم نادى يا أصحاب الشجرة يا أصحاب البقرة فكروا عنقًا واحدًا وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق، فنظر رسول الله ﷺ إلى قتال المسلمين، فقال هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفًا من تراب، فرماهم به، ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة» فانهزموا. قال العباس: لكأني انظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بغلته ﴿بما رحبت﴾ ما مصدرية والباء بمعنى: مع، أي: مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها، على أنّ الجارّ والمجرور في موضع الحال كقولك: دخلت عليه بثياب السفر أي: ملتبسًا بها لم أحلها تعني: مع ثياب السفر، والمعنى: لا تجدون موضعًا تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب فكأنها ضاقت عليكم ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ ثم انهزمتم.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿سكينته﴾ رحمته التي سكنوا بها وآمنوا ﴿وعلى المؤمنين﴾ الذين انهزموا، وقيل: هم الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ حين وقع الهرب ﴿وأنزل جنودًا﴾ يعني: الملائكة وكانوا ثمانية آلاف، وقيل: خمسة آلاف، وقيل: ستة عشر ألفًا ﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري ﴿ثم يتوب الله﴾ أي: يسلم بعد ذلك ناس منهم، وروي: أنّ ناسًا منهم جاؤا فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبر

(1) قال الزيلعي: غريب، وأخرج الطبراني في معجمه نحوه [2/61].

(2) قال أحمد: لا مانع، والله أعلم من عطف الظرفين المكاني والزماني، أحدهما على الآخر، كعطف أحد المفعولين على الآخر، والفعل واحد إذ يجوز أن تقول: ضرب زيد عمراً في المسجد، ويوم الجمعة كما تقول ضربت زيداً وعمراً، ولا يحتاج إلى إضمار فعل جديد، وغير الأوّل هذا مع أنه لا بدّ من تغاير الفعلين الواقعين بالمفعولين، في الحقيقة فإنك إذا قلت أضرب زيداً اليوم وعمراً غداً، لم يشك في أنّ الضربين متغايران، بتغاير الظرفين، ومع ذلك الفعل واحد في الصناعة، فعلى هذا يجوز في الآية، والله أعلم، بقاء كلّ واحد من الظرفين على حاله، غير مؤوّل إلى الآخر على = أنّ الزمخشري أوجب تعدّد الفعل، وتقدير ناصب لظرف الزمان غير الفعل الأوّل، وإن كانا عنده جميعاً زمانين، لعله أنّ كثرتهم لم تكن ثابتة في جميعا المواطن يريد ولو ذهبت إلى اتحاد الناصب، للزم ذلك، وهذا غير لازم ألا تراك لو قلت أضرب زيداً حين يقوم، وحين يقعد، لكان الناصب للظرفين واحداً، وهما متغايران، وإنما يمتنع عمل الفعل الواحد في ظرفي زمان مختلفين، عند عدم العطف المتوسط بينهما، والله أعلم.

(3) النيق: أرفع موضع في الجبل.

(4) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (الحديث رقم: 4588).

الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا قيل: سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى، فقال: «إنّ عندي ما ترون، إنّ خير القول أصدقه، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم، وإما أموالكم». قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن هؤلاء جاؤا مسلمين، وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئًا، فمن كان بيده شيء وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا وليكن قرضًا علينا حتى نصيب شيئًا فنعطيه مكانه» قالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا»، فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾.

﴿النجس﴾ مصدر يقال: نجس نجسًا وقذر قذرًا ومعناه: ذوو نجس، لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن: من صافح مشركًا توضأ، وأهل المذاهب: على خلاف هذين القولين، وقرئ: نجس بكسر النون وسكون الجيم على تقدير حذف الموصوف كأنه قيل: إنما المشركون جنس نجس أو ضرب نجس، وأكثر ما جاء تابعًا لرجس وهو: تخفيف نجس نحو كبد ﴿في كبد﴾[2] ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ فلا يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿بعد عامهم هذا﴾ بعد حج عامهم هذا وهو: عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر على الموسم، وهو: مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ويدل عليه قول علي ـ كرم الله وجهه ـ حين نادى ببراءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم، وعند الشافعي يمنعون من المسجد الحرام خاصة، وعند مالك، يمنعون منه ومن غيره من المساجد، وعن عطاء رضي الله عنه: أنّ المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأن على المسلمين أن لا يمكنوهم من دخوله، ونهي المشركين أن يقربوه[3] راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه، وقيل: المراد أن يمنعوا من تولي المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك ﴿وإن خفتم عيلة﴾ أي: فقرًا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فأرسل السماء عليهم مدرارًا فأغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم، وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به، فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف، وقال: من أين تأكلون، فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم بالجزية، وقيل: بفتح البلاد والغنائم. وقرئ: عائلة بمعنى المصدر: كالعافية أو حالاً عائلة ومعنى قوله ﴿إن شاء﴾ الله إن أوجبت الحكمة إغناءكم وكان مصلحة لكم في دينكم ﴿إنّ الله عليم﴾ بأحوالكم ﴿حكيم﴾ لا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾.

﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ بيان للذين مع ما في حيزه، نفى عنهم الإيمان بالله؛ لأنّ اليهود مثنية، والنصارى مثلثة، وإيمانهم باليوم الآخر لأنهم فيه على خلاف ما يجب، وتحريم ما حرم الله ورسوله؛ لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة، وعن أبي روق لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، وأن يدينوا دين الحق وأن يعتقدوا دين الإسلام الذي هو الحق وما سواه الباطل، وقيل: دين الله، يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده. سميت جزية؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي: يقضوه، أو لأنهم يجزون بها من منّ عليهم بالإعفاء عن القتل ﴿عن يد﴾ إما أن يراد يد المعطي[4] أو الآخذ[5] فمعناه: على إرادة يد المعطي حتى يعطوها عن يد أي: عن يد مؤاتية غير ممتنعة؛ لأنّ من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد ولذلك قالوا: أعطى بيده إذا انقاد وأصحب ألا ترى إلى قولهم: نزع يده عن الطاعة كما يقال: خلع ربقة الطاعة عن عنقه، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقدًا غير نسيئة لا مبعوثًا على يد أحد ولكن عن يد

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس.. (الحديث رقم: 3131).

(2) سورة البلد، الآية: 4.

(3) قال أحمد: وقد يستدل به من يقول إنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وخصوصاً بالمناهي، فإن ظاهر الآية توجه النهي إلى المشركين، إلا أنه بعيد؛ لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهي، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه، فلا يحصل هذا المقصود، إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه، ويرشد إلى أنّ المخاطب في الحقيقة = المسلمين تصدير الكلام بخطابهم في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وتضمينه نصاً بخطابهم بقوله، وإن خفتم عيلة وكثيراً ما يتوجه النهي على من المراد خلافه، وعلى ما المراد خلافه إذا كانت، ثم ملازمه كقوله لا أرينك ههنا، ولا تموتن إلا، وأنتم مسلمون، والله أعلم.

(4) قال أحمد: فيكون كاليد في قوله عليه السلام: «لا تبيعوا الذهب»، إلى قوله: «إلا يدا بيد».

(5) قال أحمد: وهذا الوجه أملأ بالفائدة، والله أعلم.

المعطي إلى يد الآخذ، وأما على إرادة يد الآخذ فمعناه: حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية، أو عن إنعام عليهم؛ لأنّ قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم ﴿وهم صاغرون﴾ أي: تؤخذ منهم على الصغار والذل، وهو أن يأتي بها بنفسه ماشيًا غير راكب، ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس، وأن يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلبيبه، ويقال له: أدّ الجزية، وإن كان يؤديها ويزخ في قفاه، وتسقط بالإسلام عند أبي حنيفة ولا يسقط به خراج الأرض، واختلف فيمن تضرب عليه، فعند أبي حنيفة تضرب على كل كافر من ذمي ومجوسي وصابئ وحربي إلا على مشركي العرب وحدهم، روى الزهري: أنّ رسول الله ﷺ صالح عبدة الأوثان على الجزية إلا من كان من العرب[1]، وقال لأهل مكة: «هل لكم في كلمة إذا قلتموها دانت لكم بها العرب وأدت إليكم العجم الجزية»[2]. وعند الشافعي: لا تؤخذ من مشركي العجم، والمأخوذ عند أبي حنيفة في أوّل كل سنة: من الفقير الذي له كسب اثنا عشر درهمًا، ومن المتوسط في الغني ضعفها، ومن المكثر ضعف الضعف ثمانية وأربعون، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له، وعند الشافعي يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار فقيرًا كان أو غنيًّا كان له كسب أو لم يكن.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿عزير ابن الله﴾ مبتدأ وخبر كقوله: ﴿المسيح ابن الله﴾ وعزير اسم أعجمي كعازر وعيزار وعزرائيل، ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه، ومن نوّن فقد جعله عربيًا، وأما قول من قال: سقوط التنوين لالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ: أحد الله، أو لأنّ الابن وقع وصفًا والخبر محذوف وهو: معبودنا، فتحمل عنه منبوحة، وهو: قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة وما هو بقول كلهم، عن ابن عباس رضي الله عنه: جاء رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان ابن أوفى وشاش بن قيس ومالك ابن الصيف فقالوا ذلك، وقيل: قاله فنحاص، وسبب هذا القول: أنّ اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزير وهو غلام يسيح في الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم، فحفظه التوراة، فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفًا، فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه، والدليل على أنّ هذا القول كان فيهم أنّ الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على التكذيب.

فإن قُلْتَ: كل قول يقال بالفم، فما معنى قوله ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان، وذلك أنّ القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب، وما لا معنى له مقول بالفم لا غير. والثاني: أن يراد بالقول المذهب كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواهم لا بقلوبهم؛ لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد ﴿يضاهون﴾ لا بدّ فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعًا، والمعنى: أنّ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم يعني: أنه كفر قديم غير مستحدث، أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عنه، وقيل: الضمير للنصارى أي: يضاهي قولهم ﴿المسيح ابن الله﴾ قول اليهود ﴿عزير ابن الله﴾ لأنهم أقدم منهم، وقرئ: يضاهئون بالهمز من قولهم: امرأة ضهيأ على فعيل وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض، وهمزتها مزيدة كما في غرقئ ﴿قاتلهم الله﴾ أي: هم أحقاء بأن يقال لهم هذا تعجبًا من شناعة قولهم كما يقول لقوم ركبوا شنعاء: قاتلهم الله ما أعجب فعلهم ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون عن الحق.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

اتخاذهم أربابًا أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي وتحليل ما حرّم الله وتحريم ما حلله كما تطاع الأرباب في أوامرهم ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به عباده ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾[3] ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾[4] وعن عديّ بن حاتم رضي الله عنه انتهيت إلى رسول الله ﷺ وفي عتقي صليب من ذهب فقال: «أليسوا يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلون ما حرّمه الله فتحلونه». قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[5] وعن فضيل رضي الله عنه: ما أبالي أطعت مخلوقًا في معصية الخالق أو صليت لغير القبلة، وأمّا المسيح فحين جعلوه ابنا لله فقد أهلوه للعبادة ألا ترى إلى قوله: ﴿قل إن كان للرحمٰن ولد فأنا أوّل العابدين﴾[6] ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 10/326 (الحديث رقم: 19259).
(2) لم يخرجه ابن حجر ولا الزيلعي.
(3) سورة سبأ، الآية: 41.
(4) سورة مريم، الآية: 44.
(5) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة التوبة (الحديث رقم: 3095).
(6) سورة الزخرف، الآية: 81.

﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أمرتهم بذلك أدلة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح عليه السلام: أنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن الإشراك به واستبعاد له، ويجوز أن يكون الضمير في وما أمروا للمتخذين أربابًا أي: وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلا ليعبدوا الله ويوحدوه، فكيف يصح أن يكونوا أربابًا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم. مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوّة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فإن قُلْتَ[1]: كيف جاز أبى الله إلا كذا ولا يقال: كرهت وأبغضت إلا زيدًا؟ قُلْتُ: قد أجرى أبي مجرى لم يرد، ألا ترى كيف قوبل ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا﴾ بقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ وكيف أوقع موقع ولا يريد الله إلا أن يتمّ نوره.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليظهر الرسول عليه السلام ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على أهل الأديان كلهم أو ليظهر دين الحق على كل دين.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل للأخذ ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله، وإمّا على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل، ومنه قوله:

إن لنا أحمرة عجافا … يأكلن كل ليلة إكافا

يريد علفًا يشتري بثمن إكاف، ومعنى أكلهم بالباطل: أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام والتخفيف والمسامحة في الشرائع ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل وكنز الأموال والضنّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير، ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين، ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى تغليظًا ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطي منكم طيب ماله سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم، وقيل: نسخت الزكاة آية الكنز، وقيل: هي ثابتة وإنما عني بترك الإنفاق في سبيل الله منع الزكاة، وعن النبي ﷺ: «ما أدّى زكاته فليس بكنز وإن كان باطنًا، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهرًا»[2] أو عن عمر رضي الله عنه أنّ رجلاً سأله عن أرض له باعها فقال: احرز مالك الذي أخذت، احفر له تحت فراش امرأتك، قال: أليس بكنز؟ قال: ما أدي زكاته فليس بكنز[3]، وعن ابن عمر رضي الله عنه «كل ما أدّيت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم يؤدّ زكاته فهو الذي ذكر الله تعالى وإن كان على ظهر الأرض»[4].

فإن قُلْتَ: فما تصنع بما روى سالم بن الجعد رضي الله عنه أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «تبًا للذهب تبًا للفضة قالها ثلاثًا» فقالوا له: أيّ مال نتخذ؟ قال: «لسانًا ذاكرًا وقلبًا خاشعًا وزوجة تعين أحدكم على دينه»[5] وبقوله عليه الصلاة والسلام: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها»[6]، وتوفي رجل فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كية»، وتوفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال: «كيتان»[7] قُلْتُ: كان هذا قبل أن تفرض الزكاة فأمّا بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالاً من حيث أذن له فيه ويؤدّي عنه ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه، ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وعبيد الله رضي الله عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية؛ لأنّ الإعراض اختيار للأفضل، وإلا دخل في الورع والزهد في الدنيا والاقتناء مباح موسع لا يذمّ صاحبه ولكل شيء حدّ، وما روي عن عليّ رضي الله عنه: أربعة آلاف فما دونها نفقة فما زاد فهو

---

(1) قال أحمد: ولا يقال على هذا، إنّ الإباء عدم الإرادة، فكما صح الإيجاب بعد نفي الإرادة، فينبغي أن يصح بعدما هو في معناها مطلقاً؛ لأنا نقول لوجود حرف النفي، أثر في تصحيح مجيء حرف الإيجاب بعد، فلا يلزم ذلك، والله أعلم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي (الحديث رقم: 1564).

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 4/157، (الحديث رقم: 7141).

(4) الحديث تقدم.

(5) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة (الحديث رقم: 3094) وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: أفضل = النساء، (الحديث رقم: 1856)، وأحمد في المسند 5/282، وأبو نعيم في الحلية 1/ 182، 183.

(6) رواه البخاري في تاريخه، والطبري وابن مردويه، الزيلعي [2/ 72].

(7) رواه أحمد في مسنده 5/252، وابن أبي شيبة في مصنفه في الكتاب (9)، باب: (177) (الحديث رقم: 2)، وأبو يعلى (الحديث رقم: 4997)، وأخرجه ابن حبان عن ابن مسعود في كتاب: الزكاة، (الحديث رقم: 3263).

كنز[1]. كلام في الأفضل.

فإن قُلْتَ: لم قيل: ﴿ولا ينفقونها﴾ وقد ذكر شيئان؟ قُلْتُ: ذهابًا بالضمير إلى المعنى دون اللفظ؛ لأنّ كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾[2] وقيل: ذهب به إلى الكنوز، وقيل: إلى الأموال، وقيل: معناه ولا ينفقونها والذهب كما أن معنى قوله:

فـإنـي وقـيـاربـهـا لـغـريـب

وقيار كذلك.

فإن قُلْتَ: لم خصا بالذكر من بين سائر الأموال؟ قُلْتُ: لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء ولا يكنزهما إلا من فضلا عن حاجته، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر أجناس المال، فكان ذكر كنزهما دليلاً على ما سواهما.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿يحمى عليها﴾[3] وهلا قيل تحمى من قولك: حمى الميسم وأحميته، ولا تقول أحميت على الحديد؟ قُلْتُ: معناه: أن النار تحمى عليها أي: توقد ذات حمى وحرّ شديد من قوله ﴿نار حامية﴾[4] ولو قيل: يوم تحمى لم يعط هذا المعنى.

فإن قُلْتَ: فإذا كان الإحماء للنار فلم ذكر الفعل؟ قُلْتُ: لأنه مسند إلى الجار والمجرور، أصله يوم تحمى النار عليها، فلما حذفت النار قيل: يحمى عليها لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير فإن لم تذكر القصة قلت: رفع إلى الأمير، وعن ابن عامر أنه قرأ: تحمى بالتاء. وقرأ أبو حيوة: فيكوى بالياء.

فإن قُلْتَ: لم خصت هذه الأعضاء قُلْتُ: لأنهم لم يطلبوا بأموالهم حيث لم ينفقوها في سبيل الله إلا الأغراض الدنيوية من وجاهة عند الناس وتقدم، وأن يكون ماء وجوههم مصونًا عندهم، يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم، لا يخطرون ببالهم قول رسول الله ﷺ: «ذهب أهل الدثور بالأجور»[5]، وقيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم، وقيل: معناه يكوون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم ﴿هذا ما كنزتم﴾ على إرادة القول وقوله: ﴿لأنفسكم﴾ أي كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها، وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب، هو توبيخ لهم ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ وقرئ: تكنزون بضم النون أي: وبال المال الذي كنتم تكنزونه، أو وبال كونكم كانزين.

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿في كتاب الله﴾ فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابًا وقيل: في اللوح ﴿أربعة حرم﴾ ثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد وهو رجب، ومنه قوله عليه السلام في خطبته في حجة الوداع: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم: ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» والمعنى رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه وعاد الحج في ذي الحجة وبطل النسيء الذي كان في الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القعدة ﴿ذلك الدين القيم﴾ يعني: أن تحريم الأشهر الأربعة هو: الدين المستقيم دين إبراهيم وإسمٰعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويحرمون القتال فيها حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه، وسموا رجبًا الأصم ومنصل الأسنة حتى أحدثت النسيء فغيروا ﴿فلا تظلموا فيهن﴾ في الحرم ﴿أنفسكم﴾ أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً، وعن عطاء: تالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا وما نسخت. وعن عطاء الخراساني ـ رضي الله عنه ـ أحلت القتال في الأشهر الحرم ﴿براءة من الله ورسوله﴾[6] وقيل: معناه لا تأثموا فيهن بيانًا لعظم حرمتهن كما عظم أشهر الحج بقوله تعالى: ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق﴾[7] الآية، وإن كان ذلك محرّمًا في سائر الشهور ﴿كافة﴾ حال من الفاعل أو المفعول ﴿مع المتقين﴾ ناصر لهم حثهم على التقوى بضمان النصر لأهلها.

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾.

---

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 4/109 (الحديث رقم: 7150).
(2) سورة الحجرات، الآية: 9.
(3) قال أحمد: وفي هذا الفصل دقائق إعراب يشوب حسنها إغراب، والله الموفق.
(4) سورة القارعة، الآية: 11.
(5) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة، (الحديث رقم: 843)، ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة (الحديث رقم: 1346).
(6) سورة التوبة، الآية: 1.
(7) سورة البقرة، الآية: 197.

والنسيء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهرًا آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى: ﴿ليواطؤا عدة ما حرم الله﴾ أي: ليوافقوا العدّة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو: أحد الواجبين، وربما زادوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ولذلك قال عز وعلا: ﴿إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا﴾[1] يعني من غير زيادة زادوها.

والضمير في يحلونه ويحرمونه للنسيء أي: إذا أحلوا شهرًا من الأشهر الحرم عامًا رجعوا فحرموه في العام القابل. يروى: أنه حدث ذلك في كنانة؛ لأنهم كانوا فقراء محاويج إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعًا في الجاهلية وكان يقوم على جمل في الموسم فيقول بأعلى صوته: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرّم فأحلوه، ثم يقوم في القابل فيقول إن آلهتكم قد حرّمت عليكم المحرّم فحرّموه.

جعل النسيء زيادة في الكفر؛ لأنّ الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفرًا فزادتهم رجسًا إلى رجسهم كما أنّ المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيمانًا ﴿فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون﴾[2] وقرئ: يضلّ على البناء للمفعول ويضل بفتح الياء والضاد ويضلّ على أن الفعل لله عزّ وجل. وقرأ الزهري: ليوطئوا بالتشديد.

والنسيء مصدر نسأه إذا أخره يقال: نسأه نسأ ونساء ونسيا كقولك: مسه مسًا ومساسًا ومسيسًا، وقرئ: بهنّ جميعًا، وقرئ النسى بوزن الندى والنسى بوزن النهى وهما تخفيف النسيء والنسء.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿فيحلوا ما حرّم الله﴾؟ قُلْتُ: معناه: فيحلوا بمواطأة العدّة وحدها من غير تخصيص ما حرّم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها ﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ خذلهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة ﴿والله لا يهدي﴾ أي: لا يلطف بهم بل يخذلهم وقرئ: زين لهم سوء أعمالهم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾.

﴿اثاقلتم﴾ تثاقلتم، وبه قرأ الأعمش أي: تباطأتم وتقاعستم وضمن معنى الميل والاخلاد فعدي بإلى، والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ونحوه. ﴿أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾[3] وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم وبياركم، وقرئ: أثاقلتم على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ.

فإن قُلْتَ: فما العامل في إذا وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه؟ قُلْتُ: ما دل عليه قوله: ﴿اثاقلتم﴾ أو ما في ﴿مالكم﴾ من معنى الفعل، كأنه قيل: ما تصنعون إذا قيل لكم، كما تعمله في الحال إذا قلت: مالك قائمًا؟ وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشقّ عليهم، وقيل: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة إلا ورى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك ليستعدّ الناس تمام العدّة[4] ﴿من الآخرة﴾ أي: بدل الآخرة كقوله: ﴿لجعلنا منكم ملائكة﴾[5] ﴿في الآخرة﴾ في جنب الآخرة.

إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾.

﴿إلا تنفروا﴾[6] سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قومًا آخرين خيرًا منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيئًا، وقيل: الضمير للرسول أي: ولا تضروه؛ لأنّ الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره، ووعد الله كائن لا محالة، وقيل: يريد بقوله: ﴿قومًا غيركم﴾ أهل اليمن، وقيل: أبناء فارس، والظاهر مستغن عن التخصيص.

فإن قُلْتَ: كيف يكون قوله: ﴿فقد نصره الله﴾ جوابًا للشرط؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: إلا تنصروه فسينصر من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد فدلّ بقوله: ﴿فقد نصره الله﴾ على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت. والثاني: أنه أوجب له النصرة وجعله منصورًا في ذلك الوقت فلن يخذل من بعده.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 36.

(2) سورة التوبة، الآية: 124.

(3) سورة الأعراف، الآية: 176.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب من أراد غزوة نووي بغيرها، (الحديث رقم: 2948) ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة= كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 6949).

(5) سورة الزخرف، الآية: 60.

(6) قال أحمد: ويقرب إعادة الضمير إلى الرسول، أن الضمير في قوله إلا تنصروه عقيب، ذلك عائد إليه اتفاقاً، والله أعلم.

وأسند الإخراج إلى الكفار كما أسنده إليهم في قوله: ﴿من قريتك التي أخرجتك﴾[1] لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج فكأنهم أخرجوه ﴿ثاني اثنين﴾ أحد اثنين كقوله: ﴿ثالث ثلاثة﴾[2] وهما: رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. يروى أنّ جبريل عليه السلام لما أمره بالخروج قال: من يخرج معي؟ قال: أبو بكر[3]. وانتصابه على الحال، وقرئ: ثاني اثنين بالسكون و ﴿إذ هما﴾ بدل من إذ أخرجه. والغار ثقب في أعلى ثور وهو: جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثًا ﴿إذ يقول﴾ بدل ثان، قيل: طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[4]، وقيل: لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فنسجت عليه[5] وقال رسول الله ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم، فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله بأبصارهم عنه[6]، وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه فقد كفر لإنكار كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة ﴿سكينته﴾ ما ألقى في قلبه من الأمنة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه. والجنود والملائكة يوم بدر والأحزاب وحنين. وكلمة الذين كفروا دعوتهم إلى الكفر ﴿وكلمة الله﴾ دعوته إلى الإسلام وقرئ: كلمة الله بالنصب والرفع أوجه و ﴿هي﴾ فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلو وأنها المختصة به دون سائر الكلم.

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾.

﴿خفافًا وثقالاً﴾ خفافًا في النفور لنشاطكم له وثقالاً عنه لمشقته عليكم، أو خفافًا لقلة عيالكم وأذيالكم وثقالاً لكثرتها، أو خفافًا من السلاح وثقالاً منه، أو ركبانًا ومشاء، أو شبابًا وشيوخًا، أو مهازيل وسمانًا، أو صحاحًا ومراضًا، وعن ابن أمّ مكتوم أنه قال لرسول الله ﷺ: عليّ أن أنفر؟ قال: «نعم» حتى نزل قوله[7]: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾[8] وعن ابن عباس: نسخت بقوله: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾[9] وعن صفوان بن عمرو: كنت واليًا على حمص فلقيت شيخًا كبيرًا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك، فرفع حاجبيه وقال: يابن أخي استنفرنا الله خفافًا وثقالاً إلا أنه من يحبه الله يبتله. وعن الزهري خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفرنا الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾.

العرض: ما عرض لك من منافع الدنيا يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر أي: لو كان ما دعوا إليه غنمًا قريبًا سهل المنال ﴿وسفرًا قاصدًا﴾ وسطًا مقاربًا ﴿الشقة﴾ المسافة الشاطة الشاقة، وقرأ عيسى بن عمر: بعدت عليهم الشقة بكسر العين والشين ومنه قوله:

يقولون لا تبعد وهم يدفنونه ... ولا بعد إلا ما تواري الصفائح

﴿بالله﴾ متعلق بسيحلفون، أو هو من جملة كلامهم والقول مراد في الوجهين. أي: سيحلفون يعني: المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أو سيحلفون بالله يقولون: لو استطعنا، وقوله: ﴿لخرجنا﴾ سدّ مسد جوابي القسم، ولو جميعًا، والإخبار بما سوف يكون بعد القفول من حلفهم واعتذارهم، وقد كان من جملة المعجزات ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدّة، أو استطاعة الأبدان كأنهم تمارضوا، وقرئ: لو استطعنا بضم الواو تشبيهًا لها بواو الجمع في قوله: ﴿فتمنوا الموت﴾[10] ﴿يهلكون أنفسهم﴾ إما أن يكون بدلاً من سيحلفون أو حالاً بمعنى: مهلكين، والمعنى أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف، ويحتمل أن يكون حالاً من قوله: ﴿لخرجنا﴾ أي لخرجنا معكم وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشقة، وجاء به على لفظ الغائب؛ لأنه مخبر عنهم، ألا ترى أنه لوقيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا لكان سديدًا، يقال: حلف بالله ليفعلنّ ولأفعلنّ فالغيبة على حكم الإخبار والتكلم على الحكاية.

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾.

﴿عفا الله عنك﴾[11] كناية عن الجناية؛ لأنّ العفو رادف

---

(1) سورة محمد، الآية: 13.
(2) سورة المائدة، الآية: 73.
(3) لم يخرجه ابن حجر والزيلعي أيضًا.
(4) رواه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير من سورة براءة، باب: قوله عز وجل: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾ (الحديث رقم: 4663).
(5) أخرجه البزار في كشف الأستار، كتاب: الهجرة والمغازي، باب: الهجرة إلى المدينة، (الحديث رقم: 1741).
(6) قال الزيلعي: لم أجده [2/77].
(7) (لم يخرجه الزيلعي، أو ابن حجر).
(8) سورة النور، الآية: 61.
(9) سورة التوبة، الآية: 91.
(10) سورة البقرة، الآية: 94.
(11) قال أحمد رحمه الله: ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد أمرين، إما أن لا يكون هو المراد، وإما أن يكون هو المراد، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، =

لها ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت و ﴿لم أذنت لهم﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو، ومعناه: ما لك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم، وهلا استأنيت بالإذن؟ ﴿حتى يتبين لك﴾ من صدق في عذره ممن كذب فيه، وقيل: شيآن فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى، فعاتبه الله تعالى.

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾.

﴿لا يستأذنك﴾[1] ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الخلص من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي أبدًا ولنجاهدنّ أبدًا معه بأموالنا وأنفسنا ومعنى ﴿أن يجاهدوا﴾ في أن يجاهدوا أو كراهة أن يجاهدوا ﴿والله عليم بالمتقين﴾ شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين وعدة لهم بأجزل الثواب.

إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾.

﴿إنما يستأذنك﴾ يعني: المنافقين وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً ﴿يترددون﴾ عبارة عن التحير؛ لأنّ التردّد ديدن المتحير كما أنّ الثبات والاستقرار ديدن المستبصر.

۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾.

قرئ: عدّه بمعنى: عدته فعل بالعدّة ما فعل بالعدة من قال:

وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

من حذف تاء التأنيث وتعويض المضاف إليه منها، وقرئ: عدّة بكسر العين بغير إضافة وعدّه بإضافة.

فإن قُلْتَ: كيف موقع حرف الاستدراك قُلْتُ: لما كان قوله: ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ معطيًا معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو قيل: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ كأنه قيل: ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم كما تقول: ما أحسن إلى زيد ولكن أساء إليّ ﴿فثبطهم﴾ فكسلهم وخذلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث ﴿وقيل اقعدوا﴾ جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمرًا بالقعود، وقيل: هو قول الشيطان بالوسوسة، وقيل: هو قولهم لأنفسهم، وقيل: هو إذن رسول الله ﷺ لهم في القعود.

فإن قُلْتَ[2]: كيف جاز أن يوقع الله تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة؟ وتعالى الله عن إلهام القبيح، قُلْتُ: خروجهم كان مفسدة لقوله: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا﴾ فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسنًا ومصلحة.

فإن قُلْتَ: فلم خطأ رسول الله ﷺ في الإذن لهم فيما هو مصلحة؟ قُلْتُ: لأنّ إذن رسول الله ﷺ لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القفول بإعلام الله تعالى، ولكن لأنهم استأذنوه في ذلك واعتذروا إليه فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجوّز في قبولها فمن ثم أتاه العتاب، ويجوز أن يكون في ترك رسول الله ﷺ الإذن لهم مع تثبيط الله إياهم مصلحة أخرى فبإذنه لهم فقدت تلك المصلحة، وذلك أنهم إذا ثبطهم الله فلم ينبعثوا وكان قعودهم بغير إذن من رسول الله ﷺ قامت عليهم الحجة ولم تبق لهم معذرة، ولقد تدارك الله ذلك حيث هتك أستارهم وكشف أسرارهم وشهد عليهم بالنفاق وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

فإن قُلْتَ[3]: ما معنى قوله: ﴿مع القاعدين﴾؟ قُلْتُ: هو ذمّ لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين

= وخصوصاً في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالزمخشري على كلا التقديرين ذاهل، عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام، ولقد أحسن من قال في هذه الآية، أنّ من لطف الله تعالى بنبيه، أن بدأه بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداء لم أذنت لهم لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام.

(1) قال أحمد: وهذا الأدب يجب أن يقتفي مطلقاً، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه في أن يسدي إليه معروفاً، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه في أن يقدم إليه طعاماً، فإنّ الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمارة التكلف، والتكره، وصلوات الله على خليله، وسلامه لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيأ من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم، فلذلك مدحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الخلة الجميلة، والآداب الجليل، فقال تعالى: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾، أي: ذهب على خفاء منهم كيلا يشعروا به، والمهتم بأمر ضيفه بمرأى منه ربما يعد، =

= كالمستأذن له في الضيافة، فهذا من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها ذوو المروءة، وأولوا الفتوة، وأشدّ من الاستئذان في الخروج للجهاد، ونصرة الدين، والتثاقل عن المبادرة إليه بعد الحض عليه، والمناداة وأسوأ أحوال المتثاقل، وقد دعى الناس إلى الغزاة أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق نعوذ بالله من التعرّض لسخطه.

(2) قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه مبني على قاعدتين فاسدتين إيجاب مراعاة المصالح على الله تعالى، والتحسين، والتقبيح، وقد تكرّر بطلان ذلك، فاحذره، واعلم أنّ معتقد السنة أنّ الله تعالى ألقى كراهة الخروج في قلوبهم؛ لأنه أراد شقاوتهم، وانضاف إلى ذلك إرادة راحة المخلصين من مرافقتهم، إذ الأمر ليس شرطاً في نفوذ المشيئة، والله الموفق.

(3) قال أحمد: وهذا من تنبيهاته الحسنة، ونزيده بسطاً، فنقول لو قيل اقعدوا مقتصراً عليه لم يفد سوى أمرهم بالقعود، وكذلك كونوا مع القاعدين، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف، والتقاعد الموسومين بهذه =

شأنهم القعود والجثوم في البيوت وهم: القاعدون والخالفون والخوالف ويبينه قوله تعالى: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾[1].

﴿إلا خبالاً﴾ ليس من الاستثناء المنقطع في شيء كما يقولون؛ لأنّ الاستثناء المنقطع هو: أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقولك: ما زادوكم خيرًا إلا خبالاً، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور وإذا لم ينكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء فكان استثناء متصلاً؛ لأنّ الخبال بعض أعمّ العام كأنه قيل: ما زادوكم شيئًا إلا خبالاً، والخبال: الفساد والشرّ ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وإفساد ذات البين، يقال: وضع البعير وضعًا إذا أسرع وأوضعته أنا، والمعنى: ولأوضع ركائبهم بينكم، والمراد الإسراع بالنمائم؛ لأنّ الراكب أسرع من الماشي، وقرأ ابن الزبير رضي الله عنه: ولأرقصوا من رقصت الناقة رقصًا إذا أسرعت وأرقصتها قال:

والراقصات إلى منى فالغبغب

وقرئ: ولأوفضوا.

فإن قُلْتَ: كيف خطّ في المصحف ولا أوضعوا بزيادة ألف؟ قُلْتُ: كانت الفتحة تكتب ألفًا قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريبًا من نزول القرآن وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفًا وفتحتها ألفًا أخرى ونحو: ﴿أو لاأذبحنه﴾[2] ﴿يبغونكم الفتنة﴾ يحاولون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي: نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم.

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿لقد ابتغوا الفتنة﴾ أي: العنت ونصب الغوائل والسعي في تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك كما فعل عبد الله ابن أبيّ يوم أحد حين انصرف بمن معه، وعن ابن جريج رضي الله عنه: وقفوا لرسول الله ﷺ على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به ﴿من قبل﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وقلبوا لك امور﴾ ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء في إبطال أمرك، وقرئ: وقلبوا بالتخفيف ﴿حتى جاء الحق﴾ وهو تأييدك ونصرك ﴿وظهر أمر الله﴾ وغلب دينه وعلا شرعه.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿ائذن لي﴾ في القعود ﴿ولا تفتني﴾ ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأذن لي، فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت، وقيل: ولا تلقني في الهلكة فإني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي، وقيل: قال الجد بن قيس: قد علمت الأنصار أني مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الأصفر يعني: نساء الروم، ولكني أعينك بمالي فاتركني، وقرئ: ولا تفتني من أفتنه ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي: إنّ الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي: فتنة التخلف، وفي مصحف أبيّ رضي الله عنه سقط؛ لأنّ من موحد اللفظ مجموع المعنى ﴿لمحيطة بالكافرين﴾ يعني: أنها تحيط بهم يوم القيامة، أو هي محيطة بهم الآن؛ لأنّ أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها.

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿إن تصبك﴾ في بعض الغزوات ﴿حسنة﴾ ظفر وغنيمة ﴿تسؤهم وإن تصبك مصيبة﴾ نكبة وشدّة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك و ﴿يقولوا قد أخذنا أمرنا﴾ أي: أمرنا الذي نحن متسمون به من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم ﴿من قبل﴾ من قبل ما وقع. وتولوا عن مقام التحدث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم ﴿وهم فرحون﴾ مسرورون، وقيل: تولوا أعرضوا عن رسول الله ﷺ.

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾.

قرأ: ابن مسعود رضي الله عنه: قل هل يصيبنا، وقرأ طلحة رضي الله عنه: هل يصيبنا بتشديد الياء ووجهه أن يكون يفيعل لا يفعل لأنه من بنات الواو، كقولهم: الصواب وصاب السهم يصوب ومصاوب في جمع مصيبة فحق يفعل منه يصوب، الا ترى إلى قولهم صوب رأيه إلا أن يكون من لغة من يقول: صاب السهم يصيب، ومن قوله: أسهمي الصائبات والصيب، واللام في قوله: ﴿إلا ما كتب الله لنا﴾ مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل: لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة، الا ترى إلى قوله: ﴿هو مولانا﴾ أي: الذي يتولانا ونتولاه ﴿ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم﴾[3] ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله فليفعلوا ما هو حقهم.

= السمة، إلا من عبارة الآية، ولعن الله فرعون لقد بالغ في توعد موسى عليه السلام بقوله لأجعلنك من المسجونين، ولم يقل لأجعلنك مسجوناً لمثل هذه النكتة من المبالغة.

(1) سورة التوبة، الآية: 93.

(2) سورة النمل، الآية: 21.

(3) سورة محمد، الآية: 11.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿إلا إحدى الحسنيين﴾ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى العواقب وهما: النصرة والشهادة ﴿ونحن نتربص بكم﴾ إحدى السوأتين من العواقب إمّا ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ وهو: قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود ﴿أو﴾ بعذاب ﴿بايدينا﴾ وهو: القتل على الكفر ﴿فتربصوا﴾ بنا ما ذكرنا من عواقبنا ﴿إنا معكم متربصون﴾ ما هو عاقبتكم فلا بدّ أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزه.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿انفقوا﴾ يعني: في سبيل الله ووجوه البر ﴿طوعًا أو كرهًا﴾ نصب على الحال أي طائعين أو مكرهين.

فإن قُلْتَ: كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال: ﴿لن يتقبل منكم﴾؟ قُلْتُ: هو أمر في معنى الخبر كقوله تبارك وتعالى ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمٰن مدًّا﴾[1] ومعناه: لن يتقبل منكم انفقتم طوعًا أو كرهًا، ونحوه قوله تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾[2] وقوله:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة

أي: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا نلومك أسأت إلينا أم أحسنت.

فإن قُلْتَ: متى يجوز نحو هذا؟ قُلْتُ: إذا دلّ الكلام عليه كما جاز عكسه في قولك: رحم الله زيدًا وغفر له.

فإن قُلْتَ: لم فعل ذلك؟ قُلْتُ: لنكتة فيه وهي: انّ كثيرًا كانه يقول لعزة: امتحني لطف محلك عندي وقوّة محبتي لك وعامليني بالإساءة والإحسان وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة كنت أو محسنة وفي معناه قول القائل:

أخوك الذي إن قمت بالسيف عامدًا لتضربه لم يستغشك في الودّ

وكذلك المعنى أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم، واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وانظر هل ترى اختلاقًا بين حال الاستغفار وتركه.

فإن قُلْتَ: ما الغرض في نفي التقبل، أهو ترك رسول الله ﷺ تقبله منهم وردّه عليهم ما يبذلون منه؟ أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى ذاهبًا هباء لا ثواب له؟ قُلْتُ: يحتمل الأمرين جميعًا وقوله: ﴿طوعًا أو كرهًا﴾ معناه: طائعين من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين، وسمى الإلزام إكراهة لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقًا عليهم كالإكراه، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم؛ لأنّ رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه أو مكرهين من جهتهم، وروي أنها نزلت في الجدّ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك، وقال لرسول الله ﷺ: هذا مالي أعينك به فاتركني ﴿إنكم﴾ تعليل لرد إنفاقهم. والمراد بالفسق التمرد والعتوّ.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿انهم﴾ فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه. وقرئ: أن تقبل بالتاء، والياء على البناء للمفعول، ونفقاتهم ونفقتهم على الجمع والتوحيد، وقرأ السلمي أن يقبل منهم نفقاتهم على أن الفعل لله عزّ وجلّ ﴿كسالى﴾ بالضم والفتح جمع كسلان نحو سكارى وغيارى في جمع سكران وغيران، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثوابًا ولا يخشون بتركها عقابًا فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾[3] وقرأت في بعض الأخبار أنّ رسول الله ﷺ كره للمؤمن أن يقول كسلت كأنه ذهب إلى هذه الآية، فإنّ الكسل من صفات المنافقين فما ينبغي أن يسنده المؤمن إلى نفسه.

فإن قُلْتَ: الكراهية خلاف الطواعية وقد جعلهم الله تعالى طائعين في قوله: ﴿طوعًا﴾ ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون قُلْتُ: المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ﷺ أو من رؤسائهم، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار لا عن رغبة واختيار.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

الإعجاب بالشيء أن يسرّ به سرور راض به متعجب من حسنه والمعنى: فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا كقوله تعالى: ﴿ولا تمدّنّ عينيك﴾[4] فإنّ الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب بأن عرّضه للتغنم والسبي وبلاهم فيه بالآفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون له على رغم أنوفهم، وأذاقهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم.

فإن قُلْتَ: إن صح تعليق التعذيب بإرادة الله تعالى فما بال زهوق أنفسهم ﴿وهم كارهون﴾؟ قُلْتُ: المراد الاستدراج بالنعم كقوله تعالى: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا

(1) سورة مريم، الآية: 75.

(2) سورة التوبة، الآية: 80.

(3) سورة البقرة، الآية: 45.

(4) سورة طه، الآية: 131.

﴿إِنَّمَا﴾ [1] كأنه قيل: ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة، ﴿لمنكم﴾ لمن جملة المسلمين ﴿يفرقون﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالإسلام تقية.

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿ملجأ﴾ مكانًا يلجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة ﴿أو مغارات﴾ أو غيرانًا، وقرئ: بضم الميم من أغار الرجل وغار إذا دخل الغور، وقيل: هو تعدية غار الشيء وأغرته أنا يعني: أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم، ويجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع بمعنى: مهارب ومفارّ ﴿أو مدخلا﴾ أو نفقًا يندسون فيه وينجحرون وهو مفتعل من الدخول. وقرئ مدخلاً من دخل ومدخلاً من أدخل مكانًا يدخلون فيه أنفسهم، وقرأ أبيّ بن كعب رضي الله عنه: متدخلاً، وقرئ: لو ألوا إليه لالتجؤا إليه ﴿يجمحون﴾ يسرعون إسراعًا لا يردّهم شيء من الفرس الجموح وهو: الذي إذا حمل لم يردّه اللجام، وقرأ أنس رضي الله عنه: يجمزون، فسئل فقال: يجمحون ويجمزون ويشتدون واحد.

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿يلمزك﴾ يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك، قيل: هم المؤلفة قلوبهم، وقيل: هو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فقال: اعدل يا رسول الله، فقال صلوات الله عليه وسلامه: «ويلك إن لم أعدل فمن يعدل» [2] وقيل: هو أبو الجواظ من المنافقين قال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم وهو يزعم أنه يعدل فقال رسول الله ﷺ: «لا أبا لك أما كان موسى راعيًا؟ أما كان داود راعيًا» فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام: «احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون» [3] وقرئ: يلمزك بالضم ويلمزك ويلامزك التثقيل والبناء على المفاعلة مبالغة في اللمز. ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله؛ لأنّ رسول الله ﷺ استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه. وإذا للمفاجأة

أي: وإن لم يعطوا منها فاجؤا للسخط. جواب لو محذوف تقديره ولو أنهم رضوا لكان خيرًا لهم، والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم وقالوا: كفانا فضل الله وصنعه وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم ﴿إنا إلى الله﴾ في أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون.

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾.

﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ [4] قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم ونحوه قولك: إنما الخلافة لقريش، تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم، فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن تصرف إلى بعضها وعليه مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، وعن حذيفة، وابن عباس، وغيرهما من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزاك، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فجبرتهم بها كان أحب إليّ، وعند الشافعي رضي الله عنه: لا بد من صرفها إلى الأصناف الثمانية، وعن عكرمة رضي الله عنه: أنها تفرّق في الأصناف الثمانية، وعن الزهري أنه كتب لعمر بن عبد العزيز: تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية ﴿والعاملين عليها﴾ السعاة الذين يقبضونها ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ أشراف من العرب كان رسول الله ﷺ يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئًا منها حين كان في المسلمين قلة. و ﴿الرقاب﴾ المكاتبون يعانون منها، وقيل: الأسارى، وقيل: تبتاع الرقاب فتعتق ﴿والغارمين﴾ الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب، وقيل: الذين تحملوا الحمالات فتداينوا فيها وغرموا ﴿وفي سبيل الله﴾ فقراء الغزاة والحجاج المنقطع بهم ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع عن ماله، فهو فقير حيث هو، غني حيث ماله ﴿فريضة من الله﴾ في معنى المصدر المؤكد؛ لأنّ قوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ معناه: فرض الله الصدقات لهم، وقرئ: فريضة بالرفع على تلك فريضة.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 178.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة، (الحديث رقم: 3610)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم (الحديث رقم: 2453).

(3) قال الزيلعي: غريب 2/ 78. 79.

(4) قال أحمد: وهو مذهب مالك رضي الله عنه، والقول بوجوب =

= صرفها إلى جميع الأصناف، حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار اللام بالتمليك، كما ذهب إليه الشافعي لا يسعده السياق، فإن الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على أن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً، فهذا هو الغرض الذي سيقت له، فلا اقتضاء فيها لما سواه، والله أعلم.

فإن قُلْتَ[1]: لم عدل عن اللام إلى في في الأربعة الأخيرة؟ قُلْتُ: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره؛ لأنّ في للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصبًا، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة، أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير في قوله: ﴿وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين.

فإن قُلْتَ: فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم؟ قُلْتُ: دل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسمًا لأطماعهم وإشعارًا باستيجابهم الحرمان وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم وما لها، وما سلطهم على التكلم فيها ولمن قاسمها صلوات الله عليه وسلامه.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

الأذن الرجل[2] الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي: آلة السماع كأن جملته أذن سامعة، ونظيره قولهم: للربيئة عين. وإيذاؤهم له هو قولهم فيه ﴿هو أذن﴾ و ﴿أذن خير﴾ كقولك: رجل صدق تريد الجودة والصلاح كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن، ويجوز أن يريد هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك، ودلّ عليه قراءة حمزة: ورحمة بالجرّ عطفًا عليه أي: هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله. ثم فسّر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله لما قام عنده من الأدلة، ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار، وهو: رحمة لمن آمن منكم أي: أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم، ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمّة والتقصير بفطنته وشهامته وأنه من أهل سلامة القلوب والغرّة، وقيل: إنّ جماعة منهم ذمّوه صلوات الله عليه وسلامه وبلغه ذلك فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم: لا عليكم فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذر أيضًا فيرضى، فقيل: هو أذن خير لكم، وقرئ أذن خير لكم على أن أذن خبر مبتدأ محذوف وخير كذلك أي: هو أذن هو خير لكم، يعني: إن كان كما تقولون فهو خير لكم؛ لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم، وقرأ نافع بتخفيف الذال.

فإن قُلْتَ: لم عدي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وإلى المؤمنين باللام؟ قُلْتُ: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به فعدي بالباء، وقصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونه صادقين عنده فعدى باللام ألا ترى إلى قوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾[3] ما أنباه عن الباء ونحوه: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾[4] ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾[5] ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾[6].

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة ابن أبي عبلة ورحمة بالنصب؟ قُلْتُ: هي علة معللها محذوف تقديره ورحمة لكم يأذن لكم فحذف؛ لأن قوله أذن خير لكم يدل عليه.

---

(1) قال أحمد: وثم سر آخر هو أظهر، وأقرب، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك، لما عساه يدفع إليهم، وإنما يأخذونه ملكاً، فكان دخول اللام، لائقاً بهم، وأمّا الأربعة الأواخر، فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم، ولكن في مصالح تتعلق بهم، فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون، والبائعون، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم، حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم محال لهذا الصرف، والمصلحة المتعلقة به، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم، لا لهم، وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك، وأما ابن السبيل، فكأنه كان مندرجاً في سبيل الله، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً، وعطفه على المجرور باللام ممكن، ولكنه على القريب منه أقرب، والله أعلم، وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً في الاستدلال، لمالك على أنّ الغرض بيان المصرف، واللام لذلك لام الملك، فيقول متعلق الجار الواقع خبراً عن الصدقات محذوف، فيتعين تقديره، فإما أن يكون = التقدير إنما الصدقات مصروفة للفقراء، كقول مالك، أو مملوكة للفقراء، كقول الشافعي لكن الأوّل متعين؛ لأنه تقدير يكتفي به في الحفين جميعاً يصح تعلق اللام به وفي معاً، فيصح أن تقول هذا الشيء مصروف في كذا، ولكذا بخلاف تقديره مملوكة، فإنه إنما يلتئم مع اللام، وعند الانتهاء إلى في يحتاج إلى تقدير مصروفة ليلتئم بها، فتقديره من اللام عام التعلق شامل الصحة متعين، والله الموفق.

(2) قال أحمد: لا شيء أبلغ من الردّ عليهم بهذا الوجه؛ لأنه في الأوّل إطماع لهم بالموافقة، ثم كرّ على طمعهم بالحسم، وأعقبهم في تنفسه باليأس منه، ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاء القول بالموجب؛ لأن في أوّله إطماعاً للخصم بالتسليم، ثم بتاً للطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الإطماع، ثم اليأس يتلوه ويعقبه، والله الموفق.

(3) سورة يوسف، الآية: 17.

(4) سورة يونس، الآية: 83.

(5) سورة الشعراء، الآية: 111.

(6) سورة طه، الآية: 71.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿لكم ليرضوكم﴾ الخطاب للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم، فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق. وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ فكانا في حكم مرضي واحد كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني، أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

المحادّة مفاعلة من الحدّ كالمشاقة من الشقّ ﴿فأنّ له﴾ على حذف الخبر أي: فحق أن له ﴿نار جهنم﴾ وقيل معناه: فله وأن تكرير لأن في قوله: أنه تأكيدًا، ويجوز أن يكون فإن له معطوفًا على أنه على أن جواب من محذوف تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فإن له نار جهنم، وقرئ: ألم تعلموا بالتاء.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

كانوا يستهزئون بالإسلام وأهله، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله لوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة وأن لا ينزل فينا شيء يفضحنا. والضمير في عليهم وتنبئهم للمؤمنين وفي قلوبهم للمنافقين وصحّ ذلك؛ لأن المعنى يقول إليه، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم، ومعنى: تنبئهم بما في قلوبهم كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني: أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها، وقيل: معنى يحذر الأمر بالحذر أي: ليحذر المنافقون.

فإن قُلْتَ: الحذر واقع على إنزال السورة في قوله: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ فما معنى قوله: ﴿مخرج ما تحذرون﴾؟ **قُلْتُ:** معناه: محصل مبرز إنزال السورة أو أن الله مظهر ما كنتم تحذرونه أي: تحذرون إظهاره من نفاقكم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك فقال: احبسوا على الركب، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا؟ فقالوا: يا نبي الله، لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر[1] ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن﴾ لم يعبأ باعتذارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود منهم حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿لا تعتذروا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم ﴿قد كفرتم﴾ قد ظهر كفركم باستهزائكم ﴿بعد إيمانكم﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ مصرين على النفاق غير تائبين منه، أو إن نعف عن طائفة منكم لم يؤذوا رسول الله ﷺ ولم يستهزؤا فلم نعذبهم في العاجل نعذب في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذين لرسول الله ﷺ مستهزئين. وقرأ مجاهد: إن تعف عن طائفة على البناء للمفعول مع التأنيث، والوجه التذكير؛ لأن المسند إليه الظرف كما تقول: سير بالدابة، ولا تقول: سيرت بالدابة، ولكنه ذهب إلى المعنى كأنه قيل: إن ترحم طائفة فأنث لذلك وهو غريب والجيد قراءة العامّة؛ إن يعف عن طائفة بالتذكير وتعذب طائفة بالتأنيث. وقرئ: إن يعف عن طائفة يعذب طائفة على البناء للفاعل وهو: الله عزّ وجل.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿بعضهم من بعض﴾ أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في قولهم: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾[2] وتقرير قوله: ﴿وما هم منكم﴾ ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين ﴿يأمرون بالمنكر﴾ بالكفر والمعاصي ﴿وينهون عن المعروف﴾ عن الإيمان والطاعات ﴿ويقبضون ايديهم﴾ شحًا بالمبار والصدقات والإنفاق في سبيل الله ﴿نسوا الله﴾ أغفلوا ذكره ﴿فنسيهم﴾ فتركهم من رحمته وفضله ﴿هم الفاسقون﴾ هم الكاملون في الفسق الذي هو: التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجرًا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول.

(2) سورة التوبة، الآية: 56.

حين بالغ في ذمهم، وإذا كره رسول الله ﷺ للمسلم أن يقول كسلت؛ لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله: ﴿كسالى﴾[1] فما ظنك بالفسق.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾.

﴿خالدين فيها﴾ مقدّرين الخلود ﴿هي حسبهم﴾ دلالة على عظم عذابها وأنه لا شيء أبلغ منه وأنه بحيث لا يزاد عليه، نعوذ بالله من سخطه وعذابه ﴿ولعنهم الله﴾ وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين، كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة المكرمين ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار مقيم دائم كعذاب النار، ويجوز أن يريد ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن، خوفًا من المسلمين وما يحذرونه أبدًا من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾.

الكاف محلها رفع على أنتم مثل الذين من قبلكم أو نصب على فعلتم مثل ما فعل الذين من قبلكم وهو: أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا ونحوه قول النمر:

كاليوم مطلوبًا ولا طالبًا

بإضمار لم أر، وقوله: ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ تفسير لتشبيههم بهم وتمثيل فعلهم بفعلهم. والخلاق: النصيب وهو: ما خلق للإنسان أي: قدر من خير. كما قيل له: قسم؛ لأنه قسم ونصب؛ لأنه نصب أي أثبت. والخوض: الدخول في الباطل واللهو ﴿كالذي خاضوا﴾ كالفوج الذي خاضوا وكالخوض الذي خاضوه.

فإن قُلْتَ: أي فائدة في قوله: ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾؟ وقوله: ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾؟ مغن عنه كما أغنى قوله: ﴿كالذي خاضوا﴾ عن أن يقال وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا؟ قُلْتُ: فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة، وإن يخسس أمر الاستمتاع ويهجن أمر الراضي به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل فعله، وأما ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن باستناده إليه عن تلك التقدمة ﴿حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ نقيض قوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[2].

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿وأصحاب مدين﴾ وأهل مدين وهم: قوم شعيب ﴿والمؤتفكات﴾ مدائن قوم لوط، وقيل: قريات قوم لوط وهود وصالح، وائتفاكهن: انقلاب أحوالهنّ عن الخير إلى الشر ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ فما صحّ منه أن يظلمهم، وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح، وأن يعاقبهم بغير جرم، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾.

﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في مقابلة قوله في المنافقين: ﴿بعضهم من بعض﴾[3] ﴿سيرحمهم الله﴾ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد في قولك: سأنتقم منك يومًا تعني: أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك، ونحوه: ﴿سيجعل لهم الرحمٰن ودًّا﴾[4] ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾[5] ﴿سوف يؤتيهم أجورهم﴾[6] ﴿عزيز﴾ غالب على كل شيء قادر عليه فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿حكيم﴾ واضع كلاً موضعه على حسب الاستحقاق.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾.

﴿ومساكن طيبة﴾ عن الحسن: قصورًا من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد. و ﴿عدن﴾ علم بدليل قوله: ﴿جنات عدن التي وعد الرحمٰن﴾[7] ويدل عليه ما روى أبو الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها

(1) سورة التوبة، الآية: 54.
(2) سورة العنكبوت، الآية: 27.
(3) سورة التوبة، الآية: 67.
(4) سورة مريم، الآية: 96.
(5) سورة الضحى، الآية: 5.
(6) سورة النساء، الآية: 152.
(7) سورة مريم، الآية: 61.

غير ثلاثة: النبيون والصدّيقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك»[1] وقيل: هي مدينة في الجنة، وقيل: نهر جناته على حافاته ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله؛ لأنّ رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأنّ العبد إذا علم أنّ مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت، وسمعت بعض أولي الهمة البعيدة والنفس المرّة من مشايخنا يقول: لا نطمح عيني ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد الله في دار الكرامة كما تطمح وتنازع إلى رضاه عني وأن أحشر في زمرة المهديين المرضيين عنده ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما وعد الله أو إلى الرضوان أي: ﴿الفوز العظيم﴾ وحده دون ما يعدّه الناس فوزًا، وروي أنّ الله عزّ وجلّ يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك! فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أدخل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا[2].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾.

﴿جاهد الكفار﴾[3] بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالحجة ﴿واغلظ عليهم﴾ في الجهادين جميعًا ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها، عن ابن مسعود: إن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فليكفهرّ في وجهه، فإن لم يستطع فبقلبه[4]، يريد: الكراهة والبغضاء والتبرأ منه. وقد حمل الحسن جهاد المنافقين: على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها.

يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾.

أقام رسول الله ﷺ في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم، منهم الجلاس بن سويد فقال الجلاس: والله لئن كان ما يقول محمد حقًا لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير. فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل والله إنّ محمدًا لصادق وأنت شر من الحمار، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضر فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده فقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق[5] فنزلت ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ فقال الجلاس: يا رسول الله لقد عرض الله علي التوبة، والله لقد قلته وصدق عامر، فتاب الجلاس وحسنت توبته ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ وهو: الفتك برسول الله ﷺ، وذلك عند مرجعه من تبوك تواثق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذ اتسم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثمون فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا[6]، وقيل: همّ المنافقون بقتل عامر لردّه على الجلاس، وقيل: أرادوا أن يتوّجوا عبد الله بن أبيّ وإن لم يرض رسول الله ﷺ ﴿وما نقموا﴾ وما أنكروا وما عابوا ﴿إلا أن أغناهم الله﴾ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم، وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفًا فاستغنى ﴿فإن يتوبوا﴾ هي الآية التي تاب عندها الجلاس ﴿في الدنيا والآخرة﴾ بالقتل والنار.

۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾.

روي أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال ﷺ: «يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه» فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، «فدعا له» فاتخذ غنمًا فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل واديًا وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد، قال: «يا ويح ثعلبة» فبعث رسول الله ﷺ مصدّقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، وقال: ارجعا حتى أرى رأيي. فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه، «يا ويح ثعلبة» مرتين، فنزلت فجاءه ثعلبة بالصدقة فقال: «إنّ الله منعني أن أقبل منك»، فجعل التراب على رأسه، فقال: «هذا

---

(1) كشف الأستار، كتاب: صفة الجنة، باب: في الجنة ما لا عين رأت ولا (الحديث رقم: 3516).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6540) ومسلم في كتاب: الجنة باب: احلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا (الحديث رقم: 7070).

(3) قال أحمد: والحمد لله الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظ عليه أحياناً، والله الموفق.

(4) ذكره الطبري في تفسيره.

(5) رواه عبد الرزاق في مصنفه 10/46 (الحديث رقم: 18303).

(6) رواه أحمد في مسنده 5/453.

عملك قد أمرتك فلم تطعني» فقبض رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها، وجاء بها إلى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله عنه[1]. وقرئ: ﴿لَنَصَّدقَنْ ولنكونَنْ﴾ بالنون الخفيفة فيهما ﴿من الصالحين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد الحج.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿فاعقبهم﴾ عن الحسن وقتادة رضي الله عنهما أنّ الضمير للبخل يعني: فأورثهم البخل ﴿نفاقًا﴾ متمكنًا ﴿في قلوبهم﴾؛ لأنه كان سببًا فيه وداعيًا إليه، والظاهر أن الضمير لله عزّ وجلّ والمعنى: فخذلهم حتى نافقوا وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدّق والصلاح وكونهم كاذبين، ومنه: جعل خلف الوعد ثلث النفاق. وقرئ: يكذّبون بالتشديد والم تعلموا بالتاء عن عليّ رضي الله عنه. ﴿سرّهم ونجواهم﴾ ما أسرّوه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية، وتدبير منعها.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿الذين يلمزون﴾ محله النصب أو الرفع على الذمّ ويجوز أن يكون في محل الجرّ بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم وقرئ يلمزون بالضم ﴿المطوّعين﴾ المتطوّعين المتبرعين. روي أنّ رسول الله ﷺ حثّ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب، وقيل: بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت أربعة لعيالي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت». فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفًا[2]. وتصدّق عاصم بن عديّ بمائة وسق من تمر. وجاء أبو عقيل الأنصاري رضي الله عنه بصاع من تمر فقال: بت ليلتي أجرّ بالجرير على صاعين فتركت صاعًا لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات، فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن ينكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت ﴿إلا جهدهم﴾ إلا طاقتهم، قرئ بالفتح والضم ﴿سخر الله منهم﴾ كقوله: ﴿الله يستهزئ بهم﴾[3] في أنه خبر غير دعاء، ألا ترى إلى قوله ﴿ولهم عذاب أليم﴾ سأل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ رسول الله ﷺ وكان رجلاً صالحًا: أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل، فنزلت، فقال رسول الله ﷺ: إنّ الله قد رخّص لي فسأزيد على السبعين، فنزلت ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾[4]. وقد ذكرنا[5] أن هذا الأمر في معنى الخبر كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وإن فيه معنى الشرط، وذكرنا النكتة في المجيء به على لفظ الأمر، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

لأصبحن العاص وابن العاصي ... سبعين ألفًا عاقدي النواصي

فإن قُلْتَ[6]: كيف خفي على رسول الله ﷺ وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار؟ كيف وقد تلاه بقوله: ﴿ذلك بأنهم كفروا﴾ الآية، فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: قد رخص لي ربي فسأزيد على السبعين قُلْتُ: لم يخف عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهارًا لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾[7] وفي إظهار النبي ﷺ الرأفة والرحمة لطف لأمّته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض.

---

(1) راجع الزيلعي 2/85.

(2) كشف الأستار، كتاب: التفسير، باب: سورة براءة (الحديث رقم: 3625).

(3) سورة البقرة، الآية: 15.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الكفن في القميص الذي يكف أو لا يكف (الحديث رقم: 1269) ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (الحديث رقم: 6958).

(5) قال أحمد: وما يدعيه الزمخشري في هذا، وأمثاله من محذوف هو المقصود بالأمر، وهذا واقع موقعه، كقول كثير غرة:

اسيئي بنا او احسني لا ملومة

كأنه يقول لها: امتحني محلك عندي، وقوّة محبتي لك، وعامليني بالإساءة، والإحسان، وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة، أو= محسنة، وكذلك معنى الآية ﴿استغفر لهم، أو لا تستغفر لهم﴾ وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار، وتركه، وهل يتفاوت الحالان أولاً، قال أحمد: وقد ورد بصيغة الخبر في الآية الأخرى في قوله تعالى سواء عليهم أستغفرت لهم، أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم.

(6) قال أحمد: وقد أنكر القاضي رضي الله عنه حديث الاستغفار، ولم يصححه، وتغالى قم في قبوله، حتى أنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة، وبنوه على أنه عليه السلام، فهم من تحديد نفي الغفران بالسبعين ثبوت الغفران بالزائد عليه، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم.

(7) سورة إبراهيم، الآية: 36.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿المخلفون﴾ الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين فأذن لهم وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان ﴿بمقعدهم﴾ بقعودهم عن الغزو ﴿خلاف رسول الله﴾ خلفه يقال: أقام خلاف الحي بمعنى: بعدهم ظعنوا ولم يظعن معهم، وتشهد له قراءة أبي حيوة خلف رسول الله، وقيل: هو بمعنى المخالفة؛ لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض، وانتصابه على أنه مفعول له، أو حال أي قعدوا لمخالفته، أو مخالفين له ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ تعريض بالمؤمنين وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض، وكره ذلك المنافقون، وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان ﴿قل نار جهنم أشد حرًا﴾ استجهال لهم؛ لأنّ من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصوّن في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل، ولبعضهم:

مسرة أحقاب تلقيت بعدها ... مساءة يوم أريها شبه الصاب
فكيف بأن تلقى مسرة ساعة ... وراء تقضيها مساءة أحقاب

معناه فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيرًا ﴿جزاء﴾ إلاّ أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره. يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم. وإنما قال ﴿إلى طائفة منهم﴾؛ لأنّ منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف أو اعتذر بعذر صحيح، وقيل: لم يكن المخلفون كلهم منافقين فأراد بالطائفة المنافقين منهم ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ يعني: إلى غزوة بعد غزوة تبوك و ﴿أول مرة﴾ هي: الخرجة إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم لتخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق بخلاف غيرهم من المتخلفين ﴿مع الخالفين﴾ قد مرّ تفسيره، وقرأ مالك بن دينار رحمه الله مع الخلفين على قصر الخالفين.

فإن قُلْتَ: مرة نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة من المرات؟ قُلْتُ: أكثر اللغتين هند أكبر النساء وهي أكبرهنّ، ثم إنّ قولك هي كبرى امرأة لا تكاد تعثر عليه، ولكن هي أكبر امرأة، وأول مرة وآخر مرة، وعن قتادة ذكر لنا: أنهم كانوا اثني عشر رجلاً قيل فيهم ما قيل.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

روي أنّ رسول الله ﷺ كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم، فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بعث إليه ليأتيه، فلما دخل عليه قال: «أهلكك حب اليهود» فقال: يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبني، وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلي عليه، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته فسأله عن اسمه فقال: «أنت عبد الله بن عبد الله، الحباب اسم شيطان» فلما همّ بالصلاة عليه قال له عمر: أتصلي على عدوّ الله؟[1]، فنزلت، وقيل: أراد أن يصلي عليه فجنبه جبريل[2].

فإن قُلْتَ: كيف جازت له تكرمة المنافق وتكفينه في قميصه؟ قُلْتُ: كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له، وذلك أنّ العباس رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ لما أخذ أسيرًا ببدر لم يجدوا له قميصًا، وكان رجلاً طوالاً، فكساه عبد الله قميصه[3] وقال له المشركون يوم الحديبية: إنا لا نأذن لمحمد ولكننا نأذن لك، فقال: لا إن لي في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فشكر رسول الله ﷺ له ذلك[4]، وإجابة له إلى مسألته إياه، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلاً، وكان يتوفر على دواعي المروءة، ويعمل بعادات الكرام، وإكرامًا لابنه الرجل الصالح، فقد روي أنه قال له: أسألك أن تكفنه في بعض قمصانك، وأن تقوم على قبره لا يشمت به الأعداء[5]، وعلمًا بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان، وليكون إلباسه إياه لطفًا لغيره، فقد روي أنه قيل له: لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: «إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئًا، وإني أؤمل من الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب»، فيروي أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ[6]، وكذلك ترحمه واستغفاره، كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف؛ لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتمًا عليه.

فإن قُلْتَ: فكيف جازت الصلاة عليه؟ قُلْتُ: لم يتقدم نهي

(1) لم يخرجه الزيلعي.
(2) رواه أبو يعلى.
(3) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الكسوة للأسارى (الحديث رقم: 3008).
(4) الواقدي في المغازي.
(5) ذكره الطبري في تفسيره.
(6) ذكره ابن مردويه في تفسيره.

عن الصلاة عليهم وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم لما في ذلك من المصلحة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما أدري ما هذه الصلاة إلا أني أعلم أنّ رسول الله ﷺ لا يخادع ﴿مات﴾ صفة لأحد وإنما قيل: مات وماتوا بلفظ الماضي والمعنى على الاستقبال على تقدير الكون والوجود؛ لأنه كائن موجود لا محالة ﴿إنهم كفروا﴾ تعليل للنهي وقد أعيد قوله ﴿ولا تعجبك﴾؛ لأنّ تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية به لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾.

يجوز أن يراد السورة بتمامها وأن يراد بعضها في قوله: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه، وقيل: هي براءة؛ لأنّ فيها الأمر بالإيمان والجهاد ﴿أن آمنوا﴾ هي أن المفسرة ﴿أولوا الطول﴾ ذوو الفضل والسعة من طال عليه طولاً ﴿مع القاعدين﴾ مع الذين لهم علة وعذر في التخلف ﴿فهم لا يفقهون﴾ ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاء والهلاك ﴿لكن الرسول﴾ أي: إن تخلف هؤلاء فقد نهد إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقدًا كقوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا﴾[1] ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك﴾[2] ﴿الخيرات﴾ تتناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ، وقيل: الحور لقوله: ﴿فيهن خيرات﴾[3].

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾.

﴿المعذرون﴾ من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ وحقيقته أن يوهم أن له عذرًا فيما يفعل ولا عذر له، أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين ويجوز في العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لاتباع الميم ولكن لم تثبت بهما قراءة وهم الذين يعتذرون بالباطل كقوله: ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾[4] وقرئ: المعذرون بالتخفيف وهو: الذي يجتهد في العذر ويحتشد فيه قيل: هم: أسد وغطفان قالوا: إن لنا عيالاً وإن بنا جهدًا فائذن لنا في التخلف، وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيّ على أهالينا ومواشينا فقال ﷺ: سيغنيني الله عنكم، وعن مجاهد: نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى، وعن قتادة: اعتذروا بالكذب، وقرئ: المعذّرون بتشديد العين والذال من تعذّر بمعنى اعتذر وهذا غير صحيح؛ لأنّ التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد في المطوّعين وأزكى وأصدق، وقيل: أريد المعتذرون بالصحة وبه فسر المعذرون والمعذرون على قراءة ابن عباس رضي الله عنه: الذين لم يفرطوا في العذر ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ هم: منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان، وقرأ أبيّ: كذّبوا بالتشديد ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ من الأعراب ﴿عذاب أليم﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾.

﴿الضعفاء﴾ الهرمى والزمنى. و ﴿الذين لا يجدون﴾ الفقراء قيل: هم مزينة وجهينة وبنو عذرة. والنصح لله ورسوله الإيمان بهما وطاعتهما في السر والعلن، وتوليهما والحب والبغض فيهما كل يفعل الموالي الناصح بصاحبه ﴿على المحسنين﴾ على المعذورين الناصحين، ومعنى لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم ولا طريق للعاتب عليهم.

وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾.

﴿قلت لا أجد﴾ حال من الكاف في أتوك وقد قبله مضمرة كما قيل في قوله: ﴿أو جاؤكم حصرت صدورهم﴾[5] أي: إذا ما أتوك قائلاً لا أجد ﴿تولوا﴾ ولقد حصر الله المعذورين في التخلف الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة، والذين عدموا آلة الخروج، والذين سألوا المعونة فلم يجدوها، وقيل: المستحملون أبو موسى

(1) سورة الأنعام، الآية: 89.
(2) سورة فصلت، الآية: 38.
(3) سورة الرحمٰن، الآية: 70.
(4) سورة التوبة، الآية: 94.
(5) سورة النساء، الآية: 90.

الأشعري وأصحابه، وقيل: البكاؤن وهم ستة نفر من الأنصار ﴿تفيض من الدمع﴾ كقولك: تفيض دمعًا وهو أبلغ من يفيض دمعها؛ لأنّ العين جعلت كان كلها دمع فائض، ومن للبيان كقولك: أفديك من رجل، ومحل الجار والمجرور والنصب على التمييز ﴿الا يجدوا﴾ لئلا يجد واو محله نصب على أنه مفعول له وناصبه المفعول له الذي هو حزنًا.

فإن قُلْتَ: ﴿رضوا﴾ ما موقعه؟ قُلْتُ: هو استئناف كانه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ يعني: أنّ السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم.

فإن قُلْتَ: فهل يجوز أن يكون قوله: ﴿قلت لا أجد﴾ استئنافًا مثله كانه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولوا فقيل: ما لهم تولوا باكين؟ فقيل: ﴿قلت لا أجد ما احملكم عليه﴾ إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض؟ قُلْتُ: نعم، ويحسن ﴿لن نؤمن لكم﴾ علة للنهي عن الاعتذار؛ لأنّ غرض المعتذر أن يصدّق فيما يعتذر به، فإذا علم انه مكذب وجب عليه الإخلال، وقوله: ﴿قد نبانا الله من لخباركم﴾ علة لانتفاء تصديقهم؛ لأنّ الله عزّ وجلّ إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وأحوالهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم ﴿وسيرى الله عملكم﴾ أتنيبون أم تثبتون على كفركم ﴿ثم تردّون﴾ إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية فيجازيكم على حسب ذلك.

سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾.

﴿لتعرضوا عنهم﴾ فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم ﴿فاعرضوا عنهم﴾ فأعطوهم طلبتهم ﴿إنهم رجس﴾ تعليل لترك معاتبتهم يعني: أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم إنما يعاتب الأديم ذو البشرة والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿وماواهم جهنم﴾ يعني: وكفتهم النار عتابًا وتوبيخًا فلا تتكلفوا عتابهم ﴿لترضوا عنهم﴾ أي: غرضهم في الحلف بالله طلب رضاكم لينفعهم ذلك في دنياهم ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطًا عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها، وقيل: إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم، قيل: هم جد بن قيس، ومعتب بن قشير، وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً منافقين، فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم»، وقيل: جاء عبد الله بن أبي يحلف أن لا يتخلف عنه أبدًا.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾.

﴿الأعراب﴾ أهل البدو ﴿أشدّ كفرًا ونفاقًا﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة ﴿وأجدر أن لا يعلموا﴾ وأحق بجهل حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام منه قوله ﷺ: «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين»[1] ﴿والله عليم﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر ﴿حكيم﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم مخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾.

﴿مغرمًا﴾ غرامة وخسرانًا والغرامة ما ينفقه الرجل وليس يلزمه؛ لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله عزّ وجلّ وابتغاء المثوبة عنده ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾[2] دوائر الزمان دوله وعقبه لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء معترض دعي عليهم بنحو ما دعوا به كقوله عز وجل: ﴿قالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم﴾[3] وقرئ السوء بالضم، وهو: العذاب، كما قيل: له سيئة، والسوء بالفتح وهو: ذم الدائرة كقولك: رجل سوء في نقيض قولك: رجل صدق؛ لأن من دارت عليه ذمّ لها ﴿والله سميع﴾ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة ﴿عليم﴾ بما يضمرون، وقيل: هم أعراب أسد وغطفان وتميم.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾.

﴿قربات﴾ مفعول ثان ليتخذ، والمعنى: أن ما ينفقه سبب لحصول القربات عند الله ﴿وصلوات الرسول﴾؛ لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر

---

(1) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قدوم الأشعريين، الحديث رقم: (4387)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه. (الحديث رقم: 179).

(2) قال أحمد: وفي آية براءة مزيد على مناسبة الدعاء، لحال المدعو = عليهم، ولقولهم، وذلك أن الذي نسب إليهم تربص الدوائر مطلقاً، والذي دعي عليهم به دائرة السوء على التقييد بأسوأ الدوائر، لا على الإطلاق، والله الموفق.

(3) سورة المائدة، الآية: 64.

لهم كقوله: «اللهم صلي على آل أبي أوفى»[1] وقال تعالى: ﴿وصل عليهم﴾[2] فلما كان ما ينفق سببًا لذلك قيل: يتخذ ما ينفق قرابات وصلوات ﴿ألا إنها﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك ﴿سيدخلهم﴾ وما في السين من تحقيق الوعد وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة[3] منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها. وقرئ: قربة بضم الراء، وقيل: هم عبد الله وذو البجادين ورهطه.

وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾.

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين﴾ هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل: الذين شهدوا بدرًا، وعن الشعبي: من بايع بالحديبية، وهي: بيعة الرضوان ما بين الهجرتين ﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن، وقرأ عمر رضي الله عنه: والأنصار بالرفع عطفًا على ﴿السابقون﴾. وعن عمر أنه كان يرى أنّ قوله: ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ بغير واو: صفة للأنصار حتى قال له زيد: إنه بالواو، فقال: ائتوني بأبي، فقال: تصديق ذلك في أول الجمعة ﴿وآخرين منهم﴾[4] وأوسط الحشر ﴿والذين جاؤا من بعدهم﴾[5] وآخر الأنفال ﴿والذين آمنوا من بعده﴾[6] وروي: أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو فقال: من أقرأك؟ قال: أبي، فدعاه فقال: أقرأنيه رسول الله ﷺ وإنك لتبيع القرظ بالبقيع. قال: صدقت وإن شئت قلت: شهدنا وغبتم، ونصرنا وخذلتم، وآوينا وطردتم، ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، وارتفع السابقون بالابتداء[7]، وخبره ﴿رضي الله عنهم﴾ ومعناه رضي عنهم لأعمالهم ﴿ورضوا عنه﴾ لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية. وفي مصاحف أهل مكة: تجري من تحتها، وهي: قراءة ابن كثير، وفي سائر المصاحف تحتها بغير من.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾.

﴿وممن حولكم﴾ يعني: حول بلدتكم وهي المدينة ﴿منافقون﴾ وهم: جهينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿ومن أهل المدينة﴾ عطف على خبر المبتدأ الذي هو: ممن حولكم، ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت، ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، على أنّ مردوا صفة لموصوف محذوف كقوله: أنا ابن جلاء، وعلى الوجه الأوّل لا يخلو من أن يكون كلامًا مبتدأ أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ﴿مردوا على النفاق﴾ تمهروا فيه من مرن فلان عمله ومرد عليه إذا درب به وضري حتى لان عليه ومهر فيه، ودلّ على مرانتهم عليه ومهارتهم فيه بقوله ﴿لا تعلمهم﴾ أي: يخفون[8] عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط تنوقهم في تحامي ما يشكك في أمرهم، ثم قال: ﴿نحن نعلمهم﴾ أي: لا يعلمهم إلا الله ولا يطلع على سرهم غيره؛ لأنهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطانًا، ويبرزون لك ظاهرًا كظاهر المخلصين من المؤمنين لا تشك معه في إيمانهم، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به فلهم فيه اليد الطولى ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قيل: هما القتل وعذاب القبر، وقيل: الفضيحة وعذاب القبر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنهم اختلفوا في هاتين المرّتين، فقال: قام رسول[9] الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق، فأخرج ناسًا وفضحهم». فهذا العذاب الأوّل، والثاني: عذاب القبر، وعن الحسن: أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم ﴿إلى عذاب عظيم﴾ إلى عذاب النار.

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾.

﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ أي: لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا متذممين نادمين وكانوا ثلاثة، أبو لبابة

---

(1) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة (الحديث رقم: 1497)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: الدعاء لمن أتى بصدقة (الحديث رقم: 2489).

(2) سورة التوبة، الآية: 103.

(3) قال أحمد: وللقدرية كما علمت مذهب في أن الفاسق ليس بمؤمن، ولا كافر، وأنه مخلد في النار، وإن كان موحداً، وغرض الزمخشري أن يجعل الفسق الذي وسم به المنافق، هو الذي يوسم به الموحد، حتى يكون استحقاقهما للخلود واحداً، فاحذره، والله أعلم.

(4) سورة الجمعة، الآية: 3.

(5) سورة الحشر، الآية: 10.

(6) سورة الأنفال، الآية: 75.

(7) رواه الطبري وابن مردويه الزيلعي 2/ 95، 96.

(8) قال أحمد: وكان قوله تعالى: ﴿مردوا على النفاق﴾ توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه عليه الصلاة والسلام، لما لهم من الخبرة في النفاق، والضراوة به، والله أعلم.

(9) رواه الطبراني في الأوسط، والطبري والثعلبي، الزيلعي 2/96.

مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام، وقيل: كانوا عشرة، فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم، بلغهم ما نزل في المتخلفين فأيقنوا بالهلاك فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت عادته ﷺ كلما قدم من سفر، فرآهم موثقين فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلهم، فقال: «وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم» فنزلت، فأطلقهم وعذرهم، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا»[1] فنزلت: ﴿خذ من أموالهم عملاً صالحًا﴾ خروجًا إلى الجهاد ﴿وآخر سيئًا﴾ تخلفًا عنه، عن الحسن، وعن الكلبي: التوبة والإثم.

فإن قُلْتَ[2]: قد جعل كل واحد منهما مخلوطًا فما المخلوط به؟ قُلْتُ: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به؛ لأنّ المعنى خلط كل واحد منهم بالآخر كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن؛ لأنك جعلت الماء مخلوطًا واللبن مخلوطًا به، وإذا قلته بالواو: جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطًا بهما كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء، ويجوز أن يكون من قولهم: بعت الشاة شاة ودرهمًا بمعنى شاة بدرهم.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿أن يتوب عليهم﴾ وما ذكرت توبتهم؟ قُلْتُ: إذا ذكر اعترافهم بذنوبهم وهو دليل على التوبة فقد ذكرت توبتهم ﴿تطهرهم﴾ صفة لصدقة وقرئ: تطهرهم من أطهره بمعنى: طهره، وتطهرهم بالجزم جوابًا للأمر. ولم يقرأ: وتزكيهم إلا بإثبات الياء والتاء في تطهرهم للخطاب، أو لغيبة المؤنث، والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الأنماء والبركة في الماء ﴿وصلّ عليهم﴾ واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، والسنة أن يدعو المصدّق لصاحب الصدقة إذا أخذها، وعن الشافعي رحمه الله: أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة: آجرك الله فيما أعطيت وجعله طهورًا وبارك لك فيما أبقيت. وقرئ: إنّ صلاتك على التوحيد ﴿سكن لهم﴾ يسكنون إلي وتطمئنّ قلوبهم بأنّ الله قد تاب عليهم ﴿والله سميع﴾ يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم ﴿عليم﴾ بما في ضمائرهم والغمّ من الندم لما فرط منهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾.

وقرئ: ﴿ألم يعلموا﴾ بالياء والتاء وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد المتوب عليهم يعني: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم ﴿إنّ الله هو يقبل التوبة﴾ إذا صحت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو: للتخصيص والتأكيد وأنّ الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين، وقيل: معنى التخصيص في ﴿هو﴾ أنّ ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها فاقصدوه بها ووجهوها إليه.

﴿وقل﴾ لهؤلاء التائبين ﴿اعملوا﴾ فإنّ عملكم لا يخفى ـ خيرًا كان أم شرًا ـ على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم. والثاني: أن يراد غير التائبين ترغيبًا لهم في التوبة، فقد روي أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم؟ فنزلت.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿ويأخذ الصدقات﴾؟ قُلْتُ: هو مجاز عن قبوله لها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إنّ الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل[3]، والمعنى: أنه يتقبلها ويضاعف عليها، وقوله: ﴿فسيرى الله﴾ وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة.

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾.

قرئ: مرجون ومرجؤن من أرجيته وأرجأته إذا أخرته ومنه المرجئة يعني: وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم ﴿إمّا يعذبهم﴾ إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا ﴿وإمّا يتوب عليهم﴾ إن تابوا وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم، فلما علموا أنّ أحدًا لا ينظر إليهم فوّضوا أمرهم إلى الله تعالى وأخلصوا نياتهم ونصحت

---

(1) رواه البيهقي في دلائل النبوة.

(2) قال أحمد: والتحقيق في هذا أنك إذا قلت خلطت الماء باللبن، فالمصرح به في هذا الكلام، أنّ الماء المخلوط، واللبن مخلط به، والمدلول عليه لزوماً، لا تصريحاً، كون الماء مخلوطاً به، واللبن مخلوطاً، وإذا قلت خلطت الماء، واللبن، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً، وأما ما خلط به كل واحد منهما، فغير مصرح به بل من اللازم أنّ كل واحد منهما مخلوط به، ويحتمل أن يكون قرينة، أو غيره، فقول الزمخشري إنّ قولك خلطت الماء = والللبن، يفيد ما يفيده مع الباء، وزيادة ليس كذلك، فالظاهر في الآية، والله أعلم أنّ العدول عن الباء، إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل، كأنه قيل عملوا عملاً صالحاً، وآخر سيئاً ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط، فعبر عنهما معاً به، والله أعلم.

(3) رواه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة من كسب طيب (الحديث رقم: 1410) ومسلم في صحيحه كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من كسب الطيب وتربيتها (الحديث رقم: 2339).

توبتهم فرحمهم الله[1] ﴿والله عليم حكيم﴾ وفي قراءة عبد الله: غفور رحيم، ﴿وإمّا﴾ للعباد أي: خافوا عليهم العذاب، وأرجو لهم الرحمة.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾.

في مصاحف أهل المدينة والشام ﴿الذين اتخذوا﴾ بغير واو؛ لأنها قصة على حيالها وفي سائرها بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم. روي أنّ بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا: نبني مسجدًا ونرسل إلى رسول الله ﷺ يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم، وهو الذي سماه رسول الله ﷺ «الفاسق»، وقال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم. فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هاربًا إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدّوا بما استطعتم من قوّة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر، وآت بجنود ومخرج محمدًا وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجدًا بجنب مسجد قباء وقالوا للنبي ﷺ: بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال ﷺ: «إني على جناح سفر وحال شغل، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه» فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد، فنزلت عليه، فدعا بمالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن ووحشي قاتل حمزة فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه». ففعلوا «وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة» ومات أبو عامر بالشام بقنسرين[2] ﴿ضرارًا﴾ مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة ﴿وكفرًا﴾ وتقوية للنفاق ﴿وتفريقًا بين المؤمنين﴾؛ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتص بهم، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم ﴿وإرصادًا﴾ وإعدادًا ﴿لـ﴾ أجل ﴿من حارب الله ورسوله﴾ وهو: الراهب أعدوه له ليصلي فيه، ويظهر على رسول الله ﷺ، وقيل: كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار، وعن شقيق: أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلي فيه فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار أو رياء أو سمعة فإنّ أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضرارًا، وعن عطاء، لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضي الله عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه.

فإن قُلْتَ: ﴿والذين اتخذوا﴾ ما محله من الإعراب؟ قُلْتُ: محله النصب على الاختصاص كقوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾[3] وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف معناه: وفيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله: ﴿والسارق والسارقة﴾[4].

فإن قُلْتَ: بم يتصل قوله ﴿من قبل﴾؟ قُلْتُ: باتخذوا أي: اتخذوا مسجدًا من قبل أن ينافي هؤلاء بالتخلف ﴿إن أردنا﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿إلا﴾ الخصلة ﴿الحسنى﴾ أو الإرادة الحسنى وهي: الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾.

﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ قيل: هو مسجد قباء أسسه رسول الله ﷺ، وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهي: يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج يوم الجمعة وهو أولى، لأنّ الموازنة بين مسجد قباء أوقع، وقيل: هو: مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وعن أبي سعيد الخدري: سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»[5] ﴿من أول يوم﴾ من أول يوم من أيام وجوده ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ قيل: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال: «أمؤمنون أنتم؟» فسكت القوم، ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم، فقال ﷺ: «اترضون بالقضاء؟» قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم، قال: «تشكرون في الرخاء» قالوا: نعم. قال ﷺ: «مؤمنون ورب الكعبة»، فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار، إنّ الله عزّ وجلّ قد اثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟ فقالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء، فتلا النبي ﷺ[6] ﴿رجال يحبون أن يتطهروا﴾ وقرئ: أن يطهروا بالإدغام، وقيل: هو عام في التطهر من النجاسات كلها، وقيل: كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ويتبعون

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب: المغازي، باب: حديث كعب (الحديث رقم: 4418)، ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 53، 2769).

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 147، وذكره ابن هشام في السيرة 2/ 529، 530.

(3) سورة النساء، الآية: 162.

(4) سورة المائدة، الآية: 38.

(5) رواه مسلم في كتاب: الحج، باب: بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى (الحديث رقم: 3373).

(6) رواه الطبراني في الأوسط الزيلعي 2/104.

الماء بأثر البول، وعن الحسن: هو التطهر من الذنوب بالتوبة، وقيل: يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى المحبتين؟ قُلْتُ: محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء المشتهي له على إيثاره، ومحبة الله تعالى إياهم أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾.

قرئ: أسس بنيانه وأسس بنيانه على البناء للفاعل والمفعول، وأسس بنيانه جمع أساس على الإضافة، وأساس بنيانه بالفتح والكسر جمع أس، وآساس بنيانه على أفعال جمع أس أيضًا وأس بنيانه، والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهي: الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه ﴿خير أم من﴾ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء، وهو: الباطل والنفاق الذي مثله مثل ﴿شفا جرف هار﴾ في قلة الثبات والاستمساك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازًا عما ينافي التقوى.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿فانهار به في نار جهنم﴾؟ قُلْتُ: لما جعل الجرف الهائر مجازًا عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف وليصور أنّ المبطل كأنه أسس بنيانًا على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ونلك الجرف فهوى في قعرها، والشفا: الحرف، والشفير وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيًا، والهار الهائر وهو: المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط ووزنه: فعل قصر عن فاعل، كخلف من خالف، ونظيره شاك وصات في شائك وصائت، وألفه ليست بألف فاعل إنما هي عينه، وأصله هور وشوك وصوت، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره. وقرئ: جرف بسكون الراء.

فإن قُلْتَ: فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر ﴿على تقوى من الله﴾ بالتنوين؟ قُلْتُ: قد جعل الألف للإلحاق لا للتأنيث كتترى فيمن نوّن ألحقها بجعفر، وفي مصحف أبيّ فانهارت به قواعده، وقيل: حفرت بقعة من مسجد الضرار فرؤي الدخان يخرج منه، وروي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لمجمع فيؤمّهم في مسجدهم فقال: لا ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أني لا أعلم ما أضمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلامًا قارئًا للقرآن وكانوا شيوخًا لا يقرؤن من القرآن شيئًا، فعذره وصدقه وأمره بالصلاة بقومه.

لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾.

﴿ريبة﴾ شكًا في الدين ونفاقًا، وكان القوم منافقين وإنما حملهم على بناء نلك المسجد كفرهم ونفاقهم كما قال عزّ وجل: ﴿ضرارًا وكفرًا﴾[1] فلما هدمه رسول الله ﷺ ازدادوا لما غاظهم من نلك وعظم عليهم تصميمًا على النفاق ومقتًا للإسلام فمعنى قوله: ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحل أثره ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ قطعًا وتفرّق أجزاء فحينئذ يسلون عنه، وأمّا ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون نكر التقطيع تصويرًا لحال زوال الريبة عنها، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم، أو في القبور أو في النار، وقرئ: يقطع بالياء، وتقطع بالتخفيف، وتقطع بفتح التاء بمعنى: تتقطع وتقطع قلوبهم على أن الخطاب للرسول أي: إلا أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم، وقرأ الحسن: إلى أن، وفي قراءة عبد الله: ولو قطعت قلوبهم، وعن طلحة: لو قطعت قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب، وقيل معناه: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندمًا وأسفًا على تفريطهم.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾.

مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشروى، وروى تاجرهم فأغلى لهم الثمن، وعن عمر رضي الله عنه: فجعل لهم الصفقتين جميعًا، وعن الحسن: أنفسًا هو خلقها وأموالاً هو رزقها، وروي: أن الأنصار حين بايعوه على العقبة قال عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني بما تمنعون منه أنفسكم»، قال: فإذا فعلنا نلك فما لنا؟ قال: «لكم الجنة»، قالوا: اربح البيع لا نقيل ولا نستقيل»[2]، ومرّ برسول الله ﷺ أعرابيّ وهو يقرؤها فقال: كلام من؟ قال:

(1) سورة التوبة، الآية: 107.

(2) نكره الواحدي في أسباب النزول ص 148.

«كلام الله» قال: بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله، فخرج إلى الغزو فاستشهد[1] ﴿يقاتلون﴾ فيه معنى: الأمر كقوله ﴿تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾[2] وقرئ: فيقتلون ويقتلون على بناء الأوّل للفاعل والثاني للمفعول، وعلى العكس ﴿وعدًا﴾ مصدر مؤكد أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبته ﴿في التوراة والإنجيل﴾ كما أثبته في القرآن ثم قال: ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾؛ لأنّ إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح قط؟ ولا ترى ترغيبًا في الجهاد أحسن منه وأبلغ.

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾.

﴿التائبون﴾ رفع على المدح أي: هم التائبون يعني: المؤمنين المذكورين ويدل عليه قراءة عبد الله وأبيّ رضي الله عنهما: التائبين بالياء إلى والحافظين نصبًا على المدح، ويجوز أن يكون جرًّا صفة للمؤمنين، وجوّز الزجاج: أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي: التائبون العابدون من أهل الجنة أيضًا وإن لم يجاهدوا كقوله: ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾[3] وقيل: هو رفع على البدل من الضمير في يقاتلون، ويجوز أن يكون: مبتدأ وخبره العابدون وما بعده خبر بعد خبر أي: التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال، وعن الحسن هم: الذين تابوا من الشرك وتبرّؤا من النفاق و ﴿العابدون﴾ الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة وحرصوا عليها و ﴿السائحون﴾ الصائمون شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم، وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه. قيل: قال ﷺ لعمه أبي طالب: «أنت أعظم الناس عليّ حقًا وأحسنهم عندي يدًا، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي». فأبى فقال: «لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه»[4] فنزلت، وقيل: لما افتتح مكة: «سأل أي أبويه أحدث به عهدًا؟» فقيل: أمك آمنة فزار قبرها بالأبواء، ثم قام مستعبرًا فقال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي» فنزلت. وهذا أصح؛ لأنّ موت أبي طالب كان قبل الهجرة وهذا آخر ما نزل بالمدينة. وقيل: استغفر لأبيه، وقيل: قال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا وذوي قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه وهذا محمد يستغفر لعمه.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾.

﴿ما كان للنبي﴾ ما صح له الاستغفار في حكم الله وحكمته ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ لأنهم ماتوا على الشرك.

قرأ طلحة: وما استغفر إبراهيم لأبيه وعنه وما يستغفر إبراهيم على حكاية الحال الماضية ﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ أي: وعدها إبراهيم أباه وهو قوله: ﴿لأستغفرن لك﴾[5] ويدل عليه قراءة الحسن، وحماد الرواية: وعدها أباه.

فإن قُلْتَ: كيف خفي على إبراهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده؟ قُلْتُ: يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي؛ لأنّ العقل يجوز أن يغفر الله للكافر ألا ترى إلا قوله عليه السلام لعمه: «لأستغفرن لك ما لم أنه» وعن الحسن: قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانًا يستغفر لآبائه المشركين؟ فقال: «ونحن نستغفر لهم[6] فنزلت. وعن علي رضي الله عنه: رأيت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له فقال: أليس قد استغفر إبراهيم»[7].

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾؟ قُلْتُ: معناه فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن، وأنه يموت كافرًا، وانقطع رجاؤه عنه، قطع استغفاره، فهو كقوله: ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ أواه فعال من أوه كلآل من اللؤلؤ، وهو الذي يكثر التأوه ومعناه: أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله: ﴿لأرجمنك﴾[8] يعني: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين[9] أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ولا يسميهم ضلالاً، ولا

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 2/105.
(2) سورة الصف، الآية: 11.
(3) سورة الحديد، الآية: 10.
(4) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، (الحديث رقم: 1360)، ومسلم في صحيحه كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (الحديث رقم: 131).
(5) سورة الممتحنة، الآية: 4.
(6) قال الزيلعي: غريب، وذكره الثعلبي عن قتادة لا عن الحسن 2/ = 106.
(7) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، (الحديث رقم: 3101) والنسائي في كتاب (الجنائز) باب: النهي عن الاستغفاء للمشركين (الحديث رقم: 2036).
(8) سورة مريم، الآية: 46.
(9) قال أحمد: هذا تفريع على قاعدة التحسين، والتقبيح، وأن العقل حاكم، والشرع كاشف لما غمض عليه تابع لمقتضاه، وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير ما موضع، والله الموفق.

يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم بأنه واجب الاتقاء والاجتناب، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم، وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه، وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها، وهي أنّ المهدي للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل في حكم الإضلال.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾.

والمراد بما يتقون: ما يجب اتقاؤه للنهي فأما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر ورد الوديعة فغير موقوف على التوقيف ﴿تاب الله على النبي﴾ كقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾[1] وقوله: ﴿واستغفر لذنبك﴾[2] وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوّابين الأوّابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح، وقيل معناه: تاب الله عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه كقوله: ﴿عفا الله عنك﴾[3] ﴿في ساعة العسرة﴾ في وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق كما استعملت الغداة والعشية واليوم. غداة طفت علماء بكر بن وائل.

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية قارعنا جذام وحميرًا
إذا جاء يومًا وارثي يبتغي الغنى يجد جمع كف غير ملأى ولا صفرًا

والعسرة حالهم في غزوة تبوك، كانوا في عسرة من الظهر يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي عسرة من الزاد، تزودا التمر المدوّد والشعير المسوّس والأهالة الزنخة، وبلغت بهم الشدّة أن اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء، وفي عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها، وفي شدّة زمان من حمارة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة ﴿كاد تزيغ قلوب فريق منهم﴾ عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه، وفي كاد ضمير الشأن وشبهه سيبويه بقولهم: ليس خلق الله مثله، وقرئ يزيغ بالياء، وفي قراءة عبد الله: من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يريد المتخلفين من المؤمنين كأبي لبابة وأمثاله ﴿ثم تاب عليهم﴾ تكرير للتوكيد، ويجوز أن يكون الضمير للفريق تاب عليهم لكيد وبتهم.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾.

﴿الثلاثة﴾ كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ومعنى ﴿خلفوا﴾ خلفوا عن الغزو، وقيل: عن أبي لبابة وأصحابه حيث تيب عليهم بعدهم، وقرئ: خلفوا أي: خلفوا الغازين بالمدينة، أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم، وقرأ جعفر الصادق رضي الله عنه: خالفوا وقرأ الأعمش: وعلى الثلاثة المخلفين ﴿بما رحبت﴾ برحبها أي: مع سعتها. وهو مثل للحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانًا يقرّون فيه قلقًا وجزعًا مما هم فيه ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي: قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنها خرجت من فرط الوحشة والغمّ ﴿وظنوا﴾ وعلموا ﴿أنْ لا ملجأ من﴾ سخط ﴿الله إلا﴾ إلى استغفاره ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرّة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا، وليتوبوا أيضًا فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علمًا منهم أن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. روى أن ناسًا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به، عن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيرًا من مائة ألف درهم فقال: يا حائطاه ما خلفني إلا ظلك وانتظار ثمرك اذهب فأنت في سبيل الله، ولم يكن لآخر إلا أهله فقال: يا أهلاه ما بطاني ولا خلفني إلا الضن بك لا جرم والله لأكابدنّ المفاوز حتى ألحق برسول الله فركب ولحق به، ولم يكن لآخر إلى نفسه لا أهل ولا مال فقال: يا نفسي ما خلفني إلا حب الحياة لك والله لأكابدنّ الشدائد حتى ألحق برسول الله ﷺ فتأبط زاد ولحق به، قال الحسن: كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها، وعن أبي ذرّ الغفاري أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده: «كن أبا ذر» فقال الناس: هو ذاك، فقال: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[4]، وعن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب والماء البارد فنظر فقال: ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الضح والريح! ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرّ كالريح، فمدّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيثمة» فكانه، ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له، ومنهم من بقي لم يلحق به منهم الثلاثة. قال كعب: لما قفل رسول الله ﷺ

(1) سورة الفتح، الآية: 2.

(2) سورة غافر، الآية: 55.

(3) سورة التوبة، الآية: 43.

(4) رواه الحاكم في المستدرك 3/50.

سلمت عليه فردّ عليّ كالمغضب بعدما نكرني وقال: «ليت شعري ما خلف كعبًا»؟ فقيل له: ما خلفه إلا حسن برديه والنظر في عطفيه، فقال: «معاذ الله ما أعلم إلا فضلاً وإسلامًا»[1] ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهنّ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجدًا وكنت كما وصفني ربي ﴿وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم﴾ وتتابعت البشارة، فلبست ثوبي وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمين، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وقال: لتهنك توبة الله عليك، فلن أنساها لطلحة، وقال رسول الله ﷺ وهو يستنير استنارة القمر: «أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». ثم تلا علينا الآية، وعن أبي بكر الورّاق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾.

﴿مع الصادقين﴾ وقرئ: من الصادقين وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولاً وعملاً، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾[2] وقيل: هم الثلاثة أي: كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب أي: كونوا مع المهاجرين والأنصار ووافقوهم وانتظموا في جملتهم واصدقوا مثل صدقهم، وقيل: لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يصلح الكذب في جدّ ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجزه، اقرؤا إن شئتم ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ فهل فيها من رخصة؟

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾.

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علمًا بأنها أعزّ نفس عند الله وأكرمها عليه فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدّة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيموا لها وزنًا وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربئوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها يضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ مع تقبيح لأمرهم وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله: ما كان لهم أن يتخلفوا من وجوب مشايعته كأنه قيل: ذلك الوجوب ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم لا يصيبهم﴾ شيء من عطش ولا تعب ولا مجاعة في طريق الجهاد، ولا يدرسون مكانًا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم، ولا يتصرفون في أرضهم تصرفًا يغيظهم ويضيق صدورهم ﴿ولا ينالون من عدوّهم نيلاً﴾ ولا يرزؤنهم شيئًا بقتل أو أسر أو غنيمة أو هزيمة أو غير ذلك ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ واستوجبوا الثواب ونيل الزلفى عند الله وذلك مما يوجب المشايعة، ويجوز أن يراد بالوطء: الإيقاع والإبادة لا الوطء بالأقدام والحوافر كقوله عليه السلام: «آخر وطأة وطئها الله بوج»[3] والموطئ إمّا مصدر كالمورد، وإمّا مكان، فإن كان مكانًا فمعنى يغيظ الكفار: يغيظهم وطؤه، والنيل أيضًا يجوز أن يكون مصدرًا مؤكدًا وأن يكون بمعنى المنيل، ويقال: نال منه إذا رزأه نقصه، وهو عام في كل ما يسوءهم وينكبهم ويلحق بهم ضررًا، وفيه دليل على أن من قصد خيرًا كان سعيه فيه مشكورًا، من قيام وقعود ومشي وكلام وغير ذلك، وكذلك الشر، وبهذه الآية استشهد أصحاب أبي حنيفة أنّ المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة؛ لأنّ وطء ديارهم مما يغيظهم وينكي فيهم، ولقد أسهم النبي ﷺ لابني عامر وقد قدما بعد تقضي الحرب[4]، وأمد أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه المهاجرين أبي أمية وزياد بن أبي لبيد بعكرمة بن أبي جهل مع خمسمائة نفس فلحقوا بعدما فتحوا فأسهم لهم[5]، وعند الشافعي: لا يشارك المدد الغانمين. وقرأ عبيد بن عمير: ظماء بالمدّ يقال: ظمئ ظماءة وظماء.

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾.

﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة﴾ ولو تمرة ولو علاقة سوط ﴿ولا كبيرة﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة ﴿ولا يقطعون واديًا﴾ أي: أرضًا في

---

(1) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: حديث كعب (الحديث رقم: 4418) ومسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (الحديث رقم: 6947).

(2) سورة الأحزاب، الآية: 23.

(3) رواه أحمد في مسنده 6/409.

(4) رواه أبو داود نحوه في كتاب: الجهاد، باب: فيمن جاء بعد الغنيمة لا سهم له (الحديث رقم: 2725) والترمذي مختصرًا، وأخرج البخاري في صحيحه كتاب المغازي باب: غزوة خيبر (الحديث رقم: 4223).

(5) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 12/115.

ذهابهم ومجيئهم، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذًا للسيل وهو في الأصل فاعل من ودي إذا سال، ومنه الودي، وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض يقولون: لا تصلّ في وادي غيرك ﴿إلا كتب لهم﴾ ذلك من الأنفاق وقطع الوادي، ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح وقوله ﴿ليجزيهم﴾ متعلق بكتب أي: اثبت في صحائفهم لأجل الجزاء.

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾.

اللام لتاكيد النفي[1] ومعناه: أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن، وفيه: أنه لو صح وأمكن ولم يؤدّ إلى مفسدة لوجب، لوجوب النفقة على الكافة، ولأنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ﴿فلولا نفر﴾ فحين لم يمكن نفير الكافة ولم يكن مصلحة فهلا نفر ﴿من كل فرقة طائفة﴾ أي: من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة يكفونهم النفير ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها ﴿ولينذروا قومهم﴾ وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة، ويؤمّونه من المقاصد الركيكة، من التصدّر والترؤس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضًا، وفشو داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر أو شرمذة جثوا بين يديه، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم، فما أبعد هؤلاء من قوله عزّ وجلّ: ﴿لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا﴾[2] ﴿لعلهم يحذرون﴾ إرادة أن يحذروا الله فيعملوا عملاً صالحًا، ووجه آخر وهو: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثًا بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد، استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعًا عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر؛ لأن الجدال بالحجة أعظم أثرًا من الجلاد بالسيف، وقوله: ﴿ليتفقهوا﴾ الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطواف النافرة من بينهم ولينذروا قومهم، ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم، وعلى الأوّل الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾.

﴿يلونكم﴾ يقربون منكم[3]، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب ونظيره: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[4] وقد حارب رسول الله ﷺ قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم غزا الشام، وقيل: هم قريظة والنضير وفدك وخيبر، وقيل: الروم؛ لأنهم كانوا يسكنون الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق، وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى، وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن قتال الديلم فقال: عليك بالروم. وقرئ: غلظة بالحركات الثلاث فالغلظة كالشدّة، والغلظة كالضغطة، والغلظة كالسخطة ونحو: ﴿واغلظ عليهم﴾[5] ﴿ولا تهنوا﴾[6] وهو يجمع الجراة أو الصبر على القتال وشدّة العداوة والعنف في القتل والأسر ومنه: ﴿ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله﴾[7] ﴿مع المتقين﴾ ينصر من اتقاه فلم يترأف على عدوه.

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾.

﴿فمنهم من يقول﴾ فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض ﴿أيكم زادته هذه﴾ السورة ﴿إيمانًا﴾ إنكارًا واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به وأيكم مرفوع بالابتداء، وقرأ عبيد بن عمير: أيكم بالفتح على إضمار فعل يفسره زادته تقديره أيكم زادت زادته هذه إيمانًا ﴿فزادتهم إيمانًا﴾؛ لأنها أزيد لليقين والثبات وأثلج للصدر، أو فزادتهم عملاً، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان؛ لأنّ الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾.

---

(1) قال أحمد: قوله ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾، على التفسير الأوّل أمر لا نهي، وعلى الثاني خبر، المراد به النهي؛ لأنه في الأوّل راجع إلى تنفير أهل البوادي إلى المدينة للتفقه، وهذا لو أمكن الجميع فعله، لكان جائزاً، أو واجباً، وإن لم يمكن وجب على بعضهم القيام عن باقيهم على طريق وجوب الكفاية، وأمّا في الثاني، فلأنّ المؤمنين نفروا من المدينة للجهاد أجمعين، وكان ذلك ممكناً، بل واقعاً، فنهوا عن إطراح النفقة بالكلية، وأمروا به أمر كفاية، والله أعلم.

(2) سورة القصص، الآية: 83.

(3) قال أحمد: يتعين القتال على أحد فريقين، أمّا من نزل بهم عنوة، وفيهم قوّة عليه، ثم على من قرب منهم، حتى يكتفوا، وأما من عينهم الإمام لذلك، وإن بعدت بهم الدار، وإذا أوجب الله على هذه الأمّة القتال، وازعاج العدوّ من دياره، وإخراجه من قراره، فوجوبه وقد نزل العدوّ بدار الإسلام أجدر.

(4) سورة الشعراء، الآية: 214.

(5) سورة التوبة، الآية: 73.

(6) سورة آل عمران، الآية: 139.

(7) سورة النور، الآية: 2.

﴿فزادتهم رجسًا إلى رجسهم﴾ كفرًا مضمومًا إلى كفرهم؛ لأنهم كلما جددوا بتجديد الله الوحي كفرًا ونفاقًا أزاد كفرهم واستحكم وتضاعف عقابهم.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾.

قرئ: أو لا يرون بالياء والتاء ﴿يفتنون﴾ يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم ولا يذكرون ولا يعتبرون ولا ينظرون في امرهم، أو يبتلون بالجهاد مع رسول الله ﷺ ويعاينون أمره وما ينزل الله عليه من نصرته وتأييده، أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول الله ﷺ فيقتلهم وينكل بهم ثم لا ينزجرون.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾.

﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ تغامزوا بالعيون إنكارًا للوحي وسخرية به قائلين ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المسلمين لننصرف فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتضاح بينهم، أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لواذًا يقولون: هل يراكم من أحد، وقيل: معناه وإذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين ﴿صرف الله قلوبهم﴾[1] دعاء عليهم بالخذلان ويصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح ﴿بانهم﴾ بسبب انهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾.

﴿من انفسكم﴾ من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم، ثم نكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: شديد عليه شاق لكونه بعضًا منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب ﴿حريص عليكم﴾ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤوف رحيم﴾. وقرئ: من انفسكم اي: من أشرفكم وافضلكم، وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ، وفاطمة وعائشة رضي الله عنهما، وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ في قوله: ﴿رؤوف رحيم﴾.

فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾.

﴿فإن تولوا﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك، فاستعن وفوض إليه فهو كافيك معرتهم ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم. وقرئ: العظيم بالرفع، وعن ابن عباس رضي الله عنه: العرش لا يقدر أحد قدره، وعن أبي بن كعب: آخر آية نزلت: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ عن رسول الله ﷺ: «ما نزل علي القرآن إلا آية آية وحرفًا حرفًا ما خلا سورة، براءة وقل هو الله أحد، فإنهما انزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس مكية

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾.

﴿الر﴾ تعديد للحروف على طريق التحدي و﴿تلك آيات الكتاب﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة و ﴿الحكيم﴾ ذو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها، أو وصف بصفة محدثه قال الأعشى:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة   قد قلتها ليقال من ذا قالها

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾.

الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه و﴿أن أوحينا﴾ اسم كان وعجبًا خبرها وقرأ ابن مسعود: عجب فجعله اسمًا وهو نكرة وأن أوحينا خبرًا وهو معرفة كقوله: يكون مزاجها عسل وماء. والأجود أن تكون كان تامّة وأن أوحينا بدلاً من عجب.

فإن قُلْتَ: فما معنى اللام في قوله: ﴿اكان للناس عجبًا﴾ وما الفرق بينه وبين قولك أكان عند الناس عجبًا؟ قُلْتُ: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علمًا لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في عند الناس هذا المعني والذي تعجبوا منه أن يوحي إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أنّ الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم

(1) قال أحمد: يحتمل الدعاء، كما فسره، ويحتمل الإخبار بان الله صرف قلوبهم، أي: منعها من تلقي الحق بالقبول، ولكن الزمخشري يفرّ من جعله خبرًا؛ لأنّ صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده بناء على قاعدة الصلاح، والأصلح، ولا يزال يؤوّل الظاهر، إذا اقتضى ذلك، كما مرّ له في قوله ختم الله على قلوبهم، فلما احتملت هذه الآية الدعاء، والخبر على حدّ سواء =

= تعير عنده جعلها دعاء، ثم في هذا الدعاء مناسبة للفعل الصادر منهم، وهو الانصراف، كقوله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾، وكقوله: ﴿ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء﴾.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره.

البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرًا مثلهم، وقال الله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً﴾[1] وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضًا؛ لأنّ الله تعالى إنما يختار من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوّة، والغنى والتقدّم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾[2] والبعث للجزاء على الخير والشر هو: الحكمة العظمى فكيف يكون عجبًا؟ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء ﴿أن أنذر الناس﴾ أن هي المفسرة؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وأصله أنه أنذر الناس على معنى أن الشأن قولنا: أنذر الناس و ﴿أن لهم﴾ الباء معه محذوف ﴿قدم صدق عند ربهم﴾ أي: سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة.

فإن **قُلْتَ**[3]: لم سميت السابقة قدمًا؟ **قُلْتُ**: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدمًا كما سميت النعمة يدًا؛ لأنها تعطى باليد، وباعًا لأنّ صاحبها يبوع بها، فقيل: لفلان قدم في الخير، وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق ﴿إن هذا﴾ إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿لسحر﴾ ومن قرأ لساحر، فهذا إشارة إلى رسول الله ﷺ وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحرًا، وفي قراءة أبيّ: ما هذا إلا سحر.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

﴿يدبر﴾ يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة، ويفعل ما يفعل المتحري للصواب الناظر في أدبار الأمور وعواقبها لئلا يلقاه ما يكره آخرًا و ﴿الأمر﴾ أمر الخلق كله وأمر ملكوت السمٰوات والأرض والعرش.

فإن **قُلْتَ**: ما موقع هذه الجملة؟ **قُلْتُ**: قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السمٰوات والأرض مع بسطتها واتساعها في وقت يسير وبالاستواء على العرش، وأتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره، وكذلك قوله: ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ دليل على العزة والكبرياء كقوله: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمٰن﴾[4] و ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة أي: ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو: ربكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة ﴿فاعبدوه﴾ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿أفلا تذكرون﴾ فإن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

﴿إليه مرجعكم جميعًا﴾ أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه ﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿إليه مرجعكم﴾ و﴿حقًا﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿وعد الله﴾ ﴿إنه يبدو الخلق ثم يعيده﴾ استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه وهو: أن الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو: جزاء المكلفين على أعمالهم، وقرئ: ﴿أنه يبدؤ الخلق﴾ بمعنى: لأنه، أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله أي: وعد الله وعدًا بدأ الخلق ثم إعادته، والمعنى: إعادة الخلق بعد بدئه. وقرئ: وعد الله على لفظ الفعل ويبدئ من أبدأ، ويجوز أن يكون مرفوعًا بما نصب حقًا أي: حقّ حقًا بدأ الخلق كقوله:

أحقًا عباد الله أن لست جائيًا ولا ذاهبًا إلا عليَّ رقيب

وقرئ: حق أنه يبدؤ الخلق، كقولك: حق أنّ زيدًا منطلق ﴿بالقسط﴾ بالعدل وهو متعلق بيجزي والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحًا؛ لأنّ الشرك ظلم قال الله تعالى: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾[5] والعصاة ظلام أنفسهم وهذا أوجه لمقابلة قوله: ﴿بما كانوا يكفرون﴾.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

الياء في ﴿ضياء﴾ منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها، وقرئ: ضئاء بهمزتين بينهما ألف على القلب بتقديم اللام على العين كما قيل: في عاق عقا والضياء أقوى من النور ﴿وقدّره﴾ وقدّر القمر والمعنى وقدّر مسيره ﴿منازل﴾ أو قدّره ذا منازل كقوله تعالى: ﴿والقمر قدّرناه منازل﴾[6] ﴿والحساب﴾ وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي ﴿ذلك﴾ إشارة إلى المذكور أي: ما خلقه إلا ملتبسًا بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثًا. وقرئ: يفصل بالياء.

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 95.

(2) سورة سبأ، الآية: 37.

(3) قال أحمد: لم يرد في سابقة السوء تسميتها قدماً، إما لأنّ المجاز لا يطرد، وإما أن يكون مطرداً، ولكن غلب العرف على قصرها= كما يغلب في الحقيقة، والله أعلم.

(4) سورة النبأ، الآية: 38.

(5) سورة لقمان، الآية: 13.

(6) سورة يسّ، الآية: 39.

خصّ المتقين؛ لأنهم يحذرون العاقبة، فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾.

﴿لا يرجون لقاءنا﴾ لا يتوقعونه أصلاً ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق، أو لا يأملون حسن لقاءنا كما يأمله السعداء، أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف **﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾** من الآخرة وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي كقوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾[1] **﴿واطمانوا بها﴾** وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها فبنوا شديدًا وأمّلوا بعيدًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾.

﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ يسدّدهم[2] بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدّي إلى الثواب ولذلك جعل **﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾** بيانًا له وتفسيرًا؛ لأنّ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، ويجوز أن يريد يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة كقوله تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾[3] ومنه الحديث: «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة فيقول له: أنا عملك فيكون له نورًا وقائدًا إلى الجنة، والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة فيقول له: أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار»[4].

فإن قُلْتَ: فلقد دلت هذه الآية على أنّ الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة هو: إيمان مقيد، وهو: الإيمان المقرون بالعمل الصالح والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور؟ **قُلْتُ:** الأمر كذلك، ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعًا فيها بين الإيمان والعمل كأنه قال: إنّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: بإيمانهم أي: بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح وهو بين واضح لا شبهة فيه.

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

﴿دعواهم﴾ دعاؤهم؛ لأنّ اللهمّ نداء لله ومعناه: اللهم إنا نسبحك كقول القانت في دعاء القنوت: اللهمّ إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾[5] على معنى: أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، وذلك ليس بعبادة إنما يلهمونه فينطقون به تلذذًا بلا كلفة كقوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾[6] **﴿وآخر دعواهم﴾** وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح **﴿أن﴾** يقولوا **﴿الحمد لله رب العالمين﴾** ومعنى: وتحيتهم فيها سلام أنّ بعضهم يحيي بعضًا بالسلام، وقيل هي: تحية الملائكة إياهم إضافة للمصدر إلى المفعول، وقيل: تحية الله لهم، وأن هي المخففة من الثقيلة وأصله أنه الحمد لله على أن الضمير للشأن كقوله: أن هالك كل من يحفي وينتعل. وقرئ: أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد.

۞ ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١﴾.

أصله **﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾** تعجيله[7] لهم الخير فوضع **﴿استعجالهم بالخير﴾** موضع تعجيله لهم الخير إشعارًا بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد: أهل مكة، وقولهم: ﴿فأمطر علينا حجارة﴾[8] من السماء يعني: ولو

---

(1) سورة التوبة، الآية: 38.

(2) قال أحمد: هو يقرّر بذلك زعمه في أنّ شرط دخول الجنة العمل الصالح، وأنّ من لم يعمل مخلد في النار، كالكافر، وأنى له ذلك، وقد جعلا الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان، فقال يهديهم ربهم بإيمانهم، وقول الزمخشري أنّ المراد إضافة العمل لا ينتهض عن حيز الدعوى، فإنّ الله لم يعلل بغير الإيمان، وإن جرى لغيره ذكر أوّلاً، فلا يلزم إجراؤه ثانياً، ولا محوج إليه، وشبهته أنّ الإيمان المجهول سبباً مضاف إلى ضمير الصالحين، فيلزم أخذ الصلاح قيداً في التسبب، وهو ممنوع، فإنّ الضمير إنما يعود على الذوات، لا باعتبار الصفات، وقد تقدمت لهذه المباحثة أمثال، وأشكال، والله الموفق.

(3) سورة الحديد، الآية: 12.

(4) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب: الزهد، باب: كلام ابن عمر 13/324.

(5) سورة مريم، الآية: 48.

(6) سورة الأنفال، الآية: 35.

(7) قال أحمد: وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم على دقة نظره شاهدة وبينة، ولا يكاد وضع المصدر مؤكداً، أو مقارناً لغير فعله في الكتاب العزيز، يخلو من مثل هذه الفائدة الجليلة، والنحاة غايتهم أن يقولوا في قوله تعالى، والله أنبتكم من الأرض نباتاً أنه أجرى المصدر على الفعل مقدراً عدم الزيادة، أو هذا المصدر لفعل دل عليه المذكور تقديره نبتم نباتاً، ولا يزيدون على ذلك، وإذا رجع الفطن قريحته، وناجى فكرته هل قرن المصدر في كتاب بغير فعله لفائدة، أو لا تسور بلطف النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها، فالفائدة، والله أعلم في اقتران قوله نباتاً، بقوله أنبتكم التنبيه على تحتم نفوذ القدرة في المقدور، وسرعة إمضاء حكمها، حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم، أي: إذا وجد من الله الإنبات وجد لهم النبات حتماً، فكان أحد الأمرين عين الآخر، فقرن به، والله أعلم.

(8) سورة الأنفال، الآية: 32.

عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾ لأميتوا وأهلكوا، وقرئ: لقضى إليهم أجلهم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل، وتنصره قراءة عبد الله: لقضينا إليهم أجلهم.

فإن قُلْتَ: فكيف اتصل به قوله: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وما معناه؟ قُلْتُ: قوله: ﴿ولو يعجل الله﴾ متضمن معنى نفي التعجيل كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم ﴿في طغيانهم﴾ أي: فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزامًا للحجة عليهم.

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾.

﴿لجنبه﴾ في موضع الحال بدليل عطف الحالين عليه أي: دعانا مضطجعًا ﴿أو قاعدًا أو قائمًا﴾.

فإن قُلْتَ: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟ قُلْتُ: معناه: أن المضرور لا يزال داعيًا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها: كان منبطحًا عاجز النهض متخاذل النوم، أو كان قاعدًا لا يقدر على القيام، أو كان قائمًا لا يطيق المشي، والمضطرب إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة بتمامها، ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشدّ حالاً وهو صاحب الفراش، ومنهم من هو أخف، وهو: القادر على القعود، ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء؛ لأنّ الإنسان للجنس ﴿مرّ﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ونسي حال الجهد، أو مرّ عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به ﴿كأن لم يدعنا﴾ كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن قال: كأن ثدياه حقان. ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زين للمسرفين﴾ زين الشيطان بوسوسته، أو الله بخذلانه وتخليته ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾.

﴿لما﴾ ظرف لأهلكنا والواو في ﴿وجاءتهم﴾ للحال أي: ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالحجج والشواهد على صدقهم وهي: المعجزات وقوله: ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ يجوز أن يكون عطفًا على ﴿ظلموا﴾ وأن يكون اعتراضًا، واللام لتأكيد النفي يعني: وما كانوا يؤمنون حقًا، تأكيدًا لنفي إيمانهم وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم وأن الإيمان مستبعد منهم، والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الجزاء يعني: الإهلاك ﴿نجزي﴾ كل مجرم وهو: وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ وقرئ: يجزي بالياء.

ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾.

﴿ثم جعلناكم﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد ﷺ أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا ﴿لننظر﴾ أتعلمون خيرًا أم شرًا فنعاملكم على حسب عملكم و ﴿كيف﴾ في محل النصب بتعلمون لا ينتظر؛ لأن معنى الاستفهام فيه يحجب أن يتقدّم عليه عامله.

فإن قُلْتَ[1]: كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة؟ قُلْتُ: هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجودًا، شبه بنظر الناظر وعيان المعاين في تحققه.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾.

غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين فقالوا: ﴿ائت بقرآن﴾ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك ﴿أو بدله﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها. فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان وهو: أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل، وأن يسقط ذكر الآلهة، وأما الإتيان بقرآن آخر فغير مقدور عليه للإنسان ﴿ما يكون لي﴾ ما ينبغي لي وما يحل كقوله تعالى: ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾[2] ﴿أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ من قبل نفسي، وقرئ: بفتح التاء، من غير أن يأمرني بذلك ربي ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ لا آتي ولا أذر شيئًا من نحو ذلك إلا متبعًا لوحي الله وأوامره، إن نسخت آية تبعت النسخ، وإن بدلت آية مكان آية تبعت التبديل وليس إليّ تبديل ولا نسخ ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾ بالتبديل والنسخ من عند نفسي ﴿عذاب يوم عظيم﴾.

فإن قُلْتَ: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾؟ قُلْتُ: بلى

---

(1) قال أحمد: وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله، والجمع بين هذين النزغتين، عقيدة طائفة من القدرية، يقولون إن الله لا يرى، ولا يرى تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتقدم إبطال= دعواهم أن النظر يستلزم المقابلة، والجسمية، فلا نعيده، والله الموفق.

(2) سورة المائدة، الآية: 116.

ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾[1] ويقولون: ﴿افترى على الله كذبًا﴾[2] فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادرًا عليه وعلى مثله، مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصحائها وبلغائها إذا عجزوا عنه كان الواحد منهم أعجز.

فإن قُلْتَ: لعلهم أرادوا ائت بقرآن غير هذا أو بدله من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته؟ وأراد بقوله: ﴿ما يكون لي﴾ ما يتسهل لي وما يمكنني أن أبدله **قُلْتُ:** يردّه قوله: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾.

فإن قُلْتَ: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح **قُلْتُ:** الكيد والمكر، أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع ولاختبار الحال وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه أو لا يهلكه فيسخروا منه ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحًا لافترائه على الله.

قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾.

﴿لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ يعني: أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمرًا عجيبًا خارجًا عن العادات وهو: أن يخرج رجل أميّ لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء، فيقرأ عليكم كتابًا فصيحًا ينهر كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم، مشحونًا بعلوم من علوم الأصول والفروع وأخبار مما كان وما يكون، ناطقًا بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله ولا يخفي عليكم شيء من أسراره، وما سمعتم منه حرفًا من ذلك ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه والصقهم به ﴿ولا أدراكم به﴾ ولا أعلمكم به على لساني، وقرأ الحسن: ولا أدرأتكم به على لغة من يقول: أعطأته وأرضأته في معنى: أعطيته وأرضيته، وتعضده قراءة ابن عباس ﴿ولا أنذرتكم به﴾، ورواه الفراء: ولا أدرأتكم به بالهمز وفيه وجهان: أحدهما: أن تقلب الألف همزة كما قيل: لبأت بالحج، ورثأت الميت، وحلأت السويق، وذلك لأنّ الألف والهمزة من واد واحد، ألا ترى أنّ الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة، والثاني: أن يكون من درأته إذا دفعته وأدرأته إذا جعلته دارئًا، والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤنني بالجدال وتكذبونني، وعن ابن كثير: ولأدراكم به بلام الابتداء لإثبات الإدراء ومعناه: لو شاء الله ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري، ولكنه يمن على من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة ورآني لها أهلاً دون سائر الناس ﴿فقد لبثت فيكم عمرًا﴾ وقرئ: عمرًا بالسكون يعني: فقد أقمت فيما بينكم يافعًا وكهلاً فلم تعرفوني متعاطيًا شيئًا من نحوه ولا قدرت عليه ولا كنت متواصفًا بعلم وبيان فتتهموني باختراعه ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعلموا أنه ليس إلا من الله لا من مثلي، وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم: ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾ من إضافة الافتراء إليه.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾.

﴿ممن افترى على الله كذبًا﴾ يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في قولهم: إنه ذو شريك وذو ولد، وأن يكون تفاديًا مما أضافه إليه من الافتراء.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾.

﴿ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضر، وقيل: إن عبدوها لم تنفعهم وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، ومن حق المعبود أن يكون مثيبًا على الطاعة معاقبًا على المعصية، وكان أهل الطائف يعبدون اللات، وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافًا ونائلة ﴿و﴾ كانوا ﴿يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ وعن النضر بن الحرث: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى ﴿أتنبئون الله بما لا يعلم﴾ أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله، وإذا لم يكن معلومًا له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات لم يكن شيئًا؛ لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه فكان خبرًا ليس له مخبر عنه.

فإن قُلْتَ: كيف أنبؤا الله بذلك؟ **قُلْتُ:** هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأنّ الذي أنبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه، وقرئ: أتنبؤن بالتخفيف، وقوله: ﴿في السموات ولا في الأرض﴾ تأكيد لنفيه؛ لأنّ ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم ﴿تشركون﴾ قرئ: بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾.

﴿وما كان الناس إلا أمّة واحدة﴾ حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل وهابيل، وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارًا ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾

(1) سورة الأنفال، الآية: 31.
(2) سورة سبأ، الآية: 8.

وهو: تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ عاجلاً فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف وتلك دار ثواب وعقاب.

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾.

وقالوا: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغيّ ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به يعني: أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو ﴿فانتظروا﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات. سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله ﷺ ويكيدونه.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾.

وإذا الأولى للشرط والآخرة جوابها وهي للمفاجاة، والمكر إخفاء الكيد وطيه من الجارية الممكورة المطوية الخلق، ومعنى ﴿مستهم﴾ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم.

فإن قُلْتَ: ما وصفهم بسرعة المكر فكيف صح قوله ﴿أسرع مكرًا﴾؟ قُلْتُ: بلى دلت على ذلك كلمة المفاجاة كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجؤا وقوع المكر منهم وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مس الضراء ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم والمعنى: أنّ الله تعالى دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام ﴿إن رسلنا يكتبون﴾ إعلام بأنّ ما تظنونه خافيًا مطويًا لا يخفى على الله وهو منتقم منكم. وقرئ: يمكرون بالتاء والياء وقيل: مكرهم قوله: سقينا بنوء كذا، وعن أبي هريرة: إنّ الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا[1]. قرأ زيد بن ثابت: ينشركم ومثله قوله: ﴿فانتشروا في الأرض﴾[2] ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾[3].

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾.

فإن قُلْتَ: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟ قُلْتُ: لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظنّ للهلاك والدعاء بالإنجاء[4].

فإن قُلْتَ: ما جواب إذا؟ قُلْتُ: جاءتها.

فإن قُلْتَ: فدعوا؟ قُلْتُ: بدل من ظنوا؛ لأنّ دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به.

فإن قُلْتَ: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قُلْتُ: المبالغة، كأنه ينكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح.

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة أمّ الدرداء: في الفلكي بزيادة يائي النسب؟ قُلْتُ: قيل: هما زائدتان كما في الخارجي والأحمري، ويجوز أن يراد به اللجّ والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه، والضمير في ﴿جرين﴾ للفلك؛ لأنه جمع فلك كالأسد في فعل أخي فعل، وفي قراءة أمّ الدرداء

---

(1) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (الحديث رقم: 229).

(2) سورة الجمعة، الآية: 10.

(3) سورة الروم، الآية: 20.

(4) قال أحمد: وهذه أيضاً من نكته التي لا يكتنه حسنها، وقد مر لي قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توأمتها، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح، فإن آنستم منهم رشداً، فادفعوا إليهم أموالهم﴾ وقد استدل الزمخشري بها، لأبي حنيفة في أن الصغير يبتلى قبل البلوغ أن يسلم إليه قدر من المال يمتحن فيه، خلافاً لمالك، فإنه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ، قال الزمخشري ووجه الاستدلال أنّ الله تعالى، جعل = البلوغ غاية الابتلاء، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغيابه، واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف، بأنّ المجعول غاية هو حمله ما في حيز، حتى من البلوغ مقروناً بإيناس الرشد، وهذا المجموع هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الابتلاء، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل، والآخر بعد فلا يحصل المجموع إلا بعد الابتلاء، ويوضح ذلك هذه الآية، فإنه تعالى جعل غاية تسييرهم في الفلك كونهم فيها مضافاً إلى ما ذكر معه، ونحن نعلم أنّ كونهم في الفلك، وذلك أحد ما جعل غاية متقدّم على التسيير، وإن كان المجموع واقعاً، كوقوع الحادثة بجملتها بعد الكون في الفلك، والله أعلم، وإنما بسطت القول ههنا لفواته، ثم فجدّد بما مضى عهداً.

للفلك أيضًا؛ لأنّ الفلكي يدلّ عليه ﴿جاءتها﴾ جاءت الريح الطيبة أي تلقتها، وقيل: الضمير للفلك من كل مكان من جميع أمكنة الموج ﴿أحيط بهم﴾ أي: أهلكوا، جعل إحاطة العدوّ بالحي مثلاً في الهلاك ﴿مخلصين له الدين﴾ من غير إشراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه ﴿لئن أنجيتنا﴾ على إرادة القول، ولأن دعوا من جملة القول.

فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿يبغون في الأرض﴾ يفسدون فيها ويعبثون متراقين في ذلك ممعنين فيه من قولك: بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿بغير الحق﴾ والبغي لا يكون بحق؟ قُلْتُ: بلى وهو: استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة. قرئ: متاع الحياة الدنيا بالنصب.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين القراءتين؟ قُلْتُ: إذا رفعت كان المتاع خبرًا للمبتدأ الذي هو بغيكم، وعلى أنفسكم صلته كقوله: فبغى عليهم، ومعناه: إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم يعني: بغى على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها، وإذا نصبت فعلى أنفسكم خبر غير صلة معناه: إنما بغيكم وبال على أنفسكم ومتاع الحياة الدنيا في موضع المصدر المؤكد كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون الرفع على هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام، وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا تمكر ولا تعن ماكرًا، ولا تبغ ولا تغن باغيًا، ولا تنكث ولا تعن ناكثًا، وكان يتلوها»(1). وعنه عليه الصلاة والسلام: «أسرع الخير ثوابًا صلة الرحم، وأعجل الشرّ عقابًا البغي واليمين الفاجرة»(2). وروي «ثنتان يعجلهما الله تعالى في الدنيا البغي، وعقوق الوالدين»(3) وعن ابن عباس رضي الله عنه: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي(4)، وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه.

يا صاحب البغي إنّ البغي مصرعة ... فاربع فخير فعال المرء أعدله

فلو بغى جبل يومًا على جبل ... لاندكّ منه أعاليه وأسفله

وعن محمد بن كعب: ثلاث من كنّ فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر قال الله تعالى: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾.

هذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطامًا بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه ﴿فاختلط به﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضًا ﴿أخذت الأرض زخرفها وازّينت﴾ كلام فصيح، جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين، وأصل ازّينت تزينت فأدغم وبالأصل قرأ عبد الله، وقرئ: وأزينت على أفعلت من غير إعلال الفعل كأغيلت أي: صارت ذات زينة، وازيانت بوزن ابياضت ﴿قادرون عليها﴾ متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها ﴿أتاها أمرنا﴾ وهو: ضرب زرعها ببعض العاهات بعدًا منهم واستيقانهم أنه قد سلم ﴿فجعلناها﴾ فجعلنا زرعها ﴿حصيدًا﴾ شبيهًا بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله ﴿كأن لم تغن﴾ كأن لم يغن زرعها أي: لم ينبت على حذف المضاف في هذه المواضع لا بدّ منه وإلا لم يستقم المعنى، وقرأ الحسن: كأن لم يغن بالياء على أنّ الضمير للمضاف المحذوف الذي هو الزرع، وعن مروان أنه قرأ على المنبر: كأن لم تتغن بالأمس من قول الأعشى:

طويل الثواء طويل التغني

والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل: كأن لم تغن آنفًا.

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾.

﴿دار السلام﴾ الجنة أضافها إلى اسمه تعظيمًا لها، وقيل: السلام السلامة؛ لأنّ أهلها سالمون من كل مكروه، وقيل: لفشوّ السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم ﴿إلا قيلا سلامًا سلامًا﴾(5) ﴿ويهدي﴾ ويوفق ﴿من يشاء﴾ وهم الذين علم أنّ اللطف يجدي عليهم؛ لأنّ مشيئته تابعة لحكمته ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون.

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ

(1) رواه الحاكم في المستدرك 2/338.
(2) رواه أبو يعلى في مسنده (الحديث رقم: 4512).
(3) رواه البخاري في الأدب المفرد 2/48 باب: البغي (الحديث رقم: 591).
(4) رواه البيهقي في الشعب، باب: في تحريم اعراض الناس (الحديث رقم: 6693).
(5) سورة الواقعة، الآية: 26.

كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿الحسنى﴾ المثوبة الحسنى ﴿وزيادة﴾ وما يزيد على المثوبة وهي التفضل ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ويزيدهم من فضله﴾[1] وعن عليّ رضي الله عنه: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحسنى الحسنة والزيادة عشر أمثالها، وعن الحسن رضي الله عنه: عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وعن مجاهد رضي الله عنه: الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطركم؛ فلا يريدون شيئًا إلا أمطرتهم، وزعمت المشبهة والمجبرة: أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وجاءت بحديث مرفوع: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا هو أحب إليهم منه»[2] ﴿ولا يرهق وجوههم﴾ لا يغشاها ﴿قتر﴾ غبرة فيها سواد ﴿ولا ذلة﴾ ولا أثر هوان وكسوف بال والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إنكارًا بما ينقذهم منه برحمته ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ترهقها قترة﴾[3] ﴿وترهقهم ذلة﴾.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ وكيف يتلاءم؟ قُلْتُ: لا يخلو إمّا أن يكون ﴿والذين كسبوا﴾ معطوفًا على قوله: ﴿للذين أحسنوا﴾ كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وإمّا أن يقدّر وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها وهذا أوجه من الأوّل؛ لأنّ في الأوّل عطفًا على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه، وفي هذا دليل على أنّ المراد بالزيادة الفضل؛ لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله، وقرئ: يرهقهم ذلة بالياء، ﴿من الله من عاصم﴾ أي: لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ﴿مظلمًا﴾ حال من الليل، ومن قرأ قطعًا بالسكون من قوله: ﴿بقطع من الليل﴾[4] جعله صفة له وتعضده قراءة أبيّ بن كعب: كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم.

فإن قُلْتَ: إذا جعلت مظلمًا حالاً من الليل فما العامل فيه؟ قُلْتُ: لا يخلو إمّا أن يكون أغشيت من قبل إن من الليل صفة لقوله: ﴿قطعًا﴾ فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وإمّا أن يكون معنى الفعل في من الليل.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿مكانكم﴾ الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم و ﴿أنتم﴾ أكد به الضمير في مكانكم لسدّه مسدّ قوله الزموا ﴿وشركاؤكم﴾ عطف عليه، وقرئ: وشركاءكم على أنّ الواو بمعنى: مع والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل ﴿فزيلنا بينهم﴾ ففرّقنا بينهم وقطعنا أقرانهم والوصل التي كانت بينهم في الدنيا، أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف. وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون، ومن دون الله قالوا ضلوا عنا﴾[5] وقرئ: فزايلنا بينهم كقولك: صاعر خدّه وصعره وكالمته وكلمته ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أندادًا فأطعتموهم.

فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿إن كنا﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية وهم: الملائكة والمسيح ومن عبدوه من دون الله من أولي العقل، وقيل: الأصنام ينطقها الله عزّ وجلّ فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها أطماعهم.

هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿هنالك﴾ في ذلك المقام وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تبلوا كل نفس﴾ تختبر وتذوق ﴿ما أسلفت﴾ من العمل فتعرف كيف هو؟ أقبيح أم حسن، أنافع أم ضارّ، أمقبول أم مردود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرّفه ليكتنه حاله ومنه قوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾[6] وعن عاصم: نبلو كل نفس بالنون ونصب كل أي: نختبرها باختبار ما أسلفت من العمل فنعرف حالها بمعرفة حال عملها إن كان حسنًا فهي سعيدة وإن كان سيئًا فهي شقية، والمعنى نفعل بها كما فعل الخابر كقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾[7] ويجوز أن يراد نصب بالبلاء وهو: العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، وقرئ: تتلو أي: تتبع ما أسلفت؛ لأنّ عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة، أو إلى طريق النار، أو تقرأ في صحيفتها ما قدّمت من خير أو شر ﴿مولاهم الحق﴾ ربهم الصادق ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم العدل الذي لا يظلم أحدًا، وقرئ: الحق بالفتح على

(1) سورة النساء، الآية: 173.
(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (الحديث رقم: 448).
(3) سورة عبس، الآية: 41.
(4) سورة هود، الآية: 81.
(5) سورة غافر، الآيتان: 73 و74.
(6) سورة الطارق، الآية: 9.
(7) سورة هود، الآية: 7.

تأكيد قوله: ﴿ردوا إلى الله﴾ كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، أو على المدح كقولك: الحمد لله أهل الحمد ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله، أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾.

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي[1]: يرزقكم منهما جميعًا لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته ﴿من يملك السمع والأبصار﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة، أو من يحميهما ويحصنهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلاءته وحفظه ﴿ومن يدبر الأمر﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال.

فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله ﴿ربكم الحق﴾ الثابت ربوبيته ثباتًا لا ريب فيه لمن حقق النظر ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ يعني: أنّ الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق وقع في الضلال ﴿فأنى تصرفون﴾ عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء.

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الحق ﴿حقت كلمت ربك﴾ أي: كما حق وثبت أنّ الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك ﴿على الذين فسقوا﴾ أي: تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه و ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ بدل من الكلمة أي: حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك، أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان وأنّ إيمانهم غير كائن، أو أراد لكلمة العدّة بالعذاب و ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ تعليل بمعنى؛ لأنهم لا يؤمنون.

فإن قُلْتَ: كيف قيل لهم: ﴿هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ وهم غير معترفين بالإعادة؟ قُلْتُ: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع كان مكابرًا رادًا للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمرًا مسلمًا معترفًا بصحته عند العقلاء، وقال لنبيه ﷺ: ﴿قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب يعني: أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم. يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين. ويقال: هدى بنفسه بمعنى: اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى: اشترى ومنه قوله: ﴿أمّن لا يهدي﴾ وقرئ: لا يهدّي بفتح الهاء وكسرها مع تشديد الدال والأصل يهتدي فادغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها. وقرئ: إلا أن يهدي من هداه وهدّاه للمبالغة ومنه قولهم: يتهدّى ومعناه: أنّ الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم وبما لطف بهم ووفقهم وألهمهم وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتم أندادًا لله أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير يهدي إلى الحق مثل هداية الله. ثم قال: أفمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع أم الذي لا يهدي أي: لا يهتدى بنفسه، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وقيل: معناه: أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه ﴿إلا أن يهدي﴾ إلا أن ينقل، أو لا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيوانًا مكلفًا فيهديه ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد لله.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿وما يتبع أكثرهم﴾ في إقرارهم بالله ﴿إلا ظنًا﴾؛ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم ﴿إنّ الظن﴾ في معرفة الله ﴿لا يغني من الحق﴾ وهو: العلم ﴿شيئًا﴾ وقيل: وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن، والمراد بالأكثر الجميع ﴿إنّ الله عليم﴾ وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء. وقرئ: تفعلون بالتاء.

وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿وما كان هذا القرآن﴾ افتراء ﴿من دون الله ولكنّ﴾ كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ وهو: ما تقدّمه من الكتب المنزلة؛ لأنه معجز دونها فهو عبارة عليها وشاهد لصحتها

---

(1) قال أحمد: وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية الزاعمين، أن الأرزاق منقسمة، فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه = العبد لنفسه، وهو: الحرام، وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا، أفأنت تسمع الصم، ولو كانوا لا يعقلون.

كقوله تعالى: ﴿هو الحق مصدقًا لما بين يديه﴾[1] وقرئ: ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب على ﴿ولكن هو تصديق... وتفصيل﴾ ومعنى: وما كان أن يفترى، وما صحّ وما استقام وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى ﴿وتفصيل الكتاب﴾ وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع من قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾[2].

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله: ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾؟ قُلْتُ: هو: داخل في حيز الاستدراك وأنه قال: ولكن كان تصديقًا وتفصيلاً منتفيًا عنه الريب كائنًا من رب العالمين، ويجوز أن يراد، ولكن كان تصديقًا من رب العالمين وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك، فيكون من رب العالمين متعلقًا بتصديق وتفصيل أم يكون لا ريب فيه اعتراضًا كما تقول: زيد لا شكّ فيه كريم.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿أم يقولون افتراه﴾ بل أيقولون اختلقه على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم، أو إنكار لقولهم واستبعاد، والمعنيان متقاربان ﴿قل﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فاتوا﴾ انتم على وجه الافتراء ﴿بسورة مثله﴾ فانتم مثلي في العربية والفصاحة ومعنى: بسورة مثله أي: شبيهة به في البلاغة وحسن النظم، وقرئ: بسورة مثله على الإضافة أي: بسورة كتاب مثله ﴿وادعوا﴾ من دون الله ﴿من استطعتم﴾ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله يعني: أنّ الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره فلا تستعينوه وحده ثم استعينوا بكل من دونه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنه افتراه.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿بل كذبوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن وفاجؤه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشيء على التقليد من الحشوية إذا أحسّ بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها في أوّل وهلة واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد؛ لأنه لم يشعر قلبه إلا بصحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب.

فإن قُلْتَ: ما معنى التوقع في قوله: ﴿ولما ياتهم تاويله﴾؟ قُلْتُ[3]: معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليدًا للآباء، وكذبوه بعد التدبر تمردًا وعنادًا، فذمّهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرّر عليهم التحدّي ورازوا قواهم في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغيًا وحسدًا ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ يعني: قبل النظر في معجزات الأنبياء، وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ولكن قلدوا الآباء وعاندوا، وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون، ويجوز أن يكون معنى ﴿ولما ياتهم تاويله﴾ ولم ياتهم بعد تاويل ما فيه من الأخبار بالغيوب أي: عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق؟ يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز، نظمه ومن جهة ما فيه من الأخبار بالغيوب، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حدّ الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه.

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب، ومنهم من يشكّ فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال أي: ومنهم من سيؤمن به، ومنهم من سيصر ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ بالمعاندين، أو المصرين.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾.

﴿وإن كذبوك﴾ وإن تموا على تكذيبك ويئست من إجابتهم فتبرأ منهم وخلهم فقد أعذرت كقوله تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء﴾[4] وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوّة ولكنهم لا يصدقون. ثم قال: أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأنّ الأصم العاقل ربما تفرّس واستدل إذا وقع في

---

(1) سورة فاطر، الآية: 31.

(2) سورة النساء، الآية: 24.

(3) قال أحمد: وكان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما يوهم عذراً ما= للمكذب، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه، حتى تنحسم أعذارهم، ويتحقق شقاؤهم، والله أعلم.

(4) سورة الشعراء، الآية: 216.

صماخه دوي الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعًا فقد تم الأمر. وأتحسب أنك تقدر على هداية العمي؟ ولو انضم إلى العمى وهو فقد البصر فقد البصيرة؛ لأنّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن، وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء، يعني: أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمي الذين لا بصائر لهم ولا عقول وقوله ﴿أفأنت. أفأنت﴾ دلالة على انه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عزّ وجلّ بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على ردّ الأصم والأعمى المسلوبي العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل إلا هو وحده.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئًا﴾ أي: لا ينقصهم شيئًا مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب. ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب، ويجوز أن يكون وعيدًا للمكذبين يعني: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لا حق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سببًا فيه.

وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿إلا ساعة من النهار﴾ يستقربون وقت لبثهم في الدنيا، وقيل: في القبور لهول ما يرون **﴿يتعارفون بينهم﴾** يعرف بعضهم بعضًا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً وذلك عند خروجهم من القبور، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدّة الأمر عليهم.

فإن قُلْتَ: كان لم يلبثوا، و ﴿يتعارفون﴾ كيف موقعهما؟ **قُلْتُ:** أما الأولى: فحال من هم أي: يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة، وأما الثانية: فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة لقوله: **﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة﴾** لأنّ التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكرًا **﴿قد خسر﴾** على إرادة القول أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله تعالى على خسرانهم، والمعنى: أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر **﴿وما كانوا مهتدين﴾** للتجارة عارفين بها، وهو: استئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أخسرهم.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿فإلينا مرجعهم﴾ جواب **﴿نتوفينك﴾** وجواب **﴿نرينك﴾** محذوف كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة.

فإن قُلْتَ: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين فما معنى ثم؟ **قُلْتُ:** ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون، وقرأ ابن أبي عبلة ثم: بالفتح أي: هنالك، ويجوز أن يراد أن الله مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾.

﴿ولكل أمة رسول﴾ يبعث إليهم لينبههم على التوحيد ويدعوهم إلى دين الحق **﴿فإذا جاء﴾** هم **﴿رسولهم﴾** بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه **﴿قضي بينهم﴾** أي بين النبي ومكذبيه **﴿بالقسط﴾** بالعدل فأنجى الرسول وعذب المكذبين كقوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾[1] ولكل أمّة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان كقوله تعالى: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق﴾[2] **﴿متى هذا الوعد﴾** استعجال لما وعدوا من العذاب استبعادًا له.

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾

﴿لا أملك لنفسي ضرًا﴾ من مرض أو فقر **﴿ولا نفعًا﴾** من صحة أو غنى **﴿إلا ما شاء الله﴾** استثناء منقطع أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب؟ **﴿لكل أمة أجل﴾** يعني: أن عذابكم له أجل مضروب عند الله وحدّ محدود من الزمان **﴿إذا جاء﴾** ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة فلا تستعجلوا، وقرأ ابن سيرين: فإذا جاء آجالهم **﴿بياتًا﴾** نصب على الظرف بمعنى: وقت بيات.

فإن قُلْتَ: هلا قيل ليلاً أو نهارًا؟ **قُلْتُ:** لأنه أريد إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون كما يبيت العدو المباغت، والبيات بمعنى: التبييت كالسلام بمعنى: التسليم، وكذلك قوله: **﴿نهارًا﴾** معناه في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب ونحوه: ﴿بياتًا وهم نائمون﴾[3] ﴿ضحى وهم يلعبون﴾[4] الضمير في **﴿منه﴾** للعذاب والمعنى: أن العذاب كله مكروه مرّ المذاق موجب للنفار، فأي شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال، ويجوز أن يكون معناه:

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 15.
(2) سورة الزمر، الآية: 69.
(3) سورة الأعراف، الآية: 97.
(4) سورة الأعراف، الآية: 98.

التعجب كأنه قيل: أي شيء هول شديد يستعجلون منه، ويجب أن تكون من للبيان في هذا الوجه وقيل: الضمير في منه لله تعالى.

فإن قُلْتَ: بم تعلق الاستفهام وأين جواب الشرط؟ قُلْتُ: تعلق بأرأيتم؛ لأنّ المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون؟ وجواب الشرط محذوف وهو: تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه.

فإن قُلْتَ[1]: فهلا قيل ماذا تستعجلون منه؟ قُلْتُ: أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو: الإجرام؛ لأنّ من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ويهلك فزعًا من مجيئه وإن أبطأ فضلاً أن يستعجله، ويجوز أن يكون ماذا يستعجل منه المجرمون جوابًا للشرط كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني، ثم تتعلق الجملة بأرأيتم وأن يكون ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾ جواب الشرط، وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراضًا والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، ودخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء في قوله: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ ﴿أوأمن أهل القرى﴾[2] ﴿آلآن﴾ على إرادة القول أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ يعني: وقد كنتم به تكذبون؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار، وقرئ: ﴿آلآن﴾ بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام. ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ عطف على قيل المضمر قبل ﴿آلآن﴾.

۞ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿ويستنبؤنك﴾ ويستخبرونك فيقولون ﴿أحق هو﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء، وقرأ الأعمش: آلحق هو، وهو أدخل في الاستهزاء لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل وذلك أنّ اللام للجنس فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل، أو هو الذي سميتموه الحق والضمير للعذاب الموعود و ﴿إي﴾ بمعنى: نعم في القسم خاصة كما كان هل بمعنى: قد في الاستفهام خاصة، وسمعتهم يقولون في التصديق: أو فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿ظلمت﴾ صفة لنفس على ولو أنّ لكل نفس ظالمة ﴿ما في الأرض﴾ أي: ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها جميع منافعها على كثرتها ﴿لافتدت به﴾ لجعلته فدية لها يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه أيضًا بمعنى فداه ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾؛ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعاينوا من شدّة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم، وبهرهم فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخًا، ولا ما يفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب كما ترى المقدّم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب ويغلب حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامدًا مبهوتًا، وقيل: أسر رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم حياء منهم وخوفًا من توبيخهم، وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها وإما من قولهم سر الشيء لخالصه، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة، وقيل: أسروا الندامة أظهروها من قولهم أسر الشيء وأشره إذا أظهره وليس هناك تجلد ﴿وقضي بينهم﴾ أي: بين الظالمين والمظلومين دل على ذلك ذكر الظلم.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾.

ثم أتبع ذلك ذكر الإعلام بأنّ له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق، وهو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك فيخاف ويرجى ولا يغتر به المغترون.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿قد جاءتكم موعظة﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد ﴿و﴾ هو ﴿شفاء﴾ أي: دواء ﴿لما في﴾ صدوركم من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق ﴿ورحمة﴾ لمن آمن به منكم.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾.

أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح فإنه لا مفروح به أحق منهما، ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا، ويجوز أن يراد قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك فبمجيئها

---

(1) قال أحمد: وفي هذا النوع البليغ نكتتان، إحداهما: وضع الظاهر مكان المضمر، والأخرى: ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة، والمبالغة، والله أعلم.

(2) سورة الأعراف، الآية: 98.

فليفرحوا، وقرئ: فلتفرحوا بالتاء وهو الأصل والقياس وهي قراءة رسول الله ﷺ فيما روي، وعنه: «لتأخذوا مصافكم»[1] قالها في بعض الغزوات وفي قراءة أبيّ: فافرحوا ﴿وهو﴾ راجع إلى ذلك. وقرئ مما تجمعون بالياء والتاء وعن أبيّ بن كعب أنّ رسول الله ﷺ تلا: ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ فقال: «بكتاب الله والإسلام»[2] وقيل: فضله الإسلام ورحمته ما وعد عليه ﴿أرأيتم﴾ أخبروني و ﴿ما أنزل الله﴾ ما في موضع النصب بأنزل أو بأرأيتم في معنى أخبرونيه ﴿فجعلتم منه حرامًا وحلالاً﴾ أي: أنزله الله رزقًا حلالاً كله فبعضتموه وقلتم: هذا حلال، وهذا حرام كقولهم: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾[3] ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾[4] ﴿آلله أذن لكم﴾ متعلق بأرأيتم، وقل تكرير للتوكيد والمعنى: أخبروني آلله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه؟ أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك إليه؟ ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله تقريرًا للافتراء وكفى بهذه الآية زاجرة زجرًا بليغًا عن التجوز فيما يسئل عنه من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله.

وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿يوم القيامة﴾ منصوب بالظنّ وهو ظنّ واقع فيه يعني: أي شيء ظنّ المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره، وقرأ عيسى بن عمر: وما ظنّ على لفظ الفعل ومعناه: وأي ظنّ ظنوا يوم القيامة وجيء به على لفظ الماضي؛ لأنه كائن فكأن قد كان ﴿إنّ الله لذوا فضل على الناس﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾.

﴿وما تكون في شأن﴾ ما نافية والخطاب لرسول الله ﷺ والشأن الأمر وأصله الهمز بمعنى: القصد من شأنت شأنه إذا قصدت قصده والضمير في ﴿منه﴾ للشأن؛ لأنّ تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ﷺ بل هو معظم شأنه، أو للتنزيل كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن؛ لأنّ كلّ جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له أو لله عز وجل وما ﴿تعملون﴾ أنتم جميعًا ﴿من عمل﴾ أي عمل كان ﴿إلا كنا عليكم شهودًا﴾ شاهدين رقباء نحصي عليكم ﴿إذ تفيضون فيه﴾ من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه ﴿وما يعزب﴾ قرئ بالضم والكسر وما يبعد وما يغيب، ومنه: الروض العازب ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ القراءة بالنصب والرفع والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء ليكون كلامًا برأسه، وفي العطف على محل من مثقال ذرّة أو على لفظ مثقال ذرة فتحًا في موضع الجرّ لامتناع الصرف إشكالاً؛ لأنّ قولك لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب مشكل.

فإن قُلْتَ: لم قدّمت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض﴾[5] قُلْتُ: حق السماء أن تقدّم على الأرض ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: لا يعزب عنه، لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء، على أنّ العطف بالواو حكمه حكم الثنية.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾.

﴿أولياء الله﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وقد فسر ذلك في قوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فهو توليهم إياه ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فهو توليه إياهم، وعن سعيد بن جبير: أنّ رسول الله ﷺ سئل من أولياء الله؟ فقال: «هم الذين يذكر الله برؤيتهم»[6] يعني: السمت والهيئة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الإخبات والسكينة، وقيل: هم المتحابون في الله، وعن عمر رضي الله عنه سمعت النبيّ ﷺ يقول: «إنّ من عباد الله عبادًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله». قالوا: يا رسول الله أخبرنا من هم؛ وما أعمالهم، فلعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إنّ وجوههم لنور

---

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة صٓ، (الحديث رقم: 3235).

(2) رواه ابن أبي شيبة 1/501 كتاب: فضائل القرآن، باب: في الفضل.

(3) سورة الأنعام، الآية: 138.

(4) سورة الأنعام، الآية: 139.

(5) سورة سبأ، الآية: 3.

(6) رواه ابن أبي شيبة.

وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»[1]. ثم قرأ الآية ﴿الذين آمنوا﴾ نصب أو رفع على المدح أو على الوصف الأولياء أو على الابتداء والخبر ﴿لهم البشرى﴾ والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبيّ ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»[2] وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات» وقيل: هي محبة الناس له والذكر الحسن، وعن أبي ذرّ: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[3] وعن عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة﴾[4] وأمّا البشرى في الآخرة: فتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض وجوههم، وإعطاء الصحائف بأيمانهم، وما يقرؤن منها، وغير ذلك من البشارات ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده كقوله تعالى: ﴿ما يبدّل القول لديّ﴾[5] و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين، وكلتا الجملتين اعتراض.

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾.

﴿ولا يحزنك﴾ وقرئ: ولا يحزنك من أحزنه ﴿قولهم﴾ تكذيبهم لك وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك وسائر ما يتكلمون به في شأنك ﴿إنّ العزة لله﴾ استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل: ما لي لا أحزن فقيل: إنّ العزة لله جميعًا أي: إنّ الغلبة والقهر في ملكة الله جميعًا لا يملك أحد شيئًا منها لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرك عليهم ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي﴾[6] ﴿إنّا لننصر رسلنا﴾[7] وقرأ أبو حيوة: أنّ العزة لله بالفتح بمعنى لأنّ العزّة على صريح التعليل، ومن جعله بدلاً من قولهم ثم أنكره فالمنكر هو يخرجه لا ما أنكر من القراءة به ﴿هو السميع العليم﴾ يسمع ما يقولون ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾.

﴿من في السموات ومن في الأرض﴾ يعني: العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان وإنما خصّهم ليؤذن أنّ هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم وهو سبحانه وتعالى ربهم، ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكًا له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندًا وشريكًا، وليدلّ على أنّ من اتخذ غيره ربًا من ملك أو إنسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك فهو مبطل تابع لما أدّى إليه التقليد وترك النظر. ومعنى وما يتبعون شركاء أي: وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء؛ لأنّ شركة الله في الربوبية محال ﴿إن يتبعون إلا﴾ ظنهم أنها شركاء ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يحزرون ويقدرون أن تكون شركاء تقديرًا باطلاً، ويجوز أن يكون وما يتبع في معنى الاستفهام يعني: وأي شيء يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الأوّل بيتبع، وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة، ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على من كأنه قيل: ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي: وله شركاؤهم. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تدعون بالتاء ووجهه أن يحمل وما يتبع على الاستفهام أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين يعني: أنهم يتبعون الله ويطيعونه فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾[8] ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبيون من الحق.

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾.

ثم نبّه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة بأنه جعل لهم الليل مظلمًا ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردّد في المعاش، والنهار مضيًا يبصرون فيه مطلب أرزاقهم ومكاسبهم ﴿لقوم يسمعون﴾ سماع معتبر مدكر.

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية 1/5، والبيهقي في الشعب، باب: في مقاربة وموادة أهل الدين فصل في المصافحة والمعانقة عند الالتقاء، (الحديث رقم: 8998)، رواه ابن حبان في كتاب: البر والإحسان، باب الصحبة والمجالسة، (الحديث رقم: 573)، والحاكم في المستدرك 4/420.

(2) رواه الترمذي في كتاب الرؤيا، باب قوله: «لهم البشرى في الحياة الدنيا» (الحديث رقم: 2275)، وابن ماجه في كتاب: تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له (الحديث رقم: 3898)، والحاكم في المستدرك 4/391 والإمام أحمد في المسند = = 5/315.

(3) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره (الحديث رقم: 6663).

(4) سورة فصلت، الآية: 30.

(5) سورة قٓ، الآية: 29.

(6) سورة المجادلة، الآية: 21.

(7) سورة غافر، الآية: 51.

(8) سورة الإسراء، الآية: 57.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿هو الغني﴾ علة لنفي الولد؛ لأنّ ما يطلب به الولد من يلد وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفيًا ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولدًا ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله: إن عندكم على أن يجعل القول مكانًا للسلطان كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ لما نفي عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس بعلم.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿يفترون على الله الكذب﴾ بإضافة الولد إليه ﴿متاع في الدنيا﴾ أي: افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبة النبي ﷺ بالتظاهر به، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

۞ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

﴿كبر عليكم﴾ عظم عليكم وشق وثقل ومنه قوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾[1] ويقال: تعاظمه الأمر ﴿مقامي﴾ مكاني يعني: نفسه كما تقول فعلت كذا لمكان فلان، وفلان ثقيل الظل، ومنه: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾[2] بمعنى: خاف ربه، أو قيامي ومكثي بين أظهركم مددًا طوالاً ألف سنة إلا خمسين عامًا، أو مقامي وتذكيري؛ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينًا وكلامهم مسموعًا، كما يحكى عن عيسى صلوات الله عليه أنه كان يعظ الحواريين قائمًا وهم قعود ﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ من أجمع الأمر وأزمعه إذا نواه وعزم عليه. قال:

هل أغدون يومًا وأمري مجمع

والواو بمعنى: مع يعني فاجمعوا أمركم مع شركائكم وقرأ الحسن: وشركاؤكم بالرفع عطفًا على الضمير المتصل وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام كما تقول: اضرب زيدًا وعمرو وقرئ: فاجمعوا من الجمع وشركاءكم نصف للعطف على المفعول، أو لأنّ الواو بمعنى: مع، وفي قراءة أبيّ: فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

فإن قُلْتَ: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟ قُلْتُ: على وجه التهكم كقوله: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون﴾[3].

فإن قُلْتَ: ما معنى الأمرين أمرهم الذي يجمعونه وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟ قُلْتُ: أمّا الأمر الأوّل فالقصد إلى إهلاكه يعني: فأجمعوا ما تريدون من إهلاكي واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي، وإنما قال ذلك إظهارًا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً، وأما الثاني: ففيه وجهان: أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم يعني: ثم أهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة أي: غمًا وهمًا، والغم والغمة كالكرب والكربة، والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأوّل، والغمة السترة من غمه إذا ستره ومنها قوله عليه السلام: «ولا غمة في فرائض الله»[4]، أي: لا تستر ولكن يجاهر بها، يعني: ولا يكن قصدكم إلا إهلاكي مستورًا عليكم ولكن مكشوفًا مشهورًا تجاهرونني به ﴿ثم اقضوا إلي﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي أي: أدّوا إليّ قطعه وتصحيحه كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾[5] أو أدّوا إليّ ما هو حق عليكم عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه ﴿ولا تنظرون﴾ ولا تمهلوني وقرئ: ثم أفضوا إليّ بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إليّ بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء أي: أصحروا به إليّ وأبرزوه لي.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿فإن توليتم﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي ﴿فما سألتكم من أجر﴾ فما كان عندي ما ينفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم ﴿إن أجري إلا على الله﴾ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئًا ولا يطلبون به دنيا، يريد أن ذلك مقتضى الإسلام والذي كل مسلم مأمور به،

(1) سورة البقرة، الآية: 45.

(2) سورة الرحمن، الآية: 46.

(3) سورة الأعراف، الآية: 195.

(4) ذكره القاضي عياض في الباب الأول من كتاب الشفاء في فصل فصاحته (الزيلعي 2/136).

(5) سورة الحجر، الآية: 66.

والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم، ويبرئ ساحته، فذكر أن توليهم لم يكن عن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم وتمرّدهم لا غير.

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾.

﴿فكذبوه﴾ فتموا على تكذيبه، وكان تكذيبهم له في آخر المدّة المتطاولة كتكذيبهم في أوّلها، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان **﴿وجعلناهم خلائف﴾** يخلفون الهالكين بالغرق **﴿كيف كان عاقبة المنذرين﴾** تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله، وتسلية له.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾.

﴿من بعده﴾ من بعد نوح **﴿رسلاً إلى قومهم﴾** يعني: هودًا، وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا **﴿فجاؤهم بالبينات﴾** بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم **﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾** فما كان إيمانهم إلا ممتنعًا كالمحال لشدّة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه **﴿بما كذبوا به من قبل﴾** يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق، فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كان لم يبعث إليهم أحد **﴿كذلك نطبع﴾** مثل ذلك الطبع المحكم نطبع **﴿على قلوب المعتدين﴾** والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم؛ لأنّ الخذلان يتبعه، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿من بعدهم﴾ من بعد الرسل **﴿بآياتنا﴾** بالآيات التسع **﴿فاستكبروا﴾** عن قبولها وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن تقبلها **﴿وكانوا قومًا مجرمين﴾** كفارًا ذوي آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤا على ردّها.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله لا من قبل موسى وهرون **﴿قالوا﴾** لحبهم الشهوات **﴿إن هذا لسحر مبين﴾** وهم يعلمون أنّ الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهًا وباطلاً.

فإن قلْتَ[1]: هم قطعوا بقولهم: **﴿إن هذا لسحر مبين﴾** على أنه سحر. فكيف قيل لهم: أتقولون أسحر هذا؟ قلْتُ: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله: **﴿أتقولون للحق﴾** أتعيبونه وتطعنون فيه وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاول. إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه، ونحو القول الذكر في قوله: **﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾**[2] ثم قال **﴿أسحر هذا﴾** فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه وأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم: **﴿إن هذا لسحر مبين﴾** كأنه قيل: أتقولون ما تقولون يعني: قولهم: **﴿إن هذا لسحر مبين﴾** ثم قيل: أسحر هذا وأن يكون جملة قوله: **﴿أسحر هذا﴾** **﴿ولا يفلح الساحرون﴾** حكاية لكلامهم كأنهم قالوا: أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح **﴿ولا يفلح الساحرون﴾** كما قال موسى للسحرة: **﴿ما جئتم به لسحر إنّ الله سيبطله﴾**[3].

قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿لتلفتنا﴾ لتصرفنا، واللفت والفتل أخوان ومطاوعهما الالتفات والانفتال **﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾** يعنون عبادة الأصنام **﴿وتكون لكما الكبرياء﴾** أي: الملك؛ لأنّ الملوك موصوفون بالكبر، ولذلك قيل للملك الجبار، ووصف بالصيد والشوس، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعبًا في قوله:

ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ينفي ما عليه الملوك من ذلك، ويجوز أن يقصدوا ذمّهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرًا وتكبرًا كما قال القبطي لموسى عليه السلام: **﴿إن تريد إلا أن تكون جبارًا في الأرض﴾**[4] **﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾** أي: مصدّقين لكما فيما جئتما به. وقرئ[5]: يطبع ويكون لكما بالياء.

فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾.

---

(1) قال أحمد: في الفرق بين الوجهين غموض، وإيضاحه أنّ القول على الوجه الأوّل وقع كناية عن العيب، فلا يتقاضى مفعولاً، وفي الثاني على أنه يطلب مفعولاً، والله أعلم.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 60.

(3) سورة يونس، الآية: 81.

(4) سورة القصص، الآية: 19.

(5) قال أحمد: وليس المراد في القراءة الأولى الإخبار بأن ما جاؤا به سحر خاصة، ولكن مع تنزيه ما جاء به عن كونه سحراً، وإنما = يستفاد ذلك بما في هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر، ولو مرت بخاطر الإمام أبي المعالي في مسألة تحريمة التكبير، لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر، فإنا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه، فإنما أراد إضافة السحر إلى ما جاؤا به محصوراً فيه، حتى لا يتعدى إلى الحق الذي جاء به هو منه شيء، وأما القراءة الثانية، ففيها، والله أعلم إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أوّلاً أتقولون للحق لما جاءكم أسحر من هذا حكاية لقولهم، ويكون أسحر هذا هو الذي قالوه، ولا يناقض =

﴿ما جئتم به﴾ ما[1] موصولة واقعة مبتدأ و﴿السحر﴾ خبر، أي: الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحرًا من آيات الله وقرئ: السحر على الاستفهام فعلى هذه القراءة ما استفهامية أي: أي شيء جئتم به أهو السحر. وقرأ عبد الله: ما جئتم به سحر، وقرأ أبيّ: ما أتيتم به سحر والمعنى: لا ما أتيت به ﴿إن الله سيبطله﴾ سيمحقه ويظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة ﴿لا يصلح عمل المفسدين﴾ لا يثبته ولا يديمه ولكن يسلط عليه الدمار.

وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿ويحق الله الحق﴾ ويثبته ﴿بكلماته﴾ بأوامره وقضاياه وقرئ: بكلمته بأمره ومشيئته.

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾.

﴿فما آمن لموسى﴾ في أوّل أمره ﴿إلا ذرية من قومه﴾ إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه، وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفًا من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف، وقيل: الضمير في قومه لفرعون والذرية، مؤمن آل فرعون، وآسية امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وما شطته.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في قوله ﴿وملئهم﴾؟ قُلْتُ: إلى فرعون بمعنى: آل فرعون كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له، ويجوز أن يرجع إلى الذرية أي: على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفًا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم ويدل عليه قوله ﴿أن يفتنهم﴾ يريد: أن يعذبهم ﴿وإنّ فرعون لعال في الأرض﴾ لغالب فيها قاهر ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتوّ بادعائه الربوبية.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾.

﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ صدقتم به وبآياته ﴿فعليه توكلوا﴾ فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون. ثم شرط في التوكل الإسلام وهو: أن يسلموا نفوسهم لله أي: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها؛ لأنّ التوكل لا يكون مع التخليط، ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه إن كانت بك قوّة.

فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾.

﴿فقالوا على الله توكلنا﴾ إنما قالوا ذلك؛ لأنّ القوم كانوا مخلصين لا جرم أنّ الله سبحانه قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم، وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿لا تجعلنا فتنة﴾ موضع فتنة لهم أي: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا، أو فتنة لهم يفتتنون بنا ويقولون لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾.

تبوّأ المكان اتخذه مباءة كقولك: توطنه إذا اتخذه وطنًا والمعنى: اجعلا بمصر بيوتًا من بيوته مباءة لقومكما ومرجعًا يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه ﴿واجعلوا بيوتكم﴾ تلك ﴿قبلة﴾ أي: مساجد متوجهة نحو القبلة وهي: الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أوّل أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذونهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أوّل الإسلام بمكة.

فإن قُلْتَ: كيف نوع الخطاب فثنى أوّلاً، ثم جمع، ثم وحد آخرًا؟ قُلْتُ: خوطب موسى وهرون عليهما السلام أن يتبوآ

= ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا: إن هذا لسحر مبين وذلك، إما لأنّهم قالوا الأمرين جميعاً بدؤا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق، والاستهزاء بكونه حقاً، والاستهزاء بالحق إنكار له، بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن أبت من الإخبار، ألا ترى أنهم يقولون في قوله: أأنت أم سالم، أبلغ في البت من قوله مخبراً: أنت أم سالم، ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار، ودعوى أنه سحر، فقالوا إنّ هذا لسحر مبين، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني، ووبخهم موسى على قولهم الأوّل، ومعنى العبارتين ومآلهما واحد، وإما إن لا يكونوا قالوا سوى أسحر هذا على سبيل الإنكار حسماً تقدّم، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار، وبت القول أنه سحر، وحكى موسى عليه السلام: قولهم بلفظه، ولم يؤدّه بعبارة أخرى، وحكاية القصص المتلوة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة، لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالألفاظ =

= المترادفة المتساوية المعاني، وحاصل هذا البحث، أن قول موسى عليه السلام أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا إنما حكى فيه قولهم، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عندما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهماً، فقال: ما جئتم به آلسحر على قراءة الاستفهام قرضاً بوفاء على السواء، والذي يحقق لك أنّ الاستفهام والإخبار في مثل هذا المعنى، مؤداهما واحد، أنّ الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ما جئتم به هو السحر على الوجهين الخبر، والاستفهام على ما اقتضته القراءتان، وهو قول واحد دل على أنّ مؤدي الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر، وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعييب، أو إضمار مفعول تقولون استشكال وقوع الاستفهام محكياً بالقول، والمحكي أولاً عنهم الخبر، وقد أوضحنا أنه لا تنافر، ولا تنافي بين الأمرين، فشدّ بهذا الفصل على التمسك، فإنه من دقائق النكت، والله الموفق.

لقومهما بيوتًا ويختاراها للعبادة وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عامًا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأنّ ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيمًا لها والمبشر بها.

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾.

الزينة ما يتزين به من لباس، أو حلي، أو فرش، أو أثاث، أو غير ذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾؟ **قُلْتُ**[1]: هو دعاء بلفظ الأمر كقوله: ﴿ربنا اطمس... واشدد﴾ وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضًا مكررًا، وردّد عليهم النصائح والمواعظ زمانًا طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفرًا، وعلى الإنذار إلا استكبارًا، وعن النصيحة إلا نبوًّا، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال وأنّ إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحي من الله، اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقته وكراهته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه كأنه قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال وليكونوا ضلالاً، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا، وما عليّ منهم هم أحق بذلك وأحق كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر: إذا ما لم يقبل منه حسرة على ما فاته من قبول نصيحته وحردًا عليه لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه. ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان ﴿فلا يؤمنوا﴾ جواب الدعاء الذي هو ﴿اشدد﴾ أو دعاء بلفظ النهي، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل على أنهم جعلوا نعمة الله سببًا في الضلال، فكأنهم أوتوها ليضلوا وقوله: ﴿فلا يؤمنوا﴾ عطف على ليضلوا، وقوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾ دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. وقرأ الفضل الرقاشي: أئنك آتيت على الاستفهام واطمس بضم الميم.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾.

قرئ: دعواتكما قيل: كان موسى يدعو وهرون يؤمن، ويجوز أن يكونا جميعًا يدعوان، والمعنى: إنّ دعاءكما مستجاب وما طلبتما كائن ولكن في وقته ﴿فاستقيما﴾ فاثبتا على ما انتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلاً، ولا تستعجلا، قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة ﴿ولا تتبعان سبيل الذين يعلمون﴾ أي: لا تتبعا طريق الجهلة بعادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا فإنّ العجلة ليست بمصلحة، وهذا كما قال لنوح عليه السلام: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾[2] وقرئ: ولا تتبعان بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهًا بنون التثنية وبتخفيف التاء من تبع.

❁ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾.

قرأ الحسن: وجوزنا من أجاز المكان وجوّزه وجاوزه وليس من جوز من الذي في بيت الأعشى:

وإذا يجوزها حبال قبيلة

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال: وجوّزنا بني إسرائيل في البحر كما قال، كما جوّز السكي في الباب فيتق. ﴿فاتبعهم﴾ فلحقهم يقال: تبعته حتى أتبعته. وقرأ الحسن: وعدوًا. وقرئ: أنه بالفتح على حذف الباء التي هي صلة الإيمان وانه بالكسر على الاستئناف بدلاً من آمنت. كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصًا على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرّة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف[3].

---

(1) قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي الذي هو أدق من دبيب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفاً، ووجه ذلك أنه علم أنّ الظاهر بل، والباطن أنّ اللام للتعليل، وأنّ الفعل منصوب بها، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأنّ الله إنما أمدهم بالزينة، والأموال، وما يتبعهما من النعم استدراجاً ليزدادوا إثماً وضلالة، كما أخبر تعالى عن أمثالهم، بقوله: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل، والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على الله تعالى، لاعتقاده أنّ من الجوار أن يملي لهم في الضلالة، ويعاقبهم عليها، فهو متبتل لما = يرد من الآيات بعمل الحيلة في تأويلها، وردّها إلى معتقده، وجعلها تبعاً له، كما تقدّم له تأويل قوله: ﴿ليزدادوا إثماً﴾ وكاين من آية غراء رام أن يستر غرتها، ويطفئ نورها بأمثال هذه التأويلات الرديئة لفظاً، وعقداً ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ثم لا يسعه إلا أن يحمل موسى عليه السلام على أمثال هذه المعتقدات، ولقد برأه الله، وكان عند الله وجيهاً.

(2) سورة هود، الآية: 46.

(3) قال أحمد: ولقد أنكر منكراً، وغضب الله ولملائكته، كما يجب لهم، والله الموفق.

ﺁلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾.

﴿آلآن﴾ أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك، قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق يعني حين أوشك أن يغرق، وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه، والذي يحكى: أنه حين قال: آمنت، أخذ جبريل من حال البحر فدسه في فيه المغضب لله على الكافر في وقت قد علم أنّ إيمانه لا ينفعه، وأمّا ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله، فمن زيادات الباهتين لله وملائكته، وفيه جهالتان: إحداهما: أنّ الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أنّ من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر؛ لأن الرضا بالكفر كفر ﴿من المفسدين﴾ من الضالين المضلين عن الإيمان كقوله: ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾[1] روي أنّ جبريل عليه السلام أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه يقول: أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماه أن يغرق في البحر، فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه[2].

فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾.

﴿ننجيك﴾ بالتشديد والتخفيف نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، وقيل: نلقيك بنجوة من الأرض، وقرئ: ننحيك بالحاء نلقيك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر. قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور ﴿ببدنك﴾ في موضع الحال أي: في الحال التي لا روح فيك وإنما أنت بدن، أو ببدنك كاملاً سويًا لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عريانًا لست إلا بدنًا من غير لباس، أو بدرعك، قال عمرو بن معد يكرب:

أعاذل شكتي بدني وسيفي وكل مقلص سلس القياد

وكانت له درع من ذهب يعرف بها، وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: بأبدانك وهو على وجهين: إمّا أن يكون مثل قولهم: هوى بأجرامه، يعني ببدنك كله وافيًا بأجزائه، أو يريد بدروعك كأنه كان مظاهرًا بينها ﴿لمن خلفك آية﴾ لمن وراءك من الناس علامة وهم: بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أنّ فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق. وروي أنهم قالوا: ما مات فرعون ولا يموت أبدًا، وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدّقوه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه وكان مطرحه كان على ممرّ من بني إسرائيل حتى قيل: ﴿لمن خلفك﴾ وقيل ﴿لمن خلفك﴾ لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية: أن يظهر للناس عبوديته ومهانته وإنّ ما كان يدّعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه عز وجل فما الظنّ بغيره، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك فلا يجترئوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله. وقرئ: لمن خلقك بالقاف أي: لتكون لخالقك آية كسائر آياته ويجوز أن يراد ليكون طرحك على الساحل وحدك وتمييزك من بين المغرقين لئلا يشتبه على الناس أمرك، ولئلا يقولوا لادعائك العظمة إنّ مثله لا يغرق ولا يموت آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أنّ ذلك تعمد منه لإماطة الشبهة في أمرك.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾.

﴿مبوأ صدق﴾ منزلاً صالحًا مرضيًا وهو: مصر والشام ﴿فما اختلفوا﴾ في دينهم وما تشعبوا فيه شعبًا إلا من بعد ما قرؤا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة وعلموا أن الاختلاف فيه تفرّق عنه، وقيل: هو العلم بمحمد ﷺ واختلاف بني إسرائيل، وهم أهل الكتاب اختلافهم في صفته ونعته وأنه هو، أم ليس به بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه كما قال الله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾[3].

فإن قُلْتَ[4]: كيف قال لرسول الله ﷺ ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ مع قوله: في الكفرة ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾[5] قُلْتُ: فرق عظيم بين قوله: ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله: ﴿فإن كنت في شك﴾ بمعنى الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيالاً منه تقديرًا ﴿فاسئل الذين يقرؤون الكتاب﴾ والمعنى: أنّ الله عز وجل قدّم ذكر بني إسرائيل وهم قرأة الكتاب ووصفهم بأنّ العلم قد جاءهم؛ لأنّ أمر رسول الله ﷺ

(1) سورة النحل، الآية: 88.

(2) ذكره القرطبي في تفسيره 8/241.

(3) سورة البقرة، الآية: 146.

(4) قال أحمد: ولو قال هذا المفسر إنّ نفي الشك عنه عليه الصلاة والسلام، توطئة لأمره بالسؤال، لتقوم حجته على المسؤولين، لا = ليستفيد بسؤالهم علماً لمزيد تعين الإبراء بقوله له: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض، قل لله﴾، فأمر بالسؤال، والجواب جميعاً، لكان أقوم وأسلم والله أعلم.

(5) سورة هود، الآية: 110.

مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوّة محمد عليه السلام ويبالغ في ذلك فقال: فإن وقع لك شك فرضًا وتقديرًا وسبيل من خالجته شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإماطتها، إمّا بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته، وإمّا بمقادحة العلماء المنبهين على الحق، فسل علماء أهل الكتاب يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علمًا بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم فضلاً عن غيرك، فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله لا وصف رسول الله بالشك فيه، ثم قال: ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ أي: ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية ﴿فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله، ويجوز أن يكون على طريقة التهييج والإلهاب كقوله: ﴿فلا تكونن ظهيرًا للكافرين﴾[1] ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾[2] ولزيادة التثبت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق»[3] وعن ابن عباس رضي الله عنه: لا والله ما شك طرفة عين ولا سأل أحدًا منهم، وقيل: خوطب رسول الله ﷺ والمراد خطاب أمّته ومعناه: فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم كقوله: ﴿وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا﴾[4] وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك كقول العرب: إذا عز أخوك فهن، وقيل: إن للنفي أي: فما كنت في شك فاسأل يعني: لا نأمرك بالسؤال؛ لأنك شاك ولكن لتزداد يقينًا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى، وقرئ: فاسئل الذين يقرؤن الكتب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾.

﴿حقت عليهم كلمة ربك﴾ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة: أنهم يموتون كفارًا فلا يكون غيره، وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد تعالى الله عن ذلك.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾.

﴿فلولا كانت﴾ فهلا كانت ﴿قرية﴾ واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه لم ﴿فنفعها إيمانها﴾ بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار، وقرأ أبيّ وعبد الله: فهلا كانت ﴿إلا قوم يونس﴾ استثناء من القرى؛ لأنّ المراد أهاليها، وهو استثناء منقطع بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا، ويجوز أن يكون متصلاً والجملة في معنى النفي كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء، وقرئ: بالرفع على البدل هكذا روي عن الجرمي والكسائي: روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضبًا، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة، وقيل: قال لهم يونس: إنّ أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيمًا أسود هائلاً يدخن دخانًا شديدًا، ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها، فحنّ بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم حتى إنّ الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حي حين لاحي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت، فقالوها، فكشف عنهم، وعن الفضيل بن عياض: قالوا اللهم إنّ ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾.

﴿ولو شاء ربك﴾ مشيئة[5] القسر والإلجاء ﴿لآمن من في الأرض كلها﴾ على وجه الإحاطة والشمول ﴿جميعًا﴾ مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه، ألا ترى إلى قوله: ﴿أفأنت تكره الناس﴾ يعني: إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت، وإيلاء الاسم حرف الاستفهام للإعلام بأنّ الإكراه ممكن مقدور

---

(1) سورة القصص، الآية: 86.
(2) سورة القصص، الآية: 87.
(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 6/126، (الحديث رقم: 10211).
(4) سورة النساء، الآية: 174.
(5) قال أحمد: وهذا من دسه الاعتزال مخلساً، وخلط الباطل بالحق مدلساً، ولما علم أنّ الآية تقتضي عدم مشيئة الله تعالى، لإيمان الخلق بصيغة الكلية، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر، إذ مقتضى لولا امتناع، وكان ذلك راد لمعتقده الفاسد، إذ يزعمون = أنّ الله تعالى شاء الإيمان من جميع أهل الأرض، فلم يؤمن إلا بعضهم أخذ يحرف مشيئة الإيمان إلى مشيئة القسر، والإلجاء ليتم له أن المشيئة المرادة في الآية، لم تقع إلا أنا نوافقه على أنّ الله تعالى ما قسر الخلق، ولا سلب اختيارهم بل أمرهم بالإيمان، وخلق لهم اختياراً له، وقصداً، وهذا كما ترى لا يعد في التأويل، بل هو أجدر بالتعطيل، فوجب ردّه، وإقرار الظاهر على حاله نعوذ بالله من زيغ الشيطان، وإضلاله، والله الموفق.

عليه وإنما الشأن في المكره من هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه؛ لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان وذلك غير مستطاع للبشر.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾.

﴿وما كان لنفس﴾ يعني: من النفوس التي علم أنها تؤمن ﴿إلا بإذن الله﴾ أي: بتسهيله وهو منح الألطاف ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ قابل الإذن بالرجس وهو الخذلان والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر كقوله: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾[1] وهي الخذلان رجسًا وهو العذاب، لأنه سببه، وقرئ: ونجعل بالنون.

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾.

﴿ماذا في السموات والأرض﴾ من الآيات والعبر ﴿وما تغني الآيات والنذر﴾ والرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ لا يتوقع إيمانهم وهم الذين لا يعقلون، وقرئ: وما يغني بالياء وما نافية أو استفهامية.

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾.

﴿أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ وقائع الله تعالى فيهم كما يقال: أيام العرب لوقائعها.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾.

﴿ثم ننجي رسلنا﴾ معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله: إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا على حكاية الأحوال الماضية ﴿والذين آمنوا﴾ ومن آمن معهم. كذلك ننج المؤمنين مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين و ﴿حقًا علينا﴾ اعتراض يعني: حقّ ذلك علينا حقًا، وقرئ ننج بالتشديد.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾.

﴿يا أيها الناس﴾ يا أهل مكة ﴿إن كنتم في شك من ديني﴾ وصحته وسداده فهذا ديني فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ وإنما وصفه بالتوفي ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقي فيعبد دون ما لا يقدر على شيء ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ يعني: أنّ الله أمرني بذلك بما ركب فيّ من العقل وبما أوحى إليّ في كتابه، وقيل: معناه إن كنتم في شك من ديني وما أنا عليه أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم فلا تحدّثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمري واقطعوا عني أطماعكم واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولا أختار الضلالة على الهدى كقوله: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون﴾[2] أمرت أن أكون أصله بأن أكون، فحذف الجار وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارّة مع إن وأن، وأن يكون من الحذف غير المطرد وهو قوله: أمرتك الخير فاصدع بما تؤمر.

فإن قُلْتَ: عطف قوله ﴿وأن أقم﴾ على أن أكون فيه إشكال؛ لأنّ أن لا تخلو من أن تكون التي للعبارة أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر، فلا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول؛ لأنّ عطفها على الموصولة يأبى ذلك، والقول بكونها موصولة مثل الأولى لا يساعد عليه لفظ الأمر وهو أقم؛ لأنّ الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصدق والكذب قُلْتُ: قد سوّغ سيبويه أن توصل أن بالأمر والنهي وشبه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل، على الخطاب؛ لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر، والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال ﴿أقم وجهك﴾ استقم إليه ولا تلتفت يمينًا ولا شمالاً و ﴿حنيفًا﴾ حال من الدين أو من الوجه.

وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾.

﴿فإن فعلت﴾ معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك، فكنى عنه بالفعل إيجازًا ﴿فإنك إذًا من الظالمين﴾ إذًا جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدّر كأنّ سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾[3].

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾.

أتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر أنّ الله عزّ وجلّ هو الضارّ النافع الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد فكيف بالجماد الذي لا شعور به، وكذلك إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان فهو

(1) سورة البقرة، الآية: 171.
(2) سورة الكافرون، الآيتان: 1 ـ 2.
(3) سورة لقمان، الآية: 13.

الحقيق إذًا بأن توجه إليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله: ﴿إن أرادني الله بضر هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته﴾[1].

فإن قُلْتَ: لم ذكر المس في أحدهما والإرادة في الثاني؟ قُلْتُ: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعًا الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا رادّ لما يريده منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ وهو: الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؛ ليدلّ بما ذكر على ما ترك على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: ﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾ والمراد بالمشيئة: مشيئة المصلحة.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾.

﴿قد جاءكم الحق﴾ فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن آثر الضلال فما ضرّ إلا نفسه، واللام وعلى دلا على معنى النفع والضر، وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل، وفيه حث على إيثار الهدى وإطراح الضلال مع ذلك ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ بحفيظ موكول إليّ أمركم وحملكم عليّ ما أريد، إنما أنا بشير ونذير.

وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾.

﴿واصبر﴾ على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم ﴿حتى يحكم الله﴾ لك بالنصرة عليهم والغلبة، وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني»[2] يعني: أني أمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة. قال أنس: فلم نصبر، وروي: أنّ أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه من بعد فقال له: مالك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا دواب. قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: يا معشر الأنصار إنكم ستلقون بعدي أثرة. قال معاوية: فماذا قال؟ قال: قال: فاصبروا حتى تلقوني، قال: فاصبر. قال: إذن نصبر، فقال عبد الرحمن بن حسان:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... أمير الظالمين لنا كلامي

بأنا صابرون فمنظروكم ... إلى يوم التغابن والخصام[3]

عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعدد من غرق مع فرعون[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام مكية

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾.

﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظمًا رصينًا محكمًا لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة من حكم بضم الكاف إذا صار حكيمًا أي: جعلت حكيمة كقوله تعالى: ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾[5] وقيل: منعت من الفساد من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح قال جرير:

ابني حنيفة أحكموا سفهاءكم ... إني أخاف عليكم أن أغضبا

وعن قتادة: أحكمت من الباطل ﴿ثم فصلت﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد، والأحكام والمواعظ، والقصص، أو جعلت فصولاً، سورة سورة وآية آية، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد أي: بين ولخص، وقرئ: أحكمت آياته ثم فصلت أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت أي: فرقت بين الحق والباطل.

فإن قُلْتَ: ما معنى ثم؟ قُلْتُ: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، وكتاب خبر مبتدأ محذوف، وأحكمت صفة له، وقوله: ﴿من لدن حكيم خبير﴾ صفة ثانية ويجوز أن يكون خبرًا بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت أي: من عنده إحكامها وتفصيلها وفيه طباق حسن؛ لأنّ المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي: بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾.

﴿ألا تعبدوا﴾ مفعول له على معنى: لئلا تعبدوا، أو تكون أن مفسرة؛ لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله.

وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾.

---

(1) سورة الزمر، الآية: 38.

(2) رواه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: قول النبي ﷺ للأنصار: اصبروا حتى تلقوني على الحوض (الحديث رقم: 2792) ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الأمر بالصبر عند ظلم الولاة = (الحديث رقم: 4756).

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف 11/ 60، (الحديث رقم: 19909).

(4) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، والثعلبي الزيلعي 2/ 142.

(5) سورة يونس، الآية: 1.

﴿وأن استغفروا﴾ أي: أمركم بالتوحيد والاستغفار، ويجوز أن يكون كلامًا مبتدأ منقطعًا عما قبله على لسان النبي ﷺ إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة ويدل عليه قوله: ﴿إنني لكم منه نذير وبشير﴾ كأنه قال: ترك عبادة غير الله إنني لكم منه نذير كقوله تعالى: ﴿فضرب الرقاب﴾[1] والضمير في منه لله عز وجل أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته كقوله: ﴿رسول من الله﴾[2] أو هي صلة لنذير أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم وابشركم بثوابه إن آمنتم.

فإن قُلْتَ: ما معنى ثم في قوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾؟ قُلْتُ: معناه: استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة، أو استغفروا والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها كقوله: ﴿ثم استقاموا﴾[3] ﴿يمتعكم﴾ يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى أن يتوفاكم كقوله: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾[4] ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه، أو فضله في الثواب والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات ﴿وإن تولوا﴾ وإن تتولوا ﴿عذاب يوم كبير﴾ هو: يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل. وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادرًا على أشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه، وقرئ: وإن تولوا من ولي.

أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾.

﴿يثنون صدورهم﴾ يزورّون عن الحق وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره، ومن ازورّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ﴿ليستخفوا منه﴾ يعني: ويريدون ليستخفوا من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم، ونظير إضمار: يريدون لقود المعنى: إلى إضماره الإضمار في قوله تعالى: ﴿اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾[5] معناه: فضرب فانفلق ومعنى ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ ويريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم أيضًا كراهة لاستماع كلام الله تعالى كقول نوح عليه السلام: ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم﴾[6] قال: يعلم ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ يعني: أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ونفاقهم غير نافق عنده، روي: أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول الله ﷺ المحبة، وله منطق حلو وحسن سياق للحديث، فكان يعجب رسول الله ﷺ مجالسته ومحادثته وهو يضمر خلاف ما يظهر، وقيل: نزلت في المنافقين. وقرئ: تثنوني صدورهم واثنوني أفعوعل من الثني كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة، قرئ: بالتاء والياء، وعن ابن عباس لتثنوني، وقرئ: تثنون وأصله تثنونن تفعوعل من الثن وهو: ما هش وضعف من الكلأ يريد مطاوعة صدورهم للثني كما ينثني الهش من النبات، أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم، وقرئ: تثنئن من اثنأن افعال منه ثم همز كما قيل: ابيأضت وادهأمت، وقرئ: تثنوى بوزن ترعوى.

فإن قُلْتَ: كيف قال[7]: ﴿على الله رزقها﴾ بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل قُلْتُ: هو: تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم رجع التفضل واجبًا كنذور العباد. والمستقرّ مكانه من الأرض ومسكنه. والمستودع حيث كان مودّعًا قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة ﴿كل﴾ كل واحد من الدواب ورزقها، ومستقرّها، ومستودعها في اللوح، يعني: ذكرها مكتوب فيه مبين.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾.

﴿وكان عرشه على الماء﴾ أي: ما كان تحته خلق قبل خلق السمٰوات والأرض وارتفاعه فوقها إلا الماء وفيه دليل على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السمٰوات والأرض، وقيل: وكان الماء على متن الريح والله أعلم بذلك، وكيفما كان فالله ممسك كل ذلك بقدرته، وكلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه ﴿ليبلوكم﴾ متعلق بخلق أي: خلقهنّ لحكمة بالغة وهي: أن يجعلها مساكن لعباده وينعم عليهم فيها بفنون النعم ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر

---

(1) سورة محمد، الآية: 4.
(2) سورة البينة، الآية: 2.
(3) وسورة الأحقاف، الآية: 13.
(4) سورة النحل، الآية: 97.
(5) سورة الشعراء، الآية: 63.
(6) سورة نوح، الآية: 7.
(7) قال أحمد: كل ما يسديه الله تعالى من رزق لبهيمة، أو مكلف في= = الدنيا، أو ثواب في الآخرة، فذلك كله فضل، ولا واجب على الله تعالى، وإن ورد مثل هذه الصيغة، فمحمول على أن الله عز وجل لما وعدهم فضله، ووعده خبر، وخبره صدق وجب وقوع الموعود، أي: يستحيل في العقل أن لا يقع للزوم الخلف في خبر الصادق، فعبر عن ذلك بما يعبر به عن وجوب التكليف، وبينهما هذا الفرق المذكور، هذه قاعدة أهل الحق، وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى: إنما التوبة على الله، والله الموفق.

وعصى عاقبه، ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليبلوكم يريد ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لأحوالكم كيف تعملون.

فإن قُلْتَ: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قُلْتُ: لما في الاختبار من معنى العلم؛ لأنه طريق إليه فهو ملابس له كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهًا واسمع أيهم أحسن صوتًا؛ لأنّ النظر والاستماع من طرق العلم.

فإن قُلْتَ: كيف قيل ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأمّا أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟ قُلْتُ: الذين هم أحسن عملاً هم: المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم تشريفًا لهم وتنبيهًا على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفًا للسامعين وترغيبًا في حيازة فضلهم، وعن النبي ﷺ: «ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»[1] وقرئ: ﴿ولئن قلت أنكم مبعوثون﴾ بفتح الهمزة ووجهه أن يكون من قولهم: ائت السوق عنك تشتري لنا لحمًا وأنك تشتري بمعنى: علك، أي: ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه ولا تبتوا القول بإنكاره لقالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ باتين القول ببطلانه، ويجوز أن تضمن قلت معنى ذكرت، ومعنى قولهم: إن هذا إلا سحر مبين، أنّ السحر أمر باطل وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهًا له به، أو أشاروا بهذا القرآن؛ لأنّ القرآن هو الناطق بالبعث فإذا جعلوه سحرًا فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره، وقرئ: إن هذا إلا ساحر يريدون: الرسول، والساحر كاذب مبطل.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾.

﴿العذاب﴾ عذاب الآخرة، وقيل: عذاب يوم بدر، وعن ابن عباس: قتل جبريل المستهزئين ﴿إلى أمّة﴾ إلى جماعة من الأوقات ﴿ما يحبسه﴾ ما يمنعه من النزول استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء و ﴿يوم يأتيهم﴾ منصوب بخبر ليس ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها إذ المعمول تابع للعامل فلا يقع إلا حيث يقع العامل ﴿وحاق بهم﴾ وأحاط بهم ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ العذاب الذي كانوا به يستعجلون، وإنما وضع يستهزؤن موضع يستعجلون؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة الاستهزاء والمعنى: ويحيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في إخباره.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾.

﴿الإنسان﴾ للجنس ﴿رحمة﴾ نعمة من صحة وأمن وجدة ﴿ثم نزعناها منه﴾ ثم سلبناه تلك النعمة ﴿إنه ليؤس﴾ شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع ﴿كفور﴾ عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نساء له.

وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾.

﴿ذهب السيآت عني﴾ أي: المصائب التي ساءتني ﴿إنه لفرح﴾ أشر بطر ﴿فخور﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.

﴿إلا الذين﴾ آمنوا فإنّ عادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا. كانوا يقترحون عليه آيات تعنتًا لا استرشادًا؛ لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم، ومن اقتراحاتهم ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرّك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردّهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحي إليك﴾ أي: لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردّهم له وتهاونهم به ﴿وضائق به صدرك﴾ بأن تتلوه عليهم ﴿أن يقولوا﴾ مخافة أن يقولوا: ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾ أي: هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه ثم قال: ﴿إنما أنت نذير﴾ أي: ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ردوا أو تهاونوا أو اقترحوا ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم.

فإن قُلْتَ: لم عدل من ضيق إلى ضائق؟ قُلْتُ: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأنّ رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرًا، ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد ونحوه: كانوا قومًا عامين في بعض القراءات، وقول

(1) ذكره ابن مردويه، والثعلبي وداود بن المحبر في كتاب العقل، الزيلعي 2/145.

السمهري العكلي:

بمنزلة أما اللئيم فسامن بها وكرام الناس باد شحوبها

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾.

﴿أم﴾ منقطعة. والضمير في ﴿افتراه﴾ لما يوحي إليك. تحداهم أوّلاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه، قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد، ﴿مثله﴾ بمعنى أمثاله، ذهابًا إلى مماثلة كل واحدة منها له ﴿مفتريات﴾ صفة لعشر سور لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله، قاودهم على دعواهم، وأرخى معهم العنان، وقال: هبوا أني اختلقته من عند نفسي، ولم يوح إليّ، وأنّ الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم أيضًا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي، لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام.

فإن قُلْتَ: كيف يكون ما يأتون به مثله، مفترى، وهذا غير مفترى؟ **قُلْتُ**: معناه: مثله في حسن البيان، والنظم، وإن كان مفترى.

فإن قُلْتَ: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: ﴿لكم فاعلموا﴾ بعد قوله قل؟ **قُلْتُ**: معناه: فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين؛ لأنّ رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدونهم، وقد قال في موضع آخر: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم﴾[1] ويجوز أن يكون الجمع؛ لتعظيم رسول الله ﷺ، كقوله:

فإن شئت حرمت النساء سواكم

ووجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين، والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم، يعني: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله، إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه، وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ أي: أنزل ملتبسًا بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه ﴿و﴾ اعلموا عند ذلك ﴿أن لا إله إلا﴾ الله وحده، وأن توحيده واجب، والإشراك به ظلم عظيم ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد، ومن جعل الخطاب للمسلمين، فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقينًا، وثبات قدم، على أنه منزل من عند الله، وعلى التوحيد، ومعنى فهل أنتم مسلمون: فهل أنتم مخلصون.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾.

﴿نوف إليهم﴾ نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة، من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق، وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقراء منهم: أردت أن يقال فلان قارئ، فقد قيل ذلك، ولمن وصل الرحم وتصدّق فعلت، حتى يقال فقيل، ولمن قاتل فقتل، قاتلت حتى يقال فلان جريء فقد قيل، وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحمًا عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن، وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ، فأسهم لهم في الغنائم، وقرئ: يوفّ بالياء، على أن الفعل لله عزّ وجلّ، وتوف إليهم أعمالهم بالتاء على البناء للمفعول، وفي قراءة الحسن: نوفي بالتخفيف وإثبات الياء؛ لأنّ الشرط وقع ماضيًا، كقوله:

يقول لا غائب مالي ولا حرم

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾.

﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعني: لم يكن له ثواب؛ لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما أرادوا ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: كان عملهم في نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له، وقرئ: وبطل على الفعل، وعن عاصم: وباطلاً، بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إبهامية وينتصب بيعملون، ومعناه: باطلاً أي باطل كانوا يعملون، وأن تكون بمعنى المصدر: على وبطل بطلانًا ما كانوا يعملون.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾.

﴿أفمن كان على بينة﴾ معناه: أمن كان يريد الدنيا، فمن كان على بينة، أي: لا يعقبونهم في المنزلة، ولا يقاربونهم، يريد أنّ بين الفريقين تفاوتًا بعيدًا وتباينًا بينًا، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بينة ﴿من ربه﴾ أي: على برهان من الله وبيان أنّ دين الإسلام حق وهو: دليل العقل ﴿ويتلوه﴾ ويتبع ذلك البرهان ﴿شاهد منه﴾ أي: شاهد يشهد بصحته وهو: القرآن ﴿منه﴾ من الله أو شاهد من القرآن فقد تقدّم ذكره

(1) سورة القصص، الآية: 50.

آنفًا ﴿ومن قبله﴾ ومن قبل القرآن ﴿كتاب موسى﴾ وهو: التوراة أي: ويتلو ذلك البرهان أيضًا من قبل القرآن كتاب موسى، وقرئ: كتاب موسى بالنصب، ومعناه: كان على بينة من ربه وهو: الدليل على أن القرآن حق ويتلوه ويقرأ القرآن شاهد منه، شاهد ممن كان على بينة كقوله: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾[1] ﴿قل كفى بالله شهيدًا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾[2] ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾[3] ويتلو من قبل القرآن التوراة ﴿إمامًا﴾ كتابًا مؤتمًا به في الدين قدوة فيه ﴿ورحمة﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم ﴿أولئك﴾ يعني: من كان على بينة ﴿يؤمنون به﴾ يؤمنون بالقرآن ﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾ يعني: أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله ﷺ ﴿فالنار موعده فلا تك في مرية﴾ وقرئ: مرية بالضم وهما الشك ﴿منه﴾ من القرآن، أو من الموعد.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾

﴿يعرضون على ربهم﴾ يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ويشهد عليهم ﴿الأشهاد﴾ من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولدًا وشريكًا ويقال ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ فواخزياه وافضيحتاه، والأشهاد جمع شاهد أو شهيد كأصحاب أو أشراف.

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ويبغونها عوجًا﴾ يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد. وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أي: ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم وهو من كلام الأشهاد ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ وقرئ: يضعف ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ أراد[4] أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم لا يستطيعون السمع، ولعل بعض المجبرة يتوثب إذا عثر عليه فيوعوع به على أهل العدل كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه، وهذا مما يمجه سمعي، ويحتمل أن يريد بقوله: وما كان لهم من أولياء أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله، وولايتها ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من أولياء، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله: ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ فكيف يصلحون للولاية وقوله: ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ اعتراض بوعيد.

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿خسروا أنفسهم﴾ اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه وهو أنهم خسروا أنفسهم ﴿وضل عنهم﴾ وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الآلهة وشفاعتها ﴿لا جرم﴾ فسر في مكان آخر ﴿هم الأخسرون﴾ لا ترى أحدًا أبين خسرانًا منهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿وأخبتوا إلى ربهم﴾ واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة ومنه قولهم للشيء الدنيء الخبيث قال:

ينفع الطيب القليل من الرز ق ولا ينفع الكثير الخبيث

وقيل: التاء فيه بدل من الثاء. شبه[5] فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو

---

(1) سورة الأحقاف، الآية: 10.

(2) سورة الرعد، الآية: 43.

(3) سورة هود، الآية: 17.

(4) قال أحمد: أهل الحق، وإن نفوا تأثير استطاعه العبد وخلصوا الخلق لقدرة الخالق عز وجل، فلا ينفون استطاعة العبد نفسها، ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية، وإنما الذي ينفي الاستطاعة جملة، هم المجبرة حقيقة لا أهل السنة والحق مع الزمخشري في هذا الموضع، إلا في غفلته حيث يقول، فيوعوع بها على أهل العدل، يعني: الآية المنكورة، وهذه سقطة عظيمة وهب أن المجبر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده، فكيف يستجيز أن يطلق على إيراده الآية وعوعة، وإنما تلا كتاب الله تعالى، غير أن خطاه في تصحيح = معتقده الباطل به، وما الزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الآداب للكتاب العزيز، وإنما يليق التسامح إذا كان يفسر شعر امرئ القيس، أو الحارث بن حلزة، وأمّا أدب القرآن، فيضيق عن أسهل من ذلك والله الموفق.

(5) قال أحمد: بخلافها على الوجه الأوّل، فإنها لعطف الموصوف على الموصوف، وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين، ففيه نظر فإنّ امرأ القيس، شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيهاً واحداً، والآية على التفسير الأوّل شبهت كلّ واحد من الكافر والمؤمن، تشبيهين وإنما ينظر ببيت امرئ القيس على الوجه الثاني، فإنّ مقتضاه، أنّ كلّ واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً، ولك في صفتين متعدّدتين والأمر في ذلك قريب، والله أعلم.

من اللف والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم أو الذي جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو في والأصمّ وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة كقوله:

الصابح فالغانم فالآيب

﴿هل يستويان﴾ يعني: الفريقين ﴿مثلاً﴾ تشبيهًا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾.

أي: أرسلنا نوحًا بأني لكم نذير ومعناه: أرسلناه ملتبسًا بهذا الكلام وهو قوله: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ بالكسر فلما اتصل به الجارّ فتح كما فتح في كأن والمعنى على الكسر وهو قولك: إنّ زيدًا كالأسد، وقرىء بالكسر على إرادة القول ﴿أن لا تعبدوا﴾ بدل من إني لكم نذير أي: أرسلناه بأن لا تعبدوا ﴿إلا الله﴾ أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير. وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه.

فإن قُلْتَ: فإذا وصف به العذاب قُلْتُ: مجازي مثله؛ لأنّ الأليم في الحقيقة هو: المعذب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم، وجدّ جدّه.

فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿الملأ﴾ الأشراف من قولهم: فلان مليء بكذا إذا كان مطيقًا له وقد ملؤا بالأمر؛ لأنهم ملؤا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وبتدبيرها، أو لأنهم يتمالؤن أي: يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم يملؤن القلوب هيبة والمجالس أبهة، أو لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة ﴿ما نراك إلا بشرًا مثلنا﴾ تعريض[1] بأنهم أحق منه بالنبوّة، وأنّ الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا: هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قولهم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكًا لا بشرًا. والأراذل جمع الأرذل كقوله: ﴿أكابر مجرميها﴾[2] أخاسنكم أخلاقًا. قرىء: بادي الرأي بالهمز وغير الهمز بمعنى اتبعوك أوّل الرأي، أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث أوّل رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم، فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه، أرادوا أنّ اتباعهم لك إنما هو شيء عن لهم بديهة من غير روية ونظر، وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية؛ لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زلّ عنهم أنّ التقدّم في الدنيا لا يقرب أحدًا من الله وإنما يبعده ولا يرفعه بل يضعه فضلاً أن يجعله سببًا في الاختيار للنبوة والتأهيل لها، على أنّ الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا مزهدين فيها مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله والتشرف بما هو ضعة عند الله ﴿من فضل﴾ من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ فيما تدعونه.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿أرايتم﴾ أخبروني ﴿إن كنتم على بينة﴾ على برهان ﴿من ربي﴾ وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ بإيتاء البينة على أنّ البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة وبالرحمة النبوّة.

فإن قُلْتَ: فقوله: ﴿فعميت﴾ ظاهر على الوجه الأوّل فما وجهه على الوجه الثاني وحقه أن يقال فعميتًا؟ قُلْتُ: الوجه أن يقدر فعميت بعد البينة وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة، ومعنى عميت خفيت، وقرىء: فعميت بمعنى: أخفيت، وفي قراءة أبيّ: فعماها عليكم.

فإن قُلْتَ: فما حقيقته؟ قُلْتُ: حقيقته أنّ الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى فعميت عليكم البينة فلم تهدكم كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد.

فإن قُلْتَ: فما معنى قراءة أبيّ؟ قُلْتُ: المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله وتصميمهم فجعلت تلك التخلية تعمية منه، والدليل عليه قوله ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ يعني: أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها وأنتم تكرهونها ولا تختارونها ولا إكراه في الدين، وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعًا ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً، كقوله: أنلزمكم إياها، ونحوه: ﴿فسيكفيكهم الله﴾[3] ويجوز فسيكفيك إياهم،

---

(1) قال أحمد: ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أوّل الرأي، ولكنه ترك الهمز استثقالاً، إلا أن يكون القارئ بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز، والمعنيان متقاربان، وقد زعم هؤلاء، أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين، أحدهما: أنّ المتبعين أراذل ليسوا قدوة ولا أسوة، والثاني: أنهم مع ذلك لم يترووا في اتباعه، ولا = أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة، ولا روية، وغرض هؤلاء، أن لا يقوم عليهم حجة، بأنّ منهم من صدّقه وآمن به، والله أعلم.

(2) سورة الأنعام، الآية: 123.

(3) سورة البقرة، الآية: 137.

وحكي عن أبي عمرو: إسكان الميم، ووجهه: أنّ الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة فظنها الراوي سكونًا والإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذّاق البصريين؛ لأنّ الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر.

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾.

والضمير في قوله: ﴿لا أسئلكم عليه﴾ راجع إلى قوله لهم: ﴿إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله﴾[1] وقرئ وما أنا بطارد الذين آمنوا بالتنوين على الأصل.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾؟ قُلْتُ: معناه أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به من بناء إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر وتفكر، وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون، ونحوه: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾[2] الآية، أهم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة ﴿تجهلون﴾ تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل من قوله:

ألا لا يجهلن أحد علينا

أو تجهلون لقاء ربكم، أو تجهلون أنهم خير منكم.

وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿من ينصرني من الله﴾ من يمنعني من انتقامه ﴿إن طردتهم﴾ وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به أنفة من أن يكونوا معهم على سواء.

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾.

﴿أعلم الغيب﴾ معطوف على ﴿عندي خزائن الله﴾ أي لا أقول عندي خزائن الله، ولا أقول أنا أعلم الغيب، ومعناه: لا أقول لكم عندي خزائن الله فأدعي فضلاً عليكم في الغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾[3] ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم ﴿ولا أقول إني ملك﴾ حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا. ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله ﴿لن يؤتيهم خيرًا﴾ في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه كما تقولون مساعدة لكم ونزولاً على هواكم ﴿إني إذا لمن الظالمين﴾ إن قلت شيئًا من ذلك. والازدراء افتعال من زري عليه إذا عابه وأزرى به قصر به يقال: ازدرته عينه واقتحمته عينه.

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾.

﴿جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ من العذاب المعجل.

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿إنما يأتيكم به الله﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إلي إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه ﴿إن شاء﴾ يعني إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فأكثرت جدلنا.

فإن قُلْتَ[4]: ما وجه ترادف هذين الشرطين؟ قُلْتُ: قوله: ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ جزاؤه ما دلّ عليه قوله: ﴿لا ينفعكم نصحي﴾ وهذا الدال في حكم ما دلّ عليه فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إن أحسنت إليّ أحسنت إليك إن أمكنني.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: إن كان الله يريد أن يغويكم؟ قُلْتُ: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه سمي ذلك: إغواء وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلطف به سمي: إرشادًا وهداية، وقيل: أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى إذا بشم فهلك ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر ألطافه كيف ينفعكم نصحي؟

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿فعلي إجرامي﴾ وإجرامي بلفظ المصدر والجمع كقوله: ﴿والله يعلم إسرارهم﴾[5] وإسرارهم ونحو جرم وإجرام قفل وإقفال وينصر الجمع أن فسره الأولون بآثامي

---

(1) سورة هود، الآيتان: 25 و26.

(2) سورة الأنعام، الآية: 52.

(3) سورة هود، الآية: 27.

(4) قال أحمد: ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء، قول القائل: أنت طالق إن شربت إن أكلت، وهي المترجمة بمسالة اعتراض الشرط على الشرط، والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت، لم = يحنث وإن أكلت ثم شربت حنث، وهذا الفرق مبناه على جعل الجزاء للشرط الآخر، أي: للذي يليه ثم جعلهما معاً جزاء للشرط المتوسط، ولذلك سر في العربية لا نطوّل بذكره، وعليه أعرب الزمخشري هذه الآية، كما رأيت، والله أعلم.

(5) سورة محمد، الآية: 26.

والمعنى: إن صح وثبت باني افتريته فعلي عقوبة إجرامي أي: افترائي وكان حقي حينئذٍ أن تقرضوا عني وتتالبوا علي ﴿وأنا بريء﴾ يعني: ولم يثبت نلك وأنا بريء منه، ومعنى ﴿مما تجرمون﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿لن يؤمن﴾ إقناط من إيمانهم وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع ﴿إلا من قد آمن﴾ إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن حزن بأس مستكين قال:

ما يقسم الله غير مبتئس منه واقعد كريماً ناعم البال

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم.

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿باعيننا﴾ في موضع الحال بمعنى: أصنعها محفوظًا، وحقيقته ملتبسًا باعيننا كأن لله معه أعينًا تكلؤه أن يزيغ في صنعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ﴿ووحينا﴾ وإنا نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع، عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه: أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿إنهم مغرقون﴾ إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب نلك وقضي به القضاء وجف القلم فلا سبيل إلى كفه كقوله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾[1].

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾.

﴿ويصنع الفلك﴾ حكاية حال ماضية ﴿سخروا منه﴾ ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية يهماء في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عزَّ الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاحكون ويقولون له: يا نوح صرت نجارًا بعد ما كنت نبيًا ﴿فإنا نسخر منكم﴾ يعني: في المستقبل ﴿كما تسخرون﴾ منا الساعة أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة، وقيل: إن تستجهلونا فيما نصنع فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرّض لسخط الله وعذابه فأنتم أولى بالاستجهال منا، أو إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم في استجهالكم؛ لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق، وروي: أنّ نوحًا عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا، وطولها في السماء ثلاثون ذراعًا، وكانت من خشب الساج، وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضًا بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفًا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة، وقيل: إنّ الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها؟ فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفًا من نلك التراب، فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: هذا كعب بن حام قال: فضرب الكثيب بعصاه، فقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى عليه السلام: هكذا أهلكت؟ قال: لا مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت، قال: حدّثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير، ثم قال له: عد بإذن الله كما كنت فعاد ترابًا.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾.

﴿من ياتيه﴾ في محل النصب بـ «تعلمون» أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه، ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق ﴿ويحل عليه﴾ حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه ﴿عذاب مقيم﴾ وهو عذاب الآخرة.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾.

﴿حتى﴾ هي التي يبتدأ بعدها الكلام دخلت على الجملة من الشرط والجزاء.

فإن قُلْتَ: وقعت غاية لماذا؟ قُلْتُ: لقوله: ﴿ويصنع الفلك﴾[2] أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قُلْتَ: فإذا اتصلت حتى بـ «يصنع» فما تصنع بـ «ما»

(1) سورة هود، الآية: 76.

(2) سورة هود، الآية: 38.

بينهما من الكلام؟ قُلْتُ: هو حال من يصنع كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه.

فإن قُلْتَ: فما جواب كلما؟ قُلْتُ: أنت بين أمرين إما أن تجعل سخروا جوابًا وقال استئنافًا على تقدير سؤال سائل، أو تجعل سخروا بدلاً من مرّ أو صفة لملأ وقال جوابًا ﴿وأهلك﴾ عطف على اثنين وكذلك ﴿ومن آمن﴾ يعني: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر لا لتقديره عليه وإرادته به تعالى الله عن ذلك.

قال الضحاك: أراد ابنه وامرأته ﴿إلا قليل﴾ روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كانوا ثمانية: نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم»[1] وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة وأولاد نوح: سام وحام ويافث ونساؤهم، فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال ونصفهم نساء، ويجوز أن يكون كلامًا واحدًا وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل بسم الله بـ «اركبوا» حالاً من الواو بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم ومقدّم الحاج، ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء وانتصابهما بما في بسم الله من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول. والكلامان: أن يكون بسم الله مجراها ومرساها جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها.

يروى: أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقحم الاسم[2] كقوله: ثم اسم السلام عليكما ويراد بالله إجراؤها وإرساؤها أي: بقدرته وأمره وقرئ: مجراها ومرساها بفتح الميم من جرى ورسى، إما مصدرين، أو وقتين، أو مكانين. وقرأ مجاهد: مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله.

فإن قُلْتَ: ما معنى قولك جملة مقتضبة؟ قُلْتُ: معناه: أن نوحًا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته، ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون في موضع الحال كقوله:

وجاؤنا بهم سكر علينا

فلا تكون كلامًا برأسه ولكن فضلة من فضلات الكلام الأوّل، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك كأنه قيل: اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله بمعنى: التقدير كقوله تعالى: ﴿ادخلوها خالدين﴾[3] ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجّاكم.

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله: ﴿وهي تجري بهم﴾؟ قُلْتُ: بمحذوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون بسم الله، وهي تجري بهم أي: تجري وهم فيها ﴿في موج كالجبال﴾ يريد موج الطوفان شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها.

فإن قُلْتَ: الموج ما يرتفع فوق الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما تسبح السمكة فما معنى جريها في الموج؟ قُلْتُ: كان ذلك قبل التطبيق وقبل أن يغمر الطوفان الجبال ألا ترى إلى قول ابنه: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ قيل: كان اسم ابنه كنعان وقيل: يام. وقرأ علي رضي الله عنه: ابنها والضمير لامرأته، وقرأ محمد بن علي، وعروة بن الزبير: ابنه بفتح الهاء يريد أن ابنها فاكتفيا بالفتحة عن الألف وبه ينصر مذهب الحسن، قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه ﴿إن ابني من أهلي﴾ وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب واستدل بقوله: ﴿من أهلي﴾ ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمّه وجهان: أحدهما: أن يكون ربيبًا له كعمر بن أبي سلمة لرسول الله ﷺ، وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام، وقرأ السدي: ونادى نوح ابناه على الندبة والترثي أي: قال: يا ابناه. والمعزل مفعل من عزله عنه إذا نحاه وأبعد يعني: وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين، وقيل: كان في معزل عن دين أبيه ﴿يا بني﴾ قرئ بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء بالإضافة، وبالفتح اقتصارًا عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك يا بنيا، أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين؛ لأنّ الراء بعدهما ساكنة ﴿إلا من رحم﴾[4] إلا الراحم وهو: الله تعالى، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أي: إلا مكان من رحم الله من المؤمنين وكان لهم غفورًا رحيمًا في قوله: ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ وذلك أنه لما جعل الجبل عاصمًا من الماء قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل

---

(1) قال الزيلعي: غريب، ورواه الطبري في تفسيره موقوفًا على قتادة، الزيلعي 2/146.

(2) قال أحمد: نفور من اعتقاد أنّ الاسم هو: المسمى، ولو اعتقد ذلك لما جعله مقحماً، والله أعلم.

(3) سورة الزمر، الآية: 73.

(4) قال أحمد: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم، ولا معصوم إلا مرحوم، ولا عاصم إلا مرحوم، ولا معصوم إلا راحم،=

= فالأولان استثناء من الجنس، والآخران من غير الجنس، وزاد الزمخشري خامساً، وهو: لا عاصم إلا مرحوم، على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم، والمراد بالنفي: التعريض بعدم عصمة الجبل، وبالثبت التعريض بعصمة السفينة، والكل جائز وبعضها أقرب من بعض، والله أعلم.

ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني: السفينة، وقيل: لا عاصم بمعنى: لاذا عصمة إلا من رحمه الله كقوله: ﴿ماء دافق﴾[1] و﴿عيشة راضية﴾[2] وقيل: ﴿إلا مَن رحم﴾ استثناء منقطع كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾[3] وقرئ: ﴿إلا مَن رُحم﴾ على البناء للمفعول.

وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾.

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص، والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: ﴿يا أرض﴾ و﴿يا سماء﴾ ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ابلعي ماءك﴾ و﴿اقلعي﴾ من الدلالة على الاقتدار العظيم وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء[4] مميزون قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء. والبلع عبارة عن: النشف. والإقلاع: الإمساك، يقال: أقلع المطر وأقلعت الحمى ﴿وغيض الماء﴾ من غاضه إذا نقضه ﴿وقضي الأمر﴾ وأنجز ما وعد الله نوحًا من هلاك قومه ﴿واستوت﴾ واستقرّت السفينة ﴿على الجودي﴾ وهو جبل بالموصل ﴿وقيل بعدًا﴾ يقال: بعد بعدًا وبعدًا إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر، وأنّ فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية، ورقصوا لها رؤوسهم لا لتجانس الكلمتين وهما قوله: ﴿ابلعي﴾ و﴿اقلعي﴾ وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور، وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرّت بهم على الجودي شهرًا، وهبط بهم يوم عاشوراء، وروي: أنها مرت بالبيت فطافت به سبعًا وقد أعتقه الله من الغرق، وروي أنّ نوحًا صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكرًا لله تعالى.

وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾.

نداؤه ربه دعاؤه له وهو قوله: رب مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله.

فإن **قُلْتَ**: فإذا كان النداء هو قوله: رب، فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء **قُلْتُ**: أريد بالنداء إرادة النداء ولو أريد النداء نفسه لجاء كما جاء قوله: ﴿إذ نادى ربه نداء خفيًا﴾[5] قال رب بغير فاء ﴿إن ابني من أهلي﴾ أي: بعض أهلي؛ لأنه كان ابنه من صلبه وكان ربيبًا له فهو بعض أهله ﴿وإن وعدك الحق﴾ وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي: ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾[6] أي: أعلم الحكام وأعدلهم؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، وربّ غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في

---

(1) سورة الطارق، الآية: 6.

(2) سورة الحاقة، الآية: 21 .

(3) سورة النساء، الآية: 157.

(4) قال أحمد: ومن هذا النمط في السكوت عن ذكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفراده بها، السكوت عن ذكر الأوصاف أحياناً اكتفاء بذكر الموصوف، لتبينه بها وتوحده فيها، وأنه متى ذكر مكانها بذكره في مثل قوله: ﴿وهو الله في السموات، وفي الأرض﴾ الآية، والمراد: وهو الله الموصوف بصفات الكمال المشهور بها في العالمين، ومنه:

أنا أبو النجم، وشعري شعري

ولقد تحيل الشعراء على التعلق بأذيال هذه المعاني اللطيفة، فقال أبو الطيب: يمدح عضد الدولة:

لا تحمدنها واحمدن هماما إذ لم يسم حامد سواكا

يعني: لا تمدح نفسك، فإنك المنفرد بالمدائح، حتى إذا ذكرت، ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك، لتفردك بها.

(5) سورة مريم، الآية: 3.

(6) قال أحمد: ثم حدّث بعد الزمخشري ترفع عن أقضى القضاة إلى قاضي القضاة، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى، أن الأولى تقتضي مشاركة القضاة، لأقضاهم في الوصف، وأن يزاد عليهم، فترفعوا أن يشركهم أحد في وصفهم ممن دونهم في المنصب، فعدلوا عما يشاركون فيه إلى ما ليس كذلك، فأفردوا رئيسهم بتلقيبه بقاضي القضاة، أي: هو الذي يقضي بين القضاة، ولا يشاركهم منهم أحد في وصفه، وجعلوا الذي يليه في الرتبة أقضى القضاة، إلا أنهم إنما يعنون قاضي قضاة زمانه، أو إقليمه، وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، أقضى قضاة الصحابة في زمانه، كما أطلقه عليه النبي ﷺ حيث قال: «أقضاكم علي». فدخل في المخاطبين القضاة وغيرهم، فلا حرج إن شاء الله أن يطلق على أعدل قضاة الزمان، أو الإقليم وأعلمهم قاضي القضاة، وأقضى القضاة، أي قضاة زمانه وبلده وكل قرن ناجم في زمن، فهو: شبيه زمن فيه بدأ هذا اللقب.

زمانك قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين، فاعتبر واستعبر. ويجوز أن يكون من الحكمة على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى النسبة، كما قيل: دارع من الدرع وحائض وطالق على مذهب الخليل.

قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾.

﴿إنه عمل غير صالح﴾ تعليل لانتفاء كونه من أهله وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأنّ نسيبك في دينك ومعتقدك من الأباعد في المنصب وإن كان حبشيًا وكنت قرشيًا لصيقك وخصيصك، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحمًا فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمّه كقولها:

فـإنـمـا هـي إقـبـال وإدبـار

وقيل: الضمير لنداء نوح أي إنّ نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك.

فإن قُلْتَ[1]: فهلا قيل: إنه عمل فاسد؟ قُلْتُ: لما نفاه عن أهله نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي وآذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإنّ هذا لما انتفي عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك، كقوله: ﴿كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا﴾[2] وقرئ: عمل غير صالح أي: عملاً غير صالح. وقرئ: فلا تسئلنّ بكسر النون بغير ياء الإضافة، وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء يعني: فلا تلتمس مني ملتمسًا أو التماسًا لا تعلم أصواب هو أم غير صواب حتى تقف على كنهه، وذكر المسألة دليل على أنّ النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه.

فإن قُلْتَ: لم سمي نداؤه سؤالاً ولا سؤال فيه؟ قُلْتُ: قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به؛ لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة ولده الغرق فقد استنجز. وجعل سؤالاً ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباوة ووعظة أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين.

فإن قُلْتَ[3]: قد وعده أن ينجي أهله وما كان عنده أن ابنه ليس منهم دينًا فلما أشفى على الغرق تشابه عليه الأمر؛ لأن العدة قد سبقت له وقد عرف الله حكيمًا لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد فطلب إماطة الشبهة، وطلب إماطة الشبهة واجب فلم زجر وسمي سؤاله جهلاً؟ قُلْتُ: إن الله عز وعلا قدّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه ﴿أن أسئلك﴾ من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته تأدبًا بأدبك واتعاظًا بموعظتك ﴿وإلا تغفر لي﴾ ما فرط مني من ذلك ﴿وترحمني﴾ بالتوبة عليّ ﴿أكن من الخاسرين﴾ أعمالاً.

قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾.

وقرئ: يا نوح اهبط بضم الباء ﴿بسلام منا﴾ مسلمًا محفوظًا من جهتنا أو مسلمًا عليك مكرمًا ﴿وبركات عليك﴾ ومباركًا عليك، والبركات الخيرات النامية، وقرئ: وبركة على التوحيد ﴿وعلى أمم ممن معك﴾ يحتمل أن تكون من للبيان فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم أمم؛ لأنّ الأمم تتشعب منهم، وأن تكون لابتداء الغاية أي: على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه، وقوله: ﴿وأمم﴾ رفع بالابتداء و﴿سنمتعهم﴾ صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم، وإنما حذف لأنّ قوله: ممن معك يدل عليه، والمعنى: أنّ السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك،

---

(1) قال أحمد: ولهذا المعنى، والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام: ﴿وأنذر عشيرتك الاقربين﴾، وإن كان مأموراً بالإنذار عن العموم، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الاتكال، والفتور عن العمل، خص أهله بالإنذار إيذاناً بذلك، والله أعلم، ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي ﷺ وقال: «إني لا أملك لكم من الله شيئاً»: أو قال ذلك لكل واحد منهم بخصوصه.

(2) سورة التحريم، الآية: 10.

(3) قال أحمد: وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه، ومعاتبته على ذلك، وليس الامر كما تخيله الزمخشري، ونحن نوضح الحق في الآية منزلاً على نصها، مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبته إليه، فنقول لما وعد نوح أوّلاً تنجية أهله، إلا من سبق عليه القول منهم، ولم يكن كاشفاً لحال ابنه المذكور، ولا = مطلعاً على باطن أمره، بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة، ولم يعارضها يقين في كفر ابنه، حتى يخرج من الاهل ويدخل في المستثنين، فسأل الله فيه بناء على ذلك، فتبين له أنه في علمه من المستثنين، وأنه هو لا علم له بذلك، فلذلك سأل فيه، وهذا بأن يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتباً، فإن نوحاً عليه السلام لا يكلفه الله علماً استأثر به غيباً، وأمّا قوله: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ فالمراد منه: النهي عن وقوع السؤال في المستقبل، بعد أن أعلمه الله باطن أمره، وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين، والغرض من ذلك تقديم ما يبقيه عليه السلام على سمة العصمة، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب، بل المقصد منها، أن لا يقع الذنب في الاستقبال، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك، واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهي عنه، والله أعلم.

وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة، وعن محمد بن كعب القرظي: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر. وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض، ثم أخرج منهم نسلاً منهم من رحم، ومنهم من عذب. وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم هود وصالح ولوط وشعيب.

تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿**تلك**﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ومحلها الرفع على الابتداء والجمل بعدها أخبار أي: تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك مجهولة عندك وعند قومك ﴿**من قبل هذا**﴾ من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها، أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي، أو من قبل هذا الوقت ﴿**فاصبر**﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح، وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قبض لنوح ولقومه ﴿**إن العاقبة**﴾ في الفوز والنصر والغلبة ﴿**للمتقين**﴾. وقوله: ﴿**ولا قومك**﴾ معناه: إنّ قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه فكيف برجل منهم، كما تقول: لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾.

﴿**أخاهم**﴾ واحدًا منهم وانتصابه للعطف على ﴿**أرسلنا نوحًا**﴾[1] و﴿**هودًا**﴾ عطف بيان و﴿**غيره**﴾ بالرفع صفة على محل الجار والمجرور، وقرئ: غيره بالجر صفة على اللفظ ﴿**إن أنتم إلا مفترون**﴾ تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء. ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأنّ شأنهم النصيحة والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم المطابع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع ﴿**أفلا تعقلون**﴾ إذ تردون نصيحة من لايطلب عليها أجرًا إلا من الله وهو: ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك.

وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾.

قيل: ﴿**استغفروا ربكم**﴾آمنوا به. ﴿**ثم توبوا إليه**﴾ من عبادة غيره؛ لأنّ التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان. والمدرار: الكثير الدرور كالمغزار، وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة؛ لأنّ القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات حراصًا عليها أشد الحرص فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين بما أوتوا من شدّة القوة والبطش والبأس والنجدة مستحرزين بها من العدوّ مهيبين في كل ناحية، وقيل: أراد القوة في المال، وقيل: القوّة على النكاح، وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أنه وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئًا لعلّ الله يرزقني ولدًا فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية، فقال: هلا سألته لِمَ قال ذلك؟ فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل. فقال: ألم تسمع قول هود عليه السلام: ﴿**ويزدكم قوّة إلى قوّتكم**﴾ وقول نوح عليه السلام: ﴿**ويمددكم بأموال وبنين**﴾[2] ﴿**ولا تتولوا**﴾ ولا تعرضوا عني وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه ﴿**مجرمين**﴾ مصرين على إجرامكم وآثامكم.

قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿**ما جئتنا ببينة**﴾ كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله ﷺ: ﴿**لولا أنزل عليه آية من ربه**﴾[3] مع فوت آياته الحصر ﴿**عن قولك**﴾ حال من الضمير في تاركي آلهتنا كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك: ﴿**وما نحن لك بمؤمنين**﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه إقناطًا له من الإجابة.

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾.

﴿**اعتراك**﴾ مفعول نقول وإلا لغو، والمعنى: ما نقول إلا قولنا: ﴿**اعتراك بعض آلهتنا بسوء**﴾ أي: خبلك ومسك بجنون لسبك إياها وصدك عنها وعداوتك لها مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذي بهذيان المبرسمين، وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خبلاً وجنونًا وهم عاد أعلام الكفر وأوتاد الشرك، وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنونًا والمنيب إلى ربه مخبلاً، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من الموادة، وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبى إلا أن ينبض، وضب من الزندقة أراد

---

(1) سورة هود، الآية: 25.

(2) سورة نوح، الآية: 12.

(3) سورة يونس، الآية: 20 .

أن يطلع رأسه، وقد دلت أجوبتهم المتقدّمة على أنّ القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد لا يبالون بالبهت ولا يلتفتون إلى النصح ولا تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب. من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمّة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبهم، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون﴾[1] أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد فيقول الرجل: الله شهيد على أني لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أني لا أفعله.

فإن قُلْتَ[2]: هلا قيل إني أُشهد الله وأشهدكم؟ **قُلْتُ**: لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: أشهد على أني لا أحبك تهكمًا به واستهانة بحاله ﴿مما تشركون * من دونه﴾ من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركون من آلهة من دونه أي: أنتم تجعلونها شركاء له ولم يجعلها هو شركاء ولم ينزل بذلك سلطانًا.

﴿فكيدوني جميعًا﴾ أنتم وآلهتكم اعجل ما تفعلون من غير إنظار فإني لا أبالي بكم وبكيدكم ولا أخاف معرّتكم وإن تعاونتم عليّ وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرّني آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها بأن تخبلني وتذهب بعقلي. ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم. من كون كل دابة في قبضته وملكته تحت قهره وسلطانه والأخذ بنواصيها تمثيل لذلك ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده معتصم به.

فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾.

﴿فإن تولوا﴾ فإن تتولوا.

فإن قُلْتَ: الإبلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزاء للشرط؟ **قُلْتُ**: معناه فإن تتولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ وكنتم محجوجين بأنّ ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول ﴿ويستخلف﴾ كلام مستأنف يريد ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿ولا تضرونه﴾ بتوليكم ﴿شيئًا﴾ من ضرر قط؛ لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع وإنما تضرون أنفسكم، وفي قراءة عبد الله: ويستخلف بالجزم وكذلك ولا تضروه عطفًا على محل فقد أبلغتكم، والمعنى: إن تتولوا يعذرني ويستخلف قومًا غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم ﴿على كل شيء حفيظ﴾ أي رقيب عليه مهيمن فما تخفي عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم، أو من كان رقيبًا على الأشياء كلها حافظًا لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار لم يضر مثله مثلكم.

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾.

﴿والذين آمنوا معه﴾ قيل: كانوا أربعة آلاف.

فإن قُلْتَ: ما معنى تكرير التنجية؟ **قُلْتُ**: ذكر أوّلاً أنه حين أهلك عدوّهم نجاهم ثم قال ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ بعث عليهم السموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضواً عضواً، وقيل: أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه وأشدّ. وقوله: ﴿برحمة منا﴾ يريد بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾.

﴿وتلك عاد﴾ إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال: سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾ لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ﴿لا نفرّق بين أحد من رسله﴾[3] قيل: لم يرسل إليهم إلا هود وحده ﴿كل جبار عنيد﴾ يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل ومعنى:اتباع أمرهم طاعتهم ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم عى وجوههم في عذاب الله و﴿ألا﴾ وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم

---

(1) سورة يونس، الآية: 71.

(2) قال أحمد: وتلخيص ما قاله أنّ صيغة الخبر لا تحتمل سوى الإخبار بوقوع الإشهاد منه، فلما كان إشهاده لله واقعاً محققاً عبر عنه بصيغة الخبر؛ لأنه إشهاد صحيح ثابت وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم، وقلة المبالاة به، وهو في مراده هذا المقام معهم، ويحتمل أن يكون إشهاده لهم= = حقيقة، والغرض إقامة الحجة عليهم وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر، للتمييز بين خطابه لله تعالى، وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجلّ وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر، والله الموفق للصواب.

(3) سورة البقرة، الآية: 285.

تهويل لأمرهم وتفظيع له وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم.

فإن قُلْتَ: ﴿بعدًا﴾ دعاء بالهلاك فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم؟ قُلْتُ: معناه: الدلالة على أنهم كانوا متساهلين له ألا ترى إلى قوله:

إخوتي لا تبعدوا أبدًا ... وبلى والله قد بعدوا

﴿قوم هود﴾ عطف بيان لعاد.

فإن قُلْتَ[1]: ما الفائدة في هذا البيان والبيان حاصل بدونه؟ قُلْتُ: الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسمًا وتجعل فيهم أمرًا محققًا لا شبهة فيه بوجه من الوجوه، ولأنّ عادًا عادان الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم، والأخرى إرم.

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾.

﴿هو أنشاكم من الأرض﴾ لم ينشئكم منها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره، وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب ﴿واستعمركم فيها﴾ وأمركم بالعمارة والعمارة متنوعة إلى واجب، وندب، ومباح، ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار وعمروا الأعمار الطوال مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي، وعن معاوية بن أبي سفيان: أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره، فقيل له فقال: ما حملني عليه إلا قول القائل:

ليس الفتى بفتىً لا يستضاء به ... ولا تكون له في الأرض آثار

وقيل: استعمركم من العمر، نحو استبقاكم من البقاء، وقد جعل من العمرى وفيه وجهان: أن يكون استعمر في معنى: أعمر كقولك: استهلكه في معنى أهلكه، ومعناه: أعمركم فيها دياركم ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم، والثاني: أن يكون بمعنى: جعلكم معمرين دياركم فيها؛ لأنّ الرجل إذا ورث داره من بعده فكأنما أعمره إياها؛ لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره ﴿قريب﴾ داني الرحمة سهل المطلب ﴿مجيب﴾ لمن دعاه وسأله.

قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾.

﴿فينا﴾ فيما بيننا ﴿مرجوًا﴾ كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجوك لننتفع بك وتكون مشاورًا في الأمور ومسترشدًا في التدابير، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك، وعن ابن عباس: فاضلاً خيرًا نقدمك على جميعنا، وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿يعبد آباؤنا﴾ حكاية حال ماضية ﴿مريب﴾ من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي: قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين، أو من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾.

قيل: ﴿إن كنت على بينة من ربي﴾ بحرف الشك وكان على يقين أنه على بينة؛ لأنّ خطابه للجاحدين فكأنه قال: قدروا أني على بينة من ربي وأني نبي على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعني من عذاب الله ﴿فما تزيدونني﴾ إذن حينئذٍ ﴿غير تخسير﴾ يعني: تخسرون أعمالي وتبطلونها، أو فما تزيدونني بما تقولون لي وتحملونني عليه غير أن أخسركم أي: أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم: إنكم خاسرون.

وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾.

﴿آية﴾ نصب على الحال قد عمل فيها ما دلّ عليه اسم الإشارة من معنى الفعل.

فإن قُلْتَ: فبم يتعلق ﴿لكم﴾؟ قُلْتُ: بآياته حالاً منها متقدمة؛ لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدمت انتصبت على الحال ﴿عذاب قريب﴾ عاجل لا يستأخر عن مسكم لها بسوء إلا يسيرًا، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم.

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾.

﴿تمتعوا﴾ استمتعوا بالعيش ﴿في داركم﴾ في بلدكم وتسمى البلاد الديار؛ لأنه يدار فيها أي: يتصرف يقال: ديار بكر لبلادهم، وتقول العرب الذين حوالي مكة: نحن من عرب الدار يريدون من عرب البلد، وقيل: في دار الدنيا، وقيل: عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت ﴿غير مكذوب﴾ غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به كقولك: يوم مشهود من قوله: ويوم شهدناه، أو على المجاز كأنه قيل للوعد: نفي بك، فإذا وفي به فقد صدق ولم يكذب، أو وعد غير كذب، على أنّ المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول وكالمصدوقة بمعنى الصدق.

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا

---

(1) قال أحمد: فيه أيضاً فائدتان جليلتان، إحداهما: النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على موجب الدعاء عليهم، وكأنه قيل: عاد قوم هود الذي كذبوه، والأخرى: تناسب الآي بذلك، فإن =

= قبلها واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وقبل ذلك حفيظ، وغليظ، وغير تلك مما هو على وزن فعيل المناسب، لفعلول في القوافي، والله أعلم.

وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾.

﴿ومن خزي يومئذ﴾ قرئ مفتوح الميم؛ لأنه مضاف إلى إذ وهو غير متمكن كقوله:

على حين عاتبت المشيب على الصبا

فإن **قُلْتَ**: علام عطف؟ **قُلْتُ**: على نجينا؛ لأن تقديره ونجيناهم من خزي يومئذٍ كما قال: **﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾**[1] على وكانت التنجية من خزي يومئذٍ أي: من ذله ومهانته وفضيحته ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه، ويجوز أن يريد بيومئذ: يوم القيامة، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة. وقرئ: ألا إن ثمود ولثمود كلاهما بالصرف وامتناعه، فالصرف للذهاب إلى الحي أو الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾.

﴿رسلنا﴾ يريد الملائكة، عن ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام وملكان معه، وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة، وعن السدي: أحد عشر **﴿بالبشرى﴾** هي: البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد **﴿سلامًا﴾** سلمنا عليك سلامًا **﴿سلام﴾** أمركم سلام، وقرئ: فقالوا سلمًا قال سلم بمعنى: السلام، وقيل: سلم وسلام كحرم وحرم وأنشد:

مررنا فقلنا إيه سلّم فسلمت كما اكتل بالبرق الغمام اللوائح

﴿فما لبث أن جاء﴾ فما لبث في المجيء به بل عجل فيه، أو فما لبث مجيئه. والعجل: ولد البقرة ويسمى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة، وكان مال إبراهيم عليه الصلاة والسلام البقر **﴿حنيذ﴾** مشوي بالرضف في أخدود، وقيل: حنيذ يقطر دسمه من حنذت الفرس إذا ألقيت عليه الجل حتى تقطر عرقًا ويدل عليه **﴿بعجل سمين﴾**[2].

فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾.

يقال: نكره وأنكره واستنكره ومنكور قليل فيكلامهم، وكذلك أنا أنكرك ولكن منكر ومستنكر وأنكرك، قال الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

قيل[3]: كان ينزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروهًا، وقيل: كانت عادتهم أنه إذا مسّ من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه، والظاهر أنه أحسّ بأنهم ملائكة ونكرهم؛ لأنه تخوّف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه. ألا ترى إلى قولهم: **﴿لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾** وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا **﴿فاوجس﴾**[4] فاضمر. وإنما قالوا لا تخف؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه، أو عرفوه بتعريف الله، أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف؛ لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب.

وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾.

﴿وامرأته قائمة﴾ قيل: كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم، وقيل: كانت قائمة على رؤسهم تخدمهم. وفي مصحف عبد الله: وامرأته قائمة وهو قاعد **﴿فضحكت﴾**[5] سرورًا بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث، أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد أظلهم العذاب، وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوطًا ابن أخيك إليك فإني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سرورًا لما أتى الأمر على ما توهمت، وقيل: فضحكت فحاضت، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي: فضحكت بفتح الحاء **﴿يعقوب﴾** رفع بالابتداء كانه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود أي: من بعده، وقيل: الوراء ولد الولد، وعن الشعبي أنه قيل له: أهذا ابنك؟ فقال: نعم من الوراء وكان ولد ولده. وقرئ: يعقوب بالنصب كانه قيل: ووهبنا لها إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب على طريقة قوله:

ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب

---

(1) سورة هود، الآية: 58.

(2) سورة الذاريات، الآية: 26.

(3) قال أحمد: وقد وردت في قصة إبراهيم هذه ثلاثة مواضع، هذا أحدها، وهو دال على أنه إنما أوجس منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة، وعدم علمه جاءوا الثاني في الحجر قوله: ونبئهم عن ضيف إبراهيم إلى قوله لا توجل إنا نبشرك، فلم يطمئنوا بإعلامه أنهم ملائكة، ولكن بأنهم مبشرون له، فدل على استشعارهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل مما جاءوا فيه الثالث في الذاريات، ﴿فاوجس منهم خيفة قالوا لا تخف، وبشروه﴾، فهو أيضاً كذلك، وأما لوط، فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ فأوّل ما أعلموا به أنهم رسل، فالفرق بين هذه الآية، وبين آي إبراهيم= مصداق؛ لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوطاً لم يعلم ذلك ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يعد على فراسته، أن يعلم أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام.

(4) قال أحمد: وهذا التأويل وهم فيه الزمخشري، والله أعلم؛ لأنهم إنما علموا خوفه ووجله بإخباره إياهم بذلك، ويدل عليه قوله تعالى في آية أخرى قال: ﴿إنا منكم وجلون قالوا لا توجل﴾ والقصة واحدة، والله الموفق للصواب.

(5) قال أحمد: ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد: ﴿يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾ فلو كان حيضها قبل بشارتها، لما تعجبت، إذ لا عجب في حمل من تحيض والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل، والله الموفق.

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾.

الألف في ﴿يا ويلتا﴾ مبدلة من ياء الإضافة وكذلك في يا لهفا ويا عجبا، وقرأ الحسن: يا ويلتي بالياء على الأصل و ﴿شيخًا﴾ نصب بما دل عليه اسم الإشارة، وقرئ: شيخ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هذا بعلي هو شيخ، أو بعلي بدل من المبتدأ وشيخ خبر، أو يكونان معًا خبرين. قيل: ولها ثمان وتسعون سنة وإبراهيم مائة وعشرون سنة ﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ أن يولد ولد من هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله، وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ﴿فقالوا أتعجبين من أمر الله﴾؛ لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوفر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوّة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أرادوا أنّ هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوّة فليست بمكان عجب. وأمر الله قدرته وحكمته، وقوله: ﴿رحمت الله وبركاته عليكم﴾ كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل: إياك والتعجب، فإنّ أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم، وقيل: الرحمة النبوّة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل؛ لأنّ الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم ﴿حميد﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده ﴿مجيد﴾ كريم كثير الإحسان إليهم. وأهل البيت نصب على النداء، أو على الاختصاص؛ لأنّ أهل البيت مدح لهم، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾.

﴿الروع﴾ ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملئ سرورًا بسبب البشرى بدل الغم فرغ للمجادلة.

فإن قلتَ: أين جواب لما؟ **قلتُ**: هو محذوف كما حذف في قوله: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا﴾[1] وقوله: ﴿يجادلنا﴾ كلام مستأنف دال على الجواب وتقديره اجترأ على خطابنا، أو فطن لمجادلتنا، أو قال: كيت وكيت. ثم ابتدأ فقال: يجادلنا في قوم لوط، قيل في يجادلنا: هو جواب لما وإنما جيء به مضارعًا لحكاية الحال، وقيل: إن لما تردّ المضارع إلى معنى الماضي، كما ترد إن الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل معناه: أخذ يجادلنا وأقبل يجادلنا والمعنى: يجادل رسلنا، ومجادلته إياهم أنهم قالوا: إنا مهلكوا أهل هذه القرية فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. حتى بلغ العشرة، قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم اتهلكونها؟ قالوا: لا. فعند ذلك ﴿قال إن فيها لوطًا قالوا نحن أعلم بمن فيها﴾ لننجينه وأهله[2]، ﴿في قوم لوط﴾ في معناهم، وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب، وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير، وقيل: كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان[3].

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾.

﴿إن إبراهيم لحليم﴾ غير عجول على كل من أساء إليه ﴿أواه﴾ كثير التأوه من الذنوب ﴿منيب﴾ تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة، فبين أنّ ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه.

يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾.

﴿يا إبراهيم﴾ على إرادة القول أي: قالت له الملائكة: ﴿أعرض عن هذا﴾ الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك فلا فائدة فيه ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ وهو قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة والعذاب نازل بالقوم لا محالة لا مردّ له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾.

كانت مساءة لوط وضيق ذرعه؛ لأنه حسب أنهم إنس فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم، وروي أنّ الله تعالى قال لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقًا بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرّ قرية في الأرض عملاً. يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته، فأخبرت بهم قومها. يقال يوم عصيب وعصوصب: إذا كان شديدًا من قولك: عصبه إذا شدّه.

وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ

(1) سورة يوسف، الآية: 15.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 32.

(3) رواه الطبراني في معجمه والبيهقي في دلائل النبوة وأبو نعيم في دلائل النبوة، (الزيلعي 2/146 ـ 147).

وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾.

﴿يهرعون﴾ يسرعون كانما يدفعون دفعًا ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها فضروا بها ومرنوا عليها وقل عندهم استقباحها، فلذلك جاؤا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء، وقيل معناه: وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك ﴿هؤلاء بناتي﴾ أراد أن يقي أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم، وأراد هؤلاء بناتي: فتزوّجوهنّ، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزًا، كما زوّج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص ابن وائل قبل الوحي وهما كافران، وقيل: كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوّجهما ابنتيه. وقرأ ابن مروان: هنّ أطهر لكم بالنصب، وضعفه سيبويه وقال: أحتبى ابن مروان في لحنه، وعن أبي عمرو بن العلاء: من قرأ: هنّ أطهر بالنصب فقد تربع في لحنه وذلك أن انتصابه على أن يجعل حالاً قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل كقوله: ﴿هذا بعلي شيخًا﴾[1] أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر كأنه قيل: خذوا هؤلاء وبناتي بدل ويعمل هذا المضمر في الحال وهنّ فصل وهذا لا يجوز؛ لأنّ الفصل مختص بالوقوع بين جزأي الجملة ولا يقع بين الحال وذي الحال، وقد خرج له وجه لا يكون هنّ فيه فصلاً وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ وبناتي هنّ جملة في موضع خبر المبتدأ كقولك: هذا أخي هو، ويكون أطهر حالاً ﴿فاتقوا الله﴾ بإيثارهنّ عليهم ﴿ولا تخزوني﴾ ولا تهينوني ولا تفضحوني من الخزي، أو ولا تخجلوني من الخزاية وهي: الحياء ﴿في ضيفي﴾ في حق ضيوفي فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل والكف عن السوء. وقرئ: ولا تخزون بطرح الياء، ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهارًا لشدّة امتعاضه مما أوردوا عليه، طمعًا في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك فيتركوا له ضيوفه، مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم ومن ثم ﴿قالوا لقد علمت﴾ مستشهدين بعلمه ﴿ما لنا في بناتك من حق﴾ لأنك لا ترى مناكحتنا وما هو إلا عرض سابري، وقيل: لما اتخذوا إتيان الذكران مذهبًا وبينًا لتواطؤهم عليه كان عندهم أنه هو الحق وأنّ نكاح الإناث من الباطل، فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط؛ لأنّ نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه، ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة والغرض نفي الشهوة ﴿لتعلم ما نريد﴾ عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾.

جواب لو محذوف كقوله تعالى: ﴿ولو أنّ قرآناً سيرت به الجبال﴾[2] يعني لو أنّ لي بكم قوّة لفعلت بكم وصنعت، يقال: ما لي به قوّة، وما لي به طاقة ونحوه: لا قبل لهم بها، وما لي به يدان؛ لأنه في معنى لا أضطلع به ولا أستقل به. والمعنى لو قويت عليكم بنفسي أو أويت إلى قويّ أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم، فشبه القويّ العزيز بالركن من الجبل في شدّته ومنعته، ولذلك قالت الملائكة وقد وجدت عليه: إنّ ركنك لشديد، وقال النبي ﷺ: «رحم الله أخي لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد»[3]. وقرئ: أو آوي بالنصب بإضمار أن، كأنه قيل: لو أن لي بكم قوّة أو أويًا كقولها:

للبس عباءة وتقرّ عيني

وقرئ: إلى ركن بضمتين، وروي: أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل يرادّهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فتسوّروا الجدار. فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد ﴿إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من درّ منظوم وهو براق الثنايا، فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم فأعماهم كما قال الله تعالى: ﴿فطمسنا أعينهم﴾[4] فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون: النجاء النجاء فإن في بيت لوط قومًا سحرة. ﴿لن يصلوا إليك﴾: جملة موضحة للتي قبلها؛ لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره. قرئ: فاسر بالقطع والوصل وإلا أمرأتك بالرفع والنصب، وروي: أنه قال لهم: متى وعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا ﴿أليس الصبح بقريب﴾ وقرئ: الصبح بضمتين.

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة من قرأ إلا امرأتك: بالنصب؟

---

(1) سورة هود، الآية: 72.

(2) سورة الرعد، الآية: 31.

(3) رواه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله «ولوطًا إذ قال لقومه...» (الحديث رقم: 3375) ومسلم كتاب: الفضائل، باب: من فضائل= إبراهيم الخليل ﷺ (الحديث رقم: 6094).

(4) سورة القمر، الآية: 37.

قُلْتُ: استثناها من قوله: ﴿فاسر باهلك﴾ والدليل عليه قراءة عبد الله فاسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك، ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت على أصل الاستثناء. وإن كان الفصيح هو البدل أعني: قراءة من قرأ: بالرفع فأبدلها عن أحد، وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي: أنه أخرجها معهم وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت: يا قوماه: فأدركها حجر فقتلها. وروي: أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فإن هواها إليهم فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ جعل جبريل جناحه في أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم واتبعوا الحجارة من فوقهم ﴿من سجيل﴾ قيل: هي كلمة معربة من سنككل بدليل قوله: ﴿حجارة من طين﴾[1] وقيل: هي من أسجله إذا أرسله؛ لأنها ترسل على الظالمين ويدل عليه قوله: ﴿لنرسل عليهم حجارة﴾[2] وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل وسجل لفلان ﴿منضود﴾ نضد في السماء نضدًا معدًا للعذاب وقيل: يرسل بعضه في أثر بعض متتابعًا ﴿مسومة﴾ معلمة للعذاب، وعن الحسن رضي الله عنه: كانت معلمة ببياض وحمرة، وقيل: عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض، وقيل: مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به ﴿وما هي﴾ من كل ظالم ببعيد، وفيه وعيد لأهل مكة، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام: «فقال: يعني ظالمي أمّتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة»[3] وقيل: الضمير للقرى أي: هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسايرهم ﴿ببعيد﴾ بشيء بعيد، ويجوز أن يراد وما هي بمكان بعيد؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوقًا بالمرمى فكأنها بمكان قريب منه.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿إني أراكم بخير﴾ يريد بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾[4] ﴿يوم محيط﴾ مهلك من قوله: ﴿وأحيط بثمره﴾[5] وأصله من إحاطة العدو.

فإن قُلْتَ: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها؟ قُلْتُ: بل وصف اليوم بها؛ لأنّ اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه.

فإن قُلْتَ[6]: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله: ﴿أوفوا﴾؟ قُلْتُ: نهوا أوّلاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأنّ في التصريح بالقبيح نعيًا على المنهي وتعبيرًا له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحًا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجيء به مقيدًا بالقسط أي: ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان أمرًا بما هو الواجب؛ لأنّ ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه، وفيه توقيف على أنّ الموفي عليه أن ينوي بالوفاء القسط؛ لأنّ الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل، فهذه ثلاث فوائد. البخس: الهضم والنقص ويقال للمكس: البخس. قال زهير:

وفي كل ما باع امرؤ بخس درهم

وروي مكس درهم، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئًا كما تفعل السماسرة، أو كانوا يمكسون الناس، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك. والعثي في الأرض نحو السرقة والغارة وقطع السبيل، ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثيًا منهم في الأرض.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿بقيت الله﴾[7] ما بقي لكم من الجلال بعد التنزه عما هو حرامٌ عليكم ﴿خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ بشرط أن تؤمنوا، وإنما خوطبوا بترك التطفيف والبخس والفساد في الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان.

فإن قُلْتَ[8]: بقية الله خير للكفرة؛ لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف فلم شرط الإيمان؟ قُلْتُ: لظهور

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 33.

(2) سورة الذاريات، الآية: 33.

(3) قال الزيلعي: غريب، وأخرجه الثعلبي من غير سند 2/148.

(4) سورة غافر، الآية: 29.

(5) سورة الكهف، الآية: 42.

(6) قال أحمد: ولمن قال: إنّ الأمر بالشيء ليس نهياً عن ضدّه، أن يستدل بهذه الآية؛ فإنّ الأمر لو كان عين النهي عن الضد، لكان وروده عقيبه تكراراً، وفي كلام الزمخشري ما يدل على أنه وهم، فاعتقد أنّ النهي في الآية قبل الأمر، وذلك سهو وغفلة، وكل = مأخوذ من قوله ومتروك، إلا المعصوم، وأمّا قوله: أنّ الإيفاء حسن في العقول، فتفريع على قاعدة التحسين والتقبيح، وقد سبق بطلانها، وبينا أنّ التحسين والتقبيح موظفان من الشرع، ولا مجال للعقل في حكم سمعي.

(7) قال أحمد: المنقول عن المعتزلة، أنّ الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة، لا نهياً، ولا أمراً، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهي، وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون في حال الكفر، بشرط الإيمان، وقد قررها الزمخشري على ذلك.

(8) قال أحمد: وهذا أيضاً من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها، =

فائدتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، وخفاء فائدتها مع فقده لانغماس صاحبها في غمرات الكفر، وفي ذلك استعظام للإيمان وتنبيه على جلالة شأنه، ويجوز أن يراد إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح به إياكم[1]، ويجوز أن يراد ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير لكم كقوله: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك﴾[2] وإضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه، وأمّا الحرام فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقًا، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول: طاعة الله وقرئ: تقية الله بالتاء، وهي تقواه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما بعثت مبلغًا ومنبهًا على الخير وناصحًا، وقد أعذرت حين أنذرت.

قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾.

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا فقصدوا بقولهم ﴿أصلواتك تأمرك﴾ السخرية والهزء، والصلاة وإن جاز أن تكون آمرة على طريق المجاز كما كانت ناهية في قوله: ﴿إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[3] وأن يقال: إنّ الصلاة تأمر بالجميل والمعروف كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه، إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به آمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان ووسوسة شيطان وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال[4]. ومعنى تأمرك ﴿أن نترك﴾ تأمرك بتكليف أن نترك ﴿ما يعبد آباؤنا﴾ فحذف المضاف الذي هو التكليف لأنّ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره. وقرئ: أصلاتك بالتوحيد. وقرأ ابن أبي عبلة: أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء بتاء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير، وقيل: كان ينهاهم عن حذف الدراهم والدنانير وتقطيعها، وأرادوا بقولهم: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ نسبته إلى غاية السفه والغيّ فعكسوا ليتهكموا به كما يتهكم بالشحيح الذي لا يبضّ حجره فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك، وقيل معناه: إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أنّ ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾.

﴿ورزقني منه﴾ اي من لدنه ﴿رزقًا حسنًا﴾ وهو ما رزقه من النبوّة والحكمة وقيل: رزقًا حسنًا حلالاً طيبًا من غير بخس ولا تطفيف.

فإن قُلْتَ: أين جواب أرأيتم؟ وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح ولوط؟ قُلْتُ: جوابه محذوف، وإنما لم يثبت لأنّ إثباته في القصتين دلّ على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه، والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربي وكنت نبيًا على الحقيقة، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك. يقال: خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولٍ عنه، وخالفني عنه إذا ولي عنه وأنت قاصده، ويلقاك الرجل صادرًا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول: خالفني إلى الماء يريد أنه قد ذهب إليه واردًا وأنا ذاهب عنه صادرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ يعني: أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لا أستبدّ بها دونكم ﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ﴿وما استطعت﴾[5] ظرف أي: مدّة استطاعتي

= ومعنى السؤال: أنّ الكفار إذا قدرنا خطابهم بالفروع، انتفعوا باجتناب المنهيات في الدار الآخرة؛ لأن ثمرة الخلاف في مسألة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة، وإذا كانوا ينتفعون بذلك، فلا معنى لاشتراط الإيمان، والحال مع وجوده وعدمه في الانتفاع بالامتثال سواء. ومعنى الجواب: أن ظهور الانتفاع بالامتثال، إنما يتحقق مع الإيمان، وأما مع الكفر، فهم مخلدون في العذاب، فإنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق مأمن العذاب، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وقد تقدّم أنّ عقيدة أهل السنة: أن لا خالق ولا رازق إلا الله، إيماناً بقوله: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم﴾ وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقداً أو حقيقة، وأمّا إطلاق القول بإضافته على الخصوص إلى الله تعالى، فأمر خارج عن الاعتقاد، راجع إلى الاتباع، والله الموفق.

(2) سورة الكهف، الآية: 46.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 45.

(4) قال أحمد: فعلى هذه القراءة يكون: أن نفعل، معطوفاً على أن نترك، وعلى المشهور لا يجوز ذلك، والله أعلم لاستحالة المعنى، فيتعين العطف فيها على ما يعبد، كأنهم قالوا: أصلواتك تأمرك أن نترك عبادة آبائنا، أو معبود آبائنا، على أنها مصدرية أو موصولة، ثم قالوا: أو أن نفعل، أي: أو أن نترك فعلنا في أموالنا ما نشاء، هذه لطيفة فتنبه لها، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره تأمرك بتكليف أن نترك، واحتجاجه لذلك بأنّ الإنسان لا يؤمر بفعل غيره إذاً، والمسألة فرع من فروع خلق الأفعال، ومع ذلك كله، فتقدير المضاف في الآية متوجه ليس بناء على القراءة المنكورة، ولكن لأن عرف التخاطب في مثله يقتضي ذلك، والله أعلم.

(5) قال أحمد: والظاهر أنه ظرف، كهو في قوله: فاتقوا الله ما استطعتم، وأمّا جعله مفعولاً للمصدر، وقد عرف بالألف واللام

للإصلاح وما دمت متمكنًا منه لا آلو فيه جهدًا، أو بدل من الإصلاح أي: المقدار الذي استطعته منه، ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت، أو مفعول له كقوله:

ضعيف النكاية أعداءه

أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ وما كوني موفقًا لإصابة الحق فيما آتي وأذر ووقوعه موافقًا لرضا الله إلا بمعونته وتأييده، والمعنى: أنه استوفق ربه في إمضاء الأمر على سننه وطلب منه التأييد والإظهار على عدوّه، وفي ضمنه تهديد للكفار وحسم لأطماعهم فيه.

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾.

جرم مثل كسب في تعديه إلى مفعول واحد وإلى مفعولين، تقول: جرم ذنبًا وكسبه، وجرمته ذنبًا وكسبته إياه، قال:

جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

ومنه قوله تعالى: ﴿لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم﴾ أي: لا يكسبنكم شقاقي إصابة العذاب، وقرأ ابن كثير: بضم الياء من أجرمته ذنبًا إذا جعلته جارمًا له أي: كاسبًا، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد كما نقل: أكسبه المال من كسب المال، وكما لا فرق بين كسبته مالاً وأكسبته إياه، فكذلك لا فرق بين جرمته ذنبًا وأجرمته إياه، والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما إلا أن المشهورة أفصح لفظًا كما إن كسبته مالاً أفصح من أكسبته، والمراد بالفصاحة: أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدورُ وهم له أكثر استعمالاً. وقرأ أبو حيوة: ورويت عن نافع: مثل ما أصاب بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كقوله:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ يعني: أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم فهم أقرب الهالكين منكم، أو لا يبعدون منكم في الكفر والمساوي وما يستحق به الهلاك.

فإن قُلْتَ: ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه؟ قُلْتُ: إما أن يراد وما إهلاكهم ببعيد، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان، أو مكان بعيد ويجوز أن يسوى في قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والبهيق ونحوهما.

وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾.

﴿رحيم ودود﴾ عظيم الرحمة للتائبين فاعل بهم ما يفعل البليغ. والمودّة بمن يودّه من الإحسان والإجمال ﴿ما نفقه﴾ ما نفهم ﴿كثيرًا مما تقول﴾ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له كقوله: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾[1] أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه فكأنهم لم يفقهوه، أو قالوا ذلك على وجه الاستهانة به كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول، أو جعلوا كلامه هذيانًا وتخليطًا لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان ألثغ[2] ﴿فينا ضعيفًا﴾ لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهًا، وعن الحسن: ضعيفًا مهينًا، وقيل: ضعيفًا أعمى، وحمير تسمي المكفوف: ضعيفًا، كما يسمى ضريرًا، وليس بسديد لأنّ فينا يأباه ألا ترى أنه لو قيل: إنا لنراك فينا أعمى لم يكن كلامًا؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم ولذلك قللوا قومه حيث جعلوهم رهطًا. والرهط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة، وإنما قالوا: ولولاهم احترامًا لهم واعتدادًا بهم لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفًا من شوكتهم وعزتهم ﴿لرجمناك﴾ لقتلناك شر قتلة ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أي: لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم، وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي أنّ الكلام واقع في الفعل لا في الفعل؛ كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا، ولذلك قال في جوابهم: ﴿أرهطي أعز عليكم من الله﴾ ولو قيل: وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب.

فإن قُلْتَ: فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح قوله: ﴿أرهطي أعز عليكم من الله﴾؟ قُلْتُ: تهاونهم به وهو نبي الله، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[3] ﴿واتخذتموه وراءكم ظهريًا﴾ ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به، والظهري منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس: أمسيّ

= فبعيد؛ لأنّ إعمال المصدر المعرّف في المفعول الصريح ليس بذاك، قالوا: ولم يوجد في القرآن عاملاً في مفعول صريح، ولا في غيره، إلا في قوله: لا يحب الله الجهر بالسوء، فأعمله في الجار والعدول عن إقفاء الإعراب إلى وجوهه، وهي ممكنة عتيدة متعين، خصوصاً في أفصح الكلام، والله أعلم.

(1) سورة الأنعام، الآية: 25.

(2) قال أحمد: وهذا من محاسن نكتة الدالة على أنه كان ملياً بالحذاقة في علم البيان، والله المستعان.

(3) سورة النساء، الآية: 80.

﴿بما تعملون محيط﴾ قد أحاط بأعمالكم علمًا فلا يخفى عليه شيء منها.

وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾.

﴿على مكانتكم﴾ لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة، أو تكون مصدرًا من مكن مكانة فهو مكين، والمعنى: اعملوا قارين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي، أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها ﴿إني عامل﴾ على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني ﴿من يأتيه﴾ يجوز أن تكون من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه، وأينا هو كاذب. وأن تكون موصولة قد عمل فيها كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في ﴿سوف تعلمون﴾؟ قُلْتُ: إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا: فما ذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون. فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه ﴿وارتقبوا﴾ وانتظروا العاقبة وما أقول لكم ﴿إني معكم رقيب﴾ أي: منتظر، والرقيب بمعنى: الراقب من رقبه، كالضريب والصريم بمعنى: الضارب والصارم، أو بمعنى: المراقب كالعشير والنديم، أو بمعنى: المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع.

فإن قُلْتَ[1]: قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان القياس أن يقول من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم؟ قُلْتُ: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذبًا قال: من هو كاذب يعني: في زعمكم ودعواكم تجهيلاً لهم.

فإن قُلْتَ: ما بال ساقتي قصة عاد وقصة مدين جاءتا بالواو، والساقتان الوسطيان بالفاء؟ قُلْتُ: قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد وذلك قوله: ﴿إن موعدهم الصبح﴾[2] ﴿ذلك وعد غير مكذوب﴾[3] فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت، وأما الأخريان: فلم تقعا بتلك المثابة وإنما وقعتا مبتدأتين فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة. الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم كاللابد يعني: أنّ جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصا ﴿كأن لم يغنوا﴾ كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين. البعد بمعنى: البعد وهو: الهلاك كالرشد بمعنى: الرشد ألا ترى إلى قوله: ﴿كما بعدت﴾ وقرأ السلمي: بعدت بضم العين والمعنى: في البناءين واحد وهو نقيض القرب، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره فغيروا البناء كما فرقوا بين ضماني الخير والشر فقالوا: وعد وأوعد، وقراءة السلمي: جاءت على الأصل اعتبارًا لمعنى البعد من غير تخصيص كما يقال: ذهب فلان ومضى في معنى الموت، وقيل: معناه بعدًا لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾.

﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾ فيه وجهان: أن يراد أنّ هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوّته، وأن يراد: بالسلطان المبين العصا لأنها أبهرها ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره

(1) قال أحمد: والظاهر والله أعلم أنّ الكلامين جميعاً لهم، فالأوّل وهو قوله: ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ مضمن ذكر جرمهم الذي يجازون به، وهو: الكذب. ويكون من باب عطف الصفة على الصفة، والموصوف واحد، كما تقول لمن تهدده: ستعلم من يهان ومن يعاقب، وإنما يعني المخاطب في الكلامين، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم، لم يخل ذلك من دلالة على ذكر عاقبته هو، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلاً، فالآخر هو المحق قطعاً، فذكره لإحدى العاقبتين صريحاً، يفهم ذكر الأخرى تعريضاً، والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح، وهذا منه، والذي يدل على أنّ الكلامين لهما، وأنّ عاقبة أمر شعيب لم تذكر استغناء عنها بذكر عاقبتهم، كما بيناه في الآية التي في أوّل هذه السورة، وهي قوله تعالى: ﴿قال إن تسخروا منا فإنّا نسخر= منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ ألا تراه كيف اكتفى بذلك عن أن يقول: ومن هو على خلاف ذلك، وكذلك قوله في سورة الأنعام: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ فذكر هناك أيضاً إحدى العاقبتين، لأنّ المراد بهذه العاقبة: عاقبة الخير، ومتى أطلقت فلا يعني إلا ذلك، كقوله: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ واستغنى عن ذكر مقابلتها، والله أعلم. فتأمّل هذا الفصل، فإنه تحفة لمن همه نظم درر الكتاب العزيز، وضم بعضها إلى بعض، والله الموفق للصواب.

(2) سورة هود، الآية: 81.

(3) سورة هود، الآية: 65.

وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل، وذلك أنه ادّعى الإلهية وهو بشر مثلهم وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتًا وأفعالاً، فاتبعوه وسلموا له دعواه وتتابعوا على طاعته، والأمر الرشيد الذي فيه رشد أي: وما في أمره رشد إنما هو غيّ صريح وضلال ظاهر مكشوف وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم لا من يضلهم ويغويهم، وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام وعلموا أن معه الرشد والحق ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط ﴿يقدم قومه﴾ أي: كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه، ويجوز أن يريد بقوله: ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله: ﴿يقدم قومه﴾ تفسيرًا لذلك وإيضاحًا أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته، والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضى، كما استعمل الغي في كل ما يذم ويتسخط، ويقال قدمه بمعنى تقدّمه، ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدّمه، ومنه: مقدّمة الجيش، وأقدم بمعنى تقدّم، ومنه: مقدّم العين.

فإن قُلْتَ: هلا قيل يقدم قومه فيوردهم ولم جيء بلفظ الماضي؟ **قُلْتُ:** لأنّ الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به فكأنه قيل: يقدّمهم فيوردهم النار لا محالة و ﴿الورد﴾ و ﴿المورود﴾ الذي وردوه شبه بالفارط الذي يتقدّم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بئس الورد الذي يردونه النار؛ لأنّ الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار ضدّه ﴿واتبعوا في هذه﴾ في هذه الدنيا ﴿لعنة﴾ أي: يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة ﴿بئس الرفد المرفود﴾ رفدهم أي: بئس العون المعان، وذلك أنّ اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له وقد رفدت باللعنة في الآخرة وقيل: بئس العطاء المعطى.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾.

﴿ذلك﴾ مبتدأ ﴿من أنباء القرى نقصه عليك﴾ خبر بعد خبر أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك ﴿منها﴾ الضمير للقرى أي: بعضها باق وبعضها عافي الأثر كالزرع القائم على ساقه والذي حصد.

فإن قُلْتَ: ما محل هذه الجملة؟ **قُلْتُ:** هي مستأنفة لا محل لها ﴿وما ظلمناهم﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بارتكاب ما به أهلكوا ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله ﴿يدعون﴾ يعبدون، وهي حكاية حال ماضية و ﴿لما﴾ منصوب بما أغنت ﴿أمر ربك﴾ عذابه ونقمته ﴿تتبيب﴾ تخسير يقال: تبَّ إذا خسر، وتببه غيره إذا أوقعه في الخسران.

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾.

محل الكاف الرفع تقديره ومثل ذلك الأخذ ﴿أخذ ربك﴾ والنصب فيمن قرأ: وكذلك أخذ ربك بلفظ الفعل. وقرئ: إذ أخذ القرى ﴿وهي ظالمة﴾ حال من القرى ﴿أليم شديد﴾ وجيع صعب على المأخوذ، وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه، فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال.

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم ﴿لآية لمن خاف﴾ لعبرة له؛ لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدّته اعتبر به عظم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفًا في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى ونحوه: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾[1] ﴿ذلك﴾ إشارة إلى يوم القيامة؛ لأنّ عذاب الآخرة دلّ عليه و ﴿الناس﴾ رفع باسم المفعول الذي هو مجموع كما يرفع بفعله إذا قلت: يجمع له الناس.

فإن قُلْتَ: لأي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله[2]؟ **قُلْتُ:** لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بدّ من أن يكون ميعادًا مضروبًا لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضًا لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه، ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾[3] تعثر على صحة ما قلت لك، ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب، ﴿يوم مشهود﴾[4] مشهود فيه، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به كقوله:

ويوم شهدنا سليمًا وعامرًا

أي: يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد، والمراد بالمشهود الذي كثر شاهدوه، ومنه قولهم: لفلان

---

(1) سورة النازعات، الآية: 26.

(2) قال أحمد: ولهذا السر ورد قوله تعالى: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة﴾ فاستعمل الفعل حيث يليق به، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضاً إلخ.

(3) سورة التغابن، الآية: 9.

(4) قال أحمد: يكون المشهود الذي هو المفعول به، مسكوتاً عنه، مبهماً، ومن الإبهام ما يكون، وتفخيماً، وهذا مكانه.

مجلس مشهود وطعام محضور، قال:

في محفل من نواصي الناس مشهود

فإن قُلْتَ: فما منعك أن تجعل اليوم مشهودًا في نفسه دون أن تجعله مشهودًا فيه؟ كما قال الله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾[1] قُلْتُ: للغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهودًا في نفسه فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهودًا فيه حتى يحصل التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهودًا فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهودًا في نفسه؛ لأنّ سائر أيام الأسبوع مثله يشهدها كل من يشهده. وكذلك قوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾[2] الشهر منتصب ظرفًا لا مفعولاً به، وكذلك الضمير في فليصمه والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه يعني: فمن كان منكم مقيمًا حاضرًا لوطنه في شهر رمضان فليصم فيه، ولو نصبته مفعولاً فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر لا يشهده المقيم ويغيب عنه المسافر.

وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾.

الأجل: يطلق على مدّة التأجيل كلها وعلى منتهاها فيقولون: انتهى الأجل وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل، فإذا جاء أجلهم يراد: آخر مدّة التأجيل والعد إنما هو: للمدة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ إلا لانتهاء مدّة معدودة بحذف المضاف وقرئ: وما يؤخره بالياء. قرئ: يوم يأت بغير ياء ونحوه قولهم: لا أدر حكاه الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاحتراز عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل.

فإن قُلْتَ: فاعل يأتي ما هو؟ قُلْتُ: الله عزّ وجلّ كقوله: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله﴾[3] ﴿ويأتي ربك﴾[4] ﴿وجاء ربك﴾[5] وتعضده قراءة من قرأ: وما يؤخره بالياء، وقوله: ﴿بإذنه﴾ ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم كقوله تعالى: ﴿أو تأتيهم الساعة﴾[6].

فإن قُلْتَ: بما انتصب الظرف؟ قُلْتُ: إمّا أن ينتصب بلا تكلم، وإمّا بإضمار اذكر، وإمّا بالانتهاء المحذوف في قوله: ﴿إلا لأجل معدود﴾ أي: ينتهي الأجل يوم يأتي.

فإن قُلْتَ: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم فقد جعلت اليوم وقتًا لإتيان اليوم وحدّدت الشيء بنفسه؟ قُلْتُ: المراد إتيان هوله وشدائده ﴿لا تكلم﴾ لا تتكلم وهو نظير قوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾[7].

فإن قُلْتَ: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾[8] وقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾[9] قُلْتُ: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ﴿فمنهم﴾ الضمير لأهل الموقف ولم يذكروا لأن ذلك معلوم ولأن قوله: ﴿لا تكلم نفس﴾ يدل عليه وقد مرّ ذكر الناس في قوله: ﴿مجموع له الناس﴾[10] والشقي الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة لإحسانه.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

قراءة العامّة بفتح الشين، وعن الحسن: شقوا بالضم، كما قرئ: سعدوا. والزفير إخراج النفس. والشهيق ردّه قال الشماخ:

بعيد مدى التطريب أوّل صوته زفير ويتلوه شهيق محشرج

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾.

﴿ما دامت السموات والأرض﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن تراد سموات الآخرة وأرضها هي دائمة مخلوقة للأبد، والدليل على أن لها سموات وأرضًا قوله تعالى: ﴿يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات﴾[11] وقوله: ﴿وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء﴾[12] ولأنه لا بدّ لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم إمّا سماء يخلقها الله، أو يظلهم العرش وكل ما أظلك فهو سماء، والثاني: أن يكون عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأبيد.

فإن قُلْتَ: فما معنى الاستثناء في قوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟ قُلْتُ: هو: استثناء من الخلود في عذاب النار ومن الخلود في نعيم الجنة، وذلك أنّ أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب

(1) سورة البقرة، الآية: 185.
(2) سورة البقرة، الآية: 185.
(3) سورة البقرة، الآية: 210.
(4) سورة الأنعام، الآية: 158.
(5) سورة الفجر، الآية: 22.
(6) سورة يوسف، الآية: 107.
(7) سورة النبأ، الآية: 38.
(8) سورة النحل، الآية: 111.
(9) سورة المرسلات، الآيتان: 35 و36.
(10) سورة هود، الآية: 103.
(11) سورة إبراهيم، الآية: 48.
(12) سورة الزمر، الآية: 74.

سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعًا منهم وهو رضوان الله كما قال: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر﴾[1] ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو فهو المراد بالاستثناء والدليل عليه قوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾[2] ومعنى قوله في مقابلته ﴿إنّ ربك فعال لما يريد﴾ أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمّله فإنّ القرآن يفسر بعضه بعضًا ولا يخدعنك عنه قول المجبرة[3]: إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل باقترائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روي لهم بعض النوابت عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد[4] وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا. وقد بلغني أن من الضلال من اغترّ بهذا الحديث فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار. وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه وتنبيهًا على أن نعقل عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص فمعناه: أنهم يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير، فذلك خلو جهنم وصفق أبوابها، وأقول ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث ﴿غير مجذوذ﴾ غير مقطوع ولكنه ممتد إلى غير نهاية كقوله: ﴿لهم أجر غير ممنون﴾[5].

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾.

لما قصّ قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحلّ به من نقمه وما أعد لهم من عذابه قال: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أي: فلا تشك بعدما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرّضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم، تسلية لرسول الله ﷺ وعدة بالانتقام منهم ووعيدًا لهم ثم قال: ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلنّ بهم مثله، وهو استئناف معناه: تعليل النهي عن المرية وما في ﴿مما﴾ وكما يجوز أن تكون: مصدرية وموصولة أي: من عبادتهم وكعبادتهم، أو مما يعبدون من الأوثان ومثل ما يعبدون منها ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم﴾[6] أي: حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم أنصباءهم.

فإن قُلْتَ: كيف نصب ﴿غير منقوص﴾ حالاً عن النصيب الموفى؟ قُلْتُ: يجوز أن يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل، ألا تراك تقول: وفيته شطر حقه وثلث حقه وحقه كاملاً وناقصًا.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾.

﴿فاختلف فيه﴾ آمن به قوم، وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن ﴿ولولا كلمة﴾ يعني: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ بين قوم موسى أو قومك، وهذه من جملة التسلية أيضًا ﴿وإن كلاً﴾ التنوين عوض من المضاف إليه يعني وإنّ كلهم وإنّ جميع المختلفين فيه ﴿ليوفينهم﴾ جواب قسم محذوف. واللام في لما موطئة للقسم وما مزيدة والمعنى: وإنّ جميعهم والله ليوفينهم ﴿ربك أعمالهم﴾ من حسن وقبيح وإيمان وجحود، وقرئ: وإنْ كلاً بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة اعتبارًا لأصلها الذي هو التثقيل، وقرأ أبيّ: وإن كل لما ليوفينهم على أنّ إن نافية ولما بمعنى: إلا وقراءة عبد الله مفسرة لها؛ وإن كل إلا ليوفينهم، وقرأ الزهري، وسليمان بن أرقم: وإن كلاً لما ليوفينهم بالتنوين كقوله: ﴿أكلاً لمًّا﴾[7] والمعنى: وإن كلاً ملمومين بمعنى: مجموعين، كأنه قيل: وإن كلاً جميعًا كقوله: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾[8].

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾.

﴿فاستقم كما أمرت﴾ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادّة الحق غير عادل عنها ﴿ومن تاب معك﴾ معطوف على المستتر في استقم. وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه، والمعنى: فاستقم أنت وليستقم من تاب على الكفر وآمن معك ﴿ولا تطغوا﴾ ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ عالم فهو مجازيكم به فاتقوه، وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشدّ

(1) سورة التوبة، الآية: 72.
(2) سورة هود، الآية: 108.
(3) يريد: أهل السنة، أمّا المعتزلة، فيقولون: فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر، وخلوده في النار أبدي، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد.
(4) أخرجه البزار.
(5) سورة التين، الآية: 6.
(6) قال أحمد: وهم، والله أعلم، فإنّ التوفية تستلزم عدم نقصان= الموفى كاملاً كان أو ناقصاً، فقولك: وفيته نصف حقه يستلزم عدم نقصانه، فما وجه انتصابه حالاً عنه، والأوجه أن يقال: استعملت التوفية بمعنى الإعطاء، كما استعمل التوفي الأخذ، ومن قال: أعطيت فلاناً حقه، كان جديراً أن يؤكده بقوله غير منقوص، والله أعلم.
(7) سورة الفجر، الآية: 19.
(8) سورة صٓ، الآية: 73.

ولا أشقّ عليه من هذه الآية ولهذا قال: «شيبتني هود والواقعة وأخواتهما». وروي أنّ أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب فقال: «شيبتني هود»[1]، وعن بعضهم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبتني هود؟ فقال: «نعم» فقلت: ما الذي شيبك منها، أقصص الأنبياء، وهلاك الأمم؟ قال: «لا ولكن قوله: فاستقم كما أمرت»، وعن جعفر الصادق رضي الله عنه ﴿فاستقم كما أمرت﴾ قال: افتقر إلى الله بصحة العزم.

وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

قرئ: ﴿ولا تركنوا﴾ بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو: بكسر التاء وفتح الكاف على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم، ونحوه: قراءة من قرأ: فتمسكم النار بكسر التاء، وقرأ ابن أبي عبلة: ولا تركنوا على البناء للمفعول من أركنه إذا أماله، والنهي متناول للانحطاط في هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم ومدّ العين إلى زهرتهم ونكرهم بما فيه تعظيم لهم وتأمّل قوله: ﴿ولا تركنوا﴾ فإنّ الركون هو: الميل اليسير وقوله: ﴿إلى الذين ظلموا﴾ أي: إلى الذين وجد منهم الظلم ولم يقل إلى الظالمين. وحكي: أنّ الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له: فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم؟ وعن الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لائين ﴿ولا تطغوا﴾ ﴿ولا تركنوا﴾ ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخًا كبيرًا وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه: ﴿لتبيننّه للناس ولا تكتمونه﴾[2] واعلم أنّ أيسر ما ارتكبت وأخفّ ما احتملت أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤدّ حقًا ولم يترك باطلاً، حين أدناك اتخذوك قطبًا تدور عليك رحى باطلهم، وجسرًا يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلمًا يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشكّ بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك[3]، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم؟ ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا﴾[4] فإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيّئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام. وقال سفيان: في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك. وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً. وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء. وقال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه»[5] ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا. فقيل له: يموت، فقال: دعه يموت ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ حال من قوله: فتمسكم أي: فتمسكم النار وأنتم على هذه الحال، ومعناه: وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم منه غيره ﴿ثم لا تنصرون﴾ ثم لا ينصركم هو؛ لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم.

فإن قُلْتَ: فما معنى ثم؟ قُلْتُ: معناها الاستبعاد؛ لأنّ النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾.

﴿طرفي النهار﴾ غدوة وعشية ﴿وزلفًا من الليل﴾ وساعات من الليل، وهي: ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه. وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر؛ لأنّ ما بعد الزوال عشي، وصلاة الزلف المغرب والعشاء، وانتصاب طرفي النهار على الظرف؛ لأنهما مضافان إلى الوقت كقولك: أقمت عنده جميع النهار وأتيته نصف النهار وأوله وآخره تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه ونحوه ﴿وأطراف النهار﴾[6] وقرئ: وزلفًا بضمتين، وزلفًا بسكون اللام، وزلفى بوزن قربى، فالزلف: جمع زلفة كظلم في ظلمة، والزلف بالسكون نحو: بسرة وبسر، والزلف بضمتين نحو: بسر في بسر، والزلفى بمعنى: الزلفة كما أن القربى بمعنى: القربة، وهو: ما يقرب من آخر النهار من الليل، وقيل: وزلفًا من الليل وقربًا من الليل، وحقها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة أي: أقم الصلاة طرفي النهار وأقم زلفًا من الليل على معنى: وأقم صلاة تتقرّب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل ﴿إن الحسنات

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (الحديث رقم: 3297).

(2) سورة آل عمران، الآية: 187.

(3) لعلّ هنا سقطاً تقديره في جنب ما أعطوك، وما أقل ما أصلحوا لك في جنب ما أفسدوا إلخ.

(4) سورة مريم، الآية: 59.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في مساعدة الكفار والمفسدين فصل في مجانبة الظلم (الحديث رقم: 9423).

(6) سورة طه، الآية: 130.

يذهبن السيئات﴾ فيه وجهان: أحدهما أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر» والثاني: إن الحسنات يذهبن السيئات بأن يكن لطفًا في تركها كقوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[1] وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري كان يبيع التمر، فأتته امرأة فأعجبته فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته، فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل، فقال ﷺ: «انتظر أمر ربي» فلما صلى صلاة العصر نزلت فقال: «نعم اذهب فإنها كفارة لما عملت»، وروي: أنه أتى أبا بكر فأخبره فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ فنزلت، فقال عمر: أهذا له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: «بل للناس عامة»[2]، وروي أنّ رسول الله ﷺ قال له: «توضأ وضوءًا حسنًا، وصل ركعتين، إن الحسنات يذهبن السيئات» ﴿ذلك﴾ إشارة إلى قوله: ﴿فاستقم﴾[3] فما بعده ﴿ذكرى للذاكرين﴾ عظة للمتعظين.

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾.

ثم كر إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله كأنه قال: وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحق بالوصية وهو: الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه إلا به ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتهاء عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾.

﴿فلولا كان من القرون﴾ فهلا كان، وقد حكوا عن الخليل: كل لولا في القرآن فمعناها هلا إلا التي في الصافات. وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء﴾[4] ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾[5] ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم﴾[6] ﴿أولو بقية﴾ أولو فضل وخير، وسمي الفضل والجودة بقية؛ لأنّ الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم أي: من خيارهم، وبه فسر بيت الحماسة:

إن تـنـنـبـوا ثـم يـأتـيـنـي بـقـيـتـكـم

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا، ويجوز أن تكون البقية بمعنى: البقوى كالتقية بمعنى التقوى أي: فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرئ: أولو بقية بوزن لقية من بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره، ومنه «بقينا رسول الله ﷺ»[7]، والبقية المرّة من مصدره، والمعنى: فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم ﴿إلا قليلاً﴾ استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً مما أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي. ومن في ﴿ممن أنجينا﴾ حقها أن تكون للبيان لا للتبعيض؛ لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم بدليل قوله تعالى: ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا﴾[8].

فإن قُلْتَ: هل لوقوع هذا الاستثناء متصلاً وجه يحمل عليه؟ قُلْتُ: إن جعلته متصلاً على ما عليه ظاهر الكلام كان المعنى فاسدًا؛ لأنه يكون تحضيضًا الأولى البقية على النهي عن الفساد إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم، تريد: استثناء الصلحاء من المحضضين على قراءة القرآن وإن قلت: في تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم، فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلاً. كان استثناء متصلاً ومعنى صحيحًا، وكان انتصابه على أصل الاستثناء، وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقدوا هممهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والتترف من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك، ونبذوه وراء ظهورهم وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي: واتبع الذين ظلموا يعني: واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم اتبعوا جزاء إترافهم، وهذا معنى قوي لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم وهلك السائر.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿واتبع الذين ظلموا﴾؟

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 45.
(2) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة هود (الحديث رقم: 3115) والبخاري في كتاب التفسير ومن سورة هود، باب: «أقم الصلاة طرفي...» (الحديث رقم: 4687) ومسلم في كتاب التوبة باب: قوله تعالى: «إن الحسنات يذهبن السيئات» (الحديث رقم: 6932).
(3) سورة هود، الآية: 112.
(4) سورة القلم، الآية: 49.
(5) سورة الفتح، الآية: 25.
(6) سورة الإسراء، الآية: 74.
(7) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: «في وقت العشاء الآخرة» (الحديث رقم: 421).
(8) سورة الأعراف، الآية: 165.

قُلْتُ: إن كان معناه: واتبعوا الشهوات كان معطوفًا على مضمر؛ لأنّ المعنى إلاّ قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو: عطف على نهوا، وإن كان معناه: واتبعوا جزاء الإتراف قالوا: أو للحال كأنه قيل: أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم.

فإن قُلْتَ: فقوله: ﴿وكانوا مجرمين﴾؟ قُلْتُ: على أترفوا أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر، أو على اتبعوا أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك، ويجوز أن يكون اعتراضًا وحكمًا عليهم بأنهم قوم مجرمون.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

﴿كان﴾ بمعنى: صحّ واستقام. واللام لتأكيد النفي و ﴿بظلم﴾ حال من الفاعل والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالمًا لها ﴿وأهلها﴾ قوم ﴿مصلحون﴾ تنزيهًا لذاته عن الظلم، وإيذانًا بأن إهلاك المصلحين من الظلم، وقيل: الظلم الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فسادًا آخر.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة﴾ يعني: لاضطرهم إلى أن يكون أهل أمّة واحدة أي: ملة واحدة وهي: ملة الإسلام كقوله: ﴿إنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة﴾[1] وهذا الكلام يتضمن نفي اضطرار، وإنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكّنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق، وبعضهم الباطل، فاختلفوا فلذلك قال: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ إلا ناسًا هداهم الله ولطف بهم فاتفقوا على دين الحق غير مخلفين فيه ﴿ولذلك خلقهم﴾ ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأوّل وتضمنه يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره ﴿وتمت كلمة ربك﴾ وهي قوله للملائكة: ﴿لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿وكلاً﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل: وكل نبأ ﴿نقصّ عليك﴾ و ﴿من أنباء الرسل﴾ بيان لكل و ﴿ما نثبت به فؤادك﴾ بدل من كلاً، ويجوز أن يكون المعنى: وكل اقتصاص نقصّ عليك على معنى، وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقصّ عليك يعني: على الأساليب المختلفة، وما نثبت به مفعول نقص ومعنى: تثبيت فؤاده زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه؛ لأنّ تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي: في هذه السورة، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق ﴿وموعظة وذكرى * وقل للذين لا يؤمنون﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿اعملوا﴾ على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها ﴿إنا عاملون وانتظروا﴾ بنا الدوائر ﴿إنا منتظرون﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ فلا بدّ أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فإنه كافيك وكافلك ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ وقرئ: تعملون بالتاء أي: أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى، وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى ذلك»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يوسف مكية

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة و ﴿الكتاب المبين﴾ السورة أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم، أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر، أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف، فقد روي أنّ علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين:

(1) سورة الأنبياء، الآية: 92، وسورة المؤمنون، الآية: 52.

(2) ذكره ابن مردويه الواحدي في تفسيره الوسيط، وابن الجوزي والزيلعي 2/157.

سلوا محمدًا لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف.

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾.

﴿أنزلناه﴾ أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه ﴿قرآنًا عربيًا﴾ وسمي بعض القرآن قرآنًا؛ لأنّ القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه ﴿لعلكم تعقلون﴾ إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ﴿ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته﴾[1].

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾.

﴿القصص﴾ على وجهين يكون مصدرًا بمعنى: الاقتصاص تقول: قصّ الحديث يقصه قصصًا كقولك: شله يشله شللاً إذا طرده، ويكون فعلاً بمعنى مفعول كالنفض والحسب ونحوه: النبأ والخبر في معنى: المنبأ به والمخبر به، ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر كالخلق والصيد، وإن أريد المصدر فمعناه: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة، على أن يكون أحسن منصوبًا نصب المصدر لإضافته إليه ويكون المقصوص محذوفًا؛ لأنّ قوله: ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ مغن عنه، ويجوز أن ينتصب هذا القرآن بنقص كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك، والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتصّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب، ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتص في كتب الأوّلين وفي كتب التواريخ ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقاربًا لاقتصاصه في القرآن، وإن أريد بالقصص المقصوص فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها، والظاهر أنه[2] أحسن ما يقتص في بابه كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم يراد في فنه.

فإن قُلْتَ: ممّ اشتقاق ﴿القصص﴾؟ قُلْتُ: من قصّ أثره إذا تبعه؛ لأنّ الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئًا فشيئًا كما يقال: تلا القرآن إذا قرأه: لأنه يتلو أي: يتبع ما حفظ منه آية بعد آية ﴿وإن كنت﴾ إن مخففة من الثقيلة. واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية. والضمير في ﴿قبله﴾ راجع إلى قوله: ﴿ما أوحينا﴾ والمعنى: وإنّ الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه أي: من الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط، ولا طرق سمعك طرف منه.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾.

﴿إذ قال يوسف﴾ بدل من أحسن القصص وهو من بدل الاشتمال؛ لأنّ الوقت مشتمل على القصص، وهو: المقصوص، فإذا قصّ وقته فقد قصّ، أو بإضمار اذكر، ويوسف اسم عبراني وقيل: عربي وليس بصحيح؛ لأنه لو كان عربيًا لانصرف لخلوّه عن سبب آخر سوى التعريف.

فإن قُلْتَ: فما تقول فيمن قرأ يوسف بكسر السين أو يوسف بفتحها؟ هل يجوز على قراءته أن يقال هو عربي؛ لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل، أو المفعول من آسف، وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؟ قُلْتُ: لا لأنّ القراءة المشهورة قامت بالشهادة على أنّ الكلمة أعجمية، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى. ونحو يوسف يونس رويت فيه هذه اللغات الثلاث، ولا يقال: هو عربي؛ لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من آنس وأونس، وعن النبي ﷺ: «إذا قيل من الكريم؟ فقولوا: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[3] ﴿يا أبت﴾ قرئ بالحركات الثلاث.

فإن قُلْتَ: ما هذه التاء؟ قُلْتُ: تاء تأنيث وقعت عوضًا من ياء الإضافة، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف.

فإن قُلْتَ: كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر؟ قُلْتُ: كما جاز نحو قولك: حمامة ذكر وشاة ذكر ورجل ربعة وغلام يفعة.

فإن قُلْتَ: فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة؟ قُلْتُ: لأنّ التأنيث والإضافة يتناسبان في أنّ كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره.

فإن قُلْتَ: فما هذه الكسرة؟ قُلْتُ: هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك: يا أبي قد زحلقت إلى التاء لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ما قبلها مفتوحًا.

فإن قُلْتَ: فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة؟ قُلْتُ: امتنع ذلك فيها لأنها اسم، والأسماء حقها التحريك لأصالتها في الإعراب، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرك تخفيفًا، لأنها حرف لين، وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير فلزم تحريكها.

فإن قُلْتَ: يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوض منه؛ لأنها في حكم الياء إذا

---

(1) سورة فصلت، الآية: 44.

(2) لعله في غيره، كعبارة النسفي.

(3) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة يوسف (الحديث رقم: 3116) والحاكم في المستدرك 2/570، والبخاري في= كتاب: الأنبياء باب: «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت» (الحديث رقم: 3382) ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل يوسف عليه السلام (الحديث رقم: 6111).

قلت: يا غلام، فكما لا يجوز يا أبتي لا يجوز يا أبت؟ **قُلْتُ:** الياء والكسرة قبلها شيئان، والتاء عوض من أحد الشيئين وهو الياء، والكسرة غير متعرض لها، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير، ألا ترى إلى قولهم: يا أبتا مع كون الألف فيه بدلاً من الياء كيف جاز الجمع بينهما وين التاء ولم يعد ذلك جمعًا بين العوض والمعوض منه، فالكسرة أبعد من ذلك.

فإن قُلْتَ: فقد دلت الكسرة في يا غلام على الإضافة؛ لأنها قرينة الياء ولصيقتها فإن دلت على مثل ذلك في يا أبت فالتاء المعوضة لغو وجودها كعدمها **قُلْتُ:** بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت: يا أبي.

فإن قُلْتَ: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟ **قُلْتُ:** أما من فتح فقد حذف الألف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء في يا غلام، ويجوز أن يقال: حركها بحركة الياء المعوض منها في قولك: يا أبي، وأما من ضم فقد رأى اسمًا في آخره تاء تأنيث فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال: يا أبت كما تقول: ياتبة من غير اعتبار لكونها عوضًا من غير ياء الإضافة. وقرئ: إني رأيت بتحريك الياء، وأحد عشر بسكون العين تخفيفًا لتوالي المتحركات فيما هو في حكم اسم واحد وكذا إلى تسعة عشر إلا اثني عشر لئلا يلتقي ساكنان، ورأيت من الرؤيا لا من الرؤية؛ لأنّ ما ذكره معلوم أنه منام؛ لأن الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام ولما خفيت عليه وعلى الناس.

فإن قُلْتَ: ما أسماء تلك الكواكب؟ **قُلْتُ:** روى جابر أنّ يهوديًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآهنّ يوسف، فسكت رسول الله ﷺ، فنزل جبريل عليه السلام، فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لليهودي: «إن أخبرتك هل تسلم»؟ قال: نعم، قال: «جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له». فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها[1]، وقيل: الشمس والقمر أبواه، وقيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته، وعن وهب: أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصًا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تنكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على أبيه فقال له: لا تقصها عليهم فيلغوا لك الغوائل، وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة وقيل: ثمانون.

فإن قُلْتَ: لم أخر الشمس والقمر؟ **قُلْتُ:** أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص بيانًا لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع، كما أخر جبريل وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر.

فإن قُلْتَ[2]: ما معنى تكرار ﴿**رأيت**﴾؟ **قُلْتُ:** ليس بتكرار إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابًا له كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: ﴿**إني رأيت أحد عشر كوكبًا**﴾ كيف رأيتها؟ سائلاً عن حال رؤيتها، فقال: ﴿**رأيتهم لي ساجدين**﴾.

فإن قُلْتَ: فلم أجريت مجرى العقلاء في ﴿**رأيتهم لي ساجدين**﴾؟ **قُلْتُ:** لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطى حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملابسة والمقاربة. عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أنّ يوسف يبلغه الله مبلغًا من الحكمة ويصطفيه للنبوّة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم. والرؤيا بمعنى: الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة، فرق بينها بحرفي التأنيث كما قيل: القربة والقربى، وقرئ: روياك بقلب الهمزة واو، وسمع الكسائي: رياك ورياك بالإدغام وضم الراء وكسرها وهي ضعيفة؛ لأنّ الواو في تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم: اتزر من الإزار واتجر من الأجر ﴿**فيكيدوا**﴾ منصوب بإضمار أن والمعنى: إن قصصتها عليهم كادوك.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: فيكيدوك كما قيل: ﴿**فكيدوني**﴾[3] **قُلْتُ:** ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ في التخويف وذلك نحو: فيحتالوا لك ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر ﴿**عدوّ مبين**﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء ولقوله: ﴿**لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم**﴾[4] فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ليورط من يحمله ولا يؤمن أن يحملهم على مثله.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾.

﴿**وكذلك**﴾ ومثل ذلك الاجتباء ﴿**يجتبيك ربك**﴾ يعني:

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 4/396.

(2) قال أحمد: وأحسن من ذلك أن الكلام طال بين الفعل والحال، فطري ذكر الفعل لمناسبة الحال، وهي المقصودة، إذ الآية في= السجود كانت، والله أعلم.

(3) سورة هود، الآية: 55.

(4) سورة الأعراف، الآية: 16.

وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام وقوله: ﴿ويعلمك﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل: وهو يعلمك ويتم نعمته عليك، والاجتباء الاصطفاء افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض جمعته، والأحاديث الرؤيا؛ لأنّ الرؤيا إمّا حديث نفس أو ملك أو شيطان. وتأويلها: عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا وأصحّهم عبارة لها، ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها، وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسله فيقال: قال الله، وقال الرسول كذا وكذا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾[1] ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾[2] وهو: اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة. ومعنى إتمام النعمة عليهم: أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكًا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة، وقيل: أتمها على إبراهيم بالخلة والإنجاء من النار ومن ذبح الولد، وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه، وقيل: علم يعقوب أنّ يوسف يكون نبيًا وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب، فلذلك قال: وعلى آل يعقوب، وقيل: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه، وقيل: كان يعقوب مؤثرًا له بزيادة المحبة والشفقة لصغره ولما يرى فيه من المخايل، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه فتبالغ فيهم الحسد، وقيل: لما قص رؤياه على يعقوب قال: هذا أمر مشتت يجمع الله لك بعد دهر طويل. و﴿آل يعقوب﴾ أهله وهم نسله وغيرهم، وأصل آل: أهل بدليل تصغيره على أهيل إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبي، وآل الملك، ولا يقال آل الحائك، ولا آل الحجام، ولكن أهلهما. وأراد بالأبوين الجد وأبا الجد؛ لأنهم في حكم الأب في الأصالة ومن ثَمّ يقولون: ابن فلان وإن كان بينه وبين فلان عدّة و﴿إبراهيم وإسحاق﴾ عطف بيان لأبويك ﴿إنّ ربك عليم﴾ يعلم من يحق له الاجتباء ﴿حكم﴾ لا يتم نعمته إلا على من يستحقها.

۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾.

﴿في يوسف وإخوته﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿آيات﴾ علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء ﴿للسائلين﴾ لمن سأل عن قصتهم وعرفها، وقيل: آيات على نبوّة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب. وقرئ: آية، وفي بعض المصاحف: عبرة، وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغي إخوته عليه لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به، وقيل: أساميهم: يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة ودان ونفتالي وجاد، وآشر، السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة، فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف.

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾.

﴿ليوسف﴾[3] اللام للابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة، أرادوا: أنّ زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ﴿ولخوه﴾ هو: بنيامين وإنما قالوا: أخوه وهم جميعًا إخوته؛ لأنّ أمّهما كانت واحدة، وقيل: ﴿أحب﴾ في الاثنين؛ لأن أفعل من لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه من، ولابدّ من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف جاز الأمران. والواو في ﴿ونحن عصبة﴾ واو الحال يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿إنّ أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي: في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك. والعصبة والعصابة العشرة فصاعدًا، وقيل: إلى الأربعين سموا بذلك؛ لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب، وروى النزال بن سبرة عن عليّ

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 185.

(2) سورة الزمر، الآية: 23.

(3) قال أحمد: هذه تؤيد قراءة ابن مروان: هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم، بالنصب، وقد قال سيبويه فيها: احتبى ابن مروان في لحنه، أي: تمكن، وحيث تأيدت بقراءة أمير المؤمنين كرّم الله وجهه، فلا بدّ من التماس المجمل الصحيح لها، وليس ذلك ببعيد إن شاء الله، فنقول: لو قالوا: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، ونحن نحن على طريقة:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ونحو أنا أنا، وأنت أنت، لم يكن في فصاحته مقال، وقد علمت أنّ معنى: أنا أنا، أي: أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التي استغنى= عن ذكرها، فلا بعد، والحالة هذه في حذف الخبر لمساواته المبتدأ، وعدم زيادته عليه لفظاً، وراحة من تكرار اللفظ بعينه، والسياق يرشد إلى المحذوف، وإذا كان كذلك، فقول القائلين: ﴿ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا﴾، ونحن معناه: ونحن نحن، ولكن استغنوا عن الخبر للسرّ الذي ذكرناه، فقولهم: ونحن، كلام تام بالتقدير المذكور، فلا غرو في وقوع الحال بعده، وهذا بعينه يجري في قوله: هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم، فقوله: هنّ، في حكم الكلام التّام، والمراد: هؤلاء بناتي هنّ المشهورات، بالأوصاف الحميدة الظاهرة، وأصل الكلام: هنّ هنّ، فوقع الحال بعد التمام، والله أعلم.

رضي الله عنه: ونحن عصبة بالنصب، وقيل: معناه ونحن نجتمع عصبة، وعن ابن الأنباري: هذا كما تقول العرب: إنما العامري عمته أي: يتعهد عمته.

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾.

﴿اقتلوا يوسف﴾ من جملة ما حكي بعد قوله: ﴿إذ قالوا﴾[1] كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال: ﴿لا تقتلوا يوسف﴾[2] وقيل: الأمر بالقتل شمعون، وقيل: دان والباقون كانوا راضين فجعلوا آمرين ﴿أرضًا﴾ أرضًا منكورة مجهولة بعيدة من العمران وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياه، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأنّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه، ويجوز أن يراد بالوجه: الذات كما قال تعالى: ﴿ويبقى وجه ربك﴾[3] وقيل يخل لكم يفرغ لكم من الشغل بيوسف ﴿من بعده﴾ من بعد يوسف أي: من بعد كفايته بالقتل أو التغريب، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرحوا ﴿قومًا صالحين﴾ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه، أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه، أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم، وتكونوا إمّا مجزوم عطفًا على يخل لكم أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى: مع كقوله: ﴿وتكتموا الحق﴾[4].

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾.

﴿قائل منهم﴾ هو: يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيًا وهو: الذي قال: ﴿فلن أبرح الأرض﴾[5]. قال لهم: القتل عظيم ﴿ألقوه في غيابة الجب﴾ وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله قال المنخل:

إن أنا يومًا غيبتني غيابتي فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها، وقرئ: غيابات على الجمع، وغيابات بالتشديد، وقرأ الجحدري: غيبة، والجب البئر لم تطو لأن الأرض تجبّ جبًا لا غير ﴿يلتقطه﴾ يأخذه بعض السيارة: بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق، وقرئ: تلتقطه بالتاء على المعنى؛ لأنّ بعض السيارة سيارة كقوله:

كما شرقت صدر القناة من الدم

ومنه: ذهبت بعض أصابعه ﴿إن كنتم فاعلين﴾ إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم فهذا هو الرأي.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾.

﴿ما لك لا تامنا﴾ قرئ: بإظهار النونين، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام، وتيمنًا بكسر التاء مع الإدغام والمعنى: لمَ تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة، وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله على رأيه وعادته في حفظه منهم، وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾.

﴿نرتع﴾ نتسع في أكل الفواكه وغيرها، وأصل الرتعة الخصب والسعة، وقرئ: نرتع من ارتعى يرتعي. وقرئ: يرتع ويلعب بالياء، ويرتع من أرتع ماشيته، وقرأ العلاء بن سيابة: يرتع بكسر العين، ويلعب بالرفع على الابتداء.

فإن قُلْتَ: كيف استجاز لهم يعقوب عليه السلام اللعب؟ قُلْتُ: كان لعبهم الاستباق والانتضال ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدوّ لا للهو بدليل قوله: ﴿إنا ذهبنا نستبق﴾[6] وإنما سموه لعبًا؛ لأنه في صورته ﴿ليحزنني﴾ اللام لام الابتداء كقوله: ﴿إنّ ربك ليحكم بينهم﴾[7] ودخولها أحد ما ذكره سيبويه من سببي المضارعة.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾.

اعتذر إليهم بشيئين[8] أحدهما: أنّ ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم وأقلّ به اهتمامهم ولم تصدّق بحفظه عنايتهم، وقيل: رأى في النوم أنّ الذئب قد شدّ على يوسف فكان يحذره فمن ثم قال ذلك فلقنهم العلة، وفي أمثالهم: البلاء موكل بالمنطق. وقرئ: الذئب بالهمزة على الأصل والتخفيف، وقيل: اشتقاقه من تذاءبت الريح إذا أتت من كل جهة.

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾.

القسم محذوف تقديره والله ﴿لئن أكله الذئب﴾ واللام موطئة للقسم وقوله: ﴿إنا إذًا لخاسرون﴾ جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط. والواو في ونحن عصبة واو الحال، حلفوا له لئن كان ما خافه من خطفه الذئب أخاهم

---

(1) سورة يوسف، الآية: 8.
(2) سورة يوسف، الآية: 10.
(3) سورة الرحمن، الآية: 27.
(4) سورة البقرة، الآية: 42.
(5) سورة يوسف، الآية: 80.
(6) سورة يوسف، الآية: 17.
(7) سورة النحل، الآية: 124.
(8) قال أحمد: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه؛ لأنه مظنة هلاكه، وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع، ويلعب، ويعود سالماً إليه عما قليل، فأمر سهل، فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه، وتطمينه من أشدّ الأمرين عليه، والله أعلم.

من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذًا لقوم خاسرون أي: هالكون ضعفًا وخورًا وعجزًا، أو مستحقون أن يهلكوا؛ لأنه غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدّمار وأن يقال: خسرهم الله ودمّرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون. وقيل: إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذًا وخسرناها.

فإن قلتَ: قد اعتذر إليهم بعذرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟ **قلتُ:** هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرين فأعاروه آذانًا صمًا ولم يعبؤا به.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾.

﴿أن يجعلوه﴾ مفعول أجمعوا من قولك: أجمع الأمر وأزمعه فأجمعوا أمركم. وقرئ* في غيابات الجب قيل: هو بئر ببيت المقدس، وقيل: بأرض الأردن، وقيل: بين مصر ومدين، وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب لما محذوف، ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي: أنهم لما برزوا به إلى البريّة أظهروا له العداوة وأخذوا يهينونه ويضربونه، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء! فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه؟ فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يديه، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه ردّوا عليّ قميصي أتوارى به، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا تؤنسك، ودلوه في البئر فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي فنادوه، فظنّ أنها رحمة أدركتهم فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه، فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ويروى: أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وجرّد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة، فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه **﴿وأوحينا إليه﴾** قيل: أوحي إليه في الصغر كما أوحي إلى يحيى وعيسى، وقيل: كان إذ كان ذاك مدركًا، وعن الحسن: كان له سبع عشرة سنة **﴿لتنبئنهم بأمرهم هذا﴾** وإنما أوحي إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة ويبشر بما يؤول إليه أمره، ومعناه: لتتخلصن مما أنت فيه، ولتحدّثن إخوتك بما فعلوا بك **﴿وهم لا يشعرون﴾** إنك يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم ولطول العهد المبدّل للهيآت والأشكال، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطنّ فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف، وكان يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبعتموه بثمن بخس. ويجوز أن يتعلق وهم لا يشعرون بقوله: وأوحينا على أنا آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له، وقرئ*: لننبئنهم بالنون على أنه وعيد لهم، وقوله: وهم لا يشعرون متعلق بأوحينا لا غير.

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾.

وعن الحسن عشيًا على تصغير عشي يقال: لقيته عشيًا وعشيانًا وأصيلاً وأصيلانًا، ورواه ابن جني: عُشى بضم العين والقصر، وقال عشوا: من البكاء، وروي أنّ امرأة حاكمت إلى شريح فبكت، فقال له الشعبي: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة، ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية، وروي[1]: أنه لما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما لكم؟ وأين يوسف؟

قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾.

﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ أي نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان، كالانتضال والتناضل، والارتماء والترامي، وغير ذلك والمعنى: نتسابق في العدو، أو في الرمي وجاء في التفسير ننتضل **﴿بمؤمن لنا﴾** بمصدق لنا **﴿ولو كنا صادقين﴾** ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدّة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا.

وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾.

﴿بدم كذب﴾ ذي كذب، أو وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه والزور بذاته، ونحوه.

فهنّ به جود وأنتم به بخل

وقرئ* كذبًا نصًا على الحال بمعنى: جاؤا به كاذبين ويجوز أن يكون مفعولاً له، وقرأت عائشة رضي الله عنها: كدب بالدال غير المعجمة أي: كدر، وقيل: طرى، وقال ابن

---

(1) قال أحمد: وقواه على اتهامهم، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أوّلاً، وهو: أكل الذئب إياه، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم: ﴿وأخاف أن يأكله = الذئب﴾ وكثيراً ما تتلقف الأعذار الباطلة من قلق في المخاطب المعتذر إليه، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار.

جني: أصله من الكذب وهو: الفوف البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، كأنه دم قد أثر في قميصه. روي: أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزلّ عنهم أن يمزقوه، وروي: أنّ يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه، وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيرًا، ودليلاً على براءة يوسف حين قدّ من دبر.

فإن قُلْتَ: ﴿على قميصه﴾ ما محله؟ قُلْتُ: محله النصب على الظرف كأنه قيل: وجاؤا فوق قميصه بدم كما تقول: جاء على جماله بأحمال.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن تكون حالاً متقدمة؟ قُلْتُ: لا؛ لأنّ حال المجرور لا تتقدم عليه ﴿سوّلت﴾ سهلت من السول وهو: الاسترخاء أي سهلت ﴿لكم أنفسكم أمرًا﴾ عظيمًا ارتكبتموه من يوسف وهونته في أعينكم، استدّل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص، أو أوحي إليه بأنهم قصدوه ﴿فصبر جميل﴾ خبر أو مبتدأ لكونه موصوفًا، أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل، وفي قراءة أبيّ: فصبرًا جميلاً، والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع أنه الذي لا شكوى فيه[1]، ومعناه: لا شكوى فيه إلى الخلق ألا ترى إلى قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾[2] وقيل: لا أعايشكم على كآبة الوجه بل أكون لكم كما كنت، وقيل: سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصابة، فقال له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال: يا رب خطيئة فاغفرها لي ﴿والله المستعان﴾ أي: استعينه ﴿على﴾ احتمال ﴿ما تصفون﴾ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه.

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾.

﴿وجاءت سيارة﴾ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب، فأخطأوا الطريق، فنزلوا قريبًا منه، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤه ملحًا فعذب حين ألقي فيه يوسف ﴿فأرسلوا﴾ رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء. والوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم ﴿يا بشرى﴾ نادى البشرى كأنه يقول: تعالى فهذا من آونتك، وقرئ: يا بشراي على إضافتها إلى نفسه وفي قراءة الحسن وغيره: يا بشري بالياء مكان الألف جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة وهي لغة للعرب مشهورة، سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي ومولىّ، وعن نافع: يا بشرايْ بالسكون وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حده إلا أن يقصد الوقف. قيل: لما أدلى دلوه أي: أرسلها في الجب تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون، فقال: يا بشراي ﴿هذا غلام﴾ وقيل: ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به ﴿وأسروه﴾ الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرفقة، وقيل: أخفوا أمره ووجد أنهم له في الجب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر، وعن ابن عباس: أنّ الضمير لإخوة يوسف وأنهم قالوا للرفقة: هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه و﴿بضاعة﴾ نصب على الحال أي: أخفوه متاعًا للتجارة والبضاعة ما بضع من المال للتجارة أي: قطع ﴿والله عليم بما يعملون﴾ لم يخف عليه أسرارهم، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم،أو والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿وشروه﴾ وباعوه ﴿بثمن بخس﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصانًا ظاهرًا، أو زيف ناقص العيار ﴿دراهم﴾ لا دنانير ﴿معدودة﴾[3] قليلة تعد عدًا ولا توزن؛ لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهي الأربعون ويعدون ما دونها، وقيل للقليلة: معدودة؛ لأنّ الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها، وعن ابن عباس: كانت عشرين درهمًا، وعن السدي: اثنين وعشرين ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بم باعه؛ لأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أوّل مساوم بأوكس الثمن، ويجوز أن يكون معنى وشروه: واشتروه يعني: الرفقة من إخوته وكانوا فيه من الزاهدين؛ لأنهم اعتقدوا أنه آبق فخافوا أن يخطروا بما لهم فيه، ويروى: أنّ إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق، وقوله: ﴿فيه﴾ ليس من صلة الزاهدين؛ لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول. ألا تراك لا تقول: وكانوا زيدًا من

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره.

(2) سورة يوسف، الآية: 86.

(3) قال أحمد: ومن التعبير عن القلة بالعدد، الدعوة المأثورة على الكفرة: اللهم أحصهم عدداً، واستأصلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً، فالمدعو به، وإن كان إحصاؤهم عدداً في الظاهر، إلا أنّ هذا ليس = مراداً، لأنّ الله تعالى أحصى كل شيء عدداً، وأحاط به علماً، فلا بد من مقصود وراء ذلك، وهو لازم العدد، وذلك القلة فلما كان كل قليل معدوداً، وكل كثير غير معدود، دعي عليهم بالقلة، وعبر عنها بلازمها، وهو: الإحصاء، والله أعلم.

الضاربين، وإنما هو: بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا فيه.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾.

﴿الذي اشتراه﴾ قيل: هو قطفير، أو أطفير، وهو: العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذٍ الريان بن الوليد رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف، ومات في حياة يوسف، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى. واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾[1]. وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وقيل: اشتراه العزيز بعشرين دينارًا وزوجي نعل وثوبين أبيضين، وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكًا وورقًا وحريرًا فابتاعه قطفير بذلك المبلغ ﴿أكرمي مثواه﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريمًا أي: حسنًا مرضيًا بدليل قوله: ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾[2] والمراد: تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ساكنة في كنفنا، ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك؟ لمن ينزل به من رجل أو امرأة يراد: هل تطيب نفسك بثوائك عنده؟ وهل يراعي حق نزولك به؟ واللام في لامرأته متعلقة بقال لا باشتراه ﴿عسى أن ينفعنا﴾ لعله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله فينفعنا فيه بكفايته وأمانته، أو نتبناه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير عقيمًا لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك، وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا﴾ والمرأة: التي أتت موسى وقالت لأبيها: ﴿يا أبت استأجره﴾[3] وأبو بكر: حين استخلف عمر رضي الله عنهما. وروي أنه سأله عن نفسه فأخبره بنسبه فعرفه ﴿وكذلك﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه. والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مكنا﴾ له، أي: كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز، كذلك مكنا له في أرض مصر وجعلناه ملكًا يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين؛ لأنّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل ﴿والله غالب على أمره﴾ على أمر نفسه، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي، أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الأمر كله بيد الله.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾.

قيل في الأشد: ثماني عشر سنة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون، وقيل: أقصاه ثنتان وستون ﴿حكمًا﴾ حكمة وهو: العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه، وقيل: حكمًا بين الناس وفقهًا ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ تنبيه على أنه كان محسنًا في عمله متقيًا في عنفوان أمره، وأنّ الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾.

المراود: مفاعلة من راد يرود: إذا جاء وذهب كأن المعنى: خادعته عن نفسه أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها ﴿وغلقت الأبواب﴾ قيل: كانت سبعة. قرئ: هيت بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء ابن وعيط، وهيت كجير، وهيث كحيث، وهئت بمعنى: تهيأت يقال: هاء يهيء كجاء يجيء، إذا تهيأ وهيئت لك، واللام من صلة الفعل. وأما في الأصوات فللبيان كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلم لك ﴿معاذ الله﴾ أعوذ بالله معاذًا ﴿إنه﴾ إن الشأن والحديث ﴿ربي﴾ سيدي ومالكي يريد قطفير ﴿أحسن مثواي﴾ حين قال لك: اكرمي مثواه، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ الذين يجازون الحسن بالسيء، وقيل: أراد الزناة؛ لأنهم ظالمون أنفسهم، وقيل: أراد الله تعالى؛ لأنه مسبب الأسباب.

وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾.

همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه قال:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيدًا ولا همًا أي: ولا أكاد أن أفعله كيدًا، ولا أهم بفعله همًا حكاه سيبويه، ومنه: الهمام وهو: الذي إذا همّ بأمر أمضاه ولم يتكل عليه،

(1) سورة غافر، الآية: 34.

(2) سورة يوسف، الآية: 23.

(3) سورة القصص، الآية: 26.

وقوله: ﴿ولقد همت به﴾ معناه: ولقد همت بمخالطته ﴿وهمّ بها﴾ وهمّ بمخالطتها ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها فحذف؛ لأن قوله: وهمّ بها يدل عليه كقولك: هممت بقتله لولا أني خفت الله؛ معناه: لو أني خفت الله لقتلته.

فإن قُلْتَ: كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها؟ قُلْتُ: المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًّا لشدته لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين، ويجوز أن يريد بقوله وهمّ بها: وشارف أن يهم بها كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله يريد: مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿وهمّ بها﴾ داخل تحت حكم القسم في قوله: ﴿ولقد همّت به﴾ أم هو خارج منه؟ قُلْتُ: الأمران جائزان، ومن حق القارئ إذا قدّر خروجه من حكم القسم وجعله كلامًا برأسه أن يقف على قوله: ﴿ولقد همت به﴾ ويبتدئ قوله: ﴿وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ وفيه أيضًا إشعار بالفرق بين الهمين.

فإن قُلْتَ: لمَ جعلت جواب لولا محذوفًا يدل عليه همّ بها وهلا جعلته هو الجواب مقدّمًا؟ قُلْتُ: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها من قبل أنه في حكم الشرط وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيز من الجملتين مثل كلمة واحدة ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وأما حذف بعضها إذا دل الدليل عليه فجائز.

فإن قُلْتَ: فلم جعلت لولا متعلقة بهمّ بها وحده؟ ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله: ﴿ولقد همت به وهمّ بها﴾ لأن الهمّ لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني، فلابد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من إثنين معًا فكأنه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟ قُلْتُ: نعم ما قلت، ولكن الله سبحانه قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال: ﴿ولقد همت به وهمّ بها﴾ فكان إغفاله إلغاء له، فوجب أن يكون التقدير ولقد همت بمخالطته وهمّ بمخالطتها على أن المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه وتوصله إلى ما هو حظه من قضاء شهوته منها، لولا أن رأى برهان ربه فترك التوصل إلى حظه من الشهوة، فلذلك كانت لولا حقيقة بأن تعلق بهمّ بها وحده، وقد فسر همّ يوسف بأنه حل الهيمان وجلس منها مجلس المجامع وبأنه حل تسكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها، وفسر البرهان بأنه سمع صوتًا: إياك وإياها، فلم يكترث له فسمعه ثانيًا فلم يعمل به فسمع ثالثًا أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضًا على أنملته، وقيل: ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدًا إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولدًا من أجل ما نقص من شهوته حين همّ وقيل: صيح به: يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنا قعد لا ريش له، وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها، وإن عليكم لحافظين كرامًا كاتبين فلم ينصرف، ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً فلم ينته، ثم رأى فيها، واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله فلم ينجع فيه فقال الله لجبريل عليه السلام: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطّ جبريل، وهو يقول: يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء، وقيل: رأى تمثال العزيز، وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحي منه أن يرانا، فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع البصير العليم بذوات الصدور. وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه ونكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم زلته وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون ونكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثني عليه وسمي مخلصًا فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوّة والعزم ناظرًا في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحقّ من الله فيما أنزل من كتب الأوّلين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الآخرين كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدّي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربيّ المبين ليقتدي بنبيّ من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية، وفي حل تكته للوقوع عليها، وفي أن ينهاه ربه ثلاث كرّات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهي ولا ينتبه حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره، ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدّهم حدقة وأجلحهم وجهًا لقي بأدنى ما لقي به نبيّ الله مما ذكروا لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرّك، فيا له من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه ﴿كذلك﴾ الكاف منصوب المحل أي: مثل ذلك التثبيت ثبتناه، أو مرفوعه أي: الأمر مثل ذلك ﴿لنصرف عنه السوء﴾ من خيانة السيد ﴿والفحشاء﴾ من الزنا ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفتح الذين

أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم، ويجوز أن يريد بالسوء مقدّمات الفاحشة من القبلة والنظر بشهوة ونحو ذلك وقوله: ﴿من عبادنا﴾ معناه: بعض عبادنا أي: هو مخلص من جملة المخلصين، أو هو ناشىء منهم؛ لأنه من ذرّية إبراهيم الذين قال فيهم: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة﴾[1].

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾.

﴿واستبقا الباب﴾ وتسابقا إلى الباب على حذف الجار وإيصال الفعل كقوله: ﴿اختار موسى قومه﴾[2] على تضمين استبقا معنى: ابتدرا، نفر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج.

فإن قُلْتَ: كيف وحد الباب وقد جمعه في قوله: ﴿وغلقت الأبواب﴾[3]؟ قُلْتُ: أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار، فقد روى كعب: أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿وقدّت قميصه من دبر﴾ اجتذبته من خلفه فانقدّ أي: انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه ﴿وألفيا سيدها﴾ وصادفا بعلها وهو قطفير؛ تقول المرأة لبعلها سيدي، وقيل: إنما لم يقل سيدهما؛ لأنّ ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيدًا له على الحقيقة قيل: ألفياه مقبلاً يريد أن يدخل، وقيل: جالسًا مع ابن عمّ للمرأة. لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة وهي مغتاظة على يوسف إذ لم يؤاتها، جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف وتخويفه طمعًا في أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها وكرهًا لما أيست من مؤاتاته طوعًا، ألا ترى إلى قولها: ﴿لئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ﴾[4] وما أنا فيه أي: ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى: أيّ شيء جزاؤه إلا السجن كما تقول: من في الدار إلا زيد.

فإن قُلْتَ: كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف وإنه أراد بها سوءًا؟ قُلْتُ[5]: قصدت العموم وأنّ كل من أراد بأهلك سوءًا فحقه أن يسجن أو يعذب؛ لأنّ ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف. وقيل: العذاب الأليم الضرب بالسياط، ولما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ولولا ذلك لكتم عليها ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل: كان ابن عمّ لها، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه، وقيل: هو الذي كان جالسًا مع زوجها لدى الباب، وقيل: كان حكيمًا يرجع إليه الملك ويستشيره، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق، وقيل: كان ابن خال لها صبيًا في المهد. وعن النبي ﷺ: «تكلم أربعة وهم صغار، ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى»[6].

فإن قُلْتَ[7]: لمَ سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة؟ قُلْتُ: لما أدّى مؤدى الشهادة في ﴿إن﴾ ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمي شهادة.

فإن قُلْتَ: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ قُلْتُ: لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهد، فقال: إن كان قميصه.

فإن قُلْتَ: إن دل قدّ قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتذبت ثوبه إليها فقدّته، فمن أين دل قدّه من قبل على أنها صادقة وأنه كان تابعها؟ قُلْتُ: من وجهين: أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسها قدّت قميصه من قدامه بالدفع، والثاني[8]: أن يسرع خلفها

---

(1) سورة صَ، الآية: 46.

(2) سورة الأعراف، الآية:155.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

(4) سورة يوسف، الآية: 32.

(5) قال أحمد: أو أظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة أن تقول لبعلها: هذا أراد بي سوءاً، ولذلك أيضاً كنت بالسوء عما أضمرته من الهناة مبالغة في المكر والكيد، وإبعاداً للتهمة عنها بتوقي ما يشعر منها بالتبرّج والقحة، وعلى الضدّ من مقصودها، وإن وافق ملاحظتها بحشمة الإجمال، قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى الله عنها، قالت: ﴿إحداهما يا ابت استأجره، إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾، ولم تقل إنه قويّ أمين حياء من التعيين وحشمة وخفراً، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء، وامرأة العزيز إنما بعثها عليه التكلف والاستعمال، لذلك الغرض الفاسد من المكر، والله أعلم.

(6) رواه الحاكم في المستدرك (2/497)، وابن حبان في كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الصبر وثواب الأمراض (الحديث رقم: 2904)، وأحمد في مسنده 310/1، والبيهقي في «شعب الإيمان» (الحديث رقم: 1636).

(7) قال أحمد: مهما قدّره من ذلك في اتباعه لها، يحتمل مثله في اتباعها له، فإنها إنما تقدّ قميصه من قبل، بتقدير أن يكون اجتذبها، حتى صارا متقابلين، فدفعته عن نفسها، وهذا بعينه يحتمل، إذا كانت هي التابعة أن تكون اجتذبته، حتى صارا متقابلين، ثم جذبت قميصه إليها من قبل، بل ههنا أظهر؛ لأن الموجب لقد القميص غالباً الجذب، لا الدفع.

(8) قال أحمد: وهذا بعينه محتمل، لو كانت هي التابعة، وهو فار منها، فانقد قميصه في إسراعه للفرار، والله أعلم. فليس كلام الزمخشري في هذا الفصل بذاك، والحق والله ولي التوفيق: أنّ الشاهد المذكور إن كان صبياً في المهد، كما ورد في بعض =

ليلحقها فيتعثر في مقادم قميصه فيشقه، وقرئ: من قبل ومن دبر بالضم على مذهب الغايات، والمعنى: من قبل القميص ومن دبره، وأما التنكير، فمعناه: من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها: دبر، وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: من قبل ومن دبر بالفتح، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث، وقرئا: بسكون العين.

فإن قلت: كيف جاز الجمع بين إن الذي هو للاستقبال، وبين كان؟ لأنّ المعنى: أن يعلم أنه كان قميصه قدّ، ونحوه كقولك: إن أحسنت إلي فقد أحسنت إليك من قبل لمن يمتن عليك بإحسانه؛ تريد: إن تمتن عليّ أمتنّ عليك **﴿فلما رأى﴾** يعني: قطفير، وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها **﴿قال إنه﴾**[1] إن قولك: ما جزاء مَن أراد بأهلك سوءاً، أو أنّ هذا الأمر وهو طمعها في يوسف **﴿من كيدكن﴾** الخطاب لها ولأمتها. وإنما استعظم كيد النساء؛ لأنه وإن كان في الرجال إلا أنّ النساء ألطف كيدًا وأنفذ حيلة ولهنّ في ذلك نيقة ورفق وبذلك يغلبن الرجال. ومنه قوله تعالى: **﴿ومن شرّ النفاثات في العقد﴾**[2] والقصريات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البوائق، وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأنّ الله تعالى يقول: **﴿إنّ كيد الشيطان كان ضعيفًا﴾**[3] وقال للنساء: **﴿إنّ كيدكنّ عظيم﴾**.

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾.

﴿يوسف﴾ حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله **﴿أعرض عن هذا﴾** الأمر واكتمه ولا تحدّث به **﴿واستغفري﴾** أنت **﴿لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾** من جملة القوم المتعمدين للذنب يقال: خطئ إذا أذنب متعمدًا، وإنما قال: من الخاطئين بلفظ التذكير تغليبًا للذكور على الإناث وما كان العزيز إلا رجلاً حليمًا. وروي أنه كان قليل الغيرة.

❁ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾.

﴿وقال نسوة﴾ وقال: جماعة من النساء وكنّ خمسًا: امرأة الساقي، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب، والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث، وفيه لغتان كسر النون وضمها **﴿في المدينة﴾** في مصر **﴿امرأت العزيز﴾** يردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب **﴿فتاها﴾** غلامها يقال: فتاي وفتاتي أي: غلامي وجاريتي **﴿شغفها﴾** خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد، والشغاف حجاب القلب، وقيل جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب قال النابغة:

وقد حال هم دون ذلك والج مكان الشغاف تبتغيه الأصابع

= الحديث، فالآية في مجرّد كلامه قبل أوانه حتى لو قال: صدق يوسف، وكذبت، لكفى برهاناً على صدقه عليه السلام، كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في المهد، برهاناً على صدق مريم، فلا تبقى المناسبة بين الأمارة المنصوبة وما رتب عليها؛ لأنّ العمدة في الدلالة نصبها لا مناسبتها، وإن كان الشاهد بعض أهلها كان في الدار، فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له، وإقامة الحق كما ذكر الزمخشري، فهذا والله أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى، فيصدق يوسف، ويكذبها، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر، فنصبه أمارة لصدقه، وكذبها، ثم ذكر القسم الآخر، وهو: قدّه من قبل، على علم بأنه لم ينقد من قبل، حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة، وقصد الفضيحة، وينصفهما جميعاً، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم، نفيه كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده، ومن ثم قدم أمارة صدقها على أمارة صدقه في الذكر إزاحة للتهمة، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها، وهذه اللطيفة بعينها، والله أعلم هو التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله: وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثوقاً بأن القسم الثاني، وهو: صدقه، هو الواقع، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة، ومن ثم قال: بعض الذي يعدكم، ولم يقل: كل ما يعدكم، تعريضاً بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن يبخسه حقه، وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه؛ لأنه لو بدأ به، لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه، والله أعلم، فقصد هذا الشاهد=

= الأمارة الآخرة فقط، والمناسبة فيها محققة، وأما الأمارة الأولى، فليست مقصودة، وإنما ذكرها توطئة كما تقدّم، فلم يلتمس لها مناسبة جلية صحيحة على اليقين، وإنما هي كالفرض والتقدير، والله أعلم، وكأنه قال: إن كان قميصه قدّ من قبل، فهي صادقة، لكنه يعلم انتفاء الأمارة المذكورة، فعلق صدقها على محال، وهو وجود قده من قبل حالة عدمه، فهذا التقرير هو الصواب، والحق اللباب، والله الموفق. وأما إن كان الشاهد الحكيم الذي كان الملك يرجع إليه ويستشيره، كما ورد في بعض التفاسير، فلابدّ من التماس المناسبة في الطرفين؛ لأنها عهدة الحكيم، وأقرب وجه في المناسبة أن قد القميص من دبر دليل على إدباره عنها، وقدّه من قبل دليل على إقباله عليها بوجه، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفيما قاله هذا العالم، نظراً لأنّ الآية التي ذكر فيها كيد الشيطان من قول الله تعالى، غير محكى، وأما هذه الآية، فكيد النساء فيها من قول العزيز، ولكن حكاه الله تعالى عنه، فيحتمل حكايته عن أن يكون تصحيحاً له، ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه، وأيضاً فإن كيد الشيطان مذكور في الآية، مقابلاً لكيد الله تعالى، فكان ضعيفاً بالنسبة إليه ألا ترى أوّل الآية ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ وأيضاً فإنّ الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهنّ، مستفاد من الشيطان، بوسوسته وتسويله، شواهد الشرع قائمة على ذلك، فلا يتصوّر حينئذٍ، أن يكون كيدهنّ أعظم من كيده، والله أعلم.

(2) سورة الفلق، الآية: 4 .

(3) سورة النساء، الآية: 76.

وقرئ شعفها بالعين من شعف البعير إذا هناه فأحرقه بالقطران قال:

كما شعف المهنوءة الرجل الطالي

و ﴿حبًا﴾ نصب على التمييز ﴿في ضلال مبين﴾ في خطأ وبعد عن طريق الصواب.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿بمكرهنّ﴾ باغتيابهنّ، وسوء قالتهنّ، وقولهنّ: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها، وسمي الاغتياب مكرًا لأنه في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره، وقيل: كانت استكتمتهنّ سرّها فأفشينه عليها ﴿أرسلت إليهنّ﴾ دعتهنّ، قيل: دعت أربعين امرأة منهنّ الخمس المذكورات ﴿وأعتدت لهنّ متكأ﴾ ما يتكئن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي: قعودهنّ متكئات والسكاكين في أيديهنّ أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهنّ فتقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطعنها؛ لأنّ المتكئ إذا بهت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهنّ فتضع الخناجر في أيديهنّ ليقطعن أيديهنّ فتبكتهنّ بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهنّ الخناجر توهمه أنهنّ يثبن عليه، وقيل: متكأ مجلس طعام؛ لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهي «أن يأكل الرجل متكئًا»[1]، وآتتهنّ السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن، وقيل: متكًا طعامًا من قولك: اتكأنا عند فلان طعمنا على سبيل الكناية؛ لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له تكأة يتكئ عليها. قال جميل:

فظللنا بنعمة واتكأنا ... وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد: متكأ طعامًا يحزّ حزًّا كأن المعنى: يعتمد بالسكين؛ لأنّ القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين. وقرئ متكاً بغير همز، وعن الحسن: متكاء بالمد كأنه مفتعال وذلك لإشباع فتحة الكاف كقوله: بمنتزاح بمعنى: بمنتزح، ونحوه ينباع بمعنى: ينبع وقرئ: متكاً وهو: الأترج وأنشد:

فأهدت متكة لبني أبيها ... تخب بها العثمثمة[2] الوقاح

وكانت أهدت أترجة على ناقة، وكأنها الأترجة التي نكرها أبو داود في سننه: أنها شقت بنصفين، وحملا كالعدلين على جمل وقيل: الزماورد، وعن وهب أترجًا وموزًا وبطيخًا وقيل: أعتدت لهنّ ما يقطع من متك الشيء معنى: بتكه إذا قطعه وقرأ الأعرج: متكأ مفعلاً من تكئ يتكأ إذا اتكأ ﴿أكبرنه﴾ أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء، وعن النبي ﷺ: «مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء فقلت لجبريل: من هذا؟ فقال: يوسف. فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ قال: «كالقمر ليلة البدر»[3]، وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها، وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف، وقيل: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه، وقيل: ورث الجمال من جدته سارة، وقيل: أكبرن بمعنى: حضن، والهاء للسكت. يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته دخلت في الكبر؛ لأنها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ... فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

﴿قطعن أيديهنّ﴾ جرحنها كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي تريد: جرحتها. حاشا كلمة تفيد معنى: التنزيه في باب الاستثناء تقول: أساء القوم حاشا زيد قال:

حاشا أبي ثوبان إن به ... ضنا عن الملحاة والشتم

وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة فمعنى: حاشا الله براءة الله وتنزيه الله، وهي قراءة ابن مسعود على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة، ومن قرأ: حاشا لله فنحو قولك سقيًا لك، كأنه قال: براءة، ثم قال: لله لبيان من يبرأ وينزه، والدليل على تنزيل حاشا منزلة المصدر قراءة أبي السمال: حاشًا لله بالتنوين، وقراءة أبي عمرو: حاش لله بحذف الألف الآخرة، وقراءة الأعمش: حشا لله بحذف الألف الأولى، وقرئ: حاش لله بسكون الشين على أن الفتحة تبعث الألف في الإسقاط، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حد، وقرئ: حاشا الإله.

فإن قلت: فلم جاز في حاشا لله أن لا ينون بعد إجرائه مجرى براءة لله؟ **قلت:** مراعاة لأصله الذي هو الحرفية ألا ترى إلى قولهم: جلست من عن يمينه، كيف تركوا عن غير معرب على أصله، وعلى في قوله: غدت من عليه، منقلب الألف إلى الياء مع الضمير والمعنى: تنزيه الله تعالى من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله، وأما قوله: ﴿حاشا لله ما علمنا عليه من سوء﴾[4] فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ما هذا بشرًا﴾ نفين عنه البشرية[5] لغرابة جماله ومباعدة حسنه لما عليه محاسن

(1) روي في «كشف الأستار»، كتاب: الأطعمة، باب: النهي عن الأكل متكئًا (الحديث رقم: 2870).

(2) العثمثمة: الشديدة.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 4/606.

(4) سورة يوسف، الآية: 52.

(5) قال أحمد: تقدم القول في مسألة التفضيل شافياً، والزمخشري لا يدعه التعصب للمعتقد الفاسد، أن يحمله على مثل هذه المشافهات، يرمي بها أهل الحق، فينسب إليهم الإجبار، والخسار، والمكابرة في الضروريات، وجحد الحقائق تعكيساً، وهذا كله هم برءاء منه، وحسبه من المقابلة بذلك، خطؤه في اعتقاد تفضيل =

الصور وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة إلا ما عليه الفئة الخاسئة المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق وجحودهم للعلوم الضرورية ومكابرتهم في كل باب وإعمال ما عمل ليس هي اللغة القدمى الحجازية، وبها ورد القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿ما هنّ أمهاتهم﴾[1] ومن قرأ على سليقته من بني تميم قرأ: بشر بالرفع وهي: في قراءة ابن مسعود، وقرئ: ما هذا بشري أي: ما هو بعبد مملوك لئيم ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ تقول: هذا بشري أي: حاصل بشري بمعنى: هذا مشرى، وتقول: هذا لك بشري أم بكري؟ والقراءة هي الأولى لموافقتها المصحف ومطابقة بشر لملك.

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾.

﴿قالت فذلكنّ﴾[2] ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعًا لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به وربماً بحاله واستبعادًا لمحله، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهنّ: عشقت عبدها الكنعاني، تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صوّرتن في أنفسكنّ ثم لمتنني فيه؛ تعني: أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صوّرتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتتان به. الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها، ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب، وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أبرر منه على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسّروا به الهمّ والبرهان.

فإن قُلْتَ: الضمير في ﴿آمره﴾ راجع إلى الموصول أم إلى يوسف؟ قُلْتُ: بل إلى الموصول والمعنى: ما آمر به فحذف الجار في قولك: أمرتك الخير ويجوز أن تجعل ما مصدرية فيرجع إلى يوسف ومعناه: ولئن لم يفعل أمري إياه أي موجب أمري ومقتضاه. قرئ: وليكونا بالتشديد، والتخفيف، والتخفيف أولى؛ لأنّ النون كتبت في المصحف ألفًا على حكم الوقف وذلك لا يكون إلا في الخفيفة.

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾.

وقرئ السجن بالفتح على المصدر وقال: ﴿يدعونني﴾ على إسناد الدعوة إليهنّ جميعًا؛ لأنهنّ تنصحن له وزين له مطاوعتها وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال: ربّ نزول السجن أحبّ إليّ من ركوب المعصية.

فإن قُلْتَ: نزول السجن مشقة على النفس شديدة وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟ قُلْتُ: كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظرًا في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظرًا في مشتهى النفس ومكروهها ﴿وإلا تصرف عني كيدهنّ﴾ فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطّن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجبار على التعفف والإلجاء إليه ﴿أصب إليهنّ﴾ أمل إليهنّ، والصبوة: الميل إلى الهوى ومنها الصبا؛ لأنّ النفوس تصبوا إليها لطيب نسيمها وروحها، وقرئ: أصب إليهنّ من الصبابة ﴿من الجاهلين﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء، أو من السفهاء؛ لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح.

فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾.

وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء؛ لأنّ قوله: ﴿وإلا تصرف عني﴾ فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ﴿السميع﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾.

﴿بدا لهم﴾ فاعله مضمر لدلالة ما يفسره عليه وهو ﴿ليسجننه﴾ والمعنى: بدا لهم بداء أي: ظهر لهم رأي ليسجننه والضمير في لهم للعزيز وأهله ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ وهي: الشواهد على براءته وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه في الذروة والغارب وكان مطواعة لها وجميلاً ذلولاً زمامه في يدها حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه، وإلحاق

= الملك عند قائله ليس ضرورياً، ولا عقلياً نظرياً، ولكن سمعياً، وقد قنع في الاستدلال على هذه العقيدة، بالضرورة التي ادعى أنها مركوزة في الطباع، ثم حكم بأن كل مركوز في الطباع حق، وخصوصاً والكلام في طباع النساء القائلات: ما هذا بشراً، وإذا كان كل مركوز في الطباع حقاً، فما ركز فيها حب الشهوات، وإيثار العاجلة، وجميع أمهات الذنوب مركوز في الطباع، أفيكون ذلك حقاً، إلا عند ناظر بعين الهوى، أعشى في سبيل الهدى؟ والله ولي التوفيق.

(1) سورة المجادلة، الآية: 2.

(2) قال أحمد: وبهذا أجبت عما أورده من السؤال في قوله تعالى أوّل البقرة: ﴿الم ذلك الكتاب﴾ لما جعل الإشارة إلى الحروف المذكورة، فقال: إن قلت: كيف أشار إليها وهي قريبة، كما يشار إلى البعيد؟ وأجاب: هو بأن كل متقض بعيد، وأجبت أنا: بأن الإشارة بذلك، إلى بعد منزلة هذا الكتاب، بالنسبة إلى كتب الله تعالى.

الصغار به كما أوعدته به، وذلك لما أيست من طاعته لها أو لطمعها في أن يذلله السجن ويسخره لها، وفي قراءة الحسن: لتسجننه بالتاء على الخطاب خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم ﴿حتى حين﴾ إلى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زمانًا حتى تبصر ما يكون منه، وفي قراءة ابن مسعود: عتى حين وهي لغة هذيل، وعن عمر رضي الله عنه: أنه سمع رجلاً يقرأ عتى حين فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود. فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربيًا وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل. والسلام.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

مع: يدل على معنى الصحبة واستحداثها تقول: خرجت مع الأمير تريد: مصاحبًا له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿فتيان﴾ عبدان للملك خبازه وشرابيه، رقي إليه أنهما يسمانه فأمر بهما إلى السجن فأدخلا السجن ساعة أدخل يوسف عليه السلام ﴿إني أراني﴾ يعني: في المنام وهي حكاية حال ماضية ﴿أعصر خمرًا﴾ يعني: عنبًا تسمية للعنب بما يؤل إليه، وقيل: الخمر بلغة عمان اسم للعنب، وفي قراءة ابن مسعود: أعصر عنبًا ﴿من المحسنين﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا أي: يجيدونها، رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤوّلها له فقالا له ذلك، أو من العلماء لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فأحسن إلينا: بأن تفرّج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا. روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا أضاق أوسع له، وإذا احتاج جمع له، وعن قتادة: كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم، وطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا اصبروا تؤجروا إن لهذا لأجرًا، فقالوا: بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفيّ الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت خليت سبيلك ولكني أحسن جوارك فكن في أيّ بيوت السجن شئت. وروي أن الفتيين قالا له: إنا لنحبك من حين رأيناك، فقال: أنشدكما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء. لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من حبها بلاء، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء، ثم أحبتني زوجة صاحبي فدخل عليّ من حبها بلاء، فلا تحباني بارك الله فيكما. وعن الشعبي: أنهما تحالما ليمتحناه، فقال الشرابي: إني أراني في بستان فإذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته، وقال الخباز: إني أراني وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة وإذا سباع الطير تنهش منها.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿نبئنا بتاويله﴾؟ قُلْتُ: إلى ما قصا عليه، والضمير يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه كأنه قيل: نبئنا بتأويل ذلك.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترص ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما، ويصفه لهما ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصًا إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أوّلاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه: أنّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين لم يكن من باب التزكية ﴿بتاويله﴾ ببيان ماهيته وكيفيته؛ لأنّ ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿ذلكما﴾ إشارة لهما إلى التأويل أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿مما علمني ربي﴾ وأوحى به إليّ ولم أقله عن تكهن وتنجم ﴿إني تركت﴾ يجوز أن يكون كلامًا مبتدأ، أو أن يكون تعليلاً لما قبله، أي: علمني ذلك وأوحى إليّ، لأني رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين وهي: الملة الحنيفية، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصًا كافرون بالآخرة وأنّ غيرهم كانوا قومًا مؤمنين بها، وهم الذين على ملة إبراهيم ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهًا على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته، وأنّ ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء، وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوّة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله: ﴿ما كان لنا﴾ ما صحّ لنا معشر الأنبياء ﴿أن نشرك بالله﴾ أي شيء كان من ملك، أو جني، أو إنسي، فضلاً أن نشرك به صنمًا لا يسمع ولا يبصر ثم قال: ﴿ذلك﴾ التوحيد ﴿من فضل الله علينا

وعلى الناس﴾ أي: على الرسل، وعلى المرسل إليهم؛ لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه ﴿ولكن أكثر الناس﴾ المبعوث إليهم ﴿لا يشكرون﴾ فضل الله فيشركون ولا يتنبهون وقيل: إنّ ذلك من فضل الله علينا؛ لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدلّ بها، وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعًا لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين.

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾.

﴿يا صاحبي السجن﴾ يريد: يا صاحبي في السجن فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أنّ الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره وهو: يوسف عليه السلام، ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبَي الصدق فتضيفهما إلى الصدق ولا تريد أنهما صحبا الصدق ولكن كما تقول رجلا صدق وسميتهما صاحبين؛ لأنهم صحباك ويجوز أن يريد: يا ساكنَي السجن، كقوله: ﴿أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾[1] ﴿أأرباب متفرقون﴾ يريد التفرق في العدد والتكاثر يقول: أأن تكون لكما أرباب شتى يستعبد كما هذا ويستعبد كما هذا ﴿خير﴾ لكما ﴿أم﴾ أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية بل هو ﴿القهار﴾ الغالب، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام.

مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾.

﴿ما تعبدون﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر ﴿إلا أسماء﴾ يعني: أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها ومعنى ﴿سميتموها﴾ سميتم بها يقال: سميته بزيد وسميته زيدًا ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي: بتسميتها ﴿من سلطان﴾ من حجة ﴿إن الحكم﴾ في أمر العبادة والدين ﴿إلا لله﴾ ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أمر ألا تعبدوا إلاّ إياه ذلك الدين القيم﴾ الثابت الذي دلت عليه البراهين.

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾.

﴿أمّا أحدكما﴾ يريد الشرابي ﴿فيسقي ربه﴾ سيده، وقرأ عكرمة: فيسقي ربه أي يسقي ما يروي به على البناء للمفعول، روي أنه قال للأوّل: ما رأيت من الكرامة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده، أما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل ﴿قضي الأمر﴾ قطع وتم ما ﴿تستفتيان﴾ فيه من أمركما وشأنكما.

فإن قُلْتَ: ما استفتيا في أمر واحد بل في أمرين مختلفين فما وجه التوحيد؟ قُلْتُ: المراد بالأمر ما اتهما به من سم الملك وما سجنا من أجله وظنا أن ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك؟ فقال لهما: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي: ما يجر إليه من العاقبة وهي: هلاك أحدهما ونجاة الآخر، وقيل: جحدا وقالا: ما رأينا شيئًا على ما روي أنهما تحالما له، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿ظن أنه ناج﴾ الظان هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرابي، أو يكون الظنّ بمعنى اليقين ﴿اذكرني عند ربك﴾ صفني عند الملك بصفتي وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة ﴿فأنساه الشيطان﴾ فأنسي الشرابي ﴿ذكر ربه﴾ أن يذكره لربه، وقيل: فأنسي يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره ﴿بضع سنين﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين.

فإن قُلْتَ: كيف يقدر الشيطان على الإنساء؟ قُلْتُ: يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجلّ ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾[2].

فإن قُلْتَ: ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك، وما هي إضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟ قُلْتُ: قد لابسه في قولك: فأنساه الشيطان ذكره لربه أو عند ربه فجازت إضافته إليه؛ لأن الإضافة تكون أدنى ملابسة، أو على تقدير فأنساه الشيطان ذكر إخبار ربه فحذف المضاف الذي هو: الإخبار.

فإن قُلْتَ: لم أنكر على يوسف الاستعانة بغير الله في كشف ما كان فيه وقد قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى﴾[3] وقال حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿من

---

(1) سورة الحشر، الآية: 20.

(2) سورة البقرة، الآية: 106.

(3) سورة المائدة، الآية: 2.

انصاري إلى الله﴾[1] وفي الحديث: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم». «ومن فرّج عن مؤمن كربة فرّج الله عنه كربة من كرب الآخرة»[2]. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ لم يأخذه النوم ليلة من الليالي، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فسمعت غطيطه[3]، وهل ذلك إلا مثل التداوي بالأدوية، والتقوي بالأشربة والأطعمة، وإن كان ذلك لأنّ الملك كان كافرًا فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق ونحو ذلك من المضار؟ قُلْتُ: كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على خليقته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاها، والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلي ببلاء إلا إلى ربه ولا يعتضد إلا به خصوصًا إذا كان المعتضد به كافرًا لئلا يشمت به الكفار ويقولوا: لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا، وعن الحسن أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

لما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعًا أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها ﴿سمان﴾ جمع سمين وسمينة وكذلك رجال ونسوة كرام.

فإن قُلْتَ: هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للمميز وهو بقرات دون المميز وهو سبع وأن يقال: سبع بقرات سمان؟ قُلْتُ: إذا أوقعتها صفة لبقرات فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهن لا بجنسهن، ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن.

فإن قُلْتَ: هلا قيل سبع عجاف على الإضافة؟ قُلْتُ: التمييز موضوع لبيان الجنس والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده.

فإن قُلْتَ: فقد يقولون: ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب؟ قُلْتُ: الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها، ألا تراك لا تقول: عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ.

فإن قُلْتَ: ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه، ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف لوقوع العلم بأن المراد البقرات؟ قُلْتُ: ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل، وقد وقع الاستغناء بقولك: سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف، والعجف الهزال الذي ليس بعده والسبب في وقوع عجاف جمعًا لعجفاء، وأفعل وفعلاء، لا يجمعان على فعال حمله على سمان لأنه نقيضه، ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض.

فإن قُلْتَ: هل في الآية دليل على أنّ السنبلات اليابسات كانت سبعًا كالخضر؟ قُلْتُ: الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف، والسنابل الخضر، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ويكون قوله: وأخر يابسات بمعنى: وسبعًا أخر.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يعطف قوله: ﴿وأخر يابسات﴾ على ﴿سنبلات خضر﴾ فيكون مجرور المحل؟ قُلْتُ: يؤدي إلى تدافع وهو: أنّ عطفها على سنبلات خضر يقتضي أن تدخل في حكمها فتكون معها مميزًا للسبع المذكورة، ولفظ الأخر يقتضي أن تكون غير السبع بيانه أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وقعود بالجر فيصح؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود على أنّ بعضهم قيام وبعضهم قعود، فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود تدافع ففسد ﴿يا أيها الملأ﴾ كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء. واللام في قوله: ﴿للرؤيا﴾ إما أن تكون للبيان كقوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾[4] وإما أن تدخل؛ لأنّ العامل إذا تقدّم عليه معموله لم يكن في قوّته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل إذا قلت هو عابر للرؤيا لانحطاطه عن الفعل في القوة، ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما تقول كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكنًا منه و﴿تعبرون﴾ خبر آخر أو حال وأن يضمن تعبرون معنى فعل يتعدى باللام كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا، وحقيقة عبرت الرؤيا: ذكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول: عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره، ونحوه: أولت الرؤيا. إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها، وعبرت الرؤيا بالتخفيف: هو الذي اعتمده الأثبات، ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 52، وسورة الصف، الآية: 14.

(2) رواه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (الحديث رقم: 6793).

(3) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الحراسة في الغزو...=

= (الحديث رقم: 2885) ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد، (الحديث رقم: 6181).

(4) سورة يوسف، الآية: 20.

الأعراب:

رأيت رؤيا ثم عبرتها وكنت للأحلام عبارًا

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾.

﴿اضغاث أحلام﴾ تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس، أو وسوسة شيطان، وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم، الواحد ضغث، فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى من أي: أضغاث من أحلام، والمعنى هي أضغاث أحلام.

فإن قلت: ما هو إلا حلم واحد فلم قالوا: **﴿اضغاث أحلام﴾** فجمعوا؟ **قلت:** هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز لمن لا يركب إلا فرسًا واحدًا، وما له إلا عمامة فردة تزيدًا في الوصف، فهؤلاء أيضًا تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه أضغاث أحلام، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها **﴿وما نحن بتاويل الأحلام بعالمين﴾** إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة[1] فيقولوا ليس لها عندنا تأويل فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾.

قرئ **﴿وادّكر﴾** بالدال وهو الفصيح، وعن الحسن: واذكر بالذال المعجمة والأصل تذكر أي: تذكر الذي نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهد منه **﴿بعد أمّة﴾** بعد مدة طويلة وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملأ تأويلها تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه إليه أن يذكره عند الملك، وقرأ الأشهب العقيلي: بعد إمة بكسر الهمزة والأمّة: النعمة قال عدي:

ثم بعد الفلاح والملك والأمـ ـة وارتهم هناك القبور

أي: بعد ما أنعم عليه بالنجاة وقرئ: بعد أمة بعد نسيان يقال: أمه يأمه أمهًا إذا نسي، ومن قرأ: بسكون الميم فقد خطئ **﴿أنا أنبئكم بتاويله﴾** أنا أخبركم به عمن عنده علمه، وفي قراءة الحسن: أنا آتيكم بتأويله **﴿فارسلون﴾** فابعثوني إليه لأسأله ومروني باستعباره، وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾.

المعنى فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال: **﴿يوسف أيها الصديق﴾** أيها البلغ في الصدق وإنما قال له ذلك؛ لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه، ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل، ولذلك كلمه كلام محترز فقال **﴿لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾** لأنه ليس على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه، ولا من علمهم فربما لم يعلموا، أو معنى لعلهم يعلمون: لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾.

﴿تزرعون﴾ خبر في معنى الأمر كقوله: **﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون﴾**[2] وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: **﴿فذروه في سنبله﴾** **﴿دأبًا﴾** بسكون الهمزة وتحريكها وهما مصدرا دأب في العمل وهو: حال من المأمورين أي: دائبين، إمّا على تدأبون دأبًا، وإمّا على إيقاع المصدر حالاً بمعنى: نوي دأب **﴿فذروه في سنبله﴾** لئلا يتسوّس و **﴿ياكلن﴾** من الإسناد المجازي جعل أكل أهلهنّ مسند إليهنّ **﴿تحصنون﴾** تحرزون وتخبئون **﴿يغاث الناس﴾** من الغوث أو من الغيث يقال: غيثت البلاد إذا مطرت ومنه قول الأعرابية: غثنا ما شئنا **﴿يعصرون﴾** بالياء والتاء يعصرون العنب والزيتون والسمسم، وقيل: يحلبون الضروع، وقرئ يعصرون على البناء للمفعول من عصره إذا أنجاه وهو مطابق للإغاثة، ويجوز أن يكون المعنى للفاعل بمعنى: ينجون كأنه قيل: فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم أي: يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضًا، وقيل: يعصرون يمطرون من أعصرت السحابة وفيه وجهان: إمّا: أن يضمن أعصرت معنى: مطرت فيعدّى تعديته، وإمّا: أن يقال: الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل. تأوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأنّ العام الثامن يجيء مباركًا خصيبًا كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحي، وعن قتادة: زاده الله علم سنة.

---

(1) قال أحمد: وهذا هو الظاهر، وحمل للكلام على الأوّل يصيره من وادي، على لا حب يهتدى بمناره. كأنهم قالوا: لا تأويل للأحلام الباطلة، فنكون عالمين، وقول الملك لهم أوّلاً: إن كنتم للرؤيا تعبرون، دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها؛ لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور، مطابقاً لشك الملك، الذي= أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا، أو لا، وقول الفتى: أنا أنبئكم بتأويله، إلى قوله لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون، دليل أيضاً على ذلك، والله أعلم.

(2) سورة الصف، الآية: 11.

فإن **قُلْتَ**:معلوم أنّ السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب وإلا لم توصف بالانتهاء، فلم قلت إن علم ذلك من جهة الوحي؟ **قُلْتُ**:ذلك معلوم علمًا مطلقًا لا مفصلاً وقوله: ﴿**فيه يغاث الناس وفيه يعصرون**﴾ تفصيل لحال العام وذلك لا يعلم إلا بالوحي. إنما تأتي وتثبت في إجابة الملك[1]، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلمًا إلى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا: ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكّف شرّه، وفيه دليل على أنّ الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها قال عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم»[2] ومنه قال رسول الله ﷺ للمارّين به في معتكفه وعنده بعض نسائه «هي فلانة»[3] اتقاء للتهمة. وعن النبي ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر»[4] إن كان لحليمًا ذا أناة وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة ولم يقل: سله أن يفتش عن شأنهنّ؛ لأنّ السؤال مما يهيج الإنسان ويحرّكه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة وقصّ الحديث حتى يتبين له براءته بيانًا مكشوفًا يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ: النسوة بضم النون، ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهنّ ﴿**إنّ ربي**﴾ إنّ الله تعالى ﴿**بكيدهنّ عليم**﴾ أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله لبعد غوره، أو استشهد بعلم الله على أنّهنّ كذنه وأنه بريء مما قرف به، أو أراد الوعيد لهنّ أي: هو عليم بكيدهنّ فمجازيهنّ عليه.

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾.

﴿**ما خطبكنّ**﴾ ما شأنكنّ ﴿**إذ راودتنّ يوسف**﴾ هل وجدتنّ منه ميلاً إليكنّ ﴿**قلن حاش لله**﴾ تعجبًا من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها ﴿**قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق**﴾ أي: ثبت واستقرّ، وقرئ حصحص على البناء للمفعول وهو من حصحص البعير إذا ألقى ثفناته للإناخة قال:

فحصحص في صم الصفا ثفناته[5] وناء بسلمى نوءة ثم صمما

ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة[6] واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفته به لأنهنّ خصومه، وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال، وقالت المجبرة والحشوية: نحن قد بقي لنا مقال ولابدّ لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته.

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾.

﴿**ذلك ليعلم**﴾ [7]من كلام يوسف أي: ذل التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز ﴿**أني لم أخنه**﴾ بظهر الغيب في حرمته. ومحل ﴿**بالغيب**﴾ الحال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه خفي عن عينه، أو وهو غائب عني خفيّ عن عيني، ويجوز أن يكون ظرفًا أي: بمكان الغيب وهو: الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة ﴿**و**﴾ ليعلم ﴿**أن الله لا يهدي كيد الخائنين**﴾ لا ينفذه ولا يسدده وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها وبه في خيانته أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ويجوز أن يكون تأكيدًا لأمانته وأنه لو كان خائنًا لما هدى الله كيده ولا سدده.

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾.

---

(1) قال أحمد: ولقد مدحه النبي ﷺ على هذه الأناة بقوله: «ولو لبثت في السجن بعض ما لبث يوسف، لأجبت الداعي»، وكان في طي هذه المدحة بالأناة والتثبت، تنزيهه، وتبرئته، مما لعله يسبق إلى الوهم، من أنه همّ بزليخا هماً يؤاخذ به؛ لأنه إذا صبر، وتثبت فيما له أن لا يصبر فيه، وهو الخروج من السجن، مع أنّ الدواعي متوفرة على الخروج منه، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم، أولى وأجدر، والله أعلم.

(2) يأتي في سورة الأحزاب.

(3) رواه البخاري في كتاب: الاعتكاف، باب: زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، (الحديث رقم: 2038) ومسلم في كتاب: السلام باب: بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة.. (الحديث رقم: 5643).

(4) الطبري، وإسحاق بن راهويه وعبد الرزاق في تفسيره (الزيلعي) 168/2.

(5) ثفناته: هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ كالركبتين وغيرهما، كذا في الصحاح.

(6) قال أحمد: الصحيح من مذاهب أهل السنة، تنزيه أهل الأنبياء عن الكبائر والصغائر جميعاً، وتتعب الآي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل، وذهب منهم طائفة مع القدرية، إلى تجويز الصغائر عليهم، بشرط أن لا تكون منفرة، والصحيح عندنا في قصة يوسف عليه السلام، أنه مبرأ عن الوقوع فيما يؤاخذ به، وإن الوقف عند قوله: همت به، ثم يبتدأ وهمّ بها، لولا أن رأى برهان ربه، كما تقول: قتلت زيداً، لولا أنني أخاف الله، فلا يكون الهمّ واقعاً لوجود المانع معه، وهو: رؤية البرهان، فإن كان الزمخشري يعرّض بأهل السنة، فقد بينا معتقدهم، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة، فشأنه وإياهم.

(7) قال أحمد: وإرادته لعموم الأحوال، أدخل في تنزيهه، وأدل على أن الغرض بهذا الكلام التواضع منه، من التبري من تزكية النفس، فهو أدل على هذا المعنى، من حمله على الحادثة الخاصة، والله أعلم.

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكيًا وبحالها في الأمانة معجبًا ومفتخرًا، كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1] وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال ﴿وما أبرئ نفسي﴾ من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها، ولا يخلو إمّا أن يريد في هذه الحادثة لما ذكرنا من الهمّ الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم، وإمّا أن يريد عموم الأحوال ﴿إن النفس لأمّارة بالسوء﴾ أراد الجنس أي: إنّ هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات ﴿إلا ما رحم ربي﴾ إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة، ويجوز أن يكون ما رحم في معنى الزمان أي إلا وقت رحمة ربي يعني: أنها أمارة بالسوء في كل وقت وأوان إلا وقت العصمة ويجوز أن يكون استثناء منقطعًا أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة كقوله: ﴿ولا هم ينقذون * إلا رحمة﴾[2] وقيل معناه: ذلك ليعلم أني لم أخنه؛ لأنّ المعصية خيانة، وقيل[3]: هو من كلام امرأة العزيز أي: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة فإني قد خنته حين فرقته وقلت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن﴾[4] وأودعته السجن، تريد الاعتذار مما كان منها، إنّ كل نفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي إلا نفسًا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿إنّ ربي غفور رحيم﴾ استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟ قُلْتُ: كفى بالمعنى دليلاً قائلاً إلى أن يجعل من كلامه ونحوه قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾[5] ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾[6] ثم قال: ﴿فماذا تأمرون﴾[7] وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم، وعن ابن جريج: هذا من تقديم القرآن وتأخيره ذهب إلى أن ذلك ليعلم متصل بقوله: ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ﴾[8] ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة[9] فزعموا أن يوسف حين قال: إني لم أخنه بالغيب، وقال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف؟ وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾.

يقال: استخلصه واستخصه: إذا جعله خالصًا لنفسه وخاصًا به ﴿فلما كلمه﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿قال﴾ أيها الصديق ﴿إنك اليوم لدينا مكين﴾ ذو مكانة ومنزلة ﴿أمين﴾ مؤتمن على كل شيء، وروي: أنّ الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهله: اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات، وكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابًا جددًا، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يتكلم بسبعين لسانًا فكلمه بها فأجابه بجميعها، فتعجب منه وقال: أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك، فقال: رأيت بقرات فوصف لونهنّ وأحوالهنّ ومكان خروجهنّ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفًا، وقال له: من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء، فيأتيك الخلق من النواحي، يمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.

قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾.

﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ ولّني خزائن أرضك ﴿إني حفيظ عليم﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف وصفًا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما

---

(1) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (الحديث رقم: 5899) وابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث رقم: 6242) والترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ (الحديث رقم: 3615).

(2) سورة يس، الآيتان: 43، 44.

(3) قال أحمد: وإنما يجري الكلام على هذا الوجه، إذا ألجأ إليه محوج، كقوله: فماذا تأمرون إذ لا يمكن جعله من قول الملأ بوجه، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون، وأما هذه الآية، فهي تتلو قوله وإنه لمن الصادقين إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في: ليعلم على العزيز، وجعله من كلام يوسف، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا، وذلك قوله: قالت امرأة العزيز، وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها، ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك، وأنه لما تحتمت براءته= بقولها، بعث يخرجه من السجن، فذلك قوله: ﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾.

(4) سورة يوسف، الآية: 25.

(5) سورة الأعراف، الآية: 109.

(6) سورة الشعراء، الآية: 35.

(7) سورة الأعراف، الآية 11.

(8) سورة يوسف، الآية: 50.

(9) قال أحمد: ولقد صدق في التوريك على ما نقلة هذه الزيادات بالبهت، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة، كما لفقت القدرية على قصة موسى، حين طلب الرؤية وخرّ صعقاً، أنّ الملائكة جعلت تلكزه بأرجلها، وتقول: يا ابن النساء الحيض، طمعت في رؤية ربّ العزة، كل ذلك ليتمّ لهم غرضهم، في أنه طلب لهم محالاً في العقول على الله تعالى، ويحقّ الله الحقّ بكلماته، ويبطل الباطل والله الموفق.

طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا، وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة»[1].

فإن قلت: كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ويكون تبعًا له وتحت أمره وطاعته؟ **قلت**: روى مجاهد: أنه كان قد أسلم، وعن قتادة: هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر. وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه، وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق، فله أن يستظهر به، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر **﴿مكنا ليوسف﴾** في أرض مصر، روي أنها كانت أربعين فرسخًا في أربعين **﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾** قرئ: بالنون والياء أي: كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبوأ له لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه، وروي أنّ الملك توجه وختمه بخاتمة ورداه بسيفه ووضع له سريرًا من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، وروي أنه قال له: أما السرير فأشد به ملكك، وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فقال: قد وضعته إجلالاً لك وإقرارًا بفضلك، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوض الملك إليه أمره، وعزل قطفير ثم مات بعد فزوجه الملك امرأته زليخا، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيرًا مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين: إفرائيم وميشا، وأقام العدل بمصر، وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعًا، فقالوا: والله ما رأينا كاليوم ملكًا أجل ولا أعظم منه، فقال للملك: كيف رأيت صنع الله بي فيما خولتني فما ترى؟ قال: الرأي رأيك. قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطًا بين الناس. وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين **﴿برحمتنا﴾** بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم **﴿من نشاء﴾** من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك **﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾** أن نأجرهم في الدنيا **﴿ولأجر الآخرة خير﴾** لهم، قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق وتلا هذه الآية.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

لم يعرفوه[2] لطول العهد ومفارقته إياهم في سنّ الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقوه عليها طريحًا في البئر مشريًا بدراهم معدودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم، ولأن الملك مما يبدّل الزيّ ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف، وقيل: رأوه على زيّ فرعون عليه ثياب الحرير جالسًا على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج فما خطر ببالهم أنه هو، وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال، ورأى زيهم قريبًا من زيهم إذ ذاك؛ ولأنّ همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم فكان يتأمّل ويتفطن، وعن الحسن: ما عرفهم حتى تعرفوا له.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي: أصلحهم بعدتهم وهي عدّة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاؤا من الميرة، وقرئ: بجهازهم بكسر الجيم **﴿قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾** لابدّ من مقدمة سبقت له معهم حتى اجتر القول هذه المسألة، وروي: أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم فإني أنكركم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: جئتم عيونًا تنظرون عورة بلادي؟ قالوا: معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فهلك منا واحد، قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون، وأن الذي تقولون حق؟ قالوا: إننا ببلاد لا يعرفنا

---

(1) أخرجه الثعالبي والواحدي في تفسيره.

(2) قال أحمد: وتوارد القادمين في دخولهم عليه، ومعرفته لهم، عند = ذلك تدل على أنّ مجرد دخولهم عليه، استعقبته المعرفة بلا مهلة، والله أعلم.

فيها أحد فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأيًا في يوسف فخلفوه عنده، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿ولا تقربون﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكون داخلاً في حكم الجزاء مجزومًا عطفًا على محل قوله: ﴿فلا كيل لكم﴾ كأنه قيل: فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا، وأن: يكون بمعنى النهي ﴿سنراود عنه أباه﴾ سنخادعه عنه وسنجتهد ونحتال حتى ننتزعه من يده ﴿وإنا لفاعلون﴾ وإنا لقادرون على ذلك لا نتعايا به، أو وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿لفتيته﴾ قرئ: لفتيانه وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ، وفعلة للقلة وفعلان للكثرة، أي: لغلمانه الكيالين ﴿لعلهم يعرفونها﴾ لعلهم يعرفون حق ردّها وحق التكرم بإعطاء البدلين ﴿إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، وكانت بضاعتهم النعال والأدم، وقيل: تخوف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به، وقيل: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنًا، وقيل: علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وقيل: معنى ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعلهم يردونها.

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿منع منا الكيل﴾ يريدون قول يوسف: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ لأنهم إذا انذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل ﴿نكتل﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه، وقرئ: يكتل بمعنى: يكتل أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالنا، أو يكن سببا للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾.

﴿هل آمنكم عليه﴾ يريد أنكم قلتم في يوسف ﴿وإنا له لحافظون﴾[1] كما تقولونه في أخيه ختنم بضمانكم، فما يؤمني من مثل ذلك؟ ثم قال: ﴿فالله خير حافظًا﴾ فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم، وحافظًا تمييز كقوله: هو خيرهم رجلاً، ولله درّه فارسًا، ويجوز أن يكون حالاً وقرئ: حفظًا، وقرأ الأعمش: فالله خير حافظ، وقرأ أبو هريرة: خير الحافظين ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فارجو أن ينعم عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين.

وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾.

وقرئ: ردت إلينا بالكسر على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء كما في قيل وبيع، وحكي قطرب: ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد ﴿ما نبغي﴾ للنفي أي: في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، أو ما نبتغي شيئًا وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو على الاستفهام بمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا، وفي قراءة ابن مسعود: ما تبغي بالتاء على مخاطبة يعقوب، معناه أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان أو من الشاهد على صدقنا، وقيل معناه: ما نريد منك بضاعة أخرى وقوله: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله: ﴿ما نبغي﴾ والجمل بعدها معطوفة عليها على معنى إن بضاعتنا ردت إلينا فنستظهر بها ﴿ونمير أهلنا﴾ في رجوعنا إلى الملك ﴿ونحفظ أخانا﴾ فما يصيبه شيء مما تخافه، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائدًا على أوساق أباعرنا، فأي شيء نبتغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا، وإنما قالوا: ﴿ونزداد كيل بعير﴾ لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط.

فإن قُلْتَ: هذا إذا فسرت البغي بالطلب، فأما إذا فسرته بالكذب والتزيد في القول كانت الجملة الأولى وهي قوله: ﴿هذه بضاعتنا ردّت إلينا﴾ بيانًا لصدقهم، وانتفاء التزيد عن قيلهم فما تصنع بالجمل البواقي؟ قُلْتُ: أعطفها على قوله ﴿ما نبغي﴾ على معنى لا نبغي فيما نقول ونمير أهلنا وتفعل كيت وكيت، ويجوز أن يكون كلامًا مبتدأ كقولك: وينبغي أن نمير أهلنا كما تقول: سعيت في حاجة فلان واجتهدت في تحصيل غرضه، ويجب أن أسعى وينبغي لي أن لا أقصر، ويجوز أن يراد ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع بيانًا لأنهم لا يبغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه وهو وجه حسن وأوضح ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: ذلك مكيل قليل لا يكفينا يعنون ما يكال لهم، فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير أي: ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاظمه، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب وأن حمل بعير واحد شيء يسير

(1) سورة يوسف، الآية: 12.

لا يخاطر لمثله بالولد كقوله: ﴿ذلك ليعلم﴾[1].

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾.

﴿لن أرسله معكم﴾[2] مناف لحالي وقد رأيت منكم ما رأيت إرساله معكم ﴿حتى تؤتون موثقًا من الله﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أراد أن يحلفوا له بالله، وإنما جعل الحلف بالله موثقًا منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدد، وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه ﴿لتأتنني به﴾ جواب اليمين؛ لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتنني به ﴿إلا أن يحاط بكم﴾[3] إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به أو إلا أن تهلكوا.

فإن قُلْتَ: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء فيه إشكال؟ قُلْتُ: ﴿أن يحاط بكم﴾ مفعول له والكلام المثبت الذي هو قوله: ﴿لتأتنني به﴾ في تأويل النفي معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم أي: لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة وهي أن يحاط بكم فهو استثناء من أعم العام في المفعول له، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده فلابد من تأويله بالنفي، ونظيره من الإثبات المتأوّل بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت تريد: ما أطلب منك إلا الفعل ﴿على ما نقول﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿وكيل﴾ رقيب مطلع.

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾.

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد؛ لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود وأن يشار إليهم بالأصابع ويقال: هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر ما أكرمهم الملك وقربهم وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور فيصيبهم ما يسوؤهم، ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرّة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس.

فإن قُلْتَ: هل للإصابة بالعين وجه تصحّ عليه؟ قُلْتُ: يجوز أن يحدث الله عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصانًا فيه وخللاً من بعض الوجوه ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحانًا لعباده ليتميز المحققون من أهل الحشو فيقول المحقق: هذا فعل الله، فيقول الحشوي: هو أثر العين كما قال تعالى: ﴿وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾[4] الآية. وعن النبي ﷺ: «إنه كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كل عين لامة ومن كل شيطان وهامة»[5]. ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ يعني: إن أراد الله بكم سوءًا لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق وهو مصيبكم لا محالة ﴿إن الحكم إلا الله﴾ ثم قال ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ أي: متفرّقين ﴿ما كان يغني عنهم﴾ رأي يعقوب ودخولهم مترّقين شيئًا قط حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرّقهم، من إضافة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿إلا حاجة﴾ استثناء منقطع على معنى ولكن حاجة ﴿في نفس يعقوب قضاها﴾ وهي شفقته عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به ﴿وإنه لذو علم﴾ يعني قوله: ﴿وما أغني عنكم﴾ وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿آوى إليه أخاه﴾ ضم إليه بنيامين، وروي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًا لأجلسني معه، فقال

---

(1) سورة يوسف، الآية: 52.

(2) قال أحمد: لن للنفي المؤكد، وأما قول الزمخشري في المنافاة له، فله وراء ذلك غرض، إنما يطلع عليه من قل كلامه علماً، وذلك أنه اعتمد في إحالة الرؤية على الله تعالى، على أن قوله تعالى: ﴿لن تراني﴾ معناه: أن الرؤية منافية لحالي، وجعل هذا المنافاة من مقتضى لن، ثم التزم ذلك في هذه اللفظة حيثما وقعت، كل ذلك لتمرّن الأذهان على أن هذا مقتضى لن، وقد سبق وجه الردّ عليه في ذلك.

(3) قال أحمد: وإنما اختصّ هذا النوع من الاستثناء بالنفي؛ لأن المستثنى منه، مسكوت عنه، والنفي عام، إذ يلزم من نفي الإتيان. مثلاً: نفي جميع العوارض اللاحقة به ضرورة، فكأنه لعمومه = مقرون بذكر المستثنى منه، ولا كذلك الإتيان، فإنه لا إشعار له بعموم الأحوال؛ لأنه لا يتوقف إلا على أحدها، والله أعلم، ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم: البلاء موكل بالمنطق، فإن يعقوب عليه السلام قال أوّلاً في حق يوسف: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ فابتلي من ناحية هذا القول، وقال ههنا ثانياً: إلا أن يحاط بكم، أي تغلبوا عليه، فابتلي أيضاً بذلك، وأحيط بهم، وغلبوا عليه.

(4) سورة المدثر، الآية: 31.

(5) رواه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: (10) (الحديث رقم: 3371) وأبو داود في كتاب: السنة باب: في القرآن (الحديث رقم: 3737).

يوسف: بقي أخوكم وحيدًا فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكله وقال: أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتًا وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخًا مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له: ﴿إني أنا أخوك﴾ يوسف ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ بنا فيما مضى فإنّ الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمتك. وعن ابن عباس: تعرف إليه. وعن وهب: إنما قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم، وروي أنه قال له: فأنا لا أفارقك، قال: قد علمت اغتمام والدي بي فإذا حبستك ازداد غمه ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك، قال: فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته ليهيأ لي ردك بعد تسريحك معهم، قال: افعل.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾.

﴿السقاية﴾ مشربة يسقى بها وهي: الصواع. قيل: كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعًا يكال به، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها، وقيل: كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك، وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم، وقيل: كانت من فضة مموهة بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر ﴿ثم أذن مؤذن﴾ ثم نادى مناد، يقال آذنه أعلمه، وأذن أكثر الإعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه. وروي: أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا ثم قيل لهم ذلك. والعير الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنها تعير أي: تذهب وتجيء، وقيل: قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل كسقف وسقف فعل به ما فعل ببيض وعيد والمراد: أصحاب العير، كقوله: يا خيل الله اركبي. وقرأ ابن مسعود: وجعل السقاية على حذف جواب لما كأنه قيل: فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ثم أذن مؤذن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: تفقدون من أفقدته إذا وجدته فقيدًا. وقرئ: صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها والعين معجمة وغير معجمة ﴿وأنا به زعيم﴾ يقوله المؤذن يريد وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه إلى من جاء به وأراد وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصله.

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿تالله﴾ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم، وإنما قالوا: ﴿لقد علمتم﴾ فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك؛ ولأنهم دخلوا أفواه رواحلهم مكعومة لئلا تتناول زرعًا أو طعامًا لأحد من أهل السوق؛ ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم ﴿وما كنا سارقين﴾ وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا ﴿فما جزاؤه﴾ الضمير للصواع أي: فما جزاء سرقته ﴿إن كنتم كاذبين﴾ في جحودكم وادعائكم البراءة منه ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله﴾ أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة، فلذلك استفتوا في جزائه، وقولهم ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير للحكم أي: فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير كقولك: حق زيد أن يكسي ويطعم وينعم عليه فذلك حقه أي: فهو حقه لتقرر ما ذكرته من استحقاقه وتلزمه، ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، فوضع الجزاء موضع هو كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه من يقعد إلى جنبه فهو هو يرجع الضمير الأوّل إلى من والثاني إلى الأخ، ثم تقول: فهو أخوه مقيمًا للمظهر مقام المضمر، ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف أي: المسؤول عنه جزاؤه ثم أفتوا بقولهم: ﴿من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ كما يقول: من يستفتي في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: ﴿ومن قتله منكم متعمدًا فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾(1).

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾.

﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ قيل: قال لهم: من وكل بهم: لابدّ من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئًا، فقالوا: والله لا نتركه حتى ننظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه. وقرأ الحسن: وعاء أخيه بضم الواو وهي لغة، وقرأ سعيد بن جبير: إعا أخيه بقلب الواو همزة.

---

(1) سورة المائدة، الآية: 95.

فإن قُلْتَ: لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنثه؟ قُلْتُ: قالوا رجع بالتأنيث على السقاية أو أنث الصواع لأنه يذكر ويؤنث، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعًا، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل به منه صواعًا ﴿كذلك كدنا﴾ مثل ذلك الكيد العظيم كدنا ﴿ليوسف﴾ يعني: علمناه إياه وأوحينا به إليه ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ تفسير للكيد وبيان له؛ لأنه كان في دين ملك مصر وما كان يحكم به في السارق: أن يغرم مثلي ما أخذ لا أن يلزم ويستعبد ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي: ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه، وقرئ: يرفع بالياء ودرجات بالتنوين ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ فوقه أرفع درجة منه في علمه، أو وفوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم وهو الله عز وعلا.

فإن قُلْتَ: ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسنًا، فمن أي وجه حسن هذا الكيد، وما هو إلا بهتان وتسريق لمن لم يسرق وتكذيب لمن لم يكذب وهو قوله: ﴿إنكم لسارقون﴾ ﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾؟ قُلْتُ: هو في صورة البهتان وليس ببهتان في الحقيقة؛ لأنّ قوله: ﴿إنكم لسارقون﴾ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف، وقيل: كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف، وقوله: ﴿إن كنتم كاذبين﴾ فرض لانتفاء براءتهم وفرض التكذيب لا يكون تكذيبًا، على أنه لو صرّح لهم بالتكذيب كما صرّح لهم بالتسريق لكان له وجه؛ لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾[1] هذا، وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وخذ بيدك ضغثًا﴾[2] يتخلص من جلدها ولا يحنث وكقول إبراهيم عليه السلام: هي أختي لتسلم من يد الكافر، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلمًا وذريعة إليها فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا.

۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾.

﴿أخ له﴾ أرادوا يوسف، روي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسوّدت وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم. واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة فقيل: كان أخذ في صباه صنمًا لجدّه أبي أمّه فكسره وألقاه بين الجيف في الطريق، وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيرًا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه، وقيل: كانت في المنزل عناق أو دجاجة فأعطاها السائل، وقيل: كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحق، ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمّه وكانت لا تصبر عنه، فلما شبّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقدت منطقة إسحق، فانظروا من أخذها، فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سلم أفعل به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت ﴿فأسرّها﴾ إضمار على شريطة التفسير تفسيره ﴿أنتم شرّ مكانًا﴾ وإنما أنث؛ لأنّ قوله: أنتم شر مكانًا جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة كأنه قيل: فأسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله: أنتم شر مكانًا، والمعنى: قال في نفسه: أنتم شر مكانًا، لأنّ قوله: قال أنتم شر مكانًا بدل من أسرّها، وفي قراءة ابن مسعود: فأسرّه على التذكير يريد القول أو الكلام، ومعنى: أنتم شر مكانًا أنتم شر منزلة في السرق؛ لأنكم سارقون بالصحة لسرقتكم أخاكم من أبيكم ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة وليس الأمر كما تصفون.

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾.

فاستعطفوه بإنكارهم إياه حق أبيهم يعقوب وأنه شيخ كبير السنّ أو كبير القدر وأنّ بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولدًا له قد هلك وهو عليه ثكلان وأنه مستأنس بأخيه ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ فخذه بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ إلينا فأتمم إحسانك، أو من عادتك الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها.

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿معاذ الله﴾ هو كلام موجه ظاهره أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذ غيره كان ذلك ظلمًا في مذهبكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم، وباطنه إنّ الله أمرني وأوحى إليّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالمًا وعاملاً على خلاف الوحي، ومعنى: معاذ الله ﴿أن نأخذ﴾ نعوذ بالله معاذًا من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به

(1) سورة يوسف، الآية: 17.

(2) سورة صّ، الآية: 44.

وحذف من، و﴿إذًا﴾ جواب لهم وجزاء؛ لأن المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿استياسوا﴾ يئسوا وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مرّ في استعصم. والنجي على معنيين: يكون بمعنى: المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى: ﴿وقربناه نجيًا﴾[1] وبمعنى المصدر الذي هو: التناجي كما قيل النجوى بمعناه، ومنه قيل: قوم نجي، كما قيل: ﴿وإذ هم نجوى﴾[2] تنزيلاً المصدر منزلة الأوصاف، ويجوز أن يقال: هم نجي، كما قيل: هم صدّيق؛ لأنه بزنة المصادر وجمع انجية، قال:

إنـي إذا مـا الـقـوم كـانـوا انـجـيـة

ومعنى ﴿خلصوا﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿نجيًا﴾ ذي نجوى، أو فوجًا نجيًا أي: مناجيًا لمناجاة بعضهم بعضًا، واحسن منه انهم تمحضوا تناجيًا لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه بجدّ واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أيّ صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟ كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب فاحتاجوا إلى التشاور ﴿كبيرهم﴾ في السنّ وهو: روبيل، وقيل: رئيسهم وهو: شمعون، وقيل: كبيرهم في العقل والرأي وهو: يهوذا ﴿ما فرّطتم في يوسف﴾ فيه وجوه: أن تكون ما صلة أي: ومن قبل هذا قصر تم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم، وأن تكون مصدرية: على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل، ومعناه: ووقع. من قبل تفريطكم في يوسف، أو النصب عطفًا على مفعول: ألم تعلموا وهو أن اباكم كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقًا وتفريطكم من قبل في يوسف، وأن تكون موصولة: بمعنى ومن قبل هذا ما فرّطتموه أي: قدّمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة ومحله الرفع أو النصب على الوجهين ﴿فلن أبرح الأرض﴾ فلن افارق أرض مصر ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الانصراف إليه ﴿أو يحكم الله لي﴾ بالخروج منها، أو بالانتصاف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنه لا يحكم أبدًا إلا بالعدل والحق.

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾.

وقرئ: سرق أي نسب إلى السرقة ﴿وما شهدنا﴾[3] عليه بالسرقة ﴿إلا بما علمنا﴾ من سرقته وتيقناه؛ لأن الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾[4] وما علمنا انه سيسرق حين أعطيناك الموثق، أو ما علمنا انك تصاب به كما أصبت بيوسف، ومن قرأ سرق فمعناه: وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التشريق، وما كنا للغيب: للأمر الخفي، حافظين: أسرق بالصحة أم دسّ الصاع في رحله ولم يشعر.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿القرية التي كنا فيها﴾ هي مصر أي: ارسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ وأصحاب العير وكانوا قومًا من كنعان من جيران يعقوب، وقيل: من اهل صنعاء. معناه فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم فـ﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمرًا﴾[5] أردتموه، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أنّ السارق

---

(1) سورة مريم، الآية: 52.

(2) سورة الإسراء، الآية: 47.

(3) قال أحمد: إمّا أن يكون مقتضى شرعهم حينئذ، أنّ مجرّد وجود الشيء بيد المدّعى عليه بعد إنكاره، يوجب له أحكام السارق، فيكون العلم على ظاهره إذا، وإمّا أن لا يكون كذلك، فهذا القدر من مجرّد وجوده في رحله، لا يوجب علم كونه سارقاً، وغايته أن يفيد ظناً بيناً، فيكون المراد بالعلم ههنا: الظنّ، وقد ورد مثله، ويكون قولهم: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ تنبيهاً على أن مستندهم فيما قالوه ظنّ بمقتضى ظاهر الحال، وأمّا كشف باطن الأمر الموجب للعلم، فليسوا يدعونه عليه.

(4) قال أحمد: وإنما تلتئم القراءتان على التأويل الذي ذكرته، وهو: انهم إنما أضافوا إليه السرقة، ظناً بمقتضى ظاهر الحال، واحترزوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة، فقالوا: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ فالقراءتان على التأويل المذكور، يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم عليه، وأمّا على غيره من التأويلات المذكورة، فلا تنتظم القراءتان؛ لأنّ مقتضى الأولى الجزم عليه بالسرقة = علماً، ومقتضى الثانية التبري من الجزم، والله أعلم.

(5) قال أحمد: وهذا الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كان قائلاً يقول: هم في الوقعة الأولى، سوّلت لهم انفسهم امراً بلا مراء، وأما في هذه الوقعة الثانية، فلم يتعمدوا في حق بنيامين سواء، ولا أخبروا اباهم إلاّ بالواقع على جليته، وما تركوه بمصر، إلا مغلوبين عن استصحابه، فما وجه قوله ثانياً: ﴿بل سوّلت لكم انفسكم أمراً﴾ كما قال لهم أوّلاً، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير، فلا بدّ من زيد بسط في الجواب، فنقول: كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين، وهم قمن باتهامه لم أسلفوه في حق يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده، لا من دين غيره من الناس، ولا من عادتهم، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فعلم أنّ الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمداً، ليتخلف أخوهم، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل

يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم ﴿بهم جميعًا﴾ بيوسف وأخيه وروبيل أو غيره ﴿إنه هو العليم﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿الحكيم﴾ الذي لم يبتلي بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾.

﴿وتولى عنهم﴾ وأعرض عنهم كراهة لما جاؤا به ﴿يا أسفىٰ﴾ أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإضافة والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعًا غير متعمل فيملح ويبدع ونحوه: ﴿اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم﴾[1] ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾[2] ﴿يحسبون أنهم يحسنون﴾[3] ﴿من سبإ بنبإ﴾[4] وعن النبي ﷺ: «لم تعط أمّة من الأمم ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[5] عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ، الا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وإنما قال ﴿يا أسفىٰ﴾»[6].

فإن قُلْتَ: كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث، والرزء الأحدث أشد على النفس وأظهر اثرًا؟ قُلْتُ: هو دليل على تمادي أسفه على يوسف وأنه لم يقع فائت عنده موقعه. وأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضًا عنده طريًا ولم تنسني أو في المصيبات بعده، ولأنّ الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده فكان الأسف عليه أسفًا على من لحق به ﴿وابيضت عيناه﴾ إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، قيل: قد عميء بصره، وقيل: كان يدرك إدراكًا ضعيفًا. قرىء: من الحزن ومن الحزن، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض فكأنه حدث من الحزن، قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عامًا، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام: «ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف؟ قال: وجد سبعين ثكلى. قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله ساعة قط»[7].

فإن قُلْتَ: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ. قُلْتُ: الإنسان مجبول على أنّ لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون»[8]. وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب، وعن النبي ﷺ: أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل: يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: «ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين: صوت عند الفرح، وصوت عند الترح»[9]. وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره، فقيل له في ذلك: فقال: «ما رأيت الله جعل الحزن عارًا على يعقوب» ﴿فهو كظيم﴾ فهو مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوءهم، فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله: وهو مكظوم: من كظم السقاء إذا شدّة على ملئه والكظم بفتح الظاء مخرج النفس يقال: أخذ بأكظامه.

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾.

﴿تفتؤ﴾ أراد لا تفتؤ فحذف حرف النفي؛ لأنه لا يلتبس بالإثبات؛ لأنه لو كان إثباتًا لم يكن بدمن اللام والنون، ونحوه:

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا

ومعنى لا تفتؤا: لا تزال، وعن مجاهد: لا نفتر من حبه كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين، يقال ما فتئ يفعل، قال أوس:

فما فتئت خيل تثوب وتدعي ويلحق منها لاحق وتقطع

﴿حرضًا﴾ مشفيًا على الهلاك مرضًا، وأحرضته

= أن يدعى عليهم السرقة، فنكروا ما عندهم، ولم يشعروا أنّ المقصود إلزامهم بما قالوا، واتهام من هو، بحيث تتطرق التهمة إله، لا حرج فيه، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد، ويحتمل، والله أعلم، أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم، أنهم جعلوا مجرّد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعيت عليه، فإن كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك، ففتواهم إذاً غير محررة، وهو إشعار بأنهم كانوا حراصاً على ثبوت السرقة عليه، ويؤكد ذلك قولهم: ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه، والله أعلم، وقوله: ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ واقع بمكانه من حالهم، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا، فالعمدة على الجواب الأوّل، والله المستعان.

(1) سورة التوبة، الآية: 38.

(2) سورة الأنعام، الآية: 26.

(3) سورة الكهف، الآية: 104.

(4) سورة النمل، الآية: 22.

(5) سورة البقرة، الآية: 156.

(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصبر على المصائب (الحديث رقم: 9691).

(7) لم يروه الطبري إلا من قول الحسن 2/ 174.

(8) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ «إنا بك لمحزونون»، (الحديث رقم: 1303) ومسلم في صحيحه كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ بالصبيان (الحديث رقم: 5979).

(9) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه (الحديث رقم: 1284)، ومسلم في كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت (الحديث رقم: 2132).

المرض ويستوي فيه الواحد والجمع والمنكر والمؤنث لأنه مصدر، والصفة حرض بكسر الراء ونحوهما: دنف ودنف، جاءت القراءة بهما جميعًا، وقرأ الحسن: حرضًا بضمتين ونحوه في الصفات رجل جنب وغرب.

قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾.

البث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس أي: ينشره، ومنه: باثه أمره وأبثه إياه ومعنى: ﴿إنما أشكو﴾ إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم إنما أشكو إلى ربي داعيًا وملتجئًا إليه فخلوني وشكايتي، وهذا معنى توليه عنهم أي: فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه، وقيل: دخل على يعقوب جار له فقال: يعقوب قد تهشمت وفنيت من السنّ ما بلغ أبوك فقال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ قال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي، فغفر له. فكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ وروي: أنه أوحى إلى يعقوب إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه وإنّ أحب خلقي إليّ الأنبياء ثم المساكين، فاصنع طعامًا وادع عليه المساكين. وقيل: اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب، وروي: أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله هو حيّ فاطلبه. وقرأ الحسن: وحزني بفتحتين، وحزني بضمتين قتادة.

يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ فتعرّفوا منهما وتطلبوا خبرهما، وقرئ: بالجيم كما قرئ بهما في الحجرات، وهما تفعل من الإحساس وهو: المعرفة ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾[1]، ومن الجس وهو: الطلب، ومنه قالوا لمشاعر الإنسان الحواس والجواس ﴿من روح الله﴾ من فرجه وتنفيسه، وقرأ الحسن وقتادة: من روح الله: بالضم أي: من رحمته التي يحيا بها العباد.

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾.

﴿الضر﴾ الهزال من الشدّة والجوع ﴿مزجاة﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارًا لها من أزجيته إذا دفعته وطردته، والريح تزجي السحاب. قيل: كانت من متاع الأعراب صوفًا وسمنًا، وقيل: الصنوبر وحبة الخضراء، وقيل: سويق المقل والأقط، وقيل: دراهم زيوفًا لا تؤخذ إلا بوضيعة ﴿فأوف لنا الكيل﴾ الذي هو حقنا ﴿وتصدّق علينا﴾ وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة، أوزننا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لاتلزمه صدقة؛ لأنّ الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل: كانت تحل لغير نبينا، وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال: ألم تسمع ﴿وتصدق علينا﴾ أراد أنها كانت حلالاً لهم، والظاهر أنهم تمسكنوا له وطلبوا أن يتصدق عليهم ومن ثم رق لهم وملكته الرحمة عليهم فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه وقوله: ﴿إن الله يجزي المتصدّقين﴾ شاهد لذلك لذكر الله وجزائه، والصدقة: العطية التي تبتغي بها المثوبة من الله، ومنه قول الحسن لمن سمعه يقول: اللهم تصدق عليّ: إنّ الله تعالى لا يتصدق، إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب، قل: اللهم أعطني أو تفضل عليّ أو ارحمني.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿قال هل علمتم﴾[2] أتاهم من جهة الدين، وكان حليمًا موفقًا فكلمهم مستفهمًا عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح ﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأنّ علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصيحًا لهم في الدين لا معاتبة وتثريبًا، إيثارًا لحق الله على نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب وينفث المصدور ويتشفى المغيظ المحنق ويدرك ثأره الموتور، فللّه أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها، ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها. وقيل: لم يرد نفي العلم عنهم، لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل سماهم

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 52.

(2) قال أحمد: ومن تلطفه بهم قوله: ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ كالاعتذار عنهم؛ لأنّ فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه، لسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار، لم يلفوا عذراً كهذا، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر نفسه، لم يزد على أن قال: فعلتها إذاً، وأنا من الضالين، وروى أنهم لما قالوا مسنا وأهلنا الضرّ، وتضرعوا إليه، ارفضت عيناه، ثم قال هذا القول، وقيل: أتوا إليه كتاباً من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر: أمّا بعد، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، أمّا جدي، فشدت يداه ورجلاه، ورمي إلى النار ليحرق، = فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأمّا أبي، فوضعت المدية في قفاه ليذبح، ففداه الله، وأما أنا، فكان لي ابن، وكان أحب أولادي إليّ، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابن، وكان أخاه من أمّه، وكنت أتسلى به، فذهبوا به، ثم رجعوا، فقالوا إنه سرق، وأنك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت، لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليّ، وإلا دعوت عليك دعوة، تبلغ السابع من ولدك، والسلام. فلما قرأ الكتاب، بكى، وكتب الجواب: اصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا.

جاهلين، وقيل: معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أو أن الحلم والرزانة روي: أنهم لما قالوا: ﴿مسنا وأهلنا الضر﴾[1] وتضرعوا إليه ارفضت عيناه ثم قال: هذا القول، وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه بردًا وسلامًا، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخًا بالدم وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق وأنك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك، والسلام، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك. وروي: أنه لما قرأ الكتاب بكى، وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

فإن **قُلْتَ**: ما فعلهم بأخيه؟ **قُلْتُ**: تعريضهم إياه للغم والثكل بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحدًا منهم إلا كلام الذليل العزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾.

قرئ: أئنك على الاستفهام، وأنك على الإيجاب، وفي قراءة أبيّ: أئنك أو أنت يوسف على معنى: أئنك يوسف، أو أنت يوسف، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع فهو يكرر الاستثبات.

فإن **قُلْتَ**: كيف عرفوه؟ **قُلْتُ**: رأوا في روائه وشمائله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم بأن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم لا عن بعض أعزاء مصر، وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم، وقيل: ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه، فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها تشبه الشامة البيضاء.

فإن **قُلْتَ**: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه على أن أخاه كان معلومًا لهم؟ **قُلْتُ**: لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه ﴿من يتق﴾ من يخف الله وعقابه ﴿ويصبر﴾ على المعاصي وعلى الطاعات ﴿فإن الله لا يضيع﴾ أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾.

﴿لقد آثرك الله علينا﴾ أي: فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين. وإنّ شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم لم نتق ولم نصبر، لا جرم أنّ الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك.

﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾.

﴿لا تثريب عليكم﴾ لا تأنيب عليكم ولا عتب، وأصل التثريب من الثرب، وهو: الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه: إزالة الثرب كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع؛ لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده، فضرب مثلاً للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه.

فإن **قُلْتَ**[2]: بم تعلق ﴿اليوم﴾ **قُلْتُ**: بالتثريب، أما بالمقدر في عليكم من معنى الاستقرار، أو بيغفر والمعنى: لا أثربكم اليوم، وهو: اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتدأ فقال: ﴿يغفر الله لكم﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعًا، ومنه قول المشمت: يهديكم الله ويصلح بالكم، واليوم يغفر الله لكم بشارة بعاجل غفران الله لما تجدّد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم. وروي أن رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح لقريش: «ما ترونني فاعلاً بكم؟ قالوا: نظن خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، فقال: أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ »[3] وروي أنّ أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت الرسول فاتل عليه ﴿قال لا تثريب عليكم﴾ ففعل، فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك ولمن علمك»[4]. ويروى: أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف: إنّ أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلغ عبدًا بيع بعشرين درهمًا ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم.

---

(1) سورة يوسف، الآية: 88.

(2) قال أحمد: وهذا المعنى: إنما يتوجه على الإعراب الأوّل، وهو الأوجه، ألا ترى إلى قولهم بعد ذلك: ﴿يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ وقوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ دل على أنهم كانوا بعد في عهدة الذنب، ولو كان متعلقاً بيغفر الزم، أن يقطعوا= = بغفران ذنبهم، حينئذ بإخبار النبي الصديق، ويحتمل أن يقال: إنما أراد: مغفرة ما يرجع إلى حقه دون حق أبيه، إذ الإثم كان مشتركاً بينهما، والله أعلم. (قوله: كانت أمّه تحي، وقيل: هما أبوه وأخته).

(3) رواه أبو عبيد في كتاب: الأموال ص 51 (الحديث رقم: 298).

(4) قال الزيلعي: غريب جدًا 2/179.

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾.

﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾ قيل: هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإنّ فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي ﴿يات بصيرًا﴾ يصر بصيرًا كقولك جاء البناء محكمًا بمعنى: صار، ويشهد له ﴿فارتد بصيرًا﴾[1] أو يات إليّ وهو بصير وينصره قوله: ﴿واتوني باهلكم أجمعين﴾ أي ياتني أبي وياتني آله جميعًا وقيل: يهوذا هو الحامل، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخًا بالدم إليه فأفرحه كما أحزنته، وقيل: حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخًا.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾.

﴿فصلت العير﴾ خرجت من عريش مصر، يقال: فصل من البلد فصولاً إذا انفصل منه وجاوز حيطانه، وقرأ ابن عباس: فلما انفصل العير ﴿قال﴾ لولد ولده ومن حوله من قومه ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان. والتفنيد النسبة إلى الفند وهو: الخرف وإنكار العقل من هرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال: عجوز مفندة لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها، والمعنى: لولا تفنيكم إياي لصدّقتموني.

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾.

﴿لفي ضلالك القديم﴾ لفي ذهابك عن الصواب قدمًا في إفراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقائه، وكان عندهم أنه قد مات.

فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾.

﴿القاه﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب ﴿فارتدّ بصيرًا﴾ فرجع بصيرًا، يقال: ردّه فارتدّ وارتدّه إذا ارتجعه ﴿ألم أقل لكم﴾ يعني: قوله: ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾[2] أو قوله: ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾[3] وقوله: ﴿إني أعلم﴾ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول ولك أن توقعه عليه وتريد قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾[4] وروي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، ما أصنع بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾.

﴿سوف أستغفر لكم﴾ قيل: أخر الاستغفار إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة ليتعمد به وقت الإجابة، وقيل: ليتعرّف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم، فقد روي أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهمّ اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحي إليه: إنّ الله قد غفر لك ولهم أجمعين، وروي أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة: ما يغني عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا؟ فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرّت لنا عين أبدًا، فاستقبل الشيخ القبلة قائمًا يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إنّ الله قد أجاب دعوتك في ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوّة، وقد اختلف في استنبائهم.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾.

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ قيل: وجه يوسف إلى أبيه جهازًا ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا أهذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ولدك، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام: السلام عليك يا مذهب الأحزان، وقيل: إنّ يوسف قال له لما التقيا: يا أبت بكيت عليّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك، وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصروهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرّية ألف ألف ومائتي ألف ﴿آوى إليه أبويه﴾ ضمهما إليه واعتنقهما. قال ابن أبي إسحق: كانت أمّه تحيي وقيل: هما أبوه وخالته ماتت أمّه فتزوّجها وجعلها أحد الأبوين، لأنّ الرابة تدعى أمّا لقيامها مقام الأمّ، أو لأنّ الخالة أمّ كما أنّ العم أب ومنه قوله:

(1) سورة يوسف، الآية: 96.
(2) سورة يوسف، الآية: 94.
(3) سورة يوسف، الآية: 87.
(4) سورة يوسف، الآية: 86.

﴿وإله آبائك إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق﴾[1].

فإن قُلْتَ: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قُلْتُ: كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب أو بيت، ثم فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه. ثم قال لهم: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ ولما دخل مصر وجلس في مجلسه مستويًا على سريره واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير ﴿وخرّوا له﴾ يعني: الإخوة الأحد عشر والأبوين ﴿سجدًا﴾ ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه فدخلا عليه القبة فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر.

فإن قُلْتَ: ثم تعلقت المشيئة قُلْتُ: بالدخول مكيفًا بالأمن؛ لأنّ القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل لهم: اسلموا وآمنوا في دخولكم إن شاء الله، ونظيره قولك للغازي: ارجع سالمًا غانمًا إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقًا ولكن مقيدًا بالسلامة والغنيمة مكيفًا بهما، والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال، ومن بدع التفاسير أن قوله: إن شاء الله من باب التقديم والتأخير وإنّ موضعها ما بعد قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾[2] في كلام يعقوب، وما أدري ما أقول فيه وفي نظائره.

فإن قُلْتَ: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟ قُلْتُ: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير، وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجدًا يأباه، وقيل معناه: وخرّوا لأجل يوسف سجدًا لله شكرًا وهذا أيضًا فيه نبوة. يقال: أحسن إليه وبه، وكذلك أساء إليه وبه. قال:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة

﴿من البدو﴾ من البادية؛ لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع ﴿نزغ﴾ أفسد بيننا وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحمله على الجري يقال: نزغه ونسغه إذا نخسه ﴿لطيف لما يشاء﴾ لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وروي: أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الورق والذهب وخزائن الحليّ وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك، فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بنيّ ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فسله، قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾[3] قال: فهلا خفتني. وروي: أن يعقوب أقام معه أربعًا وعشرين سنة ثم مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحٰق فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له طلبت نفسه الملك الدائم الخالد فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبي قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيبًا طاهرًا، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه، كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال، فرأوا من الرأي أن عملوا له صندوقًا من مرمر وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعًا واحدًا، وولد له إفرائيم وميشا، وولد لإفرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله موسى ﷺ.

۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾.

من في ﴿من الملك﴾ و ﴿من تأويل الأحاديث﴾ للتبعيض؛ لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل ﴿أنت وليي﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، وبوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿توفني مسلمًا﴾ طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسنى كما قال يعقوب لولده: ﴿ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾[4] ويجوز أن يكون تمنيًا للموت على ما قيل ﴿وألحقني بالصالحين﴾ من آبائي أو على العموم، وعن عمر بن عبد العزيز: أنّ ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت فقال له: صنع الله على يديك خيرًا كثيرًا، أحييت سننًا وأمتّ بدعًا، وفي حياتك خير وراحة للمسلمين فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقرّ الله عينه وجمع له أمره قال: ﴿توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين﴾.

فإن قُلْتَ: علام انتصب ﴿فاطر السموات﴾؟ قُلْتُ: على أنه وصف لقوله: ﴿ربّ﴾كقولك: أخا زيد حسن، أو على النداء.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله ﷺ ومحله الابتداء وقوله: ﴿من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ خبر إن، ويجوز أن يكون اسمًا موصولاً بمعنى الذي، ومن أنباء الغيب صلته وتوحيه الخبر

(1) سورة البقرة، الآية: 133.
(2) سورة يوسف، الآية: 98.
(3) سورة يوسف، الآية: 13.
(4) سورة آل عمران، الآية: 102.

والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين اجمعوا امرهم وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر كقوله: ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب﴾[1] وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحدًا ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم وقيل لهم: قد علمتم بالمكابرة أنه لم يكن مشاهدًا لمن مضى من القرون الخالية ونحوه ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾[2] ﴿وهم يمكرون﴾ بيوسف ويبغون له الغوائل.

وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾.

﴿وما أكثر الناس﴾ يريد العموم كقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾[3] وعن ابن عباس رضي الله عنه: أراد أهل مكة أي: وما هم بمؤمنين ﴿ولو حرصت﴾ وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم.

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾.

﴿وما تسئلهم﴾ على ما تحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى كما يعطي حملة الأحاديث والأخبار ﴿إن هو إلا ذكر﴾ عظة من الله ﴿للعالمين﴾ عامة وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾.

﴿من آية﴾ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده ﴿يمرون عليها﴾ ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها. وقرئ: والأرض بالرفع على الابتداء ويمرون عليها خبره وقرأ السدي: والأرض بالنصب على ويطؤن الأرض يمرون عليها، وفي مصحف عبد الله، والأرض يمشون عليها برفع الأرض، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾.

﴿وما يؤمن أكثرهم﴾ في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض إلا وهو مشرك بعبادته الوثن، وعن الحسن: هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يشبهون الله بخلقه.

أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾.

﴿غاشية﴾ نقمة تغشاهم، وقيل: ما يغمرهم من العذاب ويجللهم، وقيل: الصواعق.

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾.

﴿هذه سبيلي﴾ هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي، والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: ﴿أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ أي: أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء و ﴿أنا﴾ تأكيد للمستتر في أدعو ﴿ومن اتبعني﴾ عطف عليه، يريد أدعو إليها أنا ويدعو إليها من ابتعني، ويجوز أن يكون أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبرًا مقدمًا ومن اتبعني عطفًا على أنا إخبارًا مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى؛ ويجوز أن يكون على بصيرة حالاً من أدعو عاملة الرفع في أنا ومن اتبعني ﴿وسبحان الله﴾ وأنزهه من الشركاء.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾.

﴿إلا رجالاً﴾ لا ملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾[4] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد ليست فيهم امرأة، وقيل في سجاح المتنبئة:

ولم تزل أنبياء الله ذكرانا

وقرئ: نوحي إليهم بالنون ﴿من أهل القرى﴾؛ لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿ولدار الآخرة﴾ ولدار الساعة أو الحال الآخرة ﴿خير للذين اتقوا﴾ للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه. وقرئ: أفلا تعقلون بالتاء والياء.

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾.

﴿حتى﴾ متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام كأنه قيل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى إذا استيأسوا عن النصر[5] ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ أي: كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنهم ينصرون، أو رجاؤهم لقولهم: رجاء صادق ورجاء كاذب، والمعنى: أنّ مدّة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة

(1) سورة يوسف، الآية: 15.
(2) سورة القصص، الآية: 44.
(3) سورة هود، الآية: 17.
(4) سورة فصلت، الآية: 14.
(5) قال أحمد: ولا يلزم أن يكون الله وعدهم بالنصر في الدنيا، بل كانوا يظنون ذلك، ويرجونه، لا عن إخبار ووحي.

من غير احتساب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وظنوا[1] حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، وقال: كانوا بشرًا وتلا قوله: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾[2] فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن: ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية. وأما الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد منزه عن كل قبيح، وقيل: وظن المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا أي: أخلفوا أو وظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل أي: كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه، وقرئ: كذبوا بالتشديد عليّ وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم، وقرأ مجاهد: كذبوا بالتخفيف على البناء للفاعل هي وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة، إما على تأويل ابن عباس، وإما على أنّ قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثرًا قالوا لهم: إنكم قد كذبتمونا، فيكونون كاذبين عند قومهم، أو وظن المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا، وقرئ بهذا مشددًا: لكان معناه: وظن الرسل أنّ قومهم كذبوهم في موعدهم. قرئ: فننجي بالتخفيف والتشديد من أنجاه ونجاه وفنجي على لفظ الماضي المبني للمفعول، وقرأ ابن محيصن: فنجا. والمراد: ﴿من نشاء﴾ المؤمنون؛ لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم وقد بيّن ذلك بقوله: ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٖ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾.

الضمير في ﴿قصصهم﴾ للرسل وينصره قراءة من قرأ: في قصصهم بكسر القاف، وقيل: هو راجع إلى يوسف وإخوته.

فإن قُلْتَ: فإلام يرجع الضمير في ﴿ما كان حديثًا يفترى﴾ فيمن قرأ بالكسر؟ قُلْتُ: إلى القرآن أي: ما كان القرآن حديثًا يفترى ﴿ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ أي: قبله من الكتب السماوية ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه في الدين؛ لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل، وانتصاب ما نصب بعد لكن للعطف على خبر كان، وقرئ ذلك بالرفع عليّ ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

عن رسول الله ﷺ: «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه، هوّن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلمًا»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الرعد

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة، والمراد بالكتاب السورة أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ثم قال: ﴿والذي أنزل إليك﴾ من القرآن كله هو ﴿الحق﴾ الذي لا مزيد عليه لا هذه السورة وحدها، وفي أسلوب هذا الكلام قول الأنمارية: هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها تريد الكلمة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلّٞ يَجْرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

﴿الله﴾ مبتدأ و ﴿والذي﴾ خبره بدليل قوله: ﴿وهو الذي مدّ الأرض﴾ ويجوز أن يكون صفة، وقوله: ﴿يدبر الأمر يفصل الآيات﴾ خبر بعد خبر وينصره ما تقدمه من ذكر الآيات ﴿رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ كلام مستأنف استشهاد برؤيتهم لها كذلك، وقيل: هي صفة لعمد ويعضده قراءة أبيّ: ترونه، وقرئ: عمد بضمتين ﴿يدبر الأمر﴾ أمر ملكوته وربوبيته ﴿يفصل﴾ آياته في كتبه المنزلة ﴿لعلكم توقنون﴾ بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه، وقرأ الحسن: ندبر بالنون ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدّها ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت، وقيل: أراد بالزوجين الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة ﴿يغشي الليل والنهار﴾ يلبسه مكانه فيصير أسود مظلمًا بعد ما كان أبيض منيرًا، وقرئ: يغشي بالتشديد.

وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنْ أَعْنَٰبٖ وَزَرْعٞ وَنَخِيلٞ صِنْوَانٞ وَغَيْرُ صِنْوَانٖ يُسْقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٖ فِي ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾.

﴿قطع متجاورات﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة

---

(1) قال أحمد: وهذا أيضا تأويل حسن، ينظم بين القراءتين؛ لأنّ ظن الأمم كذب رسلهم، تكذيب لهم، فيؤدي مؤدى قراءة التشديد.

(2) سورة البقرة، الآية: 214.

(3) ذكره الثعلبي في تفسيره.

متلاصقة طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها مع انتظامها جميعًا في جنس الأرضية، وذلك دليل على قادر مريد موقع لأفعاله على وجه دون وجه. وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تسقي بماء واحد وتراها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم الروائح متفاضلة فيها، وفي بعض المصاحف قطعًا متجاورات على وجعل. وقرئ: وجنات بالنصب للعطف على زوجين، أو بالجرّ على كل الثمرات. وقرئ: وزرع ونخيل بالجرّ عطفًا على أعناب أو جنات. والصنوان جمع صنو وهي: النخلة لها راسان وأصلهما واحد، وقرئ: بالضم والكسر لغة أهل الحجاز، والضم لغة بني تميم، وقيس ﴿تسقي﴾ بالتاء والياء ﴿ونفضل﴾ بالنون وبالياء على البنا للفاعل والمفعول جميعًا ﴿في الأكل﴾ بضم الكاف وسكونها.

۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾.

﴿وان تعجب﴾ يا محمد من قولهم في إنكار البعث فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي بخلقهنّ كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب ﴿ائذا كنا﴾ إلى آخر قولهم، يجوز أن يكون في محل الرفع بدلاً من قولهم، وأن يكون منصوبًا بالقول، وإذا نصب بما دل عليه قوله: ائنا لفي خلق جديد ﴿أولئك الذين كفروا بربهم﴾ أولئك الكاملون المتمادون في كفرهم ﴿وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ وصف بالإصرار كقوله: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾[1] ونحوه:

لهم عن الرشد أغلال وأقياد

أو هو من جملة الوعيد.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾.

﴿بالسيئة قبل الحسنة﴾ بالنقمة قبل العافية والإحسان إليهم بالإمهال، وذلك أنهم سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره ﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزؤا، والمثلة العقوبة بوزن الصمرة، والمثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[2] ويقال: أمثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه، والمثال: القصاص، وقرئ: المثلات بضمتين لاتباع الفاء العين، والمثلات: بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال: السمرة، والمثلات: بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات بضمتين، والمثلات: جمع مثلة كركبة وركبات ﴿لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي: مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ومحله الحال بمعنى: ظالمين لأنفسهم[3]، وفيه أوجه: أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر، أو الكبائر بشرط التوبة، أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال، وروي: أنها لما نزلت قال النبي عليه السلام: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدًا العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»[4].

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾.

﴿لولا انزل عليه آية من ربه﴾ لم يعتدوا بالآية المنزلة على رسول الله ﷺ عنادًا، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى، من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى. فقيل لرسول الله ﷺ: إنما انت رجل أرسلت منذرًا ومخوفًا لهم من سوء العاقبة وناصحًا كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به انك رسول منذر وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت، والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوى بها لا تفاوت بينها، والذي عنده كل شيء بمقدار يعطي كل نبي آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها ﴿ولكل قوم هاد﴾ من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية وبآية خص بها، ولم يجعل الأنبياء شرعًا واحدًا في آيات مخصوصة ﴿ووجه آخر﴾ وهو أن يكون المعنى: أنهم يجحدون كون ما أنزل عليك آيات ويعاندون فلا يهمنك ذلك إنما أنت منذر فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم ولست بقادر عليه، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلجاء وهو الله تعالى، ولقد دل بما أردفه من ذكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضايا حكمته، إن إعطاءه كل منذر آيات خلاف آيات غيره، أمر مدبر بالعلم النافذ مقدّر بالحكمة الربانية، ولو علم في إجابتهم إلى مقترحهم خيرًا ومصلحة لأجابهم إليه، وأما على الوجه الثاني: فقد دل به على أنّ من هذه قدرته وهذا علمه هو القادر وحده على هدايتهم العالم بأي طريق يهديهم ولا

(1) سورة يس، الآية: 8.
(2) سورة الشورى، الآية: 40.
(3) قال أحمد: والوجه الحق، بقاء الوعد على إطلاقه، إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحد، فإن ظلمه، أعين شركه، لا يغفر، وما عاد الشرك، فغفرانه في المشيئة، والزمخشري يبني = عقيدته التي وضح فسادها، في استحالة الغفران لصاحب الكبائر، وإن كان كوحداً، إلا بالتوبة، فيقيد مطلقاً، ويحجر واسعاً، والله الموفق.
(4) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره والثعلبي والواحدي في تفسيره (الزيلعي 2/183).

سبيل إلى ذلك لغيره.

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾.

﴿الله يعلم﴾ يحتمل أن يكون كلامًا مستأنفًا وأن يكون المعنى: هو الله تفسيرًا لهاد على الوجه الأخير ثم ابتدئ فقيل ﴿يعلم ما تحمل كل انثى﴾ وما في ما تحمل وما تغيض وما تزداد؛ إما: موصولة، وإمّا: مصدرية، فإن كانت موصولة فالمعنى: أنه يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من نكورة وأنوثة وتمام وخداج وحسن وقبح وطول وقصر وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة، ويعلم ما تغيضه الأرحام أي: تنقصه، يقال: غاض الماء وغضته أنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وغيض الماء﴾[1] وما تزداده أي: تأخذه زائدًا تقول: أخذت منه حقي وازددت منه كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿وازدادوا تسعًا﴾[2] ويقال: زدته فزاد بنفسه وازداد، ومما تنقصه الرحم وتزداده: عدد الولد، فإنها تشتمل على واحد وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة، ويروى أن شريكًا كان رابع أربعة في بطن أمّه، ومنه جسد الولد فإنه يكون تامًا ومخدجًا، ومنه مدّة ولادته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبي حنيفة وإلى أربع عند الشافعي وإلى خمس عند مالك، وقيل: إنّ الضحاك ولد لسنتين، وهرم بن حيان بقي في بطن أمّه أربع سنين ولذلك سمي: هرمًا، ومنه الدم فإنه يقل ويكثر، وإن كانت مصدرية فالمعنى: أنه يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيض الأرحام وازديادها، لا يخفى عليه شيء من ذلك ومن أوقاته وأحواله، ويجوز: أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيادته فأسند الفعل إلى الأرحام، وهو لما فيها على أنّ الفعلين غير متعديين، ويعضده قول الحسن: الغيضوضة أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك، والازدياد أن تزيد على تسعة أشهر، وعنه: الغيض الذي يكون سقطًا لغير تمام، والازدياد ما ولد لتمام ﴿بمقدار﴾ بقدر وحدّ لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[3].

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾.

﴿الكبير﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ﴿المتعال﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها.

سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾.

﴿سارب﴾ ذاهب في سربه بالفتح أي: في طريقه ووجهه يقال: سرب في الأرض سروبًا والمعنى: سواء عنده من استخفى أي: طلب الخفاء في مختبأ بالليل في ظلمته، ومن يضطرب في الطرقات ظاهرًا بالنهار يبصره كل أحد.

فإن قُلْتَ[4]: كان حق العبارة أن يقال: ومن هو مستخف بالليل، ومن هو سارب بالنهار حتى يتناول معنى: الاستواء المستخفي والسارب، وإلا فقد تناول واحدًا هو مستخف وسارب؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما أن قوله: وسارب عطف على من هو مستخف لا على مستخف، والثاني: أنه عطف على مستخف إلا أن من في معنى: الاثنين، كقوله:

تكن مثل من يا ذئب يصطحبان

كأنه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار.

لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾.

والضمير في ﴿له﴾ مردود على من كأنه قيل: لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب ﴿معقبات﴾ جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته، والأصل معتقبات فادغمت التاء في القاف كقوله: ﴿وجاء المعذرون﴾[5] بمعنى: المعتذرون، ويجوز معقبات بكسر العين ولم يقرأ به، أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه كما يقال: قفاه لأنّ بعضهم يعقب بعضًا، أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ هما صفتان جميعًا، وليس من أمر الله بصلة للحفظ كأنه قيل له: معقبات من أمر الله، أو يحفظونه من أجل أمر الله[6] أي: من أجل أن الله أمرهم بحفظه، والدليل عليه قراءة علي رضي الله عنه، وابن عباس، وزيد بن علي، وجعفر ابن محمد، وعكرمة: يحفظونه بأمر الله، أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب

---

(1) سورة هود، الآية: 44.

(2) سورة الكهف، الآية: 25.

(3) سورة القمر، الآية: 49.

(4) قال أحمد: فمقتضى السؤال الذي أورده الزمخشري، أن تكون الواو عاطفة لإحدى الصفتين على الأخرى، ومقتضى ما أجاب به، أن يعطف أحد الموصوفين على الآخر، وتحتمل الآية وجهاً آخر، وهو أن يكون الموصول المعطوف، وبقاء صلته شائع، وخصوصاً وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ والأصل: ولا ما يفعل بكم، وإلا كان حرف النفي دخيلاً غير موضعه؛ لأنّ الجملة الثانية = لو قدرت داخلة في صلة الأوّل بواسطة العاطف، لم يكن للنهي موقع، وإنما صحب في الأوّل الموصول، لا الصلة ومنه.

فمن يهجوا رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

أي: ومن يمدحه وينصره، والله أعلم.

(5) سورة التوبة، الآية: 90.

(6) قال أحمد: وحقيقة هذا الوجه أنهم يحفظونه من الأمر الذي علم الله أنه يدفعه عنه، بسبب دعائهم، ولولا هذا السبب، لكان في علم الله أن النقمة تحل عليه؛ لأنّ الله عزّ وجل يعلم ما لا يكون، لو كان، كيف كان يكون، وسع ربنا كل شيء علماً.

وينيب كقوله: ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمٰن﴾[1] وقيل: المعقبات الحرس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله أي: من قضاياه ونوازله، أو على التهكم به، وقرئ: له معاقيب جمع معقب أو معقبة والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾ من العافية والنعمة ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي ﴿من وال﴾ ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾.

﴿خوفًا وطمعًا﴾[2] لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما؛ لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف أي: إرادة خوف وطمع، أو على معنى إخافة وإطماعًا، ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع، أو على ذا خوف، وذا طمع، أو من المخاطبين، أي: خائفين وطامعين، ومعنى الخوف والطمع: أنّ وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ويطمع في الغيث. قال أبو الطيب:

فتى كالسحاب الجون تخشى وترتجى يرجى الحيا منها ويخشى الصواعق

وقيل: يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر، ومن في جرينه التمر والزبيب، ومن له بيت يكف، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر، ويطمع فيه من له فيه نفع ويحيا به ﴿السحاب﴾ اسم الجنس والواحدة سحابة و ﴿الثقال﴾ جمع ثقيلة لأنك تقول: سحابة ثقيلة وسحاب ثقال، كما تقول: امرأة كريمة ونساء كرام، وهي الثقال بالماء.

وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾.

﴿ويسبح الرعد بحمده﴾ ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له أي: يضجون بسبحان الله، والحمد لله، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «سبحان من يسبح الرعد بحمده»[3]. وعن علي رضي الله عنه: سبحان من سبحت له، وإذا اشتد الرعد قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»[4].

وعن ابن عباس: أن اليهود سألت النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوف بها السحاب»[5]. وعن الحسن: خلق من خلق الله ليس بملك، ومن بدع المتصوفة، الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم ﴿والملائكة من خيفته﴾ ويسبّح الملائكة من هيبته وإجلاله. نكر علمه النافذ في كل شيء، واستواء الظاهر والخفي عنده، وما دلّ على قدرته الباهرة ووحدانيته ثم قال ﴿وهم﴾ يعني: الذين كفروا وكذّبوا رسول الله وأنكروا آياته ﴿يجادلون في الله﴾ حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلائق بقولهم: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾[6] ويردّون الوحدانية باتخاذ الشركاء والأنداد ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم: الملائكة بنات الله، فهذا جدالهم بالباطل كقوله: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾[7] وقيل: الواو للحال أي: فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم وذلك إنّ أربد أخا لبيد بن ربيعة العامري قال لرسول الله ﷺ حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله، فرمى الله عامرًا بغدّة كغدّة البعير وموت في بيت سلولية، وأرسل على أربد صاعقة فقتلته: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد[8] ﴿المحال﴾ المماحلة وهي: شدّة المماكرة والمكايدة، ومنه: تمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان، ومنه الحديث: ولا تجعله علينا ماحلاً مصدّقًا[9]، وقال الأعشى:

فرع نبع يهش في غصن المجـ ـد غزير الندى شديد المحال

والمعنى: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون، وقرأ الأعرج: بفتح الميم على أنه مفعل من حال يحول محالاً، إذا احتال، ومنه أحول من ذئب أي: أشدّ حيلة، ويجوز أن يكون المعنى شديد الفقار، ويكون مثلاً في القوّة والقدرة كما جاء: فساعد الله أشدّ وموساه أحد؛ لأنّ الحيوان إذا اشتدّ محاله كان منعوتًا بشدّة القوّة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره. ألا ترى إلى قولهم: فقرته الفواقر، وذلك أنّ الفقار: عمود الظهر وقوامه.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 42.

(2) قال أحمد: ومفعولاً لهما، على أنّ المفعول له في مثل هذا الفعل، فاعل في المعنى؛ لأنه إذا أراهم، فقد رأوا، والأصل: وهو الذي يريكم البرق، فترونه خوفاً وطمعاً، أي: ترقبونه وتتراءونه، تارة لأجل الخوف، وتارة لأجل الطمع، والله أعلم.

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد 185/2، باب: «إذا سمع الرجل...» (الحديث رقم: 723).

(4) رواه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا سمع الرعد = (الحديث رقم: 3450) والنسائي في عمل اليوم والليلة باب: ما يقول إذا سمع الرعد والصواعق (الحديث رقم: 933).

(5) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الرعد (الحديث رقم: 3117)، رواه أحمد في مسنده (274/2).

(6) سورة يس، الآية: 78.

(7) سورة غافر، الآية: 5.

(8) رواه أبو يعلى في مسنده 88/6.

(9) رواه ابن حبان في كتاب: العلم (الحديث رقم: 124).

﴿دعوة الحق﴾[1] فيه وجهان: أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل، كما تضاف الكلمة إليه في قولك: كلمة الحق للدلالة على أنّ الدعوة ملابسة للحق مختصة به، وأنها بمعزل من الباطل، والمعنى: أنّ الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة، ويعطي الداعي سؤاله إن كان مصلحة له، فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقًا بأن يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه، والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله عز وعلا على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب، وعن الحسن: الحق هو الله وكلّ دعاء إليه دعوة الحق.

فإن قُلْتَ: ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبله؟ قُلْتُ: أمّا على قصة أربد فظاهر؛ لأنّ إصابته بالصاعقة محال من الله ومكربه من حيث لم يشعر، وقد دعا رسول الله ﷺ وعلى صاحبه بقوله: «اللهمّ اخسفهما بما شئت»[2]. فأجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق، وأمّا على الأوّل، فوعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله ﷺ بحلول محاله بهم، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ أن دعا عليهم فيهم ﴿والذين يدعون﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿من﴾ دون الله ﴿لا يستجيبون لهم بشيء﴾ من طلباتهم ﴿إلا كباسط كفيه﴾ إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أي: كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه، ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم، وقيل: شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشرًا أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئًا ولم يبلغ طلبته من شربه. وقرئ: تدعون بالتاء كباسط كفيه بالتنوين ﴿إلا في ضلال﴾ إلا في ضياع لا منفعة فيه؛ لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩ ﴿١٥﴾.

﴿والله يسجد﴾ أي: ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله شاؤوا أو أبوا لا يقدرون أن يمتنعوا عليه، وتنقاد له ﴿ظلالهم﴾ أيضًا حيث تتصرّف على مشيئته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال. وقرئ: بالغدوّ والإيصال من آصلوا إذا دخلوا في الأصيل.

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾.

﴿قل الله﴾ حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم؛ لأنه إذا قال لهم من رب السموات والأرض لم يكن لهم بد من أن يقولوا: الله، كقوله: ﴿قل من رب السمٰوات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله﴾[3] وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك؟ فإذا قال: هذا قولي، هذا قولك، فيحكي إقراره تقريرًا له عليه واستيثاقًا منه، ثم يقوله له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت، ويجوز أن يكون تلقينًا أي: إن كعوا عن الجواب فلقنهم فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه ﴿أفاتخذتم من دونه أولياء﴾ أبعد أن علمتموه رب السمٰوات والأرض اتخذتم من دونه أولياء؟ فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا﴾ لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضررًا فكيف يستطيعونه لغيرهم؟ وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب فما أبين ضلالتكم ﴿أم جعلوا﴾[4] بل أجعلوا، ومعنى الهمزة: الإنكار و﴿خلقوا﴾ صفة

---

(1) قال أحمد: دسّ تحت تأويل الأوّل، نبذة من الاعتزال على وجه الاختزال، فحجر واسعاً من لطف الله، واستجابته أدعية عباده، وحتم رعاية المصالح، وجعل معنى إضافة الدعوة إلى الحق: التباسها بالمصلحة، وقد انكشف الغطاء، وتبين أنّ الله تعالى لا تعلل أفعاله، ولا تقف استجابته على الشرط المذكور، وغرضنا إيقاظ المطالع لهذه المواضع، من غفلة يتحيز بها إلى بدعة وضلالة، والله الموفق.

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 154.

(3) سورة المؤمنون، الآيتان: 86 و87.

(4) قال أحمد: وفي قوله تعالى: ﴿خلقوا كخلقه﴾ في سياق الإنكار، تهكم بهم؛ لأنّ غير الله، لا يخلق خلقاً البتة، لا بطريق المشابهة والمساواة لله، تقدّس عن التشبيه، ولا بطريق الانحطاط والقصور، فقد كان يكفي في الإنكار عليهم، أن الشركاء التي اتخذوها، لا تخلق مطلقاً، ولكن جاء في قوله تعالى: ﴿كخلقه﴾ تهكم، يزيد=

= الإنكار تأكيداً، والزمخشري لا يطيق التنبيه على هذه السكتة، مع كونه أفطن من أن تستتر عنه؛ لأنّ معتقده أنّ غير الله يخلق، وهم العبيد، يخلقون أفعالهم على زعمه، ولكن لا يخلقون كخلق الله؛ لأنّ الله تعالى يخلق الجواهر والأعراض، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم، لا غير، وفي قوله عزّ من قائل: ﴿الله خالق كل شيء﴾ إلقام لأفواه المشركين الأوّلين، ثم لأفواه التابعة لهم في هذه الضلالة، كالقدرية؛ فإنّ الله تعالى بتّ هذه البتة، أن كل شيء يصدق عليه، أنه مخلوق جوهراً كان أو عرضاً، فعلاً لعبيده أو غيره، فالله خالقه، فلا يبقى بقية يحتمل معها الاشتراك، إلا عند كل أثيم أفاك، يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يصر مستكبراً، كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقراً، فبشره بعذاب أليم، فلأمر ما تقاصر لسان الزمخشري عند هذه الآية، وقرن شقاشقه، والله الموفق.

لشركاء يعني: أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله ﴿فتشابه﴾ عليهم خلق الله وخلقهم حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فتتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد إذ لا فرق بين خالق وخالق، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ﴿قل الله خالق كل شيء﴾ لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق فلا يكون له شريك في العبادة ﴿وهو الواحد﴾ المتوحد بالربوبية ﴿القهار﴾ لا يغالب وما عداه مربوب ومقهور. هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحليّ منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى به، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهرًا يثبت الماء في منافعه وتبقى آثاره في العيون والبئار والحبوب والثمار التي تنبت به مما يدّخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة، وشبّه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمي به وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب.

فإن قُلْتَ: لم نكرت الأودية؟ **قُلْتُ:** لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله ﴿بقدرها﴾؟ **قُلْتُ:** بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضارّ، ألا ترى إلى قوله: ﴿وأمّا ما ينفع الناس﴾؛ لأنه ضرب المطر مثلاً للحق فوجب أن يكون مطرًا خالصًا للنفع خاليًا من المضرة، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف.

فإن قُلْتَ: فما فائدة قوله: ﴿ابتغاء حلية أو متاع﴾؟ **قُلْتُ:** الفائدة فيه كالفائدة في قوله: ﴿بقدرها﴾ لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله: ﴿وأمّا ما ينفع الناس﴾؛ لأنّ المعنى: وأمّا ما ينفعهم من الماء والفلز فنكر وجه الانتفاع مما يوقد عليه منه ويذاب وهو الحلية والمتاع، وقوله: ﴿ومما يوقدون عليه في النار﴾ ابتغاء حلية أو متاع عبارة جامعة لأنواع الفلز مع إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به كما هو هجيري الملوك نحو ما جاء في ذكر الآجر: ﴿أوقد لي يا هامان على الطين﴾[1] ومن لابتداء الغاية أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو للتبعيض بمعنى: وبعضه زبدًا رابيًا منتخفًا مرتفعًا على وجه السيل ﴿جُفاء﴾ يجفؤه السيل أي: يرمي به، وجفأت القدر بزبدها، وأجفأ السيل وأجفل، وفي قراءة رؤبة بن العجاج: جفالاً، وعن أبي حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفأر. وقرئ: يوقدون بالياء أي: يوقد الناس.

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾.

﴿للذين استجابوا﴾ اللام متعلقة بيضرب أي: كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا وللكافرين الذين لم يستجيبوا أي: هما مثلاً الفريقين و ﴿الحسنى﴾ صفة لمصدر استجابوا أي: استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله: ﴿لو أن لهم﴾ كلام مبتدأ في ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين، وقيل: قد تم الكلام عند قوله: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾[2] وما بعده كلام مستأنف، والحسنى مبتدأ خبره للذين استجابوا، والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي: الجنة، والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره لو مع ما في حيزه و ﴿سوء الحساب﴾ المناقشة فيه، وعن النخعي: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء.

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾.

دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله: ﴿أفمن يعلم﴾ لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أنّ حال من علم ﴿إنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والأبريز ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي: الذين عملوا على قضيات عقولهم فنظروا واستبصروا.

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾.

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ مبتدأ وأولئك لهم عقبى الدار خبره كقوله: ﴿والذين ينقضون عهد الله... أولئك لهم اللعنة﴾[3] ويجوز أن يكون صفة لأولي الألباب والأوّل أوجه. وعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾[4] ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص.

وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾.

﴿ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الأرحام والقرابات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرابة المؤمنين الثابتة

---

(1) سورة القصص، الآية: 38.
(2) سورة الرعد، الآية: 17.
(3) سورة الرعد، الآية: 25.
(4) سورة الأعراف، الآية: 172.

بسبب الإيمان ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1] بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم، وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، وشهود جنائزهم، ومنه: مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر وكل ما تعلق منهم بسبب حتى الهرة والدجاجة، وعن الفضيل بن عياض: أنّ جماعة دخلوا عليه بمكة فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من أهل خراسان. قال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أنّ العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين ﴿ويخشون ربهم﴾ أي: يخشون وعيده كله ﴿ويخافون﴾ خصوصًا ﴿سوء الحساب﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾.

﴿صبروا﴾ مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف ﴿ابتغاء وجه﴾ الله لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل، ولا لئلا يعاب بالجزع ولئلا يشمت به الأعداء كقوله:

وتجلدي للشامتين أريهم

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ولا مرد فيه للفائت كقوله:

ما إن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكاي زندا

وكل عمل له وجوه يعمل عليها فعلى المؤمن أن ينوي منها ما به كان حسنًا عند الله، وإلا لم يستحق به ثوابًا وكان فعلاً كلا فعل ﴿مما رزقاهم﴾[2] من الحلال؛ لأنّ الحرام لا يكون رزقًا ولا يسند إلى الله ﴿سرًا وعلانية﴾ يتناول النوافل لأنها في السر أفضل، والفرائض لوجوب المجاهرة بها نفيًا للتهمة ﴿ويدرؤن بالحسنة السيئة﴾ ويدفعونها، عن ابن عباس: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم، وعن الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا، عن ابن كيسان إذا أذنبوا تابوا، وقيل: إذا رأوا منكرًا أمروا بتغيره ﴿عقبى الدار﴾[3] عاقبة الدنيا وهي الجنة؛ لأنها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها و ﴿جنات عدن﴾ بدل من عقبى الدار. وقرئ: فنعم فتح النون والأصل نعم، فمن كسر النون فلنقل كسرة العين إليها، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل. وقرئ: يدخلونها على البناء للمفعول. وقرأ ابن أبي عبلة: صلح بضم اللام والفتح أفصح، علم أنّ الأنساب لا تنفع إذا تجردت من الأعمال الصالحة. وآباؤهم جمع أبوي كل واحد منهم فكأنه قتيل من آبائهم وأمهاتهم.

سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾.

﴿سلام عليكم﴾ في موضع الحال؛ لأنّ المعنى: قائلين سلام عليكم، أو مسلمين.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله ﴿بما صبرتم﴾؟ قُلْتُ: بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم يعنون: هذا الثواب بسبب صبركم، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه هذه الملاذ والنعم، والمعنى: لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة كقوله:

بما قد أرى فيها أوانس بدنا

وعن النبي ﷺ: أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[4] ويجوز أن يتعلق بسلام أي: نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم ﴿من بعد ميثاقه﴾ من بعد ما أوثقوا به من الاعتراف والقبول ﴿سوء الدار﴾ يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا؛ لأنه في مقابلة عقبى الدار ويجوز أن يراد بالدار جهنم وبسوئها عذابها.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾.

﴿الله يبسط الرزق﴾ أي: الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره، وهو الذي بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم ﴿وفرحوا﴾ بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 10.

(2) قال أحمد: الحق إن لا رازق إلا الله، إنّ الله هو الرازق، ذو القوة المتين، كما أنه لا خالق إلا الله، هل من خالق غير الله؟ فإذا اقتضى العقل والسمع جميعاً أن لا رازق إلا الله، فأي مقال بعد ذلك يبقى للقدري؟ الزاعم أنّ أكثر العبيد يرزقون أنفسهم؛ لأنّ الغالب الحرام، وهو مع ذلك مصمم على معتقده الفاسد لا يدعه، ولا تكفه القوارع السمعيه والعقلية وتردعه، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون.

(3) قال أحمد: قد تكرر مجيء العاقبة المطلقة، مثل: ﴿وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾ ﴿من تكون له عاقبة الدار﴾ و ﴿والعاقبة للمتقين﴾ والمراد في جميع ذلك: عقبى الخير والسعادة، والزمخشري يستنبط من تكرار مجيء العاقبة المطلقة، والمراد= عاقبة الخير، أنها هي التي أرادها الله، فهي الأصل، والعاقبة الأخرى لما لم تكن مرادة، بل عارضة على خلاف المراد، والأصل لم يكن من حقها أن يعبر عنها، إلا بتقييد يفهمها، كقوله: ﴿وعقبى الكافرين على النار﴾ كل ذلك من الزمخشري تهالك على أن ينسب إلى الله إرادة ما لم يقع، ومشيئة ما لم يكن مصادمة لما أنطق الله به ألسنة حملة الشريعة، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وليس في مجيء ذلك على الإطلاق، ما يعين أنه الأصل باعتبار الإرادة، ففعله الأصل باعتبار الأمر، ونحن نقول: إنّ المؤدّي إلى حمد العاقبة، مأمور به، والمؤدي إلى سوئها، منهي عنه، فمن ثم كانت عاقبة الخير هي الأصل، والله الموفق.

(4) رواه عبد الرزاق في مصنفه 573/3 (الحديث رقم: 6716).

لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة، وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئًا نزرًا يتمتع به كعجالة الراكب، وهو: ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾.

فإن قُلْتَ: كيف طابق قولهم ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ قوله: ﴿قل إن الله يضل من يشاء﴾ قُلْتُ: هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية، فإذا جحدوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط كان موضعًا للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم، إنّ الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدّة الشكيمة في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ﴿ويهدي إليه من﴾ كان على خلاف صفتكم ﴿أناب﴾ أقبل إلى الحق وحقيقته دخل في نوبة الخير و ﴿الذين آمنوا﴾ بدل من أناب ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته كقوله: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾[1] وتطمئن بذكر دلائله الدالة على وحدانيته، أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾.

﴿الذين آمنوا﴾ مبتدأ و ﴿طوبى لهم﴾ خبره، ويجوز أن يكون بدلاً من القلوب على تقدير حذف المضاف أي تطمئن القلوب الذين آمنوا، وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك: أصبت خيرًا وطيبًا، ومحلها النصب أو الرفع كقولك: طيبًا لك وطيب لك وسلامًا لك وسلام لك. والقراءة في قوله: وحسن مآب بالرفع والنصب تدلك على محليها، واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك، والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن وموسر، وقرأ مكوزة الأعرابي: طيبي لهم فكسر الطاء لتسلم الياء كما قيل: بيض ومعيشة.

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾.

﴿كذلك أرسلناك﴾ مثل ذلك الإرسال أرسلناك يعني: أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسر كيف أرسله فقال: ﴿في أمّة قد خلت من قبلها أمم﴾ أي: أرسلناك في أمّة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم، وأنت خاتم الأنبياء لتتلو عليهم ﴿الذي أوحينا إليك﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذين أوحينا إليك ﴿وهم يكفرون﴾ وحال هؤلاء أنهم يكفرون ﴿بالرحمٰن﴾ بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء وما بهم من نعمة فمنه فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم ﴿قل هو ربي﴾ الواحد المتعالي عن الشركاء ﴿عليه توكلت﴾ في نصرتي عليكم ﴿وإليه متاب﴾ فيثيبني على مصابرتكم ومجاهدتكم.

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾.

﴿ولو أن قرآنًا﴾ جوابه محذوف كما تقول لغلامك: لو أني قمت إليك وتترك الجواب، والمعنى: ولو أن قرآنًا ﴿سيرت به الجبال﴾ عن مقارّها وزعزعت عن مضاجعها ﴿أو قطعت به الأرض﴾ حتى تتصدع وتتزايل قطعًا ﴿أو كلم به الموتى﴾ فتسمع وتجيب؛ لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف كما قال: ﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدّعًا من خشية الله﴾[2] هذا يعضد ما فسرت به قوله: ﴿لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك﴾ من إرادة تعظيم ما أوحي إلى رسول الله ﷺ من القرآن، وقيل: معناه: ولو أنّ قرآنًا وقع به تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، وتنبيههم، لما آمنوا به، ولما تنبهوا عليه، كقوله: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾[3] الآية: وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله ﷺ: سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع كما سخرت لداود عليه السلام إن كنت نبيًا كما تزعم؟ فلست بأهون على الله من داود، وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان عليه السلام، أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا منهم قصي بن كلاب[4]، فنزلت. ومعنى تقطيع الأرض على هذا: قطعها بالسير ومجاوزتها، وعن الفراء: هو متعلق بما قبله، والمعنى: وهم يكفرون بالرحمٰن ولو أنّ قرآنًا سيرت به الجبال وما بينهما اعتراض وليس ببعيد من السداد، وقيل: قطعت به الأرض شققت فجعلت أنهارًا وعيونًا ﴿بل لله الأمر جميعًا﴾ على معنيين:

---

(1) سورة الزمر، الآية: 23.

(2) سورة الحشر، الآية: 21.

(3) سورة الأنعام، الآية: 111.

(4) رواه أبو يعلى في المسند 2/40 ـ 41.

أحدهما: بل لله القدرة على كل شيء، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها إلا أنّ علمه بأنّ إظهارها مفسدة يصرفه، والثاني: بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار ويعضده قوله: ﴿أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله﴾ يعني: مشيئة الإلجاء والقسر ﴿لهدى الناس جميعًا﴾ ومعنى أفلم ييئس: أفلم يعلم قيل: هي لغة قوم من النخع، وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى: العلم لتضمنه معناه؛ لأنّ اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف، والنسيان في معنى الترك؛ لتضمن ذلك. قال سحيم بن وثيل الرياحي:

أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني ... ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

ويدل عليه أن عليًا وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤا: أفلم يتبين، وهو تفسير ﴿أفلم ييئس﴾ وقيل: إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات، وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتًا بين دفتي الإمام وكان متقلبًا في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله المهيمنين عليه، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه خصوصًا عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء، وهذه والله فرية ما فيها مرية، ويجوز أن يتعلق أن لو يشاء بآمنوا على أولم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا ولهداهم ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿قارعة﴾ داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿أو تحل﴾ القارعة ﴿قريبًا﴾ منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شرارها ويتعدى إليهم شرورها ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ وهو موتهم أو القيامة، وقيل: ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله ﷺ من العداوة والتكذيب قارعة؛ لأنّ رسول الله ﷺ كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم وتصيب من مواشيهم[1] أو تحل أنت يا محمد قريبًا من دراهم بجيشك كما حل بالحديبية حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة، وكان الله قد وعده ذلك.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾.

الإملاء: الإمهال، وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن كالبهيمة يملي لها في المرعى، وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ استهزاء به وتسلية له.

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾.

﴿أفمن هو قائم﴾ احتجاج عليهم في إشراكهم بالله يعني: أفالله الذي هو قائم رقيب ﴿على كل نفس﴾ صالحة أو طالحة ﴿بما كسبت﴾ يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاءه كمن ليس كذلك، ويجوز أن يقدر ما يقع خبرًا للمبتدأ ويعطف عليه وجعلوا، وتمثيله أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه ﴿وجعلوا﴾ له وهو الله الذي يستحق العبادة وحده ﴿شركاء قل سموهم﴾ أي: جعلتم له شركاء، فسموهم له من هم ونبؤه بأسمائهم ثم قال: ﴿أم تنبؤنه﴾ على أم المنقطعة كقولك للرجل: قل لي من زيد؟ أم هو قل من أن يعرف، ومعناه: بل أتنبؤنه[2] بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم، والمراد: نفي أن يكون له شركاء، ونحوه: ﴿قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السمٰوات ولا في الأرض﴾[3] ﴿أم بظاهر من القول﴾ بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة كقوله: ﴿ذٰلك قولهم بأفواههم﴾[4] ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها﴾[5] وهذا الاحتجاج وأساليبه[6] العجيبة التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[7] وقرئ: أتنبؤنه بالتخفيف ﴿مكرهم﴾ كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وصدوا﴾ قرئ: بالحركات الثلاث، وقرأ ابن أبي إسحاق: وصد بالتنوين ﴿ومن يضلل الله﴾ ومن يخذله لعلمه أنه لا يهتدي ﴿فما له من هاد﴾ فما له من أحد يقدر على هدايته.

---

(1) ذكره الزيلعي عدد السرايا في تخريجه (الحديث رقم: 2/191 ـ 195).

(2) قال أحمد: وحقيقة هذا النفي، أنهم ليسوا بشركاء، وأنّ الله لا يعلمهم كذلك؛ لأنهم ليسوا كذلك، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله، إلا أنها مربوبة حادثة، لا آلهة معبودة، ولكن مجيء النفي على هذا السنن المتلو بديع، لا تكنه بلاغته وبراعته، ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ وما هم بشركاء، فلم يكن بهذا الموقع الذي اقتضته التلاوة.

(3) سورة يونس، الآية: 18.

(4) سورة التوبة، الآية: 30.

(5) سورة يوسف، الآية: 40.

(6) قال أحمد: هذه الخاتمة كلمة حق، أراد بها باطلاً؛ لأنه يعرض فيها بخلق القرآن، فتنبه لها، وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه، وهو غافل عما تحته، لولا هذا التنبيه والإيقاظ، والله أعلم.

(7) سورة المؤمنون، الآية: 14.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ وهو: ما ينالهم من القتل والأسر وسائر المحن، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر ولذلك سماه: عذابًا ﴿وما لهم من الله من واق﴾ وما لهم من حافظ من عذابه، أو ما لهم من جهته واق من رحمته.

﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿مثل الجنة﴾ صفتها التي هي في غرابة المثل، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف على مذهب سيبويه. أي: فيما قصصناه عليكم مثل الجنة وقال غيره: الخبز ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾، كما تقول: صفة زيد أسمر، وقال الزجاج: معناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار على حذف الموصوف تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد، وقرأ علي رضي الله عنه: أمثال الجنة على الجمع أي: صفاتها ﴿أكلها دائم﴾ كقوله: ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾[1] ﴿وظلها﴾ دائم لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ يريد من أسلم من اليهود، كعبد الله بن سلام، وكعب، وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى، وهم: ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن هؤلاء ﴿يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب﴾ يعني: ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، نحو كعب بن الأشرف، وأصحابه، والسيد، والعاقب أسقفي نجران وأشياعهما ﴿من ينكر بعضه﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص، وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم غير محرف، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام، ونعت رسول الله ﷺ، وغير ذلك مما حرّفوه وبدلوه من الشرائع.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله: ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله﴾ بما قبله؟ قُلْتُ: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله ولا أشرك به، فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به، ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا﴾[2] وقرأ نافع في رواية أبي خليد: ولا أشرك بالرفع على الاستئناف، كأنه قال: وأنا لا أشرك به، ويجوز أن يكون في موضع الحال على معنى أمرت أن أعبد الله غير مشرك به ﴿إليه أدعو﴾ خصوصًا لا أدعو إلى غيره ﴿وإليه﴾ لا إلى غيره مرجعي وأنتم تقولون مثل ذلك فلا معنى لإنكاركم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وكذلك أنزلناه﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأمورًا فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه والإنذار بدار الجزاء ﴿حكمًا عربيًا﴾ حكمة عربية مترجمة بلسان العرب وانتصابه على الحال.

كانوا يدعون رسول الله ﷺ إلى أمور يوافقهم عليها منها أن يصلي إلى قبلتهم بعد ما حوله الله عنها، فقيل له: لئن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة خذلك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك فلا يقيك منه واق، وهذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدّة الشكيمة بمكان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾.

كانوا يعيبونه بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾[3] وكانوا يقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فقيل: كان الرسل قبله بشرًا مثله ذوي أزواج وذرية، وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم، ولا يأتون بما يقترح عليهم، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات، فلكل وقت حكم يكتب على العباد أي: يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم.

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يمحو الله ما يشاء﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته، أو يتركه غير منسوخ، وقيل: يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة؛ لأنهم مأمورون بكتبة كل قول وفعل ﴿ويثبت﴾ غيره، وقيل: يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة ويثبت إيمانهم وطاعتهم، وقيل: يمحو بعض الخلائق ويثبت بعضًا من الأناسي وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها، والكلام في نحو هذا واسع المجال ﴿وعنده أمّ الكتاب﴾ أصل كل كتاب، وهو: اللوح المحفوظ؛ لأنّ كل كائن مكتوب فيه. وقرئ: ويثبت.

---

(1) سورة الواقعة، الآية: 33.

(2) سورة آل عمران، الآية: 64.

(3) سورة الفرقان، الآية: 7.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾.

﴿وإن ما نرينك﴾ وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو توفيناك قبل ذلك فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم، فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾.

﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض﴾ أرض الكفر **﴿ننقصها من أطرافها﴾** بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام وذلك من آيات النصرة والغلبة، ونحوه: **﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾**[1] **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾**[2] والمعنى عليك بالبلاغ الذي حملته ولا تهتمّ بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتمّ ما وعدناك من الظفر، ولا يضجرك تأخره فإنّ ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها، ثم طيب نفسه ونفس عنها بما ذكر من طلوع تباشير الظفر، وقرئ: ننقّصها بالتشديد **﴿لا معقب لحكمه﴾** لا رادّ لحكمه، والمعقب الذي يكرّ على الشيء فيبطله، وحقيقته الذي يعقبه أي: يقفيه بالردّ والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقب؛ لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب قال لبيد:

طلب المعقب حقه المظلوم

والمعنى: أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس **﴿وهو سريع الحساب﴾** فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا.

فإن قُلْتَ: ما محل قوله: **﴿لا معقب لحكمه﴾**؟ **قُلْتُ:** هو جملة محلها النصب على الحال كأنه قيل: والله يحكم نافذًا حكمه كما تقول: جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة، تريد: حاسرًا.

وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾.

﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ وصفهم بالمكر ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال: **﴿فلله المكر جميعًا﴾** ثم فسّر ذلك بقوله: **﴿يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾** لأنّ من علم ما تكسب كل نفس وأعدّ لها جزاءها فهو المكر كله؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلة مما يراد بهم، وقرئ: الكفار والكافرون والذين كفروا والكفر أي: أهله، والمراد بالكافر: الجنس، وقرأ جناح بن حبيش: وسيعلم الكافر من أعلمه أي: سيخبر.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾.

﴿كفى بالله شهيدًا﴾ لما أظهر من الأدلة على رسالتي **﴿ومن عنده علم الكتاب﴾**[3] والذي عنده علم القرآن وما ألف عليه من النظم المعجز الفائت لقوى البشر، وقيل[4]: ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم، وقيل[5]: هو الله عز وعلا، والكتاب: اللوح المحفوظ، وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة، وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو شهيدًا بيني وبينكم، وتعضده قراءة من قرأ: ومن عنده علم الكتاب على من الجارّة أي: من لدنه علم الكتاب؛ لأن علم من علمه من فضله ولطفه، وقرئ: ومن عنده علم الكتاب على من الجارّة، وعلم على البناء للمفعوله، وقرئ: وبمن عنده علم الكتاب.

فإن قُلْتَ: بم ارتفع **﴿علم الكتاب﴾**؟ **قُلْتُ:** في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقدّر في الظرف فيكون فاعلاً؛ لأنّ الظرف إذا وقع صلة أو غل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول فعمل عمل الفعل، كقولك: مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل، كما تقول: بالذي استقرّ في الدار أخوه، وفي القراءة التي لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالابتداء.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله»[6].

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 44.

(2) سورة فصلت، الآية: 53.

(3) قال أحمد: فيكون المراد حينئذ: جنس المؤمنين.

(4) قال أحمد: فالكتاب على التأويل الأوّل مراد به: القرآن خاصة، وعلى الثاني: جنس الكتب المتقدّمة عليه. (قال محمود: وقيل: هو الله عزّ وجل، والكتاب، واللوح المحفوظ، وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة، بالذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ، إلا هو شهيداً بيني وبينكم، وتعضده قراءة من قرأ، ومن عنده علم الكتاب على من الجارّة). =

(5) = قال أحمد: وإنما قدّر الزمخشري في المعطوف عليه اسم الله بالذي يستحق العبادة، حذراً من عطف الصفة على الموصوف، وعدولاً إلى أنه عطف إحدى الصفتين على الأخرى تقديراً، وإنما أخذ الحصر حيث يقول: ومن لا يعلم الكتاب إلا هو من أنه قدّم الخبر الذي هو عنده على مبتدئه، وشأن الزمخشري أخذ الحصر من التقديم، والله الموفق للصواب.

(6) ذكره الثعلبي في تفسيره وابن مردويه، (الزيلعي 2/196).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة إبراهيم عليه السلام مكية

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾.

﴿كتاب﴾ هو كتاب يعني: السورة. وقرئ: ليخرج الناس. والظلمات والنور استعارتان للضلال والهدى ﴿بإذن ربهم﴾ بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو: تسهيل للحجاب، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ بدل من قوله: إلى النور بتكرير العامل كقوله: ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾[1] ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل إلى صراط العزيز الحميد.

ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾.

وقوله: ﴿الله﴾ عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا، وقرئ: بالرفع على هو الله. الويل نقيض الوأل وهو: النجاة، اسم معنى كالهلاك إلا أنه لا يشتق منه فعل إنما يقال: ويلاً له فينصب نصب المصادر ثم برفع رفعها لإفادة معنى الثبات فيقال: ويل له كقوله: سلام عليك، ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل.

فإن قُلْتَ: ما وجه اتصال قوله: ﴿من عذاب شديد﴾ بالويل؟ قُلْتُ: لأنّ المعنى: أنهم يولولون من عذاب شديد ويضجون منه ويقولون: يا ويلاه كقوله: ﴿دعوا هنالك ثبورًا﴾[2].

ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾.

﴿الذين يستحبون﴾ مبتدأ خبره أولئك في ضلال بعيد، ويجوز أن يكون مجرورًا صفة للكافرين، ومنصوبًا على الذمّ، أو مرفوعًا على أعني الذين يستحبون، أو هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو: استفعال من المحبة؛ لأنّ المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر. وقرأ الحسن: ويصدّون بضم الياء وكسر الصاد يقال: صدّه عن كذا وأصدّه قال:

أناس أصدّوا الناس بالسيف عنهم

والهمزة فيه داخلة على صدّ صدودًا لتنقله من غير التعدّي إلى التعدّي، وأمّا صدّه فموضوع على التعدية كمنعه وليست بفصيحة كأوقفه؛ لأنّ الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة ﴿ويبغونها عوجًا﴾ ويطلبون لسبيل الله زيغًا واعوجاجًا وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، والأصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل ﴿في ضلال بعيد﴾ أي: ضلوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل.

فإن قُلْتَ: فما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قُلْتُ: هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضال لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه، ويجوز أن يراد في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد؛ لأنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكانًا قريبًا وبعيدًا.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾.

﴿إلا بلسان قومه ليبيّن لهم﴾[3] أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا لم نفهم ما خوطبنا به كما قال: ﴿ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته﴾[4].

فإن قُلْتَ: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعًا. ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا﴾[5] إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضًا. قُلْتُ: لا يخلو إمّا أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمّة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 75.

(2) سورة الفرقان، الآية: 13.

(3) قال أحمد: جميع الفصل مرضي، لكن في هذه الخاتمة نظر؛ لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة، يتقاصر عن إعجازه لو قدر منزلاً بكل لسان، حتى أنه لو ينزل بجميع اللغات، لبلغ من الوضوح إلى حدّ يكاد أن يكون إلجاء إلى الإيمان به، وهذا فيه نظر، والقول به غير متعين؛ لأن المعجز يفيد= العلم بصدق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم، لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح بين العلمين، وهذا هو التحقيق، والله أعلم. والزمخشري يبني في كثير من كلامه، على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلي وأجلى، وهو من الحق بمعزل، وإنما ظنّ ذلك طائفة ظاهرية، والله الموفق.

(4) سورة فصلت، الآية: 44.

(5) سورة الأعراف، الآية: 158.

المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكدّ القرائح، فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف؛ ولأنه لو نزل بالسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربيّ كل أمّة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها يتلوه عليهم معجزًا، لكان ذلك أمرًا قريبًا من الإلجاء، ومعنى بلسان قومه: بلغة قومه، وقرىء: بلسن قومه، واللسن واللسان كالريش والرياش بمعنى: اللغة، وقرىء: بلسن قومه بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة وهو: جمع لسان كعماد وعمد وعمد على التخفيف، وقيل: الضمير في قومه لمحمد ﷺ. ورووه عن الضحاك، وأن الكتب كلها نزلت بالعربية ثم أدّاها كل نبيّ بلغة قومه وليس بصحيح؛ لأنّ قوله: ليبيّن لهم ضمير القوم وهم العرب فيؤدّي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبيّن للعرب وهذا معنى فاسد ﴿فيضل الله من يشاء﴾ كقوله: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾[1] لأن الله لا يضلّ إلاّ من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن، والمراد بالإضلال: التخلية ومنع الألطاف، وبالهداية التوفيق واللطف، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان ﴿وهو العزيز﴾ فلا يغلب على مشيئته ﴿الحكيم﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلطف إلا بأهل اللطف.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾.

﴿أن لخرج﴾ بمعنى أي: أخرج؛ لأنّ الإرسال فيه معنى القول كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج، ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية، والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل قولهم: أوعز إليه بأن افعل، فادخلوا عليها حرف الجر، وكذلك التقدير بأن لخرج قومك ﴿ونكرهم بأيام الله﴾ وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها وهو الظاهر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: نعماؤه وبلاؤه، فأمّا نعماؤه: فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفلق لهم البحر، وأمّا بلاؤه، فإهلاك القرون ﴿لكل صبار شكور﴾ يصبر على بلاء الله، ويشكر نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم أو أفاض عليهم من النعم تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر، وقيل: أراد لكل مؤمن؛ لأنّ الشكر والصبر من سجاياهم تنبيهًا عليهم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾.

﴿إذ انجاكم﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن ينتصب بعليكم، قُلْتُ: لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى: الإنعام، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطية، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة بمعنى: اذكروا نعمة الله مستقرّة عليكم عمل فيه، ويتبين الفرق بين الوجهين: أنك إذا قلت نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة لم يكن كلامًا حتى تقول: فائضة أو نحوها وإلا كان كلامًا، ويجوز أن يكون إذ بدلاً من نعمة الله أي: اذكروا وقت إنجائكم وهو من بدل الاشتمال.

فإن قُلْتَ: في سورة البقرة ﴿يذبحون﴾[2] وفي الأعراف ﴿يقتلون﴾[3] وههنا ﴿ويذبحون﴾ مع الواو فما الفرق؟ قُلْتُ: الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرًا للعذاب وبيانًا له، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر.

فإن قُلْتَ: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ قُلْتُ: تمكينهم وإمهالهم حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاءً من الله، ووجه آخر: وهو أنّ ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعًا قال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[4] وقال زهير:

فابلاهما خير البلاء الذي يبلو

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾.

﴿وإذ تاذن ربكم﴾ من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: ﴿نعمة الله عليكم﴾ كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى تأذن ربكم: أذن ربكم، ونظير تأذن وأذن، توعد وأوعد، تفضل وأفضل، ولا بدّ في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذانًا بليغًا تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه، والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال ﴿لئن شكرتم﴾ أو أجرى تأذن مجرى قال لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود: وإذ قال ربكم

(1) سورة التغابن، الآية: 2.
(2) سورة البقرة، الآية: 49.
(3) سورة الأعراف، الآية: 141.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 35.

لئن شكرتم أي: لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿لأزيدنكم﴾ نعمة إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم ﴿ولئن كفرتم﴾ وغمطتم ما أنعمت به عليكم ﴿إنّ عذابي لشديد﴾ لمن كفر نعمتي.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾.

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم﴾ يا بني إسرائيل والناس كلهم فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بدّ لكم منه وأنتم إليه محاويج والله غني عن شكركم ﴿حميد﴾ مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه وإن لم يحمده الحامدون.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾.

﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضًا، أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح ولا يعلمهم إلا الله اعتراض، والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله، وعن ابن عباس رضي الله عنه: بين عدنان وإسمٰعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون يعني: أنهم يدّعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد ﴿فردّوا أيديهم في أفواههم﴾[1] فعضوها غيظًا وضجرًا مما جاءت به الرسل كقوله: ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾[2] أو ضحكًا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أي: هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناطًا لهم من التصديق، ألا ترى إلى قوله: ﴿فردّوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردّوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي جمع يد وهي: النعمة بمعنى: الأيادي أي: ردّوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحي إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم؛ لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردّوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل ﴿مما تدعوننا إليه﴾ من الإيمان بالله وقرئ: تدعونا بإدغام النون ﴿مريب﴾ موقع في الريبة، أو ذوي ريبة من أرابه وأراب الرجل وهي: قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر.

۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾.

﴿أفي الله شك﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأنّ الكلام ليس في الشك إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه ﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم، أو يدعوكم لأجل المغفرة كقوله: دعوته لينصرني، ودعوته ليأكل معي، وقال:

دعوت لما نابني مسورًا فلبى فلبى يدي مسورا

فإن قُلْتَ: ما معنى التبعيض في قوله: ﴿من ذنوبكم﴾؟ قُلْتُ: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين كقوله: ﴿واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم﴾[3] ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم﴾[4] وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾[5] إلى أن قال: ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾[6] وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد، وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها: ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره يبلغكموه إن آمنتم وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ﴿إن أنتم﴾[7] ما أنتم ﴿إلا بشر مثلنا﴾ لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصون بالنبوّة دوننا، ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة ﴿بسلطان مبين﴾ بحجة بيّنة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج،

(1) قال أحمد: وأقوى هذه الوجوه، هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة، وإنما كان كذلك؛ لأنّ إقناطهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلاً، بوضع اليد في الفم، هو المناسب لحسدهم في الكفر، وتصدير العبارة بالحرف المؤكد، ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب، وإعادة ذلك، مبالغة في التأكيد، وليس السياق بمناسب للضحك ولا الغيض، ولا لتصميت الرسل كمناسبته لإقناطهم من القبول، ألا ترى أنهم لما أعابوا للرسل القول، ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة، دلّ على أنهم لم يسكتوهم أوّلاً، ولا كان غرضهم ذلك، والله أعلم.

(2) سورة آل عمران، الآية: 119.
(3) سورة نوح، الآيتان: 3 و4.
(4) سورة الأحقاف، الآية: 31.
(5) سورة الصف، الآية: 10.
(6) سورة الصف، الآية: 12.
(7) قال أحمد: ومن تهالكه على الانتصار، لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون، كمعتقد القدرية، في تفضيل الملك على الرسول؛ لأنه يدعي ذلك أمراً مركوزاً في الطباع، معلوماً ضرورة، والله الموفق.

وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتًا ولجاجًا.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ تسليم لقولهم وأنهم بشر مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم ينكروا فضلهم تواضعًا منهم واقتصروا على قولهم ﴿ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ بالنبوّة؛ لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم ﴿إلا بإذن الله﴾ أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصد أولياء وأمروها به كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله﴾ ومعناه: وأيّ عذر لنا في أن لا نتوكل عليه ﴿وقد هدانا﴾ وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو: التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين.

فإن قُلْتَ[1]: كيف كرّر الأمر بالتوكل؟ قُلْتُ: الأول لاستحداث التوكل، وقوله: ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدّم ﴿لنخرجنكم... أو لتعودنّ﴾ ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم وإما عودكم حالفين على ذلك.

فإن قُلْتَ: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها؟ قُلْتُ: معاذ الله، ولكن العود بمعنى: الصيرورة وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية، لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد، ما عدت أراه، عاد لا يكلمني، ما عاد لفلان مال، أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد ﴿لنهلكن الظالمين﴾ حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حيوة: ليهلكنّ وليسكننكم بالياء اعتبارًا لأوحى وأن لفظه لفظ الغيبة ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

والمراد بالأرض أرض الظالمين وديارهم ونحوه: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾[2] ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم﴾[3] وعن النبي ﷺ: «من آذى جاره ورثه الله داره»[4] ولقد عاينت هذا في مدّة قريبة كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذيني فيه، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته، فنظرت يومًا إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون، فذكرت قول رسول الله ﷺ وحدّثتهم به وسجدنا شكرًا لله ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم أي: ذلك الأمر حق ﴿لمن خاف مقامي﴾ موقفي وهو: موقف الحساب؛ لأنّه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام، وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله والمعنى: أنّ ذلك حق للمتقين كقوله: ﴿والعاقبة للمتقين﴾[5].

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿واستفتحوا﴾ واستنصروا على أعدائهم: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾[6] أو استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي: الحكومة كقوله تعالى: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾[7] وهو معطوف على أوحى إليهم، وقرئ: واستفتحوا بلفظ الأمر وعطفه على لنهلكن أي: أوحى إليهم ربهم وقال لهم: لنهلكنّ، وقال لهم: استفتحوا ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ معناه: فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم، وقيل: واستفتح الكفار على الرسل ظنًا منهم على الحق والرسل على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه.

﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿من ورائه﴾ من بين يديه قال:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا؛ لأنه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حيث يبعث ويوقف.

---

(1) قال أحمد: وبهذا يخرج عن وادي من قتل قتيلاً، فله سلبه، والله أعلم.
(2) سورة الأعراف، الآية: 137.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 27.
(4) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (2/303).
(5) سورة الأعراف، الآية: 128.
(6) سورة الأنفال، الآية: 19.
(7) سورة الأعراف، الآية: 89.

فإن قُلْتَ: علام عطف ﴿ويسقى﴾؟ قُلْتُ: على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد كأنه أشد عذابها فخصص بالذكر مع قوله: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله تعالى ﴿من ماء صديد﴾؟ قُلْتُ: صديد عطف بيان لماء قال: ويسقى من ماء فأبهمه إبهامًا ثم بينه بقوله: صديد، وهو: ما يسيل من جلود أهل النار ﴿يتجرعه﴾ يتكلف جرعه ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ دخل كاد للمبالغة يعني: ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة كقوله: ﴿لم يكد يراها﴾[1] أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ كأن أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه وأحاطت به من جميع الجهات تفظيعًا لما يصيبه من الآلام وقيل: من كل مكان من جسده حتى من إبهام رجله، وقيل: من أصل كل شعرة ﴿ومن ورائه﴾ ومن بين يديه ﴿عذاب غليظ﴾ أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذابًا أشدّ مما قبله وأغلظ، وعن الفضيل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد، ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي: استمطروا، والفتح المطر في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ فلم يسقوا، فذكر سبحانه ذلك وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء آخر، وهو صديد أهل النار، واستفتحوا على هذا التفسير كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾.

وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره: وفيما يقص عليك ﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: ﴿أعمالهم كرماد﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد، ويجوز أن يكون المعنى مثل أعمال الذين كفروا بربهم، أو هذه الجملة خبرًا للمبتدأ أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول، أو يكون أعمالهم بدلاً من مثل الذين كفروا على تقدير مثل أعمالهم وكرماد الخبر. وقرئ ﴿الرياح في يوم عاصف﴾ جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح، أو الرياح كقولك: يوم ماطر، وليلة ساكرة، وإنما السكور لريحها، وقرئ: في يوم عاصف بالإضافة، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام، وعتق الرقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجارة وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبوطها وذهابها هباءً منثورًا، لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجهه برماد طيرته الريح العاصف ﴿لا يقدرون﴾ يوم القيامة ﴿مما كسبوا﴾ من أعمالهم ﴿على شيء﴾ أي: لا يرون له أثرًا من ثواب كما لا يقدّر من الرماد المطير في الريح على شيء ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق، أو عن الثواب.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾.

﴿بالحق﴾[2] بالحكمة والغرض الصحيح والأمر العظيم ولم يخلقها عبثًا ولا شهوة. وقرئ: خالق السموات والأرض ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أي: هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقًا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلامًا باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم يقدر على الشيء وجنس ضده.

وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾.

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾[3] بمتعذر بل هو هين عليه يسير؛ لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف تكوّن من غير توقف كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف، وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يعبد ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾.

﴿وبرزوا لله﴾ ويبرزون يوم القيامة، وإنما جيء به بلفظ الماضي لأنّ ما أخبر به عزّ وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد، ونحوه: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾[4] ونادى أصحاب النار، ونظائر له، ومعنى: بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له، أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أنّ الله لا يخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

---

(1) سورة النور، الآية: 40.

(2) قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي، وقد تقدّمت أمثاله.

(3) قال أحمد: وهذا اعتزال صراح لم يتقنع في إبرازه، وما أبشع قوله عن الله جلّ جلاله، خلص له الداعي وأمضى الصارف، وما أنباه = عن سمع المحققين العارفين بآداب الله تعالى، وبما يجب في حق جلاله وقد تقدّم ما فيه كفاية.

(4) سورة الأعراف، الآية: 44.

فإن قُلْتَ:لَمَ كتب ﴿الضعفواء﴾ بواو قبل الهمزة؟ قُلْتُ: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو، ونظيره ﴿علمواء بني إسرائيل﴾(1) والضعفاء: الأتباع والعوام. والذين استكبروا ساداتهم وكبراؤهم الذين استتبعوهم واستغووهم وصدّوهم عن الاستماع إلى الأنبياء واتباعهم ﴿تبعًا﴾ تابعين جمع تابع على تبع كقولهم: خادم وخدم، وغائب وغيب، أو ذوي تبع، والتبع الأتباع يقال: تبعه تبعًا.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين من في ﴿عذاب الله﴾ وبينه في ﴿من شيء﴾؟ قُلْتُ: الأولى: للتبيين والثانية: للتبعيض كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعيض معًا بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله أي: بعض بعض عذاب الله.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ قُلْتُ(2): الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخًا لهم وعتابًا على استتباعهم واستغوائهم وقولهم: ﴿فهل أنتم مغنون عنا﴾ من باب التبكيت؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم، بأنّ الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوا هم ولم يضلوهم إما موركين الذنب في ضلالهم وإضلالهم على الله كما حكى الله عنهم وقالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾(3) ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾(4) يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا، ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين: ﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء﴾(5) وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان، وقيل معناه: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي: لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر، والهمزة وأم للتسوية ونحوه: ﴿اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾(6) وروي: أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك، ثم يقولون سواء علينا.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله: ﴿سواء علينا﴾ بما قبله؟ قُلْتُ: اتصاله به من حيث أنّ عتابهم لهم كان جزعًا مما هم فيه فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطمّ، أو لما قالوا لو هدانا الله طريق النجاة لأغنينا عنكم وأنجيناكم أتبعوه الإقناط من النجاة فقالوا ﴿ما لنا من محيص﴾ أي: منجي ومهرب جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعًا كأنه قيل: قالوا جميعًا: سواء علينا كقوله: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه﴾(7)، والمحيص يكون مصدرًا: كالمغيب، والشيب، ومكانًا كالمبيت، والمصيف، ويقال: حاص عنه وجاض بمعنى واحد.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لما قضي الأمر﴾ لما قطع الأمر وفرغ منه وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار، وروي(8): أنّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيبًا في

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 50.

(2) قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة، المشتملة على أنّ الله تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنّ هداية المشركين مما لم يشأه، ولو شاءها لاهتدوا، وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق، حين حقت لهم الحقائق، وانكشف الغطاء، والمقصود من اقتصاصه: إنذار أمثالهم في الدنيا، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة، إذا حق عليهم العذاب، واعترفوا بالحق، وقالوا القول المذكور، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى، فلما فطن الزمخشري لذلك، شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة، كما خطاهم في الدنيا، ليتم له اعتقاد أنّ الله يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، ومن ذلك هداية الكفار، فإن الله تعالى يشاءها في الدنيا، لكنها لم تكن، وأنى له ذلك، وسياق الآية يصوب الكلام المذكور، وينذر الغافلين عنه في الدنيا، ويحذرهم من التورط فيما يؤدي إلى هذا الندم، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة إذ لا ينجع كما ورد كلام الشيطان عقيب ذلك، حين يعترف بالحق في دار الحق، وحيث لا ينفعه الندم إيمانه، فيقول: ﴿إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ الخ. وإنما سيق تحذيراً وإنذاراً إتفاقاً، والله = الموفق.

(3) سورة الأنعام، الآية: 148.

(4) سورة النحل، الآية: 35.

(5) سورة المجادلة، الآية: 18.

(6) سورة الطور، الآية: 16.

(7) سورة يوسف، الآية: 52.

(8) قال أحمد: قد حمل قول الكفار في الآية الأولى، على إبطال الانتحال؛ لأنه لا يلائم معتقده، واستشهد على أنّ الكذب حينئذ غير ممتنع، ولا متعذر، بقوله تعالى: ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ ثم لما ظنّ أنّ قول الشيطان هذا يلائم معتقده، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه، وإن كان قائله الشيطان، كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه، وأية سلك، ونحن معاشر أهل السنة الملقبين عنده بالمجبرة، نقول: إن الله تعالى انما أورد هذا الكلام غير رادّ له، ولا مخطيء فيه للشيطان، كما اقتصّ كلام الكفار في الآية الأولى كذلك، ونحن نعتقد أنّ الملامة إنما تتوجه على المكلف، وأمّا الله تعالى، فمقدّس عن ذلك، وحجته البالغة، وقضاؤه الحق، وذلك أنا نعترف بما خلقه الله تعالى للعبد، من الاختيار الذي يجده من نفسه عن تجانب طرفي الأفعال الإرادية =

الأشقياء من الجن والإنس فيقول ذلك ﴿إنّ الله وعدكم وعد الحق﴾ وهو: البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿ووعدتكم﴾ خلاف ذلك ﴿فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان﴾ من تسلط وقهر فأقسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها ﴿إلا أن دعوتكم﴾ إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني وليس الدعاء من جنس السلطان ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

فإن قُلْتَ: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به؟ قُلْتُ: لو كان هذا القول منه باطلاً لبيّن الله بطلانه وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام ألا ترى إلى قوله: ﴿إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ وهو مثل قول الله تعالى: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[1] ﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ﴾ لا ينجي بعضنا بعضًا من عذاب الله ولا يغيثه، والإصراخ الإغاثة. وقرئ: بمصرخي بكسر الياء وهي ضعيفة واستشهدوا لها ببيت مجهول:

قال لها هل لك يا تافيّ قالت له ما أنت بالمرضي

وكأنّه قدّر ياء الإضافة ساكنة، وقبلها ياء ساكنة فحرّكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ولكنه غير صحيح؛ لأنّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف في نحو عصاي فما بالها وقبلها ياء؟

فإن قُلْتَ: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن فحرّكت بالكسر على الأصل؟ قُلْتُ: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات. ما في ﴿بما أشركتموني﴾ مصدرية و﴿من قبل﴾ متعلقة بأشركتموني يعني: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي: في الدنيا كقوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾[2] ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى: ﴿إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾[3] وقيل: من قبل يتعلق بكفرت وما موصولة أي: كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو: الله عز وجل، تقول: شركت زيدًا فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركنيه فلان أي: جعلني له شريكًا ونحو ما هذه ما في قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا، ومعنى: إشراكهم الشيطان بالله. طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها، وهذا آخر قول إبليس وقوله: ﴿إنّ الظالمين﴾ قول الله عزّ وجلّ، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عزّ وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفًا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه، وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم. وقرئ: فلا يلوموني بالياء على طريقة الالتفات كقوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾[4].

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾.

وقرأ[5] الحسن وعمرو بن عبيد وأدخل الذين آمنوا: على فعل المتكلم بمعنى: وأدخل أنا، وهذا دليل على أنه من قول الله لا من قول إبليس ﴿بإذن ربهم﴾ متعلق بأدخل أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره.

فإن قُلْتَ: فيم يتعلق في القراءة الأخرى وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم كلام غير ملتئم قُلْتُ: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله بإذن ربهم: بما بعده أي ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ بإذن ربهم يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾.

قرئ: ألم تر ساكنة الراء كما قرئ: من يتق، وفيه ضعف ﴿ضرب الله مثلاً﴾ اعتمد مثلاً ووضعه و ﴿كلمة طيبة﴾ نصب بمضمر أي: جعل كلمة طيبة ﴿كشجرة

= ضرورة، وبذلك قامت الحجة له على خلقه، وإن سلبنا عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة، وبين صرف الملامة إلى المكلف، والله الموفق.

(1) سورة الحجر، الآية: 42.

(2) سورة فاطر، الآية: 14.

(3) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(4) سورة يونس، الآية: 22.

(5) قال أحمد: فإن قلت: ما الذي صرف الزمخشري عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، والجاه إلى تعليقه بما بعده، وقد=

= كانت له في ذلك مندوحة، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض﴾ ولم يقل: تنزيلاً منا. قلت: لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه، وهو أن ظاهر أدخل بلفظ المتكلم، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة، بل من الله تعالى مباشرة، وظاهر الإذن، يشعر بإضافة الدخول إلى الواسطة، فبينهما تنافر، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين، والخلود غير الدخول، فلا تنافر، والله أعلم.

طيبة﴾ وهو: تفسير لقوله: ضرب الله مثلاً كقولك: شرف الأمير زيدًا كساه حلة وحمله على فرس، ويجوز أن ينتصب مثلاً وكلمة بضرب أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً بمعنى: جعلها مثلاً ثم قال: كشجرة طيبة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هي: كشجرة طيبة ﴿أصلها ثابت﴾ يعني: في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿وفرعها﴾ وأعلاها وراسها ﴿في السماء﴾ ويجوز أن يريد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس، وقرأ أنس بن مالك: كشجرة طيبة ثابت أصلها.

فإن قُلْتَ: أيّ فرق بين القراءتين؟ **قُلْتُ:** قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأنّ في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلتَ: مررت برجل أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأنّ المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل، والكلمة الطيبة كلمة التوحيد، وقيل: كل كلمة حسنة كالتسبيحة، والتحميدة، والاستغفار والتوبة، والدعوة، وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأمّا الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة، وشجرة التين، والعنب، والرّمان، وغير ذلك، وعن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبروني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيًا فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن اقولها وأنا أصغر القوم، وروي: فمنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بنيّ لو كنت قلتها لكانت أحبّ إليّ من حمر النعم، ثم قال رسول الله ﷺ: «الا إنها النخلة»[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شجرة في الجنة، وقوله: في السماء، معناه: في جهة العلوّ والصعود ولم يرد المظلة، كقولك في الجبل: طويل في السماء تريد: ارتفاعه وشموخه.

﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لاثمارها ﴿بإذن ربها﴾ بتيسير خالقها وتكوينه ﴿لعلهم يتذكرون﴾ لان في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾.

﴿كشجرة خبيثة﴾ كمثل شجرة خبيثة أي: صفتها كصفتها. وقرئ: ومثل كلمة بالنصب عطفًا على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة كلمة الشرك، وقيل: كل كلمة قبيحة، وأمّا الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل، والكشوث، ونحو ذلك، وقوله: ﴿اجتثت من فوق الأرض﴾ في مقابلة قوله: أصلها ثابت، ومعنى اجتثت: استؤصلت، وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها ﴿ما لها من قرار﴾ أي: استقرار، يقال: قرّ الشيء قرارًا كقولك: ثبت ثباتًا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت، والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه من قولهم الباطل لجلج، وعن قتادة: أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًا ولا في السماء مصعدًا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾.

﴿القول الثابت﴾ الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير، ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر، وقيل معناه: الثابت عند سؤال القبر، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي»[2]، فذلك قوله: ﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ ﴿ويضل الله الظالمين﴾ الذين لم يتمسكوا بحجة دينهم، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾[3] وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أوّل شيء، وهم في الآخرة أضل وأزل ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ أي: ما توجبه الحكمة؛ لأن مشيئة الله تابعة للحكمة من تثبيت المؤمنين وتأييدهم وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾.

﴿بدلوا نعمة الله﴾ أي: شكر نعمة الله ﴿كفرًا﴾؛ لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرًا، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً، ونحوه: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾[4] أي شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه، ووجه آخر وهو أنهم بدلوا نفس النعمة

---

(1) رواه البخاري في كتاب: تفسير القرآن ومن سورة إبراهيم، باب: «كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء..» (الحديث رقم: 4698)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: «مثل المؤمن مثل النخلة» (الحديث رقم: 7029).

(2) رواه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، وأحمد في مسنده 4/287 ـ 288.

(3) سورة الزخرف، الآيتان: 22 و23.

(4) سورة الواقعة، الآية: 82.

كفرًا، على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر حاصلاً لهم الكفر بدل النعمة، وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمه وجعلهم قوام بيته وأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقًا في أعناقهم، وعن عمر رضي الله عنه، هم: الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين، وقيل هم: متنصرة العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه ﴿وأحلوا قومهم﴾ مما تابعهم على الكفر ﴿دار البوار﴾ دار الهلاك. وعطف ﴿جهنم﴾ على دار البوار عطف بيان.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾.

قرئ ليضلوا بفتح الياء وضمها.

فإن قُلْتَ: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد، فما معنى اللام؟ قُلْتُ: لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد كما كان الإكرام في قولك: جئتك لتكرمني نتيجة المجيء، دخلته اللام وإن لم يكن غرضًا، على طريق التشبيه والتقريب ﴿تمتعوا﴾ إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه مأمورين به قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمرًا دونه وهو أمر الشهوة، والمعنى: إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحوه: ﴿قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾(1).

قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾.

المقول محذوف؛ لأن جواب قل يدل عليه وتقديره ﴿قل لعبادي الذين آمنوا﴾(2) اقيموا الصلاة وأنفقوا ﴿يقيموا الصلاة وينفقوا﴾ وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا بمعنى: ليقيموا، وليتفقوا ويكون هذا هو المقول. قالوا: وإنما جاز حذف اللام لأن الأمر الذي هو قل عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز.

فإن قُلْتَ: علام انتصب ﴿سرًا وعلانية﴾؟ قُلْتُ: على الحال أي: ذوي سر وعلانية بمعنى: مسرين ومعلنين، أو على الظرف أي: وقتي سر وعلانية، أو على المصدر أي: إنفاق سر وإنفاق علانية، والمعنى: إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب. والخلال المخالة.

فإن قُلْتَ: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾؟ قُلْتُ: من قيل أنّ الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيرًا منها، وأمّا الإنفاق لوجه الله خالصًا كقوله: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾(3) فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: لا بيع فيه ولا خلال بالرفع.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾.

﴿الله﴾ مبتدأ و﴿الذي خلق﴾ خبره و﴿من الثمرات﴾ بيان للرزق أي: اخرج به رزقاً هو ثمرات، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج و﴿رزقًا﴾ حالاً من المفعول أو نصبًا على المصدر من أخرج؛ لأنه في معنى رزق ﴿بامره﴾ بقوله: كن ﴿دائبين﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهما، ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ﴿وسخّر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم ﴿وآتاكم من كل ما

(1) سورة الزمر، الآية: 8.

(2) قال أحمد: وفي هذا الإعراب نظر؛ لأن الجواب حينئذ يكون خبراً من الله تعالى، بانه إن قال لهم هذا القول، امتثلوا مقتضاه، فأقاموا الصلاة وأنفقوا، لكنهم قد قيل لهم، فلم يمتثل كثير منهم، وخبر الله تعالى يجل عن الخلف، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين، على العدول عن هذا الوجه من الإعراب، مع تبادره فيما ذكر بادي الرأي، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب، لا على الاستغراق، ويقوى بوجهين لطيفين، أحدهما: أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق، المنوّه بإيمانه عند الأمر، كهذه الآية، وكقوله: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ و﴿قل للمؤمنين= يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ و ﴿قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهم﴾ الثاني: تكرّر مجيئه للموصوفين، بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله، وقد قالوا: أن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز، إلا مدحه للمؤمنين، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف، فالحاصل من ذلك أن المامور في هذه الآي، من هو بصدد الامتثال، وفي حيز المسارعة للطاعة، فالخبر في أمثالهم حق وصدق، أما على العموم إن أريد، أو على الغالب، والله أعلم.

(3) سورة الليل، الآيتان: 19 ـ 20

سألتموه﴾ من للتبعيض أي: آتاكم بعض جميع ما سألتموه نظرًا في مصالحكم، وقرئ: من كل بالتنوين، وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون ما موصولة على وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه، ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال ﴿لا تحصوها﴾ لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال، وأمّا التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله ﴿لظلوم﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿كفار﴾ شديد الكفران لها، وقيل: ظلوم في الشدّة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾.

﴿هذا البلد﴾ يعني: البلد الحرام زاده الله أمنًا وكفاه كل باغ وظالم وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام ﴿آمنًا﴾ ذا أمن.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين قوله: ﴿اجعل هذا بلدًا آمنًا﴾[1] وبين قوله: ﴿اجعل هذا البلد آمنًا﴾؟ قُلْتُ: قد سأل في الأوّل: أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمنًا ﴿واجنبني﴾ وقرئ: وأجنبني وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، وأجنبه، فأهل الحجاز يقولون: جنبني شره بالتشديد، وأهل نجد: جنبني وأجنبني والمعنى: ثبتنا وأدمنا على اجتناب عبادتها ﴿وبني﴾ أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عيينة: كيف عبدت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسمٰعيل صنمًا واحتج بقوله: ﴿واجنبني وبني﴾ ﴿أن نعبد الأصنام﴾ إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم قالوا: البيت حجر فحيثما نصبنا حجرًا فهو بمنزلة البيت، فكانوا يديرون بذلك الحجر ويسمونه: الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت ولا يقال: دار بالبيت.

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾.

﴿إنهنّ أضللن كثيرًا من الناس﴾ فأعوذ بك أن تعصمني وبني من ذلك، وإنما جعلن مضلات لأنّ الناس ضلوا بسببهنّ فكأنهنّ أضللنهم كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرّتهم أي: افتتنوا بها واغتروا بسببها ﴿فمن تبعني﴾ على ملتي وكان حنيفًا مسلمًا مثلي ﴿فإنه مني﴾ أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي، وكذلك قوله: «من غشنا فليس منا»[2] أي: ليس بعض المؤمنين على أنّ الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي، وقيل: معناه ومن عصاني فيما دون الشرك.

رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿من ذريتي﴾ بعض أولادي وهم: إسمٰعيل ومن ولد منه ﴿بواد﴾ هو: وادي مكة ﴿غير ذي زرع﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قط كقوله: ﴿قرآنًا عربيًا غير ذي عوج﴾[3] بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت المحرم: لأنّ الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرمًا لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعًا عزيزًا يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها، أو لأنه حرم على الطوفان أي: منع منه، كما سمي: عتيقًا لأنه أعتق منه فلم يستول عليه ﴿ليقيموا الصلاة﴾ اللام متعلقة بأسكنت أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك، وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعدين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به، والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك ﴿أفئدة من الناس﴾ أفئدة من أفئدة الناس، ومن للتبعيض ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل من لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند، ويجوز أن يكون من للابتداء كقولك: القلب مني سقيم تريد: قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة؛ لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة وقرئ: آفدة بوزن عاقدة وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: آدر في أدؤر، والثاني: أن يكون اسم فاعله من أفدت الرحلة إذا عجلت أي: جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم، وقرئ: أفدة وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين، وأن يكون من أفد ﴿تهوي إليهم﴾ تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقًا ونزاعًا من قوله:

يهوي مخارمها هويّ الأجدل

وقرئ: تهوي إليهم على البناء للمفعول من هوى إليه وأهواه غيره، وتهوى إليهم من هوى يهوى إذا أحب ضمن

---

(1) سورة البقرة، الآية: 126.

(2) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا» (الحديث رقم: 279).

(3) سورة الزمر، الآية: 28.

معنى تنزع فعدّي تعديته ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ مع سكناهم واديًا ما فيه شيء منها بأن تجلب إليهم من البلاد ﴿لعلهم يشكرون﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوته فجعله حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارًا، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بواد غير ذي زرع وهي: اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد وليس ذلك من آياته بعجيب، متعنا الله بسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام، ورزقنا طرفًا من سلامة ذلك القلب السليم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى ﴿إنك تعلم ما تخفي وما نعلن﴾ تعلم السرّ كما تعلم العلن علمًا لا تفاوت فيه؛ لأنّ غيبًا من الغيوب لا يحتجب عنك، والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهارًا للعبودية لك، وتخشعًا لعظمتك، وتذللاً لعزتك، وافتقارًا إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولهًا إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده رغبة في إصابة معروفه مع توفر السيد على حسن الملكة، وعن بعضهم أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح فأراد أن يذكره، فقال: مثلك لا يذكر استقصارًا ولا توهمًا للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا نخشى تركتنا إلى كاف. ﴿وما يخفى على الله من شيء﴾ من كلام الله عز وجلّ تصديقًا لإبراهيم عليه السلام كقوله: ﴿وكذلك يفعلون﴾[1] أو من كلام إبراهيم يعني: وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، ومن للاستغراق كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾.

على قوله: ﴿على الكبر﴾ بمعنى: مع كقوله.

إني على ما ترين من كبري أعلم من حيث تؤكل الكتف

وهو في موضع الحال معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر. روي: أنّ إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحٰق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة، وقد روي: أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحٰق لتسعين، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر حال الكبر لأنّ المنة بهبة الولد فيها أعظم من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأنّ الولادة في تلك السنّ العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إنّ ربي لسميع الدعاء﴾ كان قد دعا ربه وسأله الولد فقال ﴿رب هب لي من الصالحين﴾[2] فشكر الله ما أكرمه به من إجابته.

فإن قُلْتَ: الله تعالى يسمع كل دعاء أجابه أو لم يجبه؟ قُلْتُ: هو من قولك: سمع لك كلام فلان إذا اعتدّ به قبله، ومنه: سمع الله لمن حمده، وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن»[3].

فإن قُلْتَ: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟ قُلْتُ: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله لسميع الدعاء وقد ذكر سيبويه فعيلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك: هذا ضروب زيدًا، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أمورًا، ورحيم أباه، ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعًا على الإسناد المجازي، والمراد سماع الله ﴿ومن ذريتي﴾ وبعض ذريتي عطفًا على المنصوب في اجعلني، وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أن يكون في ذرّيته كفار وذلك قوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾[4] ﴿وتقبل دعاءي﴾ أي: عبادتي ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾[5].

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾

في قراءة أبيّ: ولأبوي، وقرأ سعيد بن جبير: ولوالديّ على الأفراد يعني: أباه، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما: ولولديّ يعني: إسمٰعيل إسحٰق، وقرئ: لولدي بضم الواو، والولد بمعنى: الولد كالعدم والعدم، وقيل: جمع ولد كاسد في أسد، وفي بعض المصاحف: ولذريتي.

فإن قُلْتَ: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟ قُلْتُ: هو من مجوّزات العقل، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء، وقيل: بشرط

(1) سورة النمل، الآية: 34.
(2) سورة الصافات، الآية: 100.
(3) رواه البخاري في كتاب: «فضائل القرآن»، باب: «من لم يتغن بالقرآن» (الحديث رقم 5023) ومسلم في كتاب: «صلاة المسافرين= وقصرها»، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (الحديث رقم: 1842).
(4) سورة البقرة، الآية: 124.
(5) سورة مريم، الآية: 48.

الإسلام ويأباه قوله: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك﴾[1] لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفارًا صحيحًا لا مقال فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم؟ ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي: يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قوله: قامت الحرب على ساقها، ونحوه قولهم: ترجلت الشمس إذا أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل، ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسنادًا مجازيًا، أو يكون مثل: ﴿واسئل القرية﴾[2] وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما سأل فلم يعبد أحد من ولده صنمًا بعد دعوته، وجعل البلد آمنًا، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إمامًا، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين فلما قال إبراهيم: ﴿ربنا إني اسكنت﴾[3] الآية رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقًا للحرم.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾.

فإن قُلْتَ: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل ﴿ولا تحسبن الله غافلاً﴾؟ قُلْتُ: إن كان خطابًا لرسول الله ﷺ ففيه وجهان: أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً كقوله: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾[4] ﴿ولا تدع مع الله إلهًا آخر﴾[5] كما جاء في الأمر ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾[6] والثاني: أنّ المراد بالنهي عن حسبانه غافلاً الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: ﴿والله بما تعملون عليم﴾[7] يريد الوعيد، ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير، وإن كان خطابًا لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً لجهله بصفاته فلا سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه. وقرئ: يؤخرهم بالنون والياء ﴿تشخص فيه الأبصار﴾ أي: أبصارهم لا تقرفي أماكنها من هول ما ترى.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾.

﴿مهطعين﴾ مسرعين إلى الداعي، وقيل: الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ رافعيها ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ لا يرجع إليهم أن يطوفوا بعيونهم أي: لا يطوفون ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان، أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. الهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء إذا كان جبانًا لا قوّة في قلبه ولا جراة، ويقال للأحمق أيضًا: قلبه هواء. قال زهير:

من الظلمان جؤجؤه هواء

لأنّ النعام مثل في الجبن والحمق، وقال حسان:

فأنت مجوف نخب هواء

وعن ابن جريج: أفئدتهم هواء صفر من الخير خاوية منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾.

﴿يوم ياتيهم العذاب﴾ مفعول ثان لأنذر وهو: يوم القيامة ومعنى ﴿أخرنا إلى أجل قريب﴾: ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحد من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك، أو اريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدّة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وانهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب كقوله: ﴿لولا أخرتني إلى أجل قريب فاصدق﴾[8] ﴿أولم تكونوا أقسمتم﴾ على إرادة القول وفيه وجهان: أن يقولوا: ذلك بطرًا وأشرًا ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنوا شديدًا وأمّلوا بعيدًا و﴿ما لكم﴾ جواب القسم وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: أقسمتم، ولو حكى لفظ المقسمين لقيل: ما لنا ﴿من زوال﴾ والمعنى: أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون إلى دار أخرى يعني: كفرهم بالبعث كقوله: ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾[9].

وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾.

يقال: سكن الدار وسكن فيها ومنه قوله تعالى: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم﴾ لأنّ السكنى من السكون الذي هو: اللبث، والأصل تعدّيه بفي كقولك: قرّ في الدار وغني فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل

(1) سورة الممتحنة، الآية: 4.
(2) سورة يوسف، الآية: 82.
(3) سورة إبراهيم، الآية: 37.
(4) سورة الأنعام، الآية: 14.
(5) سورة القصص، الآية: 88.
(6) سورة النساء، الآية: 136.
(7) سورة البقرة، الآية: 283.
(8) سورة المنافقون، الآية: 10.
(9) سورة النحل، الآية: 38.

إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوّاها واوطنها، ويجوز أن يكون سكنوا من السكون أي: قرّوا فيها واطمأنوا طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقي الأوّلون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا ﴿وتبين لكم﴾ بالإخبار والمشاهدة ﴿كيف﴾ أهلكناهم وانتقمنا منهم، وقرى: ونبين لكم بالنون ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾.

﴿وقد مكروا مكرهم﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم ﴿وعند الله مكرهم﴾ لا يخلو إمّا أن يكون مضافًا إلى الفاعل كالأوّل على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافًا إلى المفعول على معنى وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدّة فضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدّته، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال معدًا لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها كقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[1] والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم، على أنّ الجبال مثل لآيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتًا وتمكنًا وتنصره قراءة ابن مسعود: وما كان مكرهم، وقرى: لتزول بلام الابتداء على وإن كان مكرهم من الشدّة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها، وقرأ علي وعمر رضي الله عنهما: وإن كاد مكرهم.

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾.

﴿مخلف وعده رسله﴾ يعني: قوله: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾[2] ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي﴾[3].

فإن قُلْتَ[4]: هلا قيل مخلف رسله وعده، ولم قدّم المفعول الثاني على الأوّل؟ قُلْتُ: قدّم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إنّ الله لا يخلف الميعاد﴾[5] ثم قال: أرسله ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدًا وليس من شأنه إخلاف المواعيد كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته، وقرى: مخلف وعده رسله بجرّ الرسل ونصب الوعد وهذه في الضعف كمن قرأ: قتل أولادهم شركائهم ﴿عزيز﴾ غالب لا يماكر ﴿ذو انتقام﴾ لأوليائه من أعدائه.

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾.

﴿يوم تبدّل الأرض﴾ انتصابه على البدل من ﴿يوم يأتيهم﴾[6]، أو على الظرف للانتقام، والمعنى يوم تبدّل هذه الأرض التي تعرفونها أرضًا أخرى غير هذه المعروفة وكذلك السمٰوات، والتبديل التغيير، وقد يكون في الذوات كقولك: بدّلت الدراهم دنانير، ومنه: ﴿بدّلناهم جلودًا غيرها﴾[7] ﴿وبدّلناهم بجنتيهم جنتين﴾[8] وفي الأوصاف كقولك: بدلت الحلقة خاتمًا إذا أذبتها وسوّيتها خاتمًا فنقلتها من شكل إلى شكل ومنه قوله تعالى: ﴿فأولٰئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات﴾[9] واختلف في تبديل الأرض والسمٰوات، فقيل: تبدّل أوصافها، فتسير عن الأرض جبالها، وتفجر بحارها، وتسوّى فلا يرى فيها عوج ولا أمت، وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير وأنشد:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت تعلم

وتبدّل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابًا، وقيل: يخلق بدلها أرض وسمٰوات أخر، وعن ابن مسعود، وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة، وعن علي رضي الله عنه: تبدّل أرضًا من فضة وسمٰوات من ذهب، وعن الضحاك: أرضًا من فضة بيضاء كالصحائف، وقرى: يوم نبدّل الأرض بالنون.

فإن قُلْتَ: كيف قال ﴿الواحد القهار﴾؟ قُلْتُ: هو كقوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾[10] لأنّ الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعاز فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار كان الأمر في غاية الصعوبة والشدّة.

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾.

﴿مقرنين﴾ قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين، أو

---

(1) سورة البقرة، الآية: 143.
(2) سورة غافر، الآية: 51.
(3) سورة المجادلة، الآية: 21.
(4) قال أحمد: وفيما قاله نظر؛ لأنّ الفعل تقيد بمفعول، انقطع طلاقه، فليس تقديم الوعد في الآية دليلاً على إطلاق الفعل، باعتبار الموعود، حتى يكون ذكر الرسل بائناً كالأجنبي، من الإطلاق الأوّل، ولا فرق في المعنى الذي ذكره، بين تقديم ذكر الرسل وتأخيره، ولا يفيد تقديم المفعول الثاني، إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم، والأمر بهذه المثابة في الآية؛ لأنها وردت في سيقا الإنذار والتهديد للظالمين، بما توعدهم الله تعالى به على = السنة الرسل، فالمهم في التهديد ذكر الوعيد، وأمّا كونه على السنة الرسل، فذلك أمر لا يقف التخويف عليه، ولا بدّ حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول، لكان الخوف منه حسيباً كافياً، والله أعلم.
(5) سورة آل عمران، الآية: 9، سورة الرعد، الآية: 31.
(6) سورة إبراهيم، الآية: 44.
(7) سورة النساء، الآية: 56.
(8) سورة سبأ، الآية: 16.
(9) سورة الفرقان، الآية: 70.
(10) سورة غافر، الآية: 16.

قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين وقوله: ﴿في الأصفاد﴾ إمّا أن: يتعلق بمقرنين أي: يقرنون في الأصفاد، وإمّا أن لا يتعلق به، فيكون المعنى مقرنين مصفدين، والأصفاد: القيود، وقيل: الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل:

وزيد الخيل قد لاقى صفادًا   يعض بساعد وبعظم ساق

سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾.

القطران فيه ثلاث لغات: قطران، وقطران، وقطران، بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء وهو: ما يتحلب من شجر يسمى: الأبهل فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحره وحدته والجلد وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي: القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه، وقرئ: من قطرآن والقطر: النحاس أو الصفر المذاب والآني المتناهي حرجه ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ كقوله تعالى: ﴿فمن يتقي بوجهه سوء العذاب﴾[1] ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾[2] لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه كالقلب في باطنه ولذلك قال: ﴿تطلع على الأفئدة﴾[3] وقرئ: وتغشى وجوههم بمعنى: تغشى. أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل.

لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾.

﴿ليجزي الله كل نفس﴾ مجرمة ﴿ما كسبت﴾ أو كل نفس من مجرمة ومطيعة، لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾.

﴿هذا بلاغ للناس﴾ كفاية في التذكير والموعظة يعني: بهذا ما وصفه من قوله: ولا تحسبن إلى قوله: سريع الحساب ﴿ولينذروا﴾ معطوف على محذوف أي: لينصحوا ولينذروا ﴿به﴾ بهذا البلاغ، وقرئ: ولينذروا بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعدله ﴿وليعلموا إنما هو إله واحد﴾ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأن الخشية أمّ الخير كله.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحجـر مكية

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والكتاب والقرآن المبين السورة، وتنكير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتابًا وآي قرآن مبين، كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾.

قرئ: ربما وربتما بالتشديد وربما وربما بالضم والفتح مع التخفيف.

فإن قُلْتَ: لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي؟ قُلْتُ: لأنّ المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل: ربما ودّ.

فإن قُلْتَ: متى تكون ودادتهم؟ قُلْتُ: عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، وقيل: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا أيضًا باب من الودادة.

فإن قُلْتَ[5]: فما معنى التقليل؟ قُلْتُ: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون

(1) سورة الزمر، الآية: 24.
(2) سورة القمر، الآية: 48.
(3) سورة الهمزة، الآية: 7.
(4) ذكره ابن مردويه والواحدي ذكره (الزيلعي 2/205).
(5) قال أحمد: لا شك أن العرب تعبر عن المعنى، بما يؤدّي عكس مقصوده كثيراً، ومنه قوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

وإنما يمتدح بالإكثار من ذلك، وقد عبر بقد المفيدة للتقليل، ومنه والله أعلم، وقد تعلمون أني رسول الله، والمقصود: توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام، على توفر علمهم برسالته، ومناصحته لهم، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك، فمنهم من وجهه بما= ذكره الزمخشري آنفاً، من التنبيه بالأدنى على الأعلى، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك: الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية، حتى كاد أن يرجع إلى الضدّ، وذلك شأن كل ما انتهى لنهايته، أن يعود إلى عكسه، وقد أفصح أبو الطيب ذلك بقوله:

ولجدت حتى كدت تبخل حائلاً   للمنتهى ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين، يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها، والعمدة في ذلك على سياق الكلام: لأنه إذا اقتضى مثلاً تكثيراً، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل، استيقظ السامع بأن المراد: المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين، والله أعلم.

تقليله، ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكًا فيه أو كان قليلاً لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل؛ لأنّ العقلاء يتحرّزون من التعرّض للغم المظنون كما يتحرّزون من المتيقن، ومن القليل منه كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه في كل ساعة ﴿لو كانوا مسلمين﴾ حكاية ودادتهم، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم كقولك: حلف بالله ليفعلن، ولو قيل: حلف بالله لأفعلنّ، ولو كنا مسلمين لكان حسنًا سديدًا، وقيل: تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا فلذلك قلل.

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾.

﴿ذرهم﴾ يعني: اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم ﴿يأكلوا ويتمتعوا﴾ بدنياهم وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال وأن لا يلقوا في العاقبة إلا خيرًا ﴿فسوف يعلمون﴾ سوء صنيعهم، والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندمًا في العاقبة، وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه، وفيه تنبيه على أنّ إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل، وهذه هجيري أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين.

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾.

﴿ولها كتاب﴾ جملة واقعة صفة لقرية، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾[1] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب كتاب ﴿معلوم﴾ مكتوب معلوم، وهو: أجلها الذي كتب في اللوح وبين، ألا ترى إلى قوله ﴿ما تسبق من أمة أجلها﴾ في موضع كتابها وأنث الأمة أوّلاً ثم ذكرها آخرًا حملاً على اللفظ والمعنى، وقال: ﴿وما يستأخرون﴾ بحذف عنه؛ لأنه معلوم.

وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾.

قرأ الأعمش يا أيها الذي ألقي عليه الذكر، وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون: ﴿إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾[2] وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع، وقد جاء في كتاب الله في مواضع منها، ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[3] ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾[4] وقد يوجد كثيرًا في كلام العجم والمعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أنّ الله نزل عليك الذكر.

لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾.

لو ركبت مع لا وما لمعنيين، معنى: امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى: التحضيض، وأما هل فلم تركب إلا مع لا وحدها للتحضيض. قال ابن مقبل:

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك كقوله تعالى: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرًا﴾[5] أو هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقًا كما كنت تأتي الأمم المكذبة برسلها.

مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾.

قرئ: تنزل بمعنى: تتنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل وننزل الملائكة بالنون ونصب الملائكة ﴿إلا بالحق﴾ إلا تنزلاً ملتبسًا بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عيانًا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ؛ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾[6] وقيل: الحق الوحي أو العذاب و ﴿إذًا﴾ جواب وجزاء؛ لأنه جواب لهم، وجزاء لشرط مقدر تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾.

﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾[7] ردّ لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾[8] ولذلك قال: ﴿إنا نحن﴾ فأكّد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ وبين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظًا من الشياطين، وهو حافظ في كل وقت من كل زيادة ونقصان

(1) سورة الشعراء، الآية: 208.
(2) سورة الشعراء، الآية: 27.
(3) سورة آل عمران، الآية: 21.
(4) سورة هود، الآية: 87.
(5) سورة الفرقان، الآية: 7.
(6) سورة الحجر، الآية: 85.
(7) قال أحمد: ويحتمل أن يراد: حفظه مما يشينه، من تناقض واختلاف لا يخلو عنه الكلام المفتري، وذلك أيضاً من الدليل على أنه من عند الله، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.
(8) سورة الحجر، الآية: 6.

وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيًا فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه.

فإن قُلْتَ: فحين كان قوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ ردًا لإنكارهم واستهزائهم فكيف اتصل به قوله: ﴿وإنا له لحافظون﴾؟ قُلْتُ: قد جعل ذلك دليلاً على أنه منزل من عنده آية؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه، وقيل: الضمير في له لرسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿والله يعصمك﴾[1].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾.

﴿في شيع الأولين﴾ في فرقهم وطوائفهم، والشيعة: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة، ومعنى أرسلناه فيهم: نبأناه فيهم وجعلناه رسولاً فيما بينهم.

﴿وما يأتيهم﴾ حكاية حال ماضية؛ لأنّ ما لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾.

يقال: سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته، وقرئ: نسلكه والضمير للذكر أي: مثل ذلك السلك ونحوه نسلك الذكر في ﴿قلوب المجرمين﴾[2] على معنى: أنه يلقيه في قلبهم مكذبًا مستهزأ به غير مقبول، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللئام تعني: مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية، ومحل قوله: ﴿لا يؤمنون به﴾ النصب على الحال أي: غير مؤمن به، أو هو بيان لقوله: ﴿كذلك لنسلكه﴾ ﴿سنة الأولين﴾ طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حين كذبوا برسلهم وبالذكر المنزل عليهم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾.

قرئ: يعرجون بالضم والكسر و ﴿سكرت﴾ حيرت أو حبست من الأبصار من السكر، أو السكر، وقرئ: سكرت بالتخفيف أي: حبست كما يحسب النهر من الجري، وقرئ: سكرت من السكر أي: حارت كما يحار السكران، والمعنى: أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا: قد سحرنا محمد بذلك، وقيل: الضمير للملائكة أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عيانًا لقالوا ذلك. وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون، وقال: إنما ليدل على أنهم يبتون القول بأنّ ذلك ليس إلا تسكيرًا للأبصار.

إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾.

﴿من استرق﴾ في محل النصب على الاستثناء، وعن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحجبون عن السمٰوات فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سمٰوات، فلما ولد محمد منعوا من السمٰوات كلها ﴿شهاب مبين﴾ ظاهر للمبصرين ﴿موزون﴾ وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أوله وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة، وقيل: ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها.

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿معايش﴾ بياء صريحة بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما، فإن تصريح الياء فيها خطأ، والصواب الهمزة أو إخراج الياء بين بين، وقد قرئ: معائش بالهمز على التشبيه ﴿ومن لستم له برازقين﴾ عطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل: وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم له برازقين، أو وجعلنا لكم معايش ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإنّ الله هو الرزاق

(1) سورة المائدة، الآية: 67.

(2) قال أحمد: والمراد والله أعلم: إقامة الحجة على المكذبين، بأنّ الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم، وأدخله في سويدائها، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدّقين، فكذب به هؤلاء، وصدّق به هؤلاء، كل على علم وفهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة، ولئلا يكون للكفار على الله حجة، بأنهم فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن، فأعلمهم الله تعالى من الآن وهم في مهلة، وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم، معاندين، باغين، غير معذورين، والله أعلم، ولذلك عقبة الله تعالى بقوله: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ أي: هؤلاء فهموا القرآن، = وعلموا وجوه إعجازه، وولج ذلك في قلوبهم ووقر، ولكنهم قوم سجيتهم العناد، وشيمتهم اللدد، حتى لو سلك بهم أوضح السبيل وأدعاها إلى الإيمان، بضرورة المشاهدة، وذلك بأن يفتح لهم باباً في السماء، ويعرج بهم إليهم، حتى يدخلوا منه نهاراً، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿فظلوا﴾ لأن الظلول إنما يكون نهاراً، لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ وسحرنا محمد، وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها، فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب من عدم سماع، ووعي، ووصول إلى القلوب، وفهم كما فهم غيرهم من المصدّقين؛ لأنّ ذلك كله حاصل لهم، وإنما بهم العناد، واللدد، والإصرار لا غير، والله أعلم.

يرزقهم وإياهم ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة مما الله رازقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرازقون، ولا يجوز أن يكون مجرورًا عطفًا على الضمير المجرور في لكم؛ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور.

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾.

نكر الخزائن تمثيل والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلح له، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقدور.

وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿لواقح﴾ فيه قولان: أحدهما: أنّ الريح لاقح إذا جاءت بخير من إنشاء سحاب ماطر كما قيل: للتي لا تأتي بخير ريح عقيم، والثاني: أنّ اللواقح بمعنى الملاقح كما قال:

ومختبط مما تطيح الطوائح

يريد المطاوح جمع مطيحة، وقرئ: وأرسلنا الريح على تأويل الجنس ﴿فاسقيناكموه﴾ فجعلنا لكم سقيا ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾[1] كأنه قال: نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها وما أنتم عليه بقادرين، دلالة على عظيم قدرته وإظهارًا لعجزهم ﴿ونحن الوارثون﴾ أي: الباقون بعد هلاك الخلق كله، وقيل للباقي: وارث استعارة من وارث الميت لأنه يبقى بعد فنائه، ومنه قوله ﷺ في دعائه: «واجعله الوارث منا»[2].

وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾.

﴿ولقد علمنا﴾ من استقدم ولادة وموتًا، ومن تأخر من الأولين والآخرين، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر، وقيل: المستقدمين في صفوف الجماعة والمستأخرين، وروي: أن امرأة حسناء كانت في المصليات خلف رسول الله ﷺ، فكان بعض القوم يستقدم لئلا ينظر إليها وبعض يستأخر ليبصرها[3] فنزلت ﴿هو يحشرهم﴾ أي: هو وحده القادر على حشرهم والعالم بحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم ﴿إنه حكيم عليم﴾ باهر الحكمة واسع العلم، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب، وقد أحاط علمًا بكل شيء.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾.

الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل. وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، قالوا: إذا توهمت في صوته مدًا فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجعيًا فهو صلصلة، وقيل: هو تضعيف صل إذا أنتن، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون: المصوّر من سنة الوجه، وقيل: المصبوب المفرغ أي: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في أمثلتها، وقيل: المنتن من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به فالذي يسيل بينهما سنين ولا يكون إلا منتنًا ﴿من حمإ﴾ صفة لصلصال أي: خلقه من صلصال كائن من حمإ، وحق ﴿مسنون﴾ بمعنى: مصور أن يكون صفة لصلصال كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف فيبس، حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر.

وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾.

﴿والجانّ﴾ للجن كآدم للناس، وقيل: هو إبليس، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: والجأن بالهمز ﴿من نار السموم﴾ من نار الحر الشديد النافذ من المسام، قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزأ من سموم النار التي خلق الله منها الجانّ.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾.

﴿إذ قال ربك﴾ واذكر وقت قوله: ﴿سويته﴾ عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها، ومعنى ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وأحييته وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه. واستثنى إبليس من الملائكة؛ لأنه كان بينهم مأمورًا معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغلب كقولك: رأيتهم إلا هندًا و ﴿أبى﴾ استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه، وقيل: معناه ولكن إبليس أبى.

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾.

حرف الجر مع أن محذوف وتقديره ﴿ما لك﴾ في ﴿ألا تكون مع الساجدين﴾ بمعنى أيّ غرض لك في إبائك السجود وأي داع لك إليه؟ اللام في ﴿لأسجد﴾ لتأكيد النفي ومعناه: لا يصحّ مني وينافي حالي ويستحيل أن أسجد لبشر.

---

(1) سورة الحجر، الآية: 21.

(2) رواه الترمذي في كتاب: «الدعوات» باب (80) (الحديث رقم: 3502)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (الحديث رقم: 404) والحاكم في المستدرك 528/1.

(3) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر (الحديث رقم: 3122)، والنسائي في كتاب: الإمامة، باب المنفرد خلف الصف، (الحديث رقم: 870).

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾.

﴿رجيم﴾ شيطان من الذين يرجمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة، ومعناه: ملعون؛ لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في منها راجع إلى الجنة، أو السماء، أو إلى جملة الملائكة. وضرب يوم الدين حدًا للعنة إما لأنه غاية يضربها الناس في كلامهم كقوله: ﴿ما دامت السمٰوات والأرض﴾[1] في التأييد، وإما أن يراد أنك مذموم مدعو عليك باللعن في السمٰوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن يعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه. ويوم الدين، ويوم يبعثون، ويوم الوقت المعلوم في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكًا بالكلام طريقة البلاغة. وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت؛ لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك وانظر إلى آخر أيام التكليف.

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿بما أغويتني﴾ الباء للقسم وما مصدرية وجواب القسم ﴿لأزينن﴾ المعنى: أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم، ومعنى إغوائه إياه: تسببه لغيه بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام فأفضى ذلك إلى غيه، وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيه ومن إرادته والرضا به ونحو قوله: ﴿بما أغويتني لأزينن﴾ ﴿لهم﴾ قوله: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجميعن﴾[2] في أنه إقسام إلا أن أحدهما: إقسام بصفته والثاني: إقسام بفعله، وقد فرق الفقهاء بينهما، ويجوز أن لا يكون قسمًا يقدر قسم محذوف ويكون المعنى: بسبب تسبيبك لإغوائي أقسم لأفعلنّ بهم نحو ما فعلت بي من التسبيب لإغوائهم بأن أزين لهم المعاصي، وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم ﴿في الأرض﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور كقوله تعالى: ﴿أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾[3] وأراد أني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء، فأنا عليّ التزيين لأولاده في الأرض أقدر، أو أراد لأجعلنّ مكان التزيين عندهم الأرض، ولأقعن تزييني فيها، أي لأزيننها في أعينهم، ولأحدّثنهم بأنّ الزينة في الدنيا وحدها حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها دونها، ونحوه: يجرح في عراقيبها نصلي،

استثنى المخلصين؛ لأنه علم أنّ كيده لا يعلم فيهم ولا يقبلون منه. أي ﴿هذا﴾ طريق حق ﴿علي﴾ أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته، وقرئ: عليّ، وهو: من علو الشرف والفضل.

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾.

﴿لموعدهم﴾ الضمير للغاوين، وقيل: أبواب النار أطباقها وأدراكها، فأعلاها للموحدين، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين. وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن جهنم لمن ادعى الربوبية، ولظى لعبدة النار، والحطمة لعبدة الأصنام، وسقر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحدين. وقرئ: جزء بالتخفيف والتثقيل، وقرأ الزهري: جزّ بالتشديد كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاي، كقولك: خب في خبء، ثم وقف عليه بالتشديد كقولهم: الرجل، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾.

المتقي على الإطلاق من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهي عنه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اتقوا الكفر والفواحش، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها ﴿ادخلوها﴾ على إرادة القول، وقرأ الحسن: ادخلوها ﴿بسلام﴾ سالمين أو مسلمًا عليكم، تسلم عليكم الملائكة. الغل الحقد الكامن في القلب من أنغل في جوفه وتغلغل أي: إن كان لأحدهم في الدنيا غلّ على آخر، نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم، وعن علي رضي الله عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، وعن الحرث الأعور: كنت جالسًا عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له عليّ: مرحبًا بك يا ابن أخي أما والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ فقال له قائل: كلا الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد، فقال: فلمن هذه الآية لا أمّ لك، وقيل معناه: طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونزع منها كل غلّ، وألقى فيها التوادّ والتحاب و﴿إخوانًا﴾ نصب على الحال و ﴿على سرر متقابلين﴾ كذلك، وعن مجاهد: تدور بهم الأسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين.

---

(1) سورة هود، الآيتان: 107، 108.
(2) سورة صٓ، الآية: 82.
(3) سورة الأعراف، الآية: 176.

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾.

لما أتم ذكر الوعد والوعيد اتبعه ﴿نبئ عبادي﴾ تقرير لما ذكر وتمكينًا له في النفوس. وعن ابن عباس رضي الله عنه: غفور لمن تاب وعذابه لمن لم يتب وعطف ﴿ونبئهم﴾ على ﴿نبئ عبادي﴾ ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أنّ عذابه هو العذاب الأليم.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿سلامًا﴾ أي: نسلم عليك سلامًا، أو سلمت سلامًا ﴿وجلون﴾ خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل، وقيل: لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت. وقرأ الحسن: لا توجل بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه، وقرئ: لا تاجل، ولا تواجل من واجله بمعنى: أوجله.

﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقرئ: نبشرك بفتح النون والتخفيف ﴿إنا نبشرك﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل، أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل. يعني ﴿أبشرتموني﴾ مع مس الكبر بأن يولد لي، أي: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر ﴿فبم تبشرون﴾ هي: ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب كأنه قال: فبأي أعجوبة تبشروني! أو أراد أنكم تبشرونني بما هو غير متصوّر في العادة فبأي شيء تبشرون يعني: لا تبشرونني في الحقيقة بشيء؛ لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء، ويجوز أن لا يكون صلة لبشر، ويكون سؤالاً عن الوجه والطريقة يعني: بأي طريقة تبشرونني بالولد والبشارة به لا طريقة لها في العادة.

وقوله: ﴿بشرناك بالحق﴾ يحتمل أن تكون الباء فيه صلة أي: بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه، أو بشرناك بطريقة هي حق وهو: قول الله، ووعده، وأنه قادر على أن يوجد ولدًا من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر؟ وقرئ: تبشرون بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع، والأصل تبشرون وتبشرون بإدغام نون الجمع في نون العماد. وقرئ: من القنطين من قنط يقنط. وقرئ: ومن يقنط بالحركات الثلاث في النون، أراد: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون كقوله: ﴿لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[1] يعني: لم أستنكر ذلك قنوطًا من رحمته ولكن استبعادًا له في العادة التي أجراها الله.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

فإن قُلْتَ[2]: قوله تعالى: ﴿إلا آل لوط﴾ استثناء متصل أم منقطع؟ قُلْتُ: لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم فيكون منقطعًا؛ لأنّ القوم موصوفون بالإجرام فاختلف لذلك الجنسان، وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين فيكون متصلاً كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم كما قال: ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾[3].

فإن قُلْتَ: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟ قُلْتُ: نعم وذلك أنّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً، ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمى في أنه في معنى التعذيب والإهلاك كأنه قيل: إنا أهلكنا قومًا مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم، وأمّا في المتصل: فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أنّ الملائكة أرسلوا إليهم جميعًا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصًا بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأوّل.

فإن قُلْتَ: فقوله: ﴿إنا لمنجوهم﴾ بم يتعلق على الوجهين قُلْتُ: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر لكن في الاتصال بآل لوط؛ لأنّ المعنى لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلامًا مستأنفًا، كأنّ إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط؟ فقالوا: إنا لمنجوهم.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

فإن قُلْتَ: فقوله: ﴿إلا امرأته﴾ ممّ استثني؟ وهل هو استثناء من استثناء؟ قُلْتُ: استثنى من الضمير المجرور في قوله: لمنجوهم، وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء؛ لأنّ الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول المطلق: أنت طالق ثلاثًا إلا اثنين إلا واحدة، وفي قول المقر لفلان: عليّ عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا درهمًا، فأمّا في الآية فقد اختلف الحكمان؛ لأنّ إلا آل لوط متعلق بأرسلنا أو بمجرمين، وإلا امرأته قد تعلق بمنجوهم، فأنى يكون

(1) سورة يوسف، الآية: 87.

(2) قال أحمد: وجعله الأوّل منقطعاً أولى وأمكن، وذلك أنّ في استثنائهم من الضمير العائد على قوم منكرين بعداً، من حيث أنّ موقع الاستثناء إخراج ما لولاه، لدخل المستثنى في حكم الأوّل، وهذا الدخول متعذر من التنكير، ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى= منها، إلا في سياق نفي؛ لأنها حينئذ أعم، فيتحقق الدخول لولا الاستثناء، ومن ثم لم يحسن رأيت قوماً إلا زيداً، وحسن ما رأيت أحد إلا زيداً، والله أعلم.

(3) سورة الذاريات، الآية: 36.

استثناء من استثناء؛ وقرىء: لمنجوهم بالتخفيف والتثقيل.

فإن قُلْتَ[1]: لِمَ جاز تعليق فعل التقدير في قوله: ﴿قدّرنا إنها لمن الغابرين﴾ والتعليق من خصائص أفعال القلوب؟ قُلْتُ: لتضمن فعل التقدير معنى العلم، ولذلك فسر العلماء تقدير الله أعمال العباد بالعلم.

فإن قُلْتَ: فلم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم ولم يقولوا قدّر الله؟ قُلْتُ: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم، وأنهم لا يتميزون عنه، وقرىء: قدرنا بالتخفيف.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣﴾.

﴿منكرون﴾ أي: تنكركم نفسي وتنفر منكم، فأخاف أن تطرقوني بشر بدليل قوله: ﴿بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوّك، وهو: العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه ويكذبونك.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾.

﴿بالحق﴾ باليقين من عذابهم ﴿وإنا لصادقون﴾ في الإخبار بنزوله بهم. وقرىء: فأسر بقطع الهمزة ووصلها من أسرى وسرى، وروي صاحب الإقليد: فسر من السير. والقطع في آخر الليل قال:

افتحي الباب وانظري في النجوم | كم علينا من قطع ليل بهيم

وقيل: هو بعدما يمضي شيء صالح من الليل.

فإن قُلْتَ: ما معنى أمره باتباع أدبارهم[2] ونهيهم عن الالتفات؟ قُلْتُ: قد بعث الله الهلاك على قومه ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجرًا فلم يكن له بدّ من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك، فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعًا عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرط منهم التفاتة احتشامًا منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحذورة، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سربه ويفوت به[3]، ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة، ويطيبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدمًا غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوي إليه أخادعه كما قال:

تلفت نحو الحي حتى وجدتني | وجعت من الإصغاء ليتًا وأخدعا

أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف؛ لأنّ من يتلفت لا بدّ له في ذلك من أدنى وقفة ﴿حيث تؤمرون﴾ قيل: هو مصر، وعدي، وامضوا إلى حيث، تعديته إلى الظرف المبهم؛ لأن حيث مبهم في الأمكنة، وكذلك الضمير في تؤمرون وعدي قضينا بإلى؛ لأنه ضمن معنى أوحينا كأنه قيل: وأوحينا إليه مقضيًا مبتوتًا وفسر ﴿ذلك الأمر﴾ بقوله: ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له، وقرأ الأعمش: إن بالكسر على الاستئناف كأن قائلاً قال: أخبرنا عن ذلك الأمر؟ فقال: إنّ دابر هؤلاء، وفي قراءة ابن مسعود: وقلنا إنّ دابر هؤلاء ودابرهم آخرهم يعني: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾.

﴿أهل المدينة﴾ أهل سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور مستبشرين بالملائكة ﴿لا تفضحون﴾ بفضيحة ضيفي؛ لأنّ من أسيء إلى ضيفه أو جاره فقد أسيء إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم ﴿ولا تخزون﴾ ولا تذلون بإذلال ضيفي من الخزي وهو: الهوان، أو ولا

---

(1) قال أحمد: وهذه أيضاً من دفائنه الاعتزالية في جحد القضاء والقدر، واعتقاد أنّ الأمر أنف؛ لأنهم لا يعتقدون أنّ الله تعالى مريد لأكثر أفعال عبيده، من معصية ومباح ونحوهما، ولا مقدّر لها على العبيد بمعنى أنه مريد، ولكنه عالم بما سيفعلونه على خلاف مشيئته وإرادته، فالتقدير عندهم هو العلم لا الإرادة، ثم استدلّ على أنّ التقدير هو العلم، بتعليق فعله على العلم، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته، فانظر إلى بعد غوره، ودقة فطنته في ابتغاء السنة يلفقها ويعاند بها البراهين الواضح فلقها، وفي كلامه شاهد على ردّه، فإنّ التقدير عنده مضمن معنى العلم، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر، أن يبقى على معناه الأصلي مضافاً إليه المعنى الطارىء فيفيدها جميعاً، فالتقدير إذاً كما أفاد العلم الطارىء، يفيد الإرادة أصلاً ووضعاً، والله أعلم على أنّ من الناس من جعل قوله تعالى: ﴿قدّرنا أنها من الغابرين﴾ من كلامه تعالى = غير محكى عن الملائكة، وهو الظاهر، فإن الذي يجعله من قول الملائكة، يحتاج في نسبتهم التقدير إلى أنفسهم إلى تأويل، ويجعله من باب قول خواص الملك دبرنا كذا، وإنما يعنون دبر الملك وأمر وبذلك أوّله الزمخشري، وإن كان أصله لا يحتاج معه إلى التأويل؛ لأنه إذا جعل ﴿قدّرنا﴾ بمعنى علمنا ﴿إنها لمن الغابرين﴾ فلا غرور في علم الملائكة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: ولبعض هذه المقاصد عاتب الله تعالى نبيه موسى عليه السلام، حيث تقدّم قومه، فقال: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ والله أعلم.

(3) قال أحمد: ولقد شملت هذه الآية على وجازتها، آداب المسافرين لمهم ديني أو دنيوي من الآمر والمأمور، والتابع والمتبوع، ما فرطنا في الكتاب من شيء.

تشوروا بي من الخزاية وهي الحياء ﴿عن العالمين﴾ عن أن تجير منهم أحدًا أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرّضون لكل أحد، وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر، والحجر بينهم وبين المتعرّض له فأوعدوه وقالوا: ﴿لئن لم تنته يا لوط لتكوننّ من المخرجين﴾[1] وقيل: عن ضيافة الناس وإنزالهم، وكانوا نهوه أن يضيف أحدًا قط ﴿هؤلاء بناتي﴾ إشارة إلى النساء؛ لأنّ كل أمّة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهنّ وخلو ابنيّ فلا تتعرّضوا لهم ﴿إن كنتم فاعلين﴾ شك في قبولهم لقوله كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون، وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرّم.

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾.

﴿لعمرك﴾ على إرادة القول أي: قالت الملائكة للوط عليه السلام لعمرك ﴿إنهم لفي سكرتهم﴾ أي: غوايتهم التي أذهبت عقولهم، وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات ﴿يعمهون﴾ يتحيرون، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له، والعمر والعمر واحد إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه، وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم ولذلك حذفوا الخبر، وتقديره لعمرك مما أقسم به، كما حذفوا الفعل في قولك: بالله، وقرئ: في سكرهم وفي سكراتهم.

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿الصيحة﴾ صيحة جبريل عليه السلام ﴿مشرقين﴾ داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس ﴿من سجيل﴾ قيل: من طين عليه كتاب من السجل ويدليه قوله تعالى: ﴿حجارة من طين * مسوّمة عند ربك﴾[2] أي: معلمة بكتاب ﴿للمتوسمين﴾ للمتفرّسين المتأمّلين، وحقيقة المتوسمين النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء يقال: توسمت في فلان كذا أي: عرفت وسمه فيه. والضمير في ﴿عاليها سافلها﴾ لقرى قوم لوط ﴿وإنها﴾ وإنّ هذه القرى يعني: آثارها ﴿لبسبيل مقيم﴾ ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعدوهم يبصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش كقوله: ﴿وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين﴾[3].

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾.

﴿أصحاب الأيكة﴾ قوم شعيب ﴿وإنهما﴾ يعني: قرى قوم لوط والأيكة، وقيل: الضمير للأيكة، ومدين؛ لأنّ شعيبًا كان مبعوثًا إليهما، فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما ﴿لبإمام مبين﴾ لبطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتم به فسمي به الطريق، ومطمر البناء، واللوح الذي يكتب فيه؛ لأنها مما يؤتم به.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾.

﴿أصحاب الحجر﴾ ثمود والحجر واديهم، وهو بين المدينة والشام ﴿المرسلين﴾ يعني: بتكذيبهم صالحًا؛ لأنّ من كذب واحدًا منهم فكأنما كذبهم جميعًا، أو أراد صالحًا ومن معه من المؤمنين كما قيل: الخبيبون في ابن الزبير وأصحابه، وعن جابر: مررنا مع النبي ﷺ على الحجر فقال لنا: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء، ثم زجر النبي ﷺ راحلته فأسرع حتى خلفها»[4]. ﴿آمنين﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم ويتداعى بنيانها، ومن نقب اللصوص، ومن الأعداء، وحوادث الدهر، أو آمنين من عذاب الله يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾.

﴿إلا بالحق﴾ إلا خلقًا ملتبسًا بالحق والحكمة لا باطلاً وعبثًا، أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿وإنّ الساعة لآتية﴾ وإنّ الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيآتهم، فإنه ما خلق السمٰوات والأرض وما بينهما إلا لذلك ﴿فاصفح﴾ فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضًا جميلاً بحلم وإغضاء، وقيل: هو منسوخ بآية السيف، ويجوز أن يراد به المخالقة فلا يكون منسوخًا.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾.

﴿إنّ ربك هو الخلاق﴾ الذي خلقك وخلقهم وهو ﴿العليم﴾ بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم، وهو يحكم بينكم، أو إنّ ربك هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم، وقد علم أنّ الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح، وفي مصحف أبيّ، وعثمان: إنّ ربك هو

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 167.

(2) سورة الذاريات، الآيتان: 33 ـ 34.

(3) سورة الصافات، الآية: 137.

(4) رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: نزول النبي ﷺ الحجر (الحديث رقم: 4419).

الخالق، وهو يصلح للقليل والكثير، والخلاق للكثير لا غير، كقولك: قطع الثياب وقطع الثوب والثياب.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾.

﴿سبعًا﴾ سبع آيات وهي: الفاتحة، أو سبع سور وهي: الطوال، واختلف في السابعة فقيل: الأنفال وبراءة؛ لأنهما في حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية، وقيل: سورة يونس، وقيل: هي: آل حم، أو سبع صحائف وهي: الأسباع و ﴿المثاني﴾ من التثنية وهي التكرير؛ لأنّ الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، أو من الثناء لاشتمالها أعلى ما هو ثناء على الله، الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية، وأمّا السور أو الأسباع: فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، ولما فيها من الثناء كانها تثني على الله تعالى بأفعاله العظمى، وصفاته الحسنى، و ﴿من﴾ إمّا: للبيان، أو للتبعيض: إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان: إذا أردت الأسباع، ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثاني لأنها تثنى عليه، ولما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها.

فإن قُلْتَ: كيف صحّ عطف ﴿القرآن العظيم﴾ على السبع؟ وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟ قُلْتُ: إذا عني بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءهنّ ينطلق عليه اسم القرآن؛ لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى إلى قوله: ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾[1] يعني: سورة يوسف، وإذا عنيت الأسباع فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له: السبع المثاني، والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النعتين وهو: الثناء، أو التثنية، والعظم. أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له.

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾.

﴿إلى ما متعنا به أزواجًا منهم﴾ أصنافًا من الكفار.

فإن قُلْتَ[2]: كيف وصل هذا بما قبله؟ قُلْتُ: يقول لرسوله ﷺ قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة وهي: القرآن العظيم، فعليك أن تستغني به، ولا تمدنّ عينيك إلى متاع الدنيا، ومنه الحديث: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[3]. وحديث أبي بكر: من أوتي القرآن فرأى أن أحدًا أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيمًا وعظم صغيرًا[4]. وقيل: وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال لهم الله عز وعلا: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي: لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم إنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون. وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفسًا عن إيمان الأغنياء والأقوياء.

وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾.

﴿وقل﴾ لهم ﴿إني أنا النذير المبين﴾ أنذركم ببيان وبرهان: أنّ عذاب الله نازل بكم.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿كما أنزلنا﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يتعلق بقوله: ﴿ولقد آتيناك﴾[5] أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ حيث قالوا بعنادهم وعدوانهم: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقتسموه إلى حق وباطل وعضوه. وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي، ويجوز أن يراد بالقرآن ما يقرؤنه من كتبهم، وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأنّ اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرّت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم: سحر وشعر وأساطير بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم والثاني: أن يتعلق بقوله: ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي: وأنذر قريشًا مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين يعني اليهود وهو: ما جرى على قريظة والنضير، جعل المتوقع بمنزلة الواقع وهو: من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون وقد كان، ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوبًا بالنذير أي: أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم: الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ،

---

(1) سورة يوسف، الآية: 3.

(2) قال أحمد: وهذا هو الصواب في معنى الحديث، وقد حمله كثير من العلماء على الغناء، وادعى هؤلاء أن تغنى إنما يبنى من الغناء الممدود، لا من الغنى المقصور، وإنّ فعله استغنى خاصة، وقد وجدت بناء تغني من الغني المقصور في الحديث الصحيح في الخيل، وأمّا التي هي ستر، فرجل ربطها تغنياً وتعففاً، وإنما هذا من الغنى المقصور قطعاً واتفاقاً، وهو مصدر تغني، فدلّ على ذلك على أنه مستعمل من البناءين جميعاً، على خلاف دعوى المخالف، =

= والله الموفق.

(3) رواه البخاري في كتاب: «التوحيد» باب: قول الله تعالى: «وأسروا قولكم» (الحديث رقم: 7527).

(4) قال الزيلعي: غريب من حديث أبي بكر، ورواه إسحاق بن راهويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عدي في الكامل عن ابن مسعود 2/218.

(5) سورة الحجر، الآية: 87.

يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر، وقبله بآفات كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وغيرهم، أو مثل ما أنزلنا إلى الرهط الذين تقاسموا على أن يبيّتوا صالحًا عليه السلام، والاقتسام بمعنى: التقاسم.

فإن قُلْتَ: إذا علقت قوله: ﴿كما أنزلنا﴾ بقوله: ﴿ولقد آتيناك﴾[1] فما معنى توسط ﴿لا تمدن﴾[2] إلى آخره بينهما؟ قُلْتُ: لما كان ذلك تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية، من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين. عضين: أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء. قال رؤبة:

وليس دين الله بالمعضى

وقيل: هي فعلة من غضهته إذا بهته، وعن عكرمة: العضة السحر بلغة قريش يقولون للساحر: عاضهة، ولعن النبي ﷺ: «العاضهة والمستعضهة»[3] نقصانها عن الأوّل واو وعلى الثاني هاء.

فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

﴿لنسئلنهم﴾ عبارة عن الوعيد، وقيل: يسألهم سؤال تقريع، وعن أبي العالية: يسأل العباد عن خلتين، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾.

﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فاجهر به وأظهره، يقال: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارًا كقولك: صرح بها من الصديع وهو: الفجر، والصدع في الزجاجة الإبانة، وقيل: فاصدع فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر والمعنى: بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

ويجوز أن تكون ما مصدرية أي: بأمرك مصدر من المبني للمفعول.

إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾.

عن عروة بن الزبير في المستهزئين: هم خمسة نفر ذوو أسنان، وشرف الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحرث بن الطلاطلة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ماتوا كلهم قبل بدر، قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: أمرت أن أكفيكهم، فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظمًا لأخذه، فأصاب عرقًا في عقبة فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي، وأشار إلى أنف الحرث بن قيس فامتخط قيحًا فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات[4].

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾.

﴿بما يقولون﴾ من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن ﴿فسبح﴾ فافزع فيما نابك إلى الله، والفزع إلى الله هو: الذكر الدائم وكثرة السجود، يكفك ويكشف عنك الغم. ودم على عبادة ربك ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ أي: الموت أي: ما دمت حيًا فلا تخل بالعبادة، وعن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[5].

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد ﷺ»[6].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النحل مكية

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾.

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبًا بالوعد فقيل لهم: ﴿أتى أمر الله﴾ الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظرًا لقرب وقوعه ﴿فلا تستعجلوه﴾ روي: أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعم أنّ القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن. فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئًا. فنزلت: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾[7] فأشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئًا مما تخوّفنا به. فنزلت: ﴿أتى أمر الله﴾ فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت: ﴿فلا تستعجلوه﴾ فاطمأنوا، وقرئ: تستعجلوه بالتاء والياء ﴿سبحانه وتعالى عما

(1) سورة الحجر، الآية: 87.
(2) سورة الحجر، الآية: 88.
(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 3/141 (الحديث رقم: 5090).
(4) رواه الطبراني في معجمه.
(5) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: «وقت قيام النبي ﷺ من الليل» (الحديث رقم: 1319).
(6) ذكره الثعلبي والواحدي في تفسيره وابن مردويه الزيلعي 2/221.
(7) سورة الأنبياء، الآية: 1.

يشركون﴾ تبرأ عز وجلّ عن أن يكون له شريك وأن تكون آلهتهم له شركاء، أو عن إشراكهم، على أنّ ما موصولة أو مصدرية.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قُلْتُ: لأنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك، وقرئ: تشركون بالتاء والياء.

يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾.

قرئ: ينزل بالتخفيف والتشديد وقرئ: تنزل الملائكة أي: تتنزل ﴿بالروح من أمره﴾ بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد و ﴿أن انذروا﴾ بدل من الروح أي: ينزلهم بأن انذروا، وتقديره بأنه انذروا أي: بأنّ الشأن اقول لكم: انذروا، أو تكون أن مفسرة لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ومعنى ﴿انذروا انه لا إله إلا انا﴾ أعلموا بأنّ الأمر ذلك من نذرت بكذا إذا علمته، والمعنى: يقول لهم أعلموا الناس قولي ﴿لا إله إلا انا فاتقون﴾.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾.

ثم دلّ على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره، من خلق السمٰوات والأرض، وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بدّ له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجر أثقاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه، ومثله متعال عن أن يشرك به غيره، وقرئ: تشركون بالتاء والياء.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾.

﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ فيه معنيان: أحدهما: فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من مني، جمادًا لا حس به ولا حركة، دلالة على قدرته، والثاني: فإذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾[1] وصفًا للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة، وقيل: نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمّ[2].

وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾.

﴿الأنعام﴾ الأزواج الثمانية وأكثر ما تقع على الإبل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله: ﴿والقمر قدّرناه﴾[3] ويجوز أن يعطف على الإنسان أي: خلق الإنسان والأنعام ثم قال: ﴿خلقها لكم﴾ أي: ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان. والدفء اسم ما يدفأ به كما أنّ الملء اسم ما يملأ به وهو: الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر، وقرئ: دف بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء ﴿ومنافع﴾ هي: نسلها ودرّها وغير ذلك.

فإن قُلْتَ: تقديم الظرف في قوله: ﴿ومنها تاكلون﴾ مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها؟ قُلْتُ[4]: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتدّ به وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أن طعمتكم منها؛ لأنكم تحرثون بالبقر فالحبّ والثمار التي تاكلونها منها، وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها والبانها وجلودها.

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾.

منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها؛ لأنّه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معاظمها؛ لأنّ الرعيان إذا روّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء انست أهلها وفرحت اربابها وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس، ونحوه: ﴿لتركبوها وزينة﴾ ﴿يواري سوآتكم وريشًا﴾[5].

فإن قُلْتَ: لم قدمت الإراحة على التسريح قُلْتُ: لأنّ الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرأ عكرمة: حينًا تريحون وحينًا تسرحون على أن تريحون وتسرحون وصف للحين، والمعنى: تريحون فيه وتسرحون فيه كقوله تعالى: يوم لا يجزى والد.

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾.

قرئ: بشق الأنفس بكسر الشين وفتحها، وقيل: هما لغتان في معنى: المشقة، وبينهما فرق وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقًا وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع، وأما الشق: فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ كأنهم كانوا زمانًا يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم؟ قُلْتُ: معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد لو لم تكونوا بالغيه في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم، لا أنهم لم

(1) سورة يسٓ، الآية: 78.

(2) يأتي في سورة يسٓ.

(3) سورة يسٓ، الآية: 39.

(4) قال أحمد: ومدار هذا التقرير على أنّ تقديم معمول الفعل، يوجب حصره فيه فكأنه قال: وإنما تأكلون منها.

(5) سورة الأعراف، الآية: 26.

يكونوا بالغيه في الحقيقة.

فإن قُلْتَ[1]: كيف طابق قوله: ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ قوله: ﴿وتحمل أثقالكم﴾ وهلا قيل: لم تكونوا حامليها إليه؟ قُلْتُ: طباقه من حيث إن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم، ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس، وقيل: أثقالكم أجرامكم، وعن عكرمة: البلد مكة ﴿لرؤوف رحيم﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾.

﴿والخيل والبغال والحمير﴾ عطف على الأنعام أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام.

فإن قُلْتَ: لم انتصب ﴿وزينة﴾؟ قُلْتُ: لأنه مفعول له وهو معطوف على محل لتركبوها.

فإن قُلْتَ[2]: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد؟ قُلْتُ: لأنّ الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل الزائن وهو: الخالق، وقرئ: لتركبوها زينة بغير واو أي: وخلقها زينة لتركبوها، أو تجعل زينة حالاً منها أي: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ يجوز أن يريد به ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفاصيله ويمن علينا بذكره كما منّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته، ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به ليزيدنا دلالة على اقتداره بالأخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار مما لم يبلغه وهم أحد ولا خطر على قلبه.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾.

المراد بالسبيل الجنس ولذلك أضاف إليها القصد وقال: ﴿ومنها جائر﴾ والقصد مصدر بمعنى: الفاعل وهو: القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد أي: مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه، ومعنى قوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أن هداية[3] الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه كقوله: ﴿إن علينا للهدى﴾[4].

فإن قُلْتَ: لم غير أسلوب الكلام في قوله: ﴿ومنها جائر﴾؟ قُلْتُ: ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها، أو وعليه الجائر، وقرأ عبد الله: ومنكم جائر يعني: ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره والله بريء منه ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ قسرًا وإلجاء ﴿لكم﴾ متعلق بأنزل، أو بشراب خبرًا له والشراب ما يشرب ﴿شجر﴾ يعني: الشجر الذي ترعاه المواشي، وفي حديث عكرمة: لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت[5]، يعني: الكلأ ﴿تسيمون﴾ من سامت الماشية إذا راعت فهي سائمة، وأسامها صاحبها وهو من السومة وهي العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض.

يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾.

قرئ: ينبت بالياء والنون.

فإن قُلْتَ: لم قيل: ﴿ومن كل الثمرات﴾؟ قُلْتُ: لأنّ كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة ﴿يتفكرون﴾ ينظرون فيستدلون

---

(1) قال أحمد: ويحتمل أن يكون المراد: تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها، إلا بشق الأنفس، واستغنى بذكر البلوغ عن ذكر حملها؛ لأنّ العادة أن المسافر لا يستغنى عن أثقال يستصحبها، والمعنى الأوّل أعلى، والله أعلم.

(2) قال أحمد: يعني: فجاز أن ينصب مجرداً من لام التعليل؛ لأنّه فعل فاعل الفعل الأوّل، ويعينه اقتران الركوب باللام؛ لأنه فعل المخاطبين، ومتى لم يتحد الفاعل تعين لحاق اللام، وفي هذا الجواب نظر، فإن لقائل أن يقول كان من الممكن مجيئهما معاً باللام، فيأتيان على سنن واحد، ولا غرو في ذلك، فالسؤال قائم، والجواب العتيد عنه أن المقصود المعتبر الأصلي في هذه الأصناف، هو الركوب، وأما التزين بها، فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب، فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة، للتعليل تنبيهاً على أنه أهم الغرضين، وأقوى السببين، وتجرّد التزين منها تنبيهاً على تبعيته، أو قصوره عن الركوب، والله أعلم.

(3) قال أحمد: أين يذهب به عن تتمة الآية وذلك. قوله تعالى: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ ولو كان الأمر كما تزعم القدرية، لكان الكلام: وقد هداكم أجمعين، وما كانهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب، =

= ويكفرون ببعض، فإن ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقسر والإلجاء، فما كانهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه، وأما المخالفة بين الأسلوبين، فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق، بأنه بين السبيل القاصد والجائر، وهدى قوماً اختاروا الهدى، وأضلّ قوماً اختاروا الضلالة لأنفسهم، وقد تقدم في غير ما موضع، أن كل فعل صدر على يد العبد، فله اعتباران هو من حيث كونه موجوداً مخلوق لله تعالى، ومضاف إليه بهذا الاعتبار، وهو من حيث كونه مقترناً باختيار العبد له، وبتأتيه له، وتيسره عليه، يضاف إلى العبد، وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل، فناسب إقامة الحجة على العباد، إضافة الهداية إلى الله تعالى، باعتبار خلقه لها، وإضافة الضلال إلى العبد، باعتبار اختياره له، والحاصل أنه ذكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر، ليناسب ذلك إقامة الحجة، الا لله الحجة البالغة، والله الموفق للصواب.

(4) سورة الليل، الآية: 12.

(5) رواه أبو عبيد في كتاب الأموال ص 126 (الحديث رقم: 747).

بها عليه وعلى قدرته وحكمته. والآية الدلالة الواضحة وعن بعضهم: ينبت بالتشديد، وقرأ أبيّ بن كعب: ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب بالرفع.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾.

قرئت كلها بالنصب على وجعل النجوم مسخرات، أو على أنّ معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم حيث يسكنون بالليل، ويبتغون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم، فكأنه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره، ويجوز أن يكون المعنى أنه سخرها أنواعًا من التسخير جمع مسخر بمعنى تسخير من قولك: سخره الله مسخرًا كقولك: سرحه مسرحًا، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمره، وقرئ: بنصب الليل والنهار وحدهما ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر، وقرئ: والنجوم مسخرات بالرفع وما قبله بالنصب، وقال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ فجمع الآية ونكر العقل؛ لأنّ الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة. ﴿وما ذرأ لكم﴾ معطوف على الليل والنهار يعني: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيآت والمناظر.

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾.

﴿لحمًا طريًا﴾[1] هو السمك، ووصفه بالطراءة لأنّ الفساد يسرع إليه، فيسارع إلى أكله خيفة الفساد عليه.

فإن قُلْتَ: ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا يأكل لحمًا فأكل سمكًا لم يحنث، والله تعالى سماه: لحمًا كما ترى؟ قُلْتُ: مبنى الأيمان على العادة، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحمًا فجاء بالسمك كان حقيقًا بالإنكار، ومثاله أنّ الله تعالى سمى الكافر: دابة في قوله: ﴿إنّ شرّ الدواب عند الله الذين كفروا﴾[2] فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافرًا لم يحنث ﴿حلية﴾[3] هي: اللؤلؤ والمرجان، والمراد بلبسهم لبس نسائهم؛ لأنهنّ من جملتهم، ولأنهنّ إنما يتزين بها من أجلهم، فكأنما زينتهم ولباسهم. المخر: شق الماء بحيزومها، وعن الفراء هو: صوت جري الفلك بالرياح. وابتغاء الفضل التجارة.

وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾.

﴿أن تميد بكم﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، والمائد الذي يدار به إذا ركب البحر قيل: خلق الله الأرض فجعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت ﴿وانهارًا﴾ وجعل فيها أنهارًا؛ لأن ألقى فيه معنى جعل ألا ترى إلى قوله: ﴿ألم نجعل الأرض مهادًا * والجبال أوتادًا﴾[4].

وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾.

﴿وعلامات﴾ هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك. والمراد بالنجم: الجنس كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس، وعن السدي هو: الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي، وقرأ الحسن: وبالنجم بضمتين، وبضمة وسكون، وهو: جمع نجم كرهن ورهن، والسكون تخفيف، وقيل: حذف الواو من النجوم تخفيفًا.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم، مقحم فيه هم، كأنه قيل: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون فمن المراد بهم؟ قُلْتُ: كأنه أراد قريشًا، كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا.

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾.

فإن قُلْتَ[5]: من لا يخلق أريد به الأصنام فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم؟ قُلْتُ: فيه أوجه أحدها: أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم، ألا ترى إلى قوله على أثره ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم

---

(1) قال أحمد: فكان ذلك تعليم لأكله، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً، والأطباء يقولون: إن تناوله بعد ذهاب طراوته، أضر شيء يكون، والله أعلم.

(2) سورة الأنفال، الآية: 55.

(3) قال أحمد: والله در مالك رضي الله عنه، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها، وذلك مقدّر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهنّ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له، فعبر عن حظه في لبسها بلبسه، كما يعبر عن حظها سواء مؤيداً= بالحديث المروي في الباب، والله أعلم.

(4) سورة النبأ، الآيتان: 6 و7.

(5) قال أحمد: هو تحوّم على أنّ العباد يخلقون أفعالهم، وأن المراد: إظهار التفاوت بين من يخلق منهم، ومن لا يخلق، كالعاجزين والزمني حتى يثبت التفاوت بين من يخلق منهم، وبين الأصنام بطريق الأولى، ولقد تمكن منه الطمع، حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لأفعاله بتنزيله الآية على هذا التأويل، ويتمنى لو تمّ له ذلك:

وما كلّ ما يتمنى المرء يدركه

يخلقون﴾[1] والثاني: المشاكلة بينه وبين من يخلق، والثالث: أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده كقوله: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾[2] يعني: أنّ الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب؛ لأنّ هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصحّ أن يعبدوا.

فإن قُلْتَ[3]: هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهًا بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟ قُلْتُ: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له، وسووا بينه وبينه، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيهًا بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾.

وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾.

﴿لا تحصوها﴾ لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من اداء الشكر، أتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهًا على أنّ وراءها ما لا ينحصر ولا ينعدّ ﴿إنّ الله لغفور رحيم﴾ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ من أعمالكم، وهو وعيد.

وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾.

﴿والذين يدعون﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿من دون الله﴾ وقرئ: بالتاء، وقرئ: يدعون على البناء للمفعول. نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب، ومعنى ﴿أموات غير أحياء﴾ أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أي: غير جائز عليها الموت كالحيّ الذي لا يموت، وأمرهم على العكس من ذلك، والضمير في يبعثون للداعين أي: لا يشعرون متى تبعث عبدتهم، وفيه تهكم بالمشركين وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم؟ وفيه دلالة على أنه لابدّ من البعث أنه من لوازم التكليف، ووجه آخر وهو: أن يكون المعنى: أن الناس يخلقونهم بالنحت والتصوير، وهم لا يقدرون على نحو ذلك، فهم أعجز من عبدتهم أموات جمادات لا حياة فيها غير أحياء يعني: أنّ من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله حيوانًا، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، وأمّا الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة، وذلك أعرق في موتها ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ اي: وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء، تهكمًا بحالها لأنّ شعور الجماد محال، فكيف بشعور ما لا يعلمه حي إلا الحيّ القيوم سبحانه، ووجه ثالث: وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة، وكان ناس منهم يعبدونهم، وأنهم أموات أي: لا بدّ لهم من الموت، غير أحياء: غير باقية حياتهم، وما يشعرون: ولا علم لهم بوقت بعثهم، وقرئ: إيان بكسر الهمزة.

إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿إلهكم إله واحد﴾ يعني: أنه قد ثبت بما تقدّم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره وأنها له وحده لا شريك له فيها. فكان من نتيجة ثبات الوحدانية ووضوح دليلها استمرارهم على شركهم، وأنّ قلوبهم منكرة للوحدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها ﴿لا جرم﴾ حقًا ﴿أنّ الله يعلم﴾ سرّهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني: المشركين، ويجوز أن يعمّ كلّ مستكبر، ويدخل هؤلاء تحت عمومه.

لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿ماذا﴾ منصوب بأنزل بمعنى: اي شيء ﴿أنزل ربكم﴾، أو مرفوع بالابتداء بمعنى: أيّ شيء أنزله ربكم، فإذا نصبت فمعنى ﴿أساطير الأوّلين﴾ ما يدعون نزوله أساطير الأوّلين، وإذا رفعته فالمعنى: المنزل أساطير الأوّلين كقوله: ﴿ماذا ينفقون قل العفو﴾[4] فيمن رفع.

فإن قُلْتَ: هو كلام متناقض؛ لأنه لا يكون منزل بهم وأساطير؟ قُلْتُ: هو على السخرية كقوله: ﴿إنّ رسولكم﴾[5] هو كلام بعضهم لبعض، أو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ، إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله ﷺ قالوا: أحاديث الأوّلين وأباطيلهم.

لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾.

---

(1) سورة النحل، الآية: 20.

(2) سورة الاعراف، الآية: 195.

(3) قال أحمد: وقد تقدّم الكلام في ذلك عند قوله تعالى: ﴿وليس الذكر = كالانثى﴾ فجدّد بها عهداً.

(4) سورة البقرة، الآية: 219.

(5) سورة الشعراء، الآية: 27.

﴿ليحملوا أوزارهم﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس وصداً عن رسول الله ﷺ فحملوا أوزار ضلالهم ﴿كاملة﴾ وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم وهو وزر الإضلال؛ لأنّ المضلّ والضالّ شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه على إضلاله فيتحاملان الوزر، ومعنى اللام: التعليل من غير أن يكون غرضًا كقولك: خرجت من البلد مخافة الشر ﴿بغير علم﴾ حال من المفعول أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم؛ لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل.

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾.

القواعد أساطين البناء التي تعمده وقيل: الأساس، وهذا تمثيل يعني: أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانًا وعمده بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وهلكوا، ونحوه: من حفر لأخيه جبًا وقع فيه منكبًا، وقيل: هو نمروذ بن كنعان حين بني الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان، فأهب الله الريح فخرّ عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان الله: إتيان أمره ﴿من القواعد﴾ من جهة القواعد ﴿من حيث لا يشعرون﴾ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرئ: فأتى الله بيتهم فخرّ عليهم السقف بضمتين.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿يخزيهم﴾ يذلهم بعذاب الخزي: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾[1] يعني: هذا لهم في الدنيا ثم العذاب في الآخرة ﴿شركائي﴾ على الإضافة إلى نفسه، حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿تشاقون فيهم﴾ تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم، وقرئ: تشاقون بكسر النون بمعنى: تشاقونني؛ لأنّ مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتة بهم، وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفًا لمن سمعه، وقيل: هم الملائكة.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾.

قرئ: تتوفاهم بالتاء والياء، وقرئ: الذين توفاهم بإدغام التاء في التاء ﴿فالقوا السلم﴾ فسالموا وأخبتوا وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان، فردّ عليهم أولوا العلم ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضًا من الشماتة، وكذلك ﴿فادخلوا أبواب جهنم... خيرًا﴾ أنزل خيرًا.

فإن قُلْتَ: لم نصب هذا ورفع الأوّل؟ قُلْتُ: فصلاً بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينًا مكشوفًا مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيرًا، أي: أنزل خيرًا، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأوّلين، وليس من الإنزال في شيء، وروي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف، وقالوا: إن لم تلقه كان خيرًا لك، فيقول: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه، فيلقى أصحاب رسول الله ﷺ فيخبرونه بصدقه وأنه نبيّ مبعوث، فهم الذين قالوا خيرًا، وقوله: ﴿للذين أحسنوا﴾ وما بعده، بدل من خيرًا حكاية لقوله: الذين اتقوا، أي: قالوا هذا القول فقدّم عليه تسميته خيرًا ثم حكاه، ويجوز أن يكون كلامًا مبتدأ عدة للقائلين، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحمدوا عليه ﴿حسنة﴾ مكافاة في الدنيا بإحسانهم، ولهم في الآخرة ما هو خير منها كقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾[2] ﴿ولنعم دار المتقين﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدّم ذكره، و﴿جنات عدن﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح ﴿طيبين﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ﴿ظالمي أنفسهم﴾، ﴿يقولون سلام عليكم﴾ قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليّ الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ

(1) سورة آل عمران، الآية: 192.

(2) سورة آل عمران، الآية: 148.

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾.

﴿تاتيهم الملائكة﴾ قرئ بالتاء والياء يعني: أن تاتيهم لقبض الأرواح و ﴿أمر ربك﴾ العذاب المستأصل، أو القيامة ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك الفعل من الشر والتكذيب ﴿فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله﴾ بتدميرهم ﴿ولكن كانوا انفسهم يظلمون﴾ لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير ﴿سيئات ما عملوا﴾ جزاء سيئات أعمالهم، أو هو كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[1] هذا من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج، وإنكار البعث واستعجاله استهزاء منهم به، وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم واستكبارهم عن قبول الحق، يعني: أنهم أشركوا[2] بالله وحرّموا ما أحل الله من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي: أشركوا وحرموا حلال الله، فلما نبهوا على قبح فعلهم وركوه على ربهم ﴿فهل على الرسل﴾ إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه، وبراءة الله تعالى من أفعال العباد وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم، والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾.

ولقد أمد إبطال قدر السوء ومشيئة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولاً يأمرهم بالخير الذي هو: الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشر الذي هو: طاعة الطاغوت ﴿فمنهم من هدى الله﴾ أي: لطف به؛ لأنه عرفه من أهل اللطف ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ أي: ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف؛ لأنه عرفه مصممًا على الكفر لا يأتي منه خير ﴿فسيروا في الأرض فانظروا﴾ ما فعلت بالمكذبين، حتى لا يبقى لكم شبهة في أني لا أقدر الشر ولا أشاؤه حيث أفعل ما أفعل بالأشرار.

إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾.

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم، وعرفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة وأنه ﴿لا يهدي من يضل﴾ أي: لا يلطف بمن يخذل لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه، وقرئ: لا يهدي أي: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله، وقوله: ﴿وما لهم من ناصرين﴾ دليل على أنّ المراد بالإضلال الخذلان الذي هو: نقيض النصرة، ويجوز أن يكون لا يهدي بمعنى: لا يهتدي، يقال: هداه الله فهدى، وفي قراءة أبيّ فإنّ الله لا هادي لمن يضل، ولمن أضلّ، وهي معاضدة لمن قرأ لا يهدي على البناء للمفعول، وفي قراءة عبد الله يهدي بإدغام تاء يهتدي، وهي معاضدة للأولى. وقرئ: يضل بالفتح. وقرأ النخعي: إن تحرص بفتح الراء وهي لغة.

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿واقسموا بالله﴾ معطوف على ﴿وقال الذين أشركوا﴾[3] إيذانًا بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان حقيقتان بأن تحكيا وتدوّنا توريك ذنوبهم على مشيئة الله، وإنكارهم البعث مقسمين عليه، و﴿بلى﴾ إثبات لما بعد النفي أي: بلى يبعثهم. ووعد الله مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى؛ لأن يبعث موعد من الله، وبين أنّ الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أنهم يبعثون، أو أنه وعد واجب على الله

---

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) قال أحمد: قد تكرّر منه مثل هذا الفصل في أخت الآية المقدّمة في سورة الأنعام، وقد قدّمنا حينئذ ما فيه مقنع إن شاء الله، والذي زاده هنا يثبت معتقده على ما زعمه بقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ووجه تمسكه به أنّ الله تعالى قسم العبادة إلى قسمين، مأمور به ومنهى عنه، والأمر والنهي عند المصنف، راجعان إلى المشيئة بناء على زعم القدرية في إنكار كلام النفس، وحمل الاقتضاء على الإرادة، فالحاصل حينئذ من هذه التتمة أن الله شاء عبادة الخلق له، وشاء اجتنابهم عبادة الطاغوت، ولم يشأ منهم أن يشركوا به، وأخبر بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى أمّة من الأمم، فجاءت التتمة مترجمة عن معنى صدر الآية، مؤكدة بمقتضاها، هذا هو الذي زاده المصنف ههنا، وقد بينا أنّ مبناه على إنكار = كلام النفس الثابت قطعاً، فهو باطل جزماً، والعجب أنّ الله تعالى أوضح في الآيتين جميعاً، أنّ الذي أنكره من القائلين لو شاء الله ما أشركنا، إنما هو احتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التي لا حجة لهم فيها مع ما خلق لهم من الاختيار، بقوله ههنا ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ وبقوله في آخر آية الأنعام: ﴿فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فتبين فيهما أنه هو الذي شاء منهم الإشراك والضلالة ولو شاء هدايتهم أجمعين، لاهتدوا عن آخرهم، وحصل من هذا البيان صرف الإنكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة لله تعالى، وذلك هو الذي قدمناه في إقامتهم الحجة على الله بمشيئته، مع أنّ حجتهم في ذلك داحضة، ولله عليهم الحجة البالغة الواضحة، والله الموفق.

(3) سورة النحل، الآية: 35.

لأنهم يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل، ولا غيره من مواجب الحكمة ﴿ليبين لهم﴾ متعلق بما دلّ عليه بلى، أي: يبعثهم ليبيّن لهم، والضمير لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذين اختلفوا فيه هو الحق ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم﴾ كذبوا في قولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾[1] وفي قولهم: ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾[2] أي: بعثناه ليبيّن لهم ما اختلفوا فيه وإنهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾.

﴿قولنا﴾ مبتدأ و﴿أن نقول﴾ خبره و﴿كن فيكون﴾ من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: حدث فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل؛ لأنّ مرادًا لا يمتنع عليه وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع المتمثل ولا قول ثم والمعنى: أنّ إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السورة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات، وقرئ: فيكون عطفًا على نقول.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾.

﴿والذين هاجروا﴾ هم: رسول الله ﷺ وأصحابه، ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة، وقيل هم: الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة رسول الله ﷺ، وكلما خرجوا تبعوهم فردوهم، منهم: بلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وعن صهيب أنه قال لهم: أنا رجل كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال له: ربح البيع يا صهيب، وقال له عمر: نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله نارًا لأطاعه، فكيف ﴿في الله﴾ في حقه ولوجهه ﴿حسنة﴾ صفة للمصدر أي: لنبوأنهم تبوئة حسنة، وفي قراءة علي رضي الله عنه: لنثوينهم، ومعناه: أثواة حسنة، وقيل: لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي: الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعد ربك في الدنيا، وما ذكر لك في الآخرة أكثر، وقيل: لنبوأنهم مباءة حسنة وهي: المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم ﴿لو كانوا يعلمون﴾ الضمير للكفار أي: لو علموا أنّ الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم، ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين أي: لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿الذين صبروا﴾ على هم الذين صبروا، أو أعني الذين صبروا وكلاهما مدح أي: صبروا على العذاب، وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾.

قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا فقيل ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم﴾ على السنة الملائكة ﴿فاسئلوا أهل الذكر﴾ وهم أهل الكتاب ليعلموكم أنّ الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشرًا.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿بالبينات﴾؟ قُلْتُ: له متعلقات شتى، فإما أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجالاً أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك: ما ضربت إلا زيدًا بالسوط؛ لأن أصله ضربت زيدًا بالسوط، وإما برجالاً صفة له أي: رجالاً ملتبسين بالبينات، وإما بارسلنا مضمرًا كأنما قيل: بم أرسلوا؟ فقلت: بالبينات، فهو على كلامين، والأوّل على كلام واحد، وإما بيوحي أي: يوحي إليهم بالبينات، وإما بلا تعلمون على أن الشرط في معنى التبكيت والإلزام، كقول الأجير: إن كنت عملت لك فأعطني حقي، وقوله: ﴿فاسئلوا أهل الذكر﴾ اعتراض على الوجوه المتقدّمة، وأهل الذكر أهل الكتاب، وقيل للكتاب: الذكر لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ﴿ما نزل إليهم﴾ يعني: ما نزل الله إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾.

﴿مكروا السيئات﴾ أي: المكرات السيئات، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسول الله ﷺ ﴿في تقلبهم﴾ متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم ﴿على تخوف﴾ متخوفين، وهو أن يهلك قومًا قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب، وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله: ﴿من حيث لا يشعرون﴾ وقيل: هو من قولك: تخوفته وتخونته

(1) سورة النحل، الآية: 35.

(2) سورة النحل، الآية: 36.

إذا تنقصته، قال زهير:

تخوف الرجل منها تامكًا قردا   كما تخوف عود النبعة السفن

أي: بأخذهم على أن ينتقصهم شيئًا بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم. قال شاعرنا، وأنشد البيت. فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنّ فيه تفسير كتابكم ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ حيث يحلم عنكم، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قرئ: أولم يروا ويتفيؤا بالياء والتاء. وما موصولة بخلق الله وهو مبهم بيانه ﴿من شيء يتفيؤا ظلاله﴾ واليمين بمعنى: الأيمان و ﴿سجدًا﴾ حال من الظلال ﴿وهم داخرون﴾ حال من الضمير في ظلاله لأنه في معنى الجمع، وهو: ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع بالواو لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب، والمعنى: أولم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي: عن جانبي كل واحد منها، وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضًا صاغرة منقادة لأفعال الله فيها لا تمتنع.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

﴿من دابة﴾ ويجوز أن يكون بيانًا لما في السموات وما في الأرض جميعًا، على أنّ في السموات خلقًا لله يدبون فيها كما يدب الأناسي في الأرض، وأن يكون بيانًا لما في الأرض وحده ويراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح، وأن يكون بيانًا لما في الأرض وحده ويراد بما في السموات الملائكة، وكرّر ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصًا من بين الساجدين لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم، ويجوز أن يراد بما في السموات ملائكتهنّ وبقوله: والملائكة ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم.

فإن قلتَ[1]: سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد؟ قلتُ: المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم، وبسجود غيرهم انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا، فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد.

فإن قلتَ: فهلا جيء بمن دون ما تغليبًا للعقلاء من الدواب على غيرهم؟ قلتُ: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولاً للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم.

﴿يخافون﴾[2] يجوز أن يكون حالاً من الضمير في لا يستكبرون أي: لا يستكبرون خائفين وأن يكون بيانًا لنفي الاستكبار وتأكيدًا له؛ لأنّ من خاف الله لم يستكبر عن عبادته ﴿من فوقهم﴾ إن علقته بيخافون فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذابًا من فوقهم، وإن علقته بربهم حالاً منه فمعناه: يخافون ربهم عاليًا قاهرًا كقوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾[3] ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾[4] وفيه دليل على أنّ الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي، والوعد والوعيد، كسائر المكلفين، وأنهم بين الخوف والرجاء.

۞ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾

فإن قلتَ: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا: عندي رجال ثلاثة، وأفراس أربعة؛ لأنّ المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان، فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد، ورجلان اثنان، فما وجه قوله[5]: ﴿إلهين اثنين﴾؟ قلتُ: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية؛ والعدد المخصوص. فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنى به منهما والذي يساق إليه

---

(1) قال أحمد: وهذا ما يتمسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد لحقيقته، ومجازه شمولاً، ولم ير ذلك متناقضاً، فإنّ السجود يتناول فعل المكلف حقيقة، ويتناول حال غير المكلف بطريق مجاز التشبيه، وقد أريد جميعاً من الآية، والزمخشري ينكر ذلك في مواضع مررت عليها من كتابه، هذا وظاهر مراده ههنا أنّ السجود عبارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف، وحال غير المكلف، وهو عدم الامتناع عند القدرية، وغرضه من ذلك أن يكون اللفظ متواطئاً فيهما جميعاً، ليسلم من الجمع بين الحقيقة والمجاز؛ لأنه يأبى ذلك، ولا يتم له هذا المقصد في الآية، والله أعلم، لأنّ كونها آية سجدة يدل على أنّ المراد من السجود = المذكور فيها منسوباً للمكلفين، وهو الفعل الخاص المتعارف شرعاً، الذي يكون ذكره سبباً لفعله سببية معتادة في عزائم السجود، لا القدر الأعم المشترك، والله أعلم.

(2) قال أحمد: هذا هو الوجه الثاني ليس الأوّل، وأما الحال فيعطي انتقالاً، ويوهم تقييد العدم استكبارهم، مع أنّ الواقع أنّ عدم استكبارهم مطلق، غير مقيد بحال، والله موفق.

(3) سورة الأنعام، الآيتان: 18 و61.

(4) سورة الأعراف، الآية: 127.

(5) قال أحمد: وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها، والله الموفق.

الحديث هو العدد، شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية ﴿فإياي فارهبون﴾ نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم وجاز لأنّ الغائب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم.

وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿الدين﴾ الطاعة ﴿واصبًا﴾ حال عمل فيه الظرف، والواصب: الواجب الثابت؛ لأنّ كل نعمة منه، فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه، ويجوز أن يكون من الوصب أي: وله الدين ذا كلفة ومشقة، ولذلك سمي تكليفًا، أو وله الجزاء ثابتًا دائمًا سرمدًا لا يزول. يعني: والثواب العقاب.

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿وما بكم من نعمة﴾ أي شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة فهو من الله ﴿فإليه تجأرون﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأعشى يصف راهبًا:

يراوح من صلوات المليـ ـك طورًا سجودًا وطورًا جؤرًا

وقرئ: تجرون بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم.

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾.

وقرأ قتادة: كاشف الضر على فاعل بمعنى فعل وهو: أقوى من كشف؛ لأنّ بناء المغالبة يدل على المبالغة.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ عامًا، ويريد بالفريق: فريق الكفرة، وأن يكون الخطاب للمشركين ومنكم للبيان لا للتبعيض، كأنه قال: فإذا فريق كافروهم أنتم، ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾[1].

لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ تخلية ووعيد، وقرئ: فيمتعوا بالياء مبنيًا للمفعول عطفًا على ليكفروا، ويجوز أن يكون ليكفروا فيتمتعوا من الأمر الوارد في معنى: الخذلان والتخلية، واللام لام الأمر.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾.

﴿لما لا يعلمون﴾ أي: لآلهتهم ومعنى لا يعلمونها: أنهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك، وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذًا جاهلون بها، وقيل الضمير في لا يعلمون للآلهة أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر، أجعلوا لها نصيبًا في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربًا إليهم ﴿لتسئلن﴾ وعيد ﴿عما كنتم تفترون﴾ من الإفك في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾.

كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه لذاته من نسبة الوالد إليه، أو تعجب من قولهم ﴿ولهم ما يشتهون﴾ يعني: البنين، ويجوز في ما يشتهون الرفع على الابتداء والنصب على أن يكون معطوفًا على البنات، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور و﴿ظل﴾[2] بمعنى: صار كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى: الصيرورة، ويجوز أن يجيء ظل لأنّ أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتمًا مربد الوجه من الكآبة والحياء من الناس ﴿وهو كظيم﴾ مملوء حنقًا على المرأة ﴿يتوارى من القوم﴾ يستخفي منهم ﴿من﴾ أجل ﴿سوء﴾ المبشر به ومن أجل تعبيرهم ويحدّث نفسه وينظر أيمسك ما بشّر به ﴿على هون﴾ على هوان وذل ﴿أم يدسه في التراب﴾ أم يئده. وقرئ: أيمسكها على هون، أم يدسها على التأنيث، وقرئ: على هوان ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾.

﴿مثل السوء﴾ صفة السوء وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث وأودهنّ خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ ﴿ولله المثل الأعلى﴾ وهو الغني عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين، وهو الجواد الكريم.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾.

﴿بظلمهم﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ما ترك عليها﴾ أي:

---

(1) سورة لقمان، الآية: 32.

(2) قال أحمد: وجاز أن يراد: الظلول نهاراً، لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار، وأنهم لو عرجوا نهاراً في الوقت الذي يتغابى = على البصر شيء إلى السماء، لتمادوا على كفرهم وتكذيبهم، والله أعلم.

على الأرض ﴿من دابة﴾ قط، ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين، وعن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إنّ الظالم لا يضرّ إلا نفسه، فقال: بلى والله حتى أنّ الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم[1]، وعن ابن مسعود: كاد الجعل يهلك في حجره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة[2]، وعن ابن عباس: من دابة: من مشرك يدب عليها، وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾[3] لأنفسهم من البنات، ومن شركاء في رياستهم، ومن الاستخفاف برسلهم، والتهاون برسالاتهم ويجعلون له أرذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها ﴿وتصف ألسنتهم﴾ مع ذلك ﴿أن لهم الحسنى﴾ عند الله كقوله: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى﴾[4] وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوي اليسار: كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى: هاتوا ما دفع إلى السلاطين وأعوانهم؟ فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة وإذا قال: هاتوا ما دفع إليّ؟ فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له، أما تستحيي من ذلك الموقف؟ وقرأ هذه الآية، وعن مجاهد: ﴿إنّ لهم الحسنى﴾ هو قول قريش: لنا البنون وإنّ لهم الحسنى بدل من الكذب. وقرئ الكذب جمع كذوب صفة للألسنة ﴿مفرطون﴾ قرئ: مفتوح الرّاء ومكسورها مخففًا ومشددًا، فالمفتوح بمعنى: مقدمون إلى النار معجلون إليها من افرطت فلانًا وفرّطته في طلب الماء إذا قدمته، وقيل: منسيون متروكون من أفرطت فلانًا خلفي إذا خلفته ونسيته، والمكسور المخفف من الإفراط في المعاصي، والمشدّد من التفريط في الطاعات وما يلزمهم.

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾.

﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها، أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا، ومعنى وليهم: قرينهم وبئس القرين، أو يجعل ﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية للحال الآتية وهي: حال كونهم معذبين في النار أي: فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره نفيًا للناصر لهم على أبلغ الوجوه، ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء لأنهم منهم، ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي: فهو ولي أمثالهم اليوم.

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾.

﴿وهدى ورحمة﴾ معطوفان على محل لتبين إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما، لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخل اللام على لتبين؛ لأنه فعل المخاطب لافعل المنزل، وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل. والذي اختلفوا فيه البعث؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار. ﴿لقوم يسمعون﴾ سماع إنصاف وتدبر؛ لأنّ من يسمع بقلبه فكأنه أصم لا يسمع.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾.

ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم: ثوب أكياش، ولذلك رجع الضمير إليه مفردًا، وأمّا ﴿في بطونها﴾[5] في سورة المؤمنين فلأنّ معناه: الجمع، ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان: أحدهما: أن يكون تكثير نعم كأجبال في جبل، وأن يكون اسمًا مفردًا مقتضيًا لمعنى الجمع كنعم فإذا ذكر فكما يذكر نعم في قوله:

في كل عام نعم تحوونه ... يلقحه قوم وتنتجونه

وإذا أنث ففيه، وجهان: أنه تكسير نعم وأنه في معنى الجمع. وقرئ: نسقيكم بالفتح والضم وهو استئناف كأنه قيل: كيف العبرة؟ فقيل: نسقيكم ﴿من بين فرث ودم﴾ أي: يخلق الله اللبن وسيطًا بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله، قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها طبخته فكان أسفله فرثًا وأوسطه لبنًا وأعلاه دمًا، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع وتبقي الفرث في الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمّل. وسئل شقيق عن الإخلاص فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم ﴿سائغًا﴾ سهل المرور في الحلق ويقال: لم يغص أحد باللبن قط، وقرئ: سيغًا بالتشديد وسيغًا بالتخفيف كهين ولين.

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في طاعة أولي الأمر، فصل: في ذكر ما ورد من التشديد في الظلم (الحديث رقم: 7479).

(2) رواه ابن أبي شيبة 1/301، كتاب الزهد، باب: كلام ابن مسعود.

(3) قال أحمد: ونقيض هؤلاء، من إذا أعجبه شيء من ماله، جعله لله، بل إذا أحبّ أمة له، أعتقها، وإذا اشتهى طعاماً قدم إليه، تصدّق به على حبه، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة، = كابن عمر ونظرائه، ومن تابعهم فيها، ويجعلون لله ما يشتهون، اللهم إن لم ننل رتبة أوليائك، فانلنا محبتهم، فمن أحبّ قوماً حشر معهم.

(4) سورة فصلت، الآية: 50.

(5) سورة المؤمنون، الآية: 21.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ **قُلْتُ**: الأولى: للتبعيض؛ لأنّ اللبن بعض ما في بطونها، كقولك: أخذت من مال زيد ثوبًا، والثانية: لابتداء الغاية؛ لأنّ بين الفرث، والدم مكان الإسقاء الذي منه يبتدأ فهو صلة لنسقيكم، كقولك: سقيته من الحوض، ويجوز أن يكون حالاً من قوله: لبنًا مقدّمًا عليه فيتعلق بمحذوف أي: كائنًا من بين فرث ودم، ألا ترى أنه لو تأخر فقيل: لبنًا من بين فرث ودم كان صفة له وإنما قدّم، لأنه موضع العبرة فهو قمن بالتقديم، وقد احتجّ بعض من يرى أنّ المنيّ طاهر على من جعله نجسًا لجريه في مسلك البول بهذه الآية، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول، وهو طاهر كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهرًا.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: **﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب﴾**؟ **قُلْتُ**: بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي: من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه، وقوله: **﴿تتخذون منه سكرًا﴾** بيان وكشف عن كنه الإسقاء، أو يتعلق بتتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد كقولك: زيد في الدار فيها، ويجوز أن يكون تتخذون صفة موصوف محذوف كقوله: بكفي كان من أرمى البشر، تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا؛ لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر.

فإن قُلْتَ: فإلام يرجع الضمير في **﴿منه﴾** إذا جعلته ظرفًا مكررًا **قُلْتُ**: إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجع في قوله تعالى: **﴿أو هم قائلون﴾**[1] إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سكر سكرًا وسكرًا نحو رشد رشدًا ورشدًا قال:

وجاؤنا بهم سكر علينا فأجلى اليوم والسكران صاحي

وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون منسوخة وممن قال بنسخها الشعبي والنخعي، والثاني: أن يجمع بين العتاب والمنة، وقيل السكر: النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتدّ، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حدّ السكر، ويحتج بهذه الآية، وبقوله ﷺ: «الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب»[2]. وبأخبار جمة، ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي قدّس الله روحه غير كتاب في تحليل النبيذ، فلما شيخ وأخذت منه السنّ العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به؟ فأبى، فقيل له: فقد صنفت في تحليله فقال: تناولته الدعارة فسمج في المروءة، وقيل: السكر الطعم وأنشد:

جعلت أعراض الكرام سكرًا

أي: تنقلت بأعراضهم، وقيل: هو من الخمر، وإنه إذا ابترك في أعراض الناس فكأنه تخمر بها. والرزق الحسن الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك، ويجوز أن يجعل السكر رزقًا حسنًا كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

الإيحاء إلى النحل إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فنقيتها في صنعتها ولطفها في تدبير أمرها وإصابتها فيما يصلحها دلائل بينة شاهدة على أنّ الله أودعها علمًا بذلك وفطنها كما أولى أولي العقول عقولهم. وقرأ يحيى بن وثاب: إلى النحل بفتحتين وهو مذكر كالنخل وتأنيثه على المعنى **﴿أن اتخذي﴾** هي: أن المفسرة؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول. قرئ: بيوتًا بكسر الباء لأجل الياء، ويعرشون بكسر الراء وضمها يرفعون من سقوف البيوت، وقيل: ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تنغسل فيها، والضمير في يعرشون للناس.

فإن قُلْتَ: ما معنى من في قوله: **﴿أن اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون﴾** وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟ **قُلْتُ**[3]: أريد معنى: البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿من كل الثمرات﴾ إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل وتعتاد أكلها أي: ابني البيوت ثم كلي من كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها **﴿فاسلكي سبل ربك﴾** أي: الطرق، متى ألهمك وأفهمك في عمل العسل، أو فاسلكي ما أكلت في سبل ربك أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 4.

(2) العقيلي في الضعفاء والنسائي: في السنن الكبرى.

(3) قال أحمد: ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه الزمخشري، في تبعيض من المتعلقة باتخاذ البيوت، بإطلاق الأكل، كأنه تعالى، وكل الأكل إلى شهوتها، واختيارها، لم يحجر عليها فيه، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض؛ = = لأنّ مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه، وأمّا البيوت، فلا تحصل مصلحتها في كل موضع، ولهذا المعنى دخلت، ثم لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت، والإطلاق لها في تناول الثمرات، كما تقول: راع الحلال فيما تأكله، ثم كل أي شيء شئت، فتوسط، ثم لتفاوت الحجر والإطلاق، فسبحان اللطيف الخبير.

المرّ عسلاً من أجوافك ومنافذ مآكلك، أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها، فقد بلغني أنها ربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة، أو أراد بقوله: ثم كلي: ثم اقصدي أكل الثمرات فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك ﴿ذللاً﴾ جمع ذلول وهي حال من السبل؛ لأنّ الله ذللها لها ووطأها وسهلها كقوله: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾[1] أو من الضمير في فاسلكي أي: وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ﴿شراب﴾ يريد العسل؛ لأنه مما يشرب ﴿مختلف ألوانه﴾ منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر ﴿فيه شفاء للناس﴾ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لمن ينكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض كما أن كل دواء كذلك، وتنكيره إمّا بتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأنّ فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل، وعن النبي ﷺ «أنّ رجلاً جاء إليه فقال: إن أخي يشتكي بطنه فقال: اذهب واسقه العسل. فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع؟ فقال: اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فشفاه الله فبرأ كأنما أنشط من عقال»[2]، وعن عبد الله بن مسعود: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل[3]، ومن بدع تأويلات الرافضة أن المراد بالنحل: عليّ وقومه، وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم، فضحك المهدي، وحدّث به المنصور فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إلى أرذل العمر﴾ إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة، وعن عليّ رضي الله عنه: وتسعون سنة، وعن قتادة لأنه لا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئًا﴾ ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان، وأن يعلم شيئًا ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سئل عنه، وقيل: لئلا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئًا، وقيل: لئلا يعلم زيادة علم على علمه أي: جعلكم متفاوتين في الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مما ليكم وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم، كما يحكى عن أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون»[4]. فما رؤي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت[5].

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ فجعل ذلك من جملة جحود النعمة، وقيل: هو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم: أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟ وقيل: المعنى أنّ الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعًا، فهم في رزقي سواء، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئًا من الرزق، فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم، وقرئ يجحدون بالتاء والياء.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم، وقيل: هو خلق حواء من ضلع آدم. والحفدة جمع حافد وهو الذي يحفد أي: يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت.

وإليك نسعى ونحفد

وقال:

حفد الولائد بينهن وأسلمت ... بأكفهنّ أزمة الأجمال

واختلف فيهم فقيل: هم الأختان على البنات، وقيل: أولاد الأولاد، وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأوّل، وقيل: المعنى وجعل لكم حفدة أي: خدمًا يحفدون في مصالحكم ويعينونكم، ويجوز أن يراد بالحفدة: البنون أنفسهم، كقوله: ﴿سكرًا ورزقًا حسنًا﴾[6] كأنه قيل: وجعل لكم منهنّ أولاداً هم بنون وهم حافدون أي: جامعون بين الأمرين ﴿من الطيبات﴾ يريد بعضها؛ لأنّ كل الطيبات في الجنة، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة، فليس لهم

---

(1) سورة الملك، الآية: 15.

(2) رواه البخاري، كتاب الطب، باب: الدواء بالعسل (الحديث رقم: 5684).

(3) رواه ابن ماجه في كتاب الطب، باب: العسل (الحديث رقم: 3452) والحاكم في المستدرك 4/200.

(4) رواه البخاري في كتاب العتق، باب: قول النبي ﷺ «العبيد= إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون» (الحديث رقم: 2545)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل (الحديث رقم: 4289).

(5) قال الزيلعي: ليس في الحديث وإنما هو من كلام المصنف 2/ 229.

(6) سورة النحل، الآية: 67.

إيمان لا به كأنه شيء معلوم مستيقن. ونعمة الله: المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل، وتمييزهم كافرون بها منكرون لها كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقول، وقيل: الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمة الله: ما أحل لهم الرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فإن أردت المصدر نصبت به ﴿شيئًا﴾ كقوله: أو إطعام يتيمًا علي لا يملك أن يرزق شيئًا، وإن أردت المرزوق كان شيئًا بدلاً منه بمعنى قليلاً، ويجوز أن يكون تأكيدًا للا يملك شيئًا من الملك. ومن السمٰوات والأرض صلة للرزق إن كان مصدرًا بمعنى لا يرزق من السمٰوات مطرًا ولا من الأرض نباتًا، أو صفة إن كان اسمًا لما يرزق والضمير في ﴿ولا يستطيعون﴾ لما لأنه في معنى الآلهة بعدما قيل: لا يملك على اللفظ، ويجوز أن يكون للكفار يعني: ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون أولو ألباب من ذلك شيئًا فكيف بالجماد الذي لا حس به.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿ولا يستطيعون﴾؟ بعد قوله: ﴿لا يملك﴾ وهل هما إلا شيء واحد؟ قُلْتُ: ليس في لا يستطيعون تقدير راجع، وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلاً لأنهم موات، إلا أن يقدر الراجع، ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة للتوكيد، أو يراد أنهم لا يملكون الرزق، ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾.

﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾[1] تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به؛ لأنّ من يضرب الأمثال مشبّه حالاً بحال وقصة بقصة ﴿إنّ الله يعلم﴾ كنه ما تفعلون وعظمه وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم؛ لأنّ العقاب على مقدار الإثم ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ كنهه وكنه عقابه، فذاك هو الذي جركم إليه وجراكم عليه، فهو تعليل للنهي عن الشرك، ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إنّ الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف تضرب فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حرماً لك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء.

فإن قُلْتَ[2]: لم قال ﴿مملوكًا لا يقدر على شيء﴾ وكل عبد مملوك وغير قادر على التصرف قُلْتُ: أما نكر المملوك فليميز من الحر؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعًا؛ لأنهما من عباد الله، وأما لا يقدر على شيء فليجعل غير مكاتب، ولا مأذون له؛ لأنهما يقدران على التصرف، واختلفوا في العبد هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصحّ له.

فإن قُلْتَ: من في قوله: ﴿ومن رزقناه﴾ ما هي؟ قُلْتُ: الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل: وحرًا رزقناه ليطابق عبدًا، ولا يمتنع أن تكون موصولة.

فإن قُلْتَ: لم قيل ﴿يستوون﴾ على الجمع؟ قُلْتُ: معناه:

---

(1) قال أحمد: فعلى تفسيره الأوّل يكون قوله لله متعلقاً بالأمثال، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله، ولا تشبهوه، وعلى الثاني يكون متعلقاً بالفعل الذي هو تضربوا، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله الأمثال، فإن ضرب المثل، إنما يستعمل من العالم لغير العالم، ليبين له ما خفي عنه، والله تعالى هو العالم، وأنتم لا تعلمون، فتمثيل غير العالم للعالم عكس الحقيقة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: والقول بصحة ملكه هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وفي هذه الآية له معتصم؛ لأنّ الله تعالى مثل بالمملوك؛ لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالباً، ثم أفصح عن المعنى المقصود، وهو: أنّ هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكه سيده، فملك وقدر، بل هو على الأصل المعهود في المماليك، عاجز غير قادر، ولو لم يكن ملك العبد متصوراً ومعهوداً شرعاً وعرفاً، لكان قوله تعالى لا يقدر على شيء، كالتكرار لما فهم من قوله عبداً مملوكاً، وقول القائل، يقول: إنه احتراز من الكاتب بعيد من فصاحة القرآن، فإنه لو كان العبد لا يصح منه ملك البتة، إلا في حال الكتابة، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ، كالإلغاز الذي لا يعهد مثله في بيان القرآن، واستيلائه على صنوف البلاغة، ومثل هذا أنكره الإمام أبو المعالي على من حمل قوله عليه السلام: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها» على المكاتبة، لبعد القصد إليها على شذوذها، وأما الاحتراز به عن المأذون له، =

= فينبني على القول بأن المراد بعدم القدرة: عدم المكنة من التصرف، وإن لم يكن المأذون له مالكاً عند هذا القائل، وهذا بعيد عن مطابقة قوله: ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ فإنها توجب إن يكون المراد بقوله لا يقدر على شيء: لا يملك شيئاً من الرزق، كما تقول في الحر المفلس: فلان لا يقدر على شيء، أي: لا يملك شيئاً يقدر على التصرف فيه، فتلخص من هذا البحث أن في الآية مجالاً لنصرة مذهب مالك، وإن كان لقائل أن يقول هذه الصفة لازمة، كالإيضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك، كأنه قيل وإنما ضربنا المثل بالمملوك؛ لأن صفته اللازمه له وسمته المعروفة به، أنه لا يقدر على شيء، أي: لا يصح منه ملك، وكثيراً ما يجيء الحال والصفة، لا يقصد بواحد منهما تقييد ولا تخصيص، ولكن إيضاح وتفسير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ فقوله: ﴿لا برهان له به﴾ لا يقصد به تمييز له سوى الله من إله لأن كل مدعو إلهاً غير الله تعالى لا برهان به، وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير الله تعالى، فهذا أقصى ما يكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد، ولنا أن نقول في دفعة، أن الأصل في الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقيد، وأما الوارد من ذلك لازماً، فنادر على خلاف الأصل، والله الموفق.

هل يستوي الأحرار والعبيد.

الأبكم الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم ﴿وهو كلّ على مولاه﴾ أي: ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿أينما يوجهه﴾ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم، لا ينفع ولم يأت بنجح ﴿هل يستوي هو ومن﴾ هو سليم الحواس نفاعًا ذو كفايات مع رشد وديانة فهو ﴿يأمر﴾ الناس ﴿بالعدل﴾ والخير ﴿وهو﴾ في نفسه ﴿على صراط مستقيم﴾ على سيرة صالحة ودين قويم، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع. وقرئ: أينما يوجه بمعنى: أينما يتوجه من قولهم: أينما أوجه ألق سعدًا، وقرأ ابن مسعود: أينما يوجه على البناء للمفعول.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾.

﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أي: يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه، أو أراد بغيب السموات والأرض يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم ﴿إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ أي: هو عند الله وإن تراخى كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه: هو كلمح البصر، أو هو أقرب إذا بالغتم في استقرابه، ونحوه قوله: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾[1] أي: هو عنده دان وهو عندكم بعيد، وقيل المعنى: أن إقامة الساعة، وإماتة الأحياء، وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، يكون في أقرب وقت وأوحاه. ﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق لأنه بعض المقدورات، ثم دلّ على قدرته بما بعده.

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾.

قرئ: أمهاتكم بضم الهمزة وكسرها والهاء مزيدة في أمات كما زيدت في أراق فقيل: أهراق وشذت زيادتها في الواحدة قال:

أمهتي خندف والياس أبي

﴿لا تعلمون شيئًا﴾ في موضع الحال، ومعناه: غير عالمين شيئًا من حق المنعم الذي خلقكم في البطون وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، وقوله: ﴿وجعل لكم﴾ معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم. والأفئدة في فؤاد كالأغربة في غراب وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير فجرت ذلك المجرى.

قرئ: ألم يروا بالتاء والياء ﴿مسخرات﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المتواتية لذلك، والجوّ: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلوّ، والسكاك أبعد منه، واللوح مثله ﴿ما يمسكهنّ﴾ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن ﴿إلا الله﴾ بقدرته.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾.

﴿من بيوتكم﴾ التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها. والسكن فعل بمعنى: مفعول، وهو: ما يسكن إليه وينقطع من بيت أو ألف ﴿بيوتًا﴾ هي: القباب والأبنية من الأدم والأنطاع ﴿تستخفونها﴾ ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل ﴿يوم ظعنكم ويوم إقامتكم﴾[2] أي: يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها، ويوم تنزلون، وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها، أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعًا على أنّ اليوم بمعنى: الوقت ﴿ومتاعًا﴾ وشيئًا ينتفع به ﴿إلى حين﴾ إلى أن تقضوا منه أوطاركم، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا. وقرئ: يوم ظعنكم بالسكون.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾.

﴿مما خلق﴾ من الشجر وسائر المستظلات ﴿أكنانًا﴾ جمع كن، وهو: ما يستكن به من البيوت المنحوتة في الجبال، والغيران، والكهوف ﴿سرابيل﴾ هي القمصان[3] والثياب من الصوف والكتان والقطن وغيرها ﴿تقيكم الحرّ﴾ لم يذكر البرد؛ لأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم، وقلما يهمهم البرد لكونه يسيرًا محتملاً، وقيل[4]: ما بقي من الحرّ بقي من البرد، فدل ذكر الحرّ على البرد

---

(1) سورة الحج، الآية: 47.

(2) قال أحمد: والتفسير الأوّل أولى؛ لأنّ ظهور المنة في خفتها، إنما يتحقق في حال السفر، وأمّا المستوطن؛ فغير مثقل، وما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم، أنّ المراد: خفة ضربها، وسهولة ذلك عليهم، والله أعلم.

(3) قال أحمد: يعني عند العرب، وخصوصاً قطان الحجاز، وهم الأصل في هذا الخطاب.

(4) قال أحمد: والأوّل أظهر، ألا ترى إلى تقديم المنة بالظلال التي تقي من الضحا، في قوله تعالى: ﴿جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ فدل على أنّ الأهمّ عند المخاطبين وقاية الحرّ، فامتن الله عليهم بأعظم =

﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ يريد الدروع والجواشن، والسربال عامّ يقع على كل ما كان من حديد وغيره ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي: تنظرون في نعمه الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له، وقرئ: تسلمون من السلامة أي: تشكرون فتسلمون من العذاب، أو تسلم قلوبكم من الشرك، وقيل: تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿فإن تولوا﴾ فلم يقبلوا منك، فقد تمهد عذرك بعد ما أديت ما وجب عليك من التبليغ، فنكر سبب العذر وهو: البلاغ ليدل على المسبب.

﴿يعرفون نعمت الله﴾ التي عددناها حيث يعترفون بها وأنها من الله ﴿ثم ينكرونها﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم: هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا، وقيل: إنكارهم قولهم: ورثناها من آبائنا، وقيل: قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله، وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سببًا في نيلها ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ أي: الجاحدون غير المعترفين، وقيل: نعمة الله نبوّة محمد عليه السلام كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عنادًا، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿ثم﴾؟ قُلْتُ: الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأنّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾.

﴿شهيدًا﴾ نبيًا يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق والكفر والتكذيب ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار، والمعنى: لا حجة لهم، فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر وكذا عن الحسن ﴿ولا هم يستعتبون﴾ ولا هم يسترضون أي: لا يقال لهم ارضوا ربكم؛ لأنّ الآخرة ليست بدار عمل.

فإن قُلْتَ: فما معنى ﴿ثم﴾ هذه؟ قُلْتُ: معناها: أنهم يمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها وهو: أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذنون لهم في إلقاء معذرة، ولا إدلاء بحجة. وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره واذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم ﴿فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ كقوله: ﴿بل تأتيهم بغتة فتبهتهم﴾(1) الآية.

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾.

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم فمعنى ﴿شركاؤنا﴾ آلهتنا التي دعوناها شركاء، وإن أرادوا الشياطين؛ فلأنهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغي و ﴿ندعوا﴾ بمعنى: نعبد.

فإن قُلْتَ: لم قالوا ﴿إنكم لكاذبون﴾ وكانوا يعبدونهم على الصحة؟ قُلْتُ: لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكان عبادتهم لم تكن عبادة والدليل عليه قوله الملائكة: ﴿كانوا يعبدون الجن﴾ يعنون: أن الجن راضيين بعبادتهم لا نحن فهم المعبودون دوننا، أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيهًا لله من الشريك، وإن أريد بالشركاء الشياطين جاز أن يكون كاذبين في قولهم: إنكم لكاذبون كما يقول الشيطان: ﴿إني كفرت بما أشركتموني من قبل﴾(2).

وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿وألقوا﴾ يعني: الذين ظلموا، وإلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وضل عنهم﴾ وبطل عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الله شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾.

﴿الذين كفروا﴾ في أنفسهم. وحملوا غيرهم على الكفر. يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم، وقيل: في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفًا، وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار ﴿بما كانوا يفسدون﴾ بكونهم مفسدين الناس بصدهم عن سبيل الله.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿شهيدًا عليهم من أنفسهم﴾ يعني: نبيهم؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿وجئنا بك﴾ يا محمد

= نعمه موقعاً عندهم، وقول القائل: إنّ ما يقي الحرّ يقي البرد، مشهود عليه بالعرف، فإنّ الذي يتقي به الحرّ من القمصان، رقيقها ورفيعها، وليس ذلك من لبوس البرد؛ بل لو لبس الإنسان في كل واحد من الفصلين، القيظ والبرد، لباس الآخر، يعدّ من الثقلاء.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 40.

(2) سورة سبأ، الآية: 41.

﴿شهيدًا على هؤلاء﴾ على أمتك ﴿تبيانًا﴾ بيانًا بليغًا، ونظير تبيان تلقاء في كسر أوله، وقد جوّز الزجاج فتحه في غير القرآن.

فإن قُلْتَ: كيف كان القرآن تبيانًا ﴿لكل شيء﴾؟ قُلْتُ: المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصًا على بعضها وإحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع رسول الله ﷺ وطاعته، وقيل: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾[1] وحثًا على الإجماع في قوله: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾[2] وقد رضي رسول الله ﷺ لأمته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم في قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[3]. وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثم كان تبيانًا لكل شيء[4].

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

العدل[5] هو الواجب؛ لأنّ الله تعالى عدل فيه على عباده[6] فجعل ما فرضه عليهم واقعًا تحت طاقتهم ﴿والإحسان﴾ الندب، وإنما علق أمره بهما جميعًا؛ لأنّ الفرض لا بدّ من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب[7]، ولذلك قال رسول الله ﷺ لمن علمه الفرائض فقال: والله لا زدت فيها ولا نقصت: «أفلح إن صدق»[8] فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط، وقال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»[9]. فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل. والفواحش[10] ما جاوز حدود الله ﴿والمنكر﴾ ما تنكره العقول ﴿والبغي﴾[11] طلب التطاول بالظلم. وحين[12] أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه أقيمت هذه الآية مقامها، ولعمري إنها كانت فاحشة ومنكرًا وبغيًا ضاعف الله لمن سنها غضبًا ونكالاً ومخزياً إجابة لدعوة نبيه وعادي من عاداه[13]، وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

عهد الله هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام: ﴿إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾[14] ﴿ولا تنقضوا﴾ أيمان البيعة ﴿بعد توكيدها﴾ أي: بعد توثيقها باسم الله، وأكد ووكد لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل ﴿كفيلاً﴾ شاهدًا ورقيبًا؛ لأنّ الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه ﴿ولا تكونوا﴾ في نقض الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته ﴿أنكاثًا﴾ جمع نكث وهو ما ينكث فتله قيل: هي ريطة بنت سعد بن تيم. وكانت خرقاء اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن ﴿تتخذون﴾ حال و ﴿دخلاً﴾ أحد مفعولي اتخذ يعني: ولا

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(2) سورة النجم، الآية: 3.

(3) سورة النساء، الآية: 115.

(4) رواه البيهقي في المدخل والدارقطني في غرائب مالك وفي المؤتلف والمختلف (الزيلعي 2/229 ـ 231).

(5) قال أحمد: وفي جمعهما تحت الأمر، ما يدل لمن قال: إن صيغة الأمر، أعنى هذه المبنية من الهمزة، والميم، والراء، لا صيغة افعل تتناول القبيلين بطريق التواطؤ، وموضعها القدر المشترك بينهما من الطلب، والله أعلم.

(6) قال أحمد: وهذه وليجة من الاعتزال، ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لا يطاق؛ لأنه ظلم وجور، وذلك على الله محال، والحق السنة أن كل قضاء الله عدل، وأن تكليف ما لا يطاق جائز عليه، وعدل منه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، بل التكاليف كلها على خلاف الاستطاعة، على مقتضى توحيد أهل السنة، المعتقدين أن كل موجود بقدرة الله تعالى حدث ووجد، لا شريك له في ملكه، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً في قبضة ملكه، هذا هو التوحيد المحض، وإذا كان العبد مكلفاً بما هو من فعل الله، فهذا عين التكليف بما لا يطاق، ولكن ذلك عدل من الله تعالى، وحجته البالغة قائمة لى الكلف بما خلقه له من التاني والتيسر في الأفعال الاختيارية، التي هي محال التكاليف، والله الموفق.

(7) قال أحمد: وهذه نكتة حسنة، يجاب بها عن قول القائل: لم حكم عليه الصلاة والسلام، بفلاح المصرّ على ترك السنن، فيقال:=

= المحكوم بفلاحه لاجله، إنما هو الصدق في سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة، والله أعلم.

(8) رواه البخاري في كتاب: الصوم، باب: وجوب صوم رمضان (الحديث رقم: 1891) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (الحديث رقم: 100).

(9) رواه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسنتها باب المحافظة على الوضوء (الحديث رقم: 277) وأحمد في مسنده 5/277، والحاكم في المستدرك 1/130.

(10) قال أحمد: وهذه أيضاً لفتة إلى الاعتزال، ولو قال: والمنكر ما أنكره الشرع، لوافق الحق، ولكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتقبيح بالعقل، والله الموفق.

(11) قال أحمد: وأصل موضوعه الطلب، ومنه ابتغاء وجه الله، ابتغاء مرضاة الله، ولكن صار مطلقه خاصاً بطلب الظلم عرفاً.

(12) قال أحمد: ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهناة لاحظ التطبيق بين ذكر النهي عن البغي فيها، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعليّ باغ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام لعمار وكان من حزب علي: «تقتلك الفئة الباغية»، والله أعلم، فقتل مع عليّ يوم صفين.

(13) رواه الحاكم في المستدرك 3/190 وأخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 653).

(14) سورة الفتح، الآية: 10.

تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلاً ﴿بينكم﴾ أي: مفسدة ودغلاً ﴿أن تكون أمّة﴾ بسبب أن تكون أمّة يعني: جماعة قريش ﴿هي أربى من أمّة﴾ هي: أزيد عددًا وأوفر مالاً من أمّة من جماعة المؤمنين ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ الضمير لقوله: ﴿أن تكون أمّة﴾ لأنه في معنى: المصدر أي: إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوّتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم ﴿وليبيننّ لكم﴾ إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة﴾[1] حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار وهو قادر على ذلك ﴿ولكن﴾ الحكمة اقتضت أن يضلّ ﴿من يشاء﴾ وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه ﴿ويهدي من يشاء﴾[2] وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان يعني: أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب، ولم يبنه على الإجبار الذي لا يستحق به شيء من ذلك وحققه بقوله: ﴿ولتسئلنّ عما كنتم تعملون﴾ ولو كان هو المضطرّ إلى الضلال والاهتداء لما أثبت لهم عملاً يسئلون عنه.

وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾.

ثم كرّر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم تأكيدًا عليهم وإظهارًا لعظم ما يركب منه ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ فتزلّ أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها ﴿وتذوقوا السوء﴾ في الدنيا بصدودكم ﴿عن سبيل الله﴾ وخروجكم من الدين، أو بصدّكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدّوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ في الآخرة.

كان قومًا ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدّونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبتهم الله ﴿ولا تشتروا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بعهد الله﴾ وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ثمنًا قليلاً﴾ عرضًا من الدنيا يسيرًا وهو: ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا ﴿إنما عند الله﴾ من إظهاركم وتغنيمكم ومن ثواب الآخرة ﴿خير لكم... ما عندكم﴾ من أعراض الدنيا ﴿ينفد وما عند الله﴾ من خزائن رحمته ﴿باق﴾ لا ينفد. وقرئ: لنجزينّ بالنون والياء ﴿الذين صبروا﴾ على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام.

فإن قُلْتَ[3]: لم وحدت القدم ونكرت؟ قُلْتُ: لاستعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه فكيف بأقدام كثيرة.

فإن قُلْتَ: ﴿من﴾ متناول في نفسه للذكر والأنثى فما معنى تبيينه بهما؟ قُلْتُ: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله الذكور فقيل ﴿من ذكر أو أنثى﴾ على التبيين ليعمّ الموعد النوعين جميعًا ﴿حياة طيبة﴾ يعني: في الدنيا وهو الظاهر لقوله ﴿ولنجزينهم﴾ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾[4] وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرًا كان أو معسرًا يعيش عيشًا طيبًا، إن كان موسرًا فلا مقال فيه وإن كان معسرًا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأمّا الفاجر فأمره على العكس إن كان معسرًا فلا إشكال في أمره وإن كان موسرًا فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحياة الطيبة الرزق الحلال، وعن الحسن: القناعة، وعن قتادة: يعني: في الجنة، وقيل: هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه.

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾.

---

(1) قال أحمد: وهذا تفسير اعتزالي قد قدّم أمثاله في أخوات هذه الآية، وغرضه الفرار من الحق المستفاد من تعليق المشيئة بلو، الدالة على أنّ مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق كلهم ما وقعت، وأنه إنما شاء منهم الافتراق والاختلاف، فإيمان وكفر، وتصديق وتكذيب، كما وقع منهم، ولو شاء شمولهم بالإيمان لوقع، فيصادم الزمخشري هذا النصّ، ويقول: قد شاء جعلهم أمّة واحدة حنيفة مسلمة، ولكن لم يقع مراده، فإذا قيل له، فعلام تحمل المشيئة في الآية، قال: على مشيئة إيمانهم، قسراً لا اختياراً، وهذه المشيئة لم تقع اتفاقاً.

(2) قال أحمد: أمّا أهل السنة، يسميهم المصنف مجبرة، فهم من الإجبار بمعزل؛ لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختياراً وأفعالاً، =

= وهم مع ذلك يوحدون الله حقّ توحيده، فيجعلونقدرته تعالى هي الموجدة والمؤثرة، وقدرة العبد مقارنة فحسب تمييزاً بين الاختياري والقسري، وتقوم به حجة الله على عبده، والله الموفق.

(3) قال أحمد: ومن جنس إفادة التنكير ههنا للتقليل، إفادته له في قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد﴾ فنكر الإذن والنفس تقليلاً للواعي من الناس، لما يقضي بسداده، وللناظر من الخلق في أمر معاده، والله الموفق.

(4) سورة آل عمران، الآية: 148.

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه وصل به قوله: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ إيذانًا بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب، والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ، كقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾[1] وكقولك: إذا أكلت فسمّ الله.

فإن قُلْتَ:لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟ قُلْتُ: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه فكان منه بسبب قويّ وملابسة ظاهرة، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي: «يا ابن أمّ عبد قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ»[2].

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾.

﴿ليس له سلطان﴾ أي: تسلط وولاية على أولياء الله يعني: أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته ﴿إنما سلطانه﴾ على من يتولاه ويطيعه ﴿به مشركون﴾ الضمير يرجع إلى ربهم، ويجوز أن يرجع إلى الشيطان على معنى بسببه وغروره ووسوسته.

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾.

تبديل الآية مكان الآية هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة. والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته وهذا معنى قوله: ﴿والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر﴾ وجدوا مدخلاً للطعن فطعنوا وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون: إن محمدًا يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدًا فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق والأهون بالأهون والأشق بالأشق؛ لأنّ الغرض المصلحة لا الهوان والمشقة.

فإن قُلْتَ: هل في ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟ قُلْتُ: فيه إنّ قرآنًا ينسخ بمثله وليس فيه نفي نسخه بغيره، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم، فنسخه بها كنسخه بمثله، وأمّا الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها. في ينزل ونزله وما فيهما من التنزيل شيئًا فشيئًا على حسب الحوادث والمصالح، إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل، وإن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة و﴿روح القدس﴾ جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال: حاتم الجود، وزيد الخير، والمراد: الروح المقدّس، وحاتم الجود، وزيد الخير، والمقدّس: المطهر من المآثم، وقرئ: بضم الدال وسكونها ﴿بالحق﴾ في موضع الحال أي: نزله ملتبسًا بالحكمة يعني: أن النسخ من جملة الحق ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا، والحكمة حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿وهدى وبشرى﴾ مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت، والتقدير: تثبيتًا لهم وإرشادًا وبشارة فيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم، وقرئ: ليثبت بالتخفيف.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾.

أرادوا بالبشر غلامًا كان لحويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه: عائش أو يعيش، وكان صاحب كتب، وقيل: هو جبر غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي، وقيل: عبدان جبر ويسار كانا يصنعان السيوف بمكة، ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ إذا مرّ وقف عليهما ما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه، فقيل لأحدهما فقال: بل هو يعلمني، وقيل: هو سلمان الفارسي. واللسان اللغة. ويقال: ألحد القبر ولحده وهو ملحد ملحود: إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه، ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة فقالوا: ألحد فلان في قوله، وألحد في دينه، ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها لم يمله عن دين إلى دين، والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان ﴿أعجمي﴾ غير بيّن ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿لسان عربي مبين﴾ ذو بيان وفصاحة ردًا لقولهم وإبطالاً لطعنهم. وقرئ: يلحدون بفتح الياء والحاء وفي قراءة الحسن: اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان.

فإن قُلْتَ: الجملة التي هي قوله: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ ما محلها؟ قُلْتُ: لا محل لها لأنها مستأنفة جواب لقولهم، ومثله قوله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[3] بعد قوله: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾[4].

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ

(1) سورة المائدة، الآية: 6.
(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، الواحدي في الوسيط (الزيلعي 2/245).
(3) سورة الأنعام، الآية: 124.
(4) سورة الأنعام، الآية: 124.

أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾.

﴿إنّ الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أي: يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿لا يهديهم الله﴾ لا يلطف بهم؛ لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة لا من أهل اللطف والثواب.

إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾.

﴿إنما يفتري الكذب﴾ ردّ لقولهم: ﴿إنما أنت مفتر﴾[1] يعني: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عقابًا عليه ﴿وأولئك﴾ إشارة إلى قريش ﴿هم الكاذبون﴾ أي: هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون، أو إلى الذين لا يؤمنون أي: أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب؛ لأنّ تكذيب آيات الله أعظم الكذب، أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين، أو أولئك هم الكاذبون في قلهم: ﴿إنما أنت مفتر﴾[2] ﴿من كفر﴾ بدل من: ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ على أن يجعل ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ اعتراضًا بين البدل والمبدل منه والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه. واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدرًا﴾ أي: طاب به نفسًا واعتقده ﴿فعليهم غضب من الله﴾.

ويجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو: أولئك على ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون، أو من الخبر الذي هو: الكاذبون على وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه.

ويجوز أن ينتصب على الذم، وقد جوّزوا أن يكون من كفر بالله شرطًا مبتدأ ويحذف جوابه؛ لأنّ جواب من شرح دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب إلا من اكره، ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب. وروي أنّ ناسًا من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من اكره، فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار وأبواه ياسر وسمية، وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم عنبوا، فأمّا سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجيء في قبلها بحربة قالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت، وقتل ياسر وهما: أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا فقيل: يا رسول الله إن عمارًا كفر، فقال: «كلا إنّ عمارًا مليء إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه، وقال: «ما لك إن عادوا لك فعدلهم بما قلت»[3]. ومنهم جبر مولى الحضرمي اكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه وأسلم وحسن إسلامهما وهاجرا.

فإن قُلْتَ: أي: الأمرين أفضل أفعل عمار أم فعل أبويه؟ قُلْتُ: بل فعل أبويه؛ لأنّ في ترك التقية والصبر على القتل إعزازًا للإسلام. وقد روي أنّ مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنت أيضًا، فخلاه، وقال للآخر ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثًا فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما الأوّل: فقد أخذ برخصة الله، وأمّا الثاني: فقد صدع بالحق فهنيئًا له»[4].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى الوعيد وأنّ الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم؛ لأنّ الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾.

﴿ثم إنّ ربك﴾ دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك وهم عمار وأصحابه، ومعنى إنّ ربك لهم: أنه لهم لا عليهم بمعنى: أنه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محميًا منفوعًا غير مضرور ﴿من بعد ما فتنوا﴾ بالعذاب والإكراه على الكفر، وقرئ: فتنوا على البناء للفاعل أي: بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه ﴿من بعدها﴾ من بعد هذه الأفعال وهي: الهجرة والجهاد والصبر ﴿يوم تأتي﴾ منصوب برحيم أو بإضمار اذكر.

فإن قُلْتَ: ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟ قُلْتُ: يقال لعين الشيء وأنته نفسه وفي نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هي، فالنفس الأولى: هي الجملة، والثانية: عينها

---

(1) سورة النحل، الآية: 101.

(2) سورة النحل، الآية: 101.

(3) رواه الحاكم في المستدرك 3/284.

(4) رواه ابن أبي شيبة 12/357 كتاب الجهاد، باب: المشركون يدعون المسلمين.

وذاتها فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول: نفسي نفسي، ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها كقوله: ﴿هؤلاء أضلونا﴾[1] ﴿وما كنا مشركين﴾[2] ونحو ذلك.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾.

﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ أي: جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن تراد قدرية مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأوّلين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلاً لمكة إنذارًا من مثل عاقبتها ﴿مطمئنة﴾ لا يزعجها خوف؛ لأنّ الطمأنينة مع الأمن والانزعاج والقلق مع الخوف ﴿رغدًا﴾ واسعًا. والأنعم جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع، أو جمع نعم، كبؤس وأبؤس، وفي الحديث: «نادى منادي النبي ﷺ بالموسم بمنى: إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا»[3].

فإن قُلْتَ[4]: الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما، والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة إيقاعها عليه؛ قُلْتُ: أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب، شبّه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع، وأما اللباس فقد شبّه به لاشتماله على اللابس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف؛ فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان: لا بد من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما.

أحدهما: أن ينظروا فيه إلى المستعار له كما نظر إليه ههنا، ونحوه قول كثير:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكًا غلقت لضحكته رقاب المال

استعارة الرداء للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه، ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا صفة الرداء نظر إلى المستعار له.

والثاني: أن ينظروا فيه إلى المستعار كقوله:

ينازعني ردائي عبد عمرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لي الشطر الذي ملكت يميني ودونك فاعتجر منه بشطر

أراد بردائه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل: فكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير: ضافي الرداء إذا تبسم ضاحكًا ﴿وهم ظالمون﴾ في حال التباسهم بالظلم كقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾[5] نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة. وقرئ: والخوف عطفًا على اللباس، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أصله ولباس الخوف وقرئ: لباس الخوف والجوع.

فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾.

لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها وسوء صنيعها وصل بذلك بالفاء في قوله: ﴿فكلوا﴾ صدّهم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها، بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب وشكر إنعامه بذلك وقال: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ يعني: تطيعون، أو إن صحّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لأنها شفعاؤكم عنده، ثم عدد عليهم محرمات الله، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم دون اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه.

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾.

وانتصاب ﴿الكذب﴾ بلا تقولوا على ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 38.

(2) سورة الأنعام، الآية: 23.

(3) قال الزيلعي: غريب جدًا.

(4) قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه، يستحق على علماء البيان أن يكتبوه ينوب التبر، لا بالحبر، وقد نظر إليهما جميعاً في قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على الهدى، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها، ثم جاء ملاحظاً للشراء المستعار قوله: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ فاستعمل التجارة = والربح، ليناسب ذلك لاستعارة الشراء، ثم جاء ملاحظاً للحقيقة الأصلية المستعار لها قوله: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ فإنه مجرّد عن الاستعارة، إذ لو قيل: أولئك الذين ضلوا، وما كانوا مهتدين، لكان الكلام حقيقة معرى عن ثوب الاستعارة، والنظر إلى المستعار في بابه، كترشيح المجاز في بابه ومنه. إذا الشيطان قصع في قفاها. تنفقناه بالحبل التوّام. فجعل الشيطان في قفاها قاصعاً، ثم نافقاً، ثم جعله مستخرجاً بالحبل المحكم المثنى، كما يستخرج الحيوان من جحره، والشرط في هذا الفن البديع فطين، والله الموفق.

(5) سورة النحل، الآية: 28.

﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا﴾[1] من غير استناد ذلك الوصف إلى وحي من الله، أو إلى قياس مستند إليه. واللام مثلها في قولك: ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام، وقوله: ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ بدل من الكذب ويجوز أن يتعلق بتصف على إرادة القول أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم فتقول: هذا حلال وهذا حرام، ولك أن تنصب الكذب بتصف وتجعل ما مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا على ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم لا لأجل حجة وبينة ولكن قول ساذج ودعوى فارغة.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ **قُلْتُ**: هو من فصيح الكلام بليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحيلته وصورته بصورته كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر، وقرئ: الكذب بالجرّ صفة لما المصدرية كأنه قيل: لوصفها الكذب بمعنى: الكاذب كقوله تعالى: ﴿بدم كذب﴾[2] والمراد بالوصف: وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرئ: الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الشتم، أو بمعنى الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب من قولك: كذب كذابًا ذكره ابن جني. واللام في ﴿لتفتروا﴾ من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض.

مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾.

﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم ﴿ما قصصنا عليك﴾ يعني: في سورة الأنعام ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال أي: عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ﴿من بعدها﴾ من بعد التوبة ﴿كان أمّة﴾[3] فيه وجهان: أحدهما: أنه كان وحده أمّة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كقوله:

وليس بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وعن مجاهد: كان مؤمنًا وحده والناس كلهم كفار. والثاني: أن يكون أمّة بمعنى مأموم أي: يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى: مؤتم به كالرحلة والنخبة وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول فيكون مثل قوله: ﴿قال إني جاعلك للناس إمامًا﴾[4] وروى الشعبي، عن فروة بن نوفل الأشجعي، عن ابن مسعود أنه قال: إنّ معاذًا كان أمّة قانتًا لله، فقلت: غلطت إنما هو إبراهيم فقال: الأمّة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله، وكان معاذ كذلك[5]. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال حين قيل له: ألا تستخلف؟ لو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته، ولو كان معاذ حيًا لاستخلفته، ولو كان سالم حيًا لاستخلفته، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمّة، ومعاذ أمّة قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون، وسالم شديد الحب لله لو كان لا يخاف الله لم يعصه»[6]. وهو ذلك المعنى أي: كان إمامًا في الدين؛ لأنّ الأئمة معلمو الخير. والقانت: القائم بما أمره الله. والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه. ونفى عنه الشرك تكذيبًا لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة إبراهيم ﴿شاكرًا لأنعمه﴾ روي: أنه كان لا يتغدّى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفًا فأخر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أنّ بهم جذامًا فقال: الآن وجبت مواكلتكم شكرًا لله على أنه عافاني وابتلاكم ﴿اجتباه﴾ اختصه واصطفاه للنبوّة ﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾ إلى ملة الإسلام ﴿حسنة﴾ عن قتادة هي: تنويه الله بذكره حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه وقيل: الأموال والأولاد، وقيل: قول المصلي منا: كما صليت على إبراهيم ﴿لمن الصالحين﴾ لمن أهل الجنة.

ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾.

﴿ثم أوحينا إليك﴾[7] في ثم هذه ما فيها من تعظيم

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 139.

(2) سورة يوسف، الآية: 18.

(3) قال أحمد: ويقوّي هذا الثاني قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: كان أمّة تؤمّه الناس، ليقتبسوا منه الخيرات، ويقتفوا بآثاره المباركات، حتى أنت على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملته، ووافق سيرته، والله أعلم.

(4) سورة البقرة، الآية: 124.

(5) رواه الحاكم في المستدرك 3/271.

(6) لم يخرجه الزيلعي.

(7) قال أحمد: وإنما تفيد ذلك، ثم لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة، بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة، وأشمخ محلاً مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدّد مناقب الخليل عليه السلام، قال تعالى وهنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً، وأرفع رتبة، وأبعد رفعة، وهو: أنّ النبيّ الأميّ الذي هو سيد البشر، متبع لملة إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحي، متلوّ أمره بذلك في القرآن العظيم، ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً، لكن نصيب النبي ﷺ من هذا التعظيم، أوفر وأكبر على ما مهدناه، والله الموفق للصواب.

منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محله، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة وأجلّ ما أولي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾.

﴿السبت﴾ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها، والمعنى: إنما جعل وبال السبت وهو: المسخ ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما ختم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه، والمعنى في ذكر ذلك نحو والمعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً، وغير ما ذكر وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالعين ربقة طاعته.

فإن قُلْتَ: ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعًا محلين أو محرّمين؟ قُلْتُ: معناه: أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرّمين أخرى، ووجه آخر وهو أنّ موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يومًا للعبادة وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السمٰوات والأرض وهو السبت، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت؛ لأنّ بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون فيه، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك وهو يحكم ﴿بينهم يوم القيامة﴾ فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجبه. ومعنى ﴿جعل السبت﴾ فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه، وقرئ: إنما جعل السبت على البناء للفاعل، وقرأ عبد الله: إنا أنزلنا السبت.

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾.

﴿إلى سبيل ربك﴾ إلى الإسلام ﴿بالحكمة﴾ بالمقالة المحكمة الصحيحة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ﴿والموعظة الحسنة﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها، ويجوز أن يريد القرآن أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف ﴿إنّ ربك هو أعلم﴾ بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾.

سمى الفعل الأوّل باسم الثاني للمزاوجة، والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه. وقرئ: وإن عقبتم فعقبوا أي: وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم. روي أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد، بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ما تركوا أحدًا غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به، وروي: فرآه مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به لئن أظفرني الله بهم لأمثلنّ بسبعين مكانك»[1]. فنزلت. فكفر عن يمينه وكفّ عما أراده، ولا خلاف في تحريم المثلة، وقد وردت الأخبار «بالنهي عنها»[2] حتى بالكلب العقور. إمّا أن يرجع الضمير في ﴿لهو﴾ إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم ويراد بالصابرين المخاطبون أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع الصابرون موضع الضمير أثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد، أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة، وإما أن يرجع إلى جنس الصبر وقد دل عليه صبرتم ويراد بالصابرين جنسهم كأنهم قيل: وللصبر خير الصابرين ونحوه قوله تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[3] ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾[4] ثم قال لرسوله ﷺ: ﴿واصبر﴾ أنت، فعزم عليه بالصبر ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ أي: بتوفيقه وتثبيته وربطه على قلبك ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي: على الكافرين، كقوله: ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾[5] وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكافرون ﴿ولا تك في ضيق﴾ وقرئ: ولا تكن في ضيق أي: ولا يضيقنّ صدرك من مكرهم، والضيق تخفيف الضيق أي: في أمر ضيق، ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين كالقيل والقول ﴿إنّ الله مع الذين اتقوا﴾ أي: هو وليّ الذين اجتنبوا المعاصي ﴿و﴾ وليّ ﴿الذين هم محسنون﴾ في أعمالهم، وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر: أوص، فقال: إنما الوصية من المال ولا مال لي، وأوصيكم بخواتم سورة النحل.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله

(1) قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ وذكره الثعلبي هكذا من غير سند 2/250.

(2) قال الزيلعي: إنها مستوفاة في الهداية.

(3) سورة الشورى، الآية: 40.

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(5) سورة المائدة، الآية: 68.

بما أنعم عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها أو ليلته كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإسـراء مكية

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾.

﴿سبحان﴾ علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدّه ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله و ﴿أسرى﴾ وسرى لغتان و ﴿ليلاً﴾ نصب على الظرف.

فإن قُلْتَ[2]: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل؟ قُلْتُ: أراد بقوله ليلاً بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله، وحذيفة: من الليل أي: بعض الليل كقوله: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة﴾[3] يعني: الأمر بالقيام في بعض الليل، واختلف في المكان الذي أسرى منه، فقيل: هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر، وروي عن النبي ﷺ: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق[4]»، وقيل: أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب»[5]، والمراد بالمسجد الحرام: الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد، وروي أنه كان نائمًا في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به، ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانىء، وقال: «مثل لي النبيون فصليت بهم» وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أمّ هانئ بثوبه فقال: «مالك؟» قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: «وإن كذبوني» فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلم، فحدثهم، فمن بين مصفق، وواضع يده على رأسه تعجبًا وإنكارًا، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك. فسمي الصديق، وفيهم من سافر إلى ما ثمّ، فاستنعتوه المسجد، فجلى له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أمّا النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا؟ فأخبرهم بعدد جمالها، وأحوالها، وقال: «تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أو ورق»، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أروق كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس، وأخبر قريشًا أيضًا بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور، وسدرة المنتهى، واختلفوا في وقت الإسراء، فقيل كان قبل الهجرة بسنة، وعن أنس والحسن: أنه كان قبل البعث، واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام. فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن عرج بروحه[6]. وعن معاوية: إنما عرج بروحه، وعن الحسن: كان في المنام رؤيا رآها، وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى: بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿باركنا حوله﴾ يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى، ومهبط الوحي وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن: ليريه بالياء ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: أسرى، ثم باركنا، ثم ليريه على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة ﴿إنه هو السميع﴾ لأقوال محمد ﴿البصير﴾ بأفعاله العالم بتهذيبها وخلوصها فيكرمه ويقربه على حسب ذلك.

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا

---

(1) رواه الثعلبي وابن مردويه.

(2) قال أحمد: وقد قرن الإسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا، كقوله بأملك بقطع من الليل: ﴿فاسر﴾، كقوله تعالى: ﴿فاسر بعبادي ليلاً﴾ فالظاهر، والله أعلم، أنّ الغرض من ذكر الليل، وإن كان الإسراء يفيده، تصوير السير بصورته في ذهن السامع، وكأن الإسراء لما دلّ على أمرين، أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلاً، أريد إفراد أحدهما بالذكر، تثبيتاً في نفس المخاطب، وتنبيهاً على أنه مقصود بالذكر، ونظيره في إفراد أحد ما دلّ عليه اللفظ المتقدم، مضموماً لغيره قوله تعالى: ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾ فالاسم الحامل للتثنية دل عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد، فاريد التنبيه؛ لأنّ أحد المعنيين، وهو: = التثنية، مراد مقصود، وكذلك أريد الإيقاظ؛ لأنّ الوحدانية هي المقصودة في قوله: ﴿إنما هو إله واحد﴾ ولو اقتصر على قوله: ﴿إنما هو إله﴾ لأوهم أنّ المهم إثبات الإلهية له، والغرض من الكلام، ليس إلا الإثبات للوحدانية، والله أعلم.

(3) سورة الإسراء، الآية: 79.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، (الحديث رقم: 3207)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ (الحديث رقم: 415).

(5) رواه الطبراني والنسائي في سننه الكبرى.

(6) رواه ابن إسحاق في السيرة، (الزيلعي 2/259).

شَكُورًا ﴿٣﴾.

﴿ألا تتخذوا﴾ قرئ: بالياء على لئلا يتخذوا، وبالتاء على أي: لا تتخذوا، كقولك: كتبت إليه أن افعل كذا ﴿وكيلاً﴾ ربًا تكلون إليه أموركم ﴿ذرية من حملنا﴾ نصب على الاختصاص، وقيل: على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهي يعني: قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا ﴿مع نوح﴾ وقد يجعل وكيلاً ذرية من حملنا مفعولي تتخذوا أي: لا تجعلوهم أربابًا كقوله: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا﴾[1] ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام، وقرئ: ذرية من حملنا بالرفع بدلاً من واو تتخذوا، وقرأ زيد بن ثابت: ذرية بكسر الذال، وروي عنه: أنه قد فسرها بولد الولد ذكرهم الله النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق ﴿إنه﴾ إن نوحًا ﴿كان عبدًا شكورًا﴾ قيل: كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء حبسه، وروي أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به فإن وجده محتاجًا آثره به.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿إنه كان عبدًا شكورًا﴾ ما وجه ملاءمته لما قبله؟ قُلْتُ: كأنه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً ولا تشركوا بي؛ لأنّ نوحًا عليه السلام كان عبدًا شكورًا وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم، ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح فهم متصلون به فاستأهلوا لذلك الاختصاص، ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد.

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ وأوحينا إليهم وحيًا مقضيًا أي: مقطوعًا مبتوتًا بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة ويعلون أي: يتعظمون ويبغون ﴿في الكتاب﴾ في التوراة و﴿لتفسدنّ﴾ جواب قسم محذوف، ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابًا له كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن، وقرئ: لتفسدنّ على البناء للمفعول، ولتفسدن بفتح التاء من فسد ﴿مرتين﴾ أولاهما: قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله، والآخرة: قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم ﴿عبادًا لنا﴾ وقرئ: عبيدًا لنا وأكثر ما يقال: عباد الله وعبيد الناس: سنحاريب وجنوده، وقيل بختنصر، وعن ابن عباس: جالوت، قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفًا.

فإن قُلْتَ[2]: كيف جاز أن يبعث الله الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه؟ قُلْتُ: معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم تمنعهم، على أنّ الله عزّ وعلا أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه فهو كقوله تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون﴾[3] وكقول الداعي: وخالف بين كلمهم، وأسند الجوس: وهو التردّد خلال الديار بالفساد إليهم، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم. وقرأ طلحة فحاسوا بالحاء، وقرئ: فجوّسوا وخلل الديار.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿وعد أولاهما﴾؟ قُلْتُ: معناه وعد عقاب أولاهما ﴿وكان وعدًا مفعولاً﴾ يعني: وكان وعد العقاب وعدًا لا بد أن يفعل.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾.

﴿ثم رددنا لكم الكرة﴾ أي: الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلوّ، وقيل: هي قتل بختنصر، واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، فقيل: هي قتل داود جالوت ﴿أكثر نفيرًا﴾ مما كنتم، والنفير من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جميع نفر كالعبيد والمعين.

إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾.

أي: الإحسان والإساءة كلاهما مختص بأنفسكم لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم، وعن علي رضي الله عنه: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها ﴿فإذا جاء وعد﴾ المرة ﴿الآخرة﴾ بعثناهم ﴿ليسوؤوا وجوهكم﴾ حذف لدلالة ذكره أوّلاً عليه، ومعنى ليسوؤا وجوهكم: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله: ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾[4] وقرئ: ليسوم، والضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث، ولنسوء بالنون، وفي قراءة علي:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 80.

(2) قال أحمد: هذا السؤال إنما يتوجه على قدري يوجب على الله تعالى، بزعمه رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة، وأمّا السني إذا سئل هذا السؤال، أجاب عنه بقوله: لا يسأل عما يفعل، والله الموفق.

(3) سورة الأنعام، الآية: 129.

(4) سورة الملك، الآية: 27.

لنسوأن وليسوان، وقرئ: لنسوأن بالنون الخفيفة. واللام في ﴿ليدخلوا﴾ على هذا متعلق بمحذوف وهو وبعثناهم ليدخلوا ولنسوأن جواب إذا جاء ﴿ما علوا﴾ مفعول ليتبروا أي: ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه، أو بمعنى مدّه علوهم.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾.

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي ﴿وإن عدتم﴾ مرة ثالثة ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا فأعاد الله إليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الإتاوة عليهم، وعن الحسن: عادوا فبعث الله محمدًا فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وعن قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحيّ من العرب فهم منهم في عذاب إلى يوم القيامة ﴿حصيرًا﴾ محبسًا يقال للسجن: محصر وحصير، وعن الحسن: بساطًا كما يبسط الحصير المرمول.

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾.

﴿للتي هي أقوم﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها أو للملة أو للطريقة، وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه. وقرئ: ويبشر بالتخفيف.

فإن قُلْتَ: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة قُلْتُ: كان الناس حينئذ: إما مؤمن تقي، وإما مشرك، وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك.

فإن قُلْتَ: علام عطف ﴿وأن الذين لا يؤمنون﴾؟ قُلْتُ: على أن لهم أجرًا كبيرًا على معنى أنه بشّر المؤمنين ببشارتين اثنتين، بثوابهم، وبعقاب أعدائهم، ويجوز أن يراد ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون.

وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾.

أي: ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله كما يدعوه لهم بالخير كقوله: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير﴾[1] ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأني المتبصر، وعن النبي ﷺ: «أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرًا فأقبل يئن بالليل فقالت له: مالك تئن؟ فشكا ألم القدّ فأرخت من كتافه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي ﷺ دعا به فأعلم بشأنه فقال ﷺ: اللهم اقطع يديها. فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة وأن يقطع الله يديها، فقال النبي ﷺ: «إني سألت الله أن يجعل لعنتي ودعائي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأني بشر أغضب كما يغضب البشر، فلترد سودة يديها»[2]. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر وأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير إذا مسته الشدّة، وكان الإنسان عجولاً يعني أنّ العذاب آتية لا محالة فما هذا الاستعجال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحرث قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾[3] الآية فأجيب له فضربت عنقه صبرًا.

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾.

فيه وجهان: أحدهما: أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود أي: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة، والثاني: أن يراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل أي: جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسه مظلمًا لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح الممحو، وجعلنا النهار مبصرًا أي: تبصر فيه الأشياء وتستبان، أو فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق لها شعاعًا كشعاع الشمس فترى به الأشياء رؤية بينة، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف في معايشكم ﴿ولتعلموا﴾ باختلاف الجديدين ﴿عدد السنين﴾ جنس ﴿والحساب﴾ وما تحتاجون إليه منه، ولولا ذلك لما علم أحد حسبان الأوقات ولتعطلت الأمور ﴿وكل شيء﴾ مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم ﴿فصلناه﴾ بيناه بيانًا غير ملتبس فأزحنا عللكم وما تركنا لك حجة علينا.

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾.

﴿طائره﴾ عمله وقد حققنا القول فيه في سورة النمل، وعن ابن عيينة: هو من قولك: طار له سهم إذا خرج يعني: ألزمناه ما طار من عمله، والمعنى: أنّ عمله لازم له لزوم القلادة، أو الغل لا يفك عنه، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب، وهذا ربقة في رقبته، وعن الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك. وقرئ: في عنقه بسكون النون. وقرئ: نخرج بالنون، ويخرج بالياء، والضمير لله عزّ وجلّ، ويخرج

---

(1) سورة يونس، الآية: 11.

(2) قال الزيلعي: غريب من حديث سودة، وأورد بسنده حديث عن = عائشة ذكره ابن الطلابة 2/260.

(3) سورة الأنفال، الآية: 32.

على البناء للمفعول، ويخرج من خرج، والضمير للطائر أي: يخرج الطائر كتابًا، وانتصاب كتابًا على الحال. وقرئ: يلقاه بالتشديد مبنيًا للمفعول و ﴿يلقاه منشورًا﴾ صفتان للكتاب، أو يلقاه صفة، ومنشورًا حال من يلقاه.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿اقرأ﴾ على إرادة القول، وعن قتادة: يقرأ ذلك اليوم ما لم يكن في الدنيا قارئًا و ﴿بنفسك﴾ فاعل كفى و ﴿حسيبًا﴾ تمييز وهو بمعنى: حاسب، كضريب القداح بمعنى: ضاربها، وصريم بمعنى: صارم، ذكرهما سيبويه. وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا، ويجوز أن يكون بمعنى: الكافي وضع موضع الشهيد فعدّي بعلي؛ لأنّ الشاهد يكفي المدّعي ما أهمه.

فإن قُلْتَ: لم ذكر ﴿حسيبًا﴾؟ قُلْتُ: لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير؛ لأنّ الغالب أنّ هذه الأمور يتولاها الرجال فكأنه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيبًا، ويجوز أن يتأوّل النفس بالشخص كما يقال: ثلاثة أنفس. وكان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك. أي: كل نفس حاملة وزرًا فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى ﴿وما كنا معذبين﴾[1] وما صحّ مناصحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قومًا إلا بعد أن ﴿نبعث﴾ إليهم ﴿رسولاً﴾ فنلزمهم الحجة.

فإن قُلْتَ: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان؟ قُلْتُ: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وإذا أردنا﴾ وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم ﴿ففسقوا﴾ أي: أمرناهم بالفسق ففعلوا والأمر مجاز[2]؛ لأنّ حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا وهذا لا يكون، فبقي أن يكون مجازًا، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبًا فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبرّ، كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو: كلمة العذاب فدمرهم.

فإن قُلْتَ: هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟ قُلْتُ: لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه؟ وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه، وهو كلام مستفيض يقال: أمرته فقام، وأمرته فقرأ، لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام وقراءة، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم أمرته فعصاني، أو فلم يتمثل أمري؛ لأنّ ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأمورًا به، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي؛ لأنّ من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأمورًا به وكأنه يقول: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع، ويأمر وينهى، غير قاصد إلى مفعول.

فإن قُلْتَ: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالقصد والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟ قُلْتُ: لا يصحّ ذلك؛ لأنّ قوله: ﴿ففسقوا﴾ يدافعه، فكأنك أظهرت شيئًا وأنت تدعي إضمار خلافه، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه، ونظير أمر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه تقول: لو شاء لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك، تريد لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت وقلت: قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان، أو من أهل الإساءة، فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة، لم تكن على سداد، وقد فسر بعضهم ﴿أمرنا﴾ بكثرنا وجعل أمرته فأمر

(1) قال أحمد: وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدري، يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر، وإلى كثير من أحكام الله تعالى، وإن لم يبعث رسول، فيكلفه بعقله، ويرتب على ترك امتثال التكليف استيجاب العذاب، إذ العقل كاف عندهم في إيجاب المعرفة، بل في جميع الأحكام، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين، وأما السني، فلا يتوجه عليه هذا السؤال، فإنّ العقل عنده شرط في وجوب عموم الأحكام، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع، وبعث الأنبياء، وحينئذ يثبت الحكم، وتقوم الحجة، كما أنبأت عنه هذه الآية التي يروم الزمخشري تحريفها، فتعتاص = عليه، وتسدّ طرق الحيل بين يديه؛ لأنه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، نعم العقل عمدة في حصول المعرفة، لا في وجوبها، وبين الحصول والوجوب بون بعيد، والله الموفق.

(2) قال أحمد: نص حسن، إلا قوله أنهم خلوا النعم ليشكروا، فإنه فرعه على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة، والحق أنهم خولوها وأمروا بالشكر، ففسقوا وكفروا، على خلاف الأمر، والأمر غير الإرادة على قاعدة أهل الحق، والله الموفق.

من باب فعلته ففعل كثيرته فثبر، وفي الحديث: «خير المال سكة مأثورة، ومهرة مأمورة» أي: كثيرة النتاج. وروي: أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله ﷺ: إني أرى أمرك هذا حقيرًا، فقال ﷺ: «إنه سيامر»[1] أي سيكثر وسيكبر. وقرئ: آمرنا من أمر وأمره غيره، وأمّرنا بمعنى أمرنا، أو من أمر أمارة، وأمره الله أي: جعلناهم أمراء وسلطناهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿كم﴾ مفعول ﴿أهلكنا﴾ و ﴿من القرون﴾ بيان لكم وتمييز له كما يميز العدد بالجنس يعني: عادًا وثمودًا وقرونًا بين ذلك كثيرًا ونبّه بقوله ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا﴾ على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

من كانت[2] العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقييدين أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته، والثاني: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال ترى كثيرًا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضًا منه، وكثيرًا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو: غنى الآخرة فما يبالي أوتي حظًا من الدنيا أو لم يؤت، فإن أوتي فيها وإلا فربما كان الفقر خيرًا له وأعون على مراده وقوله: ﴿لمن نريد﴾ بدل من له وهو بدل البعض من الكل؛ لأن الضمير يرجع إلى من وهو في معنى الكثرة. وقرئ: يشاء، وقيل: الضمير لله تعالى فلا فرق إذًا بين القراءتين في المعنى، ويجوز أن يكون للعبد على أن للعبد ما يشاء من الدنيا وأن ذلك لواحد من الدهماء يريد به الله ذلك، وقيل: هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة كالمنافق، والمرائي، والمهاجر للدنيا، والمجاهدة للغنيمة، والذكر كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[3]. ﴿مدحورًا﴾ مطرودًا من رحمة الله ﴿سعيها﴾ حقها من السعي، وكفاءها من الأعمال الصالحة. اشترط ثلاث شرائط في كون السعي مشكورًا إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور، والسعي فيما كلف من الفعل والترك، والإيمان الصحيح الثابت، وعن بعض المتقدمين: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله، إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا هذه الآية. وشكر الله الثواب على الطاعة.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿كلاً﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه ﴿نمد﴾ هم نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مددًا للسالف لا بقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعًا على وجه التفضل ﴿وما كان عطاء ربك﴾ وفضله ﴿محظورًا﴾ أي: ممنوعًا لا يمنعه من عاص لعصيانه ﴿انظر﴾ بعين الاعتبار ﴿كيف﴾ جعلناهم متفاوتين في التفضل، وفي الآخرة التفاوت أكبر؛ لأنها ثواب وأعواض وتفضل وكلها متفاوتة، وروي: أن قومًا من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه، فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أتينا من قبلنا، إنهم دعوا ودعينا يعني: إلى الإسلام، فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعدّ الله لهم في الجنة أكثر. وقرئ: وأكثر تفضيلاً، وعن بعضهم: أنها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة، وهي أكبر وأفضل.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فتقعد﴾ من قولهم: شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة بمعنى: صارت يعني: فتصير جامعًا على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلٰهك والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكًا له.

۞ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وقضى ربك﴾ وأمر أمرًا مقطوعًا به ﴿ألا تعبدوا﴾ أن مفسرة ولا تعبدوا نهي أو بأن لا تعبدوا ﴿وبالوالدين إحسانًا﴾ وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، أو بأن تحسنوا بالوالدين إحسانًا. وقرئ: وأوصى، وعن ابن عباس

---

(1) قال الزيلعي: غريب جدًا 2/262.

(2) قال أحمد: ومثل ذلك التقييد ورد في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾ فأدخل من المبعضة على حرث الدنيا، ونحل الطالب حرث الآخرة مراده، وزاد عليه.

(3) رواه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 1)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (الحديث رقم: 4904).

رضي الله عنهما: ووصى، وعن بعض ولد معاذ بن جبل: وقضاء ربك، ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان؛ لأنّ المصدر لا يتقدّم عليه صلته ﴿إما﴾ هي إن الشرطية زيدت عليها ما تأكدا لها ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أفردت إن لم يصح دخولها لا تقول: إن تكرمن زيدًا يكرمك، ولكن إما تكرمنه و ﴿أحدهما﴾ فاعل يبلغنّ، وهو: فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين و ﴿كلاهما﴾ عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً.

فإن قُلْتَ:لو قيل: إما يبلغان كلاهما. كان كلاهما توكيدًا لا بدلاً فمالك زعمت أنه بدل؟ قُلْتُ:لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدًا للاثنين فانتظم في حكمه فوجب أن يكون مثله.

فإن قُلْتَ:ما ضرّك لو جعلته توكيدًا مع كون المعطوف عليه بدلاً، وعطفت التوكيد على البدل؟ قُلْتُ:لو أريد توكيد التثنية لقيل: كلاهما فحسب، فلما قيل: أحدهما أو كلاهما علم أنّ التوكيد غير مراد فكان بدلاً مثل الأول ﴿اف﴾ صوت يدل على تضجر، وقرئ: اف بالحركات الثلاث منونًا وغير منون، الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة، والتشديد كثم، والضم اتباع كمنذ.

فإن قُلْتَ:ما معنى عندك؟ قُلْتُ:هو أن يكبرا ويعجزا وكانا كلاً على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشق عليه وأشدّ احتمالاً وصبرًا، وربما تولي منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق، ولين الجانب والاحتمال، حتى لا يقول ـ لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما، أو يستثقل من مؤنهما اف فضلاً عما يزيد عليه، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معًا، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع موجبات الضجر ومقتضياته، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة ﴿ولا تنهرهما﴾ ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك، والنهي والنهر والنهم أخوات ﴿وقل لهما﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قولاً كريمًا﴾ جميلاً كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة، وقيل: هو أن يقول: يا أبتاه يا أماه كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت مع كفره، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنه من الجفاء، وسوء الأدب، وعادة الدعار، قالوا: ولا بأس به في غير وجهه كما قالت عائشة رضي الله عنها: نحلني أبو بكر[1] كذا. وقرئ: جناح الذل والذل بالضم والكسر.

فإن قُلْتَ:ما معنى قوله: ﴿جناح الذل﴾؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك، كما قال: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾[2] فأضافه إلى الذل أو الذلّ، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول، والثاني: أن تجعل لذله أو لذله لهما جناحًا خفيضًا، كما جعل لبيد للشمال: يدًا، وللقوّة: زمامًا مبالغة في التذلل.

وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾.

والتواضع لهما ﴿من الرحمة﴾ من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما لكبرهما، وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها، وادع الله بأن يرحمهما الباقية، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك.

فإن قُلْتَ: الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين قُلْتُ: وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية والإرشاد، ومن الناس من قال: كان الدعاء للكفار جائزًا ثم نسخ، وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت، فقال: كل ذلك واصل إليه ولا شيء أنفع له من الاستغفار، ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين، ولقد كرّر الله سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين، وعن النبيّ ﷺ: «رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما»[3] وروي: يفعل البارّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة[4]، وروى سعيد بن المسيب أنّ البار لا يموت ميتة سوء، وقال رجل لرسول الله ﷺ: أنّ أبوي بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما؟ قال: «لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما»[5]. وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ أباه وأنه يأخذ ماله، فدعا به، فإذا شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال: إنه كان ضعيفًا وأنا قوي، وفقيرًا، وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئًا من مالي، واليوم أنا ضعيف، وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويبخل عليّ بماله فبكى رسول الله ﷺ وقال: «ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى، ثم قال للولد: أنت ومالك لأبيك، أنت ومالك لأبيك»، وشكا إليه آخر.[6] سوء خلق أمّه فقال: «لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة

(1) رواه مالك في الموطأ، كتاب: الأقضية، باب: ما لا يجوز من النحل، (الحديث رقم: 40).
(2) سورة الحجر، الآية: 88.
(3) رواه الترمذي في كتاب: «البر والصلة» باب ما جاء في الفضل في رضا الوالدين (الحديث رقم: 1899)، والحاكم في المستدرك 4/ = 152).
(4) رواه أبو نعيم في الحلية 10/216.
(5) لم يخرجه الزيلعي.
(6) أخرج نحوه الطبراني في معجمه الصغير ص 339 (الحديث رقم: 927).

أشهر» قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين» قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها، وأظمأت نهارها» قال: لقد جازيتها: قال: «ما فعلت»؟ قال: حججت بها على عاتقي. قال: «ما جزيتها ولو طلقة»[1] وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمّه ويقول:

إني لها مطية لا تذعر ... إذا الركاب نفرت لا تنفر

ما حملت وأرضعتني أكثر ... الله ربي ذو الجلال الأكبر

تظنني جازيتها يا ابن عمر؟ قال: لا ولو زفرة واحدة[2]، وعنه عليه الصلاة والسلام: «إياكم وعقوق الوالدين، فإنّ الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جارّ إزاره خيلاء، إنّ الكبرياء لله رب العالمين»[3]، وقال الفقهاء: لا يذهب بأبيه إلى البيعة وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل، ولا يناوله الخمر ويأخذ الإناء منه إذا شربها، وعن أبي يوسف: إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أو قد. وعن حنيفة: أنه استأذن النبيّ ﷺ في قتل أبيه وهو في صف المشركين فقال: «دعه يليه غيرك»[4]. وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال: أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل، وسئل بعضهم فقال: أن لا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر شزرًا إليهما، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحم عليهما ما عاشا، وتدعو لهما إذا ماتا، وتقوم بخدمة أودّائهما من بعدهما، فعن النبيّ ﷺ: «إنّ من أبر البر أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه»[5].

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾

﴿بما في نفوسكم﴾ بما في ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير **﴿إن تكونوا صالحين﴾** قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم في حال الغضب، وعند حرج الصدر، وما لا يخلو منه البشر، أو لحمية الإسلام، هنة تؤدّي إلى أذاهما ثم أنبتم إلى الله واستغفرتم منها فإنّ الله غفور **﴿للأوّابين﴾** للتوّابين، وعن سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير، وعن سعيد بن المسيب: الأوّاب الرجل كلما أذنب بادر بالتوبة، ويجوز أن يكون هذا عامًا لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره.

﴿وآت ذا القربى حقه﴾ وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤتوا حقهم، وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين، والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب وكان الرجل موسرًا أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة، والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب، وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم كأبناء العمّ فحقهم صلتهم بالمودّة، والزيارة، وحسن المعاشرة، والمؤالفة على السراء والضراء، والمعاضدة ونحو ذلك **﴿والمسكين وابن السبيل﴾** يعني: وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، وهذا دليل على أن المراد بما يؤتي ذوي القرابة من الحق هو تعهدهم بالمال، وقيل: أراد بذي القربى: أقرباء رسول الله ﷺ.

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾.

التبذير تفريق المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على وجه الإسراف، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسمعة وتذكر ذلك في أشعارها فأمر الله بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويزلف، وعن عبد الله: هو إنفاق المال في غير حقه، وعن مجاهد: لو أنفق مدًّا في باطل كان تبذيرًا، وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف فقال: لا سرف في الخير، وعن عبد الله بن عمرو: مرّ رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف يا سعد»؟ قال: أوفي الوضوء سرف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار»[6] **﴿إخوان الشياطين﴾** أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمّة؛ لأنه لا شرّ من الشيطان، أوهم إخوانهم وأصدقاؤهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، أوهم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد **﴿وكان الشيطان لربه كفورًا﴾** فما ينبغي أن يطاع فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله، وقرأ الحسن: إخوان الشيطان.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين، وابن السبيل، حياء من الردّ **﴿فقل لهم قولاً ميسورًا﴾** فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك، وكان النبي ﷺ إذا سئل شيئًا وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء[7] قوله: **﴿ابتغاء**

---

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في بر الوالدين فضل «في حفظ حق الوالدين بعد موتهما» (الحديث رقم: 7976)، والبخاري في الأدب المفرد 1/62 باب جزاء الوالدين (الحديث رقم: 11).

(3) رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل.

(4) لم يخرجه الزيلعي.

(5) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل صلة أصدقاء الأب والأم (الحديث رقم: 6460).

(6) رواه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه (الحديث رقم: 425) وأحمد في المسند (2/226).

(7) رواه الحاكم في المستدرك 3/130.

رحمة من ربك﴾ إمّا أن يتعلق بجواب الشرط مقدّمًا عليه أي: فقل لهم قولاً سهلاً لينًا، وعدهم وعدًا جميلاً رحمة لهم وتطييبًا لقلوبهم ابتغاء رحمة من ربك أي: ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم، وإما أن يتعلق بالشرط أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك فسمى الرزق رحمة، فردّهم ردًّا جميلاً، فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأنّ فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسببًا عنه فوضع المسبب موضع السبب، ويجوز أن يكون معنى: ﴿وإمّا تعرضنّ عنهم﴾ وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك؛ لأن من أبى أن يعطي أعرض بوجهه. يقال: يسر الأمر وعسر مثل سعد الرجل نحس فهو مفعول، وقيل معناه: فقل لهم: رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم، كان معناه: قولاً ذا ميسور وهو: اليسر أي: دعاء فيه يسر.

هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿فتقعد ملومًا﴾ فتصير ملومًا عند الله؛ لأنّ المسرف غير مرضي عنده وعند الناس يقول المحتاج: أعطي فلانًا وحرمني، ويقول المستغني: ما يحسن تدبير أمر المعيشة، وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت ﴿محسورًا﴾ منقطعًا بك لا شيء عندك من حسرة السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة، وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالس أتاه صبي فقال: إنّ أمي تستكسيك درعًا فقال: «من ساعة إلى ساعة يظهر فعد إلينا، فذهب إلى أمّه فقالت له: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك «فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانًا»، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة[1]، وقيل: أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن، فجاء عباس بن مرداس وأنشأ يقول:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ... د بين عيينه والأقرع

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان جدي في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال: «يا أبا بكر اقطع لسانه عني، أعطه مائة من الإبل»[2] فنزلت. ثم سلا رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضافة، بأنّ ذلك ليس لهوان منك عليه ولا لبخل به عليك، ولكن لأنّ مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها تابعة للحكمة والمصلحة، ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزائن في يده، فأما العبيد فعليهم أن يقتصدوا، ويحتمل أنه عزّ وعلا بسط لعباده أو قبض فإنه يراعي أوسط الحالين لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه فاستنوا بسنته.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

قتلهم أولادهم هو وأدهم بناتهم كانوا يئدونهنّ خشية الفاقة وهي الإملاق فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم. وقرئ: خشية بكسر الخاء. وقرئ: خطأ وهو الإثم يقال: خطئ خطأ كأثم إثمًا، وخطأ وهو ضد الصواب اسم من أخطأ، وقيل: هو والخطء كالحذر والحذر، وخطاء بالكسر والمد، وخطاء بالفتح والمد وخطأ بالفتح والسكون، وعن الحسن: خطا بالفتح وحذف الهمزة كالخب، وعن أبي رجاء: بكسر الخاء غير مهموز ﴿فاحشة﴾ قبيحة زائدة على حد القبح ﴿وساء سبيلا﴾ وبئس طريقًا طريقه وهو أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إلا بالحق﴾ إلا بإحدى ثلاث إلا بأن تكفر، أو تقتل مؤمنًا عمدًا، أو تزني بعد إحصان ﴿مظلومًا﴾ غير راكب واحدة منهنّ ﴿لوليه﴾ الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه ﴿سلطانًا﴾ تسلطًا على القاتل في الاقتصاص منه، أو حجة يثب بها عليه ﴿فلا يسرف﴾ الضمير للولي أي: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة الجاهلية كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة حتى قال مهلهل حين قتل بجير بن الحرث بن عباد: وبشسع نعل كلب وقال:

كل قتيل في كليب غرة ... حتى ينال القتل آل مرة

وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء، وقيل: الإسراف المثلة، وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: فلا يسرف بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر وفيه مبالغة ليست في الأمر، وعن مجاهد أنّ الضمير للقاتل الأوّل، وقرئ: فلا تسرف على خطاب الولي، أو قاتل المظلوم، وفي قراءة أبيّ: فلا تسرفوا رده على الولي ولا تقتلوا ﴿إنه كان منصورًا﴾ الضمير إمّا للولي يعني: حسبه أنّ الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك، وبأنّ الله قد نصره بمعونة السلطان، وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق فلا يبغ ما وراء حقه، وإمّا للمظلوم؛ لأنّ الله ناصره وحيث أوجب القصاص بقتله وينصره في الآخرة؟ الثواب وإمّا للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فإنه منصور

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) رواه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام.. (الحديث رقم: 2440).

بإيجاب القصاص على المسرف.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿بالتي هي أحسن﴾ بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن وهي حفظه عليه وتثميره ﴿إنّ العهد كان مسؤولاً﴾[1] أي: مطلوبًا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به، ويجوز أن يكون تخييلاً كأنه يقال للعهد: لم نكثت وهلا وفي بك تبكيتًا للناكث، كما يقال للموؤدة: ﴿بأي ذنب قتلت﴾[2]؟ ويجوز أن يراد أنّ صاحب العهد كان مسؤولاً.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

قرئ: ﴿بالقسطاس﴾ بالضم والكسر وهو: القرسطون وقيل: كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها ﴿وأحسن تأويلاً﴾ وأحسن عاقبة وهو: تفعيل من آل إذا رجع وهو ما يؤول إليه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿ولا تقف﴾ ولا تتبع وقرئ: ولا تقف يقال: قفا أثره وقافه، ومنه القافة يعني: ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول، أو فعل كمن يتبع مسلكًا لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو: ضال، والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهرًا لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده، وعن ابن الحنفية: شهادة الزور وعن الحسن: لا تقف أخاك المسلم إذا مر بك فتقول: هذا يفعل كذا، ورأيته يفعل، وسمعته، ولم تر ولم تسمع، وقل: القفو شبيه بالعضيهة ومنه الحديث: «من قفى مؤمنًا بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج»[3] وأنشد:

ومثل الدمى شم العرانين ساكن … بهنّ الحياء لا يشعن التقافيا

أي: التقاذف، وقال الكميت:

ولا أرمي البريء بغير ذنب … ولا أقفو الحواصن إن قفينا

وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح؛ لأنّ ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به ﴿أولئك﴾ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد كقوله:

والعيش بعد أولئك الأيام

و ﴿عنه﴾ في موضع الرفع بالفاعلية أي: كل واحد منها كان مسؤولاً عنه، فمسؤول مسند إلى الجار والمجرور كالمغضوب في قوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾[4]. يقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه؟ ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ: والفواد بفتح الفاء والواو قلبت الهمزة واوًا بعد الضمة في الفؤاد ثم استصحب القلب مع الفتح.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿مرحًا﴾ حال أي: ذا مرح وقرئ: مرحًا، وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد ﴿لن تخرق الأرض﴾ لن تجعل فيها خرقًا[5] بدوسك لها وشدّة وطأتك، وقرئ: لن تخرق بضم الراء ﴿ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ بتطاولك وهو تهكم بالمختال.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

قرئ: سيئة وسيئه على إضافة سيء إلى ضمير كل، وسيا في بعض المصاحف، وسيآت وفي قراءة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كان شأنه.

فإن قُلْتَ: كيف قيل ﴿سيئه﴾ مع قوله: ﴿مكروهًا﴾؟ قُلْتُ: السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم، زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين من قرأ: سيئة وسيا، ألا تراك تقول: الزنا سيئة كما تقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى منكر ومئنث.

فإن قُلْتَ: فما ذكر من الخصال بعضها سيء وبعضها حسن، ولذلك قرأ من قرأ سيئه بالإضافة، فما وجه من قرأ سيئه؟ قُلْتُ: كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة، لا بجميع الخصال المعدودة.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

---

(1) قال أحمد: كلام حسن، إلا لفظة التخييل، فقد تقدّم إنكارها عليه، وينبغي أن يعوض بالتمثيل، والظاهر التأويل الأوّل، ويكون المجرور الذي هو عنه حذف تخفيفاً، وقد ذكر في بقية الآي: ﴿كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ والله أعلم، ويعضد تأويل سؤال العهد نفسه، على وجه التمثيل، وقوف الرحم بين يدي الله، وسؤالها فيمن وصلها وقطعها، وقدورد ذلك في الحديث الصحيح، والله الموفق.

(2) سورة التكوير، الآية: 9.

(3) رواه الإمام أحمد في مسنده 82/2 وأبو داود في كتاب: الأقضية، باب: فيمن يغبن على خصومة.

(4) سورة الفاتحة، الآية: 7.

(5) قال أحمد: وفي هذا التهكم والتقريع، لمن يعتاد هذه المشية، كفاية في الانزجار عنها، ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدهم قد عرف مسيئتين، أو اجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفاً من رياسة الدنيا، إذا هو يتبختر في مشيه، ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون، وماذا يفيده أن يقرأ القرآن، أو يقرأ عليه، وقلبه، عن تدبره على مراحل، والله وليّ التوفيق.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدّم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلـهًا آخر﴾[1] إلى هذه الغاية، وسماه حكمة؛ لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه، وعن ابن عباس: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح أوّلها ﴿لا تجعل مع الله إلهًا آخر﴾[2] قال الله تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة﴾[3] وهي عشر آيات في التوراة، ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذّ فيها الحكماء وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضلّ من النعم.

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾.

﴿أفأصفاكم﴾ خطاب للذين قالوا: الملائكة بنات الله، والهمزة للإنكار يعني: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم: البنون ولم يجعل فيهم نصيبًا لنفسه، واتخذ دونهم وهي: البنات، وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ويكون أردأها وأدونها للسادات ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيمًا﴾ بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم أدون خلق الله وهم: الإناث.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾.

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن﴾ يجوز يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات؛ لأنه مما صرفه وكرّر ذكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى، أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكانًا للتكرير، ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد ولقد صرفنا يعني: هذا المعنى في مواضع من التنزيل فترك الضمير لأنه معلوم. وقرئ: صرفنا بالتخفيف وكذلك ﴿ليذكروا﴾ قرئ: مشدّدًا ومخففًا أي: كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم ﴿فما يزيدهم إلا نفورًا﴾ عن الحق وقلة طمانينة إليه، وعن سفيان كان إذا قرأها قال: زادني لك خضوعًا ما زاد أعداءك نفورًا.

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾.

قرئ: كما تقولون بالتاء والياء و ﴿إذًا﴾ دالة على أن ما بعدها وهو: لابتغوا جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو ومعنى ﴿لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، كقوله: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[4] وقيل لتقرّبوا إليه كقوله: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾[5].

سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾.

﴿علوًا﴾ في معنى: تعاليًا، والمراد: البراءة عن ذلك والنزاهة. ومعنى وصف العلوّ بالكبر: المبالغة في معنى البراءة، والبعد مما وصفوه به.

تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾.

والمراد[6]: أنها تسبح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تتعلق بذلك، وكأنها تنزه الله عز وجلّ مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها.

فإن قُلْتَ: فما تصنع بقوله: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟ قُلْتُ: الخطاب للمشركين وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السمٰوات والأرض، قالوا: الله، إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم،

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 22.
(2) سورة الإسراء، الآية: 22.
(3) سورة الأعراف، الآية: 145.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 22.
(5) سورة الإسراء، الآية: 57.
(6) قال أحمد: ولقائل أن يقول: فما يصنع بقوله: ﴿كان حليماً غفوراً﴾ وهو لا يغفر للمشركين، ولا يتجاوز عن جهلهم، وكفرهم، وإشراكهم، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنون، والظاهر أن المخاطب المؤمنون، وأما عدم فقهنا للتسبيح الصادر من الجمادات، فكأنه والله أعلم، من عدم العمل بمقتضى ذلك، فإن الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من = ذرات الكون تسبح الله، وتنزهه، وتشهد بجلاله، وكبريائه، وقهره، وعمر خاطره بهذا الفهم، لكاد ذلك يشغله عن القوت، فضلاً عن فضول الكلام والأفعال، والعاكف على الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا هذا، لو استشعر حال إفاضته فيها، إن كل ذرة وجوهر من ذرات لسانه الذي يلقلقه في سخط الله تعالى عليه مشغولة، مملوءة بتقديس الله تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته وتيقظ لذلك حق التيقظ لكادان لا يتكلم بقية عمره، فالظاهر والله أعلم، أنّ الآية إنما وردت خطاباً على الغالب في أحوال الغافلين، وإن كانوا مؤمنين، والله الموفق، فالحمد لله الذي كان حليماً غفوراً.

فكأنهم لم ينظروا ولم يقرّوا؛ لأنّ نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه، فإذًا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق.

فإن قُلْتَ[1]: من فيهنّ يسبحون على الحقيقة وهم: الملائكة والثقلان وقد عطفوا على السمٰوات والأرض فما وجهه؟ **قُلْتُ**: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز **﴿إنه كان حليمًا غفورًا﴾** حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم.

﴿حجابًا مستورًا﴾ ذا ستر كقولهم: سيل مفعم ذو إفعام، وقيل: هو حجاب لا يرى فهو مستور، ويجوز أن يراد: أنه حجاب من دونه حجاب، أو حجب، فهو مستور بغيره، أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه: **﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾**[2] كأنه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم **﴿أن يفقهوه﴾** كراهة أن يفقهوه، أو لأنّ قوله: وجعلنا على قلوبهم أكنة فيه معنى: المنع من الفقه فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه. يقال: وحد يحد وحدًا وحدة نحو وعد يعد وعدًا وعدة **﴿وحده﴾** من باب رجع عوده على بدئه وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر سادّ مسدّ الحال أصله يحد وحده بمعنى: واحدًا أو حده. والنفور مصدر بمعنى التولية، أو جمع نافر كقاعد وقعود أي: يحبون أن تنكر معه آلهته لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا **﴿بما يستمعون به﴾** من الهزؤ بك وبالقرآن ومن اللغو، كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار، و**﴿به﴾** في موضع الحال كما نقول: يستمعون بالهزؤ أي: هازئين و**﴿إذ يستمعون﴾** نصب بأعلم أي: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون **﴿وإذ هم نجوى﴾** وبما يتناجون به إذ هم ذوو نجوى **﴿إذ يقول﴾** بدل من إذ هم **﴿مسحورًا﴾** سحر فجنّ، وقيل: هو من السحر وهو الرئة أي: هو بشر مثلكم.

﴿ضربوا لك الأمثال﴾ مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون **﴿فضلوا﴾** في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾.

لما قالوا: **﴿أئذا كنا عظامًا﴾** قيل لهم **﴿كونوا حجارة أو حديدًا﴾** فردّ قوله: كونوا على قولهم كنا كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديدًا ولا تكونوا عظامًا فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحي وغضاضته بعد ما كنتم عظامًا يابسة، مع أنّ العظام بعض أجزاء الحيّ بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائره، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر وهو: أن تكونوا حجارة يابسة أو حديدًا، مع أنّ طباعها الجساوة والصلابة، لكان قادرًا على أن يردكم إلى حال الحياة **﴿أو خلقًا مما يكبر في صدوركم﴾** يعني: أو خلقًا مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه فإنه يحييه، وقيل: ما يكبر في صدورهم الموت، وقيل: السمٰوات والأرض **﴿فسينغضون﴾** فسيحرّكونها نحوك تعجبًا واستهزاء.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز، والمعنى: يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون وقوله: **﴿بحمده﴾** حال منهم أي: حامدين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشقّ عليه فيتأبى ويتمنع: ستركبه وأنت حامد شاكر يعني: أنك تحمل عليه وتقسر قسرًا، حتى أنك تلين لين المسمح الراغب الحامد عليه، وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك **﴿وتظنون﴾** وترون الهول، فعنده تستقصرون مدّة لبثكم في الدنيا وتحسبونها يومًا أو بعض يوم، وعن قتادة: تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وقل لعبادي﴾ وقل للمؤمنين **﴿يقولوا﴾** للمشركين الكلمة **﴿التي هي أحسن﴾** وألين ولا يخاشنوهم كقوله: **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾**[3] وفسر التي هي أحسن بقوله: **﴿ربكم أعلم بكم إن يشا يرحمكم أو إن يشا يعذبكم﴾** يعني: يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار، وإنكم معذبون، وما أشبه ذلك مما

---

(1) قال أحمد: وقد تقدّم نقلي عنه، أنه يأبى حمل اللفظ على حقيقته، ومجازه دفعة واحدة عند آية السجدة في النحل، ولكن ظهر من كلامه، ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد، وعدم الامتناع على القدرة، ليكون متناً، ولا للمكلفين وغير المكلفين بطريق التواطؤ،= = وقد يكون أراد: ثم المجاز، والله الموفق.

(2) سورة فصلت، الآية: 5.

(3) سورة النحل، الآية: 125.

يغيظهم ويهيجهم على الشر، وقوله: ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ اعتراض يعني: يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارة والمشاقة ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ أي: ربًا موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيرًا ونذيرًا، فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية السيف، وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه رجل، فأمره الله بالعفو. وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: الكلمة التي هي أحسن أن يقولوا يهديكم الله يرحمكم الله. وقرأ طلحة: ينزغ بالكسر، وهما لغتان: نحو يعرشون ويعرشون.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾.

هو ردّ على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبيًا، وأن تكون العراة الجوّع أصحابه كصهيب وبلال وخباب وغيرهم دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم يعني: وربك أعلم بمن في السمٰوات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم، وقوله: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقوله: ﴿وآتينا داود زبورًا﴾ دلالة على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم؛ لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود، وقال الله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[1] وهم محمد وأمته.

فإن قُلتَ: هلا عرف الزبور كما عرف في قوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾؟[2] قُلتُ: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس والفضل وفضل، وأن يريد وآتينا داود بعض الزبر وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبورًا لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآنًا.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾.

هم الملائكة، وقيل: عيسى ابن مريم، وعزير، وقيل: نفر من الجن عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا. أي: ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه و ﴿أولئك﴾ مبتدأ و ﴿الذين يدعون﴾ صفته و ﴿يبتغون﴾ خبره يعني: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي: القربة إلى الله تعالى و ﴿أيهم﴾ بدل من واو يبتغون، وأي موصولة أي: يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب. أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون، فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح ﴿ويرجون﴾ ويخافون كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة ﴿إن عذاب ربك كان﴾ حقيقًا بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾.

﴿نحن مهلكوها﴾ بالموت والاستئصال ﴿أو معذبوها﴾ بالقتل وأنواع العذاب وقيل: الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة، وعن مقاتل: وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: أما مكة فيخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فعذابها ضروب، ثم ذكرها بلدًا بلدًا ﴿في الكتاب﴾ في اللوح المحفوظ.

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾.

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة. وأن الأولى منصوبة والثانية مرفوعة تقديره: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأوّلين، والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبًا، ومن إحياء الموتى وغير ذلك، وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، فالمعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا: ﴿هذا سحر مبين﴾[3] كما يقولون في غيرها، واستوجبوا العذاب المستأصل، وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة. ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأوّلون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا واحدة وهي ناقة صالح؛ لأنّ آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ﴿مبصرة﴾ بينة، وقرئ: مبصرة بفتح الميم ﴿فظلموا بها﴾ فكفروا بها ﴿وما نرسل بالآيات﴾ إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى: لا نرسلها ﴿إلا تخويفًا﴾ من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدّمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وإن أراد غيرها فالمعنى: وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفًا وإنذارًا بعذاب الآخرة.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ

(1) سورة الأنبياء، الآية: 105.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 105.

(3) بعض آية ورد في سبعة مواضع من القرآن منها: سورة المائدة، الآية: 110.

إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾.

﴿وإذ قلنا لك إنّ ربك أحاط بالناس﴾ واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش يعني: بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم وذلك قوله: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[1] ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون﴾[2] وغير ذلك، فجعله كأن قد كان ووجد، فقال: أحاط بالناس على عادته في إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبي ﷺ في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول: «اللهم إني أسألك عهدك ووعدك». ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر». ولعلّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر «والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وهو يومئ إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان»، فتسامعت قريش بما أوحي إلى رسول الله ﷺ من أمر يوم بدر وما أري في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء[3]، وحين سمعوا بقوله[4]: ﴿إنّ شجرة الزقوم ❁ طعام الأثيم﴾[5] جعلوها سخرية وقالوا: إن محمدًا يزعم أنّ الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر! وما قدر الله حق قدره من قال ذلك، وما أنكروا وأن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار، فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالمًا لا تعمل فيه النار، وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة نارًا فلا تحرقها، فمن أنكروا أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها والمعنى: أنّ الآيات إنما يرسل بها تخويفًا للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر. فما كان ما ﴿أريناك﴾ منه في منامك بعد الوحي إليك ﴿إلا فتنة﴾ لهم حيث اتخذوه سخريًا، وخوّفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم، ثم قال فيهم ﴿ونخوفهم﴾ أي: نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلا طغيانًا كبيرًا﴾ فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات[6]، وقيل الرؤيا هي: الإسراء، وبه تعلق من يقول: كان الإسراء في المنام، ومن قال كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية، وقيل: إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا رأيتها وخيال خيل إليك استبعادًا منهم، كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة نحو قوله: ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾[7] ﴿أين شركائي﴾[8] ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾[9] وقيل: هي رؤياه أنه سيدخل مكة، وقيل: رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة.

فإن قُلْتَ: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ قُلْتُ: لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة؛ لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة. وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز، وقيل: وصفها الله باللعن والإبعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة، وقيل: تقول العرب لكل طعام مكروه: ضار ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم، الطعام الملعون القشب الممحوق، وعن ابن عباس: هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب، وقيل: هي الشيطان، قيل: أبو جهل. وقرئ: والشجرة الملعونة بالرفع على أنها مبتدأ محذوف الخبر كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾.

﴿طينًا﴾ حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد على أسجد له وهو طين أي: أصله طين أو من الراجع إليه من الصلة على أسجد لمن كان في وقت خلقه طينًا ﴿أرأيتك﴾ الكاف للخطاب و ﴿هذا﴾ مفعول به والمعنى: أخبرني عن هذا ﴿الذي كرمت﴾ ﴿علي﴾ أي: فضلته لم كرمته عليّ وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف ذلك، ثم ابتدأ فقال ﴿لئن أخرتني﴾ واللام موطئة للقسم المحذوف ﴿لأحتنكن ذريته﴾ لأستأصلهم بالإغواء من احتنك الجراد الأرض إذ جرد ما عليها أكلاً، وهو من الحنك، ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم: أحنك الشاتين أي: آكلهما.

فإن قُلْتَ: من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو من الغيب؟ قُلْتُ: إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به، أو خرجه من قولهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾[10] أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهواني، وقيل: قال ذلك لما عملت وسوسته في آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة.

---

(1) سورة القمر، الآية: 45.

(2) سورة آل عمران، الآية: 12.

(3) قال أحمد: والعمدة في ذلك، أنّ النار لا تؤثر إحراقاً في شيء، ولكن الله تعالى أجرى العادة، أنه خلق الحرق عند ملاقاة جسم النار لبعض الأجسام، فإذا كان ذلك من فعل الله لا من فعل النار، فللّه تعالى أن لا يفعل الحرق في الشجرة التي في أصل الجحيم.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في درع النبي ﷺ (الحديث رقم: 2915).

(5) سورة الدخان، الآيتان: 43 و44.

(6) قال أحمد: ويبعد ذلك قوله تعالى: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ وقوله: ﴿فإنهم لآكلون منها﴾ والله أعلم.

(7) سورة الصافات، الآية: 91.

(8) بعض آية ورد في أربعة مواضع من القرآن منها: سورة النحل، الآية: 27.

(9) سورة الدخان، الآية: 49.

(10) سورة البقرة، الآية: 30.

﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣﴾.

﴿اذهب﴾ ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء إنما معناه: لبعض لشأنك الذي أخذته خذلانًا وتخلية وعقبة بذكر ما جرّه سوء اختياره في قوله ﴿فمن تبعك منهم فإنّ جهنم جزاؤكم﴾ كما قال موسى عليه السلام للسامري: ﴿فاذهب فإنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾(1).

فإن قُلْتَ: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى ﴿فمن تبعك﴾؟ قُلْتُ: بلى ولكن التقدير: فإنّ جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم، ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات، وانتصب ﴿جزاء موفورًا﴾ بما في فإنّ جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو بإضمار تجازون، أو على الحال؛ لأنّ الجزاء موصوف بالموفور والموفور الموفر يقال: فر لصاحبك عرضه فرة.

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ٦٥﴾.

استفزّه استخفه والفز الخفيف ﴿وأجلب﴾ من الجلبة وهي الصياح. والخيل: الخيالة ومنه قول النبي ﷺ: «يا خيل الله اركبي»(2). والرجل اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب. وقرئ: ورجلك على أنّ فعلا بمعنى: فاعل نحو تعب وتاعب، معناه: وجمعك الرجل وتضم جيمه أيضًا فيكون مثل حدث وحدث، وندس وندس، وأخوات لهما يقال: رجل رجل، وقرئ: ورجالك ورجالك.

فإن قُلْتَ: ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ قُلْتُ: هو كلام ورد مورد التمثيل مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوّت بهم صوتًا يستفزهم من أماكنهم ويقلقلهم عن مراكزهم، واجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم، وقيل: بصوته بدعائه إلى الشر، وخيله ورجله كلّ راكب وماش من أهل العيث، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال.

وأمّا المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما كالربا والمكاسب المحرّمة، والبحيرة والسائبة، والإنفاق في الفسوق والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة وغير ذلك ﴿وعدهم﴾(3) المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وتسويف التوبة، ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول في الكبائر، والخروج من النار بعد أن يصيروا حممًا، وإيثار العاجل على الآجل ﴿إنّ عبادي﴾ يريد الصالحين ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ أي: لا تقدر أن تغويهم ﴿وكفى بربك وكيلاً﴾ لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك ونحوه قوله: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾(4).

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغويًا مضلاً داعيًا إلى الضر صاداً عن الخير؟ قُلْتُ: هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية كما قال للعصاة ﴿اعملوا ما شئتم﴾(5).

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾.

﴿يزجي﴾ يجري ويسير. والضرّ خوف الغرق ﴿ضلّ من تدعون إلا إياه﴾ ذهب عن أوهامكم وخواطركم كلّ من تدعونه في حوادثكم إلاّ إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه، ولا تدعونه في ذلك الوقت، ولا تعقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطرون ببالكم أنّ غيره يقدر على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوّين، ويجوز أن يراد: ضلّ من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكنّ الله وحده هو الذي ترجونه، وحده على الاستثناء المنقطع.

﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩﴾.

﴿أفأمنتم﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿جانب البر﴾؟ قُلْتُ: بيخسف مفعولاً به كالأرض في قوله: ﴿فخسفنا به وبداره

---

(1) سورة طه، الآية: 97.

(2) رواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النداء عند النفير يا خيل الله اركبي (الحديث رقم: 2560).

(3) قال أحمد: وهذا من تجزي المصنف على السنة ومتبعيها، فإنه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة، وإن لم تكن توبة للمؤمنين من مواعيد الشيطان، مع العلم بأنها ثابتة بقواطع القرآن وعداً من =

= الرحمن، وكذلك الشفاعة المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة، التي وعد بها الصادق المصدوق، وميزه الله تعالى بها على كل مخلوق، من مواعيد الشيطان الباطلة، وأمانيه الماحلة، اللهم ارزقنا الشفاعة، واحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

(4) سورة الحجر، الآية: 40.

(5) سورة فصلت، الآية: 40.

الأرض﴾[1] وبكم حال والمعنى: أن يخسف جانب البر أي: يقلبه وأنتم عليه.

فإن قُلْتَ: فما معنى ذكر الجانب؟ قُلْتُ: معناه: أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب برًا كان أو بحرًا سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصًا بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو: الخسف، لأنه تغييب تحت التراب كما أنّ الغرق وتغييب تحت الماء، فالبرّ والبحر عنده سيان، يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان ﴿أو يرسل عليكم حاصبًا﴾ وهي الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها فيكون أشدّ عليكم من الغرق في البحر ﴿وكيلاً﴾ من يتوكل يصرف ذلك عنكم ﴿أمن أمنتم﴾ أن يقوّي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بأن يرسل ﴿عليكم قاصفًا﴾ وهي: الريح التي لها قصيف وهو: الصوت الشديد كأنها تتقصف أي: تتكسر، وقيل: التي لا تمر بشيئ إلا قصفته ﴿فيغرقكم﴾ وقرئ: بالتاء أي: الريح. وبالنون، وكذلك نخسف، ونرسل، ونعيدكم قرئت بالياء والنون. التبيع المطالب من قوله: ﴿فاتباع بالمعروف﴾[2] أي: مطالبة، قال الشماخ:

كما لاذ الغريم من التبيع

يقال: فلان على فلان تبيع بحقه، أي: مصيطر عليه مطالب له بحقه، والمعنى: إنا نفعل ما نفعل بهم ثم لا تجد أحد يطالبنا بما فعلنا انتصارًا منا ودركًا للنار من جهتنا، وهذا نحو قوله: ﴿ولا يخاف عقباها﴾[3] ﴿بما كفرتم﴾ بكفرانكم النعمة يريد: إعراضهم حين نجاهم.

۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾.

قيل في تكرمة ابن آدم: كرّمه الله بالعقل والنطق والتمييز والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد، وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم، وقيل: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم، وعن الرشيد أنه أحضر طعامًا فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له: جاء في تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق، فردّها وأكل بأصابعه ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ هو ما سوى الملائكة[4]، وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم، والعجب من المجبرة كيف عكسوا في كل شيء وكابروا حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك، وذلك بعدما سمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم، وعلموا أين أسكنهم وأنى قرّبهم وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أممهم، ثم جرّهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالاً وأخبارًا منها قالت الملائكة: ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون، ولم تعطنا ذلك؟ فأعطناه في الآخرة فقال: وعزتي وجلالي لا أجعل ذرّية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان[5]، ورووا عن أبي هريرة أنه قال: لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده[6]، ومن ارتكابهم أنهم فسروا كثيرًا بمعنى جميع في هذه الآية، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: ﴿وفضلناهم على جميع ممن خلقنا﴾ على أن معنى قولهم على جميع ممن خلقنا أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم ولكنهم لا يشعرون، فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملأ الأعلى، كأن جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم.

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾.

قرئ: يدعو بالياء والنون ويدعى كل أناس على البناء للمفعول، وقرأ الحسن: يدعو كل أناس على قلب الألف واوًا في لغة من يقول افعوا. والظرف نصب بإضمار أذكر،

---

(1) سورة القصص، الآية: 81.
(2) سورة البقرة، الآية: 178.
(3) سورة الشمس، الآية: 15.
(4) قال أحمد: وقد بلغ إلى حدّ من السفه، يوجب الحدّ، ولستالمساجلنه، إلا من حيث العلم، لا من حيث السفه، والقدر الذي تختص به هذه الآية، أن حمل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر، ألا ترى أنه ورد حمل القليل على العدم، والزمخشري يختار ذلك في قوله تعالى: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ وأشباهه كثير، وقد لمح الشاعر بذلك في قوله:

قليل بها الأصوات إلا بغامها

أي: لا أصوات بها، ولنا أن نبقيه على ما هو عليه، ونقول: إنّ المخلوق قسمان بنو آدم أحدهما، وغيرهم من جميع المخلوقين = القسم الآخر، ولا شك أن غيرهم أكثر منهم، وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيراً، فمعنى قوله: ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا﴾ أي: على غيرهم من جميع المخلوقين، وتلك الأغيار كثير بلا مراء، وذلك مرادف لقولك: وفضلناهم على جميع من عداهم ممن خلقنا، فظاهر الآية إذاً مع الأشعرية الذين سماهم مجبرة، وتمشدق في سبهم، وشقشق العبارات في ثلبهم، وما يلفظ من قول، إلا لديه رقيب عتيد، والله وليّ التوفيق والتسديد.
(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الإيمان بالملائكة، فصل: في معرفة الملائكة (الحديث رقم: 152) وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: المسلمون في ذمة الله تعالى (الحديث رقم: 3946).
(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان (الحديث رقم: 153).

ويجوز أن يقال: إنها علامة الجمع كما في ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾[1] والرفع مقدر كما في ﴿يدعى﴾[2] ولم يؤت بالنون قلة مبالاة بها؛ لأنها غير ضمير ليست إلا علامة. ﴿بإمامهم﴾[3] بمن ائتموا به من نبيّ أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين، فيقال: يا أتباع فلان، يا أهل دين كذا وكتاب كذا، وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشر، وفي قراءة الحسن: بكتابهم. ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفتضح أولاد الزنا، وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته ﴿فمن أوتي﴾ من هؤلاء المدعوّين ﴿كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم﴾ قيل: أولئك؛ لأن من أوتي في معنى الجمع.

فإن قُلْتَ:لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم كان أصحاب الشمال لا يقرؤن كتابهم؟ قُلْتُ:بلى ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته والاعتراف بمساويه أمام التنكيل به والانتقام منه من الحياء والخجل والانخزال وحبسة اللسان والتتعتع والعجز عن إقامة حروف الكلام والذهاب عن تسوية القول فكان قراءتهم كلا قراءة، وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم أحسن قراءة وأبينها ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: ﴿هاؤم اقرؤا كتابيه﴾[4] ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء كقوله: ﴿ولا يظلمون شيئًا﴾[5] ﴿فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا﴾[6] معناه: ومن كان في الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى كذلك ﴿وأضل سبيلاً﴾ من الأعمى، والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة، أما في الدنيا فلفقد النظر، وأما في الآخرة فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه، وقد جوزوا[7] أن يكون الثاني بمعنى: التفضيل، ومن ثم قرأ أبو عمرو الأوّل[8]: ممالاً، والثاني: مفخمًا؛ لأن أفعل التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلام كقولك: أعمالكم، وأمّا الأوّل فلم يتعلق به شيء فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة.

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾.

روي: أنّ ثقيفًا قالت للنبي ﷺ: لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، لا نعشر، ولا نحشر، ولا نجبي في صلاتنا، وكل ربًا لنا فهو لنا، وكل ربًا علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، ولا نكسرها بأيدينا عند رأس الحول، وأن تمنع من قصد وادينا وج فعضد شجره، فإذا سألتك العرب لم فعلت ذلك فقل: إنّ الله أمرني به، وجاؤا بكتابهم، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف: لا يعشرون، ولا يحشرون فقالوا: ولا يجبون، فسكت رسول الله ﷺ، ثم قالوا للكاتب: اكتب ولا يجبون، والكاتب ينظر إلى رسول الله، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسلّ سيفه وقال: أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعر الله قلوبكم نارًا، فقالوا: لسنا نكلم إياك إنما نكلم محمدًا[9]، فنزلت. وروي أنّ قريشًا قالوا له: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتى نؤمن بك، فنزلت ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ إن مخففة من الثقيلة واللام هي: الفارقة بينها وبين النافية، والمعنى: أنّ الشأن قاربوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فاتنين ﴿عن الذي أوحينا إليك﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا ﴿لتفتري علينا﴾ لتقول علينا ما لم نقل يعني: ما أداروه عليه من تبديل الوعد وعيدًا والوعيد وعدًا، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم ينزله عليه ﴿وإذا لاتخذوك﴾ أي: ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك ﴿خليلاً﴾ ولكنت لهم وليًا وخرجت من ولايتي.

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾.

﴿ولولا أن ثبتناك﴾ ولولا تثبتنا لك وعصمتنا ﴿لقد كدت تركن إليهم﴾ لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهييج من الله له، وفضل تثبيت وفي ذلك لطف للمؤمنين ﴿إذًا﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أي: لأذقناك

(1) سورة الأنبياء، الآية: 3.
(2) سورة الصف، الآية: 7.
(3) قال أحمد: ولقد استبدع بدعاً لفظاً ومعنى، فإن جمع الأمّ المعروف أمّهات، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمّهات الخلائق، ليذكر بأمّه، فيستدعي أن خلق عيسى من غير أب، غميزة في منصبه، وذلك عكس الحقيقة، فإنّ خلقه من غير أب، كان له آية له، وشرفاً في حقه، والله أعلم.
(4) سورة الحاقة، الآية: 19.
(5) سورة مريم، الآية: 60.
(6) سورة طه، الآية: 112.
(7) قال أحمد: أي: لأنه من عمى القلب، لاعمى البصر، فجاز أن ينبني منه أفعل.
(8) قال أحمد: ويحتمل أن تكون هذه الآية قسمية الأولى، أي: فمن أوتي كتابه بيمينه، فهو الذي يبصره ويقرؤه، ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه، ولا ناظر في معاده، فهو في الآخرة كذلك، غير مبصر في كتابه بل أعمى عنه، أو أشد عمى مما كان في الدنيا، على اختلاف التأويلين، والله أعلم.
(9) لم يخرجه الزيلعي.

عذاب الآخرة، وعذاب القبر مضاعفين[1].

فإن قُلْتَ: كيف حقيقة هذا الكلام قُلْتُ: أصله لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأنّ العذاب عذابان عذاب في الممات وهو: عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة وهو: عذاب النار، والضعف يوصف به نحو قوله: ﴿فآتهم عذابًا ضعفًا من النار﴾[2] بمعنى: مضاعفًا، فكان أصل الكلام لأذقناك عذابًا ضعفًا في الحياة، وعذابًا ضعفًا في الممات، ثم حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وهو: الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات، ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، والمعنى: لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا، وما نؤخره لما بعد الموت. وفي ذكر الكيدودة وتقليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد رضوان الله عليهم نسبة المجبرة القبائح إلى الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته وسبب موجب لغضبه ونكاله، فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله، وعن النبي ﷺ أنها لما نزلت كان يقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[3].

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

﴿وإن كادوا﴾ وإن كاد أهل مكة ﴿ليستفزونك﴾ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ من أرض مكة ﴿وإذًا لا يلبثون﴾ لا يبقون بعد إخراجك ﴿إلا﴾ زمانًا ﴿قليلاً﴾ فإن الله مهلكهم، وكان كما قال: فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل، وقيل معناه: ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه، وقيل: من أرض العرب، وقيل: من أرض المدينة. وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فاجتمعوا إليه وقالوا: يا أبا القاسم، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدّسة وكانت مهاجر إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام لآمنا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم، فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة، وقيل: بذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازمًا على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله[4]، فنزلت فرجع. وقرئ: لا يلبثون، وفي قراءة أبي: لا يلبثوا على إعمال إذا.

فإن قُلْتَ: ما وجه القراءتين؟ قُلْتُ: أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم، وأما قراءة أبي: ففيها الجملة برأسها التي هي ﴿إذًا لا يلبثوا﴾ عطف على جملة قوله ﴿وإن كادوا ليستفزونك﴾ وقرئ خلافك. قال:

عفت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهنّ حصيرا

أي: بعدهم، ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ يعني: أن كل قوم اخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم، ونصبت نصب المصدر المؤكد أي: سن الله ذلك سنة.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

دلكت الشمس غربت، وقيل: زالت، وروي عن النبي ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بي الظهر»[5]، واشتقاقه من الدلك؛ لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها، فإن كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس، وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر. والغسق: الظلمة وهو: وقت صلاة العشاء ﴿وقرآن الفجر﴾ صلاة الفجر سميت قرآنًا وهو القراءة: لأنها ركن، كما سميت ركوعًا وسجودًا وقنوتًا وهي: حجة على ابن علية والأصم في زعمهما أن القراءة

---

(1) قال أحمد: أمّا تقليل الكيدودة، فالذي ينبغي أن يحمل عليه، كونه الواقع في علم الله تعالى؛ لأنّ الله عزّ وجل يعلم ما لم يكن، لو كان، كيف كان يكون، فعلم تعالى أنّ الركون الذي كاد يحصل منه عليه السلام، وإن كان ما حصل أمر قليل، وخطب يسير، فذلك إخبار من الله تعالى عن الواقع في علمه تقديراً، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتشبيه، فإنّ ذلك لا يكون في الإخبار، ألا ترى أنه لو كان الواقع كيدودة ركون كثير، لكان تقليله خلفاً في الخبر، ولا ينكر أن الذنب يعظم بحسب فاعله، على ما ورد حسنات الأبرار سيئات المقربين، وأما نقل الزمخشري عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبائح إلى الله عز وجل، فلقد استعظموا عظيماً حق على كل مسلم أن يستفظعه، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفاً ذاتياً للقبيح، فلزمهم على ذلك كل فعل استقبح من العبد، استقبح = من الله تعالى، وهم غالطون في ذلك، فمعنى كون الفعل قبيحاً، أن الله تعالى نهى عنه عبده، وإن كان لله تعالى أن يفعله وهو حسن بالنسبة إليه، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، ألا ترى أن الملك يصح منه أن يستقبح من عبده أن يجلس على كرسي الملك، ونهاه عن ذلك، ولا يستقبح ذلك من نفسه، بل هو منه حسن جميل، ولقد كان لمشايخه شغل باستعظام ما لزمهم من الإشراك عن استعظام غيره، مما هو توحيد محض وإيمان صرف، ولكنهم زين لهم سوء اعتقادهم، فرآه حسناً، والله الموفق.

(2) سورة الأعراف، الآية: 38.

(3) قال الزيلعي ذكره الثعلبي 2/279.

(4) لم يخرجه الزيلعي.

(5) رواه البيهقي في كتاب المعرفة الزيلعي 2/280.

ليست بركن ﴿مشهودًا﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأوّل ديوان النهار، أو يشهده الكثير من المصلين في العادة، أو من حقه أن يكون مشهودًا بالجماعة الكثيرة، ويجوز أن يكون ﴿وقرآن الفجر﴾ حثًا على طول القراءة في صلاة الفجر لكونها مكثورًا عليها ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة.

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾.

﴿ومن الليل﴾ وعليك بعض الليل ﴿فتهجد به﴾ والتهجد ترك الهجود للصلاة ونحوه: التأثم والتحرج، ويقال أيضًا في النوم بتهجد ﴿نافلة لك﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس، وضع نافلة موضع تهجدًا؛ لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد، والمعنى: أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك؛ لأنه تطوع لهم ﴿مقامًا محمودًا﴾ نصب على الظرف أي: عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقامًا محمودًا، أو ضمن يبعثك معنى يقيمك، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أن يبعثك ذا مقام محمود، ومعنى المقام المحمود: المقام الذي يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل: المراد الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مقام يحمدك فيه الأوّلون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد إلا تحت لوائك، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ هو: «المقام الذي أشفع فيه لأمّتي»[1] وعن حذيفة: يجمع الناس في صعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأوّل مدعو محمد ﷺ فيقول: لبيك وسعديك والشرّ ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك وبك، وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت[2]. قال: فهذا قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا﴾.

وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾.

قرئ: مدخل ومخرج بالضم والفتح بمعنى المصدر، ومعنى الفتح أدخلني فأدخل مدخل صدق أي: أدخلني القبر مدخل صدق إدخالاً مرضيًا على طهارة وطيب من السيئات، وأخرجني منه عند البعث إخراجًا مرضيًا ملقى بالكرامة آمنًا من السخط، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث، وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة، وقيل: إدخاله مكة ظاهرًا عليها بالفتح، وإخراجه منها آمنًا من المشركين، وقيل: إدخاله الغار وإخراجه منه سالمًا، وقيل: إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر وهو النبوّة، وإخراجه منه مؤديًا لما كلفه من غير تفريط، وقيل: الطاعة، وقيل: هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان ﴿سلطانًا﴾ حجة تنصرني على من خالفني، أو ملكًا وعزًا قويًا ناصرًا للإسلام على الكفر مظهرًا له عليه. فأجيبت دعوته بقوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[3] ﴿فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾[4] ﴿ليظهره على الدين كله﴾[5] ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾[6] ووعده لينزعنّ ملك فارس والروم فيجعله له، وعنه ﷺ: «أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال: انطلق فقد استعملتك على أهل الله[7] فكان شديدًا على المريب لينًا على المؤمن، وقال: لا والله لا أعلم متخلفًا يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق، فقال أهل مكة: يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابيًا جافيًا، فقال ﷺ: إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالاً شديدًا حتى فتح له فدخلها، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم، فذلك السلطان النصير.

وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾.

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا، صنم كل قوم بحيالهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله عز وجل فقال: أي رب حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك، فأوحى الله إلى البيت إني سأحدث لك نوبة جديدة، فأملأك خدودًا سجدًا يدفون إليك دفيف النسور يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها لهم عجج حولك بالتلبية، ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: خذ مخصرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنمًا صنمًا وهو ينكث بالمخصرة في عينه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل» فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعًا، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال: «يا علي ارم به» فحمله رسول الله ﷺ حتى صعد فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد ﷺ[8]، وشكاية البيت والوحي إليه تمثيل

---

(1) رواه أحمد في مسنده 2/478، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (الحديث رقم: 3137).

(2) رواه الحاكم في المستدرك 2/363 وأبو يعلى في المسند (الحديث رقم: 2899).

(3) سورة المائدة، الآية: 67.

(4) سورة المائدة، الآية: 56.

(5) سورة التوبة، الآية: 33.

(6) سورة النور، الآية: 55.

(7) رواه الثعلبي وابن مردويه (الزيلعي 2/286).

(8) قال الزيلعي: غريب ورواه النسائي في السنن الكبرى مختصرًا 2/287.

وتخييل ﴿وزهق الباطل﴾ ذهب وهلك من قولهم: زهقت نفسه إذا خرجت. والحق الإسلام والباطل الشرك ﴿كان زهوقًا﴾ كان مضمحلاً غير ثابت في كل وقت.

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾.

﴿وننزل﴾ وقرئ: بالتخفيف والتشديد ﴿من القرآن﴾ من للتبيين كقوله: من الأوثان، أو للتبعيض أي: كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيمانًا ويستصلحون به دينهم، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى، وعن النبي ﷺ: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله»[1]. ولا يزداد به الكافرون ﴿إلا خسارًا﴾ أي: نقصانًا لتكذيبهم به وكفرهم كقوله تعالى: ﴿فزادتهم رجسًا إلى رجسهم﴾[2].

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾.

﴿إذا أنعمنا على الإنسان﴾ الصحة والسعة ﴿أعرض﴾ عن ذكر الله كأنه مستغني عنه مستبد بنفسه ﴿ونأى بجانبه﴾ تأكيد للإعراض؛ لأنّ الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأي: بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره وأراد الاستكبار؛ لأنّ ذلك من عادة المستكبرين ﴿وإذا مسه الشر﴾ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل ﴿كان يؤسًا﴾ شديد اليأس من روح الله ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[3] وقرئ: وناء بجانبه بتقديم اللام على العين كقولهم: راء في رأي، ويجوز أن يكون من ناء بمعنى: نهض.

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾.

﴿قل كل﴾ احد ﴿يعمل على شاكلته﴾ أي: على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة من قولهم: طريق ذو شواكل وهي: الطرق التي تتشعب منه والدليل عليه قوله: ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي: أسد مذهبًا وطريقة.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾.

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان سألوه عن حقيقته، فأخبر أنه من أمر الله أي: مما استأثر بعلمه، وعن ابن أبي بريدة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعلم الروح[4]، وقيل: هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك، وقيل: جبريل عليه السلام، وقيل: القرآن و ﴿من أمر ربي﴾ أي: من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر، بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم[5] ﴿وما أوتيتم﴾ الخطاب عام، وروي: أنّ رسول الله ﷺ لما قال لهم ذلك قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً، فقالوا: ما أعجب شأنك! ساعة تقول: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾[6] وساعة تقول هذا[7]، فنزلت ﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام﴾[8] وليس ما قالوه بلازم؛ لأنّ القلة والكثرة تدوران مع الإضافة فيوصف الشيء بالقلة مضافًا إلى ما فوقه بالكثرة مضافًا إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة، وقيل: هو خطاب لليهود خاصة؛ لأنهم قالوا للنبي ﷺ: قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾[9] فقيل لهم: إن علم التوراة قليل في جنب علم الله.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾.

﴿لنذهبن﴾ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط. واللام الداخلة على إن موطئة للقسم، والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثر، أو بقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب ﴿ثم لا تجد لك﴾ بعد الذهاب ﴿به﴾ من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظًا مستورًا ﴿إلا رحمة من ربك﴾ إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك كأن رحمته تتوكل عليه بالرد، أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما، وهما: منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء المحفوظ. وعن ابن مسعود: إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وليصلين قوم ولا دين لهم، وإن هذا

---

(1) رواه الثعلبي (الزيعلي 2/288).
(2) سورة التوبة، الآية: 125.
(3) سورة يوسف، الآية: 87.
(4) رواه الواحدي في الوسيط، الزيلعي 2/289.
(5) رواه ابن هشام في السيرة 1/300 ـ 301.
(6) سورة البقرة، الآية: 269.
(7) ذكره الزيلعي 2/290.
(8) سورة لقمان، الآية: 27.
(9) سورة البقرة، الآية: 269.

القرآن تصبحون يومًا وما فيكم منه شيء، فقال رجل: كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا، وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا، ويعلمه أبناؤنا أبناءهم؟ فقال: يسري عليه ليلاً فيصبح الناس منه فقراء، ترفع المصاحف، وينزع ما في القلوب ﴿لا يأتون﴾ جواب قسم محذوف ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جوابًا للشرط كقوله: يقول لا غائب مالي ولا حرم. لأنّ الشرط وقع ماضيًا أي: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه ـ وفيهم العرب العاربة أرباب البيان ـ لعجزوا عن الإتيان بمثله، والعجب[1] من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فيقال: الله قادر على خلق الأجسام، والعباد عاجزون عنه، وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثاني القديم فلا يقال للفاعل: قد عجز عنه ولا هو معجز، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز؛ لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال إلا أن يكابروا فيقولوا: هو قادر على المحال، فإن رأس مالهم المكابرة وقلب الحقائق.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾.

﴿ولقد صرفنا﴾ ردّدنا وكررنا ﴿من كل مثل﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه. والكفور الجحود.

فإن قُلْتَ: كيف جاز ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفورًا﴾ ولم يجز ضربت إلا زيدًا؟ **قُلْتُ:** لأن أبي متأوّل بالنفي كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفورًا. لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة فقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى﴾ وحتى ﴿تفجر﴾ تفتح، وقرئ: تفجر بالتخفيف ﴿من الأرض﴾ يعنون أرض مكة ﴿ينبوعًا﴾ عينًا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع، يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء ﴿كما زعمت﴾ يعنون قول الله تعالى: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفًا من السماء﴾[2]. قرئ: كسفًا بسكون السين جمع كسفة كسدرة وسدر وبفتحه ﴿قبيلاً﴾ كفيلاً بما تقول شاهدًا بصحته والمعنى: أو تأتي بالله قبيلاً وبالملائكة قبلاً كقوله:

كنت منه ووالدي بريًا ... فإني وقيار بها لغريب

أو مقابلاً كالعشير بمعنى: المعاشر ونحوه: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾[3] وجماعة حالاً من الملائكة.

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾.

﴿من زخرف﴾ من ذهب ﴿في السماء﴾ في معارج السماء فحذف المضاف. يقال: رقى في السلم وفي الدرجة ﴿ولن نؤمن لرقيك﴾ ولن نؤمن لأجل رقيك ﴿حتى تنزل علينا كتابًا﴾ من السماء فيه تصديقك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال عبد الله بن أبي أمية: لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد واللجاج، ولو جاءتهم كل آية لقالوا: هذا سحر كما قال عزّ وجل: ﴿ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس﴾[4] ﴿ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾[5] وحين أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن، وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم لمن يكن إلى تبصرتهم سبيل ﴿قل سبحان ربي﴾ وقرئ: قال سبحان ربي أي: قال الرسول: وسبحان ربي! تعجب من اقتراحاتهم عليه ﴿هل كنت إلا﴾ رسولاً كسائر الرسل ﴿بشرًا﴾ مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليّ إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها عليّ.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾.

أن الأولى نصب مفعول ثان لمنع، والثانية رفع فاعل له و ﴿الهدى﴾ الوحي أي: وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوّة محمد ﷺ إلا شبهة تلجلجت في صدورهم وهي: إنكارهم أن يرسل الله البشر، والهمزة في ﴿أبعث الله﴾ للإنكار،

---

(1) قال أحمد: ومما يدلك على حيد المصنف عن سنن المنصف، أنه تنلس على الضعفة في مثل هذه المسألة، التي طبقت الأرض ظهوراً وشيوعاً، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة، قائمة بذات الباري تعالى، يطلق عليها قرآن، ويطلق أيضاً على أدلتها، وهي هذه الكلمات الفصيحة، والآي الكريمة قرآن، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق، لوجهين، أحدهما: أنه إطلاق موهم، والثاني: أن = السلف الصالح كفوا عنه، فاقتفوا آثارهم، واقتبسوا أنوارهم، وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق، ولا كرامة لمعتقد ذلك، والمتعنت بإلزامه، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

(2) سورة سبأ، الآية: 9.

(3) سورة الفرقان، الآية: 21.

(4) سورة الأنعام، الآية: 7.

(5) سورة الحجر، الآية: 14.

وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله؛ لأنّ قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء، ثم قرر ذلك بأنه ﴿لو كان في الأرض ملائكة يمشون﴾[1] على أقدامهم كما يمشي الإنس، ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿مطمئنين﴾ ساكنين في الأرض قادرين ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المراشد، فأما الإنس فما هم بهذه المثابة، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوّة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون ﴿بشرًا﴾ و﴿ملكًا﴾ منصوبين على الحال من رسولاً قُلْتُ: وجه حسن، والمعنى له أجوب ﴿شهيدًا بيني وبينكم﴾ على أني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم كذبتم وعاندتم ﴿إنه كان بعباده﴾ المنذرين والمنذرين ﴿خبيرًا﴾ عالمًا بأحوالهم فهو مجازيهم، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة، وشهيدًا تمييز أو حال.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

﴿ومن يهد الله﴾ ومن يوفقه ويلطف به ﴿فهو المهتد﴾ لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه ﴿ومن يضلل﴾ ومن يخذل ﴿فلن تجد لهم أولياء﴾ أنصارًا ﴿على وجوههم﴾ كقوله: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾[2] وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»[3]. ﴿عميًا وبكمًا وصمًا﴾ كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ويتصامون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقرّ أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، ولا يتعلقون بما يقبل منهم ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾[4] ويجوز أن يحشروا مؤفي الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤن ويتكلمون ﴿كلما خبت﴾ كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفنتها فسكن لهبها وبدلوا غيرها، فرجعت ملتهبة مستعرة كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها، لا يزالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث، ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد، وقد دلّ على ذلك بقوله: ﴿ذلك جزاؤهم﴾ إلى قوله: ﴿أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا﴾.

۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿وجعل لهم أجلاً﴾ قُلْتُ: على قوله: ﴿أولم يروا﴾ لأنّ المعنى: قد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السمٰوات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس؛ لأنهم ليسوا بأشدّ خلقًا منهنّ كما قال: ﴿أأنتم أشدّ خلقًا أم السماء﴾[5] ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ وهو الموت، أو القيامة، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحودًا.

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

لو حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بدّ من فعل بعدها في ﴿لو أنتم تملكون﴾ وتقديره لو تملكون تملكون فأضمر تلك إضمارًا على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل، وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ، فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، فأمّا ما يقتضيه علم البيان فهو: أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وأنّ الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ونحوه قول حاتم:

لو ذات سوار لطمتني

وقول المتلمس:

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي

وذلك لأنّ الفعل الأوّل لما سقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر. ورحمة الله: رزقه وسائر نعمه على خلقه، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم، وقيل: هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها ﴿قتورًا﴾ ضيقًا بخيلاً.

فإن قُلْتَ: هل يقدّر لأمسكتم مفعول قُلْتُ: لا؛ لأنّ معناه: لبخلتم من قولك للبخيل ممسك.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

---

(1) قال أحمد: وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدّر، وهو قول القائل، إنّ مجرّد وجود الملائكة في الأرض، يناسب إرسال الملك إليهم، فما فائدة هذه الزيادة، فيكون جوابه ما تقدّم، والله الموفق.

(2) سورة القمر، الآية: 48.

(3) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة بني إسرائيل (الحديث رقم: 3142).

(4) سورة الإسراء، الآية: 72.

(5) سورة النازعات، الآية: 27.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نتقه على بني إسرائيل، وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات، مكان الحجر، والبحر، والطور. وعن عمر بن عبد العزيز: أنه سأل محمد بن كعب فذكر: اللسان، والطمس، فقال له عمر: كيف يكون الفقيه إلا هكذا. أخرج يا غلام ذلك الجراب، فأخرجه فنفضه فإذا بيض مكسور بنصفين وجوز مكسور وفوم وحمص وعدس كلها حجارة. وعن صفوان بن عسال أنّ بعض اليهود سأل النبيّ ﷺ عن ذلك فقال: «أوحى الله إلى موسى أن قل لبني إسرائيل: لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفرّوا من الزحف؛ وأنتم يا يهود خاصة لا تعدوا في السبت»[1]. ﴿فاسئل بني إسرائيل﴾ فقلنا له: سل بني إسرائيل أي: سلهم من فرعون؟ وقل له: أرسل معي بني إسرائيل، أو سلهم عن إيمانهم، وعن حال دينهم، أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك، وتدلّ عليه قراءة رسول الله ﷺ: «فسأل بني إسرائيل» على لفظ الماضي بغير همز وهي لغة قريش، وقيل: فسل يا رسول الله المؤمنين من بني إسرائيل، وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه، عن الآيات ليزدادوا يقينًا وطمأنينة قلب؛ لأنّ الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت كقول إبراهيم: ﴿ولكن ليطمئنّ قلبي﴾[2].

فإن قُلْتَ: بم تعلق ﴿إذ جاءهم﴾؟ قُلْتُ: أمّا على الوجه الأوّل: فبالقول المحذوف أي: فقلنا له سلهم حين جاءهم، أو بسأل في القراءة الثانية، وأمّا على الأخير: فبآتينا، أو بإضمار اذكر، أو يخبروك ومعنى: إذ جاءهم إذ جاء آباءهم ﴿مسحورًا﴾ سحرت فخولط عقلك.

﴿لقد علمت﴾ يا فرعون ﴿ما أنزل هٰؤلاء﴾ الآيات إلا الله عز وجل ﴿بصائر﴾ بينات مكشوفات، ولكنك معاند مكابر ونحوه: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا﴾[3] وقرئ: علمت بالضم على معنى: إني لست بمسحور كما وصفتني بل أنا عالم بصحة الأمر. وأنّ هذه الآيات منزلها رب السمٰوات والأرض. ثم قارع ظنه بظنه كأنه قال إن ظننتني مسحورًا فأنا أظنك ﴿مثبورًا﴾ هالكًا، وظني أصح من ظنك؛ لأنّ له أمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها، وأمّا ظنك فكذب بحت؛ لأنّ قولك مع علمك بصحة أمري ﴿إني لأظنك مسحورًا﴾ قول كذاب، وقال الفرّاء مبثورًا: مصروفًا عن الخير مطبوعًا على قلبك، من قولهم: ما ثبرك عن هذا أي: ما منعك وصرفك، وقرأ أبيّ بن كعب: وإن أخالك يا فرعون لمثبورًا على إن المخففة واللام الفارقة.

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾.

﴿فأراد﴾ فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قبطه ﴿اسكنوا الأرض﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ يعني: قيام الساعة ﴿جئنا بكم لفيفًا﴾ جمعًا مختلطين إياكم وإياهم ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم، واللفيف الجماعات من قبائل شتى.

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾.

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ وما نزل القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل إلا ملتبسًا بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظًا بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظًا بهم من تخليط الشياطين ﴿وما أرسلناك﴾ إلا لتبشرهم بالجنة وتنذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء من إكراه على الدين أو نحو ذلك.

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾.

﴿وقرآنًا﴾ منصوب بفعل يفسره ﴿فرقناه﴾ وقرأ أبيّ: فرّقناه بالتشديد أي: جعلنا نزوله مفرقًا منجمًا، وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأه مشدّدًا وقال: لم ينزل في يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوّله وآخره عشرون سنة يعني: أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب ﴿على مكث﴾ بالفتح والضم على مهل وتؤدة وتثبت ﴿ونزلناه تنزيلًا﴾ على حسب الحوادث.

قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾.

﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، (الحديث رقم: 3144).

(2) سورة البقرة، الآية: 260.

(3) سورة النمل، الآية: 14.

يصدّقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك. فإن خيرًا منهم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد آمنوا به وصدّقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربيّ الموعود في كتبهم، فإذا تلي عليهم خرّوا سجدًا وسبّحوا الله تعظيمًا لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشّر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولاً، ويزيدهم خشوعًا﴾ أي: يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين.

فإن قُلْتَ: ﴿إنّ الذين أوتوا العلم من قبله﴾ تعليل لماذا؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله: ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ، وتطييب نفسه كأنه قيل: تسل عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأوّل: إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم.

فإن قُلْتَ: ما معنى الخرور للذقن؟ قُلْتُ: السقوط على الوجه، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين؛ لأنّ الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن.

فإن قُلْتَ: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال: فخرّ صريعًا لليدين وللفم. قُلْتُ: معناه: جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به؛ لأنّ اللام للاختصاص.

فإن قُلْتَ: لم كرّر ﴿يخرّون للأذقان﴾؟ قُلْتُ: لاختلاف الحالين وهما: خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين.

قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمٰن، فقال: إنه ينهانا أن نعبد إلٰهين وهو يدعو إلٰهًا آخر. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقل ذكر الرحمٰن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم، فنزلت. والدعاء بمعنى: التسمية لا بمعنى: النداء وهو يتعدّى إلى مفعولين تقول: دعوته زيدًا، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال: دعوت زيدًا، والله والرحمٰن المراد بهما الاسم لا المسمى، وأو للتخيير فمعنى ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن﴾ سموا بهذا الاسم أو بهذا، واذكر وإمّا هذا وإمّا هذا. والتنوين في ﴿أيًا﴾ عوض من المضاف إليه و ﴿ما﴾ صلة للإبهام المؤكد لما في أيّ أيّ: أي هذين الاسمين سميتم وذكرتم ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ والضمير في فله ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى؛ لأنّ التسمية للذات لا للاسم، والمعنى: أيّامًا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله: فله الأسماء الحسنى؛ لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لأنهما منها، ومعنى كونهما أحسن الأسماء: أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم ﴿بصلاتك﴾ بقراءة صلاتك على حذف المضاف لأنه لا يلبس، من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير، والصلاة أفعال وأذكار، وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوًا وسبوًا، فأمر بأن يخفض من صوته، والمعنى: ولا تجهر حتى تسمع المشركين ﴿ولا تخافت﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿وابتغ بين﴾ الجهر والمخافتة ﴿سبيلاً﴾ وسطًا، وروي أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان يخفي صوته بالقراءة في صلاته ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وكان عمر رضي الله عنه يرفع صوته ويقول: أزجر الشيطان، وأوقظ الوسنان، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلاً، وعمر أن يخفض قليلاً[1]، وقيل معناه: ولا تجهر بصلاتك كلها، ولا تخافت بها كلها، وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل، وتخافت بصلاة النهار، وقيل: بصلاتك بدعائك، وذهب قوم إلى أنّ الآية منسوخة بقوله: ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية﴾[2] وابتغاء السبيل مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة.

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾.

﴿ولي من الذل﴾ ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به، أو لم يوال أحدًا من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته.

فإن قُلْتَ[3]: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد قُلْتُ: لأنّ من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد، وكان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية[4].

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية». رزقنا الله بفضله العميم وإحسانه الجسيم.

---

(1) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (الحديث رقم: 1329) والترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في قراءة الليل (الحديث رقم: 447).

(2) سورة الأعراف، الآية: 55.

(3) قال أحمد: وقد لاحظ الزمخشري ههنا ما أغفله عند قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم = الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ وقد رددت هذا الوجه فيما تقدّم، بأنّ هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد، ولا تناسبها، فإنك لو قلت: ابتداء الحمد لله الذي الذين كفروا به يعدلون، لم يكن مناسباً، والله أعلم.

(4) رواه ابن أبي شيبة 1/348 كتاب الصلوات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الكهف مكية

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾.

لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام، وما انزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم ﴿ولم يجعل له عوجًا﴾ ولم يجعل له شيئًا من العوج قط، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد: نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿قيمًا﴾؟ قُلْتُ: الاحسن ان ينتصب بمضمر، ولا يجعل حالاً من الكتاب؛ لأنّ قوله: ولم يجعل معطوف على انزل فهو داخل في حيز الصلة فجاعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة، وتقديره: ولم يجعل له عوجًا جعله قيمًا؛ لانه إذا نفى عنه العوج فقد اثبت له الاستقامة.

فإن قُلْتَ: ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر؟ قُلْتُ: فائدته التأكيد، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من ادنى عوج عند السبر والتصفح، وقيل: قيمًا على سائر الكتب مصدقًا لها شاهدًا بصحتها، وقيل: قيمًا بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع، وقرئ: قيمًا. انذر متعد إلى مفعولين كقوله: ﴿إنا انذرناكم عذابًا قريبًا﴾[1] فاقتصر على أحدهما واصله ﴿لينذر﴾ الذين كفروا ﴿باسًا شديدًا﴾ والباس من قوله: ﴿بعذاب بئيس﴾[2] وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأسًا وبآسة ﴿من لدنه﴾ صادرًا من عنده، وقرئ: من لدنه بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون ﴿ويبشر﴾ بالتخفيف والتثقيل.

فإن قُلْتَ: لم اقتصر على احد مفعولي انذر؟ قُلْتُ: قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه فوجب الاقتصار عليه، والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله: ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا﴾ متعلقًا بالمنذرين من غير ذكر المنذر به كما ذكر المبشر به في قوله: ﴿أنّ لهم أجرًا حسنًا﴾ استغناء بتقدم ذكره. والأجر الحسن الجنة ﴿ما لهم به من علم﴾ أي: بالولد أو باتخاذه يعني: أنّ قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء، وقد اشتملته آباؤهم من الشيطان وتسويله.

فإن قُلْتَ[3]: اتخاذ الله ولدًا في نفسه محال فكيف قيل: ﴿ما لهم به من علم﴾؟ قُلْتُ: معناه ما لهم به من علم؛ لأنه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء للعلم بالشيء، إمّا للجهل بالطريق الموصل إليه، وإما لانه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به. قرئ: كبرت كلمة وكلمة بالنصب على التمييز والرفع الى الفاعلية، والنصب اقوى وابلغ وفيه معنى: التعجب، كانه قيل: ما اكبرها كلمة و ﴿تخرج من افواههم﴾ صفة للكلمة تفيد استعظامًا لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من افواههم، فإن كثيرًا مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدثون به انفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوّهوا به ويطلقوا به ألسنتهم، بل يكظمون عليه تشوّرًا من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ: كبرت بسكون الباء مع إشمام الضمة.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في ﴿كبرت﴾ قُلْتُ: إلى قولهم: ﴿اتخذ لله ولدًا﴾ وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها.

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته وأعزته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، وينخع نفسه وجدًا عليهم وتلهفًا على فراقهم. وقرئ: باخع نفسك على الأصل وعلى الإضافة أي: قاتلها ومهلكها، وهو للاستقبال فيمن قرأ إن لم يؤمنوا، أو للمضي فيمن قرأ إن لم يؤمنوا بمعنى: لأن لم يؤمنوا ﴿بهذا الحديث﴾ بالقرآن ﴿أسفًا﴾ مفعول له أي: لفرط الحزن، ويجوز أن يكون حالاً، والأسف المبالغة في الحزن والغضب يقال: رجل أسف وأسيف.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾.

﴿ما على الأرض﴾ يعني: ما يصلح أن يكون زينة لها

---

(1) سورة النبأ، الآية: 40.

(2) سورة الأعراف، الآية: 165.

(3) قال أحمد: قد مضى له في قوله تعالى: ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أنّ ذلك وارد على سبيل التهكم، وإلا فلا سلطان على الشرك، حتى ينزل ونظيره. =

= ولا ترى الضب بها ينجحر

وقد قدّمت حينئذ أنّ الكلام، وارد على سبيل الحقيقة والأصل، وأن نفي إنزال السلطان، تارة يكون لاستحالة إنزاله ووجوده، وتارة يكون، لأنه لم يقع، وإن كان ممكناً، والله أعلم.

ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ وحسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها، ثم زهد في الميل إليها بقوله: ﴿إنا لجاعلون ما عليها﴾ من هذه الزينة ﴿صعيدًا جرزًا﴾ يعني: مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته، وإماطة حسنة، وإبطال ما به، كان زينة من إماتة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار ونحو ذلك، ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض مما خلق فوقها من الأجناس التي لا حصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن ثم قال: ﴿أم حسبت﴾ يعني: أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدّة طويلة. والكهف الغار الواسع في الجبل ﴿والرقيم﴾ اسم كلبهم، قال أمية بن أبي الصلت:

وليس بها إلا الرقيم مجاورًا وصيدهم والقوم في الكهف همد

وقيل: هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف، وقيل: إن الناس رقموا حديثهم نقرًا في الجبل، وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف، وقيل: الجبل، وقيل: قريتهم، وقيل: مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين ﴿كانوا﴾ آية ﴿عجبًا﴾ من آياتنا وصفًا بالمصدر أو على ذات عجب.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾.

﴿من لدنك رحمة﴾ أي: رحمة من خزائن رحمتك وهي: المغفرة والرزق والأمن من الأعداء ﴿وهيئ لنا من أمرنا﴾ الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿رشدًا﴾ حتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا رشدًا كله كقولك: رأيت منك سدًا.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾.

﴿فضربنا على آذانهم﴾ أي: ضربنا عليها حجابًا من أن تسمع يعني: أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات كما نرى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه، فحذف المفعول الذي هو: الحجاب كما يقال: بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة ﴿سنين عددًا﴾ ذوات عدد فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة؛ لأن الكثير قليل عنده كقوله: ﴿لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾[1] وقال الزجاج: إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعد، وإذا كثر احتاج إلى أن يعد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾.

أيّ: يتضمن معنى: الاستفهام فعلق عنه لنعلم فلم يعمل فيه. وقرئ: ليعلم وهو معلق عنه أيضًا؛ لأنّ ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد يعلم إليه، وفاعل يعلم مضمون الجملة كما أنه مفعول نعلم ﴿أي الحزبين﴾ المختلفين منهم في مدّة لبثهم؛ لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك وذلك قوله: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾[2] وكان الذين قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم هم: الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم و ﴿أحصى﴾[3] فعل ماض اي: أيهم ضبط ﴿أمدًا﴾ لأوقات لبثهم.

فإن قُلْتَ: فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل؟ قُلْتُ: ليس بالوجه السديد وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرّد ليس بقياس، ونحو: أعدى من الجرب، وأفلس من ابن المذلق، وشاذ والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع فكيف به؟ ولأن أمدًا[4] لا يخلو إما أن ينتصب بأفعل، فأفعل لا يعمل، وإما أن ينصب بلبثوا فلا يسدّ عليه المعنى، فإن زعمت أني أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى كما أضمر في قوله:

واضرب منا بالسيوف القوانسا

على نضرب القوانس فقد أبعدت المتناول وهو قريب حيث أبيت أن يكون أحصى فعلاً ثم رجعت مضطرًا إلى تقديره وإضماره.

فإن قُلْتَ: كيف جعل الله تعالى العلم بإحصائهم المدّة غرضًا في الضرب على آذانهم؟ قُلْتُ: الله عزّ وجل لم يزل عالمًا بذلك، وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيمانًا واعتبارًا ويكون لطفًا لمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفاره ﴿وزدناهم هدى﴾ بالتوفيق والتثبيت.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤﴾.

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ وقويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام ﴿إذ قاموا﴾ بين يدي الجبار وهو: دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم ﴿فقالوا ربنا ربّ

---

(1) سورة الأحقاف، الآية: 35.

(2) سورة الكهف، الآية: 19.

(3) قال أحمد: وقد جعل بعض النحاة بناء أفعل، من المزيد فيه الهمز قياساً، وادعى ذلك مذهباً لسيبويه، وعلله بأن بناءه منه لا يغير نظم الكلمة، وإنما هو تعويض همزة بهمزة.

(4) قال أحمد: ولقائل أن ينصبه على التمييز، كانتصاب العدد تمييزاً = في قوله تعالى: ﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾ ويعضد حمله على أفعل التفضيل، وروده في نظير الواقعة، واختلاف الأحزاب في مقدار اللبث، وذلك في قوله تعالى: ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثم إلا يوماً﴾ فأمثلهم طريقة، هو: وأحصاهم لما لبثوا عدداً، وكلا الوجهين جائز، والله أعلم.

السموات والأرض... شططًا﴾ قولاً ذا شطط وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه، من شط إذا بعد، ومنه: اشط في السوم وفي غيره.

هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

﴿هؤلاء﴾ مبتدأ و ﴿قومنا﴾ عطف بيان ﴿واتخذوا﴾ خبر وهو إخبار في معنى إنكار ﴿لولا ياتون عليهم﴾ هلا يأتون على عبادتهم فحذف المضاف ﴿بسلطان بين﴾ وهو تبكيت؛ لأنّ الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد وأنه لا بد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت ﴿افترى على الله كذبًا﴾ بنسبة الشريك إليه.

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

﴿وإذ اعتزلتموهم﴾ خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم ﴿وما يعبدون﴾ نصب عطف على الضمير يعني: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم ﴿إلا الله﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلاً على ما روي أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما أهل مكة، وأن يكون منقطعًا، وقيل: هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفئة انهم لم يعبدوا غير الله ﴿مرفقًا﴾ قرئ بفتح الميم وكسرها وهو ما يرتفق به أي: ينتفع إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله وقوّة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم، وإما أن يخبرهم به نبي في عصرهم، وإما أن يكون بعضهم نبيًا.

۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

﴿تزاور﴾ أي: تمايل أصله تتزاور فخفف بإدغام التاء في الزاي، أو حذفها وقد قرئ بهما، وقرئ: تزورّ وتزوارّ بوزن تحمّر وتحمارّ وكلها من الزور وهو: الميل، ومنه: زاره إذا مال إليه، والزور: الميل عن الصدق ﴿ذات اليمين﴾ جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمين ﴿تقرضهم﴾ تقطعهم لا تقربهم من معنى القطيعة والصرم قال ذو الرمة:

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالاً وعن أيمانهن الفوارس

﴿وهم في فجوة منه﴾ وهم في متسع من الكهف والمعنى: أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لإصابة الشمس لولا أنّ الله يحجبها عنهم، وقيل: في متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار ﴿ذلك من آيات الله﴾ أي: ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آياته يعني: أنّ ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصًا لهم بالكرامة، وقيل: باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقناة أبدًا، ومعنى ذلك من آيات الله: أنّ شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم، فلطف بهم وأعانهم وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح واهتدى إلى السعادة، ومن تعرّض للخذلان فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله.

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

﴿وتحسبهم﴾ بكسر السين وفتحها خطاب لكل أحد، والأيقاظ جمع يقظ كأنكاد في نكد، قيل: عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظًا، وقيل: لكثرة تقلبهم، وقيل لهم: تقلبتان في السنة، وقيل: تقلبة واحدة في يوم عاشوراء. وقرئ: ويقلبهم بالياء والضمير لله تعالى، وقرئ: وتقلبهم على المصدر منصوبًا وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه وتحسبهم أيقاظًا، كأنه قيل: وترى وتشاهد تقلبهم. وقرأ جعفر الصادق: وكالبهم أي: وصاحب كلبهم ﴿باسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية؛ لأنّ اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي، وإضافته إذا أضيف حقيقية معرفة كغلام زيدًا، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية. والوصيد: الفناء، وقيل: العتبة، وقيل: الباب وأنشد:

بأرض فضاء لا يسد وصيدها علي ومعروفي بها غير منكر

وقرئ: ولملئت بتشديد اللام للمبالغة، وقرئ: بتخفيف الهمزة وقلبها ياء، و ﴿رعبًا﴾ بالتخفيف، والتثقيل وهو: الخوف الذي يرعب الصدر أي: يملؤه، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، وقيل: لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم، وقيل: لوحشة مكانهم، وعن معاوية: أنه غزا الروم فمرّ بالكهف فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله عنه: ليس لك ذلك، قد منع الله تعالى منه من هو خير منك، فقال: ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارًا﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم، فبعث ناسًا وقال لهم: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحًا فأحرقتهم[1]، وقرئ: لو اطلعت بضم الواو.

(1) ذكره الواحدي في تفسير الوسيط، الزيلعي 2/301.

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾.

﴿وكذلك بعثناهم﴾ وكما أنمناهم تلك النومة، كذلك بعثناهم إذكارًا بقدرته على الإنامة والبعث جميعًا، ليسأل بعضهم بعضًا ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا، ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى، ويزدادوا يقينًا، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به ﴿قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم﴾ جواب مبني على غالب الظن، وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب، وأنه لا يكون كذبًا وإن جاز أن يكون خطأ ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ إنكار عليهم من بعضهم، وأنّ الله أعلم بمدّة لبثهم، كأنّ هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من الله أنّ المدّة متطاولة وأنّ مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله. وروي: أنهم دخلوا الكهف غدوة، وكان انتباههم بعد الزوال، فظنوا أنهم في يومهم، فلما نظروا إلى طول أظفارهم أشعارهم قالوا ذلك.

فإن قُلْتَ: كيف وصلوا قولهم ﴿فابعثوا﴾ بتذاكر حديث المدّة؟ قُلْتُ: كأنهم قالوا: ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم إلى علمه، فخذوا في شيء آخر مما يهمكم. والورق الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة، ومنه الحديث: «أنّ عرفجة أصيب أنفه يوم الكلاب فاتخذ أنفًا من ورق فأنتن، فأمره رسول الله ﷺ أن يتخذ أنفًا من ذهب[1]، وقرئ: بورقكم بسكون الراء والواو مفتوحة أو مكسورة، وقرأ ابن كثير: بورقكم بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف، وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم، وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين لا على حدّه. وقيل: المدينة طرسوس، قالوا: وتزوّدهم ما كان معهم من الورق عند فرارهم دليل على أنّ حمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأي المتوكلين على الله دون المتكلين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات، ومنه قول عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن محرم يشدّ عليه هميانه: أوثق عليك نفقتك[2]، وما حكي عن بعض صعاليك العلماء أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت الله وتعولم منه ذلك، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبذلوا له أن يحجوا به وألحوا عليه، فيعتذر إليهم ويحمد إليهم بذلهم فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده: ما لهذا السفر إلا شيآن شدّ الهميان والتوكل على الرحمٰن ﴿أيها﴾ أي: أهلها، فحذف الأهل كما في قوله: ﴿واسئل القرية﴾[3] ﴿أزكى طعامًا﴾ أحلّ وأطيب وأكثر وأرخص ﴿وليتلطف﴾ وليتكلف اللطف والنيقة[4] فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن، أو في أمر التخفي حتى لا يعرف ﴿ولا يشعرنّ بكم أحدًا﴾ يعني: ولا يفعلنّ ما يؤدّي من غير قصد منه إلى الشعور بنا، فسمى ذلك إشعارًا منه بهم لأنه سبب فيه.

إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾.

الضمير في ﴿إنهم﴾ راجع إلى الأهل المقدّر في أيها ﴿يرجموكم﴾ يقتلوكم أخبث القتلة وهي: الرجم، وكانت عادتهم ﴿أو يعيدوكم﴾ أو يدخلوكم ﴿في ملتهم﴾ بالإكراه العنيف ويصيروكم إليها، والعود في معنى: الصيرورة أكثر شيء في كلامهم يقولون: ما عدت أفعل كذا يريدون ابتداء الفعل ﴿ولن تفلحوا إذًا أبدًا﴾ إن دخلتم في دينهم.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾.

﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾ وكما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة اطلعنا عليهم. ليعلم الذين اطلعناهم على حالهم ﴿أنّ وعد الله حق﴾ وهو: البعث؛ لأنّ حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث و ﴿إذ يتنازعون﴾ متعلق بأعثرنا أي: اعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم، ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح، ليرتفع الخلاف وليتبين أنّ الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت ﴿فقالوا﴾ حين توفى الله أصحاب الكهف ﴿ابنوا عليهم بنيانًا﴾ أي: على باب كهفهم لئلا يتطرّق إليه الناس، ضنًا بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله ﷺ بالحظيرة ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم ﴿لنتخذنّ﴾ على باب الكهف ﴿مسجدًا﴾ يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم، وقيل: ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ أي: يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف ويتكلمون في قصتهم، وما أظهر الله من الآية فيهم، أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا كيف يخفون مكانهم وكيف يسدّون الطريق إليهم، فقالوا: ابنوا على باب كهفهم بنيانًا. روي: أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها،

---

(1) رواه أبو داود في كتاب: الخاتم، باب: ما جاء في ربط الأسنان بالذهب (الحديث رقم: 4232) والترمذي في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في شد الأسنان بالذهب (الحديث رقم: 1770).

(2) رواه ابن أبي شيبة: 4/50 في كتاب: الحج، باب: في الهميان = للمحرم.

(3) سورة يوسف، الآية: 82.

(4) أي: الإتقان.

ومِمن شدد في ذلك دقيانوس، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه، ثم هربوا إلى الكهف ومرّوا بكلب فتبعهم فطردوه، فأنطقه الله فقال: ما تريدون مني أنا أحبّ أحباء الله فناموا وأنا أحرسكم، وقيل: مرّوا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ودخلوا الكهف، فكانوا يعبدون الله فيه ثم ضرب الله على آذانهم وقبل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن، وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحًا وجلس على رماد وسأل ربه أن يبين لهم الحق، فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سدّ به فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام، وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزًا، فذهبوا به إلى الملك فقصّ عليه القصة، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث، ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شرّ الجنّ والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم، فألقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب، فرآهم في المنام كارهين الذهب فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجدًا. ﴿ربهم أعلم بهم﴾ من كلام المتنازعين، كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم ومدّه لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: ﴿ربهم أعلم بهم﴾ أو هو من كلام الله عزّ وجل ردّ لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿سيقولون﴾ الضمير لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين، سألوا رسول الله ﷺ عنهم، فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم، فنزلت إخبارًا بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم، وأنّ المصيب منهم من يقول: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: أنا من أولئك القليل، وروي: أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ، فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبيًّا كانوا ﴿ثلاثة رابعهم كلبهم﴾، وقال العاقب وكان نسطوريًا: كانوا ﴿خمسة سادسهم كلبهم﴾، وقال المسلمون: كانوا ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾، فحقق الله قول المسلمين، وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله ﷺ عن لسان جبريل عليه السلام، وعن عليّ رضي الله عنه: هم سبعة نفر، أسماؤهم: يمليخا ومكشليتيا ومشلينيا هؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره، والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس، واسم مدينتهم أفسوس، واسم كلبهم قطمير.

فإن قُلْتَ: لم جاء بسين الاستقبال في الأوّل دون الآخرين؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أن تدخل الآخرين في حكم السين كما تقول: قد أكرم وأنعم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعًا وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له ﴿رجمًا بالغيب﴾ رميًا بالخبر الخفي وإتيانًا به كقوله: ﴿ويقذفون بالغيب﴾[1] أي: يأتون به، أو وضع الرجم موضع الظنّ فكأنه قيل: ظنًا بالغيب؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا: رجم بالظنّ مكان قولهم: ظنّ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين، ألا ترى إلى قول زهير:

وما هو عنها بالحديث المرجم

أي: المظنون. وقرئ: ثلاث رابعهم بإدغام الثاء في تاء التأنيث، وثلاثة خبر مبتدأ محذوف أي: هم ثلاثة، وكذلك خمسة، وسبعة و ﴿رابعهم كلبهم﴾ جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة، وكذلك ﴿سادسهم كلبهم﴾ ﴿وثامنهم كلبهم﴾.

فإن قُلْتَ[2]: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأوّلين؟ قُلْتُ: هي الواو التي تدخل الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أهلكنا من

(1) سورة سبأ، الآية: 53.

(2) قال أحمد: وهو الصواب، لا كمن يقول: إنها واو الثمانية؛ فإن ذلك أمر لا يستقرّ لمثبته قدم، ويعدون من هذه الواو في قوله في الجنة: ﴿وفتحت أبوابها﴾ بخلاف أبواب النار، فإنه قال فيها: ﴿وفتحت أبوابها﴾ قالوا: لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، وَهب أن في اللغة واواً تصحب الثمانية، فتختص بها، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، وَهب أن في اللغة واواً تصحب الثمانية، فتختص بها، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن، فتصحبه الواو، وربما عدوا من ذلك، والناهون عن المنكر، وهو الثامن من قوله: ﴿التائبون﴾، وهذا = أيضاً مردود، بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة، لتربط بينها وبين الأولى، التي هي الآمرون بالمعروف، لما بينهما من التناسب والربط، ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرهما ومواردهما، كقوله: ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ وكقوله: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ وربما عد بعضهم من ذلك الواو في قوله: ﴿ثيبات وأبكاراً﴾؛ لأنه وجدها مع الثامن، وهذا غلط فاحش، فإن هذه واو التقسيم، ولو ذهبت تحذفها فتقول: ثيبات أبكاراً، لم يستدل الكلام، فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة واردة، لغير ما زعمه هؤلاء، والله الموفق.

قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾[1] وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأنّ الذين قالوا: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾ قالوه: عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظن كما غيرهم، والدليل عليه أنّ سبحانه اتبع القولين الأولين قوله: ﴿رجمًا بالغيب﴾ وأتبع القول الثالث قوله: ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنه: حين وقعت الواو انقطعت العدّة أي: لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات، وقيل: ﴿إلا قليل﴾ من أهل الكتاب، والضمير في سيقولون على هذا لأهل الكتاب خاصة أي: سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم، وأكثرهم على ظن وتخمين ﴿فلا تمار فيهم﴾ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهرًا غير متعمق فيه وهو: أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الرد عليهم كما قال: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[2] ﴿ولا تستفت﴾ ولا تسأل أحدًا منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيئًا فترده عليه وتزيف ما عنده؛ لأنّ ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾.

﴿ولا تقولنّ لشيء﴾ ولا تقولنّ لأجل شيء تعزم عليه ﴿إني فاعل ذلك﴾ الشيء ﴿غدًا﴾ أي: فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة ﴿إلا أن يشاء الله﴾ متعلق بالنهي لا بقوله: إني فاعل؛ لأنه لو قال: إني فاعل كذا إلا أن يشاء الله[3] كان معناه إلا أن تعترض مشيئة الله دون فعله، وذلك مما لا مدخل فيه للنهي، وتعلقه بالنهي على وجهين: أحدهما: ولا تقولنّ ذلك القول: إلا أن يشاء الله أن تقوله بأن يأذن لك فيه، والثاني: ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله أي: إلا بمشيئة الله، وهو في موضع الحال يعني: إلا ملتبسًا بمشيئة الله قائلاً: إن شاء الله، وفيه وجه ثالث: وهو أن يكون إن شاء الله في معنى كلمة تأبيد كأنه قيل: ولا تقولنه أبدًا، ونحوه قوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾[4] لأنّ عودهم في ملتهم مما لن يشاءه الله، وهذا نهى تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وذي القرنين، فسألوه فقال: «ائتوني غدًا أخبركم» ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبته قريش ﴿واذكر ربك﴾[5] أي: مشيئة ربك وقل: إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك، والمعنى: إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ولو بعد سنة ما لم تحنث، وعن سعيد بن جبير:ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة، وعن طاوس: هو على ثنياه ما دام في مجلسه، وعن الحسن: نحوه، وعن عطاء: يستثني على مقدار حلب ناقة غزيرة، وعند عامة الفقهاء: أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً، ويحكى: أنه بلغ المنصور أنّ أبا حنيفة خالف ابن عباس رضي الله عنه في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه، فقال أبو حنيفة: هذا يرجع عليك، إنك تأخذ البيعة بالإيمان أفترضى أن يخرجوا من عنك فيستثنوا فيخرجوا عليك، فاستحسن كلامه ورضى عنه[6]، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح[7] والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء، تشديدًا في البعث على الاهتمام بها، وقيل: واذكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به، وقيل: واذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها، و ﴿هذا﴾ إشارة إلى نبأ أصحاب الكهف، ومعناه: لعلّ الله يؤتيني من البينات والحجج على أني نبي صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشدًا من نبأ أصحاب الكهف، وقد فعل ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأدلّ، والظاهر أن يكون المعنى: إذا نسيت شيئًا فاذكر ربك، وذكر ربك عند نسيانه أن تقول

---

(1) سورة الحجر، الآية: 4.

(2) سورة النحل، الآية: 125.

(3) قال أحمد: ولا بدّ من حمل الكلام على أحد الوجهين المذكورين، ولولا ذلك، لكان المعنى على الظاهر ببادئ الرأي، ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً، إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول، وليس الغرض ذلك، وإنما الغرض النهي عن هذا القول، إلا مقروناً بقول المشيئة، وليت شعري ما معنى قول الزمخشري في تفسير الآية، كان المعنى إلا أن تعترض المشيئة دونه، معتقداً أنّ مشيئة الله تعالى لا تعترض على فعل أحد، فكم شاء من الأفعال فتركت، وكم شاء من التروك ففعلت، على زعم القدرية، فلا معنى على أصلهم الفاسد، لتعليق الفعل بالمشيئة قولاً، وهو غير متعلق بها وقوعاً، حتى أن قول القائل: لا أفعل كذا، إلا أن يشاء الله أن أفعله، كذب، وخلف بتقدير فعله إذا كان من قبيل المباح؛ لأنّ الله تعالى = لا يشاؤه على زعمهم الفاسد، فما أبعد عقدهم من قواعد الشرع، فسحقاً سحقاً.

(4) سورة الأعراف، الآية: 89.

(5) قال أحمد: أما ظاهر الآية، فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة متى ذكرت، ولو بعد الطول، وأما حلها لليمين حينئذ، فلا دليل عليه منها، والله أعلم (قال: ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح إلخ).

(6) حديث ابن عباس أخرجه الحاكم في المستدرك 4/303.

(7) قال أحمد: ويؤيد هذا التأويل بقوله تعالى أول القصة: ﴿أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ فافتتح ذكر القصة بتقليل شأنها، وإنكار عده من عجائب آيات الله. ثم ختمها بأمره عليه الصلاة والسلام بطلب ما هو أرشد، وأدخل في الآية، والله أعلم.

عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدل هذا المنسي أقرب منه ﴿رشدًا﴾ وأدنى خيرًا ومنفعة، ولعل النسيان كان خيرة كقوله: ﴿أو ننسها نأت بخير منها﴾[1] ﴿ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين﴾ يريد لبثهم فيه أحياء مضروبًا على آذانهم هذه المدّة، وهو بيان لما أجمل في قوله: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددًا﴾[2].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

ومعنى قوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدّة لبثهم والحق ما أخبرك الله به، وعن قتادة: أنه حكاية لكلام أهل الكتاب ﴿وقل الله أعلم﴾ ردّ عليهم، وقال في حرف عبد الله: وقالوا لبثوا، وسنين عطف بيان لثلثمائة، وقرئ: ثلثمائة سنين بالإضافة على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله: ﴿بالأخسرين أعمالاً﴾[3] وفي قراءة أبي: ثلثمائة سنة. ﴿تسعًا﴾ تسع سنين؛ لأن ما قبله يدل عليه، وقرأ الحسن: تسعًا بالفتح. ثم ذكر اختصاصه بما غاب في السمٰوات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ومن غيرها، وأنه هو وحده العالم به.

وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين؛ لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها كما يدرك أكبرها حجمًا وأكثفها جرمًا، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر ﴿ما لهم﴾ الضمير لأهل السمٰوات والأرض ﴿من وليّ﴾ من متول لأمورهم ﴿ولا يشرك في حكمه﴾ في قضائه ﴿أحدًا﴾ منهم، وقرأ الحسن: ولا تشرك بالتاء والجزم على النهي.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

كانوا يقولون له: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، فقيل له: ﴿واتل ما أوحي إليك﴾ من القرآن، ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل، فلا مبدل لكلمات ربك أي: لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها، إنما يقدر على ذلك هو وحده ﴿وإذ بدلنا آية مكان آية﴾[4] ﴿ولن تجد من دونه ملتحدًا﴾ ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

قال قوم من رؤساء الكفرة رسول الله ﷺ: نح هؤلاء الموالي الذين كأن ريحهم الضأن وهم: صهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين، حتى نجالسك، كما قال قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾[5] فنزلت ﴿واصبر نفسك﴾ واحبسها معهم وثبتها. قال أبو ذؤيب:

فصبرت عارفة لذلك حرّة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

﴿بالغداة والعشي﴾ دائبين على الدعاء في كل وقت، وقيل: المراد صلاة الفجر والعصر، وقرئ: بالغدوة، وبالغداة أجود؛ لأن غدوة علم في أكثر الاستعمال وإدخال اللام على تأويل التكبير، كما قال: والزيد زيد المعارك، ونحوه قليل في كلامهم. يقال: غداه إذا جاوزه، ومنه قولهم: عدا طوره، وجاءني القوم عدا زيد، وإنما عدى بعن لتضمين عدا معنى: نبا، وعلا في قولك: نبت عنه عينه، وعلت عنه عينه إذا اقتحمته ولم تعلق به.

فإن قُلْتَ: أي غرض في هذا التضمين، وهلا قيل: ولا تعدهم عيناك، أو لا تعل عيناك عنهم؟ قُلْتُ: الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم، ونحوه قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾[6] أي: ولا تضموها إليها آكلين لها، وقرئ: ولا تعد عينيك، ولا تعد عينيك: من أعداه وعداه نقلاً بالهمزة، وتثقيل الحشو، ومنه قوله:

فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له

لأنّ معناه: فعد همك عما ترى، نهي رسول الله ﷺ أن يزدري بفقراء المؤمنين، وأن تنبو عينه عن رثاثة زيهم طموحًا إلى زيّ الأغنياء وحسن شارتهم ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ في موضع الحال[7] ﴿من أغفلنا قلبه﴾ من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر بالخذلان. أو وجدناه غافلاً عنه كقولك: أجبنته أفحمته وأبخلته إذا وجدته كذلك[8]، ومن أغفل إبله إذا تركها بغير سمة أي: لم نسمه بالذكر، ولم

(1) سورة البقرة، الآية: 106.
(2) سورة الكهف، الآية: 11.
(3) سورة الكهف، الآية: 103.
(4) سورة النحل، الآية: 101.
(5) سورة الشعراء، الآية: 111.
(6) سورة النساء، الآية: 2.
(7) قال أحمد: هو يشمر للهرب من الحق، وهو أن المراد: خلقنا له، وجدير به أن يشمر في اتباع هواه، فإن حمل أغفل على بابه صرفه إلى الخذلان، وإلا أخرجه بالكلية عن بابه إلى باب أفعل= للمصادفة، ولا يتجرأ على تفسير فعل أسنده الله إلى ذاته بالمصادفة، إلى تفهيم وجدان الشيء بغتة، عن جهل سابق، وعدم علم.
(8) قال أحمد: وهذا التأويل فيه رقة حاشية، ولطافة معنى، وغرضه منه الخلاص مما قدمناه؛ لأنه وإن أبى خلق الله للغفلة في القلب، فلا يأبى عدم كتب الإيمان، وإنما غرضنا التنبيه على أنّ مقصد الزمخشري الحيد عن القاعدة المتقدّمة، والتأويل إنما يصار إليه إذا اعتاص الظاهر، وهو عندنا ممكن، فوجب الاعتصام به، والله الموفق.

نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان[1]، وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله: ﴿واتبع هواه﴾ وقرىء: أغفلنا قلبه بإسناد الفعل إلى القلب على معنى: حسبنا قلبه، غافلين من أغفلته إذا وجدته غافلاً ﴿فرطًا﴾ متقدِّمًا للحق والصواب نابذًا له وراء ظهره من قولهم: فرس فرط متقدّم للخيل.

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾.

﴿وقل الحق من ربكم﴾ الحق خبر مبتدأ محذوف، والمعنى: جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك، وجيء بلفظ الأمر والتخيير؛ لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين.

شبّه ما يحيط بهم من النار بالسرادق وهو الحجرة التي تكون حول الفسطاط، وبيت مسردق ذو سرادق، وقيل هو: دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار، وقيل: حائط من نار يطيف بهم ﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ كقوله: فاعتبوا بالصيلم، وفيه تهكم، والمهل ما أذيب من جواهر الأرض، وقيل: دردي الزيت ﴿يشوي الوجوه﴾ إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته. عن النبي ﷺ: «هو كعكر الزيت، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه»[2]. ﴿بئس الشراب﴾ ذلك ﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقًا﴾ متكأ من المرفق وهذا لمشاكلة قوله: ﴿وحسنت مرتفقًا﴾[3] وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء إلا أن يكون من قوله:

إني أرقت فبت الليل مرتفقًا ... كأن عينيّ فيها الصاب مذبوح

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾.

﴿أولئك﴾ خبر إن ﴿وإنا لا نضيع﴾ اعتراض، ولك أن تجعل إنا لا نضيع وأولئك خبرين معًا، أو تجعل أولئك كلامًا مستأنفًا بيانًا للأجر المبهم.

فإن قُلْتَ: إذا جعلت إنا لا نضيع خبرًا، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قُلْتُ: من أحسن عملاً، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، ينتظمهما معنى واحد، فقام من أحسن مقام الضمير، أو أردت من أحسن عملاً منهم فكان كقولك: السمن منوان بدرهم.

أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾.

من الأولى للابتداء، والثانية للتبيين. وتنكير أساور لإبهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس وهو: مارق من الديباج، وبين الإستبرق وهو: الغليظ منه، جمعًا بين النوعين. وخص الاتكاء؛ لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرتهم.

۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾.

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ أي: ومثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما كافر اسمه: قطروس والآخر مؤمن اسمه: يهوذا، وقيل: هما المذكوران في سورة والصافات في قوله: ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾[4] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراها، فاشترى الكافر أرضًا بألف فقال المؤمن: اللهم إنّ أخي اشترى أرضًا بألف دينار وأنا أشتري منك أرضًا في الجنة بألف، فتصدّق به، ثم بنى أخوه دارًا بألف، فقال: اللهم إني أشتري منك دارًا في الجنة بألف، فتصدّق به. ثم تزوّج أخوه امرأة بألف، فقال: اللهم إني جعلت ألفًا صداقًا للحور، ثم اشترى أخوه خدمًا ومتاعًا بألف، فقال: اللهم إني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف، فتصدّق به، ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمرّ به في حشمه فتعرّض له فطرده ووبخه على التصدّق بماله، وقيل: هما مثل لأخوين من بني مخزوم: مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد وكان زوج أمّ سلمة قبل رسول الله ﷺ، وكافر وهو الأسود بن عبد الأشد ﴿جنتين من أعناب﴾ بستانين من كروم ﴿وحففناهما بنخل﴾ وجعلنا النخل محيطًا بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة، يقال: حفوه إذا أطافوا به وحففته بهم أي: جعلتهم حافين حوله، وهو متعد إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولاً ثانيًا كقولك: غشيه وغشيته به ﴿وجعلنا بينهما زرعًا﴾ جعلناها أرضًا جامعة للأقوات والفواكه، ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما هو أصل الخير ومادّته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به وهو السيح بالنهر الجاري فيها،

---

(1) قال أحمد: قد تقدّم في غير ما موضع، أن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى، من حيث كونه مخلوقاً له، وإلى العبد من حيث كونه مقروناً بقدرته واختياره، ولا تنافي بين الإضافتين، فبراهين السنة تتبعه أينما سلك، وأية توجه، فلا محيص له عنها بوجه.

(2) رواه الترمذي في السنن، كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (الحديث رقم: 2584).

(3) سورة الكهف، الآية: 31.

(4) سورة الصافات، الآية: 51.

والأكل الثمر وقرئ: بضم الكاف ﴿ولم تظلم﴾ ولم تنقص، وآتت حمل على اللفظ؛ لأنّ كلتا لفظه لفظ مفرد ولو قيل: آتتا على المعنى لجاز. وقرئ: وفجرنا على التخفيف. وقرأ عبد الله: كل الجنتين آتى أكله برد الضمير على كل.

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾.

﴿وكان له ثمر﴾ أي: أنواع من المال، من ثمر ماله إذا كثره، وعن مجاهد: الذهب والفضة أي: كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الدائرة من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر اليسار من كل وجه متمكنًا من عمارة الأرض كيف شاء ﴿وأعز نفرًا﴾ يعني: أنصارًا وحشمًا، وقيل: أولادًا ذكورًا؛ لأنهم ينفرون معه دون الإناث. يحاوره: يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع، وسألته فما أحار كلمة يعني: قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما ويعجبه منهما، ويفاخره بما ملك من المال دونه.

فإن قُلْتَ: فلم أفرد الجنة بعد التثنية قُلْتُ: معناه: ودخل جنته ماله جنة غيرها يعني: أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ وهو معجب بما أوتي مفتخر به، كافر لنعمة ربه معرّض بذلك نفسه لسخط الله وهو أفحش الظلم. إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته لطول أمله واستيلاء الحرص عليه، وتمادي غفلته واغتراره بالمهلة، وإطراحه النظر في عواقب أمثاله، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم فإنّ السنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه ﴿ولئن رددت إلى ربي﴾ إقسام منه على أنه إن ردّ إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وكما يزعم صاحبه، ليجدنّ في الآخرة خيرًا من جنته في الدنيا تطمعًا وتمنيًا على الله وادّعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله، وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه كقوله: ﴿إن لي عنده للحسنى﴾[1] ﴿لأوتينّ مالاً وولدًا﴾[2] وقرئ: خيرًا منهما ردًا على الجنتين ﴿منقلبًا﴾ مرجعًا وعاقبة، وانتصابه على التمييز أي: منقلب تلك خير من منقلب هذه؛ لأنها فانية وتلك باقية ﴿خلقك من تراب﴾ أي: خلق أصلك؛ لأنّ خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقه خلقًا له ﴿سوّاك﴾ عدلك وكملك إنسانًا ذكرًا بالغًا مبلغ الرجال.

جعله كافرًا بالله جاحدًا لأنعمه لشكه في البعث كما يكون المكذب بالرسول ﷺ كافرًا ﴿لكنّا هو الله ربي﴾ أصله لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فكان الإدغام، ونحوه قول القائل:

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب وتقلينني لكن إياك لا أقلي

أي: لكن أنا لا أقليك، وهو ضمير الشأن، والشأن الله ربي، والجملة خبر أنا والراجع منها إليه ياء الضمير، وقرأ ابن عامر: بإثبات ألف أنا في الوصل والوقف جميعًا وحسن ذلك وقوع الألف عوضًا من حذف الهمزة وغيره لا يثبتها إلا في الوقف، وعن أبي عمر: وأنه وقف بالهاء لكنه، وقرئ: لكنْ هو الله ربي بسكون النون وطرح أنا، وقرأ أبيّ بن كعب: لكن أنا على الأصل، وفي قراءة عبد الله: لكن أنا لا إله إلا هو ربي.

فإن قُلْتَ: هو استدراك لماذا؟ قُلْتُ: لقوله: ﴿أكفرت﴾ قال لأخيه: أنت كافر بالله، لكني مؤمن موحد كما تقول: زيد غائب لكن عمرًا حاضر.

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾.

ما شاء الله يجوز أن تكون ما موصولة مرفوعة المحل على أنها: خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر ما شاء الله، أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى: أي شيء شاء الله كان، ونظيرها في حذف الجواب لو في قوله: ﴿ولو أنّ قرآنًا سيرت به الجبال﴾[3] والمعنى: هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها: الأمر ما شاء الله، اعترافًا بأنها وكلّ خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله، وأنّ أمرها بيده إن شاء تركها عامرة وإن شاء خرّبها، وقلت: ﴿لا قوّة إلا بالله﴾ إقرارًا بأنّ ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده، إذ لا يقوي أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى. وعن عروة بن الزبير: أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب فيدخل من شاء، وكان إذا دخله ردّد هذه الآية حتى يخرج. من قرأ: أقلّ بالنصب فقد جعل أنا فصلاً، ومن رفع جعله مبتدأ وأقلّ خبره، والجملة مفعولاً ثانيًا لترني، وفي قوله: ﴿وولدًا﴾ نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله: ﴿وأعزّ نفرًا﴾ والمعنى: إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة ﴿خيرًا من جنتك﴾ ويسلبك لكفرك نعمته ويخرّب بستانك.

والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى: الحساب

---

(1) سورة فصلت، الآية: 50.

(2) سورة مريم، الآية: 77.

(3) سورة الرعد، الآية: 31.

أي: مقدارًا قدّره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها، وقال الزجاج: عذاب حسبان، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك، وقيل: حسبانًا مرامي الواحدة حسبانة، وهي: الصواعق ﴿صعيدًا زلقًا﴾ أرضًا بيضاء يزلق عليها لملاستها زلقًا، ﴿غورًا﴾ كلاهما وصف بالمصدر.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾.

﴿وأحيط﴾ به عبارة عن إهلاكه وأصله من أحاط به العدوّ؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك ومنه قوله تعالى: ﴿إلا أن يحاط بكم﴾[1] ومثله قولهم: أتى عليه إذا أهلكه، من أتى عليهم العدوّ إذا جاءهم مستعليًا عليهم.

وتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر؛ لأنّ النادم يقلب كفيه ظهرًا لبطن، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد؛ ولأنه في معنى الندم عدّى تعديته بعلى كأنه قيل: فأصبح يندم ﴿على ما أنفق فيها﴾ أي: أنفق في عمارتها ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ يعني: أنّ كرومها المعروشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الكروم، قيل: أرسل الله عليها نارًا فأكلتها ﴿يا ليتني﴾ تنكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركًا حتى لا يهلك الله بستانه، ويجوز أن يكون توبة من الشرك وندمًا على ما كان منه ودخولاً في الإيمان.

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾.

وقرئ: ولم يكن بالياء والتاء، وحمل ينصرونه على المعنى دون اللفظ كقوله: ﴿فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم﴾[2].

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿ينصرونه من دون الله﴾؟ قُلْتُ: معناه يقدرون على نصرته من دون الله أي: هو وحده القادر على نصر، لا يقدر أحد غيره أن ينصره، إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استيجابه أن يخذل ﴿وما كان منتصرًا﴾ وما كان ممتنعًا بقوّته عن انتقام الله.

هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾.

﴿الولاية﴾ بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك. وقد قرئ بهما، والمعنى: هنالك أي: في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها أحد سواه تقريرًا لقوله: ﴿ولم يكن له فئة ينصرونه من دون الله﴾ أو هنالك السلطان والملك لله لا يغلب ولا يمتنع منه، أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطرّ يعني: أنّ قوله: ﴿يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا﴾[3] كلمة الجيء إليها فقالها جزعًا مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها. ويجوز أن يكون المعنى: هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة، وينتقم لهم ويشفي صدورهم من أعدائهم يعني: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدّق قوله: ﴿عسى ربي أن يؤتيني خيرًا من جنتك ويرسل عليها حسبانًا من السماء﴾[4] ويعضده قوله: ﴿خير ثوابًا وخير عقبًا﴾ أي: لأوليائه، وقيل: ﴿هنالك﴾ إشارة إلى الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾[5] وقرئ[6]: الحق بالرفع والجرّ صفة للولاية والله، وقرأ عمرو بن عبيد: بالنصب على التأكيد كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، وهي قراءة حسنة فصيحة، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم. وقرئ: عقبًا بضم القاف وسكونها، وعقبى على فعلى وكلها بمعنى العاقبة.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾.

﴿فاختلط به نبات الأرض﴾ فالتفّ بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضًا، وقيل: نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روي ورف رفيفًا، وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الأرض، ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه. والهشيم ما تهشم وتحطم الواحدة هشيمة. وقرئ: تذروه الريح، وعن ابن عباس: تذريه الرياح من أذرى، شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفًا ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن ﴿وكان الله على كل شيء﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿مقتدرًا... الباقيات الصالحات﴾ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وتفني عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا، وقيل: هي الصلوات الخمس، وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وعن قتادة: كل ما أريد به وجه الله ﴿خير... ثوابًا﴾ أي: ما يتعلق بها

---

(1) سورة يوسف، الآية: 66.
(2) سورة آل عمران، الآية: 13.
(3) سورة الكهف، الآية: 42.
(4) سورة الكهف، الآية: 40.
(5) سورة غافر، الآية: 16.
(6) قال أحمد: وقد تقدم الإنكار عليه في مثل هذا القول، فإنه يوهم أن القراءات موكولة إلى رأي الفصحاء، واجتهاد البلغاء، فتتفاوت في = الفصاحة لتفاوتهم فيها، وهذا منكر شنيع، والحق أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه، فوعاه، متصلاً بفلق فيه ﷺ منزلاً كذلك من السماء، فلا وقع لفصاحة الفصيح، وإنما هو ناقل كغيره، ولكن الزمخشري لا يفوته الثناء على رأس البدعة، ومعدن الفتنة، فإنّ عمرو بن عبيد أوّل مصمم على إنكار القدر، وهلّم جرّا إلى سائر البدع الاعتزالية، فمن ثم أثنى عليه.

من الثواب وما يتعلق بها من الأمل؛ لأنّ صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ويصيبه في الآخرة.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

وقرئ: تسير من سيرت ونسير من سيرنا وتسير من سارت أي: تسير في الجو، أو يذهب بها بأن تجعل هباء منبثًا. وقرئ: وترى الأرض على البناء للمفعول ﴿بارزة﴾ ليس عليها ما يسترها مما كان عليها ﴿وحشرناهم﴾ وجمعناهم إلى الموقف. وقرئ: فلم نغادر بالنون والياء، يقال: غادره وأغدره إذا تركه، ومنه: الغدر ترك الوفاء، والغدير ما غادره السيل.

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ﴿صفًا﴾ مصطفين ظاهرين يرى جماعتهم كما يرى واحد لا يحجب أحد أحدًا ﴿لقد جئتمونا﴾ أي: قلنا لهم لقد جئتمونا وهذا المضمر هو عامل النصب في يوم نسير، ويجوز أن ينصب بإضمار نكر، والمعنى: لقد بعثناكم كما أنشأناكم ﴿أوّل مرة﴾ وقيل: جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أوّلاً كقوله: ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾[1].

فإن قُلْتَ: لم جيء بحشرناهم ماضيًا بعد نسير وترى؟ قُلْتُ: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال العظام، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك ﴿موعدًا﴾ وقتًا لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿الكتاب﴾ للجنس، وهو: صحف الأعمال ﴿يا ويلتنا﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات ﴿صغيرة ولا كبيرة﴾ هنة صغيرة ولا كبيرة وهي عبارة عن الإحاطة يعني: لا يترك شيئًا من المعاصي إلا أحصاه أي: أحصاها كلها كما تقول: ما أعطاني قليلاً ولا كثيرًا؛ لأنّ الأشياء إما صغار وإما كبار، ويجوز أن يريد: وإما كان عندهم صغائر وكبائر، وقيل: لم يجتنبوا الكبائر فكتبت عليهم الصغائر وهي المناقشة، وعن ابن عباس: الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة، وعن سعيد بن جبير: الصغيرة المسيس والكبيرة الزنا، وعن الفضيل: كان إذا قرأها قال: ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر ﴿إلا أحصاها﴾ إلا ضبطها وحصرها ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرًا﴾ في الصحف عتيدًا، أو جزاء ما عملوا ﴿ولا يظلم ربك أحدًا﴾ فيكتب عليه ما لم يعمل، أو يزيد في عقاب المستحق، أو يعذبه بغير جرم، كما يزعم من ظلم الله في تعذيب أطفال المشركين بذنوب آبائهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿كان من الجن﴾ كلام[2] مستأنف جار مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين كأن قائلاً قال: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان من الجن ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ والفاء للتسبيب أيضًا، جعل كونه من الجن سببًا في فسقه؛ لأنه لو كان ملكًا كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله؛ لأنّ الملائكة معصومون البتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس كما قال: ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾[3] وهذا الكلام المعترض: تعمد من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهه في عصمتهم، فما أبعد البون بين ما تعمده الله وبين قول من ضاده وزعم أنه كان ملكًا ورئيسًا على الملائكة، فعصى فلعن ومسخ شيطانًا، ثم وركه على ابن عباس ومعنى فسق عن أمر ربه: خرج عما أمره به ربه من السجود قال:

فواسقًا عن قصدها جوائرًا

أو صار فاسقًا كافرًا بسبب أمر ربه الذي هو قوله: ﴿اسجدوا لآدم﴾ ﴿أفتتخذونه﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب كأنه قيل: أعقيب ما وجد منه تتخذونه ﴿وذريته أولياء من دوني﴾ وتستبدلونهم بي، بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته.

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿ما أشهدتهم﴾ وقرئ: ما أشهدناهم يعني: أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة وإنما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية، فنفى مشاركتهم في الإلهية بقوله: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ لأعتضد بهم في خلقها ﴿ولا خلق أنفسهم﴾ أي: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾[4] ﴿وما كنت متخذ المضلين﴾ بمعنى: وما كنت متخذهم ﴿عضدًا﴾ أي: أعوانًا، فوضع المضلين موضع الضمير ذمًّا لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضدًا

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 94.

(2) قال أحمد: والحق معه في هذا الفصل، غير أن قوله تعمده الله تعالى لفظة، لا تروق ولا تليق، فإن التعمد إنما يوصف به عرفاً، من يفعل في بعض الأحيان خطأ، وفي بعضها تعمداً، فاجتنابها = في حق الله تعالى واجب، والله الموفق.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 27.

(4) سورة النساء، الآية: 29.

لي في الخلق فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة! وقرئ: وما كنت بالفتح، الخطاب لرسول الله ﷺ والمعنى: وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعتز بهم، وقرأ علي رضي الله عنه: وما كنت متخذ المضلين بالتنوين على الأصل، وقرأ الحسن: عضدًا بسكون الضاد ونقل ضمتها إلى العين، وقرئ: عضدًا بالفتح وسكون الضاد، وعضدًا بضمتين، وعضدًا بفتحتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورصد. من عضده: إذا قواه وأعانه.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يقول﴾ بالياء والنون وإضافة الشركاء إليه على زعمهم توبيخًا لهم، وأراد: الجن. والموبق: المهلك من وبق وبوقًا، ووبق يوبق وبقًا إذا هلك وأوبقه غيره، ويجوز أن يكون مصدرًا كالمورد والموعد يعني: وجعلنا بينهم واديًا من أودية جهنم هو: مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركًا يهلكون فيه جميعًا، وعن الحسن: موبقًا عداوة والمعنى: عداوة نعي في شدّتها هلاك كقوله: لا يكن حبك كلفًا ولا بغضك تلفًا، وقال الفراء: البين الوصل أي: وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكًا يوم القيامة، ويجوز أن يريد الملائكة وعزيرًا وعيسى ومريم، وبالموبق البرزخ البعيد أي: وجعلنا بينهم أمدًا بعيدًا تهلك فيه الأشواط لفرط بعده؛ لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان.

﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَٰتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فظنوا﴾ فأيقنوا ﴿مواقعوها﴾ مخالطوها واقعون فيها ﴿مصرفًا﴾ معدلاً قال:

أزهير هل عن شيبة من مصرف

﴿أكثر شيء جدلاً﴾ أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحدًا بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل، وانتصاب جدلاً على التمييز يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء، ونحو: ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾[1] أن الأولى نصب، والثانية رفع، وقبلها مضاف محذوف تقديره ﴿وما منع الناس﴾ الإيمان والاستغفار ﴿إلا﴾ انتظار ﴿أن تأتيهم سنة الأولين﴾ وهي الإهلاك ﴿أو﴾ انتظار ﴿أن يأتيهم العذاب﴾ يعني: عذاب الآخرة ﴿قبلاً﴾ عيانًا. وقرئ: قبلاً أنواعًا جمع قبيل وقبلاً بفتحتين مستقبلاً ﴿ليدحضوا﴾ ليزيلوا ويبطلوا من إدحاض القدم وهو: إزلاقها وإزالتها عن موطئها ﴿وما أنذروا﴾ يجوز أن تكون ما موصولة ويكون الراجع من الصلة محذوفًا أي: وما أنذروه من العذاب، أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم. وقرئ: هزأ بالسكون أي: اتخذوها موضع استهزاء. وجدالهم، قولهم للرسل: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾[2] ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾[3] وما أشبه ذلك.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿بآيات ربه﴾ بالقرآن ولذلك رجع إليها الضمير منكرًا في قوله: ﴿أن يفقهوه﴾ ﴿فأعرض عنها﴾ فلم يتنكر حين نكر ولم يتدبر ﴿ونسي﴾ عاقبة ﴿ما قدمت يداه﴾ من الكفر والمعاصي غير مفكر فيها ولا ناظر في أنّ المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء، ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، وجمع بعد الإفراد حملاً على لفظ من ومعناه ﴿فلن يهتدوا﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة كأنه محال منهم لشدة تصميمهم ﴿أبدًا﴾ مدة التكليف كلها. وإذا جزاء وجواب، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى: أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سببًا في انتفائه، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: مالي لا أدعوهم حرصًا على إسلامهم، فقيل: وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿الغفور﴾ البليغ ﴿ذو الرحمة﴾ الموصوف بالرحمة ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلاً من غير إهمال، مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ ﴿بل لهم موعد﴾ وهو: يوم بدر ﴿لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ منجى ولا ملجأ. يقال: وأل إذا نجا، ووأل إليه إذا لجأ إليه.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وتلك القرى﴾ يريد: قرى الأوّلين من ثمود وقوم لوط وغيرهم أشار لهم إليها ليعتبروا، تلك مبتدأ، والقرى صفة؛ لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس و﴿أهلكناهم﴾ خبر، ويجوز أن يكون تلك القرى نصبًا بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير، والمعنى: وتلك أصحاب القرى أهلكناهم ﴿لما ظلموا﴾ مثل ظلم أهل مكة ﴿وجعلنا لمهلكهم موعدًا﴾ وضربنا لإهلاكهم وقتًا معلومًا لا يتأخرون عنه كما

(1) سورة يس، الآية: 77.
(2) سورة يس، الآية: 15.
(3) سورة المؤمنون، الآية: 24.

ضربنا لأهل مكة يوم بدر، والمهلك الإهلاك ووقته، وقرئ: لمهلكهم بفتح الميم واللام مفتوحة أو مكسورة أي: لهلاكهم، أو وقت هلاكهم، والموعد وقت أو مصدر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿لفتاه﴾ لعبده وفي الحديث: «ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي»[1] وقيل: هو يوشع بن نون وإنما قيل: فتاه؛ لأنه كان يخدمه ويتبعه، وقيل: كان يأخذ منه العلم.

فإن قُلْتَ: ﴿لا أبرح﴾ إن كان بمعنى: لا ازول من برح المكان فقد دل على الإقامة لا على السفر، وإن كان بمعنى: لا ازال فلا بد من الخبر **قُلْتُ:** هو بمعنى: لا ازال وقد حذف الخبر؛ لأنّ الحال والكلام معًا يدلان عليه، أمّا الحال فلأنها كانت حال سفر، وأمّا الكلام فلأن قوله: ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ غاية مضروبة تستدعي ما هي غاية له، فلا بد أن يكون المعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: لا يبرح مسيري حتى أبلغ، على أن حتى أبلغ هو الخبر فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم وهو وجه لطيف، ويجوز أن يكون المعنى: لا أبرح ما أنا عليه بمعنى: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ. كما تقول: لا أبرح المكان، ومجمع البحرين المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، وهو: ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق، وقيل: طنجة، وقيل: إفريقية، ومن بدع التفاسير: أن البحرين موسى والخضر؛ لأنهما كانا بحرين في العلم، وقرئ: مجمع بكسر الميم وهي في الشذوذ من يفعل، كالمشرق والمطلع من يفعل ﴿أو أمضي حقبًا﴾ أو أسير زمانًا طويلاً، والحقب ثمانون سنة، وروي: أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقرّوا بها بعد هلاك القبط، أمره الله أن يذكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيبًا فذكر نعمة الله وقال: إنه اصطفى نبيكم وكلمه، فقالوا له: قد علما هذا فأي الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه حين لم يردّ العلم إلى الله، فأوحى إليه: بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين، وهو: الخضر، وكان الخضر في أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى، وقيل: إنّ موسى سأل ربه أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: فأي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو تردّه عن ردى، فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فادللني عليه؟ قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتًا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأنى بأرضنا السلام، فعرّفه نفسه، فقال: يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، فلما ركبا السفينة جاء عصفور، فوقع على حرفها، فنقر في الماء، فقال الخضر: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿نسيا حوتهما﴾ اي: نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمارة على الظفر بالطلبة، وقيل: نسي يوشع أن يقدّمه، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، وقيل: كان الحوت سمكة مملوحة، وقيل: إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكتل، فنزلا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت. وروي: أنهما أكلا منها، وقيل: توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء ﴿سربًا﴾ امسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق، وحصل منه في مثل السرب معجزة لموسى أو للخضر ﴿فلما جاوزا﴾ الموعد وهو: الصخرة لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه، ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من حياته ووقوعه في البحر، وقيل: سار أبعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر، وألقي على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك، فتذكر الحوت وطلبه، وقوله: ﴿من سفرنا هذا﴾ إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة.

فإن قُلْتَ[2]: كيف نسي يوشع ذلك ومثله لا ينسى لكونه

---

(1) رواه البخاري في كتاب: العتق، باب: كراهية التطاول على الرقيق (الحديث رقم: 2552)، ومسلم في كتاب: الالفاظ من الأدب، باب: حكم إطلاق لفظ العبد (الحديث رقم: 5835).

(2) قال أحمد: وقد ورد في الحديث، أن موسى عليه السلام لم ينصب، ولم يقل: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. إلا منذ جاوز الموضع الذي حدّه الله تعالى له، فلعل الحكمة في إنساء الله تعالى= ليوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام، لمنة الله تعالى على المسافر في طاعة وطلب علم، بالتيسير عليه، وحمل الأعباء عنه، وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات، أن ييسرها ويحمل عنه مؤنتها، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة، وموقع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد، وحالة مجاوزته بونا بينا، والله أعلم، وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً

أمارة لهما على الطلبة التي تناهضا من أجلها، ولكونه معجزتين ثنتين. وهما حياة السمكة المملوحة المأكول منها، وقيل: ما كانت إلا شق سمكة، وقيام الماء وانتصابه مثل الطاق، ونفوذها في مثل السرب منه، ثم كيف استمرّ به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغدو حتى طلب موسى عليه السلام الحوت؟ قلت: قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب حتى اعتراه النسيان، وانضم إلى ذلك أنه ضرى بمشاهدة أمثاله عند موسى عليه السلام من العجائب واستأنس بإخوانه فأعان الألف على قلة الاهتمام.

قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾.

﴿أرأيت﴾ بمعنى: أخبرني.

فإن قُلْتَ: ما وجه التئام هذا الكلام، فإنّ كل واحد من **﴿أرأيت﴾** و**﴿إذ أوينا﴾** و**﴿فإني نسيت الحوت﴾** لا متعلق له؟ **قُلْتُ:** لما طلب موسى عليه السلام الحوت ذكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك كأنه قال: أرأيت ما دهاني إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، فحذف ذلك، وقيل: هي الصخرة التي دون نهر الزيت و**﴿أن أذكره﴾** بدل من الهاء في أنسانيه أي: وما أنساني ذكره إلا الشيطان، وفي قراءة عبد الله: أن أذكركه و**﴿عجبًا﴾** ثاني مفعولي اتخذ مثل سربا يعني: واتخذ سبيله سبيلاً عجبًا وهو: كونه شبيه السرب، أو قال: عجبًا في آخر كلامه تعجبًا من حاله في رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها، أو مما رأى من المعجزتين، وقوله: **﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾** اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، وقيل: إن عجبًا حكاية التعجب موسى عليه السلام وليس بذاك.

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى اتخاذه سبيلاً أي: ذلك الذي كنا نطلب؛ لأنه أمارة الظفر بالطلبة من لقاء الخضر عليه السلام. وقرئ: بغير ياء في الوصل وإثباتها أحسن وهي قراءة أبي عمرو، وأمّا الوقف فالأكثر فيه طرح الياء اتباعًا لخط المصحف **﴿فارتدا﴾** فرجعا في إدراجهما **﴿قصصًا﴾** يقصان قصصًا أي: يتبعان آثارهما اتباعًا، أو فارتدًا مقتصين.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾.

﴿رحمة من عندنا﴾ هي: الوحي والنبوة **﴿من لدنا﴾** مما يختص بنا من العلم وهو: الإخبار عن الغيوب **﴿رشدًا﴾** قرئ: بفتحتين وبضمة وسكون أي: علمًا ذا رشد أرشد به في ديني.

فإن قُلْتَ: ما دلت حاجته إلى التعلم من آخر في عهده أنه كما قيل: موسى بن ميشا لا موسى بن عمران؛ لأنّ النبي يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين؟ **قُلْتُ:** لا غضاضة بالنبي في أخذ العلم من نبي مثله، وإنما يغض منه أن يأخذه ممن دونه، وعن سعيد بن جبير: أنه قال لابن عباس: إنّ نوفًا ابن امرأة كعب يزعم أنّ الخضر ليس بصاحب موسى، وأنّ موسى هو موسى بن ميشا، فقال: كذب عدوّ الله[1].

قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾.

نفي استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم، وعلل ذلك بأنه يتولى أمورًا هي في ظاهرها مناكير والرجل الصالح فكيف إذا كان نبيًا لا يتمالك أن يشمئز ويمتعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ في الإنكار و**﴿خبرًا﴾** تمييز أي: لم يحط به خبرك، أو لأن لم تحط به بمعنى: لم تخبره فنصبه نصب المصدر **﴿ولا أعصي﴾** في محل النصب عطف على صابرًا أي: ستجدني صابرًا وغير عاص، أو لا في محل عطفًا على ستجدني. رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده أن يستطيع معه صبرًا بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقًا بمشيئة الله علمًا منه بشدّة الأمر وصعوبته، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه بريء من أن يباشر ما فيه غميزة في الدين، وأنه لا بد لما يستسمج ظاهره من باطن حسن جميل، فكيف إذا لم يعلم.

قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾.

قرئ: **﴿فلا تسئلني﴾** بالنون الثقيلة يعني: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئًا وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غبي عليك وجه صحته فحميت وأنكرت في نفسك أن لا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من آداب المتعلم مع العلم والمتبوع مع التابع.

= لذلك، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمّته، بل من أمّة محمد عليه الصلاة والسلام، إذ قص عليهم القصة، فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه، ليسمر بها الناس، ولكن ليشمر الخلق لتدبرها، واقتباس أنوارها، ومنافعها عاجلاً وآجلاً، والله أعلم.

(1) رواه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليه السلام (الحديث رقم: 3401)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام (الحديث رقم: 6113).

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿فانطلقا﴾ على ساحل البحر يطلبان السفينة فلما ركبا قال أهلها: هما من اللصوص وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة أرى وجوه الأنبياء، وقيل: عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول، فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء، فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ويقول ﴿لخرقتها لتغرق أهلها﴾ وقرئ: لتغرّق بالتشديد، وليغرق أهلها من غرق وأهلها مرفوع ﴿جئت شيئًا إمرًا﴾ أتيت شيئًا عظيمًا من أمر الأمر إذا عظم قال: داهية دهياء، إدًّا أمرًا.

﴿بما نسيت﴾ بالذي نسيته، أو بشيء نسيته أو بنسياني، أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي، أو إخراج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسي ليبسط عذره في الإنكار وهو من معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب مع التوصل إلى الغرض كقول إبراهيم: هذه أختي، و ﴿إني سقيم﴾[1] أو أراد بالنسيان الترك أي: لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرّة.

يقال: رهقه إذا غشيه، وأرهقه إياه أي: ولا تغشني ﴿عسرًا﴾ من أمري وهو اتباعه إياه يعني: ولا تعسر عليّ متابعتك ويسرها عليّ بالإغضاء وترك المناقشة، وقرئ: عسرًا بضمتين. ﴿فقتله﴾ قيل كان قتله فتل عنقه، وقيل: ضرب برأسه الحائط، وعن سعيد بن جبير: أضجعه ثم ذبحه بالسكين.

فإن قُلْتَ: لم قيل ﴿حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾ بغير فاء و ﴿حتى إذا لقيا غلامًا فقتله﴾ بالفاء؟ قُلْتُ: جعل خرقها جزاء للشرط وجعل قتله من جملة الشرط معطوفًا عليه والجزاء: قال أقتلت.

فإن قُلْتَ: فلم خولف بينهما؟ قُلْتُ: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام. وقرئ: زاكية وزكية وهي الطاهرة من الذنوب، إما لأنها طاهرة عنده؛ لأنه لم يرها قد أذنبت، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث ﴿بغير نفس﴾ يعني: لم تقتل نفسًا فيقتص منها، وعن ابن عباس: أن نجدة الحروري كتب إليه: كيف جاز قتله وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل[2] ﴿نكرًا﴾ وقرئ: بضمتين وهو: المنكر، وقيل: النكر أقل من الأمر؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة، وقيل معناه: جئت شيئًا أنكر من الأوّل؛ لأن ذلك كان خرقًا يمكن تداركه بالسدّ وهذا لا سبيل إلى تداركه.

فإن قُلْتَ: ما معنى زيادة لك؟ قُلْتُ: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿بعدها﴾ بعد هذه الكرة أو المسألة ﴿فلا تصاحبني﴾ فلا تقاربني وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك، وقرئ: فلا تصحبني فلا تكن صاحبي، وقرئ: فلا تصحبني أي: فلا تصحبني إياك ولا تجعلني صاحبك ﴿من لدني عذرًا﴾ قد أعذرت، وقرئ: لدني بتخفيف النون، ولدني بسكون الدال وكسر النون كقولهم في عضد: عضد، وعن رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك»[3]. وقال: «رحمة الله علينا وعلى أخي موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب».

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أهل قرية﴾ هي أنطاكية، وقيل: الأبلة وهي أبعد أرض الله من السماء ﴿أن يضيفوهما﴾ وقرئ: يضيفوهما، يقال: ضافه إذا ان له ضيفًا، وحقيقته: مال إليه من ضاف السهم عن الغرض، ونظيره: زاره من الازورار، وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفه، وعن النبي ﷺ: «كانوا أهل قرية لئامًا»[4]، وقيل: شر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه ﴿يريد أن ينقض﴾ استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة، كما استعير الهم والعزم لذلك. قال الراعي:

في مهمه قلقت به هاماتها قلق الفؤس إذا أردن نصولا

وقال:

يريد الرمح صدر أبي براء ويعدل عن دماء بني عقيل

وقال حسان:

إن دهرًا يلف شملي بجمل لزمان يهم بالإحسان

وسمعت من يقول: عزم السراج أن يطفأ وطلب أن يطفأ، وإذا كان القول والنطق والشكاية والصدق والكذب

(1) سورة الصافات، الآية: 89.

(2) رواه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: النساء الغازيات يرضخ لهن... (الحديث رقم: 4662).

(3) رواه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الأدعية (الحديث رقم: 988).

(4) رواه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام (الحديث رقم: 6115).

والسكوت والتمرد والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعارة للجماد ولما لا يعقل فما بال الإرادة! قال:

إذا قالت الانساع للبطن الحق تقول سني للنواة طني

لا ينطق اللهو حتى ينطق العود

وشكا إلي بعبرة وتحمحم فإن يك ظني صادقًا وهو صدقي:

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾[1]

تمرد مارد وعز الأبلق ولبعضهم يأبى على أجفانه إغفاؤه

هم إذا انقاد الهموم تمردا

أبت الروادف والثدي لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورًا

قالتا ﴿أتينا طائعين﴾[2] ولقد بلغني بعض المحرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم كان يجعل الضمير للخضر؛ لأنّ ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة، فتمحل ليرده إلى ما هو عنده أصح وأفصح، وعنده: أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز، وانقض إذا أسرع سقوطه من انقضاض الطائر وهو يفعل مطاوع قضضته، وقيل: افعل من النقض كاحمرّ من الحمرة، وقرئ: أن ينقض من النقض، وأن ينقاص من انقاصت السن إذا انشقت طولاً. قال ذو الرمة: منقاص ومنكثب بالصاد غير معجمة ﴿فأقامه﴾ قيل: أقامه بيده، وقيل: مسحه بيد فقام واستوى، وقيل: أقامه بعمود عمده به، وقيل: نقضه وبناه، وقيل: كان طول الجدار في السماء مائة ذراع، كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم، وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسئلة فلم يجدا مواسيًا، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجرًا﴾ وطلبت على عملك جعلاً حتى ننتعش، ونستدفع به الضرورة، وقرئ: لتخذت والتاء في تخذ أصل كما في تبع، واتخذ افتعل منه كاتبع من تبع وليس من الأخذ في شيء.

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾.

فإن قُلْتَ: ﴿هٰذا﴾ إشارة إلى ماذا؟ قُلْتُ: قد تصوّر فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام: ﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾[3] فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه كما تقول: هذا أخوك، فلا يكون هذا إشارة إلى غير الأخ، ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث أي: هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل هذا فراق بيني وبينك، وقد قرأ به ابن أبي عبلة: فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به.

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾.

﴿لمساكين﴾ قيل: كانت لعشرة إخوة خمسة منهم زمني، وخمسة يعملون في البحر ﴿وراءهم﴾ أمامهم كقوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ﴾[4] وقيل: خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه، وما كان عندهم خبره، فأعلم الله به الخضر وهو: جلندي.

فإن قُلْتَ[5]: قوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها، فكان حقه أن يتأخر عن السبب فلم قدّم عليه؟ قُلْتُ: النية به التأخير وإنما قدم للعناية، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين فكان بمنزلة قولك: زيد ظني مقيم. وقيل: في قراءة أبيّ وعبد الله: كل سفينة صالحة. وقرأ الجحدري: وكان أبواه مؤمنان، على أن كان فيه ضمير الشأن، ﴿فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا﴾ فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغيانًا عليهما وكفرًا لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شر أو بلاء، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتد بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان، وإنما خشي الخضر منه ذلك؛ لأنّ الله تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره، وأمره إياه بقتله كاخترامه لمفسدة عرفها في حياته، وفي قراءة أبيّ: فخاف ربك والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره، ويجوز أن يكون قوله: ﴿فخشينا﴾ حكاية لقول الله تعالى بمعنى: فكرهنا كقوله: ﴿لأهب لك﴾[6].

فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 154.

(2) سورة فصلت، الآية: 11.

(3) سورة الكهف، الآية: 76.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 100.

(5) قال أحمد: وكأنه جعل السبب في إعابتها، كونها لمساكين، ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب، بذكر عادة الملك في غصب السفن، وهذا هو حد الترتيب في التعليل، أن يرتب الحكم على السبب، ثم يوضح المناسبة فيما بعد، فلا يحتاج إلى جعله مقدماً، والنية تأخيره، والله أعلم، ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي، والمخالفة بينها في الأسلوب عجباً، ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة، بقوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ وأسنده في الثانية إلى = ضمير الجماعة والمعظم نفسه، في قوله: ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما﴾ و ﴿فخشينا أن يرهقهما﴾ ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة، من باب الأدب مع الله تعالى؛ لأنّ المراد: ثم عيب، فتأدب بأن نسب الإعابة إلى نفسه، وأما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور، فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك: أمرنا بكذا، أو دبرنا كذا، وإنما يعنون أمر الملك ودبر، ويدل على ذلك قوله في الثالثة: ﴿أراد ربك أن يبلغا أشدهما﴾ فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب، ولم تأت على نمط واحد مكرر، يمجها السمع، وينبو عنها، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة، فسبحان اللطيف الخبير.

(6) سورة مريم، الآية: 19.

وقرئ: يبدلهما بالتشديد. والزكاة: الطهارة والنقاء من الذنوب. والرحم: الرحمة والعطف، وروي: أنه ولدت لهما جارية تزوّجها نبي، فولدت نبيًا هدى الله على يديه أمّة من الأمم، وقيل: ولدت سبعين نبيًا، وقيل: أبدلهما ابنًا مؤمنًا مثلهما.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

قيل: اسما الغلامين أصرم وصريم، والغلام المقتول اسمه: الحسين، واختلف في الكنز فقيل: مال مدفون من ذهب وفضة[1]، وقيل: لوح من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن! وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب! وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح! وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل! وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! لا إله إلا الله محمد رسول الله[2]، وقيل: صحف فيها علم، والظاهر لإطلاقه أنه مال، وعن قتادة: أحل الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا، وحرّمت الغنيمة وأحلت لنا، أراد قوله تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾[3] ﴿وكان أبوهما صالحًا﴾ اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما، وعن جعفر بن محمد الصادق: كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء، وعن الحسين بن عليّ رضي الله تعالى عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما قال: فأبي وجدّي خير منه، فقال: قد نبأنا الله أنكم قوم خصمون ﴿رحمة﴾ مفعول له أو مصدر منصوب بأراد ربك؛ لأنه في معنى رحمهما ﴿وما فعلته﴾ وما فعلت ما رأيت ﴿عن أمري﴾ عن اجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾.

ذو القرنين هو: الإسكندر الذي ملك الدنيا قيل: ملكها مؤمنان ذو القرنين وسليمان، وكافران نمروذ وبختنصر[4] وكان بعد نمروذ، واختلف فيه فقيل: كان عبدًا صالحًا ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه، وقيل: نبيًا، وقيل: ملكًا من الملائكة، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللهم غفرًا ما رضيت أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة، وعن عليّ رضي الله عنه: سخر له السحاب، ومدّت له الأسباب، وبسط له النور، وسئل عنه فقال: أحب الله فأحبه. وسأله ابن الكوّا: ما ذو القرنين؟ أملك أم نبيّ؟ فقال: ليس بملك ولا نبي، ولكن كان عبدًا صالحًا ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فسمي ذا القرنين، وفيكم مثله، وقيل: كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه، فيحييه الله تعالى، وعن النبي ﷺ: «سمى ذا القرنين؛ لأنه طاف قرني الدنيا[5] يعني: جانبيها شرقها وغربها»، وقيل: كان له قرنان أي: ضفيرتان، وقيل: انقرض في وقته قرنان من الناس، وعن وهب؛ لأنه ملك الروم وفارس، وروي: الروم والترك، وعنه: كانت صفحتا رأسه من نحاس، وقيل: كان لتاجه قرنان، وقيل: كان على رأسه ما يشبه القرنين، ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشًا؛ لأنه ينطح أقرانه، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره. والسائلون: هم اليهود سألوه على جهة الامتحان؟ وقيل: سأله أبو جهل وأشياعه والخطاب في ﴿عليكم﴾ لأحد الفريقين ﴿من كل شيء﴾ أي: من أسباب كل شيء أراد من أغراضه ومقاصده في ملكه ﴿سببًا﴾ طريقًا موصلاً إليه، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة. فأراد بلوغ المغرب ﴿فاتبع سببًا﴾ يوصله إليه حتى بلغ، وكذلك أراد المشرق فاتبع سببًا، وأراد بلوغ السدّين فاتبع سببًا، وقرئ فاتبع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾.

قرئ: ﴿حمئة﴾ من حمئت البئر إذا صار فيها الحمأة، وحامية بمعنى: حارّة، وعن أبي ذرّ: كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل، فرأى الشمس حين غابت فقال: «يا أبا ذرّ أتدري أين تغرب هذه»؟ فقلت: الله ورسوله أعلم! قال: «فإنها تغرب في عين حامية»[6]. وهي: قراءة ابن مسعود، وطلحة، وابن عمر، وابن عمرو، والحسن، وقرأ ابن عباس: حمئة وكان ابن عباس عند معاوية، فقرأ معاوية: حامية، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمر: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم وجه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة. وروي: في ثأط فوافق قول ابن عباس، وكان ثمة رجل فأنشد قول تبع:

---

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف، (الحديث رقم: 3152) والحاكم في المستدرك 2/369.

(2) رواه البزار عن أبي ذر مرفوعًا.

(3) سورة التوبة، الآية: 34.

(4) رواه ابن أبي شيبة 11/564 كتاب: الفضائل، باب: في ذي القرنين.

(5) قال الزيلعي: غريب، ورواه الدارقطني في المؤتلف والمختلف = والزيلعي 2/309.

(6) رواه الحاكم في المستدرك 2/244، والإمام أحمد في مسنده 5/165، والبخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر، (الحديث رقم: 3199)، ومسلم في كتاب: الإيمان باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان الحديث رقم: (398).

فرأى مغيب الشمس عند مآبها ... في عين ذي خلب وثاط حرمد

أي: في عين ماء ذي طين وحمإ أسود، ولا تنافي بين الحمئة والحامية، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعًا.

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾.

كانوا كفرة فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل، وأن يدعوهم إلى الإسلام، فاختار الدعوة والاجتهاد في استمالتهم. فقال أمّا من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم الذي هو الشرك فذلك هو المعذب في الدارين ﴿وأمّا من آمن وعمل﴾ ما يقتضيه الإيمان ﴿فله جزاء الحسنى﴾ وقيل: خيره بين القتل والأسر، وسماه: إحسانًا في مقابلة القتل، فله جزاء الحسنى فله أن يجازي المثوبة الحسنى، أو فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة الشهادة، وقرئ: فله جزاء الحسنى أي: فله الفعلة الحسنى جزاء. وعن قتادة كان يطبخ من كفر في القدور وهو العذاب النكر، ومن آمن أعطاه وكساه ﴿من أمرنا يسرًا﴾ أي: لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك. وتقديره: ذا يسر كقوله: ﴿قولاً ميسورًا﴾[1] وقرئ: يسرًا بضمتين.

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾.

وقرئ: مطلع بفتح اللام وهو مصدر. والمعنى: بلغ مكان مطلع الشمس قوله:

كأن مجرّ الرامسات ذيولها

يريد كأنّ آثار مجرّ الرامسات ﴿على قوم﴾ قيل: هم الزنج. والستر: الأبنية، وعن كعب: أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوها. فإذا ارتفع النار خرجوا إلى معايشهم، وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت: عن هؤلاء فقيل: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم، فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى، ومعي صاحب يعرف لسانهم فقالوا له: جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس؟ قال: فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشي عليّ، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلونا سربًا لهم، فلما ارتفع النار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم، وقيل: الستر اللباس، وعن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض.

كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾.

﴿كذلك﴾ أي: أمر ذي القرنين كذلك أي: كما وصفناه تعظيمًا لأمره ﴿وقد أحطنا بما لديه﴾ من الجنود والآلات وأسباب الملك ﴿خبرًا﴾ تكثيرًا لذلك، وقيل: ﴿لم نجعل لهم من دونها سترًا﴾ مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية، والأكنان من كل جنس، والثياب من كل صنف، وقيل: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك أي: كما بلغ مغربها، وقيل: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم يعني: أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر وإحسانه إلى من آمن منهم.

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾.

﴿بين السدّين﴾ بين الجبلين، وهما جبلان سدّ ذو القرنين وما بينهما. قرئ: بالضم والفتح وقيل: ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل العباد فهو مفتوح؛ لأنّ السد بالضم فعل بمعنى مفعول أي: هو مما فعله الله تعالى وخلقه، والسدّ بالفتح مصدر حدث يحدّثه الناس. وانتصب ﴿بين﴾ على أنه مفعول به مبلوغ كما انجرّ على الإضافة في قوله: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾[2] وكما ارتفع في قوله: ﴿لقد تقطع بينكم﴾[3] لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفًا، وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق ﴿من دونهما قومًا﴾ هم الترك ﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾ لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم، وقرئ: يفقهون أي: لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه؛ لأن لغتهم غريبة مجهولة.

قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾.

﴿يأجوج ومأجوج﴾ اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وقرئا: مهموزين، وقرأ رؤبة: آجوج وماجوج، وهما من ولد يافث، وقيل: يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم ﴿مفسدون في الأرض﴾ قيل: كانوا يأكلون الناس وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئًا أخضر إلا أكلوه ولا يابسًا إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلاً وأذى شديدًا. وعن النبيّ ﷺ في صفتهم: «لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح»[4]. وقيل: هم على صنفين، طوال: مفرطو الطول، وقصار: مفرطو القصر، وقرئ: خرجًا وخراجًا أي: جعلاً

(1) سورة الإسراء، الآية: 28.
(2) سورة الكهف، الآية: 78.
(3) سورة الأنعام، الآية: 94.
(4) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب: التاريخ، باب: إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث (الحديث رقم: 6828).

يخرجه من أموالنا ونظيرهما النول والنوال. وقرئ: سدًا وسدًا بالفتح والضم.

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾.

﴿ما مكني فيه ربي خير﴾ ما جعلني فيه مكينًا من كثرة المال واليسار خير مما تبذلون لي من الخراج، فلا حاجة بي إليه كما قال سليمان صلوات الله عليه ﴿فما آتاني الله خيرًا مما آتاكم﴾[1] قرئ: بالإدغام وبفكه ﴿فاعينوني بقوة﴾ بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل، وبالآلات ﴿ردمًا﴾ حاجزًا حصينًا موثقًا، والردم اكبر من السد من قولهم: ثوب مردم رقاع فوق رقاع. قيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زبر الحديد، بينهما الحطب والفحم، حتى سدّ ما بين الجبلين إلا أعلاهما، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى، فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلدًا. وقيل: بعد ما بين السدين مائة فرسخ. وقرئ: سوى وسووي، وعن رسول الله ﷺ: «إنّ رجلاً أخبره به فقال: كيف رأيته؟ قال: كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء. قال: قد رأيته»[2]. والصدفان بفتحتين: جانبا الجبلين لأنهما يتصافان أي يتقابلان، وقرئ: الصدفين بضمتين، والصدْفين: بضمة وسكون، والصدَفين: بفتحة وضمة. والقطر النحاس المذاب؛ لأنه يقطر و ﴿قطرًا﴾ منصوب بأفرغ وتقديره: آتوني قطرًا أفرغ عليه قطرًا فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. وقرئ: قال ائتوني أي: جيئوني ﴿فما استطاعوا﴾ بحذف التاء للخفة؛ لأنّ التاء قريبة المخرج من الطاء، وقرئ: فما اصطاعوا بقلب السين صادًا، وأما من قرأ: بإدغام التاء في الطاء فملاق بين ساكنين على غير الحد ﴿أن يظهروه﴾ أي: يعلوه أي: لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه وانملاسه، ولا نقب لصلاته وثخانته.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾.

﴿هٰذا﴾ إشارة إلى السد أي: هذا السد نعمة من الله ﴿رحمة﴾ على عباده، أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ يعني فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي. جعل السد ﴿دكًا﴾ أي: مدكوكًا مبسوطًا مسوى بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك، ومنه الجمل الأدك المنبسط السنام، وقرئ: دكاء بالمد، أرضًا مستوية ﴿وكان وعد ربي حقًا﴾ آخر حكاية قول ذي القرنين.

۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾.

﴿وتركنا﴾ وجعلنا ﴿بعضهم﴾ بعض الخلق ﴿يموج في بعض﴾ أي: يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى، ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السدّ مزدحمين في البلاد، وروي: يأتون البحر فيشربون ماءه، ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفًا في أقفائهم، فيدخل في آذانهم فيموتون.

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾.

﴿وعرضنا جهنم﴾ وبرزناها لهم فرأوها وشاهدوها.

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾.

﴿عن ذكري﴾ عن آياتي التي ينظر إليها فانكر بالتعظيم، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها، ونحوه: ﴿صم بكم عمي﴾[3] ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعًا﴾ يعني: وكانوا صمًا عنه إلا أنه أبلغ؛ لأنّ الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع.

﴿عبادي من دوني أولياء﴾ هم الملائكة يعني: أنهم لا يكونون لهم أولياء، كما حكي عنهم: ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾[4] وقرأ ابن مسعود: أفظن الذين كفروا، وقراءة علي رضي الله عنه: فحسب الذين كفروا أي: إفكًا فيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر، أو على الفعل والفاعل؛ لأنّ الاسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل كقولك: أقائم الزيدان، والمعنى: أنّ ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا، وهي قراءة محكمة جيدة. النزل ما يقام للتنزيل وهو: الضيف ونحوه ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[5].

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

(1) سورة النمل، الآية: 36.
(2) رواه الطبري في تفسيره وابن مردويه، (الزيلعي 2/312).
(3) سورة البقرة، الآيتان: 18 و171.
(4) سورة سبأ، الآية: 41.
(5) بعض آية ورد في ثلاثة مواضع منها: سورة آل عمران، الآية: 21.

﴿ضل سعيهم﴾ ضاع وبطل وهم: الرهبان، عن علي رضي الله عنه كقوله: ﴿عاملة ناصبة﴾[1] وعن مجاهد: أهل الكتاب، وعن علي رضي الله عنه: أنّ ابن الكوّا سأله عنهم فقال: منهم أهل حروراء. وعن أبي سعيد الخدري: يأتي ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئًا ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا﴾ فيزدرى بهم، ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار. وقيل: لا يقام لهم ميزان؛ لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيآت من الموحدين، وقرئ: فلا يقيم بالياء.

فإن قُلْتَ: الذين ضل سعيهم في أي محل هو؟ قُلْتُ: الأوجه أن يكون في محل الرفع على هم الذين ضل سعيهم؛ لأنه جواب عن السؤال، ويجوز أن يكون نصبًا على الذم أو جرًا على البدل ﴿جهنم﴾ عطف بيان لقوله جزاؤهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

الحول: التحول. يقال: التحول: حال من مكانه حولاً كقولك: عادني حبها عودًا يعني: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانهم وهذه غاية الوصف؛ لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح الطرف إلى أرفع منه؛ ويجوز أن يراد نفي التحوّل وتأكيد الخلود.

المداد: اسم ما تمدّ به الدواة من الحبر، وما يمدّ به السراج من السليط، ويقال: السماد مداد الأرض، والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مدادًا لها والمراد بالبحر: الجنس ﴿لنفد البحر قبل أن تنفد﴾ الكلمات ﴿ولو جئنا﴾ بمثل البحر مدادًا لنفد أيضًا والكلمات غير نافذة و ﴿مددًا﴾ تمييز كقولك: لي مثله رجلاً، والمدد مثل المدد وهو: ما يمد به، وعن ابن عباس رضي الله عنه: بمثله مدادًا وقرأ الأعرج: مددًا بكسر الميم جمع مدة وهي ما يستمده الكاتب فيكتب به، وقرئ: ينفد بالياء، وقيل: قال حييّ بن أخطب في كتابكم: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾[2] ثم تقرؤن: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[3] فنزلت يعني: أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾.

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول، وقد فسرنا اللقاء، أو أفمن كان يخاف سوء لقائه.

والمراد بالنهي عن الإشراك بالعبادة أن لا يرائي بعمله وأن لا يبتغي به إلا وجه ربه خالصًا لا يخلط به غيره، وقيل: نزلت في جندب بن زهير، قال للنبي ﷺ: إني أعمل العمل لله فإذا اطلع عليه سرني فقال: «إنّ الله لا يقبل ما شورك فيه»[4]. وروي أنه قال: «لك أجران أجر السر وأجر العلانية»[5]. وذلك إذا قصد أن يقتدى به، وعنه ﷺ: «اتقوا الشرك الأصغر قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء»[6].

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورًا من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلها كانت له نورًا من الأرض إلى السماء»[7]. وعنه ﷺ: «من قرأ عند مضجعه ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ كان له من مضجعه نورًا يتلألأ إلى مكة، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، وإن كان مضجعه بمكة كان له نورًا يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ»[8]، والله أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة مريم مكية

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾.

﴿كهيعص﴾ قرأ بفتح الهاء وكسر الياء حمزة، وبكسرهما عاصم. وبضمهما الحسن، وقرأ الحسن: ذكر رحمة ربك أي: هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك، وقرئ: ذكر على الأمر. راعى سنة الله في إخفاء دعوته؛ لأنّ الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى؛ لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص. وعن الحسن: نداء لا رياء فيه، وأخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرة والشيخوخة، أو أسره من مواليه الذين خافهم، أو خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات وسمعه تارات، واختلف في سن زكريا عليه السلام،

---

(1) سورة الغاشية، الآية: 3.
(2) سورة البقرة، الآية: 269.
(3) سورة الإسراء، الآية: 85.
(4) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 170.
(5) رواه ابن حبان في كتاب: البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها (الحديث رقم: 375) والترمذي في كتاب: الزهد، باب: عمل = السر (الحديث رقم: 2384).
(6) رواه أحمد في مسنده 428/5، والبيهقي في الشعب، باب: في إخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء (الحديث رقم: 6831).
(7) رواه أحمد في مسنده 439/3.
(8) كشف الأستار، كتاب: الأذكار، باب ما يقرأ في الليل، (الحديث رقم: 3108).

فقيل: ستون، وخمس وستون، وسبعون وخمس وسبعون، وخمس وثمانون.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾.

قرئ: ﴿وهن﴾ بالحركات الثلاث وإنما ذكر العظم؛ لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوّته، ولأنه أشدّ ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشدّ ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصدًا إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها. إدغام السين في الشين عن أبي عمرو. شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر، وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو: الرأس وأخرج الشيب مميزًا، ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة. توسل إلى الله بما سلف له معه من الاستجابة. وعن بعضهم: أن محتاجًا سأله وقال: أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا، فقال: مرحبًا بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾.

كان مواليه وهم عصبته: إخوته وبنو عمه شرار بني إسرائيل، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقبًا من صلبه صالحًا يقتدي به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه ﴿من ورائي﴾ بعد موتي، وقرأ ابن كثير: من وراي بالقصر وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لفساد المعنى ولكن بمحذوف، أو بمعنى الولاية في الموالي أي: خفت فعل الموالي وهو: تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي، أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي، وقرأ عثمان، ومحمد بن علي، وعلي بن الحسين رضي الله عنهم: خفت الموالي من ورائي، وهذا على معنيين: أحدهما يكون ورائي بمعنى: خلفي وبعدي، فيتعلق الظرف بالموالي أي: قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه. والثاني: أن يكون بمعنى: قدامي فيتعلق بخفت، ويريد أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد ﴿من لدنك﴾ تأكيد لكونه وليًا مرضيًا بكونه مضافًا إلى الله تعالى وصادرًا من عنده، وإلا فهب لي وليًا يرثني كاف، أو أراد اختراعًا منك بلا سبب لأني وامرأتي لا نصلح للولادة.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾.

﴿يرثني ويرث﴾ الجزم جواب الدعاء والرفع صفة ونحوه ﴿ردءًا يصدقني﴾[1]. وعن ابن عباس والجحدري: يرثني وارث آل يعقوب نصب على الحال. وعن الجحدري، أو يرث على تصغير وارث، وقال: غليم صغير. وعن علي رضي الله عنه وجماعة: وارث من آل يعقوب أي: يرثني به وارث ويسمى التجريد في علم البيان. والمراد بالإرث: إرث الشرع والعلم؛ لأنّ الأنبياء لا تورث المال، وقيل: يرثني الحبورة وكان حبرًا، ويرث من آل يعقوب الملك. ويقال: ورثته وورثت منه لغتان. وقيل: من للتبعيض لا للتعدية؛ لأنّ آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء، وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحٰق. وقيل: هو يعقوب بن ماثان أخو زكريا. وقيل: يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾.

﴿سميًا﴾ لم يسم أحد بيحي قبله، وهذا شاهد على أنّ الأسامي السنع جديرة بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبر، حتى قال القائل في مدح قوم:

سنع الأسامي مسبلي أزر ... حمر تمس الأرض بالهدب

وقال رؤبة للنسابة البكري وقد سأله عن نسبه: أنا ابن العجاج. فقال: قصرت وعرفت. وقيل: مثلاً وشبيهًا عن مجاهد كقوله: ﴿هل تعلم له سميًا﴾[2]. وإنما قيل للمثل سمي؛ لأنّ كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير فكل واحد منهما سمي لصاحبه. ونحو يحيى في أسمائهم يعمر ويعيش إن كانت التسمية عربية، وقد سموا بيموت أيضًا وهو: يموت ابن المزرع قال: لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر، وأنه كان حصورًا أي: كانت عليّ صفة العقر حين أنا شاب وكهل، فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين. أفحين اختل السببان جميعًا أرزقه!.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾.

فإن قلت:[3] لم طلب أولاً وهو وامرأته على صفة العتي

---

(1) سورة القصص، الآية: 34.

(2) سورة مريم، الآية: 65.

(3) قال أحمد: وفيما أجاب به نظر؛ لأنه التزم أنّ زكريا استبعد ما وعده الله عز وجل بوقوعه، ولا يجوز للنبي النطق بما لا يسوغ، لمثل هذه الفائدة التي عينها الزمخشري، ويمكن حصولها بدونه، = فالظاهر في الجواب، والله أعلم، أن طلبة زكريا إنما كانت ولداً من حيث الجملة، وبحسب ذلك أجيب، وليس في الإجابة ما يدل على أنه يولد له وهو هرم، ولا أنه من زوجته وهي عاقر، فاحتمل عنده أن يكون الموعود وهما بهذه الحالة، واحتمل أن تعادلهما قوتهما وشبابهما، كما فعل الله ذلك لغيرهما، أو أن يكون من غير زوجته=

والعقر فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟ **قُلْتُ**: ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون إيقانًا ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكريا أولاً وآخرًا كان على منهاج واحد في أنّ الله غني عن الأسباب. أي بلغت عتيًا وهو: اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل يقال:عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن في السن العالية، أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيًا. وقرأ ابن وثاب، وحمزة، والكسائي: بكسر العين وكذلك ﴿صليًا﴾[1] وابن مسعود: بفتحهما فيهما. وقرأ أبيّ ومجاهد: عسيًا.

قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾.

﴿كذلك﴾ الكاف رفع أي: الأمر كذلك تصديق له، ثم ابتدأ ﴿قال ربك﴾ أو نصب بقال، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره ﴿هو عليَّ هيِّن﴾ ونحوه: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾[2]. وقرأ الحسن: وهو علي هين. ولا يخرج هذا إلا على الوجه الأوّل أي: الأمر كما قلت، وهو على ذلك يهون علي، ووجه آخر وهو: أن يشار بذلك إلى ما تقدم من وعد الله لا إلى قول زكريا، وقال محذوف في كلتا القراءتين أي: قل هو علي هين، قال وهو علي هين، وإن شئت لم تنوه؛ لأنّ الله هو المخاطب والمعنى: أنه قال ذلك ووعده وقوله الحق ﴿شيئًا﴾[3] لأن المعدوم ليس بشيء، أو شيئًا يعتدّ به كقولهم: عجبت من لا شيء وقوله:

إذا رأى غيـر شـيء ظـنـه رجـلاً

وقرأ الأعمش، والكسائي، وابن وثاب: خلقناك.

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾.

أي: جعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به، قال: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح سوي الخلق ما بك خرس ولا بكم. دلّ ذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران على أنّ المنع من الكلام استمرّ به ثلاثة أيام ولياليهنّ.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾.

أوحى: أشار، عن مجاهد: ويشهد له: ﴿إلا رمزًا﴾[4] وعن ابن عباس: كتب لهم على الأرض ﴿سبحوا﴾ صلوا، أو على لظاهر وأن هي المفسرة.

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾.

أي: خذ التوراة بجدّ واستظهار بالتوفيق والتأييد ﴿الحكم﴾ الحكمة ومنه: واحكم كحكم فتاة الحي، يقال: حكم حكمًا كحلم، وهو: الفهم للتوراة والفقه في الدين. عن ابن عباس، وقيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي فقال: ما للعب خلقنا. عن الضحاك، وعن معمر: العقل، وقيل: النبوّة؛ لأنّ الله أحكم عقله في صباه، وأوحى إليه ﴿حنانًا﴾ رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفًا وشفقة. أنشد سيبويه:

وقالت حنان ما أتى بك ههنا   أذو نسب أم أنت بالحي عارف

وقيل: حنانًا من الله عليه، وحنّ في معنى ارتاح واشتاق ثم استعمل في العطف والرأفة. وقيل: لله حنان كما قيل: رحيم على سبيل الاستعارة. والزكاة: الطهارة، وقيل: الصدقة أي: يتعطف على الناس ويتصدّق عليهم. سلم الله عليه في هذه الأحوال، قال ابن عيينة: إنها أوحش المواطن.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾.

﴿إذ﴾ بدل من مريم بدل الاشتمال؛ لأنّ الإحياء مشتملة على ما فيها، وفيه أنّ المقصود بذكر مريم: ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه. والانتباذ: الاعتزال والانفراد، تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس، أو من دارها معتزلة عن الناس، وقيل: قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط، أو بشيء يسترها، وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحوّلت إلى بيت خالتها، فإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينا هي في مغتسلها أتاها الملك في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سويّ الخلق لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئًا، أو حسن الصورة مستوى الخلق، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر منه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه.

قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾.

= العاقر، فاستبعد الولد منهما، وهما بحالهما، فاستخبر أن يكون وهما كذلك، فقيل: كذلك، أي: يكون الوالد وأنتما كذلك، فقد انصرف الإبعاد إلى عين الموعود، فزال الإشكال، والله أعلم.

(1) سورة مريم، الآية: 70.

(2) سورة الحجر، الآية: 66.

(3) قال أحمد: فسر أولاً على ظاهر النفي الصرف، وهو الحق؛ لأنّ = المعدوم ليس شيئاً قطعاً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إنّ المعدوم الممكن شيء، ومن ثم كافح الزمخشري عن البقاء على التفسير الأوّل إلى الثاني، بوجه من التأويل يلائم معتقد المعتزلة، فجعل المنفي الشيئية المعتدّ بها، وإن كانت الشيئية المطلقة ثابتة عنده للمعدوم، والحق بقاء الظاهر في نصابه.

(4) سورة آل عمران، الآية: 41.

ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوّذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسبرا لعفتها. وقيل: كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها، فانفجر السقف لها فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك، وقيل قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه: يوسف من خدم بيت المقدس. وقيل: إنّ النصارى اتخذت المشرق قبلة لانتباذ مريم مكانًا شرقيًا. الروح جبريل؛ لأنّ الدين يحيا به وبوحيه، أو سماه الله روحه على المجاز محبة له وتقريبًا كما تقول لحبيبك: أنت روحي، وقرأ أبو حيوة: روحنا بالفتح؛ لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدّة المقرّبين في قوله: ﴿فأمّا إن كان من المقرّبين فروح وريحان﴾[1] أو لأنه من المقرّبين وهم الموعودون بالروح أي: مقرّبنا وذا روحنا. أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به فإني عائذة به منك كقوله تعالى: ﴿بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾[2]. أي: إنما أنا رسول من استعنت به ﴿لأهب لك﴾ لأكون سببًا في هبة الغلام بالنفخ في الدرع، وفي بعض المصاحف: إنما أنا رسول ربك أمرني أن أهب لك، أو هي حكاية لقول الله تعالى. جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال؛ لأنه كناية عنه كقوله تعالى: ﴿من قبل أن تمسوهنّ﴾[3] ﴿أو لمستم النساء﴾[4] والزنا ليس كذلك إنما يقال فيه: فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب، والبغي الفاجرة التي: تبغي الرجال، وهي فعول عند المبرّد: بغوي فادغمت الواو في الياء، وقال ابن جني في كتاب التمام: هي فعيل ولو كانت فعولاً لقيل بغو، كما قيل: فلان نهوّ عن المنكر ﴿ولنجعله﴾ آية تعليل معللة محذوف أي ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تعليل مضمر أي: لنبين به قدرتنا ولنجعله آية، ونحوه: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾[5] وقوله: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾[6] ولنعلمه.

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾.

﴿مقضيًا﴾ مقدرًا مسطورًا في اللوح لابدّ لك من جريه عليك، أو كان أمرًا حقيقًا بأن يكون ويقضي لكونه آية رحمة، والمراد بالآية: العبرة والبرهان على قدرة الله، وبالرحمة: الشرائع والألطاف، وما كان سببًا في قوّة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح فهو جدير بالتكوين. عن ابن عباس: فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت، وقيل: كانت مدّة الحمل ستة أشهر، وعن عطا، وأبي العالية، والضحاك: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل:حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها، وعن ابن عباس: كانت مدّة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته، وقيل: حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل: بنت عشر، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل، وقالوا: ما من مولود إلا يستهلّ غيره ﴿فانتبذت به﴾ أي: اعتزلت وهو في بطنها كقوله:

تدوس بنا الجماجم والتريبا

أي: تدوس الجماجم ونحن على ظهورها. ونحوه قوله تعالى: ﴿تنبت بالدهن﴾[7] أي: تنبت ودهنها فيها، الجار والمجرور في موضع الحال ﴿قصيًا﴾ بعيدًا من أهلها وراء الجبل. وقيل: أقصى الدار، وقيل: كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف، فلما قيل: حملت من الزنا خاف عليها قتل الملك، فهرب بها، فلما كان ببعض الطريق حدّثته نفسه بأن يقتلها، فأتاه جبريل فقال: إنه من روح القدس فلا تقتلها، فتركها.

فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾.

﴿فأجاءها﴾ أجاء منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، ألا تراك لا تقول: جئت المكان، وأجاءنيه زيد، كما نقول: بلغته وأبلغنيه، ونظيره: آتي حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء، ولم تقل: أتيت المكان وآتانيه فلان. قرأ ابن كثير في رواية ﴿المخاض﴾ بالكسر يقال: مخضت الحامل مخاضًا ومخاضًا وهو: تمخض الولد في بطنها. طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاء، والتعريف لا يخلو: إمّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة، كتعريف النجم والصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس فإذا قيل: جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل. وإمّا: أن يكون تعريف الجنس أي: جذع هذه الشجرة خاصة، كان الله تعالى إنما ارشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها؛ ولأن النخلة أقل شيء صبرًا على البرد،

(1) سورة الواقعة، الآيتان: 88 و89.
(2) سورة هود، الآية: 86.
(3) سورة البقرة، الآية: 237.
(4) سورة النساء، الآية: 43.
(5) سورة الجاثية، الآية: 22.
(6) سورة يوسف، الآية: 56.
(7) سورة المؤمنون، الآية: 20.

وثمارها إنما هي من جمارها، فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها. قرئ: ﴿مت﴾ بالضم والكسر، يقال: مات يموت ومات يمات.

النسي ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطامث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح في قوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾[1] وعن يونس: العرب إذ ارتحلوا عن الدار قالوا: انظروا أنساءكم أي: الشيء اليسير نحو العصا والقدح والشظاظ، تمنت لو كانت شيئًا تافهًا لا يؤبه له من شأنه وحقه أن ينسى في العادة وقد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه، وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشوّر من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله أو لشدّة التكليف عليها إذا بهتوها، وهي عارفة ببراءة الساحة وبضدّ ما قرفت به من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام؛ لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيبًا يعاب به ويعنف بسببه، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها، وقرأ ابن وثاب، والأعمش، وحمزة، وحفص: نسيًا بالفتح. قال الفراء: هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر، ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر كالحمل، وقرأ محمد بن كعب القرظي: نسأ بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسؤه أهله لقلته ونزارته. وقرأ الأعمش: منسيًا بالكسر على الاتباع كالمغيرة والمنخر.

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾.

﴿من تحتها﴾ هو: جبريل عليه السلام قيل: كان يقبل الولد كالقابلة، وقيل: هو عيسى وهي: قراءة عاصم وأبي عمرو، وقيل: تحتها أسفل من مكانها كقوله: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾[2] وقيل: كان أسفل منها تحت الأكمة فصاح بها: لا تحزني وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي؛ وحفص؛ من تحتها وفي ناداها ضمير الملك أو عيسى، وعن قتادة: الضمير في تحتها للنخلة، وقرأ زر وعلقمة: فخاطبها من تحتها. سئل النبي ﷺ عن السري فقال: «هو الجدول»[3]. وقال لبيد:

فتوسطا عرض السري فصدّعا ... مسجورة متجاورًا قلامها

وقيل: هو من السرور والمراد عيسى، وعن الحسن: كان والله عبدًا سريًا.

فإن قلت: ماكان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب؟ **قلت**: لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة، وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل، وأن لها أمورًا إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أنّ ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾.

﴿تساقط﴾ فيه تسع قراآت: تساقط بإدغام التام، وتتساقط بإظهار التاءين، وتساقط بطرح الثانية، ويساقط بالياء وإدغام التاء، وتساقط وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط، التاء للنخلة والياء للجذع، ورطبًا تمييز، أو مفعول على حسب القراءة، وعن المبرد: جواز انتصابه بهزي وليس بذاك، والباء في بجذع النخلة صلة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[4] أو على معنى: افعلي الهز به كقوله: يجرح في عراقيبها نصلي، قالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك، وقالوا: كان من العجوة، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل. وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب. عن طلحة بن سليمان ﴿جنيًا﴾ بكسر الجيم للاتباع أي: جمعنا لك في السري والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب، والثانية: سلوة الصدر لكونهما معجزتين وهو معنى قوله: ﴿فكلي واشربي وقري عينًا﴾ أي: وطيبي نفسًا ولا تغتمي، وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك. وقرئ: ﴿وقري﴾ بالكسر لغة نجد ﴿فإما ترين﴾ بالهمز، ابن الرومي. عن أبي عمرو: وهذا من لغة من يقول: لبأت بالحج: وحلأت السويق، وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال ﴿صومًا﴾ صمتًا، وفي مصحف عبد الله: صمتًا، وعن أنس بن مالك مثله، وقيل: صيامًا، إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت[5]؛ لأنه نسخ في أمته، أمرها الله بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها في الكلام المعنيين أحدهما: أنّ عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها، والثاني: كراة مجادلة السفهاء ومناقلتهم، وفيه أنّ السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهًا، قيل: أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقيل: سوغ لها بالنطق ﴿إنسيًا﴾ أي: أكلم الملائكة دون الإنس.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾.

الفري: البديع وهو من فرى الجلد ﴿يا أخت هرون﴾ كان أخاها من أبيها من أمثل بني إسرائيل وقيل: هو: أخوه

---

(1) سورة الصافات، الآية: 107.

(2) سورة البقرة، الآية: 25.

(3) رواه الحاكم في المستدرك 2/273.

(4) سورة البقرة، الآية: 195.

(5) تقدم عن أبي داود في سورة النساء.

موسى صلوات الله عليهما، وعن النبي ﷺ: «إنما عنوا هُرون النبي، وكانت من أعقابه في طبقة الإخوة، بينها وبينه ألف سنة وأكثر». وعن السدي: كانت من أولاده، وإنما قيل: يا أخت هُرون[1] كما يقال: يا أخا همدان أي: يا واحدًا منهم، وقيل: رجل صالح أو طالح في زمانها شبهوها، أي: كنت عندنا مثله في الصلاح، أو شتموها به، ولم ترد إخوة النسب. ذكر أن هُرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفًا كلهم يسمى هُرون تبركًا به وباسمه، فقالوا: كنا نشبهك بهرون هذا. وقرأ عمر بن لجا التيمي: ﴿ما كان أباك امرؤ سوء﴾ وقيل: احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار فلبثوا فيه أربعين يومًا حتى تعلت من نفاسها، ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق، فقال: يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكبوا وقالوا ذلك، وقيل: هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام فتركوها.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾.

﴿فأشارت إليه﴾ أي: هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه، وقيل: كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام. وعن السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها. وروي: أنه كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته، وقيل: كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغًا يتكلم فيه الصبيان ﴿كان﴾ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده، وهو ههنا: لقريبه خاصة، والدال عليه مبنى الكلام وأنه مسوق للتعجب، ووجه آخر: أن يكون نكلم حكاية حال ماضية أي: كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبيًا في المهد فيما سلف من الزمان حتى تكلم هذا.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾.

أنطقه الله أوّلاً بأنه عبد الله ردًا لقول النصارى و﴿الكتاب﴾ هو الإنجيل. واختلفوا في نبوّته، فقيل: أعطيها في طفوليته، أكمل الله عقله واستنبأ طفلاً نظرًا في ظاهر الآية، وقيل معناه: إنّ ذلك سبق في قضائه، أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد ﴿مباركًا أينما كنت﴾ عن رسول الله ﷺ: «نفاعًا حيث كنت»[2]. وقيل: معلمًا للخير. وقرئ: ﴿وبِرّا﴾ عن أبي نهيك: جعل ذاته برًا لفرط بره، أو نصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني؛ لأن أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحد ﴿والسلام علي﴾ قيل: أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله كقولك: جاءنا رجل فكان من فعل الرجل كذا، والمعنى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إلي، والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضًا باللعنة على متهمي مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود، وتحقيقه أنّ اللام للجنس فإذا قال: وجنس السلام علي خاصة، فقد عرض بأن ضده عليكم. ونظيره قوله تعالى: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾[3] يعني: أنّ العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام مناكرة وعاد فهو مئنة لنحو هذا من التعريض.

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾.

قرأ عاصم وابن عامر ﴿قول الحق﴾ بالنصب، وعن ابن مسعود: قال الحق، وقال الله، وعن الحسن: قول الحق بضم القاف وكذلك في الأنعام ﴿قوله الحق﴾[4] والقول والقال والقول بمعنى واحد: كالرهب والرهب والرهب، وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر، أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق كقولك: هو عبد الله حقًا والحق لا الباطل، وإنما قيل لعيسى: كلمة الله و﴿قول الحق﴾ لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها: وهي قوله: كن من غير واسطة أب تسمية للمسبب باسم السبب كما سمي العشب بالسماء، والشحم والشحم بالندا، ويحتمل: إذا أريد بقول الحق عيسى أن يكون الحق اسم الله عزّ وجل، وأن يكون بمعنى: الثبات والصدق ويعضده قوله: ﴿الذي فيه يمترون﴾ أي أمره حق يقين وهم فيه شاكون ﴿يمترون﴾ يشكون والمرية: الشك، أو يتمارون: يتلاحون، قالت اليهود: ساحر كذاب، وقالت النصارى: ابن الله وثالث ثلاثة، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تمترون على الخطاب، وعن أبي بن كعب: قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون. كذب النصارى. وبكتهم بالدلالة على إنتفاء الولد عنه وأنه مما لا يتأتى ولا يتصوّر في العقول ولي بمقدور عليه، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئًا من الأجناس كلها أوجده: يكن، كان منزهًا من شبه الحيوان الوالد. والقول ههنا مجاز ومعناه، أنّ إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف، فشبه ذلك بأمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المتمثل.

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾.

---

(1) رواه مسلم في كتاب: الآداب باب: النهي التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء (الحديث رقم: 5563) والترمذي في كتاب: تفسير القرآن باب: ومن سورة مريم (الحديث رقم: 3155).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية: 3/25.

(3) سورة طه، الآية: 47.

(4) سورة الأنعام، الآية: 73.

وقرأ المدنيون، وأبو عمرو: بفتح أن ومعناه: ولأنه ربي وربكم فاعبدوه، كقوله: ﴿وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا﴾[1] والأستار، وأبو عبيد: بالكسر على الابتداء، وفي حرف أبي: إنّ الله بالكسر بغير واو، وبأنّ الله أي: بسبب ذلك فاعبدوه.

فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾.

﴿الأحزاب﴾ اليهود والنصارى. عن الكلبي، وقيل: النصارى لتحزبهم ثلاث فرق، نسطورية ويعقوبية وملكانية، وعن الحسن الذين تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس ﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة، أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف، أو من وقت الشهود، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال، أو من مكان الشهادة، أو وقتها، وقيل: هو ما قالوه وشهدا به في عيسى وأمّه.

أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾.

لا يوصف الله تعالى بالتعجب وإنما المراد: أنّ أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صمًا وعميًا في الدنيا، وقيل معناه: التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم. أوقع الظاهر أعني: الظالمين موقع الضمير إشعارًا بأن لا ظلم أشدّ من ظلمهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ويسعدهم، والمراد. بالضلال المبين: إغفال النظر والاستماع.

﴿قضى الأمر﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار. وعن النبي ﷺ أنه سئل عنه أي: عن قضاء الأمر فقال: «حين يذبح الكبش والفريقان ينظران»[2]. وإذ بدل من يوم الحسرة، أو منصوب بالحسرة ﴿وهم في غفلة﴾ متعلق بقوله: ﴿في ضلال مبين﴾، عن الحسن ﴿وأنذرهم﴾ اعتراض، أو هو متعلق بأنذرهم أي: وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين. يحتمل أنه يميتهم ويخرب ديارهم وأنه يفني أجسادهم، ويفني الأرض ويذهب بها.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾.

الصديق: من أبنية المبالغة، ونظيره: الضحيك، والنطيق، والمراد: فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل أي: كان مصدقًا بجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبيًا في نفسه كقوله تعالى: ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾[3] وكان بليغًا في الصدق. لأنّ ملاك أمر النبوّة الصدق، ومصدق الله بآياته ومعجزاته حري أن يكون كذلك، وهذه الجملة وقعت اعتراضًا بين المبدل منه وبدله أعني: إبراهيم و﴿إذ قال﴾ نحو قولك، رأيت زيدًا، ونعم الرجل أخاك، ويجوز أن يتعلق إذ بكان، أو بصديقًا نبيًا أي: كان جامعًا لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات، والمراد بذكر الرسول إياه وقصته في الكتاب: أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم كقوله: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾[4] وإلا فالله عزّ وجلّ هو ذاكره ومورده في تنزيله. التاء في ﴿يا أبت﴾ عوض من ياء الإضافة، ولا يقال يا أبتي لئلا يجمع بين العوض والمعوّض منه. وقيل: يا أبتا لكون الألف بدلاً من الياء، وشبه ذلك سيبويه: بأينق وتعويض الياء فيه عن الواو الساقطة. انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورّطًا فيه، من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن، منتصحًا في ذلك بنصيحة ربه عزّ وعلا، حدّث أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام إنك خليلي، حسن خلقك ولو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار، فإنّ كلمتي سبقت لمن حسن خلقه، أظله تحت عرشي، وأسكنه حظيرة القدس، وأدنيه من جواري»[5]. وذلك أنه طلب منه أوّلاً: العلة في خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه؛ لأنّ المعبود لو كان حيًا مميزًا سميعًا بصيرًا مقتدرًا على الثواب والعقاب نافعًا ضارًا إلا أنه بعض الخلق، لاستخفّ عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية، ولسجل عليه بالغيّ المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة كالملائكة والنبيين قال الله تعالى: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾[6] وذلك أنّ العبادة هي غاية التعظيم فلا تحق

(1) سورة الجن، الآية: 18.
(2) رواه البخاري في كتاب: التفسير من سورة مريم، باب: «وأنذرهم يوم الحسرة» (الحديث رقم: 4730) ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، (الحديث رقم: 40 ـ 2849).
(3) سورة الصافات، الآية: 37.
(4) سورة الشعراء، الآية: 69.
(5) رواه الطبراني في الأوسط، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، (الزيلعي 2/326).
(6) سورة آل عمران، الآية: 80.

إلا لمن له غاية الإنعام وهو: الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب الذي منه أصول النعم وفروعها، فإذا وجهت إلى غيره وتعالى علوًا كبيرًا أن تكون هذه الصفة لغيرة لم يكن إلا ظلمًا وعتوًا وغيًا وكفرًا وجحودًا وخروجًا عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم، فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور: فلا يسمع يا عابده ذكرك له وثناءك عليه، ولا يرى هيآت خضوعك وخشوعك له، فضلاً أن يغني عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه، أو تسنح لك حاجة فيكفيها.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾.

ثم ثنى: بدعوته إلى الحق مترفقًا به متلطفًا، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إنّ معي طائفة من العلم وشيئًا منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضلّ وتتيه.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾.

ثم ثلث: بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بأنّ الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده، وهو: عدوّك الذي لا يريد بك إلا كلّ هلاك وخزي ونكال، وعدوّ أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم. هو: الذي ورّطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان، إلا أنّ إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الأخلاص ولارتقاء همته في الربانية لم يذكر من جنايتي الشيطان إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذرّيته، كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾.

ثم ربع: بتخويفه سوء العاقبة وبما يجرّه ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرّح بأنّ العقاب لا حق له وأنّ العذاب لاصق به ولكنه قال: ﴿أخاف أن يمسك عذاب﴾ فذكر الخوف والمسّ ونكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، وذلك أنّ رضوان الله أكبر من الثواب نفسه، وسماه الله تعالى المشهود له بالفوز العظيم حيث قال: ﴿ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾[1] فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله:

يا أبت توسلاً إليه واستعطافًا

﴿ما في﴾ ﴿ما لا يسمع﴾ و﴿ما لم يأتك﴾ يجوز أن تكون: موصولة وموصوفة والمفعول في لا يسمع ولا يبصر منسي غير منويّ كقولك:

ليس به استماع ولا إبصار

﴿شيئًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون في موضع المصدر أي: شيئًا من الغناء، ويجوز أن يقدّر نحوه مع الفعلين السابقين، والثاني: أن يكون مفعولاً به من قولهم:

أغني عني وجهك

﴿إني قد جائني من العلم ما لم يأتك﴾ فيه تجدّد العلم عنده. لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات. أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد فناداه باسمه، ولم يقابل يا أبت بيا بنيّ: وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أراغب انت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ لأنه كان أهمّ عنده، وهو عنده أعني وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد، وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله ﷺ عما كان يلقي من مثل ذلك من كفار قومه ﴿لأرجمنك﴾ لأرمينك بلساني يريد الشتم والذمّ، ومنه الرجيم المرمي باللعن، أو لاقتلنك من رجم الزاني، أو لأطردنك رميًا بالحجارة، وأصل الرجم الرمي بالرجام ﴿مليًا﴾ زمانًا طويلاً من الملاوة أو مليًا بالذهاب عني والهجران قبل أن أثخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح، يقال: فلان ملي بكذا إذا كان مطيقًا له مضطلعًا به.

فإن قُلْتَ: علام عطف ﴿واهجرني﴾؟ قُلْتُ: على معطوف عليه محذوف يدل عليه لأرجمنك أي: فاحذرني واهجرني؛ لأن لأرجمنك تهديد وتقريع.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قال سلام عليك﴾ سلام توديع ومتاركة كقوله تعالى: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[2] وقوله: ﴿وإذا خاطبهم الجاهون قالوا سلامًا﴾[3] وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح والحال هذه، ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له، ألا ترى أنه وعده الاستغفار.

فإن قُلْتَ: كيف جاز له أن يستغفر للكافر وأن يعده ذلك؟ قُلْتُ: قالوا أراد اشتراط التوبة عن الكفر كما ترد الأوامر والنواهي الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان، وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة ويراد اشتراط

---

(1) سورة التوبة، الآية: 72.

(2) سورة القصص، الآية: 55.

(3) سورة الفرقان، الآية: 63.

الوضوء والنصاب، وقالوا: إنما استغفر له بقوله: ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾[1] لأنه وعده أن يؤمن، واستشهدوا عليه بقوله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾[2] ولقائل[3] أن يقول: إنّ الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع، فأمّا القضية العقلية فلا تأباه، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع بناء على قضية العقل، والذي يدل على صحته قوله تعالى: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك﴾[4] فلو كان شارطًا للإيمان لم يكن مستنكرًا أو مستثنى عما وجبت فيه الأسوة، وأمّا عن موعدة وعدها إياه، قالوا: عد هو إبراهيم لا آزر أي؛ ما قال: واغفر لأبي إلا عن قوله: لأستغفرنّ لك وتشهد له قراءة حماد الراوية وعدها أباه وا الله أعلم ﴿حفيًا﴾ الحفي البليغ في البر والإلطاف حفي به وتحفى به.

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾.

﴿وأعتزلكم﴾ أراد بالاعتزال المهاجرة إلى الشام. المراد بالدعاء: العبادة؛ لأنه منها ومن وسائطها، ومنه قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[5]. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله﴾ ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعراء، عرّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله: ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًا﴾ مع التواضع لله بكلمة عسى وما فيه من هضم النفس ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه، فعوضه أولادًا مؤمنين أنبياء.

وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾.

﴿من رحمتنا﴾ هي النبوّة. عن الحسن، وعن الكلبي: المال والولد وتكون عامّة في كل خير ديني ودنيوي أوتوه. لسان الصدق: الثناء الحسن، وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية. قال:

إني أتتني لسان لا أسرّ بها

يريد الرسالة، ولسان العرب لغتهم وكلامهم. استجاب الله دعوته ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾[6] فصيره قدوة حتى ادّعاه أهل الأديان كلهم، وقال عزّ وجل: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾[7] و﴿ملة إبراهيم حنيفا﴾[8] ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا﴾[9] وأعطى ذلك ذرّيته فأعلى ذكرهم وأثنى عليهم كما أعلى ذكره وأثنى عليه.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾.

المخلص: بالكسر الذي أخلص العبادة عن الشرك والرياء، أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله. وبالفتح الذي أخلصه الله. الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء، والنبي الذي ينبىء عن الله عزّ وجلّ وإن لم يكن معه كتاب كيوشع. الأيمن من اليمين أي: من ناحيته اليمنى، أو من اليمن صفة للطور أو للجانب، شبهه بمن قرّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلمه بغير واسطة ملك. وعن أبي العالية: قرّبه حتى سمع صريف القلم الذي كتبت به التوراة ﴿من رحمتنا﴾ من أجل رحمتنا وترأفنا عليه وهبنا له هُرون، أو بعض رحمتنا كما في قوله: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾[10] وأخاه على هذا الوجه بدل، وهُرون عطف بيان، كقولك: رأيت رجلاً أخاك زيدًا، أو كان هُرون أكبر من موسى، فوقعت الهبة على معاضدته وموازرته. كذا عن ابن عباس رضي الله عنه.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾.

ذكر إسمعيل عليه السلام بصدق الوعد وإن كان ذلك موجودًا في غيره من الأنبياء تشريفًا له وإكرامًا كالتلقيب بنحو الحليم، والأوّاه، والصدّيق، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله. عن ابن عباس رضي الله عنه؛ أنه وعد صاحبًا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة، وناهيك أنه وعد في نفسه الصبر على الذبح فوفى حيث قال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾[11] كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم ولأنهم أولى من سائر الناس ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[12] ﴿وأمر

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 86.
(2) سورة التوبة، الآية: 114.
(3) قال أحمد: وهذه لمظ من الاعتزال، مستطيرة من شرر شرقاً قاعدة التحسين والتقبيح، والحق أن العقل لا مدخل له، في أن يحكم بحكم الله تعالى قبل ورود الشرع به، ثم لم يوف الزمخشري بها، فإنه جعل العقل يسوغ الاستغفار، وجعل الشرع مانعاً منه، ولا يتصوّر هذا على قاعدتهم المهدمة، كمالا يتصوّر ورود الشرع بما يخالف العقل في الإلهيات، نعم قد يحكم الشرع بما لا يظهر العقل عندهم خلافه، وأمّا ما يظهر العقل خلافه، فلا.
(4) سورة الممتحنة، الآية: 4.
(5) رواه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الأدعية، (الحديث رقم: = 890) وأبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (الحديث رقم: 3247) وابن ماجه في كتاب: الدعاء باب فضل الدعاء.
(6) سورة الشعراء، الآية: 84.
(7) سورة الحج، الآية: 78.
(8) سورة النساء، الآية: 125.
(9) سورة النحل، الآية: 50.
(10) سورة مريم، الآية: 50.
(11) سورة الصافات، الآية: 102.
(12) سورة الشعراء، الآية: 214.

أهلك بالصلاة﴾[1] ﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارًا﴾[2] ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم فالإحسان الديني أولى، وقيل: أهله أمته كلهم من القرابة، وغيرهم لأنّ أمم النبيين في عداد أهاليهم، وفيه أنّ من حق الصالح أن لا يألوا نصحًا للأجانب فضلاً عن الأقارب والمتصلين به، وأن يحظيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط في شيء من ذلك.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾.

قيل: سمي إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عزّ وجل، وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح؛ لأنه لو كان أفعيلاً من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو: العلمية فكان منصرفًا، فامتناعه من الصرف دليل العجمة، وكذلك إبليس أعجمي وليس من الإبلاس كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بأسرال، كما زعم ابن السكيت، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات، ويجوز أن يكون معنى: إدريس في تلك اللغة قريبًا من ذلك فحسبه الراوي مشتقًا من الدرس. المكان العلي: شرف النبوة والزلفى: عند الله. وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم، ونظر في علم النجوم، والحساب، وأول من خاط الثياب ولبسها، وكانوا يلبسون الجلود. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه يرفعه: إنه رفع إلى السماء الرابعة[3]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إلى السماء السادسة[4] وعن الحسن رضي الله عنه: إلى الجنة لا شيء أعلى من الجنة، وعن النابغة الجعدي: أنه لما أنشد عند رسول الله ﷺ الشعر الذي آخره:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال رسول الله ﷺ: «إلى أين يا أبا ليلى». قال: إلى الجنة[5].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام. ومن في ﴿من النبيين﴾ للبيان مثلها في قوله تعالى في آخر سورة الفتح: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة﴾[6] لأن جميع الأنبياء منعم عليهم، ومن الثانية للتبعيض، وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه؛ لأنه جد أبي نوح، وإبراهيم عليه السلام من ذرية من حمل مع نوح؛ لأنه من ذرية سام بن نوح، وإسمعيل من ذرية إبراهيم وموسى وهارون وزكريا ويحيى من ذرية إسرائيل، وكذلك عيسى لأنّ مريم من ذريته ﴿وممن هدينا﴾ يحتمل العطف على من الأولى والثانية.

إن جعلت الذين خبرًا لأولئك كان ﴿إذا تتلى﴾ كلامًا مستأنفًا، وإن جعلته صفة له كان خبرًا. قرأ شبل بن عباد المكي: يتلى بالتذكير؛ لأنّ التأنيث غير حقيقي مع وجود الفاصل. البكيّ جمع باك كالسجود والقعود في جمع ساجد وقاعد. عن رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكو»[7]. وعن صالح المري رضي الله عنه: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال في: «هذه القراءة يا صالح فأين البكاء؟»[8] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه، وعن رسول الله ﷺ: «إن القرآن أنزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا». وقالوا: يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها، فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، وإن قرأ: سجدة سبحان قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك.

۞ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾.

خلفه إذا عقبه، ثم قيل: في عقب الخير خلف بالفتح، وفي عقب السوء خلف بالسكون، كما قالوا: وعد في ضمان الخير، ووعيد في ضمان الشر. عن ابن عباس رضي الله عنه: هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر، واستحلوا نكاح الأخت من الأب. وعن إبراهيم، ومجاهد رضي الله عنهما: أضاعوها بالتأخير وينصر الأول، قوله: ﴿إلا من تاب وآمن﴾ يعني: الكفار. وعن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿واتبعوا الشهوات﴾ من بني الشديد، وركب المنظور. ولبس المشهور، وعن قتادة رضي الله عنه: هو في هذه الأمة، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والضحاك رضي الله عنهم: الصلوات بالجمع. كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد قال المرقش:

فمن يلق خيرًا تحمد الناس أمره   ومن يغو لا يعدم على الغي لائمًا

وعن الزجاج: جزاء غي كقوله تعالى: ﴿يلق أثامًا﴾[9]

(1) سورة طه، الآية: 132.
(2) سورة التحريم، الآية: 6.
(3) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة مريم (الحديث رقم: 3157).
(4) رواه الطبري في تفسيره وابن مردويه، (الزيلعي 2/328).
(5) رواه أبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوّة، (الزيلعي 2/329).
(6) سورة الفتح، الآية: 29.
(7) رواه أبو يعلى في المسند (الحديث رقم: 689).
(8) رواه أبو نعيم في الحلية 6/196.
(9) سورة الفرقان، الآية: 68.

أي: مجازاة آثام، أو غيًا عن طريق الجنة، وقيل: غي واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها. وقرأ الأخفش: يلقون. قرئ: يدخلون ويدخلون أي: لا ينقصون شيئًا من جزاء أعمالهم، ولا يمنعونه بل يضاعف لهم بيانًا؛ لأنّ تقدّم الكفر لا يضرهم إذا تابوا من ذلك من قولك؛ ما ظلمك أن تفعل كذا، ما منعك، أو لا يظلمون البتة أي: شيئًا من الظلم.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾.

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبدلت منها كقولك: أبصرت دارك القاعة والعلالي. وعدن معرفة علم بمعنى: العدن، وهو: الإقامة، كما جعلوا فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفه أعلامًا لمعاني الفينة والسحر والأمس فجرى مجرى العدن لذلك، أو هو علم الأرض الجنة لكونها مكان إقامة، ولولا ذلك لما ساغ الإبدال؛ لأنّ النكرة لا تبدل من المعرفة إلا موصولة ولما ساغ وصفها بالتي. وقرئ: جنات عدن وجنة عدن بالرفع على الابتداء. أي؛ وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة، أوهم غائبون عنها لا يشاهدونها، أو بتصديق الغيب والإيمان به. قيل في ﴿مأتيًا﴾ مفعول بمعنى: فاعل؛ والوجه: أنّ الوعد هو الجنة وهم يأتونها، أو هو من قولك أتى إليه إحسانًا أي: كان وعده مفعولاً منجزًا.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾.

اللغو فضول الكلام وما لا طائل تحته، وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها وما أحسن قوله سبحانه: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كرامًا﴾[1] ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[2] نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا. أي: إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً فلا يسمعون لغواً[3] إلا ذلك فهو من وادي قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهنّ فلول من قراع الكتائب

أو لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة على الاستثناء المنقطع، أو لأن معنى: السلام[4] هو: الدعاء بالسلامة، ودار السلام هي: دار السلامة، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام. من الناس من يأكل الوجبة، ومنهم من يأكل متى وجد وهي: عادة المنهومين، ومنهم من يتغدى ويتعشى وهي العادة الوسطى المحمودة، ولا يكون ثم ليل ولا نهار ولكن على التقدير؛ لأن المتنعم عن العرب من وجد غداء وعشاء، وقيل: أراد دوام الرزق ودروره كما تقول: أنا عند فلان صباحًا ومساءً وبكرة وعشيًا يريد: الديمومة، ولا تقصد الوقتين المعلومين.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿نورث﴾ وقرئ: نورث استعارة أي: نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال المورث، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية: وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى، وقيل: أورثوا من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وما نتنزل﴾ حكاية قول جبريل صلوات الله عليه حين استبطأه رسول الله ﷺ، وروي: أنه احتبس أربعين يومًا، وقيل: خمسة عشر يومًا وذلك حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدر كيف يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه، فشق ذلك عليه مشقة شديدة، وقال المشركون: ودعه ربه وقلاه، فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي ﷺ: «أبطأت حتى ساء ظني، واشتقت إليك». قال: إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست. وأنزل الله سبحانه هذه الآية، وسورة الضحى[5]، والتنزل على معنيين: معنى النزول على مهل، ومعنى النزول على الإطلاق كقوله:

فلست لانسي ولكن لملأك   تنزل من جو السماء يصوب

لأنه مطاوع نزل، ونزل يكون بمعنى: أنزل وبمعنى: التدريج، واللائق بهذا الموضع هو: النزول على مهل، والمراد: أن نزولنا في الأحايين وقتاغب وقت ليس إلا بأمر الله وعلى ما يراه صوابًا وحكمة وله ما قدامنا ﴿وما خلفنا﴾ من الجهات والأماكن ﴿وما بين ذلك﴾ وما نحن فيها، فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلا بأمر المليك ومشيئته، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون، وما يحدث ويتجدّد من الأحوال، لا يجوز عليه الغفلة والنسيان، فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا رأى ذلك مصلحة وحكمة وأطلق لنا الإذن فيه، وقيل: ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة ﴿وما بين ذلك﴾ ما بين النفختين، وهو أربعون سنة، وقيل: ما

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 72.

(2) سورة القصص، الآية: 55.

(3) قال أحمد: والفرق بين الوجهين، أنه جعل الفلول عيباً على سبيل التجوّز بتاً، لنفي العيب بالكلية، كأنه يقول: إن كان فلول السيوف من القراع عيباً، فإنهم ذوو عيب، معناه: وإن لم يكن عيباً، فليس فيهم عيب البتة: لأنه لا شي سوء هذا، فهو بعد هذا التجوّز =

= والفرض، استثناء متصل.

(4) قال أحمد: وهذا يجعله من المتصل على أصل الحقيقة، لا كالأوّل الناشئ عن المجاز، وفي هذا الباب بعد؛ لأنه يقتضي البت بأن الجنة يسمع فيها لغو وفضول، وحاش لله، فلا غول فيها، ولا لغو.

(5) رواه ابن إسحاق في سيرته وأبو نعيم في الدلائل والثعلبي. والواحدي في أسباب النزول ص 170.

مضى من أعمارنا وما غبر منها والحال التي نحن فيها، وقيل: ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا، وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التي وراءنا، وما بين السماء والأرض، والمعنى: أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل نحدثه إلا صادرًا عما توجبه حكمته ويأمرنا به ويأذن لنا فيه. وقيل؛ معنى ﴿**وما كان ربك نسيًا**﴾ وما كان تاركًا لك كقوله تعالى؛ ﴿ما ودّعك ربك وما قلى﴾[1] أي: ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به، وأمّا احتباس الوحي فلم يكن عن ترك الله لك وتوديعه إياك، ولكن لتوقفه على المصلحة، وقيل: هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة أي: وما ننزل الجنة إلا بأن منّ الله علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها، وهو المالك لرقاب الأمور كلها السالفة والمترقبة والحاضرة، اللاطف في أعمال الخير والموفق لها والمجازي عليها، ثم قال الله تعالى تقريرًا لقولهم: ما كان ربك نسيًا لأعمال العاملين غافلاً عما يجب أن يثابوا به، وكيف يجوز النسيان والغفلة على ذي ملكوت السماء والأرض وما بينهما.

ثم قال لرسوله ﷺ: فحين عرفته على هذه الصفة، فأقبل على العمل واعبده يثبك كما أثاب غيرك من المتقين، وقرأ الأعرج رضي الله عنه: وما يتنزل بالياء: على الحكاية عن جبريل عليه السلام، والضمير للوحي، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إلا بقول ربك. يجب أن يكون الخلاف في النسي مثله في البغي. وعلى هذا الوجه، يجوز أن يكون ﴿وما كان ربك نسيًا﴾ من كلام المتقين، وما بعده من كلام رب العزة.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿**رب السمٰوات والأرض**﴾ بدل من ربك، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هو رب السمٰوات والأرض ﴿**فاعبده**﴾ كقوله:

وقائلة خولان فانكح فتاتهم

فإن قُلْتَ: هلا عدّى ﴿**اصطبر**﴾ بعلى التي هي صلته كقوله تعالى: ﴿**واصطبر عليها**﴾[2] **قُلْتُ**: لأنّ العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أي: اثبت له فيما يورد عليك من شدّته، أريد: أنّ العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن، ولا يضيق صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك الأغاليط، وعن احتباس الوحي عليك مدّة وشماتة المشركين بك. أي: لم يسم شيء بالله قط، وكانوا يقولون لأصنامهم: آلهة، والعزّى إله، وأمّا الذي عوّض فيه الألف واللام من الهمزة فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسمى أحد الرحمٰن غيره، ووجه آخر: هل تعلم من سمي باسمه على الحق دون الباطل؛ لأنّ التسمية على الباطل في كونها غير معتدّ بها كلا تسمية، وقيل: مثلاً وشبيهًا أي: إذا صحّ أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها وتكاليفها.

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾﴾.

يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره، وأن يراد بعض الجنس وهم الكفرة.

فإن قُلْتَ: لم جازت إرادة الأناسي كلهم وكلهم غير قائلين ذلك؟ **قُلْتُ**: لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم صحّ إسناده إلى جميعهم كما يقولون: بنو فلان قتلوا فلانًا وإنما القاتل رجل منهم، قال الفرزدق:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فقد أسند الضرب إلى بني عبس مع قوله: نبا بيدي ورقاء، وهو: ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي.

فإن قُلْتَ: بم انتصب إذا وانتصابه بأخرج ممتنع لأجل اللام، لا تقول اليوم لزيد قائم؟ **قُلْتُ**: بفعل مضمر يدل عليه المذكور.

فإن قُلْتَ[3]: لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال، فكيف جامعت حرف الاستقبال؟ **قُلْتُ**: لم تجامعها إلا مخلصة للتوكيد كما أخلصت الهمزة في يا الله للتعويض واضمحلّ عنها معنى التعريف، وما في إذا ما للتوكيد أيضًا فكأنهم قالوا: أحقًا أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد، والمراد: الخروج من الأرض، أو من حال الفناء، أو هو من قولهم خرج فلان عالمًا وخرج شجاعًا، إذا كان نادرًا في ذلك يريد: سأخرج حيًا نادرًا على سبيل الهزؤ، وقرأ الحسن وأبو حيوة: لسوف أخرج، وعن طلحة بن مصرف رضي الله عنه: لساخرج، كقراءة ابن مسعود رضي الله عنه؛ ولسيعطيك وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أنّ ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة، ومنه جاء إنكارهم فهو كقولك: للمسيء إل المحسن: أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه. الواو عطفت لا ينكر على يقول ووسطت همزة

---

(1) سورة الضحى، الآية: 3.

(2) سورة طه، الآية: 132.

(3) قال أحمد: والاعتقاد تناقض الحرفين منع الكوفيين اجتماعهما، وإنما جرّدت اللام من معناها، لتلائم سوف دون أن تجرّد سوف؛ = لتلائم اللام؛ لأنه لو عكس هذا، للغت سوف، إذ لا معنى لها سوى الاستقبال، وأمّا اللام إذا جرّدت من الحال، بقي لها التوكيد، فلم تلغ فتعين، والله أعلم.

الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعني[1]: أيقول ذاك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى، فإنّ تلك أعجب وأغرب وأدلّ على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، ثم أوقع التأليف مشحونًا بضروب الحكم التي تحار الفطن فيها من غير حذو على مثال واقتداء بمؤلف، ولكن اختراعًا وإبداعًا من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته، وأمّا الثانية: فقد تقدّمت نظيرتها وعادت لها كالمثال المحتذى عليه، وليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة الباقية وتركيبها وردّها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفكيك والتفريق، وقوله تعالى: ﴿ولم يك شيئًا﴾ دليل على هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وهو أهون عليه﴾[2] على أن رب العزة سواء عليه النشأتان لا يتفاوت في قدرته الصعب والسهل، ولا يحتاج إلى احتذا على مثال ولا استعانة بحكيم ولا نظر في مقياس، ولكن يواجه جاحد البعث بذلك دفعًا في بحر معاندته وكشفًا عن صفحة جهله. القرّاء كلهم على لا يذكر بالتشديد إلا نافعًا، وابن عامر، وعاصمًا رضي الله عنهم، فقد خففوا، في حرف أبيّ يتذكر ﴿من قبل﴾ من قبل الحالة التي هو فيها وهي: حالة بقائه في إقسام الله تعالى باسمه تقدّست أسماؤه مضافًا إلى رسول الله ﷺ تفخم لشأن رسول الله ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾[3] والواو في ﴿والشياطين﴾ يجوز أن تكون للعطف وبمعنى: مع وهي بمعنى: مع أوقع، والمعنى: أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم، قرن كل كافر مع شيطان في سلسلة.

فإن قُلْتَ[4]: هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة، فإن أريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ قُلْتُ: إذا حشر جميع الناس حشرًا واحدًا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة.

فإن قُلْتَ: هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء؟ قُلْتُ: لم يفرّق بينهم وبينهم في المحشر، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلصهم، فيزدادوا لذلك غبطة وسرورًا إلى سرور ويشتموا بأعداء الله وأعدائهم، فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى إحضارهم جثيًا؟ قُلْتُ: أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى: أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنم علاً على حالهم التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم، وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو قال الله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾[5] على العادة المعهودة في مواقف المقاولات والناقلات من تجاثي أهلها على الركب لما في ذلك من الاستيفاز والقلق وإطلاق الحبا وخلاف الطمانينة، أو لما يداهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيحبون على ركبهم حبوًا، وإن فسر بالعموم فالمعنى انهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم على أن جثيًا حال مقدرًا كما كانوا في الموقف متجاثين؛ لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

والمراد بالشيعة: وهي فعلة كفرقة وفتية، الطائفة التي شاعت أي: تبعت غاويًا من الغواة. قال الله تعالى: ﴿إن

---

(1) قال أحمد: مذهب أهل السنة أنّ إعادة المعدوم جائزة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والمعتزلة وإن وافقت على ذلك، إلا أنها تزعم: أنّ المعدوم له ذات ثابتة في العدم، يقضي عليها بأنها شيء، فليس عندهم عدم صرف، ونفي محض قبل الوجود، ولا بعده، فكأنهم لولا ذلك لقالوا بقول الفلاسفة الذين هم مختصرهم، ولأنكروا إعادة المعدوم، كما أنكره القدماء، وعقيدة أهل السنة هي: المطابقة للآية؛ لأنّ النشأة الأولى لم يتقدّمها وجود، ولأنّ المنشأ ابتداء لم يكن شيئاً قبل ذلك، وأمّا النشأة الثانية، فقد تقدّمها وجود، وكان المنشأ قبلها شيئاً في زمان وجوده، ثم عدم وبطلت شيئيته، فظهر فرق ما بين النشأتين، كما نطق به القرآن، وأمّا المعتزلة، فإن قالوا: إنّ الأجسام يعدمها الله، ثم يوجدها، فقد قالوا الحق، لكن لا يتم على أصلهم فرق بين النشأتين؛ لأنّ المعدوم فيهما كان شيئاً قبل النشأة، فإن قالوا: لا تنعدم الأجسام، وإنما تتفرّق ثم تجمع، كما صرح به الزمخشري؛ لأنه تفطن لأنّ القول بأنّ الأجسام تنعدم، ثم يوجدها الله تعالى، مع القول بأنّ المعدوم شيء يبطل الفرق بين النشأتين، ولم يطق ذلك، وقد نطق به القرآن، فالتزم أنّ الأجسام لا تنعدم، ليتم له الفرق بين النشأة الثانية، وإنما هي على هذا التقرير جمع وتأليف لموجود، وبين = النشأة الأولى التي هي إيجاد معدوم، فتنبه لبعد غوره، ولكن هرب من القطر فوقع تحت الميزاب، فهو والحالة هذه كالمستغيث من الرمضاء بالنار، والله وليّ التوفيق. ومعنى تفريق الله تعالى بين النشأتين، أن الجاحد متهافت؛ لأنه اعترف بالأولى، وهي أصعب بالنسبة إلى قياس العقل، وأنكر الثانية، وهي أسهل وأهون؛ لأنّ ذلك راجع إلى قدرته تعالى، فإنّ الكل، لدى قدرة الله تعالى، هين على سواء.

(2) سورة الروم، الآية: 27.

(3) سورة الذاريات، الآية: 23.

(4) قال أحمد: التبست عليه إرادة العموم، وبينهما بون، ومن ثم خلت عبارته هذه عن التحرّز والصون، فصرح بأنّ الله تعالى أراد بالإنسان: العموم، ومعنى إرادة العموم: أن يريد الله تعالى نسبة كلمة الشك والكفر، إلى كل فرد من أفراد الإنسان، ومعاذ الله، وقد صرح الزمخشري بأن النطق بكلمة الشك بعض الجنس، ففي العبارة خلل كما ترى، والعبارة الصحيحة أن يقال: يحتمل أن يكون التعريف جنسياً، فيكون عهدياً، فيكون اللفظ من أوّل وهلة خاصاً، والله أعلم.

(5) سورة الجاثية، الآية: 28.

الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا﴾[1] يريد نمتاز من كل طائفة من طوائف الغيّ والفساد أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم، أو أراد ﴿بالذين هم أولى بها صليًا﴾ المنتزعين كما هم كأنه قال: ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء، وهم أولى بالصلي من بين سائر الصالين ودركاتهم أسفل وعذابهم أشدّ، ويجوز أن يريد: بأشدّهم عتيًا رؤساء الشيع وأئمتهم لتضاعف جرمهم بكونهم ضلالاً ومضلين قال الله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾[2] ﴿وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾[3] واختلف في إعراب ﴿أيهم أشدّ﴾ فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية تقدير: لننزعنّ الذين يقال فيهم أيهم أشدّ، وسيبويه: على أنه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلته حتى لو جيء به لأعرب، وقيل: أيهم هو أشد، ويجوز أن يكون النزع واقعًا على من كل شيعة، كقوله سبحانه: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾[4] أي: لتنزعن بعض كل شيعة، فكأن قائلاً قال: من هم؟ فقيل: أيهم أشد عتيًا، وأيهم أشد النصب. عن طلحة بن مصرف، وعن معاذ ابن مسلم الهراء أستاذ الفراء.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق على والباء فإنّ تعلقهما بالمصدرين لا سبيل إليه؟ قُلْتُ: هما: للبيان لا للصلة، أو يتعلقان بأفعل أي: عتوهم أشد على الرحمن، وصليهم أولى بالنار، كقولهم: هو أشد على خصمه، وهو: أولى بكذا.

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾.

﴿وإن منكم﴾[5] التفات إلى الإنسان يعضده قراءة ابن عباس، وعكرمة رضي الله عنهما: وإن منهم، أو خطاب للناس من غير التفات إلى المنكور، فإن أريد الجنس كله فمعنى الورود: دخولهم فيها وهي جامدة فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم، عن ابن عباس رضي الله عنه يردونها كأنها إهالة، وروي: دواية: وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال لهم: قد وردتموها وهي جامدة»[6] وعنه رضي الله عنه أنه سئل: عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، حتى إنّ للنار ضجيجًا من بردها»[7]. وأما قوله تعالى: ﴿أولئك عنها مبعدون﴾[8] فالمراد: عن عذابها. وعن ابن مسعود، والحسن، وقتادة، هو: الجواز على الصراط؛ لأنّ الصراط ممدود عليها، وعن ابن عباس: قد يرد الشيء ولا يدخله، كقوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين﴾[9] ووردت القافلة البلد وإن لم تدخله، ولكن قربت منه. وعن مجاهد: ورود المؤمن النار هو: مس الحمى جسده في الدنيا؛ لقوله عليه السلام: «الحمى من فيح جهنم»[10]. وفي الحديث: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»[11]. ويجوز أن يراد بالورود: جثوهم حولها، وإن أريد بالكفار خاصة فالمعنى بين. الحتم: مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى به الموجب، كقولهم: خلق الله، وضرب الأمير أي: كان ورودهم واجبًا على الله أوجبه على نفسه، وقضى به، وعزم على أن لا يكون غيره.

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾.

قرئ: ﴿ننجي﴾ وننجي وينجي وينجي على ما لم يسم فاعله: إن أريد الجنس بأسره فهو ظاهر، وإن أريد الكفرة وحدهم فمعنى: ثم ننجي ﴿الذين اتقوا﴾ إنّ المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار لا أنهم يواردونهم ثم يتخلصون، وفي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، والجحدري، وابن أبي ليلى: ثم ننجي بفتح الثاء أي: وقوله ﴿ونذر الظالمين فيها جثيًا﴾ دليل على أنّ المراد بالورود: الجثو حواليها، وأنّ المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾.

﴿بينات﴾ مرتلات الألفاظ ملخصات المعاني مبينات المقاصد إما محكمات أو متشابهات، قد تبعها البيان

(1) سورة الأنعام، الآية: 159.
(2) سورة النحل، الآية: 88.
(3) سورة العنكبوت، الآية: 13.
(4) سورة مريم، الآية: 50.
(5) قال أحمد: احتمال الالتفات مفرع على إرادة العموم من الأول، فيكون المخاطبون أوّلاً هم المخاطبين ثانياً، إلا أنّ الخطاب الأوّل بلفظ الغيبة، والثاني بلفظ الحضور، وأما إذا بنينا على أنّ الأوّل، إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعاً، فالثاني ليس التفاتاً، وإنما هو عدول إلى خطاب العامة عن خطاب خاص، لقوم معينين، والله أعلم.
(6) قال الزيلعي: غريب ولم أجده إلا من قول خالد بن معدان 2/332.
(7) رواه أحمد في مسنده 3/429، والبيهقي في شعب الإيمان، باب= في أن دار المؤمنين الجنة ودار الكافرين النار، (الحديث رقم: 370) والحاكم في المستدرك 4/587.
(8) سورة الأنبياء، الآية: 101.
(9) سورة القصص، الآية: 23.
(10) رواه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب صفة النار (الحديث رقم: 3263) ومسلم في كتاب: السلام، باب: لكل داء دواء (الحديث رقم: 5769).
(11) كشف الأستار، كتاب: الجنائز، باب: حظ ذنوب المريض، (الحديث رقم: 760) وابن ماجه: في كتاب: الطب باب: الحمى (الحديث رقم: 3470) والحاكم في المستدرك 1/345، وأحمد في مسنده 5/252.

بالمحكمات، أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها، أو حججاً وبراهين، والوجه: أن تكون حالاً مؤكدة كقوله تعالى: ﴿وهو الحق مصدقًا﴾[1] لأنّ آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججًا ﴿للذين آمنوا﴾ يحتمل أنهم يناطقون المؤمنين بذلك ويواجهونهم به وأنهم يفوهون به لأجلهم وفي معناهم كقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾[2]. قرأ ابن كثير ﴿مقامًا﴾ بالضم وهو: موضع الإقامة والمنزل، والباقون بالفتح وهو: موضع القيام، والمراد المكان والموضع، والندى: المجلس ومجتمع القوم وحيث ينتدون والمعنى: أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم، قالوا: أي الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظًا من الدنيا، حتى يجعل ذلك عيارًا على الفضل والنقص والرفعة والضعة. ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾.

﴿كم﴾ مفعول ﴿أهلكنا﴾ و﴿من﴾ تبيين لإبهامها أي: كثيرًا من القرون أهلكنا، وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم؛ لأنهم يتقدمونهم و﴿هم أحسن﴾ في محل النصب صفة لكم، ألا ترى أنك لو تركت هم لم يكن لك بد من نصب أحسن على الوصفية. الأثاث متاع البيت، وقيل: هو ماجد من الفرش، والخرثي: ما لبس منها، وأنشد الحسن بن علي الطوسي:

تقادم العهد من أم الوليد بنا ... دهرًا وصار أثاث البيت خرثيا

قرئ: على خمسة أوجه ﴿رئيا﴾ وهو: المنظر والهيئة فعل بمعنى: مفعول من رأيت، وريئًا: على القلب كقولهم: راء في رأي، وريا: على قلب الهمزة ياء والإدغام، أو من الري الذي هو النعمة والترفه من قولهم: ريان من النعيم، وريا: على حذف الهمزة رأسًا ووجهه: أن يخفف المقلوب وهو: ريئا بحذف همزته وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها، وزيا: واشتقاقه من الزيّ وهو الجمع؛ لأن الزيّ محاسن مجموعة، والمعنى: أحسن من هؤلاء.

قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾.

أي مدّ له الرحمٰن يعني: أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الأمر إيذانًا بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل لتقطع معاذير الضال، ويقال له يوم القيامة: ﴿أوَلم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾[3] وكقوله تعالى: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا﴾[4] ﴿من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدًا﴾ في معنى: الدعاء بأن يمهله الله وينفس في مدّة حياته، في هذه الآية وجهان: أحدهما أن تكون متصلة بالآية التي هي رابعتها، والآيتان اعتراض بينهما أي: قالوا: ﴿أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا﴾[5] ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ أي: لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين ﴿إما العذاب﴾ في الدنيا وهو: غلبة المسلمين عليهم وتعذيبم إياهم قتلاً وأسرًا وإظهار الله دينه على الدين كله على أيديهم، وإما يوم القيامة وهو: ما ينالهم من الخزي والنكال، فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه وأنهم شر مكانًا وأضعف جندًا، لا خير مقامًا وأحسن نديًا. وأن المؤمنين على خلاف صفتهم. والثاني: أن تتصل بما يليها والمعنى: أن الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم والخذلان لاصق بهم لعلم الله وبأن الألطاف لا تنفع فيهم وليسوا من أهلها، والمراد بالضلالة: ما دعاهم من جهلهم وغلوهم في كفرهم إلى القول الذي قالوه ولا ينفكون عن ضلالتهم إلى ما يعاينوا نصرة الله المؤمنين، أو يشاهدوا الساعة ومقدّماتها.

فإن قُلْتَ: ﴿حتى﴾ هذه ما هي؟ قُلْتُ: هي التي تحكي بعدها الجمل. ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله: ﴿إذا أرأوا ما يوعدون﴾ ﴿فسيعلمون من هو شر مكانًا وأضعف جندًا﴾ في مقابلة ﴿خير مقامًا وأحسن نديًا﴾[6] لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم، والندي المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم، وأنصارهم، والجند هم الأنصار والأعوان.

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾.

﴿ويزيد﴾ معطوف على موضع فليمدد؛ لأنه واقع موقع الخبر تقديره من كان في الضلالة مدّ، أو يمدّ له الرحمن ويزيد أي: يزيد في ضلال الضال بخذلانه، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه ﴿والباقيات الصالحات﴾ أعمال الآخرة كلها، وقيل: الصلوات وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر أي: ﴿خير ثوابًا﴾ من مفاخرات الكفار ﴿وخير مردًا﴾ أي: مرجعًا وعاقبة، أو منفعة من قولهم:

ليس لهذا الأمر مردّ ... وهل يردّ بكاي زندًا

فإن قُلْتَ: كيف قيل: خير ثوابًا كان لمفاخراتهم ثوابًا

---

(1) سورة البقرة، الآية: 91.

(2) سورة الأحقاف، الآية: 11.

(3) سورة فاطر، الآية: 37.

(4) سورة آل عمران، الآية: 178.

(5) سورة مريم، الآية: 72.

(6) سورة مريم، الآية: 72.

حتى يجعل ثواب الصالحات خيرفا منه ﴿قلت﴾ كأنه قيل: ثوابهم النار على طريقة قوله: فاعتبوا بالصليم، وقوله:

شجعاء جرّتها الزميل تلوكه اصلاً إذا راح المطي غراثا

وقوله:

تحية بينهم ضرب وجيع

ثم بنى عليه خير ثوابًا وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له: عقابك النار.

فإن قُلْتَ: فما وجه التفضيل في الخير كان لمفاخرهم شركًا فيه؟ **قُلْتُ:** هذا من وجيز كلامهم يقولون: الصيف أحرّ من الشتاء أي: أبلغ في حره من الشتاء في برده.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾.

لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقًا إلى الإحاطة بها علمًا وصحة الخبر عنها، استعملوا أرأيت في معنى: أخبر، والفاء جاءت لإفادة معناها الذي هو: التعقيب كأنه قال: أيضًا بقصة هذا الكافر وانكر حديثه عقيب حديث أولئك ﴿أطلع الغيب﴾ من قولهم: أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه وطالع الثنية. قال جرير:

لاقيت مطلع الجبال وعورًا

ويقولون: مر مطلعًا لذلك الأمر أي: مالكًا له، ولاختيار هذه الكلمة شأن يقول، أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى غيب الذي توحد به الواحد القهار، والمعنى: أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هنين الطريقين: وإما علم الغيب، وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إلى ذلك؟. قرأ حمزة والكسائي: ولدًا وهو: جمع ولد كأسد في أسد، أو بمعنى: الولد كالعرب في العرب، وعن يحيى بن يعمر: ولدًا بالكسر، وقيل في العهد: كلمة الشهادة، وعن قتادة: هل له عمل صالح قدّمه فهو يرجو بذلك ما يقول؟ وعن الكلبي: هل عهد الله إليه أنه يؤتيه ذلك؟ عن الحسن رحمه الله: نزلت في الوليد بن المغيرة، والمشهور أنها في العاصي بن وائل. قال خباب بن الأرث: كان لي عليه دين فاقتضيته فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد، **قُلْتُ:** لا والله لا أكفر بمحمد حيًا ولا ميتًا ولا حين تبعث. قال: فإني إذا مت بعثت؟ قلت: ثم، قال: إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك، وقيل: صاغ له خباب حليًا فاقتضاه الأجر، فقال: أنكم تزعمون تبعثون، وأن في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا فأنا اقتضيك، ثم فإني أوتى مالاً وولدًا حينئذ[1].

كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾.

﴿كلا﴾ ردع وتنبيه على الخطأ أي: هو مخطئ فيما يصوّره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه.

فإن قُلْتَ: كيف قيل ﴿سنكتب﴾ بسين التسويف، وهو كما قال. كتب من غير تأخير، قال الله تعالى:﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[2] **قُلْتُ:** فيه وجهان: أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قوله:

إذا ما انتسبنا تلدني لئيمة

أي: تبين وعلم بالانتساب أني لست بابن لئيمة. والثاني: أن المتوعد يقول للجاني: سوف أنتقم منك يعني: أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأجر، فجرّد ههنا لمعنى الوعيد ﴿ونمدّ له من العذاب مدًا﴾ أي: نطوّل له من العذاب ما يستأهله، ونعذبه بالنوع الذي يعذب به الكفار المستهزئون، أو نزيده من العذاب، ونضاعف له من المدد. يقال: مدّه وأمدّه بمعنى، وتدل عليه قراءة عليّ بن أبي طالب: ونمدّ له بالضم، وأكد ذلك بالمصدر، وذلك من فرط غضب الله، نعوذ به من التعرّض لما نستوجب به غضبه.

وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾.

﴿ونرثه ما يقول﴾ أي: نزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة، ونعطيه من يستحقه، والمعنى: مسمى ما يقول ومعنى ما يقول: وهو المال والولد. يقول الرجل: أنا أملك كذا، فتقول له: ولي فوق ما تقول. ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه الله في الدنيا مالاً وولدًا وبلغت به أشعبيته أن تألى على ذلك في قوله: ﴿لأوتين﴾[3] لأنه جواب قسم مضمر ومن يتأل على الله يكذبه، فيقول الله عزّ وجل هب أنا أعطيناه ما اشتهاه إما نرثه منه في العاقبة ﴿ويأتينا فردًا﴾ غدًا بلا مال ولا ولد كقوله عزّ وجل: ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾[4] الآية فما يجدي عليه تمنيه وتأليه، ويحتمل أن هذا القول إنما يقوله ما دام حيًا فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله، ويأتينا رافضًا له منفردًا عنه غير قائل له، أو لا ننسى قوله هذا ولا نلغيه بل نثبته في صحيفته لنضرب به وجهه في الموقف ونعيره به ﴿ويأتينا﴾ على فقره ومسكنه ﴿فردًا﴾ من المال والولد لم نوله سؤله ولم نؤته متمناه، فيجتمع عليه الخطبان تبعة قوله ووباله. وفقد المطموع فيه ﴿فردًا﴾ على الوجه الأوّل حال مقدرة نحو: ﴿فادخلوها خالدين﴾[5] لأنه وغيره سواء في إتيانه فردًا حين يأتي، ثم يتفاوتون بعد ذلك أي: ليتعززوا بآلهتهم حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصارًا ينقذونهم من العذاب.

---

(1) رواه البخاري في كتاب: التفسير من سورة مريم، باب: «أفرأيت الذي كفر بآياتنا...» (الحديث رقم: 4732) وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح (الحديث رقم: 6993).

(2) سورة قٓ، الآية: 18.

(3) سورة مريم، الآية: 77.

(4) سورة الأنعام، الآية: 94.

(5) سورة الزمر، الآية: 73.

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾.

﴿كلا﴾ ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة، وقرأ ابن نهيك: كلا ﴿سيكفرون بعبادتهم﴾ أن سيجحدون كلا سيكفرون بعبادتهم كقولك: زيدًا مررت بغلامه، وفي محتسب ابن جني: كلا بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه: كل هذا الرأي والاعتقاد كلا، ولقائل أن يقول: إن صحت هذه الرواية فهي كلا التي هي للردع قلب الواقف عليها ألفها نونًا كما في ﴿قواريرا﴾[1] والضمير في سيكفرون للآلهة أي: سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون: والله ما عبدتمونا، وأنتم كاذبون. قال الله تعالى: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾[2] أو المشركين أي: ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا قد عبدوها. قال الله تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾[3] ﴿عليهم ضدًا﴾ في مقابلة ﴿لهم عزًا﴾[4] والمراد: ضدّ العز وهو الذل والهوان أي: يكونون عليهم ضدًا لما قصدوه وأرادوه، كأنه قيل: ويكونون عليهم ذلاً لا لهم عزًا، أو يكونون عليهم عونًا، والضد العون يقال: من أضدادكم أي: أعوانكم، وكأن العون سمي: ضداً؛ لأنه يضاد عدوّك وينافيه بإعانته لك عليه.

فإن قلتَ: لم وحد؟ **قلتُ**: وحد توحيده قوله عليه السلام: «وهم يد على من سواهم»[5]. لاتفاق كلمتهم وأنهم كشيء واحد لفرط تضامنهم وتوافقهم، ومعنى كون الآلهة عونًا عليهم أنهم وقود النار وحصب جهنم؛ ولأنهم عذبوا بسبب عبادتها، وإن رجعت الواو في سيكفرون ويكونون إلى المشركين، فإنّ المعنى: ويكونون عليهم أي: أعداءهم ضدًا أي: كفرة بهم بعد أن كانوا يعبدونها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾.

الأز والهزّ والاستفزاز أخوات، ومعناها: التهييج وشدّة الإزعاج أي: تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوسواس والتسويلات والمعنى، خلينا بينهم وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسرًا. والمراد: تعجيب رسول الله ﷺ بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار، وأقاويلهم وملاحتهم ومعاندتهم للرسل واستهزاؤهم بالدين، من تماديهم في الغي وإفراطهم في العناد وتصميمهم على الكفر، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشكّ عنه، وإنهما كهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسوّل لهم.

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾.

عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه أي: لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم وتطهر الأرض بقطع دابرهم، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة، كأنها في سرعة نقضيها الساعة التي تعد فيها لوعدت، ونحوه قوله تعالى: ﴿ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾[6] وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان إذا قرأها بكى، وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك، وعن ابن السماك: أنه كان عند المأمون فقرأها: فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾.

نصب ﴿يوم﴾ بمضمر أي: يوم ﴿نحشر﴾ ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف، أو اذكر يوم نحشر، ويجوز أن ينتصب بلا يملكون. ذكر المتقون بلفظ التبجيل، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته، كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم، وعن عليّ رضي الله عنه: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكنهم على نوق رجالها ذهب، وعلى نجائب سروجها ياقوت[7]. وذكر الكافرون بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء. والورد لعطاش؛ لأنّ من يرد الماء لا يرده إلا لعطش، وحقيقة الورد المسير إلى الماء قال:

ردي ردي ورد قطاة صما   كدرية أعجبها برد الما

فسمى به الواردون، وقرأ الحسن: يحشر المتقون ويساق المجرمون.

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾.

الواو[8] في ﴿لا يملكون﴾ إن جعل ضميرًا فهو للعباد

(1) سورة الإنسان، الآيتان: 15 و16.
(2) سورة النحل، الآية: 86.
(3) سورة الأنعام، الآية: 23.
(4) سورة مريم، الآية: 81.
(5) رواه أحمد في مسنده 1/122، وأبو داود في كتاب: الديات، باب: إيقاد المسلم (الحديث رقم: 4530) والنسائي في كتاب: القسامة، باب: سقوط القود من المسلم للكافر، (الحديث رقم: 4745).
(6) سورة الأحقاف، الآية: 35.
(7) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على المسند ص 359= = (الحديث رقم: 153) وهو في المسند 1/155.

(8) قال أحمد: وفي هذا الوجه تعسف، من حيث أنه إذا جعله علامة، لمن فقد كشف معناه، وأفصح بأنها متناولة جمعاً، ثم أعاد على لفظها بالإفراد، ضمير اتخذ، ففيه الإعادة على معناه بما يخالف ذلك، وهو مستنكر عندهم؛ لأنه إجمال بعد إيضاح، وذلك تعكيس في طريق البلاغة، وإنما محجتها الواضحة: الإيضاح بعد الإجمال، والواو على إعرابه، وإن لم تكن عائدة على من، إلا أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد له، فتنبه لهذا العقد، فإنه أروج من النقد. وفي عنق الحسناء، يستحسن العقد.

ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين؛ لأنهم على هذه القسمة، ويجوز أن تكون علامة للجمع كالتي في أكلوني البراغيث والفاعل من اتخذ؛ لأنه في معنى الجمع، ومحل من اتخذ رفع على البدل، أو على الفاعلية، ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف أي: إلا شفاعة من اتخذ، والمراد: لا يملكون أن يشفع لهم.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾.

واتخاذ العهد الاستظهار بالإيمان والعمل، وعن ابن مسعود أنّ النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدًا؟» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يقول كل صباح ومساء: «اللهم فاطر السمٰوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إلٰه إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأنّ محمدًا عبدك ورسولك، وأنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدًا توفنيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة»[1]، وقيل: كلمة الشهادة، أويكون من عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمر به أي: لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها وتعضده مواضع في التنزيل: ﴿وكم من ملك في السمٰوات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾[2] ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾[3] ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمٰن ورضي له قولاً﴾[4].

لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾.

قرئ: ﴿إدًا﴾ بالكسر والفتح. قال ابن خالويه: الإدّ والأد: العجب، وقيل: العظيم المنكر، والإدة: الشدّة، وأدني الأمر وأدني أثقلني وعظم عليّ إدًا.

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾.

﴿يكاد﴾ قراءة الكسائي، ونافع بالياء. وقرئ: ﴿ينفطرن﴾ الانفطار من فطره إذا شقه، والتفطر من فطره إذا شققه، وكرر الفعل فيه، وقرأ ابن مسعود: ينصدعن أي: تهد هدًا أو مهدودة أو مفعول له أي، لأنها تهد.

فإن قُلْتَ[5]: ما معنى انفطار السمٰوات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما أنّ الله سبحانه يقول: كدت أفعل هذًا بالسمٰوات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبًا مني على من تفوه بها لولا حلمي ووقاري، وإني لا عجل بالعقوبة كما قال: ﴿إنّ الله يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليمًا غفورا﴾[6] والثاني: أن يكون استعظامًا للكلمة وتهويلاً من فظاعتها وتصويرًا لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده، وأنّ مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخرّ، وفي قوله: ﴿لقد جئتم﴾ وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة، زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله والتعرّض لسخطه وتنبيه على عظم ما قالوا.

أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾.

في ﴿أن دعوا﴾ ثلاثة أوجه: أن يكون مجرورًا بدلاً من الهاء في منه كقوله:

على حالة لو أن في القوم حاتمًا على وجوده لضنّ بالماء حاتم

ومنصوبًا بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل أي: هذا لأن دعوا، علل الخرور بالهد والهد بدعاء الولد الرحمٰن، ومرفوعًا بأنه فاعل هدًا أي: هدّ دعاء الولد للرحمٰن، وفي اختصاص الرحمٰن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمٰن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، من قبل أنّ أصول النعم وفروعها منه: خلق العالمين وخلق لهم جميع ما معهم، كما قال بعضهم: فلينكشف عن بصرك غطاؤه فأنت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولدًا فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمٰن. هو من دعا بمعنى: سمى المتعدي إلى مفعولين فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلبًا للعموم والإحاطة بكل ما دعي له ولدًا، أو من دعا بمعنى: نسب الذي مطاوعه ما في قوله عليه السلام: «من ادعي إلى غير مواليه»[7] وقول الشاعر:

إنا بني نهشل لا ندعي لأب

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 2/377.

(2) سورة النجم، الآية: 26.

(3) سورة سبأ، الآية: 23.

(4) سورة طه، الآية: 109.

(5) قال أحمد: ويظهر لي وراءها معنى آخر، والله أعلم، وذلك أن الله تعالى قد استعار، لدلالتها على وجوده عزّ وجل، موصوفاً بصفات الكمال الواجبة له، أن جعلها تسبح بحمده، قال تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾، ومما دلت عليه السموات والأرض والجبال بل وكل ذرّة من ذرّاتها، أن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه، وفي كل شيء = له آية تدل على أنه واحد، فالمعتقد نسبة الولد إلى الله تعالى، قد عطل دلالة هذه الموجودات، على تنزيه الله وتقديسه، فاستعير لإبطال ما فيها من روح الدلالة، التي خلقت لأجلها إبطال صورها بالهد، والانفطار، والانشقاق، فسبحان من قسم عباده، فجعل العباد تستلذ، فتسبح بتسبيح داود، يكاد ينهد لمقاله من هو عن باب التوفيق، مطرود مردود.

(6) سورة فاطر، الآية: 41.

(7) رواه مسلم في صحيحه، بلفظ من «ادعى» كتاب الحج، باب: فضل المدينة... (الحديث 3314).

أي: لا ننتسب إليه. انبغي مطاوع بغي: إذا طلب أي: ما يتأتى له اتخاذ الولد وما ينطلب لو طلب مثلاً؛ لأنه محال غير داخل تحت الصحة، أما الولادة المعروفة فلا مقال في استحالتها، وأما التبني فلا يكون إلا فيما هو من جنس المتبني وليس للقديم سبحانه جنس تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾.

﴿من﴾ موصوفة؛ لأنها وقعت بعد كل نكرة وقوعها بعد رب في قوله:

رب من أنضجت غيظًا صدره

وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة ﴿آتٍ الرحمٰن﴾ على أصله قبل الإضافة. الإحصاء الحصر والضبط يعني: حصرهم بعلمه وأحاط بهم ﴿وعدّهم عدًا﴾ الذين اعتقدوا في الملائكة وعيسى وعزير أنهم أولاد الله كانوا بين كفرين: أحدهم: القول بأن الرحمٰن يصح أن يكون والدًا، والثاني: إشراك الذين زعموهم لله أولادًا في عبادته كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمتهم لآبائهم، فهدم الله الكفر الأول فيما تقدم من الآيات ثم عقبه بهدم الكفر الآخر، والمعنى: ما من معبود لهم في السمٰوات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتي بالرحمٰن أي: تأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبدًا منقادًا مطيعًا خاشعًا خاشيًا راجيًا كما يفعل العبيد وكما يجب عليهم، لا يدعي لنفسه ما يدّعيه له هؤلاء الضلال، ونحوه قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾[1] وكلهم منقلبون في ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيمن عليهم محيط بهم، ويجمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكميتهم، لا يفوته شيء من أحوالهم، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردًا ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم. قرأ جناح بن حبيش.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾.

﴿ودًا﴾ بالكسر والمعنى: سيحدث لهم في القلوب مودّة ويزرعها لهم فيها من غير تودّد منهم ولا تعرّض للأسباب التي توجب الودّ ويكتسب بها الناس مودّات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصًا منه لأوليائه بكرامة خاصة كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة أعظامًا لهم وإجلالاً لمكانهم. والسين إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا دجا الإسلام، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم. وروي أنّ النبي ﷺ قال لعليّ رضي الله عنه: «يا عليّ قل اللهم اجعل لي عندك عهدًا، واجعل لي في صدور المؤمنين مودة»[2]. فأنزل الله هذه الآية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يعني: يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه، وعن رسول الله ﷺ يقول الله عزّ وجل: «يا جبريل قد احببت فلانًا فاحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إنّ الله قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يضع له المحبة في أهل الأرض»[3]. وعن قتادة: ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾.

هذه خاتمة السورة ومقطعها فكأنه قال: بلغ هذا المنزل، أو بشربه، وأنذر فإنما أنزلناه ﴿بلسانك﴾ أي: بلغتك وهو: اللسان العربي المبين وسهلناه وفصلناه ﴿لتبشر به﴾ وتنذر.

واللد: الشداد الخصومة بالباطل الآخذون في كل لديد أي: في كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم يريد: أهل مكة. وقوله ﴿وكم أهلكنا﴾ تخويف لهم. وإنذار. وقرئ ﴿تحس﴾ من حسه إذا شعر به، ومنه: الحواس والمحسوسات. وقرأ حنظلة ﴿تسمع﴾ مضارع أسمعت. والركز: الصوت الخفي، ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز المال المدفون.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة مريم أعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به، ويحيى، ومريم، وعيسى، وإبراهيم، وإسحٰق، ويعقوب، وموسى، وهٰرون، وإسمعيل، وإدريس، وعشر حسنات بعدد من دعا الله في الدنيا، وبعدد من لم يدع الله»[4].

(1) سورة الإسراء، الآية: 57.
(2) ذكره الثعلبي في تفسيره. (الزيلعي 2/341).
(3) رواه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (الحديث= رقم: 3209) ومسلم في كتاب: البر والصلة باب: إذا أحب الله عبدًا، (الحديث رقم: 6647).
(4) ذكره الثعلبي في تفسيره (الزيلعي 2/343).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة طه مكية

طه ﴿١﴾.

﴿طه﴾ أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء، وفخمهما ابن كثير، وابن عامر على الأصل، والباقون أما لوهما، وعن الحسن رضي الله عنه: طه وفسر بأنه أمر بالوطء وأنّ النبي ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه. معًا، وأنّ الأصل طأ فقلبت همزته هاء[1]، أو قلبت ألفًا في يطأ فيمن قال: لا هناك المرتع، ثم بني عليه الأمر، والهاء للسكت، ويجوز أن يكتفي بشطري الأسمين، وهما الدالان بلفظهما على المسميين، والله أعلم بصحة ما يقال: إن طاها في لغة عك في معنى: يا رجل، ولعل عك تصرفوا في يا هذا كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء فقالوا في ياطا واختصروا هذا فاقتصروا على ها وأثر الصنعة ظاهر لا يخفي في البيت المستشهد به:

إن السفاهة طاها في خلائقكم لا قدّس الله أخلاق الملاعين

والأقوال الثلاثة في الفواتح أعني التي قدمتها في أول الكاشف عن حقائق التنزيل هي التي يعول عليها الألباء المتقنون.

مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾.

﴿ما أنزلنا﴾ إن جعلت طه تعديد الأسماء الحروف على الوجه السابق ذكره فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسمًا للسورة احتملت أن تكون خبرًا عنها وهي في موضع المبتدأ و﴿القرآن﴾ ظاهر أوقع موقع الضمير لأنها قرآن، وأن يكون جوابًا لها وهي قسم، وقرئ: ما نزل عليك القرآن ﴿لتشقى﴾ لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله تعالى: ﴿لعلك باخع نفسك﴾[2] والشقاء يجيء في معنى: التعب، ومنه المثل: أشقى من رائض مهر، أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ولم يكتب عليك أنّ يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة، وقيل: إن أبا جهل والنضر بن الحرث قالا له: إنك شقي لأنك تركت دين آبائك، فأريد رد ذلك: بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز والسبب في درك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها، وروي: أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمغدت قدماه، فقال له جبريل عليه السلام: أبق على نفسك فإنّ لها عليك حقًا[3]، أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وتنيقها المشقة الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة، وكل واحد من لتشقى وتذكرة علة للفعل إلا أن الأوّل وجب مجيئه مع اللام؛ لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية، والثاني: جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماعه الشرائط.

فإن قُلْتَ: أما يجوز أن تقول ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى كقوله تعالى: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾[4] قُلْتُ: بلى ولكنها نصبه طارئة كالنصبة في: ﴿واختار موسى قومه﴾[5] وأمّا النصبة في تذكرة فهي كالتي في: ضربت زيدًا؛ لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغيرها.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون ﴿تذكرة﴾ بدلاً من محل ﴿لتشقى﴾؟ قُلْتُ: لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي إلا فيه بمعنى: لكن، ويحتمل أن يكون المعنى[6]: إنا أنزلناه عليك القرآن لتحتمل متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقابلتهم، وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوّة، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة على هذا الوجه، يجوز أن يكون تذكرة حالاً ومفعولاً له ﴿لمن يخشى﴾ لمن يؤول أمره إلى الخشية، ولمن يعلم الله منه أنه يبدل بالكفر إيمانًا وبالقسوة خشية.

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾.

في نصب ﴿تنزيلاً﴾ وجوه أن يكون بدلاً من تذكرة إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له؛ لأنّ الشيء لا يعلل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمرًا، وأن ينصب بأنزلنا؛ لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرة، أنزلناه تذكرة، وأن ينصب على المدح والاختصاص، وأن ينصب بيخشى مفعولاً به أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن وإعراب بين، وقرئ: تنزيل بالرفع على خبر مبتدأ محذوف. ما بعد تنزيلاً إلى قوله: ﴿له الأسماء الحسنى﴾[7] تعظيم

---

(1) كشف الأستار، كتاب: التفسير، باب: سورة طه (الحديث رقم: 2232)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حب النبي ﷺ. فصل في براءته ﷺ في النبوّة (الحديث رقم: 1497).
(2) سورة الكهف، الآية: 6.
(3) رواه البيهقي في كتاب: الدعوات الكبير، (الزيلعي 2/348).
(4) سورة الحجرات، الآية: 2.
(5) سورة الأعراف، الآية: 155.
(6) قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني بعد، فإن فيه إثبات كون الشقاء سبباً في نزوله، عكس الأوّل، وإن لم تكن اللام سببية، فكانت= للصيرورة مثلاً، ولم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه ﷺ من نهيه عن الشقاء والحزن عليهم، وضيق الصدر بهم، وكان مضمون هذه الآية متبايناً عن قوله تعالى: ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ وأمثاله كثيرة، فالظاهر، والله أعلم، هو التأويل الأوّل.
(7) سورة طه، الآية: 8.

وتفخيم لشأن المنزل لنسبته إلى من هذا أفعاله وصفاته، ولا يخلو من أن يكون متعلقه إما تنزيلاً نفسه فيقع صلة له، وإما محذوفًا فيقع صفة له.

فإن **قُلْتَ**: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب **قُلْتُ**: غير واحدة منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة، ومنها أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة، ومنها أنه قال أولاً: أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين، ويجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه. وصف السمٰوات بالعلى دلالة على عظمة قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها.

ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾.

قرئ: ﴿الرحمٰن﴾ مجرورًا صفة لمن خلق، والرفع أحسن لأنه: إما أن يكون رفعًا على المدح على تقدير: هو الرحمٰن، وإما أن يكون مبتدأ مشارًا بلامه إلى من خلق.

فإن **قُلْتَ**: الجملة التي هي ﴿على العرش استوى﴾ ما محلها إذا جررت الرحمٰن أو رفعته على المدح؟ **قُلْتُ**: إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لا غير، وإن رفعت جاز أن تكون كذلك، وأن تكون مع الرحمٰن خبرين للمبتدأ. لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضًا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة بمعنى: أنه جواد أو بخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى أنّ من لم يبسط يده قط بالنوال، أو لم تكن له يد رأسًا قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم: هو جواد، ومنه قول الله عزّ وجل: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾[1] أي: هو بخيل ﴿بل يداه مبسوطتان﴾[2] أي: هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق العطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام ﴿وما تحت الثرى﴾ وما تحت سبع الأرضين، عن محمد بن كعب، وعن السدي: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة. أي: يعلم ما أسررته إلى غيرك وأخفى من ذلك، وهو: ما أخطرته ببالك، أو ما أسررته في نفسك ﴿وأخفى﴾[3] منه وهو ما ستسره فيها، وعن بعضهم: إن أخفى فعل يعني: أنه يعلم أسرار العباد، وأخفى عنهم ما يعلمه هو كقوله تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا﴾[4] وليس بذاك.

فإن **قُلْتَ**: كيف طابق الجزاء الشرط؟ **قُلْتُ**: معناه: وإن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره فاعلم أنه غني عن جهرك، فإما أن يكون نهيًا عن الجهر كقوله تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول﴾[5] وإما تعليمًا للعباد أنّ الجهر ليس لإسماع الله وإنما هو لغرض آخر.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾.

﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن وصفت بها الأسماء؛ لأنّ حكمها حكم المؤنث، كقولك: الجماعة الحسنى، ومثلها: ﴿مآرب أخرى﴾[6] و﴿من آياتنا الكبرى﴾[7] والذي فضلت به أسماؤه في الحسن سائر الأسماء دلالتها على معاني التقديس، والتمجيد، والتعظيم، والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن.

وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾.

قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبوّة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود. يجوز أن ينتصب ﴿إذ﴾ ظرفًا للحديث لأنه حدث، أو لمضمر أي: حين ﴿رأى نارًا﴾ كان كيت وكيت، أو مفعولاً لا ذكر، استأذن موسى شعيبًا عليهما السلام في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله فولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة وقد ضلّ الطريق، وتفرّقت ماشيته، ولا ماء عنده وقدح، فصلد زنده، فرأى النار عند ذلك، قيل: كانت ليلة جمعة ﴿امكثوا﴾ أقيموا في مكانكم. الإيناس الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ومنه: إنسان العين لأنه يتبين به الشيء، والإنس لظهورهم كما قيل: الجنّ لاستتارهم، وقيل:

---

(1) سورة المائدة، الآية: 64.

(2) سورة المائدة، الآية: 64.

(3) قال أحمد: لا يخفي أن جعله فعلاً قاصر لفظاً، ومعنى: أما لفظاً، فإنه يلزم منه عطف الجملة الفعلية على الإسمية، إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى، أو عطف الماضي على المضارع، إن كان المعطوف عليه الصغرى، وكلاهما دون الأحسن، وأما معنى: فإن المقصود الحض على ترك الجهر بإسقاط فائدته، من حيث أنّ الله تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه، فكيف يبقى للجهر فائدة، وكلاهما على هذا التأويل، مناسب لترك الجهر، وأما = إذا جعل فعلاً، فيخرج عن مقصود السياق، وإن اشتمل على فائدة أخرى، وليس هذا كقوله تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾ لأنّ بين السياقين اختلافاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(4) سورة طه، الآية: 110.

(5) سورة الأعراف، الآية: 205.

(6) سورة طه، الآية: 18.

(7) سورة طه، الآية: 23.

هو إبصار ما يؤنس به. لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعًا متيقنًا حققه لهم بكلمة أن ليوطن أنفسهم. ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بني الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال ﴿لعلي﴾ ولم يقطع فيقول إني ﴿آتيكم﴾ لئلا يعدّ ما ليس بمستيقن الوفاء به. القبس: النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما، ومنه قيل: المقتبسة لما يقتبس فيه من سعفة أو نحوها، ﴿هدى﴾ أي: قومًا يهدونني الطريق أو ينفعونني بهداهم في أبواب الدين، عن مجاهد، وقتادة: وذلك لأنّ أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية في جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل، والمعنى: ذوي هدى، أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى، ومعنى: الاستعلاء في على النار أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها، كما قال سيبويه في مررت بزيد: أنه لصوق يقرب من زيد، أو لأنّ المصطلين بها والمستمتعين بها إذا تكنفوها قيامًا وقعودًا كانوا مشرفين عليها، ومنه قول الأعشى:

وبات على النار الندى والمحلق

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾.

قرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿أني﴾ بالفتح أي: نودي بأني ﴿أنا ربك﴾ وكسر الباقون أي: نودي فقيل: يا موسى، أو لأنّ النداء ضرب من القول فعومل معاملته. تكرير الضمير في إني أنا ربك لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة، روي: أنه لما نودي يا موسى قال: من المتكلم؟ فقال له الله عزّ وجلّ: إني أنا ربك، وأنّ إبليس وسوس إليه فقال: لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع جهاتي الست وأسمعه بجميع أعضائي، وروي: أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نورًا عظيمًا، فخاف وبهت، فألقيت عليه السكينة، ثم نودي، وكانت الشجرة عوسجة، وروي: كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت. وعن ابن اسحق: لما دنا استأخرت عنه، فلما رأى ذلك رجع وأوجس في نفسه فلما أراد الرجعة دنت منه ثم كلم. قيل: أمر بخلع النعلين؛ لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ[1]، عن السدّي وقتادة، وقيل: ليباشر الوادي بقدميه متبرّكًا به، وقيل: لأنّ الحفوة تواضع لله، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين، ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه، وكان إذا ندر منه الدخول منتعلاً تصدّق، والقرآن يدل على أنّ ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها، وروي: أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي ﴿طوى﴾ بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة، وقيل: مرّتين نحو ثني أي: نودي نداءين، أو قدّس الوادي كرة بعد كرة.

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾.

﴿وأنا اخترتك﴾ اصطفيتك للنبوّة، وقرأ حمزة: وإنا اخترناك ﴿لما يوحى﴾ للذي يوحى، أو الموحي، تعلق اللام باستمع أو باخترتك ﴿لذكرى﴾ لتذكرني، فإنّ ذكري أن اعبد ويصلي لي، أو لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار. عن مجاهد: أو لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، ولأن اذكرك بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق، أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيري، أو لإخلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضًا آخر، أو لتكون لي ذاكرًا غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به كما قال: ﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾[2] ولأوقات ذكري وهي: مواقيت الصلاة، كقوله تعالى: ﴿إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا﴾[3] واللام مثلها في قولك: جئتك لوقت كذا، وكان ذلك لست ليال خلون، وقوله تعالى: ﴿يا ليتني قدّمت لحياتي﴾[4] وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها من قوله عليه السلام: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها»[5] وكان حق العبارة أن يقال: لذكرها: كما قال رسول الله ﷺ: «إذا ذكرها» ومن يتمحل له يقول: إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله، أو بتقدير حذف المضاف أي: لذكر صلاتي، أو لأنّ الذكر والنسيان من الله عزّ وجلّ في الحقيقة، وقرأرسول الله ﷺ: «للذكرى».

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾.

أي[6]: أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها، ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 1/28 والترمذي في كتاب: اللباس باب: ما جاء في لبس الصوف (الحديث رقم: 1734).

(2) سورة النور، الآية: 37.

(3) سورة النساء، الآية: 103.

(4) سورة الفجر، الآية: 24.

(5) رواه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: من نسي صلاة فليصل إذًا ذكرها (الحديث رقم: 597) ومسلم في كتاب: المساجد، باب: «قضاء الصلاة الفائتة» (الحديث رقم: 1566).

(6) قال أحمد: ولا يقنع في رد هذا التاويل بالهو بنا، فإنه بين الفساد، وذلك أنّ خفاءها عن الله تعالى محال عقلاً، فكيف يوصف المحال العقلي بقرب الوقوع، وأحسن ما في محامل الآية، ما ذكره الأستاذ أبو علي، حيث قال: المراد: أكاد أزيل خفاءها، أي: أظهرها، إذاً لخفاء الغطاء، وهو أيضاً ما تجعله المراة فوق ثيابها يسترها، ثم تقول العرب: أخفيته، إذا أزلت خفاءه، كما تقول: أشكيته وأعتبته، إذا أزلت شكايته وعتبه، وحينئذ يلتئم القراءتان، أعني: فتح الهمزة وضمها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

اللطف لما أخبرت به، وقيل معناه: أكاد أخفيها من نفسي ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف، ومحذوف لا دليل عليه مطرح، والذي غرّهم منه أنّ في مصحف أبيّ: أكاد أخفيها من نفسي، وفي بعض المصاحف: أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها، وعن أبي الدرداء، وسعيد بن جبير: أخفيها بالفتح من خفاه إذا أظهره أي: قرب إظهارها كقوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾[1] وقد جاء في بعض اللغات أخفاه بمعنى: خفاه وبه فسر بيت امرئ القيس:

فإن تدفنوا الداء لا نخفه   وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

فأكاد أخفيها محتمل للمعنيين ﴿لتجزى﴾ متعلق بآتية ﴿بما تسعى﴾ بسعيها. أي: لا يصدّنك عن تصديقها، أو الضمير للقيامة ويجوز أن يكون للصلاة.

فإن قُلْتَ: العبارة لنهي من لا يؤمن عن صدّ موسى، والمقصود نهي موسى عن التكذيب بالبعث، أو أمره بالتصديق، فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود؟ **قُلْتُ:** فيه وجهان: أحدهما: أنّ صدّ الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب، والثاني أنّ صدّ الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم: لا أرينك ههنا المراد: نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته وذلك سبب رؤيته إياه فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب كأنه قيل: فكن شديد الشكيمة صليب المعجم حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه يعني: أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجمّ الغفير، إذ لا شيء أطمّ على الكفرة ولا هم أشدّ له نكيرًا من البعث، فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه لا البرهان وتدبره، وفي هذا حثّ عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ كقوله تعالى: ﴿وهذا بعلي شيخًا﴾[2] في انتصاب الحال بمعنى: الإشارة، ويجوز أن تكون تلك اسمًا موصولاً لا صلته بيمينك، إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عزّ وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة، وليقرّر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة، ونظيره: أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوسا مسردًا فيقول لك هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد، وقرى ابن أبي إسحق: عصى على لغة هذيل، ومثله: ﴿يا بشرى﴾[3] أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة، وقرأ الحسن: ﴿عصاي﴾ بكسر الياء لالتقاء الساكنين، وهو مثل قراءة حمزة ﴿بمصرخي﴾[4] وعن ابن أبي إسحق سكون الياء ﴿أتوكا عليها﴾ أعتمد عليها إذا أعييت، أو وقفت على رأس القطيع، وعند الظفرة. هش الورق: خبطه أي: أخبطه على رؤس غنمي تأكله، وعن لقمان بن عاد: أكلت حقًا وابن لبون وجذع وهشة نخب وسيلاً دفع والحمد لله من غير شبع سمعته من غير واحد من العرب، ونخب واد قريب من الطائف كثير السدر، وفي قراءة النخعي: أهش وكلاهما من هش الخبز يهش إذا كان ينكسر لهشاشته، وعن عكرمة أهس بالسين أي أنحى عليها زاجرًا لها، والهس: زجر الغنم، ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا، كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال: ما هي إلا عصًا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان ليكون جوابه مطابقًا للغرض الذي فهمه من فحوى كلام به، ويجوز أن يريد عزّ وجلّ أن يعدّد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة كأنه يقول له: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمآربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومآربة كنت تعتدّ بها وتحتفل بشأنها، وقالوا: إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته، وقالوا: إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه، وقالوا: انقطع لسانه بالهيبة فأجمل، وقالوا: اسم العصا نبعة، وقيل في المآرب: كانت ذات شعبتين ومحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبيتها وألقى عليها الكساء واستظلّ، وإذا قصر رشاؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه، وقيل: كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوًا، وتكونان شمعتين بالليل، وإذا ظهر عدوّ حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه، ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نضب، وكانت تقية الهوام.

فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾.

السعي المشي بسرعة وخفة حركة.

فإن قُلْتَ: كيف ذكرت بألفاظ مختلفة بالحية والجان

---

(1) سورة القمر، الآية: 12.
(2) سورة هود، الآية: 72.
(3) سورة يوسف، الآية: 19.
(4) سورة إبراهيم، الآية: 22.

والثعبان؟ قُلْتُ: أمّا الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأمّا الثعبان والجان فبينهما تناف؛ لأنّ الثعبان العظيم من الحيات، والجان الدقيق، وفي ذلك وجهان: أحدهما: أنها كانت وقت انقلابها حية تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورّم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانًا، فأريد بالجان أوّل حالها وبالثعبان مآلها، والثاني: أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فلما رآها تهتزّ كأنها جانّ﴾[1] وقيل: كان لها عرف كعرف الفرس، وقيل: كان بين لحييها أربعون ذراعًا. لما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الفزع والنفار ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف، وعن ابن عباس: انقلبت ثعبانًا ذكرًا يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر، وعن بعضهم: إنما خافها لأنه عرف ما لقي آدم منها، وقيل: لما قال له ربه: لا تخف بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها.

السيرة من السير، كالركبة من الركوب. يقال: سار فلان سيرة حسنة، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة، وقيل: سير الأوّلين، فيجوز أن ينتصب على الظرف أي: سنعيدها في طريقتها الأولى أي: في حال ما كانت عصا. وأن يكون أعاد منقولاً من عادة بمعنى عاد إليه، ومنه بيت زهير:

وعادك أن تلاقيها عداء

فيتعدى إلى مفعولين، ووجه ثالث حسن: وأن يكون سنعيدها مستقلاً بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى: أنها أنشئت أوّل ما أنشئت عصًا ثم ذهبت وبطلت بالقلب، فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأها أوّلاً، ونصب سيرتها بفعل مضمر أي: تسير سيرتها الأولى يعني: سنعيدها سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها.

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾
لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

قيل: لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لمجنبتيه، وجناحا الإنسان جنباه، والأصل المستعار منه جناحا الطائر، سميا جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران، والمراد: إلى جنبك تحت العضد، على ذلك قوله: ﴿تخرج﴾. السوء الرداءة والقبح في كل شيء فكنى به عن البرص، كما كنى عن العورة بالسوأة، وكان جذيمة صاحب الزباء أبرص فكنوا عنه بالأبرش، والبرص أبغض شيء إلى العرب وبهم عنه نفرة عظيمة، وأسماعهم لاسمه مجاجة، فكان جديرًا بأن يكنى عنه، ولا نرى أحسن ولا ألطف ولا أحر المفاصل من كنايات القرآن وآدابه. يروى: أنه كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشي البصر. ﴿بيضاء﴾ و﴿آية﴾ حالان معًا ومن غير سوء من صلة البيضاء، كما تقول أبيت من غير سوء، وفي نصب آية وجه آخر، وهو أن يكون بإضمار نحو: خذ دونك وما أشبه ذلك، حذف لدلالة الكلام، وقد تعلق بهذا المحذوف ﴿لنريك﴾ أي: خذ هذه الآية أيضًا بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى، ولنريك بهما الكبرى من آياتنا، أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك.

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾
وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل
لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ
أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا
﴿٣٥﴾

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي لعنه الله عرف أنه كلف أمرًا عظيمًا وخطبًا جسيمًا يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ويجعله حليمًا حمولاً يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو: خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشؤون ومقاساة جلائل الخطوب.

فإن قُلْتَ[2]: لي في قوله ﴿اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ ما جدواه والكلام بدونه مستتب؟ قُلْتُ: قد أبهم الكلام أوّلاً فقيل اشرح لي ويسر لي فعلم أن ثم مشروحًا وميسرًا، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره من أن يقول: اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج؛ لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل. عن ابن عباس: كان في لسانه رتة لما روي من حديث الجمرة، ويروى أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ، ولما دعاه قال: إلى أيّ رب تدعونني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها[3]، وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المواكلة، واختلف في زوال العقدة بكمالها فقيل: ذهب بعضها وبقي بعضها لقوله تعالى: ﴿وأخي هرون هو أفصح مني

(1) سورة النمل، الآية: 10.
(2) قال أحمد: ويحتمل عندي، والله أعلم، أن تكون فائدتها: الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر راجعة إليه، وعائدة إليه، فإن الله عز وجل لا ينتفع بإرساله، ولا يستعين بشرح صدره تعالى وتقدّس، على خلاف رسول الملك، إذا طلب منه أن يريح عليه، فإنما يطلب منه= ما يعود نفعه على مرسله، ويحصل له غرضه من رسالته، والله أعلم.
(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/575.

لسانًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ولا يكاد يبين﴾[2] وكان في لسان الحسين بن علي رضي الله عنهما رتة فقال رسول الله ﷺ: «ورثها من عمه موسى»[3]. وقيل: زالت بكمالها لقوله تعالى: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ وفي تنكير العقدة وإن لم يقل عقدة لساني أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهمًا جيدًا ولم يطلب الفصاحة الكاملة و﴿من لساني﴾ صفة للعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لساني. الوزير من الوزر؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزر لأنّ الملك يعتصم برأيه ويلجئ إليه أموره، أو من المؤازرة وهي المعاونة. عن الأصمعي قال: وكان القياس أزيرًا فقلبت الهمزة إلى الواو، ووجه قلبها أنّ فعيلاً جاء في معنى: مفاعل مجيأ صالحًا كقولهم: عشير وجليس وقعيد وخليل وصديق ونديم، فلما قلبت في أخيه قلبت فيه، وحمل الشيء على نظيره ليس بعزيز ونظر إلى يوازر وإخوته وإلى الموازرة. وزيرًا وهرون مفعولاً قوله: اجعل، قدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة، أولي وزيرًا مفعولاه، وهرون عطف بيان للوزير و﴿لخي﴾ في الوجهين بدل من هرون، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن. قرؤا جميعًا أشدد وأشركه على الدعاء، وابن عامر وحده: أشدد وأشركه على الجواب، وفي مصحف ابن مسعود: أخي وأشدد، وعن أبي بن كعب: أشركه في أمري وأشدد به أزري، ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر أن يجعل أخي مرفوعًا على الابتداء، وأشدد به خبره، ويوقف على هرون. الأزر: القوّة وأزره قواه أي: اجعله شريكي في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك ونكرك، فإنّ التعاون لأنه مهيج الرغبات يتزايد به الخير ويتكاثر ﴿إنك كنت بنا بصيرًا﴾ أي: عالمًا بأحوالنا وبأن التعاضد مما يصلحنا، وأن هرون نعم المعين والشاد لعضدي بأنه اكبر مني سنًا وأفصح لسانًا.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾.

السؤال الطلبة فعل بمعنى مفعول كقولك: خبز بمعنى: مخبوز وأكل بمعنى: مأكول. الوحي إلى أم موسى إما أن يكون على لسان نبي في وقتها كقوله تعالى: ﴿وإذا أوحيت إلى الحواريين﴾[4] ويبعث إليها ملكًا لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم، أو يريها نلك في المنام فتتنبه عليه، أو يلهمها كقوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾[5] أي: أوحينا إليها أمرًا لا سبيل إلى التوصل إليه، ولا إلى العلم به إلا بالوحي، وفيه مصلحة دينية، فوجب أن يوحى ولا يخل به، أي: هو مما يوحى لا محالة، وهو أمر عظيم مثله يحق بأن يوحى.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أن﴾ هي المفسرة؛ لأنّ الوحي بمعنى: القول. القذف مستعمل في معنى: الإلقاء والوضع ومنه قوله تعالى: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾[6] وكذلك الرمي قال:

غلام رماه الله بالحسن يافعًا

أي: حصل فيه الحسن، ووضعه فيه، والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة، لما يؤدي إليه من تنافر النظم.

فإن **قُلْتَ**: المقذوف في البحر هو: التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل؟ **قُلْتُ**: ما ضرك لو قالت: المقذوف والملقى هو: موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر. لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته أن لا تخطئ جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وإلقاه إليه، سلك في نلك سبيل المجاز، وجعل اليم كأنه نو تمييز أمر بنلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه فقيل: ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ روي: أنها جعلت في التابوت قطنًا محلوجًا فوضعته فيه وجصصته وقيرته ثم ألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبي أصبح الناس وجهًا، فأحبه عدوّ الله حبًا شديدًا لا يتمالك أن يصبر عنه، وظاهر اللفظ: أنّ البحر ألقاه بساحله وهو: شاطئه؛ لأنّ الماء يسحله أي: يقشره، وقذف به ثمة فالتقط من الساحل، إلا أن يكون قد ألقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون، ثم أداه النهر إلى حيث البركة ﴿مني﴾ لا يخلو إما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على إني أحببتك، ومن أحبه الله أحبته القلوب، وإما أن يتعلق بمحذوف هو: صفة لمحبة أي: محبة حاصلة، أو واقعة مني قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها، فلنلك أحبك فرعون وكل من أبصرك. وروي: أنه كانت على وجهه مسحة جمال، وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه ﴿على عيني﴾ لتربى ويحسن إليك، وأنا مراعيك وراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به، وتقول للصانع: اصنع هذا على عيني انظر إليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي، ولتصنع معطوف على علة مضمرة مثل ليتعطف عليك وترأم ونحوه، أو حذف معلله أي: ولتصنع فعلت نلك، وقرئ: ولتصنع ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر، وقرئ: ولتصنع بفتح التاء والنصب أي: وليكون عملك وتصرفك على عين مني.

---

(1) سورة القصص، الآية: 34.
(2) سورة الزخرف، الآية: 52.
(3) قال الزيلعي: غريب جدًا 352/2.
(4) سورة المائدة، الآية: 111.
(5) سورة النحل، الآية: 68.
(6) سورة الأحزاب، الآية: 26.

إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾.

العامل[1] في ﴿إذ تمشي﴾ ألقيت أو تصنع، ويجوز أن يكون بدلاً من إذ أوحينا.

فإن قُلْتَ: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟ **قُلْتُ:** كما يصح وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه أن يقول لك الرجل: لقيت فلانًا سنة كذا، فتقول: وأنا لقيته إذ ذاك وربما لقيه هو في أولها، وأنت في آخرها. يروى: أن أخته واسمها: مريم جاءت متعرفة خبره، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة، فقالت: ﴿هل أدلكم﴾ فجاءت بالأمّ فقبل ثديها. ويروى: أنّ آسية استوهبته من فرعون وتبنته وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع.

هي نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة، اغتم بسبب القتل خوفًا من عقاب الله، ومن اقتصاص فرعون فغفر الله باستغفاره حين قال: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾[2] ونجاه من فرعون أن ينشب فيه أظفاره حين هاجر إلى مدين ﴿فتونًا﴾ يجوز أن يكون مصدرًا على فعول في المتعدّي كالثبور، والشكور، والكفور، وجمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور في حجزة وبدرة أي: فتناك ضروبًا من الفتن. سأل سعيد بن جبير ابن عباس رضي الله عنه، فقال: خلصناك من محنة بعد محنة. ولد في عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير، وألقته أمّه في البحر، وهمّ فرعون بقتله، وقتل قبطيًا، وأجر نفسه عشر سنين، وضلّ الطريق، وتفرّقت غنمه في ليلة مظلمة، وكان يقول عند كل واحدة، فهذه فتنة يا ابن جبير، والفتنة المحنة وكل ما يشق على الإنسان وكل ما يبتل الله به عباده فتنة قال: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[3] ﴿مدين﴾ على ثماني مراحل من مصر، وعن وهب: أنه لبث عند شعيب ثمانيًا وعشرين سنة منها مهر ابنته، وقضى أو في الأجلين.

وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾.

أي سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأستنبئك، وفي وقت بعينه قد وقته لذلك، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر، وقيل: على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء وهو: رأس أربعين سنة. هذا تمثيل لما خوّله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوا مع خصال فيه وخصائص أهلاً لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه ولا ألطف محلاً فيصطنعه بالكرامة والأثرة ويستخلصه لنفسه، ولا يبصر، ولا يسمع إلا بعينه وأذنه، ولا يأتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره.

ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾.

الوني: الفتور والتقصير وقرئ: تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع أي لا تنسياني ولا أزال منكما على ذكر حيثما تقلبتما، واتخذا ذكري جناحًا تصير أن به مستمدين بذلك العون والتأييد مني، معتقدين أنّ أمرًا من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري، ويجوز أن يريد بالذكر: تبليغ الرسالة، فإنّ الذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها، فكان جديرًا بأن يطلق عليه اسم الذكر. روي: أنّ الله تعالى أوحى إلى هٰرون وهو بمصر أن يتلقى موسى، وقيل: سمع بمقبله، وقيل: ألهم ذلك.

فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾.

قرئ: ﴿لينًا﴾ بالتخفيف والقول اللين نحو قوله تعالى: ﴿هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى﴾[4]؛ لأنّ ظاهرة الاستفهام والمشورة وعرض ما فيه من الفوز العظيم، وقيل: عداه شبابًا لا يهرم بعده، وملكًا لا ينزع منه إلا بالموت، وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وقيل: لا تجبهاه بما يكره، وألطفا له القول لما له من حق تربية موسى، ولما ثبت له من مثل حق الأبوّة، وقيل: كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرّة. والترجي لهما أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوقه ويحتشد بأقصى وسعه، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن، إلزام الحجة وقطع المعذرة: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك﴾[5] أي: يتذكر ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق ﴿أو يخشى﴾ أن يكون الأمر كما تصفان فيجرّه إنكاره إلى الهلكة.

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾.

فرط: سبق وتقدّم، ومنه الفارط الذي يتقدّم الواردة،

(1) قال أحمد: والمعنى يوجب عمل، ولتصنع فيه؛ لأنّ معنى صنيعه على عين الله عز وجل تربيته مكلوءاً بكلاءته، مصوناً بحفظه، وزمان تربيته على هذه الحالة، هو زمان ردّه إلى أمه المشفقة الحنانة، وأما إلقاء المحبة عليه، فقيل ذلك أول ما أخذه فرعون وأحبه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) سورة القصص، الآية: 16.
(3) سورة الأنبياء، الآية: 35.
(4) سورة النازعات، الآيتان: 18 ـ 19.
(5) سورة طه، الآية: 134.

وفرس فرط يسبق الخيل، أي: نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها. وقرئ: ﴿يفرط﴾ من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة، خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقاب من شيطان، أو من جبروته واستكباره وادّعائه الربوبية، أو من به الرياسة، أو من قومه القبط المتمرّدين الذين حكى عنهم ربّ العزّة ﴿قال الملأ من قومه﴾[1] ﴿وقال الملأ من قومه﴾[2] وقرئ[3]: يفرط من الإفراط في الأذية أي: نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجلة. أو يجاوز الحدّ في معاقبتنا إن لم يعاجل بنا على ما عرفا وجرّبا من شرارته وعتوّه ﴿أو أن يطغى﴾ بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته عليك وقسوة قلبه، وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوّه بالعظيمة ﴿معكما﴾ أي: حافظكما وناصركما ﴿أسمع وأرى﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فافعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما، فجائز أن يقدّر أقوالكم وأفعالكم وجائز أن لا يقدّر شيء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر، وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ وصحت النصرة وذهبت المبالاة بالعدوّ.

فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾.

كانت بنو إسرائيل في ملكة فرعون والقبط يعذبونهم بتكليف الأعمال الصعبة من الحفر والبناء ونقل الحجارة والسخرة في كل شيء مع قتل الولدان واستخدام النساء ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ جملة جارية من الجملة الأولى وهي إنا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير؛ لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالآية إنما وحد قوله، بآية ولم يثن ومعه آيتان؛ لأنّ المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها فكأنه قال: قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة، وكذلك: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾[4] ﴿فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾[5] ﴿أولو جئتك بشيء مبين﴾[6] يريد: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين.

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾.

خاطب الإثنين ووجه النداء إلى أحدهما وهو: موسى؛ لأنه الأصل في النبوة، وهٰرون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه لما عرف من فصاحة هٰرون والرتة في لسان موسى ويدل عليه قوله: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾[7].

قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾.

﴿خلقه﴾ أول مفعولي أعطى أي: أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به أو ثانيهما أي: أعطي كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطي العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه، أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجر زوجين، والبعير والناقة والرجل والمرأة فلم يزاوج منها شيئًا غير جنسه وما هو على خلاف خلقه، وقرئ: خلقه صفة للمضاف أو للمضاف إليه، أي: كل شيء خلقه الله لم يخله من عطائه وإنعامه ﴿ثم هدى﴾ أي: عرف كيف يرتفق بما أعطي، وكيف يتوصل إليه، ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالبًا للحق.

قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾.

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون، وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد، فأجابه: بأنّ هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ لا يجوز على الله أن يخطئ شيئًا أو ينساه.

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾.

يقال: ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له كقولك: ضللت الطريق والمنزل، وقرئ: يضل من أضله إذا ضيعه، وعن ابن عباس: لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ولا يترك من وحده حتى يجازيه، ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء وتبينه لكل معلوم فتعنت وقال: ما تقول في سوالف القرون وتمادي كثرتهم وتباعد أطراف عددهم كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم، فأجاب بأنّ كل كائن محبط به علمه، وهو مثبت عنده في كتاب، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان كما يجوزان عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل أي: لا يضل كما تضل أنت ولا ينسى كما تنسى يا مدعي الربوبية بالجهل والوقاحة.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 60.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 33.

(3) قال أحمد: وإذا روعي في الأدب، إطلاق هذه اللفظة عن مجرور بها، فلا يبعد أن يراعى في الأدب بالاعتراف، بتقلد منة الله عزّ وجلّ زيادة المجرور في قوله: ﴿اشرح لي صدري﴾ كما = قدّمته آنفاً، والله أعلم.

(4) سورة الأعراف، الآية: 105.

(5) سورة الشعراء، الآية: 154.

(6) سورة الشعراء، الآية: 30.

(7) سورة الزخرف، الآية: 52.

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾.

﴿الذي جعل﴾ مرفوع صفة لربي أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه ﴿مهدًا﴾ قراءة أهل الكوفة أي: مهدها مهدًا، أو يتمهدونها فهي لهم كالمهد وهو: ما يمهد للصبي ﴿وسلك﴾ من قوله تعالى: ﴿ما سلككم في سقر﴾[1] ﴿سلكناه﴾[2] ﴿نسلكه في قلوب المجرمين﴾[3] أي: حصل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري ﴿فأخرجنا﴾ انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع، لما نكرت من الافتنان والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء على إرادته، ومثله قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾[4] ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها﴾[5] ﴿أمّن خلق السمٰوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾[6] وفيه تخصيص أيضًا بأنا نحن نقدر على مثل هذا ولا يدخل تحت قدرة أحد ﴿أزواجًا﴾ أصنافًا سميت بذلك؛ لأنها مزدوجة ومقترنة بعضها مع بعض ﴿شتى﴾[7] صفة للأزواج جمع شتيت كمريض، ومرضى، ويجوز أن يكون صفة للنبات، والنبات مصدر سمي به النابت كما سمي بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني: أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم قالوا: من نعمته عزّ وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله أي: قائلين ﴿كلوا وارعوا﴾ حال من الضمير في فأخرجنا المعنى: أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها.

۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾.

أراد: بخلقهم من الأرض خلق أصلهم وهو: آدم عليه السلام منها، وقيل: إن الملك لينطلق فيأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معًا. وأراد بإخراجهم منها أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلط بالتراب، ويردّهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعًا﴾[8] عدد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشًا ومهادًا يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي منه تفرعوا، وأمهم التي منها ولدوا، ثم هي كفايتهم إذا ماتوا، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة»[9].

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾.

﴿أريناه﴾ بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها وإنما كذب لظلمه كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا﴾[10] وقوله تعالى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السمٰوات والأرض بصائر﴾[11] وفي قوله تعالى: ﴿آياتنا كلها﴾ وجهان: أحدهما: أن يحذي بهذا التعريف الإضافي حذو التعريف باللام لو قيل: الآيات كلها أعني أنها كانت لا تعطي إلا تعريف العهد والإشارة إلى الآيات المعلومة التي هي تسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل، والثاني: أن يكون موسى قد أراه آياته وعدد عليه ما أوتيه غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم، وهو نبي صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به فكذبها جميعًا ﴿وأبى﴾ أن يقبل شيئًا منها، وقيل: فكذب الآيات وأبى قبول الحق.

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾.

يلوح من جيب قوله: ﴿لجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك﴾ أن فرائصه كانت ترعد خوفًا مما جاء به موسى

---

(1) سورة المدثر، الآية: 42.
(2) سورة الشعراء، الآية: 200.
(3) سورة الحجر، الآية: 12.
(4) سورة الأنعام، الآية: 99.
(5) سورة فاطر، الآية: 27.
(6) سورة النمل، الآية: 60.
(7) قال أحمد: الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد، يصرف كلامه على وجوه شتى، وما نحن فيه ليس من ذلك، فإنّ الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون: ﴿علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ ثم قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ إلى قوله: ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ إما أن يجعل من قول موسى، فيكون من باب قول خواص الملك: أمرنا وعمرنا، وإنما يريدون الملك، وليس هذا بالتفات، وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه، فليس التفاتاً أيضاً، وإنما = هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب، وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وقيفة، عند قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ليستقر بانتهاء الحكاية ويحتمل وجهاً آخر، وهو أنّ موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة، فقال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء﴾ فاخرج به ﴿أزواجاً من نبات شتى﴾ فلما حكاه الله تعالى عنه أسند الضمير إلى ذاته؛ لأنّ الحاكي هو المحكي في كلام موسى، فمرجع الضميرين واحد، وهذا الوجه وجه حسن دقيق الحاشية، وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات، لكن الزمخشري لم يعنه، والله أعلم.
(8) سورة المعارج، الآية: 43.
(9) رواه ابن أبي شيبة، (الحديث رقم: 6) والطبراني في الصغير (الحديث رقم: 408).
(10) سورة النمل، الآية: 14.
(11) سورة الإسراء، الآية: 102.

عليه السلام لعلمه وإيقانه أنه على الحق، وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت، وأن مثله لا يخذل ولا يقل ناصره، وأنه غالبه على ملكه لا محالة، وقوله: ﴿بسحرك﴾ تعلل وتحير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحرًا لا يقدر أن يخرج ملكًا مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر.

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾.

لا يخلو الموعد[1] في قوله: ﴿فاجعل بيننا وبينك موعدًا﴾ من أن يجعل زمانًا أو مكانًا أو مصدرًا فإن جعلته زمانًا نظرًا في أن قوله تعالى: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ مطابق له لزمك شيآن أن تجعل الزمان مخلفًا، وأن يعضل عليك ناصب مكانًا، وإن جعلته مكانًا لقوله تعالى: ﴿مكانًا سوى﴾ لزمك أيضًا أن توقع الأخلاف على المكان، وأن لا يطابق قوله: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾، وقراءة الحسن: غير مطابقة له مكانًا وزمانًا جميعًا؛ لأنه قرأ: يوم الزينة بالنصب فبقي أن يجعل مصدرًا بمعنى: الوعد ويقدر مضاف محذوف أي: مكان موعد، ويجعل الضمير في تخلفه للموعد، ومكانًا بدل من المكان المحذوف.

فإن قُلْتَ: فكيف طابقه قوله: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ ولابد من أن تجعله زمانًا، والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان؟ قُلْتُ: هو: مطابق معنى وإن لم يطابق لفظًا؛ لأنهم لابد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم، فبذكر الزمان علم المكان، وأما قراءة الحسن: فالموعد فيها مصدر لا غير، والمعنى: إنجاز وعدكم يوم الزينة، وطباق هذا أيضًا من طريق المعنى، ويجوز أن لا يقدر مضاف محذوف ويكون المعنى: اجعل بيننا وبينك وعدًا لا نخلفه.

فإن قُلْتَ: فبم ينتصب ﴿مكانًا﴾ قُلْتُ: بالمصدر، أو بفعل يدل عليه المصدر.

فإن قُلْتَ: فكيف يطابقه الجواب؟ قُلْتُ: أما على قراءة الحسن: فظاهر، وأما على قراءة العامة: فعلى تقدير: وعدكم وعد يوم الزينة، ويجوز على قراءة الحسن أن يكون موعدكم مبتدأ بمعنى الوقت، وضحى خبره على نية التعريف فيه؛ لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه، وقيل في يوم الزينة: يوم عاشوراء، ويوم النيروز، ويوم عيد كان لهم في كل عام، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقًا ويتزينون ذلك اليوم. قرئ: ﴿نخلفه﴾ بالرفع على الوصف الموعد، وبالجزم على جواب الأمر وقرئ: ﴿سوىً﴾ بالكسر والضم ومنونًا وغير منون، ومعناه: منصفًا بيننا وبينك، عن مجاهد: وهو من الاستواء؛ لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها، ومن لم ينون فوجهه: أن يجري الوصل مجرى الوقف. قرئ: ﴿وأن تحشر الناس﴾ بالتاء والياء، يريد وأن تحشر يا فرعون وأن يحشر اليوم، ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة أما على العادة التي يخاطب بها الملوك، أو خاطب القوم بقوله: ﴿موعدكم﴾ وجعل ﴿يحشر﴾ لفرعون، ومحل أن يحشر الرفع أو الجرّ عطفًا على اليوم أو الزينة، وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الخاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حدّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر.

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾.

﴿لا تفتروا على الله كذبًا﴾ أي: لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرًا. قرئ: ﴿فيسحتكم﴾ والسحت لغة أهل الحجاز، والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم ومنه قول الفرزدق: إلا مسحتًا أو مجلف في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه؛ عن ابن عباس: إن نجواهم إن غلبنا موسى اتبعناه، وعن قتادة: إن كان ساحرًا فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر، وعن وهب: لما قال:

---

(1) قال أحمد: وفي إعماله، وقد وصف بقوله: ﴿لا نخلفه﴾ بعد، إلا أن تجعل الجملة معترضة، فهو مع ذلك لا يخلو من بعد، من حيث أن وقوع الجملة عقيب النكرة، بحيزها الشأن أن تكون صفة، والله أعلم، ويحتمل عندي وجه آخر أخصر وأسلم، وهو: أن يجعل موعد اسم مكان، فيطابق مكاناً، ويكون بدلاً منه، ويطابق الجواب بالزمان بالتقرير الذي ذكره، ويبقى عود الضمير، فنقول: هو والحالة هذه، عائد على المصدر المفهوم من اسم المكان؛ لأن حروفه فيه، والموعد إذا كان اسم مكان، فحاصله مكان وعد، كما إذا كان اسم زمان، فحاصله زمان وعد، وإذا جاز رجوع الضمير إلى ما دلت قوّة الكلام عليه، وإن لم يكن منطوقاً به بوجه، فرجوعه إلى ما هو كالمنطوق به أولى، ومما يحقق ذلك أنهم قالوا: من صدق كان خيراً له، يعنون: كان الصدق خيراً له، فأعادوا=

= الضمير على المصدر، وقدروه منطوقاً به للنطق، بالفعل الذي هو مشتق منه، وإذا أوضح ذلك، فاسم المكان مشتق من المصدر اشتقاق الفعل منه، فالنطق به كاف في إعادة الضمير على مصدره، والله أعلم، وعلى هذين التأويلين يكون جواب موسى عليه السلام من جوامع كلم الأنبياء؛ لأنه سئل أن يواعدهم مكاناً، فعلم أنهم لا بد أن يسألوه مواعدة على زمان أيضاً، فأسلف الجواب عنه، وضمنها جواباً مفرداً. ولقائل أن يقول: إن كان المسؤول منه المواعدة على المكان، فلم أجاب بالزمان الذي لم يسأل عنه صريحاً، وجعل جواب ما سئل عنه مضمناً. (وجوابه) والله أعلم أن يقال: اكتفى بقرينة السؤال، عن صريح الجواب، وأما ما لم يسئل عنه، فلو ضمنه، لم يفهم قصده إليه، إذ لا قرينة تدل عليه، والله أعلم.

﴿ويلكم﴾ الآية قالوا: ما هذا بقول ساحر، والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجانبوا أهداب القول، ثم قالوا: ﴿إن هٰذان لساحران﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفًا من غلبتهما وتثبيطًا للناس عن اتباعهما. قرأ أبو عمرو: ﴿إن هٰذين لساحران﴾ على الجهة الظاهرة المكشوفة، وابن كثير، وحفص: إن هٰذان لساحران على قولك إن زيد لمنطلق، واللام هي الفارقة بين إنّ النافية والمخففة من الثقيلة، وقرأ أبيّ: إن ذان إلا ساحران، وقرأ ابن مسعود: أن هٰذان ساحران بفتح أن وبغير لام بدل من النجوى، وقيل في القراءة المشهورة: إن هٰذان لساحران هي: لغة للحرث بن كعب جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف كعصا وسعدى فلم يقلبوها ياء في الجرّ والنصب، وقال بعضهم: أن بمعنى: نعم وساحران خبر مبتدأ محذوف واللام داخلة على الجملة تقديره: لهما ساحران، وقد أعجب به أبو إسحاق. سموا مذهبهم الطريقة ﴿المثلى﴾ والسنة الفضلى ﴿وكل حزب بما لديهم فرحون﴾[1] وقيل: أرادوا أهل طريقتهم المثلى وهم: بنو إسرائيل، لقول موسى: ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل﴾[2] وقيل: الطريقة اسم لوجوه الناس وأشرافهم الذين هم قدوة لغيرهم يقال: هم طريقة قومهم، ويقال للواحد أيضًا، هو طريقة قومه.

فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾.

﴿فاجمعوا كيدكم﴾ يعضده قوله: ﴿فجمع كيده﴾[3] وقرئ: فاجمعوا كيدكم أي: ازمعوه واجعلوه مجمعًا عليه حتى لا تختلفوا ولا يخلف عن واحد منكم كالمسئلة المجمع عليها. أمروا بأن يأتوا صفًا أهيب في صدور الرائين، وروي أنهم كانوا سبعين ألفًا مع كل واحد منهم حبل وعصا، وقد أقبلوا إقبالة واحدة، وعن أبي عبيدة أنه فسر الصف: بالمصلى؛ لأنّ الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفين. ووجه صحته أن يقع علمًا لمصلى بعينه، فأمروا بأن يأتوه، أو يراد: ائتوا مصلى من المصليات ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ اعتراض يعني: وقد فاز من غلب.

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾.

أن مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمر، أو مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف معناه[4]: اختر أحد الأمرين: أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا، وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه، وتواضع له، وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم، وكأن الله عزّ وعلا ألهمهم ذلك، وعلم موسى صلوات الله عليه اختيار إلقائهم أولاً، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه، وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين. يقال في إذا هذه: إذا المفاجاة، والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبًا لها وجملة تضاف إليها، خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصًا وهو فعل المفاجاة والجملة ابتدائية لا غير، فتقدير قوله تعالى: فإذا حبالهم وعصيهم ففاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل والمعنى: على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي وقرئ: ﴿عصيهم﴾ بالضم وهو الأصل والكسر اتباع ونحوه: دلى ودلى وقسى وقسي، وقرئ: ﴿تخيل﴾ على إسناده إلى ضمير الحبال والعصيّ وإبدال قوله ﴿أنها تسعى﴾ من الضمير بدل الاشتمال كقولك: أعجبني زيد كرمه، وتخيل على كون الحبال والعصيّ مخيلة سعيها وتخيل بمعنى: تتخيل وطريقة طريق تخيل وتخيل على أنّ الله تعالى هو المخيل للمحنة والابتلاء. يروى: أنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزّت فخيلت ذلك.

فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾.

إيجاس الخوف إضمار شيء منه، وكذلك توجس الصوت تسمع نبأه يسيرة منه، وكان ذلك لطبع الجبلة البشرية وأنه لا يكاد يمكن الخلوّ من مثله، وقيل: خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه ﴿إنك أنت الأعلى﴾ فيه تقرير لغلبته وقهره، وتوكيد بالاستئناف وبكلمة التشديد وبتكرير الضمير وبلام التعريف وبلفظ العلوّ وهو: الغلبة الظاهرة وبالتفضيل، وقوله[5]: ﴿ما في يمينك﴾ ولم يقل عصاك

(1) سورة الروم، الآية: 32.
(2) سورة طه، الآية: 47.
(3) سورة طه، الآية: 60.
(4) قال أحمد: وقبل ذلك تأدّبوا معه، بقولهم: فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه، ففوّضوا ضرب الموعد إليه، وكما ألهم الله عزّ وجلّ موسى ههنا، أن يجعلهم مبتدئين بما معهم، ليكون إلقاؤه العصا بعد قذفا بالحق على الباطل، فيدمغه، فإذا هو زاهق كذلك، ألهمه من الأوّل أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم، ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد، فيكون أفضح لكيدهم، وأهتك لستر = حرمهم، والله أعلم.
(5) قال أحمد: وإنما المقصود بتحقيرها في جنب القدرة، تحقير كيد السحرة بطريق الأولى؛ لأنها إذا كانت أعظم منة، وهي حقيرة في جانب قدرة الله تعالى، فما الظنّ بكيدهم، وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة، ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدوّ الممدوح، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح، وقد قهره، واستولى عليه، فصغر الله أمر العصا، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين.

جائز أن يكون تصغيرًا لها أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك، فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها، وجائز[1] أن يكون تعظيمًا لها أي: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فإنّ في يمينك شيئًا أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده، فألقه يتلقفها بإذن الله يمحقها، وقرئ: ﴿تلقف﴾ بالرفع على الاستئناف أو على الحال أي: ألقها متلقفة وقرئ: تلقف بالتخفيف ﴿صنعوا﴾ ههنا بمعنى: زوروا وافتعلوا كقوله تعالى: ﴿تلقف ما يأفكون﴾[2] قرئ: ﴿كيد ساحر﴾ بالرفع والنصب. فمن رفع فعلى أنّ ما موصولة، ومن نصب فعلى أنها كافة، وقرئ: كيد سحر بمعنى: ذي سحر، أو ذوي سحر، أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته، أو بين الكيد لأنه يكون سحرًا وغير سحر كما تبين المائة بدرهم ونحوه: علم فقه، وعلم نحو.

فإن قُلْتَ: لم وحد ساحر ولم يجمع؟ **قُلْتُ:** لأنّ القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد، فلو جمع لخيل أنّ المقصود هو العدد ألا ترى إلى قوله: ﴿ولا يفلح الساحر﴾ أي: هذا الجنس.

فإن قُلْتَ: فلم نكر أوّلاً وعرف ثانيًا؟ **قُلْتُ:** إنما نكر من أجل تنكير المضاف لا من أجل تنكيره في نفسه كقول العجاج:

في سعي دنيا طالما قد مدت

وفي حديث عمر رضي الله عنه: لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة[3] المراد تنكير الأمر كأنه قيل: إنّ ما صنعوا كيد سحري وفي سعي دنيويّ وأمر دنيويّ وآخري. ﴿حيث أتى﴾ كقولهم: حيث سير وأية سلك وأينما كان.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

سبحان[4] الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين، وروي: أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها، وعن عكرمة: لما خرّوا سجدًا أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

﴿لكبيركم﴾ لعظيمكم يريد: أنه أسحرهم وأعلاهم درجة في صناعتهم، أو لمعلمكم من قول أهل مكة للمعلم: أمرني كبيري، وقال لي كبيري كذا، يريدون معلمهم وأستاذهم في القرآن وفي كل شيء. قرئ: ﴿فلاقطعنّ﴾ ولأصلبنّ بالتخفيف والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأنّ كل واحد من العضو من خالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال، ومن لابتداء الغاية؛ لأن القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو العضو لا من وفاقه إياه، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال أي: لأقطعنها مختلفات؛ لأنها إذا خالف بعضها بعضًا فقد اتصفت بالاختلاف. شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعي في وعائه فلذلك قيل: في جذوع النخل ﴿أينا﴾ يريد نفسه لعنة الله وموسى صلوات الله عليه بدليل قوله: ﴿آمنتم له﴾ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى كقوله:﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾[5] وفيه نفاجة باقتداره وقهره وما ألفه وضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب، وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به؛ لأنّ موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا

---

(1) قال أحمد: وههنا لطيفة، وهو أنه تلقى من هذا النظم أوّلاً قصد التحقير، وثانياً قصد التعظيم، فلا بدّ من نكتة تناسب الأمرين، وتلك، والله أعلم، هي إرادة المذكور مبهماً؛ لأنّ ما في يمينك أبهم من عصاك، وللعرب مذهب في التنكير والإبهام، والإجمال تسلكة مرة، لتحقير شأن ما أبهمته، وأنه عند الناطق به، أهون من أن يخصه ويوضحه، ومرّة لتعظيم شأنه، وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان، يعني فيه الزمر والإشارة، فهذا هو الوجه في إسعاده بهما جميعاً، وعندي في الآية، وجه سوى قصد التعظيم والتحقير، والله أعلم، وهو أنّ موسى عليه السلام أوّل ما علم أنّ العصا آية من الله تعالى، عندما سأله عنها بقوله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ ثم أظهر له تعالى آيتها، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها، قال تعالى: ﴿وألق ما في يمينك﴾ ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له: ﴿وما تلك بيمينك﴾ وقد أظهر له آيتها، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به، وقت ظهور آيتها، وذلك مقام = يناسب التأنيس والتثبيت، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) سورة الأعراف، الآية: 117.

(3) قال أحمد: وفي تكرير لفظ الإلقاء والعدول عن مثل، فسجد السحرة إيقاظ السامع لألطاف الله تعالى، في نقله عباده من غاية الكفر والعناد، إلى نهاية الإيمان والسداد، وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد، إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين، وهو يناسب ما قدّمته آنفاً، في إيجاز الخطاب في قوله: ﴿وألق ما يمينك﴾ و ﴿ما تلك بيمينك﴾ فتأمّله، فإنّ الحق حسن متناسب، والله الموفق.

(4) سورة التوبة، الآية: 61.

(5) قال أحمد: ووجه آخر، وهو: أن قدر كل جزء من أجزاء الطريق، طريقاً، وقد كانت بهذه المثابة؛ لأنها كانت اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق، والله أعلم.

خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾.

﴿والذي فطرنا﴾ عطف على ما جاءنا أو قسم. قرئ: ﴿تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الظرف، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به كقولك في صمت يوم الجمعة: صيم يوم الجمعة، وروي: أن السحرة يعني: رؤوسهم كانوا اثنين وسبعين الإثنان من القبط، والسائر من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر، وروي: أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائمًا ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه.

إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾.

﴿تزكى﴾ تطهر من أدناس الذنوب، وعن ابن عباس قال: لا إله إلا الله قيل: في هذه الآيات الثلاث هي حكاية قولهم، وقيل: خبر من الله لا على وجه الحكاية.

وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾.

﴿فاضرب لهم طريقًا﴾ فاجعل[1] لهم من قولهم: ضرب له في ماله سهمًا، وضرب اللبن عمله اليبس مصدر وصف به يقال: يبس يبسًا ويبسًا، ونحوهما: العدم والعدم، ومن ثم وصف به المؤنث فقيل: شاتنا يبس، وناقتنا يبس إذا جف لبنها، وقرئ: يبسًا ويابسًا، ولا يخلو اليبس من أن يكون مخففًا عن اليبس، أو صفة على فعل، أو جمع يابس كصاحب وصحب، وصف به الواحد تأكيدًا كقوله: ومعي جياعًا، جعله لفرط جوعه كجماعة جياع ﴿لا تخاف﴾ حال من الضمير في فاضرب وقرئ: لا تخف على الجواب وقرأ أبو حيوة ﴿دركًا﴾ بالسكون، والدرك والدرك أسمان من الإدراك أي: لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك، في ﴿ولا تخشى﴾ إذا قرئ: لا تخف ثلاثة أوجه: أن يستأنف كأنه قيل: وأنت لا تخشى أي: ومن شأنك أنك آمن لا تخشى، وأن لا تكون الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة كقوله: ﴿فأضلونا السبيلا﴾[2] ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾[3] وأن يكون مثل قوله:

كأن لم ترى قبلي أسيرًا يمانيًا

فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾.

﴿ما غشيهم﴾ من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله وقرئ: فغشاهم من اليم ما غشاهم والتغشية: التغطية وفاعل غشاهم إما الله سبحانه، أو غشاهم، أو فرعون؛ لأنه الذي ورط جنوده وتسبب لهلاكهم. وقوله ﴿وما هدى﴾ تهكم[4] به في قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾[5].

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾.

﴿يا بني إسرائيل﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك آل فرعون وقيل: هو للذين كانوا منهم في عهد رسول الله ﷺ مَنّ الله عليهم بما فعل بآبائهم، والوجه هو: الأوّل أي: قلنا يا بني إسرائيل، وحذف القول كثير في القرآن وقرئ: ﴿أنجيتكم﴾ إلى رزقتكم وعلى لفظ الوعد والمواعدة وقرئ: ﴿الأيمن﴾ بالجر على الجوار نحو: حجر ضب خرب. نكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما واعد موسى صلوات الله عليه من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة في الألواح، وإنما عدي المواعدة إليهم لأنها لابستهم واتصلت بهم، حيث كانت لنبيهم ونقبائهم، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم، وفيما أفاطن عليهم من سائر نعمه وأرزاقه، طغيانهم في النعمة أن يتعدوا حدود الله فيها بأن يكفروها، ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها، وأن ينفقوها في المعاصي، وأن يزووا حقوق الفقراء فيها، وأن يسرفوا في إنفاقها، وأن يبطروا فيها ويأشروا ويتكبروا، قرئ: ﴿فيحل﴾ وعند عبد الله: لا يحلن ﴿ومن يحلل﴾ المكسور في معنى: الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى: ﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾[6] والمضموم في معنى: النزول[7]،

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 67.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 10.

(3) قال أحمد: فإن قلت التهكم: أن يأتي بعبارة، والمقصود عكس مقتضاها، كقولهم: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين، وأما قوله تعالى: ﴿وما هدى﴾ فمضمونه هو الواقع، فهو حينئذ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه، قلت: هو كذلك، ولكن العرف مثل: ما هدى زيد عمراً ثبوت كون زيد عالماً بطريق الهداية، مهتدياً في نفسه، ولكنه لم يهد عمراً، وفرعون أضل الضالين في نفسه، فكيف يتوهم أنه يهدي غيره، وتحقيق ذلك أنّ قوله تعالى: ﴿وأضل فرعون قومه﴾ كاف في= الإخبار بعدم هدايته لهم، مع مزيد إضلاله إياه، فإن من لا يهدي، قد لا يضل، فيكون كفافاً، وإذا تحقق غناء الأوّل في الإخبار، تعين كون الثاني لمعنى سواه، وهو: التهكم، والله أعلم.

(4) قوله تعالى: ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ (قال: الغضب، عقوبة الله تعالى لهم إلخ).

(5) سورة غافر، الآية: 29.

(6) سورة البقرة، الآية: 196.

(7) قال أحمد: لا يسعه أن يحمل الغضب، إلا على العقوبة؛ لأنه ينفي صفة الإرادة، في جملة ما ينفونه من صفات الكمال، وأمّا على قاعدة السنة، فيجوز أن يكون المراد من الغضب: إرادة العقوبة=

وغضب الله: عقوباته ولذلك وصف بالنزول ﴿هوى﴾ هلك وأصله أن يسقط من جبل فيهلك قالت:

هوى من رأس مرقبة ففتت تحتها كبده

ويقولون: هوت أمّه، أو سقط سقوطًا لا نهوض بعده.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

الاهتداء هو: الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو: التوبة والإيمان والعمل الصالح ونحوه قوله تعالى: ﴿إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾[1] وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالة على تباين الوقتين في جاءني زيد، ثم عمر، وأعني أنّ منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه؛ لأنها أعلى منها وأفضل.

۞ ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وما أعجلك﴾[2] أي شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقًا إلى كلام ربه، وتنجز ما وعد به بناء على اجتهاده وظنه أنّ ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى، وزل عنه أن عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظرًا إلى دواعي الحكمة وعلمًا بالمصالح المتعلقة بكل وقت، فالمراد بالقوم: النقباء وليس لقول: من جوز أن يراد جميع قومه، وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح يأباه قوله ﴿وهم أولاء على أثري﴾ وعن أبي عمرو ويعقوب: إثري بالكسر، وعن عيسى بن عمر: أثري بالضم، وعنه أيضًا: أولي بالقصر. والأثر أفصح من الأثر أما الأثر فمسموع في فرند السيف مدوّن في الأصول يقال: أثر السيف وأثره وهو بمعنى: الأثر غريب.

فإن قُلْتَ: ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك، وقوله: ﴿هم أولاء على أثري﴾ كما ترى غير منطبق عليه؟ قُلْتُ: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين: أحدهما: إنكار العجلة في نفسها، والثاني: السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهمّ الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدّم يسير مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به، وليس بني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدّم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم، ثم عقبة بجواب السؤال عن السبب فقال: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾.

أراد بالقوم المفتونين الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفًا.

فإن قُلْتَ: في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها، وقالوا: قد أكملنا العدّة، ثم كان أمر العجل بعد ذلك، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمة: ﴿إنا قد فتنا قومك﴾؟ قُلْتُ: قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته. أو افترض السامري غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه، وأخذ في تدبير ذلك فكان بدء الفتنة موجودًا. قرئ: ﴿وأضلهم السامري﴾ أي: وهو أشدّهم ضلالاً؛ لأنه ضال مضل وهو منسوب إلى قبلية من بني إسرائيل يقال لها: السامرة، وقيل: السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، وقيل: كان من أهل باجرما، وقيل: كان علجًا من كرمان واسمه موسى بن ظفر وكان منافقًا قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾.

الأسف الشديد الغضب ومنه قوله عليه السلام في موت الفجاة: «راحة للمؤمن وأخذة أسف للكافر»[3] وقيل: الحزين.

فإن قُلْتَ: متى رجع إلى قومه قُلْتُ: بعد ما استوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة. وعدهم الله سبحانه أن

= فيكون من أوصاف الذات، ويحتمل أن يراد به: معاملتهم بما يعامل به من غضب عليه شاهداً، فيكون من صفات الأفعال، وأما وصفه بالحلول، فلا يتأتى حمله على الإرادة، ويكون بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»، على التأويل المعروف، أو عبر عن حلول أثر الإرادة، بحلولها تعبيراً عن الأثر بالمؤثر، كما يقول الناظر إلى عجيب مخلوقات الله تعالى: انظر إلى قدرة الله، يعني: أثر القدرة، لا نفسها، والله أعلم. قوله تعالى: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على ثري وعجلت إليك رب لترضى﴾ (قال فيه: إن قلت: سئل عن سبب العجلة إلخ).

(1) سورة فصلت، الآية: 30، وسورة الأحقاف، الآية: 13.

(2) قال أحمد: وإنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم =

= أن يعلم موسى أدب السفر، وهو: أن ينبغي تأخير رئيس القوم عنهم في المسير، ليكون نظره محيطاً بطائفته، ونافذاً فيهم، ومهيمناً عليهم، وهذا المعنى لا يحصل في تقدّمه عليهم، ألا ترى الله عزّ وجل كيف علم هذا الأدب لوطاً، فقال: ﴿واتبع أدبارهم﴾ فأمره أن يكون أخيرهم، على أنّ موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر، مبادرة إلى رضا الله عز وجل، ومسارعة إلى الميعاد، وذلك شأن الموعود بما يسره، يود لو ركب إليه أجنحة الطير، ولا أسر من مواعدة الله تعالى له ﷺ.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 3/598 (الحديث رقم: 6781)، وأبو داود في كتاب: الجنائز، باب: موت الفجاة (الحديث رقم: 3110).

يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور ولا وعد أحس من ذاك وأجمل، حكي لنا أنها كانت ألف سورة، كل سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملاً ﴿العهد﴾ الزمان يريد مدّة مفارقته لهم يقال: طال عهدي بك أي: طال زماني بسبب مفارقتك، وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل.

قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾.

﴿بملكنا﴾ قرئ: بالحركات الثلاث: أي ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا أي: لو ملكنا أمرنا وخلينا وراءنا لما أخلفناه، ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده. أي: حملنا أحمالاً من حليّ القبط التي استعرناها منهم، أو أرادوا بالأوزار أنها آثام وتبعات؛ لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ ﴿فقذفناها﴾ في نار السامري التي أوقدها في الحفرة، وأمرنا أن نطرح فيها الحليّ، وقرئ: حملنا. ﴿فكذلك ألقى السامري﴾ أراهم أنه يلقي حليًا في يده مثل ما ألقوا: وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطئ حيزوم فرس جبريل، أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتًا صار حيوانًا.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾.

﴿فأخرج لهم﴾ السامري من الحفرة عجلاً خلقه الله من الحليّ التي سبكتها النار يخور كما تخور العجاجيل.

فإن قُلْتَ: كيف أثرت تلك التربة في إحياء الموات؟ **قُلْتُ**: أما يصحّ أن يؤثر الله سبحانه روح القدس بهذه الكرامة الخاصة كما آثره بغيرها من الكرامات وهي: أن يباشر فرسه بحافره تربة إذا لاقت تلك التربة جمادًا أنشاه الله إن شاء عند مباشرته حيوانًا، ألا ترى كيف أنشأ المسيح من غير أب عند نفخه في الدرع[1].

فإن قُلْتَ: فلم خلق الله العجل من الحليّ حتى صار فتنة لبني إسرائيل وضلالاً؟ **قُلْتُ**: ليس بأوّل محنة محن الله بها عباده لـ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين﴾[2] ومن عجب من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب، والمراد بقوله: ﴿إنا قد فتنا قومك﴾[3] هو: خلق العجل للامتحان أي: امتحانهم بخلق العجل، وحملهم السامري على الضلال وأوقعهم فيه حين قال لهم: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ أي: فنسي موسى أن يطلبه هٰهنا وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري أي: ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر ﴿يرجع﴾ من رفعه، فعلى أن أن مخففة من الثقيلة، ومن نصب فعلى أنها الناصبة للأفعال.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾.

﴿من قبل﴾ من قبل أن يقول لهم السامري ما قال: كأنهم أوّل ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتتنوا به واستحسنوه، فقبل أن ينطق السامري بادرهم هٰرون عليه السلام بقوله: ﴿إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمٰن﴾ لا مزيدة والمعنى: ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن؟ ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهد؟ أو مالك لم تلحقني؟.

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾.

قرئ: ﴿بلحيتي﴾ بفتح اللام وهي: لغة أهل الحجاز، كان موسى صلوات الله عليه زجلاً حديدًا مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب لله ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة، لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة غضبًا لله واستنكافًا وحمية، وعنف بأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضًا على شعر رأسه وكان أقرع وعلى شعر وجهه يجره إليه. أي: لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا، فاستأنيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك المتلافي برأيك، وخشيت عتابك على إطراح ما وصيتني به من ضم النشر وحفظ الدهماء، ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها.

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾.

الخطب: مصدر خطب الأمر إذا طلبه، فإذا قيل لمن يفعل شيئًا ما خطبك؟ فمعناه: ما طلبك له.

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ

---

(1) قال أحمد: هذا السؤال وجوابه تقدماً له في أول سورة الأعراف، وقد أوضحنا أن الله تعالى إنما تعبدنا بالبحث عن علل أحكامه، لا علل أفعاله، وجواب هذا السؤال في قوله تعالى: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ فهذا الأمر جائز، وقد أخبر الله تعالى بوقوعه، فلا ينبغي وراء ذلك سبيلاً، لكن الزمخشري تقتضي=

= قاعدته، في وجوب رعاية المصالح على الله تعالى، وتحتم هداية الخلق عليه، أن يؤوّل ذلك، ويحرفه، فذرهم وما يفترون.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 27.

(3) سورة طه، الآية: 85.

ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾

قرئ: ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ بالكسر والمعنى: علمت ما لم تعلموه وفطنت ما لم تفطنوا له. قرأ الحسن ﴿قبضة﴾ بضم القاف وهي: اسم المقبوض كالغرفة والمضغة، وأمّا القبضة فالمرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير، وقرأ أيضًا: فقبصت قبصة بالصاد المهملة، الضاد بجميع الكف، والصا بأطراف الأصابع، ونحوهما: الخضم والقضم، الخاء بجميع الفم، والقاف بمقدمه. قرأ ابن مسعود: من أثر فرس الرسول.

فإن قُلْتَ: لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس؟ **قُلْتُ:** حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به، فأبصره السامري فقال: إنّ لهذا شأنًا فقبض قبضة من تربة موطئة، فلما سأله موسى عن قصته قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد ولعله لم يعرف أنه جبريل.

قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعًا كليًا، وحرّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضًا، وإذا اتفق أن يماس أحدًا رجلاً أو امرأة حم الماس والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا مساس، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرام، ومن الوحشي النافر في البرية، ويقال: إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم، وقرئ: ﴿لا مساس﴾ بوزن فجار، ونحوه قولهم في الظباء إذا وردت الماء: فلا عباب، وإن فقدته: فلا أباب، وهي أعلام للمسة والعبة والأبة وهي المرّة من الأب وهو: الطلب ﴿لن تخلفه﴾ أي: لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقرئ: لن تخلفه وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفًا قال الأعشى:

أثـوي واقـصـر لـيـلـه لـيـزوّدا فمضى وأخلف من قتيلة موعدا

وعن ابن مسعود: نخلفه بالنون أي: لن يخلفه الله كأنه حكى قوله عزّ وجل كما مر في: ﴿لأهب لك﴾[1] ﴿ظلت﴾ وظلت وظللت والأصل ظللت فحذفوا اللام الأولى ونقلوا حركتها إلى الظاء ومنهم من لم ينقل ﴿لنحرقنه﴾ ولنحرقنه. ولنحرقنه وفي حرف ابن مسعود: لنذبحنه ولنحرقنه ولنحرقنه القراءتان من الإحراق، وذكر أبو علي الفارسي في لنحرقنه: أنه يجوز أن يكون حرق مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد وعليه القراءة الثالثة وهي: قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿لننسفنه﴾ بكسر السين وضمها وهذه عقوبة ثالثة وهي: إبطال ما افتتن به وفتن، وإهدار سعيه وهدم مكره ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾[2].

إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾.

قرأ طلحة: الله الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرب ﴿وسع كل شيء علمًا﴾ وعن مجاهد، وقتادة: وسع، ووجهه أن وسع متعدّ إلى مفعول واحد وهو كل شيء، وأمّا علمًا فانتصابه على التمييز وهو في المعنى فاعل، فلما نقل إلى التعدية إلى مفعولين فنصبهما معًا على المفعولية؛ لأنّ المميز فاعل في المعنى: كما تقول في خاف زيد عمرًا: خوفت زيدًا عمرًا فترد بالنقل ما كان فاعلاً مفعولاً.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾.

الكاف في ﴿كذلك﴾ منصوب المحل وهذا موعد من الله عزّ وجل لرسوله ﷺ أي: مثل ذلك الاقتصاص، ونحو ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون، نقصّ عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم، تكثيرًا لبيناتك وزيادة في معجزاتك، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة، وتتأكد الحجة على من عاند وكابر، وأن هذا الذكر الذي آتيناك يعني: القرآن مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار، لذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه ومن أعرض عنه فقال هلك وشقي.

مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾.

يريد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها وزرًا تشبيهًا في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح الحمل وينقض ظهره ويلقي عليه بهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو: الإثم، وقرئ: يحمل.

جمع ﴿خالدين﴾ على المعنى؛ لأنّ ﴿من﴾ مطلق متناول لغير معرض واحد، وتوحيد الضمير في أعرض وما بعده للحمل على اللفظ، ونحوه قوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فإنّ له نار جهنم خالدين فيها﴾[3] ﴿فيه﴾ أي:

---

(1) سورة مريم، الآية: 19.

(2) سورة آل عمران، الآية: 54.

(3) سورة الجن، الآية: 23.

في تلك الوزر، أو في احتماله ﴿ساء﴾ في حكم بئس، والضمير فيه يجب أن يكون مبهمًا يفسره ﴿حملاً﴾ والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره: ساء حملاً وزرهم، كما حذف في قوله تعالى: ﴿نعم العبد إنه أوّاب﴾(1) أيوب هو المخصوص بالمدح، ومنه قوله تعالى: ﴿وساءت مصيرا﴾(2) أي: وساءت مصيرًا جهنم.

فإن قُلْتَ: اللام في ﴿لهم﴾ ما هي وبم تتعلق؟ **قُلْتُ:** هي للبيان كما في ﴿هيت لك﴾(3).

فإن قُلتَ: ما أنكرت أن يكون في ﴿ساء﴾ ضمير الوزر؟ **قُلْتُ:** لا يصح أن يكون في ساء وحكمه حكم بئس ضمير شيء بعينه غير مبهم.

فإن قُلتَ: فلا يكن ساء الذي حكمه حكم بئس وليكن ساء الذي منه قوله تعالى: ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾(4) بمعنى أهم وأحزن؟ **قُلْتُ:** كفاك صادًا عنه أن يؤول كلام الله إلى قولك: وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملاً، وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذه اللام وعهدة هذا المنصوب، أسند النفخ إلى الآمر به فيمن قرأ: ننفخ بالنون، أو لأن الملائكة المقرّبين وإسرافيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى، وقرئ: ينفخ بلفظ ما لم يسم فاعله، وينفخ ويحشر بالياء المفتوحة على الغيبة، والضمير لله عزّ وجل، أو لإسرافيل عليه السلام وأما يحشر المجرمون فلم يقرأ به إلا الحسن، وقرئ: في الصور بفتح الواو جمع صوره، وفي الصور قولان: أحدهما: أنه بمعنى: الصور وهذه القراءة تدل عليه، والثاني إنه القرن. قيل في الزرق قولان: أحدهما: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب؛ لأنّ الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين، والثاني: أنّ المراد العمى؛ لأنّ حدقة من يذهب نور بصره تزراق.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ۝١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ۝١٠٤﴾.

تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول يستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا، إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتاسفون عليها ويصفون بالقصر لأنّ أيام السرور قصار، وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضت والذاهب وإن طالت مدّته قصير بالانتهاء، ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت أطال الله بقاءك: كفى بالانتهاء قصرًا، وإما لاستطالتهم الآخرة وإنها أبد سرمد يستقصر إليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة وقد استرجح الله قول من يكون أشد تقاولاً منهم في قوله تعالى ﴿**إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يومًا**﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عددسنين. قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم فاسئل العادين﴾(5) وقيل: المراد لبثهم في القبور ويعضده قوله عزّ وجل: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون. وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾(6).

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ۝١٠٧﴾.

﴿ينسفها﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذرى الطعام ﴿فيذرها﴾ أي: فيذر مقارها ومراكزها، أو يجعل الضمير للأرض وإن لم يجر لها ذكر كقوله تعالى: ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾(7).

فإن قُلْتَ: قد فرّقوا بين العوج والعوج فقالوا: العوج بالكسر في المعاني، والعوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ **قُلْتُ:** اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها أعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله عزّ وعلا ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الإدراك اللهمّ إلا بالقياس الذي يعرقه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه عوج بالكسر. الأمت النتوّ اليسير يقال: مدّ حبلة حتى ما فيه أمت.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ۝١٠٨ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ۝١٠٩ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾.

أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال في قوله: ﴿يومئذ﴾ أي: يوم إذ نسفت، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من يوم القيامة. والمراد الداعي إلى المحشر. قالوا: هو إسرافيل قائمًا على صخرة بيت المقدس يدعو الناس فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون ﴿لاعوج له﴾

(1) سورة صّ، الآية: 30.
(2) سورة النساء، الآية: 97.
(3) سورة يوسف، الآية: 23.
(4) سورة الملك، الآية: 27.
(5) سورة المؤمنون، الآيتان: 112 و113.
(6) سورة الروم، الآيتان: 55 و56.
(7) سورة فاطر، الآية: 45.

أي: لا يعوجّ له مدعوّ بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته. أي: خفضت الأصوات من شدّة الفزع وخفتت ﴿فلا تسمع إلا همسًا﴾ وهو: الركز الخفي، ومنه الحروف المهموسة، وقيل: هو من همس الإبل وهو: صوت أخفاقها إذا مشت أي: لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر ﴿من﴾ يصلح أن يكون مرفوعًا ومنصوبًا، فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف أي: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من ﴿أذن له الرحمٰن﴾ والنصب على المفعولية، ومعنى أذن له ﴿ورضي له﴾ لأجله أي: أذن للشافع ورضي قوله لأجله، ونحو هذه اللام اللام في قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾[1]. أي: يعلم ما تقدّمهم من الأحوال وما يستقبلونه ولا يحيطون بمعلوماته علمًا.

۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾.

المراد بالوجوه: وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب صارت وجوههم عانية أي: ذليلة خاشعة مثل وجوه العناة وهم: الأسارى، ونحوه قوله تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾[2] ﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وقد خاب﴾ وما بعده اعتراض كقولك: خابوا وخسروا، وكلّ من ظلم فهو: خائب خاسر. الظلم أن يأخذ من صاحبه فوق حقه. والهضم أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجحون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. أي: فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم؛ لأنه لم يظلم ولم يهضم وقرئ: فلا يخف على النهي.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾.

﴿وكذلك﴾ عطف على كذلك نقص أي: ومثل ذلك الإنزال[4] وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة، مكرّرين فيه آيات الوعيد ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي، أو فعل الخير والطاعة. والذكر كما ذكرنا يطلق على الطاعة والعبادة. وقرئ: نحدّث وتحدّث بالنون والتاء أي: تحدّث أنت وسكن بعضهم الثاء للتخفيف كما في:

فاليوم أشرب غير مستحقب ... إثـمًا مـن الله ولا واغـل

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾.

﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده، والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم، وغير ذلك مما يجري عليه أمر ملكوته. ولما ذكر القرآن وإنزاله قال: على سبيل الاستطراد، وإذا لقنك جبريل ما يوحي إليك من القرآن فتأنّ عليك ريثما يسمعك ويفهمك، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته، ونحوه قوله تعالى: ﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به﴾[5] وقيل: معناه لا تبلغ ما كان منه مجملاً حتى يأتيك البيان. وقرئ: حتى تقضى إليك وحيه، وقوله تعالى: ﴿رب زدني علمًا﴾ متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له عندما علم من ترتيب التعلم أي: علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأدبًا جميلاً ما كان عندي، فزدني علمًا إلى علم فإنّ لك في كل شيء حكمة وعلمًا، وقيل: ما أمر الله ورسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾.

يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقدّم الملك إلى فلان وأوعز إليه وعزم عليه وعهد إليه، عطف الله سبحانه قصة آدم على قوله: ﴿وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون﴾[6] والمعنى وأقسم قسمًا لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها، وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهي عنه وتوعد في ارتكابه مخالفتهم ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إنّ أساس أمر بني آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه.

فإن قلت: ما المراد بالنسيان؟ **قلت**: يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان، وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصي به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها، وقرئ: فنسي أي: نساه الشيطان. العزم التصميم والمضي على ترك الأكل وأن يتصلب في ذلك تصلبًا يؤيس الشيطان من التسويل له. والوجود يجوز أن يكون بمعنى: العلم، ومفعولاه: له عزمًا، وأن يكون نقيض العدم كأنه قال: وعدمنا له عزمًا.

---

(1) سورة الأحقاف، الآية: 11.
(2) سورة الملك، الآية: 27.
(3) سورة القيامة، الآية: 24.
(4) قال أحمد: الصواب في تفسيرها: ليكونوا على رجاء التقوى والتذكر، وإلا فلو أراد الله من جميعهم التقوى، لوقعت، وقد تقدّمت أمثالها، والعجب أنه نقل عن سيبويه في تفسير: لعل أوّل هذه =

= السورة عند قوله تعالى: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ أنّ معناه: كونا على رجائكما، ثم رجع عن ذلك ههنا؛ لأنّ المعتقد الفاسد، يحذوه إلى هذا التأويل الباطل، والله الموفق.
(5) سورة القيامة، الآية: 16.
(6) سورة طه، الآية: 113.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿إذ﴾ منصوب بمضمر أي: واذكر وقت ما جرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه وتزيينه له الأكل من الشجرة، وطاعته له بعد ما تقدّمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيده حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولي العزم والثبات.

فإن قُلْتَ: إبليس كان جنيًا بدليل قوله تعالى: ﴿كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه﴾[1] فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة؟ **قُلْتُ:** كان في صحبتهم وكان يعبد الله تعالى عبادتهم، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له، كان الجني الذي معهم أجدر بأن يتواضع، كما لو قام المقبل على المجلس عليه أهله وسراتهم كان القيام على واحديينهم هو دونهم في المنزلة أوجب حتى عن لم يقم عنف وقيل له: قد قام فلان وفلان فمن أنت حتى تترفع عن القيام.

فإن قُلْتَ: فكيف صحّ استثناؤه وهو جني عن الملائكة؟ **قُلْتُ:** عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه فأخرج الاستثناء على ذلك كقولك: خرجوا إلا فلانة لامرأة بين الرجال ﴿أبى﴾ جملة مستأنفة كأنه جواب قائل قال: لم لم يسجد؟ والوجه أن لا يقدّر له مفعول وهو: السجود المدلول عليه بقوله: فسجدوا، وأن يكون معناه: أظهر الإباء وتوقف وتثبط.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿فلا يخرجنكما﴾ فلا يكونن سببًا لإخراجكما. وإنما أسند إليه آدم وحده فعل الشقاء دون حوّاء بعد إشراكهما في الخروج؛ لأنّ في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أنّ في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على الفاصلة، أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه، وروي: أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه، قرئ: ﴿وإنك﴾ بالكسر والفتح ووجه الفتح العطف على أن لا تجوع.

فإن قُلْتَ: أن لا تدخل على إنّ فلا يقال: إن آن زيدًا مطلق والواو نائبة عن إن وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؟ **قُلْتُ:** الواو لم توضع لتكون أبدًا نائبة عن إن، إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفًا موضوعًا للتحقيق خاصة كأن لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إن[2] وأن. الشبع والري والكسوة والكن هي: الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب، كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحوّ ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها.

فإن قُلْتَ: كيف عدّى وسوس تارة باللام في قوله: فوسوس ﴿لهما الشيطان﴾ وأخرى بإلى؟ **قُلْتُ:** وسوسة الشيطان كولولة الثكلى ووعوعة الذئب ووقوقة الدجاجة في أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس ومنه وسوس المبرسم وهو موسوس بالكسر والفتح لحن. وأنشد ابن الأعرابي:

وسوس يدعو مخلصًا رب الفلق

فإذا قلت: وسوس له فمعناه: لأجله كقوله:

أجراس لها يا ابن أبيّ كباش

ومعنى وسوس إليه: أنهى إليه الوسوسة كقولك: حدّث إليه، وأسر إليه. أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها خلد بزعمه، كما قيل لحيزوم: فرس الحياة لأنّ من باشر أثره حي ﴿وملك لا يبلى﴾ دليل على قراءة الحسن بن علي وابن عباس رضي الله عنهم: إلا أن تكونا ملكين بالكسر.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

---

(1) سورة الكهف، الآية: 50.

(2) قال أحمد: تنبيه حسن، وفي الآية سرّ بديع من البلاغة يسمى: قطع النظير عن النظير، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً، فقال الكندي الأول:

كأني لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أرشف الرزق الرويّ ولم أقل ... لخيلي كرّي كرّة بعد إجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله لخيلي كرّي كرّة، وقطع تبطن = الكاعب عن ترشف الكاس مع التناسب، وغرضه أن يعدّد ملاذه ومفاخره ويكثرها، وتبعه الكندي الآخر فقال:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

فاعترضه سيف الدولة بأنه ليس فيه قطع الشيء عن نظيره، ولكنه على فطنته، قصر فهمه عما طالت إليه يد أبي الطيب من هذا المعنى الطائل البديع، على أن في هذه الآية سراً، لذلك زائداً على ما ذكر، وهو أن قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظمأ بالجوع، فقيل: إنّ لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ، لانتثر سلك رؤوس الآي، وأحسن به منتظماً، والله أعلم.

طفق يفعل كذا مثل: جعل يفعل وأخذ وأنشأ، وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعًا، وبينها وبينه مسافة قصيرة هي للشروع في أوّل الأمر، وكاد لمشارفته والدنوّ منه. قرئ: ﴿يخصفان﴾ للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف أي: يلزقان الورق بسوآتهما للتستر وهو ورق التين، وقيل: كان مدورًا فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما. وقيل: كان لباسهما الظفر، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع. عن ابن عباس: لا شبهة في أنّ آدم لم يمتثل ما رسم الله له وتخطى فيه ساحة الطاعة وذلك العصيان، ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشدًا وخيرًا فكان غيًا لا محالة؛ لأنّ الغي خلاف الرشد، ولكن قوله: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ بهذا الإطلاق وبهذا التصريح، وحيث لم يقل وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات والفرطات، فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة، وكأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيآت والصغائر فضلاً أن تجسروا على التورط في الكبائر، وعن بعضهم: فغوى فبشم من كثرة الأكل، وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفًا فيقول في فني وبقي فنًا وبقاؤهم: بنوطي، تفسير خبيث.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿ثم اجتباه ربه﴾؟ **قُلْتُ:** ثم قبله بعد التوبة وقربه إليه من جبي إلي كذا فاجتبيته، ونظيره، جليت على العروس فاجتليتها، ومنه قوله عزّ وجل: ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾[1] أي: هلا جبيت إليك فاجتبيتها، وأصل الكلمة الجمع ويقولون: اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار و﴿هدى﴾ أي: وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى.

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾.

لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلي البشر والسببين اللذين منهما نشؤا وتفرعوا جعلا كأنهما البشر في أنفسهما فخوطبا مخاطبتهم فقيل: ﴿فإما يأتيكم﴾ على لفظ الجماعة، ونظيره أسنادهم الفعل إلى السبب وهو في الحقيقة للمسبب ﴿هدى﴾ كتاب وشريعة. وعن ابن عباس: ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم تلا قوله: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ والمعنى أنّ الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾.

الضنك مصدر يستوي في الوصف به المنكر والمؤنث. وقرئ: ﴿ضنكى﴾ على فعلى،ومعنى ذلك: إنّ مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته، فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة فيعيش عيشًا رافغًا كما قال عزّ وجل: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾[2] والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق فعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض المتوصفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه، ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره، قال الله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾[3] وقال: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[4] وقال: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[5] وقال: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارًا. يرسل السماء عليكم مدرارًا﴾[6] وقال: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقًا﴾[7] وعن الحسن: هو الضريع والزقوم في النار، وعن أبي سعيد الخدري: عذاب القبر. وقرئ: ﴿ونحشره﴾ بالجزم عطفًا على محل فإنّ له معيشة ضنكًا لأنه جواب الشرط، وقرئ: ونحشره بسكون الهاء على لفظ الوقف وهذا مثل قوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا﴾[8] وكما فسر الزرق بالعمى ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة فلم تنظر إليها بعين المعتبر ولم تتبصر وتركتها وعميت عنها، فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾.

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين المعيشة الضنك في الدنيا وحشره أعمى في الآخرة حتم آيات الوعيد بقوله: ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ كأنه قال: وللحشر على العمى الذي لا يزول أبدًا أشد من ضيق العيش المنقضي، أو أراد: ولتركنا إياه في العمى أشد وأبقى من تركه لآياتنا.

(1) سورة الأعراف، الآية: 203.
(2) سورة النحل، الآية: 97.
(3) سورة البقرة، الآية: 61.
(4) سورة المائدة، الآية: 66.
(5) سورة الاعراف، الآية: 96.
(6) سورة نوح، الآيتان: 10 و11.
(7) سورة الجن، الآية: 16.
(8) سورة الإسراء، الآية: 97.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾.

فاعل. لم يهد الجملة بعده يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين. سلام على نوح في العالمين﴾(1) أي: تركنا عليه هذا الكلام، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول ويدل عليه القرءة بالنون. وقرئ: ﴿يمشون﴾ يريد أنّ قريشًا يتقلبون في بلاد عاد وثمود ويمشون ﴿في مساكنهم﴾ ويعاينون آثار هلاكهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

الكلمة السابقة هي: العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة يقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عادًا وثمودًا لازمًا لهؤلاء الكفرة. واللزام: إما مصدر لازم وصف به، وإما فعال بمعنى مفعل أي: ملزم كأنه آلة اللزوم لفرط لزومه كما قالوا: لزاز خصم ﴿وأجل مسمى﴾ لا يخلو من أن يكون معطوفًا على كلمة، أو على الضمير في كان أي: لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كانا لازمين لعاد وثمود، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿بحمد ربك﴾ في موضع الحال أي: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه، والمراد بالتسبيح: الصلاة، أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أولاً، والأوقات على الفعل آخرًا، فكأنه قال: صل الله قبل طلوع الشمس يعني: الفجر، وقبل غروبها يعني: الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها، وتعمد آناء الليل وأطراف النهار مختصًا لهما بصلاتك، وذلك أنّ أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوء الرجل والخلو بالرب، وقال الله عزّ وجل: ﴿إنّ ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً﴾(2) وقال: ﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا﴾(3) ولأنّ الليل وقت السكون والراحة فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشدّ وأشق وللبدن أتعب وأنصب فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله، وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة وفي أطراف النهار صلاة المغرب، وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت في قوله: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾(4) عند بعض المفسرين.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله: ﴿وأطراف النهار﴾ على الجمع وإنما هما طرفان كما قال: ﴿أقم الصلاة في طرفي النهار﴾(5) قُلْتُ: الوجه أمن الإلباس، وفي التثنية زيادة بيان، ونظير مجيء الأمرين في الآيتين مجيئهما في قوله: ظهراهما مثل ظهور الترسين، وقرئ: وأطراف النهار عطًا على آناء الليل. ولعل للمخاطب أي: أنكر الله في هذه الأوقات طمعًا ورجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك، وقرئ: ترضى أي: يرضيك ربك.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿ولا تمدن عينيك﴾ أي: نظر عينيك، ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانًا للمنظور إليه وإعجابًا به وتمنيًا أن يكون له كما فعل نظارة قارون حين قالوا: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾(6) حتى واجههم أولوا العلم والإيمان: بـ﴿ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا﴾(7) وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع وأنّ من أبصر منها شيئًا أحب أن يمد إليه نظره ويملأ منه عينيه قيل: ﴿ولا تمدن عينيك﴾ أي: لا تفعل ما أنت معتاد له وضاربه، ولقد شدّد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك؛ لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمغري لهم على اتخاذها ﴿أزواجًا منهم﴾ أصنافًا من الكفرة ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير والفعل واقع على منهم؛ كأنه قال إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناسًا منهم.

فإن قُلْتَ: علام انتصب ﴿زهرة﴾ قُلْتُ: على أحد أربعة أوجه: على الذم وهو النصب على الاختصاص، وعلى تضمين متعنا معنى أعطينا وخوّلنا وكونه مفعولاً ثانيًا له، وعلى إبداله من محل الجار والمجرور، وعلى إبداله من أزواجًا على تقدير ذوي زهرة.

فإن قُلْتَ: ما معنى الزهرة فيمن حرّك؟ قُلْتُ: معنى الزهرة بعينه وهو: الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة الجهرة وقرئ: ﴿أرنا الله جهرة﴾(8) وأن تكون جمع زاهر

(1) سورة الصافات، الآيتان: 78 و79.
(2) سورة المزمل، الآية: 6.
(3) سورة الزمر، الآية: 238.
(4) سورة البقرة، الآية: 238.
(5) سورة هود، الآية: 114.
(6) سورة القصص، الآية: 79.
(7) سورة النساء، الآية: 153.
(8) قال أحمد: لولا أنّ غرض القدرية من هذا إثبات رازق غير الله تعالى، كما أثبتوا خالقاً سوى الله تعالى، لكان البحث لفظياً، فالحق والسنة أنّ كل ما تقوم به البينة رزق من الله تعالى، سواء كان حلالاً أو غيره، لا يلزم من كون الله تعالى رزقه أن يكون حلالاً، فكما يخلق الله تعالى على يدي العبد ما نهاه عنه، كذلك يرزقه =

وصفًا لهم بأنهم زاهر، وهذه الدنيا لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون وتهلل وجوههم وبهاء زيهم وشارتهم بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب ﴿لنفتنهم﴾ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه[1] ﴿ورزق ربك﴾ هو ما ادخر له من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأدوم، أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوّة، أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال ﴿خير وأبقى﴾ لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث. والحرام لا يسمى رزقًا أصلاً، وعن عبد الله بن قسيط، عن رافع قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى يهوديّ وقال: «قل له يقول لك رسول الله أقرضني إلى رجب». فقال: وا الله لا أقرضته إلا برهن، فقال رسول الله: «إني لأمين في السماء وإني لأمين في الأرض احمل إليه درعي الحديد»[2] فنزلت ﴿ولا تمدّن عينيك﴾.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أي: واقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم، ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة فإنّ رزقك مكفيّ من عندنا ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ففرّغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول الناس: من دان في عمل الله كان الله في عمله، وعن عروة بن الزبير: أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين. قرأ: ﴿ولا تمدّن عينيك﴾ الآية، ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله، وعن بكر بن عبد الله المزني: كان إذا أصابت أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر الله رسوله، ثم يتلو هذه الآية.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾.

اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوّة فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أمّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني: القرآن. من قبل أنّ القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة. وقرئ: الصحف بالتخفيف. ذكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها في معنى: البرهان والدليل.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ الصِّرَٰطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

قرئ: ﴿نزلّ ونخزى﴾ على لفظ ما لم يسم فاعله ﴿كل﴾ أي: كل واحد منا ومنكم ﴿متربص﴾ للعاقبة ولما يؤوّل إليه أمرنا وأمركم. وقرئ: السواء بمعنى: الوسط والجيد، أو المستوي، والسوى والسوأى والسوء تصغير السوء، وقرئ: فتمتعوا فسوف تعلمون. قال أبو رافع: حفظته من رسول الله ﷺ: «عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار»،[3] وقال: لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا طه، ويس»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبيـاء مكيّة

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾.

هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلةً «لاقترب» أو تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم كقولك: أزفَ للحيّ رحيلهم، الأصل أزفَ رحيل الحي، ثم أزفَ للحي الرحيل، ثم أزفَ للحي رحيلهم ونحوه ما أورده سيبويه في باب ما يثنى فيه المستقرّ، توكيدًا عليك زيد حريص عليك وفيك زيد راغب فيك. ومنه قولهم: لا أبًا لك، لأنّ اللام مؤكدة لمعنى الإضافة وهذا الوجه أغرب من الأوّل، والمراد: اقتراب الساعة وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب، وغير ذلك ونحوه واقترب الوعد الحق.

فإن قُلْتَ: كيف وصف بالاقتراب وقد عدّت دون هذا القول أكثر من خمسمائة عام؟ **قُلْتُ:** هو مقترب عند الله والدليل عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾[5] ﴿وإنّ يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدّون﴾[6] ولأنّ كلّ آت وإن طالت أوقات استقباله وترقبه قريب، إنما البعيد هو الذي وجد وانقرض ولأنّ ما بقي في الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها، بدليل انبعاث خاتم النبيين

= ما أباح له تناوله وما لا، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، والله الموفق للصواب.

(1) سورة القصص، الآية: 80.

(2) كشف الأستار كتاب البيوع، باب: القرض والبيع إلى أجل (الحديث رقم: 1304).

(3) ذكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي (2/356).

(4) ذكره الثعلبي في تفسيره الزيلعي (2/356).

(5) سورة الحج، الآية: 47.

(6) سورة الحج، الآية: 47.

الموعود مبعثه في آخر الزمان. وقال عليه السلام: «بعثت في نسم الساعة»[1]. وفي خطبة بعض المتقدّمين: ولت الدنيا حذاء ولم تبق إلا صبابة كصبابة الإناء، وإذا كانت بقية الشيء وإن كثرت في نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه كانت خليقة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ المراد بالناس: المشركون، وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه؛ للدليل القائم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين.

وصفهم بالغفلة مع الإعراض على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بدّ من جزاء للمحسن والمسيء، وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا، وسدّوا أسماعهم ونفروا.

وقرّر إعراضهم عن تنبيه المنبه، وإيقاظ الموقظ بأنّ الله يجدّد لهم الذكر وقتًا فوقتًا، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرّر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلّهم يتّعظون، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر التي هي أحق الحق وأجدّ الجد إلا لعبًا وتلهيًا واستسخاراً. والذكر: هو الطائفة النازلة من القرآن. وقرأ ابن أبي عبلة ﴿محدثٌ﴾ بالرفع صفة على المحل.

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾.

قوله: ﴿وهم يلعبون﴾ ﴿لاهية قلوبهم﴾ حالان مترادفتان أو متداخلتان، ومن قرأ لاهية بالرفع فالحال واحدة؛ لأنّ لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله وهم، واللاهية من لها عنه إذا ذهل وغفل، يعني: أنهم وإن فطنوا، فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفطنوا أصلاً، وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأمّل والتبصّر بقلوبهم.

فإن قُلْتَ: النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية، فما معنى قوله: وأسرّوا؟ **قُلْتُ**: معناه وبالغوا في إخفائها، أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون. أبدل ﴿الذين ظلموا﴾ من واو ﴿وأسرّوا﴾ إشعارًا بأنّهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسرّوا به، أو جاء على لغة من قال: أكلوني البراغيث، أو هو منصوب المحل على الذمّ، أو هو مبتدأ خبره ﴿وأسرّوا النجوى﴾ قدّم عليه، والمعنى: وهؤلاء أسرّوا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى. أي: وأسرُّوا هذا الحديث ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمرًا. اعتقدوا أنّ رسول الله ﷺ لا يكون إلا ملكًا وأن كل من ادّعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر، ومعجزته سحر فلذلك قالوا: على سبيل الإنكار أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر.

فإن قُلْتَ: لِمَ أسرُّوا هذا الحديث وبالغوا في إخفائه؟ **قُلْتُ**: كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم، والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره وعمل المنصوبة في التثبيط عنه، وعادة المتشاورين في خطب أن لا يشركوا أعداءهم في شوراهم ويتجاهدوا في طيّ سرّهم عنهم ما أمكن واستطيع، ومنه قول الناس: «استعينوا على حوائجكم بالكتمان»[2]، ويرفع إلى رسول الله ﷺ. يجوز أن يسرّوا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله ﷺ والمؤمنين: إن كان ما تدعونه حقًا فأخبرونا بما أسررنا؟

فإن قُلْتَ: هلا قيل: يعلم السر لقوله: ﴿وأسرّوا النجوى﴾! **قُلْتُ**: القول عام يشمل السرّ والجهر فكان في العلم به العلم بالسرّ وزيادة، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السرّ كما أنّ قوله يعلم السرّ آكد من أن يقول يعلم سرهم. ثم بيّن ذلك بأنه السميع العليم لذاته، فكيف تخفى عليه خافية[3].

فإن قُلْتَ: فلم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله: ﴿قل أنزله الذي يعلم السرّ في السمٰوات والأرض﴾[4]؟ **قُلْتُ**: ليس بواجب أن يجيء بالآكد في كل موضع، ولكن يجيء

---

(1) كشف الأستار كتاب: المواعظ، باب: اقتراب الساعة (حديث رقم 3215)، ورواه أبو نُعيم في الحلية 4/161، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول النبي ﷺ: بعثت أنا والساعة (حديث رقم 2213)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (حديث رقم 14، 2967).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الحث على ترك الغل والحسد (حديث رقم 6655).

(3) قال أحمد: وهذا من اتباع القرآن للرأي نعوذ بالله من ذلك، لا سيما رأي ينفي صفات الكمال عن الله تعالى، وما الذي دل عليه السميع العليم من نفي صفتي السمع والعلم في تفسيرهما بذلك، مع أنه لا يفهم في اللغة سميع إلا بسمع، ولا عليم إلا بعلم، فإنها صفات مشتقات من مصادر لا بدّ من فهمها وثبوتها أوّلاً، ثم ثبوت ما اشتقت منه. ومن أنكر السمع والعلم، فقد سارع إلى إنكار السميع = العليم وهو لا يشعر، وليس غرضنا في هذا المصنف سوى الإيقاظ لما انطوى عليه الكشاف من غوائل البدع ليتجنبها الناظر، وأمّا الأدلة الكلامية فمن فنها تتلقى، وحاله فيما يورده من أمثال هذه النزعات مختلف، فمرّة يوردها عند كلام يتخيل في ظاهره إشعاراً بغرضه، فوظيفتنا معه حينئذ أن ننازع في الظهور، ثم قد نترقى إلى بيان ظهوره في عكس مراده أو نصوصيته، حتى لا يحتمل ما يدّعيه بوجه ما، وقد يلجئنا الإنصاف إلى تسليم الظهور له، فننكر وجه التأويل الذي يرشد إليه دليل العقل، ومرّة يورد نبذاً من هذا الرأي عند كلام لا يحتمله ولا يشعر به بوجه، وغرضه التعسف حتى لا يخلي شيئاً من كلامه من تعصب وإصرار على باطل، فتنبه على ذلك أيضاً، وما ذكره عند هذه الآية من قبيل ما يدل النص على عكس مراده فيه وقد أوضحناه.

(4) سورة الفرقان، الآية: 6.

بالوكيد تارة وبالآكد أخرى، كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره، ليفتنّ الكلام افتنانًا وتجمع الغاية وما دونها على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسرّوا النجوى، فكأنه أراد أن يقول: إنّ ربي يعلم ما أسرُّوه، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة، وثم قصد وصف ذاته، بأنّ إنزاله الذي يعلم السرّ في السمٰوات والأرض فهو كقوله: ﴿علام الغيوب﴾[1] ﴿عالم الغيب﴾[2] ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرّة﴾[3]. وقرئ: ﴿قال ربي﴾ حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم: «أضربوا» عن قولهم: هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر وهكذا الباطل لجلج، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد، ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد، وأن قولهم الثاني أفسد من الأول والثالث أفسد من الثاني وكذلك الرابع من الثالث.

بَلْ قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾.

صحة التشبيه في قوله: ﴿كما أرسل الأوّلون﴾ من حيث أنّه في معنى كما أتى الأوّلون بالآيات لأنّ إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات، ألا ترى أنه لا فرق بين أن تقول: أرسل محمد ﷺ وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة؟

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾.

﴿أفهم يؤمنون﴾ فيه أنهم أعني من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات، وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا فأهلكهم الله، فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث.

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾.

أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر، وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرًا، ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا، وإنما أحالهم على أولئك لأنهم كانوا يشايعون المشركين في معاداة رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا﴾[4] فلا يكاذبونهم فيما هم فيه ردء لرسول الله ﷺ.

وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾.

﴿لا يأكلون الطعام﴾ صفة لجسدًا، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوي جسد غير طاعمين، ووحّد الجسد لإرادة الجنس كأنه قال: ذوي ضرب من الأجساد، وهذا ردّ لقولهم: ما لهذا الرسول يأكل الطعام؟

فإن قُلْتَ: نعم قد ردّ إنكارهم أن يكون الرسول بشراً يأكل ويشرب بما ذكرت فماذا ردّ من قولهم بقوله: ﴿وما كانوا خالدين﴾؟ قُلْتُ: يحتمل أن يقولوا: إنّه بشر مثلنا يعيش كما نعيش ويموت كما نموت، أو يقولوا: هلا كان ملكًا لا يطعم ويخلد، إما معتقدين أنّ الملائكة لا يموتون أو مسمين حياتهم المتطاولة وبقاءهم الممتد خلوداً.

ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾.

﴿صدقناهم الوعد﴾ مثل: واختار موسى قومه، والأصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال، وصدقني سن بكره ﴿ومن نشاء﴾ هم المؤمنون ومن في بقائه مصلحة.

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾.

﴿ذكركم﴾ شرفكم وصيتكم كما قال: وإنه لذكر لك ولقومك، أو موعظتكم أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء، أو حسن الذكر كحسن الجوار، والوفاء بالعهد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة والسخاء، وما أشبه ذلك.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾.

﴿وكم قصمنا من قرية﴾ واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم؛ لأنّ القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم، وأراد بالقرية أهلها ولذلك وصفها بالظلم، وقال: ﴿قومًا آخرين﴾ لأن المعنى: أهلكنا قومًا وأنشأنا قومًا آخرين. وعن ابن عباس أنها: «حضور»، وهي «سحول» قريتان باليمن تنسب إليهما الثياب، وفي الحديث: «كفن رسول الله ﷺ في ثوبين سحوليين»[5]. وروي: حضوريين. بعث الله إليهم نبيًا فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر، كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم، وروي: أنهم لما أخذتهم السيوف ونادى منادٍ من السماء: يا لثارات الأنبياء. ندموا واعترفوا بالخطأ وذلك حين لم ينفعهم الندم؛ وظاهر الآية على الكثرة. ولعل ابن عباس ذكر «حضور» بأنها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية.

فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾.

فلما علموا شدّة عذابنا وبطشتنا علم حسّ ومشاهدة، لم

---

(1) سورة التوبة، الآية: 78.
(2) سورة الرعد، الآية: 9.
(3) سورة سبأ، الآية: 3.
(4) سورة آل عمران، الآية: 186.
(5) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الثياب البيض للكفن (حديث رقم 1264) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: في كفن الميت (حديث رقم 456 ـ 941).

يشكوا فيها ركضوا من ديارهم.

والركض: ضرب الدابة بالرجل، ومنه قوله تعالى: ﴿اركض برجلك﴾[1] فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب؛ ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم.

لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾.

فقيل لهم: ﴿لا تركضوا﴾ والقول محذوف.

فإن قُلْتَ: من القائل؟ **قُلْتُ**: يحتمل أن يكون بعض الملائكة، أو من ثم من المؤمنين، أو يجعلوا خلفاء بأن يقال لهم ذلك، وإن لم يقل أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم، أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم ﴿وارجعوا إلى ما أترفتم فيه﴾ من العيش الرافه، والحال الناعمة والإتراف إبطار النعمة، وهي الترفه ﴿لعلكم تسئلون﴾ تهكم بهم وتوبيخ أي: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدًا عما جرى عليكم. ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم، وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره، وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم: بم تأمرون وبماذا ترسمون؟ وكيف نأتي ونذر كعادة المنعمين المخدمين؟ أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ويستضيئون بآرائكم، ويسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحائب أكفكم، ويمترون أخلاف معروفكم وأياديكم، إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس، وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكماً إلى تهكم وتوبيخاً إلى توبيخ.

فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى يا ويلنا لأنها دعوى كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى ﴿دعواهم﴾، والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى: ﴿وآخر دعواهم أنِ الحمد لله رب العالمين﴾[2].

فإن قُلْتَ: لم سميت دعوى؟ **قُلْتُ**: لأن المولول كأنه يدعو الويل فيقول: تعالى يا ويل فهذا وقتك، وتلك مرفوع أو منصوب اسمًا أو خبرًا وكذلك دعواهم. الحصيد: الزرع المحصود أي: جعلناهم مثل الحصيد شبههم به في استئصالهم واصطلامهم كما تقول: جعلناهم رمادًا أي: مثل الرماد والضمير المنصوب هو الذي كان مبتدأ والمنصوبان بعده كانا خبرين له، فلما دخل عليها جعل نصبها جميعاً على المفعولية.

فإن قُلْتَ: كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل؟ **قُلْتُ**: حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد، لأنّ معنى قولك: جعلته حلوًا حامضًا جعلته جامعًا للطعمين، وكذلك معنى: ذلك جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾.

أي: وما سوينا هذا السقف المرفوع، وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب، كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب؛ وإنما سويناها للفوائد الدينية، والحكم الربَّانية لتكون مطارح افتكار، واعتبار، واستدلال، ونظر لعبادنا مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعدّ، والمرافق التي لا تحصى.

لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾.

ثم بيّن أنّ السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي، هو أن الحكمة صارفة عنه، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلاً لأني على كل شيء قدير. وقوله: ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ كقوله: ﴿رزقًا من لدنا﴾ أي: من جهة قدرتنا، وقيل: اللهو: الولد بلغة اليمن، وقيل: المرأة، وقيل: من لدنا أي: من الملائكة لا من الإنس، ردًا لولادة المسيح وعزير.

بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾.

﴿بل﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته، كأنه قال[3]: سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب، بل من عادتنا

---

(1) سورة صٓ، الآية: 42.

(2) سورة يونس، الآية: 10.

(3) قال أحمد: وله تحت قوله: واستغنائنا عن القبيح نفين من البدعة والضلالة، ولكنه من الكنوز التي يحمى عليها في نار جهنم، وذلك أنّ القدرية يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح، وفعل ما يتوهمونه حسناً بعقولهم، ويظنون أن الحكمة تقتضي ذلك، فلا يستغني الحكيم على زعمهم عن خلق الحسن على وفق الحكمة بخلاف القبيح، فإنّ الحكمة تقتضي الاستغناء عنه، فإلى ذلك يلوح الزمخشري وما هي إلا نزغة سبق إليها ضلال الفلاسفة. ومن ثم يقولون: ليس في الإمكان أكمل من هذا العالم؛ لأنه لو كان في القدرة أكمل منه وأحسن، ثم لم يخلقه الله تعالى لكان بخلاً ينافي الجود، أو عجزاً ينافي القدرة حتى اتبعهم في= ذلك من لا نسميه من أهل الملة عفا الله عنه إن كان هذا مما يدخل تحت ذيل العفو، فالحق أنّ الله تعالى مستغن عن جميع الأفعال حسنة كانت أو غيرها، مصلحة كانت أو مفسدة، وأن له أن لا يخلق ما يتوهمه القدرية حسناً، وله أن يفعل ما يتوهمونه في الشاهد قبيحاً، وأنّ كل موجود من فاعل وفعل على الإطلاق فبقدرته وجد، فليس في الوجود إلا الله وصفاته وأفعاله، وهو مستغن عن العالم بأسره وحسنه وقبحه، فلو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم على أتقى قلب رجل منكم، لم يزد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم على أفجر قلب رجل منكم، لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً. اللهم ألهمنا الحق واستعملنا به.

وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق[1]، واستعارة لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه؛ فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه. ثم قال: ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ به مما لا يجوز عليه وعلى حكمته، وقرئ: فيدمغه بالنصب وهو في ضعف قوله:

سأترك منزلي لبني تميم والحق بالحجاز فأستريحا

وقرئ: فيدمغه.

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾

﴿ومن عنده﴾ هم الملائكة والمراد أنهم مكرمون منزلون لكرامتهم عليه منزلة المقرّبين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه.

فإن قُلْتَ[2]: الاستحسار مبالغة في الحسور، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور! قُلْتُ: في الاستحسار بيان أنّ ما هم فيه يوجب غاية الحسور، وأقصاه وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون.

يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾.

أي: تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ، أو شغل آخر.

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾.

هذه ﴿أم﴾ المنقطعة الكائنة بمعنى: بل، والهمزة قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، والمنكر هو اتخاذهم ﴿آلهة من الأرض هم ينشرون﴾ الموتى، ولعمري أن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات.

فإن قُلْتَ: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى[3]؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عزّ وجلّ بأنه خالق السموات والأرض، ولئن سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ ليقولنّ: الله. وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى منكرين البعث. ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر، كثاني القديم فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً! قُلْتُ: الأمر كما ذكرت ولكنهم بادّعائهم لها الإلٰهية يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار لأنّه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشار من جملة المقدورات، وفيه باب من التهكم بهم، والتوبيخ، والتجهيل، وإشعار بأنّ ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده، لأنّ الإلٰهية لما صحت صحّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة، ونحو قوله: ﴿من الأرض﴾ قولك: فلان من مكة أو من المدينة، تريد مكي أو مدني، ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض، لأنّ الآلهة على ضربين: أرضية وسماوية، ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله ﷺ: «أين ربك؟» فأشارت إلى السماء فقال: «إنها مؤمنة»[4] لأنه فهم منها أنّ مرادها نفي الآلهة الأرضية التي هي الأصنام، لا إثبات السماء مكانًا لله عزّ وجلّ، ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض؛ لأنها إمّا أن تنحت من بعض الحجارة، أو تعمل من بعض جواهر الأرض.

فإن قُلْتَ: لا بدّ من نكتة في قوله[5]: ﴿هم﴾! قُلْتُ: النكتة فيه إفادة معنى الخصوصية، كأنه قيل: أم اتخذوا آلهة لا يقدر

---

(1) قال أحمد: وفي مثل هذا التنبيه من حسناته، ولولا أنّ السيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوت ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، والله أعلم.

(2) قال أحمد: وبمثله أجيب عن قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ فانظره قوله تعالى: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾.

(3) قال أحمد: فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها، وهو أبلغ في الإنكار، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة (حديث رقم 33 ـ 537)، ورواه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: في الرقبة المؤمنة (حديث رقم 3282).

(5) قال أحمد: وفيه هذه النكتة نظر؛ لأنّ آلات الحصر مفقودة، وليس ذلك من قبيل صديقي زيد، فإنّ المبتدأ في الآية أخصّ شيء؛ لأنه ضمير، وأيضاً فلا ينبني على ذلك إلزامهم حصر الألوهية فيهم، وتخصيص الإنشار بهم، ونفيه عن الله تعالى إذ هذا لا يناسب السياق، فإنه قال عقبها: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ ومعناه: لو كان فيهما إله غير الله شريكاً لله لفسدتا، وكان مقتضى ما قال الزمخشري أن يقال: لو لم يكن فيهما آلهة إلا الأصنام لفسدتا، وأمّا المتلوّ على خلاف ذلك فلا وجه لما قال الزمخشري. وعندي: أنه يحتمل والله أعلم أن تكون فائدة قوله: هم الإيذان = بأنهم لم يدّعوا لها الإنشار، وأنّ قوله: هم ينشرون استئناف إلزام لهم، وكأنه قال اتخذوا آلهة مع الله عز وجل فهم إذن يحيون الموتى ضرورة كونهم آلهة، ثم لما انتظم من دعواهم الألوهية للأصنام وإلزامهم على ذلك أن يصفوهم بالقدرة الكاملة على إحياء الموتى نظم في إبطال هذه الدعوى، وما ألزمهم عليها دليل قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾. وأزيد هذا التقرير وضوحاً، فأقول: إنّ دليل التمانع المغترف من بحر هذه الآية المقتبس من نورها يورده المتكلمون على صورة التقسيم، فيقولون: لو وجد مع الله إله آخر، وربما قالوا: لو فرضنا وجود إلهين، فإمّا أن يكونا جميعاً موصوفين بصفات الكمال اللاتي يندرج فيها القدرة على إحياء الموتى وإنشارهم وغير ذلك من الممكنات، أو لا يتصف بها واحد منهما أو أحدهما دون الآخر، ثم يحيلون جميع الأقسام وهو المسمى برهان الخلف، وأدقّ الأقسام إبطالاً قسم اتصافهما جميعاً بصفات الكمال، وما عداه فببادئ الرأي يبطل، فانظر كيف اختار له تعالى إبطال هذا القسم الخفي البطلان، فأوضح فساده في أخصر أسلوب وأوجزه، وأبلغ بديع الكلام ومعجزه، وإنما ينتظم هذا على أن يكون المقصد من قوله: ﴿هم ينشرون﴾ إلزامهم ادّعاء صفات الألوهية لآلهتهم حتى يتحرّى أنهم اختاروا القسم الذي أبطله الله تعالى، ووكل إبطال ما =

على الإنشار إلا هم وحدهم. وقرأ الحسن: ﴿ينشرون﴾ وهما لغتان؛ أنشر الله الموتى ونشرها.

لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾.

وصفت آلهة بإلا كما توصف بغير لو قيل: آلهة غير الله. فإن قُلْتَ: ما منعك من الرفع على البدل؟ قُلْتُ: لأنّ لو بمنزلة إنّ في أنّ الكلام معه موجب، والبدل لا يسوّغ إلاّ في الكلام غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾[1] وذلك لأنّ أعمّ العامّ يصح نفيه ولا يصح إيجابه، والمعنى: لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا، وفيه دلالة على أمرين: أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحداً. والثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلاّ إياه وحده، لقوله: ﴿إلا الله﴾.

فإن قُلْتَ: لم وجب الأمران؟ قُلْتُ: لعلمنا أنّ الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف. وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق كان والله أعزّ عليّ من دم ناظري، ولكن لا يجتمع فحلان في شول، وهذا ظاهر وأمّا طريقة التمانع فللمتكلمين فيها تجاول وطراد، ولأنّ هذه الأفعال محتاجة إلى تلك الذات المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقرّ.

لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾.

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم، وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيبًا وإجلالاً، مع جواز الخطإ والزلل وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك، وربّ الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله مع ما علم، واستقرّ في العقول من أنّ ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح[2] ﴿وهم يسئلون﴾، أي: هم مملوكون مستعبدون خطاؤن فما أخلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم في كل شيء فعلوه؟.

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾.

كرّر ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ استفظاعًا لشأنهم واستعظامًا لكفرهم أي: وصفتم الله تعالى بأنّ له شريكًا فهاتوا برهانكم على ذلك، إمّا من جهة العقل وإمّا من جهة الوحي، فإنكم لا تجدون كتابًا من كتب الأوّلين إلاّ وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه، والإشراك به منهي عنه متوعد عليه. أي: ﴿هذا﴾ الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه، كما ورد عليّ فقد ورد على جميع الأنبياء فهو ذكر أي: عظة للذين معي يعني: أمّته وذكر للذين من قبلي يريد أمم الأنبياء عليهم السلام وقرئ ﴿وذكر من معي وذكر من قبلي﴾ بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله: ﴿وإطعام في يوم ذي مسغبة يتيمًا﴾[3] هو الأصل، والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾[4] وقرئ من معي ومن قبلي على من الإضافية في هذه القراءة وإدخال الجار على مع غريب، والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد وعند ولدن وما أشبه ذلك، فدخل عليه من كما يدخل على أخواته وقرئ ذكر معي وذكر قبلي. كأنه قيل: بل عندهم ما هو أصل الشرّ والفساد كله وهو الجهل وفقد العلم وعدم التمييز بين الحق والباطل، فمن ثم جاء هذا الإعراض ومن هناك ورد هذا الإنكار. وقرئ ﴿الحق﴾ بالرفع على توكيد بين السبب والمسبب، والمعنى: أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل، ويجوز أن يكون المنصوب أيضاً على هذا المعنى كما تقول: هذا عبد الله الحق لا الباطل.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾.

﴿يوحى﴾ و﴿نوحي﴾ مشهورتان، وهذه الآية مقرّرة لما سبقها من آي التوحيد.

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾.

نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله. نزّه ذاته عن ذلك ثم أخبر عنهم بأنهم عباد، والعبودية تنافي الولادة إلاّ أنهم ﴿مكرمون﴾ مقرّبون عندي مفضلون على سائر العباد[5] لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم،

= عداه من الأقسام إلى ما ركبه في عباده من العقول، وكل خطب بعد بطلان هذا القسم جلل والله الموفق، فتأمّل هذا الفصل بعين الإنصاف تجده أنفس الأنصاف والله المستعان.

(1) سورة هود، الآية: 81.

(2) قال أحمد: سحقاً لها من لفظة ما أسوأ أدبها مع الله تعالى أعني قوله: بدواعي الحكمة، فإنّ الدواعي والصوارف إنما تستعمل في حق المحدثين، كقولك: هو مما توفر دواعي الناس إليه، أو صوارفهم عنه، وقوله: لا يجوز عليه فعل القبائح، قلت: وهذا من الطراز الأوّل، ولو أنه في الذيل

فقد نسيت وما بالعهد من قدم

وبعدما انقضى دليل التوحيد، وإبطال الشرك من سمعك أيها الزمخشري، وقلمك رطب بتقريره، فلم نكصب وانتكست أتقول: لأنّ =

= أحداً شريك الله في ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التي تسميها قبائح، فتنفيها عن قدرة الله تعالى وإرادته، وما الفرق بين من يشرك لله ملكاً من الملائكة، وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول: إنه يفعل ويخلق لنفسه شاء الله أو لم يشأ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والقدرية ارتضوا لأنفسهم شر شرك؛ لأنّ غيرهم أشرك بالملائكة، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجنّ، وجميع الحيوانات. نعوذ بمالك الملك من مسالك الهلك.

(3) سورة البلد، الآية: 14.

(4) سورة الروم، الآيتان: 2 ـ 3.

(5) قال أحمد: وهذا التفسير من جعل القرآن تبعاً للرأي، فإنه لما كان يعتقد تفضيل الملائكة على الرسل نزل الآية على معتقده، وليس غرضنا إلا بيان أنه حمل الآية ما لا تحتمله، وتناول منها ما =

فذلك هو الذي غر منهم من زعم أنهم أولادي تعاليت عن ذلك علوًا كبيرًا، وقرئ: ﴿مكرمون﴾.

لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾.

و﴿لا يسبقونه﴾ بالضم من سابقته، فسبقته أسبقه والمعنى أنهم يتبعون قوله: ﴿ولا يقولون شيئاً حتى يقوله﴾ فلا يسبق قولهم قوله؛ والمراد بقولهم: فأنيب. اللام مناب الإضافة أي: لا يتقدّمون قوله بقولهم كما تقول: سبقت بفرسي فرسه.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾.

وكما أنّ قولهم تابع لقوله: فعملهم أيضًا كذلك مبني على أمره لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به، وجميع ما يأتون ويذرون مما قدّموا وأخّروا بعين الله، وهو مجازيهم عليه فلإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراعون أحوالهم ويعمرون أوقاتهم، ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم ثم أنهم مع هذا كله من خشية الله ﴿مشفقون﴾، أي: متوقعون من أمارة ضعيفة كائنون على حذر. ورقبة لا يأمنون مكر الله، وعن رسول الله ﷺ: أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطًا كالحلس من خشية الله[1].

۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾.

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليه وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية، فاجأ بالوعيد الشديد وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾[2] قصد بذلك تفظيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾.

قرئ: ﴿ألم يـر﴾ بغير واو و﴿رتقًا﴾ بفتح التاء وكلاهما في معنى المفعول كالخلق والنقض أي: كانتا مرتوقتين.

فإن قُلْتَ: الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين؛ لأنه مصدر فما بال الرتق؟ قُلْتُ: هو على تقدير موصوف أي: كانتا شيئاً رتقاً، ومعنى ذلك: أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السمٰوات متلاصقات وكذلك الأرضون لا فرج بينهما ففتقها الله وفرج بينها. وقيل: ﴿ففتقناهما﴾ بالمطر والنبات بعدما كانت مصمتة وإنما قيل: كانتا دون كن لأنّ المراد جماعة السمٰوات وجماعة الأرض ونحوه. قولهم: لقاحان سوداوان أي: جماعتان فعل في المضمر نحو ما فعل في المظهر.

فإن قُلْتَ: متى رأوهما رتقًا حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قُلْتُ: فيه وجهان. أحدهما: أنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرئي المشاهد. والثاني: أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل فلا بدّ للتباين دون التلاصق من مخصص، وهو القديم سبحانه ﴿وجعلنا﴾ لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين، فإن تعدى إلى واحد فالمعنى: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾[3] وكأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾[4] وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى: صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بدّ له منه ومن هذا نحو من في قوله عليه السلام «ما أنا من دد ولا الدد مني»[5]، وقرئ: حياً، وهو المفعول الثاني والظرف لغو.

وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾.

أي: كراهة ﴿أن تميد بهم﴾ وتضطرب أو لئلا تميد بهم[6]، فحذف لا واللام وإنما جاز حذف لا لعدم الالتباس،

= لا تمطيه؛ لأنه ادّعى أنهم مكرمون على سائر الخلق لا على بعضهم، فدعواه شاملة ودليله مطلق، والله الموفق.

(1) كشف الأستار كتاب: الإيمان، باب: منه في الإسراء (حديث رقم 58)، ورواه البيهقي في الشعب، باب: في الإيمان بالملائكة، فصل: في معرفة الملائكة (حديث رقم: 155).

(2) سورة الأنعام، الآية: 88.

(3) سورة النور، الآية: 45.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(5) أخرجه في كشف الأستار كتاب: علامات النبوة، باب: عصمته (حديث رقم: 2402)، ورواه البخاري في الأدب المفرد 2/256 باب: الغناء واللهو (حديث رقم 785).

(6) قال أحمد: وأولى من هذين الوجهين أن يكون من قولهم أعددت هذه الخشبة أن تميل الحائط فأدعمه. قال سيبويه: ومعناه أن أدعم الحائط إذا مال، وإنما قدم ذكر الميل اهتماماً بشأنه؛ ولأنه = أيضاً هو السبب في الإدعام، والإدعام سبب في إعداد الخشبة فعامل سبب السبب معاملة السبب، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾، كذلك ما نحن فيه يكون الأصل، وجعلنا في الأرض رواسي لأهل أن تثبتها إذا مادت بهم، فجعل الميد هو السبب كما جعل الميل في المثل المذكور سبباً، وصار الكلام، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد فنثبتها، ثم حذف قوله فنثبتها لأمن الإلباس إيجازاً واختصاراً، وهذا التقرير أقرب إلى الواقع مما أوّل الزمخشري الآية عليه، فإنّ مقتضى تأويله أن لا تميد الأرض بأهلها؛ لأنّ الله كره ذلك، ومكروه الله تعالى محال أن يقع كما أنّ مراده واجب أن يقع، والمشاهد خلاف ذلك فكم من زلزلة مادت لها الأرض، وكادت تقلب عاليها سافلها وأما على تقريرنا، فالمراد أنّ الله تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مادت وهذا لا يأبى وقوع الميد، كما أنّ قوله أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى لا يأبى وقوع الضلال والنسيان من=

كما تزاد لذلك في نحو قوله: ﴿لئلا يعلم﴾ وهذا مذهب الكوفيين.

الفج: الطريق الواسع.

فإن قُلْتَ: في الفجاج معنى الوصف فما لها قدمت على السبل، ولم تؤخر كما في قوله تعالى: ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجًا﴾[1] قُلْتُ: لم تقدّم وهي صفة ولكن جعلت حالاً كقوله:

لعزة موحشا طلل قديم

فإن قُلْتَ: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قُلْتُ: أحدهما: الإعلام بأنه جعل فيها طرقًا واسعة. والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة محفوظًا حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿عن آياتها﴾ أي: عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات، ومسايرها وطلوعها وغروبها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة، والقدرة الباهرة، وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ودبرها ونصبها هذه النصبة، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه، وقرئ: عن آيتها على التوحيد اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس أي: هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية، كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها وحياة الأرض والحيوان بأمطارها. وهم عن كونها آية بينة على الخالق ﴿معرضون﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كل﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه أي: كلهم ﴿في فلكٍ يسبحون﴾ والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما: جنس الطوالع كل يوم وليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها، وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة.

فإن قُلْتَ: الجملة ما محلها؟ قُلْتُ: فمحلها النصب على الحال من الشمس والقمر.

فإن قُلْتَ: كيف استبد بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما؟ قُلْتُ: كما نقول: رأيت زيدًا وهندًا متبرجةً ونحو ذلك، إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل؛ ومنه قوله تعالى في هذه السورة ﴿ووهبنا له إسحٰق ويعقوب نافلة﴾[2] أو لا محل لها لاستئنافها.

فإن قُلْتَ: لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل: جميعهم يسبحون في فلك؟ قُلْتُ: هذا كقولهم: كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفاً؛ ي: كل واحد منهم أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصاراً؛ لأنّ الغرض الدلالة على الجنس.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا؛ أي: قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشراً، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت، فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أيبقى هؤلاء؟ وفي معناه قول القائل:

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر. وإنما سمي ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه في صورة الاختبار و ﴿فتنة﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظة الذكر يكون بخير، وبخلافه فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل: سمعت فلاناً يذكرك. فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدوّاً فذم[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾[4].

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقوله: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ والمعنى: أنهم

= إحداهما، لكنه ميد يستعقبه التثبيت، وكذلك الواقع من الزلازل إنما هو كاللمحة.

(1) سورة نوح، الآية: 20.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 72.

(3) قال أحمد: وكذلك القول، ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿أتقولون للحق لما جاءكم﴾ معناه: أتعيبون الحق لما جاءكم، ثم ابتداء فقال: أسحر هذا؟ وإنما لم يجعله معمولاً للقول ومحكياً به؛ لأنهم تقفوا القول بأنه سحر، فقالوا: إنّ هذا لسحر مبين، ولم يشككوا أنفسهم، ولا استفهموا، وقد مضى فيه غير هذا، وإنما أطلقوا في= قولهم أهذا الذي يذكر آلهتكم؟ ولم يقولوا: هذا الذي يذكر آلهتكم بكل سواء؛ لأنهم استفظعوا حكاية ما يقوله النبي من القدح في آلهتهم رمياً بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وحاشوها من نقل ذمها مفصلاً، فأوموا إليه بالإشارة المذكورة كما يتحاشى المؤمن من حكاية كلمة الكفر، فيومئ إليها بلفظ يفهم المقصود بطريق التعريض، فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان، وأساؤا الأدب على الرحمن.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 60.

عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم وما يجب أن لا تذكر به من كونهم شفعاء وشهداء ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك؛ وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية فهم به كافرون لا يصدقون به أصلاً فهم أحق بأن يتخذوا هزؤًا منك فإنك محق وهم مبطلون. وقيل: معنى بذكر الرحمن قولهم: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة. وقولهم: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا! وقيل: بذكر الرحمن بما أنزل عليك من القرآن، والجملة في موضع الحال، أي: يتخذونك هزؤًا وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بالله.

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾.

كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم، فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها، ثم نهاهم وزجرهم؛ كأنه قال: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه أراد بالإنسان آدم عليه السلام، وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم. وروي: أنه لما دخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة، ولما دخل جوفه اشتهى الطعام. وقيل: خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس، فأسرع في خلقه قبل مغيبها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه النضر بن الحرث؛ والظاهر أن المراد الجنس. وقيل: العجل: الطين، بلغة حمير. وقال شاعرهم: والنخل ينبت بين الماء والعجل، والله أعلم بصحته.

فإن قُلْتَ: لم نهاهم عن الاستعجال؟ مع قوله: **﴿خلق الإنسان من عجل﴾**[1] وقوله: **﴿وكان الإنسان عجولاً﴾**[2] أليس هذا من تكليف ما لا يطاق؟ **قُلْتُ:** هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقرئ **﴿خلق الإنسان﴾**[3] جواب لو محذوف، وحين مفعول به ليعلم أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم: **﴿متى هذا الوعد﴾**[4] وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصرًا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم.

لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾.

ويجوز أن يكون **﴿يعلم﴾** متروكًا بلا تعدية بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين، وحين منصوب بمضمر أي: حين **﴿لا يكفون عن وجوههم النار﴾** يعلمون أنهم كانوا على الباطل وينتفي عنهم هذا الجهل العظيم، أي: لا يكفونها بل تفجؤهم فتغلبهم.

بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾.

يقال للمغلوب في المحاجة: مبهوت، ومنه: **﴿فبهت الذي كفر﴾** أي: غلب إبراهيم عليه السلام الكافر. وقرأ الأعمش: يأتيهم فيبهتهم على التذكير، والضمير للوعد أو للحين.

فإن قُلْتَ: فإلام يرجع الضمير المؤنث في هذه القراءة! **قُلْتُ:** إلى النار أو إلى الوعد؛ لأنه في معنى النار وهي التي وعدوها، أو على تأويل العدة أو الموعدة أو إلى الحين؛ لأنه في معنى الساعة، أو إلى البغتة. وقيل: في القراءة الأولى الضمير للساعة وقرأ الأعمش: بغتة بفتح الغين **﴿ولا هم ينظرون﴾** تذكير بإنظاره إياهم وإمهاله وتفسيح وقت التذكر عليهم؛ أي: لا يمهلون بعد طول الإمهال.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾.

سلى رسول الله ﷺ عن استهزائهم به، بأن له في الأنبياء عليهم السلام أسوة، وأن ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء عليهم السلام ما فعلوا.

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿من الرحمن﴾ أي: من بأسه وعذابه **﴿بل هم﴾** معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالئ وصلحوا للسؤال عنه؛ والمراد أنه أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بسؤالهم عن الكالىء، ثم بيّن أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم.

أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾.

ثم أضرب عن ذلك بما في **﴿أم﴾** من معنى بل. وقال: **﴿أم لهم آلهة تمنعهم﴾** من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا. ثم استأنف فبين أنّ ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها، ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد، كيف يمنع غيره وينصره. ثم قال: بل ما هم فيه من الحفظ والكلاءة

(1) سورة الأنبياء، الآية: 37.
(2) سورة الإسراء، الآية: 11.
(3) سورة الأنبياء، الآية: 37.
(4) سورة يونس، الآية: 48.

إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (44).

وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعًا لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم **﴿حتى طال عليهم﴾** الأمد وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون، ولا ينزع عنهم ثوب أمنتهم واستمتاعهم وذلك طمع فارغ وأمل كاذب **﴿أفلا يرون أنا﴾** ننقص أرض الكفر ودار الحرب ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام.

فإن قُلْتَ: أي فائدة في قوله: **﴿نأتي الأرض﴾**! **قُلْتُ:** الفائدة فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ (45).

قرئ **﴿ولا يسمع الصم﴾**: ولا تسمع الصم بالتاء والياء أي: لا تسمع أنت الصم ولا يسمع رسول الله ﷺ ولا يسمع الصم من أسمع.

فإن قُلْتَ: الصم لا يسمعون دعاء المبشر، كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قيل: **﴿إذا ما ينذرون﴾**؟ **قُلْتُ:** اللام في الصم إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس والأصل، ولا يسمعون إذ ما ينذرون، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا أنذروا أي: هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام من آيات الإنذار.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (46).

﴿ولئن مستهم﴾ من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا، وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات لأنّ النفح في معنى: القلة والنزارة، يقال: نفحته الدابة وهو رمح يسير، ونفحه بعطية رضخه ولبناء المرة.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (47).

وصفت **﴿الموازين﴾** بالقسط وهو: العدل مبالغة كأنها في أنفسها قسط، أو على حذف المضاف أي: ذوات القسط واللام في **﴿ليوم القيامة﴾** مثلها في قولك: جئته لخمس ليال خلون من الشهر ومنه بيت النابغة:

ترسمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع

وقيل: لأهل يوم القيامة أي: لأجلهم.

فإن قُلْتَ: ما المراد بوضع الموازين؟ **قُلْتُ:** فيه قولان: أحدهما: إرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة من غير أن يظلم عباده مثقال ذرّة، فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات. والثاني: أنه يضع الموازين الحقيقية ويزن بها الأعمال عن الحسن. هو ميزان له كفتان ولسان. ويروى: أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال: يا إلهي من ذا الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟ فقال: يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة.

فإن قُلْتَ: كيف توزن الأعمال وإنما هي أعراض! **قُلْتُ:** فيه قولان: أحدهما: توزن صحائف الأعمال. والثاني: تجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة؛ وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة. وقرئ **﴿مثقالَ حبةٍ﴾** على كان التامة كقوله تعالى: **﴿وإن كان ذو عسرة﴾**[1] وقرأ ابن عباس ومجاهد **﴿آتينا بها﴾**، وهي مفاعلة من الإتيان بمعنى: المجازاة والمكافأة؛ لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء. وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب. وفي حرف أبيّ جئنا بها وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم: ذهبت بعض أصابعه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (48).

أي: آتيناهما **﴿الفرقان﴾** وهو التوراة **﴿و﴾** آتينا به **﴿ضياءً وذكرًا للمتقين﴾** والمعنى: أنه في نفسه ضياءٌ وذكرٌ، أو وآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياءً وذكرًا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الفرقان والفتح كقوله: **﴿يوم الفرقان﴾**.[2] وعن الضحاك: **﴿فلق البحر﴾** وعن محمد بن كعب: المخرج من الشبهات. وقرأ ابن عباس ضياءً بغير واو وهو حال عن الفرقان. والذكر: الموعظة، وذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم، أو الشرف.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (49).

محل **﴿الذين﴾** جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (50).

﴿وهذا ذكر مبارك﴾ هو القرآن وبركته كثرة منافعه وغزارة خيره.

۞ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (51).

الرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح. قال الله تعالى: **﴿فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم﴾**[3] وقرئ رشده

---

(1) سورة البقرة، الآية: 280.

(2) سورة الأنفال، الآية: 41.

(3) سورة النساء، الآية: 6.

والرشد، والرشد كالعدم والعدم، ومعنى إضافته إليه: أنه رشد مثله، وأنه رشد له شأن ﴿من قبل﴾ أي: من قبل موسى وهرون عليهما السلام. ومعنى علمه به: أنه علم منه أحوالاً بديعةً وأسرارًا عجيبةً وصفات قد رضيها وأحمدها حتى أهلّه لمخالته ومخالصته، وهذا كقولك: في خير من الناس أنا عالم بفلان، فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزل.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿إذ﴾ إما أن يتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف، أي: اذكر من أوقات رشده هذا الوقت قوله: ﴿ما هذه التماثيل﴾؟ تجاهل لهم وتغابٍ ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها. لم ينو للعاكفين مفعولاً وأجراه مجرى ما لا يتعدى، كقولك: فاعلون العكوف لها، أو واقفون لها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: عليها عاكفون! كقوله تعالى: ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾[1] قُلْتُ: لو قصد التعدية لعداه بصلته التي هي على ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء وجادون في نصرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد سبة أنّ عبدة الأصنام منهم.

قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾.

﴿أنتم﴾ من التأكيد الذي لا يصح الكلام مع الإخلال به؛ لأنّ العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع، ونحوه ﴿أسكن أنت وزوجك الجنة﴾[2] أراد أن المقلدين والمقلدين جميعًا منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين إلى غير دليل، بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلال بقوا متعجبين من تضليله إياهم وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة لا على طريق الجد، فقالوا له: هذا الذي جئتنا به أهو جد وحق أم لعب وهزل؟!.

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾.

الضمير في ﴿فطرهن﴾ للسموات والأرض أو للتماثيل، وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم، وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه وتصحيحه بها كما تصح الدعوى بالشهادة كأنه قال: وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات لأني لست مثلكم فأقول: ما لا أقدر على إثباته بالحجة كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم.

وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾.

قرأ معاذ بن جبل: بالله. وقرئ ﴿تولوا﴾ بمعنى: تتولوا. ويقويها قوله: ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾[3].

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين الباء والتاء؟ قُلْتُ: إنّ الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه. لأن ذلك كان أمرًا مقنوطًا منه لصعوبته وتعذره، ولعمري أنّ مثله صعب متعذر في كل زمان خصوصًا في زمن نمروذ مع عتوّه واستكباره وقوّة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه.

ولكن إذا الله سنى عقد شيء تيسرا

روي: أن آزر خرج به في يوم عيد لهم فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها، ووضعوا بينها طعامًا خرجوا به معهم وقالوا: إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنمًا مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرها كلها بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه. عن قتادة قال: ذلك سرًا من قومه. وروي سمعه رجل واحد.

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿جذاذًا﴾ قطاعًا عن الجذ وهو القطع، وقرئ بالكسر والفتح، وقرئ جذذًا جمع جذيذ وجذذًا جمع جذة، وإنما استبقى الكبير؛ لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم، فيبكتهم بما أجاب به من قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم﴾[4]، وعن الكلبي ﴿إليه﴾ إلى كبيرهم، ومعنى هذا: لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحًا والفأس على عاتقك؟ قال: هذا بناءً على ظنه بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها، أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاءً بهم واستجهالاً، وأن قياس حال من يسجد له ويؤهله للعبادة أن يرجع إليه في حل كل مشكل.

فإن قُلْتَ: فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعراقهم، فأي فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى يجعله إبراهيم صلوات الله عليه غرضًا؟ قُلْتُ: إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، وظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم.

قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 138.
(2) سورة البقرة، الآية: 35.
(3) سورة الصافات، الآية: 90.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 63.

أي: أنّ من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم معدود في الظلمة، إمّا لجرائه على الآلهة الحقيقية عندهم بالتوقير والإعظام، وإمّا لأنهم رأوا إفراطًا في حطمها وتماديًا في الاستهانة بها.

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾.

فإن قُلْتَ: ما حكم الفعلين بعد ﴿سمعنا فتى﴾، وأي: فرق بينهما؟ **قُلْتُ:** هما صفتان لفتى، إلا أنّ الأوّل وهو ﴿يذكرهم﴾ لا بدّ منه لسمع، لأنك لا تقول: سمعت زيدًا وتسكت حتى تذكر شيئًا مما يسمع، وأمّا الثاني: فليس كذلك.

فإن قُلْتَ: ﴿إبراهيم﴾ ما هو؟ **قُلْتُ:** قيل: هو خبر مبتدأ محذوف أو منادى، والصحيح أنه فاعل ﴿يقال﴾ لأنّ المراد: الاسم لا المسمى.

قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾.

﴿على أعين الناس﴾ في محل الحال بمعنى معاينًا مشاهدًا، أي: بمرأى منهم ومنظر.

فإن قُلْتَ: فما معنى الاستعلاء في على؟ **قُلْتُ:** هو وارد على طريق المثل أي: يثبت إتيانه في الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه. ﴿لعلهم يشهدون﴾ عليه بما سمع منه وبما فعله، أو يحضرون عقوبتنا له.

روي: أنّ الخبر بلغ نمروذ وأشراف قومه فأمروا بإحضاره.

قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾.

هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني، والقول فيه: إنّ قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلا أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبُك وقد كتبت كتابًا بخط رشيق، وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا؟! وصاحبك أمّيّ لا يحسن الخطّ، ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبته أنت، كأنّ قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك، وإثباته للأمّيّ أو المخرمش؛ لأنّ إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به، وإثبات للقادر ولقائل أن يقول: غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشدّ لما رأى من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه؛ لأنه هو الذي تسبب لاستهانته بها وحطمه لها، والفعل كما يسند إلى مباشرة يسند إلى الحامل عليه، ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم، كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فإنّ من حق من يعبد ويدعى إلهًا أن يقدر على هذا، وأشدّ منه. ويحكى: أنه قال: فعله كبيرهم هذا، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها.

وقرأ محمد بن السميفع: فعلّه كبيرهم. يعني: فلعله أي: فلعلّ الفاعل كبيرهم.

فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾.

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿أنتم الظالمون﴾ على الحقيقة لا من ظلمتموه حين قلتم من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين.

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾.

نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه، وانتكس: انقلب أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وأنّ هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة مضارّة منهم، أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه حين نفوا عنها القدرة على النطق، أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة لفرط إطراقهم خجلاً وانكسارًا وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أحاروا جوابًا إلا ما هو حجة عليهم وقرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما سمي فاعله، أي: نكسوا أنفسهم على رؤوسهم، قرأ به رضوان بن عبد المعبود.

أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿أف﴾ صوت إذا صوّت به عُلِم أنّ صاحبه متضجر، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم، واللام لبيان المتأفف به أي: لكم ولآلهتكم هذا التأفف.

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾.

أجمعوا رأيهم لما غلبوا بإهلاكه، وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح لم يكن أحد أبغض إليه من المحق، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة، والذي أشار بإحراقه نمروذ. وعن ابن عمر رضي الله عنهما رجل من أعراب العجم يريد الأكراد، وروي أنهم حين هموا بإحراقه حبسوه، ثم بنوا بيتًا كالحظيرة بكوثا، وجمعوا شهرًا أصناف الخشب الصلاب حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول: إن عافاني الله لأجمعنّ حطبًا لإبراهيم عليه السلام ثم أشعلوا نارًا عظيمة كانت الطير تحترق في الجوّ من وهجها، ثم وضعوه في المنجنيق مقيدًا مغلولاً، فرموا به فيها فناداها جبريل عليه السلام ﴿يا نار كوني بردًا وسلامًا﴾، ويحكى ما أحرقت منه إلا وثاقه وقال له جبريل

عليه السلام حين رمي به: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك؟ قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي؛ وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل. وأطل عليه نمروذ من الصرح فإذا هو في روضة ومعه جليس له من الملائكة فقال: إني مقرّب إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة؛ وكفّ عن إبراهيم وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك ابن ست عشرة سنة، واختاروا المعاقبة بالنار؛ لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه، ولذلك جاء: «لا يعذب بالنار إلا خالقها»[1] ومن ثم قالوا: ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرًا مؤزرًا فاختاروا له أهول المعاقبات، وهي الإحراق بالنار وإلا فرّطتم في نصرتها، ولهذا عظموا النار وتكلفوا في تشهير أمرها وتفخيم شأنها، ولم يألوا جهدًا في ذلك جعلت النار لمطاوعتها فعل الله وإرادته كمأمور أمر بشيء فامتثله، والمعنى: ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كان ذاتها برد وسلام، والمراد ابردي فيسلم منك إبراهيم أو ابردِي بردًا غير ضارّ، وعن ابن عباس رضي الله عنه لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها.

فإن قُلْتَ: كيف بردت النار وهي نار؟ **قُلْتُ**: نزع الله عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحرّ والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق والاشتعال كما كانت، والله على كل شيء قدير ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السلام أذى حرّها ويذيقه فيها عكس ذلك، كما يفعل بخزنة جهنم ويدل عليه قوله: ﴿على إبراهيم﴾ وأرادوا أن يكيدوه ويمكروا به فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين؛ غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمبكت وفزعوا إلى القوّة والجبروت فنصره وقوّاه.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾.

نجيا من العراق إلى الشام وبركاته الواصلة إلى العالمين إن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيه، فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية وهي البركات الحقيقية وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغنيّ والفقير، وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له: إلى أين؟ فقال: إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم وقيل: «ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس»[2]. وروي: أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢﴾.

النافلة: ولد الولد وقيل: سأل إسحق فأعطيه وأعطي يعقوب نافلة أي: زيادة وفضلاً من غير سؤال.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣﴾.

﴿يهدون بأمرنا﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله، فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها، وأوّل ذلك أن يهتدي بنفسه لأنّ الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل ﴿فعل الخيرات﴾ أصله أن تفعل الخيرات، ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات، وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤﴾.

﴿حكمًا﴾ حكمة وهو ما يجب فعله، أو فصلاً بين الخصوم وقيل: هو النبوة، والقرية: سذوم.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾.

أي: في أهل رحمتنا أو في الجنة ومنه الحديث: «هذه رحمتي أرحم بها من أشاء».

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾.

﴿من قبل﴾ من قبل هؤلاء المذكورين.

هو نصر الذي مطاوعه انتصر، وسمعت هذليا يدعو على سارق: اللهم انصرهم منه أي: اجعلهم منتصرين منه، والكرب: الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨﴾.

أي: واذكرهما و﴿إذ﴾ بدل منهما، والنفش: الانتشار بالليل. وجمع الضمير؛ لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما وقرئ: لحكمهما.

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾.

والضمير في ﴿ففهمناها﴾ للحكومة أو الفتوى وقرئ: فأفهمناها، حكم داود بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان عليه السلام وهو ابن إحدى عشرة سنة: غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكمنّ فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد ثم يترادّان، فقال: القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك.

فإن قُلْتَ: أحكما بوحي أم باجتهاد؟ **قُلْتُ**: حكما جميعًا بالوحي إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان عليهما

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: لا يُعذب بعذاب الله (حديث رقم 3016)، ورواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في كراهية حرق العدو بالنار (حديث رقم 2673).

(2) لم يورد الزيلعي هذا.

السلام وقيل: اجتهدا جميعًا فجاء اجتهاد سليمان عليه السلام أشبه بالصواب.

فإن قُلْتَ: ما وجه كل واحدة من الحكومتين! قُلْتُ: أمّا وجه حكومة داود عليه السلام فلأنّ الضرر لما وقع بالغنم سلمت بجنايتها إلى المجني عليه كما قال أبو حنيفة رضي الله عنه في العبد إذا جنى على النفس: يدفعه المولى بذلك، أو يفديه، وعند الشافعي رضي الله عنه يبيعه في ذلك أو يفديه. ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث ووجه حكومة سليمان عليه السلام: أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء مافات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبدًا، فأبق من يده: أنه يضمن القيمة، فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فإذا ظهر ترادا.

فإن قُلْتَ: فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها؟ قُلْتُ: أبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم لا يرون فيه ضمانًا بالليل، أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق، أو قائد والشافعي رضي الله عنه يوجب الضمان بالليل وفي قوله: ﴿ففهمناها سليمان﴾ دليل على أنّ الأصوب كان مع سليمان عليه السلام، وفي قوله: ﴿وكلاً آتينا حكمًا وعلمًا﴾ دليل على أنهما جميعًا كانا على الصواب ﴿يسبحن﴾ حال بمعنى: مسبحات أو استئناف كأن قائلاً قال كيف سخرهنّ فقال: يسبحن ﴿والطير﴾ إمّا معطوف على الجبال، أو مفعول معه.

فإن قُلْتَ: لم قدمت الجبال على الطير! قُلْتُ: لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق روي: أنه كان يمر بالجبال مسبحًا وهي تجاوبه، وقيل: كانت تسير معه حيث سار.

فإن قُلْتَ: كيف تنطق الجبال وتسبح؟ قُلْتُ: بأن يخلق الله فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى، وجواب آخر وهو أن يسبح من رآها تسير بتسيير الله، فلما حملت على التسبيح وصفت به ﴿وكنا فاعلين﴾ أي: قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجبًا عندكم وقيل: وكنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك.

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾.

اللبوس: اللباس، قال: البس لكل حالة لبوسها ... المراد: الدرع. قال قتادة: كانت صفائح فأوّل من ... ـها داود فجمعت الخفة والتحصين، ﴿لتحصنكم﴾ ... ـنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل، والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع والياء لداود أو للبوس.

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾.

قرئ الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء، والنصب على العطف على الجبال.

فإن قُلْتَ: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة، وبالرخاوة أخرى فما التوفيق بينهما! قُلْتُ: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم[1]، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال: ﴿غدوها شهر ورواحها شهر﴾[2] فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة، وقيل: كانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفًا لهبوبها على حكم إرادته، وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا.

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾.

أي: يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر، ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدائن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال: يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل والله حافظهم أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا، أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه.

۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾.

أي: ناداه بأني مسني الضر، وقرئ: إني بالكسر على إضمار القول، أو لتضمن النداء معناه والضر بالفتح الضرر في كل شيء، وبالضم الضرر في النفس من مرض، وهزال فرق بين البناءين، لافتراق المعنيين ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب، ويحكى: أنّ عجوزًا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت: يا أمير المؤمنين مشت جرذان بيتي على العصي، فقال لها: ألطفت في السؤال لا جرم لأردنها تثب وثب الفهود، وملأ بيتها حبًّا.

كان أيوب عليه السلام روميًّا من ولد إسحق بن يعقوب عليهم السلام وقد استنبأه الله، وبسط عليه الدنيا وكثر أهله

---

(1) قال أحمد: وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جان، وتارة بأنها ثعبان، والجان الرقيق من الحيات، والثعبان العظيم الجافي منها، ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين، فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجان، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ففي= = كل واحد من الريح والعصا على هذا التقرير معجزتان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) سورة سبأ، الآية: 12.

وماله كان له سبعة بنين وسبع بنات، وله أصناف البهائم وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل، فابتلاه الله بذهاب ولده انهدم عليه البيت فهلكوا، وبذهاب ماله وبالمرض في بدنه ثماني عشر سنة، وعن قتادة: ثلاث عشر سنة، وعن مقاتل: سبعًا وسبعة أشهر وسبع ساعات، وقالت له امرأته يومًا: لو دعوت الله فقال لها: كم كانت مدّة الرخاء فقالت: ثمانين سنة فقال: أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدّة بلائي مدّة رخائي، فلما كشف الله عنه أحيا ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم، وروي: أنّ امرأته ولدت بعد ستة وعشرين ابنًا ﴿رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ أي: لرحمتنا العابدين، وأن نذكرهم بالإحسان لا ننساهم، أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة.

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾.

قيل: في ذي الكفل هو إلياس وقيل: زكريا وقيل: يوشع بن نون، وكأنه سمي بذلك؛ لأنه ذو الحظ من الله والمجدود على الحقيقة، وقيل: كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم وقيل: خمسة من الأنبياء ذوو اسمين: إسرائيل ويعقوب، إلياس وذو الكفل، عيسى والمسيح، يونس وذو النون، محمد وأحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾.

﴿النون﴾ الحوت فأضيف إليه برم بقومه لطول ما ذكرهم، فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظنّ أنّ ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبًا لله، وأنفة لدينه، وبغضًا للكفر، وأهله، وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت.

ومعنى مغاضبته لقومه: أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها، وقرأ أبو شرف مغضبًا.

قرئ: نقدر ونقدر مخففًا ومثقلاً، ويقدر بالياء بالتخفيف، ويقدر ويقدر على البناء للمفعول مخففًا ومثلاً، وفسرت بالتضييق عليه، وبتقدير الله عليه عقوبة، وعن ابن عباس: أنه دخل على معاوية فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصًا إلا بك قال: وما هي يا معاوية فقرأ هذه الآية، وقال: ﴿أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه﴾ قال: هذا من القَدَر لا من القُدْرة. والمخفف يصح أن يفسر بالقدرة على معنى: أن لن نعمل فيها قدرتنا وأن يكون من باب التمثيل بمعنى، فكانت حاله ممثلة بحال من ظنّ أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمر الله، ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان، ثم يردعه ويرده بالبرهان، كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان، وما يوسوس إليه في كل وقت، ومنه قوله تعالى: ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾[1] والخطاب للمؤمنين ﴿في الظلمات﴾ أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله: ﴿ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات﴾[2] وقوله: ﴿يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾[3] وقيل: ظلمات بطن الحوت وقيل: ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل: ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمة البحر. ﴿أن﴾ أي: بأنه ﴿لا إله إلا أنت﴾ أن بمعنى: أي، عن النبي ﷺ: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»[4]، وعن الحسن: ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾.

﴿ننجي﴾ وننجي ونجي والنون لا تدغم في الجيم، ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال: نجي النجاء المؤمنين فارسل الياء وأسنده إلى مصدره، ونصب المؤمنين بالنجاء فمتعسف بارد التعسف.

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾.

سأل ربه أن يرزقه ولدًا يرثه ولا يدعه وحيدًا بلا وارث، ثم ردّ أمره إلى الله مستسلمًا فقال: ﴿وأنت خير الوارثين﴾ أي: إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾.

إصلاح زوجه: أن جعلها صالحة للولادة بعد عقرها وقيل: تحسين خلقها وكانت سيئة الخلق. الضمير للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام، يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير، ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون، وقرئ ﴿رغبًا ورهبًا﴾ بالإسكان وهو كقوله تعالى: ﴿يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾ ﴿خاشعين﴾ قال الحسن: ذللا لأمر الله، وعن مجاهد: الخشوع الخوف الدائم في القلب، وقيل: متواضعين، وسئل الأعمش، فقال:

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 10.

(2) سورة البقرة، الآية: 17.

(3) سورة البقرة، الآية: 257.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرك 1/505 و2/382، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في محبة الله عز وجل، فصل في أدامة ذكر الله عز وجل (حديث رقم 620).

أما إني سألت إبراهيم، فقال: ألا تدري؟ قلت: أفدني، قال: بينه وبين الله إذا أرخى ستره وأغلق بابه، فلير الله منه خيرًا لعلك ترى أنه إن يأكل خشنًا ويلبس خشنًا ويطأطئ رأسه.

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾.

﴿أحصنت فرجها﴾ إحصانًا كليًا من الحلال والحرام جميعًا كما قالت: ﴿ولم يمسسني بشر ولم أك بغيًا﴾.

فإن قُلْتَ: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه، قال الله تعالى: ﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾[1] أي: أحييته وإذا ثبت ذلك كان قوله: ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ ظاهر الإشكال؛ لأنه يدل على إحياء مريم! قُلْتُ: معناه: نفخنا الروح في عيسى فيها، أي: أحييناه في جوفها[2] ونحو ذلك أن يقول: الزمار نفخت في بيت فلان أي: نفخت في المزمار في بيته، ويجوز أن يراد: وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا، وهو جبريل عليه السلام؛ لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: آيتين كما قال: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾! قُلْتُ: لأنّ حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل.

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾.

الأمة: الملة، وهذه إشارة إلى ملة الإسلام أي: أنّ ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة ﴿وأنا﴾ إلهكم إله واحد، ﴿فاعبدون﴾ ونصب الحسن أمّتكم على البدل من هذه ورفع أمّة خبرًا، وعنه رفعهما جميعًا خبرين لهذه، أو نوى للثاني مبتدأ والخطاب للناس كافة.

وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾.

والأصل وتقطعتم إلا أنّ الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه، فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقًا وأحزابًا شتى، ثم توعدهم بأنّ هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو محاسبهم ومجازيهم.

فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾.

الكفران: مثل في حرمان الثواب كما أنّ الشكر مثل في إعطائه إذا قيل: الله شكور، وقد نفى نفي الجنس ليكون أبلغ من أن يقول: فلا نكفر سعيه ﴿وإنا له كاتبون﴾ أي: نحن كاتبوا ذلك السعي ومثبتوه في صحيفة عمله، وما نحن مثبتوه فهو غير ضائع ومثاب عليه صاحبه.

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾.

استعير الحرام للممتنع وجوده ومنه قوله عز وجل: ﴿إنّ الله حرّمهما على الكافرين﴾[3] أي: منعهما منهم وأبى أن يكونا لهم، وقرئ حرْم وحرِم بالفتح والكسر وحرّم وحرِّم ومعنى ﴿أهلكناها﴾: عزمنا على إهلاكها أو قدّرنا إهلاكها، ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة، ومجاز الآية: أنّ قومًا عزم الله على إهلاكهم غير متصوّر أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة، فحينئذ يرجعون ويقولون: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا، بل كنا ظالمين يعني: أنهم مطبوع على قلوبهم، فلا يزالون على كفرهم، ويموتون عليه حتى يروا العذاب، وقرئ إنهم بالكسر وحق هذا أن يتمّ الكلام قبله، فلا بدّ من تقدير محذوف، كأنه قيل: وحرام على قرية أهلكناها ذاك وهو المذكور في الآية المتقدّمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور، ثم علل فقيل: إنهم لا يرجعون عن الكفر، فكيف لا يمتنع ذلك؟ والقراءة بالفتح يصح حملها على هذا أي: لأنهم لا يرجعون، ولا صلة على الوجه الأوّل.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾.

فإن قُلْتَ: بم تعلقت ﴿حتى﴾ واقعة غاية له وأية الثلاث هي! قُلْتُ: هي متعلقة بحرام وهي غالة لأنّ امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة، وهي حتى التي يحكى بعدها الكلام، والكلام المحكيّ الجملة من الشرط، والجزاء أعني: إذا، وما في خبرها حذف المضاف إلى ﴿يأجوج ومأجوج﴾، وهو سدّهما كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها وقيل: فتحت كما قيل: أهلكناها وقرئ آجوج وهما قبيلتان من جنس الإنس يقال: الناس عشرة

---

(1) سورة الحجر، الآية: 29.

(2) قال أحمد: وقد اختار الزمخشري في قوله عزّ وجل: ﴿إذ أوحينا إلى أمّك أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل﴾ أن تكون الضمائر كلها راجعة إلى موسى، أما الأوّل فلا إشكال فيه، وأما التابوت إذا قذف في اليم وموسى فيه، فقد قذف موسى في اليم، وكذلك الثالث واختار غيره عود الضميرين الأخيرين إلى التابوت؛ لأنه فهم من قوله: ﴿فاقذفيه في اليم﴾ أنّ= = المراد: التابوت، وأما موسى فلم يقذف في اليم، الزمخشري نزل قذف التابوت في اليم، وموسى فيه منزلة قذفه في اليم، وفي هذه الآية مصداق لما اختاره، فإنّ الله تعالى نزل نفخ الروح في عيسى لكونه في جوف مريم منزلة نفخ الروح في مريم، فعبر بما يفهم ظاهر هذا.

(3) سورة الأعراف، الآية: 50.

أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج ﴿وهم﴾ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر، وقيل: هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السدّ. الحدب: النشز من الأرض، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: من كل جدث وهو القبر الثاء حجازية، والفاء تميمية، وقرئ ﴿ينسلون﴾ بضم السين، ونسل وعسل أسرع.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿ما تعبدون من دون الله﴾ يحتمل الأصنام، وإبليس وأعوانه، لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم، ويصدّقه ما روي: أنّ رسول الله ﷺ دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحرث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليهم: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ الآية فأقبل عبد الله بن الزبعري فرآهم يتهامسون، فقال: فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه، فقال ابن الزبعري: أأنت قلت ذلك؟ قال: نعم، قال: قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرًا، والنصارى عبدوا المسيح، وبنو مليح عبدوا الملائكة، فقال ﷺ: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك»، فأنزل الله تعالى: ﴿إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ الآية[1] يعني: عزيرًا والمسيح والملائكة عليهم السلام.

فإن قُلْتَ: لم قرنوا بآلهتهم! **قُلْتُ**: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غمّ وحسرة، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب، ولأنهم قدّروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ويستنفعون بشفاعتهم، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

فإن قُلْتَ: إذا عنيت بما تعبدون الأصنام فما معنى: ﴿لهم فيها زفير﴾؟ **قُلْتُ**: إذا كانوا هم وأصنامهم في قرن واحد جاز أن يقال لهم: زفير، وإن لم يكن الزافرين إلا هم دون الأصنام للتغليب ولعدم الإلباس.

والحصب: المحصوب به أي: يحصب بهم في النار والحصب: الرمي، وقرئ بسكون الصاد وصفًا بالمصدر، وقرئ حطب وحضب بالضاد متحركًا وساكنًا.

وعن ابن مسعود يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون، ويجوز أن يصممهم الله كما يعميهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾.

﴿الحسنى﴾ الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن إمّا السعادة، وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾.

يروى: أنّ عليًّا رضي الله عنه قرأ هذه الآية، ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف، ثم أقيمت الصلاة فقام يجرّ رداءه وهو يقول: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ والحسيس: الصوت يحس، والشهوة طلب النفس اللذة.

لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾.

وقرئ ﴿لا يحزنهم﴾ من أحزن و ﴿الفزع الأكبر﴾ قيل: النفخة الأخيرة لقوله تعالى: ﴿يوم ينفخ في الصور ففزع من في السمٰوات ومن في الأرض﴾[2] وعن الحسن الانصراف إلى النار، وعن الضحاك حين يطبق على النار، وقيل: حين يذبح الموت على صورة كبش أملح أي: تستقبلهم ﴿الملائكة﴾ مهنئين على أبواب الجنة ويقولون: هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم.

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾.

قد حلّ العامل في ﴿يوم نطوي﴾، لا يحزنهم أو الفزع أو تتلقاهم وقرئ تطوى السماء على البناء المفعول، ﴿والسجلّ﴾ توزن العتلّ والسجلّ بلفظ الدلو وروي فيه الكسر وهو الصحيفة، أي: كما يطوى الطومار للكتابة أي: ليكتب فيه أو لما يكتب فيه؛ لأنّ الكتاب أصله المصدر كالبناء، ثم يوقع على المكتوب ومن جمع فمعناه للمكتوبات أي: لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة، وقيل: السجل ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه، وقيل: كاتب كان لرسول الله ﷺ والكتاب على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها ﴿أوّل خلق﴾ مفعول، نعيد الذي يفسره ﴿نعيده﴾ والكاف مكفوفة بما والمعنى: نعيد أوّل الخلق كما بدأناه تشبيهًا للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء.

فإن قُلْتَ: وما أوّل الخلق حتى يعيده كما بدأه! **قُلْتُ**: أوّله إيجاده عن العدم فكما أوجده أولاً عن عدم يعيده ثانيًا عن عدم.

فإن قُلْتَ: ما بال خلق منكرًا! **قُلْتُ**: هو كقولك: هو أوّل رجل جاءني تريد أوّل الرجال، ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً، فكذلك معنى أوّل خلق: أوّل الخلق بمعنى: أوّل الخلائق؛ لأنّ الخلق مصدر لا يجمع، ووجه آخر وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نعيده، وما موصولة أي: نعيد مثل الذي بدأناه نعيده وأوّل خلق

---

(1) الواحدي في أسباب النزول ص 173.

(2) سورة النمل، الآية: 87.

ظرف لبدأناه أي: أوّل ما خلق أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت في المعنى ﴿وعدًا﴾ مصدر مؤكد لأنّ قوله: ﴿نعيده﴾ عدة للإعادة ﴿إنا كنا فاعلين﴾ أي: قادرين على أن نفعل ذلك عن الشعبي رحمة الله عليه.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾.

زبور داود عليه السلام، والذكر: التوراة وقيل: اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب والذكر أم الكتاب يعني: اللوح أي: يرثها المؤمنون بعد إجلاء الكفار كقوله تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾[1] قال موسى لقومه: استعينوا بالله، واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هي أرض الجنة وقيل: الأرض المقدّسة ترثها أمّة محمد ﷺ الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار، والوعد والوعيد والمواعظ.

إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾.

البالغة والبلاغ الكفاية، وما تبلغ به البغية أرسل ﷺ.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾.

﴿رحمة للعالمين﴾ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها، ومثاله أن يفجر الله عينًا غديقة فيسقي ناس زروعهم، ومواشيهم بمائها فيفلحوا ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعوا، فالعين المفجرة في نفسها نعمة من الله ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها وقيل: كونه رحمة للفجار من حيث إنّ عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال.

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾.

إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد قائم وإنما يقوم زيد، وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لأنّ ﴿إنما يوحى إلي﴾ مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد و﴿أنما إلهكم إله واحد﴾ بمنزلة انما زيد، قائم، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أنّ الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية، وفي قوله: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أنّ الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله، وأن تخلعوا الأنداد وفيه أنّ صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع،

ويجوز أن يكون المعنى: أنّ الذي يوحى إليّ فتكون ما موصولة.

فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾.

آذن منقول من أذن إذا علم، ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار ومنه قوله تعالى: ﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾[2] وقول ابن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء

والمعنى: أني بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد الله، وتنزيهه عن الأنداد والشركاء كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة فنبذ إليهم العهد، وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعًا بذلك ﴿على سواء﴾ أي: مستوين في الإعلام به لم يطوه عن أحد منهم، وكاشف كلهم وقشر العصا عن لحائه و﴿ما توعدون﴾ه من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة، ولا بدّ من أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك لأنّ الله لم يعلمني علمه، ولم يطلعني عليه والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانين في الإسلام، و﴿ما تكتمون﴾ ه في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين، وهو يجازيكم عليه.

وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾.

وما أدري لعلّ تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون، أو تمتيع لكم ﴿إلى حين﴾ ليكون ذلك حجة عليكم وليقع الموعد في وقت هو فيه حكمة.

قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾.

قرئ ﴿قل﴾ وقال: على حكاية قول: رسول الله ﷺ و﴿رب احكم﴾ على الاكتفاء بالكسرة ورب احكم على الضم، وربي أحكم على أفعل التفضيل، وربي أحكم من الاحكام أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر، ومعنى ﴿بالحق﴾: لا تحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم كما قال: «اشدد وطاتك على مضر»[3]، قرئ ﴿تصفون﴾ بالتاء والياء كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين وخذلهم، عن رسول الله وآله ﷺ: «من قرأ: اقترب للناس حسابهم حاسبه الله حسابًا يسيرًا وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن»[4].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 137.

(2) سورة البقرة، الآية: 279.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (حديث رقم 804)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع= الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة حديث رقم (294. 675).

(4) رواه الثعلبي في تفسيره، ورواه الزيلعي 2/372.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الحج مكية

غير ست آيات وهي هذان خصمان إلى قوله: ﴿إلى صراط الحميد﴾[1] وهي ثمان وسبعون آية.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾.

الزلزلة شدّة التحريك والإزعاج، وأن يضاعف زليل الأشياء عن مقارها ومراكزها، ولا تخلو ﴿الساعة﴾ من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي، فتكون الزلزلة مصدرًا مضافًا إلى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف، وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ وهي الزلزلة المذكورة في قوله: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾[2] واختلف في وقتها، فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي عند طلوع الشمس من مغربها، أمر بني آدم بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يترديوا به، وروي أنّ هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق، فقرأهما رسول الله ﷺ فلم ير أكثر باكيًا من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرًا وكانوا من بين حزين، وباك ومفكر[3].

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾.

﴿يوم ترونها﴾ منصوب بـ ﴿تذهل﴾ والضمير للزلزلة. وقرئ ﴿تذهل كل مرضعة﴾ على البناء للمفعول وتذهل كل مرضعة أي: تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة.

فإن قُلْتَ: لم قيل ﴿مرضعة﴾ دون مرضع؟ **قُلْتُ:** المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به[4] فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ﴿عما أرضعت﴾ عن إرضاعها، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام، قرئ ﴿وترى﴾ بالضم من أريتك قائمًا، أو رؤيتك قائمًا و﴿الناس﴾ منصوب ومرفوع والنصب ظاهر، ومن رفع جعل الناس اسم ترى وأنثه على تأويل الجماعة، وقرئ سكرى وبسكرى وهو نظير جوعى وعطشى في جوعان وعطشان وسكارى وبكسارى، نحو كسالى وعجالى وعن الأعمش سكرى وبسكرى بالضم، وهو غريب والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وطير تمييزهم وردّهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله. وتمييزه وقيل: وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى[5] من الشراب.

فإن قُلْتَ: لم قيل أوّلاً ترون، ثم قيل: ترى على الإفراد؟ **قُلْتُ:** لأنّ الرؤية أوّلاً علقت بالزلزلة، فجعل الناس جميعًا رائين لها وهي معلقة أخيرًا بكون الناس على حال السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيًا لسائرهم.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾.

قيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان جدلاً يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلي وصار ترابًا، وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم ولا يعضّ فيه بضرس قاطع وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخبط خبط عشواء غير فارق بين الحق

---

(1) سورة الحج، الآية: 24.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 1.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحج، (الحديث: 3169)، وأخرجه الحاكم في المستدرك، 4/567.

(4) **قال أحمد:** والفرق بينهما أن وروده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها، لكن مقتضاه أنه موصوف بها وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل، وخروج الصفة عليه، وكذلك هو في الآية لقوله: ﴿عما أرضعت﴾ فأخرج الصفة على الفعل وألحقه التاء.

(5) **قال أحمد:** والعلماء يقولون: إن من أدلة المجاز صدق نقيضه كقوله: زيد حمار إذاً وصفته بالبلادة، ثم يصدق أن تقول وما هو= بحمار فتنتفي عنه الحقيقة، فكذلك الآية بعد أن أثبت السكر المجازي نفي الحقيقي أبلغ نفي مؤكد بالباء، والسر في تأكيده التنبيه على أنّ هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله، والاستدراك بقوله: ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ راجع إلى قوله: ﴿وما هم بسكارى﴾ وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازي، كأنه قيل: إذا لم يكونوا سكارى من الخمر، وهو السكر المعهود فما هذا السكر الغريب؟ وما سببه؟ فقال: سببه شدّة عذاب الله تعالى. ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه أنه قال: هو الوقت الذي يقول كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه: نفسي نفسي.

والباطل، ﴿ويتبع﴾ في ذلك خطوات ﴿كل شيطان﴾ عات علم من حاله وظهر، وتبين أنه من جعله وليًا له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار، وما أرى رؤساء أهل الأهواء والبدع والحشوة المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولاً أوليًا بل هم أشدّ الشياطين إضلالاً، واقطعهم لطريق الحق حيث دوّنوا الضلال تدوينًا ولقنوه أشياعهم تلقينًا، وكأنهم ساطوه بلحومهم ودمائهم وإياهم عني من قال:

ويا رب مقفو الخطا بين قومه طريق نجاة عندهم مستو نهج
ولو قرؤا في اللوح ما خط فيه من بيان اعوجاج في طريقته عجوا

اللهم ثبتنا على المعتقد الصحيح الذي رضيته لملائكتك في سمٰواتك، وأنبيائك في أرضك وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

والكتبة عليه مثل أي: كأنما كتب إضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله.

وقرئ ﴿أنه﴾ و﴿فأنه﴾ بالفتح والكسر فمن فتح فلأن الأول فاعل كتب، والثاني: عطف عليه ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام كما تقول: كتبت إن الله هو الغني الحميد، أو على تقدير: قيل أو على أن كتب فيه معنى القول.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

قرأ الحسن من البعث بالتحريك ونظيره الجلب، والطرد في الجلب، والطرد كأنه قيل: إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم، والعلقة قطعة الدم الجامدة والمضغة اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ، والمخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب يقال: خلق السواك والعود إذا سواه، وملسه من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساة كأنّ الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم، وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم، ونقصانهم وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة ﴿لنبين لكم﴾ بهذا التدريج قدرتنا، وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ثم من نطفة ثانيًا، ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر على أن يجعل النطفة علقة، وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظامًا قدر على إعادة ما أبداه بل هذا أدخل في القدرة من تلك، وأهون في القياس وورود الفعل غير معدى إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته، وعلمه ما لا يكتنهه الذكر ولا يحيط به الوصف، وقرأ ابن أبي عبلة ليبين لكم ويقرّ بالياء، وقرئ ونقرّ ونخرجكم بالنون والنصب، ويقرّ ويخرجكم ويقرّ ويخرجكم بالنصب والرفع، وعن يعقوب نقرّ بالنون وضم القاف من قرّ الماء إذا صبه، فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقرّ ﴿في الأرحام ما يشاء﴾ أن يقرّه من ذلك ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر أو تسعة أو سنتين أو أربع أو كما شاء وقدر وما لم يشأ إقراره مجته الأرحام، أو أسقطته والقراءة بالنصب تعليل معطوف على تعليل ومعناه خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين أحدهما أن نبين قدرتنا، والناس: أن نقرّ في الأرحام من نقرّ حتى يولدوا وينشؤا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم، ويعضد هذه القراءة قوله: ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ وحده لأنّ الغرض الدلالة على الجنس، ويحتمل نخرج كل واحد منكم طفلاً، الأشد كمال القوّة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة، والقتود والأباطيل وغير ذلك وكأنها شدّة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع، وقرئ ومنكم من يتوفى أي: يتوفاه الله ﴿أرذل العمر﴾ الهرم والخرف حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم، بين أنه كما قدر على أن يرقيه في درجات الزيادة حتى يبلغه حدّ التمام، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهي به إلى الحالة السفلى ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا﴾ أي: ليصير نساء بحيث إذا كسب علمًا في شيء لم ينشب أن ينساه، ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته يقول لك: من هذا فتقول: فلان فما يلبث لحظة إلا سالك عنه، وقرأ أبو عمر والعمر بسكون الميم الهامدة الميتة اليابسة وهذه دلالة ثانية على البعث، ولظهورها وكونها مشاهدة معاينة كررها الله في كتابه ﴿اهتزت وربت﴾ تحركت بالنبات وانتفخت، وقرئ ربأت أي: ارتفعت، البهيج الحسن الساتر للناظر إليه، أي: ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم، واللطائف حاصل بهذا، وهو السبب في حصوله، ولولاه لم يتصور كونه وهو ﴿أن الله هو الحق﴾ أي: الثابت الموجود وأنه قادر على إحياء الموتى، وعلى كل مقدور وأنه حكيم لا يخلف ميعاده، وقد وعد الساعة والبعث فلا بد أن يفي بما وعد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾.

عن ابن عباس أنه أبو جهل ابن هشام، وقيل: كرر كما كررت سائر الأقاصيص وقيل: الأوّل في المقلدين وهذا في المقلدين. والمراد بالعلم العلم الضروري وبالهدى الاستدلال والنظر لأنه يهدي إلى المعرفة، وبالكتاب المنير الوحي أي:

يجادل بظن وتخمين لا بأحد هذه الثلاثة.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾.

وثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخدّ وليّ الجيد، وقيل: عن الإعراض عن الذكر. وعن الحسن: ثاني عطفه بفتح العين، أي: مانع تعطفه ﴿ليضل﴾ تعليل للمجادلة، قرئ بضم الياء وفتحها.

فإن قُلْتَ: ما كان غرضه من جداله الضلال ﴿عن سبيل الله﴾ فكيف علل به، وما كان أيضًا مهتديًا حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال!قُلْتُ: لما أدّى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه، ولما كان الهدى معرضًا له فتركه وأعرض عنه، وأقبل على الجدال بالباطل جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال وخزيه ما أصابه يوم بدر من الصغار، والقتل والسبب فيما مني به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾.

هو ما قدمت يداه، وعدل الله في معاقبته الفجار، وإثابته الصالحين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾.

﴿على حرف﴾ على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون، وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحس بظفر وغنيمة قرّ واطمأن وإلا فرّ وطار على وجهه، قالوا: نزلت في أغاريب قدموا المدينة وكان أحدهم: إذا صح بدنه، ونتجت فرسه مهرًا سريًا وولدت امرأته غلامًا سويًا، وكثرت ماله وماشيته قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيرًا، واطمأن وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلاّ شرًا، وانقلب. وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من اليهود أسلم، فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني، فقال: «إن الإسلام لا يقال» فنزلت[1]، المصاب بالمحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج إلى ما يسخط الله جامع على نفسه محنتين إحداهما ذهاب ما أصيب به، والثانية ذهاب ثواب الصابرين فهو خسران الدارين، وقرئ خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على الفاعلية، ووضع الظاهر موضع الضمير وهو وجه حسن أو على أنه خبر مبتدأ محذوف.

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾.

استعير ﴿الضلال البعيد﴾ من ضلال من أبعد في التيه ضالاً فطالت وبعدت مسافة ضلالته.

فإن قُلْتَ: الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض!قُلْتُ: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً، ولا نفعاً وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به، ثم قال: يوم القيامة يقول: هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام، ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها.

﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ أو كرّر يدعو كأنه قال: يدعو من دون الله ما لا يضره، وما لا ينفعه ثم قال: لمن ضره بكونه معبودًا أقرب من نفعه بكونه شفيعًا لبئس المولى وفي حرف عبد الله من ضره بغير لام، المولى الناصر، والعشير: الصاحب كقوله: ﴿فبئس القرين﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾.

هذا كلام قد دخله اختصار والمعنى أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن كان يظنّ من حاسديه، وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلاً إلى سماء بيته، فاختنق فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه، وسمى الاختناق قطعاً لأنّ المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه، ومنه قيل: للبهر القطع، وسمى فعله كيداً؛ لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه، والمراد ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه، وقيل: فليمدد بحبل إلى السماء المظلة وليصعد عليه فليقطع الوحي أن ينزل عليه، وقيل: كان قوم من المسلمين لشدّة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطؤن ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره فنزلت.

وقد فسّر النصر بالرزق وقيل: معناه أن الأرزاق بيد الله لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته، فمن ظنّ أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام فليبلغ غاية الجزع، وهو الاختناق فإنّ ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقاً، أي: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله.

---

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 173.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾.

﴿آيات بينات و﴾ لـ **﴿أنّ الله يهدي﴾** به الذين يعلم أنهم يؤمنون أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى أنزله كذلك مبيناً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾.

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت، ولا يجمعهم في موطن واحد وقيل: الأديان خمسة: أربعة للشيطان وواحد للرحمن جعل الصابئون مع النصارى لأنهم نوع منهم، وقيل: يفصل بينهم يقضي بينهم أي: بين المؤمنين والكافرين وأدخلت أنّ على كل واحد من جزأي الجملة لزيادة التوكيد ونحوه قول جرير:

إنّ الخليفة أن الله سربله ... سربال ملك به ترجى الخواتيم

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾.

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها سجوداً له، تشبيهاً لمطاوعتها بإدخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانقياد، وهو السجود الذي كل خضوع دونه.

فإن قُلْتَ:فما تصنع بقوله: **﴿وكثير من الناس﴾** وبما فيه من الاعتراضين أحدهما: أنّ السجود على المعنى الذي فسرته به لا يسجده بعض الناس دون بعض والثاني أنّ السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من في الأرض من الإنس والجنّ أولاً فإسناده إلى كثير منهم آخرًا مناقضة! **قُلْتُ**:لا أنظم كثيرًا في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل، وإنما أرفعه بفعل مضمر يدل عليه قوله: يسجد أي: ويسجد كثير من الناس سجود طاعة وعبادة، ولم أقل أفسر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى الطاعة، والعبادة في حق هؤلاء؛ لأنّ اللفظ الواحد لا يصحّ استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين، أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب لأنّ خبر مقابله يدل عليه، وهو قوله: **﴿حق عليه العذاب﴾** ويجوز أن يجعل من الناس خبراً له أي: من الناس الذين هم الناس على الحقيقة، وهم الصالحون والمتقون ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب، فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحقّ عليهم العذاب، كأنه قيل: وكثير وكثير من الناس حقّ عليهم العذاب، وقرئ حق بالضم، وقرئ حقًا أي: حقّ عليهم العذاب حقًا، ومن أهانه الله بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره، أو فسقه فقد بقي مهانًا لن تجد له مكرمًا، وقرئ مكرم بفتح الراء بمعنى: الإكرام إنه **﴿يفعل ما يشاء﴾** من الإكرام والإهانة ولا يشاء من ذلك إلّا ما يقتضيه عمل العاملين، واعتقاد المعتقدين.

۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾.

الخصم صفة وصف بها الفوج، أو الفريق فكأنه قيل: هذان فوجان، أو فريقان مختصمان، وقوله: هذان للفظ واختصموا للمعنى كقوله: ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا ولو قيل: هؤلاء خصمان أو اختصما جاز يراد المؤمنون، والكافرون قال: ابن عباس رجع إلى أهل الأديان الستة **﴿في ربهم﴾** أي: في دينه وصفاته، وروي أنّ أهل الكتاب قالوا: للمؤمنين نحن أحق بالله، وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم وقال: المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا، ثم تركتموه وكفرتم به حسداً فهذه خصومتهم في ربهم **﴿فالذين كفروا﴾** هو فصل الخصومة المعنى بقوله تعالى: **﴿إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾** وفي رواية عن الكسائي خصمان بالكسر.

وقرئ قطعت بالتخفيف كأنّ الله تعالى يقدّر لهم نيرانًا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة، ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض، ونحوه سرابيلهم من قطران **﴿الحميم﴾** الماء الحار عن ابن عباس رضي الله عنه: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها.

يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾.

﴿يصهر﴾ يذاب وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة أي: إذا صبّ الحميم على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب أحشاءهم، وأمعاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله: **﴿وسقوا ماء حميمًا فقطع أمعاءهم﴾**[1].

وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾.

والمقامع: «السياط. في الحديث: لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها»[2].

---

(1) سورة محمد، الآية: 15.

(2) أحمد في المسند 29/3، وأبو يعلى في المسند، (الحديث رقم: 1388).

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

وقرأ الأعمش ردّوا فيها والإعادة والردّ لا يكون إلاّ بعد الخروج فالمعنى: كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها، ومعنى الخروج: ما يروى عن الحسن أنّ النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع، فهووا فيها سبعين خريفاً ﴿و﴾ قيل لهم: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ والحريق الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿يحلون﴾ عن ابن عباس: من حليت المرأة فهي حال ﴿ولؤلؤاً﴾ بالنصب على ويؤتون لؤلؤًا كقوله: وحورًا عينًا، ولؤلؤًا بقلب الهمزة الثانية واوًا ولوليًا بقلبهما واوين، ثم تقلب الثانية ياء كأدل ولول كأدل فيمن جرّ ولؤلؤ وليليا بقلبهما ياءين عن ابن عباس.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

وهداهم الله وألهمهم أن يقولوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهداهم إلى طريق الجنة يقال: فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين لايراد حال ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمنته وأوقاته، ومنه قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿ويصدّون عن سبيل الله﴾ أي: الصدود منهم مستمرّ دائم ﴿للناس﴾ أي: الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانئ وطارئ ومكي وآفاقي، وقد استشهد به أصحاب أبي حنيفة قائلين إنّ المراد بالمسجد الحرام: مكة على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها، وعند الشافعي لا يمتنع ذلك وقد حاور إسحٰق بن راهويه فاحتجّ بقوله: ﴿الذين أخرجوا من ديارهم﴾[1] قال: انسب الديار إلى مالكيها أو غير مالكيها واشترى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه دار السجن من مالكيه، أو غير مالكيه ﴿سواء﴾ بالنصب قراءة حفص والباقون على الرفع ووجه النصب أنه ثاني مفعولي جعلناه أي: جعلناه مستوياً ﴿العاكف فيه والباد﴾، وفي القراءة بالرفع الجملة مفعول ثان الإلحاد العدول عن القصد، وأصله إلحاد الحافر وقوله: ﴿بإلحاد بظلم﴾ حالان مترادفتان، ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال: ومن يرد فيه مرادًا ما عادلاً عن القصد ظالمًا، ﴿نذقه من عذاب أليم﴾ يعني: أنّ الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهمّ به ويقصده وقيل: الإلحاد في الحرم منع الناس عن عمارته وعن سعيد بن جبير الاحتكار، وعن عطاء قول: الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل، والآخر في الحرم فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحلّ فقيل له: فقال: كنا نحدث أنّ من الإلحاد فيه أن يقول: الرجل لا والله وبلى والله[2] وقرئ يرد بفتح الياء من الورود ومعناه: من أتى فيه بإلحاد ظالمًا، وعن الحسن ومن يرد إلحاده بظلم أراد إلحادًا فيه فأضافه على الاتساع في الظرف كمكر الليل، ومعناه أن يرد أن يلحد فيه ظالمًا وخبر إن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره إن الذين كفروا ويصدّون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم، وكل من ارتكب فيه ذنبًا فهو كذلك عن ابن مسعود الهمة في الحرم تكتب ذنبًا.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

واذكر حين جعلنا ﴿لإبراهيم مكان البيت﴾ مباءة أي: مرجعًا يرجع إليه للعمارة والعبادة رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال: لها الخجوج كنست ما حوله فبناه على اسه القديم، وأن هي المفسرة.

فإن **قُلْتَ**: كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرًا للتبوئة؟ **قُلْتُ**: كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة، فكأنه قيل: تعبدنا إبراهيم قلنا له: ﴿لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي﴾ من الأصنام والأوثان والأقذار أن تطرح حوله، وقرئ يشرك بالياء على الغيبة.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وأذن في الناس﴾ ناد فيهم وقرأ ابن محيصن وآذن والنداء بالحج أن يقول: حجّوا وعليكم بالحج وروي أنه صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم[3] وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله ﷺ، أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع[4] ﴿رجالاً﴾ مشاة جمع راجل كقائم وقيام وقرئ رجالاً بضم الراء مخفف الجيم، ومثقله ورجالي كعجالي عن ابن عباس ﴿وعلى كل ضامر﴾ حال معطوفة على حال كأنه قال: رجالاً وركبانًا ﴿يأتين﴾ صفة لكل ضامر لأنه في معنى الجمع وقرئ يأتون صفة

(1) سورة الحج، الآية: 40.
(2) رواه الطبري في تفسيره، وأبو الوليد الأزرقي في تاريخ مكة، زيلعي 2/381.
(3) الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 2/381.
(4) رواه الطبري في تفسيره، الزيلعي 2/381.

للرجال والركبان والعميق البعيد، وقرأ ابن مسعود معيق يقال: بئر بعيدة العمق والمعق.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات، وعن أبي حنيفة رحمه الله أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج فلما حجّ فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص، وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا، أو ذبحوا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرّب به إلى أن يذكر اسمه، وقد حسن الكلام تحسيناً بيناً أن جمع بين قوله: ﴿ليذكروا اسم الله﴾ وقوله: ﴿على ما رزقهم﴾ ولو قيل: لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام لم تر شيئاً من ذلك الحسن والروعة، الأيام المعلومات أيام العشر عند أبي حنيفة وهو قول: الحسن وقتادة وعند صاحبيه أيام النحر البهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالأنعام، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز. الأمر بالأكل منها أمر إباحة لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم، ويجوز أن يكون ندبًا لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم ومن استعمال التواضع، ومن ثمة استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث، وعن ابن مسعود أنه بعث بهدي وقال: فيه إذا نحرته فكل وتصدّق، وابعث منه إلى عتبة[1] يعني: ابنه وفي الحديث كلوا وادّخروا، وائتجروا[2] ﴿البائس﴾ الذي أصابه بؤس أي: شدة. و ﴿الفقير﴾ الذي أضعفه الإعسار.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

قضاء التفث: قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد، والتفث الوسخ فالمراد قضاء إزالة التفث، وقرئ وليوفوا بتشديد الفاء ﴿نذورهم﴾ مواجب حجهم، أو ما عسى ينذرونه من أعمال البر في حجهم ﴿وليطوّفوا﴾ طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الصدر وهو طواف الوداع ﴿العتيق﴾ القديم لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن وعن قتادة أعتق من الجبابرة كم من جبار سار إليه ليهدمه، فمنعه الله وعن مجاهد لم يملك قط وعنه أعتق من الغرق وقيل: بيت كريم من قولهم: عتاق الخيل والطير.

فإن قُلْتَ: قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع! قُلْتُ: ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به ابن الزبير، فاحتال لإخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه أبرهة فعل به ما فعل.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ذلك﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر والشأن ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا والحرمة ما لا يحل هتكه، وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها فيحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصاً فيما يتعلق بالحج وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمحرم حتى يحل ﴿فهو خير له﴾ أي: فالتعظيم خير له ومعنى التعظيم: العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها، المتلو لا يستثنى من الأنعام ولكن المعنى ﴿إلاّ ما يتلى عليكم﴾ آية تحريمه وذلك قوله: في سورة المائدة ﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾ والمعنى أنّ الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه في كتابه فحافظوا على حدوده وإياكم أن تحرموا مما أحلّ شيئاً كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك، وأن تحلوا مما حرم الله كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك، لما حث على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور؛ لأنّ توحيد الله ونفي الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطوًا وجمع الشرك، وقول الزور في قرآن واحد وذلك أنّ الشرك من باب الزور لأنّ المشرك زاعم أنّ الوثن تحق له العبادة، فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئاً منه لتماديه في القبح، والسماجة وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان، وسمى الأوثان رجسًا وكذلك الخمر والميسر والأزلام على طريق التشبيه يعني: أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة، ونبّه على هذا المعنى بقوله: ﴿رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾[3] جعل العلة في اجتنابه أنه رجس والرجس مجتنب ﴿من الأوثان﴾ بيان للرجس وتمييز له كقولك: عندي عشرون من الدراهم لأنّ الرجس منهم يتناول غير شيء كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. والزور من الزور والازورار وهو كما أنّ الإفك من إفكه إذا صرفه، وقيل: قول

(1) الطبراني في معجمه.

(2) أخرجه مسلم في الأضاحي، باب: ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي، (حديث رقم: 28)، وأبو داود في كتاب: الأضاحي، باب: = في حبس لحوم الأضاحي، (الحديث رقم: 2812)، والنسائي في الضحايا، باب: الأخيار من الأضاحي، (حديث: 4443).

(3) سورة المائدة، الآية: 90.

الزور قولهم: هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم وقيل: شهادة الزور عن النبي ﷺ أنّه صلى الصبح فلما سلم قام قائماً، واستقبل الناس بوجهه وقال: عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عدلت شهادة الزور الإشراك بالله، وتلا هذه الآية[1] وقيل الكذب والبهتان وقيل: قول أهل الجاهلية في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك تملكه وما ملك.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾.

يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق فإن كان تشبيهًا مركبًا فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكًا ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء، فاختطفته الطير فتفرق مزعًا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقًا فقد شبّه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة[2]، وقرئ فتخطفه وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما وهي قراءة الحسن وأصلها تختطفه، وقرئ الرياح.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾.

تعظيم الشعائر وهي الهدايا لأنها من معالم الحج أن يختارها عظام الأجرام حساناً سماناً غالية الأثمان، ويترك المكاس في شرائها فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهنّ الهدى والأضحية والرقبة، وروى ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار، فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنًا، فنهاه عن ذلك وقال: بل أهدها[3] وأهدى رسول الله ﷺ مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب[4]، وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي، فيتصدق بلحومها وبجلالها[5] ويعتقد أن طاعة الله في التقرّب بها، وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به، ويسارع فيه ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ أي: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ليرتبط به، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى أن تنحر، ويتصدق بلحومها ويؤكل منها، و ﴿ثم﴾ التراخي في الوقت فاستعيرت للتراخي في الأحوال، والمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم، وإنما يعتد الله بالمنافع الدينية، قال سبحانه: ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾[6] وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً في النفع ﴿محلها إلى البيت﴾ أي: وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت، كقوله: ﴿هديًا بالغ الكعبة﴾[7] والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت لأنّ الحرم هو حريم البيت، ومثل هذا في الاتساع قولك: بلغنا البلد وإنما شارفتموه، واتصل مسيركم بحدوده وقيل: المراد بالشعائر المناسك كلها ومحلها إلى البيت العتيق يأباه.

---

(1) أخرجه أحمد في المسند 4/321، وأبو داود في كتاب: الأقضية، باب: في شهادة الزور، (الحديث رقم: 3599)، والترمذي في كتاب: الشهادات، باب: ما جاء في شهادة الزور، (الحديث رقم: 2300).

(2) قال أحمد: أما على تقدير أن يكون مفرقاً، فيحتاج تأويل تشبيه المشرك بالهاوي من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين، إما أن يكون الإشراك المراد ردته، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه، ثم هبط بارتداده، وإما أن يكون الإشراك أصلياً، فيكون قد عد تمكن المشرك من الإيمان ومن العلو به، ثم عدوله عنه اختياراً بمنزلة من علا إلى السماء، ثم هبط كما قال تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط، ولكن كانوا متمكنين منه، وقد مضى تقرير هذا المعنى بأبسط من هذا، وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر بالطير المختطفة، وفي تشبيه تطويح الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق نظر، لأنّ الأمرين ذكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين، فإذا جعل الأوّل مثلاً لاختلاف الأهواء والأفكار، والثاني مثلاً لنزغ الشيطان، فقد جعلهما شيئاً واحداً؛ لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء مضاف إلى نزغ الشيطان، فلا يتحقق التقسيم المقصود، والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك، فنقول: لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما الأول منهما المتذبذب، = = والمتمادي على الشك، وعدم التصميم على ضلالة واحدة، فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفه الطير، وتوزعته فلا يستولي طائر على مزعة منه، إلا انتهبها منه آخر، وذلك حال المذبذب لا يلوح له خيال، إلا اتبعه ونزل عما كان عليه، والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل لو نشر بالمناشير لم يكع، ولم يرجع لا سبيل إلى تشكيكه، ولا مطمع في نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج لضلالته، فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل، فاستقر فيه، ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق الذي هو أبعد الأحياء عن السماء. وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى: ﴿أولئك في ضلال بعيد﴾ ﴿وضلوا ضلالاً بعيداً﴾ أي: صمموا على ضلالهم فبعد رجوعهم إلى الحق، فهذا تحقيق القسمين والله أعلم.

(3) تقدم تخريجه سابقاً.

(4) كشف الأستار، كتاب: الحج، باب: ما جاء في الهدى، (الحديث رقم: 1104).

وأخرجه نحوه أبو داود في سننه، كتاب: الحج.

(5) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الحج، باب: العمل في الهدى، حيث يساق (الحديث رقم: 146).

(6) سورة الأنفال، الآية: 67.

(7) سورة المائدة، الآية: 95.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له أي: يذبحوا لوجهه على وجه التقرّب، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدّست أسماؤه على النسائك، وقرئ ﴿منسكاً﴾ بفتح السين وكسرها وهو مصدر بمعنى: النسك والمكسور يكون بمعنى: الموضع ﴿فله أسلموا﴾ أي: أخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه لوجهه سالماً، أي: خالصاً لا تشوبوه بإشراك. المخبتون المتواضعون الخاشعون من الخبت وهو المطمئن من الأرض، وقيل: هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقرأ الحسن ﴿والمقيمي الصلاة﴾ بالنصب على تقدير النون، وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الأصل.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿البدن﴾ جمع بدنة سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولأنّ رسول الله ﷺ ألحق البقر بالإبل حين قال: البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة[1] فجعل البقر في حكم الإبل صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبي حنيفة، وأصحابه وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية، وقرأ الحسن والبدن بضمتين كثمر في جمع ثمرة وابن أبي إسحٰق بالضمتين، وتشديد النون على لفظ الوقف، وقرئ بالنصب والرفع كقوله: ﴿والقمر قدرناه﴾[2] ﴿من شعائر الله﴾ أي: من إعلام الشريعة التي شرعها الله وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها ﴿لكم فيها خير﴾ كقوله: ﴿لكم فيها منافع﴾[3] ومن شأن الحاج أن يحرص على شيء فيه خير، ومنافع بشهادة الله عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير، فاشترى بها بدنة فقيل له: في ذلك فقال: سمعت ربي يقول: ﴿لكم فيها خير﴾ وعن ابن عباس دنيا وآخرة وعن إبراهيم من احتاج إلى ظهرها ركب ومن احتاج إلى لبنها شرب، وذكر اسم الله أن يقول: عند النحر الله أكبر لا إلٰه إلاّ الله والله أكبر اللهم منك وإليك، ﴿صواف﴾ قائمات قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ، وقرئ صوافن من صفون الفرس وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبكه لأن البدنة تعقل إحدى يديها، فتقوم على ثلاث، وقرئ صوافي أي: خوالص لوجه الله وعن عمرو بن عبيد صوافنا بالتنوين عوضاً من حرف الإطلاق عند الوقف، وعن بعضهم صواف نحو مثل العرب أعط القوس باريها بسكون الياء وجوب الجنوب، وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس وجبة غربت والمعنى: فإذا وجبت جنوبها وسكنت نسائسها حل لكم الأكل منها والإطعام ﴿القانع﴾ السائل من قنعت إليه، وكنعت إذا خضعت له وسألته قنوعاً ﴿والمعتر﴾ المعترض بغير سؤال أو القانع الراضي بما عنده، وبما يعطي من غير سؤال من قنعت قنعًا وقناعة والمعتر المعترض بسؤال، وقرأ الحسن والمعتري وعرّه وعراه واعتراه واعتره بمعنى، وقرأ أبو رجاء القنع وهو الراضي لا غير يقال: قنع فهو قنع وقانع.

من الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخّر لهم البدن مثل التسخير الذي رأوا، وعلموا يأخذونها منقادة للأخذ طيعة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها، ثم يطعنون في لبانها ولولا تسخير الله لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً، وأقل قوّة وكفى بما يتأبد من الإبل شاهداً وعبرة.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر، والمراد أصحاب اللحوم والدماء والمعنى: لن يرضى المضحون والمقرّبون ربهم إلاّ بمراعاة النية والإخلاص، والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم، وقرئ لن تنال الله ولكن تناله بالتاء والياء وقيل: كان أهل الجاهلية إذا نحروا البدن نضحوا له ماء حول البيت ولطخوه بالدم، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت، كرّر تذكير النعمة بالتسخير، ثم قال: لتشكروا الله على هدايته إياكم لإعلام دينه ومناسك حجه بأن تكبروا وتهللوا، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعديته.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾.

خصّ المؤمنين بدفعه عنهم ونصرته لهم كما قال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾[4] وقال: ﴿إنهم لهم

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: الإشراك في الهدي، (الحديث رقم: 350 ـ 1318)، وأبو داود في السنن، كتاب: الضحايا، باب: في البقر والجزور عن كم تجزئ، (الحديث رقم: 2809)، وأخرج الحديث: «الجزور عن سبعة»، (الحديث رقم: 2808)، والترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في الإشراك في البدنة والبقرة، (الحديث = رقم: 904)، والنسائي في كتاب: الضحايا، باب: ما تجزئ عنه البقرة في الضحايا، (الحديث رقم: 4394).

(2) سورة يس، الآية: 39.

(3) سورة الحج، الآية: 33.

(4) سورة غافر، الآية: 51.

المنصورون﴾[1] وقال: ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾[2] وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها، ومن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه لأنّ فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أذن﴾ و﴿يقاتلون﴾ قرئا على لفظ المبنى للفاعل والمفعول جميعاً والمعنى: أذن لهم في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه ﴿بأنهم ظُلِمُوا﴾ أي: بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركوا مكة يؤذونهم أذى شديدًا، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر[3] فأنزلت هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم، والأخبار بكونه قادراً على نصرهم عدّة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجبابرة.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾.

وما مرّ من دفعه عن الذين آمنوا مؤذن بمثل هذه العدّة أيضاً ﴿أن يقولوا﴾ في محل الجرّ على الإبدال من حق أي: بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار، والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير ومثله ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله﴾[4]، دفع الله بعض الناس ببعض إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعاً ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات ولا للمسلمين مساجد، أو لغلب المشركون من أمّة محمد ﷺ على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين، وقرئ دفاع ولهدمت بالتخفيف وسميت الكنيسة صلاة لأنه يصلي فيها، وقيل: هي كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوثا ﴿من ينصره﴾ أي: ينصر دينه وأولياءه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾.

هو أخبار من الله عز وجل بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين رضي الله عنهم أن مكّنهم في الأرض، وبسط لهم في الدنيا وكيف يقومون بأمر الدين وعن عثمان رضي الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أنّ الله قد اثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا، وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين لأنّ الله لم يعط التمكين، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين لاحظ في ذلك للأنصار والطلقاء وعن الحسن هم أمّة محمد ﷺ، وقيل: الذين منصوب بدل من قوله: من ينصره والظاهر أنه مجرور تابع للذين أخرجوا ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ أي: مرجعها إلى حكمه وتقديره، وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم.

يقول لرسول الله ﷺ: تسلية له لست بأوحدى في التكذيب فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم، وكفاك بهم أسوة.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

فإن قُلْتَ: لم قيل ﴿وكذب موسى﴾ ولم يقل وقوم موسى! قُلْتُ: لأنّ موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه، وهم القبط وفيه شيء آخر كأنه قيل: بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضًا مع وضوح آياته[5] وعظم معجزاته فما ظنك بغيره، النكير بمعنى: الإنكار والتغيير حيث أبدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكًا وبالعمارة خرابًا.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

كل مرتفع أظلك من سقف بيت، أو خيمة، أو ظلة، أو كرم فهو عرش، والخاوي الساقط من خوى النجم إذا سقط أو الخالي من خوى المنزل إذا خلا من أهله، وخوى بطن الحامل وقوله: ﴿على عروشها﴾ لا يخلو من أن يتعلق بخاوية، فيكون المعنى: أنها ساقطة على سقوفها أي: خرّت سقوفها على الأرض، ثم تهدّمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، أو أنها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، وإمّا أن يكون خبرًا بعد خبر كأنه قيل: هي

---

(1) سورة الصافات، الآية: 172.
(2) سورة الصف، الآية: 13.
(3) قال الزيلعي غريب جداً. زيلعي 2/388.
(4) سورة المائدة، الآية: 59.
(5) قال أحمد: ويحتمل عندي والله أعلم أنه لما صدر الكلام بحكاية= = تكذيبهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم، ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام حسن تكريره ليلي قوله: ﴿فأمليت للكافرين﴾ فيتصل المسبب بالسبب كما قال في آية قَ بعد تعديدهم ﴿كل كذب الرسل فحق وعيد﴾ فربط العقاب والوعيد وصلهما بالتكذيب بعد أن جدّد ذكره والله أعلم.

خالية وهي على عروشها أي: قائمة مطلة على عروشها على معنى: أنّ السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان، وبقيت الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة.

فإن قُلْتَ: ما محل الجملتين من الإعراب أعني وهي ظالمة فهي خاوية؟ قُلْتُ: الأولى في محل النصب على الحال والثانية لا محلّ لها لأنها معطوفة على أهلكناها، وهذا الفعل ليس له محل قرأ الحسن معطلة من أعطله بمعنى عطله، ومعنى المعطلة: أنها عامرة فيها الماء، ومعها آلات الاستقاء إلا أنها عطلت أي: تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها، والمشيد المجصص أو المرفوع البنيان، والمعنى: كم قرية أهلكنا وكم بئر عطلنا عن سقاتها وقصر مشيدًا خليناه عن ساكنيه، فترك ذلك لدلالة معطلة عليه وفي هذا دليل على أنّ على عروشها بمعنى: مع أوجه روي أنّ هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله من العذاب، وهي بحضرموت وإنما سميت بذلك لأنّ صالحًا حين حضرها مات وثمة بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح، وأمّروا عليهم جلهس بن جلاس وأقاموا بها زمانًا ثم كفروا، وعبدوا صنمًا وأرسل الله إليهم حنظلة بن صفوان نبيًا، فقتلوه فأهلكهم الله وعطل بئرهم وخرّب قصورهم يحتمل أنهم لم يسافروا.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا، فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا وقرئ: ﴿فيكون لهم قلوب﴾ بالياء أي: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي ﴿فإنها﴾ الضمير ضمير الشأن، والقصة يجيء مذكرًا ومؤنثًا وفي قراءة ابن مسعود، فإنه ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا يفسره ﴿الأبصار﴾ وفي تعمى ضمير راجع إليه والمعنى: أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم أو لا يعتدّ بعمى الأبصار، فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب.

فإن قُلْتَ: أي: فائدة في ذكر الصدور؟ قُلْتُ: الذي قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة، ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين، وفضل تعريف ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار كما تقول: ليس المضاء للسيف؛ ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقولك: الذي بين فكيك تقرير لما ادّعيته للسانه، وتثبيت لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف، وأثبته للسانك فلتة ولا سهوًا مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمدًا.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾.

انكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل أو الآجل كأنه قال: ولم يستعجلون به كأنهم يجوّزون الفوت، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف والله عز وعلا لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبنهم، ولو بعد حين[1]. وهو سبحانه حليم لا يعجل ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أنّ يومًا واحدًا عنده كألف سنة عندكم، وقيل: معناه كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم لأنّ أيام الشدائد مستطالة، أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدّة عذابه كأنه سنة من سني العذاب وقيل: ولن يخلف الله وعده في النظرة والإمهال، وقرئ: تعدون بالتاء والياء.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

ثم قال: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً، ثم أخذتهم بالعذاب والمرجع إليّ وإلى حكمي.

فإن قُلْتَ: لم كانت الأولى معطوفة بالفاء وهذه بالواو! قُلْتُ: الأولى وقعت بدلاً عن قوله: ﴿فكيف كان نكير﴾ وأمّا هذه فحكمها حكم ما تقدّمها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله: ﴿ولن يخلف الله وعده وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة﴾ يقال: سعيت في أمر فلان إذا أصلحه، أو أفسده بسعيه وعاجزه سابقه لأنّ كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه والمعنى: سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحراً وشعراً وأساطير ومن تثبيط الناس عنها سابقين، أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم!.

فإن قُلْتَ: كان القياس أن يقال: إنما أنا لكم بشير ونذير لذكر الفريقين بعده! قُلْتُ: الحديث مسوق إلى المشركين و﴿يا أيها الناس﴾ نداء لهم، وهم الذين قيل: فيهم ﴿أفلم

(1) قال أحمد: الوقار المقرون بالحلم يفهم لغة السكون، وطمانينة الأعضاء عند المزعجات، والأناة والتؤدة، ونحو ذلك مما لا يطلق على الله تعالى إلا بتوقيف، وأما الوقار في قوله تعالى: ﴿ما لكم= لا ترجون لله وقارا﴾ فقد فسر بالعظمة، فليس من هذا، وعلى الجملة، فهو موقوف على ثبت في النقل.

يسيروا في الأرض﴾[1] ووصفوا بالاستعجال وإنما اقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾.

﴿من رسول ولا نبي﴾ دليل بين على تغاير الرسول والنبي وعن النبي ﷺ أنه سئل عن الأنبياء، فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا قيل: فكم الرسل منهم قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جمًا غفيرًا»[2] والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبيّ غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله والسبب في نزول هذه الآية أنّ رسول الله ﷺ لما أعرض عنه قومه، وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقًا إلى استمالتهم، واستنزالهم عن غيهم وعنادهم فاستمرّ به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة والنجم وهو في نادى قومه وذلك التمنى في نفسه فأخذ يقرؤها فلما بلغ قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾[3] ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ التي تمناها أي: وسوس إليه بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجي»[4]، وروى الغرانقة ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه وقيل: نبهه جبريل عليه السلام، أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء زاد المنافقون به شكا وظلمة والمؤمنون نورًا وإيقانًا والمعنى: أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت مكن الله الشيطان ليلقى في أمانيهم مثل ما ألقى في أمنيتك إرادة امتحان من حولهم، والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ليضاعف ثواب الثابتين، ويزيد في عقاب المذبذبين وقيل: تمنى قرأ وأنشد:

تمنى كتاب الله أوّل ليلة ... تمنى داود الزبور على رسل

وأمنيته قراءته وقيل: تلك الغرانيق إشارة إلى الملائكة أي: هم الشفعاء لا الأصنام ﴿فينسخ الله ما يلقى الشيطان﴾ أي: يذهب به ويبطله ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ أي: يثبتها.

لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾.

والذين ﴿في قلوبهم مرض﴾ المنافقون والشاكون ﴿والقاسية قلوبهم﴾ المشركون المكذبون ﴿وإنّ الظالمين﴾ يريد وإن هؤلاء المنافقين والمشركين وأصله وإنهم، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم.

وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾.

﴿انه الحق من ربك﴾ أي: ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق من ربك والحكمة ﴿وإنّ الله لهاد الذين آمنوا إلى﴾ أن يتأوّلوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة ولا تزل أقدامهم، وقرئ ﴿لهاد الذين آمنوا﴾ بالتنوين.

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾.

الضمير في ﴿مرية منه﴾ للقرآن أو للرسول ﷺ، اليوم العقيم يوم بدر وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأنّ أولاد النساء يقتلون فيه، فيصرن كأنهنّ عقم لم يلدن أو لأنّ المقاتلين يقال لهم: أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز وقيل: هو الذي لا خير فيه يقال: ريح عقيم إذا لم تنشئ مطرًا ولم تلقح شجرًا وقيل: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة عليهم السلام فيه وعن الضحاك أنه يوم القيامة، وأن المراد بالساعة مقدّماته ويجوز أن يراد بالساعة وبيوم عقيم يوم القيامة وكأنه قيل: حتى تأتيهم الساعة، أو يأتيهم عذابها فوضع يوم عقيم موضع الضمير.

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾.

فإن قُلْتَ: التنوين في ﴿يومئذٍ﴾ عن أي: جملة ينوب! **قُلْتُ**: تقديره الملك يوم يؤمنون، أو يوم تزول مريتهم.

لقوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة﴾.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾.

لما جمعتهم المهاجرة في سبيل الله سوّى بينهم في

---

(1) سورة فاطر، الآية: 26.
(2) سورة الحج، الآية: 20.
(3) أخرجه أحمد في المسند، 5/178.
(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: «فاسجدوا لله واعبدوا» (الحديث: 4862).

الموعد وأن يعطي من مات منهم مثل ما يعطى من قتل تفضلاً منه وإحسانًا.

لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾.

والله عليم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿حليم﴾ عن تفريط المفرط منهم بفضله، وكرمه روى أن طوائف من أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك، فأنزل الله هاتين الآيتين.

۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾.

تسمية الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث أنه سبب وذاك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة.

فإن قُلْتَ: كيف طابق ذكر العفوّ الغفور هذا الموضع؟ **قُلْتُ:** المعاقب مبعوث من جهة الله عزّ وجلّ على الإخلال بالعقاب، والعفو عن الجاني على طريق التنزيه لا التحريم ومندوب إليه ومستوجب عند الله المدح إن آثر ما ندب إليه وسلك سبيل التنزيه، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب ولم ينظر في قوله تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[1] ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾[2] ﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾[3]، ﴿فإنّ الله لعفو غفور﴾ أي: لا يلومه على ترك ما بعثه عليه وهو ضامن لنصره في كرته الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه، ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي ويعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو ويلوح به بذكر هاتين الصفتين أو دلّ بذكر العفو، والمغفرة على أنه قادر على العقوبة لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده ﴿ذلك﴾ أي: ذلك النصر بسبب أنه قادر.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾.

ومن آيات قدرته البالغة أنه **﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾** أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما، فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف وأنه ﴿سميع﴾ لما يقولون ﴿بصير﴾ بما يفعلون.

فإن قُلْتَ: ما معنى إيلاج أحد الملوين في الآخر؟ **قُلْتُ:** تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيبوبة الشمس وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها كما يضيء السرب بالسراج ويظلم بفقده وقيل: هو زيادته في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾.

وقرئ ﴿تدعون﴾ بالتاء والياء وقرأ اليماني: ﴿وأنّ ما يدعون﴾ بلفظ لمبنى للمفعول والواو راجعة إلى ما لأنه في معنى الآلهة أي: ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجرى فيهما وإدراك كل قول: وفعل بسبب أنه الله الحق الثابت إلهيته وإن كل ما يدعى إلهًا دونه باطل الدعوة وانه لا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر سلطانًا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾.

قرئ ﴿مخضرة﴾ أي: ذات خضر على مفعلة كمبقلة ومسبعة.

فإن قُلْتَ: هلا قيل فأصبحت ولم صرف إلى لفظ المضارع! **قُلْتُ:** لنكته فيه وهي إفادة بقاء اثر المطر زمانًا بعد زمان.

كما تقول: انعم على فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكرًا له ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع.

فإن قُلْتَ: فما له رفع ولم ينصب جوابًا للاستفهام! **قُلْتُ:** لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأنّ معناه إثبات الاخضرار، فيتقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار مثاله أن تقول: لصاحبك الم تر اني أنعمت عليك، فتشكر إن نصبته فانت ناف لشكره شاك تفريطه فيه وإن رفعته فانت مثبت للشكر وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب، وتوقير أهله ﴿لطيف﴾ واصل علمه أو فضله إلى كل شيء.

﴿خبير﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾.

﴿ما في الأرض﴾ من البهائم مذللة للركوب في البر ومن المراكب جارية في البحر وغير ذلك من سائر المسخرات، وقرئ ﴿والفلك﴾ بالرفع على الابتداء ﴿أن تقع﴾ كراهة أن تقع ﴿إلا﴾ بمشيئته.

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾.

﴿أحياكم﴾ بعد أن كنتم جمادًا ترابًا ونطفةً وعلقةً ومضغةً ﴿لكفور﴾ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم، هو نهي لرسول الله ﷺ أي: لا تلتفت إلى قولهم ولا

---

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) سورة البقرة، الآية: 237.

(3) سورة الشورى، الآية: 43.

تمكنهم من أن ينازعوك، أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله ﷺ بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة روي أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما، قالوا: للمسلمين مالكم تاكلون ما قتلتم ولا تاكلون ما قتله الله يعنون الميتة وقال: الزجاج هو نهي له ﷺ عن منازعتهم كما تقول: لا يضاربنك فلان أي: لا تضاربه وهذا جائز في الفعلي الذي لا يكون إلا بين اثنين.

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾.

﴿في الأمر﴾ في أمر الدين وقيل: في أمر النسائك، وقرئ: ﴿فلا ينزعنك﴾ أي: اثبت في دينك ثباتًا لا يطمعون أن يجنبوك ليزيلوك عنه، والمراد زيادة التثبيت للنبي ﷺ بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله ولدينه ومنه قوله: ﴿ولا يصدنك عن آيات الله ولا تكونن من المشركين﴾[1] ﴿فلا تكونن ظهيرًا للكافرين﴾[2] وهيهات أن ترتع همة رسول الله ﷺ حول ذلك الحمى، ولكنه وارد على ما قلت: لك من إرادة التهيج والإلهاب وقال الزجاج: هو من نازعته فنزعته أنزعه أي: غلبته أي: لا يغلبنك في المنازعة.

فإن قُلْتَ: لم جاءت نظيرة هذه الآية معطوفة بالواو وقد نزعت عن هذه؟ قُلْتُ: لأنّ تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك، فعطفت على أخواتها وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفًا.

وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾.

أي: وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع، فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء، فهو مجازيكم به[3] وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين.

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿الله يحكم بينكم﴾ خطاب من الله للمؤمنين، والكافرين أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاةً للنبي ﷺ مما كان يلقى منهم.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾.

وكيف يخفى عليه ما يعملون ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السمٰوات والأرض، وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه، والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه ﴿يسير﴾ لأن العالم الذات لا يتعذر عليه، ولا يمتنع تعلق بمعلوم.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾.

﴿ويعبدون﴾ ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماويّ من جهة الوحي، والسمع ولا ألجأهم إليها علم ضروري ولا حملهم عليها دليل عقلي ﴿وما﴾ للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾.

﴿المنكر﴾ الفظيع من التجهُّم والبسور، أو الإنكار كالمكرم بمعنى: الإكرام، وقرئ يعرف والمنكر، والسطو الوثب والبطش، قرئ ﴿النار﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأنّ قائلاً قال: ما هو فقيل: النار أي: هو النار وبالنصب على الاختصاص وبالجرّ على البدل من شر من ذلكم من غيظكم على التالين، وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة، والضجر بسبب ما تلي عليكم ﴿وعدها الله﴾ استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ ووعدها خبرًا وأن يكون حالا عنها إذا نصبتها أو جررتها بإضمار قد.

فإن قُلْتَ: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً! قُلْتُ: قد سميت الصفة، أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستحسان والاستغراب مثلاً تشبيهًا لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾.

قرئ ﴿تدعون﴾ بالتاء والياء و﴿يدعون﴾ مبنيًا للمفعول ﴿لن﴾ أخت لا في نفي المستقبل إلا أن لن تنفيه نفيًا مؤكدًا وتأكيده هنا الدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم، كأنه قال: محال أن يخلقوا.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿ولو اجتمعوا له﴾؟ قُلْتُ: النصب على الحال كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطًا عليهم اجتماعهم جميعًا لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش، واستركاك عقولهم والشهادة على أنّ الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالآلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صورًا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه، وأذله وأصغره وأحقره ولو

---

(1) سورة القصص، الآية: 87.

(2) سورة القصص، الآية: 86.

(3) قال أحمد: وقد تقدم مثله، وأنكرنا عليه تحميله القرآن ما لا يحتمله،= فإن الأعلم في اللغة ذو العلم الزائد المفضل على علم غيره، فكيف يفسر بما ينفي صفة العلم البتة، هب أن الأدلة العقلية لا وجود لها، والله الموفق للصواب.

اجتمعوا لذلك وتساندوا وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً، فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا، وقوله: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف، ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف لأن الذباب حيوان، وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله.

مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾.

﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي: ما عرفوه حق معرفته حتى لا يسموه باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها، ولا يؤهلوه للعبادة ولا يتخذوه شريكًا له إن الله قادر غالب، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهًا به؟

هذا رد لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر وبيان أن رسل الله على ضربين ملائكة وبشر.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾.

ثم ذكر أنه تعالى دراك للمدركات عالم بأحوال المكلفين ما مضى منها، وما غبر لا تخفى عليه منهم خافية، وإليه مرجع الأمور كلها والذي هو. بهذه الصفات لا يسأل عما يفعل وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾.

للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات وفي هذه السورة دلالات على ذلك، فمن ثمة دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذكر خالص، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات وقيل: كان الناس أوّل ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود فامروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود وقيل: معنى ﴿واعبدوا ربكم﴾ اقصدوا بركوعكم، وسجودكم وجه الله. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وافعلوا الخير﴾ صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي: افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه غير مستيقنين، ولا تتكلوا على أعمالكم وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله في سورة الحج سجدتان قال: «نعم إن لم تسجدهما، فلا تقرأهما»[1] وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فضلت سورة الحج بسجدتين، وبذلك احتج الشافعي رضي الله عنه، فرأى سجدتين في سورة الحج وأبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم لا يرون فيها إلا سجدة واحدة لأنهم يقولون: قرن السجود بالركوع، فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة.

وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾.

﴿وجاهدوا﴾ أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر عن النبي ﷺ أنه رجع من بعض غزواته فقال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2]. ﴿في الله﴾ أي: في ذات الله ومن أجله، يقال: هو حق عالم وجد عالم أي: عالم حقًا وجدًا ومنه ﴿حق جهاده﴾.

فإن قُلْتَ: ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال: ﴿وجاهدوا في الله﴾! قُلْتُ: الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصًا بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه، ويجوز أن يتسع في الظرف كقوله: ويوم شهدناه سليمًا وعامرًا ﴿اجتباكم﴾ اختاركم لدينه ولنصرته ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فتح باب التوبة للمجرمين وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش ونحوه قوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[3] وأمة محمد ﷺ هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة، نصب الملة بمضمون ما تقدّمها كأنه قيل: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه أو على الاختصاص أي: أعني بالدين ملة أبيكم كقولك: الحمد لله الحميد.

فإن قُلْتَ: لم يكن ﴿إبراهيم﴾ أبا للأمّة كلها! قُلْتُ: هو أبو رسول الله ﷺ، فكان أبا لأمته لأنّ أمة الرسول في حكم أولاده ﴿هو﴾ يرجع إلى الله تعالى وقيل: إلى إبراهيم ويشهد للقول الأوّل قراءة أبي بن كعب: الله سماكم ﴿من قبل وفي هذا﴾ أي: من قبل القرآن في سائر الكتب وفي القرآن أي: فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ﴿ليكون الرسول شهيدًا عليكم﴾ أنه قد بلغكم ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ بأنّ الرسل قد بلغتهم، وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة فاعبدوه وثقوا به، ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه فهو خير مولى، وناصر عن رسول الله ﷺ

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: تفريع أبواب السجود وكم سجدة في القرآن، (الحديث: 1402)، والترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في السجدة في الحج، (الحديث: 578)، = وأحمد في المسند 151/4).

(2) قال الزيلعي غريب جدًا وذكره الثعلبي هكذا من غير سند، 395/2.

(3) سورة البقرة، الآية: 185.

من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المؤمنون مكية

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾.

﴿قد﴾ نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه، الفلاح الظفر بالمراد وقيل: البقاء في الخير و**﴿أفلح﴾** دخل في الفلاح كابشر دخل في البشارة ويقال: أفلحه أصاره إلى الفلاح، وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه افلحوا على أكلوني البراغيث أو على الإبهام، والتفسير وعنه أفلح بضمة بغير واو اجتزاء بها عنها كقوله: فلو أنّ الأطبا كان حولي.

فإن قُلْتَ: ما المؤمن؟ **قُلْتُ:** هو في اللغة المصدق وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين: أحدهما أنّ كل من نطق بالشهادتين مواطئًا قلبه لسانه، فهو مؤمن والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها إلا البرّ التقيّ دون الفاسق الشقيّ[2].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾.

الخشوع في الصلاة خشية القلب والباد البصر عن قتادة، وهو إلزامه موضع السجود وعن النبي ﷺ أنه كان يصلي رافعًا بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجد[3] وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شيء، أو يحدّث نفسه بشأن من شأن الدنيا وقيل: هو جمع الهمة لها والإعراض عما سواها، ومن الخشوع أن يستعمل الآداب فيتوقى كفّ الثوب والعبث بجسده، وثيابه والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك والاختصار وتقليب الحصا. روي عن النبي ﷺ أنه أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلبه خشعت جوارحه»[4] ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا وهو يقول: اللهمّ زوّجني الحور العين، فقال: بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبث.

فإن قُلْتَ: لم اضيفت الصلاة إليهم؟ **قُلْتُ:** لأنّ الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدّته وذخيرته، فهي صلاته وأمّا المصلى له فغنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

﴿اللغو﴾ ما لا يعنيك من قول: أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه يعني: أنّ بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل، لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل، والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾.

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين القدر الذي يخرجه المزكى من النصاب إلى الفقير، والمعنى فعل المزكى الذي هو التزكية وهو الذي أراده الله فجعل المزكين فاعلين له، ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال: لمحدثه فاعل تقول: للضارب فاعل الضرب، وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل التزكية، وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول: في جميع الحوادث من فاعل هذا، فيقال: لك فاعله الله أو بعض الخلق[5] ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق بها فاعلون لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل، ولكن لأنّ الخلق ليسوا بفاعليها وقد أنشد لأمية ابن أبي الصلت:

المطعمون الطعام في السنة الا ... زمة والفاعلون للزكوات

ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدّر مضاف محذوف وهو الأداء، وحمل البيت على هذا أصحّ لأنها فيه مجموعة.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾.

---

(1) الثعلبي وابن مردويه والواحدي في الوسيط زيلعي... 2/396.

(2) قال أحمد: والأوّل مذهب الأشعرية، والثاني مذهب المعتزلة، والموحد الفاسق عندهم لا مؤمن ولا كافر، ولو لم يبن المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على أنه لا يندرج في وعد المؤمنين، لكان البحث معهم لفظياً، ولكن رتبوا على ذلك أمراً عظيماً من أصول الدين وقواعده، وقد نقل القاضي عنهم في رسالة الإيمان خبطاً طويلاً، فنقل عن قدمائهم كعمرو بن عبيد وطبقته: أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وجميع فرائض الدين فعلاً وتركاً، ونقل عن أبي الهذيل العلاف: أنّ الإيمان هو جميع فرائض الدين ونوافله، ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أنّ الإيمان لغة هو مجرّد التصديق اتفاقاً، فوجب أن يكون كذلك= شرعاً عملاً بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ مع سلامته عن معارضة النقل، فإنه لو كان لنبيه عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل؛ لأنه مما يبتني عليه قاعدة الوعد والوعيد، ولم ينقل لأنّ النقل إما آحاد، أو تواتر إلى آخر مادته.

(3) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب: في القراءة، (الحديث: 45).

(4) الترمذي في نوادر الأصول.

(5) قال أحمد: ويقول السني: فاعل جميعها هو الله وحده لا شريك له، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل، مثل أن يقال له: من القائم من القاعد، أجاب بمن خلق الله الفعل على يديه، وجعله محلاً له كزيد وعمرو.

﴿على أزواجهم﴾ في موضع الحال أي: الأوّالين على أزواجهم أو قوّامين عليهنّ من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان ونظيره كان زياد على البصرة أي: واليًا عليها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان، ومن ثمة سميت المرأة فراشًا والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوّجهم أو تسريهم، أو تعلق على بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أي: يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم، فإنهم غير ملومين عليه أو تجعله صلة لحافظين من قولك: احفظ عليّ عنان فرسي على تضمينه معنى النفي كما ضمن قولهم: نشدتك بالله إلا فعلت معنى ما طلبت منك إلا فعلك.

فإن قُلْتَ: هلا قيل من ملكت! قُلْتُ: لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث.

فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾.

جعل المستثنى حدًا أوجب الوقوف عنده ثم قال: فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحدّ مع فسحته، واتساعه وهو إباحة أربع من الحرائر ومن الإماء ما شئت ﴿فأولئك هم﴾ الكاملون في العدوان المتناهون فيه.

فإن قُلْتَ: هل فيه دليل على تحريم المتعة؟ قُلْتُ: لا لأنّ المنكوحة نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صحّ النكاح.

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾.

وقرئ ﴿لأمانتهم﴾ سمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدًا ومنه قوله تعالى: ﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾[1] وقال: وتخونوا أماناتكم وإنما تؤدّي العيون لا المعاني، ويخان المؤتمن عليه لا الأمانة في نفسها، والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال: من راعي هذا الشيء أي: متوليه وصاحبه ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم.

وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾.

وقرئ ﴿على صلاتهم﴾.

فإن قُلْتَ: كيف كرّر ذكر الصلاة أوّلاً وآخرًا؟ قُلْتُ: هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أوّلاً بالخشوع في صلاتهم وآخرًا بالمحافظة عليها وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدّوها في أوقاتها ويقيموا أركانها ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتمّ به أوصافها وأيضًا، فقد وحدت أوّلاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي: صلاة كانت وجمعت آخرًا لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل.

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾.

أي: ﴿أولئك﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿هم الوارثون﴾ الأحقاء بأن يسموا ورّاثًا دون من عداهم ثم يرحم الوارثين بقوله:

ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾.

بقوله: ﴿الذين يرثون الفردوس﴾، فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر ومعنى الإرث: ما مرّ في سورة مريم، أنث الفردوس على تأويل الجنة وهو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر روي أنّ الله عزّ وجلّ بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل خلالها المسك الأذفر وفي رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾.

السلالة الخلاصة لأنها تسلّ من بين الكدر وفعالة بناء للقلة كالقلامة والقمامة وعن الحسن ماء بين ظهراني الطين.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين من ومن؟ قُلْتُ: الأوّل للابتداء والثاني للبيان كقوله من الأوثان.

ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿جعلنا﴾ الإنسان ﴿نطفة﴾؟ قُلْتُ: معناه أنه خلق جوهر الإنسان أوّلاً طينًا، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة، القرار المستقرّ والمراد الرحم وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقرّ فيها كقولك: طريق سائر أو بمكانتها في نفسها لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت.

ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾.

قرئ عظمًا فكسونا العظم وعظامًا فكسونا العظام وعظمًا فكسونا العظام وعظامًا، فكسونا العظم وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس لأنّ الإنسان ذو عظام كثيرة، ﴿خلقًا آخر﴾ أي: خلقًا مباينًا للخلق الأوّل مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانًا وكان جمادًا وناطقًا، وكان أبكم وسميعًا وكان أصم وبصيرًا وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه، وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح، وقد احتجّ به أبو حنيفة فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده قال: يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لأنه خلق آخر سوى البيضة، ﴿فتبارك الله﴾ فتعالى

(1) سورة النساء، الآية: 58.

أمره في قدرته وعلمه ﴿أحسن الخالقين﴾ أي: أحسن المقدّرين تقديرًا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه ونحوه طرح المأذون فيه في قوله: ﴿أذن للذين يقاتلون﴾[1] لدلالة الصلة وروي عن عمر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ لما بلغ قوله: ﴿خلقًا آخر﴾ قال: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[2] وروي أنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ، فنطق بذلك قبل إملائه فقال له النبي ﷺ: اكتب هكذا نزلت فقال: عبد الله إن كان محمد نبيًا يوحى إليه فأنا نبيّ يوحى إليّ فلحق بمكة كافرًا ثم أسلم يوم الفتح[3].

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾.

قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن لمائتون والفرق بين الميت والمائت أنّ الميت كالحي صفة ثابتة، وأمّا المائت فيدل على الحدوث تقول: زيد مائت الآن ومائت غدًا كقولك: يموت ونحوهما ضيق وضائق في قوله تعالى: ﴿وضائق به صدرك﴾[4] جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾.

والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين أيضًا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

فإن قُلْتَ: فإذًا لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث! **قُلْتُ:** ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة وهي حياة القبر كما لو ذكرت ثلثي ما عندك، وطويت ذكر ثلثه لم يكن دليلاً على أن الثلث ليس عندك وأيضًا فالغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة والمطوى ذكرها من جنس الإعادة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧﴾.

الطرائق السمٰوات لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم. وقيل: الأفلاك لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها، أراد بالخلق السمٰوات كأنه قال: خلقناها فوقهم ﴿وما كنا﴾ عنها ﴿غافلين﴾ وعن حفظها وإمساكها أن تقع فوقهم بقدرتنا، أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها وينفعهم بأنواع منافعها، وما كان غافلاً عنهم وما يصلحهم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝١٨﴾.

﴿بقدر﴾ بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم، ﴿فاسكناه في الأرض﴾ كقوله ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾[5] وقيل: جعلناه ثابتًا في الأرض وقيل: إنها خمسة أنهار: سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، وكما قدر على إنزاله فهو قادر على رفعه وإزالته، وقوله: ﴿على ذهاب به﴾ من أوقع النكرات وأحرها للمفصل والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه وفيه إيذان باقتدار المذهب وأنه لا يتعايا عليه شيء إذا أراده وهو أبلغ في الإيعاد من قوله: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورًا فمن يأتيكم بماء معين﴾[6] فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا نفارها إذا لم تشكر.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩﴾.

خصّ هذه الأنواع الثلاثة لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع ووصف النخل والعنب بأنّ ثمرهما جامع بين أمرين بأنه فاكهة يتفكه بها وطعام يؤكل رطبًا، ويابسًا رطبًا وعنبًا وتمرًا وزبيبًا والزيتون بأنّ دهنه صالح للاستصباح، والاصطباغ جميعًا ويجوز أن يكون قوله: ﴿ومنها تأكلون﴾[7] من قولهم: يأكل فلان من حرفة يحترفها ومن ضيعة يغتلها ومن تجارة يتربح بها يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترتزقون وتتعيشون.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ۝٢٠﴾.

﴿وشجرة﴾ عطف على جنات وقرئت مرفوعة على الابتداء أي: ومما أنشئ لكم شجرة ﴿طور سيناء﴾ وطور سينين، لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون وإمّا أن يكون اسمًا للجبل مركبًا من مضاف ومضاف إليه كامرئ القيس، وكبعلبك فيمن أضاف فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة، أو التأنيث لأنها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن فتح فلم يصرف لأنّ الألف للتأنيث كصحراء، وقيل: هو جبل فلسطين وقيل: بين مصر وأيلة ومنه نودي موسى عليه السلام وقرأ الأعمش سينا على القصر ﴿بالدهن﴾ في موضع الحال أي: تنبت وفيها الدهن وقرئ تنبت وفيه وجهان أحدهما أن أنبت بمعنى نبت وأنشد لزهير رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم، قطينًا لهم حتى

---

(1) سورة الحج، الآية: 39.

(2) الواحدي في أسباب النزول، ص: 176.

(3) قال الزيلعي غريب وقد ذكره الواحدي في أسباب النزول 2/ 401. ولم أقف عليه عند الواحدي.

(4) سورة هود، الآية: 12.

(5) سورة الزمر، الآية: 21.

(6) سورة الملك، الآية: 30.

(7) سورة النحل، الآية: 5.

إذا أنبت البقل والثاني أنّ مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها وفيه الزيت، وقرئ تنبت بضم التاء وفتح الباء وحكمه حكم تنبت، وقرأ ابن مسعود تخرج الدهن وصبغ الآكلين وغيره تخرج بالدهن وفي حرف أبي تثمر بالدهن وعن بعضهم تنبت بالدهان، وقرأ الأعمش وصبغًا وقرئ وصباغ ونحوهما دبغ ودباغ والصبغ الغمس للائتدام وقيل: هي أوّل شجرة نبتت بعد الطّوفان، ووصفها الله تعالى بالبركة في قوله: توقد من شجرة مباركة.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾.

قرئ ﴿تسقيكم﴾ بتاء مفتوحة أي: تسقيكم الأنعام ﴿ومنها تاكلون﴾ أي: تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال والحمير وفيها منفعة زائدة وهي الأكل الذي هو انتفاع بذواتها.

وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾.

والقصد بالأنعام إلى الإبل لأنها هي المحمول عليها في العادة وقرنها بالفلك، التي هي السفائن لأنها سفائن البر قال: ذو الرمة، سفينة برّ تحت خدى زمامها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾.

يريد صيحه ﴿غيره﴾ بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ، والجملة استئناف تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة﴿أفلا تتقون﴾ افلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم وشكر نعمته التي لا تحصونها، واجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شيء.

فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿أن يتفضل عليكم﴾ أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى: ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾[1] ﴿بهذا﴾ إشارة إلى نوح عليه السلام أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله أي: ما سمعنا بمثل هذا الكلام أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر وقولهم: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ يدل على أنهم وآباؤهم كانوا في فترة متطاولة أو تكذبوا في ذلك لانهماكهم في الغي وتشمرهم لأن يدفعوا الحق بما أمكنهم، وبما عنّ لهم من غير تمييز منهم بين صدق وكذب ألا تراهم كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً وأوزنهم قولاً.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾.

والجِنَّة الجنون أو الجن أي: به جن يخبلونه ﴿حتى حين﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه إلى زمان حتى ينجلي أمره عن عاقبة فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾.

في نصرته إهلاكهم فكانه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي أو انصرني بدل ما كذبوني كما تقول: هذا بذاك أي: بدل ذاك ومكانه، والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم، أو انصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب، وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.

فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿باعيننا﴾ بحفظنا وكلاءتنا كان معه من الله حفاظًا يكلؤنه بعيونهم لئلا يتعرض له، ولا يفسد عليه مفسد عمله ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة ﴿ووحينا﴾ أي: نأمرك كيف تصنع، ونعلمك. روي أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر، روي أنه قيل: لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل: كان تنور آدم عليه السلام وكان من حجارة فصار إلى نوح، واختلف في مكانه. فعن الشعبي في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له: عين وردة، وقيل: بالهند. وعن ابن عباس رضي الله عنه التنور وجه الأرض، وعن قتادة أشرف موضع في الأرض أي: أعلاه. وعن علي رضي الله عنه فار التنور طلع الفجر وقيل: معناه أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر، وقيل: هو مثل كقولهم: حمى الوطيس والقول: هو الأوّل، يقال: سلك فيه دخله وسلك غيره وأسلكه قال: حتى إذا سلكوهم في قتائدة ﴿من كل زوجين﴾ من كل أمّتي زوجين وهما أمّة الذكر وأمّة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرماك، ﴿اثنين﴾ واحدين مزدوجين كالجمل والناقة والحصان والرمكة روي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض، وقرئ من كل بالتنوين أي: من كل أمّة زوجين واثنين تأكيد وزيادة بيان.

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾.

جيء بعلى مع سبق الضار كما جيء باللام مع سبق

(1) سورة يونس، الآية: 78.

النافع قال الله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾[1] ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾[2] ونحوه قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[3] وقول: عمر رضي الله عنه ليتها كانت كفافًا لا عليّ ولا لي.

فإن قُلْتَ:لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة! قُلْتُ:لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين وإيجاب الحكمة أن يغرقوا إلا محالة لما عرف من المصلحة في إغراقهم، والمفسدة في استبقائهم وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاول، فلم يزيدوا إلا ضلالاً ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين، ولقد بالغ في ذلك حيث اتبع النهي عنه الأمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم كقوله: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾[4].

وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾.

ثم أمره أن يدعوه بدعاء هو أهم وأنفع له وهو طلب أن ينزله في السفينة، أو في الأرض عند خروجه منها ﴿منزلاً﴾ يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين، وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسئلته وهو قوله: ﴿وأنت خير المنزلين﴾

فإن قُلْتَ:هلا قيل: فقولوا لقوله: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك﴾[5] لأنه في معنى: فإذا استويتم! قُلْتُ:لأنّه نبيهم وإمامهم فكان قوله قولهم: مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوّة وإظهار كبرياء الربوبية وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي، وقرئ: ﴿منزلاً﴾ بمعنى: إنزالاً أو موضع إنزال كقوله: ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾[6].

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين النافية وبينها في المعنى. وإن الشأن والقصة ﴿كنا لمبتلين﴾ أي: مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، ومختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذّكر كقوله تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾[7].

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾.

﴿قرنًا آخرين﴾ هم عاد قوم هود عن ابن عباس رضي الله عنهما وتشهد له حكاية الله تعالى قول هود: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾[8] ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء.

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾.

فإن قُلْتَ:حق أرسل أن يعدى بإلى كأخواته التي هي وجه وأنفذ وبعث فما باله عدي في القرآن بإلى تارة وبفي أخرى كقوله: ﴿كذلك أرسلناك في أمّة﴾[9] ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾[10].

﴿فارسلنا فيهم رسولاً﴾ أي: في عاد وفي موضع آخر وإلى عاد أخاهم هوداً قُلْتُ:لم يعد بفي كما عدى بإلي ولم يجعل صلةً مثله، ولكن الأمّة أو القرية جعلت موضعاً للإرسال كما قال رؤبة: أرسلت فيها مصعبًا ذا إقحام وقد جاء بعث على ذلك في قوله: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا﴾[11] ﴿أن﴾ مفسرة لأرسلنا أي: قلنا لهم: على لسان الرسول ﴿اعبدوا الله﴾.

فإن قُلْتَ:ذكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾.

قال: ﴿الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة﴾[12] ﴿قالوا: يا هود ما جئتنا ببينة﴾[13] وههنا مع الواو فأي: فرق بينهما؟ قُلْتُ: الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال: قومه فقيل له: كيت وكيت وأمّا الذي مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله: ومعناه أنه اجتمع في الحصول هذا الحق، وهذا الباطل وشتان ما هما ﴿بلقاء الآخرة﴾ بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب كقولك: يا حبذا جوار مكة أي: جوار الله في مكة. حذف الضمير والمعنى، من مشروبكم أو حذف منه لدلالة ما قبله عليه.

وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿إذا﴾ واقع في جزاء الشرط وجواب للذين قاولوهم من قومهم أي: تخسرون عقولكم وتغبنون في آرائكم.

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾.

ثنى ﴿أنكم﴾ للتوكيد وحسن ذلك لفصل ما بين الأوّل والثاني بالظرف و﴿مخرجون﴾ خبر عن الأوّل أو جعل ﴿أنكم مخرجون﴾ مبتدأ وإذا متم خبرًا على معنى إخراجكم إذا متم، ثم أخبر بالجملة عن ﴿إنكم﴾، أو رفع

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 101.
(2) سورة الصافات، الآية: 171.
(3) سورة البقرة، الآية: 286.
(4) سورة الأنعام، الآية: 45.
(5) سورة المؤمنون، الآية: 28.
(6) سورة الحج، الآية: 59.
(7) سورة القمر، الآية: 15.
(8) سورة الأعراف، الآية: 69.
(9) سورة الرعد، الآية: 30.
(10) سورة سبا، الآية: 34.
(11) سورة الفرقان، الآية: 51.
(12) سورة الأعراف، الآية: 66.
(13) سورة هود، الآية: 53.

﴿انكم مخرجون﴾ بفعل هو جزاء للشرط كأنه قيل: إذا متم وقع إخراجكم ثم أوقعت الجملة الشرطية خبرًا عن ﴿إنكم﴾، وفي قراءة ابن مسعود أيعدكم إذا متم.

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾.

قرئ: ﴿هيهات﴾ بالفتح والكسر والضم كلها بتنوين وبلا تنوين وبالسكون على لفظ الوقف.

فإن قُلْتَ: ما ﴿توعدون﴾ هو المستبعد ومن حقه أن يرتفع بهيهات كما ارتفع في قوله: فـ﴿هيهات هيهات﴾ العقيق وأهله فما هذه اللام؟ قُلْتُ: قال الزجاج في تفسير البعد ﴿لما توعدون﴾، أو بعد ﴿لما توعدون﴾ فيمن نون فنزله منزلة المصدر وفيه وجه آخر، وهو أن يكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام في ﴿هيت لك﴾[1] لبيان المهيت به هذا ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله إن الحياة.

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿إلا حياتنا الدنيا﴾، ثم وضع هي موضع الحياة لأنّ الخبر يدل عليها ويبيّنها ومنه هي النفس تتحمل ما حملت وهي العرب، تقول: ما شاءت والمعنى: لا حياة إلا هذه الحياة لان ﴿إن﴾ النافية دخلت على ﴿هي﴾ التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التي نفت ما بعدها نفي الجنس، ﴿نموت ونحيا﴾ أي: يموت بعض ويولد بعض ينقرض قرن ويأتي قرن آخر.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾.

ثم قالوا: ما هود إلاّ مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له، وفيما يعدنا من البعث وما نحن بمصدقين.

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿قليل﴾ صفة للزمان كقديم وحديث في قولك: ما رأيته قديمًا ولا حديثًا وفي معناه عن قريب وما توكيد قلة المدّة وقصرها.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾.

﴿الصيحة﴾ صيحة جبريل عليه السلام صاح عليهم فدمرهم ﴿بالحق﴾ بالوجوب لانهم قد استوجبوا الهلاك، أو بالعدل من الله من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان عادلاً في قضاياه شبّههم في دمارهم بالغثاء، وهو حميل السيل مما يلي واسودّ من العيدان والورق ومنه قوله تعالى: ﴿فجعله غثاء أحوى﴾[2] وقد جاء مشدداً في قول امرئ القيس:

من السيل والغثاء فلكة مغزل

بعدًا وسحقًا ودفرًا ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه: نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى: بعدًا، بعدوا، أي: هلكوا يقال: بعد بعدًا وبعدًا نحو رشد رشدًا ورشدًا و ﴿للقوم الظالمين﴾ بيان لمن دعى عليه بالبعد نحو هيت لك ولما توعدون.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿قرونًا﴾ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما بني إسرائيل.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿لجلها﴾ الوقت الذي حدّ لهلاكها وكتب.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿تترى﴾ فعلى الألف للتأنيث لأنّ الرسل جماعة، وقرئ تترى بالتنوين والتاء بدل من الواو كما في تولج وتيقور أي: متواترين واحدًا بعد واحد من الوتر وهو الفرد أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أممهم، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات لأنّ الإضافة تكون بالملابسة والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعاً ﴿فاتبعنا﴾ الأمم أو القرون ﴿بعضهم بعضًا﴾ في الإهلاك ﴿وجعلناهم﴾ أخبارًا يسمر بها ويتعجب منها الأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث رسول الله ﷺ وتكون جمعًا للأحدوثة التي هي مثل الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة، وهي مما يتحدث به الناس تلهيًا وتعجبًا وهو المراد ههنا.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالسلطان المبين! قُلْتُ: يجوز أن تراد العصا؛ لأنها كانت أمّ آيات موسى وأولاها، وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر يضربهما بها، وكونها حارسًا وشمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوًا ورشاء جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل، فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى: ﴿وجبريل وميكال﴾[3] ويجوز أن تراد الآيات أنفسها أي: هي آيات وحجة بيّنة.

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿عالين﴾ متكبرين ﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾[4]

---

(1) سورة يوسف، الآية: 23.
(2) سورة الأعلى، الآية: 5.
(3) سورة البقرة، الآية: 98.
(4) سورة القصص، الآية: 4.

﴿لا يريدون علوًا في الأرض﴾[1] أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم.

فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾.

البشر يكون واحدًا وجمعًا. ﴿بشرًا سويًا﴾. لبشرين ﴿فإما ترين من البشر﴾. ومثل وغير يوصف بهما الاثنان والجمع والمنكر والمؤنث ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾. ومن الأرض مثلهنّ. ويقال: أيضًا هما مثلاه وهم أمثاله، ﴿إنّ الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ ﴿وقومهما﴾ يعني: بني إسرائيل كانهم يعبدوننا خضوعًا وتذللاً أو لانه كان يدعي الإلـهية فادعى للناس العبادة وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿موسى الكتاب﴾ أي: قوم موسى التوراة ﴿لعلهم﴾ يعملون بشرائعها ومواعظها كما قال: على خوف من فرعون وملئهم يريد آل فرعون وكما يقولون: هاشم وثقيف وتميم ويراد قومهم، ولا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون وملئه لأنّ التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾[2].

فإن قُلْتَ:لو قيل: آيتين هل كان يكون له وجه؟ قُلْتُ: نعم لأنّ مريم ولدت من غير مسيس وعيسى روح من الله ألقى إليها، وقد تكلم في المهد وكان يحيي الموتى مع معجزات أُخر فكان آية من غير وجه واللفظ محتمل للتثنية على تقدير.

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾.

﴿وجعلنا ابن مريم﴾ آية ﴿وأمّه﴾ ثم حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها، الربوة والرباوة في رائهما الحركات، وقرئ ربوة ورباوة بالضم ورباوة بالكسر وهي الأرض المرتفعة قيل: هي إيليا أرض بيت المقدس وأنها كبد الأرض، وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً عن كعب وقيل: دمشق وغوطتها وعن الحسن فلسطين والرملة وعن أبي هريرة الزموا هذه الرملة رملة فلسطين، فإنها الربوة التي ذكرها الله وقيل: مصر. والقرار المستقرّ من أرض مستوية منبسطة، وعن قتادة ذات ثمار وماء يعني: أنه لأجل الثمار يستقرّ فيها ساكنوها، والمعين الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته فوجه من جعله مفعولاً أنه مدرك بالعين لظهوره من عانه إذا أدركه بعينه نحو ركبه إذا ضربه بركبته، ووجه من جعله فعيلاً أنه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾.

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرّقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأنّ كلّ رسول في زمانه نودي لذلك[3] ووصي به ليعتقد السامع أنّ أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه، والمراد بالطيبات ما حلّ وطاب وقيل: طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال الذي لا يعصي الله فيه والصافي الذي لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس، ويحفظ العقل أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه ويشهد له مجيئه على عقب قوله: ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾[4] ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة فنكر على سبيل الحكاية أي: آريناهما وقلنا: لهما هذا أي: أعلمناهما أنّ الرسل كلهم خوطبوا بهذا فكلا مما رزقناكما واعملا صالحًا اقتداء بالرسل.

وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾.

قرئ ﴿وإنّ﴾ بالكسر على الاستئناف وأنّ بمعنى: ولأنّ وأن مخففة من الثقيلة و ﴿أمتكم﴾ مرفوعة معها.

فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾.

وقرئ: ﴿زبرًا﴾ جمع زبور أي: كتباً مختلفة يعني: جعلوا دينهم أدياناً وزبرًا قطعًا استعيرت من زبر الفضة والحديد، وزبرًا مخففة الباء كرسل في رسل أي: كلّ فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم فرح بباطله مطمئنّ النفس معتقد أنّه على الحق.

فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾.

الغمرة الماء الذي يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جلهم وعمايتهم، أو شبّهوا باللاعبين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل قال: كانني ضارب في غمرة لعب وعن علي رضي الله عنه في غمراتهم.

---

(1) سورة القصص، الآية: 83.

(2) سورة القصص، الآية: 43.

(3) قال أحمد: هذه نفحة اعتزالية، فإنّ مذهب أهل السنة: أنّ الله تعالى متكلم آمر ناه أزلاً، ولا يشترط في تحقق الأمر وجود المخاطب، فعلى هذا قوله: ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ على ظاهره وحقيقته عند أهل الحق، هو ثابت أزلاً على تقدير وجود المخاطبين فيما لا يزال متفرّقين، كما في هذا الخطاب أو= = مجتمعين كما في زعمه، والمعتزلة لما أبت اعتقاد قدم الكلام زلت بهم القدم، حتى حملوا هذه الآية وأمثالها على المجاز وخلاف الظاهر، وما بال الزمخشري خصّ هذه الآية بأنها على خلاف الظاهر، ومعتقده يوجب حمل مثل قوله تعالى: ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ وجميع الأوامر العامّة في الأمة على خلاف الظاهر.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 50.

﴿حتى حين﴾ إلى أن يقتلوا، أو يموتوا سلى رسول الله ﷺ بذلك ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾.

وقرئ: ﴿يمدّهم﴾ ويسارع ويسرع بالياء والفاعل الله سبحانه وتعالى.

نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾.

ويجوز في يسارع ويسرع أن يتضمن ضمير الممدّ به ويسارع مبنيًا للمفعول، والمعنى: أنّ هذا الإمداد ليس إلا استدراجًا لهم إلى المعاصي واستجرارًا إلى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات، وفيما لهم فيه نفع وإكرام ومعاجلة بالثواب قبل وقته، ويجوز أن يراد في جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين، و ﴿بل﴾ استدراك لقوله: ﴿أيحسبون﴾[1] يعني: بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور حتى يتأمّلوا ويتفكروا في ذلك أهو استدراج، أم مسارعة في الخير.

فإن قُلتَ: أين الراجع من خبر أنّ إلى اسمها إذا لم يستكنّ فيه ضميره؟ قُلتُ: هو محذوف تقديره تسارع به ويسارع به ويسارع الله به كقوله: ﴿إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾[2] أي: إنّ ذلك منه وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس.

وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿يؤتون ما آتوا﴾ يعطون ما أعطوا وفي قراءة رسول الله ﷺ وعائشة يأتون ما أتوا أي: يفعلون ما فعلوا وعنها أنها قالت: قلت يا رسول الله هو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو على ذلك يخاف الله، قال: لا يا ابنة الصدّيق ولكن هو الذي يصلي ويصوم ويتصدّق وهو على ذلك يخاف الله أن لا يقبل منه[3].

أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾.

﴿يسارعون في الخيرات﴾ يحتمل معنيين أحدهما أن يراد يرغبون في الطاعات أشدّ الرغبة فيبادرونها والثاني أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام كما قال: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾[4] ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[5] لأنهم إذا سورع بها لهم فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها وهذا الوجه أحسن طباقًا للآية المتقدّمة لأنّ فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين، وقرئ: يسرعون في الخيرات ﴿لها سابقون﴾ أي: فاعلون السبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها، أو إياها سابقون أي: ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون لها سابقون خبراً بعد خبر ومعنى وهم لها كمعنى قوله: أنت لها أحمد من بين البشر.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾.

يعني: أنّ هذا الذي وصف به الصالحين غير خارج من حدّ الوسع والطاقة وكذلك كل ما كلفه عباده، وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده بل هو مثبت لديه في كتاب يريد اللوح، أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرؤون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق، وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد أو أراد إنّ الله لا يكلف إلا الوسع، فإن لم يبلغ المكلف أن يكون على صفة هؤلاء السابقين بعد أن يستفرغ وسعه ويبذل طاقته، فلا عليه ولدينا كتاب فيه عمل السابق والمقتصد ولا نظلم أحدًا من حقه، ولا نحطه دون درجته.

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾.

بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها، ﴿من هذا﴾ أي: مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين ﴿ولهم أعمال﴾ متجاوزة متخطية لذلك أي: لما وصف به المؤمنون ﴿هم لها﴾ معتادون، وبها ضارّون لا يفطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾.

وحتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام الجملة الشرطية والعذاب قتلهم يوم بدر أو الجوع حين دعا عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[6] فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الجيف، والكلاب، والعظام المحترقة والقدّ والأولاد، الجؤار الصراخ باستغاثة قال:

جأر ساعات النيام لربه

لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾.

أي: يقال لهم: حينئذٍ ﴿لا تجاروا﴾ فإنّ الجؤار غير

(1) سورة المؤمنون، الآية: 55.

(2) سورة الشورى، الآية: 43.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث رقم: 3175)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوقي على العمل، (الحديث رقم: 4198)، وأحمد في= المسند 6/205.

(4) سورة آل عمران، الآية: 148.

(5) سورة العنكبوت، الآية: 27.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (الحديث: 804).

نافع لكم ﴿منا لا تنصرون﴾ لا تغاثون، ولا تمنعون منا أو من جهتنا لا يلحقكم نصر ومغوثة قالوا: الضمير في ﴿به﴾ للبيت العتيق أو للحرم كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم والذي سوّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت، وأنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته القائمون به.

قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾.

ويجوز أن يرجع إلى آياتي إلاّ أنّه ذكر لأنها في معنى: كتابي ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكبارًا.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾.

ضمن مستكبرين معنى مكذبين، فعدّى تعديته أو يحدث لكم استماعه استكبارًا وعتوًا، فأنتم مستكبرون بسببه أو تتعلق الباء بسامرًا أي: تسمرون بذكر القرآن، وبالطعن فيه وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامّة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرًا وشعرًا وسبّ رسول الله ﷺ، أو يتهجرون والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع، وقرئ سمرًا وسمارًا وتهجرون ونهجرون من أهجر في منطقه إذا أفحش، والهجر بالضم الفحش ومن هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذي والهجر بالفتح الهذيان.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾.

﴿القول﴾ القرآن يقول: أفلم يتدبروه ليعلموا أنه الحق المبين فصدّقوا به بمن جاء به بل ﴿جاءهم ما لم يات آباءهم﴾ فلذلك أنكروه واستبدعوه كقوله: ﴿لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم فهو غافلون﴾[1] أو ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم حين خافوا الله، فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه وآباؤهم إسمٰعيل وأعقابه من عدنان وقحطان، وعن النبي ﷺ لا تسبوا مضر ولا ربيعة، فإنهما كانا مسلمين ولا تسبوا قسًا فإنه كان مسلمًا ولا تسبوا الحرث بن كعب ولا أسد بن خزيمة ولا تميم بن مرّ، فإنهم كانوا على الإسلام وما شككتم فيه من شيء فلا تشكوا في أن تبعاً كان مسلماً[2] وروي في أنّ ضبة كان مسلمًا وكان على شرطة سليمان بن داود.

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿أم لم يعرفوا﴾ محمدًا، وصحة نسبه وحلوله في وسطه هاشم وأمانته وصدقه وشهامته وعقله واتسامه بأنه خير فتيان قريش، والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد كفى برغائها منادياً[3]، الجنة الجنون وكانوا يعلمون أنه بريء منها وأنه أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهنًا ولكنه جاءهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم، ولم يوافق ما نشؤا عليه وسيط بلحومهم ودمائهم من اتباع الباطل ولم يجدوا له مردًا ولا مدفعًا لأنه الحق الأبلج، والصراط المستقيم فأخلدوا إلى البهت وعولوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر.

أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿وأكثرهم﴾ فيه أنّ أقلهم كانوا لا يكرهون الحق! قُلْتُ: كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافًا من توبيخ قومه وأن يقولوا: صبأ وترك دين آبائه لا كراهة للحق كما يحكى عن أبي طالب[4].

فإن قُلْتَ: يزعم بعض الناس أنّ أبا طالب صحّ إسلامه! قُلْتُ: يا سبحان الله كان أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله ﷺ حتى يشتهر إسلام حمزة، والعباس رضي الله عنهما ويخفى إسلام أبي طالب، دلّ بهذا على عظم شأن الحق وأنّ السمٰوات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به.

وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ

وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: إستحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (الحديث: 1540).

وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: القنوت في الصلوات (الحديث: 1442).

(1) سورة يٓس، الآية: 6.

(2) الحاكم في المستدرك 2/450.

(3) لم يذكر لها مخرج.

(4) قال أحمد: وأحسن من هذا أن يكون الضمير في قوله: وأكثرهم على الجنس للناس كافة، ولما ذكر هذه الطائفة من الجنس بني الكلام في قوله: وأكثرهم على الجنس بجملته، كقوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وكقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿بل جاءهم بالحق﴾ والنبي ﷺ جاء إلى الناس كلهم، وبعث إلى الكافة، ويحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفي والله أعلم. وأما قول الزمخشري: إن من تمادى على الكفر، وآثر البقاء عليه تقليداً لآبائه ليس كارهاً للحق فمردود، فإن من أحب = شيئاً كره ضده، فإذا أحبوا البقاء على الكفر، فقد كرهوا الانتقال عنه إلى الإيمان ضرورة والله أعلم. ثم انجر الكلام إلى استبعاد إيمان أبي طالب، وتحقيق القول فيه أنه مات على الكفر، ووجه ذلك بأنه أشهر عمومة النبي ﷺ، فلو كان قد أسلم لاشتهر إسلامه كما اشتهر إسلام العباس، وحمزة وأجدر؛ لأنه أشهر وللقائل بإسلامه أن يعتذر عن عدم شهرته، بأنه إنما أسلم قبيل الاحتضار فلم يظهر له مواقف في الإسلام يشتهر بها، كما ظهر لغيره من عمومته عليه الصلاة والسلام هذا، والظاهر أنه لم يسلم وحسبك دليلاً على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «سألت الله تعالى فيه، وأنه بعد ذلك لفي ضحضاح من نار يغلي رأسه من قدميه فإن قيل: لا يلزم من ذلك موته على الكفر؛ لأنّ كثيراً من عصاة الموحدين يعذب بأكثر من ذلك، قلنا: من أثبت إسلامه ادعى أنّ ذلك كان قبيل الاحتضار، فالإسلام جب ما قبله، وتلك الدقيقة التي صار فيها من المسلمين لا تحتمل من المعاصي ما يوجب ذلك والله أعلم.

بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾.

فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلاً ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام أو أراد أنّ الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهو الإسلام لو اتبع أهواءهم وانقلب شركًا لجاء الله بالقيامة ولأهلك العالم، ولم يؤخر وعن قتادة أنّ الحق هو الله ومعناه: ولو كان الله إلٰهاً يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي لما كان إلٰهاً، ولكان شيطانًا ولما قدر أن يمسك السمٰوات والأرض، ﴿بذكرهم﴾ أي: بالكتاب الذي هو ذكرهم أي: وعظهم أو وصيتهم وفخرهم أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه ويقولون: لو أنّ عندنا ذكرًا من الأوّلين لكنا عباد الله المخلصين، وقرئ بذكراهم.

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾.

قرئ خراجًا فخراج وخرجا فخرج وخرجا فخراج وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك وإلى كل عامل من أجرته وجعله وقيل: الخرج ما تبرعت به، والخراج ما لزمك أداؤه والوجه أنّ الخرج أخص من الخراج كقولك: خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى، ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعني: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير.

قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأنّ الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره، وحاله مخبور سرّه وعلنه خليق بأن يجتبي مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل ذلك سلما إلى النيل من دنياهم، واستعطاء أموالهم.

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾.

ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان، وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة وكراهتهم للحق، وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر يحتمل أنّ هؤلاء وصفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة.

وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾.

﴿لناكبون﴾ أي: عادلون عن هذا الصراط المذكور وهو قوله: ﴿إلى صراط مستقيم﴾[1].

وأن كل من لا يؤمن بالآخرة فهو عن القصد ناكب لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي، ولحق باليمامة ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز.

۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾.

جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنشدك الله والرحم الست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، فقال: بلى فقال: قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضرّ وهو الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله ﷺ والمؤمنين وإفراطهم فيها ولذهب عنهم هذا الإبلاس وهذا التملق بين يديه يسترحمونه واستشهد على ذلك بأنا أخذناهم أوّلاً بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشدّ من الأسر والقتل وهو أطم العذاب فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم وجاء أعتاهم وأشدّهم شكيمة في العناد يستعطفك أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤى فيهم لين مقادة وهم كذلك حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذٍ يبلسون كقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾. والإبلاس اليأس من كل خير وقيل: السكوت مع التحير.

وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾.

فإن قُلْتَ: ما وزن استكان؟ قُلْتُ: استفعل من الكون أي: انتقل من كون إلى كون كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه كما جاء بمنتزاح.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: وما تضرعوا أو فما يستكينون! قُلْتُ: لأنّ المعنى محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد[2].

(1) سورة البقرة، الآية: 142.

(2) قال أحمد: هذا التأويل أسلم وأحق من تأويل من اشتقه من السكون وجعله افتعل، ثم أشبعت الفتحة فتولدت الألف كتولدها في قوله، ينباع من ذفرى غضوب جسرة فإنّ هذا الإشباع ليس بفصيح، وهو من ضرورات الشعر فينبغي أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه لكن تنظير الزمخشري له باستحال وهم، فإن استكان على تأويله أحد أقسام استفعل الذي معناه التحوّل كقولهم استحجر الطين واستنوق الجمل، وأما استحال فثلاثيه حال حول إذا انتقل من حال إلى حال وإذا كان الثلاثين يفيد معنى=

= التحوّل لم يبق لصيغة استفعل فيها أثر فليس استحال من استفعل للتحوّل، ولكنه من استفعل بمعنى: فعل وهو أحد أقسامه إذ لم يزد السداسي فيه على الثلاثي معنى والله أعلم، ثم نعود إلى تأويله فتقول المعنى عليه فما انتقلوا من كون التكبر، والتجبر والاعتياض إلى كون الخضوع والضراعة إلى الله تعالى، ولقائل أن يقول استكان يفيد على التأويل المذكور الانتقال من كون إلى كون، فليس حمله على أنه انتقال عن التكبر إلى الخضوع بأولى من العكس وترى هذه الصيغة لا تفهم إلا أحد الانتقالين، فلو كانت مشتقة من مطلق الكون لكانت مجملة محتملة للانتقالين=

وقرئ: ﴿فتحنا﴾ إنما خصّ السمع والأبصار، والأفئدة لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى: ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾[1].

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾.

ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها وأن لا يجعل له ند ولا شريك أي: تشكرون شكرًا قليلاً ﴿وما﴾ مزيدة للتأكيد بمعنى: حقًا.

وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿ذراكم﴾ خلقكم وبثكم بالتناسل ﴿واليه﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿وله لختلاف الليل والنهار﴾ أي: هو مختص به وهو متوليه ولا يقدر على تصريفهما غيره.

وقرئ: ﴿يعقلون﴾ بالياء عن أبي عمرو.

بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾.

أي: قال أهل مكة كما قال: الكفار قبلهم.

قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

الأساطير جمع أسطار جمع سطر قال: رؤية، إني وأسطارسطون سطراً.

وهي ما كتبه الأوّلون مما لا حقيقة له. وجمع أسطورة أوفق.

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾.

أي: أجيبوني عما استعلمتكم منه إن كان عندكم فيه علم وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالديانات أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين.

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾.

وقرئ: ﴿تتذكرون﴾ بحذف التاء الثانية ومعناه أفلا تتذكرون فتعلموا أنّ من فطر الأرض ومن فيها اختراعًا كان قادرًا على إعادة الخلق، وكان حقيقًا بأن لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية.

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾.

قرئ الأوّل باللام لا غير، والأخيران باللام وهو هكذا في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام، وبغير اللام وهو هكذا في مصاحف أهل البصرة، فباللام على المعنى لأنّ قولك: من ربه ولمن هو في معنى واحد وبغير اللام على اللفظ، ويجوز قراءة الأوّل بغير لام ولكنها لم تثبت في الرواية.

﴿افلا تتقون﴾ أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله.

قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾.

أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته منه ومنعته يعني: وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحدًا ﴿تسحرون﴾.

تخدعون عن توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى.

بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾.

وقرئ أتيتهم وأتيتهم بالفتح والضم ﴿بالحق﴾ بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل ﴿وإنهم لكاذبون﴾ حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزًا من ملك الآخرين ولغلب بعضهم بعضًا كما

= جميعاً، والجواب أن أصلها كذلك على الإطلاق ولكن غلب العرف على استعمالها في الانتقال الخصا كما غلب في غيرها والله أعلم، وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير رحمه الله يذكر لي أنه لما دخل بغداد زمن الإمام الناصر رضي الله عنه أظهر من جملة كراماته له أن جمع له الوزير جميع علماء بغداد، وعقد بهم محفلاً للمناظرة وكان يذكر لي أن مما انجر الكلام إليه حينئذٍ هذه الآية، وأن أحدهم وكان يعرف بالأجل اللغوي خصّه الوزير بالسؤال عنها فقال هو مشتق من قول العرب كنت لك إذا خضعت، هي لغة هذلية فاستحسن منه ذلك. قال أحمد: وقد وقفت عليها بعد ذلك في غريب أبي عبيد المروي وهو أحسن محامل الآية وأسلمها والله أعلم، وعلى هذا يكون من استفعل بمعنى: فعل كقولهِم استقرّ واستعلى وحال واستحال على ما مرّ، وقد قال لي = بعضهم يوماً لم لا تجعله على هذا التأويل من استفعل المبني للمبالغة مثل استحسر واستعصم من حسر وعصم، فقلت لا يسعني ذلك لأنّ المعنى يأباه وذلك أنها جاءت في النفي والمقصود منها ذمّ هؤلاء بالجفوة والقسوة وعدم الخضوع مع ما يوجب نهاية الضراعة من أخذهم بالعذاب، فلو ذهبت إلى جعلها للمبالغة أفادت نقض المبالغة لأنّ نفي الأبلغ أدنى من نفي الأدنى، وكأنهم على ذلك ذمّوا بنفي الخضوع الكثير وأنهم ما بلغوا في الضراعة نهايتها وليس الواقع، فإنهم ما اتسموا بالضراعة لا بلحظة منها فكيف تنفي عنهم النهاية الموهمة لحصول البداية والله أعلم.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 26.

ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة، وهم متغالبون وحين لم تروا أثر التمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾

فإن قُلْتَ: إذ لا تدخل إلاّ على كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله ﴿لذهب﴾ جزاء وجوابًا ولم يتقدّمه شرط ولا سؤال سائل! قُلْتُ: الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿وما كان معه من إله﴾ عليه، وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين ﴿عما يصفون﴾ من الأنداد والأولاد.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿عالم الغيب﴾ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدأ محذوف ما والنون مؤكدتان.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فلا تجعلني﴾ قرينًا لهم ولا تعذبني بعذابهم عن الحسن أخبره الله أنّ له في أمته نقمة، ولم يخبره أفي حياته أم بعد موته فأمره أن يدعو بهذا الدعاء.

فإن قُلْتَ: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم؟ قُلْتُ: يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهارًا للعبودية، وتواضعًا لربه وإخباتًا له واستغفاره ﷺ إذا قام من مجلسه سبعين مرة، أو مائة مرة لذلك وما أحسن قول الحسن في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: وليتكم ولست بخيركم. كان يعلم أنه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه، وقرئ: إما ترئنهم بالهمز مكان تريني كما قرئ: فإما ترئن ولترؤن الجحيم وهي ضعيفة وقوله: ﴿رب﴾ مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء حث على فضل تضرع، وجؤار كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

فقيل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم فما وجه هذا الإنكار.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

هو أبلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة والمعنى: الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة وهذه قضية قوله: ﴿بالتي هي أحسن﴾[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي شهادة أن لا إله إلاّ الله والسيئة الشرك وعن مجاهد السلام يسلم عليه إذا لقيه وعن الحسن الإغضاء والصفح وقيل: هي منسوخة بآية السيف وقيل: محكمة لأنّ المداراة محثوث عليها ما لم تؤدّ إلى ثلم دين وإزراء بمروءة ﴿بما يصفون﴾ بما ينكرونه من أحوالك بخلاف صفتها، أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم والله أعلم بذلك منك وأقدر على جزائهم.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾.

الهمز النخس والهمزات جمع المرّة منه ومنه مهماز الرائض والمعنى: أنّ الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها، كما تهمز الراضة الدواب حثالها على المشي ونحو الهمز الأزّ في قوله تعالى: ﴿تؤزهم أزًا﴾[2].

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

أمر بالتعوّذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرّر لبدائه وبالتعوّذ من أن يحضروه أصلاً، ويحوموا حوله وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند تلاوة القرآن وعن عكرمة عند النزع.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿حتى﴾ يتعلق بيصفون أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت، والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم مستعيناً بالله على الشيطان أن

---

(1) قال أحمد: ما ذكره تقريراً للمفاضلة عبارة عن الاشتراك في أمر والتميز بغيره، ولا اشتراك بين الحسنة والسيئة، فإنهما ضدان متقابلان فكيف تتحقق المفاضلة؟ قلت: المراد: أن الحسنة من باب الحسنات أزيد من السيئة من باب السيئات، فتجئ المفاضلة مما هو أعم من كون هذه حسنة، وهذه سيئة، وذلك شأن كل مفاضلة بين ضدين، كقولهم: العسل أحلى من الخل يعنون: أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة، وليس لأنّ بينهما اشتراكاً خاصاً، ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعب الماجن: أنه قال: نشأت أنا والأعمش في حجر فلان، فما زال يعلو وأسفل حتى استوينا. بمعنى: أنهما استويا في بلوغ كل منهما الغاية، أشعب بلغ الغاية على السفلة، والأعمش بلغ الغاية على= = العلية، هذا تفسير كلامه عن نفسه. ونعود إلى الآية، فنقول: هي تحتمل وجهاً آخر من التفضيل أقرب متناولاً، وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التي تدفع بها السيئة، فإنها قد تدفع بالصفح والإغضاء، ويقنع في دفعها بذلك، وقد يزاد على الصفح الإكرام، وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة، فهذه الأنواع من الدفع كلها دفع بحسنة، ولكن أحسن هذه الحسنات في الدفع هي الأخيرة لاشتمالها على عدد من الحسنات، فأمر النبي ﷺ بأحسن الحسنات في دفع السيئة، فعلى هذا تجري المفاضلة على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل والله أعلم. فتأمّله فإنه حسن جداً.

(2) سورة مريم، الآية: 83.

يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم، أو على قوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾[1] خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم كقوله: فإن شئت حرّمت النساء سواكم وقوله: الا فارحموني يا إله محمد إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر أدركته الحسرة على ما فرّط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه.

لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾.

فسأل ربه الرجعة وقال:

﴿لعلي أعمل صالحًا﴾ في الإيمان الذي تركته والمعنى: لعلي، آتي بما تركته من الإيمان وأعمل فيه صالحًا كما تقول: لعلي أبني على أس تريد أسس أسًا وأبنى عليه وقيل: فيما تركته من المال وعن النبي ﷺ إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا فيقول: إلى دار الهموم والأحزان بل قدومًا إلى الله، وأمّا الكافر فيقول: رب ارجعون ﴿كلا﴾ ردع عن طلب الرجعة وإنكار واستبعاد، والمراد بالكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض وهي قوله: ﴿لعلي أعمل صالحًا فيما تركت﴾[2] ﴿هو قائلها﴾ لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم، أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ والضمير للجماعة: أي أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث، وليس المعنى أنهم يرجعون يوم البعث، إنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة.

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾.

﴿الصور﴾ بفتح الواو عن الحسن والصور بالكسر والفتح عن أبي رزين وهذا دليل لمن فسّر الصور بجمع الصورة ونفي الأنساب يحتمل أنّ التقاطع يقع بينهم حيث يتفرّقون معاقبين، ومثابين ولا يكون التواصل بينهم والتألف إلا بالأعمال، فتلغوا الأنساب وتبطل وأنه لا يعتدّ بالأنساب لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب إذ يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه، وعن ابن مسعود ولا يساءلون بإدغام التاء في السين.

فإن قُلْتَ: قد ناقض هذا ونحو قوله: ولا يسئل حميمًا حميما قوله: وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[3]، وقوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾[4] فكيف التوفيق بينهما؟ قُلْتُ: فيه جوابان أحدهما أنّ يوم القيامة[5] مقداره خمسون ألف سنة، ففيه أزمنة وأحوال مختلفة يتساءلون ويتعارفون في بعضها وفي بعضها لا يفطنون لذلك لشدّة الهول والفزع، والثاني أنّ التناكر يكون عند النفخة الأولى فإذا كانت الثانية قاموا، فتعارفوا وتساءلوا.

فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾.

عن ابن عباس الموازين جمع موزون وهي الموزونات من الأعمال الصالحات التي لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله تعالى: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾[6].

وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾.

﴿في جهنم خالدون﴾ بدل من خسروا أنفسهم ولا محلّ للبدل والمبدل منه لأنّ الصلة لا محلّ لها أو خبر بعد خبر لأولئك أو خبر مبتدأ محذوف.

تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾.

﴿تلفح﴾ تسفع وقال: الزجاج اللفح والنفح واحد إلا أنّ اللفح أشدّ تأثيرًا والكلوح أن تتقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان كما ترى الرؤس المشوية، وعن مالك بن دينار كان سبب توبة عتبة الغلام أنه مرّ في السوق برأس أخرج من التنور، فغشى عليه ثلاثة أيام ولياليهنّ وروى عن النبي ﷺ أنه قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته[7]، وقرئ كلحون.

قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾.

﴿غلبت علينا﴾ ملكتنا من قولك غلبني فلان على كذا إذا أخذه منك وامتلكه، والشقاوة سوء العاقبة التي علم الله أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم قرئ ﴿شقوتنا﴾ وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما.

قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾.

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 90.

(2) سورة المعارج، الآية: 10.

(3) قال أحمد: يجب أن لا يسلك هذا المسلك في إيراد الأسئلة عن فوائد الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وسؤال الأدب أن يقال: قصر فهمي عن الجمع بين هاتين الآيتين، فما وجهه، ولو سأل سائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن شيء من كتاب الله تعالى بهذه الصيغة لأوجع ظهره بالدرّة.

(4) سورة يونس، الآية: 45.

(5) قال أحمد: وكثيراً ما ينتهز الزمخشري الفرصة في إنكار الشفاعة، ويشمر نيله للرد على القائلين بها إذا انتهى إلى مثل قوله: ولا تنفعها شفاعة، لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة، ويتغافل حينئذ عن طريق الجمع بين ما ظاهره نفي الشفاعة، وبين ما ظاهره ثبوتها بحمل الأمر على اختلاف الأحوال في القيامة والله الموفق.

(6) سورة الكهف، الآية: 105.

(7) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث: 3176)، وأخرجه أحمد في المسند 3/88.

﴿اخسؤا فيها﴾ ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت يقال: خسأ الكلب وخسأ بنفسه ﴿ولا تكلمون﴾ في رفع العذاب، فإنه لا يرفع ولا يخفف قيل:.

إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾.

هو آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون، وعن ابن عباس إنّ لهم ست دعوات إذا دخلوا النار قالوا: ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا، فيجابون حق القول: مني فينادون ألفًا ربنا أمتنا اثنتين فيجابون ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم فينادون ألفًا يا مالك ليقض علينا ربك، فيجابون إنكم ماكثون فينادون ألفًا ربنا أخرنا فيجابون أو لم تكونوا فينادون ألفًا ربنا أخرجنا نعمل صالحًا فيجابون، أو لم نعمركم فينادون ألفًا رب ارجعون فيجابون اخسؤا فيها، في حرف أبيّ أنه كان فريق بالفتح بمعنى: لأنه.

فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾.

السخرى بالضم والكسر مصدر سخر كالسخر إلا أن في ياء النسب زيادة قوّة في الفعل كما قيل: الخصوصية في الخصوص، وعن الكسائي والفراء أنّ المكسور من الهزء والمضموم من السخرة والعبودية أي: تسخروهم واستعبدوهم والأوّل مذهب الخليل وسيبويه قيل: هم الصحابة وقيل: أهل الصفة خاصة ومعناه اتخذتموهم هزوًا وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿حتى أنسوكم﴾ بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ﴿ذكرى﴾، فتركتموه أي: تركتم أن تذكروني فتخافوني في أوليائي.

إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾.

وقرئ: ﴿انهم﴾ بالفتح فالكسر استئناف أي: قد فازوا حيث صبروا فجزوا بصبرهم أحسن الجزاء والفتح على أنه مفعول جزيتهم كقولك: جزيتهم فوزهم ﴿قال﴾ في مصاحف أهل الكوفة وقل: في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام ففي قال: ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة وفي قل: ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار.

استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها لأن الممتحن يستطيل أيام محنته، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها أو لأنهم كانوا في سرور وأيام السرور قصارًا ولأنّ المنقضى في حكم ما لم يكن وصدقهم الله في تقالهم لسنى لبثهم في الدنيا ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها.

قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾.

وقرئ: ﴿فسل العادين﴾ والمعنى: لا نعرف من عدد تلك السنين إلا أنا نستقله نحسبه يومًا أو بعض يوم، لما نحن فيه من العذاب وما فينا أن نعدها فسل من فيه أن يعد ومن يقدر أن يلقى إليه فكره، وقيل: فسل الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد ويحصون أعمالهم، وقرئ العادين بالتخفيف أي: الظلمة فإنهم يقولون: كما نقول.

قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾.

وقرئ: ﴿العاديين﴾ أي: القدماء المعمرين فإنهم يستقصرونها، فكيف بمن دونهم وعن ابن عباس أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾.

﴿عبثًا﴾ حال أي: عابثين كقوله: لاعبين أو مفعول له أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك وهي أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ معطوف على أنما خلقناكم، ويجوز أن يكون معطوفًا على عبثًا أي: للعبث ولترككم غير مرجوعين، وقرئ ترجعون بفتح التاء.

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾.

﴿الحق﴾ الذي يحق له الملك لأنّ كل شيء منه وإليه أو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه، وصف العرش بالكرم لأنّ الرحمة تنزل منه والخير والبركة أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين كما يقال: بيت كريم إذا كان ساكنوه كرامًا، وقرئ: ﴿الكريم﴾ بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد.

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾.

﴿لا برهان له به﴾ كقوله: ما لم ينزل به سلطانًا وهي صفة لازمة نحو قوله: يطير بجناحيه جيء بها للتوكيد لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان[1]، ويجوز أن يكون اعتراضًا بين الشرط والجزاء كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحق بالإحسان منه فالله مثيبه، وقرئ أنه لا يفلح

---

(1) قال أحمد: إن كان صفة فالمقصود بها التهكم بمدّعى إله مع الله، كقوله: ﴿بل أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ فنفى إنزال السلطان به، وإن لم يكن في نفس الأمر سلطان لا منزّل، ولا غير منزّل، ومن جنس مجيء الجملة بعد النكرة وصرفها عن أن تكون صفة لها ما قدّمه عند قوله تعالى: ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ = لا نخلفه نحن ولا أنت﴾ حيث أعرب الزمخشري موعداً مصدراً نصاباً لمكاناً سوى، واعترضه بأن المصدر الموصوف لا يعمل إلا على كره، واعتذرت عنه بصرف الجملة عن أن تكون صفة وجعلها معترضة مؤكدة لمعنى الكلام والله أعلم.

بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح، والأصل حسابه أنه لا يفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير لأنّ من يدع في معنى الجمع، وكذلك حسابه أنه لا يفلح في معنى حسابهم أنهم لا يفلحون جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾.

وأورد في خاتمتها أنه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت[1]، وروي أنّ أوّل سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أوّلها واتعظ بأربع آيات من آخرها فقد نجا وأفلح[2]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده دوي كدوي النحل، فمكثنا فاستقبل القبلة ورفع يده وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارضى عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر[3].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النور مدنية

﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١﴾.

﴿سورة﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿انزلناها﴾ صفة أو هي مبتدأ موصوف والخبر محذوف أي: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها، وقرئ بالنصب على زيدا ضربته ولا محل لانزلناها لأنها مفسرة للمضمر، فكانت في حكمه أو على دونك سورة أو اتل سورة وأنزلناها صفة ومعنى ﴿وفرضناها﴾ فرضنا أحكامها التي فيها، وأصل الفرض القطع أي: جعلناها واجبة مقطوعًا بها والتشديد للمبالغة في الإيجاب وتوكيده، أو لأنّ فيها فرائض شتى وأنك تقول: فرضت الفريضة وفرضت الفرائض أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم ﴿تذكرون﴾ بتشديد الذال، وتخفيفها رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند الخليل، وسيبويه.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾.

على معنى فيما فرض عليكم الزانية والزاني أي: جلدهما ويجوز أن يكون الخبر فاجلدوا وإنما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى: الذي وتضمينه معنى الشرط[4] تقديره التي زنت والذي زنى فاجلدوهما كما تقول من زنى فاجلدوه، وكقوله: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم﴾[5] وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر، وقرئ والزان بلا ياء والجلد ضرب الجلد يقال: جلده كقولك: ظهره وبطنه ورأسه.

فإن قُلْتَ: أهذا حكم جميع الزناة والزواني أم حكم بعضهم؟ قُلْتُ: بل هو حكم من ليس بمحصن منهم فإنّ المحصن حكمه الرجم وشرائط الإحصان عند أبي حنيفة ست الإسلام والحرية والعقل والبلوغ والتزوج بنكاح صحيح والدخول إذا فقدت واحدة منها فلا إحصان وعند الشافعي الإسلام ليس بشرط لما روي أنّ النبي ﷺ رجم يهوديين زنيا[6]، وحجة أبي حنيفة قوله ﷺ: «من أشرك بالله فليس بمحصن»[7].

فإن قُلْتَ: اللفظ يقتضي تعليق الحكم بجميع الزناة

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، وابن مردويه، والواحدي في الوسيط 2/408.

(2) قال الزيلعي غريب جدًا، 2/409.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث: 3173)، وأخرجه أحمد في المسند 1/34. ورواه عبد الرزاق، 3/383، الحديث: 6038).

(4) قال أحمد: وإنما عدل سيبويه إلى هذا الذي نقله عنه لوجهين لفظي ومعنوي، أمّا اللفظي فلأنّ الكلام امر، وهو يخيل اختيار النصب، ومع تلك قراءة العامة، فلو جعل فعل الأمر خبراً وبنى المبتدأ عليه لكان خلاف المختار عند الفصحاء، فالتجأ إلى تقدير الخبر حتى لا يكون المبتدأ مبنياً على الأمر، فخلص من مخالفة الاختيار، وقد مثلهما سيبويه في كتابه بقوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار﴾ والآية ووجه التمثيل انه صدر الكلام بقوله: ﴿مثل الجنة﴾ ولا يستقيم جزماً أن يكون قوله: فيها أنهار خبره، فنعين تقدير خبره محذوفاً، واصله فيما نقص عليكم مثل الجنة، ثم لما كان هذا إجمالاً لذكر المثل فصل المجمل بقوله: = فيها أنهار إلى آخرها، فكذلك ههنا كانه قيل: وفيما فرض عليكم شأن الزانية والزاني، ثم فصل هذا المجمل بما ذكره من أحكام الجلد، ويناسب هذا ترجمة الفقهاء في كتبهم حيث يقولون: مثلاً الصلاة الزكاة السرقة، ثم يذكرون في كل باب أحكامه يريدون مما يصنف فيه ويبوب عليه الصلاة، وكذلك غيرها فهذا بيان المقتضى عند سيبويه لاختيار حذف الخبر من حيث الصناعة اللفظية؛ وأمّا من حيث المعنى فهو أنّ المعنى اتم وأكمل على حذف الخبر؛ لأنه يكون قد ذكر حكم الزانية والزاني مجملاً، حيث قال: الزانية والزاني وأراد وفيما فرض عليكم حكم الزانية والزاني، فلما تشوف السامع إلى تفصيل هذا المجمل ذكر حكمهما مفصلاً، فهو أوقع في النفس من ذكره أول وهلة والله أعلم.

(5) سورة النور، الآية: 4.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الحدود، باب: أحكام أهل الذمة، (الحديث: 6841)، ومسلم في كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود، الحديث: (26 ـ 1699).

(7) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحدود والديات وغيره، الحديث: (199).

والزواني لأنّ قوله: الزانية والزاني عام في الجميع يتناول المحصن وغير المحصن؟ قلتُ: الزانية والزاني يدلان على الجنسين المنافيين لجنسي العفيف والعفيفة دلالة مطلقًا والجنسية قائمًا في الكل والبعض جميعًا، فأيهما قصد المتكلم فلا عليه كما يفعل بالاسم المشترك، وقرئ ولا يأخذكم بالياء ورأفة بفتح الهمزة ورآفة على فعالة والمعنى: أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ويستعملوا الجدّ والمتانة فيه ولا يأخذهم اللين والهوادة في استيفاء حدوده، وكفى برسول الله ﷺ أسوة في ذلك حيث قال: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»[1] وقوله: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ من باب التهيج وإلهاب الغضب لله ولدينه وقيل: لا تترحموا عليهما حتى لا تعطلوا الحدود، أو حتى لا توجعوهما ضربًا وفي الحديث يؤتى بوال نقص من الحدّ سوطًا، فيقول: رحمة لعبادك فيقال له: أأنت أرحم بهم مني فيؤمر به إلى النار ويؤتى بمن زاد سوطًا، فيقول: لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به إلى النار[2]، وعن أبي هريرة إقامة حدّ بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة[3]، وعلى الإمام أن ينصب للحدود رجلاً عالمًا بصيرًا يعقل كيف يضرب، والرجل يجلد قائمًا على مجرّده ليس عليه إلا إزاره ضربًا وسطًا لا مبرحًا ولا هينًا مفرّقًا على الأعضاء كلها لا يستثنى منها إلا ثلاثة الوجه والرأس والفرج، وفي لفظ الجلد إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم والمرأة تجلد قاعدة ولا ينزع من ثيابها إلا الحشو والفرو وبهذه الآية استشهد أبو حنيفة على أن الجلد حدّ غير المحصن بلا تغريب، وما احتج به الشافعي على وجوب التغريب من قوله ﷺ: «البكر بالبكر جلد مائة، وتغريب عام»[4] وما يروى عن الصحابة أنهم جلدوا ونفوا[5] منسوخ عنده، وعند أصحابه بالآية أو محمول على وجه التعزير والتأديب من غير وجوب وقول الشافعي: في تغريب الحرّ واحد، وله في العبد ثلاثة أقاويل يغرب سنة كالحرّ، ويغرب نصف سنة كما يجلد خمسين جلدة، ولا يغرب كما قال: أبو حنيفة وبهذه الآية نسخ الحبس والأذى في قوله تعالى: ﴿فأمسكوهنّ في البيوت﴾[6] وقوله تعالى: ﴿فآذوهما﴾[7] قيل: تسميته عذابًا دليل على أنه عقوبة ويجوز أن يسمى عذابًا لأنه يمنع من المعاودة كما سمى نكالاً، الطائفة الفرقة التي يمكن أن تكون حلقة وأقلها ثلاثة أو أربعة وهي صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول الشيء، وعن ابن عباس في تفسيرها أربعة إلى أربعين رجلاً من المصدّقين بالله وعن الحسن عشرة، وعن قتادة ثلاثة فصاعدًا وعن عكرمة رجلان فصاعدًا، وعن مجاهد الواحد فما فوقه وفضل قول: ابن عباس لأن الأربعة هي الجماعة التي يثبت بها هذا الحدّ، والصحيح أنّ هذه الكبيرة من أمّهات الكبائر ولهذا قرنها الله بالشرك، وقتل النفس في قوله: ﴿ولا يزنون﴾[8] ومن يفعل ذلك يلق أثامًا وقال: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾[9] وعن النبي ﷺ: يا معشر الناس اتقوا الزنا فإنّ فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فأما اللاتي في الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر، وأما اللاتي في الآخرة فيوجب للسخطة وسوء الحساب والخلود في النار[10] ولذلك وفي الله فيه عقد المائة بكماله بخلاف حدّ القذف، وشرب الخمر وشرع فيه القتلة الهولة وهي الرجم ونهى المؤمنين عن الرأفة على المجلود فيه، وأمر بشهادة الطائفة للتشهير فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير والواحد والاثنان ليسوا بتلك المثابة واختصاصه المؤمنين لأنّ ذلك أفضح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل ويشهد له قول ابن عباس رضي الله عنهما إلى أربعين رجلاً من المصدّقين بالله.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والتحب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء واللاتي على خلاف صفته، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله، أو في مشركة والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة، أو المشركين ونكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتسمين بالزنا محرّم عليه محظور لما فيه من التشبه بالفساق، وحضور موقع التهمة والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة وأنواع المفاسد ومجالسة الخطائين كم

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: ذكر أسامة بن زيد (الحديث: 3733)، ومسلم في كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، الحديث: (8 ـ 1688).

(2) قال الزيلعي غريب وروى أبو يعلى نحوه، 2/414.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحدود، (الحديث: 4397)، وأخرجه النسائي في كتاب: قطع السارق، باب: الترغيب في إقامة الحد، وأخرجه أحمد في المسند 2/402. وابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: إقامة الحدود، (الحديث: 2538).

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: حد الزنا، الحديث: (12 ـ 1690)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الحدود، باب: في الرجم= = (الحديث: 4415)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الحدود، باب: ما جاء في الرجم على الثيب، (الحديث: 1434)، وابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: حد الزنا، الحديث: 2550.

(5) أخرجه الترمذي في كتاب: الحدود، باب: ما جاء في تحقيق الرجم، الحديث: 1431.

(6) سورة النساء، الآية: 15.

(7) سورة النساء، الآية: 16.

(8) سورة الفرقان، الآية: 68.

(9) سورة الإسراء، الآية: 32.

(10) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تحريم الفروج، الحديث: 5475.

فيها من التعرّض لاقتراف الآثام، فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب وقد نبه على ذلك بقوله: ﴿وانكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾[1] وقيل: كان بالمدينة موسرات من بغايا المشركين فرغب فقراء المهاجرين في نكاحهنّ فاستأذنوا رسول الله ﷺ، فنزلت وعن عائشة رضي الله عنها أن الرجل إذا زنى بامرأة ليس له أن يتزوجها لهذه الآية وإذا باشرها كان زانيًا، وقد أجازه ابن عباس رضي الله عنهما وشبهه بمن سرق ثمر شجرة، ثم اشتراه وعن النبي ﷺ أنه سئل عن ذلك فقال: أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال، وقيل: المراد بالنكاح الوطء وليس بقول: لأمرين أحدهما أن هذه الكلمة أينما وردت في القرآن لم ترد إلا في معنى العقد، والثاني فساد المعنى وأداؤه إلى قولك: الزاني لا يزني إلا بزانية والزانية لا يزني بها إلا زان، وقيل: كان نكاح الزانية محرمًا في أول الإسلام، ثم نسخ والناسخ قوله: وأنكحوا الأيامي منكم. وقيل: الإجماع وروي ذلك عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه.

فإن قُلْتَ:أي: فرق بين معنى الجملة الأولى ومعنى الثانية؟ قُلْتُ:معنى الأولى صفة الزاني بكونه غير راغب في العفائف ولكن في الفواجر، ومعنى الثانية: صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان[2].

فإن قُلْتَ:كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً، ثم قدم عليها ثانيًا؟ قُلْتُ:سيقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدء بذكرها، وأمّا الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب، وعن عمرو بن عبيد رضي الله عنه لا ينكح بالجزم على النهي والمرفوع فيه أيضًا معنى النهي، ولكن أبلغ وآكد كما أن رحمك الله ويرحمك أبلغ من ليرحمك، ويجوز أن يكون خبرًا محضًا على معنى أن عادتهم جارية على ذلك وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصون عنها، وقرئ وحرم بفتح الحاء.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾.

القذف يكون بالزنا وبغيره والذي دل على أن المراد قذفهن بالزنا شيئان: أحدهما: ذكر المحصنات عقيب الزواني. والثاني اشتراط أربعة شهداء لأنّ القذف بغير الزنا يكفي فيه شاهدان، والقذف بالزنا أن يقول: الحرّ العاقل البالغ لمحصنة يا زانية أو لمحصن يا زاني يا ابن الزاني يا ابن الزانية يا ولد الزنا لست لأبيك لست لرشدة، والقذف بغير الزنا أن يقول: يا آكل الربا يا شارب الخمر يا يهودي يا مجوسي يا فاسق يا خبيث يا ماص بظر أمه فعليه التعزير، ولا يبلغ به أدنى حدّ العبيد وهو أربعون بل ينقص منه وقال: أبو يوسف يجوز أن يبلغ به تسعة وسبعون، وقال: للإمام أن يعزر إلى المائة وشروط إحصان القذف خمسة الحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة، وقرئ بأربعة شهداء بالتنوين وشهداء صفة.

فإن قُلْتَ:كيف يشهدون مجتمعين أو متفرقين؟ قُلْتُ: الواجب عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم أن يحضروا في مجلس واحد، وإن جاؤا متفرقين كانوا قذفة وعند الشافعي رضي الله عنه يجوز أن يحضروا متفرقين.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون زوج المقذوفة واحدًا منهم؟ قُلْتُ:يجوز عند أبي حنيفة خلافًا للشافعي.

فإن قُلْتَ:كيف يجلد القاذف؟ قُلْتُ:كما جلد الزاني إلا أنه لا ينزع عنه من ثيابه إلا ما ينزع عن المرأة من الحشو والفرو والقاذفة أيضًا كالزانية وأشد الضرب ضرب التعزير، ثم ضرب الزنا، ثم ضرب شرب الخمر، ثم ضرب القاذف قالوا: لأنّ سبب عقوبته محتمل للصدق

---

(1) سورة النور، الآية: 32.

(2) قال أحمد:وليس فيما ذكره إيضاح إطباق الجملتين، ونحن نوضحه، فنقول الأقسام أربعة: الزاني لا يرغب إلا في زانية، الزانية لا ترغب إلا في زان، العفيف لا يرغب إلا في عفيفة، العفيفة لا ترغب إلا في عفيف. وهذه الأقسام الأربعة مختلفة المعاني، وحاصرة للقسمة، فنقول: اختصرت الآية من هذه الأربعة قسمين، واقتصرت على قسمين أخرى من المسكوت عنهما، فجاءت مختصرة جامعة، فالقسم الأوّل صريح في القسم الأوّل ويفهم الثالث، والقسم الثاني صريح في القسم الثاني ويفهم في الرابع، والقسم الثالث والرابع متلازمان من حيث أن المتقضى لانحصار رغبة العفيف في العفيفة، هو اجتماعهما في الصفة، وذلك بعينه مقتض لانحصار رغبتها فيه، ثم يقصر التعبير عن وصف الزناة والأعفاء بما لا يقل عن ذكر الزناة وجوداً وسلباً، فإنّ معنى الأوّل: الزانية لا ينكحها عفيف، ومعنى الثاني: العفيفة لا ينكحها زان، والسر في ذلك أن الكلام في أحكامهم، فذكر الأعفاء بسلب نقائصهم حتى لا يخرج بالكلام كما هو المقصود = منه ثم بيّنه في إسناد النكاح في هذين القسمين للذكور دون الإناث بخلاف قوله: ﴿الزانية والزاني﴾ فإنه جعل لكل واحد منهما، ثم استقلالاً وقدم الزانية على الزاني، والسبب فيه أن الكلام الأوّل في حكم الزنا، والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والاطماع، والكلام الثاني في نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة، والأصل في النكاح الذكور، وهم المبتدؤن بالخطبة، فلم يسند إلا لهم لهذا، وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفاء من الذكور والإناث مناكحة الزناة ذكوراً وإناثاً زجراً لهم عن الفاحشة، ولذلك قرن الزنا والشرك، ومن ثم كره مالك رحمه الله مناكحة المشهورين بالفاحشة، وقد نقل بعض أصحابه الإجماع في المذهب على أنّ للمراة، أو لمن قام من أوليائها فسخ نكاح الفاسق، ومالك أبعد الناس من اعتبار الكفاءة، إلا في الدين، وأما في النسب فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى، فاستعظمه وتلا: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

والكذب إلا أنه عوقب صيانة للأعراض وردعا عن هتكها.

فإن قُلْتَ: فإذا لم يكن المقذوف محصنًا؟ **قُلْتُ:** يعزر القاذف ولا يحدّ إلا أن يكون المقذوف معروفًا بما قذف به فلا حدّ ولا تعزير، رد شهادة القاذف معلق عند أبي حنيفة رضي الله عنه باستيفاء الحدّ فإذا شهد قبل الحدّ أو قبل تمام استيفائه قبلت شهادته، فإذا استوفى لم تقبل شهادته أبدًا وإن تاب وكان من الأبرار الأتقياء، وعند الشافعي رضي الله عنه يتعلق رد شهادته بنفس القذف فإذا تاب عن القذف بأن رجع عنه عاد مقبول الشهادة، وكلاهما متمسك بالآية فأبو حنيفة رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الذي هو الرمي الجلد ورد الشهادة عقيب الجلد على التأبيد، فكانوا مردودي الشهادة عنده في أبدهم وهو مدة حياتهم وجعل قوله: ﴿**وأولئك هم الفاسقون**﴾ كلامًا مستأنفًا غير داخل في حيز جزاء الشرط كأنه حكاية حال الرامين عند الله بعد انقضاء الجملة الشرطية.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾.

و﴿**إلا الذين تابوا**﴾ استثناء من الفاسقين، ويدل عليه قوله: ﴿**فإنّ الله غفور رحيم**﴾ والشافعي رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الجملتين أيضًا غير أنه صرف الأبد إلى مدة كونه قاذفًا وهي تنتهي بالتوبة والرجوع عن القذف وجعل الاستثناء متعلقًا بالجملة الثانية وحق المستثنى عنده أن يكون مجرورًا بدلاً من هم في لهم وحقه عند أبي حنيفة رضي الله عنه أن يكون منصوبًا لأنه عن موجب والذي يقتضيه ظاهر الآية، ونظمها أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط كأنه قيل ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردوا شهادتهم وفسقوهم، أي: فاجمعوا لهم الجلد والرد والتفسيق إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا، فإنّ الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين.

فإن قُلْتَ: الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع والقاذف من المسلمين يتوب عن القذف، فلا تقبل شهادته عند أبي حنيفة رضي الله عنه كأن القذف مع الكفر أهون من القذف مع الإسلام! **قُلْتُ:** المسلمين لا يعبؤن بسب الكفار لأنهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل، فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقذف مسلم مثله فشدد على القاذف من المسلمين ردعًا وكفًا عن إلحاق الشنار.

فإن قُلْتَ: هل للمقذوف أو للإمام أن يعفو عن حدّ القاذف؟ **قُلْتُ:** لهما ذلك قبل أن يشهد الشهود ويثبت الحدّ والمقذوف مندوب إلى أن لا يرافع القاذف ولا يطالبه بالحدّ، ويحسن من الإمام أن يحمل المقذوف على كظم الغيظ ويقول له: أعرض عن هذا ودعه لوجه الله قبل ثبات الحدّ، فإذا ثبت لم يكن لواحد منهما أن يعفو لأنه خالص حق الله ولهذا لم يصح أن يصالح عنه بمال.

فإن قُلْتَ: هل يورث الحدّ؟ **قُلْتُ:** عند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يورث لقوله ﷺ: الحدّ لا يورث. وعند الشافعي رضي الله عنه يورث وإذا تاب القاذف قبل أن يثبت الحدّ سقط وقيل: نزلت هذه الآية في حسان بن ثابت رضي الله عنه حين تاب مما قال في عائشة رضي الله عنها.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾.

قاذف امرأته إذا كان مسلمًا حرًا بالغًا عاقلاً غير محدود في القذف والمرأة بهذه الصفة مع العفة صح اللعان بينهما إذا قذفها بصريح الزنا وهو أن يقول لها: يا زانية أو زنيت أو رأيتك تزنين، وإذا كان الزوج عبدًا أو محدودًا في قذف والمرأة محصنة حدّ كما في قذف الأجنبيات، وما لم ترافعه إلى الإمام لم يجب اللعان واللعان أن يبدأ الرجل، فيشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنا، ويقول في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنا، وتقول: المرأة أربع مرات أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا ثم تقول: في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماني به من الزنا، وعند الشافعي رضي الله عنه يقام الرجل قائمًا حتى يشهد والمرأة قاعدة، وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد ويأمر الإمام من يضع يده على فيه ويقول له: إني أخاف إن لم تكن صادقًا أن تبوء بلعنة الله، وقال: اللعان بمكة بين المقام والبيت وبالمدينة على المنبر وبيت المقدس في مسجده ولعان المشرك في الكنيسة، وحيث يعظم وإذا لم يكن له دين ففي مساجدنا إلا في المسجد الحرام لقوله تعالى: إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام، ثم يفرق القاضي بينهما ولا تقع الفرقة بينهما إلا بتفريقه عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم إلا عند زفر، فإن الفرقة تقع باللعان وعن عثمان البتي لا فرقة أصلاً وعند الشافعي رضي الله عنه تقع بلعان الزوج، وتكون هذه الفرقة في حكم التطليقة البائنة عند أبي حنيفة ومحمد رضي الله عنهما ولا يتأبد حكمها فإذا أكذب الرجل نفسه بعد ذلك فحدّ جاز أن يتزوجها وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رضي الله عنهم هي فرقة بغير طلاق توجب تحريمًا مؤبدًا ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه، وروي أن آية القذف لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ على المنبر، فقام عاصم بن عدي الأنصاري رضي الله عنه فقال: جعلني الله فداك إن وجد رجل مع امرأته رجلاً فأخبر جلد ثمانين وردت شهادته أبدًا وفسق وإن ضربه بالسيف قتل وإن سكت سكت على غيظ وإلى أن يجيء بأربعة شهداء فقد

قضى الرجل حاجته، ومضى اللهم افتح وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال: ما وراءك قال: شر وجدت على بطن امرأتي خولة وهي بنت عاصم شريك بن سحماء فقال: هذا والله سؤالي ما أسرع ما ابتليت به فرجعا فأخبر عاصم رسول الله ﷺ فكلم خولة فقالت: لا أدري الغيرة أدركته أم بخلاً على الطعام وكان شريك نزيلهم وقال هلال: لقد رأيته على بطنها فنزلت ولاعن بينهما، وقال رسول الله ﷺ عند قوله وقولها: أنّ لعنة الله عليه إن غضب الله عليها آمين، وقال القوم: آمين وقال لها: إن كنت ألممت بذنب فاعترفي به، فالرجم أهون عليك من غضب الله إنّ غضبه هو النار وقال: تحينوا بها الولادة فإن جاءت به أصيهب أثيبج يضرب إلى السواد، فهو لشريك وإن جاءت به أورق جعدًا جماليًا خدلج الساقين فهو لغير الذي رميت به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فجاءت بأشبه خلق الله لشريك، فقال ﷺ: لولا الأيمان لكان لي ولها شأن، وقرئ ولم تكن التاء لأنّ الشهداء جماعة، أو لأنهم في معنى الأنفس التي هي بدل ووجه من قرأ أربع أن ينتصب لأنه في حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذي هو فشهادة أحدهم وهي مبتدأ محذوف الخبر تقديره فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات بالله، وقرئ أن لعنة الله وأن غضب الله على تخفيف أن ورفع ما بعدها، وقرئ أن غضب الله على فعل الغضب، وقرئ بنصب الخامستين على معنى وتشهد الخامسة.

فإن قُلْتَ: لِمَ خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله؟ **قُلْتُ:** تغليظًا عليها لأنها هي أصل الفجور ومتبعه بخلابتها وإطماعها ولذلك كانت مقدمة في آية الجلد ويشهد لذلك قوله ﷺ لخولة، فالرجم أهون عليك من غضب الله.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

الفضل التفضل وجواب لولا متروك وتركه دال على أمر عظيم لا يكتنه وربّ مسكوت عنه أبلغ من منطوق به.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجاك وأصله الأفك، وهو القلب لأنه قول: مأفوك عن وجهه والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله عنها، والعصبة الجماعة من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة واعصوصبوا اجتمعوا وهم عبد الله بن أبيّ رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم، وقرئ كبره بالضم والكسر وهو عظمه والذي تولاه عبد الله لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ وانتهازه الفرص وطلبه سبيلاً إلى الغميزة أي: يصيب كل خائض في حديث الإفك من تلك العصبة نصيبه من الإثم على مقدار خوضه، والعذاب العظيم لعبد الله لأنّ معظم الشركان منه يحكى أن صفوان رضي الله عنه مرّ بهودجها عليه وهو في ملأ من قومه فقال: من هذه فقالوا: عائشة رضي الله عنها فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، والخطاب في قوله: ﴿هو خير لكم﴾ لمن ساءه ذلك من المؤمنين وخاصة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان بن المعطل رضي الله عنهم، ومعنى كونه خيرًا لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم لأنه كان بلاء مبينًا ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لآل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك، أو سمع به فلم تمجه أذناه وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها.

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

﴿بأنفسهم﴾ أي: بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾[1][2] وذلك نحو ما يروى أن أبا أيوب الأنصاري قال: لأم أيوب ألا ترين ما يقال فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءًا، قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خنت رسول الله ﷺ، فعائشة خير مني وصفوان خير منك[3].

فإن قُلْتَ: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 11.

(2) قال أحمد: والسر في هذا التعبير تعطيف المؤمن على أخيه، وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة، ولا شيء أشنع من ذلك والله أعلم. عاد كلامه (قال: ونقل أن أبا أيوب الأنصاري، قال لامرأته: ألا ترين مقالة الناس، قالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تخون في حرمة رسول الله ﷺ سوءًا؟ قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنته، وصفوان خير منك، وعائشة خير مني).

(3) قال أحمد: ولقد ألهمت بنور الإيمان إلى هذا السر الذي انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس، فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان، ونفسها منزلة عائشة، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بطريق الأولى رضي الله عنها، ويحتمل والله أعلم خلاف ما قاله الزمخشري، وهو أن يكون التعبير بالأنفس حقيقة، والمقصود إلزام سيء الظن بنفسه؛ لأنه لم يعتد بوازع الإيمان في حق غيره وألغاه، واعتبره في حق نفسه، وادعى لها البراءة قبل معرفته بحكم الهوى لا بحكم الهدى والله أعلم.

خيرًا وقلتم ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر! قُلْتُ:ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدّق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول: عائب ولا طاعن وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قاله: في أخيه أن يبني الأمر فيها على الظنّ لا على الشك، وأن يقول: بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير ﴿هذا إفك مبين﴾ هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول: المستيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الأدب الحسن الذي، قال: القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بأخوات.

لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾.

جعل الله التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب ثبوت شهادة الشهود الأربعة، وانتفاءها والذين رموا عائشة رضي الله عنها لم تكن لهم بينة على قولهم، فقامت عليهم الحجة وكانوا ﴿عند الله﴾ أي: في حكمه وشريعته كاذبين وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك، فلم يجدّوا في دفعه وإنكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين، فكيف بأمّ المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق، حرمة رسول الله ﷺ وحبيبة حبيب الله.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾.

لولا الأولى للتحضيض وهذه لامتناع الشيء لوجود غيره والمعنى: ولولا أني قضيت أن اتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة وأن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك.

يقال: أفاض في الحديث واندفع وهضب وخاض ﴿إذ﴾ ظرف لمسكم، أو لأفضتم ﴿تلقونه﴾ يأخذه بعضكم من بعض يقال: تلقى القول: وتلقنه وتلقفه ومنه قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾[1] وقرئ على الأصل تتلقونه وإذ تلقونه بإدغام الذال في التاء وتلقونه من لقيه بمعنى: لقفه وتلقونه من إلقائه بعضهم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والألق، وهو الكذب وتلقونه محكيّة عن عائشة رضي الله عنها وعن سفيان سمعت أمي تقرأ إذ تثقفونه، وكان أبوها يقرأ بحرف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فإن قُلْتَ:ما معنى قوله: ﴿بأفواهكم﴾ والقول: لا يكون إلا بالفم؟ قُلْتُ:معناه أنّ الشيء المعلوم يكون وعلمه في القلب، فيترجم عنه اللسان[2] وهذا الإفك ليس إلا قولاً: يجري على ألسنتكم ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب كقوله تعالى: يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، أي: تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة موجبة، وعن بعضهم أنه جزع عند الموت فقيل له: فقال: أخاف ذنبًا لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم؛ وفي كلام بعضهم لا تقولنّ لشيء من سيئاتك حقير، فلعله عند الله نخلة وهو عندك نقير وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها أحدها تلقى الإفك ألسنتهم وذلك أنّ الرجل كان يلقى الرجل، فيقول له: ما وراءك فيحدّثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه والثاني التكلم بما لا علم لهم، والثالث استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم.

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾.

فإن قُلْتَ: كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم؟ قُلْتُ: للظروف شأن وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وإنها لا تنفك عنها، فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها.

فإن قُلْتَ: فأيّ: فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً؟ قُلْتُ: الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهمّ وجب التقديم.

فإن قُلْتَ: فما معنى يكون والكلام بدونه متلئب لو قيل: مالنا أن نتكلم بهذا! قُلْتُ: معناه: معنى ينبغي ويصح أي: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا وما يصح لنا ونحوه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق و﴿سبحانك﴾ للتعجب من عظم الأمر.

فإن قُلْتَ: ما معنى التعجب في كلمة التسبيح! قُلْتُ: الأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون حرمة نبيه عليه السلام فاجرة؟

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح، ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة؟ قُلْتُ: لأنّ الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم، ويستعطفوهم فيجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم ولم يكن الكفر عندهم مما

---

(1) سورة البقرة، الآية: 37.

(2) قال أحمد: ويحتمل أن يكون المراد المبالغة، أو تعريضاً بأنه ربما يتمشدق، ويقضي تمشدق جازم عالم، وهذا أشدّ وأقطع، وهو= السر الذي أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ والله أعلم.

ينفروا، وأما الكشخنة(1) فمن أعظم المنفرات.

يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾.

أي: كراهة ﴿أن تعودوا﴾ أو في أن تعودوا من قولك، وعظت فلانًا في كذا فتركه وأبدهم ما داموا أحياء مكلفين، و﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فيه تهييج لهم ليتعظوا وتذكير بما يوجب ترك العود وهو اتصافهم بالإيمان الصاد عن كل مقبح.

وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾.

ويبيّن الله لكم الدلالات على علمه وحكمته بما ينزل عليكم من الشرائع ويعلمكم من الآداب الجميلة ويعظكم به من المواعظ الشافية، والله عالم بكل شيء فاعل لما يفعله بدواعي الحكمة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾.

المعنى: يشيعون الفاحشة عن قصد إلى الإشاعة وإرادة ومحبة لها وعذاب الدنيا الحد ولقد ضرب رسول الله ﷺ عبد الله بن أبيّ وحسانًا ومسطحًا وقعد صفوان لحسان، فضربه ضربة بالسيف وكفّ بصره وقيل: هو المراد بقوله: والذي تولى كبره منهم ﴿والله يعلم﴾ ما في القلوب من الأسرار والضمائر ﴿وانتم لا تعلمون﴾ يعني: أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة وهو معاقبه عليها.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾.

وكرّر المنة بترك المعاجلة بالعقاب حاذفًا جواب لولا كما حذفه ثمة وفي هذا التكرير مع حذف الجواب مبالغة عظيمة، وكذلك في التوّاب والرؤوف والرحيم.

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾.

الفحشاء والفاحشة ما أفرط قبحه قال أبو ذؤيب:

ضرائر حرمي تفاحش غارها

أي: أفرطت غيرتها والمنكر ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه. وقرئ: ﴿خطوات﴾ بفتح الطاء وسكونها وزكى بالتشديد والضمير لله تعالى ولولا أنّ الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك ولكن الله يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها وهو ﴿سميع﴾ لقولهم: ﴿عليم﴾ بضمائرهم وإخلاصهم.

وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾.

وهو من ائتلى إذا حلف افتعال من الألية وقيل: من قولهم: ما ألوت جهدًا إذا لم تدخر منه شيئًا ويشهد للأول قراءة الحسن ولا يتال والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم، ونذوبهم نزلت في شأن مسطح، وكان ابن خالة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما وكان فقيرًا من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر ينفق عليه، فلما فرط منه ما فرط آلى أن لا ينفق عليه وكفى به داعيًا إلى المجاملة، وترك الاشتغال بالمكافأة للمسيء، ويروى أنّ رسول الله ﷺ قرأها على أبي بكر فقال: بلى أحب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح نفقته وقال: والله لا أنزعها أبدًا، وقرأ أبو حيوة وابن قطيب أن تؤتوا بالتاء على الالتفات ويعضده قوله: ألا تحبون أن يغفر الله لكم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾.

﴿الغافلات﴾ السليمات الصدور النقيات القلوب اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر لأنهنّ لم يجربن الأمور ولم يرزن الأحوال، فلا يفطن لما تفطن له المجربات العرافات قال:

ولقد لهوت بطفلة ميالة ... بلهاء تطلعني على أسرارها

وكذلك البله من الرجال في قوله عليه الصلاة والسلام: «أكثر أهل الجنة البله».

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾.

وقرئ: ﴿يشهد﴾ بالياء والحق بالنصب صفة للدين، وهو الجزاء وبالرفع صفة لله ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه عن طرق مختلفة وأساليب مفتتة كل واحد منها كاف في بابه ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعًا وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأنّ ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم

---

(1) قال أحمد: وما أورد عليه أبرد من هذا السؤال، كان أحداً يشكل عليه أن ينسب الفاحشة إلى مثل عائشة مما ينكره كل عاقل، ويتعجب منه كل لبيب والله الموفق.

تشهد عليهم مما افكوا وبهتوا وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿أنّ الله هو الحق المبين﴾ فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرّر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين، عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسأل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات، فقال: من اذنب ذنبًا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة، برأ يوسف بلسان الشاهد وشهد شاهد من أهلها، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها إني عبد الله، وبرّأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم وخيرة الأوّلين والآخرين وحجة الله على العالمين ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ، وتقدّم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الإفك وليتأمّل كيف غضب الله له في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه.

فإن قُلْتَ: إن كانت عائشة هي المرادة فكيف قيل: المحصنات؟ قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن يراد بالمحصنات أزواج رسول الله ﷺ وأن يخصصن بأن من قذفهنّ، فهذا الوعيد لاحق به وإذا أردن وعائشة كبراهنّ منزلة وقربة عند رسول الله ﷺ كانت المرادة أوّلاً والثاني أنها أمّ المؤمنين فجمعت إرادة لها، ولبناتها من نساء الأمّة الموصوفات بالإحصان والغفلة والإيمان كما قال:

قدْني من نصر الخبيبين قدّي

أراد عبد الله بن الزبير وأشياعه وكان أعداؤه يكنونه بخبيب ابنه[1]، وكان مضعوفاً وكنيته المشهورة أبو بكر إلا أن هذا في الاسم وذاك في الصفة.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿هو الحق المبين﴾[2] قُلْتُ: معناه ذو الحق البيِّن أي: العادل الظاهر العدل الذي لا ظلم في حكمه والمحق الذي لا يوصف بباطل، ومن هذه صفته لم تسقط عنده إساءة مسيء ولا إحسان محسن فحق مثله أن يتقي ويجتنب محارمه.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: ﴿الخبيثات﴾ من القول: تقال أو تعد ﴿للخبيثين﴾ من الرجال والنساء ﴿والخبيثون﴾ منهم يتعرضون ﴿للخبيثات﴾ من القول: وكذلك الطيبات والطيبون و﴿أولئك﴾ إشارة إلى الطيبين وإنهم مبرؤن مما يقول: الخبيثون من خبيثات الكلم[3]، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة والطيب، ويجوز أن يكون أولئك إشارة إلى أهل البيت وأنهم مبرؤن مما يقول: أهل الإفك وأن يراد بالخبيثات والطيبات النساء أي: الخبائث يتزوّجن الخباث والخباث الخبائث وكذلك أهل الطيب، وذكر الرزق الكريم ها هنا مثله في قوله: واعتدنا لها رزقاً كريماً، وعن عائشة لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهنّ امرأة لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أمر رسول الله ﷺ أن يتزوّجني، ولقد تزوّجني بكراً وما تزوج بكراً غيري ولقد توفي وإنّ رأسه لفي حجري، ولقد قبر في بيتي ولقد حفته الملائكة في بيتي، وإنّ الوحي لينزل عليه في أهله فيتفرقون عنه، وإن كان لينزل عليه وأنا معه في لحافه وإني لابنة خليفته، وصديقه ولقد نزل عذري من السماء ولقد خلقت طيبة عند طيب[4] ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا

---

(1) قال أحمد: والأظهر أنّ المراد عموم المحصنات، والمقصود بذكرهنّ على العموم، وعيد من وقع في عائشة على أبلغ الوجوه؛ لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات، فما الظنّ بوعيد من قذف سيدتهنّ، وزوج سيد البشر ﷺ، على أن تعميم الوعيد أبلغ واقطع من تخصيصه، وهذا معنى قول زليخا: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم؟ فعممت وأرادت يوسف تهويلاً عليه وإرجافاً، والمعصوم من عصمة الله تعالى. قوله تعالى: ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾ الآية (قال): تحتمل الآية أمرين أحدهما: أن يكون المراد الكلمات الخبيثة للخبيثين، والمراد الإفك، ومن أفاض فيه، وعكسه في الطيبات والطيبين. الثاني: أن يكون المراد بالخبيثات النساء، وبالخبيثين الرجال.

(2) سورة النور، الآية: 25.

(3) قال أحمد: إن كان الأمر على التأويل الثاني فهذه الآية تفصيل لما أجمله. قوله تعالى: ﴿الزانية لا ينكحها إلا زان﴾ وقد بينا أنها = مشتملة على هذه الأقسام الأربعة تصريحاً وتضميناً، فجاءت هذه الآية مصرحة بالجميع، وقد اشتملت على فائدة أخرى، وهي الاستشهاد على براءة أمّ المؤمنين، بأنها زوجة أطيب الطيبين، فلا بدّ وأن تكون طاهرة طيبة مبرأة مما أفكت به، وهذا التأويل الثاني هو الظاهر، فإنّ بعد الآية لهم مغفرة ورزق كريم، وبهذا وعد أزواجه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ والله أعلم عاد كلامه قال: ونقل عن عائشة أنها قالت: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهنّ امرأة، فذكرت منهنّ أنها خلقت طيبة عند طيب.

(4) قال أحمد: وهذا أيضاً يحقق ما ذكرته أنّ المراد بالطيبات والطيبين: النساء والرجال: وأنّ المراد بذلك إظهار براءة عائشة، بأنها زوج أطيب الطيبين، فيلزم أن تكون طيبة وفاء بقوله: ﴿والطيبون للطيبات﴾ والله أعلم.

وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿تستانسوا﴾ فيه وجهان أحدهما أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الإستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا، فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أذن له استأنس فالمعنى: حتى يؤذن لكم كقوله: ﴿لا تدخلوا بيوت النبيّ إلا أن يؤذن لكم﴾[1] وهذا من باب الكناية والإرداف لأنّ هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن، فوضع موضع الإذن والثاني أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام، والاستكشاف استفعال من انس الشيء إذا أبصره ظاهرًا مكشوفًا، والمعنى: حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم أم لا ومنه قوله: استأنس هل ترى أحدًا واستأنست، فلم أر أحدًا أي: تعرفت واستعلمت ومنه بيت النابغة. على مستأنس واحد. ويجوز أن يكون من الإنس وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان؟[2] وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قلنا: يا رسول الله ما الاستئناس قال: يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة، ويتنحنح يؤذن أهل البيت، والتسليم أن يقول: السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا رجع وعن أبي موسى الأشعري أنه أتى باب عمر رضي الله عنهما فقال: السلام عليكم أأدخل قالها ثلاثاً، ثم رجع وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول الاستئذان ثلاثًا واستأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: أألج فقال ﷺ لامرأة يقال لها: روضة قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن أن يستأذن قولي له يقول: السلام عليكم أأدخل فسمعها الرجل فقالها فقال: أدخل وكان أهل الجاهلية يقول: الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته حييتم صباحاً وحييتم مساءً، ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد فصدّ الله عن ذلك وعلم الأحسن والأجمل وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به، وباب الاستئذان من ذلك بينا أنت في بيتك إذا رعف عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا إسلام ولا جاهلية، وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه، وما قال: رسول الله ﷺ ولكن أين الأذن الواعية، وفي قراءة عبد الله حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير إنما هو حتى تستأذنوا فأخطأ الكاتب، ولا يعوّل على هذه الرواية، وفي قراءة أبي حتى تستأذنوا ﴿ذلكم﴾ الاستئذان والتسليم ﴿خير لكم﴾ من تحية الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير إذن واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك كان صاحبه دامر لعظم ما ارتكب، وفي الحديث من سبقت عينه استئذانه فقد دمر[3] وروي أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي، قال: «نعم». قال: إنها ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت قال: «أتحب أن تراها عريانة». قال الرجل: لا، قال: «فاستأذن»[4] ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي: أنزل عليكم، أو قيل: لكم هذا إرادة أن تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان.

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُواۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾.

يحتمل ﴿فإن لم تجدوا فيها أحدًا﴾ من الآذنين ﴿فلا تدخلوها﴾ واصبروا حتى تجدوا من يأذن لكم ويحتمل، فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ولكم فيها حاجة، فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها وذلك أنّ الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الدامر على عوزة، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم، ويتحفظون من إطلاع أحد عليها ولأنه تصرف في ملك غيرك، فلا بدّ من أن يكون برضاه وإلا أشبه الغصب والتغلب، ﴿فارجعوا﴾ أي: لا تلحوا في إطلاق الإذن ولا تلجوا في تسهيل الحجاب، ولا تقفوا على الأبواب منتظرين لأنّ هذا مما يجلب الكراهة ويقدح في قلوب الناس خصوصًا إذا كانوا ذوي مروءة ومرتاضين بالآداب الحسنة وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس، وعن أبي عبيد ما قرعت بابًا على عالم قط وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾.

فإن **قُلْتَ**: هل يصح أن يكون المعنى: وإن لم يؤذن لكم وأمرتم بالرجوع، فامتثلوا ولا تدخلوا مع كراهتهم؟ **قُلْتُ**: بعد أن جزم النهي عن الدخول مع فقد الإذن وحده من أهل الدار حاضرين، وغائبين لم تبق شبهة في كونه منهيًا عنه مع انضمام الأمر بالرجوع إلى فقد الإذن.

فإن **قُلْتَ**: فإذا عرض أمر في دار من حريق أو هجوم سارق أو ظهورًا منكر يجب إنكاره! **قُلْتُ**: ذلك مستثنى بالدليل، أي: الرجوع أطيب لكم وأطهر لما فيه من سلامة الصدور والبعد من الريبة أو أنفع وأنمى خيرًا، ثم أوعد المخاطبين بذلك بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا

(1) سورة الأحزاب، الآية: 53.

(2) قال أحمد: فيكون على هذا الأخير بني من الإنس استفعل، والوجه الأوّل هو البين، وسر التجوز فيه، والعدول إليه عن الحقيقة ترغيب المخاطبين في الإتيان بالاستئذان بواسطة ذكر، فإن له فائدة وثمرة تميل النفوس إليها، وتنفر من ضدها، وهو الاستيحاش الحاصل بتقدير عدم الاستئذان، ففيه تنهيض للدواعي= = على سلوك هذا الأدب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(3) رواه الطبراني.

(4) أخرجه أبو داود في المراسيل، كتاب: ما جاء في الاستئذان، (الحديث رقم: 488) وأخرجه مالك في الموطأ، وكتاب: الاستئذان، باب: الاستئذان، (الحديث رقم: 1).

به فموف جزاءه عليه.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

واستثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على داخلها ما ليس بمسكون منها وذلك نحو الفنادق وهي الخانات والربط وحوانيت البياعين، المتاع المنفعة كالاستكنان من الحرّ والبرد وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع، ويروى أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله إنّ الله تعالى قد أنزل عليك آية في الاستئذان وإنا نختلف في تجاراتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها إلا بإذن، فنزلت[1] وقيل: الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

من للتبعيض والمراد غضّ البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل وجوّز الأخفش أن تكون مزيدة وأباه سيبويه.

فإن قُلْتَ: كيف دخلت في غضّ البصر دون حفظ الفروج؟ قُلْتُ: دلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهنّ وصدورهنّ وثديهنّ وأعضادهنّ وأسوقهنّ وأقدامهنّ وكذلك الجواري المستعرضات والأجنبية بنظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين وأما أمر الفرج فمضيق وكفاك فرقًا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه ويجوز أن يراد مع حفظها عن الإفضاء إلى ما لا يحل حفظها عن الإبداء، وعن ابن زيد كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا هذا فإنه أراد به الاستتار، ثم أخبر أنّه ﴿خبير﴾ بأفعالهم وأحوالهم وكيف يجيلون أبصارهم وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم، فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

النساء مأمورات أيضاً بغض الأبصار ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبته وإن اشتهت غضت بصرها رأسًا، ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك وغضها بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها وأحسن منه حديث ابن أم مكتوم عن أمّ سلمة رضي الله عنها قالت: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة فأقبل ابن مكتوم وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب، فدخل علينا فقال: احتجبا فقلنا: يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا قال: أفعمياوان انتما ألستما تبصرانه[2].

فإن قُلْتَ: لم قدّم غض الأبصار على حفظ الفروج؟ قُلْتُ: لأنّ النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشدّ وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه، الزينة ما تزينت به المرأة من حليّ، أو كحل، أو خضاب فما كان ظاهرًا منها كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب فلا بأس بإبدائه للأجانب وما خفي منها كالسوار والخلخال والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط فلا تبديه، إلا لهؤلاء المذكورين وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتصوّن والتستر لأنّ هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء وهي الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن، فنهى عن إبداء الزين نفسها ليعلم أنّ النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال في حله كان النظر إلى المواقع أنفسها[3] متمكناً في الحظر ثابت القدم في الحرمة شاهدًا على أنّ النساء حقهن أن يحتطن في سترها، ويتقين الله في الكشف عنها.

فإن قُلْتَ: ما تقول في القراميل هل يحل نظر هؤلاء إليها! قُلْتُ: نعم.

فإن قُلْتَ: أليس موقعها الظهر ولا يحل لهم النظر إلى ظهرها وبطنها، وربما ورد الشعر فوقعت القراميل على ما يحاذي ما تحت السرة! قُلْتُ: الأمر كما قلت: ولكن أمر القراميل خلاف أمر سائر الحلى لأنه لا يقع إلا فوق اللباس، ويجوز النظر إلى الثوب الواقع على الظهر والبطن للأجانب فضلاً عن هؤلاء إلا إذا كان يصف لرقته، فلا يحل النظر إليه فلا يحل النظر إلى القراميل واقعة عليه.

فإن قُلْتَ: ما المراد بموقع الزينة ذلك العضو كله أم المقدار الذي تلابسه الزينة منه؟ قُلْتُ: الصحيح أنه العضو كله كما فسرت مواقع الزينة الخفية، وكذلك مواقع الزينة الظاهرة الوجه موقع الكحل في عينيه والخضاب بالوسمة

---

(1) لم يخرجه عند الزيلعي.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، (الحديث رقم: 5576).

(3) قال أحمد: وقوله تعالى عقيب ذلك ﴿ولا يضربن بارجلهنّ ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ محقق أن إبداء الزينة بعينه مقصود بالنهي؛=

= لأنه قد نهى عما هو ذريعة إليه خاصة إذ الضرب بالأرجل لم يعلل النهي عنه، إلا بعلم أن المرأة ذات زينة، وإن لم تظهر فضلاً عن مواضعها والله أعلم.

في حاجبيه وشاربيه والغمرة في خديه والكف، والقدم موقعاً الخاتم، والفتخة والخضاب بالحناء.

فإن قُلْتَ: لِمَ سومح مطلقاً في الزينة الظاهرة؟ قُلْتُ: لأن سترها فيه حرج فإن المرأة لا تجد بدًا من مزاولة الأشياء بيدها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصًا في الشهادة، والمحاكمة والنكاح وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهنّ وهذا معنى قوله: ﴿إلاّ ما ظهر منها﴾ يعني: إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره، والأصل فيه الظهور وإنما سومح في الزينة الخفية أولئك المذكورون لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم، ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ولما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك، كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهنّ وصدورهنّ وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهنّ فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنّها من قدامهنّ حتى يغطينها، ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور تسمية بما يليها ويلابسها ومنه قولهم: ناصح الجيب وقولك: ضربت بخمارها على جيبها كقولك: ضربت بيدي على الحائط إذا وضعتها عليه، «وعن عائشة رضي الله عنها ما رأيت نساء خيرًا من نساء الأنصار لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهنّ إلى مرطها المرحل فصدعت منه صدعة، فاختمرن فأصبحن كأن على رؤوسهن الغربان»[1]، وقرئ جيوبهن بكسر الجيم لأجل الياء وكذلك بيوتًا غير بيوتكم قيل: في نسائهن هنّ المؤمنات لأنّه ليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدي مشركة، أو كتابية عن ابن عباس رضي الله عنهما والظاهر أنه عَنِيَ بنسائهن وما ملكت أيمانهنّ من في صحبتهن وخدمتهن من الحرائر والإماء والنساء كلهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض وقيل: ما ملكت أيمانهن هم الذكور والإناث جميعًا «وعن عائشة رضي الله عنها أنها أباحت النظر إليها لعبدها، وقالت لذكوان: إنك إذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر»[2] وعن سعيد بن المسيب مثله[3]، «ثم رجع وقال: لا تغرّنكم آية النور فإنّ المراد بها الإماء»[4]، وهذا هو الصحيح لأنّ عبد المرأة بمنزلة الأجنبي منها خصيًا كان، أو فحلاً «وعن ميسون بنت بحدل الكلابية أن معاوية دخل عليها ومعه خصي فتقنعت منه، فقال: هو خصي فقالت: يا معاوية أترى أن المثلة به تحلل ما حرّم الله»[5] وعند أبي حنيفة لا يحل استخدام الخصيان وإمساكهم وبيعهم وشراؤهم ولم ينقل عن أحد من السلف إمساكهم.

فإن قُلْتَ: روي أنه «أُهْدِيَ لرسول الله ﷺ خصي فقبله»[6]! قُلْتُ: لا يقبل فيما نعم به البلوى إلا حديث مكشوف، فإنّ صح فلعله قبله ليعتقه أو لسبب من الأسباب ﴿الإربة﴾ الحاجة قيل: هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم إلى النساء لأنّهم بله لا يعرفون شيئًا من أمرهنّ، أو شيوخ صلحاء إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم أو بهم عنانة، وقرئ غير بالنصب على الاستثناء أو الحال والجرّ على الوصفية، وضع الواحد موضع الجمع لأنه يفيد الجنس ويبين ما بعده أن المراد به الجمع ونحوه نخرجكم طفلاً ﴿لم يظهروا﴾ إمّا من ظهر على الشيء إذا اطلع عليه أي: لا يعرفون ما العورة، ولا يميزون بينها وبين غيرها وإمّا من ظهر على فلان إذا قوي عليه وظهر على القرآن أخذه وأطاقه أي: لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء، وقرئ عورات وهي لغة هذيل.

فإن قُلْتَ: لِمَ لم يذكر الله الأعمام والأخوال؟ قُلْتُ: سُئل الشعبي عن ذلك فقال: لئلا يصفها العم عند ابنه والخال كذلك ومعناه: أن سائر القرابات يشرك الأب والابن في المحرمية إلا العم والخال وأبناءهما فإذا رآها الأب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم، فيداني تصوّره لها بالوصف نظره إليها وهذا أيضاً من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهنّ في التستر، كانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقعقع خلخالها، فيعلم أنها ذات خلخال وقيل: كانت تضرب بإحدى رجليها الأخرى ليعلم أنها ذات خلخالين وإذا نهين عن إظهار صوت الحلى بعد ما نهين عن إظهار الحلى علم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ، أوامر الله ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها، وإن ضبط نفسه واجتهد ولا يخلو من تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة.

فإن قُلْتَ: قد صحت التوبة بالإسلام والإسلام يجبُّ ما قبله، فما معنى هذه التوبة! قُلْتُ: أراد بها ما يقوله العلماء: إن من أذنب ذنباً، ثم تاب عنه يلزمه كلما يذكره أن يجدد عنه التوبة لأنه يلزمه أن يستمرّ على ندمه وعزمه إلى أن يلقى ربه، وقرئ آية المؤمنون بضم الهاء ووجه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها.

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟

---

(1) أخرجه البخاري بلفظ «يرحم الله النساء المهاجرات...» كتاب: التفسير ومن سورة النور، باب: «وليضربن بخمرهنّ...» (الحديث رقم: 4758).

(2) أخرجه البخاري تعليقًا كتاب: المكاتب، باب: بيع المكاتب إذا رضي. ورواه عبد الرزاق في كتابه المصنف 394/2 (الحديث رقم: 3824).

(3) ولم يخرجه الزيلعي.

(4) رواه ابن أبي شيبة 269/4 كتاب: النكاح، باب: في قوله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء﴾.

(5) لم يخرجه الزيلعي.

(6) قال الزيلعي ذكر في عيون الأثر لأبي الفتح اليعمري وفي الروض الأنف للسهيلي وابن سعد في الطبقات قصة اهداء المقوقس الخصي لرسول الله ﷺ، الزيلعي 434/2.

﴿فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾.

﴿الأيامى﴾ واليتامى أصلهما أيائم ويتائم فقلبا والأيم للرجل والمرأة وقدآم وآمت وتأيما إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو ثيبين قال:

فإن تنكحي أنكح وإن تتأيمي وإن كنت أفتى منكم أتأيم

وعن رسول الله ﷺ: «اللهم إنا نعوذ بك من العيمة والغيمة والأيمة والكزم والقرم»[1]، والمراد أنكحوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر ومن كان فيه صلاح من غلمانكم وجواريكم، وقرئ من عبيدكم وهذا الأمر للندب لما علم من أنّ النكاح أمر مندوب إليه، وقد يكون للوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك وعند أصحاب الظواهر النكاح واجب، ومما يدل على كونه مندوبًا إليه قوله ﷺ: «من أحب فطرتي فليستنّ بسنني وهي النكاح»[2] وعنه عليه الصلاة والسلام: «من كان له ما يتزوّج به، فلم يتزوّج فليس منا»[3] وعنه[4] عليه الصلاة والسلام: «إذا تزوّج أحدكم عج شيطانه يا ويله عصم ابن آدم مني ثلثي دينه»[5]، وعنه عليه الصلاة والسلام: «يا عياض لا تزوّجن عجوزًا ولا عاقرًا فإني مكاثر»[6] والأحاديث فيه عن النبي ﷺ، والآثار كثيرة وربما كان واجب الترك إذا أدّى إلى معصية أو مفسدة وعن النبي ﷺ: «إذا أتى على أمتي مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزبة والعزلة والترهب على رؤوس الجبال»[7] وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان لا تنال المعيشة فيه إلا بالمعصية فإذا كان ذلك الزمان حلّت العزوبة»[8].

فإن قُلْتَ: لِمَ خصّ الصالحين؟ قُلْتُ: ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم ولأنّ الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم، وينزلونهم منزلة الأولاد في الأثرة والمودّة، فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم وأمّا المفسدون منهم، فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك أو أريد بالصلاح القيام بحقوق النكاح. ينبغي أن تكون شريطة الله غير منسية في هذا الموعد، ونظائره وهي مشيئته ولا يشاء الحكيم إلا ما اقتضته الحكمة وما كان مصلحة ونحوه ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وقد جاءت الشريطة منصوصة في قوله تعالى: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء[9] إنّ الله عليم

---

(1) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث، الزيلعي 2/35.

(2) رواه عبد الرزاق في المصنف 6/169 (الحديث رقم: 10378).
ورواه أبو يعلى (الحديث رقم: 2748).

(3) قال أحمد: وهذا بأن يدل على الوجوب أولى، ولكن قد ورد مثله في ترك السنن كثيراً، وكان المراد من لم يستن بسنتنا على أنه قد ورد في الواجب، كقوله: «من غشنا فليس منا» ومجانبة الغش واجبة، ومن شهر السلاح في فتنة فليس منا، ومثله كثير. عاد كلامه، قوله: ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ قال: فيه ينبغي أن تكون شريطة الحكمة والمصلحة غير منسية واستشهد على ذلك بقوله: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾.

(4) رواه أبو داود في المراسيل كتاب: في النكاح (الحديث رقم: 202).
ورواه الدارمي في كتاب: النكاح، باب: الحث على التزويج (الحديث رقم: 2164).
ورواه عبد الرزاق 6/168. (الحديث رقم: 10376).

(5) رواه أبو يعلى.

(6) رواه الحاكم في المستدرك 3/290.

(7) قال للزيلعي رواه ابن الجوزي في الموضوعات 2/441.

(8) قال الزيلعي رواه الخطابي في كتاب: العزلة ورواه علي بن سعيد في كتاب: الطاعة والمعصية 2/442.

(9) قال أحمد: جنوحه للمعتقد الفاسد يمتنح عليه بالصواب، فإنّ معتقده وجوب رعاية المصالح على الله تعالى، فمن ثم شرط الحكمة والمصلحة محجراً واسعاً من فضل الله تعالى ثم استشهد على ذلك بما يشهد عليه لا له، فإنّ قوله تعالى في الآية الأخرى إن شاء يقتضى أنّ وقوع الغنى مشروط بالمشيئة خاصة وهذا معتقد أهل الحق فطاح اشتراط الحكمة عن محل الاستدلال تعالى عن الإيجاب رب الأرباب، لكن ينبغي التنبه لنكتة تدعو الحاجة إلى التنبيه عليه ليعم نفعها ويعظم وقعها إن شاء الله، وذلك أنا إذا بنينا على أن ثَمَّ شرطاً محذوفاً لا بدّ من تقديره ضرورة صدق الخبر إذ لو اعتقدنا أن الله تعالى يغني كل متزوّج على الإطلاق = مع أنا نشاهد كثيراً ممن استمرّ به الفقر بعد النكاح، بل زاد للزم خلف الوعد تقدّس الله وتعالى عن ذلك فقد ثبت الاضطرار إلى تقدير شرط للجمع بين الوعد والواقع، فالقدرية يقولون المراد إن اقتضت الحكمة ذلك فكل من لم يغنه الله بأثر التزوّج فهو ممن لم تقتض الحكمة إغناءه، وقد أبطلنا أن يكون هذا الشرط هو المقدّر وحتمنا أن المقدّر شرط المشيئة كا ظهر في الآية الأخرى وحينئذٍ فكل من لم يستغن بالنكاح فذلك لأن الله تعالى لم يشأ غناه، فلقائل أن يقول إذا كانت المشيئة هي المعتبرة في غي المتزوّج فهي أيضاً المعتبرة في غنى الأعزب، فما وجه ربط وعد الغنى بالنكاح مع أن حال الناكح منقسم في الغنى على حسب المشيئة، فمن متسغنى به ومن فقير كما أن حال غير الناكح كذلك منقسم وليس هذا كإضرار شرط المشيئة في الغفران للموحد العاصي فإن الوعد ثم له ارتباط بالتوحيد، وإن ارتبط بالمشيئة أيضاً من حيث أن غير الموحد لا يغفر الله له حتماً، ولا تستطيع أن تقول وغير الناكح لا يغنيه الله حتماً لأن الواقع يأباه، فالجواب وبالله التوفيق أن فائدة ربطه الغنى بالنكاح أنه قد ركز في الطباع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها، والغفلة عن المسبب جلّ وعلا حتى غلب الوهم على العقل فخيل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتماً، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزماً وإن كان واحد من هذين السببين غير مؤثر فيما ربطه الوهم به، فأريد قلع هذا الخيال المتمكن من الطبع بالإيذان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينميه مع كثرة العيال التي هي سبب في الأوهام لنفاد المال، وقد يقدّر الإملاق مع عدمه الذي هو سبب في الإكثار عند الأوهام والواقع يشهد لذلك بلا مراء، فدل ذلك قطعاً على أن الأسباب التي يتوهمها البشر مرتبطات بمسبباتها ارتباطاً لا ينفك ليست على ما يزعمونه، وإنما يقدّر الغنى والفقر مسبب الأسباب غير موقوف تقدير ذاك إلا على مشيئة خاصة وحينئذ لا ينفر العاقل المتيقظ من النكاح لأنه قد استقرّ عنده أن لا أثر له في الإقتار وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من أغنائه، ولا يؤثر أيضاً الخلو عن النكاح لأجل التوفير لأنه قد استقرّ عنده أن لا أثر له

حكيم﴾(1) ومن لم ينس هذه الشريطة لم ينتصب معترضًا بعزب كان غنيًا فأفقره النكاح وبفاسق تاب واتقى الله وكان له شيء ففني وأصبح مسكينًا «وعن النبيّ ﷺ التمسوا الرزق بالنكاح»(2) «وشكا إليه رجل الحاجة فقال: عليك بالباءة»(3) وعن عمر رضي الله عنه عجب لمن لا يطلب الغنى بالباءة، ولقد كان عندنا رجل رازح الحال، ثم رأيته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت فسألته، فقال: كنت في أول أمري على ما علمت وذلك قبل أن أرزق ولدًا فلما رزقت بكر ولدي تراخيت عن الفقر فلما ولد لي الثاني زدت خيرًا فلما تتاموا ثلاثة صبّ الله عليّ الخير صبًا فأصبحت إلى ما ترى ﴿والله واسع﴾ أي: غني ذو سعة لا يرزؤه إغناء الخلائق ولكنه ﴿عليم﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٣﴾

﴿وليستعفف﴾، وليجتهد في العفة وظلف النفس كأن المستعف طالب من نفسه العفاف، وحاملها عليه ﴿لا يجدون نكاحًا﴾ أي: استطاعة تزوّج، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال ﴿حتى يغنيهم الله﴾ ترجية للمستعفين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى ليكون انتظار ذلك، وتأميله لطفاً لهم في استعفافهم وربطًا على قلوبهم وليظهر بذلك أنّ فضله أولى بالإعفاء، وأدنى من الصلحاء وما أحسن ما رتب هذه الأوامر حيث أمر أوّلاً بما يعصم من الفتنة، ويبعد من مواقعة المعصية وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ثم بالحمل على النفس الأمّارة بالسوء، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه ﴿والذين يبتغون﴾ مرفوع على الابتداء، أو منصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم كقولك: زيدًا فاضربه ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة، وهو أن يقول: الرجل لمملوكه كاتبتك على ألف درهم فإن أداها عتق ومعناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك، أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت عليّ العتق، ويجوز عند أبي حنيفة رضي الله عنه حالاً ومؤجلاً ومنجمًا وغير منجم لأنّ الله تعالى لم ينكر التنجيم، وقياسًا على سائر العقود وعند الشافعي رضي الله عنه لا يجوز إلا مؤجلاً منجمًا، ولا يجوز عنده بنجم واحد لأنّ العبد لا يملك شيئًا فعقده حالاً منع من حصول الغرض لأنه لا يقدر على أداء البدل عاجلاً، ويجوز عقده على مال قليل وكثير وعلى خدمة في مدة معلومة وعلى عمل معلوم مؤقت مثل حفر بئر في مكان بعينه معلومة الطول، والعرض وبناء دار قد أراه آجرها وجصها وما يبنى به وإن كاتبه على قيمته لم يجز فإن أداها عتق، وإن كاتبه على وصيف جاز لقلة الجهالة ووجب الوسط، وليس له أن يطأ المكاتبة وإذا أدى عتق وكان ولاؤه لمولاه لأنه جاد عليه بالكسب الذي هو في الأصل له، وهذا الأمر للندب عند عامة العلماء وعن الحسن رضي الله عنه ليس ذلك بعزم إن شاء كاتب، وإن شاء لم يكاتب وعن عمر رضي الله عنه هي عزمة من عزمات الله وعن ابن سيرين مثله وهو مذهب داود ﴿خيرًا﴾ قدرة على أداء ما يفارقون عليه، وقيل: أمانة وتكسبًا وعن سلمان رضي الله عنه أنّ مملوكًا له ابتغى أن يكاتبه، فقال: أعندك مال، قال: لا، قال: أفتأمرني أن آكل غسالة أيدي الناس ﴿وآتوهم﴾ أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال كقوله تعالى: ﴿وفي الرقاب﴾(4) عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم.

فإن قُلْتَ: هل يحل لمولاه إذا كان غنيًا أن يأخذ ما تصدق به عليه؟ قُلْتُ: نعم، وكذلك إذا لم تف الصدقة بجميع البدل وعجز عن أداء الباقي طاب للمولى ما أخذه لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة، ولكن بسبب عقد المكاتبة كمن اشترى الصدقة من الفقير، أو ورثها أو وهبت له ومنه قوله ﷺ: «في حديث بريرة هو لها صدقة، ولنا هديه»(5) وعند الشافعي رضي الله عنه هو إيجاب على الموالي أن يحطوا لهم من مال الكتابة، وإن لم يفعلوا أجبروا وعن علي رضي الله عنه يحط له الربع، وعن ابن عباس رضي الله

= فيه وأن الله تعالى لا يمنعه مانع أن يقتر عليه وأن العبد إن تعاطى سبباً فلا يكن ناظراً إليه ولكن إلى مشيئة الله تعالى وتقدس، فمعنى قوله: حينئذ إن يكونوا فقراء الآية أن النكاح لا يمنعهم الغنى من فضل الله فعبر عن نفي كونه مانعاً من الغنى بوجوده معه ولا تبطل المانعية إلا وجود ما يتوهم ممنوعاً مع ما يتوهم مانعاً ولو في صورة من الصور على أثر ذلك، فمن هذا الوادي أمثال قوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ فإن ظاهر الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة وليس ذلك بمراد حقيقة، ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة وبيان أنّ الصلاة متى قضيت، فلا مانع فعبر عن نفي المانع بالانتشار= بما يفهم تقاضي الانتشار مبالغة في تحقيق المعنى عند السامع والله أعلم، فتأمل هذا الفصل واتخذه عضداً حيث الحاجة إليه.

(1) سورة التوبة، الآية: 28.

(2) رواه أبو داود في المراسيل، باب: في النكاح، (الحديث رقم: 203).

(3) ذكر الثعلبي في تفسيره، زيلعي 2/444.

(4) سورة التوبة، الآية: 60.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: لا يكون بيع الأمة طلاقًا، (الحديث رقم: 5279)، وأخرجه مسلم في كتاب: العتق، باب: إنما الولاء لمن أعتق، (الحديث رقم: 14 ـ 1504).

عنهما يرضخ له من كتابته شيئًا، «وعن عمر رضي الله عنه أنه كاتب عبدًا له يكنى أبا أمية، وهو أوّل عبد كوتب في الإسلام فأتاه بأوّل نجم فدفعه إليه عمر رضي الله عنه وقال: استعن به على مكاتبتك، فقال: «لو أخرته إلى آخر نجم فقال: أخاف أن لا أدرك ذلك»[1] وهذا عند أبي حنيفة رضي الله عنه على وجه الندب، وقال: إنه عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع وقيل: معنى وآتوهم: أسلفوهم وقيل: أنفقوا عليهم بعد أن يؤدوا، ويعتقوا وهذا كله مستحب وروي أنه كان لحويطب بن عبد العزى مملوك يقال له: الصبيح سأل مولاه أن يكاتبه، فأبى فنزلت، كانت إماء أهل الجاهلية يساعين على مواليهن وكان لعبد الله بن أبيّ رأس النفاق ست جوار معاذة، ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههنّ على البغاء وضرب عليهنّ ضرائب، فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت[2]، ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة وفي الحديث ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي[3]، والبغاء مصدر البغي.

فإن قُلْتَ: لِمَ اقحم قوله: ﴿إن أردن تحصنًا﴾؟ قُلْتُ: لأنّ الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن، وآمر الطيعة المواتية للبغاء لا يسمى مكرهًا ولا أمره إكراهًا وكلمة إن وإيثارها على إذا إيذان بأن المساعيات كن يفعلن ذلك برغبة، وطواعية منهنّ وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر[4] ﴿غفور رحيم﴾ لهم أولهن أو لهم ولهن إن تابوا، وأصلحوا وفي قراءة ابن عباس لهن غفور رحيم.

فإن قُلْتَ: لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن لأن المكرهة على الزنا بخلاف المكره عليه في أنها غير آثمة! قُلْتُ: لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل أو بما يخاف منه التلف أو ذهاب العضو من ضرب عنيف أو غيره حتى تسلم من الإثم وربما قصرت عن الحدّ الذي تعذر فيه فتكون آثمة.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿مبينات﴾ هي الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت في معاني الأحكام والحدود، ويجوز أن يكون الأصل مبينًا فيها فاتسع في الظرف وقرئ بالكسر أي: بينت في الأحكام والحدود جعل الفعل لها على المجاز أو من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذي عينين ﴿ومثلاً من﴾ أمثال من ﴿قبلكم﴾ أي: قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم يعني: قصة عائشة رضي الله عنها ﴿وموعظة﴾ ما وعظ به في الآيات والمثل من نحو قوله: ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله لولا إذ سمعتموه. ولولا إذ سمعتموه يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدًا، نظير قوله.

۞ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿الله نور السموات والأرض﴾ مع قوله: مثل نوره. ويهدي الله لنوره: قولك زيد كرم وجود ثم تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات وصاحب نور السموات ونور السموات والأرض الحق شبهه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله تعالى: الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور: أي: من الباطل إلى الحق وأضاف النور إلى السموات والأرض لأحد معنيين إما للدلالة على سعة إشرافه، وفشوّ إضاءته حتى تضئ له السموات والأرض وإما أن يراد أهل السموات، والأرض وأنهم يستضيئون به ﴿مثل نوره﴾ أي: صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة ﴿كمشكاة﴾ كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة ﴿فيها مصباح﴾ سراج ضخم ثاقب ﴿في زجاجة﴾ أراد قنديلاً من زجاج شامي أزهر، شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير كالمشتري والزهرة والمريخ وسهيل ونحوها ﴿يوقد﴾ هذا المصباح ﴿من شجرة﴾ أي: ابتدأ ثقوبه من شجرة الزيتون يعني: رويت ذبالته بزيتها ﴿مباركة﴾ كثيرة المنافع، أو لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين وقيل: بارك فيها سبعون نبيًّا منهم إبراهيم عليه السلام وعن النبي ﷺ عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون، فتداووا به فإنه مصحة من الباسور[5] ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أي: منبتها الشام وأجود الزيتون زيتون الشام وقيل: لا في مضحى ولا مقناة، ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها وذلك أجود لحملها، وأصفى لدهنها قال رسول الله ﷺ: لا خير في شجرة في مقناة ولا نبات في مقناة، ولا خير فيهما في مضحى[6] وقيل: ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها، أو غروبها فقط بل تصيبها بالغداة والعشى جميعًا فهي شرقية وغربية، ثم

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف 14/139، كتاب: الأوائل، باب: أول سافعل.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾، (الحديث رقم: 26 3029).

(3) راجع (الحديث رقم: 318)، الجزء الثاني.

(4) وعند العبد الفقير إلى الله تعالى أن فائدة ذلك والله أعلم: أن يبشع عند المخاطب الوقوع فيه، لكي يتيقظ أنه كان ينبغي له أن يأنف= من هذه الرذيلة، وإن لم يكن زاجر شرعي، ووجه التبشيع عليه أن مضمون الآية النداء عليه، بأن أمته خير منه؛ لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة، وهي يأبى إلا إكراهها عليها، ولو أبرز مكنون هذا المعنى لم يقع الزاجر من النفس موقعه، وعسى هذه الآية تأخذ بالنفوس الدنية فكيف بالنفوس العربية والله الموفق.

(5) رواه الطبراني في معجمه.

(6) قال الزيلعي غريب جدًّا، 2/447.

وصف الزيت بالصفاء والوبيص وأنه لتلألئه ﴿يكاد﴾ يضيء من غير نار ﴿نور على نور﴾ أي: هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة، والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق مما يقوى النور ويزيده إشراقًا ويمدّ بإضاءة بقية وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره بخلاف المكان الواسع، فإنّ الضوأ ينبث فيه وينتشر والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاؤه ﴿يهدي الله﴾ لهذا النور الثاقب ﴿من يشاء﴾ من عباده أي: يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والإنصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يمينًا وشمالاً، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذي سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس، وعن عليّ رضي الله عنه الله نوّر السمٰوات والأرض أي: نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره، أو نور قلوب أهلها به، وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه مثل نور من آمن به، وقرئ زجاجة الزجاجة بالفتح والكسر ودري منسوب إلى الدرّ أي أبيض متلألئ ودرّئ بوزن سكيت يدرأ الظلام بضوئه ودرئ كمريق ودرى كالسكينة عن أبي زيد، وتوقد بمعنى: تتوقد والفعل للزجاجة ويوقد وتوقد بالتخفيف ويوقد بالتشديد ويوقد بحذف التاء وفتح الياء لاجتماع حرفين زائدين، وهو غريب ويمسه بالياء لأنّ التأنيث ليس بحقيقي والضمير فاصل.

فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾.

﴿في بيوت﴾ يتعلق بما قبله أي: كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل: مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت، أو بما بعده وهو يسبح أي: يسبح له رجال في بيوت وفيها تكرير كقولك: زيد في الدار جالس فيها، أو بمحذوف كقوله: في تسع آيات أي: سبحوا في بيوت، والمراد بالإذن الأمر ورفعها بناؤها كقوله: ﴿بناها.. رفع سمكها فسوّاها﴾[1] ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد﴾[2] وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي المساجد أمر الله أن تبنى أو تعظيمها والرفع من قدرها، وعن الحسن رضي الله عنه ما أمر الله أن ترفع بالبناء، ولكن بالتعظيم ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ أوفق له وهو عام في كل ذكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما وأن يتلى فيها كتابه، وقرئ: ﴿يسبح﴾ على البناء للمفعول ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة أعنى له فيها بالغدوّ، ورجال مرفوع بما دلّ عليه يسبح وهو يسبح له وتسبح بالتاء وكسر الباء وعن أبي جعفر رضي الله عنه بالتاء وفتح الباء ووجهها أن يسند إلى أوقات الغدوّ، والآصال على زيادة الباء وتجعل الأوقات مسبحة والمراد ربها كصيد عليه يومان والمراد وحشهما، والآصال جمع أصل وهو العشي والمعنى: بأوقات الغدوّ أي: بالغدوات، وقرئ والإيصال وهو الدخول في الأصيل يقال: آصل كأظهر وأعتم.

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾.

التجارة صناعة التاجر وهو الذي يبيع ويشتري للربح فإما أن يريد لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة، ثم خص البيع لأنه في الإلهاء أدخل من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طلبته الكلية من صناعته ألهته ما لا يلهيه شراء شيء يتوقع فيه الربح في الوقت الثاني لأن هذا يقين وذاك مظنون وأمّا أن يسمى الشراء تجارة إطلاقًا لاسم الجنس على النوع كما تقول: رزق فلان تجارة رابحة إذا اتجه له بيع صالح، أو شراء وقيل: التجارة لأهل الجلب اتجر فلان في كذا إذا جلبه، التاء في إقامة عوض من العين الساقطة للإعلال والأصل إقوام، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض فأسقطت ونحوه، وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا، وتقلب القلوب والأبصار إمّا أن تتقلب وتتغير في أنفسها وهو أن تضطرب من الهول والفزع وتشخص كقوله: ﴿وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾[3] وإمّا أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعًا عليها لا تفقه، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عميًا لا تبصر.

لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾.

﴿أحسن ما عملوا﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم كقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾[4] والمعنى يسبحّون ويخافون ليجزيهم ثوابهم مضاعفًا ويزيدهم على الثواب تفضلاً وكذلك معنى قوله: الحسنى وزيادة المثوبة الحسنى وزيادة عليها من التفضل، وعطاء الله تعالى إما تفضل وإما ثواب وإما عوض ﴿والله يرزق﴾ ما يتفضل به ﴿بغير حساب﴾ فأمّا الثواب فله حساب لكونه على حسب الاستحقاق.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾.

السراب ما يُرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري، والقيعة بمعنى: القاع أو جمع قاع وهو المنبسط المستوى من الأرض كجيرة في جار، وقرئ بقيعات بتاء ممطوطة

(1) سورة النازعات، الآيتان: 27 ـ 28.

(2) سورة البقرة، الآية: 127.

(3) سورة الأحزاب، الآية: 10.

(4) سورة يونس، الآية: 26.

كديمات وقيمات في ديمة وقيمة وقد جعل بعضهم بقيعاة بتاء مدورة كرجل عزهاة شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان، ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه، ثم تخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماءً فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله فيهم: عاملة ناصبة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا وقدّمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية قد كان تعبد، ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية في كفر في الإسلام.

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

اللجي العميق الكثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر، وفي ﴿أخرج﴾ ضمير الواقع فيه ﴿لم يكد يراها﴾ مبالغة في لم يرها أي: لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها ومثله قول ذي الرمة:

إذا غير النأي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح

أي: لم يقرب من البراح فما باله يبرح شبّه أعمالهم؛ أولاً في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئًا ولم يكفه خيبة وكمدًا أن لم يجد شيئًا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار، ولا يقتل ظمأه بالماء وشبهها ثانيًا في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق لظلمات متراكمة من لج البحر، والأمواج والسحاب، ثم قال: ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه فهو في ظلمة الباطل لا نور له وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات لأنّ الألطاف إنما تردف الإيمان والعمل، أو كونهما مترقبين ألا ترى إلى قوله: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[1] وقوله: ﴿ويضل الله الظالمين﴾[2]، وقرئ سحاب ظلمات على الإضافة وسحاب ظلمات برفع سحاب وتنوينه وجر ظلمات بدلاً من ظلمات الأولى.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

﴿صافات﴾ يصففن أجنحتهنّ في الهواء، والضمير في ﴿علم﴾ لكل أو لله وكذلك في ﴿صلاته وتسبيحه﴾ والصلاة الدعاء ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه، وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾

﴿يزجي﴾ يسوق ومنه البضاعة المزجاة التي يزجيها كل أحد لا يرضاها، والسحاب يكون واحدًا كالعماء وجمعًا كالرباب ومعنى تأليف الواحد: أنه يكون فزعًا فيضم بعضه إلى بعض وجاز بينه وهو واحد لأنّ المعنى بين أجزائه كما قيل: في قوله: بين الدخول، فحومل والركام المتراكم بعضه فوق بعض والودق المطر ﴿من خلاله﴾ من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال في جبل، وقرئ من خلله ﴿وينزل﴾ بالتشديد ويكاد سنا على الإدغام وبرقة جمع برقة وهي المقدار من البرق كالغرفة واللقمة، وبرقة بضمتين للاتباع كما قيل: في جمع فعلة فعلات كظلمات، وسناء برقه على المد المقصور بمعنى: الضوء، والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك: سنى للمرتفع و﴿يذهب بالأبصار﴾ على زيادة الباء كقوله: ولا تلقوا بأيديكم عن أبي جعفر المدني وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره حيث ذكر تسبيح من في السمٰوات والأرض، وكل ما يطير بين السماء والأرض ودعاءهم له وابتهالهم إليه وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه، وأنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته ويريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم ليعتبروا، ويحذروا.

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾.

ويعاقب بين الليل والنهار ويخالف بينهما بالطول والقصر وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته ودلائل منادية على صفاته لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر.

فإن قُلْتَ: متى رأى رسول الله ﷺ تسبيح من في السمٰوات ودعاءهم وتسبيح الطير ودعاءه وتنزيل المطر من جبال برد في السماء حتى قيل له ألم ترا قُلْتُ: علمه من جهة إخبار الله إياه بذلك على طرق الوحي.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة في قوله: من السماء من جبال من برد؟ قُلْتُ: الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض والثالثة للبيان أو الأوليان للابتداء والآخرة للتبعيض ومعناه أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها وعلى الأوّل مفعول ينزل من جبال.

فإن قُلْتَ: ما معنى من جبال فيها من برد؟ قُلْتُ: فيه معنيان أحدهما أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر، والثاني أن يريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال: فلان يملك جبالاً من ذهب.

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 69.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 27.

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾.

وقرئ خالق كل دابة ولما كان اسم الدابة موقعًا على المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه كأن الدواب كلهم مميزون، فمن ثمة قيل: فمنهم وقيل: من يمشي في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم.

فإن قلت: لم نكر الماء في قوله: ﴿من ماء﴾؛ **قلت:** لأنّ المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة ثم خالف بين المخلوقات من النطفة، فمنها هوام ومنها بهائم ومنها ناس ونحوه قوله تعالى: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾[1].

فإن قلت: فما باله معرّفًا في قوله: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[2]!

لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾.

قلت: قصد ثمة معنى آخر: وهو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس[3] الذي هو جنس الماء، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط قالوا: خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء والجنّ من نار خلقها منه، وآدم من تراب خلقه منه.

فإن قلت: لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب؟ **قلت:** قدّم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع.

فإن قلت: لِمَ سمى الزحف على البطن مشيًا؟ **قلت:** على سبيل الاستعارة كما قالوا: في الأمر المستمرّ قد مشى هذا الأمر ويقال: فلان لا يتمشى له أمر ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفلة والمشفر مكان الشفة، ونحو ذلك أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين.

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾.

﴿**وما أولئك بالمؤمنين**﴾ إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا أو إلى الفريق المتولى، فمعناه على الأوّل: إعلام من الله بأنّ جميعهم منتفٍ عنهم الإيمان لا الفريق المتولى وحده، وعلى الثاني إعلام بأنّ الفريق المتولى لم يكن ما سبق لهم من الإيمان إيمانًا إنما كان ادّعاء باللسان من غير مواطأة القلب لأنه لو كان صادرًا عن صحة معتقد وطمأنينة نفس، لم يتعقبه التولي والإعراض والتعريف في قوله: ﴿بالمؤمنين﴾[4] دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفت وهم الثابتون المستقيمون على الإيمان الموصوفون في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾[5].

وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾.

معنى ﴿إلى الله ورسوله﴾ إلى رسول الله كقولك: اعجبني زيد وكرمه تريد كرم زيد ومنه قوله: غلسته قبل القطا وفرطه، أراد قبل فرط القطا روي أنها نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض، فجعل اليهوديّ يجرّه إلى رسول الله والمنافق يجرّه إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إن محمدًا يحيف علينا وروي أنّ المغيرة بن وائل كان بينه وبين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه خصومة في ماء وأرض فقال: المغيرة أمّا محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه، فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي.

وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿**إليه**﴾ صلة يأتوا لأن أتى وجاء قد جاءا معدّيين بإلى أو يتصل بمذعنين لأنه في معنى مسرعين في الطاعة وهذا أحسن لتقدّم صلته ودلالته على الاختصاص، والمعنى: أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المرّ والعدل البحت يزوّرون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك، ولم يرضوا إلا بحكومتك لتأخذ لهم ما ذاب لهم في ذمّة الخصم.

أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾.

ثم قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين في أمر نبوّته، أو خائفين الحيف في قضائه، ثم أبطل خوفهم حيفة بقوله: ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ أي: لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتمّ لهم جحوده وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ، فمن ثمة يأبون المحاكمة إليه.

---

(1) سورة الرعد، الآية: 4.

(2) قال أحمد: وتحرير الفرق أنّ المقصد في الأولى إظهار الآية بأنّ شيئاً واحداً تكوّنت منه بالقدرة أشياء مختلفة، ذكر تفصيلها في آية النور والرعد، والمقصد في آية اقترب أنه خلق الأشياء المنفقة في جنس الحياة من جنس الماء المختلف الأنواع، فذكر معرفاً=

= ليشمل أنواعه المختلفة فالآية في الأوّل لإخراج المختلف من المتفق والله أعلم.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 30.

(4) سورة النور، الآية: 47.

(5) سورة الحجرات، الآية: 15.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

وعن الحسن قول: ﴿المؤمنين﴾ بالرفع والنصب أقوى لأن أولى الاسمين بكونه اسمًا لكان، أوغلهما في التعريف وأن يقولوا أوغل لأنه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف قول: المؤمنين وكان هذا من قبيل كان في قوله: ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾[1] ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، وقرئ: ﴿ليحكم﴾ على البناء للمفعول.

فإن قُلْتَ:إلام اسند يحكم ولا بدّ له من فاعل! قُلْتُ:هو مسند إلى مصدره لأن معناه ليفعل الحكم بينهم، ومثله جمع بينهما وألف بينهما ومثله لقد تقطع بينكم، فمن قرأ بينكم منصوبًا أي: وقع التقطع بينكم وهذه القراءة مجاوبة لقوله: دعوا، قرئ ويتقه بكسر القاف والهاء مع الوصل وبغير وصل وبسكون الهاء وبسكون القاف وكسر الهاء شبه تقه بكتف، فخفف كقوله: قالت سليمى: اشتر لنا سويقًا ولقد جمع الله في هذه الآية أسباب الفوز وعن ابن عباس في تفسيرها.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿ومن يطع الله﴾ في فرائضه ﴿ورسوله﴾ في سننه ﴿ويخش الله﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿ويتقه﴾ فيما يستقبل وعن بعض الملوك انه سأل عن آية كافية، فتليت له هذه الآية.

﴿۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

جهد يمينه مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وذلك إذا بالغ في اليمين، وبلغ غاية شدّتها ووكادتها، وعن ابن عباس رضي الله عنه من قال: بالله جهد يمينه وأصل أقسم جهد اليمين أقسم بجهد اليمين جهدًا فحذف الفعل وقدم المصدر، فوضع موضعه مضافًا إلى المفعول كقوله: ﴿فضرب الرقاب﴾[2] وحكم هذا المنصوب حكم الحال كأنه قال: جاهدين ايمانهم و﴿طاعة معروفة﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر أي: أمركم والذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم، وقلوبكم على خلافها أو طاعتكم طاعة معروفة بأنها بالقول: دون الفعل أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة، وقرأ اليزيدي طاعة معروفة بالنصب على معنى أطيعوا طاعة ﴿إنّ الله خبير﴾ يعلم ما في ضمائركم، ولا يخفى عليه شيء من سرائركم وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم، يريد فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم فإنّ الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله، وكلفه من اداء الرسالة فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه، وإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليكم وما الرسول إلا ناصح وهادٍ وما عليه إلا أن يبلغ ماله نفع في قبولكم، ولا عليه ضرر في توليكم والبلاغ بمعنى: التبليغ كالأداء بمعنى التأدية، ومعنى المبين كونه مقرونًا بالآيات والمعجزات.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

الخطاب لرسول الله ﷺ، ولمن معه ومنكم للبيان كالتي في آخر سورة الفتح وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر ويورثهم الأرض، ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل ببني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة وأن يمكن الدين المرتضى، وهو دين الإسلام وتمكينه تثبيته وتوطيده وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه وذلك أنّ النبي ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح، فقال ﷺ: لا تغبرون إلا يسيرًا حتى يجلس الرجل منكم الملأ العظيم محتبيًا ليس معه حديدة[3]، فأنجز الله وعدهم وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم، وفسقوا وذلك قوله ﷺ: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكًا، ثم تصير بزيزي قطع سبيل وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها[4]، وقرئ كما استخلف على

(1) سورة مريم، الآية: 35.
(2) سورة محمد، الآية: 4.
(3) ذكرهُ الواحدي في أسباب النزول، ص: 186.
(4) أخرج أوله أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الخلفاء، (الحديث:= 4646)، والترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في الخلافة، (الحديث: 2226)، والحاكم في المستدرك 145/3. وأحمد في المسند 220/5.

البناء المفعول وليبدلنهم بالتشديد.

فإن قُلْتَ: أين القسم المتلقى باللام والنون في ﴿ليستخلفنهم﴾؟ قُلْتُ: هو محذوف تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم، أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم، فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قيل: أقسم الله ليستخلفنهم.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿يعبدونني﴾؟ قُلْتُ: إن جعلته استئنافًا لم يكن له محل كأن قائلاً قال: مالهم يستخلفون ويؤمنون فقل: يعبدونني، وإن جعلته حالاً عن وعدهم أي: وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم، وإخلاصهم فمحله النصب ﴿ومن كفر﴾ يريد كفران النعمة كقوله: فكفرت بأنعم الله ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أي: هم الكاملون في فسقهم حيث كفروا تلك النعمة العظيمة وجسروا على عملها.

فإن قُلْتَ: هل في هذه الآية دليل على أمر الخلفاء الراشدين؟ قُلْتُ: أوضح دليل وأبينه لأنّ المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم.

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

﴿وأقيموا الصلاة﴾ معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال لأنّ حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه، وكرّرت طاعة الرسول تأكيدًا لوجوبها، وقرئ لا يحسبن بالياء وفيه أوجه أن يكون معجزين في الأرض هما المفعولان والمعنى: لا يحسبن الذين كفروا أحدًا يعجز الله في الأرض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك وهذا معنى قوي جيد وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره في قوله: وأطيعوا الرسول.

وأن يكون الأصل لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأوّل وكان الذي سوّغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت لشيء واحد اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث، وعطف قوله: ﴿ومأواهم النار﴾ على لا يحسبنّ الذين كفروا معجزين كأنه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله ومأواهم النار، والمراد بهم المقسمون جهد أيمانهم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

أمر بأن يستأذن العبيد وقيل: العبيد والإماء والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ﴿ثلاث مرات﴾ في اليوم والليلة قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة وبالظهيرة لأنها وقت وضع الثياب للقائلة، وبعد صلاة العشاء لأنه وقت التجرُّد من ثياب اليقظة، والإلتحاف بثياب النوم وسمى كل واحدة من هذه الأحوال عورة لأن الناس يختل تسترهم، وتحفظهم فيها والعورة الخلل ومنها أعور الفارس وأعور المكان والأعور المختل العين، ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات، وبين وجه العذر في قوله: ﴿طوافون عليكم﴾ يعني: أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأدّى إلى الحرج، وروي أن مدلج بن عمرو وكان غلامًا أنصاريًا أرسله رسول الله ﷺ وقت الظهر إلى عمر ليدعوه فدخل عليه، وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر: لوددت أنّ الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده[1] وقد أنزلت عليه هذه الآية، وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضي الله تعالى عنه وقيل: نزلت في أسماء بنت أبي مرشد قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد وقيل: دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها[2]، وعن أبي عمرو الحلم بالسكون، وقرئ ثلاث عورات بالنصب بدلاً عن ثلاث مرات أي: أوقات ثلاث عورات وعن الأعمش عورات على لغة هذيل.

فإن قُلْتَ: ما محل ليس عليكم؟ قُلْتُ: إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف والمعنى: هنّ ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان وإذا نصبت لم يكن له محل، وكان كلامًا مقرّرًا للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة.

فإن قُلْتَ: بم ارتفع ﴿بعضكم﴾ قُلْتُ: بالابتداء وخبره ﴿على بعض﴾ على معنى طائف على بعض وحذف لأن طوافون يدل عليه، ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمرًا لتلك الدلالة.

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾.

﴿الأطفال منكم﴾ أي: من الأحرار دون المماليك ﴿الذين من قبلهم﴾ يريد الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وهم الرجال أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول، ص: 186.

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول، ص 187.

الآية، والمعنى أنّ الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث فإذا اعتاد الأطفال ذلك، ثم خرجوا عن حدّ الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السن التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن، وهذا مما الناس منه في غفلة وهو عندهم كالشريعة المنسوخة وعن ابن عباس آية لا يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن، وإني لآمر جارتي أن تستأذن عليّ وسأله عطاء أأستأذن على أختي قال: نعم، وإن كانت في حجرك تمونها وتلا هذه الآية وعنه ثلاث آيات جحدهنّ الناس الإذن كله وقوله: ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] فقال: ناس أعظمكم بيتًا وقوله: وإذا حضر القسمة، وعن ابن مسعود عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم، وعن الشعبي ليست منسوخة فقيل له: إن الناس لا يعملون بها، فقال: الله المستعان وعن سعيد بن جبير يقولون: هي منسوخة ولا والله ما هي منسوخة، ولكن الناس تهاونوا بها.

فإن قُلْتَ: ما السن التي يحكم فيها بالبلوغ؟ **قُلْتُ:** قال أبو حنيفة ثماني عشرة سنة في الغلام وسبع عشرة في الجارية وعامة العلماء على خمس عشرة فيهما، وعن علي رضي الله عنه أنه كان يعتبر القامة ويقدر بخمسة أشبار وبه أخذ الفرزدق في قوله:

مازال مذ عقدت يداه إزاره فسما فأدرك خمسة الأشبار

واعتبر غيره الإنبات وعن عثمان رضي الله عنه أنه سئل عن غلام فقال: هل إخضرّ إزاره.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

القاعد التي قعدت عن الحيض والولد لكبرها **﴿لا يرجون نكاحًا﴾** لا يطمعن فيه، والمراد بالثياب، الثياب الظاهرة كالملحفة، والجلباب الذي فوق الخمار **﴿غير متبرجات بزينة﴾** غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفية التي أرادها في قوله: ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو غير قاصدات بالوضع التبرج، ولكن التخفف إذا احتجن إليه والاستعفاف من الوضع خير لهنّ لما ذكر الجائز عقبه بالمستحب بعثًا منه على اختيار أفضل الأعمال، وأحسنها كقوله: وأن تعفوا أقرب للتقوى وأن تصدقوا خير لكم.

فإن قُلْتَ: ما حقيقة التبرج؟ **قُلْتُ:** تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم: سفينة بارج لا غطاء عليها والبرج سعة العين يرى بياضها محيطًا بسوادها كله لا يغيب منه شيء إلا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها، وإظهار محاسنها وبدا وبرز بمعنى: ظهر من أخوات تبرج وتبلج كذلك.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم، فيطعمونهم منها فخالج قلوب المُطْعِمِين والمُطعَمِيْن ريبة في ذلك وخافوا أن يلحقهم فيه حرج وكرهوا أن يكون أكلاً بغير حق لقوله تعالى: ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾[2] فقيل لهم: ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم يعني: عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك، وعن عكرمة كانت الأنصار في أنفسها قزازة فكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا، وقيل: كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم لما عسى يؤدي إلى الكراهة من قبلهم ولأنّ الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيله إليه، وهو لا يشعر والأعرج يتفسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه، فيضيق على جليسه والمريض لا يخلو من رائحة تؤذى أو جرح يبض أو أنف يذن ونحو ذلك وقيل: كانوا يخرجون إلى الغزو، ويخلّفون الضعفاء في بيوتهم ويدفعون إليهم المفاتيح، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرجون. حكى عن الحرث بن عمرو أنه خرج غازيًا، وخلف مالك بن زيد في بيته وماله فلما رجع رآه مجهودًا فقال: ما أصابك قال: لم يكن عندي شيء ولم يحلّ لي أن آكل من مالك فقيل: ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت وهذا كلام صحيح وكذلك إذا فسر بأن هؤلاء ليس عليهم حرج في القعود عن الغزو ولا عليكم أن تأكلوا من البيوت المذكورة لالتقاء الطائفتين في أن كل واحدة منهما منفى عنها الحرج، ومثال هذا أن يستفتيك مسافر عن الإفطار في رمضان وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر، فقلت: ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاج أن تقدم الحلق على النحر.

فإن قُلْتَ: هلاّ ذكر الأولاد! **قُلْتُ:** دخل ذكرهم تحت قوله: **﴿من بيوتكم﴾** لأنّ ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه وفي الحديث: «إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه».[3] ومعنى من بيوتكم من البيوت التي فيها

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

(2) سورة البقرة، الآية: 188.

(3) وأخرجه ابن حبان، في كتاب: الرضاع، باب: النفقة، (الحديث: 4260).

أزواجكم، وعيالكم ولأنّ الولد أقرب ممن عدد من القرابات فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولى.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾؟ قُلْتُ: أموال الرجل إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له أن يأكل من ثمر بستانه، ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتح كونها في يده وحفظه وقيل: بيوت المماليك لأنّ مال العبد لمولاه، وقرئ مفتاحه.

فإن قُلْتَ[1]: فما معنى ﴿أو صديقكم﴾؟ قُلْتُ: معناه أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون واحدًا وجمعًا وكذلك الخليط والقطين والعدوّ. يحكى عن الحسن أنه دخل داره، وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سرورًا وضحك، وقال: هكذا وجدناهم هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين رضي الله عنهم، وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب، فيسأل جاريته كيسه فيأخذ منه ما شاء فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سرورًا بذلك، وعن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس، والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ والابن، وعن ابن عباس رضي الله عنهما الصديق أكبر من الوالدين إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمّهات فقالوا: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم وقالوا: إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك قام ذلك مقام الإذن الصريح، وربما سمج الاستئذان وثقل كمن قدّم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه ﴿جميعًا أو أشتاتًا﴾ أي: مجتمعين أو متفرّقين نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظرًا نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يواكله أكل ضرورة وقيل: في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم. وقيل: تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض ﴿فإذا دخلتم بيوتًا﴾ من هذه البيوت لتأكلوا فبدئوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم دينًا وقرابة[2] ﴿تحية من عند الله﴾ أي: ثابتة بأمره مشروعة من لدنه، أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله، ووصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق وعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، وروي تسع سنين فما قال لي: لشيء فعلته لِمَ فعلته ولا قال لي: لشيء كسرته لِمَ كسرته وكنت واقفًا على رأسه أصب الماء على يديه، فرفع رأسه فقال: ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت: بلى بأبي وأمي يا رسول الله قال: متى لقيت من أمّتي أحدًا فسلم عليه يطل عمرك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوّابين[3] وقالوا: إن لم يكن في البيت أحد فليقل: السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت، ورحمة الله وعن ابن عباس إذا دخلت المسجد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين تحية من عند الله، وانتصب تحية بسلموا لأنها في معنى تسليمًا كقولك: قعدت جلوسًا.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه ﴿وإذا كانوا معه على أمر جامع﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرًا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده توكيدًا وتشديدًا حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله: إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله وضمنه شيئًا آخر وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين، وعرض بحال المنافقين وتسللهم لواذا، ومعنى قوله: ﴿لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته، وإذنه لمن استصوب أن يأذن له، والأمر الجامع الذي يجمع له الناس، فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاور في خطب مهم أو تضام لإرهاب مخالف أو

= أخرجه أبو داود في كتاب: البيوع، باب: الرجل يأكل من مال ولده، (الحديث: 3528)، والترمذي في الأحكام، باب: ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده (الحديث: 1358)، وابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: ما للرجل من مال ولده (الحديث: 2290)، والنسائي في كتاب: البيوع، باب: الحث على الكتب. وأحمد في المسند، 6/ 162، والحاكم في المستدرك 2/46.

(1) قال أحمد: وقد قال الزمخشري: إن سر إفراده في قوله تعالى: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ دون الشافعين التنبيه على قلة الأصدقاء، ولا كذلك الشافعون، فإنّ الإنسان قد يحمى له = ويشفع في حقه من لا يعرفه فضلاً عن أن يكون صديقاً، ويحتمل في الآيتين والله أعلم: أن يكون المراد به الجمع، فلا كلام ويحتمل أن يراد الإفراد فيكون سره ذلك والله أعلم.

(2) قال أحمد: وفي التعبير عنهم بالأنفس تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة، وأنّ ذلك إنما كان لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه لاتحاد القرابة، فليطب نفساً بالبساط فيها والله أعلم.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في مقاربة ومواداة أهل الدين، (الحديث: 8758).

تسامح في حلف، وغير ذلك أو الأمر الذي يعم بضرره أو بنفعه، وقرئ أمر جميع وفي قوله: إذا كانوا معه على أمر جامع أنه خطب جليل لا بد لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوّة يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيئ بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه فمن غلظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط الحاجة إليه واعتراض ما يهمهم ويعنيهم وذلك قوله: ﴿لبعض شأنهم﴾، وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أنّ الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه وقيل: نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إذن وقالوا: كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل، ولا يتفرقون عنهم والأمر في الإذن مفوّض إلى الإمام إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن على حسب ما اقتضاه رأيه.

لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾.

إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضًا، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضًا ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه ولا تقولوا: يا محمد ولكن يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض، والتواضع ويحتمل لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم، وفقيركم غنيكم يسأله حاجة فربما أجابه وربما ردّه قال: دعوات رسول الله ﷺ مسموعة مستجابة ﴿يتسللون﴾ ينسلون قليلاً قليلاً ونظير تسلل تدرّج وتدخل، واللواذ الملاوذة وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا يعني: ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض و﴿لواذًا﴾ حال أي: ملاوذين وقيل: كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيأذن له فينطلق الذي لم يؤذن له معه، وقرئ: ﴿لواذًا﴾ بالفتح، يقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه ومنه قوله تعالى: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، وخالفه عن الأمر إذا صدّعته دونه ومعنى ﴿الذين يخالفون عن أمره﴾ الذين يصدّون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون، فحذف المفعول لأنّ الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه، الضمير في أمره لله سبحانه أو للرّسول ﷺ والمعنى: عن طاعته ودينه ﴿فتنة﴾ محنة في الدنيا ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾ في الآخرة وعن ابن عباس رضي الله عنهما فتنة قتل وعن عطاء زلازل وأهوال عن جعفر بن محمد يسلط عليهم سلطان جائر.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾.

أدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد، وذلك أنّ قد إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما، فوافقت ربما في خروجها إلى معنى التكثير في نحو قوله:

فإن تمس مهجور الفناء فربما ... أقام به بعد الوفود وفود

ونحوه قول زهير:

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله

والمعنى: أنّ جميع ما في السمٰوات والأرض مختصة به خلقًا وملكًا وعلمًا، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون سترها عن العيون وإخفائها، وسينبئهم يوم القيامة بما ابطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم والخطاب والغيبة، في قوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكونا جميعًا للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عامًا ويرجعون للمنافقين والله أعلم عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفرقان مكية

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾.

البركة كثرة الخير وزيادته ومنها تبارك الله وفيه معنيان تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، والفرقان مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقًا مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال ألا ترى إلى قوله وقرآنًا فرقناه[2] لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً وقد جاء الفرق بمعناه قال: ومشركي كافر بالفرق، وعن ابن الزبير رضي الله عنه على عباده وهم رسول الله ﷺ وأمّته كما قال: لقد أنزلنا إليكم قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا،

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، والواحدي، زيلعي 2/453.

(2) قال أحمد: والأظهر ههنا هو المعنى الثاني؛ لأنّ في أثناء السورة بعد آيات، وقالوا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. قال الله تعالى= = كذلك أي: أنزلناه مفرّقاً، كذلك لنثبت به فؤادك، فيكون وصفه بالفرقان في أوّل السورة، والله أعلم، كالمقدّمة والتوطئة لما يأتي بعد.

والضمير في ﴿ليكون﴾ لعبده أو للفرقان ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير ﴿للعالمين﴾ للجنّ والإنس ﴿نذيرًا﴾ منذرًا أي: مخوّفًا أو إنذارًا كالنكير بمعنى: الإنكار ومنه قوله تعالى: ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾[1].

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾.

﴿الذي له﴾ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح أو نصب عليه.

فإن قُلْتَ:كيف جاز الفصل بين البدل والمبدل منه؟ قُلْتُ:ما فصل بينهما بشيء لأنّ المبدل منه صلته نزل، وليكون تعليل له فكأن المبدل منه لم يتمّ إلا به.

فإن قُلْتَ:في الخلق معنى التقدير فما معنى قوله: ﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديرًا﴾ كأنه قال: وقدّر كل شيء فقدّره! قُلْتُ:المعنى: انه أحدث كل شيء إحداثًا مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدّره وهيأه لما يصلح له مثاله انه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدّر المسوّى الذي تراه فقدّره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدّرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدّره لأمر ما، ومصلحة مطابقة لما قدّر له غير متجاف عنه أو سمى إحداث الله خلقًا لأنه لا يحدث شيئًا لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت فإذا قيل: خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكأنه قيل: وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجده متفاوتًا وقيل: فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء إلى أمد معلوم.

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾.

الخلق بمعنى الافتعال كما في قوله تعالى: ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانًا وتخلقون إفكًا﴾[2] والمعنى: انهم آثروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم لا يقدرون على شيء من أفعال الله ولا من أفعال العباد حيث لا يفتعلون شيئًا وهم يفتعلون لأن عبدتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير ﴿ولا يملكون﴾ أي: لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها أو جلب نفع إليها وهم يستطيعون، وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع التي يقدر عليها العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلا الله أعجز.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾.

﴿قوم آخرون﴾ قيل: هم اليهود وقيل: عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وأبو فكيهة الرومي قال: تلك النضر بن الحرث بن عبد الدار، جاء وأتى يستعملان في معنى: فعل فيعديان تعديته وقد يكون على معنى: وردوا ظلمًا كما تقول: جئت المكان ويجوز أن يحذف الجار ويوصل الفعل، وظلمهم أن جعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلامًا عربيًا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب، والزور أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه.

وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾.

﴿أساطير الأوّلين﴾ ما سطره المتقدمون من نحو أحاديث رستم واسفنديار جمع أسطار، أو أسطورة كأحدوثة ﴿اكتتبها﴾ كتبها لنفسه وأخذها كما تقول: استكب الماء واصطبه إذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه، وقرئ اكتتبها على البناء للمفعول والمعنى: اكتتبها كاتب له لانه كان أميًا لا يكتب بيده وذلك من تمام إعجازه، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب كقوله: واختار موسى قومه، ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه فانقلب مرفوعًا مستترًا بعد أن كان بارزًا منصوبًا، وبقي ضمير الأساطير على حاله فصار اكتتبها كما ترى.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: اكتتبها ﴿فهي تملى عليه﴾، وإنما يقال: أمليت عليه فهو يكتتبها! قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما اراد اكتتابها، أو طلبه فهي تملى عليه أو كتبت له وهو أميّ فهي تملى عليه أي: تلقي عليه من كتابه يتحفظها لأنّ صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب، وعن الحسن انه قول الله سبحانه: يكذبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار ووجهه أن يكون نحو قوله:

أفـــرح أن أرزأ الـــكـــرام وأن   أورث ذودًا شـصـائـصًـا نـبـلا

وحق الحسن أن يقف على الأولين ﴿بكرة وأصيلا﴾.

قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾.

أي: دائمًا أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس، وحين يأوون إلى مساكنهم أي: يعلم كل سر خفي في السمٰوات والأرض ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله ﷺ مع علمكم أنّ ما تقولونه باطل وزور، وكذلك باطن أمر رسول الله ﷺ، وبراءته مما تبهتونه به وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه.

فإن قُلْتَ: كيف طابق قوله: ﴿إنه كان غفورًا رحيمًا﴾ هذا المعنى؟ قُلْتُ: لما كان ما تقدّمه في معنى: الوعيد عقبه

---

(1) سورة القمر، الآيات: 16، 18، 21، 30.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 17.

بما يدل على القدرة عليه لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبًا، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل.

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾.

وقعت اللام في المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي، وخط المصحف سنة لا تغير وفي هذا استهانة وتصغير لشأنه، وتسميته بالرسول سخرية منهم، وظن كانهم قالوا: ما لهذا الزاعم انه رسول، ونحوه قول: فرعون إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون أي: إن صحَّ أنه رسول الله، فما باله حاله مثل حالنا ﴿يأكل الطعام﴾ كما نأكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد يعنون انه كان يجب أن يكون ملكًا مستغنيًا عن الأكل والتعيش؛ ثم نزلوا عن اقتراحهم ان يكون ملكًا إلى اقتراح أن يكون إنسانًا معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف.

أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾.

ثم نزلوا أيضًا فقالوا: وإن لم يكن مرفودًا بملك فليكن مرفودًا بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتزق كما الدهاقين والمياسير أو يأكلون هم من ذلك البستان، فينتفعون به في دنياهم ومعاشهم، وأراد بالظالمين إياهم بأعيانهم وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا: وقرئ فيكون بالرفع أو يكون له جنة بالياء ونأكل بالنون.

فإن قُلْتَ: ما وجها الرفع والنصب في فيكون؟ قُلْتُ: النصب لأنه جواب لولا بمعنى: هلا وحكمه حكم الاستفهام والرفع على أنه معطوف على أنزل ومحله الرفع الا تراك تقول لولا ينزل بالرفع، وقد عطف عليه يلقى وتكون مرفوعين ولا يجوز النصب فيهما لانهما في حكم الواقع بعد لولا ولا يكون إلا مرفوعًا، والقائلون هم كفار قريش: النضر بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم ﴿مسحورًا﴾ سحر فغلب على عقله أو ذا سحر وهو الرئة عنوا أنه بشر لا ملك.

انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾.

﴿ضربوا لك الأمثال﴾ أي: قالوا: فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة من نبوّة مشتركة بين إنسان وملك وإلقاء كنز عليك من السماء، وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضلالاً لا يجدون قولاً يستقرون عليه أو فضلوا عن الحق فلا يجدون طريقًا إليه.

تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾.

تكاثر خير ﴿الذي إن شاء﴾ وهب لك في الدنيا ﴿خيرًا﴾ مما قالوا: وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور، وقرئ ويجعل بالرفع عطفًا على جعل لأنّ الشرط إذا وقع ماضيًا جاز في جزائه الجزم والرفع كقوله:

وإن أتاه خليل يوم مسئلة يقول: لا غائب مالي ولا حرم

ويجوز في ويجعل لك إذا أدغمت أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع جميعًا، وقرئ بالنصب على أنه جواب الشرط بالواو.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾.

﴿بل كذبوا﴾ عطف على ما حكى عنهم يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة ويجوز أن يتصل بما يليه كأنه قال: بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة، السعير النار الشديدة الاستعار وعن الحسن رضي الله عنه انه اسم من أسماء جهنم.

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾.

﴿رأتهم﴾ من قولهم: دورهم تترا، أي: وتتناظر ومن قوله ﷺ: لا ترا أي: نارهما كأن بعضها يرى بعضًا[1] على سبيل المجاز[2]، والمعنى: إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر، ويجوز أن يراد إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبًا على الكفار، وشهوة للانتقام منهم الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض، وجاء في الأحاديث أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا.

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾.

ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضييق والإرهاق،

---

(1) تقدم في المائدة، الحديث: 457.

(2) قال أحمد: لا حاجة إلى حمله على المجاز، فإن رؤية جهنم جائزة، وقدرة الله تعالى صالحة، وقد تظافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إدراكاً حسياً وعقلياً، ألا ترى إلى قوله: ﴿سمعوا لها تغيظاً﴾ وإلى محاجتها مع الجنة، وإلى = قولها: هل من مزيد، وإلى اشتكائها إلى ربها، فأذن لها في نفسين إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها إذ لا محوج إليه، ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد لتطوح الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة والتحيز إلى فرق الفلاسفة، فالحق أنا متعبدون بالظاهر ما لم يمنع مانع والله أعلم.

حيث القاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصًا كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع، وقيل: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد، والثبور الهلاك ودعاؤه أن يقال: واثبوراه أي: تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك ﴿لا تدعوا﴾ أي: يقال لهم: ذلك أو هم أحقاء بأن يقال لهم: وإن لم يكن ثمة قول ومعنى:

﴿وادعوا ثبورًا كثيرًا﴾ إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدًا إنما هو ثبور كثير إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم الراجع إلى الموصولين محذوف يعني: وعدها المتقون وما يشاؤنه وإنما قيل: كانت لأنّ ما وعده الله وحده فهو في تحققه كأنه قد كان أو كان مكتوبًا في اللوح قبل أن براهم بأزمنة متطاولة أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله:

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾.

﴿كانت لهم جزاء ومصيرًا﴾؟ قُلْتُ: هو كقوله: نعم، الثواب وحسنت مرتفقًا فمدح الثواب ومكانه كما قال: بئس الشراب وساءت مرتفقًا فذم العقاب ومكانه لأنّ النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة وإن لا تنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء والضمير في.

لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾.

﴿كان﴾ لما يشاؤن والوعد الموعود أي: كان ذلك موعودًا واجبًا على ربك إنجازه حقيقًا أن يسئل، ويطلب لأنه جزاء وأجر مستحق وقيل: قد سأله الناس والملائكة في دعواتهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾.

يحشرهم فيقول: كلاهما بالنون والياء، وقرئ يحشرهم بكسر الشين ﴿وما يعبدون﴾ يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير، وعن الكلبي الأصنام ينطقها الله، ويجوز أن يكون عامًا لهم جميعًا.

فإن قُلْتَ: كيف صحّ استعمال ما في العقلاء؟ قُلْتُ: هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم بدليل قولك: إذا رأيت شبحًا من بعيد ما هو فإذا قيل: لك إنسان قلت: حينئذٍ من هو ويدلك قولهم: من لما يعقل أو أريد به الوصف كأنه قيل: ومعبوديهم الا تراك تقول: إذا أردت السؤال عن صفة زيد ما زيد تعني: أطويل أم قصير افقيه أم طبيب.

فإن قُلْتَ: ما فائدة أنتم وهم وهلا قيل أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل! قُلْتُ: ليس السؤال عن الفعل ووجوده لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤول عنه.

فإن قُلْتَ: فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه فما فائدة هذا السؤال؟ قُلْتُ: فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فيبهتوا وينخذلوا وتزيد حسرتهم، ويكون ذلك نوعًا مما يلحقهم من غضب الله وعذابه ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفًا للمكلفين وفيه كسر بيِّن لقول من يزعم أن الله يضل عباده على الحقيقة حيث يقول للمعبودين من دونه: أأنتم أضللتموهم أم هم ضلوا بأنفسهم فيتبرؤن من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين ويقولون: بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم، فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر سبب الكفر ونسيان الذكر وكان ذلك سبب هلاكهم، فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منه فهم لربهم الغنيّ العدل أشدّ تبرئة وتنزيهًا منه ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضل بالنعمة والتمتيع بها، وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة فشرحوا الإضلال المجازي الذي أسنده الله إلى ذاته في قوله: ﴿يضل من يشاء﴾[1] ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا: بل أنت أضللتهم[2] والمعنى: أأنتم أوقعتموهم في الضلال

(1) سورة فاطر، الآية: 8.

(2) قال أحمد: قد تقدم شرح عقيدة أهل الحق في هذا المعنى، وأن الباعث لهم على اعتقاد كون الضلال من خلق الله تعالى التزامهم للتوحيد المحض، والإيمان الصرف الذي دلّ على صحته بعد الأدلة العقلية. قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ والضلال شيء فوجب كونه خالقه هذا من حيث العموم، وأما من حيث الخصوص فأمثال قوله تعالى: ﴿يضلّ من تشاء ويهدي﴾ والأصل الحقيقة، وقول موسى عليه السلام: إن هي إلا فتنتك تضلّ بها من تشاء، وتهدي بها من تشاء، فلو كان الإضلال مستحيلاً على الله تعالى = لما جاز أن يخاطبه الكليم بما لا يجوز، فإذا أوضح ذلك فالملائكة لم يسئلوا في هذه الآية عن المضل لعبادهم حقيقة، فيقال لهم: من أضلّ هؤلاء؟ وإنما قيل لهم: أأنتم أضللتموهم أم هم ضلوا؟ فليس الجواب المطابق العتيد أن يقولوا: أنت أضللتهم، ولو كان معتقدهم أنّ الله هو المضل حقيقة، لكان قولهم في جواب هذا السؤال: بل أنت أضللتهم؟ مجاوزة لمحن السؤال ومحله، وإنما كان هذا الجواب مطابقاً لو قيل لهم: من أضلّ عبادي هؤلاء فقد وضح أن هذا السؤال لا يجاب عنه بما تخيله الزمخشري بتقدير أن يكون معتقدهم أن الله تعالى هو الذي أضلهم، وأن عدولهم عنه =

عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه بأنفسهم، وضل مطاوع أضله وكان القياس ضل عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق، والأصل إلى الطريق وللطريق وقولهم: أضل البعير في معنى: جعله ضالاً أي: ضائعًا لما كان أكثر ذلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط في حفظه قيل: أضله سواء كان منه فعل، أو لم يكن.

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾.

﴿سبحانك﴾ تعجب منهم قد تعجبوا مما قيل لهم؛ لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون، فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه أو نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون المتقدسون الموسومون بذلك، فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده أو قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، وأن يكون له نبيّ أو ملك أو غيرهما نداً، ثم قالوا: ما كان يصحّ لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحدًا دونك، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك، أو ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار قال الله تعالى: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾[1] يريد الكفرة والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، وقال أبو جعفر المدني: نتخذ على البناء للمفعول وهذا الفعل أعني اتخذ يتعدى إلى مفعول واحد كقولك: اتخذ وليًا وإلى مفعولين كقولك: اتخذ فلانًا وليًا قال الله تعالى: أم اتخذوا آلهة من الأرض وقال: واتخذ الله إبراهيم خليلاً، فالقراءة الأولى من المتعدى إلى واحد وهو من أولياء والأصل أن نتخذ أولياء فزيدت من لتأكيد معنى النفي، والثانية من المتعدى إلى مفعولين فالأوّل ما بني له الفعل والثاني من أولياء ومن للتبعيض أي: لا نتخذ بعض أولياء وتنكير أولياء من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام والذكر ذكر الله والإيمان به أو القرآن والشرائع، والبور الهلاك يوصف به الواحد والجمع ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ، هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير﴾[2] وقول القائل:

قالوا: خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وقرئ يقولون: بالتاء والياء فمعنى من قرأ بالتاء.

فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾.

فقد كذبوكم بقولكم: إنهم آلهة ومعنى من قرأ بالياء فقد كذبوكم بقولهم: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء.

فإن قُلْتَ: هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء؟ قُلْتُ: أي: والله هي مع التاء كقوله: بل كذبوا بالحق والجار والمجرور بدل من الضمير كأنه قيل: فقد كذبوا بما تقولون، وهي مع الياء كقولك: كتبت بالقلم، وقرئ يستطيعون بالتاء والياء أيضًا يعني فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم وقيل: الصرف التوبة وقيل: الحيلة من قولهم: إنه ليتصرف أي: يحتال، أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو أن يحتالوا لكم، الخطاب على العموم للمكلفين، والعذاب الكبير لاحق بكل مَن ظلم والكافر ظالم لقوله: إن الشرك لظلم عظيم، والفاسق ظالم لقوله: ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، وقرئ يذقه بالياء وفيه ضمير الله أو ضمير مصدر يظلم.

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾.

الجملة بعد إلا صفة لموصوف محذوف والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحدًا من المرسلين إلا آكلين وماشين وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور أعني من المرسلين ونحوه قوله عز من قائل: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[3] على معنى: وما منا أحد، وقرئ ويمشون على البناء للمفعول أي: تمشيهم حوائجهم، أو الناس ولو قرئ يمشون لكان أوجه لولا الرواية وقيل: هو احتجاج على من قال: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴿فتنة﴾ أي: محنة وابتلاء وهذا تصبير لرسول الله ﷺ على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل، يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض، والمعنى: أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وبمناصبتهم لهم العداوة

= ليس لأنهم لا يعتقدونه، ولكن لأنه لا يطابق، وقد بقي وراء ذلك نظر في أن جوابهم هذا يدل على معتقدهم الموافق لأهل الحق؛ لأنّ أهل الحق يعتقدون أن الله تعالى، وإن خلق لهم الضلالة إلا أن لهم اختياراً فيها وتميزاً لها، ولم يكونوا عليها مقسورين كما هم مقسورون على أفعال كثيرة يخلقها الله فيهم كالحركات الرعشية ونحوها، وقد قدمنا في مواضع أن كل فعل اختياري له نسبتان: إن نظر إلى كونه مخلوقاً، فهو منسوب إلى الله تعالى، وإن نظر إلى كونه اختيارياً للعبد، فهو منسوب إلى العبد، وبذلك قطعت الملائكة في قولهم: بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، فنسبوا =

= نسيان الذكر إليهم أي: الانهماك في الشهوات الذي نشأ عنه النسيان؛ لأنهم اختاروه لأنفسهم فصدقت نسبته إليهم، ونسبوا السبب الذي اقتضى نسيانهم، وانهماكهم في الشهوات إلى الله تعالى، وهو استدراجهم ببسط النعم عليهم فيها ضلوا، فلا تنافي بين معتقد أهل الحق وبين مضمون قول الملائكة حينئذٍ، بل هما متواطئان على أمر واحد، والله أعلم.

(1) سورة النساء، الآية: 76.
(2) سورة المائدة، الآية: 19.
(3) سورة الصافات، الآية: 164.

وأقاويلهم الخارجة عن حدّ الإنصاف، وأنواع أذاهم وطلب منهم الصبر الجميل ونحوه ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ وموقع ﴿أتصبرون﴾ بعد ذكر الفتنة موقع أيكم بعد الابتلاء في قوله: ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴿بصيرًا﴾ عالمًا بالصواب فيما يبتلى به وغيره، فلا يضيقن صدرك ولا يستخفنك أقاويلهم فإن في صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين وقيل: هو تسلية له عما عيروه به من الفقر حين قالوا: أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة وأنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء لينظر هل يصبرون وأنها حكمته ومشيئته يغني من يشاء ويفقر من يشاء وقيل: جعلناك فتنة لهم لأنك لو كنت غنيًا صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا، أو ممزوجة بالدنيا فإنما بعثناك فقيرًا ليكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي وقيل: كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقتهم يقولون: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إدلالاً بالسابقة فهو افتتان بعضهم ببعض.

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾.

أي: لا يأملون لقاءنا بالخير لأنهم كفرة أو لا يخافون لقاءنا بالشر والرجاء في لغة تهامة الخوف وبه فسر قوله تعالى: ﴿لا ترجون لله وقارًا﴾[1] جعلت الصيرورة إلى دار جزائه بمنزلة لقائه لو كان ملقيًا، اقترحوا من الآيات أن ينزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمدًا صادق حتى يصدقوه، أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه ولا يخلو إما أن يكونوا عالمين بأن الله لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء، وأن الله لا يصح أن يرى وإنما علقوا إيمانهم بما لا يكون وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك، وإنما أرادوا التعنت باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم كما فعل قوم موسى حين قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿في أنفسهم﴾؟ قُلْتُ: معناه أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال: إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴿وعتو﴾ وتجاوزوا الحدّ في الظلم يقال: عتا علينا فلان، وقد وصف العتو بالكبير فبالغ في إفراطه يعني: أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو، واللام جواب قسم محذوف وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية وفي أسلوبها قول القائل:

وجارة جساس أبأنا بنابها ... كليبا غلت ناب كليب بواؤها

وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب ألا ترى أن المعنى ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم وما أغلى نابا بواؤها كليب.

يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾.

﴿يوم يرون﴾ منصوب بأحد شيئين إما بما دلّ عليه ﴿لا بشرى﴾ أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى، أو يعدمونها ويومئذ للتكرير وإما بإضمار اذكر أي: اذكر يوم يرون الملائكة، ثم قال: ﴿لا بشرى يومئذٍ للمجرمين﴾ وقوله: للمجرمين إما ظاهر في موضع ضمير، وإما لأنه عام فقدتنا ولهم بعمومه ﴿حجرًا محجورًا﴾ ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو معاذ الله، وقعدك الله، وعمرك الله، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو موتوراً وهجوم نازلة أو نحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه: ويقول الرجل للرجل: أتفعل كذا وكذا فيقول: حجرا وهي من حجره إذا منعه لأنّ المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه، فلا يلحقه فكان المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك منعًا ويحجره حجرًا ومجيئه على فعل، أو فعل في قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما كان قعدك وعمرك كذلك وأنشدت لبعض الرجاز:

قالت وفيها حيدة وذعر ... عوذ بربي منكم وحجر

فإن قُلْتَ: فإذا قد ثبت أنه من باب المصادر، فما معنى وصفه بمحجور؟ قُلْتُ: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا: نيل ذائل والنيل الهوان وموت مائت والمعنى في الآية: أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم، وفزعوا منهم لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدوّ الموتور وشدة النازلة وقيل: هو من قول الملائكة: ومعناه حرامًا محرمًا عليكم الغفران والجنة والبشرى أي: جعل الله ذلك حرامًا عليكم.

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾.

ليس ههنا قدوم ولا ما يشبه القدوم ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف، وقرئ ضيف ومنّ على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها أثرًا ولا عثيرًا، والهباء ما يخرج من الكوّة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار وفي أمثالهم أقل من الهباء ﴿منثورًا﴾ صفة للهباء شبهه بالهباء في قلته وحقارته عنده وأنه لا ينتفع به، ثم بالمنثور منه لأنك تراه منتظمًا مع الضوء فإذا حركته

(1) سورة نوح، الآية: 13.

الريح رأيته قد تناثر وذهب كل مذهب ونحوه قوله: ﴿كعصف ماكول﴾[1] لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفًا بالآكال ولا أن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثرًا، أو مفعول ثالث لجعلناه أي: فجعلناه جامعًا لحقارة الهباء والتناثر كقوله: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾[2] أي: جامعين للمسخ والخسء ولام الهباء واو بدليل الهبوة.

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾.

المستقرّ: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرّين يتجالسون ويتحادثون، والمقيل: المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهنّ وملامستهنّ كما أنّ المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب، وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيَقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وفي معناه قوله تعالى: ﴿إنّ أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾[3] قيل: في تفسير الشغل افتضاض الأبكار ولا نوم في الجنة وإنما سمى مكان دعتهم واسترواحهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه وفي لفظ الأحسن رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الوجوه، وملاحة الصور إلى غير ذلك من التحاسين والزين.

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾.

وقرئ ﴿تشقق﴾ والأصل تتشقق فحذف بعضهم التاء وغيره أدغمها ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء كما تقول: شق السنام بالشفرة وانشق بها ونظيره قوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾[4].

فإن قُلْتَ: أيُّ فرق بين قولك: انشقت الأرض بالنبات وانشقت عن النبات؟ قُلْتُ: معنى انشقت به: أنّ الله شقها بطلوعه فانشقت به ومعنى انشقت عنه: أنّ التربة ارتفعت عنه عند طلوعه، والمعنى: أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد، وروي تنشق سماء سماء وتتنزل الملائكة إلى الأرض وقيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم، وفي معناه قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾[5]، وقرئ وننزل الملائكة وننزل الملائكة ونزل الملائكة، ونزلت الملائكة، وأنزل الملائكة، ونزل الملائكة، ونزل الملائكة على حذف النون الذي هو فاء الفعل من ننزل قراءة أهل مكة.

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾.

﴿الحق﴾ الثابت لأنّ كل ملك يزول يومئذٍ ويبطل ولا يبقى إلا ملكه، عض اليدين والأنامل والسقوط في اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والأرم وقرعها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفها، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه، وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس وكان يكثر مجالسة رسول الله ﷺ، وقيل: اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله ﷺ فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين، ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال: صبأت يا عقبة قال لا، ولكن آلى أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست في نفسي، فقال: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدًا فلم تطأ قفاه وتبزق في وجهه وتلطم عينه، فوجده ساجدًا في دار الندوة ففعل ذلك فقال النبي ﷺ: لا ألقاك خارجًا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل يوم بدر أمر عليًّا رضي الله عنه بقتله وقيل: قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصاري، وقال: يا محمد إلى من الصبية قال: إلى النار وطعن رسول الله ﷺ أبياً بأحد فرجع إلى مكة فمات[6].

وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾.

واللام في ﴿الظالم﴾ يجوز أن تكون للعهد يراد به عقبة خاصة، ويجوز أن تكون للجنس فيتناول عقبة وغيره، تمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقًا واحدًا وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والهوى أو أراد أني كنت ضالاً لم يكن لي سبيل قط، فليتني حصلت بنفسي في صحبة الرسول سبيلاً.

يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾.

وقرئ: ﴿يا ويلتي﴾ بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالى: فهذا أوانك وإنما قلبت الياء ألفًا كما في صحارى ومدارى، فلان كناية عن الإعلام كما أن الهن كناية عن الأجناس فإن أريد بالظالم عقبة فالمعنى ليتني لم أتخذ أبياً خليلاً فكنى عن اسمه وإن أريد به الجنس، فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة فجعله كناية عنه.

لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾.

﴿عن الذكر﴾ عن ذكر الله أو القرآن، أو موعظة الرسول ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق وعزمه على الإسلام،

---

(1) سورة الفيل، الآية: 5.
(2) سورة البقرة، الآية: 65.
(3) سورة يس، الآية: 55 ـ 56.
(4) سورة المزمل، الآية: 18.
(5) سورة البقرة، الآية: 210.
(6) ذكره الواحدي في أسباب النزول، ص: 189.

والشيطان إشارة إلى خليله سماه شيطانًا لأنه أضله كما يضل الشيطان، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة أو أراد إبليس وأنه هو الذي حمله على مخالة المضل ومخالفة الرسول، ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجنّ والإنس، ويحتمل أن يكون وكان الشيطان حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله، واتخذت يقرأ على الإدغام والإظهار، والإدغام أكثر.

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾.

الرسول محمد ﷺ وقومه قريش حكى الله عنه شكواه قومه إليه وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية، وتخويف لقومه لأنّ الأنبياء كانوا إذا التجؤا إليه وشكوا إليه قومهم حلّ بهم العذاب ولم ينظروا.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾.

ثم أقبل عليه مسليًا ومواسيًا وواعدًا النصرة عليهم فقال: ﴿وكذلك﴾ كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفاك بي هاديًا إلى طريق قهرهم والانتصار منهم وناصرًا لك عليهم، مهجورًا تركوه وصدّوا عنه وعن الإيمان به وعن النبي ﷺ من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفًا لم يتعاهده، ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقًا به يقول: يا رب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجورًا اقض بيني وبينه[1]، وقيل هو من هجر إذا هذى أي: جعلوه مهجورًا فيه فحذف الجار وهو على وجهين أحدهما زعمهم أنه هذيان وباطل وأساطير الأوّلين، والثاني أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه كقوله تعالى: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾[2] ويجوز أن يكون المهجور بمعنى: الهجر كالمجلود والمعقول والمعنى اتخذوه هجرًا، والعدوّ يجوز أن يكون واحدًا وجمعًا كقوله: ﴿فإنهم عدوّ لي﴾[3] وقيل: المعنى وقال الرسول يوم القيامة.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾.

﴿نزل﴾ ههنا بمعنى أنزل لا غير كخبر بمعنى أخبر وإلا كان متدافعًا وهذا أيضًا من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه قالوا: هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وماله أنزل على التفاريق والقائلون قريش وقيل: اليهود وهذا فضول من القول: ومماراة بما لا طائل تحته لأنّ أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقًا، وقوله: ﴿كذلك﴾ جواب لهم أي: كذلك أنزل مفرّقًا، والحكمة فيه أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه لأنّ المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئًا بعد شيء وجزأ عقيب جزء ولو ألقي عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا بحفظه، والرسول ﷺ فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام حيث كان أمّيًا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بدّ من التلقن والتحفظ فأنزل عليه منجمًا في عشرين سنة وقيل: في ثلاث وعشرين وأيضًا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين، ولأنّ بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرّقًا.

فإن قُلْتَ: ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدّمه والذي تقدّم هو إنزاله جملة واحدة، فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرّقًا؟ قُلْتُ: لأنّ قولهم: لولا أنزل عليه جملة معناه لم أنزل مفرّقًا والدليل على فساد هذا الاعتراض أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحدّوا بسورة واحدة من أصغر السور فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة، وفزعوا إلى المحاربة، ثم قالوا: هلا نزل جملة واحدة كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته ﴿ورتلناه﴾ معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك كأنه قال: كذلك فرقناه ورتلناه، ومعنى ترتيله: أن قدّره آية بعد آية ووقفة عقيب وقفة، ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾[4] أي: اقرأه بترسل وتثبت ومنه حديث عائشة رضي الله عنها في صفة قراءته ﷺ لا كسركم هذا لو أراد السامع أن يعدّ حروفه يعدّها[5]، وأصله الترتيل في الأسنان وهو تفليجها يقال: ثغر رتل ومرتل ويشبه بنور الأقحوان في تفليجه، وقيل: هو أنزله مع كونه متفرّقًا على تمكث وتمهل في مدّة متباعدة وهي عشرون سنة ولم يفرقه في مدّة متقاربة.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾.

﴿ولا يأتونك﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثل في البطلان إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ومؤدّى من سؤالهم، ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل: معناه كذا وكذا أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقى إليك كنز أو تكون لك جنة، أو ينزل عليك القرآن جملة إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره.
(2) سورة فصلت، الآية: 26.
(3) سورة الشعراء، الآية: 77.
(4) سورة المزمل، الآية: 4.
(5) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، الحديث: 3568. ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبو هريرة رضي الله عنه، الحديث: (160ـ 2493)، والترمذي في كتاب: المناقب، باب: في كلام النبي ﷺ، (الحديث: 3639).

لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه، وما هو أحسن تكشيفًا لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعني: أنّ تنزيله مفرّقًا وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها أدخل في الإعجاز، وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم: جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه كأنه قيل لهم: إنّ حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أنّ مكانكم شر من مكانه، وسبيلكم أضل من سبيله وفي طريقته قوله قل: ﴿هل انبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله مَن لعنه الله وغضب عليه﴾ الآية، ويجوز أن يراد بالمكان الشرف والمنزلة وأن يراد الدار والمسكن كقوله: ﴿أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا﴾[1] وصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي، وعن النبي ﷺ يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث: ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلاً[2].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

الوزارة تنافي النبوّة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضًا، والمعنى: فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم كقوله: ﴿اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾[3] أي: فضرب فانفلق أراد اختصار القصة فذكر حاشيتها أوّلها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثه الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم وعن عليّ رضي الله عنه، فدمّرتهم وعنه فدمّراهم، وقرئ: ﴿فدمّرانهم﴾ على التأكيد بالنون الثقيلة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

كأنهم كذبوا نوحًا ومن قبله من الرسل صريحًا وكان تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع، ولم يروا بعثة الرسل أصلاً كالبراهمة ﴿وجعلناهم﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿للظالمين﴾ إمّا أن يعني بهم: قوم نوح وأصله وأعتدنا لهم إلا أنه قصد تظليمهم، فاظهر وإمّا أن يتناولهم بعمومه.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

عطف عادًا على هم في جعلناهم أو على الظالمين لأنّ المعنى: وعدنا الظالمين، وقرئ وثمود على تأويله القبلة وأما المنصرف فعلى تأويل الحي أو لأنه اسم الأب الأكبر قيل: في أصحاب الرس كانوا قومًا من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش فبعث الله إليهم شعيبًا فدعاهم إلى الإسلام، فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينا هم حول الرس، وهو البئر غير المطوية عن أبي عبيدة، انهارت بهم، فخسف بهم وبديارهم وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم، فهلكوا وهم بقية ثمود قوم صالح وقيل هم: أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له: فتخ وهي تنقض على صبيانهم، فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة، ثم أنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا وقيل هم: أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود وقيل: الرس بإنطاكية قتلوا فيها حبيبًا النجار وقيل: كذبوا نبيهم ورسوه في بئر أي: دسوه فيها ﴿بين ذلك﴾ أي: بين ذلك المذكور وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة، ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادًا متكاثرة، ثم يقول: فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب، أو المعدود.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ضربنا له الأمثال﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأوّلين ووصفنا لهم ما أجروا إليه من تكذيب الأنبياء، وجرى عليهم من عذاب الله وتدميره، والتتبير: التفتيت والتكسير ومنه التبر وهو كسار الذهب والفضة والزجاج، وكلا الأوّل منصوب بما دل عليه ضربنا له الأمثال وهو أنذرنا، وحذرنا والثاني بتبرنا لأنه فارغ له.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط وكانت خمسًا أهلك الله تعالى أربعًا بأهلها وبقيت واحدة، ومطر السوء الحجارة يعني: أن قريشًا مرّوا مرارًا كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ﴿أفلم يكونوا﴾ في مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله وينكرون ﴿بل كانوا﴾ قومًا كفرة بالبعث لا يتوقعون ﴿نشورًا﴾ وعاقبة فوضع الرجاء موضع التوقع لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن، فمن ثم لم ينظروا ولم ينكروا ومرّوا بها كما مرّت ركابهم أو لا يأمّلون نشورًا كما يأمّله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم أو لا يخافون على اللغة التهامية إنّ الأولى نافية

---

(1) سورة مريم، الآية: 73.

(2) 1 ـ أخرجه أحمد في المسند، 5/164.
2 ـ أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة، والرقائق والورع، = باب: ما جاء في شأن المحشر، (الحديث: 2424).

(3) سورة الشعراء، الآية: 63.

والثانية مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينهما.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾.

واتخذه هزوًا في معنى استهزأ به والأصل اتخذه موضع هزوًا ومهزوءًا به ﴿أهذا﴾ محكي بعد القول المضمر وهذا استصغار ﴿وبعث الله رسولاً﴾، وإخراجه في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء ولو لم يستهزؤا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادّعى أنه مبعوث من عند الله رسولاً.

إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾.

وقولهم: ﴿إن كاد ليضلنا﴾ دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم و﴿لولا﴾ في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى، لا من حيث الصنعة مجرى التقيد للحكم المطلق ﴿وسوف يعلمون﴾ وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدّة الإمهال ولا بدّ للوعيد أن يلحقهم فلا يغرّنهم التأخير وقوله: ﴿من أضل سبيلا﴾ كالجواب عن قولهم: إن كاد ليضلنا لأنه نسبة لرسول الله ﷺ إلى الضلال من حيث لا يضلّ غيره إلا من هو ضال في نفسه ويروى أنه من قول أبي جهل لعنه الله.

أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾.

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي ويذر لا يتبصر دليل ولا يصغي إلى برهان، فهو عابد هواه وجاعله إلهه فيقول لرسوله: هذا الذي لا يرى معبودًا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه، وتجبره على الإسلام وتقول لا بدّ أن تسلم شئت أو أبيت ولا إكراه في الدين وهذا كقوله: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾[1] ﴿لست عليهم بمصيطر﴾[2] ويروى أنّ الرجل منهم كان يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر ومنهم الحرث بن قيس السهمي أم هذه منقطعة معناه: بل أتحسب كان هذه المذمة أشدّ من التي تقدّمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول، لأنّهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنًا ولا إلى تدبره عقلاً ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال، ثم أرجح ضلالة منها.

فإن قُلْتَ: لم أخر هواه والأصل قولك: اتخذ الهوى إلهًا! قُلْتُ: ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأوّل للعناية كما تقول: علمت منطلقًا زيدًا لفضل عنايتك بالمنطلق[3].

فإن قُلْتَ: ما معنى ذكر الأكثر؟ قُلْتُ: كان فيهم من لم يصده عن الإسلام الأداء واحد وهو حب الرياسة وكفى به داء عضالاً.

فإن قُلْتَ: كيف جعلوا أضل من الأنعام؟ قُلْتُ: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها، وتتعهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾.

﴿ألم ترى إلى ربك﴾ ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ومعنى مدّ الظل: أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس ﴿ولو شاء لجعله ساكنًا﴾ أي: لاصقًا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة غير منبسط، فلم ينتفع به أحد سمى انبساط الظل وامتداده تحركًا منه وعدم ذلك سكونًا ومعنى كون الشمس دليلاً أنّ الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتًا في مكان زائلاً ومتسعًا ومتقلصًا، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك.

ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾.

وقبضه إليه أنه ينسخه بضح الشمس ﴿يسيرًا﴾ أي: على مهل وفي هذا القبض اليسير شيئًا بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعًا.

فإن قُلْتَ: ثم في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قُلْتُ: موقعها للبيان تفاضل الأمور الثلاثة كان الثاني أعظم من الأوّل، والثالث أعظم منهما تشبيهًا لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت ووجه آخر وهو أنه مدّ الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة، ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فينأ ناما في أديمه جوب لعدم النير ولو شاء لجعله ساكنًا مستقرًا على تلك الحالة، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أي:

---

(1) سورة قٓ، الآية: 45.

(2) سورة الغاشية، الآية: 22.

(3) قال أحمد: وفيه نكتة حسنة، وهي إفادة الحصر، فإن الكلام قبل = دخول أرأيت مبتدأ وخبر المبتدأ: هواه، والخبر: إلهه، وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر، فكأنه قال: أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه، فهو أبلغ في ذمه وتوبيخه والله أعلم.

سلطها عليه ونصبها دليلاً متبوعًا له كما يتبع الدليل في الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص، ثم نسخه بها فقبضه قبضًا سهلاً يسيرًا غير عسير ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تبقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله: ﴿قبضناه إلينا﴾ يدل عليه وكذلك قوله: ﴿يسيرًا﴾ كما قال: ذلك حشر علينا يسير.

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾.

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر والسبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة وهذا كقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾[1].

فإن قُلْتَ: هلا فسرته بالراحة! قُلْتُ: النشور في مقابلته يأباه أباء العيوف الورد وهو مرنق وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه لأنّ الاحتجاب يستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة أيّ عبرة فيها لمن اعتبر وعن لقمان أنه قال لابنه: يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾.

قرئ الريح والرياح نشرًا إحياء ونشرًا جمع نشور وهي المحيية ونشرًا تخفيف نشر وبشرًا تخفيف بشر جمع بشور وبشرى و﴿بين يدي رحمته﴾ استعارة مليحة أي: قدّام المطر ﴿طهورًا﴾ بليغًا في طهارته وعن أحمد بن يحيى هو ما كان طاهرًا في نفسه مطهرًا لغيره، فإن كان ما قاله شرحًا لبلاغته في الطهارة كان سديدًا ويعضده قوله تعالى: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾، وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء، والطهور على وجهين في العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك: ماء طهور كقولك: طاهر والاسم قولك: لما يتطهر به طهور كالوضوء، والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار وقولهم: تطهرت طهورًا حسنًا كقولك: وضوأ حسنًا ذكره سيبويه ومنه قوله ﷺ: لا صلاة إلا بطهور[2] أي: طهارة.

فإن قُلْتَ: ما الذي يزيل عن الماء اسم الطهور؟ قُلْتُ: تيقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظنّ تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير، أو استعماله في البدن لأداء عبادة عند أبي حنيفة وعند مالك بن أنس رضي الله عنهما ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور.

فإن قُلْتَ: فما تقول في قوله ﷺ: حين سئل عن بئر بضاعة فقال: الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه[3]! قُلْتُ: قال الواقدي: كان بئر بضاعة طريقًا للماء إلى البساتين.

لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾.

وإنما قال: ﴿ميتًا﴾ لأنّ البلدة في معنى البلد في قوله: فسقناه إلى بلد ميت وأنه غير جار على الفعل كفعول ومفعال ومفعيل، وقرئ نسقيه بالفتح وسقى وأسقى لغتان وقيل: أسقاه جعل له سقيًا، الأناسي جمع إنسي أو إنسان ونحوه ظرابي في ظربان على قلب النون ياء والأصل أناسين وظرابين، وقرئ بالتخفيف بحذف باء أفاعيل كقولك: أناعم في أناعيم.

فإن قُلْتَ: إنزال الماء موصوفًا بالطهارة وتعليله بالإحياء والسقي يؤذن بأن الطهارة شرط في صحة ذلك كما تقول: حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش! قُلْتُ: لما كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكرامًا لهم وتتميمًا للمنة عليهم وبيانًا أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها في بواطنهم ثم في ظواهرهم وأن يربؤا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها كما ربأ بهم ربهم.

فإن قُلْتَ: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟ قُلْتُ: لأنّ الطير والوحش تبعد في طلب الماء، فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام ولأنها قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام بسقيهم.

فإن قُلْتَ: فما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة؟ قُلْتُ: معنى ذلك: أن عليه الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء فيهم غنية عن سقى السماء وأعقابهم وهم كثير منهم لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله: ﴿لنحيي به بلدة ميتًا﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء.

فإن قُلْتَ: لم قدم أحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟ قُلْتُ: لأنّ حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 60.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في لا تقبل صلاة بغير طهور، (الحديث: 1)، ومسلم عن ابن عمر في كتاب: الطهارة، باب: وجوب الطهارة للصلاة الحديث: (224).

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في بئر بضاعة، =

= (الحديث: 66) والترمذي في كتاب: الطهارة، باب: أن الماء لا ينجسه شيء، (الحديث: 66)، والنسائي في كتاب: المياه، باب: ذكر بئر بضاعة، (الحديث: 326)، وابن ماجه في كتاب: الطهارة، باب: الحياض، (الحديث: 519).

ومواشيهم لم يعدموا أسقياهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

يريد ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل عليهم السلام، وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه، ويشكروا ﴿فأبى﴾ أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها، وقيل: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وجود ورذاذ وديمة ورهام، فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله ورحمته وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما من عام أقل مطرًا من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء[1] وتلا هذه الآية وروي أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد، وينتزع من ههنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسي كأنه قال لنحيي به بعض البلاد الميتة ونسقيه بعض الأنعام والأناسي، وذلك البعض كثير.

فإن قُلْتَ: هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنواء؟ قُلْتُ: إن كان لا يراها إلا من الأنواء ويجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله فهو كافر وإن كان يرى أن الله خالقها، وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها لم يكفر.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾.

يقول لرسوله ﷺ: ﴿ولو شئنا﴾ لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى، و﴿لبعثنا في كل قرية﴾ نبيًا ينذرها وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك به وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالتشديد والتصبر.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فلا تطع الكافرين﴾ فيما يريدونك عليه وإنما أراد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين، وتحريكهم والضمير للقرآن أو لترك الطاعة الذي يدل عليه فلا تطع والمراد أن الكفار يجدون ويجتهدون في توهين أمرك، فقابلهم من جدك واجتهادك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به، وتعلوهم وجعله جهادًا كبيرًا لما يحتمل فيه من المشاق العظام ويجوز أن يرجع الضمير في به إلى ما دلّ عليه، ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا من كونه نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيرًا لوجبت على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله ﷺ تلك المجاهدات كلها، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له: ﴿وجاهدهم﴾ بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿جهادًا كبيرًا﴾ جامعًا لكل مجاهدة.

۞ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

سمى الماءين الكثيرين الواسعين بحرين والفرات البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة والأجاج نقيضه، ومرجعهما خلاهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج وهذا من عظيم اقتداره وفي كلام بعضهم، وبحران أحدهما مع الآخر ممزوج وماء العذب منهما بالأجاج ممزوج ﴿برزخا﴾ حائلاً من قدرته كقوله تعالى: ﴿بغير عمد ترونها﴾ يريد بغير عمد مرئية وهو قدرته، وقرئ: ﴿ملح﴾ على فعل وقيل: كأنه حذف من مالح تخفيفًا كما قال: وصليانًا بردًا يريد باردًا.

فإن قُلْتَ: ﴿وحجرًا محجورًا﴾ ما معناه؟ قُلْتُ: هي الكلمة التي يقولها: المتعوذ وقد فسرناها وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز كان كل واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له: حجرًا محجورًا كما قال: لا يبغيان أي: لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة، فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ ههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

أراد فقسم البشر قسمين ذوي نسب أي ذكورًا ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أي: إناثًا يصاهر بهن ونحوه قوله تعالى: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾[2] ﴿وكان ربك قديرًا﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشرًا نوعين ذكرًا وأنثى.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

الظهير والمظاهر كالعوين والمعاون وفعيل بمعنى: مفاعل غير عزيز، والمعنى: أنّ الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك. روي أنها نزلت في أبي جهل، ويجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾[3] كما جاء الصديق والخليط يريد بالكافر الجنس وأنّ بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله، وقيل: معناه وكان الذي يفعل هذا الفعل وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضرّ على ربه هينًا مهينًا من قولهم: ظهرت به إذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت إليه وهذا نحو قوله: ﴿أولئك لا خلاق لهم في

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك، 2/403.

(2) سورة القيامة، الآية: 39.

(3) سورة التحريم، الآية: 4.

الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم﴾[1].

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾.

مثال ﴿إلا من شاء﴾ والمراد إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول: ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثوابًا على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فأفاد فائدتين إحداهما قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثوابًا فإني أطلب الثواب والثانية إظهار الشفقة البالغة وأنك إن حفظت مالك أعتد بحفظك ثوابًا ورضي به كما يرضي المثاب بالثواب، ولعمري أنّ رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة وقيل: المراد التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾.

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء شرورهم مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء، وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده وعرفه أن الحيّ الذي لا يموت حقيق بأن يتوكل عليه وحده، ولا يتكل عليه غيره من الأحياء الذين يموتون، وعن بعض السلف أنه قرأها فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء آمنوا أم كفروا، وأنه خبير بأعمالهم كاف في جزاء أعمالهم.

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾.

﴿في ستة أيام﴾ يعني: في مدّة مقدارها هذه المدّة لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل، وقيل: ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة والظاهر أنها من أيام الدنيا، وعن مجاهد أوّلها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ووجهه أن يسمي الله لملائكته تلك الأيام المقدّرة بهذه الأسماء، فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه جرت التسمية على هذه الأيام وأما الداعي إلى هذا العدد أعني الستة دون سائر الأعداد فلا نشك أنه داعي حكمة لعلمنا أنه لا يقدر تقديرًا إلا بداعي حكمة وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلا معرفته، ومن ذلك تقدير لملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر وحملة العرش ثمانية والشهور اثني عشر والسموات سبعًا والأرض كذلك والصلوات خمسًا وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك والإقرار بدواعي الحكمة في جميع أفعاله وبأنّ ما قدّره حق وصواب هو الإيمان، وقد نص عليه في قوله: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانًا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾[2]، ثم قال: وما يعلم جنود ربك إلا هو وهو الجواب أيضًا في إن لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنهما إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليمًا لخلقه الرفق والتثبت وقيل: اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدًا للمسلمين، الذي خلق مبتدأ و﴿الرحمٰن﴾ خبره أو صفة للحي والرحمن خبر مبتدأ محذوف، أو بدل عن المستتر في استوى وقرئ الرحمن بالجرّ صفة للحي، وقرئ فسل والباء في به صلة سل كقوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾[3] كما تكون عن صلته في نحو قوله: ﴿ثم لتسألنّ يومئذٍ عن النعيم﴾[4] فسأل به كقوله: اهتمّ به واعتنى به واشتغل به وسأل عنه كقولك: بحث عنه وفتش عنه ونقر عنه أو صلة خبير أو تجعل خبيرًا مفعول سل يريد، فسل عنه رجلاً عارفًا يخبرك برحمته أو فسل رجلاً خبيرًا به وبرحمته أو فسل بسؤاله خبيرًا كقولك: رأيت به أسدًا أي: برؤيته، والمعنى: إن سألته وجدته خبيرًا أو تجعله حالاً عن الهاء تريد فسل عنه عالمًا بكل شيء، وقيل: الرحمن اسم من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدّمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل: فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب حتى يعرف من ينكره، ومن ثمة كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة يعنون مسيلمة وكان يقال له: رحمن اليمامة ﴿وما الرحمٰن﴾ يجوز أن يكون سؤالاً عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بما ويجوز أن يكون سؤالاً عن معناه لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم، والرحوم، والراحم، أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى.

﴿لما تأمرنا﴾ أي: للذي تأمّرناه بمعنى تأمرنا سجوده على قوله: أمرتك الخير، أو لأمرك لنا، وقرئ بالياء كأنّ بعضهم قال لبعض: أنسجد لما يأمرنا محمد ﷺ أو يأمرنا المسمى بالرحمن، ولا نعرف ما هو وفي ﴿زادهم﴾ ضمير اسجدوا للرحمن لأنه هو المقول.

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾.

البروج منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل والثور

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 77.
(2) سورة المدثر، الآية: 31.
(3) سورة المعارج، الآية: 1.
(4) سورة التكاثر، الآية: 8.

والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت سميت بالبروج التي هي القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البرج من التبرج لظهوره والسراج الشمس كقوله تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجًا﴾[1] وقرئ مسرجًا وهي الشمس والكواكب الكبار معها، وقرأ الحسن والأعمش وقمرًا منيرًا وهي جمع ليلة قمراء كأنه قال: وذا قمرًا منيرًا لأن الليالي تكون قمرًا بالقمر، فأضافه إليها ونظيره في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه قول حسان:

بردى يصفق بالرحيق السلسل

يريد ماء بردى ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى: القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

الخلفة من خلف كالركبة من ركب وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كلّ واحد منهما الآخر، والمعنى: جعلهما ذوي خلفة أي: ذوي عقبة أي: يعقب هذا ذاك وذاك هذا ويقال: الليل والنهار يختلفان كما يقال: يعتقبان ومنه قوله: واختلاف الليل والنهار ويقال: بفلان خلفة واختلاف إذا اختلف كثيرًا إلى متبرّزه، وقرئ يذكر ويذكر وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه يتذكر، والمعنى: لينظر في اختلافهما الناظر فيعلم أن لا بدّ لانتقالهما من حال إلى حال وتغيرهما من ناقل، ومغير ويستدل بذلك على عظم قدرته ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال عز وعلا: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾[2] أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته في أحدهما ورده من العبادة قام به في الآخر وعن الحسن رضي الله عنه من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب، ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وعباد الرحمٰن﴾ مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل: وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة، ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون وأضافهم إلى الرحمن تخصيصًا وتفضيلاً، وقرئ وعباد الرحمن، وقرئ يمشون ﴿هونًا﴾ حال أو صفة للمشي بمعنى: هينين أو مشيًا هينًا إلا أنّ في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونًا ما وقوله المؤمنون هينون لينون والمثل: إذا عزّ أخوك فهن[3] ومعناه إذا عاسر فياسر والمعنى: أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرًا وبطرًا، ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ولقوله: ويمشون في الأسواق ﴿سلامًا﴾ تسلمًا منكم لا نجاهلكم، ومتاركة لا خير بيننا ولا شر أي يتسلم منكم تسلمًا فأقيم السلام مقام التسلم وقيل قالوا: سدادًا من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم والمراد بالجهل السفه وقلة الأدب وسوء الرعة من قوله:

ألا لا يجهلنْ أحد علينا … فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وعن أبي العالية نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك لأنّ الإغضاء عن السفهاء، وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة وأسلم للعرض والورع.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

البيتوتة خلاف الظلول، وهو أن يدركك الليل نمت أو لم تنم وقالوا: من قرأ شيئًا من القرآن في صلاته وإن قلّ فقد بات ساجدًا وقائمًا وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره يقال: فلان يظل صائمًا ويبيت قائمًا.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿غرامًا﴾ هلاكًا وخسرانًا ملحًا لازمًا قال:

يوم النسار ويوم الجفا … ر كانا عذابًا وكانا غرامًا

وقال:

إن يعاقب يكن غرامًا وإن يعـ … ـط جزيلاً فإنه لا يبالي

ومنه الغريم لإلحاحه ولزامه، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذانًا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم كقوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾[4].

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ساءت﴾ في حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرًّا والمخصوص بالذمّ محذوف معناه ساءت مستقرًّا ومقامًا هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبرًا لها، ويجوز أن يكون ساءت بمعنى: أحزنت وفيها ضمير اسم إن ومستقر حال أو تمييز والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين ومترادفين وأن يكونا من كلام الله

---

(1) سورة نوح، الآية: 16.

(2) سورة القصص، الآية: 73.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض (الحديث: 1997)، والبيهقي في شعب الإيمان، =

= باب: في الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال الباطل، (الحديث: 8129).

(4) سورة المؤمنون، الآية: 60.

وحكايةً لقولهم.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

قرئ: ﴿يقتروا﴾ بكسر التاء وضمها، ويقتروا بتخفيف التاء وتشديدها والقتر والإقتار والتقتير التضييق الذي هو نقيض الإسراف، والإسراف مجاوزة الحدّ في النفقة ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسول الله ﷺ: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾[1]، وقيل: الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي فأما في القرب فلا إسراف وسمع رجل رجلاً يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوّجه ابنته وأحسن إليه فقال: وصلت الرحم وفعلت وصنعت رجاء بكلام حسن، فقال ابن لعبد الملك: إنما هو كلام أعدّه لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام دخل عليه الابن حاضر، فسأله عن نفقته وأحواله فقال: الحسنة بين السيئتين فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية، فقال لابنه: يا بنيّ أهذا أيضًا مما أعدّه وقيل: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعامًا للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبًا للجمال والزينة، ولكن كانوا يأكلون ما يسدّ جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحرّ والقرّ، وقال عمر رضي الله عنه: كفى سرفًا أن لا يشتهي رجل شيئًا إلا اشتراه فأكله[2] والقوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء، وقرئ قوامًا بالكسر وهو ما يقام به الشيء يقال: أنت قوامنا بمعنى: ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص المنصوبان أعني بين ذلك قوامًا جائز أن يكونا خبرين معًا وأن يجعل بين ذلك لغوًا، وقوامًا مستقرًّا وأن يكون الظرف خبرًا وقوامًا حالاً مؤكدة وأجاز الفراء أن يكون بين ذلك اسم كان على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن كقوله: (لم يمنع الشرب منها غير إن نطقت) وهو من جهة الإعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس بقوي لأنّ ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿حرّم الله﴾ أي: حرّمها والمعنى: حرّم قتلها و﴿إلا بالحق﴾ متعلق بهذا القتل المحذوف أو بلا يقتلون ونفي هذه المقبحات العظام عن الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم، كأنه قيل: والذين براهم الله وطهرهم مما أنتم عليه والقتل بغير الحق يدخل فيه الوأد وغيره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أيّ الذنب أعظم قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك قلت: ثم أيّ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت: ثم أي قال: أن تزاني حليلة جارك.[3] فأنزل الله تصديقه، وقرئ يلق فيه أثامًا، وقرئ يلقى بإثبات الألف وقد مر مثله والأثام جزاء الإثم بوزن الوبال والنكال ومعناهما قال:

جزى الله بن عروة حيث أمسى ... عقوقًا والعقوق له أثام

وقيل: هو الإثم ومعناه يلق جزاء أثام، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه أيامًا أي: شدائد يقال: يوم ذو أيام لليوم العصيب.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿يضاعف﴾ بدل من يلق لأنهما في معنى واحد كقوله:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا ... نجد حطبًا جزلاً ونارًا تأججا

وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب، وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال وكذلك يخلد، وقرئ ويخلد على البناء للمفعول مخففًا ومثقلاً من الإخلاد والتخليد، وقرئ وتخلد بالتاء على الالتفات.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿يبدل﴾ مخفف ومثل وكذلك سيآتهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات؟ **قُلْتُ:** إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعًا، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه وإبدال السيئات حسنات أنه يمحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات الإيمان والطاعة، والتقوى وقيل: يبدلهم بالشرك إيمانًا وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصانًا.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

يريد ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله ﴿متابًا﴾ مرضيًا عنده مكفرًا للخطايا محصلاً للثواب، أو فإنه تائب متابًا إلى الله الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين وفي كلام بعض العرب لله أفرح بتوبة العبد من المضل الواجد والظمآن الوارد والعقيم الوالد أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعًا حسنًا وأي مرجع.

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 29.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، 5/46، (الحديث: 5721).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة الفرقان، باب:= «والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر». (الحديث: 4761)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، الحديث: (141 ـ 86).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها تنزهًا عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه لأنّ مشاهدة الباطل شركة فيه ولذلك قيل: في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه في الإثم لأنّ حضورهم ونظرهم دليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه لأنّ الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة، ورغبتهم في النظر إليه وفي مواعظ عيسى ابن مريم عليه السلام إياكم ومجالسة الخطائين، ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وعن قتادة مجالس الباطل وعن ابن الحنفية اللهو والغناء وعن مجاهد أعياد المشركين. ﴿اللغو﴾ كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به مروا معرضين عنهم مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم، والخوض معهم كقوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[1] وعن الحسن رضي الله عنه لم تسفههم المعاصي وقيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وقيل: إذا ذكروا النكاح كنوا عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لم يخروا عليها﴾ ليس بنفي للخرور وإنما هو إثبات له ونفي للصمم والعمى كما تقول: لا يلقاني زيد مسلمًا هو للسلام لا للقاء والمعنى: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصًا على استماعها وأقبلوا على المنكر بها وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية مبصرون بعيون راعية لا كالذين ينكرون بها، فتراهم مكبين عليها مقبلين على من ينكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

قرئ ذريتنا وذرياتنا وقرة أعين وقرّات أعين سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجًا وأعقابًا عمالاً لله يسرون بمكانهم وتقرّ بهم عيونهم وعن محمد بن كعب ليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو الولد إذا رآه يكتب الفقه وقيل: سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم أراد أئمة فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، ولعدم اللبس كقوله تعالى: ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ وأرادوا جعل كل واحد منا إمامًا أو أراد جمع آمّ كصائم وصيام أو أرادوا جعلنا إمامًا واحدًا لاتحادنا واتفاق كلمتنا، وعن بعضهم في الآية ما يدل على أنّ الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة.

فإن **قُلْتَ**: من في قوله: من أزواجنا ما هي؟ **قُلْتُ**: يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل: هب لنا قرّة أعين ثم بينت القرّة وفسرت بقوله: من أزواجنا وذرياتنا ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرّة أعين وهو من قولهم: رأيت منك أسدًا أي: أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة وصلاح.

فإن **قُلْتَ**: لم قال: قرّة أعين فتنكر وقلل؟ **قُلْتُ**: أما التنكير فلأجل تنكير القرّة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قيل: هب لنا منهم سرورًا وفرحًا وإنما قيل: أعين دون عيون لأنه أراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قال الله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[2][3] ويجوز أن يقال: في تنكير أعين أنها أعين خاصة وهي أعين المتقين.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

المراد يجزون الغرفات وهي العلالي في الجنة فوحد اقتصارًا على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله وهم في الغرفات آمنون، وقراءة من قرأ في الغرفة ﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم وعلى الفقر وغير ذلك وإطلاقه لأجل الشياع في كل مصبور عليه، وقرئ يلقون كقوله تعالى: ولقاهم نضرة وسرورًا ويلقون كقوله تعالى: يلق أثامًا، والتحية دعاء بالتعمير والسلام دعاء بالسلامة يعني: أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم، أو يحيي بعضهم بعضًا ويسلم عليه، أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة عن كل آفة اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا مع أهل رحمتك وارزقنا مما ترزقهم في دار رضوانك.

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

لما وصف عبادة العباد وعدد صالحاتهم وحسناتهم وأثنى عليهم من أجلها ووعدهم الرفع من درجاتهم في الجنة أتبع ذلك بيان أنه إنما اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى

---

(1) سورة القصص، الآية: 55.

(2) سورة سبأ، الآية: 13.

(3) قال أحمد: والظاهر أن المحكي كلام كل أحد من المتقين، فكأنه قال: يقول كل واحد منهم: اجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة = أعين، وهذا أسلم من تأويله، فإنّ المتقين وإن كانوا بالإضافة إلى غيرهم قليلاً، إلا أنهم في أنفسهم على كثرة من العدد، والمعتبر في إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلاً في نفسه لا بالنسبة والإضافة، والله أعلم.

ذكرهم ووعدهم ما وعدهم لأجل عبادتهم، فأمر رسوله أن يصرح للناس ويجزم لهم القول: بأن الاكتراث لهم عند ربهم إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيئًا يبالي به، والدعاء العبادة وما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل: وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم يعني: أنكم لا تستأهلون شيئًا من العبء بكم لولا عبادتكم وحقيقة قولهم: ما عبأت به ما اعتددت به من فوادح همومي ومما يكون عبأ على كما تقول: ما اكترثت له أي: ما اعتددت به من كوارثي، ومما يهمني وقال الزجاج في تأويل ما يعبأ بكم ربي: أي وزن يكون لكم عنده، ويجوز أن تكون ما نافية ﴿فقد كذبتم﴾ يقول: إذا أعلمتكم أن حكمي اني لا أعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار ونظيره في الكلام أن يقول: الملك لمن استعصى عليه إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني ويتبع أمري فقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك وقيل: معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة.

فإن **قُلْتَ**:إلى من يتوجه هذا الخطاب **قُلْتُ**:إلى الناس على الإطلاق ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب، وقرئ فقد كذب الكافرون وقيل: يكون العذاب لزامًا وعن مجاهد رضي الله عنه هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لزامًا، وقرئ لزامًا بالفتح بمعنى: اللزوم كالثبات والثبوت والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتنهه الوصف والله أعلم بالصواب. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الفرقان لقي الله يوم القيامة وهو مؤمن بأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء مكية

طسٓمٓ ﴿١﴾.

﴿طسم﴾ بتفخيم الألف وإمالتها وإظهار النون وإدغامها.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾.

﴿الكتاب المبين﴾ الظاهر إعجازه وصحة أنه من عند الله والمراد به السورة أو القرآن والمعنى آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾.

البخع أن يبلغ بالنبح البخاع بالباء وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حدّ الذابح ولعل للإشفاق يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ لئلا يؤمنوا ولامتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا وعن قتادة رضي الله عنه ﴿باخع﴾ نفسك على الإضافة.

إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾.

اراد آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه ﴿فظلت﴾ معطوف على الجزاء الذي هو ﴿ننزل﴾ لأنه لو قيل: أنزلنا لكان صحيحًا ونظيره فأصدق وأكن كأنه قيل: أصدق، وقد قرئ لو شئنا لأنزلنا وقرئ فتظل أعناقهم.

فإن **قُلْتَ**:كيف صح مجيء خاضعين خبرًا عن الأعناق؟ **قُلْتُ**:أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فاقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله كقوله: ذهبت أهل اليمامة كان الأهل غير منكور أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل: خاضعين كقوله تعالى: ﴿لي ساجدين﴾[2] وقيل: أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم: هم الرؤس والنواصي والصدور قال: في محفل من نواصي الناس مشهود، وقيل: جماعات الناس يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم، وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية قال: ستكون لنا عليهم لدولة فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هو أن بعد عزة.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾.

أي وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيرًا إلا جددوا إعراضًا عنه وكفرًا به.

فإن **قُلْتَ**:كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء! **قُلْتُ**:إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض كأنه قيل: حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به وحين كذبوا به، فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية لأنّ من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه كان مصدقًا لا محالة ولم يظنّ به التكذيب، ومن كان مصدقًا به كان موقرًا له ﴿فسيأتيهم﴾ وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ﴿ما﴾ الشيء الذي كانوا يستهزئون به وهو القرآن وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التي كانت خافية عليهم.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾.

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، وذكره الواحدي في التفسير، زيلعي 469/2.

(2) سورة يوسف، الآية: 4.

وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم والكريم صفة لكل ما يرضي ويحمد في بابه يقال: وجه كريم إذا رضي في حسنه وجماله وكتاب كريم مرضي في معانيه وفوائده وقال: حتى يشق الصفوف من كرمه أي: من كونه مرضيًا في شجاعته وبأسه والنبات الكريم المرضي فيما يتعلق به من المنافع.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾.

﴿إن في﴾ إنبات تلك الأصناف ﴿لآية﴾ على أن منبتها قادر على إحياء الموتى، وقد علم الله أن ﴿أكثرهم﴾ مطبوع على قلوبهم غير مرجوّ إيمانهم.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾.

﴿وان ربك لهو العزيز﴾ في انتقامه من الكفرة ﴿الرحيم﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا.

فإن قُلْتَ: ما معنى الجمع بين كم وكل ولو قيل: كم أنبتنا فيها من زوج كريم؟ قُلْتُ: قد دلّ كل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة[1] فهذا معنى الجمع بينهما وبه نبه على كمال قدرته.

فإن قُلْتَ: فما معنى وصف الزوج بالكريم؟ قُلْتُ: يحتمل معنيين أحدهما أن النبات على نوعين نافع، وضار فنكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وخلى ذكر الضار والثاني أن يعم جميع النبات نافعه وضاره ويصفهما جميعًا بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئًا إلا وفيه فائدة لأنّ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة، وإن غفل عنها الغافلون ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون.

فإن قُلْتَ: فحين ذكر الأزواج ودلّ عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب كيف قال إن في ذلك لآية؟ وهلا قال آيات! قُلْتُ: فيه وجهان أن يكون ذلك مشارًا به إلى مصدر أنبتنا فكأنه قال: إن في الإنبات لآية أو آية وأن يراد أن في كل واحد من تلك الأزواج لآية، وقد سبقت لهذا الوجه نظائر سجل عليهم بالظلم بأن قدّم القوم الظالمين، ثم عطفهم عليهم عطف البيان كان معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون، وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد إن شاء ذاكرهم عبر عنهم بالقوم الظالمين وإن شاء عبر بقوم فرعون وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر، وشرارتهم ومن جهة ظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم لهم قرئ ألا يتقون بكسر النون بمعنى: ألا يتقونني، فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة.

قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿ألا يتقون﴾! قُلْتُ: هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيبًا لموسى من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله، ويحتمل أن يكون لا يتقون حالاً من الضمير في الظالمين أي: يظلمون غير متقين الله وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال وأمّا من قرأ ألا تتقون على الخطاب، فعلى طريقة الالتفات إليهم وجبههم وضرب وجوههم بالإنكار والغضب عليهم كما ترى من يشكو من ركب جناية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر، فإذا اندفع في الشكاية وحرّ مزاجه وحمي غضبه قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنف به ويقول له: ألم تتق الله ألم تستح من الناس.

فإن قُلْتَ: فما فائدة هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام في وقت المناجاة، والملتفت إليهم غيب لا يشعرون! قُلْتُ: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم، وإلقائه إلى مسامعهم لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرًا لها واعتبارًا بموردها، وفي ألا يتقون بالياء وكسر النون وجه آخر وهو أن يكون المعنى: ألا يا ناس اتقون كقوله: ألا يا اسجدوا.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾.

﴿ويضيق﴾ و﴿ينطلق﴾ بالرفع لأنهما معطوفان على خبر أنّ وبالنصب لعطفهما على صلة أن والفرق بينهما في المعنى: أنّ الرفع يفيد أنّ فيه ثلاث علل خوف التكذيب، وضيق الصدر وامتناع انطلاق اللسان والنصب على أنّ خوفه متعلق بهذه الثلاثة.

فإن قُلْتَ: في النصب تعليق الخوف بالأمور الثلاثة وفي جملتها نفي انطلاق اللسان وحقيقة الخوف إنما هي غم يلحق الإنسان لأمر سيقع وذلك كان واقعًا فكيف جاز تعليق الخوف به؟ قُلْتُ: قد علق الخوف بتكذيبهم وبما يحصل له بسببه من ضيق الصدر، والحبسة في اللسان زائدة على ما كان به على أنّ تلك الحبسة التي كانت به قد زالت بدعوته وقيل: بقيت منها بقية يسيرة.

فإن قُلْتَ: اعتذارك هذا يردّه الرفع لأنّ المعنى: إني خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسان؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها، ويجوز أن يريد القدر

---

(1) قال أحمد: فعلى مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير الأنواع، والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والأنعام، ويدل عليه أنه لو أسقطت كل، فقلت: انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من= الصنف الفلاني، لكنت مكنياً عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه، فإذا أدخلت كلا فقد أنبت بتكريره آحاد كل صنف، لا آحاد صنف معين، والله أعلم.

اليسير الذي بقي به، ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع الذين أوتوا سلاطة الألسنة وبسطة المقال وهرون كان بتلك الصفة، فأراد أن يقرن به ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وأخي هرون هو أفصح مني لسانًا﴾[1] ومعنى ﴿فأرسل إلى هرون﴾: أرسل إليه جبرائيل واجعله نبيًا وأزرني به واشدد به عضدي وهذا كلام مختصر وقد بسطه في غير هذا الموضع وقد أحسن في الاختصار حيث قال: فأرسل إلى هرون فجاء بما يتضمن معنى: الاستنباء ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى: ﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميرًا﴾[2] حيث اقتصر على ذكر طرفي القصة أوّلها وآخرها وهما الإنذار والتدمير ودلّ بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها، وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله فأراد الله إلزام الحجة عليهم، فبعث إليهم رسولين فكذبوهما فأهلكهم.

فإن قُلْتَ: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر، فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل وقد علم أنّ الله من ورائه؟ **قُلْتُ:** قد امتثل وتقبل، ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه، ثم التمس بعد ذلك وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر ليس بتوقف في امتثال الأمر ولا بتعلل فيه وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل لا على التعلل.

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾.

أراد بالذنب قتله القبطي وقيل: كان خباز فرعون واسمه: فاتون، يعني: ولهم عليّ تبعة ذنب، وهي قود ذلك القتل، فأخاف أن يقتلوني به فحذف المضاف، أو سمى تبعة الذنب ذنبًا كما سمى جزاء السيئة سيئة.

فإن قُلْتَ: قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللاً وجعلتها تمهيدًا للعذر فيما التمسه فما قولك في هذه الرابعة؟ **قُلْتُ:** هذه استدفاع للبلية المتوقعة وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة فكيف يكون تعللاً والدليل عليه ما جاء بعده من كلمة الردع والموعد بالكلاءة والدفع.

قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾.

جمع الله له الاستجابتين معًا في قوله: ﴿كلا فاذهبا﴾ لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الدفع بردعه عن الخوف والتمس منه الموازرة بأخيه، فأجابه بقوله: اذهبا أي: اذهب أنت والذي طلبته وهو هرون.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: فاذهبا! **قُلْتُ:** على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنّ فاذهب أنت وهرون وقوله: ﴿معكم مستمعون﴾ من مجاز الكلام نريد أنا لكما ولعدوّكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه فاظهركما وغلبكما وكسر شوكته عنكما ونكسه، ويجوز أن يكونا خبرين لأنّ أو يكون مستمعون مستقرًا ومعكم لغوًا.

فإن قُلْتَ: لم جعلت مستمعون قرينة معكم في كونه من باب المجاز والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسامع! **قُلْتُ:** ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة لأن الاستماع جار مجرى الإصغاء والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية ومنه قوله تعالى: ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا﴾[3] ويقال: استمع إلى حديثه وسمع حديثه أي: أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع ومنه قوله ﷺ: من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبّ في أذنيه البرم[4].

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾.

فإن قُلْتَ: هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله: إنا رسولا ربك! **قُلْتُ:** الرسول يكون بمعنى: المرسل وبمعنى: الرسالة فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بدّ من تثنيته وجعل ههنا بمعنى: الرسالة فجاز التسوية فيه إذا وصف به بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو صوم وزور قال:

ألكني إليها وخير الرسو ... ل أعلمهم بنواحي الخبر

فجعله للجماعة والشاهد في الرسول بمعنى: الرسالة قوله:

لقد كذب الواشون ما فهمت عندهم ... بسر ولا أرسلتهم برسول

ويجوز أن يوحد لأنّ حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكمًا واحدًا فكأنهما رسول واحد أو أريد أنّ كل واحد منا.

أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾.

﴿إن أرسل﴾ بمعنى أي: أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال، وتقول: أرسلت إليك أن افعل كذا لما في الإرسال من معنى القول كما في المناداة والكتابة، ونحو ذلك ومعنى هذا الإرسال التخلية والإطلاق كقولك: أرسل البازي يريد خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنهما ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب: إنّ ههنا إنسانًا يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه فأدّيا إليه الرسالة فعرف موسى.

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾.

فقال له: ﴿ألم نربك﴾ حذف فأتيا فرعون فقولا له ذلك لأنه معلوم لا يشتبه وهذا النوع من الاختصار كثير في التنزيل الوليد الصبي لقرب عهده من الولادة وفي رواية عن أبي عمرو ﴿من عمرك﴾ بسكون الميم ﴿سنين﴾ قيل: مكث عندهم ثلاثين سنة وقيل: وكز القبطي وهو ابن ثنتي

---

(1) سورة القصص، الآية: 34.

(2) سورة الفرقان، الآية: 36.

(3) سورة الجن، الآية: 1.

(4) قال الزيلعي: غريب جدًا، 2/473.

عشرة سنة وفرّ منهم على أثرها والله أعلم بصحيح ذلك، وعن الشعبي فعلتك بالكسر وهي قتلة القبطي لأنه قتله بالوكزة وهو ضرب من القتل وأمّا الفعلة فلأنها كانت وكزة واحدة عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك وفظعه.

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾.

بقوله[1]: ﴿**وفعلت فعلتك**﴾، التي فعلت ﴿**وانت من الكافرين**﴾ يجوز أن يكون حالاً أي: قتلته وأنت لذاك من الكافرين بنعمتي أو أنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لأنه كان يعايشهم بالتقية فإنّ الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبئه من كل كبيرة، ومن بعض الصغائر فما بال الكفر ويجوز أن يكون قوله: وأنت من الكافرين حكمًا عليه بأنه من الكافرين بالنعم، ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعًا منه أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم، فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم يشهد لذلك قوله تعالى: ويذرك وآلهتك، وقرئ إلهتك فأجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو.

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾.

﴿**من الضالين**﴾ أي: الجاهلين وقراءة ابن مسعود من الجاهلين مفسرة والمعنى من الفاعلين فعل أولي الجهل والسفه كما قال: يوسف لإخوته هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذا أنتم جاهلون أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل أو الذاهبين عن الصواب، أو الناسين من قوله: أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه وبرّأ ساحته بأن وضع الضالين موضع الكافرين ربأ بمحل من رشح للنبوّة عن تلك الصفة، ثم كرّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله واستأصله من سنخه وأبى أن يسمي نعمته إلا نقمة حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل لأنّ تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت، وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيدًا يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدًا قال:

علام يعبدني قومي وقد كثرت ... فيهم أباعر ما شاؤا وعبدان

فإن **قُلْتَ**: إذا جواب وجزاء معًا والكلام وقع جوابًا لفرعون، فكيف وقع جزاء؟ **قُلْتُ**: قول فرعون: ﴿**وفعلت فعلتك**﴾ فيه معنى إنك جازيت نعمتي بما فعلت فقال له موسى: نعم فعلتها، مجازيًا لك تسليمًا لقوله لأنّ نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازي بنحو ذلك الجزاء.

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾.

فإن **قُلْتَ**: لم جمع الضمير في ﴿**منكم**﴾ و﴿**خفتكم**﴾ مع إفراده في ﴿**تمنها**﴾ و﴿**عبدت**﴾؟ **قُلْتُ**: الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه، ومن ملئه المؤتمرين بقتله بدليل قوله: إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد.

فإن **قُلْتَ**: تلك إشارة إلى ماذا و﴿**أن عبدت**﴾ ما محلها من الإعراب؟ **قُلْتُ**: تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي إلا بتفسيرها ومحل أن عبدت الرفع عطف بيان لتلك ونظيره قوله تعالى: ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر أنّ دابر هؤلاء مقطوع**﴾[2] والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي وقال الزجاج: ويجوز أن يكون ﴿**أن**﴾ في موضع نصب المعنى إنما صارت نعمة علي لأن عبدت بني إسرائيل أي لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي، ولم يلقوني في اليم.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾.

لما قال له: بوابه إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له: عند دخوله ﴿**وما رب العالمين**﴾ يريد أي شيء رب العالمين؟ وهذا السؤال لا يخلو إما أن يريد به أي شيء هو من الأشياء التي شوهدت، وعرفت أجناسها فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ليعرفه أنه ليس بشيء مما شوهد، وعرف من الأجرام والأعراض وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ليس كمثله شيء وإما أن يريد به أي شيء مما شوهد، وعرف من الأجرام والأعراض وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ليس كمثله شيء وإما أن يريد به أي شيء هو على الإطلاق تفتيشًا عن حقيقته الخاصة ما هي، فأجابه بأنّ الذي إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذلك، وأمّا التفتيش عن حقيقته الخاصة التي هي فوق فطر العقول فتفتيش عما لا سبيل إليه والسائل عنه متعنت غير طالب للحق، والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام أن يكون سؤاله هذا إنكارًا لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية، فلما جاب موسى بما أجاب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره، فلما ثنى بتقرير قوله: جننه إلى قومه وطنز به[3] حيث سماه رسولهم فلما ثلث بتقرير آخر احتدّ واحتدم وقال: لئن اتخذت إلهًا غيري.

---

(1) قال أحمد: ووجه التفظيع عليه من ذلك أن في إتيانه به مجملاً مبهماً إيذاناً بأنه لفظاعته مما لا ينطق به، إلا مكنياً عنه، ونظيره في التفخيم المستفاد من الإبهام، قوله تعالى: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم إذ يغشى السدرة ما يغشى فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾. ومثله كثير. والله أعلم.

(2) سورة الحجر، الآية: 66.

(3) طنز به: أي سخر به.

وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير.

قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿وما بينهما﴾ على التثنية والمرجوع إليه مجموع! قُلْتُ: أريد وما بين الجنسين فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال: في الهيجا جمالين.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿إن كنتم موقنين﴾ وأين عن فرعون وملئه الإيقان؟ قُلْتُ: معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب، وإلا لم ينفع أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وإنارة دليله.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾.

فإن قُلْتَ: ومن كان حوله! قُلْتُ: أشراف قومه قيل كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة.

فإن قُلْتَ: ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب؟ قُلْتُ: قد عمم أوّلاً ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان فبهت الذي كفر.

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾.

وقرئ: ﴿رب المشارق والمغارب﴾ الذي أرسل إليكم بفتح الهمزة.

فإن قُلْتَ: كيف قال: أوّلاً ﴿إن كنتم موقنين﴾ وآخرًا: ﴿إن كنتم تعقلون﴾؟ قُلْتُ: لاين أوّلاً فلما رأى منهم شدّة الشكيمة في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض إنّ رسولكم لمجنون بقوله: ﴿إن كنتم تعقلون﴾.

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾.

فإن قُلْتَ: ألم يكن لأسجننك أخصر من ﴿لأجعلنك من المسجونين﴾ ومؤديًا مؤداه! قُلْتُ: أما أخصر فنعم وأما مؤدّ مؤدّاه فلا لأنّ معناه: لأجعلنك واحدًا ممن عرفت حالهم في سجوني، وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فردًا لا يبصر فيها، ولا يسمع فكان ذلك أشدّ من القتل وأشدّ.

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾.

الواو في قوله[1]: ﴿أولو جئتك﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بي ذلك، ولو جئتك بشيء مبين أي: جائيًا بالمعجزة.

قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾.

وفي قوله[2]: ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه لأن المعجزة تصديق من الله لمدعي النبوّة والحكيم لا يصدق الكاذب، ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه هذا وخفي على ناس من أهل القبلة حيث جوّزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات، وتقديره: ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك أتيت به فحذف الجزاء لأن الأمر بالإتيان به يدل عليه.

﴿ثعبان مبين﴾ ظاهر الثعبانية لا شيء يشبه الثعبان كما تكون الأشياء المزوّرة بالشعوذة والسحر وروي أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة

---

(1) قال أحمد: ليته سلم وجه تصنيفه من ثآليل هذه الأباطيل، وكلف هذا التكليف في كيده لأهل السنة، وإن كيده لفي تضليل بينا هو يعرض بتفضيل فرعون عليهم إذا هو قد حتم على إخوانه القدرية أنهم فراعنة، وأنّ كلاً منهم إذا فتش نفسه وجد فيها نصيباً من فرعنته، حيث يقول: أنا ربكم الأعلى؛ لأنهم يعتقدون أن أفعالهم خلقهم، وأنهم لها مبدعون خالقون كلا إنهم لهم المبتدعون المختلقون؛ لأنهم حجروا على الله تعالى أن يفعل إلا ما توطأت أوهامهم على أنه حسن بالنسبة إلى الخلق في الشاهد، فمن ثَم أشركوا به وهم لا يشعرون، ولما هدى الله تعالى أهل السنة إلى التوحيد الحق اعتقدوا أن كل شيء هو مخلوق لله تعالى لا شريك له في ملكه، وأن كل ممكن يجوز أن ينظمه سلطان القدرة الأنلية في سلكه، فكان من الممكنات أن يبتلي الله عباده بخرق العادات على أيدي الكذابين، ومراده إظهار الضلالات وقد اندرج ذلك لكونه ممكناً تحت سطوة القدرة حقاً بيناً، ثم لم يلزم من ذلك لله الحمد خرم في الدين، فإنّ توهم ناظر بعين الهوى والغرض معنون عما في قلبه من مرض، أن ذلك يجر إلى عدم الوثوق بمعجزات الأنبياء = حيث كان على يد غيرهم من الكذابين الأشقياء، قيل: معاذ الله أن نأخذ ذلك بنفس مطمئنة بصدق الأنبياء آمنة بحصول العلم لها من وقوع ما جوّزه العقل، ولو قدح الإمكان العقلي في علم حاصل يقيني للزم الآن الشكّ في أنّ جبال الأرض قد عادت تبراً أحمر، وترابها مسكاً أذفر، وانقلبت البحار دماً عبيطاً؛ لأن ذلك ممكن في العقل بلا خلاف، ولا يشكك نفسه في هذا الإمكان، إلا ذو خبل وعتهٍ وعمي وعَمَهْ، وأين الزمخشري من الحديث الصحيح في الشاب الذي يكذب الدجال؛ فيقسمه بالسيف جزلتين فيمشي بينهما، ثم يقول له: عد فيعود حياً، فيقول له: ما ازددت فيك إلا بصيرة أنت الدجال الذي وصفه لنا رسول الله ﷺ، فيهم به ثاني مرة فلا يسلط عليه، قال النبي ﷺ: «وهو حينئذ خير أهل الأرض، أو من خير أهل الأرض، أفرأيت هذا المؤمن لما نظر انخراق العادة على يد أكذب الكاذبين حتى شاهد ذلك في نفسه لم يشككه ذلك في معلومه، فلم يتلكأ في معاودة تكذيبه، ولكن يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء.

إلى فرعون وجعلت تقول: يا موسى مرني بما شئت ويقول: فرعون أسألك بالذي أرسلك ألا أخذتها، فأخذها فعادت عصا.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾.

﴿للناظرين﴾ دليل على أن بياضها كان شيئًا يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة، وكان بياضًا نوريًا روى أنّ فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها فأخرج يده، فقال له: ما هذه؟ قال: يدك فما فيها فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾.

فإن قُلْتَ: ما العامل في حوله! قُلْتُ: هو منصوب نصبين نصب في اللفظ ونصب في المحل فالعامل في النصب اللفظي ما يقدو في الظرف والعامل في النصب المحلي، وهو النصب على الحال قال: ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين، وبقي لا يدري أي طرفيه أطول حتى زلّ عنه نكر دعوى الإلهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه وانتفخ سحره خوفًا وفرقًا، وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم يزعمه عبيده وهو إلههم أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه، وتوقعه وأحسّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه وقوله: ﴿إنّ هذا لساحر عليم﴾ قول: باهت إذا غلب ومتمحل إذا لزم.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٥﴾.

﴿تامرون﴾ من المؤامرة وهي المشاورة، أو من الأمر الذي هو ضدّ النهي جعل العبيد آمرين وربهم مأمورًا لما استولى عليه من فرط الدهش والحيرة، و«ماذا» منصوب إما لكونه في معنى المصدر وإما لأنه مفعول به من قوله أمرتك الخير.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ٣٧﴾.

قرئ: ﴿أرجئه﴾ و﴿أرجه﴾ بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخرته ومنه المرجئة وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق، ويقولون هم مرجؤن لأمر الله(1) والمعنى: أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل: احبسه ﴿حاشرين﴾ شرطًا يحشرون السحرة وعارضوا قوله: ﴿إن هذا لساحر﴾ بقولهم: ﴿بكل سحار﴾ فجاؤا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه.

وقرأ الأعمش: ﴿بكل ساحر﴾.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٣٨﴾.

اليوم المعلوم: يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى صلوات الله عليه من يوم الزينة في قوله: ﴿موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾(2) والميقات ما وقت به أي: حدد من زمان أو مكان منه مواقيت الإحرام.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ٣٩﴾.

﴿هل انتم مجتمعون﴾ استبطاء لهم في الاجتماع والمراد منه استعجالهم واستحثاثهم كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق إذا أراد أن يحرّك منه ويحثه على الانطلاق كأنما يخيل له أنّ الناس قد انطلقوا وهو واقف ومنه قول: تأبط شرا:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا ... أو عبد رب أخا عون بن مخراق

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ٤٠﴾.

يريد ابعثه إلينا سريعًا ولا تبطئ به ﴿لعلنا نتبع السحرة﴾ أي: في دينهم إن غلبوا موسى، ولا نتبع موسى في دينه وليس غرضهم باتباع السحرة وإنما الغرض الكلي أن لا يتبعوا موسى، فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام. وقرئ نعم بالكسر وهما لغتان.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ٤٣﴾.

ولما كان قوله: ﴿إن لنا لأجرا﴾ في معنى جزاء الشرط لدلالته عليه وكان قوله: ﴿وإنكم إذًا لمن المقربين﴾ معطوفًا عليه ومدخلاً في حكمه دخلت إذًا قارة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي قدروا أنهم يغلبون به موسى القربة عنده والزلفى.

﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ٤٤﴾.

اقسموا بعزة فرعون وهي من أيمان الجاهلية وهكذا كل حلف بغير الله، ولا يصح في الإسلام إلا الحلف بالله معلقًا ببعض أسمائه أو صفاته كقولك: بالله والرحمن وربي ورب العرش وعزة الله وقدرة الله وجلال الله وعظمة الله قال رسول الله ﷺ: لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمّهاتكم ولا بالطواغيت ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم

---

(1) قال أحمد: ضاقت عليه المسالك في تفسير الإرجاء حتى استدل عليه بالمرجئة، وصرف هذا اللقب لأهل السنة، فإنهم هم الذين لا يقطعون بوعيد فساق المؤمنين، ويقولون أمرهم إلى الله إن شاء عفا عنهم وإن شاء غفر لهم، فإن كانت المرجئة هم المؤمنون= = بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ اللهم فاشهد أنا مرجئة.

(2) سورة طه، الآية: 59.

صادقون[1]، ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسبت لها الجاهلية الأولى، وذلك أنّ الواحد منهم لو اقسم باسماء الله كلها وصفاته على شيء لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم براس سلطانه، فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿ما يافكون﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم، وكيدهم ويزوّرونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى بالتمويه على الناظرين، أو إفكهم سمى تلك الأشياء إفكًا مبالغة، روي أنهم قالوا: إن يك ما جاء به موسى سحرًا فلن يغلب وإن كان من عند الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به علموا أنه من الله، فآمنوا وعن عكرمة رضي الله عنه: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وإنما عبر عن الحرور بالإلقاء لانه ذكر مع الإلقاآت، فسلك به طريق المشاكلة وفيه أيضًا مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بانفسهم إلى الأرض ساجدين كانهم أخذوا فطرحوا طرحًا.

فإن قُلْتَ: فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ قُلْتُ: هو الله عزّ وجل بما خولهم من التوفيق أو إيمانهم أو ما عاينوا من المعجزات الباهرة ولك أن لا تقدر فاعلاً لأنّ ألقوا بمعنى خرّوا وسقطوا.

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿رب موسى وهرون﴾ عطف بيان لرب العالمين لأنّ فرعون لعنه الله كان يدعي الربوبية، فارادوا أن يعزلوه ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام أنه الذي يدعو إليه هذان والذي أجرى على أيديهما ما أجرى.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فلسوف تعلمون﴾ أي: وبال ما فعلتم.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

الضر والضير والضور واحد، أرادوا: لا ضرر علينا في ذلك بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا، والثواب العظيم مع الأعواض الكثيرة أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل أنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت، والقتل اهون أسبابه وأرجاها أو لا ضير علينا في قتلك إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر لا محذوف، والمعنى: لا ضير في ذلك أو علينا.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿أن كنا﴾ معناه لأن كنا وكانوا أوّل جماعة مؤمنين من أهل زمانهم أو من رعية فرعون أو من أهل المشهد، وقرئ: ﴿إن كنا﴾ بالكسر وهو من الشرط الذي يجيء به المدل بأمره المتحقق لصحته وهم كانوا متحققين أنهم ﴿أوّل المؤمنين﴾ ونظيره قول: العامل لمن يؤخر جعله إن كنت علمت لك فوفني حقي ومنه قوله تعالى: ﴿إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾[2] مع علمه أنهم لا يخرجوا إلا لذلك.

۞ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قرئ: ﴿أسر﴾ بقطع الهمزة ووصلها وسر ﴿إنكم متبعون﴾ علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون، وجنوده آثارهم والمعنى أني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدّموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر، فأطبقه عليهم فاهلكهم وروي أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه وروي أن الله أوحى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل كل أربعة أبيات في بيت، ثم انبحوا الجداء واضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتًا على بابه دم وسآمرهم بقتل أبكار القبط واخبزوا خبزًا فطيرًا فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري، فأرسل فرعون في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج فرعون في جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خرج فرعون في ألف حصان سوى الإناث فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفًا وسماهم شرذمة قليلين.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿إن هؤلاء﴾ محكى بعد قول: مضمر والشرذمة الطائفة القليلة ومنها قولهم: ثوب شراذم للذي بلى وتقطع قطعًا ذكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلاً بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً

---

(1) 1 ـ أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان والنذور، باب: الحلف بالأمهات، (الحديث: 3769).
2 ـ أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان والنذور، باب: لا تحلفوا = بآبائكم، (الحديث: 7401)، ومسلم في كتاب: الأيمان، باب: النهي من الحلف بغير الله تعالى، الحديث: (3ـ 1646).

(2) سورة الممتحنة، الآية: 1.

واختار جمع السلامة الذي هو للقلة[1]، وقد يجمع القليل على قلة وقلل ويجوز أن يريد بالقلة الذلة والقماءة ولا يريد قلة العدد والمعنى أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظنّ به ما يكسر من قهره وسلطانه.

وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾.

وقرئ: ﴿حذرون﴾ وحادرون وحاذرون بالدال غير المعجمة، فالحذر اليقظ والحاذر الذي يجدّد حذره وقيل: المودّى في السلاح، وإنما يفعل ذلك حذرًا واحتياطًا لنفسه والحادر السمين القوي قال:

أحب الصبي السوء من أجل أمّه وأبغضه من بغضها وهو حادر

أراد أنهم أقوياء أشداء وقيل: مدججون في السلاح قد كسبهم ذلك حدارة في أجسامهم.

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾.

وعن مجاهد سماها: كنوزًا لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله، والمقام المكان يريد المنازل الحسنة، والمجالس البهية وعن الضحاك: المنابر وقيل: السرر في الحجال.

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾.

﴿كذلك﴾ يحتمل ثلاثة أوجه النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي، وصفناه والجر على أنه وصف لمقام أي: ﴿مقام كريم﴾ مثل ذلك المقام الذي كان لهم والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: الأمر كذلك.

فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾.

﴿فاتبعوهم﴾ فلحقوهم، وقرئ: فاتبعوهم ﴿مشرقين﴾ داخلين في وقت الشروق من شرقت الشمس شروقًا إذا طلعت.

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾.

وقرئ فلما تراءت الفئتان إنا لمدّركون بتشديد الدال وكسر الراء من أدرك الشيء إذا تتابع ففني ومنه قوله تعالى: ﴿بل ادارك علمهم في الآخرة﴾[2] قال: الحسن جهلوا علم الآخرة وفي معناه بيت الحماسة:

أبعد بني أمي الذين تتابعوا أرجى الحياة أم من الموت أجزع

والمعنى: إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد، الفرق الجزء المتفرق منه.

﴿سيهدين﴾ طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم.

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾.

وقرئ: ﴿كل فلق﴾ والمعنى واحد والطود الجبل العظيم المنطاد في السماء.

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾.

﴿وازلفنا ثم﴾ حيث انفلق البحر.

ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾.

﴿الآخرين﴾ قوم فرعون أي: قربناهم من بني إسرائيل أو أدنينا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحدًا وقدمناهم إلى البحر، وقرئ: ﴿وازلقنا﴾ بالقاف أي: أزللنا أقدامهم والمعنى: أذهبنا عزهم كقوله:

تداركتما عبسًا وقد ثل عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبسًا فيزلقهم فيه، عن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، فكان يقول لبني إسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط، فيقول: رويدكم يلحق آخركم فلما انتهى موسى إلى البحر، قال له مؤمن آل فرعون، وكان بين يدي موسى: أين أمرت، فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال: أمرت بالبحر ولا يدري موسى ما يصنع، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فصار فيه اثنا عشر طريقًا لكل سبط طريق، وروي أنّ يوشع قال: يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا قال موسى: ههنا فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا، وروي أنّ موسى قال عند ذلك: يا مَن كان قبل كل شيء والمكوّن لكل شيء، والكائن بعد كل شيء. ويقال: هذا البحر هو بحر القلزم وقيل: هو بحر من وراء مصر يقال له: أساف.

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾.

﴿إنّ في ذلك لآية﴾ اية آية وآيه لا توصف وقد عاينها الناس وشاع أمرها فيهم، وما تنبه عليها أكثرهم ولا آمن بالله وبنو إسرائيل الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنجاء قد سألوه بقرة يعبدونها، واتخذوا العجل وطلبوا رؤية الله جهرة.

---

(1) قال أحمد: ووجه آخر في تقليلهم يكون خامساً، وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد قد يكون مبالغة في لصوق تلك الوصف بالموصوف، وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به، كقولهم معاً: زيد جياع مبالغة في وصفه بالجوع، فكذلك ههنا جمع قليلاً، وكان الأصل إفراده فيقال: لشرذمة قليلة، = كما أفرد في قوله: ﴿كم من فئة قليلة﴾ ليدل بجمعه على تناهيهم في القلة، لكن يبقى النظر في أنّ هذا السر يبقي الوجوه المذكورة على ما هي عليه، أو يسقط منها شيئاً ويخلفه فتأمّله، والله الموفق.

(2) سورة النمل، الآية: 66.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾.

﴿وإنّ ربك لهو العزيز﴾ المنتقم من أعدائه ﴿الرحيم﴾ بأوليائه.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾.

كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول للتاجر: ما مالك وأنت تعلم أنّ ماله الرقيق ثم تقول له: الرقيق جمال وليس بمال.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠﴾.

فإن قُلْتَ: ﴿ما تعبدون﴾ سؤال عن المعبود فحسب فكان القياس أن يقولوا: أصنامًا كقوله تعالى: ﴿ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو﴾[1] ﴿ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾[2] ﴿ماذا انزل ربكم قالوا خيرًا﴾[3] قُلْتُ: هؤلاء قد جاؤا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار الا تراهم كيف عطفوا على قولهم ﴿نعبد﴾.

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾.

﴿فنظلّ لها عاكفين﴾، ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده، ومثاله أن تقول لبعض الشطار ما تلبس في بلادك، فيقول: ألبس البرد الأتحمى فأجز ذيله بين جواري الحي وإنما قالوا: نظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾.

لا بد في ﴿يسمعونكم﴾ من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة: ﴿يسمعونكم﴾ أي هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم، وهل يقدرون على ذلك وجاء مضارعًا مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية، ومعناه: استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها وقولوا: هل سمعوا أو اسمعوا قط وهذا أبلغ في التبكيت، لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم: رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأوّلين من آبائكم، فإنّ التقدّم والأوّلية لا يكون برهانًا على الصحة والباطل لا ينقلب حقًّا بالقدم وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ومعنى العداوة قوله تعالى: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا﴾[4] ولأنّ المغري على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾.

وإنما قال: ﴿عدوّ لي﴾ تصويرًا للمسألة في نفسه على معنى أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أوّلاً وبني عليها تدبير أمره لينظروا، فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ليكون ادعى لهم إلى القبول، وأبعث على الاستماع منه ولو قال: فإنه عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة ولأنه دخل في باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح لانه يتأمّل فيه فربما قاده التأمّل إلى التقبل ومنه ما يحكى عن الشافعيّ رضي الله تعالى عنه: أنّ رجلاً واجهه بشيء، فقال: لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب وسمع رجلاً ناسًا يتحدّثون في الحجر فقال: ما هو بيتي ولا بيتكم. والعدوّ والصديق يجيئان في معنى الوحدة والجماعة قال:

وقوم علـى ذوي مئـرة أراهم عـدوًّا وكـانوا صديـقـا

ومنه قوله تعالى: ﴿وهم لكم عدوّ﴾[5] شبهًا بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل ﴿إلا رب العالمين﴾ استثناء منقطع كأنه قال: ولكن رب العالمين.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾.

﴿فهو يهدين﴾ يريد انه حين اتمّ خلقه، ونفخ فيه الروح عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كل ما يصلحه ويعنيه، وإلا فمن هداه إلى أن يغتذي بالدم في البطن امتصاصًا، ومن هداه إلى معرفة الثدي عند الولادة وإلى معرفة مكانه ومن هداه لكيفية الارتضاع إلى غير ذلك من هدايات المعاش، والمعاد.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾.

وإنما قال: ﴿مرضت﴾ دون أمرضني لأنّ كثيرًا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه[6] وغير ذلك ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل: لأكثر الموتى ما سبب آجالكم لقالوا: التخم.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 219.
(2) سورة سبأ، الآية: 23.
(3) سورة النمل، الآية: 30.
(4) سورة مريم، الآية: 82.
(5) سورة الكهف، الآية: 50.
(6) قال أحمد: والذي ذكره غير الزمخشري: أنّ السرّ في إضافة المرض إلى نفسه التأدّب مع الله تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى، ولعلّ الزمخشري إنما عدل عن هذا؛ لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الإماتة إلى الله تعالى، = وهي أشدّ من المرض، فلم يثبت عنده المعنى المذكور، ولكن المعنى الذي أبداه الزمخشري أيضاً في المرض ينكسر بالموت، فإنّ المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه، كذلك الموت الناشئ عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان، وقد أضافه إلى الله تعالى، ويمكن أن يفرّق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب، بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر، وحكم عام لا يخص، ولا كذلك المرض فكم من معافى منه قد بغته الموت، فالتاسي بعموم الموت لعله يسقط اثر كونه بلاء فيسوغ في الأدب نسبته=

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

وقرئ: ﴿خطاياي﴾ والمراد ما يندر منه من بعض الصغائر لأنّ الأنبياء معصومون مختارون على العالمين وقيل هي قوله: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم﴾ وقوله لسارّة: ﴿هي أختي﴾ وما هي إلا معاريض كلام وتخييلات للكفرة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار.

فإن قُلْتَ: إذا لم يندر منهم إلا الصغائر وهي تقع مكفرة فماله أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا وطمع أن تغفر له! **قُلْتُ**: الجواب ما سبق لي أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم وهضم لأنفسهم، ويدل عليه قوله: أطمع ولم يجزم القول بالمغفرة، وفيه تعليم لأممهم وليكون لطفًا لهم في اجتناب المعاصي والحذر منها وطلب المغفرة مما يفرط منهم.

فإن قُلْتَ: لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، وإنما تغفر في الدنيا! **قُلْتُ**: لأنّ أثرها يتبين يومئذ وهو الآن خفي لا يعلم.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾.

الحكم الحكمة أو الحكم بين الناس بالحق وقيل: النبوّة لأنّ النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله، والإلحاق بالصالحين أن يوافقه لعمل ينتظم به في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في الجنة ولقد أجابه حيث قال: وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

والإخزاء من الخزي وهو الهوان ومن الخزاية وهي الحياء وهذا أيضًا من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور وفي ﴿يبعثون﴾ ضمير العباد لأنه معلوم أو ضمير الضالين وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه يعني: ولا تخزني يوم يبعث الضالون، وأبي فيهم.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿إلا من أتى الله﴾ إلا حال من أتى الله **﴿بقلب سليم﴾** وهو من قولهم: تحية بينهم ضرب وجيع، وما ثوابه إلا السيف وبيانه أن يقال لك: هل لزيد مال وبنون فتقول: ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك، وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين في معنى: الغنى كأنه قيل: يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أنّ غناه في دنياه بماله وبنيه، ولك أن تجعل الاستثناء منقطعًا ولا بدّ لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال والمراد بها سلامة القلب وليست هي من جنس المال، والبنين حتى يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان وإنما ينفع سلامة القلب، ولو لم يقدر المضاف لم يتحصل للاستثناء معنى، وقد جعل من مفعولاً لينفع أي: لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع، ويجوز على هذا إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين، ومعنى سلامة القلب: سلامته من آفات الكفر والمعاصي ومما اكرم الله تعالى به خليله ونبه على جلالة محله في الإخلاص أن حكى استثناه هذا حكاية راض بإصابته فيه، ثم جعله صفة له في قوله: وإنّ من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ومن بدع التفاسير تفسير بعضهم السليم باللديغ من خشية الله وقول آخر: هو الذي سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أوّلاً عما يعبدون سؤال مقرّر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صوّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا فعظم شأنه وعدّد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين وابتهل إليها ابتهال الأوّابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذٍ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغتبطون بأنهم المحشورون إليها.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾.

والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون إليها قال الله تعالى: ﴿وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾[1] وقال: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾[2]، يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات فتجعل النار بمرأى منهم فيهلكون غمًّا في

= إلى الله تعالى، وأمّا المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض كان بلاه محققاً، فاقتضى العلو في الأدب مع الله تعالى أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بتاً وجزماً؛ لأنه أمر لا بدّ منه، وأمّا المرض فلما كان قد = يتفق وقد لا أورده مقروناً بشرط: إذا فقال: وإذا مرضت، وكان ممكناً أن يقول: والذي يمرضني فيشفيني كما قال في غيره، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك، والله أعلم.

(1) سورة قٓ، الآية: 31.

(2) سورة الملك، الآية: 27.

كل لحظة، ويوبخون على إشراكهم.

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾.

فيقال لهم: أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار.

فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾.

وهو قوله: ﴿فكبكبوا فيها هم﴾ أي: الآلهة ﴿والغاوون﴾ وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم، والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها. اللهم أجرنا منها يا خير مستجار.

وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾.

﴿وجنود إبليس﴾ شياطينه أو متبعوه من عصاة الجن والإنس.

قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾.

يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم، ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة والشياطين والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كقوله: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾[1] وعن السدّي: الأوّلون الذين اقتدينا بهم وعن ابن جريج: إبليس وابن آدم القاتل لأنه أوّل من سن القتل وأنواع المعاصي.

فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾.

﴿فما لنا من شافعين﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين.

وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾.

﴿ولا صديق﴾ كما نرى لهم أصدقاء لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال الله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾[2] أو ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس، أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أنّ الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع لأنّ ما لا ينفع حكمه حكم المعدوم. و﴿الحميم﴾ من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذي يهمه ما يهمك أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص.

فإن قُلْتَ: لم جمع الشافع ووحد الصديق؟ قُلْتُ: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق[3] الا ترى أنّ الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلدة لشفاعته رحمة له وحسبة وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك، فأعز من بيض الأنوق وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق، فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع.

فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾.

الكرة الرجعة إلى الدنيا.

و﴿لو﴾ في مثل هذا الموضع في معنى التمني كأنه قيل: فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقي في التقدير، ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾.

القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة، ونظير قوله: ﴿المرسلين﴾ والمراد نوح عليه السلام قولك فلان يركب الدواب، ويلبس البرود وماله إلا دابة وبرد[4] قيل: أخوهم لأنه كان منهم من قول العرب: يا أخا بني تميم؛ يريدون يا واحدًا منهم ومنه، بيت الحماسة.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم　　في النائبات على من قال برهانا

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾.

كان أمينًا فيهم مشهورًا بالأمانة كمحمد ﷺ في قريش.

فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾.

﴿واطيعون﴾ في نصحي لكم وفي ما أدعوكم إليه من الحق.

وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾.

﴿عليه﴾ على هذا الأمر وعلى ما أنا فيه يعني: دعاءه، ونصحه.

فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾.

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 67.

(2) سورة الزخرف، الآية: 67.

(3) قال أحمد: العجب أنّ الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع، فما الدليل على إرادة الإفراد، ثم لو كان المراد الإفراد، لكان أعم لأنه في سياق النفي فينفي الواحد، فما زاد عليه إلى ما لا نهاية له، والله أعلم.

(4) قال أحمد: لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد ههنا مع القطع، بأنّ كل من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل؛ لأنه ما من نبي إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق، فقد كذبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة، وكذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿لا نفرّق بين أحد من رسله﴾ لأنّ التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل وتصديق واحد يوجب تصديق الكل، والله أعلم.

ومعنى: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾. فاتقوا الله في طاعتي وكرره ليؤكده عليهم ويقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحدة منهما بعلة جعل علة الأوّل كونه أمينًا فيما بينهم، وفي الثاني حسم طمعه عنهم، وقرئ وأتباعك جمع تابع كشاهدوا شهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال والواو للحال وحقها أن يضمر بعدها قد في واتبعك.

۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾.

وقد جمع الأرذل على الصحة وعلى التكثير في قوله: ﴿الذين هم أراذلنا﴾[1] والرذالة والنذالة الخس والدناءة وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل: كانوا من أهل الصناعات الدنية كالحياكة والحجامة والصناعة لا تزرى بالديانة وهكذا كانت قريش تقول: في أصحاب رسول الله ﷺ، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك حتى صارت من سماتهم وأماراتهم ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله ﷺ فلما قال: ضعفاء الناس وأراذلهم قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الغاغة. وعن عكرمة: الحاكة والأساكفة. وعن مقاتل: السفلة.

قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾.

﴿وما علمي﴾، وأي شيء علمي والمراد انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله واطلاعه على سر أمرهم وباطنه وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة وإنما آمنوا هوى وبديهة كما حكى الله عنهم في قوله الذين هم أراذلنا بادي الرأي، ويجوز أن يتغابى لهم نوح عليه السلام فيفسر قولهم الأرذلين بما هو الرذالة عنده من سوء الأعمال، وفساد العقائد ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم ثم يبني جوابه على ذلك فيقول: ما عليّ إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم وإن كان لهم عمل سيء فالله محاسبهم ومجازيهم عليه، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز.

إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾.

﴿لو تشعرون﴾ ذلك ولكنكم تجهلون فتنساقون مع الجهل حيث سيركم وقصد بذلك ردّ اعتقادهم، وإنكار مَن يسمى المؤمن رذلاً وإن كان أفقر الناس، وأوضعهم نسبًا فإن الغني غنى الدين والنسب نسب التقوى.

وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾.

﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ يريد ليس من شأني أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعًا في إيمانكم.

إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾.

وما عليّ إلا أن أنذركم إنذارًا بينًا بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل ثم أنتم أعلم بشأنكم.

قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾.

ليس هذا بإخبار بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد أني لا أدعوك عليهم لما غاظوني، وآذوني وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك فاحكم.

فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾.

﴿بيني وبينهم﴾ والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق كما سمى فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات.

فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾.

﴿الفلك﴾ السفينة وجمعه فلك قال الله تعالى: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾[3] فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد، كسروا فعلاً على فعل كما كسروا فعلاً على فعل لأنهما أخوان في قولك: العرب والعرب والرشد والرشد فقالوا: أسد وأسد وفلك وفلك ونظيره بعير هجان وإبل هجان ودرع دلاص ودروع دلاص، فالواحد بوزن كناز والجمع بوزن كرام، والمشحون: المملوء يقال: شحنها عليهم خيلاً ورجالاً.

أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾.

قرئ: ﴿بكل ريع﴾ بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع قال: المسيب بن علس:

في الآل يرفعها ويخفضها ريع يلوح كأنه سحل

ومنه قولهم: كم ريع أرضك وهو ارتفاعها والآية العلم، وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في طرقهم أعلامًا طوالاً فعبثوا بذلك لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم وعن مجاهد بنوا بكل ريع بروج الحمام[4].

---

(1) سورة هود، الآية: 27.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: (6)، (الحديث: 7).

(3) سورة فاطر، الآية: 12.

(4) قال أحمد: وتأويلها على القصور أظهر، وقد ورد ذم ذلك على = لسان نبينا ﷺ حيث وصف الكائنين آخر الزمان، بأنهم يتطاولون في البنيان، وما أحسن قول مالك رضي الله عنه: ولا يصلي الإمام على شيء أرفع مما عليه أصحابه، كالدكاك تكون مرتفعة في المحراب ارتفاعاً كبيراً؛ لأنهم يعبثون، فعبر عن ترفعهم إلى =

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾.

والمصانع: مآخذ الماء وقيل: القصور المشيدة والحصون ﴿لعلكم تخلدون﴾ ترجون الخلود في الدنيا أو تشبه حالكم حال من يخلد، وفي حرف أبيّ: كأنكم، وقرئ: تخلدون بضم التاء مخففًا ومشددًا.

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾.

﴿وإذا بطشتم﴾ بسوط، أو سيف كان ذلك ظلمًا وعلوًا، وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب وعن الحسن: تبادرون تعجيل العذاب لا تتثبتون متفكرين في العواقب بالغ في تنبيههم على نعم الله حيث أجملها ثم فصلها مستشهدًا بعلمهم، وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال:

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾.

﴿أمدكم بما تعلمون﴾ ثم عددها عليهم وعرفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته، وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة فهو قادر على الثواب والعقاب فاتقوه ونحوه قوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾[1].

أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾.

فإن قُلْتَ: كيف قرن البنين بالأنعام؟ قُلْتُ: هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾.

فإن قُلْتَ: لو قيل ﴿أوعظت﴾ أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد! قُلْتُ: ليس المعنى بواحد، وبينهما فرق لأنّ المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشريه فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ.

إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾.

من قرأ: ﴿خلق الأولين﴾ بالفتح فمعناه أنّ ما جئت به اختلاق الأوّلين وتخرصهم كما قالوا: ﴿أساطير الأوّلين﴾[2]، أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ومن قرأ خلق بضمتين وبواحدة، فمعناه: ما هذا الذي نحن عليه من الدين ﴿إلا خلق الأوّلين﴾ وعادتهم كانوا يدينونه ويعتقدونه ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة، والموت إلا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأوّلين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه.

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾.

﴿أتتركون﴾ يجوز أن يكون إنكارًا لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يزالون عنه، وأن يكون تذكيرًا بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك مع الأمن والدعة ﴿في ما ههنا﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم.

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾.

ثم فسره بقوله: ﴿في جنات وعيون﴾ وهذا أيضًا إجمال ثم تفصيل.

وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾.

فإن قُلْتَ: لم قال ﴿ونخل﴾ بعد قوله: ﴿في جنات﴾ والجنة تتناول النخل أوّل شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى أنهم ليذكرون الجنة، ولا يقصدون إلا النخيل كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل، قال زهير: تسقى جنة سحقًا! قُلْتُ: فيه وجهان أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهًا على انفراده عنها بفضله عليها وأن يريد بالجنات غيرها من الشجر لأنّ اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل، الطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو، والقنو اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه والهضيم اللطيف الضامر من قولهم كشح هضيم وطلع إناث النخل فيه لطف وفي طلع الفحاحيل جفاء، وكذلك طلع البرني الطف من طلع اللون فذكرهم نعمة الله في أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه لأن الإناث، ولادة التمر والبرني أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن نخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء وسلمت من العاهات، فحملت الحمل الكثير وإذا كثر الحمل هضم وإذا قل جاء فاخرًا وقيل: الهضيم اللين النضيج كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره.

قرأ الحسن ﴿وتنحتون﴾ بفتح الحاء.

= المحراب على سبيل التكبر ومطاولتهم المأمومين بالعبث، كتعبير هود صلوات الله عليه وسلامه عن ترفع قومه في البنيان بالعبث، وأما تأويل الآية على اتخاذهم الأعلام في الطرقات، وقد كانت لهم بالنجوم كفاية ففيه بعد من حيث أن الحاجة تدعو إلى ذلك لغيم = مطبق، وما يجري مجراه ولو وضع هذا في زماننا اليوم لهذا المقصد لم يكن عبثاً، والله أعلم.

(1) سورة آل عمران، الآية: 30.

(2) سورة المطففين، الآية: 13.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ١٤٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ١٥١﴾.

وقرئ: ﴿فرهين﴾ وفارهين والفراهة الكيس والنشاط ومنه خيل فرهة استعير لامتثال الأمر وارتسامه طاعة الآمر المطاع أو جعل الأمر مطاعًا على المجاز الحكمي، والمراد الأمر ومنه قولهم: لك عليّ إمرة مطاعة. وقوله تعالى: ﴿وأطيعوا أمري﴾.

﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٢ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٥٤﴾.

فإن قُلْتَ: ما فائدة قوله: ﴿ولا يصلحون﴾؟ قُلْتُ: فائدته أنّ فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح المسحر الذي سحر كثيرًا حتى غلب على عقله وقيل: هو من السحر الرئة، وأنه بشر.

﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٥٥﴾.

الشرب النصيب من الماء نحو السقي والقيت للحظ من السقي والقوت، وقرئ: بالضم. روي أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبًا فقعد صالح يتفكر فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبًا مثلها في العظم. وعن أبي موسى: رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعًا. وعن قتادة: وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦﴾.

﴿بسوء﴾ بضرب أو عقر أو غير ذلك. عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لأنّ الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد، وروي أن مسطعًا ألجاها إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت ثم ضربها قدار، وروي أنّ عاقرها قال لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم، وكذلك صبيانهم.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٥٩ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٤﴾.

فإن قُلْتَ: لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟ قُلْتُ: لم يكن ندمهم ندم تائبين، ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقر عقابًا عاجلاً كمن يرى في بعض الأمور أيًا فاسدًا ويبنى عليه ثم يندم ويتحسر كندامة الكسعيّ أو ندموا ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة وذلك عند معاينة العذاب وقال الله تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾[1] الآية. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد، وهو بعيد واللام في العذاب إشارة إلى عذاب يوم عظيم أراد بالعالمين الناس.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ١٦٥﴾.

أي: أتأتون من بين أولاد آدم عليه السلام على فرط كثرتهم، وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكورهم في الكثرة ذكر أنهم كان الإناث قد أعوزتكم، أو أتأتون أنتم من بين عداكم من العالمين الذكر أن يعني: أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة والعالمون على هذا القول: كل ما ينكح من الحيوان.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾.

﴿من أزواجكم﴾ يصلح أن يكون تبيينًا لما خلق، وأن يكون للتبعيض ويراد بما خلق العضو المباح منهنّ وفي قراءة ابن مسعود ﴿ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم﴾ وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم[2]، العادي المتعدّي في ظلمه المتجاوز فيه الحدّ ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي، فهذا من جملة ذاك أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ١٦٧﴾.

﴿لئن لم تنته﴾ عن نهينا وتقبيح أمرنا ﴿لتكوننّ﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا، وطردناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال من

---

(1) سورة النساء، الآية: 18.

(2) قال أحمد: وقد أشار الزمخشري بهذه الإشارة للاستدلال بهذه الآية على حظر إتيان المرأة في غير المأتي، وبيانه أنّ من لو كانت بياناً لكان المعنى حينئذ على ذمّهم بترك الأزواج، ولا شك أنّ ترك الأزواج مضموم إلى إتيان الذكران، وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لا أنّ ترك الأزواج وحده منكر، ولو كان الأمر كذلك لكان النصب في الثاني متوجهاً على الجمع، وكان إمّا الأفصح أو المتعين، وقد اجتمعت العامّة على= = القراءة به مرفوعاً، ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة، أو في الجواز أصلاً، فلما وضح ذلك تبين أنّ هذا المعنى غير مراد، فيتعين حمل من على البعضية فيكون المنكر عليهم أمرين كل واحد منهما مستقل بالإنكار، أحدهما إتيان الذكران، والثاني مجانبة إتيان النساء في المأتي رغبة في إتيانهنّ في غيره، وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأوّل، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير، والله الموفق.

تعنيف به واحتباس لأملاكه[1] وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة.

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾.

و ﴿من القالين﴾ أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قال كما تقول: فلان من العلماء، فيكون أبلغ من قولك: فلان عالم لأنك تشهد له بكونه معدودًا في زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم، ويجوز أن يريد من الكاملين في قلاكم والقلي البغض الشديد كأنه بغض ويقلي الفؤاد والكبد، وفي هذا دليل على عظم المعصية والمراد القلى من حيث الدين والتقوى، وقد تقوى همة الدين في دين الله حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية.

رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾.

﴿مما يعملون﴾ من عقوبة عملهم، وهو الظاهر ويحتمل أن يريد بالتنجية العصمة.

فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزًا﴾ **قُلْتُ:** معناه أنه عصمه وأهله من ذلك إلا العجوز، فإنها كانت غير معصومة منه لكونها راضية به ومعينة عليه ومحرشة والراضي بالمعصية في حكم العاصي.

فإن قُلْتَ: كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة فكيف استثنيت الكافرة منهم؟ **قُلْتُ:** الاستثناء إنما وقع من الأهل وفي هذا الاسم لها معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم في الإيمان.

فإن قُلْتَ: ﴿في الغابرين﴾ صفة لها كأنه قيل: إلا عجوزًا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم! **قُلْتُ:** معناه إلا عجوزًا مقدّرًا غبورها ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك[2] غير الناجين قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة.

ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾.

والمراد بتدميرهم الائتفاك بهم وأمّا الإمطار، فعن قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم وعن ابن زيد لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطرًا من حجارة.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾.

وفاعل ﴿ساء مطر المنذرين﴾ ولم يرد بالمنذرين قومًا بأعيانهم إنما هو للجنس والمخصوص بالذمّ محذوف وهو: مطرهم.

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾.

قرئ: ﴿أصحاب الأيكة﴾ بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الإضافة وهو الوجه ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة اسم بلد فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ كما يكتب أصحاب النحو؛ لأن ولولا على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن ليكة اسم لا يعرف. وروي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف وكان شجرهم الدوم.

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: أخوهم شعيب كما في سائر المواضع **قُلْتُ:** قالوا إن شعيبًا لم يكن من أصحاب الأيكة وفي الحديث إن شعيبًا أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾.

﴿الكيل﴾ على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر

---

(1) قال أحمد: وكثيراً ما ورد في القرآن خصوصاً في هذا الصورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع كقول فرعون: لأجعلنك من المسجونين، وقولهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ وقولهم: ﴿لنكوننّ من المرجومين﴾ وقوله: ﴿إني لعملكم من القالين﴾ وقوله تعالى في غيرها: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ وكذلك: ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾ وأمثاله كثيرة والسرّ في ذلك والله أعلم أنّ التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، فإنه يفهم أمراً زائداً على وقوعه، وهو أنّ الصفة المذكورة كالسمة لموصوف ثابتة العلوق به كأنها لقب، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة، = واعتبر ذلك لو قلت: رضوا بأن يتخلفوا لما كان في ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير، وانظر إلى المساق وهو قوله: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ كيف ألحقهم لقباً رديئاً، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف حتى صارت له لقباً لاصقاً به، وهذا الجواب عامّ في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك، فتأمّله واقدره قدره، والله الموفق للصواب.

(2) قال أحمد: وإن تعجلت برفع القاعدة الممهدة آنفاً، فاعلم أنّ السرّ الذي اقتضى العدول عن أن يقول مثلاً، إلا عجوزاً غابرة إلى ما ذكر في المتلوّ، هو أنّ المذكور في التلاوة يقتضي الإسجال عليها، بأنها من أمّة موسومين بهذه السمة من الهلاك كما قدّمته الآن، فهو أبلغ من مجرّد وصفها بالغبور، والله أعلم.

بالواجب الذي هو الإيفاء ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف، ولم يذكر الزائد وكان تركه عن الأمر والنهي دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه.

وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾.

قرئ: ﴿بالقسطاس﴾ مضمومًا ومكسورًا وهو الميزان وقيل: القرسطون فإن كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلاس وإلا فهو رباعي وقيل: وهو بالرومية العدل.

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾.

يقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه ومنه قيل للمكس: البخس وهو عامّ في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ولا يتحيف منه ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفًا شرعيًّا، يقال: عثا في الأرض وعثى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع وكانوا يفعلون ذلك مع توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك.

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾.

قرئ: ﴿الجبلة﴾ بوزن الأبلة والجبلة بوزن الخلقة ومعناهنّ واحد أي: ذوي الجبلة وهو كقولك: والخلق الأوّلين.

فإن قُلْتَ: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود! قُلْتُ: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرًا ولا يجوز أن يكون بشرًا وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد: وهو كونه مسحرًا، ثم قرر بكونه بشرًا مثلهم.

فإن قُلْتَ: إن المخففة من الثقيلة ولامها كيف تفرقتا على فعل الظنّ وثاني مفعوليه؟ قُلْتُ: أصلهما أن يتفرقا على المبتدأ والخبر كقولك: إن زيد لمنطلق فلما كان البابان أعني باب كان وباب ظننت من جنس باب المبتدأ والخبر فعل ذلك في البابين فقيل: إن كان زيد لمنطلقًا وإن ظننته لمنطلقًا.

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾.

قرئ: ﴿كسفا﴾ بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة نحو قطع وسدر وقيل: الكسف والكسفة كالريع والريعة وهي القطعة وكسفه قطعه والسماء السحاب أو المظلة، وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلاً أن يطلبوه، والمعنى: إن كنت صادقًا أنك نبيّ فادع الله أن يسقط علينا كسفًا من السماء.

قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾.

﴿ربي أعلم بما تعملون﴾ يريد: أنّ الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل وإن أراد عقابًا آخر فإليه الحكم والمشيئة.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾.

﴿فأخذهم﴾ الله بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم، يروى أنه حبس عنهم الريح سبعًا وسلط عليهم الومد فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظلّ ولا ماء ولا سرب، فاضطرّوا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردًا ونسيمًا فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا، وروى أنّ شعيبًا بعث إلى أمّتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، فأهلكت مدين بصيحة جبريل وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة.

فإن قُلْتَ: كيف كرّر في هذه السورة في أوّل كل قصة وآخرها ما كرّر؟ قُلْتُ: كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به ولأنّ في التكرير تقريرًا للمعاني في الأنفس وتثبيتًا لها في الصدور ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ولأنّ هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق وقلوب غلف عن تدبره فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنًا أو يفتق ذهنًا أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهمًا قد غطى عليه تراكم الصدا.

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾.

﴿وإنه﴾ وإن هذا التنزيل يعني: ما نزل من هذه القصص والآيات والمراد: ﴿بالتنزيل﴾ المنزل.

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾.

والباء في ﴿نزل به الروح﴾ ونزل به الروح على القراءتين للتعدية ومعنى: ﴿نزل به الروح﴾: جعل الله الروح نازلاً ﴿به على قلبك﴾ أي: حفظكه وفهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾[1].

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾.

---

(1) سورة الأعلى، الآية: 6.

﴿بلسان عربي﴾ إما أن يتعلق بالمنذرين، فيكون المعنى: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة: هود، وصالح، وشعيب، وإسمعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وإما أن يتعلق بنزل فيكون المعنى: نزله باللسان العربي لتنذر به؛ لأنه لو نزله باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلاً، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه[1] فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك، ولسان قومك تنزيل له على قلبك؛ لأنك تفهمه وتفهمه قومك ولو كان أعجميًا لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفًا بعدّة لغات فإذا كلم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت وإن كلم بغير تلك اللغة، وإن كان ماهرًا بمعرفتها كان نظره أولاً في ألفاظها، ثم في معانيها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين.

وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾.

﴿وإنه﴾ وإن القرآن يعني: ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية وقيل: إن معانيه فيها وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ لكون معانيه فيها وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ، وكذلك في أن يعلمه وليس بواضح.

أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾.

وقرئ: ﴿يكن﴾ بالتنكير وآية بالنصب على أنها خبره، ﴿وأن يعلمه﴾ هو الاسم، وقرئ: ﴿تكن﴾ بالتأنيث وجعلت آية اسمًا وأن يعلمه خبرًا وليست كالأولى لوقوع النكرة اسمًا والمعرفة خبرًا، وقد خرج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك فقيل في ﴿تكن﴾: ضمير القصة وآية أن يعلمه: جملة واقعة موقع الخبر، ويجوز على هذا أن يكون لهم آية هي جملة الشأن وأن يعلمه بدلاً عن آية ويجوز مع نصب الآية تأنيث ﴿تكن﴾ كقوله تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾[2] إلا أن قالوا: ومنه بيت لبيد. فمضى وقدمها وكانت عادة. منه إذا هي عردت أقدامها، وقرئ: ﴿تعلمه﴾ بالتاء و﴿علماء بني إسرائيل﴾ عبد الله بن سلام وغيره قال الله تعالى: ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾[3].

فإن قُلْتَ: كيف خط في المصحف ﴿علماء﴾ بواو قبل الألف؟ قُلْتُ: خط على لغة من يميل الألف إلى الواو، وعلى هذه اللغة كتبت الصلاة والزكاة والربا.

وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾.

الأعجم الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة واستعجام والأعجمي مثله إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد، وقرأ الحسن: ﴿الأعجميين﴾ ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له: أعجم وأعجمي شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين، وقالوا: لكل ذي صوت من البهائم والطيور وغيرها أعجم. قال حميد: ولا عربيًا شاقه صوت أعجمًا، سلكناه: أدخلناه ومكناه، والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله، وانظم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحلية المنزل عليه وصفته في كتبهم، وقد تضمنت معانيه وقصصه وصحّ بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا فلم يؤمنوا به وجحدوه وسموه شعرًا تارة وسحرًا أخرى، وقالوا: هو من تلفيق محمد وافترائه ﴿ولو نزلناه على بعض﴾ الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله.

فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾.

﴿فقراه عليهم﴾ هكذا فصيحًا معجزًا متحدى به لكفروا به كما كفروا، ولتمحلوا لجحودهم عذرًا ولسموه سحرًا.

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾.

ثم قال: ﴿كذلك سلكناه﴾ أي: مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وهكذا مكنّاه وقرّرناه فيها وعلى هذه مثل الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعنا فيها فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أي وجه دبر أمرهم فلا سبيل أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال: ﴿ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾.

فإن قُلْتَ[4]: كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟ قُلْتُ: أراد به الدلالة على تمكنه مكذبًا في قلوبهم أشدّ التمكن وأثبته، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه وفطروا ألا ترى إلى قولهم: هو مجبول على الشح يريدون تمكن الشحّ فيه؛ لأنّ الأمور الخلقية أثبت من العارضة، والدليل عليه أنه

---

(1) قال أحمد: يعني بقوله: قدر عليهم أنهم لا يؤمنون علم أنهم لا يؤمنون؛ لأنّ التقدير عنده العلم، والحق أن الله تعالى أراد منهم أنهم لا يؤمنون، وهذا تقرير لجواب عن سؤال مقدر، وهو أن يقال: قلوبهم نائية عن قبول الحق لا يلجها بوجه ولا بسبب، فكيف يسلك الحق فيها؟ فيجاب عنه بهذا الجواب، والله أعلم.

(2) سورة الأنعام، الآية: 23.

(3) سورة القصص، الآية: 53.

(4) قال أحمد: وما ينقم من بقائه على ظاهره، إلا أنه التوحيد المحض والإيمان الصرف، وأن الله تعالى خلق قلوبهم نائية عن قبول الحق، والقدرية لا يبلغون في التوحيد إلى هذا الحدّ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه. وهو قوله: لا يؤمنون به. فإن قُلْتَ:ما موقع ﴿لا يؤمنون به﴾من قوله: ﴿سلكناه في قلوب المجرمين﴾ قُلْتُ:موقعه منه موقع الموضح والملخص؛ لأنه مسوق لثباته مكذبًا مجحودًا في قلوبهم فاتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد ويجوز أن يكون حالاً أي: سلكناه فيها غير مؤمن به.

فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾.

وقرأ الحسن ﴿فتاتيهم﴾بالتاء يعني: الساعة و ﴿بغتة﴾بالتحريك وفي حرف أبيّ: ويروه بغتة.

فإن قُلْتَ:ما معنى التعقيب في قوله: ﴿فتاتيهم بغتة﴾ فيقولوا! قُلْتُ:ليس المعنى: ترادف رؤية العذاب ومفاجآته وسؤال النظرة فيه في الوجود، وإنما المعنى: ترتبها في الشدّة كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشدّ منها وهو لحوقه بهم مفاجاة، فما هو أشدّ منه وهو سؤالهم النظرة ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسات مقتك الصالحون فمقتك الله فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أنّ مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، وإنما قصدك إلى ترتيب شدّة الأمر على المسيء وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين فما هو أشدّ من مقتهم وهو مقت الله وترى، ثم يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾.

﴿افبعذابنا يستعجلون﴾تبكيت لهم بإنكار وتهكم ومعناه كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسال فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين، فلا يجاب إليها ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوبخون به عند استنظارهم يومئذٍ، ويستعجلون على هذا الوجه حكاية حال ماضية ووجه آخر متصل بما بعده وذلك أنّ استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن فقال تعالى: ﴿افبعذابنا يستعجلون﴾أشرًا وبطرًا واستهزاءً واتكالاً على الأمل الطويل.

أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾.

ثم قال: هب أنّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم، وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت.

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾.

وقرئ: ﴿يمتعون﴾بالتخفيف ﴿منذرون﴾رسل ينذرونهم ﴿ذكرى﴾منصوبة بمعنى تنكرة إمّا لأن انذر ونكر متقاربان فكأنه قيل: منكرون تنكرة وإمّا لأنها حال من الضمير في منذرون أي: ينذرونهم نوي تذكرة وإمّا لأنها مفعول له على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة، والتنكرة أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه نكرى والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى: منذرون نوو نكرى، أو جعلوا نكرى لإمعانهم في التنكرة وإطنابهم فيها ووجه آخر وهو أن يكون نكرى متعلقة باهلكنا مفعولاً له، والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تنكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وما كنا ظالمين﴾فنهلك قومًا غير ظالمين وهذا الوجه عليه المعوّل.

فإن قُلْتَ:كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا، ولم تعزل عنها في قوله: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾[1]؟ قُلْتُ:الأصل عزل الواو؛ لأنّ الجملة صفة لقرية وإذا زيدت فلتاكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾.

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾.

كانوا يقولون: إنّ محمدًا كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما يتنزل به الشياطين على الكهنة فكذبوا بأنّ ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدرون عليه لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء، وقرأ الحسن: الشياطون ووجهه أنه رأى آخره كآخر يبرين وفلسطين، فتخيَّر بين أن يجرى الإعراب على النون وبين أن يجريه على ما قبله فيقول: الشياطين والشياطون كما تخيرت العرب بين أن يقولوا: هذه يبرون، ويبرين وفلسطون وفلسطين وحقه أن تشتقه من الشيطوطة وهي: الهلاك كما قيل له: الباطل وعن الفرّاء: غلط الشيخ في قراءته الشياطون ظنّ أنها النون التي على هجائين، فقال النضر بن شميل إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة، فهلا جاز أن يحتجّ بقول الحسن وصاحبه يريد: محمد بن السميفع مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ به إلا وقد سمعا فيه.

---

(1) سورة الحجر، الآية: 4.

قد علم أنّ ذلك لا يكون، ولكنه أراد أن يحرّك منه لازدياد الإخلاص والتقوى وفيه لطف لسائر المكلفين كما قال، ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل.

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾.

فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فيه وجهان أحدهما: أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداءة ثم بمن يليه، وأن يقدّم إنذارهم على إنذار غيرهم كما روي عنه عليه السلام أنه لما دخل مكة قال: «كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأوّل ما أضعه ربا العباس»[1] والثاني: أن يؤمر بأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة، ولا يحابيهم في الإنذار والتخويف وروي أنه صعد الصفا لما نزلت فنادى: الأقرب فالأقرب فخذًا فخذًا وقال: يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا عباس عمّ النبيّ يا صفية عمة رسول الله إني لا أملك لكم من الله شيئًا سلوني من مالي ما شئتم[2]، وروي أنه جمع بني عبد المطلب وهم يومئذٍ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس على رجل شاة وقعب من لبن، فأكلوا وشربوا حتى صدروا ثم أنذرهم فقال: «يا بني عبد المطلب لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدّقي» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».[3] وروى أنه قال: «يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف افتدوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم شيئًا» ثم قال: «يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمة محمد اشترين أنفسكنّ من النار فإني لا أغني عنكنّ شيئًا».

وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾.

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب ومنه قول بعضهم: وأنت الشهير بخفض الجناح، فلا تك في رفعه أجدلاً ينهاه عن التكبر بعد التواضع.

فإن قُلْتَ: المتبعون للرسول هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول فما قوله: **﴿لمن اتبعك من المؤمنين﴾**؟ **قُلْتُ:** فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين: المصدّقين بألسنتهم وهم صنفان: صنف صدّق واتبع رسول الله فيما جاء به وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب، ثم إمّا أن يكونوا منافقين أو فاسقين والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم، يعني: أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره.

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾.

﴿وتوكل﴾ على الله يكفيك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم، والتوكل تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وقالوا: المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنة، ثم سأل غيره خلاصه لم يخرج من حدّ التوكل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله، وفي مصاحف أهل المدينة والشام: فتوكل وبه قرأ نافع وابن عامر وله محملان في العطف أن يعطف على فقل، أو فلا تدع **﴿على العزيز الرحيم﴾** على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته.

ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾.

ثم أتبع كونه رحيمًا على رسوله ما هو من أسباب الرحمة وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويستبطن سر أمرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لآخرتهم كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله والتلاوة والمراد بالساجدين: المصلون.

وقيل: معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه في الساجدين: تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمّهم، وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله: هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني فتلا له هذه الآية، ويحتمل أنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين.

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، الحديث (147 ـ 1218).

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: تبليغه ﷺ وما لقي من قومه، (الحديث: 6551)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الشعراء، باب: «وأنذر عشيرتك الأقربين» (الحديث: 4770) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين» الحديث: (355 ـ 208).

﴿إنه هو السميع﴾ لما تقوله: ﴿العليم﴾ بما تنويه وتعمله وقيل: هو تقلب بصره فيمن يصلي خلفه من قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود فوالله إني لأراكم من خلف ظهري إذا ركعتم وسجدتم»[1]، وقرئ: ويقلبك.

تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾.

﴿كل أفاك أثيم﴾ هم الكهنة والمتنبئة كشقّ وسطيح ومسيلمة وطليحة.

يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾.

﴿يلقون السمع﴾ هم: الشياطين كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون إلى الملأ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا، وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمع أي: المسموع من الملائكة، وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم، وترى أكثر ما يحكمون به باطلاً وزورًا وفي الحديث الكلمة يتخطفها الجنيّ فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة[2] والقرّ: الصبّ.

فإن قُلْتَ: كيف دخل حرف الجرّ على من المتضمنة لمعنى الاستفهام، والاستفهام له صدر الكلام ألا ترى إلى قولك: أعلى زيد مررت ولا تقول: على أزيد مررت! قُلْتُ: ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معًا: معنى الاسم ومعنى الحرف وإنما معناه: أن الأصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمرّ الاستعمال على حذفه كما حذف من هل، والأصل أهل قال، أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم فإذا أدخلت حرف الجرّ على من فقدر الهمزة قبل حرف الجرّ في ضميرك كأنك تقول: أعلى من تنزل الشياطين كقولك: أعلى زيد مررت.

فإن قُلْتَ: ﴿يلقون﴾ ما محله! قُلْتُ: يجوز أن يكون في محل النصب على الحال أي: تنزل ملقين السمع وفي محل الجرّ صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع وأن لا يكون له محل بأن يستأنف كأن قائلاً قال: لم تنزل على الأفاكين فقيل: يفعلون كيت وكيت.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ بعد ما قضي عليهم أن كل واحد منهم أفاك؟ قُلْتُ: الأفاكون: هم الذين يكثرون الإفك ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى، وأكثرهم مفتر عليه.

فإن قُلْتَ: وإنه لتنزيل رب العالمين وما تنزلت به الشياطين هل أنبئكم على من تنزل الشياطين لم فرق بينهن وهن أخوات! قُلْتُ. أريد التفريق بينهن بآيات ليست في معناهن ليرجع إلى المجيء بهن وتطرية ذكر ما فيهن كرّة بعد كرّة فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت كراهة الله لخلافها، ومثاله أن يحدّث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه.

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾.

﴿والشعراء﴾ مبتدأ و﴿يتبعهم الغاوون﴾ خبره، ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب، والنسيب بالحرم والغزل والابتهار ومدح من لا يستحق المدح ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم: إلا الغاوون والسفهاء والشطار وقيل: الغاوون الراوون وقيل: الشياطين وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي ومن ثقيف: أمية بن أبي الصلت قالوا: نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم وقرأ عيسى بن عمر والشعراء بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حبّ النصب، قرأ: ﴿حمالة الحطب﴾ ﴿والسارق والسارقة﴾ و﴿سورة أنزلناها﴾، وقرئ: ﴿يتبعهم﴾ على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيهًا لتبعه بعضد.

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾.

ذكر الوادي والهيوم فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلوّ في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأشحهم على حاتم وأن يبهتوا البريّ ويفسقوا التقي وعن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

بتن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال: قد وجب عليك الحدّ فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحدّ بقوله: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان والنذور، (الحديث: 6644)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود، الحديث: (112 ـ 426).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق... (الحديث: 7561)، ومسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، الحديث: (122 ـ 2228).

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾.

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر وإذا قالوا شعرًا قالوه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله ﷺ والصحابة وصلحاء الأمة وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب، ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم قال الله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا مَن ظُلم﴾[1]، وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[2]، وعن عمر بن عبيد: أن رجلاً من العلوية قال له: إن صدري ليجيش بالشعر فقال: فما يمنعك منه فيما لا بأس به والقول فيه: أن الشعر باب من الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام وقيل: المراد بالمستثنين: عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكعبان: كعب بن مالك وكعب بن زهير، والذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ ويكافحون هجاة قريش، وعن كعب بن مالك: أنّ النبي ﷺ قال له: «اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ عليهم من النبل»[3] وكان يقول لحسان: قل وروح القدس معك[4]، ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ولا أنكى لقلوب المتأمّلين، ولا أصدع لأكباد المتدبرين وذلك قوله: ﴿وسيعلم﴾ وما فيه من الوعيد البليغ وقوله: ﴿الذين ظلموا﴾ وإطلاقه وقوله: ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ وإبهامه وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه[5] وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدّتها وتفسير الظلم بالكفر تعليل، ولأن تخاف فتبلغ الأمن خير من أن تأمن فتبلغ الخوف وقرأ ابن عباس: أي منفلت ينفلتون، ومعناها: إنّ الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو: النجاة. اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا والله أعلم بالصواب. قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام»[6].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة النمل مكية

طس تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾.

﴿طس﴾ قرئ بالتفخيم والإمالة و﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة، والكتاب المبين: إما اللوح وإبانته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إبانة وإما السورة، وإما القرآن وإبانتهما أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع وأنّ إعجازهما ظاهر مكشوف وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم لأنّ المضاف إلى العظيم يعظم؛ بالإضافة إليه.

فإن قُلْتَ: لم نكر الكتاب المبين؟ قُلْتُ: ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له كقوله تعالى: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[7].

فإن قُلْتَ: ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن؟ قُلْتُ: كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك: هذا فعل السخي والجواد الكريم؛ لأنّ القرآن هو المنزل المبارك المصدق لما بين يديه فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح، فكأنه قيل: تلك الآيات آيات المنزل المبارك آي كتاب مبين وقرأ ابن أبي عبلة: وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين هذا وبين قوله: ﴿آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾[8]؛ قُلْتُ: لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدّم والتأخر وذلك على ضربين: ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب، وضرب فيه ترجح فالأوّل نحو قوله تعالى: وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدًا ومنه ما نحن بصدده والثاني نحو قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾[9].

هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾.

﴿هدى وبشرى﴾ في محل النصب أو الرفع، فالنصب على الحال أي: هادية ومبشرة والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة والرفع على ثلاثة أوجه: على هي هدى

---

(1) سورة النساء، الآية: 148.
(2) سورة البقرة، الآية: 194.
(3) أخرجه عبد الرزاق 11/263، (الحديث: 20500)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في إنشاد الشعر، (الحديث: 2847).
(4) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، الحديث: (3212 و3213)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل حسان بن ثابت، الحديث: (151 ـ 2485).
(5) أبو حاتم وابن سعد في الطبقات، الزيلعي 2/481 ـ 482.
(6) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي 2/483.
(7) سورة القمر، الآية: 55.
(8) سورة الحجر، الآية: 1.
(9) سورة آل عمران، الآية: 18.

وبشرى وعلى البدل من الآيات وعلى أن يكون خبرًا بعد خبر أي: جمعت أنها آيات وأنها هدى وبشرى والمعنى في كونها هدى للمؤمنين أنها زائدة في هداهم قال الله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا﴾[1].

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾.

فإن قُلْتَ: ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ كيف يتصل بما قبله؟ **قُلْتُ:** يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية.

كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة وهو الوجه ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية، وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم حتى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق[2].

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾.

فإن قُلْتَ: كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته، وقد أسنده إلى الشيطان في قوله: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾[3] **قُلْتُ:** بين الإسنادين فرق وذلك أنّ إسناده إلى الشيطان حقيقة وإسناده إلى الله عزّ وجلّ مجاز وله طريقان في علم البيان أحدهما: أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة والثاني أن يكون من المجاز الحكميّ، فالطريق الأوّل: أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق وجعلوا إنعام الله بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم، وبطرهم وإيثارهم الروح والترفه ونفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة، فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم وإليه أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، والطريق الثاني: أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فأسند إليه؛ لأنّ المجاز الحكميّ يصححه بعض الملابسات، وقيل: هي أعمال الخير التي وجب عليهم أن يعملوها زينها لهم الله فعمهوا عنها وضلوا[4] ويعزى إلى الحسن، والعمه: التحير والتردّد كما يكون حال الضال عن الطريق وعن بعض الأعراب أنه دخل السوق وما أبصرها قط، فقال: رأيت الناس عمهين أراد: متردّدين في أعمالهم وأشغالهم.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾.

﴿سوء العذاب﴾ القتل والأسر يوم بدر، و ﴿الأخسرون﴾ أشدّ الناس خسرانًا؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله.

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾.

﴿لتلقى القرآن﴾ لتؤتاه وتلقنه ﴿من﴾ عند أي ﴿حكيم﴾ وأي ﴿عليم﴾ وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه.

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾.

﴿إذ﴾ منصوب بمضمر وهو: اذكر كأنه قال على أثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ويجوز أن ينتصب بعليم، وروي أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته، وقد كنّى الله عنها بالأهل فتبع ذلك أو ورد الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله: امكثوا، الشهاب: الشعلة

---

(1) سورة التوبة، الآية: 124.

(2) قال أحمد: قد تقدّم في غير موضع اعتقاد أن إيقاع الضمير مبتدأ يفيد الحصر، كما مر له في قوله تعالى: ﴿هم ينشرون﴾ أنّ معناه: لا ينشر إلا هم، وعد الضمير من آلات الحصر كما مر ليس ببيّن، وقد بينا لمجيء الضمير في سورة اقترب وجهاً سوى الحصر، وأما وجه تكراره ههنا والله أعلم، فهو أنه لما كان أصل الكلام وهم يوقنون بالآخرة، ثم قدم المجرور على عامله عناية به فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلي المبتدأ خبره، وقد حال المجرور بينهما فطري ذكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقي على حاله مقدماً، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعدما يوجب التطرية، فأقرب منها أن الشاعر قال:

سق ذو عجل ذا والحقنا بذا ... الشحم إنا قد مللنا بخل

والأصل والحقنا بهذا الشحم فوقع منتصف الرجز أو منتهاه، على القول بأنّ مشطور الرجز بيت كامل عند اللام وبنيّ الشاعر على أنه لا بدّ عند المنتصف أو المنتهى من وقيفة ما، فقدّر بتلك الوقفة بعد أن بين المعرّف وآلة التعريف فطراها ثانية، فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأوّل وبين المكرّر، ولا كلمة واحدة سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير، فتأمّل هذا الفصل، فإنه جدير = بالتأمّل، والله أعلم.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 38.

(4) قال أحمد: وهذا الجواب مبني على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح والأصلح، وامتناع أن يخلق الله تعالى للعبد إلا ما هو مصلحة، فمن ثم جعل إسناد التزيين إلى الله تعالى مجازاً وإلى الشيطان حقيقة، ولو عكس الجواب لفاز بالصواب، وتأمّل ميله إلى التأويل الآخر من أنّ المراد أعمال البر على بعده؛ لأنه لا يعرض لقاعدته بالنقض، وأنى لهم ذلك وقد أتى الله بنيانهم من القواعد على أنّ التزيين قد ورد في الخير في قوله تعالى: ﴿ولكنّ الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ على أنّ غالب وروده في غير البر كقوله: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ زين للذين كفروا الحياة الدنيا، وكذلك زين لكثير من المشركين، ومما يبعد حمله على أعمال البر إضافة الأعمال إليهم في قوله: أعمالهم، وأعمال البر ليست مضافه إليهم؛ لأنهم لم يعملوها قط، فظاهر الإضافة يعطي ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وقوله: ﴿قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان﴾ فأطلق الإيمان في المكانين عن إضافته إليهم؛ لأنه لم يصدر منهم، وأضاف الإسلام الظاهر إليهم؛ لأنه صدر منهم، والله أعلم.

والقبس: النار المقبوسة وأضاف الشهاب إلى القبس؛ لأنه يكون قبسًا وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلاً أو صفة لما فيه من معنى القبس، والخبر ما يخبر به عن حال الطريق؛ لأنه كان قد ضله.

فإن قُلْتَ: ﴿سآتيكم منها بخبر﴾، و﴿لعلِّي آتيكم منها بخبر﴾[1] كالمتدافعين؛ لأنّ أحدهما ترج والآخر تيقن! قُلْتُ: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

فإن قُلْتَ: كيف جاء بسين التسويف؟ قُلْتُ: عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة.

فإن قُلْتَ: فلم جاء بـ﴿أو﴾ دون الواو؟ قُلْتُ: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعًا لم يعدم واحدة منهما إمّا هداية الطريق، وإما اقتباس النار ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أدراه حين قال: ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعًا وهما العزان عز الدنيا وعز الآخرة.

فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾.

﴿أن﴾ هي المفسرة؛ لأنّ النداء فيه معنى القول: والمعنى قيل: له بورك.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره ﴿نودي﴾ بأنه بورك، والضمير ضمير الشأن! قُلْتُ: لا لأنه لا بدّ من قد.

فإن قُلْتَ: فعلى إضمارها! قُلْتُ: لا يصح لأنها علامة لا تحذف، ومعنى ﴿بورك من في النار ومن حولها﴾ بورك من في مكان النار ومن حول مكانها ومكانها البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة﴾[2] وتدل عليه قراءة أبيّ تباركت الأرض ومن حولها، وعنه بوركت النار والذي بوركت له البقعة وبورك من فيها وحواليها حدوث أمر ديني فيها وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له، وإظهار المعجزات عليه وربّ خير يتجدّد في بعض البقاع فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها ويبث آثار يمنه في أباعدها، فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة وقيل: المراد بالمبارك فيهم موسى والملائكة الحاضرون، والظاهر أنه عامّ في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله: ﴿ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾[3] وحقت أن تكون كذلك فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ومهبط الوحي إليهم، وكفاتهم أحياء وأمواتًا.

يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾.

فإن قُلْتَ: فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه؟ قُلْتُ: هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك وإيذان بأنّ ذلك الأمر مريده ومكوّنه رب العالمين تنبيهًا على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشؤون. الهاء في ﴿إنه﴾، يجوز أن يكون ضمير الشأن والشأن ﴿أنا الله﴾ مبتدأ وخبر و﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان للخبر وأن يكون راجعًا إلى ما دل عليه ما قبله يعني: أنّ مكلمك أنا والله بيان؛ لأنا و﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان للمبين، وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القويّ القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير.

وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿وألق عصاك﴾! قُلْتُ: على ﴿بورك﴾؛ لأنّ المعنى ﴿نودي أن بورك من في النار﴾ ﴿وأن ألق عصاك﴾ كلاهما تفسير لنودي والمعنى قيل له: بورك من في النار وقيل له: ألق عصاك والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وأن ألق عصاك﴾[4] بعد قوله ﴿أن يا موسى إني أنا الله﴾[5] على تكرير حرف التفسير كما تقول: كتبت إليك أن حج وأن اعتمر وإن شئت أن احج واعتمر، وقرأ الحسن: ﴿جأن﴾ على لغة من يجدّ في الهرب من التقاء الساكنين فيقول: شأبة ودأبة ومنها قراءة عمرو بن عبيد ولا الضألين ﴿ولم يعقب﴾ لم يرجع يقال: عقب المقاتل إذا كرّ بعد الفرار قال:

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب ... ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا

وإنما رعب لظنه أنّ ذلك لأمر أريد به ويدل عليه ﴿إني لا يخاف لديّ المرسلون﴾، و﴿إلا﴾ بمعنى لكن؛ لأنه لما أطلق نفي الخوف عن الرسل كان ذلك مظنة لطرو الشبهة فاستدرك ذلك.

إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾.

والمعنى: ولكن من ظلم منهم أي: فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء كالذي فرط من آدم ويونس وداود

(1) سورة القصص، الآية: 29.
(2) سورة القصص، الآية: 30.
(3) سورة القصص، الآية: 71.
(4) سورة القصص، الآية: 31.
(5) سورة القصص، الآية: 30.

وسليمان، وإخوة يوسف ومن موسى بوكزة القبطي ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها وسماه ظلمًا كما قال موسى: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي. والحسن والسوء حسن التوبة وقبح الذنب وقرئ: ﴿ألا مَن ظُلم﴾ بحرف التنبيه، وعن أبي عمر وفي رواية عصمة حسنًا و﴿في تسع آيات﴾ كلام مستأنف وحرف الجرّ فيه يتعلق بمحذوف، والمعنى: اذهب في تسع آيات ﴿إلى فرعون﴾ ونحوه:

فقلت إلى الطعام فقال: منهم فريق يحسد الإنس الطعاما

ويجوز أن يكون المعنى ﴿والق عصاك﴾ و﴿ادخل يدك﴾ في تسع آيات أي: في جملة تسع آيات وعدادهنّ ولقائل أن يقول: كانت الآيات إحدى عشرة: ثنتان منها اليد والعصا، والتسع: الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم المبصرة الظاهرة البينة جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمّليها لأنهم لابسوها، وكانوا بسبب منها بنظرهم وتفكرهم فيها ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار كل ناظر فيها من كافة أولى العقل وأن يراد إبصار فرعون وملئه لقوله: ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾، أو جعلت كأنها تبصر فتهدى لأنّ العمى لا تقدر على الاهتداء فضلاً أن تهدى غيرها ومنه قولهم: كلمة عيناء وكلمة عوراء لأنّ الكلمة الحسنة ترشد والسيئة تغوى ونحوه قوله تعالى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات﴾[1].

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

والأرض بصائر فوصفها بالبصارة كما وصفها بالإبصار وقرأ عليّ بن الحسين رضي الله عنهما وقتادة مبصرة وهي نحو مجبنة ومبخلة ومجفرة أي مكانًا يكثر فيه التبصر.

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

الواو في ﴿واستيقنتها﴾ واو الحال وقد بعدها مضمرة والعلو: الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله تعالى: ﴿فاستكبروا وكانوا قومًا عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾[2] وقرئ: عُليًا وعِليًا بالضم والكسر كما قرئ: عُتيًا وعِتيًا، وفائدة ذكر الأنفس أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم والاستيقان أبلغ من الإيقان، وقد قوبل بين المبصرة والمبين وأي ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله، ثم كابر بتسميتها سحرًا بينًا مكشوفًا لا شبهة فيه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿علمًا﴾ طائفة من العلم أو علمًا سنيًا غزيرًا[3].

فإن قُلْتَ: أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك: أعطيته فشكر ومنعته فصبر! قُلْتُ: بلى ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قال: ولقد آتيناهما علمًا فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه، والفضيلة ﴿وقالا الحمد لله الذي فضلنا﴾ والكثير المفضل عليه من لم يؤت علمًا أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلاً على كثير وفضل عليهما كثير وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأجزل القسم وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله كما قال: ﴿والذين أوتوا العلم درجات﴾[4] وما سماهم رسول الله ﷺ، ورثة الأنبياء[5] إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة لأنهم القوام بما بعثوا من أجله، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم منها أن يحمدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم وفيها التنكير بالتواضع، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم وما أحسن قول عمر كل الناس أفقه من عمر[5].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

ورث منه النبوّة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر وكان داود أكثر تعبدًا وسليمان أقضى وأشكر لنعمة الله ﴿وقال يا أيها الناس﴾ تشهيرًا لنعمة الله وتنويهًا بها واعترافًا بمكانها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور والمنطق كل ما يصوت به من

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 102.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 46 ـ 47.

(3) قال أحمد: التبعيض والتقليل من التنكير، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر فكذلك يرد للتعظيم من شأنه، كما مر آنفاً في قوله تعالى: ﴿وإنك لَتُلَقّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ ولم يقل: الحكيم العليم، والغرض من التنكير التفخيم، كأنه قال: من لدن حكيم عليم، فظاهر قوله: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه، كأنه قال: علماً، أي: علم وهو كذلك، فإن علمهما كان مما يستعظم ويستغرب، ومن ذلك علم = منطق الطير وسائر الحيوانات التي خصهما الله تعالى به، وكل علم بالإضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل، والله أعلم.

(4) سورة المجادلة، الآية: 11.

(5) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم، (الحديث: 3641)، والترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل الفقه على العبادة، (حديث: 2683)، وابن ماجه في المقدمة، (حديث: 223)، وابن حبان في كتاب: العلم (حديث: 88).

(6) راجع حديث رقم 334، سورة النساء.

المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح النطق، وما أصلح فيه إلا مفردات التكلم وقالت العرب: نطقت الحمامة وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته، والذي علمه سليمان من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه، ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرّك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول قالوا: الله ونبيه أعلم قال: يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاوس فقال: يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وصاح طيطوى فقال: يقول: كل حي ميت وكل جديد بال. وصاح خطاف فقال: يقول: قدموا خيرًا تجدوه. وصاحت رخمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدأ يقول: كل شيء هالك إلا الله. والقطاة تقول: من سكت سلم. والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين. والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت. والعقاب يقول: في البعد من الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس. وأراد بقوله: ﴿من كل شيء﴾ كثرة ما أوتي كما تقول: فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء تريد: كثرة قصاده ورجوعه إلى غزارة في العلم واستكثار منه ومثله قوله: وأوتيت من كل شيء ﴿إنّ هذا لهو الفضل المبين﴾ قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1] أي: أقول هذا القول شكرًا ولا أقوله فخرًا.

فإن قُلْتَ: كيف قال: ﴿علمنا﴾ و﴿أوتينا﴾ وهو من كلام المتكبرين؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يريد نفسه وأباه والثاني: أن هذه النون يقال لها: نون الواحد المطاع وكان ملكًا مطاعًا فكلم أهل طاعته على صفته، وحاله التي كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك وقد يتعلق بتجمل الملك وتفخمه وإظهار آيينه وسياسته مصالح فيعود تكلف ذلك واجبًا وقد كان رسول الله ﷺ يفعل نحوًا من ذلك إذا وفد عليه وفد أو احتاج أن يرجح في عين عدوّ ألا ترى كيف أمر العباس رضي الله عنه بأن يحبس أبا سفيان حتى تمرّ عليه الكتائب[2].

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾.

روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة: خمسة وعشرون للجنّ وخمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجنّ بساطًا من ذهب، وإبريسم فرسخًا في فرسخ وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب، وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض أني قد زدت في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال: لقد أوتي آل داود ملكًا عظيمًا فألقته الريح في أذنه فنزل، ومشى إلى الحراث وقال: إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال: لتسبيحة واحدة يقبلها الله خير مما أوتي آل داود ﴿يوزعون﴾ يحبس أولهم على آخرهم أي: توقف سلاف العسكر حتى تلحقهم التوالي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة.

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾.

قيل: هو واد بالشام كثير النمل.

فإن قُلْتَ: لم عدى ﴿أتوا﴾ بـ﴿على﴾؟ قُلْتُ: يتوجه على معنيين: أحدهما: أن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء كما قال أبو الطيب:

ولشدة ما قربت عليك الأنجم

لما كان قربًا من فوق. والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطمهم، وقرئ: ﴿نملة يا أيها النمل﴾ بضم الميم وبضم النون والميم وكان الأصل النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال تخفيف عنه كقولهم: السبع في السبع قيل: كانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس فنادت: ﴿يا أيها النمل﴾ الآية فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، وقيل: كان اسمها طاخية وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرًا، وهو غلام حدث فقال: سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرًا أم أنثى فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل له: من أين عرفت؟ قال: من كتاب الله وهو قوله: ﴿قالت نملة﴾ ولو كانت ذكرًا لقال قال: نملة[3] وذلك أنّ النملة مثل الحمامة

(1) تقدم في سورة يوسف، الحديث رقم 212.

(2) أخرجه البخاري في المغازي، في كتاب: أين ركز النبي ﷺ، (الحديث: 4280).

(3) قال أحمد: لا أدري العجب منه أم من أبي حنيفة أن يثبت ذلك عنه، وذلك أنّ النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى؛= لأنه اسم جنس يقال: نملة ذكر ونملة أنثى، كما يقولون: حمامة ذكر وحمامة أنثى، وشاة ذكر وشاة أنثى، فلفظها مؤنث، ومعناه محتمل فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها، وإن كانت واقعة على ذكر، بل هذا هو الفصيح المستعمل ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تضحى بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء» كيف أخرج=

والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم: حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي. وقرئ: مسكنكم، ولا يحطمنكم بتخفيف النون وقرئ: ﴿لا يحطمنكم﴾ بفتح الحاء وكسرها وأصله يحتطمنكم. ولما جعلها قائلة والنمل مقولاً لهم كما يكون في أولى العقل أجرى خطابهم مجرى خطابهم.

فإن قُلْتَ: ﴿لا يحطمنكم﴾ ما هو! قُلْتُ: يحتمل أن يكون جواباً للأمر وأن يكون نهيًا بدلاً من الأمر، والذي جوز أن يكون بدلاً منه أنه في معنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم على طريقة لا أرينك ههنا أراد ﴿لا يحطمنكم﴾ جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ، ونحوه عجبت من نفسي ومن إشفاقها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

ومعنى ﴿فتبسم ضاحكًا﴾: تبسم شارعًا في الضحك وآخذًا فيه يعني: أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام وأما ما روي أن رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[1] فالغرض المبالغة في وصف ما وجد منه من الضحك النبوي وإلا فبدوّ النواجذ على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب وقرأ ابن السميفع: ضحكًا.

فإن قُلْتَ: ما أضحكه من قولها! قُلْتُ: شيآن: إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وعلى شهرة حاله، وحالهم في باب التقوى وذلك قولها: ﴿وهم لا يشعرون﴾ تعني: أنهم لو شعروا لم يفعلوا وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدًا من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحكل الذي هو مثل في الصغر، والقلة ومن إحاطته بمعناه ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك، وعلى استيفاقه لزيادة العمل الصالح والتقوى[2]، وحقيقة أوزعني: اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأكفه، وأرتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكرًا لك وإنما أدرج ذكر والديه لأنّ النعمة على الولد نعمة على الوالدين خصوصًا النعمة الراجعة إلى الدين، فإنه إذا كان تقيًا نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له وقالوا: رضي الله عنك وعن والديك، وروي أنّ النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهنّ، ثم دعا بالدعوة[3]. ومعنى ﴿وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ واجعلني من أهل الجنة.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أم هي المنقطعة نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال: ﴿مالي لا أرى﴾ على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره، أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ونحوه قولهم: إنها لإبل أم شاء، وذكر من قصة الهدهد أنّ سليمان حين تمّ له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ما شاء[4]، وكان يقرّب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير إلى اليمن، فخرج من مكة صباحاً يؤمّ سهيلاً فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضًا حسناء أعجبته خضرتها، فنزل ليتغدّى ويصلي فلم يجدوا الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة[5]، فيجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهدًا واقعًا فانحط إليه، فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء وذكر له صاحبه ملك بلقيس[6]، وأنّ تحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان، فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: عليّ به فارتفعت فنظرت، فإذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله وقال: بحق الله الذي قوّاك وأقدرك عليّ إلا رحمتيني، فتركته وقالت: ثكلتك

= هذه الصفات على اللفظ مؤنثة، ولا يعني الإناث من الأنعام خاصة، فحينئذٍ قوله تعالى: ﴿قالت نملة﴾ روعيَ فيه تأنيث اللفظ وأما المعنى، فيحتمل على حد سواء، وإنما أطلت في هذا، وإن كان لا يتمشى عليه حكم؛ لأنه نسبه إلى الإمام أبي حنيفة على بصيرته باللغة، ثم جعل هذ الجواب معجباً لنعمان على غزارة علمه وتبصره بالمنقولات، ثم قرر الكلام على ما هو عليه مصوناً له فيالله العجب العجاب، والله الموفق للصواب.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير ومن سورة الزمر، باب: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (الحديث رقم: 4811)، أخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: صفة القيامة، والجنة والنار، (الحديث رقم: 20 ـ 2786).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، =

= (الحديث رقم: 657)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: آخر أهل النار خروجًا، (الحديث رقم: 308 ـ 186).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يقبض الله.. (الحديث رقم: 6520).

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً.. (الحديث رقم: 29 ـ 1478).

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد وغيرها، (الحديث رقم: 132 ـ 1807).

(6) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: من قال بالقرعة إذا تنازعوا في الولد (الحديث رقم: 2269)، والحاكم في المستدرك 2/ 207.

أمّك إنّ نبيّ الله قد حلف ليعذبنك قال: وما استثنى قالت: بلى قال: وليأتيني بعذر مبين[1]، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرّها على الأرض تواضعًا له فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه فقال: يا نبيّ الله اذكر وقوفك بين يدي الله، فارتعد سليمان وعفا عنه ثم سأله.

لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾.

تعذيبه أن يؤدّب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه، وقيل: كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه وقيل: أن يطلي بالقطران ويشمس وقيل: أن يلقى للنمل تأكله وقيل: إيداعه القفص، وقيل: التفريق بينه وبين ألفه وقيل: لألزمنه صحبة الأضداد، وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد، وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه.

فإن **قُلْتَ**: من أين حلّ له تعذيب الهدهد؟ **قُلْتُ**: يجوز أن يبيح له الله ذلك لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة، كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخّر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة جاز أن تباح له ما يستصلح به، وقرئ: ليأتينني وليأتينن. والسلطان الحجة والعذر.

فإن **قُلْتَ**: قد حلف على أحد ثلاثة أشياء فحلفه على فعليه لا مقال فيه ولكن كيف صحّ حلفه على فعل الهدهد، ومن أين درى أنه يأتي بسلطان حتى يقول: **﴿أو ليأتيني بسلطان﴾**! **قُلْتُ**: لما نظم الثلاثة بأو في الحكم الذي هو الحلف آل كلامه إلى قولك ليكوننّ أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما وليس في هذا ادّعاء دراية على أنّه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحي من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين فثلث بقوله: **﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾** عن دراية وإيقان.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾.

﴿فمكث﴾ قرئ بفتح الكاف وضمها **﴿غير بعيد﴾** غير زمان بعيد كقوله: عن قريب ووصف مكثه بقصر المدّة للدلالة على إسراعه خوفًا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرًا له ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوّته وعلى قدرة الله تعالى **﴿أحطت﴾** بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه، وتنبيهًا على أنّ في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علمًا بما لم يحط به لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه ويكون لطفًا له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة والإحاطة بالشيء علمًا أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم قالوا: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة أنّ الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه. سبأ قرئ بالصرف ومنعه وقد روي بسكون الباء، وعن ابن كثير في رواية سبا بالألف كقولهم: ذهبوا أيدي سبا وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمن جعله اسمًا للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسمًا للحي أو الأب الأكبر صرف قال:

من سبأ الحاضرين مارب إذ ... يبنون من دون سيله العرما

وقال:

الواردون وتيم في ذرى سبأ ... قد عض أعناقهم جلد الجواميس

ثم سميت مدينة مارب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث كما سميت معافر بمعافر بن أدّ، ويحتمل أن يراد المدينة والقوم. والنبأ الخبر الذي له شأن. وقوله: **﴿من سبإٍ بنبإٍ﴾** من جنس الكلام الذي سماه المحدّثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعًا أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ولقد جاء ههنا زائدًا على الصحة فحسن وبدع لفظًا، ومعنى ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإٍ بخبر لكان المعنى صحيحًا وهو كما جاء أصح لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾.

المرأة بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها وقد ولده أربعون ملكًا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك، وكانت هي وقومها مجوسًا يعبدون الشمس والضمير في **﴿تملكهم﴾** راجع إلى سبأ فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر وإن أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها، وقيل في وصف عرشها: كان ثمانين ذراعًا في ثمانين وسمكه ثمانين وقيل: ثلاثين مكان ثمانين وكان من ذهب وفضة مكللها بأنواع الجواهر وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودرّ وزمرّد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق.

فإن **قُلْتَ**: كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان؟ **قُلْتُ**: يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش، ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء كما يكون لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون مثله للملك الذي يملك عليهم أمرهم، ويستخدمهم ومن نوكى القصاص من يقف على قوله: ولها عرش ثم يبتدئ عظيم.

وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿وجدتها﴾: يريد أمر عظيم أن وجدتها وقومها

(1) الحاكم في المستدرك 4/63.

يسجدون للشمس، فر من استعظام الهدهد عرشها فوقع في عظيمة وهي مسخ كتاب الله.

فإن قُلْتَ: كيف قال ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ مع قول سليمان، وأوتينا من كل شيء كأنه سوّى بينهما؟ قُلْتُ: بينهما فرق بيِّن؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله: على ما هو معجزة من الله وهو تعليم منطق الطير فرجع أوّلاً إلى ما أوتي من النبوّة والحكمة وأسباب الدين، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبيّن الكلامين بون بعيد.

فإن قُلْتَ: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة وهي مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ قُلْتُ: لعل الله عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب.

فإن قُلْتَ: من أين للهدهد التهدي إلى معرفة الله، ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟ قُلْتُ: لا يبعد أن يلهمه الله ذلك كما ألهمه، وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان خصوصًا في زمن نبي سخرت له الطيور وعلم منطقها وجعل ذلك معجزة له، من قرأ بالتشديد أراد فصدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا، فحذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا ومن قرأ بالتخفيف فهو ألا يسجدوا إلا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف كما حذفه مَن قال:

ألا يا اسلمي يا دارميّ على البلى

وفي حرف عبد الله وهي قراءة الأعمش هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى: ألا تسجدون على الخطاب.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وفي قراءة أبيّ: ﴿ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون﴾ وسمي المخبوء بالمصدر وهو النبات، والمطر وغيرهما مما خبأه عز وعلا من غيوبه وقرئ الخب على تخفيف الهمزة بالحذف والخبا على تخفيفها بالقلب، وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار ووجهها أن تخرج على لغة من يقول في الوقف هذا الخبو ورأيت الخبا ومررت بالخبي، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف لا على لغة من يقول: الكماة والحماة؛ لأنها ضعيفة مسترذلة وقرئ يخفون ويعلنون بالياء والتاء وقيل: من أحطت إلى العظيم هو كلام الهدهد وقيل: كلام رب العزة وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد تخفى على ذي الفراسة النظار بنور الله مخائل كل مختص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله ولهذا ورد ما عمل عبد عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله.

فإن قُلْتَ: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعًا؛ أم في إحداهما؟ قُلْتُ: هي واجبة فيهما جميعًا لأنّ مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمرًا بالسجود والأخرى ذم للتارك، وقد اتفق أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله على أنّ سجدات القرآن أربع عشر وإنما اختلفا في سجدة ص فهي عند أبي حنيفة سجدة تلاوة، وعند الشافعي سجدة شكر وفي سجدتي سورة الحج وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه.

فإن قُلْتَ: هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ قُلْتُ: نعم إذا خفف وقف على فهم لا يهتدون، ثم ابتدأ ألا يسجدوا، وإن شاء وقف على ألا يا ثم ابتدأ اسجدوا وإذا شدّد لم يقف إلا على العرش العظيم.

فإن قُلْتَ: كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظم؟ قُلْتُ: بين الوصفين بون عظيم؛ لأنّ وصف عرشها بالعظيم، تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض، وقرئ: ﴿العظيم﴾ بالرفع.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿سننظر﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح. وأراد: أصدقت أم كذبت، إلا أن ﴿كنت من الكاذبين﴾[1] أبلغ؛ لأنه إذا كان معروفًا بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذبًا لا محالة وإذا كان كاذبًا اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به.

﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿تول عنهم﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك و﴿يرجعون﴾ من قوله تعالى: ﴿يرجع بعضهم إلى بعض﴾[2] القول فيقال: دخل عليها من كوة فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكوة.

---

(1) قال أحمد: وهذا مما نبّهت عليه في سورة الشعراء من العدول عن الفعل الذي هو أم كذبت، وعن مجرد صفته في قوله: أم كنت كاذباً إلى جعله واحداً من الفئة الموسومة بالكذب، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد، والله أعلم.

(2) سورة سبأ، الآية: 31.

فإن قلْتَ: لم قال:﴿فألقه إليهم﴾ على لفظ الجمع قُلْتُ: لأنه قال: وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال: فألقه إلى الذين هذا دينهم اهتمامًا منه بأمر الدين واشتغالاً به عن غيره وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾.

﴿كريم﴾ حسن مضمونه، وما فيه أو وصفته بالكرم لأنه من عند ملك كريم أو مختوم قال ﷺ: «كرم الكتاب ختمه»[1]، وكان ﷺ يكتب إلى العجم فقيل له انهم لا يقبلون إلا كتابًا عليه خاتم فاصطنع خاتمًا[2]، وعن ابن المقفع: من كتب إلى أخيه كتابًا ولم يختمه فقد استخف به.

إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾.

وقيل: مصدر ببسم الله الرحمٰن الرحيم هو استئناف، وتبيّن لما ألقى إليها كأنها لما قالت:﴿إني ألقى إليّ كتاب كريم﴾ قيل لها: ممن هو وما هو فقالت: إنه من سليمان وأنه كيت وكيت، وقرأ عبد الله: وإنه من سليمان وإنه عطفًا على إني وقرئ: إنه من سليمان وأنه بالفتح على أنه بدل من كتاب كأنه قيل: ألقى إلى أنه من سليمان، ويجوز أن تريد: لأنه من سليمان ولأنه كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره باسم الله وقرأ أبيّ: أن من سليمان، وأن بسم الله على أن المفسرة.

أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾.

وأن في﴿ألا تعلوا﴾ مفسرة أيضًا، لا تعلوا: لا تتكبروا كما يفعل الملوك، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالغين معجمة من الغلو وهو: مجاوزة الحد يروى أنّ نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا عليّ وائتوني مسلمين، وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملاً لا يطيلون ولا يكثرون، وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه فوجدها الهدهد راقدة في قصرها بمارب، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وقيل: نقرها فانتبهت فزعة وقيل: أتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميري فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت وقالت لقومها ما قالت،﴿مسلمين﴾ منقادين أو مؤمنين.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾.

الفتوى: الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتا في السن والمراد بالفتوى ههنا الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأي والتدبير وقصدت بالانقطاع إليهم، والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم استعطافهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها ﴿قاطعة أمرًا﴾ فاصلة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: قاضية أي: لابت أمرًا إلا بمحضركم وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل واحد على عشرة آلاف.

قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾.

أرادوا بالقوة: قوّة الأجساد وقوّة الآلات والعدد، وبالبأس: النجدة والبلاء في الحرب﴿والأمر إليك﴾ أي: هو موكول إليك ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك، كأنهم أشاروا عليها بالقتال أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة وأنت ذات الرأي والتدبير فانظري ماذا ترين نتبع رأيك، لما أحست منهم الميل إلى المحاربة رأت من الرأي الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن ورتبت الجواب فزيفت أولاً ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه.

قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾.

ب﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾ عنوة وقهرًا ﴿أفسدوها﴾ أي: خرّبوها ومن ثمة قالوا للفساد: الخربة، وأذلوا أعزتها وأهانوا أشرافها وقتلوا وأسروا فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت:﴿وكذلك يفعلون﴾ أرادت وهذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير؛ لأنها كانت في بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك ورأت ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأي السديد وقيل: هو تصديق من الله لقولها، وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم، ومن استباح حرامًا فقد كفر فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين.

وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿مرسلة إليهم بهدية﴾ أي: مرسلة رسلاً بهدية أصانعه بها عن ملكي﴿فناظرة﴾ ما يكون منه حتى أعمل على حسب ذلك فروى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهن الأساور والأطواق والقرطة راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجًا مكللاً بالدرّ

---

(1) ذكره الواحدي في تفسيره والثعلبي والقضاعي والطبراني في الأوسط، زيلعي 3/16.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: دعوة اليهود والنصارى= وعلى ما يقاتلون عليه (الحديث رقم: 2938)، ومسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: اتخاذ النبي ﷺ خاتمًا لما أراد أن يكتب إلى العجم.

والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقًا فيه درّة عذراء وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بن عمرو وآخر ذا رأي وعقل وقال: إن كان نبيًا ميّز بين الغلمان والجواري وثقب الدرّة ثقبًا مستويًا وسلك في الخرزة خيطًا، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك وإن رأيته بشًا لطيفًا فهو نبي فاقبل الهدهد فاخبر سليمان، فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطًا شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير، فاقيموا عن اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسي من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفًا فراسخ والإنس صفوفًا فراسخ والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم وقال: أين الحقّ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم: إن فيه كذا وكذا ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها، فجعل رزقها في الشجرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها فجعل رزقها في الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها، فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وقال للمنذر: ارجع إليهم، فقالت: هو نبي وما لنا به طاقة فشخصت إليه في اثني عشر ألف قيل، تحت كل قيل ألوف.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: فلما جاؤوا ﴿أتمدونني﴾ وقرىء بحذف الياء والاكتفاء بالكسرة وبالادغام كقوله: أتحاجوني وبنون واحدة أتمدوني، الهدية اسم المهدي كما أن العطية اسم المعطي فتضاف إلى المهدي والمهدي إليه تقول هذه هدية فلان تريد: هي التي أهداها أو أهديت إليه والمضاف إليه ههنا هو المهدي إليه والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلي بأن يمدّ بمال ويصانع به ﴿بل أنتم﴾ قوم لا تعلمون إلاّ ظاهرًا من الحياة الدنيا، فلذلك ﴿تفرحون﴾ بما تزادون ويهدى إليكم؛ لأنّ ذلك مبلغ همتكم وحالي خلاف حالكم وما أرضى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين قولك أتمدني بمال وأنا أغنى منك وبين أن تقوله بالفاء؟ قُلْتُ: إذا قلته بالواو فقد جعلت مخاطبي عالمًا بزيادتي عليه في الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدني بالمال وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كأني أقول له: أنكر عليك ما فعلت فإني غني عنه وعليه ورد قوله فما آتاني الله.

فإن قُلْتَ: فما وجه الإضراب؟ قُلْتُ: لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه وهو: أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح، إلا أن يهدى إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدي ويكون المعنى: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك بأنكم قدرتم على إهداء مثلها، ويحتمل أن يكون عبارة عن الردّ كأنه قال: بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ارجع﴾ خطاب للرسول وقيل: للهدهد محملاً كتابًا آخر ﴿لا قبل﴾ لا طاقة وحقيقة القبل: المقاومة والمقابلة أي: لا يقدرون أن يقابلوهم وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: لا قبل لهم بهم، الضمير في منها لسبأ. والذلّ: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك. والصغار: أن يقعوا في أسر واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكًا.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

يروى أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام، فجعل عرشها في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الأبواب ووكلت به حرسًا يحفظونه، ولعله أوحي إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرة الله وعلى ما يشهد لنبوّة سليمان عليه السلام ويصدقها، وعن قتادة: أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير، ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختبارًا لعقلها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

وقرىء عفرية والعفر والعفريت والعفرية والعفراة والعفارية من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد وقالوا: كان اسمه ذكوان ﴿لقويّ﴾ على حمله ﴿أمين﴾ آتي به كما هو لا أختزل منه شيئًا ولا أبدله.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿الذي عنده علم من الكتاب﴾ رجل كان عنده اسم الله

الأعظم وهو: يا حي يا قيوم وقيل: يا إلّهنا وإلّه كل شيء إلّهاً واحدًا لا إلّه إلاّ أنت وقيل: يا ذا الجلال والإكرام وعن الحسن رضي الله عنه: والرحمن، وقيل: هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام وكان صديقًا عالمًا وقيل: اسمه أسطوم وقيل: هو جبريل وقيل: ملك أيد الله به سليمان، وقيل: هو سليمان نفسه كانه استبطأ العفريت فقال له: أنا أريك ما هو أسرع مما تقول عن ابن لهيعة: بلغني أنه الخضر عليه السلام، ﴿علم من الكتاب﴾ من الكتاب المنزل وهو: علم الوحي والشرائع وقيل: هو اللوح والذي عنده علم منه جبريل عليه السلام، ﴿وآتيك﴾ في الموضعين يجوز أن يكون فعلاً واسم فاعل. الطرف: تحريك أجفانك إذا نظرت فوضع موضع النظر ولما كان الناظر موصوفًا بإرسال الطرف في نحو قوله:

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتك المناظر

وصف برد الطرف ووصف الطرف بالارتداد، ومعنى قوله: ﴿قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أنك ترسل طرفك إلى شيء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك، ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام: مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمدّ عينيه فنظر نحو اليمن، ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ثم نبغ عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدرة الله قبل أن يردّ طرفه، ويجوز أن يكون هذا مثلاً لاستقصار مدّة المجيء به كما تقول لصاحبك: أفعل كذا في لحظة، وفي ردّة طرف والتفت ترني وما أشبه ذلك تريد السرعة ﴿يشكر لنفسه﴾ لأنه يحط به عنها عبء الواجب، ويصونها عن سمة الكفران وترتبط به النعمة ويستمد المزيد، وقيل: الشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة وفي كلام بعض المتقدمين أن كفران النعمة بوار وقلما أقشعت نافرة فرجعت في نصابها، فاستدع شاردها بالشكر واستدم راهنها بكرم الجوار واعلم أن سبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقارًا ﴿غنيّ﴾ عن الشكر ﴿كريم﴾ بالإنعام على من يكفر نعمته، والذي قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكرًا لربه جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء الله والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القائمة بحسن الشكر كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر.

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾.

﴿نكروا﴾ اجعلوه متنكرًا متغيرًا عن هيئته وشكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه، قالوا: وسعوه وجعلوا مقدمه مؤخره وأعلاه أسفله. وقرئ: ﴿ننظر﴾ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف ﴿أتهتدي﴾ لمعرفته، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه أو للدين والإيمان بنبوّة سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البيّنة من تقدم عرشها، وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس، هكذا ثلاث كلمات: حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة.

فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾.

لم يقل: أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا فـ ﴿قالت كانه هو﴾، ولم نقل هو هو ولا ليس به وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل[1].

﴿وأوتينا العلم﴾ من كلام سليمان وملئه.

فإن **قُلْتَ**: علام عطف هذا الكلام وبم اتصل! **قُلْتُ**: لما كان المقام الذي سئلت فيه عن عرشها وأجابت بما أجابت به مقامًا أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم: ﴿وأوتينا العلم﴾ نحو أن يقولوا عند قولها ﴿كانه هو﴾: قد أصابت في جوابها، وطبقت المفصل وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله وصحة النبوّة بالآيات التي تقدّمت عند وفدة المنذر، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها، ولم نزل على دين الإسلام شكر الله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها.

وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾.

﴿وصدها﴾ عن التقدّم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهراني الكفرة ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها: كانه هو والمعنى: وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوّة سليمان عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة تعني: ما تبيّنت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا في الإسلام، ثم قال الله تعالى: ﴿صدها﴾ قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل وقيل: وصدّها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرئ أنها بالفتح على أنه بدل من فاعل صدّ أو بمعنى: لأنها.

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ

---

(1) قال أحمد: وفي قولها: كانه هو عدو لها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول هكذا هو نكتة حسنة، ولعل قائلاً يقول: كلا العبارتين تشبيه إذ كاف التشبيه فيهما جميعاً، وإن كانت في إحداهما داخلة على اسم الإشارة، وفي الأخرى داخلة على المضمر، وكلاهما أعني اسم الإشارة والمضمر واقع على الذات المشبهة، وحينئذ تستوي العبارتان في المعنى، ويفضل قولها هكذا هو بمطابقته للسؤال، فلا بد في اختيار كانه هو من حكمة، = فنقول: حكمته، والله أعلم. أن كانه هو عبارة عن قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس، وأما هكذا هو فعبارة جازم بتغاير الأمرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلهذا عدلت إلى العبارة المنكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها، والله أعلم. وقول الزمخشري: ولا ليس بهو إن كان من قوله فوهم، والصواب: ولا ليس به، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾.

﴿الصرح﴾ القصر وقيل: صحن الدار. وقرأ ابن كثير: سأقيها بالهمز ووجهه أنه سمع سؤقًا، فأجرى عليه الواحد. والممرد: المملس وروي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجنّ والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظامًا لأمره وتحققًا لنبوّته وثباتًا على الدين وزعموا أنّ الجنّ كرهوا أن يتزوّجها، فتفضي إليه بأسرارهم: لأنها كانت بنت جنيّة وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجنّ والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشدّ وأفظع فقالوا له: إن في عقلها شيئًا وهي شعراء الساقين ورجلها كحافرا الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرّف ساقها ورجلها فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقًا وقدمًا لا أنها شعراء، ثم صرف بصره وناداها ﴿إنّه صرح ممرد من قوارير﴾ وقيل: هي السبب في اتخاذ النورة أمر بها الشياطين، فاتخذوها واستنكحها سليمان عليه السلام وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجنّ فبنوا لها سيلحين وغمدان، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له وقيل: بل زوجها ذا تبع ملك همدان وسلطه على اليمن وأمر زوبعة أمير جنّ اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع ولم يزل أميرًا حتى مات سليمان ﴿ظلمت نفسي﴾ تريد: بكفرها فيما تقدّم، وقيل: حسبت أنّ سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت: ظلمت نفسي بسوء ظني بسليمان عليه السلام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾.

وقرئ: ﴿أن اعبدوا﴾ بالضم على اتباع النون الياء ﴿فريقان﴾ فريق مؤمن وفريق كافر وقيل: أريد بالفريقين صالح عليه السلام، وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد ﴿يختصمون﴾ يقول كل فريق: الحق معي.

قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿السيئة﴾ العقوبة و﴿الحسنة﴾ التوبة.

فإن قُلْتَ: ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى؟ **قُلْتُ:** كانوا يقولون لجهلهم: إنّ العقوبة التي يعدّها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا مقدّرين أنّ التوبة مقبولة في ذلك الوقت، وإن لم تقع فنحن على ما نحن عليه فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم. ثم قال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب ﴿لعلكم ترحمون﴾ تنبيهاً لهم على الخطأ فيما قالوه وتجهيلاً فيما اعتقدوه.

قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾.

وكان الرجل يخرج مسافرًا فيمر بطائر فيزجره فإن مر سانحًا تيمن وإن مر بارحًا تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة ومنا قالوا: طائر الله لا طائرك أي: قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر، لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن فلما قالوا: اطيرنا بكم أي: تشاءمنا، وكانوا قد قحطوا ﴿قال طائركم عند الله﴾ أي: سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم، ويجوز أن يريد: عملكم مكتوب عند الله فمنه نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة ومنه قوله: ﴿طائركم معكم﴾[1] وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه، وقرئ: تطيرنا بكم على الأصل ومعنى تطير به: تشاءم به، وتطير منه: نفر منه ﴿تفتنون﴾ تختبرون أو تعذبون، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة.

وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿المدينة﴾ الحجر. وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنّه في معنى الجماعة فكأنه قيل: تسعة أنفس والفرق بين الرهط والنفر أنّ الرهط من الثلاثة إلى العشرة أو من السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم عن وهب الهذيل بن عبد رب بن غنم بن غنم رباب بن مهرج مصدع بن مهرج عمير بن كردبة عاصم بن مخرمة سبيط بن صدقة سمعان بن صفي قدار بن سالف وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام وكانوا من أبناء أشرافهم ﴿ولا يصلحون﴾ يعني: أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح.

قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿تقاسموا﴾ يحتمل أن يكون أمرًا وخبرًا في محل الحال بإضمار قد أي: قالوا متقاسمين وقرئ: تقسموا، وقرئ: لتبيتنه بالتاء والياء والنون فتقاسموا مع النون والتاء يصح فيه الوجهان ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبرًا والتقاسم والتقسم كالتظاهر والتظهر التحالف والبيات

(1) سورة يّس، الآية: 19.

مباغتة العدوّ ليلاً وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات، فقال: ليس من آيين الملوك استراق الظفر. وقرئ: ﴿مهلك﴾ بفتح الميم واللام وكسرها من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ويحتمل المصدر والزمان والمكان.

فإن قُلْتَ: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟ قُلْتُ: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحًا وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين، ثم قالوا: ﴿ما شهدنا مهلك أهله﴾ فذكروا أحدهما كانوا صادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعًا لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أنّ الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبيّ الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سوّوا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب.

وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾.

مكرهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا: زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله كلا منهم في مكانه ونجّى صالحًا ومن معه وقيل: جاءوا بالليل شاهري سيوفهم، وقد أرسل الله الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون راميًا.

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾.

﴿أنا دمّرناهم﴾ استئناف، ومن قرأ بالفتح رفعه بدلاً من العاقبة أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هي تدميرهم أو نصبه على معنى لأنا أو على أنه خبر كان أي: كان عاقبة مكرهم الدمار.

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿خاوية﴾ حال عمل فيها ما دلّ عليه تلك وقرأ عيسى بن عمر: ﴿خاوية﴾ بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿و﴾ اذكر ﴿لوطًا﴾ أو أرسلنا لوطًا لدلالة ولقد أرسلنا عليه، و ﴿إذ﴾ بدل على الأوّل ظرف على الثاني ﴿وأنتم تبصرون﴾ من بصر القلب أي: تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها، وأن الله إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الأنثى للأنثى فهي مضادة لله في حكمته وحكمه وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم وأدخل في القبح والسماجة وفيه دليل على أن القبيح من الله أقبح منه من عباده؛ لأنه أعلم العالمين، وأحكم الحاكمين أو تبصرونها بعضكم من بعض لأنهم كانوا في ناديتهم يرتكبونها معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة، وإنهماكًا في المعصية، وكأن أبا نواس بنى على مذهبهم قوله:

وبح باسم ما تأتي وذرني من الكنى ... فلا خير في اللذات من دونها ستر

أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم.

فإن قُلْتَ: فسرت ﴿تبصرون﴾ بالعلم وبعده.

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ فكيف يكونون علماء جهلاء؟ قُلْتَ: أراد: تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك، أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها.

فإن قُلْتَ: ﴿تجهلون﴾ صفة لقوم والموصوف لفظه لفظ الغائب، فهلا طابقت الصفة الموصوف فقرئ بالياء دون التاء وكذلك بل أنتم قوم تفتنون! قُلْتُ: اجتمعت الغيبة والمخاطبة، فغلبت المخاطبة؛ لأنها أقوى وأرسخ أصلاً من الغيبة.

۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾.

وقرأ الأعمش جواب قومه بالرفع والمشهورة أحسن. ﴿يتطهرون﴾ يتنزهون عن القاذورات كلها، فينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا إنكارهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو استهزاء.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿قدّرناها﴾ قدّرنا كونها ﴿من الغابرين﴾ كقوله: قدّرنا إنها لمن الغابرين فالتقدير واقع على الغبور في المعنى.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾.

أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء، وحكمته وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ، كابرًا عن كابر. هذا الأدب الأدب فحمدوا الله عزّ وجل وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتذكرة وفي مفتتح كل خطبة وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن وقيل: هو متصل بما

قبله وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام، وأشياعهم الناجين وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت[1] وتهكم بحالهم وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله، ولا يؤثر عاقل شيئًا على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة فقيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه وإنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى، وعبثًا لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول وليعلموا إنّ الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد، ونحوه ما حكاه عن فرعون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجرى تحته.

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي تعي آثار رحمته وفضله كما عدّدها في موضع آخر ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء، وقرئ يشركون بالياء والتاء، وعن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرأها يقول: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم[2].

فإن **قُلْتَ**: ما الفرق بين أم وأم في أم ما تشركون وأمّن خلق؟ **قُلْتُ**: تلك متصلة؛ لأنّ المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لما قال الله تعالى: ﴿آلله خير أم الآلهة﴾.

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

قال: بل أمّن خلق السموات والأرض خير تقريرًا لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء، وقرأ الأعمش: ﴿أمن﴾ بالتخفيف ووجهه أن يجعل بدلاً من الله كأنه قال: أمّن خلق السموات والأرض خير أم ما تشركون.

فإن **قُلْتَ**: أي نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا؟ **قُلْتُ**: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته والإيذان بأنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ ومعنى الكينونة: الانبغاء أراد: أن تأتي ذلك محال من غيره وكذلك قوله: بل هم بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم، والحديقة: البستان عليه حائط من الإحداق وهو: الإحاطة وقيل: ذات لأنّ المعنى: جماعة حدائق ذات بهجة كما يقال: النساء ذهبت والبهجة الحسن لأنّ الناظر يبتهج به ﴿أإله مع الله﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكًا له، وقرئ أإلهًا مع الله بمعنى أتدعون أو أتشركون ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدّة وتخرج الثانية بين بين ﴿يعدلون﴾ به غيره، أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد.

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

﴿أمن جعل﴾ وما بعده بدل من **﴿أمن خلق﴾** فكان حكمهما حكمه **﴿قرارًا﴾** دحاها وسواها للاستقرار عليها **﴿حاجزًا﴾** كقوله: برزخًا.

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾.

الضرورة: الحالة المحوجة إلى اللجا والاضطرار: افتعال منها يقال: اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر والمضطر: الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجا والتضرع إلى الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو المجهود، وعن السدّي: الذي لا حول له ولا قوّة وقيل: المذنب إذا استغفر.

فإن **قُلْتَ**: قد عم المضطرين بقوله: يجيب المضطر إذا دعاه وكم من مضطر يدعوه فلا يجاب؟ **قُلْتُ**: الإجابة موقوفة على أن يكون المدعوّ به مصلحة، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطًا فيه المصلحة[3] وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقًا يصلح لكله ولبعضه فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل وقد قام الدليل على البعض وهو الذي إجابته مصلحة فبطل التناول على العموم ﴿خلفاء الأرض﴾ خلفاء فيها وذلك توارثهم سكناها، والتصرف فيها قرنًا بعد قرن أو أراد بالخلافة الملك والتسلط، وقرئ يذكرون بالياء مع الإدغام، وبالتاء مع الإدغام والحذف وما مزيدة أي: يذكرون تذكرًا قليلاً والمعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي.

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا

---

(1) قال أحمد: كلام مرضي بعد أن تضع خالق كل شيء مكان قوله: خالق كل خير، فإنه تخصيص قدري أو إشراك خفي، والتوحيد الأبلج ما قلناه والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن، فصل في استحباب التكبير عند الختم، (حديث: 2082).

(3) قال أحمد: الصواب أنّ الإجابة مقرونة بالمشيئة لا بالمصلحة، = وإنما تقف الإجابة على المصلحة عند القدرية لإيجابهم على الله تعالى رعاية المصالح، فقول الزمخشري: لا يحسن الدعاء من العبد إلا شارطاً فيه المصلحة فاسد، فإنّ المشيئة شرط في إجابة الدعاء اتفاقاً ومع ذلك نهى النبي ﷺ أن يقول الداعي: «اللهم اغفر لي إن شئت».

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿يهديكم﴾ بالنجوم في السماء والعلامات في الأرض إذا جنّ الليل عليكم مسافرين في البر والبحر.

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾.

فإن قُلْتَ: كيف قيل لهم:

﴿أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ وهم منكرون للإعادة! قُلْتُ: قد أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة، والإقرار فلم يبق لهم عذر في الإنكار ﴿من السماء﴾ الماء ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ النبات ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنّ مع الله إلهًا فأين دليلكم عليه.

فإن قُلْتَ: لم رفع اسم الله والله يتعالى أن يكون ممن في السموات والأرض؟ قُلْتُ: جاء على لغة بني تميم حيث يقولون: ما في الدار أحد إلا حمار يريدون: ما فيها إلا حمار وكأن أحدًا لم ينكر ومنه قوله:

عشية ما تغني الرماح مكانها ولا النبل إلا المشر في المصمم

وقولهم: ما أتاني زيد إلا عمرو وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه.

فإن قُلْتَ: ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي؟

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾.

قُلْتُ: دعت إليه نكتة سرية حيث أخرج المستثنى مخرج قوله: إلا اليعافير بعد قوله: ليس بها أنيس ليؤل المعنى إلى قولك: إن كان الله ممن في السموات والأرض فهم يعلمون الغيب يعني: أنّ علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم كما أنّ معنى ما في البيت إن كانت اليعافير أنيسًا ففيها أنيس بتا للقول بخلوها عن الأنيس.

فإن قُلْتَ: هلا زعمت أنّ الله ممن في السموات والأرض كما يقول المتكلمون: الله في كل مكان على معنى أنّ علمه في الأماكن كلها فكأن ذاته فيها حتى لا تحمله على مذهب بني تميم! قُلْتُ: يأبى ذلك أن كونه في السموات والأرض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازًا، غير صحيحة على أنّ قولك من في السموات والأرض وجمعك بينه وبينهم في إطلاق اسم واحد فيه إبهام تسوية والإيهامات مزالة عنه وعن صفاته تعالى ألا ترى كيف قال ﷺ لمن قال: ومن يعصهما فقد غوى: بئس خطيب القوم أنت[1] وعن عائشة رضي الله عنها: من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾[2]، وعن بعضهم: أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحدًا لئلا يأمن أحد من عبيده مكره، وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة ﴿أيان﴾ بمعنى متى ولو سمي به لكان فعالا من آن يئين، ولا يصرف وقرئ إيان بكسر الهمزة.

بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾.

وقرئ بل أدرك بل أدراك بل إدراك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آأدرك بألف بينهما بل أدرك بالتخفيف، والنقل بل أدرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدّرك على الاستفهام بلى أدرك بلى أأدرك أم، تدارك أم أدرك فهذه ثنتا عشرة قراءة وادارك أصله تدارك فادغمت التاء في الدال وادّرك افتعل ومعنى ﴿ادرك علمهم﴾ انتهى، وتكامل وادّرك تتابع واستحكم وهو على وجهين أحدهما: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيه قد حصلت لهم، ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون وهو قوله: بل هم في شك منها بل هم منها عمون يريد: المشركين ممن في السموات والأرض: لأنهم لما كانوا في جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع كما يقال: بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم.

فإن قُلْتَ: إن الآية سيقت لاختصاص الله بعلم الغيب وأن العباد لا علم بشيء منه وأن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به فكيف لاءم هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة؟ قُلْتُ: لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب ولا يشعرون بالبعث الكائن، ووقته الذي يكون فيه وكان هذا بيانًا لعجزهم ووصفًا لقصور علمهم وصل به أن عندهم عجزًا أبلغ منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بدّ أن يكون وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به. والوجه الثاني: أن وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكم بهم كما تقول: لأجهل الناس ما أعلمك على سبيل الهزو، وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذي الطريق إلى علمه مسلوك فضلاً أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته وفي أدرك علمهم وادارك علمهم وجه آخر، وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك: أدركت الثمرة؛ لأنّ تلك غايتها التي عندها تعدم، وقد فسره الحسن رضي الله عنه؛ باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك.

فإن قُلْتَ: فما وجه قراءة مَن قرأ: بل أأدرك على الاستفهام! قُلْتُ: هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة (الحديث: 48 ـ 870).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: (1)= (الحديث: 4855)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل ولقد رآه نزلة أخرى... الحديث: (287 ـ 177).

علمهم وكذلك من قرأ أم أدرك وأم تدارك لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة.

فإن قُلْتَ: فمن قرأ بلى أدرك وبلى أأدرك! **قُلْتُ:** لما جاء ببل بعد قوله: ﴿وما يشعرون﴾ كان معناه بلى يشعرون، ثم فسر الشعور بقوله: أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم فكأنه قال: شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها، فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون، وأما من قرأ بلى أأدرك على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون ثم أنكر علمهم بكونها وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها لأنّ العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن ﴿في الآخرة﴾ في شأن الآخرة ومعناها.

فإن قُلْتَ: هذه الاضطرابات الثلاث ما معناها! **قُلْتُ:** ما هي إلا تنزيل لأحوالهم وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه لا يخطر بباله حقًا ولا باطلاً ولا يفكر في عاقبة وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشاه فلذلك عداه بمن دون عن لأنّ الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾.

العامل في إذا ما دلّ عليه ﴿أئنا لمخرجون﴾ وهو نخرج؛ لأنّ بين يدي عمل اسم الفاعل فيه عقابًا وهي همزة الاستفهام وإن ولام الابتداء وواحدة منها كافية فكيف إذا اجتمعن، والمراد: الإخراج من الأرض أو من حال الفناء إلى الحياة وتكرير حرف الاستفهام بإدخاله على إذا وإن جميعًا إنكار على إنكار وجحود عقيب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه والضمير في إنَّا لهم ولآبائهم؛ لأنّ كونهم ترابًا قد تناولهم وآباؤهم.

لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾.

فإن قُلْتَ: قدم في هذه الآية ﴿هذا﴾ على ﴿نحن وآباؤنا﴾ وفي آية أخرى قدم ﴿نحن وآباؤنا﴾ على ﴿هذا﴾! **قُلْتُ:** التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر، وإن الكلام إنما سيق لأجله ففي إحدى الآيتين دلّ على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد.

قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾.

لم تلحق علامة التأنيث بفعل العاقبة لأنّ تأنيثها غير حقيقي ولأنّ المعنى كيف كان آخر أمرهم، وأراد بالمجرمين الكافرين وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجرام ليكون لطفًا للمسلمين في ترك الجرائم وتخوف عاقبتها ألا ترى إلى قوله: ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾[1] وقوله: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾[2].

وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾.

﴿ولا تحزن عليهم﴾ لأنهم لم يتبعوك ولم يسلموا فيسلموا وهم قومه قريش كقوله تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾[3] ﴿في ضيق﴾ في حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك ولا تبال بذلك فإن الله يعصمك من الناس يقال: ضاق الشيء ضيقًا وضيقًا بالفتح والكسر وقد قرئ بهما والضيق أيضًا تخفيف الضيق قال الله تعالى: ﴿ضيقًا حرجًا﴾[4] قرئ مخففًا ومثقلاً، ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم.

قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾.

استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم: ﴿عسى أن يكون﴾ ردف لكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في ولا تلقوا بأيديكم أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وقد عدى بمن قال: فلما ردفنا من عمير وصحبه، تولوا سراعًا والمنية تعنق يعني: دنونا من عمير وقرأ الأعرج: ردف لكم بوزن ذهب وهما لغتان والكسر أفصح وعسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الأمر وجده وما لا مجال للشكّ بعده، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أنّ عدوّهم لا يفوتهم، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾.

الفضل والفاضلة: الإفضال ولفلان فواضل في قومه وفضول، ومعناه: أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة وأنه لا يعاجلهم بها وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه، ولكنهم بجهلهم يستعجلون وقوع العقاب وهم قريش.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾.

قرئ: تكن يقال: كننت الشيء وأكننته: إذا سترته

(1) سورة الشمس، الآية: 14.
(2) سورة نوح، الآية: 25.
(3) سورة الكهف، الآية: 6.
(4) سورة الأنعام، الآية: 125.

وأخفيته يعني: أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ ومكايدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾.

سمى الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العافية والعاقبة ونظائرهما النطيحة والرمية والذبيحة في أنها أسماء غير صفات، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية في قولهم: ويل للشاعر من راوية السوء كأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته في اللوح المبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾.

قد اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزابًا ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضًا، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا يريد: اليهود والنصارى.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾.

﴿للمؤمنين﴾ لمن أنصف منهم وآمن أي: من بني إسرائيل، أو منهم ومن غيرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨﴾.

﴿بينهم﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به.

فإن قُلْتَ: ما معنى: يقضي بحكمه ولا يقال: زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه؟ قُلْتُ: معناه بما يحكم به وهو عدله؛ لأنه لا يقضي إلا بالعدل فسمى المحكوم به: حكمًا أو أراد بحكمته وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه: جمع حكمة ﴿وهو العزيز﴾ فلا يردّ قضاؤه ﴿العليم﴾ بمن يقضي له وبمن يقضي عليه أو العزيز في انتقامه من المبطلين العليم بالفصل بينهم وبين المحقّين.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾.

أمره بالتوكل على الله، وقلة المبالات بأعداء الدين وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشكّ والظنّ وفيه بيان أنّ صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته وأن مثله لا يخذل.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾.

فإن قُلْتَ: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ يشبه أن يكون تعليلاً آخر للتوكل، فما وجه ذلك! قُلْتُ: وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسببًا عما كان يغيظ رسول الله ﷺ من جهة المشركين وأهل الكتاب من ترك اتباعه وتشييع ذلك بالأذى والعداوة فلاءم ذلك أن يعلل توكل متوكل مثله بأن اتباعهم أمر قد يئس منه، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم وشبهوا بالموتى، وهم أحياء صحاح الحواس: لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم، وكان سماعهم كلا سماع كانت حالهم لانتفاء جدوى السماع كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع وكذلك تشبيههم بالصمّ الذين ينعق بهم فلا يسمعون وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم وأن يجعلهم هداة بصراء إلا الله عز وجل.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿إذا ولوا مدبرين﴾! قُلْتُ: هو تأكيد لحال الأصم؛ لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولى عنه مدبرًا، كان أبعد عن إدراك صوته.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١﴾.

وقرئ ولا يسمع الصمّ وما أنت بهادي العمي على الأصل وتهدي العمي وعن ابن مسعود: وما أن تهدي العمي، وهداه عن الضلال كقولك: سقاه عن العيمة أي: أبعده عنها بالسقي وأبعده عن الضلال بالهدى ﴿إن تسمع﴾ أي: ما يجدي إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته أي: يصدقون بها ﴿فهم مسلمون﴾ أي: مخلصون من قوله: ﴿بلى مَن أسلم وجهه لله﴾ يعني: جعله سالمًا لله خالصًا له سمى معنى القول.

۞ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾.

ومؤداه بالقول وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ووقوعه: حصوله والمراد: مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة ودابة الأرض الجساسة جاء في الحديث أنّ طولها ستون ذراعًا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب[1] وروي لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان وعن ابن جريج في وصفها: رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن إبل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هر وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعًا بذراع آدم عليه السلام، وروي لا تخرج إلا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن أبي هريرة: فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب، وعن الحسن رضي الله عنه: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام وعن علي رضي الله عنه: أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون، فلا يخرج إلا ثلثها وعن النبي ﷺ أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعني: المسجد الحرام، وروي أنها تخرج ثلاث خرجات تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهرًا طويلاً فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، زيلعي 3/19.

على الله[1]، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون، وقوم يقفون نظارة وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية بلسان ذلق فتقول: ﴿أنَّ النَّاسَ كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ يعني: أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي؛ لأنّ خروجها من الآيات وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين، وعن السدي تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام وعن ابن عمر رضي الله عنه تستقبل المغرب، فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المشرق ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك وروي: تخرج من أجياد، وروي: بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتضرب المؤمن في مسجده أو فيما بين عينيه بعصا موسى عليه السلام، فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيئ لها وجهه أو فتترك وجهه كأنه كوكب درّي وتكتب بين عينيه مؤمن، وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر وروي: فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم ثم تقول لهم: يا فلان أنت من أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار وقرئ: تكلمهم من الكلم، وهو: الجرح والمراد به: الوسم بالعصا والخاتم ويجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضًا على معنى التكثير يقال: فلان مكلم أي: مجرح ويجوز أن يستدل بالتخفيف على أن المراد بالتكليم: التجريح، كما فسر لنحرقنه بقراءة علي رضي الله عنه: لنحرقنه، وأن يستدل بقراءة أبيّ: تنبئهم، وبقراءة ابن مسعود: تكلمهم بأنّ الناس على أنه من الكلام، والقراءة بإن مكسورة حكاية لقول الدابة، إما لأنّ الكلام بمعنى القول، أو بإضمار القول أي: تقول الدابة ذلك، أو هي حكاية لقوله تعالى عند ذلك.

فإن قُلْتَ: إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا؟ قُلْتُ: قولها حكاية لقول الله تعالى، وعلى معنى بآيات ربنا أو لاختصاصها بالله وأثرتها عنده وأنها من خواص خلقه أضافت آيات الله إلى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك: خيلنا وبلادنا وإنما هي خيل مولاه وبلاده ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار أي: تكلمهم بأن.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿فهم يوزعون﴾ يحبس أوّلهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار وهذه عبارة عن كثرة العدد، وتباعد أطرافه كما وصفت جنود سليمان بذلك وكذلك قوله: ﴿فوجًا﴾ فإن الفوج: الجماعة الكثيرة ومنه قوله تعالى: ﴿يدخلون في دين الله أفواجًا﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة، وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ قُلْتُ: الأولى للتبعيض والثانية للتبيين كقوله: ﴿من الأوثان﴾[2].

حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾.

الواو للحال كأنه قال: أكذبتم بها بادئ الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب أو للعطف أي: أجحدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتحققها، وتبصرها فإنّ المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ بها للتبكيت لا غير وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا: قد صدّقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب ومثاله أن تقول: لراعيك وقد عرفته رويعي سوء: أتأكل نعمي أم ماذا تعمل بها فتجعل ما تبتدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صحّ عندك من أكله وفساده، وترمي بقولك أم ماذا تعمل بها مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبهته وتعلمه علمك بأنه لا يجئ منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدّعي الحفظ والإصلاح لما شهر من خلاف ذلك أو أراد أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر، والتكذيب بآيات الله أم مّاذا كنتم تعملون من غير ذلك يعني: أنه لم يكن لهم عمل غيره كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية، وإنما خلقوا للإيمان والطاعة يخاطبون بهذا قبل كبهم في النار ثم يكبون فيها وذلك قوله:

﴿ووقع القول عليهم﴾ يريد: أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾[3].

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾.

جعل الإبصار للنهار وهو لأهله.

فإن قُلْتَ: ما للتقابل لم يراع في قوله: ﴿ليسكنوا﴾ و﴿مبصرًا﴾ حيث كان أحدهما علة، والآخر حالاً؟ قُلْتُ: هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف؛ لأنّ معنى مبصرًا: ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب.

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 4/484.
(2) سورة الحج، الآية: 22.
(3) سورة المرسلات، الآية: 35.

شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾.

فإن قُلْتَ: لم قيل: ﴿ففزع﴾ دون فيفزع؟ قُلْتُ: لنكتة وهي: الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض؛ لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿إلا من شاء الله﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام، وقيل: الشهداء. وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر منهم موسى عليه السلام؛ لأنه صعق مرّة ومثله قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾، وقرئ: أتوه وأتاه وبخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر: الصاغر وقيل: معنى الإتيان: حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ويجوز أن يراد: رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿جامدة﴾ من جمد في مكانه: إذا لم يبرح، تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفة ثابتة في مكان واحد ﴿وهي تمرّ﴾ مرًّا حثيثًا كما يمر السحاب، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحرّكت لا تكاد تتبيَّن حركتها كما قال النابغة في صفة جيش:

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

﴿صنع الله﴾ من المصادر المؤكدة كقوله: ﴿وعد الله﴾ و﴿صبغة الله﴾ إلا أنّ مؤكده محذوف، وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى: ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال: ﴿صنع الله﴾ يريد به: الإثابة والمعاقبة وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها، وأتى بها على الحكمة والصواب حيث قال: ﴿صنع الله الذي أتقن كلّ شيء﴾ يعني: أنّ مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك. ثم لخص ذلك بقوله:

﴿من جاء بالحسنة﴾ إلى آخر الآيتين فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إضماده ورصانة تفسيره وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغًا واحدًا ولأمر ما أعجز القوى، وأخرس الشقاشق ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته والمنادي على سداده، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان ألا ترى إلى قوله: صنع الله وصبغة الله ووعد الله وفطرة الله بعدما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم كيف تلاها بقوله: ﴿الذي أتقن كلّ شيء﴾ ومن أحسن من الله صبغة لا يخلف الله الميعاد لا تبديل لخلق الله، وقرئ ﴿تفعلون﴾ على الخطاب ﴿فله خير منها﴾ يريد: الإضعاف وأنّ العمل ينقضي والثواب يدوم وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد وقيل: فله خير منها أي: له خير حاصل من جهتها وهو: الجنة، وعن ابن عباس: الحسنة كلمة الشهادة، وقرئ: ﴿يومئذٍ﴾ مفتوحًا مع الإضافة؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن قوله وأخرس الشقاشق في الصحاح شقشق الفحل شقشقة هدَر وإذا قالوا للخطيب: ذو شقشقة فإنما يشبه بالفحل ومنصوبًا مع تنوين فزع.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين الفزعين؟ قُلْتُ: الفزع الأوّل: هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدّة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به كما يدخل الرجل على الملك بصدر هياب وقلب وجاب وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة وإحسان وتولية، وأمّا الثاني: فالخوف من العذاب.

فإن قُلْتَ: فمن قرأ: ﴿من فزع﴾ بالتنوين ما معناه! قُلْتُ: يحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب، وأمّا ما يلحق الإنسان من النهيب والرعب لما يرى من الأهوال والعظائم فلا يخلون منه؛ لأنّ البشرية تقتضي ذلك، وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه ومن فزع شديد مفرط الشدّة لا يكتنهه الوصف وهو: خوف النار، أمّن يعدى بالجارّ وبنفسه كقوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾[1].

وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾.

وقيل: السيئة: الإشراك، يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل: فكبوا في النار كقوله تعالى: ﴿فكبكبوا فيها﴾[2] ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذانًا بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين ﴿هل تجزون﴾ يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول.

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾.

أمر رسوله بأن يقول: ﴿أمرت﴾ أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكًا كما فعلت قريش وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام.

وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾.

﴿وأن أتلو القرآن﴾ من التلاوة أو التلو كقوله: ﴿واتبع

(1) سورة الأعراف، الآية: 99.

(2) سورة الشعراء، الآية: 94.

ما يوحى إليك﴾[1]، والبلدة: مكة حرسها الله تعالى اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها: لأنها أحبّ بلاده إليه وأكرمها عليه وأعظمها عنده وهكذا قال النبي ﷺ حين خرج في مهاجره فلما بلغ الحزورة استقبلها بوجهه الكريم فقال: إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت[2] وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب دالاً على أنها موطن نبيّه ومهبط وحيه ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو ووصفها بأنها محرّمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها واللاجئ إليها آمن، وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيّته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما وفي ذلك إشارة إلى أن ملكًا ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء[3]. اللهم بارك لنا في سكناها وآمنا فيها شر كل ذي شر، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك وقرئ: التي حرّمها واتل عليهم هذا القرآن عن أبيّ وأن أتل عن ابن مسعود ﴿فمن اهتدى﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفي الأنداد عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل عليّ من الوحي فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿ومن ضل﴾ ولم يتبعني فلا عليّ وما أنا إلا رسول منذر وما على الرسول إلا البلاغ.

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

ثم أمره أن يحمد الله على ما خوّله من نعمة النبوّة التي لا توازيها نعمة، وأن يهدّد أعداءه بما سيريهم الله من آياته التي تلجئهم إلى المعرفة، والإقرار بأنها آيات الله وذلك حين لا تنفعهم المعرفة يعني: في الآخرة. عن الحسن وعن الكلبي: الدخان وانشقاق القمر وما حلّ بهم من نقمات الله في الدنيا، وقيل: هو كقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾[4] الآية. وكل عمل يعملونه فالله عالم به غير غافل عنه؛ لأنّ الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات[5]، وهو من وراء جزاء العاملين قرئ: ﴿تعملون﴾ بالتاء والياء. عن رسول الله ﷺ: من قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله[6].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القصص مكية

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾.

﴿من نبإ موسى وفرعون﴾ مفعول **﴿نتلو﴾** أي: نتلو عليك بعض خبرهما **﴿بالحق﴾** محقين كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾[7] **﴿لقوم يؤمنون﴾** لمن سبق في علمنا أنه يؤمن؛ لأنّ التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾.

﴿إنّ فرعون﴾ جملة مستانفة كالتفسير للمجمل كأن قائلاً قال: وكيف كان نبؤهما، فقال: **﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾** يعني: أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحدّ في الظلم والعسف **﴿شيعًا﴾** فرقًا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه قال الأعشى:

وبلدة يرهب الجواب دلجتها ... حتى تراه عليها يبتغي الشيعا

أو يشيع بعضهم بعضًا في طاعته أو أصنافًا في استخدامه يتسخر صنفًا في بناء وصنفًا في حرث وصنفًا في حفر ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقًا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة وهم بنو إسرائيل والقبط، والطائفة المستضعفة بنو إسرائيل، وسبب ذبح الأبناء: أنّ كاهنًا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده وفيه دليل بيِّن على ثخانة حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن، وإن كذب فما وجه القتل **﴿ويستضعف﴾** حال من الضمير في وجعل أو صفة لشيعا أو كلام مستانف و**﴿يذبح﴾** بدل من يستضعف، وقوله: **﴿إنه كان من المفسدين﴾** بيان أنّ

---

(1) سورة يونس، الآية: 109.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحج، باب: فضل مكة، (الحديث: 3708)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل مكة، (الحديث: 3925)، وابن ماجه في المناسك باب: فضل مكة، الحديث: 3108. وأحمد في المسند 4/305. والحاكم في المستدرك 3/431.

(3) قال أحمد: وتحت قوله: وله كل شيء، فائدة أخرى سوى ذلك وهي: أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفاً لها اتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها، وتنبيهاً على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف، لا لأنها ملك الله تعالى خاصة، والله أعلم.

(4) سورة فصلت، الآية: 53.

(5) قال أحمد: قد سبق له جحد صفة العلم وإيهام أن سلبها داخل في تنزيه الله تعالى؛ لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معللة بأنه عالم بالذات لا بعلم، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى؛ لأنّ علمه لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض، بل هو علم قديم أزلي عامّ التعلق بجميع الواجبات والممكنات والممتنعات، ولا يتوقف تنزيهه تعالى على تعطيل صفاته وكماله وجلاله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(6) ذكره الثعلبي وابن مردويه، والواحدي في التفسير، زيلعي 2/23.

(7) سورة المؤمنون، الآية: 20.

القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب؛ لأنه فعل لا طائل تحته صدق الكاهن أو كذب.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله:

﴿ونريد أن نمن﴾ وعطفه على **﴿نتلو﴾** ويستضعف غير سديد! **قُلْتُ:** هي جملة معطوفة على قوله: **﴿إن فرعون علا في الأرض﴾** لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرًا لنبأ موسى وفرعون واقتصاصًا له ونريد حكاية حال ماضية، ويجوز أن يكون حالاً من يستضعف أي: يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم.

فإن قُلْتَ: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله المنة عليهم وإذا أراد الله شيئًا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر؟ **قُلْتُ:** لما كانت منة الله بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم **﴿أئمة﴾** مقدمين في الدين والدنيا يطأ الناس أعقابهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قادة يقتدي بهم في الخير وعن مجاهد رضي الله عنه: دعاة إلى الخير، وعن قتادة رضي الله عنه ولاة كقوله تعالى: **﴿وجعلكم ملوكًا﴾** **﴿الوارثين﴾** يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

مكَّن له: إذا جعل له مكانًا يقعد عليه أو يرقد فوطاه ومهده ونظيره أرّض له ومعنى التمكين لهم في الأرض وهي أرض مصر والشام: أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم، ولا تغث عليهم كما كانت في أيام الجبابرة وينفذ أمرهم ويطلق أيديهم ويسلطهم، وقرئ ويرى فرعون وهامان وجنودهما أي: يرون **﴿منهم ما﴾** حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

اليم: البحر قيل: هو نيل مصر.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر! **قُلْتُ:** أما الأوّل: فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه وأما الثاني: فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان وغير ذلك من المخاوف.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين الخوف والحزن؟ **قُلْتُ:** الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به، فنهيت عنهما جميعًا وأومنت بالوحي إليها ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملؤها غبطة وسرورًا وهو رده إليها وجعله من المرسلين، وروي أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد وروي أنها حين أقربت وضربها الطلق، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالي بني إسرائيل مصافية لها فقالت لها: لينفعني حبك اليوم فعالجتها، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها ثم قالت: ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون ولكني وجدت لابنك حبًا ما وجدت مثله فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة، ووضعته في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئًا فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه بردًا وسلامًا فلما ألحّ فرعون في طلب الولدان أوحى الله إليها فألقته في اليم وقد روي أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردى مطلي بالقار من داخله.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

اللام في **﴿ليكون﴾** هي لام كي التي معناها التعليل كقولك: جئتك لتكرمني سواء بسواء، ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة؛ لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوًا وحزنًا، ولكن المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك ضربته ليتأدب، وتحريره أن هذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد، وقرئ: **﴿وحزنًا﴾** وهما لغتان كالعدم والعدم **﴿كانوا خاطئين﴾** في كل شيء فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم، أو كانوا مذنبين مجرمين فعاقبهم الله بأن ربي عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم وقرئ: **﴿خاطين﴾** تخفيف **﴿خاطئين﴾** أو **﴿خاطين﴾** الصواب إلى الخطأ، روي أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فأعياهم فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورًا، فعالجته ففتحته فإذا بصبي نوره بين عينيه وهو يمص إبهامه لبنًا فأحبوه وكانت لفرعون بنت برصاء وقالت له الأطباء: لا تبرأ إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت، وقيل: لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت: إن هذه لنسمة مباركة فهذا أحد ما عطفهم عليه فقال: الغواة من قومه: هو الصبي الذي تحذر منه. فائذن لنا في قتله، فهم بذلك فقالت آسية:

﴿قرة عين لي ولك﴾ فقال فرعون: لك لا لي وروي في حديث: لو قال: هو قرة عين لي كما هو لك لهداه الله

كما هداها[1]، وهذا على سبيل الفرض والتقدير أي: لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ولأسلم كما أسلمت، هذا إن صح الحديث تأويله والله أعلم بصحته وروي أنها قالت له: لعله من قوم آخرين ليس من بني إسرائيل قرة عين خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن تجعله مبتدأ و ﴿**لا تقتلوه**﴾ خبرًا ولو نصب لكان أقوى، وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه دليل على أنه خبر قرأ: لا تقتلوه قرة عين لي ولك بتقديم لا تقتلوه ﴿**عسى أن ينفعنا**﴾، فإنّ فيه مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله وذلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء ولعلها توسمت في سيماه النجابة المؤنثة بكونه نفاعًا، أو نتبنًّاه فإنه أهل للتبني ولأن يكون ولدًا لبعض الملوك.

فإن قُلْتَ: ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ حال فما ذو حالها! **قُلْتُ**: ذو حالها آل فرعون وتقدير الكلام: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنًا وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنّيه، وقوله: إن فرعون الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾.

﴿**فارغًا**﴾ صفرًا من العقل، والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش ونحوه قوله تعالى: ﴿**وأفئدتهم هواء**﴾[2] أي: جوف لا عقول فيها ومنه بيت حسان: ألا أبلغ أبا سفيان عني، فأنت مجوف نخب هواء وذلك أنّ القلوب مراكز العقول ألا ترى إلى قوله: ﴿**فتكون لهم قلوب يعقلون بها**﴾[3] ويدل عليه قراءة من قرأ: فرغا، وقرئ: قرعًا أي: خاليًا من قولهم: أعوذ بالله من صفر الإناء وقرع الفناء، وفرغا من قولهم: دماؤهم بينهم فرغ أي: هدر يعني: بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها ﴿**لتبدي به**﴾ لتصحر به، والضمير لموسى والمراد: بأمره وقصته وأنه ولدها ﴿**لولا أن ربطنا على قلبها**﴾ بإلهام الصبر كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن ﴿**لتكون من المؤمنين**﴾ من المصدقين بوعد الله وهو قوله: إنا رادوه إليك، ويجوز وأصبح فؤادها فارغًا من الهم حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحًا وسرورًا بما سمعت لولا أنا طامنا قلبها وسكنا قلقه الذي حدث به من شدّة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون وتعطفه، وقرئ: مؤسى بالهمز جعلت الضمة في جارة الواو وهي الميم كأنها فيها فهمزت كما تهمز واو وجوه.

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾.

﴿**قصيه**﴾ اتبعي أثره وتتبعي خبره وقرئ: فبصرت بالكسر يقال: بصرت به عن جنب وعن جنابة بمعنى: عن بعد، وقرئ: عن جانب وعن جنب والجنب الجانب يقال: قعد إلى جنبه وإلى جانبه أي: نظرت إليه مزورة متجانفة مخاتلة، وهم لا يحسون بأنها أخته وكان اسمها: مريم.

۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾.

و﴿**المراضع**﴾ جمع مرضع وهي: المرأة التي ترضع أو جمع مرضع وهو: موضع الرضاع يعني: الثدي أو الرضاع ﴿**من قبل**﴾ من قبل قصصها أثره، روي أنها لما قالت: ﴿**وهم له ناصحون**﴾ قال هامان: إنها لتعرفه وتعرف أهله فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون والنصح إخلاص العمل[4] من شائب الفساد فانطلقت إلى أمها بأمرهم فجاءت بها والصبيّ على يد فرعون يعلله شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال لها فرعون: ومن أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك قالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها وأجرى عليها وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الردّ فعندها ثبت واستقرّ في علمها أن سيكون نبيًا وذلك قوله: ﴿**ولتعلم أن وعد الله حق**﴾ يريد: وليثبت علمها ويتمكن.

فإن قُلْتَ: كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها! **فإن قُلْتَ**: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ولكنه مال حربي كانت تأخذه على وجه الاستباحة وقوله: ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ داخل تحت علمها المعنى لتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت وأصبح فؤادها فارغًا يروى أنها حين ألقت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها: يا أمّ موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجري ثم ذهبت فتوليت قتله، فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه قالت: وقع في يد العدوّ، فنسيت وعد الله ويجوز أن يتعلق ﴿**ولكن**﴾ بقوله: ﴿**ولتعلم**﴾ ومعناه: أن الردّ إنما كان لهذا الغرض الديني، وهو علمها بصدق وعد الله ولكن الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلي الذي ما سواه تبع له من قرّة العين

---

(1) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، زيلعي 3/27.

(2) سورة الحج، الآية: 46.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 43.

(4) قال أحمد: أورت هذه التورية استحساناً لفطنتها، ولكونها من بيت النبوءة وأخت النبيّ، فحقيق لها ذلك.

وذهاب الحزن.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿واستوى﴾، واعتدل وتمّ استحكامه وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه كما قال لقيط:

واستحملوا أمركم لله دركمو شزر المريرة لا قحمًا ولا ضرعًا

وذلك أربعون سنة ويروى أنه لم يبعث نبيّ إلا على رأس أربعين سنة[1]، العلم: التوراة والحكم: السنة وحكمة الأنبياء سنتهم قال الله تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة﴾[2] وقيل معناه: آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث فكان لا يفعل فعلاً يستجهل فيه.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

المدينة: مصر وقيل: مدينة منف من أرض مصر، وحين غفلتهم ما بين العشاءين وقيل: وقت القائلة وقيل: يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم وقيل: لما شبّ وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل قرية إلا على تغفل، وقرأ سيبويه: فاستعانه ﴿من شيعته﴾ ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل وقيل: هو السامريّ ﴿من عدوّه﴾ من مخالفيه من القبط، وهو: فاتون وكان يتسخر الإسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون، والوكز: الدفع بأطراف الأصابع وقيل: بجمع الكف وقرأ ابن مسعود: فلكزه باللام ﴿فقضى عليه﴾ فقتله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾.

فإن قُلْتَ: لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلمًا لنفسه واستغفر منه.

قُلْتُ: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل فكان ذنبًا يستغفر منه وعن ابن جريج: ليس لنبيّ أن يقتل مالم يؤمر.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿بما أنعمت عليّ﴾ يجوز أن يكون قسمًا جوابه محذوف تقديره أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبن ﴿فلن أكون ظهيرًا للمجرمين﴾ وأن يكون استعطافًا كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيرًا للمجرمين، وأن يكون استعطافًا كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيرًا للمجرمين وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له، وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلى به مرّة أخرى يعني: لم يقل فلن أكون إن شاء الله وهذا نحو قوله: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾[3] وعن عطاء: أنّ رجلاً قال له: إنّ أخي يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه قال: فمن الرأس يعني: من يكتب له قال: خالد بن عبد الله القسري قال: فأين قول موسى: وتلا هذه الآية وفي الحديث ينادي مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة، أو برى لهم قلمًا فيجمعون في تابوت من حديد فيرمي به في جهنم وقيل[4]: معناه بما أنعمت عليّ من القوّة لن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك ولا أدع قبطيًا يغلب أحدًا من بني إسرائيل.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يترقب﴾ المكروه، وهو: الاستقادة منه أو الإخبار وما يقال فيه، ووصف الإسرائيلي بالغيّ؛ لأنه كان سبب قتل رجل وهو يقاتل آخر.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

وقرئ: ﴿يبطش﴾ بالضم، والذي هو عدوّ لهما القبطي؛ لأنه ليس على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل، والجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله ولما قال هذا أفشى على موسى فانتشر الحديث في المدينة ورقى إلى فرعون وهمّوا بقتله.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قيل: الرجل مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون و﴿يسعى﴾ يجوز ارتفاعه وصفًا لرجل وانتصابه حالاً عنه؛ لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله: ﴿من أقصى المدينة﴾ وإذا جعل صلة لجاء لم يجز في يسعى إلى الوصف، والائتمار: التشاور يقال: الرجلان يتآمران

(1) قال الزيلعي غريب، 3/27.
(2) سورة الأحزاب، الآية: 34.
(3) سورة هود، الآية: 113.
(4) قال أحمد: لقد تبرأ من عظيم؛ لأنّ ظهير المجرمين شريكهم فيما = هم بصدده، ويروى أنه يقال يوم القيامة: أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة، أو برى لهم قلماً، فيجعلون في تابوت من حديد، ويلقى بهم في النار.

ويأتمران؛ لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر والمعنى: يتشاورون بسببك ﴿لك﴾ بيان وليس بصلة الناصحين.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يترقب﴾ التعرض له في الطريق أو أن يلحق.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿تلقاء مدين﴾ قصدها ونحوها، ومدين: قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في سلطان فرعون وبينها وبين مصر مسيرة ثمان، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس: خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه و﴿سواء السبيل﴾ وسطه ومعظم نهجه وقيل: خرج حافيًا لا يعيش إلا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدمه وقيل: جاءه ملك على فرس بيده عنزا فانطلق به إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ماء مدين﴾ ماءهم الذي يستقون منه وكان بئرًا فيما روى، ووروده: مجيئه والوصول إليه ﴿وجد عليه﴾ وجد فوق شفيره ومستقاه ﴿أمّة﴾ جماعة كثيفة العدد ﴿من الناس﴾ من أناس مختلفين ﴿من دونهم﴾ في مكان أسفل من مكانهم، والذود: الطرد والدفع وإنما كانتا تذودان لأنّ على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي وقيل: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء وقيل: لئلا تختلط أغنامهما وقيل: تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما ﴿ما خطبكما﴾ ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أي: مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطبًا كما سمى المشؤن شأنًا في قولك ما شأنك يقال: شأنت شأنه أي: قصدت قصده، وقرئ ﴿لا نسقي﴾ و﴿يصدر﴾ و﴿الرعاء﴾ بضم النون والياء والراء والرعاء: اسم جمع كالرخال والثناء، وأما الرعاء بالكسر فقياس كصيام وقيام ﴿كبير﴾ كبير السن.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فسقى لهما﴾ فسقى غنمهما لأجلهما، وروي أن الرعاة كان يضعون على رأس البئر حجرًا لا يقله إلا سبعة رجال وقيل: عشرة وقيل: أربعون، وقيل: مائة فاقله وحده وروي أنه سألهم دلوًا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا: استق بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة وروّى غنمهما وأصدرهما وروي أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لهما وقيل: كانت بئرًا أخرى عليها الصخرة، وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمّة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب، وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوّة قلبه وقوّة ساعده وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره، وما أوتي من البطش والقوّة وما لم يغفل عنه على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ترغيب في الخير، وانتهاز فرصة وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم.

فإن قُلْتَ: لم ترك المفعول غير مذكور في قوله: ﴿يسقون﴾ و﴿تذودان﴾، ولا نسقي! قُلْتُ: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذيادوهم على السقي، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً وكذلك قولهما: ﴿لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ المقصود فيه: السقي لاالمسقي.

فإن قُلْتَ: كيف طابق جوابهما سؤاله؟ قُلْتُ: سألهما عن سبب الذود فقالتا: السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به أبلتا إليه عذرهما في توليهما السقي بأنفسهما.

فإن قُلْتَ: كيف ساغ لنبيّ الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قُلْتُ: الأمر في نفسه ليس بمحظور فالدين لا يأباه وأما المروأة فالناس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصًا إذا كانت الحالة حالة ضرورة ﴿إني﴾ لأي شيء ﴿أنزلت إليّ﴾ قليل أو كثير غث أو سمين لـ ﴿فقير﴾ وإنما عدى فقير باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب قيل: ذكر ذلك، وإن خضرة البقل تتراءى في بطنه من الهزال ما سأل الله إلا أكلة ويحتمل أن يريد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين: لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة قال: ذلك رضا بالبدل السنى وفرحًا به، وشكرًا له وكان الظل ظل سمرة.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿على استحياء﴾ في موضع الحال أي: مستحيية متخفرة وقيل: قد استترت بكم درعها، روي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حقل بطان قال لهما: ما أعجلكما قالتا: وجدنا رجلاً صالحًا رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي فتبعها موسى فألزقت

الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق فلما قص عليه قصته قال له: لا تخف فلا سلطان لفرعون بأرضنا.

فإن قُلْتَ: كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية؟ قُلْتُ: أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حرًّا كان أو عبدًا، ذكرًا كان أو أنثى في الأخبار وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه وأما مماشاته امرأة أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورع.

فإن قُلْتَ: كيف صح له أخذ الأجر على البر والمعروف؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلى سبيل البر والمعروف وقبل إطعام شعيب وإحسانه، لا على سبيل أخذ الأجر ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوّة من أولاد يعقوب ومثله حقيق بأن يضيف، ويكرم خصوصًا في دار نبي من أنبياء الله وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والفاقة طلبًا للأجر، وقد روي ما يعضد كلا القولين، روي أنها لما قالت: ﴿ليجزيك﴾ كره ذلك ولما قدّم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبًا ولا نأخذ على المعروف ثمنًا حتى قال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، وعن عطاء ابن السائب: رفع صوته بدعائه ليسمعهما فلذلك قيل له: ﴿ليجزيك أجر ما سقيت﴾ أي: جزاء سقيك، ﴿والقصص﴾ مصدر كالعلل سمى به المقصوص.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾.

كبراهما كانت تسمى: صفراء والصغرى: صفيراء وصفراء هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره وهي التي تزوّجها، وعن ابن عباس أن شعيبًا أحفظته الغيرة فقال: وما علمك بقوته وأمانته فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو وأنه صوّب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه وقولها: ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول: استأجره لقوّته وأمانته[1].

فإن قُلْتَ: كيف جعل خير من استأجرت اسمًا؛ لأنّ والقوى الأمين خبرًا؟ قُلْتُ: هو مثل قوله: ألا إن خير الناس حيًا وهالكًا، أسير ثقيف عندهم في السلاسل في أن العناية هي سبب التقديم وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبرًا اسمًا وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف ومنه قولهم: أهون ما أعملت لسان ممخ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله: عسى أن ينفعنا وأبو بكر في عمر.

قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾.

روي أنه أنكحه صفراء وقوله: ﴿هاتين﴾ فيه دليل على أنه كانت له غيرهما ﴿تاجرني﴾ من أجرته إذا كنت له أجيرًا كقولك: أبوته إذا كنت له أبا و﴿ثماني حجج﴾ ظرفه، أو من أجرته كذا إذا أثبته إياه ومنه تعزية رسول الله ﷺ: «أجركم الله ورحمكم»[2] وثماني حجج مفعول به ومعناه: رعية ثماني حجج.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قُلْتُ: لم يكن ذلك عقدًا للنكاح، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه ولو كان عقدًا لقال قد أنكحتك ولم يقل إني أريد أن أنكحك.

فإن قُلْتَ: فكيف صح أن يمرها إجارة نفسه في رعية الغم ولا بد من تسليم ما هو مال ألا ترى إلى أبي حنيفة كيف منع أن يتزوّج امرأة بأن يخدمها سنة وجوّز أن يتزوّجها بأن يخدمها عبده سنة أو يسكنها داره سنة؛ لأنه في الأوّل مسلم نفسه وليس بمال، وفي الثاني هو مسلم مالا وهو العبد أو الدار؟ قُلْتُ: الأمر على مذهب أبي حنيفة على ما ذكرت وأما الشافعي، فقد جوّز التزوّج على الإجارة لبعض الأعمال الخدمة إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمرًا معلومًا[3] ولعلّ ذلك كان جائزًا في تلك الشريعة، ويجوز أن يكون المهر شيئًا آخر وإنما أراد أن يكون راعي غنمه هذه المدّة وأراد أن ينكحه ابنته فذكر له المرادين، وعلق الإنكاح بالرعية على معنى إني أفعل هذا إذا فعلت

(1) قال أحمد: وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للحشمة، وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوّجها منه، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضي الله تعالى عنه هذا المعنى، فقال: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي، ففي مضمون هذه الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين، فكان قوياً أميناً يستعين به على ما كان بصدده رضي الله عنه، وهذا الايهام من ابنة شعيب صلوات الله عليه وسلامه قد سلكته زليخا مع يوسف عليه السلام، ولكن شتان ما بين الحياء المجبول، والمستعمل ليس التكحل في العينين كالكحل = حيث قالت لسيدها: ما جزاء ما أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب اليم، وهي تعني: ما جزاء يوسف بما أرادني من السوء، إلا أن تسجنه أو تعنبه عذاباً أليماً، ولكنها أوهمت زوجها الحياء والخفر أن تنطق بالعصمة منسوباً إليها لخنا إيذاناً، بأن هذا الحياء منها الذي يمنعها أن تنطق بهذا الأمر يمنعها من مراودة يوسف بطريق الأخرى والأولى، والله أعلم.

(2) قال الزيلعي غريب، ورواه الديلمي 3/28.

(3) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 3/385، كتاب: الجنائز، باب: الرجل يعزّر.

ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة ويجوز أن يستأجره لرعية ثماني سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه ثم ينكحه ابنته به ويجعل قوله: على أن تأجرني ثماني حجج عبارة عما جرى بينهما **﴿فإن أتممت﴾** عمل عشر حجج **﴿فمن عندك﴾** فإتمامه من عندك ومعناه فهو من عندك لا من عندي يعني: لا ألزمكه ولا أحتمه عليك، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع وإلا فلا عليك **﴿وما أريد أن أشق عليك﴾** بإلزام أتم الأجلين وإيجابه.

فإن **قُلْتَ**: ما حقيقة قولهم: شققت عليه وشق عليه الأمر! **قُلْتُ**: حقيقته أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين تقول: تارة أطيقه وتارة لا أطيقه، أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعي غنمه، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين من المناقشة في مراعاة الأوقات والمداقة في استيفاء الأعمال، وتكليف الرعاة أشغالاً خارجة عن حد الشرط وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح في معاملات الناس ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ شريكي فكان خير شريك لا يداري ولا يشاري ولا يماري[1] وقوله: **﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾** يدل على ذلك يريد بالصلاح حسن المعاملة ووطاءة الخلق ولين الجانب، ويجوز أن يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه، ومعونته لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء الله وإن شاء استعمل خلافه.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ذلك﴾ مبتدأ و**﴿بيني وبينك﴾** خبره وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعًا لا نخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت عليّ ولا أنت عما شرطت على نفسك، ثم قال: أي أجل من الأجلين قضيت أطولهما الذي هو العشر، أو أقصرهما الذي هو الثمان **﴿فلا عدوان علي﴾** أي: لا يعتدى عليّ في طلب الزيادة عليه.

فإن **قُلْتَ**: تصور العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعًا! **قُلْتُ**: معناه كما أني إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدوانًا لا شك فيه فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقر وأن الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء وأما التتمة فموكولة إلى رأيي إن شئت أتيت بها وإلا لم أجبر عليها، وقيل: معناه فلا أكون متعديًا وهو في نفي العدوان عن نفسه كقولك: لا إثم عليّ ولا تبعة عليّ، وفي قراءة ابن مسعود أي الأجلين ما قضيت وقرئ أيما بسكون الياء كقوله:

تنظرت نصرًا والسماكين أيهما ... على من الغيث استهلت مواطره

وعن ابن قطيب عدوان بالكسر.

فإن **قُلْتَ**: ما الفرق بين موقعي ما المزيدة في القراءتين؟ **قُلْتُ**: وقعت في المستفيضة مؤكدة لإبهام أي: زائدة في شياعها وفي الشاذة تأكيدًا للقضاء كأنه قال: أي الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتي له، الوكيل الذي وكل إليه الأمر ولما استعمل في موضع الشاهد والمهيمن، والمقيت عدي بعلي لذلك روي: أنّ شعيبًا كانت عنده عصى الأنبياء فقال لموسى: بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى، فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فمسها، وكان مكفوفًا فضنّ بها فقال: غيرها فما وقع في يده إلا هي سبع مرات، فعلم أنّ له شأنًا وقيل: أخذها جبريل بعد موت آدم، فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً وقيل: أودعها شعيبًا ملك في صورة رجل، فأمر بنته أن تأتيه بعصا فأتته بها فردّها سبع مرّات فلم يقع في يدها غيرها فدفعها إليه ثم ندم؛ لأنها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أوّل طالع فأتاهما الملك فقال: ألقياها فمن رفعها فهي له، فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى وعن الحسن ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضًا وعن الكلبي الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج، ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإنّ الكلأ، وإن كان بها أكثر إلا أنّ فيها تنينًا أخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها، فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك، ولما رجع إلى شعيب مسّ الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى، ففرح وعلم أنّ لموسى والعصا شأنًا وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كلّ أدرع ودرعاء، فأوحى إليه في المنام أن أضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء، فوفى له بشرطه سئل رسول الله ﷺ أي الأجلين قضى موسى فقال: **﴿أبعدهما وأبطأهما﴾**[2]

---

(1) قال أحمد: ومذهب مالك عل ثلاثة أقوال: المنع والكراهة والجواز، والعجب من إجازة أبي حنيفة النكاح على منافع العبد، بخلاف منافع الزوج مع أنّ الآية أجازت النكاح على منافع الزوج، ولم تتعرّض لغيره، وما ذاك إلا لترجيح المعنى الذي أشار إليه = الزمخشري، أو تفريعاً على أن لا دليل في شرع من قبلنا أو غير ذلك والله أعلم.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في كراهية المراء (الحديث: 4836) وابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: الشركة والمضاربة =

وروى أنه قال: قضى أوفاهما وتزوّج صغراهما[1] وهذا خلاف الرواية التي سبقت.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

الجذوة باللغات الثلاث، وقرئ بهنّ جميعًا العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن قال كثير:

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذى غير خوار ولا دعر

وقال:

ألقى على قبس من النار جذوة شديدًا عليه حرّها والتهابها

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

من الأولى والثانية لابتداء الغاية أي أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة، و﴿من الشجرة﴾ بدل من قوله: من شاطئ الوادي بدل الاشتمال؛ لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله تعالى: ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم﴾[2] وقرئ البقعة بالضم والفتح والرهب بفتحتين وضمتين وفتح وسكون وضم وسكون وهو الخوف.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: واضمم إليك جناحك من الرهب قُلْتُ: فيه معنيان أحدهما: أنّ موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية فزع، واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له: إنّ اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمر أنّ اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح: اليد لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضمّ جناحه إليه، والثاني أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشدّده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه، وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أنّ كاتبًا له كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر فقام وضرب بقلمه الأرض، فقال له عمر: خذ قلمك واضمم إليك جناحك وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي، ومعنى قوله: من الرهب من أجل الرهب أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك جعل الرهب الذي كان يصيبه سببًا وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه، ومعنى واضمم إليك جناحك وقوله أسلك يدك في جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرّر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني إخفاء الرهب.

فإن قُلْتَ: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضمومًا وفي الآخر مضمومًا إليه وذلك قوله: واضمم إليك جناحك وقوله: واضمم يدك إلى جناحك فما التوفيق بينهما! قُلْتُ: المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه اليد اليسرى وكلّ واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح ومن بدع التفاسير أنّ الرهب الكم بلغة حمير، وأنهم يقولون: أعطني مما في رهبك وليت شعري كيف صحته في اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضي عربيتهم، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زر مانقة من صوف لا كمى لها ﴿فذانك﴾، قرئ مخففًا ومشدّدًا فالمخفف مثنى ذاك والمشدّد مثنى ذلك ﴿برهانان﴾ حجتان بينتان نيرتان.

فإن قُلْتَ: لم سميت الحجة برهانًا! قُلْتُ: لبياضها وإنارتها من قولهم: للمرأة البيضاء برهرهة بتكرير العين واللام معًا، والدليل على زيادة النون قولهم: أبره الرجل إذا جاء بالبرهان ونظيره تسميتهم إياها سلطانًا من السليط، وهو الزيت لإنارتها.

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

يقال: ردأته أعنته والردء اسم ما يعان به فعل بمعنى مفعول به كما أن الدفء اسم لما يدفأ به قال سلامة بن جندل:

وردئي كل أبيض مشرفي شحيذ الحدّ عضب ذي فلول

وقرئ ردًا على التخفيف كما قرئ الخب ﴿ردأ يصدّقني﴾ بالرفع والجزم صفة وجواب نحو وليًا يرثني سواء.

فإن قُلْتَ: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قُلْتُ: ليس

= (الحديث: 2287).

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/407. وفي كشف الأستار، كتاب: التفسير باب: سورة القصص (الحديث: 2244).

(2) سورة الزخرف، الآية: 33.

الغيض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول: للناس صدق موسى وإنما هو يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه: ويجادل به الكفار كما يفعل الرجل المنطيق ذو الغارضة، فذلك جار مجرى التصديق المفيد كما يصدّق القول بالبرهان ألا نرى إلى قوله: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا فأرسله معي﴾، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك لا لقوله: صدقت فإنّ سحبان وباقلا يستويان فيه أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدّقه الذي يخاف تكذيبه فأسند التصديق إلى هارون، لأنه السبب فيه إسنادًا مجازيًا ومعنى الإسناد المجازي أن التصديق حقيقة في المصدق، فإسناده حقيقة وليس في السبب تصديق ولكن استعير له الإسناد؛ لأنه لابس التصديق بالتسبب كما لابسه الفاعل بالمباشرة والدليل على هذا الوجه قوله: ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ وقراءة من قرأ: ﴿ردأ يصدقوني﴾ وفيها تقوية للقراءة بجزم ﴿يصدقني﴾.

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾.

العضد قوام اليد وبشدّتها تشتد قال طرفه:

ابني لبيني لستمو بيد ... إلا يدًا ليست لها عضد

ويقال: في دعاء الخير شدّ الله عضدك وفي ضدّه فت الله في عضدك، ومعنى ﴿سنشدّ عضدك بأخيك﴾ سنقوّيك به ونعينك فإمّا أن يكون ذلك، لأنّ اليد تشتد بشدّة العضد والجملة تقوى بشدّة اليد على مزاولة الأمور، وإمّا لأنّ الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدّة بعضد شديد ﴿سلطانًا﴾ غلبة وتسلطًا، أو حجة واضحة ﴿بآياتنا﴾ متعلق بنحو ما تعلق به في تسع آيات أي: اذهبا بآياتنا أو بنجعل لكما سلطانًا أي: نسلطكما بآياتنا، أو بلا يصلون أي: تمتنعون منهم بآياتنا أو هو بيان للغالبون لا صلة لامتناع تقدّم الصلة على الموصول ولو تأخر لم يكن إلا صلة له، ويجوز أن يكون قسما جوابه لا يصلون مقدّمًا عليه أو من لغو القسم.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿سحر مفترى﴾ سحر تعمله أنت، ثم تفتريه على الله أو سحر ظاهر افتراؤه أو موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿في آبائنا﴾ حال منصوبة عن هذا أي: كائنًا في زمانهم وأيامهم يريد ما حدثنا بكونه فيهم، ولا يخلوا من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا وعلموا بنحوه، أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى ومجيئه بما جاء به وهذا دليل على أنهم حجّوا وبهتوا وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم: هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثلها يقول:

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿ربي أعلم﴾ منكم بحال من أهّله الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبيًا وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى ويعني: نفسه، ولو كان كما تزعمون كاذبًا ساحرًا مفتريًا لما أهله لذلك لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبئ الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون و ﴿عاقبة الدار﴾ هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن﴾[1] وقوله: وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار والمراد بالدار الدنيا، وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت.

فإن قُلْتَ: العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار لأنّ الدنيا إمّا أن تكون خاتمتها بخير أو بشر، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر؟ قُلْتُ: قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازًا إلى الآخرة وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير، وما خلقهم إلاّ لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق ومن عمل فيها خلاف ما وضعها الله فقد حرف فإذًا عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير وأما عاقبة السوء، فلا اعتداد بها؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار[2] وقرأ ابن كثير قال موسى: بغير واو

(1) سورة الرعد، الآية: 22.

(2) قال أحمد: وقد تقدّم من قواعد أهل الحق ما يستضاء به في هذا المقام والقدر الذي يحتاج إلى تجديده ههنا أن استدلاله على أنّ عاقبة الخير وعبادة الله تعالى هي المرادة له لا سواها، بقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾ معارض بأمثاله في أدلة أهل السنة على عقائدهم، مثل قوله: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ الآية والمراد والله أعلم. ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقاً كثيراً من الثقلين، ومن ذلك مايروى عن الفاروق رضي الله عنه، أنه قال: وإنكم آل المغيرة ذرأ النار أي: خلقها، فلئن دلت آية الذاريات ظاهراً على أنّ الله تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثواباً على عبادتهم له، فقد دلت آية الأعراف على أنه خلق كثيراً من الثقلين، لتكون عاقبتهم جهنم جزاء على كفرهم، وحينئذ يتعين الجمع بين الآيتين، وحمل عموم=

= آية الذاريات على خصوص الآية الأخرى، وإنّ المراد ما خلقت السعداء من الثقلين إلا لعبادتي جمعاً بين الأدلة، فقد ثبت أنّ العاقبتين كلتيهما مرادة لله تعالى، هذا بعد تظافر البراهين العقلية على ذلك، فوجه مجيء العاقبة المطلقة كثيراً، وإرادة الخير بها أنّ الله تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ما ورد في سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم، ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بأنواع العذاب الأليم، وركب فيهم عقولاً ترشدهم إلى عاقبة الخير، ومكّنهم منها، وأزاح عللهم، ووفر دعاويهم، فكان من حقهم أن لا يعدلوا عن عاقبة الخير، ولا يسلكوا غير طريقها، وأن يتخذوها نصب أعينهم فأطلقت العاقبة، والمراد بها الخير تفريعاً على ذلك والله أعلم. والحاصل أنها لما كانت هي المأمور بها، والمحضوض عليها عوملت معاملة ما هو مراد، وإن لم تكن مرادة من كثير من الخلق، وقال لي بعضهم: ما يمنعك أن تقول لم يفهم=

على ما في مصاحف أهل مكة وهي قراءة حسنة؛ لأنّ الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة سحرًا مفترى ووجه الأخرى أنهم قالوا ذلك وقال موسى عليه السلام: هذا ليوازن الناظر بين القول والمقول ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر وبضدها تتبين الأشياء.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾.

وقرئ: ﴿تكون﴾ بالتاء والياء روي: أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه يبني فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك ويروى في هذه القصة: أنّ فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة من السماء فأراد الله أن يفتنهم فردت إليه وهي ملطوخة بالدم فقال: قد قتلت إله موسى فعندها بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه والله أعلم بصحته. قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجود معناه ما لكم من إله غيري كما قال الله تعالى: ﴿قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ معناه: بما ليس فيهن وذلك؛ لأنّ العلم تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه فإذا كان الشيء معدومًا لم يتعلق به موجود فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لا انتفاء وجوده وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم[1] بوجوده ويجوز أن يكون على ظاهره وإنّ إلهاً غيره غير معلوم عنده ولكنه مظنون بدليل قوله: ﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾ وإذا ظنّ موسى عليه السلام كاذباً في إثباته إلهاً غيره ولم يعلمه كاذبًا فقد ظنّ أن في الوجود إلهاً غيره ولو لم يكن المخذول ظانًا ظنًا كاليقين بل عالمًا بصحة قول موسى عليه السلام لقوله موسى له: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر لما تكلف ذلك البنيان العظيم ولما تعب في بنائه ما تعب لعله يطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام وإن كان جاهلاً مفرط الجهل به وبصفاته حيث حسب أنه في مكان كما كان هو في مكان وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قعد في عليته وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض[2] ولا ترى بينة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملئه وغباوتهم من أنهم راموا نيل أسباب السموات بصرح يبنونه وليت شعري أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك من عقولهم حيث صادفهم أغبى الناس وأخلاهم من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك أم كان في نفسه بتلك الصفة وإن صحّ ما حكى من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم فتهكم به بالفعل كما جاء التهكم بالقول: في غير موضع من كتاب الله بنظرائه من الكفرة ويجوز أن يفسر الظن على القول الأوّل باليقين كقوله:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج

ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه من العلم واليقين

= كون العاقبة المطلقة هي عاقبة الخير من إطلاقها، ولكن من إضافتها إلى ذويها باللام في الآي المذكورة، كقوله: ﴿من تكون له عاقبة الدار وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار والعاقبة للمتقين﴾ فافهمت اللام أنها عاقبة الخير إذ هي لهم، وعاقبة السوء عليهم لا لهم كما يقولون الدائرة لفلان يعنون: دائرة الظفر والنصر، والدائرة على فلان يعنون: دائرة الخذلان والسوء، فقلت: لقد كان لي في ذلك مقال لولا ورود أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار، ولم يقل عليهم فاستعمال اللام مكان على دليل على إيفاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير والله أعلم.

(1) قال أحمد: لشدّة ما بلغ منه الوهم لم يتأمل كيف سقوط السهم، وإنما أتى من حيث أنّ الله تعالى عبر كثيراً عن نفي المعلوم بنفي العلم في مثل قوله: ﴿قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾ فلما اطرد ذلك عنده توهم أنّ هذا التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم يشمل كل علم، ولو لم يتعلق بالمعلوم على ماهويه، وليس هو كذلك، بل هذا التعبير لا يسوغ إلا في علم الله تعالى لأمر يخص العلم القديم، وهو عموم تعلقه حتى لا يعزب عنه أمر فما لم يتعلق العلم بوجوده يلزم أن لا يكون موجوداً، إذ لو كان موجوداً لتعلق به بخلاف علم الخلق، فلا تلازم بين نفي الشيء، ونفي العلم الحادث بوجوده، ولا كذلك العلم القديم، فإن بين نفي معلومه ونفي تعلقه بوجوده تلازماً سوغ التعبير المذكور، ولكن المعلوم أنّ فرعون= كان يدعي الإلهية، ويعامل علمه معاملة علم الله تعالى في أنه لا يعزب عنه شيء، فمن ثم طغى وتكبر وعبر بنفي علمه عن نفي المعلوم تدليساً على ملئه، وتلبيساً على عقولهم السخيفة والله أعلم ويناسب تعاظمه هذا قوله: ﴿فاوقد لي يا هامان على الطين﴾ ولم يقل فاطبخ لي آجراً، وذلك من التعاظم كما قال تعالى: ﴿وله العظمة والكبرياء﴾ ومن ارتدى برداءهما قصمه، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية، فذكر هذه العبارة الجامعة لأنواع الكفر على وجه الكبرياء تهاوناً بها، وذلك من تجبر الملوك جلّ الله وعز، ومن تعاظم فرعون أيضاً نداؤه لوزيره باسمه، وبحرف النداء، وتوسيط ندائه خلال الأمر، وبناؤه الصرح، ورجاؤه الاطلاع دليل على أنه لم يكن مصمماً على الجحود. قال الزمخشري: وذلك مناقض لما أظهر من الجحد الجازم في قوله ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ فإما أن يخفى هذا التناقض على قوله لغباوتهم وكآبة أذهانهم، وإما أن يتفطنوا لها ويخافوا نقمته فيصبروا.

(2) قال أحمد: ولقائل والله أعلم أن يحمل قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ على الشكّ ونفي علمه خاصة وإجرائه مجرى سائر علوم الخلق في أنه لا يلزم من نفي تعلقه بوجود أمر نفي ذلك الأمر لجواز أن يكون موجوداً عازباً عن علمه، وحينئذ لا يكون تناقضاً ولو لم يكن حمله هذا هو الأصل لما سوّغنا، أو يرفع التناقض عن كلامه؛ لأنه أحقر من ذلك.

وقد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم أو لم تخف عليهم ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه وإنما قال: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ ولم يقل أطبخ لي الآجر واتخذه لأنّه أوّل من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة ولأن هذه العبارة أحسن طباقًا لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة وأمر هامان وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين منادي باسمه بباقي وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر وعن عمر رضي الله عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر فقال: ما علمت أن أحدًا بني بالآجر غير فرعون. والطلوع والإطلاع الصعود يقال: طلع الجبل وأطلع بمعنى.

وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾.

الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وهو المتكبر على الحقيقة أي: المتبالغ في كبرياء الشأن قال رسول الله ﷺ: فيما حكى عن ربه الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في النار[1] وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق ﴿يرجعون﴾ بالضم والفتح.

فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه شبههم استحقارًا لهم واستقلالاً لعددهم وإن كانوا الكثير الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهنّ آخذ في كفه فطرحهنّ في البحر ونحو ذلك قوله: ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾[2] ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾[3] ﴿وما قدّروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسمٰوات مطويات بيمينه﴾[4] وما هي إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره وأن كل مقدور وإن عظم وجل، فهو مستصغر إلى جنب قدرته.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله:

وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾.

﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ قُلْتُ: معناه ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار وقلنا: إنهم أئمة دعاة إلى النار كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة، وهو من قولك: جعله بخيلاً وفاسقًا إذا دعاه[5] وقال: إنه بخيل وفاسق ويقول: أهل اللغة في تفسير فسقه، وبخله جعله بخيلاً وفاسقًا ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا﴾[6]، ومعنى دعوتهم إلى النار: دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة، ويجوز خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر ومعنى الخذلان منع الألطاف وإنما يمنعها من علم أنها لا تنفع فيه، وهو المصمم على الكفر الذي لا تغني عنه الآيات والنذر ومجراه مجرى الكناية لأنّ منع الألطاف يردف التصميم، والغرض بذكره التصميم نفسه فكأنه قيل: صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاة إليه وإلى سوء عاقبته.

فإن قُلْتَ: فأي فائدة في ترك المردوف إلى الرادفة؟ قُلْتُ: ذكر الرادفة يدل على وجود المردوف فيعلم وجود المردوف مع الدليل الشاهد بوجوده فيكون أقوى لإثباته من ذكره ألا ترى أنك تقول لولا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبوت حكمه لما منعت منه الألطاف فبذكر منع الألطاف يحصل العلم بوجوده التصميم على الكفر وزيادة وهو قيام الحجة على وجوده وينصر هذا الوجه قوله ويوم القيامة لا ينصرون كأنه قيل وخذلناهم في الدنيا وهم يوم القيامة مخذولون كما قال:

وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: طردًا وإبعادًا عن الرحمة ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ أي: من المطرودين المبعدين.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿بصائر﴾ نصب على الحال والبصيرة نور القلب الذي يستبصر به كما أن البصر نور العين الذي تبصر به يريد آتيناه التوراة أنوارًا للقلوب لأنها كانت عمياء لا تستبصر، ولا تعرف حقًا من باطل وإرشادًا لأنهم كانوا يخبطون في ضلال ﴿ورحمة﴾ لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لعلهم يتذكرون﴾ إرادة أن يتذكروا شبهت الإرادة بالترجي، فاستعير لها ويجوز أن يراد به ترجي موسى عليه السلام[7] لتذكرهم كقوله تعالى: ﴿لعله

---

(1) أخرجه مسلم بمعناه، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الكبر (الحديث رقم: 136 ـ 2620).

(2) سورة المرسلات، الآية: 27.

(3) سورة الحاقة، الآية: 14.

(4) سورة الزمر، الآية: 67.

(5) قال أحمد: لا فرق عند أهل السنة بين قوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ وبين هذه الآية فمن = حمل الجعل على التسمية فيما نحن فيه فراراً من اعتقاد أن دعاءهم إلى النار مخلوق لله تعالى، فهو بمثابة من حمله على التسمية في قوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ فراراً من جعل الليل والنهار مخلوقين لله تعالى، فلا فرق بين نفي مخلوق واحد عن قدرته تعالى، ونفي كل مخلوق نعوذ بالله من ذلك.

(6) سورة الزخرف، الآية: 19.

(7) قال أحمد: الوجه الثاني هو الصواب واحذر الأوّل فإنه قدري.

يتنكر﴾[1].

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾.

﴿الغربي﴾ المكان الواقع في شق الغرب وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له في الألواح، والأمر المقضي إلى موسى عليه السلام الوحي الذي أوحى إليه والخطاب لرسول الله ﷺ يقول وما كنت حاضرًا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ولا كنت ﴿من﴾ جملة ﴿الشاهدين﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى عليه السلام في ميقاته وكتبه التوراة له في الألواح وغير ذلك.

فإن قُلْتَ: كيف يتصل قوله.

وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿ولكنا لنشأنا قرونًا﴾ بهذا الكلام ومن أي وجه يكون استدراكًا له؟ قُلْتُ: اتصاله به وكونه استدراكًا له من حيث أن معناه ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قرونًا كثيرة ﴿فتطاول﴾ على آخرهم وهو القرن الذي أنت فيهم ﴿العمر﴾ أي: أمد انقطاع الوحي واندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم فأرسلناك وكسبناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام كأنه قال: وما كنت شاهدًا لموسى، وما جرى عليه ولكنا أوحينا إليك فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودلّ به على المسبب على عادة الله عز وجل في اختصاراته، فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿وما كنت ثاويًا﴾ أي: مقيمًا ﴿في أهل مدين﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿تتلوا عليهم آياتنا﴾ تقرؤها عليهم تعلما منهم يريد الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه، ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿إذ نادينا﴾ يريد مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه و ﴿لكن﴾ علمناك ﴿رحمة﴾ وقرئ رحمة بالرفع أي: هي رحمة ﴿ما أتاهم﴾ من نذير في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهي خمسمائة وخمسون سنة ونحوه قوله: لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم.

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾.

﴿ولولا﴾ الأولى امتناعية، وجوابها محذوف والثانية تحضيضية وإحدى الفاءين للعطف والأخرى جواب لولا لكونها في حكم الأمر من قبل أن الأمر باعث على الفعل، والباعث والمحضض من واد واحد والمعنى: ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي هلا أرسلت إلينا رسولاً محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم يعني: أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة، ولا يلزموها كقوله: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾[2] أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك.

فإن قُلْتَ: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول: لدخول حرف الامتناع عليها دونه؟ قُلْتُ: القول هو المقصود بأن يكون سببًا لإرسال الرسل ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول، وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول فأدخلت عليها لولا وجيء بالقول معطوفًا عليها بالفاء المعطية معنى السببية[3] ويؤول معناه إلى قولك: ولولا قولهم: هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا ولكن

(1) سورة طه، الآية: 44.

(2) سورة النساء، الآية: 165.

(3) قال أحمد: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ والسر في جعل سبب السبب سبباً، وعطف السبب الأصلي عليه أمران أحدهما أن مزيد العناية يوجب التقديم، وهذا هو السر الذي أبداه سيبويه، الثاني أن في هذا النظم تنبيهاً على سببية كل واحد منهما، أما الأوّل فلاقترانه بحرف التعليل، وهو أن، وأما الثاني فلاقترانه بفاء السبب، ولا يتعاطى هذا المعنى إلا من قولك: أن تضل إحداهما، فتذكر لا من قول القائل أن تذكر إحداهما الأخرى إذا ضلت، وكان بعض النحاة يورد هذه الآية إشكالاً على النحاة، وعلى أهل السنة من المتكلمين، فيقول: لولا عند أهل الفن تدل على امتناع جوابها لوجود ما بعدها، وحينئذ يكون الواقع بعدها في الآية موجوداً، وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل، وجوابها المحذوف غير واقع، وهو عدم الإرسال؛ لأنه ممتنع بالأولى ومتى لم يقع عدم الإرسال كان الإرسال واقعاً ضرورة، فيشكل الواقع بعدها على أهل السنة؛ = = لأنهم يقولون: لا ظلم قبل بعثة الرسل، فلا تتصوّر العقوبة بتقدير عدم البعثة وذلك؛ لأنها واقعة جزاء على مخالفة أحكام الشرع، فإن لم يكن شرع فلا مخالفة ولا عقوبة، ويشكل الجواب على النحاة؛ لأنه يلزم أن لا يكون واقعاً وهو عدم بعثة الرسل، لكن الواقع بعدها يقتضي وقوعه، ثم كان مورد هذا الإشكال يجيب عنه بتقدير محذوف، والأصل ولولا كراهة أن تصيبهم مصيبة وحينئذ يزول الإشكال عن الطائفتين، والتحقيق عندي في الجواب خلاف ذلك، وإنما جاء الإشكال من حيث عدم تجويز النحاة لمعنى لولا أن يقولون أنها تدل على أن ما بعدها موجود وأن جوابها ممتنع به، والتحرير في معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها عكس لو، فإن معناها لزوم جوابها لما بعدها، ثم المانع قد يكون موجوداً، وقد يكون مفروضاً والآية من قبيل فرض وجود المانع، وكذلك اللزوم في لو قد يكون الشيء الواحد لازماً لشيئين، فلا يلزم نفيه من نفي أحد ملزوميه، وعلى هذا التحرير يزول الإشكال الوارد على لو في قوله: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، فتأمل هذا الفصل فتحته فوائد للمتأمل والله الموفق.

اختيرت هذه الطريقة لنكتة وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، وإنما السبب في قولهم: هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم، ورسوخه فيهم ما لا يخفى كقوله تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾. ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي جعل كل عمل معبرًا عنه باجتراح الأيدي وتقديم الأيدي وإن كان من أعمال القلوب، وهذا من الاتساع في الكلام وتصيير الأقل تابعًا للأكثر وتغليب الأكثر على الأقل.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿فلما جاءهم الحق﴾، وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معاذيرهم وسدّ طريق احتجاجهم ﴿قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن قلب العصا حية وفلق البحر وغيرهما من الآيات فجاؤوا بالاقتراحات المبنية على التعنت، والعناد كما قالوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وما أشبه ذلك ﴿أولم يكفروا﴾ يعني: أبناء جنسهم، ومن مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام ﴿بما أوتي موسى﴾ وعن الحسن رحمه الله قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أو لم يكفر آباؤهم ﴿قالوا﴾ في موسى وهارون ﴿ساحران تظاهرا﴾ أي: تعاونا، وقرئ إظهارًا على الإدغام وسحران بمعنى ذوا سحر أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر أو أرادوا نوعان من السحر ﴿بكل﴾ بكل واحد منهما.

فإن قُلْتَ: بم علقت قوله: من قبل في هذا التفسير! قُلْتُ: بأو لم يكفروا ولي أن أعلقه بأوتي فينقلب المعنى إلى أن أهل مكة الذين قالوا: هذه المقالة كما كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة وقالوا: في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ساحران تظاهرا، أو في الكتابين سحران تظاهرا وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فأخبروهم أنه نعته وصفته، وأنه في كتابهم فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا: عند ذلك ساحران تظاهرا.

قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿هو أهدى منهما﴾ مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل عليّ. هذا الشرط من نحو ما ذكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته؛ لأنّ امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشكّ ويجوز أن يقصد بحرف الشكّ التهكم بهم.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين فعل الاستجابة في الآية وبينه في قوله: فلم يستجبه عند ذاك مجيب، حيث عدى بغير اللام! قُلْتُ: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام ويحذف الدعاء إذا عدى إلى الداعي في الغالب فيقال: استجاب الله دعاءه أو استجاب له ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه وأما البيت، فمعناه فلم يستجب دعاءه على حذف المضاف.

فإن قُلْتَ: فالاستجابة تقتضي دعاء ولا دعاء ههنا! قُلْتُ: قوله: ﴿فأتوا بكتاب﴾ أمر بالإتيان والأمر بعث على الفعل ودعاء إليه فكأنه قال: فإن لم يستجيبوا دعاءك إلا الإتيان بالكتاب الأهدى، فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ثم قال:

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾.

﴿ومن أضل ممن﴾ لا يتبع في دينه إلا ﴿هواه بغير هدى من الله﴾ أي: مطبوعًا على قلبه ممنوع الألطاف ﴿إنّ الله لا يهدي﴾ أي: لا يلطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللاطف بهم عابث، وقوله بغير هدى في موضع الحال يعني: مخذولاً مخلى بينه وبين هواه.

۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾.

قرئ ﴿وصلنا﴾ بالتشديد والتخفيف، والمعنى: أن القرآن أتاهم متتابعًا متواصلاً وعدًا ووعيدًا وقصصًا وعبرًا ومواعظ ونصائح إرادة أن يتذكروا، فيفلحوا أو نزل عليهم نزولاً متصلاً بعضه في أثر بعض كقوله: ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾[1].

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾.

نزلت في مؤمني أهل الكتاب وعن رفاعة بن قرظة نزلت في عشرة أنا أحدهم وقيل: في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاؤوا مع جعفر من أرض الحبشة وثمانية من الشام. والضمير في من قبله للقرآن.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين الاستئنافين أنه وأنا؟ قُلْتُ: الأوّل تعليل للإيمان به؛ لأن كونه حقًا من الله حقيق بأن يؤمن به والثاني بيان لقوله: ﴿آمنا به﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيمانًا قريب العهد وبعيده فأخبروا أن إيمانهم به متقادم لأنّ آباءهم القدماء قرؤوا في الكتب الأول ذكره وأبناءهم من بعدهم ﴿من قبله﴾ من قبل وجوده ونزوله.

وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 2.

﴿مسلمين﴾ كائنين على دين الإسلام لأن الإسلام صفة كل موحد مصدّق للوحي.

أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله، وبعد نزوله أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب، ونحوه يؤتكم كفلين من رحمته ﴿بالحسنة السيئة﴾ بالطاعة المعصية المتقدمة أو بالحلم الأذى.

وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾.

﴿سلام عليكم﴾ توديع ومتاركة وعن الحسن رضي الله عنه كلمة حلم من المؤمنين ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم.

فإن قُلْتَ: مَن خاطبوا بقولهم ولكم أعمالكم! قُلْتُ: اللاغين الذين دل عليهم قوله: ﴿وإذا سمعوا اللغو﴾.

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾.

﴿لا تهدي من أحببت﴾ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره ﴿ولكن الله﴾ يدخل في الإسلام ﴿من يشاء﴾ وهو الذي علم أنه غير مطبوع على قلبه وأن الألطاف تنفع فيه، فيقرن به ألطافه حتى تدعوه إلى القبول ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ بالقابلين من الذين لا يقبلون قال: الزجاج أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالب وذلك أن أبا طالب قال: عند موته يا معشر بني هاشم أطيعوا محمدًا وصدقوه تفلحوا وترشدوا، فقال النبي ﷺ: يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك قال: فما تريد يا ابن أخي قال: أريد منك كلمة واحدة، فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله قال: يا ابن أخي قد علمت أنك لصادق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن تكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها، ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدّة وجدك ونصيحتك، ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف.

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾.

قالت قريش وقيل: إن القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك، وإنما نحن أكلة رأس أي: قليلون أن يتخطفونا من أرضنا[1] فألقمهم الله الحجر بأنه مكّن لهم في الحرم الذي آمنه بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون، ويتناحرون وهم آمنون في حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذي زرع والثمرات، والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب فإذا خوّلهم الله ما خوّلهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها، وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوّف والتخطف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز ﴿يجبى إليه﴾ تجلب وتجمع قرئ بالياء والتاء، وقرئ تجنى بالنون من الجنى وتعديته بإلى كقوله: يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة. وثمرات بضمتين وبضمة وسكون، ومعنى الكلية الكثرة كقوله: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾[2] ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ متعلق بقوله: ﴿من لدنا﴾ أي: قليل منهم يقرون بأنّ ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفطنون له ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أنداده.

فإن قُلْتَ: بم انتصب رزقًا! قُلْتُ: إن جعلته مصدرًا جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله، لأنّ معنى يجبى إليه ثمرات كل شيء ويرزق ثمرات كل شيء واحد أن يكون مفعولاً له وإن جعلته بمعنى: مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصصها بالإضافة كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة، هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن، وخفض العيش فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر فدمّرهم الله وخرّب ديارهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾.

وانتصبت ﴿معيشتها﴾ إمّا بحذف الجار، وإيصال الفعل كقوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾[3] إمّا على الظرف بنفسها كقولك: زيد ظني مقيم أو بتقدير حذف الزمان المضاف أصله بطرت أيام معيشتها كخفوق النجم ومقدم الحاج وإمّا بتضمين بطرت معنى كفرت وغمطت وقيل: البطر سوء احتمال الغنى، وهو أن لا يحفظ حق الله فيه ﴿إلا قليلاً﴾ من السكنى قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسكنها إلا المسافر ومارّ الطريق يومًا، أو ساعة يحتمل أنّ شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم، فكل من

---

(1) قال الزيلعي غريب جدًا بهذا اللفظ، زيلعي 3/31.

(2) سورة النمل، الآية: 23.

(3) سورة الأعراف، الآية: 155.

سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ لتلك المساكن من ساكنيها أي: تركناها على حال لا يسكنها أحد وخرّبناها وسوّيناها بالأرض.

تتخلف الآثار عن أصحابها حينًا ويدركها الفناء فتتبع

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت ﴿حتى يبعث في﴾ القرية التي هي أمّها أي: أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها ﴿رسولاً﴾ لإلزام الحجة، وقطع المعذرة مع علمه أنهم لا يؤمنون أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى يعني: مكة رسولاً وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وقرئ: ﴿أمها﴾ بضم الهمزة وكسرها لاتباع الجرّ وهذا بيان لعدله وتقدّسه عن الظلم حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة، والإلزام ببعثه الرسل[1] ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين كما قال تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[2] فنصّ في قوله: ﴿بظلم﴾ أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلمًا منه وأنّ حاله في غناه وحكمته منافية للظلم دلّ على ذلك بحرف النفي مع لامه كما قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

وأي شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أيامًا قلائل وهي مدّة الحياة المتقضية ﴿وما عند الله﴾ وهو ثوابه ﴿خير﴾ في نفسه من ذلك ﴿وأبقى﴾ لأنّ بقاءه دائم سرمد. وقرئ: يعقلون بالياء وهو أبلغ في الموعظة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ الله خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزين والكافر.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

يتمتع هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها والوعد الحسن الثواب؛ لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم، والاستحقاق وأي شيء أحسن منها ولذلك سمى الله الجنة بالحسنى و﴿لاقيه﴾ كقوله تعالى: ﴿ولقّاهم نضرة وسرورًا﴾ وعكسه، فسوف يلقون غيًا ﴿من المحضرين﴾ من الذين أحضروا النار ونحوه لكنت من المحضرين فكذبوه فإنهم لمحضرون قيل: نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل وقيل: في علي وحمزة وأبي جهل وقيل: في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة.

فإن قُلْتَ: فسر لي الفاءين وثم واخبرني عن مواقعها! قُلْتُ: قد ذكر في الآية التي قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند الله، وتفاوتها ثم عقبه بقوله: ﴿أفمن وعدناه﴾ على معنى أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوّى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها وأمّا الثانية فللتسبيب لأنّ لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخير، وأمّا، ثم فلتراخي حال الإحضار عن حال التمتيع لا لتراخي وقته عن وقته. وقرئ ثم هو بسكون الهاء كما قيل: عضد في عضد تشبيهًا للمنفصل بالمتصل، وسكون الهاء في فهو وهو ولهو أحسن لأنّ الحرف الواحد لا ينطق به وحده فهو كالمتصل.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿شركائي﴾ مبني على زعمهم وفيه تهكم.

فإن قُلْتَ: زعم يطلب مفعولين كقوله: ولم أزعمك عن ذاك معزلاً، فأين عما؟ قُلْتُ: محذوفان تقديره الذين كنتم تزعمونهم شركائي ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت ولا يصح الاقتصار على أحدهما.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿الذين حق عليهم القول﴾ الشياطين أو أئمة الكفر ورؤوسه ومعنى ﴿حق عليهم القول﴾: وجب عليهم مقتضاه وثبت، وهو قوله: ﴿لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[3] و﴿هؤلاء﴾ مبتدأ و﴿والذين اغوينا﴾ صفته والراجع إلى الموصول محذوف و﴿أغويناهم﴾ الخبر، والكاف صفة مصدر محذوف تقديره ﴿أغويناهم﴾ فغووا غيًا مثل ما غوينا يعنون أنا لم نغوا إلا باختيارنا لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسر منهم وإلجاء أودعونا إلى الغي وسوّلوه لنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأنّ إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً لا قسرًا وإلجاء فلا فرق إذًا بين غينا وغيهم وإن كان تسويلنا داعيًا لهم إلى الكفر، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر وناهيك بذلك صارفًا عن الكفر وداعيًا إلى الإيمان، وهذا

---

(1) قال أحمد: هذا إسلاف من الزمخشري لجواب ساقط عن سؤال، وارد على القدرية لا جواب لهم عنه ينشأ السؤال في هذه الآية، فيقال: لو كانت العقول تحكم عن الله تعالى بأحكام التكليف لقامت الحجة على الناس، وإن لم يكن بعث رسل إذ العقل حاكم، فلا = يجدون للخلاص من هذا السؤال سبيلاً.

(2) سورة هود، الآية: 117.

(3) سورة هود، الآية: 119.

معنى ما حكاه الله عن الشيطان إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم والله تعالى قدّم هذا المعنى أوّل شيء حيث قال لإبليس: إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴿تبرأنا إليك﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر بأنفسهم هوى منهم للباطل ومقتًا للحق لا بقوّة منا على استكراههم ولا سلطان ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾، إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقرّرتين لمعنى الجملة الأولى.

وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾.

﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب أو لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين لما رأوه أو تمنوا لو كانوا مهتدين، أو تحيروا عند رؤيته وسدروا فلا يهتدون طريقًا حكى أوّلاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين: أو أئمتهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها، ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل.

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾.

﴿فعميت عليهم الأنباء﴾ فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعًا لا تهتدي إليهم ﴿فهم لا يتساءلون﴾ لا يسأل بعضهم بعضًا كما يتساءل الناس في المشكلات؛ لأنهم يتساوون جميعًا في عمى الأبناء عليهم والعجز عن الجواب، وقرئ: فعميت والمراد بالنبأ الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ويفوّضون الأمر إلى علم الله وذلك قوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ فيقول: ماذا أجبتم قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب فما ظنك بالضلال من أممهم.

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾.

﴿فأمّا من تاب﴾ من المشركين من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فعسى أن﴾ يفلح عند الله وعسى من الكرام تحقيق ويجوز أن يراد ترجي التائب وطمعه كأنه قال: فليطمع أن يفلح.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾.

الخيرة من التخير كالطيرة من التطير تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم: محمد خيرة الله من خلقه ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ بيان لقوله: ﴿ويختار﴾ لأنّ معناه ويختار ما يشاء ولهذا لم يدخل العاطف والمعنى أن الخيرة لله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه قيل: السبب فيه قول الوليد بن المغيرة: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعني: لا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم وقيل: معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة أي: يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم من قولهم في الأمرين ليس فيهما خيرة لمختار.

فإن قُلْتَ: فأين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة! قُلْتُ: أصل الكلام ما كان لهم فيه الخيرة فحذف فيه كما حذف منه في قوله: ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾[1] لأنه مفهوم ﴿سبحان الله﴾ أي: الله بريء من إشراكهم وما يحملهم عليه من الجراءة على الله واختيارهم عليه ما لا يختار.

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿ما تكنّ صدورهم﴾ من عداوة رسول الله وحسده ﴿وما يعلنون﴾ من مطاعنهم فيه وقولهم: هلا اختير عليه غيره في النبوّة.

وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿وهو الله﴾ وهو المستأثر بالإلَٰهية المختص بها و ﴿لا إلَٰه إلا هو﴾ تقرير لذلك كقولك: الكعبة القبلة لا قبلة إلا هي.

فإن قُلْتَ: الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة؟ قُلْتُ: هو قولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صدقنا وعده وقيل: الحمد لله ربّ العالمين والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة وفي الحديث يلهمون التسبيح والتقديس[2] ﴿وله الحكم﴾ القضاء بين عباده.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾.

﴿أرأيتم﴾ وقرئ: ﴿أريتم﴾ بحذف الهمزة وليس بحذف قياسي ومعناه أخبروني من يقدر على هذا. والسرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم في الأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد والميم مزيدة ووزنه فعمل ونظيره دلامص من الدلاص.

---

(1) سورة الشورى، الآية: 43.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: في صفات = الجنة وأهلها، وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا (الحديث رقم: 18 ـ 2835).

فإن قُلْتَ: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه كما قيل: بليل تسكنون فيه! قُلْتُ: ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثمة قرن بالضياء ﴿أفلا تسمعون﴾ لأنّ السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾.

﴿أفلا تبصرون﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره وأنت من السكون ونحوه.

وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾.

﴿ومن رحمته﴾ زواج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾.

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء إيذان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك فأدخلنا في الناجين من وعيدك.

وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾.

﴿ونزعنا﴾ وأخرجنا ﴿من كل أمة شهيدًا﴾ وهو نبيهم لأنّ أنبياء الأمم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه ﴿فقلنا﴾ للأمة ﴿هاتوا برهانكم﴾ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول ﴿فعلموا﴾ حينئذٍ ﴿أن الحق لله﴾ ولرسوله لا لهم ولشياطينهم ﴿وضلّ عنهم﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والباطل.

۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿قارون﴾ اسم أعجمي مثل هارون ولم ينصرف للعجمة والتعريف ولو كان فاعولاً من قرن لانصرف، وقيل: معنى كونه من قومه أنه آمن به وقيل: كان إسرائيليًا ابن عم موسى هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاويَ بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث وقيل: كان موسى بن أخيه، وكان يسمى: المنور لحسن صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري، وقال: إذا كانت النبوة لموسى عليه السلام والمنبح والقربان إلى هارون فما لي وروي أنه لما جاوز بهم موسى البحر، وصارت الرسالة والحبورة لهارون يقرب القربان ويكون راسًا فيهم وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه وجد قارون في نفسه، وحسدهما فقال لموسى: الأمر لكما ولست على شيء إلى متى أصبر قال موسى هذا صنع الله قال: والله لا أصدقك حتى تأتي بآية، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر ﴿فبغى عليهم﴾ من البغي وهو الظلم قيل: ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم وقيل: من البغي وهو الكبر والبذخ تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده وقيل: زاد عليهم في الثياب شبرًا. المفاتح جمع مفتح بالكسر، وهو ما يفتح به وقيل: هي الخزائن وقياس واحدها مفتح بالفتح ويقال: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها واعصوصبوا اجتمعوا وقيل: كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاً لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على أصبع وكانت من جلود قال: أبو رزين يكفي الكرفة مفتاح وقد بولغ في ذكر ذلك بلفظ الكنوز والمفاتح والنوء والعصبة وأولى القوة وقرأ بديل بن ميسرة لينوء بالياء ووجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن، ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال كقولك: ذهبت أهل اليمامة. ومحل إذ منصوب بتنوء ﴿لا تفرح﴾ كقوله: ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾[1] وقول القائل:

ولست بمفراح إذا الدهر سرني

وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن وأمّا من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدثه نفسه بالفرح وما أحسن ما قال القائل:

أشدّ الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿وابتغ فيما آتاك الله﴾ من الغنى والثروة ﴿الدار الآخرة﴾ بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب إليه وتجعله زادك إلى الآخرة ﴿ولا تنس نصيبك﴾ وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك ﴿وأحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله إليك﴾ أو أحسن بشكرك وطاعتك لله كما أحسن إليك، والفساد في

(1) سورة الحديد، الآية: 23.

الأرض ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل: إن القائل موسى عليه السلام.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

وقرئ واتبع ﴿على علم﴾ أي: على استحقاق واستيجاب لما في من العلم الذي فضلت به الناس وذلك انه كان أعلم بني إسرائيل بالتوراة وقيل: هو علم الكيمياء عن سعيد بن المسيب كان موسى عليه السلام يعلم علم الكيمياء، فأفاد يوشع بن نون ثلثه وكالب بن يوفنا ثلثه وقارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبًا وقيل: علم الله موسى علم الكيمياء فعلمه موسى أخته فعلمته أخته قارون وقيل: هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل: ﴿عندي﴾ معناه في ظني كما تقول: الأمر عندي كذا كأنه قال: إنما أوتيته على علم كقوله تعالى: ﴿ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾[1] ثم زاد عندي أي: هو في ظني ورأيي هكذا، ويجوز أن يكون اثباتًا لعلمه بأنّ الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه واغنى لانه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل: ﴿أولم يعلم﴾ في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله، وقوّته ويجوز أن يكون نفيًا لعلمه بذلك لانه لما قال: ﴿أوتيته على علم عندي﴾ فتنفج بالعلم وتعظم به قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿وأكثر جمعًا﴾ للمال أو أكثر جماعة وعددًا.

فإن قُلْتَ: ما وجه اتصال قوله: ﴿ولا يسال عن ذنوبهم المجرمون﴾ بما قبله! قُلْتُ: لما ذكر قارون من اهلك من قبله من القرون الذين كانوا اقوى منه واغنى قال: على سبيل التهديد له والله مطلع على ذنوب المجرمين لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم وهو قادر على أن يعاقبهم عليها كقوله تعالى: ﴿والله خبير بما تعملون﴾[2] ﴿والله بما تعملون عليم﴾[3] وما أشبه ذلك.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿في زينته﴾ قال: الحسن في الحمرة والصفرة وقيل: خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام، وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج وقيل: في تسعين الفًا عليهم المعصفرات وهو أوّل يوم رؤى فيه المعصفر، كان المتمنون قومًا مسلمين وإنما تمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر، وعن قتادة تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبل الخير وقيل: كانوا قومًا كفارًا. الغابط هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه فمن الغبطة قوله تعالى: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾، ومن الحسد قوله: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ وقيل لرسول الله ﷺ: هل يضر الغبط فقال: لا إلا كما يضر العضاه الخبط[4]، والحظ الجد وهو البخت والدولة وصفوه بأنه رجل مجدود مبخوت يقال: فلان ذو حظ وحظيظ ومحظوظ وما الدنيا إلا أحاظ وجدود.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى كما استعمل لا أبا لك وأصله الدعاء على الرجل بالأفراف في الحث على الفعل، والراجع في ﴿ولا يلقاها﴾ للكلمة التي تكلم بها العلماء أو للثواب؛ لأنه في معنى المثوبة أو الجنة أو للسيرة والطريقة وهي الإيمان والعمل الصالح ﴿الصابرون﴾ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير، كان قارون يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه فجمع بني إسرائيل وقال: إنّ موسى أرادكم على كل شيء وهو يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا فمر بما شئت قال: نبرطل فلانة البغي حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار وقيل: طستا من ذهب وقيل: طستا من ذهب مملوءة ذهبًا وقيل: حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه، فقال قارون وإن كنت أنت قال: وإن كنت أنا قال: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضرت فناشدها موسى بالذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله فقالت: كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك لنفسي فخرّ موسى ساجدًا

(1) سورة الزمر، الآية: 49.
(2) سورة آل عمران، الآية: 153.
(3) سورة النور، الآية: 28.
(4) رواه الطبراني في معجمه، زيلعي 32/3.

يبكي وقال: يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت، فإنها مطيعة لك فقال: يا بني إسرائيل إنّ الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعًا غير رجلين ثم قال: يا أرض خذ بهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال: خذ بهم، فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت إليهم لشدّة غضبه، ثم قال: خذيهم فانطبقت عليهم وأوحى الله إلى موسى ما أفظك استغاثوا بك مرارًا فلم ترحمهم، أما وعزتي لو إياي دعوا مرة واحدة لوجدوني قريبًا مجيبًا[1].

فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾.

فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ﴿من المنتصرين﴾ من المنتقمين من موسى عليه السلام أو من الممتنعين من عذاب الله يقال: نصره من عدوه، فانتصر أي: منعه منه فامتنع.

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾.

قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة ﴿مكانه﴾ منزلته من الدنيا ﴿وي﴾ مفصولة عن كان وهي كلمة تنبه على الخطأ وتندم ومعناه: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون وتندموا ثم قالوا: ﴿كأنه لا يفلح الكافرون﴾ أي: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه قال:

وي كأن من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعيش عيش ضر

وحكى الفراء أنّ أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك فقال: وي كأنه وراء البيت وعند الكوفيين أنّ ويك بمعنى ويلك وأنّ المعنى ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون، ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وي كقوله: ويك عنتر أقدم وأنه بمعنى لأنه واللام لبيان المقول لأجله هذا القول: أو لأنه ﴿لا يفلح الكافرون﴾ كان ذلك، وهو الخسف بقارون ومن الناس من يقف على وي ويبتدئ كأنه ومنهم من يقف على ويك، وقرأ الأعمش لولا من الله علينا وقرئ ﴿لخسف بنا﴾ وفيه ضمير الله ولا تخسف بنا كقولك: انقطع بنا كقولك: انقطع به ولتخسف بنا.

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾.

﴿تلك﴾ تعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني: تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها. لم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال: ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون، وعن علي رضي الله عنه: أنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها[2] وعن الفضيل أنه قرأها، ثم قال: ذهبت الأماني ههنا وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردّدها حتى قبض ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون متعلقًا بقوله: ﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾[3] ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾[4] ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ كما تدبره عليّ والفضيل وعمر[5].

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾.

معناه فلا يجزون فوضع ﴿الذين عملوا السيئات﴾ موضع الضمير، لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرر أفضل تهجين لحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة وهو معنى قوله: ﴿فله خير منها﴾.

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾.

﴿فرض عليك القرآن﴾ أوجب عليك تلاوته، وتبليغه والعمل بما فيه يعني: أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف

---

(1) رواه عبد الرزاق في تفسيره، زيلعي 3/33. أخرجه الحاكم في المستدرك 2/408.

(2) حديث أنس أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6565) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة، (الحديث رقم: 322 ــ 193)، وحديث أبو هريرة أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ (الحديث رقم: 3340)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة (الحديث رقم: 327. 194).

(3) سورة القصص، الآية: 4.

(4) سورة القصص، الآية: 77.

(5) قال أحمد: هو تعرض لغمص أهل السنة، فإن كل موحد من أهل الجنة، وإنما طمعوا حيث أطمعهم الله تعالى، بل حقق طمعهم في رحمته، حيث يقول رسوله عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنا، وإن سرق ثلاثاً، وفي الثالثة وإن رغم أنف أبي ذر» اللهم اقسم لنا من رجاء رحمتك ما تعصمنا به من القنوط، ومن خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، والله الموفق للصواب.

لمثيبك عليها ثوابًا لا يحيط به الوصف و ﴿لرادك﴾ بعد الموت ﴿إلى معاد﴾ أي: معاد وإلى معاد ليس لغيرك من البشر وتنكير المعاد لذلك وقيل: المراد به مكة ووجهه أن يراد رده يوم الفتح ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك يوم معادًا له شأن ومرجعًا له اعتداد لغلبة رسول الله ﷺ عليها، وقهره لأهلها ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه والسورة مكية فكأن الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر به منها ويعيده إليها ظاهرًا ظافرًا وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم فنزل جبريل فقال له: أتشتاق إلى مكة قال: نعم فأوحاها إليه.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿قل ربي أعلم﴾ بما قبله! قُلْتُ: لما وعد رسوله الرد إلى معاد قال: قل للمشركين ربي أعلم من جاء بالهدى يعني: نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم.

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

فإن قُلْتَ: قوله ﴿إلا رحمة من ربك﴾ ماجاء الاستثناء فيه قُلْتُ: هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك ويجوز أن يكون ﴿إلا﴾ بمعنى لكن للاستدراك أي ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك.

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾

وقرئ ﴿يصدنك﴾ من أصدّه بمعنى صدّه وهي في لغة كلب وقال:

أناس أصدوا الناس بالسيف عنهمو صدود السواقي عن أنوف الحوائم

﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ بعد وقت إنزاله وإذ تضاف إليه أسماء الزمان كقولك: حينئذٍ وليلتئذٍ ويومئذٍ وما أشبه ذلك.

وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهييج الذي سبق ذكره ﴿إلا وجهه﴾ إلا إياه والوجه يعبر به عن الذات. قال رسول الله ﷺ: من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى، وكذب به ولم يبق ملك في السمٰوات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقًا إن كل شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة العنكبوت مكية

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل ألا ترى أنك لو قلت حسبت زيدًا وظننت الفرس لم يكن شيئًا حتى تقول: حسبت زيدًا عالمًا، وظننت الفرس جوادًا لأنّ قولك: زيد عالم أو الفرس جواد كلام دال على مضمون فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتًا عندك على وجه الظنّ لا اليقين، فلم تجد بدًا في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه من ذكر شطري الجملة مدخلاً عليهما فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك.

فإن قُلْتَ: فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية! قُلْتُ: هو في قوله: ﴿أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ وذلك أن تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا فالترك أول مفعولي حسب، ولقولهم آمنا هو الخبر وأما غير مفتونين فتتمة الترك لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصبير كقوله، فتركته جزر السباع ينشنه. ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام.

فإن قُلْتَ: أن يقولوا هو علة تركهم غير مفتونين فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ؟ قُلْتُ: كما تقول: خروجه لمخافة الشر وضربه للتأديب وقد كان التأديب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر، وضربته تأديبًا تعليلين وتقول أيضًا: حسبت خروجه لمخافة الشر وظننت ضربه للتأديب فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبرًا.

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾

والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم والمعنى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين بل يمنحهم الله بضروب المحن حتى يبلوا صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم ونصوع نياتهم ليتميز المخلص من غير المخلص والراسخ في الدين من المضطرب والمتمكن من العابد على حرف كما قال: ﴿لتبلون في

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، زيلعي 3/36.

أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[1] وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد جزعوا من أذى المشركين، وقيل: في عمار بن ياسر وكان يعذب في الله وقيل: في ناس أسلموا بمكة فكتب إليهم المهاجرون ﴿ولا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا﴾ فخرجوا فتبعهم المشركون فردّوهم فلما نزلت كتبوا بها إليهم فخرجوا فاتبعهم المشركون، فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا وقيل: في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أوّل قتيل من المسلمين يوم بدر رماه عامر بن الحضرمي، فقال رسول الله ﷺ: سيد الشهداء مهجع وهو أوّل من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمّة فجزع عليه أبواه وامرأته[2] ﴿ولقد فتنا﴾ موصول بأحسب أو بلا يفتنون كقولك: ألا يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه يعني: أن اتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم، أو ما هو أشدّ منه فصبروا كما قال: وكأين من نبيّ قتل معه ربيون كثير فما وهنوا الآية وعن النبي ﷺ قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه[3] ﴿فليعلمنّ الله﴾ بالامتحان ﴿الذين صدقوا﴾ في الإيمان ﴿وليعلمنّ الكاذبين﴾ فيه.

فإن قُلْتَ: كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل؟ قُلْتُ: لم يزل يعلمه معدومًا ولا يعلمه موجودًا إلا إذا وجد[4] والمعنى وليتميزن الصادق منهم من الكاذب، ويجوز أن يكون وعدًا ووعيدًا كأنه قال: وليثيبنّ الذين صدقوا وليعاقبنّ الكاذبين وقرأ علي رضي الله عنه والزهري، وليعلمنّ من الإعلام أي: وليعرفنهم الله الناس من هم أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها وكحل العيون وزرقتها.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾.

﴿أن يسبقونا﴾ أن يفوتونا يعني: أنّ الجزاء يلحقهم لا محالة وهم لم يطمعوا في الفوت ولم يحدّثوا به نفوسهم، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وإصرارهم على المعاصي في صورة من يقدّر ذلك ويطمع فيه ونظيره وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا تحسبنّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون.

فإن قُلْتَ: أين مفعولا حسب؟ قُلْتُ: اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سدّ مسدّ المفعولين كقوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة، ومعنى الإضراب فيها: أنّ هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأوّل لأنّ ذاك يقدّر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظنّ أنه لا يجازي بمساويه ﴿ساء ما يحكمون﴾ بئس الذي يحكمونه حكمهم هذا أو بئس حكماً يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذمّ.

مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾.

لقاء الله مثل للوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر فإمّا أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها فمعنى قوله: ﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ من كان يأمل تلك الحال وأن يلقى فيها الكرامة من الله، والبشر ﴿فإنّ أجل الله﴾ وهو الموت ﴿لآت﴾ لا محالة فليبادر العمل الصالح الذي يصدّق رجاءه ويحقق أمله، ويكتسب به القربة عند الله والزلفى ﴿وهو السميع العليم﴾ الذي لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه فهو حقيق بالتقوى والخشية وقيل: يرجو يخاف من قول الهذلي في صفة عسال، إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها.

فإن قُلْتَ: فإنّ أجل الله لآت كيف وقع جوابًا للشرط؟ قُلْتُ: إذا علم أنّ لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذي تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للموت فكأنه قال: من كان يرجو لقاء الله فإنّ لقاء الله لآت لأنّ الأجل واقع فيه اللقاء كما تقول: من كان يرجو لقاء الملك، فإنّ يوم الجمعة قريب إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة.

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾.

﴿ومن جاهد﴾ نفسه في منعها ما تامر به وحملها على ما تأباه ﴿فإنما يجاهد﴾ لها لأنّ منفعة ذلك راجعة إليها وإنما أمر الله عز وجل ونهى رحمة لعباده وهو الغنيّ عنهم وعن طاعتهم.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 186.

(2) قال الزيلعي: غريب 3/39، وحديث ابن أبي شيبة 14/77، كتاب: الأوائل باب: أول ما فعل الخ...

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة (الحديث رقم: 3612).

(4) قال أحمد: فيما ذكر إيهام بمذهب فاسد، وهو اعتقاد أن العلم = بالكائن غير العلم بأن سيكون، والحق أنّ علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه، وفائدة ذكر العلم ههنا وإن كان سابقاً على وجود المعلوم التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء، كأنه قال تعالى: لنعلمنهم فلنجازينهم بحسب علمه فيهم والله أعلم.

إمّا أن يريد قومًا مسلمين صالحين قد أساؤا في بعض أعمالهم وسيئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم أي: يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون أي: أحسن جزاء أعمالهم وإمّا قومًا مشركين آمنوا وعملوا الصالحات، فالله عزّ وجلّ يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدّم لهم من الكفر والمعاصي ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام[1].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

وصى حكمه حكم أمر في معناه وتصرفه، يقال: وصيت زيدًا بأن يفعل خيرًا كما تقول: أمرته بأن يفعل ومنه بيت الإصلاح:

وذبيانية وصت بنيها بأن كذب القراطف والقروف

كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهبوها ومنه قوله تعالى: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾[2] أي: وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها وقولك: وصيت زيداً بعمرو معناه وصيته بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك، وكذلك معنى قوله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا﴾ وصيناه بإيتاء والديه حسنًا أو بإيلاء والديه حسنًا أي: فعلا ذا حسن أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسنًا﴾ وقرئ حسنًا وإحسانًا، ويجوز أن تجعل حسنًا من باب قولك: زيدًا بإضمار اضرب إذا رأيته متهيأ للضرب فتصبه بإضمار أوّلهما أو افعل بهما لأنّ التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كأنه قال قلنا: أولهما معروفًا و﴿فلا تطعهما﴾ في الشرك إذا حملاك عليه وعلى هذا التفسير إن وقف على بوالديه، وابتدأ حسنًا حسن الوقف وعلى التفسير الأوّل لا بدّ من إضمار القول معناه: وقلنا إن جاهداك أيها الإنسان ﴿ما ليس لك به علم﴾ أي: لا علم لك بإلهيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال: لتشرك بي شيئًا لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما ثم نبه بنهيه عن طاعتهما إذا أراداه على ما ذكر على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق الله وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال إليّ: مرجع من آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم حق جزائكم، وفيه شيئان أحدهما أنّ الجزاء إليّ فلا تحدّث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما ولا تحرمهما برّك ومعروفك في الدنيا كما أني لا أمنعهما رزقي والثاني التحذير من متابعتهما على الشرك والحثّ على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد. روى أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم قالت أمّه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس: يا سعد بلغني أنك قد صبأت، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضحّ والريح وإنّ الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد وكان أحد ولدها إليها فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان[3] وروى أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام أخواه لأمّه أسماء بنت مخرمة امرأة من بني تميم من بني حنظلة فنزلا بعياش وقالا له: إنّ من دين محمد صلة الأرحام وبرّ الوالدين، وقد تركت أمّك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتًا حتى تراك وهي أشدّ حبًا لك منا فاخرج معنا وفتلا منه في الذروة والغارب فاستشار عمر رضي الله عنه، فقال: هما يخدعانك ولك عليّ أن اقسم مالي بيني وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر فقال له: عمر أما إذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها، فإن رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إنّ ناقتي قد كلت فاحملني معك قال: نعم، فنزل ليوطئ لنفسه وله فأخذاه وشدّاه وثاقا وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهبا به إلى أمّه فقالت: لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد، فنزلت[4].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿في الصالحين﴾ في جملتهم والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمني أنبياء الله قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾[5] وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[6] أو في مدخل الصالحين وهي الجنة وهذا نحو قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

---

(1) قال أحمد: حجر واسعاً من رحمة الله تعالى بناء على أصله الفاسد في وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبائر، إلا بالتوبة، وأطلق تكفير الصغائر، وإن لم تكن توبة إذا غمرتها الحسنات، وكلا الأصلين قدري مجتنب والله الموفق.

(2) سورة البقرة، الآية: 132.

(3) قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ، والقصة عند مسلم، كتاب: الفضائل 3/40 وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 193 ـ 194.

(4) راجع الحديث 381، سورة النساء.

(5) سورة النمل، الآية: 19.

(6) سورة العنكبوت، الآية: 27.

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾[1] الآية هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس كان ذلك صارفًا لهم عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفًا. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: ﴿إنا كنا معكم﴾ أي: مشايعين لكم في دينكم ثابتين عليه ثباتكم ما قدر أحد أن يفتننا فأعطونا نصيبنا من المغنم، ثم أخبر سبحانه أنه أعلم ﴿بما في صدور العالمين﴾ من العالمين بما في صدورهم ومن ذلك ما تكنّ صدور هؤلاء من النفاق وهذا اطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين وقرئ ليقولنّ بفتح اللام.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾.

أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم أمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرادوا ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع وهذا قول: صناديد قريش كانوا يقولون لمن آمن منهم لا نبعث نحن ولا أنتم فإن عسى كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم، ونرى في المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه: إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم افعل هذا وإثمه في عنقي وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفه العامّة وجهلتهم ومنه ما يحكى أن أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه فلما قضاها قال: يا أمير المؤمنين بقيت الحاجة العظمى قال: وما هي قال: شفاعتك يوم القيامة فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله إياك وهؤلاء فإنهم قطاع الطريق في المأمن[2].

فإن قُلْتَ:كيف سماهم كاذبين وإنما ضمنوا شيئًا علم الله أنهم لا يقدرون على الوفاء به وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذبًا لا حين ضمن ولا حين عجز؛ لأنه في الحالين لا يدخل تحت حد الكاذب، وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه! قُلْتُ:شبّه الله حالهم حيث علم أنّ ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده لا على ما عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر عنه ويجوز أن يريد أنهم كاذبون لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف.

وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾.

﴿وليحملن أثقالهم﴾ أي: أثقال أنفسهم ﴿وأثقالاً﴾ يعني: أثقالاً أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها وهي أثقال الذين كانوا سببًا في ضلالهم ﴿وليسئلن﴾ سؤال تقريع ﴿عما كانوا يفترون﴾ أي: يختلقون من الأكاذيب والأباطيل. وقرئ من خطيآتهم.

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾.

كان عمر نوح عليه السلام ألفًا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ولبث في قومه تسعمائة وخمسين وعاش بعد الطوفان ستين وعن وهب أنه عاش ألفًا وأربعمائة سنة.

فإن قُلْتَ:هلا قيل: تسعمائة وخمسين سنة! قُلْتُ:ما أورده الله أحكم لأنه لو قيل: كما قلت لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك[3] وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظًا وأملأ بالفائدة وفيه نكتة أخرى وهي: أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمّته، وما كابده من طول المصابرة تسلية لرسول الله ﷺ وتثبيتًا له فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع، وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدّة صبره.

فإن قُلْتَ:فلم جاء المميز أوّلاً بالسنة وثانيًا بالعام؟ قُلْتُ: لأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم، أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك و ﴿الطوفان﴾ ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما قال العجاج، وغم طوفان الظلام الأثابا.

فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾.

﴿أصحاب السفينة﴾ كانوا ثمانية وسبعين نفسًا

---

(1) سورة النساء، الآية: 69.

(2) قال أحمد:عمرو بن عبيد أوّل القدرية المنكرين للشفاعة فاحذره، وليست إلا آية مطابقة للحكاية، ولكن الزمخشري يبنى على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أنّ الكفار يحملون خطايا أتباعهم، فلذلك ساقهما مساقاً واحداً نعوذ بالله من ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿إنهم لكاذبون﴾ نكتة حسنة يستدل به على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر، فإنّ من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر، ولم يتم له ذلك في هذه الآية؛ لأن الله تعالى أردف قولهم ولنحمل خطاياكم على صيغة الأمر بقوله: ﴿إنهم لكاذبون﴾ والتكذيب إنما يتطرق إلى الإخبار.

(3) قال أحمد:لأن الاستثناء استدراك ورجوع على الجملة بالتنقيص تحريراً للعدد فلا يحتمل المبالغة؛ لأنها لا يجوز معها العدد. عاد كلامه قال: وفيه نكتة أخرى، وهي: أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح، وكابده من طول المصابرة تسلية له عليه السلام، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض. قال: وإنما خالف بين اللفظين، فذكر في الأوّل السنة، وفي الثاني العام تجنباً للتكرار الذي لا يحمد إلا لقصد تفخيم أو تعظيم. قال أحمد: ولو فخم المستثنى لعاد ذلك ببعض تفخيم المستثنى منه وتكبيره عند السامع، والله أعلم.

نصفهم ذكور ونصفهم إناث منهم: أولاد نوح عليه السلام سام وحام ويافث ونساؤهم وعن محمد بن إسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة، وقد روي عن النبيّ ﷺ كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة والضمير في ﴿وجعلناها﴾ للسفينة أو للحادثة والقصة، نصب.

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾.

﴿وإبراهيم﴾ بإضمار اذكر وأبدل عنه ﴿إذ﴾ بدل الاشتمال لأنّ الأحيان تشتمل؛ على ما فيها أو هو معطوف على نوحا وإذ ظرف لأرسلنا يعني: أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغًا صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى، وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله وإبراهيم بالرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يعني: إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم أو إن نظرتم بعين الدراية المبصرة دون عين الجهل العمياء علمتم أنه خير لكم.

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾.

وقرئ: ﴿تخلقون﴾ من خلق بمعنى التكثير في خلق وتخلقون من تخلق بمعنى تكذب وتخرص.

وقرئ: ﴿إفكًا﴾ فيه وجهان: أن يكون مصدرًا نحو كذب ولعب والإفك مخفف منه كالكذب واللعب من أصلهما أن يكون صفة على فعل أي: خلقًا إفكًا أي ذا إفك وباطل واختفلاهم الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله أو شفعاء إليه أو سمى الأصنام ﴿إفكًا﴾ عملهم ولها ونحتهم خلقًا للإفك.

فإن قُلْتَ: لم نكر الرزق ثم عرفه؟ قُلْتُ: لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئًا من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كله فإنه هو الرازق وحده لا يرزق غيره ﴿إليه ترجعون﴾.

وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾.

وقرئ بفتح التاء فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه وإن تكذبونني فلا تضرونني بتكذيبهم فإنّ الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم وما ضروهم وإنما ضروا أنفسهم حيث حلّ بهم ما حل بسبب تكذيب الرسل وأما الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشكّ وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته، أو وإن كنت مكذبًا فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كذبوا وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله: فما كان جواب قومه محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه: وأن تكون آياتا وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش بين أوّل قصة إبراهيم وآخرها.

فإن قُلْتَ: إذا كانت من قول إبراهيم: فما المراد بالأمم قبله! قُلْتُ: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم وكفى بقوم نوح أمّة في معنى أمم جمة مكذبة ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء وآمن به ألف إنسان منهم على عدد سنيه وأعقابهم على التكذيب.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿قل سيروا في الأرض﴾! قُلْتُ: هي حكاية كلام حكاه إبراهيم عليه السلام لقومه كما يحكي رسولنا ﷺ كلام الله على هذا المنهاج في أكثر القرآن.

فإن قُلْتَ: فإذا كانت خطابًا لقريش فما وجه توسطهما بين طرفي قصة إبراهيم والجملة، أو الجملة الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ألا تراك لا تقول: مكة وزيد أبوه قائم خير بلاد الله قُلْتُ: إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله ﷺ وأن تكون مسلاة له ومتفرجًا بأنّ أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوا بنحو ما منى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان فاعترض بقوله: ﴿وإن تكذبوا﴾ على معنى أنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمدًا فقد كذب إبراهيم قومه، وكل أمّة نبيها لأن قوله: ﴿فقد كذب أمم من قبلكم﴾ لا بد من تناوله لأمّة إبراهيم وهو كما ترى اعتراض واقع متصل، ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أذيالها وتوابعها لكونها ناطقة بالتوحيد دلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه.

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾.

قرئ يروا بالياء والتاء ﴿ويبدئ﴾ ويبدأ وقوله: ﴿ثم يعيده﴾ ليس بمعطوف على يبدئ وليست الرؤية واقعة عليه، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله تعالى: ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾[1] على البدء دون الإنشاء ونحوه قولك: ما زلت أوثر فلانًا وأستخلفه على من أخلفه[2].

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 20.

(2) قال أحمد: وقد تقدم له عند قوله تعالى: ﴿أمّن يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ أنه معطوف، وصحح العطف، وإن كانوا ينكرون الإعادة؛ لأن الاعتراف بها لازم لهم، وقد أبى ههنا جعله معطوفاً، فالفرق والله أعلم أنه ههنا لو عطف الإعادة على البداءة لدخلت في الرؤية= الماضية، وهي لم تقع بعد ولا كذلك في آية النمل، ولقائل أن يقول: هي وإن لم تقع إلا أنها بإخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية، فعوملت معاملة ما رؤي وشوهد إلا أن جعله خبراً ثانياً أوضح والله أعلم.

فإن قُلْتَ: هو معطوف بحرف العطف فلا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قُلْتُ: هو جملة قوله: ﴿أوَلم يروا كيف يبدىء الله الخلق﴾، وكذلك وأستخلفه معطوف على جملة قوله مازلت أوثر فلانًا ﴿ذلك﴾ يرجع إلى ما يرجع إليه هو في قوله: وهو أهون عليه من معنى يعيد دل بقوله:

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾.

﴿النشاة الآخرة﴾ على انهما نشاتان، وإن كل واحد منهما إنشاء أي: ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود لا تفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك، وقرئ ﴿النشاءة﴾ والنشاء كالرافة والرآفة.

فإن قُلْتَ: ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله: ﴿ثم الله ينشئ النشاة الآخرة﴾[1] بعد إضماره في قوله: كيف بدأ الخلق وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشاة الآخرة؟ قُلْتُ: الكلام معهم كان واقعًا في الإعادة وفيها كانت تصطك الركب فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة فكأنه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى[2] هو الذي ينشئ النشأة الآخرة فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ.

يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾.

﴿يعذب من يشاء﴾ تعذيبه ﴿ويرحم من يشاء﴾ رحمته ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا ومن المعصوم والتائب ﴿تقلبون﴾ تردون وترجعون.

وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾.

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ ربكم أي: لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿في الأرض﴾ الفسيحة ﴿ولا في السماء﴾ التي هي افسح منها وأبسط لو كنتم فيها كقوله تعالى: ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من اقطار السمٰوات والأرض فانفذوا﴾[3] وقيل: ولا من في السماء كما قال حسان رضي الله عنه:

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

ويحتمل أن يراد لا تعجزونه كيفما هبطم في مهاوي الأرض وأعماقها أو علوتم في البروج والقلاع الذاهب في السماء كقوله تعالى: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾[4] أو لا تعجزون أمره الجاري في السماء والأرض أن يجري عليكم، فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾.

﴿بآيات الله﴾ بدلائله على وحدانيته، وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث ﴿يئسوا من رحمتي﴾ وعيد أي ييأسون يوم القيامة كقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾[5]. أو هو وصف لحالهم لأنّ المؤمن إنما يكون راجيًا خاشيًا فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة وعن قتادة رضي الله عنه أنّ الله ذم قومًا هانوا عليه فقال: ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾، وقال: إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون فينبغي للمؤمن أن لا ييأس من روح الله ولا من رحمته، وأن لا يأمن عذابه وعقابه صفة المؤمن أن يكون راجيًا لله عز وجل خائفًا.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾.

قرئ ﴿جواب قومه﴾ بالنصب والرفع ﴿قالوا﴾ قال: بعضهم لبعض، أو قاله: واحد منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعًا في حكم القائلين، وروي أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار نعني: يوم ألقى إبراهيم في النار وذلك لذهاب حرّها.

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾.

قرئ على النصب بغير إضافة وبإضافة وعلى الرفع كذلك فالنصب على وجهين على التعليل أي: لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم وأن يكون مفعولاً ثانيًا كقوله: ﴿اتخذ إلهه هواه﴾[6] أي: اتخذتم الأوثان سبب المودّة بينكم على تقدير حذف المضاف أو اتخذتموها مودّة بينكم بمعنى مودودة بينكم كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله﴾[7] وفي الرفع وجهان أن يكون خبرًا لأنّ على أن ما موصولة وأن يكون خبر

(1) سورة العنكبوت، الآية: 20.
(2) قال أحمد: والأصل الإظهار، ثم الإضمار، ويليه لقصد التفخيم الإظهار بعد الإظهار، ويليه وهو أفخم الثلاثة الإظهار بعد الإضمار، كما في الآية والله أعلم.
(3) سورة الرحمٰن، الآية: 33.
(4) سورة النساء، الآية: 78.
(5) سورة الروم، الآية: 12.
(6) سورة الفرقان، الآية: 43.
(7) سورة البقرة، الآية: 165.

مبتدأ محذوف والمعنى: أنّ الأوثان مودّة بينكم أي: مودودة أو سبب مودّة وعن عاصم مودّة بينكم بفتح بينكم مع الإضافة، كما قرئ لقد تقطع بينكم ففتح وهو فاعل وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه أوثانًا إنما مودّة بينكم في الحياة الدنيا أي: إنما تتوادون عليها أو تودونها في الحياة الدنيا ﴿ثم يوم القيامة﴾ يقوم بينكم التلاعن والتباغض والتعادي يتلاعن العبدة ويتلاعن العبدة، والأصنام كقوله تعالى: ﴿ويكونون عليهم ضدًا﴾[1].

۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾.

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهم السلام وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿وقال﴾ يعني: إبراهيم ﴿إني مهاجر﴾ من كوثي وهي من سواد الكوفة إلى حران ثم منها إلى فلسطين ومن ثمة قالوا: لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان وكان معه في هجرته لوط وامرأته سارة وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿إلى ربي﴾ إلى حيث أمرني بالهجرة إليه ﴿إنه هو العزيز﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿الحكيم﴾ الذي لا يامرني إلا بما هو مصلحتي.

وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿أجره﴾ الثناء الحسن والصلاة عليه آخر الدهر والذرية الطيبة والنبوّة وأن أهل الملل كلهم يتولونه.

فإن قُلْتَ: ما بال إسمعيل عليه السلام لم ينكر وذلك إسحق وعقبة! قُلْتُ: قد دلّ عليه في قوله: ﴿وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب﴾ وكفى الدليل لشهرة أمره وعلو قدره.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالكتاب! قُلْتُ: قصد به جنس الكتاب حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن.

وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾.

﴿ولوطًا﴾ معطوف على إبراهيم أو على ما عطف عليه و﴿الفاحشة﴾ الفعلة البالغة في القبح و﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة كأن قائلاً قال: لم كانت فاحشة، فقيل له لأنّ أحدًا قبلهم لم يقدم عليها اشمئزازًا منها في طباعهم لإفراط قبحها حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طينتهم وقذر طباعهم قالوا: لم ينزل نكر على نكر قبل قوم لوط قط. وقرئ ﴿إنكم﴾ بغير استفهام في الأوّل دون الثاني قال: أبو عبيد وجدته في الإمام بحرف واحد بغير ياء ورأيت الثاني بحرفين الياء والنون.

أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾.

وقطع السبيل عمل قطاع الطريق من قتل الانفس وأخذ الأموال وقيل: اعتراضهم السابلة بالفاحشة وعن الحسن قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث و﴿المنكر﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما هو الخذف بالحصى والرمي بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الأزرار والسباب والفحش في المزاح، وعن عائشة رضي الله عنها كانوا يتحابقون وقيل: السخرية بمن مرّ بهم وقيل: المجاهرة في ناديهم بتلك العمل وكل معصية، فإظهارها اقبح من سترها ولذلك جاء من خرق جلباب الحياة فلا غيبة له ولا يقال: للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يبق ناديًا ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فيما تعدناه من نزول العذاب.

قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾.

كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش طوعًا وكرهًا ولأنهم ابتدعوا الفاحشة وسنوها فيمن بعدهم وقال الله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله﴾[2] زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون، فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله عليهم، فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾.

﴿بالبشرى﴾ هي البشارة بالولد والنافلة هما إسحق ويعقوب، وإضافة مهلكو إضافة تخفيف لا تعريف والمعنى لاستقبال القرية سدوم التي قيل فيها أجور من قاضي سدوم ﴿كانوا ظالمين﴾ معناه: أن الظلم قد استمر منهم إيجاده في الأيام السالفة وهم عليه مصرون وظلمهم كفرهم وألوان معاصيهم.

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾.

﴿إن فيها لوطًا﴾ ليس إخبارًا لهم بكونه فيها وإنما هو جدال في شأنه لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم اعترض عليهم بأن فيها من هو بريء من الظلم، وأراد بالجدال إظهار الشفقة عليهم وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه والتشمر في نصرته وحياطته والخوف من أن يمسه أذى، أو يلحقه ضرر قال: قتادة لا يرى المؤمن الا يحوط المؤمن الا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه ﴿بمن فيها﴾

(1) سورة مريم، الآية: 82.

(2) سورة محمد، الآية: 1.

يعنون نحن اعلم منك واخبر بحال لوط وحال قومه وامتيازه منهم الامتياز البين وانه لا يستاهل ما يستاهلون فخفض على نفسك وهون عليك الخطب، وقرئ لننجينّه بالتشديد والتخفيف وكذلك منجوك ﴿أن﴾ صلة اكدت وجود الفعلين مترتبًا احدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كانهما وجدا في جزء واحد من الزمان كانه قيل: كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه.

وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾.

﴿وضاق بهم ذرعًا﴾ وضاق بشانهم وبتدبير امرهم ذرعه أي: طاقته وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا: رحب الذراع بكذا إذا كان مطيقًا له، والأصل فيه أنّ الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع فضرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة.

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾.

الرجز والرجس العذاب من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضطرب لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب. وقرئ: ﴿منزلون﴾ مخففًا ومشددًا.

وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿منها﴾ من القرية ﴿آية بينة﴾ هي آثار منازلهم الخربة وقيل: بقية الحجارة وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض وقيل: الخبر عما صنع بهم ﴿لقوم﴾ متعلق بتركنا او ببينة.

وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿وارجوا﴾ وافعلوا ما ترجون به العاقبة فاقيم المسبب مقام السبب أو امروا بالرجاء والمراد اشتراط ما يسوّغه من الإيمان كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط وقيل: هو من الرجاء بمعنى الخوف.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾.

و﴿الرجفة﴾ الزلزلة الشديدة وعن الضحاك صيحة جبريل عليه السلام لأنّ القلوب رجفت لها ﴿في دارهم﴾ في بلدهم وأرضهم أو في ديارهم فاكتفى بالواحد لأنه لا يلبس ﴿جاثمين﴾ باركين على الركب ميتين.

وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿وعادًا﴾ منصوب بإضمار أهلكنا لأنّ قوله: ﴿فأخذتهم الرجفة﴾[1] يدل عليه لأنه في معنى الإهلاك ﴿وقد تبين لكم﴾ ذلك يعني: ما وصفه من إهلاكهم ﴿من﴾ جهة ﴿مساكنهم﴾ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها، وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿وكانوا مستبصرين﴾ عقلاء متمكنين من النظر والافتكار ولكنهم لم يفعلوا، أو كانوا متبينين أنّ العذاب نازل بهم لأنّ الله تعالى قد بين لهم على ألسنة الرسل عليهم السلام ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿سابقين﴾ فائتين أدركهم أمر الله فلم يفوتوه.

فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾.

الحاصب لقوم لوط وهي ريح عاصف فيها حصباء وقيل: ملك كان يرميهم. والصيحة لمدين وثمود، والخسف لقارون، والغرق لقوم نوح وفرعون، الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمدًا في دينهم وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوّة وهو نسج العنكبوت الا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله:

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾.

﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾ .

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت؟ قُلْتُ: معناه: لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم، وأنّ أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن ووجه آخر وهو أنه إذا صحّ تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت، وقد صحّ أنّ أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أنّ دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز فكأنه قال: ﴿وإنّ أوهن﴾ ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون ولقائل أن يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت يتخذ بيتًا بالإضافة إلى رجل يبني بيتًا بآجر وجص أو ينحته من صخر، وكما أنّ أوهن البيوت إذا استقريتها بيتًا بيتًا بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينًا

(1) سورة الأعراف، الآية: 91.

دينًا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

قرئ: ﴿تدعون﴾ بالتاء والياء وهذا توكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئًا ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم الذي لا يفعل شيئًا إلا بحكمة وتدبير. كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون: إنّ ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ أي: لا يعقل صحتها وحسنها، وفائدتها إلا هم لأنّ الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها، وتصوّرها للأفهام كما صوّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»[1].

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿بالحق﴾ أي: بالغرض الصحيح[2] الذي هو حق لا باطل وهو أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته ألا ترى إلى قوله: ﴿إنّ في ذلك لآية للمؤمنين﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾[3] ثم قال: ذلك ظنّ الذين كفروا.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

الصلاة تكون لطفًا في ترك المعاصي فكأنها ناهية عنها.

فإن قُلْتَ: كم من مصل يرتكب ولا تنهاه صلاته؟ قُلْتُ: الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب أن يدخل فيها مقدّمًا للتوبة النصوح متقيًا لقوله تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾[4] ويصليها خاشعًا بالقلب والجوارح فقد روى عن حاتم كأنّ رجلي على الصراط والجنة عن يميني والنار عن يساري وملك الموت من فوقي وأصلي بين الخوف والرجاء، ثم يحوطها بعد أن يصليها فلا يحبطها فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدًا[5]، وعن الحسن رحمه الله: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه، وقيل: من كان مراعيًا للصلاة جرّه ذلك إلى أنه ينتهي عن السيآت يومًا ما، فقد روي أنه قيل: لرسول الله ﷺ إنّ فلانًا يصلي بالنهار ويسرق بالليل فقال: «إنّ صلاته لتردعه» وروى: أنّ فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات، ولا يدع شيئًا من الفواحش إلا ركبه فوصف له فقال: إنّ صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب[6] وعلى كل حال إنّ المراعي للصلاة لا بدّ أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها وأيضًا فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها كما تقول: إنّ زيدًا ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكير، وإنما تريد أنّ هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم ﴿ولذكر الله أكبر﴾ يريد وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله كما قال: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾[7] وإنما قال: ولذكر الله ليستقلّ بالتعليل كأنه قال: وللصلاة أكبر لأنها ذكر الله أو ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر، فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب.

۞ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿بالتي هي أحسن﴾ بالخصلة التي هي أحسن وهو مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والسورة بالأناة كما قال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ﴿إلا الذين ظلموا﴾ فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعملوا معهم الغلظة وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله ﷺ وقيل: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة وقيل: معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمّة

---

(1) ذكره الثعلبي والواحدي في التفسير وابن الجوزي في الموضوعات، 3/43.

(2) قال أحمد: لفظة قدرية ومعتقد رديء.

(3) سورة ص، الآية: 27.

(4) سورة المائدة، الآية: 27.

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصلوات، فصل في تحسين الصلاة، والإكثار منها، (حديث: 3262).

(6) قال الزيلعي غريب، 3/46.

(7) سورة الجمعة، الآية: 9.

المؤدّين للجزية ﴿إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا﴾ فنبذوا الذمّة، ومنعوا الجزية فإنّ أولئك مجادلتهم بالسيف وعن قتادة الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾[1] ولا مجادلة أشدّ من السيف، وقوله: ﴿قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا﴾ من جنس المجادلة بالتي هي أحسن وعن النبي ﷺ: «ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلاً لم تصدّقوهم وإن كان حقًّا لم تكذبوهم»[2]، ومثل ذلك الإنزال.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾.

﴿أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي: أنزلناه مصدّقًا لسائر الكتب السماوية تحقيقًا لقوله: ﴿آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾[3] وقيل: وكما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ هم: عبد الله بن سلام ومن آمن معه ﴿ومن هؤلاء﴾ من أهل مكة وقيل: أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدّموا عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب ومن هؤلاء ممن في عهده منهم ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ مع ظهورها وزوال الشبهة عنها إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾.

وأنت أميّ ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط ﴿إذًا﴾ لو كان شيء من ذلك أي: من التلاوة والخط ﴿لارتاب المبطلون﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أميّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به أو ﴿لارتاب﴾ مشركوا مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده.

فإن **قُلْتَ**: لم سماهم مبطلين ولو لم يكن أمّيًا وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين محقين ولكان أهل مكة أيضًا على حق في قولهم: لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارئ كاتب! **قُلْتُ**: سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أميّ بعيد من الريب فكأنه قال هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أمّيًا لارتابوا أشدّ الريب، فحين ليس بقارئ كاتب فلا وجه لارتيابهم وشيء آخر وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أمّيين ووجب الإيمان بهم وبما جاؤا به لكونهم مصدّقين من جهة الحكيم بالمعجزات فهب أنه قارئ كاتب فمالهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام على أن المنزلين ليس بمعجزين وهذا المنزل معجز فإذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أميّ ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أميّ.

فإن **قُلْتَ**: ما فائدة قوله: ﴿بيمينك﴾؟ **قُلْتُ**: ذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتبًا الا ترى أنك إذا قلت في الإثبات رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه كان أشدّ لإثباتك أنه تولى كتبته.

بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾.

فكذلك النفي ﴿بل﴾ القرآن. ﴿آيات بينات في صدور﴾ العلماء به وحفاظه، وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظًا في الصدور يتلوه أكثر الأمّة ظاهرًا بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف ومنه ما جاء في صفة هذه الأمّة صدورهم أناجيلهم[4] ﴿وما يجحد﴾ بآيات الله الواضحة إلا المتوغلون في الظلم المكابرون.

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾.

قرئ آية وآيات أرادوا هلا أنزل عليه آية مثل ناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك ﴿إنما الآيات عند الله﴾ ينزل أيتها شاء ولو شاء أن ينزل ما تقترحونه لفعل ﴿وإنما أنا نذير﴾ كلفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات وليس لي أن أتخير على الله آياته فأقول أنزل عليّ آية كذا دون آية كذا مع علمي أنّ الغرض من الآية ثبوت الدلالة والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك ثم قال:

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾.

﴿أولم يكفهم﴾ آية مغنية عن سائر الآيات إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحلّ كما تزول كل آية بعد كونها وتكون في كل مكان دون مكان، إنّ في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لرحمة﴾ لنعمه عظيمة لا تشكر، وتذكرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ وقيل: ﴿أولم يكفهم﴾ يعني: اليهود أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك وقيل: إنّ ناسًا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتف قد كتبوا فيها بعض ما

---

(1) سورة التوبة، الآية: 29.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق، (حديث: 6257)، أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في رواية حديث أهل الكتاب، (الحديث: 3644)، وأحمد في المسند 136/4. وأخرجه= = البخاري في كتاب التوحيد، باب: ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها، (الحديث: 7542).

(3) سورة العنكبوت، الآية: 46.

(4) الطبراني في معجمه.

يقول: اليهود فلما أن نظر إليها ألقاها وقال: «كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم»[1] فنزلت والوجه ما ذكرناه.

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿كفى بالله بيني وبينكم شهيدًا﴾ أني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم وأنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب ﴿يعلم ما في السمٰوات والأرض﴾، فهو مطلع على أمري وأمركم وعالم بحقي وباطلكم ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾ منكم وهو ما تعبدون من دون الله ﴿وكفروا بالله﴾ وآياته ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[2] كقول حسان، فشر كما لخير كما الفداء، وروي أنّ كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾.

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكذيبًا والنضر بن الحرث هو الذي قال: اللهم أمطر علينا حجارة من السماء كما قال: أصحاب الأيكة فاسقط علينا كسفًا من السماء ﴿ولولا أجل﴾ قد سماه الله وبينه في اللوح لعذابهم وأوجبت الحكمة تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى ﴿لجاءهم العذاب﴾ عاجلاً، والمراد بالأجل: الآخرة لما روي أنّ الله تعالى وعد رسول الله ﷺ أن لا يعذب قومه ولا يستاصلهم وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة[3] وقيل: يوم بدر وقيل: وقت فنائهم بآجالهم.

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾.

﴿لمحيطة﴾ أي: ستحيط بهم.

يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿يوم يغشاهم العذاب﴾، أو هي محيطة بهم في الدنيا لأنّ المعاصي التي توجبها محيطة بهم أو لأنها مآلهم ومرجعهم لا محالة فكأنها الساعة محيطة بهم ويوم يغشاهم على هذا منصوب بمضمر أي: يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت و﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ كقوله تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾[4] ﴿ونقول﴾ قرئ بالنون والياء ﴿ما كنتم تعملون﴾ أي: جزاءه.

يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾.

معنى الآية أنّ المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلبًا وأصح دينًا وأكثر عبادة وأحسن خشوعًا ولعمري أنّ البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير، وقد جربنا وجرب أولونا فلم نجد فيما درنا وداروا أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت، وأضم للهم المنتشر وأحس على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الديني في الجملة من سكنى حرم الله وجوار بيت الله فللّه الحمد على ما سهل من ذلك وقرب ورزق من الصبر وأوزع من الشكر وعن النبي ﷺ: من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرًا من الأرض استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد[5] وقيل: هي في المستضعفين بنكة الذين نزل فيهم ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، وإنما كان ذلك لأنّ أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهراني الكفرة ﴿فإياي فاعبدون﴾ في المتكلم نحو إياه ضربته في الغائب وإياك عضتك في المخاطب والتقدير فإياي فاعبدوا فاعبدون.

فإن قُلْتَ: ما معنى الفاء في ﴿فاعبدون﴾ وتقديم المفعول! قُلْتُ: الفاء جواب شرط محذوف لأنّ المعنى: إنّ أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة في أرض فاخلصوها لي في غيرها ثم حذف الشرط، وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد، وإن شسعت اتبعه قوله.

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أي: واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق، ومعناه: إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بجهده.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾.

﴿لنبوئنهم﴾ لتنزلنهم ﴿من الجنة﴾ علالي، وقرئ لنثوبنهم من الثواء وهو النزول للإقامة يقال: ثوى في المنزل وأثوى هو وأثوى غيره وثوى غير متعد فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولاً واحدًا نحو ذهب، وأذهبته والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى

---

(1) أبو داود في المراسيل، باب: ما جاء في العلم (الحديث: 454).
(2) سورة سبأ، الآية: 24.
(3) قال الزيلعي غريب، 3/49.
(4) سورة الزمر، الآية: 16.
(5) ذكره الثعلبي في التفسير، وتقدم في النساء.

الغرف إمّا إجراؤه مجرى لننزلنهم ونبوئنهم، أو حذف الجار وإيصال الفعل أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم، وقرأ يحيى ابن وثاب فنعم بزيادة الفاء.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾.

﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله، لما أمر رسول الله ﷺ: من أسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليست لي فيها معيشة فنزلت، والدابة كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أو لم تعقل.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾.

﴿لا تحمل رزقها﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي: لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضًا أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل، وعن الحسن لا تحمل رزقها لا تدخره، إنما تصبح فيرزقها الله وعن ابن عيينة ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في حضنيه ويقال: للعقعق مخابئ إلا أنه ينساها ﴿وهو السميع﴾ لقولكم نخشى الفقر والضيعة ﴿العليم﴾ بما في ضمائركم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾.

الضمير في ﴿سألتهم﴾ لأهل مكة ﴿فانى يؤفكون﴾، فكيف يصرفون عن توحيد الله وأن لا يشركوا به مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢﴾.

فإن قُلْتَ: الذي رجع إليه الضمير في قوله ﴿ويقدر له﴾ هو من يشاء فكأن بسط الرزق وقدره جعلا لواحد! قُلْتُ: يحتمل الوجهين جميعًا أن يريد ويقدر لمن يشاء فوضع الضمير موضع من يشاء لأنّ من يشاء مبهم غير معين فكان الضمير مبهمًا مثله وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾.

استحمد رسول الله ﷺ على أنه ممن أقرّ بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفي الأنداد والشركاء عنه ولم يكن إقرارًا عاطلاً كإقرار المشركين، وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم ثم قال: ﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ ما يقولون: وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد، أو لا يعقلون ما تريد بقولك: الحمد لله ولا يفطنون لم حمدت الله عند مقالتهم.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾.

﴿هذه﴾ فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة، يريد ما هي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يتفرقون ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي: ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة[1] والحيوان مصدر حي وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واوًا كما قالوا: حيوة في اسم رجل وبه سمي ما فيه حياة حيوانًا قالوا: اشتر من الموتان ولا تشتر من الحيوان وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة، والاضطراب كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك والحياة حركة كما أنّ الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة ﴿لو كانوا يعلمون﴾، فلم يؤثروا الحياة الدنيا عليها.

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله:

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾.

﴿فإذا ركبوا﴾؟ قُلْتُ: بمحذوف دلّ عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم معناه هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلهًا آخر وفي تسميتهم مخلصين ضرب من التهكم ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ وآمنوا عادوا إلى حال الشرك.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾.

واللام في ﴿ليكفروا﴾ محتملة أن تكون لام كي وكذلك في ﴿وليتمتعوا﴾ فيمن قرأها بالكسر والمعنى: أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين

(1) قال أحمد: والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة، كالنزوان والجولان والحيوان من ذلك والله أعلم.

بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة إذا أنجاهم الله أن يشكروا نعمة الله في إنجائهم ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التمتع، التلذذ وإن تكون لام الأمر، وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له ونحوه قوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾[1].

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر، وبأن يعمل العصاة ما شاؤوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟ قُلْتُ: هو مجاز عن الخذلان والتخلية وإن ذلك الأمر متسخط إلى غاية ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك أنّ ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم حربت عليه وقلت: أنت وشأنك، وافعل ما شئت فلا تريد بهذا حقيقة الأمر وكيف والآمر بالشيء مريد له وأنت شديد الكراهة متحسر ولكنك كأنك تقول له: فإذا قد أبيت قبول النصيحة فأنت أهل ليقال: لك افعل ما شئت وتبعث عليه ليتبين لك إذا فعلت صحة رأى الناصح وفساد رأيك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

كانت العرب حول مكة يغزوا بعضهم بعضًا ويتغاورون ويتناهبون وأهل مكة قارون آمنون فيها لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب فذكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم افتراؤهم على الله كذبًا زعمهم إن لله شريكا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

وتكنيبهم بما جاءهم من الحق كفرهم بالرسول والكتاب وفي قوله ﴿لما جاءه﴾ تسفيه لهم يعني: لم يتلعثموا في تكذيبه وقت سمعوه ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر ويستأنون إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه ﴿أليس﴾ تقرير لثوائهم في جهنم كقوله: ألستم خير من ركب المطايا، قال بعضهم: ولو كان استفهامًا ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل وحقيقته أن الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفي فرجع إلى معنى التقرير فهما وجهان أحدهما ألا يثوون في جهنم وألا يستوجبون الثواء فيها، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق هذا التكذيب والثاني ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا مثل هذه الجراة.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمّارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين ﴿فينا﴾ في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصًا ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقًا كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾[2] وعن أبي سليمان الداراني والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم وقيل: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ﴿لمع المحسنين﴾ لناصرهم ومعينهم وعن رسول الله ﷺ من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الروم مكية

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾.

القراءة المشهور الكثيرة.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾.

﴿غلبت﴾ بضم الغين وسيغلبون بفتح الياء والأرض أرض العرب لأنّ الأرض المعهودة عند العرب أرضهم.

﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أي: في أدنى أرضهم إلى عدوهم قال: مجاهد هي أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضي الله عنهما الأردن وفلسطين، وقرئ في أداني الأرض والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي وقيل: احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصري فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي ﷺ والمسلمين لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا: أنتم النصارى أهل الكتاب ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرنّ نحن عليكم فنزلت فقال لهم: أبو بكر رضي الله عنه لا يقرّر الله أعينكم فوالله لتظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له: أبي بن خلف كذبت يا أبا فصيل

(1) سورة فصلت، الآية: 40.
(2) سورة محمد، الآية: 17.
(3) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، زيلعي 3/ 50.

اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه والمناحبة المرهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال:

فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾.

البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ومات أبي من جرح رسول الله وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين(1) وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: تصدق به وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوّة وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وقرئ غلبهم بسكون اللام والغلب والغلب مصدران كالجلب والجلب والحلب والحلب وقرئ ﴿غلبت الروم﴾ بالفتح وسيغلبون بالضم، ومعناه: أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون في بضع سنين وعند انقضاء هذه المدّة أخذ المسلمون في جهاد الروم وإضافة غلبهم تختلف باختلاف القراءتين فهي في إحداهما إضافة المصدر إلى المفعول وفي الثانية إضافته إلى الفاعل ومثالهما محرّم عليكم إخراجهم ولن يخلف الله وعده.

فإن قُلْتَ: كيف صحت المناحبة وإنما هي قمار؟ قُلْتُ: عن قتادة رحمه الله أنه كان ذلك قبل تحريم القمار ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار، وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبي بن خلف ﴿من قبل ومن بعد﴾ أي: في أوّل الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين يعني: أن كونهم مغلوبين أوّلاً وغالبين آخرًا ليس إلا بأمر الله وقضائه وتلك الأيام نداولها بين الناس، وقرئ: ﴿من قبل ومن بعد﴾ على الجرّ من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه كأنه قيل: قبلاً وبعدًا بمعنى: أوّلاً وآخرًا ﴿ويومئذٍ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله عزّ وجل من غلبتهم.

﴿يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وقيل: نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبر به المشركين من غلبة الروم وقيل: نصر الله أنه ولى بعض الظالمين بعضًا وفرق بين كلمهم حتى تفانوا وتناقصوا وفل هؤلاء شوكة هؤلاء وفي ذلك قوّة للإسلام وعن أبي سعيد الخدري وافق ذلك يوم بدر وفي هذا اليوم نصر المؤمنين ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ بنصر عليكم تارة، وينصركم أخرى.

وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾.

﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد كقولك لك على ألف درهم عرفًا لأنّ معناه أعترف لك بها اعترافًا ووعد الله ذلك وعدًا لأنّ ما سبقه في معنى وعد.

نمهم الله عزّ وجل بأنهم عقلاء في أمور الدنيا بله في امر الدين وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب وعن الحسن بلغ من حذق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بأصبعه، فيعلم أردئ هو أم جيد وقوله: ﴿يعلمون﴾ بدل من قوله: ﴿لا يعلمون﴾ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا وقوله: ﴿ظاهرًا من الحيوة الدنيا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهرًا وباطنًا فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهرًا واحدًا من جملة الظواهر(2)، وهم الثانية يجوز أن يكون مبتدأ و﴿غافلون﴾ خبره والجملة خبرهم الأولى وأن يكون تكريرًا للأولى وغافلون خبر الأولى وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرّها ومعلمها، وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾.

﴿في أنفسهم﴾ يحتمل أن يكون ظرفًا كأنه قيل: أو لم يحدثوا التفكر في أنفسهم أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكر لا يكون إلا في القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك: اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك، وأن يكون صلة للتفكر كقولك: تفكر في الأمر وأجال فيه فكره و﴿ما خلق﴾ متعلق بالقول المحذوف معناه، ﴿أولم يتفكروا﴾ فيقولوا: هذا القول وقيل: معناه فيعلموا لأنّ في الكلام دليلاً عليه ﴿إلا بالحق وأجل مسمى﴾ أي: ما خلقهما باطلاً وعبثًا بغير غرض صحيح وحكمة بالغة ولا لتبقى خالدة وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة الروم، (الحديث: 3193).

(2) قال أحمد: وفي التنكير تقليل لمعلومهم وتقليله يقربه من النفي= حتى يطابق المبدل منه، وروي عن الحسن أنه قال: في تلاوته هذه الآية بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بأصبعه، فيعلم أجيد هو أم رديء.

وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[1] كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثًا، والباء في قوله: ﴿إلا بالحق﴾ مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر واشترى الفرس بسرجه ولجامه تريد اشتراه وهو ملتبس بالسرج، واللجام غير منفك عنهما وكذلك المعنى ما خلقها إلا وهي ملتبسة بالحق مقترنة به.

فإن قُلْتَ: إذا جعلت في أنفسهم صلة للتفكر فما معناه؟ قُلْتُ: معناه: أو لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فتدبروا ما أودعها الله ظاهرًا وباطنًا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكيم الذي دبر أمرها على الإحسان إحسانًا وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت، والمراد بلقاء ربهم: الأجل المسمى.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾.

﴿أولم يسيروا﴾ تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وأنهم ﴿كانوا أشدّ منهم قوّة وأثاروا الأرض﴾ وحرثوها قال الله تعالى: ﴿لا ذلول تثير الأرض﴾[2] وقيل: لبقر الحرث المثيرة وقالوا: سمى ثورًا لإثارته الأرض وبقرة لأنها تبقرها أي: تشقها ﴿وعمروها﴾ يعني أولئك المدمرون ﴿أكثر مما عمروها﴾ من عمارة أهل مكة أهل وادي غير ذي زرع مالهم إثارة الأرض أصلاً ولا عمارة لها رأسًا فما هو إلا تهكم بهم وبضعف حالهم في دنياهم لأنّ معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة وهم أيضًا ضعاف القوى فقوله: ﴿كانوا أشدّ منهم قوّة﴾ أي: عاد وثمود وأضرابهم من هذا القبيل كقوله: ﴿أولم يروا أنّ الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة﴾[3] وإن كان هذا أبلغ لأنه خالق القوى والقدر، فما كان تدميره إياهم ظلمًا لهم لأنّ حاله منافية للظلم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾.

قرئ: ﴿عاقبة﴾ بالنصب والرفع و﴿السوأى﴾ تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أنّ الحسنى تأنيث الأحسن والمعنى: أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم السوأى إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي جهنم التي أعدّت للكافرين و﴿أن كذبوا﴾ بمعنى لأن كذبوا ويجوز أن يكون بمعنى أي: لأنه إذا كان تفسير الإساءة التكذيب والاستهزاء كانت في معنى القول نحو نادي وكتب وما أشبه ذلك ووجه آخر وهو أن يكون أساؤا السوأى بمعنى اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا وأن كذبوا عطف بيان لها وخبر كان محذوف كما يحذف جواب لما ولو إرادة الإبهام.

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾.

﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي: إلى ثوابه وعقابه، وقرئ بالتاء والياء الإبلاس أي: يبقى بائسًا ساكنًا متحيرًا يقال: ناظرته فأبلس إذا لم ينبس وبئس من أن يحتجّ ومنه الناقة المبلاس التي لا ترغو.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾.

وقرئ: ﴿يبلس﴾ بفتح اللام من أبلسه إذا أسكته.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾.

﴿من شركائهم﴾ من الذين عبدوهم من دون الله ﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾ أي: يكفرون بإلهيتهم ويجحدونها أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم، وكتبوا شفعواء في المصحف بواو قبل الألف كما كتب علمواء بني إسرائيل وكذلك كتبت السوأى بألف قبل الياء إثباتًا للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾.

الضمير في ﴿يتفرّقون﴾ للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه وعن الحسن رضي الله عنه هو تفرّق المسلمين والكافرين هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل السافلين، وعن قتادة رضي الله عنه فرقة لا اجتماع بعدها.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾.

﴿في روضة﴾ في بستان وهي الجنة والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه والروضة عند العرب كل أرض ذات نبات وماء وفي أمثالهم أحسن من بيضة في روضة يريدون بيضة النعامة ﴿يحبرون﴾ يسرون يقال حبره: إذا سرّه سرورًا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره، ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن مجاهد

(1) سورة المؤمنون، الآية: 115.

(2) سورة البقرة، الآية: 71.

(3) سورة فصلت، الآية: 15.

رضي الله عنه يكرمون، وعن قتادة ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن أبي بكر بن عياش التيجان على رؤوسهم، وعن وكيع السماع في الجنة وعن النبيّ ﷺ أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم[1] وفي آخر القوم أعرابيّ، فقال: يا رسول الله هل في الجنة من سماع؟ قال: «نعم يا أعرابي إنّ في الجنة لنهرًا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة» قال الراوي: فسألت أبا الدرداء بم يتغنين قال: بالتسبيح، وروي: إنّ في الجنة لأشجارًا عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحًا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرّك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربًا[2].

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾.

﴿محضرون﴾ لا يغيبون عنه، ولا يخفف عنهم كقوله: ﴿وما هم بخارجين منها﴾[3] لا يفترّ عنهم لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد، وينجي من الوعيد والمراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدّد فيها من نعمة الله الظاهرة، وقيل: الصلاة وقيل: لابن عباس رضي الله عنهما هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم.

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾.

وتلا هذه الآية ﴿تمسون﴾ صلاتا المغرب والعشاء ﴿وتصبحون﴾ صلاة الفجر ﴿وعشيًا﴾ صلاة العصر.

و﴿تظهرون﴾ صلاة الظهر، وقوله: ﴿وعشيًا﴾ متصل بقوله: ﴿حين تمسون﴾ وقوله: ﴿وله الحمد في السمٰوات والأرض﴾ اعتراض بينهما ومعناه: إنّ على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه.

فإن قُلْتَ: لم ذهب الحسن رحمه الله إلى أنّ هذه الآية مدنية! قُلْتُ: لأنه كان يقول: فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين في غير وقت معلوم، والقول الأكثر أنّ الخمس إنما فرضت بمكة وعن عائشة رضي الله عنها فرضت الصلاة ركعتين فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أقرّت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر[4] وعن رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾[5]» الآية، وعنه عليه السلام: «من قال حين يصبح: فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى قوله: ﴿وكذلك تخرجون﴾[6] أدرك ما فاته في يومه ومن قالها: حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته».[7] وفي قراءة عكرمة حينًا تمسون وحينًا تصبحون والمعنى تمسون فيه وتصبحون فيه، كقوله: يومًا لا تجزى نفس عن نفس شيئًا بمعنى فيه.

يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾.

﴿الحيّ من الميت﴾ الطائر من البيضة و﴿الميت من الحيّ﴾ البيضة من الطائر، وإحياء الأرض إخراج النبات منها ﴿وكذلك تخرجون﴾ ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون، والمعنى: أنّ الإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحيّ وإخراج الحيّ من الميت وإحياء الميت وإماتة الحيّ، وقرئ الميت بالتشديد وتخرجون بفتح التاء.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿خلقكم من تراب﴾ لأنه خلق أصلهم منه و﴿إذا﴾ للمفاجأة وتقديره ثم فاجأتم وقت كونكم بشرًا منتشرين في الأرض كقوله: وبثّ منهما رجالاً كثيرًا ونساء.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾.

﴿من أنفسكم أزواجًا﴾ لأنّ حوّاء خلقت من ضلع آدم عليه السلام والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال أو من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الألف، والسكون وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ﴿وجعل بينكم﴾ التواد والتراحم بعصمة الزواج بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة ولا لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة، أو رحم وعن الحسن ري الله عنه المودّة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال: ورحمة منا وقال: ذكر رحمة ربك عبده، ويقال: سكن إليه إذا مال إليه كقولهم انقطع إليه واطمأن إليه ومنه السكن وهو الألف المسكون إليه فعل بمعنى مفعول وقيل: إنّ المودّة والرحمة من قبل الله وإنّ الفرك من قبل الشيطان.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره وابن عدي في الكامل، زيلعي 3/55.
(2) قال الزيلعي غريب، ورواه الثعلبي، 3/56.
(3) سورة المائدة، الآية: 37.
(4) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، الحديث: (350)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين= = وقصرها، باب: صلاة المسافرين، الحديث: (1 ـ 685).
(5) ذكره الثعلبي في تفسيره، زيلعي 3/57.
(6) سورة الروم، الآية: 19.
(7) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، (الحديث: 5076).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

الألسنة اللغات أو أجناس النطق وأشكاله خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ولا جهارة ولا حدّة ولا رخاوة ولا فصاحة ولا لكنة، ولا نظم ولا أسلوب ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله وكذلك الصور وتخطيطها والألوان وتنويعها ولاختلاف ذلك وقع التعارف وإلا فلو انفقت، وتشاكلت وكانت ضربًا واحدًا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية فيعروك الخطأ في التمييز بينهما وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحليّ وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وفرّعوا من أصل فنوهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون، وقرئ للعالمين بفتح اللام وكسرها ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾، هذا من باب اللفّ وترتيبه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرينين الأوّلين بالقرينين الآخرين لأنهما زمانان والزمان والواقع فيه بشيء واحد مع إعانة اللفّ على الاتحاد ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما والظاهر هو الأوّل لتكرّره في القرآن وأسدّ المعاني ما دل عليه القرآن يسمعونه بالآذان الواعية.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

في ﴿يريكم﴾ وجهان إضمار أن وإنزال الفعل منزلة المصدر وبهما فسر المثل تسمع بالمعيدي خير من أن تراه وقول القائل: وقالوا: ما تشاء فقلت ألهو، إلى الإصباح آثر ذي أثير ﴿خوفًا﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف ﴿وطمعًا﴾ في الغيث وقيل: خوفًا للمسافر وطمعًا للحاضر وهما منصوبان على المفعول له.

فإن قُلْتَ[1]: من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلل والخوف والطمع ليسا كذلك! قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن المفعولين فاعلون في المعنى لأنهم راؤن، فكأنه قيل: يجعلكم رائين البرق خوفًا وطمعًا والثاني أن يكون على تقدير حذف المضاف أي: إرادة خوف وإرادة طمع فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويجوز أن يكونا حالين أي: خائفين وطامعين. وقرئ ينزل بالتشديد.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ومن آياته قيام السموات والأرض واستمساكهما بغير عمد ﴿بأمره﴾ أي بقوله: كونا قائمتين والمراد بإقامته لهما: إرادته لكونهما على صفة القيام دون الزوال وقوله ﴿إذا دعاكم﴾ بمنزلة قوله: يريكم في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنه قال: ومن آياته قيام السموات والأرض، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة يا أهل القبور اخرجوا والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث كما يجيب الداعي المطاع مدعوّه كما قال القائل:

دعوت كليبًا دعوة فكأنما ... دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

يريد بابن الطود الصدى، أو الحجر إذا تدهدى وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بثم بيانًا لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأوّلين والآخرين إلا قامت تنظر كما قال تعالى: ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، قولك: دعوته من مكان كذا كما يجوز أن يكون مكانك يجوز أن يكون مكان صاحبك تقول: دعوت زيدًا من أعلى الجبل فنزل عليّ ودعوته من أسفل الوادي فطلع إليّ.

فإن قُلْتَ: بم تعلق ﴿من الأرض﴾ أبالفعل أم بالمصدر! قُلْتُ: هيهات إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين ﴿إذا﴾ و﴿إذا﴾؟ قُلْتُ: الأولى للشرط والثانية للمفاجأة وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط، وقرئ تخرجون بضم التاء وفتحها.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قانتون﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وهو أهون عليه﴾ فيما يجب عندكم وينقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم لأنّ من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها، وتعتذرون للصانع إذا خطئ في بعض ما ينشئه بقولكم: أوّل الغزو أخرق وتسمون الماهر في صناعته معاودًا تعنون أنه عاودها كرّة بعد أخرى حتى مرن عليها وهانت عليه.

---

(1) قال أحمد: الخوف والطمع من جملة مخلوقات الله تعالى وآثار قدرته، وحينئذ يلزم اجتماع شرائط النصب فيهما، وهي كونهما مصدرين ومقارنين في الوجود، والفاعل الخالق واحد، فلا بدّ من التنبيه على تخريج النصب على غير هذا الوجه، فنقول معنى قول النحاة في المفعول له لا بدّ وأن يكون فعل الفاعل، أي: ولا بدّ أن = يكون الفاعل متصفاً به مثاله، إذا قلت: جئتك إكراماً لك، فقد وصفت نفسك بالإكرام، فقلت: في المعنى جئتك مكرماً لك، والله تعالى وإن خلق الخوف والطمع لعباده، إلا أنه مقدّس عن الاتصاف بهما، فمن ثم احتيج إلى تأويل النصب على المذهبين جميعاً. والله أعلم.

فإن قُلْتَ: لم أخرت الصلة في قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ وقدّمت في قوله: ﴿هو عليّ هين﴾ هناك قصد الاختصاص وهو مجزه فقيل: هو عليّ هين وإن كان مستصعبًا عندكم أن يولد بين هم وعاقر وأما هـهنا، فلا معنى للاختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أنّ الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى[1].

فإن قُلْتَ: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: ﴿ثم إذا دعاكم﴾ حتى كانها فضلت على قيام السموات والأرض بامره، ثم هونت بعد ذلك! قُلْتُ: الإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء[2] وقيل: الضمير في عليه للخلق ومعناه: أنّ البعث أهون على الخلق من الإنشاء؛ لأن تكوينه في حد الاستحكام والتمام أهون عليه وأقل تعبًا وكبدًا من أن يتنقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحد وقيل: الأهون بمعنى الهين ووجه آخر وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بدّ له من فعله لأنها لجزاء الأعمال، وجزاؤها واجب والأفعال إما محال والمحال ممتنع أصلاً خارج عن المقدور وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأنّ الصارف يمنع وجوه الفعل كما تمنعه الإحالة وإما تفضل والتفضل حالة بين بين للفاعل أن يفعله، وأن لا يفعله وإما واجب لا بدّ من فعله ولا سبيل إلى الإخلال به، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الامتناع، وإذا كانت أبعدها من الامتناع كانت أدخلها في التأتي والتسهل فكانت أهون منها وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء ﴿وله المثل الأعلى﴾ أي: الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به، ووصف في السموات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: القاهر لكل مقدور الحكيم الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه وعن مجاهد المثل الأعلى قول: لا إله إلا الله ومعناه وله الوصف الأعلى الذي هو الوصف بالوحدانية ويعضده.

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾، وقال: الزجاج وله المثل الأعلى في السموات والأرض أي قوله تعالى: ﴿وهو أهون عليه﴾ قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل يريد التفسير الأوّل.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين ﴿من﴾ الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى: ﴿من أنفسكم﴾ ﴿مما ملكت أيمانكم من شركاء﴾؟ قُلْتُ: الأولى للابتداء كانه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ولم يبعد والثانية للتبعيض والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه: هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد أن يشارككم بعضهم ﴿فيما رزقناكم﴾ من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء من غير تفصلة بين حرّ وعبد[3]، تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضكم بعضًا من الأحرار، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء ﴿كذلك﴾ أي: مثل هذا التفصيل ﴿نفصل الآيات﴾ أي: نبينها لأنّ التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير، والتشكيل لها ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة.

بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿الذين ظلموا﴾ أي: أشركوا كقوله تعالى: ﴿إنّ الشرك

---

(1) قال أحمد: كلام نفيس يستحق أن يكتب بنوب التبر لا بالحبر، وإنما يلقى الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر، وقد علمت مذهبه في مثل ذلك. قال: في تقرير معنى قوله: وهو أهون عليه الأفعال، إما ممتنع عقلاً لذاته، وإما ممتنع لصارف يصرف الحكيم عن فعله، وإما تفضل يتخير الحكيم فيه بين أن يفعل وأن لا، وإما واجب على الحكيم أن يفعله فالإنشاء الأوّل من قبيل التفضل، أما الإعادة فواجبة على الله تعالى لأجل الجزاء، فلما كانت واجبة كانت أبعد الأفعال عن الممتنع، فلذلك وصفت بالتسهيل، وكانت أهون من الإنشاء.

(2) قال أحمد: إنما يلقى في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بثم إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها، وقوله في الجواب: إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء لا يخلص، فإنّ الإعادة ذكرت هـهنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره وقيامهما ابتداء، وإنشاء أعظم من الإعادة، فيلزم تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه عن= = الإنشاء، ويعود الإشكال، والمخلص والله أعلم جعل ثم على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب، وإن سلم أنها لتراخي المراتب فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هي الدنيا، وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب، فإنّ المعطوف حينئذ في أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه والله أعلم.

(3) قال أحمد: لقد ضل وصد عن السبيل فلا نوافقه ولا نرافقه، والحق أن لا واجب على الله تعالى، وكل ما ذكره في هذا الفصل نزغات قدرية على أنها أيضاً غير مستقيمة على أصولهم المجتثة، فإنّ مقتضاها وجوب الإنشاء في الحكمة إذ لولا مصلحة اقتضت الإنشاء لما وقع، وتلك المصلحة توجب متعلقها، فقد وضح أنّ المصنف لا إلى معالي السنة رقي، ولا في حضيض الاعتزال بقي فلله العصمة.

لظلم عظيم﴾[1] ﴿بغير علم﴾ أي: اتبعوا أهواءهم جاهلين؛ لأنّ العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه، وأما الجاهل فهيم على وجهه كالهيمة لا يكفه شيء ﴿من أضلّ الله﴾ من خذله ولم يلطف به لعلمه أنه ممن لا لطف له فمن يقدر على هداية مثله، وقوله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿فأقم وجهك للدين﴾ فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت عنه يمينًا ولا شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته واهتمامه بأسبابه، فإنّ من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسدّد إليه نظره وقوّم له وجهه مقبلاً به عليه ﴿حنيفًا﴾ حال من المأمور أو من الدين ﴿فطرت الله﴾ أي: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله وإنما أضمرته على خطاب الجماعة لقوله.

۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾.

﴿منيبين إليه﴾ ومنيبين حال من الضمير في الزموا وقوله: ﴿واتقوه واقيموا﴾ ﴿ولا تكونوا﴾ معطوف على هذا المضمر والفطرة الخلقة ألا ترى إلى قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾، والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبًا للعقل مساوقًا للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينًا آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن ومنه قوله ﷺ: «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري»[2] وقوله عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصّرانه»[3] ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي: ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير.

فإن قُلْتَ: لم وحد الخطاب أولاً ثم جمع؟ قُلْتُ: خوطب رسول الله ﷺ أولاً وخطاب الرسول خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم للإمام، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص.

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿من الذين﴾ بدل من المشركين ﴿فرّقوا دينهم﴾ تركوا دين الإسلام، وقرئ ﴿فرقوا دينهم﴾ بالتشديد أي: جعلوه أديانًا مختلفة لاختلاف أهوائهم ﴿وكانوا شيعًا﴾ فرقًا كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها ﴿كل حزب﴾ منهم فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقًا ويجوز أن يكون من الذين منقطعًا مما قبله، ومعناه: من المفارقين دينهم كل حزب فرحين بما لديهم ولكنه رفع فرحون على الوصف لكل كقوله: وكل خليل غير هاضم نفسه.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾.

الضر الشدّة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك، والرحمة الخلاص من الشدّة واللام في.

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿ليكفروا﴾ مجاز مثلها في ليكون لهم عدوًا ﴿فتمتعوا﴾ نظير اعملوا ما شئتم ﴿فسوف تعلمون﴾ وبال تمتعكم وقرأ ابن مسعود وليتمتعوا.

أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾.

السلطان الحجة وتكلمه مجاز كما تقول: كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن ومعناه الدلالة والشهادة كأنه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته، وما في ﴿بما كانوا﴾ مصدرية أي بكونهم بالله يشركون، ويجوز أن تكون موصولة ويرجع الضمير إليها ومعناه: فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون ويحتمل أن يكون المعنى أم أنزلنا عليهم ذا سلطان أي: ملكًا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ أي: نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فرحوا بها وإن تصبهم سيئة﴾ أي: بلاء من جدب أو ضيق أو مرض والسبب فيها شؤم معاصيهم قنطوا من الرحمة.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾.

ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض فما لهم يقنطون من رحمته وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدّة من أجلها حتى يعيد إليهم رحمته.

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾.

حق ذي القربى صلة الرحم، وحق المسكين وابن

---

(1) سورة لقمان، الآية: 13.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (الحديث: 63 ـ 2865).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (حديث: 1358)، ومسلم في كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يلود على الفطرة، (الحديث: 22 ـ 2658).

السبيل نصيبهما من الصدقة المسماة لهما وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب وعند الشافعي رحمه الله لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين قاس سائر القرابات على ابن العم لأنه لا ولاد بينهم.

فإن قُلْتَ: كيف تعلق قوله ﴿فآت ذا القربى﴾ بما قبله حتى جيء بالفاء قُلْتُ: لما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدّمت أيديهم اتبعه ذكر ما يجب أن يفعل، وما يجب أن يترك ﴿يريدون وجه الله﴾ يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو جهته وجانبه أي: يقصدون بمعروفهم إياه خالصًا وحقه كقوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾، أو يقصدون جهة التقرّب إلى الله لا جهة أخرى والمعنيان متقاربان ولكن الطريقة مختلفة.

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾.

هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات سواء بسواء﴾[1] يريد وما أعطيتم أكلة الربا ﴿من ربا ليربوا في﴾ أموالهم ليزيد ويزكو في أموالهم، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ أي صدقة تبتغون به وجهه خالصًا لا تطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة ﴿فاولئك هم المضعفون﴾ ذوو الإضعاف من الحسنات، ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوّة واليسار، وقرئ بفتح العين وقيل: نزلت في ثقيف وكانوا يربون وقيل: المراد أن يهب الرجل للرجل، أو يهدي له ليعوضه أكثر مما وهب، أو أهدى فليست تلك الزيادة بحرام ولكن المعوض لا يثاب على تلك الزيادة وقالوا: الربا ربوان فالحرام كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه، أو يجر منفعة والذي ليس بحرام أن يستدعي بهبته أو بهديته أكثر منها وفي الحديث المستغزر يثاب من هبته، وقرئ وما أتيتم من ربا بمعنى: وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا وقرئ لتربوا أي: لتزيدوا في أموالهم كقوله تعالى: ﴿ويربي الصدقات﴾ أي: يزيدها وقوله تعالى: ﴿فاولئك هم المضعفون﴾ التفات حسن كأنه قال لملائكته وخواص خلقه، فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون والمعنى المضعفون به لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ماء ووجه آخر وهو أن يكون تقديره، فمؤتوه أولئك هم المضعفون والحذف لما في الكلام من الدليل عليه وهذا أسهل مأخذًا والأوّل أملأ بالفائدة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾.

﴿الله﴾ مبتدأ وخبره ﴿الذي خلقكم﴾ أي الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها أحد غيره، ثم قال ﴿هل من شركائكم﴾ الذين اتخذتموهم أنداداً له من الأصنام وغيرها ﴿من يفعل﴾ شيئًا قط من تلك الأفعال حتى يصح ما ذهبتم إليه، ثم استبعد حاله من حال شركائهم ويجوز أن يكون الذي خلقكم صفة للمبتدأ والخبر هل من شركائكم، وقوله ﴿من ذلكم﴾ هو الذي ربط الجملة بالمبتدأ؛ لأنّ معناه من أفعاله ومن الأولى والثانية والثالثة كل واحدة منهنّ مستقلة بتاكيد لتعجيز شركائهم وتجهيل عبدتهم.

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾.

﴿الفساد في البر والبحر﴾ نحو الجدب والقحط وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات ووقوع الموتان في الناس والدواب وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الصيادين والغاصة ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار، وعن ابن عباس أجدبت الأرض وانقطعت مادة البحر وقالوا: إذا انقطع القطر عميت دواب البحر وعن الحسن أنّ المراد بالبحر مدن البحر وقراه التي على شاطئه وعن عكرمة العرب تسمى الأمصار البحار، وقرئ في البر والبحور ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ بسبب معاصيهم وذنوبهم كقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾، وعن ابن عباس ظهر الفساد في البر بقتل ابن آدم أخاه وفي البحر بأن جلندي كان يأخذ كل سفينة غصبًا، وعن قتادة كان ذلك قبل البعث فلما بعث رسول الله ﷺ رجع راجعون عن الضلال والظلم، ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾؛ قُلْتُ: أمّا على التفسير الأوّل فظاهر وهو أنّ الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه، وأمّا على الثاني فاللام مجاز على معنى أنّ ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك، وقرئ لنذيقهم بالنون.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾.

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة لمعاصيهم ودلّ بقوله: ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ على أنّ الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم،

(1) سورة البقرة، الآية: 276.

وأنّ ما دونه من المعاصي يكون سببًا لذلك.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾.

القيم البليغ الاستقامة الذي لا يتأتى فيه عوج ﴿من الله﴾ إمّا أن يتعلق بيأتي فيكون المعنى من قبل أن يأتي من الله يوم لا يردّه أحد كقوله تعالى: ﴿فلا يستطيعون﴾ ردّها أو بمردّ على معنى، لا يردّه هو بعد أن يجيء به ولا ردّ له من جهته، والمردّ مصدر بمعنى: الرد ﴿يصدّعون﴾ يتصدّعون أي يتفرّقون كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرّقون﴾[1].

مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿فعليه كفره﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضارّ؛ لأنّ من كان ضارّه كفره فقد أحاطت به كلّ مضرّة ﴿فلأنفسهم يمهدون﴾ أي: يسوون لأنفسهم ما يسويه لنفسه الذي يمهد فراشه، ويوطئه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينبيه عليه وينغص عليه مرقده من نتوء أو قضض أو بعض ما يؤذي الراقد، ويجوز أن يريد، فعلى أنفسهم يشفقون من قولهم في المشفق أم فرشت فأنامت وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أنّ ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعدّاه ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تتجاوزه.

لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿ليجزي﴾ متعلق بـ﴿يمهدون﴾ تعليل له ﴿من فضله﴾ مما يتفضل عليهم بعد توفية الواجب من الثواب وهذا يشبه الكناية لأنّ الفضل تبع للثواب فلا يكون إلا بعد حصول ما هو تبع له أو أراد من عطائه وهو ثوابه؛ لأنّ الفضول والفواضل هي الأعطية عند العرب، وتكرير ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح، وقوله: ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿الرياح﴾ هي الجنوب والشمال والصبا وهي رياح الرحمة، وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله ﷺ: «اللهمّ اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»[2]، وقد عدّد الأغراض في إرسالها وأنه أرسلها للبشارة بالغيث ولإذاقة الرحمة وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه والروح الذي مع هبوب الريح وزكاء الأرض قال رسول الله ﷺ: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض[3] وإزالة العفونة من الهواء وتذرية الحبوب وغير ذلك، ﴿ولتجري الفلك﴾ في البحر عند هبوبها. وإنما زاد ﴿بأمره﴾ لأنّ الريح قد تهب، ولا تكون مؤاتية فلا بدّ من إرساء السفن والاحتيال لحبسها وربما عصفت فأغرقتها ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ يريد تجارة البحر، ولتشكروا نعمة الله فيها.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق وليذيقكم! قُلْتُ: فيه وجهان أن يكون معطوفًا على مبشرات على المعنى كأنه قيل: ليبشركم وليذيقكم، وأن يتعلق بمحذوف تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا أرسلناها اختصر الطريق إلى الغرض بأن أدرج تحت ذكر الانتصار والنصر ذكر الفريقين، وقد أخلى الكلام أوّلاً عن ذكرهما وقوله.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾.

﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾ تعظيم للمؤمنين ورفع من شأنهم وتأهيل لكرامة سنية وإظهار لفضل سابقة ومزية حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم، وقد يوقف على حقًا ومعناه وكان الانتقام منهم حقًا ثم يبتدأ علينا نصر المؤمنين وعن النبيّ ﷺ: «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقًا على الله أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة»[4] ثم تلا قوله تعالى: ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿فيبسطه﴾ متصلاً تارة ﴿ويجعله كسفًا﴾ أي قطعًا تارة ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ في التارتين جميعًا والمراد بالسماء سمت السماء وشقها كقوله تعالى: ﴿وفرعها في السماء﴾، وبإصابة العباد إصابة بلادهم وأراضيهم.

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿من قبله﴾ من باب التكرير والتوكيد كقوله تعالى: ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها﴾[5].

ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

---

(1) سورة الروم، الآية: 14.

(2) أخرجه أبو يعلى، (الحديث رقم: 2456).

(3) قال الزيلعي غريب، 3/60.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الذب عن عرض المسلم (الحديث رقم: 1931)، وأحمد في المسند 6/449.

(5) سورة الحشر، الآية: 17.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قرئ أثر وآثار على الوحدة والجمع وقرأ أبو حيوة وغيره كيف تحيي أي الرحمة ﴿إنّ ذلك﴾ يعني: أنّ ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ﴿وهو على كل شيء﴾ من المقدورات قادر وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء ﴿فراوه﴾ فراوا أثر رحمة الله لأنّ رحمة الله هي الغيث وأثرها النبات ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلى معناه؛ لأنّ معنى آثار الرحمة النبات واسم النبات يقع على القليل والكثير لأنه مصدر سمي به ما ينبت.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ولئن هي اللام الموطئة للقسم دخلت على حرف الشرط و ﴿لظلوا﴾ جواب القسم سدّ مسدّ الجوابين أعني جواب القسم وجواب الشرط ومعناه: ليظلن ذمّهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا وابتهجوا، فإذا أرسل ريحًا فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله، فقنطوا وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار وأن يصبروا على بلائه، فكفروا والريح التي اصفرّ لها النبات يجوز أن تكون حرورًا وحرجفًا، فكلتاهما مما يصوح له النبات ويصبح هشيمًا وقال مصفرًا؛ لأنّ تلك صفرة حادثة وقيل: فراوا السحاب مصفرًا لأنه إذا كان كذلك لم يمطر. قرئ بفتح الضاد وضمها وهما لغتان والضم أقوى في القراءة لما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قرأتها على رسول الله ﷺ من ضعف فاقرأني من ضعف[1].

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

وقوله: ﴿خلقكم من ضعف﴾ كقوله: خلق الإنسان من عجل يعني: أن أساس أمركم وما عليه جبلتم وبنيتكم الضعف وخلق الإنسان ضعيفًا أي: ابتدأناكم في أوّل الأمر ضعافًا وذلك حال الطفولة والنشء حتى بلغتم وقت الاحتلام والشبيبة وتلك حال القوّة إلى الاكتهال وبلوغ الأشدّ، ثم رددتم إلى أصل حالكم وهو الضعف بالشيخوخة والهرم وقيل: من ضعف من النطف كقوله تعالى: ﴿من ماء مهين﴾[2] وهذا الترديد في الأحوال المختلفة والتغيير من هيئة إلى هيئة وصفة إلى صفة أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿الساعة﴾ القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وبديهة كما تقول: في ساعة لمن تستعجله وجرت علمًا لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة، وأرادوا لبثهم في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث وفي الحديث ما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون قالوا: لا نعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة[3] وذلك وقت يفنون فيه وينقطع عذابهم، وإنما يقدّرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أي مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق في الدنيا، وهكذا كانوا يبنون أمرهم على خلاف الحق، أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

القائلون هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون ﴿في كتاب الله﴾ في اللوح أو في علم الله وقضائه أو فيما كتبه أي أوجبه بحكمته ردّوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

فإن **قلْتَ**: ما هذه الفاء وما حقيقتها **قلْتُ**: هي التي في قوله، فقد جئنا خراسانا، وحقيقتها أنها جواب شرط يدل عليه الكلام كأنه قال: إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص وكذلك إن كنتم منكرين البعث، فهذا يوم البعث أي: فقد تبين بطلان قولكم، وقرأ الحسن يوم البعث بالتحريك ﴿لا ينفع﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿يستعتبون﴾ من قولك: استعتبني فلان فأعتبته أي: استرضاني فأرضيته وذلك إذا

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: القراءات، باب: ومن سورة الروم (الحديث رقم: 2936) وأبو داود في كتاب: الحروف والقراءات (الحديث رقم: 3978).

(2) سورة السجدة، الآية: 8.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الزمر، باب: «ونفخ في الصور فصعق...» (الحديث رقم: 4814)، ومسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفختين (الحديث رقم: 141 ـ 1955).

كنت جانيًا عليه، وحقيقة أعتبته أزلت عتبه ألا ترى إلى قوله:

غضبت تميم أن تقتل عامر ... يوم النسار فاعتبوا بالصيلم

كيف جعلهم غضابًا، ثم قال فاعتبوا أي أزيل غضبهم والغضب في معنى العتب، والمعنى لا يقال لهم: أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ومثله قوله تعالى: ولا يخرجون منها ولا هم يستعتبون.

فإن قُلْتَ: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات وغير معتبين في بعضها وهو قوله: وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين؟ **قُلْتُ:** أمّا كونهم غير مستعتبين فهذا معناه وأما كونهم غير معتبين فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه فإن يستعتبوا الله أي يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته **﴿ولقد﴾** وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا: جئتنا بزور وباطل.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ثم قال: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة ومعنى طبع الله منع الإلطاف التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق وإنما يمنعها من علم أنها لا تجدي عليه، ولا تغني عنه كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أنّ الموعظة تلغو، ولا تنجع فيه فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدا والرين إياها فكأنه قال: كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة حتى يسموا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿فاصبر﴾ على عداوتهم **﴿إنّ وعد الله﴾** بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله **﴿حق﴾** لا بدّ من إنجازه والوفاء به، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعًا مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك وقرئ بتخفيف النون، وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب ولا يستحقنك أي: لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء، والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة لقمان مكية

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

﴿الكتاب الحكيم﴾ ذي الحكمة أو وصف بصفة الله تعالى على الإسناد المجازي ويجوز أن يكون الأصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعًا بعد الجر استكن في الصفة المشبهة بعد.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿هدى ورحمة﴾ بالنصب على الحال عن الآيات والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة وبالرفع على أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف **﴿للمحسنين﴾** للذين يعملون الحسنات وهي التي ذكرها من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس الألمعي:

الذي يظن بك الظن ... كأن قد رأى وقد سمعا

حكى عن الأصمعي أنه سئل عن الألمعي فأنشده ولم يزد أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها، اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾.

و**﴿لهو الحديث﴾** نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام، وما لا ينبغي من كان وكان ونحو الغناء وتعلم الموسيقار وما أشبه ذلك وقيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشًا ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود، فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن وقيل: كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول أطعميه واسقيه وغنيه ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه وفي حديث النبي ﷺ: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهنّ ولا أثمانهنّ»[2] وعنه ﷺ: «ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي 3/63.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية بيع= = المغنيات (الحديث رقم: 1282)، وأحمد في المسند 5/264.

على هذا المنكب، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»[1] وقيل: الغناء منفدة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب.

فإن قُلْتَ: ما معنى إضافة اللهو إلى الحديث! **قُلْتُ:** معناه التبيين وهي الإضافة بمعنى من وأن يضاف الشيء إلى ما هو منه كقولك: صفة خز وباب ساج والمعنى من يشتري اللهو من الحديث؛ لأن اللهو يكون من الحديث، ومن غيره فبين بالحديث والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء في الحديث الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش[2]، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى من التبعيضية كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه، وقوله: يشتري إمّا من الشراء على ما روي عن النضر من شراء كتب الأعاجم أو من شراء القيان وأما من قوله: اشتروا الكفر بالإيمان أي: استبدلوه منه واختاروه عليه وعن قتادة اشتراؤه استحبابه يختار حديث الباطل على حديث الحق وقرئ **﴿ليضل﴾** بضم الياء وفتحها و **﴿سبيل الله﴾** دين الإسلام أو القرآن.

فإن قُلْتَ: القراءة بالضم بينة لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو أن يصدّ الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه فما معنى القراءة بالفتح؟ **قُلْتُ:** فيه معنيان: أحدهما ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ولا يصدف عنه ويزيد فيه ويمدّه فإن المخذول كان شديد الشكيمة في عداوة الدين وصدّ الناس عنه والثاني: أن يوضع ليضِلَّ موضع ليضِل من قِبَل انَّ مَنْ اضل كان ضالاً لا محالة فدل بالرديف على المردوف.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله **﴿بغير علم﴾**؟ **قُلْتُ:** لما جعله مشتريًا لهو الحديث بالقرآن قال: يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ونحوه قوله تعالى: **﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾** أي: وما كانوا مهتدين للتجارة بصراء بها، وقرئ **﴿ويتخذها﴾** بالنصب والرفع عطفًا على يشتري أو ليضل والضمير للسبيل؛ لأنها مؤنثه كقوله تعالى: **﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا﴾**.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾.

﴿ولّى مستكبراً﴾ زامًا لا يعبأ بها ولا يرفع بها رأسًا. تشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع **﴿كأن في أذنيه وقرًا﴾** أي ثقلاً ولا وقر فيهما وقرئ بسكون الذال.

فإن قُلْتَ: ما محل الجملتين المصدرتين بكأن! **قُلْتُ:** الأولى حال من **﴿مستكبرًا﴾** والثانية من **﴿لم يسمعها﴾**، ويجوز أن تكونا استئنافين والأصل في كأن المخففة كأنه والضمير ضمير الشأن.

خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾.

﴿وعد الله حقًا﴾ مصدران مؤكدان الأوّل مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره لأن قوله لهم: جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد وأما حقًا فدال على معنى الثبات أكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعًا قوله لهم: جنات النعيم **﴿وهو العزيز﴾** الذي لا يغلبه شيء ولا يعجزه يَقْدِرُ على الشيء وضده فيعطي النعيم من شاء والبؤس من شاء وهو **﴿الحكيم﴾** لا يشاء إلا ما توجبه الحكمة والعدل.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾.

﴿ترونها﴾ الضمير فيه للسمٰوات، وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله: **﴿بغير عمد﴾** كما تقول لصاحبك أنا بلا سيف ولا رمح تراني.

فإن قُلْتَ: ما محلها من الإعراب؟ **قُلْتُ:** لا محل لها لأنها مستأنفة أو هي في محل الجرّ صفة للعمد أي بغير عمد مرئية يعني: أنه عمدها بعمد لا ترى وهي إمساكها بقدرته **﴿هذا﴾** إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته.

هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾.

والخلق بمعنى المخلوق و **﴿الذين من دونه﴾** آلهتهم بكّتَهُم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وانشاه فأروني ماذا خَلَقَتْهُ آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة، ثم اضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورّط في ضلال ليس بعده ضلال.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾.

هو لقمان بن باعورًا ابن أخت أيوب أو ابن خالته وقيل: كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل: مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال: ألا أكتفي إذا كفيت وقيل: كان قاضيًا في بني إسرائيل وأكثر الأقاويل أنه كان حكيمًا ولم يكن نبيًا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لقمان لم يكن نبيًا ولا ملكًا ولكن كان راعيًا أسود فرزقه الله العتق ورضي قوله ووصيته فقص أمره في القرآن لتمسكوا

---

(1) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: ما لا يحل بيعه (الحديث رقم: 2168)، رواه الطبراني وأبو يعلى.

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

بوصيته وقال عكرمة والشعبي: كان نبيًا وقيل: خُيِّر بين النبوّة والحكمة فاختار الحكمة(1) وعن ابن المسيب كان أسود من سودان مصر خياطًا وعن مجاهد كان عبدًا أسود غليظ الشفتين متشقق القدمين، وقيل: كان نجارًا وقيل: كان راعيًا وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة وعنه أنه قال: لرجل ينظر إليه إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض، وروي أن رجلاً وقف عليه في مجلسه فقال: ألست الذي ترى ترعى معي في مكان كذا قال: بلى قال: ما بلغ بك ما أرى قال صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني وروي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت فلما أتمها لبسها، وقال: نعم، لبوس الحرب أنت فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود: بحق ما سميت حكيماً وروي أن مولاه أمره بذبح شاة، وبأن يخرج منها أطيب مضغتين فأخرج اللسان والقلب ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين، فأخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال هما: أطيب ما فيها إذا طابا وأخبث ما فيها إذا خبثا وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود: لا تحزن، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر ولقمان ﴿إن﴾ هي المفسرة لأنّ إيتاء الحكمة في معنى القول، وقد نبّه الله سبحانه على أنّ الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما وعبادة الله، والشكر له حيث فسّر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر ﴿غني﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حميد﴾ حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد.

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾.

قيل كان اسم ابنه أنعم وقال الكلبي: أشكم وقيل: كان ابنه وامرأته كافرين فما زال بهما حتى أسلما ﴿لظلم عظيم﴾ لأنّ التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصوّر أن تكون منه ظلم لا يكتنه عظمه.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾.

أي ﴿حملته﴾ تهن ﴿وهنًا على وهن﴾ كقولك: رجع عودًا على بدء بمعنى يعود عودًا على بدء وهو في موضع الحال، والمعنى: أنها تضعف ضعفًا فوق ضعف أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف لأنّ الحمل كلما ازداد وعظم ازدادت ثقلاً وضعفًا، وقرئ ﴿وهنًا على وَهَن﴾ بالتحريك عن أبي عمرو ويقال: وهن يوهن ووهن يهن وقرئ: ﴿وفصاله﴾ ﴿أن اشكر﴾ تفسير لوصينا.

﴿ما ليس لك به علم﴾ أراد بنفي العلم به نفيه أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء(2) يريد الأصنام كقوله تعالى: ﴿ما يدعون من دونه من شيء﴾(3) ﴿معروفًا﴾ صحابًا أو مصاحبًا معروفًا حسنًا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة وما يقتضيه الكرم والمروءة ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾ يريد واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه، وإن كنت مأمورًا بحسن مصاحبتهما في الدنيا، ثم إليَّ مرجعك ومرجعهما فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما علم بذلك حكم الدنيا، وما يجب على الإنسان في صحبتهما ومعاشرتهما من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه وما لهما من المواجب التي لا يسوغ الإخلال بها، ثم بين حكمهما وحالهما في الآخرة وروي أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه وفي القصة أنها مكثت ثلاثًا لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فاها بعود وروي أنه قال: لو كانت لها سبعون نفسًا فخرجت لما ارتددت إلى الكفر.

فإن قُلْتَ: هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان؟ قُلْتُ: هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد تأكيدًا لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك.

فإن قُلْتَ: فقوله: ﴿حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله في عامين﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قُلْتُ: لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة إيجابًا للتوصية بالوالدة خصوصًا وتنكيرًا بحقها العظيم مفردًا(4) ومن ثم قال رسول الله ﷺ لمن قال له: من أبر؟: «أمك، ثم أمك ثم أمك» ثم قال: بعد ذلك ثم: «أباك»(5) وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في

(1) قال أحمد: وفي هذا بعد بين وذلك أن الحكمة داخلة في النبوّة وقطرة من بحرها، وأعلى درجات الحكماء تنحط عن أدنى درجات الأنبياء بما لا يقدّر قدره، وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجرّدة من النبوّة.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 42.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في بر الوالدين، (الحديث رقم: 5139)، والترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في بر الوالدين، (الحديث: 1897)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: = البر والصلة، (الحديث رقم: 5971)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، والأدب، باب: بر الوالدين، (الحديث رقم: 1/3548).

(4) قال أحمد: هو من باب قوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره

أي ما ليس بإله فيكون لك علم بالإلّهية، وليس كما ذكره في قول فرعون: ما علمت لكم من إله غيري، وقد مرّ معناه فيما تقدم.

(5) قال أحمد: وهذا من قبيل ما يقوله الفقهاء: أنّ اللام من عمل الولد قبل الحلم جله، وهو مما يفيد تأكيد حقها والله أعلم.

حداثه بنفسه:

احمل امي وهي الحمالة ترضعني الدرّة والعلالة
ولا يجازي والد فعاله

فإن قُلْتَ: ما معنى توقيت الفصال بالعامين! قُلْتُ: المعنى في توقيته بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم إن علمت أنه يقوي على الفطام فلها أن تفطمه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾[1] وبه استشهد الشافعي رضي الله عنه على أن مدة الرضاع سنتان لا تثبت حرمة الرضاع بعد انقضائهما، وهو مذهب أبي يوسف ومحمد وأما عند أبي حنيفة رضي الله عنه فمدة الرضاع ثلاثون شهرًا وعن أبي حنيفة إن فطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام، ثم أرضعته لم يكن رضاعًا وإن أكل أكلاً ضعيفًا لم يستغن به عن الرضاع ثم أرضعته فهو رضاع محرم.

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾.

قرئ: ﴿مثقال حبة﴾ بالنصب والرفع، فمن نصب كان الضمير للهنة من الإساءة أو الإحسان أي إن كانت مثلاً في الصغر والقماءة كحبة الخردل، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة[2]، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ﴿يات بها الله﴾ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها ﴿إن الله لطيف﴾ يتوصل علمه إلى كل خفي ﴿خبير﴾ عالم بكنهه وعن قتادة لطيف باستخراجها خبير بمستقرها، ومن قرأ بالرفع كان ضمير القصة وإنما أنث المثقال لإضافته إلى الحبة كما قال. كما شرقت صدر القناة من الدم، وروي أنّ ابن لقمان قال له: أرأيت الحبة تكون في مقل البحر أي في مغاصه يعلمها الله فقال: إنّ الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة لأنّ الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء وقيل: الصخرة هي التي تحت الأرض وهي السِّجِّين يكتب فيها أعمال الكفار، وقرئ فتكن بكسر الكاف من وكن الطائر يكن إذا استقر في وكنته وهي مقره ليلاً.

يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾.

﴿واصبر على ما أصابك﴾، يجوز أن يكون عامًا في كل ما يصيبه من المحن وأن يكون خاصًا بما يصيبه فيما أُمِرَ به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من أذى من يبعثهم إلى الخير وينكر عليهم الشر ﴿إنّ ذلك﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب وإلزام، ومنه الحديث: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل»[3] أي لم يقطعه بالنية ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «لمن لم يبيت الصيام»[4] ومنه: «إنّ الله يحب أن يؤخذ برُخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» وقولهم: عزمة من عزمات ربنا ومنه عزمات الملوك، وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده عزمت عليك إلا فعلت كذا إذا قال: ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله، ولا مندوحة في تركه وحقيقته أنه من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الأمور أي مقطوعاتها ومفروضاتها ويجوز أن يكون مصدرًا في معنى الفاعل أصله من عازمات الأمور من قوله تعالى: ﴿فإذا عزم الأمر﴾ كقولك: جد الأمر وَصَدَقَ القتال وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات وأنها كانت مأمورًا بها في سائر الأمم وأنّ الصلاة لم تزل عظيمة الشأن سابقة القدم على ما سواها موصى بها في الأديان كلها.

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾.

تصاعر وتصعر بالتشديد والتخفيف يقال: أصعر خده وصعره وصاعره كقولك: أعلاه وعلاه وعالاه بمعنى والصعر والصيد داء يصيب البعير يلوي منه عنقه، والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعًا ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعل المتكبرون. أراد ﴿ولا تمش﴾ تمرح ﴿مرحًا﴾ أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مَرِحًا، ويجوز أن يريد ولا تمش لأجل المرح والأشر أي لا يكن غرضك في المشي البطالة والأشر كما يمشي كثير من الناس لذلك لا لكفاية مُهِم ديني، أو دنيوي ونحوه قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس﴾[5] والمختال مقابل للماشي مرحًا وكذلك الفخور للمصعر خدّه كبرًا.

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾.

﴿واقصد في مشيك﴾، واعدل فيه حتى يكون مشيًا بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثيب الشطار قال رسول الله ﷺ: سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن[6]

---

(1) سورة البقرة، الآية: 233.

(2) قال أحمد: يعني: أنه تمم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة، وهو من واد قولها كأنه علم في رأسه نار.

(3) ذكره الزيلعي في «نصب الراية» (2/433).

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصوم، باب: النية في الصيام (الحديث: 2454) وأخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء لا صيام = لمن لم يعزم من الليل (الحديث: 730) وأخرجه النسائي في كتاب: الصيام، باب: ذكر اختلاف الناقلين (الحديث: 2330) وأخرجه ابن ماجه في كتاب الصيام، باب: ما جاء في فرض الصوم (الحديث: 1700).

(5) سورة الأنفال، الآية: 47.

(6) رواه أبو نعيم في الحلية 10/290.

وأما قول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع[1] فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت، وقرئ: ﴿واقصد﴾ بقطع الهمزة أي: سدد في مشيك من أقصد الرامي إذا سدّد سهمه نحو الرمية ﴿واغضض من صوتك﴾ وانقص منه واقصر من قولك: فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه ﴿أنكر الأصوات﴾ أوحشها من قولك شيء نكر إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت والحمار مثل في الذم والبليغ والشتيمة وكذلك نهاقه ومن استفحاشهم لذكره مجردًا وتفاديهم من اسمه أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولون الطويل الأذنين كما يكنى عن الأشياء المستقذرة وقد عد في مساوي الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة، ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافًا، وإن بلغت منه الرجلة فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة وإن جعلوا حميرًا وصوتهم نهاقًا مبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت، والترغيب عنه وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان.

فإن قُلْتَ: لم وحد صوت الحمير ولم يجمع؟ قُلْتُ: ليس المراد أن ينكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ما في السموات﴾ الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ﴿وما في الأرض﴾ البحار والأنهار والمعادن والدواب، وما لا يحصى ﴿وأسبغ﴾ وقرئ بالسين والصاد وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف تقول: في سلخ صلخ وفي سقر صقر وفي سالغ صالغ وقرئ: نعمه ونعمة ونعمته.

فإن قُلْتَ: ما النعمة؟ قُلْتُ: كل نفع قصد به الإحسان والله تعالى خالق العالم كله نعمة؛ لأنه إمّا حيوان وإمّا غير حيوان فما ليس بحيوان نعمة على الحيوان من حيث أنّ إيجاده حيًا نعمة عليه لأنه لولا إيجاده حيًا لما صح منه الانتفاع وكل ما أدّى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة.

فإن قُلْتَ: لم كان خلق العالم مقصودًا به الإحسان؟ قُلْتُ: لأنه لا يخلقه إلا لغرض وإلا كان عبثًا والعبث لا يجوز عليه، ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع؛ لأنه غني غير محتاج إلى المنافع فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه.

فإن قُلْتَ: فما معنى الظاهرة والباطنة قُلْتُ: الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل أو لا يعلم أصلاً فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها وقد أكثروا في ذلك فعن مجاهد الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء والباطنة الإمداد من الملائكة وعن الحسن رضي الله عنه الظاهرة الإسلام والباطنة الستر، وعن الضحاك الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة وقيل: الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك ويروى في دعاء موسى عليه السلام إلٰهي دلني على أخفى نعمتك على عبادك، فقال: أخفى نعمتي عليهم النفس ويروى أن أيسر ما يعذب به أهل النار الأخذ بالأنفاس[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

معناه (أ) يتبعونهم ﴿لو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿ومن يسلم﴾ بالتشديد يقال: أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله.

فإن قُلْتَ: ماله عدّي بإلى وقد عدّى باللام في قوله بلى من أسلم وجهه لله! قُلْتُ: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالمًا لله أي: خالصًا له ومعناه مع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دُفِعَ إليه والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ من باب التمثيل مُثِّلَتْ حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي هي صائرة إليه.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾.

قرئ يحزنك ويحزنك من حزن وأحزن والذي عليه الاستعمال المستفيض أحزنه ويحزنه، والمعنى: لا يهمنك كفر من كفر وكيده للإسلام فإنّ الله عزّ وجلّ دافع كيده في نحره ومنتقم منه ومعاقبه على عمله ﴿إنّ الله﴾ يعلم

---

(1) قال الزيلعي غريب، وفي النهاية لابن الأثير، عن عائشة: كان عمر إذا مشى أسرع...» وعن ابن سعد عن الشفاء بنت عبد الله 76/30.

(2) قال الزيلعي غريب جدًا 77/3.

ما في صدور عباده فيفعل بهم على حسبه.

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾.

﴿نمتعهم﴾ زمانًا ﴿قليلاً﴾ بدنياهم ﴿ثم نضطرّهم إلى عذاب غليظ﴾ شبّه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطرار المضطرّ إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه[1] والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة والمراد الشدّة والثقل على المعذب.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿قل الحمد لله﴾ الزم لهم على إقرارهم بأنّ الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر وأن لا يعبد معه غيره ثم قال: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إنّ ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا.

لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾.

﴿إنّ الله هو الغني﴾ عن حمد الحامدين المستحق للحمد وإن لم يحمدوه.

وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾.

قرئ: ﴿والبحر﴾ بالنصب عطفًا على اسم إنّ وبالرفع عطفًا على محل إن ومعمولها على ولو ثبت كون الأشجار أقلامًا وثبت البحر ممدودًا بسبعة أبحر، أو على الابتداء والواو للحال على معنى ولو أنّ الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدودًا وفي قراءة ابن مسعود وبحر يمدّه على التنكير، ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأوّل. وقرئ يمدّه ويمدّه وبالتاء والياء.

فإن قُلْتَ: كان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أنّ الشجر أقلام والبحر مداد قُلْتُ: أغنى عن ذكر المداد قوله: يمدّه لأنه من قولك مدّ الدواة وأمدّها جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادًا فهي تصب فيه مدادها أبدًا صبًا لا ينقطع والمعنى ولو أنّ أشجار الأرض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته ونفدت الأقلام والمداد كقوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾[2].

فإن قُلْتَ: زعمت أنّ قوله والبحر يمدّه حال في أحد وجهي الرفع وليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال قُلْتُ: هو كقوله: وقد اغتدى والطير في وكناتها، وجئت والجيش مصطف وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف ويجوز أن يكون المعنى وبحرها والضمير للأرض.

فإن قُلْتَ: لم قيل من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟ قُلْتُ: أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر، ولا واحدة إلا قد بريت أقلامًا.

فإن قُلْتَ: الكلمات جمع قلة والموضع موضع التكثير لا التقليل، فهلا قيل كلم الله! قُلْتُ: معناه: إنّ كلماته لا تفي بكتبتها البحار فكيف بكلمه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت جوابًا لليهود لما قالوا قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة وقيل: إن المشركين قالوا: إنّ هذا يعنون الوحي كلام سينفد، فأعلم الله أن كلامه لا ينفد وهذه الآية عند بعضهم مدنية وأنها نزلت بعد الهجرة وقيل: هي مكية وإنما أمر اليهود وفد قريش أن يقولوا لرسول الله ﷺ ألست تتلوا فيما أنزل عليك إنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء ﴿إنّ الله عزيز﴾ لا يعجزه شيء ﴿حكيم﴾ لا يخرج من علمه وحكمته شيء ومثله لا تنفد كلماته وحكمه.

مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾.

﴿إلا كنفس واحدة﴾ إلا كخلقها وبعثها أي سواء في قدرته القليل والكثير. الواحد والجمع لا يتفاوت وذلك أنه إنما كانت تتفاوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل وقد تعالى عن ذلك ﴿إنّ الله سميع بصير﴾ يسمع كل صوت، ويبصر كل مبصر في حالة واحدة لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض فكذلك الخلق والبعث.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾.

كل واحد من الشمس والقمر يجري في فلكه ويقطعه إلى وقت معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر وعن الحسن الأجل المسمى يوم القيامة؛ لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ دلّ أيضًا بالليل والنهار وتعاقبهما وزيادتهما ونقصانهما، وجرى النيرين في فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب وبإحاطته بجميع

---

(1) قال أحمد: وتفسير هذا الاضطرار في الحديث في أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد، فيرسل الله عليهم الزمهرير، فيكون عليهم كشدّة اللهب، فيتمنون عود اللهب اضطراراً، فهو= = إخبار عن اضطرار وبأذيال هذه البلاغة تعلق الكندي حيث يقول:

يرون الموت قداما وخلفا ... فيختارون والموت اضطرار

(2) سورة الكهف، الآية: 109.

أعمال الخلق على عظم قدرته وحكمته.

فإن قُلْتَ: يجري لأجل مسمى، ويجرى إلى أجل مسمى أهو من تعاقب الحرفين! قُلْتُ: كلا ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن، ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأنّ قولك يجري إلى أجل مسمى معناه يبلغه وينتهي إليه، وقولك: يجري لأجل مسمى تريد يجرى لإدراك أجل مسمى تجعل الجرى مختصًا بإدراك أجل مسمى الا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة وجري القمر مختص بآخر الشهر فكلا المعنيين غير ناب به موضعه ﴿ذلك﴾ الذي وصف من عجائب قدرته، وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون فكيف بالجماد الذي تدعونه من دون الله إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته وأنّ من دونه باطل الإلهية.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾.

﴿وأن الله هو العليّ﴾ الشأن ﴿الكبير﴾ السلطان او ذلك الذي أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أنّ الله هو الحقّ وأنّ إلهًا غيره باطل وأنّ الله هو العليّ الكبير عن أن يشرك به.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾.

قرئ: ﴿الفلك﴾ بضم اللام، وكل فُعْل يجوز فيه فُعُل كما يجوز في كل فعل فعل على مذهب التعويض، وبنعمات الله بسكون العين وعين فعلات يجوز فيها الفتح والكسر والسكون ﴿بنعمة الله﴾ بإحسانه ورحمته ﴿صبار﴾ على بلائه ﴿شكور﴾ لنعمائه وهما صفتا المؤمن فكأنه قال: إنّ في ذلك لآيات لكل مؤمن.

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾.

يرتفع الموج ويتراكب فيعود مثل الظلّ والظلة كل ما أظلك من جبل أو سحاب او غيرهما، وقرئ كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال ﴿فمنهم مقتصد﴾ متوسط في الكفر والظلم خفض من غلوائه وانزجر بعض الانزجار أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر يعني: أنّ ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط والمقتصد قليل نادر، وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر والختر أشدّ الغدر ومنه قولهم: إنك لا تمدّ لنا شبرًا من غدر إلا مددنا لك باعًا من ختر قال:

وإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

﴿لا يجزى﴾ لا يقضي عنه شيئًا ومنه قيل: للمتقاضي المتجازي وفي الحديث في جذاعة بن نيار تجزى عنك ولا تجزى عن أحد بعدك[1].

وقرئ لا يجزئ لا يغنى يقال: أجزأت عنك مجزأ فلان والمعنى: لا يجزى فيه، فحذف ﴿الغرور﴾ الشيطان وقيل الدنيا وقيل تمنيكم في المعصية المغفرة وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه الغرّة بالله أن يتمادى الرجل في المعصية، ويتمنى على الله المغفرة وقيل: ذكرك لحسناتك ونسيانك لسيئاتك غرّه وقرئ بضم الغين وهو مصدر غرّه غرورًا وجعل الغرور غارًّا كما قيل: جدّ جدّه او أريد زينة الدنيا لأنها غرور.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا﴾، وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه؟ قُلْتُ: الأمر كذلك لأنّ الجملة الإسمية آكد من الفعلية وقد انضم إلى ذلك قوله هو وقوله مولود والسبب في مجيئه على هذا السنن أنّ الخطاب للمؤمنين[2] وعليتهم قبض آباؤهم على الكفر، وعلى الدين الجاهلي فاريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله شيئًا فلذلك جيء به على الطريق الآكد ومعنى التوكيد في لفظ المولود: أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لمن فوقه من أجداده؛ لأنّ الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك.

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾.

روى أنّ رجلاً من محارب، وهو الحرث بن عمرو بن حارثة أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أخبرني عن الساعة متى قيامها، وإني قد ألقيت حباتي في الأرض وقد أبطأت عنا السماء فمتى تمطر واخبرني عن امرأتي فقد اشتملت ما في بطنها أذكر أم أنثى وإني علمت ما

(1) تقدم في البقرة رقم (49).

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص: 196.

علمت أمس فما أعمل غدًا وهذا مولدي قد عرفته فأين أموت[1]، فنزلت وعن النبي ﷺ مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب إياكم والكهانة فإنّ الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله في النار وعن المنصور أنه أهمه معرفة مدّة عمره فرأى في منامه كأن خيالاً أخرج يده من البحر، وأشار إليه بالأصابع الخمس فاستفتى العلماء في ذلك فتأولوها بخمس سنين وبخمسة أشهر وبغير ذلك حتى قال أبو حنيفة رحمه الله تأويلها: أن مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه ﴿عنده علم الساعة﴾ أيان مرساها ﴿وينزل الغيث﴾ في إبانه من غير تقديم ولا تأخير وفي بلد لا يتجاوزه به ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال ﴿وما تدري نفس﴾ برة، أو فاجرة ﴿ماذا تكسب غدًا﴾ من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شرًا وعازمة على شر، فعملت خيرًا ﴿وما تدري نفس﴾ أين تموت وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها، وأقبر فيها فترمى بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ولا حدّثتها به ظنونها وروى أنّ ملك الموت مرّ على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل: من هذا قال: ملك الموت فقال: كأنه يريدني وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل، ثم قال: ملك الموت لسليمان كان دوام نظري إليه تعجبًا منه لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك[3] وجعل العلم لله والدراية للعبد لما في الدراية من معنى: الختل والحيلة والمعنى أنها لا تعرف إن أعملت حيلها ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان من معرفة ما عداهما أبعد، وقرئ بأية أرض وشبه سيبويه تأنيث أي بتأنيث كل في قولهم كلتهنّ عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقًا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرًا عشرًا بعدد من عمل المعروف ونهى عن المنكر[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة السجدة مكية

الٓمٓ ﴿١﴾.

﴿الٓمٓ﴾ على أنها اسم السورة مبتدأ خبره.

تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾.

﴿تنزيل الكتاب﴾ وإن جعلتها تعديدًا للحروف ارتفع تنزيل الكتاب بأنه خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ خبره ﴿لا ريب فيه﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء وخبره ﴿من رب العالمين﴾ ولا ريب فيه اعتراض لا محل له والضمير في فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل: لا ريب في ذلك أي في كونه منزلاً من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله:

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾.

﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن قولهم هذا مفترى إنكار: لأن يكون من رب العالمين وكذلك قوله ﴿بل هو الحق من ربك﴾، وما فيه من تقدير أنه من الله وهذا أسلوب صحيح محكم أثبت أوّلا أن تنزيله من رب العالمين وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن أم هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة إنكارًا لقولهم وتعجيبًا منه لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك ونظيره أن يعلل العالم في المسئلة بعلة صحيحة جامعة قد احترز فيها أنواع الاحتراز كقول المتكلمين النظر أوّل الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعرى عن وجوبها مكلف، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته.

فإن قُلْتَ: كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله وقد أثبت ما هو أطم من الريب، وهو قولهم افتراه! قُلْتُ: معنى لا ريب فيه أن لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله؛ لأن نافي الريب ومميطه معه لا ينفك عنه، وهو كونه معجزًا للبشر

---

(1) قال أحمد: وهذا الجواب تتوقف صحته على أنّ هذا الخطاب كان خاصًا بالموجودين حينئذ، والصحيح أنه عام لهم، ولكل من ينطلق عليه اسم الناس، فالجواب المعتبر والله أعلم، أنّ الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء، وقرن شكرهم بوجوب شكره عزّ وجلّ، وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع ههنا، وهم الوالد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة، كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون= = الوقوع؛ لأنّ الله حضه عليه في الدنيا كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكس فهذا جواب كاف شاف للعليل إن شاء الله تعالى.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة لقمان باب: «إن الله عنده علم الساعة...» (الحديث: 4778).

(3) رواه ابن أبي شيبة 13/205، كتاب: الزهد، باب: كلام سليمان.

(4) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في التفسير 3/79.

ومثله أبعد شيء من الريب وأما قولهم افتراه فإما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له، أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ﴿ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ كقوله: ﴿ما انذر آباؤهم﴾[1] وذلك أن قريشًا لم يبعث الله إليهم رسولاً قبل محمد ﷺ.

فإن قُلْتَ: فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة قُلْتُ: أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل فلا وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته، فنعم لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان[2] ﴿لعلهم يهتدون﴾ فيه وجهان أن يكون على الترجي من رسول الله ﷺ كما كان لعله يتذكر على الترجي من موسى وهرون عليهما السلام وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾.

﴿ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع﴾ قُلْتُ: هو على معنيين أحدهما: أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليًا أي ناصرًا ينصركم ولا شفيعًا يشفع لكم، والثاني: أن الله وليكم التي يتولى مصالحكم وشفيعكم أي: ناصركم على سبيل المجاز لأن الشفيع ينصر المشفوع له، فهو كقوله تعالى: و﴿ما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير﴾ فإذا خذلكم لم يبق لكم وليّ ولا نصير ﴿الأمر﴾ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبرًا ﴿من السماء إلى الأرض﴾ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصًا كما يريده ويرتضيه إلا في مدّة متطاولة لقلة عمال الله والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ودل عليه قوله على أثره قليلاً ما تشكرون أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة كما قال: وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴿ثم يعرج إليه﴾ أي يصير إليه ويثبت عنده ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدّة ما يرتفع من ذلك الأمر، ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدّة آخرها ثم يدبر أيضًا ليوم آخر وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة وقيل: ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو رده مع جبريل وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله أي: يصير إليه ليحكم فيه ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ وهو يوم القيامة، وقرأ ابن أبي عبلة يعرج على البناء للمفعول.

ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾.

وقرئ: ﴿يعدون﴾ بالتاء والياء ﴿أحسن كل شيء﴾ حسنة لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن وحقيقته يحسن معرفته أي: يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان، وقرئ خلقه على البدل أي أحسن فقد خلق كل شيء وخلقه على الوصف أي كل شيء خلقه فقد أحسنه.

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾.

سميت الذرية نسلاً لأنها تنسل منه أي تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد سليل ونجل.

ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾.

و﴿سواه﴾ قوّمه كقوله تعالى: ﴿في أحسن تقويم﴾[3]، ودلّ بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو كقوله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾[4] الآية كأنه.

قال ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفته.

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾.

﴿وقالوا﴾ قيل القائل أبي بن خلف ولرضاهم بقوله أسند إليهم جميعًا، وقرئ أئنا وأنا على الاستفهام وتركه. ﴿ضللنا﴾ صرنا ترابًا وذهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه كما يضل الماء في اللبن أو غبنا ﴿في الأرض﴾ بالدفن فيها من قوله، وآب مضلوه بعين جلية،

---

(1) سورة يس، الآية: 6.

(2) قال أحمد: مذهب أهل السنة أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع، وما ذكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل، وقد مجها السمع فلم يبح بها القلم فأعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره، وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم، كأبيهم إسماعيل = وغيره، والمراد بقوله تعالى: ﴿ما أتاهم من نذير﴾ يعني: ذرية العرب في زمانه عليه الصلاة والسلام إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر، فلطف الله تعالى بهم وبعث فيهم رسولاً منهم.

(3) سورة التين، الآية: 4.

(4) سورة الإسراء، الآية: 85.

وقرأ علي وابن عباس رضي الله عنهما ضللنا بكسر اللام يقال ضل يضل وضل يضل وقرأ الحسن رضي الله عنه صللنا من صل اللحم وأصل إذا أنتن وقيل صرنا من جنس الصلة وهي الأرض.

فإن قُلْتَ: بم انتصب الظرف في أئذا أضللنا قُلْتُ: بما يدل عليه إنا لفي خلق جديد وهو نبعث أو يجدد خلقنا، لقاء ربهم هو الوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت، وما وراءه فلما ذكر كفرهم بالانشاء أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة لا بالإنشاء وحده ألا ترى كيف خوطبوا بتوفى ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله على ما ذكرنا.

۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾.

والتوفي استيفاء النفس وهي الروح قال الله تعالى الله يتوفى الأنفس، وقال أخرجوا أنفسكم وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء من قولك توفيت حقي من فلان واستوفيته إذا أخذته وافيًا كاملاً من غير نقصان والتفعل والاستفعال يلتقيان في مواضع منها تقصيته واستقصيته وتعجلته واستعجلته، وعن مجاهد رضي الله عنه حويت لملك الموت الأرض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وعن قتادة يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة وقيل ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾.

﴿ولو ترى﴾ يجوز أن يكون خطابًا لرسول الله ﷺ وفيه وجهان أن يراد به التمني كأنه قال وليتك ترى كقوله ﷺ للمغيرة: «لو نظرت إليها».[1] والتمني لرسول الله ﷺ كما كان الترجي له في لعلهم يهتدون لأنه تجرع منهم الغصص، ومن عداوتهم وضرارهم فجعل الله له تمني أنّ يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشمت بهم وأن تكون لو الامتناعية، قد حذف جوابها وهو لرأيت أمرًا فظيعًا أو لرأيت أسوأ حال ترى ويجوز أن يخاطب به كل أحد كما يقول فلان لئيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك فلا تريد به مخاطبًا بعينه فكأنك قلت إن أكرم وإن أحسن إليه ولو وإذ كلاهما للمضي، وإنما جاز ذلك لأنّ المترقب من الله بمنزلة الموجود المقطوع به في تحققه ولا يقدر لترى ما يتناوله كأنه قيل ولو تكون منك الرؤية وإذا ظرف له، يستغيثون بقولهم ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾.

فلا يغاثون يعني أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك أو كنا عميًا وصمًا فأبصرنا وسمعنا ﴿فارجعنا﴾ هي الرجعة إلى الدنيا.

وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾.

﴿لآتينا كل نفس هداها﴾ على طريق الإلجاء والقسر ولكننا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار فاستحبوا العمى على الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله:

فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾.

﴿فذوقوا بما نسيتم﴾ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم من نسيان العاقبة وقلة الفكر فيها وترك الاستعداد لها والمراد بالنسيان خلاف التذكر يعني: أن الانهماك في الشهوات أذهلكم والهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها ثم قال: ﴿إنا نسيناكم﴾ على المقابلة أي جازيناكم جزاء نسيانكم وقيل هو، بمعنى: الترك أي تركتم الفكر في العاقبة فتركناكم من الرحمة وفي استئناف قوله: ﴿إنا نسيناكم﴾ وبناء الفعل على أن واسمها تشديد في الانتقام منهم، والمعنى: فذوقوا هذا أي ما أنتم فيه من نكس الرؤس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة[2].

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾.

﴿إذا ذكروا بها﴾ أي وعظوا سجدوا تواضعا لله وخشوعًا وشكرًا على ما رزقهم من الإسلام ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ ونزهوا الله من نسبة القبائح إليه وأثنوا عليه حامدين له ﴿وهم لا يستكبرون﴾ كما يفعل من بصر مستكبرًا كأن لم يسمعها ومثله قوله تعالى: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾[3] إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدًا ويقولون سبحان ربنا.

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾.

---

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: النكاح، (الحديث: 4043)، وأخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في النظر إلى المخطوبة، (الحديث: 1087)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها، (الحديث: 1865)، وأحمد في المسند 226/4. والحاكم في المستدرك، 165/2.

(2) قال أحمد: قد تمهد عن مذاهب أهل السنة أن المقتضى لاستحقاق الخلود في العذاب هو الكفر خاصة، وأما ما دونه من الكبائر فلا يوجب خلوداً، والمسألة سمعية وأدلتها من الكتاب والسنة قطعية خلافاً للقدرية.

(3) سورة الإسراء، الآية: 107 ـ 108.

﴿تتجافى﴾ ترتفع وتتنحى ﴿عن المضاجع﴾ عن الفرش ومواضع النوم داعين ربهم عابدين له لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته وهم المتهجدون وعن رسول الله ﷺ في تفسيرها قيام العبد من الليل[1] وعن الحسن رضي الله عنه أنه التهجد، وعن رسول الله ﷺ إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي ليقم الذي كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعًا إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس[2] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه كان اناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة[3] فنزلت فيهم وقيل هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها.

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾.

﴿ما أخفي لهم﴾ على البناء للمفعول ما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وما أخفي لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم الثلاثة للمتكلم وهو الله سبحانه وما بمعنى الذي أو بمعنى أي، وقرئ: ﴿من قرّة أعين﴾ وقرات أعين والمعنى لا تعلم النفوس كلهنّ ولا نفس واحدة منهنّ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل أي نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه لا يعلمه إلا هو مما تقربه عيونهم، ولا مزيد على هذه العدّة ولا مطمح وراءها، ثم قال ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فحسم أطماع المتمنين[4]، وعن النبي ﷺ يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله[5] ما أطلعتهم عليه اقرؤا إن شئتم، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين وعن الحسن رضي الله عنه أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله له ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾.

﴿كان مؤمنًا﴾ و﴿كان فاسقًا﴾ محمولان على لفظ من و﴿لا يستوون﴾ محمول على المعنى بدليل قوله تعالى:

أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿أما الذين آمنوا وأما الذين فسقوا﴾ ونحوه قوله تعالى: ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك و﴿جنات المأوى﴾ نوع من الجنان قال الله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى﴾ سميت بذلك لما روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: تأوي إليها أرواح الشهداء وقيل: هي عن يمين العرش، وقرئ: ﴿جنة المأوى﴾ على التوحيد ﴿نزلاً﴾ عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عامًا.

﴿فمأواهم النار﴾ أي: ملجؤهم ومنزلهم، ويجوز أن يراد فجنة مأواهم النار أي: النار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين كقوله فبشرهم بعذاب أليم.

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾.

﴿العذاب الأدنى﴾ عذاب الدنيا من القتل والأسر وما محنوا به من السنة سبع سنين وعن مجاهد رضي الله عنهما عذاب القبر و ﴿العذاب الأكبر﴾ عذاب الآخرة أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿لعلهم

---

(1) أخرجه أحمد في المسند، 5/237. والحاكم في المستدرك 2/413.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك، 2/363.

(3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل (الحديث: 1322).

(4) قال أحمد: يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أنّ المؤمن العاصي موعود بالجنة، ولا بد من دخوله إياها وفاء بالوعد الصادق، وأن أحداً لا يستحق على الله بعمله شيئاً، فلما وجد قوله تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ اغتنم الفرصة في الاستشهاد على معتقد القدرية في أنّ الأعمال أسباب موجبة للجزاء، ولا دليل في ذلك لمعتقدهم مع قوله ﷺ: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة». فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة، فإنه على حسب الأعمال وليس بذاك، فإن المذكور في الآية مجرّد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها، وإما أن تحمل وهو الظاهر والله أعلم. على أنّ الله تعالى لما وعد المؤمن = جنته، ووعده يجب أن يكون حقاً وصدقاً تعالى وتقدّس صارت الأعمال بالوعد، كأنها أسباب موجبات فعوملت في هذه العبارة معاملتها، والمقصود من ذلك تأكيد صدق الوعد في النفوس، وتصوره بصورة المستحق بالعمل كالأجرة المستحقة شاهداً على العمل من باب مجاز التشبيه والله أعلم. وذكر الزمخشري الحديث المشهور وهو: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين﴾ وكان جدي رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المذكور بسكون الياء من أخفى ورده إلى المتكلم، وهي من القراآت المستفيضة، والسبب في اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث، وهو أعددت لعبادي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ليكون الكل راجعاً إلى الله تعالى مسنداً إلى ضمير اسمه عزّ وجل صريحاً والله الموفق.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (الحديث: 3244)، ومسلم في كتاب: الجنة، الحديث: 2 ـ 2824).

يرجعون﴾ أي: يتوبون عن الكفر أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه كقوله تعالى: ﴿فارجعنا نعمل صالحًا﴾[1] وسميت إرادة الرجوع رجوعًا كما سميت إرادة القيام قيامًا في قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾[2] ويدل عليه قراءة من قرأ يرجعون على البناء للمفعول.

فإن قُلْتَ: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل من الله إرادة وإذا أراد الله شيئًا كان، ولم يمتنع وتوبتهم مما لا يكون ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر قُلْتُ: إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال عباده، فإذا أراد شيئًا من أفعاله كان ولم يمتنع للاقتدار، وخلوص الداعي وأما أفعال عباده فإما أن يريدها وهم مختارون لها أو مضطرّون إليها بقسره وإلجائه فإن أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك طاعتك، وهو لا يختارها؛ لأنّ اختياره لا يتعلق بقدرتك وإذا لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالاً على عجزك[3] وروى في نزولها أنه شجر بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد ابن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام، فقال له الوليد: اسكت فإنك صبي أنا أشبّ منك شبابًا وأجلد منك جلدًا وأذرب منك لسانًا وأحدّ منك سنانًا وأشجع منك جنانًا وأملأ منك حشوًا في الكتيبة فقال له علي رضي الله عنه: اسكت فإنك فاسق[4] فنزلت عامّة للمؤمنين والفاسقين فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما، أنه قال للوليد كيف تشتم عليًا وقد سماه الله مؤمنًا في عشر آيات وسماك فاسقًا[5].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم في قوله ﴿ثم أعرض عنها﴾ للاستبعاد والمعنى: أنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصاحبك وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادًا لتركه الانتهاز ومنه ثم في بيت الحماسة:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرّة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدّتها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل إنا منه منتقمون! قُلْتُ: لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامّة بالانتقام منهم، فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿الكتاب﴾ للجنس والضمير في ﴿لقائه﴾ له ومعناه إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك﴾[6] ونحو قوله من لقائه قوله: ﴿وإنك لتلقّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾[7] وقوله: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا﴾[8] وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام ﴿هدى﴾ لقومه.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون﴾ الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه لصبرهم وإيقانهم بالآيات وكذلك لنجعلنّ الكتاب المنزل إليك هدى ونورًا ولنجعلنّ من أمّتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين، وثبتوا عليه من اليقين وقيل: من لقائك موسى عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل: من لقاء موسى عليه السلام الكتاب أي: من تلقيه له بالرضا والقبول، وقرئ: ﴿لما صبروا﴾ ولما صبروا أي: لصبرهم وعن الحسن رضي الله عنه صبروا عن الدنيا، وقيل: إنما جعل الله التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة ولم يتعبد بما فيها ولد إسمعيل عليه السلام.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿يفصل بينهم﴾ يقضي فيميز المحق في دينه من المبطل، الواو في.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى

---

(1) سورة السجدة، الآية: 12.

(2) سورة المائدة، الآية: 6.

(3) قال أحمد: هذا الفصل رديء جداً مفرّع على الإشراك الجلي لا على الإشراك الخفيّ، فاعتصم بدليل الوحدانية على ردّه واجتنابه من أصله والله المستعان، وإنما جرّه في تفسير لعلّ إلى الإرادة والحق في تفسيرها أنها لترجي المخاطبين امتناع الترجي على الله تعالى، كذا فسرها سيبويه فيما تقدّم والله أعلم.

(4) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص: 198.

(5) قال أحمد: ذكر للسبب المحقق لأنّ المراد بالفاسق وبالذين فسقوا الذين كفروا؛ لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذ، ثم أدرج فيه المؤمن تعصباً لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق الكافرين، فلم يزل يورد هذه العقائد الفواسد ولقد اتسع الخرق على الراقع.

(6) سورة يونس، الآية: 94.

(7) سورة النمل، الآية: 6.

(8) سورة الإسراء، الآية: 13.

مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

﴿أولم يهد﴾ للعطف على معطوف عليه منوى من جنس المعطوف والضمير في ﴿لهم﴾ لأهل مكة، وقرئ بالنون والياء والفاعل ما دلّ عليه ﴿كم أهلكنا﴾ لأنّ كم لا تقع فاعلة لا يقال: جاءني كم رجل تقديره أولم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون أو هذا الكلام كما هو بمضمونه، ومعناه كقولك يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون و﴿القرون﴾ عاد وثمود وقوم لوط ﴿يمشون في مساكنهم﴾ يعني: أهل مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم وقرئ يمشون بالتشديد.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿الجرز﴾ الارض التي جرز نباتها أي: قطع إمّا لعدم الماء، وإمّا لأنه رعى وأزيل ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جزر ويدل عليه قوله.

﴿فنخرج به زرعًا﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنها أرض اليمن وعن مجاهد رضي الله عنه: هي أبين، به بالماء ﴿تأكل﴾ من الزرع ﴿أنعامهم﴾ من عصفه ﴿وانفسهم﴾ من حبه وقرئ يأكل بالياء.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾.

الفتح النصر أو الفصل بالحكومة من قوله: ﴿ربنا افتح بيننا﴾[1] وكان المسلمون يقولون إنّ الله سيفتح لنا على المشركين، ويفتح بيننا وبينهم فإذا سمع المشركون قالوا ﴿متى هذا الفتح﴾ أي في أيّ وقت يكون ﴿إن كنتم صادقين﴾ في إنه كائن.

قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾.

و﴿يوم الفتح﴾ يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم، وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن رضي الله عنهما يوم فتح مكة.

فإن قُلْتَ: قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جوابًا على سؤالهم؟ **قُلْتُ:** كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا.

فإن قُلْتَ: فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناسًا يوم بدر! **قُلْتُ:** المراد أنّ المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿وانتظر﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إنهم منتظرون﴾ الغلبة عليكم وهلاككم كقوله تعالى: ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾[2] وقرأ ابن السميفع رحمه الله منتظرون بفتح الظاء ومعناه وانتظر هلاكهم، فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم يعني: أنهم هالكون لا محالة أو وانتظر ذلك فإنّ الملائكة في السماء ينتظرونه. عن رسول الله ﷺ: من قرأ الٓمّ تنزيل وتبارك الذي بيده الملك أعطى من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر[3] وقال: من قرأ الٓم تنزيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة ايام[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأحزاب مدنية

عن زرّ قال: قال لي أبيّ بن كعب رضي الله عنه: كم تعدّون سورة الأحزاب قلت: ثلاثًا وسبعين آية قال: فوالذي يحلف به أبيّ بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة[5]، أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم أراد أبيّ رضي الله عنه أنّ ذلك من جملة ما نسخ من القرآن، وأمّا ما يحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة رضي الله عنها فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض[6] جعل نداءه بالنبيّ والرسول في قوله:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾.

﴿يا أيها النبيّ اتق الله﴾ يا أيها النبي لمَ تحرّم، يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك، وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود، كرامة له وتشريفًا وربًا بمحله وتنويهًا بفضله.

فإن قُلْتَ: إن لم يوقع اسمه في النداء، فقد أوقعه في الإخبار في قوله محمد رسول الله وما محمد إلا رسول.

---

(1) سورة يوسف، الآية: 89.
(2) سورة التوبة، الآية: 52.
(3) ذكره الثعلبي وابن مردويه، وذكره الواحدي في التفسير، الزيلعي 3/88.
(4) قال الزيلعي غريب جدًا، الزيلعي 3/89.
(5) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/415، وابن حبان في كتاب: الحدود، باب: الزنى وحده (حديث: 4428).
(6) أخرجه الدارقطني في السنن، كتاب: الرضاع (الحديث: 22)، 4/179.

قُلْتُ:ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والإخبار ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء لقد جاءكم رسول من أنفسكم وقال الرسول: يا رب، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. والله ورسوله أحق أن يرضوه، النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم. إن الله وملائكته يصلون على النبيّ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيّ، اتق الله واظب على ما أنت عليه من التقوى واثبت عليه وازدد منه وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ لا تساعدهم على شيء ولا تقبل لهم رأيًا ولا مشورة وجانبهم واحترس منهم، فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين لا يريدون إلا المضارّة والمضارة وروى أنّ النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان يحب إسلام اليهود قريظة والنضير وبني قينقاع وقد بايعه ناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز وزعنه وكان يسمع منهم[1] فنزلت وروى أن أبا سفيان ابن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه في الموادعة التي كانت بينه، وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبيّ ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا للنبيّ ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين وهموا بقتلهم[2]، فنزلت أي اتق الله في نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك، وروي أنّ أهل مكة دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم وأن يزوجه شيبة بن ربيعة بنته وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع فنزلت ﴿إنّ الله كان عليمًا﴾ بالصواب من الخطإ والمصلحة من المفسدة ﴿حكيمًا﴾ لا يفعل شيئًا ولا يأمر به إلا بداعي الحكمة.

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾.

﴿واتبع ما يوحى إليك﴾ في ترك طاعة الكافرين والمنافقين، وغير ذلك ﴿إنّ الله﴾ الذي يوحي إليك خبير ﴿بما تعملون﴾ فموح إليك ما يصلح به أعمالكم فلا حاجة بكم إلى الاستماع من الكفرة، وقرئ يعملون بالياء أي: بما يعمل المنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم.

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾.

﴿وتوكل على الله﴾ وأسند أمرك إليه وكله إلى تدبيره ﴿وكيلاً﴾ حافظًا موكلاً إليه كل أمر.

مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾.

ما جمع الله قلبين في جوف ولا زوجية وأمومة في امرأة ولا بنوة ودعوة في رجل، والمعنى: أن الله سبحانه كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين؛ لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليها، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك، فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريدًا كارهًا عالمًا ظانًا موقنًا شاكًا في حالة واحدة لم ير أيضًا أن تكون المرأة الواحدة أما لرجل زوجًا له؛ لأنّ الأم مخدومة مخفوض لها جناح الذل والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة، وهما حالتان متنافيتان وأن يكون الرجل الواحد دعيًا لرجل وابنًا له لأنّ النبوّة أصالة في النسب وعراقة فيه والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير لا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل وهذا مثل ضربه الله في زيد بن حارثة، وهو رجل من كلب سبى صغيرًا وكانت العرب في جاهليتها يتغاورون ويتسابون فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له وطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله ﷺ، فأعتقه[3] وكانوا يقولون زيد بن محمد فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية وقوله: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾، وقيل: كان أبو معمر رجلاً من أحفظ العرب وأرواهم فقيل له ذو القلبين[4] وقيل: هو جميل بن أسد الفهري، وكان يقول إن لي قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فروي: أنه انهزم يوم بدر فمرّ بأبي سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله فقال له: ما فعل الناس فقال هم ما بين مقتول وهارب فقال له: ما بال إحدى نعليك في رجلك، والأخرى في يدك فقال: ما ظننت إلا أنهما في رجلي فأكذب الله قوله وقولهم وضربه مثلاً في الظهار والتبني، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان المنافقون يقولون لمحمد قلبان

(1) قال الزيلعي غريب، 3/95.

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 198.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحزاب، باب: ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله، (الحديث: 4782).
ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، الحديث: (62 ـ 2425).

(4) قال أحمد:ما ذكر فيه من التأويلات أنهم كانوا يدعون لابن خطل قلبين فنفى الله صحة ذلك، وقرنه بما كانوا يقولونه من الأقاويل = المتناقضة كجعل الأدعياء أبناء، والزوجات أمهات. قال: وهذه الأمور الثلاثة متنافية: أما الأوّل فلأنه يلزم من اجتماع القلبين قيام أحد المعنيين بأحدهما وضده في الآخر، وذلك كالعلم والجهل، والأمن والخوف، وغير ذلك، وأمّا الثاني فلأن الزوجة في مقام الامتهان، والأم في محل الإكرام، فنافى أن تكون الزوجة أمًا، وأمّا الثالث فلأن النبوّة أصالة وعرافة، والدعوة لاصقة عارضة فهما متنافيان وذكر الجوف ليصور به صورة اجتماع القلبين فيه حتى يبادره السامع بالإنكار.

فأكذبهم الله وقيل: سها في صلاته فقالت اليهود له قلبان قلب مع أصحابه وقلب معكم، وعن الحسن نزلت في أن الواحد يقول نفس تأمرني ونفس تنهاني، والتنكير في رجل وإدخال من الاستغراقية على قلبين تأكيدان لما قصد من المعنى كأنه قال: ما جعل الله لأمة الرجال ولا لواحد منهم قلبين البتة في جوفه.

فإن قُلْتَ: أي فائدة في ذكر الجوف؟ قُلْتُ: الفائدة فيه كالفائدة في قوله: القلوب التي في الصدور وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلي للمدلول عليه؛ لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفًا يشتمل على قلبين، فكان أسرع إلى الإنكار وقرئ اللائي بياء وهمزة مكسورتين واللاءي بياء ساكنة بعد الهمزة. وتظاهرون من ظاهر وتظاهرون من اظاهر بمعنى تظاهر وتظهرون من اظهر بمعنى: تظهر وتظهرون من ظهر بمعنى: ظاهر كعقد بمعنى: عاقد وتظهرون من ظهر بلفظ فعل من الظهور ومعنى ظاهر من امرأته قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ونحوه في العبارة عن اللفظ لبى المحرم إذا قال: لبيك وأفف الرجل إذا قال: أف وأخوات لهنّ.

فإن قُلْتَ: فما وجه تعديته وأخواته بمن؟ قُلْتُ: كان الظهار طلاقًا عند أهل الجاهلية فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها كما يتجنبون المطلقة فكان قولهم تظاهر منها: تباعد منها بجهة الظهار، وتظهر منها تحرز منها وظاهر منها حاذر منها وظهر منها وحش منها وظهر منها خلص منها ونظيره آلى من امرأته لما ضمن معنى التباعد منها عدى بمن، وإلا فآلى في أصله الذي هو بمعنى حلف وأقسم ليس هذا بحكمه.

فإن قُلْتَ: ما معنى قولهم أنت عليّ كظهر أمي! قُلْتُ: أرادوا أن يقولوا أنت عليّ حرام كبطن أمي فكنوا عن البطن بالظهر لئلا يذكروا البطن الذي ذكره يقارب ذكر الفرج وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظهر لأنه عمود البطن، ومنه حديث عمر رضي الله عنه: يجيء به أحدهم على عمود بطنه أراد على ظهره ووجه آخر وهو: أن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان محرّمًا عندهم محظورًا، وكان أهل المدينة يقولون: إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول فلقصد المطلق منهم إلى التغليظ في تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعله ظهر أمّه فلم يترك.

فإن قُلْتَ: الدعي فعيل بمعنى: مفعول، وهو الذي يدعى ولدًا فما له جمع على أفعلاء وبابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقى وأتقياء وشقي وأشقياء ولا يكون ذلك في نحو رمى وسمى. قُلْتُ: إن شذوذه عن القياس كشذوذ قتلاء وأسراء، والطريق في مثل ذلك التشبيه اللفظي ﴿ذلكم﴾ النسب هو ﴿قولكم بأفواهكم﴾ هذا ابني لا غير من غير أن يواطئه اعتقاد لصحته وكونه حقًا، والله عز وجل لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه ولا يهدى إلا سبيل الحق، ثم قال: ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق، وهو قوله:

ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾.

﴿ادعوهم لآبائهم﴾ وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل وفي فصل هذه الجمل ووصلها من الحسن والفصاحة ما لا يغبي على عالم بطرق النظم، وقرأ قتادة وهو الذي يهدي السبيل وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل وظرفه ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه وكان ينسب إليه فيقال فلان ابن فلان ﴿فإن لم تعلموا﴾ لهم آباء تنسبونهم إليهم ﴿فهم إخوانكم في الدين﴾ وأولياؤكم في الدين فقولوا: هذا أخي وهذا مولاي ويا أخي ويا مولاي يريد الأخوّة في الدين والولاية فيه ﴿ما تعمدت﴾ في محل الجرّ عطفًا على ما أخطأتم، ويجوز أن يكون مرتفعًا على الابتداء والخبر محذوف تقديره ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح، والمعنى: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورد النهي ولكن الإثم فيما تعمدتموه بعد النهي أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يا بني على سبيل الخطأ وسبق اللسان ولكن إذا قلتموه متعمدين ويجوز أن يراد العفو عن الخطأ دون العمد على طريق العموم، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد»[1] وقوله عليه الصلاة والسلام: «وضع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه»[2]، ثم تناول لعمومه خطأ التبني وعمده.

فإن قُلْتَ: فإذا وجد التبني فما حكمه؟ قُلْتُ: إذا كان المتبني مجهول النسب وأصغر سنًا من المتبني ثبت نسبه منه وإن كان عبدًا له عتق مع ثبوت النسب، وإن كان لا يولد مثله لمثله لم يثبت النسب ولكنه يعتق عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وعند صاحبيه لا يعتق، وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبني وإن كان عبدًا عتق ﴿وكان الله غفورًا رحيمًا﴾ لعفوه عن الخطأ وعن العمد إذا تاب العامد.

ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/534. والبيهقي في الشعب، باب: في الزهد وقصر الأمل (الحديث: 10314)، وابن حبان في كتاب: الزكاة، باب جمع المال من حله (حديث: 3222).

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: فضل الأمة (الحديث: 7219)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي (الحديث: 2043).

بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾.

﴿النبي أولى بالمؤمنين﴾ في كل شيء من أمور الدين، والدنيا **﴿من أنفسهم﴾** ولهذا أطلق ولم يقيد فيجب عليهم أن يكون أحبّ إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب ووقاءه إذا لقحت حرب وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه؛ لأنّ كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار، أو هو أولى بهم على معنى: أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم كقوله تعالى: **﴿بالمؤمنين رؤف رحيم﴾**(1) وعن النبي ﷺ «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤا إن شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن هلك وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا وإن ترك ديناً أو ضياعًا، فإليّ»(2) وفي قراءة ابن مسعود: النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقال: مجاهد كل نبي فهو أبو أمّته ولذلك صار المؤمنين إخوة؛ لأنّ النبي ﷺ أبوهم في الدين **﴿وأزواجه أمّهاتهم﴾** تشبيه لهنّ بالأمهات في بعض الأحكام وهو وجوب تعظيمهنّ واحترامهن، وتحريم نكاحهن قال الله تعالى: **﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا﴾**(3) وهنّ فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنبيات، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: لسنا أمهات النساء(4) تعني: أنهنّ إنما كنّ أمّهات الرجال لكونهنّ محرّمات عليهم كتحريم أمّهاتهم والدليل على ذلك أنّ هذا التحريم لم يتعد إلى بناتهنّ وكذلك لم يثبت لهنّ سائر أحكام الأمّهات كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين، وبالهجرة لا بالقرابة كما كانت تتألف قلوب قوم بإسهام لهم في الصدقات، ثم نسخ ذلك لما دجا الإسلام وعزّ أهله وجعل التوارث بحق القرابة **﴿في كتاب الله﴾** في اللوح أو فيما أوحى الله إلى نبيه، وهو هذه الآية أو في آية المواريث أو فيما فرض الله كقوله: كتاب الله عليكم **﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾** يجوز أن يكون بيانًا لأولى الأرحام أي: الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضًا من الأجانب، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية أي أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة.

فإن قُلْتَ: مم استثنى **﴿أن تفعلوا﴾** **قُلْتُ:** من أعم العام في معنى النفع والإحسان كما تقول: القريب أولى من الأجنبي إلا في الوصية تريد أنه أحق منه في كل نفع من ميراث وهبة، وهدية وصدقة وغير ذلك إلا في الوصية والمراد بفعل المعروف: التوصية: لأنه لا وصية لوارث وعدى تفعلوا بإلى؛ لأنه في معنى تسدوا وتزلوا، والمراد بالأولياء: المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين **﴿ذلك﴾** إشارة إلى ما ذكر في الآيتين جميعًا وتفسير الكتاب ما مر آنفًا والجملة مستأنفة كالخاتمة لما ذكر من الأحكام. **﴿و﴾** اذكر حين.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾.

﴿اخذنا من النبيين﴾ جميعًا **﴿ميثاقهم﴾** بتبلغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم **﴿ومنك﴾** خصوصًا **﴿ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى﴾**، وإنما فعلنا ذلك **﴿ليسئل﴾** الله يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم، ووفوا به من جملة من أشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا: بلى

﴿عن صدقهم﴾ عهدهم وشهادتهم فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدّقوا عهدهم وشهادتهم، وكانوا مؤمنين أو ليسأل المصدّقين للأنبياء عن تصديقهم لأن من قال للصادق صدقت كان صادقًا في قوله، أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم به أممهم وتأويل مسألة الرسل تبكيت الكافرين بهم كقوله أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله.

فإن قُلْتَ: لم قدم رسول الله ﷺ على نوح فمن بعده؟ **قُلْتُ:** هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم(5)، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه.

فإن قُلْتَ: فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية وهي قوله: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك ثم قدم على غيره. **قُلْتُ:** مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك، وذلك أنّ الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء

(1) سورة التوبة، الآية: 128.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، من سورة الأحزاب، باب: (1) (الحديث: 4781).

(3) سورة الأحزاب، الآية: 53.

(4) أخرجه الدارقطني في المؤتلف والمختلف، وابن سعد في الطبقات، الزيلعي 98/3.

(5) رواه ابن هشام في سيرته، 214/2 ـ 233.

في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير.

فإن قُلْتَ: فماذا أراد بالميثاق الغليظ قُلْتُ: أراد به ذلك الميثاق بعينه معناه وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقًا غليظًا والغلظ استعارة من وصف الأجرام، والمراد عظم الميثاق وجلاله شأنه في بابه وقيل الميثاق الغليظ اليمين بالله على الوفاء بما حملوا.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله ﴿واعد للكافرين﴾ قُلْتُ: على أخذنا من النبيين لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين وأعدّ للكافرين عذابًا أليمًا، أو على ما دل عليه ليسأل الصادقين كأنه قال: فأثاب المؤمنين وأعدّ للكافرين.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾.

﴿اذكروا﴾ ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق[1] ﴿إذ جاءتكم جنود﴾ وهم الأحزاب فأرسل الله عليهم ريح الصبا قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور».[2] ﴿وجنودًا لم تروها﴾ وهم الملائكة وكانوا ألفًا بعث الله عليهم صبًا باردة في ليلة شاتية فأخصرتهم وسفت التراب في وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران، واكفأت القدور وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد فقد بداكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال، وحين سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة أشار عليه بذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام واشتدّ الخوف، وظنّ المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من المنافقين حتى قال: معتب بن قشير: كان محمد يعدنا كنوز كسرى، وقيصر لا نقدر أن نذهب إلى الغائط وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة ابن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنظير، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر

﴿تعملون﴾، قرئ بالتاء والياء.

إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾.

﴿من فوقكم﴾ من أعلى الوادي من قبل المشرق بنو غطفان ﴿ومن أسفل منكم﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب قريش تحزبوا، وقالوا: سنكون جملة واحدة حتى نستأصل محمدًا ﴿زاغت الابصار﴾ مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصًا وقيل: عدلت عن كل شيء فلم تلفت إلا إلى عدوّها لشدّة الروع، الحنجرة رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم والحلقوم مدخل الطعام والشراب قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدّة الفزع أو الغضب أو الغمّ الشديد ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، ومن ثمة قيل: للجبان انتفخ سحره، ويجوز أن يكون ذلك مثلاً في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ خطاب للذين آمنوا ومنهم الثبت القلوب والأقدام والضعاف القلوب الذين هم على حرف، والمنافقون الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بألسنتهم فظنّ الأوّلون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال وأمّا الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم وعن الحسن ظنوا ظنونًا مختلفه ظنّ المنافقون أنّ المسلمين يستأصلون.

هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾.

وظنّ المؤمنون أنهم يبتلون، وقرئ الظنون بغير ألف في الوصل والوقف وهو القياس وبزيادة ألف في الوقف زادوها في الفاصلة كما زادها في القافية من قال: أقلى اللوم عاذل والعتابا، وكذلك الرسولا والسبيلا، وقرئ بزيادتها في الوصل أيضًا إجراء له مجرى الوقف قال أبو عبيد: وهنّ كلهنّ في الإمام بألف. وعن أبي عمرو إشمام زاي زلزلوا، وقرئ: ﴿زلزالا﴾ بالفتح والمعنى: أنّ الخوف أزعجهم أشدّ الإزعاج.

وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾.

﴿إلا غرورًا﴾ قيل قائله معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرّز فرقًا ما هذا إلا وعد غرور.

وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ

---

(1) قال أحمد: وليس التقديم في الذكر بمقتض لذلك؛ ألا ترى إلى قوله:

بهاليل منهم جعفر وابن أمّه ... علي ومنهم أحمد المتخير

فأخر ذكر النبي ﷺ ليختم به تشريفاً له، وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازن التقديم فيظهر والله أعلم في سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح، ومن بعده في الذكر أنه هو المخاطب = من بينهم والمنزل عليه هذا المتلو، فكان تقديمه لذلك، ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام جرى ذكر الأنبياء صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: قول النبي ﷺ: «نصرت بالرعب والصبا» (الحديث: 1035) وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: في ريح الصبا والدبور (الحديث: 2084).

فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾.

﴿طائفة منهم﴾ هم أوس بن قيظي ومن وافقه على رأيه وعن السدّي عبد الله بن أبيّ وأصحابه، ويثرب اسم المدينة وقيل: أرض وقعت المدينة في ناحية منها ﴿لا مقام لكم﴾، قرئ بضم الميم وفتحها أي: لا قرار لكم ههنا ولا مكان تقيمون فيه، أو تقومون ﴿فارجعوا﴾ إلى المدينة أمروهم بالهرب من عسكر رسول الله ﷺ، وقيل قالوا لهم: ارجعوا كفارًا وأسلموا محمدًا وإلا فليست يثرب لكم بمكان، قرئ عورة بسكون الواو وكسرها فالعورة الخلل والعورة ذات العورة يقال عور المكان عورًا إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدوّ والسارق، ويجوز أن تكون عورة تخفيف عورة اعتذروا أنّ بيوتهم معرّضة للعدوّ ممكنة للسراق؛ لأنها غير محرّزة ولا محصنة فاستأذنوه ليحصنوها، ثم يرجعوا إليه فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾.

﴿ولو دخلت عليهم﴾ المدينة وقيل: بيوتهم من قولك دخلت على فلان داره ﴿من أقطارها﴾ من جوانبها، يريد ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التي يفرّون خوفًا منها مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها والثالث على أهاليهم، وأولادهم ناهبين سابين ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة ﴿الفتنة﴾ أي: الردّة والرجعة إلى الكفر، ومقاتلة المسلمين لأتوها لجاؤها وفعلوها، وقرئ لآتوها لأعطوها ﴿وما تلبثوا بها﴾ وما ألبثوا إعطاءها ﴿إلا يسيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف، أو وما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيرًا فإنّ الله يهلكهم، والمعنى: أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ويتمحلوا ليفرّوا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤهم هولاً ورعبًا وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر، وقيل لهم: كونوا على المسلمين لسارعوا إليه وما تعللوا بشيء وما ذاك إلا لمقتهم الإسلام وشدّة بغضهم لأهله وحبهم الكفر وتهالكهم على حزبه. عن ابن عباس: عاهدوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وقيل: هم قوم غابوا عن بدر فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلنّ، وعن محمد بن إسحق عاهدوا يوم أحد أن لا يفرّوا بعدما نزل فيهم ما نزل.

وَلَقَدْ كَانُوا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾.

﴿مسئولاً﴾ مطلوبًا مقتضى حتى يوفى به.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾.

﴿لن ينفعكم الفرار﴾ مما لا بدّ لكم من نزولة بكم من حتف أنف أو قتل، وإن نفعكم الفرار مثلاً فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع إلا زمانًا قليلاً وعن بعض المروانية أنه مرّ بحائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية فقال ذلك القليل نطلب.

قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾.

فإن قُلْتَ: كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من السوء؟ قُلْتُ: معناه أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام، وأجرى مجرى قوله: متقلدًا سيفًا ورمحًا أو حمل الثاني على الأوّل لما في العصمة من معنى المنع.

۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾.

﴿المعوّقين﴾ المثبطين عن رسول الله ﷺ وهم المنافقون، كانوا يقولون ﴿لإخوانهم﴾ من ساكني المدينة من أنصار رسول الله ﷺ ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ولو كانوا لحمًا لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه فخلوهم، و﴿هلمّ إلينا﴾ أي: قربوا أنفسكم إلينا وهي لغة أهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة وأمّا تميم فيقولون هلمّ يا رجل وهلموا يا رجال، وهو صوت سمي به فعل متعدّ مثل احضر وقرب قل هلمّ شهداءكم ﴿إلا قليلاً﴾ إلا إتيانًا قليلاً يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ولا تراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئًا قليلاً إذا اضطرّوا إليه كقوله: ما قاتلوا إلا قليلاً.

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُولَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾.

﴿أشحة عليكم﴾ في وقت الحرب أضناء بكم يترفرفون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب عنه المناضل دونه عند الخوف ﴿ينظرون إليك﴾ في تلك الحالة كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذرًا وخورًا ولواذًا بك فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم، ووقعت القسمة نقلوا ذلك الشحّ وتلك الضنة والرفرفة عليكم إلى الخير وهو المال والغنيمة ونسوا تلك الحالة الأولى واجترؤا عليكم وضربوكم بألسنتهم وقالوا: وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوّكم وبنا نصرتم عليه ونصب ﴿أشحة﴾ على الحال أو على الذمّ، وقرئ أشحة بالرفع وصلقوكم بالصاد.

فإن قُلْتَ: هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط قُلْتُ: لا ولكنه تعليم لمن عسى يظن أنّ الإيمان باللسان إيمان وإن لم يوطئه القلب وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجدى عليه فبين أنّ إيمانه ليس بإيمان، وأنّ

كل عمل يوجد منه باطل وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس وأنها مما يذهب عند الله هباء منثورًا.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿وكان ذلك على الله يسيرًا﴾ وكل شيء عليه يسير قُلْتُ: معناه أن أعمالهم حقيقة بالإحباط تدعو إليه الدواعي، ولا يصرف عنه صارف.

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾.

﴿يحسبون﴾ أنّ الأحزاب لم ينهزموا وقد انهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما نزل بهم من الخوف الشديد ودخلهم من الجبن المفرط ﴿وإن يات الأحزاب﴾ كرّة ثانية تمنوا لخوفهم مما منوا به هذه الكرّة أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب ﴿يسالون﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة عن أخباركم وعما جرى عليكم ﴿ولو كانوا فيكم﴾، ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال لم يقاتلوا إلا تعلة رياء وسمعة وقرئ بدى على فعل جمع باد كغاز وغزى وفي رواية صاحب الإقليد بديّ بوزن عديّ ويساءلون أي يتساءلون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك، أو يتساءلون الأعراب كما تقول رأيت الهلال وتراءيناه، كان عليكم أن تواسوا رسول الله ﷺ بأنفسكم، فتوازروه وتثبتوا معه كما آساكم بنفسه في الصبر على الجهاد والثبات في مرحى الحرب حتى كسرت رباعيته يوم أحد وشجّ وجهه.

فإن قُلْتَ: فما حقيقة قوله:

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾.

﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة﴾، وقرئ: ﴿أسوة﴾ بالضم قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أنه في نفسه أسوة حسنة أي: قدوة وهو المؤتسى أي: المقتدى به كما تقول في البيضة عشرون منا حديد أي هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد، والثاني أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها أو تتبع وهي المواساة بنفسه ﴿لمن كان يرجو الله﴾ بدل من لكم كقوله للذين استضعفوا لمن آمن منهم، يرجو الله واليوم الآخر كقولك رجوت زيدًا وفضله أي: فضل زيد أو يرجو أيام الله واليوم الآخر خصوصًا والرجاء بمعنى: الأمل أو الخوف ﴿وذكر الله كثيرًا﴾، وقرن الرجاء بالطاعات الكثيرة والتوفر على الأعمال الصالحة والمؤتسى برسول الله ﷺ من كان كذلك.

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾.

وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه في قوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾[1] فلما جاء الأحزاب وشخص بهم واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ وأيقنوا بالجنة والنصر وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي: ﷺ لأصحابه إنّ الأحزاب سائرون إليكم تسعًا أو عشرًا أي في آخر تسع ليال، أو عشر فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك[2]، وهذا إشارة إلى الخطب أو البلاء ﴿إيمانًا﴾ بالله وبمواعيده ﴿وتسليمًا﴾ لقضاياه وأقداره.

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾.

نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربًا مع رسول الله ﷺ ثبتوا، وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير، وغيرهم رضي الله عنهم ﴿فمنهم مَن قضى نحبه﴾ يعني: حمزة ومصعبًا ﴿ومنهم مَن ينتظر﴾ يعني: عثمان وطلحة وفي الحديث من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة[3].

فإن قُلْتَ: ما قضاء النحب! قُلْتُ: وقع عبارة عن الموت لأنّ كل حي لا بدّ له من أن يموت فكأنه نذر لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نحبه أي: نذره وقوله: ﴿فمنهم مَن قضى نحبه﴾[4] يحتمل موته شهيدًا ويحتمل وفاءه بنذره من الثبات مع رسول الله ﷺ.

فإن قُلْتَ: فما حقيقة قوله: ﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ قُلْتُ: يقال صدقني أخوك وكذبني إذا قال: لك الصدق والكذب وأمّا المثل صدقني سن بكره، فمعناه صدقني في سن بكره بطرح الجار وإيصال الفعل فلا يخلو ما عاهدوا الله عليه إما أن يكون بمنزلة السن في طرح الجار، وإمّا أن يجعل المعاهد عليه مصدوقًا على المجاز كأنهم قالوا: للمعاهد عليه سنفي بك وهم وافون به فقد صدقوه ولو كانوا ناكثين لكذبوه، ولكان مكذوبًا ﴿وما بدلوا﴾ العهد ولا غيروه لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة ولقد ثبت طلحة مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى

---

(1) سورة البقرة، الآية: 214.

(2) لم يخرجه الزيلعي.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه (الحديث: 3739)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، =

= باب: في فضائل أصحاب الرسول ﷺ، فضل طلحة بن عبيد رضي الله عنه (الحديث: 125)، والحاكم في المستدرك 3/376.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 23.

أصيبت يده فقال رسول الله ﷺ: أوجب طلحة مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيبت يده فقال رسول الله ﷺ: أوجب طلحة[1] وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النفاق، ومرض القلوب جعل المنافقون كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم.

لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾.

كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لأنّ كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب، والعقاب فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما، ويعذبهم ﴿إن شاء﴾ إذا لم يتوبوا ﴿أو يتوب عليهم﴾ إذا تابوا.

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾.

﴿ورد الله الذين كفروا﴾ الأحزاب ﴿بغيظهم﴾ مغيظين كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾ ﴿لم ينالوا خيرًا﴾ غير ظافرين وهما حالان بتداخل، أو تعاقب ويجوز أن تكون الثانية بيانًا للأولى أو استئنافًا ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بالريح والملائكة.

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾.

﴿وأنزل الذين﴾ ظاهروا الأحزاب من أهل الكتاب ﴿من صياصيهم﴾ من حصونهم والصيصية ما تحصن به يقال لقرن الثور والظبي: صيصية ولشوكة الديك وهي مخلبه التي في ساقه لأنه يتحصن بها. روي أنّ جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا سلاحهم على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج، فقال: ما هذا يا جبريل قال: من متابعة قريش فجعل رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن سرجه فقال يا رسول الله: إن الملائكة لم تضع السلاح إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم فإن الله داقهم دق البيض على الصفا، وإنهم لكم طعمة فأذن في الناس أن من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة لقول رسول الله ﷺ: فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال لهم رسول الله ﷺ: تنزلون على حكمي فأبوا فقال: على حكم سعد بن معاذ فرضوا به، فقال سعد: حكمت فيهم أن تقتل مقاتلهم وتسبي ذراريهم ونساؤهم فكبر النبي ﷺ وقال: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، ثم استنزلهم وخندق في سوق المدينة خندقًا وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة وقيل: كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير[2]، وقرئ: ﴿الرعب﴾ بسكون العين وضمها وتأسرون بضم السين.

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾.

وروي أن النبي ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقالت: الأنصار في ذلك فقال: إنكم في منازلكم وقال عمر رضي الله عنه: أما تخمس كما خمست يوم بدر قال: لا إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس قال: رضينا بما صنع الله ورسوله[3] ﴿وأرضًا لم تطؤها﴾ عن الحسن رضي الله عنه فارس والروم، وعن قتادة رضي الله عنه كنا نحدث أنها مكة، وعن مقاتل رضي الله عنه هي خيبر، وعن عكرمة كل أرض تفتح إلى يوم القيامة ومن بدع التفاسير أنه أراد نساءهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾.

أردن شيئًا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايرن فغم ذلك رسول الله ﷺ فنزلت فبدأ بعائشة رضي الله عنها وكانت أحبهنّ إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤي الفرح في وجه رسول الله ﷺ، ثم اختارت جميعهنّ اختيارها فشكر لهنّ الله ذلك فأنزل لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهنّ من أزواج[4] روي أنه قال لعائشة: إني ذاكر لك أمرًا ولا عليك أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك، ثم قرأ عليها القرآن فقالت أفي هذا أستأمر أبويّ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة،[5] وروي أنها قالت: لا تخبر أزواجك أني اخترتك، فقال: إنما بعثني الله مبلغًا ولم يبعثني متعنتًا[6].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: ذكر طلحة بن عبيد الله، (الحديث: 3724).
وأخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم، (الحديث: 6979).
أخرجه الترمذي في كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الدرع، (الحديث: 1692)، وأبو يعلى (الحديث: 670)، والحاكم في المستدرك، 3/ 373.

(2) رواه ابن هشام في سيرته، 2/ 211.

(3) ذكره الواحدي في المغازي، الزيلعي 3/ 104.

(4) رواه الطبري في تفسيره، الزيلعي 3/ 105.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحزاب، باب: ﴿قل لأزواجك إن كنتن تردن...﴾ (الحديث: 4785) و(حديث: 4786).
وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية، الحديث: (22 ـ 1475).

(6) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: في بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية، الحديث: (29 ـ 1478).

فإن قُلْتَ: ما حكم التخيير في الطلاق؟ قُلْتُ: إذا قال لها: اختاري فقالت: اخترت نفسي، أو قال: اختاري نفسك فقالت: اخترت لا بد من ذكر النفس في قول المخير، أو المخيرة وقعت طلقة بائنة عند أبي حنيفة، وأصحابه واعتبروا أن يكون ذلك في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض واعتبر الشافعي اختيارها على الفور وهي عنده طلقة رجعية وهو مذهب عمر وابن مسعود، وعن الحسن وقتادة والزهري رضي الله عنهم أمرها بيدها في ذلك المجلس وفي غيره وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء بإجماع فقهاء الأمصار وعن عائشة رضي الله عنها خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ولم يعد طلاقًا[1] وروى أفكان طلاقًا، وعن عليّ رضي الله عنه إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة، وروى عنه أيضًا أنها إن اختارت زوجها فليس بشيء، أصل تعال أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطئ ثم كثر حتى استوت في استعماله الأمكنة، ومعنى تعالين أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد أمرين ولم يرد نهوضهنّ إليه بأنفسهنّ كما تقول: أقبل يخاصمني، وذهب يكلمني وقام يهددني ﴿أمتعكنّ﴾ أعطكنّ متعة الطلاق.

فإن قُلْتَ: المتعة في الطلاق واجبة أم لا؟ قُلْتُ: المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها في العقد متعتها واجبة عند أبي حنيفة وأصحابه وأما سائر المطلقات، فمتعتهن مستحبة، وعن الزهري رضي الله عنه متعتان إحداهما يقضي بها السلطان من طلق قبل أن يفرض ويدخل بها والثانية حق على المتقين من طلق بعد ما يفرض، ويدخل وخاصمت امرأة إلى شريح في المتعة فقال: متِّعها إن كنت من المتقين ولم يجبره، وعن سعيد بن جبير رضي عنه المتعة حق مفروض، وعن الحسن رضي الله عنه لكل مطلقة متعة إلا المختلعة والملاعنة والمتعة درع وخمار وملحفة على حسب السعة والإقتار إلا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فيجب لها الأقل منهما، ولا تنقص من خمسة دراهم لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها.

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة من قرأ أمتعكنّ وأسرحكنّ بالرفع؟ قُلْتُ: وجهه الاستئناف ﴿سراحًا جميلاً﴾ من غير ضرار طلاقًا بالسنة ﴿منكنّ﴾ للبيان لا للتبعيض.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

الفاحشة السيئة البليغة في القبح وهي الكبيرة، والمبنية الظاهرة فحشها والمراد كل ما اقترفن من الكبائر وقيل: هي عصيانهنّ رسول الله ﷺ ونشوزهنّ وطلبهن منه ما يشقّ عليه أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لأجله وقيل: الزنا والله عاصم رسوله من ذلك كما مر في حديث الإفك، وإنما ضوعف عذابهنّ لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهنّ، وأقبح لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وزيادة النعمة على العاصي من المعصي، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ ولا على أحد منهنّ مثل ما لله عليهن من النعمة، والجزاء يتبع الفعل وكون الجزاء عقابًا يتبع كون الفعل قبيحًا فمتى ازداد قبحًا ازداد عقابه شدّة، ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم أشدّ منه للعاصي الجاهل لأن المعصية من العالم أقبح، ولذلك فضل حدّ الأحرار على حد العبيد حتى أن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون الرجم على الكافر ﴿وكان ذلك على الله يسيرًا﴾ إيذان بأن كونهن نساء النبي ﷺ ليس بمغن عنهن شيئًا، وكيف يغني عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب فكان داعيًا إلى تشديد الأمر عليهنّ غير صارف عنه.

قرئ: ﴿يات﴾ بالتاء والياء، مبنية بفتح الياء وكسرها من بين بمعنى تبين يضاعف ويضعف على البناء للمفعول ويضاعف ونضعف بالياء والنون.

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾.

وقرئ تقنت وتعمل بالتاء والياء ونؤتها بالياء والنون والقنوت الطاعة وإنما ضوعف أجرهنّ رضا رسول الله ﷺ بحسن الخلق ولطلبهنّ طيب المعاشرة والقناعة وتوفرهنّ على عبادة الله والتقوى.

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾.

أحد في الأصل بمعنى وحد وهو الواحد ثم وضع في النفي العام مستويًا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه، ومعنى قوله:

﴿لستن كأحد من النساء﴾ لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء أي إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة ومثله قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾[2] يريد بين جماعة واحدة منهم تسوية بين جميعهم في أنهم على الحق المبين[3] ﴿إن اتقيتن﴾ إن أردتن التقوى وإن كنتن متقيات ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ فلا تلنّ بقولكن خاضعاً أي لينًا خنثًا

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: من خير أزواجه، (الحديث: 5262)، ومسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته...، الحديث: (24 ــ 1477).

(2) سورة النساء، الآية: 152.

(3) قال أحمد: إنما بعثه على جعل التفضيل بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام، وبين جماعات النساء لا آحادهن أن يطابق بين المتفاضلين؛ لأنّ الأوّل جماعة، وقد كان مستغنياً عن ذلك بحمل الكلام على واحدة، ويكون المعنى أبلغ، والتقدير ليست واحدة=

مثل كلام المريبات والمومسات ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي ريبة وفخور، وقرئ بالجزم عطفًا على محل فعل النهي على أنهنّ نهين عن الخضوع بالقول، ونهى المريض القلب عن الطمع كأنه قيل: لا تخضعن فلا يطمع، وعن ابن محيصن أنه قرأ بكسر الميم وسبيله ضم الياء مع كسرها وإسناد الفعل إلى ضمير القول أي: فيطمع القول المريب ﴿قولاً معروفًا﴾ بعيدًا من طمع المريب بجد وخشونة من غير تخنيث أو قولاً حسنًا مع كونه خشنًا.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وقرن﴾ بكسر القاف من وقر يقرّ وقارًا أو من قرّ يقر حذفت الأولى من رائي أقررن ونقلت كسرتها إلى القاف كما تقول ظلن، وقرن بفتحها وأصله أقررن فحذفت الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها كقولك ظلن، وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان وجهًا آخر قال: قاربقا إذا اجتمع ومنه القارة لاجتماعها لا ترى إلى قول عضل، والديش اجتمعوا فكونوا قارة و ﴿الجاهلية الأولى﴾ هي القديمة التي يقال لها الجاهلية الجهلاء، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل: ما بين آدم ونوح وقيل: بين إدريس ونوح وقيل: زمن داود وسليمان والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق، والفجور في الإسلام فكأن المعنى ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر ويعضده ما روي أنّ رسول الله ﷺ قال لأبي الدرداء رضي الله عنه: إن فيك جاهلية قال: جاهلية كفر أم إسلام فقال: بل جاهلية كفر[1] أمرهن أمرًا خاصًا بالصلاة والزكاة، ثم جاء به عامًا في جميع الطاعات لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات من اعتنى بهما حق اعتنائه جرتاه إلى ما وراءهما ثم بيّن أنه إنما نهاهن، وأمرهن ووعظهن لئلا يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المآثم وليتصونوا عنها بالتقوى، واستعار للذنوب الرجس وللتقوى الطهر لأنّ عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها، ويتدنس كما يتلوث بدنه بالأرجاس وأما المحسنات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر، وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولى الباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به. و﴿أهل البيت﴾ نصب على النداء، أو على المدح وفي هذا دليل بين على أنّ نساء النبي ﷺ من أهل بيته.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

ثم ذكرهن أنّ بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهن أن لا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين هو آيات بينات تدل على صدق النبوّة لأنه معجزة بنظمه، وهو حكمة وعلوم وشرائع ﴿إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾ خير علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم، فأنزله عليكم أو علم من يصلح لنبوّته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته، أو حيث جعل الكلام الواحد جامعًا بين الغرضين يروى أنّ أزواج النبي ﷺ قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن بخير فما فينا خير أنذكر به إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة[2]، وقيل: السائلة أم سلمة[3] وروي أنه لما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل قال: نساء المسلمين، فما نزل فينا شيء فنزلت[4].

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

والمسلم الداخل في السلم بعد الحرب المنقاد الذي لا يعاند أو المفوّض أمره إلى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله والمؤمن المصدق بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به، والقانت القائم بالطاعة الدائم عليها والصادق الذي يصدق في نيته وقوله وعمله. والصابر الذي يصبر على الطاعات وعن المعاصي، والخاشع المتواضع لله بقلبه وجوارحه، وقيل: الذي إذا صلى لم يعرف من عن يمينه وشماله، والمتصدّق الذي يزكي ماله ولا يخل بالنوافل، وقيل: من تصدّق في أسبوع بدرهم فهو من المتصدّقين ومَن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين، والذاكر الله كثيرًا من لا يكاد يخلو من ذكر الله بقلبه أو لسانه أو بهما وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر، وقال رسول الله ﷺ: من استيقظ من نومه وأيقظ امرأته

= منكن كأحد من النساء، أي: كواحدة من النساء، ويلزم من تفضيل كل واحدة منهن على كل واحدة من آحاد النساء تفضيل جماعتهن على كل جماعة، ولا يلزم ذلك في العكس فتأمله والله أعلم، وجاء التفضيل ههنا كمجيئه في قوله تعالى: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾، وقوله: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ في تقديم الأفضل عند التفضيل، وقد مضت في ذلك نكتة حسنة والله الموفق.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: المعاصي في أمر الجاهلية (الحديث رقم: 30).
(2) رواه الطبراني في معجمه.
(3) أخرجه الترمذي عن أم عمارة في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب، (الحديث رقم: 3211).
(4) أخرجه الطبري في تفسيره، وذكره ابن سعد.

فصليا جميعًا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات[1]، والمعنى والحافظاتها والذاكراته فحذف لأنّ الظاهر يدل عليه.

فإن قُلْتَ: أي: فرّق بين العطفين أعني عطف الإناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين. قُلْتُ: العطف الأوّل نحو قوله تعالى: ﴿ثيبات وأبكارًا﴾ في أنهما جنسان مختلفان إذا اشتركا في حكم لم يكن بد من توسيط العاطف بينهما، وأما العطف الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع فكأن معناه أنّ الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أعدّ الله لهم﴾ خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله فنزلت فقال: رضينا يا رسول الله، فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهمًا وخمارًا وملحفة ودرعًا وإزارًا وخمسين مدًا من طعام، وثلاثين صاعًا من تمر،[2] وقيل: هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي أوّل من هاجر من النساء وهبت نفسها للنبي ﷺ، فقال: قد قبلت وزوّجها زيدًا فسخطت هي وأخوها وقالا إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوّجنا عبده[3].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

والمعنى وما صح لرجل ولا امرأة من المؤمنين ﴿إذا قضى الله ورسوله﴾ أي: رسول الله أو لأنّ قضاء رسول الله هو قضاء الله ﴿أمرًا﴾ من الأمور، أن يختاروا من أمرهم ما شاؤا بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعًا لرأيه واختيارهم تلوًا لاختياره.

فإن قُلْتَ: كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول: ما جاءني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا قُلْتُ: نعم ولكنهما وقعا تحت النفي فعما كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ، وقرئ يكون بالتاء والياء و ﴿الخيرة﴾ ما يتخير.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿للذي أنعم الله عليه﴾ بالإسلام الذي هو أجل النعم وبتوفيقك لعتقه ومحبته واختصاصه ﴿وأنعمت عليه﴾ بما وفقك الله فيه فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ وهو زيد بن حارثة ﴿أمسك عليك زوجك﴾ يعني: زينب بنت جحش رضي الله عنها وذلك أن رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه فوقعت في نفسه فقال: سبحان الله مقلب القلوب وذلك أنّ نفسه كانت تجفوا عنها قبل ذلك لا تريدها ولو أرادتها لاختطبها، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله ﷺ، فقال لرسول الله ﷺ: إني أريد أن أفارق صاحبتي فقال مالك أرابك منها شيء قال: لا والله ما رأيت منها إلا خيرًا، ولكنها تتعظم عليّ لشرفها وتؤذيني فقال له: ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ ثم طلقها بعد فلما اعتدت قال رسول الله ﷺ: ما أجد أحدًا أوثق في نفسي منك أخطب على زينب قال زيد: فانطلقت فإذا هي تخمر عجينتها فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها حين علمت أنّ رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري وقلت يا زينب ابشري إنّ رسول الله ﷺ يخطبك ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أوامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن زوّجناكها، فتزوّجها رسول الله ﷺ ودخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار[4].

فإن قُلْتَ: ما أراد بقوله: ﴿واتق الله﴾؟ قُلْتُ: أراد واتق الله فلا تطلقها وقصد نهي تنزيه لا تحريم لأنّ الأولى أن لا يطلق، وقيل: أراد واتق الله فلا تذمّها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج.

فإن قُلْتَ: ما الذي أخفى في نفسه! قُلْتُ: تعلق قلبه بها، وقيل: مودّة مفارقة زيد إياها، وقيل: بأن زيدًا سيطلقها وسينكحها لأنّ الله قد أعلمه بذلك، وعن عائشة رضي الله عنها لو كتم رسول الله ﷺ شيئًا مما أوحى إليه لكتم هذه الآية[5].

فإن قُلْتَ: فماذا أراد الله منه أن يقوله حين قال له زيد: أريد مفارقتها وكان من الهجنة أن يقول له: افعل فإني أريد نكاحها. قُلْتُ: كان الذي أراد منه عزّ وجلّ أن يصمت عند ذلك أو يقول له: أنت أعلم بشأنك حتى لا يخالف سرّه في ذلك علانيته لأنّ الله يريد من الأنبياء تساوي الظاهر والباطن والتصلب في الأمور والتجاوب في الأحوال، والاستمرار على طريقة مستتبة كما جاء في حديث إرادة رسول الله ﷺ قتل

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الحث على قيام الليل، (الحديث رقم: 1451)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل، (الحديث رقم: 1335).

(2) أخرجه الدارقطني في سننه 3/301، كتاب: النكاح، (الحديث رقم: 301).

(3) ذكره الطبري في تفسيره.

(4) أخرجه البخاري عن أنس ما أوْلَم النبي ﷺ على شيء من نسائه أكثر وأفضل مما أوْلَم على زينب في كتاب: النكاح، باب: الوليمة ولو بشاة، (الحديث رقم: 5168).

(5) يأتي في حَم عسق، ومسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، (الحديث رقم: 89 ـ 1428).

عبد الله بن أبي سرح واعتراض عثمان بشفاعته له أنّ عمر قال له: لقد كان عيني إلى عينك هل تشير إليّ فأقتله فقال: إنّ الأنبياء لا تومض ظاهرهم وباطنهم واحد[1].

فإن قُلْتَ: كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح ولا يستهجن النبيّ ﷺ التصريح بشيء إلا والشيء في نفسه مستهجن وقالة الناس لا تتعلق إلا بما يستقبح في العقول والعادات وما له لم يعاتبه في نفس الأمر ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها ولم يعصم نبيه ﷺ عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة؟ قُلْتُ: كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحيي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله وربما كان الدخول في ذلك المباح سلمًا إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين ويجل ثوابها ولو لم يتحفظ منه لأطلق كثير من الناس فيه ألسنتهم إلا من أوتي فضلاً وعلمًا ودينًا ونظرًا في حقائق الأمور ولبوبها دون قشورها ألا ترى أنهم كانوا إذا طعموا في بيوت رسول الله ﷺ بقوا مرتكزين في مجالسهم لا يريمون مستأنسين بالحديث، وكان رسول الله ﷺ يؤذيه قعودهم ويضيق صدره حديثهم والحياء يصدّه أن يأمرهم بالانتشار حتى نزلت ﴿إنّ ذلكم كان يؤذي النبيّ فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق﴾ ولو أبرز رسول الله ﷺ مكنون ضميره، وأمرهم أن ينتشروا لشق عليهم ولكان بعض المقالة فهذا من ذاك القبيل لأنّ طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته من امرأة، أو غيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع لأنه ليس بفعل الإنسان، ولا وجوده باختياره وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضًا وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استنزال زيد عنها ولا طلب إليه، وهو أقرب منه من زر قميصه أن يواسيه بمفارقتها مع قوّة العلم بأنّ نفس زيد لم تكن من التعلق بها في شيء بل كانت تجفوا عنها، ونفس رسول الله ﷺ متعلقة بها ولم يكن مستنكرًا عندهم أن ينزل الرجل عن امرأته لصديقه ولا مستهجنًا إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر فإنّ المهاجرين حين دخلوا المدينة استهم الأنصار بكل شيء حتى إنّ الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما وأنكحها المهاجر وإذا كان الأمر مباحًا من جميع جهاته ولم يكن فيه وجه من وجوه القبح، ولا مفسدة ولا مضرّة بزيد ولا بأحد بل كان مستجراً مصالح ناهيك بواحدة منها أنّ بنت عمة رسول الله ﷺ أمنت الأيمة والضيعة ونالت الشرف وعادت أمًا من أمّهات المسلمين إلى ما ذكر الله عزّ وجلّ من المصلحة العامّة في قوله لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرًا فبالحرى أن يعاتب الله رسوله حين كتمه وبالغ في كتمه بقوله أمسك عليك زوجك واتق الله وأن لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر والثبات في مواطن الحق حتى يقتدي به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مرًّا.

فإن قُلْتَ: الواو في وتخفي في نفسك وتخشى الناس والله أحق ما هي؟ قُلْتُ: واو الحال أي: تقول لزيد أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة أن لا يمسكها وتخفى خاشيًا قالة الناس وتخشى الناس حقيقًا في ذلك بأن تخشى الله، أو واو العطف كأنه قيل: وإذ تجمع بين قولك: أمسك وإخفاء خلافه وخشية الناس والله أحق أن تخشاه حتى لا تفعل مثل ذلك. إذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة قيل: قضى منه وطره، والمعنى فلما لم يبق لزيد فيها حاجة وتقاصرت عنها همته وطابت عنها نفسه وطلقها وانقضت عدّتها ﴿زوّجناكها﴾، وقراءة أهل البيت زوّجتكها وقيل لجعفر بن محمد رضي الله عنهما: أليس تقرأ عليّ غير ذلك فقال: لا والذي لا إلّه إلا هو ما قرأتها على أبي إلا كذلك ولا قرأها الحسن بن علي على أبيه إلا كذلك ولا قرأها علي بن أبي طالب على النبيّ ﷺ إلا كذلك ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ جملة اعتراضية يعني: وكان أمر الله الذي يريد أن يكوّنه مفعولاً مكوّنًا لا محالة وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله ﷺ زينب ومن نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء أزواج المتبنين مجرى أزواج البنين في تحريمهنّ عليهم بعد انقطاع علائق الزواج بينهم وبينهنّ ويجوز أن يراد بأمر الله المكوّن لأنه مفعول بكن وهو أمر الله.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨﴾.

﴿فرض الله له﴾ قسم له وأوجب من قولهم فرض لفلان في الديوان كذا ومنه فروض العسكر لرزقاتهم ﴿سنة الله﴾ اسم موضوع موضع المصدر كقولهم تربًا وجندلاً مؤكد لقوله تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج﴾ كأنه قيل: سنّ الله ذلك سنة في الأنبياء الماضين وهو أن لا يحرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره وقد كانت تحتهم المهائر والسراري وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة وسبعمائة ﴿في الذين خلوا﴾ في الأنبياء الذين مضوا.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾.

﴿الذين يبلغون﴾ يحتمل وجوه الإعراب الجرّ على الوصف للأنبياء والرفع والنصب على المدح على هم الذين يبلغون أو على أعني الذين يبلغون، وقرىء رسالة الله. قدرًا

(1) رواه عبد الرزاق في مصنفه 5/374، (الحديث رقم: 9739)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الحدود، باب: الحكم فيمن ارتد، (الحديث رقم: 4359).

مقدورًا قضاءً مقضيًا وحكمًا مبتوتًا، ووصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله تعريض بعد التصريح في قوله تعالى: ﴿وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه﴾[1] ﴿حسيبًا﴾ كافيًا للمخاوف أو محاسبًا على الصغيرة والكبيرة، فيجب أن يكون حقّ الخشية من مثله.

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾.

﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ أي: لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ﴿ولكن﴾ كان ﴿رسول الله﴾ وكل رسول أبو أمّته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة فكان حكمه حكمكم والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير ﴿و﴾ كان ﴿خاتم النبيين﴾ يعني: أنه لو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبيًا ولم يكن هو خاتم الأنبياء كما يروى أنه قال: في إبراهيم حين توفي لو عاش لكان نبيًا[2].

فإن قُلْتَ: أما كان أبًا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم! قُلْتُ: قد أخرجوا من حكم النفي بقوله: من رجالكم من وجهين أحدهما أنّ هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال والثاني أنه قد أضاف الرجال إليهم وهؤلاء رجاله لا رجالهم.

فإن قُلْتَ: أما كان أبًا للحسن والحسين! قُلْتُ: بلى ولكنهما لم يكونا رجلين حينئذ وهما أيضًا من رجاله لا من رجالهم وشيء آخر، وهو أنه إنما قصد ولده خاصة لا ولد ولده لقوله تعالى: ﴿وخاتم النبيين﴾ الا ترى أنّ الحسن والحسين قد عاشا إلى أن نيف أحدهما على الأربعين والآخر على الخمسين، قرئ ولكن رسول الله ﷺ بالنصب عطفًا على أبا أحد وبالرفع على، ولكن هو رسول الله ولكن بالتشديد على حذف الخبر تقديره ولكن رسول الله من عرفتموه أي لم يعش له ولد ذكر وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع وبكسرها بمعنى الطابع وفاعل الختم، وتقويه قراءة ابن مسعود ولكن نبيًا ختم النبيين.

فإن قُلْتَ: كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان قلت معنى كونه آخر الأنبياء أنه لا ينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد مصليًا إلى قبلته كأنه بعض أمّته.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾.

﴿اذكروا الله﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله وأكثروا ذلك.

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾.

﴿بكرة وأصيلاً﴾ أي: في كافة الأوقات قال رسول الله ﷺ: ذكر الله على فم كل مسلم، وروي في قلب كل مسلم[3] وعن قتادة قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، وعن مجاهد هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب والغفلان أعني اذكروا وسبحوا موجهان إلى البكرة، والأصيل كقولك صم وصلّ يوم الجمعة والتسبيح من جملة الذكر وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ليبين فضله على سائر الأذكار لأنّ معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال وتبرئته من القبائح ومثال فضله على غيره من الأذكار فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصي والطهر من أرجاس المآثم على سائر أوصافه من كثرة الصلاة والصيام والتوفر على الطاعات كلها والاشتمال على العلوم والاشتهار بالفضائل، ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره تكثير الطاعات والإقبال على العبادات، فإنّ كل طاعة وكل خير من جملة الذكر ثم خصّ من ذلك التسبيح بكرة وأصيلاً، وهي الصلاة في جميع أوقاتها الفضل الصلاة على غيرها أو صلاة الفجر والعشاءين لأنّ أداءها أشقّ ومراعاتها أشدّ. لما كان من شأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنوّاً عليه وترؤفًا كعائد المريض في انعطافه عليه والمرأة في حنوها على ولدها. ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والترؤف ومنه قولهم صلى الله عليك أي: ترحم عليك وترأف.

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ إن فسرته بيترحم عليكم ويترأف فما تصنع بقوله ﴿وملائكته﴾ وما معنى صلاتهم؟ قُلْتُ: هي قولهم اللهم صل على المؤمنين جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة ونظيره قوله حياك الله أي أحياك، وأبقاك وحييتك أي: دعوت لك بأن يحييك الله لأنك لاتكالك على إجابة دعوتك[4] كأنك تبقيه على الحقيقة وكذلك عمرك الله وعمرتك،

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(2) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ﷺ وذكر وفاته، (الحديث رقم: 1511)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من سمي بأسماء الأنبياء (الحديث رقم: 6194).

(3) قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ 115/3، ورواه البيهقي والدارقطني = نحوه في سننه 295/4، (الحديث رقم: 94).

(4) قال أحمد: كثيراً ما يفر الزمخشري من اعتقاد إرادة الحقيقة، والمجاز معاً بلفظ واحد، وقد التزمه مهنا، ولكن جعل الصلاة من الله حقيقة، ومن الملائكة مجازاً؛ لأنه حملها على الرحمة، وأما غيره فحملها على الدعاء وجعلها من الملائكة حقيقة، ومن الله مجازاً، والله أعلم.

وسقاك الله وسقيتك وعليه قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه﴾ أي: ادعوا الله بأن يصلي عليه، والمعنى هو الذي يترحم عليكم ويتراف حيث يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة ﴿ليخرجكم﴾ من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾ دليل على أنّ المراد بالصلاة الرحمة، ويروى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إنّ الله وملائكته يصلون على النبيّ﴾[1] قال أبو بكر رضي الله عنه: ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فأنزلت.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾.

﴿تحيتهم﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أي: يحيون يوم لقائه بسلام، فيجوز أن يعظمهم الله بسلامه عليهم كما يفعل بهم سائر أنواع التعظيم وأن يكون مثلاً كاللقاء على ما فسرنا وقيل: هو سلام ملك الموت والملائكة معه عليهم وبشارتهم بالجنة وقيل: سلام الملائكة عند الخروج من القبور وقيل: عند دخول الجنة كما قال: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾، والأجر الكريم الجنة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾.

﴿شاهدًا﴾ على من بعثت إليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم أي: مقبولاً قولك عند الله لهم وعليهم كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم.

فإن قُلْتَ: وكيف كان شاهدًا وقت الإرسال، وإنما يكون شاهدًا عند تحمل الشهادة أو عند أدائها قُلْتُ: هي حال مقدرة كمسألة الكتاب مررت برجل معه صقر صائدًا به غدًا أي مقدرًا به الصيد غدًا.

فإن قُلْتَ: قد فهم من قوله إنا أرسلناك داعيًا أنه مأذون له في الدعاء، فما فائدة قوله: ﴿بإذنه﴾ قُلْتُ: لم يرد به حقيقة الإذن، وإنما جعل الإذن مستعارًا للتسهيل والتيسير لأن الدخول في حق المالك متعذر فإذا صودف الإذن تسهل وتيسر فلما كان الإذن تسهيلاً لما تعذر من ذلك وضع موضعه وذلك إن دعاء أهل الشرك، والجاهلية إلى التوحيد والشرائع أمر في غاية الصعوبة والتعذر فقيل: بإذنه للإيذان بأن الأمر صعب لا يتأتى ولا يستطاع إلاّ إذا سهله الله ويسره ومنه قولهم: في الشحيح أنه غير مأذون له في الإنفاق أي غير مسهل له الإنفاق لكونه شاقًا عليه داخلاً في حكم التعذر.

جلى به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به، أو أمد الله بنور نبوّته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار وصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل: سليطه ودقت فتيلته، وفي كلام بعضهم ثلاثة تضنى رسول بطيء وسراج لا يضيء ومائدة ينتظر لها من يجيء وسئل بعضهم عن الموحشين، فقال ظلام ساتر وسراج فاتر وقيل: وذا سراج منير أو وتاليًا سراجًا منيرًا ويجوز على هذا التفسير أن يعطف على كاف أرسلناك.

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾.

الفضل ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب، ويجوز أن يريد بالفضل الثواب من فوقهم للعطايا فضول وفواضل وأن يريد أنّ لهم فضلاً كبيرًا على سائر الأمم وذلك الفضل من جهة الله وأنه آتاهم ما فضلوهم به.

وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾.

﴿ولا تطع الكافرين﴾ معناه: الدوام والثبات على ما كان عليه، أو التهييج ﴿أذاهم﴾ يحتمل إضافته إلى الفاعل والمفعول يعني: ودع أن تؤذيهم بضرر، أو قتل وخذ بظاهرهم وحسابهم على الله في باطنهم أو ودع ما يؤذونك به ولا تجازهم عليه حتى تؤمر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي منسوخة بآية السيف ﴿وتوكل على الله﴾ فإنه يكفيكهم، وكفى به مفوضًا إليه ولقائل أن يقول: وصفه الله بخمسة أوصاف وقابل كلا منها بخطاب مناسب له قابل الشاهد بقوله: ﴿وبشّر المؤمنين﴾[2] لأنه يكون شاهدًا على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم وهو الفضل الكبير، والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين وهو مناسب للبشارة والنذير بدع أذاهم لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر، والأذى لا بدّ له من عقاب عاجل أو آجل كانوا منذرين به في المستقبل والداعي إلى الله بتيسيره بقوله: ﴿وتوكل على الله﴾ لأنّ من توكل على الله يسر عليه كل عسير والسراج المنير بالاكتفاء به وكيلاً لأنّ من أناره الله برهانًا على جميع خلقه كان جديرًا بأن يكتفي به عن جميع خلقه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾.

النكاح الوطء وتسمية العقد نكاحًا لملابسته له من حيث أنه طريق إليه، ونظيره تسميتهم الخمر إثمًا لأنها سبب في اقتراف الإثم ونحوه في علم البيان قول الراجز: أسنمة الآبال في سحابه، سمى الماء بأسنمة الآبال لأنه سبب سمن المال وارتفاع أسنمته ولم يرد لفظ النكاح في

(1) سورة الأحزاب، الآية: 56.

(2) سورة الصف، الآية: 13.

كتاب الله إلا في معنى العقد لأنه في معنى: الوطء من باب التصريح به ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشي والإتيان.

فإن قُلْتَ:لم خصّ المؤمنات والحكم الذي نطقت به الآية تستوي فيه المؤمنات والكتابيات قُلْتُ:في اختصاصهنّ تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به أن يتخير لنطفته وأن لا ينكح إلاّ مؤمنة عفيفة ويتنزه عن مزاوجة الفواسق، فما بال الكوافر ويستنكف أن يدخل تحت لحاف واحد عدوة الله ووليه فالتي في سورة المائدة تعليم ما هو جائز غير محرّم من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمن من نكاح المؤمنات.

فإن قُلْتَ:ما فائدة ثم في قوله ﴿ثم طلقتموهن﴾ قُلْتُ: فائدته نفي التوهم عمن عسى يتوهم تفاوت الحكم بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدّة في حبالة الزواج ثم يطلقها.

فإن قُلْتَ:إذا خلا بها خلوة يمكنه معها المساس هل يقوم ذلك مقام المساس قُلْتُ:نعم، عند أبي حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس، وقوله: ﴿فما لكم عليهنّ من عدّة﴾ دليل على أن العدّة حق واجب على النساء للرجال ﴿تعتدونها﴾ تستوفون عددها من قولك عددت الدراهم فاعتدها كقولك كلته فاكتلتا له وزنته فاتزنه وقرئ تعتدونها مخففًا أي: تعتدون فيها كقوله ويوم شهدناه والمراد بالاعتداء ما في قوله تعالى: ﴿ولا تمسكوهنّ ضرارًا لتعتدوا﴾(1).

فإن قُلْتَ:ما هذا التمتيع أواجب أم مندوب إليه قُلْتُ: إن كانت غير مفروض لها كانت المتعة واجبة ولا تجب المتعة عند أبي حنيفة إلا لها وحدها دون سائر المطلقات، وإن كانت مفروضًا لها فالمتعة مختلف فيها فبعض على الندب والاستحباب ومنهم أبو حنيفة وبعض على الوجوب ﴿سراحًا جميلاً﴾ من غير ضرار ولا منع واجب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

﴿أجورهنّ﴾ مهورهنّ لأنّ المهر أجر على البضع وإيتاؤها إما إعطاؤها عاجلاً وإما فرضها وتسميتها في العقد.

فإن قُلْتَ:لم قال اللاتي آتيت أجورهنّ ومما أفاء الله عليك واللاتي هاجرن معك وما فائدة هذه التخصيصات؟ قُلْتُ:قد اختار الله لرسوله الأفضل الأولى واستحبه بالأطيب الأزكى كما اختصه بغيرها من الخصائص وآثره بما سواها من الأثر، وذلك أنّ تسمية المهر في العقد أولى وأفضل من ترك التسمية، وإن وقع العقد جائزًا وله أن يماسها وعليه مهر المثل إن دخل بها، والمتعة إن لم يدخل بها وسوق المهر إليها عاجلاً أفضل من أن يسميه ويؤجله، وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم وما لا يعرف بينهم غيره، وكذلك الجارية إذا كانت سبية مالكها وخطبه سيفه ورمحه ومما غنمه الله من دار الحرب أحل وأطيب مما يشتري من شقّ الجلب والسبي على ضربين سبي طيبة وسبي خبثة فسبي الطيبة ما سبي من أهل الحرب، وأما من كان له عهد فالمسبي منهم سبي خبثة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مما أفاء الله عليك﴾ لأن فيء الله لا يطلق إلا على الطيب دون الخبيث كما أنّ رزق الله يجب إطلاقه على الحلال دون الحرام، وكذلك اللاتي هاجرن مع رسول الله ﷺ من قرائبه غير المحارم أفضل من غير المهاجرات معه، وعن أم هانئ بنت أبي طالب خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني(2)، ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء، وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولا تطلب مهرًا من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك، ولذلك نكرها واختلف في اتفاق ذلك، فعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن عند رسول الله ﷺ أحد منهنّ بالهبة وقيل: الموهوبات أربع ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة أمّ المساكين الأنصارية، وأمّ شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم رضي الله عنهنّ قرئ ﴿إن وهبت﴾ على الشرط وقرأ الحسن رضي الله عنه أن بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام، ويجوز أن يكون مصدرًا محذوفًا معه الزمان كقولك: اجلس ما دام زيد جالسًا بمعنى: وقت دوامه جالسًا ووقت هبتها نفسها وقرأ ابن مسعود بغير أن.

فإن قُلْتَ: ما معنى الشرط الثاني مع الأوّل! قُلْتُ: هو تقييد له شرط في الإحلال هبتها نفسها وفي الهبة إرادة استنكاح رسول الله ﷺ كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها لأنّ إرادته هي قبول الهبة وما به تتم.

فإن قُلْتَ: لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿نفسها للنبي إن أراد النبي﴾ ثم رجع إلى الخطاب قُلْتُ: للإيذان بأنه مما خص به وأوثر ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوّة وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته، واستنكاحها طلب نكاحها والرغبة فيه وقد استشهد به أبو حنيفة على

(1) سورة البقرة، الآية: 231.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة = الأحزاب، (الحديث رقم: 3214)، والحاكم في المستدرك 2/ 185.

جواز عقد النكاح بلفظ الهبة لأنّ رسول الله ﷺ وأمّته سواء في الأحكام إلا فيما خصه الدليل، وقال الشافعي: لا يصح وقد خص رسول الله ﷺ بمعنى الهبة ولفظها جميعًا لأنّ اللفظ تابع للمعنى والمدعى للاشتراك في اللفظ يحتاج إلى دليل وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الأجارة جائز لقوله تعالى: ﴿اللاتي آتيت أجورهنّ﴾[1] وقال ابو بكر الرازي: لا يصح لأنّ الإجارة عقد مؤقت وعقد النكاح مؤبد فهما متنافيان ﴿خالصة﴾ مصدر مؤكد كوعد الله، وصبغة الله أي خلص لك إحلال ما أحللنا لك خالصة بمعنى: خلوصًا والفاعل والفاعلة في المصادر غير عزيزين كالخارج والقاعد والعافية والكاذبة والدليل على أنها وردت في أثر الإحلالات الأربع مخصوصة برسول الله ﷺ على سبيل التوكيد لها، وقوله: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ بعد قوله من دون المؤمنين وهي جملة اعتراضية وقوله: ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ متصل بخالصة لك من دون المؤمنين ومعنى هذه الجملة الاعتراضية أنّ الله قد علم ما يجب فرضه على المؤمنين في الأزواج والإماء، وعلى أي حدّ وصفة يجب أن يفرض عليهم ففرضه وعلم المصلحة في اختصاص رسول الله ﷺ بما اختصه به ففعل، ومعنى: لكيلا يكون عليك حرج لئلا يكون عليك ضيق في دينك حيث اختصصناك بالتنزيه، واختيار ما هو أولى وأفضل وفي دنياك حيث أحللنا لك أجناس المنكوحات وزدنا لك الواهبة نفسها وقرىء خالصة بالرفع أي ذاك خلوص لك، وخصوص من دون المؤمنين ومن جعل خالصة نعتًا للمرأة فعلى مذهبه هذه المرأة خالصة لك من دونهم ﴿وكان الله غفورًا﴾ للواقع في الحرج إذا تاب ﴿رحيمًا﴾ بالتوسعة على عباد.

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

روي أن أمهات المؤمنين حين تغايرن وابتغين زيادة النفقة وغظن رسول الله ﷺ هجرهنّ شهرًا ونزل التخيير، فأشفقن أنّ يطلقهنّ فقلن يا رسول الله افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت[2] وروي أنّ عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أرى ربك يسارع في هواك[3] ﴿ترجي﴾ بهمز وغير همز تؤخر ﴿وتؤوي﴾ تضم يعني تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء أو تطلق من تشاء وتمسك من تشاء، أو لا تقسم لأيتهن شئت وتقسم لمن شئت أو تترك تزوّج من شئت من نساء أمّتك وتتزوّج من شئت وعن الحسن رضي الله عنه كان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم وإذا طلق وعزل، فإما أنّ يخلى المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها روى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهنّ ما شاء كما شاء وكانت ممن آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضي الله عنهن أرجى خمسًا وآوى أربعًا[4]، وروي أنه كان يسوى مع ما أطلق له وخير فيه الأسودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك[5] ﴿ذلك﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أدنى﴾ إلى قرّة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعًا لأنه إذا سوّى بينهن في الايواء والإرجاء والعزل والابتغاء، وارتفع التفاضل ولم يكن لإحداهن مما تريد ومما لا تريد إلا مثل ما للأخرى وعلمن أنّ هذا التفويض من عند الله بوحيه اطمأنت نفوسهن، وذهب التنافس والتغاير وحصل الرضا وقرت العيون وسلت القلوب ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ فيه وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله من ذلك وفوّض إلى مشيئة رسول الله ﷺ وبعث على تواطىء قلوبهن بتصافي بينهن، والتوافق على طلب رضا رسول الله ﷺ وما فيه طيب نفسه، وقرىء تقرّ أعينهن بضم التاء ونصب الأعين وتقر أعينهنّ على البناء للمفعول ﴿وكان الله عليمًا﴾ بذات الصدور ﴿حليمًا﴾ لا يعاجل بالعقاب، فهو حقيق بأن يتقي ويحذر. كلهنّ تأكيد لنون يرضين وقرأ ابن مسعود ويرضين كلهنّ بما آتيتهنّ على التقديم وقرأ كلهنّ تأكيدًا لهنّ في آتيتهنّ.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

﴿لا يحل﴾ وقرىء بالتذكير لأنّ تأنيث الجمع غير حقيقي وإذا جاز بغير فصل في قوله تعالى: وقال نسوة كان مع الفصل أجوز ﴿من بعد﴾ من بعد التسع لأنّ التسع نصاب رسول الله ﷺ من الأزواج، كما أن الأربع نصاب أمّته منهنّ فلا يحل له أن يتجاوز النصاب ولا أن تبدل بهنّ ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجًا أخر بكلهنّ أو بعضهنّ أراد الله لهنّ كرامة وجزاء على ما اخترن

(1) سورة الأحزاب، الآية: 50.

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحزاب، باب: «ترجئ من تشاء منهن...» (الحديث رقم: 4788) ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: جواز هبتها نوبتها لضرتها، (الحديث رقم: 49 ـ 1464).

(4) ذكره ابن أبي شيبة في 204/4، كتاب: النكاح، باب: في الرجل يكون له...

(5) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء، (الحديث رقم: 3040).

ورضين، فقصر النبيّ ﷺ عليهنّ وهي التسع اللاتي مات عنهنّ عائشة بنت أبي بكر حفصة بنت عمر أمّ حبيبة بنت أبي سفيان سودة بنت زمعة أمّ سلمة بنت أبي أمية صفية بنت حيي الخيبرية ميمونة بنت الحرث الهلالية زينب بنت جحش الأسدية جويرية بنت الحرث المصطلقية رضي الله عنهنّ[1]. من في ﴿من أزواج﴾ لتأكيد النفي وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم وقيل معناه: لا تحل لك النساء من بعد النساء اللاتي نص إحلالهنّ لك من الأجناس الأربعة من الأعرابيات والغرائب أو من الكتابيات، أو من الإماء بالنكاح وقيل: في تحريم التبدل هو من البدل الذي كان في الجاهلية كان يقول الرجل للرجل: بادلني بامرأتك وأبادلك بامرأتي فينزل كل واحدٍ منهما عن امرأته لصاحبه ويحكى أنّ عيينة بن حصن دخل على النبيّ ﷺ، وعنده عائشة عن غير استئذان فقال رسول الله ﷺ: يا عيينة أين الاستئذان قال يا رسول الله: ما استئذنت على رجل قط ممن مضى منذ أدركت، ثم قال من هذه الجميلة إلى جنبك فقال ﷺ: هذه عائشة أمّ المؤمنين قال عيينة: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق فقال ﷺ: إنّ الله قد حرّم ذلك فلما خرج قالت عائشة رضي الله عنها: من هذا يا رسول الله قال: أحمق مطاع وأنه على ما ترين لسيد قومه[2] وعن عائشة رضي الله عنها ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء[3] تعني: أنّ الآية قد نسخت، ولا يخلو نسخها إما أن يكون بالسنة وإما بقوله تعالى: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾[4] وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ﴿ولو أعجبك﴾ في موضع الحال من الفاعل وهو الضمير في تبدل لا من المفعول الذي هو من أزواج لأنه موغل في التنكير، وتقديره مفروضًا إعجابك بهنّ وقيل: هي أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب والمراد أنها ممن أعجبه حسنهنّ واستثنى ممن حرم عليه الإماء ﴿رقيبًا﴾ حافظًا مهيمنًا، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده وتخطي حلاله إلى حرامه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾.

﴿أن يؤذن لكم﴾ في معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم و ﴿غير ناظرين﴾ حال من لا تدخلوا وقع الاستثناء على الوقت والحال معًا كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبيّ ﷺ إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه ومعناه لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه وإلا فلو لم يكن لهؤلاء خصوصًا لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن له إذنًا خاصًا، وهو الإذن إلى الطعام فحسب وعن ابن أبي عبلة أنه قرأ غير ناظرين مجرورًا صفة لطعام وليس بالوجه لأنه جرى على غير ما هو له فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ فيقال: غير ناظرين إناه أنتم كقولك هند زيد ضاربته هي، وإنّي الطعام إدراكه يقال: أنّي الطعام إنّي كقولك قلاه قلى ومنه قوله: ﴿بين حميم آن﴾ بالغ إناه وقيل: إناه وقته أي غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله وروى أن رسول الله ﷺ أَوْلَمَ على زينب بتمر وسويق وشاة وأمر أنسًا أن يدعو بالناس، فترادفوا أفواجًا يأكل فوج فيخرج ثم يدخل فوج إلى أن قال: يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أحدًا أدعوه، فقال: ارفعوا طعامكم وتفرق الناس وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال السلام عليكم أهل البيت فقالوا عليك السلام يا رسول الله كيف وجدت أهلك وطاف بالحجرات، فسلم عليهنّ ودعون له ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون وكان رسول الله ﷺ شديد الحياء فتولى فلما رأوه متوليًا خرجوا فرجع ونزلت[5] ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضه ببعض لأجل حديث يحدّثه به، أو عن أن يستأنسوا حديث أهل البيت واستئناسه تسمعه وتوجه وهو مجرور معطوف على ناظرين وقيل: هو منصوب على ولا تدخلوها مستأنسين. لا بدّ في قوله ﴿فيستحيي منكم﴾ من تقدير المضاف أي من إخراجكم بدليل قوله والله لا يستحيي من الحق يعني: أنّ إخراجكم حق ما ينبغي أن يستحيا منه. ولما كان الحياء مما يمنع الحيّ من بعض الأفعال قيل: ﴿لا يستحيي من الحق﴾ بمعنى: لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيّ منكم وهذا أدب أدّب الله به الثقلاء وعن عائشة رضي الله عنها حسبك في الثقلاء أنّ الله تعالى لم يحتملهم وقال:

---

(1) رواه أبو خيثمة في تاريخه، الزيلعي 3/120.

(2) كشف الأستار، كتاب: التفسير، باب: سورة الأحزاب، (الحديث رقم: 2251).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره (الحديث رقم: 6366)، أخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: ما افترض الله عز وجل على رسول الله ﷺ، والترمذي في كتاب: = التفسير، باب: ومن سورة الأحزاب، (الحديث رقم: 3216)، والحاكم في المستدرك 2/437.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 50.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الوليمة ولو بشاة، (الحديث رقم: 5168 و5169)، ومسلم في كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، (الحديث رقم: 90 1428).

فإذا طعمتم فانتشروا[1] وقرئ لا يستحي بياء واحدة، الضمير في ﴿سألتموهنّ﴾ لنساء النبي ﷺ ولم يذكرن لأنّ الحال ناطقة بذكرهنّ ﴿متاعًا﴾ حاجة ﴿فاسألوهنّ﴾ المتاع قيل: إنّ عمر رضي الله عنه كان يحب ضرب الحجاب عليهنّ محبة شديدة كان يذكره كثيرًا ويود أن ينزل فيه وكان يقول: لو أطاع فيكنّ ما رأتكنّ عيني وقال: يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفاجر فلو أمرت أمّهات المؤمنين بالحجاب[2] فنزلت، وروي أنه مرّ عليهنّ وهنّ مع النساء في المسجد فقال: لئن احتجبتنّ، فإنّ لكنّ على النساء فضلاً كما أنّ لزوجكنّ على الرجال الفضل، فقالت زينب رضي الله عنها: يا ابن الخطاب إنك لا تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا فلم يلبسوا إلا يسيرًا حتى[3] نزلت، وقيل: إنّ رسول الله ﷺ كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصابت يد رجل منهم يد عائشة فكره النبيّ ﷺ ذلك[4]، فنزلت آية الحجاب وذكر أنّ بعضهم قال أننهي أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لأن مات محمد لأتزوجنّ عائشة، فأعلم الله أنّ ذلك محرّم[5] ﴿وما كان لكم﴾ وما صحّ لكم إيذاء رسول الله ﷺ ولا نكاح أزواجه من بعده، وسمى نكاحهنّ بعده عظيمًا عنده وهو من أعلام تعظيم الله لرسوله وإيجاب حرمته حيًا وميتًا وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه وسرّ قلبه واستغزر شكره، فإنّ نحو هذا مما يحدّث الرجل به نفسه ولا يخلى منه فكره ومن الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمني لها الموت لئلا تنكح من بعده، وعن بعض الفتيان أنه كانت له جارية لا يرى الدنيا بها شغفًا واستهتارًا فنظر إليها ذات يوم فتنفس الصعداء وانتحب فعلى نحيبه مما ذهب به فكره هذا المذهب فلم يزل به ذلك حتى قتلها تصوّرًا لما عسى يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره وعن بعض الفقهاء أنّ الزوج الثاني في هدم الثلاثي مما يجري مجرى العقوبة، فصين رسول الله ﷺ عما يلاحظ ذلك.

إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾.

﴿إن تبدوا شيئًا﴾ من نكاحهنّ على ألسنتكم ﴿أو تخفوه﴾ في صدوركم ﴿فإنّ الله﴾ يعلم ذلك فيعاقبكم به، وإنما جاء به على أثر ذلك عامًا لكل باد وخاف ليدخل تحته نكاحهنّ وغيره ولأنه على هذه الطريقة أهول وأجزل روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب يا رسول الله، أونحن أيضًا نكلمهنّ من وراء الحجاب فنزلت.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾.

﴿لا جناح عليهنّ﴾ أي لا إثم عليهنّ في أن لا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العمّ والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين وقد جاءت تسمية العم أبا قال الله تعالى: ﴿وإلّه آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحٰق﴾[6] وإسماعيل عم يعقوب، قيل: كره ترك الاحتجاب عنهما لأنهما يصفانها لأبنائهما وأبناؤهما غير محارم، ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب وفي هذا النقل ما يدل على فضل تشديد فقيل ﴿واتقين الله﴾ فيما أمرتنّ به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحي من الاستتار واحططن فيه وفيما استثنى منه ما قدرتنّ، واحفظن حدودهما واسلكن طريق التقوى في حفظهما وليكن عملكنّ في الحجب أحسن مما كان، وأنتن غير محجبات ليفضل سركنّ علنكنّ ﴿إنّ الله كان على كل شيء﴾ من السر والعلن وظاهر الحجاب وباطنه ﴿شهيدًا﴾ لا يتفاوت في علمه الأحوال.

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾.

قرئ وملائكته بالرفع عطفًا على محل إن واسمها وهو ظاهر على مذهب الكوفيين ووجهه عند البصريين أن يحذف الخبر لدلالة يصلون عليه ﴿صلوا عليه وسلموا﴾ أي قولوا الصلاة على الرسول والسلام ومعناه الدعاء بأن يترحم عليه الله ويسلم.

فإن **قُلْتَ**: الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة أم مندوب إليها؟ **قُلْتُ**: بل واجبة وقد اختلفوا في حال وجوبها فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره وفي الحديث من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ فدخل النار فأبعده الله[7] ويروى أنه قيل: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى: ﴿إنّ الله وملائكته يصلون على النبي﴾ فقال ﷺ هذا من العلم المكنون، ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به إنّ الله وكل بي ملكين فلا أنكر عند عبد مسلم فيصلى عليّ إلا قال: ذانك المكان غفر الله لك، وقال الله تعالى وملائكته جوابًا لذينك الملكين آمين[8] ولا أنكر عند عبد مسلم، فلا يصلي عليّ إلا قال ذانك الملكان لا غفر الله لك، وقال الله وملائكته لذينك الملكين آمين ومنهم من قال تجب في كل مجلس مرّة إن تكرّر ذكره

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 3/125.

(2) قال الزيلعي، رواه النسائي وساق الحديث. وعزاه الواحدي للبخاري في تفسيره 3/126.

(3) ذكره الطبري في تفسيره، وذكره الثعلبي، الزيلعي 3/127.

(4) تقدم تخريجه سابقاً.

(5) رواه ابن سعد في الطبقات: 8/162.

(6) سورة البقرة، الآية: 133.

(7) أخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الأدعية، (الحديث رقم: 907)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصيام، فصل: فضائل شهر رمضان، (الحديث رقم: 3622).

(8) رواه الطبراني في معجمه.

كما قيل: في آية السجدة، وتشميت العاطس وكذلك في كل دعاء في أوّله وآخره ومنهم من أوجبها في العمر مرّة وكذا قال في إظهار الشهادتين، والذي يقتضيه الاحتياط الصلاة عليه عند كل ذكر لما ورد من الأخبار[1].

فإن قُلْتَ: فالصلاة عليه في الصلاة هي شرط في جوازها أم لا؟ قُلْتُ: أبو حنيفة وأصحابه لا يرونها شرطًا، وعن إبراهيم النخعي كانوا يكتفون عن ذلك يعني: الصحابة بالتشهد وهو السلام عليك أيها النبيّ، وأمّا الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطًا.

فإن قُلْتَ: فما تقول في الصلاة على غيره قُلْتُ: القياس جواز الصلاة على كل مؤمن لقوله تعالى ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ وقوله تعالى: ﴿وصل عليهم إنّ صلاتك سكن لهم﴾، وقوله ﷺ: «اللهمّ صلّ على آل أبي أوفى»[2] ولكن للعلماء تفصيلاً في ذلك، وهو أنها إن كانت على سبيل التبع كقولك صلى الله على النبي وآله فلا كلام فيها وأمّا إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو، فمكروه لأنّ ذلك صار شعارًا لذكر رسول الله ﷺ ولأنه يؤدّي إلى الاتهام بالرفض، وقال رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم[3].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾.

﴿يؤذون الله ورسوله﴾ فيه وجهان أحدهما أن يعبر بإيذائهما عن فعل ما يكرهانه، ولا يرضيانه من الكفر والمعاصي وإنكار النبوّة ومخالفة الشريعة وما كانوا يصيبون به رسول الله ﷺ من أنواع المكروه على سبيل المجاز وإنما جعلته مجازًا فيهما جميعًا وحقيقة الإيذاء صحيحة في رسول الله ﷺ لئلا أجعل العبارة الواحدة معطية معنى المجاز، والحقيقة والثاني أن يراد يؤذون رسول الله ﷺ وقيل في أذى الله هو قول اليهود والنصارى والمشركين يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه وقيل قول الذين يلحدون في أسمائه وصفاته وعن رسول الله ﷺ فيما حكى عن ربه شتمني ابن آدم، ولم ينبغ له أن يشتمني وآذاني ولم ينبغ له أن يؤذيني فأمّا شتمه إياي فقوله إني اتخذت ولدًا وأمّا أذاه[4]، فقوله إنّ الله لا يعيدني بعد أن بدأني، وعن عكرمة فعل أصحاب التصاوير الذين يرمون تكوين خلق مثل خلق الله وقيل: في أذى رسول الله ﷺ قولهم ساحر شاعر كاهن مجنون وقيل: كسر رباعيته وشجّ وجهه يوم أحد وقيل: طعنهم عليه في نكاح صفية بنت حيي وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات لأنّ أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبدًا.

وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾.

وأمّا أذى المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه ومعنى ﴿بغير ما اكتسبوا﴾ بغير جناية واستحقاق للأذى وقيل: نزلت في ناس من المنافقين يؤذون عليًا رضي الله عنه ويسمعونه وقيل: في الذين أفكوا على عائشة رضي الله عنها وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهنّ كارهات، وعن الفضيل لا يحل لك أن تؤذي كلبًا أو خنزيرًا بغير حق فكيف وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمّة لما فيه من الروعة عند كرّ الحول.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾.

الجلباب ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقي منه ما ترسله على صدرها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل وقيل: الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره قال أبو زبيد: مجلبب من سواد الليل جلبابًا، ومعنى ﴿يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ﴾ يرخينها عليهنّ ويغطين بها وجوههنّ وأعطافهنّ يقال: إذا زال الثوب عن وجه المرأة أدنى ثوبك على وجهك وذلك أن النساء كنّ في أوّل الإسلام على هجيراهنّ في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار فصل بين الحرّة، والأمة وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرّضون إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهنّ في النخيل والغيطان للإماء وربما تعرّضوا للحرّة بعلة الأمة يقولون حسبناها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهنّ عن زي الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤس والوجوه ليحتشمن، ويهبن فلا يطمع فيهن طامع وذلك قوله ﴿ذلك أدنى أن يعرفن﴾ أي أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرّض لهن ولا يلقين ما يكرهن.

فإن قُلْتَ: ما معنى من في من جلابيبهنّ؟ قُلْتُ: هو للتبعيض إلا أن معنى التبعيض محتمل وجهين: أحدهما أن

---

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الرقاق، باب: الأدعية، (الحديث رقم: 908) والترمذي في كتاب: الدعوات، باب: قول الرسول ﷺ رغم أنف رجل، (الحديث رقم: 3545)، ذكره الطبراني، أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: قول الرسول لله رغم أنف رجل، (الحديث رقم: 3546)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنّة فيها، باب: الصلاة على النبي ﷺ، (الحديث رقم: 908)، وأخرجه= = ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنّة فيها، باب: الصلاة على النبي ﷺ، (الحديث رقم: 907).

(2) تقدم في براءة.

(3) تقدم في يوسف.

(4) ذكره الطبري في تفسيره.

يتجلببن ببعض ما لهنّ من الجلابيب والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة في درع، وخمار كالأمة والماهنة ولها جلبابان فصاعدًا في بيتها والثاني أن ترخي المرأة بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الأمة، وعن ابن سيرين سألت عبيدة السلماني عن ذلك فقال: أن تضع رداءها فوق الحاجب ثم تديره حتى تضعه على أنفها، وعن السدي أن تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين، وعن الكسائي يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهنّ أراد بالانضمام معنى الإدناء ﴿وكان الله غفورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط مع التوبة لأن هذا مما يمكن معرفته بالعقل.

۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾.

﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ قوم كان فيهم ضعف إيمان، وقلة ثبات عليه وقيل: هم الزناة وأهل الفجور من قوله تعالى ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ ﴿والمرجفون﴾ ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ فيقولون هزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين، يقال: أرجف بكذا إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبرًا متزلزلاً غير ثابت من الرجفة وهي الزلزلة، والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم والفسقة عن فجورهم والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم وتنوءهم، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة وإلى أن لا يساكنوك فيها ﴿إلا﴾ زمنًا ﴿قليلاً﴾ ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم[1] فسمى ذلك إغراء، وهو التحريش على سبيل المجاز.

مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾.

﴿ملعونين﴾ نصب على الشتم أو الحال أي لا يجاورونك إلا ملعونين دخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معًا كما مرّ في قوله: ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾[2] ولا يصح أن ينتصب عن أخذوا لأنّ ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها.

وقيل: في قليلاً هو منصوب على الحال أيضًا ومعناه لا يجاورونك إلا أقلاء أذلاء ملعونين.

فإن قُلْتَ: ما موقع لا يجاورونك؟ قُلْتُ: لا يجاورونك عطف على لنغرينك لأنه يجوز أن يجاب به القسم ألا ترى إلى صحة قولك لئن لم ينتهوا لا يجاورونك.

فإن قُلْتَ: أما كان من حق لا يجاورونك أن يعطف بالفاء وأن يقال لنغرينك بهم، فلا يجاورونك قُلْتُ: لو جعل الثاني مسببًا عن الأوّل لكان الأمر كما قلت ولكنه جعل جوابًا آخر للقسم معطوفًا على الأوّل، وإنما عطف بثم لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم وأعظم من جميع ما أصيبوا به فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه.

سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾.

﴿سنة الله﴾ في موضع مصدر مؤكد أي سنّ الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما ثقفوا، وعن مقاتل يعني: كما قتل أهل بدر وأسروا.

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾.

كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء واليهود يسألونه امتحانًا، لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب فأمر رسول الله ﷺ بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به لم يطلع عليه ملكًا، ولا نبيًا، ثم بيّن لرسوله أنها قريبة الوقوع تهديدًا للمستعجلين وإسكاتًا للممتحنين ﴿قريبًا﴾ شيئًا قريبًا أو لأن الساعة في معنى اليوم أو في زمان قريب.

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾.

السعير النار المسعورة الشديدة الإيقاد.

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾.

وقرئ: ﴿تقلب﴾ على البناء للمفعول وتقلب بمعنى تتقلب ونقلب أي نقلب نحن وتقلب على أن الفعل للسعير ومعنى تقليبها تصريفها في الجهات كما نرى البضعة تدور في القدر إذا غلت، فنرامي بها الغليان من جهة إلى جهة أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها، أو طرحها في النار مقلوبين منكوسين، وخصت الوجوه بالذكر لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة وناصب الظرف يقولون أو محذوف وهو أنكر وإذا نصب بالمحذوف كان يقولون حالاً.

وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾.

وقرئ: ﴿ساداتنا﴾ وساداتنا وهم رؤساء الكفر الذين

---

(1) قال أحمد: وفيها إشارة إلى أنّ من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعي يمهل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان، حتى يتحصل له منزل آخر على حسب الاجتهاد، والله أعلم.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 53.

لقنوهم الكفر وزينوه لهم، يقال: ضلّ السبيل وأضله إياه وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف، وقرئ كثيرًا تكثيرًا لإعداد اللعائن وكبيرًا ليبدل على أشد اللعن وأعظمه.

رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾.

﴿ضعفين﴾ ضعفًا لضلاله وضعفًا لإضلاله يعترفون ويستغيثون ويتمنون ولا ينفعهم شيء من ذلك.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾.

﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ قيل: نزلت في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من قالة بعض الناس، وقيل: في أذى موسى عليه السلام هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها، وقيل: اتهامهم إياه بقتل هارون وكان قد خرج معه الجبل فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به عليهم ميتًا، فأبصروه حتى عرفوا أنه غير مقتول وقيل: أحياه الله فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام وقيل: قرفوه بعيب في جسده من برص، أو أدرة فأطلعهم الله على أنه بريء منه **﴿وجيهًا﴾** ذا جاه ومنزلة عنده فلذلك كان يميط عنه التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصة كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة، وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة وكان عبد الله وجيهًا قال ابن خالويه: صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان فسمعته يقرؤها، وقراءة العامة أوجه لأنها مفصحة عن وجاهته عند الله كقوله تعالى: ﴿عند ذي العرش مكين﴾ وهذه ليست كذلك.

فإن قُلتَ: قوله **﴿مما قالوا﴾** معناه من قوله أو من مقولهم، لأنّ ما: إما مصدرية أو موصولة وأيهما كان فكيف تصح للبراءة منه؟ **قُلتُ:** المراد بالقول أو المقول مؤداه ومضمونه، وهو الأمر المعيب ألا ترى أنهم سموا السبة بالقالة والقالة بمعنى القول.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾.

﴿قولاً سديدًا﴾ قاصدًا إلى الحق والسداد القصد إلى الحق والقول بالعدل يقال: سدّد السهم نحو الرمية إذا لم يعدل به عن سمتها كما قالوا: سهم قاصد والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول والبعث على أن يسد قولهم في كل باب، لأنّ حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها و.

يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾.

قيل: إصلاح الأعمال التوفيق في المجيء بها صالحة مرضية وهذه الآية مقرّرة للتي قبلها بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان ليترادف عليهم النهي والأمر، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام واتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه، لما قال: **﴿ومن يطع الله ورسوله﴾** وعلق بالطاعة الفوز العظيم أتبعه قوله.

إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾.

﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ وهو يريد بالأمانة الطاعة فعظم أمرها، وفخم شأنها وفيه وجهان: أحدهما أنّ هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله عز وعلا انقياد عقلها وهو ما يتأتى من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته، وإرادته إيجادًا وتكوينًا وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة كما قال ﴿قالتا أتينا طائعين﴾، وأما الإنسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه وهو حيوان عاقل صالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات فيما يصحّ منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع، والمراد بالأمانة الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أنّ الأمانة لازمة الأداء، وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز. وأما حمل الأمانة فمن قولك فلان حامل للأمانة ومحتمل لها تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمّته ويخرج عن عهدتها لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤمن عليها وهو حاملها ألا تراهم يقولون ركبته الديون، ولي عليه حق فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملاً لها ونحوه قولهم لا يملك مولى لمولى نصرًا يريدون أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها ولا يمسكها كما يمسكها الخاذل ومنه قول القائل:

أخوك الذي لا تملك الحس نفسه ... وترفض عند المحفظات الكتائف

أي لا يمسك الرقة والعطف إمساك المالك الضنين ما في يده بل يبذل ذلك ويسمح به ومنه قولهم أبغض حق أخيك لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤده وإذا أبغضه أخرجه وأدّاه فمعنى، ﴿فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان﴾ فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها. ثم وصفه بالظلم لكونه تاركًا لأداء الأمانة وبالجهل لأخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤها، والثاني أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشدّه أن يتحمله ويستقل به فأبى حمله والاستقلال به وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوّته **﴿إنه كان ظلومًا جهولاً﴾** حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خاس بضمانه

فيها ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم لو قيل: للشحم أين تذهب لقال أسوي العوج وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات وتصور مقاولة الشحم محال ولكن الغرض أنّ السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه كما أنّ العجف مما يقبح حسنه فصوّر أثر السمن فيه تصويرًا هو أوقع في نفس السامع وهي به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محلها والوفاء بها.

فإن قُلْتَ:قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأي واحد أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى لأنه مثلت حاله في تميله وترجحه بين الرأيين، وتركه المضي على أحدهما بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضي في وجهه وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما في هذه الآية فإنّ عرض الأمانة على الجماد، وإباءه وإشفاقه محال في نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئًا والمشبه به غير معقول. **قُلْتُ:** الممثل به في الآية وفي قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفي نظائره مفروض والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾.

واللام في ليعذب لام التعليل على طريق المجاز، لأنّ التعذيب نتيجة حمل الأمانة كما أن التأديب في ضربته للتأديب نتيجة الضرب. وقرأ الأعمش ويتوب ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ويبتدئ ويتوب الله ومعنى قراءة العامة ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها لأنه إذا تيب على الوافي كان ذلك نوعًا من عذاب الغادر والله أعلم. قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطي الأمان من عذاب القبر»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة سبإ مكية

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾

ما في السموات والأرض كله نعمة من الله وهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجله ولما قال ﴿**الحمد لله**﴾، ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية كان معناه أنه المحمود على نعم الدنيا كما تقول احمد أخاك الذي كساك وحملك تريد احمده على كسوته وحملانه ولما قال: ﴿**وله الحمد في الآخرة**﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة، وهو الثواب.

فإن قُلْتَ:ما الفرق بين الحمدين؟ **قُلْتُ:**أمّا الحمد في الدنيا فواجب لا أنه على نعمة متفضل بها وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب وأمّا الحمد في الآخرة، فليس بواجب لا أنه على نعمة واجبة[2] الإيصال إلى مستحقها إنما هو تتمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم يلتذون به كما يلتذ من به العطاش بالماء البارد ﴿**وهو الحكيم**﴾ الذي أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته ﴿**الخبير**﴾ بكل كائن يكون.

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾.

ثم ذكر مما يحيط به علمًا ﴿**ما يلج في الأرض**﴾ من الغيث كقوله فسلكه ينابيع في الأرض، ومن الكنوز والدفائن والأموات وجميع ما هي له كفات ﴿**وما يخرج منها**﴾ من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والدواب وغير ذلك ﴿**وما ينزل من السماء**﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير كما قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾، ﴿**وما يعرج فيها**﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿**وهو**﴾ مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ﴿**الرحيم الغفور**﴾ للمفرطين في أداء مواجب شكرها. وقرأ علي بن أبي طالب رضي لله عنه ننزل بالنون والتشديد.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، الزيلعي 3/137.

(2) قال أحمد:والحق في الفرق بين الحمدين أن الأوّل عبادة مكلف بها، والثاني غير مكلف به ولا متكلف، وإنما هو في النشأة الثانية = كالجبليات في النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس»، وإلا فالنعمة الأولى كالثانية بفضل من الله تعالى على عباده، لا عن استحقاق، والله الموفق.

﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾.

قولهم: ﴿لا تاتينا الساعة﴾ نفي للبعث وإنكار لمجيء الساعة أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد، أوجب ما بعد النفي ببلى على معنى أنّ ليس الأمر إلا إتيانها ثم أعيد إيجابه مؤكدًا بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل ثم أمد التوكيد القسمي إمدادًا بما أتبع المقسم به من الوصف بما وصف به إلى قوله ﴿ليجزي﴾ لأنّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدّة ثباته، واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر وكلما كان المستشهد به أعلى كعبًا وأبين فضلاً وأرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ.

فإن قُلْتَ: هل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى.قُلْتُ: نعم، وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها في الخفية وأوّلها مسارعة إلى القلب إذا قيل عالم الغيب، فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة وأنه كائن لا محالة ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب، وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيئًا واضحًا.

فإن قُلْتَ: الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه فهب أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذبًا كيف تكون مصححة لما أنكروه؟ قُلْتُ: هذا لو اقتصر على اليمين، ولم يتبعها الحجة القاطعة والبينة الساطعة.

وهي قوله: ﴿ليجزي﴾ فقد وضع الله في العقول وركب في الغرائز وجوب الجزاء، وأن المحسن لا بد له من ثواب والمسيء لا بد له من عقاب وقوله: ﴿ليجزي﴾ متصل بقوله ﴿لتاتينكم﴾ تعليلاً له، قرئ: ﴿لتاتينكم﴾ بالتاء والياء ووجه من قرأ بالياء أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم أو يسند إلى عالم الغيب أي ليأتينكم أمره كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تاتيهم الملائكة﴾، أو ياتي ربك وقال: ﴿أو ياتي أمر ربك﴾. وقرئ: ﴿عالم الغيب﴾ ﴿وعلام الغيب﴾ بالجر صفة لربي وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح ولا يعزب بالضم والكسر في الزاي من العزوب، وهو البعد يقال روض عزيب بعيد من الناس ﴿مثقال ذرّة﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى مثقال ذرّة، وقرئ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالرفع على أصل الابتداء وبالفتح على نفي الجنس كقولك: لا حول ولا قوّة إلا بالله بالرفع والنصب وهو كلام منقطع عما قبله.

فإن قُلْتَ: هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرّة كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرّة وأصغر وأكبر وزيادة لا لتأكيد النفي وعطف المفتوح على ذرّة بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرّة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر قُلْتُ: يأبى ذلك حرف الاستثناء إلا إذا جعلت الضمير في عنه للغيب وجعلت الغيب اسمًا للخفيات قبل أن تكتب في اللوح لأنّ إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب على معنى أنه لا ينفصل عن الغيب شيء ولا يزل عنه إلا مسطورًا في اللوح.

﴿الذين سعوا في آيتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾ وقرئ معجزين واليم بالرفع والجر، وعن قتادة الرجز سوء العذاب.

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾.

﴿ويرى﴾ في موضع الرفع أي ويعلم أولوا العلم يعني: أصحاب رسول الله ﷺ ومن يطأ أعقابهم من أمّته أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما، الذي أنزل إليك الحق وهما مفعولان ليرى وهو فصل من قرأ الحق بالرفع جعله مبتدأ والحق خبرًا والجملة في موضع المفعول الثاني، وقيل: يرى في موضع النصب معطوف على.

ليجزي أي: وليعلم أولوا العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علمًا لا يزاد عليه في الإيقان ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا، ويجوز أن يريد وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق، فيزدادوا حسرة وغمًا.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾.

﴿الذين كفروا﴾ قريش قال بعضهم لبعض.

﴿هل نذلكم على رجل﴾ يعنون محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تبعثون وتنشؤن خلقًا جديدًا بعد أن تكونوا رفاتًا وترابًا. يمزق أجسادكم البلى كل ممزق أي يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾.

أهو مفتر على الله كذبًا فيما ينسب إليه من ذلك أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه، ثم قال سبحانه: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء وهو مبرأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار فيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك، وذلك أجنّ الجنون وأشدّه إطباقًا على عقولهم جعل وقوعهم في العذاب رسيلاً لوقوعهم في الضلال كأنهما كائنان في وقت واحد، لأنّ الضلال لما كان العذاب من لوازمه وموجباته جعلا كأنهما في الحقيقة مقترنان، وقرأ زيد بن عليّ رضي الله عنه ينبيكم.

فإن قُلْتَ: فقد جعلت الممزق مصدرًا كبيت الكتاب.

ألم تعلم مسرحي القوافي فلا عيا بهن ولا اجتلابا

فهل يجوز أن يكون مكانًا؟ قُلْتُ: نعم ومعناه ما حصل من الأموات في بطون الطير والسباع وما مرّت به السيول فذهبت به كل مذهب وما سفته الرياح فطرحته كل مطرح.

فإن قُلْتَ: ما العامل في إذا! قُلْتُ: ما دلّ عليه إنكم لفي خلق جديد وقد سبق نظيره.

فإن قُلْتَ: الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول؟ قُلْتُ: هو عند البصريين بمعنى فاعل تقول جد فهو جديد كحد فهو حديد وقلّ فهو قليل وعند الكوفيين بمعنى مفعول من جده إذا قطعه وقالوا: هو الذي جد الناسج الساعة في الثوب ثم شاع ويقولون ولهذا قالوا: ملحفة جديد وهي عند البصريين كقوله تعالى: ﴿إنّ رحمة الله قريب﴾ ونحو ذلك.

فإن قُلْتَ: لم أسقطت الهمزة في قوله افترى دون قوله السحر وكلتاهما همزة وصل؟ قُلْتُ: القياس الطرح ولكن أمرًا اضطرّهم إلى ترك إسقاطها في نحو السحر وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام.

فإن قُلْتَ: ما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قُلْتُ: هو من الإسناد المجازي لأنّ البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادّة وكلما ازداد عنها بعدًا كان أضل.

فإن قُلْتَ: كان رسول الله ﷺ مشهورًا علما في قريش وكان إنباؤه بالبعث شائعًا عندهم فما معنى قوله: ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم﴾ فنكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول قُلْتُ: كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره.

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾.

أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عزّ وجلّ ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفًا لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة ﴿إنّ في ذلك﴾ النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله ﴿لآية﴾ ودلالة ﴿لكل عبد منيب﴾ وهو الراجع إلى ربه المطيع له لأنّ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به. يشأ ويخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى: ﴿أفترى على الله كذبًا﴾ وبالنون لقوله: ولقد آتينا وكسفًا بفتح السين وسكونه، وقرأ الكسائي يخسف بهم بالإدغام وليست بقوية.

۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾.

﴿يا جبال﴾ إمّا أن يكون بدلاً من فضلاً وإمّا من آتينا بتقدير قولنا: يا جبال أو قلنا يا جبال، وقرئ أوّبي وأوبي من التأويب والأوب أي: رجعي معه في التسبيح أو راجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه، ومعنى تسبيح الجبال أنّ الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسبيحًا كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسبح معجزة لداود وقيل: كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تساعده على نوحه بأصدائها والطير بأصواتها، وقرئ والطير رفعًا ونصبًا عطفًا على لفظ الجبال ومحلها وجوّزوا أن ينتصب مفعولاً معه وأن يعطف على فضلاً بمعنى وسخرنا له الطير.

فإن قُلْتَ: اي فرق بين النظم وبين أن يقال: ﴿وآتينا داود منا فضلاً﴾ تأويب الجبال معه والطير قُلْتُ: كم بينهما ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى من الدلالة على عزّة الربوبية وكبرياء الإلّهية حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا إشعارًا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته ﴿وألنا له الحديد﴾، وجعلناه له لينًا كالطين والعجين والشمع يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة وقيل: لأن الحديد في يده لما أوتي من شدّة القوّة.

أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾.

وقرئ صابغات وهي الدروع الواسعة الضافية، وهو أوّل من اتخذها وكانت قبل صفائح وقيل: كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدّق على الفقراء، وقيل: كان يخرج حين ملك بني إسرائيل متنكرًا فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم: ما تقولون في داود، فيثنون عليه فقيض الله له ملكًا في صورة آدمي فسأله على عادته فقال: نِعَم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود، فسأله فقال: لولا أنه يطعم عياله من بيت المال، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعلمه صنعة الدروع ﴿وقدّر﴾ لا تجعل المسامير دقاقًا فتقلق ولا غلاظًا فتفصم الحلق والسرد نسج الدروع ﴿واعملوا﴾ الضمير لداود وأهله ﴿و﴾ سخرنا.

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾.

﴿لسليمان الريح﴾ فيمن نصب ولسليمان الريح مسخرة فيمن رفع وكذلك فيمن قرأ الرياح بالرفع ﴿غدوّها شهر﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك،

وقرئ غدوتها وروحتها وعن الحسن رضي الله عنه كان يغدو فيقبل باصطخر، ثم يروح فيكون رواحه بكابل ويحكى أنّ بعضهم رأى مكتوبًا في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيًا وجدناه غدوّنا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله. القطر النحاس المذاب من القطران.

فإن قُلْتَ: ماذا أراد بعين القطر؟ **قُلْتُ:** أراد بها معدن النحاس ولكنه أساله كما ألان الحديد لداود فنبع كما ينبع الماء من العين فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه كما قال: ﴿إني أراني أعصر خمرًا﴾ وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام ﴿بإذن ربه﴾ بأمره ﴿ومن يزغ منهم﴾ ومن يعدل ﴿عن أمرنا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان وقرئ يزغ من أزاغه، وعذاب السعير عذاب الآخرة. عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن السدي: كان معه ملك بيده سوط من نار كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجني.

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

المحاريب المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال سميت محاريب لأنه يحامي عليها ويذب عنها وقيل: هي المساجد، والتماثيل صور الملائكة والنبيين والصالحين كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم.

فإن قُلْتَ: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير **قُلْتُ:** هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب وعن أبي العالية لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرّمًا، ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها لأنّ التمثال كل ما صوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان أو تصوّر محذوفة الرؤوس، وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما والجوابي الحياض الكبار قال:

تروح على آل المحلق جفنة كجابية[1] السيح العراقي تفهق[2]

لأن الماء يجبى فيها أي: يجمع جعل الفعل لها مجازًا وهي من الصفات الغالبة كالدابة قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل، وقرئ بحذف الياء اكتفاء بالكسرة كقوله تعالى: ﴿يوم يدع الداع﴾ ﴿راسيات﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها ﴿اعملوا آل داود﴾ حكاية ما قيل: لآل داود وانتصب ﴿شكرًا﴾ على أنه مفعول له أي: اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدّى على طريق الشكر أو على الحال أي: شاكرين أو على تقدير اشكروا شكرًا لأن اعملوا فيه معنى اشكروا من حيث أنّ العمل للمنعم شكر له، ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولاً به ومعناه أنا سخرنا لكم الجنّ يعملون لكم ما شئتم فاعملوا أنتم شكرًا على طريق المشاكلة ﴿والشكور﴾ المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعيه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا وكدحًا وأكثر أوقاته، وعن ابن عباس رضي الله عنهما من يشكر على أحواله كلها، وعن السدي من يشكر على الشكر، وقيل: من يرى عجزه عن الشكر، وعن داود أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول اللهم اجعلني من القليل فقال عمر: ما هذا الدعاء فقال الرجل: إني سمعت الله يقول ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فأنا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر[3].

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

قرئ فلما قضي الموت ودابة الأرض الأرضة وهي الدويبة التي يقال لها السرقة والأرض فعلها فأضيفت إليه يقال: أرضت الخشبة أرضًا إذا أكلتها الأرضة، وقرئ بفتح الراء من أرضت الخشبة أرضًا وهو من باب فعلته ففعل كقولك أكلت القوادح الأسنان أكلاً فأكلت أكلاً، والمنسأة العصا لأنه ينسأ بها أي يطرد ويؤخر، وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلبًا وحذفًا وكلاهما ليس بقياس ولكن إخراج الهمزة بين بَيْنْ هو التخفيف القياسي ومنساءته على مفعالة كما يقال: في الميضاة ميضاءة ومن سأته أي من طرف عصاه سميت بسأة القوس على الاستعارة وفيها لغتان كقولهم قحة وقحة وقرئ أكلت منسأته ﴿تبينت الجن﴾ من تبين الشيء إذا ظهر وجلى، و﴿أن﴾ مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال كقولك تبين زيد جهله والظهور له في المعنى أي ظهر أنّ الجنّ ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب﴾ أو علم الجن كلهم علمًا بينًا بعد التباس الأمر على عامّتهم وضعفتهم وتوهمهم أنّ كبارهم يصدّقون في ادعائهم علم الغيب أو علم المدّعون علم الغيب منهم عجزهم وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم، وإنما أريد التهكم بهم كما تتهكم بمدّعي الباطل إذا دحضت حجته وظهر إبطاله بقولك هل تبينت أنك مبطل وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبينًا، وقرئ: ﴿تبينت الجن﴾ على البناء للمفعول

---

(1) الجابية: أي الماء الجاري على وجه الأرض.

(2) وفهق الإناء: أي إذا امتلأ حتى يتصبب.

(3) رواه ابن أبي شيبة 322/10، كتاب: الدعاء، باب: ما ذكر عن أبي بكر وعمر والخ.

على أن المتبين في المعنى هو أن مع ما في صلتها لأنه بدل، وفي قراءة أبيّ تبينت الإنس وعن الضحاك تباينت الإنس بمعنى: تعارفت وتعالمت والضمير في كانوا للجن في قوله: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه﴾ أي علمت الإنس أن لو كان الجن يصدقون فيما يوهمونهم من علمهم الغيب ما لبثوا، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه تبينت الإنس أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب روي أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المدد الطوال فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة ثابتة قد أنطقها الله فيسألها لأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة فسألها فقالت: نبت لخراب هذا المسجد فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له وقال اللهم: عم عن الجن موتي حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموّهون على الإنس أنهم يعلمون الغيب، وقال: لملك الموت إذا أمرت بي فأعلمني فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحًا من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئًا على عصاه، فقبض روحه وهو متكئ عليها وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمرّ به شيطان، فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر فإذا سليمان قد خرّ ميتًا ففتحوا عنه، فإذا العصا قد أكلتها الأرضة فأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها في يوم وليلة مقدارًا، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حيًا، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة. وروى أنّ داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه، وليبطل دعواهم علم الغيب، روى أن افريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها، فلم يجسر أحد بعد أن يدنوا منه، وكان عمر سليمان ثلاثًا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقي في ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾.

قرئ ﴿لسبأ﴾ بالصرف ومنعه وقلب الهمزة ألفًا، ومسكنهم بفتح الكاف وكسرها وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها أو مسكن كل واحد منهم، وقرئ مساكنهم و﴿جنتان﴾ بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان وفي الرفع معنى المدح تدل عليه قراءة من قرأ جنتين بالنصب على المدح.

فإن قُلْتَ: ما معنى كونهما آية؟ **قُلْتُ**: لم نجعل الجنتين في أنفسهما آية وإنما جعل قصتهما وأنّ أهلهما أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخرّبهما وأبدلهم عنهما الخمط والأثل آية وعبرة لهم ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمطا النعم، ويجوز أن تجعلهما آية أي علامة دالة على الله وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره.

فإن قُلْتَ: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية ورب قرية من قريات العراق يحتف بها من الجنان ما شئت؟ **قُلْتُ**: لم يرد بستانين اثنين فحسب وإنما أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب **﴿كلوا من رزق ربكم﴾** إما حكاية لما قال لهم: أنبياء الله المبعوثون إليهم أو لما قال لهم: لسان الحال أو هم أحقاء بأنّ يقال لهم ذلك ولما قال: كلوا من رزق ربكم **﴿واشكروا له﴾** أتبعه قوله **﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾** يعني: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كانت أخصب البلاد وأطيبها تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجرة فيمتلئ المكتل بما يتساقط فيه من الثمر طيبة لم تكن سبخة وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وقرئ بلدة طيبة وربًا غفورًا بالنصب على المدح، وعن ثعلب معناه: اسكن واعبد.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾.

﴿العرم﴾ الجرذ الذي نقب عليهم السكر ضربت لهم بلقيس الملكة بسد ما بين الجبلين بالصخر والقار، فحقنت به ماء العيون والأمطار وتركت فيه خروقًا على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم فلما طغوا قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيًا يدعونهم إلى الله، ويذكرونهم نعمته عليهم فكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله نعمة سلط الله على سدهم الخلد فنقبه من أسفله فغرقهم وقيل: العرم جمع عرمة وهي الحجارة المركومة ويقال: للكدس من الطعام عرمة والمراد المسناة التي عقدوها سكرًا وقيل: العرم اسم الوادي وقيل: العرم المطر الشديد، وقرئ: **﴿العرم﴾** بسكون الراء، وعن الضحاك كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد ﷺ، وقرئ: **﴿أكل﴾** بالضم والسكون وبالتنوين والإضافة والأكل الثمر، والخمط شجر الأراك وعن أبي عبيدة كل شجر ذي شوك وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعمًا من مرارة حتى لا يمكن أكله، والأثل شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عودًا ووجه من نوّن أن أصله ذواتي أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه

أو وصف الأكل بالخمط كأنه قيل: نواتي أكل بشع ومن أضاف، وهو أبو عمرو وحده فلأن أكل الخمط في معنى البرير كأنه قيل: نواتي برير والأثل والسدر معطوفان على أكل لا على خمط لأنّ الأثل لا أكل له وقرئ وأثلا وشيئًا بالنصب عطفًا على جنتين وتسمية البدل جنتين لأجل المشاكلة وفيه ضرب من التهكم وعن الحسن رحمه الله قلل السدر لأنه أكرم ما بدلوا.

ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾.

وقرئ: ﴿وهل﴾ يجازي وهل نجازي بالنون وهل يجازي والفاعل الله وحده وهل يجزى والمعنى: أنّ مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر وهو العقاب العاجل وقيل: المؤمن تكفر سيآته بحسناته والكافر يحبط عمله فيجازي بجميع ما عمله من السوء ووجه آخر، وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة يستعمل تارة في معنى: المعاقبة وأخرى في معنى: الإثابة فلما استعمل في معنى: المعاقبة في قوله جزيناهم بما ﴿كفروا﴾ بمعنى: عاقبناهم بكفرهم قيل: وهل يجازي إلا الكفور بمعنى وهل يعاقب وهو الوجه الصحيح وليس لقائل أن يقول لم قيل: وهل يجازي إلا الكفور على اختصاص الكفور بالجزاء والجزاء عام للكافر والمؤمن لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أراد الخاص وهو العقاب بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه الا ترى انك لو قلت جزيناهم بما كفروا هل يجازي إلا الكافر والمؤمن لم يصح ولم يسدّ كلامًا فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾.

﴿القرى التي باركنا فيها﴾، وهي قرى الشام ﴿قرى ظاهرة﴾ متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين الناظرين أو راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿وقدرنا فيها السير﴾ قيل: كان الغادي منهم يقيل في قرية والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعًا ولا عطشًا ولا عدوًا ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ﴿سيروا فيها﴾، وقلنا لهم سيروا ولا قول ثم ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه كانهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى قوله: ﴿ليالي وأيامًا﴾ **قُلْتُ**: معناه سيروا فيها إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات أو سيروا فيها آمنين لا تخافون وإن تطاولت مدّة سفركم فيها وامتدت أيامًا وليالي، أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدّة أعماركم، فإنكم في كل حين وزمان لا تلقون فيها إلا الأمن.

فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾.

قرئ ربنا باعد بين أسفارنا وبعد ويا ربنا على الدعاء، بطروا النعمة وبشموا من طيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهيه، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشأم مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد فعجل الله لهم الإجابة، وقرئ: ﴿ربنا﴾ بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به كما تقول: سير فرسخان وبوعد بين أسفارنا.

وقرئ ربنا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء، والمعنى: خلاف الأوّل وهو استبعاد مسايرهم على قصرها ودنوها لفرط تنعمهم وترفههم كانهم كانوا يتشاجون على ربهم ويتحازنون عليه ﴿احاديث﴾ يتحدّث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم وفرقناهم تفريقًا لتخذه الناس مثلاً مضروبًا يقولون ذهبوا أيدي سبأ وتفرقوا أيادي سبأ قال كثير بن أيادي: سبأ يا عزّ ما كنت بعدكم، فلم يحل بالعينين بعدك منظر لحق غسان بالشأم وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان ﴿صبار﴾ عن المعاصي ﴿شكور﴾ للنعم.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾.

قرئ: ﴿صدق﴾ بالتشديد والتخفيف ورفع إبليس ونصب الظن فمن شدّد فعلى حقق عليهم ظنه أو وجده صادقًا، ومن خفف فعلى صدق في ظنه أو صدّق يظن ظناً نحو فعلته جهدك وبنصب إبليس، ورفع الظن فمن شدّد فعلى وجد ظنه صادقًا ومن خفف فعلى قال له: ظنه الصادق حين خيله إغواءهم يقولون صدقك ظنك وبالتخفيف ورفعهما على صدق عليهم ظن إبليس، ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في صدق، كقوله: صدقت فيهم ظنوني ومعناه أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال: إنّ ذرّيته أضعف عزمًا منه فظن بهم اتباعه وقال: ﴿لأضلنهم لأغوينهم﴾ وقيل: ظنّ ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها، والضمير في عليهم واتبعوه إمّا لأهل سبأ أو لبني آدم. وقلل المؤمنين بقوله ﴿إلا فريقًا﴾ لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار كما قال: ﴿لأحتنكنّ ذرّيته إلا قليلاً﴾ ولا تجد أكثرهم شاكرين.

وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾.

﴿وما كان له عليهم﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم، وقرئ ليعلم على البناء للمفعول ﴿حفيظ﴾ محافظ عليه وفعيل ومفاعل متآخيان.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قل﴾ لمشركي قومك ﴿ادعوا الذين﴾ عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه كما تدعون الله والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لا يملكون مثقال ذرة﴾ من خير أو شر أو نفع أو ضر ﴿في السموات ولا في الأرض ومالهم﴾ في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك كقوله تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾[1]، وماله منهم من عوين يعين على تدبير خلقه يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية فكيف يصح أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجي.

فإن قُلْتَ: أين مفعولاً زعم قُلْتُ: أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول، وأمّا الثاني فلا يخلو إمّا أن يكون من دون الله أو لا يملكون أو محذوفًا فلا يصح الأوّل لأنّ قولك هم من دون الله لا يلتئم كلامًا ولا الثاني لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك، فكيف يتكلمون بما هو حجة عليه وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد، فبقي أن يكون محذوفًا تقديره زعمتموهم آلهة من دون الله، فحذف الراجح إلى الموصول كما حذف في قوله: أهذا الذي بعث الله رسولاً استخفافًا فالطول الموصول لصلته وحذف آلهة لأنه موصوف صفته من دون الله، والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهومًا؛ فإذا مفعولاً زعم محذوفان جميعًا بسببين مختلفين، تقول الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما تقول الكرم لزيد وعلى معنى أنه المشفوع له كما تقول القيام لزيد.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

فاحتمل قوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أن يكون على أحد هذين الوجهين أي لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له أي لشفيعه، أو هي اللام الثانية في قولك أذن لزيد لعمرو أي لأجله، وكأنه قيل إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله وهذا وجه لطيف وهو الوجه وهذا تكذيب لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

فإن قُلْتَ: بما اتصل قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ ولأي شيء وقعت حتى غاية قُلْتُ: بما فهم من هذا الكلام من أنّ ثم انتظارًا للإذن وتوقعًا وتمهلاً وفزعًا من الراجين للشفاعة، والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملي من الزمان وطول من التربص ومثل هذه الحال دلّ عليه قوله عز وجلّ. ﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابًا يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا لمن أذن له الرحمن وقال صوابًا﴾[2] كأنه قيل: يتربصون ويتوقفون مليًا فزعين وهلين حتى إذا فزع عن قلوبهم أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن. تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضًا ﴿ماذا قال ربكم قالوا﴾ قال: ﴿الحق﴾ أي: القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فإذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعته الشفاعة[3]، وقرئ أذن له أي أذن له الله وأذن له على البناء للمفعول وقرأ الحسن فزع مخففًا بمعنى فزع، وقرئ فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده؛ وفـرغ أي نفي الوجل عنها وأفنى من قولهم فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء ثم ترك ذكر الوجل، وأسند إلى الجار والمجرور كما تقول دفع إليّ زيد إذا علم ما المدفوع وقد تخفف وأصله فرغ الوجل عنها أي انتفي عنه وفي، ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وقرأ افرنقع عن قلوبهم بمعنى: انكشف عنها وعن أبي علقمة أنه هاج به المرار فالتف عليه الناس فلما أفاق قال: ما لكم تكأكأتم عليّ تكأكأكم على ذي جنة افرنقعوا عني، والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القمط مع زيادة الراء، وقرئ الحق بالرفع أي مقوله الحق ﴿وهو العلي الكبير﴾ ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

۞ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أمره بأن يقرّرهم بقوله: ﴿من يرزقكم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله يرزقكم الله وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ولأنهم إن تفوهوا بأنّ الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ألا ترى إلى قوله: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار﴾ حتى قال: ﴿سيقولون الله﴾، ثم قال: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ فكأنهم كانوا يقرّون بألسنتهم مرّة ومرّة كانوا يتلعثمون عنادًا وضرارًا وحذارًا من إلزام الحجة ونحوه قوله عزّ وجلّ: ﴿قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من

(1) سورة الكهف، الآية: 51.

(2) سورة النبأ، الآيتان: 37، 38.

(3) قال الزيلعي: غريب: 3/141.

دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا﴾، وأمره أن يقول لهم: بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه **﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾**، ومعناه: وإنّ أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال وهذا من الكلام لمنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف، قال: لمن خوطب به قد انصفك صاحبك وفي درجة بعد تقدّمه ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين ولكن التعريض والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته بالهوينا، ونحوه قول الرجل لصاحبه علم الله الصادق مني ومنك وإن أحدنا لكاذب ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء[1]

فإن قُلْتَ: كيف خولف بين حرفي الجرّ الداخلين على الحق والضلال؟ **قُلْتُ:** لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه وفي قراءة أبيّ وإنا أو إياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾.

هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأوّل حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين وإن أراد بالإجرام الصغائر والزلات التي لا يخلوا منها مؤمن وبالعمل الكفر والمعاصي العظام[2].

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾.

وفتح الله بينهم وهو حكمه وفصله أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار.

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: **﴿أروني﴾** وكان يراهم ويعرفهم **قُلْتُ:** أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به و**﴿كلا﴾** ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: **﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾** بعد ما حجهم، وقد نبه على تفاحش غلطهم وإن لم يقدروا الله حق قدره بقوله: **﴿هو الله العزيز الحكيم﴾** كأنه قال: أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى الله وحده أو ضمير الشأن كما في قوله تعالى: **﴿قل هو الله أحد﴾**.

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿إلا كافة للناس﴾ إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم، فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعًا للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعلها حالاً من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الراوية والعلامة ومن جعله حالاً من المجرور متقدمًا عليه فقد أخطأ لأنّ تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ، ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى لأنه لا يستوى له الخطأ الأوّل إلا بالخطأ الثاني فلا بد له من ارتكاب الخطأين.

قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾.

قرئ: **﴿ميعاد يوم﴾** وميعاد يوم وميعاد يومًا والميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو ههنا الزمان والدليل عليه قراءة من قرأ ميعاد يوم فأبدل منه اليوم.

فإن قُلْتَ: فما تأويل من أضافه إلى يوم أو نصب يومًا! **قُلْتُ:** أما الإضافة فإضافة تبيين كما تقول سحق ثوب وبعير سانية وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره لكم ميعاد أعني يومًا أو أريد يوماً من صفته كيت وكيت، ويجوز أن يكون الرفع على هذا أعني التعظيم.

فإن قُلْتَ: كيف انطبق هذا جوابًا على سؤالهم؟ **قُلْتُ:** ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتًا لا استرشادًا فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقًا لمجئ السؤال على سبيل الإنكار والتعنت وأنهم مرصدون ليوم يفاجؤهم فلا يستطيعون تأخرًا عنه ولا تقدمًا عليه.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ

---

(1) قال أحمد: وهذا تفسير مهذب، وافتنان مستعذب رددته على سمعي فزاد رونقاً بالترديد، واستعاده الخاطر كأني بطيء الفهم حين يفيد، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخر، والفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم، وذلك قولهم: أحد الأمرين لازم على الإبهام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد فتأمّله، والله الموفق.

(2) قال أحمد: فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم، وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات التزاماً للإنصاف، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطي تحقيق المعنى، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطي ذلك، والله أعلم.

لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾.

الذي بين يديه ما نزل قبل القرآن من كتب الله يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله ﷺ في كتبهم فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله عز وجل في الكفر فكفروا بها جميعًا، وقيل: الذي بين يديه يوم القيامة والمعنى أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى وأن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام: أو للمخاطب ﴿ولو ترى﴾ في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجيب فحذف الجواب، والمستضعفون هم الأتباع. والمستكبرون هم الرؤس والمقدمون.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾.

أولى الاسم أعني نحن حرف الإنكار، لأنّ الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم كأنهم قالوا: أنحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين ﴿بعد إذ جاءكم﴾ بعد أن صممتم على الدخول في الإيمان، وصحت نياتكم في اختياره بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم آمر الشهوة دون آمر النهي، فكنتم مجرمين كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا.

فإن قُلْتَ: إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية، فلم وقعت إذ مضافًا إليها؟ **قُلْتُ:** قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره، فأضيف إليها الزمان كما أضيف إلى الجمل في قولك جئتك بعد إذ جاء زيد وحينئذٍ ويومئذٍ وكان ذلك أو أن الحجاج أمير وحين خرج زيد لما أنكر المستكبرون بقولهم: أنحن صددناكم أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم: ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أن ذلك بكسبهم واختيارهم.

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾.

مكر عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا: ما كان الأجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائبًا ليلاً ونهارًا وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد، ومعنى مكر الليل والنهار: مكركم في الليل والنهار فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه، أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي، وقرئ بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين وبل مكرّ الليل والنهار بالرفع والنصب أي: تكرون الإغواء مكرًا دائبًا لا تفترون عنه.

فإن قُلْتَ: ما وجه الرفع والنصب! **قُلْتُ:** هو مبتدأ أو خبر على معنى: بل سبب ذلك مكركم أو مكركم أو مكركم أو مكركم سبب ذلك والنصب على بل تكرون الإغواء مكرّ الليل والنهار.

فإن قُلْتَ: لم قيل قال: الذين استكبروا بغير عاطف وقيل وقال: الذين استضعفوا **قُلْتُ:** لأنّ الذين استضعفوا أمر ولا كلامهم فجئ بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جئ بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأوّل.

فإن قُلْتَ: من صاحب الضمير في ﴿وأسروا﴾ **قُلْتُ:** الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون في قوله: ﴿إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾ يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين ﴿في أعناق الذين كفروا﴾ أي: في أعناقهم فجاء بالصريح للتنويه بذمهم وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال، وعن قتادة أسروا الكلام بذلك بينهم وقيل أسروا الندامة أظهروها وهو من الأضداد.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾.

هذا تسلية لرسول الله ﷺ مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة وزخارفها والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم أي: الفريقين خير مقامًا، وأحسن نديًا وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ: أهل مكة وكاثروه بنحو ما كاثروه به وقاسوا أمر الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمر الدنيا واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه لما حرّمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا: ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرًا إلى أحوالهم في الدنيا.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾.

وقد أبطل الله تعالى حسبانهم بأنّ الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق تضييقه قال

تعالى: ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾[1]، وقرئ يقدر بالتشديد والتخفيف.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

أراد وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم وذلك أنّ الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدها أي ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب، وقرأ الحسن باللاتي تقرّبكم لأنها جماعات، وقرئ بالذي يقرّبكم أي بالشيء الذي يقرّبكم، والزلفى والزلفة كالكربى والكربة ومحلها النصب أي: تقرّبكم قربة كقوله تعالى: ﴿أنبتكم من الأرض نباتًا﴾[2] ﴿إلا من آمن﴾ استثناء من كم في تقرّبكم والمعنى أنّ الأموال لا تقرّب أحدًا إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله والأولاد لا تقرّب أحدًا إلا من علمهم الخير وفقههم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة جزاء ﴿الضعف﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف، ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرًا وقرئ جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا الضعف وجزاء الضعف مرفوعان الضعف بدل من جزاء، قرئ في الغرفات بضم الراء وفتحها وسكونها وفي الغرفة.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فهو يخلفه﴾ فهو يعوضه لا معوّض سواه إما عاجلاً بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد، وإما آجلاً بالثواب الذي كل خلف دونه، وعن مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه، فليقتصد فإنّ الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبق طول عمره في فقر ولا يتاولن وما أنفقتم من شيء، فهو يخلفه فإن هذا في الآخرة ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه ﴿خير الرازقين﴾ وأعلاهم رب العزة بأنّ كل ما رزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق عبده أو رجل يرزق عياله فهو من رزق الله أجراه على أيدي هؤلاء وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق، وعن بعضهم الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشته لا يجد وواجد لا يشتهي.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر إياك أعني واسمعي يا جاره ونحوه قوله تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾[3] وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين براء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ويسأل ويجيبوا فيكون تقريعهم أشدّ، وتعبيرهم أبلغ وخجلهم أعظم وهو أنه ألزم ويكون اقتصاص ذلك لطفًا لمن سمعه وزاجر المن اقتص عليه والموالاة خلاف المعاداة ومنها اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وهي مفاعلة من الولي وهو القرب كما أنّ المعاداة من العدواء وهي البعد والولي يقع على الموالي والموالي جميعًا والمعنى: أنت الذي تواليه من دونهم إذ لا موالاة بيننا وبينهم فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأنّ من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك.

﴿بل كانوا يعبدون الجنّ﴾ يريدون الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله وقيل: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها، وقرئ: ﴿نحشرهم﴾ ونقول بالنون والياء، الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرّة لأحد لأنّ الدار دار ثواب وعقاب والمثيب والمعاقب هو الله فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف والناس فيها مخلى بينهم يتضارّون ويتنافعون والمراد أنه لا ضارّ ولا نافع يومئذٍ إلا هو وحده، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله:

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ونقول للذين ظلموا﴾ معطوفًا على لا يملك، الإشارة الأولى إلى رسول الله ﷺ والثانية إلى القرآن والثالثة إلى الحق والحق أمر النبوّة كله ودين الإسلام كما هو وفي قوله:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وقال الذين كفروا﴾ وفي أن لم يقل وقالوا وفي قوله ﴿للحق لما جاءهم﴾ وما في اللامين من الإشارة إلى

(1) سورة الطلاق، الآية: 7.
(2) سورة نوح، الآية: 17.
(3) سورة المائدة، الآية: 116.

القائلين، والمقول فيه وفي لما من المبادهة بالكفر دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد وتعجيب من أمرهم بليغ كأنه قال وقال أولئك الكفرة المتمرّدون بجراءتهم على الله، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمّله سماه سحرًا.

وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴿٤٤﴾.

﴿وما آتيناهم﴾ كتبًا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ولا أرسلنا إليهم نذيرًا ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا كما قال عز وجل: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطانًا﴾، فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو وصفهم بأنهم قوم أمّيون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال: أم آتيناهم كتابًا من قبله فهم به مستمسكون، فليس لتكذيبهم وجه متشبث ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين نحن أهل كتب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله، ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله:

وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾.

﴿وكذب الذين﴾ تقدّموهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوّة الأجرام وكثرة الأموال فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون فما بال هؤلاء وقرئ يدرّسونها من التدريس وهو تكرير الدرس أو من درّس الكتاب ودرس الكتب ويدّرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس والمعشار كالمرباع وهما العشر والربع.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿فكذبوا رسلي﴾ وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم. قُلْتُ: لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكذيب واقدموا عليه جعل تكذيب الرسل مسببًا عنه ونظيره أن يقول القائل: اقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ويجوز أن ينعطف على قوله وما بلغوا كقولك ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان نكير﴾ أي للمكذبين الأوّلين، فليحذروا من مثله ﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله:

۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾.

﴿أن تقوموا﴾ على أنه عطف بيان لها وأراد بقيامهم إما القيام عن مجلس رسول الله ﷺ وتفرّقهم عن مجتمعهم عنده وإما القيام الذي لا يراد به المثول على القدمين ولكن الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا لوجه الله خالصًا متفرّقين اثنين اثنين وواحدًا واحدًا ﴿ثم تتفكروا﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به أمّا الاثنان فيتفكران ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادّة الحق وسننه وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم والذي أوجب تفرّقهم مثنى وفرادى أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر ويعمي البصائر ويمنع من الروية ويخلط القول ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب وأراهم بقوله: ﴿ما بصاحبكم من جنة﴾ أنّ هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة جميعًا لا يتصدّى لادعاء مثله إلا رجلان إمّا مجنون لا يبالي بافتضاحه إذا طولب بالبرهان فعجز بل لا يدري ما الافتضاح وما رقبة العواقب وإمّا عاقل راجح العقل مرشح للنبوّة مختار من أهل الدنيا لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه وإلا فما يجدي على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه وقد علمتم أنّ محمدًا ﷺ ما به من جنة بل علمتموه أرجح قريش عقلاً وأرزنهم حلمًا وأثقبهم ذهنًا وآصلهم رأيًا وأصدقهم قولاً وأنزههم نفسًا وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال، ويمدحون به فكان مظنة لأن تظنوا به الخير وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب، وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية فإذا أتى بها تبين أنه نذير مبين.

فإن قُلْتَ: ما بصاحبكم بم يتعلق قُلْتُ: يجوز أن يكون كلامًا مستأنفًا تنبيهًا من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوّز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿بين يدي عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نسم الساعة»[1].

قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾.

﴿فهو لكم﴾ جزاء الشرط الذي هو قوله ما سألتكم من أجر تقديره أيّ شيء سألتكم من أجر فهو لكم كقوله تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾[2] وفيه معنيان أحدهما نفى مسألة الأجر رأسًا كما يقول الرجل لصاحبه:

(1) تقدم في سورة الأنبياء.

(2) سورة فاطر، الآية: 2.

إن أعطيتني شيئًا فخذه، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئًا ولكنه يريد به البت لتعليقه الأخذ بما لم يكن والثاني أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾[1] في قوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودّة في القربى﴾[2] لأنّ اتخاذ السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعهم وكذلك المودّة في القرابة لأنّ القرابة قد انتظمته وإياهم ﴿على كل شيء شهيد﴾ حفيظ مهيمن يعلم أني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه ولا أطمع منكم في شيء، القذف والرمي تزجية السهم، ونحوه بدفع واعتماد ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب أن اقذفيه في التابوت، ومعنى ﴿يقذف بالحق﴾ يلقيه وينزله إلى أنبيائه أو يرمى به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿علام الغيوب﴾ رفع محمول على محل إن واسمها أو على المستكن في يقذف أو هو خبر مبتدأ محذوف، وقرئ بالنصب صفة لربي أو على المدح وقرئ الغيوب بالحركات الثلاث فالغيوب كالبيوت والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفي جدًا.

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾.

والحيّ إمّا إن يبدئ فعلاً أو يعيد فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة فجعلوا قولهم لا يبدئ ولا يعيد مثلاً في الهلاك ومنه قول عبيد:

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيد

والمعنى جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى: «جاء الحق وزهق الباطل» وعن ابن مسعود رضي الله عنه دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنمًا فجعل يطعنها بعود نبعة ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»[3]، و﴿الحق﴾ القرآن وقيل الإسلام وقيل: السيف وقيل: الباطل إبليس لعنه الله أي ما ينشئ خلقًا ولا يعيده، المنشئ والباعث هو الله تعالى وعن الحسن لا يبدئ لأهله خيرًا ولا يعيده أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة وقال الزجاج أيّ شيء ينشئ إبليس ويعيده فجعله للاستفهام وقيل: للشيطان الباطل لأنه صاحب الباطل أو لأنه هالك كما قيل له: الشيطان من شاط إذا هلك.

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾.

قرئ: ﴿ضللت﴾ أضلّ بفتح العين مع كسرها وضللت أضلّ بكسرها مع فتحها وهما لغتان نحو ظللت أظلّ وظللت أظلّ، وقرئ إضلّ بكسر الهمزة مع فتح العين.

فإن قُلْتَ: أين التقابل بين قوله فإنما أضلّ على نفسي وقوله: ﴿فبما يوحي إليّ ربي﴾، وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فإنما أهتدي لها كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها أو يقال: فإنما أضل بنفسي **قُلْتُ:** هما متقابلان من جهة المعنى لأنّ النفس كل ما عليها فهو بها، أعني أن كل ما هو وبال عليها وضارّ لها فهو بها وبسببها لأنها الأمّارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه وهذا حكم عامّ لكل مكلف، وإنما أمر رسوله ﷺ أن يسنده إلى نفسه لأنّ الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به ﴿إنه سميع قريب﴾ يدرك قول كل ضالّ ومهتد وفعله لا يخفى عليه منهما شيء.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾.

﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف يعني: لرأيت أمرًا عظيمًا وحالاً هائلة ولو وإذ والأفعال التي هي: فزعوا وأخذوا وحيل بينهم كلها للمضي والمراد بها الاستقبال لأنّ ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجه لتحققه ووقت الفزع وقت البعث وقيام الساعة وقيل: وقت الموت وقيل: يوم بدر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في خسف البيداء وذلك أنّ ثمانين ألفًا يغزون الكعبة ليخربوها، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم ﴿فلا فوت﴾ فلا يفوتون الله ولا يسبقونه وقرئ فلا فوت، والأخذ من مكان قريب من الموقف إلى النار إذا بعثوا أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا أو من صحراء بدر إلى القليب أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله وأخذوا **قُلْتُ:** فيه وجهان العطف على فزعوا أي: فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم أو على لا فوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا وقرئ وأخذ وهو معطوف على محل لا فوت ومعناه فلا فوت هناك وهناك أخذ.

وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾.

﴿آمنا به﴾ بمحمد ﷺ لمرور ذكره في قوله ما بصاحبكم من جنة، والتناوش والتناول أخوان إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب يقال ناشه ينوشه وتناوشه القوم ويقال تناوشوا في الحرب ناش بعضهم بعضًا وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه، وقرئ التناؤش همزت الواو المضمومة كما همزت في أجؤه وأدؤر وعن أبي عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 57.

(2) سورة الشورى، الآية: 23.

(3) تقدم في سورة الإسراء.

من قولهم ناشت إذا أبطأت وتأخرت ومنه البيت:

تمني نئيشا أن يكون أطاعني

أي: أخيرًا.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ويقذفون﴾ معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعني: وكانوا يتكلمون ﴿بالغيب﴾ ويأتون به ﴿من مكان بعيد﴾ وهو قولهم في رسول الله ﷺ شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحرًا ولا شعرًا ولا كذبًا وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شيء مما جاء به الشعر والسحر، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت الكذب والزور وقرئ ويقذفون بالغيب على البناء للمفعول أي يأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه وإن شئت فعلقه بقوله، وقالوا آمنا به على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئًا من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبًا عنه شاحطًا والغيب الشيء الغائب، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله: بين يدي عذاب شديد، وكانوا يقولون وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا فهذا كان قذفهم بالغيب، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لأنّ دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿ما يشتهون﴾ من نفع الإيمان يومئذٍ والنجاة به من النار والفوز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم ارجعنا نعمل صالحًا ﴿بأشياعهم﴾ بأشباههم من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿مريب﴾ إما من أرابه إذا أوقعه في الريبة والتهمة أو من أراب الرجل إذا صار ذا ريبة ودخل فيها وكلاهما مجاز إلا أنّ بينهما فريقًا وهو أنّ المريب من الأوّل منقول ممن يصح أن يكون مريبًا من الأعيان إلى المعنى، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول شعر شاعر. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقًا ومصافحًا[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطـر مكية

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

﴿فاطر السموات﴾ مبتدئها ومبتدعها وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها[2] وقرئ الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة وقرئ جاعل الملائكة بالرفع على المدح ﴿رسلاً﴾ بضم السين وسكونها ﴿أولي أجنحة﴾ أصحاب أجنحة وأولو اسم جمع لذا، وكما أن أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما في المتمكنة المخاض والخفة ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ صفات لأجنحة وإنما لم تنصرف لتكرار العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حاذمة وعن تكرير إلى غير تكرير، وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها ألا تراك تقول مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها والمعنى أن الملائكة خلقًا أجنحتهم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان وخلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة وخلقاً أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته والأصل الجناحان لأنهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل وذلك أقوى للطيران وأعون عليه.

فإن **قُلْتَ**: قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شقّ نصفه فما صورة الثلاثة **قُلْتُ**: لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة أو لعله لغير الطيران فقد مرّ بي في بعض الكتب أنّ صنفًا من الملائكة لهم ستة أجنحة، فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله، وعن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح[3]. وروي أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال: إنك لن تطيق ذلك قال: إني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ﷺ في ليلة مقمرة فأتاه جبريل في صورته فغشي على النبي ﷺ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال: سبحان الله ما كنت أرى أن شيئًا من الخلق هكذا، فقال:

---

(1) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، ورواه الواحدي في التفسير، الزيلعي 3/142.

(2) تقدم في الأنعام.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره (الحديث رقم: 6428).

جبريل فكيف لو رأيت إسرافيل له اثنا عشر جناحًا جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير[1] وروي عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ «هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن»[2] وقيل: الخط الحسن وعن قتادة الملاحة في العينين والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس وذلاقة في اللسان ولباقة في التكلم، وحسن تأن في مزاولة الأمور وما أشبه نلك مما لا يحيط به الوصف.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

استعير الفتح للإطلاق والإرسال ألا ترى إلى قوله: ﴿فلا مرسل له من بعده﴾ مكان لا فاتح له يعني: أي شيء يطلق الله من رحمة أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير نلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها، وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام كأنه قال من أية رحمة كانت سماوية، أو أرضية فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه.

فإن قُلْتَ: لم أنث الضمير أوّلاً ثم نكر آخرًا وهو راجع في الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط قُلْتُ: هما لغتان الحمل على المعنى، وعلى اللفظ والمتكلم على الخيرة فيهما فأنث على معنى الرحمة ونكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه ولأنّ الأوّل فسر بالرحمة، فحسن اتباع الضمير التفسير ولم يفسر الثاني فترك على أصل التنكير. وقرىء فلا مرسل لها.

فإن قُلْتَ: لا بد للثاني من تفسير فما تفسيره قُلْتُ: يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأوّل ولكنه ترك لدلالته عليه وأن يكون مطلقًا في كل ما يمسكه من غضبه ورحمته وإنما فسر الأوّل دون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه.

فإن قُلْتَ: فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما؟ قُلْتُ: إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها وهو الذي أراده ابن عباس رضي الله عنهما إن قاله فمقبول وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب، وإن لم يشأ لم يتب فمردود لأنّ الله تعالى يشاء التوبة أبدًا ولا يجوز عليه أن لا يشاءها ﴿من بعده﴾ من بعد إمساكه كقوله تعالى: ﴿من يهديه من بعد الله﴾ [3]فبأي حديث بعد الله أي من بعد هدايته وبعد آياته ﴿وهو العزيز﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿الحكيم﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

ليس المراد بنكر النعمة نكرها باللسان فقط ولكن به القلب وحفظها من الكفران والغمط وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه: انكر أيادي عندك؛ يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها والخطاب عام للجميع لأنّ جميعهم مغمورون في نعمة الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يريد يا أهل مكة انكروا نعمة الله عليكم حيث أسكنكم حرمه ومنعكم من جميع العالم والناس يتخطفون من حولكم وعنه نعمة الله العافية، وقرىء غير الله بالحركات الثلاث فالجرّ والرفع على الوصف لفظًا ومحلاً والنصب على الاستثناء.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿يرزقكم﴾! قُلْتُ: يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق، وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق بإضمار يرزقكم وأوقعت يرزقكم تفسيرًا له، أو جعلته كلاماً مبتدأ[4] بعد قوله ﴿هل من خالق غير الله﴾.

فإن قُلْتَ: هل فيه دليل على أنّ الخالق لا يطلق على غير الله تعالى! قُلْتُ: نعم إن جعلت يرزقكم كلامًا مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة وأمّا على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض وخرج من الإطلاق فكيف يستشهد به على اختصاصه بالإطلاق[5]، والرزق من السماء المطر ومن الأرض النبات ﴿لا إله إلا هو﴾ جملة مفصولة لا محل لها مثل يرزقكم في الوجه الثالث، ولو وصلتها كما وصلت يرزقكم لم يساعد عليه المعنى لأنّ قولك هل من خالق آخر

---

(1) نكره الثعلبي في تفسيره، ورواه ابن المبارك في كتاب: الزهد 3/ 146.

(2) عزاه الإمام القرطبي في تفسيره للإمام القشيري 14/320.

(3) سورة الجاثية، الآية: 23.

(4) قال أحمد: والوجه المؤخر لوجهها.

(5) قال أحمد: القدرية إذا قرعت هذه الآية أسماعهم قالوا بجراة على الله تعالى: نعم ثم خالق غير الله؛ لأنّ كل أحد عندهم يخلق فعل نفسه، فلهذا رأيت الزمخشري وسع الدائرة وجلب الوجوه الشاردة النافرة، وجعل الوجهين يطابقان معتقده في إثبات خالق غير الله ووجهاً هو الحق والظاهر، وأخره في النكر تأسياً له، = والذي يحقق الوجه الثالث وأنه هو المراد أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشركون إذا سئلوا عن رازقهم من السموات والأرض، قالوا: الله فقرروا بنلك، وقرعوا به إقامة للحجة عليهم بإقرارهم، ولو كان على غير هذا الوجه قيد لكان مفهومه إثبات خالق غير الله، لكنه لا يرزق وهؤلاء الكفرة قد تبرؤوا عن نلك فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية، وأمّا من حيث النظم اللفظي فلأنّ الجملتين اللتين هما قوله: يرزقكم، وقوله: لا إله إلا هو سيقتا سياقاً واحداً، والثانية مفصولة اتفاقاً مما تقدّم، فكذلك وزينتها.

سوى الله لا إله إلاّ ذلك الخالق غير مستقيم لأنّ قولك هل من خالق سوى الله إثبات لله، فلو ذهبت تقول ذلك كنت مناقضًا بالنفي بعد الإثبات ﴿فأنى تؤفكون﴾ فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾.

نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها وسلى رسوله ﷺ بأنّ له في الأنبياء قبله أسوة حسنة ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه، وقرئ: ﴿ترجع﴾ بضم التاء وفتحها.

فإن قُلْتَ: ما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له **قُلْتُ:** معناه وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك، فوضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب أعني بالتكذيب عن التأسي.

فإن قُلْتَ: ما معنى التنكير في رسل؟ **قُلْتُ:** معناه، فقد كذبت رسل أي رسل ذوو عدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك وهذا أسلى له وأحث على المصابرة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾.

وعد الله الجزاء بالثواب والعقاب ﴿فلا تغرنكم﴾ فلا تخدعنكم ﴿الدنيا﴾ ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ لا يقولون لكم اعملوا ما شئتم، فإن الله غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة(1) والغرور الشيطان لأنّ ذلك ديدنه وقرئ بالضم، وهو مصدر غره كاللزوم والنهوك أو جمع غار كقاعد قعود.

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾.

أخبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدوّ مبين واقتص علينا قصته وما فعل بأبينا آدم عليه السلام، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوكم الذي لا عدوّ أعرق في العداوة منه وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فاتخذوه عدوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم، ثم لخص سرّ أمره وخطأ من اتبعه بأنّ غرضه الذي يؤمّه في دعوة شيعته ومتبعي خطواته هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك وأن يكونوا من أصحاب السعير، ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء ليقطع الأطماع الفارغة والأماني الكاذبة فبني الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾.

لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا قال لنبيه:

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾.

﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا﴾ يعني: أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فكأن رسول الله ﷺ قال لا فقال: ﴿فإنّ الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدي عليه المصالح حتى يستوجب ذلك خذلان الله تعالى، وتخليته وشأنه فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق آمر النهي ويعتنق طاعة الهوى حتى يرى القبيح حسنًا، والحسن قبيحًا كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه ويقعد تحت قول أبي نواس:

اسقني حتى تراني ... حسنًا عند القبيح

وإذا خذل الله المصممين على الكفر وخلاهم وشأنهم فإنّ على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقى بإلا إلى ذكرهم ولا يحزن، ولا يتحسر عليهم اقتداء بسنة الله تعالى في خذلانهم وتخليتهم وذكر الزجاج أنّ المعنى: أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه، أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله فحذف لدلالة فإنّ الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. عليه حسرات مفعول له يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات وعليهم صلة تذهب كما تقول هلك عليه حبًا ومات عليه حزنًا أو هو بيان للمتحسر عليه، ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأنّ المصدر لا يتقدّم عليه صلته ويجوز أن يكون حالاً كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما قال جرير:

مشق الهواجر لحمهن مع السرى ... حتى ذهبن كلاكلاً وصدورًا

يريد رجعن كلاً كلاً وصدورًا أي لم يبق إلا كلاً كلها وصدورها ومنه قوله:

فعلى أثرهم تساقط نفسي ... حسرات وذكرهم لي سقام

وقرئ: ﴿فلا تذهب نفسك﴾ ﴿إنّ الله عليم بما يصنعون﴾ وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

---

(1) قال أحمد: هو يعرّض بأهل السنة في اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للموحد وإن لم يكن توبة وهذا لا يناقض صدق وعده تعالى، لأن الله تعالى حيث توعد على الكبائر قرن الوعد بالمشيئة = في مثل قوله لهم: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، فهم إذاً مصدّقون بوعد الله تعالى موقنون به على حسب ما ورد.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾.

وقرئ: ﴿أرسل الريح﴾

فإن قُلْتَ: لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ **قُلْتُ:** ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شرًا.

بأني قد لقيت الغول تهوي ... بسهب كالصحيفة صحصحان

أضربها بلا دهش فخرت ... صريعًا لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياهم ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدّة، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه والكاف في ﴿كذلك﴾ في محلّ الرفع أي مثل إحياء الموات نشور الأموات، وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه فقال: «هل مررت بوادي أهلك محلاً ثم مررت به يهزّ خضرًا». قال: نعم قال: «فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه»[1]. وقيل: يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾.

كان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال عز وجل: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًا﴾ والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال تعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإنّ العزة لله جميعًا﴾[2] فبين أن لا عزة إلاّ لله ولأوليائه، وقال: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ والمعنى: فليطلبها عند الله فوضع قوله ﴿فلله العزة جميعًا﴾ موضعه استغناء به عنه لدلالته عليه لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهي عند الأبرار، تريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه ومعنى فلله العزة جميعًا أنّ العزة كلها مختصة بالله: عزة الدنيا وعزة الآخرة، ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ والكلم الطيب لا إلّه إلاّ الله. عن ابن عباس رضي الله عنهما يعني: أنّ هذه الكلم لا تقبل ولا تصعد إلى السماء، فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة كما قال عز وجل: إنّ كتاب الأبرار لفي عليين إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها وقيل: الرافع الكلم والمرفوع العمل لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد وقيل: الرافع هو الله تعالى والمرفوع العمل وقيل: الكلم الطيب كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل، وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك وعن النبي ﷺ هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء، فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه[3]، وفي الحديث لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا يقبل قولاً ولا عملاً إلا بنية ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة[4]، وعن ابن المقفع: قول بلا عمل كثريد بلا دسم وسحاب بلا مطر وقوس بلا وتر. وقرئ إليه يصعد الكلم الطيب على البناء للمفعول وإليه يصعد الكلم الطيب على تسمية الفاعل من أصعد والمصعد هو الرجل أي يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب وإليه يصعد الكلام الطيب، وقرئ والعمل الصالح يرفعه بنصب العمل والرافع الكلم أو الله عز وجل.

فإن قُلْتَ: مكر فعل غير متعدّ لا يقال مكر فلان عمله فبم نصب ﴿السيئات﴾؟ **قُلْتُ:** هذه صفة للمصدر أو لما في حكمه كقوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾[5] أصله والذين مكروا المكرات السيئات أو أصناف المكر السيئات وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة وتداوروا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله ﷺ إما إثباته أو قتله أو إخراجه كما حكى الله سبحانه عنهم: ﴿إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ يعني ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور أي: يكسد ويفسد دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعًا وحقق فيهم قوله: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[6] وقوله: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾[7].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ

---

(1) أخرجه أحمد في المسند 11/4. والحاكم في المستدرك 560/4.
(2) سورة النساء، الآية: 139.
(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 426/2.
(4) رواه الخطيب البغدادي في كتاب: الجامع لآداب الراوي والسامع، الزيلعي 149/3.
(5) سورة فاطر، الآية: 43.
(6) سورة الأنفال، الآية: 30.
(7) سورة فاطر، الآية: 43.

مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾.

﴿أزواجًا﴾ أصنافًا أو ذكرانًا وإناثًا كقوله تعالى: ﴿أو يزوّجهم ذكرانًا وإناثًا﴾، وعن قتادة رضي الله عنه زوج بعضهم بعضًا **﴿بعلمه﴾** في موضع الحال أي إلا معلومة له.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: وما يعمر من معمر؟ **قُلْتُ:** معناه وما يعمر من أحد وإنما سماه معمرًا بما هو صائر إليه.

فإن قُلْتَ: الإنسان إما معمر أي: طويل العمر أو منقوص العمر أي: قصيره فإما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله: **﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾**؟ **قُلْتُ:** هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس المستفيض يقولون: لا يثيب الله عبدًا ولا يعاقبه إلا بحق، وما تنعمت بلدًا ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي، وفيه تأويل آخر وهو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب وصورته أن يكتب في اللوح إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة وإن حج وغزا فعمره ستون سنة فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر وإذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون فقد نقص من عمره الذي هو الغاية، وهو الستون وإليه أشار رسول الله ﷺ في قوله: «إنّ الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار»[1]. وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضي الله عنه: لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله[2] فقيل لكعب: أليس قد قال الله: ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[3] قال: فقد قال الله: وما يعمر من معمر وقد استفاض على الألسنة أطال الله بقاءك وفسح في مدتك وما أشبهه وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخره وعن قتادة رضي الله عنه المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة والكتاب اللوح، عن ابن عباس رضي الله عنهما ويجوز أن يراد بكتاب الله علم الله أو صحيفة الإنسان وقرئ ولا ينقص على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف.

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾.

ضرب البحرين العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه **﴿ومن كل﴾** أي ومن كل واحد منهما **﴿تاكلون لحمًا طريًا﴾** وهو السمك **﴿وتستخرجون حلية﴾** وهي اللؤلؤ والمرجان **﴿وترى الفلك فيه﴾** في كل **﴿مواخر﴾** شواق للماء بجريها يقال: مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب بنات مخر لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره **﴿من فضله﴾** من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه، وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل كأنما قيل: لتبتغوا ولتشكروا، والفرات الذي يكسر العطش. والسائغ المريّ السهل الانحدار لعذوبته وقرئ سيغ بوزن سيد وسيغ بالتخفيف وملح على فعل، والأجاج الذي يحرق بملوحته ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾[4]، ثم قال: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإنّ منها لما يشقق، فيخرج منه الماء وإنّ منها لما يهبط من خشية الله﴾[5].

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾.

﴿ذلكم﴾ مبتدأ و**﴿الله ربكم له الملك﴾** أخبار مترادفة أو الله ربكم خبران وله الملك جملة مبتدأة واقعة في قران قوله: **﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾** ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة، أو عطف بيان وربكم خبرًا لولا أنّ المعنى يأباه والقطمير لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها.

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾.

إن تدعوا الأوثان **﴿لا يسمعوا دعاءكم﴾** لأنهم جماد **﴿ولو سمعوا﴾** على سبيل الفرض والتمثيل لـ **﴿ما استجابوا لكم﴾** لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلّهية، ويتبرؤون منها وقيل: ما نفعوكم **﴿يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾** ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به ويريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به والمعنى أنّ هذا الذي

---

(1) أخرجه أحمد في المسند 6/159.
(2) عزاه الزيلعي لإسحاق بن راهويه 3/151.
(3) سورة النحل، الآية: 61 وسورة الأعراف، الآية: 34.
(4) سورة البقرة، الآية: 74.
(5) سورة البقرة، الآية: 74.

أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأني خبير بما أخبرت به وقرئ يدعون بالياء والباء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

فإن قُلْتَ: لم عرّف الفقراء؟ قُلْتُ: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدّة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس، وغيرهم لأنّ الفقر مما يتبع الضعف وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله وخلق الإنسان ضعيفًا وقال سبحانه وتعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾[1] ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء.

فإن قُلْتَ: قد قوبل الفقراء بالغنى، فما فائدة الحميد؟ قُلْتُ: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم وليس كل غني نافعًا بغناه إلا إذا كان الغني جوادًا منعمًا، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد ذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه الحميد على السنة مؤمنيهم.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿بعزيز﴾ بممتنع وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له أندادًا وكفرهم بآياته ومعاصيهم كما قال: وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم وعن ابن عباس رضي الله عنهما يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئًا.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

الوزر والوقر أخوان ووزر الشيء إذا حمله، والوازرة صفة للنفس والمعنى أنّ كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته لا تؤخذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولي بالولي والجار بالجار.

فإن قُلْتَ: هلا قيل ولا تزر نفس وزر أخرى ولم قيل وازرة قُلْتُ: لأنّ المعنى: أنّ النفوس الوازرات لا ترى منهنّ واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها.

فإن قُلْتَ: كيف توفق بين هذا وبين قوله وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم قُلْتُ: تلك الآية في الضالين المضلين وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم بقوله تعالى: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين معنى قوله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وبين معنى ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾؟ قُلْتُ: الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه وأنه تعالى لا يؤاخذ نفسًا بغير ذنبها والثاني في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث حتى أنّ نفسًا قد أثقلتها الأوزار وبهظتها لودعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وإن كان المدعوّ بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ.

فإن قُلْتَ: إلام أسند كان في ﴿ولو كان ذا قربى﴾ قُلْتُ: إلى المدعوّ المفهوم من قوله وإن تدع مثقلة.

فإن قُلْتَ: فلم ترك ذكر المدعو؟ قُلْتُ: ليعمّ ويشمل كل مدعو.

فإن قُلْتَ: كيف استقام إضمار العام ولا يصح أن يكون العام ذا قربى للمثقلة قُلْتُ: هو من العموم الكائن على طريق البدل.

فإن قُلْتَ: ما تقول فيمن قرأ ولو كان ذو قربى على كان التامّة كقوله تعالى: وإن كان ذو عسرة قُلْتُ: نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأنّ المعنى على أن المثقلة إن دعت أحدًا إلى حملها لا يحمل منه شيء وإن كان مدعوّها ذا قربى وهو معنى صحيح ملتئم ولو قلت، ولو وجد ذو قربى لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه على أنّ ههنا ما ساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته ﴿بالغيب﴾ حال من الفاعل أو المفعول أي يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائبًا عنهم وقيل: بالغيب في السر وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ من أصحابه فكانت عادتهم المستمرّة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوها منارًا منصوبًا وعلمًا مرفوعًا يعني إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون متمرّديهم وأهل عنادهم ﴿ومن تزكى﴾ ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي، وقرئ ومن أزكى فإنما يزكي وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي ﴿وإلى الله المصير﴾ وعد للمتزكين بالثواب.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله إنما تنذر بما قبله؟ قُلْتُ: لما غضب عليهم في قوله إن يشأ يذهبكم اتبعه الإنذار بيوم القيامة وذكر أهوالها، ثم قال: إنما تنذر كان رسول الله ﷺ أسمعهم ذلك فلم ينفع فنزل إنما تنذر أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

(1) سورة الروم، الآية: 54.

﴿الأعمى والبصير﴾ مثل للكافر والمؤمن كما ضرب البحرين مثلاً لهما أو للصنم والله عزّ وجلّ.

وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾.

والظلمات والنور والظلّ والحرور مثلاً للحق والباطل وما يؤدّيان إليه من الثواب والعقاب.

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾.

والأحياء والأموات مثل الذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وأصروا على الكفر. والحرور السموم إلا أنّ السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار وقيل: بالليل خاصة.

فإن قُلْتَ: لا المقرونة بواو العطف ما هي؟ قُلْتُ: إذا وقعت الواو في النفي قرنت بها لتاكيد معنى النفي.

فإن قُلْتَ: هل من فرق بين هذه الواوات؟ قُلْتُ: بعضها ضمت شفعًا إلى شفع وبعضها وترًا إلى وتر ﴿إنّ الله يسمع من يشاء﴾ يعني: انه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه فيهدي الذي قد علم أنّ الهداية تنفع فيه، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه وأمّا أنت فخفي عليك أمرهم فلذلك تحرص وتتهالك على إسلام قوم من المخذولين ومثلك في ذلك مثل من يريد أن يسمع المقبورين وينذر وذلك ما لا سبيل إليه ثم قال:

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾.

﴿إن انت إلا نذير﴾ أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع وإن كان من المصرين فلا عليك ويحتمل أنّ الله يسمع من يشاء أنه قادر على أن يهدي المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق، وأما انت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى.

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾.

﴿بالحق﴾ حال من أحد الضميرين يعني: محقًا أو محقين أو صفة للمصدر أي: إرسالاً مصحوبًا بالحق أو صلة لبشير ونذير على بشيرًا بالوعد الحق ونذيرًا بالوعيد الحق، والأمّة الجماعة الكثيرة قال الله تعالى: ﴿وجد عليه أمّة من الناس﴾(1) ويقال لأهل كل عصر: أمّة وفي حدود المتكلمين الأمّة هم المصدّقون بالرسول ﷺ دون المبعوث إليهم وهم الذين يعتبر إجماعهم والمراد ههنا أهل العصر.

فإن قُلْتَ: كم من أمّة في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير؟ قُلْتُ: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمدًا ﷺ.

فإن قُلْتَ: كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؟ قُلْتُ: لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة دلّ ذكرها على ذكرها لا سيما قد اشتملت الآية على ذكرهما.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾.

﴿بالبينات﴾ بالشواهد على صحة النبوّة وهي المعجزات ﴿وبالزبر﴾ وبالصحف ﴿وبالكتاب المنير﴾ نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم اسند المجيء بها إليهم إسنادًا مطلقًا وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات وبعضها في بعضهم وهي الزبر والكتاب وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾.

﴿الوانها﴾ اجناسها من الزمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها والجدد: الخطط والطرائق قال لبيد: أو مذهب جدد على ألواحه، ويقال جدت الحمار للخطة السوداء على ظهره وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه ﴿وغرابيب﴾ معطوف على بيض أو على جدد كانه قيل: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد غرابيب وعن عكرمة رضي الله عنه هي الجبال الطوال السود.

فإن قُلْتَ: الغربيب تاكيد للأسود يقال: أسود غربيب وأسود حلكوك وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب ومن حق التاكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع وأبيض يقق وما أشبه ذلك. قُلْتُ: وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيرًا لما أضمر كقول النابغة والمؤمن العائذات الطير، وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الإظهار والإضمار جميعًا ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد﴾ بمعنى ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود حتى يؤل إلى قولك ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال ثمرات مختلفًا ألوانها.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾.

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾ يعني: ومنهم بعض مختلف ألوانه وقرئ ألوانها وقرأ

---

(1) سورة القصص، الآية: 23.

الزهري جدد بالضم جمع جديدة وهي الجدّة يقال جديدة وجدد وجدائد كسفينة وسفن وسفائن وقد فسر بها قول أبي ذؤيب يصف حمار وحش:

جون السراة له جدائد أربع

وروي عنه جدد بفتحتين وهو الطريق الواضح المفسر وضعه موضع لطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض، وقرئ والدواب مخففًا ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ ولا الضالين لأنّ كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين فحرّك ذاك أوّلهما وحذف هذا آخرهما وقوله ﴿كذلك﴾ أي كاختلاف الثمرات والجبال المراد العلماء به الذين علموه بصفاته وعدله وتوحيده وما يجوز عليه، وما لا يجوز فعظموه وقدّروه حق قدره وخشوه من خشيته ومن ازداد به علمًا ازداد منه خوفًا ومن كان علمه به أقل آمن وفي الحديث: «أعلمكم بالله أشدّكم له خشية»[1]. وعن مسروق: كفى بالمرء علمًا أن يخشى وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم فقال: العالم من خشي الله وقيل: نزلت في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه.

فإن قُلْتَ: هل يختلف المعنى إذا قدّم المفعول في هذا الكلام أو أخر؟ **قُلْتُ**: لا بدّ من ذلك فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى إنّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله تعالى: ﴿ولا يخشون أحدًا إلا الله﴾[2] وهما معنيان مختلفان.

فإن قُلْتَ: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ **قُلْتُ**: لما قال ألم تر بمعنى ألم تعلم أنّ الله أنزل من السماء ماء وعدّد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته اتبع ذلك ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ كأنه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه وعن النبي ﷺ: «أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به»[3].

فإن قُلْتَ: فما وجه قراءة من قرأ: إنما يخشى الله من عباده العلماء وهو عمر بن عبد العزيز، ويحكى عن أبي حنيفة؟ **قُلْتُ**: الخشية في هذه القراءة استعارة والمعنى: إنما يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده ﴿إن الله عزيز غفور﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة، وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب حقه أن يخشى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾.

﴿يتلون كتاب الله﴾ يداومون على تلاوته وهي شأنهم وديدنهم وعن مطرف رحمه الله هي آية القرّاء وعن الكلبي رحمه الله يأخذون بما فيه وقيل: يعلمون ما فيه ويعملون به، وعن السدي رحمه الله: هم أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم وعن عطاء: هم المؤمنون ﴿يرجون﴾ خبر إن والتجارة طلب الثواب بالطاعة.

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾.

و﴿ليوفيهم﴾ متعلق بلن تبور أي تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله ليوفيهم بنفاقها عنده ﴿أجورهم﴾ وهي ما استحقوه من الثواب ﴿ويزيدهم﴾ من التفضل عن المستحق وإن شئت جعلت يرجون في موضع الحال على وأنفقوا راجين ليوفيهم أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله لهذا الغرض، وخبر إن قوله: ﴿إنه غفور شكور﴾ على معنى غفور لهم شكور لأعمالهم والشكر مجاز عن الإثابة.

وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾.

﴿الكتاب﴾ القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعيض ﴿مصدقًا﴾ حال مؤكدة لأنّ الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لما بين يديه﴾ لما تقدّمه من الكتب ﴿لخبير بصير﴾ يعني: أنه خبرك وأبصر أحوالك فرآك أهلاً لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله:

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾.

﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ **قُلْتُ**: فيه وجهان أحدهما إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعدك أي حكمنا بتوريثه أو قال أورثناه وهو يريد نورثه لما عليه أخبار الله ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم أمّته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأنّ الله اصطفاه على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطًا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم، وهو المرجأ لأمر الله ومقتصد وهو الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا وسابق من السابقين والوجه

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ «أنا أعلمكم بالله» (الحديث رقم: 20) (بمعناه).

(2) سورة الأحزاب، الآية: 39.

(3) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الصيام، باب: ما جاء في الرخصة في القبلة للصائم (الحديث رقم: 13).

الثاني أنه قدم إرساله في كل أمّة رسولاً وأنهم كذبوا برسلهم، وقد جاؤهم بالبينات والزبر والكتاب المنير ثم قال إنّ الذين يتلون كتاب الله فأثنى على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعترض بقوله والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ثم قال: ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا أي من بعد أولئك المذكورين يريد بالمصطفين من عباده أهل الملة الحنيفية.

فإن قُلْتَ: فكيف جعلت

جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾.

﴿**جنات عدن**﴾ بدلاً من الفضل الكبير الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك؟ **قُلْتُ:** لما كان السبب في نيل الثواب نزل منزلة المسبب كأنه هو الثواب فأبدلت عنه جنات عدن وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكون عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر فليحذر المقتصد وليملك الظالم لنفسه حذرًا وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ولا يغترا بما رواه عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له»[1] فإنّ شرط ذلك صحة التوبة لقوله تعالى: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾[2] وقوله: ﴿إمّا يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾[3] ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع من استقراها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخدع[4]، وقرئ سباق ومعنى بإذن الله بتيسيره وتوفيقه.

فإن قُلْتَ: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ **قُلْتُ:** للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأنّ المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقين أقل من القليل، وقرئ جنة عدن على الإفراد كأنها جنة مختصة بالسابقين وجنات عدن بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر أن يدخلون جنات عدن يدخلونها ويدخلونها على البناء للمفعول، ويحلون من حليت المرأة فهي حال ﴿**ولؤلؤا**﴾ معطوف على محل من أساور ومن داخلة للتبعيض أي يحلون بعض أساور من ذهب كأنه بعض سابق لسائر الأبعاض كما سبق المسورون به غيرهم وقيل: إنّ ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ وقرئ ولولوًا بتخفيف الهمزة الأولى.

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾.

وقرئ الحزن والمراد حزن المتقين وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة كقوله تعالى: ﴿إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾[5] وعن ابن عباس رضي الله عنهما حزن الأعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن إبليس ووسوسته وقيل همّ المعاش وقيل: حزن زوال النعم وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كراء الدار ومعناه أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا وعن رسول الله ﷺ ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم وكأني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن[6]، وذكر الشكور دليل على أن القوم كثيرو الحسنات.

ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾.

المقامة بمعنى الإقامة يقال أقمت إقامة ومقامًا ومقامة ﴿**من فضله**﴾ من عطائه وإفضاله من قولهم لفلان فضول على قومه وفواضل وليس من الفضل الذي هو التفضل لأنّ الثواب بمنزلة الأجر المستحق والتفضل كالتبرع، وقرئ لغوب بالفتح وهو اسم ما يلغب منه أي لا نتكلف عملاً يلغبنا أو مصدر كالقبول والولوع أو صفة للمصدر كأنه لغوب لغوب كقولك: موت مائت.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين النصب واللغوب **قُلْتُ:** النصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب فالنصب نفس المشقة والكلفة واللغوب نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾.

﴿**فيموتوا**﴾ جواب النفي ونصبه بإضمار أن وقرئ فيموتون عطفًا على يقضي وإدخالاً له في حكم النفي أي لا يقضي عليهم الموت فلا يموتون كقوله تعالى: ﴿ولا يؤذن

---

(1) قال الزيلعي رواه البيهقي في كتاب: البعث والنشور: 3/153.

(2) سورة التوبة، الآية: 102.

(3) سورة التوبة، الآية: 106.

(4) قال أحمد: وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد الله، ثم قسمتهم إلى الظالم، والمقتصد السابق ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحدين في المصطفين، وإنه لمنهم وأي نعمة أتم وأعظم من اصطفائه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع، فما بال المصنف يطنب في التسوية بين الموحد المصطفى والكافر المجترى،=

= وقوله: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ الضمير فيه راجع إلى المصطفين عموماً، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعاً، وإعرابها جنات مبتدأ ويدخلونها الخبر. وقوله: ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير﴾ إلى آخر الآية خبر بعد خبر، وخير على خير والله المستعان.

(5) سورة الطور، الآية: 26 ـ 27.

(6) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الإيمان بالله عز وجل (الحديث: 100).

لهم فيعتذرون﴾[1] ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿يجزى﴾ وقرئ يجازي ونجزي ﴿كل كفور﴾ بالنون.

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾.

﴿يصطرخون﴾ يتصارخون يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدّة قال: كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها، واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته.

فإن قُلْتَ: هلا اكتفى بصالحًا كما اكتفى به في قوله تعالى: ﴿فارجعنا نعمل صالحًا﴾، وما فائدة زيادة ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحًا آخر غير الصالح الذي عملوه قُلْتُ: فائدة زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي ولأنهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة كما قال الله تعالى: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا﴾ فقالوا: أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نحسبه صالحًا فنعمله ﴿أو لم نعمركم﴾ توبيخ من الله يعني فنقول لهم، وقرئ ما ينكر فيه من انكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم وعن النبي ﷺ: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة»[2]. وعن مجاهد بين العشرين إلى الستين وقيل: ثماني عشر وسبع عشر و﴿النذير﴾ الرسول ﷺ وقيل: الشيب، وقرئ: وجاءتكم النذر.

فإن قُلْتَ: علام عطف وجاءكم النذير؟ قُلْتُ: على معنى أو لم نعمركم لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه معنى إخبار كأنه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذير.

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ كالتعليل لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون فقد علم كل غيب في العالم وذات الصدور: مضمراتها وهي تأنيث ذو في نحو قول أبي بكر رضي الله عنه ذو بطن خارجة جارية[3] وقوله لتغني عن ذا إنائك أجمعا، المعنى ما في بطنها من الحبل وما في إنائك من الشراب لأنّ الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء ألا ترى إلى قولهم معها حبل وكذلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها وذو موضوع لمعنى الصحبة.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾.

يقال للمستخلف خليفة وخليف فالخليفة تجمع خلائف والخليف خلفاء والمعنى أنه جعلكم خلفاءه في أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فمن كفر﴾ منكم وغمط مثل هذه النعمة السنية فوبال كفره راجع عليه وهو مقت الله الذي ليس وراءه خزي وصغار وخسار الآخرة الذي ما بقي بعده خسار والمقت أشدّ البغض ومنه قيل: لمن ينكح امرأة أبيه مقتى لكونه ممقوتًا في كل قلب وهو خطاب الناس وقيل: خطاب لمن بعث إليهم رسول الله ﷺ جعلكم أمّة خلفت من قبلها ورأت وشاهدت فيمن سلف ما ينبغي أن تعتبر به فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من مقت الله وخسار الآخرة كما أنّ ذلك حكم من قبلكم.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾.

﴿أروني﴾ بدل من أرأيتم لأنّ المعنى أرأيتم أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أروني أيّ جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السموات أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب أو يكون الضمير في آتيناهم للمشركين كقوله تعالى: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطانًا﴾[4] ﴿أم آتيناهم كتابًا من قبله﴾[5] بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء ﴿بعضا﴾ وهم الأتباع ﴿إلا غرورًا﴾ وهو قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقرئ: ﴿بينات﴾.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾.

﴿أن تزولا﴾ كراهة أن تزولا أو يمنعهما من أن تزولا لأن الإمساك منع ﴿إنه كان حليمًا غفورًا﴾ غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدا هدًا لعظم كلمة الشرك كما قال: تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض، وقرئ ولو زالتا وإن أمسكهما جواب القسم في ولئن زالتا سدّ مسدّ الجوابين ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفي والثانية للابتداء، من بعده من بعد إمساكه وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لرجل مقبل من الشام من لقيت به؟ قال: كعباً قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته

(1) سورة المرسلات، الآية: 36.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من بلغ ستين سنة فقد عذر الله إليه في العمر (الحديث: 6419).

(3) تقدم في الإسراء.

(4) سورة الروم، الآية: 35.

(5) سورة الزخرف، الآية: 21.

يقول إنّ السموات على منكب ملك قال: كذب كعب أما ترك يهوديته بعد! ثم قرأ هذه الآية[1].

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾.

بلغ قريشًا قبل مبعث رسول الله ﷺ أنّ أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقال: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لتكونن أهدى من إحدى الأمم فلما بعث رسول الله ﷺ كذبوه، وفي ﴿إحدى الأمم﴾ وجهان أحدهما من بعض الأمم ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم والثاني من الأمّة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴿ما زادهم﴾ إسناد مجازي لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم نفورًا عن الحق وابتعادًا عنه كقوله تعالى: ﴿فزادهم رجسًا إلى رجسهم﴾[2].

اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾.

﴿استكبارًا﴾ بدل من نفورًا أو مفعول له على معنى ما زادهم إلا أن نفروا استكبارًا وعلوًا ﴿في الأرض﴾ أو حال بمعنى مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين، ويجوز أن يكون ﴿ومكر السيء﴾ معطوفًا على نفورًا.

فإن قُلْتَ: فما وجه قوله ومكر السيء قُلْتُ: أصله وإن مكروا السيء أي المكر السيء ثم ومكر السيء ثم مكر السيء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق المكر السيء﴾ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق المكر السيء﴾ أي لا يحيق الله ولقد حاق بهم يوم بدر وعن النبي ﷺ: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكرًا»[3]، فإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولا تبغوا ولا تعينوا باغيًا﴾[4] يقول الله تعالى: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾[5] وعن كعب أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما قرأت في التوراة من حفر مغواة وقع فيها قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله وقرأ الآية وفي أمثال العرب: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكبًا وقرأ حمزة ومكر السيء بإسكان الهمزة وذلك لاستثقاله الحركات مع الياء والهمزة ولعله اختلس فظنّ سكونًا أو وقف وقفة خفيفة، ثم ابتدأ ولا يحيق وقرأ ابن مسعود ومكرًا سيئًا

﴿سنت الأولين﴾ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم وجعل استقبالهم لذلك انتظارًا له منهم وبين أنّ عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها أي لا يغيرها وأن ذلك مفعول له لا محالة واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾.

﴿ليعجزه﴾ ليسبقه ويفوته.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾.

﴿بما كسبوا﴾ بما اقترفوا من معاصيهم ﴿على ظهرها﴾ على ظهر الأرض ﴿من دابة﴾ من نسمة تدب عليها يريد بني آدم وقيل ما ترك بني آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم وعن ابن مسعود: كاد الجعل يعذب في جحره بذنب ابن آدم[6] ثم تلا هذه الآية وعن أنس: أنّ الضب ليموت هزلاً في جحره بذنب ابن آدم[7] وقيل: يحبس المطر فيهلك كل شيء ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى يوم القيامة ﴿كان بعباده بصيرًا﴾ وعيد بالجزاء عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أي باب شئت[8].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يــس مكية

يس ﴿١﴾.

قرئ: يس بالفتح كأين وكيف أو بالنصب على أتل يس وبالكسر على الأهل كثير وبالرفع على هذه يس أو بالضم كحيث وفخمت الألف وأميلت وعن ابن عباس رضي الله عنهما معناه: يا إنسان في لغة طيء والله أعلم بصحته وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره كما قالوا، في القسم

(1) ذكره الطبري في تفسيره.
(2) سورة التوبة، الآية: 125.
(3) ذكره ابن المبارك في الزهد، وتقدم في يونس.
(4) سورة فاطر، الآية: 43.
(5) سورة يونس، الآية: 23.
(6) أخرجه الحاكم في المستدرك، وتقدم في يونس.
(7) أخرجهُ الحاكم في المستدرك وتقدم في النحل.
(8) ذكره الواحدي وابن مردويه والثعلبي في التفسير، الزيلعي 3/ 158.

م الله أيمن الله.

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

﴿الحكيم﴾ ذي الحكمة أو لأنه دليل ناطق بالحكمة كالحي أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿على صراط مستقيم﴾ خبر بعد خبر أو صلة للمرسلين.

فإن قُلْتَ: أي حاجة إليه خبرًا كان أو صلة وقد علم أنّ المرسلين لا يكونوا إلا على صراط مستقيم؟ قُلْتُ: ليس الغرض بذكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة فجمع بين الوصفين في نظام واحد كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت وأيضًا فإنّ التنكير فيه دال على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه[1].

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾.

قرئ تنزيل العزيز الرحيم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالنصب على أعني وبالجرّ على البدل من القرآن.

﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿قومًا ما أنذر آباؤهم﴾ قومًا غير منذر آباؤهم على الوصف ونحوه قوله تعالى: ﴿لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك﴾[2] و﴿ما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾[3] وقد فسر ما أنذر آباؤهم على إثبات الإنذار ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية لتنذر قومًا أنذر آباؤهم، أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتنذر قومًا ما أنذره آباؤهم من العذاب كقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا﴾[4].

فإن قُلْتَ: أي فرق بين تعلقي قوله: ﴿فهم غافلون﴾ على التفسيرين؟ قُلْتُ: هو على الأوّل متعلق بالنفي أي لم ينذروا، فهم غافلون على أن عدم نذارهم هو سبب غفلتهم وعلى الثاني بقوله إنك لمن المرسلين لتنذر كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنا غافل أو فهو غافل.

فإن قُلْتَ: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخر؟ قُلْتُ: لا مناقضة لأنّ الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم وآباؤهم القدماء من ولد إسمعيل، وكانت النذارة فيهم.

فإن قُلْتَ: ففي أحد التفسيرين أنّ آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر فما تصنع به؟ قُلْتُ: أريد آباؤهم الأدنون دون الأباعد ﴿القول﴾ قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[5] يعني: تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤسهم له وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم، ولا تبصر وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿فهي إلى الأذقان﴾؟ قُلْتُ: معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرًا من الحلقة إلى الذقن فلا تخليه يطأطئ رأسه ويوطئ قذا له فلا يزال مقمحًا، والمقمح الذي يرفع رأسه ويغض بصره يقال: قمح البعير فهو قامح إذا روي فرفع رأسه ومنه شهرا قماح لأنّ الإبل ترفع رؤسها عن الماء لبرده فيهما وهما الكانونان، ومنه اقتحمت السويق.

فإن قُلْتَ: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدي وزعم أن الغل لما كان جامعًا لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة كان ذكر الأعناق، دالاً على ذكر الأيدي؟ قُلْتُ: الوجه ما ذكرت لك والدليل عليه قوله فهم مقمحون ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله فهي إلى الأذقان، ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الإقماح ظاهرًا على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج.

فإن قُلْتَ: فقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما في أيديهم وابن مسعود في أيمانهم فهل تجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدي أو للإيمان؟ قُلْتُ: يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال وسداد المعنى عليه كما ذكرت.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

وقرئ سدًا بالفتح والضم وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح وما كان من خلق الله فبالضم ﴿فأغشيناهم﴾ فأغشينا أبصارهم أي غطيناها وجعلنا عليها غشاوة عن

---

(1) قال أحمد: قد تقدم في مواضع أنّ التنكير قد يفيد تفخيماً وتعظيماً وهذا منه.

(2) سورة القصص، الآية: 46.

(3) سورة سبأ، الآية: 44.

(4) سورة النبأ، الآية: 40.

(5) سورة هود، الآية: 119.

أن تطمح إلى مرئي وعن مجاهد فأغشيناهم فألبسنا أبصارهم غشاوة، وقرئ بالعين من العشا وقيل: نزلت في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدًا يصلي ليرضخن رأسه فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به فلما رفع أثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع إلى قومه، فأخبرهم فقال مخزومي آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله عينيه[1].

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

فإن قُلْتَ: قد ذكر ما دلّ على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله إنما تنذر وإنما كانت تصح هذه التقفية لو كان الإنذار منفيًا **قُلْتُ:** هو كما قلت ولكن لما كان ذلك نفيًا للإيمان مع وجود الإنذار وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهي الإيمان.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾.

ففي بقوله: إنما تنذر، على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر وهو القرآن أو الوعظ الخاشون ربهم.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾.

﴿نحيي الموتى﴾ نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن إحياؤهم أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان **﴿ونكتب ما﴾** أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علموه أو كتاب صنفوه أو حبيس حبسوه أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك أو سيئ كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين وسكة أحدثها فيها تخسيرهم وشيء أحدث فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان، وملاه وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها ونحوه قوله تعالى: **﴿ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخر﴾**[2] أي قدم من أعماله وأخر من آثاره وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد وعن جابر أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله خالية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا في ديارنا وقال: يا بني سلمة، بلغني أنكم تريدون النقلة إلى المسجد فقلنا: نعم، بعد علينا المسجد والبقاع حوله خالية فقال: عليكم دياركم، فإنما تكتب آثاركم قال: فما وددنا حضرة المسجد لما قال رسول الله ﷺ[3] وعن عمر بن عبد العزيز لو كان الله مغفلاً شيئًا لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح والإمام اللوح، وقرئ ويكتب ما قدموا وآثارهم على البناء للمفعول وكل شيء بالرفع.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾.

﴿واضرب لهم مثلاً﴾ ومثل لهم مثلاً من قولهم عندي من هذا الضرب كذا أي من هذا المثال وهذه الأشياء على ضرب واحد أي على مثال واحد والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية أي اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية والمثل الثاني بيان للأوّل، وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية والقرية أنطاكية و**﴿المرسلون﴾** رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان.

﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾.

أرسل إليهم اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخًا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسألهما فأخبراه فقال أمعكما آية فقالا: نشفي المريض، ونبرئ الأكمه والأبرص وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير ورقي حديثهما إلى الملك، وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك فقال: حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس وضربوهما وقيل: حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكرًا وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ فقال: لا حال الغضب بيني وبين ذلك، فدعاهما فقال شمعون: من أرسلكما: قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك فقال: صفاه وأوجزا قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصر وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما فقال له: شمعون أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال ليس لي عنك سر إنّ إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم، ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال إني أدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شابًا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن هم قال شمعون: وهذا فتعجب الملك فلما رأى شمعون أنّ قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن معه قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا **﴿فعززنا﴾** فقوينا يقال المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدّها وتعزز لحم الناقة، وقرئ بالتخفيف من

---

(1) ذكره ابن هشام في سيرته: 1/ 290 ـ 299.

(2) سورة القيامة، الآية: 13.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: الإمامة والجماعة،= = (حديث: 2042)، ومسلم في كتاب: المساجد، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد، حديث: (280 ـ 665).

عزه يعزه إذا غلبه أي فغلبنا وقهرنا ﴿بثالث﴾ وهو شمعون.

فإن قُلْتَ: لم ترك ذكر المفعول به قُلْتُ: لأنّ الغرض ذكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عزّ الحق وذلّ الباطل وإذا كان الكلام منصبًا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه كأن ما سواه مرفوض مطرح، ونظيره قولك حكم السلطان اليوم بالحق الغرض المسوق إليه قولك بالحق فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه.

قَالُوا مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾.

إنما رفع بشر ونصب في قوله ما هذا بشراً لأنّ إلا تنقض النفي فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه فلا يبقى له عمل.

فإن قُلْتَ: لم قيل إنا إليكم مرسلون أوّلاً

قَالُوا رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾.

و ﴿إنا إليكم لمرسلون﴾ آخر قُلْتُ: لأنّ الأوّل ابتداء إخبار والثاني جواب عن إنكار[1]، وقوله ربنا يعلم جار مجرى القسم في التوكيد وكذلك قولهم شهد الله وعلم الله، وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم.

وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾.

﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته وإلا فلو قال المدعي والله إني لصادق فيما أدعي ولم يحضر البينة كان قبيحًا.

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾.

﴿تطيرنا بكم﴾ تشاءمنا بكم وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منهم نفوسهم وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وآثروه وقبلته طباعهم ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا كما حكى الله عن القبط وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه وعن مشركي مكة وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك وقيل: حبس عنهم القطر، فقالوا ذلك وعن قتادة إن أصابنا شيء كان من أجلكم.

قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾.

﴿طائركم معكم﴾ وقرئ طيركم أي سبب شؤمكم معكم وهو كفرهم أو أسباب شؤمكم معكم وهي كفرهم ومعاصيهم وقرأ الحسن أطيركم أي تطيركم، وقرئ أئن ذكرتم بهمزة الاستفهام وحرف الشرط وآئن بألف بينهما بمعنى: أتطيرون إن ذكرتم وقرئ آأن ذكرتم بهمزة الاستفهام وأن الناصبة يعني: أتطيرتم لأن ذكرتم، وقرئ أن وإن بغير استفهام لمعنى الإخبار أي تطيرتم لأن ذكرتم أو إن ذكرتم تطيرتم، وقرئ أين ذكرتم على التخفيف أي شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم وإذا شئم المكان بذكرهم كان بحلولهم فيه أشأم ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ في العصيان ومن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله وتذكيرهم، أو بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله.

وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿رجل يسعى﴾ هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام وهو ممن آمنوا برسول الله ﷺ وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل، وغيرهما، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره وقيل: كان في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاول الكفرة فقالوا: أو أنت تخالف ديننا فوثبوا عليه فقتلوه وقيل: توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره وقيل رجموه، وهو يقول اللهم اهد قومي وقبره في سوق أنطاكية فلما قتل غضب الله عليهم فأهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام وعن رسول الله ﷺ: «سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وصاحب يس ومؤمن آل فرعون»[2].

ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾.

﴿من لا يسئلكم أجرًا وهم مهتدون﴾ كلمة جامعة في الترغيب فيهم أي لا تخسرون معهم شيئًا من دنياكم وتربحون صحة دينكم، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه، ولقد وضع قوله:

وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني﴾ مكان قوله ومالكم لا تعبدون الذي فطركم ألا ترى إلى قوله: ﴿وإليه ترجعون﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال الذي فطرني وإليه أرجع.

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾.

وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: آمنت بربكم

(1) قال أحمد: أي فلاق توكيده.

(2) رواه الطبراني في معجمه.

فاسمعون يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم، وإليه مرجعكم وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم، ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده ولم يقدروا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه إنكم في هذا الاستحياب لواقعون في ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز، وقيل لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ أي اسمعوا إيماني تشهدوا لي به، وقرئ إن يردني الرحمن بضر بمعنى أن يوردني ضرًا أي يجعلني موردًا للضر، أي لما قتل.

قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿قيل﴾ له ﴿أدخل الجنة﴾ وعن قتادة أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق أراد قوله تعالى: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين﴾[1] وقيل: معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها.

فإن قُلْتَ: كيف مخرج هذا القول في علم البيان؟ قُلْتُ: مخرجه مخرج الاستئناف لأنّ هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه كأنّ قائلاً قال كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة دينه والتسخي لوجهه بروحه فقيل قيل أدخل الجنة ولم يقل قيل له لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلومًا وكذلك ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سببًا لاكتساب مثلها لأنفسهم بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة، وفي حديث مرفوع: «نصح قومه حيًا وميتًا»[2] وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار، وأهل البغي والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة وأنّ عداوتهم لم تكسبه إلا فوزًا ولم تعقبه إلا سعادة لأنّ في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور والأوّل أوجه.

بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾.

وقرئ: ﴿المكرمين﴾.

فإن قُلْتَ: ما في قوله تعالى: ﴿بما غفر لي ربي﴾ أي الماَت هي قُلْتُ: المصدرية أو الموصولة أي بالذي غفره لي من الذنوب ويحتمل أن تكون استفهامية يعني بأي شيء غفر لي ربي يريد به ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل إلا أنّ قولك بم غفر لي بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزًا يقال قد علمت بما صنعت هذا أي بأي شيء صنعت وبم صنعت.

۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾.

المعنى أنّ الله كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لإهلاكهم جندًا من جنود السماء كما فعل يوم بدر أو الخندق.

فإن قُلْتَ: وما معنى قوله: ﴿وما كنا منزلين﴾ قُلْتُ: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جندًا من السماء، وذلك لأنّ الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة أوجبته المصلحة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فمنهم من أرسلنا عليك حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا﴾[3].

فإن قُلْتَ: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق، قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها﴾[4]، بألف من الملائكة مردفين، بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين؟ قُلْتُ: إنما كان يكفي ملك واحد فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه ولكنّ الله فضل محمدًا ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحدًا فمن ذلك أنه أنزل له جنودًا من السماء وكأنه أشار بقوله: ﴿وما أنزلنا﴾ ﴿وما كنا منزلين﴾: إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك وما كنا نفعله بغيرك.

إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾.

﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾ إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة، وقرأ أبو جعفر المدني بالرفع على كان التامة أي ما وقعت إلا صيحة والقياس والاستعمال على تذكير الفعل لأنّ المعنى: ما وقع شيء إلا صيحة ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وإن الصيحة في حكم فاعل الفعل ومثلها قراءة الحسن فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وبيت ذي الرمة، وما بقيت إلا الضلوع الجراشع، وقرأ ابن مسعود الأزقية واحدة من زقا الطائر يزقو ويزقى

(1) سورة آل عمران، الآية: 169 ـ 170.

(2) رواه ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي: 3/163.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 40.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 9.

إذا صاح ومنه المثل أثقل من الزواقي ﴿خامدون﴾ خمدوا كما تخمد النار فتعود رمادًا كما قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع

يَحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿يا حسرة على العباد﴾ نداء للحسرة عليهم كأنما قيل لها: تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسل والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى: تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به وفرط إنكاره له وتعجيبه منه وقراءة من قرأ يا حسرنا تعضد هذا الوجه لأنّ المعنى يا حسرتي، وقرئ: يا حسرة العباد على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم من حيث أنها موجهة إليهم ويا حسرة على العباد على إجراء الوصل مجرى الوقف.

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾.

﴿ألم يروا﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن العمل في ﴿كم﴾ لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها كانت للاستفهام أو للخبر لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناه نافذ في الجملة كما نفذ في قولك ألم يروا إن زيدًا لمنطلق وإن لم يعمل في لفظه و﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ بدل من كم أهلكنا على المعنى لا على اللفظ تقديره ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم، وعن الحسن كسر إن على الاستئناف وفي قراءة ابن مسعود ألم يروا من أهلكنا والبدل على هذه القراءة بدل اشتمال وهذا مما يردّ قول أهل الرجعة ويحكى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له إن قومًا يزعمون أنّ عليًا مبعوث قبل يوم القيامة فقال: بئس القوم نحن إذن نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه[1].

وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾.

وقرئ: ﴿لما﴾ بالتخفيف على أن ما صلة للتأكيد، وإن مخففة من الثقيلة وهي متلقاه باللام لا محالة ولما بالتشديد بمعنى إلاّ كالتي في مسألة الكتاب نشدتك بالله لما فعلت وإن نافية، والتنوين في كل هو الذي يقع عوضًا من المضاف إليه كقولك مررت بكل قائمًا والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة، وقيل: محضرون معذبون.

فإن قُلْتَ: كيف أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد؟ قُلْتُ: ليس بواحد لأن كلاً يفيد معنى الإحاطة وأن لا ينفلت منهم أحد والجميع معناه الاجتماع وأن المحشر يجمعهم والجميع فعيل بمعنى مفعول يقال حي جميع وجاؤوا جميعًا[2]، القراءة بالميتة على الخفة أشيع لسلسها على اللسان.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿أحييناها﴾ استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية وكذلك نسلخ، ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض وليل بأعيانهما[3] فعوملا معاملة النكرات في وصفهما بالأفعال ونحوه، ولقد أمرّ على اللئيم يسبني، وقوله ﴿فمنه يأكلون﴾ بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس وإذا قل جاء القحط ووقع الضرّ وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء.

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾.

قرئ: ﴿وفجرنا﴾ بالتخفيف والتثقيل والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظًا ومعنى، وقرئ ﴿ثمره﴾ بفتحتين وضمتين وضمة وسكون والضمير لله تعالى.

لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾.

والمعنى: ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر ﴿و﴾ من ﴿ما عملته أيديهم﴾ من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله يعني: أنّ الثمر في نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كدّ بني آدم وأصله من ثمرنا كما قال: وجعلنا وفجرنا فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات، ويجوز أن يرجع إلى النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره، ويجوز أن يراد من ثمر المنكور وهو الجنات كما قال رؤبة:

فيها خطوط من بياض وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

فقيل له فقال: أردت كأن ذاك ولك أن تجعل ما نافية على أنّ الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه.

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾.

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 145/3.

(2) قال أحمد: ومن ثم وقع أجمع في التوكيد تابعاً لكل؛ لأنه أخص منه وأزيد معنى.

(3) قال أحمد وغيره من النحاة: يمنع وقوع جملة صفة للمعرف، وإن = كان جنسياً وليس الغرض منه معيناً، ويراعي هذا المانع المطابقة اللفظية في الوصفي ومنه:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبني

وقرئ على الوجه الأوّل وما علمت من غير راجع وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير ﴿الأزواج﴾ الأجناس والأصناف ﴿ومما لا يعلمون﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقًا إلى العلم به لأنه لا حاجة بهم في دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون، وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يسمهم وفي الحديث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه فأعلمنا بوجوده وإعداده ولم يعلمنا به ما هو ونحوه فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دلّ على عظم قدرته واتساع ملكه.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾.

سلخ جلد الشاة إذا كشطه عنها وأزاله ومنه سلخ الحية لخرشائها فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله ﴿مظلمون﴾ داخلون في الظلام يقال: أظلمنا كما تقول أعتمنا وأدجينا.

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾.

﴿لمستقرّ لها﴾ لحد لها مؤقت مقدّر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب لأنها تتقصاها مشرقًا مشرقًا ومغربًا مغربًا حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدها ومستقرّها لأنها لا تعدوه أو لحدّ لها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب وقيل: مستقرّها أجلها الذي أقر الله عليه أمرها في جريها فاستقرت عليه وهو آخر السنة وقيل: الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة، وقرئ تجري إلى مستقر لها وقرأ ابن مسعود لا مستقر لها أي: لا تزال تجري لا تستقر، وقرئ لا مستقر لها على أنّ بمعنى ليس ﴿ذلك﴾ الجري عن ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجه وتتحير الأفهام في استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور المحيط علمًا بكل معلوم.

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾.

قرئ: ﴿والقمر﴾ رفعا على الابتداء أو عطفًا على الليل يريد من آياته القمر ونصبًا بفعل يفسره قدرناه ولا بدّ في ﴿قدرناه منازل﴾ من تقدير مضاف لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل والمعنى قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه، ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة، وهي الشرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العوّ السماك الغفر الزباني الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس و﴿عاد كالعرجون القديم﴾ وهو عود العنق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة وقال الزجاج: هو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف، وقرئ العرجون بوزن الفرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون والقديم المحول، وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه به من ثلاثة أوجه وقيل: أقل مدّة الموصوف بالقدم الحول فلو أنّ رجلاً قال: كل مملوك لي قديم، فهو حر أو كتب ذلك في وصيته عتق منهم من مضى له حول أو أكثر.

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾.

وقرئ: ﴿سابق النهار﴾ على الأصل والمعنى أنّ الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتيهما قسمًا من الزمان وضرب له حدًا معلومًا ودبر أمرهما على التعاقب فلا ينبغي للشمس أي لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله ﴿أن تدرك القمر﴾ فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ولا يسبق الليل النهار، يعني: آية الليل آية النهار وهما النيران ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك وينقض ما ألف فيجمع بين الشمس والقمر ويطلع الشمس من مغربها.

فإن قُلْتَ: لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟قُلْتُ: لأنّ الشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة والقمر يقطع فلكه في شهر فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطئ سيرها عن سير القمر والقمر خليقًا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره ﴿وكل﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه والمعنى وكلهم والضمير للشموس، والأقمار على ما سبق ذكره.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾.

﴿ذريتهم﴾ أولادهم ومن يهمهم حمله وقيل: اسم الذرية يقع على النساء لأنهنّ مزارعها وفي الحديث أنه نهى عن قتل الذراري يعني النساء.

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿من مثله﴾ من مثل الفلك ﴿ما يركبون﴾ من الإبل وهي سفائن البر وقيل: الفلك المشحون سفينة نوح ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلابهم هم وذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجيب من قدرته في حمل

أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. ومن مثله من مثل ذلك الفلك ما يركبون من السفن والزوارق.

وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿لا صريخ﴾ لا مغيث، أو لا إغاثة يقال أتاهم الصريخ ﴿ولا هم ينقذون﴾ لا ينجون من الموت بالغرق.

إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾.

﴿إلا رحمة﴾ إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة ﴿إلى حين﴾ إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق ولقد أحسن من قال:

ولم أسلم لكي أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام[1]

وقرأ الحسن رضي الله عنه نغرقهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾.

﴿اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ كقوله تعالى: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾[2] وعن مجاهد ما تقدّم من ذنوبكم وما تأخر وعن قتادة ما بين أيديكم من الوقائع التي خلت يعني: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها وما خلفكم من أمر الساعة ﴿لعلكم ترحمون﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله وجواب إذا محذوف مدلول عليه بقوله:

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ فكأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا ثم قال ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾.

كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون لو شاء الله لأغنى فلانًا ولو شاء لأعزه، ولو شاء لكان كذا فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله ومعناه: أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل: كانوا يوهمون أن الله تعالى لما كان قادرًا على إطعامه ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك نزلت في مشركي قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله ﷺ: أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله يعنون قوله، وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا فحرموهم وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم ﴿إن أنتم إلاّ في ضلال مبين﴾ قول الله لهم أو حكاية قول المؤمنين لهم أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾.

قرئ: ﴿وهم يخصمون﴾ بإدغام التاء في الصاد مع فتح الخاء وكسرها واتباع الياء الخاء في الكسر ويختصمون على الأصل، ويخصمون من خصمه والمعنى أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون، ومعنى خصمون، يخصم بعضهم بعضًا وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿فلا يستطيعون﴾ أن يوصوا في شيء من أمورهم ﴿توصية﴾ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾.

قرئ الصور بسكون الواو وهو القرن أو جمع صورة وحرّكها بعضهم و ﴿الأجداث﴾ القبور وقرئ بالفاء ﴿ينسلون﴾ يعدون بكسر السين وضمها وهي النفخة الثانية.

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾.

قرئ يا ويلتنا، وعن ابن مسعود رضي الله عنه من أهبنا من هب من نومه إذا انتبه وأهبه غيره وقرئ من هبنا بمعنى أهبنا وعن بعضهم أراد هب بنا فحذف الجار وأوصل الفعل، وقرئ من بعثنا ومن هبنا على من الجارة والمصدر و ﴿هذا﴾ مبتدأ و ﴿ما وعد﴾ خبره وما مصدرية أو موصولة، ويجوز أن يكون هذا صفة للمرقد وما وعد خبر مبتدأ محذوف أي هذا وعد الرحمن أي مبتدأ محذوف الخبر أي ما وعد ﴿الرحمن وصدق المرسلون﴾ حق، وعن مجاهد للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور قالوا من بعثنا وأما هذا ما وعد الرحمن فكلام الملائكة، عن ابن عباس وعن الحسن كلام المتقين وقيل: كلام الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضًا.

فإن قُلْتَ: إذا جعلت ما مصدرية كان المعنى هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق، فما وجه قوله وصدق المرسلون إذا

(1) سلمت من الحمام إلى الحمام؛ لأنه تعالى: أخبر أنهم إن سلموا من موت الغرق، فتلك السلامة متاع إلى حين أي: إلى أجل يموتون فيه ولا بد.

(2) سورة سبأ، الآية: 9.

جعلتها موصولة! قُلْتُ: تقديره هذا الذي وعده الرحمن والذي صدّقه المرسلون بمعنى والذي صدق فيه المرسلون من قولهم صدقوهم الحديث والقتال ومنه صدّقني سن بكرة.

فإن قُلْتَ: من بعثنا من مرقدنا سؤال عن الباعث فكيف طابقه ذلك جوابًا؟ قُلْتُ: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل إلاّ أنه جيء به على طريقة سيئت بها قلوبهم ونعيت إليهم أحوالهم وذكروا كفرهم وتكذيبهم وأخبروا بوقوع ما أنذروا به وكأنه قيل لهم: ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهمكم السؤال عن الباعث إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع وهو الذي وعده الله في كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين.

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿إلا صيحة واحدة﴾ قرئت منصوبة ومرفوعة.

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئًا﴾. ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل﴾ حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود وتمكين له في النفوس وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره في شغل في أي شغل وفي شغل لا يوصف وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التي هي دار المتقين ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم ووقع في تلك الملاذ التي أعدّها الله للمرتضين من عباده ثوابًا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم وذلك بعد الوله والصبابة والفصي من مشاق التكليف ومضايق التقوى، والخشية، وتخطي الأهوال وتجاوز الأخطار وجواز الصراط ومعاينة ما لقي العصاة من العذاب، وعن ابن عباس في افتضاض الأبكار وعنه في ضرب الأوتار وعن ابن كيسان في التزاور وقيل: في ضيافة الله، وعن الحسن شغلهم عما فيه أهل النار التنعم بما هم فيه وعن الكلبي هم في شغل عن أهاليهم من أهل النار لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم لأن لا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم، قرئ في شغل بضمتين وضمة وسكون وفتحتين وفتحة وسكون، والفاكه والفكه المتنعم والمتلذذ ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ به وكذلك الفكاهة وهي المزاحة، وقرئ فاكهون وفكهون بكسر الكاف وضمها كقولهم رجل حدث وحدّث ونطس ونطس وقرئ فاكهين وفكهين على أنه حال والظرف مستقر.

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾.

﴿هم﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيدًا للضمير في شغل وفي فاكهون على أنّ أزواجهم يشاركنهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال، وقرئ في ظلل والأريكة السرير في الحجلة وقيل: الفراش فيها وقرأ ابن مسعود متكئين.

لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿يدّعون﴾ يفتعلون من الدعاء أي يدعون به لأنفسهم كقولك اشتوى واحتمل إذا شوي وجمل لنفسه قال لبيد: فاشتوى ليلة ريح واجتمل. ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه كقولك: ارتموه وتراموه وقيل: يتمنون من قولهم ادع عليّ ما شئت بمعنى تمنه على وفلان في خير ما ادّعى أي في خير ما تمنى قال الزجاج: وهو من الدعاء أي: ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾.

و﴿سلام﴾ بدل مما يدعون كأنه قال لهم: سلام يقال لهم ﴿قولاً من﴾ جهة ﴿رب رحيم﴾ والمعنى أنّ الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة مبالغة في تعظيمهم وذلك متمناهم ولهم ذلك لا يمنعونه قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وقيل: ما يدعون مبتدأ وخبره سلام بمعنى ولهم ما يدعون سالم خالص لا شوب فيه وقولاً مصدر مؤكد لقوله تعالى: ولهم ما يدعون سلام أي عدة من رب رحيم والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازه، وقرئ سلم وهو بمعنى السلام في المعنيين وعن ابن مسعود سلامًا نصب على الحال أي لهم مرادهم خالصًا.

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿وامتازوا﴾ وانفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة ونحوه قوله تعالى: ﴿يوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرّقون، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون، وأما الذين كفروا﴾[1] الآية يقال مازه فانماز وامتاز وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى، ولا يرى ومعناه: أنّ بعضهم يمتاز من بعض.

۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾.

العهد الوصية وعهد إليه إذا وصاه وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع، وعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم.

---

(1) سورة الروم، الآيات: 14 ـ 16.

وقرئ اعهد بكسر الهمزة وباب فعل كله يجوز في حروف مضارعته الكسر إلا في الياء وأعهد بكسر الهاء وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب وأحهد بالحاء وأحد وهي لغة تميم ومنه قولهم: دحا محا.

وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾.

﴿هذا﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمٰن إذ لا صراط أقوم منه، ونحو التنكير فيه ما في قول كثير:

لئن كان يهدي برد أنيابها العلى لأفقر مني إنني لفقير

أراد إنني لفقير بليغ حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه فيّ وإلا لم يستقم معنى البيت وكذلك قوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ يريد صراط بليغ في بابه بليغ في استقامته جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه، ويجوز أن يراد هذا بعض الصرط المستقيمة توبيخًا لهم على العدول عنه والتفادي عن سلوكه كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكة كأنه قيل أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده هذا فيما أظنّ قول نافع غير ضار توبيخًا له على الإعراض عن نصائحه.

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾.

قرئ: ﴿جبلاً﴾ بضمتين، وضمة وسكون، وضمتين وتشديدة وكسرتين، وكسرة وسكون، وكسرتين وتشديدة، وهذه اللغات في معنى الخلق، وقرئ: ﴿جبلاً﴾ جمع جبلة كفطر وخلق وفي قراءة علي رضي الله عنه: جبلاً واحدًا لا جبال.

ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾.

يروي أنهم يجحدون، ويخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذٍ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجيز عليّ شاهدًا إلا من نفسي فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعدًا لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل»[1]، وقرئ: يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وقرئ ولتكلمنا أيديهم وتشهد بلام كي والنصب على معنى ولذلك تختم على أفواههم وقرئ ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم على أنّ الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾.

الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿فاستبقوا الصراط﴾ لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل والأصل فاستبقوا إلى الصراط أو يضمن معنى: ابتدروا أو يجعل الصراط مسبوقًا لا مسبوقًا إليه أو ينتصب على الظرف والمعنى أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي تردّدوا إليها كثيرًا كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين في أمور دنياهم لم يقدروا وتعايا عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلاً عن غيره أو لو شاء لأعمالهم، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف كما كان ذلك هجيراهم لم يستطيعوا أو لو شاء لأعماهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقًا يعني: أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا به وضربوا به من المقاصد دون غيرها.

وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

﴿على مكانتهم﴾، وقرئ: على مكاناتهم والمكانة والمكان واحد كالمقامة والمقام أي لمسخناهم مسخًا يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضيّ ولا رجوع واختلف في المسخ فعن ابن عباس لمسخناهم قردة وخنازير، وقيل: حجارة وعن قتادة لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم. وقرئ مضيًا بالحركات الثلاث فالمضيّ والمضي كالعتي والمضيّ كالصبيّ.

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾.

﴿ننكسه في الخلق﴾ نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشدّه، ويستكمل قوّته ويعقل ويعلم ما له وما عليه فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبيّ في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله قال عزّ وجلّ: ﴿ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئًا ثم رددناه أسفل سافلين﴾ وهذه دلالة على أنّ من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوّة إلى

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (الحديث رقم: 17 ـ 2969).

الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه قادر على أن يطمس على أعينهم ويمسخهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد، وقرئ بكسر الكاف وننكسه وننكسه من التنكيس والإنكاس ﴿أفلا يعقلون﴾ بالياء والتاء.

وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾.

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، وروي أنّ القائل عقبة بن أبي معيط فقيل ﴿وما علمناه الشعر﴾ أي: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر على معنى أنّ القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء وأين هو عن الشعر والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فأين الوزن وأين التقفية وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء عن معانيه وأين نظم كلامهم عن نظمه وأساليبه فإذًا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت اللهمّ إلا أنّ هذا لفظه عربي كما أنّ ذاك كذلك ﴿وما ينبغي له﴾ وما يصح له، ولا يتطلب لو طلبه أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يات له ولم يتسهل كما جعلناه أميًا لا يتهدّى للخط ولا يحسنه لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وعن الخليل كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام ولكن كان لا يتأتى له.

فإن قلت: فقوله:

أنا النبي لا كذب[1] أنا ابن عبد المطلب

وقوله:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت[2]

قلت: ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة، ولا تكلف إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزونًا كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعرًا، ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز على أنّ الخليل ما كان يعدّ المشطور من الرجز شعرًا ولما نفي أن يكون القرآن من جنس الشعر قال ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ يعني: ما هو إلا ذكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجنّ كما قال: إن هو إلا ذكر للعالمين، وما هو إلا قرآن كتاب سماوي يقرأ في المحاريب ويتلى في المتعبدات وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين.

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾.

﴿لينذر﴾ القرآن أو الرسول وقرئ لتنذر بالتاء ولينذر من نذر به إذا علمه ﴿من كان حيًا﴾ أي: عاقلاً متأملاً لأنّ الغافل كالميت أو معلومًا منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان ﴿ويحق القول﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿على الكافرين﴾ الذين لا يتأمّلون، ولا يتوقع منهم الإيمان.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾.

﴿مما عملت أيدينا﴾ مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا، وإنما قال: ذلك لبدائع الفطرة والحكمة فيها التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو وعمل الأيدي استعارة من عمل من يعملون بالأيدي ﴿فهم لها مالكون﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم فهم متصرفون فيها تصرف الملاك مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون أو فهم لها ضابطون قاهرون من قوله:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا

أي لا أضبطه وهو من جملة النعم الظاهرة وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها كما قال القائل:

يصرفه الصبيّ بكل وجه ويحسبه عن الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوي فلا غير لديه ولا نكير

وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾.

ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وقرئ ركوبهم وركوبتهم وهما ما يركب كالحلوب والحلوبة وقيل: الركوبة جمع، وقرئ ركوبهم أي ذو ركوبهم أو فمن منافعها ركوبهم.

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾.

﴿منافع﴾ من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك ﴿ومشارب﴾ من اللبن ذكرها مجملة وقد فصلها في قوله تعالى: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا﴾[3] الآية، والمشارب جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشرب.

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾.

اتخذوا الآلهة طمعًا في أن يتقوّوا بهم ويعتضدوا بمكانهم والأمر على عكس ما قدّروا حيث هم جند لآلهتهم معدّون.

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾.

﴿محضرون﴾ يخدمونهم ويذبون عنهم ويغضبون لهم

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة (الحديث رقم: 2930)، ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: في غزوة حنين (الحديث: 78 ـ 1776).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: من ينكب في سبيل الله = (الحديث رقم: 2802)، ومسلم في كتاب: الجهاد، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (الحديث رقم: 812 ـ 1796).

(3) سورة النحل، الآية: 80.

والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم والأمر على خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقودًا للنار.

فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

وقرئ: ﴿فلا يحزنك﴾ بفتح الياء وضمها من حزنه أو حزنه والمعنى فلا يهمنك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم فإنا عالمون بما يسرون لك من عداوتهم ﴿وما يعلنون﴾ وإنا مجاوزوهم عليه فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهمّ ولا يرهقه الحزن.

فإن قُلْتَ: ما تقول فيمن يقول إن قرأ قارئ أنا نعلم بالفتح انتقضت صلاته وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى كفر؟ قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن يكون على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن وفي الشعر وفي كل كلام، وقياس مطرد وهذا معناه ومعنى الكسر سواء وعليه تلبية رسول الله ﷺ إنّ الحمد والنعمة لك[1] كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي وكلاهما تعليل والثاني أن يكون بدلاً من قولهم كأنه قيل: فلا يحزنك إنا نعلم ما يسرون، وما يعلنون وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالمًا وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها وإنما يدوران على تقديرك فتفصل إن فتحت بأن تقدّر معنى التعليل ولا تقدّر البدل كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت، ولا تقدّر معنى المفعولية، ثم إن قدرته كاسرًا أو فاتحًا على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل فما فيه إلا نهي رسول الله ﷺ عن الحزن على كون الله عالمًا بسرهم وعلانيتهم وليس النهي عن ذلك مما يوجب شيئًا ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فلا تكوننّ ظهيرًا للكافرين﴾[2]، ولا تكوننّ من المشركين ولا تدع مع الله إلَهًا آخر.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

قبح الله عزّ وجل إنكارهم البعث تقبيحًا لا ترى أعجب منه وأبلغ وأدل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي وتوغله في الخسة، وتغلغله في القحة حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخسّ شيء وأمهنه وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدّى مثله على مهانة أصله ودناءة أوّله لمخاصمة الجبار وشرز صفحته لمجادلته ويركب متن الباطل ويلج ويمحك ويقول: من يقدر على إحياء الميت بعدما رمت عظامه، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به وهو كونه منشأ من موات وهو ينكر إنشاءه من موات وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها. وروي أن جماعة من كفار قريش منهم أبيّ بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم أبيّ: ألا ترون إلى ما يقول محمد إنّ الله يبعث الأموات ثم قال: واللات والعزى لأصيرنّ إليه ولأخصمنه وأخذ عظمًا باليًا فجعل يفته بيده وهو يقول: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعدما قد رمّ قال ﷺ: «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم»[3] وقيل: معنى قوله: ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ فإذا هو بعد ما كان ماء مهينًا رجل مميز منطبق قادر على الخصام مبين معرب عما في نفسه فصيح كما قال تعالى: ﴿ومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾[4].

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

فإن قُلْتَ: لم سمي قوله ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ مثلاً؟ قُلْتُ: لما دلّ عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى أو لما فيه من التشبيه لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بدليل النشأة الأولى فإذا قيل من يحيي العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك بما يوصف الله تعالى بكونه قادرًا عليه كان تعجيزًا لله، وتشبيهًا له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه. والرميم اسم لما بلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات فلا يقال لم لم يؤنث، وقد وقع خبر المؤنث ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام، ويقول: إنّ عظام الميتة نجسة لأنّ الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها وأما أصحاب أبي حنيفة فهي عندهم طاهرة وكذلك الشعر والعصب، ويزعمون أنّ الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت ويقولون المراد بإحياء العظام في الآية ردّها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس.

قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾.

﴿وهو بكل خلق عليم﴾ يعلم كيف يخلق لا يتعاظمه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلائلها ودقائقها.

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾.

ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: التلبية (الحديث رقم: 1549)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: التلبية وصفتها ووقتها (الحديث رقم: 21 ـ 1184).

(2) سورة القصص، الآية: 86.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 429/2.

(4) سورة الزخرف، الآية: 18.

مع مضادة النار الماء وانطفائها به، وهي الزناد التي تورى بها الأعراض وأكثرها من المرخ والعفار وفي أمثالهم في كل شجر نار. واستمجد المرخ والعفار يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار، وهي أنثى فتنقدح النار بإذن الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب[1] قالوا: ولذلك تتخذ منه كذينقات القصارين، وقرىء: ﴿الأخضر﴾ على اللفظ وقرىء الخضراء على المعنى ونحوه قوله تعالى: من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم.

أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾.

من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسي أقدر وفي معناه قوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾[2] وقرىء يقدر وقوله: ﴿أن يخلق مثلهم﴾ يحتمل معنيين أن يخلق مثلهم في الصغر والقماءة بالإضافة إلى السموات والأرض أو أن يعيدهم لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به ﴿وهو الخلاق﴾ الكثير المخلوقات ﴿العليم﴾ الكثير المعلومات وقرىء الخالق.

إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾.

﴿إنما أمره﴾ إنما شانه ﴿إذا أراد شيئًا﴾ إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف ﴿أن يقول له كن﴾ أن يكونه من غير توقف ﴿فيكون﴾ فيحدث أي فهو كائن موجود لا محالة.

فإن قُلْتَ: ما حقيقة قوله أن يقول له كن فيكون؟ قُلْتُ: هو مجاز من الكلام وتمثيل لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع.

فإن قُلْتَ: فما وجه القراءتين في فيكون؟ قُلْتُ: أما الرفع فلأنها جملة من مبتدأ وخبر لأن تقديرها، فهو يكون معطوفة على مثلها وهي أمره أن يقول له كن وأما النصب فللعطف على يقول، والمعنى: أنه لا يجوز عليه شيء مما يجوز على الأجسام إذا فعلت شيئًا مما تقدر عليه من المباشرة بمحال القدرة واستعمال الآلات وما يتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل، فيتكون فمثله كيف يعجز عن مقدور حتى يعجز عن الإعادة.

فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿فسبحان﴾ تنزيه له مما وصفه به المشركون وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا: ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكمته، وقرىء ملكة كل شيء ومملكة كل شيء وملك كل شيء والمعنى واحد ﴿ترجعون﴾ بضم التاء وفتحها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كنت لا أعلم ما روي في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلبًا، وإن قلب القرآن يّس من قرأ يّس يريد بها وجه الله غفر الله تعالى له وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنين وعشرين مرة»[3] وأيما مسلم قرىء عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يّس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفًا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه، وأيما مسلم قرأ يّس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يحبيه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة يشربها، وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان وقال عليه الصلاة والسلام: إن في القرآن سورة يشفع قارئها ويغفر لمستمعها ألا وهي سورة يّس[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الصافات مكية

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾.

أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة من قوله تعالى: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾[5] أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله.

فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾.

﴿فالزاجرات﴾ السحاب سوقًا.

فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾.

﴿فالتاليات﴾ لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها وقيل: الصافات الطير من قوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾ والزاجرات: كل ما زجر عن معاصي الله والتاليات: كل من تلا كتاب الله ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات فالزاجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله

---

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) سورة غافر، الآية: 57.

(3) أخرج أوله الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في= سورة يّس (الحديث رقم: 2887).

(4) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 3/171.

(5) سورة الصافات، الآية: 165.

والدارسات شرائعه، أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد وتتلو الذكر مع ذلك لا تشغلها عنه تلك الشواغل كما يحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فإن قُلْتَ: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ **قُلْتُ:** إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله:

يا لهف زيابة للحرث الـ صابح فالغانم فالآيب

كأنه قيل: الذي صبح فغنم فآب وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك خذ الأفضل، فالأكمل واعمل الأحسن فالأجمل وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله: رحم الله المحلقين، فالمقصرين فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات.

فإن قُلْتَ: فعلى أي هذه القوانين هي فيما أنت بصدده؟ **قُلْتُ:** إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل وإن ثلثته فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه بيان ذلك أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها فعطفها بالفاء يفيد ترتبًا لها في الفضل إما أن يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة وإما على العكس وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة وإن أجريت الصفة الأولى على الطوائف والثانية والثالثة على أخر فقد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل أعني أن الطوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس وكذلك إذا أردت بالصافات الطير وبالزاجرات كل ما يزجر عن معصية وبالتاليات كل نفس تتلو الذكر فإنّ الموصوفات مختلفة، وقرئ بإدغام التاء في الصاد والزاي والذال.

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾.

﴿رب السموات﴾ خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف و**﴿المشارق﴾** ثلثمائة وستون مشرقًا وكذلك المغارب تشرق الشمس كل يوم في مشرق منها وتغرب في مغرب ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين.

فإن قُلْتَ: فماذا أراد بقوله ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾[1]؟ **قُلْتُ:** أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما.

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾.

﴿الدنيا﴾ القربى منكم. والزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزان به الشيء كالليقة اسم لما تلاق به الدواة ويحتملها قوله **﴿بزينة الكواكب﴾** فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أي بأن زانتها الكواكب وأصله بزينة الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أي بأن زان الله الكواكب وحسنها لأنها إنما زينت السماء لحسنها في أنفسها وأصله بزينة الكواكب وهي قراءة أبي بكر والأعمش وابن وثاب وإن أردت الاسم فللإضافة وجهان أن تقع الكواكب بيانًا للزينة لأنّ مبهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به وأن يراد ما زينت به الكواكب وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما بزينة الكواكب بضوء الكواكب، ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة كشكل الثريا وبنات نعش والجوزاء وغير ذلك ومطالعها ومسايرها وقرئ على هذا المعنى **﴿بزينة الكواكب﴾** بتنوين زينة وجر الكواكب على الإبدال ويجوز في نصب الكواكب أن يكون بدلاً من محل بزينة.

وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾.

﴿وحفظًا﴾ مما حمل على المعنى لأنّ المعنى إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظًا من الشياطين كما قال تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين﴾ ويجوز أن يقدر الفعل المعلل كأنه قيل وحفظًا **﴿من كل شيطان﴾** زيناها بالكواكب وقيل: وحفظناها حفظًا، والمارد الخارج من الطاعة المتملس منها.

لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾.

الضمير في **﴿لا يسمعون﴾** لكل شيطان لأنه في معنى الشياطين وقرئ بالتخفيف والتشديد وأصله يتسمعون والتسمع تطلب السماع يقال تسمع فسمع أو فلم يسمع وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم يتسمعون ولا يسمعون وبهذا ينصر التخفيف على التشديد.

فإن قُلْتَ: لا يسمعون كيف اتصل بما قبله؟ **قُلْتُ:** لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان أو استئنافًا فلا تصحّ الصفة لأنّ الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يتسمعون لا معنى له وكذلك الاستئناف لأنّ سائلاً لو سأل لم تحفظ من الشياطين فأجيب بأنهم لا يسمعون لم يستقم فبقي أن يكون كلامًا منقطعًا مبتدأ اقتصاصًا لما عليه حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة أو يتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك، إلا من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استراقة فعندها تعاجله الهلكة باتباع الشهاب الثاقب.

فإن قُلْتَ: هل يصح قول من زعم أن أصله لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت في قولك جئتك أن تكرمني فبقي أن لا يسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها كما في قول القائل: ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغى؟ **قُلْتُ:** كل واحد من هذين الحذفين غير مردود على انفراده فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين سمعت فلانًا يتحدّث وسمعت إليه

(1) سورة الرحمٰن، الآية: 17.

يتحدّث وسمعت حديثه وإلى حديثه؟ **قُلْتُ**: المعدّى بنفسه يفيد الإدراك والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك والملأ الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات والإنس والجن هم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الكتبة من الملائكة وعن أشراف الملائكة ﴿**من كل جانب**﴾ من جميع جوانب السماء من أي جهة صعدوا للاستراق.

دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾.

﴿**دحورًا**﴾ مفعول له أي ويقذفون للدحور وهو الطرد أو مدحورين على الحال أو لأنّ القذف والطرد متقاربان في المعنى فكأنه قيل: يدحرون، أو قذفًا وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي بفتح الدال على قذفًا دحورًا طرودًا أو على أنه قد جاء مجيء القبول والولوع والواصب الدائم وصب الأمر وصوبًا يعني: أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب وقد أعدّ لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع.

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾.

﴿**من**﴾ في محل الرفع بدل من الواو في لا يسمعون أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي ﴿**خطف الخطفة**﴾ وقرئ: ﴿**خطف**﴾ بكسر الخاء والطاء وتشديدها وخطف بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها وأصلها اختطف، وقرئ فأتبعه وفاتبعه. الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير فهي بمعنى الاستفهام في أصلها فلذلك قيل.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾.

﴿**فاستفتهم**﴾ أي استخبرهم ﴿**أهم أشدّ خلقًا**﴾ ولم يقل فقرّرهم والضمير لمشركي مكة قيل: نزلت في أبي الأشد بن كلدة وكنى بذلك لشدّة بطشه وقوته ﴿**أم من خلقنا**﴾ يريد ما ذكر من خلائقه من الملائكة والسموات والأرض والمشارق والكواكب والشهب الثواقب والشياطين المردة وغلب أولي العقل على غيرهم فقال: من خلقنا والدليل عليه قوله بعد عدّ هذه الأشياء فاستفتهم أهم أشدّ خلقًا أم من خلقنا بالفاء المعقبة وقوله أم من خلقنا مطلقًا من غير تقييد بالبيان اكتفاء ببيان ما تقدّمه كأنه قال: خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق وبدائعه فاستفتهم أهم أشدّ خلقًا أم الذي خلقناه من ذلك ويقطع به قراءة من قرأ أم من عددنا بالتخفيف والتشديد وأشدّ خلقًا يحتمل أقوى خلقًا من قولهم شديد الخلق وفي خلقه شدّة وأصعب خلقًا وأشقه على معنى الرد لإنكارهم البعث والنشاة الأخرى وأنّ من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون. وخلقهم ﴿**من طين لازب**﴾ إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأنّ ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوّة أو احتجاج عليهم بأنّ الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا: أئذا كنا ترابًا وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث وقيل: من خلقنا من الأمم الماضية وليس هذا القول بملائم. وقرئ لازب ولاتب والمعنى واحد والثاقب الشديد الإضاءة.

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾.

﴿**بل عجبت**﴾ من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة ﴿**و**﴾ هم ﴿**يسخرون**﴾ منك ومن تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة الله أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث وقرئ بضم التاء أي بلغ من عظم آياتي وكثرة خلائقي أني عجبت منها فكيف بعبادي وهؤلاء بجهلهم عنادهم يسخرون من آياتي أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله وهم يسخرون ممن يصف الله بالقدرة عليه.

فإن **قُلْتَ**: كيف يجوز العجب على الله تعالى وإنما هو روعة تعتري الإنسان عند استعظامه الشيء والله تعالى لا يجوز عليه الروعة؟ **قُلْتُ**: فيه وجهان أحدهما أن يجرد العجب لمعنى الاستعظام والثاني أن يتخيل العجب ويفرض وقد جاء في الحديث عجب ربكم من ألكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم[1] وكان شريح يقرأ بالفتح ويقول: إنّ الله لا يعجب من شيء وإنما يعجب من لا يعلم فقال إبراهيم النخعي: إنّ شريحًا كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم يريد عبد الله بن مسعود وكان يقرأ بالضم وقيل: معناه، قل: يا محمد، بل عجبت.

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾.

﴿**وإذا ذكروا**﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به.

وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾.

﴿**وإذا رأوا آية**﴾ من آيات الله البينة كانشقاق القمر ونحوه ﴿**يستسخرون**﴾ يبالغون في السخرية أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾.

﴿**وآباؤنا**﴾ معطوف على محل ﴿**إن**﴾ واسمها أو على الضمير في مبعوثون والذي جوّز العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام والمعنى أيبعث أيضاً آباؤنا على زيادة الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل وقرئ أو آباؤنا.

---

(1) قال الزيلعي: غريب ونسبه إلى أبي عبيدة في غريب الحديث 3/ 175.

قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾.

﴿قل نعِم﴾ وقرئ: ﴿نعِم﴾ بكسر العين وهما لغتان وقرئ: قال نعم أي الله تعالى أو الرسول ﷺ والمعنى نعم تبعثون ﴿وأنتم داخرون﴾ صاغرون.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾.

﴿فإنما﴾ جواب شرط مقدّر تقديره إذا كان ذلك فما ﴿هي إلا زجرة واحدة﴾ وهي لا ترجع إلى شيء إنما هي مبهمة موضحها خبرها ويجوز فإنما البعثة زجرة واحدة وهي النفخة الثانية والزجرة الصيحة من قولك زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها فريعت لصوته ومنه قوله:

زجر أبي عروة السباع إذا ... أشفق أن يختلطن بالغنم

يريد تصويته بها ﴿فإذا هم﴾ أحياء بصراء ﴿ينظرون﴾ يحتمل أن يكون.

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾.

﴿هذا يوم الدين﴾ إلى قوله احشروا من كلام الكفرة بعضهم مع بعض وأن يكون من كلام الملائكة لهم وان يكون يا ويلنا هذا يوم الدين كلام الكفرة.

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾.

﴿هذا يوم الفصل﴾ من كلام الملائكة جوابًا لهم ويوم الدين اليوم الذي ندان فيه أي نجازى بأعمالنا ويوم الفصل يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلالة.

۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿احشروا﴾ خطاب الله للملائكة أو خطاب بعضهم مع بعض ﴿وأزواجهم﴾ وضرباءهم عن النبي ﷺ وهم نظراؤهم وأشباههم من العصاة أهل الزنا مع أهل الزنا وأهل السرقة مع أهل السرقة وقيل: قرناؤهم من الشياطين وقيل: نساؤهم اللاتي على دينهم.

مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿فاهدوهم﴾ فعرّفوهم طريق النار حتى يسلكوها.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾.

هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين.

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ قد أسلم بعضهم بعضًا وخذله عن عجز فكلهم مستسلم غير منتصر، وقرئ: ﴿لا تتناصرون﴾ ﴿ولا تناصرون﴾ بالإدغام.

قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾.

اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما وكانوا يتيمنون بها فيها يصافحون ويماسحون ويناولون ويتناولون ويزاولون أكثر الأمور ويتشاءمون بالشمال ولذلك سموها الشؤمى كما سموا أختها اليمنى وتيمنوا بالسانح وتطيروا بالبارح وكان الأعسر معيبًا عندهم وعضدت الشريعة ذلك فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين وأراذلها بالشمال وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن من كل شيء[1] وجعلت اليمين لكاتب الحسنات والشمال لكاتب السيئات ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسيء أن يؤتاه بشماله، استعيرت لجهة الخير وجانبه فقيل أتاه عن اليمين أي من قبل الخير وناحيته فصدّه عنه وأضله وجاء في بعض التفاسير من أتاه الشيطان من جهة اليمين أتاه من قبل الدين فليس عليه الحق ومن أتاه من جهة الشمال أتاه من قبل الشهوات ومن أتاه من بين يديه أتاه من قبل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب ومن أتاه من خلفه خوّفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده فلم يصل رحمًا ولم يؤدّ زكاة.

فإن قُلْتَ: قولهم أتاه من جهة الخير وناحيته مجاز في نفسه فكيف جعلت اليمين مجازًا عن المجاز؟ قُلْتُ: من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق وهذا من ذاك ولك أن تجعلها مستعارة للقوّة والقهر لأنّ اليمين موصوفة بالقوّة وبها يقع البطش والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوّة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم والغواة لشياطينهم.

قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾ بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر غير ملجئين إليه.

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾.

﴿وما كان لنا عليكم﴾ من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم ﴿بل كنت قومًا﴾ مختارين الطغيان.

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾.

﴿فحق علينا﴾ فلزمنا ﴿قول ربنا إنا لذائقون﴾ يعني: وعيد الله بأنا ذائقون لعذابه لا محالة لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة ولو حكى الوعيد كما هو لقال إنكم لذائقون ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم لأنهم متكلمون بذلك

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: للتيمن في دخول المسجد وغيره (الحديث رقم: 426)، ومسلم في كتاب: الطهارة، التيمن في الطهور وغيره (الحديث رقم: 67 ـ 268).

عن انفسهم ونحوه قال القائل:

لقد زعمت هوازن قلّ مالي

ولو حكى قولها لقال قل مالك ومنه قول المحلف للحالف احلف لأخرجنّ ولتخرجنّ الهمزة لحكاية لفظ الحالف والتاء لإقبال المحلف على المحلف.

فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾

﴿فاغويناكم﴾ فدعوناكم إلى الغي دعوة محصلة للبغية لقبولكم لها واستحبابكم الغيّ على الرشد ﴿إنا كنا غاوين﴾ فاردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿فإنهم﴾ فإنّ الاتباع والمتبوعين جميعًا ﴿يومئذٍ﴾ يوم القيامة مشتركون في العذاب كما كانوا مشتركين في الغواية.

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾.

﴿إنا﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نفعل﴾ بكل مجرم يعني: أن سبب العقوبة هو الإجرام فمن ارتكبه استوجبها.

إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿إنهم كانوا إذ﴾ سمعوا بكلمة التوحيد نفروا واستكبروا عنها وأبوا إلا الشرك.

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾.

﴿لشاعر مجنون﴾ يعنون محمدًا ﷺ.

بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿بل جاء بالحق﴾ رد على المشركين ﴿وصدق المرسلين﴾ كقوله مصدّقًا لما بين يديه وقرئ لذائقوا العذاب بالنصب على تقدير النون كقوله:

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾.

ولا ذاكر الله إلا قليلاً بتقدير التنوين وقرئ على الأصل لذائقون العذاب.

وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ إلا مثل ما عملتم جزاء سيئًا بعمل سيء.

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿إلا عباد الله﴾ ولكن عباد الله على الاستثناء المنقطع.

أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾.

فسر الرزق المعلوم بالفواكه وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوّت لحفظ الصحة يعني: أنّ رزقهم كله فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات بأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد فكل ما ياكلونه ياكلونه على سبيل التلذذ ويجوز أن يراد رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر وقيل: معلوم الوقت كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيًا وعن قتادة الرزق المعلوم الجنة، وقوله في جنات يأباه وقوله:

فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾.

﴿وهم مكرمون﴾ هو الذي يقوله العلماء في حد الثواب على سبيل المدح والتعظيم وهو من أعظم ما يجب أن تتوق إليه نفوس ذوي الهمم كما أنّ من أعظم ما يجب أن تنفر عنه نفوسهم هوان أهل النار وصغارهم، التقابل أتمّ للسرور وآنس وقيل: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض يقال للزجاجة فيها الخمر كأس وتسمى الخمر: نفسها كأسًا قال: وكأس شربت على لذة، وعن الأخفش، كل كأس في القرآن فهي الخمر وكذا في تفسير ابن عباس.

يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾.

﴿من معين﴾ من شراب معين أو من نهر معين وهو الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون وصف بما يوصف به الماء لانه يجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء قال الله تعالى: وأنهار من خمر.

بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿بيضاء﴾ صفة للكاس ﴿لذة﴾ إمّا أن توصف باللذة كأنها نفس اللذة وعينها أو هي تأنيث اللذ يقال لذ الشيء فهو لذ ولذيذ ووزنه فعل كقولك رجل طب قال:

ولذ كطعم الصرخديّ تركته بأرض العدا من خشية الحدثان

يريد النوم.

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾.

الغول لمن غاله يغوله غولاً إذا أهلكه وأفسده ومنه الغول الذي في تكذيب العرب وفي أمثالهم الغضب غول الحلم و ﴿ينزفون﴾ على البناء للمفعول من نزف الشارب إذا ذهب عقله، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ويقال للمطعون نزف فمات إذا خرج دمه كله ونزحت الركية حتى نزفتها إذا لم تترك فيها ماء وفي أمثالهم أجبن من المنزوف ضرطًا وقرئ ينزفون من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه قال:

لعمري لئن انزفتموا وصحوتموا لبئس الندامى كنتموا آل أبجرا

ومعناه صار ذا نزف ونظيره أقشع السحاب وقشعته الريح وأكب الرجل وكببته وحقيقتهما دخلا في القشع والكب وفي قراءة طلحة بن مصرف وينزفون بضم الزاي من نزف ينزف كقرب يقرب إذا سكر والمعنى لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من مغص أو صداع، أو خمار أو عربدة أو لغو أو تأثيم أو غير ذلك ولا هم يسكرون وهو أعظم مفاسدها فأفرزه وأفرده بالذكر.

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾.

﴿قاصرات الطرف﴾ قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا يمددن طرفًا إلى غيرهم كقولهم تعالى عربًا، والعين:

النجل العيون.

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾.

شبههنّ ببيض النعام المكنون في الأداحي وبها تشبه العرب النساء وتسميهنّ بيضات الخدور.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله:

﴿فاقبل بعضهم على بعض﴾ قُلْتُ: على يطاف عليهم والمعنى يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشرب قال:

وما بقيت من اللذات إلا ... أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم عل بعض **﴿يتساءلون﴾** عما جرى لهم وعليهم في الدنيا إلا أنه جيء به ماضيًا على عادة الله في أخباره.

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾.

قرئ: **﴿من المصدّقين﴾** من التصديق ومن المصدّقين مشدّد الصاد من التصدّق وقيل: نزلت في رجل تصدّق بماله لوجه الله فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال: وأين مالك؟ قال: تصدقت به ليعوضنني الله به في الآخرة خيرًا منه فقال: أئنك لمن المصدّقين بيوم الدين أو من المتصدّقين لطلب الثواب والله لا أعطيك شيئًا.

أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿لمدينون﴾ لمجزيون من الدين وهو الجزاء أو لمسوسون مربوبون يقال دانه ساسه ومنه الحديث: العاقل من دان نفسه **﴿قال﴾** يعني: ذلك القائل.

قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾.

﴿هل انتم مطلعون﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين قيل: إنّ في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار وقيل القائل هو الله عز وجل، وقيل بعض الملائكة يقول لأهل الجنة هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار وقرئ: **﴿مطلعون﴾** فاطلع فاطلع بالتشديد على لفظ الماضي والمضارع المنصوب ومطلعون فاطلع وفاطلع بالتحفيف على لفظ الماضي والمضارع المنصوب يقال: طلع علينا فلان واطلع وأطلع بمعنى واحد والمعنى هل أنتم مطلعون إلى القرين فاطلع أنا أيضًا أو عرض عليهم الاطلاع فاعترضوه فاطلع هو بعد ذلك وإن جعلت الاطلاع من أطلعه غيره فالمعنى أنه لما شرط في اطلاعه اطلاعهم، وهو من آداب المجالسة أن لا يستبد بشيء دون جلسائه فكأنهم مطلعوه وقيل: الخطاب على هذا للملائكة وقرئ **﴿مطلعون﴾** بكسر النون أراد مطلعون إياي فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله:

هم الفاعلون الخير والآمرونه

أو شبّه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتاخٍّ بينهما كأنه قال: تطلعون وهو ضعيف لا يقع إلا في الشعر **﴿في سواء الجحيم﴾** في وسطها يقال: تعبت حتى انقطع سوائي وعن أبي عبيدة قال لي عيسى بن عمر: كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائي.

قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾.

﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة وهي تدخل على كاد كما تدخل على كان، ونحوه إن كان ليضلنا واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والإرداء الإهلاك، وفي قراءة عبد الله لتغوينّ.

وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿نعمة ربي﴾ هي العصمة والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من قرين السوء أو إنعام الله بالثواب وكونه من أهل الجنة **﴿من المحضرين﴾** من الذين احضروا العذاب كما احضرته أنت وأمثالك الذي عطفت عليه الفاء محذوف معناه: أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين.

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾.

وقرئ: **﴿بمائتين﴾** والمعنى: أنّ هذه حال المؤمنين وصفتهم، وما قضى الله به لهم للعلم بأعمالهم أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى بخلاف الكفار فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة، وقيل لبعض الحكماء ما شر من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت. يقوله المؤمن تحدثًا بنعمة الله واغتباطًا بحاله وبمسمع من قرينه ليكون توبيخًا له يزيد به تعذبًا وليحكيه الله فيكون لنا لطفًا وزاجرًا ويجوز أن يكون قولهم جميعًا وكذلك قوله:

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾.

﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ أي إن هذا الأمر الذي نحن فيه وقيل هو من قول الله عزّ وجلّ تقريرًا لقولهم وتصديقًا له وقرئ لهو الرزق العظيم وهو ما رزقوه من السعادة تمت قصة المؤمن وقرينه ثم رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فقال:

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾.

﴿أذلك﴾ الرزق **﴿خير نزلاً﴾** أي خير حاصلاً **﴿أم شجرة الزقوم﴾** وأصل النزل الفضل والريع في الطعام يقال طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشيء وحاصل الرزق المعلوم اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم، وانتصاب نزلاً على التمييز ولك أن تجعله حالاً كما تقول أثمر النخلة خير بلحا أم رطبًا يعني: أنّ الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم، فأيهما خير في كونه نزلاً والنزل ما يقال للنازل بالمكان من الرزق ومنه إنزال الجند لإرزاقهم كما يقال لما يقام لساكن الدار السكن، ومعنى الأوّل أنّ للرزق المعلوم نزلا ولشجر الزقوم نزلاً فأيهما خير نزلا ومعلوم أنه لا خير في شجر الزقوم ولكن المؤمنين لما اختاروا ما

أدى إلى الرزق المعلوم، واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم قيل لهم: ذلك توبيخًا على سوء اختيارهم.

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾.

﴿فتنة للظالمين﴾ محنة وعذابًا لهم في الآخرة أو ابتلاء لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر فكذبوا وقرئ نابتة.

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾

﴿في أصل الجحيم﴾ قيل: منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾.

والطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها إما استعارة لفظية أو معنوية وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر لأنّ الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان كأنه رأس شيطان وإذا صوره المصورون جاؤا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه فشبّهوا به الصورة الحسنة قال الله تعالى: ﴿ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم﴾[1] هذا تشبيه تخييلي وقيل: الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جدًا وقيل إنّ شجرًا يقال له الأستن خشنًا منتنًا مرًا منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين وما سمت العرب هذا الثمر برؤوس الشياطين إلا قصدا إلى أحد التشبيهين ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلاً ثالثًا يشبه به.

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾.

﴿منها﴾ من الشجرة أي من طلعها ﴿فمالئون﴾ بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد، أو يقسرون على أكلها وإن كرهوها ليكون بابًا من العذاب فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شرابًا من غساق، أو صديد شوبه أي مزاجه.

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾.

﴿من حميم﴾ يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم كما قال في صفة شراب أهل الجنة ومزاجه من تسنيم، وقرئ لشوباً بالضم وهو اسم ما يشاب به والأوّل تسمية بالمصدر.

فإن قُلْتَ: ما معنى حرف التراخي في قوله ثم إن لهم عليها لشوبًا وفي قوله: ﴿ثم إن مرجعهم﴾؟ قُلْتُ: في الأوّل وجهان أحدهما أنهم يملؤن البطون من شجر الزقوم، وهو حار يحرق بطونهم ويعطشهم فلا يسقون إلا بعد ملي تعذيبًا بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحر وهو الشراب المشوب بالحميم والثاني أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع فجاء بثم للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه، ومعنى الثاني: أنهم يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم في الجحيم وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم فيأكلون إلى أن يمتلؤا ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم ومعنى التراخي في ذلك بين.

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾.

وقرئ إن منقلبهم ثم إن مصيرهم ثم إن منفذهم إلى الجحيم على استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين واتباعهم إياهم على الضلال وترك اتباع الدليل والإهراع الإسراع الشديد كأنهم يحثون حثًا وقيل: إسراع فيه شبه بالرعدة.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾.

﴿ولقد ضلّ قبلهم﴾ قبل قومك قريش.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾.

﴿منذرين﴾ أنبياء حذروهم العواقب.

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾.

﴿المنذرين﴾ الذين أنذروا وحذروا أي أهلكوا جميعًا.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾.

﴿إلا عباد الله﴾ الذين آمنوا منهم وأخلصوا دينهم لله أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين. لما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية، وسوء عاقبة المنذرين أتبع ذلك ذكر نوح ودعائه إياه حين أيس من قومه واللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف تقديره فوالله لنعم المجيبون نحن والجمع دليل العظمة والكبرياء.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾.

والمعنى: إنا أجبناه أحسن الإجابة وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون.

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾.

﴿هم الباقين﴾ هم الذين بقوا وحدهم، وقد فني غيرهم فقد روى أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح وكان لنوح عليه السلام ثلاثة

(1) سورة يوسف، الآية: 31.

أولاد سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج.

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾.

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ من الامم هذه الكلمة وهي.

سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾.

﴿سلام على نوح﴾ يعني: يسلمون عليه تسليمًا ويدعون له وهو من الكلام المحكي كقولك قرأت سورة انزلناها.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله ﴿في العالمين﴾! قُلْتُ: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعًا وأن لا يخلو أحد منهم منها كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم، علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنة من تبقية ذكره وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بانه كان محسنًا ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا ليريك جلالة محل الإيمان وانه القصارى من صفات المدح والتعظيم ويرغبك في تحصيله والازدياد منه.

۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾.

﴿من شيعته﴾ ممن شايعه على أصول الدين وإن اختلفت شرائعهما أو شايعه على التصلب في دين الله ومصابرة المكذبين ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق في أكثر الأشياء وعن ابن عباس رضي الله عنهما من أهل دينه وعلى سنته وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة.

فإن قُلْتَ: بم تعلق الظرف؟ قُلْتُ: بما في الشيعة من معنى المشايعة يعني: وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم أو بمحذوف وهو اذكر.

إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾.

﴿بقلب سليم﴾ من جميع آفات القلوب وقيل: من الشرك ولا معنى للتخصيص لانه مطلق فليس بعض الآفات أولى من بعض فيتناولها كلها.

فإن قُلْتَ: ما معنى المجيء بقلبه ربه؟ قُلْتُ: معناه انه أخلص لله قلبه وعرف ذلك منه فضرب المجيء مثلاً لذلك.

أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾.

﴿إفكًا﴾ مفعول له تقديره اتريدون آلهة من دون الله إفكًا وإنما قدّم المفعول على الفعل للعناية وقدّم المفعول له على المفعول به لانه كان الأهمّ عنده أن يكافحهم بانهم على إفك وباطل في شركهم ويجوز أن يكون إفكًا مفعولاً يعني: أتريدون به إفكًا، ثم فسّر الإفك بقوله آلهة من دون الله على أنها إفك في أنفسها، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى اتريدون آلهة من دون الله آفكين.

فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾.

﴿فما ظنكم﴾ بمن هو الحقيق بالعبادة لأنّ من كان ربًا للعالمين استحق عليهم أن يعبدوه حتى تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام، والمعنى: أنهم لا يقدّر في وهم ولا ظنّ ما يصد عن عبادته أو فما ظنكم به أي شيء وهو من الأشياء حتى جعلتم الاصنام له أندادًا، أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره.

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾.

﴿في النجوم﴾ في علم النجوم، أو في كتابها أو في احكامها وعن بعض الملوك أنه سئل عن مشتهاه فقال حبيب أنظر إليه ومحتاج أنظر له، وكتاب أنظر فيه، كان القوم نجامين فأوهمهم أنه استدل بأمارة في علم النجوم على أنه يسقم.

فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾.

﴿فقال إني سقيم﴾ إني مشارف للسقم، وهو الطاعون وكان أغلب الأسقام عليهم.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾.

وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد ففعل بالاصنام ما فعل.

فإن قُلْتَ: كيف جاز له أن يكذب؟ قُلْتُ: قد جوّزه بعض الناس في المكيدة في الحرب والتقية وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين والصحيح ان الكذب حرام إلا إذا عرض وورّى والذي قاله إبراهيم عليه السلام معراض من الكلام ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم ومنه المثل كفى بالسلامة داء وقول لبيد:

دعوت ربي بالسلامة جاهدًا ليصحني فإذا السلامة داء

وقد مات رجل فجاة فالتف عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه وقيل: أراد إني سقيم النفس لكفركم.

فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾.

﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ فذهب إليها في خفية من روغة الثعلب، إلى آلهتهم: إلى أصنامهم: التي هي في زعمهم آلهة كقوله تعالى: أين شركائي.

﴿ألا تاكلون ما لكم لا تنطقون﴾ استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبدتها.

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾.

﴿فراغ عليهم﴾ فاقبل عليهم مستخفيًا كأنه قال

فضربهم ﴿ضربًا﴾ لأن راغ عليهم بمعنى ضربهم أو فراغ عليهم يضربهم ضربًا أو فراغ عليهم ضربًا بمعنى ضاربًا وقرىء صفقًا وسفقًا ومعناهما الضرب ومعنى ضربًا ﴿باليمين﴾ ضربًا شديدًا قويًا لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما وقيل: بالقوّة والمتانة وقيل: بسبب الحلف وهو قوله تالله لأكيدنّ أصنامكم.

فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾.

﴿يزفون﴾ يسرعون من زفيف النعام ويزفون من أزفّ إذا دخل في الزفيف أو من أزفه إذا حمله على الزفيف أي يزفّ بعضهم بعضًا ويزفون على البناء للمفعول أي يحملون على الزفيف ويزفون من وزف يزف إذا أسرع ويزفون من زفاه إذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضًا لتسارعهم إليه.

فإن قُلْتَ: بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾(1) كالتناقض حيث ذكر ههنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى فلما أبصروه يكسرهم أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويوقعوه به ونكر، ثم إنهم سألوا عن الكاسر حتى قيل لهم: سمعنا إبراهيم يذمهم فلعله هو الكاسر ففي أحدهما أنهم شاهدوه يكسرها وفي الآخر أنهم استدلوا بذمّه على أنه الكاسر قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفرًا منهم دون جمهورهم وكبرائهم فلما رجع الجمهور والعلية من عيدهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوها مكسورة اشمأزوا من ذلك وسألوا من فعل هذا بها ثم لم ينم عليه أولئك النفر نميمة صريحة، ولكن على سبيل التورية والتعريض بقولهم سمعنا فتى يذكرهم لبعض الصوارف والثاني أن يكسرها ويذهب، ولا يشعر بذلك أحد ويكون إقبالهم إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر وقولهم: قالوا فأتوا به على أعين الناس.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾.

﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ يعني: خلقكم وخلق ما تعلمونه من الأصنام كقوله بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهنّ أي فطر الأصنام.

فإن قُلْتَ: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقًا لله معمولاً لهم حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعًا؟ قُلْتُ: هذا كما يقال عمل النجار الباب والكرسي وعمل الصائغ السوار والخلخال والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصوّرها دون جواهرها والأصنام جواهر وأشكال فخالق جواهرها الله وعاملوا أشكالها الذين يشكلونها بنحتهم وحذفهم بعض أجزائها حتى يستوي التشكيل الذي يريدونه.

فإن قُلْتَ: فما أنكرت أن تكون ما مصدرية لا موصولة ويكون المعنى والله خلقكم وعملكم كما تقول المجبرة؟ قُلْتُ: أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه بحجج العقل والكتاب أن معنى الآية يأباه إباء جليًا وينبو عنه نبوًا ظاهرًا وذلك أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأنّ العابد والمعبود جميعًا خلق الله فكيف يعبد المخلوق المخلوق على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله لولاه لما قدر أن يصوّر نفسه ويشكلها ولو قلت والله خلقكم وخلق عملكم لم يكن محتجًا عليهم ولا كان لكلامك طباق وشيء آخر، وهو أن قوله ما تعملون ترجمة عن قوله ما تنحتون وما في تنحتون موصولة لا مقال فيها فلا يعدل بها عن أختها إلا متعسف متعصب لمذهبه من غير نظر في علم البيان ولا تبصر لنظم القرآن.

فإن قُلْتَ: أجعلها موصولة حتى لا يلزمني ما ألزمت وأريد وما تعملونه من أعمالكم قُلْتُ: بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلا الإذعان للحق وذلك أنك وإن جعلتها موصولة فإنك في إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين كحالك وقد جعلتها مصدرية وأيضًا فإنك قاطع بذلك الوصلة بين ما تعملون وما تنحتون حيث تخالف بين المرادين بهما فتريد بما تنحتون الأعيان التي هي الأصنام وبما تعملون المعاني التي هي الأعمال وفي ذلك فك النظم وتبتيره كما إذا جعلتها مصدرية.

قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾.

﴿الجحيم﴾ النار الشديدة الوقود وقيل: كل نار على نار وجمر فوق جمر فهي جحيم.

فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾.

والمعنى أن الله تعالى غلبه عليهم في المقامين جميعًا وأذلهم بين يديه أرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقنه الله وألهمه ما ألقمهم به الحجر وقهرهم فمالوا إلى المكر فأبطل الله مكرهم وجعلهم الأذلين الأسفلين لم يقدروا عليه.

وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾.

أراد بذهابه إلى ربه مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام كما قال: إني مهاجر إلى ربي ﴿سيهدين﴾ سيرشدني إلى ما فيه صلاحي في ديني ويعصمني ويوفقني كما قال موسى عليه السلام: كلا إنّ معي ربي سيهدين كأن الله وعده وقال له: سأهديك فأجرى كلامه على سنن موعد ربه أو بناء على عادة الله تعالى معه في هدايته وإرشاده أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى الله ولو قصد الرجاء والطمع لقال كما قال موسى عليه السلام: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل.

رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 59 ـ 60.

﴿هب لي من الصالحين﴾ هب لي بعض الصالحين يريد الولد لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيًا﴾ قال عزّ وجل: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب ووهبنا له يحيى﴾ وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم حين هنأه بولده عليّ أبي الأملاك شكرت الواهب وبورك لك في الموهوب ولذلك وقعت التسمية بهبة الله وبموهوب ووهب وموهب.

فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾.

وقد انطوت البشارة على ثلاث على أن الولد غلام ذكر وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليمًا وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين ثم استسلم لذلك وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم وذلك لعزة وجوده ولقد نعت الله به إبراهيم في قوله: ﴿إنّ إبراهيم لأوّاه حليم﴾ إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب لأنّ الحادثة شهدت بحلمهما جميعًا.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾.

﴿فلما بلغ﴾ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه.

فإن قُلْتَ: ﴿معه﴾ بم يتعلق؟ قُلْتُ: لا يخلو إما أن يتعلق ببلغ أو بالسعي أو بمحذوف فلا يصح تعلقه ببلغ لاقتضائه بلوغهما معا حدّ السعي ولا بالسعي لأنّ صلة المصدر لا تتقدّم عليه فبقي أن يكون بيانًا كأنه لما قال: فلما بلغ السعي أي الحدّ الذي يقدر فيه على السعي قيل مع من فقال: مع أبيه والمعنى في اختصاص الأب: أنه أرفق الناس به وأعطفهم عليه وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشر سنة والمراد أنه على غضاضة سنه وتقلبه في حد الطفولة كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما جسره على احتمال تلك البلية العظيمة والإجابة بذلك الجواب الحكيم أتى في المنام فقيل له: اذبح ابنك، ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة فلهذا قال: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ فذكر تأويل الرؤيا كما يقول الممتحن، وقد رأى أنه راكب في سفينة: رأيت في المنام أني ناج من هذه المحنة وقيل: رأى ليلة التروية كان قائلاً يقول له: إنّ الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أو من الشيطان فمن ثمّ سمي يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فمن ثم سمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهمّ بنحره فسمي اليوم يوم النحر وقيل: إنّ الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال: هو إذن ذبيح الله، فلما ولد وبلغ حد السعي معه قيل له أوف بنذرك ﴿فانظر ماذا ترى﴾ من الرأي على وجه المشاورة، وقرئ: ﴿ماذا ترى﴾ أي ماذا تبصر من رأيك وتبديه وماذا ترى على البناء للمفعول أي ماذا تريك نفسك من الرأي ﴿افعل ما تؤمر﴾ أي ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به أو أمرك على إضافة المصدر إلى المفعول وتسمية المأمور به أمرًا وقرئ ما تؤمر به.

فإن قُلْتَ: لم شاوره في أمر هو حتم من الله؟ قُلْتُ: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله ولأنّ المغافصة بالذبح مما يستسمج وليكون سنة في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك.

فإن قُلْتَ: لم كان ذلك بالمنام دون اليقظة؟ قُلْتُ: كما أري يوسف عليه السلام سجود أبويه وإخوته له في المنام من غير وحي إلى أبيه وكما وعد رسول الله ﷺ دخول المسجد الحرام في المنام وما سوى ذلك من منامات الأنبياء وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين لأنّ الحال إما حال يقظة أو حال منام فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما.

فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾.

يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهنّ جميعًا إذا انقاد له وخضع وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ومعناه سلم من أن ينازع فيه وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان منه وحقيقة معناهما أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة في أسلما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ﴿وتله للجبين﴾ صرعه على شقه فوقع أحد جنبيه على الأرض تواضعًا على مباشرة الأمر بصبر وجلد ليرضيا الرحمن ويخزيا الشيطان وروي أن ذلك كان عند الصخرة التي بمنى، وعن الحسن: في الموضع المشرف على مسجد منى، وعن الضحاك: في المنحر الذي ينحر فيه اليوم.

فإن قُلْتَ: أين جواب لما؟ قُلْتُ: هو محذوف تقديره، فلما أسلما وتله للجبين.

وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾.

﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله وما

اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب وقوله: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ تعليل لتخويل ما خوّلهما من الفرج بعد الشدّة والظفر بالبغية بعد اليأس.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَٰٓؤُا الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾.

﴿البلاء المبين﴾ الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها.

وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾.

الذبح اسم ما يذبح وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الكبش الذي قرّبه هابيل فقبل منه وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسمعيل، وعن الحسن: فدى بوعل اهبط عليه من ثبير، وعن ابن عباس: لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة وذبح الناس أبناءهم[1] ﴿عظيم﴾ ضخم الجثة سمين وهي السنة في الأضاحي وقوله عليه السلام: «استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم»[2] وقيل: لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم. وروي أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقيت سنة في الرمي وروي أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده، وروي أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر الله أكبر فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر فقال إبراهيم عليه السلام: الله أكبر ولله الحمد فبقي سنة[3] وحكي في قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه وقال: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر فقال له: اشدد رباطي لا أضطرب واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واشحذ شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي حتى تجهز عليّ ليكون أهون فإنّ الموت شديد واقرأ على أمي سلامي وإن رأيت أن تردّ قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بنيّ على أمر الله ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل لأنّ الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه فقال له: كبني على وجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله ففعل، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح فكبر جبريل والكبش وإبراهيم وابنه وأتى المنحر من منى فذبحه وقيل: لما وصل موضع السجود منه إلى الأرض جاء الفرج وقد استشهد أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده أنه يلزمه ذبح شاة.

فإن قُلْتَ: من كان الذبيح من ولديه؟ قُلْتُ: قد اختلف فيه، فعن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وجماعة من التابعين أنه إسماعيل والحجة فيه أنّ رسول الله ﷺ قال: أنا ابن الذبيحين[4] وقال له أعرابي: يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال: إنّ عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر الله لئن سهل الله له أمرها لينبحن أحد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له: افدينك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل[5]، وعن محمد بن كعب القرظي قال: كان مجتهد بني إسرائيل يقول إذا دعا: اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل، فقال موسى عليه السلام يا رب ما لمجتهد بني إسرائيل إذا دعا قال: اللهم إله إبراهيم وإسمعيل وإسرائيل وأنا بين أظهرهم فقد أسمعتني كلامك واصطفيتني برسالك؟ قال: يا موسى لم يحبني أحد حب إبراهيم قط ولا خير بيني وبين شيء قط إلا اختارني وأمّا إسماعيل فإنه جاد بدم نفسه وأمّا إسرائيل فإنه لم ييأس من روحي في شدّة نزلت به قط يدل عليه أنّ الله تعالى لما أتم قصة الذبيح قال: ﴿وبشرناه بإسحاق نبيًا﴾ وعن محمد بن كعب أنه قال لعمر بن عبد العزيز: هو إسماعيل، فقال عمر: إنّ هذا شيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى يهودي قد أسلم فسأله فقال اليهود لتعلم أنه إسمعيل ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ويدل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت وعن الأصمعي بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة ومما يدل عليه أنّ الله تعالى وصفه بالصبر دون أخيه إسحاق في قوله: ﴿وإسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين﴾ وهو صبره على الذبح ووصفه بصدق الوعد في قوله: ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ لأنه وعد أباه الصبر من نفسه على الذبح فوفى به ولأن الله بشره بإسحاق وولده يعقوب في قوله: ﴿فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾ فلو كان الذبيح إسحق لكان خلفًا للموعد في يعقوب. وعن علي بن أبي طالب وابن مسعود والعباس وعطاء وعكرمة وجماعة من التابعين أنه إسحق والحجة فيه أن الله تعالى أخبر عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشأم بأنه استوهبه ولداً ثم أتبع ذلك البشارة بغلام حليم، ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف من

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) قال الزيلعي غريب، والحديث في الفردوس عن ابن هريرة 177/3.

(3) لم يخرجه الزيلعي.

(4) قال الزيلعي غريب: 177/3.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرك: 554/2.

يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله[1].

فإن قُلْتَ: قد أوحي إلى إبراهيم صلوات الله عليه في المنام بأن يذبح ولده ولم يذبح، وقيل له: قد صدقت الرؤيا وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ولم يصح قُلْتُ: قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام ألا ترى أنه لا يسمى عاصيًا ولا مفرطًا بل يسمى مطيعًا ومجتهدًا كما لو مضت فيه الشفرة، وفرت الأوداج وأنهرت الدم وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ولا قبل أوان الفعل في شيء كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه.

فإن قُلْتَ: الله تعالى هو المفتدي منه لأنه الآمر بالذبح فكيف يكون فاديًا حتى قال وفديناه؟ قُلْتُ: الفادي هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام والله عز وجل وهب له الكبش ليفدي به وإنما قال: وفديناه إسناد للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهبته.

فإن قُلْتَ: فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح فما معنى الفداء والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل؟ قُلْتُ: قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فرى الأوداج وإنهار الدم فوهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسمعيل، ولكن في نفس الكبش بدلاً منه.

فإن قُلْتَ: فأي فائدة في تحصيل تلك الحقيقة وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان؟ قُلْتُ: الفائدة في ذلك أن يوجد ما منع منه في بدله حتى يكمل منه الوفاء بالنذور وإيجاد المأمور به من كل وجه.

كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾.

فإن قُلْتَ: لم قيل ههنا: ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ وفي غيرها من القصص إنا كذلك؟ قُلْتُ: قد سبقه في هذه القصة إنا كذلك فكأنما استخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية.

وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾.

﴿نبيًا﴾ حال مقدرة كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾[2].

فإن قُلْتَ: فرق بين هذا وبين قوله فادخلوها خالدين وذلك أنّ المدخول موجود مع وجود الدخول، والخلود غير موجود معهما فقدرت مقدرين الخلود فكان مستقيمًا وليس كذلك المبشر به فإنه معدوم وقت وجود البشارة وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لا محالة لأنّ الحال حلية والحلية لا تقوم إلا بالمحلى وهذا المبشر به الذي هو إسحق حين وجد لم توجد النبوّة أيضًا بوجوده بل تراخت عنه مدّة متطاولة فكيف يجعل نبيًا حالاً مقدّرة والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به، فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة فتقديرها صفتهم لأنّ المعنى مقدّرين الخلود وليس كذلك النبوّة فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة، أو مقدّرة وقت وجود البشارة بإسحق لعدم إسحق؟ قُلْتُ: هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك والذي يحل الإشكال أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف وذلك قولك وبشرناه بوجود إسحق نبيًا أي بأن يوجد مقدّرة نبوّته فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة وبذلك يرجع نظير قوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾[3] ﴿من الصالحين﴾ حال ثاني وورودها على سبيل الثناء والتقريظ لأنّ كل نبي لا بد أن يكون من الصالحين وعن قتادة بشره الله بنبوّة إسحق بعد ما امتحنه بذبحه وهذا جواب من يقول الذبيح إسحق لصاحبه عن تعلقه بقوله وبشرناه بإسحق قالوا، ولا يجوز أن يبشره الله بمولده ونبوّته معًا لأنّ الامتحان بذبحه لا يصح مع علمه بأنه سيكون نبيًا.

وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾.

﴿وباركنا عليه وعلى إسحق﴾، وقرئ وبركنا أي: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا كقوله: ﴿وآتينا أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده وعلى إسحق بأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه وقوله ﴿وظالم لنفسه﴾ نظيره قال: ومن ذرّيتي قال: لا ينال عهدي الظالمين وفيه تنبيه على أنّ الخبث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة، وأنّ المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اجترحت يداه لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾.

﴿من الكرب العظيم﴾ من الغرق، أو من سلطان فرعون وقومه وغشمهم.

وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾.

---

(1) قال الزيلعي: أخرجه الدارقطني في غرائب مالك، وقال لا أصل له: 180/3.

(2) سورة الزمر، الآية: 73.

(3) سورة الزمر، الآية: 73.

﴿ونصرناهم﴾ الضمير لهما ولقومهما في قوله ونجيناهما وقومهما.

وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾.

﴿الكتاب المستبين﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة كما قال: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾(1) وقال: من جواز أن تكون التوراة عربية أن تشتق من ورى الزند فوعلة منه على أنّ التاء مبدلة من واو.

وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾.

﴿الصراط المستقيم﴾ صراط أهل الإسلام وهي صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾.

قرئ: ﴿إلياس﴾ بكسر الهمزة والياس على لفظ الوصل وقيل: هو إدريس النبي وقرأ ابن مسعود: وأنّ إدريس في موضع إلياس وقرئ إدراس وقيل: هو إلياس بن ياسين من ولد هرون أخي موسى.

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾.

﴿أتدعون بعلاً﴾ أتعبدون بعلاً وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل وقيل: كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعًا وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها، ويعلمونها الناس(2) وهم أهل بعلبك من بلاد الشام وبه سميت مدينتهم بعلبك وقيل: البعل الرب بلغة اليمن يقال من بعل هذه الدار أي: من ربها والمعنى أتعبدون بعض البعول، وتتركون عبادة الله.

ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾.

﴿الله ربكم ورب آبائكم﴾ قرئ بالرفع على الابتداء وبالنصب على البدل وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع، وقرئ على الياسين وإدريسين وإدراسين وإدريسين على أنها لغات في إلياس وإدريس ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى، وقرئ على الياسين بالوصل على أنه جمع يراد به إلياس وقومه كقولهم الخبيبون والمهلبون.

فإن قُلْتَ: فهلا حملت على هذا الياسين على القطع وأخواته! قُلْتُ: لو كان جمعًا لعرف بالألف واللام.

سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾.

وأما من قرأ على آل ياسين فعلى أنّ ياسين اسم أبي الياس أضيف إليه الآل.

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾.

﴿مصبحين﴾ داخلين في الصباح يعني: تمرّون على منازلهم في متاجركم إلى الشام ليلاً ونهارًا فما فيكم عقول تعتبرون بها.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾.

قرئ: ﴿يونس﴾ بضم النون وكسرها.

فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾.

وسمي هربه من قومه بغير إذن ربه إباقًا على طريقة المجاز، والمساهمة: المقارعة، ويقال: استهم القوم: إذا اقترعوا، والمدحض المغلوب المقروع وحقيقته المزلق عن مقام الظفر والغلبة. روي أنه حين ركب في السفينة وقفت فقالوا: ههنا عبد أبق من سيده وفيما يزعم البحارون أنّ السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فقال أنا الآبق وزجّ بنفسه في الماء.

فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾.

﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾ داخل في الملامة يقال ربّ لائم مليم أي: يلوم غيره، وهو أحق منه باللوم، وقرئ مليم بفتح الميم من ليم فهو مليم كما جاء مشيب في مشوب مبنيًا على شيب ونحوه مدعي بناء على دعي.

فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾.

﴿من المسبحين﴾ من الذاكرين الله كثيرًا بالتسبيح والتقديس وقيل: هو قوله في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين وقيل: من المصلين وعن ابن عباس كل تسبيح في القرآن فهو صلاة(3) وعن قتادة كان كثير الصلاة في الرخاء قال وكان يقال إنّ العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر وإذا صرع وجد متكأ وهذا ترغيب من الله عز وجل في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله، وإقباله على عبادته وجمع همه لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد.

لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾.

﴿للبث في بطنه﴾ الظاهر لبثه فيه حيًا إلى يوم البعث وعن قتادة لكان بطن الحوت له قبرًا إلى يوم القيامة وروي أنه حين ابتلعه أوحى الله إلى الحوت: إني جعلت بطنك له

(1) سورة المائدة، الآية: 44.

(2) لم أجده عند عبد الرزاق.

سجنًا ولم أجعله لك طعامًا. واختلف في مقدار لبثه فعن الكلبي أربعون يومًا وعن الضحاك: عشرون يومًا، وعن عطاء: سبعة، وعن بعضهم: ثلاثة، وعن الحسن: لم يلبث إلا قليلاً ثم أخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقم فيه.

۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾.

وروي أنّ الحوت سار مع السفينة رافعًا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر فلفظه سالمًا لم يتغير منه شيء فأسلموا، وروي أنّ الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل، والعراء: المكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه ﴿وهو سقيم﴾ اعتلّ مما حلّ به وروي أنه عاد بدنه كبدن الصبيّ حين يولد.

وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾.

واليقطين كل ما ينسدح على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجرة البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به وقيل: هو الدباء، فائدة الدباء: أنّ الذباب لا يجتمع عنده وقيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب القرع قال: «أجل هي شجرة أخي يونس»[1] وقيل: هي التين وقيل: شجرة الموز تغطى بورقها واستظلّ بأغصانها وأفطر على ثمارها وقيل: كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها وروي أنه مرّ زمان على الشجرة فيبست فبكى جزعًا فأوحى الله إليه بكيت على شجرة ولا تبكي على مائة ألف في يد الكافر.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى وأنبتنا عليه شجرة؟ **قُلْتُ**: أنبتناها فوقه مظلة له كما يطنب البيت على الإنسان.

وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾.

﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف**﴾ المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى وقيل هو إرسال ثان بعد ما جرى عليه إلى الأولين أو إلى غيرهم وقيل: أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى لأنّ النبيّ إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيمًا فيهم وقال لهم: إنّ الله باعث إليكم نبيًا ﴿**أو يزيدون**﴾ في مرأى الناظر أي إذا رآها الرائي، قال هي: مائة ألف أو أكثر والغرض الوصف بالكثرة.

فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾.

﴿**إلى حين**﴾ إلى أجل مسمى، وقرئ ويزيدون بالواو وحتى حين ﴿**فاستفتهم**﴾ معطوف على مثله في أوّل السورة وإن تباعدت بينهما المسافة أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أوّلاً ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم الملائكة بنات الله مع كراهتهم الشديدة لهنّ ووأدهم واستنكافهم من نكرهنّ ولقد ارتكبوا في ذلك ثلاثة أنواع من الكفر أحدها التجسيم لأنّ الولادة مختصة بالأجسام والثاني تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم كما قال: ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظلّ وجهه مسودًا وهو كظيم﴾[2] ﴿أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾[3] والثالث أنهم استهانوا بأكرم خلق الله عليه وأقربهم إليه حيث أنثوهم ولو قيل لأقلهم وأدناهم: فيك أنوثة أو شكلك شكل النساء للبس لقائله جلد النمر ولانقلبت حماليقه وذلك في أهاجيهم بين مكشوف فكرّر الله سبحانه الأنواع كلها في كتابه مرّات ودل على فظاعتها في آيات ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا﴾[4] ﴿لقد جئتم شيئًا إدًّا تكاد السمٰوات يتفطرن منه﴾[5] ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا سبحانه بل عباد مكرمون﴾[6] ﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا سبحانه بل له ما في السموات والأرض﴾[7] ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد﴾[8] ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله﴾[9] ﴿وجعلوا له من عباده جزءًا﴾[10] ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾[11] ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾[12] ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾[13] ﴿أصطفى البنات على البنين﴾[14] ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾[15] ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا﴾[16].

أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾.

﴿**أم خلقنا الملائكة إناثًا وهم شاهدون**﴾.

فإن **قُلْتَ**: لم قال وهم شاهدون فخصّ علم المشاهدة؟ **قُلْتُ**: ما هو إلا استهزاء بهم وتجهيل وكذلك قوله: ﴿أشهدوا خلقهم﴾[17] ونحوه قوله: ﴿ما أشهدتهم خلق

---

(1) قال الزيلعي: غريب: 3/181.
(2) سورة الزخرف، الآية: 17.
(3) سورة الزخرف، الآية: 18.
(4) سورة مريم، الآية: 88.
(5) سورة مريم، الآية: 89، 90.
(6) سورة الأنبياء، الآية: 26.
(7) سورة البقرة، الآية: 116.
(8) سورة البقرة، الآية: 117.
(9) سورة الصافات، الآية: 151 ـ 152.
(10) سورة الزخرف، الآية: 15.
(11) سورة النحل، الآية: 57.
(12) سورة الطور، الآية: 39.
(13) سورة النحل، الآية: 62.
(14) سورة الصافات، الآية: 153.
(15) سورة الزخرف، الآية: 16.
(16) سورة الزخرف، الآية: 19.
(17) سورة الزخرف، الآية: 19.

السمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾[1] وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم ولا بإخبار صادق ولا بطريق استدلال ونظر ويجوز أن يكون المعنى أنهم يقولون ذلك كالقائل قولاً عن ثلج صدر وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم كأنهم قد شاهدوا خلقهم.

وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾.

وقرئ: ﴿وَلَدَ الله﴾ أي الملائكة ولده والولد فعل بمعنى مفعول يقع على الواحد والجمع والمنكر والمؤنث تقول: هذه ولدي وهؤلاء ولدي.

أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾.

فإن قُلْتَ: ﴿اصطفى البنات﴾ بفتح الهمزة استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ قُلْتُ: جعله من كلام الكفرة بدلاً عن قولهم ولد الله وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضي الله عنهما وهذه القراءة وإن كان هذا محملها فهي ضعيفة والذي أضعفها أنّ الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها وذلك قوله: وإنهم لكاذبون.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾.

﴿مالكم كيف تحكمون﴾ فمن جعلها للإثبات فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾.

وقرئ: ﴿تذكرون﴾ من ذكر.

أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾.

﴿أم لكم سلطان﴾ أي حجة نزلت عليكم تمن السماء وخبر بأن الملائكة بنات الله.

فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾.

﴿فأتوا بكتابكم﴾ الذي أنزل عليكم في ذلك كقوله تعالى: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطانًا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾[2] وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع واستبعاد لأقاويلهم شديد وما الأساليب التي وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش وتجهيل نفوسها واستركاك عقولها مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بال ويحدّث به نفسًا فضلاً أن يجعله معتقدًا ويتظاهر به مذهبًا.

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾.

﴿وجعلوا﴾ بين الله وبين الجنة وأراد الملائكة ﴿نسبًا﴾ وهو زعمهم أنهم بناته والمعنى وجعلوا بما قالوا: نسبة بين الله وبينهم وأثبتوا له بذلك جنسية جامعة له وللملائكة.

فإن قُلْتَ: لم سمى الملائكة جنة؟ قُلْتُ: قالوا الجنس واحد ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شرًا كله فهو شيطان ومن طهر منهم ونسك وكان خيرًا كله فهو ملك فذكرهم في هذا الموضع باسم جنسهم وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعًا منهم وتقصيرًا بهم وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار وهو من صفات الأجرام لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك ومثاله أن تسوّي بين الملك وبين بعض خواصه ومقرّبيه، فيقول لك: أتسوّي بيني وبين عبدي وإذا ذكره في غير هذا المقام وقرّه وكناه، والضمير في ﴿إنهم لمحضرون﴾ للكفرة والمعنى: أنهم يقولون ما يقولون في الملائكة وقد علم الملائكة أنهم في ذلك كاذبون مفترون وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون والمراد المبالغة في التكذيب حيث أضيف إلى علم الذين ادّعوا لهم تلك النسبة وقيل: قالوا إنّ الله صاهر الجن فخرجت الملائكة وقيل: قالوا إنّ الله والشيطان أخوان، وعن الحسن: أشركوا الجن في طاعة الله، ويجوز إذا فسر الجنة بالشياطين أن يكون الضمير في إنهم لمحضرون لهم والمعنى: أن الشياطين عالمون بأنّ الله يحضرهم النار ويعذبهم، ولو كانوا مناسبين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عذبهم.

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾.

﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثناء منقطع من المحضرين معناه ولكن المخلصين ناجون وسبحان الله اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في يصفون أي يصفه هؤلاء بذلك ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به.

مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾.

والضمير في ﴿عليه﴾ لله عز وجل ومعناه فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعًا بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها.

فإن قُلْتَ: كيف يفتنونهم على الله؟ قُلْتُ: يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه وخيبها عليه، ويجوز أن يكون الواو وما تعبدون بمعنى مع مثلها في قولهم كل رجل وضيعته فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته وأنّ كل رجل وضيعته جاز أن يسكت على قوله فإنكم وما تعبدون لأنّ قوله وما تعبدون سادّ مسدّ الخبر لأنّ معناه فإنكم مع ما تعبدون والمعنى فإنكم مع آلهتكم أي فإنكم قرناؤهم

(1) سورة الكهف، الآية: 51.

(2) سورة الروم، الآية: 35.

وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها، ثم قال: ﴿ما أنتم عليه﴾ أي على ما تعبدون ﴿بفاتنين﴾ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ﴿إلا من هو﴾ ضال مثلكم او يكون في أسلوب قوله:

فـإنـك والـكـتـاب إلـى عـلـى   كـدابـغـة وقـد حـلـم الأديـم

وقرأ الحسن: صال الجحيم بضم اللام وفيه ثلاثة أوجه أحدها أن يكون جمعًا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف.

فإن قُلْتَ:كيف استقام الجمع مع قوله من هو؟ قُلْتُ: من موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه كما حمل في مواضع من التنزيل على لفظ من ومعناه: في آية واحدة والثاني أن يكون أصله صائل على القلب ثم يقال صال في صائل كقولهم شاك في شائك والثالث أن تحذف لام صال تخفيفًا ويجري الإعراب على عينه كما حذف من قولهم ما باليت به بالة وأصلها بالية من بالى كعافية من عافى ونظيره قراءة من قرأ، وجنى الجنتين دان وله الجوار المنشآت بإجراء الإعراب على العين.

وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾.

﴿وما منا﴾ أحد ﴿إلا له مقام معلوم﴾ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه كقوله:

أنـا ابـن جـلا وطـلاع الـثـنـايـا   بـكـفـي كـان مـن أرمـى الـبـشـر

﴿مقام معلوم﴾ مقام في العبادة والانتهاء إلى أمر الله مقصور عليه لا يتجاوز كما روي فمنهم راكع لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه.

وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾.

﴿لنحن الصافون﴾ نصف أقدامنا في الصلاة أو أجنحتنا في الهواء منتظرين ما نؤمر وقيل: نصف أجنحتنا حول العرش داعين للمؤمنين وقيل: إنّ المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين.

وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾.

﴿المسبحون﴾ المنزهون أو المصلون والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله سبحان الله: ﴿عما يصفون﴾ من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله ولقد علمت الجنة كأنه قيل: ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العز وقالوا سبحان الله فنزهوه عن ذلك واستثنوا عباد الله المخلصين وبرؤهم منه، وقالوا للكفرة فإذا صحّ ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحدًا من خلقه وتضلوه إلا من كان مثلكم ممن علم الله لكفرهم لا لتقديره وإرادته تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا أنهم من أهل النار وكيف نكون مناسبين لرب العزة ويجمعنا وإياه جنسية واحدة وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفرًا خشوعًا لعظمته وتواضعًا لجلاله ونحن الصافون أقدامنا لعبادته وأجنحتنا مذعنين خاضعين مسبحين ممجدين وكما يجب على العباد لربهم وقيل: هو من قول رسول الله ﷺ يعني وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله من قوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا﴾، ثم ذكر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون في الصلاة يسبحون الله وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه مما لا يجوز عليه.

لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿١٧٠﴾.

هم مشركو قريش كانوا يقولون ﴿لو أن عندنا ذكرًا﴾ أي كتابًا ﴿من﴾ كتب ﴿الأولين﴾ الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله ولما كذبنا كما كذبوا ولما خالفنا كما خالفوا فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب فكفروا به ونحوه فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورًا فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام، وإن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادين فيه فكم بين أوّل أمرهم وآخره.

وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾.

الكلمة قوله: ﴿إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾، وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدة لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة، وقرئ كلماتنا والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقاوم الحجاج وملاحم القتال في الدنيا وعلوهم عليهم في الآخرة كما قال: ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ ولا يلزم انهزامهم في بعض المشاهد، وما جرى عليهم من القتل فإن الغلبة كانت لهم لمن بعدهم في العاقبة وكفى بمشاهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين مثلاً يحتذى عليها وعبراً يعتبر بها، وعن الحسن رحمه الله: ما غلب نبي في حرب ولا قتل فيها ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه الظفر والنصرة وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة، وفي قراءة ابن مسعود: على عبادنا على تضمين سبقت معنى حقت.

فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٤﴾.

﴿فتول عنهم﴾ فأعرض عنهم وأغض على أذاهم ﴿حتى حين﴾ إلى مدّة يسيرة وهي مدّة الكف عن القتال وعن السدي إلى يوم بدر وقيل: الموت وقيل: إلى يوم القيامة.

وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٥﴾.

﴿وابصرهم﴾ وما يقضي عليهم من الأسر والقتل

والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضي لك من النصرة والتأييد والثواب في العاقبة والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة وأنّ كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك وفي ذلك تسلية له وتنفيس عنه وقوله ﴿فسوف يبصرون﴾ للوعيد كما سلف لا للتبعيد.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾.

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ولا دبروا أمرهم تدبيرًا ينجيهم حتى أناخ بفنائهم بغتة فشنّ عليهم الغارة وقطع دابرهم وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحًا فسميت الغارة صباحًا وإن وقعت في وقت آخر وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي نحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل، وقرأ ابن مسعود فبئس صباح.

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾.

وقرئ: ﴿نزل بساحتهم﴾ على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك: ذهب بزيد ونزل على ونزل العذاب، والمعنى: فساء صباح المنذرين صباحهم واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا لأنّ ساء وبئس يقتضيان ذلك وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة وعن أنس رضي الله عنه: لما أتى رسول الله ﷺ خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي قالوا: محمد والخميس ورجعوا إلى حصنهم فقال عليه الصلاة السلام: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[1]، وإنما ثنى.

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾.

﴿وتول عنهم﴾ ليكون تسلية على تسلية وتأكيدًا لوقوع الميعاد إلى تأكيد وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معًا عن التقييد بالمفعول.

وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾.

وأنه يبصروهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا وبالآخر عذاب الآخرة.

سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾.

أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل ذو العزة كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه بالصدق، ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها كقوله تعالى: ﴿تعز من تشاء﴾[2] اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم وما خوّلوه في العاقبة من النصرة عليهم فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون.

وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾.

والتسليم على المرسلين.

وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾.

﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ما قيض لهم من حسن العواقب والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد وعن عليّ رضي الله عنه من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين[3]. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ والصافات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنًا بالمرسلين»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة ص مكية

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾.

﴿صٓ﴾ على الوقف وهي أكثر القراءة، وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلنّ كذا بالنصب، أو بإضمار حرف القسم والفتح في موضع الجرّ كقولهم الله لأفعلنّ بالجرّ وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لأنها بمعنى السورة وقد صرفها من قرأ صٍ بالجرّ والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل وقيل فيمن كسر هو من المصاداة وهي المعارضة والمعادلة ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة،

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (الحديث: 4198)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر، الحديث: (121 ـ 1365).

(2) سورة آل عمران، الآية: 26.

(3) ذكر الزيلعي أنه أخرجه عبد الرزاق في المصنف، وذكره الثعلبي= في تفسيره، وذكره الواحدي في تفسيره، وابن حاتم في تفسيره: 3/182.

(4) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي: 3/ 182.

ومعناه: ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه.

فإن قُلْتَ: قوله صٓ ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ كلام ظاهره متنافر غير منتظم فما وجه انتظامه! قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز كما مرّ في أوّل الكتاب ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدّي عليه كما قال: والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز والثاني أن يكون صٓ خبر مبتدأ محذوف على أنها اسم للسورة كأنه قال هذه صٓ يعني هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر كما تقول هذا حاتم والله تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال: أقسمت بصٓ والقرآن ذي الذكر إنه لمعجز.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾.

ثم قال: بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله وإذا جعلتها مقسمًا بها وعطفت عليها والقرآن ذي الذكر جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله وأن تريد السورة بعينها، ومعناه: أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر كما تقول مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة ولا تريد بالنسمة غير الرجل والذكر الشرف والشهرة من قولك فلان مذكور، وإنه لذكر لك ولقومك أو الذكرى والموعظة، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها كأقاصيص الأنبياء والوعد والوعيد والتنكير في عزة وشقاق للدّلالة على شدّتهما وتفاقمهما، وقرئ في غرّة أي في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿كم أهلكنا﴾ وعيد لذوي العزة والشقاق ﴿فنادوا﴾ فدعوا واستغاثوا وعن الحسن فنادوا بالتوبة ﴿ولات﴾ هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب، وثم للتوكيد وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضييها إمّا الاسم، وإما الخبر وامتنع بروزهما جميعًا وهذا مذهب الخليل وسيبويه وعند الأخفش أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان و ﴿حين مناص﴾ منصوب بها كأنك قلت: ولا حين مناص لهم وعنه أنّ ما ينتصب بعده بفعل مضمر أي ولا أرى حين مناص، ويرتفع بالابتداء أي ولا حين مناص كائن لهم وعندهما أنّ النصب على ولات الحين حين مناص أي وليس الحين حين مناص والرفع على ولات حين مناص حاصلاً لهم، وقرئ حين مناص بالكسر ومثله قول أبي زبيد الطائي:

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أنْ لات حين بقاء

فإن قُلْتَ: ما وجه الكسر في أوان؟ قُلْتُ: شبّه بإذ في قوله وأنت إذ صحيح في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين لأنّ الأصل ولات أوان صلح.

فإن قُلْتَ: فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم؟ قُلْتُ: نزل قطع المضاف إليه من مناص لأنّ أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لاتحاد المضاف والمضاف إليه وجعل تنوينه عوضًا من الضمير المحذوف ثم بنى الحين لكونه مضافًا إلى غير متمكن، وقرئ ولات بكسر التاء على البناء كجير.

فإن قُلْتَ: كيف يوقف على لات؟ قُلْتُ: يوقف عليها بالتاء كما يوقف على الفعل الذي يتصل به تاء التأنيث وأمّا الكسائي فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة وأمّا قول أبي عبيد إنّ التاء داخلة على حين، فلا وجه له واستشهاده بأنّ التاء ملتزقة بحين في الإمام لا متشبث به فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط والمناص المنا والفوت يقال ناصه ينوصه إذا فاته واستناص طلب المناص قال حارثة بن بدر:

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جرى المسحل

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿منذر منهم﴾ رسول من أنفسهم ﴿وقال الكافرون﴾ ولم يقل وقالوا إظهارًا للغضب عليهم ودلالة على أنّ هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغي الذين قال فيهم أولئك هم الكافرون حقًا وهل ترى كفرًا أعظم وجهلاً أبلغ من أن يسموا من صدّقه الله بوحيه كاذبًا ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق الذي لا يصح غيره ولا يتعجبوا من الشرك، وهو الباطل الذي لا وجه لصحته، روي أنّ إسلام عمر رضي الله تعالى عنه فرح به المؤمنون فرحًا شديدًا وشق على قريش وبلغ منهم فاجتمع خمسة وعشرون نفسًا من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يريدون الذين دخلوا في الإسلام وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله ﷺ: «ماذا يسألونني» قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال عليه السلام: «أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم». فقالوا: نعم، وعشرًا أي نعطيكها وعشر كلمات معها فقال: قولوا لا إله إلاّ الله فقاموا وقالوا[1].

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾.

---

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: إخباره ﷺ عما يكون من الفتن (الحديث رقم: 3232) وأحمد في المسند 1/362.

﴿أجعل الآلهة إلَهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب﴾ أي بليغ في العجب، وقرئ: ﴿عجّاب﴾ بالتشديد كقوله تعالى: ﴿مكرًا كبارًا﴾[1] وهو أبلغ من المخفف ونظيره كريم وكرام، وقوله أجعل الآلهة إلَهاً واحدًا مثل قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا في أن معنى الجعل التصيير في القول على سبيل الدعوى والزعم، كأنه قال اجعل الجماعة واحدًا في قوله لأنّ ذلك في الفعل محال.

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾.

﴿الملأ﴾ أشراف قريش يريدوا انطلقوا عن مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض ﴿امشوا واصبروا﴾ فلا حيلة لكم في نفع أمر محمد ﴿إن هذا﴾ الأمر ﴿لشيء يراد﴾ أي يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه وما أراد الله كونه، فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر أو أن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه، أو أن دينكم لشيء يراد أي: يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه، وأن بمعنى اي لأنّ المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم فكان انطلاقهم مضمنًا معنى القول، ويجوز أن يراد بالانطلاق الاندفاع في القول وانهم قالوا امشوا اي اكثروا واجتمعوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل كما قيل لها: الفاشية قال رسول الله ﷺ: «ضموا فواشيكم[2]»[3]. ومعنى واصبروا على آلهتكم واصبروا على عبادتها والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها، وقرئ وانطلق الملأ منهم امشوا بغير أن على إضمار القول وعن ابن مسعود وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا.

مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾.

﴿في الملة الآخرة﴾ في ملة عيسى التي هي آخر الملل لأنّ النصارى يدعونها وهم مثلثة غير موحدة أو في ملة قريش التي ادركنا عليها آباءنا أو ما سمعنا بهذا كائنًا في الملة الآخرة على أن يجعل في الملة الآخرة حالاً من هذا ولا تعلقه بما سمعنا كما في الوجهين، والمعنى: أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان انه يحدث في الملة الآخرة توحيد الله، ما ﴿هذا إلا اختلاق﴾ أي افتعال وكذب، أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوّة من بينهم.

أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾.

﴿بل هم في شك﴾ من القرآن يقولون في أنفسهم أما واما وقولهم إن هذا إلا اختلاق كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد حينئذ يعني: أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه.

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾.

﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ يعني ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاؤا ويصرفوها عمن شاؤا ويتخيروا للنبوّة بعض صناديدهم ويترفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله كما قال: أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا ثم رشح هذا المعنى فقال:

أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾.

﴿أم لهم ملك السموات والأرض﴾ حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلَهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: وإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوّة دون من لا تحق له ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون ثم خساهم خساءة عن ذلك بقوله:

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبون على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بما يقولون، ولا تكترث لما به يهذون وما مزيدة وفيها معنى الاستعظام كما في قول امرئ القيس:

وحديث ما على قصره ... إلا انه على سبيل الهزء

وهنالك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله لست هناك.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾.

---

(1) سورة نوح، الآية: 22.

(2) الفواشي: جمع فاشية، وهي كل منتشر من المال كالإبل والغنم وسائر البهائم وغيرها.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الطهارة، باب: الأدعية (الحديث رقم: 1276) وعند مسلم «لا ترسلوا فواشيكم..» أخرجه في كتاب: الأشربة، باب: الأمر بتغطية الأناءة... (الحديث رقم: 98 ـ 2013).

﴿ذو الأوتاد﴾ أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده قال:

والبيت لا يبتنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر كما قال الأسود في ظل ملك ثابت الأوتاد وقيل: كان يشبح المعذب بين أربع سوار كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ويتركه حتى يموت وقيل: كان يمده بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه.

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾.

﴿أولئك الأحزاب﴾ قصد بهذه الإشارة الإعلام بأنّ الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم وأنهم هم الذين وجد منهم التكذيب، ولقد ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها بأنّ كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل لأنهم إذا كذبوا واحدًا منهم فقد كذبوهم جميعًا وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أوّلاً وبالاستثنائية ثانيًا وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشدّ العقاب وأبلغه، ثم قال:

إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾.

﴿فحق عقاب﴾ أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم.

وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾.

﴿هؤلاء﴾ أهل مكة ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذكر أو لأنهم كالحضور عند الله. والصيحة النفخة ﴿وما لها من فواق﴾ وقرئ بالضم ما لها من توقف مقدار فواق وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع يعني: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان كقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة﴾[1] وعن ابن عباس ما لها من رجوع وترداد من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة وفواق الناقة ساعة ترجع الدرّ إلى ضرعها يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد.

وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾.

القط القسط من الشيء لأنه قطعة منه من قطه إذا قطعه وقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بهما قوله تعالى: ﴿عجل لنا قطنا﴾ أي: نصيبنا من العذاب الذي وعدته كقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾[2] وقيل: ذكر رسول الله ﷺ وعد الله المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزء: عجل لنا نصيبنا منها أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها.

ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾.

فإن قُلْتَ: كيف تطابق قوله: ﴿اصبر على ما يقولون﴾ وقوله: ﴿واذكر عبدنا داود﴾ حتى عطف أحدهما على صاحبه؟ قُلْتُ: كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: اصبر على ما يقولون وعظم أمر معصية الله في أعينهم بذكر قصة داود وهو أنه نبي من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوّة والملك لكرامته عليه وزلفته لديه، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها على طريق التمثيل والتعريض حتى فطن لما وقع فيه، فاستغفر وأناب ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائم وغمه الواصب ونقش جنايته في بطن كفه حتى لا يزال يجدد النظر إليها والندم عليها فما الظنّ بكم مع كفركم ومعاصيكم أو قاله ﷺ: اصبر على ما يقولون وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زلّ تلك الزلة اليسيرة فلقي من توبيخ الله وتظليمه ونسبته إلى البغي ما لقي ﴿ذا الأيد﴾ ذا القوّة في الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه كان على نهوضه بأعباء النبوّة والملك يصوم يومًا ويفطر يومًا وهو أشدّ الصوم ويقوم نصف الليل يقال فلان أيد وذو أيد وذو آد وأياد كل شيء ما يتقوّى به ﴿أوّاب﴾ توّاب رجاع إلى مرضاة الله.

فإن قُلْتَ: ما دلك على أنّ الأيد القوّة في الدين! قُلْتُ: قوله تعالى: ﴿إنه أوّاب﴾[3] لأنه تعليل لذي الأيد.

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾.

﴿والإشراق﴾ ووقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي: تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال: شرقت الشمس ولما تشرق وعن أمّ هانئ دخل علينا رسول الله ﷺ فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال: «يا أمّ هانئ هذه صلاة الإشراق»[4]. وعن طاوس عن ابن عباس قال: هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن قالوا: لا. فقرأ: ﴿إنا سخرنا له الجبال معه يسبحن بالعشيّ والإشراق﴾ وقال: «كانت صلاة يصليها داود عليه السلام وعنه ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية وعنه لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها بهذه الآية يسبحن بالعشيّ والإشراق» وكان لا يصلي صلاة الضحى، ثم صلاها بعد وعن كعب أنه قال لابن عباس: إني لا أجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس فقال: أنا أوجدك ذلك في

(1) سورة الأعراف، الآية: 34.
(2) سورة العنكبوت، الآية: 53.
(3) سورة صَ، الآية: 44.
(4) أخرجه الحاكم في المستدرك 4/53.

كتاب الله تعالى يعني: هذه الآية ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في الشروق ومنه قوله تعالى: ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾[1] وقول أهل الجاهلية أشرق ثبير ويراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بالشروق، ويسبحن في معنى ومسبحات على الحال.

فإن قُلْتَ: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات؟ قُلْتُ: نعم وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئًا بعد شيء وحالاً بعد حال وكان السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح ومثله قول الأعشى: إلى ضوء نار في يفاع تحرق.

ولو قال: محرقة لم يكن شيئًا

وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾.

وقوله: ﴿محشورة﴾ في مقابلة يسبحن إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئًا بعد شيء جيء به اسمًا لا فعلاً وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن على أنّ الحشر يوجد من حاشرها شيئًا بعد شيء والحاشر هو الله عز وجل لكان خلفًا لأنّ حشرها جملة واحدة أدلّ على القدرة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان إذا سبّح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها، وقرئ: والطير محشورة بالرفع ﴿كل له أوّاب﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود أي لأجل تسبيحه مسبح لأنها كانت تسبح بتسبيحه ووضع الأوّاب موضع المسبح إمّا لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لأنه يرجع إلى فعله رجوعًا بعد رجوع وإمّا لأنّ الأوّاب، وهو التوّاب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته من عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه، وقيل: الضمير لله أي: كل من داود والجبال والطير لله أوّاب أي: مسبح مرجع للتسبيح.

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾.

﴿وشددنا ملكه﴾ قوّيناه قال تعالى: سنشدّ عضدك وقرئ: ﴿شددنا﴾ على المبالغة قيل: كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئم يحرسونه وقيل: الذي شدّ الله به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة أنّ رجلاً ادّعى عنده على آخر بقرة وعجز عن إقامة البينة فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن اقتل المدّعى عليه فقال: هذا منام فأعيد الوحي في اليقظة فأعلم الرجل، فقال: إنّ الله عزّ وجلّ لم يأخذني بهذا الذنب ولكن بأني قتلت أبا هذا غيلة فقتله فقال الناس: إن أذنب أحد ذنبًا أظهره الله عليه فقتله فهابوه: ﴿الحكمة﴾ الزبور وعلم الشرائع وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة، الفصل التمييز بين الشيئين وقيل: للكلام البين فصل بمعنى المفصول كضرب الأمير لأنهم قالوا كلام ملتبس وفي كلامه لبس والملتبس المختلط فقيل في تقضبه فصل أي مفصول بعضه من بعض فمعنى فصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ومن فصل الخطاب وملخصه أن لا يخطئ صاحبه مظانّ الفصل والوصل فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله فويل للمصلين إلا موصولاً بما بعده ولا والله يعلم وأنتم حتى يصله بقوله لا تعلمون ونحو ذلك، وكذلك مظانّ العطف وتركه والإضمار والإظهار والحذف والتكرار وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل كالصوم والزور وأردت بفصل الخطاب الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل والصواب والخطأ وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات، وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه هو قوله: «البينة على المدّعي واليمين على المدّعي عليه». وهو من الفصل بين الحق والباطل ويدخل فيه قول بعضهم هو قوله: أما بعد لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله بقوله أمّا بعد، ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخلّ ولا إشباع مملّ ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ فصل لا نزر ولا هذر[2]، كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضًا أن ينزل له عن امرأته فيتزوّجها إذا أعجبته وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها فاستحيا أن يردّه، ففعل فتزوّجها وهي أمّ سليمان فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول بل كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به وقيل: خطبها أوريا ثم خطبها داود فآثره أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه وأمّا ما يذكر أنّ داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال: يا رب إنّ آبائي قد ذهبوا بالخير كله، فأوحى إليه أنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها: قد ابتلى إبراهيم بنمروذ وذبح ولده وإسحاق بذبحه وذهاب بصره، ويعقوب بالحزن على يوسف، فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا فاحترس فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور فجاءه الشيطان في صورة

(1) سورة الحجر، الآية: 73.

(2) تقدم في الأعراف. أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: الهذي في الكلام (الحديث رقم: 4839).

حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن له صغير فطارت فامتدّ إليها فطارت فوقعت في كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء، فكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء: أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد ففتح الله على يده وسلم، فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء، وعن سعيد بن المسيب والحرث الأعور أنّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء[1] وروي أنه حدّث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترًا على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه فقال: عمر لسماعي هذا الكلام أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب.

فإن قُلْتَ: لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح؟ **قُلْتُ:** لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أنّ التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكنًا من قلبه وأعظم أثرًا فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطأ من أن يبادره به صريحًا مع مراعاة حُسن الأدب بترك المجاهرة ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة أن يعرض لها بإنكارها عليه ولا يصرح، وأن تحكي له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية فاستسمج حال نفسه وذلك أزجر له لأنه ينصب ذلك مثالاً لحاله ومقياسًا لشأنه فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة.

فإن قُلْتَ: فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟ **قُلْتُ:** ليحكم بما حكم به من قوله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه حتى يكون محجوجًا بحكمه ومعترفًا على نفسه بظلمه.

✽ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾.

﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع، ولا تخفى على أحد والتشويق إلى استماعه والخصم الخصماء وهو يقع على الواحد والجمع كالضيف قال الله تعالى: حديث ضيف إبراهيم المكرمين لأنه مصدر في أصله تقول خصمه خصمًا كما تقول ضافه ضيفًا.

فإن قُلْتَ: هذا جمع وقوله خصمان تثنية فكيف استقام ذلك؟ **قُلْتُ:** معنى خصمان فريقان خصمان والدليل عليه قراءة من قرأ خصمان بغى بعضهم على بعض ونحوه قوله تعالى: **﴿هذا خصمان اختصموا في ربهم﴾**[2].

فإن قُلْتَ: فما تصنع بقوله إن هذا أخي وهو دليل على اثنين! **قُلْتُ:** هذا قول البعض المراد بقوله بعضنا على بعض.

فإن قُلْتَ: فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان! **قُلْتُ:** معناه أنّ التحاكم كان بين ملكين، ولا يمنع ذلك أن يصحبهما آخرون.

فإن قُلْتَ: فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعًا خصمًا في قوله نبأ الخصم وخصمان؟ **قُلْتُ:** لما كان صحب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به.

فإن قُلْتَ: بم انتصب **﴿إذ﴾**! **قُلْتُ:** لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك أو بالنبأ، أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك لأن إتيان النبأ رسول الله ﷺ لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود ولا بالنبأ لأن النبأ الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله ﷺ، وإن أردت بالنبأ القصة في نفسها لم يكن ناصبًا فبقي أن ينتصب بمحذوف وتقديره، وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل وأما إذ الثانية فبدل من الأولى **﴿تسوروا المحراب﴾** تصعدوا سوره ونزلوا إليه والسور الحائط المرتفع ونظيره في الأبنية تسنمه إذا علا سنامه وتذراه إذا علا ذروته روي أنّ الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان.

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾.

﴿ففزع منهم﴾ قال ابن عباس: إنّ داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يومًا للعبادة ويومًا للقضاء ويومًا للاشتغال بخواص أموره ويومًا يجمع بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم، فجاؤه في غير يوم القضاء ففزع منهم ولأنهم نزلوا عليه من فوق وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتكره من يدخل عليه **﴿خصمان﴾** خبر مبتدأ محذوف أي نحن خصمان **﴿ولا تشطط﴾** ولا تجر،

---

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) سورة الحج، الآية: 19.

وقرئ ولا تشطط أي ولا تبعد عن الحق، وقرئ: ﴿ولا تشطط﴾ ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحدّ وتخطي الحق و ﴿سواء الصراط﴾ وسطه ومحجته ضربه مثلاً لعين الحق ومحضه.

إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾.

﴿أخي﴾ بدل من هذا أو خبر لأنّ المراد أخوّة الدين أو أخوّة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى: ﴿وإنّ كثيرًا من الخلطاء﴾[1] وكل واحدة من هذه الأخوّات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم، وقرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات نحو نطح ونطع ولقوة ولقوة ﴿اكفلنيها﴾ ملكنيها وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي ﴿وعزني﴾ وغلبني يقال عزه تعزه قال:

قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

يريد جاءني بحجاج لم أقدر أن أورده عليه ما أردّ به وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل، أو أراد خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطابًا أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوّجها دوني، وقرئ وعازني من المعازة وهي المغالبة وقرأ أبو حيوة وعزني بتخفيف الزاي طلبًا للخفة وهو تخفيف غريب وكأنه قاسه على نحو ظلت ومست.

فإن قُلْتَ: ما معنى ذكر النعاج؟ قُلْتُ: كان تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً لأنّ التمثيل أبلغ في التوبيخ لما ذكرنا وللتنبيه على أمر يستحيا من كشفه فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع في نعجة خليطه وأراده على الخروج من ملكها إليه وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده والدليل عليه قوله وإنّ كثيرًا من الخلطاء وإنما خصّ هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة.

فإن قُلْتَ: إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال فإن فسرته بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم؟ قُلْتُ: الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة استعارة عن المرأة كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله:

يا شاة ما قنص لمن حلت له ... فرميت غفلة عينه عن شاته

وشبّهها بالنعجة من قال كنعاج الملا تعسفن رملاً لولا أنّ الخلطاء تأباه إلا أن يضرب داود الخلطاء ابتداء مثلاً لهم ولقصتهم.

فإن قُلْتَ: الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يتلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم؟ قُلْتُ: هو تصوير للمسألة وفرض لها فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسي كما تقول في تصوير المسائل زيد له أربعون شاة وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما فخلطاها وحال عليها الحول كم يجب فيها وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد وتقول أيضاً في تصويرها لي أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها.

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة ابن مسعود: ولي نعجة أنثى؟ قُلْتُ: يقال لك امرأة أنثى للحسناء الجميلة والمعنى وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال وقوله: فتور القيام قطيع الكلام وقوله: تمشي رويدًا تكاد تنغرف.

قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾.

﴿لقد ظلمك﴾ جواب قسم محذوف وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه، والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول كقوله تعالى: من دعاء الخير وقد ضمن معنى الإضافة فعدّى تعديتها كأنه قيل: بإضافة ﴿نعجتك إلى نعاجه﴾ على وجه السؤال والطلب.

فإن قُلْتَ: كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه؟ قُلْتُ: ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم ويروى أنه قال: أنا أريد أن آخذها منه وأكمل نعاجي مائة فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا وأشار إلى طرف الأنف والجبهة فقال يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحدًا فعرف ما وقع فيه ﴿الخلطاء﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم الواحد خليط وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية والشافعي رحمه الله يعتبرها فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أنّ مراحهما ومساقهما وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفحولة مختلطة فهما يزكيان زكاة الواحد فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد أربعون فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد وعند أبي حنيفة لا تعتبر الخلطة والخليطة والمنفرد عنده واحد ففي أربعين بين خليطين لا شيء

(1) سورة صٓ، الآية: 24.

عنده وفي مائة وعشرين بين ثلاثة ثلاث شياه.

فإن قُلْتَ: فهذه الخلطة ما تقول فيها! قُلْتُ: عليهما شاة واحدة، فيجب على ذي النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه الله وعند أبي حنيفة لا شيء عليه.

فإن قُلْتَ: ماذا أراد بذكر حال الخلطاء في ذلك المقام؟ قُلْتُ: قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم وأن يسلي المظلوم عما جرى عليه في خليطه وأنّ له في أكثر الخلطاء أسوة وقرئ ليبغي بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها كقوله: اضرب عنك الهموم طارقها، وهو جواب قسم محذوف وليبغ بحذف الياء اكتفاء منها بالكسرة وما في ﴿وقليل ما هم﴾ للإبهام وفيه تعجب من قلتهم وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس وحديث ما على قصره وانظر هل بقي له معنى قط لما كان الظنّ الغالب يداني العلم استعير له ومعناه وعلم داود وأيقن ﴿أنما فتناه﴾ أنا ابتليناه لا محالة بامرأة أوريا هل يثبت أو يزل وقرئ فتناه بالتشديد للمبالغة وأفتناه من قوله: لئن فتنتني لهي بالأمس أفتنت وفتناه وفتناه على أنّ الألف ضمير الملكين، وعبر بالراكع عن الساجد لأنه ينحني ويخضع كالساجد وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة على أنّ الركوع يقوم مقام السجود وعن الحسن لأنه لا يكون ساجدًا حتى يركع ويجوز أن يكون قد استغفر الله لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار والإنابة فيكون المعنى: وخر للسجود راكعًا أي مصليًا لأنّ الركوع يجعل عبارة عن الصلاة.

﴿وأناب﴾ ورجع إلى الله تعالى بالتوبة والتنصل وروي أنه بقي ساجدًا أربعين يومًا وليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو ما لا بدّ منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت العشب من دمعه إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دمع وجهد نفسه راغبًا إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له ايشا على ملكه ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه. وروي أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها وقيل: إنّ الخصمين كانا من الإنس وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما إما كانا خليطين في الغنم وإما كان أحدهما موسرًا وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري والثاني معسرًا ما له إلا امرأة واحدة فاستنزله عنها وإنما فزع لدخولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسئلته.

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾.

﴿خليفة في الأرض﴾ أي استخلفناك على الملك في الأرض كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها ومنه قولهم خلفاء الله في أرضه أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق وفيه دليل على أنّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ أي بحكم لله تعالى إذا كنت خليفته ﴿ولا تتبع﴾ هوى النفس في قضائك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا ﴿فيضلك﴾ الهوى فيكون سببًا لضلالك ﴿عن سبيل الله﴾ عن دلائله التي نصبها في العقول وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها و﴿يوم الحساب﴾ متعلق بنسوا أي بنسيانهم يوم الحساب أو بقوله لهم أي لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله وعن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري: هل سمعت ما بلغنا؟ قال: وما هو؟ قال: بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تكتب عليه معصية فقال: يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ثم تلا هذه الآية.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾.

﴿باطلاً﴾ خلقًا باطلاً لا لغرض صحيح وحكمة بالغة أو مبطلين عابثين كقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾[1] ﴿ما خلقناهما إلا بالحق﴾[2]. وتقديره نوي باطل أو عبثًا فوضع باطلاً موضعه كما وضعوا هنيًا موضع المصدر وهو صفة أي ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ولكن للحق المبين وهو أن خلقناها نفوسًا أودعناها العقل والتمييز ومنحناها بالتمكين وازحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم و﴿ذلك﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً، والظن بمعنى المظنون أي خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا.

فإن قُلْتَ: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما بدليل قوله: ﴿ولئن سألتهم مَن خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[3] فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للبعث لا للحكم! قُلْتُ: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤديًا إلى أن خلقها عبث وباطل جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه لأنّ الجزاء هو الذي سيقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها فمن جحده

(1) سورة الدخان، الآية: 38.

(2) سورة الدخان، الآية: 39.

(3) سورة لقمان، الآية: 25.

فقد جحد الحكمة من أصلها ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره فكان إقراره بكونه خالقًا كلا إقرار.

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾.

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى: الاستفهام فيها الإنكار والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر ومن سوى بينهم كان سفيهًا ولم يكن حكيمًا.

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾.

وقرئ: ﴿مباركًا﴾ وليتدبروا على الأصل ولتدبروا على الخطاب وتدبر الآيات التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة، والمعاني الحسنة لأنّ من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ومهرة نثور لا يستولدها، وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله حفظوا حروفه وضيعوا حدوده حتى إن أحدهم ليقول والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا وقد والله أسقطه كله ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين وأعذنا من القراء المتكبرين.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾.

وقرئ: ﴿نعم العبد﴾ على الأصل والمخصوص بالمدح محذوف، وعلل كونه ممدوحًا بكونه أوّابًا رجاعًا إليه بالتوبة أو مسبحًا مؤوبًا للتسبيح مرجعًا له لأنّ كل مؤوب أوّاب.

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾.

والصافن الذي في قوله ألف الصفون فما يزال كأنه، مما يقوم على الثلاث كسيرا وقيل: الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل هو المتخيم وأما الصافن، فالذي يجمع بين يديه وعن النبي ﷺ: «من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوأ مقعده من النار»[1] أي واقفين كما خدم الجبابرة.

فإن قُلْتَ: ما معنى وصفها بالصفون؟ قُلْتُ: الصفون لا يكاد يكون في الهجن وإنما هو في العراب الخلص وقيل: وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا في جريها[2]. وروي أنّ سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يومًا بعدما صلى الأولى على كرسيه واستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر، أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشي وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لمّا فاته فاستردّها وعقرها مقرّبًا لله وبقي مائة فما بقي في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها وقيل: لما عقرها أبدله الله خيرًا منها وهي الريح تجري بأمره.

فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى: ﴿أحببت حب الخير عن ذكر ربي﴾؟ قُلْتُ: أحببت مضمن معنى فعل يتعدى بعن كأنه قيل: أنبت حب الخير عن ذكر ربي أو جعلت حب الخير مجزيًا أو مغنيًا عن ذكر ربي وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان أن أحببت بمعنى لزمت من قوله مثل بعير السوء إذا أحبا وليس بذاك والخير المال كقوله إن ترك خيرًا، وقوله: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ والمال الخيل التي شغلته أو سمى الخيل خيرًا كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»[3] وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم: «ما وصف لي رجل فرأيته إلا كان دون ما بلغني إلا زيد الخيل وسماه زيد الخير»[4]. وسأل رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستقون من السابق، فقال رسول الله ﷺ فقال له الرجل أردت الخيل فقال وأنا أردت الخير[5]، والتواري بالحجاب مجاز في غروب الشمس عن تواري الملك أو المخبأة بحجابهما والذي دلّ على أنّ الضمير للشمس مرور ذكر العشي ولا بد للمضمر من جري ذكر أو دليل ذكر وقيل: الضمير للصافنات أي حتى توارت بحجاب الليل يعني: الظلام ومن بدع التفاسير أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه.

رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾.

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في قيام الرجل للرجل (الحديث: 5229)، والترمذي في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل (الحديث: 2755).

(2) قال: الصفون أن يقف على ثلاث وعلى طرف الرابع، وقيل: هذا للمتخيم والصافن الذي يجمع بين يديه. قال: ووصفها بذلك؛ لأنه لا يكون في الهجن غالباً، وإنما يكون في العراب الخلص، أو وصفها ليجمع لها الوصفين المحمودين جارية وواقفة فوصفها في جريها بالجودة والسرعة وفي وقوفه بالسكينة والطمأنينة؛ لأنّ= ذلك من لوازم الصفون غالباً.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الخيل معقود في نواصيها الخير (الحديث: 2849)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الحديث: (96. 1871).

(4) أخرجه البيهقي في الدلائل، وابن سعد في الطبقات، الزيلعي: 3/ 190.

(5) قال الزيلعي: أخرجه إبراهيم الحربي في كتابه: 3/ 191.

﴿فطفق مسحًا﴾ فجعل يمسح مسحًا أي يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها يعني: يقطعها يقال: مسح علاوته إذا ضرب عنقه ومسح المسفر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه وعن الحسن كسف عراقيها وضرب أعناقها أراد بالكسف القطع ومنه الكسف في ألقاب الزحاف في العروض ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف وقيل مسحها بيده استحسانًا لها وإعجابًا بها.

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله ردوها عليّ! قُلْتُ: بمحذوف تقديره قال: ردوها على فاضمر واضمر ما هو جواب له كان قائلاً قال فماذا قال سليمان لانه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهرًا وهو اشتغال نبي من انبياء الله بأمر الدنيا حتى تفوته الصلاة عن وقتها، وقرئ بالسؤوق بهمز الواو لضمتها كما في أدؤر ونظيره الغؤر في مصدر غارت الشمس وأما من قرأ بالسؤق فقد جعل الضمة في السين كأنها في الواو للتلاصق كما قيل مؤسى ونظير ساق وسوق أسد وأسد، وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لا من الإلباس قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وكان من فتنته أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة فسبيلنا أن نقتله أو نخبله فعلم ذلك فكان يغذوه في السحابة فما راعه إلا أن ألقي على كرسيه ميتًا فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه فاستغفر ربه وتاب إليه، وروي عن النبي ﷺ: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله». «ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون»[1]. فذلك قوله تعالى:

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾.

﴿ولقد فتنا سليمان﴾ وهذا ونحوه مما لا بأس به وأما ما يرى من حديث الخاتم والشياطين وعبادة الوثن في بيت سليمان فالله أعلم بصحته[2] حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر وأنّ بها ملكًا عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وأصاب بنتًا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهًا فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكانت لا يرقأ دمعها حزنًا على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن له كعادتهنّ في ملكه فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبًا إلى الله متضرّعًا وكانت له أمّ ولد يقال لها: أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يومًا وأتاها الشيطان صاحب البحر وهو الذي دلّ سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر على صورة سليمان فقال: يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف أنّ الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف فإذا قال: أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كلّ يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحًا عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلنا: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة وقيل: بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهنّ ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجدًا ورجع إليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسدّ عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر وقيل لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها فقال له آصف: إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يقرّ في يدك فتب إلى الله عز وجل ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهنّ قبيح وأما اتخاذ التماثيل، فيجوز أن تختلف فيه الشرائع ألا ترى إلى قوله من محاريب وتماثيل وأما السجود للصورة فلا يظن بنبيّ الله أن يأذن فيه وإذا كان بغير علمه فلا عليه وقوله: ﴿وألقينا على كرسيه جسدًا﴾ ناب عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه نبوًا ظاهرًا.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾.

قدّم الاستغفار على استيهاب الملك جريًا على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم ﴿لا ينبغي﴾ لا يتسهل ولا يكون، ومعنى ﴿من بعدي﴾ دوني.

فإن قُلْتَ: أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره! قُلْتُ: كان سليمان عليه السلام ناشئًا في بيت الملك والنبوّة ووارثًا

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان...﴾ (الحديث: 3424)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الاستثناء الحديث: (25 ـ 1654).

(2) قال الزيلعي: ذكره ابن كثير في تفسيره، وقال: إسناده قوي 3/ 192.

لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب ألفه ملكًا زائدًا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ليكون ذلك دليلاً على نبوّته قاهرًا للمبعوث إليهم وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات فذلك معنى قوله لا ينبغي لأحد من بعدي وقيل: كان ملكًا عظيمًا، فخاف أن يعطي مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه كما قالت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك وقيل: ملكًا لا اسلبه ولا يقوم غيري فيه مقامي كما سلبته مرّة واقيم مقامي غيري، ويجوز أن يقال علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره وأوجبت الحكمة استيهابه فأمره أن يستوهبه إياه فاستوهبه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أنه لا يضطلع بأعبائه غيره وأوجبت الحكمة استيهابه فأمره أن يستوهبه إياه فاستوهبه بأمر من الله، الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده أو أراد أن يقول ملكًا عظيمًا فقال: لا ينبغي لأحد من بعدي ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته كما تقول: لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال وربما كان للناس أمثال ذلك ولكنك تريد تعظيم ما عنده وعن الحجاج أنه قيل له: إنك حسود، فقال: أحسد مني من قال هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي وهذا من جراته على الله وشيطنته، كما حكي عنه: طاعتنا أوجب من طاعة الله لأنه شرط في طاعته فقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وأطلق طاعتنا فقال: ﴿وأولي الأمر منكم﴾.

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾.

قرئ: الريح والرياح ﴿رخاء﴾ لينة طيبة لا تزعزع وقيل طيعة له لا تمتنع عليه ﴿حيث أصاب﴾ حيث قصد وأراد حكى الأصمعي عن العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب وعن رؤبة أنّ رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما، فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طلبتنا ورجعا ويقال أصاب الله بك خيرًا.

وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾.

﴿والشياطين﴾ عطف على الريح ﴿كل بناء﴾ بدل من الشياطين.

وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾.

﴿وآخرين﴾ عطف على كل داخل في حكم البدل وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ وهو أوّل من استخرج الدرّ من البحر وكان يقرّن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد وعن السدي: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين في الجوامع والصفد القيد وسمي به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه ومنه قول علي رضي الله عنه: من برّك فقد أسرك ومن جفاك فقد أطلقك ومنه قول القائل:

غل يدا مطلقها وأرق رقبة معتقها

وقال حبيب: إنّ العطاء إسار وتبعه من قال:

ومن وجد الإحسان قيدًا تقيدًا

وفرّقوا بين الفعلين فقالوا: صفده قيده وأصفده أعطاه كوعده وأوعده.

هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

أي: ﴿هذا﴾ الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة ﴿عطاؤنا﴾ بغير حساب يعني: جمًا كثيرًا لا يكاد يقدر على حسبه وحصره ﴿فامنن﴾ من المنة وهي العطاء أي فأعط منه ما شئت ﴿أو أمسك﴾ مفوّضًا إليك التصرف فيه وفي قراءة ابن مسعود هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب أو هذا التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب أي لا حساب عليك في ذلك.

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾.

﴿أيوب﴾ عطف بيان و﴿إذ﴾ بدل اشتمال منه ﴿أني مسني﴾ بأني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب، وقرئ بنصب بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وبفتحهما وضمهما فالنصب والنصب كالرشد والرشد والنصب على أصل المصدر والنصب تثقيل نصب والمعنى واحد وهو التعب والمشقة، والعذاب الألم يريد مرضه وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب وقيل الضرّ في البدن والعذاب في ذهاب الأهل والمال.

فإن قُلْتَ: لم نسبه إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ليقضي من أتعابهم وتعذيبهم وطره ولو قدر على ذلك لم يدع صالحًا إلا وقد نكبه وأهلكه وقد تكرّر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب! قُلْتُ: لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سببًا فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة، والجزع فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل. وروي أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتدّ أحدهم فسأل عنه فقيل: ألقى إليه الشيطان إنّ الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين وذكر في سبب بلائه أنّ رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه وقيل: أعجب بكثرة ماله.

ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾.

﴿اركض برجلك﴾ حكاية ما أجيب به أيوب أي اضرب

برجلك الأرض وعن قتادة هي أرض الجابية فضربها فنبعت عين فقيل ﴿هذا مغتسل بارد وشراب﴾ أي ماء تغتسل به وتشرب منه، فيبرأ باطنك وظاهرك وتنقلب ما بك قلبة وقيل: نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله وقيل: ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارّة فاغتسل منها، ثم باليسرى فنبعت باردة فشرب منها.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿رحمة منا وذكرى﴾ مفعول لهما والمعنى أنّ الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولي الألباب لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وخذ﴾ معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك وعن ابن عباس قبضة من الشجر كان حلف في مرضه ليضربنّ امرأته مائة إذا برأ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهذه الرخصة باقية وعن النبي ﷺ أنه أتى بمخدج قد خبث بأمة فقال: «خذوا عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة»(1). ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة إمّا أطرافها قائمة، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فخرج صدره، وقيل: باعت ذؤابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام وقيل: قال لها الشيطان اسجدي لي سجدة فاردّ عليكم مالكم وأولادكم فهمت بذلك فأدركتها العصمة فذكرت ذلك له فحلف وقيل: أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ فعرضت له بذلك وقيل: سألته أن يقرب للشيطان بعناق ﴿وجدناه صابرًا﴾ علمناه صابرًا.

فإن قُلْتَ: كيف وجده صابرًا وقد شكا إليه ما به واسترحمه؟

قُلْتُ: الشكوى إلى الله عز وعلا لا تسمى جزعًا ولقد قال يعقوب عليه السلام: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمني العافية وطلبها، فإذا صحّ أن يسمى صابرًا مع تمني العافية وطلب الشفاء فليسم صابرًا مع اللجا إلى الله تعالى والدعاء بكشف ما به ومع التعالج ومشاورة الأطباء على أنّ أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه أنه لو كان نبيًا لما ابتلي بمثل ما ابتلي به وإرادة القوّة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان، ويروى أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يهبني ما ملكت يميني ولم آكل إلا ومعي يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسيًا ومعي جائع، أو عريان فكشف الله عنه.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾ عطف بيان لعبادنا ومن قرا عبدنا جعل إبراهيم وحده عطف بيان له، ثم عطف ذريته على عبدنا وهي إسحاق ويعقوب كقراءة ابن عباس وإله أبيك إبراهيم وإسمعيل وإسحق، لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت فقيل: في كل عمل هذا مما عملت أيديهم وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي أو كان العمال جذمًا لا أيدي لهم وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ يريد أولي الأعمال والفكر كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في الله ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات ولا يستبصرون في حكم الزمني الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والمسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولا من المستبصرين في دين الله وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما وقرئ أولي الأيادي على جمع الجمع، وفي قراءة ابن مسعود أولي الأيد على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة وتفسيره بالأيد من التأييد قلق غير متمكن.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿أخلصناهم﴾ جعلناهم خالصين ﴿بخالصة﴾ بخصلة خالصة لا شوب فيها، ثم فسرها بذكرى الدار شهادة لذكرى الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدورة عنها، وقرئ على الإضافة والمعنى بما خلص من ذكرى الدار على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهم آخر إنما همهم ذكرى الدار لا غير ومعنى ذكرى الدار ذكراهم الآخرة دائبًا ونسيانهم إليها ذكر الدنيا أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم في الدنيا كما هو شأن الأنبياء وديدنهم وقيل: ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى أخلصناهم بخالصة! قُلْتُ: معناه أخلصناهم بسبب هذه الخصلة وبأنهم من أهلها أو أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها وتعضد الأوّل قراءة من قرأ بخالصتهم.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿المصطفين﴾ المختارين من أبناء جنسهم

(1) أخرجه أحمد في المسند: 5/222.

و﴿الأخيار﴾ جمع خير أو خير على التخفيف كالأموات في جمع ميت أو ميت ﴿واليسع﴾ كأن حرف التعريف دخل على يسع، وقرئ: ﴿واليسع﴾ كأن حرف التعريف دخل على ليسع فيعل من اللسع، والتنوين في ﴿وكل﴾ عوض من المضاف إليه معناه وكلهم من الأخيار.

هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾.

﴿هذا ذكر﴾ أي هذا نوع من الذكر وهو القرآن لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه وهو باب من أبواب التنزيل ونوع من أنواعه وأراد أن يذكر على عقبه بابًا آخر وهو ذكر الجنة وأهلها قال: هذا ذكر، ثم قال ﴿وإنّ للمتقين﴾ كما يقول: الجاحظ في كتبه فهذا باب ثم يشرع في باب آخر ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر هذا وقد كان كيت وكيت والدليل عليه انه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال هذا وإنّ للطاغين وقيل: معناه هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبدًا، وعن ابن عباس رضي الله عنه هذا ذكر من مضى من الأنبياء.

جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾.

﴿جنات عدن﴾ معرفة لقوله جنات عدن التي وعد الرحمن وانتصابها على انها عطف بيان لحسن مآب و﴿مفتحة﴾ حال والعامل فيها ما في للمتقين من معنى الفعل وفي ﴿مفتحة﴾ ضمير الجنات والأبواب بدل من الضمير تقديره مفتحة هي الأبواب كقولهم ضرب زيد اليد والرجل، وهو من بدل الاشتمال وقرئ: ﴿جنات عدن مفتحة﴾ بالرفع على أنّ ﴿جنات عدن﴾ مبتدأ و﴿مفتحة﴾ خبره أو كلاهما خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿جنات عدن﴾ هي مفتحة لهم كأن اللدات سمين أترابًا لأنّ التراب مسهن في وقت واحد، وإنما جعلن على سن واحدة لأن التحاب بين الأقران أثبت وقيل: هنّ أتراب لأزاجهن أسنانهن كأسنانهم.

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾.

قرئ: ﴿يوعدون﴾ بالتاء والياء ﴿ليوم الحساب﴾ لأجل يوم الحساب كما تقول هذا ما تدخرونه ليوم الحساب أي ليوم تجزى كل نفس ما عملت.

إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾.

﴿هذا﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر.

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾.

﴿فبئس المهاد﴾ كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾.

أي هذا حميم فليذوقوه أو العذاب هذا فليذوقوه ثم ابتدأ فقال هو: ﴿حميم وغساق﴾، أو هذا فليذوقوه بمنزلة وإياي فارهبون أي ليذوقوا هذا فليذوقوه والغساق بالتخفيف والتشديد ما يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين إذا سال دمعها وقيل: الحميم يحرق بحرّه والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتنت أهل المغرب ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق وعن الحسن رضي الله عنه الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى، إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابًا في قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة﴾.

وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾.

﴿ولخر﴾ ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق من مثله في الشدّة والفظاعة ﴿أزواج﴾ أجناس وقرئ وآخر أي وعذاب آخر أو مذوق آخر وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروبًا أو صفة للثلاثة وهي حميم وغساق وآخر من شكله وقرئ من شكله بالكسر وهي لغة وأما الغنج فبالكسر لا غير.

هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾.

﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم وقرانكم والاقتحام ركوب الشدّة والدخول فيها والقحمة الشدّة وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض أي يقولون هذا والمراد بالفوج أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة فيقتحمون معهم العذاب ﴿لا مرحبا بهم﴾ دعاء منهم على أتباعهم تقول لمن تدعو له مرحبًا أي أتيت رحبًا من البلاد لا ضيقًا أو رحبت بلادك رحبًا ثم تدخل عليه في دعاء السوء وبهم بيان للمدعو عليهم ﴿إنهم صالوا النار﴾ تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ونحوه قوله تعالى: ﴿كلما دخلت أمّة لعنت أختها﴾ وقيل: هذا فوج مقتحم معكم كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم ولا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار كلام الرؤساء، وقيل: هذا كله كلام الخزنة.

قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾.

﴿قالوا﴾ أي الأتباع ﴿بل أنتم لا مرحبًا بكم﴾ يريدون الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحق به وعللوا ذلك بقولهم ﴿أنتم قدمتموه لنا﴾ والضمير للعذاب أو لصليهم.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى تقديمهم العذاب لهم! **قُلْتُ**: المقدم هو عمل السوء قال الله تعالى: ﴿ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم﴾[1] لكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 181 ـ 182.

بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل: أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدّم فجمع بين مجازين لأن العاملين هم المقدمون في الحقيقة لا رؤساؤهم والعمل هو المقدم لا جزاؤه.

فإن قُلْتَ: فالذي جعل قوله لا مرحبًا بهم من كلام الخزنة ما يصنع بقوله بل أنتم لا مرحبًا بكم والمخاطبون أعني رؤساءهم لم يتكلموا بما يكون هذا جوابًا لهم؟**قُلْتُ:** كأنه قيل هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا وتسببكم فيما نحن فيه من العذاب وهذا صحيح كما لو زين قوم لقوم بعض المساوى فارتكبوه فقيل للمزينين أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم فقال المزين لهم للمزينين بل أنتم الأَلى بالخزي منا فلو لا أنتم لم نرتكب ذلك.

قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾.

﴿قالوا﴾ هم الأتباع أيضًا **﴿فزده عذابًا ضعفًا﴾** أي مضاعفًا ومعناه ذا ضعف ونحوه قوله تعالى: **﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا﴾** وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين كقوله عز وجل: **﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾** وجاء في التفسير عذابًا ضعفًا حيات وأفاعي.

وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾.

﴿وقالوا﴾ الضمير للطاغين **﴿رجالاً﴾** يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم **﴿من الأشرار﴾** من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشرارًا.

أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾.

﴿اتخذناهم سخريًا﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لرجالاً مثل قوله كنا نعدهم من الأشرار وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار منهم وقوله **﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾** له وجهان من الاتصال أحدهما أن يتصل بقوله: ما لنا أي ما لنا لا نراهم في النار كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصار نافلاً نراهم وهم فيها قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا أنه خفي عليهم مكانهم والوجه الثاني أن يتصل باتخذناهم سخريًا إما أن تكون أم متصلة على معنى أي الفعلين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم والتحقير وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار الأمرين جميعًا على أنفسهم وعن الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخريًا وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم وإما أن تكون منقطعة بعد مضي اتخذناهم سخريًا على الخبر أو الاستفهام كقولك: إنها لإبل أم شاء وأزيد عندك أم عندك عمرو ولك أن تقدّر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته لأنّ أم تدل عليها فلا تفترق القراءتان إثبات همزة الاستفهام وحذفها وقيل الضمير في وقالوا لصناديد قريش كأبي جهل والوليد وأضرابهما والرجال عمار وصهيب وبلال وأشباههم، وقرئ سخريًا بالضم والكسر.

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾.

﴿إن ذلك﴾ أي الذي حكينا عنهم **﴿لحق﴾** لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال هو **﴿تخاصم أهل النار﴾**، وقرئ بالنصب على أنه صفة لذلك لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس.

فإن قُلْتَ: لم سمى ذلك تخاصمًا؟**قُلْتُ:** شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك ولأنّ قول الرؤساء لا مرحبًا بهم وقول: أتباعهم بل أنتم لا مرحبًا بكم من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصمًا لأجل اشتماله على ذلك.

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾.

﴿قل﴾ يا محمد لمشركي مكة ما أنا إلا رسول **﴿منذر﴾** أنذركم عذاب الله للمشركين وأقول لكم إنّ دين الحق توحيد الله وأن يعتقد أنّ لا إله إلا الله **﴿الواحد﴾** بلا ندّ ولا شريك **﴿القهار﴾** لكل شيء.

رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾.

وأنّ الملك والربوبية له في العالم كله وهو **﴿العزيز﴾** الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة وهو مع ذلك **﴿الغفار﴾** لذنوب من التجأ إليه، أو قل لهم ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفته فإنّ مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه.

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾.

﴿قل هو نبأ عظيم﴾ أي هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذرًا وأن الله واحد لا شريك له نبأ عظيم.

أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾.

لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة.

مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾.

ثم احتج لصحة نبوّته بأنّ ما ينبي به عن الملأ الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا وهو الأخذ من أهل العلم، وقراءة الكتب فعلم أنّ ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله.

إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾.

﴿إن يوحى إليّ إلا انما أنا نذير﴾ أي لأنما أنا نذير، ومعناه ما يوحى إليّ إلا للإنذار فحذف اللام وانتصب بإفضاء الفعل الفعل إليه ويجوز أن يرتفع على معنى ما يوحى إليّ إلا هذا، وهو أن أنذر وأبلغ ولا إفراط في ذلك أي ما أومر إلا بهذا الأمر وحده وليس إليّ غير ذلك وقرئ إنما بالكسر على الحكاية أي: إلا هذا القول وهو أن أقول

لكم أنما أنا نذير مبين ولا أدّعي شيئًا آخر وقيل: النبأ العظيم قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد وعن ابن عباس القرآن وعن الحسن يوم القيامة.

فإن **قُلْتَ**:بم يتعلق إذ يختصمون! **قُلْتُ**:بمحذوف لأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم و ﴿إذ قال﴾ بدل من إذ يختصمون.

فإن **قُلْتَ**:ما المراد بالملأ الأعلى! **قُلْتُ**:أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم.

فإن **قُلْتَ**:ما كان التقاول بينهم إنما كان بين الله تعالى وبينهم لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي قال لهم: قالوا له فأنت بين أمرين إما أن تقول الملأ الأعلى هؤلاء، وكان التقاول بينهم ولم يكن التقاول بينهم وإما أن تقول التقاول كان بين الله وبينهم فقد جعلته من الملأ الأعلى **قُلْتُ**:كانت مقاولة الله سبحانه بواسطة ملك فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط فصح أنّ التقاول كان بين الملائكة وآدم وإبليس وهم الملأ الأعلى، والمراد بالاختصام التقاول على ما سبق.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن يقول لهم: ﴿إني خالق بشرًا﴾ وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل؟ **قُلْتُ**:وجهه أن يكون قد قال لهم: إني خالق خلقًا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾.

﴿فإذا سويته﴾ فإذا أتممت خلقه وعدلته ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ وأحييته وجعلته حساسًا متنفسًا ﴿فقعوا﴾، فخروا كل للإحاطة وأجمعون للاجتماع فأفادا معًا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد وأنهم سجدوا جميعًا في وقت واحد غير متفرّقين في أوقات.

فإن **قُلْتَ**:كيف ساغ السجود لغير الله؟ **قُلْتُ**:الذي لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل إلا أن يعلم الله فيه مفسدة فينهى عنه.

فإن **قُلْتَ**:كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجنّ؟

فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾.

قُلْتُ:قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله فسجد الملائكة، ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلاً وكان من من باب الخصومة **قُلْتُ**:هذا يحقق أن ما تقدّم من قوله لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار من قول المتكبرين الكفار وقوله تعالى: ﴿بل أنتم لا مرحبًا بكم﴾[1] من قول الاتباع فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين، فيتحقق التخاصم خلافًا لمن قال إنّ الأوّل من كلام خزنة جهنم، والثاني من كلام الأتباع فإنه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين الكافرين أريد وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافرًا لأن كان مطلق في جنس الأوقات الماضية، فهو صالح لأيها شئت، ويجوز أن يراد وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله.

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾.

فإن **قُلْتَ**:ما وجه قوله ﴿خلقت بيديّ﴾ **قُلْتُ**:قد سبق لنا أنّ ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما حتى قيل: في عمل القلب هو مما عملت يداك وحتى قيل: ممن لا يدي له يداك، أو كتا وفوك نفخ وحتى لم يبق فرق بين قولك هذا مما عملته، وهذا مما عملته يداك ومنه قوله تعالى: ﴿مما عملت أيدينا﴾[2] ﴿ولما خلقت بيدي﴾[3].

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾! **قُلْتُ**:الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم واستنكف منه أنه سجود لمخلوق فذهب بنفسه وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق وانضم إلى ذلك أنّ آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار ورأى للنار فضلاً على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب وزلّ عنه أنّ الله سبحانه حين أمر به أعزّ عباده عليه وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل ويستنكفوا من السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوا قدّام أعينهم ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له تعظيمًا لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حريًا بأن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم ويعلم أنهم في السجود لمن هو دونهم بأمر الله أوغل في عبادته منهم في السجود له لما فيه من طرح الكبرياء، وخفض الجناح فقيل له: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أي ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي لا شكّ في كونه مخلوقًا امتثالاً لأمري وإعظامًا لخطابي كما فعلت الملائكة، فذكر له ما

(1) سورة صٓ، الآية: 60.

(2) سورة يٓس، الآية: 71.

(3) سورة صٓ، الآية: 75.

تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه وقيل له: لم تركته مع وجود هذه العلة وقد أمرك الله به يعني كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة ومثاله أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم، فيمتنع اعتبارًا لسقوطه فيقول له ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى عليّ سقوطه يريد هلا اعتبرت أمري وخطابي وتركت اعتبار سقوطه وفيه أني خلقته بيدي، فأنا أعلم بحاله ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعاني إليه من إنعام عليه بالتكرمة السنية وابتلاء للملائكة فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له ما لم يصرفني عن الأمر بالسجود له وقيل: معنى لما خلقت بيديّ لما خلقت بغير واسطة، وقرئ بيدي كما قرئ بمصرخيّ، وقرئ بيدي على التوحيد ﴿من العالمين﴾ ممن علوت وفقت فأجاب بأنه من العالين حيث.

﴿قال انا خير منه﴾ وقيل: استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ومعنى الهمزة التقرير وقرئ استكبرت بحذف حرف الاستفهام لأنّ أم تدل عليه أو بمعنى الإخبار، هذا على سبيل الأولى أي لو كان مخلوقًا من نار لما سجدت له لأنه مخلوق مثلي فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله، وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي ﴿خلقتني من نار﴾ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾.

﴿منها﴾ من الجنة وقيل: من السموات وقيل: من الخلقة التي أنت فيها لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته فاسودّ بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنًا وأظلم بعد ما كان نورانيًا، والرجيم المرجوم ومعناه المطرود كما قيل له المدحور والملعون لأنّ من طرد رمي بالحجارة على أثره والرجم الرمي الحجارة، أو لأنّ الشياطين يرجمون بالشهب.

فإن قُلْتَ: قوله:

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾.

﴿لعنتي إلى يوم الدين﴾ كان لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع قُلْتُ: كيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾(1) ولكن المعنى: أن عليه اللعنة في الدنيا فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة فكأنها انقطعت.

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾.

فإن قُلْتَ: ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم قُلْتُ: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه ومعنى المعلوم أنه معلوم عند الله معين لا يستقدم ولا يستأخر.

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾.

﴿فبعزتك﴾ إقسام بعزة الله تعالى وهي سلطانه وقهره.

قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾.

قرئ: ﴿فالحق﴾ الحق منصوبين على أن الأوّل مقسم به كالله في أن عليك الله أن تبايعا وجوابه.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾.

﴿لأملأنّ﴾ والحق أقول اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، ومعناه: ولا أقول إلا الحق والمراد بالحق إمّا اسمه عزّ وعلا الذي في قوله إنّ الله هو الحق المبين أو الحق الذي هو نقيض الباطل عظمه الله بإقسامه به ومرفوعين على أن الأوّل مبتدأ محذوف الخبر كقوله لعمرك أي فالحق قسمي لأملأنّ والحق أقول أي أقوله كقوله كله لم أصنع، ومجرورين على أن الأوّل مقسم به قد أضمر حرف قسمه كقولك: الله لأفعلنّ والحق أقول أي ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به، ومعناه: التوكيد والتشديد وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع أيضًا وهو وجه دقيق حسن، وقرئ برفع الأوّل وجرّه مع نصب الثاني وتخريجه على ما ذكرنا ﴿منك﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿وممن تبعك منهم﴾ من ذرّية آدم.

فإن قُلْتَ: ﴿اجمعين﴾ تأكيد لماذا؟ قُلْتُ: لا يخلو أن يؤكد به الضمير في منهم أو الكاف في منك مع من تبعك، ومعناه: لأملأنّ جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحدًا ولأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم.

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾.

﴿عليه من أجر﴾ الضمير للقرآن أو للوحي ﴿وما انا من المتكلفين﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتموني قط متصنعًا، ولا مدّعيًا ما ليس عندي حتى أنتحل النبوّة وأتقوّل القرآن.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾.

﴿إن هو إلا ذكر﴾ من الله ﴿للعالمين﴾ للثقلين أوحي إليّ فأنا أبلغه، وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم»(2).

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 44.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حفظ اللسان، فصل: في فضل السكوت عما لا يعنيه (الحديث: 5064).

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

﴿ولتعلمنّ نباه﴾ أي: ما يأتيكم عند الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفشوه من صحة خبره، وأنه الحق والصدق وفيه تهديد عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصمه أن يصرّ على ذنب صغير أو كبير(1).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزمـر مكية

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾.

﴿تنزيل الكتاب﴾ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف أو خبر مبتدأ محذوف والجار صلة التنزيل كما تقول نزل من عند الله، أو غير صلة كقولك هذا الكتاب من فلان إلى فلان فهو على هذا خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا تنزيل الكتاب هذا من الله أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة، وبالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ والزم.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالكتاب قُلْتُ: الظاهر على الوجه الأوّل أنه القرآن، وعلى الثاني أنه السورة.

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾.

﴿مخلصًا له الدين﴾ ممحضًا له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر، وقرئ الدين بالرفع وحق من رفعه أن يقرأ مخلصًا بفتح اللام كقوله تعالى: ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾ حتى يطابق قوله.

أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾.

﴿ألا لله الدين الخالص﴾ والخالص والمخلص واحد إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر وأما من جعل مخلصًا حالاً من العابد وله الدين مبتدأ وخبرًا، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك لله الدين ألا لله الدين الخالص أي هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة كدر لاطلاعه على الغيوب والأسرار ولأنه الحقيق بذلك لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة بها وعن قتادة الدين الخالص هادة أن لا إله إلا الله وعن الحسن الإسلام ﴿والذين اتخذوا﴾ يحتمل المتخذين، وهم الكفرة والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى، عن ابن عباس رضي الله عنهما فالضمير في ﴿اتخذوا﴾ على الأوّل راجع إلى الذين وعلى الثاني إلى المشركين ولم يجر ذكرهم لكونه مفهومًا والراجع إلى الذين محذوف، والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء والذين اتخذوا في موضع الرفع على الابتداء.

فإن قُلْتَ: فالخبر ما هو؟ قُلْتُ: هو على الأوّل إما ﴿إن الله يحكم بينهم﴾، أو ما أضمر من القول قبل قوله: ﴿ما نعبدهم﴾ وعلى الثاني أنّ الله يحكم بينهم.

فإن قُلْتَ: فإذا كان الله يحكم بينهم الخير فما موضع القول المضمر؟ قُلْتُ: يجوز أن يكون في موضع الحال أي قائلين ذلك، ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محل كما أنّ المبدل منه كذلك وقرأ ابن مسعود بإظهار القول قالوا: ما نعبدهم، وفي قراءة أبيّ ما نعبدكم إلا لتقربونا على الخطاب حكاية لما خاطبوا به آلهتهم، وقرئ ﴿نعبدهم﴾ بضم النون اتباعًا للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر والتنوين في عذاب اركض والضمير في بينهم لهم ولأوليائهم والمعنى أن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم، واختلافهم أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون وأولئك يعادونهم ويلعنونهم وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم من خلق السموات والأرض أقروا وقالوا الله فإذا قالوا لهم فما لكم تعبدون الأصنام قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالضمير في ﴿بينهم﴾ عائد إليهم وإلى المسلمين، والمعنى: أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين، والمراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين، وقرئ كذاب وكذوب وكذبهم قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء بنات الله ولذلك عقبه محتجًا عليهم بقوله:

لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾.

﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء﴾، يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولادهُ جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام

(1) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في التفسير: الزيلعي 3/ 195.

والأعراض كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادًا ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على الله وملائكته غالبين في الكفر، ثم قال ﴿سبحانه﴾ فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء، ودلّ على ذلك بما ينافيه وهو انه واحد فلا يجوز أن يكون له صاحبة لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد وهو معنى قوله أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وقهار غلاب لكل شيء ومن الأشياء آلهتهم فهو يغلبهم فكيف يكونون له أولياء وشركاء.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾.

ثم دلّ بخلق السموات والأرض وتكوير كل واحد من الملوين على الآخر وتسخير النيرين وجريهما لأجل مسمى وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك قهار لا يغالب، والتكوير اللّفّ واللّيّ يقال كار العمامة على رأسه وكورها وفيه أوجه منها أن الليل والنهار خلفه يذهب هذا ويغشى مكانه هذا، وإذا غشى مكانه فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس ومنه قول ذي الرمة في وصف السراب:

تلوى الثنايا بأحقيها حواشيه ... ليّ الملاء بأبواب التفاريج

ومنها أنّ كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار، ومنها أن هذا يكر على هذا كرورًا متتابعًا فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض ﴿ألا هو العزيز﴾ الغالب القادر على عقاب المصرين ﴿الغفار﴾ لذنوب التائبين، أو الغالب الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى فسمى الحلم عنهم مغفرة.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله: ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وما يعطيه من معنى التراخي؟ قُلْتُ: هما آيتان من جملة الآيات[1] التي عددها دالاً على وحدانيته وقدرته تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم وخلق حواء من قصيراه إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرّة، والأخرى لم تجر بها العادة ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيري رجل فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع فعطفها بثم على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً، ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود وقيل: ثم متعلق بمعنى واحدة كأنه قيل: خلقكم من نفس وحدت، ثم شفعها الله بزوج وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء ﴿وأنزل لكم﴾، وقضى لكم وقسم لأنّ قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول[2] من السماء حيث كتب في اللوح كل كائن يكون، وقيل: لا تعيش الأنعام إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها وقيل: خلقها في الجنة، ثم أنزلها ﴿ثمانية أزواج﴾ ذكرًا وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز والزوج اسم لواحد معه آخر فإذا انفراد فهو فرد ووتر قال الله تعالى: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾[3] ﴿خلقًا من بعد خلق﴾ حيوانًا سويًا من بعد عظام مكسوة لحمًا من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف، والظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل: الصلب والرحم والبطن ﴿ذلكم﴾ الذي هذه أفعاله هو ﴿الله ربكم﴾ ﴿فأنى تصرفون﴾، فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره.

إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾.

﴿فإنّ الله غني عنكم﴾ عن إيمانكم وإنكم المحتاجون إليه لاستضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ رحمة لهم لأنه يوقعهم في الهلكة ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أي يرض الشكر لكم لأنه سبب فوزكم وفلاحكم، فإن ما ذكره كفركم ولا رضي شكركم إلا لكم ولصلاحكم لا لأنّ منفعة ترجع إليه لأنه الغني الذي لا يجوز عليه الحاجة، ولقد

(1) قال أحمد: إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنها وقعت بين خلق الذرية من آدم وخلق حواء منه، وهو متقدّم على الذرية فضلاً عن كونه متراخياً عن خلق الذرية فلم يستقم حملها على تراخي الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة على تقدير خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها زوجها= يعني: شفعها بزوجها فكانت ههنا على بابها لتراخي الوجود، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) قال أحمد: ومن هذا النمط بعينه قول الراجز أسنمة الآيال في سحابة.

(3) سورة القيامة، الآية: 39.

تمحل بعض الغواة ليثبت لله تعالى ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال: هذا من العام[1] الذي أريد به الخاص وما أراد إلا عباده الذين عناهم في قوله إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان يريد المعصومين كقوله تعالى: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾[2] تعالى الله عما يقول الظالمون، وقرئ يرضه بضم الهاء بوصل وبغير وصل وبسكونها ﴿خوله﴾ أعطاه قال أبو النجم:

أعطى فلم يبخل ولم يبخل كوم الذرى من خول المخول

وفي حقيقته وجهان أحدهما جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال، وخال مال إذا كان متعهدًا له حسن القيام به ومنه ما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة[3] والثاني جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر وفي معناه قول العرب: إنّ الغني طويل الذيل مياس.

۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾.

﴿ما كان يدعو إليه﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه وقيل: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه وما بمعنى من كقوله تعالى: ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾[4]، وقرئ ليضل بفتح الياء وضمها بمعنى: أنّ نتيجة جعله لله أندادًا ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله والنتيجة قد تكون غرضًا في الفعل وقد تكون غير غرض وقوله ﴿تمتع بكفرك﴾ من باب الخذلان والتخلية كأنه قيل له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقك ألا تؤمر به بعد ذلك وتؤمر بتركه مبالغة في خذلانه وتخليته وشأنه لأنه لا مبالغة في الخذلان لأنّ أشدّ من أن يبعث على عكس ما أمر به هو نظيره في المعنى قوله: ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم﴾.

أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾.

قرئ ﴿أمن هو قانت﴾ بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من، وبالتشديد على إدخال أم عليه ومن مبتدأ خبره محذوف تقديره أمن هو قانت كغيره وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو جرى ذكر الكافر قبله وقوله: بعده: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وقيل: معناه: أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر أو أهذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل والقانت القائم بما يجب عليه من الطاعة، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: أفضل الصلاة طول القنوت[5]. وهو القيام فيها ومنه القنوت في الوتر لأنه دعاء المصلي قائمًا ﴿ساجدًا﴾ حال، وقرئ ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين، وقرئ ويحذر عذاب الآخرة، وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقتنون ويفتنون، ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء ويجوز أن يراد على سبيل التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون كذلك لا يستوي القانتون والعاصون، وقيل: نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو[6] فقال: هذا تمنّ وإنما الرجاء قوله وتلا هذه الآية، قرئ إنما يذكر بالإدغام.

---

(1) قال أحمد: إنّ المصر على هذا المعتقد على قلبه رين، أو في ميزان عقله غين أليس يدعي أو يدعى له أنه الخريت في مغائر العبارات، وبديع الزمان في صناعة البديع فكيف نبا عن جادّة الإجادة فهماً وأعار منادى الحذاقة أذناً صماً اللهم إلا ان يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقاً وغطى سنى مكشوف العبارة فسحقاً سحقاً؟! أليس مقتضى العربية فضلاً عن القوانين العقلية أنّ المشروط مرتب على الشرط لا يتصوّر وجود المشروط قبل الشرط عقلاً ولا مضيه واستقبال الشرط لغة وعقلاً واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وشيعة البدعة أنّ إرادة الله تعالى لشكر عباده مثلاً مقدّمة على وجود الشكر منهم، فحينئذٍ كيف ساغ حمل الرضا على الإرادة، وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاء وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزياً واللازم من ذلك عقلاً تقدّم المراد، وهو الشكر على الإرادة وهي: الرضا، ولغة تقدّم المشروط على الشرط والزمخشري أخص من قال إن المشروط متى كان ماضياً محضاً لزمته الفاء وقد، كقولك: إن تكرمني فقد أكرمتك قبل. وقد عريت الآية عن الحرفين المذكورين على أنه لا بدّ من تأويل يصحح الشرطية مع ذلك فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقلاً تعين التماس المحمل الصحيح له، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازي به المرضي عنه من = الثواب والكرامة فيكون معنى الآية، والله أعلم: وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضي عنه. ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر فجرى الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة عقلاً ومثل هذا يقدر في قوله: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾، أي: لا يجازي غير الكافر مجازاة المغضوب عليه من النكال والعقوبة.

(2) سورة الإنسان، الآية: 6.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخول لهم بالموعظة والعلم.... (الحديث: 68)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين، باب: الاقتصاد بالموعظة الحديث: (82& 2821).

(4) سورة الليل، الآية: 3.

(5) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث: 3/8).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (1/306).
وذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 19657).

(6) قال أحمد: كلام الحسن رضي الله عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشري بقرينة حاله فإنّ الحسن أراد أن المتمادي على المعصية مصراً عليها غير تائب إذا غلب رجاؤه خوفه كان متمنياً؛ لأنّ اللائق بهذا أن يغلب خوفه رجاؤه ولم يرد الحسن إقناط هذا

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿في هذه الدنيا﴾ متعلق بأحسنوا لا بحسنة معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة وهي دخول الجنة أي حسنة غير مكتنهة بالوصف وقد علقه السدي بحسنة ففسر الحسنة بالصحة والعافية.

فإن قُلْتَ: إذا علق الظرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر فما معنى تعليقه بحسنة، ولا يصح أن يقع صفة لها لتقدمه؟ قُلْتُ: هو صفة لها إذا تأخر فإذا تقدم كان بيانًا لمكانها فلم يخل التقدم بالتعلق وإن لم يكن التعلق وصفًا ومعنى ﴿وأرض الله واسعة﴾ أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فلا تجتمعوا مع العجز وتحولوا إلى بلاد أخر واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحسانًا إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم وقيل: هو للذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه كقوله تعالى: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ وقيل: هي أرض الجنة و﴿الصابرون﴾ الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم، وعلى غيرها من تجرّع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وازدياد الخير ﴿بغير حساب﴾ لا يحاسبون عليه وقيل: بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرفًا، وهو تمثيل للتكثير وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يهتدي إليه حساب الْحُسَّابُ ولا يُعْرف وعن النبيّ ﷺ: «ينصب الله الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينتشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صبًا»(1) قال الله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾(2) حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قل إني أمرت﴾ بإخلاص الدين.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وأمرت﴾ بذلك لأجل ﴿أن أكون أوّل المسلمين﴾ أي: مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة والمعنى أنّ الإخلاص له السبقة في الدين فمن أخلص كان سابقًا.

فإن قُلْتَ: كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد؟ قُلْتُ: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما وذلك أنّ الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء، وإذا اختلف وجهًا الشيء وصفناه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين ولك أن تجعل اللام مزيدة مثله في أردت لأن أفعل، ولا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح كأنها زيدت عوضًا من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه كما عوّض السين في أسطاع عوضًا من ترك الأصل الذي هو أطوع، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله وأمرت أن أكون من المسلمين وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأمرت أن أكون أوّل من أسلم وفي معناه أوجه أن أكون أوّل من أسلم في زماني، ومن قومي لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها وأن أكون أوّل الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلامًا، وأن أكون أوّل من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعًا ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعل ما أستحق به الأوّلية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب يعني أنّ الله أمرني أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكلّ شوب بدليل العقل والوحي.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم وذلك حين دعوه إلى دين آبائه.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى التكرير في قوله: ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين﴾(3) وقوله: ﴿قل الله أعبد مخلصًا له ديني﴾ قُلْتُ: ليس بتكرير لأنّ الأوّل إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص والثاني إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصًا له دينه ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة

= من رحمة الله تعالى وحاشاه. وأما قرينة حال الزمخشري؛ فإنها تنم على ما أضمره من إيراد هذه المقالة فإن معتقده أن مثل هذا العاصي وإن كان موحداً يجب خلوده في نار جهنم. ولا معنى لرجائه ولتنميته صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن كالتزام إلى تتميم هذه النزعة وعما قليل يقرع سمعه ما في أنباء هذه السورة.

(1) ذكره الطبراني في معجمه.

(2) قال أحمد: ولقد أحسن في تقوية هذا المعنى في هذه الآية، بقوله: ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ فإنّ مقابلته بعدم الحصر توجب = كونه للحصر، والله أعلم. وما أحسن ما بين وجوه المبالغة في وصف الله تعالى لفظاعة خسرانهم. فقال: استأنف الجملة وصدّرها بحرف التنبيه ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران ونعته بالمبين، وبين في تسمية الشيطان طاغوتاً وجوهاً ثلاثة من المبالغة أحدها تسميته بالمصدر، كأنه نفس الطغيان الثاني: بناؤه على فعلوت وهي صيغة مبالغة كالرحموت وهي الرحمة الواسعة والملكوت، وشبهه الثالث تقديم لامه على عينه ليفيد اختصاص الشيطان بهذه التسمية.

(3) سورة الزمر، الآية: 11.

وآخره في الأوجل فالكلام أوّلاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده وثانيًا فيمن يفعل الفعل لأجله ولذلك رتب عليه قوله:

فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾.

﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير المبالغة في الخذلان والتخلية على ما حققت فيه القول مرّتين قل إنّ الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه هم الذين خسروا أنفسهم لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها **﴿و﴾** خسروا **﴿أهليهم﴾** لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابًا لا رجوع بعده إليهم وقبل وخسروهم لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة يعني: وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: **﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾** حيث استأنف الجمل وصدرها بحرف التنبيه ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران ونعته بالمبين.

لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾.

﴿ومن تحتهم﴾ أطباق من النار هي **﴿ظلل﴾** لآخرين **﴿ذلك﴾** العذاب هو الذي يتوعد الله **﴿به عباده﴾**، ويخوّفهم ليجتنبوا ما يوقعهم فيه **﴿يا عباد فاتقون﴾** ولا تتعرّضوا لما يوجب سخطي وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة، وقرئ: **﴿يا عبادي﴾**.

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾.

﴿الطاغوت﴾ فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلبًا بتقديم اللام على العين أطلقت على الشيطان أو الشياطين لكونها مصدرًا وفيها مبالغات وهي التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وأنّ البناء بناء مبالغة، فإنّ الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط والقلب وهو للاختصاص إذ لا تطلق على غير الشيطان والمراد بها ههنا الجمع، وقرئ الطواغيت **﴿أن يعبدوها﴾** بدل من الطاغوت بدل الاشتمال **﴿لهم البشرى﴾** هي البشار بالثواب كقوله تعالى: **﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**[1] الله عزّ وجل يبشرهم بذلك في وحيه على ألسنة رسله وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين وحين يحشرون قال الله تعالى: **﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات﴾**[2] وأراد بعباد.

ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾.

وأراد بعباده **﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾** الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة فوضع الظاهر موضع الضمير وأراد أن يكونوا نقادًا في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل، والأفضل فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح والندب حرّاصًا على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثوابًا ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر[3] وأبينها دليلاً أو أمارة وأن لا تكون في مذهبه كما قال القائل: ولا تكن مثل عَيْر قيد فانقادا: يريد المقلد وقيل يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو والانتصار والإغضاء والإبداء والإخفاء لقوله تعالى: **﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾**[4] **﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾**[5] وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو فيحدّث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه ومن الوقفة من يقف على فبشر عبادي ويبتدئ الذين يستمعون يرفعه على الابتداء وخبره **﴿أولئك﴾** أصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب، فأنت تنقذه جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ثم دخلت الفاء التي في أوّلها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب تقديره أأنت مالك أمرهم.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾.

فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه والهمزة الثانية هي الأولى كرّرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من في النار موضع الضمير فالآية على هذا جملة واحدة ووجه آخر وهو أن تكون الآية جملتين أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه أفأنت تنقذ من في النار وإنما جاز حذف، فأنت تخلصه لأن أفأنت تنقذ يدل عليه نزل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار حتى نزل اجتهاد رسول الله ﷺ وكدّه نفسه في دعائهم إلى الإيمان منزلة إنقاذهم من النار، وقوله أفأنت تنقذ يفيد أنّ الله تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده لا يقدر على ذلك أحد غيره، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ الداخل في النار من النار لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه

---

(1) سورة يونس، الآية: 64.

(2) سورة الحديد، الآية: 12.

(3) قال أحمد: لقد كنت أطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من المذاهب الرديئة والمعتقدات الفاسدة، حتى حققت من كلامه هذا = أنّ ذلك التصميم كان متمكناً من فؤاده الصميم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(5) سورة البقرة، الآية: 271.

من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه.

لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ مَّبۡنِيَّةٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾.

﴿غرف من فوقها غرف﴾ علالي بعضها فوق بعض.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله **﴿مبنية﴾**! **قُلْتُ:** معناه والله أعلم أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسوّيت تسويتها **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾** كما تجري من تحت المنازل من غير تفاوت بين العلوّ والسفل **﴿وَعْدَ الله﴾** مصدر مؤكد لأنّ قوله لهم: غرف في معنى وعدهم الله ذلك.

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعًا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرًّا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾.

﴿انزل من السماء ماء﴾ هو المطر وقيل: كل ماء في الأرض، فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله **﴿فسلكه﴾** فادخله ونظمه **﴿ينابيع في الأرض﴾** عيونًا ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد **﴿مختلفًا الوانه﴾** هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك وأصنافه من برّ وشعير وسمسم وغيرها **﴿يهيج﴾** يتم جفافه عن الأصمعي لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن مثابته ويذهب **﴿حطامًا﴾** فتاتًا ودرينًا **﴿إنّ في ذلك لذكرى﴾** لتذكيرًا وتنبيهًا على أنه لا بدّ من صانع حكيم وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير لا عن تعطيل وإهمال ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا كقوله تعالى: **﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾**[1] **﴿واضْرِبْ لهم مثل الحياة الدنيا﴾**[2] وقرئ مصفارًا.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾.

﴿افمن﴾ عرف الله أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسي القلب، ونور الله هو لطفه وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقيل: يا رسول الله كيف انشراح الصدر قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل: يا رسول الله فما علامة ذلك قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتاهب للموت قبل نزول الموت[3] وهو نظير قوله أمن هو قانت في حذف الخبر **﴿من ذكر الله﴾** من أجل ذكره أي إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا، وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى: فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وقرئ عن ذكر الله.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين من وعن في هذا؟ **قُلْتُ:** إذا قلت قسا قلبه من ذكر الله فالمعنى ما ذكرت من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه وإذا قلت عن ذكر الله فالمعنى غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه ونظيره سقاه من العيمة أي من أجل عطشه وسقاه عن العيمة إذا أرواه حتى أبعده عن العطش، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلّوا مَلّة فقالوا له: حدثنا فنزلت. وإيقاع اسم الله مبتدأ، وبناء نزل عليه فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه واستشهاد على حسنه وتأكيد لاستناده إلى الله وإنه من عنده وإنّ مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه وتنبيه على أنه وحي معجز مباين لسائر الأحاديث.

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾.

و **﴿كتابًا﴾** يدل من أحسن الحديث، ويحتمل أن يكون حالاً منه **﴿ومتشابهًا﴾** مطلق في مشابهة بعضه بعضًا فكان متناولاً لتشابه معانيه في الصحة والإحكام، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق وتناسب الفاظه وتناصفها في التخير والإصابة وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيت ويجوز أن يكون **﴿مثاني﴾** بيانًا لكونه متشابهًا لأنّ القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة والمثاني جمع مثنى بمعنى: مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه وقيل: لانه يثنى في التلاوة فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان ولا يخلق على كثرة الرد[4]، ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قوله تعالى: **﴿ثم ارجع البصر كرّتين﴾** بمعنى كرّة بعد كرّة وكذلك لبيك وسعديك وحنانيك.

فإن قُلْتَ: كيف وصف الواحد بالجمع؟ **قُلْتُ:** إنما صحّ ذلك لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير الا تراك تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات وكذلك تقول: أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ونظيره قولك: الإنسان عظام وعروق وأعصاب إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة وأصله كتابًا متشابهًا فصولاً مثاني، ويجوز أن يكون كقولك برمة أعشار وثوب أخلاق ويجوز أن لا يكون مثاني صفة ويكون منتصبًا على التميز من متشابهًا كما تقول: رأيت رجلاً حسنًا شمائل والمعنى متشابهة مثانيه.

فإن قُلْتَ: ما فائدة التثنية والتكرير؟ **قُلْتُ:** النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عودًا عن بدء لم يرسخ فيها، ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة

---

(1) سورة يونس، الآية: 24.

(2) سورة الكهف، الآية: 45.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك: 4/311.

(4) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن مسعود: 1/405.

رسول الله ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعًا[1] ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضًا شديدًا وتركيبه من حروف القشع، وهو الأديم اليابس مضمومًا إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعيًا ودالاً على معنى زائد يقال اقشعر جلده من الخوف وقف شعره، وهو مثل في شدّة الخوف فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل تصويرًا لإفراط خشيتهم وأن يريد التحقيق والمعنى أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة.

فإن قُلْتَ: ما وجه تعدية لانّ بإلى؟ **قُلْتُ**: ضمن معنى فعل متعد بإلى كأنه قيل: سكنت أو اطمأنت إلى ذكر الله لينة غير متقبضة راجية غير خاشية.

فإن قُلْتَ: فلم اقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة؟ **قُلْتُ**: لأنّ أصل أمره الرحمة والرأفة ورحمته هي سابقة غضبه فلأصالة رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رؤوفًا رحيمًا.

فإن قُلْتَ: لم ذكرت الجلود وحدها أوّلاً ثم قرنت بها القلوب ثانيًا؟ **قُلْتُ**: إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب فقد ذكرت القلوب فكأنه قيل: تقشعر جلودهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم في أوّل وهلة فإذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة لينًا في جلودهم ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى الكتاب وهو ﴿**هدى الله يهدي به**﴾ يوفق به من يشاء يعني عباده المتقين حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء كما قال: ﴿**هدى للمتقين**﴾ ﴿**ومن يضلل الله**﴾ ومن يخذله من الفساق والفجرة ﴿**فما له من هاد**﴾ أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء هدى الله أي أثر هداه وهو لطفه فسماه هدى لأنه حاصل بالهدى ﴿**يهدي به**﴾ بهذا الأثر من يشاء من عباده يعني: من صحب أولئك ورآهم خاشين راجين فكان ذلك مرغبًا لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم ومن يضلل الله ومن لم يؤثر فيه ألطافه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره فما له من هاد من مؤثر فيه بشيء قط يقال اتقاه بدرقته استقبله بها فوقى بها نفسه إياه واتقاه بيده وتقديره.

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿**أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب**﴾ كمن أمِنَ العذاب، فحذف الخبر[2] كما حذف في نظائره وسوء العذاب شدّته ومعناه أن الإنسان إذا لقي مخوفًا من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه لأنه أعز أعضائه عليه والذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه وقيل: المراد بالوجه الجملة وقيل: نزلت في أبي جهل ﴿**وقيل**﴾ لهم: خزنة النار ﴿**ذوقوا**﴾ وبال ﴿**ما كنتم تكسبون**﴾.

كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿**من حيث لا يشعرون**﴾ من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها بينا هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمنهم.

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾.

والخزي: الذل والصغار كالمسخ والخسف والقتل والجلاء وما أشبه ذلك من نكال الله.

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿**قرآنًا عربيًا**﴾ حال مؤكدة كقولك جاءني زيد رجلاً صالحًا وإنسانًا عاقلاً، ويجوز أن ينتصب على المدح ﴿**غير ذي عوج**﴾ مستقيمًا بريئًا من التناقض والاختلاف.

فإن قُلْتَ: فهلا قيل مستقيمًا أو غير معوج! **قُلْتُ**: فيه فائدتان إحداهما نفي أن يكون فيه عوج قط كما قال: ولم يجعل له عوجًا والثانية أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان وقيل: المراد بالعوج الشك واللبس وأنشد:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج   من الإله وقول غير مكذوب

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾.

واضرب قومك مثلاً وقل لهم ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف، وتنازع كل واحد منهم يدعي أنه عبدهم فهم يتجاذبونه، ويتعاورونه في مهن شتى ومشادة وإذا عنت له حاجة تدافعوه فهو متحير في أمره سادر قد تشبعت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره لا يدري أيهم يرضى بخدمته وعلى أيهم يعتمد في حاجاته، وفي آخر قد سلم لمالك واحد وخلص له فهو معتنق لما لزمه من خدمته معتمد عليه فيما يصلحه فهمه واحد وقلبه مجتمع أي هذين العبدين أحسن حالاً وأجمل

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من أعاد الحديث ثلاثًا ليفهم عنه (الحديث: 95)، وأحمد في المسند 3/213.

(2) قال أحمد: الملقى في النار والعياذ بالله لم يقصد الاتّقاء بوجهه، = ولكنه لم يجد ما يتقي به النار غير وجهه، ولو وجد لفعل فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقي بوجهه، فعبر ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلي، والله أعلم.

شأنًا والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا كما قال تعالى: ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾[1] ويبقى هو متحيرًا ضائعًا لا يدري أيهم يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه فهمه شعاع وقلبه أوزاع وحال من لم يثبت إلا إلهًا واحدًا فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه، وما أسخطه متفضل عليه في عاجله مؤمل للثواب في آجله و ﴿فيه﴾ صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه والتشاكس والتشاخس الاختلاف تقول تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه ﴿سالمًا لرجل﴾ خالصًا، وقرئ سَلَمًا بفتح الفاء والعين وفتح الفاء وكسرها مع سكون العين وهي مصادر سلم والمعنى ذا سلامة لرجل أي ذا خلوص له من الشركة من قولهم سلمت له الضيعة، وقرئ بالرفع على الابتداء أي وهناك رجل سالم لرجل وإنما جعله رجلاً ليكون أفطن لما شقي به أو سعد فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك ﴿هل يستويان مثلاً﴾ هل يستويان صفة على التمييز والمعنى: هل يستوي صفتاهما وحالاهما وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ مثلين كقوله تعالى: ﴿وأكثر أموالاً وأولادًا﴾[2] مع قوله أشدّ منهم قوّة، ويجوز فيمن قرأ مثلين أن يكون الضمير في يستويان للمثلين لأن التقدير مثل رجل ومثل رجل والمعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية كما تقول: كفى بهما رجلين ﴿الحمد لله﴾ الواحد الذي لا شريك له دون كل معبود سواه أي يجب أن يكون الحمد متوجهًا إليه وحده، والعبادة فقد ثبت أنه لا إله إلاّ هو ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون به غيره كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر أن الموت يعمهم فلا معنى للتربص وشماتة الباقي بالفاني وعن قتادة: نعى إلى نبيه نفسه ونعي إليكم أنفسكم.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾.

وقرئ مائت ومائتون والفرق بين الميت والمائت[3] أن الميت صفة لازمة كالسيد وأما المائت فصفة حادثة تقول زيد مائت غدًا كما تقول سائد غدًا أي سيموت وسيسود، وإذا قلت زيد ميت فكما تقول حي في نقيضه فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت والمعنى في قوله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى لأنّ ما هو كائن، فكأن قد كان.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾.

﴿ثم إنكم﴾ ثم إنك وإياهم فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿تختصمون﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد ويعتذرون بما لا طائل تحته تقول الأتباع أطعنا سادتنا وكبراءنا، وتقول السادات أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون وقد حمل على اختصام الجميع وأن الكفار يخاصم بعضهم بعضًا حتى يقال لهم: لا تختصموا لديّ والمؤمنون الكافرين يبكتوهم بالحجج، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام قال عبد الله بن عمر لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب قلنا كيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فينا[4]، وقال أبو سعيد الخدري: كما نقول ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم، هو هذا[5] وعن إبراهيم النخعي: قالت الصحابة: ما خصومتنا، ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا[6]. عن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة والوجه الذي يدل عليه كلام الله هو ما قدمت أولاً ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله﴾[7] وقوله تعالى: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾[8] وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة.

۞ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۝٣٢ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝٣٤﴾.

﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ هو رسول الله ﷺ جاء بالصدق وآمن به وأراد به إياه ومن تبعه كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون، فلذلك قال: ﴿أولئك هم المتقون﴾ إلا أن هذا في الصفة وذاك في الاسم ويجوز أن يريد والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به وهم الرسول الذي جاء بالصدق وصحابته الذين صدقوا به وفي قراءة ابن مسعود والذين جاؤا بالصدق وصدقوا به، وقرئ وصدق به

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 91.

(2) سورة التوبة، الآية: 69.

(3) قال أحمد: فاستعمال ميت مجاز إذ الخطاب مع الأحياء، واستعمال مائت حقيقة إذ لا يعطي اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب ونظيره قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾، يعني: توفي الموت والتي لم تمت في منامها، أي: يتوفاها حين المنام تشبيهاً للنوم بالموت كقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي، أي: لا يردها في وقتها = حية ويرسل الأخرى، أي: النائمة إلى الأجل الذي سماه، أي: قدره لموتها الحقيقي هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية، والله أعلم.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرك، 4/572.

(5) ذكره الثعلبي تعليقًا، الزيلعي 3/204.

(6) رواه عبد الرزاق في تفسيره والطبري والثعلبي، الزيلعي 3/204.

(7) سورة الزمر، الآية: 32.

(8) سورة الزمر، الآية: 33.

بالتخفيف أي: صدق به الناس ولم يكذبهم به يعني: أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف، وقيل: صار صادقًا به أي: بسببه لأنّ القرآن معجزة والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده ولا يجوز أن يصدق إلا لصادق، فيصير لذلك صادقًا بالمعجزة وقرئ: وصُدِّق به.

﴿كذب على الله﴾ افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه. ﴿وكذب بالصدق﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو ما جاء به محمد ﷺ ﴿إذ جاءه﴾ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون ﴿مثوى للكافرين﴾ أي لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق، واللام في للكافرين إشارة إليهم.

لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذي عملوا، وما معنى التفضيل فيهما؟ قُلْتُ: أما الإضافة فما هي من إضافة افعل إلى الجملة التي يفضل عليها ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل كقولك الأشج أعدل بني مروان وأما التفضيل، فإيذان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن لحسن إخلاصهم فيه فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالأحسن، وقرئ أسواء الذي عملوا جمع سوء.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾.

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها قرئ بكاف عبده وهو رسول الله ﷺ وبكاف عباده وهم الأنبياء، وذلك أن قريشًا قالت لرسول الله ﷺ: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا وإنا نخشى عليك معرتها لعيبك إياها ويروى أنه بعث خالدًا إلى العزى ليكسرها فقال له سادنها: أحذركها يا خالد إن لها لشدة لا يقوم لها شيء فعمد خالدًا إليها فهشم أنفها، فقال الله عز وجل: أليس الله بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف وفي هذا تهكم بهم لأنهم خوفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضر أو أليس الله بكاف أنبياءه، ولقد قالت: أممهم نحو ذلك فكفاهم الله وذلك قول قوم هود إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، ويجوز أن يريد العبد والعباد على الإطلاق لأنه كافيهم في الشدائد وكافل مصالحهم، وقرئ بكافي عباده على الإضافة ويكافي عباده ويكافي يحتمل أن يكون غير مهموز مفاعلة من الكفاية كقولك: يجازي في يجزي، وهو أبلغ من كفى لبنائه على لفظ المبالغة والمباراة أن يكون مهموزًا من المكافأة وهي المجازاة لما تقدّم من قوله: ويجزيهم أجرهم ﴿بالذين من دونه﴾ أراد الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه.

وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾.

﴿بعزيز﴾ بغالب منيع ﴿ذي انتقام﴾ ينتقم من أعدائه وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم وينصرهم عليهم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾.

قرئ: ﴿كاشفات﴾ ضره وممسكات رحمته بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف.

فإن قُلْتَ: لم فرض المسألة في نفسه دونهم؟ قُلْتُ: لأنهم خوّفوه معرّة الأوثان وتخبيلها، فأمر بأن يقرّرهم أوّلاً بأنّ خالق العالم هو الله وحده ثم يقول لهم بعد التقرير: فإذا أرادني خالق العالم أقررتم به بضر من مرض، أو فقر أو غير ذلك من النوازل أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما هل هؤلاء اللاتي خوّفتموني إياهن كاشفات عني ضره، أو ممسكات رحمته حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا ببنت شفة قال ﴿حسبي الله﴾ كافيًا لمعرّة أوثانكم ﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾ وفيه تهكم ويروى أنّ النبي ﷺ سألهم فسكتوا ﴿فنزل قل حسبي الله﴾.

فإن قُلْتَ: لم قيل كاشفات، وممسكات على التأنيث بعد قوله تعالى: ﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ قُلْتُ: انثهن وكن إناثًا وهن اللات والعزى ومناة قال الله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى﴾[1] ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف، وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة لأنّ الأنوثة من باب اللين والرخاوة كما أنّ الذكورة من باب الشدّة والصلابة كأنه قال: الإناث اللاتي هنّ اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهنّ وأعجز وفيه تهكم أيضًا.

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿على مكانتكم﴾ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها والمكانة بمعنى: المكان فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا وحيث الزمان وهما للمكان.

(1) سورة النجم، الآية: 19 ـ 20.

فإن قُلْتَ: حق الكلام فإني عامل على مكانتي فلم حذف؟ قُلْتُ: للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد والإيذان بأنّ حاله لا تقف، وتزداد كل يوم قوّة وشدّة لأنّ الله ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله الا ترى إلى قوله ﴿فسوف تعلمون من ياتيه﴾.

مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾.

كيف توعدهم بكونه منصورًا عليهم غالبًا عليهم في الدنيا والآخرة لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته من حيث أنّ الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه وبذل ذليل من أعدائه ﴿يخزيه﴾ مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب أي عذاب مخز له وهو يوم بدر وعذاب دائم وهو عذاب النار، وقرئ مكاناتكم.

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾.

﴿للناس﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ليبشروا وينذروا فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ولا حاجة لي إلى ذلك فأنا الغني فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ومن اختار الضلالة فقد ضرها، وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى فإنّ التكليف مبني على الاختيار دون الإجبار.

ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿الأنفس﴾ الجمل كما هي، وتوفيها إماتتها وهو أن يسلب ما هي به حية حساسة درّاكة من صحة أجزائها وسلامتها لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها أي: يتوفاها حين تنام تشبيهًا للنائمين بالموتى ومنه قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾[1] حيث لا يميزون ولا يتصرفون كما أنّ الموتى كذلك ﴿فيمسك﴾ الأنفس ﴿التي قضى عليها الموت﴾ الحقيقي أي لا يردّها في وقتها حية ﴿ويرسل الأخرى﴾ النائمة ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى وقت ضربه لموتها وقيل: يتوفى الأنفس يستوفيها، ويقبضها وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي أنفس التمييز قالوا فالتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس ورووا، عن ابن عباس رضي الله عنهما في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس التي بها العقل، والتمييز والروح التي بها النفس والتحرّك فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه[2] والصحيح ما ذكرت أوّلاً لأنّ الله عزّ وعلا علق التوفي والموت والمنام جميعًا بالأنفس وما عنوا بنفس الحياة، والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام ﴿إنّ في ذلك﴾ إنّ في توفي الأنفس مائتة ونائمة وإمساكها وإرسالها إلى أجل لآيات على قدرة الله وعلمه لقوم يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون، وقرئ قضى عليها الموت على البناء للمفعول.

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿أم اتخذوا﴾ بل اتخذ قريش والهمزة للإنكار من دون الله من دون إذنه شفعاء حين قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه الا ترى إلى قوله تعالى:

﴿قل لله الشفاعة جميعًا﴾ أي هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين أن يكون المشفوع له مرتضى وأن يكون الشفيع مأذونًا له، وههنا الشرطان مفقودان جميعًا ﴿أو لو كانوا﴾ معناه أيشفعون ولو كانوا ﴿لا يملكون شيئًا ولا يعقلون﴾ أي ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئًا قط حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم ﴿له ملك السموات والأرض﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿لله الشفاعة جميعًا﴾ لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك كان مالكًا لها.

فإن قُلْتَ: بم يتصل قوله ﴿ثم إليه ترجعون﴾؟ قُلْتُ: بما يليه معناه له ملك السموات والأرض اليوم، ثم إليه ترجعون يوم القيامة فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له فله ملك الدنيا والآخرة مدار المعنى على قوله وحده أي.

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾.

إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم اشمأزوا أي نفروا وانقبضوا ﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ وهم آلهتهم ذكر الله معهم أولم يذكر استبشروا لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها وقيل: إذا قيل لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له نفروا لأن فيه نفيًا لآلهتهم، وقيل: أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله ﷺ من ذكر آلهتهم حين قرأ والنجم عند باب الكعبة فسجدوا معه لفرحهم ولقد تقابل الاستبشار، والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأنّ الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورًا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل والاشمئزاز أن يمتلئ

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 60.

(2) قال الزيلعي غريب جدًا 3/205.

غمًا وغيظًا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه.

فإن قُلْتَ:ما العامل في إذا ذكر! قُلْتُ:العامل في إذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دون فاجاوا وقت الاستبشار بعل رسول الله ﷺ بهم، وبشدّة شكيمتهم في الكفر والعناد فقيل له: ادع الله بأسمائه العظمى وقل أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ولا حيلة لغيرك فيهم، وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول الله ﷺ وتسلية له ووعيد لهم وعن الربيع بن خثيم، وكان قليل الكلام أنه أخبر بقتل الحسين رضي الله عنه وسخط على قاتله وقالوا: الآن يتكلم فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا وقرأ هذه الآية، وروي أنه قال على أثره قتل من كان رسول الله ﷺ يجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه.

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾.

﴿وبدا لهم من الله﴾ وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدّته وهو نظير قوله تعالى في الوعد: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم﴾، والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدثوا به نفوسهم وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له فقال: أخشى آية من كتاب الله وتلاها، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي سيئات أعمالهم التي كسبوها أو سيئات كسبهم حين تعرض صحائفهم وكانت خافية عليهم كقوله تعالى: أحصاه الله، ونسوه أو أراد بالسيئات أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا فسماها سيئات كما قال وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴿وحاق بهم﴾ ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم.

فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾.

التخويل مختص بالتفضل يقال خولني إذا أعطاك على غير جزاء ﴿على علم﴾ أي على علم مني أني سأعطاه لما فيّ من فضل، واستحقاق أو على علم من الله بي وباستحقاقي[1] أو على علم مني بوجوه الكسب كما قال قارون: على علم عندي.

فإن قُلْتَ:لِمَ ذكر الضمير في أوتيته وهو للنعمة؟ قُلْتُ: ذهابًا به إلى المعنى لأنّ قوله نعمة منا شيئًا من النعم وقسمًا منها، ويحتمل أن تكون ما في إنما موصولة لا كافة فيرجع إليها الضمير على معنى أنّ الذي أوتيته على علم ﴿بل هي فتنة﴾ إنكار لقوله كأنه قال: ما خوّلناك ما خوّلناك من النعمة لما تقول بل هي فتنة أي ابتلاء وامتحان لك أتشكر أم تكفر.

فإن قُلْتَ:كيف ذكر الضمير ثم أنثه؟ قُلْتُ:حملاً على المعنى أوّلاً وعلى اللفظ آخرًا ولأن الخبر لما كان مؤنثًا أعني فتنة ساغ تأنيث المبتدأ لأجله لأنه في معناه كقولهم ما جاءت حاجتك، وقرئ بل هو فتنة على وفق إنما أوتيته.

فإن قُلْتَ:ما السبب في عطف هذه الآية الفاء وعطف مثلها في أوّل السورة بالواو؟ قُلْتُ:السبب في ذلك أنّ هذه، وقعت مسببة عن قوله وإذا ذكر الله وحده[2] اشمأزّت على معنى: أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأزّ من ذكره دون من استبشر بذكره وما بينهما من الآي اعتراض.

فإن قُلْتَ:حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه قُلْتُ:ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمر منه، وقوله أنت تحكم بينهم ثم ما عقبه من الوعيد العظيم تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم كأنه قيل: يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت، وقوله لو أنّ للذين ظلموا متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقًا أو إياهم خاصة إن عنيتهم به كأنه قيل، ولو أنّ لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به حين أحكم عليهم بسوء العذاب، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم وإلا بقيت محتجبة في أكمامها وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو، وكقولك قام زيد وقعد عمرو.

فإن قُلْتَ:من أي وجه، وقعت مسببة والاشمئزاز عن ذكر الله ليس بمقتضى لالتجائهم إليه بل هو مقتض لصدوفهم عنه قُلْتُ:في هذا التسبيب لطف وبيانه أنك تقول: زيد مؤمن بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه فهذا تسبيب ظاهر

---

(1) قال أحمد:كذلك يقول علي قدري: تمنى على الله أن يثيبه في الآخرة أن الفرق بين حمد الدنيا، وحمد الآخرة. أنّ حمد الدنيا واجب على العبد؛ لأنه على نعمة متفضل بها، وحمد الآخرة ليس بواجب عليه؛ لأنه على نعمة واجبة على الله عزّ وجل، ولقد صدق الله إذ يقول: وهي فتنة إنما سلم منها أهل السنة إذ يعتقدون أنّ الثواب بفضل الله وبرحمته لا باستحقاق، ويتبعون في = ذلك قول سيد البشر ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»، فما أحمق من مني نفسه، وركب رأسه، وطمع أنه يستحق على الله الجنة.

(2) قال أحمد:كلام جليل فافهمه فضلاً عن مشبه قليل.

لا لبس فيه، ثم تقول زيد كافر بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة كأنّ الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان ومجريه مجراه في جعله سببًا في الالتجاء فأنت تحكي ما عكس فيه الكافر ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام والانكار والتعجب من فعله، الضمير في.

قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿قالها﴾ راجع إلى قوله إنما أوتيته على علم لأنها كلمة أو جملة من القول، وقرئ قد قاله على معنى القول والكلام وذلك والذين مِنْ قبلهم هم قارون وقومه حيث قال: إنما أوتيته على علم عندي وقومه راضون بها فكأنهم قالوها، ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها **﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾** من متاع الدنيا ويجمعون منه.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾.

﴿من هؤلاء﴾ من مشركي قومك **﴿سيصيبهم﴾** مثل ما أصاب أولئك فقتل صناديدهم ببدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين.

أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾.

ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين فقيل لهم: **﴿أو لم يعلموا﴾** أنه لا قابض ولا باسط إلاّ الله عزّ وجلّ.

۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾.

﴿أسرفوا على أنفسهم﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلوّ فيها **﴿لا تقنطوا﴾**، قرئ بفتح النون وكسرها وضمها **﴿إنّ الله يغفر الذنوب جميعًا﴾** يعني بشرط التوبة، وقد تكرّر ذكر هذا الشرط في القرآن فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكرًا له فيما لم يذكر فيه لأنّ القرآن في حكم كلام واحد ولا يجوز فيه التناقض وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء، والمراد بمن يشاء من تاب لأنّ مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله لا لملكه وجبروته وقيل: في قراءة النبيّ ﷺ وفاطمة رضي الله عنها يغفر الذنوب جميعًا ولا يبالي ونظير نفي المبالات نفي الخوف في قوله تعالى: **﴿ولا يخاف عقباها﴾** وقيل قال: أهل مكة يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان، وقتل النفس التي حرّم الله لم يغفر له فكيف ولِمَ تهاجر؟ وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرّم الله فنزلت، وروي أنه أسلم عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما ثم فتنوا وعذبوا، فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله لهم صرفًا ولا عدلاً أبدًا فنزلت فكتب بها عمر رضي الله عنه إليهم، فأسلموا وهاجروا وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه وعن رسول الله ﷺ: ما أحب أنّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: فقال رجل: يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة، ثم قال: ألا ومن أشرك ثلاث مرّات[1].

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾ وتوبوا إليه **﴿وأسلموا له﴾** وأخلصوا له العمل، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه.

وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مثل قوله الذين يستمعون القول، فيتبعون أحسنه **﴿وأنتم لا تشعرون﴾** أي يفجؤكم وأنتم غافلون كأنكم لا تخشون شيئًا لفرط غفلتكم وسهوكم.

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾.

﴿أن تقول نفس﴾ كراهة أن تقول.

فإن قُلْتَ: لم نكرت؟ **قُلْتُ:** لأنّ المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر، ويجوز أن يراد نفس متميزة من الأنفس إما بلجاج في الكفر شديد أو بعذاب عظيم ويجوز أن يراد التكسير كما قال الأعشى:

ورب بقيع لو هتفت بجوّه   أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

وهو يريد أفواجًا من الكرام ينصرونه لا كريمًا واحدًا ونظيره ربّ بلد قطعت ورب بطل قارعت، وقد اختلس الطعنة لا يقصد إلا التكسير، وقرئ يا حسرتي على الأصل ويا حسرتاي على الجمع بين العوض والمعوّض منه والجنب الجانب يقال أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته وفلان لين الجنب والجانب، ثم قالوا فرّط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه قال سابق البربري:

أما تتقين الله في جنب وامق   له كبد حرّى عليك تقطع

وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبتّ الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه ألا ترى إلى قوله:

إنّ السماحة والمروءة والندى   في قبة ضربة على ابن الحشرج

ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا، يريدون لأجلك وفي الحديث: من الشرك الخفيّ أن يصلي الرجل لمكان الرجل[2]، وكذلك فعلت هذا من جهتك فمن حيث لم يبق

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في معالجة كل ذنب بالتوبة (الحديث رقم: 7137).

فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه قيل: ﴿فرّطت في جنب الله﴾ على معنى فرّطت في ذات الله.

فإن قُلْتَ: فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها فكأنه قيل: فرّطت في الله فما معنى فرّطت في الله؟ **قُلْتُ:** لا بدّ من تقدير مضاف محذوف سواء ذكر الجنب، أو لم يذكروا المعنى: فرّطت في طاعة الله وعبادة الله وما أشبه ذلك وفي حرف عبد الله وحفصة في ذكر الله، وما في ما فرّطت مصدرية مثلها في بما رحبت ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ومحل، وإن كنت النصب على الحال كأنه قال: فرّطت وأنا ساخر أي فرّطت في حال سخريتي، وروي أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق وأتاه إبليس وقال له: تمتع من الدنيا ثم تب فأطاعه وكان له مال فأنفقه في الفجور فأتاه ملك الموت في ألذ ما كان فقال: يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله ذهب عمري في طاعة الشيطان وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم فأنزل الله خبره في القرآن.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾.

﴿لو أن الله هداني﴾ لا يخلو إما أن يريد به الهداية بالإلجاء أو بالإلطاف أو بالوحي فالإلجاء خارج عن الحكمة ولم يكن من أهل الإلطاف، فيلطف به وأما الوحي فقد كان ولكنه أعرض ولم يتبعه حتى يهتدي وإنما يقول هذا تحيرًا في أمره وتعللاً بما لا يجدي عليه كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين، ونحو ذلك ونحوه لو هدانا الله لهديناكم وقوله:

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾.

﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ ردّ من الله عليه معناه: بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله وآثرت الكفر على الإيمان والضلالة على الهدى، وقرئ بكسر التاء على مخاطبة النفس.

فإن قُلْتَ: هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله: لو أن الله هداني ولم يفصل بينهما بآية! **قُلْتُ:** لأنه لا يخلو إما أن يقدّم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهنّ وإما أن تؤخر القرينة الوسطى، فلم يحسن الأوّل لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن وأما الثاني فلما فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمني الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن تقع بلى جوابًا لغير منفي؟ **قُلْتُ:** لو أنّ الله هداني فيه معنى ما هديت.

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾.

﴿كذبوا على الله﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى، وهو متعال عنه[1] فأضافوا إليه الولد والشريك وقالوا هؤلاء شفعاؤنا، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم وقالوا

---

(1) أخرجه أحمد في المسند 30/3، والحاكم في المستدرك 329/4.

(2) قال أحمد: قد عدا طور التفسير لمرض في قلبه لا دواء له إلا التوفيق الذي حرمه ولا يعافيه منه إلا الذي قدّر عليه هذا الضلال وحتمه، وسنقيم عليه حدّ الردّ؛ لأنه قد أبدى صفحته، ولولا شرط الكتاب لأضربنا عنه صفحاً ولوينا عن الالتفات إليه كشحاً وبالله التوفيق. فنقول: أمّا تعريضه بأن أهل السنّة يعتقدون أن القبائح من فعل الله تعالى، فيرجمه باعتقادهم المشار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾، أمّا الزمخشري وإخوانه القدرية، فيغبرون في وجه هذه الآية، ويقولون: ليس خالق كل شيء؛ لأنّ القبائح أشياء وليست مخلوقة له، فاعتقدوا أنهم نزهوا، وإنما أشركوا، وأمّا تعريضه لهم في أنهم يجوّزون أن يخلق خلقاً لا لغرض فذلك؛ لأنّ أفعاله تعالى لا تعلل؛ لأنه الفعال لما يشاء، وعند القدرية ليس فعالاً لما يشاء؛ لأنّ الفعل إمّا منطو على حكمة ومصلحة فيجب عليه أن يفعله عندهم، وإما عار عنها فيجب عليه أن لا يفعله فأين أثر المشيئة إذاً! وأما اعتقاده أنّ في تكليف ما لا يطاق تظليماً لله تعالى فاعتقاد باطل؛ لأنّ ذلك إنما ثبت لازماً لاعتقادهم أنّ الله تعالى خالق أفعال عبيده، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقاً لهم، والقاعدة الأولى حق ولازم الحق حق ولا معنى للظلم إلا التصرف في ملك الغير بغير إذنه، والعباد ملك الله تعالى، فكيف يتصوّر حقيقة الظلم منه= تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وأما تعريضه بأنهم يجوّزون أن يؤلم لا لعوض، فيقال له: ما قولك أيها الظنين في إيلام البهائم والأطفال؟ ولا أعواض لها، وليس مرتباً على استحقاق سابق خلافاً للقدرية إذ يقولون: لا بدّ في الألم من استحقاق سابق، أو عوض. وأما اعتقاده أن تجويز رؤية الله تعالى يستلزم اعتقاد الجسمية، فإنه اغترار في اعتقاده بأدلة العقل المجوزة لذلك مع البراءة من اعتقاد الجسمية، ولم يشعر أنه يقابل بهداية قول نبي الهدى عليه الصلاة والسلام إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فهذا النص الذي ينبو عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من التهويل، وأما قوله: إنهم يتسترون بالبلكفة فيعني به: قولهم بلا كيف أجل إنها لستر لا تهتكه يد الباطل البتراء، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء، وأما تعريضه بأنهم يجعلون لله انداداً بإثباتهم معه قدماء فنفي لإثباتهم صفات الكمال كلا والله إنما جعل لله أنداداً القدرية إذ جعلوا أنفسهم يخلقون ما يريدون، ويشتهون على خلاف مراد ربهم حتى قالوا: إن ما شاؤه كان وما شاء الله لا يكون، وأما أهل السنة فلم يزيدوا على أن اعتقدوا أنّ لله تعالى علماً، وقدرة، وإرادة، وسمعاً وبصراً، وكلاماً، وحياة، حسبما دلّ عليه العقل وورد به الشرع، وأي مخلص للقدري إذا سمع قوله تعالى: ﴿وسع ربنا كل شيء﴾ علماً إلا اعتقاد أنّ الله تعالى علماً أو جحد=

والله أمرنا بها ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح وتجويز أن يخلق خلقًا لا لغرض، ويؤلم لا لعوض ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق ويجسمونه بكونه مرئيًا معاينًا مدركًا بالحاسة ويثبتون له يدًا وقدمًا وجنبًا متسترين بالبلكفة، ويجعلون له أندادًا بإثباتهم معه قدماء.

﴿وجوههم مسودّة﴾ جملة في موضع الحال إن كان ترى من رؤية البصر ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾.

وقرئ يَنجي ويُنجي ﴿بمفازتهم﴾ بفلاحهم يقال: فاز بكذا إذا أفلح به وظرف بمراده منه وتفسيره المفازة قوله ﴿لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾ كأنه قيل: ما مفازتهم فقيل: لا يمسهم السوء أي: ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم، أو بسبب منجاتهم من قوله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾[1] أي: بمنجاة منه لأنّ النجاة من أعظم الفلاح وسبب منجاتهم العمل الصالح ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة، ويجوز بسبب فلاحهم لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة، ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه مفازة لأنه سببها، وقرئ بمفازاتهم على أنّ لكل متق مفازة.

فإن قُلْتَ: لا يمسهم ما محله من الإعراب على التفسيرين؟ قُلْتُ: أما على التفسير الأوّل فلا محل له لأنه كلام مستأنف، وأما على الثاني فمحله النصب على الحال.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي: هو مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية لأنّ حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي المفاتيح ولا واحد لها من لفظها وقيل: مقليد ويقال إقليد وأقاليد والكلمة أصلها فارسية.

فإن قُلْتَ: ما للكتاب العربي المبين وللفارسية! قُلْتُ: التعريب أحالها عربية كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملاً.

فإن قُلْتَ: بما اتصل قوله: ﴿والذين كفروا﴾ قُلْتُ: بقوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي: ينجي الله المتقين بمفازتهم، والذين كفروا هم الخاسرون واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها وهو مهيمن عليها فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها، وما يستحقون عليها من الجزاء وقد جعل متصلاً بما يليه على أنّ كل شيء في السموات والأرض فالله خالقه، وفاتح بابه والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون وقيل: سأل عثمان رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ فقال: يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك تفسيرها لا إله إلاّ الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير[2]، وتأويله على هذا أنّ لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السموات، والأرض من تكلم بها من المتقين أصابه والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده أولئك هم الخاسرون.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أفغير الله﴾ منصوب بأعبد و﴿تامروني﴾ اعتراض ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا، ونؤمن بإلهك أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله تامروني أعبد لأنه في معنى تعبدونني وتقولون لي: اعبد والأصل تامرونني أن أعبد فحذف أن ورفع الفعل كما في قوله: الا أيهذا الزاجري أحضر الوغى. الا تراك تقول أفغير الله تقولون لي أعبده وأفغير الله تقولون لي أعبد فكذلك أفغير الله تامرونني أن أعبده وأفغير الله تامروني أن أعبد والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ أعبد بالنصب، وقرئ تأمرونني على الأصل وتأمروني على إدغام النون أو حذفها.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

قرئ: ﴿ليحبطنّ﴾ عملك وليحبطنّ على البناء للمفعول ولنحبطنّ بالنون والياء أي: ليحبطنّ الله أو الشرك.

فإن قُلْتَ: الموحَى إليهم جماعة فكيف قال: ﴿لئن اشركت﴾ على التوحيد؟ قُلْتُ: معناه أوحي إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك وإلى الذين من قبلك مثله، وأوحي إليك وإلى كل واحد منهم لئن أشركت، كما تقول كسانا حلة أي كل واحد منا.

= آيات الله، وإطفاء نوره ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ وأما قوله: إنهم يثبتون لله تعالى يداً وقدماً ووجهاً فذلك فرية ما فيها مرية ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة، وإنما أثبت القاضي أبو بكر صفات سمعية وردت في القرآن: اليدان، والعينان، والوجه ولم يتجاوز في إثباتها ما وردت عليه في كتاب الله العزيز على أنّ غيره من أهل السنة حمل اليدين على القدرة، والنعمة، والوجه على الذات، وقد مرّ ذلك في مواضع من الكتاب، فقد = اتصف في هذه المباحثة بحال من بحث بظلفه عن حتفه، وتعريضه معتقده الفاسد لهتك ستره، وكشفه، وإنما حملني على إغلاظ مخاطبته الغضب لله تعالى ولرسوله ﷺ وأهل سننه، فإنه قد أساء عليهم الأدب ونسبهم بكذبه إلى الكذب والله الموعد.

(1) سورة آل عمران، الآية: 188.

(2) أخرجه أبو يعلى، وذكره العقيلي.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين اللامين؟ **قُلْتُ**: الأولى موطئة للقسم المحذوف والثانية لام الجواب وهذا الجواب سادّ مسدّ الجوابين أعني جوابي القسم والشرط.

فإن قُلْتَ: كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أنّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟ **قُلْتُ**: هو على سبيل الفرض والمحالات يصح فرضها لأغراض فكيف بما ليس بمحال ألا ترى إلى قوله ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا يعني: على سبيل الإلجاء ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه ووجود الصارف عنه.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: **﴿ولتكونن من الخاسرين﴾**؟ **قُلْتُ**: يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل ويحتمل ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردّة، ويجوز أن يكون غضب الله على الرسول أشدّ فلا يمهله بعد الردّة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾[1].

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾.

﴿بل الله فاعبد﴾ ردّ لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله فحذف الشرط، وجعل تقديم المفعول عوضًا منه **﴿وكن من الشاكرين﴾** على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيد ولد آدم وجوّز الفراء نصبه بفعل مضمر هذا معطوف عليه تقديره بل الله أعبد، فاعبد لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته، وقدره في نفسه حق تقديره عظمه حق تعظيمه قيل:

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾، وقرئ بالتشديد على معنى وما عظموه كنه تعظيمه، ثم نبههم على عظمته وجلاله شأنه على طريقة التخييل فقال: **﴿والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسمٰوات مطويات بيمينه﴾**، والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو وبجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو جهة مجاز وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهنّ فيقول: أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال ثم قرأ تصديقًا له ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾[2] الآية وإنما ضحك أفصح العرب ﷺ وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ولكن فهمه وقع أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبادة في مثل هذه الطريقة من التخييل، ولا ترى بابًا في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإنّ أكثره وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديمًا وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث، والتنقير حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علمًا لو قدروه حق قدره لما تخفى عليهم أنّ العلوم كلها مفتقرة إليه، وعيال عليه إذ لا يحل عقدها المؤربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو وكم آية من آيات التنزيل، وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة لأنّ من تأوّل ليس من هذا العلم في عير ولا نفير، ولا يعرف قبيلاً منه من دبير والمراد بالأرض الأرضون السبع يشهد لذلك شاهدان قوله جميعًا وقوله والسموات، ولأنّ الموضع موضع تفخيم وتعظيم فهو مقتض للمبالغة ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكده قبل مجيء الخبر ليعلم أوّل الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهن والقبضة المرة من القبض «فقبضت قبضة من أثر الرسول» والقبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف ويقال أيضًا أعطني قبضة من كذا تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر كما روي أنه نهى عن خطفة السبع[3] وكلا المعنيين محتمل والمعنى والأرضون جميعًا قبضته أي: ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة يعني: أنّ الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة كما تقول الجزور أكلة لقمان والقلة جرعته أي ذات أكلته وذات جرعته تريد أنهما لا يفيان إلا بأكلة فذة من أكلاته وجرعة فردة من جرعاته، وإذا أريد معنى القبضة فظاهر لأنّ المعنى أن الأرضين بحملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة.

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة من قرأ قبضته بالنصب! **قُلْتُ**: جعلها ظرفًا مشبهًا للمؤقت بالمبهم، مطويات من الطي الذي هو ضدّ النشر كما قال تعالى: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾[4] وعادة طاوي السجل أن يطويه

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 75.

(2) راجع الحديث رقم 1/121.

(3) أخرجه الدارمي في كتاب: الأضاحي، باب: ما لا يؤكل من السباع=

= (الحديث: 1981).

(4) سورة الأنبياء، الآية: 104.

بيمينه وقيل: قبضته ملكه بلا مدافع ولا منازع وبيمينه بقدرته، وقيل: مطويات بيمينه مفنيات بقسمه لأنه أقسم أن يفنيها ومن اشتم رائحة من علمنا هذا، فليعرض عليه هذا التأويل ليلتهي بالتعجب منه ومن قائله ثم يبكي حمية لكلام الله المعجز بفصاحته وما مني من به أمثاله، وأثقل منه على الروح وأصدع للكبد تدوين العلماء قوله واستحسانهم له وحكايته على فروع المنابر واستجلاب الاهتزاز به من السامعين، وقرئ مطويات على نظم السموات في حكم الأرض ودخولها تحت القبضة ونصب مطويات على الحال ﴿سبحانه وتعالى﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

فإن قُلْتَ: ﴿أخرى﴾ ما محلها من الإعراب؟ قُلْتُ: يحتمل الرفع والنصب أما الرفع فعلى قوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾[1] وأما النصب فعلى قراءة من قرأ نفخة واحدة والمعنى: ونفخ في الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه أخرى وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان وقرئ قيامًا ينظرون يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجاه خطب، وقيل: ينظرون ماذا يفعل بهم ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لتحيرهم.

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

قد استعار الله عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل وهذا من ذاك والمعنى: ﴿وأشرقت الأرض﴾ بما يقيمه فيها من الحق والعدل، ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه لأنه هو الحق العدل وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها ولا ترى أزين للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها وإنما يجوز فيها غير ربها ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء، والقضاء بالحق، وهو النور المذكور وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك كما تقول: أظلمت البلاد بجور فلان قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[2]. وكما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم، وقرئ وأشرقت على البناء للمفعول من شرقت بالضوء تشرق إذا امتلأت به واغتصت وأشرقها الله كما تقول: ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً و﴿الكتاب﴾ صحائف الأعمال ولكنه اكتفى باسم الجنس وقيل: اللوح المحفوظ ﴿والشهداء﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخيار وقيل: المستشهدون في سبيل الله الزمر الأفواج المتفرقة بعضها في اثر بعض، وقد تزمروا قال حتى احزألت زمر بعد زمر وقيل: في زمر الذين اتقوا هي الطبقات المختلفة الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، وقرئ نذر منكم.

فإن قُلْتَ: لم أضيف إليهم اليوم؟ قُلْتُ: أرادوا لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة، وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضًا في أوقات الشدّة.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾

﴿قالوا بلى﴾ أتونا وتلوا علينا ولكن وجبت علينا كلمة الله لأملأنّ جهنم لسوء أعمالنا كما قالوا: غلبت علينا شقوتنا وكنا قومًا ضالين فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال.

قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

اللام في المتكبرين للجنس لأنّ ﴿مثوى المتكبرين﴾ فاعل بئس وبئس فاعلها اسم معرف بلام الجنس أو مضاف إلى مثله والمخصوص بالذم محذوف تقديره فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾

﴿حتى﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية إلا أنّ جزاءها محذوف، وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف وحق موقعه ما بعد خالدين وقيل: حتى إذا جاؤها جاؤها وفتحت أبوابها أي مع فتح أبوابها وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدّم فتحها بدليل قوله: جنات عدن مفتحة

(1) سورة الحاقة، الآية: 13.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الظلم ظلمات (الحديث: 2447)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة...، باب تحريم الظلم الحديث: (57، 2579).

لهم الأبواب فلذلك جيء بالواو كأنه قيل: حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها.

فإن **قُلْتَ**: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعًا بلفظ السوء؟ **قُلْتُ**: المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين وحثها إسراعًا بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بما يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين **﴿طبتم﴾** من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا **﴿فادخلوها﴾** جعل دخول الجنة مسببًا عن الطيب والطهارة فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين لأنها دار طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل قذر فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحًا تنقى أنفسنا من دون الذنوب وتميط وضر هذه القلوب **﴿خالدين﴾** مقدرين الخلود.

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾.

﴿الأرض﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقرًا ومتبوأ، وقد أورثوها أي ملكوها وجعلوا ملوكها وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤن تشبيهًا بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضًا.

فإن **قُلْتَ**: ما معني قوله **﴿حيث نشاء﴾** وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؛ **قُلْتُ**: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿حافين﴾ محدقين من حوله: **﴿يسبحون بحمد ربهم﴾** يقولون: سبحان الله والحمد لله متلذذين لا متعبدين.

فإن **قُلْتَ**: إلام يرجع الضمير في قوله **﴿بينهم﴾**؟ **قُلْتُ**: يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلا قضاء بينهم بالحق والعدل، وأن يرجع إلى الملائكة على أن ثوابهم وإن كانوا معصومين جميعًا لا يكون على سنن واحد، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم فهو القضاء بينهم بالحق.

فإن **قُلْتَ**: قوله **﴿وقيل الحمد لله﴾** من القائل ذلك؟ **قُلْتُ**: المقضي بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق وقالوا الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة، وأعطاه الله ثواب الخائفين الذين خافوا». وعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ: كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة غافر مكية

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾.

قرئ بإمالة ألف حا وتفخيمها وبتسكين الميم وفتحها ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو اين، وكيف أو النصب بإضمار اقرأ ومنع الصرف للتانيث والتعريف أو للتعريف وأنها على زنه أعجمي نحو قابيل وهابيل التوب والثوب والأوب أخوات في معنى الرجوع والطول والفضل والزيادة يقال لفلان على فلان طول والإفضال يقال: طال عليه وتطوّل إذا تفضل.

غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾.

فإن **قُلْتَ**: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفًا وتنكيرًا والموصوف معرفة يقتضي أن يكون مثله معارف؟ **قُلْتُ**: أمّا غافر الذنب، وقابل التوب فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن أو غدًا حتى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش، وأما شديد العقاب فأمره مشكل لأنه في تقدير شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير، وقد جعله الزجاج بدلاً وفي كونه بدلاً وحده بين الصفات نبوّ ظاهر والوجه أن يقال لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة، فقد آذنت بأنّ كلها أبدال غير أوصاف ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل ولقائل أن يقول هي صفات وإنما حذف الألف، واللام من شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظًا فقد غيروا كثيرًا من كلامهم عن

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك، 2/434. وأخرجه أحمد في المسند: 6/68. وعند أبي يعلى تنزيل السجدة والزمر (الحديث: 7643) و(4764).

قوانينه لأجل الازدواج حتى قالوا ما يعرف سحادليه من عنادليه، فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع على أنّ الخليل قال في قولهم: ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل أنه على نية الألف واللام كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام، ومما سهل ذلك الأمن من اللبس وجهالة الموصوف ويجوز أن يقال قد تعمد تنكيره وإبهامه للدلالة على فرط الشدّة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار، ويجوز أن يقال هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال.

فإن قُلْتَ: ما بال الواو في قوله وقابل التوب **قُلْتُ**: فيها نكتة جليلة، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وأن يجعلها محاءة الذنوب كأن لم يذنب كأنه قال: جامع المغفرة والقبول، وروي أنّ عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام فقيل له: تتابع في هذا الشراب فقال عمر لكاتبه: أكتب من عمر إلى فلان سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ إلى قوله ﴿إليه المصير﴾[1] وختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيًا ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي وحذرني عقابه فلم يبرح يردّدها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته، فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلة فسدّدوه ووقفوه وادعوا له الله أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوانًا للشياطين عليه[2]، سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر والمراد الجدال بالباطل من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق، وإطفاء نور الله وقد دلّ على ذلك في قوله: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾.

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾.

فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها فأعظم جهاد في سبيل الله وقوله ﷺ: «إنّ جدالاً في القرآن كفر وإيراده منكرًا»[3]. وإن لم يقل إنّ الجدال تمييز منه بين جدال وجدال.

فإن قُلْتَ: من أين تسبب لقوله: ﴿فلا يغررك﴾ ما قبله؟ **قُلْتُ**: من حيث أنهم لما كانوا مشهودًا عليهم من قبل الله بالكفر والكافر لا أحد أشقى منه عند الله وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه ولا يغره إقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون فإنّ مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال ووراءه شقاوة الأبد، ثم ضرب لتكذيبهم وعداوتهم للرسل وجدالهم بالباطل ما ادّخر لهم من سوء العاقبة مثلاً ما كان من نحو ذلك من الأمم وما أخذهم به من عقابه وأحله بساحتهم من انتقامه وقرئ فلا يغرك.

كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾.

﴿الأحزاب﴾ الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم ﴿وهمت كل امّة﴾ من هذه الأمم التي هي قوم نوح الأحزاب ﴿برسولهم﴾، وقرئ برسولها ﴿ليأخذوه﴾ ليتمكنوا منه ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل ويقال للأسير أخيذ ﴿فأخذتهم﴾ يعني: أنهم قصدوا أخذه فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم ﴿فكيف كان عقاب﴾ فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك، وهذا تقرير فيه معنى التعجيب.

وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾.

﴿أنهم أصحاب النار﴾ في محل الرفع بدل من كلمة ربك أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار، ومعناه: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة، أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل، والذين كفروا قريش ومعناه كما وجب إهلاك أولئك الأمم كذلك وجب إهلاك هؤلاء لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار، قرئ كلمات.

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾.

روي أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وعن النبي ﷺ: «لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا

---

(1) سورة غافر، الآيات: 1 ـ 3.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة يزيد بن الأصم.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن، فصل في ترك المماراة في القرآن (الحديث: 2257)، وعن أبي هريرة (الحديث: 2255).

فيما خلق الله من الملائكة فإن خلقًا من الملائكة يقال له: إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع»[1]. وفي الحديث: «إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»[2]، وقيل: خلق الله العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وقيل: حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر، وقرأ ابن عباس العرش بضم العين.

فإن قُلْتَ: ما فائدة قوله ﴿**ويؤمنون به**﴾ لا يخفى على أحد أنّ حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون! **قُلْتُ:** فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: ثم كان من الذين آمنوا فأبان بذلك فضل الإيمان وفائدة أخرى وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين، ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أنّ إيمانهم وإيمان من في الأرض، وكل من غاب عن ذلك المقام سواء في أنّ إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا، وأنه منزه عن صفات الأجرام وقد روعي التناسب في قوله ويؤمنون به ﴿**ويستغفرون للذين آمنوا**﴾، كأنه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم وفيه تنبيه على أنّ الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون ادعى شيء إلى النصيحة وأبعثه على إمحاض الشفقة، وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الإيمان الأماكن فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان ولا بين سماوي وأرضي قط، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض قال الله تعالى: ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾[3] أي يقولون ﴿**ربنا**﴾ وهذا المضمر يحتمل أن يكون بيانًا ليستغفرون مرفوع المحل مثله وأن يكون حالاً.

فإن قُلْتَ: تعالى الله عن المكان فكيف صحّ أن يقال وسع كل شيء؟ **قُلْتُ:** الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى، والأصل وسع كل شيء رحمتك وعلمك ولكن ازيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة، والعلم وأخرجا منصوبين على التميز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم كانّ ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء.

فإن قُلْتَ: قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتملاً على حديثهما جميعًا، وما ذكر إلا الغفران وحده **قُلْتُ:** معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك وسبيل الله سبيل الحق التي نهجها لعباده، ودعا إليها.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾.

﴿**إنك انت العزيز الحكيم**﴾ اي الملك الذي لا يغلب وانت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئًا إلا بداعي الحكمة، وموجب حكمتك أن تفي بوعدك.

وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾.

﴿**وقهم السيآت**﴾ اي: العقوبات أو جزاء السيآت فحذف المضاف على أن السيآت هي الصغائر، أو الكبائر المتوب عنها والوقاية منها التكفير أو قبول التوبة.

فإن قُلْتَ: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة والله لا يخلف الميعاد.

فإن قُلْتَ: هذا بمنزلة الشفاعة وفائدته زيادة الكراهة والثواب، وقرئ جنة عدن وصلح بضم اللام والفتح أفصح يقال: صلح فهو صالح وصلح فهو صليح وذريتهم اي ينادون يوم القيامة، فيقال لهم:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾.

﴿**لمقت الله اكبر**﴾ والتقدير لمقت الله انفسكم اكبر من مقتكم انفسكم، فاستغنى بذكرها مرة و ﴿**إذ تدعون**﴾ منصوب بالمقت الأوّل والمعنى أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت انفسكم الأمارة بالسوء، والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأتون قبوله وتختارون عليه الكفر أشدّ مما تمقتونهن اليوم، وانتم في النار إذ أوقعتكم فيها باتباعكم هواهنّ، وعن الحسن: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا انفسهم فنودوا لمقت الله، وقيل: معناه لمقت الله إياكم الآن اكبر من مقت بعضكم لبعض كقوله تعالى: ﴿يكفر بعضكم ويلعن بعضكم بعضًا﴾، وإذ تدعون تعليل والمقت أشدّ البغض فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه.

---

(1) قال الزيلعي غريب، ونسبه إلى تفسير الثعالبي، 3/218.

(2) لم يخرجه الزيلعي.

(3) سورة الشورى، الآية: 5.

قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾.

﴿اثنتين﴾ إماتتين وإحياءتين، أو موتتين وحياتين وأراد بالإماتتين خلقهم أمواتًا أوّلاً وإماتتهم عند انقضاء آجالهم وبالإحياءتين الإحياءة الأولى وإحياءة البعث وناهيك تفسيرًا لذلك قوله تعالى: ﴿وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾[1] وكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن يسمي خلقهم أمواتًا إماتة؟ قُلْتُ: كما صح أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وقولك للحفار ضيق فم الركية ووسع أسفلها وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معًا على المصنوع الواحد من غير ترجح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة فإذا اختار الصانع أحد الجائزين، وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر فجعل صرفه عنه كنقله منه ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياآت وهو خلاف ما في القرآن إلا أن يتحمل، فيمجل إحداها غير معتد بها أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور وتستمر بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها، ويعدّهم في المستثنين من الصعقة في قوله تعالى: ﴿إلاّ من شاء الله﴾[2].

فإن قُلْتَ: كيف تسبب هذا لقوله تعالى ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾؟ قُلْتُ: قد أنكروا البعث، فكفروا وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى لأن من لم يخش العاقبة تخرق في المعاصي فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم ﴿فهل إلى خروج﴾ أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء ﴿من سبيل﴾ قط أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيرًا، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله:

ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾.

﴿ذلكم﴾ أي ذلكم الذي أنتم فيه وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فالحكم لله﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد وقوله: ﴿العلي الكبير﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة وعلى أن عقاب مثله لا يكون إلا كذلك وهو الذي يطابق كبرياءه ويناسب جبروته، وقيل: كان الحرورية أخذوا قولهم لا حكم إلا لله من هذا.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾.

﴿يريكم آياته﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها، والرزق المطر لأنه سببه ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه، ثم قال للمنيبين:

فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾.

﴿فادعوا الله﴾ أي اعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ من الشرك وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم.

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾.

﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح﴾ ثلاثة أخبار لقوله هو مترتبة على قوله: ﴿الذي يريكم﴾، أو أخبار مبتدأ محذوف وهي مختلفة تعريفًا وتنكيرًا وقرئ: ﴿رفيع الدرجات﴾ بالنصب على المدح ورفيع الدرجات كقوله تعالى: ﴿ذي المعارج﴾[3] وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش وهي دليل على عزته وملكوته. وعن ابن جبير: سماء فوق سماء العرش فوقهنّ، ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعلوّ سلطانه كما أنّ ذا العرش عبارة عن ملكه وقيل: هي درجات ثوابه التي ينزلها أولياءه في الجنة ﴿الروح من أمره﴾ الذي هو سبب الحياة من أمره يريد الوحي الذي هو أمر بالخير وبعث عليه، فاستعار له الروح كما قال تعالى: ﴿أوَمن كان ميتًا فأحييناه﴾[4] ﴿لينذر﴾ الله أو الملقى عليه وهو الرسول أو الروح، وقرئ لتنذر أي لتنذر الروح لأنها تؤنث أو على خطاب الرسول، وقرئ لينذر يوم التلاق على البناء للمفعول ﴿ويوم التلاق﴾ يوم القيامة لأنّ الخلائق تلتقي فيه، وقيل: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض وقيل: المعبود والعابد.

يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾.

﴿يوم هم بارزون﴾ ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل، أو أكمة أو بناء لأنّ الأرض بارزة قاع صفصف ولا عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث يحشرون عراة حفاة غرلاً[5] ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ أي من أعمالهم وأحوالهم، وعن ابن مسعود

---

(1) سورة البقرة، الآية: 28.

(2) سورة الزمر، الآية: 68.

(3) سورة المعارج، الآية: 3.

(4) سورة الأنعام، الآية: 122.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الحشر (الحديث رقم: 6527)، ومسلم في كتاب: الجنة، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم =

رضي الله عنه لا يخفى عليه منهم شيء.

فإن قُلْتُ: قوله لا يخفى على الله منهم شيء بيان وتقرير لبروزهم والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا فما معناه؟ قُلْتُ: معناه: أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أنّ الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه قال الله تعالى: ﴿ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون﴾[1] وقال تعالى: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾[2] وذلك لعلمهم أنّ الناس يبصرونهم وظنهم أنّ الله لا يبصرهم وهو معنى قوله: ويبرزوا لله الواحد القهار ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ حكاية لما يسئل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به، ومعناه: أنه ينادي مناد فيقول: ﴿لمن الملك﴾ اليوم فيجيبه أهل المحشر ﴿لله الواحد القهار﴾، وقيل: يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأوّل ما يتكلم به أن ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.

ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾.

﴿اليوم تجزى كل نفس﴾ الآية فهذا يقتضي أن يكون المنادي هو المجيب، لما قرّر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عدد نتائج ذلك وهي أنّ كل نفس تجزى ما كسبت وأنّ الظلم مأمون لأنّ الله ليس بظلام للعبيد وأن الحساب لا يبطئ لأن الله لا يشغله حساب عن حساب فيحاسب الخلق كله في وقت واحد، وهو أسرع الحاسبين وعن ابن عباس رضي الله عنهما إذا أخذ في حسابهم لم يقل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾.

﴿الآزفة﴾: القيامة سميت بذلك لأزوفها أي لقربها ويجوز أن يريد بيوم الآزفة وقت الخطة الآزفة وهي مشارفتهم دخول النار فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها، فتلتصق بحناجرهم فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا ولكنها معترضة كالشجا كما قال تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾[3].

فإن قُلْتُ: ﴿كاظمين﴾ بم انتصب! قُلْتُ: هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى، لأن المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ويجوز أن يكون حالاً عن القلوب وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر وإنما جمع الكاظم جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال تعالى: ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾[4] وقال: ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾[5] وتعضده قراءة من قرأ كاظمون ويجوز أن يكون حالاً عن قوله: ﴿وأنذرهم﴾[6] أي وأنذرهم مقدّرين أو مشارفين الكظم كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾. الحميم المحب المشفق. والمطاع مجاز في المشفع لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا لمن فرقك.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله تعالى: ﴿ولا شفيع يطاع﴾؟ قُلْتُ: يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معًا وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة كما تقول ما عندي كتاب يباع فهو محتمل نفي البيع وحده وأن عندك كتابًا إلا أنك لا تبيعه ونفيهما جميعًا وأن لا كتاب عندك ولا كونه مبيعًا، ونحوه ولا ترى الضب بها ينجحر يريد نفي الضب وانجحاره.

فإن قُلْتَ: فعلى أي الاحتمالين يجب حمله! قُلْتُ: على نفي الأمرين جميعًا من قبل أن الشفعاء هم أولياء الله، وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه الله ورضيه وأنّ الله لا يحب الظالمين، فلا يحبونهم وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم قال الله تعالى: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ وقال: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾، ولأنّ الشفاعة لا تكون إلا في زيادة التفضل وأهل التفضل وزيادته وإنما هم أهل الثواب بدليل قوله تعالى: ﴿ويزيدهم من فضله﴾[7] وعن الحسن رضي الله عنه والله ما يكون لهم شفيع البتة.

فإن قُلْتَ: الغرض حاصل بذكر الشفيع، ونفيه فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها؟ قُلْتُ: في ذكرها فائدة جليلة وهي أنها ضمت إليه ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة لأنّ الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف بيانه أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت ما لي فرس أركبه ولا معي سلاح أحارب به فقد جعلت عدم الفرس، وفقد السلاح علة مانعة والركوب والمحاربة كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معي فكذلك قوله: ﴿لا شفيع يطاع﴾ معناه: كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع فكان ذكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأتيه بعدم الشفيع وضعًا لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه.

يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾.

= القيامة (الحديث رقم: 56 ـ 2859).

(1) سورة فصلت، الآية: 22.

(2) سورة النساء، الآية: 108.

(3) سورة الملك، الآية: 27.

(4) سورة يوسف، الآية: 4.

(5) سورة الشعراء، الآية: 4.

(6) سورة مريم، الآية: 39.

(7) سورة النساء، الآية: 173.

الخائنة صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى: المعافاة والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين لأنّ قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾[1] لا يساعد عليه.

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾! **قُلْتُ**: هو خبر من أخبار هو في قوله: ﴿هو الذي يريكم﴾[2] مثل ﴿يلقي الروح﴾ ولكن يلقي الروح قد علل بقوله: ﴿لينذر يوم التلاق﴾ ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق﴾ إلى قوله: ﴿ولا شفيع يطاع﴾[3] فبعد لذلك عن أخواته.

وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾.

﴿والله يقضي بالحق﴾ يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلا بالحق والعدل لاستغنائه عن الظلم، وآلهتكم لا يقضون بشيء وهذا تهكم بهم لأنّ ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي **﴿إنّ الله هو السميع البصير﴾** تقرير لقوله: **﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾** ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله وأنها لا تسمع ولا تبصر، وقرئ يدعون بالتاء والياء.

۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾.

هم في **﴿كانوا هم أشدّ منهم﴾** فصل.

فإن قُلْتَ: من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين فما باله واقعًا بين معرفة وغير معرفة وهو أشدّ منهم **قُلْتُ**: قد ضارع المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام فأجرى مجراها، وقرئ منكم وهي في مصاحف أهل الشام **﴿وآثارًا﴾** يريد حصونهم وقصورهم وعددهم وما يوصف بالشدة من آثارهم، أو أرادوا أكثر آثاراً كقوله متقلدًا سيفًا ورمحًا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾.

﴿وسلطان مبين﴾ وحجة ظاهرة وهي المعجزات فقالوا: هو ساحر كذاب فسموا السلطان المبين سحرًا وكذابًا.

فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾.

﴿فلما جاءهم بالحق﴾ بالنبوّة.

فإن قُلْتَ: أما كان قتل الأبناء، واستحياء النساء من قبل خيفة أو يولد المولود الذي أنذرته الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ **قُلْتُ**: قد كان ذلك القتل حينئذ وهذا قتل آخر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: **﴿قالوا اقتلوا﴾** أعيدوا عليهم القتل كالذي كان، أو لا يريد أن هذا قتل غير القتل الأوّل **﴿في ضلال﴾** في ضياع وذهاب باطلاً لم يجد عليهم يعني: أنهم باشروا قتلهم، أو لا فما أغنى عنهم ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه فما يغني عنهم هذا القتل الثاني وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث موسى، وأحس بأنه قد وقع أعاده عليهم غيظًا وحنقًا وظنًا منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى وما علم أنّ كيده ضائع في الكرتين جميعًا.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾.

﴿ذروني اقتل موسى﴾ كانوا إذا همّ بقتله كفوه بقولهم ليس بالذي تخافه وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلا ساحرًا مثله ويقولون إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك قد عجزت عن معاوضته بالحجة والظاهر أنّ فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبيّ وأنّ ما جاء به آيات وما هو بسحر ولكن الرجل كان فيه خب وجربزة، وكان قتالاً سفاكًا للدماء في أهون شيء فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك وقوله **﴿وليدع ربّه﴾** شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه وكان قوله ذروني أقتل موسى تمويهًا على قومه وإيهامًا أنهم هم الذين يكفونه وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع **﴿أن يبدل دينكم﴾** أن يغير ما أنتم عليه وكانوا يعبدونه، ويعبدون الأصنام بدليل قوله: **﴿ويذرك وآلهتك﴾** والفساد في الأرض: التفانن والتهارج الذي يذهب معه الأمن، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش ويهلك الناس قتلاً وضياعًا كأنه قال: إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه وفي مصاحف أهل الحجاز وأن يظهر بالواو، ومعناه: إني أخاف فساد دينكم ودنياكم معًا. وقرئ يظهر من أظهر والفساد منصوب أي: يظهر موسى الفساد، وقرئ يظهر بتشديد الظاء والهاء من تظهر بمعنى تظاهر أي: تتابع وتعاون.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ

(1) سورة غافر، الآية: 19.
(2) سورة غافر، الآية: 13.
(3) سورة غافر، الآية: 18.

﴿يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ٢٧﴾.

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله قال لقومه: ﴿إني عذت﴾ بالله الذي هو ربي وربكم وقوله: ﴿وربكم﴾ فيه بعث لهم عن أن يقتدوا به، فيعوذوا بالله عياذه ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه وقال: ﴿من كل متكبر﴾ لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض فيكون أبلغ وأراد بالتكبر الاستكبار عن الإذعان للحق وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه، ومهانة نفسه وعلى فرط ظلمه وعسفه وقال: ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر، والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها وعذت ولذت أخوان، وقرئ: عت بالإدغام.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ٢٨﴾.

﴿رجل مؤمن﴾ وقرئ ﴿رجل﴾ بسكون الجيم كما يقال عضْد في عضُد، وكان قبطيًا ابن عم لفرعون آمن بموسى سرًا وقيل: كان إسرائيليًا و ﴿من آل فرعون﴾ صفة لرجل أو صلة ليكتم أي يكتم إيمانه من آل فرعون، واسمه سمعان أو حبيب وقيل: خربيل أو حزبيل والظاهر أنه كان من آل فرعون فإنّ المؤمنين من بني إسرائيل لم يقلوا، ولم يعزوا والدليل عليه قول فرعون أبناء الذين آمنوا معه وقول المؤمن فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا دليل ظاهر على أنه يتنصح لقومه ﴿أن يقول﴾ لأن يقول وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله: ﴿ربي الله﴾ مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة، ولكن بينات عدّة من عند من نسب إليه الربوبية وهو ربكم لا ربه وحده وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به وليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم ولك أن تقدر مضافًا محذوفًا أي وقت أن يقول، والمعنى: أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره وقوله: ﴿بالبينات﴾ يريد بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقًا فـ ﴿إن يك كاذبًا فعليه كذبه﴾ أي يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره ﴿وإن يك صادقًا يصبكم بعض﴾ ما يعدكم إن تعرّضتم له.

فإن قُلْتَ: لم قال بعض ﴿الذي يعدكم﴾ وهو نبي صادق لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قُلْتُ: لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومناكريه إلا أن يلاوصهم ويداريهم ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ويأتيهم من جهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال: وإن يك صادقًا يصبكم بعض الذي يعدكم وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ليسمعوا منه ولا يردّوا عليه وذلك أنه حين فرضه صادقًا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أردفه يصبكم بعض الذي يعدكم ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا فضلاً أن يتعصب له، أو يرمي بالحصا من ورائه وتقديم الكاذب على الصادق أيضًا من هذا القبيل، وكذلك قوله: إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب.

فإن قُلْتَ: فعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل وأنشد بيت:

لبيد تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

قُلْتُ: إن صحت الرواية عنه فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقي كان أجفى من أن يفقه ما أقول له ﴿إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ يحتمل أنه إن كان مسرفًا كذابًا خذله الله، وأهلكه ولم يستقم له أمر فيتخلصون منه وأنه لو كان مسرفًا كذابًا لما هداه الله للنبوّة ولما عضده بالبينات، وقيل: ما تولى أبو بكر من رسول الله ﷺ كان أشدّ من ذلك طاف ﷺ بالبيت، فلقوه حين فرغ فأخذوا بمجامع ردائه فقالوا له: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا فقال: «أنا ذاك» فقام أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فالتزمه من ورائه وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟» وقد جاءكم بالبينات من ربكم رافعًا صوته بذلك وعيناه تسفحان حتى أرسلوه[1] وعن جعفر الصادق: أنّ مؤمن آل فرعون قال ذلك سرًا وأبو بكر قاله ظاهرًا.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾.

﴿ظاهرين في الأرض﴾ في أرض مصر عالين فيها على بني إسرائيل يعني: أنّ لكم ملك مصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرّضوا لبأس الله وعذابه فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم ولا يمنعكم منه أحد وقال: ﴿ينصرنا﴾ وجاءنا لأنه منهم في القرابة، وليعلمهم بأنّ الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ أي ما أشير عليكم برأي

---

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: عتب النبي ﷺ (الحديث رقم: 6567).

إلا بما أرى من قتله يعني: لا أستصوب إلا قتله وهذا الذي تقولونه غير صواب ﴿وما أهديكم﴾ بهذا الرأي ﴿إلا سبيل الرشاد﴾ يريد سبيل الصواب والصلاح أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أدّخر منه شيئًا ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر يعني: أنّ لسانه، وقلبه متواطئان على ما يقول وقد كذب فقد كان مستشعرًا للخوف الشديد من جهة موسى، ولكنه كان يتجلد ولولا استشعاره لم يستشر أحدًا ولم يقف الأمر على الإشارة. وقرئ الرشاد فعال من رشد بالكسر كعلام، أو من رشد بالفتح كعباد وقيل: وهو من أرشد كجبار من أجبر وليس بذلك لأنّ فعالاً من أفعل لم يجئ إلا في عدّة أحرف نحو دراك وسآر وقصار وحبار، ولا يصح القياس على القليل ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشد كعواج وبتات غير منظور فيه إلى فعل.

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾

﴿مثل يوم الأحزاب﴾ مثل أيامهم لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود، ولم يلبس أنّ كل حزب منهم كان له يوم دمار اقتصر على الواحد من الجمع لأنّ المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله: ﴿كلوا في بعض بطنكم تعفوا﴾ وقال الزجاج: مثل يوم حزب حزب ودأب هؤلاء دؤبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي وكون ذلك دائبًا دائمًا منهم لا يفترون عنه ولا بدّ من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم.

فإن قُلْتَ: بم انتصب مثل الثاني! قُلْتُ: بأنه عطف بيان لمثل الأوّل لأنّ آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح ولو قلت أهلك الله الأحزاب قوم نوح وعاد وثمود لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام فسرى ذلك الحكم إلى أوّل ما تناولته الإضافة.

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾

﴿وما الله يريد ظلمًا للعباد﴾ يعني: أن تدميرهم كان عدلاً وقسطًا لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾[1] حيث جعل المنفي إرادة الظلم لأنّ من كان عن إرادة الظلم بعيدًا كان عن الظلم أبعد وحيث نكر الظلم كأنه نفى أن يريد ظلمًا مّا لعباده ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾[2] أي لا يريد لهم أن يظلموا يعني أنه دمّرهم لأنهم كانوا ظالمين.

وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾

التنادي ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف من قوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة﴾، ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور. وقرئ بالتشديد وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى: ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه﴾، وعن الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هربًا فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفًا فبينا هم يموج بعضهم في بعض إذ سمعوا مناديًا أقبلوا إلى الحساب.

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

﴿تولون مدبرين﴾ عن قتادة منصرفين عن موقف الحساب إلى النار وعن مجاهد فارّين عن النار غير معجزين.

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام وقيل: هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيًا عشرين سنة وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عمر إلى زمنه وقيل: هو فرعون آخر وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات، فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين ﴿حتى إذا﴾ قبض ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ حكمًا من عند أنفسكم من غير برهان، وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه وليس قولهم لن يبعث الله من بعده رسولاً بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته، وقرئ ألن يبعث الله على إدخال همزة الاستفهام على حرف النفي كان بعضهم يقرّر بعضًا بنفي البعث، ثم قال: ﴿كذلك يضل الله﴾ أي مثل هذا الخذلان المبين يخذل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه.

ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

﴿الذين يجادلون﴾ بدل من من هو مسرف.

فإن قُلْتَ: كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد؟ قُلْتُ: لأنه لا يريد مسرفًا واحدًا فكأنه قال: كل مسرف.

فإن قُلْتَ: فما فاعل ﴿كبر﴾؟ قُلْتُ: ضمير من هو مسرف.

فإن قُلْتَ: أما قلت هو جمع ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون! قُلْتُ: بلى هو جمع في المعنى، وأما اللفظ فموحد

(1) سورة فصلت، الآية: 46.

(2) سورة الزمر، الآية: 7.

فحمل البدل على معناه والضمير الراجع إليه على لفظه وليس ببدع أن يحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى وله نظائر، ويجوز أن يرفع الذين يجادلون على الابتداء ولا بدّ في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر تقديره جدال الذين يجادلون كبر مقتًا ويحتمل أن يكون الذين يجادلون مبتدأ وبغير سلطان أتاهم خبرًا وفاعل كبر قوله ﴿كذلك﴾ أي كبر مقتًا مثل ذلك الجدال ويطبع الله كلام مستأنف ومن قال: كبر مقتًا عند الله جدالهم، فقد حذف الفاعل والفاعل لا يصح حذفه وفي كبر مقتًا ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم والشهادة على خروجه من حدّ إشكاله من الكبائر، وقرئ سلطان بضم اللام وقرئ قلب بالتنوين ووصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه مركزهما ومنبعهما كما تقول: رأت العين وسمعت الأذن ونحوه قوله عز وجل: ﴿فإنه آثم قلبه﴾[1] وإن كان الآثم هو الجملة، ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي على كل ذي قلب متكبر تجعل الصفة لصاحب القلب.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾.

قيل: الصرح البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

و ﴿أسباب السموات﴾ طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها وكل ما أداك إلى شيء، فهو سبب إليه كالرشاء ونحوه.

فإن قُلْتَ: ما فائدة هذا التكرير ولو قيل لعلي أبلغ أسباب السموات لأجزا! قُلْتُ: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيمًا لشأنه فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها، ثم أوضحها ولأنه لما كان بلوغها أمرًا عجيبًا أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان ثم أوضحه. وقرئ فأطلع بالنصب على جواب الترجي تشبيهًا للترجي بالتمني، ومثل ذلك التزيين وذلك الصدّ ﴿زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل﴾ والمزين إما الشيطان بوسوسته كقوله تعالى: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾، أو الله تعالى على وجه التسبيب لأنه مكن الشيطان وأمهله ومثله: ﴿زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾، وقرئ وزين له سوء عمله على البناء للفاعل والفعل لله عزّ وجلّ دلّ عليه قوله إلى إلّه موسى وصدّ بفتح الصاد وضمها وكسرها على نقل حركة العين إلى الفاء كما قيل: قيل، والتباب: الخُسران والهلاك وصدّ مصدر معطوف على سوء عمله وصدّوا هو وقومه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

قال: ﴿أهدكم سبيل الرشاد﴾ فأجمل لهم ثم فسّر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها لأنّ الإخلاد إليها هو أصل الشر كله ومنه يتشعب جميع ما يؤدّي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها وأنها هي الوطن والمستقر وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين دعوة إلى دين الله الذي ثمرته التجارة ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار وحذروا وأنذر واجتهد في ذلك واحتشد لا جرم أنّ الله استثناه من آل فرعون وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين وهو قوله تعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾[2] وفي هذا أيضًا دليل بين على أنّ الرجل كان من آل فرعون والرشاد نقيض الغيّ، وفيه تعريض شبيه بالتصريح أنّ ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغيّ.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فلا يجزى إلا مثلها﴾ لأنّ الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة لأنها ظلم وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة لأنها فضل، قرئ يدخلون ويدخلون ﴿بغير حساب﴾ واقع في مقابلة إلا مثلها يعني أنّ جزاء السيئة لها حساب وتقدير لئلا يزيد على الاستحقاق فأما جزاء العمل الصالح، فبغير تقدير وحساب بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة.

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾.

فإن قُلْتَ: لم كرر نداء قومه، ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ قُلْتُ: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة، وفيه أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعي بذلك أن لا يتهموه فإن سرورهم سروره وغمهم غمه وينزلوا على تنصيحه لهم كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه يا أبت، وأما المجيء بالواو العاطفة فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال دعاه إلى كذا ودعاه له كما تقول هداه إلى الطريق وهداه له.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 283.

(2) سورة غافر، الآية: 45.

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾.

﴿ما ليس لي به علم﴾ أي بربوبيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلهًا.

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾.

﴿لا جرم﴾ سياقه على مذهب البصريين أن يجعل لا ردًا لما دعاه إليه قومه وجرم فعل بمعنى حق وأنّ مع ما في حيزه فاعله أي حق ووجب بطلان دعوته، أو بمعنى كسب من قوله تعالى: **﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾**[1] أي كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته على معنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته، ويجوز أن يقال أن لا جرم نظير لا بدّ فعل من الجرم وهو القطع كما أن بدا فعل من التبديد وهو التفريق فكما أن معنى لا بد أنك تفعل كذا بمعنى: لا بعد لك من فعله فكذلك لا جرم أن لهم النار أي لا قطع لذلك بمعنى: أنهم أبدًا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام أي: لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقًا وروي عن العرب لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء بزنة بد وفعل وفعل أخوان كرشد ورشد وعدم وعدم **﴿ليس له دعوة﴾** معناه أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط أي من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته، ثم يدعو العباد إليها إظهارًا لدعوة ربهم وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعي الربوبية، ولو كان حيوانًا ناطقًا لضجّ من دعائكم وقوله: **﴿في الدنيا ولا في الآخرة﴾** يعني أنه في الدنيا جماد لا يستطيع شيئًا من دعاء وغيره وفي الآخرة إذا أنشاه الله حيوانًا تبرأ من الدعاة إليه ومن عبدته وقيل: معناه ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة، أو دعوة مستجابة جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة فيها كلا دعوة أو سميت الاستجابة باسم الدعوة كما سمي الفعل المجازى عليه باسم الجزاء في قولهم كما تدين تدان قال الله تعالى: **﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء﴾**[2] **﴿المسرفين﴾** وعن قتادة المشركين وعن مجاهد السفاكين للدماء بغير حلها وقيل: الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون.

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌۢ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾.

وقرئ: **﴿فستذكرون﴾** أي فسيذكر بعضكم بعضًا **﴿وأفوض أمري إلى الله﴾** لأنهم توعدوه.

فَوَقَىٰهُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾.

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم وقيل: نجا مع موسى **﴿وحاق بآل فرعون﴾** ما هموا به من تعذيب المسلمين، ورجع عليهم كيدهم.

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾.

﴿النار﴾ بدل من سوء العذاب أو خبر مبتدأ محذوف كان قائلاً قال: ما سوء العذاب، فقيل: هو النار أو مبتدأ خبره. **﴿يعرضون عليها﴾** وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها وعرضهم عليها إحراقهم بها يقال عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به، وقرئ: **﴿النار﴾** بالنصب وهي تعضد الوجه الأخير، وتقديره يدخلون النار يعرضون عليها ويجوز أن ينتصب على الاختصاص **﴿غدوًا وعشيًا﴾** في هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم فإمّا أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب أو ينفس عنهم، ويجوز أن يكون غدوًا وعشيًا عبارة عن الدوام هذا ما دامت الدنيا فإذا قامت الساعة قيل لهم: **﴿ادخلوا﴾** يا **﴿آل فرعون أشدّ﴾** عذاب جهنم وقرئ: **﴿ادخلوا آل فرعون﴾** أي يقال لخزنة جهنم أدخلوهم.

فإن **قُلْتَ**: قوله: **﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾** معناه: أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين كقول العرب من حفر لأخيه جبًا وقع فيه منكبًا فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم لم يكن مكرهم راجعًا عليهم لأنهم لا يعذبون بجهنم **قُلْتُ**: يجوز أن يهم الإنسان بأن يغرق قومًا، فيحرق بالنار ويسمى ذلك حيقًا لأنه همّ بسوء فأصابه ما يقع عليه اسم السوء ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه، ويجوز أن يهمّ فرعون لما سمع إنذار المسلمين بالنار وقول المؤمن وأن المسرفين هم أصحاب النار فيفعل نحو ما فعل نمروذ ويعذبهم بالنار فحاق به مثل ما أضمره، وهمّ بفعله ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر، وانكر وقت يتحاجون.

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَـٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾.

﴿تبعًا﴾ تباعًا كخدم في جمع خادم، أو ذوي تبع أي اتباع أو وصفًا بالمصدر، وقرئ كلاً على التأكيد لاسم إن وهو معرفة والتنوين عوض من المضاف إليه يريد إنا كلنا أو كلنا فيها.

---

(1) سورة المائدة، الآية: 2.

(2) سورة الرعد، الآية: 14.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون كلاً حالاً قد عمل فيها فيها؟ قُلْتُ: لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمة كما يعمل في الظرف متقدمًا تقول: كل يوم لك ثوب، ولا تقول قائمًا في الدار زيد.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾.

﴿قد حكم بين العباد﴾ قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾.

﴿لخزنة جهنم﴾ للقوام بتعذيب أهلها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل الذين في النار لخزنتها! قُلْتُ: لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعًا، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعرًا من قولهم بئر جهنام بعيدة القعر وقولهم في النابغة جهنام تسمية بها لزعمهم أنه يلقي الشعر على لسان المنتسب إليه، فهو بعيد الغور في علمه بالشعر كما قال أبو نواس في خلف الأحمر: فليذمّ من العياليم الخسف، وفيها أعني: الكفار وأطغاهم فلعلّ الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله تعالى فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم.

قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾.

﴿أولم تك تاتيكم﴾ إلزام للحجة وتوبيخ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات **﴿قالوا فادعوا﴾** أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين كون المشفوع له غير ظالم، والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة ولكن الدلالة على الخيبة، فإنّ الملك المقرّب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكافر.

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾.

﴿في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ أي في الدنيا والآخرة يعني: أنه يغلبهم في الدارين جميعًا بالحجة والظفر على مخالفيهم وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحانًا من الله، فالعاقبة لهم ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب يريد الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمّة محمد ﷺ لتكونوا شهداء على الناس واليوم الثاني بدل من الأوّل يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة، ولكنها لا تنفع لأنها باطلة وأنهم لو جاؤا بمعذرة لم تكن مقبولة لقوله تعالى: **﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾**[1].

يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾.

﴿ولهم اللعنة﴾ البعد من رحمة الله **﴿ولهم سوء الدار﴾** أي سوء دار الآخرة وهو عذابها، وقرئ تقوم ولا تنفع بالتاء والياء يريد بالهدى جميع ما آتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾.

﴿وأورثنا﴾، وتركنا على بني إسرائيل من بعده **﴿الكتاب﴾** أي التوراة.

هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾.

﴿هدى وذكرى﴾ إرشادًا وتذكرة وانتصابهما على المفعول له أو على الحال وأولو الألباب المؤمنون به العاملون بما فيه.

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾.

﴿فاصبر إنّ وعد الله حق﴾ يعني أنّ نصرة الرسل في ضمان الله وضمان الله لا يخلف واستشهد بموسى، وما آتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده وإبقاء آثار هداه في بني إسرائيل والله ناصرك كما نصرهم ومظهرك على الدين كله ومبلغ ملك أمّتك مشارق الأرض ومغاربها، فاصبر على ما يجرّعك قومك من الغصص فإن العاقبة لك وما سبق به وعدى من نصرتك وإعلاء كلمتك حق وأقبل على التقوى واستدرك الفرطات بالاستغفار ودم على عبادة ربك والثناء عليه **﴿بالعشي والإبكار﴾** وقيل: هما صلاتا العصر والفجر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾.

﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ إلا تكبر وتعظم وهو إرادة التقدّم والرياسة وأن لا يكون أحد فوقهم ولذلك عادوك، ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدّمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة أو إرادة أن تكون لهم النبوّة دونك حسدًا وبغياً ويدل عليه قوله تعالى: **﴿لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾**[2] أو إرادة دفع الآيات بالجدال **﴿ما هم ببالغيه﴾** اي ببالغي موجب الكبر ومقتضيه، وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوّة أو دفع الآيات، وقيل: المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون يخرج صاحبنا المسيح بن داود يريدون الدّجال ويبلغ

(1) سورة المرسلات، الآية: 36.

(2) سورة الأحقاف، الآية: 11.

سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك فسمى الله تمنيهم ذلك كبرًا ونفى أن يبلغوا متمناهم ﴿فاستعذ بالله﴾ فالتجئ إليه من كيد من يحسدك، ويبغي عليك ﴿إنه هو السميع﴾ لما تقول ويقولون ﴿البصير﴾ بما تعمل ويعملون فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم.

لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾.

فإن قُلْتَ:كيف اتصل قوله: ﴿لخلق السموات والأرض﴾ بما قبله؟ قُلْتُ:إن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها بأنها خلق عظيم لا يقادر قدره وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر وهو ابلغ من الاستشهاد بخلق مثله ﴿لا يعلمون﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتاملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾.

ضرب الأعمى والبصير مثلاً للمحسن والمسيء، وقرئ ﴿يتذكرون﴾ بالياء والتاء والتاء أعم.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿لا ريب فيها﴾ لا بدّ من مجيئها ولا محالة وليس بمرتاب فيها لأنه لا بدّ من جزاء ﴿لا يؤمنون﴾ لا يصدقون بها.

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾.

﴿ادعوني﴾ اعبدوني والدعاء بمعنى: العبادة كثير في القرآن ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ والاستجابة الإثابة وفي تفسير مجاهد: اعبدوني أثبكم. وعن الحسن: وقد سئل عنها اعموا وأبشروا فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله وعن الثوري أنه قيل له: ادع الله، فقال إن ترك الذنوب هو الدعاء وفي الحديث: «إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[1]. وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ الدعاء هو العبادة[2] وقرأ هذه الآية ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ويريد بعبادتي دعائي لأنّ الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها يصدقه قول ابن عباس رضي الله عنهما أفضل العبادة الدعاء[3] وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبيًا مرسلاً كان يقول: لكل نبي أنت شاهدي على خلقي وقال: لهذه الأمة لتكونوا شهداء على الناس وكان يقول ما عليك من حرج وقال لنا: ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج وكان يقول: ادعني أستجب لك وقال: لنا ادعوني أستجب لكم، وعن ابن عباس: وحدوني أغفر لكم وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ثم للعبادة بالتوحيد ﴿دلخرين﴾ صاغرين.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾.

﴿مبصرًا﴾: من الإسناد المجازي لأنّ الإبصار في الحقيقة لأهل النهار.

فإن قُلْتَ:لم قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال، وهلا كانا حالين أو مفعولاً لهما فيراعى حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى لأنّ كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي ولو قيل: ساكنًا والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة الا ترى إلى قولهم ليل ساج وساكن لا ريح فيه لم تتميز الحقيقة من المجاز.

فإن قُلْتَ: فلو قيل ولكن اكثرهم فلا يتكرر نكر الناس! قُلْتُ: في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه كقوله إن الإنسان لكفور إن الإنسان لربه لكنود إن الإنسان لظلوم كفار ﴿ذلكم﴾ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ أخبار مترادفة أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمتنع عليه شيء والوحدانية لا ثاني له ﴿فانى تؤفكون﴾، فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان.

كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾.

ثم نكر أنّ كل من جحد بآيات الله، ولم يتاملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العاقبة أفك كما أفكوا، وقرئ خالق كل شيء نصبًا على الاختصاص، وتؤفكون بالتاء والياء هذه أيضًا دلالة أخرى على تمييزه بأفعال خاصة وهي أنه جعل الأرض مستقرًا.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: (45) (الحديث: 2926).

(2) تقدم في سورة: مريم.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك: 1/491.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿والسماء بناء﴾ أي قبة ومنه أبنية العرب لمضاربهم لأنّ السماء في منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض ﴿فأحسن صوركم﴾، وقرئ بكسر الصاد والمعنى واحد قيل لم يخلق حيوانًا أحسن صورة من الإنسان وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم كقوله تعالى: ﴿في أحسن تقويم﴾[1].

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾.

﴿فادعوه﴾ فاعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء قائلين ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما من قال: لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين[2].

۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾.

فإن قُلْتَ: أما نهي رسول الله ﷺ عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البينات من ربه قُلْتُ: بلى ولكن البينات لما كانت مقوّية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة ذكرها نحو قوله تعالى: ﴿أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾[3] وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل كان ذكر البينات ذكرًا لأدلة العقل والسمع جميعًا وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعًا لأنّ ذكر تناصر الأدلة أدلة العقل وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿لتبلغوا أشدكم﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا، وكذلك لتكونوا وأما ﴿ولتبلغوا أجلاً مسمى﴾ فمعناه ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى وهو وقت الموت وقيل: يوم القيامة، وقرئ شيوخًا بكسر الشين وشيخًا على التوحيد كقوله طفلاً والمعنى: كل واحد منكم أو اقتصر على الواحد لأنّ الغرض بيان الجنس ﴿من قبل﴾ من قبل الشيخوخة، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطًا ﴿ولعلكم تعقلون﴾ ما في ذلك من العبر والحجج.

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿فإذا قضى أمرًا فإنما﴾ يكونه من غير كلفة ولا معاناة جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أنّ مقدورًا لا يمتنع عليه كأنه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمرًا كان أهون شيء وأسرعه.

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿بالكتاب﴾ بالقرآن ﴿وبما أرسلنا به رسلنا﴾ من الكتب.

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾.

فإن قُلْتَ: وهل قوله:

﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم﴾ إلى مثل قولك سوف أصوم أمس؟ قُلْتُ: المعنى على إذا إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعًا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى: على الاستقبال، وعن ابن عباس والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على عطف الجملة الفعلية على الإسمية وعنه والسلاسل يسحبون بجر السلاسل ووجه أنه لو قيل: إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله إذ الأغلال في أعناقهم لكان صحيحًا مستقيمًا، فلما كانتا عبارتين معتقبتين حمل قوله والسلاسل على العبارة الأخرى ونظيره:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرابها

كأنه قيل: بمصلحين وقرئ وبالسلاسل يسحبون.

فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾.

﴿في النار يسجرون﴾ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود ومنه السجير كأنه سجر بالحب أي ملىء، ومعناه: أنهم في النار فهي محيطة بهم وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم ومنه قوله تعالى: ﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة﴾[4] اللهم أجرنا من نارك فإنا عائذون بجوارك.

مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾

﴿ضلوا عنا﴾ غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم.

فإن قُلْتَ: أما ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿إنكم وما

---

(1) سورة التين، الآية: 4.
(2) أخرجه الحاكم في المستدرك: 2/438.
(3) سورة الصافات، الآيتان: 95 ـ 96.
(4) سورة الهمزة، الآيتان: 6 ـ 7.

تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾[1] انهم مقرونون بآلهتهم فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم؟ **قُلْتُ**: يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم: اينما كنتم تشركون من دون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم وان يكونوا معهم في سائر الأوقات وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم إلا انهم لما لم ينفعوهم فكأنهم ضالون عنهم **﴿بل لم نكن ندعوا من قبل شيئًا﴾** أي تبين لنا انهم لم يكونوا شيئًا وما كنا نعبد بعبادتهم شيئًا كما تقول حسبت أنّ فلانًا شيء، فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خبرًا **﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾** مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا.

ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾.

﴿ذلكم﴾ الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح **﴿بغير الحق﴾**، وهو الشرك وعبادة الأوثان.

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ السبعة المقسومة لكم قال الله تعالى: **﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾**[2] **﴿خالدين﴾** مقدّرين الخلود **﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾** عن الحق المستخفين به مثواكم أو جهنم.

فإن قُلْتَ: أليس قياس النظم أن يقال فبئس مدخل المتكبرين كما تقول: زر بيت الله فنعم المزار وصل في المسجد الحرام فنعم المصلي؟ **قُلْتُ**: الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثواء.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾.

﴿فإمّا نرينك﴾ أصله فإن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ولذلك ألحقت النون بالفعل الا تراك لا تقول إن تكرمني اكرمك ولكن أما تكرمني اكرمك.

فإن قُلْتَ: لا يخلو إما أن تعطف **﴿أو نتوفينك﴾** على نرينك وتشركهما في جزاء واحد، وهو قوله تعالى **﴿فإلينا يرجعون﴾** فقولك فإمّا نرينك بعض الذي نعدهم فإلينا يرجعون غير صحيح وإن جعلت فإلينا يرجعون مختصًا بالمعطوف الذي هو نتوفينك بقي المعطوف عليه بغير جزاء **قُلْتُ**: فإلينا يرجعون متعلق بنتوفينك وجزاء نرينك محذوف تقديره، فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك أو إن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة، فننتقم منهم أشدّ الانتقام ونحوه قوله تعالى: **﴿فإما نذهبنّ بك فإنا منهم منتقمون، أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾**[3].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس وعن عليّ رضي الله عنه أنّ الله تعالى بعث نبيًا أسود[4]، فهو ممن لم يقصص عليه وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ عنادًا يعني انا قد أرسلنا كثيرًا من الرسل وما كان لواحد منهم **﴿أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾**، فمن لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله ويأذن في الإتيان بها **﴿فإذا جاء أمر الله﴾** وعيد وردّ عقيب اقتراح الآيات وأمر الله القيامة **﴿المبطلون﴾** هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أتتهم الآيات فأنكروها وسموها سحرًا.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾.

الأنعام الإبل خاصة.

فإن قُلْتَ: لم قال **﴿لتركبوا منها﴾** ولتبلغوا عليها ولم يقل لتأكلوا منها ولتصلوا إلى منافع أو هلا قال منها تركبون ومنها تأكلون وتبغلون عليها حاجة في صدوركم! **قُلْتُ**: في الركوب الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم وهذه أغراض دينية إمّا واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم وأما الأكل وإصابة المنافع، فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته ومعنى قوله:

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ وعلى الأنعام وحدها لا تحملون ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر.

فإن قُلْتَ: هلا قيل وفي الفلك كما قال قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين! **قُلْتُ**: معنى الإيعاء، ومعنى الاستعلاء كلاهما مستقيم لأنّ الفلك وعاء أن يكون فيها حمولة له يستعليها فلما صح المعنيان صحت العبارتان وأيضًا فليطابق قوله: وعليها وبزواجه.

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾.

﴿فأي آيات الله﴾ جاءت على اللغة المستفيضة، وقولك فأية آيات الله قليل لأنّ التفرقة بين المذكر والمؤنث في

(1) سورة الأنبياء، الآية: 98.
(2) سورة الحجر، الآية: 44.
(3) سورة الزخرف، الآيتان: 41 ـ 42.
(4) أخرجه ابن مردويه، وذكره الطبراني في معجمه الأوسط، وذكره الثعلبي، الزيلعي: 3/222.

الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب، وهي في أي أغرب لاتهامه.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿وآثارًا﴾ قصورهم ومصانعهم وقيل: مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم ﴿فما أغنى عنهم﴾ ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب والثانية موصولة، أو مصدرية ومحلها الرفع يعني أي شيء أغنى عنهم كسوبهم أو كسبهم فرحوا بما عندهم من العلم فيه وجوه منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى: ﴿بل أدراك علمهم في الآخرة﴾[1] وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون: لا نبعث ولا نعذب وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البينات وعلم الأنبياء كما قال عز وجل: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾[2] ومنها أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان وكانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم، وعن سقراط أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا ومنها أن يوضع قوله: فرحوا بما عندهم من العلم ولا علم عندهم البتة موضع قوله لم يفرحوا بما جاءهم من العلم مبالغة في نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والمسرة مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء ومنها أن يراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به كأنه قال: استهزؤا بالبينات وبما جاؤا به من علم الوحي فرحين مرحين ويدل عليه قوله تعالى:

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾[3] ومنها أن يجعل الفرح للرسل، ومعناه: أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادى واستهزائهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم، ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى: ﴿يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[4] ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾[5] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾.

البأس شدّة العذاب ومنه قوله تعالى: ﴿بعذاب بئيس﴾[6].

فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾.

فإن قُلْتَ:أي فرق بين قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم﴾ وبينه لو قيل فلم ينفعهم إيمانهم؟ قُلْتُ:هو من كان في نحو قوله: ﴿ما كان الله أن يتخذ من ولد﴾[7] والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم.

فإن قُلْتَ:كيف ترادفت هذه الفاآت؟ قُلْتُ:أما قوله تعالى: ﴿فما أغنى عنهم﴾[8] فهو نتيجة قوله: ﴿كانوا أكثر منهم﴾[9] وأما قوله: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾[10] فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿فما أغنى عنهم﴾[11] كقولك رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء وقوله: ﴿فلما رأوا بأسنا﴾[12] تابع لقوله: ﴿فلما جاءتهم﴾[13] كأنه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا وكذلك فلم يك ينفعهم إيمانهم تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله ﴿سنت الله﴾ بمنزلة وعد الله وما أشبهه من المصادر المؤكدة و ﴿هنالك﴾ مكان مستعار للزمان أي وخسروا وقت رؤية البأس، وكذلك قوله: ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾[14] بعد قوله: ﴿فإذا جاء أمر الله قضى بالحق﴾[15] أي وخسروا وقت مجيء أمر الله أو وقت القضاء بالحق، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له».

---

(1) سورة النمل، الآية: 66.
(2) سورة الروم، الآية: 32.
(3) سورة الأحقاف، الآية: 26.
(4) سورة الروم، الآية: 7.
(5) سورة النجم، الآية: 30.
(6) سورة الأعراف، الآية: 165.
(7) سورة مريم، الآية: 35.
(8) سورة الأحقاف، الآية: 26.
(9) سورة غافر، الآية: 82.
(10) سورة غافر، الآية: 83.
(11) سورة الأحقاف، الآية: 26.
(12) سورة غافر، الآية: 84.
(13) سورة غافر، الآية: 83.
(14) سورة غافر، الآية: 78.
(15) سورة غافر، الآية: 78.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة فصلت مكية

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾.

إن جعلت. ﴿حم﴾ إسمًا للسورة كانت في موضع المبتدأ و ﴿تنزيل﴾ خبره وإن جعلتها تعديدًا للحروف كان تنزيل خبر المبتدأ محذوف و ﴿كتاب﴾ بدل من تنزيل، أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف وجوز الزجاج أن يكون تنزيل مبتدأ، وكتاب خبره ووجهه أن تنزيلاً تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ ﴿فصلت آياته﴾ ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد وغير ذلك، وقرئ فصلت أي فرقت بين الحق والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها من قولك فصل من البلد ﴿قرآنا عربيًا﴾ نصب على الاختصاص، والمدح أي أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنًا من صفته كيت وكيت وقيل: هو نصب على الحال أي فصلت آياته في حال كونه قرآنًا عربيًا ﴿لقوم يعلمون﴾ أي لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين لا يلتبس عليهم شيء منه.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق قوله لقوم يعلمون؟قُلْتُ: يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت أي تنزيل يفرق بين الصلات والصفات.

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾.

وقرئ بشير ونذير صفة للكتاب أو خبر مبتدأ محذوف ﴿فهم لا يسمعون﴾ لا يقبلون ولا يطيعون من قولك تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾.

والأكنة جمع كنان وهو الغطاء، الوقر بالفتح الثقل وقرئ بالكسر وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها كقوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾[1] ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه ولتباعد المذهبين والدينين كان بينهم وما هم عليه وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجابًا ساترًا وحاجزًا منيعًا من جبل، أو نحوه فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فاعمل﴾ على دينك ﴿إننا عاملون﴾ أي على ديننا أو فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك، وقرئ إنا عاملون.

فإن قُلْتَ: هل لزيادة من في قوله ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فائدة؟ قُلْتُ: نعم لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى: أن حجابًا حاصل وسط الجهتين وأما بزيادة من فالمعنى أن حجابًا ابتدأ منا، وابتدأ منك فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل على قلوبنا أكنة كما قيل: وفي آذاننا وقر ليكون الكلام على نمط واحد؟ قُلْتُ: هو على نمط واحد لأنه لا فرق في المعنى بين قولك قلوبنا في أكنة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾[2] ولو قيل: إنا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في: المعاني.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾.

فإن قُلْتَ: من أين كان قوله: ﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾ جوابًا لقولهم: ﴿قلوبنا في أكنة﴾ ؟قُلْتُ: من حيث أنه قال لهم إني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم وقد أوحي إليّ دونكم فصحت بالوحي إليّ وأنا بشر نبوّتي وإذا صحت نبوّتي وجب عليكم اتباعي وفيما يوحى إليّ أن إلهكم إله واحد ﴿فاستقيموا إليه﴾ ، فاستوا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يمينًا ولا شمالاً ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ﴿وتوبوا إليه﴾ مما سبق لكم من الشرك ﴿واستغفروه﴾ ، وقرئ قال: إنما أنا بشر.

الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾.

فإن قُلْتَ: لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونًا بالكفر بالآخرة؟قُلْتُ: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم﴾ أي يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا فقرّت عصبيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردّة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدوا، وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة وتخويف شديد من منعها حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة وقيل: كانت قريش يطعمون الحاج ويحرمون من آمن منهم برسول الله ﷺ وقيل: لا يفعلون ما يكونون به أزكياء.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 88.

(2) سورة الكهف، الآية: 57.

وهو الإيمان الممنون المقطوع وقيل لا يمن عليهم لأنه إنما يمن التفضل، فأما الأجر فحق أداؤه وقيل: نزلت في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كما صح ما كانوا يعملون.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ائنكم﴾ بهمزتين الثانية بين بين وآئنكم بألف بين همزتين ﴿ذلك﴾ الذي قدر على خلق الأرض في مدّة يومين هو ﴿رب العالمين﴾.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿رواسي﴾ جبالاً ثوابت.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿من فوقها﴾ وهل اختصر على قوله وجعل فيها رواسي؟ كقوله تعالى: ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾[1] وجعلنا في الأرض رواسي وجعل لها رواسي قُلْتُ: لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقرّ عليها أو مركوزة فيها كالمسامير لمنعت من الميدان أيضًا، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون المنافع في الجبال معرض لطالبيها حاضرة محصليها، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة إلى ممسك لا بدّ لها منه وهو ممسكها عز وعلا بقدرته ﴿وبارك فيها﴾ وأكثر خيرها وأنماه ﴿وقدّر فيها أقواتها﴾ أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم وفي قراءة ابن مسعود وقسم فيها أقواتها ﴿في أربعة أيام سواء﴾ فذلكة لمدّة خلق الله الأرض وما فيها كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان، قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحد ويوم الإثنين وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وقال الزجاج: في أربعة أيام في تتمة أربعة أيام يريد بالتتمة اليومين، وقرئ سواء بالحركات الثلاث الجر على الوصف والنصب على استوت سواء أي استواء والرفع على هي سواء.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿للسائلين﴾؟ قُلْتُ: بمحذوف كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض، وما فيها أو يقدّر أي قدّر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج.

فإن قُلْتَ: هلا قيل في يومين وأي فائدة في هذه الفذلكة؟ قُلْتُ: إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أنّ الأرض خلقت في يومين علم أنّ ما فيها خلق في يومين فبقيت المخايرة بين أن تقول في يومين، وأن تقول في أربعة أيام سواء فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين وهي الدلالة على أنها كانت أيامًا كاملة بغير زيادة ولا نقصان، ولو قال في يومين وقد يطلق اليومان على أكثرهما لكان يجوز أن يريد باليومين الأوّلين والآخرين أكثرهما.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿ثم استوى إلى السماء﴾ من قولك استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهًا لا يلوي على شيء وهو من الاستواء الذي هو ضدّ الاعوجاج، ونحوه قولهم استقام إليه وامتدّ إليه ومنه قوله تعالى: ﴿فاستقيموا إليه﴾[2] والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك قيل: كان عرشه قبل خلق السموات والأرض على الماء فأخرج من الماء دخانًا فارتفع فوق الماء وعلا عليه فأيبس الماء فجعله أرضًا واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين ثم خلق السماء من الدخان المرتفع، ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الآمر المطاع وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل، ويجوز أن يكون تخييلاً ويبني الأمر فيه على أنّ الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما: ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه فقالتا: آتينا على الطوع لا على الكره والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب، ونحوه قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقني قال الوتد: اسأل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي.

فإن قُلْتَ: لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمهما في الأمر بالإتيان والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ قُلْتُ: قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة، ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾[3] فالمعنى ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ائتي يا أرض مدحوة قرارًا ومهادًا لأهلك وائتي يا سماء مقببة سقفًا لهم، ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع كما تقول أتى عمله مرضيًا وجاء مقبولاً، ويجوز أن يكون المعنى لتأت كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير من كون الأرض قرارًا للسماء وكون السماء سقفًا للأرض، وتنصره قراءة من قرأ آتيًا وآتينا من المؤاتاة وهي الموافقة أي لتؤات كل واحدة أختها ولتوافقها قالتا وافقنا وساعدنا ويحتمل وافقًا أمري ومشيئتي ولا تمتنعا.

---

(1) سورة المرسلات، الآية: 27.

(2) سورة فصلت، الآية: 6.

(3) سورة النازعات، الآية: 30.

فإن قُلْتَ: ما معنى طوعًا أو كرهًا؟ قُلْتُ: هو مثل للزوم تأثير قدرته فيهما وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال كما يقول الجبار لمن تحت يده لتفعلن هذا شئت أو أبيت ولتفعلنه طوعًا أو كرهًا وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين.

فإن قُلْتَ: هلا قيل طائعتين على اللفظ، أو طائعات على المعنى لأنها سموات وأرضون قُلْتُ: لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعين في موضع طائعات نحو قوله ساجدين.

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾.

﴿فقضاهنّ﴾ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال: طائعين ونحوه أعجاز نخل خاوية، ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا مفسرًا بسبع سموات والفرق بين النصبين أنّ أحدهما على الحال والثاني على التمييز قبل خلق الله السموات وما فيها في يومين في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة وفي هذا دليل على ما ذكرت من أنه لو قيل في يومين في موضع أربعة أيام سواء لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان.

فإن قُلْتَ: فلو قيل خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها أقواتها في يومين كاملين، أو قيل بعد ذكر اليومين تلك أربعة سواء قُلْتُ: الذي أورده سبحانه أخصر، وأفصح وأحسن طباقًا لما عليه التنزيل من مغاصاة القرائح ومصاك الركب ليتميز الفاضل من الناقص والمتقدّم من الناكص، وترتفع الدرجات ويتضاعف الثواب ﴿أمرها﴾ ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك أو شأنها وما يصلحها ﴿وحفظًا﴾ وحفظناها حفظًا يعني من المسترقة بالثواقب ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى كأنه قال: وخلقنا المصابيح زينة وحفظًا.

فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾.

﴿فإن أعرضوا﴾ بعدما نتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته، فحذرهم أن تصيبهم صاعقة أي عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة، وقرئ صعقة مثل صعقة عاد وثمود وهي المرّة من الصعق، أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقًا فصعق صعقًا وهو من باب فعلته ففعل.

إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾.

﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم يعني لآتينهم من كل جهة، ولأعملنّ فيهم كل حيلة وتقول استدرت بفلان من كل جانب فلم يكن لي فيه حيلة وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة لأنهم إذا حذروهم ذلك، فقد جاؤهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم، وقيل معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم.

فإن قُلْتَ: الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاؤهم، وكيف يخاطبونهم بقولهم إنا بما أرسلتم به كافرون؟ قُلْتُ: قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم أي من قبلهم وممن يجيء من خلفهم أي من بعدهم فكأن الرسل جميعًا قد جاؤهم وقولهم إنا بما أرسلتم به كافرون خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم، أن في ﴿أن لا تعبدوا﴾ بمعنى أي أو مخففة من الثقيلة أصله بأنه لا تعبدوا أي بأنّ بالشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا، ومفعول شاء محذوف أي ﴿لو شاء ربنا﴾ إرسال الرسل ﴿لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾ معناه فإذ أنتم بشر ولستم بملائكة فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به، وقولهم أرسلتم به ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل وفيه تهكم كما قال فرعون: إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. روي أنّ أبا جهل قال في ملأ من قريش، قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علمًا وما يخفى عليّ فأتاه فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضللنا فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وإن تك بك الباءة زوّجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت فلما فرغ قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم﴾ إلى قوله: ﴿صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبا فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حسبك عنا إلا أنك قد صبأت فغضب وأقسم لا يكلم محمدًا أبدًا ثم قال: والله لقد كلمته أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ صاعقة، عاد وثمود امسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب فخفت أن ينزل بكم

العذاب[1].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فاستكبروا في الأرض﴾ أي تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم، وهو القوّة وعظم الأجرام أو استلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية ﴿من أشد منا قوّة﴾ كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم وبلغ من قوّتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده.

فإن قُلْتَ: القوّة هي الشدّة والصلابة في البنية وهي نقيضة الضعف وأما القدرة فما لأجله يصح الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية وهي نقيضة العجز والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوّة إلا على معنى القدرة فكيف صحّ قوله: ﴿هو أشدّ منهم قوّة﴾، وإنما يصح إذا أريد بالقوّة في الموضعين شيء واحد؟ قُلْتُ: القدرة في الإنسان هي صحة البنية، وحقيقتها زيادة القدرة فكما صحّ أن يقال الله أقدر منهم جاز أن يقال أقوى منهم على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم ﴿يجحدون﴾ كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة وهو معطوف على فاستكبروا أي كانوا كفرة فسقة.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

الصرصر العاصفة التي تصرصر أي تصوّت في هبوبها وقيل الباردة التي تحرق بشدّة بردها تكرير لبناء الصر، وهو البرد الذي يصر أي يجمع ويقبض ﴿نحسات﴾ قرئ بكسر الحاء وسكونها ونحس نحسًا نقيض سعد سعدًا وهو نحس وأما نحس فإمّا مخفف نحس أو صفة على فعل كالضخم وشبهه أو وصف بمصدر، وقرئ لتنيقهم على أنّ الإذاقة للريح أو للأيام النحسات، وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب كأنه قال: عذاب خز كما تقول فعل السوء تريد الفعل السيء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولعذاب الآخرة أخزى﴾ وهو من الإسناد المجازي، ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به ألا ترى إلى البون بين قوليك هو شاعر وله شعر شاعر.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وقرئ: ﴿ثمود﴾ بالرفع والنصب منوّنًا وغير منوّن والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء، وقرئ بضم الثاء ﴿فهديناهم﴾ فدللناهم على طريقي الضلالة والرشد كقوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾[2] ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد.

فإن قُلْتَ: أليس معنى هديته حصلت فيه الهدى والدليل عليه قولك هديته فاهتدى بمعنى تحصيل البغية، وحصوها كما تقول ردعته فارتدع فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجرّدة؟ قُلْتُ: للدلالة على أنه مكنهم وأزاح عللهم ولم يبق له عذرًا ولا علة فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها ﴿صاعقة العذاب﴾ داهية العذاب وقارعة العذاب. و﴿الهون﴾ الهوان وصف به العذاب مبالغة، أو أبدله منه ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمّة بشهادة نبيها ﷺ وكفى به شاهدًا إلا هذه الآية لكفى بها حجة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قرئ: ﴿يحشر﴾ على البناء للمفعول ونحشر بالنون وضم الشين وكسرها، ويحشر على البناء للفاعل أي يحشر الله عز وجل ﴿أعداء الله﴾ الكفار من الأوّلين والآخرين ﴿يوزعون﴾ أي يحبس أوّلهم على آخرهم أي يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم وهي عبارة عن كثرة أهل النار نسأل الله أن يجيرنا منها بسعة رحمته.

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

فإن قُلْتَ: ما في قوله: ﴿حتى إذا ما جاؤها﴾ ما هي؟ قُلْتُ: مزيدة للتأكيد ومعنى التأكيد فيها أنّ وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ولا وجه لأن يخلو منها ومثله قوله تعالى: أثم إذا ما وقع آمنتم به أي لا بدّ لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام وما أشبه ذلك مما يقضي إليها من المحرّمات.

فإن قُلْتَ: كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق؟ قُلْتُ: الله عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة بأن يخلق فيها كلامًا، وقيل المراد بالجلود الجوارح وقيل هي كناية عن الفروج أراد بكل شيء كل شيء من الحيوان كما أراد به في قوله تعالى: ﴿والله على كل شيء قدير﴾[3] كل شيء من المقدورات، والمعنى: أنّ نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان وعلى خلقكم وإنشائكم أوّل مرّة وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه.

(1) أخرجه البيهقي، وأبو نعيم في دلائل النبوة، الزيلعي: 3/228.

(2) سورة البلد، الآية: 10.

(3) سورة الحشر، الآية: 6.

وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾.

وإنما قالوا لهم: ﴿لم شهدتم علينا﴾ لما تعاظمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على ألسنة جوارحهم.

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾.

المعنى: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿أن الله لا يعلم كثيرًا مما كنتم تعملون﴾ وهو الخفيات من أعمالكم وذلك الظنّ هو الذي أهلككم وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عينًا كالئة ورقيبًا مهيمنًا حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشامًا وأوفر تحفظًا وتصونًا منه مع الملأ ولا يتبسط في سره مراقبة من التشبه بهؤلاء الظانين.

وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾.

وقرئ ولكن زعمتم ﴿وذلكم﴾ رفع بالابتداء و﴿ظنكم﴾ و﴿أرداكم﴾ خبران، ويجوز أن يكون ظنكم بدلاً من ذلكم وأرداكم الخبر.

فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿فإن يصبروا﴾ لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الثواء في النار ﴿وإن يستعتبوا﴾ وإن يسألوا العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعًا مما هم فيه لم يعتبوا لم يعطوا العتبى، ولم يجابوا إليها ونحوه قوله عز وعلا: ﴿أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾، وقرئ ﴿وإن يستعتبوا﴾ فما هم من المعتبين أي إن سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون أي لا سبيل لهم إلى ذلك.

۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾.

﴿وقيضنا لهم﴾ وقدّرنا لهم يعني لمشركي مكة يقال هذان ثوبان قيضان إذا كان متكافئين، والمقايضة المعاوضة ﴿قرناء﴾ أخدانًا من الشياطين جمع قرين كقوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين﴾[1].

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قُلْتُ: معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين، والدليل عليه ومن يعش نقيض ﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ ما تقدّم من أعمالهم وما هم عازمون عليها أوما بين أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات وما خلفهم من أمر العاقبة، وأن لا بعث ولا حساب ﴿وحق عليهم القول﴾ يعني كلمة العذاب ﴿في أمم﴾ في جملة أمم ومثل في هذه ما في قوله:

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ فوكًا ففي آخرين قد أفكوا

يريد فأنت في جملة آخرين وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد.

فإن قُلْتَ: في أمم ما محله؟ قُلْتُ: محله النصب على الحال من الضمير في عليهم أي حق عليهم القول كائنين في جملة أمم ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير لهم، وللأمم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾.

قرئ: ﴿والغوا﴾ فيه بفتح الغين وضمها يقال لغى يلغي ولغا يلغو واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته قال من اللغا ورفث التكلم، والمعنى: لا تسمعوا له إذا قرئ وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل، وما أشبه ذلك حتى تخلطوا على القارئ وتشوّشوا عليه وتغلبوه على قراءته كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضًا.

فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿فلنذيقنّ الذين كفروا﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطووا تحت ذكرهم، وقد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعادته وعن ابن عباس ﴿عذابًا شديدًا﴾ يوم بدر، و﴿أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ في الآخرة.

ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى الأسوإ ويجب أن يكون التقدير أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون حتى تستقيم هذه الإشارة و﴿النار﴾ عطف بيان للجزاء أو خبر مبتدأ محذوف.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله تعالى ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ قُلْتُ: معناه أن النار في نفسها دار الخلد كقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[2] والمعنى: أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة وتقول لك في هذه الدار دار السرور وأنت تعني الدار بعينها ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا

(1) سورة الزخرف، الآية: 36.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 21.

يجحدون﴾ أي جزاء بما كانوا يلغون فيها فنكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿اللذين أضلانا﴾ أي الشيطانين اللذين أضلانا ﴿من الجن والإنس﴾ لأنّ الشيطان على ضربين جني وإنسي قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًا شياطين الإنس والجن﴾[1] وقال تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾[2] وقيل: هما إبليس وقابيل لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق، وقرئ أرنا بسكون الراء لثقل الكسرة كما قالوا في فخذ فخذ وقيل معناه أعطنا اللذين أضلانا وحكوا عن الخليل انك إذا قلت أرني ثوبك بالكسر، فالمعنى بصرنيه وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه أعطني ثوبك ونظيره اشتهار الإيتاء في معنى الإعطاء وأصله الإحضار.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿ثم﴾ لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة وفضلها عليه لأنّ الاستقامة لها الشأن كله ونحوه وقوله تعالى: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا والمعنى ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً وعنه أنه تلاها، ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا قال: حملتم الأمر على أشدّه قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله عنه: استقاموا على الطريقة لم يروغوا روغان الثعالب، وعن عثمان رضي الله عنه أخلصوا العمل وعن علي رضي الله عنه أدّوا الفرائض وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قلت يا رسول الله أخبرني بأمر أعتصم به قال: قل ربّي الله، ثم استقم قال فقلت ما أخوف ما تخاف على فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه فقال هذا ﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ عند الموت بالبشرى وقيل البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت، وفي القبر وإذا قاموا من قبورهم ﴿ألا تخافوا﴾ أن بمعنى: أي أو مخففه من الثقيلة وأصله بأنه لا تخافوا والهاء ضمير الشأن، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه لا تخافوا أي يقولون لا تخافوا والخوف غم يلحق لتوقع المكروه، والحزن غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار والمعنى أنّ الله كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه أبدًا وقيل لا تخافوا ما تقدمون عليه ولا تحزنوا على ما خلفتم.

نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾.

كما أنّ الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين ﴿تدعون﴾ تتمنون.

نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾.

والنزل رزق النزيل وهو الضيف وانتصابه على الحال.

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾.

﴿ممن دعا إلى الله﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما هو رسول الله ﷺ عليه وسلم دعا إلى الإسلام ﴿وعمل صالحًا﴾ فيما بينه وبين ربه وجعل الإسلام نحلة له وعنه أنهم أصحاب رسول الله ﷺ وعن عائشة رضي الله عنها ما كنا نشك أن هذه الآية نزلت في المؤنثين وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث أن يكون موحدًا معتقد الدين الإسلام عاملاً بالخير داعيًا إليه وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العل والتوحيد الدعاة إلى دين الله وقوله ﴿وقال إنني من المسلمين﴾ ليس الغرض انه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده كما تقول هذا قول أبي حنيفة تريد مذهبه.

وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾.

يعني أنّ الحسنة والسيئة متفاوتتان في انفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك ومثال ذلك رجل أساء إليك إساءة، فالحسنة أن تعفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقّ مثل الولي الحميم مصافاة لك، ثم قال: وما يلقي هذه الخليقة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير.

فإن قُلْتَ: فهلا قيل فادفع بالتي هي احسن! قُلْتُ: هو على تقدير قائل قال فكيف أصنع فقيل ادفع بالتي هي أحسن، وقيل لا مزيدة والمعنى: ولا تستوي الحسنة والسيئة.

فإن قُلْتَ: فكان القياس على هذا التفسير أن يقال ادفع بالتي هي حسنة قُلْتُ: أجل ولكن وضع التي هي أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة لأنّ من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما هو دونها.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 112.

(2) سورة الناس، الآية: 5.

وَمَا يُلَقَّنْهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّنْهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما بالتي هي أحسن الصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة وفسر الحظ بالثواب، وعن الحسن رحمه الله والله ما عظم حظ دون الجنة وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدوًا مؤذيًا لرسول الله ﷺ فصار وليًا مصافيًا.

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾.

النزغ والنسغ بمعنى وهو شبه النخس والشيطان بنزغ الإنسان كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي وجعل النزغ نازغًا كما قيل جد جده، أو أريد وإما ينزغنك نازغ وصفًا للشيطان بالمصدر أو لتسويله والمعنى: وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فاستعذ بالله﴾ من شرّه وامض على شأنك ولا تطعه الضمير في.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿خلقهنّ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث يقال الأقلام بريتها وبريتهنّ، أو لما قال ومن آياته كن في معنى الآيات فقيل خلقهنّ.

فإن قُلْتَ: اين موضع السجدة؟ قُلْتُ: عند الشافعي رحمه الله تعالى ﴿تعبدون﴾ وهي رواية مسروق عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها وعند أبي حنيفة رحمه الله يسأمون لأنها تمام المعنى: وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب لعل ناسًا منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصًا إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين.

فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾.

﴿فإن استكبروا﴾، ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الواسطة فدعهم وشانهم فإنّ الله عز سلطانه لا يعدم عابدًا ولا ساجدًا بالإخلاص وله العباد المقرّبون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد وقوله ﴿عند ربك﴾ عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة وقرئ لا يسامون بكسر الياء.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾.

الخشوع التذلل والتقاصر فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة﴾(1) وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربوّ وهو الانتفاخ إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة، وقرئ وربأت أي ارتفعت لأن النبت إذا همّ أن يظهر ارتفعت له الأرض.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾.

يقال ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة، وقرئ يلحدون ويلحدون على اللغتين وقوله ﴿ولا يخفون علينا﴾ وعيد لهم على التحريف.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾.

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله: ﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾! قُلْتُ: هو بدل من قوله إنّ الذين يلحدون في آياتنا والذكر القرآن لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرّفوا تأويله ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي منيع محمي بحماية الله تعالى.

لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾.

﴿لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ مثل كأن الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به.

فإن قُلْتَ: أما طعن فيه الطاعنون، وتأوّله المبطلون؟ قُلْتُ: بلى ولكن الله قد تقدّم في حمايته عن تعلق الباطل به بأن قيض قومًا عارضوهم بإبطال تأويلهم، وإفساد أقاويلهم فلم يخلو طعن طاعن إلا ممحوقًا ولا قول مبطل إلا مضمحلاً ونحو قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ما يقال لك﴾ أي ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة إنّ ربك لذو مغفرة ورحمة لأنبيائه.

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾.

﴿وذو عقاب﴾ لأعدائهم، ويجوز أن يكون ما يقول لك الله إلا مثل ما قال الرسل من قبلك والمقول هو قوله تعالى: ﴿إنّ ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم﴾ فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته.

---

(1) سورة الحج، الآية: 5.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿44﴾.

والغرض تخويف العصاة كانوا لتعنتهم يقولون هلا نزل القرآن بلغة العجم فقيل لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا: ﴿لولا فصلت آياته﴾ أي بينت ولخصت بلسان نفقهه ﴿أأعجمي وعربي﴾ الهمزة همزة الإنكار يعني لأنكروا، وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي، وقرئ أعجمي والأعجمي الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أي جنس كان والعجمي منسوب إلى أمّة العجم، وفي قراءة الحسن أعجمي بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمي والمرسل أو المرسل إليه عربي والمعنى أنّ آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتًا لأن القوم غير طالبين للحق، وإنما يتبعون أهواءهم ويجوز في قراءة الحسن هلا فصلت آياته تفصيلاً فجعل بعضها بيانًا للعجم وبعضها بيانًا للعرب.

فإن قُلْتَ: كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمّة العرب؟ قُلْتُ: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتابًا عجميًا كتب إلى قوم من العرب يقول كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي، وذلك لأنّ مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه لا على أن المكتوب إليه واحد، أو جماعة فوجب أن يجرّد لما سبق إليه من الغرض ولا يوصل به ما يخل غرضًا آخر الا تراك تقول وقد رأيت لباسًا طويلاً على امرأة قصيرة؛ اللباس طويل واللابس قصير ولو قلت واللابسة قصيرة جئت بما هو لكنة وفضول قول لأنّ الكلام لم يقع في ذكورة اللابس، وأنوثته إنما وقع في غرض وراءهما ﴿هو﴾ أي القرآن ﴿هدى وشفاء﴾ إرشاد إلى الحق وشفاء ﴿لما في الصدور﴾ من الظن والشك.

فإن قُلْتَ: ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ منقطع عن ذكر القرآن، فما وجه اتصاله به قُلْتُ: لا يخلو إما أن يكون الذين لا يؤمنون في موضع الجر معطوفًا على قوله تعالى للذين آمنوا على معنى قولك هو للذين آمنوا هدى وشفاء وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر إلا أنّ فيه عطفًا على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه، وإمّا أن يكون مرفوعًا على تقدير والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر على حذف المبتدأ أو في آذانهم منه وقر، وقرئ وهو عليهم عم وعمى كقوله تعالى: فعميت عليكم ﴿ينادون من مكان بعيد﴾ يعني: أنهم لا يقبلونه ولا يرعونه أسماعهم فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿45﴾.

﴿فاختلف فيه﴾ فقال بعضهم: هو حق، وقال بعضهم: هو باطل الكلمة السابقة هي العدّة بالقيامة وأنّ الخصومات تفصل في ذلك اليوم ولولا ذلك لقضي بينهم في الدنيا قال الله تعالى: ﴿بل الساعة موعدهم﴾[1] ﴿لكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾[2].

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿46﴾.

﴿فلنفسه﴾ فنفسه نفع ﴿فعليها﴾ فنفسه ضرّ ﴿وما ربك بظلام﴾ فيعذب غير المسيء.

۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿47﴾.

﴿إليه يردّ علم الساعة﴾ أي إذا سئل عنها قيل: الله يعلم أو لا يعلمها إلا الله، وقرئ من ثمرات من أكمامهن والكم بكسر الكاف وعاء الثمرة كجف الطلعة أي وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك ﴿أين شركائي﴾ أضافهم إليه تعالى على زعمهم وبيانه في قوله تعالى: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾[3] وفيه تهكم وتقريع ﴿آذناك﴾ أعلمناك ﴿ما منا من شهيد﴾ أي ما منا أحد اليوم وقد أبصرنا وسمعنا يشهد بأنهم شركاؤك أي ما منا إلا من هو موحد لك أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها في ساعة التوبيخ وقيل هو كلام الشركاء أي ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة.

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿48﴾

ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير أنهم لا ينفعونهم فكأنهم ضلوا عنهم ﴿وظنوا﴾ وأيقنوا والمحيص المهرب.

فإن قُلْتَ: آذناك إخبار بإيذان كان منهم فإذ قد آذنوا فلم سئلوا قُلْتُ: يجوز أن يعاد عليهم أين شركائي إعادة للتوبيخ وإعادته في القرآن على سبيل الحكاية دليل على إعادة المحكي ويجوز أن يكون المعنى أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه ويجوز أن يكون إنشاء للإيذان ولا يكون إخبارًا بإيذان قد كان كما تقول أعلم الملك أنه كان

(1) سورة القمر، الآية: 46.
(2) سورة النحل، الآية: 61.
(3) سورة القصص، الآيات: 62 ـ 74.

من الأمر كيت وكيت.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿من دعاء الخير﴾ من طلب السعة في المال والنعمة، وقرأ ابن مسعود من دعاء بالخير ﴿وإن مسه الشر﴾ أي الضيقة والفقر ﴿فيؤس قنوط﴾ ولغ فيه من طريقين من طريق بناء فعول ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر أي يقطع الرجاء من فضل الله وروحه وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾(1).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال ﴿هذا لي﴾ أي هذا حقي وصل إليّ لأني استوجبته بما عندي من خير وفضل وأعمال برّ أو هذا لي لا يزول عني ونحوه قوله تعالى: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾(2) ونحو قوله تعالى: ﴿وما أظنّ الساعة قائمة﴾ إن نظنّ إلا ظنًا وما نحن بمستيقنين يريد وما أظنها تكون فإن كانت على طريق التوهم ﴿إن لي﴾ عند الله الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة قائسًا أمر الآخرة على أمر الدنيا وعن بعضهم للكافر أمنيتان يقول في الدنيا: ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى ويقول في الآخرة: يا ليتني كنت ترابًا.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها انهم يستوجبون عليها كرامة وقربة عند الله وقدمنا إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباء منثورًا وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلبًا للافتخار والاستكبار لا غير وكانوا يحسبون أنّ ما هم عليه سبب الغنى والصحة وأنهم محقوقون بذلك هذا أيضًا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة وكأنه لم يلق بؤسًا قط فنسي المنعم وأعرض عن شكر ﴿ونأى بجانبه﴾ أي ذهب بنفسه وتكبر وتعظم، وإن مسه الضرّ والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ويستعار له الطول أيضًا كما استعير الغلظ بشدّة العذاب، وقرئ ونأى بجانبه بإمالة الألف وكسر النون للاتباع وناء على القلب كما قالوا راء في رأى.

فإن قُلْتَ: حقق لي معنى قوله تعالى: ﴿ونأى بجانبه﴾. قُلْتُ: فيه وجهان أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا في قوله تعالى على ما فرطت في جنب الله أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشيء نفسه ومنه قوله ونفيت عنه مقام الذئب يريد ونفيت عنه الذئب ومنه ولمن خاف مقام ربه ومنه قول الكتاب حضرت فلان ومجلسه وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز يريدون نفسه، وذاته فكأنه قال: ونأى بنفسه كقولهم في المكبر ذهب بنفسه وذهبت به الخيلاء كل مذهب وعصفت به الخيلاء وأن يراد بجانبه عطفه، ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا: ثنى عطفه وتولى بركته.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أرأيتم﴾ أخبروني ﴿إن كان﴾ القرآن ﴿من عند الله﴾ يعني أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين وثلج الصدور، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر محتمل يجوز أن يكون من عند الله وأن لا يكون من عنده وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا، فما أنكرتم أن يكون حقًا وقد كفرتم به، فأخبروني من أضلّ منكم وأنتم أبعدتم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فأهلكتم أنفسكم وقوله تعالى: ﴿ممن هو في شقاق بعيد﴾ موضوع موضع منكم بيانًا لحالهم وصفتهم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ يعني: ما يسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عمومًا وفي باحة العرب خصوصًا من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم وتسليط ضعافهم على أقويائهم وإجرائه على أيديهم أمورًا خارجة من المعهود خارقة للعادات ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة وبسط دولته في أقاصيها والاستقراء يطلعك في التواريخ، والكتب المدوّنة في مشاهد أهله وأيامهم على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علمًا من أعلم الله وآية من آياته يقوى معها اليقين ويزداد بها الإيمان ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه، وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور وأن للباطل ريحًا تخفق، ثم تسكن ودولة تظهر، ثم تضمحل ﴿بربك﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى

(1) سورة يوسف، الآية: 87.

(2) سورة الأعراف، الآية: 131.

و ﴿وأنه على كل شيء شهيد﴾ بدل منه تقديره أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه، ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد أي مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة.

أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾.

وقرئ ﴿في مرية﴾ بالضم وهي الشك ﴿محيط﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات»[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشورى مكية

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾.

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما حم سق.

كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾.

﴿كذلك يوحي إليك﴾ أي مثل ذلك الوحي أو مثل ذلك الكتاب إليك وإلى الرسل ﴿من قبلك الله﴾ يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور وأوحاه من قبلك إلى رسله على معنى: أن الله تعالى كرّر هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده من الأوّلين والآخرين ولم يقل أوحى إليك ولكن على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادته، وقرئ يوحى إليك على البناء للمفعول.

فإن قُلْتَ: فما رافع اسم الله على هذه القراءة قُلْتُ: ما دلّ عليه يوحى كان قائلاً قال من الموحى فقيل الله كقراءة السلمي، وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم على البناء للمفعول ورفع شركائهم على معنى زينه لهم شركاؤهم.

فإن قُلْتَ: فما رافعه فيمن قرأ نوحي بالنون؟ قُلْتُ: يرتفع بالابتداء، والعزيز وما بعده أخبار والعزيز الحكيم صفتان والظرف خبر.

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾.

قرئ ﴿تكاد﴾ بالتاء والياء وينفطرن ويتفطرن وروى يونس عن أبي عمرو، وقراءة غريبة تتفطرن بتاءين مع النون ونظيرها حرف نادر روى في نوادر ابن الأعرابي الإبل تشممن ومعناه يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته يدل عليه مجيئه بعد العلي العظيم وقيل من دعائهم له ولدًا كقوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾[2].

فإن قُلْتَ: لم قال من فوقهنّ؟ قُلْتُ: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السموات وهي العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: ﴿يتفطرن من فوقهنّ﴾ أي يبتدئ الانفطار من جهتهنّ الفوقانية أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كأنه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهن ونظيره في المبالغة قوله عزّ وعلا: يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم فجعل الحميم مؤثرًا في أجزائهم الباطنة وقيل: من فوقهنّ من فوق الأرضين.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء الله وقد قال الله تعالى: ﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة﴾[3] فكيف يكونون لاعنين مستغفرين لهم؟ قُلْتُ: قوله: ﴿لمن في الأرض﴾ يدل على جنس أهل الأرض وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم فيجوز أن يراد به هذا وهذا قد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون فما أراد الله إلا إياهم ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾[4] وحكايته عنهم ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾[5] كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصدّقين طمعًا في استغفارهم فكيف للكفرة ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: ﴿إنّ الله يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا﴾، إلى أن قال: ﴿إنه كان حليمًا غفورًا﴾[6] وقوله تعالى: ﴿إنّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾[7] والمراد

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، الزيلعي 3/230.
(2) سورة مريم، الآية: 90.
(3) سورة البقرة، الآية: 161.
(4) سورة غافر، الآية: 7.
(5) سورة غافر، الآية: 7.
(6) سورة فاطر، الآية: 41.
(7) سورة الشورى، الآية: 5.

الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون عامًا.

فإن قُلْتَ: قد فسرت قوله تعالى: ﴿تكاد السمٰوات يتفطرن﴾ بتفسيرين فما وجه طباق ما بعده لهما؟ قُلْتُ: أما على أحدهما فكأنه قيل تكاد السموات يتفطرن هيبة من جلاله واحتشامًا من كبريائه والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفًا بعد صفوف يداومون خضوعًا لعظمته على عبادته وتسبيحه وتحميده ويستغفرون لمن في الأرض خوفًا عليهم من سطواته، وأما على الثاني فكأنه قيل يكدن يتفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء والملائكة يوحدون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به حامدين له على ما أولاهم من ألطافه التي علم أنهم عندها يستعصمون مختارين غير ملجئين ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرؤا من تلك الكلمة ومن أهلها أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم لما عرفوا في ذلك من المصالح وحرصًا على نجاة الخلق وطمعًا في توبة الكفار والفساق منهم.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾.

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ جعلوا له شركاء وأندادًا ﴿الله حفيظ عليهم﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم لا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وما أنت﴾ يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان إنما أنت منذر فحسب.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾.

ومثل ذلك ﴿أوحينا إليك﴾، وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها من أنّ الله تعالى هو الرقيب عليهم وما أنت برقيب عليهم ولكن نذير لهم لأنّ هذا المعنى كرّره الله في كتابه في مواضع جمة والكاف مفعول به لأوحينا و﴿قرآنًا عربيًا﴾ حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بين لابس فيه عليك لتفهم ما يقال لك ولا تتجاوز حدّ الإنذار، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا أي ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآنًا عربيًا بلسانك ﴿لتنذر﴾ يقال: أنذرته كذا وأنذرته بكذا وقد عدى الأوّل أعني ﴿لتنذر أمّ القرى﴾ إلى المفعول الأوّل والثاني، وهو قوله وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني ﴿أمّ القرى﴾ أهل أمّ القرى كقوله تعالى: ﴿واسئل القرية﴾ ﴿ومن حولها﴾ من العرب، وقرئ لينذر بالياء والفعل للقرآن ﴿يوم الجمع﴾ يوم القيامة لأنّ الخلائق تجمع فيه قال الله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾[1] وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله و﴿لا ريب فيه﴾ اعتراض لا محل له، قرئ فريق وفريق بالرفع والنصب فالرفع على منهم فريق ومنهم فريق والضمير للمجموعين لأن المعنى: يوم جمع الخلائق والنصب على الحال منهم أي متفرّقين كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون﴾[2].

فإن قُلْتَ: كيف يكونون مجموعين متفرّقين في حالة واحدة؟ قُلْتُ: هم مجموعون في ذلك اليوم مع افتراقهم في داري البؤس والنعيم كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرّقين في مسجدين، وإن أريد بالجمع جمعهم في الموقف فالتفرّق على معنى مشارفتهم للتفرّق.

وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَالظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾.

﴿لجعلهم أمّة واحدة﴾ أي مؤمنين كلهم على القسر والإكراه كقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ وقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا﴾[3] والدليل على أنّ المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان قوله: ﴿أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[4] وقوله تعالى: ﴿أفانت تكره﴾[5] بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله دليل على أنّ الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعًا على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه.

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾.

معنى الهمزة في ﴿أم﴾ الإنكار ﴿فالله هو الولي﴾ هو الذي يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد فالفاء في قوله: ﴿فالله هو الولي﴾ جواب شرط مقدّر كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه إن أرادوا وليًا بحق فالله هو الولي بالحق لا وليّ سواه ﴿وهو يحيي﴾ أي ومن شأن هذا الولي أنه يحي ﴿الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ وليًا دون من لا يقدر على شيء.

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾.

---

(1) سورة التغابن، الآية: 9.

(2) سورة الروم، الآية: 14.

(3) سورة يونس، الآية: 99.

(4) سورة يونس، الآية: 99.

(5) سورة يونس، الآية: 99.

﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله تعالى، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ﴿ذلك﴾ الحاكم بينكم هو ﴿الله ربي عليه توكلت﴾ في رد كيد أعداء الدين ﴿وإليه﴾ أرجع في كفاية شرهم وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى والرسول﴾[1] وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله ﷺ وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا الله أعلم كمعرفة الروح قال الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾[2].

فإن قُلْتَ: هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة؟ قُلْتُ: لا، لأنّ الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول الله ﷺ.

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾.

﴿فاطر السموات﴾ قرئ بالرفع والجر فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم أو خبر مبتدأ محذوف والجر على، فحكمه إلى الله فاطر السموات وذلك إلى أنيب اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿جعل لكم﴾ خلق لكم ﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم من الناس ﴿أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا﴾ أي وخلق من الأنعام أزواجًا ومعناه وخلق للأنعام أيضًا من أنفسها أزواجًا ﴿يذرؤكم﴾ يكثركم يقال ذرأ الله الخلق بثهم وكثرهم والذرو والدر والذرء اخوات ﴿فيه﴾ في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجًا حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل والضمير في يذرؤكم يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلبًا فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلتين.

فإن قُلْتَ: ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير وهلا قيل يذرؤكم به! قُلْتُ: جعل هذا التدبير كالمتبع والمعدن للبث والتكثير الا تراك تقول للحيوان في خلق الأزواج تكثير كما قال تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾[3] قالوا: مثلك لا يبخل فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدوا المبالغة في ذلك، فسلكوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عمن يسدّ مسدّه وعمن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذمم كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر ومنه قولهم قد أيفعت لذاته وبلغت أترابه يريدون إيفاعه وبلوغه وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب الا وفيهم الطيب الطاهر لذاته[4] والقصد إلى طهارته وطيبه فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله ليس كالله شيء وبين قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾[5] إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها وكانهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد: وهو نفي المماثلة عن ذاته.

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾.

ونحوه قوله عز وجل: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾[6] فإنّ معناه: بل هو جواد من غير تصوّر يد ولا بسط لها لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئًا آخر حتى أنهم استعملوها فيمن لا يد له فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له ولك أن تزعم أنّ كلمة التشبيه كرّرت للتأكيد كما كرّرها من قال: وصاليات ككما يؤثفين ومن قال، فأصبحت مثل كعصف ماكول، وقرئ ويقدّر ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ فإذا علم أنّ الغنى خير للعبد أغناه وإلا أفقره.

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾.

﴿شرع لكم من الدين﴾ دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾ والمراد إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلمًا ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة قال الله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾[7] ومحل أن أقيموا إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف كانه قيل وما ذلك المشروع فقيل هي إقامة الدين ونحوه قوله: تعلق أنّ هذه امّتكم أمة واحدة ﴿كبر على المشركين﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿ما تدعوهم إليه﴾ من إقامة دين الله والتوحيد ﴿يجتبي

---

(1) سورة النساء، الآية: 59.
(2) سورة الإسراء، الآية: 85.
(3) سورة البقرة، الآية: 179.
(4) رواه الطبراني في معجمه.
(5) سورة الشورى، الآية: 11.
(6) سورة المائدة، الآية: 64.
(7) سورة المائدة، الآية: 48.

﴿إليه﴾ يجتلب إليه ويجمع والضمير للدين بالتوفيق والتسديد **﴿من يشاء﴾** من ينفع فيهم توفيقه، ويجري عليهم لطفه.

وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾.

﴿وما تفرّقوا﴾ يعني أهل الكتاب بعد أنبياءهم **﴿إلا من بعد﴾** أن علموا أنّ الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على السنة الأنبياء **﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾** وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة **﴿لقضي بينهم﴾** حين افترقوا لعظم ما افترقوا **﴿وإنّ الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾** وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ **﴿لفي شك﴾** من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان وقيل كان الناس أمّة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم، وإنما اختلفوا للبغي بينهم وقيل وما تفرّق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾[1] وإنّ الذين أورثوا الكتاب من بعدهم هم المشركون أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل وقرئ ورّثوا وورثوا.

فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾.

﴿فلذلك﴾ فلاجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعبًا **﴿فادع﴾** إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القديمة **﴿واستقم﴾** عليها على الدعوة إليها كما أمر الله **﴿ولا تتبع أهواءهم﴾** المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب أي كتاب صحّ أنّ الله أنزله يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض كقوله تعالى: ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾[2] إلى قوله: ﴿أولئك هم الكافرون حقًا﴾[3] **﴿لأعدل بينكم﴾** في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ **﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾** أي لا خصومة لأنّ الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به فلا حاجة إلى المحاجة ومعناه: لا إيراد حجة بيننا لأنّ المتحاجّين يورد هذا حجته وهذا حجته **﴿الله يجمع بيننا﴾** يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم وهذه محاجزة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام.

فإن قُلْتَ: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قُلْتُ: المراد محاجزتهم في مواقف المقاولة لا المقاتلة.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾.

﴿يحاجون في الله﴾ يخاصمون في دينه **﴿من بعد﴾** ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليردّوهم إلى دين الجاهلية كقوله تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفارًا﴾[4] كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين كتابًا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالحق وقيل من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام **﴿داحضة﴾** باطلة زالة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾.

﴿أنزل الكتاب﴾ أي جنس الكتاب **﴿والميزان﴾** والعدل والتسوية، ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة وقيل الذي يوزن به، بالحق ملتبسًا بالحق مقترنًا به بعيدًا من الباطل أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك **﴿الساعة﴾** في تأويل البعث فلذلك قيل **﴿قريب﴾** أو لعل مجيء الساعة قريب.

فإن قُلْتَ: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قُلْتُ: لأنّ الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ويوفي لمن أوفى ويطفف لمن طفف.

يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾.

المماراة الملاجة لأنّ كل واحد منهما يمري ما عند صاحبه **﴿لفي ضلال بعيد﴾** من الحق لأنّ قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها ولشهادة العقول على أنه لا بدّ من دار الجزاء.

ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾.

﴿لطيف بعباده﴾ برّ بليغ البرّ بهم قد توصل برّه إلى جميعهم وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه وهم أحد من كلياته وجزئياته.

---

(1) سورة البينة، الآية: 4.

(2) سورة النساء، الآية: 150.

(3) سورة النساء، الآية: 151.

(4) سورة البقرة، الآية: 109.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿يرزق من يشاء﴾ بعد توصل برّه إلى جميعهم قُلْتُ: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه إلا انّ البرّ أصناف وله أوصاف والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه فمن قسم له منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه وهو الذي أراد بقوله تعالى: ﴿يرزق من يشاء﴾ كما يرزق أحد الأخوين ولدًا دون الآخر على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد ﴿وهو القويّ﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شيء ﴿العزيز﴾ المنيع الذي لا يغلب.

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾.

سمى ما يعمله العامل مما يبغي به الفائدة والزكاء حرثًا على المجاز، وفرّق بين عملي العاملين بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئًا منها لا ما يريده ويبتغيه، وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وما له نصيب قط في الآخرة، ولم ينكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾.

معنى الهمزة في ﴿أم﴾ التقرير والتقريع، وشركاؤهم شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين، وتعالى الله عن الإذن فيه، والأمر به وقيل: شركاؤهم أوثانهم، وإنما أضيفت إليهم لأنهم متخذوها شركاء لله فتارة تضاف إليهم لهذه الملابسة، وتارة إلى الله ولما كانت سببًا لضلالتهم وافتتانهم جعلت شارعة لدين الكفر كما قال إبراهيم صلوات الله عليه: إنهنّ أضللن كثيرًا من الناس ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ أي: القضاء السابق بتأجيل الجزاء أي: ولولا العدة بأنّ الفصل يكون يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم، وقرأ مسلم بن جندب وأنّ الظالمين بالفتح عطفًا له على كلمة الفصل يعني ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضى بينهم في الدنيا.

تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾.

﴿ترى الظالمين﴾ في الآخرة ﴿مشفقين﴾ خائفين خوفًا شديدًا أرق قلوبهم ﴿مما كسبوا﴾ من السيئات ﴿وهو واقع بهم﴾ يريد ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بدّ لهم منه أشفقوا أو لم يشفقوا، كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ﴿عند ربهم﴾ منصوب بالظرف لا بيشاؤن.

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾.

قرئ: ﴿يبشر﴾ من بشره ويبشر من أبشره ويبشر من بشره والأصل ذلك الثواب الذي يبشر الله به عباده فحذف الجار كقوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾[1] ثم حذف الراجع إلى الموصول كقوله تعالى: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾[2] أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده، روي أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون محمدًا يسأل على ما يتعاطاه أجرًا فنزلت الآية ﴿إلاّ المودّة في القربى﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلاً أي: لا أسألكم أجرًا إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي ولم يكن هذا أجرًا في الحقيقة؛ لأنّ قرابته قرابتهم، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة ويجوز أن يكون منقطعًا أي: لا أسألكم أجرًا قط ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم.

فإن قُلْتَ: هلا قيل إلا مودّة القربى أو إلا المودّة للقربى، ومعنى قوله: إلاّ المودّة في القربى! قُلْتُ: جعلوا مكانًا للمودّة ومقرًا لها كقولك لي: في آل فلان مودّة ولي فيهم هوى وحب شديد تريد أحبهم وهم مكان حبى ومحله، وليست في بصلة للمودّة كاللام إذا قلت إلا المودّة للقربى إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك المال في الكيس، وتقديره إلا المودّة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها والقربى مصدر كالزلفى والبشرى بمعنى قرابة، والمراد في أهل القربى وروى أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال: علي وفاطمة وابناهما[3]، ويدل عليه ما روي عن علي رضي الله عنه شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي فقال: أما ترضى أن تكون رابع أربعة أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذريتنا خلف أزواجنا[4]، وعن النبي ﷺ حرمت الجنة على من ظلم أهل

---

(1) سورة البقرة، الآية: 245.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 18.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الشورى، باب: إلا= المودة في القربى (الحديث رقم: 4818).

(4) رواه الطبراني في معجمه.

بيتي وآذاني في عترتي ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب، ولم يجازيه عليها فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لقيني يوم القيامة[1] وروى أنّ الأنصار قالوا فعلنا وفعلنا كأنهم افتخروا فقال عباس أو ابن عباس رضي الله عنهما: لنا الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي قالوا: بلى يا رسول الله قال: ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي قالوا: بلى يا رسول الله قال: أفلا تجيبونني قالوا: ما نقول يا رسول الله، قال: ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك أو لم يكذبوك فصدقناك أو لم يخذلوك فنصرناك قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله[2] فنزلت الآية وقال رسول الله ﷺ: من مات على حب آل محمد مات شهيدًا الا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورًا له الا ومن مات على حب آل محمد مات تائبًا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنًا مستكمل الإيمان الا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير الا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها الا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة الا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة الا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، الا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرًا الا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة، وقيل: لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قربى، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت[3] والمعنى: إلا أن تودوني في القربى أي في حق القربى ومن أجلها كما تقول الحب في الله والبغض في الله بمعنى: في حقه ومن أجله يعني أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى، ولا تؤذوني ولا تهيجوا عليّ وقيل: أتت الأنصار رسول الله ﷺ بمال جمعوه وقالوا يا رسول الله: قد هدانا الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نوائب وحقوق ومالك سعة فاستعن بهذا على ما ينوبك فنزلت[4] وردّه وقيل: القربى التقرّب إلى الله تعالى أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح، وقرئ إلا المودّة في القربى ﴿ومن يقترف حسنة﴾ عن السدّي أنها المودّة في آل رسول الله ﷺ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودّته فيهم والظاهر العموم في أي حسنة كانت إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودّة في القربى دلّ ذلك على أنها تناولت المودّة تناولاً أوّليًا كأن سائر الحسنات لها توابع. وقرئ يزِدْ أي يزد الله وزيادة حسنها من جهة الله مضاعفتها كقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾[5] وقرئ حسنى وهي مصدر كالبشرى، الشكور في صفة الله مجاز للاعتداد بالطاعة وتوفية ثوابها والتفضل على المثاب.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾.

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل: يتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾، فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله، والدخول في جملة المختوم على قلوبهم ومثال هذا أن يخون بعض الأمناء فيقول لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق ﴿بكلماته﴾ بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾[6] يعني: لو كان مفتريًا كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مردّ له من نصرتك عليهم إنّ الله عليم بما في صدرك وصدورهم فيجري الأمر على حسب ذلك، وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي يعني: لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك، وقيل: يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم.

فإن قُلْتَ: إن كان قوله: ﴿ويمح الله الباطل﴾ كلامًا مبتدأ غير معطوف على يختم فما بال الواو ساقطة في الخط قُلتُ: كما سقطت في قوله تعالى: ﴿ويدع الإنسان بالشر﴾[7] وقوله تعالى: ﴿سندع الزبانية﴾[8] على أنها مثبتة في بعض المصاحف يقال قبلت منه الشيء وقبلته عنه، فمعنى قبلته منه: أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشاه ومعنى قبلته عنه: عزلته عنه وأبنته عنه.

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره.
(2) رواه الطبري في تفسيره، ورواه الطبراني في معجمه الأوسط، وابن أبي حاتم في تفسيره، الزيلعي 3/237.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 3/238.
(4) قال الزيلعي غريب 3/239، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 210.
(5) سورة البقرة، الآية: 245.
(6) سورة الأنبياء، الآية: 18.
(7) سورة الإسراء، الآية: 11.
(8) سورة العلق، الآية: 18.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾.

والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود؛ لأنّ المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب، وإن كان فيه لعبد حق لم يكن بد من التفصي على طريقه وروى جابر أن أعرابيًا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر، فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: يا هذا إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين: وما التوبة قال: اسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة وردّ المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته ﴿ويعفو عن السيآت﴾ عن الكبائر إذا تيب عنها وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، ويعلم ما يفعلون قرئ بالتاء والياء أي: يعلمه فيثيب على حسناته ويعاقب على سيئاته.

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾.

﴿ويستجيب الذين آمنوا﴾ أي يستجب لهم فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم﴾ أي: يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلاً أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم وقيل الاستجابة فعلهم أي: يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها ﴿ويزيدهم﴾ هو ﴿من فضله﴾ على ثوابهم وعن سعيد بن جبير هذا من فعلهم يجيبونه إذا دعاهم، وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما بالنا ندعو فلا نجاب قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه، ثم قرأ والله يدعو إلى دار السلام ويستجيب الذين آمنوا.

۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾.

﴿لبغوا﴾ من البغي وهو الظلم أي لبغي هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأنّ الغنى مبطرة مأشرة وكفى بحال قارون عبرة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: أخوف ما أخاف على أمّتي زهرة الدنيا وكثرتها ولبعض العرب[1]، وقد جعل الوسمي ينبت بيننا، وبين بني رومان نبعًا وشوحطًا يعني: أنهم أحيوا فحدّثوا أنفسهم بالبغي والتفاتن، أو من البغي وهو البذخ والكبر أي لتكبروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد وقيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى قال خباب بن الأرت: فينا نزلت وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها ﴿بقدر﴾ بتقدير يقال: قدره قدرًا وقدرًا ﴿خبير بصير﴾ يعرف ما يؤل إليه أحوالهم فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعًا لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا.

فإن قُلْتَ: قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض ومنهم مبسوط لهم ومنهم مقبوض عنهم، فإن كان المبسوط لهم يبغون فلم بسط لهم؟ فإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط فلم شرطه؟ قُلْتُ: لا شبهة في أنّ البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾.

قرئ: ﴿قنطوا﴾ بفتح النون وكسرها ﴿وينشر رحمته﴾ أي: بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتدّ القحط وقنط الناس فقال: مطروا إذًا[2] أراد هذه الآية ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء كأنه قال: ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر غيرها من رحمته الواسعة ﴿الولي﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ﴿الحميد﴾ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾.

﴿وما بث﴾ يجوز أن يكون مرفوعًا ومجرورًا يحمل على المضاف إليه والمضاف.

فإن قُلْتَ: لم جاز ﴿فيهما من دابة﴾ والدواب في الأرض وحدها قُلْتُ: يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبسًا ببعضه كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل، وإنما هو في فخذ من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم وبنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله نويس منهم ومنه قوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرج من الملح[3] ويجوز أن

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، (الحديث: 1465).

وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، الحديث: (121 ـ 1052).

(2) رواه عبد الرزاق في تفسيره، وذكره الثعلبي، الزيلعي: 3/240.

(3) قال أحمد: إطلاق الدواب على الأناسي بعيد من عرف اللغة، فكيف في إطلاقه على الملائكة، والصواب والله أعلم هو الوجه الأوّل. وقد جاء مفسراً في غير ما آية، كقوله: ﴿إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾، ثم قال: ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل=

يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران، فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسي ولا يبعد أن يخلق في السموات حيوانًا يمشي فيها مشى الأناسي على الأرض سبحان الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق، إذا يدخل على المضارع كما يدخل على الماضي قال الله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾ ومنه ﴿إذا يشاء﴾ وقال الشاعر:

وإذا ما أشاء أبعث منها ... آخر الليل ناشطًا مذعورًا

وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾.

في مصاحف أهل العراق ﴿فبما كسبت﴾ بإثبات الفاء على تضمين ما معنى الشرط وفي مصاحف أهل المدينة بما كسبت بغير فاء على أنّ ما مبتداة وبما كسبت خبرها من غير تضمين معنى الشرط الآية مخصوصة بالمجرمين[1]، ولا يمتنع أن يستوفي الله بعض عقاب المجرم ويعفو عن بعض فأمّا من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة وعن النبي ﷺ ما من اختلاج عرق ولا خدش عود، ولا نكبة حجر إلا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر[2] وعن بعضهم من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه وأنّ ما عفا عنه مولاه أكثر كان قليل النظر في إحسان ربه إليه وعنه آخر العبد ملازم للجنايات في كل أوان وجناياته في طاعاته أكثر من جناياته في معاصيه؛ لأنّ جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه والله يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة ولولا عفوه ورحمته لهلك في أوّل خطوة، وعن علي رضي الله عنه وقد رفعه من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة ومن عوقب في الدنيا لم تثن عليه العقوبة في الآخرة[3]، وعنه رضي الله عنه هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن.

وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾.

﴿بمعجزين﴾ بفائتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿من ولي﴾ من متول بالرحمة.

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾.

الجوار: السفن، وقرئ: ﴿الجوار﴾ ﴿كالأعلام﴾ كالجبال قالت الخنساء: كأنه علم في رأسه نار.

إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾.

وقرئ: ﴿الرياح فيظللن﴾ بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل نحو ضل يضل ويضل ﴿رواكد﴾ ثوابت لا تجري ﴿على ظهره﴾ على ظهر البحر[4] ﴿لكل صبار﴾ على بلاء الله ﴿شكور﴾ لنعمائه وهما صفتا المؤمن المخلص فجعلهما كناية عنه وهو الذي وكل همته بالنظر في آيات الله فهو يستملي منها العبر.

أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾.

﴿يوبقهن﴾ يهلكهن، والمعنى أنه: إن يشأ يبتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين اما أن يسكن الريح فيركد الجواري على متن البحر ويمنعهن من الجري وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن إغراقًا، بسبب ما كسبوا من الذنوب ﴿ويعف عن كثير﴾ منها.

فإن قُلْتَ: علام عطف ﴿يوبقهن﴾! قُلْتُ: على يسكن لأنّ المعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها فيغرقن بعصفها.

فإن قُلْتَ: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه؟ قُلْتُ: معناه، أو إن يشأ يهلك ناسًا وينج ناسًا على طريق العفو عنهم.

فإن قُلْتَ: فمن قرأ ويعفو قُلْتُ: قد استأنف الكلام.

وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾.

فإن قُلْتَ: فما وجوه القراآت الثلاث في ﴿ويعلم﴾ قُلْتُ:

دابة﴾، فخص هذا الأمر بالأرض، والله أعلم.

(1) قال أحمد: هذه الآية تنكسر عندها القدرية، ولا يمكنهم ترويج حيلة في صرفها عن مقتضى نصها، فإنهم حملوا قوله تعالى: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ على التائب وهو غير ممكن لهم ههنا، فإنه قد أثبت التبعيض في العفو، ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقروناً بالتوبة، فإنه يلزم تبعيض التوبة أيضاً، وهي عندهم لا تتبعض، وكذلك نقل الإمام عن أبي هاشم وهو رأس الاعتزال، ﴿والذي تولى كبره منهم﴾، فلا محمل لها إلا الحق الذي لا مرية فيه، وهو مردّ العفو إلى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة، وقول الزمخشري: إنّ الآلام التي تصيب الأطفال والمجانين لها أعواض إنما يريد به وجوب العوض على الله تعالى على سياق معتقده، وقد أخطأ على الأصل والفرع؛ لأنّ المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض، فلم تقل بإيجابه في الأطفال والمجانين، ألا ترى أنّ القاضي أبا بكر ألزمهم قبح إيلام = البهائم والأطفال والمجانين، فقال: لا أعراض لها وليس مترتباً على استحقاق سابق فيحسن، فإنما يتم إلزامه بموافقتهم له على أن لا أعواض لها.

(2) لم أقف عليه عند البيهقي في الشعب ولا عند عبد الرزاق.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: الحد كفارة، (الحديث: 2604).

وأخرجه أحمد في المسند: 5/214.

وأخرجه الحاكم في المستدرك: 2/445.

(4) قال أحمد: وهم يقولون: إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذاباً بخلاف الرياح، وهذه الآية تخرم الإطلاق، فإنّ الريح المذكورة هنا نعمة ورحمة إذ بواسطتها يسير الله السفن في البحر حتى لو سكنت لركدت السفن، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه، وأما اطراده فلا. وما ورد في الحديث: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» فلأجل الغالب في الإطلاق، والله أعلم.

أما الجزم فعلى ظاهر العطف وأما الرفع فعلى الاستئناف وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ﴿ويعلم الذين يجادلون﴾ ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن منه قوله تعالى: ﴿ولنجعله آية للناس﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾[2] وأما قول الزجاج: النصب على إضمار أن لأنّ قبلها جزاء تقول ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك على وأنا أكرمك وإن شئت وأكرمك جزمًا ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه قال: واعلم أنّ النصب بالفاء والواو في قوله: إن تأتني آتك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله والحق بالحجاز فأستريحا فهذا يجوز، وليس بحدّ الكلام ولا وجهه إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأوّل فعل، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام، ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه اهـ ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحدّ الكلام ولا وجهه ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة.

فإن قُلْتَ: فكيف يصح المعنى على جزم ويعلم؟ قُلْتُ: كأنه قال وإن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين ﴿من محيص﴾ من محيد عن عقابه.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ما الأولى ضمنت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية، عن علي رضي الله عنه اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿والذين يجتنبون﴾ عطف على الذين آمنوا وكذلك ما بعده ومعنى ﴿كبائر الإثم﴾ الكبائر من هذا الجنس، وقرئ كبير الإثم، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه كبير الإثم هو الشرك ﴿هم يغفرون﴾ أي: هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ وإسناد يغفرون إليه لهذه الفائدة ومثله هم ينتصرون.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿والذين استجابوا لربهم﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿وأقاموا الصلوة﴾ وأتموا الصلوات الخمس، وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم أي: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه، وعن الحسن ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم[3]، والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي: ذو شورى وكذلك قولهم: ترك رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا، وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق.

فإن قُلْتَ: أهم محمودون على الانتصار قُلْتُ: نعم لأنّ من أخذ حقه غير متعد حدّ الله وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم أورد على سفيه محاماة على عرضه وردعًا له فهو مطيع وكل مطيع محمود.

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به قال الله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾[4] يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا والمعنى: أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة فإذا قال: أخزاك الله قال أخزاك الله ﴿فمن عفا وأصلح﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء كما قال تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[5] ﴿فأجره على الله﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم وقوله: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه[6] تجاوز السيئة والاعتداء خصوصًا في حال الحرد والتهاب الحمية فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر، وعن النبي ﷺ إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم قال: فيقوم خلق فيقال لهم ما أجركم على الله، فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله[7].

---

(1) سورة مريم، الآية: 21.
(2) سورة الجاثية، الآية: 22.
(3) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: 1/358، باب: المشورة، (حديث: 258).
(4) سورة النساء، الآية: 78.
(5) سورة فصلت، الآية: 34.
(6) قال أحمد: معنى حسن يجاب به عن قول القائل لم ذكر هذا عقب العفو، مع أن الانتصار ليس بظلم فيشفى غليل السائل، ويحصل منه على كل طائل.
(7) رواه أبو نعيم في الحلية: 8/53، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حسن الخلق فصل في ترك الغضب، الحديث: 8313.

وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾.

﴿بعد ظلمه﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول وتفسره قراءة من قرأ بعد ما ظلم ﴿فاولئك﴾ إشارة إلى معنى من دون لفظه ﴿ما عليهم من سبيل﴾ للمعاقب، ولا للعاتب والعائب.

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾.

﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿ويبغون في الأرض﴾ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون.

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾.

﴿ولمن صبر﴾ على الظلم والأذى ﴿وغفر﴾ ولم ينتصر وفوّض أمره إلى الله ﴿إن ذلك﴾ منه ﴿لمن عزم الأمور﴾ وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم، ويحكى أن رجلاً سب رجّلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية فقال: الحسن عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون، وقالوا: العفو مندوب إليه، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبًا إليه وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرته وكان ينهاها فلا تنتهي فقال لعائشة: دونك فانتصري[1].

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾.

﴿ومن يضلل الله﴾ ومن يخذل الله ﴿فما له من وليّ من بعده﴾ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾.

﴿خاشعين﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿من الذل﴾ وقد يعلق من الذل بينظرون ويوقف على خاشعين ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها كما يفعل في نظره إلى المحاب، وقيل: يحشرون عميًا فلا ينظرون إلا بقلوبهم وذلك نظر من طرف خفي وفيه تعسف ﴿يوم القيامة﴾ إما أن يتعلق بخسر واو يكون قول المؤمنين: واقعًا في الدنيا وإما أن يتعلق بقال أي يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾.

﴿من الله﴾ من صلة لا مرد أي: لا يرده الله بعدما حكم به، أو من صلة يأتي أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده، والنكير الإنكار أي: مالكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيئًا مما اقترفتموه ودوّن في صحائف أعمالكم.

فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾.

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد لقوله: ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ ولم يرد إلا المجرمين لأن إصابه السيئة بما قدّمت أيديهم إنما تستقيم فيهم. والرحمة النعمة من الصحة والغنى والأمن، والسيئة البلاء من المرض والفقر والمخاوف، والكفور البليغ الكفران ولم يقل، فإنه كفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال: ﴿إنّ الإنسان لظلوم كفار﴾ ﴿إنّ الإنسان لربه لكنود﴾ والمعنى انه ينكر البلاء وينسى النعم[2] ويغمطها.

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾.

لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدّها أتبع ذلك أنّ له الملك، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته فيخص بعضًا بالإناث وبعضًا بالذكور وبعضًا بالصنفين جميعًا ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولدًا قط.

فإن قُلْتَ: لم قدّم الإناث أوّلاً على الذكور مع تقدّمهم عليهنّ، ثم رجع فقدّمهم ولم عرف الذكور بعد ما ذكر الإناث؟ قُلْتُ: لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد، فقدّم الإناث لأنّ سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم والأهم واجب التقديم وَلِيَلِيَ الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر

(1) أخرجه أحمد في المسند: 6/93.

(2) قال أحمد: وقد أغفل هذه النكتة بعينها في الآية التي قبل هذه، وهي قوله تعالى: ﴿وقال الذين آمنوا أن الخاسرين الذين خسروا انفسهم وأهليهم يوم القيامة الا إنّ الظالمين في عذاب مقيم﴾= فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن فيقال: الا إنهم في عذاب مقيم، فاتى هذا الظاهر تسجيلاً عليهم بلسان ظلمهم.

البلاء وأَخَّرَ الذكور، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم؛ لأنّ التعريف تنويه وتشهير كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم أعطى بعد ذلك لا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرّف أن تقديمهنّ لم يكن لتقدّمهنّ، ولكن لمقتضٍ آخر فقال: ﴿ذكرانًا وإناثًا﴾ كما قال: إنا خلقناكم من ذكر وأنثى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، وقيل: نزلت في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه حيث وهب لشعيب ولوط إناثًا ولإبراهيم ذكور ولمحمد ذكورًا وإناثًا، وجعل يحيى وعيسى عقيمين ﴿إنه عليم﴾ بمصالح العباد ﴿قدير﴾ على تكوين ما يصلحهم.

۞ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وما كان لبشر﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أن يكلمه الله إلا﴾ على ثلاثة أوجه إما على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده، وعن مجاهد أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره قال عبيد بن الأبرص:

وأوحى إليّ الله أن قد تأمروا ... بإبل أبي أوفى فقمت على رجل

أي ألهمني وقذف في قلبي وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه لأنه في ذاته غير مرئي، وقوله: ﴿من وراء حجاب﴾ مثل أي: كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب فيسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى، ويكلم الملائكة وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة، فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى وقيل: وحيًا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة ﴿أو يرسل رسولاً﴾ أي نبيًا كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم ووحيًا وأن يرسل مصدران واقعان موقع الحال لأنّ أن يرسل في معنى إرسال ومن وراء حجاب ظرف واقع موقع الحال أيضًا كقوله تعالى: ﴿وعلى جنوبهم﴾[1] والتقدير وما صح أن يكلم أحدًا إلا موحيًا أو مسمعًا من وراء حجاب أو مرسلاً ويجوز أن يكون موحيًا موضوعًا موضع كلامًا لأنّ الوحي كلام خفي في سرعة كما تقول: لا أكلمه إلا جهرًا وإلا خفاتًا لأنّ الجهر والخفات ضربان من الكلام، وكذلك إرسالاً جعل الكلام على لسان الرسول بمنزلة الكلام بغير واسطة تقول قلت لفلان كذا، وإنما قاله وكيلك أو رسولك، وقوله: أو من وراء حجاب معناه أو إسماعًا من وراء حجاب ومن جعل وحيًا في معنى أن يوحي وعطف يرسل عليه على معنى: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أي: إلا بأن يوحى أو بأن يرسل فعليه أن يقدر قوله أو من وراء حجاب تقديرًا يطابقهما عليه نحو أو أن يسمع من وراء حجاب، وقرئ أو يرسل رسولاً فيوحي بالرفع على أو هو يرسل أو بمعنى مرسلاً عطفًا على وحيًا في معنى موحيًا، وروي أنّ اليهود قالت للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًا كما كلمه موسى ونظر إليه فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك فقال: لم ينظر موسى إلى الله فنزلت[2] وعن عائشة رضي الله عنها من زعم أنّ محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، ثم قالت: أو لم تسمعوا ربكم يقول فتلت هذه الآية ﴿إنه عليّ﴾[3] عن صفات المخلوقين ﴿حكيم﴾ يجري أفعاله على موجب الحكمة فيكلم تارة بواسطة وأخرى بغير واسطة إما إلهامًا وإما خطابًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿روحًا من أمرنا﴾ يريد ما أوحى إليه لأنّ الخلق يحيون به في دينهم كما يحي الجسد بالروح.

فإن قُلْتَ: قد علم أن رسول الله ﷺ ما كان يدري ما القرآن قبل نزوله عليه[4] فما معنى قوله: ﴿ولا الإيمان﴾ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا، وتمكنوا من النظر

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 191.
(2) لم يخرجه الزيلعي.
(3) تقدم في سورة الأحزاب.
(4) قال أحمد: لما كان معتقد الزمخشري: أنّ الإيمان اسم التصديق مضافاً إليه كثير من الطاعات فعلاً وتركاً، حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الإيمان، ولا يناله وعد المؤمنين، وتفطن لإمكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية عدها فرصة لينتهزها، وغنيمة ليحرزها، وأبعد الظن بإرادة مذهب أهل السنة على صورة السؤال ليجيب عنه بمقتضى معتقده، فكأنه يقول: لو كان الإيمان وهو مجرد التوحيد والتصديق، كما تقول أهل السنة للزم أن ينفي عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث بهذه الآية كونه مصدّقاً، ولما كان التصديق ثابتاً للنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعث باتفاق الفريقين، لزم أن لا يكون = الإيمان المنفي في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته، وحينئذ يتعين صرفه إلى مجموع أشياء من جملتها التصديق، ومن جملتها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحي، وحينئذ يستقيم نفيه قبل البعث، وهذا الذي طمع فيه يخرّط القتاد ولا يبلغ منه ما أراد، وذلك أنّ أهل السنة وإن قالوا: أنّ الإيمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد، وإن كان فاسقاً يخصون التصديق بالله وبرسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الإيمان بالتصديق برسالة نفسه، كما أنّ أمّته مخاطبون بتصديقه ولا شكّ أنه قبل الوحي لم يكن يعلم أنه رسول الله، وما علم ذلك إلا بالوحي، وإذا كان الإيمان عند أهل السنة هو التصديق بالله ورسوله، ولم يكن هذا المجموع ثابتاً قبل الوحي، بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة استقام نفي الإيمان قبل الوحي على هذه الطريقة الواضحة، والله أعلم.

والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده، فكيف لا يعصمون من الكفر؟ قُلْتُ: الإيمان اسم يتناول أشياء بعضها الطريق إليه العقل وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي الا ترى انه قد فسر الإيمان في قوله تعالى: ﴿ما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[1] بالصلاة لأنها بعض ما يتناوله الإيمان ﴿من نشاء من عبادنا﴾ من له لطف ومن لا لطف له فلا هداية تجدي عليه.

صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾.

﴿صراط الله﴾ بدل، وقرئ لتهدي أي: يهديك الله وقرئ لتدعوا عن رسول الله ﷺ من قرأ حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزخرف مكية

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾.

اقسم بالكتاب المبين وهو القرآن.

وجعل قوله: ﴿إنا جعلناه قرآنًا عربيًا﴾ جوابًا للقسم[3] وهو من الايمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد ونظيره قول أبي تمام: وثناياك إنها إغريض ﴿المبين﴾ البين للذين انزل عليهم لأنه بلغتهم وأساليبهم وقيل: الواضح للمتدبرين وقيل: المبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة في ابواب الديانة ﴿جعلناه﴾ بمعنى: صيرناه معدّى إلى مفعولين أو بمعنى: خلقناه معدّى إلى واحد كقوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ و﴿قرآنًا عربيًا﴾ حال، ولعلّ مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ومعنى الترجي أي: خلقناه عربيًا غير عجمي إرادة أن تعقله العرب ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته.

وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾.

وقرئ أمّ الكتاب بالكسر وهو اللوح كقوله تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ﴾[4] سمى بأم الكتاب لانه الاصل الذي اثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ، على رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزًا من بينها ﴿حكيم﴾ ذو حكمة بالغة أي: منزلته عند منزلة كتاب هما صفتاه وهو مثبت في أم الكتاب هكذا.

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾.

﴿افنضرب عنكم الذكر صفحًا﴾ بمعنى افننحى عنكم الذكر وننوده عنكم على سبيل المجاز من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض ومنه قول الحجاج: ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل وقال طرفة:

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

والفاء للعطف على محذوف تقديره انهملكم فنضرب عنكم الذكر إنكارًا لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم من إنزاله الكتاب وخلقه قرآنًا عربيًا ليعقلوه ويعملوا بمواجبه، وصفحًا على وجهين أما مصدره من صفح عنه إذا أعرض منتصب على أنه مفعول له على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن، وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم وإمّا بمعنى: الجانب من قولهم نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه على معنى افننحيه عنكم جانبًا فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه جانبًا وامش جانبًا وتعضده قراءة من قرأ صفحًا بالضم وفي هذه القراءة وجه آخر وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوف، وينتصب على الحال أي: صافحين معرضين ﴿إن كنتم﴾ أي لأن كنتم وقرئ أن كنتم وإذ كنتم.

فإن قُلْتَ: كيف استقام معنى إن الشرطية وقد كانوا مسرفين على البتّ؟ قُلْتُ: هو من الشرط الذي نكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوفني حقي وهو عالم بذلك ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجلالاله.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾.

﴿وما يأتيهم﴾ حكاية حال ماضيه مستمرّة أي: كانوا على ذلك، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾.

الضمير في ﴿أشدّ منهم﴾ للقوم المسرفين لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم ﴿ومضى

---

(1) سورة البقرة، الآية: 143.

(2) ذكره الثعلبي، وابن مردويه في التفسير، الزيلعي: 3/246.

(3) قال أحمد: تنبيه حسن جداً ووجه التناسب فيه انه اقسم بالقرآن، وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بانه قرآن عربي مرجوّ به أن يعقل به العالمون، أي: يتعقلوا آيات الله تعالى، فكان جواب القسم مصححاً للقسم، وكذلك اقسم ابو تمام بالثنايا، =

= وإنما يقسم الشعراء بمثل هذه الأشعار بأنه في غاية الحسن ثم جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن لا أنها هي أغريض، وهو من أحسن تشبيهات الثنايا، فجعل المقسم عليه مصححاً للقسم، والله أعلم.

(4) سورة البروج، الآيتان: 21 ـ 22.

مثل الأولين﴾ أي: سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل وهذا وعد لرسول الله ﷺ ووعيد لهم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم﴾ وما سرد من الأوصاف عقيبه إن كان من قولهم[1] فما تصنع بقوله: ﴿فأنشرنا به بلدة ميتًا كذلك تخرجون﴾ وإن كان من قول الله فما وجهه؟ قُلْتُ: هو من قول الله لا من قولهم ومعنى قوله: ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم الذي هو من صفته كيت وكيت لينسبنّ خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾.

﴿بقدر﴾ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ولم يكن طوفانًا.

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾.

﴿الأزواج﴾ الأصناف ﴿ما تركبون﴾ أي تركبونه.

فإن قُلْتَ: يقال ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك[2]، وقد ذكر الجنسين فكيف قال ما تركبونه؟ قُلْتُ: غلب المتعدّي بغير واسطة لقوّته على المتعدّي بواسطة، فقيل: تركبونه.

لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾.

﴿على ظهوره﴾ على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام، ومعنى ذكر نعمة الله عليهم: أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها ثم يحمدوا عليها بألسنتهم، وهو ما يروى عن النبي ﷺ إنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا إلى قوله، لمنقلبون وكبر ثلاثًا وهلل ثلاثًا[3] وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربي لغفور رحيم[4]، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال: سبحان الذي سخر لنا هذا فقال: أبهذا أمرتم فقال: وبم أمرنا: قال أن تذكروا نعمة ربكم كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه[5]، وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله ومحافظتهم على دقيقها وجليلها

---

(1) قال أحمد: الذي يظهر أن الكلام مجزأ فبعضه من قولهم، وبعضهم من قول الله تعالى، فالذي هو من قولهم: خلقهنّ وما بعده من قول الله عز وجل، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهنّ الله، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى، ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله﴾، ثم لما قالوا: خلقهنّ الله وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات، ولما سيق الكلام كله سياقه، وأخذه حذف الموصوف من كلامهم، وأقيمت الصفات المذكورة في كلام الله تعالى مقامه، كأنه كلام واحد، ونظير هذا أن تقول للرجل: من أكرمك من القوم، فيقول: أكرمني زيد، فتقول أنت واصفاً للمذكور الكريم الجوّاد الذي من صفته كذا وكذا، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام الله عز وجل جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الافتنان في البلاغة، فجاء أوّله على لفظ الغيبة، وآخره على الانتقال منها إلى التكلم في قوله: فأنشرنا كل ذلك افتنان في أفنان البلاغة. ومن هذا النمط قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربّي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾، فجاء أوّل الكلام حكاية عن موسى إلى قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام الله تعالى، فوصف ذاته أوصافاً متصلة بكلام موسى، حتى كأنه كلام واحد وابتدأ في ذكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله: ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾، فانظر إلى تحقيق التطبيق بين الآيتين تر العجب، والله الموفق.

(2) قال أحمد: لم يحرّر العبارة في هذا الموضع، فإنّ قوله: غلب المتعدّي بغير واسطة على المتعدّى بنفسه يوهم أنّ بين الفعلين تبايناً وليس كذلك، فإنّ المتعدّى إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدّى إلى السفن غاية ما، ثم أنّ العرب خصته باعتبار بعض مفاعيله بالواسطة، وباعتبار بعضها بالتعدّي بنفسه، والاختلاف= بالتعدّي والقصور أوباختلاف آلات التعدّي، وباختلاف أعداد المفاعيل لا يوجب الاختلاف في المعنى، فمن ثم يعدّون الفعل الواحد مرّة بنفسه ومرّة بواسطة؛ مثل: سكرت وأخواته، ويعدّون الأفعال المترادفة بآلات مختلفة مثل: دعوت وصليت، فإنك تقول: صلى النبي على آل أبي أوفى، ولو قلت: دعا على آل أبي أوفى لأفهم عكس المقصود، ولكن دعا لآل أبي أوفى، ويعدّون بعضها إلى مفعولين ومرادفه إلى مفعول واحد كعلم وعرف، فلا يترتب على الاختلاف بالتعدّي والقصور الاختلاف في المعنى، فالذي يحرّر من هذا إن ركب باعتبار القبيلين معناه واحد، وإن خص أحدهما باقتران الواسطة الآخر بسقوطها، فالصواب لحد الأمرين، أمّا تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفرداً، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه، والأقرب تعليله باعتبار التعدّي بنفسه، ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى: ﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ على أحد التأويلين فيه، فإن التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى أعني أجمع على الأمر وجمع الشركاء، ولكن لما تقاربا غلب إحداهما على الآخر، ثم جعل المغلب هو المتعدّي بنفسه، والله أعلم.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: المسافر، (الحديث: 2696)، أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا سافر، (الحديث: 2599)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج، وغيره.

(4) قال الزيلعي غريب، لكن رواه الطبراني في معجمه من قوله ﷺ لا من فعله إذ لا يعرف أن النبي ﷺ ركب السفينة، الزيلعي: 3/ 250.

(5) رواه الطبراني في كتاب: الدعاء، ورواه الطبري، الزيلعي: 3/ 251.

جعلنا الله من المقتدين بهم والسائرين بسيرتهم، فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات، فكيف بالنظر في لطائف الديانات ﴿مقرنين﴾ مطيقين يقال أقرن الشيء إذا أطاقه قال ابن هرمة:

وأقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصد يا دعد والهجر

وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به لأنّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف ألا ترى إلى قولهم في الضعيف لا يقرن به الصعبة وقرئ مقرنين والمعنى واحد.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل بذلك قوله: ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ قُلْتُ: كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر واتصالاً بسبب من أسباب التلف كان من حق الراكب، وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله غير منقلب من قضائه، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدًا للقاء الله بإصلاحه من نفسه والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه، ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا نتنزه على الخيل، أو في بعض الزوارق فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم، وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم لا يذكرون إلا الشيطان ولا يمتثلون إلا أوامره، وقد بلغني أنّ بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر فلم يصح إلا بعد ما اطمأنت به الدار، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمره الله به في هذه الآية وقيل: يذكرون عند الركوب ركوب الجنازة.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ١٥﴾.

﴿وجعلوا له من عباده جزءًا﴾ متصل بقوله: ولئن سألتهم أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزأ فوصفوه بصفات المخلوقين ومعنى: من عباده جزأ إن قالوا الملائكة بنات الله فجعلوهم جزأ له وبعضنا منه كما يكون الولد بضعة من والده وجزأ له، ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالأناث وادعاء أنّ الجزء في لغة العرب اسم للإناث وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث متحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتًا وبيتًا.

إن أجزأت حرة يومًا فلا عجب زوجتها من بنات الأوس مجزئة

وقرئ جزؤا بضمتين ﴿لكفور مبين﴾ لجحود للنعمة ظاهر جحوده لأنّ نسبة الولد إليه كفر والكفر أصل لكفران كله.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ١٦﴾.

﴿أم اتخذ﴾ بل اتخذوا الهمزة للإنكار تجهيلاً لهم وتعجيبًا من شأنهم حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزأ حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين، وهو الإناث دون الذكور على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهن ولقد بلغ بهم المقت إلى أنّ وأدوهنّ[1] كأنه قيل: هبوا أنّ إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضًا، وتمثيلاً أما

---

(1) قال أحمد: نحن معاشر أهل السنة نقول: إنّ كل شيء بمشيئة الله تعالى حتى الضلالة والهدى اتباعاً لدليل العقل وتصديقاً لنص النقل في أمثال قوله تعالى: ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيداً، ولا تفيده إلا تصويباً وتسديداً فنقول، إذا قال الكافر: لو شاء الله ما كفرت فهذه كلمة حق أراد بها باطلاً أما كونها كلمة حق فلما مهدناه وأما كونه أراد بها باطلاً، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله توهماً أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضلّ أن لا يعاقبه على ذلك؛ لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهم القدرية إخوان الوثنية ذلك، فأشركوا بربهم، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة؛ لأنّ هؤلاء أشركوا أنفسهم الدنية في ملك ربهم المتوحد بالربانية جلّ وعلا، فإذا وضح ما قلناه، فإنما رد الله عليهم مقالتهم هذه لأنهم توهموا أنها حجة على الله فدحض الله حجتهم وأكذب أمنيتهم، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض، فقال: ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون، وإن هم إلا يظنون، وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا = تخرصون﴾ فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب الرسل، والإشراك بالله اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم لو شاء الله ما أشركنا، فشبه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أوائلهم، ثم بين أنه معتقد نشا عن ظن خلب وخيال مكذب، فقال: ﴿إن تتبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾، ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقالتهم حجة على الله أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله: ﴿فلله الحجة البالغة﴾، ثم أوضح في الردّ عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك لا لأنّ المقالة في نفسها كذب، فقال: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾، وهو معنى قولهم: لو شاء ما أشركنا من حيث أن لو مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة، فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم بل شاء ضلالتهم ولو شاء هدايتهم لما ضلوا فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم والنور اللائح والمنهج الواضح، والذي يدحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أنّ الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم هو أنه تعالى جعل للعبد تأتياً وتيسراً للهداية، وغيرها من الأفعال الكسبية حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف؛ لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسْرية، فهذه الآية أقامت الحجة ووضحت لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة المحجة، ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم في سلك الأفهام الكثيفة، فلا جرم أنّ أفهامهم تبددت، وأفكارهم تبلدت فغلت طائفة القدرية، واعتقدت أنّ العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة

تستحيون من الشطط في القسمة ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما. وتنكير بنات وتعريف البنين وتقديمهنّ في الذكر عليهم لما نكرت في قوله تعالى: ﴿يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور﴾.

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾.

﴿بما ضرب للرحمن مثلاً﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً أي: شبهًا لأنه إذا جعل الملائكة جزأ لله وبعضًا منه فقد جعله من جنسه ومماثلاً له لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت لك بنت اغتنم واربدّ وجهه غيظًا وتأسفًا وهو مملوء من الكرب وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت:

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا تلد البنينا ... ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما ناخذ ما أعطينا

والظلول بمعنى الصيرورة كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها، وقرئ مسود ومسواد على أن في ظل ضمير المبشر ووجهه مسود جملة واقعة موقع الخبر ثم قال: أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته.

أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾.

وهو أنه: **﴿ينشأ في الحلية﴾** أي يتربى في الزينة والنعمة وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين ليس عنده بيان ولا يأتي ببرهان يحتج به من يخاصمه، وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهنّ عن فطرة الرجال يقال: فلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها، وفيه أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى[1]، وقرئ ينشأ وينشأ ويناشأ ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء المغالاة بمعنى الإغلاء، قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ونسبوا إليه أخس النوعين وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله فاستخفوا بهم واحتقروهم.

وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾.

وقرئ: **﴿عباد الرحمن﴾** وعبيد الرحمن وعبد الرحمن وهو مثل لزلفاهم واختصاصهم وإناثًا وأنثًا جمع الجمع، ومعنى جعلوا: سموا وقالوا: أنهم أناث، وقرئ اشهدوا وأشهدوا بهمزتين مفتوحة ومضمومة وأشهدوا بألف بينهما وهذا تهكم بهم بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرقوا إليه باستدلال ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم فأخبروا عن هذه المشاهدة **﴿ستكتب شهادتهم﴾** التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم **﴿ويسئلون﴾** وهذا وعيد، وقرئ سيكتب وسنكتب بالياء والنون وشهادتهم وشهاداتهم ويساءلون على يفاعلون.

وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ هما كفرتان أيضًا مضمومتان إلى الكفرات الثلاث وهما عبادتهم الملائكة من دون الله وزعمهم أن عبادتهم بمشيئة الله كما يقول إخوانهم المجبرة.

فإن **قُلْتَ:** ما أنكرت على من يقول قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين! **قُلْتُ:** لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين وادعاء ما لا دليل عليه باطل على أن الله تعالى قد حكى عنه ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر أنهم جعلوا له من عباده جزأ وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثًا وأنهم عبدوهم، وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكي الذي هو إيمان عنده لوجدوا في النطق به مدحًا لهم من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء، فبقى أن يكونوا جادّين وتشترك كلها في أنها كلمات كفر، فإن قالوا نجعل هذا الأخير وحده مقولاً على وجه الهزء دون ما قبله فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لتسوية مذهبهم الباطل ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزأ لم يكن لقوله تعالى: **﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾** معنى لأنّ من قال: لا إلَه إلاّ الله على طريق الهزء كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه

= ربه وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار، وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطرار أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطاً، وأرشدهم إلى الطريق الوسطى، فانتهجوا سبل السلام، وساروا ورائد التوفيق لهم إمام مستضيئين بأنوار العقول المرشدة إلى أنّ جميع الكائنات بقدرة = الله تعالى ومشيئته، ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة لما وجدوه من التفرّقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة، لكنها قدرة تقارن بلا تأثير وتمييز بين الضرورى والاختياري في التصوير، فهذا هو التحقيق، والله ولي التوفيق.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: اللباس وآدابه، (الحديث رقم: 5454).

ولا يكذب، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جاداً كان أو هازئًا.

فإن قُلْتَ: ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم: إنّ الملائكة بنات الله من علم إن هم إلا يخوضون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة الله! قُلْتُ: تَمَحُّلُ مُبْطِل وتحريف مكابر ونحوه قوله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم﴾[1].

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾.

الضمير في ﴿من قبله﴾ للقرآن أو الرسول، والمعنى: أنهم ألصقوا عبادة غير الله بمشيئة الله قولاً قالوه غير مستند إلى علم، ثم قال: أم آتيناهم كتابًا قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحي فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم.

بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿إنا وجدنا آباءنا على أمّة﴾ على دين، وقرئ على ﴿إمة﴾ بالكسر، وكلتاهما من الأم وهو القصد فالأمّة الطريقة التي تؤم أي: تقصد كالرحلة للمرحول إليه والإمة الحالة التي يكون عليها الآم، وهو القاصد وقيل: على نعمة وحالة حسنة ﴿على آثارهم مهتدون﴾ خبر إن أو الظرف صلة لمهتدون.

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿مترفوها﴾ الذين أترفتهم النعمة أي: أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويعافون مشاق الدين وتكاليفه.

۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾.

قرئ: ﴿قل﴾ وقال وجئتكم وجئناكم يعني: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آباءكم قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾.

قرئ: ﴿براء﴾ بفتح الباء وضمها، وبرئ فبرئ وبراء نحو كريم كرام، وبراء مصدر كظماء ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة والمذكر والمؤنث يقال: نحن البراء منك والخلاء منك.

إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾.

﴿الذي فطرني﴾ فيه غير وجه أن يكون منصوبًا على أنه استثناء منقطع كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين وأن يكون مجرورًا بدلاً من المجرور بمن كأنه قال: إنني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني.

فإن قُلْتَ: كيف تجعله بدلاً وليس من جنس ما يعبدون من وجهين أحدهما أنّ ذات الله مخالفة لجميع الذوات فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون والثاني أنّ الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبوده؟ قُلْتُ: قالوا كانوا يعبدون الله مع أوثانهم، وأن تكون إلا صفة بمعنى: غير، على أنّ ما في ما تعبدون موصوفة تقديره إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني فهو نظير قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿سيهدين﴾ على التسويف قُلْتُ: قال مرّة فهو يهدين ومرّة فإنه سيهدين فاجمع بينهما وقدّر كأنه قال: فهو يهدين وسيهدين فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال.

وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿وجعلها﴾ وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ ﴿كلمة باقية في عقبه﴾ في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعوا إلى توحيده لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ونحوه ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾، وقيل: وجعلها الله وقرئ كلمة على التخفيف وفي عقبه كذلك وفي عاقبه أي فيمن عقبه أي خلفه.

بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾.

﴿بل متعت هؤلاء﴾ يعني: أهل مكة وهم من عقب إبراهيم بالمدّ في العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حتى جاءهم الحق﴾ وهو القرآن ﴿ورسول مبين﴾ الرسالة واضحها بما معه من الآيات البينة فكذبوا به وسموه ساحرًا وما جاء به سحرًا ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم وقرئ بل متعنا.

فإن قُلْتَ: فما وجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء قُلْتُ: كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾[2] فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد، وأراد بذلك الإطناب في تعبيرهم لأنه

(1) سورة الأنعام، الآية: 148.

(2) سورة الزخرف، الآية: 28.

إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببًا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان لا أن يشركوا به، ويجعلوا له أندادًا فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله.

وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾.

فإن قُلْتَ[1]: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع، ثم أردفه قوله:

﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤداه قُلْتُ: المراد بالتمتيع ما هو سبب له وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته، فقال عزّ وعلا: بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال: ولما جاءهم الحق جاؤا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ومكابرة الرسول ومعاداته والاستخفاف بكتاب الله، وشرائعه والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد من أهل زمانه.

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾.

بقولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم قرئ* على رجل بسكون الجيم من القريتين من إحدى القريتين كقوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾[2] أي: من أحدهما والقريتان مكة والطائف وقيل: من رجلي القريتين وهما الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، عن ابن عباس وعن مجاهد عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل، وعن قتادة الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي وكان الوليد يقول: لو كان حقًا ما يقول: محمد لنزل هذا القرآن عليّ أو على أبي مسعود الثقفي وأبو مسعود كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشرًا رسولاً فلما، علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى جاؤا بالإنكار من وجه آخر، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين وقولهم: هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة به وأرادوا بعظم الرجل رياسته وتقدمه في الدنيا، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيمًا.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم، وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوّة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته، ثم ضرب لهم مثلاً فاعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم، وأنّ الله عزّ وعلا: هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها فلم يسوّ بينهم، ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش وغاير بين منازلهم، فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدمًا ليصرف بعضهم بعضًا في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم، ويتسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم، ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم لضاعوا وهلكوا، وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى، ورأفته العظمى وهو الطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة، والسلم إلى حلول دار السلام، ثم قال: ﴿ورحمت ربك﴾ يريد وهذه الرحمة وهي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا.

فإن قُلْتَ: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع[3] ومنهم من يعيش بالحلال ومنهم من يعيش بالحرام، فإذن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال!قُلْتُ: الله تعالى قسم لكل عبد معيشته هي مطاعمه ومشاربه وما يصلحهم من المنافع، وأذن له في تناولها ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها، فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً وسماها رزق الله وإذا لم يسلكها تناولها حرامًا وليس له أن يسميها رزق الله، فالله تعالى قاسم المعايش والمنافع ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة

---

(1) قال أحمد: كلام نفيس لا مزيد عليه، إلا أنّ قوله خيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها إطلاق ينبغي اجتنابه، والله أعلم، وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الإضراب في بعض التارات، فكما جاءت الغاية هنا، وليس المراد بها أن الفعل المذكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها، بل المراد استمراره وزيادته، فكان تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها، كذلك الإضراب في مثل قوله تعالى: ﴿بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾، وهذه الإضرابات ليست على معنى أنّ الثاني منها ردّ للأوّل، بل ثانيها آكد من= أولها، وجاء الإضراب مع التوافق والزيادة للإشعار، بأنّ الثاني لما زاد على الأوّل صار باعتبار زيادته ونقصان الأوّل، كأنهما شيئان متنافيان يضرب عن أوّلهما، ويثبت آخرهما، ومثله كثير وبالله التوفيق.

(2) سورة الرحمٰن، الآية: 22.

(3) قال أحمد: قد تقدّم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوّم الله به حال العبد حلالاً كان أو حراماً، وهذه الآية معضدة، والزمخشري بني على أصله وقد تقدّم.

الحرمة بسوء تناولهم وهو عدو لهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿لبيوتهم﴾ بدل اشتمال من قوله لمن يكفر، ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك وهبت له ثوباً لقميصه، وقرىء سقفًا بفتح السين وسكون القاف وبضمها وسكون القاف ويضمها جمع سقف كرهن ورهن، وعن الفراء جمع سقيفة وسقفًا بفتحتين كأنه لغة في سقف وسقوفًا، ومعارج ومعاريج والمعارج جمع معرج أو اسم جمع لمعراج وهي المصاعد إلى العلالي ﴿عليها يظهرون﴾ أي: على المعارج يظهرون السطوح يعلونها فما استطاعوا أن يظهروه.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾.

وسررًا بفتح الراء لاستثقال الضمتين مع حرفي التضعيف.

وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾.

﴿لما متاع الحياة﴾ اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية وقرىء بكسر اللام أي: الذي هو متاع الحياة كقوله تعالى: ﴿مثلاً ما بعوضة﴾[1] ولما بالتشديد بمعنى إلا وإن نافية، وقرىء إلا وقرىء وما كل ذلك إلا، لما قال: ﴿خير مما يجمعون﴾ فقلل أمر الدنيا وصغرها أردفه ما يقرّر قلة الدنيا عنده من قوله: ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة أي: ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر، ويطبقوا عليه لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا عندنا للكفار سقفًا ومصاعدًا وابوابًا وسررًا كلها من فضة وجعلنا لهم زخرفًا أي زينة من كل شيء[2].

والزخرف الزينة والذهب ويجوز أن يكون الأصل سقفًا من فضة وزخرف يعني: بعضها من فضة وبعضها من ذهب فنصب عطفًا على محل من فضة وفي معناه قول رسول الله ﷺ: لو وزنت عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء[3].

فإن قُلْتَ: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام[4]! قُلْتُ: التوسعة عليهم مفسدة أيضًا لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء وغلب الفقر على الغنى.

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾.

وقرىء: ﴿ومن يعش﴾ بضم الشين وفتحها والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عشى وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به[5] قيل: عشا ونظيره عرج

---

(1) سورة البقرة، الآية: 26.

(2) قال أحمد: لولا هنا أخت لولا في قوله: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدّمت أيديهم﴾ الآية، فلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة ذلك بأن لا تقدر محذوفاً، كما قدّمته فيكون وجه الكلام ههنا: أنّ إجماعهم الكفر مانع من بسط الدنيا، وهذا هو معنى لولا المطرد أنّ ما بعدها أبداً مانع من جوابها، ولكن قد يكون المانع موجوداً تحقيقاً فيمتنع الجواب بلا إشكال، كقوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾، وهو الأكثر، وقد يكون وجوده تقديراً معه، وعلى ذلك الآية أي: لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدراً لوجد مانعه عندنا، وهو الاجتماع على الكفر مقدراً معه، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد، ثم قال: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة من الإطباق على الكفر، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإيمان، وأجاب: بأنّ التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما يؤدي إليه من الدخول في الإسلام، لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين. اهـ كلامه.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (الحديث رقم: 2320)، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الزهد وقصر الأمل، (الحديث رقم: 10465) أخرجه أبو نعيم في الحلية: 3/304 و253.

(4) قال أحمد: سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين، إحداهما: تعليل أفعال الله تعالى، والأخرى أنّ الله تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين، أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله: = ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون﴾، وأما الثانية: فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه، بقوله: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾.

(5) قال أحمد: في هذه الآية نكتتان بديعتان، إحداهما الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون، وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول، بأن النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال: أن الشرط يعم والنكرة في سياقه تعم، وقد ردّ عليه الفقيه أبو الحسن علي الأنباري شارح كتابه رداً عنيفاً. وفي هذه الآية للإمام، ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكراً في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحداً لوجهين أحدهما: أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطاناً، فكيف بالعاشي عن ذكر الله، والآخر يؤخذ من الآية وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعاً في قوله: وإنهم، فإنه عائد إلى الشيطان قولاً واحداً، ولولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود الضمير الجمع عليه بلا إشكال، فهذه نكتة تجد عند إسماعها لمخالفي هذا الرأي سكتة، النكتة الثانية: أن في هذه الآية رداً على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك، واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة، وقد نقض الكندي هذا بقوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾، قد أحسن الله له رزقاً، ونقض غيره بقوله: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير =

لمن به الآفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج قال الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره

أي تنظر إليها نظر العشيّ لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء وهو بين في قول حاتم:

أعشو إذا ما جارتي برزت حتى يواري جارتي الخدر

وقرئ يعشوا على أنّ من موصولة غير مضمنة معنى الشرط، وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عن ذكر الرحمن﴾ وهو القرآن كقوله تعالى: ﴿صم بكم عمي﴾[1] وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾[2] ﴿نقيض له شيطانًا﴾ نخذله ونخل بينه وبين الشياطين كقوله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾[3] ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾[4]، وقرئ يقيض أي يقيض له الرحمن ويقيض له الشيطان.

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾.

فإن **قُلْتَ**: لم جمع ضمير من وضمير الشيطان في قوله: ﴿وإنهم ليصدّونهم﴾ **قُلْتُ**: لأنّ من مبهم في جنس العاشي وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه فلما جاز أن يتناولا لإبهامهما غير واحدين جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعًا.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾.

﴿حتى إذا جاءنا﴾ العاشي، وقرئ جاآنا على أنّ الفعل له ولشيطانه ﴿قال﴾ لشيطانه ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ يريد المشرق والمغرب فغلب كما قيل: العمران والقمران.

فإن **قُلْتَ**: فما بعد المشرقين؟ **قُلْتُ**: تباعدهما والأصل بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية أضاف البعد إليهما.

وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿إنكم﴾ في محل الرفع على الفاعلية يعني: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لشدّته وعنائه وذلك أنّ كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله: يا ليت بيني وبينك على معنى، ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمني مباعدة القرين وقوله: ﴿إنكم في العذاب مشتركون﴾ تعليل أي: لن ينفعكم تمنيكم لأنّ حقكم أن تشتركوا أنتم، وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر وتقوّيه قراءة من قرأ إنكم بالكسر وقيل: إذا رأى الممنوّ بشدة من مني يمثلها روّحه ذلك ونفس بعض كربه وهو التأسي الذي ذكرته الخنساء.

أعزي النفس عنه بالتأسي

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروّحهم لعظم ما هم فيه.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى قوله تعالى إذا ظلمتم؟ **قُلْتُ**: معناه إذ صح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين وذلك يوم القيامة وإذ بدل من اليوم ونظيره. إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة. أي تبين أني ولد كريمة كان رسول الله ﷺ يجد ويجتهد ويكد روحه في دعاء قومه وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميمًا على الكفر وتماديًا في الغيّ.

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾.

فأنكر عليه بقوله: ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر كقوله تعالى: ﴿إنّ الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾[5].

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾.

ما في قوله: ﴿فإما نذهبنّ بك﴾ بمنزلة لام القسم في أنها إذا دخلت معها النون المؤكدة والمعنى: فإن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿فإنا منهم منتقمون﴾ أشدّ الانتقام في الآخرة كقوله تعالى: ﴿أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾[6] وإن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعدناهم من العذاب النازل بهم، وهو يوم بدر فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتوننا وصفهم

= علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه﴾ الآية، وكان جدي رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك؛ لأنه أعاد على اللفظ في قوله: يعش وله مرتين، ثم على المعنى في قوله: ليصدونهم، ثم على اللفظ بقوله: حتى إذا جاءنا، وقد قدّمت أنّ الذي منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة، وأما إذا تعدّدت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك، حتى رددت على الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ولا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ فإن الجملة واحدة فانظره في موضعه.

(1) سورة البقرة، الآية: 18.
(2) سورة النمل، الآية: 14.
(3) سورة فصلت، الآية: 25.
(4) سورة مريم، الآية: 83.
(5) سورة فاطر، الآية: 22.
(6) سورة غافر، الآية: 77.

بشدّة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدّة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة.

أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾.

وقرئ: ﴿نرينك﴾ بالنون الخفيفة وقرئ: بالذي أوحي إليك على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل والمعنى: وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر.

فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾.

فكن مستمسكًا بما أوحينا إليك وبالعمل به؛ فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ضال شقي وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين الله، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت الذي لا ينشطه تعجيل ظفر ولا يثبطه تأخيره.

وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿وإنه﴾ وإنّ الذي أوحي إليك ﴿لذكر﴾ لشرف ﴿لك ولقومك و﴾ لسوف ﴿تسئلون﴾ عنه يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وعن تعظيمكم له وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم[1] هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء وكفاه نظرًا وفحصًا نظره في كتاب الله المعجز المصدّق لما بين يديه وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها والسؤال الواقع مجازًا عن النظر حيث لا يصح السؤال على الحقيقة كثير منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال وقول من قال: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك فإنها إن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا وقيل: إن النبي ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأمّهم وقيل له: سلهم فلم يشكك ولم يسأل.

وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾.

وقيل معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل، وعن الفراء هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾.

ما أجابوه به عند قوله: إني رسول رب ﴿العالمين﴾ محذوف دل عليه قوله: ﴿فلما جاءهم بآياتنا﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿إذا هم منها يضحكون﴾ أي: يسخرون منها ويهزؤن بها، ويسمونها سحرًا وإذا للمفاجأة.

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة؟ قُلْتُ: لأنّ فعل المفاجأة معها مقدّر، وهو عامل النصب[2] في محلها كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾.

فإن قُلْتَ: إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات؟ قُلْتُ: أختها التي هي آية مثلها وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل، والاستقراء واحدة بعد واحدة كما تقول: هو أفضل رجل رأيته تريد تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذ قروتهم رجلاً رجلاً.

فإن قُلْتَ: هو كلام متناقض لأنّ معناه ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها، فتكون كل واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة قُلْتُ: الغرض بهذا الكلام أنهنّ موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك فعلى ذلك بنى الناس كلامهم، فقالوا: رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك ومنه بيت الحماسة:

من تلق منهم تلق لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها، ثم قالت: لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرّغة لا يدري أين طرفاها ﴿لعلهم يرجعون﴾ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان[3].

---

(1) قال أحمد: ويشهد لإرادة سؤال الأمم فاسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك والله أعلم.

(2) قال أحمد: الظاهر في تسويغ هذا الإطلاق والله أعلم أنّ كل واحدة من هذه الآي إذا أفردتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته، حتى يجزم أنها النهاية، وأنّ كل آية دونها فإذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت أيضاً فكره بعظمها وذهل عن الأولى، فجزم بأن هذه النهاية، وأنّ كل آية دونها، والحاصل أنها لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة،= بل مهما أفرده بالكفر جزم بأنه النهاية، وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يرد من أمثاله، والله أعلم.

(3) قال أحمد: تقدّم في غير موضع أن لعل حيثما وردت في سياق كلام الله تعالى، فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين، أي: ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك، هذا هو الحق وعليه تأوّل سيبويه ما ورد، وأمّا الزمخشري فيحمل لعل على الإرادة؛ لأنه لا يتحاشى من اعتقاد أن الله يريد شيئاً، ويريد العبد خلافه فيقع مراد العبد، ولا يقع مراد الرب تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فما

فإن قُلْتَ: لو أراد رجوعهم لكان قُلْتُ: إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به ويطلب منه إيجاده، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف، وإنما لم يكن الرجوع؛ لأنّ الإرادة لم تكن قسرًا ولم يختاروه. والمراد بالعذاب السنون والطوفان والجراد وغير ذلك.

وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾.

وقرئ: يا أيه الساحر بضم الهاء وقد سبق وجهه.

فإن قُلْتَ: كيف سموه بالساحر مع قولهم ﴿إننا لمهتدون﴾؟ قُلْتُ: قولهم ﴿إننا لمهتدون﴾ وعد منوى إخلافه وعهد معزوم على نكثه معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾، فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم إننا لمهتدون، وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر. بما عهد عندك بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة، أو بعهده عندك وهو النبوّة أو بما عهد عندك فوفيت به وهو الإيمان والطاعة، أو بما عهد عبدك من كشف العذاب عمن اهتدى.

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾.

﴿ونادى فرعون في قومه﴾ جعلهم محلاً لندائه وموقعًا له، والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك فأسند النداء إليه كقولك قطع الأمير اللص إذا أمر بقطعه، ويجوز أن يكون عنده عظماء القبط فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه في جموع القبط فكأنه نودي به بينهم فقال: ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار﴾ يعني: أنهار النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس، قيل: كانت تجري تحت قصره، وقيل تحت سريره لارتفاعه، وقيل بين يدي في جناني وبساتيني ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر، وتجري نصب على الحال منها وأن تكون الواو للحال واسم الإشارة مبتدأ والأنهار صفة لاسم الإشارة، وتجري خبر للمبتدأ، وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر وعجب الناس من مدى عظمته وأمر فنودي بها في أسواق مصر، وأزقتها لئلا تخفى تلك الأبهة والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأولينها أخس عبيدي فولاها الخصيب وكان على وضوئه، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها، فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: أليس لي ملك مصر والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه.

أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾.

﴿أم أنا خير﴾ أم هذه متصلة لأنّ المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه، وضع قوله: أنا خير موضع تبصرون لأنه إذا قالوا له: أنت خير فهم عنده بصراء وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب، ويجوز أن تكون منقطعة على بل آلنا خير والهمزة للتقرير وذلك أنه قدم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم من ملك مصر، وجرى الأنهار تحته ونادى بذلك وملأ به مسامعهم ثم قال: أنا خير كأنه يقول: أثبت عندكم واستقر أني أنا خير وهذه حالي ﴿من هذا الذي هو مهين﴾ أي: ضعيف حقير وقرئ أما أنا خير ﴿ولا يكاد يبين﴾ الكلام لما به من الرتة يريد أنه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة وكانت الأنبياء كلهم أنبياء بلغاء.

فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾.

وأراد بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوّروه بسوار، وطوّقوه بطوق من ذهب ﴿مقترنين﴾ إما مقترنين به من قولك قرنته فاقترن به وإما من اقترنوا بمعنى: تقارنوا لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه فوصفه بالضعف وقلة الأعضاد اعترض فقال: هلا إن كان صادقًا ملكه ربه وسوّده وسوّره وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره، وقرئ أساور جمع أسورة وأساوير جمع إسوار وهو السوار وأساورة على تعويض التاء من ياء أساوير، وقرئ ألقى عليه أسورة وأساور على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾.

﴿فاستخف قومه﴾ فاستفزهم وحقيقته حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم وكذلك استفز من قولهم للخفيف فز.

فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾.

= أشنعها زلة وأبشعها خلة، ولقد أساء الأدب في هذا الموضع حتى أنه لولا تعين الردّ عليه لما جرى القلم بنقل ما هذى به وما اهتدى، وقد جرى على سنن أوائله في جعل حقيقة الأمر هو الإرادة، وأضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلقه، وإنّ = مراد العبد يقع، ومراد الرب لا يقع فهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض نعوذ بالله من هذه الغواية ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾.

﴿آسفونا﴾ منقول من أسف أسفًا إذا اشتد غضبه ومنه الحديث في موت الفجاة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر[1] ومعناه: إنهم أفرطوا في المعاصي وعدوًا طورهم فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا وأن لا نحلم عنهم.

فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾.

وقرئ: سلف جمع سالف كخادم وخدم وسلفًا بضمتين جمع سليف أي: فريق قد سلف وسلفًا جمع سلفة أي ثلة قد سلفت ومعناه فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم لإتيانهم بمثل أفعالهم وحديثًا عجيب الشأن سائرًا مسير المثل يحدثون به، ويقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، لما قرأ رسول الله ﷺ على قريش ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ امتعضوا من ذلك امتعاضًا شديدًا فقال عبد الله بن الزبعري: يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم، فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أنّ عيسى بن مريم نبي وتثنى عليه خيرًا وعلى أمه وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي ﷺ فانزل الله تعالى: ﴿إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ ونزلت هذه الآية[2]، والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعري عيسى بن مريم مثلاً وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه.

۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾.

﴿إذا قومك﴾ قريش من هذا المثل ﴿يصدّون﴾ ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحًا وجزلاً وضحكًا بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجدله كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم، وأمّا من قرأ يصدّون بالضم فمن الصدود أي: من أجل هذا المثل يصدّون عن الحق ويعرضون عنه، وقيل: من الصديد وهو الجلبة وأنهما لغتان نحو يعكف ويعكف ونظائر لهما.

وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينًا ﴿ما ضربوه﴾ أي: ما ضربوا هذا المثل ﴿لك إلا جدلاً﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل ﴿بل هم قوم خصمون﴾ لدّ شداد الخصومة دأبهم اللجاج كقوله تعالى: ﴿قومًا لدًّا﴾[3] وذلك أنّ قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾[4] ما أريد به إلا الأصنام وكذلك قوله عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم[5] إنما قصد به الأصنام ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة؛ إلا أنّ ابن الزبعري بخبه وخداعه وخبث نخلته لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم مع علمه بأنّ المراد أصنامهم لا غير وجد للحيلة مساغًا فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله على طريقة المحك والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقح في ذلك فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه ﴿إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ فدل به على أنّ الآية الآية خاصة في الأصنام على أنّ الظاهر، قوله: وما تعبدون لغير العقلاء وقيل لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾[6] قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميًا ونحن نعبد الملائكة فنزلت وقوله: ﴿آلهتنا خير أم هو﴾ على هذا القول تفضيل لآلهتهم على عيسى لأنّ المراد بهم الملائكة وما ضربوه لك إلا جدلاً معناه وما قالوا هذا القول يعني: آلهتنا خير أم هو إلا للجدال، وقرئ آلهتنا خير بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها لدلالة أم العديلة عليها وفي حرف ابن مسعود خير أم هذا، ويجوز أن يكون جدلاً حالاً أي: جدلين وقيل لما نزلت ﴿إنّ مثل عيسى عند الله﴾ قالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وانه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرًا كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر ومعنى يصدّون يضجون ويضجرون والضمير في ﴿أم هو﴾ لمحمد ﷺ وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم السخرية به والاستهزاء، ويجوز أن يقولوا لما أنكر عليهم قولهم الملائكة بنات الله وعبدوهم ما قلنا بدعا من القول ولا فعلنا نكرًا من الفعل، فإنّ النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه ونحن أشف منهم قولاً وفعلاً فإنا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسي فقيل لهم مذهب النصارى شرك بالله ومذهبكم شرك مثله وما تنصلكم مما أنتم عليه بما، أوردتموه إلا قياس باطل بباطل.

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾.

وما عيسى ﴿إلا عبد﴾ كسائر العبيد ﴿انعمنا عليه﴾ حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوّة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل.

وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿ولو نشاء﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر.

---

(1) تقدم في سورة طه.
(2) تقدم في سورة الأنبياء.
(3) سورة مريم، الآية: 97.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 98.
(5) أخرجه الحاكم في المستدرك: 4/478.
(6) سورة آل عمران، الآية: 59.

﴿لجعلنا منكم﴾ لولدنا منكم يا رجال ﴿ملائكة﴾ يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أنّ الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام وذات القديم متعالية عن ذلك.

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾.

﴿وإنه﴾ وإن عيسى عليه السلام ﴿لعلم للساعة﴾ أي: شرط من أشراطها تعلم به فسمى الشرط علمًا لحصول العلم به، وقرأ ابن عباس لعلم وهو العلامة، وقرئ للعلم وقرأ أبيّ لذكر على تسمية ما يذكر به ذكرًا كما سمى ما يعلم به علمًا، وفي الحديث أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدّسة يقال لها افيق وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين وبيده حربة وبها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤمّ بهم، فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به[1] وعن الحسن أن الضمير للقرآن وأن القرآن به علم الساعة لأن فيه الإعلان بها ﴿فلا تمترن بها﴾ من المرية وهي الشك ﴿واتبعون﴾، واتبعوا هداي وشرعي أو رسولي وقيل هذا أمر لرسول الله أن يقوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي ادعوكم إليه أو هذا القرآن إن جعل الضمير في وإنه للقرآن.

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾.

﴿عدوّ مبين﴾ قد أبانت عداوته لكم إذ أخرج آباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور.

وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾.

﴿بالبينات﴾ المعجزات أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات ﴿بالحكمة﴾ يعني: الإنجيل والشرائع.

فإن قُلْتَ: هلا بين لهم كل الذي يختلفون فيه ولكن بعضه قُلْتُ: كانوا يختلفون في الديانات وما يتعلق بالتكليف، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم.

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾.

﴿الأحزاب﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى وقيل اليهود والنصارى ﴿فويل للذين ظلموا﴾ وعيد للأحزاب.

فإن قُلْتَ: من بينهم إلى من يرجع الضمير فيه قُلْتُ: إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله قد جئتكم بالحكمة وهم قومه المبعوث إليهم.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾.

﴿أن تاتيهم﴾ بدل من الساعة، والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة.

فإن قُلْتَ: أما ادى قوله ﴿بغتة﴾ مؤدى قوله ﴿وهم لا يشعرون﴾ فيستغنى عنه؟ قُلْتُ: لا لأنّ معنى قوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم كقوله تعالى: ﴿تأخذهم وهم يخصمون﴾[2] ويجوز أن تاتيهم بغتة وهم فطنون.

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾.

﴿يومئذٍ﴾ منصوب بعدو أي تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين في غير ذات الله وتنقلب عداوة ومقتًا إلا خلة المتصادقين في الله، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوّة إذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى، والتباغض في الله وقيل ﴿إلا المتقين﴾ إلا المجتنبين أخلاء السوء، وقيل نزلت في أبيّ بن خلف وعقبة ابن أبي معيط.

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾.

﴿يا عبادي﴾ حكاية لما ينادي به المتقون المتحابون في الله يومئذٍ. وقرئ: يا عباد.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾.

﴿والذين آمنوا﴾ منصوب المحل صفة لعبادي لأنه منادي مضاف أي الذين صدقوا ﴿بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وقيل إذا بعث الله الناس فزع كل أحد فينادي مناد يا عبادي فيرجوها الناس كلهم، ثم يتبعها الذين آمنوا فييأس الناس منها غير المسلمين.

ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿تحبرون﴾ تسرون سرورًا يظهر حباره أي أثره على وجوهكم كقوله تعالى: تعرف في وجوههم نضرة النعيم وقال الزجاج: تكرمون إكرامًا يبالغ فيه والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل.

يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: قتل الخنزير (الحديث: 2222). وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكماً.. (الحديث: 242).

(2) سورة يٓس، الآية: 49.

وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾.

والكوب الكوز لا عروة له ﴿وفيها﴾ الضمير للجنة، وقرئ تشتهي وتشتهيه وهذا حصر لأنواع النعم لأنها إما مشتهاة في القلوب وإما مستلذة في العيون.

وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾.

﴿وتلك﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة وهي مبتدأ و﴿الجنة﴾ خبر و﴿التي أورثتموها﴾ صفة الجنة أو الجنة صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة والتي أورثتموها خبر المبتدأ، أو التي أورثتموها صفة و﴿بما كنتم تعملون﴾ الخبر والباء تتعلق بمحذوف كما في الظروف التي تقع أخبار، أو في الوجه الأوّل تتعلق بأورثتموها وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة. وقرئ ورثتموها.

لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾.

﴿منها تاكلون﴾ من للتبعيض أي لا تاكلون إلا بعضها وأعقابها باقية في شجرها فهي مزينة بالثمار أبدًا مورقة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا، وعن النبي ﷺ لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاها[1].

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿لا يفتر عنهم﴾ لا يخفف ولا ينقص من قولهم فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلاً ونقص حرّها، والمبلس اليائس الساكت سكوت يأس من فرج، وعن الضحاك يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالدًا لا يرى ولا يرى ﴿هم﴾ فصل عند البصريين عماد عند الكوفيين، وقرئ وهم فيها أي: في النار وقرأ علي وابن مسعود رضي الله عنهما يا مال بحذف الكاف للترخيم كقول القائل:

والحق يا مال غير ما تصف

وقيل لابن عباس إن ابن مسعود قرأ: ونادوا يا مال، فقال: ما شغل أهل النار عن الترخيم[2]؟ وعن بعضهم حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الإسم لضعفهم وعظم ما هم فيه، وقرأ أبو السرار الغنوى يا مال بالرفع كما يقال يا حار.

وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾.

﴿ليقض علينا ربك﴾ من قضى عليه إذا أماته فوكزه موسى فقضى عليه والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا.

فإن قُلْتَ: كيف قال ونادوا يا مالك بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قُلْتُ: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الأحوال فيسكنون أوقاتًا لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لا فرج لهم ويغوّثون أوقاتًا لشدّة ما بهم ﴿ماكثون﴾ لابثون وفيه استهزاء، والمراد خالدون عن ابن عباس رضي الله عنهما إنما يجيبهم بعد ألف سنة[3]، وعن النبي ﷺ يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون ادعوا مالكًا فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك[4].

لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿لقد جئناكم بالحق﴾ كلام الله عز وجل بدليل قراءة من قرأ لقد جئتكم، ويجب أن يكون في قال ضمير الله عز وجل لما سألوا مالكًا أن يسأل الله تعالى القضاء عليهم أجابهم الله بذلك ﴿كارهون﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه لأنّ مع الباطل الدعة ومع الحق التعب.

أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿أم﴾ أبرم مشركو مكة ﴿أمرًا﴾ من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ ﴿فإنا مبرمون﴾ كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى: ﴿أم يريدون كيدًا﴾[5] فالذين كفروا هم المكيدون وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ.

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالسر والنجوى؟ قُلْتُ: السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال والنجوى ما تكلموا به فميا بينهم ﴿بلى﴾ نسمعهما، ونَطَّلِعُ عليهما ﴿ورسلنا﴾ يريد الحفظة عندهم ﴿يكتبون﴾ ذلك، وعن يحيى بن معاذ الرازي من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفي عليه شيء في السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من علامات النفاق.

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾.

﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها ﴿فانا أول﴾ من يعظم ذلك الولد، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له[6] كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام وارد على

---

(1) تقدم في سورة البقرة.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الزخرف، باب: «ونادوا يا مالك...» (الحديث: 4819).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار، (الحديث: 2586).

(4) تقدم تخريجه سابقاً.

(5) سورة الطور، الآية: 42.

(6) قال أحمد: لقد اجترأ عظيماً، واقتحم مهلكة في تمثيله ذلك بقول من سماه عدلياً إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب، ومعذباً عليه، فانا أول القائلين: إنه شيطان وليس بإله، فلينقم عليه ذلك بقول القائل قد ثبت قطعاً عقلاً وشرعاً أنه تعالى خالق لذلك في القلوب، كما خلق الإيمان وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق =

سبيل الفرض والتمثيل لغرض[1]، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد، وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة، وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها ونظيره أن يقول العدلي للمجبر إن كان الله تعالى خالقًا للكفر في القلوب ومعذبًا عليه عذابًا سرمدًا فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله، فمعنى: هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقًا للكفر وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذاهب إليه والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه، ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له: أما والله لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهًا غيرك، وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه فقيل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم، فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه وقيل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد. وقرأ بعضهم العبدين وقيل هي إن النافية أي ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد، وروى أنّ النضر بن عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله فنزلت فقال النضر: الا ترون أنه قد صدقني فقال له: الوليد بن المغيرة ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له وقرئ ولد بضم الواو.

سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾.

ثم نزه ذاته موصوفة بربوبية السموات والأرض والعرش عن اتخاذ الولد ليدل على أنه من صفة الأجسام ولو كان جسمًا لم يقدر على خلق هذا العالم وتدبير أمره.

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿فذرهم يخوضوا﴾ في باطلهم ﴿ويلعبوا﴾ في دنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم﴾ وهذا دليل على أنّ ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب وإعلام لرسول الله ﷺ أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين لا يرجعون البتة، وإن ركب في دعوتهم كل صعب وذلول وخذلان لهم وتخلية بينهم وبين الشيطان كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾[2] وإبعاد بالشقاء في العاقبة ضمن اسمه تعالى معنى وصف لذلك علق به الظرف في قوله: في السماء وفي الأرض[3] كما تقول: هو حاتم في طي حاتم في تغلب على تضمين معنى الجواد الذي شهر به كأنك قلت هو جواد في طي جواد في تغلب.

وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾.

وقرئ: ﴿وهو﴾ الذي في السماء الله وفي الأرض الله ومثله قوله تعالى: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ كأنه ضمن معنى المعبود، أو المالك أو نحو ذلك والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام كقولهم ما أنا بالذي قائل لك شيئًا وزاده طولاً أنّ المعطوف داخل في حيز الصلة ويحتمل أن يكون في السماء صلة الذي وإله خبر مبتدأ محذوف على أنّ الجملة بيان للصلة، وأنّ كونه في السماء على سبيل الإلهية والربوبية لا على معنى الاستقرار وفيه نفي الآلهة التي كانت تعبد في الأرض ﴿ترجعون﴾، قرئ بضم التاء وفتحها ويرجعون بياء مضمومة وقرئ تحشرون بالتاء.

وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾.

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله، ولكن من ﴿شهد بالحق﴾ وهو توحيد الله وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص هو الذي يملك الشفاعة وهو استثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلاً، لأنّ في جملة الذين يدعون من دون الله الملائكة، وقرئ تدعون بالتاء وتدعون بالتاء وتشديد الدال.

وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾.

﴿وقيله﴾، قرئ بالحركات الثلاث، وذكر في النصب عن

= إلا الله، وتصديقاً بمضمون قوله تعالى: ﴿هل من خالق غير الله﴾، وقوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾ وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلاً ونقلاً لزمه فرك أنته، وغل عنقه إذ يلحد في الله إلحاداً لم يسبقه إليه أحد من عباده الكفرة، ولا تجرأ عليه مارد من مردة الفجرة، ومن خالف في كفر القدرية فقد وافق على كفر من تجرأ، فقال هذه المقالة، واقتحم هذه الضلالة بلا محالة، فإنه قد صرح بكلمة الكفر على أقبح وجوهها وأشنع أنحائها، والله المسؤول أن يعصمنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(1) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، وذكره الواحدي في التفسير: 3/258.

(2) سورة فصلت، الآية: 40.

(3) قال أحمد: ومما سهل حذف الراجع مضافاً إلى الطول الذي ذكره وقوع الموصول خبراً عن مضمر لو ظهر الراجع لكان كالتكرار المستكر، إذ كان أصل الكلام، وهو الذي هو في السماء إله، ولا ينكر أن الكلام مع المحذوف الراجع أخف وأسهل، وأن الراجع إنما حنف على قلة حذف مثله لأمر متأكد، فإنه لم يرد في الكتاب العزيز إلا في قوله تماماً على الذي أحسن، ومع أي في موضعين على رأي.

الأخفش أنه حمله على أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله وعنه وقال قيله وعطفه الزجاج على محل الساعة كما تقول: عجبت من ضرب زيد وعمرًا وحمل الجرّ على لفظ الساعة والرفع على الابتداء والخبر ما بعده، وجوّز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنده علم الساعة وعلم قيله والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضًا ومع تنافر النظم وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم أيمن الله، وأمانة الله ويمين الله ولعمرك ويكون قوله: ﴿إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ جواب القسم كأنه قيل وأقسم بقيله يا رب أو وقيله يا رب قسمي إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون.

فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿فاصفح عنهم﴾ فاعرض عن دعوتهم يائسًا عن إيمانهم وودعهم وتاركهم ﴿وقل﴾ لهم ﴿سلام﴾ أي تسلم منكم ومتاركة ﴿فسوف يعلمون﴾ وعيد من الله لهم وتسلية لرسوله ﷺ والضمير في وقيله لرسول الله ﷺ وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه: عن النبي ﷺ من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون أدخلوا الجنة بغير حساب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الدخان مكية

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾.

الواو في ﴿والكتاب﴾ واو القسم إن جعلت حم تعديدًا للحروف أو اسمًا للسورة مرفوعًا على خبر الابتداء المحذوف وواو العطف إن كانت حم مقسمًا بها.

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾.

وقوله: ﴿إنا أنزلناه﴾ جواب القسم، والكتاب المبين القرآن، والليلة المباركة ليلة القدر وقيل ليلة النصف من شعبان ولها أربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة، وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة وقيل في تسميتها ليلة البراءة والصكّ أن البندار إذا استوفي الخراج من أهله كتب لهم البراءة كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة، وقيل: هي مختصة بخمس خصال تفريق كل أمر حكيم، وفضيلة العبادة فيها قال رسول الله ﷺ: من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان[1]، ونزول الرحمة قال عليه الصلاة والسلام: إنّ الله يرحم، أمّتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب[2]، وحصول المغفرة قال عليه الصلاة والسلام: إنّ الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدين، أو مصرّ على الزنا[3] وما أعطى فيها رسول الله ﷺ من تمام الشفاعة وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمّته فأعطى الثلث منها، ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع إلا من شرد عن الله شراد البعير[4]، ومن عادة الله في هذه الليلة أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة والقول الأكثر أنّ المراد بالليلة المباركة ليلة القدر لقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾[5] ولمطابقة قوله ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ لقوله: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾[6] وقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾[7] وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان.

فإن قُلْتَ: ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة؟ قُلْتُ: قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا وأمر السفرة الكرام بانتساخه في ليلة القدر وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله ﷺ نجومًا نجومًا.

فإن قُلْتَ:

﴿إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ ما موقع هاتين الجملتين؟ قُلْتُ: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسربهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾[8] كأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصًا لأنّ إنزال القرآن من الأمور الحكيمة وهذه الليلة

(1) قال الزيلعي: رواه سليم بن أيوب الرازي في كتاب: الترغيب، ورواه محمد بن ناصر السلامي في كتاب: فضائل شعبان، وفي الفردوس، الزيلعي: 3/261.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (الحديث: 739)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الإقامة، باب: ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (الحديث: 1389).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، باب: ما جاء في= = التباغض والتحاسد، (الحديث: 5665).

(4) قال الزيلعي غريب: 3/266.

(5) سورة القدر، الآية: 1.

(6) سورة القدر، الآية: 4.

(7) سورة البقرة، الآية: 185.

(8) سورة الدخان، الآية: 3.

مفرق كل أمر حكيم، والمباركة الكثيرة الخير لما يتيح الله فيها من الأمور التي يتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة، ومعنى يفرق يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم منها إلى الأخرى القابلة، وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الأعمال إلى إسمعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت، وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله فيلقى على ألسنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيبته وقرئ نفرق بالتشديد ويفرق كل على بنائه للفاعل ونصب كل والفارق الله عزّ وجلّ، وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه تفرق بالنون كل أمر حكيم كل شأن ذي حكمة أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة وهو من الإسناد المجازي لأنّ الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به مجاز.

أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾.

﴿أمرًا من عندنا﴾ نصب على الاختصاص جعل كل أمر جزلاً فخما بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلاً من عندنا كائنًا من لدنا وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا، ويجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهي ثم إما أن يوضع موضع فرقانًا الذي هو مصدر يفرق؛ لأنّ معنى الأمر والفرقان واحد من حيث أنه إذا حكم بالشيء وكتبه، فقد أمر به وأوحيه أو يكون حالاً من أحد الضميرين في انزلناه إما من ضمير الفاعل أي أنزلناه آمرين أمرًا، أو من ضمير المفعول أي أنزلناه في حال كونه أمرًا من عندنا بما يجب أن يفعل.

فإن قُلْتَ: **﴿إنا كنا مرسلين﴾** **﴿رحمة من ربك﴾** بم يتعلق **قُلْتُ:** يجوز أن يكون بدلاً من قوله: **﴿إنا كنا منذرين﴾** و**﴿رحمة من ربك﴾** مفعولاً له على معنى: إنا أنزلنا القرآن لأنّ من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم، وأن يكون تعليلاً ليفرق أو لقوله: **﴿أمرًا من عندنا﴾** ورحمة مفعولاً به وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها في قوله تعالى: **﴿وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾**[1] أي: يفصل في هذه الليلة كل أمر أو تصدر الأوامر من عندنا لأنّ من عادتنا أن نرسل رحمتنا، وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة، وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عز وعلا لأنّ الغرض في تكليف العباد تعريضهم للمنافع والأصل إنا كنا مرسلين رحمة منا فوضع الظاهر موضع الضمير إيذانًا بأنّ الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، وفي قراءة زيد بن علي أمر من عندنا على هو أمر وهي تنصر انتصابه على الاختصاص، وقرأ الحسن رحمة من ربك على تلك رحمة وهي تنصر انتصابها بأنها مفعول له **﴿إنه هو السميع العليم﴾** وما بعده تحقيق لربوبيته وأنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه.

رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾.

وقرئ: **﴿رب السموات ربكم ورب آبائكم﴾** بالجر بدلاً من ربك.

فإن قُلْتَ: ما معنى الشرط الذي هو قوله: **﴿إن كنتم موقنين﴾**؟ **قُلْتُ:** كانوا يقرون بأن للسموات والأرض ربًا وخالقًا فقيل لهم إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل إن هذا الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهروا سخاؤه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته، ثم ردّوا أن يكونوا موقنين.

بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾.

بقوله: **﴿بل هم في شك يلعبون﴾** وأن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن ولا عن جدّ وحقيقة بل قول مخلوط بهزؤ ولعب.

فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾.

﴿يوم تأتي السماء﴾ مفعول به مرتقب يقال رقبته وارتقبته نحو نظرته وانتظرته، واختلف في الدخان، فعن علي بن ابي طالب رضي الله عنه وبه أخذ الحسن أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أُوقِدَ فيه ليس فيه خصاص، وعن رسول الله ﷺ أوّل الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن ابين تسوق الناس إلا المحشر قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان فتلا رسول الله ﷺ الآية[2]، وقال: يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يومًا وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه خمس قد مضت الروم والدخان والقمر والبطشة واللزام[3]، ويروى أنه قيل لابن مسعود إن قاصًا عند أبواب كندة يقول: إنه دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الخلق

---

(1) سورة فاطر، الآية: 2.

(2) رواه الطبري في تفسيره، الزيلعي: 3/266.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة حم الدخان، باب: «يوم تبطش البطشة الكبرى...» (الحديث: 4825).

فقال: من علم علمًا فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم؛ فإن من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه الله أعلم ثم قال: الا، وساحدثكم أنّ قريشًا لما استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف[1]، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلهز وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان وكان يحدّث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله والرحم واعدوه إن دعا لهم، وكشف عنهم أن يؤمنوا فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم ﴿بدخان مبين﴾ ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان.

يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾.

﴿يغشى الناس﴾ يشملهم ويلبسهم وهو في محل الجر صفة لدخان و﴿هذا عذاب﴾ إلى قوله مؤمنون منصوب المحل بفعل مضمر وهو يقولون ويقولون منصوب على الحال أي قائلين ذلك.

رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾.

﴿إنا مؤمنون﴾ موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب.

أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾.

﴿انى لهم الذكرى﴾ كيف يذكرون، ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وقد جاءهم﴾ ما هو أعظم وأدخل في وجوب الادكار من كشف الدخان وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات، فلم يذكروا.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾.

وتولوا عنه وبهتوه بأن عداسًا غلامًا أعجميًا لبعض ثقيف هو الذي علمه ونسبوه إلى الجنون.

إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾.

ثم قال: ﴿إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ أي: ريثما نكشف عنكم العذاب تعودون إلى شرككم لا تلبثون غب الكشف على ما أنتم عليه من التضرع والابتهال.

فإن قُلْتَ: كيف يستقيم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله: إنا كاشفوا العذاب قليلاً؟ قُلْتُ: إذا أتت السماء بالدخان تضور المعذبون به من الكفار، والمنافقين وغوثوا وقالوا: ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ منيبون فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يومًا، فريثما يكشفه عنهم يرتدون لا يتمهلون.

يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾.

ثم قال: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ يريد يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾[2] ﴿إنا منتقمون﴾ أي ننتقم منهم في ذلك اليوم.

فإن قُلْتَ: بم انتصب يوم نبطش قُلْتُ: بما دل عليه إنا منتقمون وهو ننتقم ولا يصح أن ينتصب بمنتقمون، لأنّ إن تحجب عن ذلك وقرئ نبطش بضم الطاء، وقرأ الحسن نبطش بضم النون كأنه يحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى أو يجعل البطشة الكبرى باطشة بهم، وقيل البطشة الكبرى يوم بدر.

۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾.

وقرئ: ﴿ولقد فتنا﴾ بالتشديد للتأكيد أو لوقوعه على القوم، ومعنى الفتنة أنه أمهلهم ووسع عليهم في الرزق فكان ذلك سببًا في ارتكابهم المعاصي، واقترافهم الآثام أو ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمنوا فاختاروا الكفر على الإيمان أو سلبهم ملكهم وأغرقهم ﴿كريم﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين أو كريم في نفسه لأنّ الله لم يبعث نبيًا إلا من سراة قومه وكرامهم.

أَنْ أَدُّوٓا إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾.

﴿إن أدوا إليّ﴾ هي أن المفسرة لأن مجيء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول: لا يجيئهم إلا مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله أو المخففة من الثقيلة، ومعناه: وجاءهم بأن الشأن والحديث أدّوا إلى ﴿وعباد الله﴾ مفعول به وهم بنو إسرائيل يقول أدّوهم إلى وأرسلوهم معي كقوله تعالى: ﴿أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾[3] ويجوز أن يكون نداء لهم على أدوا إليّ يا عباد الله ما هو واجب لي عليكم من الإيمان لي وقبول دعوتي واتباع سبيلي وعلل ذلك بأنه ﴿رسول أمين﴾ غير ظنين قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته.

وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾.

﴿وأن لا تعلوا﴾ أن هذه مثل الأولى في وجهيها أي: لا تستكبروا ﴿على الله﴾ بالاستهانة برسوله ووحيه، أو لا تستكبروا على نبيّ الله ﴿بسلطان مبين﴾ بحجة واضحة.

وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾.

﴿أن ترجمون﴾ أن تقتلون، وقرئ: ﴿عذت﴾ بالإدغام ومعناه أنه عائذ بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (الحديث: 804). وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة والعياذ بالله (الحديث: 295/675). =

= وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: القنوت في الصلاة (الحديث: 1442).

(2) سورة النازعات، الآية: 34.

(3) سورة طه، الآية: 47.

كيدهم فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل.

وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾.

﴿فاعتزلون﴾ يريد إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمنوا فتنحوا عني واقطعوا أسباب الوصلة عني أي: فخلوني كفافًا لا لي ولا عليّ ولا تتعرّضوا لي بشركم وأذاكم فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلا حكم ذلك.

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿أن هؤلاء﴾ بأنّ هؤلاء أي دعا ربه بذلك قيل: كان دعاؤه اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم وقيل هو قوله: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾، وإنما ذكر الله تعالى السبب الذي استوجبوا به الهلاك وهو كونهم مجرمين وقرئ إن هؤلاء بالكسر على إضمار القول أي فدعا ربه فقال إن هؤلاء.

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿فاسر﴾ قرئ بقطع الهمزة من أسرى ووصلها من سرى وفيه وجهان إضمار القول بعد الفاء، فقال: أسر بعبادي وأن يكون جواب شرط محذوف كأنه قيل قال إن كان الأمر كما تقول فاسر ﴿بعبادي﴾ يعني: فاسر ببني إسرائيل، فقد دبر الله أن تتقدّموا ويتبعكم فرعون وجنوده فينجي المتقدّمين ويغرق التابعين، الرهو فيه وجهان أحدهما أنه الساكن قال الأعشى:

يمشين رهوًا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل

أي مشيًا ساكنًا على هينة أراد موسى لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه، فانفلق فأمر بأن يتركه ساكنًا على هينة قارًا على حاله من انتصاب الماء وكون الطريق يبسا لا يضربه بعصاه، ولا يغير منه شيئًا ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم والثاني أنّ الرهو الفجوة الواسعة وعن بعض العرب أنه رأى جملاً فالجًا، فقال: سبحان الله وهو بين سنامين أي اتركه مفتوحًا على حاله منفرجًا.

وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿إنهم جند مغرقون﴾، وقرئ بالفتح بمعنى لأنهم.

وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾.

والمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة وقيل المنابر.

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾.

والنعمة بالفتح من التنعم وبالكسر من الإنعام، وقرئ فاكهين وفكهين.

كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾.

﴿كذلك﴾ الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ﴿وأورثناها﴾ أو في موضع الرفع على الأمر كذلك ﴿قومًا آخرين﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء وهم بنو إسرائيل كانوا متسخرين مستعبدين في أيديهم فأهلكهم الله على أيديهم وأورثهم ملكهم وديارهم.

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾.

إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح وأظلمت له الشمس وفي حديث رسول الله ﷺ ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض وقال جرير: تبكي عليك نجوم الليل والقمرا، وقالت الخارجية:

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه، وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما من بكاء مصلى المؤمن وآثاره في الأرض ومصاعد عمله ومهابط رزقه في السماء تمثيل، ونفي ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال فيه: بكت عليه السماء والأرض، وعن الحسن فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين يعني: فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض ﴿وما كانوا منظرين﴾ لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر، ولم يمهلوا إلى الآخرة بل عجل لهم في الدنيا.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾.

﴿من فرعون﴾ بدل من العذاب المهين كأنه في نفسه كان عذابًا مهينًا لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم، ويجوز أن يكون المعنى من العذاب المهين واقعًا من جهة فرعون، وقرئ من عذاب المهين، ووجهه أن يكون تقدير قوله من فرعون من عذاب فرعون حتى يكون المهين هو فرعون، وفي قراءة ابن عباس من فرعون لما وصف عذاب فرعون بالشدّة والفظاعة قال من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو في عتوّه وشيطنته؟ ثم عرف حاله في ذلك بقوله: ﴿إنه كان عاليًا من المسرفين﴾ أي كبيرًا رفيع الطبقة ومن بينهم فائقًا لهم بليغًا في إسرافه، أو عاليًا متكبرًا كقوله تعالى: إنّ فرعون علا في الأرض، ومن المسرفين خبر ثان كأنه قيل إنه كان متكبرًا مسرفًا الضمير.

وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾.

في ﴿اخترناهم﴾ لبني إسرائيل و ﴿على علم﴾ في موضع الحال أي عالمين بمكان الخيرة وبأنهم أحقاء بأن يختاروا، ويجوز أن يكون المعنى مع علم منا بأنهم يزيغون

ويفرط منهم الفرطات في بعض الأحوال ﴿على العالمين﴾ على عالمي زمانهم، وقيل على الناس جميعًا لكثرة الأنبياء منهم.

وَءَاتَيْنَاهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾.

﴿من الآيات﴾ من نحو فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى وغير ذلك من الآيات العظام التي لم يظهر الله في غيرهم مثلها ﴿بلاء مبين﴾ نعمة ظاهرة لأنّ الله تعالى يبلوا بالنعمة كما يبلو بالمصيبة، أو اختبار ظاهر لننظر كيف تعملون كقوله تعالى: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾[1].

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾.

﴿هؤلاء﴾ إشارة إلى كفار قريش. فإن قُلْتَ: كان الكلام واقعًا في الحياة الثانية لا في الموت[2] فهلا قيل إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين كما قيل: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ وما معنى قوله:

﴿إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ وما معنى ذكر الأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى؟ قُلْتُ: معناه والله الموفق للصواب أنه قيل لهم: أنكم تموتون موتة تعقبها حياة كما تقدّمتكم موتة قد تعقبها حياة وذلك قوله عزّ وجل: ﴿وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾[3] فقالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى يريدون ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة فلا فرق إذًا بين هذا وبين قوله إن هي إلا حياتنا الدنيا في المعنى، يقال أنشر الله الموتى ونشرهم إذا بعثهم.

فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿فأتوا بآبائنا﴾ خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور من رسول الله ﷺ والمؤمنين أي: إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلاً على أن ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق، وقيل: كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله فينشر لهم قصيّ بن كلاب ليشاوروه؛ فإنه كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل ومعاظم الشؤن، هو تبع الحميري كان مؤمنًا وقومه كافرين ولذلك ذمّ الله قومه ولم يذمّه وهو الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبني سمرقند وقيل: هدمها وكان إذا كتب قال: بسم الله الذي ملك برّاً وبحرًا، وعن النبي ﷺ لا تسبوا تبعًا، فإنه كان قد أسلم[4] وعنه عليه الصلاة والسلام ما أدري أكان تبع نبيًا أو غير نبي[5] وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان نبيًا وقيل نظر إلى قبرين بناحية حمير قال: هذا قبر رضوي وقبر حبي بنت تبع لا تشركان بالله شيئًا وقيل: هو الذي كسا البيت وقيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعون كما قيل الأقيال لأنهم يتقيلون، وسمى الظل تبعًا لأنه يتبع الشمس.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله تعالى:

﴿أهم خير﴾ ولا خير في الفريقين قُلْتُ: معناه أهم خير في القوّة والمتعة كقوله تعالى: ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾[6] بعد ذكر آل فرعون وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أهم أشدّ أم قوم تبع.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿وما بينهما﴾ وما بين الجنسين وقرأ عبيد بن عمير وما بينهن.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾.

وقرأ: ﴿ميقاتهم﴾ بالنصب على أنه اسم إن ويوم الفصل خبرها أي: إنّ ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل.

يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾.

﴿لا يغني مولى﴾ أي مولى كان من قرابة أو غيرها ﴿عن مولى﴾ عن أي مولى كان ﴿شيئًا﴾ من إغناء أي قليلاً منه ﴿ولا هم ينصرون﴾ الضمير للموالي لأنهم في المعنى كثير لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 49.

(2) قال أحمد: وأظهر من ذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين، الأولى: منهما الموت، والأخرى: حياة البعث، أثبتوا الحالة الأولى وهي: الموت، ونفوا ما بعدها وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أنّ لا شيء بعدها؛ لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات، فجعلوها أولى على ما ذكرت لهم، وهذا أولى من حمل الموتة الأولى على السابقة على الحياة الدنيا لوجهين أحدهما: أن الاقتصار عليها لا يعتقدونه؛ لأنهم يثبتون الموت الذي يعقب حياة الدنيا، وحمل الحصر المباشر للموت في كلامهم على صفة تذكر لا على نفس الموت المشاهد لهم فيه عدول عن الظاهر بلا حاجة، الثاني: أن الموت السابق على الحياة الدنيا لا يعبر عنه بالموتة، = فإنّ الموتة فعلة فيها إشعار بالتجدّد والطريان، والموت السابق على الحياة الدنيا أمر مستصحب لم تتقدّمه حياة طرأ عليها هذا، مع أن في بقية السورة قوله تعالى: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ وإنما عنى بالموتة الأولى هنا الموت المتعقب للحياة الدنيا فقط، ففيه إرشاد لما ذكرته والله أعلم.

(3) سورة البقرة، الآية: 28.

(4) أخرجه أحمد في المسند 340/5.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في التخيير، بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، (الحديث رقم: 4674).

(6) سورة القمر، الآية: 43.

إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾.

﴿إلا من رحم الله﴾ في محل الرفع على البدل من الواو في ينصرون أي لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله ويجوز أن ينتصب على الاستثناء **﴿إنه هو العزيز﴾** لا ينصر منه من عصاه **﴿الرحيم﴾** لمن أطاعه.

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾.

قرئ: **﴿إن شجرت الزقوم﴾** بكسر الشين وفيها ثلاث لغات شجرة بفتح الشين وكسرها وشيرة بالياء، وروي أنه لما نزل ذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم قال ابن الزبعري: إنّ أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر التزقم فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال: تزقموا فإنّ هذا هو الذي يخوّفكم به محمد فنزل: **﴿إن شجرت الزقوم طعام الأثيم﴾** وهو الفاجر الكثير الآثام وعن أبي الدرداء أنه كان يقرئ رجلاً، فكان يقول طعام اليتيم[1] فقال: قل طعام الفاجر يا هذا وبهذا يستدل على أنّ إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها، ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة وهي أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئًا قالوا وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة؛ لأنّ في كلام العرب خصوصًا في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر، وروى علي بن الجعد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية.

كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾.

﴿كالمهل﴾ قرئ بضم الميم وفتحها وهو دردى الزيت ويدل عليه قوله تعالى: **﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾**[2] مع قوله فكانت وردة كالدهان وقيل هو ذائب الفضة والنحاس.

كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾.

والكاف رفع خبر بعد خبر وكذلك **﴿تغلي﴾** وقرئ بالتاء للشجرة وبالياء للطعام و **﴿الحميم﴾** الماء الحار الذي انتهى غليانه.

خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾.

يقال للزبانية: **﴿خذوه فاعتلوه﴾** فقودوه بعنف وغلظة وهو أن يأخذ بتلبيب الرجل فيجر إلى حبس أو قتل ومنه العتل وهو الغليظ الجافي، وقرئ بكسر التاء وضمها **﴿إلى سواء الجحيم﴾** إلى وسطها ومعظمها.

ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾.

فإن **قُلْتَ**: هلا قيل صبوا فوق رأسه من الحميم كقوله تعالى: يصب من فوق رؤوسهم الحميم لأن الحميم هو المصبوب لا عذابه! **قُلْتُ**: إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدّته إلا أن صب العذاب طريقة الاستعارة كقوله: صبت عليه صروف الدهر من صبب. وكقوله تعالى: **﴿أفرغ علينا صبرًا﴾**[3] فذكر العذاب معلقًا به الصب مستعارًا له ليكون أهول وأهيب.

ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾.

يقال: **﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾** على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه وروى أنّ أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا، وقرئ إنك بمعنى لأنك، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قرأ به على المنبر.

إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿إن هذا﴾ العذاب أو إن هذا الأمر هو **﴿ما كنتم به تمترون﴾** أي تشكون، أو تتمارون وتتلاجون.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾.

قرئ: **﴿في مقام﴾** بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذي وقع مستعملاً في معنى العموم، وبالضم وهو موضع الإقامة أو الأمين من قولك أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة؛ لأنّ المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره قيل السندس مارق من الديباج والاستبرق ما غلظ منه، وهو تعريب استبر.

فإن **قُلْتَ**: كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي؟ **قُلْتُ**: إذا عرب خرج من أن يكون عجميًا لأن معنى التعريب أن يجعل عربيًا بالتصرف فيه وتغييره عن منهاجه وإجرائه على أوجه الإعراب.

يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾.

﴿كذلك﴾ الكاف مرفوعة على الأمر كذلك أو منصوب على مثل ذلك أثبناهم **﴿وزوجناهم﴾**، وقرأ عكرمة بحور عين على الإضافة والمعنى بالحور من العين لأن العين إما أن تكون حورًا أو غير حور فهؤلاء من الحور العين لا من شهلهن مثلاً وفي قراءة عبد الله بعيس عين والعيساء البيضاء تعلوها حمرة.

---

(1) قال أحمد: لا دليل فيه لذلك، وقول أبي الدرداء محمول على إيضاح المعنى ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عوناً، على أن يأتي بالقراءة كما أنزلت على هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب الانتصار، وهو الوجه والله أعلم.

(2) سورة المعارج، الآية: 8.

(3) سورة البقرة، الآية: 250.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾.

وقرأ عبيد بن عمير لا يذاقون فيها الموت وقرأ عبد الله لا يذوقون فيها طعم الموت.

فإن قُلْتَ: كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها[1]؟ **قُلْتُ**: أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله: **﴿إلا الموتة الأولى﴾** موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل، فإنهم يذوقونها وقرئ ووقاهم بالتشديد.

فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾.

﴿فضلاً من ربك﴾ عطاء من ربك وثوابًا يعني: كل ما أعطى المتقين من نعيم الجنة والنجاة من النار، وقرئ فضل أي ذلك فضل.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ فذلك للسورة ومعناها ذكرهم بالكتاب المبين فإنما يسرناه أي: سهلناه حيث أنزلناه عربيًا بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا.

فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿فارتقب﴾ فانتظر ما يحل بهم **﴿أنهم مرتقبون﴾** ما يحل بك متربصون بك الدوائر عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة حمٓ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك[2]، وعنه عليه السلام من قرأ حم التي يذكر فيها الدخان في ليلة جمعة أصبح مغفورًا له[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الجاثية مكية

حمٓ ﴿١﴾.

﴿حمٓ﴾ إن جعلتها اسمًا مبتدأ مخبرًا عنه.

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾.

بـ **﴿تنزيل الكتاب﴾** لم يكن بدّ من حذف مضاف تقديره تنزيل حم تنزيل الكتاب و**﴿من الله﴾** صلة للتنزيل وإن جعلتها تعديدًا للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ، والظرف خبرًا.

إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾.

﴿إنّ في السمٰوات والأرض﴾ يجوز أن يكون على ظاهره وأن يكون المعنى: إنّ في خلق السموات.

وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾.

لقوله: **﴿وفي خلقكم﴾**.

فإن قُلْتَ: علام عطف **﴿وما يبث﴾** أعلى الخلق المضاف أم على الضمير المضاف إليه **قُلْتُ**: بل على المضاف لأنّ المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه استقبحوا أن يقال مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا مررت بك أنت وزيد، وقرئ آيات لقوم يوقنون بالنصب والرفع على قولك إنّ زيدًا في الدار وعمرًا في السوق أو وعمرو في السوق.

فإن قُلْتَ: العطف على عاملين على مذهب الأخفش سديد لا مقال فيه وقد أباه سيبويه، فما وجه تخريج الآية عنده **قُلْتُ**: فيه وجهان عنده أحدهما أن يكون على إضمار في والذي حسنه تقدّم ذكره في الآيتين قبلها ويعضده قراءة ابن مسعود والثاني أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفًا على ما قبله على التكرير ورفعها بإضمار هي.

وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾.

وأمّا قوله: **﴿آيات لقوم يعقلون﴾** فمن العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت فالعاملان إذا نصبت هما إن وفي أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في اختلاف الليل والنهار والنصب في آيات وإذا رفعت فالعاملان الابتداء وفي عملت الرفع في آيات والجر في واختلاف، وقرأ ابن مسعود وفي اختلاف الليل والنهار وقرئ **﴿واختلاف الليل والنهار﴾** بالرفع، وقرئ آية وكذلك وما يبث من دابة آية، وقرئ وتصريف الريح والمعنى إنّ المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنه لا بدّ لها من صانع فآمنوا بالله، وأقرّوا فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف

(1) قال أحمد: هذا الذي ذكره مبني على أنّ الموتة بدل على طريقة بني تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس، وأما على طريقة الحجازيين فانتصبت الموتة استثناء منقطعاً، وسر اللغة التميمية بناء النفي المراد على وجه لا يبقى للسامع مطمعاً في الإثبات، فيقولون: ما فيها أحداً لا حمار، على معنى إن كان الحمار من الأحدين ففيها أحد، فيعلقون الثبوت على أمر محال حتماً بالنفي، وعليه حمل الزمخشري قل لا يعلم من في السموات والأرض= الغيب إلا الله، أي: إن كان الله ممن في السموات والأرض ففي السموات والأرض من يعلم الغيب، فإذا نفر السامع من ثبوت الأوّل تعدت النفرة إلى ثبوت الثاني، فجزمت بالنفي، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في المصدر السابق، (الحديث رقم: 2888).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل حم الدخان، (الحديث رقم: 2889).

الحيوان ازدادوا إيمانًا وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدّد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها ﴿وتصريف الرياح﴾ جنوبًا وشمالاً وقبولاً ودبورًا علقوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم وسمى المطر رزقًا لأنه سبب الرزق.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى الآيات المتقدّمة أي تلك الآيات آيات الله ﴿ونتلوها﴾ في محل الحال أي متلوة ﴿عليك بالحق﴾ والعامل ما دلّ عليه تلك من معنى الإشارة ونحوه هذا بعلي شيخًا، وقرئ يتلوها بالياء ﴿بعد الله وآياته﴾ أي بعد آيات لله كقولهم: أعجبني زيد وكرمه يريدون أعجبني كرم زيد، ويجوز أن يراد بعد حديث الله وهو كتابه أو قرآنه كقوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾، وقرئ ﴿يؤمنون﴾ بالتاء والياء.

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾.

الأفاك الكذاب والأثيم المتبالغ في اقتراف الآثام.

يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾.

﴿يصر﴾ يقبل على كفره ويقيم عليه وأصله من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحي عليها صارا أذنيه ﴿مستكبرًا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق مزدريًا لها معجبًا بما عنده قيل نزلت في النضر بن الحرث، وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ويشغل الناس بها عن استماع القرآن والآية عامّة في كل ما كان مضارًا لدين الله.

فإن قُلْتَ: ما معنى ثم في قوله ثم يصر مستكبرًا؟ قُلْتُ: كمعناه في قول القائل: يرى غمرات الموت ثم يزورها، وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها وأمّا زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد فمعنى ثم الإيذان بأن فعل المقدّم عليها بعدما رآها وعاينها شيء يستبعد في العادات والطباع وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق من تليت عليه وسمعها كان مستبعدًا في العقول إصراره على الضلالة عندها، واستكباره عن الإيمان بها ﴿كأن﴾ مخففة والأصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن كما في قوله: كأن ظبية تعطو إلى ناضر السلم، ومحل الجملة النصب على الحال أي يصر مثل غير السامع.

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾.

﴿وإذا﴾ بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿اتخذها﴾ أي: اتخذ الآيات ﴿هزوًا﴾ ولم يقل اتخذه للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ويحتمل وإذا علم من آياتنا شيئًا يمكن أن يتشبث به المعاند ويجدله محملاً يتسلق به على الطعن والغميزة افترضه واتخذ آيات الله هزوًا وذلك نحو افتراض ابن الزبعري قوله عز وجل: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾[1] ومغالطته رسول الله ﷺ وقوله خصمتك ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية:

نفسي بشيء من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهدي يكفيها

حيث أراد عتبة، وقرئ علم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى كل أفاك أثيم لشموله الأفاكين والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام قال:

أليس ورائي أن تراخت منيتي ... أدب مع الولدان أزحف كالنسر

ومنه قوله عز وجل:

مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾.

﴿من ورائهم﴾ أي من قدامهم ﴿ما كسبوا﴾ من الأموال في رحلهم ومتاجرهم ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله﴾ من الأوثان.

هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾.

﴿هذا﴾ إشارة إلى القرآن يدل عليه قوله تعالى: ﴿والذين كفروا بآيات ربهم﴾ لأنّ آيات ربهم هي القرآن أي: هذا القرآن كامل في الهداية كما تقول: زيد رجل كامل في الرجولية وأيما رجل والرجز أشدّ العذاب، وقرئ بحر أليم ورفعه.

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾.

﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر.

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى منه في قوله: ﴿جميعًا منه﴾ وما موقعها من الإعراب؟ قُلْتُ: هي واقعة موقع الحال، والمعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعني: أنه مكونها وموجدها بقدرته وحكمته، ثم مسخرها لخلقه ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره

(1) سورة الأنبياء، الآية: 98.

هي جميعًا منه، وأن يكون وسخر لكم تأكيدًا لقوله تعالى: ﴿سخر لكم﴾[1] ثم ابتدئ قوله: ﴿ما في السمٰوات وما في الأرض جميعًا﴾ منه وأن يكون ما في الأرض مبتدأ ومنه خبره، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما منه وقرأ سلمة بن محارب منه على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازي أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ذلك، أو هو منه حذف المقول لأنّ الجواب دال عليه والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا.

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾.

﴿لا يرجون أيام الله﴾ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه من قولهم لوقائع العرب أيام العرب وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها قيل: نزلت قبل آية القتال، ثم نسخ حكمها وقيل: نزولها في عمر رضي الله عنه وقد شتمه رجل من غفار فهَمَّ أن يبطش به وعن سعيد بن المسيب كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ: قارئٌ هذه الآية فقال عمر: ليجزي عمر بما صنع.

لنجزي تعليل الأمر بالمغفرة أي إنما أمروا بأن يغفروا لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة.

فإن قُلتَ: قوله ﴿قومًا﴾ ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟ قُلتُ: هو مدح لهم وثناء عليهم كأنه قيل: ليجزي أيما قوم وقومًا مخصوصين لصبرهم، وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه، ومعنى قول عمر: ليجزي عمر بما صنع ليجزي بصبره واحتماله وقوله لرسول الله ﷺ عند نزول الآية: والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي وقرئ: ليجزي قومًا أي الله عز وجل، وليجزي قوم وليجزي قومًا على معنى: وليجزي الجزاء قومًا.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾.

﴿الكتاب﴾ التوراة ﴿والحكم﴾ الحكمة والفقه أو فصل الخصومات بين الناس لأنّ الملك كان فيهم والنبوّة ﴿من الطيبات﴾ مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ حيث لم نؤت غيرهم مثل ما.

وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾.

آتيناهم ﴿بينات﴾ آيات ومعجزات ﴿من الأمر﴾ من أمر الدين، فما وقع بينهم الخلاف في الدين ﴿إلا من بعد ما جاءهم﴾ ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم، وإنما اختلفوا لبغي حدث بينهم أو لعداوة وحسد.

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾.

﴿على شريعة﴾ على طريقة ومنهاج ﴿من الأمر﴾ من أمر الدين فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبني على هوى وبدعة وهم رؤساء قريش حين قالوا ارجع إلى دين آبائك.

إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾.

ولا توالهم إنما يوالي الظالمين من هو ظالم مثلهم. وأما المتقون فوليهم الله وهم موالوه وما أبين الفصل بين الولايتين.

هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿هذا﴾ القرآن ﴿بصائر للناس﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب كما جعل روحًا وحياة وهو هدى من الضلالة ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن وقرئ هذه بصائر أي هذه الآيات.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾.

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان والاجتراح: الاكتساب ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أي كاسبهم ﴿أن نجعلهم﴾ أن نصيرهم وهو من جعل المتعدي إلى مفعولين فأوّلهما الضمير والثاني الكاف والجملة التي هي ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ بدل من الكاف لأنّ الجملة تقع مفعولاً ثانيًا فكانت في حكم المفرد الا تراك لو قلت أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم كان سديدًا كما تقول ظننت زيدًا أبوه منطلق، ومن قرأ سواء بالنصب أجرى سواء مجرى مستويًا وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية وكان مفردًا غير جملة ومن قرأ ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم ظرفين كمقدم الحاج وخفوق النجم أي سواء في محياهم وفي مماتهم، والمعنى إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيا وأن يستووا مماتًا لافتراق أحوالهم أحياء حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات وأولئك على ركوب المعاصي ومماتًا حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله

(1) سورة الجاثية، الآية: 12.

ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدّ لهم، وقيل: معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة لأنّ المسيئين والمحسنين مستوٍ محياهم في الرزق والصحة وإنما يفترقون في الممات، وقيل: سواء محياهم ومماتهم كلام مستأنف على معنى أن محيا المسيئين ومماتهم سواء وكذلك محيا المحسنين ومماتهم كل يموت على حسب ما عاش عليه، وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية، فجعل يبكي ويردّد إلى الصباح: ساء ما يحكمون: وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يردّدها ويبكي ويقول: يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت.

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿ولتجزى﴾ معطوف على ﴿بالحق﴾ لأنّ فيه معنى التعليل أو على معلل محذوف تقديره خلق الله السموات والأرض ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس.

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾.

أي هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلـهه، وقرئ: ﴿آلهة هواه﴾؛ لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحدًا منها ﴿وأضله الله على علم﴾ وتركه عن الهداية واللطف وخذله على علم عالمًا بأنّ ذلك لا يجدي عليه وأنه ممن لا لطف له أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقرّبة ﴿فمن يهديه من بعد﴾ إضلال ﴿الله﴾، وقرئ: غشاوة بالحركات الثلاث وغشوة بالكسر والفتح وقرئ: تتذكرون.

وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾.

﴿نموت ونحيي﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا أو يموت بعض ويحيا بعض، أو نكون مواتًا لطفًا في الأصلاب ونحيا بعد ذلك أو يصيبنا الأمران الموت والحياة يريدون الحياة في الدنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة، وقرئ: نحيا بضم النون، وقرئ: إلا دهر يمر وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظنّ وتخمين كانوا يزعمون أنّ مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان ومنه قوله عليه السلام: لا تسبوا الدهر فإنّ الله هو الدهر[1] أي فإنّ الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر، وقرئ: حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾.

فإن قُلْتَ: لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟ قُلْتُ: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة أو لأنه في أسلوب قولهم تحية بينهم ضرب وجيع كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد نفي أن تكون لهم حجة البتة.

قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

فإن قُلْتَ: كيف وقع قوله: ﴿قل الله يحييكم﴾ جوابًا لقولهم ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين؟ قُلْتُ: لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل وحسبوا أنّ ما قالوه قول مبكت ألزموا ما هم مقرون به من أنّ الله عز وجل هو الذي يحييهم، ثم يميتهم وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم إلى يوم القيامة ومن كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على الإتيان بآبائهم وكان أهون شيء عليه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾.

عامل النصب في ﴿ويوم تقوم﴾ يخسر، و﴿يومئذٍ﴾ بدل من يوم تقوم.

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿جاثية﴾ باركة مستوفزة على الركب، وقرئ: جاذية والجذوّ أشد استيفازًا من الجثوّ لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه وعن ابن عباس رضي الله عنهما جاثية مجتمعة، وعن قتادة جماعات من الجثوة وهي الجماعة وجمعها جثى وفي الحديث: من جثى جهنم[2]. وقرئ: ﴿كل أمّة﴾ على الابتداء وكل أمة على الإبدال من كل أمة ﴿إلى كتابها﴾ إلى صحائف أعمالها فاكتفى باسم

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الجاثية، (الحديث رقم: 4827)، ومسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب، باب: النهي عن سب الدهر، (الحديث رقم: 2/2246).

(2) أخرجه ابن حبان، في كتاب: بدء التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث = رقم: 6233)، أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في فضل الصلاة والصيام والصدقة، (الحديث رقم: 2863)، وأحمد في المسند 130/4. والحاكم في المستدرك 117/1. وأخرجه البخاري في التفسير، سورة بني إسرائيل، (الحديث رقم: 4718).

الجنس كقوله تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾[1] ﴿اليوم تجزون﴾ محمول على القول.

هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾.

فإن قُلْتَ: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عزّ وجل؟ قُلْتُ: الإضافة تكون للملابسة وقد لابسهم ولابسه أما ملابسته إياهم فلأن أعمالهم مثبتة فيه، وأما ملابسته إياه فلأنه مالكه والآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده ﴿ينطق عليكم﴾ يشهد عليكم بما عملتم ﴿بالحق﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إنا كنا نستنسخ﴾ الملائكة ﴿ما كنتم تعملون﴾ أي نستكتبهم أعمالكم.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾.

﴿في رحمته﴾ في جنته.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾.

وجواب أما محذوف تقديره: وأما الذين كفروا فيقال لهم ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾، والمعنى: ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحذف المعطوف عليه.

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾.

وقرئ: ﴿والساعة﴾ بالنصب عطفًا على الوعد وبالرفع عطفًا على محل إن واسمها ﴿ما الساعة﴾ أي شيء الساعة.

فإن قُلْتَ: ما معنى إن نظن إلا ظنًا؟ قُلْتُ: أصله نظن ظنًا ومعناه إثبات الظن فحسب فأدخل حرفا النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظن مع نفي ما سواه وزيد نفي ما سوى الظن توكيدًا بقوله: ﴿وما نحن بمستيقنين﴾.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿سيئات ما عملوا﴾. أي قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[2].

وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾.

﴿ننساكم﴾ نترككم في العذاب كما تركتم عدّة ﴿لقاء يومكم هذا﴾ وهي الطاعة أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال كالشيء الذي يطرح نسيًا منسيًا.

فإن قُلْتَ: ما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم؟ قُلْتُ: كمعنى إضافة المكر في قوله تعالى: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾[3] أي نسيتم لقاء الله في يومكم هذا ولقاء جزائه.

ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾.

وقرئ: لا يخرجون بفتح الياء ﴿ولا هم يستعتبون﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه.

فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿فلله الحمد﴾ فاحمدوا الله الذي هو ربكم، ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين فإن مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب وكبروه.

وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾.

فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته ﴿في السمٰوات والأرض﴾ وحق مثله أن يتكبر ويعظم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ حمّ الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأحقاف مكية

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾.

﴿إلا بالحق﴾ إلا خلقًا ملتبسًا بالحكمة والغرض الصحيح ﴿و﴾ بتقدير ﴿أجل مسمى﴾ ينتهي إليه وهو يوم القيامة ﴿والذين كفروا عما أنذروا﴾ من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه ﴿معرضون﴾ لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له، ويجوز أن تكون ما مصدرية أي عن إنذارهم ذلك اليوم.

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن

---

(1) سورة الكهف، الآية: 49.

(2) سورة الشورى، الآية: 40.

(3) سورة سبأ، الآية: 33.

(4) ذكره الثعلبي، وذكره الواحدي وابن مردويه في التفسير، الزيلعي 3/276.

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾.

﴿بكتاب من قبل هذا﴾ أي من قبل هذا الكتاب وهو القرآن يعني أنّ هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك، وما من كتاب انزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما انتم عليه من عبادة غير الله ﴿أو أثارة من علم﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأوّلين من قولهم سمنت الناقة على أثارة من شحم أي على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب، وقرئ أثره أي من شيء أوثرتم به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم، وقرئ أثرة بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكون الثاء فالإثرة بالكسر بمعنى: الأثرة وأما الأثرة فالمرّة من مصدر أثر الحديث إذا رواه، وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر كالخطبة اسم ما يخطب به.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾.

﴿ومن أضل﴾ معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام[1] حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كلّ بغية ومرام ويدعون من دونه جمادًا لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة.

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾.

وإذا قامت القيامة وحشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضدًا فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرّة لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة وفي الآخرة تعاديهم، وتجحد عبادتهم وإنما قيل من وهم لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغباوة ويجوز أن يريد كلّ معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان فغلب غير الأوثان عليها، قرئ ما لا يستجيب وقرئ يدعو غير الله من لا يستجيب ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها، ونحوه قوله تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾[2].

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾.

﴿بينات﴾ جمع بينة وهي الحجة والشاهد أو واضحات مبينات. واللام في ﴿للحق﴾ مثلها في قوله: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا﴾[3] أي لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا[4] والمراد بالحق الآيات وبالذين كفروا المتلو عليهم فوضع الظاهران موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر وللمتلو بالحق ﴿لما جاءهم﴾ أي بادهوه بالجحود ساعة أتاهم وأوّل ما سمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر، ومن عنادهم وظلمهم أنهم سموه سحرًا مبينًا ظاهرًا أمره في البطلان لا شبهة فيه.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾.

﴿أم يقولون افتراه﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرًا إلى ذكر قولهم إن محمدًا افتراه، ومعنى الهمزة في أم الإنكار والتعجيب كأنه قيل: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضي منه العجب وذلك أنّ محمدًا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريه على الله ولو قدر عليه دون أمّة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة وإذا كانت معجزة كانت تصديقًا من الله له والحكيم لا يصدّق الكاذب، فلا يكون مفتريًا والضمير للحق والمراد به الآيات ﴿قل إن افتريته﴾ على سبيل الفرض عاجلني الله تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه فلا تقدرون على كفه عن معاجلتي ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عني فكيف أفتريه وأتعرّض لعقابه يقال: فلان لا يملك إذا غضب، ولا يملك عنانه إذا صمم ومثله فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا ومنه قوله عليه السلام: لا أملك لكم من الله شيئًا[5]

(1) قال أحمد: وفي قوله: إلى يوم القيامة نكتة حسنة، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة، ومن شأن الغاية انتهاء المعنى عندها، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية؛ لأنهم في القيامة أيضاً لا يستجيبون لهم، فالوجه والله أعلم أنها من الغايات المشعرة بأنّ ما بعدها، وإن وافق ما قبلها، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني، حتى كأنّ الحالتين وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما كالشيء وضدّه، وذلك أنّ الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم، فهو من وادي ما تقدّم آنفاً في سورة الزخرف في قوله: ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾.

(2) سورة فاطر، الآية: 14.

(3) سورة الأحقاف، الآية: 11.

(4) قال أحمد: هذا الإضراب في بابه مثل الغاية التي قدّمتها آنفاً في بابها، فإنه انتقال إلى موافق لكنه أزيد من الأوّل، فنزل بزيادته عليه مع ما تقدّمه مما ينقص عنه منزلة المتنافيين كالنفي والإثبات الذين يضرب عن أحدهما للآخر، وذلك أنّ نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات أشدّ وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر، فأضرب عن ذلك الأوّل إلى ذكر ما هو أغرب منه.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: من انتسب إلى آبائه في الجاهلية والإسلام (الحديث رقم: 3527)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك (الحديث رقم: 3481 ـ 204).

ثم قال: ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه﴾ أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى، والطعن في آياته وتسميته سحرًا تارة وفرية أخرى ﴿كفى به شهيدًا بيني وبينكم﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ ويشهد عليكم بالكذب والجحود ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ موعدة بالغفران، والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وآمنوا وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم ما ارتكبوا.

فإن قُلْتَ: فما معنى إسناد الفعل إليهم في قوله تعالى: ﴿فلا تملكون لي﴾ قُلْتُ: كان فيما أتاهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم[1]، فكأنه قال لهم: إن افتريته وأنا أريد بذلك التنصح لكم وصدّكم عن عبادة الآلهة إلى عبادة الله فما تغنون عني أيها المنصوحون إن أخذني الله بعقوبة الافتراء عليه، البدع بمعنى البديع كالخف بمعنى الخفيف وقرئ بدعاً بفتح الدال أي ذا بدع، ويجوز أن يكون صفة على فعل كقولهم دين قيم ولحم زيم كانوا يقترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب فقيل له:

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾.

﴿قل ما كنت بدعًا من الرسل﴾ فآتيكم بكل ما تقترحونه وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات، فإنّ الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما آتاهم الله من آياته ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم ولقد أجاب موسى صلوات الله عليه عن قول فرعون فما بال القرون الأولى بقوله: ﴿علمها عند ربي﴾[2] ﴿وما أدري﴾ لأنه لا علم لي بالغيب ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله ويقدّر لي ولكم من قضاياه ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ وعن الحسن وما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا ومن الغالب منا والمغلوب وعن الكلبي قال له أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين: حتى متى نكون على هذا؟ فقال: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم أأترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورأيتها يعني في منامه ذات نخيل وشجر. وعن ابن عباس ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة وقال: هي منسوخة بقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾[3] ويجوز أن يكون نفيًا للدراية المفصلة، وقرئ: ﴿ما يفعل﴾ بفتح الياء أي يفعل الله عز وجل.

فإن قُلْتَ: إن يفعل مثبت غير منفي فكان وجه الكلام ما يفعل بي وبكم قُلْتُ: أجل ولكن النفي في ما أدري لما كان مشتملاً عليه لتناوله ما وما في حيزه صح ذلك وحسن ألا ترى إلى قوله: ﴿أولم يروا أنّ الله الذي خلق السمٰوات والأرض ولم يعي بخلقهنّ بقادر﴾[4] كيف دخلت الباء في حيز أن وذلك لتناول النفي إياها مع ما في حيزها[5]، وما في ما يفعل يجوز أن تكون موصولة منصوبة وأن تكون استفهامية مرفوعة وقرئ: يوحي أي الله عز وجل.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾.

جواب الشرط محذوف تقديره إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[6] والشاهد من بني إسرائيل عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر إلى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمّله فتحقق أنه هو النبي المنتظر وقال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا: نبي ما أوّل أشراط الساعة وما أوّل طعام يأكله أهل الجنة، وبال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه فقال عليه الصلاة والسلام: «أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماء

---

(1) قال أحمد: فيه نظر من قبيل أنّ الكلام جرى فرضاً وتقديراً، ومتى فرض الافتراء لا يتصوّر على تقديره نصح، فإنّ النصح عبارة عن الدعاء إلى ما فيه نفع، ولا ينفع المكلف في عمل ظاهر أو باطن، إلا أن يكون مأموراً به من الله تعالى، ولا سبيل إلى الاطلاع على ذلك إلا من الوحي الحق لا غير، فإذاً لا يتصوّر نصح مع الافتراء، وإنما يتم هذا الذي قرّره على قاعدة المعتزلة للقائلين بأن العقل طريق يوصل إلى معرفة حكم الله تعالى؛ لأنه إذا أمر بطاعة من الطاعات كالتوحيد مثلاً، وقال: إنّ الله حتم عليكم وجوب التوحيد، وأنا رسول الله إليكم، ولم يكن متعوّقاً، فإنه محق في الأمر بالتوحيد؛ لأنّ العقل دل على وجوبه عندهم، وإن كان مفترياً في دعوى كونه رسولاً من الله عزّ وجلّ، وهذه قاعدة قد أفسدتها الأدلة القاطعة، فيحتمل في إجراء الآية على مذهب أهل السنة أن يكون إسناد الفعل لهم على معنى التنبيه بالشيء على مقابله بطريق المفهوم، فالمعنى إذاً إن كنت مفترياً فالعقوبة واقعة بي لا تدفعونها عني، فمفهومه وإن كنت محقاً، وأنتم مفترون فالعقوبة = واقعة بكم لا أقدر على دفعها عنكم، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿قل إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ وأمثاله كثيرة، والله أعلم.

(2) سورة طه، الآية: 52.

(3) سورة الفتح، الآية: 2.

(4) سورة الأحقاف، الآية: 33.

(5) قال أحمد: بنى على أنّ المجرور معطوف على مثله، وأنهما جميعاً في صلة موصول واحد، ولو قيل: إنّ المجرور الثاني من صلة موصول محذوف معطوف على مثله، حتى يكون التقدير وما أدري ما يفعل بي ولا ما يفعل بكم؟ لكانت لا واقعة بمكانة غير مفتقرة إلى تأويل، وحذف الموصوف المعطوف وتفاصيله كثيرة، ومنه فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء؛ يريد حسان رضي الله عنه: أفمن يهجو رسول الله ﷺ، ومن يمدحه سواء.

(6) سورة الأنعام، الآية: 144.

الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته». فقال أشهد أنك رسول الله حقًا، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك، فجاءت اليهود فقال لهم النبي ﷺ أي رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله قالوا: أعاذه الله من ذلك فخرج إليهم عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله[1] وأحذر قال سعد بن أبي وقاص ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾[2] الضمير للقرآن أي على مثله في المعنى وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة في القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وإنه لفي زبر الأوّلين﴾[3] ﴿إنّ هذا لفي الصحف الأولى﴾[4] كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك، ويجوز أن يكون المعنى إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعني كونه من عند الله.

فإن قُلْتَ: أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم[5] قُلْتُ: الواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل الشرط كما عطفته، ثم في قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به﴾[6] وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد، وأما الواو في وشهد شاهد فقد عطفت جملة قوله شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم على جملة قوله: ﴿كان من عند الله وكفرتم به﴾[7] ونظيره قولك: إن أحسنت إليك وأسأت وأقبلت عليك وأعرضت عني لم نتفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما والمعنى قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ألستم أضل الناس وأظلمهم، وقد جعل الإيمان في قوله فآمن مسببًا عن الشهادة على مثله لأنه لما علم أنّ مثله أنزل على موسى صلوات الله عليه وأنه من جنس الوحي وليس من كلام البشر وأنصف من نفسه فشهد علته واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾.

﴿للذين آمنوا﴾ لأجلهم وهو كلام كفار مكة قالوا: عامّة من يتبع محمد السقاط يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب، وابن مسعود فلو كان ما جاء به خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء وقيل لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم غفار قالت: بنو عامر وغطفان وأسد، وأشجع لو كان خيرًا ما سبقنا إليه رعاء إليهم وقيل إن أمة لعمر أسلمت فكان عمر يضربها حتى يفتر، ثم يقول لو أني فترت لزدتك ضربًا وكان كفار قريش يقولون لو كان ما يدعو إليه محمد حقًا ما سبقتنا إليه فلانة، وقيل: كان اليهود يقولونه عند إسلام عبد الله بن سلام وأصحابه.

فإن قُلْتَ: لا بدّ من عامل في الظرف في قوله: ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ ومن متعلق لقوله ﴿فسيقولون﴾ وغير مستقيم أن يكون[8] فسيقولون هو العامل في الظرف لتدافع دلالتي المضي والاستقبال فما وجه هذا الكلام؟ قُلْتُ: العامل في إذ محذوف لدلالة الكلام عليه كما حذف من قوله فلما ذهبوا به وقولهم حينئذٍ الآن وتقديره وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم، فسيقولون هذا إفك قديم فهذا المضمر صحّ به الكلام حيث انتصب به الظرف وكان قوله: فسيقولون مسببًا عنه كما صحّ بإضمار أنّ قوله حتى يقول الرسول لمصادفة حتى مجرورها والمضارع ناصبه وقولهم ﴿إفك قديم﴾ كقولهم أساطير الأوّلين.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: (51) (الحديث رقم: 3938).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب عبد الله بن سلام (الحديث رقم: 3812)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن سلام رضي الله عنه (الحديث رقم: 147ـ 2483).

(3) رواه ابن أبي شيبة في كتاب: المفرد، في فضائل القرآن، زيلعي 3/281، راجع بدون حاشية.

(4) سورة الشعراء، الآية: 196.

(5) قال أحمد: إنما لم يوجه المعطوف إلى جهة واحدة؛ لأنّ التفصيل قد يكون عطف مجموع مفردات على مجموع مفردات كل منهما، والآية من هذا النمط ومثلها قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ وقوله: ﴿إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ الآية وقد تقدّم تقرير ذلك في الآيتين فجدد به عهداً.

(6) سورة الأعلى، الآية: 18.

(7) سورة الأحقاف، الآية: 10.

(8) قال أحمد: إن لم يكن مانع من عمل فسيقولون في الظرف، إلا تنافي دلالتي المضي والاستقبال، فهذا غير مانع، فإن الاستقبال ههنا إنما خرج مخرج الإشعار بدوام ما وقع ومضى؛ لأن القوم قد حرموا الهداية، وقالوا: هذا إفك قديم وأساطير الأوّلين، وغير ذلك، فمعنى الآية إذاً: وقالوا إذا لم يهتدوا به هذا إفك قديم وداموا على ذلك، وأصروا عليه، فعبر عن وقوعه، ثم دوامه بصيغة الاستقبال، كما قال إبراهيم: إلا الذي فطرني، فإنه سيهدين، وقد كانت الهداية واقعة وماضية، ولكن أخبر عن وقوعها ثم دوامها، فعبر بصيغة الاستقبال، وهذا طريق الجمع بين قوله: سيهدين، وقوله في الأخرى: فهو يهدين، ولولا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذي ذكرته هو الوجه، ولكن الفاء المسببة دلت بدخولها على محذوف هو السبب، وقطعت الفعل عن الظرف المتقدم، فوجب تقدير المحذوف عاملاً فيه لينتظم بتقدير عاملاً، أمران مصادفة الظرف للعامل والفعل المعلل لعلته، فتعين ما ذكره الزمخشري لأجل الفاء لا لتنافي الدلالتين والله أعلم.

وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾.

﴿كتاب موسى﴾ مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبرًا مقدمًا عليه وهو ناصب **﴿إمامًا﴾** على الحال كقولك في الدار زيد قائمًا، وقرئ ومن قبله كتاب موسى على وآتينا الذين قبله التوراة ومعنى إمامًا قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام **﴿ورحمة﴾** لمن آمن به وعمل بما فيه **﴿وهذا﴾** القرآن **﴿كتاب مصدق﴾** لكتاب موسى، أو لما بين يديه وتقدّمه من جميع الكتب وقرئ مصدقًا لما بين يديه **﴿ولسانًا عربيًا﴾** حال من ضمير الكتاب في مصدق والعامل فيه مصدق ويجوز أن ينتصب عن كتاب لتخصصه بالصفة[1] ويعمل فيه معنى الإشارة، وجوز أن يكون مفعولاً لمصدق أي يصدق ذا لسان عربي وهو الرسول، وقرئ ولينذر بالياء والتاء ولينذر من نذر ينذر إذا حذر **﴿وبشرى﴾** في محل النصب معطوف على محل لينذر لأنه مفعول له.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾.

قرئ حسنًا بضم الحاء وسكون السين وبضمهما وبفتحهما وإحسانًا وكرهًا بالفتح والضم وهما لغتان في معنى: المشقة كالفقر والفقر وانتصابه على الحال أي ذات كره أو على أنه صفة للمصدر أي حملاً ذا كره **﴿وحمله وفصاله﴾** ومدّة حمله وفصاله **﴿ثلاثون شهرًا﴾** وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر لأنّ مدّة الرضاع إذا كانت حولين كاملين لقوله عز وجل حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة بقيت للحمل ستة أشهر، وقرئ وفصله والفصل والفصال كالفطم والفطام بناء ومعنى.

فإن قُلْتَ: المراد بيان مدّة الرضاع لا الفطام فكيف عبر عنه بالفصال؟ قُلْتُ: لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه لأنه ينتهي به ويتم سمى فصالاً كما سمى المدّة بالأمد من قال:

كل حي مستكمل مدّة العمـ ـر وموْد إذا انتهى أمده

وفيه فائدة وهي الدلالة على الرضاع التام المنتهي بالفصال ووقته، وقرئ حتى إذا استوى وبلغ أشدّه وبلوغ الأشدّ أن يكتهل ويستوفي السنّ التي تستحكم فيها قوّته وعقله، وتمييزه وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين وعن قتادة ثلاث وثلاثون سنة ووجهه أن يكون ذلك أوّل الأشد وغايته الأربعين، وقيل لم يبعث نبي قط إلا بعد أربعين سنة. والمراد بالنعمة التي استوزع الشكر عليها نعمة التوحيد والإسلام وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه لأن النعمة عليها نعمة عليه، وقيل في العمل المرضي: هو الصلوات الخمس.

فإن قُلْتَ: ما معنى في قوله: **﴿وأصلح لي في ذريتي﴾** قُلْتُ: معناه أن يجعل ذرّيته[2] موقعًا للصلاح ومظنة له كانه قال هب لي الصلاح في ذرّيتي وأوقعه فيهم ونحوه، يجرح في عراقيبها نصلي **﴿من المسلمين﴾** من المخلصين.

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾.

وقرئ يتقبل ويتجاوز بفتح الياء الضمير فيهما لله عز وجل وقرئا بالنون.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: **﴿في أصحاب الجنة﴾** قُلْتُ: هو نحو قولك أكرمني الأمير في ناس من أصحابه تريد أكرمني في جملة من أكرم منهم ونظمني في عدادهم ومحله النصب على الحال على معنى كائنين من أصحاب الجنة، ومعدودين فيهم **﴿وعد الصدق﴾** مصدر مؤكد لأنّ قوله يتقبل ويتجاوز وعد من الله لهم بالتقبل، والتجاوز، وقيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه وفي أبيه أبي قحافة وأمّه أم الخير وفي أولاده واستجابة دعائه فيهم وقيل لم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر.

وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾.

﴿والذي قال لوالديه﴾ مبتدأ خبره أولئك الذين حق عليهم القول، والمراد بالذي قال الجنس القائل ذلك القول ولذلك وقع الخبر مجموعًا وعن الحسن هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث وعن قتادة هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه، وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر[3] قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمّه أمّ رومان

---

(1) قال أحمد: وجهان حسنان أعزهما بثالث، وهو النصب على الاختصاص، وهذه الوجوه في قوله تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا﴾ والله أعلم.

(2) قال أحمد: ومثله قوله تعالى: ﴿إلا المودّة في القربى﴾ عدولاً عن قوله: إلا مودّة القربى، أو المودّة للقربى، والله أعلم.

(3) قال أحمد: ونحن نختار أنّ المراد الجنس لا عبد الرحمن بن أبي = بكر، ولكننا لا نختار الرد على قائل ذلك بهذا الوجه، فإنّ له أن يقول أراد عبد الرحمن وأمته، ومثل ذلك قول الله تعالى حكاية عن العزيز يخاطب زليخا: ﴿إنه من كيدكن إنّ كيدكنّ عظيم﴾ فخاطبها وخاطب أمتها والمقصودة هي، وقد عاذ إلى خطابها خصوصاً بقوله: ﴿واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ ولكن وجه الرد على من زعم أنّ المراد عبد الرحمن ما ذكره الزمخشري =

إلى الإسلام فأفف بهما، وقال: ابعثوا إلى جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو وهما من أجداده حتى أسألهما عما يقول محمد ويشهدوا لبطلانه أن المراد بالذي قال جنس القائلين ذلك وأنّ قوله الذين حق عليهم القول هم أصحاب النار وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه، وحين كتب معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن لقد جئتم بها هرقلية تبايعون لأبنائكم فقال مروان يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه والذي قال لوالديه: أف لكما فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله[1] وقرئ أف بالكسر والفتح بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر كما إذا قال حس علم منه أنه متوجع واللام للبيان معناه هذا التأفيف لكما خاصة ولأجلكما دون غيركما، وقرئ أتعدانني بنونين وأتعداني بأحدهما وأتعداني بالإدغام وقد قرأ بعضهم أتعدانني بفتح النون كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرتين والياء ففتح الأولى تحريًا للتخفيف كما تحراه من أدغم ومن أطرح أحدهما ﴿أن أخرج﴾ أن ابعث وأخرج من الأرض، وقرئ أخرج ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ يعني ولم يبعث منهم أحد ﴿يستغيثان الله﴾ يقولان الغياث بالله منك ومن قولك وهو استعظام لقوله ﴿ويلك﴾ دعاء عليه بالثبور والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾.

﴿في أمم﴾ نحو قوله في أصحاب الجنة، وقرئ أن بالفتح على معنى آمن بأن وعد الله حق.

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾.

﴿ولكل﴾ من الجنسين المذكورين ﴿درجات مما عملوا﴾ أي منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير أو الشر ومن أجل ما عملوا منهما.

فإن قُلْتَ: كيف قيل درجات، وقد جاء الجنة درجات والنار دركات؟ قُلْتُ: يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب لاشتمال كل على الفريقين ﴿وليوفيهم﴾، وقرئ بالنون تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه كأنه قيل وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات ناصب الظرف هو القول المضمر قبل.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾.

﴿أذهبتم﴾ وعرضهم على النار تعذيبهم بها من قولهم عرض بنو فلان على السيف[2] إذا قتلوا به ومنه قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها﴾، ويجوز أن يراد عرض النار عليهم من قولهم عرضت الناقة على الحوض يريدون عرض الحوض عليها فقلبوا، ويدل عليها تفسير ابن عباس رضي الله عنه بجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها ﴿أذهبتم طيباتكم﴾ أي ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم وقد ذهبتم به وأخذتموه فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها وعن عمر رضي الله عنه لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكراكر وأسنمة، ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم طيباتهم فقال: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾[3] وعنه: لو شئت لكنت أطيبكم طعامًا وأحسنكم لباسًا ولكني أستبقي طيباتي[4] وعن رسول الله ﷺ أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعًا فقال: «أأنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة، ويروح في أخرى ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستر بينه كما تستر الكعبة» قالوا: نحن يومئذٍ خير قال: بل أنتم اليوم خير[5]، وقرئ: أذهبتم بهمزة الاستفهام وآأذهبتم بألف بين همزتين. الهون والهوان، وقرئ عذاب الهوان، وقرئ يفسقون بضم السين وكسرها الأحقاف جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من حقوقف الشيء إذا

= ثانياً، فقال: إن الذين حق عليهم القول هم المخلدون في النار في علم الله تعالى؛ وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم، ونقل أن معاوية كتب إلى مروان: بأن يبايع الناس ليزيد، فقال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية أتبايعون لأبنائكم، فقال مروان: أيها الناس إن هذا هو الذي قال الله فيه: ﴿والذي قال لوالديه﴾ الآية فسمعت عائشة فغضبت، وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه سميته، ولكنّ الله لعن أباك، وأنت في صلبه، فأنت فضض من لعنة الله ا هـ كلامه. قلت: وفي هذه الآية ردّ على من زعم أنّ المفرد الجنسي لا يعمم؛ لأنه لا يعامل معاملة الجمع لا في الصفة، ولا في الخبر، فلا يجوز أن تقول الدينار الصفر خير من الدرهم البيض، وهذا مردود بأن خبر الذي الواقع جنساً جاء على نعت خبر المجموع، كما رأيت، والله أعلم.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الأحقاف، باب: «والذي= = قال لوالديه أف لكما...» (الحديث رقم: 4827).

(2) قال أحمد: إن كان قولهم عرضت الناقة على الحوض مقلوباً فليس قوله: يعرض الذين كفروا على النار مقلوباً؛ لأنه الملجئ ثم إلى اعتقاد القلب لأنّ الحوض جماد لا إدراك له، والناقة هي المدركة فهي التي يعرض عليها الحوض حقيقة، وأما النار فقد وردت النصوص بأنها حينئذ مدركة إدراك الحيوانات، بل إدراك أولي العلم، فالأمر في الآية على ظاهره، كقولك: عرضت الأسرى على الأمير، والله أعلم.

(3) ذكره ابن المبارك في الزهد، وأحمد بن حنبل في الزهد، وأبو عبيدة في غريب، الزيلعي 3/ 283.

(4) رواه أبو نعيم في ترجمة عمر.

(5) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة، والرقائق والورع، باب: (35) (الحديث رقم: 2476).

أعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن، وقيل بين عمان ومهرة.

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾﴾.

و﴿النذر﴾ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار ﴿من بين يديه﴾ من قبله ﴿ومن خلفه﴾ ومن بعده وقرئ من بين يديه ومن بعده، والمعنى: أنّ هودًا عليه السلام قد أنذرهم فقال لهم: لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم العذاب وأعلمهم أنّ الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره وعن ابن عباس رضي الله عنه يعني الرسل الذين بعثوا قبله، والذين بعثوا في زمانه ومعنى ومن خلفه على هذا التفسير ومن بعد إنذاره هذا إذا علقت وقد خلت النذر بقوله أنذر قومه ولك أن تجعل قوله تعالى: ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ اعتراضًا بين أنذر قومه وبين ﴿ألا تعبدوا﴾ ويكون المعنى وانكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك فاذكر.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

الإفك الصرف: يقال أفكه عن رأيه ﴿عن آلهتنا﴾ عن عبادتنا ﴿بما تعدنا﴾ من معاجلة العذاب على الشرك ﴿إن كنت﴾ صادقًا في وعدك.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾﴾.

فإن قُلْتَ: من أين طابق قوله تعالى: ﴿إنما العلم عند الله﴾ جوابًا لقولهم فأتنا بما تعدنا؟ قُلْتُ: من حيث أنّ قولهم هذا استعجال منهم بالعذاب ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ فقال لهم: لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم حكمة وصوابًا إنما علم ذلك عند الله، فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه في وقت عاجل تقترحونه أنتم ومعنى ﴿وأبلغكم ما أرسلت به﴾ وقرئ بالتخفيف أن الذي هو شأني وشرطي أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرضكم لسخط الله بجهدي، ولكنكم جاهلون ولا تعلمون أنّ الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه.

﴿فلما رأوه﴾ في الضمير وجهان أن يرجع إلى تعدنا وأن يكون مبهمًا قد وضح أمره بقوله ﴿عارضًا﴾ إما تمييزًا وإما حالاً وهذا الوجه أعرب وأفصح والعارض السحاب الذي يعرض في أفق السماء ومثله الحبى والعنان من حبًا وعنّ إذا عرض وإضافة مستقبل وممطر مجازية غير معرفة بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفًا للنكرة ﴿بل هو﴾ القول قبله مضمر والقائل هود عليه السلام والدليل عليه قراءة من قرأ قال هود بل هو، وقرئ قل بل ما استعجلتم به هي ريح.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي قال الله تعالى: قل ﴿تدمر كل شيء﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير فعبر عن الكثرة بالكلية، وقرئ يدمر كل شيء من دمر دمارًا إذا هلك ﴿لا ترى﴾ الخطاب للرائي من كان وقرئ ﴿لا يرى﴾ على البناء للمفعول بالياء والتاء وتأويل القراءة بالتاء وهي عن الحسن رضي الله عنه لا ترى بقايا ولا أشياء منهم إلا مساكنهم ومنه بيت ذي الرمّة وما بقيت إلا الضلوع الجراشع وليست بالقوية، وقرئ ألا ترى إلا مسكنهم ولا يرى إلا مسكنهم. وروي أنّ الريح كانت تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها في الجوّ حتى ترى كأنها جرادة، وقيل أوّل من أبصر العذاب امرأة منهم قالت: رأيت ريحًا فيها كشهب النار. وروي أوّل ما عرفوا به أنه عذاب أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم، ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم وأمال الله عليهم الأحقاف، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم في البحر وروي أنّ هودًا لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطاً إلى جنب عين تنبع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين على الجلود وتلذه الأنفس وأنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة وعن النبي ﷺ أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به وإذا رأى مخيلة قام وقعد وجاء وذهب وتغير لونه فيقال له: يا رسول الله ما تخاف، فيقول إني أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا هذا عارض ممطر[1].

فإن قُلْتَ: ما فائدة إضافة الرب إلى الريح؟ قُلْتُ: الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد لعظم قدرته لأنها من أعاجيب خلقه، وأكابر جنوده وذكر الأمر وكونها مأمورة

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح والغيم.. (الحديث رقم: 15 ـ 899)، والترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا هاجت الريح، (الحديث رقم: 3449)، = والنسائي في عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا عصفت الريح، (الحديث رقم: 946).

من جهته عز وجل يعضد ذلك ويقوّيه.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إنْ﴾ نافية أي فيما ما مكناكم فيه إلا أن إن أحسن في اللفظ لما فيه مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع ومثله مجتنب ألا ترى أن الأصل في مهما ما فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء ولقد أغث أبو الطيب في قوله:

لعمرك ما ما بان منك لضارب

وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال لعمرك ما أن بان منك لضارب وقد جعلت إن صلة مثلها فيما أنشده الأخفش:

يرجي المرء ما إن لا يراه

وتعرض دون أدناه الخطوب. وتؤوّل بأنا مكناهم في مثل ما مكّناكم فيه والوجه هو الأوّل ولقد جاء عليه غير آية في القرآن هم أحسن أثاثًا ورئيا كانوا أكثر منهم وأشدّ قوّة وآثارًا وهو أبلغ في التوبيخ، وأدخل في الحث على الاعتبار ﴿من شيء﴾ أي من شيء من الإغناء وهو القليل منه.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿إذ كانوا يجحدون﴾ قُلْتُ: بقوله تعالى: فما أغنى.

فإن قُلْتَ: لم جرى مجرى التعليل؟ قُلْتُ: لاستواء مؤدى التعليل والظرف في قولك ضربته لإساءته وضربته إذا أساء لأنك إذا ضربته في وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه إلا أن إذ وحيث غلبتا دون سائر الظروف في ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ما حولكم﴾ يا أهل مكة ﴿من القرى﴾ من نحو حجر ثمود، وقرية سدوم وغيرهما والمراد أهل القرى ولذلك قال ﴿لعلهم يرجعون﴾.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

القربان ما تقرب به إلى الله تعالى أي اتخذوهم شفعاء متقربًا بهم إلى الله حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف[1] والثاني آلهة وقربانًا حال، ولا يصح أن يكون قربانًا مفعولاً ثانيًا وآلهة بدلاً منه لفساد المعنى، وقرئ قربانًا بضم الراء والمعنى فهلا منعهم من الهلاك آلهتهم ﴿بل ضلوا عنهم﴾ أي غابوا عن نصرتهم ﴿وذلك﴾ إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم أي وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء وقرئ إفكهم والإفك والإفك كالحذر والحذر، وقرئ وذلك إفكهم أي وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق، وقرئ إفّكهم على التشديد للمبالغة وآفكهم جعلهم آفكين وآفكهم أي قولهم الآفك ذو الإفك كما تقول قول كاذب وذلك إفك مما كانوا يفترون أي بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿صرفنا إليك نفرًا﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك، وقرئ صرّفنا بالتشديد لأنهم جماعة والنفر دون العشرة ويجمع أنفارًا وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه لو كان ههنا أحد من أنفارنا[2] ﴿فلما حضروه﴾ الضمير ﴿للقرآن﴾ أي فلما كان بمسمع منهم أو لرسول الله ﷺ، وتعضده قراءة من قرأ فلما قضى أي أتم قراءته وفرغ منها.

﴿قالوا﴾ قال بعضهم لبعض ﴿انصتوا﴾ اسكتوا مستمعين يقال أنصت لكذا واستنصت له روي أنّ الجنّ كانت تسترق السمع، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا: ما هذا إلا لنبأ حدث فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشراف جنّ نصيبين أو نينوى منهم زوبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة، ثم اندفعوا إلى وادي نخلة فوافقوا رسول الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل يصلي أو في صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم، فلم يجيبوه إلى طلبته وأغروا به سفهاء ثقيف[3] وعن سعيد بن جبير

---

(1) قال أحمد: لم يتبين وجه فساد المعنى على هذا الإعراب، ونحن نبينه فنقول: لو كان قرباناً مفعولاً ثانياً، ومعناه: متقرّباً بهم لصار المعنى إلى أنهم وبخوا على ترك اتخاذ الله متقرباً به؛ لأنّ السيد إذا وبخ عبده، وقال: اتخذت فلاناً سيداً دوني، فإنما معناه: اللوم على نسبة السيادة إلى غيره، وليس هذا المقصود، فإنّ الله تعالى يتقرّب إليه ولا يتقرّب به لغيره، فإنما وقع التوبيخ على نسبة الإلٰهية إلى غير الله تعالى، فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو= المفعول الثاني لا غير.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي ذر (الحديث رقم: 132 ـ 2473).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الآذان باب: الجهر بقراءة صلاة الفجر (الحديث رقم: 773)، ومسلم في كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (الحديث رقم: 149 ـ 449)، والحاكم في المستدرك: 2/456.

رضي الله عنه ما قرأ رسول الله ﷺ عن الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به، فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر فأنبأه الله باستماعهم[1] وقيل بل أمر الله رسوله أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم فصرف إليه نفرًا منهم جمعهم له فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة فمن يتبعني قالها ثلاثًا فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال لم يحضره ليلة الجنّ أحد غيري فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون فخط لي خطًا وقال لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطًا شديدًا حتى خفت على رسول الله ﷺ وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته، ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لي رسول الله ﷺ هل رأيت شيئًا قلت نعم رجالاً سودًا مستثفري ثياب بيض، فقال: أولئك جنّ نصيبين وكانوا اثني عشر ألفًا والسورة التي قرأها عليهم اقرأ باسم ربك[2].

فإن قُلْتَ: كيف قالوا من ﴿**بعد موسى**﴾؟ **قُلْتُ**: عن عطاء رضي الله عنه أنهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام فلذلك قالت: من بعد موسى.

يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾.

فإن قُلْتَ: لم بعض في قوله: ﴿**من ذنوبكم**﴾ **قُلْتُ**: لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم[3] ونحوها ونحوه قوله عزّ وجل: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم﴾[4].

فإن قُلْتَ: هل للجن ثواب كما للإنس؟ **قُلْتُ**: اختلف فيه فقيل: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار لقوله تعالى: ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾ وإليه كان يذهب أبو حنيفة رحمه الله، والصحيح أنهم في حكم بني آدم لأنهم مكلفون مثلهم.

وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾.

﴿**فليس بمعجز في الأرض**﴾ أي لا ينجي منه مهرب ولا يسبق قضاءه سابق ونحوه قوله تعالى: ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربًا﴾[5].

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾.

﴿**بقادر**﴾ محله الرفع لأنه خبر أن يدل عليه قراءة عبد الله قادر وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي في أوّل الآية على أن وما في حيزها، وقال الزجاج: لو قلت ما ظننت أنّ زيدًا بقائم جاز كأنه قيل أليس الله بقادر ألا ترى إلى وقوع بل مقرّرة للقدرة على كل شيء من البعث وغيره لا لرؤيتهم، وقرئ يقدر ويقال عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه ومنه أفعيينا بالخلق الأوّل.

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿**أليس هذا بالحق**﴾ محكي بعد قول مضمر وهذا المضمر هو ناصب الظرف وهذا إشارة إلى العذاب بدليل قوله تعالى: ﴿**فذوقوا العذاب**﴾ والمعنى: التهكم بهم والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم وما نحن بمعذبين.

فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿**أولوا العزم**﴾ أولو الجد والثبات والصبر و ﴿**من**﴾ يجوز أن تكون للتبعيض ويراد بأولي العزم بعض الأنبياء قيل هم نوح صبر على أذى قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه وإبراهيم على النار وذبح ولده، وإسحاق على الذبح ويعقوب على فقد ولده وذهاب بصره ويوسف على الجب والسجن وأيوب على الضر وموسى قال له قومه: إنا لمدركون قال: كلا إنّ معي ربي سيهدين وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها وقال الله تعالى: في آدم ولم نجد له عزمًا وفي يونس، ولا تكن كصاحب الحوت ويجوز أن تكون للبيان فيكون أولوا العزم صفة الرسل كلهم ﴿**ولا تستعجل**﴾ لكفار قريش بالعذاب أي لا تدع لهم بتعجيله فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر وإنهم مستقصرون حينئذ مدّة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ﴿**ساعة من نهار بلاغ**﴾ أي هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام ﴿**فهل يهلك**﴾ إلا الخارجون عن الاتعاظ به والعمل بموجبه، ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ بلغ فهل يهلك، وقرئ ﴿**بلاغًا**﴾ أي بلغوا بلاغًا وقرئ يهلك بفتح الياء وكسر

---

(1) راجع الحديث: 403.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/503.

(3) قال أحمد: ليس ما أطلقه من أن الإيمان لا يغفر المظالم بصحيح؛ لأنّ الحربي لو نهب الأموال المصونة وسفك الدماء المحقونة، ثم حسن إسلامه جب الإسلام عنه إثم ما تقدّم بلا إشكال، ويقال: إنه ما وعد المغفرة الكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى، إلا = مبعضة وهذا منه، فإن لم يكن لاطراده بذلك سر فما هو إلا أنّ مقام الكافر قبض لا بسط، لذلك لم يبسط رجاءه في مغفرة جملة الذنوب، وقد ورد في حق المؤمنين مثله كثيراً، والله أعلم.

(4) سورة نوح، الآية: 3 ـ 4.

(5) سورة الأحقاف، الآية: 34.

اللام وفتحها من هلك وهلك ونهلك بالنون إلا القوم الفاسقين عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة محمد ﷺ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾.

وصدّوا وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام أو صدّوا غيرهم عنه قال ابن عباس: رضي الله عنه: هم المطعمون يوم بدر وعن مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصدّون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر وقيل: هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا من أراد منهم، ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام وقيل: هو عام في كل من كفر وصدّ ﴿أضل أعمالهم﴾ أبطلها وأحبطها وحقيقته جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل[2] التي هي بمضيعة لا ربّ لها يحفظها، ويعتني بأمرها أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها كما يضل الماء في اللبن وأعمالهم ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم من صلة الأرحام، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار وقيل: أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصدّ عن سبيل الله بأن نصره عليه وأظهر دينه على الدين كله.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾.

﴿والذين آمنوا﴾ قال مقاتل هم ناس من قريش، وقيل: من الأنصار، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب وقيل هو عامّ وقوله: ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله ﷺ من بين ما يجب به الإيمان تعظيمًا لشأنه وتعليمًا لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿وهو الحق من ربهم﴾، وقيل معناها أنّ دين محمد هو الحق إذ لا يرد عليه النسخ وهو ناسخ لغيره وقرئ نزل وأنزل على البناء للمفعول ونزل على البناء للفاعل ونزل بالتخفيف ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم ﴿وأصلح بالهم﴾ أي حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾.

﴿ذلك﴾ مبتدأ وما بعده خبره أي ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين، وتكفير سيئات الثاني بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كما ذكر بهذا السبب فيكون محل الجار والمجرور منصوبًا على هذا ومرفوعًا على الأوّل و ﴿الباطل﴾ ما لا ينتفع به وعن مجاهد الباطل الشيطان، وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يضرب الله للناس أمثالهم﴾ والضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم.

فإن قُلْتَ: أي ضرب الأمثال؟ قُلْتُ: في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين.

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾.

﴿لقيتم﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فضرب الرقاب﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضربًا فحذف الفعل، وقدّم المصدر فانيب منابه مضافًا إلى المفعول وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه، وضرب الرقاب عبارة عن القتل لأنّ الواجب أنّ تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء وذلك أنهم كانوا يقولون ضرب الأمير رقبة فلان، وضرب عنقه وعلاوته وضرب ما فيه عيناه إذا قتله وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته فوقع عبارة عن القتل، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل كما ذكرنا في قوله: بما كسبت أيديكم على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدّة ما ليس في لفظ القتل لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه، وأوجه أعضائه ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله

---

(1) ذكره الثعلبي، والواحدي، وابن مردويه في التفسير، الزيلعي 3/ 291.

(2) قال أحمد: هذا المعنى الثاني حسن متمكن مليء بمقابلة قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ثم قال: ﴿كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ وتحرير المقابلة بينهما أنّ الكفار ضلّت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي، حتى= = صار صالحهم مستهلكاً في غمار سيئهم، ومقابله في المؤمنين ستر الله لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الإيمان والطاعة، حتى صار سيئهم مكفراً ممحقاً في جنب صالح أعمالهم، وإلى هذا التمثيل الحسن في عدم تقبل صالح الكفار والتجاوز عن سيء أعمال المؤمنين وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾، والله أعلم.

تعالى فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴿أثخنتموهم﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشيء الثخين، وهو الغليظ أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض ﴿فشدّوا الوثاق﴾ فأسروهم والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به، منا وفداء منصوبان بفعليهما مضمرين أي فإمّا تمنون منا وإما تفدون فداء، والمعنى: التخيير بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم وبين أن يفادوهم.

فإن قُلْتَ: كيف حكم أسارى المشركين؟ قُلْتُ: أمّا عند أبي حنيفة وأصحابه فأحد أمرين إمّا قتلهم وإمّا استرقاقهم أيهما رأى الإمام ويقولون في المنّ والفداء المذكورين في الآية نزل ذلك في يوم بدر، ثم نسخ وعن مجاهد: ليس اليوم منّ ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق ويجوز أن يراد بالمنّ أن يمنّ عليهم بترك القتل، ويسترقوا أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية وكونهم من أهل الذمّة وبالفداء أن يفادى بأساراهم أسارى المشركين، فقد رواه الطحاوي مذهبًا عن أبي حنيفة والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره خيفة أن يعودوا حربًا للمسلمين، وأمّا الشافعي فيقول للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين وهو القتل والاسترقاق، والفداء بأسارى المسلمين والمنّ ويحتج بأن رسول الله ﷺ منّ على أبي عروة الحجي[1] وعلي بن أثال الحنفي[2] وفادى رجلاً برجلين من المشركين[3] وهذا كله منسوخ عند أصحاب الرأي، وقرئ فدى بالقصر مع فتح الفاء أو زار الحرب آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع قال الأعشى:

وأعددت للحرب أوزارها ... رماحًا طوالاً وخيلاً ذكورًا

وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بدّ من جرّها فكأنها تحملها وتستقل بها فإذا انقضت فكأنها وضعتها وقيل أوزارها آثامها يعني حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا.

فإن قُلْتَ: حتى بم تعلقت قُلْتُ: لا تخلوا إما أن تتعلق بالضرب والشدّ أو بالمنّ والفداء، فالمعنى: على كلا المتعلقين عند الشافعي رضي الله عنه أنهم لا يزالون على ذلك أبدًا إلى أن لا يكون حرب مع المشركين، وذلك إذا لم يبق لهم شوكة وقيل إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام وعند أبي حنيفة رحمه الله إذا علق بالضرب، والشدّ فالمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين وإذا علق بالمن، والفداء فالمعنى: أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتأول المنّ والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ذلك﴾ أي الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك ﴿لانتصر منهم﴾ لانتقم منهم ببعض أسباب الهلك من خسف أو رجفة أو حاصب أو غرق أو موت جارف ﴿ولكن﴾ أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب، وقرئ قتلوا بالتخفيف والتشديد وقتلوا وقاتلوا، وقرئ فلن يضل أعمالهم وتضل أعمالهم على البناء للمفعول ويضل أعمالهم من ضلّ وعن قتادة: أنها نزلت في يوم أحد.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾.

﴿عرفها لهم﴾ أعلمها لهم وبينها بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها، وعن مقاتل: إنّ الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة، وفي كلام بعضهم عزف كنوح القماري وعرف كفوح القماري أو حددها لهم فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها من عرف الدار وارفها والعرف والأرف: الحدود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾.

﴿إن تنصروا﴾ دين ﴿الله﴾ ورسوله ﴿ينصركم﴾ على عدوكم ويفتح لكم ﴿ويثبت أقدامكم﴾ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾.

﴿والذين كفروا﴾ يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بما يفسره ﴿فتعسًا لهم﴾ كأنه قال: أتعس الذين كفروا.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿وأضل أعمالهم﴾ قُلْتُ: على الفعل الذي نصب تعسًا لأنّ المعنى فقال تعساً لهم أو فقضى تعساً لهم وتعساً له نقيض لعاً له قال الأعشى:

بالتعس أولى لها من أن أقول لعاً

يريد فالعثور والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة التردد في النار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾.

﴿كرهوا﴾ القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاظمهم، دمره: أهلكه ودمر عليه أهلك عليه ما يختص به والمعنى دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم.

---

(1) ذكره ابن هشام في سيرته 2/128.

(2) لم أجده.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في قتل الأسارى والفداء (الحديث رقم: 1568).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾.

﴿وللكافرين أمثالها﴾ الضمير للعاقبة المذكورة أو للهلكة لأنّ التدمير يدل عليها، أو للسنة لقوله عزّ وعلا ﴿سنة الله في الذين خلوا﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿مولى الذين آمنوا﴾ وليهم وناصرهم وفي قراءة ابن مسعود ولي الذين آمنوا، ويروى أنّ رسول الله ﷺ كان في الشعب يوم أحد وقد فشت فيهم الجراحات وفيه نزلت، فنادى المشركون أعل هبل فنادى المسلمون الله أعلى وأجل فنادى المشركون يوم بيوم والحرب سجال إن لنا عزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم إنّ القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون، وأما قتلاكم ففي النار يعذبون»[1].

فإن قُلْتَ: قوله تعالى: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق مناقض﴾ لهذه الآية. قُلْتُ: لا تناقض بينهما لأنّ الله مولى عباده جميعًا على معنى: أنه ربهم ومالك أمرهم وأما على معنى الناصر فهو مولى المؤمنين خاصة.

﴿يتمتعون﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أيامًا قلائل ﴿ويأكلون﴾ غافلين غير مفكرين في العاقبة ﴿كما تأكل الأنعام﴾ في مسارحها ومعالفها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ﴿مثوى لهم﴾ منزل ومقام.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

وقرئ: وكائن بوزن كاعن، وأراد بالقرية أهلها ولذلك قال: ﴿أهلكناهم﴾ كأنه قال: وكم من قوم هم أشد قوّة من قومك الذين أخرجوك أهلكناهم، ومعنى أخرجوك كانوا سبب خروجك.

فإن قُلْتَ: كيف قال ﴿فلا ناصر لهم﴾ وإنما هو أمر قد مضى؟ قُلْتُ: مجراه مجرى الحال المحكية كأنه قال: أهلكناهم فهم لا ينصرون من زين له هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله ومن كان على بينة من ربه أي على حجة من عنده وبرهان وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات هو رسول الله ﷺ.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

وقرئ: أمن كان على بينة من ربه وقال تعالى: ﴿سوء عمله واتبعوا﴾ للحمل على لفظ من ومعناه.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾ كمن هو خالد في النار؟ قُلْتُ: هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي[2] والإنكار لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾[3] فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار أي كمثل جزاء من هو خالد في النار.

فإن قُلْتَ: فلم عرى من حرف الإنكار وما فائدة التعرية؟ قُلْتُ: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوّى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم ونظيره قول القائل:

أفـــرح أن أرزا الـــكـــرام وأن ... أورث نودًا شـصـائـصًـا نـبـلاً

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود مع تعريه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال: أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصوّر قبح ما أزن فكأنه قال له: نعم مثلي يفرح بمرزأة الكرام وبأن يستبدل منهم نودًا يقل طائله وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار، ومثل الجنة صفة الجنة العجيبة الشأن وهو مبتدأ وخبره كمن هو خالد وقوله فيها أنهار داخل في حكم الصلة كالتكرير لها ألا ترى إلى صحة قولك التي فيها أنهار، ويجوز أن يكون خبر

---

(1) الزيلعي 3/297.

(2) قال أحمد: كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية، فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي ذكرها لا يعوزها، إلا التنبيه على أنّ في الكلام محذوفاً لا بدّ من تقديره؛ لأنه لا معادلة بين الجنة وبين الخالدين في النار، إلا على تقدير مثل ساكن فيه يقوم وزن الكلام ويتعادل كفتاه، ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾ فإنه لا بدّ من تقدير محذوف مع الأوّل، أو الثاني ليتعادل القسمان، وبهذا الذي قدرته في الآية ينطبق آخر الكلام= على أوّله، فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالسيئة، والراكب للهوى ببعد التسوية بين المنعم في الجنة، والمعذب في النار على الصفات المتقابلة المذكورة في الجهتين، وهو من وادي تنظير السيء بنفسه باعتبار حالتين إحداهما أوضح في البيان من الأخرى، فإنّ المتمسك بالسنة هو المنعم في الجنة الموصوفة والمتبع للهوى هو المعذب في النار المنعوتة، ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أوّلاً، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الجزاء ثانياً.

(3) سورة محمد، الآية: 14.

مبتدأ محذوف هي فيها أنهار وكأن قائلاً قال: وما مثلها فقيل فيها أنهار وأن يكون في موضع الحال أي مستقرّة فيها أنهار، وفي قراءة علي رضي الله عنه أمثال الجنة أي ما صفاتها كصفات النار، وقرئ: ﴿أسن﴾ يقال أسن الماء وأجن إذا تغير طعمه وريحه وأنشد ليزيد بن معاوية:

لقد سقتني رضابا غير ذي أسن كالمسك فت على ماء العناقيد

﴿من لبن لم يتغير طعمه﴾ كما تتغير ألبان الدنيا فلا يعود قارصًا ولا حازرًا ولا ما يكره من الطعوم ﴿لذة﴾ تأنيث لذ وهو اللذيذ أو وصف بمصدر، وقرئ بالحركات الثلاث فالجر على صفة الخمر والرفع على صفة الأنهار والنصب على العلة أي لأجل لذة الشاربين والمعنى ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل، ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر ﴿مصفى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿ماء حميمًا﴾ قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم، وإنما زت فروة رؤسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم، هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم فإذا خرجوا قالوا لأولى العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء وقيل كان يخطب فإذا عاب المنافقين خرجوا فقالوا: ذلك للعلماء، وقيل قالوه لعبد الله بن مسعود وعن ابن عباس: أنا منهم وقد سميت فيمن سئل.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾.

﴿آنفًا﴾، وقرئ أنفًا على فعل نصب على الظرف قال الزجاج: هو من استأنفت الشيء إذا ابتدأته، والمعنى: ماذا قال في أوّل وقت يقرب منا.

وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾.

﴿زادهم﴾ الله ﴿هدى﴾ بالتوفيق ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أعانهم عليها أو آتاهم جزاء تقواهم وعن السدّي: بيّن لهم ما يتقون، وقرئ: وأعطاهم وقيل: الضمير هم زادهم لقول الرسول أو الاستهزاء المنافقين أن تأتيهم بدل اشتمال من الساعة نحو أن تطؤهم من قوله رجال مؤمنون ونساء مؤمنات.

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾.

وقرئ: ﴿أن تأتيهم﴾ بالوقف على الساعة واستئناف الشرط وهي في مصاحف أهل مكة كذلك.

فإن قُلْتَ: فما جزاء الشرط؟ قُلْتُ: قوله فأنى لهم ومعناه أن تأتهم الساعة فكيف لهم ذكراهم أي تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة يعني: لا تنفعهم الذكرى حينئذٍ كقوله تعالى: ﴿يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾.

فإن قُلْتَ: بم يتصل قوله ﴿فقد جاء أشراطها﴾ على القراءتين قُلْتُ: بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول كقولك: إن أكرمني زيد فأنا حقيق بالإكرام أكرمه والأشراط العلامات قال أبو الأسود:

إن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا فقد جعلت أشراط أوله تبدو

وقيل مبعث محمد خاتم الأنبياء ﷺ وعليهم منها انشقاق القمر والدخان وعن الكلبي: كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام، وقرئ بغتة بوزن جربة وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها وهي مروية عن أبي عمرو وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي على أبي عمرو وأن يكون الصواب بغتة بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم، لما ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء.

فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾.

فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله وعلى التواضع، وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك، والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم في معايشكم ومتاجركم ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى وأن يستغفر ويسترحم وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم، فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال: فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك فأمر بالعمل بعد العلم، وقال: ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ إلى قوله: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ وقال: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ ثم قال بعد ﴿فاحذروهم﴾ وقال: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسه﴾ ثم أمر بالعمل بعد.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾.

كانوا يدعون الحرص عليه الجهاد ويتمنونه بألسنتهم ويقولون: ﴿لولا نزلت سورة﴾ في معنى الجهاد ﴿فإذا أنزلت﴾ وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم وسقطوا في أيديهم كقوله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس﴾ ﴿محكمة﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهًا إلا وجوب القتال وعن قتادة: كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة، وهي أشدّ القرآن على المنافقين وقيل لها محكمة؛ لأنّ النسخ لا يرد عليها من قبل أنّ القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة وقيل: هي المحدثة لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ ثم تنسخ بعد ذلك، أو

تبقى غير منسوخة وفي قراءة عبد الله سورة محدثة وقرئ فإذا نزلت سورة ونكر فيها القتال على البناء للفاعل ونصب القتال ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم الذين كانوا على حرف غير ثابتي الأقدام ﴿نظر المغشي عليه من الموت﴾ أي تشخص أبصارهم جبنًا وهلعًا وغيظًا كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فأولى لهم﴾ وعيد بمعنى فويل لهم وهو أفعل من الولي وهو القرب، ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه.

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾.

﴿طاعة وقول معروف﴾ كلام مستأنف أي طاعة وقول معروف خير لهم، وقيل: هي حكاية قولهم أي قالوا طاعة وقول معروف بمعنى أمرنا طاعة وقول معروف وتشهد له قراءة أبيّ يقولون طاعة وقول معروف ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جدّ والعزم والجدّ لأصحاب الأمر وإنما يسندان إلى الأمر إسنادًا مجازيًا ومنه قوله تعالى: إن ذلك لمن عزم الأمور ﴿فلو صدقوا الله﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾.

عسيت وعسيتم لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون عسى أن تفعل، وعسى أن تفعلوا ولا يلحقون الضمائر وقرأ نافع بكسر السين وهو غريب وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في التوكيد.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿فهل عسيتم﴾ ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾؟ قُلْتُ: معناه هل يتوقع منكم الإفساد.

فإن قُلْتَ: فكيف يصح هذا في كلام الله عز وعلا وهو عالم بما كان وما يكون؟ قُلْتُ: معناه: أنكم لما عهد منكم أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم، ورخاوة عقدكم في الإيمان يا هؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس، وتأمرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ تناحراً على الملك، وتهالكاً على الدنيا وقيل: إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول الله ﷺ وسننه أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضًا ووأد البنات، وقرئ وليتم وفي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه توليتم أي إن تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم، وقرئ وتقطعوا وتقطعوا من التقطيع والتقطيع.

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿لعنهم الله﴾ لإفسادهم وقطعهم الأرحام فمنعهم ألطافه وخذلهم حتى صموا عن استماع الموعظة وعموا عن إبصار طريق الهدى، ويجوز أن يريد بالذين آمنوا المؤمنين الخلص الثابتين وأنهم يتشوقون إلى الوحي إذا أبطأ عليهم فإذا أنزلت سورة في معنى الجهاد رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾.

﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ ويتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتى لا يجسروا على المعاصي، ثم قال: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ وأم بمعنى بل وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها نكر، وعن قتادة إذًا والله يجدوا في القرآن زاجرًا عن معصية الله لو تدبروه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا.

فإن قُلْتَ: لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟ قُلْتُ: أما التنكير، ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك أو يراد على بعض القلوب وهي قلوب المنافقين وأما إضافة الأقفال فلأنه يريد الأقفال المختصة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح وقرئ إقفالها على المصدر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾.

﴿الشيطان سوّل لهم﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرًا لإنّ كقولك إنّ زيدًا عمرو مر به. سوّل لهم سهل لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعًا ﴿وأملى لهم﴾ ومدّ لهم في الآمال والأماني وقرئ ﴿وأملي لهم﴾ يعني إنّ الشيطان يغويهم، وأنا أنظرهم كقوله تعالى: ﴿إنما نملي لهم﴾ وقرئ: ﴿وأملي لهم﴾ على البناء للمفعول أي: أمهلوا ومدّ في عمرهم وقرئ سوّل لهم، ومعناه: كيد الشيطان زين لهم على تقدير حذف المضاف.

فإن قُلْتَ: من هؤلاء؟ قُلْتُ: اليهود كفروا بمحمد ﷺ من بعد ما تبين لهم الهدى، وهو نعته في التوراة وقيل هم المنافقون.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾.

الذين قالوا: اليهود، والذين كرهوا ما نزل الله المنافقون وقيل عكسه، وأنه قول المنافقين لقريظة والنضير لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم وقيل بعض الأمر التكذيب برسول الله ﷺ أو بلا إله إلا الله أو ترك القتال معه وقيل هو قول أحد الفريقين للمشركين ﴿سنطيعكم﴾ في التظافر على عداوة رسول الله ﷺ والقعود عن الجهاد معه ومعنى ﴿في بعض الأمر﴾ في بعض ما تأمرون به أو في بعض الأمر الذي يهمكم ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ وقرئ إسرارهم على المصدر قالوا ذلك سرًا فيما بينهم فأفشاه الله عليهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ وقرئ توفاهم ويحتمل أن يكون ماضيًا ومضارعًا قد حذفت إحدى تاءيه كقوله تعالى: ﴿إن الذي توفاهم الملائكة﴾[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره[2].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿أسخط﴾ الله من كتمان نعت رسول الله ﷺ و﴿رضوانه﴾ الإيمان برسول الله.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أضغانهم﴾ أحقادهم وإخراجها إبرازها لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم وكانت صدورهم تغلي حنقًا عليهم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿لأريناكهم﴾ لعرفناكهم ولدللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم، وهو أن يسمهم الله تعالى بعلامة تعلمون بها وعن أنس رضي الله عنه ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب هذا منافق[3].

فإن قُلْتَ: أي فريق بين اللامين في: فلعرفتهم ولتعرفنهم؟ قُلْتُ: الأولى هي الداخلة في جواب لو كالتي في لأريناكهم كررت في المعطوف، وأما اللام في ولتعرفنهم فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف ﴿في لحن القول﴾ في نحوه وأسلوبه، وعن ابن عباس هو قولهم ما لنا إن أطعنا من الثواب ولا يقولون ما علينا إن عصينا من العقاب، وقيل اللحن أن تلحن بكلامك أي تميله إلى نحو من الإنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية قال:

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا والـلـحـن يـعـرفـه ذوو الألـبـاب

وقيل للمخطئ لاحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب.

﴿أخباركم﴾ ما يحكى عنكم، وما يخبر به عن أعمالكم ليعلم حسنها من قبيحها لأنّ الخبر على حسب المخبر عنه إن حسناً فحسن وإن قبيحًا فقبيح، وقرئ يعقوب ونبلو بسكون الواو على معنى ونحن نبلو أخباركم، وقرئ وليبلونكم ويعلم ويبلو بالياء وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها بكى وقال: اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا وعذبتنا.

﴿وسيحبط أعمالهم﴾ التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب لأنها مع كفرهم برسول الله ﷺ باطلة وهم قريظة والنضير أو سيحبط أعمالهم التي عملوها، والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول أي سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم بل يستنصرون بها، ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم وقيل هم رؤساء قريش والمطعمون يوم بدر.

۞ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي لا تحبطوا الطاعات بالكبائر[4] كقوله تعالى: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ إلى أن قال: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾، وعن أبي العالية كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل[5] حتى نزلت:

---

(1) سورة النساء، الآية: 97.

(2) وذكر القرطبي نحوه بدون سند 16/165، الزيلعي (3/298).

(3) قال الزيلعي غريب، وهو في الثعلبي هكذا 3/298.

(4) قال أحمد: قاعدة أهل السنة مؤسسة على أنّ الكبائر ما دون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة؛ لأنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة، وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً نعم يقولون: إنّ الحسنات يذهبن السيئات كما وعد به الكريم جلّ وعلا، وقاعدة المعتزلة موضوعة على أنّ كبيرة واحدة تحبط ما تقدّمها من الحسنات، ولو كانت مثل زبد البحر؛ لأنهم يقطعون بخلود الفاسق في النار، وسلب سمة الإيمان عنه، ومتى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه، فعلى هذا بنى الزمخشري كلامه، وجلب الآثار = التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل؛ لأنّ القاعدة المتقدّمة ثابتة قطعاً بأدلة اقتضت ذلك يحاشى كل معتبر في الحل، والعقد عن مخالفتها فمهما ورد من ظاهر يخالفها وجب ردّه إليها بوجه من التأويل، فإن كان نصاً لا يقبل التأويل، فالطريق في ذلك تحسين الظنّ بالمنقول عنه، والتوريك بالغلط على النقلة على أنّ الأثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لأهل السنة، فتأمّله وأما محمل الآية عند أهل الحق فعلى أن النهي عن الإخلال بشرط من شروط العمل، وبركن يقتضي بطلانه من أصله؛ لا أنه يبطل بعد استجماعه شرائط الصحة والقبول.

(5) رواه محمد بن نصر المروزي، الزيلعي 3/298.

﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾، فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم وعن حذيفة، فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم وعن ابن عمر كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولاً حتى نزل، ولا تبطلوا أعمالكم فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فكففنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من أصاب الكبائر، ونرجو لمن لم يصبها[1] وعن قتادة رحمه الله رحم الله عبدًا لم يحبط عمله الصالح بعمله السيء وقيل لا تبطلوها بمعصيتهما، وعن ابن عباس رضي الله عنهما لا تبطلوها بالرياء والسمعة وعنه بالشك والنفاق، وقيل بالعجب فإنّ العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقيل ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾.

﴿ثم ماتوا وهم كفار﴾ قيل هم أصحاب القليب والظاهر العموم.

فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾.

﴿فلا تهنوا﴾ ولا تضعفوا ولا تذلوا للعدوّ ﴿و﴾ لا ﴿تدعو إلى السلم﴾ وقرئ: ﴿السلم﴾ وهما المسالمة ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي الأغلبون الأقهرون ﴿والله معكم﴾ أي ناصركم وعن قتادة لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة، وقرئ ولا تدعوا من ادّعى القوم وتداعوا إذا دعوا نحو قولك ارتموا الصيد وتراموه وتدعوا مجزوم لدخوله في حكم النهي، أو منصوب لإضمار إن ونحو قوله تعالى: وأنتم الأعلون قوله تعالى: ﴿إنك أنت الأعلى﴾[2] ﴿ولن يتركم﴾ من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ حميم أو حربته وحقيقته أفردته من قريبه أو ماله من الوتر وهو الفرد فشبه إضاعة عمل العامل، وتعطيل ثوابه بوتر الواتر وهو من فصيح الكلام ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاة العصر، فكأنما وتر أهله وماله»[3]. أي أفرد عنهما قتلاً ونهبًا.

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾.

﴿يؤتكم أجوركم﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿ولا يسألكم﴾ أي ولا يسألكم جميعها إنما يقتصر منكم على ربع العشر ثم قال:

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾.

﴿إن يسئلكموها فيحفكم﴾ أي يجهدكم ويطلبه كله والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئًا من الإلحاح وأحفى شاربه إذا استأصله ﴿تبخلوا ويخرج اضغانكم﴾ أي تضطغنون على رسول الله ﷺ وتضيق صدوركم لذلك، وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم والضمير في يخرج لله عز وجل أي يضغنكم بطلب أموالكم أو للبخل لأنه سبب الاضطغان، وقرئ نخرج بالنون ويخرج بالياء والتاء مع فتحهما ورفع أضغانكم.

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾.

﴿هؤلاء﴾ موصول بمعنى الذين صلته ﴿تدعون﴾ أي أنتم الذين تدعون، أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ثم استأنف وصفهم كأنهم قالوا: وما وصفنا فقيل تدعون ﴿لتنفقوا في سبيل الله﴾ قيل هي النفقة في الغزو وقيل الزكاة كأنه قيل الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء واضطغنتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر فمنكم ناس يبخلون به، ثم قال ﴿ومن يبخل﴾ بالصدقة وأداء الفريضة فلا يتعدّاه ضرر بخله وإنما ﴿يبخل عن نفسه﴾ يقال: بخلت عليه وعنه وكذلك ضننت عليه وعنه، ثم أخبر أنه لا يأمر بذلك ولا يدعو إليه لحاجته إليه فهو الغني الذي تستحيل عليه الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وإن تتولوا﴾ معطوف على وإن تؤمنوا وتتقوا ﴿يستبدل قومًا غيركم﴾ يخلق قومًا سواكم على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوى غير متولين عنهما كقوله تعالى: ﴿ويأت بخلق جديد﴾[4] وقيل: هم الملائكة وقيل: الأنصار، وعن ابن عباس كندة والنخع وعن الحسن العجم وعن عكرمة فارس والرم، وسئل رسول الله ﷺ عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه، وقال هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطًا بالثريا لتناوله رجال من فارس[5] وعن

---

(1) المصدر السابق، وذكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي 3/300.

(2) سورة طه، الآية: 68.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: إثم من فاتته صلاة العصر (الحديث رقم: 552)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد... باب: التغليظ في تفويت صلاة العصر (الحديث رقم: 200 ـ 626).

(4) سورة فاطر، الآية: 16.

(5) أخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: الحجاز واليمن والشام وفارس وعمان (الحديث رقم: 7308)، وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة الجمعة، (الحديث رقم: 3310).

رسول الله ﷺ من قرأ سورة محمد ﷺ كان حقًا على الله أن يسقيه من أنهار الجنة[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح مدنية

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾.

هو فتح مكة وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة. وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى.

فإن قُلْتَ: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قُلْتُ: لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة وهي المغفرة، وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قيل يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل، ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث أنه جهاد للعدو سببًا للغفران والثواب والفتح: الظفر بالبلد عنوة، أو صلحًا بحرب أو بغير حرب لأنه منغلق ما لم يظفر به فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح، وقيل: هو فتح الحديبية ولم يكن فيه قتال شديد ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: رموا المشركين حتى أدخلوا في ديارهم، وعن الكلبي ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح.

فإن قُلْتَ: كيف يكون فتحًا وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية؟ قُلْتُ: كان ذلك قبل الهدنة فلما طلبوها، وتمت كان فتحًا مبينًا وعن موسى بن عقبة أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعًا فقال رجل من أصحابه ما هذا بفتح لقد صدّونا عن البيت، وصدّ هدينا فبلغ النبي ﷺ فقال: بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا[2] وعن الشعبي: نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة أصاب أن بويع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر وظهرت الروم على فارس وبلغ الهدي محله وأطعموا نخل خيبر وكان في فتح الحديبية آية عظيمة، وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله ﷺ، ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وقيل فجاش بالماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد[3] وقيل: هو فتح خيبر وقيل: فتح الروم، وقيل: فتح الله له بالإسلام والنبوّة والدعوة بالحجة والسيف، ولا فتح أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه وقيل معناه قضينا لك قضاء بينًا على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت من الفتاحة وهي الحكومة وكذا عن قتادة.

لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾.

﴿ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾ يريد جميع ما فرط منك وعن مقاتل ما تقدّم في الجاهلية، وما بعدها وقيل ما تقدّم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد.

وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾.

﴿نصرًا عزيزًا﴾ فيه عز ومنعة، أو وصف بصفة المنصور إسنادًا مجازيًا أو عزيزًا صاحبه.

هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾.

﴿السكينة﴾ السكون كالبهيتة للبهتان أي أنزل الله في قلوبهم السكون، والطمانينة بسبب الصلح والأمن ليعرفوا فصل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف والهدنة غب القتال فيزدادوا يقينًا إلى يقينهم، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع ﴿ليزدادوا إيمانًا﴾ بالشرائع مقرونًا إلى إيمانهم، وهو التوحيد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أوّل ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة، ثم الحج ثم الجهاد فازدادوا إيمانًا إلى إيمانهم أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله عزّ وجل ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانًا إلى إيمانهم وقيل أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه.

وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، وذكره الواحدي، الزيلعي 3/301.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب: قصة الحديبية، الزيلعي 3/ 305.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، (الحديث رقم: 4150)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد، (الحديث رقم: 132 _ 1807).

جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

وقع السوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده والصدق عن جودته وصلاحه فقيل في المرضى الصالح من الأفعال: فعل صدق وفي المسخوط الفاسد منها: فعل سوء ومعنى: ﴿ظن السوء﴾ ظنهم أنّ الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرًا ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم والسوء الهلاك والدمار، وقرئ دائرة السوء بالفتح أي الدائرة التي يذمونها ويسخطونها فهي عندهم دائرة سوء، وعند المؤمنين دائرة صدق.

فإن قُلْتَ: هل من فرق بين السوء والسوء! **قُلْتُ:** هما كالكره والكره والضعف والضعف من ساء إلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء، وأما السوء بالضم فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير يقال أراد به السوء وأراد به الخير، ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذمومًا وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم، فلأن الذي أصابهم مكروه وشدّة فصح أن يقع عليه اسم السوء كقوله عزّ وعلا: ﴿إن أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة﴾[1].

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾.

﴿شاهداً﴾ تشهد على أمّتك كقوله تعالى: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾[2].

لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾.

﴿ليؤمنوا﴾ الضمير للناس ﴿وتعزروه﴾ ويقووه بالنصرة ﴿ويوقروه﴾ ويعظموه ﴿ويسبحوه﴾ من التسبيح أو من السبحة والضمائر لله عز وجلّ، والمراد بتعزير الله تعزير دينه ورسوله ﷺ ومن فرق الضمائر فقد أبعده، وقرئ: لتؤمنوا وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بالتاء والخطاب لرسول الله ﷺ ولأمّته، وقرئ: ﴿وتعزروه﴾ بضم الزاي وكسرها وتعزروه بضم التاء والتخفيف وتعززوه بالزايين وتوقروه من أوقره بمعنى: وقره وتسبحوا الله ﴿بكرة وأصيلاً﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٠﴾.

لما قال: ﴿إنما يبايعون الله﴾ أكده تأكيدًا على طريق التخييل[3] فقال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ يريد أن يد رسول الله التي تعلوا يدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[4] والمراد بيعة الرضوان ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت وعلى أن لا نفرّ فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقًا اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم[5]. وقرئ إنما يبايعون لله أي لأجل الله ولوجهه، وقرئ ينكث بضم الكاف وكسرها وبما عاهد وعهد ﴿فسيؤتيه﴾ بالنون والياء يقال وفيت بالعهد، وأوفيت به وهي لغة تهامة ومنها قوله تعالى: أوفوا بالعقود والموفون بعهدهم هم الذين خلفوا عن الحديبية وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل وذلك أنّ رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرًا من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حربًا، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم[6]، وقرئ: شغلتنا بالتشديد.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾.

﴿يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك في الله والنفاق وطلبهم للاستغفار أيضًا ليس بصادر عن حقيقة ﴿فمن يملك لكم﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله

(1) سورة الأحزاب، الآية: 17.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) قال أحمد: كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتمثيل، وقد تقدّمت أمثاله.

(4) سورة النساء، الآية: 80.

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (الحديث رقم: 69 ـ 1856).

(6) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بنقص يسير، باب الحديبية 3/ 308.

وقضائه ﴿إن أراد بكم﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿أو أراد بكم نفعًا﴾ من ظفر وغنيمة[1] وقرئ ضرًا بالفتح والضم. الأهلون جمع أهل، ويقال أهلات على تقدير تاء التأنيث كأرض وأرضات وقد جاء أهلة وأمّا أهال فاسم جمع كليال.

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾

وقرئ: ﴿إلى أهلهم﴾ وزين على البناء للفاعل وهو الشيطان أو الله عز وجل وكلاهما جاء في القرآن وزين لهم الشيطان أعمالهم وزينا لهم أعمالهم، والبور من بار كالهلك من هلك بناء، ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمنكر والمؤنث، ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ والمعنى: وكنتم قومًا فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه.

وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

﴿للكافرين﴾ مقام مقام لهم للإيذان بأنّ من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، ونكر ﴿سعيرًا﴾ لأنها نار مخصوصة كما نكر نارًا تلظى.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ يدبره تدبير قادر حكيم[2] فيغفر، ويعذب بمشيئته ومشيئته تابعة لحكمته وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر ﴿وكان الله غفورًا رحيمًا﴾ رحمته سابقة لغضبه حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة.

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

﴿سيقول المخلفون﴾ الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إذا انطلقتم إلى مغانم﴾ إلى غنائم خيبر ﴿أن يبدلوا كلام الله﴾ وقرئ كلم الله أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية وذلك أنه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكة[3] مغانم خيبر إذا قفلوا مواعدين لا يصيبون منهم شيئًا وقيل هو قوله تعالى: ﴿لن تخرجوا معي أبدًا﴾[4] ﴿تحسدوننا﴾ أن نصيب معكم من الغنائم قرئ بضم السين وكسرها ﴿لا يفقهون﴾ لا يفهمون إلا فهمًا ﴿قليلاً﴾ وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين كقوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا﴾[5].

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين حرفي الإضراب؟ قُلْتُ: الأوّل إضراب معناه ردّ أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطم منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

﴿قل للمخلفين﴾ هم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إلى قوم أولي بأس شديد﴾ يعني بني حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبي حنيفة، ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية وعند الشافعي: لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب

---

(1) قال أحمد: لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف، وكان الأصل والله أعلم: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً؛ لأنّ مثل هذا النظم يستعمل في الضر، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرداً كقوله: فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً، فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «إنني لا أملك شيئاً»، يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمان المنفعة، فإنه ضرر عائد عليه لا له، فإذا ظهر ذلك، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه؛ لأنّ القسمين يشتركان في أنّ كل واحد منهما نفي لدفع المقدّر من خير وشر، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة، وخص عبارة دفع الضر؛ لأنه هو المتوقع لهؤلاء إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد، وهي نظير قوله: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو=

= أراد بكم رحمة﴾ فإنّ العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة، فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذي ذكرته، والله أعلم.

(2) قال أحمد: قد تقدّمت أمثالها، والقول بأنّ موجب الحكمة ما ذكر تحكم هذا، وأدلة الشرع القاطعة تأتي على ما يعتقده، فلا تبقي ولا تذر فكم من دليل على أنّ المغفرة لا تقف على التوبة، وكم يروم اتباع القرآن للرأي الفاسد، فيقيد مطلقاً ويحجر واسعاً والله الموفق.

(3) قال أحمد: فالإضراب الأوّل إذاً هو المعروف، والثاني هو المستغرب المستعذب الذي ليس فيه مباينة بين الأول والثاني، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة، وإنما كان المنسوب إليهم ثانياً أشدّ من المنسوب إليهم أوّلاً؛ لأنّ الأوّل نسبة إلى جهل في شيء مخصوص، وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق وقلة فهم على الاسترسال.

(4) سورة التوبة، الآية: 83.

(5) سورة الروم، الآية: 7.

والمجوس دون مشركي العجم، والعرب وهذا دليل على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله ﷺ لكن بعد وفاته، وكيف يدعوهم رسول الله ﷺ مع قوله تعالى: ﴿فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا﴾، وقيل هم فارس والروم ومعنى ﴿يسلمون﴾ ينقادون لأنّ الروم نصارى وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية.

فإن قُلْتَ: عن قتادة أنهم ثقيف وهوازن وكان ذلك في أيام رسول الله ﷺ قُلْتُ: إن صح ذلك، فالمعنى: لن تخرجوا معي أبدًا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين أو على قول مجاهد كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله ﷺ إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم ﴿كما توليتم من قبل﴾ يريد في غزوة الحديبية، أو يسلمون معطوف على تقاتلونهم أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما وفي قراءة أبيّ أو يسلموا بمعنى إلى أن يسلموا.

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾.

نفي الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلف عن الغزو. وقرىء ندخله ونعذبه بالنون، هي بيعة الرضوان سميت بهذه الآية وقصتها أنّ النبي ﷺ حين نزل الحديبية بعث جوّاس بن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة، فهمّوا به فمنعه الأحابيش فلما رجع دعا بعمر رضي الله عنه ليبعثه فقال: إني أخافهم على نفسي لما عرف من عداوتي إياهم وما بمكة عدوي يمنعني، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها مني وأحب إليهم عثمان بن عفان، فبعثه فخبرهم أنه لم يأت بحرب وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته فوقروه وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت، فافعل فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة، فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة قال جابر بن عبد الله: لو كنت أبصر لأريتكم مكانها وقيل كان رسول الله ﷺ: جالسًا في أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها قال عبد الله بن المغفل: وكنت قائمًا على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه فرفعت الغصن عن ظهره، فبايعوه على الموت دونه وعلى أن لا يفروا فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم اليوم خير أهل الأرض[1]، وكان عدد المبايعين ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرين وقيل ألفًا وأربعمائة وقيل ألفًا وثلثمائة[2].

۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾.

﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ من الإخلاص، وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فأنزل السكينة﴾ أي الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وأثابهم فتحًا قريبًا﴾، وقرىء وآتاهم وهو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة وعن الحسن فتح هجر وهو أجل فتح اتسعوا بثمرها زمانًا.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾.

﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ هي مغانم خيبر وكانت أرضًا ذات عقار وأموال فقسمها رسول الله ﷺ عليهم، ثم أتاه عثمان بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق.

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾.

﴿وعدكم الله مغانم كثيرة﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿فجعل لكم هذه﴾ المغانم يعني: مغانم خيبر ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفاؤهم من أسد وغطفان حين جاؤا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا وقيل أيدي أهل مكة بالصلح ﴿ولتكون﴾ هذه الكفة ﴿آية للمؤمنين﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم، وقيل رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحي فتأخر ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتح خيبر علامة وعنوانًا لفتح مكة ﴿ويهديكم صراطًا مستقيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة ويقينًا وثقة بفضل الله.

وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾.

﴿وأخرى﴾ معطوفة على هذه أي فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿لم تقدروا عليها﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، وقال لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة ﴿قد أحاط الله بها﴾ أي قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها، ويجوز في أخرى النصب بفعل مضمر يفسره قد أحاط الله بها تقديره وقضى الله أخرى قد أحاط بها وأما لم تقدروا عليها فصفة لأخرى والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدروا وقد أحاط الله بها خبر المبتدأ والجرّ بإضمار رب.

فإن قُلْتَ: قوله تعالى: ولتكون آية للمؤمنين كيف موقعه؟ قُلْتُ: هو كلام معترض ومعناه ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك، ويجوز أن يكون المعنى وعدكم المغانم فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها ولتكون آية للمؤمنين إذا وجدوا وعد الله بها صادقًا لأنّ صدق الإخبار عن الغيوب

(1) مرّ في الحديث 420.

(2) مرّ فيما سبق عند مسلم.

معجزة وآية ويزيدكم بذلك هداية وإيقانًا.

وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾

﴿ولو قاتلكم الذين كفروا﴾ من أهل مكة، ولم يصالحوا وقيل من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهزموا.

سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾.

﴿سنة الله﴾ في موضع المصدر المؤكد أي سن الله غلبة أنبيائه سنة، وهو قوله تعالى: ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾[1].

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾.

﴿أيديهم﴾ أيدي أهل مكة أي قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعدما خولكم الظفر عليهم والغلبة وذلك يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أنّ مكة فتحت عنوة لا صلحًا وقيل كان ذلك في غزوة الحديبية لما روي أنّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنه أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت. وقرئ تعملون بالتاء والياء.

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾.

قرئ: ﴿والهدي﴾ بتخفيف الياء وتشديدها وهو ما يهدى إلى الكعبة بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في صدّوكم أي صدّوكم وصدّوا الهدي وبالجر عطفًا على المسجد الحرام بمعنى وصدّوكم عن نحر الهدي ﴿معكوفا أن يبلغ محله﴾ محبوسًا عن أن يبلغ وبالرفع على وصدّ الهدي ومحله ومكانه الذي يحل فيه نحره أي يجب، وهذا دليل لأبي حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم.

فإن قُلْتَ: فكيف حل رسول الله ﷺ ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية؟ قُلْتُ: بعض الحديبية من الحرم[3] وروي أن مضارب رسول الله ﷺ كانت في الحل ومصلاه في الحرم[4].

فإن قُلْتَ: فإنن قد نحر في الحرم فلم قيل معكوفًا أن يبلغ محله؟ قُلْتُ: المراد المحل المعهود وهو منى ﴿لم تعلموهم﴾ صفة للرجال والنساء جميعًا و ﴿أن تطؤهم﴾ بدل اشتمال منهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم والمعرة مفعلة من عره بمعنى عراه إذا دهاه ما يكره ويشق عليه و ﴿بغير علم﴾ متعلق بأن تطؤهم يعني أن تطؤهم غير عالمين بهم والوطء والدوس عبارة عن الإيقاع والإبادة قال:

ووطئتنا وطأ على حنق[5] وطأ المقيد ثابت الهرم

وقال رسول الله ﷺ: «وأن آخر وطأة وطئها الله بوج»[6] والمعنى أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفي الأماكن، فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناسًا مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة لما كف أيديكم عنهم وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه ويجوز أن يكون لو تزيلوا كالتكرير للولا[7] رجال مؤمنون لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون لعذبنا هو الجواب.

فإن قُلْتَ: أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون؟ قُلْتُ: يصيبهم وجوب الدية والكفارة وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير.

فإن قُلْتَ: قوله تعالى: ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ تعليل لماذا؟ قُلْتُ: لما دلت عليه الآية وسيقت له من كف الأيدي عن أهل مكة والمنع من قتلهم صونًا لمن بين أظهرهم من المؤمنين كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لو تزيلوا﴾ لو تفرّقوا، وتميز بعضهم من بعض من زاله يزيله وقرئ لو تزايلوا.

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾.

﴿إذ﴾ يجوز أن يعمل فيه ما قبله أي لعذبناهم، أو

---

(1) سورة المجادلة، الآية: 21.
(2) ذكره الطبري، وابن حاتم في تفسيره، الزيلعي 313/3.
(3) أخرجه البخاري في كتاب: المحصر، باب: النحر قبل الحلق في الحصر، (الحديث رقم: 1812).
(4) أخرجه أحمد في المسند 326/4.
(5) الحنق شدة الاغتياظ.
(6) راجع الحديث 164، (2).
(7) قال أحمد: وإنما كان مرجعهما ههنا واحداً، وإن كانت لولا تدل= على امتناع لوجود، لو تدل على امتناع لامتناع، وبين هذين تناف ظاهر؛ لأن لولا ههنا دخلت على وجود، ولو دخلت على قوله تزيلوا وهو راجع إلى عدم وجودهم، وامتناع عدم الوجود وجود، فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه، وكان جدي رحمه الله يختار هذا الوجه الثاني، ويسميه تطرية، وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام وبعد عهداً وله، واحتيج إلى رد الآخر على الأوّل فمرة يطري بلفظه، ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه، وقد تقدّمت لها أمثال، والله أعلم وهو الموفق.

صدّوهم عن المسجد الحرام في تلك الوقت وأن ينتصب بإضمار اذكر والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة المؤمنين الحمية الأنفة والسكينة الوقار ما روي أنّ رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص بن الأخيف على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه تلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابًا فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا ولكن كتب باسمك اللهم ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه[1]، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا و ﴿كلمة التقوى﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله قد اختارها الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقيه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم وقيل هي كلمة الشهادة، وعن الحسن رضي الله عنه كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ومعنى إضافتها إلى التقوى: أنها سبب التقوى وأساسها وقيل كلمة أهل التقوى، وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله وكانوا أهلها وأحق بها وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج.

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا فقصّ الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم وقالوا: إنّ رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت ومعنى: ﴿صدق الله رسوله الرؤيا﴾[2] صدقه في رؤياه ولم يكذبه تعالى الله عن الكذب، وعن كل قبيح علوًا كبيرًا فحذف الجارّ وأوصل الفعل كقوله تعالى: ﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾[3].

فإن قُلْتَ: بم تعلق ﴿بالحق﴾ قُلْتُ: إمّا بصدق أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقًا ملتبسًا بالحق أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص وبين من في قلبه مرض ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالاً منها أي صدقه الرؤيا ملتبسًا بالحق على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام ويجوز أن يكون بالحق قسمًا إمّا بالحق الذي هو نقيض الباطل أو بالذي هو من أسمائه و﴿لتدخلنّ﴾ جوابه وعلى الأوّل هو جواب قسم محذوف.

فإن قُلْتَ: ما وجه دخول ﴿إن شاء الله﴾ في أخبار الله عز وجل قُلْتُ: فيه وجوه أن يعلق عدّته بالمشيئة تعليمًا لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدّبين بأدب الله، ومقتدين بسنته وأن يريد لتدخلنّ جميعًا إن شاء الله ولم يمت منكم أحد أو كان ذلك على لسان ملك فأدخل الملك إن شاء الله أو هي حكاية ما قال رسول الله ﷺ لأصحابه وقصّ عليهم وقيل هو متعلق بآمنين ﴿فعلم ما لم تعلموا﴾ من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فجعل من دون ذلك﴾ أي من دون فتح مكة ﴿فتحًا قريبًا﴾ وهو فتح خيبر لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

﴿بالهدى ودين الحق﴾ بدين الإسلام ﴿ليظهره﴾ ليعليه ﴿على الدين كله﴾ على جنس الدين كله يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب، ولقد حقق ذلك سبحانه فإنك لا ترى دينًا قط إلا وللإسلام دونه العز والغلبة، وقيل هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر، وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنّ الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقيض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة ﴿وكفى بالله شهيدًا﴾ على أنّ ما وعده كائن عن الحسن رضي الله عنه شهد على نفسه أنه سيظهر دينك.

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

﴿محمد﴾ إما خبر مبتدأ أي هو محمد لتقدّم قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾[4] وإما مبتدأ، ورسول الله عطف بيان وعن ابن عامر أنه قرأ رسول الله بالنصب على

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية.
(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، وذكره الطبري في تفسيره، الزيلعي 3/316.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 23.
(4) سورة الصف، الآية: 9.

المدح ﴿والذين معه﴾ أصحابه ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ جمع شديد ورحيم ونحوه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين واغلظ عليهم بالمؤمنين رؤف رحيم، وعن الحسن رضي الله عنه بلغ من تشدّدهم على الكفار وأنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء، وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله وكذلك التقبيل قال: لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه، ولا يده ولا شيئًا من جسده وقد رخص أبو يوسف في المعانقة من حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدّد وهذا التعطف فيتشدّدوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة وكف الأذى، والمعونة والاحتمال والأخلاق السجيحة ووجه من قرأ أشدّاء ورحماء بالنصب أن يصبهما على المدح أو على الحال بالمقدّر في معه ويجعل تراهم الخبر ﴿سيماهم﴾ علامتهم وقرئ سيماؤهم وفيها ثلاث لغات هاتان والسيمياء، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود وقوله تعالى ﴿من أثر السجود﴾ يفسرها أي: من التأثير الذي يؤثره السجود وكان كل من العليين عليّ بن الحسين زين العابدين وعليّ بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك يقال له ذو الثفنات لأنّ كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير، وقرئ من أثر السجود ومن آثار السجود وكذا عن سعيد بن جبير هي السمة في الوجه.

فإن قُلْتَ: فقد جاء عن النبي ﷺ: «لا تعلبوا صوركم»(1). وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أثر في وجهه السجود، فقال: إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تشن صورتك(2) قُلْتُ: ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ونحن فيما حدث في جبهة السجاد الذي لا يسجد إلا خالصًا لوجه الله تعالى، وعن بعض المتقدّمين كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ونرى أحدنا الآن يصلي فيرى بين عينيه ركبة البعير فما ندري أثقلت الأروس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق وقيل هو صفرة الوجه من خشية الله، وعن الضحاك ليس بالندب في الوجوه ولكنه سفرة وعن سعيد بن المسيب ندى الطهور وتراب الأرض، وعن عطاء رحمه الله استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل كقوله: من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار(3)

﴿ذلك﴾ الوصف ﴿مثلهم﴾ أي: وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعًا ثم ابتدأ فقال ﴿كزرع﴾ يريدهم كزرع وقيل تم الكلام عند قوله ذلك مثلهم في التوراة، ثم ابتدئ ومثلهم في الإنجيل كزرع ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله: ﴿كزرع أخرج شطاه﴾ كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾(4)، وقرئ الأنجيل بفتح الهمزة ﴿شطاه﴾ فراخه يقال أشطًا الزرع إذا فرخ وقرئ شطاه بفتح الطاء وشطاه بتخفيف الهمزة وشطاءه بالمدّ وشطه بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى ما فيها وشطوه بقلبها واوًا ﴿فآزره﴾ من المؤازرة وهي المعاونة وعن الأخفش أنه أفعل وقرئ فازره بالتخفيف والتشديد أي فشدّ ازره وقوّاه ومن جعل آزر أفعل فهو في معنى: القراءتين ﴿فاستغلظ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ ﴿فاستوى على سوقه﴾، فاستقام على قصبه جمع ساق وقيل مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعن عكرمة أخرج شطأه بأبي بكر فآزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم لأنّ النبي ﷺ قام وحده، ثم قوّاه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرّاع.

فإن قُلْتَ: قوله ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ تعليل لماذا قُلْتُ: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة ويجوز أن يعلل به ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ لأنّ الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك ومعنى ﴿منهم﴾ البيان كقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾(5) عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة»(6).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات مدنية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (1).

قدمه وأقدمه منقولان بتثقيل الحشو والهمزة من قَدِمَهُ إذا تقدمة في قوله تعالى: يقدم قومه ونظيرهما معنى ونقلاً سلفه وأسلفه. وفي قوله تعالى: ﴿لا تقدموا﴾ من غير ذكر

(1) لم يخرجه الزيلعي.
(2) أخرجه عبد الرزاق: 2/173، (الحديث رقم: 2941).
(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في قيام الليل (الحديث رقم: 1333).
(4) سورة الحجر، الآية: 66.
(5) سورة الحج، الآية: 30.
(6) عزاه الزيلعي لابن مردويه، وللواحدي في تفسيره. زيلعي 3/ 319.

مفعول وجهان: أحدهما أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدّم، والثاني: أن لا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدمة، كأنه قيل: لا تقدّموا على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل. كقوله تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾[1] ويجوز أن يكون من قدّم بمعنى تقدّم كوجه وبين ومنه مقدّمة الجيش خلاف ساقته وهي الجماعة المتقدّمة منه. وتعضده قراءة من قرأ لا تقدَّمُوا بحذف إحدىٰ تاءي تتقدموا إلا أن الأوّل أملأ بالحسن وأوجه وأشدّ ملاءمة لبلاغة القرآن والعلماء له أقبل. وقرئ لا تَقْدِمُوا من القدوم أي: لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومهما ولا تعجلوا عليهما[2]. حقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه، فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعًا كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً، ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. والمعنى: أن لا تقطعوا أمراً إلا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتدين برسول الله ﷺ. وعليه يدور تفسير ابن عباس رضي الله عنه وعن مجاهد لا تفتاتوا على الله شيئًا حتى يقصه على لسان رسوله. ويجوز أن يجري مجرى قولك: سرني زيد وحسن حاله، وأعجبت بعمرو وكرمه، وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوّة الاختصاص. ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به ذلك المسلك. وفي هذا تمهيد توطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته لأنّ من أحظاه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوي كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت ويخافت لديه بالكلام. وقيل: بعث رسول الله ﷺ إلى تهامة سريةً سبعةً وعشرين رجلاً وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل إلا ثلاثة نفر نجوا، فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة فاعتزيا لهم إلى بني عامر لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما وسلبوهما. ثم أتوا رسول الله ﷺ فقال: بئسما صنعتم كانا من سليم والسلب ما كسوتهما فوداهما رسول الله ﷺ[3] ونزلت أي: لا تعملوا شيئًا من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله ﷺ، وعن مسروق: دخلت على عائشة في اليوم الذي يشك فيه فقالت للجارية: اسقه عسلاً. فقلت: إني صائم. فقالت: قد نهى الله عن صوم هذا اليوم وفيه نزلت[4]. وعن الحسن أنّ أناسًا نبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا نبحًا آخر[5] وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله إلا أن تزول الشمس وعند الشافعي يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة. وعن الحسن أيضًا: لما استقرّ رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل فنهوا أن يبتدؤه بالمسألة حتى يكون هو المبتدىء. وعن قتادة ذكر لنا أنّ ناسًا كانوا يقولون لو أنزل فيه كذا لكان كذا فكره الله ذلك منهم وأنزلها. وقيل: هي عامة في كل قول وفعل، ويدخل فيه أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه بالجواب، وأن لا يمشي بين يديه إلا لحاجة، وأن يستأني في الافتتاح بالطعام ﴿واتقوا الله﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه. فإن التقي حذر لا يشافه أمرًا إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل: لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار فتنهاه أوّلاً عن عين ما قارفه، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها ﴿إنّ الله سميع﴾ لما تقولون ﴿عليم﴾ بما تعملون. وحق مثله أن يتقي ويراقب إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم. وذلك لأنّ في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملاً بما يحدوه عليه وارتداعًا عما يصده عنه وانتهاءً إلى كل خير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾.

والمراد بقوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث

(1) سورة المؤمنون، الآية: 80.

(2) قال أحمد: يريد أنه لم ينكر المفعول الذي يتقاضاه تقدّموا بإطراح نلك المفعول، كقوله: ﴿يحيي ويميت﴾ وحلى الكلام بمجاز التمثيل، في قوله: ﴿بين يدي الله ورسوله﴾ بفائدة ليست في الكلام العريان، وهو تصوّر الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، وجعل صورة ذلك المنهي عنه، مثل: أن يجلس العبد في الجهتين = المسامتتين ليمين سيده ويساره ويوليه دبره، ومعناه: أن لا تقدموا على أمر حتى يأذن الله ورسوله فيه، فتكونوا مقتدين فيما تأتون وتذرون بكتاب الله وسنة نبيه.

(3) قال الزيلعي: غريب ورواه الثعلبي بغير سند والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» الزيلعي 3/324.

(4) عبد الرزاق في تفسيره، الزيلعي 3/325.

(5) رواه الحاكم في المستدرك 2/462.

يكون كلامه عاليًا لكلامكم وجهره باهرًا لجهركم، حتى تكون مزيته عليكم لائحة وسابقته واضحة وامتيازه عن جمهوركم كَشِيَةِ الأبلق غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقه بصخبكم، وبقوله: ﴿ولا تجهروا له بالقول﴾ إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم وأن تتعمدا في مخاطبته القول اللين المقرّب من الهمس الذي يضاد الجهر كما تكون مخاطبة المهيب المعظم عاملين بقوله عز اسمه وتعزروه وتوقروه، وقيل معنى: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ لا تقولوا له يا محمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوّة. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار وأخا السرار حتى ألقى الله[1]. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يكلم النبي ﷺ كأخي السرار لا يسمعه حتى يستفهمه[2]. وكان أبو بكر إذا قدم على رسول الله ﷺ وفد، أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ[3]، وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة لأنّ ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء فيتكلف الغض منه وردّه إلى حدّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك. ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: أصرخ بالناس. وكان العباس أجهر الناس صوتًا. يروي أنّ غارة أتتهم يومًا فصاح العباس: يا صباحاه: فأسقطت الحوامل لشدّة صوته وفيه يقول نابغة بني جعدة:

زجر أبي عروة السباع إذا … أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه، وفي قراءة ابن مسعود: لا ترفعوا بأصواتكم، والباء مزيدة محذو بها حذو التشديد في قول الأعلم الهذلي:

فرفعت عيني بالحجا … وإلى أناس بالمناقب

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد تخيلاً أن يكون ما دون الشديد مسوغًا لهم، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون. وعن ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وكان في أذنه وقر وكان جهوري الصوت فكان إذا تكلم رفع صوته وربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته. وعن أنس أنّ هذه الآية لما نزلت فُقِد ثابت، فتفقده رسول الله ﷺ فأخبر بشأنه فدعاه فسأله فقال: يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط. فقال له رسول الله ﷺ: «لست هناك إنك تعيش بخير، وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة». وأمّا ما يروى عن الحسن أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول الله ﷺ، فمحمله والخطاب للمؤمنين على أن ينهى المؤمنون ليندوح المنافقون تحت النهي ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم فيقتدي بهم ضعفة المسلمين. وكاف التشبيه في محل النصب أي: لا تجهروا له جهرًا مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيم بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها ﴿أن تحبط أعمالكم﴾ منصوب الموضع على أنه مفعول له وفي متعلقه وجهان: أحدهما أن يتعلق بمعنى النهي فيكون المعنى انتهوا عما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم: أي: لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف كقوله تعالى: ﴿يبيّن الله لكم أن تضلوا﴾[4]، والثاني: أن يتعلق بنفس للفعل ويكون المعنى أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط جعل كأنه فعل لأجله[5] وكأنه العلة والسبب في إيجاده

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الحجرات، باب: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ.
(2) قال الزيلعي: غريب 327/3.
(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الحجرات، باب: «لا ترفعوا أصواتكم» (الحديث رقم: 4846).
(4) سورة النساء، الآية: 176.
(5) قال أحمد: هو يحوم على شرعة وبيئة، إياك ورودها، وذلك أنه يعتقد أن ما دون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وتوجب الخلود في العذاب المقيم وتخرج المؤمن من اسم الإيمان ورسمه، ومعاذ الله من هذا المعتقد، فعليك بعقيدة أهل السنة الممهدة في= = مواضع من هذا المجموع فجدد العهد بها، وهي اعتقاد أنّ المؤمن لا يخلد في النار، وأنّ الجنة له بوعد الله حتم ولو كانت خطاياه ما دون الشرك أو ما يؤدي إليه كزبد البحر، وأنه لا تحبط حسنة سيئة طارئة كائنة ما كانت سوى الشرك، والزمخشري اغتنم الفرصة في ظاهر هذه الآية فنزلها على معتقده ووجه ظهورها، فيما يدعيه أنّ رفع الصوت بين يدي رسول الله ﷺ معصية لا تبلغ الشرك، وقد أخاف الله عباده من إحباطه الأعمال بها، ولو كان الإحباط مقطوعاً بنفيه لم تستقم الإخافة به، وأنى له أن يبلغ من ذلك آماله ونظم الكلام يأباه عند البصر بمعناه، فنقول: المراد في الآية: النهي عن رفع الصوت على الإطلاق، ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه السلام،=

على سبيل التمثيل كقوله تعالى: ﴿ليكون لهم عدوًا﴾[1].

فإن قُلْتَ: لخص الفرق بين الوجهين! قُلْتُ: تلخيصه أن يقدر الفعل في الثاني مضمومًا إليه المفعول له كأنهما شيء واحد ثم يصب النهي عليهما جميعًا صبًا. وفي الأوّل يقدر النهي موجهًا على الفعل على حياله ثم يعلل له منهيًا عنه.

فإن قُلْتَ: بأي النهيين تعلق المفعول له؟ قُلْتُ: بالثاني عند البصريين مقدرًا إضماره عند الأوّل كقوله تعالى: ﴿آتوني أفرغ عليه قطرًا﴾[2] وبالعكس عند الكوفيين، وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أنّ الرفع والجهر كلاهما منصوص أداؤه إلى حبوط العمل، وقراءة ابن مسعود فتحبط أعمالكم أظهر نصًا بذلك لأنّ ما بعد الفاء لا يكون إلا مسببًا عما قبله فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطغيان في قوله تعالى: ﴿فيحل عليكم غضبي﴾[3] والحبوط من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وربما هلكت. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطًا أو يلم ومن أخواته حبجت الإبل إذا أكلت العرفج فأصابها ذلك»[4]. وأحبض عمله مثل أحبطه، وحبط الجرح وحبر إذا غفر وهو نكسه وترامیه إلى الفساد جعل العمل السيء في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض لمن يصاب به أعاننا الله من حبط الأعمال وخيبة الآمال. وقد دلت الآية على أمرين هائلين أحدهما: أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام وما يحبط عمله، والثاني أن في آثامه ما لا يدري أنه محبط. ولعله عند الله كذلك فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾.

﴿امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ من قولك: امتحن فلان لأمر كذا وجرب له ودرب للنهوض به، فهو مضطلع به غير وانٍ عنه. والمعنى أنهم صبر على التقوى أقوياء على احتمال مشاقها أو وضع الامتحان موضع المعرفة، لأنّ تحقق الشيء باختباره كما يوضع الخبر موضعها فكأنه قيل: عرف الله قلوبهم للتقوى وتكون اللام متعلقة بمحذوف، واللام هي التي في قولك أنت لهذا الآخر أي: كائن له ومختص به قال:

أنت لها أحمد من بين البشر أعداء من لليعملات على الوجى

وهي مع معمولها منصوبة على الحال، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى أي لتثبت وتظهر تقواها ويعلم أنهم متقون، لأنّ حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها. وقيل: أخلصها للتقوى من قولهم: امتحن الذهب وفتنه إذا أذابه فخلص إبريزه من خبثه ونقاه. وعن عمر رضي الله عنه: اذهب الشهوات عنها والامتحان افتعال من محنه وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد. قال أبو عمرو: كل شيء جهدته فقد محنته وأنشد:

أتت رذايا باديا كلالها قد محنت واضطربت آطالها

قيل: أنزلت في الشيخين رضي الله عنهما لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار. وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسمًا لأنّ المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معًا، والمبتدأ اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم وإيراد الجزاء نكرة مبهمًا أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله ﷺ من خفض أصواتهم، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته. وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء.

والوراء الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ومن لابتداء الغاية وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان.

فإن قُلْتَ[5]: فرق بين الكلامين بين ما ثبتت فيه وما

= والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق، فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أو لا، حماية للذريعة وحسماً للمادة، ثم لما كان هذا المنهي عنه وهو رفع الصوت منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً، وخوّف أن يقع فيهما هو محبط للعمل، وهو البالغ حدّ الإيذاء، إذ لا دليل ظاهر يميزه وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر، وقعت الإشارة بقوله: ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله: ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ موقع إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً فيكون كفراً محبطاً قطعاً، وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعاً، فعلى كلا حاليه الإحباط به محقق، إذاً فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أنّ الإحباط ثابت مطلقاً والله أعلم. وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على= مقدمتين كلتاهما صحيحة، إحداهما: أنّ رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن، حتى إنّ الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه، فكيف برتبة النبوّة وما يستحقه من الإجلال والإعظام، المقدمة الأخرى، أنّ إيذاء النبي ﷺ كفر، وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا، وافتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً، ولا تقبل توبته، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر، والله الموفق.

(1) سورة القصص، الآية: 8.

(2) سورة الكهف، الآية: 96.

(3) سورة طه، الآية: 81.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهد الدنيا (الحديث رقم: 121 ـ 1052).

(5) قال أحمد: ولقد اغتر بعضهم في تبكيت بني تميم، بما لا تساعده عليه الآية، فإنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنادين له، وقد=

تسقط عنه! قُلْتُ: الفرق بينهما أنّ المنادى والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء، وفي الثاني لا يجوز لأنّ الوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد. والذي يقول ناداني فلان من وراء الدار لا يريد وجه الدار ولا دبرها، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقًا بغير تعيين واختصاص. والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنّ النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البرّ والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض من غير قصد إلى جهة دون جهة. والحجرة الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة وهي فعلة بمعنى مفعولة كالغرفة والقبضة وجمعها الحجرات بضمتين والحجرات بفتح الجيم والحجرات بتسكينها وقرئ بهنّ جميعًا. والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة، ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات متطلبين له فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ ولمكان حرمته، والفعل وإن كان مسندًا إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم وكان الباقون راضين فكأنهم تولوه جميعًا. فقد ذكر الأصم أنّ الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس. والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة، ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدًا إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، فإنّ القلة تقع موقع النفي في كلامهم. وروي أن وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد فجعلوا ينادونه: يا محمد أخرج إلينا، فاستيقظ فخرج ونزلت. وسئل رسول الله ﷺ عنهم فقال: «هم جفاة بني تميم لولا أنهم من أشدّ الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم»[1] فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل لما أقدموا عليه. ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كنايةً عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه، ومنها المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم، ومنها التعريف باللام دون الإضافة، ومنها أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات تهوينًا للخطب على رسول الله ﷺ وتسليةً له وإماطةً لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم وهلم جرا من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية. فتأمّل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمةً على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كأن الأوّل بساط للثاني ووطاء لذكره، ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم من الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدرًا، لينبه على فظاعة من اجروا إليه وجسروا عليه. لأنّ من رفع الله قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغًا. ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب كما يحكى عن أبي عبيد ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قال: ما دققت بابًا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

﴿أنهم صبروا﴾ في موضع الرفع على الفاعلية لأنّ المعنى ولو ثبت صبرهم والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾[2] وقولهم: صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس وهو حبس فيه شدّة ومشقة على المحبوس. فلهذا قيل للحبس على اليمين أو القتل صبر، وفي كلام بعضهم الصبر مرّ لا يتجرّعه إلا حرّ.

فإن قُلْتَ: هل من فرق بين ﴿حتى تخرج﴾ وإلى أن تخرج؟ قُلْتُ: إنّ حتى مختصة بالغاية المضروبة. تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت: حتى نصفها أو صدرها لم يجز. وإلى عامّة في كل غاية فقد أفادت حتى بوضعها أنّ خروج رسول الله ﷺ إليهم غاية قد ضربت لصبرهم فما كان لهم أن يقطعوا أمرًا دون الانتهاء إليه.

فإن قُلْتَ: فأي فائدة في قوله: ﴿إليهم﴾؟ قُلْتُ: فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم ﴿لكان خيرًا لهم﴾ في كان إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو وإما ضمير مصدر صبروا كقولهم: من كذب كان شرًا له ﴿والله غفور رحيم﴾ بليغ الغفران والرحمة واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا. بعث رسول الله ﷺ الوليد بن

= سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال: «هم جفاة بني تميم»، وعلى الجملة: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوق في حق أمة عظيمة؛ لأنّ واحداً منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء، فقد ورد أن المنادي له عليه السلام هو الأقرع، هذا مع توارد الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجوه= = الكتب الصحاح.

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول، أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل غِفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيء (الحديث رقم: 198 ـ 2525).

(2) سورة الكهف، الآية: 28.

عقبة أخا عثمان لأمّه وهو الذي ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعًا ثم قال: «هل أزيدكم». فعزله عثمان مصدّقاً إلى بني المصطلق وكانت بينه وبينهم إحنة فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة: فغضب رسول الله ﷺ وهمّ أن يغزوهم، فبلغ القوم فوردوا وقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم فقال: لتنهنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلاً هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم، ثم ضرب بيده على كتف علي رضي الله عنه. وقيل: بعث إليه خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع[1]. وفي تنكير الفاسق والنبأ شياع في الفساق والإنباء كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ[2] فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه والفسوق الخروج من الشيء والانسلاخ منه، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها ومن مقلوبه فقست البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها، ومن مقلوبه أيضًا فقست الشيء إذا أخرجته عن يد مالكه مغتصبًا له عليه، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق. قال رؤبة:

فواسقًا عن قصدها جوائرا

وقرأ ابن مسعود: فتثبتوا، والتثبت والتبين متقاربان وهما طلب الثبات والبيان والتعرّف، ولما كان رسول الله ﷺ والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة. قيل: إن جاءكم بحرف الشك وفيه أنّ على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾

﴿أن تصيبوا﴾ مفعول له أي كراهة إصابتكم **﴿قومًا بجهالة﴾** حال كقوله تعالى: **﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم﴾**[3] يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة. والإصباح بمعنى الصيرورة. والندم ضرب من الغم وهو أن تغتمّ على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزام لأنه كلما تنكر المتندّم عليه راجعه من الندام وهو لزام الشريب ودوام صحبته، ومن مقلوباته أدمن الأمر أدامه ومدن بالمكان أقام به ومنه المدينة، وقد تراهم يجعلون الهمّ صاحبًا ونجيًا وسميرًا وضجيعًا وموصوفاً بأنه لا يفارق صاحبه.

الجملة المصدّرة بلولا تكون كلامًا مستأنفًا لأدائه إلى تنافر النظم[4] ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع أو البارز المجرور، وكلاهما مذهب سديد. والمعنى أنّ فيكم رسول الله ﷺ على حالة يجب عليكم تغييرها أو أنتم على حالةٍ يجب عليكم تغييرها، وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعن لكم من رأي واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتئيه المحتذى على أمثلته. ولو فعل ذلك **﴿لعنتم﴾** أي: لوقعتم في العنت والهلاك، يقال: فلان يتعنت فلانًا أي: يطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك، وقد أعنت العظم إذا هيض بعد الجبر، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد، وإن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم، وإن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك وهم الذين استثناهم بقوله تعالى: **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾** أي: إلى بعضكم ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة التي لا يفطن لها إلا الخواص، وعن بعض المفسرين: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقوله: **﴿أولئك هم الراشدون﴾** والخطاب لرسول الله ﷺ أي: أولئك المستثنون هم الراشدون بصدق ما قلته.

فإن قُلْتَ: ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها؟ **قُلْتُ:** القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ لآرائهم فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه.

---

(1) قال أحمد: تسامح بلفظ الشياع، والمراد الشمول؛ لأنّ النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم، كما إذا وقعت في سياق النفي والله أعلم.

(2) أخرجه ابن جرير وعبد الرزاق في تفسيره، ذكره في كتاب: الدر المنثور، أخرج الزيلعي 3/332.

(3) سورة الأحزاب، الآية: 25.

(4) قال أحمد: من جملة هنات المعتزلة تلبهم على عثمان رضي الله عنه ووقوفهم عن الحكم بتعنيف قتلته، فضم إلى هذا المعتقد غير معرج عليه ما أورده الزمخشري في هذا الموضع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعلة الشنعاء عوضاً عن = سعد بن أبي وقاص أحد الصحابة، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم هنات، فمنها: مطالبتهم النبي ﷺ باتباع آرائهم التي من جملتها: تصديق الوليد في الإيقاع ببني المصطلق، فإذا ضممت هذه النبذة التي ذكرها إرسالاً إلى ما علمت من معتقده، تبين لك من حاله أعني الزمخشري ما لا أطيق التصريح به، لأنه لم يصرح، وإنما سلكنا معه سبيل الإنصاف، وبحجة الانتصاف نص بنص وتلويح بتلويح، فنسأل الله العظيم بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين أن يرضى عن صحابه أجمعين وعنا بهم آمين.

فإن قلتَ: فلم قيل يطيعكم دون أطاعكم؟ قلتُ: للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه وأنه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه بدليل قوله: في كثير من الأمر كقولك: فلان يقري الضيف ويحمي الحريم. تريد أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرًا.

فإن قلتَ: كيف موقع لكن وشريطتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيًا وإثباتًا! قلتُ: هي مفقودة من حيث اللفظ حاصلة من حيث المعنى، لأن الذين حبّب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدّم ذكرهم فوقعت لكن في حاق موقعها من الاستدراك. ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق[1] وسبيله الكناية كما سبق، وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبى عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله وحمل الآية على ظاهرها يؤدّي إلى أن يثنى عليهم بفعل الله، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

فإن قلتَ: فإن العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه وذلك فعل الله، وهو مدح مقبول عند الناس غير مردود! قلتُ: الذي سوّغ ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء ووسامة المنظر في الغالب يسفر عن مخبر مرضي وأخلاق محمودة. ومن ثم قالوا أحسن ما في الدميم وجهه، فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته ولكن لدلالته على غيره. على أن من محققه الثقات وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به وقصر المدح على النعت بأمّهات الخير وهي الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة وما يتشعب منها ويرجع إليها. وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاد وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل غلطًا ومخالفةً عن المعقول. و ﴿الكفر﴾ تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالجحود و ﴿الفسوق﴾ الخروج عن قصد الإيمان ومحجته بركوب الكبائر. ﴿والعصيان﴾ ترك الانقياد والمضي لما أمر به الشارع. والعرق العاصي العائد، واعتصت النواة اشتدت، والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخر. قال أبو الوازع: كل صخرة رشادة. وأنشد:

وغير مقلد وموشمات ... صلين الضوء من صم الرشاد

فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾.

و﴿فضلاً﴾ مفعول له أو مصدر من غير فعله.

فإن قلتَ: من أين جاز وقوعه مفعولاً له، والرشد[2] فعل القوم، والفضل فعل الله تعالى، والشرط أن يتحد الفاعل؟ قلتُ: لما وقع الرشد عبارةً عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندةً إلى اسمه تقدست أسماؤه صار الرشد كأنه فعله، فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب. عن الراشدون ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى والجملة التي هي أولئك هم الراشدون اعتراض أو عن فعل مقدر كأنه قيل: جرى ذلك أو

---

(1) قال أحمد: تلجلج والحق أبلج، وزاغ والسبيل منهج، وقاس الخلق بالواحد الحق وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر اغتراراً بحال اعتقد اطراده في الشاهد، وهو أنّ الإنسان لا يمدح بفعل غيره، وقاس الغائب على الشاهد تحكماً وتغلغل باتباع هوى معجماً، فجره ذلك بل جرّاه على تأويل الآية وإبطال ما ذكرته من نسبة تحبيب الإيمان إلى الله تعالى على حقيقته، وجعله مجازاً؛ لأنه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الإيمان مضافاً إلى الله تعالى، والعبد إذاً ممدوح بما ليس من فعله وهذا عنده محال، فاتبع الآية رأيه الفاسد فإذا عرضت عليه الأدلة العقلية على الوحدانية والنقلية على أنه لا خالق إلا الله خالق كل شيء، وطولب بإبقاء الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل والنقل، فإنه يتمسك في تأويلها بالحبال المذكورة في التحكم بقياس الغائب على الشاهد مما له إدلاء إلى تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالذي نعتقده ثبتنا الله على الحق أن الله تعالى منح ومدح وأعطى وامتن، فلا موجود إلا الله وصفاته وأفعاله، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها محلاً لبعض، فسمى المحل فاعلاً والحال فعلاً، فهذا هو التوحيد الذي لا محيص عنه للمؤمن ولا محيد، ولا بدّ أن أطارحه القول، فأقول: أخبرني عن ثناء الله على أنبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم، هل بمكتسب أم بغير مكتسب؟ فلا يسعه أن يقول، إلا أنه أثنى عليهم بما لم يكتسبوه بل بما وهبه إياهم فانهبوه، وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم أثنى عليهم بمكتسب لهم من رسالة أو نبوّة فقد خرج عن أهل الملة وانحرف عن أهل القبلة، = وهذه النبذة كفاية إن شاء الله تعالى.

(2) قال أحمد: أورد الإشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل الله تعالى، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقده، ونحن بنينا على ما بينا أنّ الرشد من أفعال الله ومخلوقاته، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له وهو اتحاد فاعل الفعلين، على أنّ الإشكال وارد نصاً على تقريرنا على غير الحدّ الذي أورده عليه الزمخشري، بل من جهة أنّ الله تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم ومما يعهدونه أنّ الفاعل من نسب إليه الفعل، وسواء كان حقيقة أو مجازاً حتى يكون زيد فاعلاً وانقض الحائط وأشباهه، كذلك. وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد، وإذا تقرر وروده على هذا الوجه، فلك في الجواب عنه طريقان، إما جواب الزمخشري، وإما أمكن منه وأبين وهو أنّ الرشد هنا يستلزم كونه راشداً إذ هو مطاوعه؛ لأنّ الله تعالى أرشدهم فرشدوا وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة، وهو عكس قوله: ﴿يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ فإن الإشكال بعينه وارد فيها، إذ الخوف والطمع فعلهم، أي: منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون الطامعون والفعل الأوّل لله تعالى؛ لأنه مريهم ذلك والجواب عنه أنهم مفعولون في معنى الفاعلين بواسطة استلزام المطاوعة؛ لأنه إذا أراهم فقد رأوا وقد سلف هذا الجواب مكانه، فصححت الكلام ههنا بتقدير المفعول فاعلاً، وعكسه آية الحجرات إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولاً، وهذا من دقائق العربية، فتأمله والله الموفق.

كان ذلك فضلاً من الله، وأما كونه مصدرًا من غير فعله فأن يوضع موضع رشدًا لأنّ رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام ﴿والله عليم﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم التمايز والتفاضل ﴿حكيم﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وقف رسول الله ﷺ على مجلس الأنصار وهو على حمار، فبال الحمار فأمسك عبد الله بن أبيّ بأنفه وقال: خل سبيل حمارك فقد آذانا نتنه. فقال عبد الله بن رواحة: والله إنّ بول حماره لأطيب من مسكك»[1]. وروي: «حماره أفضل منك، وبول حماره أطيب من مسكك»[2]. ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتى استبّا وتجالدا، وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج فتجالدوا بالعصي، وقيل بالأيدي والنعال والسعف. فرجع إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم ونزلت. وعن مقاتل: قرأها عليهم فاصطلحوا. والبغي الاستطالة والظلم وإباء الصلح، والفيء الرجوع وقد سمي به الظل والغنيمة، لأنّ الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين. وعن أبي عمرو: حتى تفي بغير همز ووجهه أنّ أبا عمر خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلسة فظنه قد طرحها.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله: ﴿اقتتلوا﴾، والقياس اقتتلتا[3]؟ كما قرأ ابن أبي عبلة، أو اقتتلا كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين! قُلْتُ: هو مما حمل على المعنى دون اللفظ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله حتى يفيئوا إلى أمر الله، فإن فاؤا فخذوا بينهم بالقسط وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت. وعن ابن عمر: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدته من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل. قاله بعد أن اعتزل، فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديها تركت، وإذا تولت عمل بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا ابن أم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمّة؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيؤها»[4]، ولا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغي صير إلى مقاتلهما، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة. فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة، واطلاعهما على مراشد الحق. فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكله ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين، وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغى عليها بالقسط والعدل، وفي ذلك تفاصيل إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنت بعد الفيئة ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله. فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت، وأمّا قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنه عند الجميع فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى: ﴿فاصلحوا بينهما بالعدل﴾ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد والذي ذكروا أنّ الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط.

فإن قُلْتَ: لم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأوّل؟ قُلْتُ: لأنّ المراد بالاقتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معًا أو راكبتي شبهة. وأيتهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاح ذات البين وتسكين الدهماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفي الشبهة، إلا إذا أصرتا. فحينئذ تجب المقاتلة وأما الضمان فلا يتجه وليس كذلك إذا بغت إحداهما فإنّ الضمان متجه على الوجهين المذكورين ﴿واقسطوا﴾ أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين، والقول فيه مثله في الأمر باتقاء الله على عقب النهي عن التقديم بين يديه، والقسط بالفتح الجور من القسط وهو اعوجاج في الرجلين، وعود قاسط يابس، وأقسطته الرياح. وأمّا القسط بمعنى العدل فالفعل منه أقسط وهمزته للسلب أي: أزال القسط وهو الجور.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾.

هذا تقرير لما ألزمه من تولي الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين، وبيان أن الإيمان قد عقد بين

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الصلح، باب: في الإصلاح بين الناس (الحديث رقم: 2691)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (الحديث رقم: 117 ـ 1799).

(2) تقدم تخريجه سابقًا.

(3) قال أحمد: قد تقدّم في مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ من بعد الحمل على معناها، وفي هذه الآية حمل على المعنى بقوله: = ﴿اقتتلوا﴾، ثم على اللفظ بقوله: ﴿بينهما﴾، فلا يعتقد أن المقول في من مطرد في هذا؛ لأنّ المانع لزوم الإجمال والإبهام بعد التفسير وههنا لا يلزم ذلك، إذ لا إبهام في الطائفة بل لفظها مفرد أبداً، ومعناها جمع أبداً وكانت كذلك لاختلاف أحوالها من حيث المعنى مرة جمعاً ومرة مفرداً فتامله، والله الموفق.

(4) رواه ابن أبي شيبة 8/389 في كتاب: الأدب، باب: النهي عن الوقيعة. ورواه الحاكم في المستدرك 2/155.

أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها. ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته، ويركبوا الصعب والذلول مشيًا بالصلح وبثًا للسفراء بينهما إلى أن يصادف ما وهي من الوفاق من يرقعه وما استشن من الوصال من يبله، فالأخوة في الدين أحق بذلك وباشدّ منه، وعن النبي ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقتار قدره. ثم قال: احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل»[1].

فإن قُلْتَ: فلم خص الاثنان بالذكر دون الجمع؟ قُلْتُ: لأنّ أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين. وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج. وقرئ: بين إخوتكم وإخوانكم والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة وأنهم خلص لذلك متمحضون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه. ﴿واتقوا الله﴾ فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه. وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم واشتمال رأفته عليكم حقيقاً بأن تعقدوا به رجاءكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾.

القوم الرجال خاصة لأنهم القوّام بأمور النساء. قال الله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾[2] قال عليه الصلاة والسلام: «النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه»[3]. والذابون هم الرجال، وهو في الأصل جمع قائم كصوّم وزوّر في جمع صائم وزائر، أو تسمية بالمصدر عن بعض العرب إذا أكلت طعامًا أحببت نومًا وأبغضت قومًا أي: قيامًا. واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية وفي قول زهير:

أقوم آل حصن أم نساء

وأمّا قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن، وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين أن يراد لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات[4] من بعض، وأن تقصد إفادة الشياع وأن تصير كل جماعة منهم منهية عن السخرية. وإنما لم يقل: رجل من رجل ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلامًا[5] بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية واستفظاعًا للشأن الذي كانوا عليه، ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله: ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر. وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به فيؤدي ذلك وإن أوجده واحد إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقومًا. وقوله تعالى: ﴿عسى أن يكونوا خيرًا منهم﴾ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه[6]، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحدٍ أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرًا من الساخر؛ لأنّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات، وإنما الذي يزن عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب وعلمهم من ذلك بمعزل فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبق في محادثته، فلعله أخلص ضميرًا وأتقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله. ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: «لو رأيت رجلاً يرضع عنزًا فضحكت منه، خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه». وعن عبد الله بن مسعود «البلاء موكل بالقول: ولو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبًا»[7] وفي قراءة عبد الله: عسوا أن يكونوا، وعسين أن يكن. فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتي في قوله تعالى: ﴿فهل عسيتم﴾ وعلى الأولى التي لا خبر لها كقوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا﴾. واللمز الطعن والضرب باللسان. وقرئ: ولا تلمزوا بالضم والمعنى: وخصوا أيها

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (الحديث رقم: 2442)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره... (الحديث رقم: 32 ـ 2564).

(2) سورة النساء، الآية: 34.

(3) قال الزيلعي غريب مرفوعًا، ورواه موقوفًا ابن المبارك على عمر بن الخطاب وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث زيلعي 3/ 337.

(4) قال أحمد: ولو عرف فقال: لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض، = لكانت كل جماعة منهم منهية ضرورة شمول النهي، ولكن أورد الزمخشري هذا، وإنما أراد أن في التنكير فائدة أن كل جماعة منهية على التفصيل في الجماعات، والتعرض بالنهي لكل جماعة على الخصوص، ومع التعريف تحصيل النهي، لكن لا على التفصيل بل على الشمول، والنهي على التفصيل أبلغ وأوقع.

(5) قال أحمد: وهو في غاية الحسن لا مزيد عليه.

(6) قال أحمد وهو من الطراز الأول.

(7) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 8/390 في كتاب: الأدب في النهي عن الوقيعة.

المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم. ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»[1]. وعن الحسن رضي الله عنه في ذكر الحجاج: أخرج إلي بنانًا قصيرة فلما عرقت فيها الأعنة في سبيل الله ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول: يا أبا سعيد، يا أبا سعيد. وقال لما مات: اللهم أنت أمته، فاقطع سنته، فإنه أتانا أخيفش أعيمش يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة لا من الله يتقي ولا من الناس يستحي. فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل، الصلاة أيها الرجل. هيهات دون ذلك السيف والسوط، وقيل: معناه لا يعب بعضكم بعضًا لأنّ المؤمنين كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه. وقيل: معناه لا تفعلوا ما تلمزون به لأنّ من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة. والتنابز بالألقاب التداعي بها، تفاعل من نبزه وبنو فلان يتنابزون ويتنازبون، ويقال: النبز والنزب لقب السوء والتلقيب المنهي عنه. وهو ما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيرًا به وذمًا له وشينًا، فأما ما يحبه مما يزينه وينوّه به فلا بأس به. روي عن النبي ﷺ: «من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه»[2] ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكنى فإنها منبهة. ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير. روي عن الضحاك أنّ قومًا من بني تميم استهزؤا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبي ذرّ وسالم مولى حذيفة فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة. وعن ابن عباس أنّ أمّ سلمة ربطت حقويها بسبيبة، وسدلت طرفها خلفها وكانت تجرّه. فقالت عائشة لحفصة: انظري ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب. وعن أنس: عيرت نساء رسول الله ﷺ أمّ سلمة بالقصر. وعن عكرمة عن ابن عباس: «أنّ صفية بنت حيي أتت رسول الله ﷺ فقالت: إنّ النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها رسول الله ﷺ: هلا قلت: إن أبي هارون، وإنّ عمي موسى، وإنّ زوجي محمد»[3] وروي أنها «نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ[4] ليسمع. فأتى يومًا وهو يقول: تفسحوا لي حتى انتهي إلى رسول الله ﷺ فقال الرجل: تنح. فلم يفعل. فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال: بل أنت ابن فلانة، يريد ما كان يعيريها في الجاهلية، فخجل الرجل فنزلت. فقال ثابت: لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبداً». ﴿الاسم﴾ ههنا بمعنى الذِّكر من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، كما يقال: طار ثناؤه وصيته وحقيقته ما سما من ذكره وارتفع بين الناس. ألا ترى إلى قولهم: أشاد بذكره كأنه قيل: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين[5] بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن ينكروا بالفسق. وفي قوله: ﴿بعد الإيمان﴾ ثلاثة أوجه: أحدهما استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره كما تقول: بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة، والثاني أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي يا فاسق، فنهوا عنه. وقيل لهم: بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه. والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهي عن التنابز، والثالث أن يجعل من فسق غير مؤمن كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة: بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة.

يقال: جنبه الشر إذا أبعده عنه، وحقيقته جعله منه في جانب فيعدي إلى مفعولين. قال الله عزّ وجل: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾[6] ثم يقال في مطاوعه: اجتنب الشر فتنقص المطاوعة مفعولاً والمأمور باجتنابه هو بعض الظنّ. وذلك البعض موصوف بالكثرة ألا ترى إلى قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إنّ بعض الظنّ إثم﴾. فإن **قُلْتَ**: بين الفصل بين كثير حيث جاء نكرة، وبينه لو جاء معرفة؟ **قُلْتُ**: مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية، وإنّ في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين، لئلا يجترئ أحد

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: الستر على أصحاب القرون (الحديث رقم: 9667).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في مقاربة وموادّة أهل الدين (الحديث رقم: 8772).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (الحديث رقم: 7211)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل أزواج النبي ﷺ (الحديث رقم: 3892).

(4) قال الزيلعي غريب 342/3 وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 221.

(5) قال أحمد: أقرب الوجوه الثلاثة ملائمة لقاعدة أهل السنة وأولاها = هو أوّلها، ولكن بعد صرف الذم إلى نفس الفسق وهو مستقيم؛ لأن الاسم هو المسمى، ولكن الزمخشري لم يستطع ذلك انحرافاً إلى قاعدة يصرف الذم إلى ارتفاع ذكر الفسق من المؤمن، تحوماً على أن الاسم التسمية، ولا شك أنّ صرف الذم إلى نفس الفسق أولى، وأما الوجه الثاني: فأدخله ليتم له حمل الاسم على التسمية صريحاً، وأما الثالث: فليتم له أنّ الفاسق غير مؤمن، وكلا القاعدتين مخالف للسنة فاحذرهما، وبالله التوفيق. ولقد كشف الله لي عن مقاصده حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدعة، إلا إذا أدركها الحق فكلمها، ولله الحمد.

(6) سورة إبراهيم، الآية: 35.

على ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة مع استشعار للتقوى والحذر ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطًا بما يكثر منه دون ما يقل، ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنبًا وما اتصف منه بالقلة مرخصًا في تظننه، والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها أنّ كل ما لم تعرف له أمارةٌ صحيحة وسبب ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظنّ الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهره الناس يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث. عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء»[1]. وعن الحسن: كنا في زمان الظنّ بالناس حرام، وأنت اليوم في زمان اعمل واسكت وظنّ بالناس ما شئت. وعنه: لا حرمة لفاجر. وعنه أنّ الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتكه الله، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب. وقد روي: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»[2]. والإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ومنه قيل لعقوبته، الأثام فعال منه كالنكال والعذاب والوبال قال:

لقد فعلت هذي النوى بي فعلة   أصاب النوى قبل الممات أثامها

والهمزة فيه عن الواو كأنه يثم الأعمال أي: يكسرها بإحباطه. وقرئ: ﴿ولا تحسسوا﴾ بالحاء والمعنيان متقاربان. يقال: تحسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه تفعل من الجنس كما أن التلمس بمعنى التطلب من اللمس، لما في اللمس من الطلب. وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى: ﴿وأنا لمسنا السماء﴾[3] والتحسس التعرف من الحس ولتقاربهما قيل: لمشاعر الإنسان: الحواس بالحاء والجيم، والمراد النهي عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه. وعن مجاهد: خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله. وعن النبي ﷺ «أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتِق في خدورهنّ قال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»[4]. وعن زيد بن وهب: قلنا لابن مسعود هل لك في الوليد بن عقبة بن أبي معيط تقطر لحيته خمرًا. فقال ابن مسعود: «إنا قد نهينا عن التجسس فإن ظهر لنا شيء أخذنا به»[5]. غابه واغتابه كغاله واغتاله، والغيبة من الاغتياب كالغيلة من الاغتيال وهي ذكر السوء في الغيبة. سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة فقال: «أن تذكر أخاك بما يكره، فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[6]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس ﴿أيحب أحدكم﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها إن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً، ومنها إن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتًا، وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفةً مدوّدةً أن تأكل منها، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي، وانتصب ﴿ميتًا﴾ على الحال من اللحم، ويجوز أن ينتصب عن الأخ وقرئ: ميّتًا، ولما قرّرهم عز وجل بأنّ أحدًا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿فكرهتموه﴾ معناه فقد كرهتموه واستقرّ ذلك وفيه معنى الشرط أي: إن صحّ هذا فكرهتموه وهي إلقاء الفضيحة أي: فتحققت بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه كراهتكم له وتقذركم منه. فليتحقق أيضًا أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين، وقرئ: فكرّهتموه أي: جبلتم على كراهته.

فإن قُلْتَ: هلا عدي بإلى كما عدّى في قوله: وكرّه إليكم الكفر وأيهما القياس؟ قُلْتُ: القياس تعدّيه بنفسه لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيل حشوه تقول: كرهت الشيء فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول، وأما تعدّيه بإلى فتأوّل وإجراء لكره مجرى بغض لأنّ بغض منقول من بغض إليه الشيء فهو بغيض إليه كقولك: حب إليه الشيء فهو حبيب إليه. والمبالغة في التواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفوًا عنه بالتوبة، أو لأنه بليغ في قبول التوبة منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه. والمعنى واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين. وعن ابن عباس «أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوي لهما طعامهما فنام عن شأنه يومًا فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغي لهما إدامًا وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ فقال: ما عندي شيء. فأخبرهما سلمان بذلك.

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفسق، باب: حرمة أم المؤمنين وماله (الحديث رقم: 3932).
(2) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الستر على أصحاب القرون (الحديث رقم: 9664).
(3) سورة الجن، الآية: 8.
(4) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، باب: الغيبة (الحديث رقم: 5763)، وأخرجه الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في تعظيم المؤمن (الحديث رقم: 2032)، وأخرجه أبو داود في كتاب: =
= الأدب، باب: في الغيبة (الحديث رقم: 4880)، وأبو يعلى في (الحديث رقم: 7423).
(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في النهي عن التجسس (الحديث رقم: 3890)، وابن أبي شيبة في مصنفه 86/9 في كتاب: الأدب، باب: في الستر على الرجل الخ...
(6) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والأدب، باب: تحريم الغيبة (الحديث رقم: 70 ـ 2589).

فعند ذلك قالا لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما فقالا: ما تناولنا لحمًا. فقال: إنكما قد اغتبتما»[1]. فنزلت.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿من ذكر وأنثى﴾ من آدم وحوّاء وقيل: خلقنا كل واحد منكم من أب وأمّ فما منكم أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب. والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل خزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم فخذ العباس فصيلة وسميت الشعوب لأنّ القبائل تشعبت منها. وقرئ: لتتعارفوا ولتعارفوا بالإدغام ولتعرفوا أي: لتعلموا كيف تتناسبون وليتعرفوا. والمعنى أنّ الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض فلا يعتزى إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى فقال: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** وقرئ أنّ بالفتح كأنه قيل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأنّ أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم، وعن النبي ﷺ أنه طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها. يا أيها الناس إنما الناس رجلان، مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. ثم قرأ الآية»[2] وعنه عليه السلام: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله»[3]. وعن ابن عباس: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. وعن يزيد بن شجرة: «مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلامًا أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ، فاشتراه رجل، فكان رسول الله ﷺ يراه عند كل صلاة، ففقده يومًا، فسأل عنه صاحبه، فقال: محموم، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال: هو لما به. فجاءه وهو في نمائه فتولى غسله ودفنه»[4]. فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم فنزلت.

۞ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

الإيمان هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس، والإسلام الدخول في السلم والخروج من أن يكون حربًا للمؤمنين بإظهار الشهادتين ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** فاعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله تعالى: **﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾** والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا. أو قل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم **قُلْتُ**[5]: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً ودفع ما انتحلوه، فقيل: قل لم تؤمنوا وروعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرّح بلفظه فلم يقل: كذبتم ووضع لم تؤمنوا الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، ثم نبّه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين: أولئك هم الصادقون. تعريضًا بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح. واستغنى بالجملة التي هي لم تؤمنوا عن أن يقال: لا تقولوا: آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدّرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل: ولكن أسلمتم ليكون خارجًا مخرج الزعم والدعوى كما كان قولهم: آمنا كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم، وهو غير معتد به.

فإن قُلْتَ: قوله: **﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** بعد قوله تعالى: **﴿قل لم تؤمنوا﴾** يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجدّدة! **قُلْتُ:** ليس كذلك فإنّ فائدة قوله: **﴿لم تؤمنوا﴾** هو تكذيب دعواهم وقوله: **﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** توقيت لما أمروا به أن يقولوه كأنه قيل لهم ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في قولوا،

---

(1) قال الزيلعي: غريب وبمعناه ما رواه أبو القاسم الأصبهاني في كتاب: الترغيب والترهيب. وذكره الثعلبي ثم البغوي بلفظ المصنف من غير سند 3/349.

(2) أخرجه الترمذي في السنن كتاب: التفسير، باب: ومن سورة الحجرات (الحديث رقم: 3270) وأخرجه أبو داود عن أبي هريرة في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (الحديث رقم: 5116).

(3) رواه الحاكم في المستدرك 4/270.

(4) ذكر الواحدي في أسباب النزول ص 222.

(5) قال أحمد: ونظير هذا النظم ومراعاة هذه اللطيفة، قوله تعالى:= = ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ ثم قال: ﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ ولما كان مؤدّى هذا تكذيب الله تعالى لهم في شهادتهم برسالة النبي ﷺ، قدّم على ذلك مقدّمة تلخص المقصود وتخلصه من حوادث الوهم ونوائبه، فقال بين الكلامين: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما دعوه من شهادة قلوبهم بالحق؛ لأنّ ذلك حقيقة الشهادة لا أنهم كذبوا في أنّ رسول الله ﷺ رسول من الله، وكان المخلص من ذلك قوله جلّ وعلا: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾.

وما في لما من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ﴿لا يلتكم﴾ لا ينقصكم ولا يظلمكم. يقال: ألته السلطان حقه أشدّ الألت، وهي لغة غطفان ولغة أسد وأهل الحجاز لاته ليتا، وحكى الأصمعي عن أمّ هشام السلولية أنها قالت: الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات، وقرئ باللغتين لا يلتكم ولا يألتكم ونحوه في المعنى فلا تظلم نفس شيئًا. ومعنى طاعة الله ورسوله أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق، ويعقدوا قلوبهم على الإيمان، ويعملوا بمقتضياته، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم ووهب لهم مغفرته وأنعم عليهم بجزيل ثوابه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ نفرًا من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة فاظهروا الشهادة وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وهم يغدون ويروحون على رسول الله ﷺ ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والذراري، يريدون الصدقة ويمنون عليه فنزلت.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾.

ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهام لمن صدّقوه واعترفوا بأنّ الحق منه.

فإن قُلْتَ: ما معنى ثم ههنا وهي للتراخي وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنًا للإيمان لأنه وصف فيه لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمانينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب! **قُلْتُ**: الجواب على طريقين: أحدهما أنّ من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد ثلج الصدر، فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظرًا غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمرّ على ذلك راكبًا رأسه لا يطلب له مخرجًا. فوصف المؤمنون حقًا بالبعد عن هذه الموبقات ونظيره قوله: ﴿ثم استقاموا﴾[1] والثاني أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الإيمان تنبيهًا على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارًا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضًا جديدًا. ﴿وجاهدوا﴾ يجوز أن يكون المجاهد منويًا وهو العدوّ المحارب أو الشيطان أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس الغزو وأن يتناول العبادات بأجمعها، وبالمجاهدة بالمال نحو ما صنع عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى ﴿أولئك هم الصادقون﴾ الذين صدقوا في قولهم آمنا ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجدّ وثبات.

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾.

يقال: ما علمت بقدومك أي: ما شعرت به ولا أحطت به. ومنه قوله تعالى: ﴿أتعلمون الله بدينكم﴾ وفيه تجهيل لهم. يقال: منّ عليه بيد أسداها إليه كقولك: أنعم عليه وأفضل عليه. والمنة النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلها إليه، واشتقاقها من المن الذي هو القطع، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير من غير أن يعمد لطلب مثوبة، ثم يقال: منّ عليه صنعه إذا اعتده عليه منة وإنعامًا، وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة وذلك أنّ الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلامًا ونفى أن يكون كما زعموا إيمانًا. فلما منوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام: إنّ هؤلاء يعتدّون عليك بما ليس جديرًا بالاعتداد به من حدثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام. فقل لهم: لا تعتدّوا عليّ إسلامكم أي: حدثكم المسمى إسلامًا عندي لا إيمانًا. ثم قال: بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووفقتم له إن صحّ زعمكم وصدقت دعواكم، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه. وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف ما لا يخفي على المتأمل وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان. فلله المنة عليكم. وقرئ إن هداكم بكسر الهمزة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: إذ هداكم.

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾.

وقرئ: ﴿تعملون﴾ بالتاء والياء وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم. يعني:

أنه عزّ وجل يعلم كل مستتر في العالم، ويبصر كل عمل تعملونه في سركم وعلانيتكم لا يخفى عليه منه شيء. فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم وذلك أنّ حاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه»[2].

(1) سورة فصلت، الآية: 30.

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير والزيلعي 3/ 353.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة ق مكية

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾.

الكلام في **﴿قٓ والقرآن المجيد * بل عجبوا﴾** نحوه في صٓ والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا سواء بسواء لالتقائهما في أسلوب واحد. والمجيد ذو المجد والشرف على غيره من الكتب ومن أحاط علمًا بمعانيه وعمل بما فيه مجد عند الله وعند الناس وهو بسبب من الله المجيد فجاز اتصافه بصفته.

قوله: **﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾** إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحًا لقومه مترفرفًا عليهم خائفًا أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه. وإذا علم أنّ مخوفًا أظلهم لزمه أن ينذرهم ويحذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه وإقرارهم بالنشأة الأولى ومع شهادة العقل بأنه لا بدّ من الجزاء. ثم عول على أحد الإنكارين بقوله تعالى: **﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب أئذا متنا﴾** دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار، ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم. وهذا إشارة إلى الرجع وإذا منصوب بمضمر معناه أحين نموت ونبلى نرجع **﴿ذلك رجع بعيد﴾** مستبعد مستنكر، كقولك هذا قول بعيد وقد أبعد فلان في قوله، ومعناه بعيد من الوهم والعادة، ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعادًا لإنكارهم ما أنذروا به من البعث والوقف قبله على هذا التفسير حسن. وقرئ إذا متنا على لفظ الخبر ومعناه: إذا متنا بعد أن نرجع والدال عليه ذلك رجع بعيد.

فإن قُلْتَ: فما ناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع؟ **قُلْتُ:** ما دلّ عليه المنذر من المنذر به وهو البعث.

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾

﴿قد علمنا﴾ ردّ لاستبعادهم الرجع، لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادرًا على رجعهم أحياء كما كانوا. عن النبي ﷺ: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب»[1] وعن السدي: **﴿ما تنقص الأرض منهم﴾** ما يموت فيدفن في الأرض منهم **﴿كتاب حفيظ﴾** محفوظ من الشياطين ومن التغير. وهو اللوح المحفوظ أو حافظ لما أودعه وكتب فيه.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾.

﴿بل كذبوا﴾ إضراب اتبع الإضراب الأوّل للدلالة على أنهم جاؤا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوّة الثابتة بالمعجزات في أوّل وهلة من غير تفكر ولا تدبر **﴿فهم في أمر مريج﴾** مضطرب. يقال: مرج الخاتم في اصبعه وجرج، فيقولون تارةً شاعر وتارةً ساحر وتارةً كاهن لا يثبتون على شيء واحد. وقرئ لما جاءهم بكسر اللام وما المصدرية واللام هي التي في قولهم لخمس خلون أي: عند مجيئه إياهم، وقيل: الحق القرآن. وقيل: الإخبار بالبعث.

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾.

﴿أفلم ينظروا﴾ حين كفروا البعث إلى آثار قدرة الله في خلق العالم **﴿بنيناها﴾** رفعناها بغير عمد **﴿من فروج﴾** من فتوق يعني: أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل كقوله تعالى: **﴿هل ترى من فطور﴾**[2].

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾.

﴿مددناها﴾ دحوناها **﴿رواسي﴾** جبالاً ثوابت لولا هي لتكفات **﴿من كل زوج﴾** من كل صنف **﴿بهيج﴾** يبتهج به لحسنه.

تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾.

﴿تبصرة وذكرى﴾ لتبصر به وتذكر كل **﴿عبد منيب﴾** راجع إلى ربه مفكر في بدائع خلقه. وقرئ تبصرة وذكرى بالرفع أي: خلقها تبصرة.

وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾.

﴿ماء مباركًا﴾ كثير المنافع **﴿وحب الحصيد﴾** وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير تفسير سورة الزمر، باب: ﴿ونفخ في الصور﴾ (الحديث رقم: 4814) ومسلم في الفتن، باب: ما بين النفختين.

(2) سورة الملك، الآية: 3.

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾.

﴿باسقات﴾ طوالاً في السماء. وفي قراءة رسول الله ﷺ باصقات بإبدال السين صادًا لأجل القاف **﴿نضيد﴾** منضود بعضه فوق بعض. إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه أو كثرة ما فيه من الثمر.

رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾.

﴿رزقًا﴾ على أنبتناها رزقًا لأنّ الإنبات في معنى الرزق أو على أنه مفعول له أي: أنبتناها لنرزقهم **﴿كذلك الخروج﴾** كما حييت هذه البلدة الميتة كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم، والكاف في محل الرفع على الابتداء. أراد بفرعون قومه كقوله تعالى:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾.

﴿من فرعون وملئهم﴾[1] لأنّ المعطوف عليه قوم نوح والمعطوفات جماعات.

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾.

﴿كل﴾ يجوز أن يراد به كل واحد منهم وأن يراد جميعهم. إلا أنه وحد الضمير الراجع إليه على اللفظ دون المعنى **﴿فحق وعيد﴾** فوجب وحل وعيدي وهو كلمة العذاب وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم.

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾.

عيي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله، والهمزة للإنكار والمعنى: أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأوّل حتى نعجز عن الثاني. ثم قال: هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأوّل، واعترافهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة. **﴿بل هم في لبس﴾** أي: في خلط وشبهة قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم. ومنه قول علي رضي الله عنه: يا حار، إنه لملبوس عليك اعرف الحق تعرف أهله ولبس الشيطان عليهم تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة. فتركوا لذلك القياس الصحيح أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر.

فإن **قُلْتَ**: لم نكر الخلق الجديد[2] وهلا عرف كما عرف الخلق الأول؟ **قُلْتُ**: قصد في تنكيره إلى خلق جديد له شأن عظيم وحال شديد حق من سمع به أن يهتم به ويخاف ويبحث عنه ولا يقعد على لبس في مثله.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾.

الوسوسة الصوت الخفي، ومنها وسواس الحلي، ووسوسة النفس ما يخطر ببال الإنسان ويهجس في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قولك صوت بكذا وهمس به، ويجوز أن تكون للتعدية والضمير للإنسان أي: ما تجعله موسوسًا وما مصدرية لأنهم يقولون: حدث نفسه بكذا. كما يقولون: حدثته به نفسه. قال: وأكذب النفس إذا حدثتها **﴿ونحن أقرب إليه﴾** مجاز والمراد قرب علمه منه وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقًا لا يخفى عليه شيء من خفياته، فكأن ذاته قريبة منه كما يقال:

الله في كل مكان وقد جل عن الأمكنة ... وحبل الوريد مثل في فرط القرب

كقولهم:

هو مني مقعد القابلة ومعقد الإزار

وقال ذو الرمة:

والموت أدنى لي من الوريد ... والحبل العرق شبه بواحد الحبال

ألا ترى إلى قوله: كأن وريديه رشا أخلب، والوريدان عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدّمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، وقيل: سمي وريدًا لأنّ الروح ترده.

فإن **قُلْتَ**: ما وجه إضافة الحبل إلى الوريد والشيء لا يضاف إلى نفسه؟ **قُلْتُ**: فيه وجهان: أحدهما أن تكون الإضافة للبيان كقولهم بعير سانية. والثاني أن يراد حبل العاتق فيضاف إلى الوريد كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد. كما لو قيل حبل العلباء مثلاً.

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾.

---

(1) سورة يونس، الآية: 83.

(2) قال أحمد: هذا كلام كما تراه غير منتظم، والظاهر أنه لفساد في النسخة، والذي يتحرّر في الآية وهو مقتضى تفسير الزمخشري، أنّ فيها أسئلة ثلاثة لم عرف الخلق الأوّل، ونكر اللبس والخلق الجديد، فاعلم أنّ التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه، ومنه تعريف الذكور في قوله: ﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾ ولهذا المقصد عرّف الخلق الأوّل؛ لأنّ الغرض جعله دليلاً على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى، إذا لم يعي تعالى بالخلق الأوّل على عظمته، فالخلق الآخر أولى أن لا يعيا به، فهذا سر تعريف الخلق الأوّل، وأما التنكير فأمره منقسم، فمرّة يقصد به تفخيم المنكر من حيث ما فيه من الإبهام، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة، ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه، = وعلى الأوّل ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ وقوله: ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم وإنّ المتقين في جنات ونعيم﴾ وقوله: ﴿بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ وهو أكثر من أن يحصى، والثاني: هو الأصل في التنكير، فلا يحتاج إلى تمثيله، فتنكير اللبس من التعظيم والتفخيم، كأنه قال: في لبس، أي: وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأوّل، يحتمل أن يكون للتفخيم، وكأنه أمر أعظم من أن يرضي الإنسان بكونه ملتبساً عليه، مع أنه أوّل ما تبصر فيه صحته، ولعل إشارة الزمخشري إلى هذا والله أعلم، فهذا كما تراه كلام مناسب لاستطراف أسئلة وأجوبة، فإن يكن هو ما أراده الزمخشري فذاك، وإلا فالعق العسل ولا تسل.

﴿إذ﴾ منصوب بأقرب وساغ ذلك لأنّ المعاني تعمل في الظرف متقدّمة ومتأخرة والمعنى: أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس، وما لا شيء أخفى منه وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به إيذانًا بأن استحفاظ الملكين أمر هو غني عنه، وكيف لا يستغنى عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات. وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات. وعن النبي ﷺ: «إنّ معقد ملكيك على ثنيتيك ولسانك قلمهما وريقك مدادهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك لا تستحي من الله تعالى ولا منهما»(1). ويجوز أن يكون تلقى الملكين بيانًا للقرب يعني: ونحن قريبون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه، إذ حفظتنا وكتبتنا موكلون به والتلقي التلقن بالحفظ والكتبة. والقعيد القاعد كالجليس بمعنى المجالس، وتقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقيين. فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه كقوله كنت منه ووالدي بريا.

مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾.

﴿رقيب﴾ ملك يرقب عمله ﴿عتيد﴾ حاضر. واختلف فيما يكتب الملكان فقيل: يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه. وقيل: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به. ويدل عليه قوله عليه السلام: «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل. وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر». وقيل: إنّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه وعنه جماعة. وقرئ: ما يلفظ على البناء للمفعول. لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه، أعلمهم أنّ ما أنكروه وجحدوه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبّه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي وهو قوله:

وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾.

﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ ونفخ في الصور. وسكرة الموت شدّته الذاهبة بالعقل، والباء في بالحق للتعدية يعني: وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله، أو حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته. وقيل: الحق الذي خلق له الإنسان من أن كل نفس ذائقة الموت ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله: تنبت بالدهن أي وجاءت ملبسةً بالحق أي: بحقيقة الأمر أو بالحكمة. والغرض الصحيح كقوله تعالى: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾(2) وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضي الله عنهما: سكرة الحق بالموت على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له وأنها حكمة، والباء للتعدية لأنها سبب زهوق الروح لشدتها أو لأنّ الموت يعقبها فكأنها جاءت به. ويجوز أن يكون المعنى جاءت ومعها الموت. وقيل: سكرة الحق سكرة الله أضيفت إليه تفظيعًا لشأنها وتهويلاً. وقرئ: سكرات الموت: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الموت والخطاب للإنسان في قوله: ولقد خلقنا الإنسان على طريق الالتفات أو إلى الحق والخطاب للفاجر ﴿تحيد﴾ تنفر وتهرب. وعن بعضهم أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال: الخطاب لرسول الله ﷺ. فحكاه صالح بن كيسان فقال: والله ما سنّ عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب هو للكافر. ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال: أخالفهما جميعًا هو للبر والفاجر.

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾.

﴿ذلك يوم الوعيد﴾ على تقدير حذف المضاف أي: وقت ذلك يوم الوعيد والإشارة إلى مصدر نفخ.

وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾.

﴿سائق وشهيد﴾ ملكان أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله. أو ملك واحد جامع بين الأمرين كأنه قيل: معها ملك يسوقها ويشهد عليها ومحل معها سائق النصب على الحال من كل لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة.

لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾.

قرئ: لقد كنت عنك غطاءك فبصرك بالكسر على خطاب النفس أي: يقال لها: لقد كنت. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئًا، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فيبصر ما لم يبصر من الحق. ورجع بصره الكليل عن الأبصار لغفلته حديدًا لتيقظه.

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾.

﴿وقال قرينه﴾ هو الشيطان الذي قيض له في قوله: نقيض له شيطانًا فهو له قرين يشهد له قوله تعالى: ﴿قال قرينه﴾ ربنا ما أطغيته ﴿هذا ما لدي عتيد﴾ هذا شيء لدي وفي ملكتي عتيد لجهنم. والمعنى: أن ملكًا يسوقه وآخر يشهد عليه وشيطانًا مقرونًا به يقول: قد اعتدته لجهنم وهيئته لها بإغوائي وإضلالي.

---

(1) رواه الثعلبي في تفسيره والزيلعي 3/358.

(2) سورة الأنعام، الآية: 73.

فإن قُلْتَ: كيف إعراب هذا الكلام؟ قُلْتُ: إن جعلت ما موصوفة فعتيد صفة لها، وإن جعلتها موصولة فهو بدل أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف.

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾.

﴿ألقيا﴾ خطاب من الله تعالى للملكين السابقين السائق والشهيد، ويجوز أن يكون خطابًا للواحد على وجهين: أحدهما قول المبردان تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كانه قيل: الق الق للتاكيد، والثاني أن العرب اكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان فكثر على ألسنتهم أن يقولوا خليلي وصاحبي وقفا وأسعدا حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين. عن الحجاج أنه كان يقول: يا حوسى اضربا عنقه. وقرأ الحسن: ألقين بالنون الخفيفة. ويجوز أن تكون الألف في ألقيا بدلاً من النون إجراءً للوصل مجرى الوقف. ﴿عنيد﴾ معاند مجانب للحق معاد لأهله.

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾.

﴿مناع للخير﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه، جعل ذلك عادةً له لا يذل منه شيئًا قط أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم. قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة كان يمنع بني أخيه من الإسلام وكان يقول: من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت. ﴿معتد﴾ ظالم متخط للحق ﴿مريبٍ﴾ شاكٍ في الله وفي دينه.

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾.

﴿الذي جعل﴾ مبتدأ مضمن معنى الشرط ولذلك أجيب بالفاء. ويجوز أن يكون الذي جعل منصوبًا بدلاً من كل كفار ويكون ﴿فالقياه﴾ تكريرًا للتوكيد.

فإن قُلْتَ: لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى؟ قُلْتُ: لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول كما رأيت في حكاية المقاولة بين موسى وفرعون.

فإن قُلْتَ: فأين التقاول ههنا؟ قُلْتُ: لما قال قرينه هذا ما لدي عتيد، وتبعه قوله: قال قرينه ربنا ما أطغيته. وتلاه لا تختصموا لدي علم أنّ ثم مقاولة من الكافر لكنها طرحت لما يدل عليها كانه قال: رب هو أطغاني فقال قرينه: ربنا ما أطغيته وأمّا الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول أعني مجيء كل نفس مع الملكين.

وقول قرينه ما قال له: ﴿ما أطغيته﴾ ما جعلته طاغيًا وما أوقعته في الطغيان. ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾[1].

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

﴿قال لا تختصموا﴾ استئناف مثل قوله: قال قرينه: كأن قائلاً قال: فماذا قال الله، فقيل: قال: لا تختصموا. والمعنى: لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب فلا فائدة في اختصامكم ولا طائل تحته، وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي فما تركت لكم حجةً علي. ثم قال: لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدي فاعفيكم عما أوعدتكم به. ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ فاعذب من ليس بمستوجب للعذاب. والباء في بالوعيد مزيدة مثلها في ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، أو معدية على أن قدم مطاوع بمعنى تقدّم، ويجوز أن يقع الفعل عل جملة قوله: ما يبدّل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ويكون بالوعيد حالاً أي: قدّمت إليكم هذا ملتبسًا بالوعيد مقترنًا به، أو قدّمته إليكم موعدًا لكم به.

فإن قُلْتَ: إنّ قوله: وقد قدّمت إليكم واقع موقع الحال من لا تختصموا والتقديم بالوعيد في الدنيا والخصومة في الآخرة واجتماعهما في زمان واحد واجب! قُلْتُ: معناه لا تختصموا وقد صح عندكم أني قدّمت إليكم بالوعيد وصحة ذلك عندهم في الآخرة.

فإن قُلْتَ: كيف قال بظلام على لفظ المبالغة؟[2] قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما أن يكون من قولك: هو ظالم لعبده وظلام لعبيده، والثاني أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلامًا مفرط الظلم فنفى ذلك.

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾.

(1) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(2) قال أحمد: وذكر فيه وجهان آخران، أحدهما: أن فعالاً قد ورد بمعنى فاعل فهذا منه، الثاني: أنّ المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم، إن عظيماً فعظيم وإن قليلاً فقليل، فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملكه قدّس ذاته عما يتوهم مخذول، والعياذ بالله أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود، ولقد بدّل القدرية فتوهموا أنّ الله تعالى لم يامر إلا بما أراده وبما هو من خلق العبد، بناء على أنه لو كلف على خلاف ما أراد وبما ليس من خلق العبد لكان تكليفاً بما لا يطلق، واعتقدوا أن ذلك ظلم = في الشاهد، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلماً، والله تعالى مبرأ من الظلم، واعتقدوا أن ذلك ظلم في الشاهد، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلماً، والله تعالى مبرأ من الظلم، ألا ترى هذا المعتقد كيف لزمهم عليه أن يكون الله تعالى ظلاماً لعبيده تعالى الله عن ذلك؛ لأنّ الحق الذي قامت بصحته البراهين هو عين ما اعتقدوه ظلماً فنفوه، فلمثلهم وردت هذه الآية وأشباهها لتبين للناس ما نزل إليهم، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، والله الموفق للصواب.

قرئ نقول بالنون والياء. وعن سعيد بن جبير: يوم يقول الله لجهنم. وعن ابن مسعود والحسن: يقال وانتصاب اليوم بظلام أو بمضمر. نحو اذكر وأنذر ويجوز أن ينتصب بنفخ كأنه قيل: ونفخ في الصور يوم نقول لجهنم. وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم نقول ولا يقدّر حذف المضاف. وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى[1] في القلب وتثنيته وفيه معنيان: أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شيء ولا يزاد على امتلائها لقوله تعالى: ﴿لأملأنّ جهنم﴾ والثاني أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد. ويجوز أن يكون هل من مزيد استكثارًا للداخلين فيها واستبداعًا للزيادة عليهم لفرط كثرتهم أو طلبًا للزيادة غيظًا على العصاة. والمزيد إما مصدر كالمحيد والمميد وإما اسم مفعول كالمبيع.

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾.

﴿غير بعيد﴾ نصب على الظرف أي: مكانًا غير بعيد. أو على الحال وتنكيره لأنه على زنة المصدر كالزئير والصليل والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث، أو على حذف الموصوف أي شيئًا غير بعيد ومعناه: التوكيد. كما تقول: هو قريب غير بعيد وعزيز غير ذليل.

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾.

وقرئ توعدون بالتاء والياء وهي جملة اعتراضية و﴿لكل أوّاب﴾ بدل من قوله: للمتقين بتكرير الجرّ كقوله تعالى: ﴿الذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾[2] وهذا إشارة إلى الثواب أو إلى مصدر أزلفت. والأوّاب الرجاع إلى ذكر الله تعالى والحفيظ الحافظ لحدوده تعالى.

مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾.

و﴿من خشي﴾ بدل بعد بدل تابع لكل ويجوز أن يكون بدلاً عن موصوف أوّاب وحفيظ ولا يجوز أن يكون في حكم أوّاب وحفيظ لأنّ مَنْ لا يوصف به ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذي وحده، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره يقال لهم: ادخلوها بسلام، لأنّ من في معنى الجمع، ويجوز أن يكون منادى كقولهم: من لا يزال محسنًا أحسن إلي وحذف حرف النداء للتقريب ﴿بالغيب﴾ حال من المفعول أي: خشيه وهو غائب لم يعرفه. وكونه معاقبًا لا بطريق الاستدلال أو صفة لمصدر خشي أي: خشيه خشية ملتبسة بالغيب حيث خشي عقابه وهو غائب أو خشيه بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه. وقيل: في الخلوة حيث لا يراه أحد.

فإن قُلْتَ: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة[3]؟ **قُلْتُ:** للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة كما أثنى عليه بأنه خاش مع أنّ المخشي منه غالب ونحوه. والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات. وصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى الله تعالى لأنّ الاعتبار بما ثبت منها في القلب.

ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾.

يقال لهم: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي سالمين من العذاب وزوال النعم أو مسلمًا عليكم يسلم عليكم الله وملائكته ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أي: يوم تقدير الخلود، كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾[4] أي: مقدّرين الخلود.

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾.

﴿ولدينا مزيد﴾ هو ما لم يخطر ببالهم ولم تبلغه أمانيهم حتى يشاؤه، وقيل: إن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطرهم الحور، فنقول نحن: المزيد الذي قال الله عز وجل: ﴿ولدينا مزيد﴾.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ

---

(1) قال أحمد: قد تقدّم إنكاري عليه إطلاق التخييل في غير ما موضع، والنكير ههنا أشدّ عليه، فإنّ إطلاق التخييل قد مضى له في مثل قوله: ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ وفي مثل قوله: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ وإنما أراد به حمل الأيدي على نوع من المجاز، فمعنى كلامه صحيح؛ لأنا نعتقد فيهما المجاز وندين الله بتقديسه عن المفهوم الحقيقي، فلا بأس عليه في معنى إطلاقه، غير أنا مخاطبون باجتناب الألفاظ الموهمة في حق جلال الله تعالى وإن كانت معانيها صحيحة، وأي إيهام أشدّ من إيهام لفظ التخييل، ألا ترى كيف استعمله الله فيما أخبر أنه سحر وباطل، في قوله: ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ فلا يشك في وجوب اجتنابه، ثم يعود بنا الكلام إلى إطلاقه ههنا، فنقول: هو منكر لفظاً ومعنى، أما اللفظ فقد تقدّم، وأما المعنى فلأنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه، وكيف نفرض وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك، منها هذا ومنها لجاج الجنة والنار، ومنها اشتكاؤها إلى ربها= فأذن لها في نفسين، وهذه وإن لم تكن نصوصاً فظواهر يجب حملها على حقائقها؛ لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع ولا مانع ههنا، فإن القدرة صالحة والعقل يجوّز، والظواهر قاضية بوقوع ما صوّره العقل، وقد وقع مثل هذا قطعاً في الدنيا، كتسليم الشجر وتسبيح الحصا في كف النبي ﷺ وفي يد أصحابه، ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظواهر في تفاصيل المقالة، لاتّسع الخرق وضل كثير من الخلق عن الحق، وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات، مما لم يجوّز العقل اعتقاد ظاهرها، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق، فاشدد يدك بما فصل في هذا الفصل، مما أرشدتك به إلى منهج القرب والوصل، والله الموفق.

(2) سورة الأعراف، الآية: 75.

(3) قال أحمد: ومن هذا الوادي بالغ رسول الله ﷺ في الثناء على صهيب، بقوله: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه».

(4) سورة الزمر، الآية: 73.

﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾.

﴿فنقبوا﴾ وقرئ بالتخفيف فخرقوا في البلاد ودوّخوا، والتنقيب: التنقير عن الأمر والبحث والطلب. قال الحرث بن حلزة:

نقبوا في البلاد من حذر المو ت وجالوا في الأرض كل مجال

ودخلت الفاء للتسبيب عن قوله: هم أشدّ منهم بطشًا أي: شدّة بطشهم أبطرتهم وأقدرتهم على التنقيب وقوّتهم عليه، ويجوز أن يراد فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسايرهم في بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصًا حتى يؤملوا مثله لأنفسهم. والدليل على صحته قراءة من قرأ فنقبوا على الأمر كقوله تعالى: ﴿فسيحوا في الأرض﴾[1] وقرئ بكسر القاف مخففة النقب وهو أن يتنقب خف البعير. قال: ما مسها من نقب ولا دبر. والمعنى: فنقبت أخفاف إبلهم أو حفيت أقدامهم ونقبت كما تنقب أخفاف الإبل لكثرة طوفهم في البلاد ﴿هل من محيص﴾ من الله أو من الموت.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾.

﴿لمن كان له قلب﴾ أي: قلب واع لأنّ من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له. وإلقاء السمع الإصغاء ﴿وهو شهيد﴾ أي: حاضر بفطنته لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب. وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه:

ما شئت من زهزهة والفتى بمصقلاباذ لسقي الزروع

أو وهو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحي من الله أو وهو بعض الشهداء في قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾[2] وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده وقرأ السدي وجماعة ألقى السمع على البناء للمفعول ومعناه: لمن ألقى غيره السمع وفتح له أذنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن. وقيل: ألقى سمعه أو السمع منه اللغوب الإعياء وقرئ بالفتح بزنة القبول والولوع.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨﴾.

قيل: نزلت في اليهود لعنت تكذيبًا لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام أوّلها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش. وقالوا: إنّ الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود ومنهم أخذ.

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩﴾.

﴿فاصبر على ما يقولون﴾ أي: اليهود يأتون به من الكفر والتشبيه، وقيل: فاصبر على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإنّ من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: الصبر مأمور به في كل حال ﴿بحمد ربك﴾ حامدًا ربك والتسبيح محمول عل ظاهره أو على الصلاة فالصلاة ﴿قبل طلوع الشمس﴾ الفجر ﴿وقبل الغروب﴾ الظهر والعصر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾.

﴿ومن الليل﴾ العشاءان وقيل: التهجد ﴿وأدبار السجود﴾ التسبيح في آثار الصلوات والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة. وقيل: النوافل بعد المكتوبات. وعن علي رضي الله عنه: الركعتان بعد المغرب. وروي عن النبي ﷺ: «مَن صلى بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين»[3]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الوتر بعد العشاء، والأدبار جمع دبر. وقرئ: ﴿وإدبار﴾ من أدبرت الصلاة إذا انقضت تمت ومعناه ووقت انقضاء السجود. كقولهم: آتيك خفوق النجم.

﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١﴾.

﴿واستمع﴾ يعني: واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به والمحدّث عنه، كما يروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة أيام لمعاذ بن جبل يا معاذ اسمع ما أقول لك». ثم حدّثه بعد ذلك.

فإن قُلْتَ: بم انتصب اليوم؟ **قُلْتُ**: بما دل عليه ذلك يوم الخروج أي: يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور. ويوم يسمعون بدل من ﴿يوم ينادي﴾ و﴿المنادي﴾ إسرافيل ينفخ في الصور وينادي: أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرّقة إنّ الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي بالحشر ﴿من كان قريب﴾ من صخرة بيت المقدس وهي أقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً وهي وسط الأرض. وقيل: من تحت أقدامهم. وقيل: من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة: أيتها العظام البالية.

﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣﴾.

و﴿الصيحة﴾ النفخة الثانية ﴿بالحق﴾ متعلق بالصيحة والمراد به: البعث والحشر للجزاء.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 2.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 3/70 (الحديث رقم: 4833)، وابن= أبي شيبة 2/198 في كتاب: الجمعة، باب: في ثواب الركعتين لم يخرجه الزيلعي.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

قرئ: تشقق وتشقق بإدغام التاء في الشين وتشقق على البناء للمفعول وتنشق. ﴿سراعًا﴾ حال من المجرور ﴿علينا يسير﴾ تقديم الظرف يدل على الاختصاص يعني: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن. كما قال تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾(1).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ تهديد لهم وتسلية لرسول الله ﷺ ﴿بجبار﴾ كقوله تعالى: ﴿بمسيطر﴾(2) حتى تقسرهم على الإيمان إنما أنت داعٍ وباعث. وقيل: أريد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم ويجوز أن يكون من جبره على الأمر بمعنى: أجبره عليه. أي: ما أنت بوالٍ عليهم تجبرهم على الإيمان، وعلى بمنزلته في قولك: هو عليهم إذا كان واليهم ومالك أمرهم. ﴿من يخاف وعيد﴾ كقوله تعالى: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾(3) لأنه لا ينفع إلا فيه دون المصر على الكفر عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة قٓ هوّن الله عليه تارات الموت وسكراته»(4).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الذاريات مكية

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾.

﴿والذاريات﴾ الرياح لأنها تذرو التراب وغيره. قال الله تعالى: ﴿تذروه الرياح﴾. وقرئ بإدغام التاء في الذال.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿فالحاملات وقرًا﴾ السحاب لأنها تحمل المطر. وقرئ وقرًا بفتح الواو على تسمية المحمول بالمصدر أو على إيقاعه موقع حملاً.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾.

﴿فالجاريات يسرًا﴾ الفلك ومعنى يسرًا: جريًا ذا يسر. أي: ذا سهولة.

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾.

﴿فالمقسمات أمرًا﴾ الملائكة لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها، أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك. وعن مجاهد تتولى تقسيم أمر العباد جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة، وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال هو على المنبر: «سلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكوّاء فقال: ما الذاريات ذروًا. قال: الرياح. قال: فالحاملات وقرًا. قال: السحاب. قال: فالجاريات يسرًا. قال: الفلك. قال: فالمقسمات أمرًا. قال: الملائكة»(5). وكذا عن ابن عباس وعن الحسن: «المقسمات السحاب يقسم الله بها أرزاق العباد، وقد حملت على الكواكب السبعة»(6). ويجوز أن يراد الرياح لا غير لأنها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه، وتجري في الجوّ جريًا سهلاً، وتقسم الأمطار بتصريف الحساب.

فإن قُلْتَ: ما معنى الفاء على التفسيرين؟ قُلْتُ: أمّا على الأوّل فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح فبالسحاب الذي تسوقه، فبالفلك التي تجري بها بهبوبها، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه، وأمّا على الثاني فلأنها تبتدئ بالهبوب فتذروا التراب والحصباء، فتنقل السحاب فتجري في الجوّ باسطة له، فتقسم المطر.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿إنما توعدون﴾ جواب القسم، وما موصولة أو مصدرية، والموعود البعث. ووعد صادق كعيشة راضية.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾.

والدين الجزاء. الواقع الحاصل.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾.

﴿الحبك﴾: الطرائق مثل حبك الرمل والماء إذا ضربته الريح، وكذلك حبك الشعر آثار تثنيه وتكسره. قال زهير:

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحي مائه حبك

والدرع محبوكة لأن خلقها مطرق طرائق. ويقال: إن خلقة السماء كذلك. وعن الحسن: حبكها نجومها. والمعنى: أنها تزينها كما تزين الموشي طرائق الوشي، وقيل: حبكها صفاقتها وإحكامها، من قولهم فرس محبوك المعاقم أي: محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا: ما أحسن حبكه! وهو جمع حباك كمثال ومثل أو حبيكة كطريقة وطرق. وقرئ الحبك بوزن القفل، والحبك بوزن السلك، والحبك

---

(1) سورة لقمان، الآية: 28.

(2) سورة الغاشية، الآية: 22.

(3) سورة النازعات، الآية: 45.

(4) رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه في التفسير وأخرجه الزيلعي 3/361.

(5) رواه الحاكم في المستدرك 2/466.

(6) رواه الطبراني في تفسيره.

بوزن الجبل، والحبك بوزن البرق، والحبك بوزن النعم، والحبك بوزن الإبل.

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾.

﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ قولهم في الرسول ساحر وشاعر ومجنون، وفي القرآن ﴿شعر وسحر وأساطير الأولين﴾ وعن الضحاك: قول الكفرة لا يكون مستويًا إنما هو متناقض مختلف، وعن قتادة: منكم مصدّق ومكذب ومقرّ ومنكر.

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾.

﴿يؤفك عنه﴾ الضمير للقرآن أو للرسول أي: يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشدّ منه[1] وأعظم كقوله: لا يهلك على الله إلا هالك. وقيل: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله. أي: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي. ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق. ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاكٌ ومنهم جاحد، ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك. ووجه آخر وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف. وعن مثله في قوله: ينهون عن أكل وعن شرب. أي: يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب، وحقيقته يصدر تناهيهم في السمن عنهما، وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف. وقرأ سعيد بن جبير: يؤفك عنه من أفك على البناء للفاعل أي: من أفك الناس عنه وهم قريش، وذلك أنّ الحي كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأي ليسأل عن رسول الله ﷺ فيقولون له: احذره، فيرجع، فيخبرهم. وعن زيد بن علي: يأفك عنه من أفك أي: يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه. وعنه أيضًا: يأفك عنه من أفك أي: يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب. وقرئ: يؤفن عنه من أفن أي: يحرمه من حرم من أفن الضرع إذا نهكه حلبًا.

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾.

﴿قتل الخراصون﴾ دعاء عليهم. كقوله تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾[2] وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى لعن وقبح. والخراصون الكذابون المقدرون ما لا يصح، وهم أصحاب القول المختلف، واللام إشارة إليهم. كأنه قيل: قتل هؤلاء الخراصون. وقرئ: قتل الخراصين أي: قتل الله.

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾.

﴿في غمرة﴾ في جهل يغمرهم ﴿ساهون﴾ غافلون عما أمروا به.

يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾.

﴿يسئلون﴾ فيقولون: ﴿أيان يوم الدين﴾ أي: متى يوم الجزاء. وقرئ بكسر الهمزة وهي لغة.

فإن **قُلْتَ**: كيف وقع أيان ظرفًا لليوم، وإنما تقع الأحيان ظروفًا للحدثان! **قُلْتُ**: معناه أيان وقوع يوم الدين.

فإن **قُلْتَ**: فبم انتصب اليوم الواقع في الجواب؟ **قُلْتُ**: بفعل مضمر دلّ عليه السؤال أي: يقع.

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾.

﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ ويجوز أن يكون مفتوحًا لإضافته إلى غير متمكن وهي الجملة.

فإن **قُلْتَ**: فما محله مفتوحًا؟ **قُلْتُ**: يجوز أن يكون محله نصبًا بالمضمر الذي هو يقع، ورفعًا على هو يوم هم على النار يفتنون. وقرأ ابن أبي عيلة بالرفع. ﴿يفتنون﴾ يحرقون ويعذبون، ومنه الفتين وهي الحرة لأنّ حجارتها كأنها محرقة.

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾.

﴿ذوقوا فتنتكم﴾ في محل الحال. أي: مقولاً لهم هذا القول ﴿هذا﴾ مبتدأ و ﴿الذي﴾ خبره. أي: هذا العذاب هو الذي ﴿كنتم به تستعجلون﴾ ويجوز أن يكون هذا بدلاً من فتنتكم أي: ذوقوا هذا العذاب.

آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾.

﴿آخذين ما آتاهم﴾ ربهم قابلين لكل ما أعطاهم راضين به يعني: أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقي بالقبول مرضي غير مسخوط، لأن جميعه حسن طيب. ومنه قوله تعالى: ﴿ويأخذ الصدقات﴾[3] أي: يقبلها ويرضاها. ﴿محسنين﴾ قد أحسنوا أعمالهم. وتفسير إحسانهم ما بعده ﴿ما﴾ مزيدة.

كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾.

والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل. إن

---

(1) قال أحمد: إنما أفاد هذا النظم المعنى الذي ذكر، من قبل أنك إذا قلت: يصرف عنه من صرف علم السامع أن قولك: يصرف عنه يغني عن قولك: من صرف؛ لأنه بمجرّده كالتكرار للأوّل لولا ما يستشعر فيه من فائدة تأبى جعله تكراراً، وتلك الفائدة إنك لما خصصت هذا بأنه هو الذي صرف، أفهم أن غيره لم يصرف، = فكأنك قلت: لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه فكلاً صرف بالنسبة إليه، والله تعالى أعلم.

(2) سورة عبس، الآية: 17.

(3) سورة التوبة، الآية: 104.

جعلت قليلاً ظرفًا ولك أن تجعله صفةً للمصدر. أي: كانوا يهجعون هجوعًا قليلاً. ويجوز أن تكون ما مصدرية أو موصولةً على كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه. وارتفاعه بقليلاً على الفاعلية[1] وفيه مبالغات. لفظ الهجوع وهو القرار من النوم قال:

قد حصت البيضة رأسي   فما اطعم نومًا غير تهجاع

وقوله: قليلاً ومن الليل لأن الليل وقت السبات والراحة، وزيادة ما المؤكدة لذلك وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين.

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾.

إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم، وقوله: ﴿هم يستغفرون﴾ فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرين فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه.

فإن قُلتَ: هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم، وأن يكون المعنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً ويحيونه كله؟ **قُلتُ:** لا لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها تقول: زيدًا لم أضرب؟ ولا تقول: زيدًا ما ضربت.

وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾.

السائل الذي يستجدي. ﴿والمحروم﴾ الذي يحسب غنيًا فيحرم الصدقة لتعففه. وعن النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي تردّه الأكلة والأكلتان، واللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، قالوا: فما هو؟ قال: الذي لا يجد ولا يتصدق عليه»[2]. وقيل: الذي لا ينمى له مال. وقيل: المحارف الذي لا يكاد يكسب.

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿وفي الأرض آيات﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره، حيث هي مدحوة كالبساط لما فوقها. كما قال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدًا﴾[3] وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها، والماشين في مناكبها. وهي مجزأة فمن سهل وجبل وبر وبحر، وقطع متجاورات من صلبة ورخوة وعذاة وسبخة، وهي كالطروقة تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح. تسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل، وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم. وما فيها من العيون المتفجرة والمعادن المفننة والدواب المنبثة في برها وبحرها، المختلفة الصور والأشكال والأفعال من الوحشي والإنسي والهوام وغير ذلك. ﴿للموقنين﴾ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة. فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة، كلما رأوا آيةً عرفوا وجه تأملها، فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم وإيقانًا إلى إيقانهم.

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾.

﴿وفي أنفسكم﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة المدبر ودع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له، وما سوّي في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والثني، فإنه إذا جسا شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿وفي السماء رزقكم﴾ هو المطر لأنه سبب الأقوات. وعن سعيد بن جبير: هو الثلج، وكل عين دائمة منه. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه فيه: والله رزقكم ولكنكم تحرمونه لخطاياكم. ﴿وما توعدون﴾ الجنة هي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبى كله مقدر مكتوب في السماء.

قرئ: ﴿مثل ما﴾ بالرفع صفة للحق أي: حق مثل نطقكم، وبالنصب على أنه لحق حقًا مثل نطقكم، ويجوز أن يكون فتحًا لإضافته إلى غير متمكن، وما مزيدة بنص الخليل، وهذا كقول الناس: إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع، ومثل ما إنك ههنا وهذا الضمير إشارة إلى ما ذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي ﷺ، أو إلى ما توعدون. وعن الأصمعي: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له. فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام

---

(1) قال أحمد: وجوه مستقيمة خلا جعل ما مصدرية، فإنّ قليلاً حينئذ واقع على الهجوع؛ لأنه فاعله، وقوله: ﴿من الليل﴾ لا يستقيم أن يكون صفة للقليل ولا بياناً له، ولا يستقيم أن يكون من صلة المصدر؛ لأنه تقدم عليه ولا كذلك على أنها موصولة، فإنّ قليلاً حينئذ واقع على الليل؛ كأنه قال: قليلاً المقدار الذي كانوا يهجعون فيه من الليل، فلا مانع أن يكون الليل بياناً للقليل على هذا الوجه، وهذا الذي ذكره إنما تبع فيه الزجاج، وقد ردّ الزمخشري أن = تكون ما نفياً، وقليلاً منصوب بيهجعون، على تقدير كانوا ما يهجعون قليلاً من الليل، وأسند ردّه إلى امتناع تقدم ما في حيز النفي.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: المسكين الذي لا يجد غنى (الحديث رقم: 101 ـ 1039).

(3) سورة طه، الآية: 53.

الرحمن، فقال: أتل علي فتلوت: والذاريات. فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما، وولى. فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالاعرابي قد نحل وأصفر. فسلم علي واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا. ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت فورب السماء والأرض إنه لحق. فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤه إلى اليمين. قالها ثلاثًا وخرجت معها نفسه.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿هل أتاك﴾ تفخيم للحديث وتنبيه على انه ليس من علم رسول الله ﷺ وإنما عرفه بالوحي. والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم، لانه في الأصل مصدر ضافه، وكانوا اثني عشر ملكاً. وقيل: تسعة عاشرهم جبريل، وقيل: ثلاثة: جبريل وميكائيل وملك معهما. وجعلهم ضيفًا لانهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم، أو لانهم كانوا في حسبانه كذلك وإكرامهم أنّ إبراهيم خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القرى، أو أنهم في أنفسهم مكرمون، قال الله تعالى: ﴿بل عباد مكرمون﴾[1].

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿إذ دخلوا﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم، وإلا فبما في ضيف من معنى الفعل أو بإضمار أذكر ﴿سلامًا﴾ مصدر سادٌ مسدّ الفعل مستغنى به عنه، وأصله نسلم عليكم سلامًا، وأمّا ﴿سلام﴾ فمعدول به إلى الرفع على الابتداء وخبره محذوف معناه: عليكم سلام. للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذًا بأدب الله تعالى. وهذا أيضًا من إكرامه لهم. وقرئا مرفوعين، وقرئ سلامًا. قال: سلما والسلم السلام، وقرئ سلامًا. قال: ﴿سلام قوم منكرون﴾ أنكرهم للسلام الذي هو علم الإسلام، أو أراد أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم. كما لو أبصر العرب قومًا من الخزر، أو رأى لهم حالاً وشكلاً خلاف حال الناس وشكلهم، أو كان هذا سؤالاً لهم. كأنه قال: أنتم قوم منكرون فعرفوني من أنتم.

فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾.

﴿فراغ إلى أهله﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره[2] وأن يباده بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يكفه ويعذره، قال قتادة: كان عامة مال نبي الله إبراهيم البقر ﴿فجاء بعجل سمين﴾.

فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾.

والهمزة في ﴿ألا تأكلون﴾ للإنكار أنكر عليهم ترك الأكل، أو حثهم عليه.

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾.

﴿فأوجس﴾ فأضمر، وإنما خافهم لأنهم لم يتحرّموا بطعامه، فظن أنهم يريدون به سوءًا، وعن ابن عباس: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب. وعن عون بن شداد: مسح جبريل العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمّه. ﴿بغلام عليم﴾ أي: يبلغ ويعلم. وعن الحسن: عليم نبي. والمبشر به إسحاق وهو أكثر الأقاويل وأصحها، لأن الصفة صفة سارة لا هاجر، وهي امرأة إبراهيم وهو بعلها. وعن مجاهد: هو إسماعيل.

فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾.

﴿في صرة﴾ في صيحة من صر الجند وصر القلم، والباب ومحله النصب على الحال، أي: فجاءت صارة، قال الحسن: أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء وقيل: فأخذت في صرة، كما تقول: أقبل يشتمني. وقيل: صرتها قولها: أوه. وقيل: يا ويلتا. وعن عكرمة: رنتها ﴿فصكت﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿عجوز﴾ أنا عجوز فكيف ألد.

قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾.

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به. ﴿قال ربك﴾ أي: إنما نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين، وروي أنّ جبريل قال لها: انظري إلى سقف بيتك، فنظرت، فإذا جذوعه مورقة مثمرة لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلاً في بعض الأمور.

۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾.

﴿قال فما خطبكم﴾ أي: فما شأنكم وما طلبكم.

قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾.

﴿إلى قوم مجرمين﴾ إلى قوم لوط.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 26.

(2) قال أحمد: معنى حسن، ونقل أبو عبيد أنه لا يقال: راغ، إلا إذا ذهب على خفية، ونقل ابو عبيد في قوله عليه السلام: «إذا كفى احدكم خادمه حرّ طعامه، فليقعده معه، وإلا فليروغ له لقمة». قال= أبو عبيد: يقال: روغ اللقمة وسغبلها وسغسغها ومرغها، إذا غمسها فرويت سمناً. قلت: وهو من هذا المعنى؛ لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى، ومن مقلوبه غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى، والله أعلم.

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾.

﴿حجارة من طين﴾ يريد السجيل، وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر حتى صار في صلابة الحجارة.

﴿مسوّمة﴾ معلمة من السومة، وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به، وقيل: أعلمت بأنها من حجارة العذاب، وقيل: بعلامة تدلّ على أنها ليست من حجارة الدنيا. سماهم مسرفين كما سماهم عادين لإسرافهم وعدوانهم في عملهم، حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم الضمير في: ﴿فيها﴾ للقرية، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة، وفيه دليل على أنّ الإيمان والإسلام واحد وأنهما صفتا مدح، قيل: هم لوط وابنتاه. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. وعن قتادة: لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم ليعلموا أن الإيمان محفوظ لا ضيعة على أهله عند الله.

فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾.

﴿آية﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قال ابن جريج: هي صخر منضود فيها. وقيل: ماء أسود منتن.

وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾.

﴿وفي موسى﴾ عطف على وفي الأرض آيات، أو على قوله: وتركنا فيها آية على معنى وجعلنا في موسى آية كقوله: علفتها تبنًا وماء باردًا.

فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾.

﴿فتولى بركنه﴾ فازور وأعرض. كقوله تعالى: ﴿ونأى بجانبه﴾[1] وقيل: فتولى بما كان يتقوى به من جنوده وملكه. وقرئ بركنه بضم الكاف. ﴿وقال ساحر﴾ أي: هو ساحر.

فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾.

﴿مليم﴾ آت بما يلام عليه من كفره وعناده. والجملة مع الواو حال من الضمير في فأخذناه.

فإن قُلْتَ: كيف وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون في قوله تعالى: ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾[2] قُلْتُ: موجبات اللوم تختلف وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم. فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وعصوا رسله﴾[3] ﴿وعصى آدم ربه﴾[4] لأنّ الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة.

وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾.

﴿العقيم﴾ التي لا خير فيها من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، وهي ريح الهلاك واختلف فيها. فعن علي رضي الله عنه: النكباء، وعن ابن عباس: الدبور، وعن ابن المسيب: الجنوب.

مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾.

الرميم: كل ما رم، أي: بلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك.

وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾.

﴿حتى حين﴾ تفسيره قوله: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾[5].

فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿فعتوا عن أمر ربهم﴾ فاستكبروا عن امتثاله. وقرئ: الصعقة وهي المرة من مصدر صعقتهم الصاعقة، والصاعقة النازلة نفسها. ﴿وهم ينظرون﴾ كانت نهارًا يعاينونها. وروي: أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضرتهم.

فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿فما استطاعوا من قيام﴾ كقوله تعالى: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾[6] وقيل: هو من قولهم: ما يقوم به إذا عجز عن دفعه. ﴿منتصرين﴾ ممتنعين من العذاب.

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿وقوم﴾ قرئ: بالجرّ على معنى: وفي قوم نوح، وتقوّيه قراءة عبد الله: وفي قوم نوح. وبالنصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح، لأنّ ما قبله يدل عليه، أو واذكر قوم نوح.

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾.

﴿بأييْدٍ﴾ بقوّة، والأيد والآد القوّة، وقد آد يئيد وهو أيد. ﴿وإنا لموسعون﴾ لقادرون من الوسع، وهو الطاقة، والموسع القوي على الإنفاق. وعن الحسن: لموسعون الرزق بالمطر. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة.

وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿فنعم الماهدون﴾ فنعم الماهدون نحن.

وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿ومن كل شيء﴾ أي: من كل شيء من الحيوان ﴿خلقنا زوجين﴾ ذكرًا وأنثى. وعن الحسن: السماء

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 83.
(2) سورة الصافات، الآية: 142.
(3) سورة هود، الآية: 59.
(4) سورة طه، الآية: 121.
(5) سورة هود، الآية: 65.
(6) سورة العنكبوت، الآية: 37.

والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة، فعدد أشياء قال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثل له. ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي: فعلنا ذلك كله من بناء السماء، وفرش الأرض، وخلق الأزواج، إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾.

﴿ففرّوا إلى الله﴾ أي: إلى طاعته وثوابه من معصيته[1] وعقابه ووحدوه ولا تشركوا به شيئًا. وكرّر قوله:

﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أنّ العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما. الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا﴾[2] والمعنى: قل يا محمد ففروا إلى الله.

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾.

﴿كذلك﴾ الأمر أي: مثل ذلك. وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحرًا ومجنونًا. ثم فسر ما أجمل بقوله: ﴿ما أتى﴾ ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة بأتى لأنّ ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ولو قيل: لم يأت لكان صحيحًا على معنى: مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا:

أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿أتواصوا به﴾ الضمير للقول. يعني: أتواصى الأوّلون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعًا متفقين عليه. ﴿بل هم قوم طاغون﴾ أي: لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان. والطغيان هو الحامل عليه.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾.

﴿فتول عنهم﴾ فأعرض عن الذين كرّرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا، وعرفت منهم العناد واللجاج، فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام الله.

وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾.

﴿فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أي: تؤثر في الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون في الإيمان، أو يزيد الداخلين فيه إيمانًا. وروي أنه لما نزلت: فتول عنهم. حزن رسول الله ﷺ، واشتد ذلك على أصحابه، ورأوا أنّ الوحي قد انقطع وأنّ العذاب قد حضر. فأنزل الله: ﴿وذكر﴾.

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾.

أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ولم أرد من جميعهم إلا إياها[3].

فإن **قُلْتَ**: لو كان مريدًا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادًا! **قُلْتُ**: إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدًا لها ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجبت من جميعهم.

يريد أنّ شاني من عبادي ليس كشان السادة مع عبيدهم، فإنّ ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم، فإمّا مجهز في تجارة ليفي ربحاً، أو مرتب في فلاحة ليغتلّ أرضًا، أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته، أو محتطب أو محتش أو مستق أو طابخ أو خابز وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق.

فأمّا مالك ملك العبيد وقال لهم: اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل

(1) قال أحمد: حمل الآية ما لم تحمله؛ لأنه لا يكاد يخلي سورة حتى يدس في تفسيرها بيده من معتقده، فدس ههنا: القطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالكفار، ولا تحتمل في الآية لما ذكر، فإنّ العناية في قوله: ﴿ففروا إلى الله﴾ الفرار إلى عبادة الله، فتوعد من لم يعبد الله ثم نهى عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره، وتوعده على ذلك، وفائدة تكرار النذارة الدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الإشراك، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل، لا كما قال الزمخشري المامور به في الأول الطاعة الموظفة بعد الإيمان، فتوعد تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود، وعلى هذا لا يكون تكراراً على اختلاف الوعيدين فهو أولى، فكيف يحمل الآية على خلاف ما هو أولى ليتم بها الاستدلال بها على معتقده الفاسد، نعوذ بالله من ذلك.

(2) سورة الأنعام، الآية: 158.

(3) قال أحمد: من عادته أنه إذا استشعر أنّ ظاهراً موافق لمعتقده، = نزله على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالاً، وإيراد معتقده جواباً، فكذلك صنع ههنا؟ فنقول: السؤال الذي أورده مما لا يجاب عنه بما ذكره، فإنه سؤال مقدّماته قطعية عقلية، فيجب تنزيل الآية عليه، وهي أنّ ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة، فإنها إنما سيقت لبيان عظمته عز وجل، وأنّ شانه مع عبيده لا يقاس به، شان عبيد الخلق معهم، فإنّ عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدّر أرزاقهم، والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقاً، أنه هو الذي يرزقهم، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية، وله سيقت وبه نطقت، ولكن الهوى يعمي ويصم، فحاصله وما خلقت الجنّ والإنس إلا لأدعوهم إلى عبادتي، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة، فإنه وافق معتقدهم، وبالله التوفيق.

رزقي ولأرزقكم وأنا غنيّ عنكم وعن مرافقكم، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي فما هو إلا أنا وحدي. ﴿المتين﴾ الشديد القوّة. قرئ بالرفع صفة لذو وبالجر صفة للقوّة على تأويل الاقتدار. والمعنى في وصفه بالقوة والمتانة. أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء. وقرئ: لرازق. وفي قراءة النبي ﷺ: إني أنا الرازق. الذنوب: الدلو العظيمة، وهذا تمثيل أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب قال:

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

ولما قال عمرو بن شاس:

وفي كل حيّ قد خبطت بنعمة فحق لشاس من نداك ذنوب

قال الملك نعم وأذنبة والمعنيفإن الذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله. مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون. وعن قتادة: سجلاً من عذاب الله مثل سجل أصحابهم.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿من يومهم﴾ من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الطـور مكية

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾.

الطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدين.

وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾.

والكتاب المسطور في الرق المنشور والرق الصحيفة. وقيل: الجلد الذي يكتب فيه الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال. قال الله تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا﴾[2] وقيل: هو ما كتبه الله لموسى وهو يسمع صرير القلم. وقيل: اللوح المحفوظ، وقيل: القرآن. ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب. كقوله تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها﴾[3].

وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾.

﴿والبيت المعمور﴾ الضراح في السماء الرابعة، وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة وقيل: الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار والمجاورين.

وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾.

﴿والسقف المرفوع﴾ السماء.

وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾.

﴿والبحر المسجور﴾ المملوء. وقيل: الموقد. من قوله تعالى: ﴿وإذا البحار سجرت﴾[4]. وروي أنّ الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها نارًا تسجر بها نار جهنم. وعن علي رضي الله عنه «أنه سأل يهوديًا: أين موضع النار في كتابكم؟ قال: في البحر. قال علي: ما أراه إلا صادقًا»[5] لقوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾.

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾.

﴿لواقع﴾ لنازل قال جبير بن مطعم: «أتيت رسول الله ﷺ أكلمه في الأسارى فألفيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلما بلغ: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾، أسلمت خوفاً من أن ينزل العذاب»[6].

يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾.

﴿تمور السماء﴾ تضطرب وتجيء وتذهب، وقيل: المور تحرك في تموج، وهو الشيء يتردّد في عرض كالداغصة في الركبة. غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكذب ومنه قوله تعالى: ﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾[7] وخضتم كالذي خاضوا الدع الدفع العنيف، وذلك أن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعًا على وجوههم، وزخًا في أقفيتهم. وقرأ زيد بن علي: يدعون من الدعاء أي: يقال لهم: هلموا إلى النار، وادخلوا إلى النار.

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾.

﴿دعا﴾ مدعوّين يقال لهم: هذه النار.

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾.

---

(1) رواه الثعلبي والواحدي، وابن مردويه في التفسير، والزيلعي 3/ 367.

(2) سورة الإسراء، الآية: 13.

(3) سورة الشمس، الآية: 7.

(4) سورة التكوير، الآية: 6.

(5) رواه البيهقي في البعث والنشور والطبري في تفسيره وأخرجه الزيلعي 3/ 371.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الطور (الحديث رقم: 4854)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب القراءة في المغرب (الحديث رقم: 174 ـ 463).

(7) سورة المدثر، الآية: 45.

﴿أفسحر هذا﴾ يعني: كنتم تقولون للوحي هذا سحر. أفسحر هذا؟ يريد: أهذا المصداق أيضًا سحر؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾ كما كنتم[1] لا تبصرون في الدنيا يعني: أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عميًا عن الخبر، وهذا تقريع وتهكم.

ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾.

﴿سواء﴾ خبر محذوف أي: سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه.

فإن قُلْتَ: لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾؟ قُلْتُ: لأنّ الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة بأن يجازي عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة فلا مزية له على الجزع.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾.

﴿في جنات ونعيم﴾ في أية جنات وأي نعيم بمعنى: الكمال في الصفة أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة.

فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾.

وقرئ: فاكهين وفكهين وفاكهون، من نصبه حالاً جعل الظرف مستقرًا، ومن رفعه خبرًا جعل الظرف لغوًا أي: متلذذين ﴿بما آتاهم ربهم﴾.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿ووقاهم ربهم﴾؟ قُلْتُ: على قوله في جنات، أو على آتاهم ربهم، على أن تجعل ما مصدرية. والمعنى: فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم، ويجوز أن تكون الواو للحال وقد بعدها مضمرة يقال لهم:

كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾.

﴿كلوا واشربوا﴾ أكلاً وشربًا ﴿هنيئًا﴾ أو طعامًا وشرابًا هنيئًا وهو الذي لا تنغيص فيه، ويجوز أن يكون مثله في قوله:

هنيئًا مريئًا غير داء مخامر … لعزة من أعراضنا ما استحلت

أعني صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل مرتفعًا به ما استحلت، كما يرتفع بالفعل كأنه قيل: هنأ عزة المستحل من أعراضنا، وكذلك معنى هنيئًا ههنا: هنأكم الأكل والشرب أو هنأكم ما كنتم تعملون أي: جزاء ما كنتم تعملون والباء مزيدة كما في: كفى بالله. والباء متعلقة بكلوا واشربوا إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب. وقرئ بعيس عين.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾.

﴿والذين آمنوا﴾ معطوف على حور عين أي: قرناهم بالحور وبالذين آمنوا أي: بالرفقاء والجلساء منهم. كقوله تعالى: ﴿إخوانًا على سرر متقابلين﴾ فيتمتعون تارةً بملاعبة الحور وتارةً بمؤانسة الإخوان المؤمنين ﴿واتبعناهم ذرياتهم﴾ قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه ليقر بهم عينه»[2]. ثم تلا هذه الآية فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم، ثم قال: ﴿بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ أي: بسبب إيمان عظيم رفيع المحل وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلاً عليهم وعلى آبائهم لنتم سرورهم ونكمل نعيمهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى تنكير الإيمان؟ قُلْتُ: معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة ويجوز أن يراد إيمان الذرية الداني المحل. كأنه قال: بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم. وقرئ: واتبعتهم ذريتهم، واتبعتهم ذريتهم وذرياتهم. وقرئ: ذرياتهم بكسر الذال، ووجه آخر وهو أن يكون والذين آمنوا مبتدأ خبره بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما بينهما اعتراض. ﴿وما ألتناهم﴾ وما نقصناهم يعني: وفرنا عليهم جميع ما ذكرنا من الثواب والتفضل، وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء. وقيل: معناه وما نقصناهم من ثوابهم شيئًا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم، إنما ألحقناهم بهم على سبيل التفضل. قرئ: التناهم، وهو من بابين من ألت يألت، ومن ألات يليت، كأمات يميت وألتناهم من آلت يؤلت كآمن يؤمن، ولتناهم من لات يليت، وولتناهم من ولت يلت، ومعناهن واحد. ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي: مرهون. كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه فإن عمل صالحًا فكها وخلصها وإلا أوبقها.

وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿وأمددناهم﴾ وزدناهم في وقت بعد وقت.

يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾.

﴿يتنازعون﴾ يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم وإخوانهم ﴿كأسًا﴾ خمرًا ﴿لا لغو فيها﴾ في

(1) قوله تعالى: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ (قال فيه: يريد هذا المصداق أيضاً سحر، ودخلت الفاء لهذا المعنى: أم أنتم لا تبصرون كما كنتم إلخ).

(2) رواه الحاكم في المستدرك 468/2.

شربها ﴿ولا تأثيم﴾ أي: لا يتكلمون في أثناء الشرب يسقط الحديث وما لا طائل تحته، كفعل المتنادمين في الدنيا على الشراب في سفههم وعربدتهم ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله أي: ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكلف من الكذب والشتم والفواحش، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك، لأنّ عقولهم ثابتة غير زائلة وهم حكماء علماء. وقرئ: لا لغو فيها ولا تأثيم.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿غلمان لهم﴾ أي: مملوكون لهم مخصوصون بهم ﴿مكنون﴾ في الصدف لأنه رطبًا أحسن وأصفى أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. وقيل لقتادة: هذا الخادم، فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[1] وعنه عليه السلام: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه لبيك لبيك»[2].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿يتساءلون﴾ يتحادثون ويسأل بعضهم بعضًا عن أحواله وأعماله، وما استوجب به نيل ما عند الله.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿مشفقين﴾ أرقاء القلوب من خشية الله.

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

وقرئ: ووقايا بالتشديد ﴿عذاب السموم﴾ عذاب النار ووهجها ولفحها، والسموم الريح الحارة التي تدخل المسام فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿من قبل﴾ من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه يعنون في الدنيا ﴿ندعوه﴾ نعبده ونسأله الوقاية. ﴿إنه هو البر﴾ المحسن. ﴿الرحيم﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عبد أثاب، وإذا سئل أجاب. وقرئ: إنه بالفتح بمعنى لأنه.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فذكر﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ولا يثبطنك قولهم: كاهن أو مجنون، ولا تبال به فإنه قول باطل متناقض. لأنّ الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطًى على عقله. وما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بصدق النبوّة ورجاحة العقل أحد هذين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

وقرئ: يتربص به ريب المنون على البناء للمفعول وريب المنون ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر. قال: أمن المنون وريبه تتوجع. وقيل: المنون الموت. وهو في الأصل فعول من منه إذا قطعه لأن الموت قطوع ولذلك سميت شعوب. قالوا: ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿من المتربصين﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أحلامهم﴾ عقولهم وألبابهم، ومنه قولهم أحلام عاد. والمعنى: أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول وهو قولهم: كاهن وشاعر. مع قولهم: مجنون. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى. ﴿أم هم قوم طاغون﴾ مجاوزون الحدّ في العناد مع ظهور الحق لهم.

فإن قُلْتَ: ما معنى كون الأحلام آمرة؟ قُلْتُ: هو مجاز لأدائها إلى ذلك كقوله تعالى: ﴿أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾[3] وقرئ: بل هم قوم طاغون. ﴿تقوّله﴾ اختلقه من تلقاء نفسه.

﴿بل لا يؤمنون﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم ببطلان قولهم، وأنه ليس بمنقول لعجز العرب عنه وما محمد إلا واحد من العرب.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

وقرئ: بحديث مثله على الإضافة والضمير لرسول الله ﷺ ومعناه: أن مثل محمد في فصاحته ليس بمعوز في العرب، فإن قدر محمد على نظمه كان مثله قادر عليه، فليأتوا بحديث ذلك المثل.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أم خلقوا﴾ أم أحدثوا وقدروا التقدير الذي عليه فطرتهم. ﴿من غير شيء﴾ من غير مقدّر. ﴿أم هم﴾ الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿بل لا يوقنون﴾ أي: إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض. قالوا: الله، وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون. وقيل: أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب، وقيل: أخلقوا من غير أب وأم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أم عندهم خزائن﴾ الرزق حتى يرزقوا النبوّة من

---

(1) رواه عبد الرزاق في تفسيره، وأخرجه الزيلعي 3/373.

(2) رواه الثعلبي في تفسيره والزيلعي 3/373.

(3) سورة هود، الآية: 87.

شاؤا، أو أعندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة. ﴿أم هم المسيطرون﴾ الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم. وقرئ: المصيطرون بالصاد.

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿أم لهم سلم﴾ منصوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب، حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون ﴿بسلطان مبين﴾ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾.

المغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه أي: لزمهم مغرم ثقيل فدحهم فزهدهم ذلك في اتباعك.

أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾.

﴿أم عندهم الغيب﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿فهم يكتبون﴾ ما فيه حتى يقولوا لا نبعث وإن بعثنا لم نعذب.

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿أم يريدون كيدًا﴾ وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين ﴿فالذين كفروا﴾ إشارة إليهم، أو أريد بهم كل من كفر بالله ﴿هم المكيدون﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرهم، وذلك أنهم قتلوا يوم بدر أو المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته.

وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾.

الكسف: القطعة، وهو جواب قولهم: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا يريد: أنهم لشدّة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض، يمطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب.

فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾.

وقرئ: ﴿حتى يلقوا﴾ ويلقوا ﴿يصعقون﴾ يموتون، وقرئ: ﴿يصعقون﴾. يقال: صعقه فصعق، وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق.

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾.

﴿وإنّ للذين ظلموا﴾ وإن لهؤلاء الظلمة ﴿عذابًا دون ذلك﴾ دون يوم القيامة وهو القتل ببدر، والقحط سبع سنين، وعذاب القبر. وفي مصحف عبد الله دون ذلك قريبًا.

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾.

﴿لحكم ربك﴾ بإمهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة ﴿فإنك بأعيننا﴾ مثل أي: بحيث نراك ونكلؤك وجمع العين لأنّ الضمير بلفظ ضمير الجماعة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾[1] وقرئ: بأعينا بالإدغام ﴿حين تقوم﴾ من أي مكان قمت. وقيل: من منامك.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾.

﴿وإدبار النجوم﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل. وقرئ: وأدبار بالفتح بمعنى: في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت. والمراد: الأمر بقول سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات. وقيل: التسبيح الصلاة إذا قام من نومه ومن الليل صلاة العشاءين، وأدبار النجوم صلاة الفجر. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطور كان حقًا على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة النجم مكية

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾

النجم الثريا، وهو اسم غالب لها. قال:

إذا طلع النجم عشاء ... ابتغى الراعي كساء

أو جنس النجوم. قال: فباتت تعد النجم في مستحيرة. يريد النجوم. ﴿إذا هوى﴾ إذا غرب أو انتثر يوم القيامة، أو النجم الذي يرجم به إذا هوى إذا انقض، أو النجم من نجوم القرآن. وقد نزل منجمًا في عشرين سنة إذا هوى إذا نزل، أو النبات إذا هوى إذا سقط على الأرض. وعن عروة بن الزبير: «أنّ عتبة بن أبي لهب وكانت تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام فقال: لآتين محمدًا فلأونينه. فأتاه. فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنى، فتدلى ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ، ورد عليه ابنته وطلقها. فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك. وكان أبو طالب حاضرًا فوجم لها. وقال: ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة. فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم: إن هذه أرض مسبعة فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة

(1) سورة طه، الآية: 39.

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير والزيلعي 3/ 374.

فإني أخاف على ابني دعوة محمد، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتبة، فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله»[1]. وقال حسان:

من يرجع العام إلى أهله ... فما أكيل السبع بالراجع

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

﴿ما ضل صاحبكم﴾ يعني: محمدًا ﷺ، والخطاب لقريش وهو جواب القسم والضلال نقيض الهدى. والغي نقيض الرشد. أي: هو مهتدٍ راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغي.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾.

وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

وإنما هو وحي من عند الله يوحى إليه. ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ويجاب بأنّ الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحيًا لا نطقًا عن الهوى.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾.

﴿شديد القوى﴾ ملك شديد قواه، والإضافة غير حقيقية لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها وهو جبريل عليه السلام. ومن قوّته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء، ثم قلبها، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين. وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف، ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدّسة فنفحه بجناحه نفحة فألقاه في أقصى جبل بالهند.

﴿ذو مرة﴾ ذو حصافة في عقله ورأيه ومتانةً في دينه ﴿فاستوى﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقية دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي، وكان ينزل في صورة دحية. وذلك «أن رسول الله ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها. فاستوى له في الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملأ الأفق»[2]. وقيل: «ما رآه أحد من الأنبياء في صورته الحقيقية غير محمد ﷺ مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء»[3].

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾.

﴿ثم دنا﴾ من رسول الله ﷺ ﴿فتدلى﴾ فتعلق عليه في الهواء، ومنه تدلت الثمرة، ودلى رجليه من السرير، والدوالي الثمر المعلق. قال:

تدلى عليها بين سب وخيطة

ويقال: هو مثل القرلي إن رأى خيرًا تدلى، وإن لم يره تولى.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾.

﴿قاب قوسين﴾ مقدار قوسين عربيتين، والقاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار. وقرأ زيد بن علي: قاد. وقرئ: قيد وقدر. وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع والخطوة والشبر والفتر والأصبع ومنه: «لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين». وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنة، وموضع قده خير من الدنيا وما فيها»[4]. والقدّ: السوط. ويقال: بينهما خطوات يسيرة. وقال: وقد جعلتني من خزيمة اصبعًا.

فإن قُلْتَ: كيف تقدير قوله: ﴿فكان قاب قوسين﴾؟ قُلْتُ: تقديره: فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين[5]، فحذفت هذه المضافات. كما قال أبو علي في قوله: وقد جعلتني من خزيمة أصبعًا. أي: ذا مقدار مسافة أصبع ﴿أو أدنى﴾ أي: على تقديركم. كقوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾[6].

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾.

﴿إلى عبده﴾ إلى عبد الله وإن لم يجر لاسمه عزّ وجل ذكر لأنه لا يلبس. كقوله: على ظهرها ﴿ما أوحى﴾ تفخيم للوحي الذي أوحي إليه[7]، قيل: أوحي إليه أنّ الجنة محرّمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾.

﴿ما كذب﴾ فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام. أي: ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبًا لأنه عرفه. يعني: أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه، ولم يشك في أنّ ما رآه حق. وقرئ: ما كذب.

---

(1) رواه البيهقي في دلائل النبوة وأبو نعيم في الدلائل والثعلبي في تفسيره والطبراني في معجمه والحاكم في المستدرك تفسير تبت وأخرجه الزيلعي 3/378.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم «آمين» (الحديث رقم: 3234)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ (الحديث رقم: 287 ـ 177)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب ومن سورة «النجم» (الحديث رقم: 3278).

(3) لم يخرجه الزيلعي.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الحور العين وصفتهن (الحديث رقم: 2796).

(5) قال أحمد: وقد قال بعضهم: إنه كناية عن المعاهدة على لزوم الطاعة؛ لأنّ الحليفين في عرف العرب إذا تحالفا على الوفاء والصفاء ألصقا وتري قوسيهما.

(6) سورة الصافات، الآية: 147.

(7) قال أحمد: التفخيم لما فيه من الإبهام، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان، وهو كقوله: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ وقوله: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾.

أي: صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته.

أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾.

﴿أفتمارونه﴾ من المراء وهو الملاحاة والمجادلة، واشتقاقه من مري الناقة. كأن كل واحد من المتجادلين يمري ما عند صاحبه. وقرئ: أفتمرونه أفتغلبونه في المراء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة عدى بعلي كما تقول غلبته على كذا. وقيل: أفتمرونه أفتجحدونه وأنشدوا:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة لقد مريت أخًا ما كان يمريكا

وقالوا: يقال مريته حقه إذا جحدته وتعديته بعلي لا تصح إلا على مذهب التضمين.

وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾.

﴿نزلة أخرى﴾ مرة أخرى من النزول. نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو مرة لأنّ الفعلة اسم للمرة من الفعل فكانت في حكمها أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها، وذلك ليلة المعراج.

عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾.

قيل: في سدرة المنتهى هي شجر نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر، وورقها كآذان الفيول، تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله في كتابه، يسير الراكب في ظلها سبعين عامًا لا يقطعها. والمنتهى بمعنى موضع الانتهاء أو الانتهاء كأنها في منتهى الجنة وآخرها. وقيل: لم يجاوزها أحد وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء.

عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾.

﴿جنة المأوى﴾ الجنة التي يصير إليها المتقون عن الحسن، وقيل: تأوي إليها أرواح الشهداء. وقرأ علي وابن الزبير وجماعة: جنة المأوى أي ستره بظلاله ودخل فيه. وعن عائشة أنها أنكرته وقالت: من قرأ به فأجنه الله.

إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾.

﴿ما يغشى﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله أشياء لا يكتنهها النعت ولا يحيط بها الوصف. وقد قيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها. وعن رسول الله ﷺ: «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكًا قائمًا يسبح الله»[1]. عنه عليه السلام: «يغشاها رفرف من طير أخضر»[2]. وعن ابن مسعود وغيره: «يغشاها فراش من ذهب»[3].

مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾.

﴿ما زاغ﴾ بصر رسول الله ﷺ ﴿وما طغى﴾ أي: أثبت ما رآه إثباتًا مستيقنًا صحيحًا من غير أن يزيغ بصره عنه أو يتجاوزا، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها، وما طغى وما جاوز ما أمر برؤيته.

لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾.

﴿لقد رأى﴾ والله لقد رأى ﴿من آيات ربه﴾ الآيات التي[4] هي كبراها وعظماها يعني: حين رقي به إلى السماء فأري عجائب الملكوت.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾.

﴿اللات والعزى * ومناة﴾ أصنام كانت لهم وهي مؤنثات: فاللات كانت لثقيف بالطائف وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش وهي فعلة من لوى لأنهم كانوا[5] يلوون عليها ويعكفون للعبادة أو يلتوون عليها أي: يطوفون وقرئ: اللاتّ بالتشديد وزعموا أنه سمي برجل كان يسلت عنده السمن بالزيت ويطعمه الحاج. وعن مجاهد: كان رجل يلت السويق بالطائف وكانوا يعكفون على قبره فجلعوه وثنًا، والعزى كانت لغطفان وهي سمرة، وأصلها تأنيث الأعز وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرة داعية ويلها واضعة

(1) رواه الطبري في تفسيره والزيلعي 3/381.

(2) قال الزيلعي: غريب 3/381.

(3) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده والزيلعي 3/381.

(4) قال أحمد: ويحتمل أن تكون الكبرى صفة آيات ربه لا مفعولاً به، ويكون المرئي محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه، كأنه قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى أموراً عظاماً لا يحيط بها الوصف، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول، وهذا والله أعلم أولى من الأوّل؛ لأنّ فيه تفخيماً لآيات الله الكبرى، وأن فيها ما رآه وفيها ما لم يره، وهو على الوجه الأوّل يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم وفيه بعد، فإنّ آيات الله تعالى ما لا يحيط أحد علماً بجملتها، فإن قال: عام أريد به خاص فقد رجع إلى الوجه الذي ذكرنا والله أعلم.

(5) قال أحمد: الأخرى تأنيث آخر، ولا شك أنه في الأصل مشتق من= التأخير الوجودي، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال في التأخير الوجودي إلى الاستعمال، حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير، حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلي بخلاف آخر، وآخرة على وزن فاعل وفاعلة، فإنّ إشعارهما بالتأخير الوجودي ثابت لم يغير، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا: ربيع الآخر على وزن الأفعل، وجمادى الأخرى إلى ربيع الآخر على وزن فاعل، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة؛ لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي؛ لأنّ الأفعل والفعلى من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة، والتزموا ذلك فيهما وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرّره آخر مدّته، وهو الحق إن شاء الله تعالى، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقدّم مغاير في الذكر مع ما نعتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية، والله أعلم.

يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ورجع فأخبر رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: «تلك العزى ولن تعبد أبدًا»[1]. ومناة صخرة كانت لهذيل وخذاعة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما لثقيف: وقرئ: ومناة وكأنها سميت مناة لأنّ دماء النسائك كانت تمنى عندها أي: تراق. ومناءة مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركًا بها. و ﴿الأخرى﴾ ذمّ وهي المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله تعالى: ﴿وقالت أخراهم لأولاهم﴾[2] أي: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم ويجوز أن تكون الأوّلية والتقدّم عندهم للات والعزى، كانوا يقولون: إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى مع وأدهم البنات. فقيل لهم: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ ويجوز أن يراد أنّ اللات والعزى ومناة إناث وقد جعلتموهنّ لله شركاء ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث، وتستنكفوا من أن يولدن لكم وينسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أندادًا لله وتسمونهنّ آلهة.

تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾.

﴿قسمة ضيزى﴾ جائرة من ضازه يضيزه إذا ضامه. والأصل ضوزى ففعل بها ما فعل ببيض لتسلم الياء وقرئ ضئزى من ضأزه بالهمزة وضيز بفتح الضاد.

إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾.

﴿هي﴾ ضمير الأصنام. أي: ما هي ﴿إلا أسماء﴾ ليس تحتها في الحقيقة مسميات لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشدّه منافاة لها. ونحوه قوله تعالى: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها﴾[3] أو ضمير الأسماء وهي قولهم اللات والعزى ومناة، وهم يقصدون بهذه الأسماء الآلهة، يعني: ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم ليس لكم من الله على صحة تسميتها برهان تتعلقون به، ومعنى ﴿سميتموها﴾ سميتم بها يقال: سميته زيدًا وسميته بزيد ﴿إن يتبعون﴾ وقرئ بالتاء ﴿إلا الظنّ﴾ إلا توهم أنّ ما هم عليه حق، وأن آلهتهم شفعاؤهم وما تشتهيه أنفسهم، ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على أنّ دينهم باطل.

أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾.

﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ هي أم المنقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار أي: ليس للإنسان ما تمنى. والمراد طمعهم في شفاعة الآلهة وهو تمن على الله في غاية البعد. وقيل: هو قولهم: ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى، وقيل: هو قول الوليد بن المغيرة لأوتين مالاً وولدًا، وقيل: هو تمني بعضهم أن يكون هو النبيّ ﷺ.

فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾.

﴿فلله الآخرة والأولى﴾ أي: هو مالكهما فهو يعطي منهما من يشاء ويمنع من يشاء، وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾.

يعني أنّ أمر الشفاعة ضيق، وذلك أنّ الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السموات بجموعهم، لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئًا قط ولم تنفع، إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له. فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾.

﴿ليسمون الملائكة﴾ أي: كل واحد منهم ﴿تسمية الأنثى﴾ لأنهم إذا قالوا الملائكة بنات الله فقد سموا كل واحد منهم بنتًا وهي تسمية الأنثى.

وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾.

﴿به من علم﴾ أي: بذلك وبما يقولون، وفي قراءة أبي بها أي: بالملائكة أو التسمية ﴿لا يغني من الحق شيئًا﴾ يعني: إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظنّ والتوهم.

فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾.

﴿فاعْرِض﴾ عن دعوة من رأيته معرضًا عن ذكر الله وعن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا ولا تتهالك على إسلامه. ثم قال:

ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾.

﴿إنّ ربك هو أعلم﴾ أي: إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب، وأنت لا تعلم، فخفض على نفسك ولا تتعبها فإنك لا تهدي من أحببت وما عليك إلا البلاغ. وقوله تعالى: ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾[4] اعتراض أي: فأعرض عنه ولا تقابله، إنّ ربك هو أعلم بالضال والمهتدي.

---

(1) رواه الواقدي في المغازي وابن سعد في الطبقات والزيلعي 3/383.

(2) سورة الأعراف، الآية: 39.

(3) سورة يوسف، الآية: 40.

(4) سورة النجم، الآية: 30.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

وهو مجازيهما بما يستحقان من الجزاء. قرئ: ليجزي ويجزي بالياء والنون فيهما. ومعناه: إنّ الله عز وجل إنما خلق العالم وسوّى هذه الملكوت لهذا الغرض، وهو أن يجازي المحسن من المكلفين والمسيء منهم. ويجوز أن يتعلق بقوله: هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى، لأنّ نتيجة العلم بالضال والمهتدي جزاؤهما ﴿بما عملوا﴾ بعقاب ما عملوا من السوء و ﴿بالحسنى﴾ بالمثوبة الحسنى وهي الجنة، أو بسبب ما عملوا من السوء وبسبب الأعمال الحسنى.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كبائر الإثم﴾ أي: الكبائر من الإثم، لأنّ الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر، والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة، وقيل: التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها. ﴿والفواحش﴾ ما فحش من الكبائر. كأنه قال: والفواحش منها خاصة. وقرئ: كبير الإثم أي: النوع الكبير منه. وقيل: هو الشرك بالله. واللمم ما قلّ وصغر، ومنه اللمم المسّ من الجنون، واللوثة منه. والمّ بالمكان إذا قل فيه لبثه، والمّ بالطعام قلّ منه اكله، ومنه: لقاء أخلاء الصفاء لمام. والمراد الصغائر من الذنوب ولا يخلو قوله تعالى: ﴿إلا اللمم﴾ من أن يكون استثناءً منقطعًا أو صفةً كقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله﴾[1] كأنه قيل: كبائر الإثم غير اللمم، وآلهة غير الله. وعن أبي سعيد الخدري: اللمم هي النظرة والغمزة والقبلة. وعن السدي: الخطرة من الذنب. وعن الكلبي: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًا ولا عذابًا، وعن عطاء: عادة النفس الحين بعد الحين. ﴿إنّ ربك واسع المغفرة﴾ حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر والكبائر بالتوبة. ﴿فلا تزكوا انفسكم﴾ فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات، أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي، ولا تثنوا عليها واهضموها. فقد علم الله الزكي منكم والتقي اوّلاً وآخراً قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون امّهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون اعمالاً حسنةً ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، فأمّا من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله وبتوفيقه وتاييده ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين انفسهم، لأنّ المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أكدى﴾ قطع عطيته وأمسك. وأصله إكداء الحافر وهو أن تلقاه كدية وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر، ونحوه أجبل الحافر ثم استعير. فقيل: أجبل الشاعر إذا أفحم. روي أن عثمان رضي الله عنه كان يعطي ماله في الخير، فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة: يوشك أن لا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه. فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا اتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت. ومعنى تولى: ترك المركز يوم أحد فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فهو يرى﴾ فهو يعلم أن ما قال له أخوه من احتمال أوزاره حق.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وفى﴾ قرئ: مخففًا ومشددًا، والتشديد مبالغة في الوفاء، أو بمعنى: وفرأ تم، كقوله تعالى: ﴿فأتمهنّ﴾[2] وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية. من ذلك تبليغه الرسالة واستقلاله بأعباء النبوّة والصبر على ذبح ولده، وعلى نار نمروذ وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه، وأنه كان يخرج كل يوم فيمشي فرسخًا يرتاد ضيفاً وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم. وعن الحسن: ما أمره الله بشيء إلا وفى به. وعن الهزيل ابن شرحبيل: كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة غيره ويقتل بأبيه وابنه وعمه وخاله والزوج بامرأته والعبد بسيده فأوّل من خالفهم إبراهيم. وعن عطاء بن السائب عهد أن لا يسأل مخلوقًا فلما قذف في النار قال له جبريل وميكائيل: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليكما فلا. وعن النبي ﷺ: «وفى عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار وهي صلاة الضحى»[3]. وروي: «ألا أخبركم لم سمى الله خليله الذي وفى. كان يقول إذا أصبح وأمسى فسبحان الله حين تمسون إلى حين تظهرون»[4]. وقيل: وفى سهام الإسلام وهي ثلاثون: عشرة في التوبة التائبون، وعشرة في الأحزاب إن المسلمين، وعشرة في المؤمنين قد أفلح المؤمنون. وقرئ: في صُحْفِ بالتخفيف.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 22.

(2) سورة البقرة، الآية: 124.

(3) رواه الطبري والثعلبي وابن مردويه وابن أبي حاتم والثعلبي في تفاسير عم. والزيلعي 3/384.

(4) أخرجه أحمد في المسند 3/439.

﴿ألا تزر﴾ أن مخففة من الثقيلة والمعنى أنه لا تزر، والضمير ضمير الشأن ومحل أن وما بعدها الجر بدلاً من ما في صحف موسى، أو الرفع على هو أن لا تزر، كأن قائلاً قال: وما في صحف موسى وإبراهيم؟ فقيل: أن لا تزر.

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾.

﴿إلا ما سعى﴾ إلا سعيه.

فإن قلت: أما صح في الأخبار الصدقة عن الميت والحج عنه وله الأضعاف؟ قلت: فيه جوابان: أحدهما أن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنيًا على سعي نفسه وهو أن يكون مؤمنًا صالحًا، وكذلك الأضعاف كأن سعي غيره كأنه سعي نفسه لكونه تابعًا له وقائمًا بقيامه. والثاني أن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه.

ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾.

﴿ثم يجزاه﴾ ثم يجزى العبد سعيه. يقال: جزاه الله عمله وجزاه على عمله بحذف الجار وإيصال الفعل، ويجوز أن يكون الضمير للجزاء. ثم فسره بقوله: ﴿الجزاء الأوفى﴾ أو أبدله عنه. كقوله تعالى: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾[1].

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾.

﴿وأنّ إلى ربك المنتهى﴾ قرئ بالفتح على معنى أن هذا كله في الصحف، وبالكسر على الابتداء وكذلك ما بعده. والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله تعالى: ﴿إلى الله المصير﴾[2].

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾.

﴿أضحك وأبكى﴾ خلق قوتي الضحك والبكاء[3].

مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾.

﴿إذا تمنى﴾ إذا تدفق في الرحم. يقال: منى وأمنى. وعن الأخفش: تخلق من منى الماني. أي: قدر المقدر. قرئ: النشأة والنشاءة بالمد، وقال: عليه لأنها واجبة عليه[4] في الحكمة ليجازي على الإحسان والإساءة.

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾.

﴿اقنى﴾ وأعطى القنية وهي المال الذي تأثلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك.

وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾.

﴿الشعرى﴾ مرزم الجوزاء وهي التي تطلع وراءها وتسمى كلب الجبار، وهما شعريان: الغميصاء والعبور وأراد العبور وكانت خزاعة تعبدها سن لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم. «وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ أبو كبشة تشبيهًا له به لمخالفته إياهم في دينهم يريد أنه رب معبودهم هذا»[5].

وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾.

عاد الأولى قوم هود، وعاد الأخرى إرم. وقيل: الأولى والقدماء لأنهم أول الأمم هلاكًا بعد قوم نوح أو المتقدمون في الدنيا الأشراف وقرئ عاد الولى وعاد لولى بإدغام التنوين في اللام وطرح همزة أولى ونقل ضمتها إلى لام التعريف. ﴿وثمودًا﴾.

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾.

وقرئ: وثمود ﴿أظلم وأطغى﴾ لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكون به حراك، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه، وما أثر فيهم دعاؤه قريبًا من ألف سنة.

وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾.

﴿والمؤتفكة﴾ والقرى التي ائتفكت بأهلها. أي: انقلبت وهم قوم لوط، يقال: أفكه فائتفك. وقرئ: والمؤتفكات ﴿أهوى﴾ رفعها إلى السماء على جناح جبريل ثم أهواها إلى الأرض أي: أسقطها.

فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾.

﴿ما غشى﴾ تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾.

﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ تتشكك. والخطاب

(1) سورة الأنبياء، الآية: 3.
(2) سورة آل عمران، الآية: 28.
(3) قال أحمد: وخلق أيضاً فعلي الضحك والبكاء على قواعد السنة، وعليه دلت الآية غير مثابرة لتحريفه، والله الموفق.
(4) قال أحمد: هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذي يسمونه مراعاة للصلاح والحكمة، وأي فساد أعظم مما يؤدي إلى اعتقاد الإيجاب على رب الأرباب تعالى الله عن ذلك، ومثل هذه القاعدة التي عفت البراهين القاطعة رسمها وأبطلت حكمها لا يكفي فيها كلمة = محتملة، هي لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع، والذي حملت عليه لفظة عليه غير هذا المعنى، وهو أنّ المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عزّ وجلّ وإرادته، كما يقال: دارت قضية فلان على يدي، وقول المحدثين: على يدي دار الحديث، أي: هو الأصل فيه والسند، والله أعلم.
(5) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي (الحديث رقم: 7)، وقد تقدم.

لرسول الله ﷺ أو للإنسان على الإطلاق، وقد عدد نعمًا ونقمًا وسماها كلها آلاء من قبل ما في نقمه من المزاجر والمواعظ للمعتبرين.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ (٥٦).

﴿هذا﴾ القرآن﴿نذير من النذر الأولى﴾ أي: إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم، أو هذا الرسول منذر من المنذرين الأوّلين. وقال: الأولى على تأويل الجماعة.

﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ (٥٧).

﴿أزفت الآزفة﴾ قربت الموصوفة بالقرب. في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾[1] ﴿ليس لها﴾ نفس.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (٥٨).

﴿كاشفة﴾ أي: مبينة متى تقوم كقوله تعالى: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾[2] وليس لها نفس كاشفة أي: قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله، غير أنه لا يكشفها أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير. وقيل: الكاشفة مصدر بمعنى الكشف كالعافية. وقرأ طلحة: ليس لها مما يدعون من دون الله كاشفة وهي على الظالمين ساءت الغاشية.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ (٥٩).

﴿أفمن هذا الحديث﴾ وهو القرآن ﴿تعجبون﴾ إنكارًا.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ (٦٠).

﴿وتضحكون﴾ استهزاءً ﴿ولا تبكون﴾ والبكاء والخشوع حق عليكم. وعن رسول الله ﷺ أنه لم ير ضاحكًا بعد نزولها[3]. وقرئ تعجبون تضحكون بغير واو.

﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ (٦١).

﴿وأنتم سامدون﴾ شامخون مبرطمون. وقيل: لاهون لاعبون وقال بعضهم لجاريته: أسمدي لنا أي: غني لنا.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩﴾ (٦٢).

﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ ولا تعبدوا الآلهة. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النجم: أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة القمر مكية

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١).

انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته. السيرة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ الكفار سألوا رسول الله ﷺ آية فانشق القمر مرتين[5]. وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. قال ابن عباس: انفلق فلقتين فلقة ذهبت، وفلقة بقيت[6]. وقال ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي القمر[7]. وعن بعض الناس أن معناه ينشق يوم القيامة. وقوله:

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (٢).

﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ يردّه وكفى به رادّ، وفي قراءة حذيفة: وقد انشق القمر أي: اقتربت الساعة. وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه. وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إن الساعة قد افترقت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم[8]. مستمر دائم مطرد وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله. قيل فيه قد استمر لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات. قالوا: هذا سحر مستمر وقيل: مستمر قوي محكم من قولهم استمر مريره. وقيل: هو من استمر الشيء إذا اشتدّت مرارته أي: مستبشع عندنا مر على لهواتنا لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر الممقر. وقيل: مستمر مار ذاهب يزول ولا يبقى تمنيةً لأنفسهم وتعليلاً. وقرئ وإن يروا.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ (٣).

﴿واتبعوا أهواءهم﴾ وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره. ﴿وكل أمر مستقر﴾ أي: كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها. وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل، وسيظهر لهم عاقبته. أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر. أي: سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا وشقاوة أو سعادة في الآخرة. وقرئ بفتح القاف يعني: كل أمرٍ ذو

---

(1) سورة القمر، الآية: 1.

(2) سورة الأعراف، الآية: 187.

(3) الثعلبي وابن مردويه في التفسير زيلعي 3/385.

(4) الثعلبي ابن مردويه الواقدي في تفسيرهم زيلعي 3/386.

(5) أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة انشقت اقتربت الساعة باب: ﴿وانشق القمر﴾ (الحديث رقم: 4867)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر (الحديث رقم: 46 ـ 2802).

(6) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب: سورة= اقتربت الساعة (الحديث رقم: 4868)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب: انشقاق القمر (الحديث رقم: 43 ـ 2800).

(7) أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة اقتربت الساعة باب «وانشق القمر» (الحديث رقم: 4864، ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب: انشقاق القمر (الحديث رقم: 45 ـ 2801) والحاكم في المستدرك 2/471.

(8) أخرجه الحاكم في المستدرك 4/609.

مستقرّ أي: ذو استقرار أو ذو موضع استقرار أو زمان استقرار. وعن أبي جعفر: مستقر بكسر القاف والجرّ عطفاً على الساعة. أي: اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله.

وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾.

﴿من الأنباء﴾ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية وأنباء الآخرة، وما وصف من عذاب الكفار ﴿مزدجر﴾ ازدجار أو موضع ازدجار والمعنى هو في نفسه موضع الازدجار ومظنة له. كقوله تعالى: ﴿لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[1] أي: هو أسوة. وقرئ: مزدجر بقلب تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي فيها.

حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾.

﴿حكمة بالغة﴾ بدل من ما أو على هو حكمة، وقرئ بالنصب حالاً من ما.

فإن قُلْتَ: إن كانت موصولة ساغ لك أن تنصب حكمة حالاً، فكيف تعمل إن كانت موصوفة وهو الظاهر؟ قُلْتُ: تخصصها الصفةُ فيحسن نصب الحال عنها ﴿فما تغني النذر﴾ نفي أو إنكار وما منصوبة أي: فأي غناء تغني النذر.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾.

﴿فتول عنهم﴾ لعلمك أن الإنذار لا يغني فيهم. نصب ﴿يوم يدع الدَّاع﴾ يخرجون أو بإضمار اذكر وقرئ بإسقاط الياء اكتفاء بالكسر عنها، والداعي إسرافيل أو جبريل. كقوله تعالى: ﴿يوم يناد المناد﴾ ﴿إلى شيء نكر﴾ منكر فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة. وقرئ: نكر بالتخفيف ونكر بمعنى أنكر.

خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾.

﴿خشعًا أبصارهم﴾ حال من الخارجين فعل للأبصار وذكر. كما تقول: يخشع أبصارهم. وقرئ خاشعةً على تخشع أبصارهم وخشعًا على يخشعن أبصارهم وهي لغة من يقول: أكلوني البراغيث وهم طيء، ويجوز أن يكون في خشعًا ضميرهم وتقع أبصارهم بدلاً عنه، وقرئ: خشعٌ أبصارهم على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال. كقوله:

وجدته حاضراه الجود والكرم

وخشوع الأبصار كناية عن الذلة والانخزال لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما. وقرئ: يخرجون من الأجداث من القبور ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ الجراد مثل في الكثرة والتموج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاؤوا كالجراد وكالدبا منتشر في كل مكان لكثرة.

مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾.

﴿مهطعين إلى الداعي﴾ مسرعين مادي أعناقهم إليه. وقيل: ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم قال:

تعبدني نمر بن سعد وقد أرى ... ونمر بن سعد لي مطيع ومهطع

۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾.

﴿قبلهم﴾ قبل أهل مكة ﴿فكذبوا عبدنا﴾ يعني: نوحاً.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله تعالى: ﴿فكذبوا﴾ بعد قوله: كذبت؟ قُلْتُ: معناه كذبوا عبدنا أي: كذبوه تكذيبًا على عقب تكذيب. كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو كذبت قوم نوح[2] الرسل فكذبوا عبدنا. أي: لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوّة رأسًا كذبوا نوحًا لأنه من جملة الرسل. ﴿مجنون﴾ هو مجنون ﴿وازدجر﴾ وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد. وبالرجم في قولهم: لتكونن من المرجومين. وقيل: هو من جملة قيلهم. أي: قالوا: هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه.

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾.

قرئ: ﴿أنّي﴾ بمعنى: فدعا بأني مغلوب وإني على إرادة القول. فدعا فقال: إني مغلوب غلبني قومي فلم يسمعوا مني واستحكم اليأس من إجابتهم لي. ﴿فانتصر﴾ فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم، وإنما دعا بذلك بعد ما طم عليه الأمر وبلغ السيل الزبا. فقد روي أنّ الواحد من أمته كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشيًا عليه، فيفيق وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾.

وقرئ: ﴿ففتحنا﴾ مخففًا ومشددًا. وكذلك فجرنا. ﴿منهمر﴾ منصب في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يومًا.

وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾.

﴿وفجرنا الأرض عيونًا﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 21.

(2) قال أحمد: قد تقدم كلامه على قوله تعالى: ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي﴾ وأجاب عنه بجوابين، أحدهما: متعذر ههنا، والآخر: ممكن، وهو أن ذلك كقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام، وقد مضى لي جوابان: أحدهما: يمكن إجراؤه هنا، وحاصله منع ورود السؤال؛ لأنّ الأوّل مطلق والثاني مقيد، فليس تكراراً وهو = كقوله في هذه السورة ﴿فتعاطى فعقر﴾ فإن تعاطيه هو نفس عقره، ولكن ذكره من جهة عمومه ثم من ناحية خصوصه إسهاباً، وهو بمثابة ذكره مرتين، وجواب آخر هنا، وهو أن المكذب أوّلاً محذوف دل عليه ذكر نوح، فكأنه قال: كذبت قوم نوح نوحاً، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله: عبدنا، فوصف نوحاً بخصوص للعبودية، وأضافه إليه إضافة تشريف، فالتكذيب المخبر عنه ثانياً أبشع عليهم من المذكور أوّلاً لتلك اللمحة، والله أعلم.

عيون تتفجر، وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض، ونظيره في النظم واشتعل الرأس شيبًا. ﴿فالتقى الماء﴾ يعني: مياه السماء والأرض. وقرئ: المآن أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي ونحوه قولك: عندي تمران. تريد ضربان من التمر برني ومعقلي. قال لنا: إبلان فيهما ما علمتم. وقرأ الحسن: الماوان بقلب الهمزة واوًا كقولهم: علباوان ﴿على أمر قد قدر﴾ على حال قدرها الله كيف شاء. وقيل: على حال جاءت مقدّرة مستوية، وهي أن قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء. وقيل: على أمر قد قدر في اللوح أنه يكون وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

﴿على ذات ألواح ودسر﴾ أراد السفينة وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتؤدي مؤداها بحيث لا يفصل بينها وبينها ونحوه: ولكن قميصي مسرودة من جديد. أراد ولكن قميصي درع وكذلك: ولو في عيون النازيات بأكرع؛ أراد ولو في عيون الجراد، ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين لم يصح. وهذا من فصيح الكلام وبديعه. والدسر: جمع دسار وهو المسمار، فعال من دسره إذا دفعه لأنه يدسر به منفذه.

تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾.

﴿جزاء﴾ مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء وما بعده أي: فعلنا ذلك جزاء ﴿لمن كان كفر﴾ وهو نوح عليه السلام وجعله مكفورًا لأنّ النبي نعمةً من الله ورحمةً. قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(1) فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة ومن هذا المعنى ما يحكى أنّ رجلاً قال للرشيد: الحمد لله عليك. فقال: ما معنى هذا الكلام؟ قال: أنت نعمة حمدت الله عليها. ويجوز أن يكون على تقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرأ قتادة: كفَر أي: جزاء للكافرين. وقرأ الحسن: جزاء بالكسر أي: مجازاة. الضمير في:

وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾.

﴿تركناها﴾ للسفينة أو للفعلة أي: جعلناها آية يعتبر بها. وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة. وقيل: على الجودي دهرًا طويلاً حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة. والمدّكر المعتبر. وقرئ: مذتكر على الأصل، ومذكر بقلب التاء ذالاً وإدغام الذال فيها وهذا نحو مذجر.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾.

والنذر جمع نذير وهو الإنذار.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ أي: سهلناه للإدكار والاتعاظ بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد. ﴿فهل من﴾ متعظ؟ وقيل: ولقد سهلناه للحفظ وأعنّا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيأناه للذكر من يسر ناقته للسفر إذا رحلها ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه، قال:

وقمت إليه باللجام ميسرًا   هنالك يجزيني الذي كنت أصنع

ويروى أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلا نظرًا ولا يحفظونها ظاهرًا كما القرآن.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾.

﴿ونذر﴾ وإنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله أو إنذار أتى في تعذيبهم لمن بعدهم.

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾.

﴿في يوم نحس﴾ في يوم شؤم وقرئ: في يوم نحِس. كقوله: في أيام نحسات ﴿مستمر﴾ قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم أو استمر عليهم جميعًا كبيرهم وصغيرهم حتى لم يبق منهم نسمة. وكان في أربعاء في آخر الشهر لا تدور، ويجوز أن يريد بالمستمر الشديد المرارة والبشاعة.

تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾.

﴿تنزع الناس﴾ تقلعهم عن أماكنهم وكانوا يصطفون آخذين أيديهم بأيدي بعض ويتدخلون في الشعاب ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ يعني: إنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتًا وهم جثث طوال عظام كأنهم أعجاز نخل، وهي أصولها بلا فروع. منقعر منقلع عن مغارسه. وقيل: شبهوا بأعجاز النخل لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقي أجسادًا بلا رؤوس، وذكر صفة نخل على اللفظ ولو حملها على المعنى لأنث كما قال: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾.

فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾.

﴿أبشرًا منا واحدًا﴾ نصب بفعل مضمر يفسره ﴿نتبعه﴾ وقرئ: أبشرٌ منا واحد على الابتداء ونتبعه خبره والأوّل أوجه للاستفهام. كان يقول إن لم تتبعوني

(1) سورة الأنبياء، الآية: 107.

كنتم في ضلال عن الحق. وسعر ونيران جمع سعير فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إذن كما تقول. وقيل: الضلال الخطأ والبعد عن الصواب، والسعر الجنون. يقال: ناقة مسعورة. قال:

كأن بها سعرًا إذا العيس هزها   نميل وإرخاء من السير متعب

فإن قُلْتَ: كيف أنكروا أن يتبعوا بشرًا منهم واحدًا؟ قُلْتُ: قالوا أبشرًا؟ إنكارًا لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر وهم الملائكة. وقالوا: منا. لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى. وقالوا: واحدًا. إنكارًا لأن تتبع الأمة رجلاً واحدًا، أو أرادوا واحدًا من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم ويدل عليه قولهم:

أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾.

﴿أألقي الذكر عليه من بيننا﴾ أي: أنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة ﴿أشر﴾ بطر متكبر حمله بطره وشطارته وطلبة التعظم على ادعاء ذلك.

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾.

﴿سيعلمون غدًا﴾ عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة ﴿من الكذاب الأشر﴾ أصالح أم من كذبه. وقرئ: ستعلمون بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيبًا لهم، أو هو كلام الله تعالى على سبيل الالتفات. وقرئ: الأشر بضم الشين. كقولهم: حدث وحدث، وحذر وحذر، وأخوات لها. وقرئ الأشرّ: وهو الأبلغ في الشرارة والأخير. والأشر أصل قولهم: هو خير منه وشر منه وهو أصل مرفوض. وقد حكى ابن الأنباري قول العرب: هو أخير وأشر، وما أخيره وما أشره.

إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾.

﴿مرسلوا الناقة﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ﴿فتنة لهم﴾ امتحانًا لهم وابتلاءً. ﴿فارتقبهم﴾ فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون ﴿واصطبر﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري.

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾.

﴿قسمة بينهم﴾ مقسوم بينهم لها شرب يوم ولهم شرب يوم، وإنما قال: بينهم. تغليبًا للعقلاء. ﴿محتضر﴾ محضور لهم أو للناقة. وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها.

فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾.

﴿صاحبهم﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فتعاطى﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر التعظيم غير مكترث له. فأحدث العقر بالناقة. وقيل: فتعاطى الناقة فعقرها، أو فتعاطى السيف.

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾.

﴿صيحة واحدة﴾ صيحة جبريل، والهشيم الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر الذي يعمل الحظيرة، وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم. وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار أي الحظيرة.

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾.

﴿حاصبًا﴾ ريحًا تحصبهم بالحجارة أي: ترميهم ﴿بسحر﴾ بقطع من الليل وهو السدس الأخير منه. وقيل: هما سحران فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر، والآخر عند انصداعه. وأنشد:

مرت بأعلى السحرين تدأل

وصرف لأنه نكرة. ويقال: لقيته سحر إذا لقيته في سحر يومه.

نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾.

﴿نعمة﴾ إنعامًا مفعول له ﴿من شكر﴾ نعمة الله بإيمانه وطاعته.

وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾.

﴿ولقد أنذرهم﴾ لوط عليه السلام ﴿بطشتنا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فتماروا﴾ فكذبوا ﴿بالنذر﴾ متشاكين.

وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾.

﴿فطمسنا أعينهم﴾ فمسحناها وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق. روي أنهم لما عالجوا باب لوط عليه السلام ليدخلوا قالت الملائكة: خلهم يدخلوا إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فصفقهم جبريل عليه السلام بجناحه صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط ﴿فذوقوا﴾ فقلت لهم: ذوقوا على ألسنة الملائكة.

وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾.

﴿بكرة﴾ أوّل النهار وباكره كقوله: مشرقين ومصبحين. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: بكرة غير منصرفة. تقول أتيته بكرة وغدوة بالتنوين إذا أردت التنكير وبغيره إذا عرفت وقصدت بكرة نهارك وغدوته. ﴿عذاب مستقر﴾ ثابت قد استقرّ عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة.

فإن قُلْتَ: ما فائدة تكرير قوله: ﴿فذوقوا عذابي ونذر لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾؟ قُلْتُ: فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأوّلين ادكارًا واتعاظًا وأن يستأنفوا تنبهًا واستيقاظًا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة. وهكذا

حكم التكرير كقوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[1] عند كل نعمة عدّها في سورة الرحمن. وقوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾[2] عند كل آية أوردها في سورة. والمرسلات وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في كل أوان.

﴿النذر﴾ موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون، أو جمع نذير وهو الإنذار.

كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾.

﴿بآياتنا كلها﴾ بالآيات التسع. ﴿أخذ عزيز﴾ لا يغالب ﴿مقتدر﴾ لا يعجزه شيء.

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾.

﴿اكفاركم﴾ يا أهل مكة ﴿خير من اولئكم﴾ الكفار المعدودين قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون. أي: أهم خير قوّة وآلة ومكانة في الدنيا، أو أقل كفرًا وعنادًا. يعني: أنّ كفاركم مثل أولئك بل شر منهم. ﴿أم﴾ أنزلت عليكم يا أهل مكة ﴿براءة﴾ في الكتب المتقدّمة أنّ من كفر منكم وكذب الرسل كان آمنًا من عذاب الله فأمنتم بتلك البراءة.

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾.

﴿نحن جميع﴾ جماعة أمرنا مجتمع ﴿منتصر﴾ ممتنع لا نلام ولا نضام. وعن أبي جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر فتقدّم في الصف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه فنزلت.

سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾.

﴿سيهزم الجمع﴾ عن عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال عمر: أي جمع يهزم؟ فلما رأى رسول الله ﷺ يثب في الدرع ويقول: سيهزم الجمع. عرف تأويلها[3]. ﴿ويولون الدبر﴾ أي: الأدبار. كما قال:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا

وقرئ: الأدبار.

﴿أدهى﴾ أشدّ وأفظع، والداهية الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدوائه. ﴿وأمر﴾ من الهزيمة والقتل والأسر. وقرئ: سنهزم الجمع.

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾.

﴿في ضلال وسعر﴾ في هلاك ونيران أو في ضلال عن الحق في الدنيا ونيران في الآخرة.

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾.

﴿مس سقر﴾ كقولك: وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب، لأنّ النار إذا أصابتهم بحرها ولحفتهم بإيلامها فكأنها تمسهم مسًا بذلك كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذي ويؤلم. ونوقوا على إرادة القول. وسقر علم لجهنم من سقرته النار، وصقرته إذا لوحته. قال ذو الرمّة:

إذا ذابت الشمس اتقي صقراتها ... بأفنان مربوع الصريمة معبل

وعدم صرفها للتعريف والتأنيث.

إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾.

﴿كل شيء﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر[4] وقرئ كل شيء بالرفع. والقدر: التقدير. وقرئ: بهما. أي: خلقنا كل شيء مقدّرًا محكمًا مرتبًا على حسب ما اقتضته الحكمة أو مقدّرًا مكتوبًا في اللوح معلومًا قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه.

وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾.

﴿وما أمرنا إلا واحدة﴾ إلا كلمة واحدة سريعة التكوين ﴿كلمح بالبصر﴾ أراد قوله: ﴿كن﴾ يعني: أنه إذا أراد تكوين شيء لم يلبث كونه.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾.

---

(1) سورة الرحمن، الآية: 13.

(2) سورة الطور، الآية: 11.

(3) عبد الرزاق في تفسيره والطبراني في معجمه الأوسط وإسحاق بن راهويه في مسنده زيلعي 3/391.

(4) قال أحمد: كان قياس ما مهده النحاة اختيار رفع كل، لكن لم يقرأ بها واحد من السبعة، وإنما كان كذلك؛ لأنّ الكلام مع الرفع جملة واحدة ومع النصب جملتان، فالرفع أخصر مع أنه لا مقتضى للنصب ههنا من أحد الأصناف الستة، أعني الأمر والنهي إلى آخرها، ولا أجد هنا مناسب عطف ولا غيره مما يعدّونه من محال اختيارهم للنصب، فإذا تبين ذلك فاعلم أنه إنما عدل عن الرفع إجماعاً لسر لطيف يعين اختيار النصب، وهو أنه لو رفع لوقعت الجملة التي هي خلقناه صفة لشيء ورفع قوله: بقدر خبراً عن كل شيء المفيد بالصفة ويحصل الكلام على تقدير: إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر، فافهم ذلك أنّ مخلوقاً ما يضاف إلى غير الله=

= تعالى ليس بقدر، وعلى النصب يصير الكلام: إنا خلقنا كل شيء بقدر، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى، فلما كانت هذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع، مع ما في الرفع من نقصان المعنى، ومع ما في هذه القراءة المستفيضة من مجيء المعنى تاماً واضحاً، كفلق الصبح لا جرم أجمعوا على العدول عن الرفع إلى النصب، لكن الزمخشري لما كان من قاعدة أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق الله ومخلوق لغير الله، فيقولون: هذا لله بزعمهم وهذا لنا، فغرت هذه الآية فاه، وقام إجماع القرّاء حجة عليه، فأخذ يستروح الشفاء وينقل قراءتها بالرفع، فليراجع له ويعرض عليه إعراض القرّاء السبعة عن هذه الرواية مع أنها هي الأولى في العربية، لولا ما ذكرناه أيجوز في حكمه حينئذ الإجماع على خلاف الأولى لفظاً ومعنى من غير معنى اقتضى ذلك أم لا، وهو المخير فيما يحكم به، فإلى الله ترجع الأمور.

﴿أشياعكم﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم.

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾.

﴿في الزبر﴾ في دواوين الحفظة.

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾.

﴿وكل صغير وكبير﴾ من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿مستطر﴾ مسطور في اللوح.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾.

﴿ونهر﴾ وأنهار اكتفى باسم الجنس. وقيل: هو السعة والضياء من النهار. وقرئ بسكون الهاء، ونهر جمع نهر كاسد وأسد.

فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾.

﴿في مقعد صدق﴾ في مكان مرضيّ. وقرئ: في مقاعد صدق ﴿عند مليك مقتدر﴾ مقرّبين عند مليك مبهم أمره في الملك والاقتدار فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته، فأي منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القمر في كل غب بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الرحمن مكية

عدد الله عز وعلا آلاءه فأراد أن يقدّم أوّل شيء ما هو أسبق قدمًا من ضروب آلائه[2] وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين، فقدّم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى مراقيها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه. لأنه أعظم وحي الله رتبة وأعلاه منزلة وأحسنه في أبواب الدين أثرًا، وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها. وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره، ثم أتبعه إياه ليعلم أنه إنما خلقه للدين وليحيط علمًا بوحيه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله، وكأن الغرض في إنشائه كان مقدّمًا عليه وسابقًا له. ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب[3] عما في الضمير.

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾.

و ﴿الرحمن﴾ مبتدأ وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة، وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد، كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذلك، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه.

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾.

﴿بحسبان﴾ بحساب معلوم وتقدير سوى ﴿يجريان﴾ في بروجهما ومنازلهما وفي ذلك منافع للناس عظيمة منها علم السنين والحساب.

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾.

﴿والنجم﴾ والنبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول، ﴿والشجر﴾ الذي له ساق. وسجودهما: انقيادهما لله فيما خلقا له وأنهما لا يمتنعان تشبيهًا بالساجد من المكلفين في انقياده.

فإن قُلْتَ: كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن؟ قُلْتُ: استغنى فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره. كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه، والنجم والشجر يسجدان له.

فإن قُلْتَ: كيف أخل بالعاطف في الجمل الأول ثم جيء به بعد؟ قُلْتُ: بكت بتلك الجمل الأول واردة على سنن التعديد ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة في تقريع الذين أنكروا الرحمن وآلاءه، كما يبكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال الذي قدّمته. ثم ردّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف.

فإن قُلْتَ: أي: تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف؟ قُلْتُ: إنّ الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيان، فبين القبيليين تناسب من حيث التقابل. وأنّ السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين وأن جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود النجم والشجر. وقيل: علم القرآن جعله علامة وآية. وعن ابن عباس رضي الله عنه: الإنسان آدم.

---

(1) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي والزيلعي 3/392.

(2) قال أحمد: نغير من هذا الكلام قوله: أنّ خلق الإنسان كان الغرض فيه، أي: المراد منه أن يحيط علماً بالكتب والوحي، ويعوّض بأن المراد بخلقه أن يدعى إلى ذلك، لا أن يقع ذلك منه، فهذا هو المراد العام، ثم منهم من أراد الله منه أن يحيط علماً بالدين فيسر له ذلك، ومنهم من أراد ضلالته وجهالته فبعد عنه ولم يوفق، والله الموفق للصواب.

(3) قال أحمد: وإنما خص الجمل الأول بذكرها تبكيتاً للإنسان لأجل= التصاق معانيها به، ألا ترى أنه مذكور فيها نطقاً وإضماراً وحذفاً مدلولاً عليه في الكلام، فهو منطوق به مظهراً في قوله: ﴿خلق الإنسان﴾ ومضمراً في قوله: ﴿علمه البيان﴾ ومدلولاً على حذفه في قوله: ﴿علم القرآن﴾ فإنه المفعول الثاني أمّا قوله: ﴿الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان﴾ فليس للإنسان فيهما ذكر البتة، وجل المقصود من سياقهما التنبيه على عظمة الله تعالى.

وعنه أيضًا: محمد رسول الله ﷺ. وعن مجاهد: النجم نجوم السماء.

وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾.

﴿والسماء رفعها﴾ خلقها مرفوعة مسموكة حيث جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه، ومتنزل أوامره ونواهيه، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه. ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه **﴿ووضع الميزان﴾** وفي قراءة عبد الله: وخفض الميزان، وأراد به كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان وقرسطون ومكيالي ومقياس أي: خلقه موضوعًا مخفوضًا على الأرض حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم.

أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾.

﴿الا تطغوا﴾ لئلا تطغوا، أو هي أن المفسرة وقرأ عبد الله: لا تطغوا. بغير أن على إرادة القول.

وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾.

﴿واقيموا الوزن بالقسط﴾ وقوموا وزنكم بالعدل **﴿ولا تخسروا الميزان﴾** ولا تنقصوه. أمر بالتسوية ونهي عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان. وكرّر لفظ الميزان تشديدًا للتوصية به وتقويةً للأمر باستعماله والحث عليه. وقرئ: والسماء بالرفع. ولا تخسروا بفتح التاء، وضم السين، وكسرها وفتحها، يقال: خسر الميزان يخسره ويخسره. وأمّا الفتح فعلى أن الأصل ولا تخسروا في الميزان فحذف الجار وأوصل الفعل.

وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾.

و﴿وضعها﴾ خفضها مدحوّة على الماء **﴿للانام﴾** للخلق وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة. وعن الحسن: الإنس والجنّ. فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها.

فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾.

﴿فاكهة﴾ ضروب مما يتفكه به و**﴿الأكمام﴾** كل ما يكم أي: يغطي من ليفه وسعفه وكفراة وكله منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه. وقيل: الأكمام أوعية الثمر الواحد كم بكسر الكاف.

وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾.

﴿العصف﴾ ورق الزرع وقيل: التبن **﴿والريحان﴾** الرزق وهو اللب. أراد فيها ما يتلذذ به من الفواكه. والجامع بين التلذذ والتغذي وهو تمر النخل وما يتغذى به وهو الحب. وقرئ: والريحان بالكسر، ومعناه: والحب ذو العصف الذي هو علف الانعام، والريحان الذي هو مطعم الناس. وبالضم على وذو الريحان فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: معناه وفيها الريحان الذي يشم وفي مصاحف أهل الشام، والحب ذو العصف والريحان. أي: وخلق الحب والريحان، أو وأخص الحب والريحان، ويجوز أن يراد وذا الريحان فيحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه.

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾.

والخطاب في **﴿ربكما تكذبان﴾** للثقلين بدلالة الانام عليهما. وقوله: سنفرغ لكم أيها الثقلان. الصلصال الطين اليابس له صلصلة. والفخار الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف.

فإن **قُلْتَ**: قد اختلف التنزيل في هذا وذلك قوله عزّ وجل من حمأ مسنون من طين لازب من تراب! **قُلْتُ**: هو متفق في المعنى ومفيد أنه خلقه من تراب جعله طينًا ثم حمأ مسنونًا ثم صلصالاً و **﴿الجان﴾** أبو الجن وقيل: هو إبليس. والمارج اللهب الصافي الذي لا دخان فيه. وقيل: المختلط بسواد النار، من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط به.

فإن **قُلْتَ**: فما معنى قوله: **﴿من نار﴾**؟ **قُلْتُ**: هو بيان لمارج كأنه قيل: من صافٍ من نار أو مختلط من نار، أو أراد من نار مخصوصة. كقوله تعالى: **﴿فأنذرتكم نارًا تلظى﴾**(1) قرئ: رب المشرقين ورب المغربين بالجر بدلاً من ربكما، وأراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما.

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾.

﴿مرج البحرين﴾ أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين لا فصل بين الماءين في مرأى العين.

بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾.

﴿بينهما برزخ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى **﴿لا يبغيان﴾** لا يتجاوزان حدّيهما ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة. قرئ:

يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾.

قرئ: يخرج، ويخرج من أخرج وخرج ويخرج - أي: الله عز وجل - اللؤلؤ والمرجان بالنصب ونخرج بالنون. واللؤلؤ الدر، والمرجان هذا الخرز الأحمر وهو البسذ. وقيل: اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره.

(1) سورة الليل، الآية: 14.

فإن قلت: لم قال منهما، وإنما يخرجان من الملح[1]؛ **قلت**: لما التقيا وصار كالشيء الواحد جاز أن يقال: يخرجان منهما. كما يقال: يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه. وتقول: خرجت من البلد، وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره. وقيل: لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب.

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾.

﴿الجواري﴾ السفن وقرئ: الجوار بحذف الياء ورفع الراء ونحوه:

لها ثنايا أربع حسان وأربع فكلها ثمان

و**﴿المنشآت﴾** المرفوعات الشرع وقرئ بكسر الشين وهي الرافعات الشرع أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهنّ. والأعلام جمع علم وهو الجبل الطويل.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾.

﴿عليها﴾ على الأرض.

وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾.

﴿وجه ربك﴾ ذاته والوجه يعبر به عن الجملة والذات. ومساكين مكة يقولون[2]: أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان؟ و**﴿ذو الجلال والإكرام﴾** صفة الوجه. وقرأ عبد الله: ذي على صفة ربك ومعناه: الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم، أو الذي يقال له: ما أجلك وأكرمك! أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده. وهذه الصفة من عظيم صفات الله. ولقد قال رسول الله ﷺ: «ألظوا بياذا الجلال والإكرام»[3]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «أنه مر برجل وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: «قد استجيب لك»[4].

فإن قلت: ما النعمة في ذلك؟ **قلت**: أعظم النعمة وهو مجيء وقت الجزاء عقيب ذلك. كل من أهل السموات والأرض مفتقرون إليه فيسأله أهل السموات ما يتعلق بدينهم وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم.

يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾.

﴿كل يوم هو في شان﴾ أي: كل وقت وحين يحدث أمورًا ويجدد أحوالاً. «كما روي عن رسول الله ﷺ أنه تلاها فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأنه أن يغفر ذنبًا ويفرج كربًا ويرفع قومًا ويضع آخرين»[5]. وعن ابن عيينة: الدهر عند الله تعالى يومان: أحدهما اليوم الذي هو مد عمر الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهي والإماتة والإحياء والإعطاء والمنع، والآخر يوم القيامة فشأنه فيه الجزاء والحساب، وقيل: نزلت في اليهود حين قالوا: إنّ الله لا يقضي يوم السبت شيئًا. وسأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمهله إلى الغدّ وذهب كئيبًا يفكر فيها. فقال غلام له أسود: يا مولاي أخبرني ما أصابك لعل يسهل لك على يدي فأخبره. فقال له: أنا أفسرها للملك. فأعلمه. فقال: أيها الملك شأن الله أن يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيمًا، ويسقم سليمًا، ويبتلي معافًا، ويعافي مبتلى، ويعز ذليلاً ويذل عزيزًا، أو يفقر غنيًا ويغني فقيرًا. فقال الأمير: أحسنت، وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة، فقال: يا مولاي هذا من شأن الله، وعن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي، قوله تعالى: **﴿فأصبح من النادمين﴾**[6] وقد صح أنّ الندم توبة، وقوله تعالى: **﴿كل يوم هو في شان﴾**. وقد صح أنّ القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة. وقوله تعالى: **﴿وأنّ ليس للإنسان إلا ما سعى﴾**[7] فما بال الأضعاف. فقال الحسين: يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمّة ويكون توبة في هذه الأمّة لأنّ الله تعالى خصّ هذه الأمّة بخصائص لم يشار لهم فيها الأمم. وقيل: إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله. وأما قوله: **﴿وأنّ ليس للإنسان إلا ما سعى﴾**[7] فمعناه ليس له إلا ما سعى عدلاً ولي أن أجزيه بواحدة ألفًا فضلاً. وأما قوله: **﴿كل يوم هو في شان﴾** فإنها شؤون يبديها لا شؤون يبتدئها. فقام عبد الله وقبّل رأسه وسوّغ خراجه.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾.

---

(1) قال أحمد: هذا القول الثاني مردود بالمشاهدة، والصواب هو الأوّل، ومثله: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وإنما أريد إحدى القريتين هذا هو الصحيح الظاهر، وكما تقول: فلان من أهل ديار مصر، وإنما بلده محلة واحدة منها.

(2) قال أحمد: المعتزلة ينكرون الصفات الإلٰهية التي دلّ عليها العقل، فكيف بالصفات السمعية؟ على أنّ من الأشعرية من حمل الوجه واليدين والعينين على نحو ما ذكر، ولم ير بيانها صفات سمعية. ثم قال: فإن قلت: كيف عد هذا من الآلاء والنعم وحاصله فناء الخلق؟ وأجاب: بأنّ معناه: أنهم يفنون ثم يبعثون إلى دار الجزاء إلى دار النعيم المقيم الحقيق، بأن يكون هو النعيم لا غير.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في عقد التسبيح باليد (الحديث رقم: 3524).

(4) كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد (الحديث رقم: 3527).

(5) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية (الحديث رقم: 202). وأخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: العتق والزهد والقناعة (حديث رقم: 689).

(6) سورة المائدة، الآية: 31.

(7) سورة النجم، الآية: 39.

﴿سنفرغ لكم﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدده سأفرغ لك، يريد: سأتجرّد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك حتى لا يكون لي شغل سواه، والمراد التوفر على النكاية فيه والانتقام منه. ويجوز أن يراد ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أرادها بقوله: ﴿كل يوم هو في شأن﴾[1] فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغًا لهم على طريق المثل. وقرئ: سيفرغ لكم، أي الله تعالى. وسأفرغ لكم وسنفرغ بالنون مفتوحًا ومكسورًا وفتح الراء وسيفرغ بالياء مفتوحًا ومضمومًا مع فتح الراء. وفي قراءة أبي سنفرغ إليكم بمعنى سنقصد إليكم والثقلان الإنس والجن سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض.

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾.

﴿يا معشر الجن والإنس﴾ كالترجمة لقوله: أيها الثقلان ﴿إن استطعتم﴾ أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضي فافعلوا. ثم قال: لا تقدرون على النفوذ، ﴿إلا بسلطان﴾ يعني بقوّة وقهر وغلبة، وأنى لكم ذلك ونحوه وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء. وروي أنّ الملائكة عليهم السلام تنزل فتحيط بجميع الخلائق، فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجهًا إلا وجدوا الملائكة أحاطت به.

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾.

قرئ: ﴿شواظ﴾ ﴿ونحاس﴾ كلاهما بالضم والكسر، والشواظ اللهب الخالص والنحاس الدخان، وأنشد:

تضيء كضوء سراج السليـ ـط لم يجعل الله فيه نحاسًا

وقيل: الصفر المذاب يصب على رؤوسهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر. وقرئ: ونحاس مرفوعًا عطفًا على شواظ، ومجرورًا عطفًا على نار. وقرئ: ونحس جمع نحاس وهو الدخان، نحو لحاف ولحف. وقرئ: ونحس أي: ونقتل بالعذاب، وقرئ: نرسل عليكما شواظًا من نار ونحاسًا ﴿فلا تنتصران﴾ فلا تمتنعان.

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾.

﴿وردة﴾ حمراء ﴿كالدهان﴾ كدهن الزيت. كما قال: كالمهل وهو دردى الزيت وهو جمع دهن أو اسم ما يدهن به كالحزام والإدام قال:

كأنهما مزادتا متعجل فريان لما تدهنا بدهان

وقيل: الدهان الأديم الأحمر. وقرأ عمرو بن عبيد وردة بالرفع بمعنى: فحصلت سماء وردة، وهو من الكلام الذي يسمى التجريد كقوله:

فلئن بقيت لأرحلنّ بغزوة نحوي الغنائم أو يموت كريم

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾.

﴿إنس﴾ بعض من الإنس ﴿ولا جان﴾ أريد به ولا جن. أي: ولا بعض من الجن فوضع الجان الذي هو أبو الجن موضع الجن، كما يقال: هاشم ويراد ولده، وإنما وحد ضمير الإنس في قوله عن ذنبه لكونه في معنى البعض. والمعنى: لا يسألون لأنهم يعرفون بسيما المجرمين وهي سواد الوجوه وزرقة العيون.

فإن قُلْتَ: هذا خلاف قوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾[2] وقوله: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾[3] قُلْتُ: ذلك يوم طويل وفيه مواطن فيسألون في موطن ولا يسألون في آخر. قال قتادة: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. وقيل: لا يسأل عن ذنبه ليعلم من جهته ولكن يسأل سؤال توبيخ. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: ولا جأن فرارًا من التقاء الساكنين وإن كان على حدّه.

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ عن الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره. وقيل: تسحبهم الملائكة تارةً تأخذ بالنواصي، وتارة تأخذ بالأقدام.

يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾.

﴿حميم آن﴾ ماء حار قد انتهى حره ونضجه أي: يعاقب عليهم بين التصلية بالنار، وبين شرب الحميم. وقيل: إذا استغاثوا من النار جعل غياثه الحميم. وقيل: إن واديًا من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم، ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقًا جديدًا. وقرئ يطوفون من التطويف ويطوفون. أي: يتطوّفون ويطافون. وفي قراءة عبد الله: هذه جهنم التي كنتما بها تكذبان تصليان لا تموتان فيها ولا تحييان يطوفون بينها. ونعمة الله فيما ذكره من هول العذاب نجاة الناجي منه برحمته وفضله وما في الإنذار به من اللطف.

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ

(1) سورة الرحمٰن، الآية: 29.
(2) سورة الحجر، الآية: 92.
(3) سورة الصافات، الآية: 24.

أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾.

﴿مقام ربه﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ونحوه لمن خاف مقامي ويجوز أن يراد بمقام ربه أن الله قائم عليه. أي: حافظ مهيمن. من قوله تعالى: **﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾**[1] فهو يراقب ذلك فلا يجسر على معصيته. وقيل: هو مقحم كما تقوله: أخاف جانب فلان وفعلت هذا لمكانك. وأنشد:

ذعرت به القطا ونفيت عنه ... مقام الذئب كالرجل اللعين

يريد: ونفيت عنه الذئب.

فإن قُلْتَ: لم قال **﴿جنتان﴾**؟ **قُلْتُ**: الخطاب للثقلين كأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان: جنة للخائف الأنسي، وجنة للخائف الجني، ويجوز أن يقال: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي؛ لأنّ التكليف دائر عليهما. وأن يقال: جنة يثاب بها، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل كقوله تعالى: **﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾**[2] خص الأفنان بالذكر وهي الغصنة التي تتشعب من فروع الشجرة؛ لأنها هي التي تورق وتثمر فمنها تمتد الظلال ومنها تجتني الثمار.

وقيل: الأفنان ألوان النعم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين قال:

ومن كل أفنان اللذاذة والصبا ... لهوت به والعيش أخضر ناضر

فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾.

﴿عينان تجريان﴾ حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل. وقيل: تجريان من جبل من مسك. وعن الحسن: تجريان بالماء الزلال إحداهما: التسنيم والأخرى: السلسبيل.

فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾.

﴿زوجان﴾ صنفان قيل: صنف معروف، وصنف غريب.

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾.

﴿متكئين﴾ نصب على المدح الخائفين، أو حال منهم؛ لأنّ من خاف في معنى الجمع. **﴿بطائنها من استبرق﴾** من ديباج ثخين وإذا كانت البطائن من الاستبرق فما ظنك بالظهائر، وقيل: ظهائرها من سندس، وقيل: من نور. **﴿دان﴾** قريب يناله القائم والقاعد والنائم. وقرئ: وجنى بكسر الجيم.

فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾.

﴿فيهنّ﴾ في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى أو في الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس. **﴿قاصرات الطرف﴾** نساء قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم. لم يطمث الإنسيات منهنّ أحد من الإنس ولا الجنيات أحد من الجن[3] وهذا دليل على أنّ الجن يطمثون كما يطمث الإنس. وقرئ لم يطمثهنّ بضم الميم.

قيل: هنّ في صفاء الياقوت، وبياض المرجان، وصفار الدر أنصع بياضًا. قيل: إنّ الحوراء تلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء.

هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾.

﴿هل جزاء الإحسان﴾ في العمل **﴿إلا الإحسان﴾** في الثواب. وعن محمد بن الحنفية: هي مسجلة للبر والفاجر. أي: مرسلة. يعني: أنّ كل من أحسن أحسن إليه، وكل من أساء أسيء إليه.

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾.

﴿ومن دونهما﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين **﴿جنتان﴾** لمن دونهم من أصحاب اليمين.

مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾.

﴿مدهامّتان﴾ قداد هامّتا من شدّة الخضرة.

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾.

﴿نضاختان﴾ فوّارتان بالماء. والنضخ؛ أكثر من النضح لأنّ النضح غير معجمة مثل الرش.

فإن قُلْتَ: لم عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما منها!.

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾.

قُلْتُ: اختصاصًا لهما وبيانًا لفضلهما كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران. كقوله تعالى: **﴿وجبريل وميكائيل﴾**[4] أو لأنّ النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه. ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانًا أو رطبًا لم يحنث وخالفه صاحباه.

---

(1) سورة الرعد، الآية: 33.

(2) سورة يونس، الآية: 36.

(3) قال أحمد: يشير إلى الردّ على من زعم أنّ الجن المؤمنين لا ثواب لهم، وإنما جزاؤهم ترك العقوبة وجعلهم تراباً. وقال في قوله: **﴿ومن دونهما جنتان﴾**: إنما تقاصرت صفة هاتين الجنتين عن= صفة الأوّليين، حتى قال: **﴿ومن دونهما﴾**؛ لأنه قال: **﴿مدهامّتان﴾** وتلك دون ذواتا أفنان ونضاختان، وتلك دون تجريان وفاكهة، وتلك دون من كل فاكهة وكذلك صفة الحور.

(4) سورة البقرة، الآية: 98.

فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾.

﴿خيرات﴾ خيرات فخففت كقوله عليه السلام: «هينون لينون»[1] وأما خير الذي هو بمعنى أخير فلا يقال فيه: خيرون ولا خيرات. وقرئ: خيرات على الأصل والمعنى: فاضلات الأخلاق حسان الخلق.

حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾.

﴿مقصورات﴾ قصرن في خدورهنّ يقال: امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة مخدرة. وقيل: إنّ الخيمة من خيامهنّ درّة مجوّفة.

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾.

﴿قبلهم﴾ قبل أصحاب الجنتين دل عليهم ذكر الجنتين.

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾.

﴿متكئين﴾ نصب على الاختصاص والرفرف ضرب من البسط. وقيل: البسط. وقيل: الوسائد. وقيل: كل ثوب عريض رفرف. ويقال لأطراف البسط وفضول الفسطاط: رفارف، ورفرف السحاب: هيد به. والعبقري: منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب. وقرئ: رفارف خضر بضمتين، وعباقري كمدائني نسبة إلى عباقر في اسم البلد. وروى أبو حاتم: عباقري بفتح القاف ومنع الصرف وهذا الأوجه لصحته.

فإن قُلْتَ: كيف تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل: ومن دونهما؟ قُلْتُ: مدهامّتان دون نواتا أفنان، ونضاختان دون تجريان، وفاكهة دون كل فاكهة، وكذلك صفة الحور والمتكأ. وقرئ ذو الجلال صفة للاسم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الرحمٰن أدّى شكر ما أنعم الله عليه»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الواقعة مكية

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾.

﴿وقعت الواقعة﴾ كقولك: كانت الكائنة، وحدثت الحادثة، والمراد: القيامة. وصفت بالوقوع أنها تقع لا محالة. فكأنه قيل: إذا وقعت التي لا بدّ من وقوعها. ووقوع الأمر نزوله. يقال: وقع ما كنت أتوقعه. أي: نزل ما كنت أترقب نزوله.

فإن قُلْتَ: بم انتصب إذا؟ قُلْتُ: بليس. كقولك: يوم الجمعة ليس لي شغل، أو بمحذوف يعني: إذا وقعت كان كيت وكيت. أو بإضمار اذكر.

لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾.

﴿كاذبة﴾[3] نفس كاذبة، أي: لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله وتكذب في تكذيب الغيب؛ لأنّ كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدّقة وأكثر النفوس اليوم كوانب مكذبات. كقوله تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾[4] ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾[5] ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة. واللام مثلها في قوله تعالى: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾[6] أو ليس لها نفس تكذبها وتقول لها: لم تكوني. كما لها اليوم نفوس كثيرة يكذبنها يقلن لها: لن تكوني. أو هي من قولهم: كذبت فلانًا نفسه في الخطب العظيم، إذا شجعته على مباشرته. وقالت له: إنك تطيقه وما فوقه فتعرّض له ولا تبال به. على معنى أنها وقعة لا تطاق شدّة وفظاعةً، وأن لا نفس حينئذ تحدّث صاحبها بما تحدّثه به عند عظائم الأمور وتزين له احتمالها وإطاقتها؛ لأنهم يومئذ أضعف من ذلك وأذل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كالفراش المبثوث﴾[7] والفراش مثل في الضعف وقيل: ﴿كاذبة﴾ مصدر كالعاقبة. بمعنى: التكذيب من قولك حمل على قرنه فما كذب. أي: فما جبن وما تثبط. وحقيقته: فما كذب نفسه فيما حدثته به من إطاقته له وإقدامه عليه. قال زهير:

إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

أي: إذا وقعت لم تكن لها رجعة ولا ارتداد.

خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾.

﴿خافضة رافعة﴾ على هي خافضة رافعة ترفع أقوامًا وتضع آخرين. إما وصفًا لها بالشدّة؛ لأنّ الواقعات العظام كذلك يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس، وإما لأنّ الأشقياء يحطون إلى الدركات والسعداء يرفعون إلى الدرجات، وإما لأنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارها فتخفض بعضًا وترفع بعضًا، حيث تسقط السماء كسفًا وتنتثر الكواكب وتنكدر وتسير الجبال فتمرّ في الجوّ مرّ السحاب. وقرئ: خافضة رافعة بالنصب على الحال.

إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾.

﴿رجت﴾ حركت تحريكًا شديدًا حتى ينهدم كل شيء

---

(1) تقدم في الفرقان.

(2) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفسيره وأخرجه الزيلعي 3/399.

(3) قوله تعالى: ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ قال فيه: كاذبة صفة تقدير موصوفها نفس كاذبة.

(4) سورة غافر، الآية: 84.

(5) سورة الشعراء، الآية: 201.

(6) سورة الفجر، الآية: 24.

(7) سورة القارعة، الآية: 4.

فوقها من جبل وبناء.

وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾.

﴿وبست الجبال﴾ وفتت حتى تعود كالسويق، أو سيقت، من بس الغنم إذا ساقها. كقوله: ﴿وسيرت الجبال﴾[1] ﴿منبثًا﴾ متفرقًا. وقرئ: بالتاء أي: منقطعًا. وقرئ: رجت وبست. أي: ارتجت وذهبت. وفي كلام بنت الخس: عينها هاج وصلاها راج وهي تمشي وتفاج.

فإن قُلْتَ: بم انتصب إذا رجت؟ قُلْتُ: هو بدل من ﴿إذا وقعت﴾، ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة أي: تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال؛ لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض.

وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾.

﴿أزواجًا﴾ أصنافًا، يقال للأصناف التي بعضها مع بعض أو يذكر بعضًا بعض: أزواج.

فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾.

﴿فأصحاب الميمنة﴾ الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم.

﴿وأصحاب المشأمة﴾ الذين يؤتونها بشمائلهم، أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية. من قولك: فلان مني باليمين وفلان مني بالشمال، إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة. وذلك لتمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل، ولتفاؤلهم بالسانح وتطيرهم من البارح. ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليمن وسموا الشمائل الشومي. وقيل: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة. أصحاب اليمن والشؤم؛ لأنّ السعداء ميامن على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم. وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين وبأهل النار ذات الشمال.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾.

﴿والسابقون﴾ المخلصون الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه وشقوا الغبار في طلب مرضاة الله عز وجل. وقيل: الناس ثلاثة: فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا السابق المقرّب، ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبة فهذا صاحب اليمين، ورجل ابتكر الشر في حداثة سنه ثم يزل عليه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال. ما أصحاب الميمنة وما أصحاب المشأمة تعجيب من حال[2] الفريقين في السعادة والشقاوة والمعنى: أي شيء هم. ﴿والسابقون السابقون﴾ يريد والسابقون من عرفت حالهم وبلغك وصفهم كقوله: وعبد الله عبد الله. وقول أبي النجم: وشعري شعري. كأنه قال: وشعري ما انتهى إليك وسمعت بفصاحته وبراعته، وقد جعل السابقون تأكيدًا وأولئك المقرّبون خبرًا، وليس بذاك. ووقف بعضهم على ﴿والسابقون﴾ وابتدأ: السابقون.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾.

﴿أولئك المقرّبون﴾ والصواب أن يوقف على الثاني؛ لأنه تمام الجملة وهو في مقابلة أصحاب الميمنة وما أصحاب المشأمة.

﴿المقرّبون في جنات النعيم﴾ الذين قربت درجاتهم في الجنة من العرش وأعليت مراتبهم. وقرئ: في جنة النعيم.

ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾.

والثلة: الأمّة من الناس الكثيرة قال:

وجاءت إليهم ثلة خندفية ... بجيش كتيار من السيل مزبد

وقوله عز وجل: ﴿وقليل من الآخرين﴾ كفى به دليلاً على الكثرة، وهي من الثل وهو: الكسر، كما أنّ الأمّة من الأمّ، وهو الشج كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم. والمعنى: أنّ السابقين من الأوّلين كثير، وهم: الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

﴿وقليل من الآخرين﴾ وهم أمّة محمد ﷺ. وقيل: ﴿من الأوّلين﴾ من متقدّمي هذه الأمّة، و﴿من الآخرين﴾ من متأخريها. وعن النبي ﷺ: «الثلتان جميعاً من أمّتي»[3].

فإن قُلْتَ: كيف قال: ﴿وقليل من الآخرين﴾ ثم قال: ﴿وثلة من الآخرين﴾[4] قُلْتُ: هذا في السابقين، وذلك في أصحاب اليمين، وأنهم يتكاثرون من الأوّلين والآخرين جميعاً.

فإن قُلْتَ: فقد روي أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه حتى نزلت ﴿ثلة من الأوّلين﴾ ﴿وثلة من الآخرين﴾! قُلْتُ: هذا لا يصح لأمرين أحدهما: أنّ هذه الآية واردة في السابقين ورودًا

---

(1) سورة النبأ، الآية: 20.

(2) قال أحمد: اختار ما هو المختار؛ لأنه أقعد بالفصاحة، لكن بقي التنبيه على المخالفة بين المذكورين في السابقين وفي أصحاب اليمين، مع أنّ كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين، فنقول: التعظيم المؤدي بقوله: السابقون أبلغ من قرينه، وذلك أنّ مؤدي هذا أنّ أمر السابقين وعظمة شأنه ما لا يكاد يخفى، وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور، وأمّا المذكور في قوله: ﴿وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ فإنه تعظيم على= السامع بما ليس عنده منه علم سابق، ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله: ﴿أولئك المقرّبون﴾ فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف وبين الإخبار عنه بقوله: ﴿المقرّبون﴾ معرفاً بالألف واللام العهدية، وليس مثل هذا مذكوراً في بسط حال أصحاب اليمين، فإنه مصدر بقوله: ﴿في سدر مخضود﴾.

(3) رواه الطبراني في معجمه.

(4) سورة الواقعة، الآية: 40.

ظاهرًا، وكذلك الثانية في أصحاب اليمين. ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم على السابقين ووعدهم، والثاني: أنّ النسخ في الإخبار غير جائز. وعن الحسن رضي الله عنه: سابقو الأمم أكثر من سابقي أمّتنا، وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمّة، وثلة خبر مبتدأ محذوف أي: هم ثلة.

عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾.

﴿موضونة﴾ مرمولة بالذهب مشبكة بالدرّ والياقوت قد دوخل بعضها في بعض كما توضن حلق الدرع. قال الأعشى:

ومن نسج داود موضونة

وقيل: متواصلة ادنى بعضها من بعض.

مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾.

﴿متكئين﴾ حال من الضمير في على وهو العامل فيها. أي: استقرّوا عليها متكئين ﴿متقابلين﴾ لا ينظر بعضهم في أقفاء بعض، وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾.

﴿مخلدون﴾ مبقون أبدًا على شكل الولدان وحدّ الوصافة لا يتحوّلون عنه، وقيل: مقرطون والخلدة: القرط، وقيل: هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها. روي عن علي رضي الله عنه وعن الحسن وفي الحديث: «أولاد الكفار خدّام أهل الجنة»(1).

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾.

الأكواب: أوان بلا عرى وخراطيم، والأباريق ذوات الخراطيم.

لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾.

﴿لا يصدّعون عنها﴾ أي: بسببها وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها. أو لا يفرّقون عنها، وقرأ مجاهد: لا يصدّعون بمعنى: لا يتصدعون لا يتفرّقون كقوله: يومئذ يصدّعون ويصدعون أي: لا يصدع بعضهم بعضاً لا يفرّقونهم.

وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿يتخيرون﴾ يأخذون خيره وأفضله.

وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾.

﴿يشتهون﴾ يتمنون. وقرئ: ولحوم طير.

وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾.

قرئ: ﴿وحور عين﴾ بالرفع على وفيها حور عين، كبيت الكتاب إلا رواكد جمرهنّ هباء ومشجج، أو للعطف على ولدان وبالجر عطفًا على جنات النعيم. كأنه قال: هم في جنات النعيم، وفاكهة ولحم وحورًا وعلى أكواب؛ لأنّ معنى ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب﴾: ينعمون بأكواب، وبالنصب على ويؤتون حورًا.

جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿جزاءً﴾ مفعول له. أي: يفعل بهم ذلك كله جزاءً بأعمالهم.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾.

﴿سلامًا سلامًا﴾ إما بدل من ﴿قيلاً﴾ بدليل قوله: ﴿لا يسمعون فيها لغوًا﴾ إلا سلامًا. وإما مفعول به لقيلا بمعنى: لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا: سلامًا سلامًا. والمعنى: أنهم يفشون السلام بينهم فيسلمون سلامًا بعد سلام. وقرئ: سلام سلام على الحكاية.

فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾.

السدر: شجر النبق. والمخضود: الذي لا شوك له كأنما خضد شوكه. وعن مجاهد: الموقر: الذي تثني أغصانه كثرة حمله، من خضد الغصن: إذا ثناه وهو رطب.

وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾.

والطلح: شجر الموز. وقيل: هو شجر أم غيلان وله نوار كثير طيب الرائحة. وعن السدي: شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل. وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ: وطلع، وما شأن الطلح؟ وقرأ قوله لها: طلع نضيد. فقيل له: أوَنُحوِّلها. فقال: آي القرآن لا تهاج اليوم ولا تحول. وعن ابن عباس نحوه. والمنضود: الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه فليست له ساق بارزة.

وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾.

﴿وظلّ ممدود﴾ ممتد منبسط لا يتقلص كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾.

﴿مسكوب﴾ يسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا لا يتعنون فيه وقيل: دائم الجرية لا ينقطع. وقيل: مصبوب يجري على الأرض في غير أخدود.

وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾.

﴿لا مقطوعة﴾ هي دائمة لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه الدنيا ﴿ولا ممنوعة﴾ لا تمنع عن متناولها بوجه

---

(1) كشف الأستار كتاب: القدر، باب: في أطفال المشركين (الحديث رقم: 2172).

ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا. وقرئ: ﴿وفاكهة كثيرة﴾ بالرفع على وهناك فاكهة. كقوله: وحور عين.

وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾.

﴿وفرش﴾ جمع فراش. وقرئ: ﴿وفرش﴾ بالتخفيف ﴿مرفوعة﴾ نضدت حتى ارتفعت أو مرفوعة على الأسرة. وقيل: هي النساء؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفراش مرفوعة على الأرائك. قال الله تعالى: ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾[1] ويدل عليه قوله تعالى:

﴿إنا أنشأناهنّ إنشاء﴾ وعلى التفسير الأوّل: أضمر لهنّ؛ لأنّ ذكر الفرش وهي المضاجع دلّ عليهن أنشأناهنّ إنشاء أي: ابتدأنا خلقهنّ ابتداء جديدًا من غير ولادة، فإما أن يراد اللاتي ابتدئ إنشاؤهنّ أو اللاتي أعيد انشاؤهنّ. وعن رسول الله ﷺ أنّ أمّ سلمة رضي الله عنها سألته عن قول الله تعالى: ﴿إنا أنشأناهنّ﴾ فقال: «يا أم سلمة هنّ اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطًا رمصًا جعلهنّ الله بعد الكبر ﴿أترابًا﴾ على ميلاد واحد في الاستواء كلما أتاهنّ أزواجهنّ.

وجدوهنّ أبكارًا»، فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك من رسول الله ﷺ قالت: واوجعاه. فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك وجع»[2]. وقالت عجوز لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: «إنّ الجنة لا تدخلها العجائز»، فولت وهي تبكي فقال عليه الصلاة والسلام: أخبروها أنها ليست يومئذٍ بعجوز»[3]. وقرأ الآية.

﴿عربًا﴾ وقرئ: عربًا بالتخفيف جمع عروب وهي: المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل. ﴿أترابًا﴾ مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين، وأزواجهنّ أيضًا كذلك. وعن رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مردًا أبيضًا جعادًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين»[4].

لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾.

واللام في ﴿لأصحاب اليمين﴾ من صلة انشأنا وجعلنا.

فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾.

﴿في سموم﴾ في حر نار ينفذ في المسام ﴿وحميم﴾ وماء حار متناه في الحرارة.

وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾.

﴿وظل من يحموم﴾ من دخان أسود بهيم.

لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿لا بارد ولا كريم﴾ نفي لصفتي الظل عنه، يريد: أنه ظل ولكن لا كسائر الظلال. سماه ظلاً ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوي إليه من أذى الحر وذلك كرمه ليمحق ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه، والمعنى: أنه ظل حار ضار، إلا أنّ للنفي في نحو هذا شأنًا ليس للاثبات وفيه تهكم بأصحاب المشأمة وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة. وقرئ: لا بارد ولا كريم بالرفع، أي: لا هو كذلك.

وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾.

﴿الحنث﴾ الذنب العظيم. ومنه: قولهم: بلغ الحنث، أي: الحلم ووقت المؤاخذة بالمآثم، ومنه حنث في يمينه خلاف برّ فيها. ويقال: تحنث إذا تأثم وتحرج.

أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿أوَ آباؤنا﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف.

فإن قُلْتَ: كيف حسن العطف على المضمر في لمبعوثون من غير تأكيد بنحن؟ قُلْتُ: حسن للفاصل الذي هو الهمزة كما حسن في قوله تعالى: ﴿ما أشركنا ولا آباؤنا﴾[5] لفصل لا المؤكدة للنفي. وقرئ: أوَآباؤنا.

لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾.

وقرئ: ﴿لمجمعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم. والإضافة بمعنى من كخاتم فضة، والميقات: ما وقت به الشيء أي: حد ومنه مواقيت الإحرام وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرمًا.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾.

﴿أيها الضالون﴾ عن الهدى ﴿المكذبون﴾ بالبعث وهم أهل مكة ومن في مثل حالهم.

لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾.

﴿من شجر من زقوم﴾ من الأولى: لابتداء الغاية والثانية: لبيان الشجر وتفسيره. وأنث ضمير الشجر على المعنى وذكره على اللفظ في قوله: منها وعليه. ومن قرأ: من شجرة من زقوم فقد جعل الضميرين للشجرة، وإنما

(1) سورة يس، الآية: 56.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (الحديث رقم: 3296).

(3) أخرجه الترمذي في الشمائل ص 117، باب: مزاحه ﷺ (الحديث= رقم: 241).

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في سنن أهل الجنة (الحديث رقم: 2545)، وأخرجه أحمد في المسند 2/343).

(5) سورة الأنعام، الآية: 148.

ذكر الثاني على تأويل الزقوم لأنه تفسيرها وهي في معناه.

فَآلِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾.

﴿شرب الهيم﴾ قرئ بالحركات الثلاث فالفتح والضم مصدران. وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: أيام أكل وشرب، بفتح الشين. وأما المكسورة فبمعنى المشروب. أي: ما يشربه الهيم، وهي الإبل التي بها الهيام وهو داء تشرب منه فلا تروى جمع أهيم وهيماء. قال ذو الرمّة:

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضي عليها هيامها

وقيل: الهيم الرمال، ووجهه أن يكون جمع الهيام بفتح الهاء وهو: الرمل الذي لا يتماسك جمع على فعل كسحاب وسحب، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض. والمعنى: أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرّهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل فإذا ﴿ملؤوا منه البطون﴾ يسلط عليهم من العطش ما يضطرّهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الهيم.

فإن قُلْتَ: كيف صحّ عطف الشاربين على الشاربين وهما لذوات متفقة وصفتان متفقتان فكان عطفًا للشيء على نفسه؟ قُلْتُ: ليستا بمتفقتين من حيث إنّ كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضًا فكانتا صفتين مختلفتين.

هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾.

النزل: الرزق الذي يعد للنازل تكرمةً له وفيه تهكم كما في قوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[1] وكقول أبي الشعر الضبي:

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وقرئ: ﴿نزلهم﴾ بالتخفيف.

نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿فلولا تصدّقون﴾ تحضيض على التصديق إمّا بالخلق؛ لأنهم وإن كانوا مصدّقين به إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذبون به. وإمّا بالبعث؛ لأنّ من خلق أولاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانيًا.

أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿ما تمنون﴾ ما تمنونه. أي: تقذفونه في الأرحام من النطف. وقرأ أبو السمال بفتح التاء. يقال: أمنى النطفة ومناها. قال الله تعالى: ﴿من نطفة إذا تمنى﴾[2].

ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿تخلقونه﴾ تقدّرونه وتصوّرونه.

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾.

﴿قدّرنا بينكم الموت﴾ تقديرًا وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا، فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط. وقرئ: ﴿قدرنا﴾ بالتخفيف. سبقته على الشيء إذا أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه. فمعنى قوله:

﴿وما نحن بمسبوقين * على أن تبدّل أمثالكم﴾ إنا قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه وأمثالكم جمع مثل أي: على أن نبدّل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق وعلى أن ﴿وننشئكم﴾ في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها. يعني: أنّا نقدر على الأمرين جميعًا على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم. ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل أي: على أن نبدّل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم وننشئكم في صفات لا تعلمونها.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾.

قرئ: النشأة والنشاءة وفي هذا دليل على صحة القياس حيث جعلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ ه من الطعام أي: تبذرون حبه وتعملون في أرضه.

ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾.

﴿أأنتم تزرعونه﴾ تنبتونه وتردونه نباتًا يرف وينمي إلى أن يبلغ الغاية. وعن رسول الله ﷺ: «لا يقولنّ أحدكم زرعت وليقل حرثت».

لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾.

قال أبو هريرة: أرأيتم إلى قوله: أفرأيتم الآية والحطام، من حطم كالفتات والجذاذ من فت وجذ وهو ما صار هشيمًا وتحطم ﴿فظلتم﴾ وقرئ بالكسر وفظللتم على الأصل ﴿تفكهون﴾ تعجبون. وعن الحسن رضي الله عنه: تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه أو على ما اقترفتم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها. وقرئ: تفكنون، ومنه الحديث: «مثل العالم كمثله الحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء فبينا هم إذ غار ماؤها فانتفع بها قوله: وبقي قوم يتفكنون أي: يتندمون».

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿إنا لمغرمون﴾ لملزمون غرامة ما أنفقنا أو مهلكون

(1) سورة آل عمران، الآية: 21.

(2) سورة النجم، الآية: 46.

لهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك.

﴿بل نحن﴾ قوم ﴿محرومون﴾ محارفون محدودون لا حظ لنا ولا بخت لنا ولو كنا مجدودين لما جرى علينا هذا. وقرئ: أئنا.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿الماء الذي تشربون﴾ يريد: الماء العذب الصالح للشرب و﴿المزن﴾ السحاب، الواحدة: مزنة. وقيل: هو السحاب الأبيض خاصة، وهو أعذب ماء.

لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿أجاجًا﴾ ملحًا زعاقًا لا يقدر على شربه.

فإن قُلْتَ: لم أدخلت اللام على جواب ﴿لو﴾ في قوله: لجعلناه حطامًا ونزعت منه ههنا! قُلْتُ: إن لو لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ولم تكن مخلصة للشرط كإن ولا عاملة مثلها، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقًا من حيث إفادتها في مضموني جملتيها أنّ الثاني امتنع لامتناع الأوّل افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علمًا على هذا التعلق فزيدت هذه اللام لتكون علمًا على ذلك فإذا حذفت بعدما صارت علمًا مشهورًا مكانه فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفًا ومأنوسًا به لم يبال بإسقاطه عن اللفظ استغناءً بمعرفة السامع. ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤبة أنه كان يقول: خير لمن قال له: كيف أصبحت؟ فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه وتساوي حالي حذفه وإثباته لشهرة أمره، وناهيك بقول أوس:

حتى إذا الكلاب قال لها ... كاليوم مطلوبا ولا طلبا

وحذفه لم أر فإذن حذفها اختصار لفظي وهي ثابتة في المعنى فاستوى الموضعان بلا فرق بينهما على أن تقدّم ذكرها والمسافة قصيرة مغنٍ عن ذكرها ثانية ونائب عنه. ويجوز أن يقال إنّ هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب، للدلالة على أن أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعًا للمطعوم. ألا ترى أنك إنما تسقي ضيفك بعد أن تطعمه، ولو عكست قعدت تحت قول أبي العلاء:

إذا سقيت ضيوف الناس محضا ... سقوا أضيافهم شيما زلالا

وسقى بعض العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثميلة، ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾.

﴿تورون﴾ تقدحونها وتستخرجونها من الزناد، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر ويسمون الأعلى: الزند والأسفل: الزندة، شبهوهما بالفحل والطروقة.

ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾.

﴿شجرتها﴾ التي منها الزناد.

نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾.

﴿تذكرة﴾ تنكيرًا لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعايش كلها وعممنا بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أوعدوا به، أو جعلناها تذكرة وأنموذجًا من جهنم لما روي عن رسول الله ﷺ: «ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم»[1]. ﴿ومتاعًا﴾ ومنفعة ﴿للمقوين﴾ للذين ينزلون القواء وهي القفر، أو للذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام، يقال: أقويت من أيام. أي: لم آكل شيئًا.

فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾.

﴿فسبح باسم ربك﴾ فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك، أراد بالاسم: الذكر. أي: بذكر ربك و﴿العظيم﴾ صفة المضاف أو للمضاف إليه. والمعنى: أنه لما ذكر ما دل على قدرته وإنعامه على عباده قال: فأحدث التسبيح، وهو أن يقول: سبحان الله إمّا تنزيهًا له عما يقول الظالمون الذين يجحدون ووحدانيته ويكفرون نعمته، وإمّا تعجيبًا من أمرهم في غمط آلائه وأياديه الظاهرة، وإمّا شكرًا لله على النعم التي عدّها ونبه عليها.

۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿فلا أقسم﴾ معناه فأقسم ولا مزيدة مؤكدة مثلها في قوله: لئلا يعلم أهل الكتاب. وقرأ الحسن: فلأقسم، ومعناه: فلأنا أقسم. اللام لام الابتداء دخلت على جملة من مبتدأ وخبر وهي: أنا أقسم. كقولك: لزيد منطلق ثم حذف المبتدأ، ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين: أحدهما: أن حقها أن يقرن بها النون المؤكدة والإخلال بها ضعيف قبيح، والثاني: أن لأفعلنّ في جواب القسم للاستقبال وفعل القسم يجب أن يكون للحال. ﴿بمواقع النجوم﴾ بمساقطها ومغاربها. ولعل الله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالاً مخصوصة عظيمة أو للملائكة عبادات موصوفة، أو لأنه وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين ونزول الرحمة والرضوان عليهم. فلذلك

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة (الحديث رقم: 3265) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها (الحديث رقم: 30 ـ 2843).

أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله:

﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ أو أراد بمواقعها: منازلها ومسايرها وله تعالى في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف. وقوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ اعتراض؛ في اعتراض لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه[1]. وهو قوله:

إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾.

﴿إنه لقرآن كريم﴾ واعترض لو تعلمون بين الموصوف وصفته وقيل: مواقع النجوم أوقات وقوع نجوم القرآن. أي: أوقات نزولها كريم حسن مرضي في جنسه من الكتب أو نفاع جم المنافع أو كريم على الله.

فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾.

﴿في كتاب مكنون﴾ مصون من غير المقربين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم.

لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾.

وهم المطهرون من جميع الأدناس أدناس الذنوب وما سواها. إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون وهو اللوح وإن جعلتها صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس، يعني: مس المكتوب منه، ومن الناس من حمله على القراءة أيضًا. وعن ابن عمر أحب إلى أن لا يقرأ إلا وهو طاهر. وعن ابن عباس في رواية: أنه كان يبيح القراءة للجنب. ونحوه قول رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[2]. أي: لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه. وقرئ المتطهرون والمطهرون بالإدغام، ﴿والمطهرون﴾ من أطهره بمعنى: طهره. والمطهرون بمعنى: يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والوحي الذي ينزلونه.

تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾.

﴿تنزيل﴾ صفة رابعة للقرآن. أي: منزل من رب العالمين، أو وصف بالمصدر؛ لأنه نزل نجومًا من بين سائر كتب الله تعالى فكأنه في نفسه تنزيل ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه. فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل، أو هو تنزيل على حذف المبتدأ وقرئ: تنزيلاً على نزل تنزيلاً.

أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾.

﴿افبهذا الحديث﴾ يعني: القرآن ﴿انتم مدهنون﴾ أي: متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي: يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونًا به.

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿وتجعلون رزقكم انكم تكذبون﴾ على حذف المضاف يعني: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب أي: وضعتم التكذيب موضع الشكر، وقرأ علي رضي الله عنه: وتجعلون شكركم أنكم تكذبون. وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ، والمعنى: وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به. وقيل: نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليها والرزق المطر يعني: وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله حيث تنسبونه إلى النجوم. وقرئ: تكذبون وهو قولهم: في القرآن شعر وسحر وافتراء، وفي المطر هو من الأنواء ولأنّ كل مكذب بالحق كاذب.

فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾.

ترتيب الآية فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين، و﴿فلولا﴾ الثانية مكررة للتوكيد والضمير في ﴿ترجعونها﴾ للنفس وهي الروح وفي ﴿اقرب﴾ إليه للمحتضر.

﴿غير مدينين﴾ غير مربوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم. ﴿ونحن اقرب إليه منكم﴾ يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا أو بملائكة الموت. والمعنى: إنكم في جحودكم أفعال الله تعالى وآياته في كل شيء إن أنزل عليكم كتابًا معجزًا قلتم سحر وافتراء، وإن أرسل إليكم رسولاً قلتم ساحر كذاب، وإن رزقكم مطرًا يحييكم به قلتم صدق نوء كذا على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل.

فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثَم قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمُحيي المميت المبدئ المعيد.

فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾.

﴿فاما إن كان﴾ المتوفى ﴿من المقربين﴾ من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أوّل السورة.

فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾.

﴿فروح﴾ فله استراحة. وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ فروح بالضم[3]. وقرأ به الحسن وقال: ﴿الروح﴾ الرحمة؛ لأنها كالحياة للمرحوم[4]. وقيل: البقاء.أي: فهذان له معًا وهو الخلود مع الرزق

---

(1) قال أحمد: وعلى هذا التفسير يكون جواب القسم مناسباً للمقسم، مثل قوله: ﴿حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ ومن واديه وثناياك أنها إغريض كما تقدّم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (الحديث رقم: 58 ـ 2580).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: القراءات، باب: ومن سورة الواقعة (الحديث رقم: 2938).

(4) أخرجه عبد بن حميد (راجع الدر المنثور 6/166) وأخرجه الزيلعي 3/411.

والنعيم، والريحان: الرزق.

وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾.

﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي: فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليك. كقوله تعالى: ﴿إلا قيلا سلامًا سلامًا﴾.

فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾.

﴿فنزل من حميم﴾ كقوله تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ وقرئ: بالتخفيف ﴿وتصلية جحيم﴾ قرئت بالرفع والجر عطفًا على ﴿نزل﴾ و﴿حميم﴾.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي أنزل في هذه السورة ﴿لهو حق اليقين﴾ أي: الحق الثابت من اليقين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحديد مكية

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾.

جاء في بعض الفواتح سبّح على لفظ الماضي، وفي بعضها على لفظ المضارع. وكل واحد منهما معناه: أنّ من شأن من أسند إليه التسبيح أن يسبّحه وذلك هجيراه وديدنه. وقد عدى هذا الفعل باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله تعالى: ﴿وتسبحون﴾[2] وأصله التعدي بنفسه؛ لأنّ معنى سبحته بعدته عن السوء، منقول من سبح: إذا ذهب وبعد. فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له، وإما أن يراد بـ﴿سبح لله﴾ أحدث التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصًا.

﴿ما في السموات والأرض﴾ ما يتأتى منه التسبيح ويصح.

لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿يحيي﴾؟ قُلْتُ: يجوز أن لا يكون له محل ويكون جملة برأسها.

كقوله: ﴿له ملك السموات﴾ وأن يكون مرفوعًا على هو يحيي ويميت ومنصوبًا حالاً من المجرور في له والجار عاملاً فيها. ومعناه: يحيي النطف والبيض والموتى يوم القيامة ويميت الأحياء.

هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾.

﴿هو الأول﴾ هو القديم الذي كان قبل كل شيء ﴿والآخر﴾ الذي يبقى بعد هلاك كل شيء ﴿والظاهر﴾ بالأدلة الدالة عليه ﴿والباطن﴾ لكونه غير مدرك بالحواس.

فإن قُلْتَ: فما معنى الواو؟ قُلْتُ: الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين. فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية، وهو في جميعها ظاهر وباطن، جامع للظهور بالأدلة والخفاء فلا يدرك بالحواس. وفي هذا حجة على من جوّز إدراكه في الآخرة بالحاسة. وقيل: ﴿الظاهر﴾ العالي على كل شيء الغالب له، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه، و﴿الباطن﴾ الذي بطن كل شيء أي: علم باطنه وليس بذاك مع العدول عن الظاهر المفهوم.

ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾.

﴿مستخلفين فيه﴾ يعني: أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها وإنما مولكم إياها وخولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب. فانفقوا منها في حقوق الله وليهن عليكم الانفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه، أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم بتوريثه إياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى من بعدكم، فلا تبخلوا به وانفعوا بالانفاق منها انفسكم.

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾.

﴿لا تؤمنون﴾ حال من معنى الفعل في ما لكم كما تقول مالك قائمًا بمعنى ما تصنع قائمًا؟ أي: وما لكم كافرين بالله. والواو في ﴿والرسول يدعوكم﴾ واو الحال فهما حالان متداخلتان. وقرئ: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله ورسوله والرسول يدعوكم﴾ والمعنى: وأي عذر لكم في

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في تعظيم القرآن فضل في فضائل السور والآيات (الحديث رقم: 2498).

(2) سورة الفتح، الآية: 9.

ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج. وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان حيث ركب فيكم العقول[1] ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر وأزاح عللكم فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول فما لكم لا تؤمنون ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ لموجب ما فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. وقرئ: أخذ ميثاقكم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾.

﴿ليخرجكم﴾ الله بآياته من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان أو ليخرجكم الرسول بدعوته. ﴿لرءوف﴾ وقرئ: لرؤوف.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾.

﴿وما لكم لا تنفقوا﴾ في أن لا تنفقوا ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ يرث كل شيء فيهما لا يبقى منه باقٍ لأحد من مال وغيره. يعني: وأي غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله، والله مهلككم فوارث أموالكم وهو من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله. ثم بيّن التفاوت بين المنفقين منهم فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق﴾ قبل فتح مكة قبل عز الإسلام وقوّة أهله ودخول الناس في دين الله أفواجًا وقلة الحاجة إلى القتال والنفقة فيه ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لوضوح الدلالة ﴿أولئك﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[2] ﴿أعظم درجة﴾ وقرئ: قبل الفتح ﴿وكلا﴾ وكل واحد من الفريقين ﴿وعد الله الحسنى﴾ أي: المثوبة الحسنى وهي: الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرئ بالرفع على وكل وعده الله. وقيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لأنه أول من أسلم وأول من أنفق في سبيل الله.

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾.

القرض الحسن: الإنفاق في سبيله شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز؛ لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكأنه أقرضه إياه ﴿فيضاعفه له﴾ أي: يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفًا ﴿أضعافًا﴾ من فضله ﴿وله أجر كريم﴾ يعني: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه. وقرئ: فيضعفه وقرئا منصوبين على جواب الاستفهام والرفع عطف على يقرض أو على فهو يضاعفه.

﴿يوم ترى﴾ ظرف لقوله: ﴿وله أجر كريم﴾ أو منصوب بإضمار أذكر تعظيمًا لذلك اليوم. وإنما قال: ﴿بين أيديهم وبأيمانهم﴾ لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم فجعل النور في الجهتين شعارًا لهم وآية لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون، سعى بسعيهم ذلك النور جنيبًا لهم ومتقدمًا. ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة ﴿بشراكم اليوم﴾ وقرئ: ذلك الفوز.

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾.

﴿يوم يقول﴾ بدل من ﴿يوم ترى﴾ ﴿انظرونا﴾ انتظرونا؛ لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف بهم وهؤلاء مشاة. أو انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به. وقرئ: أنظرونا من النظرة وهي الإمهال. جعل اتئادهم في المضي إلى أن يلحقوا بهم إنظارًا لهم. ﴿نقتبس من نوركم﴾ نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به. ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا﴾ طرد لهم وتهكم بهم. أي: ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك، فمن ثم يقتبس أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورًا بتحصيل سببه وهو الإيمان، أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا فالتمسوا نورًا آخر فلا سبيل لكم إلى هذا النور، وقد علموا أن لا نور وراءهم

(1) قال أحمد: وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بينه الله في آية غير هذه، إذ يقول تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ ولقد يريبني منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلاً ووقوعها بالسمع قطعاً إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخييلاً، فالقاعدة التي تعتمد عليها كي لا يضرك ما يومئ إليه، أن ما كل ما جوزه العقل وورد بوقوعه السمع وجب حمله على ظاهره، والله الموفق.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذًا خليلاً» (الحديث رقم: 3673)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة (الحديث رقم: 222 ـ 2541)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (الحديث رقم: رقم 4658)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل من بايع تحت الشجرة (الحديث رقم: 3861)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فضل أهل بدر (الحديث رقم: 161).

وإنما هو تخييب وإقناط لهم. ﴿فضرب بينهم بسور﴾ بين المؤمنين والمنافقين بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار. قيل: هو الأعراف لذلك السور ﴿باب﴾ لأهل الجنة يدخلون منه ﴿باطنه﴾ باطن السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة ﴿وظاهره﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿من قبله﴾ من عنده ومن جهته ﴿العذاب﴾ وهو الظلمة والنار. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: فضرب بينهم على البناء للفاعل.

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾.

﴿ألم نكن معكم﴾ يريدون موافقتهم في الظاهر ﴿فتنتم أنفسكم﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وتربصتم﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وغرتكم الأماني﴾ طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار ﴿حتى جاء أمر الله﴾ وهو الموت ﴿وغركم بالله الغرور﴾ وغركم الشيطان بأنّ الله عفو كريم لا يعذبكم. وقرئ: الغرور بالضم.

فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾.

﴿فدية﴾ ما يفتدى به ﴿هي مولاكم﴾ قيل: هي أولى بكم وأنشد قول لبيد:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه ... مولى المخافة خلفها وأمامها

وحقيقة مولاكم محراكم ومقمنكم أي: مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم. كما قيل: هو مئنة للكرم، أي: مكان لقول القائل إنه لكريم. ويجوز أن يراد هي ناصركم أي: لا ناصر لكم غيرها، والمراد: نفي الناصر على البتات. ونحوه قولهم أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع. ومنه قوله تعالى: ﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾[1] وقيل: تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار.

۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾.

﴿ألم يأن﴾ من أنى الأمر يأني إذا جاء إناه أي: وقته. وقرئ: ألم يئن، من آن يئين بمعنى: أنى يأني ألمّا يأن قيل: كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت. وعن ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين»[2]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشر من نزول القرآن، وعن الحسن رضي الله عنه: أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤن من القرآن أقل مما تقرؤن فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق. وعن أبي بكر رضي الله عنه أنّ هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاءً شديدًا، فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب. وقرئ: نزل ونزّل وأنزل ﴿ولا يكونوا﴾ عطف على تخشع. وقرئ بالتاء على الالتفات، ويجوز أن يكون نهيًا لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا. وذلك أنّ بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره.

فإن قُلْتَ: ما معنى لذكر الله وما نزل من الحق؟ قُلْتُ: يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق القرآن؛ لأنه جامع للأمرين للذكر والموعظة، وأنه حق نازل من السماء وأن يراد خشوعها إذا ذكر الله وإذا تلي القرآن بقوله تعالى: ﴿إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا﴾[3] أراد بالأمد الأجل كقوله: إذا انتهى أمده. وقرئ: الأمدّ أي: الوقت الأطول. ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين.

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾.

﴿اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ قيل: هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض.

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾.

﴿المصدّقين﴾ المتصدّقين وقرئ على الأصل والمصدّقين من صدق، وهم الذين صدقوا الله ورسوله، يعني: المؤمنين.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿وأقرضوا﴾؟ قُلْتُ: على معنى الفعل في المصدّقين؛ لأنّ اللام بمعنى: الذين واسم الفاعل بمعنى اصدقوا كأنه قيل: إنّ الذين اصدقوا وأقرضوا، والقرض الحسن أن يتصدّق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ

---

(1) سورة الكهف، الآية: 29.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ (الحديث رقم: رقم 24 ـ 3027).

(3) سورة الأنفال، الآية: 2.

لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾.

وقرئ: يضعف ويضاعف بكسر العين أي: يضاعف الله يريد: أنّ المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله. ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ أي: مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم.

فإن قُلْتَ: كيف يسوى بينهم في الأجر ولا بدّ من التفاوت؟ قُلْتُ: المعنى أنّ الله يعطي المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضله حتى يساوي أجرهم مع إضعافه أجر أولئك. ويجوز أن يكون والشهداء مبتدأ ولهم أجرهم خبره.

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾.

أراد أنّ الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام وهي العذاب الشديد والمغفرة ورضوان الله. وشبّه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث عليه العاهة فهاج واصفرّ وصار حطامًا عقوبةً لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين وقيل: الكفار الزراع. وقرئ: مصفارًا.

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾.

﴿سابقوا﴾ سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار إلى جنة ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾ قال السدي: كعرض سبع السموات وسبع الأرضين. وذكر العرض دون الطول؛ لأنّ كل ماله عرض وطول فإنّ عرضه أقل من طوله، فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أنّ طوله أبسط وأمد. ويجوز أن يراد بالعرض البسطة كقوله تعالى: ﴿فذو دعاء عريض﴾[1] لما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك وهي المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة. ﴿ذلك﴾ الموعود من المغفرة والجنة ﴿فضل الله﴾ عطاؤه ﴿يؤتيه من يشاء﴾ وهم المؤمنين المصيبة في الأرض نحو الجدب وآفات الزروع والثمار وفي الأنفس نحو الأدواء والموت.

﴿في كتاب﴾ في اللوح ﴿من قبل أن نبرأها﴾ يعني: الأنفس أو المصائب ﴿إنّ ذلك﴾ إنّ تقدير ذلك وإثباته في كتاب ﴿على الله يسير﴾ وإن كان عسيرًا على العباد ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه فقال:

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾.

﴿لكيلا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا﴾ يعني: أنكم إذا علمتم أنّ كل شيء مقدّر مكتوب عند الله قل أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي؛ لأنّ من علم أن ما عنده مفقود لا محالة لم يتفاقم جزعه عند فقده؛ لأنه وطن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أنّ بعض الخير واصل إليه وأن وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله. ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ لأنّ من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه اختال وافتخر به وتكبر على الناس. قرئ: بما آتاكم وأتاكم من الإيتاء والإتيان. وفي قراءة ابن مسعود: بما أوتيتم.

فإن قُلْتَ: فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح! قُلْتُ: المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين، والفرح المطغي الملهي عن الشكر. فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما.

﴿الذين يبخلون﴾ بدل من قوله: ﴿كل مختال فخور﴾ كأنه قال: لا يحب الذين يبخلون يريد الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالاً وحظًا من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم وعظمة في عيونهم يزوونه عن حقوق الله ويبخلون به، ولا يكفيهم أنهم بخلوا حتى يحملوا الناس على البخل ويرغبوهم في الإمساك ويزينونه لهم، وذلك كله نتيجة فرحهم به وبطرهم عند إصابته. ﴿ومن يتول﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي فإنّ الله غني عنه. وقرئ بالبخل. وقرأ نافع: فإنّ الله الغني، وهو في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾.

﴿لقد أرسلنا رسلنا﴾ يعني: الملائكة إلى الأنبياء ﴿بالبينات﴾ بالحجج والمعجزات ﴿وأنزلنا معهم

---

(1) سورة فصلت، الآية: 51.

الكتاب﴾ أي: الوحي ﴿والميزان﴾ روي أنّ جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال: مر قومك يزنوا به ﴿وأنزلنا الحديد﴾ قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة. وروي: ومعه المرّ والمسحاة. وعن النبي ﷺ: «أنّ الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: أنزل الحديد والنار والماء والملح»[1]. وعن الحسن: وأنزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام﴾[2] وذلك أنّ أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه ﴿فيه بأس شديد﴾ وهو القتال به ﴿ومنافع للناس﴾ في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد. ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله﴾ باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين. ﴿بالغيب﴾ غائبًا عنهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينصرونه ولا يبصرونه ﴿إنّ الله قويّ عزيز﴾ غني بقدرته وعزّته في إهلاك من يريد هلاكه عنهم، وإنما كلفهم الجهاد لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾

﴿والكتاب﴾ والوحي وعن ابن عباس: الخط بالقلم يقال: كتب كتابًا وكتابة. ﴿فمنهم﴾ فمن الذرية أو من المرسل إليهم. وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين وهذا تفصيل لحالهم. أي: فمنهم مهتدٍ ومنهم فاسق والغلبة للفساق.

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

قرأ الحسن: الأنجيل بفتح الهمزة، وأمره أهون من أمر البرطيل والسكينة فيمن رواهما بفتح الفاء؛ لأنّ الكلمة أعجمية لا يلزم فيها حفظ أبنية العرب. وقرئ: رآفة على فعالة. أي: وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم ونحوه في صفة أصحاب رسول الله ﷺ رحماء بينهم. والرهبانية ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة. وذلك أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى فقاتلوهم ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان[3] وهو الخائف. فعلان من رهب كخشيان من خشي. وقرئ: ورهبانية بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان. وانتصابها بفعل مضمر[4] يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ﴿ابتدعوها﴾ يعني: وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها. ﴿ما كتبناها عليهم﴾ لم نفرضها نحن عليهم ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ استثناء منقطع أي: ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه. ﴿فآتينا الذين آمنوا﴾ يريد: أهل الرحمة والرأفة الذين اتبعوا عيسى ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ الذين لم يحافظوا على نذرهم ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها وابتدعوها صفة لها في محل النصب أي: وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم بمعنى: وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها ما كتبناها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب. على أنه كتبها عليهم وألزمها إياهم ليتخلصوا من الفتن ويبتغوا بذلك رضا الله وثوابه، فما رعوها جميعًا حق رعايتها ولكن بعضهم. فآتينا المؤمنين المراعين منهم للرهبانية أجرهم وكثير منهم فاسقون، وهم الذين لم يرعوها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يجوز أن يكون خطابًا للذين آمنوا من أهل الكتاب والذين آمنوا من غيرهم فإن كان خطابًا لمؤمني أهل الكتاب فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا

(1) أخرجه الثعلبي وهو في الفردوس. وأخرجه الزيلعي 3/418.

(2) سورة الزمر، الآية: 6.

(3) قال أحمد: وفيه إشكال، فإنّ النسب إلى الجمع على صيغته غير مقبول عندهم حتى يرد إلى مفرده، إلا أن يقال: إنه لما صار الرهبان طائفة مخصوصة، صار هذا الاسم، وإن كان جمعاً كالعلم لهم فلحق بانصاري ومدائني وأعرابي.

(4) قال أحمد: في إعراب هذه الآية تورط أبو علي الفارسي، وتحيز إلى فئة الفتنة وطائفة البدعة، فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره الظاهر وعلل امتناع العطف، فقال: ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على جعلنا مع وصفها بقوله: ابتدعوها؛ لأنّ ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم، والزمخشري ورد أيضاً مورده الذميم وأسلمه شيطانه الرجيم، فلما اجاز ما= منعه أبو علي من جعلها معطوفة أعذر لذلك، بتحريف الجعل إلى التوفيق فراراً مما فرّ منه أبو علي من اعتقاد أن ذلك مخلوق لله تعالى وجنوحاً إلى الإشراك، واعتقاد أن ما يفعلونه هم لا يفعله الله تعالى ولا يخلقه، وكفى بما في هذه الآية دليلاً بعد الأدلة القطعية والبراهين العقلية على بطلان ما اعتقداه، فإنه ذكر محل الرحمة والرأفة مع العلم بأن محلها القلب، فجعل قوله: ﴿في قلوب الذين اتبعوه﴾ تأكيداً لخلقه هذه المعاني، وتصويراً لمعنى الخلق بذكر محله، ولو كان المراد أمراً غير مخلوق في قلوبهم لله تعالى كما زعما، لم يبق لقوله: ﴿في قلوب الذين اتبعوه﴾ موقع، ويأبى الله أن يشتمل كتابه الكريم على ما لا موقع له، ألهمنا الحجة وأنهج بنا واضح المحجة، إنه ولي التوفيق وواهب التحقيق.

بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ﴿يؤتكم﴾ الله ﴿كفلين﴾ أي: نصيبين ﴿من رحمته﴾ لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله. ﴿ويجعل لكم﴾ يوم القيامة ﴿نورًا تمشون به﴾ وهو النور المذكور في قوله: ﴿يسعى نورهم﴾ ﴿ويغفر لكم﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي.

لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾.

﴿لئلا يعلم﴾ ليعلم ﴿أهل الكتاب﴾ الذين لم يسلموا ولا مزيدة ﴿ألا يقدرون﴾ أن مخففة من الثقيلة أصله أنه لا يقدرون يعني: أنّ الشأن لا يقدرون ﴿على شيء من فضل الله﴾ أي: لا ينالون شيئًا مما ذكر من فضله من الكفلين والنور والمغفرة؛ لأنهم لم يؤمنوا برسول الله فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ولم يكسبهم فضلاً قط. وإن كان خطابًا لغيرهم فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾[1] ولا ينقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرّقون بين أحد من رسله. روي: أنّ رسول الله ﷺ بعث جعفرًا رضي الله عنه في سبعين راكبًا إلى النجاشي يدعوه، فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له. فقال ناس ممن آمن من أهل مملكته وهم أربعون رجلاً: ائذن لنا في الوفادة على رسول الله ﷺ فأذن لهم. فقدموا مع جعفر وقد تهيأ لوقعة أحد فلما رأوا ما بالمسلمين من خصاصة استأذنوا رسول الله ﷺ فرجعوا وقدموا بأموال لهم فآسوا بها المسلمين. فأنزل: ﴿الله الذين آتيناهم الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾. فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله يؤتون أجرهم مرتين فخروا على المسلمين وقالوا: أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرّتين. وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجركم فما فضلكم علينا فنزلت[2]. وروي أنّ مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرّتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت. وقرئ: لكي يعلم ولكيلا يعلم وليعلم ولأن يعلم بإدغام النون في الياء، ولين يعلم بقلب الهمزة ياء وإدغام النون في الياء، وعن الحسن: ليلا يعلم بفتح اللام وسكون الياء. ورواه قطرب بكسر اللام وقيل: في وجهها حذفت همزة وأن وأدغمت نونها في لام لا فصار للا ثم أبدلت من اللام المدغمة ياء كقولهم: ديوان وقيراط. ومن فتح اللام فعلى أن أصل لام الجرّ الفتح كما أنشد:

أريد لا أنسى ذكرها

وقرئ: أن لا يقدروا ﴿بيد الله﴾ في ملكه وتصرفه واليد مثل ﴿يؤتيه من يشاء﴾ ولا يشاء إلا إيتاء من يستحقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المجادلة مدنية

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾.

﴿قد سمع الله﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات[4]. لقد كلمت المجادلة رسول الله ﷺ في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع وقد سمع لها»[5] وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها. وقال: قد سمع الله لها. وقرئ: تحاورك أي: تراجعك الكلام. وتحاولك أي: تسائلك. وهي: «خولة بنت ثعلبة امرأة أوس[6] بن الصامت أخي عبادة. رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم فلما سلمت راودها فأبت فغضب وكان به خفة ولمم فظاهر منها. فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أوسًا تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ فلما خلا سني ونثرت بطني أي: كثر ولدي جعلني عليه كأمّه. وروي أنها قالت له: إنّ لي صبية صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا. فقال: «ما عندي في أمرك شيء» وروي أنه قال لها: «حرمت عليه»، فقالت يا رسول الله ما ذكر طلاقًا، وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إليّ. فقال حرّمت عليه. فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي. كلما قال رسول الله ﷺ: حرّمت عليه هتفت وشكت إلى الله فنزلت ﴿في زوجها﴾ في شأنه[7]. ومعناه ﴿إنّ الله سميع بصير﴾ يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿قد﴾ في قوله ﴿قد سمع﴾؟ **قُلْتُ:** معناه التوقع لأنّ رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها.

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ

---

(1) سورة القصص، الآية: 54.

(2) رواه الطبري في تفسيره. وأخرجه الزيلعي 3/419.

(3) رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه والزيلعي 3/420.

(4) قال أحمد: ولقد استدل به بعضهم على عدم لزوم ظهار الذمي، وليس بقوي؛ لأنه غير المقصود.

(5) أخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: الظهار (الحديث رقم: 3460)، وأخرجه ابن ماجه المقدمة، باب: فيما ذكرت الجهمية (الحديث رقم: 188)، وأخرجه أحمد في المسند 6/46.

(6) رواه الدارقطني في السنن 3/316 (الحديث رقم: 259).

(7) رواه الطبري في تفسيره، وأخرجه الزيلعي 3/423.

رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾

﴿الذين يظاهرون منكم﴾ في منكم توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار؛ لأنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم ﴿ما هنّ أمهاتهم﴾ وقرئ بالرفع على اللغتين الحجازية والتميمية. وفي قراءة ابن مسعود: بأمّهاتهم وزيادة الباء في لغة من ينصب، والمعنى: أنّ من يقول لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي ملحق في كلامه هذا للزوج بالأم وجاعلها مثلها، وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين. ﴿إن أمّهاتهم إلا اللائي ولدنهم﴾ يريد أنّ الأمّهات على الحقيقة إنما هنّ الوالدات وغيرهنّ ملحقات بهنّ لدخولهنّ في حكمهنّ، فالمرضعات أمهات؛ لأنهنّ لما أرضعن دخلن بالرضاع في حكم الأمهات. وكذلك أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين؛ لأنّ الله حرّم نكاحهنّ على الأمة فدخلن بذلك في حكم الأمهات. وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة؛ لأنهنّ لسن بأمّهات على الحقيقة ولا بداخلات في حكم الأمهات. فكان قول المظاهر منكرًا من القول تنكره الحقيقة وتنكره الأحكام الشرعية وزورًا وكذبًا باطلاً منحرفًا عن الحق ﴿وإن الله لعفوّ غفور﴾ لما سلف منه إذا تيب عنه ولم يعد إليه، ثم قال: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا﴾ يعني: والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول[1] المنكر فقطعوه بالإسلام ثم يعودون لمثله فكفارة من عاد أن يحرّر رقبة، ثم يماس المظاهر منها، لا تحل له مماستها إلا بعد تقديم الكفارة. ووجه آخر ثم يعودون لما قالوا ثم يتداركون ما قالوا[2]؛ لأنّ المتدارك للأمر عائد إليه ومنه المثل: عاد غيث على ما أفسد أي: تداركه بالإصلاح. والمعنى: أنّ تدارك هذا القول وتلافيه بأن يكفر حتى ترجع حالهما كما كانت قبل الظهار. ووجه ثالث وهو أن يراد بما قالوا[3] ما حرّموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه نحو ما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ونرثه ما يقول﴾[4] ويكون المعنى ثم يريدون العود للتماس، والمماسة الاستمتاع بها من جماع أو لمس بشهوة أو نظر إلى فرجها لشهوة ﴿ذلكم﴾ الحكم ﴿توعظون به﴾ لأنّ الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه.

فإن قُلْتَ: هل يصح الظهار بغير هذا اللفظ؟ قُلْتُ: نعم إذا وضع مكان أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة، كالرأس والوجه والرقبة والفرج. ومكان الظهر عضوًا آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ أو مكان الأمّ ذات رحم محرم منه من نسب أو رضاع أو صهر أو جماع. نحو أن يقول: أنت عليّ كظهر أختي من الرضاع، أو عمتي من النسب، أو امرأة ابني، أو أبي أو أمّ امرأتي أو بنتها. فهو مظاهر وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه. وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وغيرهم نحوه. وقال الشافعي: لا يكون الظهار إلا بالأمّ وحدها. وهو قول قتادة والشعبي، وعن الشعبي: لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخالات إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالأمّهات الوالدات دون المرضعات. وعن بعضهم: لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهارًا.

فإن قُلْتَ: فإذا امتنع المظاهر من الكفارة هل للمرأة أن ترافعه؟ قُلْتُ: لها ذلك وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر وأن يحبسه ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها؛ لأنه يضرّ بها في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع فيلزم إيفاء حقها.

فإن قُلْتَ: فإن مسّ قبل أن يكفر! قُلْتُ: عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر. لما روي أن سلمة بن صخر البياضي قال لرسول الله ﷺ: ظاهرت من امرأتي ثم أبصرت خلخالها في ليلة قمراء فواقعتها. فقال عليه الصلاة والسلام: «استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر»[5].

فإن قُلْتَ: أي: رقبة تجزي في كفارة الظهار؟ قُلْتُ: المسلمة والكافرة جميعًا؛ لأنها في الآية مطلقة. وعند الشافعي: لا تجزي إلا المؤمنة لقوله تعالى: في كفارة القتل: ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾[6] ولا تجزي أمّ الولد والمدبر والمكاتب الذي أدّى شيئًا فإن لم يؤدّ شيئًا، جاز. وعند الشافعي لا يجوز.

(1) قال أحمد: وهذا الوجه يلزم الكفارة لمجرّد قول الظهار في الإسلام لا غير، والقول بوجوبها بمجرّد الظهار، قول مجاهد من التابعين، وسفيان من الفقهاء.

(2) قال أحمد: وهذا التفسير منزل، على أنّ وجوب الكفارة مشروط بالعود بعد الظهار، وهو القول المشهور لفقهاء الأمصار، ولا يخص هذا التفسير وجهاً من وجوه العود التي ذكرها العلماء.

(3) قال أحمد: وهذا التفسير يقوي القول، بأنّ العود الوطء نفسه؛ لأنّ حاصله ثم يعودون للوطء، وظاهر قولك: عاد للوطء فعله، وحمل العود على الوطء من جملة أقوال مالك رحمه الله، فقد تلخص أنّ كلام المختلفين في العود له مأخذ من هذه الآية، فأمّا من لم يقف وجوب الكفارة عنده إلا على مجرّد الظهار، فحمل العود على= الظهار، وتسميته عوداً، والحالة هذه باعتبار أنه كان في الجاهلية وانقطع في الإسلام، فإيقاعه بعد الإسلام عود إليه، وأما من أوقفها على العود وجعل العود أن يعيد لفظ الظهار.

(4) سورة مريم، الآية: 80.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الظهار (الحديث رقم: 2221)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق، باب: ما جاء في المظاهر يواقع قبل أن يكفر (الحديث رقم: 1199)، وأخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: الظهار (الحديث رقم: 3458)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: المظاهر يجامع قبل أن يكفر (الحديث رقم: 2065).

(6) سورة النساء، الآية: 92.

فإن قُلْتَ: فإن اعتق بعض الرقبة أو صام بعض الصيام ثم مس قُلْتُ: عليه أن يستانف نهار امس او ليلاً ناسيًا أو عامدًا عند ابي حنيفة وعند ابي يوسف. ومحمد عتق بعض الرقبة عتق كلها فيجزيه وإن كان المسّ يفسد الصوم استقبل وإلا بنى.

فإن قُلْتَ: كم يعطي المسكين في الإطعام؟ قُلْتُ: نصف صاع من برّ او صاعًا من غيره. عند ابي حنيفة وعند الشافعي مدًا من طعام بلده الذي يقتات فيه.

فإن قُلْتَ: ما بال التماس لم ينكر عند الكفارة بالإطعام كما نكر عند الكفارتين! قُلْتُ: اختلف في نلك فعند ابي حنيفة انه لا فرق بين الكفارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس وإنما ترك نكره عند الإطعام دلالة على انه إذا وجد في خلال الإطعام لم يستانف كما يستانف الصوم إذا وقع في خلاله وعند غيره لم ينكر للدلالة على أن التكفير قبله وبعده سواء.

فإن قُلْتَ: الضمير في أن يتماسا إلام يرجع؟ قُلْتُ: إلى ما دلّ عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها.

﴿نلك﴾ البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا ﴿بالله ورسوله﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم. ﴿وتلك حدود الله﴾ التي لا يجوز تعديها ﴿وللكافرين﴾ الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها ﴿عذاب اليم﴾.

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾

﴿يحادون﴾ يعادون ويشاقون ﴿كبتوا﴾ اخنوا واهلكوا ﴿كما كبت﴾ من قبلهم من أعداء الرسل. قيل: أريد كبتهم يوم الخندق. ﴿وقد انزلنا آيات بينات﴾ تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿وللكافرين﴾ بهذه الآيات ﴿عذاب مهين﴾ يذهب بعزهم وكبرهم.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾.

﴿يوم يبعثهم﴾ منصوب بلهم أو بمهين أو بإضمار انكر تعظيمًا لليوم ﴿جميعًا﴾ كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث أو مجتمعين في حال واحدة كما تقول حي جميع ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ تخجيلاً لهم وتوبيخًا وتشهيرًا بحالهم يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿احصاه الله﴾ احاط به عددًا لم يفته منه شيء ﴿ونسوه﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه لم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصي وإنما تحفظ معظمات الأمور.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾.

﴿ما يكون﴾ من كان التامة. وقرئ: بالياء والتاء والياء على أنّ النجوى تأنيثها غير حقيقي ومن فاصلة أو على أنّ المعنى ما يكون شيء من النجوى. والنجوى: التناجي فلا تخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة اي؛ من نجوى ثلاثة نفر أو موصوفة بها اي: من أهل نجوى ثلاثة فحذف الأهل أو جعلوا نجوى في انفسهم مبالغة كقوله تعالى: ﴿خلصوا نجيًا﴾[1] وقرأ ابن أبي عيلة ثلاثة وخمسة بالنصب على الحال بإضمار يتناجون؛ لأنّ نجوى يدل عليه او على تأويل نجوى بمتناجين ونصبها من المستكن فيه.

فإن قُلْتَ: ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة؟ قُلْتُ: فيه وجهان احدهما: أنّ قومًا من المنافقين تحلقوا للتناجي مغايظةً للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة فقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك ﴿ولا ادنى من﴾ عدديهم ﴿ولا اكثر إلا﴾ والله معهم يسمع ما يقولون. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه: انها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يومًا يتحدّثون فقال احدهم: أترى أنّ الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضًا ولا يعلم بعضًا. وقال الثالث: إن كان يعلم بعضًا فهو يعلم كله. وصدق؛ لأنّ من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها؛ لأن كونه عالمًا بغير سبب ثابت له مع كل معلوم. والثاني: أنه قصد أن ينكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمتخالين للشورى والمندبون لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة مجتباة من أولي النهي والأحلام ورهط من أهل الرأي التجارب وأول عددهم الاثنان فصاعدًا إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال وحكم الاستصواب ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع فنكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال: ولا ادنى من ذلك فدلّ على الاثنين والأربعة. وقال: ولا أكثر فدلّ على ما يلي هذا العدد ويقاربه. وفي مصحف عبد الله إلا الله رابعهم ولا أربعة إلا الله خامسهم ولا خمسة إلا الله سادسهم ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا انتجوا. وقرئ: ﴿ولا ادنى من ذلك ولا اكثر﴾ بالنصب على أن لا لنفي الجنس، ويجوز أن يكون ﴿ولا اكثر﴾ بالرفع

(1) سورة يوسف، الآية: 80.

معطوفًا على محل ﴿لا﴾ مع ﴿أدنى﴾ كقولك: لا حول ولا قوّة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوّة، ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء كقولك: لا حول ولا قوّة إلا بالله وأن يكون ارتفاعهما عطفًا على محل من نجوى كأنه قيل: ما يكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم. ويجوز أن يكونا مجرورين عطفًا على نجوى كأنه قيل: ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم. وقرئ: ولا أكبر بالباء ومعنى كونه معهم أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم وقد تعالى عن المكان والمشاهدة. وقرئ: ثم ينبئهم على التخفيف.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يريدون أن يغيظوهم. فنهاهم رسول الله ﷺ فعادوا لمثل فعلهم وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته. وقرئ: ينتجون بالإثم والعدوان بكسر العين ومعصيات الرسول.

﴿حيوك بما لم يحيك به الله﴾ يعني: أنهم يقولون: في تحيتك السام عليك يا محمد والسام الموت، والله تعالى يقول: ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾[1] ويا أيها الرسول ويا أيها النبي ﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ كانوا يقولون: ما له إن كان نبيًا لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول. فقال الله تعالى: ﴿حسبهم جهنم﴾ عذابًا.

يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ويجوز أن يكون للمؤمنين أي: إذا تناجيهم فلا تتشبهوا بأولئك في تناجيهم بالشر ﴿وتناجوا بالبر والتقوى﴾ وعن النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه». وروي: «دون الثالث»[2]. وقرئ: فلا تناجوا. وعن ابن مسعود: إذا تنجيتم فلا تنتجوا.

إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿إنما النجوى﴾ اللام إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان بدليل قوله تعالى: ﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ والمعنى: أنّ الشيطان يزينها لهم فكأنها منه ليغيظ الذين آمنوا ويحزنهم ﴿وليس﴾ الشيطان أو الحزن ﴿بضارهم شيئًا إلا بإذن الله﴾.

فإن قُلْتَ: كيف لا يضرّهم الشيطان أو الحزن إلا بإذن الله؟ قلت: كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا. فقال: لا يضرّهم الشيطان أو الحزن بذلك الموهم إلا بإذن الله أي: بمشيئته. وهو أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة. وقرئ: ليحزن وليحزن.

يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَٰلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿تفسحوا في المجالس﴾ توسعوا فيه، وليفسح بعضكم عن بعض. من قولهم: أفسح عني أي: تنح. ولا تتضاموا. وقرئ: تفاسحوا. والمراد: مجلس رسول الله وكانوا يتضامون فيه تنافسًا على القرب منه وحرصًا على استماع كلامه. وقيل: هو المجلس من مجالس القتال وهي مراكز الغزاة كقوله تعالى: مقاعد للقتال. وقرئ في المجالس قيل: كان الرجل يأتي الصف فيقول تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة. وقرئ في المجلس بفتح اللام وهو الجلوس أي: توسعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه ﴿يفسح الله لكم﴾ مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك. ﴿انشزوا﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين أو انهضوا عن مجلس رسول الله إذا أمرتم بالنهوض عنه ولا تملوا رسول الله بالارتكاز فيه أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير إذا استنهضتم ولا تثبطوا ولا تفرطوا. ﴿يرفع الله﴾ المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله والعالمين منهم خاصة[3] ﴿درجات﴾. ﴿بما تعملون﴾ قرئ بالتاء والياء. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وعن النبي ﷺ: «بين العالم والعابد

---

(1) سورة النحل، الآية: 59.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة (الحديث رقم: 6290) وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (الحديث رقم: 37 ـ 2184).

(3) قال أحمد: في الجزاء برفع الدرجات ههنا مناسبة للعمل؛ لأنّ المأمور به تفسيح المجلس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان =

= الرفيع حوله عليه الصلاة والسلام فيتضايقوا، فلما كان الممتثل لذلك يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة امتثالاً وتواضعاً، جوزي على تواضعه برفع الدرجات، كقوله: من تواضع لله رفعه الله، ثم لما علم أنّ أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعاً لله تعالى.

مائة درجة، بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة»[1]. وعنه عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[2]. وعنه عليه السلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[3] فاعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوّة والشهادة بشهادة رسول الله. وعن ابن عباس: «خير سليمان بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه»[4]. وقال عليه السلام: «أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم»[5]. وعن بعض الحكماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم، وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أربابًا، وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل ما يصير. وعن الزبيري: العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾.

﴿**بين يدي نجواكم**﴾ استعارة ممن له يدان. والمعنى: قبل نجواكم. كقول عمر: «من أفضل ما أوتيت العرب الشعر يقدّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللئيم»[6] يريد: قبل حاجته ﴿**ذلكم**﴾ التقديم ﴿**خير لكم**﴾ في دينكم ﴿**وأطهر**﴾ لأنّ الصدقة طهرة. روي «أن الناس أكثروا مناجاة رسول الله ﷺ بما يريدن حتى أملوه وأبرموه فأريد أن يكفوا عن ذلك فأمروا بأن من أراد أن يناجيه قدّم قبل مناجاته صدقة. قال علي رضي الله عنه: لما نزلت دعاني رسول الله ﷺ فقال: ما تقول في دينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «كم قلت حبة أو شعيرة». قال: إنك لزهيد. فلما رأوا ذلك اشتدّ عليهم فارتدعوا وكفوا، أما الفقير فلعسرته، وأما الغنيّ فلشحه»[7]. وقيل: كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. وقيل: ما كان إلا ساعة من نهار، وعن علي رضي الله عنه: «إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي. كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم»[8]. قال الكلبي: «تصدق به في عشر كلمات سألهنّ رسول الله ﷺ»[9]. وعن ابن عمر: كان لعلي ثلاث لو كانت لي واحدة منهنّ كانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى، قال ابن عباس: هي منسوخة بالآية التي بعدها. وقيل: هي منسوخة بالزكاة.

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾.

﴿**أأشفقتم**﴾ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه وأنّ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴿**فإذا لم تفعلوا**﴾ ما أمرتم به وشق عليكم و ﴿**تاب الله عليكم**﴾ وعذركم ورخص لكم في أن لا تفعلوه. فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات ﴿**بما تعملون**﴾ قرئ بالتاء والياء.

﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤﴾.

كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله تعالى: ﴿من لعنه الله وغضب الله﴾[10] ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿**ما هم منكم**﴾ يا مسلمون ﴿**ولا منهم**﴾ ولا من اليهود كقوله تعالى: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾[11] ﴿**ويحلفون على الكذب**﴾ أي: يقولون والله إنا لمسلمون فيحلفون على الكذب الذي هو ادعاء الإسلام. ﴿**وهم يعلمون**﴾ أن المحلوف عليه كذب بحت.

فإن قُلْتَ: فما فائدة قولهم وهم يعلمون؟ **قُلْتُ**: الكذب أن يكون الخبر لا على وفاق المخبر عنه سواء علم المخبر أو لم يعلم. فالمعنى: أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه وهم عالمون بذلك متعمدون له كمن يحلف بالغموس، وقيل: «كان عبد الله بن نبتل المنافق يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينا رسول الله في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان»، فدخل ابن نبتل وكان أزرق. فقال له النبي ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك»؟ فحلف بالله ما فعل. فقال عليه السلام: «فعلت». فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه[12] فنزلت.

---

(1) أخرجه أبو يعلى بلفظ فضل العالم على العابد سبعين درجة (الحديث رقم: 856).

(2) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب: فضل العلماء والحث من طلب العلم (الحديث رقم: 223)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم (الحديث رقم: 3641)، وأخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل الفقه على العبادة (الحديث رقم: 2682).

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (الحديث رقم: 4313)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في طلب العلم فصل في فضل العلم وشرفه (الحديث رقم: 1707).

(4) مسند الفردوس.

(5) رواه ابن عبد البر في كتاب: العلم من غير سند. والزيلعي 3/429.

(6) لم يخرجه الزيلعي.

(7) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، ومن سورة المجادلة (الحديث رقم: 3300)، وابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 6941).

(8) رواه الحاكم في المستدرك 2/482.

(9) قال الزيلعي لم أجده 3/431.

(10) سورة المائدة، الآية: 60.

(11) سورة النساء، الآية: 143.

(12) رواه الحاكم في المستدرك 2/482 وأحمد في المسند 1/267.

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾.

﴿عذابًا شديدًا﴾ نوعًا من العذاب مفاقمًا **﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾** يعني: انهم كانوا في الزمان الماضي المتطاول على سوء العمل مصرين عليه أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة.

ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾.

وقرئ **﴿إيمانهم﴾** بالكسر أي: اتخذوا أيمانهم التي حلفوا بها أو أيمانهم الذي أظهروه **﴿جنة﴾** أي سترة يتسترون بها من المؤمنين ومن قتلهم.

﴿فصدوا﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم **﴿عن سبيل الله﴾** وكانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويضعفون أمر المسلمين عندهم.

لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾.

وإنما وعدهم الله العذاب المهين المخزي لكفرهم وصدهم كقوله تعالى: **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب﴾** **﴿من الله﴾** من عذاب الله **﴿شيئًا﴾** قليلاً من الاغناء. روي أنّ رجلاً منهم قال: لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾.

﴿فيحلفون﴾ لله تعالى على أنهم مسلمون في الآخرة **﴿كما يحلفون لكم﴾** في الدنيا على ذلك **﴿ويحسبون انهم على شيء﴾** من النفع يعني: ليس العجب من حلفهم لكم فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر وأن لهم نفعًا في ذلك دفعًا عن أرواحهم واستجرار فوائد دنيوية، وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون. ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل، والمراد: وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونهم عليه وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باقٍ فيهم لا يضمحل. كما قال: ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه. وقد اختلف العلماء في كذبهم في الآخرة والقرآن ناطق بثباته نطقًا مكشوفًا كما ترى في هذه الآية وفي قوله تعالى: **﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾**[1] نظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون، ونحو حسبانهم أنهم على شيء من النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقتبسوا من نورهم لحسبان أن الإيمان الظاهر مما ينفعهم. وقيل عن ذلك: يختم على أفواههم **﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾** يعني: انهم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب حيث استوت حالهم فيه في الدنيا والآخرة.

ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾.

﴿استحوذ عليهم﴾ استولى عليهم من حاذ الحمار العانة إذا جمعها وساقها غالبًا لها، ومنه كان أحوذيًا نسيج وحده وهو أحد ما جاء على الأصل نحو استصوب واستنوق أي: ملكهم **﴿الشيطان﴾** لطاعتهم له في كل ما يريده منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه. **﴿فانساهم﴾** أن يذكروا الله أصلاً لا بقلوبهم ولا بألسنتهم. قال أبو عبيدة: حزب الشيطان جنده.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾.

﴿في الأذلين﴾ في جملة من هو أذل خلق الله لا ترى أحدًا أذل منهم.

كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾.

﴿كتب الله﴾ في اللوح **﴿لأغلبن انا ورسلي﴾** بالحجة والسيف أو بأحدهما.

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿لا تجد قومًا﴾ من باب التخييل خيل أنّ من الممتنع المحال أن تجد قومًا مؤمنين يوالون المشركين. والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغةً في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم وزاد ذلك تأكيدًا وتشديدًا بقوله: **﴿ولو كانوا آباءهم﴾** وبقوله: **﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾** وبمقابلة قوله: **﴿أولئك حزب الشيطان﴾** بقوله: **﴿أولئك حزب الله﴾** فلا تجد شيئًا أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه بل هو الإخلاص بعينه **﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾** أثبته فيها بما وفقهم فيه وشرح له صدورهم **﴿وأيدهم بروح منه﴾** بلطف من عنده حييت به قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للإيمان أي: بروح من الإيمان على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 23.

وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي رواد أنه لقيه المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت إلي لا تجد قومًا»[1]. وروي أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أنّ أبا قحافة سب رسول الله ﷺ فصكه صكة سقط منها. فقال له رسول الله: «أوفعلته»؟ قال: «نعم» قال: «لا تعد». قال: «والله لو كان السيف قريبًا مني لقتلته»[2]. وقيل في أبي عبيدة بن الجراح: قتل أباه عبد الله الجراح يوم أحد. وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز وقال لرسول الله: دعني أكن في الرحلة الأولى قال: «متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري»[3]. وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد. وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر. وفي علي وحمزة وعبيدة بن الحرث قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة»[4].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر مدنية

«صالح بنو النضير رسول الله ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له. فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي الذي نعته في التوراة لا ترد له راية. فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا. فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبًا إلى مكة فحالفوا عليه قريشًا عند الكعبة، فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعبًا غيلةً وكان أخاه من الرضاعة، ثم صبحهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحب إلينا من ذاك. فتنادوا بالحرب، وقيل: استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا للخروج فدس عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه إليهم لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لنخرجنّ معكم. فدرّبوا على الأزقة وحصنوها فحاصرهم إحدى عشرين ليلة فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم. فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة»[5].

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾.

اللام في **﴿لأوّل﴾** الحشر تتعلق بأخرج وهي اللام في قوله تعالى: **﴿يا ليتني قدّمت لحياتي﴾**[6] وقولك جئته لوقت كذا والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أوّل الحشر. ومعنى **﴿أوّل الحشر﴾**: أن هذا أوّل حشرهم إلى الشام. وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم أوّل من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، أو هذا أوّل حشرهم وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام. وقيل: آخر حشرهم حشر يوم القيامة؛ لأنّ المحشر يكون بالشام، وعن عكرمة: من شك أنّ المحشر ههنا يعني: الشام. فليقرأ هذه الآية. وقيل: معناه أخرجهم من ديارهم لأوّل ما حشر لقتالهم؛ لأنه أوّل قتال قاتلهم رسول الله ﷺ **﴿ما ظننتم ان يخرجوا﴾** لشدّة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدّتهم وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم من بأس الله **﴿فأتاهم﴾** أمر الله **﴿من حيث لم يحتسبوا﴾** من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم. وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرّة على يد أخيه، وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب والهمم أن يوافقوا المؤمنين في تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم. وهذا كله لم يكن في حسبانهم ومنه أتاهم الهلاك.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين قولك وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم أو مانعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ **قُلْتُ**: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم وفي تصيير ضميرهم اسمًا لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرّض لهم أو يطمع في معازتهم وليس ذلك في قولك:

وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم

وقرئ: **﴿فآتاهم الله﴾** أي: فآتاهم الهلاك. و**﴿الرعب﴾**

---

(1) رواه ابن مردويه في تفسيره وفي مسند الفردوس. والزيلعي 3/ 432.

(2) قال الزيلعي غريب ونقله الثعلبي 3/433.

(3) رواه الثعلبي في تفسيره. والزيلعي 3/433.

(4) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم 3/434.

(5) قال الزيلعي غريب وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند 3/ 438.

(6) قال أحمد: كأنه يريد أنها اللام التي تصحب التاريخ، كقوله: كتبت لعام كذا ولشهر كذا.

الخوف الذي يرعب الصدر أي: يملؤه. وقذفه إثباته وركزه. ومنه قالوا في صفة الأسد مقذف كأنما قذف باللحم قذفًا لاكتنازه وتداخل أجزائه. وقرئ يخرّبون ويخربون مثقلاً ومخففًا والتخريب والإخراب الإفساد بالنقض والهدم، والخربة الفساد. كانوا يخربون بواطنها والمسلمون ظواهرها لما أراد الله من استئصال شأفتهم وأن لا يبقى لهم بالمدينة دار ولا منهم ديار. والذي دعاهم إلى التخريب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدّوا بها أفواه الأزقة، وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيد الخشب والساج المليح، وأما المؤمنون فداعيهم إزالة متحصنهم ومتمنعهم وأن يتسع لهم مجال الحرب.

فإن قُلْتَ: ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين؟ **قُلْتُ:** لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه. **﴿فاعتبروا﴾** بما دبر الله ويسر من أمر إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال. وقيل: وعد رسول الله ﷺ المسلمين أن يورثهم الله أرضهم وأموالهم بغير قتال فكان كما قال يعني: أنّ الله قد عزم على تطهير أرض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم وتوريثهم أموالهم.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾.

فلولا أنه كتب **﴿عليهم الجلاء﴾** واقتضته حكمته ودعاه إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت **﴿لعذبهم في الدنيا﴾** بالقتل كما فعل بإخوانهم بني قريظة **﴿ولهم﴾** سواء أجلوا أو قتلوا **﴿عذاب النار﴾** يعني: إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾.

﴿من لينة﴾ بيان لما قطعتم ومحل ما نصب بقطعتم كأنه قال: أي شيء قطعتم وأنث الضمير الراجع إلى ما في قوله: **﴿أو تركتموها﴾** لأنه في معنى اللينة، واللينة النخلة من الألوان وهي ضروب النخل ما خلا العجوة والبرنية وهما أجود النخيل[1]. وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها كالديمة وقيل: اللينة النخلة الكريمة كأنهم اشتقوها من اللين. قال ذو الرمّة:

كأنّ قتودي فوقها عش طائر ... على لينة سوقاء تهفو جنوبها

وجمعها لين. وقرئ قوّمًا وعلى أصلها وفيه وجهان: أنه جمع أصل كرهن ورهن، أو اكتفى فيه بالضمة عن الواو وقرئ قائمًا على أصوله ذهابًا إلى لفظ ما **﴿فبإذن الله﴾** فقطعها بإذن الله وأمره **﴿وليخزي الفاسقين﴾** وليذل اليهود ويغيظهم إذن في قطعها، وذلك أن رسول الله ﷺ حين أمر أن تقطع نخلهم وتحرق قالوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها، فكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء[2] فنزلت. يعني: أنّ الله أذن لهم في قطعها ليزيدكم غيظًا ويضاعف لكم حسرة إذا رأيتموهم يتحكمون في أموالكم كيف أحبوا، ويتصرفون فيها ما شاؤوا. واتفق العلماء أنّ حصون الكفرة وديارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة، وعن ابن مسعود: قطعوا منها ما كان موضعًا للقتال.

فإن قُلْتَ: لم خصت اللينة بالقطع؟ **قُلْتُ:** إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد وأشق. وروي أن رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة والآخر اللون فسألهما رسول الله ﷺ فقال: هذا تركتها لرسول الله. وقال: هذا قطعتها غيظًا للكفار[3]. وقد استدل به على جواز الاجتهاد وعلى جوازه بحضرة الرسول ﷺ؛ لأنهما بالاجتهاد فعلا ذلك. واحتج به من يقول كل مجتهد مصيب.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾.

﴿أفاء الله على رسوله﴾ جعله له فيأ خاصة. والإيجاف من الوجيف، وهو: السير السريع، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الإفاضة من عرفات: «ليس البرّ بإيجاف الخيل ولا إيضاع الإبل على هينتكم»[4]. ومعنى **﴿فما أوجفتم عليه﴾** فما أوجفتم على تحصيله وتغنمه خيلاً ولا ركابًا ولا تعبتم في القتال عليه وإنما مشيتم إليه على أرجلكم. والمعنى: أنّ ما خوّل الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ولكن سلطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم. فالأمر فيه مفوّض إليه يضعه حيث يشاء

---

(1) قال أحمد: والظاهر أنّ الإذن عام في القطع والترك؛ لأنه جواب الشرط المضمر لهما جميعاً، ويكون التعليل بإجزاء الفاسقين لهما جميعاً، وأنّ القطع يحسرهم على ذهابها، والترك يحسرهم على بقائها للمسلمين ينتفعون بها، فهم في حسرتين من الأمرين جميعاً.

(2) أخرجه أبو داود في المراسيل باب: في قطع الشجر (الحديث رقم: 346).

(3) قال الزيلعي غريب، وساق حديث نحوه عند البيهقي في دلائل النبوة وآخر عند الواحدي في المغازي 3/439.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: أمر النبي ﷺ عند الافاضة (الحديث رقم: 1671) وأبو داود في كتاب: المناسك، باب: الدفعة من عرفة (الحديث رقم: 1920).

يعني أنه لا يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهرًا، وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت. لم يدخل العاطف على هذه الجملة لأنها بيان للأولى فهي منها غير أجنبية عنها.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

بيّن لرسول الله ﷺ ما يصنع بما أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسومًا على الأقسام الخمسة. والدولة والدولة بالفتح والضم وقد قرئ بهما ما يدول للإنسان أي: يدور من الجد يقال: دالت له الدولة، وأديل لفلان. ومعنى قوله تعالى: **﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾** كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطي الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جدًا بين الأغنياء يتكاثرون به، أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم، ومعنى الدولة الجاهلية: أن الرؤساء منهم كانوا يستأخرون بالغنيمة؛ لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة وكانوا يقولون: من عزيز. والمعنى: كيلا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية، ومنه قول الحسن: اتخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً يريد: من غلب منهم أخذه واستأثر به. وقيل: الدولة ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف يعني: كيلا يكون الفيء شيئًا يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء. والدولة بالفتح بمعنى التداول أي: كيلا يكون ذا تداول بينهم أو كيلا يكون إمساكه تداولاً بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء. وقرئ دولة بالرفع على كان التامة كقوله تعالى: وإن كان ذو عسرة يعني: كيلا يقع دولة جاهلية ولينقطع أثرها أو كيلا يكون تداول له بينهم أو كيلا يكون شيء متعاور بينهم غير مخرج إلى الفقراء. **﴿وما آتاكم الرسول﴾** من قسمة غنيمة أو فيء **﴿فخذوه وما نهاكم﴾** عن أخذ منها **﴿فانتهوا﴾** عنه ولا تتبعه أنفسكم **﴿واتقوا الله﴾** أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه **﴿إن الله شديد العقاب﴾** لمن خالف رسوله والأجود أن يكون عامًا في كل ما آتى رسول الله ﷺ ونهى عنه وأمر للفيء داخل في عمومه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه لقي رجلاً محرمًا وعليه ثيابه فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل: اقرأ عليّ في هذا آية من كتاب الله. قال: نعم فقرأها عليه.

﴿للفقراء﴾ بدل من قوله: **﴿لذي القربى﴾** والمعطوف عليه والذي منع الإبدال من الله والرسول[1] والمعطوف عليهما وإن كان المعنى لرسول الله ﷺ أنّ الله عزّ وجل

---

(1) قال أحمد: مذهب أبي حنيفة: أن استحقاق ذوي القربى لسهمهم من الفيء موقوف على الفقراء حتى لا يستحقه أغنياؤهم، وقد أغلظ الشافعي رضي الله عنه فيما نقله عنه إمام الحرمين الردّ على هذا المذهب، بأن الله تعالى علق الاستحقاق بالقرابة، ولم يشترط الحاجة، وعدم اعتبار القرابة مضادة محادّة، واعتذر إمام الحرمين لأبي حنيفة، بأن الصدقات لما حرّمت عليهم كان فائدة ذكرهم في خمس الفيء والغنيمة، أنه لا يمنع صرف ذلك إليهم امتناع صرف الصدقات، ثم اتبع هذا العذر بأن قال: لا ينبغي أن يعبر به، فإن صيغة الآية ناصة على الاستحقاق لهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على عظم أقدارهم، فمن حمل ذلك على جواز الصرف إليهم مع معارضة هذا الجواز بجواز حرمانهم، فقد عطل فحوى الآية، ثم استعظم الإمام وقع ذلك عليهم؛ لأنهم يذهبون إلى اشتراط الإيمان في رقبة الظهار زيادة على النص، فيأتون في إثبات ذلك بالقياس؛ لأنه يستنتج وليس من شأنه الثبوت بالقياس، قال: فكذلك يلزمهم أن يعتقدوا أن اشتراط الفقر في القرابة واشتراط الحاجة لقرب ما ذكروه بغرض القرب، فأما وإن أصلهم المخصوصون من نسب الرسول عليه الصلاة والسلام والثابتون من شجرته كالعجمة، فلا يبقى مع هذا لمذهبهم وجه، انتهى كلام الإمام، وإنما أوردته ليعلم إن معارضته لأبي حنيفة على أن اشتراط الحاجة عند أبي حنيفة مستند إلى قياس أو نحوه من الأسباب الخارجة عن الآية، فلذلك لزمه أن تكون زيادة على النص، فأما وقد تلقى أبو حنيفة اعتبار الحاجة من تقييد هذا البدل المذكور في الآية، فإنما يسلك معه في واد غير هذا، فيقول: هو بدل من المساكين لا غير، وتقريره أنه سبحانه أراد أن يصف المساكين بصفات تؤكد استحقاقهم، ويحمل الأغنياء على إيثارهم، = وأن لا يجدوا في صدورهم حاجة مما أوتوا، فلما قصد ذلك، وقد فصل بين ذكرهم وبين ما يقصد من ذكر صفاتهم، بقوله: ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ إلى قوله: ﴿شديد العقاب﴾ طري ذكرهم ليكون توطئة للصفات المتتالية بعده، فذكر بصفة أخرى مناسبة للصفة الأولى مبدلة منها، وهي: الفقر لتشهد النظرية على فائدة الجمع لهم بين صفتي المسكنة والفقر، ثم تليت صفاتهم على أثر ذلك، وهي: إخراجهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين، وابتغاؤهم الفضل والرضوان من الله، ونصرهم الله ورسوله، وصدقهم في نياتهم إلى آخر ذلك، فهذا هو الذي يرشد إليه السياق مؤيداً بالأصل، فإن ذوي القربى ذكروا بصفة الإطلاق، فالأصل بقاؤهم على ذلك حتى يتحقق أنهم مرادون بالتقييد، وما ذكرناه من صرف ذلك إلى المساكين يكفي في إقامة وزن الكلام، فيبقى ذوو القربى على أصل الإطلاق، وتلك قاعدة لا يسع الحنفية مدافعتها، فإنهم يرون الاستثناء المتعقب للجمل، يخلص بالجملة الأخيرة؛ لأن عوده إليها يقيم وزن الكلام ويبقي ما تقدمهن على الأصل، ولا فرق بين التعقيب بالاستثناء والبدل، وكل ما سوى هذا مع أنه لو جعل بدلاً من ذوي القربى مع ما بعده، لم يكن إبداله من ذوي القربى إلا بدل بعض من كل، فإنّ ذوي القربى منقسمون إلى فقراء وأغنياء، ولم يكن إبداله من المساكين إلا بدلاً للشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، فيلزم أن يكون هذا البدل محسوساً بالنوعين المذكورين في حالة واحدة، وذلك متعذر لما بين النوعين من الاختلاف والتباين وكل منهما يتقاضى ما يأباه الآخر، فهذا القدر كاف إن شاء الله تعالى، وعليه أعرب الزجاج الآية، فجعله بدلاً من المساكين خاصة، والله تعالى الموفق للصواب.

أخرج رسوله من الفقراء في قوله: ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ وأنه يترفع برسول الله عن التسمية بالفقير وأنّ الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عزّ وجل. ﴿أولئك هم الصادقون﴾ في إيمانهم وجهادهم.

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾.

﴿والذين تبوّؤا﴾ معطوف على المهاجرين وهم الأنصار.

فإن قُلْتَ: ما معنى عطف الإيمان على الدار، ولا يقال تبوّؤا الإيمان؟ **قُلْتُ:** معناه تبوّؤا الدار، واخلصوا الإيمان كقوله: علفتها تبنًا وماءً باردًا، أو وجعلوا الإيمان مستقرًا ومتوطنًا لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه كما جعلوا المدينة كذلك، أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه، أو سمى المدينة؛ لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان بالإيمان. ﴿من قبلهم﴾ من قبل المهاجرين؛ لأنهم سبقوهم في تبوؤ دار الهجرة والإيمان. وقيل: من قبل هجرتهم ﴿ولا يجدون﴾ ولا يعلمون في أنفسهم ﴿حاجة مما أوتوا﴾ أي: طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره، والمحتاج إليه يسمى حاجة. يقال: خذ منه حاجتك، وأعطاه من ماله حاجته. يعني: أنّ نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه ﴿ولو كان بهم خصاصة﴾ أي: خلة وأصلها خصاص البيت وهي فروجه. والجملة في موضع الحال أي: مفروضة خصاصتهم. وكان رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين: أبا دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحرث بن الصمة. وقال لهم: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة»، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة. فقالت الأنصار: بل تقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت. الشح بالضم والكسر وقد قرئ بهما اللؤم وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع كما قال:

يمارس نفسًا بين جنبيه كزة … إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها، وأما البخل: فهو المنع نفسه ومنه قوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾[1] ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ ومن غلب ما أمرته به منه وخالف هواها بمعونة الله وتوفيقه ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ الظافرون بما أرادوا، وقرئ: ومن يوق.

وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾.

﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ عطف أيضًا على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد وقيل: التابعون بإحسان ﴿غلا﴾ وقرئ غمرًا وهما الحقد ﴿لإخوانهم﴾ للذين بينهم وبينهم اخوة الكفر ولأنهم كانوا يوالونهم ويؤاخونهم وكانوا معهم على المؤمنين في السر.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾.

﴿ولا نطيع فيكم﴾ في قتالكم أحدًا من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه أو في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة ﴿لكاذبون﴾ أي: في مواعيدهم لليهود وفيه دليل على صحة النبوّة لأنه إخبار بالغيوب.

لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾.

فإن قُلْتَ: كيف؟ قيل:

﴿ولئن نصروهم﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ **قُلْتُ:** معناه ولئن نصروهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾[2] وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك أي: يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين ﴿رهبة﴾ مصدر رهب المبنى للمفعول كانه قيل: أشد مرهوبية. وقوله:

﴿في صدورهم﴾ دلالة على نفاقهم يعني: أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأنتم أهيب في صدورهم من الله.

فإن قُلْتَ: كانهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد! **قُلْتُ:** معناه أن رهبتهم في السر منكم أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم، وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله. ويجوز أن يريد أنّ اليهود يخافونكم في صدورهم أشد من خوفهم من الله؛ لأنهم كانوا قومًا أولى بأس ونجدة فكانوا يتشجعون لهم مع إضمار الخيفة في صدورهم. ﴿لا يفقهون﴾ لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه وحق خشيته.

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والامارة والفئ، باب: في خبر النضير (الحديث رقم: 3004).

(2) سورة الزمر، الآية: 65.

بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾.

﴿لا يقاتلونكم﴾ لا يقدرون على مقاتلتكم ﴿جميعًا﴾ مجتمعين متساندين يعني: اليهود والمنافقين ﴿إلا﴾ كائنين ﴿في قرى محصنة﴾ بالخنادق والدروب ﴿أو من وراء جدر﴾ دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم لقذف الله الرعب في قلوبهم، وأن تأييد الله تعالى ونصرته معكم. وقرئ: جدر بالتخفيف، وجدار وجدر وجدروهما الجدار ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ يعني: أنّ البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدّة؛ لأنّ الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله ﴿تحسبهم جميعًا﴾ مجتمعين ذوي ألفة واتحاد ﴿وقلوبهم شتى﴾ متفرقة لا ألفة بينها يعني: أنّ بينهم إحنًا وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿قوم لا يعقلون﴾ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ أي: مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿قريبًا﴾؟ قُلْتُ: بمثل على كوجود مثل أهل بدر قريبًا ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ من قولهم: كلأ وبيل وخيم سيء العاقبة. يعني: ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار. مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر ثم متاركتهم لهم وإخلافهم.

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾.

﴿كمثل الشيطان﴾ إذا استغوى الإنسان بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة، والمراد استغواؤه قريشًا يوم بدر وقوله لهم: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ إلى قوله: ﴿إني بريء منكم﴾ وقرأ ابن مسعود: خالدان فيها على أنه خبر إنّ و﴿في النار﴾ لغو وعلى القراءة المشهورة الظرف مستقر و﴿خالدين فيها﴾ حال. وقرئ: أنا بريء وعاقبتهما بالرفع.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾.

كرّر الأمر بالتقوى تأكيدًا و﴿اتقوا الله﴾ في أداء الواجبات؛ لأنه قرن بما هو عمل، واتقوا الله في ترك المعاصي؛ لأنه قرن بما يجري مجرى الوعيد. والغد يوم القيامة سماه باليوم الذي يلي يومك تقريبًا له[1]. وعن الحسن: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد، ونحوه قوله تعالى: كأن لم تغن بالأمس. يريد: تقريب الزمان الماضي وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد.

فإن قُلْتَ: ما معنى تنكير النفس والغد؟ قُلْتُ: أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة. كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره كأنه قيل: لغد لا يعرف كنهه لعظمه. وعن مالك بن دينار: مكتوب على باب الجنة: وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدمنا، خسرنا ما خلفنا.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿نسوا الله﴾ نسوا حقه فجعلهم ناسين حق أنفسهم بالخذلان[2] حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده، أو فأراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾. هذا تنبيه للناس وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما، وأن الفوز مع أصحاب الجنة. فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينهوا عليه كما تقول لمن يعق أباه: هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنبهه بذلك على حق الأبوّة الذي يقتضي البر والتعطف. وقد استدل أصحاب الشافعي رضي الله عنه بهذه الآية. على أن المسلم لا يقتل بالكافر وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر.

لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾.

---

(1) قال أحمد: وقد قيل في قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ كقوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا﴾ حتى قيل: إنه من عكس الكلام الذي يقصد به الإفراط فيما يعكس عنه، كقوله: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ فمعنى رب ههنا: هو معنى كم وأبلغ منه قول القائل:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

إلا أنّ الزمخشري فرّ من هذا المعنى؛ لأنّ الواقع قلة النفوس الناظرة في أمر المعاد، فنزله على معنى يطابق الواقع، ويمكن أن = يلاحظ الأمر فيسوغ حمله على التكثير للنفوس المأمورات بالنظر في المعاد، وأنه ما من نفس إلا ومن حقها أن تمتثل هذا الأمر، وهو نظر حسن، فإن الفعل المسند إلى النفس ههنا ليس وقوع النظر حتى يستقل، وإنما هو طلب النظر، وهو عام التعلق بكل نفس، والإنصاف أن ما ذكره الزمخشري أمكن وأحسن، والله الموفق.

(2) قال أحمد: بل خلق فيهم النسيان.

هذا تمثيل وتخييل كما مرّ في قوله تعالى[1]: ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ وقد دل عليه قوله: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾. والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره. وقرئ: مصدّعًا على الإدغام ﴿وتلك الأمثال﴾ إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾.

﴿الغيب﴾ المعدوم ﴿والشهادة﴾ الموجود المدرك كأنه يشاهده. وقيل: ما غاب عن العباد وما شاهدوه. وقيل: السر والعلانية، وقيل: الدنيا والآخرة.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾.

﴿القدوس﴾ بالضم والفتح، وقد قرئ بهما البليغ في النزاهة عما يستقبح ونظيره السبوح. وفي تسبيح الملائكة سبوح قدوس رب الملائكة والروح. و﴿السلام﴾ بمعنى السلامة ومنه دار السلام، وسلام عليكم وصف به مبالغة في وصف كونه سليمًا من النقائص، أو في إعطائه السلام. ﴿والمؤمن﴾ واهب الأمن. وقرئ بفتح الميم بمعنى المؤمن به، على حذف الجار كما تقول في قوم موسى من قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾[2] المختارون بلفظ صفة السبعين. و﴿المهيمن﴾ الرقيب على كل شيء الحافظ له. مفيعل من الأمن إلا أن همزته قلبت هاءً. و ﴿الجبار﴾ القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد أي: أجبره. و﴿المتكبر﴾ البليغ الكبرياء والعظمة. وقيل: المتكبر عن ظلم عباده. و﴿الخالق﴾ المقدّر لما يوجده. ﴿البارئ﴾ المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة. و﴿المصوّر﴾ الممثل. وعن حاطب بن أبي بلتعة أنه قرأ: البارئ المصوّر بفتح الواو ونصب الراء أي: الذي يبرأ المصوّر أي: يميز ما يصوّره بتفاوت الهيآت. وقرأ ابن مسعود: وما في الأرض، عن أبي هريرة رضي الله عنه: سألت حبيبي ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال: «عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته»[3] فأعدت عليه، فأعاد عليّ. فأعدت عليه فأعاد عليّ. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الممتحنة مدنية

روي أنّ مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها: سارة أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها: «أمسلمة جئت»؟ قالت: لا. قال: «أفمهاجرة جئت»؟ قالت: لا. قال: «فما جاء بك»؟ قالت: كنتم الأهل والموالي والعشيرة، وقد ذهبت الموالي. تعني: قتلوا يوم بدر، فاحتجت حاجة شديدة، فحث عليها بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وزوّدوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها بردًا واستحملها كتابًا إلى أهل مكة نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، اعلموا أنّ رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم. فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر. فبعث رسول الله ﷺ عليًا وعمارًا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرسانًا وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينةً معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها، فإن أبت فاضربوا عنقها». فادركوها، فجحدت وحلفت، فهمّوا بالرجوع. فقال علي رضي الله عنه: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله وسل سيفه وقال: أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك. فأخرجته من عقاص شعرها[5]. وروي أنّ رسول الله ﷺ أمّن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة هي أحدهم[6]. فاستحضر رسول الله حاطبًا وقال: «ما حملك عليه»؟ فقال: يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرأ ملصقًا في قريش، وروي: عزيزًا فيهم أي: غريبًا. ولم أكن من أنفسها وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يدًا، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه وأنّ كتابي لا يغني عنهم شيئًا. فصدقه وقبل عذره. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «وما يدريك يا عمر لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ففاضت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم فنزلت.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ

(1) قال أحمد: وهذا مما تقدّم إنكاري عليه فيه، أفلا كان يتأنّب بأدب الآية، حيث سمى الله هذا مثلاً، ولم يقل: وتلك الخيالات نضربها للناس، ألهمنا الله حسن الأدب معه، والله الموفق.
(2) سورة الأعراف، الآية: 155.
(3) رواه الثعلبي والواحدي في تفسيرهما والزيلعي 3/442.
(4) رواه الثعلبي في تفسيره والزيلعي 3/443.
(5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة الممتحنة باب: ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ (الحديث رقم: 4890)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر (الحديث رقم: 161 ـ 2494).
(6) رواه الدارقطني في السنن في كتاب: الحج، باب: المواقيت (الحديث رقم: 292).

إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾.

عدى اتخذ إلى مفعوليه وهما: ﴿عدوي﴾ ﴿أولياء﴾ والعدوّ فعول من عدا كعفو من عفا، ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد.

فإن قُلْتَ: ﴿تلقون﴾ بم يتعلق؟ قُلْتُ: يجوز أن يتعلق بلا تتخذوا حالاً من ضميره وبأولياء صفةً له، ويجوز أن يكون استئنافًا.

فإن قُلْتَ: إذا جعلته صفة لأولياء وقد جرى على غير من هو له فأين الضمير البارز وهو قولك: تلقون إليهم أنتم بالمودة! قُلْتُ: ذلك إنما اشترطوه في الأسماء دون الأفعال. لو قيل: أولياء ملقين إليهم بالمودّة على الوصف لما كان بد من الضمير البارز والإلقاء عبارة عن إيصال المودّة والإفضاء بها إليهم. يقال: ألقى إليه خراشي صدره، وأفضى إليه بقشوره. والباء في ﴿بالمودّة﴾ إمّا زائدة مؤكدة للتعدي مثلها في: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. وإمّا ثابتة على أنّ مفعول تلقون محذوف معناه: تلقون إليهم أخبار رسول الله بسبب المودّة التي بينكم وبينهم. وكذلك قوله: تسرون إليهم بالمودة. أي: تفضون إليهم بمودتكم سرًا، أو تسرون إليهم أسرار رسول الله بسبب المودّة.

فإن قُلْتَ: ﴿وقد كفروا﴾ حال مماذا؟ قُلْتُ: إمّا من ﴿لا تتخذوا﴾ وإما من ﴿تلقون﴾ أي: لا تتولوهم أو توادونهم وهذه حالهم. و﴿يخرجون﴾ استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوّهم أو حال من كفروا و﴿أن تؤمنوا﴾ تعليل ليخرجون أي: يخرجونكم لإيمانكم. و﴿إن كنتم خرجتم﴾ متعلق بلا تتخذوا. يعني: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي. وقول النحويين في مثله هو شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه. و﴿تسرون﴾ استئناف ومعناه: أي طائل لكم في اسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي لا تفاوت بينهما. وأنا مطلع رسولي على ما تسرون. ﴿ومن يفعله﴾ ومن يفعل هذا الإسرار فقد أخطأ طريق الحق والصواب. وقرأ الجحدري: لما جاءكم أي: كفروا لأجل ما جاءكم. بمعنى: أن ما كان يجب أن يكون سبب إيمانهم جعلوه سببًا لكفرهم.

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾.

﴿إن يثقفوكم﴾ إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم. ﴿يكونوا لكم أعداء﴾ خالصي العداوة ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم ﴿ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ بالقتال والشتم وتمنوا لو ترتدون عن دينكم فإذن موادة أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم ومغالطة لأنفسكم. ونحوه قوله تعالى: ﴿لا يألونكم خبالاً﴾.

فإن قُلْتَ: كيف أورد جواب الشرط مضارعًا مثله ثم قال: ﴿وودوا﴾ بلفظ الماضي؟ قُلْتُ: الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة. كأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعًا من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردّكم كفارًا. وردكم كفارًا أسبق المضار عندهم وأوّلها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم؛ لأنكم بذالون لها دونه، والعدوّ أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه.

لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾.

﴿لن تنفعكم أرحامكم﴾ أي: قراباتكم ﴿ولا أولادكم﴾ الذي توالون الكفار من أجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم. ثم قال: ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾ وبين أقاربكم وأولادكم ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه﴾. الآية. فما لكم ترفضون حق الله مراعاة لحق من يفرّ منكم غدًا خطأ رأيهم في موالاة الكفار بما يرجع إلى حال من والوه أوّلاً ثم بما يرجع إلى حال من اقتضى تلك الموالاة ثانيًا ليريهم أن ما أقدموا عليه من أي جهة نظرت فيه وجدته باطلاً. قرئ: يفصل ويفصل على البناء للمفعول ويفصل ويفصل على البناء للفاعل. وهو الله عزّ وجل. ونفصل ونفصل بالنون.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾.

وقرئ: أسوة وإسوة وهو اسم المؤتسى به. أي: كان فيهم مذهب حسن مرضي بأن يؤتسى به ويتبع أثره. وهو قولهم لكفار قومهم: ما قالوا حيث كاشفوهم بالعداوة وقشروا لهم العصا وأظهروا البغضاء والمقت وصرحوا بأنّ سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله، وما دام هذا السبب قائمًا كانت العداوة قائمة، حتى إن أزالوه وآمنوا بالله وحده انقلبت العداوة موالاة والبغضاء محبة والمقت مقة، فافصحوا عن محض الإخلاص. ومعنى ﴿كفرنا بكم﴾ وبما تعبدون من دون الله أنّا لا نعتدّ بشأنكم ولا بشأن آلهتكم وما أنتم عندنا على شيء.

فإن قُلْتَ: مم استثنى قوله: ﴿إلا قول إبراهيم﴾؟ قُلْتُ: من قوله: ﴿أسوة حسنة﴾ لأنه أراد بالأسوة الحسنة قولهم: الذي حق عليهم أن يأتسوا به ويتّخذونه سنة يستنون بها.

فإن قُلْتَ: فإن كان قوله: ﴿لأستغفرنّ لك﴾ مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة فمال بال قوله: ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾ وهو غير حقيق بالاستثناء. ألا ترى إلى قوله: ﴿قل فمن يملك من الله شيئًا﴾. قُلْتُ: أراد استثناء

جملة قوله لأبيه والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده مبني عليه وتابع له. كأنه قال: أنا أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار.

فإن **قُلْتَ**: بم اتصل قوله: **﴿ربنا عليك توكلنا﴾**؟ **قُلْتُ**: بما قبل الاستثناء وهو من جملة الأسوة الحسنة، ويجوز أن يكون المعنى قولوا: **﴿ربنا﴾** أمرًا من الله تعالى للمؤمنين بأن يقولوه، وتعليمًا منه لهم تتميمًا لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار، والائتساء بإبراهيم وقومه في البراءة منهم، وتنبيهًا على الإنابة إلى الله والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر والاستغفار مما فرط منهم. وقرئ: برآء كشركاء، وبراء كظراف، وبراء على إبدال الضم من الكسر، كرخال ورباب، وبراء على الوصف بالمصدر. والبراء والبراءة كالظماء والظماءة. ثم كرّر الحث على الائتساء بإبراهيم وقومه تقريرًا وتأكيدًا عليهم ولذلك جاء به مصدرًا بالقسم لأنه الغاية في التأكيد.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾.

وأبدل عن قوله: **﴿لكم﴾** قوله: **﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾** وعقبه بقوله: **﴿ومن يتول فإنّ الله هو الغني الحميد﴾** فلم يترك نوعًا من التأكيد إلا جاء به ولما نزلت هذه الآيات تشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم. فلما رأى الله عز وجل منهم الجدّ والصبر على الوجد الشديد وطول التمني للسبب الذي يبيح لهم الموالاة والمواصلة رحمهم، فوعدهم تيسير ما تمنوه فلما يسر فتح مكة ظفرهم الله بأمنيتهم فأسلم قومهم وتمّ بينهم من التحاب والتصافي ما تمّ. وقيل: تزوّج رسول الله ﷺ أمّ حبيبة فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة. وكانت أمّ حبيبة قد أسلمت وهاجرت مع زوجها عبد الله بن أبي جحش إلى الحبشة فتنصر وأرادها على النصرانية فأبت، وصبرت على دينها ومات زوجها. فبعث رسول الله ﷺ إلى النجاشي فخطبها عليه وساق عنه إليها مهرها أربعمائة دينار. وبلغ ذلك أباها فقال: ذلك الفحل لا يقدع أنفه[1].

۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

و**﴿عسى﴾** وعد من الله على عادات الملوك حيث يقولون في بعض الحوائج: عسى أو لعل. فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك، أو قصد به إطماع المؤمنين والله قدير على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة. **﴿والله غفور رحيم﴾** لمن أسلم من المشركين.

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾.

﴿أن تبروهم﴾ بدل من **﴿الذين لم يقاتلوكم﴾**. وكذلك **﴿أن تولوهم﴾** من **﴿الذين قاتلوكم﴾** والمعنى: لا ينهاكم عن مبرّة هؤلاء وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء، وهذا أيضًا رحمة لهم لتشدّدهم وجدّهم في العداوة متقدّمةً لرحمته بتيسير إسلام قومهم حيث رخص لهم في صلة من لم يجاهر منهم بقتال المؤمنين وإخراجهم من ديارهم. وقيل: أراد بهم خزاعة. وكانوا صالحوا رسول الله ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه. وعن مجاهد: هم الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا. وقيل: هم النساء والصبيان. وقيل: قدمت على أسماء بنت أبي بكر أمّها قتيلة بنت عبد العزى وهي مشركة بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها في الدخول فنزلت، فأمرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها»[2]. وعن قتادة: نسختها آية القتال **﴿وتقسطوا إليهم﴾** وتقضوا إليهم بالقسط ولا تظلموهم. وناهيك بتوصية الله المؤمنين أن يستعملوا القسط مع المشركين به ويتحاموا ظلمهم، مترجمة عن حال مسلم يجترئ على ظلم أخيه المسلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾.

﴿إذا جاءكم المؤمنات﴾ سماهنّ مؤمنات لتصديقهنّ بألسنتهنّ ونطقهنّ بكلمة الشهادة ولم يظهر منهنّ ما ينافي ذلك، أو لأنهنّ مشارفات لثبات إيمانهنّ بالامتحان. **﴿فامتحنوهنّ﴾** فابتلوهنّ بالحلف والنظر في الأمارات ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهنّ. وكان رسول الله ﷺ يقول للممتحنة: «بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج، بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، بالله ما خرجت التماس دنيا، بالله ما خرجت إلا حبًا لله ولرسوله»[3]. **﴿الله أعلم بإيمانهنّ﴾** منكم لأنكم لا تكسبون فيه علمًا تطمئن معه نفوسكم وإن استحلفتموهنّ ورزتم أحوالهنّ وعند الله حقيقة العلم به **﴿فإن علمتموهنّ**

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في الولي (الحديث رقم: 2086).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الهبة، باب: الهدية للمشركين (الحديث = رقم: 2620) وأخرجه الحاكم في المستدرك 2/485، وأحمد في المسند 6/347.

(3) أخرجه الزيلعي 3/459 عن الطبري والبزار.

مؤمنات﴾ العلم الذي تبلغه طاقتكم وهو الظنّ الغالب بالحلف وظهور الأمارات ﴿فلا ترجعوهنّ إلى الكفار﴾ فلا تردّوهنّ إلى أزواجهنّ المشركين؛ لأنه لا حلّ بين المؤمنة والمشرك[1]. ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ وأعطوا أزواجهنّ مثل ما دفعوا إليهنّ من المهور. وذلك أن صلح الحديبية كان على أن من أتاكم من أهل مكة ردّ إليهم ومن أتى منكم مكة لم يرد إليكم وكتبوا بذلك كتابًا وختموه. فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة والنبي ﷺ بالحديبية. فأقبل زوجها مسافر المخزومي. قيل: صيفي بن الراهب فقال: يا محمد اردد عليّ امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف فنزلت بيانًا، لأن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء[2]. وعن الضحاك: كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين عهد أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا، فإن دخلت في دينك ولها زوج أن تردّ على زوجها الذي أنفق عليها. وللنبي ﷺ من الشرط مثل ذلك[3]. وعن قتادة. ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد براءة فاستحلفها رسول الله ﷺ فحلفت فأعطى زوجها ما أنفق وتزوّجها عمر[4].

فإن قُلْتَ: كيف سمى الظنّ علمًا في قوله: ﴿فإن علمتموهنّ﴾! قُلْتُ: إيذانًا بأن الظنّ الغالب وما يفضى إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم وأن صاحبه غير داخل في قوله: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم﴾[5].

فإن قُلْتَ: فما فائدة قوله: ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ وذلك معلوم لا شبهة فيه؟ قُلْتُ: فائدته بيان أن لا سبيل لكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلج به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهنّ فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب، وأن ما يؤدّي إليه الامتحان من العلم كافٍ في ذلك، وأن تكليفكم لا يعدوه، ثم نفى عنهم الجناح في تزوّج هؤلاء المهاجرات إذا آتوهنّ أجورهنّ أي: مهورهنّ؛ لأن المهر أجر البضع ولا يخلو إما أن يراد بهاما كان يدفع إليهنّ ليدفعنه إلى أزواجهنّ، فيشترط في إباحة تزوّجهنّ تقديم أدائه، وإما أن يراد أن ذلك إذا دفع إليهنّ على سبيل القرض ثم تزوّجن على ذلك لم يكن به بأس. وإما أن يبين لهم أن ما أعطى أزواجهنّ لا يقوم مقام المهر وأنه لا بدّ من إصداق. وبه احتج أبو حنيفة على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلمًا أو بذمة وبقي الآخر حربيًا وقعت الفرقة. ولا يرى العدّة على المهاجرة ويبيح نكاحها إلا أن تكون حاملاً. ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ والعصمة ما يعتصم به من عقد وسبب يعني: إياكم وإياهنّ ولا تكن بينكم وبينهنّ عصمة ولا علقة زوجية. قال ابن عباس: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّنّ بها من نسائه لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه. وعن النخعي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر. وعن مجاهد: أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار معارفتهن. ﴿واسئلوا ما أنفقتم﴾ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ﴿وليسئلوا ما أنفقوا﴾ من مهور نسائهم المهاجرات. وقرئ: ولا تمسكوا بالتخفيف، ولا تمسكوا بالتثقيل، ولا تمسكوا أي: ولا تتمسكوا ﴿ذلكم حكم الله﴾ يعني: جميع ما ذكر في هذه الآية ﴿يحكم بينكم﴾ كلام مستأنف أو حال من حكم الله على حذف الضمير أي: يحكمه الله أو جعل الحكم حاكمًا على المبالغة. روي أنها لما نزلت هذه الآية أدّى المؤمنون ما أمروا به من أداء مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين، وأبى المشركون أن يؤدّوا شيئًا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين. فنزل قوله:

﴿وإن فاتكم﴾ وإن سبقكم وانفلت منكم ﴿شيء من أزواجكم﴾ أحد منهن إلى الكفار وهو في قراءة ابن مسعود أحد.

---

(1) قال أحمد: هذه الآية مما استدل بها على خطاب الكفار بالفروع؛ لأنه تعالى قال: ﴿لا هنّ حل لهم﴾ والضمير الأوّل للمؤمنات، والثاني للكفار، والمراد به: يحرمن على الكفار؛ لأنّ قسيمه متفق على أنّ المراد به: تحريم الكفار على المؤمنات، فيكون كل من القبيلين المؤمنات والكفار مخاطباً بالحرمة، ولما كان المذهب المعزي إلى أصحاب أبي حنيفة أن الكفار غير مخاطبين، سلك الزمخشري بتفسير الآية ما يوافق ذلك، فحملها على أن المراد نفي الحل بين المؤمنة والكافر على الإجمال، حتى لا يتمحض نسبة الحرمة إلى الكافر وهذا لا متخلص فيه، فإنّ الحل المنفي بين المؤمنة والكافر إلى الحرمة لا بدّ وأن يتعلق بفعل أحدهما أو كليهما إذ هو حكم، فإن تعلق بفعل كل واحد منهما أعني التمكين من المرأة والفعل من الرجل، تحقق خطاب الكافر بالحرمة وتعليقه بفعل المرأة دون فعل الرجل يأباه نظم الآية، فإنه نفى الحل من الجهتين جميعاً، ولو كان كذلك لكفى قوله: ﴿ولا هم يحلون لهنّ﴾ والتحقيق الممتحن على قواعد الأصول هو ما نذكره إن شاء الله تعالى، فنقول: كل من فعلي المؤمنة والكافر ينفي عنه الحل بالتفسير اللائق، فأما فعل المؤمنة وهو التمكين فلا شك في تعلق الحرمة للشرع، باعتبار أنها مخاطبة بأن لا يحصل في الوجود، = على وجه لو حصل لكانت متوعدة على حصوله، وأمّا فعل الكافر وهو الوطء مثلاً فمنفي حله، باعتبار أن الشرع قصد إلى أن لا يحصل الوطء لما يشتمل عليه من المفسدة، وللشرع قصد في أن لا تقع المفاسد، وليس الكافر مورداً للخطاب، ولكن الأئمة مثلاً أو من يقوم مقامهم مخاطبون بأن يمنعوا الكافر كي لا يقع هذا الفعل المنطوي على المفسدة في نظر الشرع، فكلا الفعلين إذاً من جانب المرأة والرجل غرض في أن لا يقع، لكن مورد الخطاب المنطوي على السلامة من المفسدة في حق المرأة هي وفي حق الكافر الأئمة مثلاً، ويتفق المختلفون فيه في خطاب الكفار، وعلى أن للشرع غرضاً في أن لا تحصل المفاسد في الوجود، ألا ترى أنّ الكافر إذا جهر بالفساد بين المسلمين يتفق على وجوب ردعه عن ذلك ومنعه عنه، وما ذاك إلا لما فهم عن الشرع، من طلب سلامه الوجود عن المفاسد، ومورد الخطاب يردع الكافر كي لا يجهر بالفساد يعم الأئمة، والله الموفق.

(2) قال الزيلعي غريب ذكره البغوي هكذا من غير سند 3/460.

(3) قال الزيلعي غريب ذكره البغوي هكذا من غير سند 3/460.

(4) قال الزيلعي غريب ذكره البغوي هكذا من غير سند 3/460.

(5) سورة الإسراء، الآية: 36.

فإن قُلْتَ: هل لإيقاع شيء في هذا الموقع فائدة؟ **قُلْتُ:** نعم الفائدة فيه أن لا يغادر شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر غير معوّض منه تغليظًا في هذا الحكم وتشديدًا فيه **﴿فعاقبتم﴾** من العقبة وهي التوبة، شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة، وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره ومعناه: فجاءت عقبتكم من أداء المهر فآتوا من فاتته امرأته إلى الكفار مثل مهرها من مهر المهاجرة ولا تؤتوه زوجها الكافر. وهكذا عن الزهري: يعطي من صداق من لحق بهم. وقرئ: فأعقبتم فعقبتم بالتشديد فعقبتم بالتخفيف بفتح القاف وكسرها فمعنى أعقبتم دخلتم في العقبة، وعقبتم من عقبه إذا قفاه؛ لأنّ كل واحد من المتعاقبين يقفي صاحبه، وكذلك عقبتم بالتخفيف يقال: عقبه يعقبه وعقبتم نحو تبعتم وقال الزجاج: فعاقبتم فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم والذي ذهبت زوجته كان يعطي من الغنيمة المهر وفسر غيرها من القراءات فكانت العقبى لكم أي: فكانت الغلبة لكم حتى غنمتم. وقيل: جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعة عن الإسلام ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري، وفاطمة بنت أبي أمية كانت تحت عمر بن الخطاب وهي أخت أم سلمة، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس ابن عثمان، وعبدة بنت عبد العزى بن نصلة وزوجها عمرو بن عبدود، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص، وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر. فأعطاهم رسول الله ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ولا يقتلن أولادهنّ﴾ وقرئ: يقتّلن بالتشديد يريد: وأد البنات **﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهنّ﴾** كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبًا؛ لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين. **﴿ولا يعصينك في معروف﴾** فيما تأمرهنّ به من المحسنات وتنهاهنّ عنه من المقبحات. وقيل: كل ما وافق طاعة الله فهو معروف.

فإن قُلْتَ: لو اقتصر على قوله: ولا يعصينك. فقد علم أنّ رسول الله ﷺ لا يأمر إلا بمعروف! **قُلْتُ:** نبّه بذلك على أنّ طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بغاية التوقي والاجتناب. وروي أنّ رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنّعةً متنكرةً خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها[2] فقال عليه الصلاة والسلام: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئًا». فرفعت هند رأسها وقالت: والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمرًا ما رأيناك أخذته على الرجال. تبايع الرجال على الإسلام والجهاد. فقال عليه الصلاة والسلام: «ولا يسرقن». فقالت: إنّ أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات فما أدري أتحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة». قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك. فقال: «ولا يزنين». فقالت: أو تزني الحرة. وفي رواية: ما زنت منهن امرأة فقال عليه الصلاة والسلام: «ولا يقتلن أولادهن». فقالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا فأنتم وهم أعلم. وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر. فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فقال: «ولا يأتين ببهتان». فقالت: والله إنّ البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق. فقال: «ولا يعصينك في معروف» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، وقيل: في كيفية المبايعة دعا بقدح من ماء فغمس فيه يده ثم غمسن أيديهن[3]، وقيل: صافحهن وكان على يده ثوب قطري[4]، وقيل: كان عمر يصافحهن عنه[5]. روي أنّ بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم[6].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ

---

(1) قال الزيلعي غريب ذكره هكذا الثعلبي ثم البغوي عن ابن عباس من غير سند ولا راو 3/461.

(2) قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ، وروى الطبري في تفسيره مختصرًا 3/462.

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (6/365) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (6/38).

(4) أبو داود في المراسيل باب: ما جاء في الفيء والإمارة (الحديث رقم: 373).

(5) أخرجه ابن حبان في كتاب: الجنائز، باب: فضل حمل الجنازة وقولها (الحديث رقم: 3041)، وأبو يعلى (الحديث رقم: 226).

(6) قال أحمد: قد كان الزمخشري ذكر في قوله: ﴿وما يستوي البحران﴾ إلى قوله: ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً﴾ أنّ آخر الآية استطراد، وهو فن من فنون البيان مبوّب عليه عند أهله، وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جداً، فإنه ذم اليهود، واستطرد ذمهم بذم المشركين على نوع حسن من النسبة، وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء في الاستطراد أحسن، ولا أمكن منه ومما صدروا هذا الفن به قوله: إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه. فليس به بأس، وإن كان من جرم، وقوله: إن كنت كاذبة التي حدثتني فنجوت منجى الحرث بن هشام، وقوله:

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾.

فقيل لهم: ﴿لا تتولوا قومًا﴾ مغضوبًا عليهم ﴿قد يئسوا﴾ من أن يكون لهم حظ في الآخرة لعنادهم رسول الله ﷺ وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة ﴿كما يئس الكفار﴾ من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء. وقيل: ﴿من أصحاب القبور﴾ بيان للكفار أي: كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة لأنهم تبينوا قبح حالهم وسوء منقلبهم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الصف مكية

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

﴿لِمَ﴾ هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم وفيم ومم وعم وإلام وعلام. وإنما حذفت الألف لأنّ ما والحرف كشيء واحد ووقع استعمالهما كثيرًا في كلام المستفهم. وقد جاء استعمال الأصل قليلاً والوقف على زيادة هاء السكت أو الإسكان، ومن أسكن في الوصل فلإجرائه مجرى الوقف، كما سمع ثلاثة اربعة بالهاء وإلقاء حركة الهمزة عليها محذوفة. وهذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الموعد. وروي أنّ المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا القتال: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا. فدلهم الله تعالى على الجهاد في سبيله، فولوا يوم أحد، فعيرهم، وقيل: لما أخبر الله بثواب شهداء بدر، قالوا: لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد ولم يفوا. وقيل: كان الرجل يقول: قتلت ولم يقتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، وصبرت، ولم يصبر، وقيل: كان قد أذى المسلمين رجل ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله آخر. فقال عمر لصهيب: أخبر النبي عليه السلام[2] أنك قتلته، فقال: إنما قتلته لله ولرسوله، فقال عمر: يا رسول الله قتله صهيب، قال: «كذلك يا أبا يحيى» قال: نعم. فنزلت في المنتحل، وعن الحسن: نزلت في المنافقين ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم هذا من أفصح كلام وأبلغه في معناه.

كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾.

قصد في ﴿كبر﴾ التعجب من غير لفظه كقوله: غلت ناب كليب بواؤها ومعنى: التعجب تعظيم الأمر[3] في قلوب السامعين، لأنّ التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله وأسند إلى أن تقولوا: ونصب ﴿مقتًا﴾ على تفسيره دلالة على أنّ قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه لفرط تمكن المقت منه، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه ومنه قيل: نكاح المقت للعقد على الرابة ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرًا حتى جعل أشده وأفحشه و﴿عند الله﴾ أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك، وعن بعض السلف أنه قيل له: حدثنا. فسكت، ثم قيل له: حدثنا، فقال: تأمرونني أن أقول ما لا أفعل.

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾.

فاستعجل مقت الله في قوله: ﴿إنّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله﴾ عقيب ذكر مقت المخلف[4] دليل على أنّ المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار فلم يفوا، وقرأ زيد بن علي: يقاتلون بفتح التاء. وقرئ: يقتلون ﴿صفًا﴾ صافين أنفسهم أو مصفوفين ﴿كأنهم﴾ في تراصهم من غير فرجة ولا خلل. ﴿بنيان﴾ رص بعضه إلى بعض مرصف، وقيل: يجوز أن يريد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص، وعن بعضهم: فيه دليل على فضل القتال راجلاً لأنّ الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة، وقوله: صفًا كأنهم بنيان حالان متداخلتان[5].

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا

---

(1) الثعلبي ابن مردويه الواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 465/3.

(2) الثعلبي في تفسيره الزيلعي 7/4.

(3) قال أحمد: وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس، وهو تكراره لقوله: ﴿ما لا تفعلون﴾ وهو لفظ واحد في كلام واحد، ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام، وإلا فقد كان الكلام مستقلاً لو قيل: ﴿كبر مقتاً عند الله﴾ ذلك فما إعادته إلا لمكان هذه الفائدة الثانية، والله أعلم.

(4) قال أحمد: صدق والأوّل كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله، واتقوا الله إنّ الله سميع عليم، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا = أصواتكم فوق صوت النبي﴾ فالنهي العام ورد أوّلاً، والمقصود اندراج هذا الخاص فيه، كما تقول للمقترف جرماً معيناً: لا تفعل ما يلصق العار بك، ولا تشاتم زيداً، وفائدة مثل هذا النظم النهي عن الشيء الواحد مرتين، مندرجاً في العموم ومفرداً بالخصوص، وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين، فإنّ ذلك معدود في حيز التكرار، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل، والله أعلم.

(5) قال أحمد: يريد أنّ معنى الأولى مشتمل على معنى الثانية، لأنّ التراص هيئة للإصطفاف، والله أعلم.

يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾.

﴿وإذ﴾ منصوب بإضمار انكر أو وحين قال لهم ما قال كان كذا وكذا ﴿تؤذونني﴾ كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه في نفسه، وجحود آياته، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه، وعبادتهم البقر، وطلبهم رؤية الله جهرة، والتكذيب الذي هو تضييع حق الله وحقه ﴿وقد تعلمون﴾ في موضع الحال أي: تؤذونني عالمين[1] علمًا يقينًا ﴿اني رسول الله إليكم﴾ وقضية علمكم بذلك وموجبة تعظيمي وتوقيري، لا أن تؤذوني وتستهينوا بي؛ لأنّ من عرف الله وعظمته عظم رسوله علمًا بأن تعظيمه في تعظيم رسوله، ولأن من آذاه كان وعيد الله لاحقًا به ﴿فلما زاغوا﴾ عن الحق ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ بأن منع الطافه عنهم ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ لا يلطف بهم لأنهم ليسوا من أهل اللطف.

فإن قُلْتَ: ما معنى قد في قوله: ﴿وقد تعلمون﴾؟ قُلْتُ: معناه التوكيد كأنه قال: وتعلمون علمًا يقينًا لا شبهة لكم فيه. قيل: إنما قال: يا بني إسرائيل، ولم يقل: يا قوم كما قال: موسى لأنه لا نسب له فيهم[2] فيكونوا قومه والمعنى: أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾

﴿من التوراة﴾ وفي حال تبشيري ﴿برسول ياتي من بعدي﴾ يعني: أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعًا ممن تقدّم وتأخر وقرئ: ﴿من بعديْ﴾ بسكون الياء وفتحها. والخليل وسيبويه يختار أن الفتح، وعن كعب أنّ الحواريين قالوا لعيسى: يا روح الله هل بعدنا من أمّة؟ قال: نعم، أمّة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل.

فإن قُلْتَ: بم انتصب مصدقًا ومبشرًا بما في الرسول من معنى الإرسال أم بإليكم! قُلْتُ: بل بمعنى الإرسال، لأن إليكم صلة للرسول فلا يجوز أن تعمل شيئًا، لأنّ حروف الجرّ لا تعمل بأنفسها ولكن بما فيها من معنى الفعل، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل. وقرئ: هذا ساحر مبين، وأي الناس أشدّ ظلمًا ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله: لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق: هذا سحر، لأنّ السحر كذب وتمويه. وقرأ طلحة بن مصرف: وهو يدّعي، بمعنى: يدعي دعاه وادّعاه نحو لمسه والتمسه، وعنه: يدّعي بمعنى يدعو وهو الله عز وجل.

يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾.

أصله يريدون أن يطفؤا كما جاء في سورة براءة، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدًا له لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتك لإكرامك. كما زيدت اللام في لا أبالك تأكيدًا لمعنى الإضافة في لا أباك. وإطفاء نور الله بأفواههم تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم: في القرآن: هذا سحر، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه.

﴿والله متمّ نوره﴾ أي: متمّ الحق ومبلغه غايته. وقرئ بالإضافة.

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾.

﴿ودين الحق﴾ الملة الحنيفية ﴿ليظهره﴾ ليعليه ﴿على الدين كله﴾ على جميع الأديان المخالفة له، ولعمري لقد فعل فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام، وعن مجاهد: إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام، وقرئ: أرسل نبيه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾.

﴿تنجيكم﴾ قرئ مخففًا ومثقلاً.

---

(1) قال احمد: أهل العربية تقول: إن قد تصحب الماضي لتقريبه من الحال، ومنه قول المؤذن: قد قامت الصلاة، وتشتمل المصاحبة للماضي أيضاً على معنى التوقع، فلذلك قال سيبويه: قد فعل جواب لما يفعل، وقال الخليل: هذا الخبر لقوم ينتظرونه، وأما مع المضارع فإنها تفيد التقليل، مثل: ربما كقولهم: إنّ الكذوب قد يصدق، فإذا كان معناها مع المضارع التقليل، قد دخلت في الآية على مضارع، فالوجه والله أعلم أن يكون هذا من الكلام الذي يقصدون به الإفراط فيما ينعكس عنه، وتكون قد في هذا المعنى نظير ربما في قوله: ﴿ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ فإنها في هذا الموضع أبلغ من كم في التكثير، فلما أوردت ربما في التكثير على عكس معناه الأصلي في التقليل، فكذلك إيراد قد ههنا لتكثير علمهم، أي: تحقيق تأكيده على عكس معناها الأصلي = في تقليل الأصل وعليه:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

وإنما مدح نفسه بكثرة هذا الفعل منه عكس ديدنه الأصلي، ولا يقال: أن حملها في الآية على التكثير متعذر؛ لأنّ العلم معلوم التعلق لا يتكثر ولا يتقلل؛ لانا نقول يعبر عن تمكن الفعل وتحققه وتأكده وبلوغه الغاية في نوعه، بما يعبر به عن التكثير، وهو تعبير صحيح، الا ترى أن قوله: ﴿ربما يودّ الذين كفروا﴾ وهو من هذا القبيل، فإن المراد شدّة ودّهم لذلك وبلوغه أقصى منتهاه لا غير، والله الموفق.

(2) قال احمد: وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إذ قال لهم شعيب﴾؛ لأنّ شعيباً لم يكن من قوم من أرسل إليهم.

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

و﴿تؤمنون﴾ استئناف كأنهم قالوا كيف نعمل؟ فقال: تؤمنون[1]، وهو خبر في معنى الأمر ولهذا أجيب بقوله: ﴿يغفر لكم﴾ وتدل عليه قراءة ابن مسعود: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا.

فإن قُلْتَ: لم جيء به على لفظ الخبر؟ قُلْتُ: للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين، ونظيره قول الداعي: غفر الله لك، ويغفر الله لك، جعلت المغفرة لقوّة الرجاء كأنها كانت ووجدت.

فإن قُلْتَ: هل لقول الفراء أنه جواب هل أدلكم وجه؟ قُلْتُ: وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد، فكأنه قيل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم.

فإن قُلْتَ: فما وجه قراءة زيد بن علي رضي الله عنهما: تؤمنوا وتجاهدوا؟ قُلْتُ: وجهها أن تكون على إضمار لام الأمر كقوله:

محمد تفد نفسك كل نفس — إذا ما خفت من أمر تبالا

وعن ابن عباس أنهم قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه فنزلت هذه الآية. فمكثوا ما شاء الله يقولون: ليتنا نعلم ما هي فدلهم الله عليها بقوله: ﴿تؤمنون﴾. وهذا دليل على أن تؤمنون كلام مستأنف وعلى أنّ الأمر الوارد على النفوس بعد تشوف وتطلع منها إليه أوقع فيها وأقرب من قولها له مما فوجئت به ﴿ذلكم﴾ يعني: ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خير لكم﴾ من أموالكم وأنفسكم.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿إن كنتم تعلمون﴾؟ قُلْتُ: معناه إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرًا لكم[2] حينئذٍ، لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتخلصون وتفلحون.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿ولخرى تحبونها﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ثم فسرها بقوله: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ أي: عاجل وهو فتح مكة، وقال الحسن: فتح فارس والروم. وفي تحبونها شيء من التوبيخ على محبة العاجل.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿وبشّر المؤمنين﴾؟ قُلْتُ: على تؤمنون لأنه في معنى الأمر كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم، وبشّر يا رسول الله المؤمنين بذلك.

فإن قُلْتَ: لم نصب من قرأ نصرًا من الله وفتحًا قريبًا؟ قُلْتُ: يجوز أن ينصب على الاختصاص أو على تنصرون نصرًا ويفتح لكم فتحًا، أو على يغفر لكم ويدخلكم جنات ويؤتكم أخرى نصرًا من الله وفتحًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قرئ: كونوا أنصار الله وأنصار الله. وقرأ ابن مسعود كونوا أنتم أنصار الله وفيه زيادة حتم للنصرة عليهم.

فإن قُلْتَ: ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصارًا[3] بقول عيسى صلوات الله عليه: ﴿من أنصاري إلى الله﴾؟ قُلْتُ: التشبيه محمول على المعنى وعليه يصح والمراد: كونوا أنصارًا لله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: من أنصاري إلى الله.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: من أنصاري إلى الله؟ قُلْتُ: يجب أن يكون معناه مطابقًا لجواب الحواريين.

﴿نحن أنصار الله﴾ والذي يطابقه أن يكون المعنى: من جندي متوجهًا إلى نصرة الله وإضافة أنصاري خلاف إضافة أنصار الله، فإنّ معنى نحن أنصار الله نحن الذين ينصرون الله، ومعنى من أنصاري من الأنصار الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله، ولا يصح أن

---

(1) قال أحمد: إنما وجه إعراب الفراء بما ذكر؛ لأنه لو جعله جواباً لقوله: ﴿هل أدلكم﴾ فإنكم إن أدلكم على كذا وكذا أغفر لكم، فتكون المغفرة حينئذ مترتبة على مجرّد دلالته إياهم على الخير وليس كذلك إنما تترتب المغفرة على فعلهم لما دلهم عليه لا على نفس الدلالة، فلذلك أوّل ﴿هل أدلكم على تجارة﴾ بتأويل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد حتى تكون المغفرة مترتبة على فعل الإيمان والجهاد لا على الدلالة، وهذا التأويل غير محتاج إليه، فإنّ حاصل الكلام إذا صار إلى هل أدلكم، أغفر لكم التحق ذلك بأمثال قوله تعالى: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ فإنه رتب فعل الصلاة على الأمر بها، حتى كأنه قال: فإنك إن تقل لهم أقيموا يقيموها. وللقائل أن يقول: قد قيل لبعضهم: أقم الصلاة فتركها، فالجواب عنه: أن الأمر الموجه على المؤمن الراسخ في الإيمان لما كان مظنة لحصول الامتثال، جعل كالمحقق وقوعه= مرتباً عليه، وكذلك ههنا لما كانت دلالة الذين آمنوا على فعل الخير مظنة لامتثالهم، وامتثالهم سبباً في المغفرة محققاً عوامل معاملة تحقيق الامتثال والمغفرة مرتبين على الدلالة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: كأنه يجري الشرط على حقيقته وليس بالظاهر؛ لأن علمهم لذلك محقق، إذ الخطاب مع المؤمنين والظاهر أنه من وادي قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي م الربا إن كنتم مؤمنين﴾ والمقصود بهذا الشرط: التنبيه على المعنى الذي يقتضي الامتثال وإلهاب الحمية للطاعة، كما تقول لمن تأمره بالانتصاف من عدوه: إن كنت حراً فانتصر، تريد أن تثير منه حمية الانتصار لا غير، والله أعلم.

(3) قال أحمد: كلام حسن وتمام على الذي أحسن أن يميز بين الاضافتين المذكورتين، بأنّ الأولى محضة والثانية غير محضة فتنبه لها، والله الموفق.

يكون معناه من ينصرني مع الله لأنه لا يطابق الجواب. والدليل عليه قراءة من قرأ من أنصار الله والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً. وحواري الرجل صفيه وخلصانه من الحور وهو البياض الخالص، والحوّاري الدرمك ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: الزبير ابن عمتي وحواريي من أمتي[1] وقيل: كانوا قصارين يحورون الثياب يبيضونها. ونظير الحواري في زنته الحوالي الكثير الحيل. ﴿فآمنت طائفة﴾ منهم بعيسى ﴿وكفرت﴾ به ﴿طائفة فأيدنا﴾ مؤمنيهم على كفارهم فظهروا عليهم، وعن زيد بن علي كان ظهورهم بالحجة. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الصف[2] كان عيسى مصليًا عليه مستغفرًا له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الجمعة مدنية

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

قرئت صفات الله عزّ وعلا بالرفع على المدح. كأنه قيل: هو الملك القدوس، ولو قرئت منصوبة لكان وجهًا كقول العرب: الحمد لله أهل الحمد. الأمي منسوب إلى أمّة العرب لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤن من بين الأمم، وقيل: بدأت الكتابة بالطائف أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار.

هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾.

ومعنى: ﴿بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ بعث رجلاً أميًا في قوم أميين كما جاء في حديث شعياء: أني أبعث أعمى في عميان وأمّيًا في أميين[3]. وقيل: منهم كقوله تعالى: من أنفسكم يعلمون نسبه وأحواله، وقرئ في الأمين بحذف ياءي النسب ﴿يتلوا عليهم آياته﴾ يقرؤها عليهم مع كونه أميًا مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم، وقراءة أمي بغير تعلم آية بينة ﴿ويزكيهم﴾ ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ القرآن والسنّة. وإن في ﴿وإن كانوا﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام دليل عليها أي: كانوا في ضلال لا ترى ضلالاً أعظم منه.

وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾.

﴿وآخرين﴾ مجرور عطف على الأميين يعني: أنه بعثه في الأميين الذين على عهده وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة رضي الله عنهم. وقيل: لما نزلت قيل: من هم يا رسول الله؟ فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء». وقيل: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة. ويجوز أن ينتصب عطفًا على المنصوب في ويعلمهم أي: يعلمهم ويعلم آخرين، لأنّ التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستندًا إلى أوّله، فكأنه هو الذي تولى كل ما وجد منه. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ في تمكينه رجلاً أميًا من ذلك الأمر العظيم وتأييده عليه واختياره إياه من بين كافة البشر.

ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾.

﴿ذلك﴾ الفضل الذي أعطاه محمدًا وهو أن يكون نبي أبناء عصره ونبي أبناء العصور الغوابر هو ﴿فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ إعطاءه وتقتضيه حكمته.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾.

شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقرّاؤها وحفاظ ما فيها ثم أنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها، وذلك أنّ فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به بالحمار حمل أسفارًا أي: كتبًا كبارًا من كتب العلم فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله وبئس المثل. ﴿بئس﴾ مثلاً.

﴿مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله﴾ وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوّة محمد ﷺ. ومعنى حملوا التوراة كلفوا علمها والعمل بها. ثم لم يحملوها، ثم لم يعملوا بها فكأنهم لم يحملوها. وقرئ: حملوا التوراة أي: حملوها، ثم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل. وقرئ: يحمل الأسفار.

فإن قلْتَ: يحمل ما محله؟ قُلْتُ: النصب على الحال أو الجر على الوصف، لأن الحمار كاللئيم في قوله: ولقد أمر على اللئيم يسبني. هاد يهود إذا تهود.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ

(1) النسائي في سننه الكبرى كتاب المنافقين زيعلي 7/4.

(2) الثعلبي والواحدي وابن مردويه زيلعي 8/4.

(3) قال الزيلعي لم أجده إلا من قول وهب بن منبه رواه الحافظ أبو نعيم في دلائل النبوة 11/4.

ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾.

﴿أولياء لله﴾ كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه أي: إن كان قولكم حقًا وكنتم على ثقة ﴿فتمنوا﴾ على الله أن يميتكم وينقلكم سريعًا إلى دار كرامته التي أعدّها لأوليائه:

وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾.

ثم قال: ﴿ولا يتمنونه أبدًا﴾ بسبب ما قدّموا من الكفر. وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه»، فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله ﷺ لتمنوا، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد، فما تمالك أحد منهم أن يتمنى. وهي إحدى المعجزات. وقرئ فتمنوا الموت بكسر الواو تشبيهًا بلو استطعنا. ولا فرق بين لا ولن في أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل إلا أنّ في لن تأكيداً وتشديدًا ليس في لا. فأتى مرّة بلفظ التأكيد ولن يتمنوه، ومرّة بغير لفظه ولا يتمنونه. ثم قيل لهم:

قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾.

﴿إنّ الموت الذي تفرّون منه﴾ ولا تجسرون أن تمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم لا تفوتونه وهو ملاقيكم لا محالة. ﴿ثم تردّون﴾ إلى الله فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه: إنه ملاقيكم. وفي قراءة ابن مسعود: تفرون منه ملاقيكم وهي ظاهرة، وأما التي بالفاء فلتضمن الذي معنى الشرط. وقد جعل أنّ الموت الذي تفرّون منه كلامًا برأسه في قراءة زيد أي: إن الموت هو الشيء الذي تفرّون منه. ثم استؤنف إنه ملاقيكم يوم الجمعة، يوم الفوج المجموع كقولهم: ضحكة للمضحوك منه، ويوم الجمعة بفتح الميم يوم الوقت الجامع، كقولهم: ضحكة ولعنة ولعبة. ويوم الجمعة تثقيل للجمعة، كما قيل: عسرة في عسرة، وقرئ بهنّ جميعًا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾.

فإن قُلتَ: من في قوله:

﴿من يوم الجمعة﴾ ما هي؟ **قُلتُ:** هي بيان لإذا وتفسير له. والنداء الأذان. وقالوا: المراد به الأذان عند قعود الإمام على المنبر، وقد كان لرسول الله ﷺ مؤذن واحد فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد، فإذا نزل أقام للصلاة[1]. ثم كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على ذلك حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذنًا آخر فأمر بالتأذين الأوّل على داره التي تسمى زوراء فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثاني فإذا نزل أقام للصلاة فلم يعب ذلك عليه. وقيل: أوّل من سماها جمعة كعب بن لؤي. وكان يقال لها: العروبة. وقيل: إنّ الأنصار قالوا: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك. فهلموا بجعل لنا يومًا يجتمع فيه فنذكر الله فيه ونصلي فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى. فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه. فأنزل الله آية الجمعة فهي أوّل جمعة كانت في الإسلام[2] وأما أوّل جمعة جمعها رسول الله ﷺ، فهي أنه لما قدم المدينة مهاجرًا نزل قباءً على بني عمرو بن عوف، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامدًا المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم فخطب وصلى الجمعة[3]. وعن بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث: افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم في قوله: ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾[4] وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفارًا، وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة. وعن النبيّ ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه اهبط إلى الأرض، وفيه تقوم الساعة. وهو عند الله يوم المزيد»[5]، وعنه عليه السلام: «أتاني جبريل وفي كفه مرآة بيضاء وقال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيدًا ولأمتك من بعدك، وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه إلى الآخرة يوم المزيد». وعنه ﷺ: «إنّ لله تعالى في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار»[6]. وعن كعب: إنّ الله فضل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة. وقال عليه السلام: «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد، ووقي فتنة القبر»[7] وفي الحديث: «إذا كان يوم الجمعة، قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب، يكتبون الأوّل فالأوّل على مراتبهم»[8]، وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصة

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: المؤذن الواحد يوم الجمعة (الحديث رقم: 913).
(2) عبد الرزاق في مصنفه 3/159 (الحديث رقم: 5144).
(3) ابن هشام في السيرة 1/494.
(4) سورة الجمعة، الآية: 6.
(5) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة (الحديث رقم: 17 ـ 854).
(6) أبو يعلى في مسنده (الحديث رقم: 3434).
(7) أخرجه الترمذي في كتاب الجنائز (الحديث رقم: 1074)، وعبد الرزاق في المصنف 3/369 (الحديث رقم: 5595)، وأحمد في المسند 2/176.
(8) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة باب: الاستماع إلى الخطبة (الحديث رقم: 929).

بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج. وقيل: أوّل بدعة أحدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة، وعن ابن مسعود «أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه يقول: أراك رابع أربعة وما رابع أربعة بسعيد»[1]. ولا تقام الجمعة عند أبي حنيفة رضي الله عنه[2] إلا في مصر، جامع لقوله عليه السلام: «لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع»[3]. والمصر الجامع ما أقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام، ومن شروطها: الإمام أو من يقوم مقامه لقوله عليه السلام: «فمن تركها وله إمام عادل أو جائر»[4]، الحديث وقوله ﷺ: «أربع إلى الولاة: الفيء والصدقات والحدود والجماعات»[5]. فإنْ أمّ رجل بغير إذن الإمام أو من ولاه من قاضٍ أو صاحب شرطة لم يجز فإن لم يمكن الاستئذان فاجتمعوا على واحد فصلى بهم جاز، وهي تنعقد بثلاثة سوى الإمام، وعند الشافعي بأربعين ولا جمعة على المسافرين والعبيد والنساء والمرضى والزمنى ولا على الأعمى. عند أبي حنيفة ولا على الشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد. وقرأ عمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم: فامضوا، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ: فاسعوا، فقال: من أقرأك هذا، قال: أبيّ بن كعب، فقال: لا يزال يقرأ بالمنسوخ، لو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي[6]، وقيل: المراد بالسعي القصد دون العدو، والسعي التصرف في كل عمل ومنه قوله تعالى: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾. ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾. وعن الحسن: ليس السعي على الأقدام، ولكنه على النيات والقلوب. وذكر محمد بن الحسن رحمه الله في موطئه أن ابن عمر سمع الإقامة وهو بالبقيع فأسرع المشي قال محمد: وهذا لا بأس به ما لم يجهد نفسه. ﴿إلى ذكر الله﴾ إلى الخطبة والصلاة ولتسمية الله الخطبة ذكرًا له. قال أبو حنيفة رحمه الله: إن اقتصر الخطيب على مقدار يسمى ذكر الله كقوله: الحمد لله سبحان الله جاز، وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال: الحمد لله وأرتج عليه فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوّال، وستأتيكم الخطب، ثم نزل، وكان ذلك بحضرة الصحابة ولم ينكر عليه أحد»[7]. وعند صاحبيه والشافعي: لا بد من كلام يسمى خطبة.

فإن **قُلْتَ**[8]: كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها ذكر غير الله! **قُلْتُ**: ما كان من ذكر رسول الله ﷺ والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير، فهو في حكم ذكر الله، فأمّا ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحقاء بعكس ذلك، فمن ذكر الشيطان. وهو من ذكر الله على مراحل وإذا قال المنصت للخطبة لصاحبه: صه فقد لغا أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغيًا نعوذ بالله من غربة الإسلام ونكد الأيام. أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا، وإنما خص البيع من بينها. لأن يوم الجمعة يوم يهبط الناس فيه من قراهم وبواديهم وينصبون إلى المصر من كل أوب، ووقت هبوطهم واجتماعهم واغتصاص الأسواق بهم إذا انتفخ النهار وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة وحينئذ تحرّ التجارة ويتكاثر البيع والشراء. فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول بالبيع عن ذكر الله والمضي إلى المسجد قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح. ﴿وذروا البيع﴾ الذي نفعه يسير وربحه مقارب.

فإن **قُلْتَ**: فإذا كان البيع في هذا الوقت مأمورًا بتركه محرّمًا فهل هو فاسد؟ **قُلْتُ**: عامّة العلماء على أن ذلك لا يوجب فساد البيع، قالوا: لأنّ البيع لم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب والوضوء بماء مغصوب، وعن بعض الناس إنه فاسد.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾.

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في التهجير إلى الجمعة (الحديث رقم: 1094).

(2) قال أحمد: ولا دليل فيه، فإن العرب تسمي الشيء باسم بعض ما يشتمل عليه، كما سميت الصلاة: مرة قرآناً ومرة سجوداً ومرة ركوعاً؛ لأنها مشتملة على ذلك، فكذلك الخطبة لما كانت مشتملة على ذكر الله سميت به، ولا يلزم أن يكون كذلك كل ما اشتملت عليه، لا سيما والمسمى خطبة عند العرب لا بدّ وأن يزيد على القدر الذي اكتفى به أبو حنيفة، قال بعض أصحاب مالك رحمه الله: أقلها حمد الله والصلاة على نبيه وتحذير وتبشير وقرآن.

(3) ابن أبي شيبة في المصنف 2/101 كتاب: الجمعة، باب: من قال لا جمعة ولا...

(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في فرض الجمعة (الحديث رقم: 1081).

(5) قال الزيلعي غريب 4/25.

(6) لم يخرجه الزيلعي.

(7) قال أحمد: ساه بلا اشتباه، فإنّ عثمان لم يصدر ذلك منه في خطبة الجمعة، وإنما كان ذلك في ابتداء خلافته وصعوده المنبر للبيعة، وكانت عادة العرب الخطب في المهمات، ألا ترى إلى قوله: وستأتيكم بعد ذلك الخطب، فإنّ ذلك يحقق أنّ مقالته هذه ليس بخطبة، ولو كان في الجمعة لكان تاركاً للخطبة بالكلية، وهي منقولة في التاريخ أنه أرتج عليه فقال: سيجعل الله بعد عسر يسراً وبعد عي بياناً، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوّال وستأتيكم الخطب.

(8) قال أحمد: الدعاء للسلطان الواجب الطاعة مشروع بكل حال، وقد نقل عن بعض السلف أنه دعا لسلطان ظالم، فقيل له: أتدعو له وهو ظالم؟ فقال: إي، والله أدعوا له، إن ما يدفع الله ببقائه أعظم مما يندفع بزواله، لا سيما إذا ضمن ذلك الدعاء بصلاحه وسداده وتوفيقه، والله الموفق.

ثم أطلق لهم ما حظر عليهم بعد قضاء الصلاة من الانتشار وابتغاء الربح مع التوصية بإكثار الذكر وأن لا يلهيهم شيء من تجارة ولا غيرها عنه، وأن تكون هممهم في جميع أحوالهم وأوقاتهم موكلة به لا يتفصون عنه لأنّ فلاحهم فيه وفوزهم منوط به. وعن ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا إنما هو عيادة المرضى، وحضور الجنائز، وزيارة أخ في الله، وعن الحسن وسعيد بن المسيب: طلب العلم، وقيل: صلاة التطوّع. وعن بعض السلف أنه كان يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أمور الدنيا نظرًا في هذه الآية.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

روي أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقاموا إليه خشوا أن يسبقوا إليه فما بقي معه إلا يسير قيل: ثمانية وأحد عشر واثنا عشر وأربعون فقال عليه السلام: «والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعًا لأضرم الله عليهم الوادي نارًا»[1]. وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق فهو المراد باللهو، وعن قتادة: «فعلوا ذلك ثلاث مرات في كل مقدم عير.

فإن قُلْتَ: فإن اتفق تفرق الناس عن الإمام في صلاة الجمعة كيف يصنع؟ قُلْتُ: إن بقي وحده أو مع أقل من ثلاثة فعند أبي حنيفة يستأنف الظهر إذا نفروا عنه قبل الركوع، وعند صاحبيه إذا كبروهم معه مضى فيها وعند زفر إذا نفروا قبل التشهد بطلت.

فإن قُلْتَ: كيف؟ قال: ﴿إليها﴾ وقد ذكر شيئين؟ قُلْتُ: تقديره إذا رأوا تجارةً انفضوا إليها، أو لهوًا انفضوا إليه. فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وكذلك قراءة من قرأ انفضوا إليه، وقراءة من قرأ لهوًا أو تجارة انفضوا إليها، وقرئ إليهما. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الجمعة أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة وبعدد من لم يأتها في أمصار المسلمين»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة المنافقون مدنية

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

أرادوا بقولهم: ﴿نشهد إنك لرسول الله﴾ شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم فقال الله عزّ وجل: قالوا ذلك ﴿والله يعلم﴾ أن الأمر كما يدل عليه قولهم: إنك لرسول الله والله يشهد إنهم لكاذبون في قولهم: نشهد. وادعائهم فيه المواطأة[3] أو إنهم لكاذبون فيه، لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة فهم كاذبون في تسميته شهادة. أو أراد والله يشهد إنهم لكاذبون عند أنفسهم، لأنهم كانوا يعتقدون أنّ قولهم: إنك لرسول الله كذب وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه.

فإن قُلْتَ: أي فائدة في قوله تعالى: والله يعلم إنك لرسوله؟ قُلْتُ: لو قال: قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يشهد إنهم لكاذبون لكان يوهم أنّ قولهم هذا كذب فوسط بينهما قوله: والله يعلم إنك لرسوله ليميط هذا الإيهام.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿اتخذوا أيمانهم جُنَّة﴾ يجوز أن يراد أنّ قولهم: نشهد إنك لرسول الله يمين من أيمانهم الكاذبة، لأنّ الشهادة تجري مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد يقول الرجل: أشهد، وأشهد بالله، وأعزم وأعزم بالله، في موضع أقسم وأولي. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله: على أن أشهد يمين[4] ويجوز أن يكون وصفًا للمنافقين في استجنائهم بالأيمان وقرأ الحسن البصري: إيمانهم، أي: ما

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: إذا نفر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة (الحديث رقم: 936)، ومسلم كتاب: الجمعة، باب: في قول الله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائما﴾ (الحديث رقم: 36 ـ 863)، وأخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 6876)، وحديث كعب بن عجرة أخرجه مسلم في المصدر السابق (الحديث رقم: 39 ـ 864)، وأخرجه أبو داود في المراسيل. باب: الجمعة (الحديث رقم: 62).

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم 29/4.

(3) قال أحمد: ومثل هذا من نمطه المليح، قوله: ﴿قالت الأعراب آمنا، قل: لم تؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا﴾ وقد كان المطابق لقوله: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أن يقال لهم: لا تقولوا آمنا، ولكنه لما كان موهماً للنهي عن قول الإيمان، عدل عنه على ما فيه من الطباق إلى ما سلم الكلام فيه من الوهم، وذلك أجل وأعظم من فائدة = المطابقة، لا سيما في مخاطبة هؤلاء الذين كانوا يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، ألا تراهم كيف غالطوا أنفسهم متغابين وليسوا على ضعفهم متجاهلين، عندما أنزل قوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾.

(4) قال أحمد: أحد القولين عند مالك رحمه الله إذا قال: أشهد وأحلف وأقسم ولم ينو بالله ولا بغيره، كما نقل عن أبي حنيفة أنه يمين، وليس بالمشهور أما لو نوى بالله وإن لم يتلفظ فيمين بلا إشكال، وليس فيما ذكره دليل على ما ذكره، فإن قوله: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ غايته أن ما ذكروه يسمى يميناً، وليس الخلاف في تسميته يميناً، وإنما الخلاف: هل يكون يميناً منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة أم لا، وليس كل ما يسمى حلفاً أو قسماً يوجب حكماً، ألا ترى أنه لو قال: أحلف ولم يقل بالله ولا بغيره، فهو من محال الخلاف في وجوب الكفارة به، وإن كان حلفاً لغة باتفاق؛ لأنه فعل مشتق منه.

أظهروه من الإيمان بألسنتهم. ويعضده قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا﴾[1] ﴿ساء ما كانوا يعملون﴾ من نفاقهم وصدهم الناس عن سبيل الله، وفي ساء معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾

ذلك إشارة إلى قوله: ﴿ساء ما كانوا يعملون﴾. أي: ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ﴿بـ﴾ سبب.

﴿أنهم آمنوا ثم كفروا﴾ أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالإيمان أي: ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا ﴿فطبع على قلوبهم﴾ فجسروا على كل عظيمة.

فإن قُلْتَ: المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم[2]. فما معنى قوله: آمنوا ثم كفروا؟ قُلْتُ: فيه ثلاثة أوجه: أحدها آمنوا أي: نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام، ثم كفروا، ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع عليه من قولهم: إن كان ما يقوله محمد حقًا فنحن حمير. وقولهم في غزوة تبوك: أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات ونحوه قوله تعالى: يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم أي: وظهر كفرهم بعد أن أسلموا، ونحوه قوله تعالى: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾. والثاني آمنوا أي: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام. كقوله تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إنما نحن مستهزؤن﴾[3]. والثالث أن يراد أهل الردّة منهم. وقرئ: ﴿فطُبع على قلوبهم﴾. وقرأ زيد بن علي: فطبع الله كان عبد الله بن أبي رجلاً جسيمًا صبيحًا فصيحًا ذلق اللسان وقوم من المنافقين في مثل صفته، وهم رؤساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه ولهم جهارة المناظرة وفصاحة الألسن[4]. فكان النبي ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم.

۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله:

﴿كأنهم خُشُب مسندة﴾؟ قُلْتُ: شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط، ولأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع وما دام متروكًا فارغًا غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع، ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم. والخطاب في رأيتهم تعجبك لرسول الله أو لكل من يخاطب. وقرئ: يسمع على البناء للمفعول وموضع كأنهم خشب رفع على هم كأنهم خشب، أو هو كلام مستأنف لا محل له، وقرئ: خشب جمع خشبة كبدنة وبدن، وخشب كثمرة وثمر، وخشب كمدرة ومدر، وهي في قراءة ابن عباس، وعن اليزيدي أنه قال في خشب: جمع خشباء، والخشباء الخشبة التي دعر جوفها شبهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم. ﴿عليهم﴾ ثاني مفعولي يحسبون أي: يحسبون كل صيحة واقعةً عليهم[5] وضارةً لهم لجبنهم وهلعهم، وما في قلوبهم من الرعب إذا نادى منادٍ في العسكر أو انفلتت دابة أو انشدت ضالة ظنوه إيقاعًا بهم. وقيل: كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماؤهم وأموالهم. ومنه أخذ الأخطل:

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم ... خيلاً تكرّ عليهم رجالاً

يوقف على عليهم ويبتدأ ﴿هم العدوّ﴾ أي: الكاملون في العداوة، لأن أعدى الأعداء العدوّ المداجي الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدَوي ﴿فاحذرهم﴾ ولا تغتر بظاهرهم. ويجوز أن يكون هم العدوّ المفعول الثاني كما لو طرحت الضمير.

فإن قُلْتَ: فحقه أن يقال هي العدوّ! قُلْتُ: منظور فيه إلى الخبر كما ذكر في هذا ربي وأن يقدر مضاف محذوف على يحسبون كل أهل صيحة ﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك. ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يعدلون عن الحق تعجبًا من جهلهم وضلالتهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ

---

(1) سورة المنافقون، الآية: 3.

(2) قال أحمد: ويحتمل وجهاً رابعاً، وهو: أنهم آمنوا به قبل مبعثه على الصفة المذكورة في التوراة؛ لأنهم كانوا يسمعونها من جيرانهم اليهود ثم كفروا به بعد مبعثه وموافقة الصفة، ولعل في المنافقين يهوداً، وإن لم يكن فقد كان الإيمان قبل مبعثه من الفريقين اليهود وعبدة الأوثان من العرب، إلى نزول قوله: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ كيف حكى الله تعالى عن الفريقين وما كانوا يقولونه والبينة النبي ﷺ.

(3) سورة البقرة، الآية: 14.

(4) قال أحمد: وفيما قال اليزيدي نظر من حيث مقتضى العربية، وإلا فهو متمكن المعنى، ذلك أنها قرئت بضم الشين وسكونها قراءتين مستفيضتين، ففيه دليل أن أصلها الضم والسكون إنما هو طارئ عليه تخفيفاً، وهذا يبعد كونها جمع خشباء على وزن فعلاء؛ لأنّ قياس جمعه فعل بسكون العين كحمراء وحمر، ولا يطرأ الضم، فلو كان كما قال لم تضم شينها، والله تعالى أعلم.

(5) قال أحمد: وغلا المتنبي في المعنى فقال:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم ... إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾.

﴿لوّوا رؤوسهم﴾ عطفوها وأمالوها إعراضًا عن ذلك واستكبارًا. قرئ بالتخفيف والتشديد للتكثير. روي «أن رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم. ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه، وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبي واقتتلا فصرخ جهجاه: يا للمهاجرين! وسنان: يا للأنصار؟ فأعان جهجاهًا جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانًا. فقال عبد الله لجعال: وأنت هناك، وقال: ما صحبنا محمدًا إلا لنلطم، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال: سمن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، عني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ، ثم قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم؟ أما والله لو أمسكتم عن جعال ونويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحوّلوا عنكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث فقال: أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك، ومحمد في عز من الرحمن وقوّة من المسلمين. فقال عبد الله: أسكت، فإنما كنت ألعب. فأخبر زيد رسول الله فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله. فقال: «إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب». قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجري، فأمر به أنصاريًا، فقال: «فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمدًا يقتل أصحابه، وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله أنت صاحب الكلام الذي بلغني» قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئًا من ذلك، وإن زيد الكاذب»[1]. وهو قوله تعالى: ﴿اتخذوا أيمانهم جُنّة﴾[2] فقال الحاضرون: يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدّق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم. وروي أن رسول الله قال له: لعلك غضبت عليه؟ قال: لا. قال: فلعله أخطأ سمعك؟ قال: لا. قال: فلعله شبه عليك؟ قال: لا. فلما نزلت لحق رسول الله زيدًا من خلفه فعرك أذنه وقال: «وفت أذنك يا غلام إنّ الله قد صدقك وكذب المنافقين». «ولما أراد عبد الله أن يدخل المدينة اعترضه ابنه حباب وهو عبد الله بن عبد الله غير رسول الله اسمه. وقال: إنّ حبابًا اسم شيطان. وكان مخلصًا وقال: وراءك والله لا تدخلها حتى تقول رسول الله الأعز وأنا الأذل. فلم يزل حبيسًا في يده حتى أمره رسول الله بتخليته»[3].

وروي أنه قال له: «لئن لم تقرّ لله ورسوله بالعز لأضربن عنقك، فقال: ويحك أفاعل أنت؟ قال: نعم فلما رأى منه الجدّ قال: أشهد أنّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال رسول الله لابنه «جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرًا»[4]. «فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك. فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أومن فآمنت، أمرتموني أن أزكي مالي فزكيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد»[5] فنزلت ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله﴾[6]. ولم يلبث إلا أيامًا قلائل حتى اشتكى ومات.

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾.

﴿سواء عليهم﴾ الاستغفار وعدمه لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتدون به لكفرهم أو لأن الله لا يغفر لهم، وقرئ: استغفرت على حذف حرف الاستفهام لأنّ أم المعادلة تدل عليه. وقرأ أبو جعفر: آستغفرت، إشباعًا لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان لا قلبًا لهمزة الوصل ألفًا كما في آلسحر وآلله.

هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾.

﴿ينفضوا﴾ يتفرقوا، وقرئ: ينفضوا، من انفض القوم إذا فنيت أزوادهم، وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزاودهم. ﴿ولله خزائن السموات والأرض﴾ وبيده الأرزاق والقسم فهو رازقهم منها وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم، ولكن عبد الله وأضرابه جاهلون ﴿لا يفقهون﴾ ذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان. وقرئ: ليخرجنّ الأعز منها الأذل بفتح الياء وليخرجنّ على البناء للمفعول، وقرأ الحسن وابن أبي عبلة: لنخرجنّ بالنون، ونصب الأعز والأذل. ومعناه: خروج الأذل أو إخراج الأذل أو مثل الأذل.

يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾.

﴿ولله العزة﴾ الغلبة والقوّة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وهم الأخصاء بذلك كما أنّ المذلة والهوان للشيطان ونويه من الكافرين والمنافقين، وعن

(1) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: التفسير سورة المنافقين، باب: ﴿اتخذوا أيمانهم جُنّة﴾ (الحديث رقم: 4901)، ومسلم في كتاب: في صفات المنافقين وأحكامهم (الحديث رقم: 1/2774)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المنافقين (الحديث رقم: 3313).

(2) سورة المجادلة الآية: 16.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة المنافقين، باب: (يقولون لئن رجعنا...) (الحديث رقم: 4907).

(4) رواه الثعلبي في تفسيره والواحدي في أسباب النزول ص 240 ـ 241.

(5) راجع الحديث 163.

(6) سورة المنافقون، الآية: 5.

بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة: ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه، والغني الذي لا فقر معه. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنّ رجلاً قال له: إنّ الناس يزعمون أنّ فيك تيهًا، قال: ليس بتيه، ولكنه عزة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾.

وتلا هذه الآية:﴿لا تلهكم﴾ تشغلكم ﴿اموالكم﴾ والتصرف فيها والسعي في تدبير أمرها، والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاغتلال وابتغاء النتاج والتلذذ بها والاستمتاع بمنافعها. ﴿ولا أولادكم﴾ وسروركم بهم وشفقتكم عليهم والقيام بمؤنهم وتسوية ما يصلحهم من معايشهم في حياتكم وبعد مماتكم، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد، وأنه أهون شيء وأدونه في جنب ما عند الله ﴿عن ذكر الله﴾ وإيثاره عليها ﴿ومن يفعل ذلك﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين ﴿فاولئك هم الخاسرون﴾ في تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني وقيل: ذكر الله الصلوات الخمس وعن الحسن: جميع الفرائض. كأنه قال: عن طاعة الله وقيل: القرآن. وعن الكلبي: الجهاد مع رسول الله ﷺ. من في.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾.

من في ﴿مما رزقناكم﴾ للتبعيض والمراد الإنفاق الواجب ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ من قبل أن يرى دلائل الموت ويعاين ما ييأس معه من الإمهال ويضيق به الخناق ويتعذر عليه الانفاق ويفوت وقت القبول فيتحسر على المنع ويعضّ أنامله على فقد ما كان متمكنًا منه، وعن ابن عباس رضي الله عنه: تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل. وعنه: ما يمنع أحدكم إذا كان له مال أن يزكي، وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها. وعنه أنها نزلت في مانعي الزكاة ووالله لو رأى خيرًا لما سأل الرجعة، فقيل له: أما تتقي الله يسأل المؤمنون الكرة. قال: نعم أنا أقرأ عليكم به قرآنًا يعني: أنها نزلت في المؤمنين وهم المخاطبون بها. وكذا عن الحسن: ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج إلا سأل الرجعة، وعن عكرمة أنها نزلت في أهل القبلة ﴿لولا أخرتني﴾ وقرئ: أخرتن، يريد هلا أخرت موتي ﴿إلى أجل قريب﴾ إلى زمان قليل ﴿فاصدق﴾ وقرأ أبي فأتصدق على الأصل. وقرئ: وأكن عطفًا على محل فأصدق كأنه قيل: إن أخرتني أصدق وأكن. ومن قرأ وأكون على النصب فعلى اللفظ. وقرأ عبيد بن عمير: وأكون على، وأنا أكون عدة منه بالصلاح.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾.

﴿ولن يؤخر الله﴾ نفي للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه: منافاة المنفى الحكمة، والمعنى: أنكم إذا علمتم أنّ تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه وأنه هاجم لا محالة وأنّ الله عليم بأعمالكم فمجاز عليها من منع واجب وغيره لم تبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات والاستعداد للقاء الله، وقرئ تعملون بالتاء والياء. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المنافقين بريء من النفاق»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التغابن مدنية

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل، وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه. وكذلك الحمد لأنّ أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾.

﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ يعني: فمنكم آتٍ بالكفر وفاعل له ومنكم آتٍ بالإيمان[2] وفاعل له. كقوله تعالى: ﴿وجعلنا في ذريتهما النبوّة والكتاب، فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾[3] والدليل عليه قوله تعالى:

---

(1) رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم والزيلعي 4/ 37.

(2) قال أحمد: لقد ركب عمياء وخبط خبط عشواء، واقتحم وعراً السالك فيه هالك والغابر فيه عاثر، وإنما ينصب إلى مهاوي الأراك ويحوم حول مراتع الإشراك، ويبحث ولكن على حتفه بظلفه ويتحنق، وما هو إلا يتشدق ويتحقق وما هو إلا يتفسق، وهب أنه أعرض عن الأدلة العقلية والنصوص النقلية المتظافرة على أن الله تعالى خالق كل شيء، واطرد له في الشاهد ما ادعاه ومن مذهبه قياس الغائب على الشاهد، قد التجأ إلى الاعتراف بأن الله خالق = العبد الفاعل للقبيح، وأن خلق العبد الفاعل للقبيح بمثابة إعطاء السيف الباتر للرجل الفاجر، وأن هذا قبيح شاهداً، ولا يلزم أن يكون مثله قبيحاً في خلق الله تعالى، أفلا يجوز أن يكون منطوياً على حكمة استأثر الله تعالى بعلمها، فما يؤمنه من دعوى أن أفعال العبد وإن استقبحها العقلاء مخلوقة لله تعالى، وفي خلقها حكمة لستأثر الله بعلمها، وهل الفرق إذاً إلا عين التحكم ونفس اتباع الهوى هذا، ودون تمكنه من اتباع هذه القواعد أن يمكن من القتاد اخترط، ومن الجمل أن يلج في سم الخياط.

(3) سورة الحديد، الآية: 26.

﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي: عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح وتكونوا بأجمعكم عبادًا شاكرين، فما فعلتم مع تمكنكم بل تشعبتم شعبًا وتفرقتم امَمًا فمنكم كافر ومنكم مؤمن. وقدم الكفر لانه الأغلب عليهم والأكثر فيهم، وقيل: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ومنكم مؤمن به.

فإن قُلْتَ: نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر، ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم، وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد؟ وهل مثله إلا مثل من وهب سيفًا باترًا لمن شهر بقطع السبيل وقتل النفس المحرّمة فقتل به مؤمنًا. أما يطبق العقلاء على ذم الواهب وتعنيفه والدق في فروته كما يذمون القاتل بل إنحاؤهم باللوائم على الواهب أشد! قُلْتُ: قد علمنا أنّ الله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه، فقد علمنا أنّ افعاله كلها حسنة وخلق فاعل القبيح فعله فوجب أن يكون حسنًا وأن يكون له وجه حسن وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه كما لا يقدح في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾.

﴿بالحق﴾ بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وهو أن جعلها مقار المكلفين ليعملوا فيجازيهم. ﴿وصوّركم فاحسن صوركم﴾ وقرئ: صوركم بالكسر لتشكروا. وإليه مصيركم فجزاؤكم على الشكر والتفريط فيه.

فإن قُلْتَ: كيف أحسن صورهم؟ قُلْتُ: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ومن حسن صورته أنه خلق منتصبًا غير منكب، كما قال عز وجل: ﴿في أحسن تقويم﴾.

فإن قُلْتَ: فكم من دميم مشوّه الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون! قُلْتُ: لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب. فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاط بينًا وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حدّه. ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال والبيان. نبّه بعلمه ما في السموات والأرض.

يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾.

ثم يعلمه ما يسره العباد ويعلنونه، ثم يعلمه ذوات الصدور أنّ شيئًا من الكليات والجزئيات غير خافٍ عليه ولا عازب عنه. فحقه أن يتقي ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه، وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد، وكل ما ذكره بعد قوله تعالى: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾[1] كما ترى في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يعصي الخالق ولا تشكر نعمته. فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق ويجعله من جملته، والخلق أعظم نعمة من الله على عباده، والكفر أعظم كفران من العباد لربهم.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾.

﴿الم ياتكم﴾ الخطاب لكفار مكة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾.

﴿وذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة ﴿بأنه﴾ بأنّ الشان والحديث ﴿كانت تاتيهم رسلهم. ابشر يهدوننا﴾ انكروا أن تكون الرسل بشرًا ولم ينكروا أن يكون الله حجرًا ﴿واستغنى الله﴾ أطلق ليتناول كل شيء ومن جملته إيمانهم وطاعتهم.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿وتولوا واستغنى الله﴾ يوهم وجود التولي والاستغناء معًا[2]. والله تعالى لم يزل غنيًا! قُلْتُ: معناه: وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرّهم إليه مع قدرته على ذلك.

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾.

الزعم ادّعاء العلم ومنه قوله عليه السلام: «زعموا مطية الكذب وعن شريح لكل شيء كنية وكنية الكذب، زعموا»[3] ويتعدّى إلى المفعولين تعدّي العلم قال:

ولـم أزعمـك عـن ذاك مـعـزلاً ... وإن مع ما في حيزه قائم مقامهما

والذين كفروا أهل مكة و﴿بلى﴾ إثبات لما بعد لن وهو البعث ﴿وذلك على الله يسير﴾ أي: لا يصرفه

(1) سورة التغابن، الآية: 2.

(2) قال أحمد: إنما الحق انه لم يخلق لهم إيماناً ولا قدرة عليه، فكان قادراً أن يخلق لهم الإيمان والقدرة عليه، وإنما حرّفها الزمخشري إلى قاعدته.

(3) قال الزيلعي بهذا اللفظ 3/41.

عنه صارف.

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾.

وعنى برسوله والنور محمدًا ﷺ والقرآن.

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾.

وقرئ: نجمعكم ونكفر وندخله بالياء والنون.

فإن قُلْتَ: بم انتصب الظرف؟ **قُلْتُ**: بقوله: لتنبؤن أو بخبير، لما فيه من معنى الوعيد، كأنه قيل: والله معاقبكم يوم يجمعكم أو بإضمار اذكر **﴿ليوم الجمع﴾** ليوم يجمع فيه الأوّلون والآخرون. التغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضًا لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء، وفيه تهكم بالأشقياء لأنّ نزولهم ليس بغبن، وفي حديث رسول الله ﷺ: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرًا وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة»[1]. ومعنى **﴿ذلك يوم التغابن﴾** وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم استعظام له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقة لا التغابن في أمور الدنيا. وإن جلت وعظمت **﴿صالحًا﴾** صفة للمصدر أي: عملاً صالحًا.

مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾.

﴿إلا بإذن الله﴾ إلا بتقديره ومشيئته كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه **﴿يهد قلبه﴾** يلطف به ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير. وقيل: هو الاسترجاع عند المصيبة، وعن الضحاك: يهد قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعن مجاهد: إن ابتلى صبر وإن أعطى شكر وإن ظلم غفر. وقرئ: يهد قلبه على البناء للمفعول والقلب مرفوع أو منصوب ووجه النصب أن يكون مثل سفه نفسه أي: يهد في قلبه. ويجوز أن يكون المعنى: أنّ الكافر ضال عن قلبه بعيد منه والمؤمن واجد له مهتدٍ إليه كقوله تعالى: **﴿لمن كان له قلب﴾**. وقرئ: نهد قلبه بالنون. ويهدّ قلبه بمعنى: يهتد، ويهدأ قلبه يطمئن، ويهد ويهدأ على التخفيف **﴿والله بكل شيء عليم﴾** يعلم ما يؤثر فيه اللطف من القلوب مما لا يؤثر فيه فيمنحه ويمنعه.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾.

﴿فإن توليتم﴾ فلا عليه إذا توليتم لأنه لم يكتب عليه طاعتكم إنما كتب عليه أن يبلغ ويبين فحسب.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾.

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ بعث لرسول الله ﷺ على التوكل عليه والتقوّي به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه. إنّ من الأزواج أزواجًا يعادين بعولتهنّ ويخاصمنهم ويجلبن عليهم، ومن الأولاد أولادًا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾.

﴿فاحذروهم﴾ الضمير للعدوّ أو للأزواج والأولاد جميعًا أي: لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدوّ فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم **﴿وإن تعفوا﴾** عنهم إذا طلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها فإنّ الله يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم. وقيل: إنّ ناسًا أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا. فرقوا لهم ووقفوا، فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فزين لهم العفو، وقيل: قالوا لهم: أين تذهبون وتدعون ولدكم وعشيرتكم وأموالكم؟ فغضبوا عليهم وقالوا: لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير. فلما هاجروا منعوهم الخير فحثوا أن يعفوا عنهم ويردّوا إليهم البر والصلة. وقيل: كان عوف بن مالك الأشجعي ذا أهل وولد، فإذا أراد أن يغزو وتعلقوا به وبكوا إليه ورققوه، فكأنه هم بأذاهم فنزلت.

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾.

﴿فتنة﴾ بلاء ومحنة لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ولا بلاء أعظم منهما ألا ترى إلى قوله: **﴿والله عنده أجر عظيم﴾** وفي الحديث يؤتى برجل يوم القيامة فيقال: «أكل عياله حسناته»[2]. وعن بعض السلف العيال سوس

---

(1) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (الحديث رقم: 6569) وعن أنس أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال (الحديث رقم: 1338) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب: عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه (الحديث رقم: 70. 2870) وعن ابن عمر أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعرض عليه مقعده بالغداة = والعشي (الحديث رقم: 1379) ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار... (الحديث رقم: 65 ـ 2866).

(2) قال الزيلعي غريب مرفوعًا وهو في الحلية لأبي نعيم من قول سفيان الثوري رواه في ترجمته 42/3.

الطاعات، وعن النبي ﷺ «أنه كان يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان فنزل إليهما فأخذهما ووضعهما في حجره على المنبر فقال: صدق الله ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما ثم أخذ في خطبته»[1]. وقيل: إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتننكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما.

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾.

﴿ما استطعتم﴾ جهدكم ووسعكم أي: ابذلوا فيها استطاعتكم ﴿واسمعوا﴾ ما توعظون به ﴿وأطيعوا﴾ فيما تأمرون به وتنهون عنه ﴿وأنفقوا﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها ﴿خيرًا لأنفسكم﴾ نصب بمحذوف تقديره ائتوا خيرًا لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها وأنفع. وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر وبيان لأنّ هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا.

إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾.

ونكر القرض تلطف في الاستدعاء. ﴿يضاعفه لكم﴾ يكتب لكم بالواحدة عشر أو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة. وقرئ: يضعفه ﴿شكور﴾ مجاز أي: يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب. وكذلك ﴿حليم﴾ يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجاءة»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الطلاق مدنية

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾.

خص النبي ﷺ بالنداء وعم بالخطاب[3] لأنّ النبي إمام أمّته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت، إظهارًا لتقدّمه واعتبارًا لترؤسه وإنه مدره قومه ولسانهم والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدّون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم وسادًّا مسد جميعهم. ومعنى: ﴿إذا طلقتم النساء﴾ إذا أردتم تطليقهنّ وهممتم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[4] ومنه كان الماشي إلى الصلاة والمنتظر لها في حكم المصلي ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ فطلقوهن مستقبلات لعدتهن[5] كقولك: أتيته لليلة بقيت من المحرم أي: مستقبلاً لها، وفي قراءة رسول الله ﷺ: في قبل عدّتهنّ وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأوّل من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدّتها، والمراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه[6]، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهنّ، وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده من الندم. ويدل عليه ما روي عن إبراهيم النخعي أنّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستحبون

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث (الحديث رقم: 1109)، والترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب الحسن والحسين (الحديث رقم: 3774)، والنسائي في كتاب: الجمعة، باب: نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة (الحديث رقم: 1412)، وابن ماجه في كتاب: اللباس، باب: لبس الأحمر للرجال (الحديث رقم: 3600)، وأخرجه ابن حبان في كتاب: الفرائض، باب: ذوي الرحم، (الحديث رقم: 6039)، أخرجه الحاكم في المستدرك 1/287.

(2) الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم زيلعي 6/44.

(3) قال أحمد: وعلى هذا الفرق جرى قوله تعالى في حكاية عن فرعون ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ فأفرد موسى عليه السلام بالنداء؛ لأنه كان لجل الاثنين عليهما السلام وعمهما بالخطاب، وقد تقدم فيه وجه آخر.

(4) تقدم في سورة البقرة.

(5) قال أحمد: حمل القراءتين المستفيضة والشاذة على إن وقت الطلاق هو الوقت الذي تكون العدة مستقبلة بالنسبة إليه، وادّعى أنّ ذلك معنى المستقبل فيها، ونظر اللام فيها باللام في قولك: مؤرخاً الليلة لليلة بقيت من المحرّم، وإنما يعني: أن العدة بالحيض، كل ذلك تحامل لمذهب أبي حنيفة في أنّ = الإقراء الحيض، ولا يتم له ذلك، فقد استدل أصحابنا بالقراءة المستفيضة، وأكدوا الدلالة بالشاذة على أن الإقراء الإطهار، ووجه الاستدلال لها على ذلك: أنّ الله تعالى جعل العدة وإن كانت في الأصل مصدراً ظرفاً للطلاق المأمور به، وكثيراً ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً، مثل: خفوق النجم ومقدم الحاج، وإذا كانت العدة ظرفاً للطلاق المأمور به وزمانه هو الطهر وفاقاً، فالطهر عدة إذاً، ونظير اللام هنا على التحقيق اللام في قوله: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾ وإنما تمنى أن لو عمل عملاً في حياته، وقراءته عليه السلام في قبل عدتهنّ تحقق ذلك. فإن قيل: الشيء جزء منه وداخل فيه، وفي صفة مسح الرأس فاقبل بهما وأدبر، أي: مسح قبل الرأس وهو مقدمها، فحينئذ قبل العدّة جزء منها وهو الطهر.

(6) قال أحمد: الأمر كما نقله وضابط السنة عند مالك أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه واحدة وهي غير معتدّة، والآية تدل لمذهبه على تأويل المتقدمين جميعاً، أما على تأويل الزمخشري وتفسيره المقيد بالاستقبال، فلأن الطلاق المأمور به أي المأذون فيه في الآية مقيد بوقت تكون العدّة مستقبلة بالنسبة إليه، وهذا يأبى وقوع الطلاق في أثناء العدة الماضي بعضها، وأما على تأويلنا؛ فلأنه مقيد بزمان يكون أولاً للعدّة وقبلاً لها، وهذا يأبى من وقوعه مرادفاً في الطهر الثاني والثالث، غير أن البدعة عند مالك تتفاوت =

أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدّة. وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثًا في ثلاثة أطهار. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة. وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد فأما مفرقًا في الأطهار فلا، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض ما هكذا أمرك الله إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً وتطلقها لكل قرء تطليقة[1]، وروي أنه قال لعمر: مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر ثم ليطلقها إن شاء، فتلك العدّة التي أمر الله أن تطلق لها النساء[2]. وعند الشافعي رضي الله عنه: لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح. فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت، وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت، والشافعي يراعي الوقت وحده.

فإن قُلْتَ: هل يقع الطلاق المخالف للسنة؟ **قُلْتُ:** نعم وهو آثم. لما روي عن النبي ﷺ أنّ رجلاً طلق امرأته ثلاثًا بين يديه، فقال: أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم[3]؟ وفي حديث ابن عمر أنه قال: يا رسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثًا، فقال له: إذن عصيت وبانت منك امرأتك[4]. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثًا إلا أوجعه ضربًا وأجاز ذلك عليه[5]. وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أنّ من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلث لم يقع وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف.

فإن قُلْتَ: كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل وغير المدخول بها! **قُلْتُ:** الصغيرة والآيسة والحامل كلهن عند أبي حنيفة وأبي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر وخالفهما محمد وزفر في الحامل فقالا: لا تطلق للسنة إلا واحدة، وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ولا يراعي الوقت.

فإن قُلْتَ: هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة؟ **قُلْتُ:** اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا والظاهر الكراهة.

فإن قُلْتَ: قوله إذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الأقراء والآيسات والصغائر والحوامل فكيف صحّ تخصيصه بذوات الأقراء المدخول بهن! **قُلْتُ:** لا عموم ثم ولا خصوص، ولكن النساء اسم جنس للإناث من الإنس وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن وفي بعضهن فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك، فلما قيل: «فطلقوهنّ لعدّتهنّ» علم أنه أطلق على بعضهنّ وهنّ المدخول بهن من المعتدات بالحيض **﴿وأحصوا العدّة﴾** واضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلات[6] كوامل لا نقصان فيهنّ **﴿ولا تخرجوهنّ﴾** حتى تنقضي عدّتهنّ **﴿من بيوتهنّ﴾** من مساكنهنّ التي يسكنها قبل العدّة وهي بيوت الأزواج وأضيفت إليهنّ لاختصاصها بهنّ من حيث السكنى.

فإن قُلْتَ: ما معنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهن؟ **قُلْتُ:** معنى الإخراج أن لا يخرجهنّ البعولة غضبًا عليهنّ وكراهةً لمساكنتهن أو لحاجة لهم إلى المساكن. وأن لا يأذنوا لهنّ في الخروج إذا طلبن ذلك إيذانًا بأنّ إذنهم لا أثر له في رفع الحظر ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك **﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾** قرئ بفتح الياء وكسرها قيل: هي الزنى يعني: إلا أن يزنين فيخرجن لإقامة الحد عليهن. وقيل: إلا أن يطلقن على النشوز، والنشوز يسقط حقها في السكنى، وقيل: إلا أن يبذون، فيحل إخراجهنّ لبذائهنّ، وتؤكده قراءة أبي إلا أن يفحشن عليكم. قيل: خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه الأمر الذي يحدثه الله أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فليراجعها والمعنى: فطلقوهنّ لعدّتهنّ وأحصوا العدّة لعلكم ترغبون وتندمون فتراجعون.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾

﴿فإذا بلغن أجلهنّ﴾ وهو آخر العدّة وشارفنه، فأنتم بالخيار إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرار وهو أن يراجعها في آخر عدتها ثم يطلقها تطويلاً للعدّة عليها وتعذيبًا لها **﴿وأشهدوا﴾** يعني: عند الرجعة والفرقة جميعًا وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كقوله: **﴿وأشهدوا**

= فلا جرم، قال: إن طلقها في الحيض لجبر على الرجعة، فإن أبى ارتجع عليه الحاكم، وإن طلقها في طهر مسها فيه أو أردف الطلاق لم يجبره.

(1) الدارقطني في كتاب الطلاق (الحديث رقم: 6).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق باب: قول الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ (الحديث رقم: 5251) ومسلم في كتاب: الطلاق باب: تحريم طلاق الحائض (الحديث رقم: 1/1471).

(3) أخرجه النسائي في كتاب: الطلاق باب: الثلاث المجموعة وما فيه من التغليظ (الحديث رقم: 3401).

(4) تقدم تخريجه سابقاً.

(5) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 6/332 (الحديث رقم: 1065) وابن أبي شيبة 5/11 كتاب الطلاق باب من كره أن يطلق الخ.

(6) قال أحمد: وقوله: ﴿واتقوا الله ربكم﴾ توطئة لقوله: ﴿لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ﴾ حتى كأنه نهى عن الإخراج مرتين، مندرجاً في العموم ومفرداً بالخصوص، وقد تقدمت أمثاله.

إذا تبايعتم﴾[1] وعند الشافعي: هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة وقيل: فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد وأن لا يتهم في إمساكها ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث ﴿منكم﴾ قال الحسن: من المسلمين، وعن قتادة: من أحراركم ﴿لله﴾ لوجهه خالصًا وذلك أن تقيموها لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الظلم كقوله تعالى: ﴿كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم﴾[2] أي: ﴿ذلكم﴾ الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ولأجل القيام بالقسط ﴿يوعظ به ومن يتق الله﴾ يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة وطريقة الأحسن والأبعد من الندم، ويكون المعنى: ومن يتقِ الله فطلق للسنة، ولم يضار المعتدة، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فاشهد ﴿يجعل﴾ الله ﴿له مخرجًا﴾ مما في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق ويفرج عنه وينفس ويعطه الخلاص.

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾.

﴿ويرزقه﴾ من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه إن أوفى المهر وأدى الحقوق والنفقات وقلّ ماله، وعن النبي ﷺ أنه سئل عمن طلق ثلاثًا أو ألفًا هل له من مخرج فتلاها[3]. وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال: لم تتق الله فلم يجعل لك مخرجًا بانت منك بثلاث والزيادة إثم في عنقك. ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله: ﴿ذلكم يوعظ به﴾ يعني: ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ومخلصًا من غموم الدنيا والآخرة، وعن النبي ﷺ أنه قرأها فقال: مخرجًا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة[4]. وقال عليه السلام: «إني لأعلم آيةً لو أخذ الناس بها لكفتهم ومن يتق الله فما زال يقرؤها ويعيدها[5]. وروي أنّ عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابنًا له يسمى سالمًا، فأتى رسول الله فقال: أسر ابني. وشكا إليه الفاقة، فقال: ما أمسى عند آل محمد إلا مد فاتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول لا قوّة إلا بالله ففعل، فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها فنزلت هذه الآية[6] ﴿بالغ أمره﴾ أي: يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب وقرئ بالغ أمره بالإضافة وبالغ أمره بالرفع أي: نافذ أمره، وقرأ المفضل بالغًا أمره على أنّ قوله: ﴿قد جعل الله﴾ خبر إن وبالغًا حال ﴿قدرًا﴾ تقديرًا وتوقيتًا وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه[7] لأنه إذا علم أنّ كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل.

وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾.

روي أنّ ناسًا قالوا: قد عرفنا عدة ذوات الاقراء فما عدة اللائي لا يحضن. فنزلت فمعنى ﴿إن ارتبتم﴾ إن أشكل عليكم حكمهنّ وجهلتم كيف يعتددن فهذا حكمهنّ، وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين أهو دم حيض أو استحاضة. ﴿فعدّتهنّ ثلاثة أشهر﴾ وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ﴿واللائي لم يحضن﴾ هن الصغائر المعنى فعدّتهنّ ثلاثة أشهر فحذف لدلالة المذكور عليه. اللفظ مطلق في أولات الأحمال فاشتمل على المطلقات والمتوفى عنهن وكان ابن مسعود وأبي وأبو هريرة وغيرهم لا يفرقون، وعن علي وابن عباس: عدة الحامل المتوفى عنها أبعد الأجلين[8]، وعن عبد الله: من شاء لاعنته أنّ سورة النساء القصرى نزلت بعد التي في البقرة[9] يعني: أنّ هذا اللفظ مطلق في الحوامل. وروت أم

---

(1) سورة البقرة، الآية: 282.
(2) سورة النساء، الآية: 135.
(3) الدارقطني في السنن 4/20 (الحديث رقم: 53).
(4) أبو نعيم في الحلية في ترجمة قتادة والشعبي في تفسيره والواحدي في تفسيره الوسيط زيلعي 4/50.
(5) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الورع والتقوى (الحديث رقم: 4220).
(6) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/492.
(7) قال أحمد: ليس بعشك فادرجي إبراء القدري، وأين التسليم للقدر، وليس هذا دينه ولا معتقده، من تقسيم الحوادث ثلاثة أقسام، فمنها: ما يريد الله تعالى وجوده، وهو المأمورات ولا يقع أكثر مراده منها، ومنها: ما يريد عدمه، وهو المنهيات فيوجد أكثرها على خلاف مراده، ومنها: ما لا يريد عدمه ولا وجوده، فإن وجد فبغير إرادته عز وجل وإن عدم فكذلك، فيتحصل من هذا الهذيان الذي لا يتصور أنّ الكائنات إنما تتبع إرادة الخلق؛ لأنها لا تقع إلا بها، فإن وافقت إرادة الله تعالى فليس وقوعها تابعاً لها؛ لأنها = وقعت بدونها، وإن خالفت إرادة الله تعالى لم يكن لمخالفتها للإرادة الربانية تأثير في منع وقوعها، فمن يتوغل في ادغال هذا الضلال كيف له بالتوكل الذي يتوقف على اعتقاد أنّ الكائنات جميعها إنما تتوقف على إرادة الله عز وجل، فمهما أراده وقع ومهما لم يرده لم يقع شاء العبد أو أبى فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والعبد مجرى لحدوث الكائنات الواقعة بقدرة الله تعالى وإرادته لا غير، لا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه، فما القدري من هذا المقام الشريف إلا على مراحل لا يقربه إليها إلا راحلة الإنصاف وزاد التقوى، ودليل التوفيق والله حسبنا ونعم الوكيل.
(8) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة الطلاق باب: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن...﴾ (الحديث رقم: 4909).
(9) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة البقرة، باب: ﴿والذين يتوفون منكم...﴾ (الحديث رقم: 4532)، وأبو داود في كتاب: الطلاق باب: في عدة الحامل (الحديث رقم: 2307)، والنسائي في كتاب: الطلاق، باب: عدة الحامل المتوفى عنها زوجها (الحديث رقم: 3522).

سلمة أنّ سبيعة الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لها: قد حللت فانكحي[1] ﴿يجعل له من أمره يسرًا﴾ ييسر له من أمره ويحلل له من عقده بسبب التقوى.

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾.

﴿ذلك أمر الله﴾ يريد ما علم من حكم هؤلاء المعتدات والمعنى: ومن يتق الله في العمل بما أنزل الله من هذه الأحكام وحافظ على الحقوق الواجبة عليه مما ذكر من الإسكان وترك الضرار والنفقة على الحوامل وإيتاء أجر المرضعات وغير ذلك استوجب تكفير السيئات والأجر العظيم.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾.

﴿أسكنوهن﴾ وما بعده بيان لما شرط من التقوى في قوله: ﴿ومن يتق الله﴾[2] كأنه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات فقيل: أسكنوهن.

فإن قُلْتَ: من في ﴿من حيث سكنتم﴾ ما هي؟ قُلْتُ: هي من التبعيضية مبعضها محذوف معناه أسكنوهن مكانًا من حيث سكنتم أي: بعض مكان سكناكم كقوله تعالى: ﴿يغضوا من أبصارهم﴾[3] أي: بعض أبصارهم، قال قتادة: إن لم يكن إلا بيت واحد فأسكنها في بعض جوانبه.

فإن قُلْتَ: فقوله: ﴿من وجدكم﴾! قُلْتُ هو عطف بيان لقوله: ﴿من حيث سكنتم﴾ وتفسير له كأنه قيل: أسكنوهن مكانًا من مسكنكم مما تطيقونه والوجد الوسع والطاقة. وقرئ: بالحركات الثلاث والسكنى والنفقة واجبتان لكل مطلقة. وعند مالك والشافعي: ليس للمبتوتة إلا السكنى ولا نفقة لها، وعن الحسن وحماد: لا نفقة لها ولا سكنى، لحديث فاطمة بنت قيس أن زوجها أبت طلاقها، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا سكنى لك ولا نفقة»[4]. وعن عمر رضي الله عنه: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها سمعت النبي ﷺ يقول لها: السكنى والنفقة[5]، ﴿ولا تضاروهن﴾ ولا تستعملوا معهن الضرار ﴿لتضيقوا عليهنّ﴾ في المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهن أو يشغل مكانهن أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج. وقيل: هو أن يراجعها إذا بقي من عدتها يومان ليضيق عليها أمرها، وقيل: هو أن يلجئها إلى أن تفتدى منه.

فإن قُلْتَ: فإذا كانت كل مطلقة عندكم تجب لها النفقة فما فائدة الشرط في قوله: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن﴾؟ قُلْتُ: فائدته أنّ مدة الحمل ربما طالت فظن ظان أنّ النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحامل فنفى ذلك الوهم.

فإن قُلْتَ: فما تقول في الحامل المتوفى عنها؟ قُلْتُ: مختلف فيها فأكثرهم على أنه لا نفقة لها لوقوع الإجماع على أنّ من أجبر الرجل على النفقة عليه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن ينفق عليه من ماله بعد موته فكذلك الحامل. وعن علي وعبد الله وجماعة أنهم أوجبوا نفقتها ﴿فإن أرضعن لكم﴾ يعني: هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولدًا من غيرهنّ أو منهنّ بعد انقطاع عصمة الزوجية ﴿فآتوهنّ أجورهنّ﴾ حكمهنّ في ذلك حكم الآظار، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يبن ويجوز عند الشافعي. الائتمار بمعنى التآمر كالاشتوار بمعنى التشاور يقال: ائتمر القوم وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضًا، والمعنى: وليأمر بعضكم بعضًا، والخطاب للآباء والأمهات ﴿بمعروف﴾ بجميل وهو المسامحة وأن لا يماكس الأب ولا تعاسر الأم لأنه ولدهما معًا وهما شريكان فيه وفي وجوب الاشفاق عليه. ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة. كما تقول لمن تستقضيه حاجة[6] فيتوانى سيقضيها غيرك تريد لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم وقوله له: أي للأب أي: سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿لينفق﴾ كل واحد من الموسر والمعسر ما بلغه

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق باب: ﴿وأولات الأحمال أجلهن...﴾ (الحديث رقم: 5318)، ومسلم في كتاب الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها (الحديث رقم: 57 ـ 1485).

(2) سورة الطلاق، الآية: 4.

(3) سورة النور، الآية: 30.

(4) أخرجه مسلم في كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها (الحديث: 36 ـ 1480).

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها = (الحديث رقم: 46 ـ 1480) وأبو داود في كتاب: الطلاق، باب: من أنكر على فاطمة... (الحديث: 2291) والنسائي في كتاب: الطلاق، باب: الرخصة في خروج المبتوتة في بيتها في عدتها لسكناها (الحديث رقم: 3551).

(6) قال أحمد: وخص الأم بالمعاتبة؛ لأنّ المبذول من جهتها هو لبنها لولدها، وهو غير متموّل ولا مضنون به في العرف، وخصوصاً في الأم على الولد، ولا كذلك المبذول من جهة الأب فإنه المال المضنون به عادة، فالأم إذاً أجدى باللوم وأحق بالعتب، والله أعلم.

وسعه يريد ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات كما قال: ﴿ومتعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾[1] وقرئ: ليفنق بالنصب، أي: شرعنا ذلك لينفق. وقرأ ابن أبي عبلة قدر ﴿سيجعل الله﴾ موعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه ولم يقصروا.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾.

﴿عتت عن أمر ربها﴾ أعرضت عنه على وجه العتو والعناد ﴿حسابًا شديدًا﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿عذابًا نكرًا﴾ وقرئ: نكرًا منكرًا عظيمًا، والمراد حساب الآخرة وعذابها وما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. وجيء به على لفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾[2] ﴿ونادى أصحاب النار﴾[3].

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾.

ونحو ذلك لأنّ المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة وما هو كائن فكأن قد وقوله: ﴿أعد الله لهم عذابًا شديدًا﴾ تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقبًا كأنه قال: أعد الله لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك ﴿يا أولي الألباب﴾ من المؤمنين لطفًا في تقوى الله وحذر عقابه، ويجوز أن يراد حصاء السيئات واستقصاؤها عليهم في الدنيا، وإثباتها في صحائف الحفظة وما أصيبوا به من العذاب في العاجل. وأن يكون عتت وما عطف عليه صفة للقرية وأعدّ الله لهم جوابًا لكأين.

رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾.

﴿رسولاً﴾ هو جبريل صلوات الله عليه أبدل من ذكرًا لأنه وصف بتلاوة آيات الله فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر[4] فصح إبداله منه، أو أريد بالذكر الشرف. من قوله: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ فأبدل منه كأنه في نفسه شرف إما لأنه شرف للمنزل عليه، وإما لأنه ذو مجد وشرف عند الله كقوله تعالى: ﴿عند ذي العرش مكين﴾ أو جعل لكثرة ذكره لله وعبادته كأنه ذكر أو أريد ذا ذكر أي: ملكًا مذكورًا في السموات وفي الأمم كلها، أو دل قوله: أنزل الله إليكم ذكرًا على أرسل فكأنه قيل: أرسل رسولاً أو أعمل ذكرًا في رسولاً إعمال المصدر في المفاعيل. أي: أنزل الله أن ذكر رسولاً أو ذكره رسولاً، وقرئ: رسول على هو رسول. أنزل ﴿ليخرج الذين آمنوا﴾ بعد إنزاله أي: ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ، أو ليخرج الذين عرف منهم أنهم يؤمنون. قرئ: يدخله بالياء والنون ﴿قد أحسن الله له رزقًا﴾ فيه معنى التعجيب والتعظيم لما رزق المؤمن من الثواب.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾.

﴿الله الذي خلق﴾ مبتدأ وخبر. وقرئ: مثلهنّ بالنصب عطفًا على سبع سموات، وبالرفع على الابتداء وخبره من الأرض. قيل: ما في القرآن آية تدل على أنّ الأرضين سبع إلا هذه. وقيل: بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وغلظ كل سماء كذلك، والأرضون مثل السموات ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ أي: يجري أمر الله وحكمه بينهنّ وملكه ينفذ فيهنّ، وعن قتادة: في كل سماء وفي كل أرض من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه وقيل: هو ما يدبر فيهنّ من عجائب تدبيره. وقرئ: ينزل الأمر. وعن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق؟ قال: نعم. قال: فما الخلق؟ قال: إما ملائكة أو جن ﴿لتعلموا﴾ قرئ: بالتاء والياء عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله ﷺ»[5].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التحريم مدنية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾.

روي أن رسول الله ﷺ خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها: اكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي[6] وابشرك أنّ أبا بكر وعمر يملكان

---

(1) سورة البقرة، الآية: 236.

(2) سورة الأعراف، الآية: 44.

(3) سورة الأعراف، الآية: 50.

(4) قال أحمد: وعلى هذين الوجهين الأخيرين يكون مفعولاً، إما بالفعل المحذوف أو بالمصدر، وعلى الأربعة المتقدمة بدلاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(5) الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم زيلعي 4/55.

(6) قال أحمد: ما أطلقه الزمخشري في حق النبي ﷺ تقوّل وافتراء، والنبي ﷺ منه براء، وذلك أن تحريم ما أحله الله على وجهين، اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه الله عز وجل، وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمة الإيمان، وإن صدر سلب المؤمن حكم الإيمان واسمه. الثاني: الامتناع مما أحله الله عز وجل وحمل التحريم بمجرّده صحيح، لقوله: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ أي: منعنا لا =

بعدي أمر أمتي فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين[1] وقيل: خلا بها في يوم حفصة فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم[2] فطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعًا وعشرين ليلة في بيت مارية[3] وروي أنّ عمر قال لها: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك فنزل جبريل عليه السلام وقال: راجعها فإنها صوّامة قوّامة وإنها لمن نسائك في الجنة[4] وروي أنه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش فتواطات عائشة وحفصة فقالتا له: إنا نشم منك ريح المغافير وكان رسول الله ﷺ يكره التفل فحرّم العسل[5] فمعناه: ﴿لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ من ملك اليمين أو العسل و ﴿تبتغي﴾ إما تفسير لتحرم أو حال أو استئناف وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ الله لأنّ الله عزّ وجل إنما أحلّ ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله فإذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة ﴿والله غفور﴾ قد غفر لك ما زللت فيه ﴿رحيم﴾ قد رحمك فلم يؤاخذك به.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٢﴾.

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ فيه معنيان: أحدهما قد شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم من قولك: حلل فلان في يمينه، إذا استثنى فيها. ومنه حلاً أبيت اللعن بمعنى استثن في يمينك إذا أطلقها وذلك أن يقول: إن شاء الله عقيبها حتى لا يحنث. والثاني قد شرع الله لكم تحلتها بالكفارة ومنه قوله عليه السلام: لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم[6]. وقول ذي الرمّة: قليلاً كتحليل الألي.

فإن قُلْتَ: ما حكم تحريم الحلال؟ قُلْتُ: قد اختلف فيه فأبو حنيفة يراه يمينًا في كل شيء ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرّمه فإذا حرّم طعامًا فقد حلف على أكله، أو أمة فعلى وطئها، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية وإن نوى الظهار فظهار، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن، وكذلك إن نوى ثنتين وإن نوى ثلاثًا فكما نوى. وإن قال: نويت الكذب دين فيما بينه وبين الله تعالى ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء، وإن قال: كل حلال عليّ حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو وإلا فعلى ما نوى. ولا يراه الشافعي يمينًا ولكن سببًا في الكفارة في النساء وحدهنّ وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده. وعن أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد رضي الله عنهم أنّ الحرام يمين[7]، وعن عمر إذا نوى الطلاق فرجعي، وعن علي رضي الله عنه ثلاث[8]، وعن زيد واحدة بائنة. وعن عثمان ظهار. وكان مسروق لا يراه شيئًا ويقول: ما أبالي أحرمتها أم قصعة من ثريد، وكذلك عن الشعبي قال: ليس بشيء محتجًا بقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾[9] وقوله تعالى: ﴿تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم﴾[10] وما لم يحرّمه الله تعالى فليس لأحد أن يحرّمه ولا أن يصير بتحريمه حرامًا. ولم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما أحله الله هو حرام عليّ وإنما امتنع من مارية ليمين تقدّمت منه وهو قوله عليه السلام: «والله لا أقربها بعد اليوم». فقيل له: لم تحرّم ما أحل الله لك، أي: لم تمتنع منه بسبب اليمين. يعني: قدم على ما حلفت عليه وكفر عن يمينك ونحوه قوله تعالى: ﴿وحرّمنا عليه المراضع﴾[11] أي

= غير، وقد يكون مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله، وهذا مباح صرف حلال ومحض، ولو كان على المنع ترك المباح والامتناع منه غير مباح استحالت حقيقة الحال بلا إشكال، فإذا علمت بون ما بين القسمين فعلى القسم الثاني تحمل الآية والتفسير الصحيح يعضده، فإنّ النبيّ ﷺ حلف بالله «لا أقرب مارية» ولما نزلت الآية كفر عن يمينه، ويدل عليه ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ وقال مالك في المدونة عن زيد بن أسلم: إنما كفر النبي ﷺ في تحريمه أم ولده؛ لأنه حلف أن لا يقربها، ومثله عن الشعبي، وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح، وإنما قيل له: ﴿لِمَ تحرم ما أحل الله لك﴾ رفقاً به وشفقة عليه، وتنويهاً لقدره ولمنصبه ﷺ أن يراعى مرضات أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيه، ورفعه عن أن يخرج بسبب أحد من البشر الذين هم اتباعه، ومن أجله خلقوا ليظهر الله كمال نبوّته بظهور نقصانهم عنه، والزمخشري قطعاً لم يحمل التحريم على هذا الوجه؛ لأنه جعل زلة فيلزمه أن يحمله على المحمل الأوّل، ومعاذ الله وحاش لله وأنّ آحاد المؤمنين حاشى عن أن يعتقد تحريم ما احل الله له، فكيف لا يربأ بمنصب النبي ﷺ عما يرتفع عنه منصب عامة الأمّة، وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على الله ورسوله، وإطلاق القول من غير تحرير، وإبراز الرأي الفاسد بلا تخمير، نعوذ بالله من ذلك، وهو المسؤول أن يجعل وسيلتنا إليه تعظيماً لنبينا صلوات الله عليه، وأن يجنبنا خطوات الشيطان ويقيلنا من عثرات اللسان آمين.

(1) الطبراني في معجمه.
(2) قال الزيلعي غريب. ورواه ابن أبي خيثمة في تاريخه وابن سعد في الطبقات ثم ساق الحديثين 4/61.
(3) لم يخرجه الزيلعي.
(4) الحاكم في المستدرك 4/15.
(5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير سورة التحريم باب: ﴿يا أيها النبي لمَ تحرم ما أحل الله لك...﴾ (الحديث رقم: 4912)، ومسلم في كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (الحديث رقم: 20 ـ 1474).
(6) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلاة والآداب، باب: فضل من يموت له ولد فيحتسبه (الحديث رقم: 150 ـ 2632).
(7) حديث أبي بكر رواه ابن أبي شيبة 5/74 كتاب: الطلاق باب: الحرام يمين وحديث عمر رواه ابن أبي شيبة 5/73 كتاب الطلاق باب الحرام يمين وحديث ابن عباس رواه مسلم في كتاب الطلاق باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته... (الحديث رقم: 18 ـ 1473)، وحديث ابن مسعود رواه عبد الرزاق في المصنف 6/401 (الحديث رقم: 11364)، وحديث زيد لم يخرجه الزيلعي.
(8) رواه عبد الرزاق في المصنف 6/404 (الحديث رقم: 11390).
(9) سورة النحل، الآية: 116.
(10) سورة المائدة، الآية: 87.
(11) سورة القصص، الآية: 12.

منعناه منها وظاهر قوله تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ أنه كانت منه يمين.

فإن قُلْتَ: هل كفر رسول الله ﷺ لذلك؟ قُلْتُ: عن الحسن أنه لم يكفر لأنه كان مغفورًا له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر[1] وإنما هو تعليم المؤمنين، وعن مقاتل أنّ رسول الله ﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية[2].

﴿والله مولاكم﴾ سيدكم ومتولي أموركم ﴿وهو العليم﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿الحكيم﴾ فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما توجبه الحكمة، وقيل: مولاكم أولى بكم من أنفسكم فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم لأنفسكم.

وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾

﴿بعض أزواجه﴾ حفصة والحديث الذي أسر إليها حديث مارية. وإمامة الشيخين ﴿نبأت به﴾ أفشته إلى عائشة وقرئ أنبأت به ﴿وأظهره﴾ واطلع النبي عليه السلام ﴿عليه﴾ على الحديث أي: على إفشائه على لسان جبريل، وقيل: أظهر الله الحديث على النبي ﷺ من الظهور ﴿عرف بعضه﴾ أعلم ببعض الحديث تكرمًا، قال: سفيان ما زال التغافل من فعل الكرام، وقرئ عرف بعضه أي: جاز عليه من قولك للمسيء: لأعرفن لك ذلك، وقد عرفت ما صنعت، ومنه أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم وهو كثير في القرآن. وكان جزاؤه تطليقه إياها وقيل: المعرف حديث الإمامة والمعرض عنه حديث مارية، وروي أنه ﷺ قال لها: «ألم أقل لك اكتمي عليّ»، قالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحًا بالكرامة التي خص الله بها إياها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: فلما نبأت به بعضهن وعرفها بعضًا! قُلْتُ: ليس الغرض بيان من المذاع إليه ومن المعروف وإنما هو ذكر جناية حفصة في وجود الإنباء به وإفشائه من قبلها، وأن رسول الله ﷺ بكرمه وحلمه لم يوجد منه إلا الإعلام ببعضه وهو حديث الإمامة ألا ترى أنه لما كان المقصود في قوله: ﴿فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا﴾[3] ذكر المنبأ كيف أتى بضميره.

إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

﴿إن تتوبا﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما، وعن ابن عباس: لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر عنهما حتى حج وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة فسكبت الماء على يده فتوضأ فقلت: من هما؟ فقال: عجبًا يا ابن عباس. كأنه كره ما سألته عنه، ثم قال: هما حفصة وعائشة[4] ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله ﷺ من حب ما يحبه وكراهة ما يكرهه، وقرأ ابن مسعود: فقد زاغت ﴿وإن تظاهرا﴾ وإن تعاونا ﴿عليه﴾ بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره فلن يعدم هو من يظاهره، وكيف يعلم المظاهر من الله مولاه أي: وليه وناصره، وزيادة هو إيذان بأن نصرته عزيمة من عزائمه وأنه يتولى ذلك بذاته. ﴿وجبريل﴾ رأس الكروبيين وقرن ذكره بذكره مفردًا له من بين الملائكة تعظيمًا له وإظهارًا لمكانته عنده ﴿وصالح المؤمنين﴾ ومن صلح من المؤمنين يعني: كل من آمن وعمل صالحًا، وعن سعيد بن جبير: من برئ منهم من النفاق وقيل: الأنبياء، وقيل: الصحابة، وقيل: الخلفاء منهم.

فإن قُلْتَ: صالح المؤمنين واحد أم جمع؟ قُلْتُ: هو واحد أريد به الجمع، كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس، تريد الجنس كقولك: لا يفعله من صلح منهم، ومثله قولك: كنت في السامر والحاضر، ويجوز أن يكون أصله صالحو المؤمنين بالواو فكتب بغير واو على اللفظ لأنّ لفظ الواحد والجمع واحد فيه كما جاءت أشياء في المصحف متبوع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط ﴿والملائكة﴾ على تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم ﴿بعد ذلك﴾ بعد نصرة الله وناموسه وصالحي المؤمنين ﴿ظهير﴾ فوج مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يعاديه، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه.

فإن قُلْتَ: قوله بعد ذلك تعظيم للملائكة ومظاهرتهم وقد تقدّمت نصرة الله وجبريل وصالح المؤمنين ونصرة الله تعالى أعظم وأعظم! قُلْتُ: مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله فكأنه فضل نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم على غيرها من وجوه نصرته تعالى لفضلهم على جميع خلقه. وقرئ: تظاهرا وتتظاهرا وتظهرا.

عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

قرئ يبدله بالتخفيف والتشديد للكثرة ﴿مسلمات مؤمنات﴾ مقرّات مخلصات ﴿سائحات﴾ صائمات وقرئ: سيحات، وهي أبلغ، وقيل للصائم: سائح لأنّ السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكًا إلى أن يجد ما يطعمه فشبه به

(1) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب في الحرام (الحديث رقم: 240).
(2) لم يخرجه الزيلعي، وقال المحقق ورد من حديث أنس عن ابن مردويه راجع الدر المنثور 240/6، [4/64].
(3) سورة التحريم، الآية: 3.
(4) أخرجه البخاري في كتاب المظالم باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها (الحديث رقم: 2468).

الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره، وقيل: سائحات مهاجرات. وعن زيد بن أسلم لم تكن في هذه الأمّة سياحة إلا الهجرة.

فإن قُلْتَ: كيف تكون المبدلات خيرًا منهن ولم تكن على وجه الأرض نساء خير من أمّهات المؤمنين؟ **قُلْتُ:** إذا طلقهن رسول الله لعصيانهن له وإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله ﷺ والنزول على هواه ورضاه خيرًا منهن، وقد عرض بذلك في قوله: قانتات لأنّ القنوت هو القيام بطاعة الله وطاعة الله في طاعة رسوله.

فإن قُلْتَ: لم أخليت الصفات كلها عن العاطف[1] ووسط بين الثيبات والأبكار؟ **قُلْتُ:** لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات فلم يكن بد من الواو.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾.

﴿قوا أنفسكم﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات **﴿وأهليكم﴾** بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم وفي الحديث رحم الله رجلاً قال: يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعلّ الله يجمعهم معه في الجنة[2] وقيل: إنّ أشد الناس عذابًا يوم القيامة من جهل أهله وقرئ وأهلوكم[3] عطفًا على واو قوا وحسن العطف للفاصل.

فإن قُلْتَ: أليس التقدير قوا أنفسكم وليق أهلوكم أنفسهم؟ **قُلْتُ:** لا ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو وأنفسكم واقع بعده فكأنه قيل: قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه فجعلت ضميرهما معًا على لفظ المخاطب **﴿نارًا وقودها الناس والحجارة﴾** نوعًا من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي حجارة الكبريت وهي أشدّ الأشياء حرًا إذا أوقد عليها وقرئ وقودها بالضم أي: ذو وقودها **﴿عليها﴾** يلي أمرها وتعذيب أهلها **﴿ملائكة﴾** يعني: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم **﴿غلاظ شداد﴾** في أجرامهم غلظة وشدّة أي: جفاء وقوّة أو في أفعالهم جفاء وخشونة لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر الله والغضب له والانتقام من أعدائه **﴿ما أمرهم﴾** في محل النصب على البدل أي: لا يعصون ما أمر الله أي: أمره كقوله: أفعصيت أمري أو لا يعصونه فيما أمرهم.

فإن قُلْتَ: أليست الجملتان في معنى واحد؟ **قُلْتُ:** لا فإنّ معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأتونها[4] ولا ينكرونها ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه.

فإن قُلْتَ: قد خاطب الله المشركين المكذبين بالوحي بهذا بعينه في قوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾[5] وقال: ﴿أعدت للكافرين﴾[6] فجعلها معدّة للكافرين فما معنى مخاطبته به المؤمنين؟ **قُلْتُ:** الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار فإنهم مساكنون الكفار في دار واحد فقيل: للذين آمنوا قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الكفار الذين أعدّت لهم هذه النار الموصوفة ويجوز أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد والندم على الدخول في الإسلام وأن يكون خطابًا للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون ويعضد ذلك قوله تعالى على أثره.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾.

﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لا تعتذروا لأنه لا عذر لكم أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار.

---

(1) قال أحمد: وقد ذكر لي الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله أنّ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب رحمه الله كان يعتقد أنّ الواو في الآية هي الواو التي سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية؛ لأنها ذكرت مع الصفة الثامنة، فكان الفاضل يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة صلة أحدها التي في الصفة الثامنة من قوله: ﴿التائبون العابدون﴾ عند قوله: ﴿والناهون عن المنكر﴾ والثانية في قوله: ﴿وثامنهم كلبهم﴾ والثالثة في قوله: ﴿وفتحت أبوابها﴾ قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب: ولم يزل الفاضل يستحسن ذلك من نفسه، إلى أن ذكره يوماً بحضرة أبي الجود النحوي المقري فبين له أنه واهم في عدها من ذلك القبيل، وأحال البيان على المعنى الذي ذكره الزمخشري من دعاء الضرورة إلى الإتيان بها ههنا، لامتناع اجتماع الصفتين في موصوف واحد، وواو الثمانية إن ثبتت فإنما ترد بحيث لا حاجة إليها إلا للإشعار بتمام نهاية العدد الذي هو السبعة، فأنصفه الفاضل رحمه الله واستحسن ذلك منه، وقال: أرشدتنا يا أبا الجود.

(2) قال الزيلعي غريب 4/66.

(3) قال أحمد: ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو، وأنفسكم واقع بعده، كأنه قال: قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم، ولكن لما اجتمع ضمير المخاطب والغائبين غلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة. ثم قال: فإن قلت قوله: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أليس الجملتان في معنى واحد؟ وأجاب: بأن معنى الأولى أنهم يلتزمون الأوامر ولا يأتونها.

(4) قال أحمد: جوابه الأول مفرع على قاعدته الفاسدة في اعتقاد خلود الفساق في جهنم، ولعله إنما أورد السؤال ليتكلف عنه بجواب ينفس عما في نفسه مما لا يطيق كتمانه من هذا الباطل، نعوذ بالله منه، وإلا فالسؤال غير وارد، فإنه لا يمتنع أنّ المؤمن يحذر من عذاب الكافر أن يناله على الإيمان، كقوله في آل عمران خطاباً للمؤمنين: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.

(5) سورة البقرة، الآية: 24.

(6) سورة البقرة، الآية: 24.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿توبةً نصوحًا﴾ وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي والنصح صفة التائبين وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسيآت وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقبحها نادمين عليها مغتمين أشدّ الاغتمام لارتكابها عازمين على أنهم لا يعودون في قبيح من القبائح إلى أن يعود اللبن في الضرع موطنين أنفسهم على ذلك، وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه سمع أعرابيًا يقول: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، فقال: يا هذا إنّ سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين، قال: وما التوبة، قال: يجمعها ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة وللفرائض الإعادة وردّ المظالم واستحلال الخصوم وأن تعزم على أن لا تعود وأن تنيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية وأن تنيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي، وعن حذيفة بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه، وعن شهر بن حوشب أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار، وعن ابن السماك أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك ويستعد لمنتظرك وقيل: توبة لا يتاب منها، وعن السدي لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس والمؤمنين لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله وقيل: نصوحًا من نصاحة الثوب أي: توبة توفر خروقك في دينك وترم خلك وقيل: خالصة من قولهم: عسل ناصح إذا خلص من الشمع ويجوز أن يراد توبة تنصح الناس أي: تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها واستعماله الجدّ والعزيمة في العمل على مقتضياتها وقرأ زيد بن علي توبًا نصوحًا وقرئ نصوحًا بالضم هو مصدر نصح والنصح والنصوح كالشكر والشكور والكفر والكفور أي: ذات نصوح أو تنصح نصوحًا أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له **﴿عسى ربكم﴾** إطماع من الله لعباده وفيه وجهان أحدهما أن يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة بعسى ولعل ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت والثاني أن يجيء به تعليمًا للعباد وجوب الترجح بين الخوف والرجاء والذي يدل على المعنى الأوّل وأنه في معنى البت قراءة ابن أبي عبلة ويدخلكم بالجزم عطفًا على محل عسى أن يكفر كأنه قيل: توبوا يوجب لكم تكفير سيآتكم ويدخلكم **﴿يوم لا يخزي الله﴾** نصب بيدخلكم ولا يخزي تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم **﴿يسعى نورهم﴾** على الصراط **﴿أتمم لنا نورنا﴾** قال ابن عباس: يقولون ذلك: إذا طفئ نور المنافقين إشفاقًا، وعن الحسن الله متممه لهم ولكنهم يدعون تقرّبًا إلى الله كقوله تعالى: **﴿واستغفر لذنبك﴾**[1] وهو مغفور له وقيل: يقوله أدناهم منزلة لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون به مواطئ أقدامهم لأنّ النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلاً وقيل: السابقون إلى الجنة يمرّون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبوًا وزحفًا فأولئك الذين يقولون ربنا أتمم لنا نورنا.

فإن **قُلْتَ**: كيف يشفقون والمؤمنون آمنون أم من يأتي آمنا يوم القيامة لا خوف عليهم لا يحزنهم الفزع الأكبر أو كيف يتقربون وليست الدار دار تقرّب؟ **قُلْتُ**: أما الإشفاق فيجوز أن يكون على عادة البشرية وإن كانوا معتقدين الأمن وأما التقرّب فلما كانت حالهم كحال المتقربين حيث يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة سماه تقرّبًا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿جاهد الكفار﴾ بالسيف **﴿والمنافقين﴾** بالاحتجاج. واستعمل الغلظة والخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة، وعن قتادة مجاهدة المنافقين لإقامة الحدود عليهم، وعن مجاهد بالوعيد وقيل: بإفشاء أسرارهم. مثل الله عز وجل حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر لأنّ عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيًا من أنبياء الله بحال.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب الله. **﴿وقيل﴾**: لهما عند موتهما أو يوم القيامة **﴿ادخلا النار مع﴾** سائر **﴿الداخلين﴾** الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط. ومثل حال المؤمنين في أنّ وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئًا من ثوابهم وزلفاهم عند الله بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى. ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أنّ قومها كانوا كفارًا، وفي طي هذين التمثيلين

(1) سورة غافر، الآية: 55.

تعريض بأمّي المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه لما في التمثيل من ذكر الكفر ونحوه في التغليظ قوله تعالى: ﴿ومن كفر فإنّ الله غني عن العالمين﴾[1] وأشار إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، والتعريض بحفصة أرجح لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدًا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره.

فإن **قُلْتَ**: ما فائدة قوله: من عبادنا؟ **قُلْتُ**: لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائنًا من كان وأنه وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله، قال: عبدين من عبادنا صالحين فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهارًا وإبانةً، لأنّ عبدًا من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير وأنّ ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب المرجحان عنده.

فإن **قُلْتَ**: ما كانت خيانتهما؟ **قُلْتُ**: نفاقهما وإبطانهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين. فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون وامرأة لوط دلت على ضيفانه، ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر، فإنّ الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمونه حقًا.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «ما بغت امرأة نبي قط. وامرأة فرعون آسية بنت مزاحم»[2]. وقيل: هي عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك فعذبها فرعون. عن أبي هريرة أنّ فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ووضع رحى على صدرها، وقيل: أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة، فدعت الله فرقى بروحها، فألقيت الصخرة على جسدٍ لا روح فيه، وعن الحسن: فنجاها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب وتتنعم فيها، وقيل: لما قالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة﴾. أريت بيتها في الجنة يبنى، وقيل: إنه من درة، وقيل: كانت تعذب في الشمس فتظلها الملائكة.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة؟ **قُلْتُ**: طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ثم بينت مكان القرب بقولها: في الجنة، أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها: عندك **﴿من فرعون وعمله﴾** من عمل فرعون أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم وخصوصًا من عمله وهو الكفر وعبادة الأصنام والظلم والتعذيب بغير جرم **﴿ونجني من القوم الظالمين﴾** من القبط كلهم. وفيه دليل على أنّ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسئلة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين. الآية ﴿فافتح بيني وبينهم فتحًا ونجني ومن معي من المؤمنين﴾[3]. ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾[4].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فيه﴾ في الفرج وقرأ ابن مسعود: فيها، كما قرئ في سورة الأنبياء والضمير للجملة. وقد مر لي في هذا الظرف كلام ومن بدع التفاسير أنّ الفرج هو جيب الدرع، ومعنى أحصنته منعته جبريل، وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييبًا لأنفسهنّ **﴿وصدقت﴾** قرئ: بالتشديد والتخفيف، على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة. يعني: وصفتها بالصدق، وهو معنى التصديق بعينه.

فإن **قُلْتَ**: فما كلمات الله وكتبه؟ **قُلْتُ**: يجوز أن يراد بكلماته صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره سماها كلمات لقصرها[5]، وبكتبه الكتب الأربعة وأن يراد جميع ما كلم الله به ملائكته وغيرهم، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره، وقرئ: بكلمة الله وكتابه أي: بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل.

فإن **قُلْتَ**: لم قيل: **﴿من القانتين﴾** على التنكير؟ قلت: لأنّ القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 97.

(2) رواه عبد الرزاق في تفسيره والزيلعي 4/66.

(3) سورة الشعراء، الآية: 118.

(4) سورة يونس، الآيتان: 85 ـ 86.

(5) قال أحمد: هو يعتقد حدوث كلام الله ويجحد الكلام القديم، فلا جرم أنّ كلامه لا يعدو الإشعار بأنّ كلمات الله متناهية؛ لأنه في الوجه الأوّل جعلها مجموعة جمع قلة لقصرها، وفي الثاني = حصرها بقوله: جميع وأين، وصفه لها بالقصر. والحصر من الآيتين التوأمتين اللتين إحداهما قوله: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ والأخرى قوله: ﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ الآية، وما هو في الحقيقة إلا غير مؤمن بكلمات الله تعالى، فالحق أنّ كلام الله تعالى صفة ـن صفات كماله أزلية أبدية غير متناهية، فهكذا آمنت امرأة فرعون المتلو ثناؤها في كتاب الله العزيز، ثبتنا الله على الإيمان ووقانا الخذلان، والله المستعان.

على إناثه ومن للتبعيض ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هرون أخي موسى صلوات الله عليهما، وعن النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1]. وأما ما روي أنّ عائشة سألت رسول الله ﷺ: كيف سمى الله المسلمة ـ تعني مريم ـ ولم يسم الكافرة؟ فقال: بغضًا لها، قالت: وما اسمها؟ قال: اسم امرأة نوح واهلة، واسم امرأة لوط واهلة. فحديث أثر الصنعة عليه ظاهر بيّن، ولقد سمى الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ولو كانت التسمية للحب وتركها للبغض لسمي آسية وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمارةً تنم عليه وكلام رسول الله ﷺ أحكم وأسلم من ذلك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبةً نصوحًا»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الملك مكية

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾.

﴿تبارك﴾ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ﴿الذي بيده الملك﴾ على كل موجود ﴿وهو على كل﴾ ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة ﴿قدير﴾ وذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة ما يصح بوجوده الإحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حيًا وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر.

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾.

والموت عدم ذلك[3] فيه، ومعنى خلق الموت والحياة إيجاد ذلك المصحح وإعدامه، والمعنى خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿ليبلوكم﴾ ويسمى علم الواقع منهم باختبارهم بلوى وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر ونحوه قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم﴾[4].

فإن قُلْتَ: من أين تعلق قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ بفعل البلوى؟ قُلْتُ: من حيث أنه تضمن معنى العلم[5]، فكأنه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملاً، وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملاً أم هو، كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه كما تقول: علمته هو أحسن عملاً.

فإن قُلْتَ: تسمى هذا تعليقًا؟ قُلْتُ: لا إنما التعليق أن توقع بعده ما يسدّ مسدّ المفعولين جميعًا كقولك: علمت أيهما عمرو وعلمت أزيد منطلق. ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرًا بحرف الاستفهام وغير مصدر به، ولو كان تعليقًا لافترقت الحالتان كما افترقتا في قولك: علمت أزيد منطلق وعلمت زيدًا منطلقًا أحسن عملاً. قيل: أخلصه وأصوبه، لأنه إذا كان خالصًا غير صواب لم يقبل وكذلك إذا كان صوابًا غير خالص. فالخالص أن يكون لوجه الله تعالى، والصواب أن يكون على السنة، «وعن النبي ﷺ أنه تلاها فلما بلغ قوله: ﴿أيكم أحسن عملاً﴾. قال: أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله»[6]. يعني: أيكم أتم عقلاً عن الله وفهمًا لأغراضه، والمراد أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه، وقدم الموت على الحياة لأنّ أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم ﴿وهو العزيز﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ﴿الغفور﴾ لمن تاب من أهل الإساءة.

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾.

﴿طباقًا﴾ مطابقةً بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا خصفها طبقًا على طبق، وهذا وصف بالمصدر، أو على ذات طباق أو على طوبقت طباقًا ﴿من تفاوت﴾ وقرئ: من تفوت، ومعنى البناءين واحد كقولهم: تظاهروا من نسائهم

---

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، (الحديث رقم: 7114)، وأخرجه البخاري في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (الحديث رقم: 3719)، وأبو نعيم في الحلية 5/99.

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم والزيلعي 4/68.

(3) قال أحمد: أخطأ في تفسير الموت ديدنه المعروف أن يفسر ويتبع التفسير آراء القدرية، ومنها قطع الله ذكرها: أن الموت عدم وهو خطأ صراح، ومعتقد أهل السنة أنه أمر وجودي يضاد الحياة، = وكيف يكون العدم بهذه المثابة، ولو كان العدم مخلوقاً حادثاً، وعدم الحوادث مقرر أزلاً للزم قطع الحوادث أزلاً، وذلك أبشم من القول بقدم العالم، فانظر إلى هذا الهوى أين مؤداه، وكيف أهوى بصاحبه فأرداه، نعوذ بالله من الزلل والخطل.

(4) سورة محمد، الآية: 31.

(5) قال أحمد: التعليق عن أحد المفعولين مختلف فيه بين النحاة والأصح ما أجازه، وهو في هذا الفن يمشي، وفيه يدرج ويدري كيف يدخل فيه ويخرج.

(6) تقدم تخريجه سابقاً.

وتظهروا، وتعاهدته وتعهدته، أي: من اختلاف واضطراب من الخلقة، ولا تناقض إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضًا ولا يلائمه ومنه قولهم: خلقٌ متفاوت وفي نقيضه متناصف.

فإن قُلْتَ: كيف موقع هذه الجملة مما قبلها؟ قُلْتُ: هي صفة مشايعة لقوله: طباقًا. وأصلها ما ترى فيهنّ من تفاوت، فوضع مكان الضمير قوله: خلق الرحمٰن تعظيمًا لخلقهنّ وتنبيهًا على سبب سلامتهنّ من التفاوت، وهو انه خلق الرحمن وأنه يباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب. والخطاب في ما ترى المرسول أو لكل مخاطب وقوله تعالى: ﴿فارجع البصر﴾ متعلق به على معنى التسبيب أخبره بأنه لا تفاوت في خلقهنّ، ثم قال: فارجع البصر حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة ولا تبقى معك شبهة فيه ﴿هل ترى من فطور﴾ من صدوع وشقوق، جمع فطر وهو الشق. يقال: فطره فانفطر، ومنه فطر ناب البعير كان يقال: شق ويزل. ومعناه: شق اللحم فطلع.

ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾.

وأمره بتكرير البصر فيهنّ متصفحًا ومتتبعًا يلتمس عيبًا وخللاً ﴿ينقلب إليك﴾ أي: إن رجعت البصر وكررت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب بل يرجع إليك بالخسوء والحسور. أي: بالبعد عن إصابة الملتمس كأنه يطرد عن ذلك طردًا بالصغار والقماءة وبالإعياء والكلال لطول الإجالة والترديد.

فإن قُلْتَ: كيف ينقلب البصر خاسئًا حسيرًا برجعه كرّتين اثنتين؟ قُلْتُ: معنى التثنية التكرير[1] بكثرة كقولك: لبيك وسعديك، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض، وقولهم في المثل: دهدرين سعد القين من ذلك أي: باطلاً بعد باطل.

فإن قُلْتَ: فما معنى ﴿ثم ارجع﴾؟ قُلْتُ: أمره برجع البصر، ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى بالنظرة الحمقاء وأن يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعاود ويعاود إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة فإنه لا يعثر على شيء من فطور.

وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾.

﴿الدنيا﴾ القربى لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناه السماء الدنيا منكم. والمصابيح السرج سميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها ﴿بمصابيح﴾ أي: بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة وضممنا إلى ذلك منافع أخرانا ﴿جعلناها رجومًا لـ﴾ أعدائكم لـ ﴿لشياطين﴾ الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر، قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدي بها، فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم به. وعن محمد بن كعب: في السماء نجم والله ما لأحد من أهل الأرض، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة، والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمى به ما يرجم به. ومعنى كونها مراجم للشياطين: أنّ الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها لأنها قارّة في الفلك على حالها وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار والنار ثابتة كاملة لا تنقص، وقيل: من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب ومنهم من يخبله، وقيل: معناه وجعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب[2] لشياطين الإنس وهم النجامون. ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾.

وللذين كفروا بربهم أي: ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم. ﴿عذاب جهنم﴾ ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك، وقرئ عذاب جهنم بالنصب عطفًا على عذاب السعير.

إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾.

﴿إذا ألقوا فيها﴾ أي: طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به. ومثله قوله تعالى: ﴿حصب جهنم﴾ ﴿سمعوا لها شهيقًا﴾ إمّا لأهلها ممن تقدّم طرحهم فيها أو من أنفسهم. كقوله ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾. وإما للنار تشبيهًا لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ﴿وهي تفور﴾ تغلي بهم غليان المرجل بما فيه.

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾.

وجعلت كالمغتاظة عليهم لشدّة غليانها بهم ويقولون: فلان يتميز غيظًا، ويتقصف غضبًا. وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه، ويجوز أن يراد غيظ الزبانية. ﴿ألم يأتكم نذير﴾

---

(1) قال أحمد: وفي قوله: ﴿ينقلب إليك البصر﴾ وضع للظاهر موضع المضمر، وفيه من الفائدة التنبيه على أنّ الذي يرجع خاسئاً حسيراً غير مدرك الفطور هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء، ومن هذا القبيل قوله: ﴿خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من = تفاوت﴾ وأصله ما ترى في خلقهنّ من تفاوت، ولكنه ذكرهنّ منسوبات لخلق الرحمن، تنبيهاً على السبب الذي ربابهنّ على الفطور والتفاوت.

(2) قال أحمد: وهذا من الاستطراد لما ذكر وعيد الشياطين استطرد ذلك وعيد الكافرين عموماً، والله أعلم.

توبيخ يزدادون به عذابًا إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم. وخزنتها مالك وأعوانه من الزبانية.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿قالوا بلى﴾ اعتراف منهم بعدل الله وإقرار بأن الله عز وعلا أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة وإنما أتوا من قبل أنفسهم واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضدّه.

فإن قُلتَ: **﴿إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾** من المخاطبون به؟ **قُلتُ:** هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين على أنّ النذير بمعنى الإنذار، والمعنى: ألم يأتكم أهل نذير أو وصف منذروهم لغلوهم في الإنذار كأنهم ليسوا إلا إنذارًا، وكذلك قد جاءنا نذير ونظيره قوله تعالى: **﴿إنَّا رسول رب العالمين﴾** أي: حاملاً رسالته، ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا، أو أرادوا بالضلال الهلاك، أو سموا عقاب الضلال باسمه، أو من كلام الرسل لهم حكوه للخزنة، أي: قالوا لنا هذا فلم نقبله.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿لو كنا نسمع﴾ الإنذار سماع طالبين للحق[1]. أو نعقله عقل متأمّلين، وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل لأنّ مدار التكليف على أدلة السمع والعقل. ومن بدع التفاسير أنّ المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي[2]، كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم، وكأن من كان من هؤلاء فهو من الناجين لا محالة، وعدّة المبشرين من الصحابة عشرة لم يضم إليهم حادي عشر كأن من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسمعوا باسم هذين الفريقين.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿بذنبهم﴾ بكفرهم في تكذيبهم الرسل **﴿فسحقًا﴾** قرئ بالتخفيف والتثقيل أي: فبعدًا لهم اعترفوا أو جحدوا فإنّ ذلك لا ينفعهم.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾.

ظاهره الأمر بأحد الأمرين الإسرار والإجهار. ومعناه: ليستوِ عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما ثم أنه علله. **﴿إنه عليم بذات الصدور﴾** أي: بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها، فكيف لا يعلم ما تكلم به؟ ثم أنكر أن لا يحيط علمًا بالمضمر والمسر والمجهر.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿مَن خلق﴾ الأشياء[3] وحاله أنه اللطيف الخبير والمتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن، ويجوز أن يكون من خلق منصوبًا بمعنى ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله. وروي أنّ المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء فيظهر الله رسوله عليها فيقولون: أسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمد، فنبه الله على جهلهم.

فإن قُلتَ: قدرت في ألا يعلم مفعولاً على معنى ألا يعلم ذلك المذكور مما أضمر في القلب وأظهر باللسان من خلق فهلا جعلته مثل قولهم: هو يعطي ويمنع، وهلا كان المعنى ألا يكون عالمًا من هو خالق؛ لأنّ الخلق لا يصح إلا مع العلم؟ **قُلتُ:** أبت ذلك الحال التي هي قوله: **﴿وهو اللطيف الخبير﴾**. لأنك لو قلت ألا يكون عالمًا من هو خالق وهو اللطيف الخبير لم يكن معنىً صحيحًا لأنّ ألا يعلم معتمد على الحال والشيء لا يوقت بنفسه، فلا يقال: ألا يعلم وهو عالم، ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شيء.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

المشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية، لأنّ المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك، وقيل: مناكبها

---

(1) قال أحمد: إن عني أن الأحكام الشرعية تستفاد من العقل كما تستفاد من السمع بناء على قاعدة التحسين والتقبيح، فهو غير بعيد من أصحاب السعير، وإن عني أنّ العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة والسمع يختص بالأحكام الشرعية، فهو مع أهل السنة.

(2) قال أحمد: ولو تفطن نبيه لهذه الآية لقدها دليلاً على تفضيل السمع على البصر، فإنه قد استدل على ذلك بأخفى منها.

(3) قال أحمد: هذه الآية ردّ على المعتزلة وتصحيح للطريق التي يسلكها أهل السنة في الردّ عليهم، فإنّ أهل السنة يستدلون على أن العبد لا يخلق أفعاله بأنه لا يعلمها، وهو استدلال بنفي اللازم الذي هو العلم على نفي الملزوم الذي هو الخلق، وبهذه الملازمة تلت الآية، فإن الله تعالى أرشد إلى الاستدلال على ثبوت العلم له عزّ وجل بثبوت الخلق، وهو استدلال بوجود الملزوم على وجود= اللازم، فهو نور واحد يقتبس منه ثبوت العلم للباري عزّ وجل، وإبطال خلق العبد لأفعاله وإعراب الآية، ينزل على هذا المعنى، فإن الوجه فيها أن يكون من فاعلاً مراداً به الخالق، ومفعول العلم محذوف تقديره ذلك إشارة إلى السر والجهر، ومفعول خلق محذوف ضميره، عائد إلى ذلك والتقدير في الجميع ألا يعلم السر والجهر من خلقهما، ومتى حذونا غير هذا الوجه من الإعراب ألقانا إلى مضايق التكلف والتعسف، فمن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر والتقدير، ألا يعلم الله المسرين والجاهرين، وليس مطابقاً للمفصل فإنه لم يقع على ذوات الفاعلين، وإنما وقع على أفعالهم من السر والجهر، وعليه وقع الاستدلال، ويحتمل غير ذلك أبعد منه والأوّل هو الأولى لفظاً ومعنى، والله الموفق.

جبالها، قال الزجاج: معناه سهل لكم السلوك في جبالها، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها فهو أبلغ التذليل. وقيل: جوانبها. والمعنى: وإليه نشوركم فهو مسائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

﴿مَن في السماء﴾ فيه وجهان: أحدهما من ملكوته في السماء لأنها مسكن ملائكته، وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه، والثاني أنهم كانوا يعتقدون التشبيه وأنه في السماء وأنّ الرحمة والعذاب ينزلان منه وكانوا يدعونه من جهتها. فقيل لهم على حسب اعتقادهم: أأمنتم من تزعمون أنه في السماء وهو متعالٍ عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب، كما تقول لبعض المشبهة أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل إذا رأيته يركب بعض المعاصي. ﴿فستعلمون﴾ قرئ بالتاء والياء ﴿كيف نذير﴾ أي: إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم.

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾.

﴿صافات﴾ باسطات أجنحتهن في الجوّ عند طيرانها لأنهن إذا بسطتها صففن قوادمها[1] صفًا ﴿ويقبضن﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن.

فإن قُلْتَ: لم قيل ويقبضن ولم يقل وقابضات؟ قُلْتُ: لأن الأصل في الطيران وهو صف الأجنحة، لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى: أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح ﴿ما يمسكهنّ إلا الرحمن﴾ بقدرته وبما دبر لهن من القوادم والخوافي وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد تأتي منها الجري في الجو. ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب.

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾.

﴿أمن﴾ يشار إليه من الجموع ويقال: ﴿هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون﴾ الله إن أرسل عليكم عذابه.

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾.

﴿أمن﴾ يشار إليه ويقال: ﴿هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ وهذا على التقدير، ويجوز أن يكون إشارةً إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم. فكأنهم الجند الناصر والرازق ونحوه قوله تعالى: ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾. ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ بل تمادوا في عناد وشراد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه. يجعل أكب مطاوع كبه يقال: كببته فاكب من الغرائب والشواذ، ونحوه قشعت الريح السحاب فأقشع. وما هو كذلك ولا شيء من بناء أفعل مطاوعًا ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه وإنما أكب من باب انفض وألأم ومعناه: دخل في الكب وصار ذا كب، وكذلك أقشع السحاب دخل في القشع ومطاوع كب وقشع انكب وانقشع.

أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى:

﴿يمشي مكبًا على وجهه﴾؟ وكيف قابل يمشي سويًا على صراط مستقيم؟ قُلْتُ: معناه يمشي معتسفًا في مكان معتاد غير مستوفية وفيه انخفاض وارتفاع فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكبًا فحاله نقيض حال من يمشي سويًاأي: قائمًا سالمًا من العثور والخرور، أو مستوى الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذي ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستوٍ. ويجوز أن يراد الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف فلا يزال ينكب على وجهه وانه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المهتدي له، وهو مثل للمؤمن والكافر. وعن قتادة: الكافر أكب على معاصي الله تعالى فحشره الله يوم القيامة على وجهه. وعن الكلبي: عنى به أبو جهل بن هشام وبالسوي رسول الله ﷺ. وقيل: حمزة بن عبد المطلب.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿فلما راوه﴾ الضمير للوعد والزلفة القرب وانتصابها على الحال أو الظرف، أي: راوه ذا زلفة أو مكانًا ذا زلفة. ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي: ساءت رؤية الوعد

---

(1) قال أحمد: ويلاحظ هذا المعنى في قوله: ﴿والطير محشورة﴾ بعد قوله: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن﴾ ولم يقل: مسبحات مثل محشورة، لقربه من هذا التفسير، ولقد أحسن فيه كل الإحسان.

وجوههم بأنّ علتها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة وكلحوا وكما يكون وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب ﴿وقيل﴾: القائلون الزبانية ﴿تدعون﴾ تفتعلون من الدعاء أي: تطلبون وتستعجلون به، وقيل: هو من الدعوى أي: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون، وقرئ: تدعون، وعن بعض الزهاد أنه تلاها في أول الليل في صلاته فبقي يكررها وهو يبكي إلى أن نوى لصلاة الفجر ولعمري أنها لوقاذة لمن تصور تلك الحالة وتأملها.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾.

كان كفار مكة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر بأن يقول لهم نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين إما أن نهلك كما تتمنون فننقلب إلى الجنة أو ترحم بالنصرة والإدالة للإسلام كما نرجو، فأنتم ما تصنعون من يجيركم وأنتم كافرون من عذاب النار لا بدّ لكم منه؟ يعني: إنكم تطلبون لنا الهلاك الذي هو استعجال للفوز والسعادة وأنتم في أمر هو الهلاك الذي لا هلاك بعده، وأنتم غافلون لا تطلبون الخلاص منه، أو إن أهلكنا الله بالموت فمن يجيركم بعد موت هداتكم والآخذين بحجزكم من النار، وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم فإنّ المقتول على أيدينا هالك. أو إن أهلكنا الله في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم، وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له.

فإن **قُلْتَ**: لم أخر مفعول آمنّا وقدم مفعول توكلنا؟ **قُلْتُ**: لوقوع آمنا تعريضًا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم.

قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾.

كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصًا لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾.

﴿غورًا﴾ غائر إذا هبا في الأرض وعن الكلبي: لا تناله الدلاء وهو وصف بالمصدر كعدل ورضا وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال: تجيء به الفؤس والمعاول فذهب ماء عينيه. نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الملك فكأنما أحيا ليلة القدر»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة القلم مكية

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾.

قرئ: ن والقلم بالبيان والإدغام وبسكون النون وفتحها وكسرها، كما في ص. والمراد هذا الحرف من حروف المعجم، وأمّا قولهم: هو الدواة. فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي، ولا يخلو إذا كان اسمًا للدواة من أن يكون جنسًا أو علمًا، فإن كان جنسًا فأين الإعراب والتنوين؟ وإن كان علمًا فأين الإعراب؟ وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام فإن قلت: هو مقسم به وجب إن كان جنسًا أن تجرّه وتنونّه ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة. كأنه قيل: ودواة والقلم. وإن كان علمًا أن تصرفه وتجرّه أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث. وكذلك التفسير بالحوت. إما أن يراد نون من النينان، أو يجعل علمًا لليهموت الذي يزعمون، والتفسير باللوح من نور أو ذهب، والنهر في الجنة نحو ذلك وأقسم بالقلم تعظيمًا له لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف. ﴿وما يسيطرون﴾ وما يكتب من كتب، وقيل: ما يستره الحفظة، وما موصولة أو مصدرية. ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في يسطرون لهم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وسطرهم، ويراد بهم كل ما يسطر أو الحفظة.

مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾.

فإن **قُلْتَ**: بم يتعلق الباء في.

﴿بنعمة ربك﴾ وما محله؟ **قُلْتُ**: يتعلق بمجنون منفيًا كما يتعلق بعاقل مثبتًا في قولك: أنت بنعمة الله عاقل مستويًا في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمرًا. وما ضرب زيد عمرًا تعمل الفعل مثبتًا ومنفيًا إعمالاً واحدًا ومحله النصب على الحال كأنه قال: ما أنت بمجنون منعمًا عليك بذلك ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي. والمعنى: استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوّة وحسدًا وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوّة بمنزلة.

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾.

﴿وإنّ لك﴾ على احتمال ذلك وإساغة الغصة فيه والصبر عليه ﴿لأجرا﴾ لثوابًا ﴿غير ممنون﴾ غير مقطوع

(1) رواه ابن مردويه والواحدي في تفسيرهما والزيلعي 4/71.

كقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾[1] أو غير ممنون عليك به. لأنه ثواب تستوجبه على عملك وليس بتفضل ابتداء وإنما تمن الفواضل لا الأجور على الأعمال. استعظم خلقه لفرط احتماله الممضات من قومه وحسن مخالفته ومداراته لهم.

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾.

وقيل: هو الخلق الذي أمره الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[2] وعن عائشة رضي الله عنها أن سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن، ألست تقرأ القرآن؟ قد أفلح المؤمنون[3].

بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾.

﴿المفتون﴾ المجنون لأنه فتن أي: محن بالجنون، أو لأن العرب يزعمون أنه من تخييل الجن وهم الفتان للفتاك منهم والباء مزيدة، أو المفتون مصدر كالمعقول والمجلود أي: بأيكم الجنون، أو بأي الفريقين منكم الجنون: أبفريق المؤمنين، أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيهما يوجد من يستحق هذا الإسم وهو تعريض بأبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وإضرابهما. وهذا كقوله تعالى: ﴿سيعلمون غدًا من الكذاب الأشر﴾[4].

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾.

﴿إنّ ربك هو أعلم﴾ بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله ﴿وهو أعلم﴾ بالعقلاء وهم المهتدون أو يكون وعيدًا ووعدًا وأنه أعلم بجزاء الفريقين.

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾.

﴿فلا تطع المكذبين﴾ تهيج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم وكانوا قد أرادوه على أن يعبد الله مدّة وآلهتهم مدّة ويكفوا عنه غوائلهم.

وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾.

﴿لو تدهن﴾ لو تلين وتصانع ﴿فيدهنون﴾.

فإن قُلْتَ: لم رفع فيدهنون ولم ينصب بإضمار أن وهو جواب التمني **قُلتُ:** قد عدل به إلى طريق آخر وهو إن جعل خبر مبتدأ محذوف، أي: فهم يدهنون كقوله تعالى: فمن يؤمن بربه فلا يخاف على معنى ودّوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ، أو ودّوا إدهانك، فهم الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك. قال سيبويه: وزعم هرون أنها في بعض المصاحف ودّوا لو تدهن فيدهنوا.

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾.

﴿حلاف﴾ كثير الحلف في الحق والباطل، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف. ومثله قوله تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾. ﴿مهين﴾ من المهانة وهي القلة والحقارة. يريد القلة في الرأي والتمييز، أو أراد الكذاب لأنه حقير عند الناس.

هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾.

﴿هماز﴾ عياب طعان، وعن الحسن: يلوي شدقيه في أقفية الناس ﴿مشاء بنميم﴾ مضرب نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم، والنميم والنميمة السعاية. وأنشدني بعض العرب:

تشبي تشبب النميمة ... تمشي بها زهرًا إلى تميمه

مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾.

﴿مناع للخير﴾ بخيل، والخير المال أو مناع أهله الخير وهو الإسلام. فنكر الممنوع منه دون الممنوع كأنه قال: مناع من الخير، قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي كان موسرًا وكان له عشرة من البنين فكان يقول لهم: وللحمته من أسلم منكم منعته رفدي. عن ابن عباس وعنه أنه أبو جهل. وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث. وعن السدّي: الأخنس بن شريق أصله في ثقيف وعداده في زهرة ولذلك قيل زنيم ﴿معتدٍ﴾ مجاوز في الظلم حدّه ﴿أثيم﴾ كثير الآثام.

عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾.

﴿عتل﴾ غليظ جاف من عتله إذا قاده بعنف وغلظة ﴿بعد ذلك﴾ بعد ما عدله من المثالب والنقائص ﴿زنيم﴾ دعي قال حسان:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وكان الوليد دعيًا في قريش ليس من سنخهم ادّعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده[5]. وقيل: بغت أمّه ولم يعرف حتى نزلت. هذه الآية جعل جفاءه ودعوته أشدّ معايبه لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية، ولأنّ الغالب أنّ النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة ولد الزنى، ولا

---

(1) قال أحمد: ما كان النبي ﷺ يرضى من الزمخشري بتفسير الآية هكذا، وهو ﷺ يقول: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعلمه»، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» ولقد بلغ الزمخشري سوء الأدب إلى حد يوجب الحد، وحاصل قوله: إنّ الله لا منة له على أحد ولا فضل في دخول الجنة؛ لأنه قام بواجب عليه نعوذ بالله من الجراءة عليه.

(2) سورة الأعراف، الآية: 199.

(3) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: صلاة الليل...= = (الحديث رقم: 139 ـ 746).

(4) سورة القمر، الآية: 26.

(5) قال أحمد: وإنما أخذ كون هذين أشد معايبه من قوله بعد ذلك، فإنه يعطي تراخي المرتبة فيما بين المذكور أولا والمذكور بعده في الشر والخير، ونظيره في الخير قوله تعالى: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ ومن ثم استعملت ثم لتراخي المراتب، وإن أعطت عكس الترتيب الوجودي.

ولده، ولا ولد ولده»[1] وبعد ذلك نظير، ثم في قوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾[2] وقرأ الحسن: عتل رفعًا على الذم، وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك والزنيم من الزنمة، وهي الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى معلقة في حلقها لأنه زيادة معلقة بغير أهله.

أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

﴿أن كان ذا مال﴾ متعلق بقوله: ولا تطع يعني: لا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال أي: ليساره وحظه من الدنيا، ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى لكونه متمولاً مستظهرًا بالبنين. كذب آياتنا ولا يعمل فيه، قال: الذي هو جواب إذًا لأنّ ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب. وقرئ: آأن كان على الاستفهام على إلا أن كان ذا مال وبنين كذب، أو أتطيعه لأن كان ذا مال؟ وروى الزبيري عن نافع إن كان بالكسر والشرط للمخاطب أي: لا تطع كل حلاف شارطًا يساره لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجّي إليه في قوله تعالى: ﴿لعله يتذكر﴾.

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾.

الوجه أكرم موضع في الجسد والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدّمه له ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنف في الأنف وحمى أنفه وفلان شامخ العرنين. وقالوا: في الذليل جدع أنفه، ورغم أنفه. فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة لأنّ السمة على الوجه شين وإذالة فكيف بها على أكرم موضع منه. ولقد وسم العباس أباعرة في وجوهها، فقال له رسول الله ﷺ: «أكرموا الوجوه فوسمها في جواعرها»[3].

وفي لفظ الخرطوم استخفاف به واستهانة، وقيل: معناه سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة. كما عادى رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم. وقيل: خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطومه، وقيل: سنشهره بهذه الشتيمة في الدارين جميعًا فلا تخفى كما لا تخفى السمة على الخرطوم، وعن النضر بن شميل أنّ الخرطوم الخمر، وأن معناه سنحده على شربها وهو تعسف. وقيل: للخمر الخرطوم كما قيل: لها السلافة، وهي ما سلف من عصير العنب، أو لأنها تطير في الخياشيم.

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾.

أنا بلونا أهل مكة بالقحط والجوع بدعوة رسول الله ﷺ عليهم، ﴿كما بلونا أصحاب الجنة﴾ وهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين[4]، فكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدّق بالباقي، وكان يترك للمساكين ما أخطاه المنجل وما في أسفل الأكداس، وما أخطاه القطاف من العنب، وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صرمت، فكان يجتمع لهم شيء كثير. فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال فحلفوا ليصرمنها مصبحين في السدف خفية عن المساكين، ولم يستثنوا في يمينهم، فأحرق الله جنتهم، وقيل: كانوا من بني إسرائيل ﴿مصبحين﴾ داخلين في الصبح مبكرين.

وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾.

﴿ولا يستثنون﴾ ولا يقولون: إن شاء الله.

فإن قُلْتَ: لمَ سمى استثناء وإنما هو شرط؟ قُلْتُ: لأنه يؤدي مؤدى الاستثناء من حيث أن معنى قولك: لأخرجنّ إن شاء الله ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد.

فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾.

﴿فطاف عليها﴾ بلاء أو هلاك ﴿طائف﴾ كقوله تعالى: ﴿وأحيط بثمره﴾[5] وقرئ: طيف.

فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾.

﴿فاصبحت كالصريم﴾ كالمصرومة لهلاك ثمرها، وقيل: الصريم الليل أي: احترقت فاسودت، وقيل: النهار أي: يبست وذهبت خضرتها أو لم يبق شيء فيها من قولهم: بيض الإناء إذا فرغه. وقيل: الصريم الرمال.

أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾.

﴿صارمين﴾ حاصدين.

فإن قُلْتَ: هلا قيل اغدو إلى حرثكم، وما معنى على؟ قُلْتُ: لما كان الغدوّ إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوًا عليه، كما تقول غدًا عليهم الغدوّ، ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال، كقولهم: يغدى عليه بالجفنة ويراح أي: فاقبلوا على حرثكم باكرين.

فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿يتخافتون﴾ يتسارون فيما بينهم، وخفى وخفت

---

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية 3/308.

(2) سورة البلد، الآية: 17.

(3) رواه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: النهي عن ضرب الحيوان في وجهه (الحديث رقم: 108 ـ 2118) وأخرجه ابن حبان في كتاب: الحج، باب: رمي الجمار أيام التشريق (الحديث رقم: 3889).

(4) قال أحمد: وفائدة التنكير الإبهام تعظيما لما أصابها، ومعنى كالصريم أي: لهلاك ثمرها، وقيل الصريم: الليل: لأنها احترقت واسودت، وقيل: النهار أي: خالية فارغة من قولهم: بيض الإناء إذا فرغه.

(5) سورة الكهف، الآية: 42.

وخفد ثلاثتها في معنى الكتم ومنه الخفدود للخفاش.

أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴿٢٤﴾.

﴿أن لا يدخلنها﴾ أن مفسرة، وقرأ ابن مسعود: بطرحها بإضمار القول أي: يتخافتون يقولون: لا يدخلنها، والنهى عن الدخول للمسكين نهى لهم عن تمكينه منه أي: لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل. كقولك: لا أرينك ههنا.

وغدوا على حرد قادرين ﴿٢٥﴾.

الحرد من حردت السنة إذا منعت خيرها، وحاردت الإبل إذا منعت درها. والمعنى: وغدوا قادرين على نكد لا غير عاجزين عن النفع. يعني: أنهم عزموا أن يتنكدوا على المساكين ويحرموهم، وهم قادرون على نفعهم. فغدوا بحال فقر وذهاب مال لا يقدرون فيها إلا على النكد والحرمان وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان والمسكنة، أو وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها قادرين بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها. أي: غدوا حاصلين على الحرمان مكان الانتفاع أو لما قالوا: غدوا على حرثكم وقد خبثت نيتهم عاقبهم الله بأن حاردت جنتهم وحرموا خيرها فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرد.

و﴿قادرين﴾ من عكس الكلام للتهكم. أي: قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين، وعلى حرد ليس بصلة قادرين، وقيل: الحرد بمعنى الحرد، وقرئ: ﴿على حرد﴾ أي: لم يقدروا إلا على حنق وغضب بعضهم على بعض. كقوله تعالى: ﴿يتلاومون﴾[1] وقيل: الحرد القصد والسرعة. يقال: حردت حردك. وقال: أقبل سيل جاء من أمر الله. يحرد حرد الجنة المغلة وقطا حراد سراع يعني: وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط قادرين عند أنفسهم يقولون: نحن نقدر على صرامها وزي منفعتها عن المساكين. وقيل: حرد علم للجنة. أي: غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان.

فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴿٢٦﴾.

﴿قالوا﴾ في بديهة وصولهم ﴿إنا لضالون﴾ أي: ضللنا جنتنا وما هي بها لما رأوا من هلاكها.

بل نحن محرومون ﴿٢٧﴾.

فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا. ﴿بل نحن محرومون﴾ حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا.

قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴿٢٨﴾.

﴿أوسطهم﴾ أعدلهم وخيرهم من قولهم: هو من سطة قومه، وأعطني من سطات مالك، ومنه قوله تعالى: ﴿أمة وسطا﴾[2] ﴿لولا تسبحون﴾ لولا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم كان أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة فعصوه، فعيرهم. والدليل عليه قولهم: سبحان ربنا إنا كنا ظالمين فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة ولكن بعد خراب البصرة. وقيل: المراد بالتسبيح الاستثناء لالتقائهما في معنى التعظيم لله لأن الاستثناء تفويض إليه، والتسبيح تنزيه له، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم. وعن الحسن: هو الصلاة كأنهم كانوا يتوانون في الصلاة، وإلا لَنَهَتْهُم عن الفحشاء والمنكر ولكانت لهم لطفاً في أن يستثنوا ولا يحرموا.

قالوا سبحن ربنا إنا كنا ظلمين ﴿٢٩﴾.

﴿سبحان ربنا﴾ سبحوا الله ونزهوه عن الظلم وعن كل قبيح، ثم اعترفوا بظلمهم في منع المعروف وترك الاستثناء.

فأقبل بعضهم على بعض يتلومون ﴿٣٠﴾ قالوا يويلنا إنا كنا طغين ﴿٣١﴾.

﴿يتلاومون﴾ يلوم بعضهم بعضاً لأنّ منهم من زين، ومنهم من قبل، ومنهم من أمر بالكف، وعذرو منهم مَن عصى الأمر، ومنهم مَن سكت وهو راضٍ.

عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا رغبون ﴿٣٢﴾.

﴿أن يبدلنا﴾ قرئ: بالتشديد والتخفيف. ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه.

كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴿٣٣﴾.

﴿كذلك العذاب﴾ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا ﴿ولعذاب الآخرة﴾ أشدّ وأعظم منه. وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتني تعبًا، وعن مجاهد: تابوا فأبدلوا خيرًا منها، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة، يقال لها: الحيوان فيها عنب البغل منه عنقودًا.

إن للمتقين عند ربهم جنت النعيم ﴿٣٤﴾ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴿٣٥﴾.

﴿عند ربهم﴾ أي: في الآخرة ﴿جنات النعيم﴾ ليس فيها إلا التنعم الخالص لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنان الدنيا. كان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي

(1) سورة القلم، الآية: 30.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

في الدنيا وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساوونا، فقيل: أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾.

ثم قيل لهم على طريقة الالتفات: **﴿ما لكم كيف تحكمون﴾** هذا الحكم الأعوج كأنّ أمر الجزاء مفوّض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم.

أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿أم لكم كتاب﴾ من السماء **﴿تدرسون﴾** في ذلك الكتاب أنّ ما تختارونه وتشتهونه لكم. كقوله تعالى: **﴿أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم﴾**[1] والأصل تدرسون.

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾.

ان لكم ما تخيرون بفتح أنّ لأنه مدروس، فلما جاءت اللام كسرت، ويجوز أن تكون حكايةً للمدروس كما هو. كقوله: **﴿وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين﴾**[2]. وتخير الشيء واختاره، أخذ خيره، ونحوه تنخله وانتخله إذا خذ منخوله. لفلان عليّ يمين بكذا إذا ضمنته منه وحلفت له على الوفاء به يعني: أم ضمنّا منكم، وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد.

أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾.

فإن قُلْتَ: بمَ يتعلق. **﴿إلى يوم القيامة﴾**؟ **قُلْتُ**: القدر في الظرف. أي: هي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدتها إلا يومئذٍ إذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون، ويجوز أن يتعلق ببالغة على أنها تبلغ ذلكم اليوم وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم. وقرأ الحسن: بالغةً بالنصب على الحال من الضمير في الظرف **﴿إنّ لكم لما تحكمون﴾** جواب القسم لأنّ معنى أم لكم أيمان علينا أم أقسمنا لكم.

سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾.

﴿أيهم بذلك﴾ الحكم **﴿زعيم﴾** أي: قائم به وبالاحتجاج لصحته كما يقوم الزعيم المتكلم عن القوم المتكفل بأمورهم.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾.

﴿أم لهم شركاء﴾ أي: ناس يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم عليه ويذهبون مذهبهم فيه **﴿فليأتوا﴾** بهم **﴿إن كانوا صادقين﴾** في دعواهم. يعني: أنّ أحدًا لا يسلم لهم هذا ولا يساعدهم عليه كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد لهم به عند الله، ولا زعيم لهم يقوم به.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾.

الكشف عن الساق، والإبداء عن الخدام. مثل في شدّة الأمر وصعوبة الخطب. وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخدّرات عن سوقهنّ في الهرب وإبداء خدّامهنّ. عند ذلك قال حاتم:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ... وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال ابن الرقيات:

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي ... عن خدام العقيلة العذراء

فمعنى **﴿يوم يكشف عن ساق﴾** في معنى يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم. ولا كشف ثم ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل، وإنما هو مثل في البخل، وأما من شبه فيضيق عطنه وقلة نظره في علم البيان والذي غرّه منه حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «يكشف الرحمن عن ساقه فأمّا المؤمنون فيخرّون سجدًا.

أما المنافقون فتكون ظهورهم طبقًا طبقًا كأنّ فيها سفافيد»[3] ومعناه: يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله وهو الفزع الأكبر يوم القيامة، ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن.

فإن قُلْتَ: فلم جاءت منكرة في التمثيل؟ **قُلْتُ**: للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدّة منكر خارج عن المألوف كقوله: **﴿يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾** كأنه قيل: يوم يقع أمر فظيع هائل. ويحكي هذا التشبيه عن مقاتل، وعن أبي عبيدة: خرج من خراسان رجلان أحدهما شبه حتى مثل وهو مقاتل بن سليمان، والآخر نفى حتى عطل وهو جهم بن صفوان. ومن أحس بعظم مضارّ فُقْدِ هذا العلم علم مقدار عظم منافعه، وقرئ: يوم نكشف بالنون، وتكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً والفعل للساعة أو للحال أي: يوم تشتدّ الحال أو الساعة كما تقول: كشفت الحرب عن ساقها على المجاز، وقرئ: تكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين من أكشف إذا دخل في الكشف، ومنه أكشف الرجل فهو مكشوف إذا انقلبت شفته العليا. وناصب الظرف فليأتوا أو إضمارًا نكر أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ. وإن ثم من الكوائن ما لا يوصف لعظمه. عن ابن مسعود رضي الله عنه: تعقم أصلابهم أي: ترد عظامًا بلا مفاصل لا تثنى

(1) سورة الصافات، الآية: 156.
(2) سورة الصافات، الآية: 78.
(3) رواه الحاكم في المستدرك 4/582.

عند الرفع والخفض، وفي الحديث: وتبقى أصلابهم طبقًا واحدًا. أي: فقارة واحدة.

فإن قُلْتَ: لم يدعون إلى السجود ولا تكليف! **قُلْتُ**: لا يدعون إليه تعبدًا وتكليفًا ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود في الدنيا مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة تحسيرًا لهم وتنديمًا على ما فرّطوا فيه حين دعوا إلى السجود وهم سالمون الأصلاب والمفاصل ممكنون مزاحو العلل فيما تعبدوا به.

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾.

يقال: ذرني وإياه، يريدون كله إليّ فإني أكفيكه كأنه يقول: حسبك إيقاعًا به أن تكل أمره إليّ وتخلي بيني وبينه، فإني عامل بما يجب أن يفعل به مطيق له والمراد: حسبي مجازيًا لمن يكذب بالقرآن فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل عليّ في الانتقام منه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديدًا للمكذبين. استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه، واستدراج الله العصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة فيجعلوا رزق الله ذريعة ومتسلقًا إلى ازدياد الكفر والمعاصي **﴿من حيث لا يعلمون﴾** أي: من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج وهو الإنعام عليهم لأنهم يحسبونه إيثارًا لهم وتفضيلاً على المؤمنين وهو سبب لهلاكهم.

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾.

﴿وأملي لهم﴾ وأمهلهم كقوله تعالى: **﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا﴾**[1] والصحة والرزق والمدّ في العمر إحسان من الله وإفضال يوجب عليهم الشكر والطاعة، ولكنهم يجعلونه سببًا في الكفر باختيارهم. فلما تدرجوا به إلى الهلاك وصف المنعم بالاستدراج، وقيل: كم من مستدرج بالإحسان إليه وكم من مفتون بالثناء عليه وكم من مغرور بالستر عليه. وسمى إحسانه وتمكينه كيدًا كما سماه استدراجًا لكونه في صورة الكيد حيث كان سببًا للتورّط في الهلكة ووصفه بالمتانة لقوّة أثر إحسانه في التسبب للهلاك.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾.

المغرم الغرامة أي: لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجرًا فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان.

أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾.

﴿أم عندهم الغيب﴾ أي: اللوح **﴿فهم يكتبون﴾** منه ما يحكمون به.

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾.

﴿لحكم ربك﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم **﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾** يعني: يونس عليه السلام **﴿إذ نادى﴾** في بطن الحوت **﴿وهو مكظوم﴾** مملوء غيظًا من كظم السقاء إذا ملأه والمعنى: لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلي ببلائه.

لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾.

حسن تنكير الفعل لفصل الضمير في تداركه. وقرأ ابن عباس وابن مسعود: تداركته. وقرأ الحسن: تدّاركه. أي: تتداركه على حكاية الحال الماضية. بمعنى: لولا أن كان يقال فيه: تتداركه كما يقال: كان زيد سيقوم فمنعه فلان. أي: كان يقال فيه سيقوم. والمعنى: كان متوقعًا منه القيام. ونعمة ربه أن أنعم عليه بالتوفيق للتوبة وتاب عليه، وقد اعتمد في جواب لولا على الحال. أعني قوله: **﴿وهو مذموم﴾** يعني: أنّ حاله كانت على خلاف الذمّ حين نبذ بالعراء، ولولا توبته لكانت حاله على الذمّ. روي أنها نزلت بأحد حين حل لرسول الله ﷺ ما حل به فأراد أن يدعو على الذين انهزموا، وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف. وقرئ: رحمة من ربه.

فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾.

﴿فاجتباه ربه﴾ فجمعه إليه وقربه بالتوبة عليه. كما قال: ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى. **﴿فجعله من الصالحين﴾** أي: من الأنبياء. وعن ابن عباس ردّ الله إليه الوحي وشفعه في نفسه وقومه.

وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾.

أن مخففة من الثقيلة واللام علمها. وقرئ: ليزلقونك بضم الياء وفتحها. وزلقه وأزلقه. بمعنى ويقال: زلق الرأس وأزلقه حلقه. وقرئ: ليزهقونك من زهقت نفسه وأزهقها، يعني: أنهم من شدّة تحديقهم ونظرهم إليك شزرًا بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من قولهم: نظر إلي نظرًا يكاد يصرعني ويكاد يأكلني. أي: لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله. قال: يتقارضون إذا التقوا في موطن. نظرًا يزل مواطئ الأقدام وقيل: كانت العين في بني أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله إلا عانه. فأريد بعض العيانين على أن يقول في رسول الله ﷺ مثل ذلك فقال: لم أر كاليوم رجلاً. فعصمه الله. وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية.

﴿لما سمعوا الذكر﴾ أي: القرآن ويملكوا أنفسهم حسدًا على ما أوتيت من النبوة **﴿ويقولون إنه لمجنون﴾** حيرة

(1) سورة آل عمران، الآية: 178.

في أمره وتنفيرًا عنه وإلا فقد علموا أنه أعقلهم. والمعنى: إنهم جننوه لأجل القرآن.

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾.

﴿وما هو إلا ذكر﴾ وموعظة ﴿للعالمين﴾ فكيف يجنن من جاء بمثله. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الحاقة وهي مكية

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾.

﴿الحاقة﴾ الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التي هي آتية لا ريب فيها، أو التي فيها حواق الأمور من الحساب والثواب والعقاب، أو التي تحق فيها الأمور. أي: تعرف على الحقيقة. من قولك: لا أحق هذا. أي: لا أعرف حقيقته. جعل الفعل لها وهو لأهلها، وارتفاعها على الابتداء وخبرها.

مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾.

﴿ما الحاقة﴾ والأصل: الحاقة ما هي؟أي: أي شيء هي. تفخيمًا لشأنها وتعظيمًا لهولها. فوضع الظاهر موضع المضمر لأنه أهول لها.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾.

﴿وما أدراك﴾ وأي شيء أعلمك ما الحاقة؟ يعني: أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها على أنه من العظم والشدّة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه. وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك، وما في موضع الرفع على الابتداء، وأدراك معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾.

القارعة التي تقرع الناس بالإفزاع والأهوال، والسماء بالإنشقاق والإنفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم بالطمس والإنكدار. ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة زيادة في وصف شدّتها. ولما ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيرًا لأهل مكة وتخويفًا لهم من عاقبة تكذيبهم.

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾.

﴿بالطاغية﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدّة، واختلف فيها. فقيل: الرجفة. وعن ابن عباس: الصاعقة. وعن قتادة: بعث الله عليهم صيغة فأهمدتهم. وقيل: الطاغية مصدر كالعافية. أي: بطغيانهم. وليس بذاك لعدم الطباق بينها وبين قوله.

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾.

﴿بريح صرصر﴾ والصرصر الشديدة الصوت لها صرصرة، وقيل: الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر، فهي تحرق لشدّة بردها. ﴿عاتية﴾ شديدة العصف، والعتو استعارة. أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء في حفرة، فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم. وقيل: عتت على خزانها، فخرجت بلا كيل ولا وزن. وروي عن رسول الله ﷺ: «ما أرسل الله سفية من ريح إلا بمكيال، ولا قطرة من مطر إلا بمكيال، إلا يوم عاد ويوم نوح فإنّ الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه السبيل»[2]. ثم قرأ: ﴿إنّا لمّا طغى الماء حملناكم في الجارية﴾[3] وإنّ الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل. ثم قرأ ﴿بريح صرصر عاتية﴾. ولعلها عبارة عن الشدّة والإفراط فيها.

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾.

الحسوم لا يخلو من أن يكون جمع حاسم كشهود وقعود، أو مصدرًا كالشكور والكفور، فإن كان جمعًا فمعنى قوله: حسومًا نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة، أو متتابعة هبوب الرياح ما خفتت ساعة حتى أتت عليهم تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كرّة بعد أخرى حتى ينحسم. وإن كان مصدرًا فإما أن ينتصب بفعله مضمر أي: تحسم حسومًا بمعنى: تستاصل استئصالاً، أو يكون صفة كقولك: ذات حسوم، أو يكون مفعولاً له أي: سخرها عليهم للاستئصال. وقال عبد العزيز: ابن زرارة الكلابي:

ففرق بين بينهم زمان ... تتابع فيه أعوام حسوم

وقرأ السدى حسومًا بالفتح حالاً من الريح أي: سخرها عليهم مستأصلة. وقيل: هي أيام العجوز وذلك أنّ عجوزًا من عاد توارت في سرب فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها. وقيل: هي أيام العجز، وهي آخر الشتاء

---

(1) رواه الثعلبي والواقدي وابن مردويه في تفاسيرهم والزيلعي 4/79.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة شهر بن حوشب وكذلك رواه= الطبري والثعلبي وابن مردويه والطبراني والزيلعي 4/83.

(3) سورة الحاقة، الآية: 11.

وأسماؤها: الصن والصنبر والوبر والآمر والمؤتمر والمعلل ومطفيء الجمر. وقيل: مكفئ الظعن. ومعنى: **﴿سخرها عليهم﴾** سلطها عليهم كما شاء. **﴿فيها﴾** في مهابها أو في الليالي والأيام. وقرئ: أعجاز نخيل.

فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾.

﴿من باقية﴾ من بقية أو من نفس باقية أو من بقاء كالطاغية بمعنى الطغيان.

وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾.

﴿ومن قبله﴾ يريد ومن عنده من تباعه. وقرئ: ومن قبله أي: ومن تقدمه. وتعضد الأولى قراءة عبد الله وأبي ومن معه وقراءة أبي موسى ومن تلقاءه. **﴿والمؤتفكات﴾** قرئ: قوم لوط. **﴿بالخاطئة﴾** بالخطأ أو بالفعلة أو الأفعال ذات الخطأ العظيم.

فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾.

﴿رابية﴾ شديدة زائدة في الشدّة كما زادت قبائحهم في القبح. يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد ليربو في أموال الناس.

إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾.

﴿حملناكم﴾ حملنا آباءكم **﴿في الجارية﴾** في سفينة لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين كان حمل آبائهم منّة عليهم وكأنهم هم المحمولين لأنّ نجاتهم سبب ولادتهم.

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾.

﴿لنجعلها﴾ الضمير للفعلة وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة. **﴿تذكرة﴾** عظة وعبرة **﴿أذن واعية﴾** من شأنها أن تعي وتحفظ ما سمعت به ولا تضيعه بترك العمل. وكل ما حفظته في نفسك فقد وعيته، وما حفظته في غير نفسك[1] فقد أوعيته. كقولك: وعيت الشيء في الظرف. وعن النبي ﷺ أنه قال لعليّ رضي الله عنه عند نزول هذه الآية: «سألت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ». قال عليّ رضي الله عنه: فما نسيت شيئًا بعد وما كان لي أن أنسى[2].

فإن **قُلْتَ**: لم قيل أذن واعية على التوحيد والتنكير! **قُلْتُ**: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالي بهم بالة وإن ملئوا ما بين الخافقين. وقرئ: **﴿وتعيها﴾** بسكون العين للتخفيف شبه تعي بكبد. أسند الفعل إلى المصدر وحسن تنكيره للفصل.

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾.

وقرأ أبو السمال: نفخةً واحدةً بالنصب مسندًا للفعل إلى الجار والمجرور.

فإن **قُلْتَ**: هما نفختان[3]. فلم قيل: واحدة! **قُلْتُ**: معناه أنها لا تثنى في وقتها.

فإن **قُلْتَ**: فأي النفختين هي؟ **قُلْتُ**: الأولى، لأن عندها فساد العالم. وهكذا الرواية عن ابن عباس وقد روى عنه أنها الثانية.

فإن **قُلْتَ**: أما قال بعد يومئذ تعرضون والعرض إنما هو عند النفخة الثانية! **قُلْتُ**: جعل اليوم اسمًا للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب. فلذلك قيل: يومئذ تعرضون، كما تقول جئته عام كذا، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته.

وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾.

﴿وحملت﴾ ورفعت من جهاتها بريح بلغت من قوّة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال، أو بخلق من الملائكة. أو بقدرة الله من غير سبب. وقرئ: وحملت بحذف المحمل وهو أحد الثلاثة **﴿فدكتا﴾** فدكت. الجملتان جملة الأرضين وجملة الجبال فضرب بعضها ببعض حتى تندقّ وترجع كثيبًا مهيلاً وهباء منبثًا. والدك أبلغ من الدقّ. وقيل: فبسطتا بسطة واحدة فصارتا أرضًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا. من قولك: اندكّ السنام، إذا انفرش. وبعير أدك، وناقة دكاء ومنه الدكان.

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾.

﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ فحينئذ نزلت النازلة وهي القيامة.

وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾.

﴿واهية﴾ مسترخية ساقطة القوّة جدًا بعد ما كانت محكمة مستمسكة.

وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾

يريد والخلق الذي يقال له: الملك. وردّ إليه الضمير مجموعًا في قوله: فوقهم على المعنى.

فإن **قُلْتَ**: ما الفرق بين قوله والملك وبين أن يقال والملائكة؟ **قُلْتُ**: الملك أعمّ من الملائكة ألا ترى أن قولك: ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك: ما من ملائكة. **﴿على أرجائها﴾** على جوانبها الواحد رجا مقصور يعني: أنها

---

(1) قال أحمد: هو مثل قوله: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ وقد ذكر أنّ فائدة التنكير والتوحيد فيه الإشعار بقلة الناظرين.

(2) سعيد بن منصور والثعلبي وابن مردويه زيلعي 4/84.

(3) قال أحمد: وأما فائدة الإشعار بعظم هذه النفخة أن المؤثر لدكّ الأرض والجبال وخراب العالم هي وحدها غير محتاجة إلى أخرى.

تنشق وهي مسكن الملائكة فينضوون إلى أطرافها[1] وما حولها من حافاتها. ﴿ثمانية﴾ أي: ثمانية منهم. وعن رسول الله ﷺ: هم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين[2]، فيكونون ثمانية. وروى: ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤسهم وهم مطرقون مسبحون. وقيل: بعضهم على صورة الإنسان، وبعضهم على صورة الأسد، وبعضهم على صورة الثور، وبعضهم على صورة النسر. وروى: ثمانية أملاك في خلق الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عامًا. وعن شهر بن حوشب: أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. وعن الحسن: الله أعلم كم هم أثمانية أم ثمانية آلاف؟ وعن الضحاك: ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله. ويجوز أن تكون الثمانية من الروح أو من خلق آخر فهو القادر على كل خلق سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون.

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾.

العرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله. وروى أنّ في يوم القيامة ثلاثة عرضات: فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ، وأما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله.

﴿خافية﴾ سريرة. وحال كانت تخفى في الدنيا بستر الله عليكم.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾.

﴿فأما﴾ تفصيل للعرض. هاء صوت يصوت به فيفهم منه معنى: خذ كاف وحس وما أشبه ذلك. و﴿كتابيه﴾ منصوب بهاؤم عند الكوفيين وعند البصريين باقرؤا لأنه أقرب العاملين. وأصله: هاؤم كتابي، اقرؤا كتابي. فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. ونظيره: آتوني أفرغ عليه قطرًا. قالوا: ولو كان العامل الأوّل، لقيل: اقرؤه وأفرغه والهاء للسكت في كتابيه، وكذلك في حسابيه وماليه وسلطانيه[3]. وحق هذه الهاآت أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل، وقد استحب إيثار الوقف إيثارًا لثباتها في المصحف. وقيل: لا بأس بالوصل والإسقاط. وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء بغير هاء. وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعًا لاتباع المصحف.

إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾.

﴿ظننت﴾ علمت وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأنّ الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام. ويقال: أظن ظنًا كاليقين أنّ الأمر كيت وكيت..

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾.

﴿راضية﴾ منسوبة إلى الرضا، كالدارع والنابل. والنسبة نسبتان: نسبة بالحرف، ونسبة بالصيغة. أو جعل الفعل لها مجازًا وهو لصاحبها.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾.

﴿عالية﴾ مرتفعة المكان في السماء أو رفيعة الدرجات أو رفيعة المباني والقصور. والأشجار.

قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾.

﴿دانية﴾ ينالها القاعد والنائم.

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾.

يقال لهم ﴿كلوا واشربوا هنيئًا﴾ أكلاً وشربًا هنيئًا، أو هنيتم هنيئًا على المصدر ﴿بما أسلفتم﴾ بما قدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿في الأيام الخالية﴾ الماضية من أيام الدنيا. وعن مجاهد: أيام الصيام أي: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله. وروى: يقول الله عزّ وجل: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغارت أعينكم وخمصت بطونكم فكونوا اليوم في نعيمكم وكلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية.

يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾.

الضمير في ﴿يا ليتها﴾ للموتة. يقال: يا ليت الموتة التي مُتُّها ﴿كانت القاضية﴾ أي: القاطعة لأمري، فلم أبعث

---

(1) قال أحمد: كلاهما معرّف تعريف الجنس، فالواحد والجمع سواء في العموم.

(2) قال الزيلعي رواه الطبري وذكره الثعلبي من غير سند وهو في حديث الصور الطويل وقد استوفينا الكلام عليه في غير هذا الباب 85/4.

(3) قال أحمد: تعليل القراءة باتباع المصحف عجيب، مع أنّ المعتقد الحق أنّ القرءات السبع بتفاصيلها منقولة تواترًا عن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، فالذي أثبت الهاء في الوصل إنما أثبتها من التواتر عن قراءة النبي ﷺ آيها، كذلك قبل أن تكتب في المصحف وما نفس هؤلاء إلا إدخال الاجتهاد في القراآت المستفيضة، واعتقاد أنّ فيها ما أخذ بالاختيار النظري، وهذا خطأ= = لا ينبغي فتح بابه، فإنه ذريعة إلى ما هو أكبر منه، ولقد جرت بيني وبين الشيخ أبي عمرو رحمه الله مفاوضة في قوله: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه﴾ على قراءة حفص انتهت. إلى أن ألزم الرد على من أثبت الهاء في الوصل في كلمات سورة الحاقة؛ لأني حججته بإثبات القراء المشاهير لها كذلك، ففهمت من ردّه لذلك ما فهمه من كلام الزمخشري ههنا، ولم أتقبله منه رحمه الله، فتراجع عنه، وكانت هذه المفاوضة بمكاتبة بيني وبينه، وهي آخر ما كتب من العلوم على ما أخبرني به خاصته، وذلك صحيح؛ لأنها كانت في أوائل مرضه رحمه الله، والله أعلم.

بعدها ولم ألق. ما ألقى. أو للحالة أي: ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت عليَّ، لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمرّ مما ذاقه من مرارة الموت وشدّته فتمناه عندها.

مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾.

﴿ما أغنى﴾ نفي أو استفهام على وجه الإنكار، أي: أي شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار.

هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾.

﴿هلك عني سلطانية﴾ ملكي وتسلطي على الناس، وبقيت فقيرًا ذليلاً. وعن ابن عباس أنها نزلت في الأسود بن عبد الأشد. وعن فنا خسرو الملقب بالعضد أنه لما قال:

عضد الدولة وابن ركنها   ملك الأملاك غلاب القدر

لم يفلح بعده وجن فكان لا ينطق لسانه إلا بهذه الآية. وقال ابن عباس: ضلت عني حجتي. ومعناه: بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا.

هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾.

﴿ثم الجحيم صلوه﴾ ثم لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظمى، لأنه كان سلطانًا يتعظم على الناس. يقال: صلى النار وصلاه النار.

ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾.

سلكه في السلسلة أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه أثناؤها وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة، وجعلها سبعين ذراعًا إرادة الوصف بالطول. كما قال أن تستغفر لهم سبعين مرة يريد مرات كثيرة لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد، والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التصلية. أي: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم. ومعنى: ثم، الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم وما بينها وبين السلك في السلسلة لا على تراخي المدّة.

إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾.

﴿إنه﴾ تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ كأنه قيل: ما له يعذب هذا العذاب الشديد؟ فأجيب بذلك.

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾.

وفي قوله: ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين أحدهما: عطفه على الكفر وجعله قرينة له، والثاني ذكر الحض دون الفعل ليعلم أنّ تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل. وما أحسن قول القائل:

إذا نزل الأضياف كان عذوّرًا
على الحي حتى تستقل مراجله يريد حضهم على القرى واستعجلهم وتشاكس عليهم. وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين. وكان يقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان، أفلا نخلع نصفها الآخر. وقيل: هو منع الكفار. وقولهم: ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾. والمعنى: على بذل طعام المسكين.

فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾.

﴿حميم﴾ قريب يدفع عنه ويحزن عليه لأنهم يتحامونه ويفرون منه كقوله: ﴿ولا يسأل حميم حميمًا﴾.

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾.

والغسلين غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم فعلين من الغسل.

لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾.

﴿الخاطئون﴾ الآثمون أصحاب الخطايا، وخطئ الرجل إذا تعمد الذنب، وهم المشركون عن ابن عباس. وقرئ: الخاطيون بإبدال الهمزة ياء والخاطون بطرحها. وعن ابن عباس: ما الخاطون كلنا نخطو. وروى عنه أبو الأسود الدؤلي: ما الخاطون؟ إنما هو الخاطئون. ما الصابون؟ إنما هو الصائبون. ويجوز أن يراد الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله.

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾.

هو اقسام بالأشياء كلها على الشمول والإحاطة لأنها لا تخرج من قسمين مبصر وغير مبصر. وقيل: الدنيا والآخرة والأجسام والأرواح والإنس والجنّ والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة أن هذا القرآن.

إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾.

﴿لقول رسول كريم﴾ أي: يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله.

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿وما هو بقول شاعر﴾ ولا كاهن كما تدّعون. والقلة في معنى العدم. أي: لا تؤمنون ولا تذكرون البتة. والمعنى: ما أكفركم وما أغفلكم.

تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾.

﴿تنزيل﴾ هو تنزيل بيانًا لأنه قول رسول نزل عليه ﴿من رب العالمين﴾. وقرأ أبو السمال: تنزيلاً أي: نزل تنزيلاً. وقيل: الرسول الكريم جبريل عليه السلام. وقوله: ﴿وما هو بقول شاعر﴾[1] دليل على أنه محمد ﷺ، لأنّ المعنى على إثبات أنه رسول لا شاعر ولا كاهن.

---

(1) سورة الحاقة، الآية: 41.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾.

التقوّل افتعال القول؛ لأن فيه تكلفًا[1] من المفتعل، وسمي الأقوال المتقوّلة أقاويل تصغيرًا بها وتحقيرًا. كقولك: الأعاجيب والأضاحيك كأنها جمع أفعولة من القول. والمعنى: ولو ادعى علينا شيئًا لم نقله لقتلناه صبرًا كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام. فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته، وخص اليمين عن اليسار لأنّ القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه.

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾.

معنى: ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ لأخذنا بيمينه.

ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾.

كما أن قوله: ﴿لقطعنا منه الوتين﴾ لقطعنا وتينه وهذا بَيِّن، والوتين نياط القلب وهو حبل الوريد إذا قطع مات صاحبه. وقرئ: ولو تقول على البناء المفعول.

فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾.

قيل: ﴿حاجزين﴾ في وصف أحد لأنه في معنى الجماعة، وهو اسم يقع في النفي العام مستويًا فيه الواحد والجمع والمنكر والمؤنث. ومنه قوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾[2] ﴿لستن كأحد من النساء﴾. والضمير في عنه للقتل. أي: لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه. أو لرسول الله أي: لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه والخطاب للناس.

وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وإنَّا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ وهو إيعاد على التكذيب. وقيل: الخطاب للمسلمين. والمعنى: أن منهم ناسًا سيكفرون بالقرآن، وأنه الضمير للقرآن.

وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾.

﴿لحسرة﴾ على الكافرين به المكذبين له إذا رأوا ثواب المصدّقين به أو للتكذيب.

وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾.

وأن القرآن لليقين حق اليقين. كقولك: هو العالم حق العالم وجد العالم. والمعنى لعين اليقين ومحض اليقين.

فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾.

﴿فسبح﴾ اشبنكر اسمه العظيم. وهو قوله سبحانه الله واعبده شكرًا على ما أهلك له من إيحائه إليك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ صورة الحاقة حاسبة الله حسابًا يسيرًا»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المعـارج مكية

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾.

ضمن سال معنى دعا فعدى تعديته كأنه قيل: دعا داعٍ ﴿بعذاب واقع﴾ من قولك: دعا بكذا، إذا استدعى وطلبهً، ومنه قوله تعالى: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة﴾[4] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحرث، قال: ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[5] وقيل: هو رسول الله ﷺ استعجل بعذاب.

لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾.

للكافرين، وقرئ: سأل سائل: وهو على وجهين: إما أن يكون من السؤال وهي لغة قريش يقولون: سلت تسأل وهما يتسيلان، وأن يكون من السيلان ويؤيده قراءة ابن عباس: سال سيلاً، والسيل مصدر في معنى السائل كالغور بمعنى الغائر. والمعنى: اندفع عليهم وادي عذاب فذهب بهم وأهلكهم. وعن قتادة: سأل سائل عن عذاب الله على من ينزل، وبمن يقع فنزلت. وسأل على هذا الوجه مضمن معنى: عنى واهتم.

فإن قُلْتَ: بم يتصل قوله: ﴿للكافرين﴾؟ قُلْتُ: هو على القول الأوّل متصل بعذاب صفة له، أي: بعذاب واقع كائن للكافرين، أو بالفعل أي: دعا للكافرين بعذاب واقع، أو بواقع أي: بعذاب نازل لأجلهم. وعلى الثاني هو كلام مبتدأ جواب للسائل، أي: هو للكافرين.

فإن قُلْتَ: فقوله: ﴿من الله﴾ بم يتصل؟ قُلْتُ: يتصل بواقع، أي: واقع من عنده، أو بدافع بمعنى ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته وأوجبت الحكمة وقوعه.

مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾.

﴿ذي المعارج﴾ ذي المصاعد، جمع معرج. ثم وصف

---

(1) قال أحمد: وبناء أفعولة من القول، وهو معتل كما ترى غيب عن القياس التصريفي، ويحتمل أن تكون الأقاويل جمع الجمع، كالأناعيم جمع أقوال وأنعام وهو الظاهر، والله أعلم.

(2) سورة البقرة، الآية: 285.

(3) ابن مردويه الثعلبي والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 85/4.

(4) سورة صٓ، الآية: 51.

(5) سورة الأنفال، الآية: 32.

المصاعد وبعد مداها في العلوّ والارتفاع. فقال:

تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾.

﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ إلى عرشه وحيث تهبط منه أوامره ﴿في يوم كان مقداره﴾ كمقدار مدّة ﴿خمسين ألف سنة﴾ مما يعد الناس. والروح جبريل عليه السلام أفرده لتمييزه بفضله. وقيل: الروح خلق هم حفظة على الملائكة كما أنّ الملائكة حفظة على الناس.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق قوله:

فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾.

﴿فاصبر﴾! قُلْتُ: بسائل سائل لأنّ استعجال النصر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ والتكذيب بالوحي، وكان ذلك مما يضجر رسول الله ﷺ فأمر بالصبر عليه، وكذلك من سأل عن العذاب لمن هو، فإنما سأل على طريق التعنت وكان من كفار مكة. ومن قرأ: سأل سائل أو سيل، فمعناه: جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر فقد شارفت الانتقام وقد جعل في يوم من صلة واقع، أي: يقع في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم وهو يوم القيامة. إما أن يكون استطالة له لشدّته على الكفار، وإما لأنه على الحقيقة كذلك. قيل: فيه خمسون موطنًا كل موطن ألف سنة وما قدّر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر. الضمير في:

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾.

﴿يرونه﴾ للعذاب الواقع أو ليوم القيامة فيمن علق في يوم بواقع، أي: يستبعدونه على جهة الإحالة.

وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾.

﴿و﴾ نحن ﴿نراه قريبًا﴾ هينًا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر. فالمراد بالبعيد البعيد من الإمكان، وبالقريب القريب منه. نصب.

يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾.

﴿يوم تكون﴾ بقريبًا، أي: يمكن ولا يتعذر في ذلك اليوم، أو بإضمار يقع لدلالة واقع عليه، أو يوم تكون السماء كالمهل كان كيت وكيت، أو هو بدل عن في يوم فيمن علقه بواقع. ﴿كالمهل﴾ كدردى الزيت، وعن ابن مسعود: كالفضة المذابة في تلوّنها.

وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾.

﴿كالعهن﴾ كالصوف المصبوغ ألوانًا، لأنّ الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيَّرته الريح.

وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾.

﴿ولا يسال حميم حميمًا﴾ أي: لا يسأله بكيف حالك ولا يكلمه لأنّ بكل أحد ما يشغله عن المساءلة.

يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾.

﴿يبصرونهم﴾ أي: يبصر الإحماء الإحماء فلا يخفون عليهم[1] فما يمنعهم من المساءلة أن بعضهم لا يبصر بعضًا، وإنما يمنعهم التشاغل. وقرئ: يبصرونهم وقرئ: ولا يسئل على البناء للمفعول، أي: لا يقال: الحميم أين حميمك ولا يطلب منه لأنهم يبصرونهم فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب.

فإن قُلْتَ: ما موقع ﴿يبصرونهم﴾؟ قُلْتُ: هو كلام مستأنف كأنه لما قال: ولا يسأل حميم حميمًا قيل: لعله لا يبصره؟ فقيل: يبصرونهم ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم.

فإن قُلْتَ: لم جمع الضميران في يبصرونهم وهما للحميمين؟ قُلْتُ: المعنى على العموم لكل حميمين لا لحميمين اثنين، ويجوز أن يكون يبصرونهم صفةً أي: حميمًا مبصرين معرّفين إياهم. قرئ يومئذ بالجرّ والفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن، ومن عذاب يومئذٍ بتنوين عذاب ونصب يومئذٍ وانتصابه بعذاب لأنه في معنى تعذيب.

وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾.

﴿وفصيلته﴾ عشيرته، الأدنون الذين فصل عنهم. ﴿تؤويه﴾ تضمه انتماءً إليها أو لياذًا بها في النوائب.

وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾.

﴿ينجيه﴾ عطف على يفتدى، أي: يودّ لو يفتدى، لو ينجيه الافتداء أو من في الأرض، وثم لاستبعاد الإنجاء، يعني: تمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك وهيهات أن ينجيه.

كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾.

﴿كلا﴾ ردّ للمجرم عن الودادة وتنبيه على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينجيه من العذاب، ثم قال: ﴿إنها﴾ والضمير للنار ولم يجر لها ذكر لأنّ ذكر العذاب دل عليها، ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا ترجم عنه الخبر أو ضمير القصة. و﴿لظى﴾ علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب، ويجوز

---

(1) قال أحمد: وفيه دليل على أنّ الفاعل والمفعول الواقعين في سياق النفي يعمّ، كما التزم في: والله لا أشرب ماء من إداوة أنه عام في المياه والأدوات، خلافاً لبعضهم في الأدوات.

أن يراد اللهب.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

و﴿نزاعة﴾ خبر بعد خبر لأنّ أو خبر للظى إن كانت الهاء ضمير القصة، أو صفةٌ له إن أردت اللهب والتأنيث لأنه في معنى النار أو رفع على التهويل، أي: هي نزاعة. وقرئ: نزاعةً بالنصب على الحال المؤكدة، أو على أنها متظلية نزاعةً، أو على الاختصاص للتهويل. والشوى الأطراف أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس تنزعها نزعًا فتبتكها ثم تعاد.

﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾.

﴿تدعو﴾ مجاز عن إحضارهم كأنها تدعوهم فتحضرهم، ونحوه قول ذي الرمّة: تدعو أنفة الريب، وقوله: ليالي اللهو يطبيني فأتبعه. وقول أبي النجم: تقول للرائد أعشبت أنزل، وقيل: تقول لهم: إليّ إليّ يا كافر يا منافق. وقيل: تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح، ثم تلتقطهم التقاط الحب. فيجوز أن يخلق الله فيها كلامًا كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم وكما خلقه في الشجرة، ويجوز أن يكون دعاء الزبانية، وقيل: تذعر تهلك، من قول العرب: دعاك الله، أي: أهلكك. قال دعاك الله من رجل بأفعى ﴿من أدبر﴾ عن الحق ﴿وتولى﴾ عنه.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وجمع﴾ المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤدِّ الزكاة والحقوق الواجبة فيه، وتشاغل به عن الدين، وزهى باقتنائه وتكبر. أريد بالإنسان الناس فلذلك استثنى منه إلا المصلين.

۞ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾.

والهلع سرعة الجزع عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير من قولهم: ناقة هلواع سريعة السير. وعن أحمد بن يحيى: قال لي محمد بن عبد الله بن ظاهر: ما الهلع؟ فقلت: قد فسره الله ولا يكون تفسير أبين من تفسيره.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾.

وهو الذي إذا ناله شرًا أظهره شدّة الجزع.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس. والخير المال والغنى والشرّ الفقر، أو الصحة والمرض. إذا صحّ الغني منع منه المعروف وشحّ بماله، وإذا مرض جزع وأخذ يوصي والمعنى: أن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه ورسوخهما فيه كأنه[1] مجبول عليهما مطبوع وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختياري. كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾[2] والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلع، ولأنه ذمّ والله لا يذمّ فعله، والدليل عليه استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره، وظلفوها عن الشهوات حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين، وعن النبي ﷺ: «شرّ ما أعطى ابن آدم شحّ هالع وجبن خالع»[3].

فإن قُلْتَ: كيف؟ قال:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿على صلواتهم دائمون﴾ ثم على صلاتهم يحافظون؟ قُلْتُ: معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل[4]. كما روي عن النبي ﷺ: «أفضل العمل أدومه وإن قل»[5]. وقول عائشة: كان عمله ديمة[6]. ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم. فالدوام يرجع إلى انفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿حق معلوم﴾ هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤدّيها في أوقات معلومة. السائل الذي يسأل.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿والمحروم﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنيًا فيحرم.

---

(1) قال أحمد: هو يشرك باطناً وينزه ظاهراً، فينفي كون الهلع الذي هو موجود للآدمي مخلوقاً لله تعالى تنزيهاً له عن ذلك، ويثبت خالقاً مع الله ويتغافل عن اقتضاء نظم الآية، لذلك فإنك إذا قلت: بريت القلم رقيقاً، فقد نسبت إليك الحال وهو ترقيقه، كما نسب إليك البري، وكذلك الآية، وأمّا قوله: والله لا يذمّ خلقه، فالله تعالى له الحمد على كل حال، وإنما المذموم العبد، بحجة أنه جعل فيه اختياراً يفرّق به بالضرورة بين الاختيارات والقسريات، ألا لله الحجة البالغة، والله أعلم.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب الزكاة، باب الوعيد لمانع الزكاة (الحديث رقم: 3250)، وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب في = الجراة والجبن (الحديث رقم: 2511)، وأحمد في المسند 320/2.

(4) قال أحمد: حفظها من الإحباط نص عند أهل السنة على حفظها من الكفر خاصة، فلا يحبط ما سواه خلافاً للقدرية، وقد تقدّمت أمثاله، والله أعلم.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق باب: القصد والمداومة على العمل (الحديث رقم: 6461)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (الحديث رقم: 216 ـ 782).

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق باب: القصد والمداومة على العمل (الحديث رقم: 6466)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها باب: فضيلة العمل الدائم (الحديث رقم: 217 ـ 783).

وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿يصدّقون بيوم الدين﴾ تصديقًا بأعمالهم واستعدادهم له ويشفقون من عذاب ربهم. واعترض بقوله:

إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿إن عذاب ربهم غير مامون﴾ أي: لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه، وينبغي أن يكون مترجحًا بين الخوف والرجاء.

وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾.

قرئ: بشهادتهم وبشهاداتهم والشهادة في جملة الأمانات وخصها من بينها إبانة لفضلها لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها في زيها تضييعها وإبطالها.

أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾.

كان المشركون يحتفون حول النبي ﷺ حلقًا حلقًا وفرقًا فرقًا يستمعون ويستهزؤون بكلامه ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت.

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿مهطعين﴾ مسرعين نحوك، مادي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك.

عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾.

﴿عزين﴾ فرقًا شتى، جمع عزة وأصلها عزوة. كان كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى فهم مفترقون. قال الكميت:

ونحن وجندل باغ تركنا　　كتائب جندل شتى عزينا

وقيل: كان المستهزؤون خمسة أرهط.

كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿كلا﴾ ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة. ثم علل ذلك بقوله: **﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾** إلى آخر السورة. وهو كلام دال على إنكارهم البعث. فكأنه قال: كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء، فمن أين يطمعون في دخول الجنة.

فإن قُلْتَ: من أي وجه دل هذا الكلام على إنكار البعث؟ **قُلْتُ:** من حيث أنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى كالاحتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل، وذلك قوله: خلقناهم مما يعلمون أي: من النطف، وبالقدرة على أن يهلكهم ويبدل ناسًا خيرًا منهم، وأنه ليس بمسبوق على ما يريد تكوينه لا يعجزه شيء. والغرض أنّ من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة، ويجوز أن يراد إنا خلقناهم مما يعلمون. أي: من النطفة المذرة، وهي منصبهم الذي لا منصب أوضع منه. ولذلك أبهم وأخفى إشعارًا بأنه منصب يستحيا من ذكره. فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم؟ ويقولون: لندخلن الجنة قبلهم. وقيل: معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بني آدم كلهم، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح، فلم يطمع أن يدخلها من ليس له إيمان وعمل.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾.

وقرئ: برب المشرق والمغرب ويخرجون ويخرجون، ومن الأجداث سراعًا بالإظهار والإدغام ونصب ونصب وهو كل ما نصب فعبد من دون الله.

يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿يوفضون﴾ يسرعون إلى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصابهم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة سأل[1] سائل أعطاه الله ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة نـوح مكية

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾.

﴿أن انذر﴾ أصله بأن أنذر، فحذف الجار وأوصل الفعل، وهي أنّ الناصبة للفعل. والمعنى: أرسلناه بأن قلنا له: أنذر. أي: أرسلناه بالأمر بالإنظار. ويجوز أن تكون مفسرةً لأنّ الإرسال فيه معنى القول. وقرأ ابن مسعود: أنذر بغير أن على إرادة القول.

أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾.

﴿أن اعبدوا﴾ نحو أن أنذر في الوجهين.

فإن قُلْتَ: كيف؟ قال:

يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾.

﴿ويؤخركم﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ **قُلْتُ:** قضى الله مثلاً أنّ قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة. فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى. أي: إلى وقت سماه الله وضربه أمدًا، انتنهون إليه لا تتجاوزونه

(1) الثعلبي الواحدي ابن مردويه في تفاسيرهم، زيلعي 4/90.

وهو الوقت الأطول تمام الألف. ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ولم تكن لكم حيله، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير.

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾.

﴿ليلاً ونهارًا﴾ دائبًا من غير فتور مستغرقًا به الأوقات كلها.

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾.

﴿فلم يزدهم دعائي﴾ جعل الدعاء فاعل زيادة الفرار، والمعنى: على أنهم ازدادوا عنده فرارًا لأنه سبب الزيادة، ونحوه فزادهم رجسًا إلى رجسهم فزادتهم إيمانًا.

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾.

﴿لتغفر لهم﴾ ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم، فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصًا ليكون أقبح لإعراضهم عنه. سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة، ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ وتغطوا بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله. وقيل: لئلا يعرفهم، ويعضده قوله تعالى: ﴿ألا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم﴾[1] الإصرار من أصر الحمار على العانة إذ أصر أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها. استعير للإقبال على المعاصي والإكباب عليها. ﴿واستكبروا﴾ وأخذتهم العزة من اتباع نوح وطاعته، وذكر المصدر تأكيد ودلة على فرط استقبالهم وعتوهم.

فإن قُلْتَ:

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾.

ذكر أنه دعاهم ليلاً ونهارًا ثم دعاهم جهارًا ثم دعاهم في السر والعلن، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف! **قُلْتُ:** قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد فافتتح بالمناصحة في السر فلما لم يقبلوا، ثنى بالمجاهرة فلما لم تؤثر، ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان، ومعنى: ثم، الدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين وأغلظ من إفراد أحدهما. و﴿جهارًا﴾ منصوب بدعوتهم نصب المصدر لأنّ الدعاء أحد نوعيه الجهار فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها أحد أنواع القعود، أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم، ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاءً جهارًا، أي: مجاهرًا به. أو مصدرًا في موضع الحال أي مجاهرًا.

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾.

أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي، وقدّم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحبّ إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجبة ترغيبًا في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين، كما قال: وأخرى تحبونها نصر من الله ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم، وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة. وروي سبعين فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضي الله عنه أنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار. فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر[2]، شبّه الاستغفار بالأنوار الصادقة التي لا تخطيء. وعن الحسن أنّ رجلاً شكا إليه الجدب، فقال: استغفر الله. وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه. فأمرهم كلهم بالاستغفار. فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أبوابًا ويسألون أنواعًا فأمرتهم كلهم بالاستغفار. فتلا له هذه الآية: والسماء المظلة لأنّ المطر منها ينزل إلى السحاب، ويجوز أن يراد السحاب أو المطر من قوله: إذا نزل السماء بأرض قوم.

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾.

والمدرار الكثير الدرور، ومفعال مما يستوي فيه المنكر والمؤنث كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومتفال.

وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾.

﴿جنات﴾ بساتين.

مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾.

﴿لا ترجون لله وقارًا﴾ لا تأملون له توقيرًا أي: تعظيمًا. والمعنى: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله[3] إياكم في دار الثواب، ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار؟ وقوله:

---

(1) سورة هود، الآية: 5.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف 3/87 (الحديث رقم: 4902).

(3) قال أحمد: وهذا التفسير يبقي الرجاء على بابه، ونقل قولاً آخر لمحله على الخوف، أي: لا تخافون لله عظمة، وعن ابن = عباس: أنّ الوقار العاقبة لاستقرار الثواب، وثبات العقاب من وقر إذا ثبت، قوله تعالى: ﴿وجعل القمر فيهنّ نوراً﴾ قال فيه: وإنما هو في السماء الدنيا؛ لأنّ بين السموات وبين السماء الدنيا مناسبة.

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾.

﴿وقد خلقكم أطوارًا﴾ في موضع الحال، كأنه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه؟ وهي حال موجبة للإيمان به لأنه خلقكم أطوارًا أي: تاراتٍ، خلقكم أوّلاً ترابًا ثم خلقكم نطفًا ثم خلقكم علقًا ثم خلقكم مضغًا ثم خلقكم عظامًا ولحمًا ثم أنشأكم خلقًا آخر. أو لا تخافون لله حلمًا وترك معاجلة العقاب فتؤمنوا. وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ وعن ابن عباس: لا تخافون لله عاقبةً، لأنّ العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب من وقرأ إذا ثبت واستقرّ. نبّههم على النظر في أنفسهم أوّلاً لأنها أقرب منظور فيه منهم، ثم على النظر في العالم وما سوى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعلمه من السموات والأرض والشمس والقمر.

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾.

﴿فيهنّ﴾ في السموات وهو في السماء الدنيا[1]، لأنّ بين السموات ملابسة من حيث أنها طباق. فجاز أن يقال: فيهنّ كذا، وإن لم يكن في جميعهنّ. كما يقال في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما أنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء وظهورهما مما يلي الأرض[2]. **﴿وجعل الشمس سراجًا﴾** يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى أبصاره، والقمر ليس كذلك إنما هو نور لم يبلغ قوّة ضياء للشمس. ومثله قوله تعالى: **﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا﴾**[3] والضياء أقوى من النور.

وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾.

أستعير الإنبات للإنشاء كما يقال: زرعك الله للخير. وكانت هذه الاستعارة أدلّ على الحدوث، لأنهم إذا كانوا نباتًا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات. ومنه قيل: للحشوية النابتة. والنوابت لحدوث مذهبهم في الإسلام من غير أوّلية لهم فيه. ومنه قولهم: نجم فلان لبعض المارقة، والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتًا أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم.

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾.

﴿ثم يعيدكم فيها﴾ مقبورين، ثم **﴿يخرجكم﴾** يوم القيامة.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾.

وأكده بالمصدر كأنه قال: يخرجكم حقًا ولا محالة جعلها بساطًا مبسوطةً تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه.

لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾.

﴿فجاجًا﴾ واسعةً منفجةً.

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾.

﴿واتبعوا﴾ رؤوسهم المقدمين أصحاب الأموال والأولاد، وارتسموا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الأصنام. وجعل أموالهم وأولادهم التي لم تزدهم إلا وجاهةً ومنفعةً في الدنيا زائدةً **﴿خسارًا﴾** في الآخرة، وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها تحقيقًا له وتثبيتًا وإبطالاً لما سواه. وقرئ ووُلده بضم الواو وكسرها.

وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾.

﴿ومكروا﴾ معطوف على لم يزده وجمع الضمير وهو راجع إلى من لأنه في معنى الجمع والماكرون هم الرؤساء، ومكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح وتحريش الناس على أذاه وصدّهم عن الميل إليه والاستماع منه. وقولهم لهم: لا تذرون آلهتكم إلى عبادة رب نوح **﴿مكرًا كبارًا﴾** قرئ بالتخفيف والتثقيل، والكبار أكبر من الكبير والكبار أكبر من الكبار ونحوه طول وطوال.

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾.

﴿ولا تذرن ودًا﴾ كان هذه المسميات كانت أكبر صنامهم وأعظمها عندهم فخصّوها بعد قولهم: لا تذرن آلهتكم. وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب فكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير، ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبد يغوث، وقيل: هي أسماء رجال صالحين. وقيل: من أولاد آدم ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم. ففعلوا. فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم. وقيل: كان ودًا على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر. وقرئ ودًا بضم الواو. وقرأ الأعمش: ولا يغوثًا ويعوقًا بالصرف. وهذه قراءة مشكلة لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببًا منع الصرف، إما التعريف ووزن الفعل وإما

(1) قال أحمد: ويلاحظ: **﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾**. عاد كلامه قوله تعالى: **﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾** قال فيه: كيف جاز أن يزيد الضلال؟ وأجاب: بأنّ المراد به منع الألطاف. قلت: هذا على قاعدته.

(2) قال الزيلعي غريب وروى نحوه ابن مردويه وعبد الرزاق في تفسيرهما 4/94.

(3) سورة يونس، الآية: 5.

التعريف والعجمة، ولعله قصد الازدواج فصرفهما لمصادفته أخواتهما منصرفات ودًّا وسواعًا ونسرًا. كما قرئ وضحاها بإمالة لوقوعه مع الممالات للازدواج.

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾.

﴿وقد أضلوا﴾ الضمير للرؤساء، ومعناه: وقد أضلوا ﴿كثيرًا﴾ قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام، ليسوا بأوّل من أضلوهم، أو وقد أضلوا بإضلالهم كثيرًا. يعني: أنّ هؤلاء المضلين فيهم كثرة، ويجوز أن يكون للأصنام. كقوله تعالى: ﴿إنهنّ أضللن كثيرًا من الناس﴾[1].

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿ولا تزد الظالمين﴾؟ قُلْتُ: على قوله: ﴿رب إنهم عصوني﴾[2] على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد قال وبعد الواو النائبة عنه. ومعناه قال: رب إنهم عصوني. وقال: لا تزد الظالمين إلا ضلالاً. أي: قال هذين القولين وهما في محل النصب لأنهما مفعولا قال كقولك: قال زيد. نودِيَ للصلاة وصل في المسجد. تحكى قوليه معطوفًا أحدهما على صاحبه.

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته؟ قُلْتُ: المراد بالضلال أن يخذلوا ويمنعوا الإلطاف لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به بل لا يحسن الدعاء بخلافه. ويجوز أن يريد بالضلال الضياع والهلاك لقوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تبارًا﴾[3] تقديم.

مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾.

﴿مما خطيئاتهم﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم[4] وأكد هذه المعنى بزيادة ما. وفي قراءة ابن مسعود: من خطيئاتهم ما أغرقوا بتأخير الصلة، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم وإن كانت كبراهنّ، وقد نعيت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعي عليهم كفرهم ولم يفرق بينه وبينهنّ في استيجاب العذاب، لئلا يتكل المسلم الخاطئ على إسلامه ويعلم أنّ معه ما يستوجب به العذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى، وقرئ: خطيئاتهم بالهمزة، وخطياتهم بقلبها ياء وإدغامها، وخطاياهم، وخطيئتهم بالتوحيد على إرادة الجنس، ويجوز أن يراد الكفر. ﴿فأدخلوا نارًا﴾ جعل دخولهم النار في الآخرة كأنه متعقب لإغراقهم لاقترابه ولأنه كائن لا محالة، فكأنه قد كان أو أريد عذاب القبر. ومن مات في ماء أو في نار أو أكلته السباع والطير أصابه ما يصيب المقبور من العذاب. وعن الضحاك: كانوا يغرقون من جانب، ويحرقون من جانب. وتنكير النار إما لتعظيمها أو لأنّ الله أعدلهم على حسب خطيئاتهم نوعًا من النار. ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارًا﴾ تعريض باتخادهم آلهةً من دون الله وأنها غير قادرة على نصرهم وتهكم بهم. كأنه قال: فلم يجدوا لهم من دون الله آلهةً ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله. كقوله تعالى: ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾[5].

وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾.

﴿ديارًا﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال: ما بالدار ديار وديور، كقيام وقيوم. وهو فيعال من الدور أو من الدار أصله ديوار ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت ولو كان فعالاً لكان دوّارًا.

فإن قُلْتَ: بم علم أنّ أولادهم يكفرون، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة! قُلْتُ: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم. وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: احذر هذا فإنه كذاب وإنّ أبي حذرنيه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك. وقد أخبره الله عزّ وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن. ومعنى.

إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾.

﴿لا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا﴾ لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه، كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[6].

رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾.

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 36.

(2) سورة نوح، الآية: 21.

(3) سورة نوح، الآية: 28.

(4) قال أحمد: هذا السؤال مفصح عما في باطنه من وجوب تعليل أفعال الله تعالى، وعليه يبنى أنه لا يجوز الألم من الله تعالى إلا باستحقاق سابق أو لإعواض مترقبة، أو لغير ذلك من المصالح بناء على القاعدة لهم في الصلاح والأصلح، والصبيان لا جناية سبقت منهم ولا عوض يترقب فيهم، فيرد السؤال على ذلك، وأما أهل السنة فالله تعالى قد تكفل الجواب عنهم بقوله: ﴿لا يسئل عما يفعل﴾ وهذا الكلام بالنظر إلى خصوص واقعة قوم نوح،=

= وينجرّ الكلام منها إلى حكم الله علينا في العدوّ إذا خيف من مقاتلتهم بالآلات على ذراريهم، إنّ ذلك لا يوجب الإكفاف عن مقاتلتهم بالآلات المهلكة لهم والمنزية، ويستدل برمي النبي ﷺ على أهل الطائف بالمجانيق، وقيل لهم: فيهم الذرية، فقال: «هم من آبائهم»، وإما رميهم بالنار وفيهم الذرية، فمنعه مالك رحمه الله إلا أن يخاف غائلتهم فيرمون بها إن لم يندفعوا بغيرها، والله تعالى أعلم.

(5) سورة الأنبياء، الآية: 43.

(6) تقدم في أول البقرة.

﴿ولوالدي﴾ أبو ملك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش كانا مؤمنين. وقيل: هما آدم وحواء. وقرأ الحسين بن علي: ولوالدي، يريد ساماً وحاماً. ﴿بيتي﴾ منزلي. وقيل: مسجدي. وقيل: سفينتي. خص أوّلاً من يتصل به لأنهم أولى وأحق بدعائه. ثم عمّ المؤمنين والمؤمنات ﴿تباراً﴾ هلاكاً.

فإن قُلْتَ: ما فعل صبيانهم حين اغرقوا؟ قُلْتُ: اغرقوا معهم لا على وجه العقاب، ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت وكم منهم من يموت بالغرق والحرق. وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمّهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون. ومنه قوله عليه السلام: «يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى»[1]. وعن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال: علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب. وقيل: أعقم الله أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الجنّ مكية

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾.

قرئ: أحي وأصله وحي. يقال: أوحى إليه ووحى إليه، فقلبت الواو همزةً. كما يقال: أعد وأزن. وإذا الرسل أقتت وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة، وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضاً كإشاح وإسادة وإعاء أخيه، وقرأ ابن أبي عبلة: وحي على الأصل ﴿أنه استمع﴾ بالفتح لأنه فاعل أوحي. وإنا سمعنا بالكسر لأنه مبتدأ محكي بعد القول ثم تحمل عليهما البواقي، فما كان من الوحي فتح وما كان من قول الجنّ كسر. وكلهنّ من قولهم: إلا الثنتين الآخريين، وأنّ المساجد، وأنه لما قام ومن فتح كلهنّ، فعطفاً على محل الجار والمجرور في آمنا به. كأنه قيل: صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا وأنه كان يقول سفيهنا وكذلك البواقي. ﴿نفر من الجنّ﴾ جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقيل: كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجنّ عدداً، وعامة جنود إبليس منهم. ﴿فقالوا إنا سمعنا﴾ أي: قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم، كقوله: فلما قضى: ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتاباً ﴿عجباً﴾ بديعاً مبايناً لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه، قائمة فيه دلائل الإعجاز وعجب مصدر يوضع موضع العجيب وفيه مبالغة وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾.

﴿يهدي إلى الرشد﴾ يدعو إلى الصواب. وقيل: إلى التوحيد والإيمان. والضمير في ﴿به﴾ للقرآن، ولما كان الإيمان به إيماناً بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك. قالوا: ﴿ولن نشرك بربنا أحداً﴾ أي: ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به في طاعة الشيطان، ويجوز أن يكون الضمير لله عز وجل. لأنّ قوله: بربنا يفسره.

وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾.

﴿جدّ ربنا﴾ عظمته من قولك: جد فلان في عيني أي: عظم. وفي حديث عمر رضي الله عنه: كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا. وروي: في أعيننا أو ملكه وسلطانه أو غناه[3]. استعارة من الجد الذي هو الدولة والبخت لأنّ الملوك والأغنياء هم المجدودون. والمعنى: وصفه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته أو سلطانه وملكوته أو لغناه. وقوله: ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ بيان لذلك. وقرئ: جدّاً ربنا على التمييز، وجد ربنا بالكسر. أي: صدق ربوبيته وحق آلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد. وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووقفوا للتوحيد والإيمان تنبهوا عن الخطأ فيما اعتقده كفرة الجنّ من تشبيه الله بخلقه واتخاذه صاحبةً وولداً فاستعظموه ونزهوه عنه.

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾.

سفيههم: إبليس لعنه الله أو غيره من مردة الجنّ، والشطط: مجاوزة الحدّ في الظلم وغيره، ومنه أشط في السوم إذا أبعد فيه. أي: يقول قولاً هو في نفسه شطط، الفرط ما أشط فيه وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله.

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾.

وكان في ظننا أنّ أحداً من الثقلين لن يكذب على الله ولن يفتري عليه ما ليس بحق فكنا نصدّقهم فيما أضافوا إليه من ذلك حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم وافتراؤهم. ﴿كذباً﴾ قولاً كذباً، أي: مكذوباً فيه، أو نصب المصدر لأنّ الكذب نوع من القول. ومن قرأ: أن لن تقول، وضع كذباً موضع تقولاً ولم يجعله صفةً لأنّ التقوّل لا يكون إلا كذباً.

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (الحديث رقم: 8 ـ 2884).

(2) رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم والزيلعي 4/ 95.

(3) قال الزيلعي: غريب من حديث عمر وقد تقدم من حديث أنس. رواه أحمد 4/ 99.

الرهق: غشيان المحارم، والمعنى: أنّ الإنس باستعانتهم بهم زادوهم كبرًا وكفرًا. وذلك أنّ الرجل من العرب كان إذا أمسى في وادٍ قفر في بعض مسايره وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد الجن وكبيرهم. فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سيدنا الجن والإنس. فذلك رهقهم أو فزاد الجنّ الإنس رهقًا بإغوائهم وإضلالهم لاستعانتهم بهم.

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾.

﴿وأنهم﴾ وأنّ الإنس **﴿ظنوا كما ظننتم﴾** وهو من كلام الجن بقوله: بعضهم لبعض. وقيل: الآيتان من جملة الوحي، والضمير في **﴿وأنهم ظنوا﴾** للجنّ، والخطاب في ظننتم لكفار قريش. اللمس: المس فاستعير للطلب لأنّ الماس طالب متعرّف قال:

مسنا من الآباء شيئًا وكلنا إلى نسب في قومه غير واضع

وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾.

يقال: لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه وأطلبه وتطلبه، ونحوه: الجس. وقولهم: جسوه بأعينهم ويجسسوه، والمعنى: طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها. والحرس اسم مفرد في معنى الحرّاس كالخدم في معنى الخدّام، ولذلك وصف بشديد، ولو ذهب إلى معناه لقيل: شدادًا ونحوه. أخشى رجيلاً أو ركيبًا غاديًا. لأنّ الرجل والركب مفردان في معنى الرجال والركاب.

والرصد: مثل الحرس اسم جمع للراصد على معنى ذوي شهاب راصدين بالرجم، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجوز أن يكون صفة للشهاب بمعنى الراصد أو كقوله ومعي جياعًا يعني: يجد شهابًا راصدًا له ولأجله.

فإن قُلْتَ: كان الرجم لم يكن في الجاهلية وقد قال الله تعالى: **﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين﴾**. فذكر فائدتين في خلق الكواكب التزيين ورجم الشياطين[1]؟ **قُلْتُ:** قال بعضهم حدث بعد مبعث رسول الله ﷺ وهو إحدى آياته والصحيح أنه كان قبل المبعث. وقد جاء ذكره في شعر أهل الجاهلية قال بشر بن أبي خازم:

والعير يرهقها الخبار وجحشها ينقضّ خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر:

وانقض كالدرى يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

وقال عوف بن الخرع:

يرد علينا العير من دون إلفه أو الثور كالدرى يتبعه الدم

ولكن الشياطين كانت تسترق في بعض الأحوال، فلما بعث رسول الله ﷺ كثر الرجم وزاد زيادةً ظاهرةً حتى تنبه لها الإنس والجن ومنع الاستراق أصلاً. وعن معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أرأيت قوله تعالى: **﴿وأنّا كنّا نقعد﴾** فقال: غلظت. وشدّد أمرها حين بعث النبي ﷺ وروى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس رضي الله عنهما: بينا رسول الله ﷺ جالس في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار. فقال: «ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية»؟ فقالوا: كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم[2]. وفي قوله: **﴿ملئت﴾** دليل على أنّ الحادث هو الملء والكثرة. وكذلك قوله: **﴿نقعد منها مقاعد﴾**. أي: كنا نجد فيها بعض المقاعد خاليةً من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها، وهذا ذكر ما حملهم على الضرب في البلاد حتى عثروا على رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته.

وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾.

يقولون: لما حدث هذا الحادث من كثرة الرجم ومنع الاستراق، قلنا: ما هذا إلا لأمر أراده الله بأهل الأرض ولا يخلو من يكون شرًا أو رشدًا. أي: خيرًا من عذاب أو من رحمة أو من خذلان أو توفيق.

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾.

﴿منا الصالحون﴾ منا الأبرار المتقون **﴿ومنا دون ذلك﴾** ومنا قوم دون ذلك، فحذف الموصوف. كقوله: وما منا إلا له مقام معلوم، وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه، أو أرادوا الطالحين **﴿كنا طرائق قددًا﴾** بيان للقسمة المذكورة، أي: كنا ذوي مذاهب مفترقة مختلفة، أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة، أو كنا في طرائق مختلفة. كقوله:

كما عسل الطريق الثعلب

أو كانت طرائقنا طرائق قددًا على حذف المضاف الذي هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه. والقدّة: من قدّ كالقطعة من قطع، ووصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على معنى التقطع والتفرّق.

وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾.

﴿في الأرض﴾ و**﴿هربًا﴾** حالان أي: لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء. وقيل: لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمرًا ولن

---

(1) قال أحمد: ومن عقائدهم أنّ الرشد والضلال جميعاً مرادان لله تعالى بقولهم: ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل، والمراد بالمريد: هو الله عز وجل وإبرازهم لاسمه عند= إرادة الخير والرشد، فجمعوا بين العقيدة الصحيحة والآداب المليحة.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب من سورة سبأ (الحديث رقم: 3224).

نعجزه هربًا إن طلبنا. والظن بمعنى اليقين وهذه صفة أحوال الجن وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم منهم أخيار وأشرار ومقتصدون وأنهم يعتقدون أنّ الله عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ولا ينجي عنه مهرب.

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾.

﴿لما سمعنا الهدى﴾ هو سماعهم القرآن، وإيمانهم به **﴿فلا يخاف﴾** فهو لا يخاف أي: فهو غير خائف؛ ولأنّ الكلام في تقدير مبتدأ وخبر دخلت الفاء ولولا ذاك لقيل: لا يخف.

فإن قُلْتَ: أي: فائدة في رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبرًا له ووجوب إدخال الفاء وكان ذلك كله مستغنًى عنه بأن يقال: لا يخف؟ **قُلْتُ:** الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك فكأنه قيل فهو لا يخاف، فكان دالاً على تحقيق أنّ المؤمن ناجٍ لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غيره، وقرأ الأعمش: فلا يخف على النهي **﴿بخسًا ولا رهقًا﴾** أي: جزاء بخس ولا رهق لأنه لم يبخس أحدًا حقًّا ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما. وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أن يجتنب المظالم، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن من أمّنه الناس على أنفسهم وأموالهم»[1]. ويجوز أن يراد فلا يخاف أن يبخس بل يجزي الجزاء الأوفى، ولا أن ترهقه ذلة، من قوله عز وجل: **﴿وترهقهم ذلة﴾**.

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾.

﴿القاسطون﴾ الكافرون الجائرون عن طريق الحق. وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنّ الحجاج قال له حين أراد قتله: ما تقول فيّ؟ قال: قاسط عادل فقال القوم: ما أحسن ما قال؟ حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل. فقال الحجاج: يا جهلة أنه سماني ظالمًا مشركًا وتلا لهم قوله تعالى: **﴿وأمّا القاسطون﴾** وقوله تعالى: **﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾**[2] قد زعم من لا يرى للجن ثوابًا أنّ الله تعالى أوعد قاسطيهم وما وعد مسلميهم وكفى به وعدًا أن قال: فأولئك تحرّوا رشدًا. فذكر سبب الثواب وموجبه والله أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد.

﴿وألّو استقاموا﴾ أن مخففة من الثقيلة وهو من جملة الموحى والمعنى: وأوحي إليّ أن الشأن والحديث لو استقام الجن على الطريقة المثلى أي: لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله والطاعة ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ولوسعنا رزقهم. وذكر الماء الغدق وهو الكثير بفتح الدال وكسرها، وقرئ بهما لأنه أصل المعاش وسعة الرزق.

لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾.

﴿لنفتنهم فيه﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خوّلوا منه، ويجوز أن يكون معناه: وأن لو استقام الجن الذين استمعوا على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الاستماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم، لنفتنهم فيه لتكون النعمة سببًا لا اتباعهم شهواتهم ووقوعهم في الفتنة وازديادهم إثمًا أو لنعذبهم في كفران النعمة. **﴿عن ذكر ربه﴾** عن عبادته أو عن موعظته أو عن وحيه **﴿يسلكه﴾** وقرئ: بالنون مضمومة ومفتوحة، أي: ندخله **﴿عذابًا﴾** والأصل نسلكه في عذاب كقوله: ما سلككم في سقر، فعدى إلى مفعولين إمّا بحذف الجار واتصال الفعل كقوله: واختار موسى قومه، وإمّا بتضمينه معنى ندخله يقال: سلكه وأسلكه. قال: حتى إذا أسلكوهم في قتائدة، والصعد: مصدر صعد. يقال: صعد صعدًا وصعودًا، فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب أي: يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. ومنه قول عمر رضي الله عنه: ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح[3] يريد: ما شق علي ولا غلبني.

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾.

﴿وأنّ المساجد﴾ من جملة الموحى وقيل: معناه ولأن المساجد **﴿لله فلا تدعوا﴾** على أنّ اللام متعلقة بلا تدعوا أي: فلا تدعوا **﴿مع الله أحدًا﴾** في المساجد لأنها لله خاصة ولعبادته. وعن الحسن: يعني الأرض كلها، لأنها جعلت للنبي ﷺ مسجدًا وقيل: المراد بها المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد، ومنه قوله تعالى: **﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾**[4] وعن قتادة: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بيعهم وكنائسهم أشركوا بالله فأمرنا أن نخلص لله الدعوة إذا دخلنا المساجد. وقيل: المساجد أعضاء السجود السبعة. قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة آراب، وهي: الجبهة والأنف واليدان والركبتان والقدمان»[5]. وقيل: هي جمع مسجد وهو السجود.

---

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: البر والإحسان، باب: الجار (الحديث رقم: 510)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (الحديث رقم: 2627).

(2) سورة الأنعام، الآية: 1.

(3) قال الزيلعي، أخرجه أبو عبيد في غريبه: 4/100.

(4) سورة البقرة، الآية: 114.

(5) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: أعضاء السجود (الحديث رقم: 891 و889)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء إني أسجد على سبعة أعضاء (الحديث رقم: 272)، وأخرجه النسائي في كتاب: التطبيق، باب: تفسير ذلك (الحديث رقم: 1093)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: السجود (الحديث رقم: 885).

وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾.

﴿عبد الله﴾ النبي ﷺ.

فإن قُلْتَ: هلا قيل رسول الله أو النبي! قُلْتُ: لأنّ تقديره وأوحي إليّ أنه لما قام عبد الله فلما كان واقعًا في كلام رسول الله ﷺ عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل، أو لأنّ المعنى أنّ عبادة الله ﷺ ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر حتى يكونوا عليه لبدًا. ومعنى قام يدعوه قام يعبده يريد قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجنّ فاستمعوا لقراءته ﷺ ﴿كادوا يكونون عليه لبدًا﴾ أي: يزدحمون عليه متراكمين تعجبًا مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه به قائمًا وراكعًا وساجدًا، وإعجابًا بما تلا من القرآن، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره، وقيل: معناه لما قام رسولاً يعبد الله وحده مخالفًا للمشركين في عبادتهم الآلهة من دونه، كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه متراكمين لبدًا، جمع لبدة وهو ما تلبد بعضه على بعض، ومنها لبدة الأسد. وقرئ: لبدًا واللبدة في معنى اللبدة، ولبدًا جمع لابد كساجد وسجد، ولبدا بضمتين جمع لبود كصبور وصبر. وعن قتادة: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفؤه فأبى الله إلا أن ينصره ويظهره على من ناواه. ومن قرأ وإنه بالكسر جعله من كلام الجن قالوه لقومهم حين رجعوا إليهم حاكين ما رأوا من صلاته وازدحام أصحابه عليه في ائتمامهم به.

قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٠﴾.

﴿قال﴾: للمتظاهرين عليه ﴿إنما أدعوا ربي﴾ يريد ما أتيتكم بأمر منكر إنما أعبد ربي وحده ﴿ولا أشرك به أحدًا﴾ وليس ذاك مما يوجب إطباقكم على مقتي وعداوتي. أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين: ليس ما ترون من عبادتي الله ورفضي الإشراك به بأمر يتعجب منه، إنما يتعجب ممن يدعو غير الله ويجعل له شريكًا. أو قال الجن لقومهم: ذلك حكاية عن رسول الله ﷺ.

قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾.

﴿ولا رشدًا﴾ ولا نفعًا أو أراد بالضر الغي. ويدل عليه قراءة أبيّ: غيًا ولا رشدًا، والمعنى: لا أستطيع أن أضركم وأن أنفعكم إنما الضار والنافع الله[1]، أو لا أستطيع أن أقسركم على الغي والرشد إنما القادر على ذلك الله عزّ وجل.

قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾.

و﴿إلا بلاغًا﴾ استثناء منه أي: لا أملك إلا بلاغًا من الله. و﴿قل إني لن يجيرني﴾ جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه، على معنى أنّ الله إن أراد به سوءًا من مرض أو موت أو غيرهما لم يصح أن يجيره منه أحد أو يجد من دونه ملاذًا يأوي إليه. والملتحد الملتجأ وأصله المدخل من اللحد. وقيل: محيصًا ومعدلاً. وقرئ: قال: لا أملك. أي: قال عبد الله للمشركين أو للجن. ويجوز أن يكون من حكاية الجن لقومهم. وقيل: بلاغًا بدل من ملتحد[2]. أي: لن أجد من دونه منجي إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به. وقيل: إلا هي أن لا، ومعناه: أن لا أبلغ بلاغًا. كقولك: أن لا قيامًا فقعودًا. ﴿ورسالاته﴾ عطف على بلاغًا كأنه قيل: لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات. والمعنى: إلا أن أبلغ عن الله، فأقول: قال الله: كذا ناسبًا لقوله إليه، وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان.

فإن قُلْتَ: ألا يقال بلغ عنه؟ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «بلغوا عني بلغوا عني»[3]. قُلْتُ: من ليست بصلة للتبليغ، إنما هي بمنزلة مَن في قوله: ﴿براءة من الله﴾[4] بمعنى بلاغًا كائنًا من الله. وقرئ: فإن له نار جهنم على فجزاؤه أنّ له نار جهنم. كقوله: ﴿فإنّ لله خمسه﴾[5] أي: فحكمه أنّ لله خمسه وقال: ﴿خالدين﴾ حملاً على معنى الجمع في من.

---

(1) قال أحمد: في الآية دليل بيّن على أنّ الله تعالى هو الذي يملك لعباده الرشد والغي يخلقهما لا غير، فإنّ النبي ﷺ إنما سلب ذلك عن قدرته ليمحض إضافته إلى قدرة الله وحده، وفطن الزمخشري لذلك، فأخذ يحمل الحبل فتارة يحمل الرشد على مطلق النفع فيضيف ذلك إلى الله تعالى، وتارة يكنع عنه؛ لأنّ فيه إبطالاً لخصوصية الرشد المنصوص عليه في الآية، فيثور له من تقليده الرأي الفاسد ثوائر تصرفه عن الحق، وعن اعتقاد أن الله تعالى هو الذي يخلق الرشد لعبيده مقارناً لاختيارهم فيدخل زيادة القسر؛ لأن معنى ما ورد من إضافة الرشد إلى قدرة الله تعالى عندهم أنه يخلق أن يخضع لها الرقاب، فيخلق البعد لنفسه عند ظهورها رشداً، فيضاف إلى قدرة الله تعالى لأنه خلق السبب وهو في الحقيقة مخلوق بقدرة العبد هذه قاعدة القدرية، وعقيدتهم، وما الجن بعد هذا إلا أوفر عنهم عقلاً وأسدّ منهم نظراً؛ لأنهم قالوا: =

= ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ فأضافوا الرشد نفسه إلى إرادة الله عز وجل وقدرته.

(2) قال أحمد: فيكون تقدير الكلام بلاغاً من الله مستفاداً من قوله: ﴿قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً﴾ قال: إن قلت: ما معنا التقسيم والأمد يكون قريباً وبعيداً لقوله: ﴿تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ وأجاب: بأنه كان ﷺ يستقرب الموعد، وكأنه قال: ما أدري هل هو حال متوقع في كل ساعة أم له غاية مضروبة؟

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (الحديث رقم: 3461).

(4) سورة التوبة، الآية: 1.

(5) سورة الأنفال، الآية: 41.

فإن قُلْتَ: بم تعلق حتى وجعل ما بعده غاية له؟ **قُلْتُ**: بقوله: يكونون عليه لبدًا على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم.

حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾.

﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ من يوم بدر وإظهار الله له عليهم أو من يوم القيامة. **﴿فسيعلمون﴾** حينئذٍ أنهم **﴿أضعف ناصرًا وأقل عددًا﴾**، ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده. كأنه قال: لا يزالون على ما هم عليه **﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾** قال المشركون: متى يكون هذا الموعود إنكارًا له؟ فقيل: **﴿قل﴾** إنه كائن لا ريب فيه فلا تنكروه.

قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾.

فإنّ الله قد وعد ذلك وهو لا يخلف الميعاد، وأما وقته فما أدري متى يكون لأنّ الله لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: **﴿أم يجعل له ربي أمدًا﴾**؟ والأمد يكون قريبًا وبعيدًا، ألا ترى إلى قوله تود لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا! **قُلْتُ**: كان رسول الله ﷺ يستقرب الموعد فكأنه قال: ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية. أي: هو.

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾.

﴿عالم الغيب فلا يظهر﴾ فلا يطلع، و **﴿من رسول﴾** تبيين لمن ارتضى يعني: أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوّة خاصةً لا كل مرتضى. وفي هذا إبطال للكرامات لأنّ الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين[1] فليسوا برسل.

إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾.

وقد خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم لأنّ أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط. **﴿فإنه يسلك من بين يديه﴾** يدي من ارتضى للرسالة **﴿ومن خلفه رصدًا﴾** حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حى يبلغ ما أوحى به إليه. وعن الضحاك: ما بعث نبيّ إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك.

لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾.

﴿ليعلم﴾ الله **﴿أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾** يعني: الأنبياء. وحد أولاً على اللفظ في قوله: من بين يديه ومن خلفه، ثم جمع على المعنى كقوله: **﴿فإنّ له نار جهنم خالدين﴾**[2] والمعنى: ليبلغوا رسالات ربهم كما هي محروسة من الزيادة والنقصان، ونكر العلم كتكره في قوله تعالى: **﴿حتى نعلم المجاهدين﴾**، وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول. **﴿وأحاط بما لديهم﴾** بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفًا فهو مهين عليها حافظ لها. **﴿وأحصى كل شيء عددًا﴾** من القطر والرمل وورق الأشجار وزبد البحار فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه، وعددًا حال أي: وضبط كل شيء معدودًا محصورًا، أو مصدر في معنى إحصاء، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنيّ صدّق محمدًا ﷺ وكذب به عتق رقبة»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المزمل مكية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾.

﴿المزمّل﴾ المتزمّل وهو الذي تزمل في ثيابه أي: تلفف بها بإدغام الباء في الزاي. ونحوه: المدثر[4] في المتدثر. وقرئ: المتزمّل على الأصل، والمزّمل بتخفيف الزاي وفتح الميم وكسرها على أنه اسم فاعل أو مفعول من زمله وهو

---

(1) قال أحمد: ادعى عاماً واستدل خاصاً، فإنّ دعواه إبطال الكرامات بجميع أنواعها، والمدلول عليه بالآية: إبطال اطلاع الوليّ على الغيب خاصة، ولا يكون كرامة وخارق العادة إلا الاطلاع على الغيب لا غير، وما القدرية إلا ولهم شبهة في إبطالها، وذلك أنّ الله عز وجل لا يتخذ منهم ولياً أبداً، وهم لم يحدثوا بذلك عن أشياعهم قط، فلا جرم أنهم يستمرون على الإنكار، ولا يعلمون أنّ شرط الكرامة الولاية، وهي مسلوبة عنهم اتفاقاً، وأما سلب الإيمان فمسألة خلاف، فما أطمع من يكون إيمانه مسألة خلاف وهو يريد الكرامة؛ لأنه لم يؤتها، والله الموفق.

(2) سورة الجن، الآية: 23.

(3) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في تفاسيرهم: 4/104.

(4) قال أحمد: أما قوله الأوّل: أنّ نداءه بذلك تهجين للحالة التي ذكر أنه كان عليها، واستشهاده بالأبيات المذكورة فخطأ وسوء أدب، ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له في الإكرام والاحترام علم بطلان ما تخيله الزمخشري، فقد قال العلماء: أنه لم يخاطب باسمه نداء، وأنّ ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراماً له وتشريفاً، فأين نداؤه بصيغة مهجنة من ندائه باسمه، واستشهاده على ذلك بأبيات قيلت ذماً في جفاة حفاة من الرعاء، فأنا أبرأ إلى الله من ذلك وأربابه ﷺ، ولقد ذكرت بقوله:

أوردها سعد وسعد مشتمل =

الذي زمله غيره أو زمل نفسه. وكان رسول الله ﷺ نائمًا بالليل متزمّلاً في قطيفة، فنبه ونودي، بما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمّل في قطيفة واستعداده للاستثقال في النوم كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن. ألا ترى إلى قول ذي الرمّة:

وكائن تخطت ناقتي من مفازة ... ومن نائم عن ليلها متزمّل

يريد الكسلان المتقاعس الذي لا ينهض في معاظم الأمور وكفايات الخطوب ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ونحوه:

فأتت به حوش الفؤاد مبطنًا ... سهدًا إذا ما نام ليل الهوجل

وفي أمثالهم:

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا تورد يا سعد الإبل

فذمه بالاشتمال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس وأمر بأن يختار على الهجود التهجد، وعلى التزمل التشمر والتخفف للعبادة. والمجاهدة في الله لا جرم أنّ رسول الله ﷺ قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر وأقبلوا على إحياء لياليهم ورفضوا له الرقاد والدعة، وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم وظهرت السيمى في وجوههم وترامى أمرهم إلى حد رحمهم له ربهم فخفف عنهم. وقيل: كان متزملاً في مرط لعائشة يصلي. فهو على هذا ليس بتهجين بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التي كان عليها، وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه. وعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت ما كان تزميله قالت: كان مرطًا طوله أربع عشرة ذراعًا، نصفه عليّ وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلي. فسئلت: ما كان؟ قالت: والله ما كان خزًا ولا قزًا ولا مرعزي ولا إبريسمًا ولا صوفًا كان سداه شعرًا ولحمته وبرًا[1]. وقيل: دخل على خديجة وقد جئت فرقًا أول ما أتاه جبريل وبوادره ترعد فقال: زملوني زملوني. وحسب أنه عرض له فبينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل: يا أيها المزمل[2]. وعن عكرمة: أنّ المعنى يا أيها الذي زمل أمرًا عظيمًا أي: حمله، والزمل الحمل، وازدمله احتمله.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾.

وقرئ: قم الليل بضم الميم وفتحها. قال عثمان بن جني: الغرض بهذه الحركة التبلغ بها هربًا من التقاء الساكنين فبأي الحركات تحرّك فقد وقع الغرض.

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾.

﴿نصفه﴾ بدل من الليل وإلا قليلاً استثناء من النصف كأنه قال: قم أقل من نصف الليل. والضمير في منه وعليه للنصف، والمعنى: التخيير بين أمرين بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه، وإن شئت جعلت نصفه بدلاً من قليلاً وكان تخييرًا بين ثلاث. بين قيام النصف بتمامه، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه، وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل، وإن شئت قلت لما كان معنى قم الليل إلا قليلاً نصفه إذا أبدلت النصف من الليل قم أقل من نصف الليل رجع الضمير في منه وعليه إلى الأقل من النصف، فكأنه قيل: قم أقل من نصف الليل، أو قم أنقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلاً، فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث. ويجوز إذا أبدلت نصفه من قليلاً وفسرته به أن تجعل قليلاً الثاني بمعنى نصف النصف وهو الربع: كأنه قيل: أو انقص منه قليلاً نصفه، وتجعل المزيد على هذا القليل، أعني الربع نصف الربع، كأنه. قيل: أو زد عليه قليلاً نصفه، ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقةً تتمة الثلث فيكون تخييرًا بين النصف والثلث والربع.

فإن قُلْتَ: أكان القيام فرضًا أم نفلاً؟ قُلْتُ: عن عائشة رضي الله عنها أنّ الله جعله تطوّعًا بعد أن كان فريضة. وقيل: كان فرضًا قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ثم نسخ بهنّ إلا ما تطوّعوا به. وعن الحسن: كان قيام ثلث الليل فريضة وكانوا على ذلك سنة وقيل: كان واجبًا وإنما وقع التخيير في المقدار، ثم نسخ بعد عشر سنين. وعن الكلبي: كان يقوم الرجل حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين النصف والثلث والثلثين. ومنهم من قال: كان نفلاً بدليل التخيير في المقدار. ولقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾[3] ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات حتى يجيء المتلوّ منه شبيهًا بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان وألا يهذه هذا ولا يسرده سردًا. كما قال عمر رضي الله عنه: شر السير الحقحقة، وشر القراءة الهذرمة حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر إلا لص[4] وسئلت عائشة رضي الله عنها عن

= ما وقفت عليه من كلام ابن خروف النحوي يرد على الزمخشري، ويخطئ رأيه في تصنيفه المفصل، وإجحافه في الاختصار بمعاني كلام سيبويه حتى سماه ابن خروف البرنامج، وأنشد عليه

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا تورد يا سعد الإبل

وأما ما نقله أن ذلك كان في مرط عائشة رضي الله عنها فبعيد، فإن السورة مكية وبنى النبيّ ﷺ على عائشة رضي الله عنها بالمدينة، والصحيح في الآية ما ذكره آخراً؛ لأنّ ذلك كان في بيت خديجة عندما لقيه جبريل أوّل مرة، فبذلك وردت الأحاديث الصحيحة، والله أعلم.

(1) قال الزيلعي: غريب: 4/107.
(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: 3) (الحديث رقم: 3)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 252 ـ 160).
(3) سورة الإسراء، الآية: 79.
(4) قال الزيلعي: غريب، وساق حديث أخرجه الخطيب البغدادي في أوائل، كتاب: الجامع لآداب الراوي والسامع 4/108.

قراءة رسول الله ﷺ فقالت: لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها. و﴿ترتيلاً﴾ تأكيد في إيجاب الأمر به وأنه ما لا بد منه للقارئ.

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾.

هذه الآية اعتراض ويعني بالقول الثقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين وخاصة على رسول الله ﷺ لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته، فهي أثقل عليه وأبهظ له. وأراد بهذا الاعتراض أنّ ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن، لأنّ الليل وقت السبات والراحة والهدو فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد له جلده[1]، وعن عائشة رضي الله عنها: رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليرفض عرقًا[2]. وعن الحسن: ثقيل في الميزان، وقيل: ثقيل على المنافقين، وقيل: كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف.

إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾.

﴿ناشئة الليل﴾ النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة، أي: تنهض وترتفع، من نشأت السحابة إذا ارتفعت ونشأ من مكانه ونشز إذا نهض قال:

نشأنا إلى[3] خوص بري نيها السرى والصق منها مشرفات القماحد[4]

وقيام الليل على أنّ الناشئة مصدر من نشأ إذا قام ونهض على فاعلة كالعافية، ويدل عليه ما روي عن عبيد بن عمير: قلت لعائشة: رجل قام من أوّل الليل أتقولين له قام ناشئة؟ قالت: لا، إنما الناشئة القيام بعد النوم. ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع[5]، أو العبادة التي تنشأ بالليل. أي: تحدث وترتفع، وقيل: هي ساعات الليل كلها لأنها تحدث واحدة بعد أخرى، وقيل: الساعات الأول منه، وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء ويقول: أما سمعتم قول الله تعالى: ﴿إنّ ناشئة الليل﴾. هذه ناشئة الليل ﴿هي أشد وطا﴾ هي خاصة دون ناشئة النهار أشدّ مواطئة، يواطئ قلبها لسانها إن أردت النفس، أو يواطئ فيها قلب القائم لسانه إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات أو أشدّ موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص، وعن الحسن: أشدّ موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق. وقرئ أشدّ وطأ بالفتح والكسر، والمعنى: أشدّ ثبات قدم وأبعد من الزلل أو أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار. من قوله عليه السلام: اللهم اشدد وطأتك على مضر[6]﴿واقوم قيلا﴾ وأشدّ مقالاً وأثبت قراءةً لهدوّ الأصوات، وعن أنس رضي الله عنه أنه قرأ: وأصوب قيلاً. فقيل له: يا أبا حمزة إنما هي وأقوم. فقال: إنّ أقوم وأصوب وأهيأ واحد. وروى أبو زيد الأنصاري عن أبي سرار الغنوي أنه كان يقرأ: فحاسوا، بحاء غير معجمة، فقيل له: إنما هو جاسوا بالجيم، فقال: وجاسوا وحاسوا واحد.

إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾.

﴿سبحًا﴾ تصرفًا وتقلبًا في مهماتك وشواغلك ولا تفرغ إلا بالليل، فعليك بمناجاة الله التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل. وأما القراءة بالخاء فاستعارة من سخ الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه، لانتشار الهم وتفرّق القلب بالشواغل. كلفه قيام الليل ثم ذكر الحكمة فيما كلفه منه وهو أن الليل أعون على المواطأة وأسدّ للقراءة لهدوّ الرجل وخفوت الصوت، وأنه أجمع للقلب وأضم لنشر الهم من النهار لأنه وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب في حوائج المعاش والمعاد. وقيل: فراغًا وسعةً لنومك وتصرفك في حوائجك. وقيل: إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه.

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾.

﴿واذكر اسم ربك﴾ ودم على ذكره في ليلك ونهارك واحرص عليه، وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ودراسة علم وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعة ليله ونهاره. ﴿وتبتل إليه﴾ وانقطع إليه.

فإن قُلْتَ: كيف؟ قيل: ﴿تبتيلا﴾ مكان تبتلاً؟قُلْتُ: لأنّ معنى تبتل بتل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل.

رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾.

﴿رب المشرق والمغرب﴾ قرئ مرفوعًا على المدح ومجرورًا على البدل من ربك. وعن ابن عباس: على القسم بإضمار حرف القسم. كقولك: الله لأفعلنّ وجوابه ﴿لا إله إلا هو﴾ كما تقول: والله لا أحد في الدار إلا زيد، وقرأ ابن عباس: رب المشارق والمغارب ﴿فاتخذه وكيلاً﴾ مسبب على التهليلة لأنه هو وحده هو الذي يجب لتوحده بالربوبية أن توكل إليه الأمور. وقيل: وكيلاً كفيلاً بما وعدك من النصر والإظهار.

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾.

(1) أخرجه أحمد في المسند 1/238.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، (الحديث رقم: 2)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (الحديث رقم: 86 ـ 2333).

(3) خوص: جمع خوصاء، وهي غائرة العين.

(4) القمحدوة: ما خلف الرأس.

(5) تقدم في سورة الأنبياء.

(6) قال أحمد: فإن حملت الناشئة على النفس فإضافة المواطأة إليها حقيقة، وإن حملتها على الساعات أو المصدر فهو من الاتساع المجازي.

الهجر: الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشر في وجوه قوم ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم(1)، وقيل: هو منسوخ بآية السيف.

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾.

إذا عرف الرجل من صاحبه أنه مستهم بخطب يريد أن يكفاه، أو بعدوّ يشتهي أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك مقتدر عليه، قال: ذرني وإياه، أي: لا تحتاج إلى الظفر بمرادك ومشتهاتك إلا أن تخلي بيني وبينه بأن تكل أمره إلي وتستكفينيه، فإنّ في ما يفرغ بالك ويجلي همك. وليس ثم منع حتى يطلب إليه أن يذره وإياه إلا ترك الاستكفاء والتفويض كأنه إذا لم يكل أمره إليه فكأنه منعه منه، فإذا وكله إليه فقد أزال المنع وتركه وإياه. وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه. النعمة بالفتح التنعم بالكسر الإنعام وبالضم المسرة. يقال: نعم ونعمة عين، وهم صناديد قريش وكانوا أهل تنعم وترفه.

إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾.

﴿إنّ لدينا﴾ ما يضاد تنعمهم: من انكال وهي القيود الثقال. عن الشعبي: إذا ارتفعوا استفلت بهم الواحد نكل ونكل، ومن جحيم وهي النار الشديدة الحر والاتقاد.

وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾.

ومن طعام ذي غصة وهو الذي ينشب في الحلوق فلا يساغ. يعني: الضريع وشجر الزقوم. ومن عذاب أليم من سائر العذاب فلا ترى موكولاً إليه أمرهم موذورًا بينه وبينهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام. وروي أنّ النبي ﷺ قرأ هذه الآية فصعق(2). وعن الحسن أنه أمسى صائمًا فأتى بطعام فعرضت له هذه الآية فقال: ارفعه، ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال: ارفعه. وكذلك الليلة الثالثة. فأخبر ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء فجاؤوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق.

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾.

﴿يوم ترجف﴾ منصوب بما في لدينا، والرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة. والكثيب الرمل المجتمع، من كثب الشيء إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله ومنه الكثبة من اللبن. قالت الضائنة: أجز جفالاً وأحلب كثبًا عجالاً. أي: كانت مثل رمل مجتمع هيل هيلاً أي: نثر وأسيل. الخطاب لأهل مكة.

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾.

﴿شاهدًا عليكم﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم.

فإن قُلْتَ: لم نكر الرسول ثم عرف؟ **قُلْتُ:** لأنه أراد أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل فلما أعاده وهو معهود بالنكر ادخل لام التعريف إشارة إلى المنكور بعينه.

فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾.

﴿وبيلاً﴾ ثقيلاً غليظًا من قولهم: كلأ وبيل وخم لا يستمرأ لثقله، والوبيل العصا الضخمة ومنه الوابل للمطر العظيم.

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾.

﴿يومًا﴾ مفعول به أي: فكيف تقون انفسكم يوم القيامة وهوله إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا صالحًا. ويجوز أن يكون ظرفًا أي: فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا؟ ويجوز أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم. أي: فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء لأنّ تقوى الله خوف عقابه. ﴿ويجعل الولدان شيبًا﴾ مثل في الشدّة، يقال: في اليوم الشديد يوم يشيب نواصي الأطفال، والأصل فيه أنّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب قال أبو الطيب:

والهم يخترم الجسيم نحافة ... ويشيب ناصية الصبي ويهرم

وقد مرّ بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب، وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة، فقال: أريت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون. ويجوز أن يوصف اليوم بالطول وأنّ الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة، والشيب.

السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾.

﴿السماء منفطر به﴾ وصف لليوم بالشدّة أيضًا، وأنّ السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه فما ظنك بغيرها من الخلائق. وقرئ: منفطر ومتفطر، والمعنى: ذات انفطار أو على تأويل السماء بالسقف أو على السماء شيء منفطر. والباء في به مثلها في قولك: فطرت العود بالقدوم فانفطر به. يعني: أنها تنفطر بشدّة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يفطر به. ويجوز أن يراد السماء مثقلة به إثقالاً يؤدّي إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه. كقوله: ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾(3) ﴿وعده﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول والضمير لليوم، ويجوز أن

---

(1) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب: الأدب، باب: المواراة مع الناس. وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حسن الخلق، فصل في حسن العشرة (الحديث رقم: 8103).

(2) أخرجه أحمد في الزهد، وأسنده ابن عدي في الكامل، زيلعي 4/ 111.

(3) سورة الأعراف، الآية: 187.

يكون مضافًا إلى الفاعل وهو الله عز وعلا، ولم يجر له ذكر لكونه معلومًا.

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾.

﴿إن هذه﴾ الآيات الناطقة بالوعيد الشديد ﴿تذكرة﴾ موعظة ﴿فمن شاء﴾ اتعظ بها. واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية. ومعنى اتخاذ السبيل إليه التقرّب والتوسل بالطاعة.

۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾.

﴿أدنى من ثلثي الليل﴾ أقل منهما وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز وإذا بعدت كثر ذلك. وقرئ: ونصفه وثلثه بالنصب على أنك تقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف والثلث، وهو مطابق لما مرّ في أوّل السورة من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه وهو الثلث، وبين قيام الزائد عليه وهو الأدنى من الثلثين وقرئ: ونصفه وثلثه بالجرّ. أي: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف، والثلث وهو مطابق للتخيير بين النصف وهو أدنى من الثلثين، وقرئ: ونصفه وثلثه بالجرّ. أي: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف، والثلث وهو مطابق للتخيير بين النصف وهو أدنى من الثلثين، والثلث وهو أدنى من النصف، والربع وهو أدنى من الثلث وهو الوجه الأخير. ﴿وطائفة من الذين معك﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك. ﴿والله يقدّر الليل والنهار﴾ ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا الله وحده، وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنيًا عليه يقدّر هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير. والمعنى: أنكم لا تقدرون عليه الضمير في ﴿لن تحصوه﴾ لمصدر يقدّر. أي: علم أنه لا يصح منكم ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط وذلك شاق عليكم بالغ منكم ﴿فتاب عليكم﴾ عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدّر كقوله: ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم. فالآن باشروهنّ﴾(1) والمعنى: أنه رفع التبعة في تركه عنكم كما يرفع التبعة عن التائب. وعبر عن الصلاة بالقراءة لأنها بعض أركانها كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود، يريد فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل وهذا ناسخ للأوّل ثم نسخًا جميعًا بالصلوات الخمس. وقيل: هي قراءة القرآن بعينها. قيل: يقرأ مائة آية ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن. وقيل: من قرأ مائة آية كتب من القانتين. وقيل: خمسين آية، وقد بين الحكمة في النسخ وهي تعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة والمجاهدين في سبيل الله. وقيل: سوّى الله بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أيما رجل جلب شيئًا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرًا محتسبًا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء(2)، وعن عبد الله بن عمر: ما خلق الله موتةً أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رجل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله(3) و﴿علم﴾ استئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ، ﴿وأقيموا الصلوٰة﴾ يعني: المفروضة والزكاة الواجبة، وقيل: زكاة الفطر لأنه لم يكن بمكة زكاة وإنما وجبت بعد ذلك، ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيًا. ﴿وأقرضوا الله قرضًا حسنًا﴾ يجوز أن يريد سائر الصدقات وأن يريد أداء الزكاة على أحسن وجه من إخراج أطيب المال وأعوده على الفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق وأن يريد كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال. ﴿خيرًا﴾ ثاني مفعولي وجد وهو فصل وجاز وإن لم يقع بين معرفتين لأنّ أفعل من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة. وقرأ أبو السمال هو خير وأعظم أجرًا بالرفع على الابتداء، والخبر عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المزمّل دفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة»(4).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المدثر مكية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾.

﴿المدثر﴾ لابس الدثار وهو ما فوق الشعار، وهو الثوب الذي يلي الجسد. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شعار والناس دثار»(5). وقيل: هي أوّل سورة نزلت. وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد إنك رسول الله، فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئًا فنظرت فوقي فرأيت

(1) سورة البقرة، الآية: 187.
(2) قال الزيلعي: رواه الثعلبي في تفسيره، وابن مردويه: 4/112.
(3) رواه البيهقي في الشعب، قاله الزيلعي: 4/113.
(4) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم 4/113.
(5) تقدم في آل عمران.

شيئًا»(1). وفي رواية عائشة: فنظرت فوقي فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض. يعني: الملك الذي ناداه فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت: «دثروني دثروني. فنزل جبريل وقال: يا أيها المدثر(2). وعن الزهري: أوّل ما نزل سورة: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ إلى قوله: ﴿ما لم يعلم﴾(3) فحزن رسول الله ﷺ وجعل يعلو شواهق الجبال فأتاه جبريل فقال: إنك نبي الله. فرجع إلى خديجة وقال: دثروني وصبوا علي ماءً باردًا، فنزل يا أيها المدثر. وقيل: سمع من قريش ما كرهه فاغتم فتغطى بثوبه مفكرًا كما يفعل المغموم فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وآذوه. وعن عكرمة أنه قرأ على لفظ اسم المفعول من دثره وقال: دثرت هذا الأمر وعصب بك.

قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾.

كما قال في المزمّل: قم من مضجعك أو قم قيام عزم وتصميم. ﴿فأنذر﴾ فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا، والصحيح أنّ المعنى فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد.

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾.

﴿وربك فكبر﴾ واختص ربك بالتكبير وهو الوصف بالكبرياء وأن يقال: الله أكبر. ويروى أنه لما نزل قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر». فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحي، وقد يحمل على تكبير الصلاة ودخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل: وما كان فلا تدع تكبيرة.

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾.

﴿وثيابك فطهر﴾ أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات لأنّ طهارة الثياب شرط في الصلاة لا تصح إلا بها وهي الأولى والأحب في غير الصلاة وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثًا. وقيل: هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب في تطويلهم الثياب وجرهم الذيول وذلك ما لا يؤمن معه إصابة النجاسات. وقيل: هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ويستهجن من العادات. يقال: فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأردان، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق. وفلان دنس الثياب للغادر وذلك لأنّ الثوب يلابس الإنسان ويشتمل عليه فكني به عنه. ألا ترى إلى قولهم: أعجبني زيد ثوبه، كما يقولون: أعجبني زيد عقله وخلقه، ويقولون: المجد في ثوبه والكرم تحت حلته. ولأنّ الغالب أنّ من طهر باطنه ونقاه عني بتطهير الظاهر وتنقيته وأبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهر في كل شيء.

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾.

﴿والرّجز﴾ قرئ بالكسر والضم وهو العذاب. ومعناه: اهجر ما يؤدّي إليه من عبادة الأوثان وغيرها من المآثم، والمعنى: الثبات على هجره لأنه كان بريئًا منه.

وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾.

قرأ الحسن: ولا تمن وتستكثر مرفوع منصوب المحل على الحال. أي: ولا تعط مستكثرًا رائيًا لما تعطيه كثيرًا أو طالبًا للكثير، نهى عن الاستغزار وهو أن يهب شيئًا وهو يطمع أن يتعوّض من الموهوب له أكثر من الموهوب وهذا جائز ومنه الحديث «المستغزر يثاب من هبته»، وفيه وجهان: أحدهما أن يكون نهيًا خاصًا برسول الله ﷺ لأنّ الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق، والثاني أن يكون نهي تنزيه لا تحريم له ولأمّته، وقرأ الحسن: تستكثر بالسكون وفيه ثلاثة أوجه الإبدال من تمنن. كأنه قيل: ولا تمنن، لا تستكثر على أنه من المن في قوله عز وجل: ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًا ولا أذىً﴾(4) لأنّ من شأن المنان بما يعطي أن يستكثره أي: يراه كثيرًا ويعتدّ به، وأن يشبه ثرو بعضد فيسكن تخفيفًا وأن يعتبر حال الوقف. وقرأ الأعمش بالنصب بإضمار أن كقوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

وتؤيده قراءة ابن مسعود: ولا تمنن أن تستكثر. ويجوز في الرفع أن تحذف أن ويبطل عملها. كما روى: احضر الوغى بالرفع.

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾.

﴿ولربك فاصبر﴾ ولوجه الله فاستعمل الصبر. وقيل: على أذى المشركين، وقيل: على أداء الفرائض. وعن النخعي: علي عطيتك، كأنه وصله بما قبله وجعله صبرًا على العطاء من غير استكثار. والوجه أن يكون أمرًا بنفس الفعل وأن يتناول على العموم كل مصبور عليه ومصبور عنه، ويراد الصبر على أذى الكفار لأنه أحد ما يتناوله العام. والفاء في قوله:

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾.

والفاء في قوله ﴿فإذا نقر﴾ للتسبيب كأنه قال: اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه.

والفاء في ﴿فذلك﴾ للجزاء.

فإن قلتَ: بم انتصب إذا؟ وكيف صح أن يقع ﴿يومئذ﴾ ظرفًا ليوم عسير؟ **قلتُ:** انتصب إذا بما دلّ عليه الجزاء لأنّ

(1) رواه البخاري في كتاب: بدء الوحي باب: 3 (الحديث رقم: 4)، ومسلم في صحيحه في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 257 ـ 161).

(2) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿اقرأ باسم ربك الذي= خلق﴾ (الحديث: 4953)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث: 401).

(3) سورة العلق، الآيات: 1 ـ 5.

(4) سورة البقرة، الآية: 262.

المعنى: فإذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين، والذي اجاز وقوع يومئذٍ ظرفًا ليوم عسير أنّ المعنى: فذلك وقت النقر، وقوع يوم عسير لأنّ يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقور. واختلف في أنها النفخة الأولى أم الثانية، ويجوز أن يكون يومئذٍ مبنيًا مرفوع المحل بدلاً من ذلك ويوم عسير خبر كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير.

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾.

فإن قُلتَ: فما فائدة قوله: ﴿غير يسير﴾ وعسير مغن عنه! **قُلتُ:** لما قال على الكافرين فقصر العسر عليهم. قال: غير يسير، ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرًا هينًا ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم، وبشارة المؤمنين وتسليتهم. ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرًا كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا.

ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾.

﴿وحيدًا﴾ حال من الله عز وجل على معنيين: أحدهما نرني وحدي معه فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم، والثاني خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد، أو حال من المخلوق على معنى: خلقته وهو وحيد فريد لا مال له ولا ولد. كقوله: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة﴾[1] وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وكان يلقب في قومه بالوحيد، ولعله لقب بذلك بعد نزول الآية، فإن كان ملقبًا به قبل فهو تهكم به وبلقبه وتغيير له عن الغرض الذي كانوا يؤمونه من مدحه والثناء عليه بأنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدّمه في الدنيا إلى وجه الذم والعيب، وهو أنه خلق وحيدًا لا مال له ولا ولد، فآتاه الله ذلك فكفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بدينه.

وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾.

﴿ممدودًا﴾ مبسوطًا كثيرًا او ممدًا بالنماء، من مدّ النهر ومدّه نهرًا آخر. قيل: كان له الزرع والضرع والتجارة. وعن ابن عباس: هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال، وقيل: كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره صيفًا وشتاءً، وقيل: كان له ألف مثقال، وقيل: أربعة آلاف، وقيل: تسعة آلاف، وقيل: ألف ألف، وعن ابن جريج: غلة شهر بشهر.

وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾.

﴿وبنين شهودًا﴾ حضورًا معه بمكة لا يفارقونه للتصرف في عمل أو تجارة لأنهم مكفيون لوفور نعمة أبيهم واستغنائهم عن التكسب وطلب المعاش بأنفسهم، فهو مستأنس بهم لا يشتغل قلبه بغيبتهم وخوف معاطب السفر عليهم ولا يحزن لفراقهم والاشتياق إليهم. ويجوز أن يكون معناه أنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل، أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه. وعن مجاهد: كان له عشرة بنين، وقيل: ثلاثة عشر، وقيل: سبعة كلهم رجال: الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة.

وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾.

﴿ومهدت له تمهيدًا﴾ وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه فأتممت عليه نعمتي المال والجاه، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا، ومنه قول الناس: أدام الله تأييدك وتمهيدك، يريدون زيادة الجاه والحشمة، وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش.

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾.

﴿ثم يطمع﴾ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه[2]. يعني: أنه لا مزيد على ما أوتي سعة وكثرة. وقيل: إنه كان يقول إن كان محمد صادقًا فما خلقت الجنة إلا لي.

كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾.

﴿كلا﴾ ردع له وقطع لرجائه وطمعه ﴿إنه كان لآياتنا عنيدًا﴾ تعليل للردع على وجه الاستئناف. كان قائلاً قال: لم لا يزاد؟ فقيل: إنه عاند آيات المنعم وكفر بذلك نعمته، والكافر لا يستحق المزيد. ويروى أنه ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله حتى هلك.

سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾.

﴿سارهقه صعودًا﴾ ساغشيه عقبة شاقة، المصعد وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق. وعن النبي ﷺ: «يكلف أن يصعد عقبة في النار كلما وضع عليها يده ذابت فإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عادت»[3]، وعنه عليه السلام: «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفًا ثم يهوي فيه كذلك أبدًا»[4].

إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾.

﴿إنه فكر﴾ تعليل للوعيد، كأنّ الله تعالى عاجله بالفقر بعد الغنى والذل بعد العز في الدنيا لعناده، ويعاقبه في

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 94.

(2) قال أحمد: لأنّ الكلمة الشنعاء لما خطرت بباله بعد إمعانه النظر لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث. قال: فإن قلت: لمَ لم يوسط بين الجملتين عاطفاً؟ وأجاب: بأن الثانية أخرجها مخرج التوكيد للأولى.

(3) رواه البزار والبيهقي في البعث والنشور، والطبري والثعلبي [الزيلعي 4/120].

(4) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المدثر (الحديث رقم: 33260)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (الحديث رقم: 4299).

الآخرة بأشدّ العذاب وأفظعه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه في تفكيره وتسميته القرآن سحرًا. ويجوز أن تكون كلمة الردع متبوعةً بقوله: سأرهقه صعودًا ردًا لزعمه أن الجنة لم تخلق إلا له وأخبارًا بأنه من أشدّ أهل النار عذابًا ويعلل ذلك بعناده، ويكون قوله: إنه فكر بدلاً من قوله: إنه كان لآياتنا عنيدًا بيانًا لكنه عناده. ومعناه: فكر ماذا يقول في القرآن ﴿وقدّر﴾ في نفسه ما يقوله وهيأه.

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾.

﴿فقتل كيف قدّر﴾ تعجيب من تقديره وإصابته فيه المحن ورميه الغرض الذي كان تنتحيه قريش، أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به، أو هي حكاية لما كرّروه من قولهم: قتل كيف قدّر تهكمًا بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله: ومعنى قول القائل: قتله الله ما أشجعه، وأخزاه الله ما شعره الأشعار، بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده. بذلك روي أنّ الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى، فقالت قريش: صبأ والله الوليد والله لتصبأن قريش كلهم، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد إليه حزينًا وكلمه بما أحماه فقام فأتاهم فقال: تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه يخنق، وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه قط يتكهن، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرًا قط، وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيء من الكذب، فقالوا: في كل ذلك اللهم لا. ثم قالوا: فما هو؟ ففكر فقال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره، عن مسيلمة وعن أهل بابل: فارتج النادي فرحًا وتفرّقوا معجبين بقوله: متعجبين منه.

ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾.

﴿ثم نظر﴾ في وجوه الناس.

ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾.

ثم قطب وجهه ثم زحف مدبرًا وتشاوس مستكبرًا لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء وهمّ بأن يرمي بها وصف أشكاله التي تشكل بها حتى استنبط ما استنبط استهزاءً به. وقيل: قدّر ما يقوله، ثم نظر فيه ثم عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول. وقيل: قطب في وجه رسول الله ﷺ.

ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾.

﴿ثم أدبر﴾ عن الحق ﴿واستكبر﴾ عنه فقال ما قال، وثم نظر عطف على فكر وقدّر والدعاء اعتراض بينهما.

فإن قُلْتَ: ما معنى ثم الداخلة في تكرير الدعاء؟ قُلْتُ: الدلالة على أن الكرّة الثانية أبلغ من الأولى ونحوه قوله: ألا يا أسلمي ثم اسلمي ثمت أسلمي.

فإن قُلْتَ: ما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها؟ قُلْتُ: الدلالة على أنه قد تأنى في التأمّل وتمهل وكان بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد.

فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾.

فإن قُلْتَ: فلم قيل: ﴿فقال إن هذا﴾ بالفاء بعد عطف ما قبله بثم؟ قُلْتُ: لأنّ الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث.

فإن قُلْتَ: فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين؟ قُلْتُ: لأنّ الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد.

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾.

﴿سأصليه سقر﴾ بدل من سأرهقه صعودًا.

لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾.

﴿لا تبقي﴾ شيئًا يلقى فيها إلا أهلكته وإذا هلك لم تذره هالكًا حتى يعاد، أو لا تبقى على شيء ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة.

لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾.

﴿لواحة﴾ من لوح الهجير قال:

تقول ما لاحك يا مسافر   يا ابنة عمي لاحني الهواجر

قيل: تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سوادًا من الليل. والبشر أعالي الجلود. وعن الحسن: تلوح للناس، كقوله: ﴿ثم لترونّها عين اليقين﴾(1). وقرئ: لواحة نصبًا على الاختصاص للتهويل.

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾.

﴿عليها تسعة عشر﴾ أي: يلي أمرها ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكًا. وقيل: صنفًا من الملائكة. وقيل: صفًا. وقيل: نقيبًا. وقرئ: تسعة عشر بسكون العين لتوالي الحركات في ما هو في حكم اسم واحد. وقرئ: تسعة أعشر جمع عشير مثل يمين وأيمن. جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة ولا يستروحون إليهم، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمن هوادتهم ولأنهم أشد الخلق بأسًا وأقواهم بطشًا. عن عمرو بن دينار: واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر. وعن النبي ﷺ: «كأن أعينهم البرق، وكأن أفواههم الصياصي. يجرون أشعارهم لأحدهم مثل قوّة

(1) سورة التكاثر، الآية: 7.

الثقلين يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمي بهم في النار ويرمي بالجبل عليهم. وروي أنه لما نزلت عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين. فأنزل الله:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة**﴾ أي: ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون.

فإن قُلْتَ: قد جعل افتتان الكافرين بعدة الزبانية سببًا[1] لاستيقان أهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين واستهزاء الكافرين والمنافقين فما وجه صحة ذلك! **قُلْتُ**: ما جعل افتتانهم بالعدّة سببًا لذلك وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سببًا وذلك أنّ المراد بقوله: ﴿**وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا**﴾ وما جعلنا عدّتهم إلا تسعة عشر، فوضع فتنة للذين كفروا موضع تسعة عشر لأنّ حال هذه العدّة الناقصة واحدًا من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهزئ ولا يذعن إذعان المؤمن وإن خفي عليه وجه الحكمة. كأنه قيل: ولقد جعلنا عدّتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب لأنّ عدتهم تسعة عشر في الكتابين، فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من الله وازدياد المؤمنين إيمانًا لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل ولما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك.

فإن قُلْتَ: لم قال: ﴿**ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون**﴾ والاستيقان وازدياد الإيمان دالاً على انتفاء الارتياب[2]؟ **قُلْتُ**: لأنه إذا جمع لهم إثبات اليقين ونفي الشك كان آكد وأبلغ لوصفهم بسكون النفس وثلج الصدر، ولأنّ فيه تعريضًا بحال من عداهم. كأنه قال: ولتخالف حالهم حال الشاكين المرتابين من أهل النفاق والكفر.

فإن قُلْتَ: كيف ذكر الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون والسورة مكية ولم يكن بمكة نفاق وإنما نجم بالمدينة؟ **قُلْتُ**: معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ﴿**والكافرون**﴾ بمكة ﴿**ماذا أراد الله بهذا مثلاً**﴾ وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب، وذلك لا يخالف كون السورة مكية ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب.

فإن قُلْتَ: قد علل جعلهم تسعة عشر بالاستيقان وانتفاء الارتياب وقول المنافقين والكافرين ما قالوا، فهب أنّ الاستيقان وانتفاء الارتياب يصح أن يكونا غرضين فكيف صح أن يكون قول المنافقين والكافرين غرضًا! **قُلْتُ**: أفادت اللام معنى العلة والسبب ولا يجب في العلة أن تكون غرضًا. ألا ترى إلى قولك: خرجت من البلد لمخافة الشر، فقد جعلت المخافة علة لخروجك وما هي بغرضك، مثلاً تمييز لهذا أو حال منه كقوله: ﴿هذه ناقة الله لكم﴾[3] آية.

فإن قُلْتَ: لم سموه مثلاً؟ **قُلْتُ**: هو استعارة من المثل المضروب لأنه مما غرب من الكلام وبدع استغرابًا منهم لهذا العدد واستبداعًا له، والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب وأي غرض قصد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين سواء ومرادهم إنكاره من أصله وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص. الكاف في ﴿**كذلك**﴾ نصب وذلك إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى، أي: مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضلّ الكافرين ويهدي المؤمنون. يعني: يفعل فعلاً حسنًا مبنيًا على الحكمة والصواب، فيراه المؤمنون حكمةً ويذعنون له لاعتقادهم أنّ أفعال الله كلها حسنة وحكمة فيزيدهم إيمانًا، وينكره الكافرون ويشكون فيه فيزيدهم كفرًا وضلالاً. ﴿**وما يعلم جنود ربك**﴾ وما عليه كل جند من العدد الخاص من كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عدد ناقص، وما في اختصاص كل جند بعدده من الحكمة ﴿**إلا هو**﴾ ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك كما لا يعرف الحكمة في أعداد السموات والأرضين وأيام السنة والشهور والبروج والكواكب وأعداد النصب والحدود والكفارات والصلوات في الشريعة. أو ما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو

---

(1) قال أحمد: ما جعل افتتانهم بالعدة سبباً لذلك، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سبباً؛ لأن المراد: وما جعلنا عدّتهم إلا تسعة عشر فوضع فتنة للذين كفروا موضع ذلك؛ لأن حال هذه العدّة الناقصة واحداً من العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ولا يذعن، وإن خفي عليه وجه الحكمة كأنه قيل: لقد جعلنا عدتهم عدّة من شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب.

(2) قال أحمد: أطلق الغرض على الله عز وجل مع أنه موهم، ولم يرد = فيه سماع وأورد السؤال على قاعدته بعد ذلك كله في أن الله لم يرد من المنافقين والكافرين أقوالهم، وإن قالوا على خلاف ما أراد، وقد عرفت فساد القاعدة فأرح فكرك من هذا السؤال، فالكل مراد وحسبك تتمة الآية: ﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ قوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ قال: وليست بتأنيث رهين إلخ.

(3) سورة هود، الآية: 64.

يعلمها. وقيل: هو جواب لقول أبي جهل أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلى قوله: إلا هو اعتراض. وقوله: ﴿وما هي إلا ذكرى﴾ متصل بوصف سقر وهي ضميرها أي: وما سقر وصفتها إلا تذكرة ﴿للبشر﴾، أو ضمير الآيات التي ذكرت فيها.

كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾.

﴿كلا﴾ إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون أو ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر نذيرًا.

وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾.

و﴿دبر﴾ بمعنى: أدبر، كقبل بمعنى أقبل، ومنه صاروا كأمس الدابر، وقيل: وهو من دبر الليل النهار إذا خلفه. وقرئ: إذا أدبر.

إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾.

﴿إنها لإحدى الكبر﴾ جواب القسم أو تعليل لكلام، والقسم معترض للتوكيد والكبر جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كتائها فلما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها. ونظير ذلك السوافي في جمع السافياء والقواصع في جمع القاصعاء كأنها جمع فاعلة. أي: لإحدى البلايا أو الدواهي الكبر، ومعنى كونها إحداهنّ أنها من بينهنّ واحدة في العظم لا نظيرة لها، كما تقول هو أحد الرجال وهي إحدى النساء.

نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾.

و﴿نذيرًا﴾ تمييز من إحدى على معنى إنها لإحدى الدواهي إنذارًا كما تقول هي إحدى النساء عفافًا، قيل: هي حال. وقيل: هو متصل بأوّل السورة، يعني: قم نذيرًا، وهو من بدع التفاسير، وفي قراءة أبيّ: نذير بالرفع خبر بعد خبر لأن أو بحذف المبتدأ.

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾.

﴿أن يتقدّم﴾ في موضع الرفع بالابتداء ومن شاء خبر مقدّم عليه. كقولك: لمن توضأ أن يصلي ومعناه مطلق لمن شاء التقدّم أو التأخر أن يتقدّم أو يتأخر، والمراد بالتقدّم والتأخر السبق إلى الخير والتخلف عنه. وهو كقوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1] ويجوز أن يكون لمن شاء بدلاً من للبشر على أنها منذرة للمكلفين الممكنين الذين إن شاؤوا تقدّموا ففازوا وإن شاؤوا تأخروا فهلكوا.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾.

﴿رهينة﴾ ليست بتأنيث رهين[2] في قوله: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾[3] لتأنيث النفس لأنه لو قصدت الصفة لقيل: رهين. لأنّ فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المنكر والمؤنث، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم. كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن ومنه بيت الحماسة:

أبعد الذي بالنعف نعف كويكب رهينة رمس ذي تراب وجندل

كأنه قال: رهن رمس، والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك.

إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾.

﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق. وعن علي رضي الله عنه أنه فسر أصحاب اليمين بالأطفال لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هم الملائكة.

فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾.

﴿في جنات﴾ أي: هم في جنات لا يكتنه وصفها. ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ يسأل بعضهم بعضًا عنهم[4]، أو يتساءلون غيرهم عنهم. كقولك: دعوته وتداعيناه.

فإن قُلْتَ: كيف طابق قوله: ﴿ما سلككم﴾ وهو سؤال للمجرمين قوله: ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ وهو سؤال عنهم، وإنما كان يتطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سلككم! قُلْتُ: ما سلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم لأنّ المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون: قلنا لهم ما سلككم.

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾.

﴿قالوا لم نك من المصلين﴾ إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه.

---

(1) سورة الكهف، الآية: 29.

(2) سورة الطور، الآية: 21.

(3) قال أحمد: لأنه فعيل بمعنى مفعول يستوي منكره ومؤنثه كقتيل وجديد.

(4) قال أحمد: إنما أورد السؤال ذريعة وحيلة لتحميل الآية الدلالة على أنّ فساق المسلمين تاركي الصلاة مثلاً يسلكون في النار مخلدين مع الكفار، فجعل كل واحدة من الخلال الأربع توجب ما توجب الأخرى من الخلود، والصحيح في معنى الآية أنها خاصة بالكفار، =

= ومعنى قولهم: ﴿لم نك من المصلين﴾ لم نك من أهل الصلاة، وكذلك إلى آخرها؛ لأنهم يكذبون بيوم الدين، والمكذب لا يصح منه طاعة من هذه الطاعات، ولو فعلها لم تنفعه، وقدرت كالعدم، وإنما يتأسفون على ترك فعل هو نافع لهم. قال: وفي تشبيههم بالحمر تهجين لهم وشهادة عليهم بالبلادة، وأيضاً المقصود تشبيه إدبارهم عن الحق وتسارعهم إلى الإعراض عنه بنفار حمر الوحوش، وعادة العرب أنها تشبه في السرعة بعدو الحمر، وخصوصاً إذا أحست بقانص فجرى على ما عهدوه، والله أعلم.

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾.

الخوض: الشروع في الباطل وما لا ينبغي.

فإن قُلْتَ: لم يسألونهم وهم عالمون بذلك؟ **قُلْتُ:** توبيخًا لهم وتحسيرًا وليكون حكاية الله ذلك في كتابه تذكرةً للسامعين، وقد عضد بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالأطفال أنهم إنما سألوهم لأنهم ولدان لا يعرفون موجب دخول النار.

فإن قُلْتَ: أيريدون أنّ كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع دخل النار أم دخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه؟ **قُلْتُ:** يحتمل الأمرين جميعًا.

وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾.

فإن قُلْتَ: لم أخر التكذيب وهو أعظمها؟ **قُلْتُ:** أرادوا أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيمًا للتكذيب كقوله: ثم كان من الذين آمنوا.

حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾.

﴿واليقين﴾ الموت ومقدماته، أي: لو شفع لهم الشافعون جميعًا من الملائكة والنبيين وغيرهم لم تنفعهم شفاعتهم لأنّ الشفاعة لمن ارتضاه الله وهم مسخوط عليهم، وفيه دليل على أنّ الشفاعة تنفع يومئذٍ لأنها تزيد في درجات المرتضين.

فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿عن التذكرة﴾ عن التذكير وهو العظة يريد القرآن أو غيره من المواعظ. و**﴿معرضين﴾** نصب على الحال كقولك: ما لك قائمًا.

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾.

والمستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه، وقرئ بالفتح وهي المنفرة المحمولة على النفار، والقسورة جماعة الرماة الذين يتصيدونها، وقيل: الأسد يقال ليوث قساور، وهي فعولة من القسر وهو القهر والغلبة، وفي وزنه الحيدرة من أسماء الأسد. وعن ابن عباس: ركز الناس وأصواتهم. وعن عكرمة: ظلمة الليل، شبههم في أعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه بحمر جدّت في نفارها مما أفزعها. وفي تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين كما في قوله: **﴿كمثل الحمار يحمل أسفارًا﴾**[1] وشهادةً عليهم بالبله وقلة العقل. ولا ترى مثل نفار حمير الوحش وأطرادها في العدو إذا رابها رائب، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدّة سيرها بالحمر وعدوها إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾.

﴿صحفًا منشرة﴾ قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التي يتكاتب بها، أو كتبًا كتبت في السماء ونزلت بها الملائكة ساعة كتبت منشرة على أيديها غضةً رطبّة لم تطو بعد وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان ابن فلان نؤمر فيها باتباعك، ونحوه قوله: وقالوا لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه، وقال: ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس فلمسوه بأيديهم الآية وقيل: قالوا إن كان محمد صادقًا فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار. وقيل: كانوا يقولون بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوبًا على رأسه ذنبه وكفارته، فأتنا بمثل ذلك. وهذا من الصحف المنشرة بمعزل إلا أن يراد بالصحف المنشرة الكتابات الظاهرة المكشوفة. وقرأ سعيد بن جبير: صحفًا منشرةً بتخفيفهما على أن أنشر الصحف ونشرها واحد كأنزله ونزله. ردعهم بقوله:

كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾.

﴿كلا﴾ عن تلك الإرادة وزجرهم عن اقتراح الآيات ثم قال: **﴿بل لا يخافون الآخرة﴾** فلذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف ثم ردعهم عن إعراضهم عن التذكرة. وقال:

كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾.

﴿إنه تذكرة﴾ يعني: تذكرة بليغة كافية مبهم أمرها في الكفاية.

فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾.

﴿فمن شاء﴾ أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينه فعل فإن نفع ذلك راجع إليه والضمير في أنه و **﴿ذكره﴾** للتذكرة في قوله: فما لهم عن التذكرة معرضين وإنما ذكر لأنها في معنى الذكر أو القرآن.

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾.

﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ يعني: إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إليه لأنهم مطبوع على قلوبهم معلوم أنهم لا يؤمنون اختيارًا. **﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾** هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا ويطيعوا، وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا. وروى أنس عن رسول الله ﷺ: هو أهل أن يتقى وأهل أن يغفر لمن اتقاه[2] وقرئ: يذكرون

---

(1) سورة الجمعة، الآية: 5.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المدثر = (الحديث رقم: 3328)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، (الحديث رقم: 4299).

بالياء والتاء مخففًا ومشدّدًا، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المدّثر أعطاه الله عشر حسناتٍ بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القيامة مكية

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾.

إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض[2] في كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري ... لا يدعي القوم أني أفر

وقال غوية بن سلمى:

ألا نادت أمامة باحتمال ... لتحزنني فلا بك ما أبالي

وفائدتها توكيد القسم، وقالوا: أنها صلة مثلها في لئلا يعلم أهل الكتاب. وفي قوله: في بئر لا حور سرى وما شعر. واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوّله، وأجابوا بأنّ القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض. والاعتراض صحيح لأنها لم تقع مزيدةً إلا في وسط الكلام ولكن الجواب غير سديد ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته والوجه أن يقال: هي للنفي والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظامًا له بذلك عليه قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[3] فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إنّ إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام، يعني: أنه يستأهل فوق ذلك. وقيل: أن لا نفي لكلام وردّ له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث. فقيل: لا، أي: ليس الأمر على ما ذكرتم. ثم قيل: أقسم بيوم القيامة.

فإن قُلْتَ: قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾[4] والأبيات التي أنشدتها المقسم عليه فيها منفي فهلا زعمت أنّ لا التي قبل القسم زيدت موطئة للنفي بعده ومؤكدة له، وقدّرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفيًا. كقولك: لا أقسم بيوم القيامة لا تزكون سدى! قُلْتُ: لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ولكنه لم يقصر. ألا ترى كيف لقي لا أقسم بهذا البلد بقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان﴾ وكذلك ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ بقوله: ﴿إنه لقرآن كريم﴾. وقرئ: لأقسم على أنّ اللام للابتداء وأقسم خبر مبتدأ محذوف. معناه: لأنا أقسم. قالوا: ويعضده أنه في الإمام بغير ألف.

وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾.

﴿**بالنفس اللوامة**﴾ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس فيه أي: في يوم القيامة على تقصيرهنّ في التقوى، أو بالتي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان. وعن الحسن: إن المؤمن لا تراه إلا لائمًا نفسه وإنّ الكافر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه. وقيل: هي التي تتلوّم يومئذٍ على ترك الازدياد إن كانت محسنةً، وعلى التفريط إن كانت مسيئةً، وقيل: هي نفس آدم لم تزل تتلوّم على فعلها الذي خرجت به من الجنة. وجواب القسم ما دل عليه قوله:

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾.

﴿**أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه**﴾ وهو لتبعثنّ. وقرأ قتادة: أن لن نجمع عظامه على البناء للمفعول، والمعنى: نجمعها بعد تفرّقها ورجوعها رممًا ورفاتًا مختلطًا بالتراب وبعدما سفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض، وقيل: إنّ عدي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق وهما اللذان كان رسول الله ﷺ يقول فيهما: «اللهم اكفني جار السوء». قال لرسول الله ﷺ: يا محمد حدّثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال: «لو عاينت ذلك اليوم لم أصدّقك يا محمد ولم أومن به أو بجمع الله العظام فنزلت»[5].

بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾.

﴿**بلى**﴾ أوجبت ما بعد النفي وهو الجمع. فكأنه قيل: ﴿بلى﴾ نجمعها و﴿قادرين﴾ حال من الضمير في نجمع أي: نجمع العظام قادرين على تأليف جميعها. وإعادتها إلى التركيب الأوّل إلى أن نسوّي بنانه أي: أصابعه التي هي أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، أو على أن نسوّي بنانه ونضم سلامياته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أوّلاً من غير نقصان ولا تفاوت فكيف بكبار العظام. وقيل: معناه بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوّي أصابع يديه ورجليه. أي: نجعلها مستويةً شيئًا واحدًا كخف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينها فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا مما يعمل بأصابعه المفرّقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/123.

(2) قال أحمد: إن لا التي قبل أقسم زيدت توطئة للنفي بعده، وقدّرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفياً تقديره ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ لا تتركون سدى، وأجاب: بأنه لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان له مساغ، ولكنه ليس بقاصر عليه، ألا ترى كيف لقي ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ بقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في = كبد﴾ وقوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ بقوله: ﴿إنه لقرآن كريم﴾.

(3) سورة الواقعة، الآيتان: 75 ـ 76.

(4) سورة النساء، الآية: 65.

(5) قال الزيلعي غريب 4/127، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 248.

والتأتي لما يريد من الحوائج. وقرئ: قادرون أي: نحن قادرون.

بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾.

﴿بل يريد﴾ عطف على أيحسب فيجوز أن يكون مثله استفهامًا وأن يكون إيجابًا على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب. ﴿ليفجر أمامه﴾ ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: يقدّم الذنب ويؤخر التوبة يقول: سوف أتوب سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شرّ أحواله وأسوأ أعماله.

يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾.

﴿يسئل﴾ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة في قوله: ﴿أيان يوم القيامة﴾ ونحوه. ويقولون: متى هذا الوعد؟ ﴿برق البصر﴾ تحير فزعًا وأصله برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره. وقرئ: برق من البريق أي: لمع من شدّة شخوصه. وقرأ أبو السمال: بلق إذا انفتح وانفرج. يقال: بلق الباب وأبلقته وبلقته فتحته.

وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾.

﴿وخسف القمر﴾ وذهب ضوءه أو ذهب بنفسه. وقرئ: وخسف على البناء للمفعول.

وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾.

﴿وجمع الشمس والقمر﴾ حيث يطلعهما الله من المغرب وقيل: وجمعا في ذهاب الضوء، وقيل: يجتمعان أسودين مكوّرين كأنهما ثوران عقيران في النار، وقيل: يجمعان ثم يقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى.

يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾.

﴿المفرّ﴾ بالفتح المصدر وبالكسر المكان، ويجوز أن يكون مصدرًا كالمرجع، وقرئ بهما.

كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾.

﴿كلا﴾ ردع عن طلب المفرّ ﴿لا وزر﴾ لا ملجأ وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتخلصت به فهو وزرك.

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾.

﴿إلى ربك﴾ خاصةً ﴿يومئذٍ﴾ مستقرّ العباد أي: استقرارهم، يعني: أنهم لا يقدرون أن يستقمروا إلى غيره وينصبوا إليه، أو إلى حكمة ترجع أمور العباد لا يحكم فيها غيره. كقوله: لمن الملك اليوم؟ أو إلى ربك مستقرّهم. أي: موضع قرارهم من جنة أو نار، أي: مفوض ذلك إلى مشيئته من شاء أدخله الجنة من شاء أدخله النار.

يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾.

﴿بما قدّم﴾ من عمل عمله ﴿و﴾ بما ﴿أخر﴾ منه لم يعمله أو بما قدّم من ماله فتصدق به وبما أخره فخلفه، أو بما قدم من عمل الخير والشرّ وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده. وعن مجاهد: بأوّل عمله وآخره، ونحوه فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه.

بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾.

﴿بصيرة﴾ حجةً بينةً وصفت بالبصارة على المجاز كما وصفت الآيات بالأبصار في قوله: فلما جاءتهم آياتنا مبصرة. أو لأعين بصيرة والمعنى أنه ينبأ بأعماله وإن لم ينبأ ففيه ما يجزئ عن الإنباء لأنه شاهد عليها بما عملت لأنّ جوارحه تنطق بذلك، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾.

﴿ولو ألقى معاذيره﴾ ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها. وعن الضحاك: ولو أرخى ستوره. وقال: المعاذير الستور واحدها معذار فإن صح فلأنه يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب.

فإن قُلْتَ: أليس قياس المعذرة أن تجمع معاذر لا معاذير؟ قُلْتُ: المعاذير ليس بجمع معذرة إنما هو اسم جمع لها ونحوه المناكير في المنكر. الضمير في ﴿به﴾ للقرآن، وكان رسول الله ﷺ إذا لقن الوحي نازع جبريل القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعةً إلى الحفظ وخوفًا من أن يتفلت منه فأمر بأن يستنصت له ملقيًا إليه بقلبه وسمعه حتى يقضي إليه وحيه ثم يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه. والمعنى: لا تحرّك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل صلوات الله عليه يقرأ

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾.

﴿لتعجل به﴾ لتأخذه على عجلة ولئلا يتفلت منك، ثم علل النهي عن العجلة بقوله:

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾.

﴿إن علينا جمعه﴾ في صدرك وإثبات قراءته في لسانه. ﴿فإذا قرأناه﴾ جعل قراءة جبريل قراءته. والقرآن القراءة.

فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾.

﴿فاتبع قرآنه﴾ فكن مقفيًا له فيه ولا تراسله وطامن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ فنحن في ضمان تحفيظه.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾.

﴿ثم إن علينا بيانه﴾ إذا أشكل عليك شيء من معانيه كأنه كان يعجل في الحفظ والسؤال عن المعنى جميعًا كما ترى بعض الحراص على العلم ونحوه، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾.

﴿كلا﴾ ردع لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة وإنكار لها عليه وحثّ على الأناة والتؤدة وقد بالغ في ذلك باتباعه

قوله: ﴿بل تحبون العاجلة﴾ كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العاجلة.

وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾.

﴿وتذرون الآخرة﴾ وقرىء: بالياء وهو أبلغ.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله: لا تحرّك به لسانك إلى آخره بذكر القيامة، قُلْتُ: اتصاله به من جهة هذا التخلص منه إلى التوبيخ بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾.

الوجه: عبارة عن الجملة، والناضرة: من نضرة النعيم.

إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾.

﴿إلى ربها ناظرة﴾[1] تنظر إلى ربها خاصةً لا تنظر إلى غيره. وهذا معنى تقديم المفعول ألا ترى إلى قوله: إلى ربك يومئذٍ المستقر، إلى ربك يومئذٍ المساق، إلى الله تصير الأمور، وإلى الله المصير، وإليه ترجعون، عليه توكلت وإليه أنيب، كيف دلّ فيها القديم على معنى الاختصاص. معلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإنّ المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظور إليه محال فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي تريد معنى التوقع والرجاء. ومنه قول القائل:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعمًا

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأون إلى مقائلهم تقول: عيينتي نويظرة إلى الله وإليكم، والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾.

والباسر الشديد العبوس، والباسل أشد منه ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه.

تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾.

﴿تظن﴾ تتوقع ﴿أن يفعل بها﴾ فعل هو في شدّته وفظاعته ﴿فاقرة﴾ داهية تقصم فقار الظهر كما توقعت الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير.

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾.

﴿كلا﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين. والضمير في ﴿بلغت﴾ للنفس وإن لم يجر لها ذكر لأنّ الكلام الذي وقعت فيه يدل عليها كما قال حاتم:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

وتقول العرب: أرسلت، يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء. ﴿التراقي﴾ العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال. ذكرهم صعوبة الموت الذي هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها.

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾.

وقال حاضرو صاحبها ـ وهو المحتضر ـ بعضهم لبعض. ﴿من راق﴾ أيكم يرقيه مما به؟ وقيل: هو من كلام ملائكة الموت أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب.

وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾.

﴿وظن﴾ المحتضر ﴿أنه الفراق﴾ أنّ هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة.

وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾.

﴿والتفت﴾ ساقه بساقه والتوت عليها عند علز الموت، وعن قتادة: ماتت رجلاه فلا تحملانه وقد كان عليهما جوالاً. وقيل: شدّة فراق الدنيا بشدّة إقبال الآخرة، على أن السياق مثل في الشدّة. وعن سعيد بن المسيب: هما ساقاه حين تلفان في أكفانه.

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾.

﴿المساق﴾ أي: يساق إلى الله وإلى حكمه.

---

(1) قال أحمد: ما أقصر لسانه عند هذه الآية، فكم له يندن ويطبل في جحد الرؤية، ويشقق القباء ويكثر ويتعمق، فلما فغرت هذه الآية فاه صنع في مصادمتها بالاستدلال على أنه لو كان المراد الرؤية لما انحصرت بتقديم المفعول؛ لأنها حينئذ غير منحصرة على تقدير رؤية الله تعالى، وما يعلم أنّ المتمتع برؤية جمال وجه الله تعالى لا يصرف عنه طرفه ولا يؤثر عليه غيره ولا يعدل = به عزل وعلا منظوراً سواه، وحقيق له أن يحصر رؤيته إلى من ليس كمثله شيء، ونحن نشاهد العاشق في الدنيا إذا أظفرته برؤية محبوبة لم يصرف عنه لحظه، ولم يؤثر عليه، فكيف بالمحب لله عز وجل إذا أحظاه النظر إلى وجهه الكريم، نسأل الله العظيم أن لا يصرف عنا وجهه، وأن يعيننا من مزالق البدعة ومزلات الشبهة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾.

﴿فلا صدق ولا صلى﴾ يعني: الإنسان في قوله: ﴿أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه﴾[1] الا ترى، إلى قوله: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾[2] ومعطوف على ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾، أي: لا يؤمن بالبعث فلا صدق بالرسول والقرآن ولا صلى. ويجوز أن يراد فلا صدق ماله بمعنى فلا زكاه. وقيل: نزلت في أبي جهل.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾.

﴿يتمطى﴾ يتبختر وأصله يتمطط أي: يتمدد لأنّ المتبختر يمد خطاه، وقيل: هو من المطا وهو الظهر لأنه يلويه، وفي الحديث: «إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم فقد جعل بأسهم بينهم».[3] يعني: كذب برسول الله ﷺ وتولى عنه وأعرض ثم ذهب إلى قومه يتبختر افتخارًا بذلك.

أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾.

﴿أولى لك﴾ بمعنى: ويل لك وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره.

ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾.

﴿فخلق﴾ فقدر ﴿فسوى﴾ فعدل.

فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾.

﴿منه﴾ من الإنسان ﴿الزوجين﴾ الصنفين.

أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾.

﴿أليس ذلك﴾ الذي أنشأ هذا الإنشاء ﴿بقادر﴾ على الإعادة، وروي أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك بلى»[4]، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمنًا بيوم القيامة»[5].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإنسان مكية

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾.

﴿هل﴾ بمعنى قد في الاستفهام خاصة، والأصل أهل بدليل قوله: أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم. فالمعنى: أقد أتى على التقدير والتقريب جميعًا. أي: أتى على الإنسان قبل زمان قريب ﴿حين من الدهر لم يكن﴾ فيه ﴿شيئًا منكورًا﴾ أي: كان شيئًا منسيًا غير منكور نطفةً في الأصلاب. والمراد بالإنسان جنس بني آدم بدليل قوله:

إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾.

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة﴾ حين من الدهر طائفة من الزمن الطويل الممتد.

فإن قُلْتَ: ما محل لم يكن شيئًا منكورًا؟ **قُلْتُ:** محله النصب على الحال من الإنسان. كأنه قيل: هل أتى عليه حين من الدهر غير منكور، أو الرفع على الوصف لحين كقوله: ﴿يومًا لا يجزي والد عن ولده﴾[6] وعن بعضهم أنها تليت عنده فقال: ليتها تمت، أراد ليت تلك الحالة تمت وهي كونه شيئًا غير منكور ولم يخلق ولم يكلف. ﴿نطفة أمشاج﴾ كبرمة أعشار وبرد أكباش، وهي ألفاظ مفردة غير جموع ولذلك وقعت صفات للأفراد. ويقال أيضاً: نطفة مشج قال الشماخ:

طوت أحشاء مرتجة لوقت   على مشج سلالته مهين

ولا يصحّ أمشاج أن يكون تكسيرًا له بل هما مثلان في الافراد لوصف المفرد بهما، ومشجه ومزجه بمعنى. والمعنى من نطفة قد امتزج فيها المآن. وعن ابن مسعود: هي عروق النطفة. وعن قتادة: أمشاج ألوان وأطوار. يريد أنها تكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ﴿نبتليه﴾ في موضع الحال أي: خلقناه مبتلين له بمعنى مريدين ابتلاءه، كقولك: مررت برجل معه صقر صائدًا به غدًا، تريد قاصدًا به الصيد غدًا. ويجوز أن يراد ناقلين له من حال إلى حال فسمى ذلك ابتلاء على طريق الاستعارة. وعن ابن عباس: نصرفه في بطن أمّه نطفة ثم علقة، وقيل: هو في تقدير التأخير. يعني: فجعلناه سميعًا بصيرًا لنبتليه.

إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾.

---

(1) سورة القيامة، الآية: 3.

(2) سورة القيامة، الآية: 36.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: (174) (الحديث رقم: 2261).

(4) لم أجده عند أبي داود، وأخرجه الحاكم في المستدرك 2/510.

(5) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/130.

(6) سورة لقمان، الآية: 33.

وهو من التعسف شاكرًا وكفورًا حالان من الهاء في هديناه[1] أي: مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعًا أو دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع. كان معلومًا منه[2] أنه يؤمن أو يكفر لإلزام الحجة ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي: عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكرًا وإما سبيلاً كفورًا. كقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾[3] ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز. وقرأ أبو السمال بفتح الهمزة في أما وهي قراءة حسنة والمعنى: أما شاكرًا فبتوفيقنا وأما كفورًا فبسوء اختياره، ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد.

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾.

وقرئ: سلاسل غير منون وسلاسلاً بالتنوين وفيه وجهان: أحدهما أن تكون هذه النون بدلاً من حرف الإطلاق[4] ويجري الوصل مجرى الوقف، والثاني أن يكون صاحب القراءة به ممن ضرى برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾.

﴿الأبرار﴾ جمع بر أو بار كرب وأرباب وشاهد وأشهاد. وعن الحسن: هم الذين لا يؤذون الذرّ، والكأس الزجاجة إذا كانت فيها خمر وتسمى الخمر نفسها كأسًا ﴿مزاجها﴾ ما تمزج به. ﴿كافورًا﴾ ماء كافور وهو اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده[5].

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾.

و﴿عيناً﴾ بدل منه. وعن قتادة: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك. وقيل: تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده فكأنها مزجت بالكافور. وعينًا على هذين القولين بدل من محل من كأس على تقدير حذف مضاف كأنه قيل: يشربون فيها خمرًا خمر عين أو نصب على الاختصاص.

فإن قُلْتَ: لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أوّلاً وبحرف الإلصاق آخرًا؟ قُلْتُ: لأنّ الكأس مبدأ شربهم وأوّل غايته، وأما العين فبها يمزجون شرابهم. فكان المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر، كما تقول شربت الماء بالعسل. ﴿يفجرونها﴾ يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم ﴿تفجيرًا﴾ سهلاً لا يمتنع عليهم.

يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾.

﴿يوفون﴾ جواب من عسى يقول: ما لهم يرزقون ذلك والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأنّ من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى ﴿مستطيرًا﴾ فاشيًا منتشرًا بالغًا أقصى المبالغ، من استطار الحريق واستطار الفجر وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر.

وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾.

﴿على حبه﴾ الضمير للطعام أي: مع اشتهائه والحاجة إليه. ونحوه وآتي المال على حبه لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. وعن الفضيل بن عياض: على حب الله ﴿ولسيرًا﴾ عن الحسن: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: أحسن إليه. فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه[6]. وعند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تصرف إليهم الواجبات. وعن قتادة: كان أسيرهم يومئذٍ المشرك وأخوك المسلم أحق أن تطعمه. وعن سعيد بن جبير: وعطاء هو الأسير من أهل القبلة. وعن أبي سعيد الخدري: هو المملوك والمسجون، وسمى رسول الله ﷺ الغريم أسيرًا فقال: غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك[7].

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾.

﴿إنما نطعمكم﴾ على إرادة القول، ويجوز أن يكون قولاً باللسان منعًا لهم عن المجازاة بمثله أو بالشكر لأن إحسانهم مفعول لوجه الله فلا معنى لمكافأة الخلق وأن يكون قولهم لهم: لطفًا وتفقيهًا وتنبيهًا على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله، وعن عائشة رضي الله عنها أنها

---

(1) قال أحمد: هذا من تحريفه المنكر، وهو عند أهل السنة على ظاهره.

(2) قال أحمد: واستحسانه لقراءة أبي السمال لتخيله أن في التقسيم إشعاراً بغرضه الفاسد، وليس كذلك فإن التقسيم يحتمل الجزاء إما شاكراً فمثاب، وإما كفوراً فمعاقب، ويرشد إليه ذكر جزاء الفريقين بعد قوله تعالى: ﴿سلاسل وأغلالاً﴾.

(3) سورة البلد، الآية: 10.

(4) قال أحمد: وهذا من الطراز الأوّل؛ لأن معتقده أن القراءة المستفيضة غير موقوفة على النقل المتواتر عن النبي ﷺ في تفاصيلها، وأنها موكولة إلى اجتهاد القراء واختيارهم بمقتضى نظرهم، كما مرّ له وطم على ذلك ههنا، فجعل تنوين سلاسل من قبيل الغلط الذي يسبق إليه اللسان في غير موضعه لتمرنه عليه في موضعه، والحق أن جميع الوجوه المستفيضة منقولة تواتراً عنه ﷺ، وتنوين هذا على لغة من يصرف في نثر الكلام جميع ما = لا ينصرف إلا أفعل، والقراآت مشتملة على اللغات المخلفة، وأما قوارير قوارير فقرئ بترك تنوينهما، وهو الأصل وتنوين الأوّل خاصة بدلاً من ألف الإطلاق؛ لأنها فاصلة وتنوين الثانية كالأولى اتباعاً لها، ولم يقرأ أحد بتنوين الثانية وترك تنوين الأولى، فإنه عكس أن يترك تنوين الفاصلة مع الحاجة إلى المجانسة وتنوين غيرها من غير حاجة.

(5) قال أحمد: هذا الجواب على القولين الأوّلين الآخرين وهو أن العين بدل من الكأس، ومعنى مزاجها بالكافور: إما اشتمالها على أوصافه، وإما أن يكون الكافور المعهود كما تقدّم، فلا يتم الجواب المذكور، فيجاب عن السؤال بأنه لما ذكر الشراب أولاً باعتبار الوقوع في الوجود ذكره ثانياً مضمناً للالتذاذ به، وكأنه قال: فيشربون منها فيلتذون بها، وعليه حمله أبو عبيد.

(6) لم يخرجه الزيلعي.

(7) لم يخرجه الزيلعي.

كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا فإذا ذكر دعاءً دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصًا عند الله، ويجوز أن يكون ذلك بيانًا وكشفًا عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئًا. وعن مجاهد: أما أنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله منهم فأثنى عليهم. والشكور والكفور مصدران كالشكر والكفر.

إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾.

﴿إنا نخاف﴾ يحتمل إنّ إحساننا إليكم للخوف من شدّة ذلك اليوم لا لإرادة مكافأتكم وإنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة، ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم: نهارك صائم. روي أنّ الكافر يعبس يومئذٍ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران وأن يشبه في شدّته وضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل. والقمطرير الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه. قال الزجاج: يقال اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها وزمت بأنفها، فاشتقه من القطر وجعل الميم مزيدةً. قال أسد بن ناعصة:

واصطليت الحروب في كل يوم   باسل الشر قمطرير[1] الصباح

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾.

﴿ولقاهم نضرة وسرورًا﴾ أي: أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه وسرورًا في القلوب. وهذا يدل على أنّ اليوم موصوف بعبوس أهله.

وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾.

﴿بما صبروا﴾ صبرهم على الإيثار. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنّ الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله ﷺ في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك، فنذر علي وفاطمة وفضة ـ جارية لهما ـ إن برآ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام. فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعًا واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صيامًا، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله ﷺ فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم! وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد هنّأك الله في أهل بيتك فاقرأه السورة[2].

فإن **قُلْتَ:** ما معنى ذكر الحرير مع الجنة؟ **قُلْتُ:** المعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدي إليه من الجوع والعري بستانًا فيه مأكل هنيّ وحريرًا فيه ملبس بهي. يعني: أن هواءها معتدل لا حرّ شمس يحمي ولا شدّة برد تؤذي وفي الحديث: هواء الجنة سجسج لا حرّ ولا قرّ، وقيل: الزمهرير القمر. وعن ثعلب أنه في لغة طيئ وأنشد:

وليلة ظلامها قد اعتكر   قطعتها والزمهرير ما زهر

والمعنى: أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾.

فإن **قُلْتَ:** ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ علام عطفت؟ **قُلْتُ:** على الجملة التي قبلها لأنها في موضع الحال من المجزيين، وهذه حال مثلها عنهم لرجوع الضمير منها إليهم في عليهم، إلا أنها اسم مفرد وتلك جملة في حكم مفرد تقديره غير رائين فيها شمسًا ولا زمهريرًا. ودانية عليهم ظلالها ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم كأنه قيل: وجزاهم جنةً جامعين فيها بين البعد عن الحرّ والقرّ ودنوّ الظلال عليهم. وقرئ: ودانية بالرفع على أن ظلالها مبتدأ ودانية خبر والجملة في موضع الحال. والمعنى: لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا. والحال أن ظلالها دانية عليهم ويجوز أن تجعل متكئين ولا يرون ودانية كلها صفات لجنة، ويجوز أن يكون ودانية معطوفة على جنة أي: وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها على أنهم وعدوا جنتين، كقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾[3] لأنهم وصفوا بالخوف إنا نخاف من ربنا.

فإن **قُلْتَ:** فعلام عطف ﴿وذللت﴾؟ **قُلْتُ:** هي إذا رفعت ودانية جملة فعلية معطوفة على جملة ابتدائية، وإذا نصبتها على الحال فهي حال من دانية أي: تدنو ظلالها عليهم، في حال تذليل قطوفها لهم، أو معطوفة عليها على ودانية عليهم ظلالها ومذللة قطوفها، وإذا نصبت ودانية على الوصف فهي صفة مثلها ألا ترى أنك لو قلت: جنة ذللت قطوفها كان صحيحًا وتذليل القطوف أن تجعل ذللاً لا تمتنع على قطوفها كف شاؤوا أن تجعل ذليلة لهم خاضعة متقاصرة من قولهم: حائط ذليل إذا كان قصيرًا.

وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ

---

(1) قمطرير: شر قمطرير، أي شديد.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورواه الحكيم الترمذي في كتاب: نوادر الأصول، زيلعي: 4/134.

(3) سورة الرحمن، الآية: 55.

قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾.

﴿قوارير قوارير﴾ قرئا غير منونين وبتنوين الأوّل وبتنوينهما وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق لأنه فاصلة، وفي الثاني لاتباعه الأوّل، ومعنى قوارير من ﴿فضة﴾ أنها مخلوقة من فضة وهي مع بياض الفضة وحسنها في صفاء القوارير وشفيفها

فإن قُلْتَ: ما معنى كانت؟ قُلْتُ: هو من يكون في قوله: كن فيكون. أي: تكوّنت قوارير بتكوين الله تفخيمًا لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين ومنه كان في قوله: كان مزاجها كافورًا. وقرئ: قوارير من فضة بالرفع على هي قوارير. ﴿قدروها﴾ صفة لقوارير من فضة ومعنى تقديرهم لها أنهم قدروها في أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدروا. وقيل: الضمير للطائفين بها دل عليهم قوله: ﴿ويطاف عليهم﴾ على أنهم قدروا شرابها على قدر الري وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ولا يعجز، وعن مجاهد: لا تفيض ولا تغيض، وقرئ: قدّروها على البناء للمفعول ووجهه أن يكون من قدر منقولاً من قدر، تقول قدرت الشيء وقدرنيه فلان إذا جعلك قادرًا له ومعناه: جعلوا قادرين لها كما شاؤوا وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا.

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾.

سميت العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها والعرب تستلذه وتستطيبه قال الأعشى:

كأنّ القرنفل والزنجبيل ... باتا بفيها واريا مشورا

وقال المسيب بن علس:

وكأن طعم الزنجبيل به ... إذ ذقته وسلافة الخمر

عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾.

و﴿سلسبيلاً﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق سهولة مساغها. يعني: أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ودلت على غاية السلاسة. قال الزجاج: السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة. وقرئ: سلسبيل على منع الصرف لاجتماع العلمية والتأنيث، وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن معناه سل سبيلاً إليها وهذا غير مستقيم على ظاهره إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سل سبيلاً جعلت علمًا للعين كما قيل: تأبط شرًا وذرى حبًا، وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع وعزوه إلى مثل علي رضي الله عنه أبدع، وفي شعر بعض المحدثين:

سل سبيلاً فيها إلى راحة النفـ ... ـس براح كأنها سلسبيل

وعينًا بدل من زنجبيلاً، وقيل: تمزج كأسهم بالزنجبيل بعينه أو يخلق الله طعمه فيها، وعينًا على هذا القول مبدلة من كأسًا كأنه قيل: ويسقون فيها كأسًا كأس عين، أو منصوبة على الاختصاص.

۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾.

شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم باللؤلؤ المنثور. وعن المأمون: أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ فنظر إليه منثورًا على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال: لله در أبي نوّاس كأنه أبصر هذا حيث يقول:

كأن صغري وكبري من فواقعها ... حصباء در على أرض من الذهب

وقيل: شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء.

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾.

﴿رأيت﴾ ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع ويعم كأنه قيل: وإذا أوجدت الرؤية ثم ومعناه أنّ بصر الرائي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير و﴿ثم﴾ في موضع النصب على الظرف يعني: في الجنة. ومن قال: معناه ما ثم فقد أخطأ لأن ثم صلة لما ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة. ﴿كبيرًا﴾ واسعًا وهنيئًا. يروى أن أدنى أهل الجنة منزلةً ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه. وقيل: لا زوال له وقيل: إذا أرادوا شيئًا كان، وقيل: يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم. قرئ: عاليهم بالسكون على أنه مبتدأ خبره.

عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾.

﴿ثياب سندس﴾ أي: ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس، وعاليهم بالنصب على أنه حال من الضمير في يطوف عليهم أو في حسبتهم. أي: يطوف عليهم ولدان عاليًا للمطوف عليهم ثياب أو حسبتهم لؤلؤًا عاليًا لهم ثياب، ويجوز أن يراد رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب وعاليتهم بالرفع والنصب على ذلك وعليهم، وخضر وإستبرق بالرفع حملاً على الثياب بالجر على السندس[1]. وقرئ: وإستبرق نصبًا في موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمي وهو غلط لأنه نكرة يدخله حرف التعريف

(1) قال أحمد: في هذا الوجه الآخر نظر، فإنه يجعله داخلاً في مضمون الحسبان، وكيف يكون ذلك وهم لابسون السندس حقيقة لا على وجه التشبيه باللؤلؤ بخلاف كونهم لؤلؤًا، فإنه على طريق= = التشبيه المقتضى لقرب شبههم باللؤلؤ إلى أن يحسبوا لؤلؤًا، ويحتمل أن يصحح هذا الوجه لكن بعد تكلف مستغنى عنه بالأول.

تقول: الإستبرق. إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد يجعل علمًا لهذا الضرب من الثياب. وقرئ: واستبرق بوصل الهمزة والفتح على أنه مسمى باستفعل من البريق وليس بصحيح أيضًا لأنه معرب مشهور تعريبه وأنّ أصله استبره. ﴿وحلوا﴾ عطف على ويطوف عليهم.

فإن قُلْتَ: ذكر ههنا أنّ أساورهم من فضة وفي موضع آخر أنها من ذهب! قُلْتُ: هب أنه قيل: وحلّوا أساور من ذهب ومن فضة، وهذا صحيح لا إشكال فيه على أنهم يسوّرون بالجنسين إما على المعاقبة وإما الى الجمع كما تزاوج نساء الدنيا بين أنواع الحلى وتجمع بينهما. وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران سوار من ذهب وسوار من فضة. ﴿شرابًا طهورًا﴾ ليس برجس كخمر الدنيا لأنّ كونها رجسًا بالشرع لا بالعقل وليست الدار دار تكليف أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة وتدوسه الأقدام الدنسة ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها أو لأنه لا يؤل إلى النجاسة لأنه يرشح عرقًا أبدانهم له ريح كريح المسك. أي: يقال لأهل الجنة:

إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾.

﴿إنّ هذا﴾ وهذا إشارة إلى ما تقدّم من عطاء الله لهم ما جوزيتم به على أعمالكم وشكر به سعيكم، والشكر مجاز تكرير الضمير بعد إيقاعه اسمًا لأنّ تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل، ليتقرّر في نفس رسول الله ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله على أي وجه نزل إلا حكمةً وصوابًا، كأنه قيل: ما نزل عليك القرآن تنزيلاً مفرقًا منجمًا إلا أنا لا غيري، وقد عرفتني حكيمًا فاعلاً لكل ما أفعله بدواعي الحكمة ولقد دعتني حكمة بالغة إلى أن أنزل عليك الأمر بالمكافة والمصابرة وسأنزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين.

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾.

﴿فاصبر لحكم ربك﴾ الصادر عن الحكمة وتعليقه الأمور بالمصالح وتأخيره نصرتك على أعدائك من أهل مكة، ولا تطع منهم أحدًا قلة صبر منك على أذاهم وضجرًا من تأخر الظفر. وكانوا مع إفراطهم في العداوة والإيذاء له ولمن معه يدعونه إلى أن يرجع عن أمره ويبذلون له أموالهم وتزويج أكرم بناتهم. إن أجابهم.

فإن قُلْتَ: كانوا كلهم كفرةً فما معنى القسمة في قوله: ﴿آثمًا أو كفورًا﴾؟ قُلْتُ: معناه ولا تطع منهم راكبًا لما ما هو إثم داعيًا لك إليه أو فاعلاً لما هو كفر داعيًا لك إليه؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر أو غير إثم ولا كفر فنهى أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث. وقيل: الآثم عتبة، والكفور الوليد، لأنّ عتبة كان ركابًا للمآثم متعاطيًا لأنواع الفسوق، وكان الوليد غالبًا في الكفر شديد الشكيمة في العتوّ.

فإن قُلْتَ: معنى أو ولا تطع أحدهما فهلا جيء بالواو ليكون نهيًا عن طاعتهما جميعًا! قُلْتُ: لو قيل: ولا تطعهما جاز أن يطيع أحدهما. وإذا قيل: لا تطع أحدهما علم أنّ الناهي عن طاعته أحدهما عن طاعتهما جميعًا أنهى كما إذا نهى أن يقول لأبويه: أفٍ، علم أنه منهي عن ضربهما على طريق الأولى.

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾.

﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾ ودم على صلاة الفجر والعصر.

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾.

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ وبعض الليل فصل له أو يعني صلاة المغرب والعشاء، وأدخل من على الظرف للتبعيض كما دخل على المفعول في قوله: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾[1] ﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ وتهجد له هزيعًا طويلاً من الليل ثلثيه أو نصفه أو ثلثه.

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾.

﴿إنّ هؤلاء﴾ الكفرة ﴿يحبون العاجلة﴾ يؤثرونها على الآخرة. كقوله: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾[2] ﴿وراءهم﴾ قدّامهم أو خلف ظهورهم لا يعبؤن به. ﴿يومًا ثقيلاً﴾ استعير الثقل لشدّته وهوله من الشيء الثقيل الباهظ لحامله، ونحوه: ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾[3] الأسر الربط والتوثيق ومنه أسر الرجل إذا أوثق بالقد وهو الإسار، وفرس مأسور الخلق وترس مأسور بالعقب. والمعنى: شددنا توصيل عظامهم بعضًا ببعض وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب. ومثله قولهم: جارية معصوبة الخلق ومجدولته.

نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾.

﴿وإذا شئنا﴾ أهلكناهم و﴿بدلنا أمثالهم﴾ في شدّة الأسر. يعني: النشأة الأخرى وقيل: معناه بدلنا غيرهم ممن يطيع، وحقه أن يجيء بإن لا بإذا كقوله: وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم، إن يشأ يذهبكم.

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾.

﴿هذه﴾ إشارة إلى السورة أو إلى الآيات القريبة ﴿فمن شاء﴾ فمن اختار الخير لنفسه وحسن العاقبة واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرّب إليه والتوسل بالطاعة.

وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾.

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 10.

(2) سورة الأعلى، الآية: 16.

(3) سورة الأعراف، الآية: 187.

﴿وما تشاءون﴾ الطاعة ﴿إلا أن يشاء الله﴾ بقسرهم عليها ﴿إنّ الله كان عليمًا﴾ بأحوالهم وما يكون منهم. ﴿حكيمًا﴾ حيث خلقهم مع علمه بهم وقرئ: تشاؤون بالتاء.

فإن قُلْتَ: ما محل أن يشاء الله[1]؟ قُلْتُ: النصب على الظرف وأصله إلا وقت مشيئة الله، وكذلك قراءة ابن مسعود: إلا ما يشاء الله، لأنّ ما مع الفعل كان معه.

يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾.

﴿يدخل من يشاء﴾ هم المؤمنون، ونصب ﴿والظالمين﴾ بفعل يفسره أعد لهم نحو: أو عدّ كافأ، وما أشبه ذلك، وقرأ ابن مسعود: وللظالمين علي، وأعدّ للظالمين وقرأ ابن الزبير: والظالمون، على الابتداء وغيرها أولى لذهاب الطباق بين الجملة المعطوفة والمعطوف عليها فيها مع مخالفتها للمصحف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنةً وحريرًا»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المرسلات مكية

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾.

أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهنّ بأوامره.

فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾.

فعصفن في مضيهنّ كما تعصف الرياح تخففًا في امتثال أمره، وبطوائف منهم.

وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾.

نشرن أجنحتهنّ في الجو عند انحطاطهنّ بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أو حين.

فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾.

ففرّقن بين الحق والباطل.

فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾.

فالقين ذكرًا إلى الأنبياء.

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾.

﴿عذرًا﴾ للمحققين ﴿أو نذرًا﴾ للمبطلين، أو أقسم برياح عذاب أرسلهنّ فعصفن برياح رحمة نشرن السحاب في الجوف ففرّقن بينه كقوله: ﴿ويجعله كسفًا﴾[3] أو بسحائب نشرن الموات ففرّقن بين من يشكر لله تعالى وبين من يكفر كقوله: ﴿لأسقيناهم ماءً غدقًا لنفتنهم فيه﴾[4] فالقين ذكرًا إمّا عذرًا للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، وإما إنذارًا للذين يغفلون الشكر لله وينسبون ذلك إلى الأنواء. وجعلن ملقيات للذكر لكونهن سببًا في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت.

فإن قُلْتَ: ما معنى عرفًا؟ قُلْتُ: متتابعة كشعر العرف، يقال: جاؤوا عرفًا واحدًا، وهم عليه كعرف الضبع إذا تألبوا عليه ويكون بمعنى العرف الذي هو نقيض النكر وانتصابه على أنه مفعول له أي: أرسلن للإحسان والمعروف، والأول على الحال. وقرئ: عرفًا على التثقيل نحو نكر في نكر.

فإن قُلْتَ: قد فسرت المرسلات بملائكة العذاب فكيف يكون إرسالهم معروفًا؟ قُلْتُ: إن لم يكن معروفًا للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم.

فإن قُلْتَ: ما العذر والنذر وبما انتصب؟ قُلْتُ: هما مصدر أن من عذر إذا محا الإساءة، ومن أنذر إذا خوّف على فعل كالكفر والشكر، ويجوز أن يكون جمع عذير بمعنى المعذرة، وجمع نذير بمعنى الإنذار أو بمعنى العاذر والمنذر وأما انتصابهما فعلى البدل من ذكرًا على الوجهين الأوّلين، أو على المفعول له، وأما على الوجه الثالث فعلى الحال بمعنى عاذرين أو منذرين. وقرئا مخففين ومثقلين.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾.

أنّ الذي توعدون من مجيء يوم القيامة لكائن نازل لا ريب فيه وهو جواب القسم. وعن بعضهم أنّ المعنى:

---

(1) قال أحمد: وهذا من تحريفاته للنصوص وتسوّره على خزائن الكتاب العزيز، كدأب الشطار واللصوص فلنقطع يد حجته التي أعدّها، وذلك حكم هذه السرقة وحدّها فنقول: الله تعالى نفى وأثبت على سبيل الحصر الذي لا حصر ولا نصر أوضح منه، ألا ترى أن كلمة التوحيد اقتصر بها على النفي والإثبات؛ لأنّ هذا النظم أعلق شيء بالحصر والله عليه، فنفى الله تعالى أن يفعل العبد شيئاً له في اختيار ومشيئة، إلا أن يكون الله تعالى قد شاء ذلك الفعل، فمقتضاه ما لم يشأ الله وقوعه من العبد لا يقع من العبد، وما شاء منه وقوعه وقع وهو رديف: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وانظر إدخاله القسر في تعطيل الآية لا تأويلها كيف ناقض به، فإنّ معنى الآية عنده: أنّ مشيئة العبد الفعل = لا تكون إلا إذا قسره الله عليها، والقسر مناف للمشيئة، فصار الحاصل أنّ مشيئة العبد لا توجد إلا إذا انتفت، فإذاً لا مشيئة للعبد البتة، والاختيار وما هو إلا فرّ من إثبات قدرة العبد غير مؤثرة، ومشيئة غير خالقة ليتمّ له إثبات قدرة ومشيئة مؤثرين، فوقع في سلب القدرة والمشيئة أصلاً وراساً، وحيث لزم الحيد عن الاعتزال، انحرف بالكلية إلى الطرف الأقصى متحيزاً إلى الجبر، فيا بعدما توجه بسوء نظره، والله الموفق.

(2) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفسيره 4/136.

(3) سورة الروم، الآية: 48.

(4) سورة الجن، الآية: 16.

ورب المرسلات.

فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾.

﴿طمست﴾ محيت ومحقت، وقيل: ذهب بنورها ومحق نوانها موافق لقوله: انتثرت وانكدرت ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور.

وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾.

﴿فرجت﴾ فتحت فكانت أبوابًا. قال الفارجي: باب الأمير المبهم.

وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾.

﴿نسفت﴾ كالحب إذا نسف بالمنسف ونحوه، وبست الجبال بسًا وكانت الجبال كثيبًا مهيلاً، وقيل: أخذت بسرعة من أماكنها من انتسفت الشيء إذا اختطفته. وقرئت: طمست وفرجت ونسفت مشدّدة.

وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾.

قرئ: أقتت ووقت بالتشديد والتخفيف فيهما والأصل الواو ومعنى توقيت الرسل تبين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم. والتأجيل من الأجل كالتوقيت من الوقت.

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾.

﴿لأي يوم أجلت﴾ تعظيم لليوم وتعجيب من هوله.

لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾.

﴿ليوم الفصل﴾ بيان ليوم التأجيل وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق، والوجه أن يكون معنى وقتت بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة وأجلت أخرت.

فإن قُلْتَ: كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾؟ قُلْتُ: هو في أصله مصدر منصوب سادّ مسدّ فعله ولكنه أعدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه. ونحوه: سلام عليكم، ويجوز ويلاً بالنصب ولكنه لم يقرأ به يقال: ويلاً له ويلاً كيلاً.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾.

قرأ قتادة نهلك بفتح النون من هلكه بمعنى أهلكه. قال العجاج: ومهمه هالك من تعرجا.

ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾.

﴿ثم نتبعهم﴾ بالرفع على الاستئناف وهو وعيد لأهل مكة، يريد ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين ونسلك بهم سبيلهم لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم. ويقويها قراءة ابن مسعود: ثم سنتبعهم. وقرئ: بالجزم للعطف على نهلك، ومعناه أنه أهلك الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ثم أتبعهم الآخرين من قوم شعيب ولوط وموسى.

كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾.

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿نفعل﴾ بكل من أجرم إنذارًا وتحذيرًا من عاقبة الجرم وسوء أثره.

إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾.

﴿إلى قدر معلوم﴾ إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وحكم به وهو تسعة الأشهر أو ما دونها أو ما فوقها.

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾.

﴿فقدرنا﴾ فقدّرنا ذلك تقديرًا ﴿فنعم القادرون﴾ فنعم المقدّرون له نحن، أو فقدّرنا على ذلك فنعم القادرون عليه نحن. والأوّل أولى لقراءة من قرأ فقدرنا بالتشديد. ولقوله: ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾[1] الكفات من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه وهو اسم ما يكفت. كقولهم: الضمام والجماع لما يضم ويجمع، يقال هذا الباب جماع الأبواب وبه انتصب.

أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾.

﴿أحياءً وأمواتًا﴾ كأنه قيل: كافتة أحياءً وأمواتًا، أو بفعل مضمر يدل عليه وهو تكفت، والمعنى: تكفت أحياءً على ظهرها وأمواتًا في بطنها، وقد استدل بعض أصحاب الشافعي رحمه الله على قطع النباش بأنّ الله تعالى جعل الأرض كفاتًا للأموات فكان بطنها حرزًا لهم فالنباش سارق من الحرز.

فإن قُلْتَ: لم قيل أحياءً وأمواتًا على التنكير وهي كفات الأحياء والأموات جميعًا؟ قُلْتُ: هو من تنكير التفخيم. كأنه قيل: تكفت أحياءً لا يعدون وأمواتًا لا يحصرون على أن أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات، ويجوز أن يكون المعنى: تكفتكم أحياءً وأمواتاً فينتصبا على الحال من الضمير لأنه قد علم أنها كفات الإنس.

وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾.

فإن قُلْتَ: فالتنكير في ﴿رواسي شامخات﴾ و﴿ماء فراتًا﴾! قُلْتُ: ليحتمل إفادة التبعيض لأنّ في السماء جبالاً. قال الله تعالى: ﴿وننزل من السماء من جبال فيها من برد﴾[2] وفيها ماء فرات أيضًا، بل هي معدنه ومصبه. وأن يكون للتفخيم أي: يقال لهم:

(1) سورة عبس، الآية: 19.

(2) سورة النور، الآية: 43.

﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩﴾.

انطلقوا إلى ما كنتم به من العذاب وانطلقوا الثاني تكرير، وقرئ: انطلقوا على لفظ الماضي أخبارًا بعد الأمر عن عملهم بموجبه لأنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعًا منه.

﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝٣٠﴾.

﴿إلى ظل﴾ يعني دخان جهنم. كقوله: ﴿وظل من يحموم﴾[1] ﴿ذي ثلاث شعب﴾ بتشعب لعظمه ثلاث شعب وهكذا الدخان العظيم تراه يتفرق نوائب. وقيل: يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسراد ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظل العرش.

﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۝٣١﴾.

﴿لا ظليل﴾ تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين. ﴿ولا يغني﴾ في محل الجر أي وغير مغنٍ عنهم من حر اللهب شيئًا.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢﴾.

﴿بشرر﴾ وقرئ بشرار ﴿كالقصر﴾ أي: كل شررة كالقصر من القصور في عظمها. وقيل: هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة نحو جمرة وجمر، وقرئ: كالقصر بفتحتين وهي أعناق الإبل أو أعناق النخل نحو شجرة وشجر. وقرأ ابن مسعود: كالقصر بمعنى القصور كرهن ورهن، وقرأ سعيد بن جبير: كالقصر في جمع قصرة كحاجة وحوج.

﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤﴾.

﴿جمالات﴾ جمع جمال أو جمالة جمع جمل شبهت بالقصور ثم بالجمال لبيان التشبيه، ألا نراهم يشبهون الإبل بالأفدان والمجادل. وقرئ: جمالات بالضم وهي قلوس الجسور. وقيل: قلوس سفن البحر الواحدة جمالة. وقرئ: جمالة بالكسر بمعنى جمال، وجمالة بالضم وهي القلس وقيل: ﴿صفر﴾ لإرادة الجنس. وقيل: صفر سود تضرب إلى الصفرة، وفي شعر عمران بن حطان الخارجي:

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

وقال أبو العلاء:

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف

فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحمرة، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سوّل له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله: حمراء، توطئةً لها ومناداةً عليها وتنبيهًا للسامعين على مكانها ولقد عمى جمع الله له عمى الدارين عن قوله عز وعلا: ﴿كأنه جمالات صفر﴾ فإنه بمنزلة قوله: كبيت أحمر، وعلى أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيهًا من جهتين: من جهة العظم، ومن جهة الطول في الهواء، وفي التشبيه بالجمالات وهي القلوس تشبيه من ثلاث جهات: من جهة العظم والطول والصفرة. فأبعد الله أغرابه في طرافه وما نفخ شدقيه من استطرافه.

﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥﴾.

قرئ بنصب اليوم، ونصبه الأعمش. أي: هذا الذي قص عليكم واقع يومئذٍ ويوم القيامة طويل ذو مواطن ومواقيت ينطقون في وقت ولا ينطقون في وقت. ولذلك ورد الأمران في القرآن، أو جعل نطقهم كلا نطق لأنه لا ينفع ولا يسمع.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾.

﴿فيعتذرون﴾ عطف على يؤذن منخرط في سلك النفي، والمعنى: ولا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له من غير أن يجعل الاعتذار مسببًا عن الإذن، ولو نصب لكان مسببًا عنه لا محالة.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾.

﴿جمعناكم والأولين﴾ كلام موضح لقوله: هذا يوم الفصل لأنه إذا كان يوم الفصل بين السعداء والأشقياء وبين الأنبياء وأممهم فلا بدّ من جمع الأولين والأخرين حتى يقع ذلك الفصل بينهم.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢﴾.

﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ تقريع لهم على كيدهم لدين الله وذويه وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾.

﴿كلوا واشربوا﴾ في موضع الحال من ضمير المتقين في الظرف الذي هو في ظلال. أي: هم مستقرون في ظلال مقولاً لهم ذلك.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧﴾.

﴿كلوا وتمتعوا﴾ حال من المكذبين أي: الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم: كلوا وتمتعوا.

فإن قُلْتَ: كيف يصح أن يقال لهم ذلك في الآخرة؟ قُلْتُ: يقال لهم ذلك في الآخرة إيذانًا بأنهم كانوا في الدنيا أحقاء بأن يقال لهم وكانوا من أهله، تذكيرًا بحالهم السمجة وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم والملك

(1) سورة الواقعة، الآية: 43.

الخالد. وفي طريقته قوله:

إخـوتـي لا تـبـعـدوا أبـدًا   وبـلـى والله قـد بـعـدوا

يريد كنتم أحقاء في حياتكم بأن يدعى لكم بذلك، وعلل ذلك بكونهم مجرمين دلالة على أن كل مجرم ما له إلا الأكل والتمتع أيامًا قلائل ثم البقاء في الهلاك أبدًا، ويجوز أن يكون: كلوا وتمتعوا كلامًا مستأنفًا خطابًا للمكذبين في الدنيا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿اركعوا﴾ اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه واطرحوا هذا الاستكبار والنخوة، لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على استكبارهم، وقيل: ما كان على العرب أشد من الركوع والسجود. وقيل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة فقالوا: لا نجبي فإنها مسبة علينا، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود»[1].

فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿بعده﴾ بعد القرآن، يعني: أنّ القرآن من بين الكتب المنزلة آية مبصرة ومعجزة باهرة فحين لم يؤمنوا به فبأي كتاب بعده ﴿يؤمنون﴾. وقرئ تؤمنون بالتاء. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه ليس من المشركين»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة عم يتساءلون مكية

وتسمى سورة النبأ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾.

﴿عمّ﴾ أصله عما على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية، وهو في قراءة عكرمة وعيسى بن عمر. قال حسان رضي الله عنه:

على ما قام يشتمني لئيم   كخنزير تمرغ في رماد

والاستعمال الكثير على الحذف والأصل قليل، ومعنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن كأنه قال: عن أي شأن يتساءلون. ونحوه ما في قولك: زيد ما زيد[3]. جعلته لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفي عليك جنسه فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره كما تقول: ما الغول وما العنقاء؟ تريد: أي شيء هو من الأشياء، هذا أصله ثم جرد للعبارة عن التفخيم حتى وقع في كلام من لا تخفى عليه خافية[4]. ﴿يتساءلون﴾ يسأل بعضهم بعضًا، أو يتساءلون غيرهم من رسول الله ﷺ والمؤمنين نحو يتداعونهم ويتراءونهم، والضمير لأهل مكة. كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث ويتساءلون غيرهم عنه على طريق الاستهزاء.

عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾.

﴿عن النبأ العظيم﴾ بيان للشأن المفخم. وعن ابن كثير أنه قرأ عمه بهاء السكت، ولا يخلو إما أن يجري الوصل مجرى الوقف وإما أن يقف ويبتدئ: يتساءلون عن النبأ العظيم، على أن يضمر يتساءلون لأنّ ما بعده يفسره كشيء يبهم ثم يفسر.

ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾.

فإن قُلْتَ: قد زعمت أنّ الضمير في يتساءلون للكفار فما تصنع بقوله: ﴿هم فيه مختلفون﴾! قُلْتُ: كان فيهم من يقطع القول بإنكار البعث ومنهم من يشك. وقيل: الضمير للمسلمين والكافرين جميعًا، وكانوا جميعًا يسألون عنه. أما المسلم فليزداد خشيةً واستعدادًا، وأما الكافر فليزداد استهزاءً، وقيل: المتساءل عنه القرآن، وقيل: نبوّة محمد ﷺ وقرئ: يتساءلون بالإدغام، وستعلمون بالتاء.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾.

﴿كلا﴾ ردع للمتسائلين، هزؤًا، و﴿سيعلمون﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أنّ ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لأنه واقع لا ريب فيه، وتكرير الردع مع الوعيد تشديد في ذلك.

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾.

ومعنى: ﴿ثم﴾ الأشعار بأنّ الوعيد الثاني أبلغ من الأوّل وأشد.

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل به قوله: ﴿ألم نجعل الأرض مهادًا﴾[5]! قُلْتُ: لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: ما جاء في خبر الطائف (الحديث رقم: 3026) وأخرجه أحمد في المسند: 218/4، وابن أبي شيبة 197/3، كتاب: الزكاة، باب: ليس على المسلمين عشور.

(2) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في تفاسيرهم 140/4.

(3) قال أحمد: وقد أكثرت أم زرع من هذا التفخيم في قولها: وأبو زرع ما أبو زرع، إلى آخر حديثها.

(4) قال أحمد: لأنّ بعضهم يشك في البعث وبعضهم يبت النفي ومن ثم قيل: الضمير للمسلمين والكافرين، فسؤال المسلمين ليزدادوا خشية، وإنما سؤال الكفار لزيادة الاستهزاء والكفر.

(5) قال أحمد: جوابه الأوّل سديد، وأما الثاني فغير مستقيم، فإنه مفرع على المذهب الأعوج في وجوب مراعاة الصلاح والأصلح، واعتقاد أن الجزاء واجب على الله تعالى عقلاً ثوابًا وعقابًا بمقتضى إيجاب الحكمة، وقد فرغ من إبطال هذه القاعدة.

يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال القدرة، فما وجه إنكار قدرته على البعث وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات، أو قيل لهم: ألم يفعل هذه الأفعال المتكاثرة والحكيم لا يفعل فعلاً عبثًا، وما تنكرونه من البعث والجزاء مؤدٍ إلى أنه عابث في كل ما فعل. مهادًا فراشًا. وقرئ: مهدًا. ومعناه أنها لهم كالمهد للصبي وهو ما يمهد له فينوّم عليه تسمية للممهود بالمصدر كضرب الأمير، أو وصفت بالمصدر، أو بمعنى: ذات مهد.

وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾.

أي: أرسيناها بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد.

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾.

﴿سباتًا﴾ موتًا، والمسبوت الميت من السبت وهو القطع لأنه مقطوع عن الحركة، والنوم أحد التوفيين وهو على بناء الأدواء. ولما جعل النوم موتًا جعل اليقظة معاشًا أي: حياة. في قوله: ﴿وجعلنا النهار معاشًا﴾[1] أي: وقت معاشٍ تستيقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم. وقيل: السبات الراحة.

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾.

﴿لباسًا﴾ يستركم عن العيون إذا أردتم هربًا من عدو أو بياتًا له أو إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الأمور.

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾.

﴿سبعًا﴾ سبع سموات. ﴿شدادًا﴾ جمع شديدة، يعني: محكمةً قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان.

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾.

﴿وهاجًا﴾ متلألئًا وقادًا. يعني: الشمس. وتوهجت النار إذا تلمظت فتوهجت بضوئها وحرها.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾.

المعصرات: السحائب إذا أعصرت، أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر. كقولك: أجز الزرع إذا حان له أن يجز، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض. وقرأ عكرمة: بالمعصرات، وفيه وجهان: أن تراد الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب، وأن تراد السحائب، لأنه إذا كان الإنزال منها فهو بها. كما تقول: أعطى من يده درهمًا، وأعطى بيده، وعن مجاهد: المعصرات الرياح ذوات الأعاصير. وعن الحسن وقتادة: هي السموات، وتأويله أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب فكان السموات يعصرن أي: يحملن على العصر، ويمكن منه.

فإن قُلْتَ: فما وجه من قرأ من المعصرات وفسرها بالرياح ذوات الأعاصير، والمطر لا ينزل من الرياح! قُلْتُ: الرياح هي التي تنشئ السحاب وتدرّ أخلافه فصحّ أن تجعل مبدأ للإنزال، وقد جاء أنّ الله تعالى يبعث الرياح فتحمل الماء من السماء إلى السحاب فإن صحّ ذلك فالإنزال منها ظاهر.

فإن قُلْتَ: ذكر ابن كيسان أنه جعل المعصرات بمعنى المغيثات، والعاصر هو المغيث لا المعصر. يقال: عصره فاعتصر! قُلْتُ: وجهه أن يريد اللاتي أعصرن. أي: حان لها أن تعصر أي: تغيث ﴿ثجاجًا﴾ منصبًا بكثرة، يقال: ثجه وثج بنفسه. وفي الحديث: «أفضل الحجّ: والعجّ والثج»[2] أي: رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي. وكان ابن عباس مثجًا يسيل غربًا يعني: يثج الكلام ثجًا في خطبته، وقرأ الأعرج: بحاحًا، ومثاجح الماء مصابه والماء ينثجج في الوادي.

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾.

﴿حبًا ونباتًا﴾ يريد ما يتقوّت من نحو الحنطة والشعير وما يعتلف من التبن والحشيش. كما قال: كلوا وارعوا أنعامكم. والحبّ ذو العصف والريحان.

وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾.

﴿ألفافًا﴾ ملتفةً ولا واحد له كالأوزاع والأخياف. وقيل: الواحد لف. وقال صاحب الإقليد: أنشدني الحسن بن علي الطوسي:

جنة لف وعيش مغدق وندامى كلهم بيض زهر

وزعم ابن قتيبة أنه لفاء ولف ثم ألفاف، وما أظنه واجدًا له نظيرًا. من نحو خضر وأخضار وحمر وأحمار. ولو قيل: هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهًا.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾.

﴿كان ميقاتًا﴾ كان في تقدير الله وحكمه حدًا توقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدّ للخلائق ينتهون إليه.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾.

﴿يوم ينفخ﴾ بدل من يوم الفصل أو عطف بيان. ﴿فتأتون أفواجًا﴾ من القبور إلى الموقف أممًا كل أمّة مع إمامهم، وقيل: جماعات مختلفة، وعن معاذ رضي الله عنه أنه سأل عنه رسول الله ﷺ فقال: «يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور»، ثم أرسل عينيه وقال: «تحشر عشرة أصناف من أمّتي: بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكوسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها، وبعضهم عميًا، وبعضهم صمًا

(1) سورة النبأ، الآية: 11.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران (الحديث رقم: 2998).

بكمًا، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشدّ نتنًا من الجيف، وبعضهم ملبسون جبابًا سابغةً من قطران لازقة بجلودهم. فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت، وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا، وأما العمي فالذين يجورون في الحكم، وأما الصمّ البكم فالمعجبون بأعمالهم، وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم أعمالهم، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران، وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، وأما الذين هم أشدّ نتنًا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله في أموالهم، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء»[1].

وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾.

وقرئ: وفتحت بالتشديد والتخفيف، والمعنى: كثرة أبوابها المفتحة لنزول الملائكة كأنها ليست إلا أبوابًا مفتحة، كقوله: ﴿وفجرنا الأرض عيونًا﴾[2] كأن كلها عيون تتفجر. وقيل: الأبواب الطرق والمسالك، أي: تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقًا لا يسدّها شيء.

وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾.

﴿فكانت سرابًا﴾ كقوله: ﴿فكانت هباءً منبثًا﴾[3] يعني: أنها تصير شيئًا كلا شيء لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾.

المرصاد: الحدّ الذي يكون فيه الرصد، والمعنى: أن جهنم هي حدّ الطاغين الذي يرصدون فيه للعذاب، وهي مآبهم أو هي مرصاد لأهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها لأن مجازهم عليها وهي مآب للطاغين. وعن الحسن وقتادة نحوه قالا: طريقًا وممرًا لأهل الجنة. وقرأ ابن يعمر أنّ جهنم بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة بأنّ جهنم كانت مرصادًا للطاغين. كأنه قيل: كان ذلك لإقامة الجزاء.

لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾.

قرئ: لابثين ولبثين واللبث أقوى؛ لأنّ اللابث من وجد منه اللبث، ولا يقال لبث إلا لمن شأنه اللبث كالذي يجثم بالمكان لا يكاد ينفك منه. **﴿أحقابًا﴾** حقبًا بعد حقب كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية، ولا يكاد يستعمل الحقب والحقبة إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها والاشتقاق يشهد لذلك، ألا ترى إلى حقيبة الراكب والحقب الذي وراء التصدير. وقيل: الحقب ثمانون سنة ويجوز أن يراد لابثين فيها أحقابًا غير ذائقين فيها بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا، ثم يبدلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب، وفيه وجه آخر وهو أن يكون من حقب عامنا إذا قل مطره وخيره وحقب فلان إذا أخطأه الرزق فهو حقب وجمعه أحقاب فينتصب حالاً عنهم، يعني: لابثين فيها حقبين جحدين. وقوله:

لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾.

﴿لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا﴾ تفسير له والاستثناء منقطع، يعني: لا يذوقون فيها بردًا وروحًا ينفس عنهم حر النار، ولا شرابًا يسكن من عطشهم. ولكن يذوقون فيها حميمًا وغساقًا. وقيل: البرد النوم. وأنشد:

فلو شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخًا ولا بردًا

وعن بعض العرب: منع البرد البرد.

إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾.

وقرئ: غساقًا بالتخفيف والتشديد، وهو ما يغسق. أي: يسيل من صديدهم.

جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾.

﴿وفاقًا﴾ وصف بالمصدر أو ذا وفاق، وقرأ أبو حيوة: وفاقًا فعال من وفقه كذا.

وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾.

﴿كذابًا﴾ تكذيبًا، وفعال في باب فعل كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره. وسمعني بعضهم افسر آية فقال: لقد فسرتها فسارًا ما سمع بمثله، وقرئ: بالتخفيف وهو مصدر كذب بدليل قوله:

فصدّقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه

وهو مثل قوله: ﴿أنبتكم من الأرض نباتًا﴾[4] يعني: وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابًا، أو تنصبه بكذبوا لأنه يتضمن معنى كذبوا لأنّ كل مكذب بالحق كاذب وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه: وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة، أو كذبوا بها مكاذبين، لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة، أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب فعل من يغالب في أمر فيبلغ فيه أقصى جهده. وقرئ: كذابًا وهو جمع كاذب أي: كذبوا بآياتنا كاذبين، وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب، يقال: رجل كذاب. كقولك: حسان وبخال فيجعل صفة لمصدر كذبوا. أي: تكذيبًا كذابًا مفرطًا كذبه، وقرأ أبو السمال: وكل شيء أحصيناه بالرفع على الابتداء.

---

(1) ذكره ابن مردويه، والثعلبي في تفسيرهما، زيلعي 4/ 144.

(2) سورة القمر، الآية: 12.

(3) سورة الواقعة، الآية: 6.

(4) سورة نوح، الآية: 17.

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾.

﴿كتابًا﴾ مصدر في موضع احصاء واحصينا في معنى كتبنا لالتقاء الإحصاء والكتبة في معنى الضبط والتحصيل، أو يكون حالاً في معنى مكتوبًا في اللوح وفي صحف الحفظة والمعنى: إحصاء معاصيهم. كقوله: أحصاه الله ونسوه وهو اعتراض. وقوله:

فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾.

﴿فذوقوا﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وهي آية في غاية الشدّة، وناهيك بلن نزيدكم وبدلالته على أن ترك الزيادة كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة وبمجيئها على طريقة الالتفات شاهدًا على أنّ الغضب قد تبالغ وعن النبي ﷺ: هذه الآية أشدّ ما في القرآن على أهل النار(1).

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾.

﴿مفازًا﴾ فوزًا وظفرًا بالبغية أو موضع فوز. وقيل: نجاة مما فيه أولئك، أو موضع نجاة. وفسر المفاز بما بعده.

حَدَائِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾.

والحدائق: البساتين فيها أنواع الشجر المثمر. والأعناب الكروم.

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾.

والكواعب: اللاتي فلكت ثديهنّ وهن النواهد. والأتراب اللذات.

وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾.

والدهاق: المترعة، وادهق الحوض ملأه حتى قال قطني. وقرئ: ولا كذابًا بالتشديد والتخفيف.

لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾.

أي: لا يكذب بعضهم بعضًا ولا يكذبه أو لا يكاذبه. وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ بتخفيف الاثنين.

جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾.

﴿جزاء﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله: ﴿إنّ للمتقين مفازًا﴾(2) كأنه قال: جازي المتقين بمفاز. و﴿عطاء﴾ نصب بجزاء نصب المفعول به أي: جزاهم عطاءً. و ﴿حسابًا﴾ صفةً بمعنى كافيًا من أحسبه الشيء إذا كفاه حق. قال: حسبي. وقيل: على حسب أعمالهم. وقرأ ابن قطيب: حسابًا بالتشديد، على أنّ الحساب بمعنى المحسب كالدراك بمعنى المدرك.

رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾.

قرئ: رب السموات والرحمن بالرفع على هو رب السموات الرحمن، أو رب السموات مبتدأ والرحمن صفة ولا يملكون خبر، أو هما خبران. وبالجر على البدل من ربك وبجر الأوّل ورفع الثاني على أنه مبتدأ خبره لا يملكون. أو هو الرحمن لا يملكون. والضمير في ﴿لا يملكون﴾ لأهل السموات والأرض. أي: ليس في أيديهم مما يخاطب به الله ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه، أو لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب أو زيادة في الثواب إلا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه.

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ .

و﴿يوم يقوم﴾ متعلق بلا يملكون أو بلا يتكلمون. والمعنى: إنّ الذين هم أفضل الخلائق وأشرفهم وأكثرهم طاعةً وأقربهم منه وهم الروح والملائكة لا يملكون التكلم بين يديه، فما ظنك بمن عداهم من أهل السموات والأرض. والروح أعظم خلقًا من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين. وقيل: هو ملك عظيم ما خلق الله بعد العرش خلقًا أعظم منه. وقيل: ليسوا بالملائكة، وهم يأكلون. وقيل: جبريل. هما شريطتان(3) أن يكون المتكلم منهم مأنونًا له في الكلام، وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾(4).

إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾.

﴿المرء﴾ هو الكافر لقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا﴾(5) والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ويعني: ﴿ما قدّمت يداه﴾ من الشر. كقوله: ﴿وذوقوا عذاب

---

(1) ذكره الثعلبي، وابن حاتم في تفسيرهما، وأخرجه البيهقي في البعث والنشور، زيلعي 4/145.

(2) سورة النبأ، الآية: 31.

(3) قال أحمد: يعرض بأنّ الشفاعة لا تحل على مرتكبي الكبائر من الموحدين، وقد صرح بذلك في مواضع تقدّمت له، ويتلقى ذلك من أنها مخصوصة بالمرتضين، وذوو الكبائر ليسوا مرتضين، ومن= = ثم أخطأ، فإنّ الله عز وجل ما خصهم بالإيمان والتوحيد وتوفاهم عليه، إلا وقد ارتضاهم لذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم﴾ فجعل الشكر بمعنى الإيمان المقابل للكفر مرضياً لله تعالى وصاحبه مرتضى.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 28.

(5) سورة النبأ، الآية: 40.

الحريق نلك بما قدّمت أيديكم﴾[1] وننيقه يوم القيامة عذاب الحريق نلك بما قدّمت يداك بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين. وما يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدّمت أي: ينظر أي شيء قدّمت يداه، وموصولة منصوبة بينظر، يقال: نظرته، بمعنى: نظرت إليه والراجع من الصلة محذوف. وقيل: المرء عام وخصص منه الكافر. وعن قتادة: هو المؤمن ﴿يا ليتني كنت ترابًا﴾ في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف، أو ليتني كنت ترابًا في هذا اليوم فلم أبعث، وقيل: يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ثم يردّه ترابًا، فيودّ الكافر حاله. وقيل: الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة عم يتساءلون سقاه الله برد الشراب يوم القيامة»[2].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النازعات مكية

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾.

أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها أي: تخرجها، من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها. وبالطوائف التي تسبح في مضيها أي: تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمرًا من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم كما رسم لهم. ﴿غرقًا﴾ إغراقًا في النزع، أي: تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها وأظفارها، أو أقسم بخيل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزعًا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب.

وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾.

والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب. من قولك: ثور ناشط، إذا خرج من بلد إلى بلد.

وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾.

والتي تسبح في جريها فتسبق الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه، أو أقسم بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب وإغراقها في النزع أن تقطع الفلك كله حتى تنحطّ في أقصى الغرب، والتي تخرج من برج إلى برج والتي تسبح في الفلك من السيارة.

فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾.

فتسبق فتدبر أمرًا من علم الحساب. وقيل: النازعات أيدي الغزاة أو أنفسهم تنزع القسي بإغراق السهام والتي تنشط الأوهاق، والمقسم عليه محذوف وهو لتبعثن لدلالة ما بعده عليه من نكر القيامة.

يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾.

و﴿يوم ترجف﴾ منصوب بهذا المضمر، و ﴿الراجفة﴾ الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال وهي النفخة الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها.

تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾.

﴿تتبعها الرادفة﴾ أي: الواقعة التي تردف الأولى وهي النفخة الثانية. ويجوز أن تكون الرادفة من قوله تعالى: ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾[3] أي: القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعادًا لها وهي رادفة لهم لاقترابها. وقيل: الراجفة الأرض والجبال من قوله: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾. والرادفة السماء والكواكب لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك.

فإن **قُلْتَ**: ما محل تتبعها؟ **قُلْتُ**: الحال، أي: ترجف تابعتها الرادفة.

فإن **قُلْتَ**: كيف جعلت يوم ترجف ظرفًا للمضمر الذي هو لتبعثن ولا يبعثون عند النفخة الأولى؟ **قُلْتُ**: المعنى لتبعثنّ في الوقت الواسع الذي يقع فيه النفختان وهم يبعثون في بعض نلك الوقت الواسع وهو وقت النفخة الأخرى ودلّ على نلك أنّ قوله: تتبعها الرادفة، جعل حالاً على الراجفة، ويجوز أن ينتصب يوم ترجف بما دلّ عليه.

قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾.

﴿قلوب يومئذٍ واجفة﴾ أي: يوم ترجف، وجفت القلوب ﴿واجفة﴾ شديدة الاضطراب، والوجيب والوجيف أخوان.

أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴿٩﴾.

﴿خاشعة﴾ نليلة.

فإن **قُلْتَ**: كيف جاز الابتداء بالنكرة؟ **قُلْتُ**: قلوب مرفوعة بالابتداء وواجفة صفتها وأبصارها خاشعة خبرها. فهو كقوله: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾[4].

فإن **قُلْتَ**: كيف صح إضافة الأبصار إلى القلوب؟ **قُلْتُ**: معناه أبصار أصحابها. بدليل قوله: يقولون:

يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾.

﴿في الحافرة﴾ في الحالة الأولى يعنون الحياة بعد الموت.

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 181 ـ 182.
(2) نكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم 146/4.
(3) سورة النمل، الآية: 72.
(4) سورة البقرة، الآية: 221.

فإن قُلْتَ: ما حقيقة هذه الكلمة؟ قُلْتُ: يقال رجع فلان في حافرته أي: في طريقه التي جاء فيها، فحفرها أي: أثر فيها بمشيه فيها جعل أثر قدميه حفرًا، كما قيل: حفرت أسنانه حفرًا، إذا أثر الأكال في أسناخها، والخط المحفور في الصخر. وقيل: حافرة. كما قيل: عيشة راضية، أي: منسوبة إلى الحفر والرضا. أو كقولهم: نهارك صائم، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرته، أي: إلى طريقته وحالته الأولى. قال:

أحافرة على صلع وشيب   معاذ الله من سفه وعار

يريد أرجوعًا إلى حافرة. وقيل: النقد عند الحافرة يريدون عند الحالة الأولى وهي الصفقة. وقرأ أبو حيوة في الحفرة والحفرة بمعنى المحفورة. يقال: حفرت أسنانه فحفرت حفرًا وهي حفرة، وهذه القراءة دليل على أن الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفورة.

أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾.

يقال: نخر العظم فهو نخر وناخر. كقولك: طمع فهو طمع وطامع وفعل أبلغ من فاعل. وقد قرئ بهما وهو البالي الأجوف الذي تمر فيه الريح فيسمع له نخير. و﴿إذا﴾ منصوب بمحذوف تقديره أئذا كنا عظامًا نرد ونبعث.

قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾.

﴿كرة خاسرة﴾ منسوبة إلى الخسران أو خاسر أصحابها، والمعنى: أنها إن صحت فنحن إذًا خاسرون لتكذيبنا بها وهذا استهزاء منهم.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾؟ قُلْتُ: بمحذوف معناه لا مستصعبوها فإنما هي زجرة واحدة. يعني: لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل فإنها سهلة هينة في قدرته ما هي إلا صيحة واحدة - يريد النفخة الثانية [1].

فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾.

﴿فإذا هم﴾ أحياء على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتًا في جوفها، من قولهم: زجر البعير إذا صاح عليه، والساهرة الأرض البيضاء المستوية. سميت بذلك لأنّ السراب يجري فيها من قولهم: عين ساهرة جارية الماء وفي ضدها نائمة. قال الأشعث بن قيس:

وساهرة يضحى السراب مجللاً   لأقطارها قد جبتها متلثمًا

أو لأنّ سالكها لا ينام خوف الهلكة. وعن قتادة: فإذا هم في جهنم.

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾.

﴿اذهب﴾ على إرادة القول. وفي قراءة عبد الله أن اذهب لأنّ في النداء معنى القول هل لك في كذا وهل لك إلى كذا كما تقول هل ترغب فيه وهل ترغب إليه.

فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾.

﴿إلى ان تزكى﴾ إلى أن تتطهر من الشرك. وقرأ أهل المدينة: تزكى بالإدغام.

وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾.

﴿واهديك إلى ربك﴾ وارشدك إلى معرفة الله أنبهك عليه فتعرفه، ﴿فتخشى﴾ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة. قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماء﴾ أي: العلماء به، وذكر الخشية لأنها ملاك الأمر من خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شرّ. ومنه قوله عليه السلام: من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل[2]، بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه بالتلطف في القول ويستنزله بالمداراة من عتوه. كما أمر بذلك في قوله: ﴿فقولا له قولاً لينًا﴾[3].

فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾.

﴿الآية الكبرى﴾ قلب العصا حية؛ لأنها كانت المقدمة، والأصل والأخرى كالتبع لها لأنه كان يتقيها بيده. فقيل له: ادخل يدك في جيبك أو أرادهما جميعًا إلا أنه جعلهما واحدةً لأن الثانية كأنها من جملة الأولى لكنها تابعةً لها.

فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾.

﴿فكذب﴾ بموسى والآية الكبرى وسماهما ساحرًا وسحرًا. ﴿وعصى﴾ الله تعالى بعد ما علم صحة الأمر وأنّ الطاعة قد وجبت عليه.

ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾.

﴿ثم أدبر يسعى﴾ أي: لما رأى الثعبان أدبر مرعوبًا[4]، يسعى يسرع في مشيئته، قال الحسن: كان رجلاً طياشًا خفيفًا. أو تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته وأريد: ثم أقبل يسعى، كما تقول: أقبل فلان يفعل كذا،

---

(1) قال أحمد: وما أحسن تسهيل أمر الإعادة بقوله: ﴿زجرة﴾ عوضاً من صيحة؛ لأن الزجرة أخف من الصيحة وبقوله: ﴿واحدة﴾ أي محتاجة إلى مثنوية، وهو يحقق لك ما أجبت به من السؤال الوارد عند قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ حيث قيل: كيف وحدها وهما نفختان؟ وجدد به عهداً.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك 4/308، وأخرجه أبو نعيم في الحلية = 8/377، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الخوف من الله تعالى (الحديث رقم: 881) وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: 18 (الحديث رقم: 245).

(3) سورة طه، الآية: 44.

(4) قال أحمد: وهذا الوجه الأخير حسن لطيف جداً، وهو على هذا من أفعال المقاربة.

بمعنى أنشأ يفعل، فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال.

فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾.

﴿فحشر﴾ فجمع السحرة. كقوله: ﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾[1] ﴿فنادى﴾ في المقام الذي اجتمعوا فيه معه أو أمر مناديًا فنادى في الناس بذلك. وقيل: قام فيهم خطيبًا. فقال: تلك العظيمة. وعن ابن عباس: كلمته الأولى ما علمت لكم من إله غيري والآخرة أنا ربكم الأعلى.

فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾.

﴿نكال﴾ هو مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله، كأنه قيل: نكل الله به نكال الآخرة، والأولى والنكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم. يعني: الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة[2]. وعن ابن عباس: نكال كلمتيه الآخرة. وهي قوله: أنا ربكم الأعلى. والأولى وهي قوله: ما علمت لكم من إله غيري. وقيل: كان بين الكلمتين أربعون سنة، وقيل: عشرون. الخطاب لمنكري البعث.

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾.

يعني: ﴿أأنتم﴾ أصعب ﴿خلقًا﴾ وإنشاءً ﴿أم السماء﴾ ثم بين كيف خلقها فقال: ﴿بناها﴾ ثم بين البناء فقال:

رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾.

﴿رفع سمكها﴾ أي: جعل مقدار ذهابها في سمت العلو مديدًا رفيعًا مسيرة خمسمائة عام ﴿فسواها﴾ فعدلها مستويةً ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور، أو فتممها بما علم أنها تتم به. وأصلحها من قولك: سوى فلان أمر فلان.

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾.

غطش الليل وأغطشه الله كقولك: ظلم وأظلمه. ويقال أيضاً: أغطش الليل كما يقال: أظلم. ﴿وأخرج ضحاها﴾ وأبرز ضوء شمسها، يدل عليه قوله تعالى: ﴿والشمس وضحاها﴾[3] يريد وضوئها. وقولهم: وقت الضحى للوقت الذي تشرق فيه الشمس ويقوم سلطانها. وأضيف الليل والشمس إلى السماء لأن الليل ظلها، والشمس هي السراج المثقب في جوها.

أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾.

﴿ماءها﴾ عيونها المتفجرة بالماء ﴿ومرعاها﴾ ورعيها وهو في الأصل موضع الرعي ونصب الأرض والجبال بإضمار دحا وأرسى وهو الإضمار على شريطة التفسير وقرأهما الحسن مرفوعين على الابتداء.

فإن قُلْتَ: هلا أدخل حرف العطف على أخرج[4]؟ قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن يكون معنى دحاها بسطها ومدها للسكنى، ثم فسر التمهيد بما لا بدّ منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المأكل والمشرب، وإمكان القرار عليها والسكون بإخراج الماء والمرعى وإرساء الجبال وإثباتها أوتادًا لها حتى تستقر ويستقر عليها. والثاني أن يكون أخرج حالاً بإضمار قد كقوله: أو جاؤكم حصرت صدورهم. وأراد بمرعاها ما يأكل الناس والأنعام واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله: ﴿نرتع ونلعب﴾[5] وقرئ: يرتع من الرعي. ولهذا قيل: دلّ الله سبحانه بذكر الماء والمرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع مما يخرج من الأرض حتى الملح لأنه من الماء.

مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾.

﴿متاعًا لكم﴾ فعل ذلك تمتيعًا لكم ﴿ولأنعامكم﴾، لأن منفعة ذلك التمهيد واصلة إليهم وإلى أنعامهم.

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾.

﴿الطامة﴾ الداهية التي تطم على الدواهي، أي: تعلو وتغلب. وفي أمثالهم: جرى الوادي فطم على القرى، وهي القيامة لطمومها على كل هائلة. وقيل: هي النفخة الثانية. وقيل: الساعة التي تساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾.

﴿يوم يتذكر﴾ بدل من إذا جاءت يعني: إذا رأى أعماله مدونةً في كتابه تذكرها وكان قد نسيها. كقوله: أحصاه الله ونسوه. وما في ﴿ما سعى﴾ موصولة أو مصدرية.

وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾.

﴿وبرزت﴾ أظهرت. وقرأ أبو نهيك: وبرزت ﴿لمن يرى﴾ للرائين جميعًا. أي: لكل أحد يعني: أنها تظهر إظهارًا بينًا مكشوفًا[6] يراها أهل الساهرة كلهم. كقوله: قد بين الصبح لذي عينين، يريد لكل من له بصر، وهو مثل في الأمر المنكشف الذي لا يخفى على أحد. وقرأ ابن مسعود: لمن رأى. وقرأ عكرمة: لمن ترى، والضمير للجحيم، كقوله: إذا رأتهم من مكان بعيد وقيل: لمن ترى يا محمد.

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 53.

(2) قال أحمد: فعلى الأول يكون قريباً من إضافة الموصوف إلى الصفة؛ لأنّ الآخرة والأولى صفتان للكلمتين، وعلى الثاني لا يكون كذلك.

(3) سورة الشمس، الآية: 1.

(4) قال أحمد: والأول أحسن، وهو مناسب لقوله: ﴿السماء بناها﴾ لأنه لما قال: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء﴾ تم الكلام لكن مجملاً، = ثم بين التفاوت ففسر كيف خلقها فقال: بناها بغير عاطف، ثم فسر البناء فقال: ﴿رفع سمكها﴾ بغير عاطف أيضاً.

(5) سورة يوسف، الآية: 12.

(6) قال أحمد: وفائدة هذا النظم الإشعار بأنه أمر ظاهر لا يتوقف إدراكه إلا على البصر خاصة، أي: لا شيء يحجبه ولا بعد يمنع رؤيته ولا قرب مفرط إلى غير ذلك من موانع الرؤية.

فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾.

﴿فأما﴾ جواب **﴿فإذا﴾**، أي: فإذا جاءت الطامّة فإنّ الأمر كذلك، والمعنى: فإنّ الجحيم مأواه. كما تقول للرجل غض الطرف تريد طرفك وليس الألف واللام بدلاً من الإضافة، ولكن لما علم أنّ الطاغي هو صاحب المأوى وأنه لا يغض الرجل طرف غيره تركت الإضافة ودخول حرف التعريف في المأوى، والطرف للتعريف لأنهما معروفان.

فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾.

﴿وهي﴾ فصل أو مبتدأ.

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾.

﴿ونهى النفس﴾ الأمارة بالسوء **﴿عن الهوى﴾** المردي، وهو اتباع الشهوات، وزجرها عنه وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير، وقيل: الآيتان نزلتا في أبي عزير بن عمير ومصعب بن عمير، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزير يوم أحد ووقى رسول الله ﷺ بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه[1].

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾.

﴿أيان مرساها﴾ متى إرساؤها أي: إقامتها، أرادوا متى يقيمها الله ويثبتها ويكوّنها، وقيل: أيان منتهاها ومستقرها[2]، كما أنّ مرسى السفينة مستقرّها حيث تنتهي إليه.

فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾.

﴿فيم أنت﴾ في أي شيء أنت من أن تنكر وقتها[3] لهم وتعلمهم به يعني: ما أنت من نكرها لهم وتبيين وقتها في شيء، وعن عائشة رضي الله عنها: لم يزل رسول الله ﷺ ينكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت[4]، فهو على هذا تعجب من كثرة نكره لها. كانه قيل: في أي شغل واهتمام أنت من نكرها والسؤال عنها، والمعنى: أنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تنكرها وتسأل عنها، ثم قال:

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾.

﴿إلى ربك منتهاها﴾ أي: منتهى علمها لم يؤت علمها أحدًا من خلقه، وقيل: فيم إنكار لسؤالهم أي: فيم هذا السؤال[5]؟ ثم قيل: أنت من نكراها. أي: إرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث في نسم الساعة نكر من نكرها وعلامة من علاماتها، فكفاهم بنلك دليلاً على دنوّها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ولا معنى لسؤالهم عنها.

إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾.

﴿إنما انت منذر من يخشاها﴾ أي: لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يكون من إنذارك لطفًا له في الخشية منها. وقرئ: منذر بالتنوين وهو الأصل، والإضافة تخفيف. وكلاهما يصلح للحال والاستقبال فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة كقولك: هو منذر زيد أمس. أي: كأنهم لم يلبثوا في الدنيا، وقيل: في القبور.

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾.

﴿إلا عشية أو ضحاها﴾.

فإن قُلْتَ: كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية؟ **قُلْتُ:** لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما في نهار واحد.

فإن قُلْتَ: فهلا قيل: إلا عشيةً أو ضحىً وما فائدة الإضافة؟ **قُلْتُ:** الدلالة على أنّ مدّة لبثهم كأنها لم تبلغ يومًا كاملاً ولكن ساعةً منه عشيته أو ضحاه، فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته فهو كقوله: **﴿لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار﴾**[6] عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة»[7].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة عبس مكية

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾.

أتى رسول الله ﷺ ابن أمّ مكتوم[8]، وأمّ مكتوم أمّ أبيه، واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي، وعنده صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا

---

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) قال أحمد: وفيه إشعار بثقل اليوم، كقوله: **﴿ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾** الا تراهم لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل، كمرسى السفينة وإرساء الجبال.

(3) قال أحمد: وفي هذا الوجه نظر، فإنّ الآية الأخرى ترده، وهي قوله: **﴿يسئلونك كانك حفي عنها﴾** أي: انك لا تحتفي بالسؤال عنها ولا تهتم بنلك، وهم يسئلونك كما يسئل الحفي عن الشيء، أي: الكثير السؤال عنه، فالوجه الأوّل أصوب.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرك 5/1.

(5) قال أحمد: فعلى هذا ينبغي أن يوقف على قوله: فيم ليفصل بين الكلامين.

(6) سورة الأحقاف، الآية: 35.

(7) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/ 151.

(8) قال أحمد: وإنما أخذ الاختصاص من تصدير الجملة بضمير المخاطب، وجعله مبتدأ مخبراً عنه، وهو كثيراً ما يتلقى الاختصاص من نلك، ولقد غلط في تفسير الآية، وما كان له أن يبلغ نلك.

ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم. فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكرّر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم. فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه[1]، فنزلت. فكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي، ويقول له: هل لك من حاجة؟ واستخلفه على المدينة مرتين. وقال أنس: رأيته يوم القادسية وعليه درع وله راية سوداء[2]. وقرئ: عبس بالتشديد للمبالغة، ونحوه كلح في كلح.

أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾.

﴿أن جاءه﴾ منصوب بتولي أو بعبس على اختلاف المذهبين ومعناه عبس لأن جاءه الأعمى، أو أعرض لذلك. وقرئ: أن جاءه بهمزتين وبألف بينهما ووقف على عبس وتولى، ثم ابتدئ على معنى: لأن جاءه الأعمى فعل ذلك إنكارًا عليه. وروي أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قط ولا تصدى لغني. وفي الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار كمن يشكو إلى الناس جانبًا جنى عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهًا له بالتوبيخ وإلزام الحجة. وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك كأنه يقول: قد استحق عنده العبوس والإعراض لأنه أعمى وكان يجب أن يزيده لعماه تعطفًا وترؤفًا وتقريبًا وترحيبًا. ولقد تأدّب الناس بأدب الله في هذا تأدبًا حسنًا. فقد روي عن سفيان الثوري رحمه الله: أنّ الفقراء كانوا في مجلسه أمراء.

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾.

﴿وما يدريك﴾ وأي شيء يجعلك داريًا بحال هذا الأعمى. ﴿لعله يزكى﴾ أي: يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوضار الإثم.

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾.

﴿أو يذكر﴾ أو يتعظ، ﴿فتنفعه﴾ ذكراك، أي: موعظتك، وتكون له لطفًا في بعض الطاعات. والمعنى: أنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزكٍ أو تذكر، ولو دريت لما فرط ذلك منك. وقيل: الضمير في لعله للكافر. يعني: أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يتذكر فتقرّبه الذكرى إلى قبول الحق وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن، وقرئ: فتنفعه بالرفع عطفًا على يذكر وبالنصب جوابًا للعل. كقوله: فاطلع إلى إله موسى.

فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾.

﴿تصدى﴾ تتعرض بالإقبال عليه والمصاداة المعارضة.

وقرئ: تصدى بالتشديد بإدغام التاء في الصاد، وقرأ أبو جعفر: تصدى بضم التاء أي: تعرّض. ومعناه: يدعوك داعٍ إلى التصدي له من الحرص والتهالك على إسلامه.

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾.

وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام إن عليك إلا البلاغ.

وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾.

﴿يسعى﴾ يسرع في طلب الخير.

وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾.

﴿وهو يخشى﴾ الله أو يخشى الكفار وأذاهم في إتيانك. وقيل: جاء وليس معه قائد فهو يخشى الكبوة.

فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾.

﴿تلهى﴾ تتشاغل من لهى عنه والتهى وتلهى. وقرأ طلحة بن مصرف: تتلهى، وقرأ أبو جعفر: تلهى، أي: يلهيك شأن الصناديد.

فإن قُلْتَ: قوله فأنت له تصدى فأنت عنه تلهى كأن فيه اختصاصًا. **قُلْتُ:** نعم ومعناه: إنكار التصدي والتلهي عليه. أي: مثلك خصوصًا لا ينبغي له أن يتصدى للغني ويتلهى عن الفقير.

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾.

﴿كلا﴾ ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله، ﴿إنها تذكرة﴾ أي: موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها.

فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾.

﴿فمن شاء ذكره﴾ أي: كان حافظًا له غير ناسٍ، وذكر الضمير لأنّ التذكرة في معنى الذكر والوعظ.

فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾.

﴿في صحف﴾ صفة لتذكرة، يعني: أنها مثبتة في صحفة منتسخة من اللوح. ﴿مكرمة﴾ عند الله.

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾.

﴿مرفوعة﴾ في السماء، أو مرفوعة المقدار. ﴿مطهرة﴾ منزهة عن أيدي الشياطين لا يمسها إلا أيدي ملائكة مطهرين.

بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾.

﴿سفرة﴾ كتبة ينتسخون الكتب من اللوح.

كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾.

﴿بررة﴾ أتقياء. وقيل: هي صحف الأنبياء كقوله: ﴿إنّ

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة عبس (الحديث رقم: 3331).

(2) أخرجه عبد الرزاق في التفسير، زيلعي 4/156.

هذا لفي الصحف الأولى﴾[1] وقيل: السفرة القرّاء، وقيل: أصحاب رسول الله ﷺ.

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾.

﴿قتل الإنسان﴾ دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم لأنّ القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها. و﴿ما أكفره﴾ تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله. ولا ترى أسلوبًا أغلظ منه ولا خشن مسًا ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطًا في المنمة مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للائمة على قصر متنه. ثم أخذ في وصف حاله من ابتداء حدوثه إلا أن انتهى وما هو مغمور فيه من أصول النعم وفروعها، وما هو غارز فيه رأسه من الكفران والغمط وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه، وإلى ما يجب عليه من القيام بالشكر.

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾.

﴿من أي شيء خلقه﴾ من أي شيء حقير مهين خلقه، ثم بيّن ذلك الشيء بقوله:

مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾.

﴿من نطفة خلقه فقدّره﴾ فهيأه لما يصلح له ويختص به، ونحوه: وخلق كل شيء فقدّره تقديرًا.

ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾.

نصب السبيل بإضمار يسر وفسر بيسر، والمعنى: ثم سهل سبيله، وهو مخرجه من بطن أمّه، أو السبيل الذي يختار سلوكه من طريق الخير والشر بإقداره وتمكينه. كقوله: ﴿إنا هديناه السبيل﴾[2] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بين له سبيل الخير والشر.

ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾.

﴿فاقبره﴾ فجعله ذا قبر يوارى فيه تكرمةً له ولم يجعله مطروحًا على وجه الأرض جزرًا للسباع والطير كسائر الحيوان. يقال: قبر الميت إذا دفنه، وأقبره الميت إذا أمره أن يقبره ومكنه منه. ومنه قول من قال للحجاج: أقبرنا صالحاً.

ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾.

﴿انشره﴾ أنشاه النشاة الأخرى. وقرئ: نشره.

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾.

﴿كلا﴾ ردع للإنسان عما هو عليه. ﴿لما يقض﴾ لم يقض بعد مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية. ﴿ما أمره﴾ الله حتى يخرج عن جميع أوامره. يعني: أنّ إنسانًا لم يخل من تقصير قط. ولما عدد النعم في نفسه اتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه فقال:

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾.

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ إلى مطعمه الذي يعيش به كيف دبرنا أمره.

أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾.

﴿إنا صببنا الماء﴾ يعني: الغيث. قرئ بالكسر على الاستئناف، وبالفتح على البدل من الطعام. وقرأ الحسين بن علي رضي الله عنهما: أنى صببنا بالإمالة على معنى فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء.

ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾

وشققنا من شق الأرض بالنبات[3]، ويجوز أن يكون من شقها بالكراب على البقر وأسند الشك إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب.

فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾.

والحب كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما، والقضب الرطبة والمقضاب أرضه سمى بمصدر قضبه إذا قطعه لأنه يقضب مرّة بعد مرّة.

وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾.

﴿وحدائق غلبًا﴾ يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء فيريد تكاثفها وكثرة أشجارها وعظمها كما تقول: حديقة ضخمة. وأن يجعل شجرها غلبًا أي: عظامًا غلاظًا، والأصل في الوصف بالغلب الرقاب فاستعير. قال عمرو بن معد يكرب:

يمشي بها غلب الرقاب كأنهم　　بزل كسين من الكحيل جلالاً

والأب المرعى لأنه يؤب أي: يؤم وينتجع، والأب والأمّ أخوان. قال:

جذمنا قيس ونجد دارنا　　ولنا الأب به والمكرع[4]

---

(1) سورة الأعلى، الآية: 18.
(2) سورة الإنسان، الآية: 3.
(3) قال أحمد: ما رأيت كاليوم قط عبداً ينازع ربه، الله تعالى يقول: ﴿ثم شققنا﴾ فيضيف فعله إلى ذاته حقيقة، كما أضاف بقية أفعاله من عند قوله: ﴿من نطفة خلقه﴾ وهلم جرا، والزمخشري يجعل الإضافة مجازية من باب إسناد الفعل إلى سببه، فيجعل = إضافة الفعل إلى الله تعالى من باب إضافة الشق إلى الحرّاث؛ لأنه السبب قتل القدري ما أكفره، على قول: وما أضله على آخر، وإذا جعل شق الأرض مضافاً إلى الحراث حقيقة، وإلى الله مجازاً فما يمنعه أن يجعل الحراث، هو الذي صبب الماء وأنبت الحب والعنب والقضب حقيقة، وهل هما إلا واحد؟
(4) المكرع: النخل القريبة من المحلّ.

وعن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به[1]. وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال: كل هذا قد عرفنا، فما الأب؟ ثم رفض عصًا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا ابن أمّ عمر أن لا تدري ما الأب. ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ومالاً فدعوه[2].

فإن قُلْتَ: فهذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته. **قُلْتُ**: لم يذهب إلى ذلك، ولكن القوم كانت اكبر همتهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفًا عندهم.

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

فأراد أنّ الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكر وقد علم من فحوى الآية أنّ الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعًا له أو لإنعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك. ولم يشكل مما عدّد من نعمه ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له واكتفِ بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت. ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾.

يقال: صخّ لحديثه مثل أصاخ له فوصفت النفخة بالصاخة مجازًا لأنّ الناس يصخون لها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿يفرّ﴾ منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئًا، وبدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحب. كأنه قال: يفرّ من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه. وقيل: يفرّ منهم حذرًا من مطالبتهم بالتبعات. يقول الأخ لم تواسني بمالك، والأبوان قصرت في برنا، والصاحبة أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت، والبنون لم تعلمنا ولم ترشدنا. وقيل: أوّل من يفر من أخيه هابيل، ومن أبويه إبراهيم، ومن صاحبته نوح ولوط، ومن ابنه نوح.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿يغنيه﴾ يكفيه في الاهتمام به وقرئ بعينه أي: يهمه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿مسفرة﴾ مضيئة متهللة من أسفر الصبح إذا أضاء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من قيام الليل، لما روي في الحديث: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»[3]. وعن الضحاك: من آثار الوضوء. وقيل: من طول ما اغبرت في سبيل الله.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿غبرة﴾ غبار يعلوها.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿قترة﴾ سواد كالدخان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت، وكأن الله عز وجل يجمع إلى سواد وجوههم الغبر.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

كما جمعوا الفجور إلى الكفر، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التكوير مكية

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾.

في التكوير وجهان: أن يكون من كوّرت العمامة إذا لففتها أي: يلف ضوءها لفًا فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها لأنها ما دامت باقية كان ضياؤها منبسطًا غير ملفوف. أو يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها لأنّ الثواب إذا أريد رفعه لف وطوى. ونحوه قوله: يوم نطوي السماء، وأن يكون من طعنه فجوره وكوّره إذا ألقاه أي: تلقى وتطرح عن فلكها كما وصفت النجوم بالانكدار.

فإن قُلْتَ: ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية! **قُلْتُ**: بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كوّرت، لأنّ إذا يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾.

﴿انكدرت﴾ انقضت. قال: أبصر خربان فضاء فانكدر. ويروى في الشمس والنجوم أنها تطرح في جهنم ليراها من عبدها. كما قال: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾.

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة 512/10، كتاب: فضائل القرآن، باب: من كره أن يفسر القرآن.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك 514/2.

(3) تقدم في سورة الفتح.

(4) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم، زيلعي: 4/ 159.

﴿سيرت﴾ أي: على وجه الأرض وابعدت، أو سيرت في الجو تسيير السحاب. كقوله: ﴿وهي تمرّ مرّ السحاب﴾[1] والعشار في جمع عشراء كالنفاس في جمع نفساء، وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر. ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة وهي انفس ما تكون عند أهلها واعزها عليهم.

وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾.

﴿عطلت﴾ تركت مسيبة مهملة، وقيل: عطلها أهلها عن الحلب والصر لاشتغالهم بأنفسهم. وقرئ: عطلت بالتخفيف.

وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾.

﴿حشرت﴾ جمعت من كل ناحية. قال قتادة: يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص، وقيل: إذا قضى بينها ردّت ترابًا فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاوس ونحوه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: حشرها: موتها. يقال: إذا أجحفت السنة بالناس واموالهم، حشرتهم السنة. وقرئ: حشرت بالتشديد.

وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾.

﴿سجرت﴾ قرئ: بالتخفيف والتشديد، من سجر التنور إذا ملأه بالحطب، أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرًا واحدًا. وقيل: ملئت نيرانًا تضطرم لتعذيب أهل النار. وعن الحسن: يذهب ماؤها فلا تبقى فيها قطرة.

وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾.

﴿زوّجت﴾ قرنت كل نفس بشكلها، وقيل: قرنت الأرواح بالأجساد، وقيل: بكتبها وأعمالها. وعن الحسن: هو كقوله: ﴿وكنتم أزواجًا ثلاثة﴾[2] وقيل: نفوس المؤمنين بالحور، ونفوس الكافرين بالشياطين.

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾.

وإذ يئد مقلوب من آد يؤد، إذا أثقل، قال الله تعالى: ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾[3] لأنه إثقال بالتراب، كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها البسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن اراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها. وقد حفر لها بئرًا في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض. وقيل: كانت الحامل إذا اقربت حفرت حفرةً فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتًا رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابنًا حبسته.

فإن قُلْتَ: ما حملهم على وأد البنات؟ قُلْتُ: الخوف من لحوق العار بهم من أجلهنّ، أو الخوف من الإملاق كما قال الله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾[4] وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به فهو أحق بهنّ، وصعصعة ابن ناجية ممن منع الوأد، فبه افتخر الفرزدق في قوله:

ومنا الذي منع الوائدت ... فأحيا الوئيد فلم توأد

فإن قُلْتَ:

بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾.

فما معنى سؤال الموؤدة عن ذنبها الذي قتلت به. وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها. قُلْتُ: سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت في قوله تعالى لعيسى: ﴿ءأنت قلت للناس﴾ إلى قوله: ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾. وقرئ: سألت أي: خاصمت عن نفسها وسألت الله أو قاتلها. إنما قيل: قتلت بناءً على أن الكلام إخبار عنها، ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت. فقيل: قتلت. أو كلامها حين سئلت لقيل: قتلت. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: قتلت على الحكاية. وقرئ: قتّلت بالتشديد، وفيه دليل بيِّن على أن الأطفال المشركين لا يعذبون، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بالذنب، وإذا بكّت الله الكافر ببراءة الموؤدة من الذنب فما أقبح به وهو الذي لا يظلم مثقال ذرّة أن يكرّ عليها بعد هذا التبكيت فيفعل بها ما تنسى عنده فعل المبكت من العذاب الشديد السرمد. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سئل عن ذلك فاحتجّ بهذه الآية.

وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾.

﴿نشرت﴾ قرئ: بالتخفيف والتشديد، يريد صحف الأعمال. تطوى صحيفة الإنسان عند موته ثم تنشر إذا حوسب. عن قتادة: صحيفتك يا ابن آدم تطوى على عملك ثم تنشر يوم القيامة، فلينظر رجل ما يملي في صحيفته، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق الأمر يا ابن آدم. وعن النبي ﷺ أنه قال: «يحشر الناس عراة حفاة». فقالت أمّ سلمة: كيف بالنساء؟ فقال: «شغل الناس يا أمّ سلمة». قالت: وما شغلهم؟ قال: «نشر الصحف فيها مثاقيل الذرّ ومثاقيل الخردل»[5]. ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها. أي: فرقت بينهم. وعن مرثد بن وداعة: إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية، وتقع

---

(1) سورة النمل، الآية: 88.
(2) سورة الواقعة، الآية: 7.
(3) سورة البقرة، الآية: 255.
(4) سورة الإسراء، الآية: 31.
(5) أخرجه الثعلبي وأصله في الصحيحين، أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (8)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفات الجنة ونعيمها 56، 59.

صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم. أي مكتوب فيها ذلك. وهي صحف غير صحف الأعمال.

وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾.

﴿كشطت﴾ كشفت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة والغطاء عن الشيء. وقرأ ابن مسعود: كشطت، واعتقاب الكاف والقاف كثير. يقال: لبكت الثريد ولبقته والكافور والقافور.

وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾.

﴿سعرت﴾ أوقدت إيقادًا شديدًا، وقرئ: سعرت بالتشديد للمبالغة، قيل: سعرها غضب الله تعالى وخطايا بني آدم.

وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾.

﴿أزلفت﴾ أدنيت من المتقين. كقوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾(1) قيل: هذه اثنتا عشرة خصلة ستّ منها في الدنيا وست في الآخرة. وعلمت هو عامل النصب في إذا الشمس كورت وفيما عطف عليه.

عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾.

فإن قُلْتَ: كل نفس تعلم ما أحضرت كقوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا﴾(2) لا نفس واحدة، فما معنى قوله: ﴿علمت نفس﴾؟ **قُلْتُ:** هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه. ومنه قوله عز وجل: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾(3) ومعناه معنى كم وأبلغ منه وقول القائل:

قد أترك القرن مصفرًا أنامله

وتقول لبعض قواد العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رب فارس عندي، أو لا تعدم عندي فارسًا، وعنده المقانب. وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه أراد إظهار براءته من التزيد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلاً أن يتزيد فجاء بلفظ التقليل ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنّ قارئًا قرأها عنده فلما بلغ علمت نفس ما أحضرت قال: وانقطاع ظهر ياء.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾.

﴿الخنس﴾ الرواجع، بينا ترى النجم في آخر البرج إذا كر راجعًا إلى أوله.

ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾.

و﴿الجواري﴾ السيارة. و﴿الكنس﴾ الغيب من كنس الوحشي إذا دخل كناسه، قيل: هي الدراري الخمسة بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري تجري مع الشمس والقمر وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس. فخنوسها رجوعها، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل. أي: تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها.

وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾.

عسعس الليل وسعسع إذا أدبر. قال العجاج:

حتى إذا الصبح لها تنفسا ... وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وقيل: عسعس إذا أقبل ظلامه.

إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى تنفس الصحيح؟ **قُلْتُ:** إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفسًا له على المجاز. وقيل: تنفس الصبح. ﴿إنه﴾ الضمير للقرآن ﴿لقول رسول كريم﴾ هو جبريل صلوات الله عليه. ﴿ذي قوة﴾ كقوله تعالى: ﴿شديد القوى ذو مرة﴾(4) لما كانت حال المكانة على حسب حال الممكن. قال: ﴿عند ذي العرش﴾(5) ليدل على عظم منزلته ومكانته. ﴿ثم﴾ إشارة

(1) سورة الشعراء، الآية: 90.

(2) سورة آل عمران، الآية: 30.

(3) سورة الحجر، الآية: 2.

(4) سورة النجم، الآيتان: 5 ـ 6.

(5) قال أحمد: ما كان جبريل صلوات الله عليه يرضى منه هذا التفسير المنطوي على التقصير في حق البشير النذير عليه أفضل الصلاة والسلام، ولقد اتبع الزمخشري هواه في تمهيد أصول مذهبه الفاسد، فأخطأ على الأصل والفرع جميعاً، ونحن نبين ذلك بحول الله وقوّته فنقول أولاً: اختلف أهل التفسير فذهب منهم الجم الغفير إلى أن المراد بالرسول الكريم ههنا إلى آخر النعوت: محمد ﷺ، فإن يكن كذلك والله أعلم، فلذلك فضل الله المعتاد على نبيه، وإن كان المراد جبريل عليه السلام، فقد اختلف الناس في المفاضلة بين الملائكة والرسل، والمشهور عن أبي الحسن تفضيل الرسل، ومذهب المعتزلة تفضيل الملائكة، إلا أن المختلفين أجمعوا على أنه لا يسوغ تفضيل أحد القبيلين الجليلين بما يتضمن تنقيص معين من الملائكة ومعين من الرسل؛ لأنّ= التفضيل وإن كان ثابتاً إلا أن في التعيين إيذاء للمفضول، وعليه حمل الحذاق قوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى»، أي: لا تعينوا مفضولاً على التخصيص؛ لأنّ التفضيل على التعميم ثابت بإجماع المسلمين، أي: تفضيل النبي ﷺ على النبيين أجمعين، وكان جدي رحمه الله يوضح ذلك بمثال فيقول: لو قلت بحضرة جماعة من الفقهاء: فلان أفضل أهل عصره، لكان في الجماعة احتمال لهذا التفضيل، وإن لزم اندراجهم في المفضولين، ولو عنيت واحداً منهم وقلت: فلان أفضل منك وأتقى لله، لأسرع به الأذى إلى بغضك، وإذا تقرّر لك أنه لا يلزم من اعتقاد التفضيل على التعميم جواز إطلاق التفضيل على التخصيص، علمت أنّ الزمخشري أخطأ على أصله؛ لأنه بتقدير أن تكون الملائكة أفضل كما يعتقد لا يجوز أن يقال عن أحد من الملائكة على التخصيص أنه أفضل من أحد الأنبياء على التخصيص، لا سيما في سيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم يعود الكلام على الآية بعد تسليم أن المراد جبريل، وبعد أن نكله في تعيينه النبي ﷺ مفضولاً إلى الله، فنقول: لم يذكر فيها نعت إلا وللنبي ﷺ مثله=

إلى الظرف المذكور، أعني عند ذي العرش على أنه عند الله مطاع في ملائكته المقرّبين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه.

مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾.

وقرئ: ﴿ثُم﴾ تعظيمًا للأمانة وبيانًا لأنها أفضل صفاته المعدودة.

وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾.

﴿وما صاحبكم﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿بمجنون﴾ كما تبهته الكفرة. وناهيك بهذا دليلاً على جلالة مكان جبريل عليه السلام وفضله على الملائكة، ومباينةً لمنزلة أفضل الإنس محمد ﷺ إذا وازنت بين الذكرين حين قرن بينهما وقايست بين قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوّة عند ذي العرش مكين مطاع ثمّ أمين﴾[1] وبين قوله: ﴿وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه﴾ ولقد رأى رسول الله ﷺ جبريل.

﴿بالأفق المبين﴾ بمطلع الشمس الأعلى.

وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾.

﴿وما هو﴾ وما محمد على ما يخبر به من الغيب من رؤية جبريل والوحي إليه وغير ذلك ﴿بظنين﴾ بمتهم، من الظنة وهي التهمة. وقرئ: بضنين من الضنّ وهو البخل، أي: لا يبخل بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه، أو يسأل تعليمه فلا يعلمه. وهو في مصحف عبد الله بالظاء، وفي مصحف أبي بالضاد. وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما، وإتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب ومعرفة مخرجيهما مما لا بد منه للقارئ فإنّ أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقا غير صواب، وبينهما بون بعيد فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أضبط يعمل بكلتا يديه وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه وهي أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا وهي أحد الأحرف الذولقية أخت الذال والثاء، ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب.

فإن قُلْتَ: فإن وضع المصلي أحد الحرفين مكان صاحبه! **قُلْتُ**: هو كواضع الذال مكان الجيم والثاء مكان الشين لأنّ التفاوت بين الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتها.

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾.

﴿وما هو﴾ وما القرآن ﴿بقول شيطان رجيم﴾ أي: بقول بعض المسترقة للسمع وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿فأين تذهبون﴾ استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافًا أو ذهابًا في بنيات الطريق أين تذهب مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل.

لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾.

﴿لمن شاء منكم﴾ بدل من للعالمين وإنما أبدلوا منهم لأنّ الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعًا.

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿وما تشاؤون﴾ الاستقامة يا من يشاؤها إلا بتوفيق الله ولطفه، أو وما تشاؤنها أنتم يا من لا يشاؤها إلا بقسر الله وإلجائه، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا الشمس كورت أعاذه الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته»[2].

= أولها رسول كريم، فقد قال في حقه ﷺ في آخر سورة الحاقة: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وقد قيل أيضاً: أنّ المراد جبريل إلا انه يأباه، قوله: ﴿وما هو بقول شاعر﴾ وقد وافق الزمخشري على ذلك فيما تقدم، فهذا أوّل النعوت وأعظمها، وأما قوله: ﴿ذي قوّة﴾ فليس محل الخلاف، إذ لا نزاع في أن لجبريل عليه السلام فضل القوّة الجسمية، ومن يقتلع المدائن بريشة من جناحه لا مراء في فضل قوّته على قوّة البشر، وقد قيل هذا في تفسير قوله: ﴿ذو مرّة فاستوى﴾ وقوله: ﴿عند ذي العرش مكين، مطاع﴾ ثم فقد ثبت طاعة الملائكة أيضاً لنبينا ﷺ، وورد أنّ جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إنّ الله يقرئك السلام، وقد أمر ملك الجبال أن يطيعك عندما آذته قريش فسلم عليه الملك وقال: إن امرتني أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت، فصبر النبي ﷺ واحتسب، وأعظم من ذلك وأشرف مقامه المحمود في الشفاعة الكبرى، يوم لا يتقدمه أحد إذ يقول الله تعالى له: ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل= تعطه واشفع تشفع، وأما أمين فقد قال وهو الصادق المصدوق: والله إني لأمين في الأرض أمين في السماء، وحسبك قوله: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ إن قرأته بالظاء فمعناه: انه ﷺ أمين على الغيب غير متهم، وإن قرأته بالضاد رجع إلى الكرم، فكيف يذهب إلى التفضيل بالنعوت المشتركة بين الفاضل والمفضول سواء، وما لي مباحثة في أصل المسألة، ولكن الردّ عليه في خطئه على كل قول بتعين، وإلا فالمسألة في غير هذا الكتاب، فنسأل الله أن يثبتنا على الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله، وعلى القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يعمر قلوبنا بحبهم، وأن يجعل توسلنا إليه بهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(1) سورة التكوير، الآية: 19.

(2) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 164.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الانفطار مكية

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾.

﴿انفطرت﴾ انشقت.

وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾.

﴿فجرت﴾ فتح بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالمالح وزال البرزخ الذي بينهما وصارت البحار بحرًا واحدًا. وروي أنّ الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية. وهو معنى التسجير عند الحسن. وقرئ: فجرت بالتخفيف. وقرأ مجاهد: فجرت على البناء للفاعل والتخفيف بمعنى بغت لزوال البرزخ. نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿لا يبغيان﴾[1] لأنّ البغي والفجور أخوان.

وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾.

بعثر وبحثر بمعنى وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما. والمعنى: بحثت وأخرج موتاها. وقيل: لبراءة المبعثرة لأنها بعثرت أسرار المنافقين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾.

[2]فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿ما غرّك بربك الكريم﴾؟ وكيف طابق الوصف بالكرم إنكار الاغترار به وإنما يغتر بالكريم كما يروى عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له كرّات فلم يلبه فنظر فإذا هو بالباب فقال له: ما لك لم تجبني؟ قال: لثقتي بحلمك وأمني من عقوبتك. فاستحسن جوابه وأعتقه[3]. وقالوا: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه! قُلْتُ: معناه: أنّ حق الإنسان أن لا يغتر بتكرم الله عليه حيث خلقه حيًا لينفعه، وبتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعدما مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب اغترارًا بالتفضل الأوّل، فإنه منكر خارج من حد الحكمة ولهذا قال رسول الله ﷺ لما تلاها: غرّه جهله[4]. وقال عمر رضي الله عنه: غرّه حمقه وجهله. وقال الحسن: غرّه والله شيطانه الخبيث. أي: زين له المعاصي وقال له: افعل ما شئت فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أوّلاً وهو متفضل عليك آخرًا حتى ورطه. وقيل للفضيل بن عياض: إن أقامك الله يوم القيامة وقال لك: ما غرّك بربك الكريم ماذا تقول؟ قال: أقول غرّتني ستورك المرخاة. وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ في الاغترار بالستر، وليس باعتذار كما يظنه الطماع ويظن به قصاص الحشوية. ويروون عن أئمتهم إنما قال: بربك الكريم، دون سائر صفاته ليلقن عبده الجواب حتى يقول غرّني كرم الكريم. وقرأ سعيد بن جبير: ما أغرّك، إما على التعجب وإما على الاستفهام. من قولك: غرّ الرجل فهو غارّ إذا غفل. من قولك: بيتهم العدوّ وهم غارون، وأغرّه غيره جعله غارًا.

ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾.

﴿فسواك﴾ فجعلك سويًا سالم الأعضاء. ﴿فعدلك﴾ فصيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، ولا بعض الشعر فاحمًا وبعضه أشقر. أو جعلك معتدل الخلق تمشي قائمًا لا كالبهائم. وقرئ: فعدلك بالتخفيف وفيه وجهان: أحدهما أن يكون بمعنى المشدّد أي: عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت، والثاني فعدلك فصرفك. يقال: عدله عن الطريق. يعني: فعدلك عن خلقة غيرك وخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق، أو فعدلك إلى بعض الأشكال والهيآت.

فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾.

ما في ﴿ما شاء﴾ مزيدة، أي: ركبك في أي صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه.

فإن قُلْتَ: هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ما قبلها؟ قُلْتُ: لأنها بيان لعدلك.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق الجار؟ قُلْتُ: يجوز أن يتعلق بركبك على معنى: وضعك في بعض الصور ومكنك فيه، وبمحذوف أي: ركبك حاصلاً في بعض الصور ومحله النصب على الحال إن علق بمحذوف ويجوز أن يتعلق بعدلك ويكون في أي معنى التعجب، أي: فعدلك في صورة عجيبة، ثم قال: ما شاء ركبك. أي: ركبك ما شاء من التراكيب. يعني: تركيبًا حسنًا.

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾.

﴿كلا﴾ ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله والتسلق به وهو موجب الشكر والطاعة إلى عكسهما الذي هو الكفر

---

(1) سورة الرحمٰن، الآية: 20.

(2) قال أحمد: حجة الزمخشري ههنا فارغة، فإنّ الآية إنما وردت في الكفار، بدليل قوله: ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ ونحن نوافقه على خلودهم وانقطاع معاذيرهم، لا على أنّ تخليدهم واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة، فإن الله لا يجب عليه شيء ويجوز عقلاً أن يثيب الكافر ويخلده في الجنة، وبالعكس في المؤمن، ولولا = ورود السمع بإثابة المؤمنين وعذاب الكافرين فيتعين المصير إليه، لكان ما ذكرناه في الجواز والاحتمال، فإنّ الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

(3) لم يخرجه الزيلعي.

(4) ذكره الثعلبي، ورواه الواحدي في تفسيرهما، وأبو عبيدة في كتاب: فضائل القرآن، زيلعي 4/167.

والمعصية. ثم قال: ﴿بل تكذبون بالدين﴾ أصلاً وهو الجزاء، أو دين الإسلام فلا تصدّقون ثوابًا ولا عقابًا وهو شر من الطمع المنكر.

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾.

﴿وإنّ عليكم لحافظين﴾ تحقيق لما يكذبون به من الجزاء، يعني: أنكم تكذبون بالجزاء.

كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾.

والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء وإنه عند الله من جلائل الأمور ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه ويجازي به الملائكة الكرام الحفظة الكتبة، وفيه إنذار وتهويل وتشوير للعصاة ولطف للمؤمنين. وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال: ما أشدّها من آية على الغافلين.

وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾.

﴿وما هم عنها بغائبين﴾ كقوله: ﴿وما هم بخارجين منها﴾[1] ويجوز أن يراد يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك. يعني: في قبورهم. وقيل: أخبر الله في هذه الصورة أنّ لابن آدم ثلاث حالات: حال الحياة التي يحفظ فيها عمله، وحال الآخرة التي يجازى فيها، وحال البرزخ. وهو قوله: ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ يعني: أنّ أمر يوم الدين بحيث لا تدرك دراية دار كنهه في الهول والشدّة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه، والتكرير لزيادة التهويل ثم أجمل القول في وصفه فقال:

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾.

﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا﴾ أي: لا تستطيع دفعًا عنها ولا نفعًا لها بوجه ولا أمر إلا لله وحده، من رفع فعلى البدل من يوم الدين أو على هو يوم لا تملك، ومن نصب فبإضمار يدانون لأنّ الدين يدل عليه أو بإضمار اذكر ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو في محل الرفع. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا السماء انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنةً وبعدد كل قبر حسنة»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المطففين مكية

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾.

التطفيف: البخس في الكيل والوزن، لأنّ ما يبخس شيء طفيف حقير. وروي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وكانوا من أخبث الناس كيلاً فنزلت. فأحسنوا الكيل[3]. وقيل: قدمها وبها رجل يعرف بأبي جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر[4]. وقيل: كان أهل المدينة تجارًا يطففون، وكانت بياعاتهم المنابزة والملامسة والمخاطرة فنزلت. فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم[5] وقال: خمس بخمس. قيل: يا رسول الله، وما خمس بخمس. قال: ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوّهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر[6]، وعن علي رضي الله عنه أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح. فقال له: أقم الوزن بالقسط ثم أرجح بعد ذلك ما شئت، كأنه أمره بالتسوية أولاً ليعتادها ويفصل الواجب من النفل، وعن ابن عباس: إنكم معشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم: المكيال، والميزان. وخص الأعاجم لأنهم يجمعون الكيل والوزن جميعًا وكانا مفرّقين في الحرمين. كان أهل مكة يزنون، وأهل المدينة يكيلون، وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول له: اتق الله وأوف الكيل فإنّ المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمان حتى إن العرق ليلجمهم. وعن عكرمة: أشهد أنّ كل كيال ووزان في النار. فقيل له: إنّ ابنك كيال أو وزان. فقال: أشهد أنه في النار. وعن أبيّ رضي الله عنه: لا تلتمس الحوائج ممن رزقه في رؤوس المكاييل والسن الموازين.

الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾.

لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم[7] ويتحامل فيه عليهم أبدل على مكان من للدلالة على ذلك. ويجوز أن يتعلق على بيستوفون ويقدم المفعول على الفعل لإفادة

---

(1) سورة المائدة، الآية: 37.

(2) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، ورواه الواحدي في تفسيرهم، زيلعي 168/4.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: البيوع (الحديث رقم: 4919)، وأخرجه الحاكم في المستدرك 33/2.

(4) رواه الواحدي في أسباب النزول، ص 25.

(5) قال الزيلعي غريب 172/4.

(6) أخرجه الحاكم في المستدرك 126/2.

(7) قال أحمد: لا منافرة فيه، ولا يجعل هذا القائل الضمير دالاً على مباشرة ولا إشعاراً أيضاً فيه بذلك، إنما يكون نظم الكلام على هذا الوجه، إذا كان الكيل من جهة غيرهم استوفوه، وإذا كان الكيل من جهتهم خاصة أخسروه، سواء باشروه أو لا، وهذا انظم كلام وأحسنه، والله أعلم. والذي يدلك على أن الضمير لا يعطي مباشرة الفعل أن لك أن تقول: الأمراء هم الذين يقيمون الحدود لا السوقة، لست تعني أنهم يباشرون ذلك بأنفسهم، وإنما معناه: أن فعل ذلك من جهتهم خاصة.

الخصوصية. أي: يستوفون على الناس خاصةً، فأما أنفسهم فيستوفون لها. وقال القراء: من وعلى يعتقبان في هذا الموضع لأنه حق عليه. فإذا قال: اكتلت عليك. فكأنه قال: أخذت ما عليك، وإذا قال: اكتلت منك فكقوله: استوفيت منك.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾

والضمير في ﴿كالوهم أو وزنوهم﴾ ضمير منصوب راجع إلى الناس وفيه وجهان: أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال:

ولقد جنيتك أكمؤًا وعساقلاً ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

والحريص يصيدك لا الجواد، بمعنى: جنيت لك ويصيد لك. وأن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، والمضاف هو المكيل أو الموزون ولا يصح أن يكون ضميرًا مرفوعًا للمطففين لأنّ الكلام يخرج به إلى نظم فاسد. وذلك أنّ المعنى: إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا أعطوهم أخسروا، وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك: إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا. وهو كلام متنافر لأنّ الحديث واقع في الفعل لا في المباشر والتعلق في إبطاله بخط المصحف، وأنّ الألف التي تكتب بعد واو الجمع غير ثابتة فيه ركيك، لأنّ خط المصحف لم يراع في كثير منه حدّ المصطلح عليه في علم الخط. على أني رأيت في الكتب المخطوطة بأيدي الأئمة المتقنين هذه الألف مرفوضة لكونها غير ثابتة في اللفظ والمعنى: جميعًا، لأنّ الواو وحدها معطية معنى الجمع وإنما كتبت هذه الألف تفرقة بين واو الجمع وغيرها في نحو قولك: هم لم يدعوا وهو يدعو فمن لم يثبتها قال: المعنى كاف في التفرقة بينهما. وعن عيسى بن عمر وحمزة أنهما كانا يرتكبان ذلك. أي: يجعلان الضميرين للمطففين ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: أو اتزنوا كما قيل: أو وزنوهم! **قُلْتُ:** كان المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنهم يدعدعون ويحتالون في الملء، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعًا. ﴿يخسرون﴾ ينقصون، يقال خسر الميزان وأخسره.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾

﴿ألا يظن﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخمينًا ﴿أنهم مبعوثون﴾ ومحاسبون على مقدار الذرّة والخردلة. وعن قتادة: أوفِ يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك، واعدل كما تحب أن يوفى لك، واعدل كما تحب أن يعدل لك. وعن الفضيل: بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة. وعن عبد الملك بن مروان أنّ أعرابيًا قال له: قد سمعت ما قال الله في المطففين. أراد بذلك أنّ المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن. وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله خاضعين ووصفه ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء بل في كل قول وعمل. وقيل: الظنّ بمعنى اليقين والوجه ما ذكر.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾.

ونصب ﴿يوم يقوم﴾ بمبعوثون. وقرئ: بالجر بدلاً من يوم عظيم. وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾. بكى نحيبًا وامتنع من قراءة بعده.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾.

﴿كلا﴾ ردعهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب ونبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه، ثم أتبعه وعيد الفجار على العموم. وكتاب الفجار ما يكتب من أعمالهم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾.

فإن قُلْتَ: قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه من سجين ودوّن سجينًا بكتاب مرقوم. فكأنه قيل: إنّ كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه؟ **قُلْتُ:** سجين كتاب جامع هو ديوان الشر ودوّن الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس، وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه. فالمعنى: أنّ ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان وسمى سجينًا فعيلاً من السجن وهو الحبس والتضييق لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم، أو لأنه مطروح كما روي تحت الأرض السابعة في مكان وحش مظلم وهو مسكن إبليس وذريّته استهانةً به وإذالةً وليشهده الشياطين المدحورون كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقرّبون.

فإن قُلْتَ: فما سجين أصفة هو أم اسم؟ **قُلْتُ:** بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتم، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾.

﴿الذين يكذبون﴾ مما وصف به للذم لا للبيان كقولك: عاد كلامه.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾.

﴿قال﴾ والتعلق في إبطال هذا بخط المصحف لعدم الألف بعد الواو ركيك إلخ... فعل ذلك فلان الفاسق الخبيث.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾.

﴿كلا﴾ ردع للمعتدي الأثيم عن قوله: ﴿ران على

﴿قلوبهم﴾ ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها، وهو أن يصرّ على الكبائر ويسوّف التوبة حتى يطبع على قلبه فلا يقبل الخير ولا يميل إليه. وعن الحسن: الذنب بعد الذنب حتى يسودّ القلب، يقال: ران عليه الذنب وغان عليه رنياً وغيناً والغين الغيم. ويقال: ران فيه النوم رسخ فيه، ورانت به الخمر ذهبت به، وقرئ: بإدغام اللام في الراء وبالإظهار والإدغام أجود وأميلت الألف وفخمت.

كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾.

﴿كلا﴾ ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم. وكونهم محجوبين عنه تمثيل(1) للاستخفاف بهم وإهانتهم لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرّمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم. قال:

إذا اعتروا باب ذي عبية رجبوا

والناس من بين مرجوب ومحجوب. وعن ابن عباس وقتادة وابن أبي مليكة: محجوبين عن رحمته. وعن ابن كيسان: عن كرامته.

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾.

﴿كلا﴾ ردع عن التكذيب. ﴿وكتاب الأبرار﴾ ما كتب من أعمالهم.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾.

و﴿عليون﴾ علم لديوان الخير الذي دوّن فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين، منقول من جمع عليّ فعيل من العلو كسجين من السجن، سمي بذلك إمّا لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة، وإمّا لأنه مرفوع في السماء السابعة.

يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾.

حيث يسكن الكروبيون تكريمًا له وتعظيمًا. وروي أن الملائكةَ لتصعد بعمل العبد فيستقلونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم، أنكم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه، وأنه أخلص عمله فاجعلوه في عليين فقد غفرت له. وإنها لتصعد بعمل العبد فيزكونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه وأنه لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين(2).

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿الأرائك﴾ الأسرة في الحجال. ﴿ينظرون﴾ إلى ما شاؤوا مد أعينهم إليه من مناظر الجنة وإلى ما أولاهم الله من النعمة والكرامة، وإلى أعدائهم يعذبون في النار وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك.

تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾.

﴿نضرة النعيم﴾ بهجة التنعم وماءه ورونقه، كما ترى في وجوه الأغنياء وأهل الترفه. وقرئ: تعرف على البناء للمفعول، ونضرة النعيم بالرفع. الرحيق الشراب الخالص الذي لا غش فيه.

يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾.

﴿مختوم﴾ تختم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطينة.

خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾.

وقيل: ﴿ختامه مسك﴾ مقطعه رائحة مسك إذا شرب. وقيل: يمزج بالكافور ويختم مزاجه بالمسك. وقرئ: خاتمه بفتح التاء وكسرها، أي: ما يختم به ويقطع. ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ فليرتغب المرتغبون.

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾.

﴿تسنيم﴾ علم لعين بعينها سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه، إمّا لأنها أرفع شراب في الجنة، وإمّا لأنها تأتيهم من فوق، على ما روي أنها تجري في الهواء متسنمةً فتنصب في أوانيهم.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾.

و﴿عينًا﴾ نصب على المدح، وقال الزجاج: نصب على الحال. وقيل: هي للمقربين يشربونها صرفًا وتمزج لسائر أهل الجنة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾.

هم مشركو مكة: أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم. كانوا يضحكون من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزؤن بهم. وقيل: جاء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع، فضحكوا منه فنزلت قبل أن يصل عليّ إلى رسول الله ﷺ.

وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿يتغامزون﴾ يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم.

وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ

---

(1) قال أحمد: هذا عند أهل السنة على ظاهره من أدلة الرؤية، فإن الله تعالى لما خص الفجار بالحجاب دل على أن المؤمنين الأبرار مرفوع عنهم الحجاب، ولا معنى لرفع الحجاب إلا الإدراك بالعين، وإلا فالحجاب على الله تعالى بغير هذا التفسير محال، هذا هو = الحق وما بعد الحق إلا الضلال، وما أرى من جحد الرؤية المدلول عليها بقواطع الكتاب والسنة يحظى بها، والله المسؤول في العصمة.

(2) قال الزيلعي، رواه ابن المبارك في كتاب: الزهد والرقائق 4/173.

هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾.

﴿فكهين﴾ ملتذين بنكرهم والسخرية منهم، أي: ينسبون المسلمين إلى الضلال.

وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿وما أرسلوا﴾ على المسلمين **﴿حافظين﴾** موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم وهذا تهكم بهم أو هو من جملة قول الكفار: وإنهم إذا رأوا المسلمين قالوا: إنّ هؤلاء لضالون، وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكارًا لصدّهم إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام وجدّهم في ذلك.

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿على الأرائك ينظرون﴾ حال من يضحكون أي: يضحكون أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفه وهم على الأرائك آمنون. وقيل: يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم: أخرجوا إليها، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم يفعل ذلك بهم مرارًا فيضحك المؤمنون منهم.

هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾.

ثوبه وأثابه بمعنى إذا جازاه. قال أوس:

سأجزيك أو يجزيك عني مثوّب ... وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي

وقرئ: بإدغام اللام في الثاء، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة انشقت مكية

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾.

حذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب، أو اكتفاءً بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار، وقيل: جوابها ما دل عليه فملاقيه أي: إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه، ومعناه: إذا انشقت بالغمام. كقوله تعالى: ﴿ويوم تشقق السماء﴾[2] بالغمام، وعن علي رضي الله عنه: تنشق من المجرة.

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾.

أذن له، استمع له[3]: ومنه قوله عليه السلام: ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن[4]. وقول جحاف بن حكيم: أذنت لكم لما سمعت هريركم. والمعنى: أنها فعلت في انقيادها لله حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع. كقوله: ﴿أتينا طائعين﴾[5] **﴿وحقت﴾** من قولك: هو محقوق بكذا وحقيق به، يعني: وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع، ومعناه: الإيذان بأنّ القادر بالذات يجب أن يتأتى له كل مقدور ويحق ذلك.

وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾.

﴿مدت﴾ من مد الشيء فامتد، وهو أن تذال جبالها وآكامها وكل أمت فيها حتى تمتد وتنبسط ويستوي ظهرها. كما قال تعالى: قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مدت مد الأديم العكاظي، لأن الأديم إذا مد زال كل انثناء فيه وأمت واستوى، أو من مد بمعنى: أمده، أي: زيدت سعة وبسطة.

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾.

﴿وألقت ما فيها﴾ ورمت بما في جوفها مما دفن فيها من الموتى والكنوز. **﴿وتخلت﴾** وخلت غايةً، والخلو حتى لم يبق شيء في باطنها كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو، كما يقال: تكرم الكريم وترحم الرحيم إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة وتكلفا فوق ما في طبعهما.

﴿وأذنت لربها﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخليها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾.

الكدح: جهد النفس في العمل والكدّ فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلده إذا خدشه. ومعنى: **﴿كادح إلى ربك﴾** جاهد إلى لقاء ربك وهو الموت وما بعده من الحال الممثلة باللقاء. **﴿فملاقيه﴾** فملاقٍ له لا محالة لا مفر لك منه. وقيل: الضمير في ملاقيه للكدح.

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾.

﴿يسيرًا﴾ سهلاً هينًا لا يناقش فيه ولا يعترض بما يسوءه ويشق عليه، كما يناقش أصحاب الشمال. وعن عائشة رضي الله عنها: هو أن يعرّف ذنوبه ثم يتجاوز عنه.

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 174.

(2) سورة الفرقان، الآية: 25.

(3) قال أحمد: ننص تفسير الآية بقوله: القادر بالذات وما باله لا يقول: القادر الذي عمت قدرته الكائنات، حتى لا كون إلا بقدرته حقيق أن= يسمع له ويطاع، فيثبت لله صفة الكمال، ويوحده حق توحيده، وهو خير من سلب صفة الكمال عن الله تعالى، وإشراك مخلوقاته به جل ربنا وعز.

(4) تقدم في سورة إبراهيم.

(5) سورة فصلت، الآية: 11.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «من يحاسب يعذب». فقيل[1]: يا رسول الله فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا. قال: «ذلكم العرض من نوقش في الحساب عذب».

وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾.

﴿إلى أهله﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين أو إلى فريق المؤمنين أو إلى أهله في الجنة من الحور العين.

وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾.

﴿وراء ظهره﴾ قيل: تغل يمناه إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. وقيل: تخلع يده اليسرى من وراء ظهره.

فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾.

﴿يدعو ثبورًا﴾ يقول: يا ثبوراه والثبور الهلاك.

وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾.

وقرئ: ﴿ويصلى سعيرًا﴾ كقوله ﴿وتصلية جحيم﴾[2] ويصلى بضم الياء والتخفيف. كقوله: ﴿ونصله جهنم﴾[3] ﴿في أهله﴾ فيما بين ظهرانيهم أو معهم على أنهم كانوا جميعًا مسرورين، يعني: أنه كان في الدنيا مترفًا بطرًا مستبشرًا كعادة الفجار الذين لا يهمهم أمر الآخرة ولا يفكرون في العواقب، ولم يكن كئيبًا حزينًا متفكرًا كعادة الصلحاء والمتقين وحكاية الله عنهم إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين.

إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾.

﴿ظن أن لن يحور﴾ لن يرجع إلى الله تعالى تكذيبًا بالمعاد. يقال: لا يحور ولا يحول. أي لا يرجع ولا يتغير، قال لبيد: يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع. وعن ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابيةً تقول لبنية لها: حوري. أي: ارجعي.

بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾.

﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفي في لن يحور أي: بلى ليحورن. ﴿إنّ ربه كان به بصيرا﴾ وبأعماله لا ينساها ولا تخفى عليه فلا بد أن يرجعه ويجازيه عليها. وقيل: نزلت الآيتان في أبي سلمة بن عبد الأشد وأخيه الأسود بن عبد الأشد.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾.

الشفق: الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط الشمس، وبسقوطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء، إلا ما يروى عن أبي حنيفة رضي الله عنه في إحدى الروايتين أنه البياض، وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه سمي لرقته، ومنه الشفقة على الإنسان رقة القلب عليه.

وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾.

﴿وما وسق﴾ وما جمع وضم. يقال: وسقه فاتسق واستوسق. قال: مستوسقات لو يجدن سائقًا ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع. ومعناه: وما جمعه وستره وآوى إليه من الدواب وغيرها.

وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾.

﴿إذا اتسق﴾ إذا اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة.

لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾.

قرئ: لتركبن على خطاب الإنسان في يا أيها الإنسان، ولتركبن بالضم على خطاب الجنس لأن النداء للجنس، ولتركبن بالكسر على خطاب النفس، وليركبن بالياء على ليركبن الإنسان. والطبق ما طابق غيره. يقال: ما هذا بطبق لذا. أي: لا يطابقه، ومنه قيل للغطاء: الطبق. وإطباق الثرى ما تطابق منه. ثم قيل للحال المطابقة لغيرها: طبق، ومنه قوله عز وعلا: ﴿طبقًا عن طبق﴾ أي: حالاً بعد حال كل واحدة مطابقة لأختها في الشدّة والهول، ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة. من قولهم: هو على طبقات، ومنه طبق الظهر لفقاره الواحدة طبقةً على معنى لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدّة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها.

فإن قُلْتَ: ما محل عن طبق؟ قُلْتُ: النصب على أنه صفة لطبقًا، أي: طبقًا مجاوزًا لطبق، أو حال من الضمير في لتركبن، أي: لتركبن طبقًا مجاوزين لطبق، أو مجاوزةً على حسب القراءة. وعن مكحول: كل عشرين عامًا تجدون أمرًا لم تكونوا عليه.

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿لا يسجدون﴾ لا يستكينون ولا يخضعون، وقيل: قرأ رسول الله ﷺ ذات يوم: واسجد، واقترب فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر فنزلت[4] وبه احتج أبو حنيفة رضي الله عنه على وجوب السجدة، وعن ابن عباس: ليس في المفصل سجدة. وعن

(1) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من سمع شيئًا فراجع حتى يعرفه (الحديث رقم: 103) وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة، باب: إثبات الحساب (الحديث رقم: 79 ـ 2876).

(2) سورة الواقعة، الآية: 94.

(3) سورة النساء، الآية: 115.

(4) لم يخرجه الزيلعي.

أبي هريرة رضي الله عنه أنه سجد فيها. وقال: والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها[1]. وعن أنس: صليت خلف أبي بكر وعمر وعثمان فسجدوا. وعن الحسن: هي غير واجبة.

﴿الذين كفروا﴾ إشارةٌ إلى المذكورين.

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿بما يوعون﴾ بما يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغي والبغضاء.

فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾.

أو بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء ويدخرون لأنفسهم من العذاب.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾.

﴿إلا الذين آمنوا﴾ استثناء منقطع. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة انشقت أعاذه الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة البروج مكية

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾.

هي البروج الاثنا عشر وهي قصور السماء على التشبيه، وقيل: البروج النجوم التي هي منازل القمر، وقيل: عظام الكواكب سميت بروجًا لظهورها، وقيل: أبواب السماء.

وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾.

﴿واليوم الموعود﴾ يوم القيامة.

وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾.

﴿وشاهد ومشهود﴾ يعني: وشاهد في ذلك اليوم ومشهود فيه. والمراد بالشاهد من يشهد فيه من الخلائق كلهم، وبالمشهود ما في ذلك اليوم من عجائبه وطريق تنكيرهما: إما ما ذكرته في قوله علمت نفس ما أحضرت، كأنه قيل: وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود، وإما الإبهام في الوصف، كأنه قيل: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما، وقد اضطربت أقاويل المفسرين فيهما فقيل: الشاهد والمشهود محمد ﷺ ويوم القيامة، وقيل: عيسى وأمّته. لقوله: وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم. وقيل: أمّة محمد وسائر الأمم. وقيل: يوم التروية ويوم عرفة. وقيل: يوم عرفة ويوم الجمعة، وقيل: الحجر الأسود والحجيج. وقيل: الأيام والليالي وبنو آدم. وعن الحسن: ما من يوم إلا وينادي إني يوم جديد وإني على ما يعمل فيّ شهيد، فاغتنمني فلو غابت شمسي لم تدركني إلى يوم القيامة، وقيل: الحفظة وبنو آدم، وقيل: الأنبياء ومحمد عليه السلام.

قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾.

فإن قُلْتَ: أين جواب القسم؟ قُلْتُ: محذوف يدل عليه قوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾. كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونين. يعني: كفار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود. وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحروقين بالنار ملعونين أحقاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش، كما قيل: قتل أصحاب الأخدود. وقتل دعاء عليهم، كقوله: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾[3] وقرئ: ﴿قتّل﴾ بالتشديد، والأخدود: الخدّ في الأرض وهو الشقّ ونحوهما بناء ومعنى الخق والأخقوق ومنه فساخت قوائمه في أخاقيق جرذان. روي عن النبي ﷺ أنه قال: كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضمّ إليه غلامًا ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهب فسمع منه. فرأى في طريقه ذات يوم دابةً قد حبست الناس فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان الراهب أحبّ إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها، فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء. وعمي جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله فقال: من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربي. فغضب فعذبه، فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب فلم يرجع الراهب عن دينه، فقدّ بالمنشار وأبى الغلام. فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا فذهب به إلى قرقور فلججوا به ليغرقوه، فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا. فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جزع، وتأخذ سهمًا من كنانتي، وتقول بسم الله رب الغلام، ثم ترميني به. فرماه، فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر. فأمر بأخاديد في أفواه السكك وأوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست أن تقع فيها فقال الصبي: يا أماه اصبري فإنك على الحق

(1) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: سجدة إذا السماء انشقت (الحديث رقم: 1074)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (الحديث رقم: 1018 ـ 578).

(2) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 178.

(3) سورة عبس، الآية: 17.

فافتحمت[1]. وقيل: قال لها قعي ولا تنافقي. وقيل: قال لها ما هي إلا غميضة فصبرت. وعن علي رضي الله عنه أنهم حين اختلفوا في أحكام المجوس قال: هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها بعض ملوكهم فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج. فقالت له: المخرج أن تخطب الناس فتقول: يا أيها الناس إنّ الله أحل نكاح الأخوات، ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول إنّ الله حرّمه، فخطب فلم يقبلوا منه، فقالت له: ابسط فيهم السوط. فلم يقبلوا. فقالت له: ابسط فيهم السيف. فلم يقبلوا، فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران وطرح من أبى فيها. فهم الذين أرادهم الله بقوله: قتل أصحاب الأخدود[2]. وقيل: وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا. فأحرق منهم اثني عشر ألفًا في الأخاديد. وقيل: سبعين ألفًا[3]. وذكر أنّ طول الأخدود أربعون ذراعًا وعرضه اثنا عشر ذراعًا[4]. وعن النبي ﷺ أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوّذ من جهد البلاء[5].

ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾.

﴿النار﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذات الوقود﴾ وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس. وقرئ: الوقود بالضم.

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾.

﴿إذ﴾ ظرف لقتل أي: لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها. ومعنى: ﴿عليها﴾ على ما يدنو منها من حافات الأخدود. كقوله: وبات على النار الندى والمحلق. وكما تقول: مررت عليه تريد مستعليًا لمكان يدنو منه.

وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾.

ومعنى شهادتهم على إحراق المؤمنين أنهم وكلوا بذلك وجعلوا شهودًا يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنّ أحدًا منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب. ويجوز أن يراد أنهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين يؤدون شهادتهم يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾.

﴿وما نقموا منهم﴾ وما عابوا منهم وما نكروا إلا الإيمان، كقوله: ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم. قال ابن الرقيات:

ما نقموا من بني أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا

وقرأ أبو حيوة: نقموا بالكسر والفصيح: هو الفتح، وذكر الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويعبد وهو كونه عزيزًا غالبًا قادرًا يخشى عقابه، حميدًا منعمًا يجب له الحمد على نعمته ويرجى ثوابه.

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾.

﴿له ملك السموات والأرض﴾، فكل من فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له تقديرًا لأن ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغي وإن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب لا يعدله عذاب. ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ وعيد لهم. يعني: أنه علم ما فعلوا أو هو مجازيهم عليه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾.

يجوز أن يريد بالذين فتنوا أصحاب الأخدود خاصةً، وبالذين آمنوا المطروحين في الأخدود، ومعنى: فتنوهم، عذبوهم بالنار وأحرقوهم. ﴿فلهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب جهنم﴾ بكفرهم ﴿ولهم عذاب الحريق﴾ وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق بإحراقهم المؤمنين، أو لهم عذاب جهنم في الآخرة ولهم عذاب الحريق في الدنيا. لما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم. ويجوز أن يريد الذين فتنوا المؤمنين أي: بلوهم بالأذى على العموم، والمؤمنين المفتونين وأن للفاتنين عذابين في الآخرة: لكفرهم ولفتنتهم.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾.

البطش الأخذ بالعنف، فإذا وصف بالشدّة فقد تضاعف وتفاقم وهو بطشه بالجبابرة والظلمة وأخذهم بالعذاب والانتقام.

إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾.

﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ أي: يبدئ البطش ويعيده، يعني: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة، أو دل باقتداره على الإبداء والإعادة على شدّة بطشه، أو أوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبداهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا نعمة الإبداء وكذبوا بالإعادة. وقرئ: يبدأ.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الرقائق، باب: الأدعية، (الحديث رقم: 873) وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البروج، (الحديث رقم: 3340) وأخرجه أحمد في المسند 17/6.

(2) قال الزيلعي: رواه عبد بن حميد في تفسيره، والطبري في تفسيره، والواحدي في الوسيط، وأخرجه البيهقي في كتاب: = المعرفة 184/4.

(3) ذكره ابن هشام في السيرة 35/1.

(4) ذكره الثعلبي في تفسيره، زيلعي 155/4.

(5) رواه ابن أبي شيبة 227/13 في كتاب: الزهد، باب: عن النبي ﷺ في الزهد.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾.

وقرئ: يبدأ ﴿الودود﴾ الفاعل بأهل طاعته ما يفعله الودود من إعطائهم ما أرادوا.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

وقرئ: ذي العرش صفة لربك، وقرئ: المجيد بالجر صفة للعرش ومجد الله عظمته، ومجد العرش علوه وعظمته.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فعال﴾ خبر مبتدأ محذوف. وإنما قيل: فعال لأنّ ما يريد ويفعل في غاية الكثرة(1).

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فرعون وثمود﴾ بدل من الجنود وأراد بفرعون إياه وآله كما في قوله ﴿من فرعون وملئهم﴾(2). والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود المرسل وما نزل بهم لتكذيبهم.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿بل الذين كفروا﴾ من قولك: ﴿في تكذيب﴾ أي: تكذيب واستيجاب للعذاب والله عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

والإحاطة بهم من ورائهم، مثل لأنهم لا يفوتونه كما لا يفوت فائت الشيء المحيط به، ومعنى الإضراب أن أمرهم عجب من أمر أولئك لأنهم سمعوا بقصصهم وبما جرى عليهم ورأوا آثار هلاكهم ولم يعتبروا وكذبوا أشدّ من تكذيبهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿بل هو﴾ أي: بل هذا الذي كذبوا به ﴿قرآن مجيد﴾ شريف عالي الطبقة في الكتب وفي نظمه وإعجازه، وقرئ: قرآن مجيد بالإضافة: أي: قرآن رب مجيد. وقرأ يحيى بن يعمر: في لوح: واللوح، الهواء. يعني: اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿محفوظ﴾ من وصول الشياطين إليه. وقرئ: محفوظ بالرفع صفة القرآن. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة البروج أعطاه الله بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون في الدنيا عشر حسنات»(3).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الطارق مكية

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾.

﴿النجم الثاقب﴾ المضيء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه. كما قيل: درئ لأنه يدرؤه أي: يدفعه، ووصف بالطارق لأنه يبدو بالميل، كما يقال: للآتي ليلاً طارق، أو لأنه يطرق الجنى أي: يصكه. والمراد: جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرجم بها.

فإن قُلْتَ: ما يشبه قوله: وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب، إلا ترجمة كلمة بأخرى. فبين لي أي فائدة تحته؟ قُلْتُ: أراد الله عز من قائل أن يقسم بالنجم الثاقب تعظيمًا له لما عرف فيه من عجيب القدرة ولطيف الحكمة، وأنه ينبه على ذلك. فجاء بما هو صفة مشتركة بينه وبين غيره وهو الطارق. ثم قال: وما أدراك ما الطارق؟ ثم فسره بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾ كل هذا إظهار لفخامة شأنه. كما قال: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾(4) روي أنّ أبا طالب كان عند رسول الله ﷺ فانحط نجم فامتلأ ماثم نورًا فجزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال عليه السلام: «هذا نجم رُمِيَ به وهو آية من آيات الله». فعجب أبو طالب فنزلت(5).

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

فإن قُلْتَ: ما جواب القسم؟ قُلْتُ:

﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ لأنّ إن لا تخلو فيمن قرأ لما مشدّدة بمعنى: إلا أن تكون نافية، وفيمن قرأها مخففة على أن ما صلة تكون مخففة من الثقيلة، وأيتهما كانت فهي مما يتلقى به القسم حافظ مهيمن عليها رقيب وهو الله عز وجل وكان الله على كل شيء رقيبًا وكان الله على كل شيء مقيتًا، وقيل: ملك يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خير وشر. وروي عن النبي ﷺ: وكل بالمؤمن مائة وستون ملكًا يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين(6).

---

(1) قال أحمد: ما قدر الله حق قدره، هلا قال: إنه لا فاعل إلا هو، وهل المخالف لذلك إلا مشرك، وكم أراد الله تعالى على معتقد القدرية من فعل فلم يفعله، وهب أنا طرحنا النظر في مقتضى مبالغة الصيغة، أليس قد دل بقوله لما يريد على عموم فعله في جميع مراده، فما رده إلى الخصوص إلا نكوص عن النصوص.

(2) سورة يونس، الآية: 83.

(3) ذكره الثعلبي وابن مردويه، والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/ 186.

(4) سورة الواقعة، الآيتان: 75 ـ 76.

(5) رواه الواحدي في أسباب النزول ص 250.

(6) رواه الطبراني في معجمه.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾.

فإن قُلْتَ:ما وجه اتصال قوله: ﴿فلينظر﴾ بما قبله؟ قُلْتُ:وجه اتصاله به أنه لما نكر أن على كل نفس حافظًا اتبعه توصية الإنسان بالنظر في أوّل أمره ونشأته الأولى حتى يعلم أنّ من نشاه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبته. و﴿مم خلق﴾ استفهام جوابه.

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾.

﴿خُلق من ماء دافق﴾. والدفع صب فيه دفع، ومعنى دافق: النسبة إلى الدفق الذي هو مصدر دفق، كاللابن والتامر، أو الإسناد المجازي والدفق في الحقيقة لصاحبه. ولم يقل ماءين لامتزاجهما في الرحم واتحادهما حين ابتدئ في خلقه.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

﴿من بين الصلب والترائب﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي عظام الصدر حيث تكون القلادة، وقرئ: الصلب بفتحتين، والصلب بضمتين. وفيه أربع لغات: صلب وصلب وصلب وصالب. قال العجاج: في صلب مثل: العنان المؤدم، وقيل: العظم والعصب من الرجل، واللحم والدم من المرأة.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾.

﴿إنه﴾ الضمير للخالق لدلالة خلق عليه. ومعناه: أنّ ذلك الذي خلق الإنسان ابتداءً من نطفة ﴿على رجعه﴾ على إعادته خصوصًا ﴿لقادر﴾ لبين القدرة لا يلتاث عليه ولا يعجز عنه. كقوله: إنني لفقير.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾.

﴿يوم تبلى﴾ منصوب برجعه ومن جعل الضمير في رجعه للماء وفسره برجعه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو الإحليل أو إلى الحالة الأولى نصب الظرف بمضمر. ﴿السرائر﴾ ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفي من الأعمال. وبلاؤها تعرّفها وتصفحها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث. وعن الحسن أنه سمع رجلاً ينشد:

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا سريرة وبيوم تبلى السرائر

فقال: ما أغفله عما في والسماء والطارق.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

﴿فما له﴾ فما للإنسان ﴿من قوّة﴾ من منعة في نفسه يمتنع بها، ﴿ولا ناصر﴾ ولا مانع يمنعه، سمي المطر رجعًا كما سمي أوبًا قال:

رباء[1] شماء[2] لا ياوي لقلتها[3] إلا السحاب وإلا الأوب[4] والسبل

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾.

تسمية بمصدري رجع وآب، وذلك أنّ العرب كانوا يزعمون أنّ السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض، أو أرادوا التفاؤل فسموه رجعًا وأوبًا ليرجع ويؤب. وقيل: لأنّ الله يرجعه وقتًا فوقتًا قالت الخنساء: كالرجع في المدجنة السارية.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾.

والصدع ما يتصدّع عنه الأرض من النبات.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾.

﴿إنه﴾ الضمير للقرآن، ﴿فصل﴾ فاصل بين الحق والباطل. كما قيل له: فرقان.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾.

﴿وما هو بالهزل﴾ يعني: أنه جدّ كله لا هوادة فيه. ومن حقه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيبًا في الصدور معظمًا في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح، وأن يلقى ذهنه إلى أنّ جبار السموات يخاطبه فيأمره وينهاه ويعده ويوعده، حتى إن لم يستفزه الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية فادنى أمره أن يكون جادًّا غير هازل. فقد نعى الله ذلك على المشركين في قوله: وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون والغوا فيه.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾.

﴿إنهم﴾ يعني: أهل مكة يعملون المكايد في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾.

وأنا أقابلهم بكيدي من استدراجي لهم وانتظاري بهم الميقات الذي وقته للانتصار منهم.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾.

﴿فمهِّل الكافرين﴾ يعني: لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به. ﴿أمهلهم رويدًا﴾ أي: إمهالاً يسيرًا، وكرّر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتصبير. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الطارق أعطاه الله بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات»[5].

---

(1) رباء: من ربأ إذا علا وارتفع.

(2) شماء: من شمم بمعنى الارتفاع، ويقال: اسم أكَمَةٍ.

(3) لقلتها: أي لعلوها.

(4) الأوب: النحل.

(5) ذكره الثعلبي، والواحدي، وابن مردويه في تفاسيرهم، زيلعي: 4/ 190.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة سبح اسم ربك الأعلى مكية

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾.

تسبيح اسمه عز وعلا تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني التي هي إلحاد في أسمائه كالجبر والتشبيه. ونحو ذلك مثل أن يفسر الأعلى بمعنى العلو الذي هو القهر والاقتدار لا بمعنى العلوّ في المكان والاستواء على العرش حقيقة، وأن يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم. ويجوز أن يكون الأعلى صفة للرب والاسم. وقرأ علي رضي الله عنه: سبحان ربيَ الأعلى. وفي الحديث: لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال: «اجعلوها في سجودكم»[1]. وكانوا يقولون في الركوع: اللهم لك ركعت، وفي السجود اللهم لك سجدت.

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾.

﴿خلق فسوّى﴾ أي: خلق كل شيء فسوّى خلقه تسويةً ولم يأتِ به متفاوتًا غير ملتئم، ولكن على إحكام واتساق ودلالة على أنه صادر عن عالم وأنه صنعة حكيم.

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾

﴿قدّر فهدى﴾ قدّر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به. يُحكى أنّ الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عميت، وقد ألهمها الله أنّ مسح العين بورق الرازيانج الغض يردُّ إليها بصرها. فربمّا كانت في برية بينها وبين الريف مسيرة أيام فتطوي تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله. وهدايات الله للإنسان إلى ما لا يحدّ من مصالحه وما لا يحصر من حوائجه في أغذيته وأدويته وفي أبواب دنياه ودينه. وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض باب واسع وشوط بطين لا يحيط به وصف واصف فسبحان ربي الأعلى. وقرئ: قدر بالتخفيف. أحوى صفة لغثاء أي.

﴿أخرج المرعى﴾، أنبته.

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾.

﴿فجعله﴾ بعد خضرته ورفيفه ﴿غثاءً أحوى﴾ دريئًا أسود، ويجوز أن يكون أحوى حالاً من المرعى، أي: أخرجه أحوى أسود من شدّة الخضرة والري فجعله غثاءً بعد حوّته بشّره الله بإعطاء آية بيِّنة وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي وهو أُمّي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه.

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾.

﴿إلا ما شاء الله﴾ فذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته، كقوله: أو ننسها، وقيل: كان يعجل بالقراءة إذا لقنه جبريل فقيل: لا تعجل فإنّ جبريل مأمور بأن يقرأه عليك قراءةً مكررةً إلى أن تحفظه ثم لا تنساه إلا ما شاء الله ثم نذكره بعد النسيان، أو قال: إلا ما شاء الله، يعني: القلة والندرة، كما روي أنه أسقط آيةً في قراءته في الصلاة فحسب أبي أنها نسخت فسأله فقال: نسيتها. أو قال: إلا ما شاء الله[2]. والغرض نفي النسيان رأسًا، كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء الله، ولا يقصد استثناء شيء. وهو من استعمال القلة في معنى النفي. وقيل قوله: فلا تنسى، على النهي والألف مزيدة للفاصلة كقوله: السبيلا. يعني: فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة. ﴿إنه يعلم الجهر﴾ يعني: أنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام مخافة التفلت، والله يعلم جهرك معه وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر فلا تفعل فأنا أكفيك ما تخافه، أو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم وما ظهر وبطن من أحوالكم وما هو مصلحة لكم في دينكم ومفسدة فيه فينسى من الوحي ما يشاء ويترك محفوظًا ما يشاء.

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾.

﴿ونيسرك لليسرى﴾ معطوف على سنقرئك وقوله: ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ اعتراض، ومعناه: نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل، يعني: حفظ الوحي. وقيل: للشريعة السمحة التي هي أيسر الشرائع وأسهلها مأخذًا. وقيل: نوفقك لعمل الجنة.

فإن قُلْتَ: كان الرسول ﷺ مأمورًا بالذكرى نفعت أو لم تنفع فما معنى اشتراط النفع؟ قُلْتُ: هو على وجهين: أحدهما أنّ رسول الله ﷺ قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوًّا وطغيانًا، وكان النبي ﷺ يتلظى حسرة وتلهفًا ويزداد جدًا في تذكيرهم وحرصًا عليه. فقيل له: وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد وأعرض عنهم وقل سلام.

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾.

---

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: صفة الصلاة، (الحديث: 1898) وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، (الحديث رقم: 869) وأخرجه ابن ماجه في الإقامة، باب: التسبيح في الركوع، (الحديث رقم: 887) وأخرجه = أحمد في المسند 4/155.

(2) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، والطبري والبخاري في الأدب المفرد، زيلعي 4/194.

وذكِّر إن نفعت الذكرى وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير، والثاني أن يكون ظاهره شرطًا ومعناه ذمًّا للمذكرين وإخبارًا عن حالهم واستبعادًا لتأثير الذكرى فيهم وتسجيلاً عليهم بالطبع على قلوبهم كما تقول للواعظ: عِظ المكاسين إن سمعوا منك. قاصدًا بهذا الشرط استبعاد ذلك وأنه لن يكون.

سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾.

﴿سيذكر﴾ فيقبل التذكرة وينتفع بها ﴿من يخشى﴾ الله وسوء العاقبة فينظر حتى يقوده ويفكر النظر إلى اتباع الحق. فأمّا هؤلاء فغير خاشين ولا ناظرين فلا تأمل أن يقبلوا منك.

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾.

﴿ويتجنبها﴾ ويتجنب الذكرى ويتحاماها ﴿الأشقى﴾ الكافر لأنه أشقى من الفاسق، أو الذي هو أشقى من الكفرة لتوغله في عداوة رسول الله ﷺ. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾.

﴿النار الكبرى﴾ السفلى من أطباق النار[1]. وقيل: الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا. وقيل: ثم لأنّ الترجح بين الحياة والموت أفظع من الصلى فهو متراخٍ عنه في مراتب الشدّة. والمعنى: لا يموت فيستريحَ ولا يحيى حياةً تنفعه.

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾.

﴿تزكّى﴾ تطهّر من الشرك والمعاصي، أو تطهّر للصلاة، أو تكثر من التقوى، من الزكاة وهو النماء، أو تفعل من الزكاة كتصدق من الصدقة.

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾.

﴿فصلى﴾ أي: الصلوات الخمس. نحو قوله: وأقام الصلاة وآتى الزكاة. وعند ابن مسعود: رحم الله امرءًا تصدق وصلى. وعن علي رضي الله عنه أنه التصدق بصدقة الفطر. وقال: لا أبالي أن لا أجد في كتابي غيرها لقوله: ﴿قد أفلح من تزكّى﴾ أي: أعطى زكاة الفطر فتوجه إلى المصلى فصلى صلاة العيد وذكر اسم ربه فكبر تكبيرة الافتتاح. وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة لأنّ الصلاة معطوفة عليها وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلى له. وعن الضحاك: وذكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى صلاة العيد.

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾.

﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ فلا تفعلون ما تفلحون به. وقرئ: تؤثرون على الغيبة. ويعضد الأولى قراءة ابن مسعود: بل أنتم تؤثرون.

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾.

﴿خير وأبقى﴾ أفضل في نفسها وأنعم وأدوم. وعن عمر رضي الله عنه: ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنب.

إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾.

﴿هذا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قد أفلح﴾ إلى ﴿أبقى﴾، يعني: أنّ معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف وقيل: إلى ما في السورة كلها. وروي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ: كم أنزل الله من كتاب؟ فقال: مائة وأربعة كتب: منها على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسون صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان[2]. وقيل: إنّ في صحف إبراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظًا للسانه عارفًا بزمانه مقبلاً على شأنه، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف»[3].

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾.

أنزله الله تعالى على إبراهيم وموسى ومحمد، وكان إذا قرأها قال: سبحان ربيَ الأعلى[4]، وكان علي وابن عباس يقولان ذلك وكان يحبها[5]، وقال: أول من قال سبحان ربي الأعلى ميكائل[6].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الغاشية مكية

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾.

﴿الغاشية﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها. يعني: القيامة. من قوله: يوم يغشاهم الصلى إلخ. قوله تعالى: ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه

---

(1) قال أحمد: يشير إلى خلود الفاسق مع الكافر في أسافل النار، والفاسق أعلى منه كما تقدّم له التصريح بذلك كثيراً.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات وثوابها، (الحديث رقم: 361).

(3) ذكره ابن مردويه، وذكره الثعلبي والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 197/4.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء في الصلاة، (الحديث رقم: 883). وأخرجه الحاكم في المستدرك 263/1.

(5) ذكره الواحدي في تفسيره، والثعلبي في تفسيره، زيلعي 197/4 ـ 198.

(6) ذكره الواحدي في تفسيره، والثعلبي في تفسيره، زيلعي 197/4.

فصلى﴾[1] نقل عن علي أنه قال: هو التصدّق بصدقة الفطر. وقال: لا أبالي أن لا أجد في كتابي غيرها إلخ. قال أحمد: في تلقي هذين الحكمين الآخرين من الآية تكلف، أمّا الأوّل فلأنّ العطف وإن اقتضى المغايرة فيقال بموجبها فنحن إن قلنا: أن تكبيرة الإحرام جزء من الصلاة فالجزء مغاير للكل فلا غرو أن يعطف عليه، والمغايرة مع الجزئية ثابتة والحالة هذه. وأمّا الثاني فلأنّ الاسم معرف بالإضافة، وتعريف الإضافة عهدي عند محققي الفن حتى أن القائل إذا قال: جاءني غلام زيد، ولزيد غلامان، فإنما تفهم من قوله: معينًا منهم بسابق عهد بينك وبينه. وهذا مهيع تعريف الإضافة والمعهود في افتتاح الصلاة ما استمر النبي ﷺ على العمل به قولاً وفعلاً وهو التكبير المعروف. ولو تنزلنا على أنه في الآية مطلق فالحصر في قوله: تحريمها التكبير قيد إطلاقه. وعاد كلامه ونقل عن الضحاك: أنّ المراد ذكر الله بالتكبير في طريق المصلى فصلى صلاة العيد. العذاب وقيل: النار. من قوله: وتغشى وجوههم النار ومن فوقهم غواشٍ.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾.

﴿يومئذٍ﴾ يوم إذ غشيت ﴿خاشعة﴾ ذليلة.

عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾.

﴿عاملة ناصبة﴾ تعمل في النار عملاً تتعب فيه وهو جرها السلاسل[2] والأغلال وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل وارتقاؤها دائبة في صعود من نار وهبوطها في حدور منها. وقيل: عملت في الدنيا أعمال السوء والتذّت بها وتنعّمت فهي في نصب منها في الآخرة. وقيل: عملت ونصبت في أعمال لا تجدي عليها في الآخرة. من قوله: وقدمنا إلى ما عملوا من عمل وهم يحسبون أنهم محسنون صنعًا أولئك الذين حبطت أعمالهم. وقيل: هم أصحاب الصوامع. ومعناه: أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب. وقرئ: عاملة ناصبة على الشتم.

تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾.

قرئ: ﴿تَصْلى﴾ بفتح التاء، و﴿تُصْلى﴾ بضمها، وتصلى بالتشديد. وقيل: المصلى عند العرب أن يحفر حفيرًا فيجمعوا فيه جمرًا كثيرًا ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه. فأما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلى أو في التنور فلا يسمى مصليًا.

تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾.

﴿آنية﴾ متناهية في الحر. كقوله: ﴿وبين حميم آن﴾[3] الضريع يبيس الشبرق وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبًا فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل. قال أبو ذؤيب:

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى ... وعاد ضريعًا بان عنه النحائص

وقال:

وحبسن في هزم الضريع فكلها ... حدباء دامية اليدين حرود

لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وفي الحاقة ولا طعام إلا من غسلين! قُلْتُ: العذاب ألوان والمعذبون طبقات: فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع. لكل باب منهم جزء مقسوم.

لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾.

﴿لا يسمن﴾ مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع، يعني: أنّ طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس وإنما هو شوك، والشوك مما ترعاه الإبل[4] وتتولع به وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه. ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه وهما إماطة الجوع وإفادة القوّة والسمن في البدن، أو أريد أن لا طعام لهم أصلاً لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس لأن الطعام ما أشبع أو أسمن وهو منهما بمعزل، كما تقول: ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفي الظل على التوكيد، وقيل: قالت كفار قريش إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت ﴿لا يسمن﴾ فلا يخلو إما أن يتكذبوا ويتعنتوا بذلك وهو الظاهر فيردّ قولهم بنفي السمن والشبع، وإما أن يصدقوا. فيكون المعنى: أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم إنما هو من ضريع غير مسمن ولا مغنٍ من جوع.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾.

﴿ناعمة﴾ ذات بهجة وحسن. كقوله: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾[5] أو متنعمة.

لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾.

---

(1) سورة الأعلى، الآية: 14.

(2) قال أحمد: الوجه الأول متعين؛ لأنّ الظرف المنكور وهو قوله: يومئذ مقطوع عن الجملة المضاف إليها تقديرها يوم إذ غشيت، وذلك في الآخرة بلا إشكال، وهو ظرف لجميع الصفات المخبر بها، أعني ﴿خاشعة عاملة ناصبة﴾ فكيف يتناول أعمال الدنيا.

(3) سورة الرحمٰن، الآية: 44.

(4) قال أحمد: فعلى الوجه الأوّل يكون صفة مخصصة لازمة ذكرت شارحة لحقيقة الضريع، وعلى الثاني تكون صفة مخصصة.

(5) سورة المطففين، الآية: 24.

﴿لسعيها راضية﴾ رضيت بعملها لما رأت ما أدّاهم إليه من الكرامة والثواب.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾.

﴿عالية﴾ من علو المكان أو المقدار.

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾.

﴿تسمع﴾ يا مخاطب أو الوجوه. ﴿لاغية﴾ أي: لغوًا، أو كلمةً ذات لغو، أو نفسًا تلغو. لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم. وقرئ: لا تسمع، على البناء للمفعول بالتاء والياء.

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾.

﴿فيها عين جارية﴾ يريد عيونًا في غاية الكثرة. كقوله: علمت نفس.

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾.

﴿مرفوعة﴾ من رفعة المقدار أو السمك ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوّله ربه من الملك والنعيم. وقيل: مخبوّة لهم، من رفع الشيء إذا خبأه.

وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾.

﴿موضوعة﴾ كلما أرادوها وجدوها موضوعة بين أيديهم، عتيدة حاضرة لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها، أو موضوعة على حافات العيون معدّة للشرب. ويجوز أن يراد: موضوعة عن حدّ الكبار أوساط بين الصغر والكبر. كقوله: ﴿قدروها تقديرًا﴾[1].

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾.

﴿مصفوفة﴾ بعضها إلى جنب بعض. مساند ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على مسورة واستند إلى أخرى.

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾.

﴿وزرابيّ﴾ وبسط عراض فاخرة. وقيل: هي الطنافس التي لها خمل وقيق جمع زربية. ﴿مبثوثة﴾ مبسوطة أو مفرّقة في المجالس.

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل﴾ نظر اعتبار، ﴿كيف خلقت﴾ خلقًا عجيبًا دالاً على تقدير مقدر شاهدًا بتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالأثقال وجرّها إلى البلاد الشاحطة فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وسخّرها منقادةً لكل من اقتادها بأزمتها لا تعاز ضعيفًا ولا تمانع صغيرًا، وبراها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار. وعن بعض الحكماء أنه حدّث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل بها ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق. وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى إن أظماءها لترتفع إلى العشر فصاعدًا وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم. وعن سعيد بن جبير قال: لقيت شريحًا القاضي فقلت: أين تريد؟ قال: أريد الكناسة. قلت: وما تصنع بها، قال: انظر إلى الإبل كيف خلقت.

فإن قُلْتَ: كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة! قُلْتُ: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم. ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة، ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك. وإنما رأى السحاب مشبهًا بالإبل كثيرًا في أشعارهم فجوّز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز.

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾.

﴿كيف رفعت﴾ رفعًا بعيد المدى بلا مساك وبغير عمد. و﴿كيف نصبت﴾ نصبًا ثابتًا فهي راسخة لا تميل ولا تزول.

و﴿كيف سطحت﴾ سطحًا بتمهيد وتوطئة فهي مهاد للمتقلب عليها. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير: فعلتها، فحذف المفعول، وعن هرون الرشيد أنه قرأ سطحت بالتشديد والمعنى: أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه. أي: لا ينظرون فذكرهم ولا تلح عليهم ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يذكرون.

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾.

﴿إنما أنت مذكر﴾ كقوله: إن عليك إلا البلاغ.

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾.

﴿لست عليهم بمسيطر﴾ بمتسلط. كقوله: وما أنت عليهم بجبار. وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء على أن سيطر متعدٍ عندهم. وقولهم: تسيطر، يدل عليه.

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾.

﴿إلا من تولى﴾ استثناء منقطع. أي: لست بمستولٍ عليهم ولكن من تولى ﴿وكفر﴾ منهم فإنّ لله الولاية والقهر فهو يعذبه.

(1) سورة الإنسان، الآية: 16.

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿العذاب الأكبر﴾ الذي هو عذاب جهنم. وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿فذكر﴾[1] أي: فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض، وقرئ: إلا من تولى على التنبيه. وفي قراءة ابن مسعود: فإنه يعذبه وقرأ أبو جعفر المدني: إيابهم التشديد، ووجهه أن يكون فيعالاً مصدر أيب فيعل من الاياب، أو أن يكون أصله أوابًا فعالاً من أوب.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم قيل إيوابًا كديوان في دوّان، ثم فعل به ما فعل بأصل سيد وميت.

فإن قُلْتَ: ما معنى تقديم الظرف؟ قُلْتُ: معناه التشديد في الوعيد[2] وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير. ومعنى: الوجوب، الوجوب في الحكمة[3]، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حسابًا يسيرًا»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفجر مكية

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾.

أقسم بالفجر كما أقسم بالصبح في قوله: ﴿والصبح إذا أسفر﴾[5] ﴿والصبح إذا تنفس﴾[6] وقيل: بصلاة الفجر.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾.

أراد: بالليالي العشر، عشر ذي الحجة.

فإن قُلْتَ: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ قُلْتُ: لأنها ليالٍ مخصوصة من بين جنس الليالي العشر بعض منها، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها.

فإن قُلْتَ: فهلا عرفت بلام العهد لأنها ليالٍ معلومة معهودة! قُلْتُ: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير، ولأنّ الأحسن أن تكون اللامات متجانسة ليكون الكلام أبعد من الألغاز والتعمية.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾.

وبالشفع والوتر إما الأشياء كلها شفعها ووترها، وإما شفع هذه الليالي ووترها. ويجوز أن يكون شفعها يوم النحر، ووترها يوم عرفة لأنه تاسع أيامها وذاك عاشرها، وقد روي عن النبي ﷺ أنه فسرهما بذلك. وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كانوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه وذلك قليل الطائل جدير بالتلهي عنه، وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾.

أقسم بالليل على العموم. ﴿إذا يسر﴾ إذا يمضي. كقوله: ﴿والليل إذا أدبر﴾[7] ﴿والليل إذا عسعس﴾[8] وقرئ: والوتر بفتح الواو، وهما لغتان كالحبر والحبر في العدد وفي الترة الكسر وحده. وقرئ: الوتر بفتح الواو وكسر التاء. رواها يونس عن أبي عمرو. وقرئ: والفجر والوتر، ويسر بالتنوين وهو التنوين الذي يقع بدلاً من حرف الإطلاق، وعن ابن عباس: وليالٍ عشر، بالإضافة يريد وليالِ أيام عشر، وياء يسر تحذف في الدرج اكتفاءً عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة، وقيل: معنى يسرى يسرى فيه.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾

﴿هل في ذلك﴾ أي: فيما أقسمت به من هذه الأشياء ﴿قسم﴾ أي: مقسم به ﴿لذي حجر﴾ يريد: هل يحق عنده أن تعظم بالإقسام بها، أو هل في إقسامي بها إقسام لذي حجر، أي: هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه. والحجر العقل لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي كما سمي عقلاً ونهيّة لأنه يعقل وينهي، وحصاة من الإحصاء وهو الضبط. وقال الفراء: يقال إنه لذو حجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، والمقسم عليه محذوف وهو ليعذبن يدل عليه قوله: ألم تر إلى قوله: فصب عليهم ربك سوط عذاب. قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: عاد، كما يقال لبني هاشم هاشم، ثم قيل: للأوّلين منهم عاد الأولى، وإرم تسمية لهم باسم جدهم، ولمن بعدهم عاد الأخيرة. قال ابن الرقيات:

مجدًا تليدًا بناه أوّله أدرك عادًا وقبلها إرمًا

فإرَمَ في قوله: ﴿بعاد * إرم﴾ عطف بيان لعاد وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة. وقيل: إرم بلدتهم وأرضهم التي

---

(1) سورة الغاشية، الآية: 21.

(2) قال أحمد: ومعنى ثم الدلالة على أنّ الحساب أشد من الإياب، لأنه موجب العذاب وبادرته.

(3) قال أحمد: أخطأ على عادته ليس على الله واجب، وقد تقدّم معنى على في غير هذا، والله أعلم.

(4) ذكره ابن مردويه والثعلبي في تفسيره ذكره الزيلعي 4/197.

(5) سورة المدثر، الآية: 34.

(6) سورة التكوير، الآية: 18.

(7) سورة المدثر، الآية: 33.

(8) سورة التكوير، الآية: 17.

كانوا فيها. ويدل عليه قراءة ابن الزبير: بعادٍ إرم، على الإضافة، وتقديره: بعاد أهل إرم. كقوله: واسأل القرية، ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضًا للتعريف والتأنيث. وقرأ الحسن: بعاد إرم، مفتوحتين، وقرئ: بعاد إرم، بسكون الراء على التخفيف، كما قرئ: بورقكم. وقرئ: بعاد إرم ذات العماد، بإضافة إرم إلى ذات العماد. والإرم: العلم. يعني: بعاد أهل أعلام ذات العماد.

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾.

و﴿ذات العماد﴾ اسم المدينة. وقرئ: بعاد إرم ذات العماد، أي: جعل الله ذات العماد رميمًا بدلاً من فعل ربك. وذات العماد إذا كانت صفةً للقبيلة، فالمعنى: انهم كانوا بدويين أهل عمد، أو طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة. ومنه قولهم: رجل معمد وعمدان إذا كان طويلاً، وقيل: ذات البناء الرفيع، وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى: أنها ذات أساطين. وروي أنه كان لعاد ابنان: شداد وشديد فملكا وقهرا، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها. فسمع بذكر الجنة فقال: ابني مثلها، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة. وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا، وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثم. وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له. ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل[1].

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾.

﴿لم يخلق مثلها﴾ مثل عاد ﴿في البلاد﴾ عظم اجرام وقوّة كان طول الرجل منهم اربعمائة ذراع، وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحي فيهلكهم. ولم يخلق مثل مدينة شدّاد في جميع بلاد الدنيا. وقرأ ابن الزبير: لم يخلق مثلها أي: لم يخلق الله مثلها.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾.

﴿جابوا الصخر﴾ قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتًا كقوله: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتًا﴾[2] قيل: أوّل من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود وبنوا ألفًا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾.

قيل له: ذو الأوتاد لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتاد كما فعل بماشطة بنته وبآسية.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾.

﴿الذين طغوا﴾ أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعًا على هم الذين طغوا، أو مجرورًا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾.

يقال: صب عليه السوط وغشاه وقنعه، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به. وعن عمرو بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطًا كثيرة فأخذهم بسوط منها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

المرصاد المكان الذي يترتب فيه، الرصد مفعال من رصده، كالميقات من وقته. وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب، وأنهم لا يفوتونه. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد. وعن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه قرأ هذه السورة عند بعض الظلمة حتى بلغ هذه الآية فقال: إنّ ربك لبالمرصاد يا فلان. عرض له في هذا النداء بأنه بعض من توعد بذلك من الجبابرة فلله دره أي: أسد فراس كان بين ثوبيه يدق الظلمة بإنكاره ويقصع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥﴾.

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله: ﴿فأما الإنسان﴾[3]؟ **قُلْتُ:** بقوله: ﴿إنّ ربك لبالمرصاد﴾[4] كأنه قيل: إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة، وهو مرصد بالعقوبة للعاصي. فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا لعاجله وما يلذه وينعمه فيها.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾.

فإن قُلْتَ: فكيف توازن قوله: ﴿فأما الإنسان﴾[5]. ﴿إذا

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره الزيلعي 4/206.

(2) سورة الشعراء، الآية: 149.

(3) قال أحمد: قوله: لا يريد من الإنسان إلا الطاعة، ولا يأمره إلا بها فاسد الصدر مبني على أصله الفاسد سليم العجز.

(4) سورة الفجر، الآية: 14.

(5) سورة الفجر، الآية: 15.

ما ابتلاه ربه﴾[1]، وقوله: ﴿وأما إذا ما ابتلاه﴾ وحق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد أما، وأما تقول أما الإنسان فكفور، وأما الملك فشكور. أما إذا أحسنت إلى زيد فهو محسن إليك، وأما إذا أسأت إليه فهو مسيء إليك! **قُلْتُ**: هما متوازنان من حيث إنّ التقدير، وأما هو إذا ما ابتلاه ربه. وذلك أن قوله: ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ خبر المبتدأ الذي هو الإنسان ودخول الفاء لما في أما من معنى الشرط والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير كأنه قيل: فأما الإنسان فقائل ربي أكرمن وقت الابتلاء، فوجب أن يكون فيقول الثاني خبر المبتدأ واجب تقديره.

فإن قُلْتَ: كيف سمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء؟ **قُلْتُ**: لأنّ كل واحد منهما اختبار للعبد. فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر، إذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع. فالحكمة فيهما واحدة ونحوه قوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[2].

فإن قُلْتَ: هلا قال فأهانه وقدر عليه رزقه كما قال فأكرمه ونعمه. **قُلْتُ**: لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة، وأما التقدير فليس بإهانة له لأنّ الإخلال بالتفضل لا يكون إهانةً ولكن تركًا للكرامة، وقد يكون المولى مكرمًا لعبده مهينًا له وغير مكرم ولا مهين. وإذا أهدى لك زيد هديةً قلت: أكرمني بالهدية، ولا تقول أهانني ولا أكرمني إذا لم يهد لك.

فإن قُلْتَ: فقد قال فأكرمه فصحح إكرامه وأثبته ثم أنكر قوله: ﴿ربي أكرمن﴾[3] وذمّه عليه كما أنكر قوله: ﴿أهانن﴾ وذمّه عليه! **قُلْتُ**: فيه جوابان: أحدهما أنه إنما أنكر قوله: ربي أكرمن، وذمّه عليه. لأنّه قال على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبته وهو قصده إلى أنّ الله أعطاه ما أعطاه إكرامًا له مستحقًا مستوجبًا على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عندهم. كقوله: إنما أوتيته على علم[4] عندي. وإنما أعطاه الله على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتدّ الله إلا به وهو التقوى دون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها. والثاني أن ينساق الإنكار والذمّ إلى قوله: ربي أهانن. يعني: أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله وإكرامه، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هوانًا وليس بهوان، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله: فأكرمه[5]. وقرئ: فقدر بالتخفيف والتشديد، وأكرمن وأهانن بسكون النون في الوقف فيمن ترك الياء في الدرج مكتفيًا منها بالكسرة.

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿كلا﴾ ردع للإنسان عن قوله: ثم قال: بل هناك شر من هذا القول[6] وهو أنّ الله يكرمهم بكثرة المال فلا يؤدّون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرّة.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾.

وحض أهله على طعام المسكين ويأكلونه أكل الأنعام ويحبونه فيشحون به. وقرئ: يكرمون وما بعده بالياء والتاء. وقرئ: تحاضون أي: يحض بعضكم بعضًا. وفي قراءة ابن مسعود: ولا تحاضون بضم التاء من المحاضة.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾.

﴿أكلاً لمًا﴾ ذا لم، وهو الجمع بين الحلال والحرام. قال الحطيئة:

إذا كان لما يتبع الذمّ ربه ... فلا قدّس الرحمن تلك الطواحنا

يعني: أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم. وقيل: كانوا لا يورّثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم. وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة وهو عالم بذلك، فيلم في الأكل بين حلاله وحرامه. ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً واسعًا جامعًا بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه كما يفعل الورّاث البطالون.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿حبًا جمًا﴾ كثيرًا شديدًا مع الحرص والشره ومنع الحقوق.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾.

﴿كلا﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم. ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرّطوا فيه حين لا تنفع الحسرة ويومئذٍ بدل من ﴿إذا دكت الأرض﴾ وعامل النصب فيهما يتذكر. ﴿دكًا دكًا﴾ دكًا بعد دك. كقوله: حسبته بابًا بابًا، أي: كرّر عليها الدك حتى عادت هباءً منبثًا.

---

(1) قال أحمد: يريد أنه صدر ما بعد أما الأولى بالاسم، وما بعد أما الثانية بالفعل، ومقصود السائل أن يكونا مصدرين إما بإسمين أو بفعلين.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 35.

(3) سورة الفجر الآية: 15.

(4) قال أحمد: والقدري لا يبعد عن ذلك؛ لأنه يرى أنّ النعيم الأعظم في الآخرة حق للعبد على الله واجب له عليه، ليس بتفضل ولا منون.

(5) قال أحمد: كأنه يجعل قوله: فأكرمه توطئة لذمة على قوله: أهانن = لا أنه مذموم معه.

(6) قال أحمد: وفي هذه الآية إشعار بإبطال الجواب الثاني في جوابي الزمخشري، فإنه جعل قوله: أكرمن غير مذموم، ودلت هذه الآية على أنّ المعنى أنّ للمكرم بالبسط بالرزق حالتين، إحداهما: اعتقاده أنّ إكرام الله له عن استحقاقه الثانية أشدّ من الأولى، وهي أن لا يعترف بالإكرام أصلاً؛ لأنه يفعل أفعال جاحدي النعمة، فلا يؤدّي حق الله الواجب عليه في المال من إطعام اليتيم والمسكين.

فإن قُلْتَ: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة؟ قُلْتُ: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم.

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾.

﴿صفًا صفًا﴾ ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفًا بعد صف محدقين بالجن والإنس.

وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾.

﴿وجيء يومئذٍ بجهنم﴾ كقوله: ﴿برزت الجحيم﴾[1] وروي أنها لما نزلت تغير وجه رسول الله ﷺ، وعرف في وجهه، حتى اشتدّ على أصحابه. فأخبروا عليًا رضي الله عنه فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين عاتقيه، ثم قال: يا نبيّ الله ـ بأبي أنت وأمي ـ ما الذي حدث اليوم؟ وما الذي غيرك؟ فتلا عليه الآية. فقال علي له: كيف يجاء بها، قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع[2]. أي: يتنكر ما فرّط فيه أو يتعظ. ﴿وأنى له الذكرى﴾ ومن أين له منفعة الذكرى، لا بد من تقدير حذف المضاف. وإلا فبين: يوم يتنكر وبين: وأنى له الذكرى تنافٍ وتناقض.

يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾.

﴿قدّمت لحياتي﴾ هذه وهي حياة الآخرة، أو وقت حياتي في الدنيا. كقولك: جئته لعشر ليالٍ خلون من رجب، وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقًا بقصدهم وإرادتهم وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصي كمذهب أهل الأهواء والبدع وإلا فما معنى التحسر.

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾.

قرئ: بالفتح يعذب ويوثق، وهي قراءة رسول الله ﷺ. وعن أبي عمرو: أنه رجع إليها في آخر عمره. والضمير للإنسان الموصوف. وقيل: هو أبي بن خلف. أي: لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه في كفره وعناده، أو لا يحمل عذاب الإنسان أحد كقوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾[3] وقرئ: بالكسر، والضمير لله تعالى أي: لا يتولى عذاب الله أحد لأنّ الأمر لله وحده في ذلك اليوم، أو للإنسان أي: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه.

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾.

﴿يا أيتها النفس﴾ على إرادة القول أي: يقول الله للمؤمن يا أيتها النفس. إمّا أن يكلمه إكرامًا له كما كلم موسى صلوات الله عليه، أو على لسان ملك. و﴿المطمئنة﴾ الآمنة التي لا يستفزها خسوف ولا حزن وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك، ويشهد للتفسير الأوّل قراءة أبيّ بن كعب: يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة.

فإن قُلْتَ: متى يقال لها ذلك؟ قُلْتُ: إمّا عند الموت، وإمّا عند البعث، وإمّا عند دخول الجنة.

ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾.

على معنى﴿ارجعي﴾ إلى موعد ربك ﴿راضية﴾ بما أوتيت ﴿مرضية﴾ عند الله.

فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾.

﴿فادخلي في عبادي﴾ في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلكهم.

وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾.

﴿وادخلي جنتي﴾ معهم. وقيل: النفس الروح، ومعناه: فادخلي في أجساد عبادي. وقرأ ابن عباس: فادخلي في عبدي، وقرأ ابن مسعود: في جسد عبدي، وقرأ أبيّ: ائتي ربك راضية مرضية، ادخلي في عبدي، وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب. وقيل: في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة. فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحوّل وجهي نحو قبلتك، فحوّل الله وجهه نحوها، فلم يستطع أحد أن يحوّله، والظاهر العموم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له، ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نورًا يوم القيامة»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة البلد مكية

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾.

اقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغمورًا في مكابدة المشاق والشدائد. واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله:

وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾.

---

(1) سورة النازعات، الآية: 36.

(2) ذكره الواحدي والثعلبي وابن مردويه في تفاسيرهم، الزيلعي 4/ 206.

(3) سورة النجم، الآية: 38.

(4) ذكره الواحدي وابن مردويه والثعلبي في تفاسيرهم، الزيلعي 4/ 207.

﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ يعني: ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم. عن شرحبيل: يحرّمون أن يقتلوا بها صيدًا ويعضدوا بها شجرة، ويستحلون إخراجك وقتلك. وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته. أو سلى رسول الله ﷺ بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد واعترض بأن وعده بفتح مكة تتميمًا للتسلية والتنفيس عنه. فقال: وأنت حل بهذا البلد، يعني: وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر، وذلك أنّ الله فتح عليه مكة وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له، فأحل ما شاء وحرّم ما شاء. قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار أبي سفيان[1]. ثم قال: إنّ الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد. فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا. فقال ﷺ: إلا الإذخر[2].

فإن قُلْتَ: أين نظير قوله: وأنت حل في معنى الاستقبال؟ **قُلْتُ**: قوله عز وجل: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾[3] ومثله واسع في كلام العباد. تقول لمن تعده الإكرام والحباء: أنت مكرم محبو. وهو في كلام الله واسع لأنّ الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة، وكفاك دليلاً قاطعًا على أنه للاستقبال وأن تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكية وأين الهجرة عن وقت نزولها فما بال الفتح.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾.

فإن قُلْتَ: ما المراد بوالد وما ولد؟ **قُلْتُ**: رسول الله ﷺ ومن ولده. أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل وبمن ولده وبه.

فإن قُلْتَ: لم نكر؟ **قُلْتُ**: للإبهام المستقل بالمدح والتعجب.

فإن قُلْتَ: هلا قيل ومن ولد؟ **قُلْتُ**: فيه ما في قوله: والله أعلم بما وضعت. أي: بأي شيء وضعت، يعني: موضوعًا عجيب الشأن. وقيل: هما آدم وولده. وقيل: كل والد وولد.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

والكبد: أصله من قولك: كبد الرجل كبدًا فهو أكبد إذا وجعت كبده وانتفخت، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة. ومنه اشتقت المكابدة كما قيل: كبته، بمعنى: أهلكه. وأصله كبده إذا أصاب كبده. قال لبيد:

يا عين هلا بكيت أربد إذ ... قمنا وقام الخصوم في كبد

أي: في شدة الأمر وصعوبة الخطب.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾.

والضمير في ﴿أيحسب﴾ لبعض صناديد قريش الذي كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد، والمعنى: أيظن هذا الصنديد القوي في قومه المتضعف للمؤمنين أن لن تقوم قيامة ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾.

ثم ذكر ما يقوله في ذلك اليوم وأنه يقول: ﴿أهلكت مالاً لبدًا﴾ يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ويدعونها معالي ومفاخر.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ حين كان ينفق ما ينفق رئاء الناس وافتخارًا بينهم، يعني: أن الله كان يراه وكان عليه رقيبًا، ويجوز أن يكون الضمير للإنسان على أن يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الشريف، ومن شرفه أنك حل به مما يقترفه أهله من المآثم متحرج بريء، فهو حقيق بأن أعظمه بقسمي به. لقد خلقنا الإنسان في كبد أي: في مرض وهو مرض القلب وفساد الباطن. يريد الذين علم الله منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات. وقيل: الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد هو أبو الأشد وكان قويًا يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فلا ينزع إلا قطعًا ويبقى موضع قدميه. وقيل: الوليد بن المغيرة. لبدًا: قرئ بالضم والكسر، جمع لبدة، ولبدة وهو ما تلبد يريد الكثرة. وقرئ: لبدًا بضمتين، جمع لبود، ولبدًا بالتشديد جمع لابد.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾.

﴿ألم نجعل له عينين﴾ يبصر بهما المرئيات.

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾.

﴿ولسانًا﴾ يترجم عن ضمائره، ﴿وشفتين﴾ يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك.

---

(1) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: قتل الأسير (الحديث رقم: 3044)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: جواز دخول مكة بغير إحرام (الحديث رقم: 450. 1357).

(2) رواه البخاري في كتاب: جزاء الصيد، باب: لا يحل القتال بمكة (الحديث رقم: 1834)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: تحريم مكة = وصيدها (الحديث رقم: 445. 1353).

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/217. وأحمد في المسند 4/299 والبيهقي في الشعب، باب: في العتق ووجه التقرب إلى الله عز وجل (الحديث رقم: 4335).

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

﴿وهديناه النجدين﴾ أي: طريقي الخير والشر. وقيل: الثديين.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾.

﴿فلا اقتحم العقبة﴾ يعني: فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين، ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة وأساس كل خير، بل غمط النعم وكفر بالمنعم والمعنى: أنّ الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضي النافع عند الله لا أن يهلك مالاً لبدًا في الرياء والفخار فيكون مثله كمثل ريح صر أصابت حرث قوم الآية.

فإن قُلْتَ: فلما تقع لا الداخلة على الماضي إلا مكررةً. ونحو قوله: فأي أمر سيئٍ لا فعله لا يكاد يقع فما لها لم تكرر في الكلام الأفصح! **قُلْتُ:** هي متكررة في المعنى لأن معنى: فلا اقتحم العقبة، فلا فك رقبةً ولا أطعم مسكينًا، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك. وقال الزجاج قوله ثم كان من الذين آمنوا يدل على معنى: فلا اقتحم العقبة ولا آمن. والاقتحام، الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة، والقحمة الشدة وجعل الصالحة عقبة وعملها اقتحامًا لها لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبة، والله شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾.

﴿وما أدراك ما العقبة﴾ اعتراض ومعناه: أنك لم تدر كنه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾.

وفك الرقبة تخليصها من رق أو غيره. وفي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: دلني على عمل يدخلني الجنة. فقال: تعتق النسمة وتفك الرقبة. قال: أوليسا سواء. قال: لا إعتاقها أن تنفرد بعتقها، وفكها أن تعين في تخليصها من قود أو غرم. والعتق والصدقة من أفاضل الأعمال. وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أن العتق أفضل من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقة أفضل. والآية أدل على قول أبي حنيفة لتقديم العتق على الصدقة. وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة أيضعه في ذي قرابة أو تعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل، لأنّ النبي ﷺ قال: «من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار»(1). قرئ: فك رقبة أو إطعام، على هي فك رقبة أو إطعام. وقرئ: فك رقبة أو أطعم على الإبدال من اقتحم العقبة. وقوله:

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾.

والمسغبة والمقربة والمتربة: مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب. يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي. وترب: إذا افتقر. ومعناه: التصق بالتراب. وأما أترب فاستغنى. أي: صار ذا مال كالتراب في الكثرة. كما قيل: أثرى، وعن النبي ﷺ في قوله: ذا متربة؛ الذي مأواه المزابل(2). ووصف اليوم بذي مسغبة نحو ما يقول النحويون في قولهم: هم ناصب ذو نصب. وقرأ الحسن: ذا مسغبة نصبه بإطعام، ومعناه: أو إطعام في يوم من الأيام ذا مسغبة.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾.

﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ جاء بثم لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت، لأنّ الإيمان هو السابق المقدّم على غيره ولا يثبت عمل صالح إلا به. والمرحمة، والرحمة. أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على الإيمان والثبات عليه، أو بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن. وبأن يكونوا متراحمين متعاطفين، أو بما يؤدي إلى رحمة الله.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩﴾.

الميمنة والمشأمة اليمين والشمال، أو اليمن والشؤم. أي: الميامين على أنفسهم والمشائيم عليهنّ.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾.

قرئ: موصدة بالواو والهمزة، من أوصدت الباب وآصدته إذا أطبقته وأغلقته. وعن أبي بكر بن عياش: لنا إمام يهمز مؤصدة فأشتهي أن أسدّ أذني إذا سمعته. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ: لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الأمان من غضبه يوم القيامة»(3).

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 2/211.

(2) ذكره ابن مردويه من رواية مجاهد عن ابن عمر وأخرجه الحاكم في المستدرك عند ابن عباس بنحوه. ابن حجر ص 185.

(3) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم. الزيلعي 4/215.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الشمس مكية

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾.

ضحاها ضوؤها إذا أشرقت وقام سلطانها. ولذلك قيل: وقت الضحى، وكأن وجهه شمس الضحى. وقيل: الضحوة ارتفاع النهار، والضحى فوق ذلك، والضحاء بالفتح والمد: إذا امتد النهار وقرب أن ينتصف.

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾.

﴿إذا تلاها﴾ طالعًا عند غروبها آخذًا من نورها، وذلك في النصف الأوّل من الشهر، وقيل: إذا استدار فتلاها في الضياء والنور.

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾.

﴿إذا جلاها﴾ عند انتفاخ النهار وانبساطه لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء، وقيل: الضمير للظلمة أو للدنيا أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر. كقولهم: أصبحت باردة، يريدون الغداة. وأرسلت، يريدون السماء.

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾.

إذا يغشاها فتغيب وتظلم الآفاق.

فإن قُلْتَ: الأمر في نصب إذا معضل؛ لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواوات عاطفة فتنصب بها وتجر فتقع في العطف على عاملين في نحو قولك: مررت أمس بزيد واليوم عمرو. وإما أن تجعلهن للقسم فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه! قُلْتُ: الجواب فيه أن واو القسم مطرح معها إبراز الفعل إطراحًا كليًا فكان لها شأن خلاف شأن الباء حيث أبرز معها الفعل وأضمر فكانت الواو قائمة مقام الفعل والباء سادّةً مسدّهما معًا. والواوات العواطف نوائب عن هذه الواو فحققن أن يكن عوامل على الفعل والجار جميعًا. كما تقول: ضرب زيد عمرًا، وبكر خالدًا فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملهما.

جعلت ما مصدرية في قوله: ﴿وما بناها﴾ ﴿وما طحاها﴾ ﴿وما سواها﴾. وليس بالوجه لقوله: فألهمها، وما يؤدي إليه من فساد النظم. والوجه أن تكون موصولةً وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية. كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها في كلامهم سبحان ما سخركن لنا.

فإن قُلْتَ: لم نكرت النفس؟ قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما أن يريد نفسًا خاصةً من بين النفوس وهي نفس آدم كأنه قال: وواحدة من النفوس، والثاني أن يريد كل نفس وينكر للتكثير عن الطريقة المنكورة في قوله: علمت نفس.

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾.

ومعنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالهما وأنّ أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه[1] عن اختيار ما شاء منهما بدليل قوله:

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾.

﴿قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما. والتزكية الإنماء والإعلاء بالتقوى.

---

(1) قال أحمد: بين في هذا الكلام نوعين من الباطل أحدهما: في قوله معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالهما، وأنّ أحدهما حسن والآخر قبيح، والذي يكنه في هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مدركان بالعقل، ألا ترى إلى قوله: إعقالهما أي: خلق العقل الموصل إلى معرفة حسن الحسن وقبح القبيح، وإنما اغتنم في هذا فرصة إشعار الإلهام بذلك، فإنه ربما يظنّ أنّ إطلاقه على العلم المستفاد من السمع بعيد، والذي يقطع دابر هذه النزغة أنا وإن قلنا: إن الحسن والقبح لا يدركان بالسمع؛ لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية التي ليست عندنا بصفات الأفعال، فإنا لا نلغي حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية، بل لا بد في علم كل حكم شرعي من المقدّمتين عقلية، وهي الموصلة إلى العقيدة، وسمعية مفرعة عليها وهي الدالة على خصوص الحكم على أنّ تعلقه بظاهر لو سلم ظهوره في قاعدة قطعية بمعزل عن الصواب. النزغة الثانية: وهي التي كشف القناع في إبرازها أن التزكية وقسيمها ليسا مخلوقين لله تعالى، بل لشركائه المعتزلة، وإنما نعارضه في الظاهر من فحوى الآية، على أنه لم ينكر وجهاً في الرد على من قال: وأن الضمير لله تعالى، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهته على أهل السنة، فنقول، لا مراء في احتمال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذي النفس، لكن عوده = إلى الله تعالى أولى لوجهين، أحدهما: أنّ الجمل سيقت سياقة واحدة من قوله: ﴿والسماء وما بناها﴾ وهلمّ جرا، والضمائر فيما تقدّم هذين الفعلين عائدة إلى الله تعالى بالاتفاق، ولم يجر لغير الله تعالى ذكر، وإن قيل بعود الضمير إلى غيره، فإنما يتمحل لجوازه بدلالة الكلام ضمناً واستلزاماً، لا ذكراً ونطقاً، وما جرى ذكره أولى أن يعود الضمير عليه، الثاني: أنّ الفعل المستعمل في الآية التي استدلّ بها في قوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ تفعل ولا شك أن تفعل مطاوع فعل، فهذا بأن يدل لنا أولى من أن يدل له؛ لأنّ الكلام عندنا نحن قد أفلح من زكاه الله فتزكى، وعنده الفاعل في الاثنين واحد، أضاف إليه الفعلين المختلفين، ويحتاج في تصحيح الكلام إلى تعديد اعتبار وجهه ونحن عنه في غنية، على أنا لا نأبى أن تضاف التزكية والتدسية إلى العبد على طريقة أنه الفاعل، كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أفعال الطاعات؛ لأنّ له عندنا اختياراً وقدرة ومقارنة، وإن منعنا البرهان العقلي الدال على وحدانية الله تعالى، ونفي الشريك أن نجعل قدرة العبد مؤثرة خالقة، فهذا جوابنا على الآية تنزلاً، وإلا فلم يذكر وجهاً من الردّ فيلزمنا الجواب عنه، وأما جوابنا عن سفاهته على أهل السنة فالسكوت، والله الموفق.

والتدسية: النقص والإخفاء بالفجور وأصل دسى دسس كما قيل: في تقضض تقضى، وسئل ابن عباس عنه فقال: أتقرأ قد أفلح من تزكى وقد خاب من حمل ظلمًا. وأما قول من زعم أنّ الضمير في زكى ودسى لله تعالى وأنّ تأنيث الراجع إلى من لأنه في معنى النفس فمن تعكيس القدرية الذين يورّكون على الله قدرًا هو بريء منه ومتعالٍ عنه، ويحيون لياليهم في تمحل فاحشة ينسبونها إليه.

فإن قُلْتَ: فأين جواب القسم؟ قُلْتُ: هو محذوف تقديره ليدمدمنّ الله عليهم أي: على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحًا، وأما قد أفلح من زكاها فكلام تابع لقوله: فألهمها فجورها وتقواها على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾.

الباء في:﴿بطغواها﴾ مثلها في كتبت بالقلم، والطغوى من الطغيان. فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء بأن قلبوا الياء واوًا في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا: امرأةٌ خزيًا وصديًا يعني: فعلت التكذيب بطغيانها، كما تقول: ظلمني بجرأته على الله، وقيل: كذبت بما أوعدت به من عذابها ذي الطغوى، كقوله: فأهلكوا بالطاغية. وقرأ الحسن: بطغواها بضم الطاء، كالحسنى والرجعى، في المصادر.

إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾.

﴿إذ انبعث﴾ منصوب بكذبت أو بالطغوى. و﴿أشقاها﴾ قدار بن سالف، ويجوز أن يكونوا جماعةً، والتوحيد لتسويتك في أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. وكان يجوز أن يقال: أشقوها كما تقول أفاضلهم. والضمير في ﴿لهم﴾ يجوز أن يكون للأشقين، والتفضيل في الشقاوة لأنّ من تولى العقر وباشره كانت شقاوته أظهر وأبلغ.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾.

و﴿ناقة الله﴾ نصب على التحذير كقولك الأسد الأسد والصبي الصبي بإضمار ذروا أو احذروا عقرها. ﴿وسقياها﴾ فلا تزووها عنها ولا تستأثروا بها عليها.

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾.

﴿فكذبوه﴾ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا. ﴿فدمدم عليهم﴾ فأطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة إذا ألبسها الشحم. ﴿بذنبهم﴾ بسبب ذنبهم وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب فعلى كل مذنب أن يعتبر ويحذر. ﴿فسوّاها﴾ الضمير للدمدمة أي: فسوّاها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم.

وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾.

﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي: عاقبتها وتبعتها كما يخاف كل معاقب من الملوك فيبقى بعض الإبقاء. ويجوز أن يكون الضمير لثمود على معنى: فسوّاها بالأرض، أو في الهلاك ولا يخاف عقبى هلاكها. وفي مصاحف أهل المدينة والشام فلا يخاف. وفي قراءة النبي ﷺ: ولم يخف. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدّق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الليل مكية

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾.

المغشى إما الشمس من قوله: ﴿والليل إذا يغشاها﴾[2] وإما النهار من قوله: ﴿يغشى الليل النهار﴾[3] وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إذا وقب﴾[4].

وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾.

﴿تجلى﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل، أو تبين وتكشف بطلوع الشمس.

وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾.

﴿وما خلق﴾ والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد. وقيل: هما آدم وحوّاء. وفي قراءة النبي ﷺ والذكر والأنثى، وقرأ ابن مسعود: والذي خلق الذكر والأنثى، وعن الكسائي: وما خلق الذكر والأنثى، بالجرّ على أنه بدل من محل ما خلق بمعنى: وما خلقه الله. أي: ومخلوق الله الذكر والأنثى. وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم لانفراده بالخلق إذ لا خالق سواه. وقيل: إن الله لم يخلق خلقًا من ذوي الأرواح ليس بذكر ولا أنثى، والخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالذكورة أو الأنوثة، فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه ذكرًا ولا أنثى وقد لقي خنثى مشكلاً كان حانثًا؛ لأنه في الحقيقة إمّا ذكرًا وأنثى وإن كان مشكلاً عندنا.

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾.

﴿شتى﴾ جمع شتيت أي: إنّ مساعيكم أشتات مختلفة وبيان اختلافها فيما فصل على أثره.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾.

﴿أعطى﴾ يعني: حقوق ماله. ﴿واتقى﴾ الله فلم يعصه.

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه في تفاسيرهم، الزيلعي 4/219.
(2) سورة الشمس، الآية: 4.
(3) سورة الأعراف، الآية: 54.
(4) سورة الفلق، الآية: 3.

وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾.

﴿وصدّق بالحسنى﴾ بالخصلة الحسنة وهي الإيمان، أو بالملة الحسنى وهي ملة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة.

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾.

﴿فسنيسره لليسرى﴾ فسنهيؤه لها، من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها، ومنه قوله عليه السلام كل ميسر لما خلق له[1]. والمعنى: فسنلطف[2] به ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه وأهونها. من قوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾.

ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾.

﴿واستغنى﴾ وزهد فيما عند الله كأنه مستغنٍ عنه فلم يتقه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة لأنه في مقابلة واتقى.

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾.

﴿فسنيسره للعسرى﴾ فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشدّه. من قوله: ﴿يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعَّد في السماء﴾[3] أو سمى طريقة الخير باليسرى لأنّ عاقبتها اليسر، وطريقة الشر العسرى لأن عاقبتها العسر أو أراد بهما طريقي الجنة والنار، أي: فسنهديهما في الآخرة للطريقين، وقيل: نزلتا في أبي بكر رضي الله عنه. وفي أبي سفيان بن حرب.

وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾.

﴿وما يغني عنه﴾ استفهام في معنى الإنكار أو نفي ﴿تردّى﴾ تفعل من الردى وهو الهلاك يريد الموت، أو تردّى في الحفرة إذا قبر، وتردّى في قعر جهنم.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾.

﴿إنّ علينا للهدى﴾ إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل وبيان الشرائع.

وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾.

﴿وإنّ لنا للآخرة والأولى﴾ أي: ثواب الدارين للمهتدى كقوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[4] وقرأ أبو الزبير تتلظى.

لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾.

فإن قُلْتَ: كيف قال: ﴿لا يصلاها إلا الأشقى. وسيجنبها الأتقى﴾؟ وقد علم أنّ كل شقي يصلاها[5]، وكل تقي بجنبها، لا يختص بالصلى أشقى الأشقياء ولا بالنجاة أتقى الأتقياء. وإن زعمت أنه نكر النار فأراد نارًا بعينها مخصوصةً بالأشقى فما تصنع بقوله: ﴿وسيجنبها الأتقى﴾[6] فقد علم أن أفسق المسلمين يجنب تلك النار المخصوصة لا الأتقى منهم خاصة! قُلْتُ: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين. فقيل: الأشقى وجعل مختصًا بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له.

---

(1) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: موعظة المحدث عند القبر (الحديث رقم: 1362)، ومسلم في كتاب القدر بكيفية الخلق (الحديث رقم: 6. 2647).

(2) قال احمد: ألا يطيل لسانه ههنا على أهل السنة؟ ولكن قصره الحق فتراه يؤوّل الكلام بل يعطله؛ لأنه يحمله ما لا يحتمله، وعلى كلامه في أمثالها روعة السارق الخائف.

(3) سورة الأنعام، الآية: 125.

(4) سورة العنكبوت، الآية: 27.

(5) قال أحمد: لا شك أن السائل بنى سؤاله على التمسك بمفهوم الآية لورودها بصيغة التخصيص، فحاصل جواب الزمخشري أنّ التخصيص ههنا لفائدة أخرى غير النفي، هما عدا المخصص وتلك الفائدة المقابلة، وحيث تمحض لك السؤال والجواب فهو يلاحظ نظر الشافعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه﴾ فإنه لم يقل بمفهوم حصرها وحملها على أن الحصر لفائدة المقابلة بالردّ لأحكام الجاهلية لا لنفي ما عدا المحصور، على أن الزمخشري إنما ضيق عليه الخناق في هذه الآية حتى التزم ورود السؤال المنكور التفاته إلى قاعدته الفاسدة، وحنره أن تنتقض ويأبى الله إلا نقضها ورفضها، وإذا نزلت الآية على قواعد أهل السنة وضح لك ما قلته، فتقول: المصلى في اللغة أن يحفروا حفيراً فيجمعوا فيه جمراً كثيراً ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه بين أطباقه، فأمّا ما = يشوى فوق الجمر أو على المقلى أو على التنور فليس بمصلى، وهذا التفسير بعينه نص عليه الزمخشري ونقله عن أهل اللغة في سورة الغاشية أيضاً، وأنا وقفت عليه في كتبهم، فإذا عرفت معنى التصلية لغة وأنها أشدّ أنواع الإحراق بالنار، وفي علمك أن الناس عند أهل السنة ثلاثة أصناف: مؤمن صالح فائز، ومؤمن عاص وكافر، وأن المؤمن الفائز يمرّ على النار فيطفئ نوره لهبها، ولا يؤلم بمسها البتة، وإنما يردها تحلة القسم، والعاصي إن شاء الله تعذيبه ومجازاته، فإنما يعذب على وجه النار في الطبقة الأولى باتفاق، حتى أن منهم من تبلغ النار إلى كعبه، وأشدّهم من تبلغ النار إلى موضع سجوده فيحسه ولا يعذب أحد من المؤمنين بين أطباقها البتة بوعد الله تعالى، والكافر هو المعذب بين أطباقها تبين لك أن النار لا يصلاها أي: يعذب بين أطباقها كما علمت تفسيره في اللغة إلا الكافر، وهو الأشقى؛ لأنّ المؤمن العاصي لا يبلغ مبلغه في الشقاء، وأن المؤمن الفائز هو الأتقى بالنسبة إلى المؤمن العاصي يجنب النار بالكلية، لأنّ وروده تحلة القسم لا يصل إليه مسها ولا ألمها، وأنّ المؤمن العاصي الذي بالأتقى ولا بالأشقى لا يصلاها ولا يجنبها بالكلية؛ لأنّ وروده تحلة القسم لا يعذب فيها إلا بالصلى، فهذا أحسن ما حملت الآية عليه، لكن إنما ينزل على جادة السنة، وأمّا الزمخشري فينحرف عنها، فلا جرم أنه في عهدة الجواب يفكر ويقدّر، والله أعلم.

(6) سورة الليل، الآية: 17.

وقيل: الأتقى وجعل مختصًا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل، أو أمية بن خلف. وأبو بكر رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يتزكى﴾ من الزكاء أي: يطلب أن يكون عند الله زاكيًا لا يريد به رياءً ولا سمعةً أو يتفعل من الزكاة.

فإن قُلْتَ: ما محل يتزكى؟ قُلْتُ: هو على وجهين إن جعلته بدلاً من يؤتى فلا محل له لأنه داخل في حكم الصلة، والصلاة لا محل لها، وإن جعلته حالاً من الضمير في يؤتى فمحله النصب.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ابتغاء وجه ربه﴾ مستثنى من غير جنسه، وهو النعمة أي: ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه. كقولك: ما في الدار أحد إلا حمارًا. وقرأ يحيى بن وثاب: إلا ابتغاء وجه ربه بالرفع، على لغة من يقول: ما في الدار أحد إلا حمار. وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم:

أضحت خلاءً قفارًا لا أنيس بها ... إلا الجآذر[1] والظلمان تختلف

وقول القائل:

وبلدة ليس بها أنيس ... إلا اليعافير وإلا العيس

ويجوز أن يكون ابتغا وجه ربه مفعولاً له على المعنى، لأنّ معنى الكلام: لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ولسوف يرضى﴾ موعد بالثواب الذي يرضيه ويقر عينه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والليل أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسر له اليسر»[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الضحى مكية

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾.

المراد بالضحى: وقت الضحى وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقى شعاعها. وقيل: إنما خصّ وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقي فيها السحرة سجدًا، لقوله: ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾[3] وقيل: أريد بالضحى النهار بيانه قوله: أن يأتيهم بأسنا ضحى في مقابلة بياتًا.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾.

﴿سجى﴾ سكن وركد ظلامه، وقيل: ليلة ساجية، ساكنة الريح، وقيل: معناه سكون الناس والأصوات فيه. وسجا البحر سكنت أمواجه، وطرف ساج ساكن فاتر.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.

﴿ما ودعك﴾ جواب القسم ومعناه: ما قطعك قطع المودع. وقرئ بالتخفيف يعني: ما تركك. قال:

ثم ودعنا آل عمرو وعامر ... فرائس أطراف المثقفة السمر

والتوديع: مبالغة في الودع لأنّ من ودعك مفارقًا فقد بالغ في تركك. روي أنّ الوحي قد تأخر عن رسول الله ﷺ أيامًا فقال المشركون: إنّ محمدًا ودعه ربه وقلاه[4]. وقيل: إنّ أم جميل امرأة أبي لهب قالت له: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت[5]. حذف الضمير من قلى كحذفه من الذاكرات في قوله: والذاكرين الله كثيرًا. والذاكرات يريد والذاكراته ونحوه. فآوى فهدى فأغنى وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف.

﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ بما قبله؟ قُلْتُ: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أنّ الله مواصلك بالوحي إليك[6]، وأنك حبيب الله ولا ترى كرامةً أعظم من ذلك ولا نعمةً أجل منه، أخبره إن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله وشهادة أمته على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾.

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ موعد شامل ولما أعطاه في الدنيا من الفلج والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجًا. والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام وفشوّ الدعوة واستيلاء المسلمين، ولما ادخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله. قال ابن

---

(1) الجآذر: ولد البقرة الوحشية.

(2) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم الزيلعي 4/224.

(3) سورة طه، الآية: 59.

(4) ذكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي 4/228.

(5) رواه البخاري في كتاب: التفسير سورة الضحى باب: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ (الحديث رقم: 4950) ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (الحديث رقم: 115 _ 1797).

(6) قال أحمد: وإخراج أهل الكبائر من النار بشفاعته مضاف إلى ذلك.

عباس رضي الله عنهما: له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك.

فإن قُلْتَ:ما هذه اللام الداخلة على سوف؟ قُلْتُ:هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك. كما ذكرنا في لأقسم أن المعنى: لأنا أقسم، وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء. فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد فبقي أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك.

فإن قُلْتَ:ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟ قُلْتُ:معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة. عدّد عليه نعمه وأياديه وأنه لم يخله منها من أوّل تربيه وابتداء نشئه ترشيحًا لما أراد به ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة ولا يضيق صدره ولا يقل صبره.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾.

و ﴿ألم يجدك﴾ من الوجود الذي بمعنى العلم والمنصوبان مفعولا وجد، والمعنى: ألم تكن يتيمًا، وذلك أنّ أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر، وماتت أمّه وهو ابن ثمان سنين. فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته(1). ومن بدع التفاسير أنه من قولهم: درّة يتيمة، وأن المعنى: ألم يجدك واحدًا في قريش عديم النظر فآواك. وقرئ: فأوى، وهو على معنيين: إما من أواه بمعنى: آواه. سمع بعض الرعاة يقول: أين آوي هذه الموقسة؟ وإما من أوى له إذا رحمه.

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾.

﴿ضالاً﴾ معناه: الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع. كقوله: ما كنت تدري ما الكتاب! وقيل: ضلّ في صباه في بعض شعاب مكة فردّه أبو جهل إلى عبد المطلب. وقيل: أضلته حليمة عند باب مكة، حين فطمته وجاءت به لتردّه على عبد المطلب. وقيل: ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب. فهداك فعرفك القرآن والشرائع، أو فأزال ضلالك عن جدك وعمك. ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السمعية فنعم، وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوّة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة فما بال الكفر والجهل بالصانع. ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر.

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾.

﴿عائلاً﴾ فقيرًا. وقرئ: عيلاً. كما قرئ: سيحات وعديمًا، ﴿فأغنى﴾ فأغناك بمال خديجة، أو بما أفاء عليك من الغنائم. قال عليه السلام: جعل رزقي تحت ظل رمحي(2). وقيل: قنعك وأغنى قلبك.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾.

﴿فلا تقهر﴾ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه. وفي قراءة ابن مسعود: فلا تكهر، وهو أن يعبس في وجهه، وفلان ذو كهرورة عابس الوجه. ومنه الحديث: فبأبي وأمي هو ما كهرني النهر(3)، والنهم الزجر عن النبي ﷺ: «إذا ردت السائل ثلاثًا فلم يرجع فلا عليك أن تزبره».

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾.

وقيل: إما أنه ليس بالسائل المستجدي، ولكن طالب العلم إذا جاء فلا تنهره. التحديث بنعمة الله شكرها وإشاعتها يريد ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء، وما عدا ذلك. وعن مجاهد: بالقرآن فحدث، أقرئه وبلغ ما أرسلت به. وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة خيرًا قرأت كذا وصليت كذا. فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا. قال: يقول الله تعالى:

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾.

﴿وأما بنعمة ربك فحدّث﴾ وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله. وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف وأن يقتدي به غيره. وأمن على نفسه الفتنة والستر أفضل ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمعة لكفى به. وفي قراءة علي رضي الله عنه: فخبر. والمعنى: أنك كنت يتيمًا وضالاً وعائلاً فآواك الله وهداك وأغناك فمهما يكن من شيء وعلى ما خليت فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث، واقتد بالله فتعطف على اليتيم وآوه فقد ذقت اليتم. وهو أنه ورأيت كيف فعل الله بك وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر، وحدّث بنعمة الله كلها. ويدخل تحته هدايته الضلال وتعليمه الشرائع والقرآن مقتديًا بالله في أن هداه من الضلال. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له، وعشر حسناتٍ يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل»(4).

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 2/605.

(2) رواه البخاري تعليقاً في الكتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في الرماح، وأحمد في مسنده 2/50.

(3) رواه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم= الكلام في الصلاة (الحديث رقم: 33 ـ 537).

(4) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، الزيلعي 4/234.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة ألم نشرح مكية

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾.

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار فأفاد إثبات الشرح وإيجابه فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك ولذلك عطف عليه وضعنا اعتبارًا للمعنى. ومعنى شرحنا صدرك. فسحناه حتى وسع هموم النبوّة ودعوة الثقلين جميعًا، أو حتى احتمل المكاره التي يتعرض لك بها كفار قومك وغيرهم، أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم.

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾.

وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى والجهل. وعن الحسن: ملئ حكمةً وعلمًا. وعن أبي جعفر المنصور أنه قرأ: ألم نشرح لك بفتح الحاء. وقالوا لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظنّ السامع أنه فتحها.

ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾.

والوزر: الذي أنقض ظهره أي: حمله على النقيض وهو صوت الانتقاض والانفكاك لثقله، مثل لما كان يثقل على رسول الله ﷺ ويغمه من فرطاته قبل النبوّة، أو من جهله بالأحكام والشرائع، أو من تهالكه على إسلام أولي العباد من قومه وتلهفه. ووضعه عنه أن غفر له، أو علم الشرائع، أو مهد عذره بعد ما بلغ وقرأ أنس وحللنا وحططنا. وقرأ ابن مسعود: وحللنا عنك وقرك.

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾.

ورفع ذكره أن قرن بذكر الله في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخطب وفي غير موضع من القرآن. ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾[1] ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾[2] ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[3] وفي تسميته رسول الله ونبي الله ومنه ذكره في كتب الأوّلين والأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به.

فإن قُلْتَ: أي فائدة في زيادة لك والمعنى مستقل بدونه[4]؟ **قُلْتُ:** في زيادة لك ما في طريقة الإبهام والإيضاح. كأنه قيل: ألم نشرح لك ففهم أن ثم مشروحًا. ثم قيل: صدرك. فأوضح ما علم مبهمًا، وكذلك لك ذكرك وعنك وزرك.

فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾.

فإن قُلْتَ: كيف تعلق قوله: ﴿فإنّ مع العسر يسرا﴾ بما قبله؟ **قُلْتُ:** كان المشركون يعيرون رسول الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم فذكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم. ثم قال: فإنّ مع العسر يسرا. كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله فإنّ مع العسر الذي أنتم فيه يسرا.

فإن قُلْتَ: إن مع للصحبة فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ **قُلْتُ:** أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمام قريب، فقرّب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر زيادةً في التسلية وتقوية القلوب.

فإن قُلْتَ: ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: لن يغلب عسر يسرين[5]. وقد روي مرفوعًا أنه خرج ﷺ ذات يوم وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين! **قُلْتُ:** هذا عمل على الظاهر وبناء على قوّة الرجاء، وأن موعد الله لا يحمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه والقول في أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريرًا للأولى كما كرّر قوله: ﴿ويل يومئذٍ للمكذبين﴾[6] لتقرير معناه في النفوس وتمكينها في القلوب. وكما يكرر المفرد في قولك: جاءني زيد زيد، وأن تكون الأولى عدة بأنّ العسر مردوف بيسر لا محالة.

إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾.

والثانية عدة مستأنفة بأنّ العسر متبوع بيسر فهما يسران على تقدير الاستئناف وإنما كان العسر واحدًا لأنه لا يخلو إما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذي كانوا فيه فهو هو لأنّ حكمه حكم زيد في قولك: إن مع زيد مالاً، إن مع زيد مالاً. وإما أن يكون للجنس الذي يعلمه كل أحد فهو هو أيضًا وأما اليسر فمنكر متناول لبعض الجنس فإذا كان الكلام الثاني مستأنفًا غير مكرر فقد تناول بعضًا غير البعض الأوّل بغير إشكال.

فإن قُلْتَ: فما المراد باليسرين؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يراد بهما ما تيسر لهم من الفتوح في أيام رسول الله ﷺ وما تيسر لهم في أيام الخلفاء، وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة. كقوله تعالى: ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾[7] وهما حسنى الظفر وحسنى الثواب.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 62.

(2) سورة النور، الآية: 52.

(3) سورة المائدة، الآية: 92.

(4) قال أحمد: وقد تقدّم عند الكلام على نظيرها في قوله: ﴿قال رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري﴾ قريب من هذا المعنى، والله أعلم.

(5) أخرجه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ميمون أبي حمزة عن إبراهيم عن ابن مسعود، ابن حجر ص 185.

(6) سورة الطور، الآية: 11.

(7) سورة التوبة، الآية: 52.

فإن قُلْتَ: فما معنى هذا التنكير؟ قُلْتُ: التفخيم. كأنه قيل: إن مع العسر يسرًا عظيمًا وأي يسر. وهو مصحف ابن مسعود مرة واحدة.

فإن قُلْتَ: فإذا ثبت في قراءته غير مكرر فلم قال: والذي نفسي بيده لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه إنه لن يغلب عسر يسرين! قُلْتُ: كأنه قصد باليسرين ما في قوله: يسرًا من معنى التفخيم فتأوله بيسر الدارين وذلك يسران في الحقيقة.

فإن قُلْتَ: فكيف تعلق قوله:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾.

﴿فإذا فرغت فانصب﴾ بما قبله؟ قُلْتُ: لما عدد عليه نعمه السالفة ووعده الآنفة بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض ويتابع ويحرص على أن لا يخلي وقتًا من أوقاته منها فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى. وعن ابن عباس: فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء. وعن الحسن: فإذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة. وعن مجاهد: فإذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك. وعن الشعبي أنه رأى رجلاً يشيل حجرًا فقال: ليس بهذا أمر الفارغ وقعود الرجل فارغًا من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه من سفه الرأي وسخافة العقل واستيلاء الغفلة. ولقد قال عمر رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغًا سبهللاً لا في عمل دنيا ولا في عمل آخره[1]. وقرأ أبو السمال: فرغت بكسر الراء وليست بفصيحة. ومن البدع ما روي عن بعض الرافضة أنه قرأ فانصب بكسر الصاد أي: فانصب عليًا للإمامة، ولو صح هذا للرافضي لصح للناصبي أن يقرأ هكذا ويجعله أمرًا بالنصب الذي هو بغض علي وعداوته.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

﴿وإلى ربك فارغب﴾ واجعل رغبتك إليه خصوصًا ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه. وقرئ: فرغب أي: رغب الناس إلى طلب ما عنده. عن النبي ﷺ: «من قرأ ألم نشرح فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرّج عني»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التين مكية

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾.

أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين أصناف الأشجار المثمرة. وروي أنه أهدى لرسول الله ﷺ طبق من تين فأكل منه، وقال لأصحابه: «كلوا، فلو قلت أنّ فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه. لأنّ فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس»[3]. ومرّ معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيبًا واستاك وقال: إنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة»[4]. وسمعته يقول: «هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي». وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو تينكم هذا وزيتونكم وقيل: جبلان من الأرض المقدّسة يقال لهما: بالسريانية: طور تينًا وطور زيتًا لأنهما منبتا التين والزيتون. وقيل: التين جبال ما بين حلوان وهمدان، والزيتون جبال الشام لأنها منابتهما. كأنه قيل: ومنابت التين والزيتون.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾.

وأضيف الطور، وهو الجبل إلى سينين وهي البقعة. ونحو سينون يبرون في جواز الإعراب بالواو والياء والإقرار على الياء وتحريك النون بحركات الإعراب.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾.

والبلد: مكة حماها الله. والأمين: من أمن الرجل أمانةً فهو أمين. وقيل: أمان، كما قيل: كرام في كريم، وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه. ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل، كما وصف بالأمن في قوله تعالى: ﴿حرمًا آمنًا﴾[5] بمعنى: ذي أمن. ومعنى القسم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين. فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه، والطور: المكان الذي نودي منه موسى. ومكة: مكان البيت الذي هو هدىً للعالمين، ومولد رسول الله ﷺ ومبعثه.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾.

---

(1) حديث عمر قال عنه الزيلعي 4/236 وحديث ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة 13/300 كتاب: الزهد، باب: كلام ابن مسعود.

(2) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، الزيلعي 4/237.

(3) أخرجه أبو نعيم في كتاب: الطب، الزيلعي 4/241.

(4) رواه الطبراني في الأوسط والثعلبي في تفسيره، الزيلعي 4/242.

(5) سورة القصص، الآية: 57.

﴿في أحسن تقويم﴾ في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية لأعضائه.

ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾.

ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمته تلك الخلقة الحسنة القويمة لسوية أن رددناه أسفل من سفل خلقًا وتركيبًا، يعني: أقبح من قبح صورةً وأشوهه خلقةً وهم أصحاب النار، أو أسفل من سفل من أهل الدركات، أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل. وحسن الصورة والشكل حيث نكسناه في خلقه فقوّس ظهره بعد اعتداله، وابيض شعره بعد سواده، وتشنن جلده وكان بضًا، وكل سمعه وبصره وكانا حديدين، وتغير كل شيء منه فمشيه دليف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف. وقرأ عبد الله: أسفل السافلين.

فإن قُلْتَ: فكيف الاستثناء على المذهبين؟ قُلْتُ: هو على الأوّل متصل ظاهر الاتصال، وعلى الثاني منقطع.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾.

يعني: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمي فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم.

فإن قُلْتَ:

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾.

﴿فما يكذبك﴾ من المخاطب به؟ قُلْتُ: هو خطاب للإنسان على طريقة الالتفات. أي: فما يجعلك كاذبًا بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل. يعني: أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء لأنّ كل مكذب بالحق فهو كاذب، فأي شيء يضطرك إلى أن تكون كاذبًا بسبب تكذيب الجزاء. والباء مثلها في قوله تعالى: ﴿الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾[1] والمعنى: أنّ خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشرًا سويًا وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر. لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق وأن من قدر من الإنسان على هذا كله لم يعجز عن إعادته، فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع. وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ.

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾.

﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله. وعن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين[2]. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والتين أعطاه الله خصلتين العافية واليقين ما دام في دار الدنيا، وإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة العلق مكية

عن ابن عباس ومجاهد: هي أول سورة نزلت. وأكثر المفسرين على أنّ الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم.

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾.

محل ﴿باسم ربك﴾ النصب على الحال، أي: اقرأ مفتتحًا باسم ربك، قل بسم الله ثم اقرأ.

فإن قُلْتَ: كيف قال: ﴿خلق﴾ فلم يذكر له مفعولاً. ثم قال: ﴿خلق الإنسان﴾؟ قُلْتُ: هو على وجهين: إما أن لا يقدر له مفعول وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه، وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق لأنه مطلق فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض. وقوله: ﴿خلق الإنسان﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض. ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان، كما قال: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان﴾[4] فقيل الذي خلق مبهمًا، ثم فسره بقوله خلق الإنسان تفخيمًا لخلق الإنسان ودلالةً على عجيب فطرته.

فإن قُلْتَ: لم قال: ﴿من علق﴾ على الجمع، وإنما خلق من علقة. كقوله: ﴿من نطفة﴾[5] ثم من علقة؟ قُلْتُ: لأنّ الإنسان في معنى الجمع. كقوله: ﴿إنّ الإنسان لفي خسر﴾[6].

ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾.

﴿الأكرم﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم ينعم على عباده النعم التي لا تحصى ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم. فما لكرمه غاية ولا أمد وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال: الأكرم.

ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾.

---

(1) سورة النحل، الآية: 100.
(2) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/510.
(3) ذكره الثعلبي والواحدي، وابن مردويه، زيلعي 4/243.
(4) سورة الرحمٰن، الآيات: 1 ـ 3.
(5) سورة النمل، الآية: 4.
(6) سورة العصر، الآية: 2.

﴿الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط ليكفى به. ولبعضهم في صفة القلم:

ورواقم[1] رقش كمثل أراقم — قطف الخطا نيالة أقصى المدى
سود القوائم ما يجد مسيرها — إلا إذا لعبت بها بيض المدى

وقرأ ابن الزبير: علم الخط بالقلم.

كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾.

﴿كلا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه.

أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾.

﴿أن رآه﴾ أن رأى نفسه. يقال في أفعال القلوب: رأيتني وعلمتني، وذلك بعض خصائصها، ومعنى الرؤية العلم، ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين و﴿استغنى﴾ هو المفعول الثاني.

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾.

﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديدًا له وتحذيرًا من عاقبة الطغيان، والرجعى مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع. وقيل: نزلت في أبي جهل.

أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾.

وكذلك ﴿أرأيت الذي ينهى﴾ وروى أنه قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهبًا لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك. فنزل جبريل فقال: إن شئت فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة. فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاءً عليهم[2]. وروي عنه لعنه الله أنه قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فوالذي يحلف به لئن رأيته توطأت عنقه. فجاءه ثم نكص على عقبيه. فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحةً فنزلت: ﴿أرأيت الذي ينهى﴾ ومعناه: أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان آمرًا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد.

أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾.

وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن.

أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾.

﴿ألم يعلم بأنّ الله يرى﴾ ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك وهذا وعيد.

فإن قُلْتَ: ما متعلق أرأيت؟ قُلْتُ: الذي ينهى مع الجملة الشرطية وهما في موضع المفعولين.

فإن قُلْتَ: فأين جواب الشرط؟ قُلْتُ: هو محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني.

فإن قُلْتَ: فكيف صح أن يكون ألم يعلم جوابًا للشرط؟ قُلْتُ: كما صح في قولك: إن أكرمتك أتكرمني. وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه؟

فإن قُلْتَ: فما أرأيت الثانية وتوسطها بين مفعول أرأيت! قُلْتُ: هي زائدة مكررة للتوكيد. وعن الحسن أنه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة.

كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾.

﴿كلا﴾ ردع لأبي جهل وخسوء له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات. ثم قال: ﴿لئن لم ينته﴾ عما هو فيه ﴿لنسفعًا بالناصية﴾ لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة. قال عمرو بن معدي كرب:

قوم إذا يقع الصريخ رأيتهم — من بين ملجم مهره أو سافع

وقرئ: لنسفعنّ بالنون المشدّدة. وقرأ ابن مسعود: لأسفعًا. وكتبتها في المصحف بالألف على حكم الوقف ولما علم أنها ناصية المذكور اكتفى بلام العهد عن الإضافة.

نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾.

﴿ناصية﴾ بدل من الناصية وجاز بدلها عن المعرفة وهي نكرة لأنها وصفت فاستقلت بفائدة. وقرئ: ناصية على هي ناصية، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم. ووصفها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي وهما في الحقيقة لصاحبها، وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطئ.

فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾.

والنادي المجلس الذي ينتدى فيه القوم، أي: يجتمعون، والمراد أهل النادي. كما قال جرير:

---

(1) رواقم: من الرَّقم أي الكتابة. أراقم جمع رقم، وهي الحية التي على ظهرها نقش.

(2) قال الزيلعي: لم أجده. وقال ابن حجر: وآخره تقدم في الإسراء بغير هذا السياق.

لهم مجلس صهب السبال أذلة

وقال زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم

والمقامة: المجلس. روي أنّ أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنهك. فأغلظ له رسول الله ﷺ فقال: أتهدّدني وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا فنزلت[1]. وقرأ ابن أبي عبلة: سيدعى الزبانية على البناء للمفعول.

سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾.

والزبانية في كلام العرب: الشرط. الواحد: زبنية كعفرية من الزبن وهو الدفع. وقيل: زبني وكأنه نسب إلى الزبن ثم غير للنسب كقولهم: إمسي وأصله زباني. فقيل: زبانية على التعويض، والمراد ملائكة العذاب. وعن النبي ﷺ: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانًا»[2].

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾.

﴿كلا﴾ ردع لأبي جهل ﴿لا تطعه﴾ أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه. كقوله: ﴿فلا تطع المكذبين﴾[3] ﴿واسجد﴾ ودم على سجودك يريد الصلاة، ﴿واقترب﴾ وتقرّب إلى ربك. وفي الحديث أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد[4] عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة العلق أعطي من الأجر كأنما قرأ المفصل كله»[5].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القدر مختلف فيها

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾.

عظم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصًا به دون غيره، والثاني أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادةً له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه، والثالث الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه. روي أنه أنزل جملةً واحدةً في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وأملاه جبريل على السفرة، ثم كان ينزله على رسول الله ﷺ نجومًا في ثلاث وعشرين سنة. وعن الشعبي: المعنى: إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. واختلفوا في وقتها فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها، وأكثر القول أنها السابعة منها. ولعل الداعي إلى إخفائها أن يحيي من يريدها الليالي الكثيرة طلبًا لموافقتها فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه، وأن لا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفرطوا في غيرها. ومعنى ليلة القدر ليلة تقدير الأمور وقضائها. من قوله تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾[6] وقيل: سميت بذلك لخطرها وشرفها على سائر الليالي.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾.

﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ يعني: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها.

لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾.

ثم بيّن ذلك بأنها خير من ألف شهر، وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي ذكرها من تنزل الملائكة والروح، وفصل كل أمر حكيم وذكر في تخصيص هذه المدّة أنّ رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت إليهم أعمالهم فأعطوا ليلة هي خير من مدّة ذلك الغازي[7]. وقيل: إنّ الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله ألف شهر، فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد.

تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾.

﴿تنزل﴾ إلى السماء الدنيا. وقيل: إلى الأرض، ﴿والروح﴾ جبريل. وقيل: خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة. ﴿من كل أمر﴾ أي: تتنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل. وقرئ: من كل امرئ أي: من أجل كل إنسان. قيل: لا يلقون مؤمنًا ولا مؤمنةً إلا سلموا عليه في تلك الليلة.

سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾.

﴿سلام هي﴾ ما هي إلا سلامة. أي: لا يقدّر الله فيها إلا السلامة والخير، ويقضي في غيرها بلاء وسلامة، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين. وقرئ: مطلع بفتح اللام وكسرها. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القدر أعطي من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر»[8].

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة ﴿اقرأ﴾ (الحديث رقم: 3349).
(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير ومن سورة: «اقرأ»، باب: ﴿كلا لئن لم ينته﴾ (الحديث رقم: 4958).
(3) سورة القلم، الآية: 8.
(4) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع...=
= (الحديث رقم: 215 ـ 482).
(5) ذكره الثعلبي في تفسيره وابن مردويه والواحدي، زيلعي 4/ 249 ـ 250).
(6) سورة الدخان، الآية: 4.
(7) ذكره الواحدي في أسباب النزول، ص 255.
(8) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي، زيلعي 4/ 253 ـ 254.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القيامة مكية

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾.

كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي ﷺ: لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد ﷺ. فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال: ﴿وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب﴾[1] يعني: أنهم كانوا يعدّون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرّقهم عن الحق ولا أقرّهم على الكفر إلا مجيء الرسول ﷺ. ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفكٍ مما أنا فيه حتى يرزقني الله الغنى، فيرزقه الله الغنى، فيزداد فسقًا، فيقول واعظه: لم تكن منفكًا عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار، ينكره ما كان يقوله توبيخًا وإلزامًا. وانفكاك الشيء من الشيء أن يزايله بعد التحامه به كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجيء البينة. و﴿البينة﴾ الحجة الواضحة.

رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾.

﴿رسول﴾ بدل من البينة. وفي قراءة عبد الله رسولاً حالاً من البينة. ﴿صحفا﴾ قراطيس، ﴿مطهرة﴾ من الباطل.

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾.

﴿فيها كتب﴾ مكتوبات ﴿قيمة﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل. والمراد بتفرّقهم تفرّقهم عن الحق وانقشاعهم عنه، أو تفرّقهم فرقًا فمنهم من آمن ومنهم من أنكر. وقال: ليس به ومنهم من عرف وعاند.

فإن قُلْتَ: لم جمع بين أهل الكتاب والمشركين أولاً؟ ثم أفرد أهل الكتاب في قوله: ﴿وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب﴾؟ **قُلْتُ:** لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم فإذا وصفوا بالتفرّق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾.

﴿وما أمروا﴾ يعني: في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي ولكنهم حرّفوا وبدلوا ﴿وذلك دين القيّمة﴾ أي: دين الملة القيمة. وقرئ: وذلك الدين القيمة على تأويل الدين بالملة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله: وما أمروا إلا ليعبدوا الله؟ **قُلْتُ:** معناه. وما أمروا بما في الكتابين إلا لأجل أن يعبدوا الله على هذه الصفة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾.

وقرأ ابن مسعود: إلا أن يعبدوا. بمعنى بأن يعبدوا. قرأ نافع البريئة بالهمز والقرّاء على التخفيف. والنبيّ والبرية مما استمرّ الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل. وقرئ: خيار البرية جمع خير كجياد وطياب في جمع جيد وطيب. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساءً ومقيلاً»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزلزلة مختلف فيها

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾.

﴿زلزالها﴾ قرئ: بكسر الزاي وفتحها، فالمكسور مصدر، والمفتوح اسم. وليس في الأبنية فعلاً بالفتح إلا في المضاعف.

فإن قُلْتَ: ما معنى زلزالها بالإضافة؟ **قُلْتُ:** معناه زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة ومشيئة الله وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده. ونحوه قولك: أكرم التقى إكرامه، وأهن الفاسق إهانته. تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة. أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه.

وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾.

الأثقال: جمع ثقل وهو متاع البيت، وتحمل أثقالكم جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها.

وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾.

﴿وقال الإنسان ما لها﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ أمواتها أحياء فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع. كما يقولون: من بعثنا من مرقدنا؟ وقيل: هذا قول الكافر لأنه كان لا يؤمن بالبعث، فأمّا المؤمن فيقول: ﴿هذا

---

(1) سورة البيّنة، الآية: 4.

(2) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم 4/257.

ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾.

فإن **قُلْتَ**: ما معنى تحديث الأرض والإيحاء لها؟ **قُلْتُ**: هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان حتى ينظر من يقول: ما لها؟ إلى تلك الأحوال فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات، وأنّ هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه. وقيل: ينطقها الله على الحقيقة وتخبر بما عمل عليها من خير وشر. وروي عن رسول الله ﷺ تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها[1].

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾.

فإن **قُلْتَ**: إذا ويومئذٍ ناصبهما؟ **قُلْتُ** يومئذٍ بدل من إذا وناصبهما تحدث، ويجوز أن ينتصب إذا بمضمر ويومئذٍ بتحدّث.

فإن **قُلْتَ**: اين مفعولا تحدّث؟ **قُلْتُ**: قد حذف أوّلهما، والثاني إخبارها. وأصله: تحدّث الخلق أخبارها، إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيمًا لليوم.

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾.

فإن **قُلْتَ**: بم تعلت الباء في قوله: ﴿بان ربك﴾؟ **قُلْتُ**: بتحدّث معناه تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها وامره إياها بالتحديث. ويجوز أن يكون المعنى: يومئذٍ تحدث بتحديث أنّ ربك أوحى لها أخبارها على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها تحديث بأخبارها. كما تقول: نصحتني كل نصيحة بأن نصحتني في الدين. ويجوز أن يكون بأن ربك بدلاً من أخبارها. كأنه قيل: يومئذٍ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها، لأنك تقول: حدثته كذا وحدثته بكذا. و﴿أوحى لها﴾ بمعنى: أوحى إليها، وهو مجاز كقوله: أن نقول له كن فيكون. قال: أوحى لها القرار فاستقرّت. وقرأ ابن مسعود: تنبئ أخبارها. وسعيد بن جبير: تنبئ بالتخفيف. يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف.

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾.

﴿أشتاتًا﴾ بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين أو يصدرون عن الموقف أشتاتًا يتفرّق بهم طريقا الجنة والنار ليروا جزاء أعمالهم. وفي قراءة النبي ﷺ ليروا بالفتح. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي يره بالضم.

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾.

ويحكى أن أعرابيًا أخر خيرًا يره. فقيل له: قدّمت وأخرت. فقال:

خذا بطن هرشي اقفاها فإنه ... كلا جانبي هرشي لهن طريق

والذرّة، النملة الصغيرة، وقيل: الذرّ ما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

فإن **قُلْتَ**: حسنات الكافر محبطة بالكفر[2]، وسيئات المؤمن معفوّة باجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرّ من الخير والشر؟ **قُلْتُ**: المعنى فمن يعمل مثقال ذرّة خيرًا من فريق السعداء، ومن يعمل مثقال ذرّة شرًا من فريق الأشقياء. لأنه جاء بعد قوله: يصدر الناس أشتاتًا، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة العاديات مختلف فيها

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾.

اقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح. والضبح: صوت انفاسها[4] إذا عدون. وعن ابن عباس انه حكاه فقال: اح

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ﴿إذا زلزلت الارض﴾ (الحديث رقم: 3353) وأخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس، (الحديث رقم: 7360) وأخرجه الحاكم في المستدرك 2/532.

(2) قال أحمد: السؤال المبني على قاعدتين إحداهما: أن حسنات الكافر محبطة بالكفر وهذه فيها نظر، فإن حسنات الكافر محبطة، أي: لا يثاب عليها ولا ينعم، وأمّا تخفيف العذاب بسببها فغير منكر، فقد وردت به الأحاديث الصحيحة، وقد ورد أن حاتماً يخفف الله عنه لكرمه ومعروفه، ورد ذلك في حق غيره كأبي طالب أيضاً، فحينئذٍ لحسنات الكافر أثر ما في تخفيف العذاب، فيمكن أن يكون المرئي هو ذلك الأثر، والله أعلم. وأمّا القاعدة الثانية: وهي القول بأن اجتناب الكبائر يوجب تمحيص الصغائر ويكفرها عن المؤمن، فمردود عند أهل السنة فإنّ الصغائر عندهم حكمها في التكفير= حكم الكبائر، تكفر بأحد أمرين: إمّا بالتوبة النصوح المقبولة، وإمّا بالمشيئة لا غير ذلك، وإمّا اجتناب الكبيرة عندهم فلا يوجب التكفير للصغيرة، فالسؤال المذكور إذاً ساقط عن أهل السنة، ولكن الزمخشري التزم الجواب عنه للزومه على قاعدته الفاسدة، والله الموفق.

(3) أخرجه الثعلبي من حديث علي بإسناد أهل البيت، وله شاهد من حديث انس مرفوعًا، ذكره ابن كثير في تفسيره: 8/480. والخطيب في تاريخه 11/380.

(4) قال أحمد: ولم ينكر حكمة الإتيان بالفعل معطوفاً على الاسم فنقول: إنما عطف أثرن على الاسم الذي هو العاديات وما بعده؛ لأنها أسماء فاعلين تعطي معنى الفعل وحكمة مجيء هذا المعطوف فعلاً عن اسم فاعل تصوير هذه الأفعال في النفس، فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة، وكذلك التصوير=

أح. قال عنترة:

والخيل تكدح حين تضـ ـبح في حياض الموت ضبحًا

وانتصاب ضبحًا على يضبحن ضبحًا، أو بالعاديات. كأنه قيل: والضابحات، لأن الضبح يكون مع العدو. أو على الحال أي: ضابحات.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾.

﴿فالموريات﴾ توري نار الحباحب، وهي ما ينقدح من حوافرها. ﴿قدحًا﴾ قادحات صاكاتٍ بحوافرها الحجارة، والقدح: الصك. والإيراء: إخراج النار. تقول: قدح فأورى، وقدح فأصلد، وانتصب قدحًا بما انتصب به ضبحًا.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾.

﴿فالمغيرات﴾ تغير على العدو ﴿صبحًا﴾ في وقت الصبح.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾.

﴿فأثرن به نقعًا﴾ فهيجن بذلك الوقت غبارًا.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾.

﴿فوسطن به﴾ بذلك الوقت أو بالنقع، أي: وسطن النقع الجمع، أو فوسطن ملتبساتٍ به ﴿جمعًا﴾ من جموع الأعداء ووسطه بمعنى: توسطه. وقيل: الضمير لمكان الغارة، وقيل: للعدو الذي دلّ عليه والعاديات. ويجوز أن يراد بالنقع الصياح من قوله عليه السلام: ما لم يكن نقع ولا لقلقة[1]. وقول لبيد: فمتى ينقع صراخ صادق، أي: فهيجن في المغار عليهم صياحًا وجلبةً، وقرأ أبو حيوة: فأثرن بالتشديد، بمعنى: فأظهرن به غبارًا، لأن التأثير فيه معنى الإظهار أو قلب ثورن إلى وثرن وقلب الواو همزةً. وقرئ: فوسطن بالتشديد للتعدية، والباء مزيدة للتوكيد، كقوله: ﴿وأتوا به﴾[2] وهي مبالغة في وسطن، وعن ابن عباس: كنت جالسًا في الحجر فجاء رجل فسألني عن العاديات ضبحًا ففسرتها بالخيل، فذهب إلى علي وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت. فقال: ادعه لي، فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد العاديات ضبحًا الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى[3]، فإن صحت الرواية فقد استعير الضبح للإبل، كما استعير المشافر والحافر للإنسان، والشفتان للمهر، والثفر للثورة، وما أشبه ذلك. وقيل: الصبح لا يكون إلا للفرس والكلب والثعلب. وقيل: الضبح، بمعنى: الضبع، يقال: ضبحت الإبل، وضبعت إذا مدت أضباعها في السير، وليس بثبت وجمع هو المزدلفة.

فإن قُلْتَ: علام عطف فأثرن؟ قُلْتُ: على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه لأنّ المعنى: واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾.

الكنود: الكفور، وكند النعمة كنودًا، ومنه سمي كندة لأنه كند أباه ففارقه. وعن الكلبي: الكنود بلسان كندة العاصي، وبلسان بني مالك البخيل، وبلسان مضر وربيعة الكفور، يعني: أنه لنعمة ربه خصوصًا لشديد الكفران، لأنّ تفريطه في شكر نعمة غير الله تفريط قريب لمقاربة النعمة، لأنّ أجل ما أنعم به على الإنسان من مثله نعمة أبويه، ثم إن عظماها في جنب أدنى نعمة الله قليلة ضئيلة.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وإنه﴾ وإنّ الإنسان ﴿على ذلك﴾ على كنوده ﴿لشهيد﴾ يشهد على نفسه ولا يقدر أن يجحده لظهور أمره، وقيل: وإنّ الله على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿الخير﴾ المال من قوله تعالى: إن ترك خيرًا. والشديد: البخيل الممسك. يقال: فلان شديد ومتشدد، قال طرفة:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني: وإنه لأجل حب المال وأن إنفاقه يثقل عليه لبخيل ممسك، أو أراد بالشديد القوي، وأنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوي مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس. تقول: هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا كان مطيقًا له ضابطًا، أو أراد أن لحب الخيرات غير هشٍ منبسط ولكنه شديد منقبض.

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾﴾.

﴿بعثر﴾ بعث وقرئ: بحثر وبحث وبحثر وحصل على بنائهما للفاعل وحصل بالتخفيف.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾.

= بالمضارع بعد الماضي، وقد تقدمت له شواهد أقربها قول ابن معديكرب:

بأني لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت صريعاً لليدين وللجران

(1) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من النياحة على الميت وأخرجه الحاكم في المستدرك 3/217.

(2) سورة البقرة، الآية: 25.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/533.

ومعنى حصل جمع في الصحف أي: اظهر محصلاً مجموعًا. وقيل: ميز بين خيره وشره، ومنه قيل للمنخل: المحصل. ومعنى علمه بهم يوم القيامة مجازاته لهم على مقادير أعمالهم لأنّ ذلك أثر خبره بهم.

إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾.

وقرأ أبو السمال: إنّ ربهم بهم يومئذٍ خبير. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والعاديات أعطي من الأجر عشر حسناتٍ بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعًا»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القارعة مكية

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾.

الظرف نصب بمضمر دلت عليه القارعة أي: تقرع.

يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾.

﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾. شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار. قال جرير:

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلي

وفي أمثالهم أضعف من فراشة وأذل وأجهل، وسمي فراشًا لتفرّشه وانتشاره.

وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾.

وشبّه الجبال بالعهن وهو الصوف المصبغ ألوانًا لأنها ألوان، وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها. وقرأ ابن مسعود: كالصوف.

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾.

الموازين جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله، أو جمع ميزان. وثقلها رجحانها. ومنه حديث أبي بكر لعمر رضي الله عنهما في وصيته[2] له وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقلها في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل.

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾.

وإنما خفت موازين من خفت موازينه لاتباعهم الباطل وخفتها في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا السيئات أن يخف.

فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾.

﴿فامّه هاوية﴾ من قولهم: إذا دعوا على الرجل بالهلكة هوت امّه[3] لانه إذا هوى أي: سقط وهلك فقد هوت امّه ثكلاً وحزنًا. قال:

هوت امّه ما يبعث الصبح غاديًا وماذا يردّ الليل حين يؤب

فكأنه قيل: وأما من خفت موازينه فقد هلك. وقيل: هاوية من سماء النار، وكأنها النار العميقة لهوى أهل النار فيها مهوىً بعيدًا. كما روي: يهوي فيها سبعين خريفًا[4]. أي: فمأواه النار. وقيل: للمأوى أمّ على التشبيه لأنّ الأمّ مأوى الولد ومفزعه. وعن قتادة: فامّه هاوية أي: فأمّ رأسه هاوية في قعر جهنم، لأنه يطرح فيها منكوسًا.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾.

﴿هيه﴾ ضمير الداهية التي دلّ عليها قوله: فامّه هاوية. في التفسير الأوّل، أو ضمير هاوية والهاء للسكت، وإذا وصل القارئ حذفها وقيل: حقه أن لا يندرج لئلا يسقطها الإدراج لأنها ثابتة في المصحف، وقد أجيز إثباتها مع الوصل. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة»[5].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التكاثر مكية

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾

ألهاه عن كذا واقهاه إذا شغله. و﴿التكاثر﴾ التباري في الكثرة والتباهي بها، وأن يقول هؤلاء نحن اكثر وهؤلاء نحن اكثر. روي أن بني عبد منافٍ وبني سهم تفاخروا أيهم اكثر عددًا فكثرهم بنو عبد منافٍ فقالت بنو سهم: إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادّونا بالأحياء والأموات، فكثرتهم بنو سهم، والمعنى: انكم تكاثرتم بالأحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات. عبّر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة المقابر تهكمًا بهم. وقيل: كانوا يزورون المقابر فيقولون: هذا قبر فلان وهذا

(1) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه 4/297.
(2) رواه ابن أبي شيبة 14/573، كتاب: المغازي، باب: خلافة عمر.
(3) قال أحمد: والأوّل أظهر؛ لأنّه مثل معروف كقولهم لأمه: الهبل.
(4) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة قعر= جهنم (الحديث رقم: 2575)، وأخرجه الحاكم في المستدرك 4/597.
(5) أخرجه البخاري في الرقاق، باب: حفظ اللسان، (الحديث رقم: 6478).

قبر فلان عند تفاخرهم. والمعنى: ألهاكم ذلك وهو مما لا يعنيكم ولا يجدي عليكم في دنياكم وآخرتكم عما يعنيكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعني من كل مهم، أو أراد ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها، إلى أن أتاكم الموت لا هم لكم غيرها عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لآخرتكم. وزيارة القبور عبارة عن الموت قال:

لن يخلص العام خليل عشرا ذاق الضماد أو يزور القبرا

وقال:

زار القبور أبو مالك فأصبح الأمّ زوّارها

وقرأ ابن عباس: آلهاكم، على الاستفهام الذي معناه التقرير.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣﴾.

﴿كلا﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه. ﴿سوف تعلمون﴾ إنذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم. والتكرير تأكيد للردع والإنذار عليهم.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤﴾.

و ﴿ثم﴾ دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأوّل وأشدّ كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك لا تفعل. والمعنى: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدّامكم من هول لقاء الله، وإنّ هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥﴾.

ثم كرّر التنبيه أيضًا وقال: ﴿لو تعلمون﴾، محذوف الجواب، يعني: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التي وكلتم بعلمها هممكم لفعلتم ما لا يوصف، ولا يكتنه ولكنكم ضلال جهلة، ثم قال:

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦﴾.

﴿لترونّ الجحيم﴾ فبين لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به. وقد مرّ ما في إيضاح الشيء بعد إبهامه من تفخيمه وتعظيمه في التهديد وزيادةً في التهويل. وقرئ: لترؤن بالهمز وهي مستكرهة.

فإن قُلْتَ: لم استكرهت والواو المضمومة قبلها همزة قياس مطرد! قُلْتُ: ذاك في الواو التي ضمتها لازمة وهذه عارضة لالتقاء الساكنين.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ٧﴾.

وقرئ: لترون ولترونها على البناء للمفعول. ﴿عين اليقين﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته ويجوز أن يراد بالرؤية العلم والإبصار.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ٨﴾.

﴿عن النعيم﴾ عن اللهو والتنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه.

فإن قُلْتَ: ما النعيم الذي يسئل عنه الإنسان ويعاتب عليه فما من أحد إلا وله نعيم؟ قُلْتُ: هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات ولم يعش إلا لياكل الطيب ويلبس اللين ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعلم والعمل ولا يحمل نفسه مشاقهما. فأما من تمتع بنعمة الله وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده وتقوى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل وكان ناهضًا بالشكر فهو من ذاك بمعزل، وإليه أشار رسول الله ﷺ فيما يروى أنه أكل هو وأصحابه تمرًا وشربوا عليه ماءً فقال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»[1]. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ ألهاكم التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة العصر مكية

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾.

اقسم بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله تعالى: ﴿والصلاة الوسطى﴾[3] صلاة العصر في مصحف حفصة. وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»[4]. ولأنّ التكليف في أدائها

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: الزكاة، باب: المسألة والأخذ وما يتعلق به من المكافاة، (الحديث رقم: 3411) والنسائي في كتاب: الوصايا، باب: قضاء الدين قبل الميراث، (الحديث رقم: 3640) أخرجه أبو داود في كتاب: الأطعمة، باب: ما يقول الرجل إذا طعم (الحديث رقم: 3850) وأخرجه الترمذي في السنن، كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا فرغ من الطعام، (الحديث رقم: 3457).

(2) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي: 4/278.

(3) سورة البقرة، الآية: 238.

(4) أخرجه أحمد في المسند 2/54، 134 ـ 145. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه 1/342.

أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم، أو أقسم بالعشي كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعًا من دلائل القدرة، أو أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب.

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾.

والإنسان للجنس. والخسر الخسران. كما قيل: الكفر في الكفران، والمعنى: أن الناس في خسران من تجاراتهم إلا الصالحين وحدهم لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا، ومن عداهم تجروا خلاف تجارتهم فوقعوا في الخسارة والشقاوة.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾.

﴿وتواصوا بالحق﴾ بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة. ﴿وتواصوا بالصبر﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما يبلو الله به عباده، عن رسول الله ﷺ: «مَن قرأ سورة والعصر غفر الله له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الهمزة مكية

الهمز الكسر كالهزم واللمز الطعن. يقال: لمزه ولهزه، طعنه، والمراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم، واغتيابهم والطعن فيهم. وبناء فعله يدل على أنّ ذلك عادة منه قد ضرى بها. ونحوهما: اللعنة والضحكة. قال:

وإن أغيب فأنت الهامز اللمزة

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾.

وقرئ: ويل للهمزة اللمزة[2]. وقرئ: ويل لكل همزة لمزة، بسكون الميم وهو المسخرة الذي يأتي بالأوابد والأضاحيك فيضحك منه ويشتم. وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق وكانت عادته الغيبة والوقيعة، وقيل: في أمية بن خلف. وقيل: في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله ﷺ وغضه منه، ويجوز أن يكون السبب خاصًا والوعيد عامًا ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون جاريًا مجرى التعريض بالوارد فيه، فإنّ ذلك أزجر له وأنكى فيه.

ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾.

﴿الذي﴾ بدل من كل أو نصب على الذم. وقرئ: جمع بالتشديد وهو مطابق لعدده، وقيل: عدّده جعله عدة لحوادث الدهر. وقرئ: وعدده، أي: جمع المال وضبط عدده وأحصاه، أو جمع ماله وقومه الذين ينصرونه. من قولك: فلان ذو عدد وعدد، إذا كان له عدد وافر من الأنصار وما يصلحهم، وقيل: وعدده معناه وعده على فك الإدغام نحو ضننوا.

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾.

﴿أخلده﴾ وخلده بمعنى: أي طول المال أمله ومناه الأماني البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أنّ المال تركه خالدًا في الدنيا لا يموت، أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والآجر وغرس الأشجار وعمارة الأرض عمل من يظنّ أن ماله أبقاه حيًا، أو هو تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم، فأما المال فما أخلد أحدًا فيه. وروي أنه كان للأخنس أربعة آلاف دينار. وقيل: عشرة آلاف، وعن الحسن أنه عاد موسرًا فقال: ما تقول في ألوف لم أفتدِ بها من لئيم، ولا تفضلت على كريم، قال: ولكن لماذا؟ قال: لنبوة الزمان، وجفوة السلطان، ونوائب الدهر، ومخافة الفقر. قال: إذن تدعه لمن لا يحمدك وترد على من لا يعذرك.

كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾.

﴿كلا﴾ ردع له عن حسبانه. وقرئ: لينبذان، أي هو وماله. ولينبذن بضم الذال أي: هو وأنصاره. ولينبذنه ﴿في الحطمة﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها. ويقال للرجل الأكول: إنه لحطمة.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾.

وقرئ: ﴿الحاطمة﴾ يعني: أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلوب ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ولا أشد تألمًا منه بأدنى أذىً يمسه، فكيف إذا اطلعت عليه.

نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾.

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 281.

(2) قال أحمد: وما أحسن مقابلة الهمزة اللمزة بالحطمة، فإنه لما وسمه بهذه السمة بصيغة أرشدت إلى أنها راسخة فيه ومتمكنة منه، أتبع المبالغة بوعيده بالنار التي سماها بالحطمة، لما يلقى = فيها وسلك في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها الذنب، حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء، فهذا الذي ضرى بالذنب جزاؤه هذه الحطمة التي هي ضارية بحطم كل ما يلقى إليها.

نار جهنم واستولت عليه، ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة. ومعنى: اطلاع النار عليها أنها تعلوها وتغلبها وتشتمل عليها، أو تطالع على سبيل المجاز معادن موجبها.

إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾.

﴿مؤصدة﴾ مطبقة قال:

تحن إلى أجبال مكة ناقتي ... ومن دونها أبواب صنعاء مؤصده

وقرئ: في عمد بضمتين، وعمد بسكون الميم، وعمد بفتحتين، والمعنى: أنه يؤكد يأسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد فتؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد استيثاقًا في استيثاق. ويجوز أن يكون المعنى: أنها عليهم مؤصدة موثقين.

في عمد ممدّدة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص. اللهم أجرنا من النار يا خير مستجار. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ محمد وأصحابه»(1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الفيل مكية

روي أنّ أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج. فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً فأغضبه ذلك. وقيل: أججت رفقة من العرب نارًا فحملتها الريح فأحرقتها. فحلف ليهدّ من الكعبة. فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود وكان قويًا عظيمًا، واثنا عشر فيلاً غيره، وقيل: ثمانية، وقيل: كان معه ألف فيل وكان وحده. فلما بلغ المغمس خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى، وعبأ جيشه وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول. فأرسل الله طيرًا سودًا. وقيل: خضرًا. وقيل: بيضًا، مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه. ففروا فهلكوا في كل طريق ومنهل. ودوى أبرهة فتساقطت أنامله وآرابه وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائره يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي، فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتًا بين يديه.

وقيل: كان أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن رسول الله ﷺ بأربعين سنة وقيل: بثلاث وعشرين سنة. وعن عائشة رضي الله عنها: رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان. وفيه أنّ أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليه فيها فجهره وكان رجلاً جسيمًا وسيمًا. وقيل: هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال. فلما ذكر حاجته قال: سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم في قديم الدهر، فألهاك عنه ذود أخذلك. فقال: أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه، ثم رجع وأتى باب البيت فأخذ بحلقته وهو يقول:

لا هم إن المرء يمـ ... ـنع أهله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم أبدًا محالك

إن كنت تاركهم وكعـ ... ـبتنا فأمر ما بدا لك

يا رب لا أرجو لهم سواك ... يا رب فامنع منهم حماك

فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطير من نحر اليمن فقال: والله إنها لطير غريبة ما هي ببحرية ولا تهامية. وفيه أنّ أهل مكة قد احتووا على أموالهم وجمع عبد المطلب من جواهرهم وذهبهم الجور وكان سبب يساره، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سئل عن الطير فقال: حمام مكة منها. وقيل: جاءت عشية ثم صبحتهم، وعن عكرمة: من أصابته جدرته وهو أوّل جدري ظهر.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾.

وقرئ: ﴿ألم ترْ﴾، بسكون الراء للجد في إظهار أثر الجازم. والمعنى: أنك رأيت آثار فعل الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواترةً فقامت لك مقام المشاهدة.

و﴿كيف﴾ في موضع نصب بفعل ربك، لا بألم تر لما في كيف من معنى الاستفهام.

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾.

﴿في تضليل﴾ في تضييع وإبطال. يقال: ضلل كيده، إذا جعله ضلالاً ضائعًا، ومنه قوله تعالى: وما كيد الكافرين إلا في ضلال. وقيل لامرئ القيس: الملك الضليل، لأنه ضلل ملك أبيه، أي: ضيعه، يعني: أنهم كانوا البيت أوّلاً ببناء القليس وأرادوا أن ينسخوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه وكادوه، ثانيًا بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم.

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾.

﴿أبابيل﴾ حزائق الواحدة إبالة، وفي أمثالهم: ضغث على إبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت الحزقة من الطير في

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 285.

تضامّها بالإبالة، وقيل: أبابيل، مثل عبابيد، وشماطيط لا واحد لها. وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: يرميهم، أي: الله تعالى أو الطير، لأنه اسم جمع مذكر وإنما يؤنث على المعنى.

تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾.

﴿وسجيل﴾ كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار كما أن سجينًا علم لديوان أعمالهم. كأنه قيل: بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدوّن واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال لأنّ العذاب موصوف بذلك وأرسل عليهم طيرًا فأرسلنا عليهم الطوفان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من طين مطبوخ كما يطبخ الآجر، وقيل: هو معرب من سنككل، وقيل: من شديد عذابه، ورووا: بيت بن مقبل. ضربًا تواصت به الأبطال سجيلاً وإنما هو سجينًا. والقصيدة نونية مشهورة في ديوانه وشبهوا بورق الزرع إذا أكل. أي: وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود أو يتبن أكلته الدواب وراثته ولكنه جاء على ما عليه آداب القرآن. كقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾[1] أو أريد أكل حبه فبقي صفرًا منه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة قريش مكية

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾.

﴿لإيلاف قريش﴾ متعلق بقوله: ﴿فليعبدوا﴾، أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين.

فإن قُلْتَ: فلِمَ دخلت الفاء؟ **قُلْتُ:** لما في الكلام من معنى الشرط لأنّ المعنى إما لا فليعبدوه لإيلافهم على معنى أنّ نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة وقيل: المعنى عجبوا لإيلاف قريش. وقيل: هو متعلق بما قبله. أي: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش. وهذا بمنزلة التضمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقًا لا يصح إلا به. وهما في مصحف أبيّ سورة واحدة بلا فصل، وعن عمر أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب، وقرأ في الأولى والتين[3] والمعنى: أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم فلا يجترئ أحد عليهم، وكانت لقريش رحلتان: يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام. فيمتارون ويتجرون وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته فلا يتعرّض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم، والإيلاف من قولك: آلفت المكان أولفه إيلافًا إذا ألفته فأنا مؤلف، قال: من المؤلفات الزهو غير الأوراك. وقرئ: لئلاف قريش، أي: لمؤالفة قريش. وقيل: يقال ألفته إلفًا وإلافًا. وقرأ أبو جعفر: لإلف قريش. وقد جمعهما من قال:

زعمتم أنّ إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف

وقرأ عكرمة: ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف، وقريش ولد النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار. وعن معاوية أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما: بم سميت قريش؟ قال: بدابة في البحر تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى. وأنشد:

وقريش هي التي تسكن البحـ ـر بها سميت قريش قريشًا

والتصغير للتعظيم. وقيل: من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد، أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيمًا لأمر الإيلاف. وتنكيرًا بعظيم النعمة فيه، ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به كما نصب يتيمًا بإطعام. وأراد رحلتي الشتاء والصيف فأفرد لأمن الإلباس كقوله: كلوا في بعض بطنكم. وقرئ: رحلة بالضم، وهي الجهة التي يرحل إليها. والتنكير في جوع وخوف لشدتهما يعني: أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم، وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة وأمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم، وقيل: ذلك كله بدعاء إبراهيم صلوات الله عليه. ومن بدع التفاسير: وآمنهم من خوف من أن تكون الخلافة في غيرهم. وقرئ: من خوف بإخفاء النون. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة لإيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها»[4].

(1) سورة المائدة، الآية: 75.

(2) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 289.

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف: 2/ 109، (الحديث رقم: 2697).

(4) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 293.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة أرأيت مكية

أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾.

قرئ: ﴿أريت﴾ بحذف الهمزة وليس بالاختيار لأن حذفها مختص بالمضارع، ولم يصح عن العرب ريت، ولكن الذي سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أوّل الكلام ونحوه:

صاح هل ريت أو سمعت براع ... ردّ في الضرع ما قرى في العلاب

وقرأ ابن مسعود: أرأيتك بزيادة حرف الخطاب. كقوله: ﴿أرأيتك هذا الذي كرّمت علي﴾[1]، والمعنى هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو إن لم تعرفه.

فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾.

﴿فذلك الذي﴾ يكذب بالجزاء هو الذي ﴿يدع اليتيم﴾، أي: يدفعه دفعًا عنيفًا بجفوة وأذىً ويردّه ردًا قبيحًا بزجر وخشونة. وقرئ: ﴿يدع﴾ أي: يترك ويجفو.

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣﴾.

﴿ولا يحض﴾ ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين، جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف. يعني: أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشي الله تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك فحين قدم عليه علم أنه مكذب، فما أشده من كلام وما أخوفه من مقام وما أبلغه في التحذير من المعصية وأنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين.

فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾.

ثم وصل به قوله: ﴿فويل للمصلين﴾ كأنه قال فإذا كان الأمر كذلك. فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلة مبالاة بها حتى تفوتهم أو يخرج وقتها أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف ولكن ينقرونها نقرًا من غير خشوع وإخبات، ولا اجتناب لما يكره فيها من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف ولا ما قرأ من السور.

ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾.

كما ترى صلاة أكثر من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم. والمعنى: أنّ هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة التي هي عماد الدين والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك، ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام. علمًا على أنهم مكذبون بالدين، وكم ترى من المتسمين بالإسلام بل من العلماء منهم من هو على هذه الصيغة فيا مصيبتاه! وطريقة أخرى أن يكون فذلك عطفًا على الذي يكذب، إمّا عطف ذات على ذات أو صفة على صفة. ويكون جواب أرأيت محذوفًا لدلالة ما بعده عليه. كأنه قيل: أخبرني وما تقول فيمن يكذب بالجزاء وفيمن يؤذي اليتيم ولا يطعم المسكين، أنعم ما يصنع! ثم قال: فويل للمصلين، أي: إذا علم أنه مسيء فويل للمصلين، على معنى: فويل لهم: إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم لأنهم كانوا مع التكذيب، وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرائين غير مزكين أموالهم.

فإن قُلْتَ: كيف جعلت المصلين قائمًا مقام ضمير الذي يكذب وهو واحد! **قُلْتُ**: معناه الجمع لأنّ المراد به الجنس.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين قوله: عن صلاتهم، وبين قولك: في صلاتهم؟ **قُلْتُ**: معنى عن أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين. ومعنى: في أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم. وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره[2]. ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم. وعن أنس رضي الله عنه: الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم، وقرأ ابن مسعود: لاهون.

فإن قُلْتَ: ما معنى المراءاة؟ **قُلْتُ**: هي مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يرى الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به، ولا يكون الرجل مرائيًا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها. لقوله عليه الصلاة والسلام: ولا غمة في فرائض الله[3]

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 62.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير.. (الحديث رقم: 6051)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: السهو في الصلاة والسجود له، (الحديث رقم: 97 ـ 573) وأخرجه البخاري في كتاب: السهو، باب: ما جاء في السهو إذا قام من ركعتين الفريضة (الحديث رقم: 1224)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: السهو في الصلاة والسجود له، (الحديث رقم: 86 ـ 570)، وأخرجه البخاري= = في كتاب: الصلاة، باب: التوجه نحو القبلة، حيث كان (الحديث رقم: 401)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: السهو في الصلاة، والسجود له، (الحديث رقم: 89 ـ 572) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: سجدتي السهو فيما تشهد، (الحديث رقم: 1039)، أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: سجود السهو، (الحديث رقم: 2674)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: إذا صلى خمسًا، (الحديث رقم: 1023).

(3) تقدم في سورة يونس.

لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ولأن تاركها يستحق الذم والمقت. فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعًا فحقه أن يخفى لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصدًا للاقتداء به كان جميلاً، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فيثنى عليه بالصلاح. وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها، فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك! وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة، على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص. ومن ثم قال رسول الله ﷺ: الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود.

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾.

﴿الماعون﴾ الزكاة. قال الراعي: قوم على الإسلام لما يمنعوا، ماعونهم ويضيعوا التهليلا وعن ابن مسعود: ما يتعاور في العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة ونحوها: وعن عائشة: الماء والنار والملح. وقد يكون منع هذه الأشياء محظورًا في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار، وقبيحًا في المروءة في غير حال الضرورة. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة أرأيت غفر الله له إن كان للزكاة مؤديًا»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الكوثر مكية

في قراءة رسول الله ﷺ: إنا أنطيناك بالنون[2]، وفي حديثه ﷺ: «وأنطوا الثبجة»[3]. والكوثر فوعل من الكثرة. قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر. وقال:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب ... وكان أبوك ابن العقائل[4] كوثرا

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾.

وقيل: الكوثر نهر في الجنة. وعن النبي ﷺ أنه قرأها حين أنزلت عليه فقال: «أتدرون ما الكوثر؟ إنه نهر في الجنة وعدنيه ربي فيه خير كثير»[5]. وروى في صفته: أحلى من العسل، وأشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، حافتاه الزبرجد وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء[6]. وروى: لا يظمأ من شرب منه أبدًا، أول وارديه فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشعث لرؤوس الذين لا يزوجون المنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره لو أقسم على الله لأبرّه[7]، وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر بالخير الكثير. فقال له سعيد بن جبير: إن ناسًا يقولون: هو نهر في الجنة. فقال: هو من الخير الكثير.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾.

والنحر نحر البدن، وعن عطية هي صلاة الفجر بجمع، والنحر بمنى. وقيل: صلاة العيد والتضحية، وقيل: هي جنس الصلاة، والنحر وضع اليمين على الشمال. والمعنى: أعطيت ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك، ومعطى ذلك كله أنا إله العالمين[8]، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان إصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معطٍ وأعظم منعم، فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه وشرفك وصانك من منن الخلق مراغمًا لقومك الذين يعبدون غير الله، وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفًا لهم في النحر للأوثان.

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾.

﴿إن﴾ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم ﴿هو الأبتر﴾، لا أنت. لأنّ كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك، وذكرك مرفوع على المنابر والمنار وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف. فمثلك لا يقال له: أبتر، وإنما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة، وإن ذكر ذُكِرَ باللعن. وكانوا يقولون: إنّ محمدًا صنبور إذا مات مات ذكره. وقيل: نزلت في العاص بن وائل وقد سماه الأبتر، والأبتر الذي لا عقب له. ومنه الحمار الأبتر الذي لا ذنب له. عن رسول الله ﷺ[9]: «من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر في الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر أو يقربونه»[10].

---

(1) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم زيلعي 4/ 299.
(2) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب القراءات...
(3) تقدم في يونس.
(4) العقائل: جمع عقيلة وهي في الأصل المرأة الكريمة النفيسة.
(5) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة (الحديث رقم: 53 ـ 400).
(6) أخرجه الحاكم في المستدرك 3/ 171.
(7) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الحوض (الحديث رقم: 4303)، وأخرجه أحمد في المسند (الحديث رقم: 5/ 275).
(8) قال أحمد: جعل الزمخشري توسط الضمير بين الجزءين مفيد للاختصاص؛ لأن إفادته ههنا لذلك بينة مكشوفة.
(9) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم زيلعي 4/ 305.
(10) ذكره الزبيدي في الاتحاف 9/ 645، وصدره عند الترمذي من حديث أنس في كتاب: ثواب القرآن (10).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الكافرون مكية

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾.

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. روي أنّ رهطًا من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة. فقال: معاذ الله أن أشرك بالله غيره. فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت. فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤسهم فقرأها عليهم فأيسوا.

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾.

﴿لا أعبد﴾ أريدت به العبادة فيما يستقبل لأنّ لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى أنّ لن تأكيد فيما تنفيه لا. وقال الخليل في لن أنّ أصله لا أنّ. والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي.

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾.

﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ أي: وما كنت قط عابدًا فيما سلف[1] ما عبدتم فيه. يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام.

وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾.

﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته.

فإن قُلْتَ: فهلا قيل: ما عبدت، كما قيل: ما عبدتم؟ **قُلْتُ:** لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت.

فإن قُلْتَ: فلم جاء على ما دون من؟ **قُلْتُ:** لأنّ المراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. وقيل: أن ما مصدرية أي: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي.

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾.

﴿لكم دينكم ولي دين﴾ لكم شرككم ولي توحيدي. والمعنى أني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعونني فدعوني كفافًا ولا تدعوني إلى الشرك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكافرين فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين وبرئ من الشرك ويعافى من الفزع الأكبر»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة النصر مدنية

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾.

﴿إذا﴾ منصوب يسبح، وهو لما يستقبل، والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوّة. روي أنها نزلت في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه؟ **قُلْتُ:** النصر الإغاثة والإظهار على العدوّ، ومنه نصر الله الأرض غاثها. والفتح فتح البلاد، والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة. وقيل: جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم. وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان، ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى هوزان وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم قال: يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فأعتقهم رسول الله ﷺ[3]. وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوةً وكانوا له فيأ فلذلك سمى أهل مكة

---

(1) قال أحمد: هذا الذي قاله خطأ على الأصل والفرع جميعاً، إما على أصله القدري، فإنه وإن كان مقتضاه أنّ النبي ﷺ لم يكن قبل البعث على دين نبي قبله، لاعتقاد القدرية أن ذلك غميزة في منصبه ومنفر من اتباعه، فيستحيل وقوعه للمفسدة، إلا أنهم يعتقدون أنّ الناس كلهم متعبدون بمقتضى العقل بوجوب النظر في آيات الله تعالى وأدلة توحيده ومعرفته، وأن وجوب النظر بالعقل لا بالسمع، فتلك عبادة قبل البعث يلزمهم أن لا يظنوا به ﷺ الإخلال بها، فحينئذ يقتضي أصلهم أنه كان قبل البعث يعبد الله تعالى، فالزمخشري حافظ على الوفاء بأصله في عدم اتباعه لنبي سابق، فأخل بالتفريع على أصله الآخر في وجوب العبادة بالعقل، والحق أنّ النبي ﷺ كان يعبد قبل الوحي ويتحنث = في غار حراء، فإن كان مجيء قوله: أعبد؛ لأنّ الماضي لم يحصل فيه هذه العبادة المرادة في الآية، فيحمل الأمر فيها والله أعلم على مجموع العبادات الخاصة التي لم تعلم إلا بالوحي، لا على مجرّد توحيد الله تعالى ومعرفته، فإنّ ذلك لم يزل ثابتاً له ﷺ قبل البعث، والله أعلم، أو يكون مجيئه مضارعاً لقصد تصوير عبادته في نفس السامع وتمكينها من فهمه، كقوله: ﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ والأصل: فأصبحت، وإنما عدل عنه للمعنى المذكور وهو وجه حسن فتأمله، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح في رمضان (الحديث رقم: 4275).

(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند (الحديث رقم: 3/343).

الطلقاء. ثم بايعوه على الإسلام.

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾.

﴿في دين الله﴾ في ملة الإسلام التي لا دين له يضاف إليه غيرها، ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه. ﴿أفواجًا﴾ جماعاتٍ كثيفةً كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون فيه واحدًا واحدًا واثنين اثنين. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم، فقيل له، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دخل الناس في دين الله أفواجًا وسيخرجون منه أفواجًا»[1]. وقيل: أراد بالناس أهل اليمن. قال أبو هريرة: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية»[2]. وقال: «أجد نفير ربكم من قبل اليمن»[3]. وعن الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان. وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وعن كل من أرادهم، فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجًا من غير قتال. وقرأ ابن عباس: فتح الله والنصر، وقرئ: يدخلون على البناء للمفعول.

فإن قُلْتَ: ما محل يدخلون؟ **قُلْتُ:** النصب إما على الحال على أن رأيت بمعنى أبصرت أو عرفت، أو هو مفعول ثانٍ على أنه بمعنى علمت.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

﴿فسبح بحمد ربك﴾ فقل سبحان الله حامدًا له، أي: فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم وأحمده على صنعه، أو فانكره مسبحًا حامدًا زيادةً على عبادته والثناء عليه لزيادة أنعامه عليك، أو فصلِّ له. روت أم هانئ أنه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثماني ركعات، وعن عائشة: كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك»[4]. والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفًا لأمته، ولأنّ الاستغفار من التواضع لله وهضم النفس فهو عبادة في نفسه. وعن النبي ﷺ: «إني لاستغفر في اليوم والليلة مائة مرة»[5]. وروي أنه لما قرأها رسول الله ﷺ على أصحابه استبشروا، وبكى العباس، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عم؟» قال: نعيت إليك نفسك. قال: «إنها لكما تقول»، فعاش بعدها سنتين لم ير فيهما ضاحكًا مستبشرًا. وقيل: إن ابن عباس هو الذي قال ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أوتي هذا الغلام علمًا كثيرًا»[6]. وروي أنها لما نزلت خطب رسول الله ﷺ فقال: إن عبدًا خيَّره الله بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله. فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال: فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا[7]. وعن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهما كان يدنيه ويأذن له مع أهل بدر فقال عبد الرحمن: أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبنائنا من هو مثله. فقال: إنه ممن قد علمتم. قال ابن عباس: فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن قول الله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله﴾[8] ولا أراه سألهم إلا من أجلي. فقال بعضهم: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه. فقلت: ليس كذلك، ولكن نعيت إليه نفسه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم. ثم قال: كيف تلومونني عليه بعد ما ترون[9]. وعن النبي ﷺ أنه دعا فاطمة رضي الله عنها فقال: «يا بنتاه إنه نعيت إليّ نفسي». فبكت. فقال: «لا تبكي فإنك أوّل أهلي لحوقًا بي»[10]. وعن ابن مسعود: أنّ هذه السورة تسمى سورة التوديع ﴿كان توابًا﴾ أي: كان في الأزمنة الماضية منذ خلق المكلفين توابًا عليهم إذا استغفروا، فعلى كل مستغفر أن يتوقع مثل ذلك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا جاء نصر الله أعطي من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة»[11].

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه (الحديث رقم: 82/52).

(2) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص 583.

(3) قال ابن حجر: لم أجده هكذا، فإن ظاهره يوهم أنه صلاها داخل الكعبة، وفي الصحيح ما أخرجه في كتاب: المغازي، باب: منزل النبي ﷺ يوم الفتح (الحديث رقم: 4292)، ورواه أبو داود بنحو آخر في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الضحى (الحديث رقم: 1290).

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود (الحديث رقم: 817)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (الحديث رقم: 217/484).

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه (الحديث رقم: 41/2702).

(6) أخرجه الثعلبي في تفسيره زيلعي 4/319.

(7) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ (الحديث رقم: 3904)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضائل أبي بكر رضي الله عنه (الحديث: 2/2382).

(8) سورة النصر، الآية: 1.

(9) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره﴾ (الحديث رقم: 4970).

(10) أخرجه البيهقي في أواخر الدلائل، وابن مردويه في تفسيره، زيلعي 4/322، وله شاهد عند البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة (الحديث رقم: 3623).

(11) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم زيلعي: 4/ 324.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة تبت وهي مكية

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾.

التباب: الهلاك، ومنه قولهم: أشابة أم تابة. أي: هالكة من الهرم والتعجيز. والمعنى: هلكت يداه[1]، لأنه فيما يروى أخذ حجرًا ليرمي به رسول الله ﷺ. ﴿وتب﴾ وهلك كله أو جعلت يداه هالكتين، والمراد هلاك جملته. كقوله تعالى: ﴿بما قدّمت يداك﴾[2] ومعنى وتب وكان ذلك وحصل كقوله:

جزاني جزاه الله شر جزائه   جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وقد تب. وروي أنه لما نزل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ رقى الصفا وقال: «يا صباحاه». فاستجمع إليه الناس من كل أوب. فقال: «يا بني عبد المطلب يا بني فهر إن أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي». قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي الساعة». فقال أبو لهب: تبًا لك ألهذا دعوتنا[3] فنزلت.

فإن قُلْتَ: لم كناه والكنية تكرمة؟ قُلْتُ: فيه ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون مشتهرًا بالكنية دون الاسم فقد يكون الرجل معروفًا بأحدهما، ولذلك تجري الكنية على الاسم أو الاسم على الكنية عطف بيان، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ذكر الأشهر من علميه. ويؤيد ذلك قراءة من قرأ يدا أبو لهب. كما قيل: علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان. لئلا يغير منه شيء فيشكل على السامع. ولفليتة بن قاسم أمير مكة ابنان: أحدهما: عبد الله بالجرّ، والآخر عبد الله بالنصب، وكان بمكة رجل يقال له: عبد الله بجرّة الدال لا يعرف إلا هكذا، والثاني: أنه كان اسمه عبد العزى فعدل عنه إلى كنيته، والثالث: أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته فكان جديرًا بأن يذكر بها. ويقال: أبو لهب، كما يقال: أبو الشر للشرير، وأبو الخير للخير. وكما كنى رسول الله ﷺ أبا المهلب: أبا صفرة[4] بصفرة في وجهه. وقيل: كني بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما. فيجوز أن يذكر بذلك تهكمًا به وبافتخاره بذلك. وقرئ: أبي لهب بالسكون وهو من تغيير الأعلام كقولهم: شمس بن مالك بالضم.

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾.

﴿ما أغنى﴾ استفهام في معنى الإنكار ومحله النصب، أو نفي ﴿وما كسب﴾ مرفوع وما موصولة أو مصدرية بمعنى: ومكسوبه أو وكسبه. والمعنى: لم ينفعه ماله وما كسب بماله. يعني: رأس المال والأرباح أو ماشيته وما كسب من نسلها ومنافعها. وكان ذا سابياء[5] أو ماله الذي ورثه من أبيه والذي كسبه بنفسه، أو ماله التالد والطارف. وعن ابن عباس: ما كسب ولده. وحكى أن بني أبي لهب احتكموا إليه فاقتتلوا فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع. فغضب فقال: اخرجوا عني الكسب الخبيث. ومنه قوله عليه السلام: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه». وعن الضحاك: ما ينفعه ماله وعمله الخبيث. يعني: كيد في عداوة رسول الله ﷺ، وعن قتادة: عمله الذي ظن أنه منه على شيء كقوله: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾[6] وروي أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقًا فأنا افتدى منه نفسي بمالي وولدي.

سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾.

﴿سيصلى﴾ قرئ بفتح الياء وبضمها مخففًا ومشددًا والسين للوعيد. أي: هو كائن لا محالة وإن تراخى وقته.

وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾.

﴿وامرأته﴾ هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. وقيل: كانت تمشي بالنميمة. ويقال: للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم. أي: يوقد بينهم النائرة ويورّث الشر. قال:

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة   ولم تمش بين الحيّ بالحطب الرطب

جعله رطبًا ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر، ورفعت عطفًا على الضمير في سيصلى. أي: سيصلى هو وامرأته.

فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾.

و﴿في جيدها﴾ في موضع الحال أو على الابتداء وفي جيدها الخبر. وقرئ: حمالة الحطب بالنصب على الشتم، وأنا أستحب هذه القراءة. وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بجميل من أحب شتم أم جميل. وقرئ: حمالة للحطب وحمالة للحطب بالتنوين والرفع والنصب. وقرئ: ومرينه بالتصغير. المسد الذي فتل من الحبال فتلاً شديدًا من ليف

---

(1) قال أحمد: وفي هذا دليل؛ لأنّ الرفع أسبق وجوه الإعراب وأولها، ألا تراهم إنما حافظوا على صيغته التي بها اشتهر الاسم، وكانت أول أحواله.

(2) سورة الحج، الآية: 10.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: سورة تبت (الحديث = رقم: 4507)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (الحديث رقم: 355/208).

(4) انظر الإصابة في تمييز الصحابة 108/4.

(5) سابياء: أي كثير المال والنتاج والإبل.

(6) سورة الفرقان، الآية: 23.

كان أو جلدًا أو غيرهما. قال:

ومســـــد أمـــر مـــن أيـــانـــق

ورجل ممسود الخلق مجدوله. والمعنى: في جيدها حبل مما مسد من الحبال وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون، تخسيسًا لحالها وتحقيرًا لها وتصويرًا لها بصورة بعض الحطابات من المواهن، لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدة. ولقد غير بعض الناس الفضل بن العباس ابن عتبة ابن أبي لهب بحمالة الحطب فقال:

ماذا أردت إلى شتمي ومنقصتي … أمْ ما تعير من حمالة الحطب

غراء شادخة[1] في المجد غرتها … كانت سليلة شيخ ثاقب الحسب

ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع، وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الإخلاص مكية

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾.

﴿هو﴾ ضمير الشأن و﴿الله أحد﴾ هو الشأن. كقولك: هو زيد منطلق: كأنه قيل: الشأن هذا وهو أنّ الله واحد لا ثاني له.

فإن قُلْتَ: ما محل هو؟ قُلْتُ: الرفع على الابتداء، والخبر الجملة.

فإن قُلْتَ: فالجملة الواقعة خبر الأبد فيها من راجع إلى المبتدأ فأين الراجع! قُلْتُ: حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك: زيد غلامك في أنه هو المبتدأ في المعنى. وذلك أنّ قوله: الله أحد هو الشأن الذي هو عبارة عنه وليس كذلك زيد أبوه منطلق، فإنّ زيدًا والجملة يدلان على معنيين مختلفين فلا بد مما يصل بينهما. وعن ابن عباس: قالت قريش: يا محمد صف لنا ربك الذي تدعونا إليه فنزلت، يعني: الذي سألتموني وصفه هو الله واحد، بدل من قوله الله أو على هو أحد وهو بمعنى واحد وأصله وحد. وقرأ عبد الله وأبيّ: هو الله أحد بغير قل. وفي قراءة النبي ﷺ: «الله أحد بغير قل هو». وقال: «مَن قرأ الله أحد كان بعدل القرآن». وقرأ الأعمش: قل هو الله الواحد. وقرئ: أحد الله بغير تنوين أسقط لملاقاته لام التعريف ونحوه، ولا ذاكرًا الله إلا قليلاً. والجيد هو التنوين وكسره لالتقاء الساكنين.

اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾.

﴿الصمد﴾ فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم.

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾.

﴿لم يلد﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا. وقد دل على هذا المعنى بقوله أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة. ﴿ولم يولد﴾ لأنّ كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أوّل لوجوده وليس بجسم. ولم يكافئه أحد أي: لم يماثله ولم يشاكله، ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفيًا للصاحبة. سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته فقوله: هو الله، إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها، وفي طيّ ذلك وصفه بأنه قادر عالم؛ لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعًا على غاية إحكام واتساق وانتظام. وفي ذلك وصفه بأنه حي سميع بصير. وقوله: أحد، وصف بالوحدانية ونفي الشركاء. وقوله: الصمد، وصف بأنه ليس إلا محتاجًا إليه وإذا لم يكن إلا محتاجًا إليه فهو غني، وفي كونه غنيًا مع كونه عالمًا أنه عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه. وقوله: لم يولد وصف بالقدم والأوّلية. وقوله: لم يلد، نفي للشبه والمجانسة. وقوله: ولم يكن له كفوًا أحد، تقرير لذلك وبت للحكم به.

فإن قُلْتَ: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد قص سيبويه على ذلك[3] في كتابه فما باله مقدّمًا في أفصح كلام وأعربه؟ قُلْتُ: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك اهم شيء وأعناه وأحقه بالتقدم وأحراه.

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾.

وقرئ: كفؤًا بضم الكاف والفاء، وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء.

فإن قُلْتَ: لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على

---

(1) شادخة: اي شدخت شدوخًا اتسعت في الوجه.

(2) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 328.

(3) ذكره ابن حجر في لسان الميزان (6/ 442) وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (8915).

قصر متنها وتقارب طرفيها! قُلْتُ: لأمر ما يسود، من يسودّ. وما ذاك إلا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده وكفى دليلاً من اعترف بفضلها. وصدق بقول رسول الله ﷺ فيها أنّ علم التوحيد من الله تعالى بمكان، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم يشرف بشرفه ويتضيع بضيعه، ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز. فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله وإنافته على كل علم واستيلائه على قصب السبق دونه، ومن ازدراه فلضعف علمه بمعلومه وقلة تعظيمه له وخلو من خشيته وبعده من النظر لعاقبته. اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك العاملين لك القائلين بعدلك وتوحيدك الخائفين من وعيدك. وتسمى: سورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين. وروى أبيّ وأنس عن النبي ﷺ: «أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد»[1]. يعني: ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة. عن رسول الله ﷺ أنه سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد فقال: «وجبت». قيل: يا رسول الله وما وجبت؟ قال: «وجبت له الجنة»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفلق مختلف فيها

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾.

الفلق والفرق الصبح لأنّ الليل يفلق عنه، ويفرق فعل بمعنى مفعول. يقال في المثل هو أبين من فلق الصبح، ومن فرق الصبح. ومنه قولهم: سطع الفرقان، إذا طلع الفجر. وقيل: هو كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك. وقيل: هو وادٍ في جهنم أوجب فيها. من قولهم: لما اطمأنّ من الأرض الفلق، والجمع فلقان. وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمّة وماهم فيه من خفض العيش وما وسع عليهم من دنياهم. فقال: لا أبالي أليس من ورائهم الفلق. فقيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدّة حرّه.

مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾.

﴿من شر ما خلق﴾ من شر خلقه وشرهم، ما يفعله المكلفون[3] من الحيوان من المعاصي والمآثم ومضارّة بعضهم بعضًا من ظلم وبغي وقتل وضرب وشتم وغير ذلك. وما يفعله غير المكلفين منه من الأكل والنهس واللدغ والعض كالسباع والحشرات، وما وضعه الله في الموات من أنواع الضرر كالإحراق في النار والقتل في السم.

وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾.

والغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه، من قوله تعالى: ﴿إلى غسق الليل﴾[4] ومنه غسقت العين امتلأت دمعًا، وغسقت الجراحة امتلأت دمًا. ووقوبه دخول ظلامه في كل شيء. ويقال: وقبت الشمس إذا غابت. وفي الحديث: لما رأى الشمس قد وقبت قال: «هذا حين حلها». يعني صلاة المغرب[5]. وقيل: هو القمر إذا امتلأ. وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: «تعوّذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب»[6]. ووقوبه دخوله في الكسوف واسوداده. ويجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات، ووقبه ضربه ونقبه، والوقب النقب. ومنه وقبة الثريد والتعوّذ من شر الليل لأنّ انبثاثه فيه أكثر، والتحرّز منه أصعب. ومنه قولهم: الليل أخفى للويل. وقولهم: أغدر الليل، لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر. وأسند الشر إليه لملابسته له من حدوثه فيه.

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾.

﴿النفاثات﴾ النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدًا في خيوط وينفثن عليها[7] ويرقين، والنفث النفخ مع ريق، ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثم

---

(1) قال أحمد: نقل سيبويه أنه سمع بعض الجفاة من العرب يقرأ: ولم يكن أحد كفواً له، وجرى هذا الجلف على عادته، فجفا طبعه عن لطف المعنى لأجله اقتضى تقديم الظرف مع الخبر على الإسم، وذلك أنّ الغرض التي سيقت له الآية نفي المكافأة والمساواة عن ذات الله تعالى فكان تقديم المكافأة المقصود بأن يسلب عنه أولى، ثم لم قدّمت لتسلب ذكر معها الظرف ليبين الذات المقدّسة بسلب المكافأة، والله أعلم.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (الحديث رقم: 2897)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: الفضل في قراءة: ﴿قل هو الله أحد﴾ (الحديث رقم: 994).

(3) قال أحمد: لا يسعه على قاعدته الفاسدة التي هي من جملة ما يدخل تحت هذه الاستعاذة إلا صرف الشر إلى ما يعتقده خالقاً= لأفعاله، أو لما هو غير فاعل له البتة كالموات، وأما صرف الاستعاذة إلى ما يفعله الله تعالى بعباده من أنواع المحن والبلايا وغير ذلك فلا؛ لأنه يعتقد أنّ الله لا يخلق أفعال الحيوانات، وإنما هم يخلقونها؟ لأنها شر والله تعالى لا يخلقه لقبحه، كل ذلك تفريع على قاعدة الصلاح والأصلح التي وضح فسادها حتى حرّف بعض القدرية الآية فقرأ: ﴿من شر ما خلق﴾ بتنوين وجعل ما نافية.

(4) سورة الإسراء، الآية: 78.

(5) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث، زيلعي 4/335.

(6) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المعوذتين (الحديث رقم: 3366).

(7) قال أحمد: وقد تقدّم أنّ قاعدة القدرية إنكار حقيقة السحر، على أنّ الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه، والأمر بالتعوّذ منه، وقد سحر ﷺ=

إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه. ولكنّ الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام فينسبه الحشو والرعاع إليهنّ وإلى نفثهنّ، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به.

فإن قُلْتَ: فما معنى الاستعاذة من شرهنّ؟[1] **قُلْتُ:** فيها ثلاثة أوجه: أحدها أن يستعاذ من عملهنّ الذي هو صنعة السحر ومن إثمهنّ في ذلك، والثاني أن يستعاذ من فتنتهنّ الناس بسحرهنّ وما يخدعنهم به من باطلهنّ، والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهنّ. ويجوز أن يراد بهنّ النساء الكيادات، من قوله: ﴿إنّ كيدكنّ عظيم﴾[2] تشبيهًا لكيدهنّ بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتنّ الرجال بتعرّضهنّ لهم وعرضهنّ محاسنهنّ كأنهنّ يسحرنهم بذلك.

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾.

﴿إذا حسد﴾ إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضارّ لنفسه لاغتمامه بسرور غيره. وعن عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالمًا أشبه بالمظلوم من حاسد. ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره.

فإن قُلْتَ: قوله من شر ما خلق تعميم في كل ما يستعاذ منه، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد؟ **قُلْتُ:** قد خص شر هؤلاء من كل شر لخفاء أمره وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم كأنما يغتال به وقالوا شر العداة المداجي الذي يكيدك من حيث لا تشعر.

فإن قُلْتَ: فلم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه؟ **قُلْتُ:** عرفت النفاثات؛ لأنّ كل نفاثة شريرة ونكر غاسق لأنّ كل غاسق لا يكون فيه الشر إنما يكون في بعض دون بعض. وكذلك كل حاسد لا يضر، وربّ حسد محمود وهو الحسد في الخيرات، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا في اثنتين»[3]. وقال أبو تمام:

وما حاسد في المكرمات بحاسد

وقال:

إنّ العلا حسن في مثلها الحسد

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ المعوّذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلها»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الناس مكية

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾.

قرئ قل أعوذ بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام، ونحوه فخذ أربعة.

فإن قُلْتَ: لم قيل **﴿برب الناس﴾** مضافًا إليهم خاصة؟[5] **قُلْتُ:** لأنّ الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم.

مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾.

فإن قُلْتَ: **﴿ملك الناس إله الناس﴾** ما هما من رب الناس؟ **قُلْتُ:** هما عطف بيان كقولك: سيرة أبي حفص عمر الفاروق. بين بملك الناس ثم زيد بيانًا بإله الناس لأنه قد يقال لغيره: رب الناس. كقوله: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله. وقد يقال: ملك الناس. وأمّا إله الناس فخاص لا شركة فيه فَجُعِلَ غاية البيان.

فإن قُلْتَ: فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرّة واحدة؟ **قُلْتُ:** لأنّ عطف البيان للبيان فكان مظنةً للإظهار دون الإضمار.

مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾.

﴿الوسواس﴾ اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأمّا المصدر فوسواس بالكسر كزلزال. والمراد به الشيطان، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه؛ لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه، أو أريد ذو الوسواس، والوسوسة الصوت الخفي، ومنه وسواس الحلي، و**﴿الخناس﴾** الذي عادته أن يخنس، منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والبتات لما روي عن سعيد بن جبير:

= في مشط ومشاطة في جف طلعة ذكر، والحديث مشهور. وإنما الزمخشري استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف، وما به إلا أن يتبع اعتزاله ويغطي بكفه وجه الغزالة.

(1) قال أحمد: وهذا من الطراز الأوّل فعدّ عنه جانباً، ولو فسر غيره النفاثات في العقد بالمتخيلات من النساء ولسن ساحرات حتى يتمم إنكار وجود السحر، لعدّه من بدع التفاسير.

(2) سورة يوسف، الآية: 28.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة =

= (الحديث رقم: 73)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (الحديث رقم: 268/816).

(4) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، الزيلعي 4/ 338 وقال ابن حجر: والحديث المرفوع في ذلك موضوع الكاف الشاف ص 190.

(5) قال أحمد: وفي التخصيص جرى على عادة الاستعطاف، فإنه معه أتم.

إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى، فإذا غفل وسوس إليه.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾.

﴿الذي يوسوس﴾ يجوز في محله الحركات الثلاث: فالجر على الصفة، والرفع والنصب على الشتم، ويحسن أن يقف القارئ على الخناس ويبتدئ الذي يوسوس على أحد هذين الوجهين.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

﴿من الجِنَّة والناس﴾ بيان للذي يوسوس على أن الشيطان ضربان جني وإنسي كما قال شياطين الإنس والجن. وعن أبي ذرّ رضي الله عنه أنه قال لرجل: هل تعوّذت بالله من شيطان الإنس. ويجوز أن يكون من متعلقًا بيوسوس ومعناه ابتداء الغاية. أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجنّ ومن جهة الناس. وقيل: من الجنة والناس بيان للناس وأن اسم الناس ينطلق على الجنة، واستدلوا بنفر ورجال في سورة الجن. وما أحقه لأن الجن سموا جنًا لاجتنانهم، والناس ناسًا لظهورهم من الإيناس وهو الإبصار، كما سموا بشرًا، ولو كان يقع الناس على القبيلين وصح ذلك وثبت لم يكن مناسبًا لفصاحة القرآن وبعده من التصنع وأجود منه أن يراد بالناس الناسي كقوله: ﴿يوم يدع الداع﴾(1) وكما قرئ: من حيث أفاض الناس. ثم يبين بالجنة والناس لأنّ الثقلين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله عز وجل. عن رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت عليّ سورتان ما أنزل مثلهما، وإنك لن تقرأ سورتين أحب ولا أرضى عند الله منهما» يعني: المعوذتين، ويقال: للمعوذتين: المقشقشتان: قال عبد الله الفقير إليه: وأنا أعوذ بهما وبجميع كلمات الله الكاملة التامّة، وألوذ بكنف رحمته الشاملة العامّة، من كل ما يكلم الدين، ويثلم اليقين، أو يعود في العاقبة بالندم. أو يمدح في الإيمان المسوط باللحم والدم. وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر، ووضع الخدّ لجلاله الأعظم الأكبر. مستشفعًا إليه بنوره الذي هو الشيبة في الإسلام متوسلاً بالتوبة الممحصة للآثام. وبما عنيت به من مهاجرتي إليه ومجاورتي ومرابطتي بمكة ومصابرتي. على توكل من القوى. وتخاذل من الخطا. ثم أسأله بحق صراطه المستقيم. وقرآنه المجيد الكريم وبما لقيت من كدح اليمين. وعرق الجبين. في عمل الكشاف عن حقائقه. المخلص عن مضايقه. المطلع على غوامضه. المثبت في مداحضه. الملخص لنكته ولطائف نظمه. المنقر عن فقره وجواهر علمه. المكتنز بالفوائد المفتنة التي لا توجد إلا فيه. المخيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه. مع الإيجاز الحاذف للفضول. وتجنب المستكره المملول. ولو لم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شيء على قانونه. لكفى به ضالةً ينشدها محققة الأحبار. وجوهرةً يتمنى العثور عليها غاصة البحار. وبما شرّفني به ومجدني واختصني بكرامته وتوحدني. من ارتفاعه على يدي في مهبط بشاراته ونذره. ومتنزل آياته وسوره. من البلد الأمين بين ظهراني الحرم. وبين يدي البيت المحرم. حتى وقع التأويل. حيث وجد التنزيل. أن يهب لي خاتمة الخير ويقيني مصارع السوء ويتجاوز عن فرطاتي يوم التناد. ولا يفضحني بها على رؤوس الأشهاد. ويحلني دار المقامة من فضله. بواسع طوله وسابغ نوله. إنه الجواد الكريم الرؤوف الرحيم.

في نسخة ما نصه

في أصل المصنف بخطه رحمه الله تعالى: وهذه النسخة هي نسخة الأصل الأولى التي نقلت من السواد وهي أم الكشاف الحرمية المباركة المتمسح بها المحقوقة أن تستنزل بها بركات السماء ويستمطر بها في السنة الشهباء فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة في جناح دار السليمانية التي على باب أجياد الموسومة بمدرسة العلامة: ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر في عام ثمانية وعشرين وخمسمائة وهو حامد لله على باهر كرمه ومصلٍ على عبده ورسوله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(1) سورة القمر، الآية: 6.

نبذة من ترجمة المؤلف رحمه الله تعالى

قد ذكر الأستاذ الفاضل الشيخ إبراهيم الدسوقي مصحح دار الطباعة المصرية الميرية سابقًا رحمه الله، جملة من ترجمة مؤلف الكشاف ذيل بها النسخة التي جرى عليها الطبع، فاستحسن نقلها بنصها لتكون مرآة للاطلاع على بعض ما للمؤلف من رفيع المزايا وحميد السجايا ولسان صدق في الآخرين وأنموذجًا لفضله المتين ونصها:

هو إمام الأئمة وهادي هداة هذه الأمة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري من هو بأحاسن النعوت حرى صاحب التآليف الزاهرة والتصانيف الفائقة الباهرة فهو الإمام الكبير في الحديث والتفسير والنحو واللغة والمعاني والبيان وغيرها بلا معاني كان إمام عصره من غير مدافع، تشدّ إليه الرحال من كل مكان شاسع، أخذ الأدب عن شيخه منصور أبي مضر، وصنف التصانيف البديعة الغرر، منها هذا الكتاب في تفسير القرآن، ولم يدرك شأوه فيه إنسان، والمحاجاة بالمسائل النحوية، والمفرد والمركب في العربية، والفائق في تفسير الحديث، ولم ير مثله في القديم ولا في الحديث، وأساس البلاغة في اللغة، ولم يبلغ كتاب قبله في التمييز مبلغه، وربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ومتشابه أسامي الرواة والنصائح الكبار، والنصائح الصغار، وضالة الناشد والرائض، في علم الفرائض، والمفصل في النحو وهو كتاب كبير، وقد اعتنى بشرحه خلق كثير، والأنموذج في علم العربية، والمفرد والمؤلف في المسائل النحوية، ورؤوس المسائل الفقهية، والمستقصى في الأمثال العربية، والبدور السافرة. في الأمثال السائرة. والكتاب الجليل: المسمى بديوان التمثيل، وشقائق النعمان: في حقائق النعمان، وشافي العي: من كلام الشافعي، والقسطاس في العروض ومعجم الحدود والمنهاج في الأصول ومقدمة الأدب في اللغة وديوان الرسائل وديوان الشعر والرسائل الناصحة والأمالي الواضحة في كل فن وغير ذلك وكان شروعه في تأليف المفصل في غرّة شهر رمضان سنة 513 ثلاث عشرة وخمسمائة وفرغ منه في غرّة المحرم سنة 515 خمس عشرة وخمسمائة وكان قد سافر إلى مكة حرسها الله تعالى وجاور بها زمانًا فصار يقال له: جار الله لذلك وكان هذا الاسم علمًا عليه وقد اشتهر أنّ إحدى رجليه كانت ساقطة وأنه كان يمشي في جارن من خشب واختلف في سبب سقوطها فقيل: إنه كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق فسقطت منه رجله وأنه كان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفًا من أن يظن من لم يعلم صورة الحال أنها قطعت لريبة والثلج والبرد كثيرًا ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد فتسقط به خصوصًا خوارزم فإنها في غاية البرودة ومنها خلق كثير سقطت أطرافهم بهذا السبب فلا يستبعده من لا يعرفه، وقيل أنّ الزمخشري لما دخل بغداد واجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني سأله عن سبب قطع رجله، فقال: دعاء الوالدة، وذلك أني كنت في صباي أمسكت عصفورًا وربطته بخيط في رجله فأفلت من يدي، فأدركته وقد دخل في خرق فجذبته فانقطعت رجله في الخيط فتألمت والدتي لذلك، وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخاري أطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلي، وعملت عليَّ عملاً، أوجب قطعها. والله أعلم بالصحة وكان الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي قد كتب إليه من الإسكندرية وهو يومئذ مجاور مكة حرسها الله يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته فردّ جوابه بما لا يشفى الغليل فلما كان في العام الثاني كتب إليه أيضًا مع الحجاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ثم قال في آخرها ولا يحوج أدام الله توفيقه إلى المراجعة فالمسافة بعيدة وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشفي الغليل وله في ذلك الأجر الجزيل فكتب إليه الزمخشري ما لم يكن له في حساب ولولا خوف التطويل لذكرت الاستدعاء والجواب لكن لا بأس بذكر بعض الجواب وهو ما مثلي مع أعلام العلماء إلا كمثل السها مع مصابيح السماء والجهام الصفر من الرهام مع الغوادي الغامرة للقيعان والآكام والسكيت المخلف مع خيل السباق والبغاث مع الطير العتاق وما التلقيب بالعلامة إلا شبه الرقم بالعلامة والعلم مدينة أحد بابيها الدراية والثاني الرواية وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة ظلى فيه أقلص من ظل حصاة أما الرواية فحديثة الميلاد قريبة الإسناد لم تستند إلى علماء نحارير ولا إلى أعلام مشاهير وأما الدراية فثمد لا يبلغ أفواها وبرص مايبل شفاها ولا يغرنكم قول فلان فيّ وفلان وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر وأوردها كلها ولو سردناها لطال الحال ثم قال فإنّ ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه وجهل بالباطن المشوه ولعل الذي غرهم مني ما رأوا من حسن النصح للمسلمين وإيصال الشفقة إلى المستفيدين وقطع المطامع عنهم وإفاضة المبار والصنائع عليهم وعزة النفس والرب بها عن السفاسف الدنيات والإقبال على خويصتي والإعراض عما لا يعنيني فجللت في عيونهم وغلطوا فيّ ونسبوني إلى ما لست منه في قبيل ولا دبير وما أنا فيما أقول بهاضم لنفسي كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قول أبي بكر الصديق رضوان الله عليه وليتكم ولست بخيركم إن المؤمن ليهضم نفسه وإنما صدقت الفاحص عني وعن كنه روايتي ودرايتي ومن لقيت وأخذت عنه وما بلغ علمي وقصارى فضلى وأطلعته طلع أمري وأفضيت إليه بخبية سرى وألقيت إليه عجري وبجري وأعلمته نجمي وشجري وأما المولد فقرية مجهولة من قرى خوارزم تسمى: زمخشر وسمعت أبي رحمة الله تعالى يقول: اجتاز بها أعرابي فسأل عن اسمها واسم عبيرها

فقيل له: زمخشر فقال: لا خير في شر ورد ولم يلمم بها ووقت الميلاد شهر الله الأصم في عام سبع وستين وأربعمائة والله المحمود والمصلى على سيدنا محمد وآله وأصحابه هذا آخر الاجازة وقد أطال الكلام فيها ولم يصرح له بمقصوده فيها ولا يعلم هل أجازه بعد ذلك أولاً.
ومن شعره السائر قوله وقد ذكره السمعاني في الذيل قال أنشدني أحمد بن محمود الخوارزمي إملاء بسمرقند قال أنشدنا محمود بن عمر الزمخشري لنفسه بخوارزم:

ألا قل لسعدي ما لنا فيك من وطر ... وما نطلبن النجل من أعين البقر
فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت ... عيونهم والله يجزي من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوة ... ولم أر في الدنيا صفاء بلا كدر
ولم أنس إذ غازلته قرب روضة ... إلى قرب حوض فيه للماء منحدر
فقلت له جئني بورد وإنما ... أردت به ورد الخدود وما شعر
فقال انتظرني رجع طرف أجيء به ... فقلت له هيهات مالي منتظر
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر ... فقلت له إني قنعت بما حضر

ومن شعر يرثي شيخه أبا مضر المذكور أوّلاً:

وقائلة ما هذه الدرر التي ... تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت هو الدرّ الذي كان قد حشا ... أبو مضر أذني تساقط من عيني

ومما أنشد لغيره في كتابه الكشاف عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾:

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب عن فرطاته ... ما كان منه في الزمان الأوّل

وقيل: إنّ الزمخشري أوصى أن تكتب على لوح قبره هذه الأبيات:

ومن كلامه رضي الله عنه:

زمان كل حب فيه خب ... وطعم الخل خل لو يذاق
لهم سوق بضاعته نفاق ... فنافق فالنفاق له نفاق

ومن كلامه:

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لي ... من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصة ... أشهى وأحلى من مدامة ساق
وصرير أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدوكاء والعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها ... نقري لألقي الرمل عن أوراقي
أأبيت سهران الدجى وتبيته ... نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي

ومن كلامه:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به ... وأكتمه كتمانه لي أسلم
فإن حنفياً قلت قالوا بأنني ... أبيح الطلا وهو الشراب المحرم
وإن مالكياً قلت قالوا بأنني ... أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم
وإن شافعياً قلت قالوا بأنني ... أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن حنبلياً قلت قالوا بأنني ... ثقيل حلوليّ بغيض مجسم
وإن قلت من أهل الحديث وحزبه ... يقولون تيس ليس يدري ويفهم
تعجبت من هذا الزمان وأهله ... فما أحد من ألسن الناس يسلم
وأخرني دهري وقدم معشراً ... على أنهم لا يعلمون وأعلم
ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني ... أنا الميم والأيام أفلح أعلم

وكانت ولادة الزمخشري يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر وتوفي رحمه الله تعالى ليلة عرفة سنة 538 ثمان وثلاثين وخمسمائة بجرجانيه خوارزم بعد رجوعه من مكة رحمه الله تعالى ورثاه بعضهم بأبيات ومن جملتها:

فأرض مكة تذرى الدمع مقلتها ... حزناً لفرقة جار الله محمود

وزمخشر بفتح الزاي والميم وسكون الخاء وفتح الشين المعجمتين وبعدها راء. قرية كبيرة من قرى خوارزم وجرجانيه بضم الجيم الأولى وفتح الثانية وسكون الراء بينهما وبعد الألف نون مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها مفتوحة مشدّدة ثم هاء ساكنة وهي قصبة خوارزم قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: يقال لها بلغتهم كركانج فعربت وقيل لها: جرجانيه وهي على شاطئ جيحون. انتهى ما ذكره الأستاذ الدسوقي رحمه الله تعالى.

بعونه تعالى وتوفيقه ومنّه
تمّ تفسير الكشّاف للزمخشري رحمه اللّه
وللّه الحمد

فهرس الموضوعات


ISBN 9953-420-87-4
9 789953 420875